# مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ

# وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تفسيرٌ تدبُّريٌّ للقرآن الكريم بحسب ترتيب النُّزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ»

## المجلَّد الأوَّل

### تفسير سُوَر

العلق (١) ـ المُدَّثِّر (٢) ـ المزَّمِّل (٣) ـ القلم (٤) ـ الفاتحة (٥) ـ المسد (٦)
التَّكوير (٧) ـ الأعلى (٨) ـ اللَّيل (٩) ـ الفجر (١٠) ـ الضُّحى (١١) ـ الشَّرح (١٢)
العصر (١٣) ـ العاديات (١٤) ـ الكوثر (١٥) ـ التَّكاثر (١٦) ـ الماعون (١٧) ـ الكافرون (١٨)

عبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدّمة العامّة للكتاب

الحمد لله الجليل الكريم الوهّاب المنّان، مُنَزِّل القرآن، أتمّ ما أنزل من كتاب، والجامع لِزُبْدَةِ مَا فِي زُبُر الأوّلين، على خاتم النبيّين والمرسَلِين، مُحمَّد بن عبد اللّهِ الَّذِي آتاهُ ربُّه الحكمةَ وفصْلَ الخطاب، وجعلَهُ سيِّدَ الأولين والآخِرين، وآتاه ما لَمْ يُؤْتِ أحداً من العالمين، وجعل القرآن الّذِي اصطفاه لخاتمة رسالاته كتاباً مُعْجِزاً في مبانيه ومعانيه، لا تفنىٰ عجائبه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرّدّ، بحراً عظيماً زاخراً بالمعاني مع عُذُوبَةِ تلاوة، وقُوَّةِ تأثير، وحُسْنِ بَيَان.

وبَعْدُ فقد فَتَحَ اللَّهُ عزّ وجلّ عَلَيَّ خِلَال تَدبُّرِي الطَّويل لكتابه المجيد، باسْتِخْراج أرْبَعِينَ قَاعِدَةً من قواعد التدبُّرِ الأمْثَل لكتابه، قابلةٍ للزيادة عليها، وهذه القواعِدُ تُقَدِّمُ للمتدبّرين أصول التفسير الأقوم للقرآن الكريم.

وقد دَوَّنْتُ هٰذهِ القواعد مقرونةً بأَمثلتها، في كتابي: «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب اللّهِ عزّ وجَلّ» الذي زادت صفحاته على (٨٠٠) صفحة، ولم أجدْ في المفسِّرِين من اهتَمَّ بالتزام مضمونها، ولا بالْتِزام كثيرٍ منها.

وقد رأَيْتُ من الواجب عليَّ أَنْ أُقدِّمَ ما أستطِيعُ تقديمَهُ من تدبُّرٍ لِسُوَرِ هذا الكتاب العزيز المعجز، الذي لا يأتيه الباطِلُ من بين يدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِه، ملتزماً على مقدار استطاعَتِي بمَضْمُونِ القواعِدِ الّتي فتح اللّهُ بها عليَّ، مع الاعتراف بأنّ التزامها التزاماً دقيقاً وشاملاً عَسِيرٌ جدّاً، بل قد يكونُ بالنّسبة إلى متدبّرٍ واحدٍ متعذّراً، وأسألُ اللّهَ أن يُمِدَّني بعَوْنِهِ وتوفيقه وفتحه المبين.

وقد ألحَّ عليَّ ناشِرُ كتبي حفظه اللَّهُ بأنْ أبْدَأَ بنَشْرِ ما يُنْجِزُهُ اللّه لي مِنْ مُجَلَّدَاتٍ في هذا التدبُّر، الّذي ترجَّحَ لديَّ فيه أن أُتابع تدبُّرَ السُّورِ على ما ذكر الْعُلَماء بعُلُومِ القرآن الكريم، مِنْ ترتيبِ نزولها، لا على وفق ترتيبها الاجتهادي في المصاحف، التزاماً بترتيب المصحف الذي وُزِّعَتْ نُسَخٌ منه على معظم أمْصَارِ المسلمين في عَهْدِ عثمان رضي اللَّهُ عنه، فَمِنَ الثّابتِ قطعاً أنَّ كثيراً من السُّور، مثل: «البقرة وآل عمران والنساء والأنفال» هي من التنزيل المدني، وأنّ كثيراً من السُّور هي من التنزيل المكّي قطعاً مثل سورة «العلق» وقد رأيْتُ بالتدبُّر الميْدَاني للسُّوَرِ أنَّ مَا ذَكَرَهُ المختصُّون بعُلُوم القرآن الكريم من تَرْتيب نزول، هو في مُعْظَمِه حقٌّ، أَخْذاً من تَسَلْسُلَ البناء المعرفيّ التكامُلِيّ، وتَسَلْسُل التكامُلِ التربوي، واكتَشَفْتُ في هذا التدبّر أموراً جَلِيلةً تتعلَّقُ بحَرَكَةِ البناء المعرفيّ لِأُمور الدّين، وحركَةِ المعالجات التربويَّة الرَّبَّانيَّةِ الشّاملة للرَّسُولِ ﷺ، وللذين آمنوا به واتَّبَعُوه، وللَّذِين لم يَسْتَجِيبُوا لدعوة الرَّسُولِ مُتَرَيِّثين أو مُكَذِّبينَ كافِرِين.

وإذا لم تُسْعِفِ القدراتُ أوْ لم يُسْعِفِ الْعُمر باستكمال هذا التَّدَبّر لكلِّ القرآن المجيد، فإنّ من المفيد جدّاً أنْ أُقدِّم ما يفتح اللَّهُ الوهّابُ لي فيه، عسَىٰ يُتِمَّ الْعَمَلَ متَدبِّرونَ لاحِقُونَ، مُحْتَذِين أو مُضِيفين أو مُعَدِّلين.

والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو الفتاحُ الوهاب.

**مكة المكرمة ٥/ ١١/ ١٤١٨هـ**
**و٣/ ٣/ ١٩٩٨م**

عبدالرحمن حسن حبنّكة الميداني

مُقدمات حول

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

و

بسم الله الرحمن الرحيم

# مفهومات تتعلَّق بالاستعاذة والبسملة

## (١)

## الاستعاذة

**الاستعاذة:** عنوان لجملة: «أعوذ باللّهِ من الشيطان الرجيم» أو «أعُوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» أو نحوهما.

قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

وهذه الاستعاذة قبل الشروع بقراءة القرآن عمَلٌ منْدُوبٌ إليه عند جمهور العلماء، فالأمر بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ هُوَ للنّدْب لا لِلْوُجوب.

ورُوي عن «عطاء» وجوبُ الاستعاذة أخْذاً بظاهر الأَمْرِ.

**أَعُوذ:** أي: أَلُوذ وأعْتَصِم مُلْتَجئاً طَالِباً الحمايةَ والوقاية.

يقال لغة: عَاذَ بِهِ عَوْذاً وعِياذاً ومَعاذاً، أي: لاَذَ به، واعْتَصَم، ولجأ إلَيْه، طالباً حِمَايَتَهُ وَوِقايَتَهُ.

ويقال: مَعَاذَ اللَّهِ، أي: عِيَاذاً باللَّه.

**باللّه:** اللّهُ، اسْمُ عَلَمٍ عَلىٰ الخالِقِ الرَّبِّ الأَزَلِيِّ الأبَدِيّ واجبِ الوجود عقلاً، المتَّصِفِ بكلِّ صفاتِ الكمال، والمنزَّهِ عن كُلِّ صِفةٍ لا تَلِيقُ بكمالاتِه السّاميات وأسمائه الحسنىٰ.

**السَّمِيع**: من أسماء الله الحُسْنَىٰ الوصْفِيَّة، وهو من صِيغِ المبالغةِ فاسم الفاعل «سَامع» ومبالغته «سَمِيع» و«ال» في «السميع» للكمال، أي هو السميع لكلِّ صَوْتٍ مهما كان خافتاً، ولو كان حركَةَ القلوب والنفوس الّتي لا يَسْمَعُها صاحبها، أو أحاديث الأفكار.

**العليم**: هو من أسماء الله الحسنىٰ الوصْفِيّة أيضاً، وهو أيضاً من صِيغ المبالغة، ويقالُ في «العليم» ما سبق بيانه في السّميع.

فهو سبحانه محيط بكلّ شيءٍ علماً، ومنه ما توسوس به الشياطين في الصدور.

**من الشيطان**: الشيطان: اسم جنس يقع على كلّ مُغْوٍ مُضِلٍّ متمرّدٍ مُفْسدٍ، من الجنّ والإنس، وإبليسُ إمام الشياطين ورئيسُهم.

يقال لُغةً: شَطَنَ يشْطُنُ شَطْناً، وهذا الفعل يأتي بمعنَيَيْنِ:

**المعنى الأولى**: شطَنَ عنه، أي: بَعُد عنه. وأشطنَهُ، أي: أبْعَدَه.

**المعنى الثاني**: شَطَنَهُ، أي شدَّهُ بالشَّطَن، وهو الحبْلُ الّذي يُشْطَنُ بِه الدَّلْو في البئر. وكُلُّ حَبْلٍ يُسمَّىٰ شطناً، ويجمع على أشطان.

ولمّا كان المغوي المضلُّ المتمرّدُ المفسد بعيداً عن الحق والخير والْهُدَىٰ، ومُبْعِداً عنها، وَلَمَّا كانَتْ له أشطان «=حبائل» للإغواء والإغراء، كان حريًا بأن يسمَّىٰ شَيْطاناً.

**الرجيم**: الملعون المطرود، والأصل فيه أنّ المطرود يُرْجَمُ بالحجارة، أي: يُرْمَىٰ بها، لإبعاده أو قتله والتخلُّص من شرّه.

**والرَّجْمُ**: مَا يُرْجَمُ به من حجارةٍ وَغيرها، والجمع رُجُوم.

ولـمّا عصىٰ إبليس رَبَّهُ وأصَرَّ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ، ورفض طاعَةَ اللّه، طرَدَهُ اللّهُ وَلَعَنَهُ وأبْعَدَهُ عَنْ منازِلِ الملائكة، وجعله رجيماً دواماً، وكلُّ من اتّخَذَ إبليسَ إماماً له، وصَارَ مُغْوِياً مُضِلاًّ لعباد الله، فَهُوَ شيطانٌ رَجيم.

وقد أوصى اللَّهُ عبْدَهُ المؤمِنَ أَنْ يَسْتَعِيذَ باللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ من الشَّيْطَانِ، كلَّما تَعَرَّضَ لِنَزْغٍ في صَدْرِهِ منه، وهَذَا النزغ يُحِسُّ به عَلىٰ صورة وساوس وخواطِر فكرية، أو تحرُّكاتٍ نفسيَّة تُوَجِّهُه لمعصِيَةِ اللَّهِ، وتُزَيِّنُها في نفسه.

فأنزل الله عزّ وجلَّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قوله:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

ثم أنزل الله عزّ وجل قوله في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

فزاد في العبارة تأْكيداً وحَصْراً بأَنَّهُ هو وَحْدَهُ السّميعُ، أي: والمجيبُ لاسْتِعاذَة مَن اسْتَعَاذَ بِه، وهو وحْدَهُ العليم بِهِ وبِمَا يُوسْوِسُ به الشيطان في صَدْرِه، مهما أخفى الشيطانُ وساوِسَهُ ونزَغَاتِهِ، أي: وهو وحْدَهُ القادِرُ على إعاذته.

وأدعيَةُ الاستعاذة باللَّهِ في السُّنَّةِ كَثِيرة.

وفي الملحق الثالث مِنْ ملاحِقِ سورتي الفلَقِ والنّاس بيانٌ مُفَصَّلٌ لكل ما جاء في القرآن حول الاستعاذة.

❁ ❁ ❁

## (٢)
## حكم الاستعاذة قبل القراءة في الصلاة

● قال الشافعيَّةُ والحنابلة: تُسَنُّ الاستعاذةُ سِرّاً في أَوَّلِ كلّ رَكعة قبل القراءة، بأن يقول المصلي: أعوذُ باللَّه من الشيطان الرجيم، عملاً بعموم قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾.

ورُوِي عن الإمام أحمد أنّه يقول: «أعوذ باللَّهِ السَّمِيعِ العليم من الشيطان الرجيم».

والدليل ما رواهُ أحمد والترمذيُّ عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ:

«أنَّهُ كَانَ إذا قام إلى الصلاة استفتح، ثُمَّ يَقُولُ: أعوذ باللَّهِ السَّمِيع الْعَلِيم من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ من هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِهِ».

- وقال الحنفيَّة: تُسَنُّ الاستعاذة في الركعة الأولىٰ فقط.

- وقال المالكيّة: تُكْرَهُ الاستعاذة والْبَسْمَلَةُ قبل الفاتحة والسورة، لما رواهُ مسلم وأبو داود والنسائي عن أنس بن مالك من طرقٍ كثيرة، أنَّهُ قالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ رسول الله ﷺ وأبي بكر وعُمَرَ، فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بالحمدُ للّهِ ربّ العالمين، لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم، لا في أول قراءة ولا في آخرها.

أقول: ما دلَّ عليه هذا الحديث لا يمنَعُ من احتمال ذكْرِ شيءٍ آخر سِرّاً غير الفاتحة، كدعاء الاستفتاح الثابت عن الرَّسُولِ ﷺ.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## البسملة

هذه كلمةٌ منحوتَةٌ من جُمْلَةِ: «بسم الله الرحمن الرحيم» ولهَا نظائر من الكلمات المنحوتة.

- فمنها: **«السَّبْحلَةُ»** نحتاً من جملة: «سبحان الله».

● ومنها: «الْحَيْعَلَة» نحتاً من جملة: «حيَّ على الصلاة» أو «حيَّ على الفلاح».

● ومنها: «الْحَوْقَلَة» نحتاً من جملة: «لا حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ».

● ومنها: «الحَمْدَلَة» نحتاً من جملة: «الْحَمْدُ لِلَّه».

● ومنها: «التَّهْلِيلُ» نحتاً من جملة: «لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ».

ومن هذا النحت ما رُوي عن عليّ بْنِ أبي طالبٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ قَال:

● «ما تَسَرْوَلْقَمْتُ قَطُّ» أي: ما لبسْتُ السَّرَاوِيلَ قَائماً قَطُّ.

● و«ما تَعَمْقَعْدَتُ قَطُّ» أي: ما لبسْتُ العمامة قاعداً قطُّ.

ومن الاختصارات الّتي يُكَنَّىٰ بها عن الْجُمَلِ، ما ورَدَ في السُّنّة، من الترغيب في التسبيح، والتحميد، والتكبير، عقب الصلوات المكتوبة، كنايَةً عن ذِكْر: «سُبْحان اللَّه، والحمدُ للَّهِ، واللَّهُ أكبر».

أمّا جُمْلَة «بسم اللَّهِ الرحْمٰنِ الرَّحِيم» فهي آيَةُ حتْماً من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بلا خلاف، وقد جاءت في الآية الثلاثين منها، في قول الله عزّ وجلّ، حكايةً لما جاء في كتاب سليمان عليه السّلام، لِبِلْقِيسَ مَلِكَة «سبأ» في اليمن:

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

واختلف العلماء في كَوْنِها جزْءاً مِنْ أَوّلِ سُورَةِ الفاتحة، وفي كونها جزءاً مِنْ أوّل سَائِر سُوَر القرآنِ باسْتِثْناء سُورَةِ «براءة» أو هِيَ للْفَصْلِ بين السُّورَةِ والسُّورَة.

● فقال الشافعية وقُرَّاءُ مكةَ والكوفة وفقهاؤُهما وابْنُ المبارك:

هي جُزْءٌ مِنْ أوَّلِ سُورَةِ الفاتحة، ومن أوَّل سائر سُوَر القرآن غيرِ سورة (براءة) علَىٰ الصحيح، وللشافعيّ قولان بالنسبة إلَىٰ غير الفاتحة، أصَحُّهما أنَّها جُزْءٌ من أوائل سائر سُور القرآن غير سورة (براءة).

واستدلُّوا بما يلي:

(١) أنَّها مكتوبة سَطْراً قبل كل سورة غير سورة براءة، في نسخ المصحف الإمام الّتي وُزِّعَتْ على الأمصار في عَهْدِ عثمان رضي اللَّهُ عنه.

مع إجْمَاع الصحابة على أنّ مَا بَيْنَ دُفَّتَي المصحفِ كِتَابُ اللَّهِ.

(٢) رَوَىٰ أبو داود بإسناد صحيح عن ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، «أن رسول الله ﷺ كان لا يَعْرِفُ فَضْلَ السُّورَةِ حتَّىٰ يَنْزِلَ عليه بِسْمِ الله الرحمن الرحيم». وأخْرَجَهُ الحاكم في المستَدْرَكِ.

(٣) وروىٰ النَّسَائيُّ في سُنَنِه، وابْنُ خزيمَةَ وابْنُ حِبَّانَ في صحيحيهما، والحاكم في المستَدْرَكِ، عنْ أبي هُرَيْرة: «أنَّهُ صَلَّىٰ فَجَهَرَ في قِرَاءَتِهِ بالْبَسْمَلَةِ، وقالَ بَعْدَ أنْ فرَغَ: إنِّي لأَشْبَهُكُمْ صَلاَةً برسُولُ اللَّهِ ﷺ». وصحَّحه الدارقُطْنِي والخطيبُ والبيهَقِيُّ وغيرهُمْ.

(٤) وروىٰ الحاكم في المستدركِ عن ابْنِ عباس قال: «كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْهَرُ بِبِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم». ثمّ قال: صحيح.

(٥) وروىٰ البخاريُّ في صحيحهِ عَنْ أنَسٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سُئِلَ عن قراءة رسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال:

«كانَتْ قراءَتُهُ مَدًّا، ثُمَّ قَرأَ بِسْمِ اللَّهِ الرحْمٰنِ الرحِيمِ، يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ، ويَمُدُّ الرَّحْمٰن، ويَمُدُّ الرَّحِيم».

فأشْعَرَ هذا الحديث بأنَّ الرَّسُولَ ﷺ كان يعْتَبِرُ «بسم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ» جُزْءاً مِنَ الْقُرْآنِ لدَىٰ تِلاَوَةِ السُّوَر.

(٦) وروى الإمام أحمد في مُسْنَده، وأبو دَاوُد في السُّنَنِ، وابْنُ خزيمَةَ في صحيحه، والحاكم في مُسْتَدْرَكِه، عن أُمّ سلَمَةَ، أنَّها قالت:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم. الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ. الرحْمٰنِ الرَّحِيمِ. مالِكِ يَوْمِ الدِّين».

قال الدارقُطْنِي: إسناده صحيح.

● وقال الإمام أحمد، وأبو ثور، إنَّها آيةٌ من الفاتحة فقط، لوضوح الأدلَّة بالنسبة إليها.

● وقال الإمام مالك والإمام الأوزاعي وقُرَّاءُ المدينة والبصْرَةِ والشَّام: إنَّ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» لَيْسَتْ بآيَةٍ من سُورَةِ الفاتحة، ولا مِنْ سَائِرِ سُوَرِ القُرْآن.

وحُجَّتُهُمْ عَدَمُ ثُبوتِ كَوْنِهَا جُزْءاً مِنْ أَوَّلِ سورة الفاتحة أوْ غيرها من السُّوَرِ بالتواتُرِ، والقُرْآنُ لاَ يثبُتُ إلاَّ بالتَّوَاتُر.

● ولَمْ يُنقَلْ عن أبي حنيفة في هٰذِهِ المسألة شيءٌ، لكنَّهُ رأىٰ عدم الجهر بها مع الفاتحة في الصَّلاَة الجهريَّة، وكَرِهَ قراءتها في أوائل السُّورِ الموصولة بالفاتحة في الرّكعتَيْن الأولَيَيْنِ.

وقيلَ: إنَّ الأصحَّ المقبول عند الحنفيّة، أنّ البسمَلَةَ آيةٌ فذَّةٌ أُنْزِلَتْ للفَصْلِ والتَّبَرُّكِ بالابتداء بها، ولهذا أُخِّرَتْ عَنِ الاستعاذةِ، وكُتِبَتْ بقَلَمِ الْوَحْي وحِبْرِهِ وخطِّهِ، في نسخ المصحف الإمام بخلاف الاستعاذةِ.

وأوْرَدَ الذين نَصَرُوا الْقَوْلَ بأنّ البسملَة ليست جزءاً من أوَّل سُورَةِ الفاتحة، أو غَيْرِها من سُوَرِ القرآن، أحاديثَ يُشْعِرُ ظَاهرُها بما ذَهَبُوا إليه، وهي الأحاديث التالية:

(١) ما روى البخاري ومسلم ومالك في الموطأ عن أُبَيّ بْنِ كعب، أنّ رسول الله ﷺ قال له:

«ألا أُعَلِّمُكَ سُورَةً لَمْ يُنْزَلْ في التوراةِ ولا في الإنْجِيلِ مِثْلُهَا قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟».

قال: بلىٰ، فلَمَّا قارَبَ الخُروجَ قَالَ له:

«كَيْفَ تَقْرَأُ إِذَا افْتَتَحْتَ الصَّلاَةَ؟».

قال أُبَيّ: فَقَرَأْتُ: الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين، حتَّىٰ أَتَيْتُ عَلَىٰ آخِرِها.

**قالوا:** فهذا دليلٌ على أنَّه لَمْ يَقْرَأْ مِنْها الْبَسْمَلَة.

**أقول:** هذا دليلٌ احتماليٌّ غَيْرُ لازم، لاحْتِمَالِ أن يكُونَ أُبَيٌّ يَرَىٰ أَنَّهَا آيَةٌ فَذَّةٌ تُتْلَىٰ قبل البدء بالسُّورَةِ، أَوْ أَنَّها لتكرُّرِها في أوائِلِ السُّوَرِ لا تُمَيِّزُ السُّورَةُ إلاَّ بِمَا تَبْدأُ بِهِ السُّورَةُ بَعْدَها، أو أَنَّهُ تَلَىٰ السُّورَة الَّتِي تُسَمَّىٰ «الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِين».

(٢) وما روىٰ مسلم وأبو داود في سُنَنِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها قَالَتْ:

«كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَسْتَفْتِحُ الصَّلاَةَ بالتكْبِير، والْقِرَاءَةَ بالْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِين».

**قالوا:** وَهٰذا دَلِيلٌ على أنَّ البسملة ليسَتْ جزءاً من الفاتِحَة.

**أقول:** يَحْتمل أن تكون قد أرادت السُّورَةَ الَّتي تُسَمَّىٰ «الحمدُ للّهِ رَبِّ العالَمِين».

(٣) ما رَواه مُسْلِمٌ وأبو داود والنّسائي عن أَنَسِ بن مالِكٍ من طُرُقٍ كثيرة أنّهُ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ رسُولِ اللّهِ وأبي بَكْرٍ وعُمَرَ فكانوا يَسْتَفْتِحُونَ بالْحَمْدُ للّهِ رَبِّ العالمين، لا يَذْكُرُونَ بسم اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ لاَ في أوَّلِ قراءَةٍ وَلاَ فِي آخِرِها».

ونظيره عن عبد اللّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ في سُنَنِ الترمذي، وسُنَنِ النسائي.

وذَكَرُوا في الاستدلال عَمَلَ أَهْلِ المدينَةِ إلى زمَنِ الإمَام مالك، أنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ أَحَدٌ منهُمْ قَرَأ بسم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم في الصَّلاَةِ الْجَهْرِيَّة.

**أقول**: هذه الأدلَّة لاَ تَنْفِي كَوْن بسم الله الرحمن الرحيم آيَةً مِنْ سُورَةِ الفاتِحَةِ، أَوْ آيَةً فَذَّةً تُتْلَىٰ قَبْلَ الفاتِحَة، بَلْ تُثْبِتُ أَنَّهُمْ لَمْ يكُونُوا يَجْهَرُونَ بها كما يَجْهَرُونَ بالآيات الأُخرى من السُّورَةِ.

فالموضوع بين الجهْرِ وعَدَم الْجَهْرِ بتلاوة بسم الله الرحمن الرحيم، وأدلَّةُ عَدَم الْجَهْرِ مُعَارَضَةٌ بأدِلَّةِ الْجَهْرِ بها الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُها، ولاَ شَكَّ أَنَّ أدِلَّةَ عَدَم الْجَهْرِ بها أَقْوَىٰ، إلاَّ أَنَّها عَمَلٌ يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ على أَفْضَلِيَّةِ عَدَم الْجَهْرِ بهَا، لاَ عَلَىٰ وُجُوبِهِ، وقد الْتَزَمَ أَبو بكر وعُمَرُ وعُثْمَانُ وأَهْلُ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ بما هُوَ الأفضل.

والأَمْرُ يَسِيرٌ فَمَنْ جَهَرَ بِهَا في الصلاة الجهْرِيَّةِ فقد اتَّبَعَ السُّنَّة، ومَنْ لَمْ يَجْهَرْ بها فقد اتَّبَعَ السُّنَّةَ، وعَمِل بما هو الأفضل.

ويبدُو أنَّ إثبات كونِ «بسم الله الرحمن الرحيم» جزءاً مِنْ أوَّلِ كلِّ سورة غيْر سُورَةِ «براءة» أَوْ كَوْنِها آيَةً فَذَّةً تُتْلَىٰ قَبْلَ السُّورِ الَّتِي كُتِبَتْ «بِسْمِ اللَّه الرحمن الرَّحيم» في مطالِعِها سَطْراً مُنْفَصِلاً، في نُسَخِ المصحف الإمام الَّتي وُزِّعَتْ في عَهْدِ عثمان على الأَمْصَارِ، هو الأرْجَحُ.

فكِتَابَتُهَا في المصاحِفِ المذكورة، الَّتِي لم يُكْتَبْ فيها شيءٌ غَيْرُ الْقُرْآنِ، مَعَ الأَحَادِيثِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا ما يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّسُولَ تَلاها قَبْلَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ إلى آخر فاتحة الكتاب، ومَعَ الإجماع علىٰ أَنَّ ما بين دُفَّتَي المصحف كتابُ الله، كافِيَةٌ لإثباتِهَا قُرْآناً، لأَنَّهَا مُجْتَمعةٌ بقُوَّة المتواتِر.

❀ ❀ ❀

## (٤)
# التدبُّر التحليلي للبسملة

قول الله عزّ وجلّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①﴾.

جُمْلَةٌ عظيمة عَلَّمَنَا اللَّهُ أن نَسْتَفْتِحَ التلاوَةَ والقِرَاءَةَ بِهَا، وعلَّمنا الرَّسُول ﷺ أن نَسْتَفْتِح كُلَّ أمْرٍ ذي بالٍ بها.

﴿بِسْمِ﴾: الْبَاءُ حَرْفُ جَرٍّ، ومن معانيه الاستعانَةُ والإلْصَاق، ووجود هذا الحرف يسْتَدْعي عاملاً جالباً له، وإِذْ لَمْ يُوجَدْ هذا العاملُ ملفوظاً فلا بُدَّ من تقديره ملحوظاً حتَّىٰ تَتِمَّ جملة البسملة.

ويختلف تقدير هذا العامل باختلاف حال الناطق بالبسملة، فإنْ كانت حالُه حالَ قراءة أو تلاوة قدّرَ العامل من أحدهما، وإِنْ كانت عملاً ما كقيام أو قعودٍ أو سَيْر أو طعام أو نومٍ أو أي أمْرٍ آخر ذي بالٍ قَدَّرَ العامل ممّا يُناسب العمل الذي يريد أن يعمله، وهو يشمل كلّ عَمَلٍ فكريّ أو قلبيّ أو لسانيّ أو بدنيّ.

واحتمالات تقدير العامل تأتي في أربعة أوجُهٍ، وذلك أنّه إمّا أن يُقَدَّرَ العامل فِعلاً، فتكون الجملة فعليّةً، وإمّا يُقَدَّرَ اسماً مُشْتقّاً يعمَلُ عَمَلَ الفعل، فتكُونَ الجملة اسميّة، وَكُلٌّ منهما إمّا أن يُقَدَّرَ مُتَقَدِّماً على معموله، وإمّا أن يُقَدَّرَ مُتَأَخِّراً عنه، والمقدَّرُ في مقام تلاوة القرآن أو قراءته مشتقٌّ من التلاوة أو من القراءة، فالوجوه الأربعة تأتي كما يلي:

(١) أتْلو بسم الله الرحمن الرحيم.

(٢) بسم الله الرحمن الرحيم أتلو.

(٣) تلاوتي كائنةٌ بسم الله الرحمن الرحيم.

(٤) بسم الله الرحمٰن الرحيم كائنةٌ تلاوتي.

وأبلَغُ هذه الاحتمالات أنْ نُقَدِّر الْعَامِلَ فِعْلاً مُتأَخِّراً، والسَّبب في هذا أنّ تقديم المعْمُول على عامله يفيد عند البلاغيّين الحصر، والحصْرُ في هذا المقام أنسَبُ إلَىٰ عقيدة المؤمن، لأنَّهُ إذا كانت الباء للاستعانة فإنّ المؤمن لا يستعينُ إلاَّ بالله وصفاته، وإذا كانت للإلْصَاق فإنَّ المؤمِنَ لا يلْتَصِقُ التصاقَ التجاءٍ وتبرُّكٍ إلاَّ باللَّهِ وَصِفَاته، فيكون تقدير العامل متأخِّراً نَصًّا مُعْلِناً عَنْ عقيدته.

والغرض من حذف المتعَلّق أن يعُمَّ كلَّ ما يَصْلُحَ لأنْ يُقْصَد شرعاً، والتَّعْمِيم غرضٌ بيانيّ من أغراض الحذف، ولا سيما ما يتكرّر اسْتِعْماله في مناسباتٍ لا تُحْصَر.

**والاسم**: ما يُعْرَفُ به ذاتُ الشيْء، وأصل لفظة «اسم» كما ذكر علماء العربية «سِمْوٌ» بدلالة قول العرب في الجمْعِ «أسماء» وقولهم في التصغير «سُمَيّ».

وهو مشتقٌّ مِن السُّمُوّ بمعنى الارتفاع، فمعنى «الاسم» بحسَبِ الاشتقاق لفظ رُفِعَ بِهِ ذِكْرُ المسمَّىٰ ليُعْرَفَ به.

وقيل: أصْلُ «اسم» هو «وَسْم» بمعنى العلامة، حُذِفَتِ الواو ثُمَّ تُوُصِّل إلى الابتداءِ بالسَّاكِنِ بزيادة همزة الوصْلِ، فالاسم على هذا علامَةٌ دالَّةٌ على المسمَّىٰ.

﴿ٱللَّهِ﴾: اسْمٌ علَمٌ في اللُّغة العربيَّةِ على ذاتِ الخالق الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ، الجامع لكلّ صِفاتِ الكمال، والمنزَّه عَنْ كُلِّ صِفَةٍ من صِفات النقصان الَّتي لا تَلِيقُ بذاتِ الرَّبِّ الخالق الأزليِّ الأبديِّ.

قيل: ولهذا فلَفْظُ «اللَّه» هو أعظم أسْماء الله الْحُسْنَىٰ، ومن خواصّ هذا الاسْم أنَّهُ لم يُسَمَّ به غيْرُ الخالِقِ الأزليّ الأبدِيّ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ، لاَ عَلَىٰ سبيل الحقيقة ولا على سبيل المجاز.

وحاوَلَ بعض عُلَماء العَرَبيّة بيَانَ أصل لفظة «اللَّه» فقالوا: أصلُها «إلَه» على وزْنِ «إمام» ثُمَّ أدْخَلُوا عليه الألف واللَّام للتعْرِيف، فصارت: «الإِلَه» ثُمَّ حُذِفَتِ الهمزةُ ونُقِلَتْ حرَكَتُهَا إلَىٰ لاَم التعريف قَبْلَهَا، فصارت الكَلِمَةُ: «الِلَه» ثُمَّ استثقِلتِ الكَسْرَةُ علىٰ اللاَّم، فَسُكِّنَتْ، وأُدْغِمَتِ اللاَّمُ الأولى بالثانية، فصارَتِ (اللَّه) ومن ثَمَّ صارت علماً على الخالِقِ الرَّبّ الأزليّ الأبَديّ جلَّ جلالُه.

**أقول**: هذا بحثٌ في منشأ الكلمة وَتَطَوُّرِها، يهْتَمُّ بِه الباحثون في أصول الكلمات ونَشأَتِها، وفي تَطَوُّرِ اللُّغاتِ، وهُوَ من التَّرَفِ الَّذِي لا يَحْتَاج إليه مُتَدَبِّرُ كِتاب اللَّهِ، إذْ يَجِبُ أنْ يَنْصَبَّ كُلُّ اهْتِمَامِهِ عَلَىٰ مَعَاني الكلماتِ القرآنيَّةِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْها في لُغَةِ الْعَربِ إبَّانَ نزول القرآن.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: صفةٌ مُشَبَّهَةٌ مأخوذة مِنَ الرَّحْمَةِ، يقالُ لُغَةً: رَحِمَ المؤمِنُ أخاه المؤمِنَ رَحْمَةً، ورُحْماً، ومَرْحَمَةً، أي: رقَّ لَهُ، وعطَفَ عليه.

**والرَّحْمٰن**: من صيَغِ المبالغة، فمعناهُ: الكثير الرحْمَة، وصِيغَ اللَّفْظُ عل وزْنِ «فَعْلَان» للمبالغة.

قالوا: ولفظ «الرحمن» خاصٌّ بالله عزّ وجلّ، فلا يُسْتَعْمَلُ فِي وصف غيره، فأشبه أن يكون علماً.

ومعنى الرحمة في المخلوق رقَّةٌ في القلْبِ، ولكنّ هذا المعنى لا يليق بالخالِقِ سبحانه، فالرَّحْمَةُ صفَةٌ من صفاتِ الرَّبّ على ما يليق به جلَّ جلالُهُ، وهي تسْتَلْزِمُ الإنعام والإكرام.

وهل لفظ «رَحْمٰن» مصروفٌ أو غيرُ مصروف؟

فيه قولان، ومال السَّعْد التفتازَانِي إلَىٰ جواز الأَمْرَيْنِ فيه.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: صفةٌ مشبَّهةٌ أيضاً مأخوذة من الرحمة، وهي مبنيَّةٌ على وزْنِ «فَعِيل» للمبالغة أيضاً، فمعنى «الرحيم» الكثير الرَّحْمَةِ أيضاً.

وجُمِعَ في البسملَةِ وَفي سورة (الفاتحة) بين اسْمَي اللَّهِ الرَّحْمٰنِ والرَّحِيم لأمور، منها:

(١) تأكيدُ الثناء على الله بصفة رحمته.

(٢) الطَّمَعُ بإنعامه وإحسانه، وهو ما يُشْعِر به حشْدُ أسماء اللَّهِ الحسنىٰ المشتقة من الرحمة، في مقام الاستعانة به، والتبرُّكِ بذكْرِ بعض أسمائه الحسنىٰ، واستعطافه للاستزادة من فيوض عطاءاته.

(٣) الإشارة إلى شمول رحمته جلائل النِّعَمِ ودَقائِقَها الَّتِي يتفضَّلُ بها على عباده في الدنيا وفي الآخرة.

قالوا: والرَّحْمٰنُ يُسْتَعْمَلُ في الأغْلَب للدّلاَلَةِ على عموم رحمته تعالى المؤمنين والكافرين في الدنيا، والرَّحيم يُسْتَعْمَل في الأغلب للدّلالَةِ على خصوص رحمته تعالى المؤمنين في الآخرة.

**أقول:**

لقد تتبَّعْتُ بالاستقراء الآيات التي جاء فيها اسم اللَّه «الرحْمٰن» واسْمُ اللَّه «الرحيم» فوجَدْتُ أنَّ الآياتِ الّتي تُشِيرُ إلىٰ رحْمَةِ الله عباده في الدُّنيا، وَحتَّىٰ آخِرِ مَوْقِفِ الحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء يوم الدّين، قَدْ جاء فيها استعمال اسم الله «الرَّحْمٰن» منفرداً في الغالب، أو مَعَ ذِكْرِ اسم اللَّه «الرحيم».

أمَّا الآياتُ الّتي فيها الحديثُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عِبادَهُ المتقينَ في الجنَّة، فقد جاء فيها استعمال اسم اللَّه «الرَّحيم» فقط.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ اللَّهَ رحْمَانٌ لجميع عباده المؤمنين والكافِرين والعاصين، حتَّىٰ دُخولِ آخِرِ داخلٍ جنَّةَ النّعيم، ولو كان من أهل العذابِ في دارِ العذاب بِصفةٍ مُؤَقَّتَةٍ.

لكِنَّهُ بالنِّسْبَةِ إلى أَهْلِ جنَّاتِ النعيم فَهُوَ بِهِمْ «رَحِيمٌ» أي: كثير فيوضاتِ الإسعاد والإِنْعَامِ والإِكْرَام.

ونَسْتطيع أن نفهم من هذا أَنّ صيغَةَ: «رَحِيم» أَبْلَغُ من صيغة: «رَحْمَان» ولهذا جاءَ في البسملة والفاتحة ذِكْرُ اسم اللّه: «الرحْمٰن» والارتقاء إلى الأبلغ الذي هو اسم اللَّهِ «الرحيم».

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: صِفتان مجْرُورتان تابعتان في الإعراب للفظ الجلالة (اللّه) ولا أرىٰ مانِعاً من اعتبارِهِمَا من أسماء اللَّهِ الحسنىٰ، وإعرابِهِمَا على البدليَّة من اسْمٍ، أو عطف بيان.

وجملة «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» جملَةٌ ابتدائيَّةٌ لاَ مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإِعْرَابِ.

❁ ❁ ❁

## (٥)
## مناقشة حول كون لفظة «اسم» مُقْحَمَةً في البسملة أو لا

أَوْرَد بعضُ المتأوّلين أنّ لفظة «اسم» مقْحَمةٌ في جملة: «بسم الله الرحمن الرحيم» وأنَّ الأصْلَ: «باللَّهِ رَبِّ العالمين» مُسْتَدِلاً بأَنَّ الاستعانة إنَّما تكونُ باللَّهِ لا بالاسم، وأَوْرَدَ له نظيراً قَوْلَ لبيد بن ربيعة العامري[1]:

إِلَىٰ الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرَ

قال: ومُرَادُ لبيد، ثُمَّ السَّلامُ عَلَيْكُمَا.

ورَدَّ الطبَرِيُّ هذا الكلامَ حتَّىٰ في بيتِ لبيد، وخرَّجَهُ في بيت لبيد على أحد وَجْهَيْن:

---

(١) شاعر أدرك الجاهلية والإسلام، وفد على الرسول ﷺ وأسْلَمَ، وكان من المؤلّفة قلوبهم، ولم يقل بعد إسلامه إلاّ بيتاً واحداً، توفي سنة ٤١ هجرية.

**الوجه الأوّل**: أنَّ السَّلامَ اسْمٌ من أسْمَاءِ اللّه عزّ وجلّ، فجائزٌ أن يكون لبيد عَنَىٰ بقوله: «ثُمَّ اسْمُ السَّلام عليكما» ثُمَّ الْزَمَا اسْمَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَدَعَا ذِكْرِي والْبُكَاءَ عَلَيَّ، فرفَعَ «الاسم» إذْ أَخَّرَ الحرفَ الَّذِي يأتي بمعنى الإغراء، وقد تَفعَلُ العربُ ذَلِكَ إذا أَخَّرَتِ الإغراءَ وقَدَّمَتِ الْمُغْرَىٰ بِهِ، وإنْ كانت قد تنصبُ به وهو مؤخَّر، ومن ذلك قول الشاعر:

أَيُّهَا الْمَائِحُ دَلْوِي دُونَكَا  إنِّي رأيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَا

فأغْرَىٰ بـ«دُونَكَ» وهيَ مؤخَّرَةٌ، وإنَّما مَعْنَاهُ دونَكَ دلْوِي، فكذَلِكَ قول لَبِيد: «إِلَىٰ الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا» يَعْنِي: عَلَيْكُمَا اسْمَ السَّلَام، أي: الْزَمَا ذِكْرَ اللَّهِ وَدَعا ذكري، والْوَجْدَ بي، لأَنَّ مَنْ بكَىٰ حَوْلاً كاملاً على ميِّتٍ فَقَدِ اعْتَذَر.

**الوجه الثاني**: أن يكون «اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا» ثُمَّ تَسْمِيَتِي اللَّهَ عليكما، كما يقولُ القائل للشيء يَرَاهُ فيُعْجِبُهُ: «اسْمُ اللَّهِ عَلَيْكَ» يُعَوِّذُه بذلك من السُّوء.

هذا ما ذكره الطبري، والحقُّ ما ذكر، فالذي أراه أَنَّ كلمة «اسم» في جملة: «بسم الله الرحمٰن الرحيم» هيَ ذاتُ معنىً مُراد، وذلِكَ لأنَّ الذَّاكِرَ إنَّمَا يَبْدَأُ ذِكْرَه باسْمِ اللَّهِ، لاَ بذات اللَّهِ جلّ جلالُهُ، فالاسْمُ هُوَ الَّذِي يُلْفَظُ ويُتْلَىٰ.

ويُمْكِنُ أنْ يُقَالَ: إنَّ الاسْتِعَانَةَ حَاصِلَةٌ باسْمِ اللَّهِ الذي هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيم، على الوجْهِ الذي اعتَبَرْنَا فيه «الرحمٰن الرحيم» على البدليّة من «اسم» أو عطف البيان.

ويخْطُرُ لي أنّه لا مانع من اعتبار «الاسم» بمعنى الصفة، رجُوعاً به إلى أصْلِ الاشتِقاقِ المأخُوذِ مِنَ الْوَسْم، وهِيَ العلامة، وعلى هذا يكونُ المراد بعبارَةِ «بسْمِ اللَّهِ» بِصِفَةِ اللَّهِ أستعين، أيْ: بصِفَاتِ اللَّهِ أَسْتَعِينُ، لأنَّ

الأصْل في المضافِ إلى المعرفةِ أنْ يَعُمَّ، ما لم تَرِدْ قَرِينَةٌ صارفَةٌ عن إرَادَةِ العموم.

وإنَّما كانَتِ الاسْتِعَانَةُ بالصِّفَاتِ، لأَنَّ صفات اللَّهِ عزّ وجلَّ هِي الَّتِي تتعلَّقُ بمَخْلُوقاتِهِ، ويكُونُ لَهَا فيهم آثارٌ خلْقٍ وتكوين، ويضافُ إلَىٰ هذا أنّ أفهام المخلوقات لا تستطِيعُ أن تَصِلَ إلى إدْراكِ ذَاتِ الخالِقِ العليَّةِ، فغايَةُ المدىٰ الذي يُمْكِنُ أنْ تتطاوَلَ إليه مدارِكُ المخلوقات، إنّما هو إدْراكُ مقاديرَ مَحْدُودَةٍ من صفاتِ الخالقِ الرَّبِّ جلّ جلالُهُ، وطائِفَةٍ من أسْمائه، وفي هذا الميدان يجب أن تقف أفهامُهُم، ومِنْ أجْلِ ذَلِكَ نَقُولُ متبرّكين ومُسْتَعينين: «بسم الله» أي: بصِفَاتِ اللَّهِ وأسمائه الحسْنَىٰ نَسْتَعِينُ، أو نلْتَصِقُ، وإليها نَلْتَجِئُ، واللَّهُ أعلم.

ولا بُدَّ أنْ نُلاحِظَ أنَّ أسْمَاءَ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ باستثناءِ لَفْظِ الجلالَةِ الَّذِي هُوَ عَلَمٌ علىٰ الذَّاتِ، كُلَّهَا أسْمَاءٌ وصْفِيَّةٌ، أي: هي أسْماءٌ تُلاحَظُ فيها الصِّفَاتُ الَّتي تَدُلُّ عليها الكلماتُ الأُصُولُ التي اشتُقَّتْ منها، فالرَّحْمٰنُ، والرَّحِيمُ، هُمَا بمعْنَىٰ ذِي الرَّحْمَةِ الكثيرة العظيمة، والقدير، هُوَ بمعنى ذي القدرَةِ العظيمة، والسَّمِيعُ، هو بمعْنَىٰ ذي السَّمْعِ الذي لا يفُوتُهُ صَوْتٌ، مَهْما كان ضئِيلاً وخافتاً، والْبَصِيرُ، هُوَ بِمَعْنَىٰ الذي يَرَىٰ كُلَّ شيءٍ قابلٍ لأنْ يُرَىٰ.

فإذا أُطْلِقَ «الاسم» كان من الْمُمْكِنِ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْوَصْفُ، وعلَىٰ هذا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ في: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وعَلَّمَهُ صفاتِ الأشْيَاءِ، والأَلْفَاظَ الَّتِي يُمَيَّزُ بِهَا كُلُّ جنْسٍ أو نَوْعٍ، أَوْ شَيْءٍ عَمَّا سِوَاه، وَوَصْفُ أسْمَاءِ اللَّهِ بالحُسْنَىٰ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُراد صِفاتُهُ.

ويُمْكِنُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قوله تَعالَىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ شبِيهاً في صِفَاتِهِ، وهكذا إلَىٰ نُصُوصٍ كثيرةٍ يُمْكِنُ تفسير الاسْم فيها

بالوصْفِ، ومنها قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بِئْسَ الوصْفُ الّذِي هُوَ الفُسُوقُ، بَعْدَ الوَصْفِ بالإيمان، بالنّسْبَةِ إلَىٰ المؤمنين.

❁ ❁ ❁

## (٦)
## الشرح العام للاستعاذة والبسملة

لمّا كان المؤمِنُ يعتقد بأنّ اللّهَ هُو وحْدَهُ الذي بيدِه ملكوت السَّماوَاتِ والأرض، وهو وحده الذي يُعِيذُ مَنْ شَاءَ أَنْ يُعِيذَهُ مِنْ عبادِه، وهو وحْدَهُ الذي يُعِينُ بمعونَاتٍ غير منظورة مَنْ شَاءَ أَنْ يُعِينَهُ مِنْ عبادِه، وهو وحْدَهُ الذي لَدَيْهِ الْخَيْرُ والبركة، فلا غَرْوَ أن يَتَوَجَّهُ قلْبُهُ لَهُ دائماً، ملْتَمِساً منه ما يَرْجُو مِنْ إعَاذَةٍ، وعَوْنٍ، وخَيْرٍ وَبركَةٍ في أَمْرِهِ كُلِّه.

ولمَّا كانت الوقايَةُ سابقةً في ترتيبها الطبيعيّ المنطقي، للقيام بالأعمال الَّتِي تُكْتَسَبُ بها المنافِعُ والخيراتُ والصَّالِحَاتُ، كانت الاستعاذةُ باللّهِ مِنَ الشيطان الرجيم وشروره ووساوسه وتَسْوِيلاَتِهِ وهَمْزِهِ ونفْخِهِ ونَفْثِهِ وَنَزَغاتِهِ، سابقَةً للاستعانَةِ باللّهِ عَلَىٰ القيام بأيّ عَمَلٍ مُفِيدٍ نافِعٍ ذي شأنٍ، وسابقَةً للبَدْءِ باسْمِ اللّهِ تتويجاً وتَبْرِيكاً وتَنوِيراً لأيّ عَمَلٍ مفيدٍ نافِعٍ ذِي شَأْنٍ.

وجاء فيما رُوِي عن الرسول ﷺ:

«كُلُّ أمْرٍ ذِي بال لاَ يُبْدَأُ فيهِ بِبِسْمِ اللّهِ فَهُوَ أبْتَرُ، أو فَهُوَ أقْطَعُ».

أي: قُطِعَ مِنْهُ مَا يَنْبغي أنْ يكُونَ بمثابَةِ رَأْسِهِ، أو المحيط بِهِ، والْمُمِدّ لَهُ بالْعَوْنِ والبركَةِ والْخَيْر.

والاستعاذَةُ هي طَلَبُ اللُّجوء للحمايَةِ والحفظ، فالاستعَاذَةُ باللّهِ هي طلَبُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ أن يَلْجأَ إليه، ويحْتَمِيَ بِحِماهُ، لِيكْلأَهُ بحفظه، ويحْمِيَهُ بحمايتِه، ويَرْعَاه بِرِعَايَتِهِ، ويَقِيَهُ شَرَّ وأذىٰ مَنْ استعاذ بِهِ منه، أو ما استعاذ بِهِ منه.

وذِكْرُ اسْمَي السّمِيعِ العليم مِنْ أسماء اللّهِ الحسْنَىٰ وصفاته العظمىٰ، لدىٰ الاستعاذةِ به، له ثلاثة أَهْداف:

**الأول**: التعبيرُ عن جُزْءٍ من عناصر الاعتقادِ في اللّه، تستدعيه الاستعاذة به، فهو سميعٌ لدعاء المستعيذِ، وهو عليم بحاله وبحال من يستعيذ به منه، أو ما يستعيذ به منه.

أمّا صِفَةُ القدرَةِ الّتي بها يكونُ العوذُ فقد دلّتْ عَلَيْها الاستعاذة نفسها، لأنَّ المستعيذ لا يلْجأُ إلاَّ إلىٰ ذي قدرة تحميه، فلم يأتِ في التعليم لنصّ الاستعاذة باللّهِ اسم الله «القدير». وفي هذا التعبير عبادةٌ للّه عزّ وجلّ.

**الثاني**: الثناء على اللّهِ وحَمْدُه وتمجيدُه بأنّه السَّمِيع العليم، مع المناسبة الّتي تسْتَدْعِي تَذكُّرَ هٰذَيْنِ الاسمَيْن، من أَسْمَاء الله الحسنى، وفي هذا الثناء عبادة للّهِ عزّ وجلّ.

**الثالث**: استِعْطَافُ اللّهِ واسْتِرْحامُهُ لِتَوجيه إرادَتِهِ لحمايَةِ عبْدِهِ المستعيذِ به، ورِعَايَتِهِ، والعنايَةِ به، وإحاطَتِه من كلّ جوانِبِهِ بالحفظ، مكافأَةً لَهُ على صِدْقِ إيمانِهِ بِهِ، وبقدْرَتِهِ، وبأَنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم، لا يَخْفَىٰ عليه شيءٌ، جلَّ شانُه وعظم سلطانُهُ. وهذا الاستعطاف هو من عناصِرِ عبادة العبْدِ لرَبّه.

أمّا المستعاذُ باللّهِ منْهُ فَهُو الشيطانُ الرَّجيم المغوي المضِلُّ الصَّادُّ عن طاعَةِ اللّهِ والإيمانِ به إن استطاع.

وَوُصِفَ الشيطانُ بأنّه رَجيمٌ، لأنَّهُ مطْرُودٌ مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ، مَرْجُومٌ مَعْ طَرْدِهِ، مُلاَحَقٌ بالعقوبات الماديَّةِ والمعنويَّة.

وفي كلّ الرسالات الرَّبّانيَّةِ حذَّرَ اللّهُ عزّ وجلّ بني آدَمَ من الشيطان. كما حذَّرَ آدم وزوجَهُ منه مُنذُ أَسْكَنَهما الجنَّةَ، قال اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مبيّناً ما قاله لهما:

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وأبان اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها أَنَّهُ قَدْ خَاطَبَ بَنِي آدَمَ جميعاً بقوله:
﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ... ﴿٢٧﴾﴾.

فَدَلَّ هذا عَلَىٰ أَنَّ جَمِيعَ الرِّسَالاَتِ الرَّبَّانِيَّةَ قد اشتملَتْ على هٰذَا التَّحْذِير.

أمَّا الْبَدْءُ بجملة «بسم الله الرحمن الرحيم» بعد الاستعاذة باللَّهِ السّميع العليم من الشيطان الرجيم، فيَعُمُّ كُلَّ ما يَصْلُحُ أن يُقْصَدَ شرعاً، كالاستعانَةِ والتَّبرُّكِ والتمجيد، أي: باسْمِ الله أستعين في أَمْرِي، أو أتبرَّكُ، أو أُمَجِّدُ باسم اللَّهِ مع بَدْءِ أَمْرِي وعَمَلي.

وعلَّمَنا اللَّهُ أن نَقُول: باسْمِ اللَّه، لا أن نقولَ: باللَّه، إشارةً إلى أنّ حظَّ عقولنا وأفكارِنا من اللَّهِ أن نتفكَّرَ في أسمائه وصفاته، لا أَنْ نتفكَّر في ذاته، أو أَنْ نَسْعَىٰ لإدْراك شيءٍ منها، فبيْنَنَا وبَيْنَ إدْرَاكِ ذَاتِهِ تَعَالَىٰ أو شيءٍ منها حاجِزُ الْعَجْزِ الكامل.

أمّا ما نستطيعُهُ فمحصُورٌ في التفكّر في أسمائه وصفاتِهِ، وأسماؤُهُ غَيْرُ اسم الذّات وهو لفظ الجلالة (اللَّه) كُلُّهَا من صِفَاته عزَّ وجلّ، وحسبُنَا أنْ نُدْرِكَ قَدْراً من صفاتِ اللَّهِ عزّ وجلّ.

فحَظُّنَا مِنه تبارَكَ وتعالى هو حظُّنَا مِنْ صفاتِهِ، من قُدْرَتِه، من عِلْمِهِ، مِنْ إرَادَته، من حكْمَته، من عدْلِهِ، من فضْلِهِ، من رحمتِهِ، من عَفْوِه، من غُفْرانِهِ، من كونه رازقاً مُحْيياً مميتاً، محاسباً، وقاضياً بيْنَ عبادِهِ، ومجازِياً لهم، وفَعَّالاً لِمَا يُريد.

فما لَنَا وللبحْثِ في ذاته الّتي لا سبيلَ في الحياة الدُّنيا إلَىٰ إدْراكِ شيءٍ منها.

## (٧)
## من وجوه البلاغة في البسملة

في البسملة طائفة من الوجوه البلاغيّة، بَيَانُها فيما يلي:

(١) فيها قصْرُ الابتداء والتبرّك والاستعانة، وجعلُها خاصَّةً باللَّه عزّ وجلّ وصفاته العليَّة، وذلك على تقدير العامل في: «بسم الله» فِعْلاً متأخّراً، عملاً بالقاعدة البلاغيَّة التي تبيّنُ أنَّ من أغراض تقديم المعمول على العامل إفادةَ القصْرِ والاختصاص.

(٢) وفيها الإيجاز بحذف العامل ليَعُمَّ، ولتكونَ الجملةُ صالحة لبداية كلّ أمْرِ ذي بالٍ بها، ويُقَدَّرُ لكلّ أَمْرٍ ما يُنَاسِبُه.

(٣) وفيها حُسْنُ اختيار صِفَتَي الرَّحْمنِ الرَّحيم لمزِيَّةٍ فيهما، وهي مناسبتُها لموضوع التسميَةِ المتضمّن الالتصاق والاستعانة بالله تبارك وتعالىٰ، ففي ذِكْر هاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ تَعْريضٌ بالمقتضي الذي دفع المؤمِنَ للاستعانةِ باللَّهِ وحْدَه، إذِ الكلامُ إجمالٌ وإيجازٌ لقول القائل: لا أَبْتَدئ مُسْتَعِيناً إلاَّ باللَّهِ لأَنَّهُ هو الرحمٰنُ الرَّحيم. ففي هذا سَوْقٌ للمعنَىٰ مُقْتَرِناً بدليله وهو ما يُسَمَّىٰ عند البلاغيّين: «المذهب الكلامي» وهو أن يساق المعنى مقترناً بدليله.

❀ ❀ ❀

# سُورَةُ العَلَق

## أَوْ سُورَةُ «اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ»

٩٦ مصحف ١ نزول

## (١)
## بحث حول نزولها:

هي مكية باتفاق، ولا شيء منها مدنيّ، نزلَتْ بمكّة، وقَدْ نزل صَدْرُها، مِنْ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾ حتَّىٰ غايَة الآية الخامِسَةِ مِنها: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ مع بَدْءِ الوحي إلىٰ الرسُولِ ﷺ حينما كان يتعَبَّد رَبَّهُ في غار حِراء على الموروثِ في العَرَبِ من ديانة إسماعِيل وإبراهيم عليهما السَّلامُ، وهذا من أرجح الآرَاءِ الاستنباطِيَّة.

وبعد نزول هذه الآيات الخمس من هذه السورة فتر الوحي، واختلفت الروايات في مُدَّة فترة الوحْي بعدها فقيل: أربعون يوماً. وقيل: ستة أشهر. وقيل: سنتان. وقيل: سنتان ونصف. وقيل: ثلاث سنين، وليس في الصحيح ما يثبت قولاً من هذه الأقوال، لكن الفترة قد حصلت.

أمّا سائر السورة فقد نزل في مكة بعد المدثر، وربّما بعد غيرها أيضاً والله أعلم.

❁ ❁ ❁

## (٢)

# نص السورة وما فيها من فرش القراءات

## سورة العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ
وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ
﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ
رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾
أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا
بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ
ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

---

١ ـ [اِقْرأْ] في الموضعين أبدل أبو جعفر الهمزة مطلقاً.

- وأبدلها في الوقف حمزة.
- والباقون بتحقيق الهمزة.

٧ ـ [أَنْ رَءَاهُ] لجمهور القرّاء العشرة.

- [أَنْ رَأَهُ] لقُنبل بخلف عنه. والوجه الثاني له كالجمهور.

٩ ـ [أَرَأَيْتَ] في المواضع الثلاثة من السورة.

- قرأ نافع وأبو جعفر، بتسهيل الهمزة الثانية.
- وقرأ ورش بإبدالها ألفاً مع المدّ المشبع في الوصل فقط.
- وقرأ الكسائي [أَرَيْتَ].
- ووقف حمزة بالتسهيل.

١٦ ـ [خاطِئَةٍ] قراءة جمهور القرّاء العشرة.

- وقرأ أبو جعفر [خَاطِيَة]. وكذلك حمزة في الوقف.

## (٣)
## ما جاء في السُّنَّةِ حول سورة (العلق)

روى البخاريُّ وغَيْرُهُ بسَندِهِ عَنْ عائِشَةَ أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنَّها قَالَتْ:

«أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَىٰ رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ[١].

ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ[٢] فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ[٣] إِلَىٰ أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اِقْرَأْ. قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ[٤]، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فقالَ: اِقرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اِقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) **مِثْلَ فَلَقِ الصُّبح**: أي: مِثْلَ انشَقَاقِ الصُّبحِ مِن ظُلْمَةِ اللَّيْلِ.

(٢) **فيتحنَّثُ**: أي: فيتعبَّدُ.

(٣) **قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ**: أي: قبل أَنْ يَشْتَاقَ إِلىٰ أَهْلِهِ ويَعُودَ إليهم

(٤) أي: فَضَمَّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ ضَمّاً شَدِيداً حتّىٰ بَلَغَ غَايَةَ طَاقَتِي واحْتِمَالِي، يقال لغة: غَطَّ الشيْءَ إذا كَبَسَهُ وعَصَرَهُ عَصْراً شَدِيداً.

وجاء في رواية أخرى عند البخاري إضافة: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ـ رضي اللَّهُ عَنها ـ فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي[١]، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ[٢].

فَقَالَ لِخَدِيجَةَ ـ وأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ ـ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي.

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللَّهِ، مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ[٣]، وتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ[٤]، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ[٥].

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ، حتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْعُزَّىٰ ـ ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ ـ وَكَانَ امْرأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَان شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَىٰ؟. فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَـٰذَا النَّامُوسُ[٦] الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيتَنِي فِيهَا جَذَعاً[٧]، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ.

---

(١) **زَمِّلُوني**: أي: غطُوني ولُفُوني.
(٢) **الرَّوْع**: الْخوفُ.
(٣) **الْكَلّ**: مَنْ لاَ وَلَدَ له وَلا والِدَ، ومَنْ هُوَ عِبْءٌ عَلَىٰ غَيْرِهِ.
(٤) **تَكْسِبُ المعدومَ**: أي: تُنِيلُهُ وتُعْطِيه.
(٥) **النوائب**: جمع نائبة، وهي ما ينزل بالإنسان من الكوارثِ والحوادث المؤلمة.
(٦) **الناموس**: صاحبُ سِرِّ الرَّجُلِ، ومَلَكُ الوحي.
(٧) **جَذَعاً**: أي: صغير السِّنِّ أَقْدِرُ على الدِّفاع عَنْكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟.

قال: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً[١].

ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّي، وفَتَرَ الْوَحْي».

قَالَ ابْنُ حَجَرِ في كتابهِ «فَتْح الْبَارِي» في مَعْرِض حديثه عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾: وقَعَ عِنْدَ ابْنِ إِسْحَاقِ: فِي مُرْسَلِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«أَتَانِي جِبْرِيلُ بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاج[٢]، فِيهِ كِتَابٌ[٣]، قَالَ: اِقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ».

أي: أَنَا لاَ أَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ لِمَا هُوَ مَكْتُوبٌ، إِذْ لَمْ أَتَعَلَّمْهَا.

أَصْلُ الْقِرَاءَةِ مُتَابَعَةُ النُّطْقِ بِكَلَامٍ مَكْتُوبٍ عَلَىٰ وَفْقِ الخطِّ الَّذِي رُسِمَ بِهِ هٰذَا الكلام.

أقولُ: لَوْ كَانَ الْمُرَادُ تِلَاوَةَ مَا يُمْلِيهِ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ مِنْ قَوْلٍ، لَكَانَ الْمُنَاسِبُ أَنْ يَقُولَ الرَّسُولُ لَهُ: مَاذَا أَقْرَأُ؟، لا أَنْ يَقُولَ لَهُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَهٰذَا الْحَدِيثُ الْمُرْسَلُ يُبَيِّنُ لَنَا المراد من الحديث الصحيح المرفوع.

وما جاء في الحديث منْ تكرار قولِهِ ﷺ: مَا أَنَا بِقَارئ، إِنَّمَا هو تَأْكِيدٌ لبيَانِ وَاقِعِ حَالِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمْ قراءَةَ الْخُطُوطِ، الَّتِي هي رُمُوزُ كلماتٍ تُنْطَقُ.

ودَلَّ الْخِطَابُ بالأَمْرِ بالْقِراءةِ مَعَ أَوَّلِ التنزيلِ، عَلَىٰ أَنَّ المقصودَ هو

---

(١) **مُؤَزَّراً**: أَزَرَ فُلانٌ فُلاناً، وآزَرَهُ، وأزرَهُ، إذا عَاونَهُ وَقَوَّاهُ وَدَعَمَهُ، والنَّصْرُ الْمُؤَزَّرُ: هُوَ النَّصْرُ الْمُتَابَعُ بِالْمَعُونَةِ والتَّقْوِيَةِ والدَّعْمِ.

(٢) **النَّمَطُ**: قُمَاشٌ لَهُ خَمْلٌ رقيقٌ، **والدِّيبَاجُ**: ضَرْبٌ مِنَ الثياب، سَدَاهِ ولُحْمَتُهُ حَرِير.

(٣) أي: فيه كتابةٌ.

أنَّ أُمَّةَ هذا النبيِّ الأُمِّيِّ مُطالَبَةٌ بِأَنْ تَتَعَلَّمَ الكتَابَة والْقِرَاءَة، وَتَتخلَّصَ من الأُمِّيَّة، وَتَبْدَأَ مَسِيرتَها الْعِلْمِيَّة مُتَرَقِّيَةً فِي كُلِّ مَجَالاَتِ الْعُلُومِ، فالْكِتَابَةُ وَالْقِرَاءَةُ مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ التَرَقِّي الْعِلميّ، فِي قضايا الدِّينِ والدُّنيا.

وَإِذَا كَانَتِ الأُمِّيَّةُ فضِيلَةً خاصَّةً بالرَّسُولِ محمّد ﷺ، لِأَنَّها إِحْدَىٰ عَنَاصِرِ معجزاتِ نُبُوَّتِهِ، فَلَيْسَتْ فَضِيلَةً لِأَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، بَلْ هِي نقيصةٌ، إِذْ أُمَّتُهُ مأمُورَةٌ بِالْقِرَاءَةِ لِلْكَلاَمِ المكتُوب، وَمَأْمُورَةٌ بتَعَلُّمِ صَنْعَةِ الكِتَابَةِ، مَعَ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْ قُرْآنٍ، عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ محمّد ﷺ.

فَعَلَىٰ أجيالِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ المحمّديَّة أَنْ تُرَدِّدَ النَّشِيدَ التالي الذي قُلْتُ فِيه:

إِنَّــنَـــا أُمَّـــةُ «اِقْــرَأْ» أَمْـرُ مَـنْ سَـوَّىٰ الـنَّـسَـمْ
لِــنَـبِــيٍّ مَــنْ بِــهِ مَـوْكِـبُ الـرُّسْـلِ خُـتِـمْ
أَوَّلُ الـتَّـنْـزِيــلِ «اِقْــرَأْ» ثُـمَّ دِيـنُ الـلَّـهِ تَـمّ
فَـانْـبِـذُوا أُمِّـيَّـةَ الْـغَـا بِـرِ فِـي بَـالِـي الـرِّمَـمْ

❁ ❁ ❁

نَـحْـنُ بِـالْـقُـرْآنِ صِـرْنَـا أَهْـلَ عِـلْـمٍ وَقَـلَـمْ
قَـدْ طَـرَحْـنَـا الْـجَـهْـلَ والْـقَـ ـفْـرَ وَأَرْبَـاضَ الـنَّـعَـمْ
وارْتَـقَـيْـنَـا ذُرُوَاتٍ وَجَـثَـمْـنَـا فِـي الْـقِـمَـمْ

❁ ❁ ❁

فَـانْـهَـلُـوا الْـعِـلْـمَ وَكُـونُـوا فِـي الْـبَـرَايَـا عُـلَـمَـاءْ
دَوِّنُـوا الْـعِـلْـمَ بِـأَقْـلَا مِ خُـلُـودٍ وبَـهَـاءْ
نَـقِّـبُـوا بَـحْـثـاً عَـنِ الْـحَـ ـقِّ وَكُـونُـوا فُـقَـهَـاءْ
واجْـعَـلُـوا الْـعِـلْـمَ سَـبِـيـلاً لانْـتِـشَـارٍ وَارْتِـقَـاءْ
ولِـمَـجْـدٍ وَلِـقُـوَّةْ ولِـسَـعْـدٍ وهَـنَـاءْ
ولِـنُـرْضِـي الـلَّـهَ فِـي أَعْـمَـالِـنَـا كَـيْـفَ يَـشَـاءْ

❁ ❁ ❁

## (٤)
# موضوع السورة

بالتَّأمُّلِ الدَّقيق، مع صَبْرٍ وَأَنَاةٍ، نَسْتَطِيع اكْتشافَ موضوع سورة (العلق) من خلالِ تدبُّرِ دُرُوسِها الثلاثة، وإبرازِ المطويّاتِ في ثنايا آيَاتِها.

فالدّرْس الأوّل منها الذي يتألف من خمس آيات، هو قول الله عزَّ وجل:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

ويتضمن هذا الدرسُ الدّعوة إلى اكتساب العلم بوسائله التي أتاحها الربُّ الْخالق للإنسان، ومكَّنَهُ مِن استعمالها، وهَدَاهُ إلى كيفيَّة ذلك، وَأهمُّ وسائله القراءةُ لِمَا هو مُدَوَّنٌ بالكِتَابَةِ مِنْ عُلُومِ صَحِيحةٍ نافعةٍ في الدنيا والْآخِرَة، وتدوينُ المكتَسَباتِ العلميَّةِ المدركة بالعقول، أو بالحواسِّ الظَّاهِرَةِ والباطنة، أو بالتجربَات، أو بالأخبار الصادقة، ومنها الوحيُ المنزّلُ من عند اللّهِ، وأهم وسائل التدوين الكتابة على اختلاف صورها وأشكالها القديمة والحديثة، وأحْدَثُها الآنَ «الكومبيوتر».

ولا يتمّ ذلك إلاّ بتعلُّم صَنْعةِ القراءة والكتابة، والعمل على تدوين المكتسباتِ العلميَّةِ، ليَسْهُل حفظُها، ونَقْلُها من سلَفٍ إلى خلَفٍ، وبهذا تتنامَىٰ وتتعاظَمُ جبالُ المعْرِفةِ لدى النّاسِ، إذْ تتراكَمُ الْمُدَوَّنَاتُ مِنْ مسائلِ العلومِ مصنَّفَةً مُبَوَّبَةً مُفَصَّلةً مُفَهْرسة.

وأجَلُّ العلُومِ الَّتِي يدْعو القرآنُ إلى اكتسابها عُلُومُ الدّين، لأنّها تَهدِي الإنسانَ إلىٰ سبيل سعادتَهِ في دار البقاء الخالِدَةِ، مع هدايته إلَىٰ سبيل سعادَتِهِ الأفضل في دار الفناء، دار الحياة الدّنيا.

ويدعو القرآنُ أيضاً إلَىٰ اكتسَاب العلومِ الَّتِي تَخْدُمُ مَطَالِبَ ولَذَّاتِ

النَّاسِ في الحياة الدنيا، بشَرْطِ اقترانِها بإدْراك دَلائِلِ الإيمانِ فيها، وابْتِغاءِ الدَّارِ الآخِرَةِ فيما آتىٰ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ الإنسانَ من آثارِها وثمَراتِها النّافعاتِ، مَعَ الأَخْذِ بنصِيبِهِ النافع مِنْها لِمَتَاعِ الحياة الدُّنيا.

وهُنَا يَرِدُ سؤالٌ يتطلَّبُ جواباً، وهو: ما هِي الحاجَةُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي تَفرِضُ على الإنسانِ أَنْ يكُونَ مُلِمًّا بِعُلُوم الدِّين، وتَجْعَلُ من مقتضياتِ حِكْمَةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، أَنْ يُوَجِّهَ للنَّاسِ رِسَالاَتٍ مِنْهُ، يصطَفِي لحَمْلِها وَلِتَبليغِها للنَّاسِ خِيرَةً مِنْ عِبَادِهِ، وهٰذِه الرّسالاَتُ تتضَمَّنُ تَعْرِيفَهُمْ بالحقّ والصّراطِ المستقيم الّذِي يُحَقّقُ لهم إذا اتَّبَعُوهُ واهْتَدَوْا بهَدْيه سعادَةَ الدُّنيا والآخرة؟

ويأتي الجوابُ في الدَّرْسِ الثَّانِي من دُرُوس السورة الثلاثة، مُشِيراً إِلَىٰ السَّبَب الدَّاعي إِلَىٰ إِرْسَالِ رُسُلٍ وفي خاتمتهم مُحَمَّدُ بن عبد الله ﷺ، ليبلِّغُوا رِسَالاَتِ رَبّهم لعباده، وهذا السَّبب يشْتَمِلُ عَلَىٰ عنصُرَيْنِ:

**العنصر الأول**: أَنّ الإِنسانَ في الحياةِ الدُّنيا متَىٰ شَعَرَ باستِغْنَائِهِ بأسبابِهِ الَّتِي أَتَاحَهَا اللَّهُ له طَغَىٰ، فغطَّىٰ طُغْيانُهُ عَلَىٰ بَصِيرَتِهِ، فكفَرَ برَبِّهِ، وجَحَدَ الحقَّ، فظَلَمَ وَبَغَىٰ، وزيَّنَ ظُلْمَهُ وَبَغْيَهُ بزُخْرُفِ الْقَوْل، والدَّعَاوَىٰ الكاذِبَة الباطلة، وسخَّرَ ما لديه من قوىً وأنصار، لتحقِيقِ مطالب نَفْسِه الجائرة الظَّالمة الآثمة.

**العنصر الثاني**: أَن الإِنسانَ لاَ يستطيعُ بنَفْسِهِ إدْراكَ الحياةِ الأخرى، وَمَا فِيها مِنْ حسابٍ وفَصْلِ قضاء وتنفيذ جزاءٍ، في دار النعيم الجنَّة، أوْ في دار العذابِ النَّارِ، ولو أدْرَكَ بِعَقْلِهِ ضرورةَ تَحقُّق الجزاء، لكنَّهُ لاَ يستطيعُ تَصَوُّرَ عَنَاصِرِهِ وكيْفَ يكون، فاحتاج إلى رسالة من الرَّبِّ الْخَالِقِ تُبَيِّنُ لَهُ الدَّار الآخِرَةَ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيها مِنْ جزاء.

وهَذَا الدَّرْس الثاني يتألَّفُ مِنْ ثَلاث آياتٍ، هِي قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيها:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

هذا الدَّرْسُ يتضمَّن أَنّ الإنسانَ في مُعْظَمِ أفرادِه، إذا لم يكُنْ لَهُ هادٍ يَهْدِيهِ ويُحَذِّرُه ويُنْذِره وَيُرَغِّبُهُ حتَّىٰ يختار لنفسه الظَّفر بسعادتِه في دنْياه وفي أُخْراه، والنجاةَ مِن عذابِ اللّهِ فيها، فإنَّ امْتِلاَكَهُ للوسائل والأسْبابِ المتاحَةِ لَهُ في العاجلة، والَّتي يَشْعُرُ بأنّها تُهَيِّئُ لَهُ السَّعَادَةَ في دُنْياه، يجْعَلُهُ يَشْعُرُ بالاسْتِغْنَاءِ عَنْ رَبِّهِ، إذْ لاَ يَرَىٰ بعينَيْهِ أَنَّ كُلَّ أحداثِ الكَوْنِ هِيَ مِنْ تَصاريفِهِ جلّ جلاله، وهذا الشُّعُورُ بالاستغناءِ يُوَلِّدُ لَدَيْهِ اسْتِعلاءً واسْتِكْباراً وَطُغْيَاناً. ثُمَّ يَنْسَىٰ مَعَ هذا الطغيانِ الَّذي تشبَّعَتْ بِهِ نَفْسُهُ أَنَّهُ فِي حَيَاةٍ دُنْيَا قَصِيرَةٍ عاجلة، وأَنَّهُ عَبْدٌ لِرَبِّهِ الخَالِقِ له، وأنّه في هذه الحياة مُمْتَحَنٌ مُبْتَلَىٰ، وأَنَّ الامتحانَ يَسْتَلْزِمُ المحاسبةَ والجزاءَ عقلاً، وقَدْ جعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ يوْمَ الدّينِ، حِينَ يَبْعثُ اللَّهُ الموتىٰ، ويكونُ مَصِيرهُم إلى حِسَابِ رَبّهم وفَصْلِ قضائه وتنفيذِ جزائِهِ.

وَهُنَا يَرِدُ سُؤَالٌ، وهُوَ: مَا هُو حالُ النّاسِ عُمُوماً فِي الحياة الدُّنيا تُجاهَ عُلُومِ الدّين الَّتي تَهْدِيهِم إِلَىٰ سَبِيلِ سعادتهم في الدنيا والآخِرَة، وتُجاهَ دَعْوَتِهِم للاستجابة لنداء رَبِّهِم لهم.

ويأتي الدرس الثالثُ الأَخير من دُروسِ السُّورَةِ لِيُجِيبَ ضِمْناً عَلَىٰ هٰذا السؤال، وهو قولُ اللّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

ومَعَ بَيانِ أَصْنافِ النّاسِ تُجاهَ الرِّسَالَةِ الرَّبّانيَّةِ جاء في هذا الدَّرْسِ تحْذِيرٌ ووعيدٌ للضّالّينَ وللمُضِلِّين، وَوَعْدٌ للمهتدين والدّاعِينَ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، وتَثْبِيتٌ لَهُمْ على ما هُمْ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وخضوعٍ لربّهم متقرّبينَ لَهُ بالسُّجودِ.

أمَّا أَصْنَافُ النَّاسِ الَّذِينَ أَشَارَ إِلَيْهِمْ هٰذَا الدَّرْسُ بِأُسْلوبِ الرَّمْزِ والكِنَايَةِ، فَهُمُ الْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ التالية:

**الصّنفُ الأوّل**: الْمُصَدِّقُونَ برسالةِ الرسولِ المهتدون بِأَنْفُسِهِمْ، دون أَنْ يَحْمِلُوا رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ وصراطِهِ المستقيم.

**الصّنفُ الثاني**: المصَدِّقُون برسالة الرَّسُولِ الدَّاعُونَ إِلَىٰ اللَّهِ، والْآمِرُونَ بالتَّقْوَىٰ، أي: الآمرونَ بالمعروفِ والناهون عن المنكر.

**الصنف الثالث**: المكذِّبُونَ بالرَّسُولِ وَرِسالته التي يُبَلِّغُها عن رَبّه، والمتولُّون عَنها، دُونَ أَنْ يَقُومُوا بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الباطلِ والشَّرّ، ومُجَانَبةِ طاعَةِ اللَّهِ، وتَنكُّبِ صراطِهِ المستقيم.

**الصنف الرابع**: المكذِّبُونَ المتولُّونَ الدَّاعُونَ إلىٰ التكذيب برسالة الرَّسُول، والنَّاهُونَ عَنْ فِعْلِ الصالحاتِ والخيراتِ الّتي أمر الله بها، والآمِرُونَ بِفِعْلِ الشُّرُورِ والقبائحِ والجرائم والآثَامِ الّتِي نَهَىٰ اللَّهُ عنها.

وتَضمَّنَ هٰذا الدَّرْسُ الْوَعْدَ الضِّمْنِيَّ للصنفَيْنِ الأوّلَيْن، والوعيد الضمْنِيَّ والصَّرِيحَ للصّنفَيْنِ الأَخِيرَين.

وَجاء في خَاتِمَتِهِ تَثْبِيتُ الصّنفَينِ الْأَوَّلَيْنِ عَلَىٰ الإيمانِ والطَّاعَةِ لِلّهِ، وَعلى زيادة التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بالسُّجُودِ، لنَيْلِ فيوضِ عطاءات اللَّهِ لهم بالاقتراب إِلَيْهِ بِكَمَالِ الخضوع.

ولدىٰ تأمُّل هٰذِهِ الدُّرُوسِ الثَّلاَثَةِ المُتَرابطَةِ تَرَابُطاً تَعَاقُبِيًّا حَكِيماً، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَضَعَ عُنواناً لِمَوْضُوعِ السُّورَةِ مأخُوذاً مِنْ دُرُوسِهَا الثَّلاَثَة، ويمكنُ أَنْ نَصُوغ هٰذا العنوان بأَنْ نَقول:

أوّل فقراتِ رسالة الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ في هذا الدين الخاتم، التوجيه للانتفاع بوسائل تحصيل العلم الذي يَهْدِي إلى مَصَالِحِ الدُّنيا والآخِرَة،

وسعادةِ النّاسِ فيهما، مع بيان حاجَةِ الإنسانِ إِلَىٰ هٰذِهِ الرّسالة، وَبيان واقع أحوال الناس تجاه مبادئ هذا الدين وأحكامه وشرائِعهِ، مقروناً بلمحاتٍ من الترغيب والترهيب.

واعتمدت السُّورَةُ في معظم عناصرها على استخدام الأُسْلوب غير المباشر، وعدم ذِكْر دلائل الترابط بَيْنَ فقراتها وآياتها، وتركِ ذلك لذكاء المتدبّر الذي يستخرج بنفسهِ المطويّات.

❀ ❀ ❀

## (٥)
## التدبُّر التحليلي للدرس الأوّل

### الآيات من (١ ـ ٥)

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجل: بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

قولُهُ تعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

﴿ٱقْرَأْ﴾: فِعْلُ أَمْرٍ من القراءة، والأَصْلُ في الْقِرَاءَةِ أَنّها مُتَابَعَةُ النُّطْقِ بِمَا يَرَىٰ القارِئُ مِنْ مكتوبٍ بالخطِّ على صحيفَةٍ أَوْ أَيّ شَيْءٍ يُمْكِن أن يُكتَبَ عليه، وفْقَ دلالَةِ ما اصْطَلَحَ الْكَاتِبون أَنْ يَدُلَّ عليه الرَّسْمُ من حُروفٍ وَكَلِمَاتٍ وأَرْقام وغير ذلِك.

وهٰذِهِ هي القراءةُ المطلوبة فِي النّصِّ هُنَا، بدليل ما جاء في مُرْسَل عبيد بن عُمير، من أَنَّ جبريل عليه السَّلام عَرَضَ على الرسُولِ ﷺ عنْدَ بَدْءِ الْوَحْي نَمطاً مِنْ ديباج فيه كلامٌ مكتوبٌ، وقال له: اِقْرأ.

وبدليل أنّ الرسول ﷺ قال لجبريل عليه السلام: ما أنا بقارئ، أي: لم أَتعلَّم القراءة، ولم يقُلْ لَهُ ماذا أَقْرأ.

وبدليل أنّه جاء في الآية الرابعة مِنْ هٰذا الّذي طلَبَ جبريلُ من الرَّسُولِ قراءتَهُ قولُ اللّهِ عزّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾. فذِكْرُ التعليم بالقلم يدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المطلوبَ القراءةُ لخطٍّ مَكْتُوبٍ، لا مجرّد مُتابَعَةِ تلاوَةِ ما يُمْلَىٰ عليه من قول.

وقَدْ تُطْلَقُ القراءة على مجَرَّدِ التلاوَةِ ولو لمسْمُوعٍ يُمْلَىٰ، أو لمحفوظ، وأَرَىٰ هذا من التوسُّعِ في الاستعمال، ولَيْسَ من أصْلِ وضْعِ اللّغة.

﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾: الاسْمُ يُطْلَقُ على اللّفظ الذي يُعْرَفُ بِهِ ذَاتُ الشيْءِ الْمُسَمَّىٰ به.

ويُعْجبني قولُ من قال من أئمَّةِ اللُّغَةِ أَنَّ لفظ «اسم» أصْلُهُ «وسْمٌ» بمعنى العلامة، حُذِفَتِ الواو، ثُمَّ حَصَلَ التوصُّل إلى الابتداء بالسَّاكن بزيادة همزة الوصل، فالاسم علامَةٌ دالَّة على المسمَّىٰ.

وأسماءُ اللّهِ هي الألفاظ الدّالَّةُ على ذَاتِهِ جَلَّ جلالُهُ، أَوْ على صفاته الحسنىٰ.

وصفاتُهُ التي تدلُّ عليها آثارُهُ في خلْقِهِ هي علاماتٌ تَدُلُّ عَلَىٰ وُجُود ذاتِه تباركَ وتعالى.

وحينَ نقول: «باسْم اللّهِ» أو «باسْم الرّبّ» فالمقصودُ مجموعُ صفاتِ اللّهِ، أو مجموعُ صِفَاتِ الربّ الْحُسْنَىٰ الدالّةِ عليه، لأنَّ المفرد النكرة المضاف إلى مَعْرِفَةٍ يَعُمُّ، فيكونُ بمثابة جمع النكرة المضاف إلى معرفة، فعبارة: «باسم الله» أو «باسْم الرَّبّ» مثل عبارة: «بأسْمَاءِ اللّهِ» أو «بأسْمَاء الرَّبّ». أي: بِكُلِّ الصفات الحسنىٰ التي هي لله، أو للرَّبّ.

واختير هنا من أسماء اللَّهِ الحسنىٰ لفظ «رَبّ» لاستثارة دواعي حَقّ الرَّبّ الْخَالِقِ عَلَىٰ عَبْدِهِ المخلوق، الخاضع لربوبيَّة اللَّه دواماً، ولإشعارِ المطالَبِ بالقراءة بأنّ رَبَّهُ يُمِدُّهُ بفضل معوناته وعطاءاته إذا استعان به بغية الوصول إلى المعارفِ النافعة لَهُ في دُنياهُ وأُخْراهُ.

**الرَّبّ**: كلمة هي في الأصل مصدَرُ فعل «رَبَّ» يقالُ لغة: ربَّ فُلاَنٌ الولَدَ أو الصّبِيَّ أو الْمُهْرَ مثلاً يَرُبُّهُ رَبّاً. كَما يُقالُ: رَبَّاهُ يُرَبِّيهِ تَرْبِيَةً ورَبَّبَهُ يُرَبِّبُهُ تَرْبِيباً.

فكلمات: «الرَّبّ ـ والتَّرْبِية ـ والتَّرْبِيب» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِها وَمَعْنَاهَا واحد، وهو الإِنْشَاءُ المتدرّجُ للشيْء، حيّاً كانَ أو غير ذي حياة، وتعَهُّد الشيء حالاً فحالاً، وطوراً فَطَوْراً، بِحَسَبِ فِطْرَته واستعداداته، فيشْمَلُ هذا التعهُّد بِعُمُومِ مَعْناه التغذية، والتنميَةَ، والإرشاد، والإِصْلاَحَ، والتقويم، والحفظ، والرّعاية، والتأديب، والتهذيب، والتعليم إذا كان المُرَبّىٰ يحتاج تأديباً أَوْ تهذيباً أو تعليماً، ويشْمَلُ أيضاً الإِمْدَادَ المستمرَّ بما يحتاج إليه لبقائِه وسلامته، إلى غير ذلك من مفاهيم يدرِكُها الباحثون في مجالاَتِ التربية والتعليم.

وَهٰذِهِ التربية تتناول الأحياءَ والنَّبَاتَاتِ والأشياءَ غير ذاتِ الحياة، من كلّ ما يحتاج لبقائه أو سلامَتِه تعهُّداً وإمداداً، أو رِعايَةً وحفظاً.

ثُمَّ استُعِيرَتْ كلِمَةُ «الرَّبّ» من المصدريَّةِ إلى اسم الفاعل، فصارتْ تُطْلَقُ كلمة «الرَّبّ» بمَعْنَى «الْمُرَبّي».

ونظراً إلى معنىٰ التربية ولوازمها أُطلقت كلمة «الرّب» في لسان العرب على معانٍ كثيرة، منها: «الْمَلِك ـ الأمير ـ السيد المطاع ـ مالِكُ الشيءِ أو مستحقه ـ المدبّر ـ القيّم ـ المُنْعِم ـ المُصْلِحُ للشيء ـ المنَمّي للشيء» إلى غير هذه المعاني ممّا يُشْبِهُها وَيَدْخُل ضمْن المفهوم العامّ للتربية.

ولمّا كانت التربية الحقيقيّة لكُلّ شيءٍ في الوجود سوى اللّهِ عزّ وجلّ صفةً مِنْ صفاتِ اللّهِ عزّ وجلّ، كان سبحانه هو رَبَّ العالَمينَ، وَرَبَّ كُلِّ شيءٍ.

ولهذا جاء وصْفُهُ في القرآنِ المجيد بأنّه: «رَبُّ العالَمِين ـ وَرَبُّ كُلِّ شيءٍ ـ وَرَبُّ السَّماواتِ والأَرْضِ ـ وَرَبُّ السَّمَاوات السَّبعِ، وَرَبُّ العرشِ العظيم ـ وربُّ الشِّعْرَىٰ (= نجم كان يُعْبَدُ في الجاهلية) ـ وربُّ المشرقِ والمغرب ـ وَرَبُّ الْمَشرِقَيْنِ والمَغْرِبَيْنِ ـ ورَبُّ المشارِقِ والمغارِبِ ـ ورَبُّ الفلق ـ وربُّ الناس، وَرَبُّ البيت (= الكعبة المشرفة)».

فالرُّبُوبيَّة هي الوصف الجامع لكلّ صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته، واسْمُ «الرَّبّ» هو الاسم الدّالُّ على كلّ هٰذِه الصفات.

وهنا نُلاَحِظُ أَنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُه قد اختار بعلمه وحكمته لعمليّاتِ خلْقِهِ وإبداعِهِ لمخلوقاتِهِ، وهيمنَتِهِ علَىٰ كُلِّ ما خَلَقَ بَدْءاً وَدَوَاماً أَنْ يكونَ على نظام التربية التي سبق شرحُ معانيها، لا على نظام الخلْقِ دفعةً واحِدَةً، ثُمَّ تَرْكِ المخلوقِ يسير وفْقَ البرنامج الموضوع له، دون إمْدادٍ وَرِعايةٍ وحِفْظٍ وَتَعَهُّدٍ مِنْ خالِقِه، بَلْ خَلَقَ الْخَلْقَ وفْقَ نظامٍ لا يستغني فيه المخلوقُ عن خالقِهِ طَرْفَةَ عينٍ، ولا أقلَّ مِنْ ذلك، فِي صغير وكبيرٍ مِنْ ذَاتِهِ وَمِنْ صفاته، فلو رَفَعَ إمداده عَنْ كَوْنه، وإمساكَهُ لَهُ فِي الوجود خلال أقْصرِ زَمنٍ، لعادَتِ الموجوداتُ إلى أصْلِها وَهُوَ الْعَدَمُ.

هذا هو نظامُ التربية، فَلِلَّهِ عزَّ وجلَّ الرُّبوبيَّةُ المستمرّة الَّتِي لاَ تَنْقَطع، والمؤثّرة بكُلِّ شيْءٍ في الكَوْنِ مِنْ غَيْبِيٍّ ومَشْهُودٍ، مادّيٍّ أو معنويٍّ، دلَّ على هٰذه الحقيقة قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٥٣ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾.

فاللَّهُ عَزَّ وجلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ المستمرّة بلا انقطاع، لاَ تأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، فلا يخْرُجُ عَنْ عِلْمِهِ وَهَيْمَنَتِهِ وسلطانه وسائر عناصِرِ رُبوبيَّتِهِ صَغِيرٌ في الوجود مهما صغُرَ، وكبير مهما عظم وكبُرَ.

لذا فاللَّهُ وحْدَهُ هو رَبُّ العالمين، وربُّ كلّ شيءٍ، وهُوَ المالِكُ والْمَلِكُ، والسيِّد الذي يجب أَنْ يُطَاعَ والإِلَه المستحقُّ لِأَنْ يُعْبَدَ دُونَ سِوَاهُ.

فإذا أُطْلِقَتْ كلمةُ «الرَّب» لم يجُزْ أَنْ يُرَادَ بها غَيْرُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ.

وأسماءُ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ الَّتِي تَدُلُّ على عناصر رُبُوبيَّةِ اللَّهِ الرَّبِّ جلّ جلالُه: كثيرة، منها الأسماءُ التالية:

«الخالق ـ الرازق ـ الرحمٰن الرحيم ـ الْمَلِك ـ الْمُهَيْمن ـ العزيز ـ الجبّارُ ـ البارئ ـ المصوّر ـ العفوّ ـ الغفّار ـ الغفورُ ـ القهّارُ ـ الوهّابُ ـ الفتاح ـ العليم ـ القابض ـ الباسط ـ الخافض ـ الرافع ـ المعزُّ ـ المذلُّ ـ السميع ـ البصير ـ الحكَمُ ـ العدْلُ ـ اللَّطِيفُ ـ الْخَبِيرُ ـ الحليمُ ـ الصَّبُور ـ الحميد ـ الشكور ـ الحفيظ ـ الْمُغِيثُ ـ الرَّقِيب ـ الحسيب ـ المجيب ـ الحكيم ـ الودود ـ الباعث ـ الشهيد ـ الوكيل ـ الوليُّ ـ الْمُحْصِي ـ المبدئ ـ المعيد ـ المحيي ـ المميت ـ القادر ـ المقتدر ـ المقدّم ـ المؤخِّرُ ـ البرُّ ـ التوّاب ـ المنتقم ـ الرّؤوف ـ مالك الملك ـ الْمُقْسِط ـ الجامع ـ المانع ـ المغني ـ الضارّ ـ النافع ـ الهادي ـ البديع».

إنّ هذه الأسماء وأشباهها تدخل تحت مفهوم كلمة «الرّبّ» لأنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ يتصرَّفُ بمَخْلُوقاتِهِ ويُعَامِلُها من خلال اتّصافِهِ بما تَدُلُّ عليه هذهِ الأسْمَاءُ الحسنَىٰ، فربُوبيَّةُ اللَّهِ لها تَشْتَمِلُ على كُلِّ معانِيها.

فاسم اللَّه «الرَّب» إِحدى أسماء اللّه الكليَّةِ العامّةِ، الَّتِي تَنْضَوِي تَحْتَها أسماءٌ حُسْنَىٰ كثيرَة، ورُبُوبيَّةُ اللَّهِ هِي الَّتِي تَجْعَلُ مَنْ تَتَعَلَّقُ بِهِ عَبْداً لَهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾: لَمْ يُذْكَرْ معمولُ فِعْلِ «خَلَق» ليَعُمَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ في الوجود، وإرادةُ العموم من أغراضِ حَذْفِ المعمول عند البلاغيين، وهو من الإيجاز البديع المحمود.

**الخَلْقُ**: يأتي بمعنىٰ الإبداعِ من العدم، والإيجاد على غير مثالٍ سبَق. ويأتي بمعنَىٰ التقدير للعناصر والأجْزاءِ للشيء الذي يُرادُ إحداثُهُ، وهذا المعنى يتحقَّق في أمور كثيرة، مِنْهَا جَعْلُ الشيء في صورة مَا على وفْقِ المقادير المعدَّةِ لَهُ فِي الْخِطَّة، كجَعْلِ طينَةٍ لَزِجَةٍ على شكْلِ طائر، ولا تكونُ على شكل طائرٍ ما لم يَسْبقِ العملَ أو يقْتَرِنْ به تَحْدِيدُ المقادير والأجزاء، ووضع كُلِّ شيءٍ في موضعِه حتَّىٰ تكتمل الصورة المقدّرة.

فاللّهُ عزَّ وجلَّ هو الخالق، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ يُرِيدُ خَلْقَه، وَكُلُّ ما سِوَاه في الوجود خَلْقُه.

والخطاب بقوله تعالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ مُوجَّهٌ أوّلاً للرّسُولِ محمّد ﷺ، باعتباره أوّلَ المخاطَبِينَ بِمَطَالِبِ اللّهِ من عِبادِهِ، وبتعلِيماتِهِ وَوصَاياهُ وبيَاناتِه لهم.

وهُوَ مُوَجَّهٌ مِنْ بَعْدِهِ لكلّ العالَمِينَ الصالِحينَ للخطابِ التكليفيّ، الموضوعين في الحياة الدّنيا مَوْضعَ الامتحان.

ودَلَّتْ نُصُوصٌ أُخرىٰ على أنّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ مُسْتَثْنَىٰ مِنَ التوجيه لتعلُّم صنْعَةِ القراءة والكِتَابَةِ، لتبقَىٰ أُمِّيَّتُهُ إِحْدَىٰ مُعْجزاتِ نُبُوَّتِهِ، غيْرَ أَنْ هذا التوجيهَ لاَ يُسْتَثْنَىٰ مِنْهُ أَحَدٌ من بَعْدِهِ، إلاّ العاجِزُونَ من أُمَّتِهِ عَنْ تعلُّمِ القراءة والكتابة.

فمعنى قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ اِقْرَأْ أيُّها الموضوعُ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاءِ، لاكتساب المعارف والعلوم الدينيَّة والدنيوية، قراءَةً مقترنَةً ومُلْتَبِسةً بالتفكُّرِ فِي صفات رَبِّك الّذي خَلَقَ كُلَّ

مَخْلُوقٍ فِي الوجود، فَمِنْ آثَارِ صفاتِهِ خَلْقُ كُلِّ مَا سِوَاه جَلَّ جَلاَلَهُ. وأَنْتَ أَيُّها المدعُوُّ للقراءة واحِدٌ ممّا خَلَقَ، واقرأ مُسْتعيناً باللَّهِ الذي يُمِدُّ بعطاءات ربوبيته.

وظاهِرٌ أَنَّ التوجيه للقراءة إنما هو توجيه لتحصيل المعارف والعلوم النافعةِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، الَّتِي تُعْتَبَرُ القراءة والكتابة من كبريات أسباب هذا التَّحْصِيل، ولا شَكَّ أنَّ المعارفَ الدينيَّةَ مطلوبَةٌ بالدّرجَةِ الأُولىٰ، فهي المطلوبُ الأَوَّلُ من العباد.

❀ ❀ ❀

قولُهُ تَعَالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾.

**العلَقُ**: الدّم الغليظ، أو الجامد. وهو اسم جنس، والقطعةُ منه علقة. والعلقة طورٌ من أطوار الجنين، وهي قطعةُ الدّم الّتي يتكوَّنُ الجنينُ منها.

بعد بيان أنّ الله عزّ وجلّ خَلَق كُلَّ مَخْلُوقٍ في الوجود، وهو ما جاء في الآية الأولىٰ من السورة، جاءت هذه الآيةُ لتُوَجّه نظر الإنْسَان المطالَبِ بأنْ يقرأ باسم ربِّه الّذِي خَلَقَ إلى طَوْرٍ من أطوار خلْقِه، وهُوَ طَوْرُ العلَقة الّتي يكونُ عليها وهو في رَحِم أُمِّه.

ومُمَارِسُ تَدَبُّرِ كتاب اللَّهِ يُلاحظُ أنَّ أُسْلوبَ القرآن قائِمٌ على توزيع عناصر موضوعٍ واحدٍ في سُوَرٍ متعدّدةٍ، فإذا جُمِعتْ هٰذِهِ العناصِرُ تكامَلَ مِنْها الموضوعُ الْكُلِّيُّ المرادُ بيانُه، وهذا الأسلوبُ مع التكامُلِ الدقيق هو من عناصر إعجاز القرآن. ومن فوائِدِ هذا التوزيع التركيزُ على العنصر المختار في البيان الذي يُسَاقُ فيه، مع التذكير بأصْلِ الموضوع الكلّيّ الموزّع، والتخلُّص من ركاكة التكرير، وإبعادِ المتدبِّرِ عن الْمَلَلِ والسّأمِ فيما لو جُمِعَتْ لَهُ كُلُّ العناصر حول موضوعٍ واحدٍ فِي نصٍّ واحدٍ.

وبِتَتَبُّعِ النُّصُوصِ القرآنيّة حَوْلَ مَرَاحِلِ خَلْقِ الإنسان وجدْتُ أنّها تسْعَة

عشَرَ نصاً، فجاء في هٰذِهِ النّصوصِ بيانُ مَرْحَلَةِ خلْق الإنسان من تراب، ومرحلة خلقه من طين لازب، ومرحلة خَلْقه من صلصالٍ من حمإٍ مَسْنُون، ومَرْحَلَةُ خلقه من صَلْصَالٍ كالفخّار، ومرحلة اشتقاقه من نفس واحدة هي نفس آدم، ومرحلَةُ خلقه من ماءٍ مهِينٍ في النطفة، ومَرْحَلَةُ خَلْقِهِ من علقة، ثمّ من مضغةٍ مخلّقَةٍ وغير مخلَّقة، مع تتابع أطوار خلقه في بطْنِ أُمّه خَلْقاً من بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاث.

ودراسةُ هذه النصوص دراسةً تدبُّرِيَّة تتطلَّبُ بَحْثاً خاصّاً متكاملَ العناصر.

❁ ❁ ❁

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

جاء في هٰذِهِ الآيَةِ تَكْرير الأمْرِ بالقراءة للإشعار بحاجَةِ الإنسان لمتابَعَةِ القراءة في حياته لتغذيةِ فكره وقلبه ونفسه بالمعارف والعلوم والمفهومات الصحيحات.

إنّ نفس الإنسان بحاجَةٍ إلى زادٍ يُغَذّيها بالمعارف والعلوم، لتبقَىٰ لها حياةٌ معنويَّةٌ متنامية، كما أَنَّ جَسَدَهُ بحاجَةٍ إلى الطعامِ والشّرابِ والتنفُّس، لاستمرار حياته إلى أَجَلِهِ.

﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾: أي: الأَكْرَمُ مِنْ كُلّ كريم، فلفظُ «أكْرَم» أفْعَلُ تفضيل، يقالُ: فلانٌ أكْرَمُ مِنْ فُلَانٍ، ولكن لاَ يُقالُ: «الأَكْرَمُ» بالإطلاق العامّ دُونَ إضافةٍ إلَىٰ شيءٍ إلاّ في جانب اللّهِ عزَّ وجلّ، كالأكْبر، فَهُو سبحانه الأَكْرَمُ من كُلّ كريم، والأَكْبَرُ من كلّ كبير.

وجاءت عبارة ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ لإشعار الْمُطَالَب بالْقراءةِ بأنّ رَبَّهُ الذي يُمِدُّهُ دواماً بعطاءاتِ رُبوبيّته، سيُمدُّهُ بفيوض المعارف كُلّما ازداد من القراءة طلباً للمعارف النافعة، وسَيُعطيه معارفَ زائدةً على المعاني الّتي تَدُلُّ عليها

المكتُوباتُ الَّتِي يَقْرَؤُها، لأنّ فِقراتِ المعرفةِ الّتي يستفيدها القارئ من قراءاته تفتح له بمعونة اللّهِ وإلهامه وتوفيقه أَبواباً ومَسالكَ لاكتساب معارفَ أخرى، لا تدلُّ عليها المكتوبات، ولكن تجُرُّ إليها السلاسل الفكريّةُ المترابطة الّتي يُتَابِعُها الذهن، متَىٰ أمسك بحلْقَةٍ من حلَقاتها، ويكونُ هذا ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللّهِ السببيّة.

فاللّهُ سُبحانَهُ هو الْأَكْرَمُ من كُلّ كريم، فلا يقتصر عطاؤه على حُدُود ما يَطْلُبُ القارئ الوصُول إليه من المعاني الّتي تَدُلُّ عليها الْأَلْفَاظُ المكْتُوبَةُ، بل يزيدُهُ من كرمه العظيم فيوضاً من المعارف فَوْقَها، على مقدار ما تستوعبُ آنيتُه الفكريّة.

❁ ❁ ❁

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾.

أي: الَّذِي جعل مِنْ وسَائِلِ اكتساب المعارف والعلوم وسيلةَ القلم، فبالقلم تُدوَّنُ المعارفُ والعلومُ المكتسبَة بالإدراكِ الحسّيّ، أو الاستنتاجِ العقليّ بالتأمُّل الفكري، أو الخبرِ الصادق، فتكونُ جاهزةً للقراءة، فيستفيد القارئونَ ما سَبَقَ أن دُوِّنَ بالقلم، ويستذكِرُ بالقراءة الّذِين سبقت لهم المعرفة، ولكن نَسُوها أَوْ نَسُوا شيئاً مِنها، إذ الكتابَةُ المحفوظَةُ من فَسَاد خُطوطِها أو صُحُفها لا تتعرّضُ للنسيان، لكنّ الأذهان والذاكراتِ الإنسانيّة تنسَىٰ ما سبَقَ أنْ تعلَّمتْهُ، فهي بحاجَةٍ إلى مكتُوبٍ محفوظٍ لا يتعرَّض للنسيان.

وتعليم اللّهِ بالقَلَمِ قد حصل بخَلْقِ الناسِ مستعدّين لاكتساب وابتكار صنعة الكتابة والقراءة، وبإلْهامِهِمْ أَنْ يضَعُوا الرُّموز الخطِيّة للحروف والكلمات والأعداد، أوْ بالوحْي إلى بعض أنبيائه أن يكتُبَ ويقرأ ويُعلّم قومه أصول الكتابة والقراءة.

وورد في بعض الآثار أنَّ اللَّهَ تعالى أَنْزَل على آدم عشْرَ صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى إدْريسَ ثلاثين صَحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف.

فإنْ صَحَّ هذا فإنَّ التعليم الأوّل بالقلم كان عن طريق الوحي.

روَىٰ أبو إدْريس الخولاني، عن أبي ذَرٍّ الغفاريّ قال: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ كتاباً أنزل اللَّهُ تعالَىٰ؟ قال:

«مِائَةَ صَحِيفَةٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، أنزل اللَّهُ تَعالَىٰ على آدَمَ عشْرَ صَحَائِفَ، وعلى شِيثٍ خَمْسِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَىٰ إدْرِيسَ ثلاثين صَحِيفَةً، وَعَلَىٰ إبْرَاهِيمَ عَشْرَ صَحَائِفَ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ والزَّبُورَ والْفُرْقَان».

❁ ❁ ❁

قَولُهُ تعالَىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

أيْ: هيَّأَ للإنْسَانِ الوسائِلَ الأُخْرىٰ لاكتساب الْعِلْم، كالإدْراكِ الحسِّيّ للأشياء، والإدْرَاكِ العقْلِيّ الْقَائِم على استخدام الأُصُولِ الْفِكْرِيَّة الَّتِي فَطَرَهُ عَلَيْهَا، والّتي بها يسْتَنْبِطُ ويسْتَخْرِجُ من البواطن، عن طريق لوازم الأَشْياءِ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا الذِّهْنُ البواطنَ غير المدركة بالحسّ، كإدْراكِ وُجُودِ نارٍ عند رُؤيَةِ دُخانٍ صاعِدٍ في السَّمَاء، وإدْرَاكِ مُرور حَيَّةٍ على الأرض عند مشاهدةِ أثَرِ حَرَكَةِ جِسْمِها على الأرض.

إنَّ الإنسانَ يتعلَّم بحواسّه الظّاهرة المرئيّاتِ والمسموعاتِ والمشموماتِ والمذوقَاتِ والملموسات الّتي أوْجَدَها اللَّهُ في كونه ومكَّنَهُ من استعمال حواسّه لمعرفتها، وهذا تعليمٌ من الله لعلومٍ لم يكن الإنسانُ على علم بها.

ويتعلَّمُ بحواسِّهِ الباطنة العواطف والإحساسات والمشاعرَ الداخليّة،

كالحبّ والكراهية، والغضب والرّضا، واللّذة والألم. ولو لَمْ يجعلِ الله لدى الإنسان الاستعدادَ للمعرفة، ولم يَضَعْهُ في بيئةٍ تجريبيَّةٍ تَجْعلُهُ يتذَوَّقُ هٰذِهِ الإحْسَاسات، لبقيَ صفحةً بيضاءَ جاهلةً، فما يكتسِبُهُ الإنسانُ من ذلك هو تعليمٌ من اللّهِ لعلومٍ لم يكُنْ على عِلْمٍ بها.

❁ ❁ ❁

## (٦)
## نظرةٌ إجماليّة عامّة للدرس الأول

بدأَتْ أوّل سورة من القرآن نزلَتْ على الرسول محمّد ﷺ بالأَمْرِ بالقراءة، نظراً إلى أنّ القراءة وسيلةُ اقتباس المعارف المدوّنة الّتي سبَقَ توصُّلُ الناسُ إليها بوسائلهم الحسيّةِ والتجريبيّة والعقليّة الاستنباطية والخبريّة البشرية، أوْ سبق أن تنزّل بها وحْيُ اللّهِ على أنبيائه ورُسُلِهِ السابقين.

ولمّا كان الهدف من القراءة تحصيلَ المعارف النافعة، وأهمُّها المعارف الدينيَّةُ، الّتي تَهْدِي الناسَ إلى سعادتهم في دُنْياهم وآخرتهم، كان لا بُدّ من ملاحظةِ الاستعانة باللّهِ فيها، ومصاحَبَتِها بالتفكر بأسماء اللّهِ وصفاتِه الحسنىٰ، إذ الكون كلُّه من آثارها، لاستبصار الحقّ، والتوفيق للإيمان، ثم الارتقاء في درجاته ومراتبه، والتزامِ العمل بمقتضاه، إسلاماً وطاعةً للّهِ في أوامره ونواهيه ونصائحه ووصاياه، وإرْشاداته.

فكانت الجملة الأولَىٰ خطاباً للرَّسُولِ أوّلاً، فلكُلِّ مَوْضوع في الحياة الدنيا موضع الابتلاء والتكليف: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اِقْرأ مستعيناً بما لربّك من صفاتٍ حُسْنىٰ عظيمات جليلات، ومُبْتَدِئاً بذكْرِ اسم ربّك، ومُسْتَصْحِباً التفكّرَ بأسماء الله الحسنىٰ، الملائمة للموضوع الذي تقرأ فيه، فمَا من موضوعٍ فكريٍّ إلاّ لَهُ صِلَةٌ باسْمٍ أوْ أكْثَرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللّهِ الحسنى، إذْ ما مِنْ شيءٍ في الكونِ إلاّ هو أثَرٌ من آثَارِ اسْمٍ فأكثر من أسمائه جلّ جلاله.

إنَّكَ أيُّها الكائنُ المدركُ لوجود ذَاتِك وصفاتِك، لَكَ رَبٌّ رَبَّاكَ وَنَشَّأَكَ حَتَّىٰ صِرت كائناً حيًّا مُدركاً سَويًّا، فانْظُرْ إلى ذَاتِكَ كَيْفَ بَدأْتَ، وكَيْفَ تَنَقَّلْتَ في أَطوار خَلْقِكَ، مِنْ نُطْفَةٍ إلَىٰ عَلَقَةٍ إلى مُضْغَةٍ، وهكذا نُشِّئْتَ تَنْشِيئاً صاعداً حتى بَلَغْتَ دَرَجَةَ كمالِكَ المقدَّرَةَ لك، فصِرْتَ حيّاً ذا إدْرَاكٍ وإرادةٍ وقوَّةٍ إلى سائر صفاتك النفسيّةِ والجسديّة.

فهلْ كُنتَ أنتَ الْمُنشِئَ لذاتِكَ، والمختار لصفاتِكَ وخصائِصِكَ؟ وهَلْ كانَ أَبَوَاكَ هُمَا اللَّذَانِ بَنَيَا ذَاتَكَ، وَمَنَحَاكَ صفاتك؟ إنَّهُما لم يفعلا شيئاً إلاَّ أَنْ كانَا وَسِيلَةً ما بَيْنَ مُسْتَقَرٍّ ومُسْتَوْدَعٍ، ثُمَّ سَاعَدَاكَ عَلَىٰ تقديم بَعْضِ وسَائِلِ حياتِكَ وَحِمَايَتِك، لكنَّهُمَا لَمْ يَبْنِيَا فيكَ شيئاً، ولمْ يخلُقَا فيكَ خَلْقاً ما.

إذَنْ: فآمِنْ بأنَّ لَكَ رَبًّا، والْتَمِسْ مِنْهُ عوناً، وتفكَّرْ في أسمائه وصفاته دواماً مَعَ كلِّ حقيقة كونيَّةٍ تتعلَّمُهَا، ومَجِّدْهُ في نَفْسِك وقَوْلِك، ونادِهِ وادْعُه، واقْرأ مَا أنزَلَ إلَيْكَ، حَتَّىٰ تَعْلَم واجِبَكَ تُجاهه، وتَعْمَلَ بِمَا يُوصِيك بِهِ، وتُطِيعَ أَوَامِرَهُ ونواهِيه.

لَقَدْ أَدرَكْتَ أَيُّها الإِنْسَانُ بِمُلاَحَظَتِكَ لِذَاتِكَ، وصِفَاتك، ومُلاحظتك لأَمْثَالِكَ، أَنَّكَ تَدَرَّجْتَ فِي نشْأَتِكَ مِنَ النُّطفة حتَّىٰ صِرْت علقةً فَمُضْغَةً فَجَنِيناً يتحَرَّكُ بحَيَاةٍ، فوليداً، فَغُلاَماً، فشابّاً، فكَهْلاً، وهكذا.

أفلا تبحَثُ عَمَّنْ رَبَّاكَ؟ أَفَلا تتفكّر في صفاتِهِ وأسمائه الحسنَىٰ، ولَوْ لَمْ يكُنْ مَرْئِيّاً لكَ بعينيْكَ؟!

إِنَّكَ تستطيعُ أَنْ تُدرِكَ وُجُودَهُ، بجِهَازٍ فيك، هُوَ أَجَلُّ من بَصَرِكَ وسَمْعِكَ وسائِرِ حواسِّكَ وأعظم، هُوَ فِكْرُكَ، هُوَ قُوَّةُ إدْرَاكِ المعارفِ فيكَ، هُو عَقْلُكَ الّذي يُدْرِكُ مَا غابَ عَنْ حِسِّك، ويشارِكُهُ وِجْدَانُكَ الداخِلِيُّ وضميرُك.

هٰذا الّذِي رَبَّاكَ هُوَ الْخَالِقُ في الوجود، هو الذي خَلَقَ كُلَّ مَا تُشَاهِدُ في ذَاتِكَ وَحَوْلَ ذَاتِكَ، مِنْ كُلِّ ظَاهِرٍ وباطِنٍ في الْكَوْنِ، فَهُوَ الّذي خَلَقَ.

فاقْرأ ما نزل بِهِ الوحْيُ باسْمِ رَبِّك الذي خَلَقَكَ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْنِ مِنْ حَوْلِكَ.

واذْكُرْ أَيُّهَا الإنْسَانُ أنَّكَ كُنْتَ في بَعْضِ أَطْوَارِ خلْقِكَ عَلَقَةً، وهكذا كُلُّ إنسانٍ بَعْدَ آدم وزَوْجِهِ.

ودليلُ هذه الظاهرة ما أثبتَتْهُ دلائل المعرفة الحسيَّةِ الإنسانيّة.

هذا هو بَدْءُ الدَّعْوَةِ إلى دين الله، إنَّها دعْوَةٌ إلى الإيمان بالرَّبِّ الْخَالِقِ، وإلى الإصغاءِ لما يَنْزِلُ به الوحْيُ، وكتابَتِهِ وقراءتِه لتدبُّر دلالاته، وطلَبِ الاستعانة بصفاته ومصاحَبَةِ التفكُّر فيها، للوصُول إلى فَهْم ما يَنْزِلُ بِهِ الْوَحْيُ، ولمتابَعَةِ اكتساب المعرفَةِ الهاديَةِ إلى الحقائقِ الكُبْرىٰ، والإسْلامِ للَّهِ والْعَمَل بمراضِيهِ.

كُلُّ هٰذِهِ المعاني قَدْ جَاءَت مُوجَزَةً أَرْوَعَ إيجازٍ فِي آيتَيْنِ قَصِيرَتَيْن هُمَا قوْلُ اللَّهِ عَزّ وجلّ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

وهُنَا تَظْهَرُ مُشْكِلَةُ الْقَارِئ لمَا نَزَلَ بِهِ الوحْيُ، الَّذِي قَدْ تخْفَىٰ عَلَيْهِ مَعَانٍ كثيرة مِنْ دلاَلات نُصُوصِ الوحي ولوازِمِهَا، لِمَا فِيهَا مِنْ إيجاز، ولما اقْتَضَاهُ تنزيلُها من إعجاز.

فماذا يَفْعَلُ هٰذَا الْقَارِئ؟. هَلْ يَقْرأُ وَيَقْرأُ وَلَوْ لَمْ يَفْهَمْ كُلَّ مَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ الْمُوحَىٰ بِهِ؟.

والجواب: أنَّ ما يَفْهَمُهُ ممَّا يَقْرَؤُهُ يَهْدِيه وينفعُهُ، ومِنْ جَهْلِ كثيرٍ يرفعُه، ولكِنَّ علَيْه أَنْ يتدَبَّر، ويُتَابِعَ التَّأَمُّلَ والتدَبُّر، ولْيَضَعْ في حسابِهِ أنَّهُ مأجُورٌ، سَواءٌ أَفَهِمَ أَمْ لم يَفْهَم، ففي كُلِّ حَرْفٍ من التنزيلِ يَتْلُوهُ لَهُ به عشْرُ حسنات.

ثمَّ إنَّه بمُتابَعَةِ القراءة والتّدبُّر مع الاستعانَةِ بربِّهِ يُنوِّرُ اللَّهُ بَصيرَتَهُ، فَيفتَح لَهُ أبواباً من الفَهْم، تُشرِقُ لَهُ مِنها معارِفُ ربَّانِيَّة، اشْتَمَلَ عَلَيْها النَّصُّ القُرْآنِيُّ الموحَىٰ به.

فاقْرأْ أَيُّها الإنسانُ ما نزل بِه وحْيُ رَبِّكَ، وتَدَبَّرْهُ، ثُمَّ اقْرأْ وتَدَبَّرْ، فإنَّكَ إذَا وَجَّهتَ هِمَّتَكَ لِفَهْمِ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كَلامُ رَبِّكَ، وَصَدَقَتْ عزِيمتُكَ، أَكْرَمَكَ رَبُّكَ، فأشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوارُ المعارف.

إذَنْ: فَتَابِع قراءَتَكَ وَتَدبُّرَكَ يُكْرِمُكَ اللَّهُ بالمعرفة ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

واجْعَلْ مِنْ وَسَائِلِكَ أَيُّها الإِنْسَانُ القَارِئُ لما نَزَل بِهِ الوحْيُ من عند ربِّك وسِيلَةَ القَلم، فَدَوِّنْ بِهِ وارِدَاتِ المعرفَةِ الَّتِي تَرِدُ عَلَيْكَ عندَ قراءَتِكَ وَتَدَبُّرِكَ لِكلامِ رَبِّك، فوارِدَاتُ المعارِفِ شَرُودٌ، إذا لَمْ تُدوِّنْها بالقَلَم نَسِيتَها، فضاعَتْ، وقد يَصْعُبُ أَنْ تَعُودَ مرَّةً أُخرىٰ، فَتَخْسَرُ الوارِدَ، إذْ لم تُقيِّدْهُ بالقَلَمِ، فَرَبُّكَ الَّذي خَلَقَ، وأكْرَمَكَ بوَسائِلِ المعرفَةِ عَلَّمَ بالقَلم.

إنَّ وارِدَ المعرفةِ غَيْثٌ، والقَلَمُ ميزابُ هٰذَا الغيثِ، والقِرْطاسُ هو الوعاءُ الَّذِي تَجْمَعُ به غيْثَ رَبِّكَ من المعارف، وَبِهِ يسْتَقِرُّ العِلْمُ، ويُنَقَّحُ وَيُصَنَّف.

هكذَا خَلَقَ اللَّهُ الإنسان، وهكذا جَعَلَ إحدى وسائل معرفتِهِ بعْدَ أن خلقه جهازاً خالياً من العلم قابلاً له.

إنّ رَبَّكَ أَيُّها الإنسانُ بوصْفِ أَنَّهُ الأَكْرَمُ مِنْ كُلِّ كريم، يُغيثُ بوارداتِ المعارف، وبسنَّتِهِ فِي خَلْقِ الإِنْسَان جعل القلمَ وسيلة سهلةً متاحةً لِجَمْع هذه الواردات وتنقيحها وتصْنيفها.

وبهذه الوسيلة وبغيرها من وسائل اكتساب المعرفة علَّمَ الإنْسانَ ما لم يَعْلَم.

هذه المعاني مع معانٍ أُخرَىٰ أَوْجَزَهَا أَرْوَعَ إيجازٍ قولُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ:
﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

وبهذا ينتهي الكلامُ حَوْلَ الدَّرْسِ الأَوَّل مِنْ دُرُوسِ سورة (الْعَلَق).

❊ ❊ ❊

## (٧)
## التدبُّر التحليليُّ للدَّرسِ الثاني من دروس السورة

### الآيات من (٦ ـ ٨)

قال اللَّه عزّ وجل:
﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾.

تضمَّن الدرسُ الأوَّلُ من السورة تكليفَ النّاس أن يتلقُّوا الرّسالة الرَّبَّانيَّةَ المنزَّلَة على محمد ﷺ، وأن يقرؤوا كتابَها آناً فآناً بعد تدوينه بالقلم، ضِمْنَ مَسِيرتهم العلميّة.

وهذا الدّرْسُ يُثِيرُ لدى رافضي الاستجابة لهذه الرّسالة ورافضي الإيمان بالرَّسُولِ واتّباعه، اعْتِراضاً مُفَادُهُ ما يلي:

مَا حاجةُ الناسِ إلى إنْزال رِسَالة رَبَّانِيَّة؟ إِنَّ باستطاعة النَّاسِ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إِلَىٰ مَعْرِفَةِ ما يُصْلِحُ شُؤُونَهُمْ، ويُنَظِّمُ حياتهم، ويُبيِّن لهم السُّلوكَ الأَقْوَمَ، عَنْ طَرِيقِ عقولهم وتجرباتهم.

فجاء الدّرْسُ الثاني من السّورة زَاجراً ودافعاً لهذا الاعْتِراض. فبدَأَ بِكَلِمَةِ زَجْرٍ لِلْمُعْتَرِضِينَ، وهي كلمة: «كَلَّا». وبعدها أَشَار الدَّرْسُ إِلَى حاجَةَ النَّاسِ الماسَّةِ إلى إِنْزَالِ رِسَالَةٍ رَبَّانيَّةٍ يُدْعَوْنَ فيها إلى سُلُوكِ صراطِ اللَّهِ المبيَّنِ فيها، بَعْدَ دَعْوتهم إلى الإيمانِ بالحقائق الَّتِي تَشْتَمِلُ عليها أَرْكانُ الإيمان، وما في هذه الأركان من عناصر وتفصيلات.

﴿كَلَّآ﴾: أداة رَدْعٍ وزَجْر، هذا هو الأصل فيها.

أقول: والزّجْرُ الْمُوجَّهُ من اللّهِ عزّ وجلّ هُنَا يقتضي مزجوراً ومزجوراً عنه، ولا يُعْقَلُ أَنْ يكون الزَّجْرُ مُوَجّهاً لِلرَّسُولِ ولا للذين يؤمنون به ويتّبِعُونه، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ الزّجْرُ للذين يرفضُون الاستجابة لهذه الرسالة ويَعْتَرِضُون عليها، فإيرادُ أداة الزّجْرِ يتضمّن الإشارة إليهم.

ومن تدبُّرِ ما جاء بعد عبارة الزَّجْرِ مِنْ بيانٍ نُدْرِكُ أَنَّه قد جاء رَدًّا على الاعتراضِ الذي يُوجِّهُهُ الرّافضون، ومِنْ مضمون الرّدّ نُدْرِكُ مضمون الاعتراضِ المطويّ الذي لم يُفْصِحْ عنهُ النّصّ.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾.

هٰذَا النصُّ قد جاء بمثابة التعليلِ للحكمة من إنْزَالِ رِسَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ، عَلَىٰ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ، ودَعْوَةِ النّاسِ لاتّباعها، بقيادة الرّسُول، أي: فلولا إِنْزَالُ الرّسَالَةِ الّتي تَتَضمَّن تَعْرِيفَ الناسِ بالْحَقّ والباطل، والخير والشّرِ، وتَعْرِيفَهُمْ بالصّراطِ المستقيم، لَطَغَىٰ مَنْ يَشْعُر بالاستغناءِ مِنْهُمْ، ولم يَجِدْ رادِعاً يَرْدَعُهُ عَنْ طُغْيانه، وبالطُّغيانِ الّذِي تتعدّدُ جِهَاتُهُ في النّاسِ يَحْدُثُ التّقَاتُلُ وسَفْكُ الدّماء، وفسادٌ في الأرضِ عريضٌ، وظُلْمٌ وبغيٌ وعُدْوان، وهذا يحتاجُ إلى جَيْشٍ من المؤمنين برسالة اللّه لعباده، يُوقِفون شُرُورَ الطغْيان، ويَحُدُّون من تفاقُم العدوان، ويحتاج إلى بياناتٍ تُحَذِّرُ من عقاب الله في الدنيا والآخرة، وتبيّن للناس أنّهم ممتَحَنُونَ في الحياة الدنيا، وأنّهُمْ لاَ بُدَّ أَنْ يَرْجِعُوا يوم الدين إلى بارئهم، ليحاسبهم، ويفصل القضاء فيهم، ويجازِيَهُمْ على أعمالهم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرّاً فَشَرٌّ.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾: الفاعلُ والمفعولُ به في عبارة «رآه» واحد، أي: رأىٰ من ذاته أنّه استغنَى، وهذا من أفعال القلوب الّتي يصحُّ فيها أنْ يكون ضميرا الفاعل والمفعولِ به واحداً، ومنها: «حَسِبْتُنِي ـ وظَنَنْتُنِي ـ».

فدلَّ هذا النصُّ على أَنَّ من ظواهر السلوك الإنسانيّ، أَنَّهُ يطْغَىٰ إِذا رأَىٰ أنَّه استغْنَىٰ، وهٰذِهِ الظَّاهِرَة مشاهَدَةٌ في الواقِع الإنسانيّ بنِسْبَةٍ غَالِبَةٍ جدًّا.

والحكم في هذا النّصّ القرآنيّ حُكْمٌ على الْجِنسِ، والحكْمُ عَلَىٰ الْجِنسِ لاَ يَعْنِي اسْتِغْرَاقَ جَمِيعِ أفْرَاده.

**الطغيان في اللّغة**: هُو تجاوُزُ حُدودِ الْحَقِّ والْعَدْلِ، أو الخير والمصلَحةِ والمنفَعة، أَوْ مستوىٰ الأَمْرِ الحكيم.

تقولُ لغة: طغَىٰ الْبَحْرُ، إِذَا هاجَتْ أَمْوَاجُه. وطَغَىٰ الماءُ، إذا ارتَفَعَ وعَلاَ عَنْ حَدِّهِ النافِع فأغْرَقَ وأتْلَفَ. وطَغَىٰ فرعون: أي: ظلَمَ وَعَتَا وَتَجَبَّر. وطغَىٰ الكافرُ: أي: أمْعَنَ في جحودِهِ لخالقه ومعصيته أوامِرَه ونواهِيَه.

﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾: الاستغناء هو في الأصل امْتلاكُ الْأَشْيَاءِ الّتِي تَجْعَلُ مالِكَها غَنِيًّا بِها عن غيره، غير محتاج إلى أحد.

وهذا الاستغناء يكونُ بالمال، ويكونُ بالْقُوَّةِ والسلطان، ويكون بالصحّة والعافية، ويكونُ بالْأَتباعِ والأنصار، ويكون بامتلاكِ كلّ ما يُحتَاجُ إليه، ويكونُ الاستغناء عن الشيء أيضاً بعَدَمِ الحاجَةِ إِلَيْهِ أَصْلاً.

والاسْتغناء قَدْ يكونُ حقيقياً، وهو للّهِ تعالى وحده، فاللّهُ عزّ وجلّ هو الغني في ذاته، بصفاتِ الكمال التي هي له، وهو المالك لكُلّ شيءٍ، وَهُو الغنيُّ فِي ذَاتِه عن كلِّ شيءٍ من دونه.

وقَدْ يكونُ الاستغناء شُعُوراً نَفسيّاً كاذِباً، يراه الإنْسَانُ لنفسه، وهو في حقيقة حاله فقيرٌ لربّه، محتاجٌ إِلَيْهِ في كُلّ مطلَبٍ من مطالبه، وقَدْ جَعَلَهُ رَبُّهُ مُحْتاجاً لأشياءَ كثيرة، واللّهُ وحده هو الذي يخْلُقُها ويهيّئُها له، ضمن سُنَنِهِ فِي كونه.

إنّ شعور الإنسان بالاستغناء وهو غارقٌ في الفقرِ إلى الله عزَّ وجلَّ شُعورٌ فاسِدٌ، مُسْتَنِدٌ إلى وهْمٍ كاذبٍ، وهَذا الشُّعُورُ لاَ يكونُ لدىٰ المؤمنين الصّادقِينَ، المراقبين لربّهم.

إنَّ هٰذِهِ الصِّفَةَ في الإِنسانِ صِفَةٌ شَرْطِيَّةٌ، إذْ لَيْسَ كُلُّ إنْسَانٍ طاغياً بالْفِعْلِ، ولكِنْ من رأىٰ أَنَّهُ اسْتَغْنَىٰ طَغَى، ولزُومُ الطغيَانِ للشُّعُورِ بالاسْتِغْنَاءِ في مُرَكَّب هذا الإِنْسَانِ يَكَادُ يكُونُ قاعدةً مطّرِدَةً.

هذا الواقع الإنسانيُّ يكْشِفُ أَنَّ النَّاسَ بحَاجَةٍ إِلَىٰ رِسالَةٍ رَبَّانِيَّة يُنَزِّلُهَا اللّه لِعِبَادِهِ.

يُضَافُ إِلَىٰ هَـٰذَا أَنَّ خَلْقَ الإِنْسَانِ للابْتِلاَءِ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا يَسْتَدْعِي باللُّزومِ الْعَقْلِيِّ المحاسَبَةَ وفَصْلَ الْقَضَاءِ وتَنْفِيذَ الْجَزاء.

وبما أنَّ الصُّورةَ الْمُثْلَىٰ لِهَٰذِهِ الأُمورِ لا تتحقَّقُ في ظروفِ هٰذه الحياة الدُّنيا، فَلاَ بُدَّ مِنْ ظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخرَىٰ تَتَحقَّقُ فِيها، إلاَّ أَنَّ الْعُقُولَ البشريَّة عاجِزَةٌ عَنْ تَصَوُّرِ هٰذِهِ الحياةِ الأُخْرَىٰ، فَلاَ بُدَّ لَهَا مِنْ رِسالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ تبيّن لَهَا المعالم الكبرى لهٰذِهِ الحياة الأُخرىٰ، وقد أشار إلى هذه الحكمة قول اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

**الرُّجْعَىٰ**: مَصْدَرٌ كالرُّجُوع.

فتبيّن من هذا الرَّدّ المشتمل على عنصرين:

١ ـ كَوْنِ الإنسانِ يطْغَىٰ إذا رأىٰ نفسه اسْتَغْنَىٰ.

٢ ـ وكَوْنِ الناسِ سَيُبْعَثُونَ بَعْدَ الموت، ويرجعون إِلَىٰ ربهم، ليحاسِبَهُمْ، ويقضِيَ بَيْنَهُمْ، ويجازِيَهُمْ عَلَىٰ أعمالهم.

أنَّ الاعتراض الذي زجرَ اللَّهُ المعترضِينَ مِنْ أَجْلِهِ، هو تَصَوُّرُهم أَنَّ النَّاسَ يَسْتَطِيعُونَ بعقولهم وتجرباتهم، التَّوصُّلَ إِلَىٰ مَا يُعَرِّفُهُمْ بالْحَقِّ

والْخَيْرِ، وَيضبطُ مسيرتَهُمْ في حياتِهِمْ عَلَى الصراط المستقيم الّذي فِيه خيرهم جميعاً، وسعادتهم جميعاً.

وقَدْ أثبت الواقع الإنسانيّ أنّ المذاهب الإنسانية الَّتِي وضعها رافِضُو الاستجابَةِ لِدِينِ اللَّهِ، قَدْ باءَت بالخيبة وشقاء المجتمع البشري، وهذا دليلٌ تجريبيٌ على سُقُوط اعتراضِ المعترِضينَ، وحَاجَةِ نُفُوسِهِمْ إلى الزَّجْرِ، الذي بدأ به الدّرْسُ الثاني من دروسِ سُورَةِ (العلق) إذْ قال الله لهم: ﴿كَلَّآ﴾.

❁ ❁ ❁

## (٨)
## نظرة إجمالية عامّةٌ للدرس الثاني

زَجْراً لَكَ أيَّها الإنسان المعرضُ عن دعْوَةِ رَبّك لك، لقراءة ما نزل به الوحي عند رَبّك لهدايتك.

زَجْراً لك أيُّها الإنسانُ الرافِضُ لهَـٰذِهِ الدعْوَةِ، المعتَرِضُ على إنزال رسالَةٍ من رَبّك على الرسُول الذي اختاره ليبلّغ الناسَ رسالته إليهم.

إنَّ هذا الرّبّ هو الذي خَلَقَ كُلَّ ما في الكون، وأنْتَ خَلْقٌ من خَلْقِهِ، مَرَرْتَ في أطوارِ من الخلْقِ مِنْها طَوْرُ العلقة.

أتَدْرِي أيُّها الإنسانُ المستنكِفُ عن الاستجابة لدعوةِ ربِّكَ لك، ما هِيَ عِلَّةُ دَائِكَ ودَاءِ أمثالك في استكْبارِكَ وطغيانك؟

إنَّ توافُرَ نِعَمِ اللّهِ عليكَ في حَيَاتك وتوافُرَ أسبابها، جعَلك تشْعُرُ بأنَّكَ غَنِيٌّ، مُسْتَغْنٍ بوسائلك الّتي جعلَها رَبُّكَ بيْنَ يَدَيْك ليمْتَحِنَك في ظروفِ هذِه الحياة الدنيا.

إنَّ طُولُ ممارَسَتِكَ لِلأَسْبَابِ الَّتِي تأتِيكَ بمسبَّبَاتِها بخَلْقِ الله، جعلَك تَزْعُم أنَّها مُتَاحَةٌ لك دواماً، وجَعَلَكَ تَنْسَى الرَّبّ الخالق الذي سخَّرَها لَكَ

لِيَبْلُوك، وتنسَىٰ أنَّه مَتَىٰ سلَبَها بأَسْبابٍ خفيَّةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ لاَ تَمْلِكُ دَفْعَهَا ولا رَفْعَها، فإنَّك لا تستطيع اسْتِعادتها.

ومَعَ نَزْعَةِ اسْتِكْبَارٍ فيك جعلَكَ تشْعُر بالاستغناءِ، وهذا الاستغناء نفخ فيك الكِبْرَ، فغشَّىٰ عَلَىٰ بَصِيرَتِك، فنَسِيتَ نَشْأَتَكَ، ونسيت رَبّك، ووجَدْتَ القُوىٰ بَيْنَ يَدَيْكَ فطغَيْتَ، في فكرِكَ ونَفْسِكَ وعَمَلِكَ.

ومن طغيانك في فِكْرِكَ رَفْضُكَ دعوةَ رَبِّكَ لَكَ، لتدبُّرِ ما نزل به الوحْيُ لهدايتكَ، والاستجابَةَ لمضمونها، والْعَمَلَ بما فِيها من أوامر ونواهِيَ ووصايا ونصائح. ومن طغيانِك في فِكْرِكَ اسْتِكْبَارُكَ بما لَدَيْكَ من أفكارٍ ومفهوماتٍ ورثتها مِمَّنْ سلَف، أَوْ أَوْصَلَتْكَ إِلَيْها تجاربُك، أو انْتَهَىٰ إليها ذكاؤك.

ولو أزحْتَ الغشاوَةَ عن نَفْسِك، وتبصَّرْتَ بأصْلِ نَشْأَتِكَ، ونَفَّسْتَ ما في نَفْسِكَ من كبر نَفَخَتْهُ فِيها الأوهام، لخَشَعْتَ لِرَبّك، وعُدْتَ إِلَىٰ رُشْدِكَ، ودَخَلْتَ ضِمْنَ تَلامِيذِ مَدْرَسةِ الرّبّ جلَّ جلالُه، تتدَبَّرُ ما ينزل به الوحْيُ، فَتَقْرأ كلامَ اللّهِ، وتتدَبَّرُ آياته، وتتعَلَّم الكتابَةَ، وتُقَيِّدُ بالْقَلمِ ما يَهْدِيكَ إليه تَدَبُّرُكَ الواعي، ثُمَّ تَعْمَلُ بوصايا رَبِّك، وتُطِيعُ أوامِرَه وَنواهِيَهُ، لِأَنَّك تُدْرِكُ حينئِذٍ أَنَّ كُلَّ ما بين يَدَيْكَ من أَسْبابٍ هي من عطائه، وضَعَها بَيْنَ يَدَيْكَ ليبلُوَكَ بها، وتُدْرِكُ أنَّه متىٰ شاء سلَبَها، وتُدْرِكُ أَنَّ مَسْؤُوليَّتَك فِي هٰذِهِ الحياةِ إيمانٌ به، وإسلامٌ لَهُ، وسَمْعٌ وطاعَةٌ، فهو رَبُّ كُلِّ شيء، والمهيْمِنُ علىٰ كُلّ شيءٍ.

إنَّكَ إذا عرفتَ أنَّكَ مخلُوقٌ لخالقٍ عظيم، وأنَّ هذا الخالق هو رَبُّكَ دَواماً، الَّذي يمنَحُكَ كُلَّ أسْباب نَمائِك وبقائِك، ويشمَلُك بعطاءات رُبوبيّته، فلا بُدَّ أَنْ يخطُرَ فِي بالِكَ سؤالٌ مُلِحٌّ فِي نَفْسِكَ تبْحَثُ لَهُ عَنْ جواب.

هذا السؤال هو: لماذا خلقني رَبِّي مُزَوَّداً بصفاتي التي فيها جهازٌ

العلْم، وإدْرَاكِ حقائق الأشياء، وفيها أجهزة الأهواء والشهواتِ والغرائِز، وفيها نوازع للخير، ونوازعُ للشرّ، وفيها الإرَادةُ الحرّةُ الّتي باستطاعتها أن تُريد فِعْلَ الخير وفِعْلَ الشرّ، وتَمْلِكُ تَنْفِيذَ كُلٍّ منهما، بما سَخَّرَ اللَّهُ لَكَ في ذَاتِكَ، وبما سخَّرَ لَكَ ولِأَمْثَالِكَ في الكونِ. لماذا؟

هل خلقني عبثاً؟

هل خلقني ومكّنني من فِعْلِ الظُّلْم والعدوانِ وجُحُودِ الْحَقِّ ونحو ذلِكَ، على خلافِ مَخْلُوقاتِه المجبورَةِ عَلَىٰ أَعْمَالِهَا وتَصرُّفاتِها، دون أَنْ يكُونَ فِي خِطَّتِهِ محاسَبَتِي ومُجَازَاتي، ووضْعِي في هذه الحياة الّتِي أَنَا فيها مَوْضِعَ المسؤوليَّة؟

إنَّكَ لاَ بُدَّ أَنْ تَقُولَ في نَفْسِك: إنَّ مَنْ خلقني بحِكْمَةٍ وإتْقَانٍ، وخَلَق كُلَّ شيءٍ وأتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، لا يُمْكِنُ إلاَّ أنْ يكونَ قَدْ خَلَقَنِي بصِفَاتِي هٰذِه ليمْتَحِنَني، ثُمَّ لِيُحَاسِبَنِي على عَمَلِي، ثُمَّ لِيُجَازِيَنِي.

هذا ما يَهْدِي إليه العقل السَّوِيُّ السّليم، ويَرْتَاحُ إلَيْهِ الوجدان.

إذَنْ: فَمِنْ أجلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الوحْيَ بكلامِهِ، ليهدِيني إلى المنهج الذي يجبُ عَلَيَّ أن أَسْلُكَهُ فِي رِحْلَةِ امتحاني.

أمّا مُحَاسَبَتِي وَمُجَازَاتي فلا بُدَّ لهما من حياةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ رِحْلَةِ هٰذِهِ الحياة، ألا يُنَبِّهُنِي إلَىٰ هذا قَوْلُ اللَّهِ عَزّ وجلّ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## (٩)
## التدبُّر التحليلي للدرس الثالث

### الآيات من (٩ ـ ١٩)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

**تمهيد:**

بعد أن استكمل الدرسُ الثاني عناصره يَرِد في ذِهْنِ المُتَلَقِّي سؤال حول أصناف الناس تجاه الرّسالة الرّبّانيّة، الّتي دَلَّ الدرسُ الثاني على حاجة النّاسِ إليها.

وكانت الإجابَةُ التّلْقَائِيَّةُ الّتي يختارُها أحْسَنُ الْأُدَبَاءِ وأفضلُ المفكِّرين أن يقول: الناسُ تجاه الرّسالَةِ الرّبّانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ أصنافٌ أربعةٌ:

**الصنف الأوَّل**: مُسْتجيب بنفْسِه مُتَّبِعٌ، ويحْمِلُ هَمَّ الدَّعْوَةِ إلى هذه الرّسالة، وهداية الناسِ إلى الاستجابة لها واتّباعها.

**الصنف الثاني**: مُسْتجيبٌ بنفسه متّبع، ولكنَّهُ غير مُهْتَمٍّ بالدّعوة إليها، وهداية الناس إلى الاستجابة لها واتّباعها، ولا يقوم بهذه الوظيفة الشريفة.

**الصنف الثالث**: مكَذِّبٌ بهذه الرسالة ومكذّبٌ للرسول المبلّغ لها، ومتولٍّ مُدْبِرٌ عنها رافضٌ لاتّباعِ ما جاء فيها، لكنَّهُ لاَ يحاربُها ولاَ يُقَاومُها، ولا يَدْعو الناس إلى عدم الاستجابة لها.

**الصنف الرابع**: مكذّبٌ يُعْلِنُ تولّيَهُ وإدْبارَهُ ورفضه اتّباع ما جاء فيها، ويُعْلِنُ مُحَاربَتَهُ لها، وينْهَىٰ الناس عَنِ اتّباعها والْعَمَلِ بما جاء فيها، وقد يؤدّي به هذا الموقف إلى اضطهاد دُعاتِها والمؤمنين بها، وهذا أخسُّ الأقسام وشرُّهم.

ولكِنَّ النَّصّ في هذا الدرسِ الّذِي ختم اللّه به السورة لم يأتِ بهذا

الأسلوب الساذج، بَلْ بدَأَ بالتعجيب مِنْ واقع حال شَرِّ الأَقْسَامِ وأَخَسِّهِمْ، بأسْلُوبِ طَرْح الاستفهَام التَّعْجيبيّ الموجَّهِ لكُلِّ مَنْ يَصْلُحُ لخطابٍ بكلام ذي مضمونٍ فكريّ، فقال الله عزَّ وَجل:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

أي: أرأيتَ أيُّها الرّائي المتفكر هذا الصنف من النّاس، ذا السُّلُوكِ الّذي يَتعَجَّبُ منهُ العقلاء المتفكّرونَ أولوا الألباب، إذا كنتَ لم تَرَهُ لِيُثِيرَ لدَيْكَ العجبَ من أمْرِه، فانظُرْ إليه لتَرَىٰ مِنْ أَمْرِهِ عجباً يَدْفَعُكَ إلى الاستنكار الشديد، إنَّهُ يُكذِّبُ بالحق ويرفضُ دعوةَ رسالَةِ الله، ثم يَنْهَىٰ عبداً من عباد اللّهِ لِأَنَّهُ قامَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّه يُصَلِّي له، ولا يَتعَرَّضُ لأحَدٍ مِنَ الناسِ بأذىً.

أليس حَالُ هذا النّاهي أمراً يُثِيرُ الْعَجبَ والاستغرابَ والاستنكارَ؟!

## ما ورد في سبب النزول:

(١) أخرج ابْنُ أبي شيبة، وأحمد والترمذيُّ، وابْنُ جرير، وابْنُ المنذر، والطبراني وصحّحَهُ، وابْنُ مَرْدَويه، وأبو نُعَيم، والبيهقي عن ابْنِ عباسٍ قال:

«كانَ النبيُّ ﷺ يُصَلِّي، فجاء أبو جَهْلٍ فقَالَ: أَلَمْ أَنْهكَ عَنْ هَـٰذَا؟ إِنَّكَ لتَعْلَمُ أَنَّ ما بِهَا رَجُلٌ أكْثَرُ نَادِياً مِنّي، فأنْزل اللّه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

فجاء النبيُّ ﷺ يُصَلِّي، فقيل (أي: لأبي جهل): ما يَمْنعُكَ؟ فقالَ: اسْوَدَّ ما بَيْني وبَيْنَهُ.

قال ابْنُ عَبّاسٍ: «واللّهِ لو تحرَّكَ لأَخَذَتْهُ الْمَلائِكَةُ والنَّاسُ ينْظُرُونَ إلَيْه».

(٢) وعند البخاريّ وغيره عن ابن عبّاسٍ قالَ: قَال أبو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ محمّداً يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لأَطَأَنَّ عُنُقَهُ، فَبلَغَ النبيَّ ﷺ، فقال:

«لَوْ فَعَلَ لأَخَذَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عِيَاناً».

(٣) وأخرج الإمام أحمد ومسلم والنّسائيّ وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هَلْ يُعَفِّرُ محمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قالوا: نعم. قال: واللاّتِ والعزَّىٰ لَئِنْ رَأَيْتُهُ كذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، وَلأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فأتَىٰ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهُوَ يُصَلِّي لِيَطَأَ على رقَبَتِهِ. قَالَ: فما فَجَأَهُمْ مِنْهُ إلاَّ وَهُوَ ينكُصُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، ويتَّقِي بِيَدِهِ، فقيلَ لَهُ: ما لَكَ؟. فقال: إنَّ بَيْنِي وَبينهُ خَنْدَقاً من نارٍ، وهَوْلاً، وأَجْنِحَة، فقال رسولُ الله ﷺ:

«لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضواً عُضواً» وأَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجل:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ إلى آخر السورة.

وما ورَدَ من أسباب النزول لا يُخْرِجُ النَّصَّ عَنْ كونِهِ ذَا دَلالَةٍ عامَّة، فالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ النصِّ لاَ بخُصُوصِ السَّبب، كما هُو مقرّرٌ عِنْدَ عُلَماءِ أُصُولِ الْفِقْهِ.

إنَّ هٰذا الصنف الطَّاغِيَ الجبّارَ، الذي يتدخَّل في عقائد الناس وعباداتهم، والذي يمْنَعُ المصلّين عن صلاتِهِمْ بحَسَب معتقداتِهِمْ فيضْطَهِدُهُمْ ويُنْزِلَ بِهِمْ عذاباً مِنْ أَجْلِ معتقداتهم وعباداتهم، صِنْفٌ موجُودٌ في كُلِّ عَصْرٍ، وبَلَدٍ ومِصْرٍ، وعُمُومُ النَّصِّ يَشْمَلُهُمْ، والوعِيدُ الَّذِي جاء في السُّورَة يَعُمُّهُمْ جميعاً، ولا يخُصُّ أبا جَهْلٍ وَلاَ نُظَرَاءَه من الطُّغَاةِ الَّذِينَ كانُوا فِي عصر الرسول ﷺ، ولكن قد يؤجّل اللَّهُ العقابَ إلى أجَلٍ ما في الحياة الدنيا، أو إلى يوم الدّين.

ما أبْدَعَ عَرْضَ هذا الصِّنف الذي هو شرُّ النَّاسِ بِعبَارَة:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

هذه العبارة تَتَضَمَّنُ أنَّ حُرِّيَّةَ الاعتقادِ والعبادة لدى جميع العقلاء من الناس، ينبغي أنْ تكُونَ مصونَةً في المجتمع البشري، ولا يصِحُّ أَنْ تكُونَ عُرْضَةً لِلإكْرَاهِ فِعْلاً وَلاَ تَرْكاً.

وبعد هذا ثَنَّىٰ النَّصُّ بالتعجيب من حالِ هَـٰذا الطَّاغِي الجبار حينما يَنْهَىٰ ويضطهدُ صِنْفَيْنِ من الناس:

- صنفَ المهتدي بنفسه الذي لا يَحْمِلُ رِسالَةَ الدَّعْوَةِ إلى الْهُدَىٰ.
- وصنفَ المهتدى الداعي إلى الْهُدىٰ.

فقال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ:

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾.

أي: أَرأَيْتَ أَيُّها الرَّائِي الْمُتَفَكِّرُ هٰذَا الصنفَ الطَّاغِيَ الجبَّارَ ذَا السُّلوكِ الّذِي يَتَعَجَّبُ منه العقلاءُ أولوا الألباب، حِينَما يَنْهَى ويضطهدُ المهتَدِي بنفسه الذي يؤمِنُ بالْحَقّ ويَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ بَصِيرَة، ويَنْهَىٰ وَيضطّهد المهتدي بنَفْسِهِ ويَدْعُو الناسَ إلى سُلُوكِ سبيلِ الْهُدَىٰ، دُونَ إِكْرَاهِ وَلاَ إِلْزَام، ويقولُ لهم اتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ وعقابَهُ بالإِيمانِ بالْحَقّ الَّذِي جاءَ في رِسَالَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، وبِطَاعَتِهِ في أوامرِه ونواهيه ووصاياه.

إنَّ مَنْ يتدبَّر هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ يَسْتَخْرِجُ وُجُودَ صنفين من الناس:

- صِنفِ المهتدي بنفسه، الذي لا يحمل أعباء هداية غيره.
- وصنفِ المهتدي بنفسه الذي يحمل أعباء هداية غيره إلى ما اهتدىٰ هو إليه.

إنَّ النصَّ لم يَدُلَّ عليهما دلالةً مُباشِرَةً ساذجَةً، بَلْ يَسْتَخرِجُهُما المتدبِّرُ اسْتِنْبَاطاً منه.

والمعنى: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ المنهيُّ عن الصَّلاةِ الّتِي يُصَلِّيها، الذي يَتَعَرَّضُ لاضطهاد الجبَّارِ الطاغي، علَىٰ الْهُدَىٰ عقيدةً وعبادة، فَهُوَ مُتَمَكِّنٌ من الهدى (وهذا صنف من الناس).

أو كَانَ اضطهادُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ دَعَا الناسَ إلى الْهُدَى وأَمَرَهُمْ بأَنْ يَتَّقُوا

عذابَ ربِّهِمْ بالإيمان به والإسلام له والسَّمْع والطاعة، ولاَ يكونُ كذلِكَ إلاَّ إذا كانَ على هُدىً في نفسه (وهذا صنف آخر من الناس).

فما أَبْدَعَ التعريف بهٰذيْنِ القسمين عن طريق هذا الأسلوب البالغ الإيجاز.

وأخيراً جاء بيان القسم الرابع، الضّالّ بنفسه، المكذّب برسالة رَبّه، دون أَنْ يكون طاغياً باغياً داعياً إلى الكُفْرِ وهَجْرِ سبيلِ الهداية، بقول اللّهِ عزَّ وجلّ:

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

أي: أَرَأَيْتَ أَيُّهَا الرَّائِي المتفكِّرُ صنفاً آخر من النَّاسِ، وهُو صنْفٌ اقْتَصَرَ على أَنْ كذَّبَ بالرِّسالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وتَولَّىٰ عنها، دون أَنْ يكون مُغْوِياً طاغِياً ناهياً عن الإيمان باللّه والإسلام له، إنَّهُ أيضاً ينبغي أن يَتَعَجَّبَ من أمره أولوا الألباب، لأنه يُعرض نفسه لعقاب الله والشقاء الأبدي.

**تَوَلَّىٰ**: يأتي بمعنى «نأى» أي: ابْتَعد، ويأتي بمعنى «أدبر». ومن تولَّىٰ عن الاستجابة للدعوة إلى دين الله الحقّ فلا بُدَّ أن يُدْبِر لزوماً.

وبعد استيفاء عرض الأقسام اقتضت الحكمة التربويّةُ التلويح بتحذير المكذّب المتولّي من عقاب اللّهِ وعذابه، بأسلوب استثارة مَعْرِفته بأنّ اللّهَ يراه، ومَنْ يَعْلَمُ بأَنَّ اللّه ربَّه يراه، وكان ذا بصيرةٍ فلا بُدَّ أن يخاف عقابه، على تكذيبه برسالاَتِهِ، وتولّيه عن رسولِ ربّه، فذو البصيرة يعلَمُ أنَّ اللّهَ ربّه قديرٌ وحكيم، والحكيم لا بُدّ أن يعاقب الجاحد الكافر المكذّب، ولا بُدَّ أن يثيب المؤمن المصدِّق السميع المطيع لأوامره ونواهيه، فقال الله عزّ وجلّ في هٰذَا التلْويح:

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾؟!

استفهام فيه معنى التعجيب مِنْ أمْرِ المكذّبِ المتولّي، وهو يعْلَمُ أنّ اللّه رَبّهُ يراه، والرَّبُّ الذي يَرَىٰ عبْدَهُ يُكذّبُ رسُولَهُ ويُكذّب بما جاء به الرّسُول عن ربّه لا بُدَّ أن يُجازِيَهُ على تكذيبه كما جاء في بياناته.

واقتصر البيان القرآني في أوائل التنزيل على التلويح بعقاب المكذب المتولّي دون تفصيل، التزاماً بحكْمَةِ التدرّج، والأخذ بالترفُّق في البدايات، إذْ لم تَسْتَقِرَّ بَعْدُ في أذهان المتلَقّين مفاهيم الدّين، ولا مفاهيم الجزاء بالعدل أو بالفضل، ولا نزلت التفصيلات المتعلّقة باليوم الآخر.

ولكنّ اشتدّ النصُّ في توجيه التحذير والتهديد والزَّجْرِ للطاغي الباغي الذي ينْهَىٰ عبداً إذا صلَّىٰ، فقال الله عزّ وجلّ عقب التلويح الذي سبق:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)﴾.

﴿كَلَّا﴾: أداة زجْرٍ ورَدْعٍ موجّهةٌ للطاغي الباغي الْمُضِلُ الَّذِي ينْهَىٰ عبادَ الله عن الإيمان به والصلاة له، ويُحاول إيذاءهم ومَنْعَهُمْ عن عبادةِ ربّهم بالإكراه واستخدام القوّة المادّيَّةِ أو المعنويّة.

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾: في هذِهِ الجملةِ وعيدٌ وتهديدٌ لهذا الصنف من النّاس الطاغي الباغي المضلّ، إنْ لَمْ يَنْتَهِ عن تَعَدِّيه على المؤمنين الذين يعبدون ربَّهُمْ، لِمَنْعِهِم من عبادته.

﴿لَنَسْفَعًا﴾: اللام واقعة في جوابِ قسم مَحْذوف، واللاّمُ في ﴿لَئِن﴾ موطئَةٌ للقَسَم، و«نَسْفَعاً» فعْلٌ مضارعٌ مُؤَكّدٌ بنون التوكيد الخفيفة.

يقالُ لغةً: **سَفَعَهُ** على وجْهِهِ إذَا لطَمَهُ براحَتِهِ، **وسَفَعَهُ** بالعصا إذا ضَرَبَهُ بها. وسفَعَهُ بِنَاصِيَتِه وَرِجْلِهِ إذَا قَبَضَ عَلَيْهِما قَبْضاً شَدِيداً بعُنُفٍ، وجذبَهُ مِنْهُما وأخَذَهُ.

ويُمكِنُ أنْ تجتَمِع هٰذِهِ المعاني هُنَا، فهٰذَا الطاغي الباغي لَئِنْ لم يَنْتَهِ عَنْ أعمالِ العدوان الّتي يقومُ بها لَنُجَازِيَنَّهُ بالضَّرْبِ عَلَىٰ نَاصِيَتِهِ، والقبضِ عليها، وأخْذِهِ مِنهَا، وجذبِهِ إلى حَيْثُ يَنْزِلُ بِهِ العذاب.

**الناصِيَةُ**: مُقَدَّمُ الرَّأسِ، وشَعَرُ مقدَّم الرأسِ إذا طال، وتُجْمَعُ على نَوَاصٍ وناصِيات.

وجاء في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) بَيانُ أنَّ المجرمين يَوْمَ القيامَة يؤخَذُونَ إلى دار العذاب بنواصِيهِمْ وأقدامهم لِقَذْفِهِمْ فيها، ولا يخْفَىٰ ما في هذا من إهانةٍ وإذلالٍ لهم، فقالَ عزّ وجلّ فِيها:

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾: جاءَ وصْفُ ناصِيَةِ هذا الطاغي الباغي المُجْرِم بأنَّها كاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ، والمرادُ أنَّهُ هو فِي هُوِيَّتِهِ الدَّاخِلِيَّة كاذِبٌ خاطِئٌ، وهذا مجاز مرسَلٌ، وهو من إطلاقِ بعض الظاهر وإرادَةِ الباطنِ، ولَمَّا كانَتِ الناصيَةُ الّتِي هِيَ مُقَدَّمُ الرأسِ مَكَانَ التكْرِيم الأعْلَىٰ من الإنسان، وكانَ في باطِنِ الرأسِ من بَعْدِها جهازُ الفهم والتفكُّر، ومَنَابعُ الإِرادات ومَناطُ المسؤوليّات، نَاسَبَ أنْ تُطْلَقَ الناصِيَةُ ويُرادَ ما يَحْتَوِي الرَّأسُ بَعْدَها، المُشْتَمِلُ على الجهاز المركزيّ للوعْيِ والإرادة.

**الخاطِئ**: المذنب العاصي.

ولمّا كان هذا النّصّ قد نزَلَ بمناسبة قول أبي جهل للنبيِّ محمّدٍ ﷺ وهو يُصَلِّي: ألَمْ أنْهَكَ عَنْ هٰذا؟ إنَّكَ لتعْلَمُ أنّه ما بِهَا رَجُلٌ أكْثَرُ نادِياً مِنّي.

كَانَ مِنَ المناسِبِ أنْ يُوجَّهَ لَهُ النَّصُّ التَّحدِّي بأنْ يَدْعُو كُلَّ أَهْلِ نادِيه، أي: بأنْ يَدْعُو كُلَّ أَنْصارِهِ مُسْتَظْهِراً بِهِمْ عَلَىٰ رسُولِ اللّٰهِ ﷺ، فإنَّ اللّٰهَ سَيَمْنَعُ رَسُولَهُ ويحفَظُهُ مِنْهُمْ، إذْ سيُرْسِلُ الزَّبَانِيَةَ، وهُمْ مَلائِكَةُ إهْلاكٍ

وتَعْذِيب، فيُنْزِلُونَ بِهِ وبأنْصارِهِ الَّذِينَ يَدْعُوهم تَعْذِيباً شدِيداً وَإِهْلاكاً، ويمنَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ منهم، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

ويظهر أَنَّ أبا جهل ذُعِرَ مِنْ هَـٰذَا التَّحَدِّي والْوَعِيد الرَّبّاني فَلَمْ يَسْتَنْصِرْ بأَحَدٍ من أهل نَادِيهِ على الرسول محمّد ﷺ، وأعْرَضَ عَنْ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ في عباداته، ولا سيما بَعْدَ أَنْ ظهر له ما خَلَعَ قلبه حين حاول أَنْ يَقْتَرِبَ من الرسول وهو ساجدٌ لِيَطَأَ على عُنُقِهِ ويعفِّرَ وجْهَهُ بالتراب.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: أَمْرُ تَحَدٍّ بأُسْلُوبِ خِطَابِ الغائب، احتقاراً له وازْدِرَاءً به.

**النادي**: يُطْلَقُ على المكان الذي يَجْتَمِعُ فيه القوم، ويُطْلَقُ على أَهْلِ المكان، فيقَعُ على المجلِسِ وأهْلِهِ، ويُطْلَقُ على أهل الرجلِ وعَشِيرَتِه، وهذا المعنىٰ الأخير هو الملائم لقول أبي جهل للرسول ﷺ: إنَّكَ لتَعْلَمُ أَنَّهُ مَا بِها رَجُلٌ أَكْثَرُ نادِياً مِنّي، أي: ما بها أكْثَرُ أَهْلاً وعَشِيرَةً وأنصاراً مِنِّي.

وإذا كان المقصود ما بها رجُلٌ أكثر أهل نادٍ مِنِّي، على معنى إطلاق لفظ النادي على المكان، فهو من إطلاق لفظ المكان على أهْلِهِ ومُرْتَاديه، على طريقة المجاز المرسل بإطلاق المحل وإرادة الحالّ فيه.

**الزَّبانِية**: قال قتادة: الزّبانِيَةُ عِنْدَ العَرَبِ الشُّرَطُ. وجاء في كتب اللّغة أَنَّ الزَّبَانِيَةَ هُمُ الَّذِين يَزْبِنُون النَّاسَ، أَيْ يَدْفَعُونَهُمْ.

وسمَّىٰ اللَّهُ بعْضَ ملائِكَتِهِ زَبَانِيَةً، لِأَنَّهُمْ يَدفَعُونَ أَهْلَ الكُفرِ والتكذِيب والعنادِ عن أولياءِ اللَّهِ، ويدفَعُونَهُمْ إلى النار والعذاب فِيها يوْمَ الدِّين.

وأخيراً أعاد النّصّ زَجْرَ هذا الصنف الطاغي الباغي الضّالّ الْمُضِلّ، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا﴾.

وبَعْدَهُ الْتفتَ الْخِطَابُ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: ﴿لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾.

وهذا الخطابُ مُوَجَّهٌ لكلِّ مُؤْمِنٍ يَعْبُدُ ربَّه، ويَجِدُ مَنْ يَنْهَاهُ عن إيمانه وعبادته، ويَضْطّهِدُهُ من أجل ذلِكَ.

أي: لا تُطِعْ مَنْ ينهَاكَ عن إيمانِكَ بالحقّ، وصَلاتِكَ لِرَبِّك، ويَضْطّهِدُكَ لِتُطِيعَهُ، واسْجُدْ لِلَّهِ واقْتَرِبْ بِسُجُودِكَ منه.

وقد دلَّ هذا الْخِتَامُ على أنّ السُّجُودَ للَّهِ عزَّ وجَلَّ يُمَثِّلُ فِي حَرَكَةِ الْجِسْمِ غايةَ الخضوع للَّهِ، الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْ غاية الخضوع القَلْبِي والنفسيِّ له جلّ جلالُهُ، وكلما زاد المؤمِنُ خُضُوعاً لِرَبِّهِ وذُلاً وتَضَرُّعاً زَادَ اقْتِرَاباً إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَكُونَ لديه مِنَ المحبوبين.

❃ ❃ ❃

## (١٠)
## نظرة إجمالية عامّة

جواباً على سؤال مقدّر غير مذكورٍ في النّصّ جاء في الدرس الثالث من دروس السورة بيان أنّ الناس تُجاه الرّسالة الرّبانية أربعة أصناف:

فصنفان منهما استجابا لدعوة الرّبّ الخالق، أمّا أحدهما فاهتدى بنفسه، وقبل نداء الدعوة، لكنّهُ لم يكن داعياً هادياً، وأمّا الآخر فاهتدى بنفسه وحمل مهمّة دعوة غيره إلى أن يسْتجيب لنداء الدَّعْوَة الرّبّانية، فمشىٰ بين الناس يأمُرُ بالحقّ ويأمر بتقوىٰ الله.

وصنفان منهما لم يستجيبا لدعوة الرّبّ الخالق، وكانَ داؤهما داءَ الطغيانِ النّفسِيّ، الّذي ولّدهما في نُفُوسهما الشُّعُورُ بالاسْتغناء بما لديهما من أسبابٍ، عن خالقها ومسبِّبها، والذي يُمِدُّ بها، وهو القادر على سلبها متىٰ شاء.

أمّا أحدهما فضَلَّ في نفسه، لكنَّهُ لم يجعل من نفسه مُضِلاًّ، ينْهَىٰ عن عبادة الله والإيمان به.

وأمّا الآخَرُ فضَلَّ في نفسه، وحَمَلَ مُهمَّةَ إضلالِ النَّاسِ ومَنْعِهم عن الإيمانِ باللَّهِ وعبادَته، فإذا رأى عبداً من عباد اللَّهِ يُصَلّي لِرَبّه نَهَاهُ عَنِ الصَّلاة، ودعاهُ إلى الكُفر، فهو بَيْنَ الناس شيْطانُ تَضْلِيلٍ وإغواءٍ، وإمَامٌ مِنْ أئمَّةِ التَّضْلِيلِ، والفتنة عن دين الله، أو داعٍ من دُعاةِ الضَّلالِ في الأرض.

هؤلاء الأصناف الأربعة قد جاء بيانهم في الدرس الثالث من دروس سورة العلق.

لقد كان الدرس الأوّلُ دعْوَة الْمُدْرِكِ المتفكِّر المسؤول عن تصرُّفاتِهِ في الحياة إلى قراءة وتدبُّرِ ما ينزل به الوحي من عند الرَّبّ الخالق، وإلى تثبيت ما يهديه إليه التَّلَقّي والتدبُّر بالقلم، الذي هو من كبرياتِ وسائل التعلُّم وتقييد العلم.

وجاء الدرس الثاني جواباً على سؤال مطويٍّ مقدّر، فأبانَ العلّة النفسية لدى الذين يرفضون دعوة الرّبّ الخالق، وهي الطغيان بسبب مشاعر الاستغناء.

وجاء الدّرسُ الثالث أيضاً جواباً على سؤال مطْوِيٍّ مقدّرٍ أيضاً، فأبان أصناف الناس الأربعة تجاه الدعوة إلى الاستجابة لدين الله الذي ينزل به الوحي من عند الرّب الخالق جلّ جلالُه.

فظهر لنا أنَّ الدعوة إلى القراءة هي المفتاحُ الأوّل الذي يُفْتَح به باب العلم، وأنّ لفْتَ النَّظَر إلى رُبوبيَّةِ الرّبّ الخالق هو المفتاحُ الأول الذي يُفْتَحُ به بابُ الدّين.

وظهر لنا أنَّ رفض الدَّعْوَةِ الرَّبانِيَّةِ طُغْيانٌ نَفْسِيٌّ يُوَلِّدُهُ الشُّعُور بالاستغناءِ عمَّا تَشْتَمِلُ عليه هذه الدعوة الرّبَّانيّة، أمّا من كان لديه الشُّعُورُ بالحاجَةِ لما تشتمل عليه فإنّه يسْتَجِيبُ ولا يَرْفُض.

وموعظةُ الرافِض تكون ببيان مسؤوليّتِه في هٰذهِ الحياة، وبأنّه سوْفَ يُحَاسَبُ ويُجَازىٰ على ما قدّم وأَخّر يَوْم الدِّين.

وظهَر أنّ الذينَ يسْتجيبون صنفان: مُهْتَدٍ بنفسه، ومهتدٍ بنفسه داعٍ إلى الهداية.

وأنَّ الذين يرفضون صنفان أيضاً: ضالٌّ بنفسه، وضالٌّ داعٍ إلى الضلالة.

وقد جاء بيان الأصناف الأرْبَعَةِ في الدرس الثالث بطريقة من البيان عجيبة، فيها دعوةٌ إلى رُؤيَةِ الواقع وإحصائه وسَبْرِهِ، فقال الله عزّ وجل:

١ ـ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

٢ ـ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١﴾.

٣ ـ ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾.

٤ ـ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾.

فالصنف الضالُّ المضِلّ قَدْ جاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ بصيغَةِ التعجيب من قَبيح أَمْرِهِ، وظاهِرٌ أَنَّ الذي ينْهَىٰ المصلّي عن عبادة رَبِّه أَسْوأُ أفراد هَـٰذَا الصنف السافل، لأنَّ صلاة المؤمن حين يُصَلِّي لِرَبِّه لاَ تَضُرُّ الكافِرَ الجاحدَ شيئاً، فما بالُهُ يتَدَخَّلُ في حُرِّيَّتِهِ الشخصيَّةِ، فينْهَاهُ عن الصلاة، ويُحَاوِلُ إكراهَهُ على تركِهَا، إنَّ هَـٰذَا لَهُو أَشْنَعُ وأَظْلَمُ صُوَرِ التضليل والإغواء.

والصنف الذي اهتدى بنفسه، دون أن يَحْمِلَ مُهِمَّةَ هِدايَةِ غيره، هو الّذِي يكونُ في العادَةِ مُعَرَّضاً لتضليل صِنْفِ الضّالِّ المُضِلّ، وقد جاء بيانُه في النَّصّ عَقِبَه، وجاء التعبير عنه بقول الله عزّ وجل: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١﴾ أي: أَرَأَيْتَ إنْ كَانَ مُتَمَكِّناً من الْهُدَىٰ، وهذا التمكُّن دلَّ عليه حرف الجرّ «على».

والصنف الّذي اهتدىٰ بنفسه، وقام يدعو الناس إلى الْهُدَىٰ ويأمُرُهُمْ بتَقْوَى اللّهِ والْحَذَرِ من عقابه يومَ الدّين، قد جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ أيْ: أو كان عَلَىٰ الْهُدَىٰ وَأَمَرَ بالتَّقْوىٰ، فهو متمكّنٌ من الْهُدَىٰ وحامل مسؤولية الهداية.

والصنف الذي ضَلَّ بنفسه دُونَ أَنْ يَحْمِلَ مُهِمَّةَ إِضْلَالِ المهتدين، قد جاء التعبيرُ عَنْهُ بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ أي: كذَّبَ النبيَّ وكذَّبَ بما نزَلَ بِهِ الوحْيُ، وَتَوَلَّىٰ مُدْبراً منصرفاً لِأُمُورِهِ الْخَاصَّةِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاه.

وهَكَذَا استوفىٰ البيان البديعُ أصْنَاف الناس أجمعين تُجاه دَعْوَةِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ الَّتِي جاءتْ بها الرّسَالةُ الرَّبّانيّة.

ولا بُدَّ أَنْ نُدْرِكَ أَنّ كُلَّ صِنْفٍ من هؤلاء الأصنافِ الْأَرْبَعَةِ يقَعُ في درجاتٍ أو دركاتٍ متفاوتات صاعداتٍ أو نازلات.

فالمهتدون في أنفسهم على درجات، فمنهم السابقون في الخيرات، ومنهم المقتصِدُون الّذين خلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، ومنهم الظالِمُونَ لأنفسهم بالمعاصي الّتي أَسْرَفوا في ارتكابها.

والمهتدون الداعون إلى الهداية الآمرون بالتقوىٰ على درجاتٍ أيضاً، هدايةً في أنْفُسِهِم، وقياماً بِرسالَةِ الدَّعْوَةِ إلى الله.

والضَّالُّونَ المضلُّونَ في دَرَكات، فبعضُهُمْ أَسْوَأُ مِنْ بَعْضٍ، وأَخَسُّ وأحطُّ في الدّركات، وأقبحُهم وأشْنَعُهم أَئِمَّةُ الضَّلَالِ في الْأَرْضِ، ولا سيما إذا كانوا يملكونَ قُوَّةً وسُلْطَاناً، ومنازِلُهُمْ يوم الدّينِ في الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من النار.

والضَّالُّون في أنفسهم دون أن يَحْمِلُوا مُهِمَّاتِ إضْلَالِ غيرهم، هُمْ في دَرَكَاتٍ أيضاً، ودركاتُهُمْ تَنْحطُّ بِحَسَبِ شِدَّةِ ضَلَالِهِمْ، ومُمَارَسَاتِهِمْ للشُّرُور،

وَمُلاَحِظُ مَفهُومَاتِهِمْ وأنْوَاعَ سُلُوكِهِمْ فِي الحَياةِ، يُدرِكُ أَنَّ بعضَهُمْ أَضَلُّ وَأظْلَمَ مِنْ بَعْضٍ.

وبعد بيان الأصنافِ الأَرْبَعَةِ تَوَجَّهَ النَّصُّ لإنْذَارِ الضَّالِّينَ إلماحاً وَتَلْوِيحاً، إذْ ما زَالَ البيانُ القرآنِيُّ فِي أوائِلِ التَّنْزِيلِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعالَى بأُسلوب الخطاب الإفرادي: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

وبعده تَوَجَّهَ النَّصُّ لِتَهْدِيدِ الْمُضِلِّينَ الطُّغَاةِ بصَرِيح العبارة، فقال اللّهُ تَعَالَىٰ بأسلوبِ الخطاب الإفرادي: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾

وأخيراً كرَّرَ الْخِطَابُ زَجْر المضلّين الطُّغَاةِ وتوجَّهَ لتثبيت المهتدين بأسلوب الخطاب الإفرادي، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

أي: اقترب من ربّكَ بسُجُودِك في صلاتك له، فإنَّ أَقْرَبَ ما يكون العبْدُ مِن ربّه وهو ساجد.

❁ ❁ ❁

# سُورَةُ المُدَّثِّر

٧٤ مصحف ٢ نزول

## (١)
## بحث حول نزولها:

بعد الدراسة التحليليّة ترجّح لديّ أنّ صدر سورة (المدثر) قد نزل بعد سورة (العلق) فهي باعتبار صدرها ثاني سورة مكيّة، وهي على وجه العموم من أوائل التنزيل المكيّ باتفاق، وجاءَ في الصحيح تأكيدُ أنَّ أوّلَ ما نزل على الرسُولِ ﷺ من القرآن بعد أنْ فتر الوحي قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾.

فهي بعد الآيات الخمس الأولى من سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ حتماً، وقد يكون ما جاء في أثناء سورة (المدّثر) قَدْ نزَلَ متأخّراً ضمْنَ أوائل العهد المكي بعد أن نزل من القرآن ما استثار دهشة الوليد بن المغيرة حتّىٰ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## (٢)

# نص سورة المدثر

## وما فيها من قراءات من الفرش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ
﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ
﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ
لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ
صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ
كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ
وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ
ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى
وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ
أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

٥ ـ [والرُّجزَ] بضم الراء قراءة حفص وأبي جعفر ويعقوب.

[والرِّجزَ] بكسرِ الراء قراءة باقي القراء العشرة.

٣٠ ـ [تِسْعَةَ عَشَرَ] قراءة جمهور القراء العشَرَة.

[تسعَةَ عْشَرَ] قراءة أبي جعفر، بإسكان عين عشر.

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ
ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ
جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾
نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ
بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۙ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۙ
﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۙ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ
مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ
ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾
فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾
كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ
ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ
ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾
وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

---

٣٣ ـ [إِذْ أَدْبَرَ] قراءة نافع، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف.
[إِذَا دَبَرَ] لباقي القراء العشرة.

٥٠ ـ [مُسْتَنْفِرَةٌ] لجمهور القراء العشرة.
[مُسْتَنْفَرَةٌ] لنافع، وابنِ عامر، وأبي جَعْفر.

٥٦ ـ [وَمَا يَذْكُرُونَ] لجمهور القراء العشرة.
[وَمَا تَذْكُرُونَ] بتاء الخطاب، لنافع فقط.

## (٣)
# مما جاء في السُّنَّةِ حَوْل سُورَة (المدّثّر)

(١) قال البخاريُّ في صحيحه: حدَّثَنا عبْدُ اللَّهِ بْنُ يوسُفَ، حدَّثَنا اللَّيْثُ عَنْ عُقيل، قال ابنُ شِهَابِ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ قَال: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْي:

«فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ[١] حتَّىٰ هَوَيْتُ إِلَىٰ الأَرْضِ. فَجِئْتُ أَهْلِي فقُلْتُ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني[٢]، فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ»[٣].

ويظهر أنّ بقيَّةَ السُورَةِ نَزَلَ على مَرَاحِلَ في أوائل العهد المكيّ.

(٢) وفي رواية أخرى عند البخاريّ أيضاً عن جابر بن عبد الله ـ

(١) فَجُئِثْتُ مِنْهُ: أي: ففزعْتُ مِنه، يُقَالُ لُغَةً: جُئِثَ يَجأَثُ جَؤوثاً، إذا فَزِعَ فهو مَجْؤوث.

(٢) أي: غَطُوني ولُفُوني بالثيابِ والأَغْطِيَةِ.

(٣) انظر الحديث رقم (٤٩٢٦) من فتح الباري ج(٨).

رضي الله عنهما ـ قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه:

«فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ فرفَعْتُ رَأسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْباً، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، فَدَثِّرُوني»، فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعالَىٰ: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ ـ إلى ـ ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾. [فتح الباري الحديث (٤٩٢٥) ج ٨].

## (٤)
## موضوع السُّورة ودروسُها

١ ـ تكليفاتٌ للرسُولِ محمّد ﷺ بالْبَيَانِ والإنْذارِ بعذاب اللَّهِ يوم الدين للذِّينَ يُكَذِّبُونَ وَلاَ يُؤْمِنُون، وأَمْرٌ لَهُ ببَعْضِ ما يَنْبغي له أن يتحلَّىٰ به هو وَكُلُّ من يُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَّبعه ويدعو إلى سبيل ربّه.

٢ ـ ومعالجاتٌ لِلْمكَذِّبين بِرسَالَتِهِ، في الأَزْمَانِ الَّتِي تَتَابَعَ فِيهَا إِنْزَالُ نُجُومِ السُّورَة، وهٰذهِ المعالجاتُ قد رُوعِيَتْ فيها مَوَاقِفُهُمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْها إِبَّانَ التَّنْزِيل.

وقد اشتمَلتْ هذه السورة عَلَىٰ خَمْسةِ دُرُوس متكاملة متعانقة حول موضوع واحد:

**الدرس الأوّل**: الآيات من (١ ـ ٧):

بدأَت السورة بتكليفِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يُبَلِّغَ رِسالةَ رَبّه، وَيُنْذِر الَّذِين يكَذِّبُونَهُ وَيُكذِّبُونَ بِبلاَغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، بأَنَّهُمْ إذا أَصرُّوا عَلَىٰ تَكْذِيبهم فسَيُعَذَّبُون يوم الدِّين في دار العذاب النّار عذاباً أَبدِيًّا خالداً.

وأبان هذا الدّرس للرَّسُولِ ﷺ بعض التعليمات الأَوّلِيَّةِ الّتي عَلَيْهِ أَنْ يلْتَزِمَ بها، ليكونَ أُسْوَةً حَسَنَةً لِمَنْ يُؤْمنُ بِهِ ويتّبِعه.

**الدرس الثاني**: الآيات من (٨ ـ ١٠):

تضمَّنَ هذا الدرس بيان لِقْطَةٍ تَصْوِيرِيَّةٍ من لقطاتِ يَوْمِ القيامة، استدعَىٰ إيرادها ما جاء في الدرس الأوّل من تكليف الرسول ﷺ أنْ يُنْذِر قومه المكذبين بجزاء ربّهم الذي سينالونَهُ يوم الدين.

**الدرس الثالث**: الآيات من (١١ ـ ٣٧):

تضمّن هذا الدرس معالجةَ أَعْتَىٰ كُبَراءِ المشركين معارضَةً لدعوة الرسول ﷺ، في مراحل نُزول هذه السورة، وهو الوليد بن المغيرة، وتحذيراً من دار العذاب «سقر» مقروناً ببيان ما فيها من عظائم وكبريات مرهباتٍ مخيفاتٍ، تَخلَعُ قُلوب أُولى الألبابِ، إذَا تَرَجَّحَ في تَصَوُّرِهِمْ احتمالُ صِدْق نَبأ الوعيدِ الّذي نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، وبلَّغَهُ الرسول عن رَبِّه جلّ جلالُه، فكيف بهم إذا اسْتَيْقنوه.

**الدرس الرابع: الآيات من (٣٨ ـ ٤٨):**

تضمَّن هذا الدرسُ بيانَ أَنَّ كلَّ نَفْسٍ سَتَكُونُ رهينَةً مَحْبُوسةً يَوْمَ الدِّين، بما كسبَتْ في الحياة الدنيا من جرائم كبريات، باستثناء المؤمنين أصحاب اليمين، الَّذِينَ يأخذونَ صحائفَ أعمالهم بأيمانهم، فهم في جنّاتِ النعيم.

وفي هذا الدّرْس تقديمُ لوحةٍ تُصوِّرُ حواراً يجري بين أصحاب الجنَّةِ وَبين أصحاب النَّار، بوسيلَةٍ ما تجعلهم يتخاطَبُونَ وَهُمْ في مواقعهم من دار العذاب أو دار النعيم، فيجيبونهم على أسئلتهم.

وفي الدرْس تعقيبٌ بأنّ الكافرينَ أهْلَ النّارِ لا يكونُ لَهُمْ أَمَلٌ بالخلَاصِ ممّا هُمْ فيه من عَذَابٍ عن طريقِ أَعْمَالِهِمْ وَمَا قَدَّمُوا في الحياة الدُّنيا، ولم يَبْقَ لهم إلاّ الطَّمَعُ بأنْ يَجِدُوا مَنْ يَشْفَعُ لهم عند رَبّهم، ولكنَّ النّصّ يبيّنُ أَنَّ شفاعَةَ الشافِعينَ لا تَنْفَعُهُمْ، ولو وَجَدُوا مَنْ يَشْفَعُ لَهُم.

وقد دلَّتْ نصوصٌ أخرىٰ علىٰ أنَّه لا يشفَعُ أحَدٌ عِنْدَ اللَّهِ يوم الدِّينِ إلاَّ بإذنه، فلا أَمَلَ لهم بشفاعةٍ مطلقاً، فَقَدْ كانوا في الحياة الدّنيا كفَرَةً مُكَذِّبينَ.

**الدرس الخامس**: الآيات من (٤٩ ـ ٥٦):

تضمَّن هذا الدرس معالجةَ الكافرين، بطرح التعجيب مِنْ إعراضهم عن بيانات اللَّهِ في القرآنِ الّذي يُنزّله على رسوله، وعن بيانات الرسولِ الَّذي يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ وَيَشْرَحُ ما أنزل عَلَيْه، مع أنَّ دَعْوَةَ الرَّسُولِ لهم لا إكْراهَ فيها ولا قَهْرَ، بَلْ هي مُجَرَّدُ تَذْكِرَةٍ بيانيَّةٍ للإقناع بمضمونها فمن شاء أنْ يُؤمن بها فلْيُؤمِن إذْ هو ممكَّنٌ من أن يؤمن باختياره الحرّ، ومن شاء أن يكفر بها فَلْيَكْفُرْ، إذْ هو مُمَكَّنٌ من أن يكفر باختياره الحرّ، ولكن عليه أن يتحمَّل نَتِيجة اختياره الكُفْرَ عذاباً أليماً خالداً في دار العذاب النار، في طبقة «سقر».

وتضمَّن هذا الدرسُ بيان سببِ إعراض المكذِّبين وَتكْذِيبهم رسولَ رَبّهم، وهو الكِبْرُ في نفوسهم عن اتّباع الرسولِ الذي اصطفاه الله رسولاً ليبلّغ رسالاتِه لعباده، وعَدَمُ خَوْفِهِمْ من عذاب اللَّهِ يوم الدِّين، لأنّهم لا يؤمِنُون بالآخِرَة.

وأخيراً أبان هذا الدرس أَنَّ القرآن لا يتضَمَّن سوقاً بالإجْبار والإكْراه، وإنّما يتضَمَّن تَذْكِرَةً فِكْرِيَّةً لمن شاء أَنْ يتذكَّر.

فمن شاء باختياره الحرّ وضَعَهُ في ذاكِرَته واستفاد من بياناته وعِظَاتِه وما فيه من وعْدٍ ووعيد، وترغيبٍ وتَرْهيب.

❁ ❁ ❁

## (٥)
# التدبر التحليلي للدرس الأول

### الآيات من (١ ـ ٧)

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

**تمهيد:**

هذه الآيات القصار عناوين موضوعاتٍ طِوالٍ تحتاج شرحاً مستفيضاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ نِداءٌ مُوجَّهٌ مِنَ اللَّهِ عزَّ وَجلَّ لِلرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ، بَعْدَ أَنْ فَزِعَ من مشاهدةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ قاعِداً عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، لمَّا سَمِعَ صَوْتاً من السَّمَاءِ فَرَفَعَ بَصَرَه إلى جِهَتِهِ، فإذا الْمَلَكُ الذي جاءه بحراء، وأمْلَىٰ عليه الآيات الخمس من صدر سورة (العلق).

ومن شِدَّةِ فَزَعِ الرسول ﷺ هَوىٰ إلى الأرْضِ، فنهض وجاء إلى أهله مذعوراً، وَقالَ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، دَثِّرُوني.

فَدَثَّرُوهُ وَزَمَّلُوه، وقبعَ جالساً في بيتِهِ يتَرَقَّبُ الأحداثَ الَّتي ستأْتِيه من قِبَلِ رَبِّه، فجاءَهُ الوحيُ وقال لَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ حتَّىٰ قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

**المدَّثِّرُ:** أَصْلُهَا «المتَدَثِّر» أدْغِمَتِ التّاء بالدّال فصارتا دالاً مُشدَّدة.

يُقَال لغة: **تَدَثَّر يتَدَثَّر تَدَثُّراً،** إذا لَبِسَ الدِّثَار، أَوْ تغطَّىٰ بِه. **الدِّثارُ:** الثوب الذي يكونُ فوقَ الشِّعَارِ، ويُطْلَقُ أيضاً على الغطاء، ويجمع على دُثُر، أمَّا الشِّعَارُ فَهُو الثوب الذي يلي جَسَدَ الإنسان، دونَ ما سواه من الثِّياب.

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾: أي: يَا أَيُّها المتَدَثِّر بثيابه، القابع في بَيْتِه، الْمَذْعُور من رُؤْية الْمَلَكِ جبريل على هيئةٍ عظيمةٍ بين السّماء والأرض جالساً عَلَىٰ كُرْسِيٍّ، أَنْتَ مدْعوٌّ للقيام بمهمَّةٍ جليلةٍ خطيرة.

• ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾: أي: دَعِ الجلوسَ والسُّكُونَ قابعاً فِي دارِكَ عَنْد أَهْلِك، وقُمْ ناهضاً لِتُؤَدِّيَ وَظَائِفَ رِسالَتِكَ الّتي يكلّفُكَ رَبُّكَ أَنْ تُؤَدّيَها.

**فأنذِرْ**: الإِنْذَارُ: الإِعْلَامُ والإِخْبَارُ بعواقِبَ غَيْرِ سارّة، كَشَرٍّ قادم، أو عُقُوبَةٍ على مُكْتَسبٍ إراديّ من قولٍ أو عملٍ أو اعتقاد، وكذلِكَ التحذيرُ من مَخُوفٍ منْهُ ماديّ أَوْ معنويّ.

والإنذارُ بعقاب اللّهِ يوْمَ القيامة يكون بَعْدَ بَلاغِ مَسائل الدِّين للمنذَرين، وتَعْرِيفهم بأركانِ الإيمان، ودعوتهم إلى الإيمان بربِّهم لا شريك له، وإلى عبادته وحده لا شريك له، فإذا كذَّبَ المبلَّغُونَ رسُولَ ربّهم وكذَّبُوا بما يأتيهم به عَنْ ربّه أَنْذَرَهُمْ بعقابه يوم الدين.

لهذا كان علينا أن نفهم باللّزوم الْعَقليّ أَنّ جُمْلَةَ ﴿فَأَنذِرْ﴾ تَطْوي في داخلها جُملاً كثيرةً تَدُلُّ عَلَىٰ الوظَائفِ الّتي يجب على الرسول ﷺ أَنْ يقوم بها قَبْلَ الإِنْذَارِ، ولمّا كان الإنذار يأتي في آخِرِها بمقتضىٰ التَّسَلْسُل الفكريّ والتربويّ، كان الاقتصار على ذِكْر عبارة: ﴿فَأَنذِرْ﴾ دليلاً عليها.

أي: قُمْ فَبَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّكَ، واشْرَحْها، وأَقِمِ الدليل على عناصرها، للإقناع بها، وبيِّنْ للناس واجباتهم تُجاه ربّهم، وبشِّرْهم بالأجْرِ العظيم الذي أَعَدَّهُ لمن يستجيب لدعْوة الحقّ التي جئتهم بها، في جنات النعيم يومَ الدين، وأخيراً أَنذِرْ الكفرةَ المكذبين بعذابٍ أليم خالِدٍ في دار العذاب النّارِ يوْمَ الدِّين.

وهذا من الإيجاز بحذف ما يُعْلَم عن طريق اللُّزوم العقلي، نظيره أن يقول السلطان الكبير لوزير التموين عنده الذي أصدر قراراً بمنع زراعة

الشعير في ضاحية العاصمة والقرى من حولها: دَعْ خيولنا تأكُلُ من شعير هذه الضاحية وما حولها، أي: دع الناس يزرعون فيها الشعير، ويحصدونه، ويدرسونه، ويُذَرُّونه، ويجلبونه بالأوعية إلى العاصمة، ويبيعونه، لِنَشْتَرِي منه، ونُطْعِمَهُ خُيُولنا.

وهكذا نفهم قول الله لرسوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أي: انْهَضْ يا محمّدُ إلى أداء واجبات الرسالة التي اصطفاك الله ربُّكَ لها، وحمَّلك مهمّاتها، ومنحَكَ شرفها، فخصَّكَ من قومك بالوحي إليك، فإنّه لَيْسَ مِنْ شَأْنِ مِثْلِك وقَدْ كنْتَ مَشُوقاً إلى عودة الملَكِ بعْدَ أن فَتَرَ عَنْكَ، أنْ تُصَابَ بالفزع إذْ شَهِدْته على صورته العظيمة المالئة للأفق، فتذهبَ إلى أهلِك مذعوراً تقولُ زمّلوني زمّلُوني دَثّروني، قم يا محمّد، فبلّغ رسالة ربّك، وأدّ الأمانةَ الَّتِي حمّلَك إيّاها، فادعُ الناسَ إلى الإيمان بالله، وإلى توحيده، وإلى عبادته وحده، وطاعَتِهِ في أوامره ونواهيه، وبَشِّرْهُمْ بالسعادة الأبديَّةِ إذا استجابوا لدعوتك.

أمّا من أعرضَ، أو كذّبَ واستكْبَر فأنْذِرْهُ بعذاب اللّهِ وعقابِهِ في جهنَّمَ يوم القيامة.

ولمّا كان الإنذار بالعقاب يقع آخِراً بحسب مقتضيات الحكمةِ، بعْدَ التّبليغ والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظةِ الحسنة، والجدالِ بالّتي هي أحْسَنُ، حَسُن في إيجاز عنوان الموضوع للرسول ﷺ أن يقول له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

● قول الله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ أي: وخُصّ رَبَّكَ وحْدَهُ بالتّكْبِير والتعظيم، فَأَبِنْ أنّه هو الأكْبَرُ مِنْ كُلّ كبير، والأعْظَمُ منْ كُلّ ذي عِظَم، إذْ هُو خالِقُ كلِّ شيءٍ، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ أكْبَرَ وأعْظَم مِنْ كلّ شيء، واستُفيد هذا التخصيص من تقديم المفعول به «رَبَّكَ» على الفعل «كَبِّرْ».

والفاء في «فَكَبِّرْ» جيء بها للإشعار بأنّ الجملة واقعةٌ جواباً لشرطٍ محذوفٍ تقديره، ومهما يكُنْ منْ شيءٍ فكبِّرْ رَبَّكَ. أو: ومهما استَطَعْتَ في كلِّ أحوالك فكبِّر ربَّك.

هذه الآية يُمكن اعتبارُها عنواناً لكلّ مسائل الرُّبوبيَّةِ وقضاياها، ولكلّ صفات الرّبّ الخالق، إنّ تكْبِيرَ الرَّبِّ يتضمَّن بيانَ عظيم صفاته وأسمائه الحسنى، ويتضمَّنُ توحيده في رُبوبيّته الَّذِي يسْتَلْزم عقلاً توحيدَهُ في إلَهيته جلّ جلاله، ويتضمَّنُ كلَّ ما يَدْخل في إثبات الرُّبوبيّة الواحدة لله عزّ وجلّ من أدلّة، وكلَّ ما يدخلُ في إثبات صفات الرّبّ الخالق وأسمائه الحسنى، من أدلّة وحُجَج وبراهين، كلُّ هذا يمكنُ اعتبارهُ مشمولاً بعُنْوان: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾.

ومن تكبِيرِ الرَّبّ ذكْرُهُ القلبيُّ والنَّفْسِيُّ بالإجلال والتعظيم، وذكره باللّسان الذي هو إعلانٌ عمَّا في القلْب من اعتقادٍ نحو الرّب الخالق جلّ جلاله، ومن تكبيره إعلانُ عبارَةِ «اللَّهُ أكْبَر» الّتِي شُرِعَتْ فيما بَعْدُ لافتتاح الصَّلاةِ بها، وتَرْديدِها عند البَدْء بالركوع والْبَدْء بالسجود، والبدء بالرفع منه، وشُرِع إعلانُها في الأذانِ والإقامة، وفي صلاتي العيدين وخُطْبَتَي كلٍّ منهما وفي غَيْر ذلِك، فشعارُ هذا الدِّين: «اللَّهُ أكْبَر» وعبارة الدخول فيه والانتماء إليه: لا إلَه إلاَّ الله محمَّدٌ رسول الله.

ونلْمَحُ في هذِه الآية التَّوطئةَ والتمهيدَ لكلّ هذا الذي شُرِعَ فيه تَرْدِيدُ عبارة: «الله أكْبر» مع التوجيه للتأَمُّل والتَّدَبُّرِ في مضمون هذا الشعار العظيم دواماً، فبملاحظة أنَّ اللَّهَ جَلَّ جلالُه أكْبَرُ مِنْ كُلِّ شيء تَتَصَاغَرُ في نفوس المؤمنين به السماوات والأرض وسائر مخلوقات الله، ويتصاغَرُ الطُّغاة والجبابرةُ والعظماء من الإنسِ والجنّ، وتتضاءَلُ الْمُرْعباتُ والمخيفاتُ والأهوالُ العظمَى، إذْ هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِه، وَمظاهِرُ لتصاريفه في كونه،

وبالانتماء إليه، والالتجاء إليه، والاستعَاذَةِ به، يحْصُلُ الأَمْنُ في القلُوب والسّكينَةُ في النفوس، والاعْتِزَازُ بسلطانِه وهيمنَتِه على كلِّ شيء، فَمَهْمَا يكُنْ شيءٌ في الوجُودِ كبيراً فاللّهُ أكْبر.

● قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي: ومهما استطَعْتَ في كلّ أحوالك فطَهِّرْ ثِيَابَكَ، وخُصَّهَا بالعناية بالطّهارة، لأنّها مصاحبَةٌ لكَ، أمّا تَطْهِيرُ الأماكِن والمجالِسِ ولا سيما المساجدُ ومواطِنُ العبادة فقد جاء التوجيه له فيما بَعْدُ.

والأمْرُ بطهارة الثياب يتضَمّن الأمْرَ بطهارة لابِسيها، إذْ طَهَارَةُ أبدانهم أولى من طهارة ثيابهم، فإذا أُمِرَ الإنسان بطهارة ثَوْبه فهو مأمورٌ بطهارة جسمه من باب أولى.

وقد نفهم من هذه الآية الأمْرَ الترغيبيَّ بطهارة الثياب بصورة عامّةٍ ولَوْ في غير الصَّلاة.

هذه الآية يُمْكن اعتبارها عنواناً للطهارة المادّيَّة منْ كلّ النجاسات، إذِ الطهارةُ من العناصر الأولى في السُّلُوكِ الدينيّ للإنسانِ المسلم، ومعلومٌ أنَّ الرسول في أُمّتِهِ أوّلُ المؤمنين وأوّل المسلمين، فهو أوّلُهُمْ تكليفاً، وأوّلهم حرصاً علَىٰ تطبيق ما أَمَرَ اللّهُ به أو نهىٰ عنْهُ إلْزاماً أوْ تَرْغيباً.

وقد جاء في بيانات الرَّسُول ﷺ بعد هذا التوجيه الرّبّاني للطهارة بِعِدَّة سنين، قولُهُ: «الطّهورُ شَطْرُ الإيمان» إلاَّ أنَّ هذا الحديث يشْمَلُ الطهارة من النجاسات المادّيّة، والطَّهارَة مِنَ النجاساتِ المعنويَّة، كالشِّرْك وارتكاب الكبائر الّتي أبان الله عزّ وجلّ أنّها رجْسٌ من عمل الشيطان.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ بضمّ راء «الرُّجْز» في قراءة حفص عن عاصم، وأبي جَعْفَرَ، ويَعْقُوب، وبِكَسْرِ الرّاءِ «الرِّجْزِ» في قراءة باقي القراءات المتواترات.

وجاء في تفسير «الرُّجزِ» بضَمِّ الرَّاءِ أَنَّهُ عبادةُ الأَوْثَان، أمّا «الرِّجْزُ» بكسر الراء، فقد أخرج ابن جرير وابْنُ أبي حاتم عن ابْنِ عبّاس قال: «كُلُّ شيءٍ في كتاب الله من الرِّجْزِ يَعْنِي به الْعَذاب».

وأخرج مسلمٌ وغَيْرُهُ من حديثِ أسامة بن زيد، وسَعْد بْنِ مالِكٍ، وخُزَيمَةَ بْنِ ثابتٍ، قالوا: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وبَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ».

والْهَجْرُ أَبْلَغُ من التَّركِ، إِذْ فيه معْنَى الابتعاد عن مواطنِ المهجور.

أمّا هَجْرُ «الرُّجزِ» بمعْنَىٰ عبادةِ الأَوْثَانِ فَهُو ظاهرٌ، وخِطَابُ الرَّسُولِ بهذا هو في الحقيقةِ خطابٌ لكلِّ فردٍ من أفرادِ الأمَّةِ الّتي يُوجّه لها دعوته، لأنَّهُ ﷺ كانَ هاجراً لَهَا، فلَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ عَبَدَهَا أوْ عَبَدَ شيئاً منها على طريقةِ مُشْرِكي قومه، ولا يُعْقَلُ أن تحدّثه نفسه بعبادتها بعد اصطفائه بالنبوة والرسالة.

وأمّا هَجْرُ «الرِّجْزِ» بكَسْرِ الرَّاءِ الذي هو بمعنى العذاب، فالمرادُ من هَجْرِهِ هَجْرُ كُلِّ اعتقادٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ منْ شأنِهِ أَنْ يُفْضِي إلى سَخَطِ اللَّهِ وعَذَابه، فمعنَىٰ هجْرِ العذابِ هَجْرُ أسْبابه.

فالأمْرُ بِهَجْر الرِّجْزِ «بكسر الراء» معناهُ الأمْرُ بهجر المعاصي والمخالفات المسبّبة لعذاب الله.

وهذا الخطابُ موجَّهٌ في الحقيقة لكلِّ فردٍ من أفراد الأُمَّةِ التي يوجَّهُ لها دَعْوَتَهُ، إذ الرَّسُولُ ﷺ معصومٌ عَنِ المعاصي، إلاَّ أَنَّ له نصيباً من هذا التكليفِ في حدود مرتبتي البرِّ والإحسان وكلِّ ما لا يتعارضُ مع العصمة.

● قول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾.

**المنُّ**: الإنعامُ والإحسان، يقال لغة: منَّ فلانٌ على فلان إذا أنعم عليه نعْمةً طيّبة.

تَسْتَكْثِر: أي: تَطْلُبُ لنفسك الكثرة.

والمعنى عند جمهور أهل التفسير من السَّلَف: لا تُعْطِ العطيَّةَ ملتمساً ممَّنْ أعطيته أن يعوِّضَك أكثر منها وأفضل.

وعلى هذا فالآيَةُ تتضَمَّنُ أصْلاً عظيماً من أصول الأخلاق الاجتماعية، الّتي جاء بها الإسلام، إذ المطلوبُ من المسلم أن يُعامل ربَّه من خلال معاملة عباده، لا أن يُعامِل العباد بالمعروف طالباً منهم المكافأة، فذلك يُحْبِط عند الله عمله، ويخيِّبُ أَمَله.

أقول: إنّ النَّهْيَ عن الاستكثار عِنْدَ المنِّ يُشْعِر ضِمْناً بالتَّرغيبِ في المنِّ على عباد الله، ولكِنْ دُونَ طلَبِ الكَثْرة من جِهتِهِم، لأنَّ طلَبَ الكَثْرَةِ مِنْ جِهَتِهِم تُحْبِطُ فضيلَةَ المنِّ، فَيُحْرَمُ المنعِم من ثواب اللَّهِ على العمل الذي قامَ به، والترغيبُ في المحافظة على ثواب اللَّهِ على عَمَلٍ مَا يَتَضَمَّنُ التَّرغيب في أصل العمل الذي يُثيب اللَّهُ عليه، وعلى هذا تكونُ العبارة بمعنَىٰ: امْنُنْ على عِبَادِ اللَّهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ مِنْهُمْ ثواباً وَلاَ رِبحاً.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ أي: وَلأَجْلِ ابتغاء مرضاة رَبِّكَ وَثَوابِهِ وحْدَهُ لاَ شريكَ له فَاصْبِرْ علَىٰ القيام بالأعمال المطلوبة منك في حياتك، وعلَىٰ تَرْكِ ما تحبُّ وتهوى وتشتهي ممَّا نهاكَ الله ربُّكَ عَنْهُ.

والفاء في «فاصْبِر» نظيرها في: «فكبّر ـ فطَهِّر ـ فاهْجُرْ» واقعة في جواب شرط محذوف، ويمكن تقديره نظير ما سبق بيانه في: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

وهذه الآية: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ تتضَمَّنُ بيانَ أصْلٍ عظيمٍ من أصول الأخلاق في الإسلام، وهو الصَّبْرُ ابتغاء مَرْضاة اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ولمَّا كانَ هذا الدرسُ الأولُ من دروس السورة مُوجّهاً بالدَّرَجَةِ الأولى

للرَّسُولِ مُحَمَّد ﷺ، وقد جاء في الآية الثانية منه تكليفُهُ أن يبلّغ دين ربِّه، وَأن يقومَ بوظائفِ رسالته حتَّىٰ الفقَرة الأَخِيرَةِ مِنهَا، وَهي إِنْذَارُ من كذَّبَهُ وكذَّبَ بما جاء بِهِ عَنْ رَبِّه، ولم يستجب لدعوة الحق الرَّبَّانِيَّةِ الّتي حَمَلَها للناسِ نبيًّا ورسُولاً.

ولمَّا كان من شأن الأكثر من النّاس أن يقابلوه بالتكذيب والإعراض والإدبار، وأنْ يُوجِّهُوا له الاتِّهَامات والشتائم وأنواع الأذَىٰ، في حروب دعائيَّة، ثُمَّ في حروبِ عسكريَّة.

كان من الحكمة الرَّبّانيَّة أنْ يُوجِّه الله لَهُ مع بدايات تكليفه أن يقوم بأداء وظائف رسالَتِه، الأَمْرَ بأنْ يَصْبِرَ لأَجْلِ مَرْضَاةِ رَبِّه، غيْرَ مُبَالٍ بالنَّاسِ، وَلا مُكْتَرِثٍ لمَا يَنَالُهُ مِنْ جهَتِهِم مِنْ مكْرُوهٍ وأنواعٍ مِنَ الأذىٰ المعنويّ أو المادّيّ.

❁ ❁ ❁

## (٦)
## نظرة إجمالية عامة إلى الدرس الأول

● لقد كان الوحيُ إلى الرسول ﷺ في غار حراء أوّل الأمر، فأنزل الله عليه الأمر بالقراءة، والأخذ بوسائل العلم والمعرفة.

● ثمَّ انقطع عنه الوحي لاستثارة أشواقه إليه.

● ثم ناداه جبريل من جهة السماء فرفع بصره إليه، فرآه على هيئة عظيمة جدّاً جالساً على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فنالَهُ من هذا المشهد ذُعْرٌ أسقطه إلى الأرض، ورَجَع إلى أهله يقول: زمّلوني دثّروني.

كلُّ هذا كان من التربية الرّبانيّة له، والإعداد والتهيئةِ النفسيةِ لتلقّي مهمّات رسالته الّتي يجب عليه أن يحْملَها للناس.

● ثُمَّ كان من الحكمة أَنْ يُنَزِّل الله عليه نجماً قُرْآنيًا يتَضَمَّنُ تكليفَهُ أَنْ يَحْمِلَ رسالَةَ رَبِّه ويقوم بوظائِفها في الناسِ، حتَّىٰ آخِرِ وظيفَةٍ من وظَائِفها وهي توجيه الإنْذار للمكذبين الذين يُصِرُّونَ على رفض الاستجابة لدعوته، على الرُّغْمِ من استخدام كلّ وسائل الاقناع والتربية والعلاج النفسي.

ويتضَمَّن هذا النَّجْمُ أيضاً بيان بعْضِ المبادئ الكليّة العامّة لهذا الدين، على شكْل عناوين كبرى لموضوعات سيأتي في مراحل التنزيل القرآنيّ والبيان النبوِيّ تفصيلها.

**الموضوع الأول**: عنوانه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

**الموضوع الثاني**: عنوانُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾.

**الموضوع الثالث**: عنوانه: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾.

**الموضوع الرابع**: عنوانُه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾.

**الموضوع الخامس**: عنوانُه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾.

هذه الموضوعات يمكن شرحها وتفصيلها في بحوثٍ مستفيضة.

❁ ❁ ❁

## (٧)
## التدبّر التحليليّ للدرس الثاني

### الآيات من (٨ ـ ١٠)

قال الله عزَّ وجل:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

**الناقور**: الصُّور، وهو بوقٌ عظيم يُشْبِهُ الْقَرْنَ المجوَّف، ذكر المفسّرون أنَّه قَرْنٌ من نورٍ يُجْعَلُ فيه الأرْواح.

**نَقَرَ**: يأتي بمعنَىٰ: «صَوَّت» يُقالُ لُغةً: نَقَرَ فلانٌ بلسانِه، أي: صوَّت به. ويقالُ: نقر بالدّابَّةِ: أيْ: صَوَّتَ بها لتسير، ويُقالُ: نَقَرَ بفُلاَنٍ: أي: دعاهُ من بين القوم.

فالنَّقْرُ في الصُّور هو إطلاق الصوت منه، وهذا الإطلاقُ يكونُ بالنفخ.

هذه الأداة الرَّبَّانيَّةُ جَاءَ تسمِيَتُها هُنَا «النَّاقُور» وجاء تَسْمِيَتُها «الصور» في عشْرَةِ مواضع من القرآن الكريم، وجاء فيها بيانُ أنَّ إطلاق الصوت منه يكُون بالنفخ، فمنها قول الله عزّ وجلَّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

والملَكُ الموكَّلُ بالصور الذي ينفُخُ فيه بأمْرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ هُوَ «إسرافيل» عليه السلام، وهو ينفخ فيه النفخة الأولى لقيام السّاعَة الأولى الّتي تموتُ بها الأحياء، والنفخة الثانية لقيام السّاعَةِ الثانية الّتي يُبْعَثُ بها الخلائقُ إلى الْحَياة مرَّةً أُخرَىٰ، لاستكمال الخطّةِ الرَّبَّانيَّةِ المقرّرة للحياتين، في الدُّنْيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دار السّؤال والحساب وفصْلِ القضاء وتنفِيذِ الجزاء.

والمرادُ من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ النفخةُ الثانيةُ الّتي تنطلق بها الأرْواح إلى أجسادها عِنْدَ البعث إلى الحياة الأخرىٰ للمحاسبة وفصل القضاء والجزاء.

ودلَّ علَىٰ النَّفْخَتين قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

● ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ أي: فإذا نُفِخَ في الصُّور فأطْلَقَ صَوْتاً عظيماً لبَعْثِ الأحياء وإعادة الأرْواح إلى أجسادها يوم القيامَة.

● ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: فذلِكَ اليومُ الّذِي تُبْعَثُ فِيه الأحْيَاءُ للمحاسبة وفَصْل القضاء والجزاء، يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَىٰ الكَافرين، غَيْرُ يَسِيرٍ، إذ فيه شدَّةٌ وهَوْلٌ على الكافِرين.

**عَسِيرٌ**: صَعْبٌ شَدِيد، يُقَالُ لُغَةً: عَسُرَ ـ عَسِرَ ـ عَسَرَ الأمْرُ أو الزَّمَانُ يَعْسُرُ ـ يَعْسِرُ عَسْراً وعَسَراً وعُسْراً وعُسُراً وعَسَارَةً، أي: اشْتَدَّ وصَعُبَ، فهُوَ عَسِيرٌ وَعَسِرٌ. فالْعَسِيرُ ضدُّ الْيَسير.

وفي بيان كون هذا اليوم عَسِيراً على الكافرين دلالةٌ على أنّ الله عزّ وجلَّ يُيَسِّرُ أَمْرَ هذا اليوم الْعَصِيبِ على المؤمنين.

وجاء في بيان أنّ يوم القيامة يومٌ عَسِيرٌ على الكافرين، نصَّان آخران:

فجاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن يوم القيامة:

﴿...يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

**إلى شَيْءٍ نُكُرٍ**: أي: إلى شيءٍ شديدٍ صَعْبٍ، هُو الحسابِ لفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء، ﴿نُّكُرٍ﴾ بضم الكاف قراءة جمهور القرّاء، وقرأ ابْنُ كثير: [نُكْرٍ] بإسكان الكاف.

**مُهْطِعِين**: خاضعين أذلاّء يَنْظُرُونَ بانكسارٍ.

وجاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن يوم القيامة أيضاً:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

هذا الدّرس من دُرُوسِ السورة قَدَّمَ لَقْطَةً بيانِيّة من لقطاتِ يَوْمِ الدِّين، فأبانَ أَنَّهُ يكون بَعْدَ نَفْخَةٍ في النّاقور الذي هو الصُّور، وأنَّهُ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَىٰ الْكافِرين.

وقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ جاء تأكيداً لمعنَىٰ ﴿عَسِيرٌ﴾ وهذا الأسلوب من التأكيد هو من قبيل تأكيدِ الشيء بنفي نقيضه أَوْ ضدِّه، نظير قولهم: منحْتُكَ كذا عاجلاً غير آجل، ومنه: حيٌّ غير ميّت، وموجودٌ غير معدوم.

وهو في المعنىٰ مُرْتَبِطٌ بما جاء في الدرس الأوّل من دُرُوسِ السورة، من تكليف الرَّسُولِ أَنْ يُنْذِرَ المكذّبين، الّذِين يُصِرُّونَ على رفْضِ الاستجابَةِ لدعوة الحق الرَّبَّانيَّةِ الّتي جاءهم بها، ودَعاهم إلى الإيمان بقاعدتها الإيمانية، والإسلام والطاعة لأوامر الله ونواهيه فيها.

❁ ❁ ❁

## (٨)
## التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث

### الآيات من (١١ ـ ٣٧)

قال الله عزّ وجل:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا
ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا
لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

## مَا وَرَدَ في سَبَبِ النزول:

(١) جاء في سيرة ابنِ هشامٍ عمّا رواه ابْنُ إسْحاق:

أنّ الوليد بْنَ المغيرة اجْتَمَعَ إليه نَفَرٌ مِنْ قُريش، وَكانَ ذا سِنٍّ فيهم، وقَدْ حَضَر الْموسِمُ[1]، فقال لهم: يا مَعْشَر قُرَيْش، إنَّهُ قَدْ حَضَرَ هذا الموسم، وإنّ وفودَ الْعَرب ستَقْدَمُ عَلَيْكُم فيه، وقَدْ سَمِعُوا بأمْرِ صاحِبِكُمْ هذا، فأَجْمِعُوا فيه رأياً واحداً، ولاَ تَخْتَلِفُوا فيُكَذِّب بَعْضُكُمْ بعضاً، ويَرُدَّ قولكُم بعضُه بعْضاً.

قالوا: فأنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْس، فقُلْ، وأَقِمْ لَنا رأْياً نَقُلْ به.

قال: بلْ أنْتُم فقولُوا أسْمَعْ.

قالوا: نقولُ: كاهنٌ.

قال: لاَ واللّهِ ما هُوَ بكاهِنٍ، لقَدْ رأيْنا الكُهّانَ فما هُوَ بِزَمْزَمَةِ[2] الكاهن وَلاَ سَجْعِه.

قالوا: فنَقُولُ: مَجْنُون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فَمَا هُوَ بخَنْقِه، وَلاَ تَخالُجِهِ، ولاَ وَسْوَسَتِهِ[3].

---

(١) أي: موسم الحج.

(٢) **الزمزمة**: الكلام الخفيُّ الذي لا يُسْمَع.

(٣) **الْخَنْق**: عصر الحلْق. **التخالُج**: التحرُّك والاضطراب بدون اتّزان. **الوسوسة**: التكلّم بكلامٍ خفيّ مختلط غير ظاهر الدلالات.

قالوا: فنقولُ: شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقَدْ عَرَفْنَا الشّعْرَ كلَّه، رجَزَهُ، وهَزَجَهُ، وقَرِيضَهُ، ومَقْبُوضَهُ، ومَبْسُوطَهُ[1]، فما هو بالشّعر.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّارَ وسِحْرَهُمْ، فما هُوَ بنفثهم، ولا عَقْدِهِم.

قالوا: فَمَا نقول: يا أبا عَبْدِ شمس؟

قال: واللَّهِ إنَّ لقولِهِ لحلاوَةً، وإنَّ أَصْلَهُ لَعَذَق[2]، وإنَّ فَرْعَهُ لَجَنَاة، ومَا أَنْتُمْ بقائلين من هذا شيئاً إلاَّ عُرِفَ أنَّهُ باطل، وإنَّ أَقْرَبَ القولِ فِيه لأنْ تَقُولُوا: ساحِرٌ، جاء بقولٍ هو سِحْرٌ، يُفَرِّقُ بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُلِ الناس حينَ قَدِموا المَوْسِمَ، لا يمُرُّ بهِمْ أحَدٌ إلاَّ حذّروه إيّاه، وذكروا له أمْرَه، فأنْزَل الله تعالى في الوليد بن المغيرة:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ...﴾ الآيات حتَّىٰ قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

وجاء الوعيد الرّبّانيّ له ولأمثاله في الآيات من (٢٦ ـ ٣٠).

(٢) وجاء عند الطبريّ عَنْ عِكْرِمة، أنّ الوليد بن المغيرة جاء إلَىٰ

---

(١) **الرَّجز**: بحرٌ من بحور الشعر على وزن «مستفعلن ست مرات» **والْهَزَجُ**: بحر آخر على وَزن «مفاعيلن ست مرات» **القريض، والمقبوض، والمبسوط**: لعلّها أنواع من بحور الشعر كانَ العرب يسمونها بذلك.

(٢) **العذَق**: النخلة. وفي رواية: لغَدَق، أي: لذو ماء كثير.

النبيّ ﷺ، فقرأ عليه الْقُرآنَ، فكأنّه رقّ له، فبلَغَ ذَلك أَبَا جَهْلٍ، فقال: أيْ عمّ، إنَّ قَوْمَكَ يُريدُونَ أنْ يجمعوا لكَ مالاً، قال: لِمَ؟. قَال: يُعْطُونَكَهُ، فإنَّكَ أَتَيْتَ محمّداً تتعرَّضُ لما قِبَلَهُ. قال: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنّي أكْثَرُها مالاً. قال: فقُلْ فيه قولاً يَعْلَمُ قومُكَ منهُ أَنّكَ منكِرٌ لما قال، وأنّكَ كارِهٌ له، قال: فما أقول فيه، فوالله ما منكم رجُلٌ أعْلَم بالأَشعارِ مِنّي، وَلاَ أَعْلم برجزه منّي، ولا بقصيدِه، ولا بأشعار الجنّ، واللّهِ ما يُشْبه الذي يقولُ شيئاً منْ هذا، ووالله إنَّ لقَوْلِه لَحَلاَوَةً، وإنّه ليَحْطِمُ مَا تَحتَه، وإنَّهُ لَيَعْلُو وَلاَ يُعْلَىٰ. قال: واللّهِ لاَ يَرْضَىٰ قَوْمُكَ حتَّىٰ تقول فيه. قال: فدعْنِي حتَّىٰ أُفَكِّرَ فيه، فلَمَّا فكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحرٌ يَأْثُرُهُ عن غَيْرِه، فنزلَتْ: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ⑪ . . .﴾ الآيات.

(٣) وجاء عند الطبريّ أيضاً عن ابن عباس، قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قُحافَة ـ رضي الله عنه ـ يَسْأَلُهُ عن القرآن، فلَمَّا أخبره خرج على قريش، فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشَة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسِحْر، ولا بهَذْي من الجنون، وإنّ قوله لَمِنْ كلام الله، فلمَّا سَمِعَ بذلك النَّفر منْ قريشٍ ائْتَمَرُوا وقالُوا: واللّهِ لَئِن صَبَأَ الوليد، لتَصْبَأَنَّ قريش.

فلمّا سمع بذلك أبو جهل قال: أنا والله أكفيكُمْ شأنه، فانطلق حتّىٰ دخَلَ عليه بيته، فقال للوليد: أَلَمْ تر قومك قد جَمَعُوا لكَ الصَّدَقَة؟

قال الوليد: أَلَسْتُ أكْثَرَهُمْ مالاً وَوَلَداً؟

فقال له أبو جهل: يتحدّثونَ أَنَّكَ إنَّمَا تَدْخُلُ على ابْنِ أبي قُحافَةَ لتُصِيبَ من طعامه.

قال الوليد: أَقَدْ تَحدَّثَتْ بِهِ عَشِيرَتي، فلا واللّهِ لاَ أَقربُ أبا بكر ولا عُمر ولا ابْنَ أبي كبْشَة، وَمَا قولُهُ إلاّ سِحْرٌ يُؤْثر، فأنزل الله على نبيه ﷺ:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ . . .﴾ - إلى - ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

إلى غيرها من روايات تؤكّد أنّها نزلَت الآيات بمناسبة ما كان من الوليد بن المغيرة، ووعيده بعذاب اللّهِ في سَقَر.

أقول: ويُلْحَق بالوليد من كان مثْلَهُ في كفره وعناده، ومخالفته لقناعاته، وإصراره على الباطل، على الرّغم من وضوح الحق له، فسُنَّةُ الله في عباده واحِدَة.

وقد جاء هذا الدّرْسُ الثالث موصولاً بالدرسَيْن السابقَيْن، منْ جهة تضمُّنهما إنذار المكذبين المعاندين، وعلاجاً تربويّاً لبَعْض كبرائهم وَأئمتهم في مكّة إِبَّان تَنْزِيل السُّورة، مع علاج تَرْبوي للرسول وللدعاة من أُمَّتِه.

- قولُ اللّهِ عزَّ وجلّ:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾

أي: دَعْنِي مع مَنْ خَلقْتُهُ وحيداً لا أنصَارَ لَهُ وَلاَ أَبْنَاءَ ولا أعوان، ولا مالَ ولا قوّة، فَأنا الّذي أَمْدَدْتُه بذلك، وأَنا القادر على تجريده من كلّ شيء، حتّىٰ أجْعَلَهُ وَحِيداً كمَا بدأَتْ مَسِيرَةَ حياته.

هذا الأسلوبُ من التعبير يَتَضَمَّنُ تَهْدِيداً وَوَعِيداً شَدِيداً لِمَنْ يُرادُ تهديدُهُ ووعِيدُه، وهذا التهديد مُوجَّهُ من الرّبّ الخالق جل جلاله، لا من الرّسول ﷺ.

ويتضمّنُ أيضاً وَصِيَّةً للرَّسُولِ ﷺ، ويُلْحِقُ به المؤمِنُون، ويلحق به كُلُّ داعٍ إِلَىٰ اللّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، إِذَا وَاجَهَ مَنْ يُعَانِدُ ويكابِرُ ويَقِفُ في سبيلِ الدَّعْوَةِ صاداً مُعَارضاً مُقَاوماً بحرْبٍ إعلاميَّةٍ، أَوْ حَرْبٍ جَسَدِيَّةٍ إِيذَائِيَّة، إذا كان في مِثْلِ المرحَلَةِ الّتِي نزَلَ فيها هذا النّصّ على الرسول ﷺ.

هٰذِه الوصيَّةُ تقولُ للرَّسول: دَعْ مواجهة هذا الصنف من الجاحدين المعاندين، فلا تتصارعْ معه صراعاً كلاميًا ولا صراعاً جَسَدِيًا، بَلْ تابع

مسيرتَكَ في دعوتِكَ دُونَ أَنْ تَشغَلَكَ مُصَارعَتُه عن القيام بواجبات رسالَتِك التبليغيَّةِ البيانيّة والإقناعيَّة والترغيبيَّةِ بثواب الله والترهيبيَّة من عقابه، فأنْتَ في المراحل الابتدائيَّة لمسيرة دعوتك لا ينبغي لكَ أن تَشْغَلَكَ المصارعة، إذْ تُعَوِّقُ مَسِيرتَك، ورُبَّما تؤلّبُ عليك جماهير الناس، فَتُوقِفُ حركتك في القيام بوظائف رسالَتِك.

وهذا المعنى مُرْتبطٌ بقول الله عزّ وجلَّ في الدرس الأول: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

﴿ذَرْنِى﴾: بمعنى: دَعْنِي، واتْرُكْنِي، وقد استعمل العربُ من هذه المادّة المضارعَ والأمرَ، فقالوا: «يَذَرُ» بمعنى يَدَعُ ويترك، وقالوا: «ذَرْ» بمعنى دَعْ واتْرُك، أمّا الماضي: «وَذِرَ» والمصْدَرُ: «وَذْراً» فقد أهْمَلوا وأماتوا استعمالهما، إلاّ نادراً.

﴿وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾: أي: ومن خلقْتُهُ حالة كونِهِ وَحِيداً لا نَصِيرَ له وَلا مُعِينَ ولاَ شيءَ يَعْتَزُّ به، وتدُلُّ هٰذِه العبارة باللُّزوم الذّهْنِي على مَعْنَىٰ: وَبَعْدَ ذَلِكَ أَمْدَدْتُهُ بالأنصار والأعوان والأبناء والأموال، وأنا القادر على سَلْبِه ما أمدَدْتُه بِه، فلا تَشْغَلْ نفسَكَ بمقاومته ومقارَعتِه حتّىٰ آذنَ لَكَ.

**الوحيد**: المنْفَرِدُ بنفسِهِ، والأنْثَىٰ: وحيدة.

هذه العبارة تَنْطَبِقُ عَلَىٰ كلّ إنسان، وكلّ ذي حياة، وكلّ مخلوق، وقد جاءتْ هُنَا بمناسبة ما كان من الوليد بن المغيرة، فَهُو المقصودُ الأوّلُ مِنها، ويُلْحَق به مَنْ كانَ مثْله، فكُلُّ مخلوقٍ من الإنس والجنّ وغيرهِمَا قَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ عاجزاً فقيراً وَحيداً لا نَصِيرَ لَهُ ولا مُعِينَ، محتاجاً في أسباب حياته وبقائِه مَدَداً من قُوَىً غيبيَّةٍ غيرِ منظورة، لا يَمْلِكُ الإمدادَ بها إلاّ الرَّبُّ الخالق الّذي لا تراه الْعُيون، ولكن تُدْرِكُ العقول بعض صفاته من آثارها في خلقه.

وقد تكرّر استعمال هذا الأسلوب الّذي تضمَّنَ التَّهْدِيد للكافرين المكذِّبين، والوصيَّةَ للرَّسُولِ بترك مواجهتهم في صراعٍ كلاميٍّ أو جَسَدِيّ، في عدّة نصوصٍ نزلت في المراحل الأولى من مراحل الدعوة، قبل الإذْنِ بالقتال.

فجاء في سورة (المزّمل) قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

وجاء في سورة (القلم) قول الله عزّ وجلّ خطاباً للرسول ﷺ:

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

- قول الله عزّ وجل:

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾:

أي: وجَعَلْتُ له مالاً كثيراً، يَزْدادُ بالْمَدَدِ حِيناً فَحِيناً، فهو مالٌ يُزَادُ فِيه فينْمُو، كبِرْكَةِ الْمَاءِ يأتيها الْمَدَدُ من السواقي والأمطار، فلَهُ غَلَّةٌ من فيض عَطَاء الله.

يُقَالُ لُغَةً: مالٌ مَمْدُودٌ، أي: كثير. ويُقَالُ: مَدَّ فُلاَنٌ الشَّيْءَ إذَا زَادَ فِيه مَدَداً. الْمَدَدُ: مَا يُمَدُّ بهِ الشيء، كمَاءِ النَّهْرِ يُمَدُّ بماءِ السّواقي الَّتي تَصُبُّ فِيه، وكالجيْشِ يُضَافُ إِلَيْهِ مَدَدٌ من الجنود لتَقْويته، ويقال: مَدَّ الدَّواةَ، إذا زَاد مِدَادَها.

والمدّ أيضاً: التوسعة والإطالة والبسط، ومدَّ اللَّهُ الأرض يمُدّها مدّاً، أي: بسطها وجعل فيها خيراً كثيراً.

رُوي عن ابن عبّاس أنّه قال: كان مالُ الوليد بن المغيرة بين مكّةَ

والطائف من الإبل والغنم والعبيد والجواري والجنان، وكانت غَلَّةُ ماله أَلْفَ دينار (أي: في السنة)[١].

قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾:

أي: وجَعَلْتُ له بنين شاهدين حاضرين ليسوا غائبين عن مكان إقامَتِهِ، فَهُمْ أعوانه وأنصارُهُ يستعين بهم، ويستدعيهم لنصرته في كُلِّ وَقْتٍ يحتاج فيه إلى النُّصْرَةِ، ويعتَزُّ بهم ويفتخر إذْ هم شهودُ مجالسه.

**شُهُود**: جمع «شاهد» بمعنى «حاضر» غير غائب، ونظير هذا الجمع: «سُجُود» جمع: «سَاجد».

قيل: كان للوليد بن المغيرة عشرة بنين، وقيل: ثلاثة عشر ابناً، وكانوا يشهدون معه المحافل، فكانوا له عزّاً وفخراً، والمذكور منهم في التاريخ سبعة فقط.

- قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾:

**التمهيد**: البسط، والتسويَةُ والتسهيل، يقالُ لغة: مَهَّدَ الفراشَ أي: بسَطَهُ ووَطَّأَهُ، ومَهَّدَ الأرضَ، أي: سَوّاها وسَهَّلَ الجلوسَ أو المشي عليها، بإزالة ما فيها من منخفضات ومُرْتفعات، وأحجارٍ وصخور. ويُقَالُ: مَهَّدَ الأَمْرَ إذَا وَطَّأَهُ وسَهَّلَه.

**تمهيداً**: مفعول مطلق مؤكدٌ لفعله، وفيهِ معنى تحقيق التمهيد والعناية به.

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور.

ودلّت هٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ جَعَلَ بقضائِهِ وقَدَرِهِ أُمورَ الوليد بْنِ المغيرة مُيَسَّرَة سَهْلَةً، لاَ يَسُوؤُه فيها عُسْرٌ، ولا تَعْتَرِضُهُ فِيها عقباتٌ ولا مُشكلات، لِيَبْلُوَهُ فيما آتاه.

لكنَّهُ لم يَشْكُرِ الله على ما آتاه، بل جعَلَتْهُ النِّعَمُ الَّتِي أَوْلاَهُ اللَّهُ إِيَّاها يَزْداد كُفراً وعِناداً وطُغياناً، وكِبْراً وَعِصْياناً.

● قول الله عزَّ وجلّ:

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾:

**الطمع**: تعلُّق النَّفسِ بمِحْبُوبٍ لدَيْها مرغوبٍ فيه، مع رجاء حصوله.

وقد كان الوليد بن المغيرة يطمع بأنْ يزداد ما لَدَيْه من مالٍ وبنين وأنصارٍ وسائر محابّه من الحياة الدُّنيا، لأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ جعَلَ مطالِبَهُ من الحياة الدنيا ميسَّرَةً مُسَهَّلَة، لا عُسْرَ عليه في تحصيلها، إذْ مهَّدَ لَهُ سُبُلَه تمهيداً محقَّقاً زائداً عن نظرائه.

ولمّا كانت الزيادة من مطالب الحياة الدنيا لا تكون إلاَّ عطاءً من الرَّبِّ الخالق، كان من بيان الواقع أَنْ يَنْسُبَ اللَّهُ الزِّيَادَةَ إلىٰ نفسه، سواءٌ أكان الوليد من الّذِين يؤمِنُونَ بأنَّ الله هو المحقق لمطامعه مع شِرْكه بربه، أم كان من الذين يعتقدون بأنَّ الشركاء هي الّتي تُحقِّقُ له مطامعه، وفي هذا تنبيهٌ لَهُ ولنظرائِهِ على أنّ كلَّ مطالب الحياة لا يحقِّقُ شيئاً منها للعباد إلاَّ اللَّهُ الرَّبُّ الخالق.

وهذا الطمع الموجودُ عِنْد الوليد موجودٌ عِنْدَ كُلِّ طُلاَّب الحياة الدنيا وزينتها، ولا سيَّما الذين يُيَسِّرُ اللَّهُ أُمورَهم ويُمَهِّدُ لهم في الحياة سُبُل تحقيق مطامعهم العاجلة من دُنياهم، فالكلام الموجّه للوليد بن المغيرة مُوجَّهٌ ضِمْناً لأمْثالِه وَنُظَرائِه.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿كَلَّآ﴾ كَلِمَةُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ، مُوجَّهَة للوليد، والمزْجُورُ عَنْه الطَّمَعُ بالزِّيادة، وهٰذَا وعِيدٌ من اللّهِ لَهُ بأنّ اللّهَ لن يُحقّق لَهُ مطامعه الّتي يرجو تحقيقها في المستقبل.

وجاء تعليل هذا الرَّدْعِ والزَّجْرِ في قَوْلِهِ تعالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ هذا بيانٌ يتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ التعليل لما سبقه، فهي جملةٌ استئنافية لا محلَّ لها من الإعراب، والجملة التعليلية تأتي جواباً لسؤالٍ مقدّر، وتقديره هنا: لم هذا الردْع والزجر؟! والجواب: إنّه كان لآياتنا عنيداً.

**العنيد**: المستكبِر الذي يتجاوز الحدّ المألوفَ في العصيان، والذي يَجْحَدُ الحقَّ ويَرُدُّه ويخالِفُه مع أنّه يَعْرِفُ أنّه حقٌّ.

يقال لغة: عَنَدَ فلانٌ يعْنِدُ عَنْداً وعُنُوداً فهو عَانِدٌ وَعَنُودٌ وعَنِيدٌ.

لقَدْ دَلَّتْ روايات أسباب النُّزُول على أنّ الوليد بن المغيرة قد أَدْرَكَ عظمة ما سَمِعَ من آياتِ القرآنِ المجيد، وأنَّهَا لَيْسَتْ من قولِ البشر، وعبَّرَ عن دهشته، ولكنّه استكْبَرَ عن اتّباع الرسول ﷺ، وجَحَدَ أن يكون القرآن منزّلاً من عِنْدِ الله، وعانَدَ ما سَمِعَ من آياتِ الله، فخالَفَها وردَّهَا ورفَضَ الإيمانَ بها، وله نظراء من قومه كأبي جَهْل.

وقد جاءَتِ العبارةُ القرآنيّةُ المنزَّلَة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ بياناً مُطابقاً لواقع حاله، إنّه على الرغم من معرفته الحقّ جَحَدَهُ مُعَانداً له.

﴿لِـَٔايَٰتِنَا﴾ جار ومجرور معمولٌ لكلمة ﴿عَنِيدًا﴾ فهو متعلّق به، وقُدِّمَ لمراعاةِ رُؤُوسِ الآي، ولمراعاة أسْلُوبِ بناء الْجُمَل، وقَدْ يكُون لإرادة التخصيصِ أيضاً، فَهُو قَدْ خصَّ آيات اللّهِ بمعانَدَتها، مع أنّه لَيْسَ من طبعه

في قومه أن يُعَانِدَ، لئلاَّ يخْسَرَ مكانته الاجتماعيَّة فيهم، فقد كان في وقته ذا رياسة.

ثُمَّ لم تَطُلْ حيَاةُ الوليد بْنِ المغيرة، إذْ كَفىٰ اللَّهُ رسُولَهُ المستهزئين وأنْزَل عليه قوله في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

وكان الوليد أحَدَ أرْبَعةٍ أهْلَكَهُمُ اللَّهُ بإشاراتٍ أشَارَ بها جبريل عليه السَّلام إليهم وهم يطوفون، ورسُول الله ﷺ قائِمٌ إلى جنبه كما جاء في السِّيرة عند ابْن هشام، فقد جاء فيها أنَّ جبريل عليه السلام أشار إلى أثر جُرْح بأسفَلِ كعب رِجله، كان قد أصابه قبل سنتين، وليس بشيءٍ، فانْتَقضَ الْجُرْحُ فقتله.

ومن الحكمة التربويّة في حصر المواجهة بالوليد بن المغيرة إمام المعاندة في هذه المرحلة تخفيفُ نسبة الأعداء، وعدم إحراجهم أن يقفوا موقف العداء، ولعلّ فريقاً منهم يؤثر السلامة والتواري، أو يهتدي فلا يجد نفسه مُحْرجةً بالتنازل عن موقفه السابق.

● قول الله عزّ وجل:

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾:

هذه الآية تضمّنَتْ وَعِيداً للوليد بن المغيرة ولمن كان مثله في عناده لآياتِ الله بعذابٍ يوم الدين في جهَنَّمَ ذِي صفَةٍ خاصَّةٍ، وهو تَحْمِيلُهُ ما لا يُطِيقُ صاعداً على عَقَبةٍ كَؤُودٍ.

يقالُ لغة: أرْهَقَ فُلانٌ فلاناً إذا حمَّلَهُ ما لا يُطِيق.

**الصَّعُود**: العقَبَةُ الشَّاقَّة، والمشَقَّةُ، والطريقُ الصَّاعِدَة، ورُوي عن النبي ﷺ: «أنَّ الصَّعُودَ جَبَلٌ من نارٍ يُصْعَدُ فيه سبعين خرِيفاً، ثُمَّ يَهْوِي كذلِكَ مِنْهُ أبداً».

واللَّهُ أَعْلَمُ.

فمعنى «سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً» سأُحَمِّلُه مشقَّةً عظيمةً لاَ يُطِيقُ حملها. أو سأُحمِّلُهُ مشقَّةَ الارتقاءِ على عَقَبَةٍ شاقَّةٍ، أو طريقٍ صاعِدَةٍ، أَوْ جَبَلٍ من نارٍ على ما رُوي في الحديث.

ويقال: لَأُرْهقنَّك صَعُوداً: أي: لأُجشِّمنَّكَ مشقَّةً من الأمْرِ.

وهنا يَرِدُ سؤَالٌ وهو: لِمَ هٰذا التَّعْذِيبُ الشَّدِيدُ الَّذِي يُخَصُّ به الوليدُ ونُظَراؤه، وجاء الجوابُ في عِدَّةِ آياتٍ تُبيِّنُ عِلَّةَ تكليفهِ هذا العذابَ الشَّاقَّ، فهو جوابٌ مُسْتأنَفٌ يُبيِّن العلَّة، في القول التالي:

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾.

في هذِهِ الآياتِ وصْفٌ دقِيقٌ لِمَا كانَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ عظمة ما سَمِعَ من آيات القرآن المجيد، وأنّها لا يمكن أن تكون من قولِ البشر، بل هي تنزيلٌ من ربّ العالمين، ولكنّه جحدها وعاندها، ورفض أن يُؤْمِنَ بها مستكبراً عن اتّباع الرسول محمّد ﷺ، وأخذ يُفكِّرُ ويُقدِّر، ويُجْهِدُ نفسه في استدعاء الاحتمالاَتِ الَّتِي يُزَيِّفُ بها الحقيقة، لتقديم المقولَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أن تقْبَلَها الجماهِيرُ، وتُرَوِّجها لتَصُدّ الناس عن التَّأَثُّرِ بالقرآن، واتّباعِ محمّد ﷺ، والإيمان بهذا الدّين.

● ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨﴾:

فَكَّرَ: أي: أعْمَلَ فِكْرَه، واجْتَهَد في التفكير في مختلف الوجوه والاحتمالات، ليبتكر مَقُولةً يُزَيِّنُها وَيُزَخْرِفُهَا حتَّىٰ تكونَ مقبولة، لَدَىٰ

الجماهير، ومتضمِّنَةً وصْفَ آيات القرآن بوصْفٍ يُوهِمُ أنّها قولٌ بَشَرِيٌّ، وليس كلاماً مُنَزّلاً من لدن حكيم عليم.

**وقَدَّرَ**: أي: وتَمَهَّل، فلم يَتسَرَّعْ، يقالُ لُغَةً: قَدَّرَ فُلاَنٌ، إذا تمهَّل متفكراً في تَسْوِيَةِ أَمْرٍ وتَهْيِئَتِه، لكنّ تفكير الوليد وتقديرَهُ قَدْ كَانَا لإبطال الحقّ وإحقاق الباطل.

● ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: فَطُرِدَ طَرْداً مُمِيتاً على أَيَّةِ حالَةٍ كان عليها تفْكِيرُهُ وَتَقْدِيرُهُ، لأَنَّهُ قَدْ صَمَّم على تَسْخِيرِ ما وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ قُدْرَاتِ تفكيرٍ بأناةٍ وتَمَهُّلٍ لتَزْيين الكُفْرِ بآياتِ اللَّهِ.

**كيفَ**: اسم استفهام مبهم مبني على الفتح يُسْتَفْهَمُ به عن حالة الشيء، ومحلُّهَا النصب على الحال هنا، والعامل فعل «قَدَّرَ».

وتَرَيَّثَ طوِيلاً وَزادَ في تَمَهُّلِهِ وَتَفْكيرِه، فلم يخْرُجْ عمّا هو فيه من مُحَاوَلاَتٍ لتزيين الكُفْرِ بالقرآن، فاسْتَحَقَ أن تُكَرَّرَ لَهُ عبارَةُ الطَّرْدِ فقال تَعَالَىٰ:

● ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾.

وأضافَ تَرَيُّثاً وَتَمَهُّلاً، وهُوَ يَتفَكَّرُ وينْظُر نظراً فكريًا في الاحتمالاتِ الّتِي يُمكِنُ أَنْ يُزَيِّن بها باطِلَهُ، لإبعاد كون القرآن كلاماً مُنَزَّلاً من عند الله، ولِصَرْفِ هَذَا عَنْ تصوُّرَات جماهير قومه، فقال اللَّهُ تَعَالَىٰ كاشفاً هذا التريُّث المضاف ليُعَمِّق النَّظَر:

● ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ تأمُّلٍ طويلٍ ثبَّتَ نَظَرَهُ على فِكْرَةٍ رَجاءَ أنْ تكون مُقْنِعةً لدَىٰ جماهِيرِ قَوْمِهِ، على الرُّغْمِ من ضَعْفِها وَعَدَمِ كِفَايَتِها للإقْناعِ.

إلاَّ أَنَّهُ قَدْ أدرَكَ فِي قرارة قَلْبِهِ وَنَفسِه أنَّ الفكرةَ الَّتِي تَوَصَّلَ إليها وَرَأىٰ أنَّها أَقْرَبُ كلِّ الأفكار المحتملة للقبول، غَيْرُ كافِيَةٍ للاقناع بما يُرِيدُ اتِّهامَ القرآنِ به، فَظَهر أَثَرُ هَذا الذي اعْتلجَ في قلبه ونفسِه على وجْهِهِ، فعَبَسَ وبَسَرَ، وقَدْ كَشَفَ الله عزّ وجلَّ هٰذا مِنْ حالِهِ، فقال تَعالَىٰ:

● ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾

عَبَسَ: أي: جمع جِلْدَ مَا بَيْنَ عينيْهِ وَجِلْدَ جبهته، وتَجَهَّمَ، وهذا دَلِيلٌ على سَخَطِه وعدم رضاه، يقال لغة: عَبَسَ يَعْبِسُ عبْساً وعُبُوساً.

وبَسَرَ: أي: وكَلَحَ، يُقَال لغة: بَسَرَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ بُسُوراً، أي: ظَهر عليه الكَلَحُ، وهو شحوبٌ في الوجه، من أثَرِ الاستياءِ في النفس، ويُطْلَقُ الْبُسُورُ على العبوسِ.

ثم لمَّا لم يَجدْ فِكْرَةً مُضَلِّلَةً أكْثَر قبولاً مِنَ الْفِكْرَةِ الَّتي توصَّلَ إليها، أدْبَر واسْتَكْبَر، وقَدْ كشَفَ اللّهُ عزّ وجلَّ هذا من حالِهِ، فقال تَعالَىٰ:

● ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: أدبَرَ عَنْ مُتَابعَةِ النظر والتَّفَكُّر، إذْ لَمْ يَجِدْ مَا يُقنِعُ به أَقْوَىٰ ممّا تَوَصَّلَ إليه، واسْتَكْبَر عَنِ الإيمانِ بالقرآن وبالرسول محمّد ﷺ.

وعندئذٍ أعْلَنَ مقولَتَهُ الَّتِي تَوَصَّلَ إلَيْها فَقَالَ كَمَا جاءَ فِي الآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْن:

● قولُ الله عزَّ وجل:

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فقال الوليد بن المغيرة: مَا هَذا القرآنُ الذي يتْلُوهُ مُحَمَّدٌ إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ.

«إنْ» هُنَا أداةُ نفي مثل: «ما». ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا القُرآنُ. ﴿إِلَّا

يُؤْثَرُ ﴾ أي: إلاَّ كلامٌ هو من قَبِيلِ السِّحْرِ الَّذِي يُؤَثِّرُ فِي النفوس ويَسْتَوْلِي عليها.

﴿يُؤْثَرُ ﴾: أي: يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ القرون الأولى، والمعنَىٰ أَنَّ مُحَمَّداً وجَدَ وسِيلةً يَنْقُلُ بِها هذا الكلامَ السِّحْرِيَّ عَنِ الأَوَّلين، فكلَّما اطّلَعَ علىٰ شيءٍ منه حفظه وتلاه على الناس وزعم أنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ يُوحِي اللَّهُ به إلَيْهِ، وهذه فريةٌ مفضوحةٌ لا شُبْهَة تؤيِّدها من واقع حَال الرّسول محمد ﷺ.

وبَعْدَ هذا القرار النِّهَائِي الَّذِي توصَّلَ إليه الوليد بَعْدَ مَراحِلِ تفكيره الَّذِي تَرَيَّثَ فيه وتمَهَّلَ طويلاً، اقتضت الحكمة الرَّبَّانيَّةُ أن يُوجِّهَ اللَّهُ لَهُ ولِنُظَرائِهِ الإنْذَارَ بعذابٍ في سَقَرَ يَشْتَمِلُ على لقَطَاتٍ فِيهَا بَعْضُ تَصْوِيرٍ لعذابِ المكذِّبين المستكْبِرين فِيها.

● قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

**سَأُصْلِيهِ**: أي: سأعذِّبه بالحريقِ، يُقال لغة: صَلِيَ النَّارَ، وصَلِيَ بهَا، إذا احترق فيها، ولامَسَ لهَبُها جسَدَهُ مُحْرِقاً، ويقال أيضاً: أَصْلاهُ في النّار وأصلاهُ بها، أي: أدْخَلَهُ فيها ليحترق، وكذلِكَ يقالُ: صَلَّاهُ، ومنه: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾.

**سَقَرَ**: اسْمُ علَمٍ من أسماء جَهَنَّمَ دار العذاب يوْمَ الدِّين، وسمِّيث جهنَّمُ باسْم «سَقَر» لبُعْدِ قَعْرها وشدَّة حَرِّها، فالسَّقْرُ البُعْد، ويقال لغةً: سَقَرَتْه الشمسُ إذا ضربَتْ دِماغَهُ بحرِّها وأذابته. ولفظ «سَقَرَ» ممنوعٌ من الصرف للعلمية والتأنيث.

فمعنَىٰ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾: سأُدْخِلُهُ جهَنَّم ليحترقَ فيها، ويَذُوقَ عذابَ الحريقِ بالنّار.

ورُوي عن ابْن عبّاسٍ أنّ «سَقَرَ» اسْمٌ للطبقة السادسة من النار. وقيل: هي الطبقة الخامسة.

فقَدْ وَرَدَ أنّ دركاتِ جهنَّم سبْعَةٌ: ١ ـ جهنم ٢ ـ لظى ٣ ـ الحطمة ٤ ـ السّعير ٥ ـ سَقَر ٦ ـ الجحيم ٧ ـ الهاوية.

واللَّهُ أعلم.

● ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ هذه العبارَةُ وأَشْبَاهُهَا في القرآن صيغَةٌ من صيغ التَّعْجِيب القرآنيَّة المبتَكَرَة ضمْن قواعد اللّسانِ العربيّ. والمعنى: أعظم بأَمْرِ سَقَرَ إعظاماً لا تَصِلُ إلَيْه درايَتُكَ مهما فكَّرْتَ وسبَحْتَ في تصوُّراتك، لأنَّه لم يمرَّ في خبراتِكَ ولا في تصوُّراتك شيءٌ، يَجْعَلُكَ تقيسُ هذا الأَمْرَ عليه. والخطابُ في ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ موجَّهٌ بالإفراد لكلّ صالحٍ للخطاب.

وتحليلُ هٰذه العبارة ونظائرها على الوجه التالي:

وأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ ما سَقَرُ؟!. أيّ: أنت لا تدري عظمة سَقَر وهَوْلَ أَمرِها إلاَّ إذا أَعْلَمْنَاكَ بذلك. «ما» استفهامية، يُسْتَفهم بها عن حقيقة الشيء وماهيَّته، وهو هنا استفهام يرادُ به التعجيب من شِدَّةِ هَوْل «سَقَرَ» وعَظَمتها.

● ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾: ما المراد بأنّ «سَقَرَ» لاَ تُبْقِي ولا تَذَرُ؟

هل المراد: لا تُبْقِي ولاَ تَذَرُ شيئاً دَخَلَها إلاَّ أَحْرَقَتْهُ وأَفْنَتْه لِشدَّةِ حَرَارتها؟، وعلى هذا فهُوَ تَعْبِيرٌ يرادُ به بَيَانُ شِدَّةِ حرارتها الَّتِي تأكُلُ كُلَّ شيءٍ وتُفْنِي كلَّ شيءٍ دَخلَ فِيها، فَيزيدها حرّاً، ويُستَثنى من الداخل فيها المعذَّبون، إذْ يُجَدِّدُ اللَّهُ خَلْقَ جُلُودِهم ليذوقوا العذاب، وهذا الاستثناء جاء في بيانٍ غير هذا البيان من القرآن، ومنه ما جاء في الآية التالية:

● ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾: أيْ: مُسَوِّدَةٌ بِحَرِيقها لِجُلُودِ المعذَّبينَ فِيها، يقال لغة: لَوَّحَتِ الشَّمْسُ فُلاناً إذَا غَيَّرَتْ لَوْنَ جِلْدِهِ وَسَوَّدَتْهُ، أي: فهي لا تفنيهم.

ومنه أيضاً قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

فَهُمْ دَاخلَها في مَوْقِعٍ يَمَسُّهُمْ لَهَبُ النَّارِ فَيَذُوقُونَ عَذابَ الحريق، ولَكِنَّهَا لاَ تأكُلُهم، إنَّما تُنْضِجُ جُلودَهُمْ فيُبَدِّلُهم اللَّهُ جُلُوداً ذاتَ إحساسٍ ليذوقوا العذاب.

ويحتمل أن يكون المراد بعبارة: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾: لا تَبْقِي فيها أحداً يحْيَا حياةً سالمة منَ العذاب بالْحَرِيق، ولا تَذَرُ فيها أحداً يتخلَّصُ بالموْت من هذا العذاب، وهذا المعنى يؤيِّدهُ ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) في وصْفِ عذاب الأشْقَىٰ، وهو الكافر المكذِّب بما جاء به الرسُول الأمين عن ربّه:

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾:

أي: لا يموتُ فَيَسْتَرِيحُ بالموْتِ من العذابِ، ولا يحْيَا حياةً فيها راحَةٌ من عذابِ الْحَرِيقِ بالنّار.

● ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: يُشْرِفُ عَلَىٰ تَعْذِيب المعذَّبِينَ في سَقَرَ تِسْعَة عَشَرَ منَ الملائِكَةِ، أمَّا كَوْنُهُمْ من الملائكة فقد دلَّتْ نُصُوصٌ كثيرة جدّاً في القرآن والسُّنَّةِ على أنَّ المكّلفين بتَعْذِيبِ أَهْل النّارِ يوْمَ الدّين هُمْ من الملائكة الّذين لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

والآيَةُ الأخيرَةُ من هذا الدرس الثالث من دروس السورة تُبَيِّن أَنَّهُمْ من الملائكة كما سيأتي إن شاء الله.

ولكن ما المراد بعبارة: «تِسْعَةَ عَشَرَ».

هل هم «تسعة عَشَرَ» مَلَكاً فرداً؟ أو هم «تسعة عشر» صِنْفاً؟ أو هُمْ «تِسْعَةَ عَشَرَ» صَفًّا؟

اللَّهُ أَعْلَمُ بمراده، إذْ لَمْ يَرِد بيانٌ صريح عن الرسول ﷺ في هذا الأمر، وإنْ كان الظّاهِرُ ممَّا ورَدَ من تعليقات المشركين على هذا العدد أنّهم تسعَةَ عشَرَ ملكاً فرداً.

أمَّا الْمُؤْمِنُونَ بما جاء عن الله على لسان رسول الله ﷺ، فلا يَجِدونَ أيَّ إشكالٍ حول أيّ بيان عن الله عزّ وجلّ في بيان أعداد المكلّفِين من الملائكةِ للقيام بأعمالٍ يأمُرُهم الله بها، فلَوْ كانَ المكلَّفُ ملكاً واحداً لكان كافياً في تصوُّرِهِم الإيمانيّ للقيام بكلّ ما يأمُرُهُ اللَّهُ به من أعمالٍ جَليلة، لأنّ الله عزّ وجلّ يعطيه حينئذٍ القدرة علىٰ ما يُكلِّفُه القيامَ به من عَمَل، وما الملائكة في مقادير الله عزّ وجلّ إلاّ مخلوقات مدركة حيّة مطيعة لله، وهي تَدْخُل ضمن الأنظمة السببية التي جعلها الله في كونه، والتي قضت بها حكمته، وَسَتَرَ بها أعمالَهُ التكوينيَّة الّتِي يجريها ضِمْنَ قانونه الذي دَلَّ عليه قوله تعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

لَكِنْ ثَبَتَ أنّ الملائكة كثيرونَ جدًّا، وأنّهم أصنافٌ وأنواعٌ، وأنّ لبَعْضِهم وظائِفَ يَقُومون بها في أعمال الخلْقِ، أو المراقبة والتسجيل، أو التعذيب، أو التنعيم والتكريم، أو الحفظ والحماية، أو غير ذلِكَ من أُمُورٍ لا تُحْصَىٰ، بذلك قضَتْ حكمةُ اللَّهِ في الْخَلْقِ، فنَحْن نُؤمِنُ بما يأتينا حوْلَهم من بيانٍ عن اللَّهِ أَوْ عَنْ رسُولِهِ مُسلّمينَ، ولا نَجِدُ في أيّ شيءٍ من ذَلِكَ أيّ إشكالٍ فِكْرِيّ، فالأَمْرُ من أُمورِ الغيب، وهو يقَعُ ضمْن الجائزَات العقليّة، وقد وَرَدَ عن الصادقِ الأمين المؤيّد بالمعجزاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، فالواجِبُ

التَّسْلِيمُ به، وكُلُّ بيانٍ لم نَكُنْ على عِلْمٍ بِهِ يزيدُنا معارفَ إيمانيَّةً عَنْ أُمُورٍ غيبيَّة.

لكِنَّ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قَدْ أثار هُزْءَ سُفَهاءِ الكافرين وسُخْرِيَتَهُمْ، إِذْ تَصَوَّرُوا أَنَّ هؤلاء المكلَّفِينَ لِتَعْذِيبِ الكافرين في سَقَرَ، هُمْ من الْبَشَر أو من أشباه البشر، فكَانَ من تعليقاتهم ما يلي:

(١) روى الطبريُّ عن ابنِ عبّاسٍ وقتادة أنَّ أبا جهل قال لقريش: ثكلَتْكُمْ أُمَّهاتُكَمْ أَسْمَعُ ابْنَ أبي كبْشَةَ يُخْبِرُكُمْ أَنَّ خَزَنَةَ النَّارِ تسعةَ عشَرَ، وأَنْتُمُ الدَّهْمُ[1]، أفيعْجِزُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِرَجُلٍ مِنْ خَزَنَةِ جهَنَّمَ؟!

فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً . . .﴾ الآية.

(٢) وَجاءَ في تفسير الْقُرطبيّ عن السُّدّي، أنَّ أَبَا الأَشَدِّ بن كَلَدَةَ الْجُمَحيّ قَالَ مُسْتَهْزِئاً: «لاَ يَهُولَنَّكُم التِّسْعَةَ عَشَرَ، أَنَا أَدْفَعُ بِمَنْكِبِي الأَيْمَنِ عَشَرَةً، وبِمَنْكِبي الأَيْسَرِ تِسْعَةً، ثُمَّ تَمُرُّونَ إلى الجنَّةِ».

(٣) وقيل: قالَ الحارثُ بْنُ كَلَدَةَ: «أنا أكفيكُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ، واكْفُوني أَنْتُمُ اثنين».

يريد التهكُّم وإظهارَ قوَّته بين قومه.

إنَّ أمثال هذه الأقوال لا تَصْدُرُ إلاَّ عن جاهلٍ ذي حماقة، أو كافرٍ مستهزئ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) الدَّهْم: أي: العدد الكثير.

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

سبق بيان سبب نزول هذه الآية، وقد جاء في هذه الآية دفعٌ لأوهام المستهزئين بكون عدد خزنة «سَقَرَ» تِسْعَةَ عشر، وبيانٌ للحكمةِ من ذكْرِ عدَدِهِمْ في التنزيل، ولِلْغاية من وراء تحقيق الحكمة.

● أمّا دفع أوهام المستهزئين فقد جاء في قول الله تعالى فيها:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ﴾.

أي: ليس خزنة «سَقَرَ» بشراً ولا أشباه البشر، حتَّىٰ تَسْتَهْزِئوا بكون عددهم تسعةَ عشر، بل هم ملائكة، والمشركون يَعْلَمُون ممّا لديْهم من ميراث النبوّات الأولى أنَّ من الملائكة مَنْ ينْسِفُ الجبال، ويُزَلْزِلُ الأرض، ويكفي لتعذيب الألوف المؤلّفة من البشر.

**أصحاب النار**: المراد من أصحاب النار هنا الملائكة المشرفون على تعذيب المعذبين فيها، والملازمون لمواقعهم فيها.

**الصاحب**: الرفيق الملازم للشيء، ويأتي بمَعْنَىٰ القائم على أَمْرِهِ، أو الموجود فيه، أو الموجود معه، وهذه المعاني مأخوذة من معنَىٰ الملازمة.

● وأَمَّا بَيَانُ الحكمةِ من ذكْرِ عَدَدِهِمْ فِي التنزيل، فهو يشتمل على ذِكْرِ أصْنَافِ الْمُتَلَقِّينَ للتنزيل القرآني، وأَثَرِ بيانِ عَدَدِهم لدَىٰ كُلِّ صنف مِنْهُمْ، والأصناف هم:

**الصنف الأوّل**: الذين كفرُوا بمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحمَّدٍ وغيرِه من الرُّسُل.

**الصنف الثاني**: الذين أُوتُوا الكتاب من قَبْلُ.

**الصنف الثالث**: الّذين آمَنُوا بالله ورسوله وبما أُنزِل عليه.

**الصنف الرابع**: الَّذِين في قُلوبهم مرَضٌ لم يَبْلُغْ مَبْلَغَ الكُفر.

فبيان كَوْنِ عَدَدِ المشرِفين على تَعْذيب المعذّبين في «سَقَرَ» تسْعَةَ عَشَرَ له عدّة حِكم ربّانيّة:

(١) إنّ هذا البيان هو بالنسبة إلى الكافرين فتنة لهم، أي: امتحانٌ لعُقولهم وإراداتهم، فالكافر المعاند حين يَسْمَعُ أنَّ خَزَنَةَ دارِ العذاب يوم الدين تسعةَ عَشَرَ... يَزِيدُ في غَيِّهِ وكُفرِهِ، ولو أَنَّهُ اسْتَخدم ما مَنَحَهُ الله عزّ وجلّ من عَقْلٍ وتفكير لَعَلِمَ أنّ هذا تنزيلٌ من عند الله، الّذي بيده ملكوتُ السماواتِ والأرض، وأنّه ليس من كلامِ محمّد ﷺ، ولو أنّه كان من كلامه لما اقتصر على أنْ يخوّفَهُمْ بملائكة عذاب عددهم تسْعَةَ عشر، فهو امتحانٌ يجعلُهم أكثَرَ ميْلاً إلىٰ الإصرار على الكُفر، مع أنّه في حقيقته يوقظ فيهم إدراكَ أنَّ هَذا البيان تنزيلٌ من عند الله، وقد كان الكُفَّارُ بيَوْمِ الدّين من المشركين يُؤْمِنُونَ بالرّبّ الخالق، فالرَّأْيُ الحصيف يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن وبأنباء الغيب الّتي جاء بها، فَهُمْ بهذا البيان يُفْتَنُونَ، أي: يُمْتَحَنُونَ، لكِنَّهُمْ بحماقتهم وسفاهتهم يسْقُطونَ في الفتنة، فيكْتَوُونَ بنار العذاب.

وقد دلَّ على هذه الحكمة قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿..وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾:

أي: وما جعلْنَا ذِكْر عِدَّتِهِمْ إلاَّ مَادَّة امتحانٍ بالنسبة إلى الذين كَفَروا بما أُنْزِلَ على محمّد والرُّسُل من قبله. لفظ: «فتنةً» مفعول به ثان لفعل: «جَعَلْنَا»، والقصر هنا قَصْرٌ إضافي، أي: بالنسبة إلى الذين كفروا.

وينتج عن هذا الامتحان لدَىٰ هؤلاء الكافرين ظاهرتان:

**الظَّاهِرَةُ الأُولى**: أَنْ يُعْلِنُوا اسْتهزاءَهم وكُفْرَهُمْ، كالذي كان من أبي جهل، وأبي الأشدّ بن كَلَدَة، والحارثِ بْنِ كَلَدة، على ما وَرَدَ في سبب النزول.

**الظَّاهِرَة الثانية**: أَنْ يَقُولُوا على سبيل الاستهزاء والسّخْرِيَةِ والإنكار: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مثَلًا؟! أي: لا يُعْقَلُ أَنْ يكون ذكر عددهم هذا من كلام اللَّهِ، بل هو من كلام محمد، إذْ لا فائدةَ تُدْرَكُ مِنْ ذِكْرِ هٰذا الْعَدَدِ بالذَّاتِ.

وقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هذه الظَّاهرة، قولُ الله عزَّ وجلَّ في الآيَة:

﴿. . . وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . . .﴾.

أي: ماذا أراد اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِذِكْرِ هذا الوصْفِ، وهو كونُ عدد خزنة «سَقَر» تِسْعَةَ عشر.

كلمة «مَثَلًا» جاءت هنا بمعنى «وصف» وهو أحد معاني هذه الكلمة.

يقولون هذا على سبيل الاستهزاء لإنكار أن يكون القرآن منزَّلاً من عند الله، لأن الله عزّ وجلّ لا يُنَزِّل كلاماً لا فائدةَ مِنه مثْلَ هذا الكلام، أي: فَمُحمَّد هو الذي جاء به من عنده.

(٢) وهذا البيان هو بالنّسبةِ إلى الّذين أوتوا الكتابَ مِنْ قَبْلُ وكانُوا علَىٰ عِلْمٍ بما جاء في كتُبِهِمْ أو على ألسِنةِ رسُلهِم من أنّ خَزَنَة «سَقَرَ» تِسْعَةَ عَشَرَ. . . يُعْطِيهِم يَقِيناً بِصِدْقِ مُحَمَّدٍ فيما يُبلِّغُ عن رَبِّهِ، وأنّه رسول الله حقّاً، بِسَبَبِ أنَّ هٰذِه المعلُومَةَ هي من كُنُوز المعلوماتِ لديهم عن عالم الآخرة، لاَ يعلَمُ بها إلاَّ خواصُّ عُلَمائِهِمْ، وهذا اليقينُ العلميُّ يَدْفَعُ طالِبي الحقّ من عُلَمائِهِم إلى الإيمان بمحمّدٍ واتّباعِه، أمّا غير طالبي الحقّ فإنَّهُمْ يَجْحَدُونَ، مَعَ أنَّ نُفُوسَهُمْ قَدْ اسْتَقَرَّ لَدَيْها اليقين.

دلَّ على هذه الحكمة قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ فِي الآية:

﴿. . . لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ . . .﴾.

أي: وجعَلْنا هذا البيانَ بالنسبة إلى عُلماءِ أهل الكتاب دليلًا يستيقنون

به أَنّ محمّداً رسولُ الله، يُبَلِّغ عن ربّه حقائقَ غيبيَّةً لا يَعْلَمُها إلاَّ نبيٌّ يُوحَىٰ إليه.

ولا يقتضي هذا الاستيقانُ إيمانَ من استَيْقَن، فكثيرٌ من الناس يجحدون، مع أنّهم في أنفسهم مستيقنون.

(٣) وهذا البيانُ هو بالنسبة إلى الذين آمنوا بمحمَّدٍ ﷺ وبمَا يُنَزِّلُ اللَّهُ عليه من القرآن وغيره يزيدُهُمْ إيماناً.

دلَّ على هٰذه الحكمة قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿. . . وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا . . .﴾.

أي: وجعَلْنا هَذَا البيانَ بالنِّسْبَةِ إلى الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبما يُبَلِّغُهُ عن ربّه ليزدادوا إيماناً.

وبالتَّدَبُّر نلاحِظُ أَنَّ زيادَةَ إيمانهم ذاتُ ثلاثة وجوه:

**الوجه الأوّل**: أَنْ تَزْدَادَ لَدَيْهِمُ العناصر الغيبيَّةُ الَّتِي يُؤْمِنُونَ بها، إذْ جاء في هذا البيانُ مَعْلُومَةٌ جَدِيدَةٌ لم يكُونُوا على عِلْمٍ بها.

**الوجه الثاني**: أنْ يزداد إيمانُهُمْ بِصدْقِ الْقُرْآنِ وصِدْقِ الرَّسُولِ، بسبب التطابُقِ بيْنَ ما جاء في القرآن، وما هو مِنْ كُنُوزِ الْعِلْمِ عن الآخِرَةِ لَدىٰ عُلَماءِ أَهْلِ الكتاب.

**الوجه الثالث**: أنَّ عِلْمَهُمْ بملائكة العذاب المشرفين على تَعْذِيب الكُفَّار في النار يوم الدّين، وعلْمَهُمْ بعددهم، يهُزُّ في قُلُوبهم الوجَلَ، فيزيدُ إيمانهم بعدلِ اللَّهِ وعقابه، ويزيدُهُمْ خوفاً وحذراً من الكُفْرِ، ويزيدُ الْتزامَهُمْ بطاعة اللَّهِ عزّ وجلَّ وحِرْصَهُمْ على العمل بمراضيه، إذْ تَدُورُ الحركةُ الفاعلة والْمُنْفَعِلَةُ بين الإيمان والْعَمَل، وبِهَذِهِ الحركة يزداد الإيمانُ رُسُوخاً وعُمْقاً وثباتاً، نتيجة تأثير وضوح الرُّؤيةِ الإيمانيّة، في التوجيه لصالح العمل، وتأثير

الأعمال الصالحات في ترسيخ الإيمان وتثبيته وتعميقه، نظير التأثير والتأثُّرِ بين جُذُور الشجرة وفروعها.

(٤) وهذا البيان هو بالنسبة إلى الّذين في قُلُوبهم مرضٌ من أمراض الشّكّ لم يَبْلُغْ مَبْلَغَ الكُفر... يَجْعَلُهم يتساءلُون مستفهمين أو باحثين متشككينَ، إذ هُمْ في منْزِلَةٍ وُسْطَىٰ بين الإيمان والكُفْر، فيقولون: ماذا أراد اللّهُ ببيان كون عدد خَزَنَةِ النار تِسْعَةَ عشر؟! على سبيل الاستفهام والبحثِ عن الحكمةِ والتعجُّب وطلب معرفة الحق لا على سبيل الاستهزاء والإنكار.

دلَّ على هذا قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في الآية:

﴿..وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا...﴾.

إنّ عبارَة: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟! تَصْدُرُ مِنَ الكافِرين على معنَىٰ الاستهزاءِ والسخريَة وَإنكار أَنْ يَكُونَ القرآن مُنَزَّلاً من عِنْدِ الله، واتّهامِ الرَّسُولِ بأنَّهُ يتَقَوَّلُهُ من عنده، وقد سبق الاستشهاد بها لدىٰ بيان موقف الذين كفروا.

وتَصْدُرُ أيْضاً من الشَّاكِينَ الذين في قُلوبهم مرضُ الشَّكّ، فلَمْ يبلُغُوا مبْلَغَ الإيمانِ المستَقِرّ، ولا مبْلَغ الكُفْرِ الثابت، على سبيل الاستفهام والبحث عن الحكمة والتعجب وطلَب معرفة الحقّ، وقد جاء الاستشهاد بها هنا لبيان موقف الذين في قلوبهم مرض.

وهؤلاء إمّا أنْ تميل بهم كفّةُ الإيمانِ فيُدْرِكُوا أنَّهُ الحقُّ من ربّهم، وإمَّا أنْ يَتأَثَّرُوا بوساوس الشيطان ونزغات وشبهات الكافرين، فتميلَ بهم الكفّةُ الأُخرَىٰ إلَىٰ الكُفْر، بدافع من أهواء نفوسهم وتعلُّقِهم بالحياة الدنيا وزينتها، وإيثارهم العاجلة على الآجلة.

فَهُمْ يُشَارِكون الكافرين في كون هذا البيان فتنةً لهم واختباراً لإرَادَاتهم.

(٥) ويستفيد أيضاً المؤمِنُونَ وَعُلَمَاءُ أَهْلِ الكِتَاب من هذا البيان الّذِي تحقَّقُوا بِه أنّ القرآن مُنَزَّلٌ من عند اللّه، أن يَأْخُذُوا كُلَّ مَا سَيأْتي به الرسول محمد ﷺ عن ربّه مستقبلاً هو حقٌّ لاَ رَيْبَ فِيه، فمتَى ثبتَتِ النُّبُوَّةُ والرِّسَالَةُ لِعَبْدٍ من عبادِ اللّهِ فلا سبيلَ للتَّشَكُّكِ والارْتِيابِ بها بَعْدَ ذلك، لأنَّ اللّهَ عَزَّ وَجلَّ لاَ يَسْلُبُ المصطَفَيْنَ من عباده للنبوّة والرّسَالَةِ مَا سَبَقَ أن اصطفاهُمْ له، واخْتَصَّهُمْ لحَمْل رسَالاته، فالرَّبُّ حكيم، وحكمته تأبَىٰ سلْبَ الاصطفاء للتبليغ عنه، إنه لم يصطفهم لذلك إلاَّ وهو عالمٌ بهم وعاصمهم.

دلَّ على هذه الحكمة قولُ اللّه عزّ وجلَّ في الآية:

﴿. . وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ . . .﴾.

أي: وحتَّىٰ لا يرْتَاب مستقبلاً علماءُ الّذين أُوتُوا الكتاب من قَبْلُ والمؤمِنُونَ بمحمَّد ﷺ وبما جاء به عَنْ رَبّه في أيِّ بلاغٍ يُبَلِّغُهُ عن رَبّه، بل سَيأْخُذونَهُ بالتَّسْلِيم الْمُطْلَق الذي لا يُصاحِبُهُ ارْتيابٌ ولا شكٌّ، ويتقصرُ بَحْثُهُم على فَهْمِ الْمُرادِ مِنَ البيانِ الْمُنَزَّلِ على الرسُول.

❁ ❁ ❁

وبعد بيان هٰذِهِ الحِكَم الرَّبَّانيَّةِ الْخَمْسِ الّتِي اشْتَمَلَتْ عليها الآيَةُ، لا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ المتدبّرُ أَنَّ أحكَامَ اللّهِ القضائيّةَ سَتُلاَحِقُ كُلَّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنْ عَدْلٍ أَوْ فَضْل.

أَمَّا مَنْ ضَلَّ باختياره الْحُرّ فَسَيَحْكُمُ اللّهُ عليه بالضلالة، ثم يجازِيهِ بحَسَبِ ضلاله.

وأمَّا من اهتدَىٰ باخْتِيارِهِ الحرّ فآمَنَ وَسَمِعَ وأطاع وأسْلَم، فَسَيَحْكُمُ اللّهُ له بالهداية، ثم يُثِيبُهُ ثواباً عظيماً، بمقتضىٰ واسِعِ منَّتِهِ على عباده.

دلَّ على هذه الحقيقة من حقائق صفاتِ اللَّهِ في معاملة الممتَحَنِين من عباده بالعدل أو بالفضل، قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿. . . كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ . . .﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ المشارُ إليه باسم الإشارة [ذَلِكَ] مخاطباً به كُلُّ صالحٍ للخطاب على سبيل التناوب، مواقف أصناف الناس تجاه قضايا دين الله الحق.

والكاف من ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تَدُلُّ على أنّ أحكام اللَّهِ عزّ وجلّ القضائيَّة مماثِلَةٌ لأفعَالِ العباد الاختياريَّةِ في الضلالَةِ وفي الهداية، فالإضلال تقتضيه حكْمَةُ العدْل، والهداية تقتضيها حِكْمَةُ الْعَدْلِ والْفَضْلِ معاً، ومَشيئَةُ اللَّه المطلقة لا تفارقُ حكمته.

فالمعنى: مثلَ مَواقف أصناف المكلفين تأتي أحكامُ الله القضائيَّة، بمشيئته المطلقة الّتي لا تفارقُ حكمته عَدْلاً أو فَضْلاً، فَهُوَ بهذه المشيئة الحكيمة يَحْكُمُ بضلال مَنْ اجتاز رحلة امتحانه ضالاً باختياره، ويَحْكُمُ بهدايةِ من اجتاز رِحْلَةَ امتحانِهِ مهتدياً باختياره.

ومعلومٌ أَنَّ الحكْمَ القضائي يتْبَعُه الجزاءُ بالعدْلِ أو بالْفَضْل.

❁ ❁ ❁

وبَعْدَ كلّ البيانات التوضيحيَّة السابقة بقي حول مَوْضوع الآية سؤالان، يحتاجُ كُلُّ واحدٍ مِنهما إلى إجابَةٍ حكيمةٍ من بيانٍ رَبَّانيّ:

**السُّؤال الأوَّل**: إذا كان الملائكة المشرفُون بالتكليف الربَّاني على تَعْذِيب المعذّبين في سَقَرَ تِسْعَةَ عشَرَ فرداً، أو صنْفاً، أو صَفًّا، أفلَيْسَ لله عزّ وجلَّ جنُودٌ غَيْرُهم؟.

وجَاء الجواب على هذا السؤال بقول اللَّه عزَّ وجلَّ:

﴿...وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ...﴾.

أي: وإنَّ جُنودَ رَبِّكَ أيّها الصالحُ للخطاب أيَّ مُخاطَبٍ كنْتَ كثيرون جدًّا، ما يَعْلَمُهُم في أشخاصِهم ولاَ في أعدادهم إلاَّ رَبُّكَ وحْدَه جلَّ جلاله، الذي هو رَبُّ كلّ شيء، فلا يعلَمُهُمْ جميعاً مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نبيٌّ مرسل.

فلا تَحْسَبُوا أيُّها المستهزئون بعِدَّةِ خَزَنَةِ «سَقَرَ» أنَّ جُنُودَ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ مُنْحَصِرُونَ في التِّسْعَةَ عشر المأمُورين بالإشرافِ على التعذيب فيها، فجُنُودُ اللَّهِ لا يَعْلَمُهم إحصاءً إلاَّ الرَّبُّ جلّ جلاله.

ويُدْرِكُ المتدَبِّر أنَّ كُلَّ أنواعِ الرِّجْزِ الَّتِي عذّب اللَّهُ بها بعْضَ عباده في الحياة الدنيا، كالجراد، والْقُمَّل، والطاعون، والفيروسات المضنيات والقاتلات، هي من جُنُودِ اللّهِ.

والعاقل يقيسُ أحوال الآخِرَةِ على أحوالِ الدُّنيا، في الحدود الدُّنيا، ثُمَّ يُطْلِقُ للتَّصَوُّرِ أَنْ يَزِيد في أحوالِ الآخرة دون حدود تقف عندها الزيادات التصوُّرِيَّةِ أو التخيُّلِيَّة.

**السؤال الثاني**: إنَّ ذِكْرَ «سَقَرَ» الَّتي خَوَّف اللَّهُ عباده الكافرين من عذابها، وما اقترنَ بذِكْرِها مِن عِدَّة الملائكةِ المشرفين على التعذيب فيها، ومن كوْنِهَا لوَّاحَةً لِجُلُودِ المعذّبين بِلَهَبِها، بيانٌ خَبَرِيٌّ غَيْرُ مَشْهُودِ الذَّاتِ، وغَيْرُ مُدْرَكٍ بالحواسّ الظاهرة، فهِيَ أَمْرٌ من أمُورِ المستقبلِ غير المشهود، وهي بيانٌ نظريٌّ غَيْرُ مُقْتَرِنٍ بالتطبيق المشاهد، فمَا قيمةُ التَّخْوِيفِ بشيءٍ مَهُولٍ غير مَنْظُورٍ؟؟!

وجاء الجوابُ القرآنيُّ على هَذا السُّؤالِ بقول اللّهِ عزَّ وجلّ:

- ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴾.

أي: وليست البيانَاتُ القرآنيَّةُ عن «سَقَرَ» وما فيها من عذابٍ شديدٍ للكافرين، بياناتٍ لمخلُوقاتٍ لا تفكيرَ لديها، وَلاَ عَقْلَ يَعْقِلُ تَصَرُّفاتها، كالأنعام والبغال والحمير وغيرها من البهائم والدّوابّ الّتي تنحَصِرُ مُدَركاتُها غالباً بالْحِسيّات.

بَلْ هذه البيانات عنها تَذْكِيرٌ للبَشَرِ، الّذِين يُدْرِكُونَ بأجْهِزَةِ التفكير لدَيْهم كثيراً من الغيبيَّاتِ الموجودة في هذا الكَوْنِ العظيم الواسع جدًّا، بأدلَّةٍ فكريَّةٍ عقليَّة، ويُدْرِكُونَ الغيْبيَّات المستقبليَّة الَّتي تأْتيهم بها الأخبارُ الصادقَةُ عن الرَّبِّ الّذِي آمَنُوا بِهِ رَبًّا خالقاً، وَتَدُلُّهُمُ الأَدلَّةُ الفكريَّةُ العقليَّةُ على وجوب الإيمان بِرُسُلِهِ المؤيَّدين منه بالمعجزاتِ الباهرات، ووجوب الإيمانِ بما يُبَلِّغُونه عن رَبِّهم جلَّ جلالُه.

فهٰذِهِ البيانات بياناتٌ للبشر، لا للحمير والبقر وأمثالهما، فَمَنْ عَلِمَ أنّه بشَرٌ خلَقَهُ اللَّهُ في أَحْسَنِ تقويم، فإنَّ عليه أنْ يَجْعَل هذه البيانات الرَّبَّانيَّةَ مُذَكِّرَةً لَهُ دَواماً.

كلمة ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تأتي دالَّةً على ثلاثة معاني:

(١) إنّها تأتي بمعنى «التذكير» إذ هيَ اسْمٌ له، ومعلومٌ، أنَّ البيان في القرآن عن «سَقَرَ» فيه معنَىٰ التذكير آخِراً، بَعْدَ الإخبارِ أوّلاً، أي: يأتي الإخبار بمضمونِ البيان أوّلاً، والمطلوبُ من المتلقّي أنْ يكون مُتَذَكِّراً له دَواماً، ليأخذ حِذْرَهُ، ويبتَعِدَ عن مُسَبّبات دُخول «سَقَرَ» في كلّ أحواله وتصرُّفاتِه الإراديَّة.

(٢) وَتأتي «الذكرى» بمعنىٰ «التّذكُّر» ومعلُومٌ أنَّ العاقل الرشيد الذي يُدْرِكُ بأدواتِ المعرفةِ لدَيْه ما هو مخيف مُرْعِبٌ، يترَصَّدُ السالِكَ في أَحَدِ سُبُلِ الضلالة، فإنَّهُ يجعلُه دائماً في ذاكرَتِه، فيَحْذَرُ سُلُوكَ سبُلِ الضلالة.

(٣) وتأتي «الذكْرَىٰ» اسْماً للتَّذْكِرَة، وهي الوسيلة الَّتي تُتَّخَذُ للتذكيرِ، كالبطاقة الَّتي تُذَكِّرُ بموعِدٍ أو شيءٍ ما، وَكالرَّتِيمة التي توضع في الإصبع للتذكير.

وكلّ هذه المعاني الثلاثَة تَصْلُح هنا، وتذكُرُ المخاوف والتذكيرُ بها من الوسائل الرادعة الزاجرة الحاجزة عما يوقع بشرورها.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجل:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

اشتملت هذه الآياتُ على زَجْرٍ لمنكري «سَقَر» وللشاكّين فيها، وأُتْبع هذا الزَّجْر بتوكيد صحَّةِ الخبر الوارد بشأن سَقَر، وقد جاء هذا التوكيد بصيغَة قَسَمٍ مُوَجَّهٍ من الرَّبّ الخالق، واختير للمُقْسَم به بَعْضُ ظواهر الكون المشهود بالحواسّ، الَّتي هي من آثار خَلْقِ اللّه عزّ وجلّ، أمّا الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ فَهُو كوْنُ «سَقَر» لإِحْدَىٰ الكائِنَاتِ العظيماتِ الْكُبَرِ الَّتي ستكُونُ مَشْهُودَةً للنَّاسِ بحواسِّهِمْ يوْمَ الدِّين، مثل الظواهر الكونيّةِ المشهودة الآن في الحياة الدنيا، فكلُّ ذَلِكَ من خَلْقِ الله، وآثارٌ من آثار قدرته وعِلْمِهِ وحكمته، والقسم بالمشهودِ منها من قِبَلِ الْخَالِقِ دليلٌ على صحَّةِ خَبَرِ الغيبيّ غَيْرِ الْمَشْهُودِ لهم الآن، لكِنَّهُ سيكون مشهوداً لَهُمْ يومَ الدين.

وتحليل هذا الْقَسَم وأمثاله يكونُ على الوجه التالي:

أقْسِمُ بصفاتي الَّتي تَرَوْنَ من آثارها في الكَوْنِ ظَواهِر الْقَمَرِ واللَّيْلِ والصُّبْحِ على أنَّ «سَقَرَ» إحدَىٰ الْكَائِنَاتِ الكُبَرِ في دار العذاب المعدَّة للكافِرِينَ المجرمين يوم الدّين. إنَّكُمْ إذا تدَبَّرْتُمْ قَسَمِي أَدْرَكْتُمْ أَنِّي كَمَا خَلَقْتُ الظَّواهِرَ العظيمة الَّتي تشهدونها، فقد أَعْدَدْتُ في خطَّةِ التكوين داراً عظيمةً لعذاب المعذَّبين يوم الدِّين، وفيها دركةُ «سَقَرَ» وأدْرَكْتُمْ أَنِّي على ما أشاء قدير، وإنَّهُ ليس من صفاتي أن أُخْلِفَ وَعِيدِي ولاَ وَعْدِي.

إنّ «سَقَرَ» الَّتي أعْدَدْتُها ليوم الدِّين، وأخبرتكم الآن بِها، وَأُحَذِّرُكُمْ

مِنها، وأقول لكم بشَأنِها: إنَّها لَإحْدَىٰ الكائناتِ الكُبَرِ هي نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ، أي: إنّ الإعلام بها يتضمَّن إنْذاراً للْبَشَر جميعاً، وكُلٌّ مِنْهُمْ يختارُ بمشيئته الحرَّةِ ما يَشاءُ من إيمان أو كُفر، وعليه أن يتحمَّلَ نتيجة اختياره، فَمَنْ شاء الكُفْرَ والجحود تَقَدَّم إلى «سَقَرَ» غَيْرَ مُكترِثٍ للإنْذار، ومن شاء الإيمانَ والإسْلاَمَ خَوْفاً من الإنْذار تأخَّرَ إلى مواقع النجاة فَسَلِم.

﴿كَلَّا﴾ أداةُ زَجْرٍ ورَدْع، وهُما موجَّهان لمنكِرِي «سَقَرَ» وللشَّاكِينَ في وُجودها، وللمستهزئين بأنَّ خَزَنَتَهَا تسْعَةَ عشر.

﴿وَالْقَمَرِ﴾ الواو واو القسم، **الْقَمر**: ظاهرة كونيّة مشهودة هي من آثار خلْق الله، وآثار هذا الخلق تظهر في ذات القمر وفي صفاته، وفي إتقان نظام حركته، وفي منافِعِهِ للنَّاسِ في الأَرْضِ، وفي جَعْلِهِ مسخَّراً لتحقيق منافع كثيرة لهم، ومعلوم أنَّ منافع القمر ظاهرة مشهودة، أمّا ما فيه من إتقانٍ وإحكامٍ في حجمه، ووضعه في مداره ومنازله فَلِعُلَمَاءِ الْفَلَك في شأنها بُحُوثٌ مستفيضة تَدُلُّ على عظمة الخالق الذي أتقن كلَّ شيءٍ صُنْعاً.

● ﴿وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: وأُقْسِمُ باللَّيْلِ إذْ يكُونُ مُدْبِراً، تَظْهَرُ مَعَ إدْبارِهِ بدايَاتُ نُور الْفَجْر، وإدبار اللّيل وظهور الفجر إحدىٰ آياتَ الله في كونه.

﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ قراءة نافع، وحَفْصٍ عن عاصم، وحَمْزَة، ويعقوبُ وخَلَف، وقرأ باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِذَا دَبَرَ].

**أَدْبَرَ، ودَبَرَ**: بمَعْنَىٰ: ذَهَب، فالقراءتانِ لُغَتَانِ متكافئتان.

**إذْ، وإذا**: كلاهُمَا ظَرْفُ زَمانٍ متعلّقٌ بمحذوف حالٍ، فَهُما متكافئتان أيضاً.

● ﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: وأُقْسِمُ بالصُّبْحِ إذا وضَحَ وانكشَفَ نُورُه.

**أسْفَر**: أي: وضَحَ وانكشفَ، وهٰذه الظاهرة إحدى آيات الله في كونه أيضاً.

اختار اللَّهُ هنا الْقَسَم بالْقَمَرِ الّذي يُمِدُّ الأَرْض بالنُور، وباللَّيْلِ في وَقْت إِدْبَاره وظُهُورِ نُورِ الْفَجْر، وبالصُّبْح في وقْتِ إسْفارِه وانْكشافِ نُورِهِ، إيثاراً للقَسَمِ بالنّور الّذِي يُشَابِهُ العِلْمَ والْهُدىٰ، وابْتَعَدَ عن الْقَسَم بالظُّلْمَةِ الّتي تُشَابه الْجَهْلَ والضَّلاَلَة، ومعلومٌ أنَّ رِسالَةَ اللَّهِ في القرآن تتضمَّنُ الدَّعْوَة إلى العلم والهدى، والخروج من الْجَهْلِ والكُفْرِ، فتمّ التناسُبُ والتلاؤم.

يُضَافُ إلى ذلِكَ أَنَّ الظُّلُماتِ تتحقَّقُ تِلْقَائِيّاً عِنْدَ انْعِدَامِ النُورِ وانسِلاَخِهِ، أمَّا النُّورُ فَيُوجَدُ بمصادِرِ نُورٍ أَوْ ضِيَاءٍ يَخْلُقُهَا اللَّه جلَّ جلاله، فهي الدالَّةُ على كَمَالِ الْقُدْرة وإحْكام الخلْقِ وإتْقَانِ الصُّنع.

● ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥﴾: تضمّن معنى هذه الآية الْمُقْسَمَ عليه، أي: إنَّ دَرَكَةَ «سَقَرَ» من دَرَكاتِ جَهَنَّمَ، لَإِحْدَىٰ الْكَائِنَاتِ العظيماتِ الْكُبْرَيَات.

**الْكُبَرُ**: جَمْعُ مُفْرَدُهُ «الْكُبْرَىٰ».

وقد جاء تأكيد هذه الجملة بأربَعةِ مؤكّدات: «الْقَسم ـ والجملة الاسميّة ـ وَحرف «إنَّ» المشبَّه بالفعل ـ واللاَّم المزحلَقة في لَإِحْدَىٰ».

● ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾:

لفظ: «**نذير**» يأتي اسماً للإنذار الذي هو مصْدَرُ أنذر، **والإنْذار**: هو الإعلام والإخبارُ بعواقب غير سارّة، وهذه العواقب قد تكون جزاءَ ارْتكابِ ذنبٍ أو معصيةٍ أو جُرْم أو سلوك طريقٍ ما، أو تخويفاً من ارتكاب شيءٍ من ذَلِك، أو تخويفاً من ظالم يَعْدُو بَشَرّ: لاتّخاذ الحذَر والوقاية، والمخوفُ منه قد يكون مادّياً أو معنويّاً.

ويأتي لفظ: «**نذير**» بمعنى «**مُنْذِر**».

والجمْعُ لكلٍّ من المعنيَيْنِ «نُذُر».

**والنِّذَارَة**: الإنْذَارُ بشَرٍ أَوْ سُوءٍ.

فمعنى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ أَنَّ سَقَرَ لَإحْدَى الْكُبَرِ حَالَةَ كَوْنِ الْحَديث عنها في القرآن وما فيها مِنْ هَوْلٍ عظيم، وعذابٍ أَلِيم، إنْذاراً لِلْبَشَرِ حَتَّىٰ لا يَذْهَبُوا مَذاهِبَ الكُفْرِ والتكذيب بما أنزل اللَّهُ على رسُوله، وهذا الإنذارُ مُوَجَّهٌ لكلِّ البشر، إلاَّ أنَّ المُنْتَفِعَ به من استجاب لدعوة الرَّسُولِ وصَدَّق ببلاغاته عن ربّه، مختاراً بمشيئته الحرّةِ الإيمانَ والعمل الصالح.

● ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾:

كان الحديث عن البشر بأسلوب الحديث عن الغائب، فالتفت النصّ إلى أسلوب خطاب البشر بهذه الآية، خطاباً مباشراً، ليحمّل المكلفين مسؤولية اختياراتهم الحرَّة.

أي: إنّ الحديث عن «سَقَرَ» إنذاراً للبشر، موجّهٌ لذوي المشيئة الحرّة والاختيار منهم، وهم أهل التكليف:

فمن شاء أن يتقدّم منكم أيها البشر إلى مُقْتَضِياتِ العذاب بسَقَرَ، بأنْ يكْفُرَ ويُكَذِّبَ الرَّسُول ويُكذِّبَ بما جاء به عن ربّه، غَيْرَ مكتَرِثٍ للإنذار ولا عَابئٍ به تَقَدَّمَ غَيْرَ مُكْرَهٍ بِدَفْعٍ ولاَ مَنْع، وعَلَيْهِ أنْ يتحمَّلَ نتائجَ اختيارِه بمَشيئته الحرّة خُلوداً في العذابِ الأليم في «سقر».

ومنْ شاء أنْ يتأخّر إلى مواقع النجاةِ والسَّلامَة بالإيمان والعمل الصالح، تأخّرَ باختياره الحرّ غَيْرَ مُكْرَهٍ بدفْعٍ ولا مَنْعٍ، فَسَلِم وَنَجا وظفِرَ.

هذا المعنى للتقدُّم والتأخُّرِ هُو المعنى الذي ذكَرَهُ السُّدّي، وهو الأكْثرُ ملاءمة لكون سقر إنذاراً للبشر، فالحديث عنها، والتقدُّم يكون إليها،

والتأخُرُ يكُونُ حَذراً منها. ورأىٰ بعض أهل التأويل أنّ المراد بالتقدم التقدُّمُ للإيمان والإسلام، وأن التأخر هو التأخُرُ عنهما تأثُراً بإيحاء لفظ التقدم المشعر بالمدح، وبلفظ التأخر المشعر بالذمّ.

❁ ❁ ❁

## (٩)
## التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع

### الآيات من (٣٨ ـ ٤٨)

قال الله عزّ وجلّ:

● ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

### نظرة عامة حول هذا الدرس:

الحديث عن الإنْذار الذي جاء في صدر السورة، ثم التهديدُ بِسَقَرَ إحدى طبقات دار العذاب يوم الدّين، مَعَ بيان عدد الملائكة المشرفين على تَعْذِيب المعذّبين في النّار عموماً، ثُمّ التأكيدُ بالْقَسَم على أَنَّ سَقَرَ لَإِحْدَىٰ الكائنات العظيمات المهولات الكُبْرَيَات، يُثير لدى المتلقّين سؤالاً حوْلَ أحْوَالِ المكلّفِينَ بالنّسبة إلى دار العذاب يوم الدين، وقد أجابَ هذا الدَّرْسُ الرّابعُ جواباً كُلّيًا فيه بعضُ تفصيل يتعلّقُ بالمجرمين، أمّا المؤمنون أصحابُ اليمين فقد جاء الحديث عَنْهُمْ مجملاً، وتُرِكَ تفصيل أحوالهم لما سينزل بَعْدَ المدَّثِرِ من نجومِ التنزيل في سُوَرِ القرآن.

فالكافرون المكذبون بيوم الدّين الذين يَجُرُّهم تكذيبهم لارتكاب

الجرائم الكبرى، فَسَيَكونُونَ مُرْتَهَنِينَ محبوسين حبساً أبديًّا في دار العذاب يوم الدِّين.

وأمَّا المؤمنون أصْحَابُ اليمين فَهُمْ مُسْتَثْنَوْن من هذا الحبس الأبدي في دار العذاب.

وقد دَلَّت سائر النصوص على أنَّهُمْ يكونون يوم الدِّين بحَسَب أحوالهم ارْتقاءً فوق الحَبْسِ الأَبدي، وهذا يشْمَلُ دَرَجَاتِ الحبْسِ المؤقَّت، ويشْمَلُ مَرْتَبَةَ النَّجاة من عذاب اللَّهِ مطْلقاً، ومَرَاتِبَ النَّعِيم المقيم في جنَّاتِ النعيم على اختلاف دَرَجاتها حتَّىٰ أعْلَىٰ دَرَجَاتِ الْفِرْدَوْسِ، حيْثُ منازلُ نَعِيمِ المصطَفَيْن الأخيارِ من المرسَلِين.

وقَدَّمَ هذا الدرس الرابع من دُرُوس السّورة صُورَةَ تساؤُلٍ سيَحْدُثُ بين أصحاب الجنَّةِ وهُمْ في الجنَّةِ يومَ الدِّين، عن معارفهم في الدنيا من المجرمين، فلا يَجِدُ بعضُهُمْ عند بعضٍ جواباً شافياً، فيُتِيحُ اللَّهُ لهم وسيلَةً يُشَاهِدُونَ بها المجرمين يُعَذَّبُونَ في سَقَرَ، ويتحدّثون بها معهم.

واقتطع النصّ من أحداث المستقبل حواراً سيَجْرِي بين بَعْضِ أصحاب الجنّة ومعارفهم في الدُّنيا من نُزَلاَءِ سقَرَ، وعرضَهُ كأنَّهُ حَدَثٌ جرَىٰ في زمانٍ مضىٰ، وهَذَا مِن بدائع القرآن الفنيَّة، الّتِي يكون التعبير فيها عمَّا سيَحْدُث في المستقبل حتماً، بعبارات الأَحْدَاثِ الماضية.

قال المتسائلُون من أصحاب الجنة، لمعارفهم في الدنيا من نُزَلاَء سَقَرَ:

ما هو العمل الإجرامي الّذِي أدْخَلَكُمْ في «سَقَر»؟!

قال المسؤولون: لَمْ نَكُ مِنَ المصلّين، ولم نَكُ نُطْعِمُ المسكين، وكُنَّا نخوضُ مع الخائضين في كُلِّ إثْمٍ وجُرْمٍ، وكُنَّا نُكَذِّبُ بيَوْمِ الدِّين، واسْتَمَرَّ حالُنا كذلِكَ حتَّىٰ أتَانا يَقِينُ الموت، وانْقطعَتْ عنَّا أَسبابُ النجاة من العذاب الأبديّ.

## التدبُّر التحليلي:

قولُ اللّه عزّ وجل متحدّثاً عن يوم الدين:

• ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: قضيَّةٌ كُلِّيَّةٌ يَدْخُلُ في أفْرَادِها النفوسُ المكلّفَة الكاسِبَةُ لأعمالها باختيارها الحرّ في الحياة الدُّنيا، وغيرها من النفوس.

﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: قرينةٌ دلَّتْ على قَيْدٍ يُخَصِّصُ عُمُومَ عبارة: «كلُّ نفس» بالنفوسِ المكلّفَةِ في الدُّنيا، الكاسبَةِ لأعمالها باختيارها الحرّ، والمسؤولَةِ عند الله عَمَّا كَسَبَتْ لمحاسبتها ومُجَازَاتها.

﴿رَهِينَةٌ﴾: بمَعْنَىٰ مَحْبُوسة، **ورَهِين**: بمعنىٰ مَحْبُوس، وهو ممّا شاع في الاستعمال، وأصْلُ الرَّهينَةِ الرَّهْنُ مصدراً بوزن «فَعِيلَة» كالشّتيمة والشَّتْم.

وجاء في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿... كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

أي: محبوسٌ في دار العذاب بسبب ما كسب من جرائم تستوجب في عدل الله حبْسَهُ فيها حَبْساً أبَدِيًّا.

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾: جاء في القرآن وصْفُ أصحاب الْيمين، بأنَّهُمْ يُعْطَوْنَ صحُفَ أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم، وهم الذين ماتوا على إيمانٍ صحيح.

أمّا أصحابُ الشمال فإنّهم يُعْطَوْن صحُفَ أعمال بشمائلهم، وهم الذين أتاهم الموتُ وهم كافِرُون.

وجاء فيه أنَّ أصحاب اليمين هم أصْحَابُ الْمَيْمَنة، **الميمنَةُ**: هي البركة، والجهةُ الّتِي تكونُ شَطْرَ اليمين، فموقِعُهم يَوْمَ القيامة يكونُ شَطْرَ اليمين، ويكون ميموناً مباركاً. أمّا أصحاب الشمال فهم أصحاب الْمَشْأَمَة.

**المشأمَةُ**: الشُؤمُ، والجهة الَّتي تكون شَطْرَ الشمال، فموقعهم يوم القيامة يكون شطر الشمال، ويكون مشؤوماً.

وجاء فيه أنَّ أصحاب اليمين يوم القيامة يَسْعَىٰ نورُهم بين أيديهم وَبأيمانهم.

أمّا أصحاب الشمال فلا نور لهم بل هم يوم القيامة يتَخَبَّطُونَ في الظلمات.

ولمَّا كان من أصحاب اليمين طوائفُ يُعذَّبُون في دار العذاب يوم الدين، كما جاء في نصوصٍ قاطعات متعدّدات، كَانَ علينا أَنْ نفهم أَنّ المرادَ من كون كُلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، وأنَّ كُلَّ امرئٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ، استمرارِيَّةُ السِّجْنِ الأَبَدِيِّ في دار العذاب لخصوص الكافرين، إِذِ المعذَّبُون من أَهْلِ اليمين يَنَالُونَ مَا قُضِيَ عليهم منْ عذابٍ مؤقّتٍ فيها، ثُمَّ يُخْرَجُونَ منها، ويكونُ مَصِيرُهُمْ إلى الجنَّةِ دار النعيم، بما في قلوبهم من إيمانٍ صحيح مقبولٍ عند الله، وقد ماتُوا عليه ولَقُوا اللَّهَ رَبَّهُمْ به.

فيكونُ معنىٰ قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾.

كُلُّ نَفْسٍ مُكَلَّفَةٍ كَاسِبَةٍ لأعمالها باختيارِها الحرّ، مسؤولَةٍ عنْدَ اللَّهِ عمَّا كَسَبَتْ لمحاسبتها ومجازاتها، ستكون مَحْبُوسَةً بمَا كَسَبَتْ يوم الدّين في دار الْعَذَابِ النّار حَبْساً أبَدِيًّا لا نِهَايَةَ له، باستثناء أَصْحَابِ اليمين، وهُمُ الّذِينَ ماتُوا على إيمانٍ صحيحٍ مَقْبُولٍ عنْد اللَّه، فإنَّ من يُجَازَىٰ منهم بالدُّخُول في دار العذاب لا يكون سِجْنُه فيها أبديًّا، ولا يَسْتَمِرُّ رهيناً فيها إلى ما لا نهاية له.

قول اللَّه عزَّ وجلَّ يَعْرِضُ لقطَةً من لقَطَات أحداث أهل الْيَمِين وهم في جنَّاتِ النعيم يوم الدّين:

● ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١﴾.

﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾: أي: هُمْ في جنَّاتٍ، فالعبارةُ خَبَرُ مبتدأٍ محذوف تقدير «هُمْ» وهو ضميرٌ يعودُ على «أصحاب اليمين».

وجاء لفظ «جنَّاتٍ» منكّراً للتنويع والتكثير، أي: في جنَّاتٍ كثيراتٍ ومُتَنَوِّعَاتٍ مُتَفَاضلات بحسَبِ أحوال أهل دار النعيم، ووصفَها اللّه عزّ وجلّ بأنّها جنَّاتٌ مع أنّها جميعاً في دار واحدة كبرى للمؤمنين المتقين على مراتبهم ودرجاتهم، للإشعار بأنَّ كلَّ قسْمٍ من أقسامها يصْلُح بمفرده لأنْ يكون جنَّةً عظيمةً جدّاً.

ويَدُلُّ ذِكْرُ لفظ «جنَّاتٍ» على أنَّ المشهد المعروض في النّصّ يتكَرَّرُ حدوثُهُ لدى نُزَلاَءِ هذه الجنَّاتِ على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، فجماعات في جناتِ عدنٍ يتساءلون، وجماعات أُخَر في جناتَ الفردوس يتساءلون، وهكذا.

● ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١﴾.

أي: يَسْأَلُ أصْحَابُ اليَمين بَعْضُهُمْ بَعْضاً عن معارفهم من الّذِين كانُوا مُجْرِمِين في الدُّنيا، ويقتضي هذا وُجُودَ مشاهدَ متعدِّدةٍ كثيرةٍ موزَّعَةٍ في جنَّاتٍ كثيراتٍ متنوّعاتٍ، وهذه المشاهِدُ مُتماثلَةٌ في مضمونها، فَيُعَبَّرُ عنْها بتعبير واحد.

لكِنَّ المتسائلين لا يَجدُ بعضُهُمْ عند بعضٍ جواباً شافياً عمّا صار إليه المجرمون، وعن الأسباب التي جعلتهم خالدين في عذاب السّعير.

ولعلّهم يرغبون في أن يُطْلِعَهم اللّهُ على أحوالهم، فَيُتِيح اللّه عزّ وجلّ لهم وسيلَةً يُشَاهدونَ بها معارفهم من المجرمين وهم يُعَذَّبونَ في سَقَر، ويَتَحَدَّثُونَ بها معهم، ويَتلَقَّوْنَ بها إجاباتهم، وقَدْ غدا مثل هذا أمراً ميسوراً في مبتكرات الناسِ في الحياة الدّنيا، السلكيّةِ وغير السلكيّة.

وإذْ يتمّ الاتصالُ بين أهل اليمين والمجرمين وهم في داريهما على الرُّغم من المسافات الشاسعات بين الفريقين، فإنه يجري الحوار بينهما، وقد جاء التعبير القرآنيُّ على شكل حوار جرىٰ فعلاً ومضىٰ زمانه، لتأكيد تحقُّق أنَّهُ سَيَقَعُ في المستقبل حتماً، فالآتي في المستقبل حتماً كالواقع فيما مضىٰ، كلاهما ينطبقُ عليه أنّه صدْقٌ وحقٌّ.

ويكون الحوار كما يلي:

● قال أصحابُ اليمين للمجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾؟! أي: ما أَدْخَلَكُمْ في دار العذاب «سَقَرَ»؟

السُّلوك في الشيء الدخولُ فيه وعُبُوره، ويُقَالُ أيضاً: سَلَكَ الشيءَ في الشيءِ إذا أدخله فيه، وجعَلَهُ يَعْبُرُه.

● قال المجرمون وهم في سقر: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾.

● ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾:

أي: لم نَكُنْ منَ المؤمنين الذين يُصَلُّون لربّهم، وهذا البيان هو بمثابة اعْتراف منهم بأنهم لم يكونوا يَعْرفون الصّلَة باللهِ رَبّهم، ولاَ يُؤَدُّونَ واجب الخضوع له في قيام بين يديه، وركوعٍ وسُجودٍ له، ولم يكونوا يدعُونَه إلاَّ وهُمْ به مشركون.

ونُدْرِكُ من هذا أنَّ الصَّلاة للّهِ عزّ وجلّ ذاتُ أهميَّةٍ عُظْمَىٰ في الدين، إذْ أَوّلُ مَا يَذْكُرُهُ أهْلُ سَقَرَ مُبيِّنين سبب دخولهم فيها أَنَّهُمْ لم يكونوا من المؤمنين المصلين.

وبالتأمُّل نُدْرِكُ أنَّ أوّل تعبيرٍ عَمَلِيٍّ عن إيمان المؤمن بربه وإسلامه له أنْ يكون من المصلّين، الذين يَدْعُونَه لاَ يُشْرِكون به شيئاً، ويُعْلِنُون خضوعهم له بالوقوف أذلاّء بين يديه، والركوع والسجود له.

ودلّ حذف النون من «لم نَكُنْ» وهو وجه جائز في العربية، على أنّهم في منازلهم في سَقَرَ يوجزون عباراتهم إيجازاً شديداً، حتّى بحذْف حرْفٍ لا يؤثّر حذفه على المعنى الذي يريدون التّعبير عنه، فحالُ من يكونُ في العذاب حالُ ضَجَرٍ وتذمُّرٍ وعدم رغبةٍ في القول إلاَّ عند مقتضٍ شديدٍ يقتضي منهم أن يَطْلُبُوا شيئاً أو يُجِيبوا على سؤالٍ مُهِمٍّ.

● ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: ويَعْتَرِفون بأَنَّهُمْ كانوا في علاقاتهم الاجتماعيّة وواجباتهم الإنسانيَّةِ تجاه الجائعين المساكِينَ أَشِحَّاء بخلاء، لا تتحرَّك قُلوبُهم نحوهم بعاطفةٍ إنسانيّة، ولا تندَى برحْمَةٍ.

إنّ حاجةَ الجائِعِ إلى الطعام من أشدّ حاجات الحياة، ويَشْعُر بها كلُّ إنسان، فإذا وجَدَ من عِنْدَهُ طعامٌ إنساناً جائِعاً حقًّا، وهذا الجائع لا يَمْلِكُ ما يَسُدُّ به جوعه وحاجته إلى الطعام، كمسكينٍ يُعْلِنُ عن حاجته وجوعه، ويظْهَرُ من حاله فقرُه وحاجته، ثُمَّ لم يُسْعِفْه بالإطعام، فإنّه يكُونُ أبْخَلَ النّاس، لا رَحْمَةَ في قَلْبِه، فهو يستَحِقُّ أَنْ يُعَامَلَ بالمثلِ فلا يَرْحَمه رَبُّه يوم الدين.

ومَنْ لا يَجِدُ في نفسه دافعاً لإطعام المسكين دون مكافأَةٍ يرجوها منه، فإنَّه لن يكون لديه دافع لعطاء نافع ينفع به غَيْرَهُ من الناس ابتغاء وجه الله، وطلَبَ مرضاته.

فدلَّت هذه العبارة على أنّهم لم يكن منهم خيْرٌ للنّاس في علاقاتهم الاجتماعية.

واختير الإطعام لأنّه من أَشدّ حاجات الناس الضرورية.

واختير الجائع المسكين لأنَّهُ كاشِفٌ نفسَه، مُتَعَرِّضٌ لمن يُطْعِمُه، يَسْتَعْطِفُ قُلوبَ الرحماء، وليس هو من الفقراء المتعفّفين الّذِين لا يسألون

الناس، فيحسبهُمُ الجاهلون أغنياء من التعفُّف، فالفقير المستور الجائع المجهولُ الحال قد يُعْذَرُ عند الله من لم يطعمه ولو كان قريباً منه.

**المسكين**: هو من يُظْهر الفقر، ولو لم يكن في واقع حاله الخفيّ فقيراً.

**أمّا الفقير**: فهو من كان في واقع حاله فقيراً، ولو لم يَكُنْ يُظْهر فقْرَه وحاجته.

هذا ما انتهيت إليه في التفريق بين الفقير والمسكين(١).

وجاء هنا أيضاً حَذْفُ نون «ولم نَكُنْ» فجاءت: ﴿وَلَمْ نَكُ﴾ وقد سبق بيان الحكمة البلاغيَّة في هذا الحذف.

• ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

**الخوض**: هو في الأصل المشْيُ في الماء وتحريكُه، وبهذا التحريك تختلط الرواسب الراكدة بالماء، فيذهَبُ صفاؤُه، وتَسُوءُ حالُه.

ثُمَّ اسْتُعْمِلَ الْخَوضُ بمعنىٰ التلَبُّسِ بالأمر والتصرُّفِ فيه بطريقة تُشْبِهُ الخوض في الماء، والْخَوْضُ من الكلام ما فيه الكَذِبُ والباطل.

إنَّ نزلاء سَقَرَ يومَ الدِّين يَعْتَرِفُونَ بأَنَّهم كانُوا في الحياة الدُّنْيَا يخوضُونَ مَعَ الخائضين، فيخلِطُونَ الكذِبَ والباطلَ في أقوالهم، ويخوضون في مَخَاضَات المعاصي والآثام، ومحرَّمات المظالم في الأَنْفُسِ والأَمْوَالِ والأعراض، مع الخائضين من الظالمين والطغاة وقادَةِ الشرّ والضلال في الأرض، ويشاركون أهل الشرّ والضُّرّ والضَّلالِ والفساد.

والتعبير بهذا الخوض يدُلُّ على أَنَّهم كانُوا يَقْتَرِفُونَ كُلَّ الجرائم والآثام

(١) انظر القاعدة (١٦) من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف.

السّلوكية، التي كان الخائضون في الدنيا يقترفونها، دون خوف ولا وجَلٍ ولا حَذَرٍ من عاقبةٍ وخيمةٍ، ولا عذاب أليم عند ربّهم.

● ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: وكُنّا نُكَذِّبُ بِمَا جَاءَ عَنْ رَبّنا من أخْبَارِ يَوْمِ الدِّين، يوم القيامة، والْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقِضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، الّذي يكون به الإدانةُ على الأعمال الَّتِي سلَفَتْ أيّامَ رحلة الابتلاء.

إنَّ تَكْذِيبَهُمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ بِنَبأ يَوْمِ الدّين هو السَّبَبُ الرئيسُ الّذي جعلَهُمْ يقطَعُونَ الصِّلَة بِرَبِّهِم فلا يُصَلُّونَ لَهُ، وهو السّبَبُ الذي جَفَّفَ منابع الرَّحْمَةِ فِي نفوسهم فجعلهم لا يطعمون المسكين، فضلاً عن بذلِ أي عَوْنٍ فَوْقَ ذلِكَ لمجتمعهم الإنسانيّ، وهو السبب الذي جعلهم يخوضُون في المعاصي والآثام وكبريات الجرائم مع أصناف الخائضين.

● ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: حتَّىٰ أتَانا يَقِينُ الْمَوْتِ الذي انكشفَ لَنَا عنْدَهُ يَقِين يوم الدين الذي كنّا نُكَذِّبُ به.

فهم يعترفُونَ بأنَّهم اسْتَمَرُّوا على أحوالهم التي وصفوها طَوال رحلة امتحانهم، حتَّىٰ نزل بهم الموت، وانتهت مُدَّة الابتلاء، وبدأَتْ رحلة زمن الدّينونة والجزاء.

وبما أَنَّهم قَدْ مَاتُوا دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا لأنفسهم في رحلة امتحانهم ما يُنْجِيهم من عذابِ ربّهم يوم الدّين، فإنَّ نفوسَهُمْ لاَ تَجِدُ مَا تتعلّقُ به غَيْرَ احْتِمَال أَنْ تَنْفَعَهُمْ عِنْدَ رَبّهم شفاعة شافِعِينَ لهم من إنْسٍ أو جنٍّ أَوْ مَلاَئِكة، لكنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا مَنْ يَشْفَعُ لهم عند ربّهم، ولو وجَدُوا مَنْ يَشْفَعُ لهم فشفاعته لهم لا تنفعهم.

● ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

لأنَّهم قضوا رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ولقُوا ربَّهُمْ وهم مكذبون بيوم الدّين، وبما بلّغهم إياه رسُولُ ربّ العالمين.

إنَّ أحداً لا يسْتطيع أن يشفع لأحد يومئذٍ إلاّ بإذن الله، واللّهُ جلّ جلالُهُ لاَ يأذنُ لِأَحدٍ بأن يَشْفَعَ لِمَنْ لَقِيَ رَبَّهُ كافِراً، ولو كان كُفْرُهُ من أَخَفّ دَرَكَاتِ الْكُفرِ، كَدَرَكَةِ أخَفّ أنواع الشرك في توحيدِ الرُّبوبية، أو توحيدِ الإلَهيَّة للّهِ عزّ وجل، قال تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

* * *

## (١٠)
## التدبر التحليلي للدرس الخامس

### الآيات من (٤٩ ـ ٥٦)

قال الله عزّ وجلّ:

● ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

● قرأ جُمْهور القرَّاءِ الْعَشَرة: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ بِكَسْرِ الْفَاءِ اسْمِ فاعل من «استَنْفَرَ».

وقرأ نافعٌ، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفر: [مُسْتَنْفَرَةٌ] بفتح الفاء اسم مفعول. وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى.

● وقرأ جمهور القرّاء العشَرَة: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بياء الغائب.

وقرأ نافع فقط: [وَمَا تَذْكُرُونَ] بتاء الخطاب. وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

**نظرة عامّةٌ حول هذا الدرس:**

● بعد عرْضِ لقطةٍ من لقطات أحوال المجرمين في سَقَرَ يوم الدّين، في الدَّرْس الرابع السابق، وما قدَّمَهُ هذا الدَّرْسُ من مثيراتِ رهْبَةٍ وإقناعٍ معاً لهم ولغيرهم لو كانوا من أولي الألْباب.

● جاء الدرسُ الخامسُ مُتابِعاً الحديث عن المجرمين، وناظراً إلَىٰ أحوالهم في ظروف الحياة الدنيا، ولكنّ الحديث عنهم ليس فيه مواجهةٌ لهم بالخطاب.

● فبدأ بتوجيه التعجيب من إعراضهم عن دَعْوة الرسول والقرآن لهم، ونُفُورِهم كَحُمُرِ الوحْشِ النافرة الخائفة من قُوَّةٍ مُكْرِهَةٍ متسلِّطَةٍ قاسِرَةٍ ذَاتِ قوة، مع أن دعوة القرآن والرسُولِ لَهُمْ دَعْوَةُ تَذْكِرَة، أي: دعوة بيان كلاميّ ينبغي أَنْ يَعُوهُ ويفهموهُ ويضَعُوهُ في ذَاكرتِهِم دواماً، ولَيْسَتْ قضيَّة إكراه ولا جَبْرٍ ولا قَسْرٍ من قِبَلِ ذِي قُوَّة مُتسلِّطَةٍ قَاسِرَةٍ تسوقُ بالْقَهْر.

● وبعد هذا التعجيب من أَمْرِ نُفُورِهم دُونَ مقتضٍ لهذا النفور، عَرَض الدّرْس علَّةَ نفوسهم في رفضهم الاستجابة للدّعْوَة أو التفكير في جوهرها، وفي العناصر التي تدعو للإيمان بها، فأبان قضيتَيْن:

**القضيَّةُ الأولى:** أَنَّهُمْ مُسْتكْبِرُون عن الاستجابة لدعوة الرسول

محمّد ﷺ، واتّباعه نبيًّا رسُولاً، على أنَّ رسُولَهُمْ لَوْ كان زعيماً من زعمائهم لمَا استجابوا له، لأنَّ كلَّ امْرِئٍ مِنهُم يُرِيدُ أنْ يكُونَ نبيًّا، وأنْ يؤتِيَهُ اللّهُ صُحُفاً مُنشَّرَةً مَقْرُوءَةً لكُلِّ مَنْ يَطَّلِعُ عليها.

**القضيّة الثانية**: أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُون بالبعث والجزاء والدَّارِ الآخِرَة بَعْدَ هٰذِهِ الحياة الدنيا، فهم بسبب عدم إيمانهم لا يخافون الآخِرَةَ وَما أعَدَّ اللّهُ فيها من دار عذابٍ خالدٍ للمجرمين.

● وبعد بيان علَّةِ نُفُوسهم وَجّهَ اللّهُ عزّ وجلَّ لهم عبارة الرَّدْع والزّجْرِ: ﴿كَلَّآ﴾ وَأتْبَعَهَا بتأكيد أَنَّ مَا جاء في البيان القرآني هو مُجَرَّدُ تَذْكِرَةٍ للموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الابتلاء. وهذه التذكرَةُ مُوجَّهةٌ لهم دون إكراه ولا جَبْرٍ وَلاَ قَسْرٍ، فلَهُمْ باختيارهم الحرّ أَنْ يَعُوها ويَحْفَظُوها ويَذْكُرُوها إذا شَاءُوا ذلك، ولهم أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهَا، ولا يَلْتَفِتُوا إلَيْها ولاَ يَعُوها ولا يَحْفَظُوها ولا يَذْكُروها، وَلَكِنْ عَلَيْهِم أن يتحمَّلُوا مسؤوليّةَ إعراضهم عنْدَ رَبِّهِمْ عذاباً أليماً في سَقَرَ، كما سَبَقَ به الإنْذَارُ في ثنايا السُّورَة.

● وأخيراً أَبَانَ اللّه عزّ وجلَّ أصْلاً من أُصول الإيمان، وهو أصْلٌ يَتَعَلَّقُ بموضوع القضاء والقدر، وحرّيَّة المكلّفين ذوي الاختيار الحرّ في ظروف الحياة الدنيا، وهو يتضَمَّنُ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلّ بمشيئته الحكيمة قَدْ جعل عباده المكلفين الممتحنين مختَارِين، يملكُونَ مشيئَةَ التَّذَكُّرِ والاستجابة للدّعوة، ومشيئة الإعراض والرفْضِ، وقَدْ منَحهُمْ ذَلِكَ بحكْمَتِهِ ليبلُوَهم فيما آتاهم خلال ظروف الحياة الدنيا، ولو شاء سُبْحانه لسَلَبَهُمُ القُدْرَةَ على أنْ يشاءُوا، ولجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ لا اختيار لهم ولا مشيئة، كما جَعَلَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ مجبورَةً لا تَمْلِكُ اختياراً في حركةٍ من حركاتها، وكَمَا جَعَلَ كلَّ مَا فِي جَسَدِ الإنْسَانِ مَجْبُوراً باستثناء إرادتِهِ وَمَا يَخْضَعُ لها من عَمَلٍ وتصرّفات.

ولو جَعَلَ اللَّهُ الناسَ مجبورِينَ حتَّىٰ في إرادتِهِم ومشيئاتهم الّتِي يشاءُونها لَمَا جَعَلَهُمْ ممتحنين في ظروف الحياة الدنيا، ولَمَا كلَّفَهُمْ بالإيمان والطاعة، ولَما وَجَّهَ لهم الأوامر والنواهي، ولما مكَّنَهُمْ من المعصية.

● وخَتَم اللَّه عزّ وجلَّ السُّورةَ بعبارَةِ ثناءٍ على اللَّه جلَّ جلالُهُ، فيها تخويفٌ من عقابه، وفيها إطماعٌ بِمَغْفِرَته، فأبانَ تَعَالَىٰ أنَّهُ أَهْلٌ لأنْ يُتَّقَىٰ عذَابُهُ، فهو العظيم الجليل القدير المنتقم الجبار، وأهلٌ لأَنْ تُرْجَىٰ مَغْفِرَتهُ، فهو العظيم الجليل الرحيم الْغَفَّارُ. فمن أصَرَّ على كُفْرِهِ عاقبه بعدله، ومن تاب إليه واسْتَغْفَرَهُ رَحِمَهُ فغفر له.

**التدبُّر التحليلي:**

قولُهُ تعالى:

● ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

**الفاء**: دلَّتْ هنا على أنَّ الكلام الذي جاء بعدها مبنيٌّ بناءً تفريعيًا على الكلام الذي جاء قبلها.

**«ما»**: اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ. «لَهُمْ» متعلق بمحذوف خبر، والضمير عائد على الكفّار المجرمين الذين تتحدّث السورة عنهم.

**التَّذْكِرَةُ**: ما يُسْتَذْكَرُ به الشيءُ المطلوبُ تَذَكُّرُهُ، كالرتيمة، والبطاقة الّتِي تُذَكِّرُ بموعد اللّقاء أو الاجتماع أو نحو ذلك.

والقرآن المنزَّلُ على الرسول ﷺ يُثْبَتُ في الصُّحُف، لتكونَ هذه الصُّحفُ تَذْكِرَةً، أي: مُذَكِّرَةً بالحقائِقِ والبيانات والوصايا والتكاليف الرَّبَّانِيَّةِ المنَزَّلَة، ومن أجل هذا أطلق الله عزّ وجل عليه اسْمَ تَذْكِرَة.

وشأنُ التذكِرَة أن لا تُكرِهَ ولاَ تُجْبِرَ أحداً على ما لا يُريد هو فعلَه، بَلْ هي مُذَكِّرَةٌ تَذْكِيراً فِكْرِيّاً فقط، والقُرآنُ يُذَكِّرُ بالحقّ والواجب والنصيحة والخير والشرّ والوعد والوعيد.

**مُعْرِضِين**: الإعراضُ: إعطاءُ العارض وهو الجانب، وهو منزلةٌ وُسْطَىٰ بين الإقبال والإدْبار.

**عارضا الإنسان**: هما صفحتا خَدَّيه.

**(عن التذكِرَة)** معمول لـ**(معرضين)** متقدّمٌ عليه، وكلمةُ «معرضين» حال.

فالمعنى: أيُّ شيٍ هو للمجرمين المكذبين بما جاء به الرسُول محمّد ﷺ إليهم، من حقٍّ أَو حُجَّةٍ أو حماية، أو مُسَوِّغٍ حالَةَ كونهم عن التَّذْكِرة معرضين، حتى يكون هذا الذي هو لهم أمراً يُسَوِّغُ لَهُم إعراضهم عن التذكرة، ويجْعَلُهُم معذُورين عند باريهم.

الجملة استفهامية، والغرض من الاستفهام هنا التعجيبُ من حالهم، مع الإشعار بأنّهم لا يملكُونَ شيئاً يُسَوِّغُ لهم الإعراضَ عن التَّذْكِرَة الرّبّانيّة، وإذا كانوا لا يملكُونَ مُسَوِّغاً فلا بُدَّ أَنْ يَقعُوا تحْتَ طائلة المسؤوليّة والمحاسَبَةِ وفصل القضاء والجزاء بالعقاب الأليم يوم الدين.

- ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾:

**حُمُرٌ**: الْمُرادُ حُمُر الوحْش، لأنّها هي الّتي تَنْفِرُ من الأسد أو من الصَّيَّادِين ذُعْراً إذا أحسَّتْ بأَحَدِهما.

**مسْتَنْفِرَة**: أي: نافِرَةٌ نفاراً شديداً، فالسِّين والتاء لبيان شدّة الحدَثِ الذي دلَّ عليه الفعل، والنّافر بشدّة يَغْدُو فاراً بسرعته القصوىٰ.

وجاءَ في القراءة الأُخرى: «مُسْتَنْفَرَةٌ» على البناء لغير المعلوم، أي: نَفَّرَها مُنَفِّرٌ ما، كالأسَدِ.

**قَسْوَرَة**: جاء في كُتُب اللُّغَةِ أَنَّ الْقَسْوَرَة اسم من أسماء الأسد، وأنّه يُطْلَق على جماعة الرُّماة والصَّيادِين. والكلمةُ مأْخوذة من الْقَسْرِ، وهو الْقَهْرُ على الكُرْهِ بالغَلَبَة، والمعنيان صالحان هنا معاً.

هذا النصُّ يشبّه المجرمين المعرضين بنفورٍ عن تذكِرَةِ القرآنِ الّتِي لا قَهْرَ فيها ولاَ غلَبَة وَلاَ قَسْرَ، بحُمُرِ الْوَحْشِ الَّتِي تَشْتَدُّ فِي النُّفورِ، إِذَا أَحَسَّتْ بأسَدٍ يتَرَصَّدُها لافتراسها، أو أَحَسَّتْ بجماعةٍ من الرُّماة الصَّيَّادِين الّذِين يترصَّدُونَ صَيْدها.

وفي تَشْبِيهِ عَامَّتِهِمْ بالْحُمُر إيماءٌ إلى ضَعْفِ عقولهم، وقلّةِ إدْراكهم لحقائق الأمور، وسُخْفِ تَصَرُّفِهِم تُجاه بيانات القرآن ودعوة الرسول ﷺ، إذْ هُمْ مُخَيَّرُون غير مَقْهُورِين ولا مقْسُورِين على الالتزام بما جاء في القرآن الذي هو بمثابَةِ التَّذْكِرةِ، فَلَيْسَ القرآنُ شيئاً مُكْرِهاً قاسراً بقوّةٍ مادّيَّةٍ.

ونُلاحظ في هذا التشبيه أنّه قَدْ شُبِّهَتْ حالَةُ نفورِهِمْ النفسيّ عن القرآن، وعن دعوة الرَّسُولِ ﷺ بحالة النُّفور الحسّيّ الذي يكون من حُمُرِ الوحْشِ إذا أَحَسَّتْ بالأسد، أو بجماعة الرُّماة.

ونُلَاحظُ في اختيار لفظ «الْقَسْوَرَة» المأْخُوذِ من الْقَسْر، إيماءً إلى أنّ أذكياءهم يَشْعُرُونَ بأنّ سُلْطان البراهين والحججِ والإقناعات والترغيبات القرآنية قادرةٌ على قَسْرِ عُقُولهم ونفوسهم وقلوبهم ومحاصرتهم من كلّ جانبٍ، فتُوقِعُهُمْ في أَسْرِ الإيمان، وهو أمْرٌ لا يريدونه، إذْ لا يُريدون مخالَفَةَ أهوائهم وشهواتهم ونوازِعِ كِبْرِهِمْ، ورغباتهم في الفجور، فَهُمْ يَنْفرون منْهُ فارّين.

وقد قرأتُ لبعض الملاحدة توصيةً لقرّائه بأنْ لا يقبلوا البحث في بعض الأوليّاتِ الفكريَّة، التي تَتعلّقُ بقضايا أَصْل الْوُجود ونشأة الكَوْن، لئلا تَجُرَّهم هذه البحوث إلى الوقوع في براثِن الإيمان.

ما أعْجَبَ هذا الجنوح عن الحقّ والنُّفُور عمّا يُوصِلُ إليه.

قولُهُ تعالى:

• ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

في هاتين الآيتَيْن بيانٌ لعلّتِهم النفسيّة التي جعلَتْهُمْ ينفرون من تَذْكِرَةِ القرآن وبياناته، فجرَّتْهُمْ إلى الكفر الذي هم فيه، وهي تتلخّص بأمْرَين: ١ ـ الكِبْر. ٢ ـ وعدم الإيمان بالآخرة الَّذِي جعلهم لا يخافون من عقاب الله فيها.

• ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

**بل**: هذه «بل» الابتدائية، وهي تتضمَّن معنى الإضراب عمَّا سَبقها، والإضرابُ هنا فيه معنى إبطال معاذيرهم، لعدم الاستجابة لتذكِرَة القرآن، وما جاء به الرّسُولُ من بيان، إذْ كان من ادّعاءاتهم في معاذيرهم أنَّ القرآن سِحْرٌ يُؤْثر، وأنّه قولُ البشر.

وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ بيانٌ لعلّة الكِبْرِ في نفوسهم، الذي جعلهم يتطاولون إلى أن يكونَ كلُّ امْرِئٍ منهم ذي مكانةٍ فيهم نبيًّا يُؤْتَىٰ من قبل ربِّه صُحُفاً تُنَزَّلُ عليه، وهٰذه الصُّحُف ينبغي أن تكون مُنشَّرة.

**مُنَشَّرَةً**: النَّشْرُ خلاف الطيّ، يقال لغة: نَشَرَ الصَّحيفة يَنْشُرُها نَشْراً، أيْ: بسَطَهَا ولم يجْعَلْها مطويَّةً. ونَشَّرَ الصُّحُفَ بتَشْدِيد الشّين، أي: زادَ في بَسْطِها.

والمعنى أنّهم يُريدون أن تكونَ الصُّحُف الّتِي يُؤْتيهم اللّٰهُ إيَّاها مُنَشَّرَة غير مطوية، رغبةً منهم في أن يكُون لها مظهر مُعْلَنٌ يَراهُ الناس، فيكون لهم به مَجْدُ الشهرة بأنّ الله نزّل عليهم هذه الصُّحُفَ مُكَرَّماً لهم بها، وهذا من فَرْطِ الكبْر في نفوسهم

● ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾: «بل» نظير سابقتها، أي: هُمْ لا يؤمنون بالآخرة حتَّىٰ يخافوا عقاب اللَّهِ عزّ وجل الذي أعَدَّهُ للمجرمين المكذبين فيها، وفي هذا بيان لعلّتِهم النفسيَّة الثانية.

فكِبْرُهُمْ وعدم خَوْفهم من الآخرة عِلّتَان كانتا السبب في إعراضهم ونفورهم عن القرآن.

قولُه تعالى:

● ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

● قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بياء الغائبين.

وقرأ نافع: [وَمَا تَذْكُرُونَ] بتاء المخاطبين.

وفي هاتين القراءتين تكامل بياني، فقراءة «نافع» تخاطب الناس المكلفين جميعاً، وقراءة الجمهور تتحدّث عنهم بالحديث عن الغائب.

﴿كَلَّآ﴾: كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ للّذين هم معرضون عن التذكرة كالْحُمُر المستنفرة التي فرّتْ من قَسْوَرَة، وردعٌ وزجْرٌ لهم عن أن يُؤْتَوْا صُحُفاً مُنَشَّرَة.

وجاء بعدها تأكيدُ كون القرآن الذي يفرُّون عنه مُجَرَّدَ تَذْكِرَةٍ غَيْر مقترنَةٍ بقُوَّةٍ مادِّيَّةٍ مُكْرِهةٍ مُجْبِرةٍ بِقَسْر.

● ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ الضمير يعود على القرآن الذي قال بشأنه الوليد بن المغيرة كما جاء في الدرس الثالث من دروس السورة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

● ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: إنَّ الْقرآن تَذْكِرَةٌ مُوجَّهَةٌ لِمَشِيئَة الموضوعين في الحياة الدنيا

موضع الابتلاء، فَمَنْ شاءَ باخْتِيارِهِ الْحُرّ أَنْ يَعِيَهُ ويتَفَهَّمَهُ وَيَضَعَهُ في ذَاكِرَتِهِ فَهُوَ مُمَكَّنٌ مِنْ ذَلِكَ بقضاء اللَّه وقَدَرِهِ، لأنّ الله منحه الإرادة الحرَّةَ، وسَخَّرَ لَهُ الأدوات الَّتِي يَذْكُرُ بها ما يشاءُ أَنْ يَذْكُره، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَه، لاَ تَقِفُ دون تحقيق مشيئته قُوَّةٌ قاهِرَةٌ، صادَّةٌ ولا صارفة ولا مُعوّقة ولا مُلْغِيةٌ ولا سَالِبَةٌ.

ولئلاّ يتَوَهَّم مُتَوَهّمٌ أَنَّ مَشيئَةَ الناس الْحُرَّةَ مَوْجُودة فيهم ذاتِيًّا دون خَلْق خالِقٍ وَتَمْكِينِهِ وَتَسخِيره، قال اللَّهُ عزّ وجلّ في الآيَةِ الأخيرة:

● ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ . . .﴾:

أي: وما يَذْكُرُونَ بِمَشِيئتهم الحرَّة في أيّة حال من الأحوال إلاَّ في حالة مَشيئَةِ اللَّهِ أَنْ يمْنَحَهُم القدرةَ على المشيئة الحرّة، ويُسَخِّرَ لَهُم الأسبابَ الّتِي بها يَذْكُرُونَ، فجهاز المشيئة الحرَّة خَلْقٌ من خَلْقِه، والْقُدْراتُ التي بها يَشاءُون ويذكُرُون وَيَعْمَلُونَ أعمالهم كُلُّها لاَ تُوجَدُ إلاَّ بِخَلْقِهِ، والتَّمْكِينُ من استعمالها يكون منه، وبإذْنِه، وحُرِّيَّتُهُم مع كلّ ذلِكَ لا تتأثَّرُ بجبر ولا قسر، لكنْ من شاء الحقّ والخير والْهُدى صادقاً منحه اللَّه توفيقاً ومعونة وأوزعه وزاده اندفاعاً وسداداً.

ولَمّا كان الأمر يتعلَّقُ بابتلاء الناس في ظروف الحياة الدنيا، والابتلاءُ يقتضي المحاسبةَ وفصلَ القضاء والجزاء، ومن الجزاء العقاب على السيّئات، ولمّا كانَ كُلُّ بني آدم خطّائين، ومنهم من يتوب ويستغفر، ومنهم من يُصِرُّ على معاصيه ويستكبر، ناسب أن يختم اللَّهُ عزّ وجل السورة بقوله:

● ﴿. . . هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾.

عبارة: فلانٌ أَهْلٌ لِكَذَا تأتي بمعنى أَنّه مستَحِقٌّ لكذَا، فالأَهْلُ للشيء هو المستحقُّ له، يُطْلَق لفظ «أهل» بالإفراد على الواحد وغيره، مثل: هُمَا أهل لكذا، وهُمْ أَهْلٌ لكذا.

﴿ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ اسْمٌ للاتقاء، وللتُّقَى، تقولُ لغة: اتَّقَيْتُ اتّقَاءً، وتَوَقَّيْتُ

تَوَقِّياً، وتُقًى وَتَقِيَّةً وَتِقَاءً، إذا جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ما فيه أذىً أو ضُرٌّ أو عُقُوبَةٌ وِقَايَةً، أي: ما يقيكَ ويَحْمِيك ويحفظك.

ويُطْلَقُ المصدر واسْمُه توسُّعاً على من يَتَّقِي «أي: على اسم الفاعل» وعَلَىٰ مَنْ يُتَّقَىٰ «أي: على اسم المفعول» فَنَقُول: السلطان أهل للتَّقْوَىٰ، أي: لأنْ يُتَّقَىٰ عِقَابُهُ، وكلّ فرد من أفراد رعيَّةِ السُّلطان أَهْلٌ للتقوىٰ، أي: أهل لأنْ يتَّقِيَ عِقَابَ السُّلْطانِ.

ونظيره أن تقول: السُّلطانُ أهل للضَّرْبِ، أي: لأنِ يَضْرِب المذنبين، والمذنب أهل للضَّرْب، أي: لأنْ يُضْرَبَ عَلَى ما جَنَىٰ.

﴿ٱلْمَغْفِرَةِ﴾: مصْدَرُ غَفَر الشيءَ، إذا سَتَرَهُ، تقولُ لُغَةً: غَفَرَ الشيْءَ يَغْفِرُهُ غَفْراً وَغُفْرَاناً وَمَغْفِرَةً، أي: سَتَرَه.

فوصف اللّه عزّ وجلّ نفْسَه بأنَّهُ هو أهل التَّقْوىٰ وأهل المغفرة، معناهُ: أنّه هو المستَحِقُّ لأنْ يُتَّقَىٰ عذابُهُ وعِقَابُهُ، إذْ هو العليم الحكيم القدير على كلّ شيء، الْعَدْلُ الشّديد العقاب، الذي وضَعَ عباده في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الابتلاء. وهو الْمُسْتَحِقُّ لأن تُرْجَىٰ رَحْمَتُه ومَغْفِرَتُهُ، إذْ هو الرحيم بعباده، الذي يقبل توبة من تاب من عباده وأناب إليه، والذي يغفر ذنوب من استغفره مستمطراً رحمته، وهو ما زال في رحلة الابتلاء.

وإثباتُ أَنَّ اللّهَ جلَّ جَلاَلُهُ هو وحْدَهُ المستَحِقُّ لِكُلِّ عناصر التقوى ومفرداتها، والمستحقُّ لكلّ عناصر المغفرة ومفرداتها، لا يَنْفِي أَنْ يكونَ لبَعْضِ عبادِهِ نَصِيبٌ ما ممّا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّقَىٰ، ونَصِيبٌ ما من المغفرة، لمن أَسَاءَ إليهم، فعبارة: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لا تنفي ذلك.

## بيان أدبيّ حول مضامين الدرس الخامس:

حقائق الدين الكبرىٰ أمُورٌ فَطَر اللّهُ أفكارَ النّاس وعقولَهُمْ وأعْمَاقَ نفوسهم ووجداناتهم عليها.

أمّا أهْواؤهم وَشهواتُهم وَرَغباتُهم من دنياهم فهي نزّاعَةٌ إلى مخالَفَةِ مقتضياتها، وهُنَا تظهر عُقْدَةُ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

والرّسَالاَتُ الرّبّانيَّة في أُسُسِها تَكْشِفُ للناس الحقائق الكونيّة، والحقائق المغروزة في نفوسهم الَّتي فطرهم الله عليها، فهي معلّمةٌ ومُذَكِّرةٌ لهم بما في أعماق نفوسهم ممّا هُمْ مفطُورون عليه وغافلون عنه.

فمن تكريم رسالة الإسلام للناس، وهي رسالةُ الرَّبّ الخالق لهم، أنَّهَا تُقَدِّمُ نَفْسَها إليهم على أنَّهَا تَذْكِرَةٌ وَذِكْرَىٰ، فَهِيَ نِصُوصٌ مُنَزَّلَةٌ من لَدُنِ الرَّبّ الحكيم العليم، وموضوعَةٌ للتلاوة والترتيلِ بينهم، حتَّىٰ تكونَ لَهُمْ ذِكْرَىٰ وَتَذْكِرَةً مُتَجَدِّدَة، ينتفع بها من لم يُطْغِه هواه، فأبْصَر طريقه، وأراد سعادة نفسه الحقيقيَّة، ولَمْ يُؤْثِرِ العاجلَةَ على الآجلة.

ومن تكريم رِسَالة الإسلام للناس، وهي رسالة الرَّبّ الخالق الرازق المحيي المميت، الذي بيده مَلَكُوتُ كلّ شيءٍ، أنَّها تَجعَلُهُمْ أَمَام دعوتها لهم مخيَّرين بين مشيئتَيْن دون إلزام بالإكْراه، وَلا سيْطَرَةٍ ولا قَهْر، مشيئة القبول والمتابعة، ومشيئة الرَّفض والإدْبار، فمن شاء فلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شاءَ فلْيَكْفُرْ.

لكِن لكُلّ مشيئةٍ مِنْ هاتين المشيئتَيْنِ نتيجة حتمية، في قانون الْخَلْق الجبريّ، فَمَنْ شاءَ الرَّفْضَ وأبَىٰ أن يستجيب لدعوة الحقّ، فعلَيْه أن يتحمَّلَ عقاباً أليماً خالداً يوم الدين، ومَنْ شاء القبول واستجابَ وتابَعَ فلْيَنْعَمْ سَعِيداً خالداً في جنّات النعيم يوم الدّين.

إنَّ دين اللّٰه للناس بيانٌ وَتَذْكِرَةٌ وتخيير، فَمَنْ شاءَ أنْ يُؤْمِنَ ويُسْلِمَ فَلْيَفْعَلْ، ومَنْ شَاءَ أَنْ يكْفُر ويستكْبِر فليفعَلْ أيْضاً، وعليه أن يتحمَّلَ النتيجة الحتميَّةَ شقاءَ أبديًّا. أمَّا من آمن وأصْلَحَ فله السعادة الأبديَّة.

أفيليقُ بذي فِكْرٍ ورَأْيٍ وَعقْلٍ تُعْرَضُ عَلَيْهِ تَذْكِرَةٌ مِنْ هذا القبيل، لا إكراه فيها ولا قَهْر، أن يُعْرِضَ أَوْ يَنْفِرَ من هَذا العرضِ التخييريّ؟!

إنّ أمْرَ المعرضين النافرين لأَمْرٌ يثير بالغَ العجب والاستنكار والازدراء، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ (٥١)﴾.

ما لَهُمْ نافرين نُفْرَةَ حُمُرٍ وحْشِيَّةٍ خَوْفاً من الأسَدِ أو من جماعَةِ الْقَنَّاصةِ الرُّماة، مَعَ أَنّ المعروض عليهم بيانٌ كلاميٌّ، يُطْلَبُ منهُمْ أنْ يَفْهمُوهُ ويَعُوهُ وَيَضَعُوه في ذاكِراتهم إنْ شاءُوا، للانتفاع به إذا أرادوا.

إنَّ في هذا التشبيه لإبداعاً عجيباً، فالْمُشَبَّهُ به نَافراتٌ من الْحُمُرِ الوحْشيّة، وللحمار في التشبيه معاني الغباء وضعف الإدراك، لكنَّ هذه الْحُمرَ أَحْسَنُ حالاً، فهي تَنْفر من قَسْوَرَة، ومن حَقّها أن تنفر منه، لكِنَّ النافِرين من دعْوة الحقّ الرّبّانية نافِرُون من تَذْكِرَة لا يليق بِهِمْ أَنْ يَنْفِرُوا منها، إنّ هذا لأمر بالغ العجب، لدى أولي الألباب.

والسبب في انطماس بصيرتهم كبْرٌ في نفوسهم انْتَفَخَ فَغَشَّىٰ على قوىٰ الإدْراك لديهم، وتَشبُّثُهُمْ بالحسِّيَّاتِ الذي جعلهم لا يؤمنون بالآخرة، فلا يخافون عذاب الله فيها، لأنّها من الأمور الغيبيَّة غير الْمُحَسَّة المشهودة.

وأكّد الدّرسُ أن رسالة القرآن رسالةُ تذكرةٍ، معروضة بالتخيير على نفوسٍ ذواتِ مشيئاتٍ حُرَّةٍ، قضَىٰ اللّهُ لها أن تكونَ كذلك، لابتلائها في ظرُوف الحياة الدنيا.

وخُتِمَتِ السورة بعبارةٍ تلويحٍ بالترهيب، والترغيب.

فالترهيب جاء في وصف اللّه عزّ وجل بأنّه هو أهل التقوى.

والترغيب جاء في وصفه بأنه هو أهْلُ المغفرة.

**وتمت سورة (المدثر) وتمّ تدبُّرها بما فتح الله به،**

**فالحمد لله على ما أولَىٰ**

❃ ❃ ❃

# سُورَةُ المزَّمِّل

٧٣ مصحف ٣ نزول

## (١)
# بحث حول نزول سورة المزّمل:

بالنظر إلى ما جاء عند البخاري بشأن نزول سورة (المدثر) وما جاء في إحدى الروايتَيْن عن جابر ـ رضي الله عنه ـ اللَّتَيْن أوردتُهما في أوائل تدبُّر سورة (المدّثر) إذْ جاء فيها أنَّ جابراً قال: سمعت النبيّ ﷺ وهو يُحدّثُ عن فترة الوحي فقال في حديثه:

«فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذا الْمَلَكُ الَّذي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْباً، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمّلُوني زَمّلوني، فَدَثّرُوني، فأَنْزَلَ اللَّهُ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ ـ إلى ـ ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾. [فتح الباري الحديث (٤٩٢٥) ج ٨].

وبالنظر إلى ما جاء في صدر سورة (المزّمل) وبعْضِ آياتٍ فيها، تَرَجَّحَ لدَيَّ أنّ سورة (المزّمل) هي ثالث سورة مكّيّة، باستثناء عدّة آياتٍ منها نزلَتْ في المدينة على الأَرجح.

وكونها السورة الثالثة بحسب ترتيب النزول هو الذي اعتمده الشيخ محمّد علي خلف الحسيني شيخ عموم المقارئ المصرّية في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ هجرية في إحدى الطبعات المصرّية للمصحف الشريف.

❁ ❁ ❁

● وَرُوِي عن ابن عبّاس وقتادة أنَّ الآيتين (١٠) و (١١) نزلتا بالمدينة. وهما: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾.

● ورَوى الطبري عن سعيد بن جُبَيْر قال: «لمَّا أنزَلَ اللَّهُ علَىٰ نَبيِّهِ ﷺ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ...﴾ مَكَثَ النبيُّ ﷺ على هَذَا الحالِ عَشْرَ سِنينَ يَقُومُ اللَّيْل كما أَمَرَهُ اللَّهُ، وكَانَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُومُونَ معه، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ...﴾ الآية.

وهذا يُفِيدُ أنَّ الآيَةَ الأخِيرَة مِنَ السُّورَةِ نَزَلَتْ في المدينة، لأنَّ مُقَامَ الرَّسُولِ في مَكَّةَ بَعْدَ البعثَةِ قَدْ كانَ عَشْرَ سِنِينَ في قَوْلِ جُمْهور عُلَماء السِّيرَة المحمّديَّة.

وأمّا ما رُوي عن أُمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من أنّ الرّسول ﷺ قد عمل بما جاء في أوّل سورة (المزّمل) ستة عشر شهراً، وفي رواية حولاً، ثمّ نزلت الآية الأخيرة من السورة، فإنّها تحدّثت عما شهدت بعد بناء الرسول ﷺ بها، لكن سورة (المزمل) وعمل الرسول بما جاء في أولها قد كان منذ أوائل البعثة.

❁ ❁ ❁

## (٢)

# نص السورة

## سورة المزّمل وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ
قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى
عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ
قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ
رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا
جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ
لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾

---

٣ ـ [أَوِ انقُصْ] بكسر الواو قراءة عاصم وحمزة.
[أَوُ انقُصْ] بضمّ الواو قراءة باقي القراء العشرة.

٦ ـ [نَاشِئَةَ] بتحقيق الهمزة لجمهور القراء.
[نَاشِيَةَ] بإبْدَال الهمزة ياء لأبي جعفر، ولحمزة حال الوقف.
[وَطْأً] لجمهور القراء العشرة.
[وِطَاءً] لأبي عَمرو، وابْنِ عامر.

٩ ـ [رَبُّ الْمَشْرِق] برفع لفظ «رَبّ» لنافع، وابن كثير، وأبي عَمرو، وحفص، وأبي جعفر. أمّا الْبَاقُونَ فَبِكَسْرِها «رَبِّ».

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾
إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ
مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ
أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ
مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم
مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ
وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟
لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ
وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ .

٢٠ ـ [ثُلُثَي] بضم اللام، لجمهور القراء وقرأ بإسكانِ اللام [ثُلْثَي]: هشام.

● [ونصفِهُ وثُلُثِهُ] بالجرّ عطفاً على [مِنْ ثُلُثَي] قراءة نافع، وأبي عمرو، وابنِ عامر، وأبي جعفر، ويعقوب.

وقرأ الباقون بالنصب عطفاً على [أدنىٰ] والقراءتان وجهان متكاملان، فقراءة الجرّ تثبت احتمال ما هو أقلّ من الثلث.

## (٣)
# موضوع السُّورة

● في هذه السورة تَوْجيهُ بَعْضِ وصايا للرسول وللذين آمَنُوا معه، تتعلّق ببعضِ التكاليف التَّعَبُّدِيّة، والأعمالِ الحياتيَّة، والسُّلوكِ الدّعويّ.

● وفيها تلويحٌ بوعيدٍ شديد مؤجَّلٍ إلى يوم الدين، وآخرَ مُعَجَّلٍ في الدنيا، وهو موجَّهٌ للذين كذَّبوا الرسول وكذَّبوا بما جاء به عَنْ ربّه، إذا استمرّوا على كفرهم ولم يَتُوبوا قبل أنْ يُلاقوا ربَّهم بالموت، مع معالجتهم بتأكيد أنّ رسالة الإسلام الّتي جاءهم بها الرَّسُول ﷺ رسالةُ تَذْكِرَةٍ لذوي المشيئات الحرَّة، وليْسَتْ رسالة سَوْقٍ بقَسْرٍ وقَهْرٍ وجَبْرٍ، فمن شاء باختياره الحرّ اتّخذَ إلى مرضاة ربّه وثوابه العظيم سبيلاً بالإيمان والإسلام والطاعة، فَهُوَ مُمَكَّنٌ من ذلك، ومن شاء أَبَىٰ ورَفَضَ وكفر، وهُو مُمَكَّنٌ من ذٰلِكَ أيضاً، ولكن عليه أن يتحمَّلَ نتيجةَ اختيارِه الذي هو حرٌّ فيه عذاباً أليماً من ربّه يوم الدين، مع ما قدْ ينزل به من عذابٍ في الدُّنيا.

● والآية الأخيرة من السورة نَسَخَتْ فرضيَّةَ قيام اللَّيْل الذي جاء في أوائلها، وأَمَرَتْ بإقامة الصلاة، وإيتَاء الزكاة، وإقراض الله قَرْضاً حسناً مأجوراً أجراً عظيماً، وأمَرَتْ بالاستغفار مع الوعد بأنّ الله غفورٌ رحيم.

وهذه الآية الأخيرة من السورة نزلَتْ في العهد المدني، وضُمَّتْ إلى سورة (المزّمل) الّتِي هي من أوائل التنزيل المكيّ.

فموضوع السورة يدور حول ما يلي:

«أوامرُ ووصايا سلوكيّة للرسول ﷺ وللمؤمنين مقرونة بالوعد، ومعالجةٌ للكافرين بالوعيد مع تأكيد أنّ رسالة الإسلام رسالة تذكير، لا رسالة سَوْقٍ بالإجبار».

❁ ❁ ❁

## (٤)
## بيان دروس السورة

تشتمل سورة «المزّمّل» على ثلاثة دروس:

**الدرس الأول**: وهو يتضمَّنُ أوامر ووصايا سلوكيةً للرسول ﷺ، وللمؤمنين معه.

وهو من الآية الأولى، وحتى غاية الآية (١١).

**الدرس الثاني**: وهو يتضمَّنُ مُعالجةً للكافرين بالوعيد المؤجل إلى يوم الدين، والمعجّلِ في الدنيا، مع تأكيد أنَّ رسالة الإسلام رسالة تذكير لا رسالة سوقٍ بالإجبار.

وهو من الآية (١٢) وحتَّىٰ غاية الآية (١٩).

**الدّرس الثالث**: درس مُلْحَقٌ بالدرس الأول من السورة، إذْ فيه نسخ لحكم فرضيَّةِ قيام اللّيل على ما جاء في الدرس الأول، مع إضافة أحكامٍ ووصايا أخرى مقرونة بالوعد بأجرٍ عظيم عند الله، ومَغْفِرَة للمؤمنين العاملين بمراضي الله.

وهو الآية (٢٠) الأخيرة.

❀ ❀ ❀

## (٥)
## التدبر التحليلي للدرس الأوّل

**الآيات من (١ ـ ١١)**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ خِطَابٌ من اللّهِ لرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ بأداة النِّداء «يا» الموضوعة للمنادىٰ البعيد، إشارةً إلى بُعْدِ المنزلَةِ بَيْنَ الرَّبِّ وعِبادِهِ مَهما كان الْعَبْدُ ذا قُرْبٍ من اللّهِ بخضوعه وعبادته، واصطفاءِ اللّهِ له، ولو كان أفضَلَ الأنبياء والْمُرْسلين، وإشارةً إلى أنّ الخائف المتزمِّلَ الْقَابعَ بحُجْرَتِهِ مبتَعِدٌ يَحْتَاجُ إلى مثْلِ هذا النّداء، وتنبيهاً على الاهتمام بالمطلوب بعد النداء.

**الْمُزَّمِّل**: أَصْلُها الْمَتزَمِّل، قُلِبَتِ التاء زاياً وأُدْغِمَتْ بالزّاي فصَارتا زاياً مُشَدَّدَة.

**الْمُتزمِّل**: المتلَفِّفُ المتَغَطِّي بثيابه، يُقالُ لُغَة: تَزَمَّلَ، أي: تلفَّفَ بثيابه وتَغطَّىٰ، **وزَمَّلَهُ**: أي: لفَّهُ بثَوْبِه.

قال إبراهيم النَّخعيّ: نَزَلَتْ على الرَّسول ﷺ وهو مُتَزَمِّلٌ بقَطيفَة.

ويظهر لي أنَّ اللّهَ عَزَّ وجلَّ خاطَبَهُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ في سورة «المدثر» إشارة إلى قوله بعد أن رأى جبريل على كُرْسِيٍّ بين السماء والأرض فَذُعِرَ مِنْهُ: «دَثِّروني» وخاطَبَهُ هنا بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ إشارةً إلى قَوْله: «زمِّلوني».

ويلْمَحُ الأديبُ في النِّداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ وبـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ معْنَىٰ الملاطفَةِ الرَّفيقة الجادّة، الّتي تضمَّنَتِ الإشارة إلى مُهمَّاتِ الرِّسالة التي لا يتفِقُ معها الإخلادُ إلى السُّكُونِ والرَّاحَةِ.

ولعلّ الرسول ﷺ اقْتَبَسَ من أدَبَ هٰذهِ الملاطفة الجادَّةِ في النداء، فنادىٰ عليًا رضي الله عنه بقوله له: «يَا أَبَا تُراب» حين طلَبَهُ، فوجده في المسجد نائماً مُتوسِّداً التُّرَاب.

وقَدْ جاء بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ قولُهُ تعالَىٰ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾. وجاء بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ قولُهُ تعالَىٰ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾، إشعاراً بأنَّ هٰذِه الرِّسالة الرَّبَّانيَّة رِسالةُ جِدٍّ واجْتِهادٍ ونُهوضٍ إلى الْعَمَلِ في الدَّعْوَةِ وَفي العباداتِ الخاصَّةِ، وقدِ اصطفاكَ اللَّهُ لها واجتبَىٰ المحسنين والأبرار من أُمّتِك ليَقُوموا بوظائِفها من بَعْدِكَ، فَلاَ يَليقُ بمَنْ يُصْطَفَىٰ لها التَّدَثُّرُ والتزَمُّلُ بالثياب، والراحة والنوم إلاّ بمقدار الحاجة الشديدة، أمّا الْقُعُودُ والإخلادُ إلى الراحة، والتَّدَثُّر والتَّزَمُّلُ بثياب الاضطجاع والنوم، فهو شأنِ أهل الكسل، لا شأن من يُجْتَبَوْنَ للعمل الجادّ، والكدْح المتواصل، وحمل المهمّاتِ الْجِسام، والراحةُ لا تُؤخَذُ فيها إلاّ بمقدار الحاجة فقط.

- ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾.

- ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾.

قُمْ: فعل أمْرٍ مِنْ قامَ يقُومُ قوماً وقِياماً. والقيامُ هو ضدّ الجلوس، ويأتي القيامُ بمعنَىٰ الْعَزْم، يقالُ لغةً: قامَ يفْعَلُ كذا، أي: عزَمَ على فِعْلِه.

وقَامَ بالأمْرِ، أي: فعَلَه. وقامَ فلانٌ اللَّيْلَ، أي: بقي صاحِياً فيه لم يَنَمْ. ويُكنَّىٰ عن عبادة الله فيه بعبارة: «قَامَ اللَّيْلَ» وخُصَّتْ هذه العبادة غالباً بعبادة الصّلاة في اللّيْل، ولهذا فهم المفسّرون من قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ قُمْ للصَّلاَةِ في اللّيل. ودلّ الاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ على أنّ المراد بأداة التعريف «أل» في: «اللّيل» الاستغراق، فهي مثل لفظ «كلّ» إذ الاستثناء دليلٌ على أنّ المستثنى منه عامٌّ مستغرق كلّ أفراده أو أجزائه.

والقليلُ المستثنى لا بدّ أن يكون أقلَّ من نصف اللّيل، أي: فهو الثلث أو نحوه، وقد بدأ الأمر الرّبانيُّ بالأفْضَلِ من المقادير الموضوعة للتخيير، وهو قيامُ نحو ثُلُثَي اللَّيْلِ.

وبعد هذا أَذِنَ النّصُّ بالاكتفاء بقيام واحِدٍ من أزمنة ثلاثةٍ من اللَّيل.

**الأول**: الاكتفاء بنِصْفِ اللّيل، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بَدَلاً مِنَ اللَّيل.

**الثاني**: الاكتفاء بأنْقَصَ من نِصْفِ اللَّيْلِ، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ ويَصْدُق هذا بالثلث أو بما هو أكثر من الثلث وأقَلُّ من النصف.

**الثالث**: الاكتفاء بما زَادَ على النصف ولو كان أَقَلَّ من الثلثَيْن، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

فكأنّه بهذا التعبير الموجز قال:

قُمْ ثُلُثَي اللّيل، أو قُمْ نِصْف اللَّيل، أو قُمْ ثُلُثَهُ، أو ما زاد على الثلث دون أن يَبْلُغَ النصف، أو قُمْ ما زاد على النصف دون أَنْ يبلغ الثُّلُثين.

فهي خَمْسَةُ تخييرات في الأزمنة المأمور بقيامها من اللَّيْلِ، أفْضَلُها ثُلُثَاهُ باستثناء حالاتِ الْعُذْر، ودلَّ على هذا الأفْضَلِ البدْءُ به، وتتنازلُ الأفضليّات بحَسَب تناقُصِ مقدار الزمن.

هذا النَّصُّ يفتح الباب لتعلُّم كُسُورِ الأعداد، ويظهر لي أنّ النَّصَّ قَدْ جَزَّأَ اللّيلَ إلى (١٢) جزءاً.

- فأكمل القيام ما كان بمقدار ($\frac{٨}{١٢}$) وهو الثلثان.
- ودونه ما كان بمقدار ($\frac{٧}{١٢}$) وهو ما بين النصف والثلثين.

- ودونه ما كان بمقدار ($\frac{٦}{١٢}$) وهو النصف.
- ودونه ما كان بمقدار ($\frac{٥}{١٢}$) وهو ما بين النصف والثلث.
- ودونه ما كان بمقدار ($\frac{٤}{١٢}$) وهو الثلث.

والأمر إلزاميٌّ للرَّسُولِ بواحدٍ من هذه التخييرات، وقَدْ نَفَّذَ الرَّسُول الأَمْرَ، وتَبِعَهُ فيه طائفةٌ من أصحابه دون أن يكون واجباً عليهم، فكانَ يَقُومُ مَا هُوَ أقْرَبُ من ثُلُثَي الليل أحياناً، وكَانَ يَقُومُ نِصْفَهُ أحْياناً، وكَانَ يَقُومُ ثُلُثَهُ أحْيَاناً، وكان يَقُومُ بَيْن ذلِكَ أحياناً، وقد دلَّ على هذا ما جاء في الآيَةِ المدَنِيَّةِ الناسِخَة، المضمومة إلى آخِرِ هذه السورة المكيّة، إذْ جاء فيها قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ له:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ . . .﴾.

**أدْنَىٰ**: أي: أقْرَب، وهذا يكون دون الثلُثَيْنِ بقليل، وقد يكون هذا القليل دقائق يصْعُبُ على القائم ضبْطُها، لكِنَّ الله عَلِيم بها، وهو لا يَقُولُ إلاَّ صِدْقاً.

- ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾.

**التَّرْتِيل**: القراءة بتَمَهُّلٍ وأَنَاة، قال أهلُ اللّغة: رَتَّلَ الكلامَ، أي: أحْسَنَ تأليفه، وأبانَهُ، وتمَهَّل فيه، والترتيلُ في القراءة الترسُّلُ فيها والتَّبْيينُ مِنْ غيْرِ بغيٍ، أي: من غير زيادة مُفْسِدَة.

قال أبو إسْحٰق: التَّبْيينُ لاَ يَتِمُ بأَنْ يعْجَلَ في القراءة، وإنّما يَتِمُّ التَّبْيينُ بأن يُبيِّنَ جميع الحروف، ويُوَفِّيَها حَقَّهَا من الإشباع.

وجاء في صحيح البخاريّ عن أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سُئِلَ عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانَتْ مَدّاً» ثُمَّ قرأ بسم الله الرحمن الرحيم،

يمُدُّ «بسم الله» ويمُدُّ «الرحمن» ويَمُدُّ «الرحيم».

فمَنْ تَعلَّم التجويد بالترتيل على علماء التجويد فقد أخذ بطريقة النبيّ ﷺ في تلاوته لكتاب الله.

إنّ ترتيلَ القرآنِ وفْقَ القراءة المجوَّدَةِ المتّبعَةِ تَلَقّياً عن الرسول ﷺ أعْوَن على فهم القرآن وتدبُّر معانيه، فمن أَغْرَاض ترتيلِ القرآن تفهُّمُ آياتِه وتَدَبُّر معانيها، إذْ هي ثَرَّةُ المعاني، ثَقِيلَةُ الْوَزْنِ في الأفهام، لا يستطيع تَالِيها أَنْ يُدْرِكَ بِسُرْعَةٍ ما فيها من كُنُوزِ معانٍ ثقيلَةٍ، لما فيها من إيجاز، وما فيها منْ جوامع الْكَلِم، والقواعد الكلّية، والمطْوِيَّات في المثاني، ولهذا جاء فيما رُوِيَ عن النبيّ ﷺ في وَصْفِ القُرْآن بأنَّهُ لا تَفنى عجائِبُه.

وجاء الأمر بِتَرْتِيلِ الْقُرْآن مؤكَّداً بالمفعول المطْلَقِ: ﴿تَرۡتِيلًا ﴾ بَعْدَ الأمرِ بقِيَامِ اللَّيل، لأنَّ قيام اللّيلِ بعبادة الصَّلاة يشْتَمِل عَلَىٰ تلاوة آياتٍ وسُوَرٍ من القرآن مَأْمُورٍ بتَرْتيلها تَرْتيلاً بعناية، ولا يفوتُنا ما في إيحاء نبرات كلمة ﴿تَرۡتِيلًا ﴾ من تَرَسُّلٍ وأناةٍ وتجويد.

ولا أرَىٰ مانِعاً من أَنْ يتحقَّق قِيامُ الليل بعبادةِ تِلاَوةِ القرآن ولو من دون صلاة، فتِلاَوةُ الْقُرْآنِ وحْدَها عبادة، إذْ يُثَابُ تالي القرآن على تلاوة كلّ حرف منه ثوابَ عَشْرِ حسنات، (ألفٌ) حرف و (لاَمٌ) حرف وَ (مِيمٌ) حرف من (ألٓم).

● ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

ذهب أهل التأويل مذاهِبَ مختلفة في تفسير كون آياتِ القرآنِ قَوْلاً ثقيلاً.

والّذِي ظَهَر لي أنَّ المرادَ من ثِقَلِ القولِ القرآني أَنَّهُ ذُو مَعَاني وفيرةٍ غَزيرةٍ، وهٰذه المعاني الثَّرَّة لا يُسْتَطَاعُ تَفَهُّمُهَا من قِبَلِ الناس إلاَّ بالقراءة المرَتَّلَةِ الَّتِي فِيها أناةٌ، وتَمهُّلٌ، وتَفكُّرٌ، وتَدَبُّرُ.

ومن هذه الآية نقتبسُ مذهباً في الأدب، هو مذهبُ الْقَوْلِ الثَّقِيل، ويقابِلُهُ الْقَوْلُ الخفيف، والقولُ المتوسّط، وبَيْنَ هذه المراتب الثلاث درجاتٌ متعدّدات.

والقولُ الثقيلُ هو من خصوصيّاتِ إعجاز القرآنِ البياني، إذْ هو ثقيلُ المعاني، حمّالُ دلالاتٍ على مضامينَ فكْرِيَةٍ ذاتِ وزنٍ عظيم في موازين العقول والأفكار.

والقولُ الثقيلُ هو قولُ العظماء والكُبَراء والملوكِ لشعوبهم، حتَّىٰ يتَّفكَّرُوا في تحليل دلالاتِه ويحفظُوهُ ويُرَدِّدُوهُ، ويستَنْبِطُوا مِنْهُ المعاني، ويكونُ شغْلَهُمْ الشّاغِل.

فكيْفَ بقولِ رَبِّ العالَمِينَ للنَّاس أجمعين، إنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قولاً ثقيلاً.

وقد أبَانَ اللَّهُ هذا الوصْفَ من أوصاف القرآن مع أوائل التنزيل، وقبل أنْ يُنَزِّل اللَّهُ من السُوَرِ ما يكْشِفُ هذه الحقيقة بجلاءٍ، أمّا صيغَتُه فقد جاءت على سَبِيلِ الوعْدِ بما سَيُنَزِّلُ على رسوله، ثُمَّ تحَقَّقَ هذا الموعودُ به فيما أَنْزَلَ بَعْدَ ذلِكَ في نجوم التنزيل.

أمّا حَمْلُ ثِقَلِه على ثِقَلِ العمل به فمستَبْعَدٌ، لأنَّ الله ما جَعلَ على المسلمين في هذا الدين من حَرَج.

وأمّا حَمْلُ ثِقَلِه علَىٰ ثِقَلِ حِفْظِه وتذَكُّرِه، فيبْعِدُهُ قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

وأمّا حَمْلُ ثقله على ثِقَلِ تنزيله على جَسَدِ الرَّسول عِنْدَ نُزُولِ الوحْي به، فهذا الثِّقَلُ هو مِنْ أَثَرِ الوحْي، لا من أَثَرِ ثِقَلِ آياتِ القرآن، وهو مستبعَدٌ أيضاً.

فالمعنى الذي ينبغي المصير إليه لِثقَلِ القولِ القرآني، هُوَ غَزَارَةُ معانيه، مع قِلَّةِ ألفاظه، وثِقَلُ جواهر المعاني التي يشتمل عليها.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ المعاني تتفاوتُ فيما بينها الأوزان، كما تتفاوت العناصر الكونيّة في أوزانِها الذّرّيّة. فالمعاني الّتي تتعلّقُ بكُلّيّاتِ الوجود الكُبْرىٰ، غَيْرُ المعاني الّتي تَتعلّقُ بظواهر الأشياء، من صُورٍ وألْوان.

إنّ من المعاني ما هو كمثل وزن الزئبق، ومن المعاني ما هو كمِثْلِ وزْنِ ورَقَةِ الورد، ومن المعاني ما هو كمثل وزْنِ جناح بعوضة.

إنّ آيَةً واحدةً مؤلّفَةً من بِضْعِ كلماتٍ، قد يَسْتَخْرِجُ المتدبّر منها معانيَ يحتاجُ شرحُها وبيانُها مئاتِ الكلمات، ويظلُّ فيها وفْرٌ عظيم، وهٰذا من ثقلها.

بينما نجدُ مئاتٍ من الكلمات يُمْكن اختصارها في بضع كلمات، وهذا من خفّتِها.

يُضافُ إلى ما سبَقَ أنَّ القَوْلَ الحقّ النافع المفيد يوصَفُ بالثِّقَل، أمّا القَوْلُ الباطلُ الذي لا نَفْعَ فيه ولا خيرَ فَهُو فارغٌ لاَ وَزْنَ له، وبعض القول نفعه قليل فهو ذو وَزْنٍ خفيفٍ لا ثِقَلَ له.

وكذلك العملُ في ميزان الأعمال عند الله، فالصالح منْهُ يُثْقِلُ ميزانَ صاحِبِه، بخلاف العمل الفاسد، فإنّه يَجْعَلُ مِيزانَ صاحبه طائشاً خفيفاً، قال الله عزّ وجلّ في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾.

وقَدْ وَصفَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّحابَ الْمَلِيئَةَ بما يَنْفَعُ النّاسَ من غَيْثٍ بأنّها سَحابٌ ثِقالٌ.

● ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

**النّاشئ**: هو ما يُوجَدُ مُتَزَايداً شيئاً فشيئاً، كالنباتِ يَرْبو، والكائن الحيّ ينمو، وكأوقات اللّيل أو النهار تتراكم، والناشِئَةُ مُؤَنَّثُ الناشئ، ومنه يقال: فتىً ناشئٌ، وصبيان ناشئون.

وجاء في تفسير ناشئة اللّيل أنّها سَاعاتُهُ وآناؤه، لأنّها تَنشَأُ نُشوءاً مُتَزايداً رابياً، والمرادُ من ساعَاتِ اللّيل وآنائه أعمال العبادة فيها، وهو على تقدير: إنّ الأعمال في ناشئَة اللّيل، وهو مجاز بالحذف، فهو من قبيل المجاز المرسل.

وجاء في تفسير نَاشِئَةِ اللّيْلِ أنها أعمالُ العبادة الّتي تُنشأ في الليل، كالصلاة الّتي تُنشأ في اللّيل، والذِّكْرِ وتِلاوَةِ القرآن، فقيامُ اللّيْلِ هو من ناشِئَةِ اللّيل، وهَذا من إسناد الفِعل أو ما في معناه إلى غير ما هُوَ لَه، ويُسَمَّىٰ عند علماء البلاغة مجازاً عقليًا، وقد جَرَىٰ هنا إطلاق لفظ «النَّاشئة» وهو اسم فاعل، على الأعمال «الْمُنْشَأة» في اللّيل، و «الْمُنْشَأَةُ» اسم مفعول، فهو من إسناد اسم الفاعل إلى غير ما هُوَ له.

ونظيره في وصْفِ المؤمن في الجنة بأنّه في عيشةٍ رَاضِيةٍ، مَعَ أنّ العيشة مَرْضيَّةٌ من قِبَلِ المؤمن فيها.

● ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾: «هي» ضمير فصْلٍ جيء به للتأكيد. **أشَدُّ وطأً**: أي: أكْثَرُ شِدَّةَ وَطْءٍ، ومن كان ذا وَطْءٍ شديدٍ كان أثْبَتَ قدماً.

**الْوَطْءُ**: وضْعُ الْقَدَم على الشَّيْءِ مَعَ ثِقَلِ الْجِسْم من فَوْقه، يقالُ لغةً: وَطِئَ الشَّيْءَ يَطَؤُهُ، إذا دَاسَه. وتكونُ شِدّةُ الْوطْءِ ببذْلِ ثِقَلٍ زائدٍ أو قُوَّةٍ ما على الموطوء، وبها يكون الواطئ أكْثَرَ ثباتاً وتمكُّناً.

فعبارةُ: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ تدُلُّ على أنَّ أعمال العبادة في ساعات اللّيل وآنائه أكْثَرُ وأَشَدُّ ثباتاً وتَمَكُّناً في عُمْقِ النفس.

فالعبادةُ الّتي هذه صفتها تكونُ عبادةً راسخةً بعيدةً عمَّا يَهُزُّها ويُزَلْزِلُهَا عَنِ المقصودِ الحقيقيّ منها، من عوارض النفس وشهواتها، ومشاغل الفكر، وصوارف الرّياء والسُّمْعة، لأنَّها تكونُ بين العبد وربّه في صفاءٍ ونقاءٍ وخلْوَةٍ، في جَوْفِ اللَّيْل الْمُحَاطِ بالرَّهْبَةِ والسُّكون.

وعبارة: ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ تَحْمِلُ أيضاً معنىٰ أنَّ العبادة في آناء اللَّيْلِ أكثر غلَبةً للنفس وشهواتها، وأكثر قهراً لها وتذليلاً، أخذاً من قول العرب: وَطِئْنَا الْعَدُوَّ وَطْأً شديداً.

وجاء في القراءة الثانية: [أشَدُّ وِطاءً] الْوِطاءُ: الموافَقَةُ، يُقَالُ لُغَةً: أَوْطأَ فُلاَنٌ فُلاناً على الأَمْرِ، إِذَا وَافَقَهُ، والتواطُؤُ هو التوافُق. والمرادُ من كوْنِ نَاشئَةِ اللَّيلِ أَشَدَّ وِطاءً أنَّها أشَدُّ مُوَاطَأَةً وَمُوافَقَةً بَيْنَ أَعْمالِ الجوارح وحَالَةِ النفس والفكر والقلب. أي: هي أَجْمَعُ لِكُلِّ جَوَانِب النفس حتَّىٰ عُمْقِ الْفُؤَادِ مَعَ مَشَاعِرِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ علَىٰ العبادة.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: **الْقِيلُ**: هُوَ الْقَوْل. والمعنى أنَّ القولَ في سَاعاتِ وآناءِ اللَّيْل يكون أَكْثَرَ استقامَةً، وأدْنىٰ إلى مطابقة الحقّ والخيرِ والْهُدَىٰ، وأَكْثَرَ سَدَاداً ورُشْداً وَتَوْفيقاً للمعاني الجليلة.

إنَّ اللّيْلَ بسُكُونِهِ وَرَهْبَةِ ظُلْمَتِهِ يُهَيِّئُ للعابد سكينَةً نَفسِيَّةً، تَجْعَلُ ما يقُولُهُ في عبادتِه من ذِكْرٍ وَدُعَاءٍ وتَدَبُّرٍ لآياتِ كتاب اللَّهِ، وما يَتَفكَّرُ فيه من آيات الله الكوْنيَّة، أكْثَرَ استقامَةً، وأَقْرَبَ إلىٰ مطابقة الحق والخير وَالْهُدَىٰ، وأَصْدَق مناجاة للَّهِ وَتَذَلُّلاً بَيْنَ يَدَيْه.

واستقامَةُ الْقَولِ في الذكْرِ والدُّعاءِ والتّلاوة وإنشاءِ المقالات وتأليف المؤلفاتِ وابتكار الأفكار تكونُ بالْتزام الحق والخير والْهُدَىٰ، وابتغاء مرضاة الله عزّ وجَلّ، بحضُورٍ صحيح ثابت راسخٍ مع الله، فكراً ونفساً وقلباً حتَّىٰ عُمْقِ الْفُؤَادِ.

ودَلَّ قَوْلُ الله تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ علَىٰ أَنَّهُ ينبغي تخصيصُ اللَّيْلِ لأعْمَالِ العبادَةِ على اختلافِ أنواعها، وتَرْكُ أعْمالِ كسْبِ الأرزاق للنّهار، إلاّ عند الحاجة أو الضرورة.

● ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾.

الخطابُ في هٰذه الآية موجَّهٌ للرسول محمّد ﷺ ثمّ لأمّته المتأسّين به، ولا سيما حملة رسالته في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقيادة الخلْق إلى الحقّ والخير والهدىٰ.

**السّبْح**: حركة الانتقال من مكان لآخر برفق ولين وسهولة، ومنه سَبْحُ السّمك في الماء، وسبْحُ الطّيْر في الهواء، وسَبْح الكواكب والنجوم في مَسِيراتها بأفلاكها، وحركَةُ اللّيْل والنهار الدائرة في فلكها.

ويُطْلَقُ السَّبْحُ على تقلُّب الإنسان وتصَرُّفه في معايشه، وسمَّىٰ العربُ جَرْيَ الخيْلِ سبْحاً، وقالوا عن الفرس الذي يجري: «سابح» لأنّ حركته السّريعة حركةُ سَبْحٍ، إذْ تكاد قوائمه لا تلامِسُ الأرض.

فالمعنىٰ: إذا خصصتَ اللَّيْلَ لعبادة اللّهِ فيه كما أَمَرَكَ اللّهُ ربُّكَ بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ فإنّ لكَ في النهار مجالاً واسعاً وزمناً طويلاً للقيام بما تحتاج إليه من مطالب حياتك، ومعايشك، وللقيام بوظائفِ رسالتك الدّعَوِيّة والتربويّة، والجهاديّة مع الناس.

وقد عَلِمْنا أَنَّ تفريغ اللّيْلِ للقيام بالصلاة ونحوها قد كان في السنوات العشر الأولى من تاريخ رِسالة الرّسُول ﷺ، ثُمّ نزلت الآية (٢٠) من السورة ناسخةً هذا التكليف الإلزاميّ، ويظهر أن قيام جزء من اللّيل بقي واجباً على الرسول ﷺ، أمّا سائر المسلمين فَيُسَنُّ لهم قيام اللّيْلِ دواماً.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ إرشادٌ إلى أَنْ تكُونَ الحركَةُ لتحصيل مطالب الحياة، وكسْبِ الأرزاق، وابتغاء المعايش،

برفق وسماحة وتلطّف. وكذلك الحركة للقيام بوظائف الرسالة الدّعويّة والتربويّة ونحوهما.

إنّ الناس يكْسِبُون في الحياة الدنيا معايشهم بوسائل شتَّىٰ، فمنها ما يكونُ بعُنفٍ ومُغَالبَة، ومنها ما يكونُ بِكَدٍّ مُنهِكٍ للقُوىٰ، ومستنفدٍ للطاقات، ومنها ما يكونُ بإقبالٍ شَرِهٍ بغْيَةَ تحصيل الأموال، ومنها ما يكون بطمعٍ ورَغْبَةٍ في ظُلْم الآخرين والعدوان عليهم، وسَلْبٍ ونهْبٍ وغِشٍ واحتكارات ظالمات ونحو ذلك.

لكنّ هذه الآية تُرْشِدُ إلى الرفْقِ والسماحة والطَّلَب الجميل، والسَّبْحِ بحْثاً عن الرزق ومعايش الحياة ومطالبها وواجباتها بالوسائل المباحة المأذون بها شرعاً، دون مغالبة ولا مصارعة ولا ظلم ولا عدوان.

وقد عبّر القرآن عن هَذا بالسَّبْحِ، كما تسْبَحُ الطُّيور في جَوّ السَّماء، وكما تسْبَح الأسماكُ في الماء، بحثاً عن أرزاقها ومعايشها ومطالب حيَوَاتها.

إنّ هذا السَّبْحَ الطويل في النهار يكفي لتحصيل معايش الحياة، وتحقيق مطالبها، مع القيام بواجباتِ ووظائف الرسالة، فلْيَكُنِ اللَّيْلُ للعبادة والرّاحة.

وقد كان هذا في أوائل الإسلام قبْلَ فرض الصلوات الخمس.

ومن وصف أعمال الكسب الأفضل بالسَّبْحِ، ومن تخصيص أنَّ هذا السَّبْحُ في النهار، نلاحظ التوجيه الرَّبّانيّ لعنصرين:

**العنصُر الأوّل**: هو العنصُر الحركيُّ للكَسْب، وهو السبح.

**العنصُر الثاني**: هو الزَّمَنُ الذي ينبغي أن يُخَصَّصَ للكسب، وهو النهار، فالنهارُ هو الأصْلَحُ والأفْضَلُ لكَسْب المعايش، والقيام بأعمال العلاقات مع الناس.

أمّا اللّيل فهو الأصْلَحُ والأفضل للرّاحَةِ والنوم، ولعبادة القيام،

وللصفاء مع الله جلّ جلالُه، والسكينة بين يديه في العبادة والمناجاة والتفكُّر والتأمُّل.

ثُمَّ أنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في نجوم التنزيل اللّاحقَةِ تأكيد أنه سُبْحانه جعَلَ اللّيْلَ لبَاساً وَجعَلَ النهار معاشاً، فقال تعالى في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾.

ولا يخفى على من يلاحظ حركات الحياة أنَّ السَّابح يبحث عن مطالب حياته برفق ويُسْرٍ وسُهولة، فحيث وجَدَها ضِمْنَ ما سَخَّرَ اللَّهُ له وأَذِنَ لَهُ بِه التقطها برفْقٍ، دون عُنْفٍ ولا مُغَالبةٍ وَلا مُنَاهبَة ولا مقاتَلةٍ ولا عدوانٍ ولا ظلم.

إنّ الأرزاق مقسومة مقدَّرة بالقضاء والقدر، وعلى الإنسان أن يسبح في حياته لتحصيل ما قَسَمَ الله له، وأن يُجْمِلَ الطَّلَب، وأن يكون رفيقاً، وأن يلتزم المنهاج الذي أمره الله بالتزامه، فزيادة الكَدّ لا تزيد في الرزق، والكسبُ بمعصية اللَّهِ عزّ وجلّ يُوجب العقوبة من جهة، ولا يَزيد في الرزق من جهة أخرى.

وإذا اتَّجه الإنسان لتحصيل مطالب حياته ومعايشه بحركة السَّبْحِ، أفيتركُ وهو يَسْبَحُ ذِكْرَ رَبِّهِ؟

وقد جاء الجوابُ الرَّبّانِيُّ على هذا التساؤُل النفسيّ، بقول اللَّهِ عزّ وجلَّ في النصّ التالي:

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

وجاء في القراءة الأخرى: [رَبِّ المشْرِقِ] بجرّ لفظ «رَبّ» على أنَّهُ بدلٌ مِنْ: ﴿رَبِّكَ﴾ أو نَعْتٌ، أو عَطْفُ بيان.

أمّا ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ ﴾ بالرَّفعِ فهو على القَطْع، ويكونُ خَبَر مبتدأ محذوف تقديره: هو رَبُّ المشرق والمغرِب.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ أي: واذْكُرْ مع سَبْحِكَ في النهار ما يُلائم حركةَ حياتك الواعية من أسْمَاءِ ربّك.

لفظ «اسْم» هو نكرة تَصْدُقُ بأيِّ اسْم من أسماء اللّهِ الْحُسْنَىٰ، ولمّا كان استغراقُها متعذّراً أو شاقًا جدًّا، كان المطلوب ذكر الاسم الملائم لحركة حياة السابح من أسماء الله الْحُسْنَىٰ.

وأسماءُ اللّهِ الحسنىٰ باستثناء الاسم العلم «الله» هي أسماءٌ دالاَّتٌ على صفاته، ولا شَكَّ أنّ ذِكْرَ الأسماء الدّالاَّتِ على الصفات تجعل الذاكِرَ في حالَةِ مُرَاقبةٍ للّهِ عزَّ وجلَّ عندَ كلِّ عَمَلٍ يعملُه، أو يخطُرُ لَهُ أَنْ يعمله.

فإذا كان يعمل في كسب الرزق فليذكر اسم الله الرزّاق، واسْمَ الله الغنيّ، واسْمَ اللّهِ الكرِيم، ونحو ذلك.

وإذا خطر له أنْ يرتَكب معصيةً، فليذكُرْ من أسْماءِ الله «المنتقم، الجبّار، الْعَدْل» ونحوها.

وإذا وقع في معصية، فلْيَذْكر من أسماء الله: «الرّحيم، التوابّ، الغفور، العفوّ» ونحوها.

وإذا تَوجّه للقيام بعمل فلْيَقُلْ: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وهكذا، فعبارة: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ صالحة لكل ذلك وأشباهه.

﴿رَبِّكَ ﴾ أي: المهيمن عليك برُبوبيته، الّتي تجمع كل أسماء الله وصفاته ذوات العلاقة بكَ عطاءً أو منعاً أو محاسبة أو جزاءً، أو غير ذلك.

وثمرة ذكر أسماء الرّبّ جلّ جلاله تَوْجيهُ النَّفْسِ للعمل بمراضيه والإخلاص له، والابتعاد عن معصيته.

وطاعةُ الله دواماً إنّما تتحقّق بقطْعِ النفس عن أهوائها وشهواتها الجانحات عن صراط الله، وبقطع النفس عن وساوس الشياطين.

والإخلاصُ لله في الأعمال لا يتحقّقُ إلا بقطع علائق النفس عن مظاهر الحياة الدنيا، وأوهامها، وزينتها، وزخْرُفها، ومفاخرها، والتكاثر منها، وعَنْ مراقَبةِ النَّاسِ والسَّعْي لاكْتِسَاب رضاهم، والْمَجْدِ عن طريقهم، ومَدْحِهم وثنائهم.

وهذه كلُّها إنّما تتحقّق بالتبتُّلِ لله عزّ وجلّ، فقال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾.

«التَّبَتُّلُ» هو الانقطاع عن شيءٍ أو أشياء والاتجاهُ الكلّي لما حصل التَبَتُّلُ إليه، تقولُ لغة: تبتَّلَ إلى اللَّهِ تبتُّلاً وَتَبْتِيلاً، أي: انقطع إلى طاعة اللَّهِ والعَمَلِ بمراضيه والإخلاصِ لَهُ، عن كلّ ما سِوىٰ ذلك من الصوارف عنها، من كلّ ما فيه معصية أو مخالفة، أو محبطات للعمل، أو انشغال عن المغانم من الأجرِ العَظيم.

● ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾:

ثناءٌ عَلَىٰ اللَّهِ بأنَّهُ رَبُّ المشرقِ والمغربِ مع رُبوبيّتِه للناس جميعاً، إنّه جَلَّ جَلالُهُ رَبُّ كُلِّ شيء، ولكِنَّ ذِكْرَ اللَّيْلِ والنهارِ في الآيات السابقات، المرتبطَيْنِ بشروق الشمس، وغروبها، ناسَبَهُمَا ذِكْرُ رُبُوبيَّةِ اللَّهِ للمشرق والمغرب، وفي ذكْرِهما تَنْبيهٌ علىٰ آياتِ اللَّهِ الكونيّة في ظاهرتي الشروق والغروب، ونِعَمِهِ وآلائه على عباده فيهما، وربوبيةُ الله للمشرق والمغرب تظْهَرُ في أنّه هو المقدّرُ لمواقع الأرض والشمس، وحركة الأرض حول نفسها وحول الشمس والْمُجْرِي لأحداثهما.

● ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾:

أي: لا مَعْبُود بحَقٍّ إلاّ الرَّبُّ جلّ جلالُهُ، الّذي هو رَبُّكَ ورَبُّ

الْمَشرِقِ والْمَغرِب، فَمَنْ لَهُ الرُّبُوبيَّةُ كُلُّها لا بُدَّ أنْ تكونَ له وحْدَهُ الإلَهيَّةُ، فلا يجوز عقلاً ولا في أوامر الدين عبادة غيرِه، ولا إشراكُ أحَدٍ معه في العبادة.

وفي تَوْحِيدِ الرُّبُوبيَّة، وتوحيد الإلَهيَّة، للَّهِ وحْدَهُ لا شريكَ له، بيانٌ لِلأَصْلَيْنِ الأَوَّلَيْنِ من أُصُولِ الدّين، وترسِيخٌ لهما في أفئدة المؤمنين.

ولمّا كانت الرّبُوبيّة للَّهِ وَحْدَهُ، إذْ هُوَ وَحْدَهُ المتَصرِّفُ بكُلّ شيءٍ في الكوْنِ، ولمَّا كان هو وَحْدَهُ المستحقّ لأَنْ يُعْبَدَ، ولمّا كان التوكُّلُ علىٰ شيءٍ غَيْبيٍّ عُنْصُراً مِنْ عناصِرِ العبادة، ولمَّا كان الإنسانُ بحاجَةٍ ماسَّةٍ دواماً لأنْ يتوكَّلَ في أموره علىٰ غيبيّ قديرٍ عليم رحيم، قال الله عزّ وجلّ في النّصّ هنا:

• ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾:

أي: فاجْعَلْهُ وَكيلاً، وَقُمْ بأعمالِكَ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ، حتَّىٰ يُيَسِّرَ لك الأمور، ويُسَهِّلَ لك الأسباب، ويُمِدَّكَ بالحوْل والقوَّةِ والْمَعُونة، ويَصْرِف عنْكَ الموانع، ويذلِّلَ لك العقبات، سواءٌ أكانت أعمالَ عبادةٍ أمْ أَعْمالَ تحقيقٍ لمطالب الحياة الدنيا ومعايشها.

إنَّ المتدبِّرَ لهذا الدرس الأوّلِ من دُروس سورة (المزمّل) يُلاحِظُ مَبْلَغَ الاهْتِمامِ بأعمال العبادة الّتي تصِلَ المؤمن بربّه، وتُعِدُّه للقيام بواجب جهاد الدَّعْوة وأعمال الجهاد الأخرى، فَمُجَاهدة النفس عَمَلٌ سابق ومتقدِّمٌ على القيام بواجبات جهاد الآخرين.

وبعد إعداد النَّفْسِ عن طريق مجاهدتها بالعبادات، وأثناء القيام بجهاد الدّعوة، تأتي الوصيّة بالأخذ بفضيلة الصَّبْر على ما يقولُ الكافرون المكذّبون، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

• ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١﴾:

هَاتَانِ الآيتان مِنَ التنزيل المدنيّ نزلتا بعد أَنْ حقَّقَ الرَّسُولُ ﷺ المطلوبَ منه فيهما في المرحلة المكيّة الّتي نزلَتْ فيها السّورة، وقَدْ ضُمَّتا إليها.

فما السِّرُّ في هذا والخطابُ فيهما مُوَجَّهٌ للرَّسُول ﷺ؟!

ونستطيع بالتأمُّل أنْ نَفْهَم أنّ خطابَ الرّسُول في هذا هو خطابٌ لكلّ الدُّعاة إلى دين الله من أمّته، فإذا كانُوا في مرحَلَةٍ من مراحلِ دعوتهم للنّاس مماثلةٍ للمرحلة التي نزلت فيها سورة (المزّمّل) فالمطلوبُ منهم أن يَصْبِروا على ما يقول فيهم رافضو دعوتهم، وأَنْ يهجروهم هجراً جميلاً، وأن يتركوا لربهم المعرضين عنهم من كبراء قومهم المترفين أولي النّعْمة، وأن يُمْهِلُوهم.

ولمّا كان الرسول ﷺ في مرحلة نزول سورة (المزّمل) محقّقاً في نفسه وفي سلوكه المطلوب في هذا النجم القرآني، لم يكن بحاجة إلى تنزيله عليه يومَئذٍ.

بيد أنّ المنهج للدُّعاة مِن بَعْدِه لا بُدَّ أن يكون مستوفياً كُلَّ عناصِرِه، فاقتضت الحكمة الرَّبَّانيَّةُ العجيبة تأخير التنزيل إلى المرحلة المدنيّة، ووضْعَ النَّصِّ المنزَّلِ في مكانه الملائم له، فتحقَّقَ بهذا الإجراء غرضان تربويّان أو أكثر.

أي: إنّ هذه المرحلة من مراحل الدعوة تتطلّبُ تحقيق مضمون هذا المنهج، لكنَّ الرَّسُول قد حقّقه دون أن يُطْلَبَ منه، فلم يكُنْ هو في هذه المرحلة بحاجةٍ إلى إنزاله عليه، ولو أنه لم يَكُنْ قد حقّقه لنَزَل هذا الخطاب بشأنه إبّان نزول سورة (المزّمل) أمّا الدُّعاة إلى دين اللّهِ من بَعْدِهِ فَهُمْ بحاجَةٍ إليه، وخطاب الرسول هو خطاب لأمّتِه ما لم يكن الأمْرُ من خصائصه الشخصيّة.

فاعْجَبْ لهذا الأسلوب البيانيّ التربويّ البديع، وتفهَّمْ دَلالَتَهُ الحكيمة.

- ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

**الصَّبْر**: ضَبْطُ النَّفس تُجاهَ ما يُثيرها ويهيجها من محبوبٍ تَرْغَبُ في الحصول عليه، أو مَكْرُوهٍ ترغبُ في دفعه أو الخلاص منه، أو الانتقام من فاعله أو الراغب فيه.

وهو إمَّا صَبْرٌ عن محبوب، أو صَبْرٌ على مكْروه.

وحامِلُ رسالة الدعوةِ إلى اللَّهِ لا بُدَّ أَنْ يُواجه رافضين لها، ولا بُدَّ في سُنَن الاجتماع البشريّ أَنْ يكون في رافضيها أصحابُ مصالح يَجِدون في امتدادها وانتشارها وانتصارها ضرراً يُهدّد مصالحهم، وهذا يدفعهم إلى مقاومتها بكلّ ما يستطيعون من قوّة مادّيَّةٍ أو معنويَّة، ويَدْفَعُهُمْ إلى مُقاومةِ ومحاربَةِ دُعَاتِها ونَاشريها ومناصِريها، ومن وسائِلهم في ذلك الحربُ الإعلاميّة، بإطلاق الأقوالِ التي تَتَّهِمُهُمْ بالكذب، أو بالجنون، أو بابتغاء مصالح دُنيويّة خاصّة يَسْعَوْنَ للحصول عليها، أو بغير ذلك من أقوالٍ تُشوِّهُ عند الناس سمعتهم.

والحكمة التربويَّة الرّبّانيَّةُ اقتضت أمْرَ الدُّعاةِ إلى اللَّهِ سواء أكانوا رُسُلاً أم أتباعاً للرُّسل بأن يَصْبِرُوا على ما يقولُ خصومها وخُصُومُهم في بَدْءِ نَشْرِها، وعَدَمُ الدُّخول معهم في صراعات كلاميّة من شأنها أن تُعَوِّقَ مسيرة الدعوة، وتُوقِّف انتشارها، وتُحوِّل المسيرة من نشر الحقّ والفضيلة والخير إلى مهاتراتٍ وشتائم فارغات تُهْدَرُ بها الطّاقات، وتَضِيع فيها الأوقات، فقال الله لحامل رسالة الدّعوة أيًا كان بأسلوب الخطاب الإفرادي: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

وعلَّمَهُ اللَّهُ أُسْلُوبَ الْهَجْرِ الجميل، فقال عزّ وجلّ:

- ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾:

**الهجر**: يكون بالإعراض، والابتعاد، وعدم اللّقاء والمواجهة، وهذا من شأنه ولو بعْدَ حينٍ أن يُخْرِسَ ألسنة الخصوم، ويجعلهم يسأمون من الإلحاح في متابعة الشتائم والاتهامات، ويمَلُّون من إطلاقها إذا لم يَجِدُوا من يَرُدُّ عليهم، وقد أدرك هذا المعنىٰ القائل:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ

ومهما يكُنْ الكلبُ كثير النُّبَاح، فإنَّهُ إذا لم يَجِدْ من خصمه ردّاً مَلَّ وسَكَتَ عن الإلْحَاحِ، ولا سيمَا إذا هَجَرَه خَصْمُه وابْتَعَدَ عنه وعن مَبَاءته.

والْهَجْرُ الجميلُ هو الهجْرُ الذي لم يَقْتَرِنْ بغضبٍ ولا مُخَاصَمَة ولا عتابٍ، فهو هجْرُ الراغب في العودةِ إلى المهجورين، الحريصِ على خيرهم ونجاتهم وسعادتهم، ودخولهم في عباد اللهِ الصالحين.

ومقتضياتُ التربية الحكيمة والدعوةِ إلى الله برفْقٍ تُوجب على الداعي أَنْ يكونَ خفيف الظِّلّ، غَيْرَ ثقيلٍ علَىٰ مَنْ يَدْعُوهُمْ، وإنْ واجَهُوهُ بما يَكْرَهُ من قَوْلٍ أو أذىً، وهجْرُهُ لَهُمْ هجراً جميلاً مَقْرُوناً بالإغضاءِ عنهم وعدم مقابَلتِهِمْ على أقوالهم الجارحة بمثلها، أو بغضَبٍ وانفعالٍ وحدَّةٍ، من شأنِه أن يَهْدِمَ ما في نفوسهم ضدَّهُ، ويُلَيِّنَ من قَسْوَتهم نحوه شيئاً فشيئاً، وربما اجْتَذَب من صفوفهم من في قلوبهم بذور خيْرٍ وإنْصَافٍ وحقّ وَتأثُّرٍ بالفضيلة وكمال الخلق، فالْهَجْر الجميل يكونُ بالتواريّ بصورة مؤقّتة، وبعَدَمِ مقابلةِ السيئة بمثلها، وربّما يقترن به تكريم وإحسان عن بُعْدٍ.

- ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾:

سبق نظير هذا التعبير التَّهْدِيديّ في سورة (المدّثر) بشأن الوليد بن المغيرة، وشرحُ ما يتعلّق به.

أي: ودَعْنِي والمكذِّبين الْمُتْرَفِين أَهْلِ التَّنَعُّم في الدُّنيا، بما آتيتهم من سَعَةٍ في الرِّزْقِ والصحَّة، فأبْطَرَتْهُمُ النَّعْمَةُ الّتي سِيقَتْ إليهم لامتحانهم بها.

**النَّعْمَة**: بفتح النُّون هي التَّرَفُّهُ وزيادة الاستمتاع بزينةِ الحياة الدنيا ووسائلها. **والنِّعْمَةُ**: بكَسْرِ النون، ما أُنعِمَ به عليك من عِطَاءٍ تُحِبُّهُ، أوْ خِدْمَةٍ تُرْضِيك.

في هذا التعبير تَهْدِيدٌ ضِمْنِيٌّ للْمُكَذِّبين، مع تأكيد طَلَبِ هَجْرِهِمْ هجراً جميلاً.

- ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾:

أي: ومَهِّلْهُمْ إمْهَالاً قَلِيلاً. **الإمْهَالُ**: إطالةُ مُدَّة الانتِظَار والتَّرَيُّث. وفي هذا توجيه تَرْبَويٌّ لحامل رسالة الدّعْوة، يتضمَّنُ أنَّ الزّمنَ يَحُلُّ كثيراً مِنَ الْعُقَد، ويُسَهِّلُ كثيراً من الصِّعاب، ولَهُ في النفوس الْبَشَرِيَّةِ مع الحلْمِ والصَّبْرِ والإحسان آثارٌ نافعةٌ جدًّا.

والإمْهَالُ الْقَلِيل تَنْصَرفُ القلَّةُ فيه إلى الزّمَن، والسَّنَواتُ العشْرُ الّتي مَرَّت في المرحلة المكيّة قبل مواجهة المكذّبين في مَعَارِكَ قتالية بَعْدَ هجرة الرّسول ﷺ إلى المدينة، وإقامةِ الدّولة الإسلاميّة، تُعْتَبَرُ في تاريخ الدعوات مُدَّةً قليلة، فقد كان إمهالهم طوال المرحلة المكيَّة إمْهَالاً قليلاً.

**خلاصة هذا الدرس:**

قد تناول هذا الدرس الأول من دُرُوس سورة (المزمّل) إعداد نفس الداعي إلى سبيل ربّه من جهتَيْن:

**الجهة الأولى**: تَرْبيَتُه على أن يكون عميق الارتباط بربّه وقويّه دواماً، بعبادات الصلاة والذكر والتبتُّل.

**الجهة الثانية**: تربيته على أن تكون علاقته بالآخرين الذين يرفضون الاستجابة لدعوته قائمة على الصبر، والهجر الجميل، والإمهال وترك المقاومة، وهذا في المراحل الأولى من الدّعوة.

❁ ❁ ❁

## (٦)
## التدبُّر التحليلي للدرس الثاني

### الآيات من (١٢ - ١٩)

قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

**مقدّمة:**

في هذا الدرس وعِيدٌ من الله عزّ وجلّ للمكذبين واجههم فيه بالخطاب، وهذا الوعيد يشتمل على عقابٍ مؤجَّلٍ إلى يوم الدين، وعقابٍ مُعجّلٍ في الدّنيا.

وفيه تأكيدٌ على أنّ رسالة القرآن ورسالة الرسول محمد ﷺ رسالة تَذْكِرَة، كما جاء في سورة (المدثر) فمَنْ شاء بحُرّيَّةِ إرادته غيرِ الْمُكْرَهَةِ وَلا المجبُورَةِ ولا المسوقة بالْقَسْر، أَنْ يتّخِذَ إلى مرضاة ربّه وثوابه العظيم في جنّات النعيم سبيلاً بالإيمان والإسلام والسَّمْعِ والطاعة، فهو مُمَكَّنٌ من ذلك تَمْكيناً تامّاً، إذْ لا يَجدُ أمامه عقبة تقف في وجه إرادته الحرَّة المختارة.

### التدبّر

**الإلماح إلى الوعيد المؤجل إلى يوم الدين:**

- ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾:

**الأَنْكَالُ**: القيود، والواحد مِنْها «**نِكْلٌ**» بكَسْرِ النون، وهو القيد الشديد من أيِّ شيء كان.

**لدينا**: أي: عندنا. **لدى**: ظرف مكان بمعنىٰ «عند» والمعنى: نؤكد أنّ أنكالاً وما عطف عليها موجودَةٌ عندنا.

**الجحيم**: اسم من أسماء النّار. وكلُّ نارٍ عظيمةٍ في مَهْواةٍ فهي جحيم.

هذه العبارة: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ جيء بها على سبيلِ الكناية عن العقاب، إذ الأنكال والجحيم من وسائل عقاب اللَّهِ للمجرمين يوم الدّين، ولوّحَ النَّصُّ بها تلويحاً تَهْدِيدِيًا للمكذبين، أي: فالَّذِي أَعَدَّ الْقُيُودَ ونَار التعذيب إنّما أَعدَّها للمجرمين الذين يسْتَحِقُّون العقاب بالعدْلِ، والمكذبون بما جاء عن ربّهم هم مجرمون لا محالة، ومثلُها قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾:

الطعام الموصوف بأنَّه ذو غُصَّة هو الطعام الّذي لا يسْتَسِيغُه الْحلْقُ، بل يَعْلَقُ فيه، فلا يجري إلى المريء، ولا يَخْرجُ إلى الْفَم.

وممّا يُحْدِث الْغُصَّةَ الشَّجَا في الْحَلْق، وهو ما يَنْشَبُ فيه ويعترضُ من عظم ونحوه.

ودَلَّ هذا البيان على أنَّ المعذَّبين في الجحيم يشعرون بالجوعِ الشديد، فيُضطرُّون أَنْ يأكُلوا طعاماً مُعَدًّا لهم فيها يَغَصُّونَ بِهِ، فَيُحِسُّون بعذاب الجوع، وبعذاب غُصَصِ ما يأكلون من طعامٍ.

وقد جاء في نصوصٍ أُخْرى بيان نوع طعامهم في جهنّم:

- فجاء في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٦﴾.

**ٱلْمُهْلُ**: دُرْدِيُّ الزيت، وهو عَكَرُه، وما ذاب من نحاسٍ أو حديد، ونوعٌ من القطران.

**الحميم**: الماء الحارّ الذي يغلي من شدّة حرارته.

● وجاء في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبًا مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٨﴾.

**لَشَوْباً مِنْ حَمِيم**: أي: لخليطاً من مَاءٍ حارٍّ وعناصِرَ سائِلَةٍ أُخْرَىٰ شديدة الحرارة.

**فِتْنَةً للظَّالِمِينَ**: أي: عذاباً للظَّالِمِينَ فيه حرارة شديدة.

وجاء في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) بشأن طعام المعذبين بالنار:

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾.

**الضريع**: نوعٌ من النَّبَاتِ وصَفَهُ اللَّهُ بأنَّهُ لا يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ.

وجاء في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بشأن طعام المعذَّبِ في النار:

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ۝٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾.

غِسْلِين: ما يَسِيلُ من جُلُود أهل النار كالْقَيْحِ وَنَحْوِه. ويُسَمَّىٰ غَسَاقاً، وَغَسَّاقاً.

ويبدو أَنّ هذه أنواع من أَطْعِمَةِ أهل النار بحسَب دركاتهم فيها.

● ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾:

أي: وإنَّ لَدَيْنَا بالإضافة إلى الأنكالِ والجحيم والطَّعَام ذي الغُصَّةِ عذاباً آخَرَ فوْقَ ذلِكَ أَلِيماً، يَتأَلَّمُ بِهِ من يُعَذَّبُ به ألماً شديداً.

إنّ الوعيد الذي جاء في هذا النصّ للمكذبين قد جاء كناية وتعريضاً وإلماحاً لا تصريحاً، لأنّ المرحلة ما زالت مرحلة أوائل الدعوة التي يَحْسُن فيها هذا الأسلوب، وهو أسلوب التّنبيه على وجود عذابٍ عند الله لمستحقّيه، ووجود أدواتٍ لهذا العذاب.

قول الله عزّ وجل:

● ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

في هذه الآية تقديم لقطة بيانيّة تُصَوّر مشهداً من بدايَاتِ أحداث اليوم الآخر، الذي ستكون فيه الإدانَةُ والجزاء، وسيتحقّق فيه الوعيد الذي ألمحت إليه الآيتان السابقتان.

﴿يَوْمَ﴾ ظَرْفٌ لأَحْدَاث الوعيد المُلْمَح إليه، وهو منصوبٌ على الظرفية الزمانية، أي: سيكون هذا الوعيدَ يَوْمَ تَحْدُثُ أحداثٌ عظام، وتغييرات في الكون جِسَام، ومن الأحداث الممهّدَة لهذا اليوم العظيم تغييراتٌ تظهَرُ في الأرض التي جعلها اللّهُ مستقرَّ الناس في الحياة الدنيا، ومتاعَهُمْ إلى حينٍ، وجعلهم فيها يحيون، وفيها يموتون، ومنها يُخْرَجُون تارَةً أُخْرَى إلى الحياة الأخرىٰ، الّتي يكونُ فيها الحساب وفصْلُ القضاء ثمّ الجزاء.

ومن هذه الأحداث الممهدة، والبدايات لليوم الآخر، حَدَثان عظيمان سيكونان.

**الحدث الأول**: أنْ تَرْجُفَ الأرض والجبال، أي: أن تتحرّك وتضطرب اضطراباً شديداً بقوة هائلة، ويحدث فيها زِلْزالٌ شديد، يغيّر معالمها، ويدمّر مبانيها، ويمحو كلّ المنشآت فيها محواً تامّاً.

ومن حينٍ إلى حين يقدّم الله عزّ وجلّ في أحداث الأرض نماذج زلزلات مُصَغَّرات في مواضِعَ منها لذلك الزّلْزال العظيم الذي يَعُمُّ الأَرْض كُلَّها في وقت واحد.

**الحدث الثاني**: أن تكون كُلُّ جبال الأرض بسبب ذلك الزلزال العظيم رَمْلاً سائلاً مطحوناً طحناً ناعماً، مثْلَ كثيبٍ من الرَّمل الناعم جدًّا، الذي ينهالُ فتسيل أعاليه بأدنَىٰ حركة حتَّىٰ يستوي مع سطح الأرض.

**الكثيبُ**: الرَّمْلُ المستطيل الْمُحْدَوْدِب، وكلُّ مجْمع من الرمل مرتفع مُحْدَوْدب.

**الْمَهِيل**: الذي يَنْصَبُّ انصباباً متتابعاً مُنْدَفِعاً، دون تعثُّر، بسبب نعومته وجفافه، فيكون مشابهاً للماء إذا سال.

يقال: فلانٌ هَالَ الرَّمْلَ وأَهَالَه، إذا دفعه من أعلى، فصار ينصَبُّ انْصِبَاباً.

وقد شبَّهُ الله عزّ وجلّ حالة الجبال بعد تحطيمها وتفتيتها بالزلزال العظيم بكثيب من الرَّمل دفَعَتْهُ قُوَّة فصار ينْهَالُ مُنْصَباً.

● ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾:

**وكانت**: أي: وستكون، وقد جاء التعبير بالفعل الماضي بدل الفعل المضارع للدّلالة على تحقُّق الوقوع مستقبلاً، حتَّىٰ كأنَّهُ أمْرٌ قَدْ وقع، فهو أمْرٌ بمثابة الحاصل المشهود، وهذا من الأساليب البلاغيّة البديعة.

**كثيباً مهيلاً**: أي: كالكثيب المهيل، وهو من التشبيه البليغ الذي حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه.

## الإلماح إلى الوعيد المعَجّل في الحياة الدنيا:

أمّا الوعيد الضِّمْنِيُّ بالعقاب المعجَّلِ للمكذِّبين فقد جاء في قول الله عزّ وجل بعد ما سبق:

• ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيتَيْن توجَّهَ الخطابُ للمكذّبين، ليقدِّمُ لَهُمْ مَثَلاً من إهلاك الله للمكَذّبين الأوّلين، والمخاطبون الأوّلون في هذا كُفّارُ أهل مكة إبّان التنزيل، وبعدهم يعمّ كلّ المكذبين الكافرين.

أي: إذا كان الوعيد بعذاب يوم الدّين لا يُثيرُ فيكم الخوف، لأنّهُ أَمْرٌ منْ أُمورِ الغيبِ الخبريَّةِ عَنِ المستقبَل، وأَنْتُم غير مؤمنين بهذا المستقبل البعيد الذي سوف يكون بَعْدَ تغيير نظام الحياة الدنيا كلّها، فإنَّ لديكم أمثالاً من أحداثِ ووقائعِ الحياة الدنيا، من الخير لكم والعقل والرُّشد أن تضعوها في حسابكم وتقديراتكُمْ للأمور، وأنتم تعلمون كثيراً من هذه الأحداث الّتِي تَمّ بها إهلاكُ أقوامٍ من أهل القرون الأولى الذين كذّبوا رُسُلَ رَبّهم.

ومن هؤلاء المكذّبين المهلَكين فِرْعَونُ مصْرَ وأنصارُه وجنودُه، فمن الخير والرُّشْدِ والعقل لكم أن تَتَّعِظُوا بهم، فقال تعالى:

• ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ هو مُحمَّد بن عبد الله، وقَدْ جاء التعبيرُ بضمير المتكلِّم العظيم: ﴿إِنَّآ﴾ ـ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ مراعاة لمقام الرُّبوبيّة العظيمة الجَليلَةِ، واستثارةً للرَّهْبَةِ والمهابة، وتذكيراً بسلطان الرَّبّ، خالق السَّماواتِ والأرضِ، والمهيْمِن على كُلّ شيءٍ برُبُوبِيَّتِه، القدير على إهلاك المكذبين وكلّ جبارٍ مجرم.

**الرَّسُول**: هو النبي المكلف من قِبَلِ الله أنْ يُبَلِّغ الموضوعين موضع الامتحان ما أَمَرَهُ الله بأن يبلِّغَهُمْ إيّاه.

والرسول لُغَةً: هو الذي يُتابعُ أخبار الذي بعثه، أو يقوم بما أَمَرَهُ به مُرْسِلُه.

● ﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾: أي: مُبَلِّغاً لَكُمْ كُلَّ ما أَمَرَهُ الله بتبليغه، ومُبَيِّناً وشَارِحاً وَنَاصحاً وَدَاعياً بالحكمة والموعظة الحسنة ومُرَبِّياً، ورَحيماً رؤوفاً بكم، إلى سائر وظائفِ رِسَالَتِهِ، فإذا لم تستجيبوا لَهُ فإنَّه يأتي يَوْمَ الدِّين شاهِداً عليكم بأنَّهُ بلَّغَ الرسالة، وأدَّىٰ الأمانة، ونصح الأمَّة، إلاَّ أنَّكم لَمْ تسْتجيبوا له.

وقد جاء هنا الاكتفاءُ ببيان وظيفة الشهادة الَّتي سوف تكونُ يَوْمَ الدِّين، لأنَّها آخِرُ فِقَرَةٍ من فِقَراتِ وَظيفته، فهي تَدُلُّ باللُّزُوم الْعَقْلِي على كلِّ وظائف رسالته التي تكونُ قبلها، وقد جاء بيان سائر وظائف رسالته في نجوم التنزيل القرآني التي نزلت فيما بَعْدُ.

واقتضت الدواعي التربويَّة والإعجازيّة لآيات القرآن استخدام هذا الإيجاز البديع في هذه المرحلة.

● ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾: جاء الحديث هُنَا عن فرْعَوْنَ مع أنَّ المراد هُوَ وقَوْمُه، إشارةً إلَىٰ أنَّه كانَ صاحب الكلمة المطاعة النافذةِ في قومه، فلو أنّه آمَنَ بموسى واتبعه لآمَنُوا معه، لكنّه كذَّبَ موسَىٰ وكفَرَ بما جاء به عن ربّه فاتَّبَعوهُ، إنَّه استخف قومه فأطاعوه، بخلاف سائر الأقوام فإنَّهُمْ يُذْكَرُون بعنوان القَوْم، الذي ينطبق عليهم، كعادٍ وثمود، إذْ لَمْ تكن لهم قيادة واحدة مطاعة إطاعةَ عمياء، بل كان فيهم زعامات متعدّدات ولهم مشاركات في الرأي.

● ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦﴾:

أي: فعَصَىٰ فرعَوْنُ وقومُهُ المتابعون له الرسولَ موسى عليه السَّلام، ووزيرَه الرّسُول هارون عليه السلام، فَأَخَذْنَاهُ أَخذاً وَبِيلاً.

**الْوَبِيلُ**: هو الشديد الثقيلُ الوخيم، وكان هذا في الْمَظْهَر الماديّ إغراقاً، أمّا بالنسبة إلى عالم البرزخ فعذابٌ آخَرُ هو من عذاب الآخرة.

● ﴿فَأَخَذْنَهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾: أي: فعاقبناه عقاباً شَدِيداً ثقيلاً.

أصل الأَخْذِ تناولُ الشيْءِ والقبْضُ عليه وحيازَتُه، وقد يَحْمِلِ الأَخْذُ معنى ما يؤخَذُ له الشيء، فأخْذُ المذنب يحمل معنى معاقبته بذنبه ولو لم يحْصُلْ أَخْذٌ جَسَدِيٌّ.

ولعلّ بعض قادة المعاندين في هذه المرحلة يشبه فرعون فجاء التمثيلُ بفرعون من المهلكين الأولين مناسباً لحالهم.

بعد هذا وجّه الله الخطاب لمكذّبي الرَّسُول مُحمَّدٍ من قومه وعشيرته الأقْرَبين، فقال لهم بأسْلُوب الاستفهام التعجيبيّ من إصرارهم على التكذيب:

● ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾:

فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ عَوْدٌ إِلَىٰ التَّخْوِيف مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يوم الدين، بأسلوب الاستفهام الذي خرج عن معنى الاستفهام إلى معنى التعجيب من إعراضهم عن دعوة الرسول، وإصرارهم على تكذيبه، وهم لا يملكون كيفيَّةً يستطِيعون بها اتّخاذ وسيلةٍ تقيهم من عذاب اللّهِ في يوم شديدِ الْهَوْلِ جدًا، لشدّةِ ما فيه من مخيفات بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْكَافِرِين.

**فكيف تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتم**: أي: أنتم لا تملكُون وقايةً تَقُونَ بها أنفسكم من عذاب رَبّكم إنْ كَفَرْتُمْ، فَكَيْفَ تَفْعَلُونَ يوم ينزل بِكُمْ جزاءُ كُفرِكُمْ وَهُوَ عَذَابٌ شدِيدٌ جدًا.

● ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾:

المراد من اليوم ما يَحْصُلُ فيه من هَوْلٍ عظيم وعذابٍ أَليم، أُطْلِقَ اليومُ وَأرِيدَ به ما يَحْصُلُ فِيهِ على طريقة المجاز المرسل، بإطلاق الزَّمَنِ على مَا يَحْصُلُ فِيهِ، أو بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: فكيْفَ تتقونَ إنْ كَفَرْتُمْ عَذَابَ يَوْمٍ يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً.

وجاء في النصّ استعمال «إِنْ» الشرطيّة التي تُسْتَعْمَلُ في الأمر المشكوك فِيه، مُراعاةً لِحَالِ المدعُوّينَ الذين ما زالُوا في أوائل الدعوة إلى الإسلام، وهؤلاء لا يُنَاسِبُ حالَهُمْ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ الشرط «إذا» الَّذِي يُسْتَعْمَلُ غالباً فيما هو مُحَقَّقُ الوقُوعِ أو راجح الوقوع، على أَنَّ كُلَّ مَدْعُوٍّ تُوَجَّهُ له الدّعوة ولو أصَرَّ على إعراضِه وعَدَمِ استجابته لاَ يليق في أسلوب دعوته إشعارُه بأنَّ كُفْرَهُ هو المحقَّقُ أو الراجِحُ، بل مثل هذا يُعْرِضُ الداعي عنه.

وعبارة: ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ في وصْفِ يَوْمِ الدّين الذي يُحذِّرُ النَّصُّ مِنْ عذابِه الشديد المهُول، قَدْ جاءت كنايةً بَدِيعةً عمَّا يَحْصُلُ فِيه مِنْ أَهْوَالٍ ومُخِيفاتٍ عظيمات.

إنَّ من المعروف أَنَّ الخوفَ الشديد قد يَجْعَلُ شَعَرَ الشَّابِّ أو الكَهْلِ الذي لم يَشِبْ بَعْدُ مشتَعِلاً شيباً مِنْ هَوْلِ الأحداثِ المخيفة، ولم يُعْرَفْ أنَّ الوِلْدَانَ تَشيب مَهْمَا أحاطَتْ بِهَا الأَحْدَاثُ المُرْعِبَةُ المخيفة المَهُولَةُ، لأنَّ إدْرَاكَهَا للخوف لاَ يَصِلُ إلى التأثير على المراكِز الَّتِي تُمِدُّ شعورها بأصْباغها.

لَكِنْ إذا كَانَ الْهَوْلُ أَعظم مِنْ كُلّ الأَهْوَالِ الَّتي تَحْدُثُ في الدنيا، فإنَّها تكُونُ ذاتَ تأثيرٍ حينئذٍ حتَّىٰ على الوِلْدَانِ فيشيبون منها. وهذه الكناية من الكنايات البديعة المبتكرة في القرآن الدّالّة على شدّة أهوال يوم الدين.

وأضاف النَّصُّ بيان حدَثٍ من أحداث يوم الدّين، وهذا الحدث يَظْهَرُ

فِي السَّمَاءِ، إِذْ تَنْفَطِرُ به، وبانْفِطَارِهَا تَتَشَقَّقُ لِنزول الملائكة مِنْ أَجْلِ القيام بوظائِفِهِمْ في ذلك اليوم، فقال تعالى:

● ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾: أي: السَّماءُ مُنْفَطِرَةٌ مُتَشَقِّقَةٌ في ذلِكَ اليوم، وجاء وصْفُ السماء بِلفظٍ مُذَكّر وهو «مُنْفَطِر» لأنّ لفظ السماء اسْمُ جِنْسٍ يجوز فيه التأنيث والتذكير، ونظيره: «جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ـ من الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ـ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ»[١].

وجاء في بيان بعض أحداث يوم القيامة في سورة (الإنفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

**الانفطارُ**: التَّشقُّق.

● ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾:

الضمير في ﴿وَعْدُهُۥ﴾ يَعُودُ علَىٰ الْيَوْمِ الْمَهُولِ الّذِي يجعلُ الوِلْدان شِيباً، وَتَنفَطِرُ السَّمَاءُ فِيه، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، والفاعل الرَّبُّ الخالق جلّ جَلالُهُ، وهذه الإعادة أكثر ملاءمة لسوابق اللفظ.

ويجوز أنْ يكون الضمير مراداً به اللَّهُ عزّ وجلّ، وإنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ فيما سبَقَ في الألفاظ للعلم به ذهناً، ويَكُونُ من إضافة المصدر إلى فاعله، وفي العبارة على هذا التخريج بيان قاعدة كلّيّة تتحدّث عن صِفَةٍ من صفات اللَّهِ عزَّ وجلّ، وهي أن وعد الله مفعولٌ لا محالة، لأنّه تعالى لا يُخْلِفُ الميعاد.

وأخيراً جاء في هذا الدّرْس تأكيد ما جاء في سورة (المدثر) من أنّ

---

(١) وله تخريجات أخرى ذكرها علماء اللّغة العربية من المفسرين.

هذه الرّسالة الّتي حمَلَها القرآن للناس، ويُبلّغُها ويُبيّنها الرسول محمّد ﷺ رسالةُ تَذْكِرَة، وليْسَتْ رسالة قَهْرٍ ولا قَسْرٍ، ولا سَوْقٍ بِالجبْرِ على خلافِ اختياراتِ الناس الحرَّة، بل لا بُدَّ أن تكونَ الاستجابَةُ للدَّعْوَة إلى الإيمان والإسلام مبنيّةً على إرادة حُرَّة واختيار تامّ من المستجيب نَفْسِه، فالإجبارُ والْقَسْر لاَ يُدْخِلُ في الدِّين ولا يُخرِجُ مِنْهُ، فقال الله تعالى:

● ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾:

أي: إنَّ هٰذِهِ الرِّسالةَ رِسالَةُ تَذْكِرَةٍ.

**التَّذْكِرَة**: مَا يُسْتَذْكَرُ بِهِ الشَّيْءُ المطلوب تَذَكُّرُهُ.

فمن شاء أن يُسْتَجِيبَ للدَّعْوَةِ إلىٰ الإيمان والإسلام الَّتي اشتَمَلَتْ عَلَيْها رسالَةُ التّذْكِرَةِ هذه، استطاعَ أَنْ يَتَّخِذ بُحُرِّيَّةٍ تامَّة لا يَقِفُ دونها عقبَةٌ وَلاَ تَمْنَعُها موانعُ إلى مَرْضاة ربّه ووقايَتِهِ والظَّفَرِ بثوابه الجليلِ العظيم الّذي يَلِيق بكمال ربوبيته سَبيلاً مُيَسَّراً سَهْلاً.

ودلَّتْ نُصُوصٌ أُخْرَىٰ على أَنَّهُ يَجِدُ من رَبِّه مَعُونَةً وتَوْفيقاً وإمداداً يُحقِّقُ لَهُ نجاحاً وسَدَاداً.

وبهذه الآيَةِ تَمَّ الدَّرْسُ الثّاني من دُروسِ السُّورة، وهو درس مُرْتبطٌ ارتباطاً جَلِيًّا بالآيتين الأخيرَتين من آيات الدّرس الأول، إذْ يقول الله عزّ وجلّ فيهما للرَّسول ﷺ ثم لكل داع إلى سَبِيلِ رَبِّه من أُمَّتِه:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## (٧)
# التدبُّر التحليلي للدرس الثالث

**الآية (٢٠)**

قال اللّهُ عزّ وجل:

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

**مقدمة:**

هذه آيةٌ نَزَلَتْ في العهد المدنيّ، وقد ضُمَّتْ إلى سورة (المزمّل) التي نزلت في أوائل العهد المكيّ من تاريخ قيام الرسول محمد ﷺ بأداء رِسَالَتِه، وكان نزولُها بعد عشر سنين عَمِل فيها الرَّسُولُ بما طلب الله منه إيجاباً في أوائل السُّورَةِ من قيام اللّيل، وعَمِل معَهُ بعض أصحابه بهذا المطلوب على سبيل التطوّع منهم، ثمّ نزلت هذه الآية الناسخة.

ويظهر أنّ الغرض من ضمّ هذه الآية الناسخة للتكليف السابق الإشعارُ بأنَّ على حامل الرّسالة الربَّانيّة أنْ يكون كثير الصِّلَةِ بالله عن طريق قيام اللّيل كما أَمَرَ اللّهُ في أوائل السُّورة، حتّىٰ إذا تمكَّنَ الدَّاعي إلى الله في الأرض، وصار له أنْصارٌ وقوّة، وصارَتْ له دولةٌ أو شبهُ دولة، تحتاج منهُ وقتاً طويلاً لإدارة المجتمع الإسلاميّ، الذي الْتَفَّ حَوْلَهُ واتّبَعَهُ، صار بإمكانه أنْ يُخَفِّف عن نفسه من قيام اللّيل الذي كان مطلوباً منه، وأن يكْتَفِي بقراءة ما تيسَّرَ من الْقُرْآن.

ونظير الداعي إلى اللّهِ أعوانُهُ وأنصارُه فلَهُمْ أَنْ يتخفَّفُوا من شَغْلِ لَيْلِهم بقيامِه تطوُّعاً، والاقتصار على قِراءة ما تيسَّرَ من القرآن، لأنّ أعوانَ الداعي إلى اللّهِ وأنصارَهُ بعد تمكُّنِهِمْ في الأرض، وقيام دولةٍ لهم أو شبْهِ دولة، سيكونُ من العسير عليهم جدّاً أو من المتعذّر أن يواظبُوا دواماً بإحصاءٍ دَقيق على قيام اللّيل في أدنَىٰ الحدود المطلوبة، وهو ثُلُثُ اللّيْلِ.

وقد شهد اللّهُ لرسوله في هذه الآيَةِ وَشَهِدَ لطائِفَةٍ من الّذِينَ معه، بأنَّهُمْ واظَبُوا على قيام اللّيْلِ وفْقَ ما طَلَبَ اللّهُ مِن رسُوله في أوائِلِ السُورَة طَوَال الْمُدَّة مُنذُ نُزُول أوائل سُورَةِ (المزّمل) حتَّىٰ نُزُول الآيَةِ الْعِشْرِينَ مِنْها، وهذه المدّةُ قَدَّرَها «سعيدُ بْنُ جُبَيْرٍ» فيما رواه الطَبَرِيُّ بِعَشْرِ سِنِينَ.

## تدبُّر النّصّ:

قول اللّهِ عَزَّ وجَلَّ:

● ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ..﴾:

هذه شهادة من اللّهِ لِرَسُولِهِ ولِطائفَةٍ مِنْ أصْحَابِهِ بأنَّهُم اسْتَمَرُّوا منْذُ أوائلِ ظُهُورِ الدَّعْوَة حتَّىٰ نُزُول هذه الآية في العهد المدنيّ يَقُومُونَ اللّيْلَ كما ذكر الله في هذه الآية.

فكانوا يَقُومُونَ على توالي اللّيالي أدنَىٰ من ثُلُثَي اللّيْلِ، أيّ: أقرب من ثُلُثَي اللّيْلِ وهـذا يَصْدُقُ بنحو ($\frac{٧}{١٢}$) من اللّيل، وكانُوا يقومون نصف اللّيل ($\frac{٦}{١٢}$) وكانوا يقومون ثُلُثَ اللّيْل ($\frac{٤}{١٢}$).

ولمَّا كان اللّيْلُ يزيدُ وَينقُصُ بِحَسَبِ اختلاف الفصول والأيام، وكانت دقائقُ النصفِ والثلثِ والثُّلُثَيْنِ مختلفةً في اللّيالي، وكانَ كُلُّ ذَلِكَ بِتَقْدِير اللّهِ عزَّ وجلَّ قَالَ اللّهُ عزّ وجلّ في الآية:

● ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ..﴾:

جاءتْ هذه الفقرة معترضَةً في النَّصِّ لبيان اخْتِلَافِ أزْمِنَةِ أَنْصَافِ اللَّيالي وأثْلاثِها، ولِتَرْسِيخ الإيمان بأنَّ كُلَّ الظاهرات الكَوْنِيَّةَ خاضِعَةٌ لقضاءِ اللّهِ وقَدَرِه وحكمته في تدبير تصاريف الكون، ومنها تقديرُ اختلافِ أزمنَةِ اللَّيْلِ والنهار ضمن نظامٍ دقيق جدًّا، يَتْبَعُ دَورَةَ الأرض حول نَفْسِها وَحَوْلَ الشمس، في مدار مُحَدَّدٍ قضاه الله وقَدَّره.

وأبانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ حِكْمَةَ تخفيف حُكم قيام اللَّيْلِ عن الرَّسُول، وعن الطائفة الذين كانوا يقومون مثْلَ قيامه من أَصْحَابه الحَريصين على أن يعملوا مثل عمله، فقال تعالى لهم:

● ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

أي: عَلِمَ أنَّه لَنْ يَتَيَسَّرَ لَكُمْ مُسْتَقْبلاً المحافَظَةُ على القيام المطلوب منكم إلزاماً وندْباً في أوائل السُّورَة مُحافَظَةً تَسْتَغْرِقُ كُلَّ اللَّيالي.

**فتابَ عليْكُمْ**: أي: فرجَعَ مُتَفَضِّلاً عَلَيْكُمْ بِحُكْمِ التخفيف.

**الإحصاء**: استيعاب العناصر المطلوبة في العمل، وأصله استيعاب العدد. ولَمّا كانت عناصر الأعمال ذوات أعداد كان إحصاؤها استيعابَ تَطْبِيق عناصرها المعدودة.

وأبانَ اللّهُ عزَّ وجلّ البدِيلَ الْمَطْلُوبَ المخفَّفَ وهو الاكتفاء لمن شاء بقراءة ما تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآن، فقال اللّهُ عَزَّ وجلّ في الآية:

● ﴿... فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ..﴾:

أي: فاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ لكُمْ قراءتُهُ من القرآن، وحمَلَ جُمهور المفسّرين والفقهاء هذا على صلاة اللّيل، فالمراد من قراءة ما تيسَّرَ من القرآن قيامُ اللّيل بصلاة ما فيها، وهذا القيام بالنسبة إلى الرسول واجب، وبالنّسبة إلى

الطائفة التي كانت تقوم معه نافلة، كحالهم التي كانوا عليها في حكم الندب، وكحال سائر المسلمين الّتي سيأتي بيانها.

وخصّ النَّصُّ بَقِيَّة المسلمين ببيان قال لهم فيه:

● ﴿. . .عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾:

أي: وإذْ علم أنَّ شأنَكُمْ سيكون مِنْكُمْ مَرْضَىٰ لا يسْتَطِيعون المواظبة على قيام اللَّيل.

وعَلِمَ أنَّ آخَرين مِنْكُمْ يَضْرِبونَ في الأَرْض من أجْلِ معايشهم واكتسَاب أرزاقهم بأعمالٍ مختلفات، منها الفلاحة والصناعة والتجارة ومعاناة الأسفار، فهم بالكدح والكدّ يبتغون من فضل الله الحصولَ على أرزاقهم وأرزاق من يعولونهم.

**الضرب في الأرض:** السير فيها.

وعَلِمَ أنَّ آخَرين منكُمْ يُقَاتلون في سبيل الله لنشر الدين، ويدخل في عموم القتال ما يلزم له من استعدادات وأنواع حراسة للثغور، ورباطٍ فيها، وتَدْبيراتٍ لجيوش المقاتلين.

وعَلِمَ أَنَّ هذهِ أعذارٌ تَشُقُّ مَعَها المواظبة على قيام اللّيل.

إذْ عَلِمَ اللَّهُ من أحوالكم كُلَّ ذَلِكَ خفَّفَ عنْكُمْ فلم يكلّفكُمْ قيام اللَّيْلِ الذي كان قَدْ ألزم به رسوله، وعمل به معه طائفة مُحْسِنَةٌ مِنْ أصحابه.

وإذْ لم يُكَلّفكُمُ اللَّهُ هذا التكليف الشاقّ عليكم:

● ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: لتكونوا على صلة بربكم عن طريق كتابِهِ الَّذِي أنزلَهُ إليكم في ليالي أعماركم.

• ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: الصلاة المفروضة، والمراد من إقامتها المواظبةُ على أدائها في أوقاتها، وهي خمس صلوات في اليوم واللّيلة.

• ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أَيْ: وأَعْطوا الزكاة المفروضة عليكم في أموالكم، لا تنقُصوا ممَّا يجب عليكم شيئاً.

• ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾: أي: أنفقوا من أموالِكُمْ صدَقَاتٍ غَيْرَ وَاجبَاتٍ عليكم، فإنَّ هذه الصدقات تكون لَكُمْ بِمَثَابَةِ إقراضٍ تُقْرِضونه رَبَّكم، ومعلومٌ أنّ الله جوادٌ كريمٌ يُضَاعِفُ لَكُمْ ما تبذُلُونَهُ من صَدَقَاتٍ غَيْرِ مَفْرُوضاتٍ عليكم، أضعافاً كثيرةً.

والْقَرْضُ الحسن هو الذي يكون خالصاً لوجه الله عزّ وجَلَّ، وخالياً من المنّ والأذىٰ ورغبةِ مصالحَ دنيويَّة، لدىٰ المحتاجين الذين تُبْذَلُ لهم الصَّدَقات، وخالياً من رغبات الاستعلاء في الأرض.

وبعد بيان هذه الوصايا لجميع المسلمين ذكَرَ اللّهُ لَهُمْ وَعداً تَرْغيبياً بأجْرٍ عظيمٍ عنْدَهُ، على ما يُقَدِّمُونَه لأنْفُسِهِمْ من خَيْرٍ يبتغون به مرضاة ربّهم وثوابه، فقال الله عزّ وجلّ في الآية:

• ﴿. . . وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ . . .﴾:

قَيْدُ: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ يُشِيرُ إلىٰ أن الْعَمَل الذي يُقَدِّمه المؤمن لِنَفْسِهِ هو مَا يَنَالُ بِهِ ثَوَاباً عظيماً، ومعلومٌ أنّ الْعَمَل الذي يُنَال به الثوابُ العظيم هو ما كان لوجه الله وابتغاء مَرْضاته.

فقام هذا التعبير مقام عبارة: وما تقدّموا من شيءٍ تبتَغُونَ بِه وَجْهَ رَبّكم وَرِضوانَهُ وَثوابه.

وقَيْدُ: ﴿مِّنْ خَيْرٖ﴾ يُخْرِجُ ما يُقَدِّمُهُ المكلّفُ المسؤول عن عمله عند الله من شَرٍّ، ففي تقديم الشّرّ مَعْصِيَةٌ للّهِ عزّ وجلّ يَسْتَحِقُّ فاعلها

عقَابَ اللّهِ وعذابه، ويُخْرِجُ أيضاً ما ليس بخير كالمباحات من الدنيا التي لا تقترنُ بنِيَّةٍ صالحة يُثيبُ اللّهُ عليها.

وعبارة: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ تَدُلُّ على مضاعفَةِ الأجْرِ على العمل الصالح عند الله، فعَمَلُ الخير ابتغاءَ مرضاة اللّهِ لا يَضِيعُ أبداً، بَلْ هُوَ يَنْمو وَيَرْبُوا ويُضَاعَفُ، كالزارع يَزْرَعُ الحبَّةَ فيُخْرِجُ اللّهُ لَهُ بها سَبْعَ سنابل، في كلّ سنْبُلَةٍ مِئَةُ حبَّةٍ، واللّهُ يُضَاعِفُ لمن يشاء.

ولَمَّا كَانَ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّائِينَ كانُوا بحاجةٍ إلى وسيلَةٍ يَمْحُونَ بِها خَطَايَاهُمْ، وَقَدْ تَفَضَّل اللّهُ علَىٰ عباده فَجَعَلَ من وسائلِ مَحْوِ الْخَطايا الَّتي تكُونُ بيْنَ الْعَبْد وربِّهِ ولَيْسَ فِيها حُقُوقٌ للعباد، أَنْ يَسْتَغْفِرَ الْمُذْنِبُ مِنْ ذُنُوبِه، أي: أن يَطْلُبَ من الله جلّ جلالُهُ أنْ يَغْفِرها له، أي: أن يسْتُرَهَا ويُغَطِّيَها ولا يحاسِبَهُ علَيْها، فقال الله عزّ وجَلّ في آخِرِ الآيَةِ مُطْمِعاً بالْغُفْران:

● ﴿... وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)﴾:

**استغفر**: أي: طَلَبَ الْمَغْفِرَة، تقول لغة: غَفَرَ فلانٌ الشَّيءَ إذا سَتَرَه، يَغْفِرُهُ غَفْراً وَغُفْرَاناً وَمَغْفِرَة.

**غَفُور**: كثير الغفران وعظيمه.

**رَحِيم**: كثير الرحمة وعظيمها.

وفي التذكير بهٰذين الاسمين من أسماء الله الحسنىٰ في آخر السورة تشجيعٌ للمذنب على أن يطلب من ربّه أن يغفر له ذنوبه، ويسْتُرَ لَهُ عيوبَهُ.

وغَفْرُ الذنب كناية عن عدم المؤاخذة عليه، مع عدم فضيحة المذنب بين الخلائق.

وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بمثابة التعليل للأمْرِ بالاستغفار، مع الإطماع بأنّ من استغفر الله غفر الله له.

❊ ❊ ❊

## حكمة النسخ في أحكام الدين:

علمنا أنّ الآية الأخيرة من سورة (المزّمل) قد نزلت بعْدَ نزول أوّلها بنحو عشر سنين، وقد تضمنت تخفيفاً في التكليف الذي جاء في أوّلها، ورفعاً لحكم وجوب قيام ثلث اللّيل في الحدّ الأدنىٰ، كما سَبَقَ شرحه في تدبُّرِ الآيات الأولى من السورة، وهذا ما يُسَمَّى نسْخاً عند علماء المسلمين، أخذاً من قول الله عزّ وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

**النَّسْخُ**: بَيَانُ انْتِهاءِ الْعَمَلِ بمُقْتَضَىٰ نَصٍّ تَكْلِيفِيٍّ سابقٍ وهذا البيانُ لا بُدَّ فيه من دليلٍ كافٍ للتعريف بانتهاء زَمَنِ الْعَمَلِ بمُقْتَضىٰ النَّصِّ السّابق.

ولله عزّ وجلّ حِكَمٌ متعدّدة من نَسْخِ أحكام التكليف القابلة في واقع حالها للتغيير بمثلها أوْ بما هُوَ خَيْرٌ مِنْها.

أمّا ما تقضي فيه الحكمة في كلّ الأحوال بأن يكون له حكْمٌ واحِدٌ، فإنَّهُ لاَ يكونُ عُرْضَةً في الرّسالاتِ الرَّبَّانِيَّةِ للنَّسْخ، كتَحْرِيم الظلْم، ووجوب الإيمان، ووجوب إقامة العدل، ووجوب الاعتراف بالحقّ. وكذلك لا نَسْخَ في الحقائق الوجوديّة، أو الحقائق الفعلية.

ومن حِكَمِ النَّسْخ ما يلي:

(١) فمن حِكَمِ النَّسْخِ في الشريعة الواحدة إقناع المتعصبين للرسالات الرَّبَّانِيَّةِ السابقة أنّ الدّين دين الله، فَهُو يُجَدِّد لتبليغه رُسُلاً بمقتضىٰ حكمته، وينسخ فيه أحكاماً تكليفيّة بمقتضىٰ حكمته.

(٢) ومن حِكَمِ النَّسْخِ في أحكام الشرائع تعليمُ ذوي الولايات والرُّعَاةِ وأهل السلطان وأولي الأمر، أنّهم إذا أمَرُوا بأمْرٍ ثم رأَوْا غَيْرَهُ خيراً منْهُ

وأفضل، فَلاَ تَأْخذهم الْعِزَّةُ بالإثْم، فيُصِرُّوا على أوامرهم السابقة، فالله الرَّبُّ الخالق العليم بكلّ شيءٍ يَنسَخُ بعض أحكامه السابقة ويُنْهِي الْعَمَلَ بِها، ويُنْزِلُ أحكاماً أُخْرَىٰ، قَدْ تكونُ مثل الأولى أو خيراً منها، لكنَّه لا يَنسَخُهَا بما هُوَ دُونَها.

(٣) ومنْ حِكَم النَّسْخ المواءَمَة بين الأحكام المنزَّلة وبين أحوال الأمم المتطوّرة، كحال الأمّة في أوائل بنائها وتكوُّنِها، وحالها عنْدَ اكتمال تكوينها.

(٤) ومن حِكَمِ النَّسْخِ تعْلِيمُ واضِعي الأنظمة والمخطَّطاتِ مَنْهَجَ التَّجْربةِ ومُلاحظةِ نتائجها، وما فيها ممَّا يَنْبَغِي تَعْدِيله، ثُمَّ التعديلُ بحسب المصلَحةِ الأكثر نفعاً، أو الأكثر يُسْراً مع تحقيق المطلوب.

وقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ بنفسه مثلاً إذْ أَجْرَىٰ تعديلات في الأحكام التكليفيَّة الّتي أنْزَلَها لاَحقاتٍ لأحكام سابقات.

وهذا المعنى يدخل في عموم قول الله عزّ وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ . . . ﴿٥٨﴾﴾.

ومَعْلُومٌ أنَّ النَّسْخَ مثَلٌ من أَمْثِلَةِ منهاج التعديل والتبديل إلى الأحسن والأفضل في الأوامر والنواهي والأحكام والنُّظُم.

**وانتهىٰ بتوفيق الله ومعونته تدبر سورة المزمل**

**فالحمد لله على فَتْحه وإمداده**

❁ ❁ ❁

# سُورَة القَلَم

أو

(نٓ والقلم) أو (نٓ)

٦٨ مصحف ٤ نزول

وهي فيما ترجّح لديّ بالنظر إلى معظمها السورةُ الرابعة نزولاً فهي من أوائل التنزيل المكي باتّفاق وفيها آيات مدنية

والآيات المدنية منها هي:

١ ـ من الآية (١٧) وحتى غاية الآية (٣٣)

٢ ـ ومن الآية (٤٨) وحتى غاية الآية (٥٠)

وآيات السورة (٥٢) آية

## (١)

# نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات

## سورة القلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)
فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ
ٱلْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ
حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ
(١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُۥ
عَلَى ٱلْخُرْطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ
نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ
ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ

١٤ ـ قرأ ابنُ عامر، وشعبة، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب: [أَأَنْ كَانَ].
وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ كانَ].

٢٢ ـ قَرَأ أبو عَمْرو، وَعَاصم، وحمزة، ويعقوب: **[أَنِ اغدُوا]** بكسر نون «أَنِ».
وقرأ باقي القراء العشرة: **[أَنُ اغدُوا]** بضمّ النون.

أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ
قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾
قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ
إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾
إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ
لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن
سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى
وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾
وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ

وهُما وجهان عربيَّانِ في الأداء، أصلُ «أَنْ» ساكنة، وعِندَ اجتماع ساكِنَيْنِ يكون التخلُّص مِنْهُمَا بكَسْرِ السَّاكِنِ الأوَّل، أو بضَمِّه إذا كان بعد الساكنِ الثاني ضمٌّ.

٣٢ ـ قرأ نافعٌ، وأبو عمرو، وأبو جَعْفَرٍ: **[أَنْ يُبَدِّلَنَا]** بفَتْحِ الباء وتشديد الدال، من فعل «بدَّلَ».

وقرأ باقي القراء العشرة: **[أَنْ يُبْدِلَنَا]** من فعل «أَبْدَلَ».

وكلا القراءتين متكافئتان، لأنّ الهمزَ في الفعل أخو التضعيف.

مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ
وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن
تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ
فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ
لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

٥١ ـ قَرَأَ نَافع، وَأبو جَعْفَر: [لَيَزلِقُونَكَ] بفتح الياء من فِعْلِ: «زَلَقَ».
وقرأ باقي القراء العشرة: [لَيُزلِقُونَكَ] بضمِّ الياء، من فعل: «أَزلَقَ».

## (٢)
## موضوع السورة

(١) عِلاجات تربوية للرسول ﷺ بشأن مواقف المكذبين برسالته وبالقرآن إبَّان نزول سورة (القلم) ويُلْحَقُ به الدعاةُ من أمته إذا واجهوا أمثال هذه المواقف.

(٢) وعلاجاتٌ تربويّة وتأديبيَّة للمكذبين برسالة الرسول ﷺ بحسَب مواقفهم إبّانَ نزول السورة، ويُلْحَقُ بهم أَمْثَالُهُمْ من بعدهم.

**الشرح:**

● بدأت السورةُ بعلاجٍ تربويّ للرسول ﷺ بشأن التَّأثُرات الَّتي تأثَّرَتْ بها نَفْسُهُ من مواقف المكَذِّبين برسالته إبَّان نزول السُّورة، إذ اتَّهَمَهُ بَعْضُ كبراء قومه وعُتَاتِهِم بالجنون.

وقد اشتمل هذا العلاجُ التربويُّ على ما يلي:

(١) وَعْدُ اللّه رسُولَهُ بالأَجْر العظيم الذي لا ينقطع يوم الدين.

(٢) ثناءُ اللّه عليه بأنَّهُ لعلَىٰ خُلُقٍ عظيم.

(٣) وعْدُ اللّه لَهُ بالعاقبة الحسنة السَّارَّة في الحياة الدنيا قبل الآخرة، وبظفَرِه بهذه العاقبة الحميدة يظْهَرُ أنّه هو ذو العقل والرُّشْدِ والمَجْدِ، وأنَّ مُكَذِّبيه هم الجديرون بأن يُوصَفُوا بالجنون، للخيبة الّتي تنزل بهم من ربّهم، والعاقبة السيّئة الوخيمة الّتي يُصَابُون بها. فاللّه جلَّ جلالُهُ عليم حكيم، يُنْزل العاقبة السّيّئة بالذين يعْلَم أنهم ضلُّوا عن سبيله، أمّا من يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُهْتَدُون فيَمْنَحُهُم العاقبة الحسنةَ والتأييدَ والنصر.

(٤) توصيةُ اللّه رسولَهُ بأنْ لا يستجيب لإغراءات المكذّبين برسالته، كأَنْ يداهِنَهُمْ في قضايا الدين كما يُداهِنُونه، ولا سيما بعضُ قادتِهم العتاة سيّئي الأخلاق والأفعالِ.

(٥) تطمينُ قلب الرسول ونَفْسِه، بإبعاد حامل لواء العناد والاستكبار من قومه، بعقوبةٍ تُذِلُ أنفه المستكبر: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

● واشتملت السورة على نَجْمٍ مَدَنيٍّ نزل في المدينة وأضيف إلى سورة «القلم» التي هي من أوائل التنزيل المكيّ، وفي هذا النَّجْم المدنيّ بَيَانٌ غَيْرُ مُبَاشِرٍ لمَا وصَلَ إليه مشركو مكّة من عُقُوبة ربَّانيّةٍ نزلَتْ بهِمْ بعد هجرة الرسول ﷺ، ونَصْرِ اللَّهِ له عليهم في غزوة بدْرٍ، وربُمّا في غيرها إذا كان هذا النَّجْمُ قد تأَخَّرَ نزوله إلى ما بعد الخندق، أو فتح مكة.

والهدف التربويُّ من هذا النجم عِظَةُ مَنْ لم يسْتَجِبْ بَعْدُ لدعوة الرَّسُول، من كفّار مكة وغيرهم، وهذه الموعظة تَبقَىٰ حَتّىٰ آخرِ الدّهر.

وقد جاء هذا النَّجْم القرآني بأسلوب عَرْضِ مثَلٍ من أمثلةِ التاريخ يكْشِفُ عن سُنَّةٍ من سُنَنِ اللَّهِ في عباده، للإشعار بأنَّ ما جَرَىٰ لأهل هذا المثل التاريخيّ مُنَاظِرٌ لِمَا جَرَىٰ لمشركي البلَدِ الحرام مكة، بعد أن نزلَتْ

بهم عقوبَةُ اللَّهِ بنصر رسوله عليهم، وخَيْبَةِ كلّ مساعيهم ضدّه، ونَدَمِهِمْ عَلَىٰ ما كان مِنْهُمْ، وتلاوُمِهِمْ فيما بينَهُمْ، بعد هزائمهم المنكرة.

● وبعدئذٍ تعرَّضَتِ السّورة لقانون الجزاء الرَّبَّاني بقسميه: الجزاء بالفضل، والجزاء بالعدل، مع بيان أَنَّ الحكمة الرّبّانيَّةَ تقضي بأن لا يجْعَل اللَّهُ المسلمين كالمجرمين، واقترن هذا البيان بعِلاَجَاتٍ جدليَّة لمنكري الجزاء الرَّبَّاني، وبعرض بَعْض لقطات من مشاهد الجزاء الّتي ستكونُ يوْمَ الدّين.

● وبعدئذٍ اشتملت السورة عن توجيه الإنْذار للمكذّبين بالقرآن، بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ سَيَسْتَدرِجُهُمْ من حيثُ لا يعلمون، وسيُمْهِلُهُم حتَّىٰ يُنْزِلَ بِهِمْ عقابه القاصِمَ الماحِقَ، جزاء تكذيبهم وكفرهم بما جاء به رسُولُ ربّهم.

● وبعدئذ ناقشتِ السورة الكافرين بطريقة غير مباشرة، إذْ وَجَّهَتْ للرسول ﷺ سؤالين عن أمْرَين، لو كان أحدهما موجوداً لرُبّما كان لهم بعض العذر:

**السؤال الأول:** ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

**السؤال الثاني:** ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

● وبعدئذٍ انتقلت السورة لتوجيه الدُّعاة من بعد الرسول ﷺ للصَّبْرِ في مجالات الدَّعْوَةِ، تأسّياً بالرسُول ﷺ، إذْ كان متحقّقاً في ذاتِ نَفْسِه بهذا التوجيه، دلّ على هذا أَنَّ الآيات الثلاث التي تضمّنَتْ هذا التوجيه (٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠) وهي نجْمٌ مَدَنِيٌّ مُضَافٌ إلى سورة هي من أوائل التنزيل المكيّ، ولَوْ كان الرسول بحاجَةٍ إلى أنْ يُوَجَّه له مضمونُه لكان قَدْ أُنْزِلَ مَعَ السّورة في أوائل التنزيل المكيّ، لكنَّهُ كان متحقّقاً بمضمونه فلم يكن بحاجة إليه، غير أَنّ الدُّعاة إلى اللّه من بَعْدِه، سيتَعَرَّضون لِمِثْلِ ما تعرَّضَ لَهُ الرَّسُولُ في مواقف مشابهة للمواقف الّتي كَانَ عَلَيْها مشركو مكّة إبّانَ نزول سورة

(القلم) فهم بحاجَةٍ شديدةٍ لأنْ يأمُرَهُمُ اللّهُ بالصَّبْرِ فيها، وجاء الخطاب في هذا النجم موجَّهاً للرَّسول باعتباره قائِدَ أُمَّتِه، وَأوامر اللّهِ له هي أوامر لهم، فدَلَّ هذا الإِجْراء على أنَّ الدُّعاة من أُمَّتِهِ من بَعدِه هُمُ المقْصُودُون بالتَّوجيه، وهذا من بدائع القرآن، وروائع دلالاته.

● وبعدئذٍ كشفت السورة أن المكذّبين مَذْهُوشُون من عظمة البيان القرآنيّ إلى حَدِّ حَسَدِ الرَّسُولِ ﷺ حسَداً شديداً يكاد يَجْعَلُ أبْصارَهُمْ تُزلِقُهُ عن مواقفه وهو يتلو القرآن، بتأثيراتِ أشعة الحسَدِ الَّتي تَنْطَلِقُ مِنْها، وهُمْ عاجزون عن معارَضة آياته بمِثْلِها أو بِقَرِيبٍ منها.

وعلى الرغم من ذلك فإنَّهُمْ يُكابِرُونَ، ولا يَعْتَرِفُونَ بأنَّها تنزيل من عند الله، فيتَّهمونَ الرَّسُول بأنَّه لمجنون، على خلاف اعتقادهم فيه، واستيقانِهِمْ بأنّه الصادق الأمين.

● وختم اللّهُ السورة بتأكيد ما سبَقَ بيانُه في سُورَتي «المدثر» و«المزّمل» من أنَّ القرآن تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَه.

● ففي «المدَّثر» قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

● وفي «المزّمّل» قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

● وفي «القلم» ختم الله السورة بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

ومَعَ تأكيد أصْلِ الفكرة فبين هذه النصوص الثلاثة تَكامُلٌ في المعاني، فالقرآن تذْكِرَةٌ لمن شاء أنْ يَذْكُرَه، ولمن يشاء أن يتخذ إلى ربّه سبيلاً، وهو ذِكْرٌ لكلّ العالمين المكلّفين إنْسِهِمْ وجِنِّهِمْ.

❋ ❋ ❋

## (٣)
# بيان دروس السورة

تشتمل سورة (القلم) على خمسة دروس:

**الدرس الأول**: تضمّن علاجاً تربوياً للرسول ﷺ استدعته حالته النفسيّة تجاه مواقف المكذّبين برِسالته وبالقرآن الذي يتنزّل عليه إبَّان نزول السورة، إذ اتَّهمه بعض كبراء قومه بالجنون.

وهو من الآية (١) وحتى غاية الآية (١٦).

**الدرس الثاني**: وهُو درسٌ مدنيّ التنزيل ضُمَّ إلى سورة (القلم) التي هي من أوائل التنزيل المكي، وقد تضمَّن بياناً بأسلوب غير مباشر، عَرَضَ اللَّهُ عزّ وجلّ فيهِ أَنَّ مَثَلَ كُفَّارِ مكَّةَ بَعْدَ أن حلَّتْ بهم عقوبة اللَّهِ بالهزائم المنكرة الّتي أُصِيبُوا بها كَمَثَلِ أَصْحَابِ الجنَّةِ الَّذِين اتفقُوا على أَنْ يمنَعُوا المساكين حقُوقَهُمْ مِنها، إذْ طافَ عليها طائفٌ من اللَّه عزّ وجلَّ فأهْلَكَ ثمارَهَا، وأَنْزَلَ بهم عذاباً نفسيّاً معجّلاً، ذاقوا به آلاَمَ خسارةِ ما كانُوا يملكون.

وهو من الآية (١٧) وحتى غاية الآية (٣٣).

**الدرس الثاني**: تضمَّن بيان قانون الجزاء الرَّبَّانيّ، ومناظرةً فكريَّةً مُحَاصِرَةً للكافرين المكذبين بيوم الدين، مع إنذارهم بعقاب مُعَجَّلٍ يَنْزِلُ بهم.

وهو من الآية (٣٤) وحتى غاية الآية (٤٧).

**الدرس الرابع**: درسٌ موجَّهٌ للرسول ﷺ والمقصود الدعاة إلى دين الله من أُمَّتِهِ، وقد تضمَّن الأمر بالصَّبْر لحكم الله، إذا واجَهُوا مزعجات ومؤلمات من الذين يدعونهم، مماثلات لما تلقَّاه الرسول ﷺ من قومه إبَّانَ نزول سورة القلم، فقابلها بالصَّبْرِ لحكْمِ رَبِّه دُون أنْ يأمُرَهُ الله به.

وهو من الآية (٤٨) وحتَّى غاية الآية (٥٠).

**الدرس الخامس**: تضمّن بيان أنّ المكذِّبين للرسول والمكذبين بما أنزل الله عليه مندهشون من عظمة البيان القرآني المعجز، وبَيَانَ حسدهم للرسول حسداً شديداً كاد أن يجعل أبصارهم تُزْلِقُهُ عن مواقفه وهو يتلو القرآن، وهم على الرغم من هذا الحسَدِ المنبعث من دهشتهم مكابرون ويتّهِمُونَ الرسول بالجنون على خلاف اعتقادهم فيه.

وتضمَّن بيانَ أنَّ القرآنَ ذِكْرٌ لجميع العالمين الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وليس لأهل مكة أو للعرب فقط.

وهو الآيتان الأخيرتان من السورة (٥١ ـ ٥٢).

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبر التحليلي للدرس الأول

### الآيات من (١ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ
ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾
فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ
﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ
﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾
سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

● قرأ ابن عامر، وشُعْبة، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب: (أَأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) بإثبات هَمْزَةِ الاستفهام.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

## حروف التهجّي في بعض أوائل السور:

﴿نٓ﴾ حرفٌ من حروف التَّهجِّي يُقْرأ وفق الرسم التالي: «نُونْ» بإسكان آخره، وحروف التهجّي: هي ما تتركَّبُ منها الكلمات.

وقد أطال الباحثون الكلام حول حروف التهجّي المقطّعة الّتي افتتح الله بها أوائل بعضِ سور القرآن الكريم.

وقبل عرض أظهر الوجوه التي ذكرها الباحثون، ينبغي تقديم ما يلي:

لا بُدّ أن نلاحظَ في هذا الموضوع أنّ العرب الذين عاصروا صدر الرسالة، ونزل القرآن بلغتهم ـ وفيهم المعارضون المعاندون الذين كانوا يجْهَدُونَ باحثين لعلّهم يظفرون في القرآن بِمَطْعَنٍ للتشهير به، واتّخاذه مادّةً لنَقْدِه بها ـ لم يجدوا في هذه الحروف المقطّعة ما به ينتقدون أَوْ يشهّرون، الأمر الذي يدُلُّ على أنَّ افتتاح الكلام بأمثالها لا يَنْبُو عن أساليبهم وعن أُصول لغتهم، ومن أجل ذلك لم يُثِيروا حولها نقداً ولا تساؤلاً، مع العلم بأنَّ كلَّ السّور الّتي افْتُتِحَتْ بحروفٍ من حروف التَّهجِّي المقطعة سُورٌ مكيّة، باستثناء سورتي البقرة وآل عمران فهما من أوائل التنزيل المدني.

بعد هذا نقول: ما المراد من هذه الحروف؟

أعرض فيما يلي أربعة وجوه يصْلُحُ كلُّ وجه منها أن يكون مراداً، ومع ذلك فاللَّهُ أعْلَمُ بمراده منها:

**الوجه الأول**: حروف التهجّي المقطّعة الموجودة في أوائل بعض سُوَر القرآن، هي بمثابة أدواتِ التَّنْبيه.

فمن المعروف أنّ من أساليب العرب أن يفتتحوا كلامهم بشيءٍ من أدوات التنبيه مثل: «ألاَ ـ أَمَا» إذ يُسْتَفتح بهما الكلام، والغرض من أدوات التنبيه استثارةُ انتباه السامع إلى ما يُرَادُ إلقاؤه إليه.

ويبدو لي أنَّ استعمال حروفٍ لم تَجْرِ العادةُ باستعمالها لغرض التنبيه أكْثَرُ لفتاً للنّظر، وإثارةً للانتباه ممّا جرت العادة باستعماله، بسبب أنَّ المألوف في السّمع يمُرُّ دون أن يحرّكَ في النفس ساكناً، أو يوقظ في الفكر نائماً، أو يُنَبِّه به غافلاً، فإذا طرقَ السَّمْعَ جديدٌ غَيْرُ مألوفٍ تحرّك الساكن، وتنبَّهَ الغافل، واستيقظ النائم، ومثلُ هذا يجري دائماً في أساليب الكلام، وفي مختلف وسائل التَّنْبيه.

فَرُبَّما تُنَبِّه مُخَاطَبَكَ بحَرْفٍ ما اعْتَدْتَ أن تُنَبِّهَهُ به، لتستَدْعيَ ذِهْنَهُ من شُرود، وربَّما تُنَبِّهُه بنقرة أو بتصْفِيقٍ أو بضربة بمطرقةٍ على المنصّة، أَوْ بأيّ شيءٍ مما يُحْدِثُ صوتاً سريعاً متقطّعاً أو متتابعاً تتابعاً يسيراً، ثُمّ تنقطع دون استرسالٍ طويل.

إذا عرفنا هذا ثُمّ تأمّلْنَا في الحروف المقطَّعةِ في أوائل بعض السُّور من حروف التَّهَجّي، وجَدْنَا فيها من تحقيق التنبيه التَّامِّ ما لاَ مزيد عليه، مع أدبٍ في الوسيلة التي تُناسب بلاغة القرآن وإعجازه، وذلك باستعمال أسماء حروف التهجّي التي هي أولَّ ما يتعلّمه المتعلّمُون من القراءة والكتابة، وفي هذا إشارةٌ لهم بأنَّهم بعيدون جدّاً عن آفاق العلم والمعرفة، وعلَيْهِم أَنْ يَسِيرُوا في طريق التعلّم، ولَوْ مِنْ نُقْطَةِ الْبَدْء بتَعَلُّم حُرُوفِ التهجّي، حتّىٰ يُحْسِنُوا الكتابَةَ بالْقَلم وقراءةَ المسطورات، ثُمّ لِيَذْهَبُوا صَاعِدِين في سُلَّمِ مَجْدِ الإنسانِ العلميّ.

**الوجه الثاني**: تُشيرُ حُروفُ التَّهجّي المقطّعة في أوائل بعض السُّور إلى ما تضمَّنَهُ القرآن المجيد من تَحَدٍّ للإتْيَانِ بمِثْلِه، أَوْ بمثْلِ سورةٍ منه.

فلَقَدْ تحدَّىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ الناسَ أَنْ يَخْلُقُوا حَيواناً حتَّىٰ ذُباباً، مع أنّ المادّة الّتي خلَقَ اللّه منها كلّ الأحياء في الأرض معروضة أمَامَهم، مَبْذولةٌ لهم، فهي في متناول أيديهم، إنّها عناصر الأرض، ترابٌ وماء، ومع أنّ هذه المادّة بين أيديهم فإنّهم عاجزون عن خَلْقِ أيّ شيءٍ صغيراً كان أَمْ كبيراً.

وعلى مثل هذا تحدّى اللَّهُ عزّ وجلّ النَّاسَ أَنْ يأْتُوا بمِثْلِ هذا القرآنِ أو بمثل سورة منه، مع أنّ مادّة القرآن الّتي أُلِّفَتْ مِنْهُ آيَاتُه وسُوَرُهُ إنَّما هو الكلامُ الْعَربيُّ الّذي يستعملونه في تخاطبهم، وفي آدابهم شعراً ونثراً، ويتفاخرُونَ ببلاغَتِهِمْ فيه على سائر الأمم، وهذا الكلام العربيُّ معروضٌ أمامَهم، وهو في مُتَناوَلِ نُطْقِهم وكتاباتهم وشعرهم ونثرهم.

وحروفُ التهجّي العربيَّة تمثّلُ المادّة الأولى لهذا الكلام، وإطلاقُ حروف التهجّي لأيَّةِ لُغَةٍ من اللُّغَاتِ هو بمثابة العنوان لهذه اللُّغةِ من جهة، والإشارة إلى مادّتها من جهة أُخرىٰ.

فمن يُنكِرُ أنّ هذا القرآن كلامُ اللَّهِ، وأنَّه مُنَزَّلٌ من لَدُنْهُ جلّ جلالُه، فلْيَأْتِ بمِثْله أو بمثل سورةٍ منه، وهذه مادّةُ كلماته وجُمَلِه وتراكيبه معروضَةٌ أمامه في اللّغة العربية، وعنوان هذه اللّغة أسماءُ حروف التهجّي الموضوعة فيها للحروف التي تُنْطَق في بناء الكلمات، والتي منها على سبيل المثال: (نُونْ ـ صَادْ ـ كَافْ ـ هَا ـ يَا ـ عَيْنْ ـ أَلِف ـ لاَمْ ـ مِيمْ ـ رَا).

ويُقَرِّبُ هذا المعنى أنّ معظم السُّور الّتي افْتُتِحَتْ بحروفٍ مُقَطَّعَةٍ من حروف التهجّي ابتدأتْ بالكلام على القرآن المجيد.

**الوجه الثالث**: الحروف المقطّعة في أوائل بعض السّور هي أسْماءٌ لها، فيقالُ مثلاً سُورَة (نُونْ) وسورة (صَادْ) وقد ذكر هذا الوجه أكثر المتكلمين، واختاره الخليل، وسيبويه، من أئمة اللّغة العربيّة.

**الوجه الرابع**: أنّ هذه الحروف المقطّعة مأخوذة من كلمات على طريقة العرب في ذكر حرْفٍ من كلمة، وهم يريدونها، كقَوْلهم: قُلْتُ لها: «قِفِي» فقالت: «قاف» أي: وقفت.

وروي عن ابن عبّاس ـ رضي اللّه عنهما ـ تأويلات لبعض هذه الحروف من هذا القبيل، قال: معنى: (ألّم) أنا اللّه أعلم. ومعنى: (ألّر) أنا اللّه أرَىٰ. ومعنى (ألّمر) أنا اللّه أعلم وأرى.

لكنّ أكثر السَّلف قد رأَوْا أنْ حروف التَّهجّي المقطّعة في أوائل بعض السّور ممّا استأثر اللّهُ بعلمه، وأنّها سِرُّ القرآن.

رُوِي عن أبي بكْرٍ ـ رضي اللّهُ عنه ـ أنّه قال: في كلّ كتابٍ سرّ، وسرّ اللّه في القرآن أوائل السّور.

ورُوي عن علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ أنّه قال: لكُلِّ كتابٍ صَفْوة، وصَفْوَةُ هذا الكتاب حروفُ التهجّي.

ورُوي نَحْوُ ذلك عن الشعبي من التابعين، ولهذا نجد كثيراً من المفسرين يقولون بشأنها: اللّه أعْلَمُ بمراده.

● قول اللّه عزّ وجل:

﴿. . . وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

«الواو» في «والْقَلَم» هي واو القسم. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يكْتُبُ الكاتبون. يُقالُ لغة: سَطَر الكتابَ يَسْطُرُهُ سَطْراً وسَطَّرَهُ يُسَطِّرُهُ تَسْطيراً، أي: كتبه.

لقد عرض الرسولُ ﷺ نفسه على قومه، ودعاهم إلى التوحيد ونبْذِ الشرك، ونَبْذِ الأوثان وعبادتها، فعَظُمَ على سادة قومه هذا الأمر، وكبُرَ علَيْهم أن يُتَّهموا بأنّهم كانوا في ضلالة وجهالَةٍ، وسفاهَةِ أحلام، بعبادتهم الأوثان هم وآباؤهم من قبلهم.

فرأى بعضُ كُبَرائهم أن يَرُدُّوا عن أنفسهم ذلك بأن يتّهموا الرسول ﷺ بالجنون، إذْ ذكر لَهُمْ أنَّ وحْيَ اللَّهِ عزّ وجلَّ قد نزل عليه، وأبلغَهُ بأنّه رسُولُ اللّه للناس، وأنَّ عليه أن يُبَلِّغَهُمْ رسالات رَبّه، وأنَّ أوّل بلاغ فيها نداءُ التوحيد، ووجوبُ نَبْذِ الشركِ والأوثان، وأنّ عليهم أنْ يعبُدوا اللّه وحْدَهُ لاَ شريكَ له.

فصاروا يقولُونَ فيما بينهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ لتنتشر هذه المقالة في جماهير أتباعهم، مع أنَّهُمْ قد بلغت بهم الدهشة مَبْلَغَها الأقْصَىٰ من روائع البيان القرآني، حتَّىٰ كادُوا يُزْلقون الرسول ﷺ عن مواقفه بأبصارهم من شدّة حسَدِهِمْ لَهُ، لمَّا سَمِعُوه يتْلُو بعض ما تنزَّلَ عليه من القرآن، دلّ على هذا قول الله عزّ وجل في أواخر السورة:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾.

وكان هذا منْهُم إيذاناً ببَدْءِ معْرَكَةِ الرَّفضِ لدَعْوة الرسول ﷺ، وتكذيبه في دعوىٰ النُّبُوَّةِ والرّسالة.

ومن طبيعة الناس التلقائيّة أنَّهُمْ إذا كَذَّبُوا منْ يَدَّعي اتصالاتٍ غيبيّةً خارجةً عن مجرىٰ العادات الحسيّة قالوا: فيه مسٌّ من الجنّ، وقالوا: هو مجنون، يَتَوَهَّمُ بجنونه أنّ أرواحاً غيبيَّةً تتّصِلُ به وَتُبَلِّغُهُ، ولا يَعْدُو أمْرُهُ أن يكونَ تَوهُّماً، هذا إذا كان معروفاً بينهم بالصّدْق والأمانة وكمال الْخُلُق، فَهُمْ في أوّل الأمْرِ لا يقولُون له: أنت تكْذِبُ علَيْنا لأمْرٍ تُريدُه، وإنَّما يعْتَذِرُونَ له بأنّ فيه مَرضَ الجنون.

لكنَّ الجنون يتنافَىٰ مع دعوة الرّسُول النّاسَ إلى القراءة والتعلُّم واستخدام وسيلة «القلم» لتثبيت المعارف، ومُعَاودة بحثها ومُناقشتها، وهو ما جاء في أوّل سورةٍ أُنزِلَتْ عليه، وهي سورة (اقرأ) فكتابَةُ ما ينزل به

الوحي بالقلم يجعلُه مقروءاً ومحفوظاً، يَعْرِضُ نفسه للباحثين والدارسين في كلّ حين، أمّا كلامُ من فيه جنونٌ فإنّهُ لا يُمْكن أنْ يكونَ كُلُّه كاملاً خالياً من الخلَل والانحراف الجنوني.

فلمَّا اتَّهمه بعض قادة قومه بالجنون بغية ترويج هذه المقالَة بين جماهير الناس، جاء في صَدْرِ سورة «القلم» التذكيرُ بالْقَلَم وبما يَسْطُر الكاتبون به من معارفَ وعُلومٍ، وقرآنٍ يَتَنَزَّلُ عَلَىٰ الرّسُول ﷺ، وجاء هذا التذكير بأسْلُوب الْقَسَمِ الْمُشْعِرِ بتمجيد العلم ووسائله، وفي هذا إلماحٌ إلى أنّ المجنونَ لا يدعو إلى العلم، وتثبيتِ العلم بالكتابة، ومتابعة الكتابة بالقراءة والدّرْسِ والبحثِ والتفكّر والتدبّر، ودوام التذكّر.

أي: ألم يدْعُكُمْ في أوّل سورةٍ أُنْزِلَتْ عليه إلى القراءة، وإلى تسجيل ما ينزل به الوحْيُ بالقلم، لتثبيته ومعاودة قراءته، وتدبُّر معانيه، ليَهْدِيَكُمْ التدبُّر إلى الحق، وإلى صدق دعوة الرّسُول؟

فأقسم اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله بالقلم وبما يسْطُر الكاتبون به من علومٍ ومعارفَ وهدايَةٍ يتنزَّل بها الوحيُ من لدُنه على أنبيائه ورسُلِهِ، ولا سيما خاتمتُهُمْ محمّد بن عبد اللّه على أنّه ليس بمجنون كما يُحَاوِلُ أَنْ يُرَوِّجَ حَاسِدُوهُ عَلَىٰ النِّعْمَةِ الَّتِي أنْعَمَ اللّهُ بها عليه إذِ اصطفاه بالنبوّة والرّسالة وإنْزَالِ القرآنِ المعجز المدهش عليه.

فقال اللّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

وفي خطاب اللّه رسُولَهُ بهذا تَسْلِيَةٌ لنَفْسِه إذْ أحزَنَتْهُ مقالة قومه بشَأْنه: إنّهُ لَمَجْنُون، ونفْيُ الجنونِ عنه مقترنٌ بالدّليل على أنّهُ لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ مجنوناً، وهو مفَضَّلٌ على سائر الناسِ في زمانه، بنِعْمَةِ النّبوّة والرّسالةِ وما تشتمل عليه من عطاءٍ عِلْمِيٍّ رَبّانيٍّ له فيه الحقُّ والخيرُ والْهُدَىٰ، ويَتَميَّزُ به

على النَّاسِ جميعاً، ولا يقْتَصِر حالُهُ على تفضيلِ علميٍّ ذَاتيٍّ، بل هو يَدْعو النَّاسَ إلى تدبُّرِ ما يَنْزِلُ عَلَيه من بيان رَبَّاني، وتفَهُّم معانيه، وإلى اسْتخدام القلَم والكتابة في تسجيله وجَعْلِه كتاباً مسطوراً، لمُتَابعَة تفهُّمِهِ وَتَدَبُّرِهِ ما بَقِيَ في الدهر دارسون متفهّمون للنصوص متدَبّرون.

وفيه أيضاً تثبيت للرسول ﷺ على حمل رسالته مهما ناله من أذىً من قومه.

وفي الإشارة إلىٰ هذا الدليل بأسلوب خطاب الرسولِ خطابَ تسلية وتثبيتٍ، تَعْريضٌ بسُخْفِ عُقول مُتَّهِمِيه بالجنون، وأَنَّ مقالتهم لا يُمْكنُ أن يكونَ لها رواجٌ في الناسِ، وهو يَتْلُو على الناس قرآناً فيه الحقّ والخير والْهُدَىٰ، ويَعْرِضُ نفسه للباحثين الدارسين المتدبّرين، ويَطْلُبُ منهم أَنْ يتعلَّمُوا الكتابة والقراءة، وتدَبُّرَ ما يَسْطُرُونَ ممَّا يُنْزِلُ اللَّهُ علَيْهِ مِنْ قُرْآن.

واقتضت الحكمة التربويّةُ في هذه المرحلة الأولى أنْ لا يُواجِهَ اللّه عزّ وجلّ مُتَّهِمِي الرسُولَ بالجنون بالخطاب المباشر الذي يُبينُ فيه فسادَ مقالتهم، تلطُّفاً بهِمْ، وإيثاراً لأسلوب التدرُّجِ الارتقائي في الوسائل، من التعريض إلى التصريح ثم إلى المواجهة بالخطاب، ثُمَّ إلى التعنيف فالشتيمة إذا اقتضى الأمر ذلك.

وقَسَمُ اللّهِ بالْقَلَمِ وَسِيلَةِ تَدْوِينِ المعارف والعلوم، وبِمَا يَسْطُرُ السَّاطرونَ من مكتُوباتٍ علميَّةٍ يُثْبِّتُونها، للرُّجوع إليها آناً فآناً، بُغْيَةَ تَذَكُّرِها، ولِتَنْتَفِعَ الأَجْيالُ المتلاحقَةُ مِنها، عَصْراً فعَصْراً، وَقَرْناً فَقَرْناً، هو في الحقيقة قَسَمٌ بصفاتِ اللّه الّتي كان من آثارها في تدبير الخلْقِ مَنْحُ الإنسان القدرة على استخدام القلم، في كتابة العلوم والمعارف وتسْجيلِها، وهدايتَهُ إِليها، وتَسْخِيرُ الوسائل لِجَعْلِ الكتابَةِ عِمَادَ تَدْوين المعارِف والعلوم وتثبيتِها.

وتحلِيلُ العبارة القرآنيَّةِ يكونُ على الوجه التالي:

أُقسِمُ بالْقَلَم وبِمَا يَسْطُرُ السَّاطِرُونَ من معارفَ وعلومٍ لتثبيتها ومنها ما أُنزِلَ عليكَ يَا مُحَمَّد من آياتٍ بيّناتٍ تشتمل على الحقّ والخير والْهُدَىٰ، لتكونَ ذكرىٰ للعالمين، علىٰ أنّكَ لَسْتَ حالةَ كوْنِكَ مُفَضَّلاً بنِعْمَةِ اللّه عليك بالنبوّة والرِّسَالَةِ وباصطفائِكَ بكِتَاب رَبِّكَ الْمُعْجِزِ الَّذِي أُوحِي به إِلَيْكَ بِمجْنُون، فالمجنونُ لا يكونُ مؤهَّلاً بحالٍ من الأحوالِ لِيُوحَىٰ إِلَيْهِ بِمِثْلِ هذا القرآن، وصفة الجنون لا تتلاَءَمُ مَعَ هٰذِهِ النِّعْمَةِ العظيمة الّتي أنْعَمْتُ بها عليك، وآثارُها ظاهِرَةٌ عَلَيْكَ أيْنَما حَلَلْتَ وَأينما ارتَحَلْتَ.

(الباء) في عبارة ﴿بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ للمصاحبة والملابسة، والعامل في الحال الذي هو متعلّق الجار والمجرور هو معنَىٰ النفي في عبارة: ﴿مَآ أَنتَ﴾ أي: أنفى عنك حالة كونك مُلابساً ومَصْحوباً بنِعْمَةِ اللّهِ عليك أنْ تكون مجنوناً.

**والنِّعْمَةُ المرادةُ هُنا:** هي نِعْمَةُ الاصطفاء بالنُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ ونِعْمَةُ إنزال القرآن المعجز على الرسول محمد ﷺ.

فما جاءَ الرسولَ محمّداً ﷺ من الوحي هو نِعْمَةٌ أنْعَمَ اللّهُ عزّ وجلّ بها عليه، وهٰذِه النعمةُ ذَاتُ أثَرٍ حَقِيقيٍّ تُدْرِكُ العقول الحصيفة الرَّشيدَةُ عظمته، بما تشتمل عليه من حَقٍّ وخيرٍ وَهُدىً وإعجازٍ بَياني وعلْمِيٍّ وتشريعيّ وخبريّ، وهٰذِه الأمور لا يمكن أن تَصْدُر عن تَخيُّلٍ أو جُنُون، فكمال العلم، وكمال العقل، وكمال الحكمة، لا يُمْكِنُ أنْ يأتي بها جُنون.

فما أنت يا محمّد بحَمْلِكَ لهذه النعمة العظمىٰ من ربّك بمجنون، فلا يضيرُكَ أن يقول المكذبون لك الذين يحْسُدُونك على مَا آتاكَ ربُّكَ: إنَّهُ لمجنون، ولْيَعْلَموا أَنَّ رَبَّكَ الذي اصطفاك بهٰذِهِ النعمة يُبَرِّئُكَ ممّا اتَّهمُوكَ به، إذْ أنْتَ في ذَاتِكَ بريءٌ منه، وسيثْبتُ للجميع أنَّكَ أكْمَلُ الناس عَقْلاً وخُلُقاً.

● قـول الله عـزّ وجـلّ خـطـابـاً لـرسـولـه: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

**الأجْرُ**: هو العوض عن العمل الذي يُقَدِّمه العامل تحقيقاً لمطلوبِ المعْمُولِ له.

وعِوَضُ العمل الذي يُحَقِّقُ مطلوبَ اللَّهِ من عَبْدِه يضاعِفُهُ اللَّهُ أضعافاً كثيرةً بفضله وجوده، وأَعْظَمُ العوضِ ما ادّخره اللّه لعباده وأخَّرَهُ إلى يوم الدّين، فَهُو يمنحُهُمْ إياهُ في الحياة الأخرى.

﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: أي غَيْرُ مَقْطُوعٍ، فهو إذنْ أجْرٌ مُتَواصِلٌ لاَ يَنْقَطع، مِنْ قولِهِمْ: مَنَّ الشَّيْءَ، إذا قَطَعه.

والأجْرُ الَّذي لا ينقطع هو ثوابُ اللَّهِ لعباده الصالحين في جنَّاتِ النّعيم.

إنّه لَنْ يمُرَّ أذىٰ النّاسِ للرَّسُولِ ذي الخلُق العظيم، دون أجْرٍ دائمٍ جسيم، من الرّبّ الجواد الكريم.

وفي وعْدِ اللّه لرسوله بالأجْرِ غَيْرِ الْمَمْنُونِ تشجيعٌ له على متابعة جهاده في تبليغ رسالات ربّه، دون أن يعبأ بأذىٰ الناس له.

وقد جاءت الجملة مؤكّدةً بالمؤكداتِ التاليات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاّم المزحلقة».

● قول اللّه عزّ وجل خطاباً لرسوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾:

أي: وإنَّكَ لمفطورٌ علىٰ خُلُقٍ عظيم، فأنْتَ متمكّنٌ منه تمَكُّنَ القادر على الشيْء باستعلاء، فحرفُ «علىٰ» يدُلُّ علىٰ هذا التمكُّنِ باستعلاء.

لقد اقتضت الحكمة التربويّة أن يُرْشِد اللّه رسُولَهُ في هذا الموقف إلى

الصَّبْر، والحلْم، والصَّفح، وسَعَةِ الصَّدْرِ، ومتابعة قيامه بوظائف رسالات ربّه، بأسْلوب الثناء عليه بأنَّهُ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عظيم.

هذه الجملة مؤكَّدَةٌ بمؤكدات ثلاثة: «إنَّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة».

أي: فتعامل يا مُحَمَّدُ مع قَوْمِك بهذا الخلُقِ العظيم الذي فُطِرْت عليه، إذْ تَدْعُوهم إلى سبيلِ ربّك، وإذْ تنالُ منهم ما تنالُ من أذىً.

وهنا نلاحظ أنّ اللّه عزّ وجلّ لم يأمُرْ رسُولَهُ صراحة بالصَّبْرِ، والحلْم، والصفح، وسعَةِ الصَّدْرِ، وتحمُّلِ الأذىٰ من قومه، ومتابعةِ القيام بوظائفِ رسالته، وإنّما ألْمَحَ له إلى ذلك إلْمَاحاً عجيباً، فكان هذا الإلماحُ ثناءً فاخراً نفيساً بأنّه لَعَلَىٰ خُلُقٍ عظيم.

● قَوْلُ اللّه عزَّ وجلّ خطاباً لِرَسُوله:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

**الْمَفْتُونُ**: المرادُ من المفتونِ هُنَا المصابُ بِالجنون، وإطلاق المفتون على المجنون من التوسُّعَاتِ اللّغَوِيَّة، ومعلومٌ أنَّ الّذي يتصرّف تصرّفات تُؤدّي به إلى شقائه وعذابه وخسارته غَيْرَ مُكترث للتحذيرات الّتي تُوجَّهُ له، هو المستَحِقُّ لأنْ يوصَفَ بالجنون.

ولمّا كان مَصِيرُ الكافرين المكذِّبين للرسول ﷺ والمكذّبين بما جاء به عن ربّه، مَصِيرَ شقاءٍ وعذابٍ وخسارةٍ وندم، كَانَ وصْفُهم بالجنونِ هو الوصف الملائم لسلوكهم، ولكنّ هذا لا يكُونُ مَرْئيّاً بالأبصار إلاّ بَعْدَ أَنْ يَحُلّ بهم هذا المصير.

وهذا المصيرُ ليس بعيداً، فسَتَبْصِرُهُ يا مُحَمَّدُ بعَيْنَيْ رأسِك، وسَيُبْصِرُونه بأعْيُنِهم في الحياة الدنيا قَبْلَ الآخِرَة، وعندئذٍ يُدرِكُونَ أَنَّ

المجنون في فريق الكافرين، لا في فريق الرَّسُولِ والذين آمنوا معه، وقد دلّ على جنونه أنه دفع بنفسه وبمن اتَّبَعه إلى مصير الشقاء والعذاب والخسارة والندم.

وجاء استعمال السّين: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ للدلالة على المستقبل القريب في الدنيا، ولو كان المستقبلَ البعيد في الآخرة لكان المناسب استعمالَ حرف التسويف «سَوْف».

وقد تحقَّق بفضلِ اللّهِ هذا، فرأىٰ الرسولُ والمؤمنونَ في الْعَهْدِ المدنيّ كيف حلَّت بالكافرين الهزائم المنكرة، ورأىٰ الكافرون مَصِيرهم الذي وعد الله الرسول به، وأوعدهم به ضمناً.

لقد تضمَّن هذا النصّ وعداً من اللّه لرسوله بأنَّه سَيُظْفِرُه، وينْصُرُه على متَّهميه بالجنون، وعندئذٍ يُبْصِرُونَ بأعْيُنِ رؤوسهم مصائرهم الّتي تدُلُّ على أنَّ كلّ واحِدٍ منهم كان هو الذي يَسْتَحِقُّ لَقَبَ «المجنون».

● قول اللّهِ عزّ وجَلّ خطاباً لِرَسُوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

جاءت هذه الآية بمثابة التعليل للإيعاد بالمصير السّيِّئ الذي سيصير إليه الذين اتّهموا الرسول ﷺ بالجنون، والوعْدِ بالمصير الحَسَنِ السّارّ الذي سيصير إليه الرسُولُ ﷺ والذين آمنوا به واتَّبَعُوه، فهو بمضمونه إيعادٌ ووعدٌ.

وسبب هٰذين المصيرين أنَّ اللّه أعْلَم من كلّ عليم بالضّالين عن سبيله، وأعْلَمُ من كلّ عليم بالمهتدين، أي: وبما أنّه جلّ جلالُهُ حكيم في تصاريف قضائه وقدره، فلا بُدَّ أَنْ يَمْنَحَ العاقبة الحسنة للمهتدين (أي: لرسوله وللذين آمَنُوا به واتبعُوه) ولا بُدَّ أَنْ يُنْزِلَ العاقبة السَّيِّئَةَ المخْزِيَة بالذينَ ضلُّوا عَنْ سبيله (أي: بالكافرين الذين اتَّهَمُوا الرَّسُولَ بالجنون وكذّبوا بما أنزل اللّهُ عليه).

وقد تحقَّقَ ذَلِكَ بَعْدَ حين في الدُّنيا قبل الآخرة، ولعذابُ الآخرة أشدّ.

● قول اللّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

**الطاعة**: الانقيادُ والمتابعة والاستجابة للطلب، يقال لغة: طاعَ فلانٌ فلاناً طوْعاً وطَاعَةً وطَوَاعِيَة، وأطاعَهُ إطَاعةً إذا انقاد له وتابَعَهُ واستجابَ لطلَبه.

وقد نهى اللّه رسوله فكُلَّ داعٍ إلى اللّه من أُمَّته عن طاعة المكذبين للرَّسُول، والمكذّبين بما جاء به عن ربّه، فهم يستدرجون حامل الرسالة إلى التنازل عَنْ دعوته، أو عن بعض مضامين رسالته.

**ودُّوا**: أي: أحَبُّوا وَرَغِبُوا، أو تَمَنَّوْا، والمفعول به محذوفٌ تَقْدِيرُه: أَنْ تُدَاهِنهم، دلّ عليه عبارة: ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾.

**لَوْ تُدهِنُ**: «لَوْ» حرفُ تَمَنٍّ، **تُدْهِنُ**: أي: تُظْهِرُ لَهُمْ خِلَافَ مَا تُبْطِن، يُقَال لُغَةً: أَدْهَنَ الرَّجُلُ، أي: أظهر خلاف ما يُبطِن. وكذا: دَاهَنَ، ويقالُ: داهَنَ فُلانٌ فلاناً، إذا داراهُ ولايَنَهُ، وإذا خَدَعَهُ وغشّه.

فالمعنى: تمَنَّوْا أنْ تُداهِنَهُمْ يا مُحمّد، فلَوْ تُدْهِنُ في مُعَامَلَتِك لَهُمْ، فَهُمْ في مقابل إدْهانِكَ يُدْهِنُونَ، فيُظْهِرُونَ لَكَ خلاف ما يُبْطِنون.

## الشرح التحليليّ:

في هاتين الآيتين إعدادٌ تربويٌّ للرَّسُول ﷺ فلكلّ داعٍ إلى اللّه من أُمَّتِه، فالدّاعي إلى اللّهِ وإلى سبيله لا بُدَّ أن يتعرّض في دعوته إلى أصنافٍ من المكذِّبين برسالته، بهذا تقضي سنَّةُ الاجتماع البشري، وقد أثبتت هذه السُّنَّةَ الظاهراتُ المتكرّرات، وعلى الداعي إلى سبيل ربّه أنْ يُواجِهَ أصناف

المكذّبين له بمقتضىٰ المنهج الرّباني، وهو عدم طاعتهم في أيّ أمرٍ يَعْرِضُونه من شأنه الإخلال بواجب من واجباتِ رسالته، أو واجب من واجبات الدعوة إلى سبيل اللّه، وأن لا يُداهِنَهُمْ على حِسَابِ شيءٍ من رسالته ودَعْوَته مُخِلاً بمَبْدأٍ أوْ حُكْم، أمّا المداراة في أُمور الدّنيا ممّا لا يمسُّ شيئاً من أمور الدّين بنقص أو زيادة أو تحريف، فهي من أساليب الدعوة، إذا اقتضتها الحكمة، في الظرف المناسب الذي يكون فيه الداعي.

وفي بيان هذا المنهج الربانيّ قال اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله فلكُلِّ داعٍ إلى سبيل رَبِّه من أُمّته:

- ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

والسبب في النهي عن طاعتهم ولو على سبيل مُداهنتهم أنّهم لا يَعْرِضون أمراً من الأمور المتعلّقة بدعوة الرّسول إلاّ مشتملاً عَلَىٰ ما يُخالفُ واجب الرّسالة وتبليغها، أو على زحزحة الداعي عن بعض مفهوماتِ دينِ اللّه أو أحكامِ شريعته، أو ما يجب عليه من تبليغٍ وبيان ودعوة إلى سبيل ربّه.

إنّ الدّعوة إلى دين اللّه الحقّ لا بدّ أن تتضمّن بيان فَسَاد عقيدة الكافرين والمشركين، وفسَادِ أعْمالهم في عبادة الأوثانِ، أو فسادِ ما هم مُعْتَادونَهُ من ظُلْم وفُحْشٍ وعُدْوانٍ وأخلاقٍ اجتماعيّة ذميمة قبيحة فيها إثْمٌ أو فجور، وهذا أمْرٌ يَعْتَبرُه الذين لا يسْتجيبون للدّعوة شتيمةً لهم ولطرائقهم وعاداتهم، وتسفيهاً لأحلامهم، وتنقيصاً لهم، وسبًّا لآبائهم الذين ورثوها عنهم.

فإذا كان للداعي في قومه عزوةٌ تنصُرُه، أو مكانةٌ اجتماعيَّةٌ تُخْشىٰ، فإنّ المكذبين برسالته يلجؤُونَ في أوّل الأمر لمطالبته أو مطالبة مناصريه من عشيرته بأنْ يكُفَّ عن التعرُّض لعقيدتهم وأعمالهم وعاداتهم وأخلاقهم، لما

في ذلك من شَتِيمةٍ لهم فيما يتصَوَّرون، إذْ هُمْ غيْرُ مستعدّين لتَرْكِ ما هم عليه، وقبُولِ دَعْوَتِه ونُصْحِه، وتغيير عقائدهم وعاداتهم وأعمالهم وأخلاقهم وطرائقهم في حياتهم.

وقد تعرّض الرسُول ﷺ فيما بَعْدُ في مسيرته الدّعويّة لمثل هذه المطالب، لكنّه اعتصم بالمنهج الرّبّاني الذي أمره اللّه فيه بأن لا يطيع المكذّبين ولو على سبيل المداهنة.

وروايات السيرة النبويّة تَشْهَدُ بهذا، فمنها ما يلي:

(١) مشىٰ رجالٌ من أشراف قريشٍ إلى أبي طالب عَمّ الرسول ﷺ ونصيره في قومه، فقالوا: يا أبا طالبٍ، إنّ ابْنَ أخيك قد سبَّ آلِهَتَنا، وعابَ ديننا، وسفَّهَ أحلامَنَا، وضلَّلَ آباءَنا، فإمَّا أنْ تكُفَّهُ عنَّا، وإمّا أن تُخَلِّيَ بيننا وَبينه، فإنّك على مثل ما نَحْنُ عليه من خلافه، فَنكْفِيكَهُ.

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم رَدّاً جميلاً، وانصرفوا عنه، ومضى الرسول ﷺ يُظهِرُ دينَ اللّه، ويدعو إليه، ولم يتخلّ عمُّه عن مناصرته.

(٢) قال عقيل بْنُ أبي طالب:

جاءت قريشٌ إلى أبي طالب فقالوا: إنّ ابْنَ أخيك هذا قَدْ آذانا في نادينا ومَسْجِدِنا، فانْهَهُ عنا. فقال: يا عَقِيلُ، انْطَلِقْ فأْتِني بمُحَمّد ـ ﷺ ـ فَانْطَلَقْتُ إليه، فاسْتَخْرَجْتُه مِنْ كِبْسٍ[1]، فجاء به في الظهيرَة في شدّة الحرّ، فجَعَلَ يَطْلُبُ الْفَيْءِ يمْشي فيه من شدّة الحرّ، فلمّا أتاهم قال أبو طالب: إنّ بني عَمّك هؤلاء قد زعَمُوا أنّكَ تُؤذيهم في ناديهم ومَسْجِدِهم، فانته عن أذاهم.

(١) الكِبْسُ: البيتُ الصغير. قال شمّر: من كِبْسٍ، أي: من بيت صغير، ويُرْوىٰ بالنون من الكناس وهو بيت الظبي، والأكباسُ بيوتٌ من طين، واحدها كِبْسٌ. والكِبْسُ اسْمٌ لمَا كُبِسَ من الأبْنية، انظر لسان العرب.

فحلّق رسول الله ـ ﷺ ـ ببصَرِه إلى السماء فقال:

«أتَرَوْنَ هٰذِهِ الشَّمْسَ؟».

قالوا: نعم.

قال: «فَمَا أنَا بِأقْدَرَ عَلَىٰ أنْ أدَعَ ذَلِكَ مِنكُمْ عَلَىٰ أنْ تَسْتَشْعِلُوا شُعْلَةً».

فقال أبو طالب: واللَّهِ مَا كَذَبَنَا ابْنُ أخِي، فارْجِعُوا..).

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يُظْهِرُ دين اللّه، ويدعو إليه، غَيْرَ مُسْتجيب لما دعاه إليه المكذِّبون، ولم يَتَخَلَّ عمُّه أبو طالب عن نُصْرَته.

(٣) ثم مشىٰ الرجال من أشراف قريشٍ إلى أبي طالب، فقالوا له: يا أبا طالب، إنّ لكَ سِنًّا وشرَفاً ومَنْزِلَةً فينا، وَإنّا قد استَنْهَيْنَاكَ من ابْن أخِيك فلَمْ تَنْهَهُ عنّا، وإنَّا واللَّهِ لا نَصْبر على هذا من شَتْم آبائنا وتَسْفِيهِ أحلامِنَا وعيْب آلهتنا حتَّىٰ تَكُفَّهُ عنَّا، أو ننازلَهُ وإيَّاكَ في ذَلِكَ، حتَّىٰ يَهْلِكَ أحَدُ الفريقين.

ثمّ انصَرَفوا.

فعَظُم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم، ولم يَطِبْ نفساً بأنْ يَخْذُلَ ابْنَ أخيه ويُسْلِمَه لهم.

فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابْنَ أخي، إنّ قومَكَ قد جاءوني فقالوا لي: كذا وكذا، وقَصَّ عليه نبأ ما جاءوا به، ثمّ قال له: فأبْقِ عليَّ وعلَىٰ نَفْسِك، ولا تُحَمِّلْني من الأمر ما لا أُطِيق.

فظنّ الرسول ﷺ أنّ عمَّه قد ضعُفَ عن نُصْرَته، وأنّه خاذلُهُ وَمُسْلِمُه لقوْمه، فقال: يا عمّ، واللَّهِ لوْ وضَعُوا الشَّمْس في يميني، والقمَرَ في يساري على أن أتْرُكَ هذا الأمْرَ حتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللَّهُ أوْ أهْلِكَ فيه ما تَرَكْتُه.

ثُمَّ استعْبَرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فبكَىٰ، ثُمَّ قام، فلَمَّا ولَّىٰ ناداه أبو طالبٍ فقال له: أقْبِلْ يا ابْنَ أخي، فأقْبَلَ عَلَيْهِ رسولُ اللّهِ ﷺ فقال له: اذْهَبْ يا ابْنَ أخي فَقُلْ ما أحْبَبْتَ، فواللّهِ لا أُسْلِمُكَ لشيءٍ أبداً.

وعرفَتْ قريشٌ مَوْقِفَ أبي طالبٍ من ابْنِ أخيه، وأنَّه غَيْرُ خَاذِلِهِ، وهكذا وقف رسولُ اللّه ﷺ ملتزماً منهج اللَّهِ، فلم يُطِعِ المكذِّبين، ولم يداهنهم على حِسَابِ وظائفِ رسالته.

ولَمّا ثبت الرسول ﷺ ملتزماً المنهج الرّبّاني صَارَ المشركون المكذبون يتعرّضُون له بالأذى، ويتَعرَّضون للذين آمنوا به واتّبعوه بالاضطهاد.

وممّن تعرّض له بالأذى أبو جَهْل «عَمْرو بْنُ هِشام» وكانت كنيته في قومه «أبا الحكم» فسبّ الرسول وشتمه بوقاحة.

فانتصر للرسول ﷺ عَمُّه «حَمْزَة» وكان قد أسلم، وأقبل على أبي جَهْلٍ في مَجْلِس قوْمِهِ، فضربه بقوسه فشجَّه، وعلم القومُ أنّ «حَمْزَة بْنَ عَبْدِ المطّلِب» أصبَحَ على دين محمد ﷺ، فحَسَبُوا لَهُ حِسَاباً، وقام المخزوميّون ينتصرون لرجُلهم أبي جهل، فقال لهم أبو جهل: دعُوهُ، فإنّي واللَّهِ سبَبْتُ ابْنَ أخيه سَبًّا قبيحاً.

(٤) ولجأ المكذِّبون إلى عروض الإغراء، لعلّ محمّداً يطيعهم في ذلك.

فمن عروضهم أنّ «عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَة» وكان سيّداً في قَوْمه، قال يوماً وهو جالسٌ في نادي قريش، ورسُولُ اللّه ﷺ جالِسٌ في الْمَسْجِد وحْدَهُ: يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ، ألاَ أقومُ إلَىٰ محمّدٍ فأكلِّمَهُ، وأعْرِضَ عليه أُمُوراً لعلّه يقْبَلُ بعْضَها، فنُعْطِيَهُ أيَّها شاءَ، ويكُفَّ عنّا؟

فقالوا: بلَىٰ يا أبا الوليد، قُمْ إليه فكلِّمْهُ.

فقام إليه عُتْبَةُ، حتَّىٰ جَلَسَ إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: يا ابْنَ أخي، إنَّكَ مِنَّا حَيْثُ عَلِمْتَ مِنَ السِّطَةِ[1] في الْعَشِيرَة، والمكانِ في النّسب، وإنَّكَ قد أتَيْتَ بأمْرٍ عظيم فرَّقْتَ بِهِ جَماعَتَهُمْ، وسَفَّهْتَ به أحْلامهم[2]، وعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ ودينَهم، وكَفَّرْت بِهِ مَنْ مضَىٰ من آبائهم، فاسْمَعْ منِّي أَعْرِضْ عليْكَ أُموراً تَنْظُرُ فيها، لعلَّك تقْبَل منها بَعْضَها.

فقال له الرسول ﷺ: «قُلْ يَا أَبا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ».

قال: يا ابْنَ أخِي، إنْ كُنْتَ إنّما تُريد بما جئت به من هذا الأَمْرِ مالاً جمعْنَا لكَ من أَمْوالنا حتَّىٰ تكونَ أكْثَرَنَا مالاً، وإنْ كنْتَ تُريدُ بِه شرَفاً سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حتَّىٰ لا نَقْطَعَ أَمْراً دُونَكَ، وإنْ كُنت تريدُ به مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ علَيْنا، وإنْ كانَ هذا الّذي يأتيكَ رَئِيّاً[3] تراه لاَ تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِك، طلَبْنَا لكَ الطِّبَّ، وبذلْنَا فيهِ أمْوالَنَا حتَّى نُبْرِئَك منه، فإنَّهُ رُبّما غلَبَ التابعُ على الرجُلِ حتَّىٰ يُداوَىٰ منه.

حتَّىٰ إذا فرغ عُتْبَةُ ورسُولُ اللّه ﷺ يسْتَمع منه قال:

«أَفَرَغْتَ يا أبو الوليد؟».

قال: نعم. قال: فاسْمَعْ منّي. قالَ: أفعل. فتلا عليه رسول اللّه ﷺ سُورَة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مِنَ أوّلها إلى السَّجْدَةِ منها (الآية ٣٨) فسَجَد.

ثم قال: «قد سمعْتَ يا أبا الوليد ما سَمِعْتَ، فأنْتَ وَذَاكَ».

(١) **السِّطَة**: الشَّرف والمكانَةُ والحَسب، يقال لغة: وَسُطَ الرَّجُلُ يَوْسُطُ وَسَاطةً وَسِطَةً، أي: صار شريفاً وَحَسِيباً، فهو وَسِيطٌ.

(٢) **أحْلَامهم**: أي: عقولهم.

(٣) **الرَّئِيُّ**: هو التابع من الجنّ.

ويلاحظ أنّ في الآيات الّتي تلاها الرسولُ ﷺ علىٰ «عُتْبة بن رَبيعة» تهديداً لقريش بعذابٍ مُهلِكٍ مُشابِهٍ للعذاب الذي أهْلَكَ اللّه عزّ وجلّ به عاداً وثَمُودا.

(٥) ثمّ أعاد المكذِّبون محاولة عروض الإغراء الّتي بدأها «عُتْبَةُ بن رَبِيعَة» لمّا رأوا أنّ الإسلام أخذ يفشو في قبائل قريش في الرجال والنساء، وأنّ وسائل الاضطهاد لم تَرُدَّ الذين آمنوا بمحمّد واتَّبَعُوه عن الدّين الذي آمنوا به، بل زادتهم استمساكاً به، وجعلَتِ المتريّثين يستَيْقِنون أنّ هذا الدّين حقٌّ، وأَنَّ محمّداً نبيٌّ اصطفاه اللّه بالنبوّة والرّسالة، وبعثه رسُولاً يُبَلّغ النّاسَ رسالات ربّه.

روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم، عن سعيد بن جُبَير، وعَنْ عِكْرِمة مولى ابْنِ عبّاس، عن عبد اللّه بن عبّاس ـ رضي اللّه عنهما ـ قال:

اجتمع عُتْبَةُ بْنُ رَبيعة، وشَيْبةُ بْنُ رَبيعة، وأبو سفيان بْنُ حرْب، والنَّضْرُ بن الْحَارثِ بْنِ كَلَدَة (أخو بني عبد الدارِ) وأبو الْبَخْتَرِيّ بن هشام، والأسْوَدُ بن المطّلب بن أَسَد، وزَمَعَةُ بْنُ الأسْوَد، والوليدُ بْنُ المغيرة، وأبو جَهْلِ بن هشام، وعَبْدُ اللّه بن أُميّة، والعاصُ بْنُ وائل، ونُبَيْهٌ وَمُنَبِّهٌ ابْنا الحجّاج السَّهْميّان، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلَف.

(وهم أشراف قريشٍ من كلّ قبيلَةٍ كما ذكَر ابْنُ إسحاق).

قال ابْنُ عباسٍ: اجتمعوا بعْدَ غُرُوب الشَّمْسِ عند ظهر الكعبَة، ثُمّ قال بعْضُهم لبعض، ابعَثُوا إلى محمَّدٍ فَكَلِّمُوهُ، وخاصِمُوهُ حتّىٰ تُعْذِرُوا فيه.

فبَعَثُوا إليه: إنَّ أشراف قَوْمِكَ قد اجتَمَعُوا لك ليُكَلِّمُوكَ فأْتِهِمْ.

فجاءهم رسول اللّه ﷺ سريعاً، وهو يُظُنُّ أَنْ قَدْ بَدَا لَهُمْ فيما كلّمَهُمْ

فيه بَداءٌ، وكانَ علَيْهم حريصاً، يُحِبُّ رُشْدَهُمْ، ويَعِزُّ علَيْه عَنَتُهُمْ، حتَّىٰ جلَسَ إليهم.

فقالوا له: يا مُحمَّد، إنّا قَدْ بَعَثْنا إلَيْكَ لنُكَلِّمَكَ، وإنّا واللّهِ ما نَعْلَمُ رَجُلاً من العرب أدخلَ على قومه مثل ما أَدْخَلْتَ على قومِكَ، لقَدْ شتَمْتَ الآباء، وعِبْتَ الدِّين، وشتَمْتَ الآلِهة، وسَفَّهْتَ الأحلام، وفرَّقْتَ الجماعة، فما بقي أمْرٌ قبيحٌ إلاّ قَدْ جئته فيما بَيْننا وَبينك.

فإنْ كنْتَ إنَّما جئتَ بهذا الحديث تَطْلُبُ به مالاً، جمَعْنا لك منْ أموالنا حتّىٰ تكونَ أكثرَنا مالاً، وإنْ كنتَ إنّما تَطْلُبُ به الشّرَفَ فينا، فَنَحْنُ نُسَوِّدُكَ عَلَيْنا، وإنْ كُنتَ تُريدُ بِهِ مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنا، وإنْ كانَ هذا الذي يأتيك رَئِيًا تَراهُ قَد غَلَبَ عليْكَ (وكانوا يُسَمُّونَ التّابعَ من الجنِّ رَئِيّاً) فربَّمَا كانَ ذلك، بَذَلْنَا لك أموالنا في طلَبِ الطِّبِّ لك، حتّىٰ نُبْرِئَكَ منه، أو نُعْذِرَ فِيك.

فقال لهم رسولُ اللّه ﷺ:

«مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُ بما جِئتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أموالَكُمْ، ولاَ الشَّرَف فِيكُمْ، ولا المُلْكَ عَلَيْكُمْ، ولكِنَّ اللّهَ بَعَثَنِي إليكُمْ رسُولاً، وأنْزَلَ عليَّ كتاباً، وأمَرَني أَنْ أكونَ لَكُمْ بَشيراً وَنَذِيراً، فبَلَّغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي، ونَصَحْتُ لَكُمْ، فإنْ تَقْبَلُوا مِنِّي ما جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ في الدُّنيا والآخرة، وإنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أصْبِرْ لأمْرِ اللّهِ، حتَّىٰ يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ».

فلمّا رفضَ الرسول ﷺ منهم عروض الإغراء، وجَّهُوا لَهُ مطالِبَ التَّعَنُّتِ.

لقد استمسَكَ الرسول ﷺ بالمنهج الرَّبّانيّ الّذي قال اللّه عزّ وجلّ فيه:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾.

واستمر صلوات اللّهِ عليه كذلك طَوالَ مَسِيرَتِهِ في دَعْوته.

وكذلك يجب على كلّ الدُّعاة إلى سبيل رَبِّهِمْ من أمّته.

أمّا رغبة المكذّبين في أَنْ يُدْهِنَ الرَّسُولُ لهم، أيْ: أَنْ يُظْهِرَ لَهُمْ خلاف ما يُبْطِنُ، وأن يُقَابِلُوهُ بالإدهان منافقين، فقد دلَّتْ عليها ظواهر رواها كتابُ السّيرَة.

وقِمَّةُ المداهَنَةِ أَنْ يَتظاهر المشركون بعبادة ما يَعْبُد الرسول ﷺ مدَّةً من الزَّمن، على أن يتظاهر هو بعبادة ما يَعْبُدون مُدّة من الزمن، فتَتِمَّ المصالحة التوفيقيَّةُ على ذلك، ويكونُ الرَّسُولُ قد كفَّ عن مهاجمة دينهم وعباداتهم الشركيّة، ويكفُّونَ هُمْ عن مهاجمة دينه واضطهاد الذين آمنوا به واتّبعوه.

فمن روايات عروض المداهنة ما يلي:

(١) روى الطبريّ بسنده عن ابن عباسٍ، أنّ قريشاً بعد أن يَئِسُوا من استجابة الرسول لعروض الإغراء الّتي عرضوها عليه، قالوا له: فإنّا نَعْرِض عليك خصلةً واحدةً، فهِيَ لَكَ ولنا فيها صلاح.

قال رسول الله ﷺ: ما هي؟

قالوا: تَعْبُدُ آلهتنا سنةً، اللاّتَ والْعُزَّىٰ، ونَعْبُدُ إلَهَكَ سنة.

قال: «حتَّىٰ أَنْظُرَ مَا يَأْتي مِنْ عِنْدِ رَبِّي».

فجاء الوحْيُ من اللَّوْحِ المحفوظ:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ سورة (الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول).

وأنْزَل الله قولَهُ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

(٢) وروى الطبريُّ أيضاً بسنده قال: لقيَ الوليدُ بْنُ المغيرة، والعاصُ بْنُ وائل، والأسْودُ بْنُ المطّلب، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، رسُولَ اللّه ﷺ، فقالوا:

يا مُحَمَّد، هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ، وتَعْبُدْ ما نَعْبُدُ، ونُشركك في أمْرِنا كلّه، فإن كان الذي جئت به خيراً ممّا بأيدينا كُنّا قد شَرِكْنَاكَ فيه، وأَخَذْنا بحظّنا منه، وإنْ كَان الّذي بأيدينا خيراً ممّا في يَدَيْكَ، كنت قد شرِكتَنا في أَمْرِنا، وأخَذْت منْهُ بحَظّك، فأنزل اللّه عز وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

فلم يستجبِ الرسولُ ﷺ لعروض المداهنة، لأنّها لاَ يُمْكِنُ أنْ تتّفِقَ مع دَعْوَةِ الحقّ، فأيُّ تظاهر يُعْلِنُه حامل رسالة الحقّ، فيه ما يتناقض مع شيءٍ من مبادئه، ومفهومات رسالته، ومَا تستَلْزمه من شرائع وأحكام، هو في الحقيقةِ إلْغاءٌ ضِمْنِيٌّ لكلّ دعوته، ونَقْضٌ لكلّ رسالته.

إنّ قضيّةَ الدين ليْسَتْ قضيّةَ مُسَاوَمَاتٍ على مصالحَ دُنيويَّة، بل هي قضيَّةُ حقٍّ وباطل، والتفاصُلُ بين الحقّ والباطل لا بُدَّ أَنْ يسْتَمِرَّ ظاهراً مُعْلَناً، لا يجوز أَنْ تَسْتُرَهُ المداهَناتُ الكاذبات، ولو حصَلَتْ هذه المداهَنات الكاذبات فسيظَلُّ كلُّ ذي دينٍ على دينِه، والْمَظَاهِرُ لا تُغَيِّرُ من الحقّ شيئاً.

وَأثْبَتَتْ سيرةُ الرَّسُولِ ﷺ طَوالَ مَسِيرَتِه في دعْوَته أنّه كانَ مُتَحَقِّقاً بالوصِيَّةِ الّتِي أوْصَاهُ اللّهُ بها في قوله له: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ وأنَّ مَا اشتمَلَتَا عليه من إعدادٍ تَرْبويٍّ له قد حقَّقَ آثاره تماماً، فلَمْ يَجِد الرسولُ عنه ﷺ قِيدَ شَعْرَة.

● قول اللّهِ عزّ وجلّ لرَسُوله فلِكُلّ داعٍ إلى الله من أُمّته:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

في هذه الآياتِ تخصيصٌ لطائفةٍ من المكذّبين بتفصيل بعض ظواهر صفاتهم، باعتبارها علاماتٍ دالاّتٍ عليهم، بعد الآيتين السّابقتين اللَّتَيْنِ اشتملتا على التحذير من طاعة كلِّ المكذبين برسالة الرسول ﷺ، وفائدة هذا التخصيص المبالغةُ في التحذير من هذه الطائفة، إذْ لدَيْها القدرةُ على المخادعة والمداهنة، وسَتْرِ هُوِّياتها بحَلِفِ الأيمان الكواذب، والطَّعْنِ من الْخَلْفِ بالْهَمْزِ واللَّمْزِ والنميمة، وهي تمْنَحُ من وُجُوهها الْبِشْرَ والْبَسَمَات، وتمْنَحُ من أَلْسِنَتِها حُلْو الْعِبَارات.

هذه الطّائفة الّتي تَعْمَلُ لِصَدِّ الداعي إلى اللّهِ عن دعوته، والوقوف في طريق مَسِيرَتِه الدعويَّة، تَمْلِكُ القدرةَ على تقديم نصائحها برفق، مقرونةً بالأيمان المغلَّظة، مع التظاهر بالودّ والحرص على مصلحة من تُوَجّه له نصائحها، وتَمْلِكُ الْقُدْرَةَ مع ذلك وفي الوقت نفسه على الْهَمْزِ ضدّ الداعي إلى اللّه لإشعار غير المؤمنين بأنّها تَكِيدُهُ بنصائحها وبأيمانها المغلّظة، فإذا فارقت مجلس الداعي إلى سبيل ربّه، انْطَلَقَ كلُّ واحدٍ منها مشَّاءً بالنّميمَةِ كالحيَّةِ الرَّقْطَاءِ، ليُفسِدَ قُلوبَ النّاسِ تُجاه الداعي، وليُقَطِّعَهُمْ عنه، ويَصُدَّهم عن صراط اللّهِ المستقيم، ويظلُّ حريصاً على أَنْ يَمْنَعَ انتشار الخير والهدى، لأَنَّ انتشار الخير والْهُدَىٰ في الناس يُضِرُّ بمصالحه، ويحوّلُ عنه المجاري التي يَعُبُّ منها ثراءَهُ ومكانَتَه الاجتماعية وسلطانَه ومَجْدَه، إذْ يُبْصر النّاسُ حقيقة جرائمه الّتي كان يسْتُرُها بمكْرِهِ وكيْدِه، بتَأْثير انتشار الخير، فَهُوَ مَنَّاعٌ للخير بكُلِّ وَسِيلَةِ مكْرٍ وكَيْدٍ تُتَاحُ له.

فإذا أَلْجَأَهُ الأَمْرُ إلى استخْدام سُلْطَته العدوانيّة، إذْ لَمْ تُجْدِه وسائل المكر، كانَ مُعْتَدِياً مُرْتَكباً لأقْبَحِ الآثام وأشْنعها.

وحين يَصِلُ به الأَمْرُ إلى استخدام سلطته العدوانيّة تنقلب سحْنَتُهُ الخلُقِيَّة، فيصير عُتُلّاً جافياً، فظّاً، غليظاً، لئيماً، فاحِشَ الخلُق، ظَلُوماً، لا رحْمَةَ في قلْبِه ولا عاطفةَ في نفسه، لقد كان من قَبْلُ يَلْبَسُ جِلْدَ حَمَلٍ وديعٍ، فصَارَ جبَّاراً في الأرض، ضارِياً ضراوة السِّباع، مستكْبِراً أَشِراً، أكولاً شروباً قاسياً نَهِماً.

وعندئذٍ يظهر لدىٰ الناس جميعاً بعلامة: «شِرِّير» فيتّقيه الناسُ ويتحَاشَوْنَهُ مخافَةَ شَرِّهِ، إذْ يصير زعِيمَ شَرٍّ وإجْرام.

هذا الصنف من الناس هو عدُوٌّ لدودٌ للحقّ والخير والدّعاة إلى سبيل اللّه.

## التدبُّر التحليليّ للنصّ:

● ﴿وَلَا تُطِعْ﴾: أي: ولا تَنْقَدْ ولا تَسْتَجِبْ لمطالب هذا الفريق من الناس الذي سَنحَدِّثُكَ عن الصِّفات العامّة المشتركَةِ بين أفراده، على وجْهِ الخصوص، بعد أن حذّرْناك من طاعة جميع المكذّبين بالدّين.

● ﴿. . كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾: **حَلَّاف**: أي: كثير حَلِفِ الأيمان المغلَّظةِ، لتوثيق أقواله الكواذب. صيغة «فعَّال» صيغة تكثير، وهي كما يقول النحاة إحدى صِيَغ المبالغة.

هذه الصفة نُلاحظها لدىٰ كثير من المضلّين، إذ يُسْرِفونَ في صناعة الأكاذيب، ويُحاولُونَ سَتْرَهَا بالأيمان الفواجر الكواذب، ويقدّمون لمن يُنافقونه ويتظاهرون بودّه والرغْبَةِ في نُصْحه ما يَزْعُمونَ أَنَّهُم ينصحونه به، ويُخادِعونه بِسَيْلٍ من الأيمان، ليستروا بذلك رغبَتَهُمْ في توريطه، أو صَرْفِه عن عَمَل خير هو فيه، أو هو عازمٌ على القيام به.

**مَهِين**: أي: حَقِيرٍ في ذاتِ نفسه، وإنْ كان منتفخاً فِي ظاهِرِهِ، يتصَنَّعُ التعاظُم.

والمَهِينُ الحقيرُ في ذاتِ نفسه لا بُدَّ أن يكون كذَّاباً فاجراً، ومِنْ مَهَانةِ هذا الصنف من الناس دناءَتُهُ في سلوكه الذي يُخفِيه ولا يُعْلنُه، إذْ تَمْلِكُهُ شَهْوَةٌ حقِيرَة، وتُذِلُّهُ رِشْوَةٌ صَغِيرَة، والباحثُ عن خباياه يَجِدُ لدَيْه من الدّناءات والمهانات ما يترَفَّعُ عنهُ أكْثَرُ النّاس دناءةً وَمَهانَةً، وقِلّةَ مُبالاتٍ بما تَدْعو إليه الكرامة، وقَدْ يَظْهَرُ للنّاسِ بعضُ ذلك في فلتات تصرُّفاته، فتكشفُه لأهل الملاحظة والنظر اللَّمّاح.

● ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ⑪﴾:

**هَمَّازٍ**: صيغة تكثير، أي: دَيْدَنُه ودَأْبُه تعيير الناسِ وتَنْقيصُهم وغيبَتُهُمْ، والطعْنُ فيهم من وراءِ ظهورهم، وأَكْلُ لحومهم.

**الهَمْزُ**: في اللُّغة مثل الغمز والضغط والْعَصْرِ والنَّخْسِ باليد أو بأداة ما، ويدخُل في معنى الْهَمْزِ الغيبَةُ، وإشاراتُ التعيير والتنقيص ببعْضِ حركاتِ الوجه، ونَحْوُ ذلك.

وما أَكْثَرَ ما يُلاحظ الناس هذه الصفة في ذوي المكانات الفارغات، والزعامات المهينات، من الذين يتظاهرونَ بالتعاظم وهم حقيرون.

وهدفهم من أعمالهم هذه الحطُّ من مكانة ذوي المكانات في مجتمعهم، ليستعْلُوا عليهم، وليكون لهم وحدهم البروز والظهور.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾: أي: كثيرِ المشي بالنَّمِيمَة، لتقطيع أواصر صلاتِ الناس بعْضِهم ببعض، تصَوُّراً منْهُ أنَّه بهذا التقطيع يمنَعُ تجمُّعَهم، فتكون له وحده القوَّةُ الجماعيَّة بالأعوان والأنصار، وهذا من دناءته ومهانته وسوء طويته.

**النَّمِيمُ، والنَّمِيمَةُ**: الوشاية بالسّوء لإفساد بعض النَّاس على بعض، وأصلهما الصوتُ الخفيُّ من حركةِ شيءٍ، أو من وطْءِ قَدَمٍ، ويقال لصَوْتِ الكتابة: نميم ونميمة.

ومعلوم أنّ النّمّام يُقدِّم وشايته باستخفاء، وبصوتٍ خفيّ.

• ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: أي: كثير الْمَنْعِ لِلْخَيْر، فهو في ذاتِهِ لا يفْعَلُ الخير، لأنَّهُ مُسْرِفٌ في أنانِيَّتِه، ثُمَّ هو لا يُرِيدُ مِنْ غَيْرِه أَنْ يفْعَلَ الْخَيْر، لأنَّ فاعِلَ الْخَيْرِ في الناس محبُوبٌ محتَرَمٌ ذو مكانةٍ، والمنَّاع للخير الذي يطلب الزعامة لنفسه بغير ثمن، يكره أنْ يفْعَلَ غيرُه خيراً، لئلا يكون له بذلك مكانةٌ اجتماعيَّةٌ حقيقيَّة، مُنَافسةٌ لزعامته الكاذبة المصطنعة بالانتفاخ الفارغ، والتمويه والتضليلِ، أو بوسائل التسلُّط العدواني، فيتَّقيهِ الناسُ مخافَةَ شرّه، وقد يمنع انتشار الخير بأعماله العدوانيّة.

مُعْتَدٍ: أي: ظالم ذو عدوان على النّاس بغير حقّ، يقال لغة: اعتدىٰ فلانٌ على فلان، أي: ظلمه. واعْتَدَىٰ الحقَّ، أي: جاوزه إلى الباطل.

إنّ الواحد من هذا الصنف من الناس يُسَخِّرُ ما لديه من قُوَّةِ مالٍ وبَنِينَ وأنصارٍ وأعوانٍ في الاعتداء على الناس ليُرْهِبُوهم، بغية أنْ يأخُذَ مكانته بينهم بالإرهاب والعدوان، لا بالعطاء وفعل الخير وخدمة الناس، وإصلاح ذاتِ الْبَيْن.

وأعدىٰ أعداء هذا الصنف من الناس الدُّعاة إلى اللّه وأنصارُهم ومؤيدوهم والتابعون لهم.

وكم نلاحظ طُلاَّبَ زعاماتٍ يفرِضُونها على الناس بعُدْوانهم عليهم، وظُلْمهم والسَّطْوَةِ عليهم، لا بامْتِلاَكِ قلُوبهم بالمحبّة.

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: كثير الإثم، مسرفٍ في ارتكاب المعاصي والجرائم، وممارسات الأعمال غير الأخلاقية.

فمهما تحرَّكَتْ لدَيْهِ شَهْوَةٌ، أو هوى، أو مطلَبٌ من مطالبِ نَفْسِه، لم يتورَّعْ عن ارْتكابِ أيِّ إثْمٍ لتحقيق شهوته أوْ هواه، أو مطلبه.

وكم يُلاحظ النَّاسُ أئمَّةَ ضلالٍ وتضليلٍ هُمْ في أنواع سلوكهم أثِيمُونَ، ويجابِهُونَ الحقّ والخير والفضيلة والدعاة إلى اللّهِ بالإثْمِ والعدوان.

**الإِثْمُ**: في اللّغة الذنب، وجاء استعمال «الإثم» في القرآنِ للدّلاَلة على جميع المعاصي الّتي نهى اللّه عنها، كبيرها ومتوسطها وصغيرها.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

**عُتُلّ**: هذه الكلمة تُطْلَقُ على الجافي الفظّ الغليظ اللّئيم ذي الخلُق السّيئ، الظلوم للناس، الذي لا رحمة في قلْبه ولا عاطفة، الشّدِيدِ الأَشَرِ والكِبْرِ، الأَكُولِ الشَّرُوب القاسي.

هذه صفة صنف من الناس يريد أنْ يفرض على الناس زعامَتَهُ بهذه القبائح الشنيعة التي وضع العرب للمتخلّق بها كلمة «عُتُلّ».

وهو بهٰذِهِ القبائح يواجه داعي اللّه.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾: أي: وهو بَعْدَ كُلّ الصِّفاتِ السَّيئَة الَّتي سَبَقَ ذِكْرُهَا، فهو ذو علامَةٍ بارزةٍ فيه تَدُلُّ دَواماً على أَنَّهُ إنْسَانٌ شِرِّير، فيَتَّقِيهِ الناسُ لِشَرِّه، ويتحاشَوْنَه مَخافَةَ أن ينالهم منْهُ ضُرٌّ أَوْ أذىً، إنَّهُ زعِيمُ شرٍّ وإجرامٍ تَظْهَرُ عليه علامة الشَّرّ فيه، كظهور زنَمَةِ الشاة أو البعير في أذنه.

**الزَّنَمَة**: ما يُقْطَعُ من أُذُن البعير أو الشاة فيُتْرَكُ مُعَلّقاً، وزنمتا الأذن: هنَتَان تَلِيَانِ الشحمة وتقابلان الوترة.

**والزنيم**: المعروف بِلُؤْمِهِ وشرِّه، ويبدو أنَّ هذا المعنى هو المراد.

وهذا الصنف من الناس عدو للحقّ والخير والفضيلة ودُعاةِ اللّه وأعوانِهم ومناصريهم، فلا يَفْتَأُ يكيد المكايد وأنواع المكر بخبث ولُؤم وكلّ عمَلٍ قبيح، فاقتضىٰ المنهج الرّبّانيّ توجيهَ التحذير الشديد من طاعته، والاستجابةِ لمقترحاته وما يُقدِّم من آراء يزعم أنّها نصائح، إذْ هو كالشيطان غشاشٌ غدّارٌ مُغْوٍ مُضِلٌّ وسواسٌ خنَّاس.

● قول الله عزّ وجل:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

● قرأ ابن عَامِر، وشعبة، وحمزة، وأبو جعفر ويعقوب: (أَأَنْ كَانَ) بإضافة همزة استفهام.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَن كَانَ﴾ بدون همزة استفهام، ويمكن حمل هذه القراءة على الخبرية، أو على تقدير همزة استفهامٍ محذوفة.

**أساطير**: تأتي في اللّغة بمعنيين:

● فتأتي بمعنى: أباطيل، وأحاديث لا نظام لها، واحدتُها: إِسْطار، وإِسْطارةٌ، وأَسْطُور، وأُسْطورة.

● وتأتي بمعنى: مكتوبات الأوّلين ومسطوراتهم، قال أبو عبيدة: جُمِع «سَطْرٌ» على «أَسْطُر» ثُمَّ جُمِعَ «أسْطُر» على «أساطير».

أقول: فيمكن حَمْلُ عبارة: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على أحد المعنيين: أباطيل الأوّلين، أو: مكتوبات الأوّلين، وهي كُتُب أهل الكتاب.

● ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ على أن الجملة خبريَّة لا استفهاميّة، وفي ارتباطها بسائر النصّ وجهان:

**الوجه الأوّل**: هي مرتبطة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ أي: ولاَ تُطِعْ مَنْ هذه قبائِحُهُ ومَثالبُه، لِكَوْنِهِ ذَا مَالٍ وبَنِينَ، جَعَلا لَهُ وَجَاهَةً في قومه، وسيادَة وعزّاً وشَرَفاً، فهو كافِرٌ مَهِينٌ في ذات نفسه سَيّئُ الْخُلُق، وحرف الجرّ قبل «أن» يُحْذَفُ بقياسٍ مُطَّرد.

**الوجه الثاني**: هي مرتبطة بِصِيغِ المبالغة الّتي تَعْمَلُ أعمال أفعالها: «حلاَّف ـ همَّازٍ ـ مَشَّاءٍ بِنَمِيم ـ مَنَّاعٍ للخير ـ مُعْتدٍ ـ أثيم» والمعنى أنَّه ارْتكبَ هَـٰذه القبائحَ الشنيعَةَ مُغْتَرّاً بنفسه لِأَنَّه كانَ ذا مالٍ وبنين، لقد أنعم اللّه عليه بالمال والبنين، فقابلها بالكفران وارتكاب كُبْرَياتِ القبائح.

أمّا على قِراءة: (أَأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) بصيغة الاستفهام، فهو استفهامٌ استنكاريٌّ توبيخيٌّ لهذا الصنف من النّاس مرتبطٌ بجُمْلَةِ: ﴿قَالَ.. أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والمعنىٰ: ألأنَّه كان ذا مالٍ وبَنِينَ بعطاءٍ مِنّا لَهُ كانَ شَأْنُهُ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾؟!! فما أشدَّ قُبْحَ هذهِ المقابلة، ومَا أخسَّ وأرذَلَ أصحابَها؟!!

● قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

لقد اقتضت الحكمةُ التربويّةَ توجيه الوعيد لهذا الصنف المستكبر المكذِّب، بعذَابٍ مُذِلٍّ مُهِينٍ يُخْزِيه يَوْمَ الدِّينِ، ورُبَّما بعذابٍ مُعَجَّلٍ يخزيه ويُذِلُّه في الدّنيا أيضاً، بدليل استعمال حرف «السّين» في: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾:

**الوسْمُ**: الكيُّ بالنّار لتمييز الموسوم بعلامة خاصَّة.

﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾: الأَنْفُ، ومُقَدَّمُ الأنف، ويختصُّ غَالِباً بخُرْطوم الفيل، وخرطوم الخنزير.

وجاء استعمال لفظ «الخرطوم» هنا للدّلاَلة على أنف هذا الصنف من الناس، للإشارة إِلَىٰ أَنَّه استكْبَرَ بأَنفِه على خلْقِ اللّهِ، وعن الإيمانِ بآياتِ اللّهِ، وتصديقِ رسُوله، لكنَّه في الحقيقة أنزل نفسه بانتفاخ أَنْفِه إلى مُسْتَوىٰ الفيلة والخنازير ذَوَاتِ الخراطيم.

لَكِنَّ هذا الأنف المنتفخ المستكْبِرَ سَيُكْوَىٰ بالنار، ويكونُ كيُّهُ بالنّار وَسْماً مُذِلاً مُهِيناً مُخْزِياً يتَمَيَّزُ بِهِ بعلامَةٍ فارقة خاصَّة.

وربّما يكونُ هذا بسبب كَبِّهِ في النّار على منخره، إهانة لَهُ على عِناده واستكْباره، وتَعْذِيباً لَهُ على جحوده الحقَّ وإنكاره.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ قوله:

«وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ. أو قال: عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إلاّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

لقد جاء هذا الإنْذَارُ موجزاً مقتضباً، لأنه كان في أَوَائِل مراحل الدَّعْوَة، ونظيره المقتضبات التي جاءت في «العلق» و«المدثر» و«المزّمل».

وهذه الإنذارات جاءت لقلّةٍ من المكذّبين، هم أئمة الضَّلال والتضليل، مع الإشعار بتقليل عددهم، وانفراد كلٍّ منهم بالتصدّي لدعوة الحقّ الرَّبّانيّة، فالإنذارُ يُوجَّهُ لَهُ بوصْفِه فرداً، لا بوصفه واحداً من فئةٍ مجتمعةٍ مُترابطة، متكافلة متضامنة.

وهذا من روائع الأساليب الحكيمة في التربية، لكي يَجِدَ أنْصَارُهُ مهرباً عنه، ما دام الإنْذار موجّهاً له، وليقَع في حِسِّهم أَنَّهُمْ إذا لم يلْتفُّوا حوله وينْصُرُوه فإنّهم سيظلُّونَ خارج قَوْسِ الإنذار، حتَّىٰ يعملوا مثْلَ عَمَله، أَوْ يكونُوا من أتباعه وأنصاره.

وانتهى الدرس الأول من دروس السّورة.

❀ ❀ ❀

## (٥)
## التدبّر التحليلي للدرس الثاني
## الآيات من (١٧ ـ ٣٣)

قال اللَّهُ عزَّ وجَلّ:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ
عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ
حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾
وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ
أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ
﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

## درس مدني التنزيل:

هذا درسٌ مَدَنيٌّ أُضِيف إلى سورة (القلم) الّتِي هي من أوائل التنزيل المكيّ، للإشعَارِ بأنَّ مَا كانَ إنذاراً مِنْ قَبْلُ قَدْ تحقَّق بعضُهُ فيما بَعْدُ، ففي العهد المدنيّ من مسيرة دعوة الرَّسُولِ ﷺ، أخذت الهزائم تتلاحَقُ بمشركي مكّة، الّذين كانت لهم من قَبْلُ السّيادة، والسُّلْطان، وكانُوا يعامِلُون الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ بظُلْم وقَسْوَةٍ وعُدْوان، وكان لهم بين عرب الجزيرة أشرف منزلة وأعلى مكان، وكان فيهم الأثرياء وذَوُو الوجاهَةِ والصِّيت الحسَنِ بين قبائل العرب، فسَلَبَهُمُ اللَّهُ بنصْرِ رَسُولِه والمؤمنين به عِزَّهم ومجدهم، ومُعْظم مَا كان لهم به دَوْلَةٌ وسلطان، وتَحَوَّلَتْ أنظارُ قبائل العرب وغيرِ العرب إلى المدينة المنوّرة، حيثُ ظهَرَتْ دَوْلَةُ الإسلام الدّينيَّة، بقيادةِ مُحمَّدِ بْنِ عبد اللَّهِ الذي كان بين قومه وعشيرته في مكَّة مضطهداً ينالُه الأذى من أقوالهم وأعمالهم هو والذين آمنوا معه.

فجاءت عظة الواقع تطبيقاً للإنذار السّابق، فكان من المناسب إنزالُ قصّة هذا الدّرسِ التاريخيّة، المشابهة لحال كُفَّارِ مكَّة بين العهدين المكيّ والمدنيّ للرسول محمّد ﷺ، وإضافة هذا الدرس إلى سورة (القلم) الَّتي أُنزِلَ معظمها أيَّام كانَ كُفَّارُ مَكَّةَ في أَوْجِ مَجْدِهم وعزِّهِمْ وسلطانهم، والفَرقُ بين تاريخي تنزيلهما عشْرٌ وبضْعُ سنين، لكِنَّ كِتَابَ التربية والموعِظَةِ الرَّبّانيّة، كتابٌ لكلّ النّاس على تعاقب العصور، فإذا اقتضَتْ حالُ المُعَالَجين في مرحلة من مراحل تنزيل القرآن عَدَمَ إنزال دَرْسٍ من الدُّرُوس أخَّرَ اللَّهُ تنزيله، حتَّىٰ إذا اقتضت الحكمة تنزيلَهُ أنزلَهُ اللّه، وضمَّهُ إلى مكانه الملائم من تنزيل سابق، وفي الصيغة النهائيَّة الدائمة يُراعَىٰ تكامُل أداء النَّصّ للهدَف العامّ منه.

وقصّة هذا المثل المشابهةِ لحال كفّار مكة بين الماضي إبّان أوائل بعثة الرّسول ﷺ، وبين ما صاروا إليه إبّان نزول هذا المثل، أنّ إخوةً من أَهْلِ

الكتاب وَرِثوا من أَبيهم بُسْتَاناً (جَنَّةً) وقَدْ كانَ أبوهم رجلاً يؤدّي حقَّ الفقراء والمساكين من ثمرات بستانه، ويسير فيه سيرةً حسنة، فكانَ ما يجمع من ثمرات بستانه يَقْسِمُهُ إلى ثلاثة أقسام:

- فيأخذ ما يحتاجه البستان للسنة القادمة فيجعله قسماً، ويعزلُه ليَرُدَّهُ فيه.
- ويدّخِرُ لعياله قوت سنتهم، وهذا هو القسم الثاني.
- ويتصَدَّقُ بما فضل عن القسمين السابقين على الفقراء والمساكين، وهذا هو القسم الثالث.

فلمّا مات هذا الرَّجُل وورثه بنوه شحّت نفوسهم عن إعطاء الفقراء والمساكين حقوقهم، وقام بينهم جدَلٌ إذْ كان أَوْسَطُهم حريصاً على أن يتَّبعَ سِيرة أبيه، لكِنَّ إخوته لم يوافقوه، فسايرهم واتَّفقُوا علَىٰ أن يقطَعُوا ثمراتِ جنتهم في الصباح الباكر، دون أن يشعُرَ بهم المستحقون من المساكين، فيأتوهُمْ على عادة أبيهم.

وعَلِمَ اللَّهُ ما اتَّفقُوا عليه، فأهْلَكَ ثمراتِ جَنَّتِهم ليلاً إهلاكاً شاملاً.

وخَرَج الإخوة مع طلوع الفجر، وقبل أن يَمْتَد النُّور، متسلّلين يتهامسون لئلا يشْعُرَ بهم المساكين، فلمّا وَصَلُوا إلى جنَّتِهم رأَوْها خاويةً على عروشها، قد تلفت ثمراتُها برِجزٍ من السماء، فندموا على ما كان منهم، واعترفوا لربِّهم بذنبهم، وصاروا يتلاومون فيما بينهم، وتابوا إلى اللَّه، وسألُوه أن يُبْدِلَهُمْ خيراً من جنتهم وثمَرَاتِهِمُ الَّتي أتلفها اللَّهُ لهم.

## التدبّر التحليليّ للنصّ:

قول الله عزّ وجل:

- ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

● ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾: أي: إنّا اخْتَبَرْنَاهم وامتحَنَّاهم، والضمير يعود على المتحدَّث عنهم في السورة وهم كُبَراءُ كفَّارِ مكّة وأهل السيادة فيها. تقول لغة: بلاهُ يَبْلُوهُ بلاءً، أي: اختبره وامتحنه.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم ﴿إِنَّا﴾ للإشعار بعزّة اللّه وقدرته وحكمته وعظمته، فهو بمقتضاها يبلو ويجزي، فتربو المهابة منه.

● ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: كما امتحنَّا واخْتَبَرْنَا أَصْحَابَ الجنَّةِ الذين نذكر فيما يلي ما يتعلَّقُ به غَرَضُنَا من قِصَّتهم، و(أَلْ) في «الجنَّةِ» تشير إلى جنَّةٍ معهودة يعرفها مؤرخو أهل الكتاب، أو الجنة الكاملة في إعداد ما يلزم لها، فالتعريف للكمالِ.

أمَّا ذِكْرُ أسمائهم ومَوْطِنِ إقامَتِهِم وتاريخ وُجودِهِمْ فليس ممَّا يتعلَّقُ به غرض تَرْبويٍّ قرآنيّ، فلَمْ يُوَجِّهْ له النصُّ عنايةً ما.

● ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.

«**إِذْ**» هنا ظَرْفٌ للزّمَن الماضي، وهو مضاف إلى الجملة الفعليّة (أَقْسَمُوا) ولست أرى أن «إِذْ» ظرف لفعل (بَلَوْنَا) إذ الابتلاء لم يكن خاصّاً بوقت قَسَمِهم، بل كانَ منذُ ورثوا الجنة، فنقدر فعلَ: «اذكر» أي ضَعْ في ذاكرتِك.

«**أَقْسَمُوا**» حَلَفُوا. يقال لغة: أَقْسَمَ إقْسَاماً ومُقْسَماً، أي: حَلَف. ويقالُ: أقْسَمَ باللّهِ، أي: حَلَف بِهِ فَهُوَ مُقْسِمٌ.

«**لَيَصْرِمُنَّها**» أي: لِيَقْطَعُنَّها، تقول لغة: صَرَمَهُ يَصْرِمُهُ، أي: قطعه، وصَرَمَ النَّخْلَ والشَّجَر جزَّهُمَا.

«**مُصْبِحِينَ**» أي: داخِلين في الصباح. يقال لغة: أَصْبَحَ يُصْبِحُ، أي: دخل في الصَّباح. **الصَّباحُ**: هو أوَّل النَّهار.

● ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾: أَصْلُ الاسْتِثْنَاءِ إخراجُ شَيْءٍ أَوْ حِصَّةٍ أو مقدارٍ مَا من جُمْلَةٍ مقدارٍ عامّ يشمَلُ المسْتَثْنَىٰ والْبَاقِيَ بَعْدَ الاستثناء.

أي: أقسموا لَيَصْرِمُنَّ ثَمراتِ جنَّتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ فقط، وأَقْسَمُوا لاَ يَسْتَثْنُون من ثمراتِ جنَّتهم شيئاً للفقراء والمساكين.

ففِعْلُ: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ معطوفٌ فيما أرى على فعل: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ فَهُو داخل في الْمُقْسَمِ عليه أي: أَقْسَمُوا على أَمْرَيْن: ١ ـ لَيَصْرِمُنَّها لأنفسهم، ٢ ـ ولا يَسْتَثْنُون شيئاً للفقراء والمساكين.

وهذا أولى فيما أَرَىٰ ممَا سبقت إليه أَذْهانُ المفسرين، من اعتبار: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ جملةً مُسْتَأْنَفَةً، أو جملةً حاليَّةً جاءتْ مُقْتَرِنة بواو الحال على خلاف القاعدة الّتي تقتضي عدَمَ دخول واو الحال على المضارع المنفي بـ«لا» أو بـ«ما».

فالمعنى: إنَّا بعظمة الرّبوبيّة القادرة العليمة الحكيمة وسائرِ خصائصها الجليلة، بَلَوْنا كُبَرَاءَ مُشْرِكي مكَّةَ وأَتْبَاعَهم، كما بَلَوْنا مُمْتَحِنينَ أَصْحابَ الجنّة، إذْ وَرَّثْنَاهُمُ من أبيهم جَنَّةً حسَنَةَ العطاءِ من ثمر، فخالَفُوا سيرَةَ أبيهم، فعزموا على أَنْ يَحْرِمُوا الفقراء والمساكين حقَّهم، إذْ أقْسَمُوا ليلاً لتأكيد ما عزمُوا علَيه: لَيَقْطَعُنَّ ثمراتِ جنَّتِهم متَىٰ دخلوا في الصَّباحِ أوّلِ النهار، وأقْسَمُوا لتأكيد ما عَزَمُوا عليه: لاَ يسْتَثْنُون من ثمراتِ جَنَّتِهم شيئاً لذوي الحقوق من الفقراء والمساكين، بل سيأْخُذون كلَّ الثمرات لأنفسهم، دُونَ أنْ يُؤَدُّوا ما فرض اللّٰه في أموالهم.

● قول اللّٰه عزّ وجلّ:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾: أي: فدار عليها مُحِيطاً بها، وَمُطَوّقاً لها، دون جاراتِها من الجنَّاتِ والبساتين والمزارع.

يقال لغة: طَافَ عليه يطوفُ، إذا دار وحَامَ حولَهُ، يخُصُّه بهذا الدوران.

﴿طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: طائفٌ يَدُورُ حَوْلَ جنَّتِهِمْ مُرْسَلٌ من أَمْرِ رَبِّكَ، أيُّها الإنسانُ المتَلَقِّي لهذا الخبر أيًّا كُنْتَ.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾: أي: وأصْحَابُ الجنَّةِ نائمونَ ليلاً، بعد أنِ اطمأنُوا لتحقيق مَا عَزَمُوا عليه مُصْبِحين، وهذه الجملة حاليَّة، والعامِلُ فيها فعل: (طاف).

وهذا الطائف هو نوْعٌ من الرِّجْزِ الْمُهْلِك المتلف، كريح باردة أتلفت الزرع، أو عاصفة أو نحو ذلك.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾: قال الجوهري: **الصريم**: المجذوذ المقطوع، وأصبحَتْ كالصَّريم، أي: احترقت، واسْوَدَّتْ.

وظاهر اللَّفظ يفيد أن ثمارها قد تلفت فصارت كجنَّةٍ مصرومة مقطوعة الثمار، قد ذهبَ كلُّ ثَمَرِها، على معنىٰ أنَّ الصَّريم هو الذي جُذَّت ثماره.

وجاء من معاني الصَّريم في اللُّغة: القطعةُ المنقطعة من معظم الرَّمْل، وعلى هذا المعنىٰ تكونُ هذه الجنَّةُ الَّتِي طافَ عليها طائف من رَبِّك قد أُهلِكَتْ مِنْ جذورها وأصبحَتْ رماداً، وصارَتْ أرْضُها كقطعة منقطعة من الرَّمْل، وحولها البساتين والمزارع قائمة.

وهذا المعنى يلائمه قولهم فيما بَعْدَ توْبَتِهم في دعائهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

- قول الله عزّ وجل:

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾: أي: نادىٰ بعضُهم بَعْضاً حالة كَونِهِمْ داخلين في الصباح، بَعْدَ أَنْ أقسَمُوا لَيْلاً لَيَصْرِمُنَّ ثمراتِ جنَّتِهِم مصبحين.

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾: «اغْدُوا» فعل أَمْرٍ وفاعله، مِنْ «غَدا يَغْدُو غُدُوّاً» أي: ذهب إلى ما يُريد من عَمَلٍ في وقْتِ الْغُدْوَة. **الْغُدْوَة، والغَدَاةُ**: ما بين الْفَجْرِ وطُلُوعِ الشَّمْس، وتُجْمَع **الْغَداةُ** على «غَدَوَاتٍ» وتُجْمَعُ الْغُدْوَةُ على **غُداً وغُدُوّ**.

﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾: الْحَرْثُ: الزَّرْعُ المزْرُوعُ الذي أنبته اللَّه، واستعمل حرف «على» للدلالة على شعورهم بأنهم متمكنون من السيطرة اليوم على صَرْم ثمرات جنتهم دون أن يشاركهم فيها أحد.

﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾: أي: إنْ كُنتُمْ عازِمِينَ الْيَوْمَ على قَطْعِ ثمراتِ جنَّتِكُمْ، وَمَنْعِ المساكِينَ من النّصِيب الذي كانَ أبوكُمْ يؤدِّيه لهم.

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾: **الانطلاق**: الذهاب بسُرعة، يقال: أطلَقَهُ فانْطلق، وأصْل الإطلاق التحرير من القيد، ومن عادة الْمُقَيَّد إذا أُطْلِق من قَيْدِهِ أَنْ ينطَلِق مُسْرِعاً شَطْرَ الجهة الّتي يُرِيدُ الذَّهاب إليها، ومنه انطلاق الخيل في السّباق.

**والتَّخافُت**: التحادُثُ بصَوْتٍ منخفضٍ، يقال: تخافَتَ القومُ، إذا تسَارُّوا بِحَدِيثهم، ويُقال: خَافَتَ بِصَوْتِهِ، أي: خفَضَه حتَّىٰ لا يَسْمَعَهُ إلاّ مَنْ هو بجواره.

والمعنى: فأسْرَعُوا فِي الْغَدَاةِ يتحادثون فيما بينهم بصوتٍ منخفض، حتّى لا يشْعُر بِهم أَحَدٌ من أهْلِ قريتهم.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾: أي: يقول بعضهم لبعضٍ في تَخافُتِهِمْ في حَدِيثهم ما تفسيره: لا يَدْخُلَنَّ جنَّتَكُمُ اليوم عليكم مِسْكِينٌ، لئلاّ يطالِبكُمْ بنصيبه من الّذِي كانَ يبذُله أبوكم للفقراء والمساكين.

«أن» تفسيريَّة، لأنها جاءت بعد فعل «يتخافتون» الذي فيه معنى القول دون حُروفه، والجملة بعدها لا محلّ لها من الإعراب.

أي: صاروا يتحادثون بصوتٍ منخفض، وينهىٰ بعضهم بعضاً عن السّماح لأحَدٍ من المساكين أن يَدْخُلَ اليوم علَيْهِمْ جنَّتَهم، ليستأثِروا لأنفسهم بكلّ ثمراتِ جنَّتِهِمْ.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)﴾.

﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ يأتي «**الْحَرْدُ**» في اللّغة بمعنىٰ: «الْقَصْد» يقال لُغَةً: حَرَدَهُ يَحْرِدُهُ حَرْداً، إذا قَصَدَه. ويأتي «**الْحرد**» بمَعْنَىٰ: «الْغَضَب والْحَنَق»، ويأتي بمعنىٰ: «الانفرادِ والانعزال».

وأستَبْعِدُ هنا معنَىٰ الغَضَب والْحنَق، لأنَّهم يَعْلَمُون من أنفسهم أنّهم منطلقون ليمنعوا حقّ الفقراء والمساكين، فالنصُّ يدُلُّ على أنَّهُمْ عصاةٌ لاَ كُفَّار، ومانع الحقّ لا يكون غضوباً حَنِقاً، بل هو بمثابة اللّصّ الخائفِ المسْتَخْفِي.

فبقي معنى القصد، ومعنَىٰ الانعزال.

**أمّا الْقَصْدُ**: فهو مُلائِم لاتّفاقِهِم على أنْ لا يَدْخُلَ جنَّتَهُم اليوم عليهم مسكين، وفائدة ذِكْرِه مع أنّه مَدْلُولٌ عليه فيما سبَقَ، تَأْكِيدُ أنَّ قَصْدَهُمْ اسْتَمَرَّ مُصَاحباً لَهُمْ لَمْ يَتَحَوَّلْ ولم يتغيّرْ حتَّىٰ وصَلُوا إلَىٰ جَنَّتِهِم.

**وأمّا الانعِزَال**: فهو وصْفٌ أبَانَ أَنَّهم اسْتَطَاعوا أن يَقْطَعُوا الطريق إلى جنَّتِهِمْ دون أن يَشْعُرَ بهم أَحَدٌ.

فالمعنى: وَسَارُوا طَرِيقَهُمْ في الغداةِ بَعْدَ انطِلاَقِهِم بِسُرْعَةٍ من قَرْيَتِهِمْ مُجْمِعِينَ على قَصْدِهِمْ الّذِي قَصَدُوه، غير مختلفين، وشاعرين بأَنَّهُمْ قادِونَ

على تَحْقيقه، ومنعزلين لم يَشعُرْ بهم أحدٌ، فَتُحْمَلُ كَلِمَةُ: «حَرْدٍ» على المعنيين القصد والانعزال.

فعل: ﴿وَغَدَوْا﴾ معطوفٌ على فِعْلِ: ﴿فَانطَلَقُوا﴾ إذْ فِعْلُ ﴿فَانطَلَقُوا﴾ أبانَ حَرَكَتَهُمْ عِنْدَ الْخُرُوج من قريتهم، وفعل: ﴿وَغَدَوْا﴾ أَبَانَ حَرَكَةَ مَسِيرِهِمْ بَعْدَ الانْطِلَاقِ حتَّىٰ وصَلُوا إلَىٰ جنتِهِمْ، فلا داعي لجعل جملة: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ حالية.

**عَلَىٰ حَرْدٍ**: متعلّق بمحذوف حال.

**قادرين**: حالٌ ثانية، أي: شاعرين بأنهم قادرون على تحقيق قَصْدِهِمْ.

● قول اللّهِ عزَّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: فلَمَّا رأَوْا جَنَّتَهُمْ هالِكَةً قَدْ أتلفَهَا اللّهُ عقوبةً لهم على قَصْدِهِم الجازم أَنْ يمنَعُوا ما فَرَضَ الله فيها للفقراء والمساكين، أَدْرَكُوا أَنَّهُمْ كَانُوا مُذْنِبين عصاةً، وهذا نوعٌ من الضلال عن صراط الله المستقيم، فقالُوا: إنَّا لضَالُّونَ.

**الضلال**: ضِدُّ الْهُدَىٰ والرَّشادِ، فالضلالُ بالابتعاد عن الإيمان الواجب يُوقع بالكُفر، والضلالُ بالابتعاد عن طاعةِ الله في الواجبات أو المحرَّمات العمليّة السُّلُوكيّة يُوقِع بالمعصية، من الكبائر إذا كانت من الكبائر، ومن الصغائر إذا كانت من الصغائر. والضلال بالابتعاد عن المعرفة الصحيحة يُوقِع في الجهل.

وهؤلاء أصحابُ الجنَّة قد ضلُّوا بالابتعاد عمَّا فَرضَ اللّهُ عليهم في ثمراتِ جنّتِهم، فوقَعُوا بكبيرةِ مَنعِ زكاةِ ما أخرجَ اللّهُ لهم من الأرض، ولمَّا

عاقَبَهُمُ الله بإهْلاَكِ بُسْتَانهم، اعْتَرَفُوا بذنبهم، وضلالهم بارتكاب كبيرة من كبائر الإثم، فقالُوا: إنَّا لَضالُّون، مؤكِّدين نسبة الضلال إلى سُلوكهم بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاَّم المزحلقة» وهذا منهم مبالغةٌ في الاعتراف بذنبهم لربّهم، وإشعارٌ بأنّهم لا يشُكّون في وقوعهم بالإثم الذي استحقّوا عليه العقاب.

ويرى بعض المفسّرين أنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ معناهُ إنّنا ضَلَلْنَا طَرِيقَ جَنّتِنَا، ولَيْسَ هذا مكانَها، وهذا المعنىٰ يتلاءم مع قولهم عقبه: بل نَحْنُ مَحْرُومون، أيّ: معاقبون بالحرمان من كلِّ جنّتِنا.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: بل لَسْنَا مُجَرَّدَ ضَالّين بمعصية الله في العزم على مَنْع زكاة ثمراتِ جَنَّتِنَا، بَلْ نَحْنُ معاقبون من قِبَلِ اللّهِ بالْحِرْمَان من كلِّ جنَّتِنَا، إذْ أَتْلَفَهَا وأهْلَكَها اللّهُ عقاباً لنا، فالضَّالُّ بالمعصية قَدْ لا يُعَجِّلُ اللّهُ لَهُ العقوبة إمْهالاً لَهُ، ليتوب إلى رَبّه، لكنَّ الله عزّ وجلّ قد عجَّلَ بعقوبتهم فَهُمْ مُعَاقبون بالحرمان من كُلِّ رزقهم، فَهُمْ مَحْرُومون، وتعجيل العقوبة قد يكون من نعمة الله على عبده ليتذكر ويتعظ.

المَحْرُومُ في اللُّغَةِ: ضِدُّ المرزوق، يُقالُ لواجِدِ رزقه: مرزوق، ويقالُ للّذِي لا يَجِدُ رِزْقَه: مَحْرُوم. والمحرومُ هُو الممنُوعُ من العطاء.

لَقَدْ تزاحَمَتْ لَدَيْهِمْ معاني الحرمانِ، معنى العقوبة بالحرمان، ومعنى المنع من العطاء، ومعنى كونِهِمْ مَحْرُومِين فقراءَ غَيْرَ مَرْزُوقين، فجاء التعبير عنها جميعاً بعبارة: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وهذا من بديع الإيجاز في القرآن.

● ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾: أي: قالَ أعْقَلُهُمْ وأَفْضَلُهُمْ وأقْرَبُهُمْ إلَىٰ الْخير، ذكر المفسرون أنهم ثلاثة أخوة، وصاحبُ هذا القولِ أعْدَلُهُمْ.

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾: أي: أمَا حَصَلَ مِنّي أَنّي قُلْتُ لَكُمْ فيما سَبَق: لاَ

تُغَيِّرُوا سِيرةَ أبيكم، فَلا تَمْنَعُوا حَقَّ الْفُقَراء والْمَسَاكِين. وقَدْ حُذِفَ مَقُولُ الْقَوْلِ لإمكان الاسْتِدْلالِ عليه من جُمْلَةِ النّص، ومن كَوْنِ القائلِ أوْسطَهُمْ، فالأَعْقَلُ الأَفْضَلُ الأَعْدَلُ لا بُدَّ أن يَنْصَح بالتزام طاعة الله، واجتنابِ معصيته.

﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾: «لَوْلا» حَرْفُ تَحْضِيضٍ بمَعْنَىٰ «هَلَّا». «تُسَبِّحُونَ»: أي: تُنَزِّهُونَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ عَنْ تَصَوُّرِ أَنَّهُ حَرَمَكُمْ دُون أَنْ تَرْتَكِبُوا إثْماً.

ونُلَاحِظُ أَنَّ أَوْسَطَهُمْ لَمْ يَتَوَقَّفْ كثيراً عند تذكيرهم بما كان قالَهُ لهم سابقاً، لأنّه استجابَ لرغبتهم فوافقهم، وعزَمَ على ما عَزموا عليه. بل انْتَقل بسُرْعَةٍ إلى حضهم على أَنْ يسَبِّحُوا رَبَّهم، مُعَلِنين اعترافهم بأنّهم كانوا ظالمين، وهذا الاعترافُ يُشْعِرُ بتَوْبَتِهم.

• ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أَيْ: فاستجاب الأَخْوانِ لتَحْضِيض أوسَطِهم، فقالوا جميعاً سُبْحانَ رَبِّنا، أي: نُنَزِّهُ رَبَّنَا عَنْ حِرْمَانِنَا من حَقٍّ هُوَ لَنَا، بَلْ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُعَاقِبَنَا، لأَنَّنا كُنَّا ظالِمِينَ بعَزْمِنَا عَلَىٰ حِرْمَانِ الفقراء والمساكين حَقَّهُمُ الذي فرضه اللَّهُ في ثَمَرَاتِ جنَّتِنا الَّتِي ورثناها من أبينا.

والظلْمُ هُنَا هو عزمُهُم على أكل حقوق ذوي الحقوق، وهو حقُّ الزكاة، وقد كانت الزكاة مفروضةً على أهْلِ الكتاب، بدليل قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن إسحاقَ ويعقوب عليهما السلام في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وعَقِبَ اعْتِرَافِهِمْ بذَنْبِهِمْ وتوبتهم صَارُوا يتلاومُون فيما بينهم، فقال تَعَالَىٰ:

● ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

**يتلاومُون:** أي: يلومُ بعضُهم بَعْضاً.

**يا وَيلَنا:** الويلُ في اللّغة يأتي بمعنَىٰ الْحُزنِ، والْهلاَكِ، والمشقة مِنَ العذاب. قال ابنُ سيِدَه: «وَيلٌ كَلِمةُ عذاب». والويلَةُ: البَليّة والفضيحة. وفي النُّدْبة يقول القائل المفرد: يا وَيْلَتا، يا وَيْلَتَاهُ، وَاوَيْلَتَاهُ، ويَقُولُ الجماعَة: يَا وَيْلَنا. تعبيراً عن الْحُزن والألَم ممّا نَزَلَ مِنْ مُصاب.

**إنَّا كُنَّا طَاغِين:** الطُّغْيان تجاوز الحدّ في الظُّلم، وهذا اعترافٌ منهم بعزمهم على ارتكاب ظلم عظيم.

**عَسَىٰ رَبُّنا:** عبارة تَرَجٍّ ودعاءٍ لِلَّهِ عزّ وجلّ.

**أَنْ يُبْدِلَنا:** فيها كما سَبَقَ قراءتان: ﴿أَن يُبْدِلَنَا﴾ مِنْ فِعْلِ «أَبْدَلَ» المهموز و (أَن يُبَدِّلَنا) مِنْ فعل «بَدَّل» المضعَّف، والهَمْزُ أخو التضعيف عند علماء العربيّة، فالقراءتان متطابقتان متكافئتان.

**خَيراً مِنها:** أي: أفضل من جنَّتِنا الْمُهْلَكَة، وهذا مِنهُمْ حُسْنُ ظَنٍّ باللَّهِ بسَبَبِ صِدْقِ تَوْبتهم إلى بارئهم، واستغفارهم، وعزمِهِمْ على أَنْ لا يَعُودُوا إلى ارتكاب مثل الذنب الذي عاقبهم الله عليه.

**إنَّا إِلَىٰ رَبِّنا رَاغِبُونَ:** أي: إنَّا إلى رَبِّنا مبتَهِلُونَ متضَرِّعُونَ طالبون. يقال لغة: رَغِبَ إليه، أي: ابتهَلَ وتضَرَّعَ وطلب، ورَغِبَ إليه في كذا، أي: سَأَلَهُ إيّاه.

إنّ المؤمنين الّذين يشتركون في إثْم كبيرٍ يَكُونُ حالُهُمْ قَبْلَ ارْتِكابه مُتَرَدِّداً بَيْنَ الرَّغَبِ والرَّهَبِ، بَيْنَ الإقْدام والإحْجَام، وفي مَوْجَةِ الإحجام العارضَةِ الّتي يَتعرَّضُ لَهَا كُلُّ مِنهُمْ تَصْدُرُ عَنْهُ كَلِمَاتٌ تُشْعِرُ بخَوْفِهِ من ارتكاب المعصية،

وبتحذيرِ إخوانِه من الوقوعِ فيها، لكنَّهُ لاَ يَثْبُتُ عند هذه العارضة، بَل تطْغَىٰ علىٰ نفسه شَهْوتُه أوْ مَطامِعُه، فَتُطَوِّعُ لَهُ نفسُه ارتكابَ المعصية.

فإذا نَزَلَتْ بهم العقوبة تذكَّرَ كُلٌّ مِنهُمْ عوارضَ إحجامه ونُصْحِه، ومَواقِفَ إقدامِ إخوانه وما كان منهم من تشجيعٍ على ارْتكاب المعصية، فيقولُ لهم: أمَا قُلْتُ لكُمْ كذا وكذا، لكنَّكُمْ أنتم الّذين أضْرَرْتم، ويَدْفَعُ كُلٌّ منهم عن نفسه الملامَةَ بمقالة سبَقَ أَنْ قالَها عِنْد التشاور، والواقِعُ أَنَّهم كانُوا جميعاً آثمين بعد أن عَزَمُوا جميعاً على معصيتهم، فكُلٌّ واحدٍ منهم آثِمٌ ومَلُوم.

وبَعْدَ التلاوُم يظْهَرُ لَهُمْ أنّهم كانوا جميعاً آثمين، فينادُونَ على أنفسهم بالعذاب، ويعترفون بأنّهم كانوا جميعاً متجاوزين حدَّ الحقّ والعدل، وكانوا ظالمين طاغين.

وبعد هذا الاعتراف يتوبونَ إلى ربّهم، ويَسْأَلُونَ اللّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، وَأَن يُعَوِّضَهُمْ خيراً ممّا خَسِرُوهُ بسبب ذُنُوبِهم.

هذا حال المؤمنين الذين يرتكبونَ بعض كبائر الإثم، فيعاقبهم الله بِحِكْمَتِه علَىٰ مَا كان منهم.

وقَدْ تَلَطَّفَ اللّهُ بأهل مَكّةَ إذْ شبَّهَ حالَهُمْ بحال أصحاب هذه القصة، لأنّهم كانوا يتوافدون على الإسلام بَعْدَ انتصار الرسول عليهم، وَدَخلوا في دين الله أفواجاً بَعْدَ فتح مكّة.

● قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

**كذلِكَ الْعَذَاب**: أي: مثل العذاب الّذي عذَّبه الله لأصْحَابِ الجنَّة يكُونُ عذَابُهُ الْمُعَجَّلُ للعصاةِ مُرْتَكِبي كبَائِرِ الإثم.

وهذا توجيهٌ لإدْراك العظاتِ من الوقائع والأحداث الّتي يجريها اللّهُ بعباده، ويَكْشِفُ بها سُنّتَه في الجزاء.

وعذابُ اللَّهِ في الدُّنيا دَلِيلٌ عَلَىٰ عذابه الكامل المطابق لمقتضياتِ عَدْلِهِ في الآخرة، وهو أكبر من عذاب الدُّنيا، فقال تعالى:

**ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ**: أي: أَكْبَرُ من عذاب الدُّنيا، لأَنَّهُ عذابٌ مطابقٌ لمقتضياتِ الْعَدْلِ الرَّبَّاني.

**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون**: أي: لو كَانَ الْعُصاة والمذنبون والكَفَرَةُ، يَعْلَمُونَ كَمالَ صِفَاتِ اللَّهِ، ومِنْهَا حِكْمَتُهُ وعَدْلُهُ وَتَدَابِيرُهُ فِي خِطَّةِ الْوُجودِ، وَمَا أَعَدَّ في الدَّار الآخِرَة مِنْ حِسَابٍ وفَصْلِ قَضاءٍ وَجَزَاءٍ بالْعَدْلِ، لَعَلِمُوا أَنَّ عَذَابَ الآخِرَة أَكْبَرُ مِنْ عَذَابِ الدُّنيا، فارْتَدَعُوا وَتَابُوا إلى بارئهم، واسْتَقَامُوا على الصِّراط الذي أبانَهُ ودعا إليه، في الدِّين الذي اصطَفَاهُ لعباده، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

وفي عرض هذا المثل التاريخي الذي شبه الله عزّ وجلّ به حال كفّار مكة إشعارٌ ضمنيٌّ بأن كفرهم لم يبلغ بمجموعه العامّ إلى مثل الكفر الذي بلغه كُفْر كفّار القرون الأولى، الذين أهلكهم الله جلّ جلاله إهلاكاً شاملاً كعاد وثمود، لذلك لم يستحقوا إهلاكاً شاملاً، بل عُوقبوا بما هو دونه، والواقع دلّ على أنّ فتح مكة قد كان سبباً لتحوّلهم إلى الإيمان واتّباع الرسول ﷺ.

**وانتهى الدرس الثاني من دروس السورة**

❁ ❁ ❁

## (٦)
## التدبّر التحليلي للدرس الثالث

### الآيات من (٣٤ ـ ٤٧)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ

كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

**تمهيد:**

بعد الإلماح بإنذار كلّ المكذّبين، والتصريح بإنذار الفريق المستكبر العاتي المعاند، الذي سيكون من عقابه أنّه سَيُوسَمُ بِكَيَّاتٍ مِن نارٍ على أنفه المستكبر الذي يُشْبه خُرطوم الفيل والخنزير شبهاً معنويًا لاَ شَبَهاً حِسّيًا، اقتضت الحكْمَةُ بيان ثواب المؤمنين المتقين، فجاء في أوّل هذا الدرس الثالث قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل:

- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾.

جاء هذا الوعد مؤكّداً بـ «إنَّ ـ وبالجملة الاسمية» مراعاة لحال المنكرين أو الشاكين، وطمأنةً لقلوب المؤمنين.

**للمتَّقِين**: المتقون جمع المتّقِي، وهو الذي وضع بينه وبين عقوبات الله وِقاية، والوقاية إنّما تكونُ بالإيمان الصحيح والعمل الصالح ابتغاء مرضاة الله.

**عِنْدَ رَبِّهِمْ**: أي: عنْدَ فضْلِه على عباده يَوْم الدين، في الحياة الأخرى.

**جَنَّاتِ النّعيم**: جاء التعبير هنا بلفظ الجمع «جَنّات» إشارةً إلى أقسام الجنّة وَمَنَازِلِ أهْلِها فيها، فهي بجملَتِهَا العامّة «جنّة» واحدةٌ كبرى، وهي بأقسامِهَا وأجزائها جنّاتٌ يَصْلُحُ كُلُّ قِسْمٍ مِنْها لأن يُطْلَقَ عليه لفظ جنّةٍ.

واختار الله لما في الجنَّةِ يوم الدِّين من مُسْعِداتٍ لأصحابِهَا لفظ النعيم. أمَّا لذّاتُ الحياة الدنيا ومُسْعِداتُها مَهمَا بلَغَتْ فقد أطْلَقَ اللّهُ عزَّ وجلّ عليها لفظ «مَتَاع» لما فيها من انتفاعٍ مؤقّت يعقبه الزوال، فلا خلود لها، بخلاف نعيم الجنَّة فهو خالدٌ مقيم.

قال الأزهري: فأمَّا المتاعُ في الأصل فكلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِه، ويَتَبَلَّغُ به، ويُتَزَوَّدُ، والفناء يأتي عليه في الدنيا.

وبعد تقديم هذا الوعْدِ العظيم للمتقين، قَدَّم هذا الدرسُ من دروس السورة الدّليلَ العقليّ الذي يوجب أن يكون في خطَّةِ الوجود بعْدَ امتحان الناس في ظروف الحياة الدُّنيا، يَوْمٌ يُحَاسَبُ الناسُ فيه على ما سَلَفَ من أعمالهم في الحياة الدنيا.

ويُفْصَلُ القضاءُ بشأنهم، ثُمَّ يجازَوْن، بالعدل، أو بالفضل.

وذلك بمقتضىٰ كون الله عزّ وجلّ حكيماً، فالحكمة تقتضي ذلك، وإلاّ كان هذا الخلْقُ عبثاً ومنافياً للعدل. والرّبُّ الخالق العليم القدير جلَّ جلاله الذي له كلّ صفات الكمال، والمنزَّهُ عن كلّ صفات النقصان، لا بُدَّ عقلاً أنْ يكون حكيماً، وأن يكون مُنَزَّهاً عن العبث، ومنزَّهاً عن أن تكون أعماله منافيةً للعدل، فقَدَّمَ الدَّليلَ البرهانيَّ بصيغةٍ أدبيّة رائعة.

فقال عزَّ وجَلَّ:

- ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟.

**المُجْرِم**: المتعدّي بذنب كبير. **والْجُرْم**: التعدّي، والذنب.

**مَا لَكُمْ؟**: أي: أيُّ شَيْءٍ هو لَكُمْ مِنْ حقّ أو فكْرٍ أو رأيٍ مقبول، يجعَلُكُمْ تحكُمونَ بأنَّهُ يُمْكِنُ أنْ يُسَوِّيَ الرَّبُّ الخالق الذي تَزْعُمون أنّكم تُؤمنونَ بوجوده، بين المسلمين المستسلمين المطيعين له، وبين العصاة المذنبين المجرمين؟

**كَيفَ تَحكُمُونَ؟**: أَيْ: حالُكُمْ يَنبغي أن يَتَعَجَّبَ منه المتعجبونَ ويستنكِرَهُ المستَنْكِرُون من أولي الألباب، فعَلَىٰ أيَّةِ كيفيَّةٍ تقبلُها العقول تحكُمُون بهذه التسوية، إذْ تُنْكِرُون الدِّينَ والجزاء في اليوم الآخر والحياة الأخرى، بعْدَ انتهاء ظروف هذه الحياة الدنيا.

كلٌّ من هٰذَين الاستفهامَيْن استفهامُ تعْجِيبيٌّ إنكاريٌّ واجه الله عزّ وجلّ به المكذّبين.

وهذا الأسلوب من الاستدلالِ هو من قبيل الاستدلال بنفي أحَدِ النقيضيْن لإثبات النقيض الآخر.

والمعنى: يا أيُّها المكذّبون بيوم الدين، إذا كنتم تُؤمِنُونَ حَقًّا بِرَبٍّ خالقٍ عَليم حكيم، فكيف تقبلُون في عقولكم أَنْ يكُونَ هذا الخالق الحكيم مُتَّصِفاً بالعبث ومنافاة العدل؟

إنَّه إذا لم يكن في خطّة الخلْقِ يوْمٌ آخر يُحَاسَبُ النّاسُ فيه، ويُجازَوْن علَىٰ أعْمَالهم في هٰذهِ الحياة الدُّنيا، مع وُجُودِ مُسْلِمين ومُجْرِمين فيها يتَصرَّفُونَ بإراداتِهِمُ الحرَّة الَّتي وهبَهُمُ اللَّهُ إيَّاها، فيَظْلِمُ مِنْهُمْ مَنْ يَظْلِمْ، ويَعْتَدِي مَنْ يَعْتَدِي، ويَكْفُرُ مَنْ يَكْفُرُ، ويُسْلِم مَنْ يُسْلِم، ويُحْسِنُ مَنْ يُحْسِنُ، ويَعْصِي من يَعْصِي، ويُطِيعُ مَنْ يُطِيعُ، ويَكُونُ فِيهِمْ مَظْلُومُونَ وظالمون، ومُصْلِحُون ومُفْسِدُون، فإنَّ خَلْقاً هٰذِه صِفَتُه تَعوزُهُ الْحِكْمَةُ، ويَلْزَمُ منه أَنْ يَكُونَ خَلْقاً عَبَثاً، أَوْ عَملاً عَشْوَائيًا، أَوْ عَمَلَ ظالِمٍ لاَ يَعْبأ بآلاَمِ مَنْ يَخْلُقُهم، فيُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ علَىٰ بَعْضٍ دونَ أَنْ يُتَابعَ مُجْرِمِيهِمْ بحساب ولا عقابٍ عادل، ودون أن يُتابع مسلميهم وصالحيهم بتكْرِيم وتفضيل وثوابٍ حسن.

تَعَالَىٰ الرَّبُّ الخالق العليم الحكيم العدْلُ البرُّ الرحيم عن ذلك علوّاً كبيراً.

إذن: فلا بُدَّ أن يكون في خطَّةِ خلْقِه يَوْمٌ آخَرُ، غيرُ يومِ هذه الحياة الدنيا، يُجْري الله فيه فضله فيمنحه محسنيهم ومسلميهم، ويجري فيه عدله على مسيئيهم ومجرميهم.

هذا هو مفتاح الدليل العقليّ الّذي دلَّ على يوم الدين، بعد الإيمان بربِّ العالمين، والإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى.

وهو ما تضمّنه قول اللَّهِ عزّ وجلّ في أوائل ما نزل من قرآن:

- ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

فاستثار الله عزّ وجلّ العقول، ونبّه المؤمنينَ بربوبيَّته على الدليل العقليّ الذي يهديهم إلى الإيمان بيوم الدين.

وأتبع الله هذا الدليلَ العقليّ المقنع بمناظرةٍ تَشْتَمِلُ على حصارٍ فِكْرِيّ، يُسْقِطُ كُلَّ احتِمالٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شُبْهَةً للمكذبين بيومِ الدّين، أو ذَرِيعةً تجعلُهم لاَ يخافون الآخرة وعقابَ اللَّهِ فيها على كفرهم، وتكذيبِ رسُولِ رَبِّهِمْ.

**الاحتمال الأول**: أن يتوهَّمُوا أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ خلقهم في هذه الحياة، وأبَاحَ لهم أنْ يَفْعَلُوا فيها كلَّ ما يتخيَّرُونَ لأنْفسِهم من خَيْرٍ وشرّ، وأعطاهُمُ القوىٰ، وسلَّطَهُمْ على ذواتهم يفعلُونَ بها ما يُرِيدُون، وعلى ما حولَهُمْ ومَنْ حَوْلهم من أشياءَ وأحياء، فللقَوِيّ منْهُمْ أَنْ يظْلِمَ الضعيفَ ويَقْهَرَهُ، ما استطاع ذَلِكَ، أو ما استطاع إليه سبيلاً أَوْ سبباً.

جاهلين أنَّ تمكينَهُمْ إنّما هو لامْتِحان إراداتهم في ظُرُوفِ هذه الحياة الدّنيا.

لَكِنَّ مِثْلَ هذه الإباحةِ على الرُّغْمِ من مُنافَاتِها لمقتضيات الحقّ والعدل، لا يُمْكِنُ أَنْ تُعْلَمَ إلاَّ عَنْ طَرِيق كتابِ ربّانيّ، وهذا الكتابُ قَدْ بَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ أَباح لهم ذلك، فأثبت فيه بنُصُوصٍ صريحةٍ واضحةٍ أنَّ لهم في الحياة كُلَّ مَا يتخيَّرُونَ من عَمَل.

لكِنَّ أيَّ كتابٍ رَبَّانِيٍّ صحيحٍ غَيْرِ محرّف لاَ يُوجَد فيه نصٌّ مِثْلُ هذا النصّ، فسقَطَ هذا الاحتمال الذي يمكن أن يتعلَّلَ به المكذّبون.

هٰذَا الجانبُ من جَوانبِ المحاصَرةِ في هذه المناظرة، قد دلَّ عليه قول اللَّهِ عزّ وجلّ لهم، في خطابٍ واجَهَهُمْ به:

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

(أَمْ) هذه «أم» المتصلة، وهي الَّتي لا يكون الكلامُ بها إلاَّ استفهاماً، وهي حَرْف عطف، والاستفهام المقدّر مع «أم» هنا استفهامٌ إنكاريٌّ.

والمعنى: أفنجعل المسلمين كالمجرمين، وهذا مرفوضٌ عقلاً، أَمْ لَكُمْ كتابٌ رَبَّانِيٌّ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَخَيَّرُونَ مِنْ عَمَلٍ، دون أن تكونُوا عرضة للمؤاخذة والعقاب على ما تُسيئون وتظلمون وتفسدون، وهذا غير موجود.

كُسِرَتْ «إِنَّ» مع أنَّهَا وقَعَتْ بعْدَ عامل لأنّه عُلِّقَ بلام الابتداء الّتي يسَمُّونها المزَحْلَقة.

**تخَيَّرُون**: أصْلَها تتخيَّرون، حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

**الاحتمال الثاني**: أنْ يَدَّعُوا أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ أعطاهُمْ عَهْداً عَلَىٰ نَفْسِه مُوَثَّقاً بأَيْمَانٍ بالِغَةٍ غَايَةَ التَّأْكِيدِ، ومُسْتَمِرَّةِ الأَثَرِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَة، إِذْ يُحَاسِبُ اللَّهُ عِبادَه ويَفْصِلُ قَضاءَه بينهم، مُقَرِّراً ما يُجَازِيهم به، وعِنْدَئذٍ تنتهي المسؤوليّةُ عن الأعمال في الحياة الدنيا.

وهٰذه الأيمان البالغة قد أعطاكم الله بها أَنْ تَحْكُموا لأنْفُسِكُمْ بِمَا تَشَاءُونَ مِنْ حُكْمٍ، فَأَنْتُمْ تَسْتَطِيعُونَ بمقتضىٰ هٰذَا التفويض الرَّبَّانِيّ أَنْ

تُسْقِطُوا عن أنفُسكم المؤاخذة على ما تقدّمون في الحياة الدنيا من شرٍّ وسوء عمل، وأنْ تمْنَحُوا أنفسَكُمْ السّعادة والنجاة والفلاح.

لَكِنَّ مِثْل هٰذِهِ الأيمانِ لاَ وُجُودَ لها، ولا أحد منكم يَسْتطيع أنْ يكون كَفِيلاً بها.

فسقط أيضاً هذا الاحتمال الثاني الذي يمكن أن يَتعلّل به المكذّبون.

دلّ على هذا الاحتمال وعلى إسقاطه قول الله عزّ وجلّ في المناظرةِ خطاباً للمكذّبين:

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

(أَمْ): هُنَا كسَابقتها. والاستفهام في العبارة استفهام إنكاري أيضاً.

﴿أَيْمَٰنٌ﴾: جمع «يَمِينٍ». **اليمين**: الْقَسَمُ.

﴿عَلَيْنَا﴾: أي: أَيمَانُ تُوجِبُ عَلَيْنَا، والمتحدّث هو اللّٰهُ عزّ وجل.

﴿بَٰلِغَةٌ﴾: أي: أيمان واصلة إلى غاية ما يُقَدَّمُ من تأكيد بالأيمان.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي: وهذه الأَيْمَانُ مُسْتَمِرَّةُ الأَثَرِ إِلَىٰ الْيَوْمِ الذي يُقَرَّرُ فيه قضاء الإدانَةِ والجزاء، وعندئذٍ تنتهي مُتَعَلَّقَاتِ المسؤوليّة عن الأعمال في رحلة الحياة الدنيا، وهذا اليوم هو يَوْمُ القيامة، وهو يوم الدّين.

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾: هذه جَوابُ الْقَسم، وفي جواب الْقَسم تُكْسَرُ همزة «إِنَّ».

والمعنى: هَلْ أقسمنا لكم أيماناً مغلّظةً، منحناكم بها أَنَّ لَكُمْ مَا تَحْكُمون به لأنفسِكُمْ يَوْمَ القيامة، إِذْ يكونُ الحسابُ وفَصْلُ القضاء وتنفيذ الجزاء؟!!.

إنّ مثلَ هٰذه الأيمان لا وُجود لَها، فليس لكم عُذْرٌ يأتي من قِبَلِ هذا الاحتمال.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

«زَعِيم»: تأتي في اللّغة بمعنىٰ «كفيل» وتَأْتي بمعنىٰ «رئيس»، ومعنىٰ «كفيل» هو المعنى الملائم هنا.

والمعنى: سَلْهُمْ يا مُحَمَّد، أو سلْهُمْ أيُّهَا المناظرُ لهم بمقتضىٰ هذا التعليم الجدليّ، أيُّهُمْ كَفِيلٌ «بأنّ لَهُمْ أيماناً عَلَيْنَا بالغةً إلى يَوْمِ الْقِيامة إنَّ لَهُمْ لَمَا يَحْكُمُونَ» يَكْفُلُ تَحْقِيقَ مقتَضَىٰ هٰذهِ الأيمان المدَّعَاة، أو كفيلٌ بإثباتِ وجودِها إذا ادّعَاها؟!

إنَّهُ لا أَحَدَ مِنهُمْ يستطيعُ أَنْ يكونَ زعيماً بذلك.

**الاحتمال الثالث:** أنْ يتوهَّمُوا أنَّ شركاءهم الذين يَعْبُدونهم من دُونِ الله، سَتَحْمِيهم من عقاب الله وعذابه وإقامَةِ عَدْلِهِ فيهم.

لَكِنَّ شركاءهم لا تسْتطيعُ ولَوْ شاءتْ أَنْ تقدّم لهم نفعاً، أَوْ تدفَعَ عنهم ضرّاً، في الحياة الدنيا، فكيْفَ تدفَعُ عنهم عقاب الرّبِّ الخالق الذي بيده ملكوتُ السماوات والأرْض؟! وكيْفَ تَحْمِيهِمْ من عقاب اللّهِ يَوْم الدين.

وهكذا يَسْقُطُ هذا الاحتمال الثالث أيضاً.

وقد دَلَّ على هذا الاحتمال، وعلى إسقاطه، من نصّ المناظرة التعليميَّة، قولُ الله عَزّ وجَلَّ فيه:

• ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

(أَمْ): نظير سابقتيها، والاستفهامُ في العبارة استفهامٌ إنكاري أيضاً.

﴿لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾: أي: من دُونِ اللَّهِ يَحْمُونَهُمْ من عذاب الله، ويحقّقُونَ لهم نجاتهم وَفَوْزَهُمْ وفلاَحَهُمْ يوم القيامة.

﴿فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾: في هذه العبارة تَحَدٍّ للمكذّبين، بأنْ يأتوا بما يُؤْمنُونَ بِأَنَّهُمْ شركاءُ للَّهِ يسْتَطيعُونَ أنْ ينْصُرُوهم، لنُصْرَتِهِمْ من عِقَاب الله إذَا شاء عقابَهُمْ في الدنيا، أو لصرف عقاب الله وعَذابه عنْهُمْ يَوْمَ الدّين، إنْ كانوا صادقين في ادّعاء أنّ لله شركاء في ربوبيّته.

لَكِنَّ شركاءهم لم يَنْصُرُوهم حينَ نصرَ الله رسولَهُ والمؤمنين عليهم، في المعارك الّتي جرَتْ بين الفريقين بعد هجرة الرسول ﷺ، وانتهت بفتح مكة.

أي: فإنْ كانوا صادقين في ادّعاء أنّ شركاءهم قادرون على حمايتهم، فلْيَأْتُوا بشركائهم لنصرتهم في الدّنيا، أو يَوْم القيامة.

لم تَنْتَه عناصر المناظرة المحاصِرَةِ بَعْدُ، ولَكِن اقتضت الحكمة التربويَّة أن يثير البيان أثناءها في نفوس المكذبين الخوف من عذاب الله يوم الدّين، الذي يَنْزِل بالمكذبينَ الذين أنهَوْا رحلة الحياة الدنيا وهم مُصِرُّون على كفرهم، فقال الله عزّ وجلّ:

● ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

في هذا عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّينِ، يَوْمِ الْحِسَاب وفَصْلِ القضاءِ وتنفيذ الجزاء.

وهُوَ مَشْهَدٌ اخْتِبَارِيٌّ كاشِفٌ، يُمَيّزُ مَنْ كَانُوا في الحياة الدُّنيا مؤمنين مُسْلمينَ قَدْ سَجدُوا لربّهم فيها، من الّذين كانوا كافرين مُكذّبين رَسُولَ رَبّهم، ومُكَذِّبين بما جاءهم به عنه، ولم يُعْزَلُوا من قَبْلُ باعترافاتهم، وهؤلاء أكثرهُم منافقون.

في هذا الاختبار يَكشِفُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَنْ سَاقِهِ ويُدْعَىٰ أَهْلُ الموقف للسجود، فيَسْجُد كُلُّ مُؤمِنٍ ومؤمنة، أمّا المنافقون فلا يستطيعون السُّجود لربّهم يومَئذٍ إذ يكون ظهر كلٍّ منهم طبقاً واحداً، لأنّهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا لربّهم، وإنما كانوا يسجدون نفاقاً ورياءً وسُمْعة، وكذلك من كانَ مجهول الهويَّة في الكفر قياساً على المنافقين.

ويظهر أَنَّ الغرضَ من هذا التمييزِ فَصْلُ المؤمنين عن المنافقين، ليُؤخذ المؤمنين إلىٰ جهة اليمين حيث يكون المصير إلى الجنة، وليُسَاقَ المنافقون إلى جهة الشمال حيث يكون المصير إلى النار.

وجاء عند البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدريّ من حديث طويل عن النبيّ ﷺ قال:

«يُنادِي مُنادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْم إلىٰ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فيَذْهَبُ أصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبهم، وأصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثانِهِمْ، وأصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّىٰ يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وفَاجِرٍ. . . . فيقال لهم: مَا يَحْبِسُكُمْ وقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ، فيقولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ. . . وإنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا».

قال: «فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ في صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْه فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؟ فلا يُكَلِّمُهُ إلاَّ الأَنْبِياءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَه؟ فَيَقُولُون: السَّاق، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كيْما يَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقاً واحداً. . . ».

لكن دَلَّ النصُّ هنا في سُورَةِ (القلم) على أنّ المكذبين من المشركين يُكْشَفُ لهم عن سَاقٍ، وأنَّهم يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ فلا يَسْتَطِيعون، كما جاء في الحديث بالنسبة إلى المنافقين، فينبغي الْجَمْعُ بين النَّصَّيْنِ لِعَدَم التعارض.

وجاء في حديثٍ عند ابْنِ جرير الطبري، أَنَّ النبيّ ﷺ قال:

«يَوْمَ يُكْشَفُ عن سَاقٍ يَعْنِي عن نُورٍ عظيم يخرّون له سُجّداً».

ورواه أيضاً أبو يعلَىٰ بسندٍ قال فيه ابن كثير: فيهِ رجلٌ مُبْهم.

والمعنى: فَلْيَأْتِ الْمُشْرِكُون بشركائهم، إنْ كانوا صادِقين في ادّعَاءِ أنّ لِلّهِ شُرَكاءَ تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَد، وتَسْتَطِيع أن تنصُرَ مَنْ يَعْبُدُونها، يَوْمَ الْقِيَامة لِينْصُرُوهم ويحموهم من عذاب الله، يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، وبيانُ هذه السَّاق جاء في الحديث الآنف الذكر، عند البخاريّ ومسلم عن أبي سعيدٍ الخدري، ولا داعي إلى تأويلات ذكَرَهَا المفسّرون، فالحديث صحيح صريح.

وجاء في الحديث أيضاً بيان عدم استطاعتهم أن يسجُدُوا للّهِ يَوْمئذٍ، بأنّ الله عزّ وجلّ يجْعَلُ ظَهْرَ كُلِّ واحدٍ من الكافرين في حقيقة أمره ولو كان في الدنيا منافقاً يسجُد مع السّاجدين طبقاً واحداً، غير ذي فِقَراتٍ تَنْثَني للسجود.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾: أي: مُنْكَسِرَةً أبْصَارُهم، فَهُمْ ينظُرُونَ بأعْيُنِهِمْ إلىٰ الأرْض منْ ذِلّتِهِمْ.

**الخشوعُ في اللّغة:** الخضوعُ، والخوفُ، والسُّكُون.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي: تَغْشَاهُمْ ذِلَّةٌ ضَاغِطَةٌ علَىٰ نُفُوسهم، فَهُمْ يَحْمِلونَ بِهَا من الهمّ والغمّ والعذابِ مشقَّةً عظيمة.

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾: أي: وقَدْ كَانُوا يُدْعَونَ في الحياةِ الدنيا إلى الإيمان بربهم والسجود له وهم سالمون قادرون على السُّجُودِ، فلا يَفْعلُونَ، إذْ لم يَكُونوا مؤمنين.

وبعد هذا العرض لمشهد من مشاهدِ يَوْمِ الدّين، الذي يتضمَّنُ وعيداً للمكذّبين، اقتضت الحكمة التربوبية أنْ يُنْذِرَهُمُ اللّهُ بعذابٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدُّنيا، إذا أصَرّوا على عنادِهِم وتكذيبهم، واقتضت الحكمة أن لا

يُوَاجِهَهُم الله بالخطاب، على خلافِ توجيه الخطاب لهم في العناصر السابقة من المناظرة، فقال الله عزّ وجلَّ لِرَسُولِه فلِكُلِّ داعٍ إلى الله من أمّتِه:

• ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

سبق نظير هذا التعبير التهديديّ في سُورتي المزّمّل والمدثر، فهو يتضمّن تهديداً ووعيداً شديداً لمنْ يُرادُ تَهْدِيدُهُ ووعِيدُهُ، وهذا التهديد موجَّهٌ من الرّبّ الخالق لكل منْ يَكْذِّبُ بهذا الحديث وهو القرآن الذي كان يَنزلُ نجوماً على الرسول ﷺ.

وفيه مع التهديد وصيّةٌ للرّسُول فلِكلّ داعٍ إلى الله من أُمّتِهِ، أن يَتْرُكَ مُقَارعة المكذبين، ويَبْتَعِد عن مصارعتهم، ما دامُوا في المراحل الأولى في مسيرة الدعوة إلى دين الله، فالحكمةُ الدَّعويّة تقتضي مُتابعةَ المسيرة دُون الاشتغال بمصارعة المكذبين، لئلا ينْصَرِفَ الدّاعي عن القيام بواجبات رسالته الدعويّة، إلى أمُورٍ معوقة.

﴿فَذَرْنِي﴾: أي: دَعْنِي واترُكْنِي.

﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: أي: دعْنِي مَعَ من يُكَذِّبكَ بهذا الحديث، وهو القرآن. **الحديثُ**: الكلام الذي يُقالُ ويُتَحدَّثُ به، **والقرآن**: كلامٌ مُنَزَّلٌ من ربّ العالمين، يُحدِّثُ الرَّسُولُ به، فَيُبلّغُهُ عن رَبّه.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

**الاستدراجُ**: تَقْدِيمُ التَسْهِيلات الخفيَّاتِ الّتي تجْعَلُ السّالِكَ في طريقٍ ما يَدْرُجُ مُتَابعاً سَيْرَهُ الذي يَحْسَبُ نفسَه فيه صاعداً، بَيْنما قد يكونُ هابطاً مُتَسَفِّلاً، وقد تنتهي به مسيرته إلى هَلاَكه.

يقال لغة: دَرَجَ يَدْرُجُ دَرَجاً، ودُرُوجاً، أيْ: مشَىٰ مِشْيَةَ الصّاعِدِ في الدَّرج.

ومعلومٌ من سُنَّةِ الله عزّ وجلّ أَنَّ مَنْ سَلَكَ طريقَ الشرّ فلا بُدَّ أن تُوصِلَهُ مسيرتُهُ إلَىٰ عاقبةٍ وخيمةٍ تجعَلُه يَنْدَمُ على ما اختار لنفسِه في حياته من شرّ.

والاستدراجُ الرّبّانيّ لعباده يكونُ من حَيْثُ لاَ يعلَمُونَ، أَيْ: من المكانِ الذي لا يعلمونه، لاستتاره عن إدْراكاتِ حواسهم.

**حَيْثُ**: ظَرْفُ مكانٍ مبنيٌّ على الضمّ، وهو هنا في محلّ جرٍّ بـ «من».

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

**الإملاء**: الإمْهالُ والتأخير وإطالةُ العمر، يقال لغة: أَمْلَىٰ اللّٰهُ له، أي: أمْهَلَهُ وطوّل له.

ويقالُ: أمْلَىٰ للبعير في القيد، أي: أرخىٰ له، ووسَّعَ له فيه، وطوّل له مِقْدار الحبْلِ ليزدادَ في حرّيّة الحركة، وهذا هو الأصل في المادّة.

**والْمَلاَ**: ما اتَّسع منَ الأرْض، فبإرخاء الحبل للدّابة تزداد حرّيتها في الْمَلاَ.

**الكيْد**: تدْبيرُ أمْرٍ فيه مكْروه لِمَنْ دُبِّرَ ضدَّه، وهذا التدبير يكون بالحق أو بالباطل، وبالخير أو بالشرّ، ولكنَّ كيْدَ الله لا يكونُ إلاّ بالحقّ أو بالخير، ومنه التدبير لإهلاك المجرمين ومعاقبتهم، ويأتي الكيدُ بمعنى الحرب.

**مَتِينٌ**: أي: قويٌّ شديدٌ صُلْبٌ لا يُخْتَرق.

والمعنى: أُطَوّلُ لَهُمْ وأُمْهِلُهُمْ لأَتْرُكَ لَهُمْ فُرْصَةَ التوبَةِ وإصلاح ما أفسدوا، حتَّىٰ إذا انْتَهَتْ مُدَّةُ إمهالِهم الَّتي تقتضيها الحكمة، أَنزلْتُ بِهِمْ عقابي الشديد، إذا استمروا على ما كانوا عليه من شرّ، ولم يُراجعوا أنفسهم، وعندئذٍ يَرَوْن أنّ كيدي قويٌّ شديدٌ غالب لا يستطيعون أن يحْمُوا أنفسهم منه، بأيَّةِ وسيلة من الوسائل.

في هاتين الآيتين (٤٤ ـ ٤٥) التفت البيان القرآني إلى الرسُول ﷺ، ويُلْحَقُ به الدُّعَاةُ إلى الله من أمّته، إذا كانوا في مثل الموقف الذي نزلت فيه سورة (القلم) فبيَّنَ الله عزّ وجلّ فيه الموقف الذي يجب أن يتّخذَهُ تجاه المكذّبين بآيات التنزيل، وهو موقف تركهم لله بارئهم، وعدم مصارعتهم، مع الاستمرار على العمل في طريق الدعوة إلى الله وإلى صراطه المستقيم.

إنَّ الموقف هو موقف مراحل الدعوة الأولى، التي يجب فيها الصَّبْرُ على المكذّبين للرسُول والمكذبين بالرّسَالة والقرآن ويوم الدين، مع الدّأب في مجال الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجب فيها أيضاً عدمُ إثارة صراعات تتجاوز حدود التَّبْليغِ، والبيان، والجدالِ بالّتي هي أَحْسَنُ، وتجميع المستجيبين، وتربيتهم علىٰ أخلاق الإسلام وشرائِعه، وتكوين الأمّة الإسلاميَّةِ شيئاً فشَيْئاً، كزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فاسْتَوىٰ على سُوقه.

إنَّه ممّا لا شَكَّ فيه أَنَّ هذا هُو المنهجُ الأمْثَلُ، إذْ هو المنهجُ الرَّبَّانِيّ، وهو المنهجُ الذي أثبتَتِ التطبيقات النبويَّةُ له أنَّ ثَمرَتَهُ أعظَمُ الثمراتِ وَأكْثَرُها وأثْبَتُها وأدْوَمُها.

ثم بمقدار ما التزم الدُّعَاةُ إلى الله والتنظيمات الإسلاميَّة بهذا المنْهَجِ الرَّبَّانِيّ كانَتْ تأْتي ثمراتُ أعمالهم، فتزدادُ هٰذِه الثمراتُ بازدياد هذا الالتزام، وتتناقَصُ بتَنَاقُصِ هٰذَا الالتزام.

أمَّا الذين زيَّنَتْ لهم آراؤُهم أنْ يَخرُجوا عن هذا المنهج، أو أن يختاروا لأنفسهم مناهج أخرى، كإثارة الصراعات المادّيّة، قَبْلَ استكمال مرحلة بناء الأمّة الإسلامية القادرة على المواجهات المادّية المهيَّأة بأسْبَابها المادّيّة والمعنويّة للظفر، ضمن سُنَنِ الله في كونه، فقد باءُوا بالفشل والخيبة، وأجْهَضُوا ما بُنِيَ مِنْها، وهي في المرحلة الجنينيّة، أو قتلُوها، أو عرَّضُوهَا للاسْتِئْسَارِ وهي في مرحلة الطفولة، أو المراهقة، أو اليفاع، ولم تَصِلْ بَعْدُ إلى مرحلة الرُّجولَةِ القادرة على الدّفاع أو الْغَلَب.

إنّ الصَّبْرَ على المكذِّبين مع استمرار الدّأب على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظةِ الحسنة والجدال بالّتي هي أحسن له أثران عظيمان:

**الأثر الأول**: الاستدراجُ إلى مواقع الاستجابة للدّعوة، وقبولِ مَنْطِقها، والاهتداء بهُدَاها.

فمن شأنِ الصبرِ مع الدّأب على العمل إقناعُ الفريق الرافض المكذّب، بأنَّ الدّاعِيَ إلى الله صادقٌ في دعوته حقًّا، وأنَّهُ لا هَدَفَ لَهُ إلاّ خَيْرُ مَنْ يَدْعُوهم، ولَيْسَ له من وراء دعْوَته مصلَحةٌ شخصِيَّةٌ دُنيويَّة، وهٰذا أمْرٌ يَهْدِمُ لدى الرافضِ المكذِّب عُنفَ النِّقْمَةِ والعِداء، فَمَنْ كانت لديه من المكذِّبين بزُورُ خَيْرٍ نبتَتْ ونَمَتْ، فاتَّجهَتْ نباتاتُها نَحْوَ الضَّوْءِ، ثُمَّ امتَدَّتْ مُنْجَذِبةً إليه.

فإذا بالَّذِي كانَ سابقاً مُكذِّباً مُعَادِياً، يَغْدُو مُنجذباً في اتّجاه النور، ولا يزال النورُ يسْتَدْرِجُهُ شيئاً فشيئاً حتّىٰ يكون من المستجيبين المتابعين.

وهذا ما حصل فعلاً لكثير من الذين كانوا مكذّبين للرّسول ومكذبين برسالته، وبآيات التنزيل الرّباني. لقد استَدْرجهم الصبْرُ والدّأبُ، والمثابرةُ على الدعوة إلى الله، والبيانُ الملائم لأحوال المدعُوّين، واتّخاذ وسائل الإقناع والترغيب والترهيب، إلى مَشْرِق نُورِ الحق، وصِدْقِ دُعاته، فاستجابوا واهتدَوْا.

فصارَ كثيرٌ من قادَةِ جَيْش الكُفْرِ وجنودِه بالأمْسِ، قادَةً وجنُوداً في جيْشِ الإسلام بعد ذلك.

**الأثر الثاني**: اغْتِنَام الوقْتِ وكسْبُهُ لبناء الأمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وتدعيم أركانها، وشَدِّ أواصرها، وإعدادِ جيْشِها، لتكُونَ قَادِرَةً على مُواجهة أعدائِها إذا حزَبَ الأَمْر، ودَعَتِ الضَّرورةُ للمواجهة الماديّة المسلَّحة.

فإذا تَمَّ الإعداد الْمُرَشَّحُ للانْتِصَارِ والظَّفر، ظَهَرَ أَنَّ كيْدَ الإمْهَالِ كَيْدٌ مَتِينٌ وإنْ طَالَ حَبْلُه، فالظَّافِرُ هو الظافِرُ أخيراً.

هذان الأثران العظيمان دَلَّ عليهما قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: أطيل لهم مُدَّة الإمْهَالِ ليُعِدَّ الرَّبَّانِيُّون أنفسهم إعداداً قادراً على مواجهة مَنْ يَبْقَىٰ مِنهُمْ مُكَذِّباً، في عمليَّاتٍ كَيْدِيَّةٍ بالغةِ الإحكام، وعندئذٍ يظهر أنَّه قد كان كَيْداً مَتِيناً.

وهكذا استجمع المنهج الرّبّانيّ ثلاثة عناصر:

**العنصر الأول**: الصَّبْرُ مع الدَّأب والمثابرةِ على الدعوة إلى الله وفْقَ منهج الله.

**العنصر الثاني**: محاولةُ استدراج من تَلِين عريكتُه من المكذّبين شيئاً فشيئاً، وتَصَيُّدُ من لديه بزورُ خَيْرٍ، وضمُّهُمْ إلى بناء الأمّة الرَّبَّانية.

**العنصر الثالث**: كسْبُ الوقت لإحكام بناء الأمّة، وإعْدَادِ قُواها القادرة على المواجهة المسلّحة إذا لَزِم الأَمْر، ولو بعْدَ حينٍ من الدَّهْر.

فمن أراد مرضاةَ الله، والظفر بخير نتائج العمل الإسلامي، فلْيلْزَمْ هذا المنهج.

وبَعْدَ مُعَالَجَةِ المكذِّبينَ خلالَ عَرْضِ عناصِرِ المناظرة المحاصِرة بمَشْهَد مِنْ مَشاهد يوم الدين لاستثارة مخاوفهم، وتوجيه تهديدٍ لهم بعقابٍ مُعجَّلٍ إذا أصَرُّوا على كُفْرِهم وتكْذيبهم، يَعُودُ النصّ إلى مُتَابعَة عناصِرِ المناظِرَةِ المحاصِرَة، فقال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسوله:

- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

لقَدْ سَبَقَ في المناظرة بَيَانُ ثلاثة احتمالاتٍ يُمْكِنُ أنْ تكونَ شبهةَ

للمكذّبين بيَوْمِ الدّين، أو ذَريعةً تجعلُهُمْ لا يخافون الآخرة، وعقابَ الله فيها على كفرهم وتكذيب رسُولِ ربّهم، وسبَقَ إسقاطُها.

وهاتان الآيتان (٤٦ ـ ٤٧) تشتملان على احتمالين آخرَيْنِ فَوْقَ الثلاثة، مع إسقاطِهما، وبإسقاطهما تتمّ المناظرَة الّتي فيها حصارٌ فكريٌّ كامل، لكُلّ التّعِلاّتِ مع إسْقَاطِها، وإلحاقاً بالاحتمالات الثلاثة السّابقات، يأتي الإحتمال الرابع:

**الاحتمال الرابع**: دَلَّ عَلَيْه قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾؟!

(أَمْ): نظير سَابقاتها الّتي جاءت لدى عرض الاحتمالات الثلاثة السابقات.

والاستفهام هُنَا استفهامٌ إنكاريٌّ أيضاً، أي: أنْتَ لم تسْألْهُمْ أجراً حتَّىٰ يتهرّبُوا من الاستجابة لدعوتك، فإنْ كان تكذِيبهُمْ لَكَ يا مُحمَّدُ مَدْفوعاً بدافع التهرُّب من تكليفِ كلّفْتَهُمْ إيَّاه لمصلحة شخصك، أجراً على تبليغهم رسالة ربّكَ لهم، أو تَخوُّفاً مِنْ أنْ تكون دعوتُكَ وسيلةً لتحقيق هذا الأجر من مَالٍ أو مُلْك أو شهواتٍ من متاع الحياة الدنيا، فبيّن لهم أنَّكَ لا تَسْألُهُمْ أجراً.

**الْمَغْرَمُ**: الخسارَة من مالٍ ونحوه ممّا لَهُ قيمةٌ ماليّة، أو يُبْذَلُ للوصول إليه مال.

تقول لغة: غَرِمَ يَغْرَمُ غُرْماً وغَرامةً ومَغْرماً، أي: لزمه بَذْلُ شيءٍ لا يجبُ عليه بَذْله.

**مُثْقَلُون**: أي: مُحَمَّلُونَ بسبب الْمَغْرَمِ حِمْلاً ثقيلاً لا يُريدون حَمْلَه.

لكنَّ شيئاً منْ هذا التوهُّم غير حاصلٍ في الواقع، فأنْتَ لم تَسْأَلْهُمْ أجْراً.

وقد دلّنا هذا على أنَّ من العقبات الصّادّاتِ عن الاستجابة لدعوة الداعي إلى الله اتّهامُه بالمصلحة الشخصيَّة، ولِهَذا علَّمَ الله رُسُلَهُ جميعاً أن يقول كلُّ واحدٍ منهم لقومه: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

**الاحتِمالُ الخامس**: دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

لم أجدْ في أقوال المفسرين ما يكشِفُ احتمالاً يُمْكِنُ أَنْ يكونَ تَعِلّةً يتعلّل به المكذبون، لإسقاطه بِنَفْيِ أَنْ يكُونَ عندَهُمْ عِلْمُ الْغَيْب فَهُمْ يكتُبُونَ مِنْهُ، ويسْتَنِدون إليه في تكذيبهم بالقرآن، الذي جاء بشأنه آنفاً قولُ الله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ . . .﴾.

وبالبحث والتأمُّل ظهر لي أنَّ المكذبين بأنّ القرآنَ تنزيلٌ من ربّ العالَمين، وَقالَ قائلهم الحلّافُ المهين بشأنه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كما جاء في الآية (١٥) من السورة.

وادّعاءُ المكذّبين بأنّ محمّداً ﷺ يَنْقُلُ الْقُرْآنَ من أسَاطِير الأولين، يَجْعَلُهم مُطالَبين بتقديم الدّليل على هذا الادّعاء.

وسبيل ذلِكَ أنْ يأتُوا بما عندهم من مَكْتُوباتِ الأوّلين إنْ كان عندهم شيءٌ من ذلك، مع إجراء المقارنة بينها وبَيْنَ الآيات المنزّلَةِ من القرآن.

لكنّ آيات القرآن المجيد لا شَبَهَ بَيْنَها وبيْنَ كُتُبِ أَهْل الكتاب، وباكتشاف عدم التَّشابُه يسقُطُ ادّعاؤهم بأدنى مقارنة، فهم لا يَلْجَؤُون إلى مثل هذا الادّعاء، لأنَّ الأدلّة المادّيّة ذات المتناول القريب ستسقطُهُ بأدنَىٰ مقارنة.

بقي أن يقولُوا: إنّ آيات القرآن الّتي يتْلُوها محمّد منقولَةٌ من أساطير الأوّلين الخفيَّة، الّتِي ليسَتْ من كتُب أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويُلْحَقُ بهم منْ لهم شبْهَةُ كتاب كالمجوس والبوذيين.

وإسقاط هذا الادّعاء يكون ببيان أَنّ هذه الأساطير الّتِي يتصوّرونها قد صارت بالنسبة إلى جميع الناس من أُمُورِ الغيب، التي لا يَعْلَمُها إلاَّ مَنْ يعْلَمُ الغيب، فكيْفَ يُقِيمُ المكذّبون دعوى احتجاجيَّة مستندين فيها إلى غَيْبٍ لا يَعْلَمُونَ منه شيئاً، وتعبيراً عن المطالبة بدليل الادّعاء الذي لا يملكونه بالنسبة إلى هذا الاحتمال قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟!!

هذا الاستفهام هو كالاستفهامات التي سبقته في المناظَرة، استفهامٌ إنكاريٌّ، يفيد أنّهم لا يملكون عِلْمَ الغيب، فهم لا يكتبون منه شيئاً، وبذلك يسقط هذا الاحتمال الأخير أيضاً.

والمعنى: هل عندهم علم غيب ما مضى من الأمم السالفة، وعِلْمٌ بأساطيرِهم ومكتوباتهم؟!!

لكِنَّ واقع حالهم على خلاف هذا تماماً، إذْ ليس عِنْدهم علم غيب ما مضىٰ من الأمم السالفة وأساطيرهم ومكتوباتهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، ولا هم يكْتُبُون حتّىٰ يكون لديهم تراثٌ علميٌّ مُدَوَّنٌ في الكتب، والرَّسُول محمّد ﷺ واحدٌ منهم في الأمِّيَّة.

فسقط ادّعاؤهم أنّ آيات القرآن الّتي يتْلُوها الرسول ﷺ مأخوذة من أساطير الأوّلين، بل هو نبيٌّ ورسُول اصطفاه الله، وهو الذي يُنَزّلُ عليه آيات القرآن المعجز.

وهكذا تَمّتْ المحاصرةُ الفكريَّةُ، في هٰذِهِ المناظرة القرآنيّة للمكذّبين، من كلّ الجوانب التي يُمْكِنُ أنْ يُقَدِّمُوا منها تَعِلَّاتٍ ومعاذير، تَسْتُرُ جُحُودَهم للحقّ الذي جاء به رسُولُ اللَّهِ محمَّدٌ ﷺ.

**وانتهىٰ الدرس الثالث من دروس السورة**

## (٧)
# التدبّر التحليلي للدرس الرابع
## الآيات من (٤٨ ـ ٥٠)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ باعتباره قائد أمّته، وأوّلَ المسلمين فيهم، والمقصودُ منه الدعاة من أمّته:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

درس مدنيّ التنزيل:

هذا الدرسُ نجم مدنيّ التنزيل ضُمَّ إلى سورة (القلم) الّتي هي من أوائل التنزيل المكيّ لمراعاة اقتضاءَيْن:

(١) فمناسبته الفكرية والموضوعيّة تستدعي أَنْ يكون في سورة (القلم) لأنّ هذه السورة تحدَّثت عن المكذبين الذين اتّهموا الرّسول بالجنون، وقال الحلاّف المهين الْعُتُلُّ الزنيم منهم عن آيات الله المنزّلة: هذه أساطير الأولين، وهذه أمور مُزعِجَةٌ جدّاً للدّاعِي تستدعي أن يُؤمَرَ بالصبر لحكم الله.

(٢) لكِنَّ الله عزّ وجلّ قد وصف رسوله محمّداً في مطلع السورة بقوله خطاباً له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ فأغنَىٰ هذا بما فيه من توجيه ضِمْنِيّ عن أن يأمُرَه بالصَّبْرِ صراحةً، على أنّ الرَّسُول ﷺ قد كان مُتحقِّقاً يومئذٍ بالصَّبْر المطلوب.

ومرَّت السنين وما زال الرسول ﷺ متحقّقاً بالصَّبْرِ لحكم رَبّه على أحْسَنِ وجه في تطبيقاته.

فما الحكمة من تنزيل هذا النجم بعْدَ تحقيقِ الرسول لمضمونه، ومرور سنين عديدة تزيد على عشر سنين؟

لدى التأمُّل ينكشف للباحث أنّ الحكمة من تنزيله متأخّراً في الْعَهْد المدنيّ، ووضعه في سورة (القلم) الّتي هي من أوائل التنزيل المكي، إرادةُ بيانِ منهاجِ الدّعوة في أوائل مراحلها، وواجباتِ الداعي إلى الله تجاه ما يلاقيه من الذين يرفضون دعوته ولا يستجيبون لَهَا.

فالنصّ مُوَجَّهُ في الخطاب الظاهر للرسول ﷺ الذي كان متحقّقاً بمضمونه قبل أن يخاطَبَ به، لكنَّهُ موجَّهٌ بصِفَةٍ عامَّةٍ لكُلِّ الدُّعَاة إلى اللَّهِ من بَعْدِ الرّسول ﷺ ليلتزموا به.

فواجبات الداعي إلى الله الَّتي اشتملت عليها سورة (القلم) والّتي يجب على الدُّعاة إلى الله الالتزامُ بها بعد الرسول ﷺ تستَدْعي أن تشتَمِل على الأمْرِ بالصَّبْر لحكم الله، لكنَّ خُلُقَ الرسول العظيم لم يكن بحاجةٍ لتوجيه مثل هذا الأمْرِ له، أمَّا من سيأتي بَعْدَه من الدُّعاة فإنَّهُمْ لا يملكون في فطرتهم خُلُقاً عظيماً مثْلَ خُلُقه، فهم بحاجة إلى الأمْرِ بالصَّبْرِ لحُكْمِ الله منذ المرحلة الأولى من مراحل دعوتهم إلى الله.

فأنزل اللَّهُ عزّ وجلّ هذا النجم في العهد المدنيّ من سيرة الرسول ﷺ، بعد أن حقّقَ الرسول مضمونه وانتهت المرحلة، لنَعْلَمَ أنَّ هذا النَّصَّ مُوَجَّهٌ لكُلِّ الدُّعَاة بعد الرسول، فَمِنْ واجباتهم الصَّبْرُ لحكم الله مُنْذُ أوّل مراحل دعوتهم إلى الله، وإلى صراطه المستقيم.

وقد وُضِعَ في المكان المناسب له تماماً، مع النصوص المنزَّلة في أوائل مراحل الدعوة، فتحقَّق بهذا الإجراء الغرضان، وعُلِمَ أنّ خطابَ الرسول فيما لم يكُنْ من خصوصيّاته هُو خطابٌ لأمَّتِه.

هذا الأسلوب هو من روائع أساليب الأداء البياني، وخلاصتُه تأخير خطاب الرَّسُولِ بالنصّ الذي يتضمّن تكليفاً، إلى ما بعْدَ تحقيق الرَّسُولِ ﷺ مضمونه دُون تكليف، للإشعار ضِمْناً بأنَّ المقصُودَ خطابُ الدُّعاةِ إلى الله من أمّته.

• ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ . . .﴾.

قَدْ نفهم من هذه الجملة الأمر بالصبر على كُلّ المكاره الّتي تَمَسُّ الداعيَ إلى الله وهو في طريق دعوته، كالتكذيب بما يَدْعُو الناسَ إليه، والإعراضِ أو الإدبارِ والتولّي عنه، وكاتّهَامِهِ بما يسوؤُه حتّىٰ بالجنون، وَكإيذائه وشتيمته والإضرار به، وسَجْنِه وضَرْبِه وغير ذلك.

وَحُكْمُ اللّهِ في تَمْكِين غَيْرِ المستجيبين لمواجهة الدَّاعي إلى سبيل رَبّه يخضَعُ لقوانين القضاء والقدر، وسُنَّةِ اللّهِ العامّة في خلقه.

لكنّ تَعْدِيَةَ فعل الصَّبْرِ قَدْ جَاءَتْ في معظم الآيات القرآنية بحرف «على». مثل: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ـ ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ وهذا هو الأصل في الاستعمال.

فما الحكمة هنا من تعديَة فعل الصَّبْرِ بحرف «اللاّم»؟

بالتأمُّل يتبَيَّن لنا أنَّ فعل الصَّبْرِ هنا تَضَمَّنَ معنى التسليم لحكْم الله، وهذا التسليم يُلائمه حَرْفُ اللاّم، والتقدير: فاصْبِرْ مُسْتَسْلِماً لحكْمِ رَبك. وهذا التضمين من أسَاليب القرآن البيانيّة البديعة.

وحين نبحثُ في أحكام الله الدَّعويَّة التكليفية الموجهة للداعي إلى سبيل رَبّه، نجدُ فيها تكليفه أَنْ يَسْتَمِرَّ في تذكيره ولاَ يَتْرُكَه يائساً، مَا دَامَ احتمالُ نَفْع تَذْكيرِه موجوداً، ولَوْ بنسْبَةٍ ضئيلة قليلة، فتَرْكُ التذكير لا يكونُ إلاَّ بَعْدَ التحقُّقِ من كوْنِ المدْعُوِّ حَالَةَ ميئوساً منها، دلَّ على هذا الحكم قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعلىٰ/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فعلى الداعي إلى الله أنْ يُتَابعَ تذكيره بما سبَقَ أن بلَّغَهُ ولَوْ كَانَ احْتِمَالُ نَفْعِ تَذْكِيرِه احْتِمالاً ضعيفاً، إذْ جاء في الآية حرف الشرط «إنْ» الذي يُستَعْمَلُ غالباً في الأمْرِ المشكوك فيه.

أمّا إذا كان احتمال نفع التذكير ميئوساً منْهُ جَزماً، فعلَىٰ الداعي حينئذٍ أَنْ يُوَفِّرَ جُهُودَهُ ويُعْرِضَ عن الميئوسِ منهم يأساً مقطوعاً بِهِ، أو يتولَّىٰ عنهم، عملاً بقول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

وعملاً بقول الله عزّ وجلّ في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن الميئوسِ قَطْعاً من استجابتهم:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾.

الإعْرَاضُ أخَفُّ من التَّوَلي، فالتولّي إنما يكون بالنسبة إلى الحالات الأشَدّ، وهي الحالات الّتي وصل أصحابها إلى مواقف العداء العلني.

وعلى هذا نفهم من قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فَاصْبِرْ على مُتَابَعَةِ تَذْكِيرك مَهْما لاقَيْتَ من مزعجات ومؤذياتٍ، مستسلماً لِحُكْمِ رَبِّكَ.

وَبَعْدَ الأمْرِ بالصَّبْرِ استسلاماً لِحُكْم الرَّب، حذَّرَ اللَّهُ عزّ وجلّ الداعيَ إلى سبيل ربّه بأسْلُوب الخطاب الموجَّه للرسول فقال له:

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ . . .﴾.

وهُو يونُسُ بْنُ مَتَّىٰ عليه السَّلام، فَقَدْ بَعَثَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إلى أهل نينوىٰ من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عزّ وجلَّ، فكذَّبُوهُ، وأصَرُّوا على كُفرِهِمْ وعِنَادِهِم، فضاق يُونُسُ بهم ذَرْعاً، فَذَهَبَ عَنْهُمْ مُغَاضِباً، بعد أَنْ أَوعَدَهُمْ بحُلُولِ عذاب الله بهم بعد ثلاث، وكان انصرافُهُ عَنْهُمْ بغَيْرِ إذْنٍ من الله.

فلمَّا غادرهم، وَجاءتْهُمْ نُذُرُ العذاب خافُوا، فتابوا إلى الله، وَنَدِمُوا على ما كان منهم تُجاه الرَّسُول الذي أرْسَلَهُ اللَّهُ إليهم.

واجتمعوا بعد أَنْ فَرَّقُوا بيْنَ كُلِّ بهيمة وولَدِها، وَجأَرُوا إلَىٰ اللَّهِ عزّ وجلَّ باكِينَ متضرِّعينَ، ليَصْرِفَ اللَّهُ عنهُمُ العذاب، فَتَاب الله عليهم، وصَرَفَ عنهُمُ العذاب.

أَمَّا يُونُسُ عليه السلام فإنَّهُ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً كانَ يظُنُّ أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ لَنْ يُضَيِّقَ عليه في المحاسبة، إذا انْصَرَفَ عن قَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يتلَقَّىٰ الإِذْنَ من اللَّهِ بهذا الانْصِرافِ.

وَكان في طريقه إلى أَهْلِه بَحْرٌ، وكانَ لا بُدَّ لَهُ من أن يَرْكَبَ فُلْكاً إليهم، فركَبَ فُلْكاً مَعَ قَوْمٍ كعادَةِ المسافرين في البحر، فلَجَّ البحْرُ بهم واضطربَ وَماجَ، وثَقُلَ بِمَنْ فيه، حتَّىٰ كادُوا يَغْرَقُون، وَلم يَجِدُوا وَسيلَةً إلاّ أن يُخَفِّفُوا عن الفُلْكِ بإلقاء أحدهم في الماء.

فاقترعوا فوقَعَتِ القرعةُ على يُونُسَ عليه السلام في ثلاث محاولات، فقذف بنفسه في البحر فالتقمه حُوتٌ أوحَىٰ اللَّهُ إليه أَنْ يلتقِمه، فنادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَحمَلَهُ الحوتُ في فَمِه سَجيناً، وسارَ به بأمر الله إلى الشاطئ، ولمّا بلغ الشاطئ لفظه، وَنَبَذَهُ بالعراء وهو سقيم.

قال تعالى في هذا الدرس: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾.

**مَكْظُومٌ**: أي: مَحْبُوسٌ في فَم الحوتِ لاَ يَسْتطيع الخروج منه، وقَدْ يَكُونُ مُغْتَاظاً من نَفْسِه إذْ تَرَكَ قَوْمَهُ دون إذنٍ من رَبّه. يُقَالُ لغة: كَظَمَ الرَّجُلُ نَفَسَهُ، إذا حَبَسَهُ في صَدْرِه، فمعنىٰ الكظْمِ الحبْسُ.

قال تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أي: لَوْلاَ أَنْ لَحِقَتْهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربِّهِ، فأَدْرَكَتْهُ بالإِنقاذ قبْلَ أَنْ يَهْلِكَ في فم الحوت.

جاء فعل «تداركَهُ» دون تاء التأنيث، لأنّ لفظ «نِعْمَةٌ» مجازيُّ التَّأْنيث، يجوز معه تذكير الفعل وتأنيثه، يضاف إلى هذا مُلاحظة أنّ المتدارِكَ هو الرَّبُّ، والنعمةَ مِنْهُ فيضٌ من عطائه.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾.

**النَّبْذُ**: الطَّرْحُ باحْتِقَارٍ وإهانةٍ وعَدَمِ اكْتِرَاث.

**الْعَراءُ**: الفضاء في أرْضٍ لا نَبَات فيها وَلاَ بِنَاء.

**وهُوَ مَذْمُومٌ**: أي: لأنّه خَرَجَ هاجراً قَوْمَهُ مُغاضِباً لهم دُونَ أَنْ يأذن الله له بذلك، فقومُهُ لم يَصِلُوا إلى حالةٍ ميئوسٍ منها قطعاً، بدليل أنّهم لما رأَوْا نُذُرَ العذاب خَافُوا وتابوا إلى بارئهم، وسَعَوْا في طلب رسولهم.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: فَعَقِبَ هٰذِهِ المصيبة التَّأْدِيبِيَّةِ، تَابَ يُونُسُ عليه السّلام، إلى رَبِّهِ تَوْبَةً عظيمةً، فتابَ اللّٰهُ عليه، فاجْتَبَاهُ، أيْ: فاختاره واصطفاهُ، وجَعَلَهُ ضِمْنَ عباده الصالحين، إذْ وصَلَ بتوبته وصلاحه إلى هذه المرتبة الّتي يَحْتَلُّهَا الأنبياء والمرسلون، **الصّالح**: الخالي من الفساد، **والصالح من عباد الله**: الكاملُ في عُبُودِيَّتِهِ لربّه.

وفي عرض هٰذه القصة تحذيرٌ لِحَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى اللّٰهِ المؤهّلين لها، منْ تركِ وظائفِ رسالتهم إذا وَجَدُوا المدعوّين غير مستجيبين لدعوتهم، لكن لم تصل أحوالهم إلى دَرَكة يحْسُنُ معها الإعراض أو التولّي عنهم.

**وانتهىٰ الدرس الرابع من دُروس السورة**

❁ ❁ ❁

## (٨)
# التدبُّر التحليلي للدرس الخامس

### الآيتان الأخيرتان من السورة (٥١ ـ ٥٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

● قرأ نافع، وأبو جعْفَر: (لَيَزْلِقُونَكَ) بِفَتْحِ الياء، من فعل «**زَلَقَ فُلاَنٌ فُلاَناً يَزْلِقُهُ زَلْقاً**» أي: أَبْعَدَهُ وَنَحَّاهُ وَجَعَلَهُ يزِلُّ عن مكانه.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضمّ الياء من فعل: «**أَزْلَقَهُ يُزْلِقُهُ إِزلاَقاً**».

والمعنى في القراءتين واحد، والقراءتان وجهان عربيّان لهذا الفعل.

**تمهيد:**

هذا الدرس موصولٌ بالدَّرْسِ الأوّل من دروس السورة، إِذْ جاء فيه أَنّ مكذّبي الرسول ﷺ من كبراء مشركي مكّةَ اتَّهَمُوهُ بالجنون، لمَّا دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم ما كان قَدْ نَزل عليه من القرآن المجيد، وأنّ عُتُلَّهم الزنيم قال بشأن القرآن: أساطير الأولين.

وموصول أيضاً بالدرس الرابع من دروس السّورة، إِذْ جاء فيه قولُ الله عزّ وجلّ بشأن المكذبين بالقُرْآن: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾.

فجاء الدَّرْس الأخير ليكْشِفَ مَبْلَغَ إعجاب المكذّبين بالقرآن إلى حَدِّ الدَّهْشَةِ المثيرة للحسد العنيف، الذي يجعل بصَرَ الحاسد يَزْلِقُ المَحْسُودَ عن موقفه الذي هو فيه يتحدَّث، من فرط إعجابه بحديثه، وبيانِه المعجز لأساطين البيان.

ومع هذا الإعجاب الشديد منهم بما يَتْلُو عليهم من آياتِ القرآن يقولون عن الرسول ﷺ: إنَّهُ لمجنون.

وهذا منهم تَنَاقضٌ واضِحٌ فاضح، كيْفَ يَحْسُدُونه حسداً شديداً إعجاباً بما يَتْلُو عليهم، ويَتّهمونه مع ذلك بالجنون، إنّ المجنون لا يَحْسُدُهُ العاقِلُون.

إنَّهُمْ مُتَنَاقُضُونَ بَيْنَ حَالِهِم ومقالهم.

وقد جاء الخطابُ في هذا الدّرْس مُوَجَّهاً من اللَّهِ لِرَسُوله تَسْلِيَةً وَتَطْمِيناً لنفسه وقَلْبِه، بأنّ مُتَّهِمِيهِ بالجنون غير مصدّقين لأنفسهم في هذا الاتّهام، بَلْ يُطْلِقُونه إطلاقاً كيديًا، لِصَدِّ جماهيرهم عن الإيمان بالرَّسُولِ واتّباعه، إِذَا أَدْرَكُوا منْ عظمة آيات التنزيل مِثْلَ ما أدْرَكَ قادتهم.

وهو في الوقت نفسه يبيّن لأصحاب المقالة بأسلوب غير مباشرٍ أَنَّهُمْ مكْشُوفُون، وأَنَّ مكيدتَهُمْ ساقطةٌ غَيْرُ مقبولة لدى عقلاء الناس.

﴿وَإِن يَكَادُ﴾: «إِنْ» مخفَّفَةٌ من الثقيلة «إِنَّ» فهي مؤكِّدَة للجملة، والدليل على أنّها المخففة من الثقيلة وجود اللام المزحلقة في الجملة، وهي في الأصل «لام» الابتداء التي يُؤْتَىٰ بها للتوكيد، و «إِنْ» هنا مهملة عن العمل، وتُفِيد التأكيد.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: هُمُ المكذبُون أَنْفُسُهم الذين تَحدَّثَتِ السُّورة عنهم، وجاء الحديث عنهم هنا بعنوان «الذين كَفَرُوا» للدَّلاَلَةِ على أنَّ المكذّبينَ بالرَّسُولِ والقرآنِ كافرون، وللدّلاَلَةِ على أَنَّ تكذيبهم مقرونٌ بسَتْرِهم الأدلَّةَ البرهانية القائمة في عُقُولهم على أنّ محمّداً رسول الله حقّاً، وعلى أنّ القرآن كلامٌ مُنزَّلٌ من رَبِّ العالمين، إذا أَصْلُ الكُفرِ في اللُّغَةِ السَّتْرُ.

﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾: أي: ليَجْعَلُونَكَ تَزِلُّ وتسقُط عن مَوْقِفِكَ انزلاقاً، كما يَنْزَلِقُ من داسَ على دُهْنٍ أوْ طِينٍ زَلِقٍ.

﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾: أي: بما تُطْلِقُه أبصارُهُمْ من قُوَّةٍ خَفِيَّة ذات أثَرٍ في

الماديّات والمعنويات، وهٰذِه الْقُوَّةُ تُطلِقُها الأَنْفُسُ الحسُودَة، ولكِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ وقَىٰ رسُولَهُ من تأثير أبصار حاسديه.

﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾: أي: حينَ سَمِعُوا شيئاً من آيات القرآن المجيد، سمَّىٰ اللَّهُ القرآن ذِكْراً لأنّ المطلوبَ من الناس بالنسبة إليه أن يتبلَّغُوهُ ويَتَدَبّروا معانيه، ويجعَلُوها في ذاكراتهم للعمل بما جاء فيها.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾: أي: يَحْسُدُونَ الرسُولَ حسداً شديداً في حال تَدَاوُلِهِمْ بتكرارِ مقالةَ: إنَّهُ لمجنون، وهذا تناقضٌ منهم ظاهر.

ولمَّا كان القرآنُ يَحْمِلُ تأثيراً عالميًا على كُلِّ الناسِ، وقَدْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ للناسِ أجمعين، بخصائص تُؤَثّر على كلّ الشعوب والأقوام، ولا يَقْتَصِر تأثيرُهُ على أهل مكّة وما حولها، ولا على العرب الذين نزل بلسانهم، وأنَّهُ مؤهَّلُ لأَنْ يُؤمِنَ به من كلِّ الشعوب والأقوام العقلاءُ المنصفون، كان من الحكمة إشعار المكذبين به من كُبَراء مَكَّةَ أنَّهُ ذِكْرٌ لجميع العالَمِين، ولَئِنْ كفَرَ به هؤلاء فسَيُؤْمِنُ به آخرون من كُلِّ شعوب الأرض، فأَمْرُ الإيمان به لَيْسَ متوقفاً على هذه الحَفْنَةِ من الناس التي كفرَتْ به من كبراءِ مكّة.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

فَمَعَ ما في هذا من بيان حقيقة عموم الرسالة المحمّديّة، وأنّه مُرْسَلٌ للناس أجمعين، ففيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ الذين كَفَرُوا بالقرآن مِنْ أهْلِ مكَّةَ قليلونَ جدًّا، بالنسبة إلى الذين سَيُؤْمِنُونَ به، متَّىٰ أدْرَكُوا إعْجَازَه وعظَمَةَ ما اشتمل عليه من علم وهداية.

## تأثيرُ الإصابة بالعين:

(١) دلَّ قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس الأخير من دروس السورة خطاباً للرسول ﷺ:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ . . .﴾.

على أنّ الإصابة بالعين حقٌّ، وأنّ لها تأثيراتٍ على الأجساد والنفوس، وقد جاء في كلام الرسول ﷺ ما يُثْبِت تأثير الإصابة بالعين، باعتبارها مِثْلَ الأمور السببيّة التي جعلها اللّهُ في كونه ذَوات تأثيراتٍ ضِمْن قضاءِ الله وقدره وَإِذْنِه وتمكينه، وفيما يلي ذِكْر طائفة منها:

(١) روى الإمام مسلم والإمام أحمد عن ابن عباسٍ رَضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال:

«الْعَيْنُ حَقٌّ، ولَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقٌ الْقَدَرَ سبَقَته الْعَيْنُ، وإِذَا اسْتُغْسِلْتُم فَاغْسِلُوا».

أي: إذا طُلِبَ من الْعَائن أن يَغْسِل أطرافه ليؤخذ الماء ويُصَبّ منه على المصاب بالعين لزمه أن يفعل.

(٢) وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال:

«الْعَيْنُ حَقٌّ».

أي: الإصابة بالعين من الأمور السببيّة الّتي جعَلَها اللّهُ حقًّا واقعاً في الكون.

(٣) وروى ابن عديٍّ في الكامل وأبو نعيم في الحلْيَة عن جابر رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال:

«الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وتُدْخِلُ الْجَمَل الْقِدْرَ». [«حديث حسن» عن صحيح الجامع الصغير وزيادته].

(٤) وثبت أنَّ جِبْريل عليه السّلام كان يَرْقِي رسولَ الله ﷺ بأن يشفيه الله من شرِّ حاسدٍ إذا حسَدَ، ومن شرِّ كُلِّ ذي عيْنٍ.

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان إذا اشْتَكَىٰ رسُولُ الله ﷺ رَقاه جِبْرِيلُ، قال:

«بِاسْمِ الله يُبْرِيكَ، ومِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، ومِنْ شرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَد، وشرِّ كُلِّ ذي عَيْن».

وروى مُسْلِمٌ عن أبي سعيد الخدري أنّ جبريلَ أَتَىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا مُحمَّدُ اشتَكَيْتَ؟ فقال: «نَعَمْ» قال:

«بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كلِّ شيءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ يَشْفِيكَ، باسْمِ الله أَرْقِيكَ».

(٥) وثبت في الأدعية النبويَّة قول الرسول ﷺ:

«أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ».

وكان الرسول ﷺ يُعَوِّذُ بهذا الدُّعَاءِ الحسَنَ والحسين.

(٦) وروى الإمام أحمد والترمذيُّ وابْنُ ماجه بإسنادٍ صحيح عَنْ أسماءَ بنتِ عُمَيْس، قالت: يا رسُولَ الله، إنَّ وُلْدَ جَعْفَرَ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ الْعَيْنُ، أفأَسْتَرْقي لهم؟ قال:

«نَعَمْ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقٌ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ».

(٧) وروى البخاريُّ ومُسْلمٌ عن عائشة قالت: «أَمَرَ النبيّ ﷺ أَنْ نَسْتَرْقِيَ من الْعَيْن».

(٨) وروى البخاري ومسلم عن أمّ سلمة أنّ النبيّ ﷺ رأىٰ في بيتها جاريةً في وَجْهِها سُعْفَةٌ «أي: صُفْرَة» فقال:

«اسْتَرْقُوا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ».

(٩) وروى الترمذيُّ وابنُ ماجه، بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدريّ قال: «كان رسول الله ﷺ يَتعوَّذُ مِنَ الْجَانّ وعَيْنِ الإِنْسَانِ، حَتَّىٰ نَزَلَتِ المعوِّذَتَان، فلما نزلَتْ أَخَذَ بهما وتَرَكَ مَا سِوَاهما».

(١٠) وعن أبي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْف، قال: رَأىٰ عامِرُ بْنُ رَبيعةَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْف يغتسل، فقال: وَاللَّهِ ما رَأَيْتُ كالْيَوْمِ، وَلاَ جِلْدَ فَتَاةٍ مُخَبَّأَةٍ[1]، قالَ: فَتَلبَّطَ سَهْلٌ، فأُتِي رسُولُ اللَّهِ ﷺ فقيل له: يا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ؟ واللَّهِ ما يَرْفَعُ رَأْسَهُ، فقال:

«وَهَلْ تَتَّهِمُونَ لَهُ أَحداً؟».

قالوا: نَتَّهِمُ عَامِرَ بْنَ رَبِيعَة، قال: فَدَعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَتَغَلَّظَ عَلَيْهِ، وقال:

«عَلامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، هَلَّا بَرَّكْتَ[2]؟ اغْتَسِلْ لَهُ».

فَغَسَلَ عامِرٌ لَهُ وجْهَهُ، ويَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ، ورُكْبَتَهُ، وأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إزارِهِ في قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهِ، فراح مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ».

رواه في شرح السُّنّة، ورواه مالِكٌ، وفي روايته قال:

«إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَوَضَّأْ لَهُ».

وشواهد الإصابة بالعين في واقع الناس كثيرةٌ جدًّا، في كلِّ أمَّة، نعوذ بالله من شرورها، ومن شرّ كلِّ ذي شرّ.

**وبهذا انتهىٰ تدبر سورة (القلم) على ما فتح الله به**

**فله الحمد كلّه، إنَّه الوهاب والملْهِم للصواب**

❀ ❀ ❀

---

(١) **مخبأه**: أي: مُخبأة في خِدْرِها.

(٢) أي: هلَّا دعَوْت له بالبركة.

# سُورَةُ الفَاتِحَة

وتسمَّى «أم القرآن»

و«السَّبع المثاني» و«القرآن العظيم»

١ مصحف ٥ نزول

## (١)

# سورة فاتحة الكتاب

## مقدمة حول تسميتها

● روىٰ الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنَّهُ قال لأمّ القرآن «أي: الفاتحة»:

«هي أُمُّ الْقُرآن، وهي السَّبْعُ المثاني، وهي الْقُرْآنُ العظيم».

● وروىٰ البيهقيّ في شُعَب الإيمان عن أنس، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إِنّ الله أعْطَانِي فِيما مَنَّ به عليّ فَاتِحَةَ الكِتاب، وقال: هي مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي».

● وروى ابن جرير الطبريّ في تفسيره عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال:

«هِيَ أُمُّ الْقُرآنِ، وَهِيَ فَاتِحَةُ الكِتاب، وهِيَ السَّبْعُ الْمَثانِي».

وروى الطبرانيُّ نَحْوَ هذا في حديثٍ قال عنه: «رجالُهُ كلُّهم ثقات».

● وروى البيهقي عن عليٍّ وابن عبَّاسٍ وأبي هريرة أنَّهُمْ فَسَّرُوا قول الله تعالىٰ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ بالفاتحة.

سُمّيت بالفاتحة، لأنّ القراءة تفتتح بها، ولهذا افتتح الصحابة بها كتابة المصحف الإمام.

وسُمِّيت بأم القرآن لاشتمالها على أهمِّ موضوعات القرآن.

وسُمّيت بالسبع المثاني، لأنّها سبْعُ آياتٍ تُكَرَّرُ في الصلاة فتُقْرأ في كلّ ركعة، وكلُّ ما يكرّر على نظام واحد يطلق عليه في العربية لفظ مثاني، ولأنّ بين جُمَلِها مطويات من المعاني تُفْهَم باللّزوم الذهنيّ، وجاء بيانها التفصيلي في سائر سور القرآن.

**المثاني**: جَمْعٌ مفرده «مَثْنَاة» وهو من الثَّني، وهو ردُّ الشيء بعْضِه على بعض.

وقد نزلت هذه السورة في أوائل العهد المكيّ، وهي السورة الخامسة بحسب ترتيب النزول، كما هو مُدَوّنٌ لدى علماءِ عُلُومِ القرآن، وهو المرجّح لدى العلماء بروايات التنزيل.

وزعم بعْضُ أهْلِ العلم أنّها أوّل سُورةٍ أنزلَتْ، على اعتبار أنّها أمُّ القرآن، والجامعةُ لأمّهاتِ أغراضه، وهذا منه تحكيمٌ للرأي فيما لا مجال للرأي فيه(١).

❀ ❀ ❀

(١) راجع كلام الشيخ الصادق عرجون في سيرته ردّاً على الشيخ محمّد عبْده المصري.

## (٢)

# نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات

## سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ
﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

---

٤ ـ [مَالِك] عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلفٌ في اختياره.
[مَلِك] باقي القراء العشرة.

٦ ـ قرأ «السّراط» بالسين: قنبل، ورويس.
وقرأ باشمام الصاد زاياً فتنطق كما ينطق العوامّ الظاء: خلف عن حمزة حيث وقع، وخلاد في هذا الموضع فقط.
وقرأ «الصراط» بالصاد باقي القراء العشرة.

٧ ـ «سِرَاط» بالسين: قنبل، ورويس.
وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد زاياً.
وقرأ «صِراطَ» بالصاد باقي القراء العشرة.
● وقرأ بضم هاء الضمير في «عَلَيْهُمْ» في الموضعين حمزة، ويعقوب.
وقرأ باقي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء.

## (٣)
## ممّا جاء في السنة بشأن فضائل سورة الفاتحة

جاء في السنة في فضل هذه السورة العظيمة أحاديث نبوية، منها الصحيح، ومنها الحسن، ومنها الضعيف، وأنتقي منها طائفةً، مستبعداً ما لا يقوى على الاستشهاد به.

(١) روى البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلّىٰ أنّ رسول الله ﷺ قال له:

«لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآن قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِد».

قال فأخذ بيدي، فلَمَّا أراد أن يخرُج من المسجد قلتُ: يا رسول الله، إنَّكَ قُلْتَ: لأُعَلِّمَنَّكَ أعْظَمَ سُورَةٍ في القرآن، قال:

«نَعَمْ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، والْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الّذِي أُوتِيتُهُ».

(٢) وروى أحمد والترمذيُّ (وصَحَّحه) من حديث أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ، أنّ النبيّ ﷺ قال له:

«أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ في التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإنْجِيلِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟».

ثُمّ أخبرَهُ أنَّها الفاتحة.

(٣) وروى الإمام أحمد في مسنده والنسائيُّ من حديث عبد الله بن جابرٍ أن رسول الله ﷺ قال له:

«أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَخْيَرِ سُورَةٍ في القرآن؟».

قلت: بَلَىٰ يا رَسُولَ الله، قال:

«اقْرَأْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ حتَّىٰ تَخْتِمَهَا».

(٤) وروى البخاريّ ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري قال: انطلَق نَفَرٌ من أصحاب النبيّ ﷺ في سفْرَةٍ سافروها، حتّىٰ نزلُوا علىٰ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العرَب، فاسْتَضَافوهم، فأبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهم، فَلُدِغَ سَيِّد ذلِكَ الحيِّ، فسَعَوْا لَهُ بكلِّ شَيْءٍ، لا ينْفَعُهُ شيء.

فقال بعضُهم: لو أَتَيْتُمْ هؤلاءِ الرَّهْطَ الّذين نزلُوا، لعلَّهُمْ أنْ يكون عنْدَ بعْضِهم شيءٌ، فأتَوْهُمْ فقالُوا: يا أَيُّها الرَّهْطُ، إنَّ سيّدنا لُدِغَ، وسَعَيْنا لَهُ بكلِّ شيءٍ، لا ينفعُهُ شَيءٌ، فهَلْ عنْدَ أحَدٍ منْكُمْ مِنْ شيءٍ؟

فقال بعضُهُمْ: نعَمْ، واللَّهِ إنّي لأَرْقِي، ولكِنِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فلَمْ تُضَيِّفُونَا، فما أنَا بِرَاقٍ حتَّىٰ تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً.

فَصَالَحُوهم على قَطِيعٍ من الغنم، فانْطَلَق يتْفُلُ عليه ويقْرَأُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾[1] فَكَأَنَّما أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فانْطَلَق يمْشِي وما بِهِ قَلَبَةٌ[2].

قال: فأوفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الّذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتَسِمُوا، فقال الذي رقَىٰ: لا تفعلوا حتَّىٰ نأتِي رسول الله ﷺ فنذكُرَ له الّذي كان، فننظرَ ما يأمُرُنا، فقدِموا على رسول الله ﷺ فذكَرُوا له ذلك، فقال:

«وما يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!» ثم قال: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْتَسِمُوا وَاضْرِبُوا لي مَعَكُمْ سَهْماً».

وقد أخرج هذا الحديث أيضاً الإمام أحمد والترمذيُّ وابن ماجه.

---

(١) أي سورة الفاتحة.

(٢) **ما به قَلَبة**: أي: ما به ألم ولا علّة ولا داء، **القَلَبَةُ**: الإصابة بالقُلاب، وهو داء يأخذ في القلْب.

(٥) وروى مُسْلمٌ في صحيحه، والنَّسائيّ في سُنَنه، من حديث ابن عبّاس قال: بَيْنا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذْ سَمِعَ نَقِيضاً[١] فوقه، فرفع جبريل بصَرَهُ إلى السماء فقال: هذا بابٌ قد فُتِحَ من السَّماء ما فُتِحَ قَطُّ، قال: فنزَلَ منْهُ مَلَكٌ، فأتَىٰ النبيّ ﷺ فقال: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ قَدْ أُوتِيتَهُما لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةَ الْكِتَاب، وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ «البقرَة» لَنْ تَقْرَأَ حَرْفاً مِنْهُمَا إلاَّ أُوتِيتَهُ».

(٦) ومن فضائل هذه السورة أنَّها تُقْرأ لُزوماً في الصلاة، فقد روى مسلم والنسائيُّ والترمذيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صَلَّىٰ صَلاَةً لَمْ يَقْرأْ فِيهَا بِأُمّ الْقرآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، غَيْرُ تَمامٍ».

(٧) وروى البخاري ومُسْلِمٌ عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ».

(٨) وروى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قالَ اللَّهُ تعالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبين عَبْدِي نِصْفَين، ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإذا قال العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال اللَّهُ: حَمِدَني عَبْدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قال الله تعالى: أثنىٰ عليَّ عَبْدِي، وَإذَا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قالَ: مجَّدَنِي عَبْدِي ـ وفي رِوايَة ـ: فَوَّضَ إليَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦

---

(١) نقيضاً: أي: صوتاً، يقال: نقيضُ الفراريج: أي صوتها، ونقيض المفاصل، ونقيض الأصابع.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: هٰذَا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

(٩) وروىٰ الدارميّ والبيهقيُّ في شعب الإيمان بسند رجاله ثقاتٌ، عن عبد الملك بن عُمَير، قال: قال رسول الله ﷺ في فاتحة الكتاب:

«شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ».

(١٠) وروىٰ الإمام أحمد، وأبو داود، والنّسائي، وابْنُ السُّنّي في عمل اليوم واللّيلة، وابْنُ جرير، والحاكم وصحّحه، عن خارِجَةَ بن الصَّلْت التّمِيميّ عن عَمّه، أَنَّهُ أَتَىٰ رسولَ الله ﷺ، ثمّ أقبل راجعاً من عنده، فمَرَّ علىٰ قَوْمٍ وعندهم رجُلٌ مجنونٌ مُوثَّقٌ بالحديد، فقال أهله: أعندكَ ما تُداوي به هذا؟ فإنّ صاحبكم جاء بخَيْرٍ، (يَعْنُون رسولَ الله ﷺ).

قال: فقرأتُ علَيْه فاتحة الكتاب ثلاثةَ أيّام في كلّ يوم مرّتين غُدْوَةً وعَشِيَّةً، أَجْمَعُ بُزَاقِي، ثُمَّ أتفُلُ، فبرأ، فَأعطاني مِئَةَ شَاةٍ، فأَتَيْتُ النبيَّ ﷺ، فذكرتُ ذلك له، فقال:

«كُلْ، فَمَنْ أَكَلَ بِرُقْيَةِ بَاطِلٍ فَقَدْ أَكَلْتَ بِرُقْيَةِ حَقٍّ».

❊ ❊ ❊

## (٤)
## موضوع سورة الفاتحة

هذه السورة القصيرة العظيمة سورةٌ مؤلّفةٌ من دَرْسٍ واحِدٍ، جامع لكليّاتٍ كبرى، هي بمثابة عنواناتٍ عامّاتٍ للدّين الّذي اصطفاه الله لعباده الّذين خلقهم ليبلُوَهم في ظروف الحياة الدنيا، ولتاريخهم تُجاهه منذ نشأتهم إلى أن تقوم الساعة، وهي العنوانات التاليات:

**العنوان الأول**: المبادئ الإيمانيّة الّتي يجب أن يؤمن بها الذين

خلقهم الله عزّ وجلّ ليبلُوهم في رِحلة الحياة الدنيا وظروفها، وقد دلّ عليها صراحةً وضمناً باللُّزوم الذهني ومقتضياته، قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

**العنوان الثاني**: مطلوبُ اللَّهِ مِنْ عباده الذين وضعهم موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وقد دلّ عليه صراحةً وضِمْناً باللّزوم الذهني ومقتضياتِهِ، قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

**العنوان الثالث**: الدّين الذي اصطفاه الله لعباده الذين وضعهم موضع الامتحان في ظروف الحياة الدّنيا، وجعله الصراط المستقيم لمن شاء أن يسلكه بغية الفلاح والفوز يومَ الدّين، يومَ الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، وقد دلَّ عليه صراحةً وضمناً باللُّزوم الذّهنيّ ومقتضياته قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

**العنوان الرابع**: تاريخ الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا منذ نشأتهم الأولىٰ، وإلى أن تقوم الساعة، تجاه مطلوب الله عزّ وجلّ منهم في رحلة امتحانهم، وقد دلّ عليه صراحةً وضمناً باللُّزوم الذّهنيّ ومقتضياته قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وهذه العنوانات قد جاء تفصيلها الوافي مع لواحق هذا التفصيل الاستدلاليّة والجداليّة والتربويّة العقلية والنفسيّة وغيرها في سائر سور

القرآن، ومع التنويع والتصريف في الحجج والبراهين والترغيب والترهيب وضرب الأمثال، لمحاصرة النفس الإنسانيّة من كلّ جوانبها، حتّىٰ لا يبقىٰ عُذْرٌ لمعتذرٍ عن عدم استجابته لما دعا إليه هذا الكتاب المجيد، من إيمان وعَمَلٍ وَفْقَ تعليماتِ صراط الله المستقيم.

وفي هذه السورة العظيمة يُعَلِّمُنَا ربُّنا جلّ جلاله كيْفَ نُكَرِّر في صلواتنا وفي أذكارنا وفي رُقَانا الكلّيات الكبْرَىٰ للدّين الذي اصطفاه لنا، ولتاريخ الناس تجاهه، وهي الكليّات الّتي جاء تفصيلها في سائر سُور القرآن المجيد، ولهذا سمّيت «أمّ القرآن».

❁ ❁ ❁

## (٥)
## التدبّر التحليلي للسورة

### أوّلاً: تدبّر ما تحت العنوان الأوّل من الكليّات الكبرىٰ للسورة:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

**الحمْدُ**: هو التحدّث على وجه التمجيد بصفات المحمود الجميلة، وهو مرادف لكلمة «الثناء».

وتعريف بعض أهل العلم له: «بأنّه الثناء باللّسان على الجميل الاختياري» تعريف قاصر، لأنّ صفات الله الذاتية الأزليّة تُحْمَد، مع أنّها ليست من أفعاله الاختيارية، ولأن القلب والنفس قد يتحدّثان بالحمد ولو لم يتحرّك اللّسان بعبارة الحمد.

و «أل» في كلمة «الحمد» هنا استغراقيّة تَعُمُّ كلّ أجناس الحمد وأنواعه وأصنافه وأفراده.

والحمدُ لله يتناول تمجيده بصفاته الوجودية التي هي من ذاته، وبصفات أفعاله، فيشمل الثناء على الله عزّ وجلّ بكل صفاته وأسمائه الْحُسْنَىٰ ما علمنا منها وما لم نعلم.

ويتناول أيضاً تنزُّهَهُ جلّ وعلا عن كلِّ الصفات التي لا تليق بجلاله ما علمنا منها وما لم نعلم، فلَهُ الْحَمْدُ لبراءته منها وتنزُّهه عنها.

**لِلَّه**: اللاّم الجارّة هنا هي بمعنى المِلْك أو الاختصاص. وكلمة (الله) علَمٌ في اللّسان العربيّ على خالق الكون الأزليّ الأبديّ الذي لا أوّل له ولا آخر، فَهُو الأوَّلُ والآخِرُ.

و ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مبتدأ، و (للَّهِ) خبر، ونقول بحسب الصناعة النحويّة: جارٌّ ومجرور متعلقان بمحذوف هو الخبر.

فمعنى عبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلُّ الحمد ما نستطيع تصوُّرَهُ وما لا نستطيع تصوُّره على صفات ذات الله وصفات أفعاله، وعلى براءة الله من كلّ الصفات الّتي لا تليق بجلاله هو لله ملكاً أو اختصاصاً.

ويلزم من كون كل الحمد لله تفرُّدُه بهذا الحمد، فلا يشاركُه في كمال الحمد شيْءٌ في الوجود، وهذا يتضمّن الإعلان عن توحيد الله في ذاته وفي صفاته وأسمائه الحسنىٰ.

بهذه الجملة القصيرة يعلّمنا الله كيف نحمده تعالى ونُثْنِي عليه جلّ جلاله، فنحن بوصفنا بشراً محدودي المدارك، لا نستطيع أن ندرك من كمالات الله إلاّ على مقدارنا، إذن فنحن لا نستطيع أن نُحْصِيَ الثناء عليه بما هو له أهل على وجه التفصيل، لكن نستطيع أنْ نقول: كلّ الحمد الذي يمكن أن يُحْمَدَ به الله هو له وحده لا يشاركه فيه أحد، ولدى اختصار هذه العبارة إلى أقل الكلمات الدّالاّت عليها نقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

ولهذا جاء في دعاء الرسول ﷺ على ما رواه مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها:

«اللّهُمّ إنّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذِ بِكَ مِنكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنتَ، كَمَا أَثْنَيتَ علَىٰ نَفْسِكَ».

فالحَمْدُ كُلُّهُ هو مِلْكُ الله، وهو حقُّه، لأنّه هو وحده الذي له كلّ صفات الكمال، وهو وحْدَه المنزّه عن كلّ صفات النقصان، وكلُّ ما سَوَىٰ الله عزّ وجلّ ليْسَ له من صفاتِ كمالٍ يُثْنَىٰ عليه بها، إلاّ مَا وهَبَه الله تعالى، بالخلْقِ، أو بالإمداد، أو بالمعونة، أو بالتوفيق، وبما أنّه هو المانح لكلّ ما يستحقّ حمداً ما، فكلُّ المحامد ترجع إليه، لذا فالْحَمْدُ كلُّه له عزّ وجلّ دون استثناء.

وقد يُطْلَق الحمْدُ على الشكر الذي هو المكافأة على الجميل بالجميل، لأنّ من يُثْنِي على من تفضّل عليه بمنّةٍ ما فإنّه يحاول على قَدْرِه أن يشكُرَهُ على مِنَّتِهِ بتقديم الثناء، وإنْ كان الأصل في الشكر المكافأة على المنّة بنظيرها أو بما يعادلها، فالشكر على العمل يكون بالعمل أو بما يُعادِلُه، والشكر على المال يكون بالمال أو بما يعادله، وهكذا. وشكر الله على نعمه يكون باستخدام ما وهبنا في مراضيه وفي طاعته، وقد يُلْحقُ بذلك الثناء بالجميل، لأنّ الله عزّ وجلّ غنيٌّ بذاته وبصفاته عن كلّ شيء، وشكْرُ عباده له يعودُ نفْعُه إليهم، مع ما يُصِيبُ غير الشاكر من عباد الله من نَفْعٍ، إذا كان شُكْرُ الله موجّهاً بتوجيه الله لهم، كالصَّدَقة على الفقراء والمساكين، وكمعاونة ذوي الحاجات، وقد جاء في كلام الرسول ﷺ عن ابن عُمر:

«أَحَبُّ النَّاسِ إِلَىٰ اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَىٰ مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْناً، أو تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعاً،

وَلأَنْ أَمْشِي مَعَ أَخِي الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ شَهْراً. . .».

فأنفَعُ الْخَلْقِ إِلَىٰ عِبَاد الله أَكْثَرُ النَّاسِ شكراً لِلَّهِ على ما امْتَنَّ الله به عليه.

ويلزم من إثبات كلّ الحمد لله تَوْحِيدُ الله في أزليّته وفي أَبَدِيَّتِه، وفي ذاته وصفاته وأسمائه الحسنىٰ، وهذا هو المبدأ الأعظم لكلّ أركان الإيمان، وهو يتضمّن أنه ربُّ كُلِّ شيءٍ سِوَاه.

● ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

كلمة «رَبٌّ» هي في الأصل مصدر فعل «رَبَّ». يقالُ لُغَةً: رَبَّ فلانٌ الولَدَ أو الصبيَّ أو الْمُهْرَ مثلاً يَرُبُّه رَبًا. كما يقالُ: رَبَّاهُ يُرَبِّيهِ تَرْبِيَةً. وكما يقال: رَبَّبَهُ يُرَبِّبُهُ تَرْبِيباً.

فكلمات: «الرّبّ ـ والتَّربية ـ والتربيب» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِها ومعناها واحد، وهو الإنشاء المتدرّج للشيْءِ حيًا كان أم غير ذي حياة، وتعهُّدُ الشيءِ حالاً فحالاً، وطَوْراً فطَوْراً، بحسب فطرته واستعداداته، فيشمل هذا التعهُّدُ بعموم معناهُ التغذيةَ، والتنميةَ، والإرشاد، والإصلاح، والتقويم، والحفظ، والرّعاية، والتأديبَ، والتهذيب، والتعليمَ إذا كانَ المربَّىٰ يحتاج تأديباً، أو تهذيباً، أو تعليماً، ويشمل أيضاً الإمدادَ المستمرَّ بما يَحْتَاج إليه لبقائه وسلامته، إلى غير ذلك من مفهومات يدركها الباحثون في مَجَالاَت التربية والتعليم.

وهذه التربية تتناول الأحياءَ والنباتات والأشياء غير ذات الحياة، من كلّ ما يحتاج لبقائه أو سلامته تعهُّداً وإمداداً، أو رعايةً وحفظاً.

ثمّ استعيرت كلمة «الرّبّ» من المصدريّة إلى اسم الفاعل، فصارت تُطْلَق كلمة «الرّبّ» بمعنى «المُرَبِّي».

ونظراً إلى معنى التربية ولوازمها أطلقت كلمة «الرّبّ» في لسان العرب على معاني كثيرة، منها: «الملك ـ الأمير ـ السيّد المطاع ـ مالِكُ الشيءِ أو مستحقّه (فرَبُّ كلّ شيءٍ مَالكُهُ أَوْ مستحقّه) ـ المدبِّر ـ القيّم ـ المنعم ـ المُصْلِح للشيء ـ المنمّي للشيء» إلىٰ غير هذه المعاني ممّا يشبهها ويدخُل ضِمْن المفهوم العامّ للتربية.

ولمّا كانت التربية الحقيقية لكلّ شيءٍ في الوجود سوى الله عزّ وجلّ، سواءٌ بخلقه ابتداءً أم بمتابعة بقائه وإمداده ورعايته وتنميته دواماً صفة من صفات الله عزّ وجلّ كان جلّ جلالُه هُوَ رَبَّ العالمين، ورَبَّ كلّ شيء.

ولهذا جاء وصْفُهُ في القرآن المجيد بأنه: «رَبُّ العالمين ـ ورَبُّ كلِّ شيء ـ ورَبُّ السماوات والأرض ـ ورَبُّ السماوات السَّبْع وربُّ العرش العظيم ـ ورَبُّ الشِّعْرَىٰ (= نجم كان يُعْبَدُ في الجاهليّة) ـ ورَبّ المشرق والمغرب ـ وربُّ المشرقَيْن والمغربين ـ وربُّ المشارق والمغارب ـ وربُّ الْفَلَق ـ ورَبُّ الناس ـ ورَبُّ البيت (أي: الكعبة المشرفة) ـ».

فالرُّبوبيّة هي الوصف الجامع لكلّ صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته، واسم «الرّب» هو الاسم الدّل على كلّ هذه الصفات.

وكلمة «العالمين» تُحْمَلُ هنا على كلّ ذي إدْراكٍ وفَهْمٍ وعقْلٍ، فيدخل في العالمين الإنس والجنّ والملائكة، ولا مانع من تخصيصها هنا بالإنس والجنّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

**العالَمُون**: جمع مفرده «الْعَالَم» بفتح اللاّم، وكلمةُ «عَالَم» تُطْلَق على كلّ موجودٍ سُوىٰ الله عزّ وجلّ، وهو مأخُوذٌ من «الْعَلَم» و «الْعَلاَمَة» بمعنى الشيء الذي يوضَعُ ليكون دالاً على شيءٍ آخر، كالأعلام الّتي تُوضَع للدّلالة عن الطُّرُق، أو حُدُودِ الأرض، أو غير ذلك.

وقد دلّ الفكر على أنّ كلّ ما سوى الله عزّ وجلّ من كائنات هي

مخلوقاتٌ دالاَّتٌ على خالقها، وعلىٰ جُمْلَةٍ من صفاته الْحُسْنَىٰ، فهي آياتٌ وعلاماتٌ دالاَّتٌ عليه، فكان من المناسب أنْ يُطْلق على ما سوىٰ الله عزّ وجلّ لفظةُ «عَالَم».

وإذا أردنا أن نجمع لفظة «عَالَم» بمعْنَىٰ أجناس وأنواع وأصناف الموجودات سوىٰ الله عزّ وجلّ قلنا: «عوالم» بصيغة جَمْعٍ لغير العقلاء.

وإذا أردنا أن نجمع لفظة «عالَم» بمعنى أنواع الموجودات الحيّة العاقلة، قلنا: «عالمون» بصيغة جمع العقلاء.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في تفسير لفظة «العالمين» في القرآن.

- فمنهم من قال: كلّ موجود سِوَى الله.
- ومنهم من قال: هُمْ كلُّ من يعقل.
- وقال ابن عباس: هم الجنّ والإنس فقط، لأنّهم هم الذين بُعِثَ رسولُ الله ﷺ إليهم، ورُوِي عنه في قول الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كُلُّ الخلْق.

وهنا نلاحظ أنّ الله جلّ جلاله قد اختار بعلمه وحكمته لعَمَلِيّات خلقه وإبداعه لمخلوقاته، وهيمنته على كلّ ما خَلَق بدْءاً وَدَواماً، أن يكون على نظام التّربية التي سبَق شرح معانيها، لا على نظام الخلْق دُفْعَةً واحدة، ثمّ تركِ المخلوقِ يَسِير وفق البرنامج الموضوع له، دون إمداد ورعاية وحفظٍ وتعَهُّدٍ من خالقه، بل خلق الخلْقَ وفق نظامٍ لا يستغني فيه المخلوقُ عن خالقه طرْفَةَ عَيْن، ولا أقلَّ من ذلك، في كلّ صغيرٍ وكبيرٍ من ذاته ومن صفاته، فلو رفع الله عزّ وجلّ إمداده عن كونه، ورفع إمْسَاكَهُ له في الوجود خِلال أقصر زمن لعَادَتِ الموجوداتُ إلى أصْلها وهو العدم، هذا النظامُ هو نظامُ التّرْبية.

فللَّهِ عزّ وجلّ الرُّبوبيّة المستمرّةُ الّتي لا تنقطع، والمؤثرة بكلّ شيءٍ في الكونِ، من غيبيٍّ ومشهود، ماديٍّ ومعنويّ.

فلا تأخذه سبحانه سِنَةٌ ولا نوم، ولا يخرج عن عِلْمِه وهيمنته وسلطانه وكلّ عناصر ربوبيته صَغِيرٌ في الوجود مهما صَغُر، وكبيرٌ مهما عظُمَ وكَبُر.

وفي عبارة ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ اعترافٌ وإعلانٌ ضمني عن طائفة من صفات الله وأسمائه الحسنى، ذوات العلاقة بالعالمين ذوي العلم والعقل.

ويلزم من كونه ربَّهم وهو العليم الحكيم الذي يفعل ما يشاء ويختار، أن يكون قد خلقهم بصفاتهم الّتي هم عليها، ليبلوهم في ظروف الحياة الدنيا، ثمّ ليجازيهم بعد رحلة امتحانهم في حياة أخرى تكون في يَوْمٍ آخرَ غيرِ يَوْمِ الحياة الأولى، وهذا اليوم الآخر من المناسب أنْ يُطْلَقَ عليه عنوان «يَوْم الدِّين» أي: يوم الحساب وفصلِ القضاء وتنفيذ الجزاء.

ثم إنّ الابتلاء يقتضي أن يرحم الله الممتَحَنِين بإنزال موادِّ امتحانهم، وبعث الرُّسل لهم، وإنزال الكتب لهداياتهم، ومعاملتهم بالتيسير ورفع الحرج، والعَفْوِ والغفران، فجاء قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

**الرَّحْمَٰن**: صفة مُشَبَّهةٌ مأخوذةٌ من الرَّحْمة، وهي مَبْنِيّة على وزن «فَعْلَان» للمبالغة، أي: لإرادة التعبير عن عظيم رحمته البالغة الغاية.

قالوا: وهذا الاسم من أسماء الله الحسنىٰ خاصٌّ بالله تعالىٰ، فلا يُسْتَعْمَلُ في وصف غيره، فأشبه أن يكون علماً.

ومعنى الرحمة في المخلوق رِقَّةٌ في القلْب تدفع الرَّاحم إلى الإحسان والإنعام والمشاركة الوجدانية لذي حاجةٍ أو ألم استثارها.

أمّا الرّحمة بالنسبة إلى الخالق جلّ وعلا فهي صفة من صفاته النّفسيّة على ما يَلِيقُ بجلاله، ومن آثارها الإنعام والإكرام.

وهل لفظ «رَحْمٰن» مصروفٌ أو غيرُ مصروف؟.

فيه قولان، ومال السَّعْدُ التفتازاني إلى جواز الأمْرَيْن فيه.

**الرَّحِيم**: صفةٌ مشبَّهَةٌ أيضاً مأخوذة من الرحمة، وهي مَبْنِيَّةٌ على وزن «فَعِيل» وهو من صيغ المبالغة أيضاً، لكنّ لفظ «رَحْمَان» أكثر حروفاً من لفظ «رَحِيم» ومن مقرّرات أئمة اللّغة العربيّة أنّ زيادة المبنَىٰ تدُلُّ على زيادة المعنَىٰ.

وجاء الجمع بين الرحمٰن والرَّحِيم لأمور، وفيما يظهر لنا منها ما يلي:

(١) تأكيدُ الثناء على الله عزّ وجلّ بصفة رحمته وآثارها في عباده.

(٢) الاسترحام والإشارَةُ إلى الطَّمع الشّديد بإنعام الله وإكرامه وإحسانه واستدرار فيوض عطاءاته، وهذا ما يُشْعِرُ به جَمْع أسماء الله الحسنىٰ المشتقة من الرحمة، قبل إعلان أنّه مَالِكُ يوم الدّين، اليوم الّذي يحتاج فيه العباد إلى عَفْو الله وغفرانه وفَيْضِ مِنَّتِه بإدخالهم جنَّاتِ النعيم دون حسابٍ أو بحِسَابٍ يَسِير، فالْمسترْحِم من شأنه أن يستقصِيَ كلّ أوصاف الثناء الّتي تدلُّ على الرحمة الواسعة التي يتصف بها من يوجّه له استرحامه.

(٣) الإشارة إلى رحمته بإرسال خاتم المرسلين الذي أرسله رحمةً للعالمين، وإلىٰ رحمته بإنزال القرآن الذي هو من مظاهر رحمته بهم، ورحمته بما اصطفى لعباده من الدّين الذي اشتمل على ما يُصْلِح دُنْيَاهم وأخراهم، ويكون لمن اتّبعه سبباً لسعادته الأبَدِيّة في الجنّة دَارِ رحْمَتِه العظمىٰ.

(٤) الإشارة إلى شُمول رحمته جلائل النِّعَم ودقائقَها الَّتي يتفضّل بها علىٰ عباده في الدنيا والآخرة.

وأرى أنّ صيغة «الرحمن» تستعمل غالباً في القرآن للدلالة على شمول رحمته تعالى المؤمنين والكافرين، وصيغة «الرحيم» تستعمل غالباً للدّلالة على خصوص رحمته تعالى المؤمنين، وممّا يدلُّ على هذا أنّ صيغة «رحيم» جاءت في القرآن مقترنة بعبارة «غفُور» والمغفرةُ لا تكونُ إلاّ لمن آمَنَ، وهذا تخصيص في الاصطلاح القرآني.

وعلى هذا تكون صيغة «رَحْمان» أكثر شمولاً للأفراد المرحومين، وتكونُ صيغة «رحيم» خاصّة برحمة الله للمؤمنين، والجمع بينهما يكون على طريقة التخصيص بعد التعميم، والله أعلم.

● ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

﴿مَـٰلِكِ﴾: قراءةُ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلَفٌ في اختياره.

**مَلِكِ**: قِراءة باقي القرّاء العشرة.

لفظ «مَالكِ» هو من المِلْكِ بكسر الميم بمعنىٰ صاحب حقّ التصرّف بالشيء، فمالِكُ الدراهم والدنانير هو صاحب حقّ التصرّف بها، ومالك البيت هو صاحب حقّ التصرّف بسُكْناه، وبَيْعه، وهِبَتِه، وتأجيره، وغير ذلك من تصرّفات، ومالِكُ الثوب هو صاحب حق التصرّف باستعماله وبيعه وهبته وغير ذلك من تصرّفات، وهكذا.

واللَّهُ عزَّ وجلَّ هو مَالِكُ يَوْمِ الدِّين، أي: هو مالِكُ كلِّ شيء في يوم الدّين مِلْكاً تامًّا بالاستقلال الكامل، فلا يُشَارِكه في التصرُّف بأَيِّ شيءٍ أحَدٌ، ولاَ على سبيلِ التمكِينِ والتسخيرِ مِنْه، لأنّ كلَّ حَيٍّ كانَ ذا إرَادَةٍ في الحياة الدّنيا، وكان يَمْلِكُ بِالتَّسْخِير الرّبّاني أن يَتَصَرَّف بما حوله بعض تصرّفات، يَكُونُ يوم الدِّين عَاجِزاً تماماً عن أنْ يتصرّفَ بقدراته أيَّ تصَرُّف، إذْ يَسْلُبُ اللَّهُ الأَشْياءَ المطاوَعَةَ إلاَّ لِقُدرَتِه ومشيئته.

أُطْلِقَ «الْيَوْمُ» وهو الزمن وأُرِيدَ بِهِ كلّ شيءٍ فيه ماديٍّ أو مَعْنَوِيّ، فالْمِلْكُ يَوْمَ الدّين للّهِ وحَدْه.

والمراد بلفظ «الدِّينِ» هُنَا الجزاءُ والمكافأة، وظاهر أنّ تنفيذ الجزاء يستلزم قبلَهُ تَسْلِيمَ كتاب الأعمال، والمحاسبة عليها، أو عَرْضَها، وفَصْلَ القضاء، فجاء الاستغناء بلفظ «الدين» عن كلّ الأمور الّتي يقتضيها الجزاء بالعدل أو بالفضل.

فمالِكُ يوم الدّين هو مالِكُ يوم الجزاء، وهو يومُ قيام الأموات عند بعثهم إلى الحياة الأخرىٰ، للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء بالعدل أو بالفضل.

ولفظ «مَلِك» هو من الْمُلْكِ بضم الميم، وهو حقّ التصرّف في كلّ شيء بالأمْرِ والنهي، والْمَلِكُ في الناس هو الذي له حقُّ التصرف بإدارة شؤون مملكته بالأمر والنّهيّ، وعلى الّذِين هم في دائرة مُلْكه طاعَتُه وتَنْفِيذُ أوامره ونواهيه.

ولمّا كان كلُّ شيءٍ يوْمَ الدِّين خاضعاً لسلطان اللّهِ عزّ وجلّ وحده، وخاضعاً لأمره ونهيه وكلّ تصرُّفاته، إذْ لاَ يجعلُ اللّهُ يَوْمَئذٍ لأَحَدٍ سُلْطاناً ولا حُكْماً ولا أمراً ولا نهياً، حتَّىٰ الشفاعة لا تكون يومئذ إلاّ بإذنه، كانَ وحَدَهُ هُوَ الْمَلِكَ باطناً وظاهراً على وجه الحقيقة التامّة.

فجاءت القراءتان «مَالِكِ يَوْمِ الدِّين» و «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» مُتَكَامِلَتَيْنِ في أداء المعنىٰ الْمُرَادِ بَيانُه والتعبيرُ عنه.

فهو سبحانه يومئذٍ الْمَلِكُ على كُلّ شَيْءٍ بسُلْطَانِهِ العظيم، لا مُشَارِكَ لَهُ في مُلْكه ولو على سبيل المشاركة الصوريّة.

وهو سبحانه يومئذٍ الْمَالِكُ لكلّ شيءٍ، لا مشاركَ له في مِلْكِه (بكَسْرِ الميم) ولو على سبيل المشاركة الصورية.

ويومئذٍ يظهر لكلّ الخلائق كمال ربوبيّة الله لكلّ شيء، وهو الواحد الأحد، لا يشاركه في رُبُوبِيَّتِه ولا في إلّهيته أحد.

وجاء بيان هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

وهكذا اشتملت هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة على أهَمّ الكليّاتِ التي تعبّر عن توحيد الربوبية والإلّهية لله، وعن حكمة خلق الإنسان في الحياة الدنيا للابتلاء، تَمهيداً لمحاسبته وفصل القضاء بشأنه ومجازاته يوم الدين.

## ثانياً: تَدَبُّر ما تَحْتَ العنوان الثاني من الكليّات الكبرىٰ للسورة:

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

سبق تثبيت أُمَّهات القضايا المتعلّقة بتوحيد ربوبيّة الله عزّ وجلّ، المستلزمة لتوحيد إلّهيَّته، وبيان رحمته بعباده المستلزمة لاصطفاء الدّين لهم، وبيان كون الله عزّ وجلّ هو مالِك يوم الدين ومَلِكِهُ، المستلزم لكون الله قد خلق الناس ليبلُوهم في ظروف الحياة الدنيا، ثمّ ليُحاسِبَهم ويجازيهم على ما كان منهم تجاه مطلوبَ الله منهم في رحلة الحياة الدنيا، وهو تحقُّقهم بعبوديتهم لربّهم، إيماناً بالحقّ المطلوب منهم أن يؤمنوا به، وإعلاناً لإسلامهم لله وطاعتهم لأوامره ونواهيه.

وبعد تثبيت هذه القضايا في وَمَضات مُوجَزات تمتدُّ أنوارُها إلى فروعها في آفاق الفكر والنفس، والّتي تدخل تحت عنوان «الإيمان باللّهِ واليوم الآخر»

يقضي الواجب أنْ يتوجّه العبْدُ لربّه فيناجيه بإفراده بالعبادَةِ، وإفراده بالاستعانة في كلِّ أمْرٍ من أموره، وفي كلّ عَمَلٍ من أعماله الظّاهرة والباطنة الجسديّة والنفسيّة، حتَّىٰ فيما يقوم به من عبادةٍ لربّه، لأنّه لا حول ولا قُوّة إلاّ بالله، فيقول خطاباً لربّه، ومُلْتَفِتاً إليه بعد الحديث عنه بضمير الغائب:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.

﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير منفصل منصوبٌ على أنّه مفعولٌ به لفعل ﴿نَعْبُدُ﴾ متقدِّمٌ عليه لإفادة الْحَصْرِ والتَّخْصِيص، بالدّلالة على إفراد الله عزّ وجلّ بالعبادة، والتبرُّؤِ من كُلِّ شِرْك فيها.

فمن أغراض تقديم المعمول على عامله إرادةُ التخصيص والْحَصْر كما هو مقرّر لدى علماء البلاغة.

وعبادةُ الله وحده لا شريك له هو جوهر توحيد الألوهيّة، أي: العبادة لله.

وعبادة الله وحده هي حقُّ الله على عباده، ومطلوبه منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وهو الذي يتوقف عليه استحقاقهم دُخُولَ جِنَّتِه يوم الدّين خالدين فيها أَبَداً.

**العبادةُ في مفهوم الدّين الرّبّانيّ الحقّ:** سلوكٌ إراديٌّ نَفْسِيٌّ، أو ظاهر ذو دوافعَ باطِنة، يُقْصَدُ به أداءُ ما يحبُّ الرّبّ عزّ وجلّ من مربوبيه وما يُرْضِيه منهم ويقرّبهم إليه.

ويدخل فيها الإيمان وأعمال القلب والنفس الإراديّة، وأعمال الجوارح الظاهرة من الأفعال والتروك[1].

---

(١) انظر شرح العبادة في المقولة الأولى من الفصل السابع من كتاب «ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة» للمؤلف.

ثمّ إنّ الاستطاعة الّتي مكّن الله عباده من توجيهها للمُسَخَّرات في الكون، إنّما تكون بإمداد الله لهم بها، في حركة متجدّدة مع تتابع الزّمن على وفق مشيئته، كالطاقة الكهربائية الّتي تتوقّف آثارُها متىٰ انقطع الإمدادُ بها.

فالعبْدُ لا يستطيع بنفسه أن يقوم بأيّ عمل ظاهر أو باطن إلاّ إذا أمَدَّهُ الله عزّ وجلّ بطاقة العمل وأعانه على القيام به.

ولمّا كان واقع حال العبد المخلوق كذلك كان عليه أنْ يُعْلِن لربّه حاجته الدائمة إلى معونته وحْدَه، وأن يُعْلِنَ أنّه لا يستعين في أيّ أمْرٍ من أموره استعانة حقيقيّةً إلاّ به، مؤمناً بهذه الحقيقةِ من الحقائق الّتي يجب على العباد أن يُؤمنوا بها، ومتبرّئاً من حَوْلِه وقوّته، ومتبرّئاً منْ معونة أيّة قُوَّة غيبيّة في الوجود سوى ربّه جلّ جلاله، فيخاطبُه قائلاً: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: ولا نستعين إلاّ بِكَ، والسين في نستعين للطلب، أي: نطلب الاستعانة بك.

وفي التعبير بنون الجماعة في فِعْلَيْ: ﴿نَعْبُدُ﴾ و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ يُلاحِظُ الْعَبْدُ أنّه واحِدٌ من الأمّةِ الرَّبّانيّة المؤمنة العابِدَةِ لربّها، لا تُشْرِكُ بعبادته أحداً، فهو يقولُ معها في مخاطَبَةِ الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وفي هذا تعْميقٌ لمعْنَىٰ الجماعَةِ الرَّبّانِيّة الواحدة، في قلْبِ كلِّ مُؤمنٍ مسلم لله جلّ جلاله، مُنْذُ نشأة الخليقة وإِلَى أن يرث اللَّهُ الأرض ومن عليها، وتَرِثَ هٰذِه الأمَّةُ جنّاتِ النعيم.

وفي قول الْعَبْد لربّه في صلاته وغيرها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ مع ملاحظته لمضمون هذا القول وإيمانه به، يتخلّصُ من الشّرْكِ كلّه، من الشّرْكِ في رُبُوبيّةِ اللّهِ، ومِنَ الشّركِ في إلٰهيّتِه، ومن الشّرك في عبادة غيْره معه.

## ثالثاً: تدبّر ما تحت العنوان الثالث من الكليّات الكبرىٰ للسورة:

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

**تمهيد:**

إنّ عبادةَ الله وحْدَه والاستعانةَ به وحْدَه قياماً بحقّ ربوبيّته وحقّ إلٰهيّته، كما جاء في دلالة الآية (٥) ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ تَسْتلْزِمُ عقلاً أن يسْعَىٰ العابدُ لربّه إلى معرفة الأعمال النفسيّة والجسدِيّة الّتي تُرْضِي ربَّه في عبادته له، حتَّىٰ لاَ يَعْمَل عَملاً يُسْخِطُه وهو يحسَبُ أنَّه يُحْسِنُ صنعاً.

ومعظم أعمال العبادة بعد الإيمان بالله والإسلام له لا يستطيع الرّاغب فيها أَنْ يتوصّل إلى معرفتها عن طريق عقله وتصوّراته لما يُرْضِي رَبَّهُ منه.

فَكَان لا بُدَّ لَهُ مِنْ أنْ يَدْعُو ربَّه سائلاً أن يَهْدِيَه إلَيْهَا، بالبيانِ وبالتوفيق إلى أدائها، لكنّه يُدْرِكُ ببصيرته الإيمانية أنّ برنامج هٰذه الأعمال لا يكونُ إلاّ على صراط مستقيم جليّ واضح لا عِوَجَ فيه ولا عثرات، لأنّ الله عزّ وجلّ عليم حكيم لا يُرضيه من عباده في عبادتهم له إلاّ ما فيه خيرهم وسعادتهم في عاجل أمرهم وآجلِه، وظاهرٌ أنّ تحقيق الخير والسعادة العاجلة والآجلَة لا يكون إلاّ بسُلوك الصراط المستقيم الواضح الجلِيّ المضيء الذي لا شرّ فيه ولا ظلمات.

وبما أنّ العباد عاجزون عن تحديد هذا الصراط بكلّ عناصره، كان لا بُدَّ أنْ يَسْأَلُوا رَبّهم أنْ يهدِيَهُمْ إليه، بما يُنَزِّلُ لِهِدايتهم مُعَلّماً من شرائع وأحكام ونصائح ووصايا وبيانات، وحِكْمَةُ الله جلّ جلالُه في هذا التنزيل اقتضت أن يُنَزِّلَها على رسولٍ مصطفى لحمل رسالات الله لعباده.

وهم محتاجون في سلوكهم الصراطَ المستقيم إلى معونة من الله بالتوفيق، وبإيجاد الدافع إلى سلوكه، ويَدْخُلُ هذا في عموم طَلَب الهداية إليه من الله.

وحين تكون هذه الحقيقة حاضرةً في تصوُّر العبد المؤمن الحريص على أن يعبُد الله بما يُرْضيه من عباده، وهو يَعْلَمُ أنّه واحِدٌ من الأمّة الرَّبّانيّةِ المؤمنَةِ المسلمة، الَّتي يحرص كلّ فردٍ من أفرادها على أن يعبُدَ ربّه بما يُرْضيه، فإنّه يَدْعو رَبَّه شاعراً بمشاركَتِه لكلّ فَرْدٍ من أفرادها فيما تَدْعُو رَبَّها به، فيقول:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

**التدبر التحليلي للآية:**

● ﴿ٱهْدِنَا﴾: أي: أَعْلِمْنَا وأَرْشِدْنَا وَدُلَّنَا، ووفقنا أيضاً وأَوْجِدْ لدينا الوازع والدّافع لنا، وصيغة: «اهْدِنَا» أمْرٌ مُسْتَعْمَلٌ في الدّعاء.

يُقَالُ لُغَةً: هَداهُ الطّرِيقَ، وهَداهُ إليه، وهَدَاهُ لَهُ، إذا أعلمه به، وأرشَدَهُ إليه، ودلَّه علَيْه.

وقد يُسْتَعْمَلُ فعل «هَدَاه» بمعنى وفَّقَهُ، وبمعنىٰ أوْجَد لدَيْه الدّافِعَ لالتزام الْهُدَىٰ والعمل به، وهذا من التوسُّع في دلالة اللفظ.

وقد يستعمل فعل «هَدَاهُ» بمعنى وَجَدَهُ مَهْدِيًّا فَنَسَبَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، أو حَكَمَ له بأنَّه ذو هِدَايَةٍ، ولكن هذا المعنى غير مرادٍ هنا.

● ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: وجاء في القراءات المتواترات كما سبَقَ نُطْقُ الصاد سيناً «سِرَاط» ونُطْقُها مشمومة زاياً «الظّراط».

**والصراطُ:** هو الطريق الواضح الجليُّ، وقيل: سُمِّيَ سِرَاطاً لأنّه يَسْتَرِطُ سالكيه، أي: يبتلِعُهم بِيُسْرٍ وسهولة دون حاجة إلى تزاحم.

وجاء إطلاق لفظ «الصراط» على الشرائع، والأحكام، والنصائح، والوصايا، وسائر البيانات الدينيّة، المتعلّقة بسلوك العباد الباطن والظاهر في الحياة الدنيا، عبادَةً لربِّهم، على سبيل الاستعارة القائمة على تشبيه البرنامج الموصل إلى السعادة الّتي هي أَجَلُّ مقاصد أولي الألباب بالصراط الموصل إلى الغاية المطلوبة للسالكين في أسفارهم، وتنقلاتهم في حواضرهم وبواديهم.

ومعلومٌ أنّ الحياة الدنيا إنما هي بمثابة رحلة مُسَافِرٍ إلى الدار الآخرة، دار الحياة الباقية الخالدة، دار القرار.

● ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: جاء لفظ «المستقيم» وصفاً للصراط الذي يدعو العبد المؤمن المسلِمُ رَبَّه أنْ يهديه إِلَيْهِ تعليماً وتوفيقاً ودَفْعاً ووَزْعاً.

**المستقيم**: هو الذي لا عِوَجَ فيه ولا انحراف عن الحقّ والخير وما هو الأفضل والأَحْسَنُ والأَصْلح.

والصراطُ المستقيم أقْرَبُ مَسْلَكٍ مُوصلٍ بين مبدأٍ وغايَة.

وقد اصطفىٰ الله لعباده الدِّين بشرائعه وأحكامه وبياناته وتعليماته، فهو لهم الصراطُ المستقيم، فمن التزم به في سلوكه في الحياة الدنيا، نَالَ السعادةَ والنجاحَ والفلاحَ، وظَفِرَ يوْمَ الدِّين بجنّاتِ النعيم، وكانت درجته فيها على مقدار التزامه به ارتقاءً، والالتزامُ الأكمل به يوصل بفضل الله إلى درجَات مرتبة الفردوس الأعلى.

والصراط المستقيم هو الصراط الذي اختاره الله لِنَفْسِه في مُجْرَيات مَقَادِيرِه وشرائِعِهِ وما اصطفاه لعبادِه مِنَ الّدِين، ومِنَ الصراط المستقيم ما كان عليه رسولُ الله محمّد ﷺ والمرسَلُون والأنبياء من قبله، وهو الذي التزم بسلوكه الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين، وهو الصراط الذي أوصَىٰ الله عباده بالتزام سلوكه في كلِّ الرّسَالَات التي أَرْسَلَ رُسُله لتبليغها للناس.

فمن شاء أَنْ يكونَ من حِزْب الله عزّ وجلّ، متابعاً موكب الرُّسُل والأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، فعلَيْه أن يَعْرِفَ صِرَاط الله المستقيم ممّا أنزل على رسوله الخاتم، وأن يلتزم سُلوكَهُ ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً.

❀ ❀ ❀

## رابعاً: تدبر ما تحت العنوان الرابع من الكليّات الكبرىٰ للسُّورة:

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾.

**تمهيد:**

المؤمن المسلم الّذي أعْلَن أنه يَعْبُد ربّه وَحْدَه، ويستعين به وحْدَه، ولا يُشْرِك بربّه شيئاً في العبادة ولا في الاستعانة، والذي سأل ربّه داعياً أنْ يهديه الصراط المستقيم الذي يُوصِلُه إلى مرضاة الله وإلى جنّات النّعيم بفضل الله عليه، لا بُدّ أنْ يشعُر بأنّه فَرْدٌ يتابع مسيرته في الحياة الدنيا على صراط الأمّة الرّبّانيّة الواحدة، في موكبها المتواصل منذ عهد آدم عليه السلام، ولا بدّ أن يشعُر بأنّ هذه الأمّة هي الأمّة التي أنعم الله عليها فوفقها إلى سلوك صراط ربّها المستقيم، وأنعم عليها فجعلها بفضله مَجْزِيَّةً على إيمانها وإسلامها وصالحاتِ أعمالها بجنَّاتِ النّعيم يوْمَ الدّين، وبرضوانه العظيم.

وإذْ يشْعُر هذا الشعُورَ المريح المُسْعِدَ لقلْبه، فمن شَأْنِه أن يُلْقِيَ نظرةً عامّةً على تاريخ الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الابتلاء، فيدرك أنّهم أقسام رئيسيَّةٌ كُبْرَىٰ ثلاثة، على فروعها وزُمَرِهَا وفُرَقَائِها:

**القسم الأول**: وهو القسم الناجي السعيد، وينضوي تحته الذين عرفوا ربَّهم أنّه الحقّ، فآمنوا به، واتّبعوا رضوانه مسلمين، فهم المؤمنون المسلمون الّذين اختاروا لأنفسهم بالإيمان والإسلام لله عزّ وجلّ أن يَسْلكوا صراطَه المستقيم على امتداده، بعد أن دخلوا أوائله بالإيمان والإسلام والتوجّه لِلّه بالعبادة والاستعانة مُوَحِّدين غيْرَ مُشْرِكين.

وموكبُ هذا القسم على أرتاله المتتابعات يقودُهُ المرسلون فالنَّبِيّون، فأئِمَّة المتّقين، من الصّدّيقين والشهداء والصالحين.

وأفرادُ هذا القسم قد أنْعَمَ اللّهُ عليهم بَعْد صِدْقهم في طَلَبِ الحقّ، وسُلُوكِ صراطِ الْهُدَىٰ، صِرَاط الله المستقيم، بالتوفيق والمعونَة والهداية في متابعة مسيرتهم، والْحُكْم لَهُمْ بأنَّهُمْ مَهْدِيُّون، وبأنّهم من أصحاب جنّاتِ النّعيم يوْمَ الدِّين.

**القسم الثاني**: وهو القسم المعاند للحقّ الرَّبّانيّ، المستَحِقُّ غضَبَ الله عليه، بسبب عِنَادِه ورَفْضِه الاعترافَ بهذا الحقّ، والإذْعانَ له، ورَفْضِه اتِّبَاعَ مرضاة الله.

وأفرادُ هذا القسم قد عرفوا أصولَ الدِّين أوْ أُمَّهاتِها معرفةً ذهنيّةً فكريّة، لكنّهم لم يُؤْمِنُوا بها إيماناً إرادياً اختيارياً قَلْبِيّاً، بل عاندوها، فرفضوا الإيمانَ الإراديَّ بالحقّ الذي جاء به رُسُلُ الله، واستنكَفُوا عَنْ أن يكونوا عبيداً لله باختيارهم، يَتَّبِعُونَ رضوانه، ويُطيعُونه في أوامره ونواهيه، فاستحقُّوا بسبب عنادهم واستنكافهم عن عبادة ربّهم أن يَغْضَبَ الله عليهم، ويَجْزيَهُم بعذابٍ شديد خالدٍ في قاع الجحيم.

وفي هذا القسم طوائفُ وفِرَقٌ وزُمَرٌ كثيرة.

**القسم الثالث**: وهو القسم الضّالّ السائر في متاهات الضلالة، ملتزمين تَقَالِيدَهم على غير بصيرة، تعصُّباً للقوم أو الآباء والأجداد، أو للجماعة

الّتِي يَنْتَمُون إليها، أو هم يَتَّبِعُون أهواءَهم وشهواتهم ومطالِبَهُمْ من الحياة الدنيا، غَيْرَ مُسْتَخدمين أدوات المعرفة الّتي وهبهم الله إيَّاها فيما خُلِقَتْ لَهُ، بل استخدمُوها في تحقيق رغباتهم من الحياة الدنيا فقط، فلَمْ يُوَجِّهوا أنفسهم لأن يَسْعَوا إلى معرفةِ منْ خلَقَهُمْ، ولا إلى مطلوبه منهم، ولا إلى الحكمة من إيجادهم، ولا إلى المصير الذي هم إليه صائرون، فاستحقُّوا أنْ يُوصَفُوا بأنّهم ضَالُّون.

وأفراد هذا القسم الضالّ ينقسمون إلى فِرَقٍ متعدّدة:

(١) فريقٌ وَجَدُوا من يَدْعوهم إلى معرفة أصول الدين الحق، ومعرفة مطلوب رَبّهم منهم في رحلة الحياة الدنيا، فأعرضوا ولم يكترثوا للدعوة ولم يَعْبَؤوا بها، ولم يَكَلِّفُوا أنفسهم التفكُّرَ في آيات الله في كَوْنِه، ولم يَتدبَّرُوا آياته المنَزَّلاَت، إيثاراً لاتّباع ما كان علَيْه قَوْمُهُمْ أو آباؤهم وأجدادهم أو جماعتهم الّتي ينْتَمُون إليها، بتقليد أعْمَىٰ.

فهم ضالُّون اسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ والظُّلُمَات، وآثَروهما على الْبَصَرِ والنُّورِ والْهُدى، فَهُم بإراداتهم الحرَّة قد اختاروا لأنفسهم البقاء في الْجَهَالة والضَّلالة.

وأفراد هذا الفريق مسؤولون عن اختيارهم البقاءَ في الجهالة وفي الضلالة، فهم خارجون حتماً عن دائرة من أنعم الله عليهم، فلا يَسْتَحقُّون دُخُول الجنَّةِ مع أصحابها، بل يستحقّون دخُولَ دار العذاب، وأن يذُوقَ كلّ واحدٍ منهم فيها من العذاب على مقدار ما لَدَيْهِ من قُوَّةِ إعْرَاض عنْ دَعْوَة الحقّ الّتي وُجِهتْ له.

(٢) وفَرِيق عاشوا في حياتهم الدّنيا كالأنْعَام السَّائمة، ولم يجدوا من يدعوهم إلى معرفة أصول الدّين الحقّ، ومعرفةِ مطلوب ربّهم منهم في رحلة الحياة الدنيا، إلاّ أنّ عقولهم توصَّلَتْ إلَىٰ معرفة أنّ لهذا الكون رَبًّا

خالقاً، وأنَّ من حَقِّهِ عليهم أَنْ يؤمنوا به وأن يعبدوه عبادةً ما، لكنَّهم آثَرُوا اتِّباع أهوائهم وشهواتهم من الحياة الدّنيا، فلَمْ يُتابعوا البحث، لئلاَّ يَشْعُرُوا بالإِثم تُجاهَه، إذا طَغَوْا وبَغَوْا وظَلَمُوا.

وأفراد هذا الفريق مسْؤُولُونَ عمّا تَوَصَّلَتْ إليه عقولُهُم، ومسؤولون عن إهمالهم مُتابعةَ الْبَحْثِ لِئَلاَّ يكُفَّهُمُ الإيمانُ بربّهم والخوفُ من عقوبته عَنْ تحقيق رغباتِ نُفُوسِهم بالظُّلم والعدوان.

وهؤلاء يدخلون في عُمُوم الضالّين، وعليهم من المسؤوليّة بمقدار حالة نفوسهم الّتي جعلتهم يُهْمِلُون مُتَابَعَةَ البحث الذي فتح الله لهم فيه أَبوابَهُ الأولى، فالْمُسْتَحِقُّ منهم أنْ يُدْخِله الله يوم الدّين دار العذاب أدخله، ولا يظلم اللَّهُ عزَّ وجلَّ أحداً.

(٣) وفريق لم يجدوا من يدعوهم إلى معرفة أصول الدين الحقّ، ومعرفة مطلوب الله منهم في رحلة الحياة الدنيا، ولم يتفكّروا في آيات اللَّهِ في الكون ولا في أنفسهم، ولم يتوصَّلُوا بأنفسهم إلى معرفة ربّهم، ولا إلى معرفة أيِّ واجبٍ عليهم تُجاهَه، بل عاشوا في حياتهم الدُّنيا كالأنعام السّائمة، أو الوحوش الهائمة.

وهؤلاء يدخلون أيضاً في عموم الضالّين، وقد جاء بشأنهم في السنَّة أنّ الله عزّ وجلّ يُجْرِي لهم نَوْعَ اخْتِبَارٍ قبل أن يَقْضِي بشأنهم، ليكْشِفَ حقيقةَ نفوسهم، فمن اجتاز هذا الاختبارَ بنجاح أَدْخَلَه جنَّته، ومن سقط فيه أدخله دار العذاب، واللَّهُ أعلم، ونحن نعْلَمُ بيقينٍ أنّ الله لا يظلم أحداً مثقالَ ذرّةٍ ولا أصْغَرَ من ذلك، وأنّ فضله على عباده عظيم، وأنّ رحمته واسعة، وسِعَتْ كلَّ شيْءٍ.

وفي سورة «الفاتحة» يُعَلّم اللَّهُ عزّ وجلّ المؤمنَ المسلم العابد لرَبّه أن ينظر هذه النظرةَ إلى تاريخ الموضوعين مثْلَه موضع الامتحان في ظرف الحياة الدنيا، وأَنْ يُلاحظ أنّهم على ثلاثة أقسام رئيسيّة:

- قِسْمٌ أنعم الله عليهم، على مراتبهم ودرجاتهم.
- وقسمٌ غضب الله عليهم على منازلهم ودركاتهم.
- وقسم ضالّون على اختلاف عوامل ضلالهم، واختلاف زُمَرِهِمْ وفِئاتهم.

فجاء فيها بيانُ أن الصراط المستقيمَ هو صِراط الذين أنعم الله علَيْهِم، وأنّ هؤلاء الذين أنعم الله عليهم مُغَايِرُون مغايَرَةً تامّة كلّيّة للّذين غضب اللّهُ عليهم، ومُغَايرون أيضاً لِفرَقِ الضّالين، فيقول المؤمن المسلم العابد لربّه في ختام السورة:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

## التدبر التحليلي للآية (٧):

- ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: بَدلٌ من ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في الآية السابقة، أو عطف بيان. والغرض إضافة وصْفٍ جديد للصراط غير كونه مستقيماً، أي: وهو الصراط الذي اختار سُلُوكه المؤمنون المسلمون الّذين أنعم الله عليهم بالهداية إليه، والتوفيقِ والمعونة حتّىٰ سَلكُوه، ثمّ أنْعَمَ عليهم بالحكم لهم بأنهم مَهْدِيُّونَ فائِزُون، وفي مقدّمتهم النبيُّون والصدّيقون والشهداء والصالحون وأئمة المتقين.

- ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: يقالُ لغةً: أَنْعَمَ عَلَيْهِ يُنْعِمُ إنْعَاماً، أيْ: أَفْضَل وزَادَ، ومَنَحَهُ شيئاً نفيساً مِمَّا يُحبُّ. والنِّعْمَةُ تأتي اسماً للإنعام.

وألفاظُ «النِّعْمَةِ والنَّعْمَاءِ والنُّعْمَىٰ» تُطْلَقُ في اللّغة على الدَّعَةِ والْمَالِ وخَفْضِ العيْشِ والرَّفَاهِيَة وأَسْبَابِها، ضدّ البأْسَاءِ والبؤْسَىٰ، وتُطْلَقُ على المِنَّةِ والعطِيَّةِ السّارَّة.

ونِعَمُ الله على عبَادِه كثيرةٌ لا يستطيعون إحصاءها، ومنها السَّمْعُ والبصَرُ والرزق.

والنِّعْمَةُ بمعناها الشامل تُطْلَقُ على كلّ ما فيه نَفْعٌ وخَيْرٌ مادّيٌّ أو معنويٌّ للدُّنيا أو للآخرة.

فمن نعم الله الجليلة علىٰ عباده ما يلي:

- الفكر الْمُدْرِك للمعارف.
- الإرادة الممكَّنَةُ من حرّيّة الاختيار.
- الحواسُّ الظاهرة والباطنة، والرزق والصحة وكلّ الأسباب التي تجْلُبُ نفعاً وخيراً.
- تسخير المسخَّرات في الكون، كالشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار والجبال واللّيل والنهار والأنعام والمراكب وغيرها.
- الدِّينُ الذي اصطفاه الله لعباده.
- بعْثُ الرُّسُل الأكرمين، وفي خاتمتهم سيدنا محمّد ﷺ.
- إنزال القرآن الحاوي لما فيه هداية البشر، وإرشادُهم إلى صراط سعادتهم العاجلة والآجلة.
- ما أعدَّ الله للمؤمنين المتقين من جنّات النعيم، يدخلونها يوم الدين بفضل الله ورحمته بهم ومنها عفْوُه وغفرانُه.

## إطلاق لفظ النعمة في القرآن على الرسالة وعلى الدين:

وقد جاء في القرآن الكريم إطلاق لفظ «النِّعْمَة» على الرّسالة وعلى الدّين، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾.

أي: ما أنت بالنبوّة، والرّسالة، والدِّينِ الذي حمَّلك ربُّك رسالة تبليغه للناس، والقرآنِ المجيد، بمجنون.

وقال عزّ وجلّ له في سورة (الضُّحَىٰ/ ٩٢ مصحف/ ١١ نزول):

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾.

أي: فبلِّغ ما يُنزِّلُ الله عليْكَ من الدِّين بأسلوب الحديث الهادئ.

وقال تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لأمة محمد ﷺ بعد أن أنزل على رسوله أواخر الأحكام الدينيّة:

﴿... ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ...﴾.

وجاء في القرآن إطلاق لفظ «النِّعْمَةِ» على ما سخّر الله للناس في كونه من مسخّرات، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٣١﴾.

وجاء في القرآن إطلاقُ لفظ «النِّعْمَة» على ما تفضّل به الله على يونُس عليه السلام بعد أن لفظه الحوت على الشاطئ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) بشأنه:

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾.

وجاء في القرآن إطلاق لفظ «النِّعْمَةِ» على ما يتفضّل الله به على عباده من دخول الجنَّة، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/

٥٦ نزول) حكايةً لقول المؤمن في الجنّة يخاطبُ رجلاً من أصحاب النار وهو في النار وقد كان قريناً له في الدنيا، وكان يحاول إغراءه بأن يكْفُر بيوم الدّين:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ولولا نعْمَةُ اللّهِ عليَّ بالتوفيق إلى الإيمان، وبالعفو والغفران لكُنتُ مَعكَ من الْمُحْضَرِين في الجحيم.

● ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: «غيرِ» بدل من «الَّذِينَ» في عبارة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهو بدلُ مجرور من مجرور.

**المغضوب عليهم**: هُمُ الَّذينَ أنزل الله عليهم غَضَبَه، بسبب كفرهم وعِنَادهم وإصْرَارِهم على الباطلِ ورفضِ الحق الدّيني، وهم يَعْلَمُون أنّهم مُبْطِلُون.

**الغضب**: عند أهل اللّغة: هو ضِدُّ الرّضَىٰ، ويكون الغضب محموداً إذا كان من أجل الدّين والحقّ، ويكون مذموماً إذا كان بغير حَقٍّ أو من أجل هوى النفس ودوافعها السيئة.

والْغَضَب في النّاس انفعالٌ نفسيٌّ يستثيره فِعْلٌ مكروهٌ لَدَيْهَا، ومن آثاره الرَّغبةُ في الانتقام ممَّن فَعَل المَكْرُوه.

أمّا غَضَبُ الله على مستحِقّيه من عباده فهو صفة من صفات الله عزّ وجلّ على ما يليق به سبحانَه، ومن آثاره العقوبة العادلة والانتقامُ بالحقّ.

● ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: جيء بحرف النفي «لاَ» لتأكيد معنى النَّفي

الّذي دلَّتْ عليه لفظة «غير» في عبارة: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ فهي بمثابة لفظة «غير» أي: غَيْرِ المغضوب عليهم وغَيْرِ الضالِّينَ. والحكمة من التصريح بالنفي إلى جانب الضالّين الدّلالة على أنَّ قِسْمَ الضّالّين قِسْمٌ قائمٌ بذاته غَيْرُ قسم المغضوب عليهم.

**الضلال في اللُّغَةِ**: ضِدُّ الهُدىٰ والرَّشاد، ويأتي بمعنىٰ الجهل بالشيء، وبمعنى الضَّيَاع، وبمعنى النّسْيَان.

● فخالي الذهن من معرفة الشَّيءِ يُقال بشأنه: هو ضالٌّ، أي: جاهل، ويُعْذَرُ بجَهْلِه، إلاَّ إذَا دُعِيَ إلَىٰ معرفة الحقّ كطريق آمن موصل إلى الغاية فلم يَسْتَجِبْ، فإنّه يكون غير مَعْذُورٍ بجهله وضلاله.

● والباحث عن معرفة الشيءِ الذي لم يهتَدِ إليه يقالُ بشأنه: هو ضالٌّ، أي: ضائع، ويُعْذَرُ بضياعه، إلاّ إذا دُعِيَ إلى معرفة ما يَبْحَثُ عنه فرفَضَ دَعْوَة الداعي، ولم يلْتفِتْ إلى دعوته ولا إلى ما يُقدِّمُه من أدلّة إذا كان الأمْرُ يحتاجُ أدلّة إثبات أو نَفْي.

● والنَّاسِي الذي لم يكُنْ منهُ إِهْمالٌ مقصودٌ هو ضالٌّ معذور بضلاله، أي: بنسيانه.

● أمّا الضّالُّ عن الطريقِ الجائرُ بإرادته اتّباعاً لأهوائه وشهواته ونزعات نفسه ونزغاتها، فإنّه مُكابرٌ مُعَانِدٌ للحقّ من الدرجة القصوىٰ، ويستَحِقُّ أشَدَّ العقاب، ومن هذا الفريق علماء اليهود المكذبون للقرآن عناداً.

● وأمّا الْمُعْرِضُ عن دَعْوَة الداعي إلى الحقّ وإلى سبيل النَّجاة والوصول إلى الغاية السعيدة، والسائِرُ في متاهاته على غير هُدىً، فإنَّهُ ضَالٌّ غير مَعْذُورٍ في ضلاله، وهو مَغْرُورٌ معانِدٌ لمعرفة الْحَقّ، راضٍ بما هو فيه من ضَلاَلَةٍ وجهالة، وهو يحسب أنّه على الحقّ وأنّه يُحْسِنُ صُنْعاً، فَجُرْمُهُ دون

جُرْم المعانِدِ للحقّ من الدرجة القصوى، ويَسْتَحِقُّ من العقاب دون عقابه، ومن هذا الفريق جماهير كثيرةٌ من النصارىٰ الضالّين التائهين الذين يُعْرِضون عن دَعْوَةِ من يدعوهم إلى الإسلام والْعَمَلِ بما جاءَ به خاتم المرسلين.

وقد جاءت عدّة روايات عن النّبي ﷺ أنّه فَسَّرَ المغضوب عليهم باليهود، وفسَّرَ الضَّالّين بالنّصارىٰ، وهذا فيما أرىٰ تَفْسِيرُ تَمْثِيلٍ، لا تفسير تخصيصٍ وتعيين، فحالُ اليهود حال من عرف الحقّ الذي جاء به رسول الله ﷺ، فرفض اتّباعه مكابرةً وعناداً، فقد أَبَانَ الله عزّ وجلّ أنّ اليهود في المدينة قد عرفوا صِدْقَ الرسول محمّد ﷺ وصِدْقَ رسالته، إلاّ أَنّهم كابروا وعاندوا بغياً من عند أنفسهم، وهذا مَحْمُولٌ على علمائهم والعارفين منهم.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأنهم:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وحال جماهير النّصارىٰ حال من أعرض عن الإصغاء إلى دعوة الحقّ، فظلّ ضَالاً في متاهته وهو يحسَبُ أنّه يُحْسِنُ صنعاً.

إلاّ أنّ حال بعض النصارىٰ كحال علماء اليهود، عرفوا الحقّ الذي جاء به محمد ﷺ والذي اشتمل عليه القرآن، ولم يتَّبِعُوه اتّباعاً لأهوائهم وشهواتهم ومصالحهم الدنيويّة، فهم من المغضوب عليهم.

وحالُ بَعْضِ جهلة اليهود كحال جماهير النصارىٰ الضالّين التائهين، الذين يَحْسَبُون أنّهم على الحقّ، فلا يَلْتفتون إلى الدعوة إلى الإسلام، ولا يُصْغُون إلى بياناتها.

ومن غير اليهود والنصارىٰ من هم مغضوبٌ عليهم ومن هم ضالُّون، والنصّ القرآنيّ يشْمَلُهُمْ بِعُمُومه، وتصنيفهم يكون بحَسَب أحوالهم.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر سورة (الفاتحة) على ما فتح الله به عليّ، وأعتقد أنّ للسورة أبعاداً وأعماقاً لم يَصِلْ إليها هذا التَّدَبُّر.

❁ ❁ ❁

## ملاحق لتدبّر سورة الفاتحة

**الملحق الأول:** حول كلمة: «آمين» بعد تلاوة الفاتحة.

**الملحق الثاني:** بلاغيّات في السورة.

**الملحق الثالث:** وجوب تلاوة سورة الفاتحة في الصلوات.

**الملحق الرابع:** تدبّر الآيات التي جاء فيها لفظ الصراط ونحوه، وهي: «السبيل ـ الطريق ـ المنهاج ـ الصراط».

## (٦)
## الملحق الأول
## حول كلمة: «آمين» بعد تلاوة الفاتحة

آمِينَ: كلمة تُقال عَقِب الدّعاء، ومعناها اللَّهُمّ اسْتَجِب. ويُقالُ: أمَّنَ فلانٌ تأميناً أي: قال بعد الفراغ من تلاوة الفاتحة، أو الفراغ من دُعاءٍ: آمين.

وهي كلمةٌ مبنيّة على الفتح مثل: أَيْنَ وكَيْفَ، وفيها لغتان، تقولُ العربُ: آمِينَ بمَدِّ الهمزة، وهي الأكثر، ومنه قول عُمَر بن أبي ربيعة:

يَا رَبِّ لاَ تَسْلُبَنِّي حُبَّهَا أَبَداً ... وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْداً قَالَ آمِينَا

وتقولُ أيضاً: أَمِينَ، دون مدِّ الهمزة، ومنه ما أنشده ابنُ بَرِّي لشاعرٍ:

سَقَىٰ اللَّهُ حَيًّا بَيْنَ صَارَةَ والْحِمَىٰ
حِمَىٰ فَيْدَ صَوبَ الْمُدْجِنَاتِ الْمَواطِرِ(١)

---

(١) صَارَة وحِمَىٰ فَيْد: اسمان لموضعين. الْمُدْجِنَات: السُّحُبُ المَجلّلَةُ للأرض وأقطار السماء، الحاملة للماء. المَوَاطِر: التي تُمْطِرُ، جمع «ماطرة».

أَمِـيـنَ وَرَدَّ الـلَّـهُ رَكْـبـاً إِلَـيْـهِـمْ بِـخَـيْـرٍ وَوَقَّـاهُـمْ حِـمَـامَ الْـمَـقَـادِرِ[1]

والسنَّةُ الصحيحة الصريحة الثابتة تواتراً قد دلّت على مشروعيّة التأمين عَقِب الانتهاء من تلاوة الفاتحة فمنها ما يلي:

(١) أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حُجْر قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: آمين مدَّ بِهَا صَوْتَه».

ولأبي داود: «رَفَعَ بِها صَوْتَه».

قال الترمذي: حديث حسن، وأخرجه أيضاً النَّسائي وابن أبي شيبة وابْن ماجه والحاكم وصحّحه.

(٢) وأخرج وكيع وابن أبي شيبة عن أبي مَيْسَرَة قال:

«لمَّا أَقْرَأَ جبريلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَاتِحَةَ الكتَاب فَبَلَغَ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: قُلْ: آمِينَ، فقال: آمِينَ».

(٣) وأخرج ابن ماجه عن عليّ رضي الله عنه قال:

«سمعْتُ رسول الله ﷺ إذا قال: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: آمِينَ».

(٤) وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابْنُ ماجه عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا قَرَأَ (يَعْنِي الإمام): ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقولُوا: آمِينَ يُحِبَّكُمُ اللَّهُ».

(٥) وأخرج البخاريُّ ومُسْلِمٌ وأحمد وأصحابُ السُّنَن وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) **حِمَامُ المقادر**: قضاء الْمَوْتِ الذي تقضي به المقادير.

«إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا فإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وقال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول: «آمين».

وفي رواية عند البخاري ومسلم:

«إِذَا قالَ أَحَدُكُمْ: آمين، وقَالَتِ الْمَلائِكَةُ في السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

❀ ❀ ❀

## (٧)
## الملحق الثاني
## ممّا جاء في سورة الفاتحة من بلاغيّات ما يلي:

(١) التسلسل في التعبير من الأعم إلى الأخصّ فالأخص في عبارات متتابعات:

• فعبارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تضمّنت إثباتَ كلّ صفات ذات الله وأفعاله وثناءً على الله بها.

• وعبارة: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تضمَّنَتْ إثباتَ كلّ صفات رُبوبيّة الله لخلقه، وثناء على الله بها، وهي أخصّ من كلّ صفات الله عزّ وجل.

• وعبارة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تضمّنَتْ إثباتَ كلّ صفات رحمته وثناءً على الله بها، ومنها أنّه الرّزاق الفتاح الرّؤوف المغني النافع الهادي العفوّ الغفور البرّ التوّاب، وهذه أخصّ من صفات ربوبيته، جلّ جلاله.

• وجاءت عبارة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ أو (مَلِكِ يَوْم الدِّينِ) أَخصّ من عبارة: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّ هذه تَعُمُّ الدّنيا والآخرة.

(٢) الالتفاتُ البديع في عبارة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فقد كان الكلامُ قبْلَها جارياً على أسلوب ضمير الغائب في الثناء على الله، فالتفت إلى أسلوب ضمير الخطاب له جلّ جلاله.

(٣) إفادة التخصيص والحصر بتقديم المعمول على عامله في آية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أي: ما نَعْبُدُ غيرك، ولا نستعين غيرك، ولو تأخرَ المعمُولُ على عامله لَمَا حصلت هذه الإفادة، وتكون العبارة في التأخير: «نَعْبُدُكَ ونسْتَعينُكَ» إذ الضمير المنفصل يتحوّل فيكون ضميراً متصلاً.

(٤) صيغة الأمر في عبارة: (إهْدِنَا) مستعملةٌ بمعنى الدعاء لأنها من العبد لربّه.

❁ ❁ ❁

## (٨)
## الملحق الثالث
## وجوب تلاوة الفاتحة في الصلاة

● ذهب جمهور الفقهاء المجتهدين من المسلمين إلى أنّ تلاوة الفاتحة واجبة في كلّ ركعة من ركعات الصلاة، خلال ركن الوقوف منها، بالنسبة إلى من قدر على تلاوتها سواءً أكان إماماً أمْ منفرداً، وأنّ الركعة لا تحتسب من ركعات صلاة المصلّي دون تلاوتها إلاّ المسبوق، فقد رأوا أنّ الإمام يتحمّل عنه ما لم يستطيع تلاوته منها، حتىٰ لو أدركه راكعاً فركع معه بعد تكبيرة الإحرام قبل أن يرفع الإمام من الركوع فإنّ الركعة تُحْتَسَبُ له، وتردّد في هذه بعض المتأخرين.

● وذهب قليل من الفقهاء ومنهم الحنفيّة إلى أنّه لا تشترط لصحة الصلاة تلاوةُ الفاتحة، بل تجزئ المصلّيَ تلاوةُ ما تيسّر من القرآن، ولو من

غير الفاتحة، إلاّ أنه يكون قد ترك واجباً ليس شرطاً في صحة الصلاة، وهذا على ما ذهب إليه الأحناف من التفريق بين الفرض والواجب.

واستدل الجمهور لما ذهبوا إليه بما يلي:

(١) روى البخاريّ ومسلم وأحمد وغيرهم عن عبادة بْنِ الصامت رضي الله عنه، أنّ النبيّ ﷺ قال:
«لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرأ بفاتِحَةِ الكِتَابِ».

(٢) وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ صَلَّىٰ صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، غَيْرُ تَمامٍ».

فقيل لأبي هريرة: إنّا نَكُونُ وراءَ الإمام؟ فقال: إقرأْ بِها في نَفْسِكَ.

**الْخِدَاجُ**: النقصان، يقال لغة: خدَجَتِ النّاقة، إذا ألقت ولدها قبل أوان النّتاج.

(٣) قال ابن كثير في تفسيره: وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعاً:

«لاَ تُجزِئُ صَلاَةُ مَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأُمِّ الْقُرْآن».

فالأحاديث هذه صريحة في الدّلالة على ما ذهب إليه جمهور الفقهاء المجتهدين.

واستدلّ الحنفيّة لما ذَهَبُوا إليه بعموم قول الله عزَّ وجلّ في سورة (المزّمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):
﴿... فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ ...﴾.

الآية الّتي منها هذه الفقرة من التنزيل المَدنيّ الذي ضُمَّ إلى سورة هي من أوائل التنزيل المكي.

قَالُوا: وهذا في الصلاة، وما يتيسّر من القرآن يصْدُقُ بآياتٍ منه ولو كانت من غير الفاتحة، فتجزئ القراءة بها، ويُحْمَل ما جاء في الأحاديث على الوجوب فقط، لا على كون تلاوة الفاتحة شرطاً لصحّة الصلاة، وهذا على أصلهم من أنّ أحاديث الآحاد لا تَنسَخُ مَا جاء في القرآن المتواتر، وهي مسألة خلافيّة مدوّنة في علم أصول الفقه.

**أقول:**

إنّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ قَدْ جاء في العهد المدني تخفيفاً على الرسول ﷺ وعلى من كان قد ألزم نفسه من الصحابة بأن يعمل مثل عمله في إيجاب قيام اللّيل عليه، الذي أوجبه الله عليه منذ أوائل العهد المكيّ، بقوله له كما جاء في أوّل السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾.

والمرادُ من قيام اللّيل الصّلاةُ فيه من غَيْرِ الفرائض الخمس.

وقَدْ جَاءَ التعبيرُ في العهد المدني بقول الله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ كنايةَ عَنِ الصلاة في اللّيلِ من غيرِ الفريضةِ إشعاراً بأنّ تلاوة القرآن في الصّلاةِ هي من أَهَمّ عناصِرِها، فالمعنى: فصَلُّوا في اللّيل ما يتيسَّرُ لَكُمْ، وأدنى المتيسّر ركعتان، وهذا على الوجوب بالنسبة إلى الرسول ﷺ، أمّا غيرُهُ مِنَ الْمُسْلِمين فهو على النَّدْب.

وحَمْلُ قولِ اللّهِ تعالَىٰ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ عَلَىٰ قيام اللّيْلِ هو فَهْمُ جُمهورِ المفسّرين والفقهاء، على أنّ ظاهر اللّفظ يدُلُّ على الاكتفاء بتلاوة ما تيسّر من القرآن في قيام اللّيْلِ ولو في غير الصّلاة.

وعلى ما ذهب إليه الجمهور من أنَّ العبارة كناية عن الصَّلاة في اللّيل فليس فيها دليلٌ واضح الدلالة على أنّه يجزئ تلاوةُ ما تيسّر من القرآن في

الصلاة من غير فاتحة الكتاب لمن هو قادرٌ على تلاوتها، فدلالة هذا النصّ المتواتر على أصْلِ المسألة المتنازع فيها دلالة احتماليّة، فلا ينطبق عليها قاعدةُ الحنفيَّةِ من أنَّ أحاديث الآحاد لا تَنْسَخُ ما جاء في القرآن المتواتر، فالمعنى الاحتمالي في النصّ المتواتر وليس متواتِراً، فلا يستقيمُ أن يُطبّقَ عليه الحنفيّة أصْلَهم، من أنّ المتواتر لاَ يُنْسَخُ بالآحاد.

فالحقّ في هذه المسألة هو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء المجتهدين من المسلمين، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عملاً بما ثبت في السُّنة، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

## (٩)
## الملحق الرابع
## نظرات تدبّرية حول الآيات
## الّتي جاء فيها لفظ الصراط ونحوه في القرآن

لدى استقراء كلمات: «الصراط ـ الطريق ـ السبيل ـ المنهاج» في القرآن مع سَبْر معاني الآيات الّتي وردت فيها بتدَبّر تبيّن لي أنّه لم تُسْتَعْمَلْ هذه الكلمات في القرآن بمعنىٰ الدّين الذي اصطفاه الله لعباده، الشامل لأصوله وشرائعه وأحكامه وبياناته وتعليماته ووصاياه، إلاّ بالإفراد، للدّلالة على أنّ صراط الله أو طريقه أو سبيله أو منهاجه الذي اصطفاه لعباده واحد، لا تعدُّد فيه.

ولهذا أمر الله عزَّ وجلَّ في قَضِيّة الدِّين باتّباعِ سَبِيله الواحدة غير المتعدِّدة، ولاَ يُؤَثِّر على وحْدَةِ سبيلِ الله التغييرُ في بعض أحكام التكاليف العمليّة في رسالات الرُّسُل، أَوْ رِسَالَةِ الرَّسُول الواحد، فهذا التغيير يُشْبِهُ تَغْيِيرَ حركةِ السَّيْرِ على الطريق الواحد، ما بين مَشْيٍ هادئ، أو مشيٍ

سريع، أو سَعْيٍ بِهِمَّة، أو ركُوبٍ على مَرْكوبٍ مَا يَنْتَقِلُ براكبه على الطريق الواحد، في نهارٍ أو لَيْلٍ، أو أيِّ جزءٍ من أجزائهما، إلى غير ذلك من احتمالاتٍ لا يَخْتَلِفُ بها السبيلُ نَفْسُه، وإنّما تختلف بها حركة السَّيْر. والغَرضُ من التغيير في بعض التكاليف امتحانُ ما لدى الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا من استجابة بالطاعة لأوامِرِ الرَّبِّ الْمعبُودِ ونواهيه، أو عدم استجابة.

وصراطُ الله ذو مراحلَ، فَمَنْ سَلَكَ مَهْدِيًا في مرحلةٍ أولى منه، فهو بحاجة إلى متابعة ما بعدها على هُدَىٰ، وهكذا في كلّ المراحل التاليات حتى آخر حياته، إذ يلْقَى ربَّهُ وهو ملتزم سلوك صراطه المستقيم، أو تائب راجع إلى الالتزام به.

- فكلّ ما جاء في القرآن من مادّة «صراط» قد جاء مفرداً، ولم يأتِ مجموعاً في أيّ نصّ قرآني.

- وجاء من مادة «منهاج» مرّة واحدةً فقط، وقد جاءت بالإفراد.

- وجاء من مادة «طريق» بالإفراد إذا كان بمعنى شرائع الدين وأحكامه، أمّا ما جاء منها مجموعاً فقد جاء بلفظ «طرائق» بمعنى طرقات مادّية، أو بمعنىٰ سُبُل الضلال.

- أمّا مادّة «سَبِيل» فنلاحظ في القرآن أنّ كلَّ النصوص التي يتضمّن السِّبَاق أو السِّيَاقُ فيها أن المراد شرائع الدين وأحكامه فقد جاء فيها اللّفظ بالإفراد.

وكلّ ما جاء في القرآن من مادّة «سبيل» مجموعاً فقد جاء للدلالة على سُبُل الأَرْض، أو سُبُلِ الرّزق، أو سُبُل السلامة والنجاة في الدنيا، أو سُبُل الضلالة، ونحوها.

❀ ❀ ❀

## أولاً: نظرات تدبّريّة حول ما جاء في النُّصوص القرآنيّة من مادَّة «سَبِيل»:

(١) قال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكاية حوار جرىٰ بين فرعون وموسىٰ عليه السّلام:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

فجاء لفظ «السُّبُلِ» في هذا النصّ وهو جَمْعُ «سَبِيلٍ» لأنّ المقصود سبُلُ الأرضِ المختلفة الموصلة إلى ما يُرِيدُ النّاسُ الوصول إليه من نواحي الأرض المتباعدة والمختَلِفة، والّتي لا تُوصِلُ إليها سبيلٌ واحدة.

❁ ❁ ❁

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) يُعَلِّم رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بعض ما يقوله للناس، ومنه أنْ يقول لهم:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

وصراط الرَّسُولِ ﷺ هو صراط الله الذي وصّىٰ الناس بأن يَسْلكوه ليتّقُوا بسلوكهم إيّاهُ عذابَه يومَ الدِّين، مع مَا يتقون من عذابٍ آخر مُعَجَّل قَدْ يُنْزِلُهُ اللَّهُ بالذين يسلكون السُّبُل الأخرى المتفرّقة.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الله عزّ وجلّ أمَرَ باتّباع سبيله، وهي سبيل واحدة، ونَهىٰ عن اتباع السُّبُلِ الأخرى، لأنّ مَنْ سَلَكَ شيئاً مِنها تفرَّقَ وابْتَعَد عن سبيل الله، وسار في المتاهات المهلكات ذاتَ اليمين أو ذَاتَ الشِّمال.

وهذا نصٌّ قاطعٌ واضحُ الدلالةِ على أنّ سبيل الله وهو الدِّين الذي اصطفاه لعباده سبيلٌ واحدة، لا تعدُّدَ فيها.

❁ ❁ ❁

(٣) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) مبيّناً بعض آيات نعْمَتِهِ على الناس:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)﴾.

أي: وجعلَ لَكُمْ في الأرضِ سُبُلًا مختلفة كثيرة تَسْلُكُونَها لتحقيق مطالبكم من الحياة الدنيا، وتَصِلُون بسلوكها إلى غاياتٍ لكُمْ فيها فوائد ومنافع، وفي هذه السُّبُل المختلفة آياتٌ على طائفة من صفات الخالق العليم الحكيم الرحيم بعباده، فمن أدركها باحثاً عن الحقّ اهتدىٰ إلى الإيمان به جلّ جلاله، ثمّ إلَىٰ الإيمان بكتابه ورسوله واليوم الآخر.

❁ ❁ ❁

(٤) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) مُبَيّناً أيضاً بَعْضَ آياتِ نِعَمِه على عباده، الّتي تَهْدِي من تفكّر فيها إلى الإيمان به وبكمال صفاته وبرسوله وكتابه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)﴾.

أي: وألْقىٰ في الأرض جبالاً رواسي لئلّا تَميدَ قِشْرَةُ الأرض بالنّاس.

يقال لغة: مَادَ الشّيْءُ يَمِيدُ إذا تحرَّكَ واضطرَب.

وجعل فيها أنهاراً لسُقْيا الناس والأنعام والمزارع، وجَعَلَ فيها سُبُلاً مختلفة كثيرة يسلُكُهَا النّاس للوصول إلى غاياتهم وتحقيق مطالبهم من الحياة الدنيا، فهي سبُلٌ دُنيويَّة.

فمن تفكر في هذه الآيات الربَّانيّة باحثاً عن دلالاتها المعنوية اهتدىٰ إلى الإيمان.

❁ ❁ ❁

(٥) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) أيضاً:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

السُبُلُ المذلَّلَة الّتي هيّأها الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ في جَوّ الأرض للنَّحل، حتّىٰ تسلُكها طيراناً بأجنحتها لتَصِلَ إلى رحيق الأزهار، ثم تعود إلى بيوتها، فتأوي إليها وتعمل في صناعة العسل، هي سُبُلٌ دُنيويّة، ولهذا جاء اللّفظ بالجمع.

❁ ❁ ❁

(٦) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) في حكاية مقالات نوحٍ عليه السلام لقومه وهو يَدْعُوهم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

**سُبُلاً فِجَاجاً**: أي: طُرُقاً واسعة.

فالله بمنّتِهِ على الناس في الأرض جعل لهم الأرض ذات مساحات

منبسطة ممتدة، كالبساط، ولم يجعلها جميعاً جبالاً كظهر القنفذ. وفي هذه المساحات المنبسطات الواسعات يتخذ الناس لأنفسهم فيها طُرُقاً واسعة يَسْلُكونها للوصول إلى غاياتٍ لهم يُحَقِّقُون فيها مصالح لهم ومنافع يرجونها، ومطالب لمعاشهم.

❁ ❁ ❁

(٧) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في حكاية بعض مقالات الرُّسُل السّابقين لأقوامهم:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

هذا النصّ يتحدَّثُ عن أنواع الضغوط الآثمة الظالمة، وأنواع الأذىٰ، الّتي كانَ يتعَرَّضُ لها الرُّسُلُ مِنْ قِبَلِ الكافِرين الطغاة من أقوامهم، والّتي جَعَلَتِ الرُّسل عليهم السلام يُعْلِنُونَ تَوَكُّلَهُمْ على الله جلّ جلاله، ويُعْلِنُون أَنَّه لا داعِيَ يدعُوهُمْ إلى اليأس من النجاة من ظلم الكافرين لهم، وقد هداهم الله سُبُلَهُمْ لتحقيق نجاتهم من أن يَتَعَرَّضوا للهلاك بأيدي الكافرين، أمّا الأذىٰ الذي لا يَصِلُ إلى حَدِّ القتل فهم يَصْبِرُونَ عليه، قياماً بواجب تبليغ دِينِ الله للناس.

ولَيْسَ وارداً في عبارة الرُّسُل: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾ في هذا النّصّ أن يكون المراد سُبُلَ الدّين، فسبيل الله الدّيني لجميع الرُّسُل سبيلٌ واحدةٌ لا تعدُّدَ فيها، لكنَّهَا هُنَا سُبُلُ النجاة من القتل بأَيْدِي أعدائهم الكافرين،

وهي السُّبُل المختلفةُ الّتي هداهم الله إلى سُلوكها للخلاص من تهديد أعدائهم لهم بالقتل، والقرينة على هذا توكُّلُهُمْ على الله.

❁ ❁ ❁

(٨) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١)﴾.

**كانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا: الرَّتْقُ**: الالتئامُ بين الشيئَيْنِ وتلاصقهما. **والفتق**: ضدُّ الرَّتْق.

فدلّ هذا النصُّ على أنّ السَّماوات والأرض كانت في مرحَلَةٍ منْ مراحِلِ الْخلْقِ السّابق ملتئمةَ الأجرام متلاصقة، ثمّ قسّمَها الله جَلّ جلاله وباعَدَ بين الأقسام، فكانت الأرض، وكانت الكواكب والنجوم في السماء.

**وجَعَلْنَا فِيها فِجَاجاً سُبُلاً**: أي: وجعلنا في الأرض طُرُقاً واسعةً يتخذها النّاسُ سُبُلاً للوصول إلى غاياتٍ يحقّقون فيها مطالب لهم في معايشهم.

❁ ❁ ❁

(٩) قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) وهي من أواخر التنزيل المكيّ:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾.

من الواضح أنّ الجهاد المرادَ في هٰذه الآية هو جهادُ المقاومة لضُغُوط أعداء الإسلام من المشركين، وجهاد الصَّبْر، وجهاد اتخاذ السُّبُلِ للهجرة والفرار بالدّين.

وفي هذه الآية إشارة ضمنيَّةٌ للضعفاء الَّذِين فُتِنُوا في دينهم أَنْ يَتَّخذوا أيَّ سبيلٍ، ليتخلَّصُوا بالهجرة من ضغوط الكافرين ذوي السلطان والجبروتِ في مكّة، فإذا فَعَلُوا ذلِكَ بإحْسَانٍ وَتصرُّفٍ حكيم، هداهُمُ الله عزّ وجلّ إلى سبُلِ نجاتهم وسلامتهم، وإنّ الله لَمَعَ المحسنين بالمعونة والتوفيق والتأييد والنَّصر، أمّا الَّذِين لا يُحْسِنُونَ التصرُّف، فيتحرَّكُونَ لتحقيق غاياتهم تحرّكاً أهوج طائشاً، ولا يتّخذون الشّروط السببيَّة الملائمة، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يَعِدْهُمْ بأن يكون معهم.

ويقع كثيرٌ من المؤمنين ذوي السّذَاجة والجهْلِ بمفهومات الدّين، في غلَطٍ فاحِشٍ حِيالَ هذه الحقيقة، فَيُسِيئُونَ التصرُّف، ولاَ يتَّخذون الشروط السببيّة الملائمة المطلوبة، ثمّ يطالبون الله عزّ وجلّ بأن يكون معهم حامياً وناصراً، تصوُّراً منهم أنّ الإحسان في العمل بمفهوم الدّين قاصرٌ على جوانب خاصَّةً تتعلَّقُ بالعبادات المحضة، ولا ينطلقون مع الأبعاد الكاملة لقول الرسول ﷺ في تعريف الإحسان:

«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وأنّ العبادة لِلَّه تشْمَلُ كلَّ سُلُوكِ الإنسان في الحياة الدنيا، وأنّ الجهاد في سبيل الله من أعظم العبادات وأكثرها تحقيقاً لمرضاته.

ويغفلونَ عن قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح:

«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ».

فالله عزّ وجلّ يُعَلِّم المؤمنين في هٰذهِ الآية من سورة (العنكبوت) أنْ يكونوا محسنين في اتّخاذ الأسباب المناسبة للهجرة من بَلَدٍ يُفْتَنُونَ فيه بدينهم، حتَّىٰ يكون معهم ساتراً وحافظاً وناصراً.

وقد ضرب الرسول ﷺ في سلوكه المثل الكامل في اتّخاذ الوسائل السببيَّةِ على أَحْسَنِ وجْهٍ لدى هجرته من مكة إلى المدينة، حينَ أذن الله له بالهجرة.

إنّ الله عزّ وجلّ يكون مع الّذِين يُحْسِنُونَ التَّصَرُّفَ في أعمالهم ويُتْقِنُونَها، ولا يكون مع المتساهلين، ولا المتهاونين، ولا الفوضويين، ولا الّذِينَ لا يُتْقِنُونَ أعْمَالَهُمْ، ولا يتخذون أفضل الوسائل لما يبتغون من خَيْر.

وغير وارد إطلاقاً تفسير السُّبُل في قول الله عزّ وجلّ في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ بالسُّبُلِ الدينيّة، لأنّ سبيل اللّهِ في الدّين سبيلٌ واحدة، بلْ هي سُبُلُ سَلاَمتِهِمْ ونجاتِهِمْ وَخلاصهم مِنْ أعدائهم في الحياة الدنيا، ومنها سُبُلُ هِجْرَةٍ آمِنَةٍ، مَعَها تَأْمِينُ سبُلِ الرّزق والمعاش.

وهكذا تنسجم هذه الآية مع سائر النصوص القرآنية انسجاماً تامًّا.

❁ ❁ ❁

(١٠) قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لأهل الكتاب:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾.

**سُبُلَ السَّلاَم**: أي: طُرُقَ الأَمْنِ والنَّجاةِ في أمور دنياهم، ولكَيْلاَ نَفْهَمَ أَنّها سُبُلٌ في الدّين قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ في آخر النّصّ:

﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

فثبت من استقراء النّصوصِ الواردة حول مادّة «سَبيل» مَعَ سَبْرِ معانيها بالتدبّر أنّ سبيل اللّهِ في الدّين واحدةٌ لا تعَدُّدَ فيها.

❁ ❁ ❁

## ثانياً: نظراتٌ تدبّرية حول ما جاء في القرآن من مادّة «طريق»:

كلّ ما جاء في القرآن من مادّة: «طريق» مراداً به الدّين الذي اصطفاه اللَّهُ لعباده قد جاء مفرداً، وهي ثلاثة نصوص:

**النصّ الأول**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) في معرض الحديث عن طائفة من الجنّ استمعوا القرآن من الرّسول ﷺ فآمنُوا به:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾:

**على الطريقة**: أي: على صراط الله المستقيم، فجاءت الطريقة بالإفراد.

**غَدَقاً**: أي: غامراً كثيراً.

**عَذَاباً صَعَداً**: أَيْ: عذاباً شديداً شاقًّا.

❊ ❊ ❊

**النصّ الثاني**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) حكاية لمقالة بعض مؤمني الجنّ الذين سمعوا القرآن من الرسول ﷺ فآمنوا به، ودعَوْا قومهم إلى الإيمان:

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

فجاء في هذا النصّ التعبير عن دين الله لعباده بعبارة: ﴿طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بالإفراد.

**النصّ الثالث**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

وجاء في القرآن التعبير بعبارة: ﴿طَرَآئِقَ﴾ جمع «طريقة» وهي مؤنث «طريق» دلالة على الطرائق المختلفة لكفرة الجنّ، وعلى الطرائق السَّبْعِ الّتي تَجْرِي فيها نجوم السماوات السَّبْع.

فلا شيء في القرآن من مادّة «طريق» قد جاء مجموعاً بمعنى الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده.

وبقي علينا استعراض النُّصوص التي جاءت فيها مادَّتا «منهاج وصراط» بشيءٍ من التدبُّر.

❁ ❁ ❁

## ثالثاً: نظرات تدبُّرية حول ما جاء في القرآن من كلمة «منهاج»:

لم يأت في القرآن من هذه المادة إلا كلمة واحدة جاءت في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لرسوله في معرض الحديث عن أهل الكتاب وما هو المطلوب من الرسول ﷺ إذا أَتَوْا إليه ليحكُم بينهم:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يخطئ بعض المتعجِّلين في فهم قول الله عزّ وجلّ في هذا النصّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فيتصوَّر أنّ رسالات الله الّتي أرسل بها رُسُلَه السابقين إلى الأمم مختلِفَةٌ فيما بينها شِرْعةً ومنهاجاً، وما جاء في الرسالة الخاتمة مشتمل على شرعة ومنهاجٍ مخالفين أيضاً لما جاء في الرسالات السابقات، وجاء هذا الوهم من كون بعض أحكام الفروع التعبُديَّة قد جاء فيها تكميلٌ أو تعديلٌ أو تيسير، مع أنّ مثل هذا قد حصل في الرسالة الخاتمة نَفْسِها، دون أن يؤثّر على وحدة صراط الله، ووحدة شرعته ومنهاجه الذي اصطفاه الله لعباده.

وقد أكّدت النصوص الكثيرة جدًّا أنّ صراط الله الدينيّ الذي اصطفاه الله لعباده صراطٌ مستقيمٌ واحد، لا تعدُّد فيه، وهو الدّين الذي بيَّنَهُ اللَّهُ لآدَمَ ولِسَائِرِ النبيّين والْمُرْسَلِينَ مِنْ ذرّيته.

ونظراً إلى وحدة صراط الله لعباده جعَلَ الله أَتْبَاعَ جميع الرُسُلِ أمَّةً وَاحِدَةً، تتلاحَقُ مَوَاكِبُها بقيادَةِ المرسلين، حتَّىٰ خاتمةِ الرسالات الرّبّانيَّةِ الَّتي جعَلَ اللَّهُ قائِدَهَا محمد بن عبد الله ﷺ.

لكنّ أهواء الناس هي الّتي كانت السَّبَبَ في التفرُّق والتمزّق إلَىٰ فِرَقٍ وأحزابٍ شتَّىٰ، فمن التزم صراط الله الحقَّ اتّبع الرسول الخاتم، وعَمِلَ بما أنزلَ الله عليه، وهَجَرَ تحريفات المحرّفين وغُلُوَّ الغالين، وما أدْخل النّاس من شِركيّاتٍ وكُفريَّاتٍ فيما يُنْسَبُ إلى الرُسُلِ السابقين.

دلَّ على هذه الحقيقة نصٌّ أنزلَه الله في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) خطاباً للرسُل جميعاً، وفي هذا الخطاب دلالة على أنّ مضمونه قد أنزله الله على جميع المرسلين ضمن ما أنزل على كُلٍّ منهم، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

**زُبُراً**: أي: قطعاً، وكُتُباً ذاتَ تَعليمات مختَلفات.

فأَتْباعُ كلِّ الرُّسُل بصِدْقٍ واستقامة دون انحرافٍ ولا اتّباعٍ للهوىٰ، هُمْ أُمَّةٌ واحدةٌ بمقتضىٰ دلالة هذا النصّ، وهذه الأمَّةُ الواحدة لها صراطٌ واحدٌ مستقيم هو صراط الله لعباده، ولها سَبِيلٌ واحِدَةٌ مُسْتَقِيمةٌ هيَ سَبِيلُ اللَّهِ لعباده، ولها شرعةٌ واحِدَةٌ هي شرعَةُ الله لعباده، ولَها منهاجٌ واحدٌ هو منهاج الله لعباده.

**تدبر النصّ الذي جاء في سورة (المائدة):**

● ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ﴾:

أي: وأَنْزَلْنا إليكَ يا مُحمَّدُ الْقُرْآنَ مُلْتَزِماً بالحقّ لاَ يحيد عنه، ومقترناً به اقتران الروح بالجسد ذي الحياة، وهذا معنى الملابسة الذي تدلُّ عليه «الباء» في عبارة: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

وهذا الكتاب مصدِّقٌ للكُتُب الرَّبَّانِيَّة الّتي أنزلَها الله بين يَدَيْه، أي: قبله، وهكذا الحقُّ يُصَدِّقُ بعضُه بعْضاً، ويؤيّدُ بعضُهُ بعضاً، لكنّ القرآن يُصَدِّقُ الكُتبَ السابقة على ما أنزلَها الله، ولا يُصَدِّقُ الكتُبَ الّتي دخَلَ فيها التحرِيفُ والتبديلُ والتغيير، ولا الكُتُبَ الّتي كتَبَها الناسُ بأَيْدِيهم ونَسَبُوها إلَىٰ الرُّسُلِ الصادقين، وزعَمُوا أنها كُتُبٌ مُنَزَّلَةٌ من عنْدِ الله.

﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: من الكُتُب الربّانية و «أل» في الكتاب للجنس.

**ومُهَيمِناً عليه:** جاء في تفسير المهيمن أَنَّهُ الأَمِينُ المؤتَمَنُ، والشّاهد والحاكم.

فالقرآنُ بمقتضىٰ هيمنته على الكُتبِ الرَّبَّانيَّةِ السابقة، يَشْهَدُ بِصِحَّةِ نزولِ كتُبٍ من عند الله على رُسُلِهِ السَّابقين، وهو الأمين الذي حفظ ما نزل فيها بصيغته الثابتة قطعاً الّتي لم يدخُلْهَا ولَنْ يَدْخُلَها تَحْرِيفٌ وَلاَ تَبْدِيلٌ وَلاَ نِسْيَانٌ، وهو الحاكم عليها الذي يُرْجَعُ إِلَيْهِ فيما اشتَبَهَ على الناس من أحكامها، ويُرْجَعُ إليه في معرفةِ أحكام الله، وفق آخر صيغةٍ مُكمَّلَةٍ مُتَمَّمَةٍ صحيحة، أَكْمَلَ اللَّهُ بها للنّاس دينهم، وأتَمَّ بها عليهم نعمته.

● ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾:

تكليفٌ من الله لرسوله ثم لكلّ حاكمٍ من أمته أن يحكم بما أنزل الله بين الناس جميعاً، مَنْ آمن بالرَّسُولِ والقرآن منهم، أو رضي بحكْمِ الرسول أو بحكُم الحاكم من أمته ممَّنْ لم يدخُلْ في الإسلام.

وما أنزل الله يشْمَلُ ما انفرد به القرآن تكميلاً أو تعديلاً، وما اشتركت ببيانه الكتب الربّانيّة ممّا لم يُنسَخْ ولَمْ يعدَّلْ فيه شيءٌ.

ونهى الله رسولَهُ ويُلْحَقُ به كلُّ حاكم من أمّته عن اتّباع أهواء الناس، ومنهم أهل الكتاب الأوّل الّذين حرّفُوا وبدلُوا ما أنزل الله على الرسُل السابقين، فقال تعالى له: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾:

أي: ولا تتبعْ أَهْوَاءَهم مُعْرِضاً أو مُنْصَرِفاً عمّا جَاءَكَ من الْحَقِّ، وقَدْ ضُمِّنَ فعل: ﴿تَتَّبِعْ﴾ المنهي عَنْه معنىٰ فِعْل: «تُعْرِض أو تُدْبِر أَوْ تَتَوَلّى أو تَنْصَرِف» فَعُدِّيَ تعديته، فجاءت عبارةُ: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ مُلائمة لهذا التضمين.

● ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾:

إنّ الناس ينتهجُون مناهج مختلفة في حياتهم، انطلاقاً من المبادئ والأُسس الاعتقاديّة الّتي يعتقدونها. وهذا هو نظام السلوك الإنساني الذي فطر الله الناس عليه، وجعله سُنَّةً من سُنَنِ الاجتماع البشري، فمن آمن بالله ورسوله دفعه إيمانه إلى الالتزام بصراط الله المستقيم الذي اصطفاه ديناً لعباده، وتحرَّىٰ العمل بمنهاجه التفصيلي. ومن اختار لنفسه مبادئ أخرى وَضْعيَّةً من الأوضاع البشرية عمل بما تقتضيه هذه الأوضاع البشريّة.

**شِرْعَة**: الشِّرعَة والشريعة في كلام العرب هي مَشْرعَةُ الماء، وهي مورد الشاربة الّتي يشْرَعُها الناسُ فَيَشْرَبُونَ مِنهَا ويَسْتقون، ورُبّما شَرَّعُوها دوابَّهم حتَّىٰ تَشْرَعها وتَشْرَبَ منها، والعربُ لا تسمِّيها شريعةً حتَّىٰ يَكُونَ الماء فَيْضاً لا انقطاع له، وحتّىٰ يكون ظاهراً معيناً لا يحتاج أن يُنْضَحَ بالدّلاء. [عن لسان العرب مع بعض تصرّف في اللّفظ].

وهنا نلاحظ أنّ الشِّرْعَة تُشِير إلى المبادئ والأسس الاعتقاديّة الّتي يشْرَعُها الناس، فيشربون منها ويسْتَقُون مفهوماتهم للحياة وعقائدهم، وهو ما يُسَمَّى في اصطلاح القانونيين بالمبادئ الأساسيّة، أو الموادّ الدستورية، أو الأسس الّتي يعتمد عليها الدستور، وقد يُطْلِقُون عليها عبارة «أيديولوجيات».

**منهاجاً**: المنهاج والمنهج الطريق الواضح، تقولُ العرب: أَنْهَجَ الطّرِيقُ، إِذَا وَضَحَ واسْتَبَانَ، وصار نَهجاً واضِحاً بَيِّناً.

وهنا نلاحظ أنّ المنهاج يشير إلى الأحكام التفصيليَّة لأعمال الحياة وأنواع السُّلوك فيها، وهذه الأحكام تستند إلى المبادئ والأسس الاعتقادية الّتي اشترعوها وانطلَقُوا منها، فهي الأديولوجيات التي يستندون إليها في رسم مناهجهم في الحياة.

والناس في شرائعهم ومناهجهم على أقسام:

(١) فمن يؤمن بالله ورُسله، واليوم الآخر، ويكون صادقاً مخلصاً حريصاً على سعادته ونجاته، يَرِدُ شِرْعَةَ اللّهِ لعباده، ويَصْدُرُ عنها سالكاً منهاج الله لهم.

وانسجاماً مع هذه الفطرة التكوينيَّة، اصطفىٰ الله للنّاس في الكتُب الّتي أنزلها على رُسُلِهِ شِرْعَةً يَشْرَبُونَ منها المبادئ والأُسُسَ الّتي يجب عليهم أنْ يُؤْمِنُوا بها، ليضمَنُوا لأنفسهم السعادة العاجلة والآجلة، واصطفىٰ لهم منهاجاً بيّناً واضِحَ المعالم مَوْصُولاً بالشِّرْعَة، وأوصاهم بأن يسلُكُوهُ في حياتهم، لِيَضْمَنُوا لأنفسهم السعادة.

وهذا المنهاج الرَّبَّانيُّ قد دخل فيه بحَسَبِ التكامُل البشري، والتّطَوُّرِ الإنساني تكامُلٌ، وبعض تعديلات، ليلائم الطور الذي وصل إليه الناس، فلمَّا اكتَمَلَ التّطوُّر البشريّ أنزل الله عزّ وجلّ المنهاج المكتمل على خاتم رُسُله.

(٢) والذين يُشركُون بالله، قَدِ اتَّخَذُوا لأنفسهم شِرْعَةً غير شِرْعَةِ الله، ولا بُدَّ أَنْ يكون لهم منهاجٌ في الحياة منسجم مع شركهم، وهو مخالفٌ حتماً لمنهاج الله للناس.

(٣) والذين يجحدون الله جحوداً كلّياً، ولا يؤمنون بالغيب، ولا يؤمنون بأنهم مدينون ومجازَوْن، قد اتخذوا لأنفسهم شرعةً غير شرعَةِ الله لعباده، ولا بُدَّ أن يكون لهم منهاج في الحياة منسجمٌ مع نوع كفرهم بالله واليوم الآخر، وهو مخالفٌ حتماً لمنهاج الله للناس.

وهكذا يتّضح للمتدبر معنى قول الله عزّ وجلّ:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

إذ الخطابُ مُوجَّهٌ للنَّاسِ جميعاً مؤمنين وكفّاراً.

وقد تُشكل على بعض الذين يَتْلُونَ هذا النصّ عبارة: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فيه، حينما يَضَعُونَ في تصوُّرِهم هذا الْفَهم الذي سبَقَ بيانه.

**وأقول:**

إنّ عبارة: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ هنا ينبغي أنْ نَفْهَمَها على معنى الجعل التكويني الْقَدَرِيّ الْعَامّ الّذي ربط الله به المسبَّبَات بأسبابها، وهذا الجعْلُ التكويني هو الْمُهَيْمِنَ على كُلّ ما في الكون من قوانين وسُنَنٍ ربَّانِيَّة، وهو يَشْمَلُ مَا فَطَرَ اللَّهُ الناسَ عليه، وجعَلَهُ سُنَّةً من سُنَنِ الاجتماع البشريّ، والسُّلُوك الإنسانيّ الاختياريّ.

أي: فمن اختار شِرْعةً غير شرعة الله، بمقتضىٰ ما وهبه الله من إرادة حُرَّةٍ مختارة، وسخَّرَ له المسخَّراتِ الّتي تُطِيعه بخَلْقِ الله، فيُحَقِّقُ بها ما اختار لنفسه، فلا بُدَّ أن يتخذ في حياته منهاجَ سلوكٍ يلائم ما اختار مِنْ شِرْعة، ويُمَكِّنُهُ اللَّهُ من سلوكه بما يُسخِّرُ له من مُسَخّرات. ومن اختار شِرْعةَ الله كذلك فلا بُدَّ أن يَدْفعه إيمانه إلى سلوك منهاج الله لعباده، وبعد وجود الدافع: إمّا أن يستجيب بإرادته مطيعاً، وإمّا أن لا يستجيب فيتبع هواه عاصياً.

والمعنى فاحكم بين الناس يا محمَّد بما أنزل الله عليك، ولا تتَّبع أهواءهم مُعْرِضاً أو مُدْبراً عمّا جاءك من الحقّ، لك شِرْعَتُكَ ومنهاجُكَ اللّذان أوْحَيْنا بهما إليك، ولكلٍّ منهم. أيْ: من الناس غَيْرِ المؤمنين شِرْعَتُهُ ومِنْهَاجُهُ، فَسُنَّةُ الله في المجتمع البشريّ أنّ مناهج الناس في الحياة تَتْبع مَشَارِبَهُمْ وشرائعهم «= أي: أيديولوجياتهم».

- فالمؤمنون شِرْعَتُهُمْ ابتغاء مرضاة الله، ومنهاجهم أحكام دينه لعباده.

- والكافرون شرائعهم أهواؤهم وضلالات الشياطين، ومناهجهم ما يُرْضِي شهواتهم، ويَرْسُم لهم شياطينهم وواضعو مذاهبهم.

## الْجَعْلُ في القرآن:

استعمل القرآن فعل «جَعَل» في عدّة معاني، أبرزها المعاني التالية:

(١) الخلق والتكوين.

(٢) الحكم الديني الذي يَمْتَحِنُ الله به النّاس.

(٣) الحكْمُ الإنسانيّ الصادر عن تَصَوُّراتِ الناس، فمنها الحق ومنها الباطل، ومنها الصواب ومنها الخطأ.

(٤) الفعل ذو الأثر من أيّ مخلوق، سواءٌ أكان صادراً عن إرادة أمْ عن غير إرادة[1].

● ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾:

أي: وبما أنّ الناسَ مختلفون في شرائعهم ومناهجهم، فلا بُدَّ أن يفترقوا إلى أُمَم متخالفة، وهذا من آثار مَنْحِهم إراداتٍ حرَّةً لابتلائهم في ظروف الحياة الدنيا.

ولو شاء الله أن يجعل الناس أمّةً واحدة، لسلبَ الناس إراداتهم الحرّة، ولجعلهم مَجْبُورين على الإيمان والإسلام، ولكانوا بذلك أُمّةً واحِدَةً ربّانيّة خاضعةً في حركاتها وسكناتها لسُلْطانِ قَدَرِ الله الْجَبْرِيّ.

ولكنَّ هٰذَا يفوّتُ حكمة الابتلاء، الذي هو في الأساس الغاية من خلق الناس مزوّدين بالصفات الّتي هم عليها.

فالله عزَّ وجلَّ لم يجعل النَّاسَ أُمَّةً واحدة بالقهر والجبر، لأنّ حكمته قد قضت بأن يمتحنهم فيما آتاهم من إراداتٍ حُرَّة، وإدراكٍ للأمور،

---

(١) انظر تفصيل هذه المعاني وأمثلتها من القرآن في كتاب «الأمة الرّبانية الواحدة» صفحة (٣٩) الطبعة الثانية.

وعَقْلٍ، وشهوات، وغَرائز وأهواء، وقدرة على الطاعة والمعصية، وفعلِ الخير وفعلِ الشرّ، وسَخّرَ لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً.

فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ أي: ولكِنْ لم يشأ أنْ يَسْلُبَكُمْ إراداتِكُم الحرّة، ويجعلكُمْ أمّةً ربّانيةً واحدة، ليبلُوَكُمْ في ما آتاكُمْ من صفاتٍ ميّزكُمْ بها على المخلوقات المجبورة الّتي لا اختيار لها.

● ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾:

**استبقوا الخيرات**: أي: بادِرُوهَا مُتَسَابِقينَ يجتهد كلّ منكم أن يكون سابقاً.

في هذه الفقرة بيان المطلوب في الامتحان، وهو فعل الخيرات والاسْتباق إليها، ليَظْهَرَ مَنْ هو أَحْسَنُ عملاً، فيجازيهم الله يوم الدين، بحسب سَبْقِهِم أو تقصيراتهم جَزاءَ الفضل، وليظهر المسيئون والكافرون الجاحدون، فَيُعَاقِبَهم اللّهُ يوم الدّين على سَيِّئاتهم وكُفْرِهم وجحودهم عِقابَ العدل.

فالمرجع إلىٰ الله هو للحساب وفصْل القضاء والجزاء. أمّا الإخبارُ بما كان الناسُ فيه يختلفون إلى شرائع ومناهج، فيكون بكشف الحقيقة الّتي لا يغشّيها يومئذٍ هوىً، ولا وساوس شياطين، ولا ضلالات مضلّين، ولا زخْرُف أقوال الْمُغْوِين المفسدين.

ويومئذٍ يظهر للجميع أَنَّ الحقّ الذي لا رَيْبَ فيه هو شِرْعة الله ومنهاجه، اللّذانِ أوحى بهما إلى رُسُله، وأمّا شرائع الناس ومناهجهم المخالفة له، والمتخالفة فيما بينها، فهي بَوَاطل وزيوف.

ويومئذٍ تحقُّ كلمة الرحمة والتكريم لمن آمن بالله، وبما أنزل الله على رُسله، واستقىٰ من شِرْعَتِه الطاهرة النقيّةِ لعباده، وسَلَكَ المنهاج الواضح البيّن الهادي إلى السعادة العظمى، والذي اصطفاه الله لهم.

ويومئذٍ تحقُّ كلمة العذاب والإهانة على من كفر بالله، واتخذ لنفسه شِرْعةً شيطانيَّةً منتنة، وسَلَكَ في حياته مِنْهاجاً واضح البطلان والفساد، وهادِياً إلى الشرّ والضرّ والشقاء وعذاب السعير.

● ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

جاء في هذه الآية تأكيد ما جاء في الآية السّابعة إشعاراً بخطورة مزالِقِ أَهْلِ الأهواء ومُتّبِعي الشهوات من المسلمين لزحزحة حُكّام المسلمين عن الحكم بما أنزل الله، وأنّ لهم زَخَارِفَ أقوال يَصْطنعونها لفتنتهِمْ عن العمل بأحكام الله، وأنَّهُمْ يتخذون لذلك أسْلُوبَ الخطوات المتدرجات التي تبدأ بزحزحة الحاكم المسلم عن العمل ببعض ما أنزل الله على رسوله، ولو في حدود الحكم لغير المسلمين المؤمنين بما أنزل الله على رسوله.

فإنْ أَبىٰ أهل الأهواء والشهوات من المسلمين الحكم بما أنزل الله، وتولّوا عنه مُدْبرين فلا تكترث لهم ولا تعبأ بهم، واعْلَمْ أنّهم بتوليهم عن الحكم بما أنزل الله مُصِرّين على ذلك عِصْياناً واتّباعاً للهوى يُعَرّضون أنفسهم لأنْ يصيبهم اللّهُ ببعض ذنوبهم بإرادةٍ حكيمة عادلة منه.

ولمّا كان هذا التولّي لا يفعله من المسلمين إلاّ فاسِق، قال الله عزّ وجلّ في آخرِ الآيَة: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾.

● ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

استفهام تعجيبيٌّ من أمْرِ مسلمين يتبعون حكم الجاهلية، بدل حُكْم الله، اتّباعاً لأهواء نفوسهم وشهواتها: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾؟!! وقُدِّمَ المفعول به على الفعل لبيان انحصار ابتغائهم بابتغاء حُكْم الجاهليّة إذا تَوَلَّوْا عَنْ قَبُولِ حُكْمِ الله، إذْ كُلُّ حُكْمٍ مُخَالِفٍ لحكْمِ اللّهِ هو حُكْمٌ مِنْ أَحْكام الْجاهِليّة.

واستفهامٌ لانتزاع الإقرار بأنّ حُكْمَ اللَّهِ هُو أَحْسَنُ الأحكام، لدىٰ المقارنة التدبُّرِيَّةِ الرّشيدة، ولدَىٰ التَّجارِبِ على المدَىٰ الطويل، بعبارة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي: يوقِنُونَ بِحِكْمَةِ الله وعَدْلِهِ، وأَنّه أَحكَمُ الحاكِمِينَ، وأنّه لا يظْلِمُ أحداً مثقالَ ذرَّة.

❊ ❊ ❊

## رابعاً: نظرات تدبريّة حول ما جاء في القرآن من كلمة «صراط»:

جاء في القرآن المجيد استعمال كلمة «صراط» ثلاثاً وأربعين مرّة، وكلّها بالإفراد، ومعظمها قد جاء بمعنى دين الله الذي اصطفاه الله لعباده منذ نشأة الخليقة، أو بمعنى صراط الله الذي تسيرُ مقاديره الحكيمة على وفقه.

وجاء فيه استعمال كلمة «صراط» بمعنى الطريق الواسع من الأرض في ثلاثة مواضع فقط، وهي:

(١) ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكايةً لما قال شعيبٌ عليه السلامُ لقومه ناهياً، إذْ قال لهم:

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ... ﴿٨٦﴾ ﴾.

فقد كانوا يقعدون في الطرقاتِ ويتهدّدون المؤمنين بشعيب، أو من يميل إلى الإيمان به.

(٢) ما جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

**فاستبقوا الصراط**: فابْتَدرُوا الطريق الواسِعَ الواضح الذِي كانوا يعرفونه ليسلكوه، لكنّهم لا يبصرونه، لأنّ الله قد طَمَسَ على أعينهم.

(٣) ما جاء في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

**أفمن يَمْشِي مُكِبّاً على وجهه:** هو كناية مهذّبة عن الحمار والبغل والأنعام.

**أمَّنْ يَمْشِي سَوِياً على صراط مستقيم:** كناية عن الإنسان العاقل الرشيد الحسن التصرف، الذي يختار طريقاً واضحاً واسعاً يسْلُكُهُ إلى مَقصِده إذا أراد أن يَمْشِي في الأرض.

❃ ❃ ❃

أمّا النصوص الّتي جاء فيها لفظ الصراط بمعنى دين الله الذي اصطفاه الله لعباده، أو بمعنىٰ صراط الله الذي تسير مقادير الله الحكيمة على وفقه، فهي ما يلي، مرتَّبةً على وفق ترتيب نُزول سُوَرِها:

(١) ما جاء في سورة (الفاتحة/ ١ مصحف/ ٥ نزول) وقد سبق تدبّر النص لدىٰ تدبّر السورة.

(٢) ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) حكاية لما قاله الملكان اللّذان دخلا على داود عليه السلام وهو معتزل في محرابه، على صورة خصْمَيْن، يستفتيانه في خصومة بينهما.

قال تعالى فيها:

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

**ولاَ تُشْطِطْ:** أي: ولا تَجُر مُبْعِداً عن صراط الحق.

**واهْدِنا إلى سواء الصّراط**: أي: واهدنا إلى وسط الصراط، فالسواء يأتي بمعنىٰ وسَطِ الشيء، ويأتي بمعنىٰ الْعَدْل.

وسواء الصّراط هو الحقّ الذي يشتمل عليه دين الله لعباده وهو صراطٌ واحد.

وكان إرسالُ هٰذَيْنِ الملَكَيْن على صورة خَصْمَيْن من النّاس، لتَنْبِيهِ داود عليه السلام على أمْرٍ ما كان ينبغي أنْ يَصْدُرَ عنه، وهو رسولٌ مجتبَىٰ، فتنبَّهَ عليه السلام، وأدْرَكَ أنَّ اللَّهَ يمتَحِنُه بهذا الحدَث، فاستغفر ربَّهُ وخرَّ راكعاً وأنابَ إلى ربِّه، فغفر اللَّهُ له خطيئته.

❁ ❁ ❁

(٣) ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لمقالة إبليس لربّه بعْد أن حَكَمَ الله عليه بالْغَوايَة، فقال تعالى:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

**فَبِمَا أغْوَيْتَنِي**: أي: فبِما حَكَمْتَ عليّ بالْغَواية إذْ لم أُطِعْ أمْرَكَ بالسُّجودِ لآدم، وعانَدْتُ معانَدَةَ رافِضٍ إلَهِيَّتِك.

**لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**: أي لأَقْعُدَنَّ لِذُرِّيَّةِ آدم راصِداً صِرَاطَكَ المستقيم، حتّىٰ أمنعهم من دخوله من بين أيديهم، أو أجذبهم من خلفهم لأخرجهم منه، أو أُخْرِجهم جَذْباً أو دفعاً من ذاتِ اليمين أو من ذاتِ الشِّمال وهم سائرون فيه، بشتّىٰ الوسائل الإغرائيّة والإغوائيَّة.

فدلَّ هذا النّصّ على أنّ إبليس لعنه الله قد كان يعلم أنّ دين الله الذي اصطفاه لعباده صراطٌ واحدٌ مستقيمٌ لا تَعَدُّد فيه، فَتَعَهَّدَ أن يَبْذُل غايةَ جَهْدِهِ لإبعاد الناس عنه، أو إخراجهم منه إذا دَخلوه.

إنّ صراط الله هو الحق، وهو الهدى وهو الخير، وليس بعد الحقّ إلاّ الباطل، وليس بعد الهدىٰ إلاّ الضلال، وليس بعد الخير إلاّ الشرّ.

❀ ❀ ❀

(٤) مَا جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ لرسوله مُقسماً بالقرآن الحكيم:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنَّ دَعْوَة الرَّسُولِ محمّد ﷺ، وكُلَّ ما كان يُبلّغه للناس ويُبَيِّنه لهم قَولاً وعملاً قد كان فيه سالكاً على صراطٍ مستقيم، لا عوج فيه عن الحق والهدىٰ والخير والرشاد، إذْ هو يتابع مسيرته على صراط الله، وصراط الله صراطٌ مستقيم.

وهذه شهادة من الله لرسوله بملازمة صراطه المستقيم.

وجاء في هذه السورة أيضاً بيان أنّ عبادة الناس لربّهم في الحياة الدنيا هي صراط مستقيم، فقال الله عزّ وجلّ فيها عارضاً صورة ما سَوْفَ يَقُولُه للمجرمين في موقف حسابهم يوم الدّين:

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤﴾.

❀ ❀ ❀

(٥) مَا جاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

قال الله عزّ وجلّ فيها في حكاية مقالات إبراهيم عليه السلام لأبيه داعياً له إلى دين الله الحقّ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾﴾.

فقال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ ومعلوم أنّ الصراط السّويّ، أي: الصراط المستقيم، هو الدّين الذي اصطفاه الله لعباده، وهو واحدٌ لا تعَدُّدَ فيه.

وجاء فيها أيضاً حكاية مقالات عيسىٰ عليه السلام وهو صبيٌّ رضيع أنطقه الله، ومنها قولُهُ:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾﴾.

فأبان أنّ عبادةَ الله بوصفِ كونه رَبَّ الناس أجمعين لا ربّ لهم سواه صراطٌ مستقيم لا عِوَجَ فيه ولا عثرات.

❊ ❊ ❊

(٦) ما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

قال الله عزّ وجلّ فيها بشأن المشركين بعد بعثة الرسول محمد ﷺ:

﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

**مِنْ قَبْلِه**: أي: من قبل بعثة الرسول محمد ﷺ.

**الصّراط السّويّ**: هو الصراط المستقيم المستوي الذي لا عِوَج فيه ولا عثرات.

أي: فسَتَعْلَمُونَ أيُّها المكذّبون برسالتي وبما جئتكُمْ به من عند ربّكُمْ

حين يجازيكم على كفركم بالعذاب الأليم، بعد رحلة الحياة الدُّنيا، حياة الابتلاء، مَنْ أصْحَابُ الصّراط السّوِيّ، ومَنِ المتنكِّبُ له، السالِكُ في متاهات الخيبة والهلاك. ومَنِ اهتَدَىٰ إلى الحقِّ والرُّشد وسُلُوك سبيل السعادة، ومَنْ ضلَّ وغَوَىٰ وعرّضَ نفسه لعذابٍ أليم خالدٍ في دار العذاب يوم الدّين.

والمعنى: سيظهر لكُمْ أنّ رسولكم ومَنْ آمَنَ به واتّبعه هُمْ أصحاب الصراط السَّوِيّ الموصِلِ إلى السَّعادَةِ الأبَدِيّة، وأنّكُمْ وأمثالكم الذين كذّبوا رَسُولَ رَبّهم هُمُ الخارجون عن الصراط السّويّ، والضّالّون الخائبونَ المعذّبون في دار العذاب يوم الدين.

❁ ❁ ❁

(٧) ما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

**دَارُ السَّلَامِ**: هي الجنَّةُ الّتي يحظَىٰ فيها أَهْلُها بالسَّلام الكامل الدائم الخالد الذي لا تشوبه منغصّات خوف ولا قلق ولا عَذَابٌ ولا نصَبٌ ولا تعب.

**ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاط مستقيم**: أي: ويهدي بمشيئته الّتي لا تفارق حكمته وعلمه بما في نفوسِ عباده من خيرٍ إلى صراط مستقيمٍ في مسيرتهم في حياتهم.

فمن آمَن إيماناً صحيحاً صادقاً، شَرَحَ الله صدْرَه لتطبيق أحكام الإسلام والاستمساك بشرائعه، والإسلامُ هو الصراط المستقيم لسلوك الناس في الحياة الدنيا.

والهداية هنا هي هداية دلالة ومَعُونَةٍ وتوفيق، وهي أَثَرٌ رَبَّانيٌّ من آثار صِدْقِ إيمانِ الْعَبْدِ، واتّجاه قلبه إلى ربّه كي يَهْدِيَهُ هذه الهداية، وليست هداية جَبْرٍ لاَ كَسْبَ للعباد فيه.

❁ ❁ ❁

(٨) ما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

قال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿... قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٦﴾.

لقد أَبَانَ هُودٌ عليه السَّلاَمُ لِقَوْمِهِ أنَّ اللَّهَ رَبَّهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مستقيم، أي: هو سبحانه في مقاديره وتصاريفه في كونه وعباده، إنَّما يُجْرِيها مُلْتَزِماً بِحِكْمَتِه صراطاً مستقيماً، فيُعَامِلُ عباده بالحقّ والعدل والفضل والإحسان.

فمن استحقّ العقاب من عباده عاقبه بعدل، ومن استحقَّ الثوابَ منهم أثابه بفضله، ومن قضىٰ له بحكمته أنْ ينجيه أنجاه، ومن قضىٰ عليه بحكمته أن يُهلكَهُ أهلكه.

وهو آخِذٌ جلَّ جَلاَلُهُ بنواصي الجميع، فما من دابَّةٍ في الكون كُلِّهِ إلاَّ هو آخِذٌ بناصيتها، وتمضي أحكامه ومقاديره في كلّ خلقه ضمن حُدُود صراطٍ مستقيم ألزم نفسه به، دون ظُلْم لأحد، إنّ رَبّي لا يَظْلِمُ أحداً مثقال ذرّة، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

❁ ❁ ❁

(٩) مَا جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

جاء فيها حكايةُ حوارٍ جرىٰ بين الله عزّ وجل وإبليس، إذْ رفض

إبليس لعنه الله أن يسجد لآدَمَ عليه السلام كما أمره الله، مستكبراً ومتعلّلاً بأنّ الله خلقه من نارٍ وخلق آدم من صلصال من حَمَإٍ مَسْنون، وزعم أنّه ليس من شأن المخلوق من النار أن يسجد لمخلوق آخر خُلِقَ من طينٍ أسود مُنْتِن، معترضاً على حكم الله وأمره، فطرده الله من دائرة رحمته الواسعة لإصراره، فطلَبَ من رَبّه أن يُنْظِرَهُ إلى يوم الدّين، فاستجاب الله لبعض طلبه، فقال له:

﴿. . . فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: إلى وقت إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وإماتة كلّ الأحياء في الأرض وفي السماوات.

فلمّا أخذ إبليس هذا الوعد من ربّه أعْلَنَ تعهُّدَهُ بأن يُغْوِي بني آدم جميعاً، باستثناء المخلِصِين من عِباده، والمُخلَصين بفتح اللاّم.

قال الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

● قرأ بكَسْرِ لام (الْمُخْلِصِينَ) ابْنُ كثير، وأبو عمرو، وابْنُ عَامِرٍ، ويعقوب. وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، بمعنى المصطَفين الذين استخلَصَهُمُ الله من عباده، وهم الأنبياء.

فأجابَهُ رَبُّه:

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

**هَذَا صِرَاطٌ عَلَيّ مُسْتَقِيمٌ**: أي: هذا الذي أُبيّنُ عناصِرَه فيما يلي، صِرَاطٌ مستقيمٌ عليَّ الالتزامُ به، وهذا الصراط يتألّفُ من الموادّ التالية:

**المادّة الأولى**: إنَّ عبادي الذين آمنوا بي واعتصموا بي، لَيْسَ لكَ عليهم سُلْطان، لأنَّهم في مَعَاذِي وفي حِمَايتي.

**المادّة الثانية**: لكنّ الذين يَتَّبِعُونَكَ من الغاوين، فيُخْرِجون أنفسهم عن دائرة عبوديتهم لي، والاحتماء والاعتصام بي، يَكُونُ لك عليهم سلطان إغواء وإغراء.

**المادّة الثالثة**: إنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أجمعين، يدخلونها يَوْمَ الدِّين، لينالوا فيها ما يَسْتَحِقُّون من عذاب.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الله جلَّ جلاله يُلْزِمُ نفسَه بالصراط المستقيم، في مقاديرِه وتصاريفه وجَزَائه وكلِّ ما يشاء من أمْرٍ، كما جاء في الحديث القدسي بالنسبة إلى الظلم:

«يَا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا».

❁ ❁ ❁

(١٠) ما جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

● جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: من يشأ الله يُضْلِلْه، ومَنْ يشأ يَهْدِيه، وهدايته له تكون بأن يجعَلَهُ على صِراطٍ مُسْتَقِيم فإذا تابع مسيرته في الحياة الدنيا عليه كان مَهْدِيًا، ومشيئة الله عزّ وجلّ لا تفارق علمه وحكمته.

فالذين كذّبوا بإراداتهم الحرَّةِ بآيات الله المنزَّلاَتِ في كتابه، ولم يستفيدوا من آيات الله في الكون وفي أنفسهم، تُصيبهم بسبب تكذيبهم الإراديّ ضِمْن مقادير الله وقوانينه السببيَّةِ النتائج التالية:

**النتيجة الأولى:** أَنْ يَكُونُوا صُمًّا عن استماع دعوة الحق، مهما كانت جليّة واضحة، وذات أدلّة برهانيّة دامغة.

**النتيجة الثانية:** أَنْ يكونوا بُكْماً عن الإقرار بالحقّ الدينيّ والاعتراف به، وعن قول الحقّ والخير على ما يرضي الله عزّ وجلّ، لأنَّ ألسنتهم مُوجَّهةٌ منْ قِبَلِ أهوائهم وشهواتهم ومصالحهم من الدنيا، ومن قِبَلِ شياطين الإنْسِ والجنِّ الضّالّين المضلّين.

**النتيجة الثالثة:** أَنْ يكونوا في الظُلمَات، من معتقدات باطلات، وأعمال فاجرة، وقوانين جائرة، وشتات في متاهات مهلكات، فهم في ظلماتٍ دامِسَات بمثابة الْعُمْي.

وقد جاءت عبارة: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۚ﴾ تصريحاً بالمراد من كلمة: «عُمْي» التي جاءت في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

- ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾.
- و ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾.

وهؤلاءِ الذين كذبُوا بآيات الله بإرادتِهِمُ الحرَّة يُضْلِلْهُمُ الله، أي: يجري فيهم قوانينه القدرية العامّة، فمن اختار لنفسه أن يترك صراطَ الْهُدىٰ، وهو صراط الله المستقيم، متّبعاً مسالِك الشياطين، أضلَّهُ الله في المهالك، كمن اختار لنفسه أن يرمي جسَدَهُ في النار أحرقه الله ضِمْن قوانينه في كونه، وهذا مشمولٌ بمشيئته الحكيمة التي لا مُجْبِر لها، ومعلومٌ أنّ كلّ ما يجري في الكون من أشياء إنّما يجري بأمر الله أو بإذنه.

لكن من آمن وأسلم واتّبع رضوان الله فإنّ الله عزّ وجلّ يجعله على صراطٍ مستقيم في مسيرته في حياته، وهذا أيضاً مشمولٌ بمشيئة الله الحكيمة.

❁ ❁ ❁

● وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً ذِكْرُ طائفة من الرُسُل عليهم السّلام، بدأهم الله عزّ وجلّ بإبراهيم عليه السلام، ثُمّ عطف عليهم بالتعميم بعض آبائهم وَذُرِّيَاتِهم وإخوانهم الّذين اجتباهُمْ واصطفاهم، وأبان عقب الحديث عنهم أنّهُ جلّ جلاله هداهم إلَىٰ صراطٍ مستقيم، ومعلومٌ أنّ الصراط المستقيم الذي هداهم إليه هو الدّين الّذي اصطفاه لعباده، وأنزلَهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ لتبليغه للناس.

قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾:

● وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

**حَرَجاً**: أي: شديد الضيق.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ من سورة (الأنعام) أنّ من آمَنَ إيماناً صحيحاً صادقاً كان من ثمرات إيمانه أن يَهْدِيه الله إلى الصراط المستقيم في مسيرته في حياته، فيشرح صدره للتطبيقات الإسلاميّة في سلوكه النفسيّ والجسدي.

أمّا مَنْ لم يؤمِنْ بل كفر بالله ورسوله واليوم الآخر، فإنّ من ثمرات كُفره أنْ لا يَهْدِيَه الله إلى الصراط المستقيم في مسيرته في حياته، فلا يشرح صَدْرَه للتطبيقات الإسلاميّة، بل يجعل عليه رِجْسَ القبائح والشرُور والآثام في سلوكه النَّفْسِيّ والجسدي، وإذا كان من أهل النّفاق ووَجَدَ نفسه مضطَراً للقيام ببعض التّطبيقات الإسلاميَّةِ أحسَّ في صَدْرِه بضيق شديدٍ يشبه حالة الاختناق البطيء الذي يَشْعُرُ به الذي يَصّعَدُ في السماء إلى طبقات مرتفعات، حيث يتناقص الأكسجين الذي يحمله الهواء.

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ الإيمان والإسلام هو الصراط الرّبّانيُّ المستقيم الذي دعا الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا إلى سلوكه عقيدة وعملاً.

ودلّ هذا النصّ على أنّ هداية الله عزّ وجلّ مَنْ آمنَ إيماناً صحيحاً صادقاً، إلى الإسلام، بشرح صدره للتطبيقات الإسلاميّة، وأنّ جَعْلَهُ رِجْسَ الشرور وقبائحِ الأعمال على من كَفَر فَلَمْ يؤمِنْ إيماناً صحيحاً صادقاً، كلاهما داخِلَان في صراط الرّبّ المستقيم، الذي يُجْرِي فيه مقاديره وتصاريفه وأحكامه، ونظير هذا أنّ من غمس نفسه في الماء الطّهور المحلّل للأدران والأوساخ والقذارات طَهَّرَهُ الله، فشعر بالانتعاش ونفحات النعيم تَسْرِي في جسده ونفسه، وأن من غَمَسَ نفْسَه في بئر القذارات والأنجاس والأرجاس دَنَّسَهُ الله، فشعر بآثار قاذوراته المزعجات الْمُمْرِضات، وهذا من سُنَن الله في كونه، في الماديَّات وفي المعنويّات.

● وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً بعد تكليف الله رسوله ﷺ أن يُبلّغ طائفة من أحكام الإيمان وأحكام السلوك، قول الله عزّ وجلّ لرسوله أن يقول للنّاس:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

إنَّ صِرَاطَ رَسُولِ اللَّهِ في الدِّين هو صِرَاطُ اللَّهِ، فَهُمَا واحِدٌ، فإذا قال الرسول للناس: اتَّبِعُوا صِرَاطِي فإنَّه يدعوهم إلى اتّباعِ صِرَاطِ اللَّهِ، لأنَّهُ يُبَلِّغُ ببيانِهِ القولي والعمليِّ صراط الله.

ويأتي من وراء حدود صراط الله ورسولِهِ من ذاتِ اليمين ومن ذات الشمال سُبُلٌ مُتَعَدِّدَةٌ شَتَّىٰ، فَمَنْ سَلَكَ واحِداً مِنْها ابتَعَدَ عن سبيل اللَّهِ حتماً، وكلُّ سَبِيلٍ غير سبيلِ الله يُوصل سالكيه إلى المتاهات فالمهالك، مَهْمَا أمتعتهم أوائله بزيناتها مِنْ ظواهر الحياة الدُّنْيَا ولذَّاتِها، وليْسَ بعد متاهات السُّبُل ومَهَالِكِهَا إلاَّ مُنْحَدَرَاتٌ تَقْذِفُ إلىٰ جهَنَّمَ دارِ العذاب، مع ما يُصَابُ سالكوها من خَيْبَةٍ في الحياة الدنيا، إذْ لا يُحَقِّقُونَ ما كانُوا يرجُونَ من سعادة، ومع ما يَحُلُّ بهم من نَدَمٍ على عُمْرٍ وطاقَاتٍ أَنْفَقُوها في الأوهام، وضيَّعُوهَا في الترَّهَاتِ والسَّفَاسِفِ والشُّرور والآثام وكُلِّ ما لا خير فيه، ولا ثباتَ له ولا بقاء.

وعندئذ يُذْكِرون أَنَّهُمْ كَانُوا يجاهدون ويكدحون للوصول إلى ماءٍ يُرْوي ظمَأَهُمْ، فإذا بِهِمْ يجاهدون ويكدحون إلى سرابٍ، وعند انتهاء رحْلَتهم لا يجدون إلاّ حسَابَ اللَّهِ وعذابه، لأنَّهُمْ رفضوا أن يسْلُكُوا صراطه المستقيم.

● وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

● قرأ نافِعٌ وابْنُ كثير وأبو عَمْرو وأبو جعفر ويعقوب: (دِيناً قَيِّماً) بفتح القاف وتشديد الياء مكسورةً،أي: معتدلاً مستقيماً.

● وقرأ باقي القرّاء العَشَرة: ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ بكسر القاف وفتح الياء من

غير تشديد، قالوا: وهو مصدر قامَ بمعنى اعتَدَلَ فلا عِوَجَ فيه، كَمَصْدَرَي: الصِّغَرِ والْكِبَرِ. وأقول: لماذا لا يكون جَمْعَ قِيمَة؟ إذْ يقال في اللّغةِ: «قِيمَة» وتُجْمَع على «قِيَم» أي: إنَّ هذا الدّين يشتمل على قِيَم عظيمة. وفي هذا دليل على أنّ ما لَهُ حقيقَة ثابتة نافعة فَهُوَ ذو قِيمَةٍ يُقَوَّمُ بها، **والْقِيَمُ** هي أثمان الأشياء الّتي لها حقائق ثابتة نافعة، أما الأشياء الأُخْرَىٰ التي لَيْسَ لها حقائقُ نافعة فإنَّها غَيْرُ ذواتِ قِيَم، فلا أثمان لَهَا لدىٰ البحث والتمحيص، وهنا ندرك أن أحكام الدّين وشرائعه ذوات قِيَم حقيقيَّة تُكَافَأُ بالسّعادة في الدّنيا وفي جنّاتِ النعيم يوم الدين. فَمَنْ قدَّمَ شيئاً منها نَالَ مِنَ السَّعَادَةِ على مقدار ما قدَّم.

فكلَّفَ الله عزّ وجلّ رسولَه محمّداً ﷺ أن يقول للنّاس: إنَّ هذا الدّين الّذِي أدعوكم إليه هو صراط مستقيم هداني الله إليه بما أنزلَ عليّ عن طريق الوحي. وأنّ هذا الدّين مَجْمُوعَةُ قِيَم (= أي: حقائق ثابتة نافعة ثوابها عند الله سعادةٌ عاجلة وآجلةٌ لِمَنْ آمَنَ بها وعمل بمقتضاها) وهُوَ مِلَّةَ إبراهيم عليه السلام الذي كانَ حَنِيفاً مائلاً عن كلّ اعْوِجَاجٍ كان عليه أهل زمانه، ولا يتركُ كلّ اعْوِجَاجٍ إلاَّ مَنِ استقام، فلم يكن عليه السلام من المشركين.

وكلَّفَ الله رسولَه أنْ يُعْلِنَ للنّاس أنّه أوّلُ المسلمين، أي: أوّل المطبّقين لأحكام الإسلام وشرائِعِهِ، باعتباره الإمَام الأولَ والقائدَ الأعظمَ لأَتْبَاع هذه الرسالة الرَّبَّانِيّة الخاتمة، وكَمَالُ هذا التطبيقِ الإسلاميّ يتحقَّقُ بأنْ تكون عبادات الْعَبْدِ كلُّها من صلاةٍ يُصَلّيها ومِنْها الدُّعَاء، وأنْسَاكٍ يَنْسُكُهَا كأعمال الحجّ، وكذَبائح الْهَدْي والأضاحِي ونحوها، موجَّهَةً للَّهِ وَحْدَه لاَ شريكَ له، وكذلك أيْضاً كلُّ ما يشْتَمِلُ عليه مَحْيَاهُ وَمَمَاتُهُ مِنْ عَمَلٍ إراديٍّ ظاهِرٍ وبَاطِنٍ ماديٍّ ومَعْنَوِيٍّ، فهو يُجْرِيه في قَنَواتِ طاعةِ اللَّهِ والعمَلِ بمراضيه، والابْتِعَادِ عَنْ مساخِطِه، حتَّىٰ المباحاتُ يَجْعَلُهَا بالنيّاتِ الصالحات جاريَةً في قنواتِ عبادة الله.

وقد يتساءل متسائل قائلاً: كيف يكونُ للإنسان عَمَلٌ إراديّ عند موته أو بَعْدَ مَوْته؟

والجواب: أنّ كثيراً من تصَرُّفَاتِ الإنسانِ في محياه قد تكون معلَّقَةً إلى ما بعد مَمَاته كالوصايا، وقد تكون ذاتَ آثارٍ تمتدُّ إلى ما بَعْدَ مَوْته، كالصَّدَقةِ الجاريَة والْعِلم الذي يُنْتَفَعُ به، فما كان منها عبادةً لله مع الْتِزام أحكام الإسلام وشرائعه كان لله، وما لم يكن كذلِكَ لم يكن لله.

وكلَّفَ الله عزّ وجلّ رسوله أن يَقُولَ للنَّاس: إنَّ اللَّهَ رَبّي قد أَمَرَني بأن تكون صَلاَتي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي بأَنْ تَكُونَ له وحْدَهُ لاَ شريكَ له.

وبهذا يكون كمالُ الالتزام بسُلُوك صراط الله المستقيم، الذي هو الدين الذي اصطفاه لعباده.

❁ ❁ ❁

(١١) ما جاء في سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

● قال الله عزّ وجلّ فيها يَعْرِضُ لَقْطَةً هي حدثٌ يجري من أحداث مشاهد يوم الدّين:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

دلَّ هذا النَّصُّ علىٰ أنَّ الذين كانُوا في رحلة الحياة الدنيا يَسْلُكُونَ سُبُلاً شَتَّىٰ غَيْرَ سَبيلِ اللَّهِ المستقيم، تَصُبُّ سُبُلُهُمْ المختَلِفَةُ يَوْمَ الْقِيَامة في صِرَاطٍ واحِدٍ هُوَ صِرَاطُ الجحيم، أي: الصِّرَاطُ الذي يجعلهم على أبواب جَهَنَّم، وهنالك يوقفون لمساءلتهم، والحكم عليهم بأَنَّهم من أهل النار.

**فاهْدُوهُمْ إلَىٰ صِراطِ الْجَحِيم**: هذا الأمر يوجِّهُه اللَّهُ يوم الدِّين إلَىٰ الملائكة الذين جعل الله من وظائِفهم سَوْقَ المجرمين إلى دار العذاب.

ومعنى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ فَدُلُّوهُمْ وَسُوقُوهُمْ سَوْقاً جَبْرِيّاً.

فصراط الجحيم يوم الدين صراطٌ واحِدٌ، لكنَّهُ في رحلة الناس في الحياة الدُّنيا سُبُلٌ شَتَّىٰ تجتَمِعُ عنْدَ نِهَايَاتِها في صراط الجحيم.

● وقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصّافات) أيضاً بِشَأْنِ موسَىٰ وهارُونَ عليهما السلام:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾:

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ أنّه هدَىٰ مُوسَىٰ وأخاه هَارُون عليهما السلام الصّراطَ المستقيم، وهو الدين أنزله عليهما لتبليغه للناس، ومنهاج الدعوة إلى الله، والقيادة الصالحة لبني إسرائيل.

❁ ❁ ❁

(١٢) وجاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ، في وصْفِ ما يَرَاه أولُوا الْعِلْم بشأن ما أُنْزِلَ إلَىٰ الرسول ﷺ من ربّه:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

**صِراط العزيز الحميد**: هو الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده، وهو صراط الله المستقيم.

**العزيز**: القويُّ الغالب.

**الْحَمِيد**: أي: المحمود في كلّ صفاته وأسمائه جلّ جلاله، والّذي يَحْمَدُ مُسْتَحِقي الحمد من عباده.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الّذين أوتُوا العلم يَرَوْنَ بعقولهم الواعية، وقلوبهم البصيرة، أنَّ مَا أُنزِلَ إلى الرسُول من رَبّه قِسْمَان:

(١) قِسْمٌ هُوَ الحقّ الذي لا ريب فيه.

(٢) وقِسْمٌ يَهْدِي إلى صراطٍ مستقيم لا عوج فيه، فالقرآن في كلّ أحكامه وشرائعه السلوكية يهدي للّتي هي أقوم.

والذين أوتوا العلم من البشر هُمُ الصفوة الّذين يُعْتَدُّ بهم، فمن عداهم جهلة وأهل أهواء يتَّبِعُونَ الشهوات ويؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، والباطلَ على الحقّ.

❀ ❀ ❀

(١٣) وجاء في سورة (الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾: هو القرآن، سَمَّاه الله عزّ وجلّ روحاً لكونِه سببَ الحياة السعيدة لمن آمن به واتَّبع هُداه.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾: أي: ما كنت يا مُحمّد تَدْري قبلَ أن نُوحِيَ إليك القرآن شيئاً عن حقيقة كتابٍ رَبَّانيّ يتضمّن هداية الناسِ

إلى صراطٍ مستقيم يحقّق لمن سلكه السعادة، وما كنت تَدْرِي شيئاً عن حقيقة الإيمان وأركانه وأدلّته وآثاره في النفوس وفي السلوك الظاهر والباطن.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾: أي: ومَا أوحينا إليكَ القرآن لنُميِّزَكَ وحْدَكَ بالْهِدَاية والتشريف، ولكِنْ جَعلْناه نوراً عاماً للأذهان والأفكار والقلوب والنفوس الّتي تَتَدَبَّرُهُ وتتفهَّمُه وتُؤْمِنُ به، وهذا النور نَهْدِي به من نشَاءُ مِنْ عبادنا.

والهداية هُنَا هدايةُ دلالة وإرْشادٍ ومعونة وتوفيق للعمل، وبما أنّ مشيئة الله عزّ وجلّ لا تفارق عِلْمه وحكمته، كان علينا أنْ نفهم أنّ الله يهدي بنور القرآن من استجابَ لدعوته وآمن به، وبذَلَ جَهْدَه لتَدَبُّر آياتِه مبتغياً معرفة الحقيقة الّتي يَهْدِي إليها نورُه المبين، وحريصاً على الإيمان بالحقّ واتّباعه.

ومَنْ هداه الله عزّ وجلّ بنور القرآن أدْرَكَ الحقَّ وآمَن به، ثم وفَّقه الله إلى سُلُوكِ الصراط المستقيم، صراطِ الله العزيز الحميد، على مقدار حِرْصِه على ابتغاء مرضاة الله في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا.

فإذا اسْتَمرَّ طَوال رحلة امتحانه مؤمناً حتَّىٰ لَقِي ربّه، وكان لإيمانه آثار أعمالٍ صالحة، فإنّ الله عزّ وجلّ يحكُمُ له بالهداية، فيكونُ يوم الدين من المهديِّينَ الذين يقضي الله لهم بأنّهم من أهل جنّاتِ النعيم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾: أي: وَإِنَّكَ يا مُحَمَّدُ تَهْدِي هِدَايَةَ دَلاَلَةٍ بما أوحَيْنَا إلَيْكَ إلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقيم، وهذا الصراط المستقيم الّذِي تُبَيِّنُهُ للناس وتدُلُّهُمْ عليه هو صِرَاطُ الله الّذِي لَهُ مُلْك كلّ شيءٍ في السَّمَاواتِ وَكلّ شَيْءٍ في الأرض، وهَذا الصراط هو دينه الذي اصطفاه لعباده.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: دلَّ هذا الختام علىٰ أنّ الصّراط المستقيم الذي اصطفاه الله لعباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدّنيا حياةِ الابتلاء، إنَّما دُبِّرَ بعلم اللَّهِ وحكمته للامتحان، والغاية من الامتحان الحسابُ وفَصْلُ القضاء يَوْمَ الدّين وتَنْفِيذُ الجزاء، هذا هو مصير الموضوعين في رحلة الحياة الدنيا موضع الامتحان، إنّه مصيرٌ إلى الله الذي يحاسب عباده، ويفصل بينهم ويجازيهم على ما عملوا، وهذا داخل ضِمْنَ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ عامّة، هي أنّ الأُمُور كُلَّها في الوجود كلِّهِ تصير إليه جلّ جلاله، فانْتَبِهُوا يا عباد الله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

❁ ❁ ❁

(١٤) ما جاء في سورة (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

● قال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾: أي: فأَمْسِكْ بقُوَّةٍ بالقرآن الّذي أُوحِيَ إليك عقيدةً وَعَمَلاً وَدَعْوَةً إلى الإيمان وإلى سُلُوك صِرَاط الله المستقيم.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي: إنَّكَ يا مُحَمَّد في عقيدتِكَ وفي سلوكِكَ وفي دعوتك إلى دين الله وفي تبليغِكَ آياتِ القرآن وفي بيانك لما أنزل اللَّهُ سالِكٌ على صراطٍ مستقيم، وهذه شهادةٌ من اللَّهِ لِرَسُوله بِعِصْمَتِه عن الانحراف عن صِراطه المستقيم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾: أيْ: وإنَّ القرآنَ بوصفه قرآناً عَرَبيّاً مُبِيناً لشَرَفٌ لَكَ ولقومِكَ الناطقين باللِّسَانِ العربيّ المبين.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾: أي: وسَوْفَ تُسْأَلُونَ يومَ الدّين أَنْتَ ومَنْ آمَنَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ عَنْ تَبْليغ كتابه وأصول الدّين وفروعه للناس.

● وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً في معرض الحديث عَنْ عيسَىٰ عليه السلام فأوصَىٰ رسولَهُ محمّداً ﷺ بأن يقول لقومه:

﴿... وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

فَدَلَّ هٰذَا النَّصُّ علَىٰ ما يلي:

(١) أنّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ قد أمَرَهُ الله عزّ وجلّ بأنْ يقول لقومه: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ والصراط المستقيم الذي يدعوهم إلى اتّباعه فيه هو الدّين الذي أمَرَه الله بتبليغه للناس، وأنْ يكون فيه أُسْوَةً حسنةً.

(٢) أنَّ عيسَىٰ عليه السلام قال لقومه خمس مقولات:

**المقولة الأولى**: تضمّنَتْ أمْرَهُ لهم بتقوى الله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

**المقولة الثانية**: تضمّنَتْ أمْرَهُ لهم بطاعته: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

**المقولَةُ الثالثة**: أبان لهم فيها أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾.

**المقولة الرابعة**: تَضَمّنَتْ أَمْرَهُ لَهُمْ بأنْ يَعْبُدوا ربّهم: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾.

**المقولة الْخَامسة**: أَبَانَ لَهُمْ فيها أنّ تقوى الله، وطاعةَ رسوله، وتوحيدَ الله في رُبُوبيته، وعبادتَهُ وحْدَه لا شريكَ لَهُ صِرَاطٌ مستقيم: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾.

❀ ❀ ❀

(١٥) مَا جاء في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

● قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾:

أبَانَ هٰذَا النّصُّ أنَّ الأبْكَمَ الّذِي لاَ يأتِي بِخَيْرٍ لاَ يَسْتَوِي هُوَ ومَنْ يأمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ في سُلُوكه بنفْسِهِ عادِلٌ على صِراطٍ مُسْتَقِيم، لاَ يكْتَفِي بِأَنْ يأمُر بِالعدْل، وهو في أعماله وسلوكه جائر عن الصّراط المستقيم، بل هو جامِعٌ بين فضيلَتَي قَوْلِ الحقّ والعمل به.

والمرادُ من الأبْكَم هُنَا الَّذِي لاَ يَقُولُ الحقَّ ولا يَنْطِقُ بالْعَدْل، وهو الذي يُوصَفُ بأنَّهُ شيطانٌ أَخْرَس.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل) أيضاً مُثْنِياً على سيدنا إبراهيم عليه السلام بعدّة صفاتٍ ومنها أنّه هَدَاه إلى صِراطٍ مستقيم:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

جاء في هذا النصّ الثناء على إبراهيم عليه السلام بالصفات التاليات:

(١) أنه كان في أوّل عَهْدِه أمَّةً وَحْدَه، قبل أن يوجد معه مؤمنون، إذْ كان منفرداً باتجاهه للتفكير المستقلّ بعيداً عن كلّ تقليد أعمى، وبعيداً عن كلّ شركيّات قومه.

(٢) أنَّهُ كان قانتاً لله، أي: مطيعاً لله خاضعاً له، ملازماً عبادته.

(٣) أنّه كان حنيفاً، أي: مائلاً عن كلّ مذاهب المشركين، ولاَ يكون هذا إلاّ بالاستقامة على الحقّ.

(٤) أنَّه لم يكُنْ من المشركين.

(٥) أنَّه كان شاكراً لأنعم الله عليه.

(٦) أنّ الله اجتباهُ، أي: اصطفاه فجعَلَه نبيًا رَسُولاً.

(٧) أنّ الله هداه إلى صراطٍ مستقيم، وهو الدّين الذي اصطفاه اللَّهُ لعباده، وأوحَىٰ به إلى إبراهيم عليه السّلام.

(٨) أنَّ الله آتاهُ في الدّنيا حسنة فأنجاه من نمرود وكيده، وأرشده أن يهاجر، فهاجر بإذنِ الله إلى الأرض التي بارَكَ اللَّهُ فيها مع أهله ومن آمن معه، ووسَّع عليه في الرزق وأكرمه في حياته الدنيويَّة.

(٩) أنّ الله عزّ وجلّ جعله في الآخرة من الصالحين.

❁ ❁ ❁

(١٦) مَا جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) فقد جاء فيها قول الله لرسوله في الآية الأولى منها:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾.

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾: أي: لتكونَ يا مُحَمّدُ في تَبليغِكَ دِينَ الله وبيانِك الحكيم، وفي كَوْنِكَ أُسْوَةً حسنة، سبباً في خُروجِ من استجابَ لدعوتك واهتدى بهُدَاك، مِنَ ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: أي: إلى الصراط المستقيم، الذي هو صِرَاطُ العزيز الحميد.

**العزيز**: القويّ الغالب.

**الحميد**: ذو الصفات المحمودة، والذي يَحْمَدُ مستحقي الحمد من عباده.

❁ ❁ ❁

(١٧) مَا جاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

قال الله عزَّ وجلَّ فيها خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأن دَعْوَته مشركي مكّةَ إلى نَبْذِ الشِّرْكِ، وإلى الإيمان باليوم الآخر:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ أنّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ التوحِيدِ ونَبْذِ الشِّرْكِ وإلى الإيمان باليوم الآخر، دَعْوَةٌ إلى صراطٍ مستقيم.

وأبَانَ أنّ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة مائلون عن الصراط المستقيم وخارجون عن حدوده.

**لَنَاكِبُون**: الناكِبُ عن الطريق، المائلُ عنه، الخارجُ عن حدوده، السائر في سُبُل تفضي به إلى المتاهات فالمهالك.

❁ ❁ ❁

(١٨) ما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

● فقد جاء فيها قول الله عزّ وجل:

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾:

لمَّا قضَتْ حكمة اللَّهِ عزّ وجلّ في العَهْدِ المدنيّ أنْ يُحَوِّلَ قِبْلَةَ المسلمين من التوجُّهِ للْمَسْجِد الأقْصَىٰ، إلى التوجُّهِ في صلاتِهم شَطْرَ

المسجد الحرام وكعبَتِهِ في مكّة، أبانَ جلّ جلاله أنّ السُّفهاء من الناس وهم اليهود يومئذٍ في المدينة سَيُثِيرون اعتراضاً على هذا الإجراء الرَّبّانِي يقولون فيه: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ لفتنة المسلمين عن دينهم، موهمين أنَّ ذاتَ القبلة هي من أصول الدّين، لا من أحكام التكاليف التعبُّدِيّة الّتي يُقْصَدُ بها طاعة الله في أوامره ونواهيه مهما غيَّر فيها وبدّل، مع تحقيق حِكَمٍ ومصالِحَ للعابدين فهٰذِه الأحكام التعبُّدِيّة قابلة للتغيير والنسخ إلى مثلها أو خَيْرٍ مِنها، كشأن أوامر الضابط العسكريّ لجنده إذْ يقول لهم: «تَقَدَّمُوا ـ تأخّرُوا ـ سِيروا يميناً ـ سيروا شمالاً ـ تراجعوا إلى الوراء ـ هيَّ إلى مهاجعكم ـ هَيَّ إلى الطعام، انصرفوا إلى الراحة ـ اصْعَدُوا ـ إنْزِلُوا ـ وهكذا».

فلا يُقالُ للضابط العسكريّ: لِمَ تُغيّر في أوامركَ ونواهيك؟ ولِمَ تأمُرُ بشيءٍ ثُمّ تَأمُرُ بضِدِّه؟ لأنّ كلّ إنسانٍ ذي فكرٍ يُدْرِكُ أَنَّ الْغَرَضَ التدريبُ على الطاعة، أو امتحان الطاعة.

وفي هذا الحديث أَلْقَىٰ اليهود بين المسلمين لفتنتهم عن دينهم مقولةَ مفادُها: مَا حَالُ المؤمنين بمحمّد الذين ماتوا وقد كانوا يتوجّهون في صلواتهم لبيت المقدس؟

فقال بعض المسلمين للرسول ﷺ: يا رسول الله، فكيف بالذين ماتُوا وهُمْ يُصَلُّونَ إلى بيت المقدس؟

فأنزل اللّهُ عزّ وجلّ في الإجابة على هٰذِه المقولة قولَه في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿..وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

أي: إنَّ التَّوَجُّهَ لِبَيْتِ المقدس أو للكعبة إنّما الغرض منه طاعةُ أَمْرِ الله عزّ وجلّ، وهٰذِهِ الطّاعةُ أَثَرٌ في السُّلوك من آثار الإيمان، وهذا التوجُّه الإيمانيُّ الملتزِمُ بأمرِ الله يسْتَحيل عقلاً أَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أو يُلْغِيهُ، فاللَّهُ جلّ جلاله عليم حكيم.

إِنَّ المشرقَ والمغرب وسائر الجهات كلَّها هي لله عزَّ وجلّ، وليس شيءٌ مِنْها لغيره، حتَّىٰ يكون تغيير القبلَةِ تغييراً للمَعْبُود، فإذا أَمرَ الله عباده بالتوجُّه للمشْرِقِ فإنَّهم يتوجَّهون لَه، طاعةً لأمر الله، ثُمَّ إذا أَمَرَهُمْ بالتوجُّهِ للمغرب فإنَّهُمْ يتوجَّهون أيضاً لَهُ طاعة لله، وامتثالاً لأمره، والتوجُّهُ في كلتا الحالَتَيْنِ إنّما هُو تعْبِيرٌ عَنْ صِدْقِ الإيمان في قلوبهم، وصِدْقُ الإيمان هذا لا يمكن عقلاً أنْ يُضَيِّعَهُ الله سبحانه، إذْ هو طاعة منهم لأوامره، وأثَرٌ من آثار الإيمان في قلوبهم.

ومن حكمة الله في هذا التغيير في الأوامر الرَّبَّانيَّةِ حول قضيَّةٍ واحدة تدريبُ المؤمنين على عدم ارتباط قلوبهم بالأشياء، وتجريدُهم من كلّ تَعَلُّقٍ إلاَّ التعلُّقَ به سُبْحانه، والتَّعَلُّقَ بطاعته في أوامره ونواهيه دواماً مَهْما غيَّرَ فيها وبدّل.

هذا هو الصراط المستقيم في أحكام العبادات، فمن أدركه والتزمَ به إيماناً وعملاً، وعزَم على طاعة الله مُطْلقاً دون النظر إلى عَيْنِ المأمور به، أو الحكمة منه هداه اللَّهُ بالتوفيق والمعونة إلَىٰ متابعة سلوك صراطٍ مستقيم يُحَقِّقُ به رضوان رَبّه عليه، وهٰذِه الهداية إنّما يُجريها الله بمشيئتِه الحكيمة الّتي لاَ توجَدُ قُوَّةٌ من غَيْرِ ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ تُلْزِمها بشيء، لكِنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يشاءُ الأمر الحكيمَ بمقْتَضَىٰ كمالِهِ المُطْلَق في ذاتِهِ وفي صفاته.

● وجاء في سورة (البقرة) أيضاً قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

أي: كانَ النَّاسُ أمَّةً واحِدَةً علىٰ الإيمان الّذِي وَرِثُوهُ عَنْ آدَمَ عليه السّلام، ثم اخْتَلَفُوا إِذْ دَخَلَ إليهم الشِّرْكُ وَالكُفْرُ فتفرَّقُوا فِرَقاً على سُبُلٍ شَتَّىٰ، فاحْتَاجُوا إلى نَبِيِّينَ مُرْسَلِينَ مُبَشِرِينَ ومُنْذِرِين، فبعثَ الله لهم بحِكْمَتِهِ الرُّسُلَ، وأنزلَ معَهُمُ الكتابَ بالحقّ، لِيُبَيِّنَ لَهُم أصُولَ الإيمان وأحكام الدّين، وليكون لمن شاء منهم أن يتحاكموا إِلَيْهِ مَرْجعاً يحكُمُ بَيْنَهم فيما اختلفوا ويَخْتَلِفُون فيه.

ثمّ اختلف فيه الّذِين أوتوه بالتحريف والتبديل والتأويلات الباطلات، من بَعْدِ ما جاءتهم آيات الكتاب البيّنات، وكان هذا بغياً بَيْنَهُم، إِذْ وُجِدَ فيهم منافقون يتظاهَرُون بقبول نصوص الكتاب الرَّبَّانِيّ والعمل بأحكامه، ويتلاعَبُونَ فيها بالتأويل الباطل وبالتحريف.

ثمّ بعث الله عزّ وجلّ خاتم النبيِّين والمرسلين محمّداً ﷺ، وأنْزَل عليه القرآن خاتمة كتُب السّماء، بيّناً واضح الدلالة على أصول الدّين، فهدىٰ الله بتوفيقه ومعونته وإذنه الذين آمنوا بالرَّسُول وبما أَنْزَل الله عليه إلى الاستمساك بالحقّ الذي جاء في القرآن.

فأحَقَّ أئمّةُ الاجتهادِ منهم المتّقُونَ الأَبْرَارُ الحقَّ، وأبْطَلُوا الباطل، وَأَوضحوا للناس الصراط المستقيم الذي هو صِرَاط الله في العقائد والأخلاق والآداب وأحكام السُّلوك، بالأدلّة الجليَّة، بحثاً واستنباطاً من نُصُوصِ الكتاب المجيد، وبيانات الرسول ﷺ، وكان هذا بمعونة من الله وتوفيق لهم، إذْ عَلِمَ أنهم مؤمنون مخلصون صادقون في تَحَرّي الوصول إلى الحقّ، دون بغي ولا زيغ عنه، واللّهُ يَهْدِي بمقتضىٰ عِلْمِه وحِكْمَته من يشاء

من عباده إلى صراطٍ مستقيم، هدايةَ دَلاَلَةٍ ومعُونةٍ وتوفيقٍ، ومعلُومٌ أنّ مشيئة الله في كلّ مقاديره لا تُفارقُ حكمته.

❁ ❁ ❁

(١٩) ما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

● فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ حكايةً لبعض ما قال عيسَىٰ عليه السلام لقومه:

﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

فأبان عيسى عليه السلام لقومه أنّ من عناصر الصراطِ المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه ولا عثرات ما يلي:

١ ـ أن يتَّقُوا الله، وتقوى الله تكون بالإيمانِ به وبما جاء من عنده، وبفعلِ ما أمرهم به وتركِ ما نهاهم عنه.

٢ ـ أن يُطِيعوا رسُولَ ربِّهم ولا يَعْصُوه.

٣ ـ أنّ حقّ الله على عباده أن يَعْبُدوه، فهو رَبُّهُ وربُّهم، إذْ من مقتضىٰ رُبُوبيّته لهم أَنْ يعبدوه فلا يُشرِكوا بعبادته شيئاً، فحَقُّ الرَّبِّ المالِكِ الْمُمِدِّ بعَطَاءَاتِ الرُّبوبيَّة على عبيده أن يَعْبُدوه، والالتزام بالحقّ التزامٌ بالصّراط المستقيم.

وعبادة العبد لربّه تشمَلُ طاعتَه والْعَملَ بمراضيه في كلّ سلوكٍ نفسيٍّ وَجَسَدِيّ.

● وجاء فيها قول الله عزّ وجلّ خطاباً للذين آمنوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾: أي: وَمَنْ يَحْتَمِ باللَّهِ مُلْتَجِئاً إليه ومُمْتَنِعاً به. والاعتصامُ بالله يكونُ بالإيمان به، والإسلام له، وعبادته وحْدَه بِصِدْقٍ وإخلاصٍ دون إشراكٍ به، وبالْعَملِ بمراضيه، وباللُّجُوءِ إليه وحْدَهُ بالدُّعاء مع إخلاصِ النِّيَّةِ في كلِّ أمْرٍ مِنْ أُمُور الدنيا والآخرة.

وهذا الاعتصام هو من جواهر الدِّين العظمى، ومن عناصره الرئيسة.

**الاعتصام بالشيء لغةً:** هو اللُّجوءُ إليه، والامتناع به، والاحتماءُ بحماه.

وقد أبان هذا النصّ أنّ من اعْتَصَم باللَّهِ ملْتَجئاً إلَيْه ومُحْتَمِياً به ومُسْتَمْسِكاً بالدّين الذي اصطفاه الله لعبادِه فَقَدْ هُدِيَ بِتَوْفِيقِ الله ومعونته إلى صراطٍ مُسْتَقيم.

❊ ❊ ❊

(٢٠) ما جاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

● فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن المنافقين:

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ولو أنّهم تابَعُوا فِعْلَ مَا يوعَظُونَ به مِنْ تحكيم الله ورسوله في قضاياهم لكان هذا خيراً وأشدّ تَثْبيتاً على الحقّ الذي أعْلَنُوا بألسنتهم انتماءهم إليه، إذْ تتجدّد لدَيْهم قناعات تُدْخِلُ الإيمانَ إلَىٰ قُلُوبهم، ومتَىٰ صَحَّ تَثْبيتهم على الإيمانِ آتاهُمُ اللَّهُ أجراً عظيماً، وهداهم في مسيرتهم في رحلة امتحانهم صراطاً مستقيماً، أي: وفّقهم إلى التزام صراط الله المستقيم وأعانَهُمْ عليه، فالهداية هُنَا هداية توفيق ووَزْعٍ وإعانة.

● وجاء فيها أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ خطاباً للنّاسِ جَمِيعاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

فأبانَ هذا النصُّ أنَّ صِدْقَ الإيمان مع الاعتصام باللَّهِ احْتِمَاءً بِحِماه، يُعِدُّ الْمُؤْمِنين الصَّادقين إلى أن يُدْخلهم الله في رحمته فيغفر لهم ذنوبهم ويُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِم، ويجعلهم مشمولين بفَضْلٍ مِنْهُ إذْ يَعْصِمُهمْ عن الوقوعِ فيما يُسْخِطُهُ، ويُزَكِّيهم بحمايةٍ منه، مع ما يمنَحُهم في الحياة من راحة ضمير، وسعادةِ نفس، وتَيْسِيرٍ للأمور ودفعٍ للمكاره، ومعوناتٍ في أمورهم، ويهديهم صراطاً مستقيماً فيما بقي لهم من مسيرتهم في حياتهم، وهو صراط الله الّذي يبلغون به رضوان الله في جنَّات النّعيم يوم الدّين.

❁ ❁ ❁

(٢١) وَجاء في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: أي: كاشفاتٍ موضّحاتٍ لمن تدبّرها صراط اللَّهِ المستقيم، وهو دينه الذي اصطفاه الله للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، ودَلَّ على أنّ التَّبْيين هو تبيين للصراط المستقيم تتمة الآية.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: سبق أَنْ عَلِمْنا أنَّ مشيئة الله عزّ وجلّ لا تفارق عِلْمَهُ وحكمته، ومشيئته هي الّتي تحدّد مقاديره وتصاريفه.

فَمَنْ عَلم اللَّهُ في قلبه إرادة الحقّ والخير حبَّبَ إليه الإيمانَ وزيَّنَهُ في قلبه، فإذا آمن وصدقَ في إيمانه واتَّجَهَتْ إرادته للعمل بمقتضَيات الإيمان

شرح الله صَدْره للإسلام، فإذا أَسْلَم وصدق في إسلامه، أي: في إعلانه الطاعة لله في أوامره ونواهيه، وفي الخضوع له، أَوْجَدَ الله في قلبه الدافع إلى معرفة أحكام الإسلام وشرائعه، فإذا عَزَم على ذلك أعانه الله فَهَداهُ إلى معرفتها، ثُمَّ إلى الْعَمَلِ بها. وبهذا التسلْسُل تتحَقَّقُ هدايته إلى صراطِ اللَّهِ المستقيم عِلْماً وعملاً، وسُلوكُ هذا الصراط يُوصل إلى جَنَّاتِ النَّعيم ورضوانٍ من الله أكْبَرَ يوْمَ الدين.

❁ ❁ ❁

(٢٢) ما جاء في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

● جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

● ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: سَوابق هٰذه العبارة تُشْعِرُ بأنّ هذا يكونُ في الجنّة، فما هو الطيّبُ من القول الذي يقولونه فيها؟

جاء في القرآن عدّة بيانات تفصيليّة تخبِرُ عن بعض ما يقول أهل الجنة في الجنة، فمنها ما يلي:

١ ـ قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ . . . ﴿٥٣﴾﴾:

فهذا من الطيّب من القول الذي يقولونه في الجنّة.

٢ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

وهذا أيضاً مِنَ الطَّيِّب من القول.

٣ ـ وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (فَاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وهذا أيضاً من الطّيِّب من القول.

٤ ـ وقالَ الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

وهذا أيضاً من الطّيِّبِ من القَوْل.

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾: ذهب المفسّرون إلى حمل هذه الهداية على هدايتهم في الحياة الدنيا إلى صراط الله الذي هو دينه الّذي اصطفاه الله لعباده.

وأرى أنّهم يُهدَوْنَ في الجنة إلى الصراطِ الّذي يوصلهم إلى حيث

يَرَوْنَ ربّهم، فيفيض عليهم أنوار سُبُحاتِ وجهه، حامداً لهم إيمانهم وعملهم الصالح، وهم يَحْمَدُونه بما هو له أهلٌ من المحامد الجليلة العظيمة، والله أعلم.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ) أيضاً:

﴿... وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

أي: وَإِنَّ الّذِينَ آمَنُوا إيماناً صحيحاً صَادِقاً يُنوّرُ اللَّهُ عزّ وجلّ بصائرهم، فَيَهدِيهم في حياتهم إلى صراطٍ عَمَلِيّ مستقيم، يكون سبب نجاتهم وسعادتهم.

الهداية هنا هداية دلالةٍ وإرشاد، وقد تكون مصحوبة بالتوفيق والمعونة على التحقُّقِ بطَاعَة الله والعمل بمراضيه.

❁ ❁ ❁

(٢٣) ما جاء في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

● قال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾: هو ما حصل في صُلْح الحديبية، وآثاره من انتشار الإسلام بالدّعوة، إذْ كان هذا فتحاً مُبيناً.

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: أي: ليغفِرَ لكَ اللَّهُ مَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ مَا كانَ يَنبَغِي لمثلِك أن يُقَدِّمه، ومَا أخّرْتَ مِنْ عَمَلٍ فَلَمْ تَعْمَلْهُ، ممّا لا يَنبَغِي لمثلِكَ أن لا يَعْمَلَه.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: في هذا إشارة إلى قُرْبِ إنْزالِ ما بقي من شرائع الدّين وأحكامه، وبإنزاله تَتِمُّ نِعْمَةُ عناصر رِسالة الرسول، فسورة (الفتح) من أواخر التنزيل.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: هنا يَرِد سؤال وهو: أَلَمْ يَسْبِقْ أَنْ هَدَىٰ اللَّهُ رسولَهُ محمّداً ﷺ الصراط المستقيم، فهذا النّصّ من سورة (الفتح) وهي من أواخر ما نزل من القرآن إذْ لم ينزل بعدها إلاّ المائدة والتوبة والنّصر؟

**وأقول في الجواب:**

إنَّ الصراط المستقيم له بدايات وأوساط وأواخر، فَمَنْ سَلَكَ في أوائل الصراط المستقيم وهو مؤمنٌ صادقٌ يستعين بالله ويُخْلِص له في العبادة، أعانه الله بالبيان والتوفيق والتسديد علَىٰ متابعة سلوكه على الصراط المستقيم، بمقدار التزامه به.

ومن تابع مسيرته على الصراط المستقيم في أواسطه، أعانه الله بالبيان والتوفيق والتسديد حتى يَصِلَ إلى قُرْب أواخره، بمقدار التزامه به.

ومن قارب نهاية حياته سائراً على الصراط المستقيم، أعانه الله بالبيان والتوفيق والتسديد على متابعة سلوك الصراط المستقيم، بحسب مرتبته عند ربّه، حتَّىٰ يلْقَى الله ربّه وهو على صراطه.

ثم يَمُرُّ على الصّراط يوم الّدين مروراً تكون سرعته فيه على مقدار التزامه بصراط الله في رحلة امتحانه في الحياة الدُّنيا.

ثم يدخله الله الجنَّةَ ضِمْنَ الزُّمْرَةِ الَّتِي هُو منها.

فالمراد من هداية الله رسولَهُ الصراطَ المستقيمَ وهو في أواخِرِ رحلةِ حياتِه في الدنيا، إنْزَالُ ما بَقِيَ مِنْ شرائع الدِّين وأحكامِه عليه، وعِصْمَتُهُ فيما بقي له من عُمْرٍ، حتَّىٰ يُتَابعَ مَسِيرَته إلَىٰ أَنْ يلْقَىٰ رَبَّهُ حائزاً أَسْمَىٰ دَرَجاتِ المحسنين، ويكونَ في الذّرْوة من الفِرْدَوس الأعلى.

- وجاء في سورة (الفتح) أيضاً خطاباً لأصحاب الرسول ﷺ الذين

بايَعُوه تحت الشجرة في الحديبية، على قتال المشركين حتّىٰ الموت، وكانت هذه المبايعة الجهاديَّة قَبْلَ أن يَتِمَّ الصُّلْحُ بَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ وبَيْنَ مُشْرِكي مَكَّة، فأنْزل اللَّهُ عَزَّ وجلّ في السورة بعد ذلك، وقد أنزل الله أوائلها وهُمْ قافلون إلى المدينة:

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾: وهي الغنائم الَّتِي غَنِمُوهَا فِي غَزْوَةِ خَيْبَر.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾: فَحَمَىٰ أَهْلَكُمْ من كَيْدِ اليهود، إذْ هَمُّوا بعد خروج الرسول، ومَعَه معظم أصحابه إلى مكة، لأداء العمرة، بأن يُغِيروا على مَنْ بقي في المدينة من المسلمين.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: هذه العبارة معطوفة على محذوفٍ مُلاحَظٍ ذِهْناً، أي: لتشكروه على المغانم، وعلى كفِّ أيدي الناس عَنْكُمْ، ولتكونَ هذه المِنَحُ والمعونات الرَّبَّانِيَّةُ عَلاَمَةً يسْتَدِلُّ منها المؤمنون على أنّ اللَّهَ مَعَهُمْ مُؤَيِّدُهُمْ وَناصِرُهم إذا جاهَدُوا في اللَّهِ حَقَّ جهاده.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: أي: وليَدُلَّكُمْ وَيُعِينَكُمْ ويُوفقكم على مَعْرِفَةِ مَا لَمْ تَسْلُكُوهُ بَعْدُ من الصِّراطِ المستقِيم، ويُسَدِّدكُمْ حتّىٰ تلازِمُوه في مُسْتَقْبَلِ أمركم، إذا صَدَقْتُمْ مع الله، وأَخْلَصْتُمْ له العَمل.

إنّ الصراط المستقيم صراطٌ ذو مَرَاحِلَ مُتَعَدِّدَة، فَمَنِ اجتاز مَرحَلَةً مِنْه مَهْدِيّاً كَانَ بِحَاجَةٍ إلى مَعُونَةٍ من اللَّهِ بالبيان والتوفيق والتسديد حتَّىٰ يَقْطَعَ المرحَلَةَ التالِيَة مَهْدِيّاً مُسَدَّداً، فإذا اجتازها كان بحاجة أيضاً إلى معونةٍ من الله بالبيان والتوفيق والتسديد حتّىٰ يقطع المرحَلَةَ التالية لها مَهْدِيّاً مُسَدَّداً، وهكذا حتّىٰ يجتاز رحلة حياة الامتحان بنجاح.

❁ ❁ ❁

(٢٤) ما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

قال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لأَهل الكتاب:

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾:

أبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ أنَّ القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ له عدّة صِفَاتٍ:

**الصفة الأولى**: أنَّ القرآن من الله نُورٌ للقلُوب والأفكار والأنفس.

**الصفة الثانية**: أنَّهُ كتابٌ مُبِينٌ واضِحٌ لمن تَدَبَّر آياته وعَقَلها.

**الصفة الثالثة**: أنّ الله يهدي به الّذين اتَّبَعُوا رضوانه سُبُلَ سلامتهم في الدنيا والآخرة.

**الصفة الرابعة**: أنّ القرآن يُخرج بإذن الله من اتّبع رضوان الله من ظلُماتِ الكُفْرِ والجهل والضلالة وحماقات السلوك في الحياة الدنيا إلى نور الإيمان والمعرفة الحقّ والهدى والرّشْدِ في الأقوال والأعمال الظّاهرة والباطنة، الجسديّة والنفسيّة.

**الصفة الخامسة**: أنّهُ يهديهم هداية دلالة وتعليم إلى صراط مستقيم في مَسِيرَتِهِمْ في حياتهم، إذْ كلُّ ما في القرآن من دلالة وعِلْمٍ يَهْدِي إلى صراطٍ مستقيم لا عِوَجَ فيه ولا عَثَرَات.

وبهذا يتم تدبُّر النصوص الّتي جاء فيها لفظ الصراط في القرآن المجيد، والحمد لله على معونته وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

# سُورَة المسَد

## وَيطلق عليها سُورَة «تبَّتْ»

١١١ مصحف ٦ نزول

## (١)
# نصّ السورة وما فيها من قراءات من الفرش
## سورة المسد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ
عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا
ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ
فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٤ ٥

١ ـ قرأ ابن كثير [أَبِي لَهْبٍ] بإسكانِ الهاء.
● وقرأ باقي القراء العشرة: بفتح الهاء: [أَبي لَهَبٍ].
٤ ـ قَرأ عَاصم [حَمَّالَةَ] بالنّصْب.
● وقرأ بَاقي القراء العشرة [حَمَّالَةُ] بالرفع.
وهما وجهان عَرَبيان جائزان.

## (٢)
# سبب نزول السّورة

ورد في سبب نزول سورة «المَسد» أنّ الله أمَرَ رسُولَهُ محمّداً ﷺ بِأَنْ يُنْذِرَ عَشيرَتَه الأَقْرَبِينَ، فخرجَ حتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لبُطُونِ قُرَيشٍ، وانْتَظَر حتَّىٰ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، ومن لَمْ يسْتَطِعْ أَنْ

يحضُرَ أرْسَلَ رسُولاً، فجاءتْ قُرِيشٌ، وكانَ فيهم أبو لَهَب.

فلمَّا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ قال لهم:

«أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ منْ سَفْحِ هٰذَا الْجَبَل تُرِيدُ أَنْ تُغير عليكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟؟».

قالوا: نعم، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً.

قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

قال أبو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لِهٰذَا؟

فأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾.

ويظهر أنَّ اللَّهَ أمَرَ رَسُولَهُ بأَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الأَقْرَبِينَ مُنْذُ أَوَائِلِ بعثَتِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِ فِي أواسط الْعَهْدِ المكّي قَوْلَهُ في سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

فسبَبُ النُّزُولِ الّذي سبَقَ بيانُهُ قَدْ رَوَاهُ البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن ابْنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما، قال:

لمَّا نَزَلَتْ: «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ، ورهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصينَ»(١) خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا، فهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهْ».

فقالُوا: مَنْ هٰذَا، فاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فقال:

---

(١) الجملة الأولى آيةٌ قرآنيّة مِن سُورَة (الشعراء) التي نزلت في أواسط العهد المكيّ، لكن الجملة الثانية ليست من القرآن، فجمْعُهُما تحت عنوان: «نزلت» يدلُّ علىٰ أنها نزلت وحياً غير قرآن ولم تنزل قرآناً في أوائل العهد المكي، والله أعلم.

«أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ».

قالوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً.

قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

قال أَبُو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لِهٰذَا، ثُمَّ قَامَ، فنزلتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾. وقَدْ تَبَّ. هكَذَا قَرَأَها الأَعْمَشُ يومئذٍ. [البخاري: ٤٩٧١ (١٣٩٤) ومسلم (٢٠٨)].

وفِي روايَةٍ للبخاري (أي: بَعْدَ: حتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا):

فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حتَّىٰ اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وقُرَيشٌ فَقَالَ:

«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟».

قالوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلاَّ صِدْقاً. [البخاري ٤٧٧٠].

❁ ❁ ❁

أمّا الرّوَايَاتُ الّتي تَحدَّثَتْ عَمَّا فعلَهُ الرسولُ ﷺ بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ آيةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ من سُورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) فلَيْس فيها ذكْرُ أَبِي لَهَبٍ، ومَا وَاجه بِه الرَّسُولَ ﷺ، فهِي لا تَصْلُحُ بياناً لِسَبَبِ نزول سُورَةِ «الْمَسَد»، بَلْ جاءَ فِيهَا بَيَانُ قِيَامِ الرسول ﷺ بما أَمَرَهُ اللّهُ بِهِ في سُورَةِ (الشعراء) ويكونُ هذا عملاً آخرَ قام به الرَّسُولُ ﷺ في أواسِطِ العهد المكيّ، بعْدَ نزول سُورَةِ (الشُّعَراء)، وهُو غيرُ العمل الذي قام بِهِ في أَوَائِلِ العهد المكيّ، الّذِي قال له فيه أبو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لهذا، وموقع

هذه الرّوايات سُورَةُ (الشعراء) عند الآية، أُورِدُها هنا لمنع اللَّبْسِ بَيْنَها وبين ما رُوي عن ابن عباس في سبب نزول سورة (المَسدِ).

(١) فقد جاء عند البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حين أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال:

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ـ أَوْ كلمةً نَحْوَها ـ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً». [البخاري ٢٧٥٣ ومسلم ٢٠٦].

- وفي رواية عند البخاري ومسلم إضافة: «يَا بَنِي عَبْدِ المطَّلِبِ».
- وفي رواية عند البخاري إضافة: «يَا أُمَّ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ الله».

(٢) وجاء في رواية عند مسلم عَنْ أبي هريرة قال: لَمَّا نَزَلَتْ هٰذِهِ الآيــة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ دَعَـا رسُـول الـلَّـهِ ﷺ قُـرَيْـشـاً، فَاجْتَمَعُوا، فعَمَّ وَخَصَّ، فقالَ:

«يَا بَنِي كَعْب بْنِ لُؤَيّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِن النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّار، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النار، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ. فَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا»[1]. [مسلم ٢٠٤].

---

(١) **سأَبُلُّها بِبَلالها**: يقال لغة: بَلَّ رَحِمَهُ إذا وَصَلَها، وأَصْلُ الْبَلاَلِ نَضْحُ الشيء بالماء حتّى

(٣) وروى مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها قالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا فقال:

«يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ». [مسلم ٢٠٥].

(٤) وروى مسلم عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ، وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو قَالاَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال: انْطَلَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إلى رَضْمَةٍ[1] مِنْ جَبَلٍ فَعَلاَ أَعْلاَهَا حَجَراً، ثُمَّ نَادَىٰ:

«يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، إِنِّي نَذِيرٌ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَىٰ الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ: يَا صَبَاحَاهْ». [مسلم ٢٠٧].

**يَرْبأ أهْلَهُ**: أي: يَعْلُو على مُرْتَفع، ويتطلّع مَسِيرَةَ العدوّ، وينادي أهله محذّراً.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## موضوع سورة «المَسَدِ»

تتضمَّن السورة انتصار الله لرسوله ضدّ عمه أبي لهَبٍ الَّذِي آذاه بالدُّعاءِ عَلَيْهِ بالْخُسْرانِ والهلاك والانقطاع، وضِدَّ امرأتِهِ أُمّ جميل، التي كانت تؤذي الرسول ﷺ بأنواعٍ من الأذىٰ، فقد ورد في أخبارها أنّها كانت تحمل الحطب المملوء بالشوك فتطرحُهُ ليلاً في طريق النبيّ ﷺ إيذاءً له ولأصْحَابِه، وأَنَّها كانت تَمْشي بالنَّميمة لتُفْسِدَ بيْنَ الناس.

---

= يكون نَدِيًا، يُقَالُ: بلَّ الشيْءَ بالماء ونحوه يَبُلُّه بَلاًّ، وبَلَلاً، وَبَلاَلاً، إذا نَدَّاهُ. ويقال: بَلَّ فُلاناً، إذَا أعْطَاه.

(١) رَضمَة: الرَّضْمَةُ الصخرة العظيمة، أو مجموعة صخور مُتراكمة.

ذكر مشيها بالنّميمة مجاهد، وقتادة، والسّدّي.

**أبو لهب**: هو عبد العزّىٰ بن عبد المطلّب، أحدُ أعمام الرسول ﷺ.

**وامرأتُه**: أي: زوجتُه، هي أُمُّ جميل أَرْوَىٰ بنْتُ حَرْب بن أميَّة، أُخْتُ أبي سفيان بن حرب، وكانت عوراء، ترى بعين واحدة، فربّما كان يُطْلَق عليها لفظ «الْعَوْرَاء».

ويُلاحظُ أنّ كلَّ من تعرَّض له القرآن بالذّمّ من أعداء الرسول ﷺ وأعداء الإسلام قد ذكره الله بالوصف الّذي ينطبق عليه وعلى غيره، باستثناء أبي لهب وزوجته، ويَبْدو لي أنّ السبب في هٰذَا يَرْجِعُ إلى أمرين:

**الأمر الأوّل**: أنَّ أبا لهَبٍ عمُّ الرسول ﷺ، فَهُو من عشيرته الأقْرَبين، فَلاَ يَتَعصَّبُ في الانتصار إِلَيْه أَحَدٌ مِنْ عشيرَته ضِدَّ محمّد ﷺ، إذْ هما من عشيرةٍ[1] واحِدَة.

**الأمْرُ الثاني**: أنّ أبا لَهبٍ كان البادئ بإيذاء الرسول مواجهةً بلسانه وهو ينصح عشيرته الأقربين، وكان أذاه صريحاً لا مُوَاربَةَ فيه ولا تورية، وأنّ امرأته كانت تُعْلِنُ في المجتَمَعِ المكّيّ إيذاءها للرسولِ ﷺ بأقوالها وأفعالها.

فكان من الحكمة أنْ يَتولّىٰ الرَّبُّ جَلَّ جَلاَله بِقُرْآنِه نُصْرَةَ رسوله، حتَّىٰ لاَ يتجرّأ علَيْهِ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَتِهِ اسْتخْفَافاً به وبِعَشِيرَتِه.

وقَدْ اشْتَمَلَتِ السُّورَةُ علَىٰ رَدِّ عِبَارَةِ أبي لَهَبٍ عَلَيْهِ، والحكْم عليه بِالْخُسْرَانِ والانقطاع في قُرآنٍ يُتْلَىٰ مَا دَامَ لِكتَابِ اللَّهِ تَالٍ يَتْلُو آياتِهِ.

ولَكِنْ كانت عبَارَةُ أبي لَهَبٍ دُعَاءً غَيْرَ مُسْتَجابٍ، أَمَّا ما نزل فِي القرآنِ ردّاً عَلَيْهِ فهُو حُكْمٌ مُبْرَمٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلاَلُهُ، مسْتَتْبَعٌ بالتَّنفِيذِ لاَ مَحالَة، وقَدْ تَبَّ فَهلَكَ، وهُوَ يَلْقَىٰ عِقَابَه عند رَبِّهِ هو وزَوْجَتُهُ حَمَّالَةُ الحطَبِ.

---

(١) **عشيرة الرجل**: بنو أبيه الأقربون، وقبيلته.

## (٤)
## التدبّر التحليلي للسورة

### أوّلاً: تدبر ما يَتعَلَّقُ بأبي لَهَبٍ من السورة:

قال اللَّهُ عَزَّ وجلّ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾.

عَرَفْنا مِنْ سَبَبِ النُّزُول الذي رواه البخاريُّ ومُسْلمٌ عن ابن عباس، أنَّ الرَّسُولَ ﷺ في أوائِلِ الْعَهْدِ المكيِّ لمَّا أنْذَرَ عَشِيرَتَهُ الأقْرَبِينَ عمَلاً بما أمَرَهُ اللَّهُ بِهِ فيما أوحَىٰ إلَيْهِ، وَكانَ أبو لَهَبٍ فيمَنِ اجْتَمَعَ إليهِ في هذِه المرَّةِ المتقدّمَةِ، قالَ أبُو لَهَبٍ للرَّسُول: «تَبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنا إلاَّ لِهذَا» وجاء في رواية أنَّه قَال: «تَبّاً لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذا جمَعْتَنا؟». ثُمَّ قَامَ وانْصَرَف.

فَانْتَصَرَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ، فَأنْزَلَ السُّورَةَ صَرِيحَةً بأبي لَهَبٍ وَزَوْجَتِهِ، والحكمِ عليهما بالخسْران، والعذاب الشديد في النار يوم الدين.

فِعْلُ: «تَبَّ» يدُور حول معنى الخسران، وقد يَدُلُّ على الْهَلاك.

يقال: **تَبَّتْ** يَدا فُلان، أي: خَسِرَتا. **وَتَبَّ تَبّاً وَتَبَاباً**، أيْ: خسر، أو هلك. **والتَّتْبِيبُ**: النقْصُ والْخَسَارة، وتقول العربُ في دعائها عَلَىٰ إنسان بالخسران والهلاك: تبّاً لفُلَان، بالنصب على المصدريّة من فعل محذوف.

«**تَبَّ**» فِعْلٌ مَاضٍ والتّاء للتأنيث، والفاعِلُ «يَدَا أبي لَهَب».

ومَا جَاءَ فِي الآيَةِ حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ وَقَضَاءٌ، لاَ يَقْتَصِرُ عَلَىٰ خَسَارَةِ يَدَي أَبِي لَهَبٍ، فِي مُقَابِلِ دُعَاءِ أبي لَهَبٍ عَلَىٰ الرَّسُول بِأَنْ تَخْسَرَ يَدَاه، فَقَدْ جَاءَ فِعْلُ: ﴿وَتَبَّ﴾ في آخرِ الآيَةِ الأُولى، للحُكْمِ عَلَيْهِ كُلِّهِ بالْخُسْرَانِ، ودَلَّ

عَطْفُ زَوْجَتِهِ عَلَيْهِ في الآيَةِ الرابعة علَىٰ مُشَارَكَتِهَا لَهُ فيما أبْرَمَهُ اللَّهُ بَشأْنِهِ، فَهُمَا معاً مَشْمُولاَنِ بالْوَعِيدِ بِالْخُسْرَانِ وبالعذابِ بِلَهَبِ نَارِ جَهَنَّمَ يوم الدين.

فقولُ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

دَلَّ على أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ أَبْرَمَ حُكْمَهُ وَقَضَاءَه بخسارَتِهِ فِيمَا تَكْسِبُ يداه، في مقابل دُعَائِه على الرَّسُولِ بدعاءٍ لاَ يَسْتَجِيبُهُ اللَّهُ، والحكمَ عليه بخسارته كلَّ ذَاتِه، عَلىٰ أَنَّ إطْلاَقَ الْيَدَيْنِ قد يكونُ مِنْ إطْلاَقِ الْبَعْضِ وَإرَادَةِ الكُلِّ، ومَنْ كَانَ مِنَ المخلَّدِين في عَذَابِ النَّارِ يوْمَ الدِّينِ فَقَدْ خَسِرَ كُلَّ ذاتِهِ لاَ مَحَالَة.

وَجَاءَ في الآية اختيارُ كنيته «أبي لَهَب» دُون اسمه «عبد العزَّىٰ» لعدّة دَوَاعٍ حكيمة:

**الدّاعي الأول**: شُهْرَتُهُ فِي قَوْمِهِ بأبي لَهَب، فقد كان يُكَنَّىٰ بِذَلِكَ في الجاهلية لأَنَّ وَجْهَهُ قَدْ كانَتْ فِيهِ حُمْرَةٌ كَحُمْرَة اللَّهَب.

**الداعي الثاني**: إيثارُ الابْتِعَادِ عَنْ ذِكْرِ اسْمِهِ «عَبْدِ الْعُزَّىٰ» فَهُو في الحقيقَة لَيْسَ عبْداً للوثَنِ الّذِي كَانَ يُسَمَّىٰ عند الْعَرب الْعُزَّىٰ مؤنَّثُ «الأعَزّ» إذْ كان على صورة امرأة، بَلْ هُوَ عَبْدٌ مِنْ عبادِ الله.

**الداعي الثالث**: إيْثَارُ التناسُبِ اللّفظي بيْنَ كُنْيَتِه الدَّالَّةِ عَلَيْهِ، والنار ذاتِ اللَّهَبِ الَّتِي هُوَ صَائِرٌ إلَيْهَا لاَ مَحَالَة، فَقَدْ جاءَ فِي السُّورَةِ بيانُ أَنَّهُ سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ، ولا يخْفَىٰ مَا فِي هَذَا مِنْ إبداعٍ بيانيٍّ دلّ عليه مُقَابَلَةُ ما كان يُمْدَحُ به منْ إشراق وجْهٍ هُوَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ لاَ مِنْ كَسْبه، بمَا سَيَنْزِلُ بِهِ مِنْ عَذَابِ لهَبِ النار، عقاباً لَهُ عَلَىٰ مَا هُوَ من كسْبه.

كان أبو لَهَب معتزّاً في إعْلاَنه معاداةَ الرَّسُولِ ﷺ ومُعَادَاةَ الإسلام،

وإعلانِهِ مُقَاوَمَتَهُما، بما ملكَتْ يداه من مالٍ، وبما يَقْدِرُ عَلَىٰ كَسْبِهِ مِنْ أعْمَالٍ، ومنها كسْبُه مِنْ أولاده الّذين كان يتقوّىٰ بهِمْ، ومِنْها مُتَابَعَاتُهُ للرَّسُولِ فِي مَوَاقفِ دَعْوَتِهِ لقومِهِ كالمتابَعةِ الّتِي رُوِيتْ عَنْ طارقٍ المحاربيّ، قال:

بيْنَا أنا بِسُوقِ الْمَجاز، إِذْ أَنَا برَجُلٍ حَدِيثِ السّنّ يَقُول: «أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لاَ إِلَهَ إلاَّ الله تُفْلِحُوا».

وإِذَا رَجُلٌ خَلْفَهُ يَرْمِيهِ، قَدْ أَدْمَىٰ سَاقَيْهِ وَعُرْقُوبَيْهِ، ويقُولُ: يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّهُ كَذَّابٌ فَلاَ تُصَدِّقُوهُ.

فَقُلْتُ مَنْ هٰذَا؟. فقالُوا: هذا محمَّدٌ يزعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وهذا عَمُّهُ أبو لَهَب[١].

لمَّا كان أبو لَهَبٍ معتزّاً هذا الاعْتِزَازَ بما مَلكَتْ يَدَاهُ من أمْوالٍ، وبمَا يَقْدِرُ عَلَىٰ كَسْبِهِ مِنْ أعْمَالٍ، كانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يقول اللَّهُ بِشَأْنِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ وقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَا فِي عُمْقِ نَفْسِهِ مِنْ شَرٍّ لَنْ يَتحوَّلَ عنه طَوالَ عُمْرِه، أي: خَسِرَتْ يَدَاهُ أَمْوَالَهُ الَّتِي يملِكُهَا بِهِما، والَّتِي بِهَا تَقْوَيَانِ علَىٰ حَرْب الرسول ﷺ وَمُقَاوَمَةِ دَعْوَتِهِ، وَخَسِرَ هُوَ كُلُّهُ في كُلِّ مَا يَكْسِبُ مِنْ أعْمَالٍ بفكْرِه، وبلسانه، وبحركات جَسَدِهِ، وتَبَّ هو كُلُّهُ فيما كَسَبَ وَيَكْسِبُ مِنْ أَوْلاَدٍ كَفَرَةٍ مِثْله يَتَقَوَّىٰ بِهِمْ وَيَعْتَزُّ.

وإذا خَسِرَ مالَهُ، وخَسِر سَائرَ كَسْبِه في الأَعْمَالِ العدائيَّةِ والكيديّة، لم يَبْقَ لَهُ شيءٌ يسْتَنْصِر به، فيخيب مَسْعَاهُ ويكونُ مَهْزُوماً ذلِيلاً، حَسِيراً خاسِئاً.

ومِنْ مظاهر خسارته المعجّلة في الدنيا، أنّ ابْنَهُ عُتَيْبَةَ، الّذِي كان

---

(١) عن تفسير التحرير والتنوير. لابن عاشور.

زوجَ أم كُلثوم بنت الرسول ﷺ، لمّا أمرَهُ أبواهُ بتطليقِها، جاءَ إلى النبيّ ﷺ، فقال لَهُ: كَفرْتُ بدينِكَ، وَطَلَّقتُ ابنَتَكَ، وأقبَلَ على الرسُول ﷺ فشقَّ قميصه.

فقال الرسول ﷺ له: أمَا إنّي أسألُ اللّه أنْ يُسلّطَ عَلَيْكَ كَلْبَةً.

فخَرَجَ عُتَيْبَةُ مع تُجّار من قريشٍ نحو الشَّام، حتَّىٰ نَزَلُوا بالزَّرْقَاءِ، فَأَطَافَ بِهِمْ أسَدٌ تِلْكَ اللَّيلَة، فجعَلَ عُتَيْبَةُ يَقُولُ: هٰذَا وَاللّهِ آكِلِي كَمَا قَالَ مُحَمَّد، قاتَلَنِي ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ وهُوَ بِمكَّةَ وَأَنا بالشَّام، فانْصرَفَ الأَسَدُ، فَنَامُوا، وَجَعَلُوا عُتَيْبَةَ وَسَطَهُمْ، فَأَقْبَلَ فِي اللَّيْلِ يَتَخَطَّاهم، حَتَّىٰ أخَذَ بِرَأْسِ عُتَيْبَةَ فقتَلَهُ.

لكنَّ الخسْرَان الأَعْظَمَ والعذابَ الأكبر هو ما يُلاقيه يوْمَ الدين، جزاء ما اقترف في حياة الابتلاء في رحْلَة الحياة الدُّنيا.

● قول اللّهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.

أي: مَا نَفعَهُ مَالُهُ الذي اعْتزَّ بِهِ، وَمَا نَفعَهُ مَا كَسَبَ مِنْ أعْمَالٍ، بَلْ بَاءَ بالخيبَةِ والْخُسْرَان.

يُقَالُ لُغَةً: أغْنَىٰ الشيءُ فلاناً إذا كَفَاهُ، ويقالُ: أغْنَاهُ إذَا نَفَعَهُ وَأجزَأَ عَنْهُ، ويقالُ: أغْنَىٰ عَنْهُ هٰذَا الأمْرُ، أيْ: أجزَأَ عَنْهُ وَنَفعَه، وَمَا أغْنَىٰ عَنْهُ شيئاً، أي: لم يَكْفِهِ ولم يَنْفعْهُ بِشَيْءٍ.

لَقدِ انْتَصَرَ الإسلام، وهُزِمَ الشِّرْكُ، وعَلَتْ كلمة لا إلٰه إلاّ الله، ونُكِّسَتِ الأوْثَانُ وحُطِّمَتْ، وخابَ زُعماءُ المشركين وهُزِمُوا وانكَسَرُوا، ودَخَلَ مُعْظَمُ أتباعَهِمْ في الإسلام في زمن من عُمْر الأجيال قصير، وقامَتْ للرّسُولِ والذين آمَنُوا معه دَوْلَةٌ قَوِيَّةٌ، وَصَارَتْ لَهُمْ فِي الحجاز صَوْلَة، وتَضاءَلَتْ دَوْلَةُ مُشْركي قُرَيْشٍ.

فَمَا كَانَ حُكْماً رَبّانيّاً بكلماتِ اللَّهِ فِي: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ صَار بَعْدَ قليلٍ من الزَّمَنِ حقيقَةً واقِعَةً أنْبأَ عَنْهَا مُقَدَّماً قولُ الله تَعالَىٰ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ لقد كان هذا خبراً مُعَجَّلاً سابقاً لما نزلَ بأبي لَهَبٍ وَنُظَرائِهِ بعْدَ حينٍ مِنْ هزيمةٍ وخيبة، فلا مَالُهُ نَفَعَهُ في الانْتِصَار على الرسُول وصَحْبِه، وإيقافِ انتشار الإسلام وامتدادِه، ولاَ سَائِرُ كسْبِهِ الكَيْدِيّ نَفَعَهُ أيّما نَفْع، بل لاحقَتْهُ وسائر المشركين من قومِهِ الهزائمُ والنَّكَبات، ونَصَر الله رسُولَهُ والمؤمنين معه، وأَعزَّ دِينه.

● قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

أي: وإذا جَاءَ أَجَلُ مَوْتِه سَيُلاقي العذابَ والذُّلَّ والصَّغار، وسيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ يُحْرِقُ جِلْدَهُ، فَيَذُوقُ عَذَابَ الْحَرِيقِ، آناً فآناً بصُورَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ مُتَجَدِّدَة.

**سَيَصْلَىٰ ناراً:** أي: سَيُعَذَّب بالْحَرِيقِ فِي النّارِ. يُقَالُ لُغَةً: صَلِيَ النّارَ، وصَلِيَ بِها، إذا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

**اللّهَب:** أَلْسِنَةُ النّار الّتي ترْتَفِعُ من الموادّ الّتي تَحْتَرِقُ فيها.

واستعمالُ السين في عبارَة ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ دون حرف التسويف «سوف» قد يُشْعِرُ بأنّه في مُدَّةِ البرزخ بين الموت والبعث تُعَذَّبُ نفْسه بعذاب حَرِيقٍ بنارٍ يجعلُ الله لها خصائص عذاب لَهَبِ نارِ جهنَّمَ يومَ الدِّين، بدليل أنّ النصوص الْقُرآنيّة الّتي جاء فيها بيان العذاب في نار جهنَّمَ يَوْمَ الدِّين، قد جاء فيها استعمال حرف «سوف» لا حرف «السين» ويدلُّ استقراء النُّصوص القرآنية على أنّ «سَوْفَ» تستعمل للمستقبل البعيد، وأنّ «السين» تُسْتَعمل للمستقبل القريب.

فلا يخدَعَنَّهُ مِنْ نَفْسه أنّ قَوْمَهُ رَأَوْا حُمْرَةَ وَجْهِهِ ووضاءَتَهُ فكَنَّوْهُ بأَبِي

لَهَبٍ، فإنَّ ظُلُماتِ نَفْسِهِ، وقَلْبِهِ، وظُلماتِ كُفرِهِ وسُوءِ عَمَلِه، وكيْدِهِ السَّيِّئِ ضِدَّ الرسول ﷺ وضدّ دعوة الحق، وضدّ الّذين آمنوا به واتَّبَعُوه، ستجعل جزاءه العادل العذاب بالحريقِ بلَهَب النار، ويَوْمَ الدّين يكون عذابُهُ حَرِيقاً بنَار جهنَّم، خالداً فيها مُخَلَّداً أبداً، فالعذابُ بنار جهَنَّمَ يوم الدِّين يَكونُ بمثابَةِ الاسْتِمْرَارِ لعذاب نفْسِهِ بيْنَ الْمَوْتِ والبعث.

وهذا الحكم الصادر عن الله على أبي لَهَبٍ وامرأته، وهُمَا مَا زَالاَ في حيَاةِ الابْتِلاَءِ، دليلٌ على أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ عَلِمَ مَا فِي عُمْقِ أفْئِدَتِهِمَا مِنْ كُفرٍ لَنْ يَتحَوَّلاَ عَنْهُ، مهما تَعَرَّضَا لمختلف أنواعِ صُوَرِ الإِقناعِ والترغيب والترهيب، ووسائل التربيةِ والتأديب، وعَلِمَ أَنَّهما سيَمُوتَانِ علَىٰ كُفْرِهِمَا، فحَكَمَ عليهما بِالعذابِ الأبديِّ وهُمَا ما زَالاَ حيَّيْنِ في الدنيا.

فالنّص حُكْمٌ صَادِرٌ عن اللَّهِ، ولَيْسَ مُجرَّدَ إنْذَارٍ وتَهْدِيد مُعَلَّقَيْنِ على اسْتِمْرَارِهِمَا علَىٰ الكُفر، وكُفْرُهُمَا كُفْرٌ إراديٌّ اختياريٌّ مِنهُمَا، لَمْ يُجْبَرَا عليه، وقَدْ عَلِمَهُ الله بواسِعِ عِلْمِهِ المحيط بكلّ شيءٍ، حتّىٰ مَا فِي أعماق النفوسِ والقلوبِ والأَفْئِدَةِ، كمَا قال جَلَّ جلالُهُ، في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

## ثانياً: تدبّر ما يتعلّق بامرأة أبي لهب من السورة:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾.

**وامْرَأَتُهُ**: أي زَوْجَةُ أبي لَهَب، وهي أمّ جَمِيلٍ أَرْوىٰ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أميَّةَ، أُخْتُ أبي سُفْيَانَ بْنِ حَرْب.

والمعنى: وستَصْلَىٰ امرأته ناراً ذاتَ لَهَبٍ، فقوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ معطوف على فاعل: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ المُسْتَتِر، أي: سيَصْلَىٰ هُو وامرأتُهُ ناراً ذاتَ لَهَب، فهي تَعَذَّبُ مثلَ عَذَابِهِ، لأنَّها كانت مُشارِكَةً لَهُ في جَرائِمِهِ ضِدَّ رَسُولِ اللَّهِ وَدَعْوَتِهِ، وسبَقَ بيانُ أنَّها كانت تَحْمِلُ الحَطَبَ ذا الشَّوْكِ فَتَطْرَحُه ليلاً في طَرِيقِ النبيّ ﷺ إيذاءً لَهُ ولأصْحَابِهِ، وَذَكَرَ مجاهد، وقتادةُ، والسُّدِّيّ، أنَّها كانَتْ تَمْشِي بالنَّميمة لتُفسد بيْنَ الناس، ومِنَ المتعارفِ عليه عند العرب أنَّهُمْ كَانُوا يُكَنُّونَ عمَّنْ يَمْشِي بيْنَ الناس بالنَّمِيمَةِ بعِبَارَةِ «حمَّال الحطب» أي: هُو نمَّامٌ بَيْنَ بُيُوتِ العَرب ويَسْتُرُ غَرَضَهُ مِنَ التَّنَقُّل بأنَّهُ يَحْمِلُ الحطبَ الَّذِي يجلُبُه ليبيعَهُ عَلَىٰ أصحاب البيوت، ولعلَّها كانت عادة الحطّابين بَيْنَ العرب، فصار حمْلُ الحطب كنايَةً عن النميمة، وصار يكنىٰ عن النَّمَام بعبارة: حمّال الحطب، وقد كانت نميمة أم جميل هذه وسيلة من وسائل تقطيع الناس عن الرسول ﷺ، ومقاومة دَعْوَتِه، لشدَّة عداوتها.

ولا مانع من أنّ هذه المرأة قد كانت تفعل هاتين الخسيستين، النميمة، وإلقاء حطب الشوك في طريق الرسول ﷺ.

**حَمَّالَةَ الحطب**: قراءة جمهورُ القراء العشرة برفع (حَمَّالَةُ) على أنَّهُ نَعْتٌ للفظ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾.

وقَرأ عاصِمٌ: ﴿حَمَّالَةَ﴾ بالنَّصْبِ، على أنَّه مَفْعُولٌ بِهِ لِفِعْلٍ محذوفٍ تَقْدِيرُهُ: **أذمُّ**، والنصبُ على تقدير فعل الذم أو المدح شَائِعٌ في لسان العرب.

قولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾:

**الجيدُ**: العُنُق، ومُقَدَّمُهُ، وَمَوْضِعُ القِلادَة.

**والمَسَدُ**: اللِّيفُ، وحَبْلُ اللِّيفِ حبلٌ خَشِنٌ، وهُوَ لاَ يَصْلُحُ قِلادَةً للنِّسَاءِ، لكنَّهُ يُسْتَعْمَلُ حَبْلاً مَهِيناً لجرّ الدوابّ المحتقرة كالحَمِير، **أمَّا الجيادُ** وَكرائِمُ الإبلِ فيُوضَعُ في أَعْنَاقِها حِبَالٌ نفيسَةٌ.

وَعِبَارَةُ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ تَصْلُح كِنَايَةً عن كون هذه المرأة بِمَثَابَةِ دَابَّةٍ مُحْتَقَرَةٍ، يكْفي لقيادَتِها حبْلٌ خَشِنٌ مِنْ لِيفٍ، إذْ هِيَ حمْقَاءُ لا عَقْلَ لَهَا وَلاَ رُشْدَ عِنْدها، ولا تعَمَلُ إلاّ وفْقَ انفعالاتها ونزوَاتِها الرَّعْنَاءِ بحدَّةٍ وغضَبٍ وشرّ.

ويَدُلُّ علَىٰ لُؤْمِهَا وَخِسَّتِهَا وَنُزُولِ مستواها إلى مستوى دابّةٍ يكْفِي لجَرِّها مِنْ جِيدِها حَبْلٌ خَشِنٌ من لِيفٍ، ما كانت تفعَلُهُ مِنْ قطع سَبيلِ الرسولِ والمؤمنينَ بحَطبِ الشوْكِ، ليعْقِرَهُمْ وهُمْ سَالِكُونَ في اللّيل، ومثل هذا العمل لا يَفْعَلُه إلاّ السُّخَفَاءُ السُّفَهَاءُ ضُعَفَاءُ العقول، وما كانتْ تَفْعَلُه مِنَ التحريض على الرّسول ودعْوَتِهِ بوسيلةِ النميمة، والنميمَةُ من أقبح الوسائل التي يقومُ بها شِرار الْخَلْقِ من الناس، إذْ دوافِعُها الخِسَّةُ والسّفاهَةُ واللُّؤْمُ وخُبْثُ النفس، ولا سيما إذَا كان ذلِكَ ضدَّ الحقّ والخير والْهُدَىٰ، ولمُقَاوَمَةِ أخيار الناس وفضلائهم، فكيف بها وهي تفعله ضدّ رسول اللّهِ وضدّ دين الله الحقّ.

وعبارةُ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ تَصْلُحُ بَيَاناً لَما سَتَكُونُ عليه يوم الدّين في دَار العذاب، إذْ تُطَوَّقُ يَوْمئذٍ بطَوْقِ إهانَةٍ وإذْلاَلٍ وتَحْقِيرٍ، مَعَ مَا تُعَانِي مِنْهُ مِنْ عَذَابِ نار الحريق فِي جهنّم وبئس المصير.

أمّا الأقوال الأخرى التي ذكرها المفسّرون فلم أجِدْ فيها روايَةً مرفوعةً إلَىٰ الرسول ﷺ، فأعرضْتُ عنها.

## ماذا كان من هذه المرأة بعد نزول سورة المَسَد

أخرج ابْنُ أبي حاتم وأبو زُرْعَة عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «لمّا نزلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلَتِ العوراء أمُّ جميل بنْتُ حَرْبٍ ولَها وَلْوَلَةٌ، وفِي يَدِها فِهْرٌ[1]، وهِيَ تَقُولُ:

---

(١) الفهرُ: الحجَرُ.

مُذَمَّماً أَبَيْنَا. وَدِينَهُ قَلَيْنَا. وأَمْرَهُ عَصَيْنَا.

ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ في الْمَسْجِدِ ومَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فلَمَّا رَآها أبو بكر، قال: يا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَقْبَلَتْ وأَنا أَخافُ أَنْ تراكَ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي».

وقرأ قرآناً اعْتَصَمَ بِهِ كمَا قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾.

فَأَقْبَلَتْ حَتَّىٰ وَقَفَتْ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ تَرَ رَسولَ الله ﷺ، فقالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، قَالَ: لاَ وَرَبِّ الْبَيْتِ ما هَجَاكِ[1]، فَوَلَّتْ وهِيَ تقولُ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي ابْنَةُ سَيِّدِهَا».

وأَخْرَجه البزّار بمعناه، وقال: لا نعلمُهُ يُرْوَىٰ بأَحْسَنَ مِنْ هٰذَا الإِسْنَادِ.

**وتمَّ تدبُّر سورة (المسد) بعون الله وتوفيقه.**

❁ ❁ ❁

(١) يريد أنّ الله هو الذي أنزل بشأنها ما أنزل.

# سُورَةُ التَّكْوِيرِ

٨١ مصحف ٧ نزول

## (١)

# السورة وما فيها من قراءات من الفرش

## سورة التكوير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ
سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ
﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا
ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ
﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ
﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا
تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ

٦ ـ ● قرأ ابن كثير، وأَبو عَمرو، ويَعْقُوبُ: [سُجِرَتْ] بدون تشديد الجيم.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [سُجِّرَتْ] بِتَشْدِيدِ الجيم.

٩ ـ ● قرأ أبو جعفر فقط [قُتِّلَتْ] بتَشْدِيد التاء قبل اللام.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [قُتِلَتْ] بتخفيفها.

١٠ ـ ● قرأ نَافع، وابْنُ عَامِرٍ، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُشِرَتْ] بتخفيف الشين.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [نُشِّرَتْ] بتشديد الشين.

١٢ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ ذكوان، وحفص، وأبو جعفر، ورُوَيس: [سُعِّرَتْ] بتشديد العين.
وقرأ الباقون: [سُعِرَتْ] بتخفيف العين.

مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ
رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ
بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

٢٤ ـ ● قرأ ابنُ كثير، وأبو عَمرو، والكسائي، ورُويسٌ: [بظَنِينٍ] بالظاء.
وقرأ الباقون: [بِضَنِينٍ] بالضاد.

## (٢)
## ممّا رُوي عن النبيّ ﷺ بشأن هذه السورة

أخرج الإمام أحمد، والترمذيُّ وحسَّنه، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابنُ مردويه، عن ابن عُمَر، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنظُرَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ».

أي: فليقرأ السُّور الثلاث، المفتتحة بهٰذِهِ الآيَاتِ الثلاث، وهي سور «التكوير» و «الانفطار» و «الانشقاق» وربما نفهم من هذا الحديث أنّ الرَّسول ﷺ سمّىٰ هذه السُّوَر الثّلاث بالآيَاتِ الّتي افتُتحَتْ بها، ورُبّما يكونُ عَمَلُه مجرَّد تمييزِها عن غيرها بذِكْرِ الآيَةِ الأولَىٰ من كُلٍّ منها، ومثلُ هذا التّمييز كثيرٌ في بيانات الرسول ﷺ.

❁ ❁ ❁

## (٣)
# موضوع سورة التكوير

● تشتمل سورة «التكوير» على عرض لقطات من أحداث يوم القيامة التي تكون عندها إماتة الأحياء وإفناء الخلائق، مع تغيير في نظام السماوات والأرض.

● وتشتمل أيضاً على عرض لقطاتٍ من أحداث يوم الدين، يوم بعْثِ الأمواتِ للحساب وفصل القضاء في محكمة العدل الرّبّانِيّة.

ومعلومٌ أنَّ يوم الدّين في خطّة التكوين الربَّانيَّة هو الغايةُ المترقّبة، بعْدَ رِحْلَةِ الابتلاء في ظروف الحياة الدّنيا.

أمّا الابتلاءُ في الحياة الدنيا فلا يكون دون تبليغ الممتَحَنِين ما هو مطلوبُ الله منهم في الحياة الّتي أعِدَّتْ في خِطَّةِ التكوين لامتحانهم، وهذا التبليغ قد حصل بإرسال الرُّسُلِ الْمُصْطَفِيْن لحمل رسالات رَبِّهم وتبليغها للنّاس، وإنْزَال الكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ عليهم، وَكانَ في خاتِمتهم رسول اللّهِ محمّدٌ ﷺ، الذي اصطفاه اللّهُ لحَمْلِ خاتمة رسالات اللّهِ للناس، ولِتَبْليغ آخِرِ كتُبِه لهم، الجامع لصفوة مَا في الكتُب السابقة، مع زيادات اقتضتها تطوُّرَاتُ أحوال البشر، وعلاقاتهم، وثقافاتهم، وهذَا الكتابُ الخاتم هو القرآن المجيد.

وهُنَا يُقْسِمُ اللّهُ عزّ وجلَّ في السُّورة بطائفة من الظواهر الكونيّة الّتي هي من آثار خلقه البديع الحكيم، على صِدْقِ الرسول محمّد ﷺ، وصِدْقِ بلاغاته عن رَبّه، وأنّ القرآن الذي يتْلُوهُ تباعاً على الناس كتابٌ رَبانِيٌّ يتلقّاهُ الرسول محمّد، عن أمين الوحي جبريل عليه السّلام، تَلقِّياً مباشراً، حرفاً فَحَرْفاً، وكلمة فكلمةً، في تنزُّلاَتٍ تتتابع، وقد شاهَدَهُ مُشاهدةً بصريّة بالأُفُقِ، في إحدىٰ مرّاتِ ظهوره له، وهو كامل الوعي، كامل الإدراكات الحسيّة والعقليّة.

ومضامين القرآن تدلُّ على أنَّه رَبَّانيُّ التنزيل، وأنه لا يمكن أنْ يكونَ بَشَريّاً، وَلاَ أن يكون من مصْدَرٍ شيطاني، وتَدُلُّ على أنَّهُ هِدَايَةٌ وَذِكْرٌ للعالمين جميعاً، عليهم أن يضعوه في ذاكراتهم، للعمل بما يهديهم إليه.

وسورة «التكوير» في وحدة موضوعها تنقسم إلى درسَيْن:

**الدرس الأول**: فيه مقطعان:

● مقطع يشتمل على ذكر لقَطَات من أحْدَاث يوم القيامة، وهي القيامة التي تكون عندها إماتَةُ جميع الأحياء، مع تغييرٍ في نظام السَّمَاوات والأرض، وهو الآيات (من ١ ـ ٦).

● ومقطع يشتمل على ذكْر لقطاتٍ من أحداث يوم قيامة الأموات إلى الحياة الأخرى، المعدَّة في خطّة التكوين للحساب وفصل القضاء في المحكمة الرَّبَّانيّة العظمىٰ، ولتنفيذ الجزاء، وهو الآيات من (٧ ـ ١٤).

**الدرس الثاني**: يشْتَمِل على تأكيد صدقِ الرسول فيما يُبَلّغ عن ربّه، وتأكيد كون القرآنِ كتاباً رَبَّانياً يتنزَّلُ من لَدُنْ رَبّ العالمين، ويبلّغُهُ للرسول محمد ﷺ أمينُ الوحي جبْرِيلُ عليه السلام، في حالَةِ كون الرسول محمد ﷺ كامل الوعي، في حواسه الظاهرة والباطنة.

ويشتمل على بيان أنَّ القرآن أنزلَهُ الله ليكونَ هدايةً وذكراً لجميع العالمين حتّىٰ تقوم الساعة.

وبين الدَّرْسَيْن مَطْوِيَّاتٌ فكريَّةٌ يمكن بالتَّأمُّلِ الذهنيّ استخراجُها، وهذه المطويَّاتُ تصِلُ الدَّرْسَ الثاني من السورة بالدرس الأول منها.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبُّر التحليلي للدرس الأول من السورة
## وهو الآيات من (١ ـ ٦)

### أوّلاً: الآياتُ من (١ ـ ٦):

قَالَ اللّٰهُ عَزّ وجَلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾.

**تمهيد:**

تَضَمّنت هذه الآيات السّتُّ الإخبار بوقوع أحداثٍ ستٍّ كُبرىٰ، مستقبليّة ستقع قبيل قيام السّاعة التي يكون بها إنهاء ظُروف الحياة الدنيا، وكلِّ النظام الكونيّ المرتبط بها.

وجاء بعدها سبع آياتٍ تضمَّنَتِ الأخبارَ بوقوع أحداثٍ ستٍّ أخرى، بعد انتهاء مُدَّة البرزخ الفاصل بين إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وبَدْءِ ظروف الحياة الأخرى بالبعث إلى يوم الدين.

وقَد جاء بيان هٰذه الأحداث المستقبليّة مقترناً بكلمة ﴿إِذَا﴾ التي هي اسم شرط لما يستقبل من الزمن، يتطلّبُ شرطاً وجواباً له.

ومعلومٌ أنّ من شأن الشرط أن يعقد ارتباطاً بين جملَتَيْن خَبرِيَّتَيْن، أولاهما جملَةُ الشرط، وهذه الجملة الشرطيّة تتطلَّبُ جملَةً أخرىٰ هي جوابُ الشرط.

وتدخل كلمة ﴿إِذَا﴾ الشرطيّة في الغالب على ما هو متحقِّق الوقوع مستقبلاً عند المتكلّم.

وجاءت كلمة ﴿إِذَا﴾ الشرطيّة في هذه السّورَة مكرّرةً (١٢) مرّة، ومقترنة غير الأولى منها بحرف العطف، وداخلة على (١٢) جملةً شرطيّة، فالشرْط مؤلفٌ من اثْنَيْ عشر حدثاً، أمّا جواب الشرط فقد جاء جملةً واحدةً هي آية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

أمّا الأحداثُ التي جاء في السّورة بيان أنّها ستكون قُبَيْل قيام السّاعة الّتي يكونُ بها إِنْهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدنيا، والنظام الكونيّ المرتبط بها، فهي ما يلي:

## الحدثُ الأوّل:

**«تكويرُ الشّمس»** دلّ عليه قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾.

**التكويرُ في اللّغة:** إدارة شيءٍ ذي طولٍ كالعمامة بَعْضِه علَىٰ بعْضٍ، وكلُّ دَوْرٍ في عمليّةِ التكوير يسمّىٰ: كَوْراً.

وقالوا في تفسير تكوير الشمس هو جَمْع ضَوْئها، ولَفُّهُ كَمَا تُلَفُّ العمامةُ على الرأس. وقال الأخفشُ وأبو عبيدة: تُلَفُّ فَتُمْحَىٰ.

**أقول:** هذا حدَثٌ سيكونُ في الشمس قُبَيْل قيام الساعة لإِنْهَاءِ نظام الحياة الدنيا، وإماتَةِ الأحياء، جاء التعبير عنْهُ بتكْوِير الشمس.

وجاء في سُورَة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بيان أنَّ الشمْسَ والْقَمر يجمعان قُبَيْلَ قيام الساعة، مقدّمة لقيامها، فتَبْلَعُ الشَّمْسُ القمَرَ فيكونُ جزءاً منها.

وباستطاعة المتدبّر أنْ يأخُذ من فِكْرَةِ تكْوِير الشمس أنَّ جِرْمَها عند إجراء هذا الحدث فيها، لا يكون قد فَنِي كمَا يفنىٰ الوقود بالاشتعال إذا توَقَّفَ عن النار الإمداد به، بل تكون الشمس عندئذٍ في جِرْمِهَا صالحةً للإمداد بالوقود اللّازم لبقاء ضيائها، وإمداد ألْسِنَتِها اللّاهبة.

فالحدث الذي يجريه الله في الشمس هو مَحْوُ ضيائها بطريقةٍ حكيمةٍ تخضع لأنظمته في كونه، دون إعدام ما هو باقٍ من مادّتها.

نطالع فيما توصّل إليه علماء الفلك بشأن الشمس فنجد لديهم الأوصاف التالية لها. قالوا:

(١) حجْم الشمس يعادل أكثر من مليون مرّة من حجْم الأرض.

(٢) وقطْرُها يبلُغ نحو مليون وأكثر من ثلث المليون من الكيلومترات.

(٣) وَجاذبيّتُها نحو (٢٨) ضعف جاذبيّة الأرض.

(٤) والشمس ليسَتْ كتلةً مادّيّةً صلبة، بل هي كتلَةٌ من الغاز الملتهب.

(٥) وجَوُّ الشمس فوق سطحها تندفع منه فَوَّاراتٌ من الغاز المحترق تمتدّ لمسافة آلاف الكيلومترات ارتفاعاً وبصورةٍ دائمة.

(٦) والغلَيانُ المستمرّ في سطح الشمس المضيء ينفثُ ألسنةً ضخمةً من الغاز المشتعل الذي يرتفع إلى ما فوق جوّ الشمس، وهٰذِهِ المقذوفات الشمسيّة تنفجر بصورة مفاجئة، ويبلُغُ امتدادها مئات الآلاف من الكيلومترات.

(٧) وعواميد الغاز الضخمة الّتي تؤلف رؤوسها سطح الشمس المضيء ليست متراصّةً بتباعُدٍ منتظم، وليسَتْ كُلُّها بارتفاعٍ واحدٍ، وهذا يؤدّي إلى فراغٍ وظِلاَلٍ على سَطْح الشمس.

بعد هذه المطالعة اليسيرة الّتي قدّمَتْ لنا هذه الصورة الوصفية عن الشمس، أخذاً ممّا توصّل إليه علماء الفلك من معلوماتٍ عنها، نستطيع أن نقول: إنّ أمثل طريقة لمحْوِ ضياء الشمس مع بقاء ما فيها من مواد صالحة

للتفجّر والاشتعال، تكون بلَفّ ألسنة الغاز الملْتهبِ، ولفّ أعمدة الغاز الضخمة، وتكْويرها كوْراً فوقَ كَوْرٍ على الموادّ ذاتِ الكثَافةِ الشديدَةِ في باطنها حول مركزها، وضغط هذه الألسنة الغازيّة، والأعمدة الغازيّةِ التي يبلُغُ امتدادُها مئات الآلاف من الكيلومترات، لمنْع التفجُرَاتِ النوَويَّةِ التي تحْدُثُ في باطنها، وتُمِدُّ بألسنة الغاز الملتهب إلى سطحها.

وبهذا التكوير والضغط على مركز الشّمس ينمحي الضياء، وتشْتَدُّ كثافة الشمس، حتّىٰ تصير المواد الغازيّة بشدّة كثافتها شبيهةً بالموادّ الصلبة، مع بقاء القوى الالتهابيّةِ كامنةً فيها، والله على كلّ شيءٍ قديرٌ.

هذه هي الظاهرة الّتي تكونُ في هذا الحدث العظيم، أمّا الوسيلة السببيّة لحدوث هذه الظاهرة فأمْرٌ من أمور الغيب الّتي يعلمها الله، ولا نَمْلِكُ حتَّىٰ الآنَ أماراتِ عنها.

❁ ❁ ❁

**الحدث الثاني:**

**«انكدار النجوم»** دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾.

**الانكدار:** هو الإسراع المتوسط في العدْوِ، يقالُ لغة: انكَدَرَ الفرسُ يَعْدُو، أي: أسْرَعَ بعض الإسراع.

ويأتي الانكدارُ بمعنَىٰ الانقضاض، يقال لغةً: انكدر الطائر، إذا انقضّ وهوَى في طيرانه بسرعة يريد الوقوع على شيءٍ ما كفريسة.

وقد يكون الانكدارُ من الكُدْرَة، وهي اللّوْنُ الضاربُ إلىٰ السَّواد والْغُبْرَة، والمختلط بالأكدار التي تُذْهِبُ صفاءه، وقد يكون هذا قبل انطماسها.

وجاء في تفسير: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ عند المفسرين قولُهُمْ: تناثَرتْ.

وجاء في سُورَةِ (المرسَلاَتِ/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بيان أنّ النجوم ستنطمسُ يوم القيامة، أي: يذْهب نورها، فقال الله عزّ وجلّ فيها: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾.

**طُمِسَتْ**: أي: أذْهَبَ اللَّهُ نورَهَا.

ومن هذه المعاني نُدْرِكَ أَنَّ النجوم في أحداث يوم القيامة، تمرّ في مراحل حتَّىٰ تنطَمِسَ انطماساً كُلّيًا، وتَنْفَلِتُ من نظام جاذِبياتها، وتخرج عن مَدَاراتها وَطُرُقِ سيرها، وتُسْرِعُ كالطائر المنقضّ، وتتناثَرُ في الجهاتِ على خلاف مواقعها ومسيراتها الّتي كانت لها في نظام ظروف الحياة الدنيا.

وقد استخرجنا هذا من جمع دلالات النَّصَّيْن الواردين في القرآن، بشأن ما يحدث للنجوم ضمن أحداث يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

## الحدَثُ الثالث:

«**تَسْيِيرُ الجبال**» دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾.

المرادُ من تسيير الجبال إزاحَتُها عن مواقعها كما تسير السفُنُ في البحار، وهذا يستلزم تغييراً كبيراً في نظام تماسُكِ الأرض مع الجبال، لِيَتَهيَّأَ لها أن تسير عن مواقعها مُنْزَلقة في الأرض من أعماقها إلى شواهقها.

وقد يكونُ المرادُ تسييرَها إلى باطن الأرض وتغويرها، أَوْ تفجيرها ونَسْفَها وَإذهَابَها، والله أعلم.

## الأحداث التي ستتعرّض لها الجبال:

ومن استقراء النصوص القرآنية وسَبْر معانيها حول الأحداث التي

ستتعرّض لها الجبال قُبَيْلَ السّاعة وعند قيامها، يظهر لنا أنّها تتعرّض لإحدى عشرة مرحلة.

**المرحلة الأولى**: «مرحلة الدّكّ» وهي ما جاء بيانها في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

**الدَّكُّ**: الدَّقُّ والدَّفع بقُوة، يُقال: دَكَّ الأَرْض إذَا دَقَّها بقُوَّةٍ حتَّىٰ يُسَوّيَ الصاعد منها بالنّازل، ولكن لا تشترط في الدكّ هذه التسوية.

**المرحلة الثانية**: «مرحلة جعل الجبال ليّنة كالْعِهْن، أي: كالصوف المصبوغ ألواناً، وهي ما جاء بيانها في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ، في عرض بعض أحداث يوم القيامة:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾.

**الْمُهْلُ**: المعدِنُ المذاب، والقطران، ودُرْدِيُّ الزيتُ، والقيح.

**العِهْنُ**: الصوف المصبوغ ألواناً.

**المرحلة الثالثة**: «مرحلة جعل الجبال كالعِهْنِ الْمَنفُوشِ»، وهي التي جاء بيانها في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾.

**المنفوش**: المكبّر حجْمُهُ بإحداث فراغات كثيرة بيْنَ أجزائِه.

**المرحلة الرابعة**: «مَرْحلَةُ بَسِّ الجبال» وهي التي جاء بيانها في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

**البسّ**: التفتيتُ إلى أجزاءٍ صغيرة.

**الْهَباءُ**: التّرابُ الناعمُ الذي تُطَيِّره الريح، ويغلَقُ على الأشياء، أو ينبثُّ في الهواء فلا يبدو إلاّ في ضَوْءِ الشمس.

**المرحلة الخامسة**: «مَرْحلة جعل الجبال بالبسّ كالكثيب المهيل» وهي التي جاء بيانُها في سورة (المزّمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

**الكثيب**: الرَّمل المستطيلُ الْمُحْدَوْدِبُ.

**الْمَهِيل**: الْمَدْفُوعُ الذي يتساقَطُ أعلاهُ على أسفله بتتابع.

هذه مرحلة تكون فيها الجبال كرمل ناعم يَسيل إلى الأرض فَيَهْبِط بتتابع من الأعالي إلىٰ سطوح الأرض المنبسطة.

**المرحلة السادسة**: «مرحلة سَيْر الجبالِ سيراً غير شديدٍ مَعَ مَوْرِ السَّمَاءِ، أي: مع اضطرابها بما فيها» وهي التي جاء بيانُها في سورة (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾.

**الْمَوْرُ**: التحرُّكُ والتدافع والاضطراب، كالأمواج في البحر الثائر.

وسيرُ الجبال في هذه المرحلة أرى أن يُحْمَل على السّيْر العادي.

**المرحلة السابعة**: «مَرْحَلَةُ مُرُورِ الجبالِ كَمَرِّ السَّحَاب» وهي التي جاء بيانها في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ

ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

يدُلُّ التعبير بأنَّها تَمُرُّ كَمَرِّ السَّحَابِ على أنَّها تكونُ حِينئذٍ ناعِمةً كالْهَباء المنبث، فهي تتحرَّكُ في الجوِّ كتحرُّكِ السَّحابِ.

وقد يكون ما جاء في هذا النصّ تعبيراً عن حالة الجبال القائمة الآن إذ هي تتحرّك مع حركة كلّ الأرض في دورتها حول نفسها، وفي مسيرتها في فلكها حول الشمس. وغير ذلك مما تُثْبِتُه العلوم الإنسانية.

**المرحلة الثامنة**: «مرحلة تَسْيِيرِ الجبال بقوّة» وهي التي جاء بيانُها في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) التي نتدبّرُها على قدرنا، بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾.

**المرحلة التاسعة**: «مرحلة نسف الجبالِ وَتَذْرِيتها مُتَنَاثِرَة» وهي التي جاء بيانها في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾.

وجاء بيانها أيضاً في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

**يَنسِفُها نَسْفاً**: أي: يقْتَلِعُها مِنْ أُصولها، ويَسْحَقُها ويُذْرِيها.

**فَيَذَرُها**: أي: فيجْعَلُها.

**قاعاً**: أي: أرضاً مستوية، أي: فيجعل مكانها قَاعاً.

**الصَّفْصَفُ**: المستوي من الأرض الذي لا نبات فيه.

**العِوَجُ**: الانحناء والالتواء.

**الأَمْتُ**: الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ورقَّةً وصَلابَة.

**المرحلة العاشرة**: «مَرْحَلَةُ تَسْيِيرِ الجبال حَتَّىٰ لاَ يُرَىٰ مِنْ آثارِها إلاَّ مِثْلُ السَّرَاب رُؤيَةً بلا حقيقة» وهي التي جاء بيانها في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

**المرحلة الحادية عشرة**: «مَرْحَلَةٌ لاَ يَبْقَىٰ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ أيُّ أَثَرٍ وَلاَ مِثْلُ السَّرَاب» وهي التي جاء بيانها في سورة (الكهفِ/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

هذه هي المراحل التي وردت في القرآن بشأن الجبال، أمّا الترتيب بين هذه المراحل، فبعضها يكتشفه المتدبّر بيسر، وبعضها يختلط عليه الأمر، وبعضها أحداثٌ سابقة للنفخة الأولى، وبعضها أحداثٌ تأتي بعد النفخة الثانية، واللَّهُ أعلم كيف يكون ترتيبُها الدقيق في الواقع، وقد يأتي متدبّرٌ عميق التفكير ثاقبُ النظر فيهديه الله لاكتِشَافِ كيف يكون الترتيب بينها.

❁ ❁ ❁

## الحدث الرابع:

«تَعْطِيلُ الْعِشَار» دلَّ عليه قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾.

**الْعِشَارُ**: جَمْعُ «الْعُشَرَاء» وهي من النوق ما مضىٰ على حَمْلها عشرَةُ أشهر.

**عُطِّلَتْ**: أي خُلِّيَتْ وأُهْمِلَتْ بِلاَ رَاعٍ يرعاها وتُرِكتْ سائبَةً لاَ حاميَ لها ولا حارسَ يَحْرُسُها.

وكانت الْعِشَارُ أكْرَم الأموال عند العرب، يُبَالِغُونَ في رعايتها والاعْتِنَاءِ بِها، أمّا تعطيلُها وَإِهمالها فَلا يكونُ إلاّ في حالة فزعٍ كبير، أو ذهُولٍ بأحداثٍ جسَام، فَتَعْطِيلُ الْعِشَار مظْهَرٌ من مظاهر ذهُولِ النّاس بأحْدَاثِ الكوْنِ الْجِسَامِ قُبَيْلَ قِيامِ السَّاعَة، مُنْدَهِشين بالتَّغيُّراتِ الْعُظْمَىٰ الكونيّة.

وتَعْطِيلُ العشارِ كِنايَةٌ عَنْ ذُهُولِ النَّاسِ يومئذٍ عن أَكْرَمِ أمْوالِهِمْ.

❁ ❁ ❁

**الحدث الخامس:**

«**حَشْرُ الْوُحُوشِ**»: دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾.

**الحشْرُ**: السَّوْقُ والجمْعُ، والوحُوشُ من الأحياء الموزَّعَةُ في الجبال، والوديان، والمغارات، والصحاري، تفِرُّ من مواطنها فزَعاً من الأحداثِ الكونية، وتتجمّعُ بتِلْقَائيَّةٍ طلَباً للأمْنِ بالتجمّع، وهو كِنَايَةٌ عَنْ شدّةِ الْهَوْلِ العامّ الذي يَعُمُّ الأرْضَ وأَجْواءَها.

❁ ❁ ❁

**الحدَث السّادس:**

«تَسْجِيرُ الْبِحَار»: دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ وقُرِئ بتخفيف الجيم: (سُجِرَتْ).

**التَّسْجِيرُ، والسَّجْرُ**: يأتي بمعنىٰ الملء. ويأتي بمعنى التفريغ. **فالْمَسْجُور**: المملوء، **والْمَسْجُورُ**: الفارغ. فاللّفظ يقع على الضّدّيْن.

ويأتي السَّجْرُ أيضاً بمعنىٰ الإيقاد والإحماء، يُقَالُ لغةً: سَجرَ التَّنُّورَ إذا أَوْقَدَهُ.

فالمعاني اللّغوية للكلمة ثلاثة:

● أمّا التسجير بمعنىٰ الْمَلْءِ فيكُونُ بِضَمِّ البحار بعضها إلى بَعْضٍ حتَّىٰ تكونَ بحراً واحداً، وبتَذْويب تَجمُّعاتِ الثُّلوج وضَمِّها إلى هذا البحر الواحد العظيم.

● وأمّا التَّسْجير بمعنىٰ التفريغ فيكون بتبخير مياهها بالحرارة، أو ابتلاع باطن الأرض لها.

● وأمّا التسجيرُ بمعْنىٰ الإيقاد والإحماء، فيكونُ بتفجير موادَّ مُشْتَعِلَة من باطن الأرض كنِفْطٍ وغازاتٍ وَبراكين، وبهذا تتبخَّرُ مِياهُ البحار.

وبكلّ هذه المعاني قال أهل التأويل.

**أقول**: وربّما تكون كلُّ هذه المعاني مرادة، فيكون مَلْؤُها بضمِّ بعضها إلى بعضٍ أوّلاً، ثمّ تَتَفَجَّرُ الموادُّ المشتعلةُ تحتها فتتبخَّرُ مياهُهَا بالحرارة العالِيَةِ، فَتَصِيرُ فارغَةً، فتَكُونُ كَلِمَةُ ﴿سُجِّرَتْ﴾ مُسْتعملةً للدَّلاَلَةِ عَلىٰ المعاني الثلاثَةِ إيجازاً بديعاً.

وقِرَاءَةُ (سُجِرَتْ) تَدُلُّ على حَالاَتٍ يكونُ فيها السَّجْرُ حركةً غير شدِيدَة، وقراءة: ﴿سُجِّرَتْ﴾ تدلُّ على حالاتٍ يكون فيها التَّسْجِير شديداً، وكلا الأمْرَين يحصلان يومئذٍ.

❋ ❋ ❋

## ثانياً: الآيات من (٧ ـ ١٤):

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

تضمَّنَتْ هذه الآيات الإخبار بوقوع أحداثٍ ستٍّ أُخْرىٰ ستَقَعُ بعْدَ الْبَعْثِ إلَىٰ يَوْمِ الدِّين.

**الحدث الأوّل:**

«**تَزْوِيجُ النُّفوسِ**» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾.

**التزويجُ** في اللّغة: يأتي بمعنَىٰ قَرْنِ شيْءٍ بشيْء، يقال لغةً: زوّج الشيْءَ بالشيْءِ، وزوّجَهُ إليه إذا قَرَنَه به. وكلُّ شيئَيْنِ اقْتَرَنَ أحَدُهُمَا بالآخر فَهُمَا زَوْجَان.

ويأتي التزويج بمعنى جمع الأصناف بعضها إلى بعض.

ويأتي الزوج في اللّغة بمعنى الصنف والنوع، والأزواج: الأصناف والأنواع.

فيمكِنُ حَمْلُ تزويج النفوس الوارد في الآية على معنى قَرْنِ النفوس بأجسادِها ونفخ الأرواح فيها.

ويمكن حمله على معنى جمع أصناف النّاس بَعْضِهم إلى بعْضٍ، كَمَا قال الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بشأن فرز أصناف الناس يوم القيامة:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

وقد دارت أقوالُ أهل التأويل حوْلَ هٰذيْنِ المعنَيَيْن، ولا نجد معنىً آخر تساعِدُ عليه اللُّغة.

* * *

**الحدث الثاني:**

«**سُؤَالُ الْمَوْؤُودَةِ عَنْ ذَنْبِهَا الَّذي قُتِلَتْ بِهِ**» دلّ عليه قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

**الْمَوْؤُودَةُ**: الْمَدفُونَةُ حيَّةً مِنَ الْبَنَات، وقَدْ كَانَ وَأْدُ البنات عادةً عنْدَ بعض العرب، تخلُّصاً من الفقر، أو خَوْفاً مِنْ حُدُوثِ الْفَقْرِ في المستقبل، أو خَوْفاً من الْعَار عنْدَ سبْيِهِنَّ في الغزوات الجاهليّة.

وفي التعبير عن هذا الحدث الذي سوْفَ يَجْرِي يوم الدّين إشارة إلَىٰ مشْهدٍ من مَشاهِدِ الحسَاب يومئذٍ، وهو أوّل مَا يُقْضَىٰ فيه بين الناس.

فقد روى البخاريُّ ومسلم والإمام أحمد والنسائيّ وابن ماجه، عَنْ عبد الله بْنِ مسعود، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«أَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ».

وروى النسائي عن عبد الله بن مسعودٍ أيضاً بإسنادٍ حسَنٍ، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلاَةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ».

إنَّهُ لمَّا كانَ قَتْلُ الموؤودة الّتي لا حول لها ولا قُوَّة من أقْبَحِ أنواعِ الْقَتْل وأشْنَعه، ومن أقبح أنواع ظُلْم الإنسانِ للإنسان، أبْرَزَ اللَّهُ من مشاهد الحساب والقضاء يوْمَ الدين مشْهَدَ المحاسبة على وأدِ البنَاتِ ظُلْماً وَعُدْواناً، وجعله أوّل ما يُقْضَىٰ فيه بين الناس.

ويُدْركُ المتدبّر ذو التفكير السليم، أنّ في عرض الحساب على وأدِ البناتِ الذي هو من أقبح أنواعِ الظلم وصُوَرِه الشنيعة، إشارةً إلى الدليل العقلِيّ الذي يهتَدِي به من يُؤْمِنُ باللَّهِ وكمالِ صفاته ومِنْها حكْمَتُه، إلَىٰ الإيمان بضرورة اليوم الآخِر، لمحاسبَةِ الناس ومجازاتهم على أعمالهم، فالحكيم العليم القديرُ لا يمكن أنْ يتْرُكَ الظّالِمين يظلمون الضعفاء دون أن يتابعهم بالمسؤوليّة والحساب والجزاء.

ومن بديع الأدب القرآنيّ وأساليبه البيانية الحكيمة، أنّ مَشهَد المحاسبة على الوأد جاء فيه توجيه السؤال للموؤودة المظلومة، لا للوائد الظالم القاتل، فهي الّتي تُسْأَلُ: بأيّ ذنبٍ قُتِلت؟.

ومعلومٌ أنّها صغيرة لم تَجْن ذنباً، وقَتْلُها اعْتراضٌ على خالِقِها، وعدوانٌ علَىٰ حقّ اللّهِ على عباده، في احترام منْ خَلَق، وتأمينِهِ في الحياة، وعدَمِ العدوان عليه.

وحين تُسْأَلُ الموؤودة: بأيّ ذنب قُتِلَتْ؟ تجيب بأَنّها لا ذنب لها غير أنّ اللّهَ خَلَقها أنثَىٰ.

هذا السؤال هو أحَدُ مشاهد مجلس القضاء في محكمة الرّبّ يوم الدين، وقد اكتفَىٰ النّصّ به عنواناً على بقيّة ما يجري فيه، ويُمكن أنْ نُصَوّر هذا المجلس بما يلي:

- يُقالُ للمَوْؤُودَة أولاً: بِأيّ ذَنْبٍ قُتِلتِ؟.
- فتقول الموؤودة: يا رَبِّ، لا ذَنْبَ لي إلاّ أنّكَ خَلَقْتَنِي أنثَىٰ، وقومي يكرهون أن تولَدَ لهم الإناث من الناس.
- فيقال للوائد: أيّ ذنب جنَتْهُ موؤودتُكَ حتّىٰ وَأَدْتَها في التراب.
- الوائد: يعترف بجُرْمِهِ، أو يُجِيب بتعلاّت باطلات ساقطات.
- ويُقْضَىٰ عليه بحسَبِ جُرْمِهِ.

**الحدث الثالث:**

«**نَشْرُ الصُّحُف**» دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ وقُرِئ: (نُشِّرَتْ) بتشديد الشين.

المرادُ من الصحف صُحُفُ أعمال العباد، تُنْشَر عليهم، وفيها بيانُ ما قَدَّمُوا فِي حياتهم الدّنيا من أعمال عملوها، وَما تركوا من أعمال كان عليهم أن يعملوها، تمهيداً لمحاسبتهم، ثُمَّ مجازاتهم.

**النَّشر**: البَسْطُ والتوزيعُ والإذَاعَةُ للإعلام بمضمون المنشور.

وَجاء في القرآن تَسْمِيَةُ صُحُفِ الأعمال كُتُباً، وجاء فيه بيانُ أنَّ المؤمنين يُؤتَوْنَ كُتُبَهُمْ بأيمانهم، وأنَّ الكافرين يُؤتَوْن كتُبَهُمْ بشَمائِلهم.

وتدلُّ القراءتان: (نُشْرَتْ) و ﴿نُشِّرَتْ﴾ أنَّ بعض الصُّحف تُنَشَّرُ بقُوَّة، وأنَّ بعضها تُنْشَرُ بصورة عاديّة على حَسَب اختلاف أحوال من تُوَزَّعُ عليهم.

**الحدث الرابع:**

«**كشْطُ السَّمَاءِ**» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾.

**الكَشْطُ**: يأتي في اللُّغة بمعنىٰ إزالة نحو الجلد عن اللّحم، ككَشْطِ جِلْدِ البعير، وكشْطِ جلْدِ الشاة ونحوها.

ويَأتي بمعنىٰ نَزْع كُلّ ظاهِرٍ مُتَماسِكٍ تماسكاً ما بما تحته، ككشْطِ جُلّ الفرسِ عنه، والجُلّ ما تُغطّىٰ به الدّابّةُ لتُصانَ.

والكَشْطُ والقَشْطُ بمعنىً واحدٍ، وكلّ رفع شيءٍ عن شيءٍ قد غطّاهُ وغَشِيَهُ فهو كشطٌ وقَشْط.

أمّا كَشْطُ السَّمَاءِ يوْمَ الدّين فَيَنْبَغِي أنْ يَحْمِلَ معنَىٰ إزالَةِ شَيْءٍ ما يُجلّلها، فيكْشِفُ ما وراءه، وأمّا حقيقَتُهُ فهو بالنسبة إلينا الآنَ أمْرٌ من أمور الغيب الّتي لم يَصِلْ عِلْمُنا إليها، وقَدْ يكون بإزالة النجوم وكُلّ حواجز الرُّؤية التي تمنع رؤية ما فوقها في السّماء.

* * *

**الحدث الخامس:**

«**تَسْعِيرُ الجَحِيمِ**» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ وقُرِئ: (سُعِرَتْ) بتخفيف العين.

**سُعِّرَت. سُعِرَت**: أي: أُوقِدَتْ وهُيِّجَتْ فزادَ لَهَبُهَا وتفاقم حَرُّهَا.

ويجري هذا الحدث يوم الدين إعداداً للجحيم كي تستقبل أهْلَ العذاب فيها، وهيَ في أشَدِّ أحوالها المرهبة.

**الْجَحِيمُ**: اسْمٌ من أسماء النار دارِ العذاب يوم الدّين، وكُلُّ نَارٍ عظيمَةٍ في مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

وتدلُّ القراءتان ﴿سُعِّرَتْ﴾ و ﴿سُعِرَتْ﴾ على أنّ بعْضَ دَركات الجحيم تُسَعَّرُ بشدّة، وبعضها تُسْعَرُ بصورة دون ذلك.

❁ ❁ ❁

**الحدث السّادس:**

«**إزلاَفُ الجنَّةِ**»: دلَّ عليه قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

**أزْلِفَتْ**: أي: قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ مِنْ أهلها وهم في مَوْقف الحشر، للحسابِ وفَصْلِ الْقَضاء، بُشْرَىٰ لهم بأنَّهُمْ سَيَدْخلونها، وَإِينَاساً لهم بِرُؤْيَةِ شيءٍ ما من أطرافِها، وتمهيداً لدخولهم فيها متَىٰ انتهى الحكْمُ لهم بأنّهُمْ من أهلها، ثُمَّ يُقالُ لهم: ادْخُلوا الجنّة لاَ خَوْفٌ عليكُمْ ولا أنْتُمْ تَحْزَنُونَ.

وإزْلاَفُ الجنَّةِ يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّهَا مَوْجُودَةٌ في مكانٍ مَا مِنَ الكَوْنِ السّحِيقِ، فهي تُقَرَّبُ تَقريباً إلى مَوْقفِ مَحْشَرِ الْمؤمِنِينَ، ليدخُلُوهَا حين يُؤْذَنَ لهم بِدُخُولها.

❁ ❁ ❁

**جواب الشرط المتكرر:**

وبَعْدَ ذِكْرِ الأَحْدَاثِ الَّتِي تَكُونُ قُبَيْلَ السَّاعَة، والأَحْدَاثِ الأُخْرَىٰ التي تَكُونُ عِنْدَ الْبَعْثِ وَبَعْدَهُ، قَال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي جواب شَرْطِ ﴿إِذَا﴾ الّتي

جاءت في السّورة مُكَرَّرَة (١٢) مَرَّة ومُقْتَرِنَةِ ببيان أحداثٍ تُكَوِّنُ في مجموعها الشَّرْطَ الذي أَشْعَرَتْ بِه ﴿إِذَا﴾:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

أي: عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَوْضوعَةٍ في الحياة الدّنيا موضع الامتحان، ومَسْؤولَةٍ عمَّا تَكْسِبُ فيها باخْتِيَارِها الْحُرّ، مَا أَحْضَرَتْ من كَسْبِها لِمَوْقفِ الحساب بين يَدَيْ رَبِّها، ولا سيما بعد أنْ تَسَلَّمَتْ كِتَابَها الذي لا يُغَادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إلاّ أَحْصَاها.

وعِلْمُ كُلِّ نَفْسٍ سَتُحَاسَبُ على مَا كسبَتْهُ في الحياة الدُّنيا، يُرَادُ مِنْهُ لازِمُهُ، وهُوَ أنَّها سَتَقِفُ بين يَدَيْ ربِّها في محكمة يوم الدِّين للحساب وفَصْلِ القضاء.

أمّا حقيقَةُ العِلْم فيَحْدُثُ في نَفْسِ الإنسان بتَذَكُّرِهِ لِمَا سَعَىٰ في الحياة الدنيا، كما قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾.

ويُؤَكِّدُ لَدَيْهِ هذا العلم بقِرَاءَتِهِ لصحيفَةِ أعْمَالِهِ الّتي تَسلَّمَها.

وجاءتْ كلِمَةُ «نَفْسٍ» مُنَكّرةً لتنطَبِقَ علَىٰ كلِّ نَفْسٍ مسؤولةٍ عن كَسْبِها في الحياة الدنيا، وجاءت نصوص أخرى في القرآن تدُلُّ على الاستغراق العامّ لكلّ النفوس المسؤولة المحاسَبَة التي كانت مكلّفَةً في الحياة الدنيا.

**أَحْضَرَتْ**: أي: أتَتْ بِهِ إِلَىٰ مَوْقِفِ حِسَابِها بين يَدَي رَبّها فكان حاضراً، وَجاء إطلاقُ الإحضار ليوم الدين على الأعمال التي مضَتْ وانْقَضَتْ في الحياة الدنيا، لأنّ الدنيا مزرَعَةٌ للآخِرَة، فالعملُ في الدنيا

يُسَجَّلُ علىٰ عامله المكلّف أو يُسَجَّلُ لَهُ، فَتُحْضَرُ الْمُسَجَّلاَتُ لِيُحَاسَبَ عَلَيْها، وَهٰذِه الْمُسَجَّلاَتُ مُطَابِقاتٌ تَمَاماً للأعمالِ بالصّورة والصَّوْتِ والخواطِرِ والأفكار والنّياتِ وَكُلِّ مَا في القلوبِ والنفوس، ولمَّا كانت النَّفْسُ هي العَامِلَة الكاسِبَةَ كانت هِي الْمُحْضِرَةَ لَهَا.

وقد جاء بيان الإحضار لكلّ الأعمال الظاهرة والباطنة في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## أفكار مطوية بين درسَي السّورة

إنّ ذكر أَحداثٍ عظمىٰ تكون قُبَيْلَ قيام السّاعَةِ التي يَتِمُّ بها إنهاء نظام الحياة الدنيا، وذكر أحداثٍ أُخرى تجري عند البعث إلى يوم الدين وبعْدَهُ، يستدعي لدى المتفكّرين الذين لم يؤمنوا بَعْدُ بالبعث للحساب وفصْلِ القضاء، ولا بالدّار الآخرة التي يكون فيها تحقيقُ الجزاء، عدّة أسئلة تقترن بالإجابة عليها فكريّاً.

**السؤال الأوّل**: ما سببُ إجراء هٰذه الأحداث؟.

ويأتي الجوابُ استنباطاً فكريّاً، إنّ هذه الأحداث تمهيدٌ وتوطئة لتحقيق الغاية من خلق الناس في ظروف الحياة الدنيا، وهي امتحان الناس فيها، ثُمّ مجازاتهم على ما قَدّموا فيها من خَيْرٍ أَوْ شرٍّ، بمقتضىٰ حكْمَةِ الرّبِّ الخالق جلّ جلاله.

وهنا يرد سؤال آخر، وهو:

**السؤال الثاني**: هل يكون الامتحان وتقرير الجزاء في خطّة التكوين دون إعلام الموضوعين موضع الامتحان أنّهم مخلوقون لهذه الغاية، وهم مكلّفون ومسؤولون تجاه ربّهم عمّا يأمرهم به وينهاهم عنه؟.

ويأتي الجواب استنباطاً فكريّاً مستنداً إلى واقع حال الرسالات الرّبّانيّة السّابقة، وإلى دعوة الرسول محمد ﷺ، وهو: لا بُدَّ أَنْ يكون لديهم عِلْمٌ بهذه الغاية عن طريق التبليغ، ولا بُدَّ أن يُبَلَّغوا ما هو مطلوبٌ منهم في مدّةِ امتحانهم.

وهنا يرد سؤال ثالث، وهو:

**السؤال الثالث**: ما هي الطريقة الّتي اختارها رَبُّنا لإعلام الناس بأنهم ممتحنون، وبأنهم مسؤولونَ عن تكاليف تُوجَّهُ لهم.

ويَأتي الجواب استنباطاً فكريّاً مستنداً إلى واقع حال الرسالات الرّبانيّة السابقة، وإلى دعوة الرسول محمّد ﷺ، وتلاوته كتاباً يقول: إنّه يتلقّاهُ عن ربِّهِ، وهو: إنَّ الطريقة المختارة هي أن يُرْسِلَ اللَّهُ رَسُولاً وَيَشْهَدَ له بخوارقِ العادَاتِ أنّه رسولُه حقًّا وصدقاً، وأن يُنَزِّل عليه كِتَاباً من لَدُنْهُ، ويأمُرَهُ بتبليغِه للناس، وأن يُحِيطَ هذا الكتاب بما يَشْهَدُ لَهُ بأَنَّهُ مُنَزَّلٌ من عند الله حقًّا وصِدْقاً.

وهنا يأتي دور الدرس الثاني من دُرُوسِ سورة (التكوير) لتأكيد أنَّ القرآنَ كلامُ الله المنزَّل حقًّا وَصِدْقاً، وأنّ محمد بن عبد الله الذي يُبَلِّغُهُ عن ربِّهِ هو رسولُ الله حقًّا وَصِدْقاً، وبهذا يتم الترابط بين دَرْسَيِ السورة.

❋ ❋ ❋

## (١٥)
# التدبّر التحليلي للدّرسِ الثاني من السورة

## الآيات من (١٥ ـ ٢٩)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

**تمهيد:**

يُقْسِمُ اللَّهُ عزَّ وجلّ في هذا الدّرْسِ بعدَدٍ مِنْ آياتِهِ في كوْنِه، على أنَّ القرآن الذي يتْلُوهُ محمَّدٌ ﷺ على قومه مُبَيّناً لَهُمْ أنَّهُ يَتنَزَّلُ عليه مِنْ عند اللَّهِ، ويُمْلِيه عليْه أمين الوحي جبريل عليه السلام، هو في الحقيقة والواقع كتَابٌ مُنَزّلٌ من عند الله، يحملُه رسولٌ كَريمٌ من الملائكة، ويُبَلِّغُهُ قَوْلاً ملفوظاً مسموعاً بالأُذن لرَسُولِ الله محمد ﷺ.

والآياتُ الّتي أقسم بها اللَّهُ عزَّ وجلّ في السورة هي ثلاثة:

(١) آية النجوم الْخُنَّسِ الجواري الكُنَّسِ.

(٢) وآية اللّيل إِذَا عَسْعَسَ.

(٣) وآية الصُّبحِ إذَا تنَفَّسَ.

● قـول الله عـزَّ وجـلّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ [الفاء] في: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ جاءت بمثابة التفريع على الأفكار والمعاني المطويّة

بين درسَي السّورة، أي: فتفريعاً على مقتضيات الحكمة من إرسال رسولٍ يبلّغ عن الله، وإنزال كتابٍ من عند الله عليه يتضمّن مطلوبات الله من عباده الّذين وضعهم في الحياة الدنيا موضع الامتحان: أُأكّد لكم ببعض آياتي في كوني العظيم أنّي أرْسَلْتُ محمّداً إليكم رسولاً، يبلّغُ عنّي ما أوحي به إليه، وأنزل عليه كتاباً من عندي فيه بيانُ مواد امتحانكم في ظروف الحياة الدنيا الّتي أعددتُها لذلك.

وجاء فعل: ﴿أُقِيمُ﴾ منفيّاً بحرف النفي [لا] مراعاة لاقتضاءين، أحدهما يقتضي الْقَسَمَ بهذه الآيات الكونية، والآخر لا يقتضي الْقَسم بها، لأنّ المخاطبين إبّانَ التنزيل في معظمهم لا يُدْرِكون عظمتها، فلا فائدة تُرجىٰ لديهم من القسَم بها.

فاستدعَتْ مراعاةُ ما يقتضي الْقَسَمَ بها ذِكْرَ فعل الْقَسَم، وذِكْرَ الآياتِ الكونيّة الّتي اختار الله أن يُقْسِمَ بها في هذه السورة.

واستدعَتْ مراعاةُ ما يقتضي أنّه لا فائدة تُرْجَىٰ من القَسَم بها، نفيَ فعل القسَم بحرف النفي «لا».

فكان هذا الإجراءُ من المبتكرات البيانيّة القرآنيّةِ البديعة.

إنّ مُعْظَم المخاطبين العرب إبَّانَ التنزيل لا يُدْرِكون عَظَمَة هٰذه الآيَاتِ الكونية: «النجوم الخنّس ـ الجواري الكُنَّسِ ـ اللّيْلِ إذَا عَسْعَسَ ـ الصّبْح إذا تَنَفَّسَ» وهذا الواقع يجعل الْقَسَمَ بهٰذِه الآياتِ قَسَماً غَيْرَ ذي فائدة، فهو يقتضي عَدَمَ الْقَسَم بها، بالنسبة إليهم.

لكِنْ سيأتي زمانٌ يتّسِعُ فيهِ علْمُ الْفَلك، ومَعْرِفَةُ كثيرٍ من عظمة الظواهر الكونيّة الدّالّة علَىٰ صِفَاتِ خالقها ومُتْقِنها، ويُدْرِكُ فيه عُلَمَاءُ الكونيات عظمَةَ هٰذِهِ الآيات الكونية الدالاّت على الخالِقِ الرَّبّ العليم

الحكيم القدير، وهؤلاء العلماء ومَنْ يطّلعون على مقرّراتهم العلميّة يُناسِبُ حالَهُمْ أنْ يُقسِم الله لهم بهٰذِهِ الآياتِ من آياته في كونه، ليُؤَكّدَ لَهُمْ صِدْق الرسول محمد ﷺ، وصِدْق بلاغاتِه عَنْ رَبّه، ومثل هذا الواقع الذي سيحدثُ حتماً يقتضي الْقَسَمَ بها.

ولمّا اجتمع الاقتضاءَانِ: اقتضاءُ الْقَسَمِ، واقتضاءُ عَدَمِ الْقَسَم، كان الحلُّ البديع أن يأتي النَّصُّ بعبارَة [لاَ أُقْسِم].

هكذا ينبغي أَنْ نفهم كُلَّ مَا جاءَ في القرآن من عبارة [لاَ أُقْسِم] وقد استقرأْتُ الأقْسَامَ الْقُرْآنيّة فانتهيتُ إلى إدْرَاكِ هٰذِهِ الحكْمَةِ البيانيَّةِ البديعَةِ في القرآن.

فَلَسْتُ أعتبر كلمة «لا» زائدةً كما ذكَرَ بعْضُ المفسّرين، وَلا مَا ذَكَرُوهُ من تأويلاتٍ أُخرَىٰ متكلّفة، وقد هداني اللّٰهُ بهذا الاستقراء إلى استخراج قاعدة للأقسام المنفيّة في القرآن دَوَّنْتُها في كتابي: «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب اللّٰهِ عزّ وجل» وهي القاعدة «العشرون» منه، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

## شرح الآيَات الكونية الثلاث:

**أوّلاً**: آيَةُ الْخُنَّسِ الجواري الكُنَّسِ، التي دلَّ عليها قولُ اللّٰهِ عزَّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾.

**الْخُنَّس**: وَصْفٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ هيَ النجوم، وهُوَ جَمْعُ «خَانِس» أو «خانِسَة» والخنوسُ هو الانقباضُ والاستخفاء، يُقالُ لغة: خَنَس يَخْنِسُ ويَخْنُسُ خُنُوساً إذا انقبضَ وتَأَخّرَ، وقيل: إذا رجَعَ.

وجاء في كلام الرسول ﷺ: أنَّ الشيطَانَ يُوسْوِس للعبْدِ، فإذَا ذكَرَ اللّٰهَ خَنَسَ، أي: انقبَضَ عَنْهُ وتأخّر.

**الجوار**: جمع «جارية» حذفت من «الجوار» الياء اختصاراً في اللّفظ، وأصلها الجواري.

ومن المشهود بالأعين، والمعلوم عند علماء الفلك أنّ نجوم السّماء تجري وتسير، ضمن نظامٍ عجيب دقيق مُذهش.

وكلّما تعمّق الباحثون في تتبُّعهم لنظام جريان النجوم في أفلاكها زادت دهشتهم، وزَاد إيمان المنصفين منهم بالخالق العظيم الجبَّار الذي أتقن كلّ شيءٍ صُنعاً.

**الكُنَّس**: جمع «كانس» أو «كانِسَة» والكانس في اللُّغَةِ هو الظبيُ إِذَا دَخَلَ كِنَاسَه، وهو موضع في الشجر يَكْتَنُّ فيه، ويسْتَتِرُ، يُقَالُ لغة: ظِبَاءٌ كُنَّسٌ وكُنُوسٌ.

وأصْلُ الكَنْسِ كسْحُ الْقُمامة عن وجْهِ الأرض، وسُمِّيَ المكانُ الذي يأوي إليه الظبيُ أو بقَرُ الوحْشِ بين الأشجار الساترة له كِناساً، لأنَّهُ إذا أوىٰ إليه كَنَسَ الرَّمْلَ الذي عليه، حتَّىٰ يَصِلَ إلى الثّرَىٰ الحرّ، فَيَرْتَاحَ عليه.

فَمِنْ صفَاتِ النجوم التي أقْسَمَ اللَّهُ بِهَا أَنَّهَا خُنَّسٌ، وأَنَّهَا جواري، وأَنَّهَا كُنَّسٌ، وجاء استعمال الوصف التشبيهيّ كناية عن النجوم دون ذكر اسمها إيثاراً للإبداعِ البياني المركب من استعارة وكناية.

أمّا الخُنُوسُ فهُوَ اختِفاؤها في النّهار، مَعَ وُجُودِها في منازِلها وَمَجَارِيها، كَمَا تَختفي الظِّبَاءُ بَيْنَ الأشجار في أكْنِسَتِهَا عَنْ أعْيُنِ طُلاَّب صَيْدِها أو افتراسِهَا، ووصْفُها بِأَنَّها خُنَّسٌ، وبأنّها كُنَّسٌ، استعارةٌ قائمةٌ على تَشْبِيه اختِفائها في النهار باختفاء الظباء في أكْنِسَتِهَا، وتشبيه مواقع النجوم بأَكْنِسَةِ الظّباء، وهي استعارةٌ بديعة قائمة على تشبيهٍ دقيق، ثمّ استُخْدِمَتْ هذه الاستعارة كِنايةً عن النجوم.

وقَدْ يكونُ وصْفُها بأنَّها كُنَّسٌ لأنَّها تجذبُ إليها الغبار والكتَلَ الصَّخْرِيَّة الّتي خلّفَتْها نجومٌ أَوْ كواكبُ انفجرَتْ وَتناثرتْ أجزاؤها، فهي بمثابة الكانِسِ الذي يَكْنُسُ القمامات، والله أعلم.

إنَّ عَالَمَ النجوم الذي تُعْتَبَرُ شَمْسُنَا نجماً متوسط الحجم من نجومه الّتي لا تحصيها المخلوقات، عالَمٌ عظيم مُذهِشٌ مُحَيِّرٌ لأولي الألباب، والبحثُ فيه، والتَّفكُّرُ فيما انبَثَّ فيه من آيات الله الجليلة لا بُدَّ أن يَهْدِي المتفكّرِين المنصفين إلى الإيمان بالخالق الرّبّ جلّ جلاله، والإيمان بعلمه المحيط بكلّ شيء، وحكمتِه العظيمة، وقُدْرَتِهِ التي لا يُعْجِزُهَا شيءٌ في السَّمَاوَاتِ ولا في الأرض، وإتقان صُنْعِه البالِغ ذرْوة الكمال.

فالْقَسَمُ بِالنُّجُومِ هو في الحقيقة قَسَمٌ بصِفَاتِ اللَّهِ الجليلة الّتي تُعْتَبَرُ النُجومُ إِحْدَىٰ ظَواهِرِ خَلْقِ اللَّهِ لكونه.

**ثانياً**: آيةُ اللّيل إذا عسْعَسَ، الّتي دَلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾.

يقال لغة: عَسْعَسَ اللّيلُ، إِذَا أقْبَلَ من أَوّلِهُ، ويقال أيضاً: عَسْعَسَ اللّيلُ، إِذَا أَدْبر عند أواخِره، فهو من الأضداد.

والآية تُحْمَلُ عليهما جميعاً، لأنّ ظاهرة اللّيل عند إقباله وعنْدَ إدْباره متشابهة، وهي تلْفِتُ نظر أهل البحث العلميّ إلى قضيَّةٍ علميّة تنظيميَّةٍ فيها إتْقانٌ وحِكْمةٌ مِنْ قضايا نظام الكون البديع، وهي تدلُّ على أنَّ اللَّهَ جلّ جلالُهُ عليم قدير حكيم، وهي أَثَرٌ من آثار دوران الأرض حول نفسها تُجاهَ الشمس، ولهذا يتطابَقُ إقبالُ اللّيل مع إدباره، وللإيجاز في اللّفظ اختيرَتْ كلمة «عَسْعَسَ» الدّالة على الأمرين معاً. والله أعلم.

**ثالثاً**: آيَةُ الصُبْح إِذَا تنفَّس، التي دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾.

**التّنفُّس**: يأتي بمعْنَيَيْن:

**الأول**: استمدادُ النفس، أي: أخذ الريح وإدخالُهُ إلى الرّئة، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ ذِي رِئَةٍ هو مُتَنَفِّس.

**الثاني**: الزيادةُ والامْتِدَادُ والاتّسَاعُ، يُقال لغة: تَنَفَّسَ النَّهْرُ، إذا زاد ماؤه. ويقالُ: بيْنَ الفريقين نَفَسٌ، أي: مُتَّسَعٌ، ويقالُ: تَنَفَّسَ الصُّبْحَ، إذا تَبَلَّجَ وامتدَّ واتَّسَعَ ضَوْؤُهُ حتَّىٰ يَصِير نهاراً بَيّناً. ويقال: تنفَّسَ النهارُ، إذا امتدَّ وطَال، وهذا المعنى هو المناسب للآية، باعتبار أنّه المعنى الذي ينسجم مع: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾﴾ فكلاهما ظاهرتان من ظواهر إتقان حركة دوران الأرض حول نَفْسِها، في اتّجاه الشمس، وهي الحركة الّتي يَنْتُجُ عنها ظاهرتا اللّيل والنهار.

❁ ❁ ❁

قولُ اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾﴾: أي: إنَّ القرآنَ الَّذِي يَتْلُوهُ محمَّدٌ على قومِهِ، ويقول لهم: إنَّه كتابٌ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ الله، هُوَ قَوْلٌ يتلقَّاهُ مُحَمَّدٌ سماعاً قَوْلِيًّا جليًّا من رسُولٍ كريم، يقولُهُ حَرْفاً فَحَرْفاً، وكَلِمةً فكلمة، وهو جبريل عليه السلام.

فالضمير في: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يُرادُ مِنْهُ القرآن، بدليل الحال، ودليل كوْنه قولاً يتلىٰ.

وجملة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾﴾ هي جواب القسم في ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾.

ولم يُذكَرِ هُنَا اسم الملك جبريل أمين الوحي عليه السلام، إنّما ذُكِر بصفَاتٍ تعيِّنُهُ وتُميّزُه.

(١) **فَهُوَ رَسُولٌ من الملائكةِ**: يُرْسِلُهُ اللَّهُ لتبلِيغِ ما يُرِيدُ أن يُوحي إلى رُسُلِهِ من البشر، فوظيفته القيامُ بتأدِية الرّسالة التي يكلّفُه الله أن يؤدّيها، دون أن يتصرّف بشيءٍ مِنْ عنده.

(٢) **وهو كَرِيمٌ**: والكريم هو الذي يترفّع عن النقائص والدنايا، وهو المحمود بالصفات الرفيعة النفيسة، والجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، والمكرَّمُ في جنسه، أو نوعه، أو بين نظرائه أو قومه.

وكيف لا يكون جبريل عليه السلام كريماً، وقد اصطفاه الله لتبليغ وحيه إلى رسُله من البشر، وللقيام بكُبْرَياتِ المهمّات، مع أنّه من الملائكة الكرام الذين لا يعصون اللَّهَ ما أمرهم ويَفعلون ما يُؤْمَرُونَ.

(٣) **وهو ذُو قُوّةٍ**: أي: ذو قُوّةٍ عظيمة دلَّ على عظمتها التنكير، فلو أمره الله عزّ وجلّ بأن يَنسِفَ الجبال والبحار، ويَرْفع الْمُدُنَ وَيَقْلبها، ويُزَلْزِلَ الأرضَ وما عليها، لقَدَرَ على ذلك، فقد أعطاهُ جلّ جلالُهُ قوّةً عظيمة.

(٤) **وهُوَ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ**: أي: وهو عند الله الذي هو ذو العرْشِ المجيد مكين. **المكِينُ**: هُو ذو المكانة الرفيعة، والمنزلة العالية الثابتة الراسخة، المتمكّن في الموقع الذي هو فيه.

(٥) **وَهُو مُطاعٌ بين الملائكة العالين**: قال تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ كلمةُ (ثَمَّ) بفتح الثاء اسْمٌ يُشارُ به إلى المكان البعيد، وهو بمعنى هُنَالِكَ، فهو مطاعٌ هُنَالِكَ، أي: بين الملائكة العالين عند ربّ العالمين، فله عليهم رياسةٌ، يأمُرُهُمْ بإذْنِ اللَّهِ فَيُطِيعُونَهُ.

ولمّا كانت الرسالة الدينيَّةُ أعظَمَ رسالات الرّبّ، اختار لحمْلِها وتبليغها لرسُله من البشر أعظم ملائكته، وذا الرياسة عليهم، والمكين عنْدَهُ.

(٦) **وَهُو أمين**: أي: وهو أمين على وحْي الله، وأمين على رسالاته،

فلا ينقُصُ منها شيئاً، ولا يزيد فيها شيئاً، بل يبلّغها أو يُؤدِّيها كما أَوْحَىٰ الله إليه بدقَّةٍ تَامّة. وفي هذا تعبيرٌ عن سلامة القرآن المبلَّغ إلى رسول الله محمد ﷺ من أيّ تغيير عمّا أنزل الله.

وقد أثبت الله عزّ وجلّ أنَّ القرآن مُنَزَّلٌ من عنده نطَقَ به وتلَفَّظ بحروفه وكلماتِه رَسُولٌ كريمٌ أرسَلَهُ، وهو ذو قُوَّةٍ عِنْدَ ذي الْعَرْشِ مَكِين، وهو مطاعٌ هنالِك بين الملائكة العالين، وهو أمين، وعلمنا أنّ هذا الرسول هو جبريل عليه السلام، لئلاّ يتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنّ القرآن قد أوحى الله به إلى رسوله محمد ﷺ معاني، وأنّ الرسول محمّداً عبَّر عن هذه المعاني بألفاظٍ من عِنده، وهذا فرقٌ عظيم يفرّقُ بين القرآن، وبين المعاني الّتي أوحى الله بها إلى رسوله، وعبَّر عنها الرّسول ﷺ بعباراتٍ من عنده، فهي شيءٌ آخر غَيْرُ القرآن، وليس لها صفة إعجاز القرآن، ولا الصفات الأخرى الخاصّةُ بالقرآن.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

تـوجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وجَلّ بهذهِ الآياتِ لخطاب الّذين كذّبوا الرَّسُولَ محمّداً ﷺ إبَّانَ التنزيل، والذين اتَّهَمُوهُ بالْجُنُونِ، لادّعائه أنه رسُول اللَّهِ، ويتَلَقَّىٰ عَنْ رَبِّهِ الْوَحْيَ، وأنّ مَا يتْلُوهُ عَلَيْهِم هو كتابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ويُلقّنُهُ إيّاهُ أمينُ الوحي جبريل عليه السَّلام، ولأنّه جاءهم برسالة تقضي على شركهم وأوثانهم، فقال لهم: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وما الرسُول الذي أُرسِلَ إليكم فهو مصاحبكم وملازم لكم في دعوته إياكم إلى دين الله، وفي تبليغكم رسالاَتِ اللَّهِ للناس بمجنونٍ، كما يزْعُمُ من اتّهمه بالجنونِ منكم.

زِيدَتِ الْبَاءُ الجارّة في: ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ لتأكيد النفي الذي دلَّت عليه أداة النفي [مَا].

وقد سبق في سورة (القلم) أن شهد الله لرسوله ليُسَلِّيَهُ وَيَشُدَّ عزيمته بأنه غير مجنون، خطاباً له، فقال له فيها: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

أمّا هنا في سورة (التكوير) فقد وجّه اللَّهُ عزَّ وجلَّ الْخِطَابَ للذّينَ كذّبُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾.

إنّ هذا القرآن العظيم الذي يُنَزِّلُهُ اللَّهُ عليه، والذي يبلّغه عَنْ رَبّه دليلٌ جَلِيٌّ على أنّه في ذُرُواتِ الكمالِ الْعَقْلِيّ، وفي ذرواتِ الكمال الفكريّ والنفسي، وأنّى لِلْمَجْنُونِ أن يَقْتَرِبَ من ذِرْوَةٍ مِنْ ذرْوَاتِ هٰذِهِ الكمالات.

يضافُ إلى هذا أنّه صَاحِبُكُمْ الْمُلاَزِمُ لكُمْ في صُحْبته، فقد صَاحَبْتُمُوه وعَاشَرْتُمُوهُ، وعرفْتُم أخلاقَه، وصدقه، وأمانته، ورجاحة عقله، وأنّ من كان مثْلَهُ فهو أبْعَدُ النّاسِ عَنِ الجنون.

وبَعْدَ نفي الجنون عنه بدليل مصاحبتهم لَهُ أبَان الله لهم أنَّ صِلَتَهُ بجبريل أمين الوحي الربّانيّ لَمْ تَقْتَصِرْ على وحْيٍ غَيْبِيٍّ أَوْ قَلْبِيٍّ غير مَشْهُودٍ بِبَصَرٍ وَلاَ سَمْعٍ، بل رأىٰ مُحَمَّدٌ جِبْرِيلَ رُؤْيَا عَيْنٍ وَهُوَ بالأُفُقِ الْمُبِينِ، فقالَ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾.

**الْأُفُق**: خطٌّ دَائِرِيٌّ في الجوّ يَرىٰ فيه الْمُشَاهِدُ السَّمَاءَ كَأَنَّهَا ملتقيةٌ بالأَرْضِ.

**المبين**: أي: الظاهر الواضح، يقال لغة: بَانَ الشيْءُ بياناً فهو بائن، وأَبَانَ الشيْءُ إِبَانَةً فَهُو مُبين، إذا ظهر ووضح وكان جليًّا.

فدلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ علىٰ أنّ الرسول محمّداً ﷺ قد رأىٰ أمين الوحي

جبريلَ عليه السّلام رُؤيا بصريَّةً واضحةً بالأفُق الواضحِ المشرقِ الذي لاَ ظُلْمَةَ فيه وَلاَ غَبَشَ، فالرُّؤيَةُ إذْ ذَاكَ لاَ شبْهَةَ فيها، ويكونُ هذا في النهار صباحاً أوْ مساءَ أو ما بينهما، لا بَعْدَ الغروب ولاَ قَبْلَ الفجر.

روى البخاري أنّ جابر بن عبد الله الأنصاري قال ـ وهو يُحَدِّثُ عن فَتْرَةِ الوحي ـ فقال في حديثه عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«بيْنَا أَنَا أَمْشِي، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الّذِي جَاءَنِي بِحِراءِ، جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُوني، فأنْزَلَ اللَّهُ تعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾.

فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ».

بَعْدَ هٰذَا وَصَفَ اللَّهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بقوله:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وَقرأ ابْنُ كثير، وأبو عمرو، والكسائيّ، ورُويسٌ: [بِظَنِينٍ] بالظاء.

**الضَّنين**: البخيل في اللُّغَة، يقالُ لُغَةً: ضَنَّ بالشَّيْءِ يَضِنُّ ويَضَنُّ ضِنّاً وضَنَانَةً إذَا بَخِلَ، فهو ضَنِين، أي: بخيل.

**والظَّنِينُ**: المتَّهَمُ الذي لاَ يُوثَقُ بِهِ في الأَخْبَارِ أو في غَيْرِها.

إنّ الله عزّ وجلّ يَشْهَدُ لِرَسُولِهِ محمد ﷺ، بأنّه على ما يطّلِعُ علَيْه من الغيب، ومنه ما يَنْزِلُ عليه من أقوالٍ وبياناتٍ رَبّانية، ليس بخيلاً كاتماً ما يُؤمَرُ بتبليغه أو يؤذَنُ لَهُ به، ولَيْسَ مُتَّهماً بالتحريف أو الزيادة أو النقص، بل هو صادقٌ أمِينٌ لا يألُو جَهْداً في تعليم الناس وإرشادهم إلى كلّ ما فيه خَيْرُهم وسعادتهم من أمور دنياهم وآخرتهم.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ أو [بظنين] تَقْدِيرُهُ فيما أرى: وَمَا هُوَ مُطَّلِعاً على الغيب الذي يُطْلِعُهُ اللَّهُ عليه ببخيلٍ وَلاَ مُتَّهَم، وهذا على التضمين، والتضمين كما يكونُ في الأفعال، يكونُ فيما يَعْمَلُ عَمَلها، أي ليس بضنين ولا بظنين مُطّلِعاً على الغيب.

وفي هذا بيانٌ لبراءة الرسُول محمد ﷺ من أخلاق الناس الّتي فيها البُخْلُ والاتّهام، فمَنْ ظفِرَ منهم بعِلْمٍ من علُوم غيبيَّةٍ عن الناس، احتفظ به لنَفْسِه، وضَنَّ بِهِ عن الآخرين، ليستثمره لدُنْياه، وحين يجد وسيلةً لاستثماره، كالسَّحَرَةِ الّذِين يتّصِلُونَ بالجنّ، وَيأخذونَ عَنْهُمْ علوماً لا يَعْلَمُها الناس، فإنَّ الواحِدَ منهم يَضِنُّ بمَا تعلَّمَهُ ليسْتأثِرَ به لنفسه، وما يَتَلَقَّاهُ منْ أخبارِ عن الجنّ فإنَّهُ يُضِيفُ إليه أكاذيب من عند نفسه، حتَّىٰ لا تضيع عليه أيُّ فرصة من فرص الاستثمار لنفسه، وحتّى لا يقول في أمْرٍ يجهلُه: لا أعْلَمُه.

أمّا رسُولُ الله فما يَعْلَمُه من أمْرِ الغيب لا يضِنُّ به، وَمَا يجْهَلُه يقول في شأنه: إنّني بَشَرٌ لا أعْلَمُ إلاّ ما يُعَلّمُني الله.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

إنَّه لمَّا كان الشياطين يوحون إلى أوليائهم من الإنْسِ، بأخْبارٍ يَصْدُقُونَ في بعْضِها، ويَكْذِبُونَ في أكثرها، ولمّا كان الواقع يقتضي التَّفْرِيقَ بيْنَ وَحْي الله وإيحاءِ الشياطين لأوليائهم، قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ومَا القرآن الذي يَتْلُوهُ محمّد ويُبَلّغُهُ للنّاسِ بقَوْلِ شيطانٍ رَجيم يوحي به إليه.

إنَّ القرآنَ الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومَا يشتمل عليه من هداية وعِلْم شاهِدٌ على أنّه تنزيل من عليم حكيم، وليس بقولِ بَشَرٍ، ولا بقول شيطان رجيم.

إنّ أقوال الشياطين وأخبارهم مَشْحُونَةٌ بالضلالات، والأباطيل والأَكَاذِيب، ولهذا خاطب اللّهُ مُكَذّبي الرَّسُولِ فيما يُبَلّغ عن رَبّه بقوله:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فأَيْنَ تذهَبُونَ فارّين من حقيقة أنَّ القرآن مُنَزَّلٌ من عند الله، ودلائل الحقّ تُحَاصِرُكُمْ من كلّ جانب، فحقائق القرآن، وإعجازُ القرآن، وكمال الرسول، وبراهِينُ الْعَقْل، تَشْهَدُ للرَّسُولِ بالصدق، وتشهد للقرآن بأنَّهُ حقٌّ مُنَزَّلٌ مِن عليم حكيم، فلا مَفَرَّ لمكذّبٍ، إلاَّ أن يكونَ معانداً مُصِرّاً على الباطل.

وَبعْدَ هذا ختم الله السورة بقوله:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الضمير في ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعودُ على القرآن، ولفظ (إِنْ) حرفُ نَفْي بمعنى «ما». أي: ما هذا القرآن الذي يتلوه محمَّدٌ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين جميعاً، أي: مُوَجَّهٌ لجميع العالمين المكلّفين الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

أمّا مَنْ يَنْتَفع من هذا الذِّكْر الموجّه للعالمين، ويهتدي بهدْيِه، فكُلُّ من شَاءَ بإرادته الحرَّةِ أَنْ يسْتَقِيم على صراط الله المبيَّن فيما يُنَزِّلُ اللّهُ على رسوله.

المبلَّغُونَ هم كلُّ العالَمِين المكلفين الموضوعين موضع الامتحان، والمنتَفِعُونَ منه من شاء من العالمين المبلّغين أن يستقيم على صراط الحقّ والْهُدَىٰ، فإيمانُه وهدايَتُهُ من ثمرات ما أعطاه ربُّهُ من مشيئة حرَّة ليبْلُوَهُ، أي: ليمتحنه في ظروف هذه الحياة الدنيا.

هذا ما نفهمه من قول الله عزّ وجلّ:

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

وجاء بَيَانُ هذه الفكرة بأسلوب بدل الإضراب من قوله تَعَالَىٰ: ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ وبَدَلُ الإضراب بدَلٌ يُقْصَدُ به الْبَدَلُ والْمُبْدَلُ منه معاً، والإبداعُ هنا أنّ الْمُبْدَلَ مِنْهُ جَاءَ على معنى، وأنّ الْبَدَلَ جاء على معنىً آخر، مع ما في الخطاب بعد الحديث عن العالمين بالغائب، من التفاتٍ بديعٍ ذي هَدَفٍ فكريّ، وهُوَ تَحْمِيلُ عُمُوم المخاطبين مسؤوليّاتهم تجاه هذا الذِّكْرِ المنزَّلِ مِنْ رَبّ العالمين.

وقد أَثبت قول اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أنَّ الْمُخَاطبين المكلفين يَملكُونَ مشيئَةً حُرَّةً يسْتطيعُونَ بِهَا أَنْ يَشَاءُوا الاستقامة على صراط الله، وأن يشاءوا عَدَمَ الاستقامة، وذَلك إذْ خَلَقَ اللّهُ فيهم بحكْمَتِهِ الجليلة جهاز المشيئة الحرّة، التي يَسْتَطِيعون أن يَشَاءُوا بها طريق الخير، أو طريق الشرّ، وأن يشاءوا بها الإيمان أو الكفر، والطاعة أو المعصية.

ويَرِدُ على كلمة [الذّكرِ] في النّص سؤال، وهو: لِمَاذا وصَفَ اللّهُ القرآن بأنَّهُ ذِكْرٌ؟

**وأقول**: الذكر في اللّغة حفظ الشيء في الذاكرة، وإجراؤُهُ على اللّسان، وتذكُّرُ المحفوظ عند استدعائه، والتذكير بما كان معلوماً ثم نُسِيَ.

فهل وصف الله القرآن بأنَّهُ ذِكْرٌ لمن شاء أن يستقيم من العالمين، لأنّه يجب أن يُحْفظَ فلا يُنْسَى، وبهذا يكون واعظاً دائماً لحافظِهِ في ذاكرته

ينصحه ويأمُرُه وينهاه ويُرشِده بعد أن يتبلغه ويتفهّم دلالاته؟.

أو لِيُتْلَىٰ وتجري بآياته ألسنة المؤمنين آناء اللّيل وآناء النهار؟.

أو ليتذكّر المؤمِنُون حيناً فحيناً ما اشتمل عليه من هَدْيٍ لهم، فيتّعِظُوا بمواعظه، ويهتدوا بهَدْيه؟.

أو لأنّ ما اشتمل عليه من حقائق، وهدايَةٍ إلى الصراط المستقيم، أمُورٌ مُغْرُوزةٌ في عقول الناس وفِطَرِ نفوسِهم، فحين يفهمون ما جاء به القرآنُ يجدونه مطابقاً لما في عقولهم من موازين، ولما في قلوبهم وضمائرهم من مشاعر حقٍّ وخير وجمال، فيكون بالنّسبة إليهم بمثابَةِ مذكّر يذكّرُهم بشيءٍ غير جديدٍ عليهم، فكأنَّهُمْ كانوا يعلمونه ثُمَّ نَسُوه.

كلُّ هذه المعاني مقبولة ومعقولة، وربّما سُمِّي القرآن ذِكراً لمراعاة هذه المعاني جميعاً، على أنّه ينبغي العناية بحفظه وتذكّر مضامينه عند مناسباتها، للعمل به والاهتداء بما يهدي إليه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

يخطئ كثيرٌ من الناس في فهم هذا النّصّ وأشباهِهِ في القرآن، وسَبَبُ خَطَئِهِمْ أنّهُمْ لم يتَنَبَّهُوا إلى أَنَّ الله عزّ وجلّ، قَدْ شَاء أنْ يَجْعَل المكلَّفين الممتحنين المسؤولين عَنْ أعمالهم الاختياريّة في الحياة الدّنيا ذوي مشيئاتٍ حُرَّةٍ، يختارُونَ بها في مجالات امتحانهم ما يشاءونَ من خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أو غير ذَلِك، ليمتحنهم في اختياراتهم، فخلَقَ لكلٍّ منهم بمَشيئَتِه جهازاً خاصّاً، هو جهاز المشيئة الحرّة، فالْعَبدُ بهذا الجهاز الذي خلقه الله له بمشيئته يختار ما يشاء في رِحْلةِ امتحانه.

ولولا أن شاء الله أن يمنح عباده القدرة على أن يشاءُوا لكانوا

مجبورين ليس لهم مشيئاتٌ حُرَّةٌ، ولما اسْتَطاعوا أن يشاءُوا شيئاً، ولكانوا مثل الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب، ومثل سائر الكائنات المجبورة المسيّرة التي ليس لها إرادات حُرَّةٌ تَشَاءُ بها.

فمَشيئة المكلّفين المسؤولين مشيئَةٌ حُرَّةٌ فيهم، ضمن حدود أفعالهم الاختياريَّة الجَسدِيَّة والنفسيّة، أمّا الأفعال الاضطراريَّةُ الَّتِي تجري فيهم أو تجري عليهم، فهي خارجةٌ عن دائرة اختياراتهم الْحُرَّةِ، وخارجةٌ عن حُدودِ مسؤولياتهم في رحلة امتحانهم.

ومعلومٌ أنّ مَشيئاتهم الحرّة لم تكُنْ لهم إلاّ بعد أن شاء الله أن يمنحهم أجهزة المشيئة الحرّة.

وهذه المشيئاتُ الحرّةُ فيهم لا تَعْمَلُ أعْمَالَها إلاّ بالتمكين الرَّبَّانِيّ لها من أَنْ تَعْمل، وهٰذَا التمكين الرَّبانِيُّ هو الذي يجعلهم مسؤولين عن أعمالهم الاختياريّة في رحلة ابتلائهم.

وفي اللّحظَة الّتي يرفع اللّهُ فيها تمكينَهُ لهم يرتفع التكليف، وترتفع المسؤولية.

وعلى هذا ينبغي أن تُفْهَمَ النُّصوص، وأن يُجْمَعَ بين دلالاتها، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

**وبهذا انتهىٰ تدبُّر سورة التكوير ضمن ما فتح به العليم الحكيم القدير**

❁ ❁ ❁

# سُورَةُ الأعلى

وَيُقَالُ فِيهَا: سُورَةُ «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى»

وَيُقَالُ أَيضًا: سُورَةُ «سَبِّحْ»

٨٧ مصحف ٨ نزول

(١)

# نصُّ السّورة وما فيها من قراءات من الفرش

## سورة الأعلى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ
فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾
سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ
﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ
مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ
﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾
وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾
وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾
صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

❁ ❁ ❁

٣ ـ ● قرأ الكسائي: [قَدَرَ].
● وقرأ باقي القراء العشرة: [قَدَّر] بتشديد الدال.

٨ ـ ● قرأ أبو جعفر: [لِلْيُسُرَىٰ] بضمّ السّين.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [لِلْيُسْرَىٰ] بإسكان السين.

١٦ ـ ● قرأ أبو عمرو: [يُؤْثِرُونَ] بياء الغائبين.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [تُؤْثِرُونَ] بتاء المخاطبين.

## (٢)
## ممّا رُوي عن النبيّ ﷺ بشأن هذه السّورة

(١) روى الإمام أحمد والبزّار وابن مردويه عن عليٍّ رضي الله عنهُ قال:

«كان رسول الله ﷺ يُحبُّ هذه السّورة: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلى».

(٢) وروىٰ مسلم وأحمد وأهل السُّنن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ:

«كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ، وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيث الغاشية، وإِنْ وافَقَ يَوْمَ جُمُعَةٍ قَرَأَهُمَا جَمِيعاً».

أي: وإن وافق العيدُ يَوْمَ جُمَعةٍ قرأ السُّورتين في صلاة العيد، وفي صلاة الجمعة.

(٣) وروى مسلم وغيرُه عن جابر بن سَمُرَة، أنَّ النبيّ ﷺ:

«كان يَقْرأُ في الظُّهر بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَىٰ».

(٤) وروى أبو داود والنَّسائي وابْنُ ماجَهْ والدَّارَقُطْنِي والْحَاكِمُ والْبَيْهَقِيُّ عن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قال:

«كَانَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوتِرُ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الكافرون، وقُلْ هُوَ اللَّهُ أحد».

(٥) وروىٰ أبو دَاوُدَ والترمذيُّ والنَّسَائِيُّ وابْنُ مَاجَهْ والحاكم وصحّحه، والبيهقي، عن عائشة، قالت:

«كَانَ النبيُّ ﷺ يقرَأُ في الْوِتْرِ في الرَّكْعَةِ الأُولَىٰ بِسَبِّحْ، وفي الثانية بقُلْ يَا أَيُّها الْكَافِرُونَ، وفي الثالِثَة بقُلْ هو اللَّهُ أحد والْمُعَوِّذَتَيْنِ».

(٦) وروى البخاريّ ومسلم عن جَابِرِ بْنِ عبد اللّهِ: أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ كان يُصَلِّي مع النبيّ ﷺ، ثُمَّ يأتي قَوْمَه فيُصَلِّي بهم الصّلاة، فقَرَأَ بِهِمُ البَقَرَةَ، قال: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّىٰ صَلاَةً خفيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذاً، فقَال: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَىٰ النَّبيَّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللّه، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، ونَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذاً صَلَّىٰ بِنَا البَارِحَةَ فَقَرأَ البَقَرَةَ، فَتَجَوَّزتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ.

فقال النبيُّ ﷺ:

«يَا مُعَاذُ، أَفَتَانٌ أَنتَ ـ ثلاثاً ـ اقْرَأْ: والشَّمْسِ وضُحَاها، وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ، ونحوها».

وفي رواية لهما زيادة: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ».

وفي رواية عند مسلم: «والضُّحَى، واقْرَأْ باسمِ رَبِّكَ».

وفي رواية للبخاري: «فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الكَبِيرُ، والضَّعِيفُ، وَذُو الحَاجَةِ».

وفي رواية عند مسلم: فصَلَّىٰ مع النبيّ ﷺ العِشَاءَ، ثُمَّ أَتَىٰ قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ، فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ البقرة، فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّىٰ وَحْدَهُ وانْصَرَفَ، فَقَالُوا لَهُ: نَافَقْتَ.

هذه الرّواية تُفَسِّر معنىٰ: «فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ» في الحديث.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## تتابع التوجيه التربويّ لذكر الله حتى نزول سورة الأعلى

(١) في سورة «العلق» بدأَ التَّوجيه لذكر اسم الرّبّ مقترناً بالأَمْرِ بالقراءة فقال اللّه عَزَّ وجلَّ فيها: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

(٢) ثمَّ في سورة «المدثر» أنزل اللّه قولَه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ وفي هذا تَوْجِيهٌ لتعظيم الرّبّ وتكْبِيره، وذِكْرِهِ بعبارة: اللَّهُ أكبر.

(٣) ثمّ في سورة «المزمّل» أنزل اللّهُ قَوْلَه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾.

**وتَبَتَّلْ إِلَيه**: أي: أخلص له العبادة والطاعة، وانْقَطِعْ عن غيره، فلا تُعَلِّقْ قلبك ونفسك بغيره في عِبَاداتك.

(٤) ثم في سورة (الفاتحة) أنزل اللّه قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾

(٥) ثمّ في سورة (الأعلى) أنزل اللّهُ قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ فجاء التوجيه هنا لِذكْرِ اللّهِ بالتَّسْبيح، الذي يَدُلُّ على تنزيه اللّهِ عمّا لاَ يليق بجلاله.

**دلالة هذا الترتيب:**

ونستطيع أن نستدلَّ من هذا الترتيب في مراحل التنزيل القرآنيّ على ما يلي:

**أوّلاً:**

العلْمُ هو الخطْوةُ الأولَى، والعِلْمُ عن الرّبّ الخالق وَسِيلَتُه قِرَاءَةُ الكِتَابِ الْمُنَزَّلِ من لَدُنْهُ، وَتَدْوين العلم بالْقَلَم، مع الاستعانة باسم الرّبّ الذي خلق، إذْ لا يكون العلم مصوناً عن الزّلل ما لم يقترن بالاستعانة باسمه، والتبرُّك بالابتداء به، والرغبة بالتعرُّف على كمال صفاته، استدلالاً بظواهر خلقه.

**ثانياً:**

العلْمُ باللّه يَهْدِي إلى تَعْظِيم اللّهِ وَتَكْبِيرِهِ، وأنّه أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ كبيرٍ

يُمْكِنُ أَنْ تتخيَّلَهُ الأفكار، ومن كلِّ كبيرٍ في الوجود، لأَنَّهُ هو الخالق لكلّ ما سواه جلَّ جلاله.

**ثالثاً:**

طريق الوصول إلى حقيقة العبوديَّة للّه عزّ وجلّ مداومة ذكر اسم الرَّبّ، والتبتُّلُ إليه، بالانقطاع إليه عن كُلِّ شِرْكٍ، حتَّىٰ التعلُّق القلبيّ بالأسباب التي جَعَلَها هو سبحانه أسباباً، وهي لا تعمل إلاّ بخلقه.

**رابعاً:**

وحين يَصِلُ الفكْرُ في تصوُّراته لصفات الرّبّ إلى مستوىً يُدْرِكُ فيه أنَّ كُلَّ مظهر من مظاهر الكائنات يدُلُّ على صِفَةٍ من صفاتِ الرّبِّ تَستَحِقُّ أكبر الْحَمد وأعظم الثناء، وأنّ كل صِفَةٍ يُحْمَد بها كائنٌ في هَذَا الوجود فإنّما هي من خَلْقِ اللّه، وأثَرٌ من آثار صفاته، فلا بُدَّ أن يكون على يقينٍ تامٍّ بأنَّ كُلَّ الْحَمْد وأكْملَ الحمْدِ هو للّهِ رَبّ العالمين الرحمن الرحيم.

في هذه المرحلة التربويَّةِ نزل قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الفاتحة) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾.

**خامساً:**

بعد التحقُّق بالمراحل السابقة، صار الإنسانُ المتدرّجُ على وفْق بنائها التربويّ مستعدًا لأن تكون نَفْسُه ويكُونَ قلبُه وَفِكْرُهُ في حالَةِ سَبْحٍ ضِمْنَ آفاقِ تصَوُّراتِ صِفَاتِ الرَّبّ الأعْلَىٰ، وتَذَوُّقِ المشاعر النفسيّة والقلبية الّتي تَسْتَثِيرها أو تُحْدِثُها أو تُغَذّيها هذه التصورات.

وهذا السَّبْحُ الفكريُّ والنَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ الَّذِي لا تَعْتَرِضُهُ عقباتُ الكثَافَاتِ المادّيّة، والمشبِهُ لسَبْحِ السَّمكِ في الماء، وسَبْحِ الطيور في الفضاء، وسَبْحِ الملائكة في السّماء، يُساعِدُ على تحقُّقِه مُدَاوَمَةُ التسبيح المشتمل على ذكر اسْمِ الرَّبّ الأعلى.

عند هذه المرحلة أنزل اللّه على رسوله سورة (الأعلى) المفتتحة بقوله تَعَالَىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

ولا بُدَّ أَنْ نُلاحظ أنّ هذا البناء التربويّ المتدرج ملاحَظٌ فيه بالدرجة الأولى قِمَّةُ البشر جميعاً، وهو رسول الله ﷺ.

ثُمَّ على وفقه يكون تدرّج البناء التَّربويّ بالنسبة إلى غيره، مع مراعاة حالة اسْتِعْداد كلٍّ منهُمْ للْمُدَّة الّتي يحتاجُها، حتَّىٰ ينْتَقِلَ من مرحلَةٍ إلَىٰ الَّتِي تَلِيها.

❀ ❀ ❀

## (٤)
## دروس سورة الأعلى ووحدة موضوعها

تشتمل سورة «الأعلى» على أربعة دروس متعانقة، وهي تُكَوِّنُ في مجموعها موضُوعاً واحداً، وجَذْرُ هذا الموضوع: «هذا الدِّين».

ولهذا الموضوع أربعة خطوط، أو فروع كفروع ساق شجرة:

**الخطّ الأول:** اللّه وبعض ما يتعلّق بصفاته وأسمائه الحسنى.

**الخطّ الثاني:** الرّسالة وإنْزَالُها على الرسول المصطفى وبعض خصائصها.

**الخط الثالث:** توجيهاتٌ للرسول محمد ﷺ بشأن وَظيفته في رسالته.

**الخطّ الرابع:** المرسَلُ إليهم وانْقِسَامُهُمْ إلى سعيد تَزَكَّىٰ، وكافراً أشقى، وبعض مُعَالجَةٍ دَعَوِيَّة لهم.

أمّا دروس السورة الأربعة فهي:

**الدرس الأول:** تضَمَّن أمر اللّه لرسوله بأن يُنَزِّه صفات الرَّبّ الأعلى

عمّا لا يليق بجلاله مع التنبيه على بعض آياته في كونه الَّتِي تدلُّ على رُبوبيّتِه جَلَّ جلاله، وأمْرُ الرسولِ يسْتَتْبع أمْرَ كلِّ موضوع في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وهو الآيات التاليات من السورة:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

وفي هذا الدرسِ توجيهٌ ضِمْنِيٌّ للرسول أن يَشْرَح للنّاس القضايا الَّتي اشْتَمَلَ عليها.

**الدرس الثاني**: تضمَّنَ وَعْدَ اللَّهِ لرسوله محمد ﷺ بمتابَعَةِ إنْزَالِ القرآنِ عَلَيْهِ، وَتَثْبيتِه في ذَاكِرَتِهِ، وإعْدَادِهِ بِيُسْرٍ في صُنْعٍ رَبَّانِيٍّ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ الْيُسْرَىٰ في أحْكَامِهَا وَتَكَالِيفها، وهو الآيَاتُ التاليات من السّورة:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾.

**الدرس الثالث**: تضَمَّنَ تكليفَ الرسولِ بالتبليغِ ومتابعةِ التبليغِ بالتذكير، إنْ وجَدَ احتمالاً يُفيد أنّ الذكرى غَيْرُ ميؤوسٍ من نَفْعِها، ولو كان احتمال نَفْعِها ضَعِيفاً.

وتضمّن بيان أنّ من يخشَىٰ الجزاء الرَّبَّانيَّ فسَيَتَذَكَّر، وستنفعه الذكرى ولو بِحُدُودٍ دُنيا.

أمّا الأشقى الذي لا يَخْشَىٰ الجزاء الرّبّاني فَسَيَتَجَنَّبُ الذِّكْرَىٰ، ولا يلْتَفِتُ إلى المذكِّرين، بل يَبْتَعِدُ عنهم وعن مجالس تذكيرهم.

وتضمَّنَ بيانَ عاقبةِ الأشْقَى بإيجاز، وبيانَ عاقِبَةِ من تزكّىٰ وذكرَ اسم ربّه فصَلَّىٰ بإيجاز.

وهو الآيات من (٩ ـ ١٥).

**الدرس الرابع**: تضمَّن خطاباً مُوجّهاً من اللّه للناس مبيناً فيه علَّةَ نفوسهم في الإعراض عن دين اللّه، وعن المذكّراتِ به، وهي أنّهم يُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا العاجلة، على السعادة الخالدة.

وتضمَّن نُصْحَهُم بأنّ الآخرة خيرٌ لهم إسعاداً إذا عملوا للفلاح فيها، وأبقىٰ زماناً لأنّها حياة الخلود.

وتضمَّنَ أنَّ هذا الذي ينْصَحُهم به ليس جديداً على الناسِ في هذه الرِّسالة الخاتمة، بل هو موجودٌ في الرسالات السّابقات، في الصُّحُف المنزّلَةِ على إبراهيم، وفي الصُّحُف المنزَّلَةِ على موسى عليهما السلام.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩).

فالدروس الأربعة متعانقة مُتكاملَةٌ، تُكوِّنُ شَجَرَةَ موضوعٍ واحِدٍ، والعناصِرُ الّتي جاءت في هذه الدروس هي لقطاتٌ وكليّاتٌ منْ هذا الموضوع الكبير، الذي تَدُور عليه سُورٌ كثيرة في القرآن المجيد، بصُوَرٍ مختلفة وَتَصارِيفَ متنوّعة.

❀ ❀ ❀

## (٥)
## التدبّر التحليليّ للدرس الأول من السّورة

### الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللّه عزّ وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

**سَبِّحْ**: أَمْرٌ من اللهِ بالتَّسْبِيحِ، فما هُو التسبيح؟.

التسبيح في استعمال العرب يُطْلَقُ على كلّ ذِكْرٍ للّه، ويُطْلَقُ على الصَّلاة، يقول القائل منهم: قَضَيْتُ سُبْحَتِي من الذكر، وقضيتُ سُبْحَتِي من الصلاة.

**والتسبيح**: هو التنزيه والتقديس عن كلّ ما لا يليق باللّه من صفات النقص التي تتنافى مع كمالاته.

والتسبيح في دلالات النُّصوص الشرعيّة يُحْمَلُ على معنىٰ سَبْحِ اللِّسَانِ والنَّفْسِ والفِكْرِ والقَلْبِ بذكر الله، فيكون بحَمْدِهِ والثَّناء عليه، ويكون بتَنْزِيهِهِ عَنْ كُلّ وصْفٍ لا يليق بجلاله، وعن كلّ وصْفٍ من أوصافِ الْحُدُوث، ويكونَ بتعظيمه وتكبيره جلّ وعلا.

وفعل «سَبَّح يُسَبِّح» يَتَعَدَّى بنفسه فيقال: سبّح اللَّهَ، ويُسَبِّحُ اللّه، ويتَعَدَّى باللاّم الجارة، فيقال: سَبَّح لِلَّه، ويُسَبِّحُ لِلّه، وبهما جاء الاستعمال القرآني.

وأقوالُ أهل التأويل في عبارة: «سُبْحَانَ اللّه» تتفق على أنَّ معناها: أُنَزِّه اللّه عن كلّ ما لا يليق بذاته وبصفاته الجليلة تنزيهاً كتنزيه اللّه نفسه.

وقال النحاة: كلمة: «سبحان» في موضع المصدر وليس منه فِعْلٌ، والأصل فيه أُسَبِّح اللَّهَ تسبيحاً، أي: أُنَزِّه اللّه تنزيهاً. وقالوا: كلمة: «سبحان» اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه عن كلّ ما لا ينبغي أن يوصف اللَّهُ به، فهو ممنوع من الصرف للعلميَّة وزيادة الألف والنون فلا يُنَوَّن[١].

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾: جاء التكليفُ بتسبيح اسمِ الرّبِّ الأَعْلىٰ،

(١) انظر بقية موضوع التسبيح في ملحق السورة.

لأنّ حظّ العباد من معرفةِ اللّه يتعَلَّق بأسمائِه الدّالة على أوصافه، أمّا ذاتُهُ جَلَّ وعَلا فليس لهم حظٌّ من معرفة شيءٍ منها غَيْرَ أَنّ له ذاتاً موجودةً وموصوفةً بكلّ صفات الكمال ومُنَزَّهَةً عن كلِّ صِفاتِ النقصان.

واسْمُ الرّبّ يعُمُّ كُلَّ أسمائه الحسنىٰ[1]، مَا كان منها اسماً لعموم الذات، وهو لفظ «اللّه» وما كان منها اسْماً دَالاً على صفة من صفاته، مثل: «الرحمن ـ الرحيم ـ السميع ـ البصير ـ القدير ـ الحكيم ـ الحليم ـ الملك ـ القدوس ـ السلام ـ المؤمن ـ المهيمن ـ العزيز ـ الجبار» إلى سائر أسمائه الحسنىٰ الوصفيّة.

واختير هنا في خطاب الأمر بالتسبيح عبارة: «رَبِّكَ الأَعْلَىٰ» لأن علاقة المخلوقاتِ كلّها باللّه جلّ جلاله منحصرةٌ بِرُبُوبِيّتِهِ لهم، لأنّ كلمة: «رَبٌّ» هي في الأصل مصدر فعل «رَبَّ يَرُبُّ» و«الرَّبُّ، والتربيَةُ والتربيبُ» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِهَا وَمعناها واحد، وهُو الإنشاء المتدرج للشيء مع تعهُّدِهِ حالاً فحالاً، وطوراً فطوراً، حتَّىٰ إبلاغه درجة كماله، أو حَتَّىٰ انتهاء مدّة وجوده.

وأسْمَاءُ الله الحسنىٰ الَّتي تدخل تحت كونه «رَبّ العالمين» كثيرة جدّاً، منها: الخالق والرازق والمحيي المميت، والرحمن والرحيم والعفوّ الغفار الوهاب الحكيم البرّ التوّاب، المنتقم الجبار...».

وفي عبارة ﴿رَبِّكَ﴾ إشارةٌ إلى ما يقتضي تسبيحه، وهو حاجة العبد إلى ربِّهِ دَواماً في بدنه وبقائه، وخضوعه لسلطانِهِ التامّ في دنياه وآخرته، لأنّ ربوبيّة اللّه له محيطةٌ بكلّ ذَرَّةٍ من ذراته فما دُونها، ومصاحبةٌ لكلّ دَقيقَةٍ من دَقَائِقِ عُمْرِهِ فما دونها.

---

(١) استفيد العموم من إضافة النكرة إلى المعرفة.

ومن ملاحظة أسماء اللّه الحسنىٰ الداخلة تحت مفهوم كون اللَّهِ رَبَّ العالمين، نُدرِكُ أَنَّ اللّه عزّ وجل قد اختار أن تكون أعمال الخلْقِ التي يجريها في الكائنات جَارِيةً وفْق نظام التربية، لا وفق نظام الخلْقِ دُفْعَةً واحِدَةً، لِتظَلَّ الكائنات بحاجَةٍ إلَىٰ إمداد اللَّهِ لها بالبقاء خلْقاً بعد خَلْقٍ، كما يستمدُّ المصباح الكهربائي إضاءته من الطاقة الكهربائية، ففي اللّحظة الّتي ينقطع المدد الكهربائي ينْعَدِمَ النُّورُ والضَّوْءُ من المصباح الكهربائي.

وجاء وصف الرّبّ بصفةِ «الأَعْلى» للثناء على اللّه بأنّه هُوَ الأعْلىٰ من كُلِّ ذي عُلُوٍّ في الوجود، ولإبعاد توهُّمِ شمُولِ كَلِمة «رَبّ» لما تُطْلَقُ عليه في اللّسان العربي هذه الكلمة: «كالْمَلِكِ والأمير والسَّيِّدِ المطاع. ونحوها».

فالرَّبُّ الأَعْلَىٰ هو اللَّهُ وحده لا شريكَ له.

وتسبيح اسْم الرّبّ الأعلى يتضمَّنُ متابعَةَ حركَةِ الفكر والقلْب والنفسِ، بانسيابِ رفيق هيّنٍ ليّنٍ، في ذكْرِ صفات اللَّهِ وأَسْمَائه الحسنىٰ، ويتضمَّنُ متابعةَ إحضارِ تصوّراتِ أسماء اللّه الْحُسْنَىٰ في الفكر، ومتابعةَ الانشغال بالمشاعر القلبية والنفسيَّة التي تستدعيها تصوُّراتُ هذه الأسماء، وبهذا يكون التسبيح حضوراً مع اللَّهِ مِنْ خلال التفكُّرِ في صفاته، والتأمُّلِ في دلالات أسمائه الحسنى.

وبعد الأَمر بالتسبيح أرْشَد اللَّهُ عزّ وجلّ إلى الدليل الكونيّ الدالّ على ربُوبيَّةِ الرّبّ الأعلى، وتفرُّدِهِ بالربوبيّة، فأشار إلى عدّة قضايا من ظواهر الكون المشهود، فقال تعالى في السورة:

● ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

وقُرِئ: قَدَرَ. والمعنى فيهما واحد.

أربع قضايا أرشد إليها هذا النّصّ من آيات اللّه في كونه، فهِيَ من ظواهر الكون المشهود:

**القضية الأولى:** ظاهرة الخلق.

**القضية الثانية:** ظاهرة تسوية المخلوقات.

**القضية الثالثة:** ظاهرة تقدير المقادير، في كلّ صغيرٍ وكبير من هذا الكون الشاسع الواسع، من الذرّة إلى المجرّة، فإلى السماوات السَّبْعِ فَمَا فَوْقَها.

**القضية الرابعة:** قضية هداية المخلوقات في حركاتها ومسيراتها وأعمالها، إلى القيام بما يُحَقِّقُ الْغَايَةَ من خلقها.

● أما ظاهرة الْخَلْقِ التي دَلَّ عليها قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

**فالْخَلْقُ:** يأتِي في اللُّغَةِ للدلالَةِ على أَحَدِ معنيين، أو للدّلالة عليهما معاً:

**المعنى الأول:** التقديرُ الْعَمَلِي، وهو إعْطَاءُ أجزاء الشيء المؤلف من عناصر أو صُوَرٍ مختلفة مقاديرَها بإحكامٍ، ووفق هذا المعنىٰ قال اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِيسَىٰ عليه السلام، كما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿. . .وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى. . . ﴿١١٠﴾﴾.

**وإذْ تَخْلُقُ:** أي: وإذْ تُقدِّرُ وَتُصَوِّرُ.

**المعنى الثاني:** ابتداعُ الشَّيْءِ بإيجاده على غير مثال سبَقَ، والْخَلْقُ على وَفْقِ هذا المعنىٰ هو من خصائص الرَّبِّ الخالِقِ جلّ جلاله.

وقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ يَدُلُّ على المعْنَيَيْنِ معاً، لِأَنَّ أعْمَال الخلْقِ الرَّبَّانية فيها التقدير المحكم، وفيها الإبْدَاعُ على غَيْرِ مِثَالٍ سبَقَ.

● وأمّا ظاهرة تسوية المخلوقات في كلّ ما خلق اللّه من شيء، والتي دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي: فجعل ما خلق يبلغ بإنشائِهِ المتدرج الغاية المقضيّةَ له في خطّة التكوين، فصار تامًا بالغاً غايته.

**سَوَّىٰ الشّيءَ**: أي: جَعَلَهُ مُسْتوياً، وسَوِيًا، والمستوي والسَّوِيُّ هو التَّامّ الّذي بلَغَ الغاية المقضيَّةَ لَهُ فِي خطّة تكوينه.

وجاء العطف بالْفَاء في ﴿فَسَوَّىٰ﴾ الدّالة على الترتيب لمطابقةِ واقعِ سُنَّة اللَّهِ في خَلْقِهِ وهي سُنَّةُ الإِنْشَاءِ المتدرّج إلى كمالِ الشَّيْءِ وَغايَتِهِ الْمُعَدَّةِ فِي خِطَّةِ إِيجاده.

ولَمَّا كَانَتْ عَمَلِيّاتُ الخلْقِ تَسِيرُ وفْقَ نِظام التربية، وهي الإنْشَاءُ المتدرّجُ حتَّىٰ بلوغ الْمَخْلُوقِ غايَةَ كماله، وبها يكونُ مُسْتوياً، فإنّ تَسْوِيَةَ الْمَخْلُوقِ تأتي مُتَأَخِّرَةً ومُتَرَتِّبَةً على أَعْمَالِ الْخَلْقِ المتابِعَةِ المحكَمَةِ في كلِّ أَجْزَائِهَا وَعَنَاصِرِها.

فقول الله عزّ وجلّ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ في غايةِ الإيجاز، مع المطابقة لحركة الصُّنع الرَّبَّانِيِّ المتْقَن المحكَم العجيب.

● وأمّا ظاهرة تقدير المقادير، في كلّ صغير وكبير من هذا الكون كلّه، والّتِي دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾.

يقال لُغَةً: قَدَّرَ الأَمْرَ وَقَدرَهُ، إذا حدّد مقاديره ودبّره قبل إيجاده.

**فالتقدير**: هو تَحْدِيدُ المقادير، ويكونُ التقدير في كلّ شيءٍ لَهُ أجزاءٌ صغرىٰ يتكوّن من اجتماعِ مقادِيرَ مختلفةٍ منها كائناتٌ مختلفات.

فالذّرّاتُ تختلف باختلاف مقادير أجزائها، إذْ تتكَوَّنُ الذّرَّةُ الّتي لا تُرَىٰ بالعين من نواة تتجمع فيها أعْدادٌ ممّا يُسَمَّىٰ «نيوترونات» وأعداد مما يُسَمَّىٰ: «بروتونات» وهي تختلف باختلاف العنصر الكيميائي، كالأكسجين،

والهيدروجين، والفحم، والكبريت، وتدور حول نواة الذرّة ألكترونات بعدَدِ مَا في نواتها من بُروتونات، والبروتونات تحمل شِحْناتٍ كهربائية موجبة، أما الألكترونات فتَحْمل شِحْنَاتٍ كهربائيَّة سَالِبَةٍ مماثلة في مقاديرها للشحنات الكهربائية الموجبة في البروتونات، وبذلك تتعادل الذّرّةُ كهربائيًا، ويتَحَقَّقُ بذلك تسْويتها. أمَّا النيوترونات في النواة فلا تحمل أَيّ شحنَةٍ كهربائية موجبة أو سَالبة، فهي متعادلَةٌ بذاتِها.

وتجري بحوث العلماء في عناصر الكون مِنْ هذا المنطلَقِ القائِم على اختلاف المقاديرِ، في حكمة الخالق العليم الحكيم القدير، الذي خَلَقَ فَسَوَّىٰ، والذي قَدَّر.

ومن تحديد المقابر تَحْدِيدُ مقادِيرِ الأزمنة وأعمار الكائنات، بدءاً وامتداداً وانتهاءً، وتحديدُ الأمكنة من الفراغ الذي لا تُدْرَكُ له نهاية، وتَحْدِيدُ القوىٰ والطَّاقاتِ، إلى كلّ شيء تُدْرِكُ العقول أَنَّهُ قابل للتجزئة إلى أجزاء صُغْرىٰ، كلُّ جزءٍ منها يُمَثِّلُ أصْغَر وَحَدَاته.

فكُلُّ شيءٍ في المخلوقات هو ذُو أجزاء، واللَّهُ هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ مَقَادِيرَ هذه الأجزاء، ومقادِيرَ أفعالِها وآثارها والغاية منها.

● وأمَّا ظاهرة هداية المخلوقات في حركاتها ومسيراتها وأعمالها إلى القيام بما يحقق الغاية منها، فعُلَماء الكَوْنِيات يصفون مِنْ هذه الهداية ما فيه العجب الْعُجَاب، المحيِّر لذوي الألباب.

وكلُّ الناس يلاحظون هداية كلّ مخلوقٍ حيٍّ في أطوارِ نَشْأَتِهِ إلى ما يُفِيدُه في نمائه، حتّىٰ يصير كائناً سويًا بالغاً الغايةَ المقضيّة لنوعه أو جنسه في خطّة التكوين الحكيمة.

يُحَدِّثنا العلماء الكونيون المختصونَ بالجراثيم المسببة للأمراض في الأجساد الحيَّة، ووسائل مكافحة الأجساد لها بالمضادّاتِ الجرثوميّة،

وتصنيع الْغُدَد اللّمفاويّة في الأجساد لها، بعد التعرف عليها، وإجراء الاختبارات المختلفة للتوصّل إلى المضادّ الناجح للقضاء على الجرثوم الدخيل، فإذَا توصَّلَتْ إليه نَشِطَتْ في تصنيع هذا المضادّ حتى تقضي فعلاً على الجرْثوم الدّخيل.

ويبقى في ذَاكرتها هذا الجرثوم الذي قَضَت عليه أوّلاً بعد امتحانات وتجربات، حتَّىٰ إِذَا عاود الدخول إلى الجسم مرّة أُخْرى أَسْرَعت إِلَىٰ تصْنيع المضادّ نَفْسه الذي سبَقَ أن كان ذا فائدة فيما سلف.

فَمَنْ هَدَىٰ خلايا وغُدَداً خاصَّةً في الأَجْسَامِ لمكافحة أعدائها من الجراثيم الداخلة إليها؟

إِنَّهُ سُبْحَانَهُ الرّبُّ الّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ والذي قَدَّرَ فَهَدَىٰ.

إنّ ظاهرات الخلق والتسوية والتقدير والهداية لها في الكَوْنِ أمثلَةٌ بعَدَدِ مَا فِي الكون مِنْ مخلوقاتٍ كبرى وصُغْرى، وبعَدَدِ أجزائها وعناصرها، وهي أدِلَّةٌ تُحاصِرُ الإنسان أيْنَ كان من هذا الكون، فتدُلُّهُ على أَنَّ له ربًّا خالقاً مُسَوِّيًا مُقدِّراً هَادِياً.

وكلُّ البحوث الوصفيّة الّتي توصَّلَ إليها علماء الدراسات الكونيّة تتضمَّنُ أمثلة لا حصر لها، وهي شواهد على كمال ربوبيّة اللّه، ووحدانيته، وهيمنته، وإتقان صنعه، وحكمته وشمول علمه، وعظيم قدرته.

والاستدلال بهذه الظاهرات الكونية هو الاستدلال الذي استدل به موسى عليه السلام في مناظرته لفرعون، كما جاء في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

قول اللّه عزّ وجل:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

**الْمَرْعَىٰ**: مَا تَرْعَاهُ الماشيَةُ مِنْ نَبَاتِ الأَرْض.

وفي التَّنبيه على إخراج المرعىٰ نباتاً من الأرض تقديمُ مَثَلٍ من الأمثلة الكونية على كون اللّهِ عزّ وجلّ خَلَقَ فَسَوَّىٰ وقَدَّر فَهَدَىٰ.

فظاهِرَةُ إخراج النبات من الأرض تدلُّ على جملة من صفاتِ اللّهِ الداخلة تحت كونِه رَبّ العالمين، ومنها كونه خالقاً فَمُسَوِّيًا، وَمُقَدِّراً فهادِيًا.

إنَّه أَخْرَج نباتاتِ الأرضِ، وفيها ما يَصْلُح مَرْعَىٰ لآكِلاَتِ النبات من الحيوانات، وَهَدَىٰ هٰذِهِ الآكلاتِ لأكْلِ مَا يَنْفَعُهَا ويُغَذِّيها أو يُدَاويها، واجتناب ما يضرُّها أو يؤذِيها من النباتات السّامّة.

وفي هذا التنبيه امتنانٌ على الناس إذْ هيّأ الله لَهُمْ أنعاماً وَدَوَابَّ، وسَخَّرَهَا لِمنافِعِهم المختلفة.

**غُثَاءً**: الغثاء البالي من ورق الشجر. قال الزجاج: فجعله غُثَاءً: أي: جفَّفَهُ حتَّىٰ صَيَّرَهُ هشيماً جافاً كالْغُثَاءِ الذي تراه فوقَ السَّيْل.

**أَحْوَىٰ**: أي: خالَطَ لونَهُ سوادٌ بسبب جفافه وتحوُّلِه بَعْدَ خُضْرته ونُضْرَتِهِ إلى الغثائِيَّة، **والأحوى**: الأسْوَد.

وفي هذا تنبيهٌ على نظام اللّهِ في الْخَلْقِ، سَوَاءٌ أكان في الأحياء أم في النباتات، أم في غيرهما، إنَّه نِظَامُ صُعُودٍ مُتَدَرِّجٍ إلَىٰ مستوى كمال المخلوق، ثُمَّ هُبوطٍ وانحِطَاطٍ إلَىٰ أرْذَلِ الْعُمُرِ في الأحْيَاءِ، وإلىٰ شبيه ذلك في النباتاتِ حتىٰ دَرَكَةِ الغثاء، وإلى شبيه ذَلِكَ في غيرهما من الأشياء.

إنّ حركة النبات منذ أوّل نشأته، حتَّىٰ يخرج إلى سطح الأرض مرعَى، وحتَّىٰ يسْتَوي على سُوقه، وحتَّىٰ يَيْبَسَ ويكُونَ حُطاماً، وحتَّىٰ يَسْوَدَّ

وَيكون غُثاءً مُسْتَهلَكاً، بمثابة سِفْرٍ عظيم مشحونٍ بعِلْم عظيم، إلاَّ أنَّه مشهود، يدرسه عُلَماءُ النبات مئاتِ السِّنين، وكُلَّما تَعَمَّقُوا في الدّراسة اكتَشَفُوا من الإتقان البديع العجيب، بدءاً من الجينات الوراثيّة. حتَّىٰ انْشِقَاق البزور، وحتى انشقاق الأرض عن النبات بالقوة العجيبة، وحتَّىٰ التنامي صعوداً إلى درجة كماله، ولِقاحِهِ وَإنتاجه، وإلى مختلف تركيبات العناصر في مختلفات النباتات، وإلى توزيع الخصائصِ في الأصناف، ثم إلى الاستهلاك الأخير، ما يُحَيِّر أَلْبابهم دهشة، ويجعلهم إذا أنْصَفوا يقولون: آمنا باللّه رَبِّ كلّ شيءٍ، وخالِقِ كلِّ شيءٍ، وَهو الحكيم الخبير القدير.

## (٦)
## التدبر التحليلي للدرس الثاني من السورة

### الآيات من (٦ ـ ٨)

قال اللّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾.

### ارتباط هذا الدرس بالدرس الأوّل:

تضمّن الدرس الأوّل من السورة توجيه الرسول محمد ﷺ أن يشرح للنّاس القضايا الّتي اشتمل عليها، والمتعلّقة باللّه جلّ جلاله، وتنزيهه عمّا لا يليقُ به، وبيان أدلّة رُبوبيته في كونه.

وقد سبق أنْ عَلِمَ صلواتُ اللّه عليه فيما أنزل اللّه عليه من القرآن أنَّ هٰذِهِ القضايا المتعلّقة باللّهِ إنّما هي فقراتٌ أولى مِنْ أُسُسِ العقيدة في الإسلام، وَلا بُدَّ أنْ تَتْبَعها بياناتٌ أخرىٰ تتعلّقُ بسائر فقراتِ أَرْكان الإيمان، وبيانات تتعَلّقُ بأنواع السُّلُوك الدّينيّ في الحياة، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَلَقَّىٰ هٰذِهِ

البيانَاتِ بتتابُعٍ، وهو في حالَةِ استعدادٍ نَفسِيٍّ كَامِلٍ لِتَلَقِّيهَا وَحِفْظِها، وحَمْلِ مَسْؤُوليّة تبلِيغِها وَالتَّذكِيرِ بها، وتأدية سائر وظائف رسالته كاملةً تامَّةً على أحْسَنِ وجْهٍ، وحتَّىٰ يَلْقَىٰ رَبَّهُ مطمئنًّا مؤمناً بأنَّه لم يُقصِّرْ في شيءٍ من وظائف رسالته.

وَإذْ يَعْلَمُ الرّسُول ﷺ من نفسه أنَّه بشَرٌ؛ وأنّه مُعَرَّضٌ لأنْ يَنسىٰ بَعْضَ مَا يُنَزِّلُ اللّٰهُ عليه من القرآن، فلا بُدَّ أَنْ يتخوَّفَ من هٰذا الأمْرِ العظيم، وهو يحمل رسالة رَبِّهِ الجليلة، وأنْ يحْمِلَ هَمَّ حفظ كُلّ كَلِمَةٍ وَكُلّ حَرْفٍ وَكُلّ آيَةٍ وَكُلّ سُورَةٍ تتَنَزَّلُ عليه مُسْتَقْبلاً، وهو أمّيٌّ لم يَأْمُرْهُ اللّٰهُ بأن يتعلَّمَ القراءَةَ والكتابة، وهو ما زال في أوائل ما أنزل اللّٰهُ عليه من قرآن، فسورَة (الأعلى) هي السورة الثامنة بحَسَبِ ترتيب النزول، ولا بُدَّ أن يحْمِلَ هَمَّ القيام بوظائف رسالته في قومه.

لهذا كان من الحكمة أن يطمئن اللّه عزّ وجلّ رسولَهُ بشأن الأمْرَين المُهمَّيْن لنَفْسِهِ وقلبه:

**الأمْرُ الأول**: تخوُّفُهُ من أن ينْسَىٰ بعض ما يُنَزِّل اللّٰهُ عليه من كتابه المجيد.

**الأمر الثاني**: تخوُّفُهُ من أن لا يستطيع تأدية وظائف رسالته التي أرسله اللّه بها على أَتَمّ وجْهٍ وأكمله.

فأبان اللّه له أنّه سيُمِدّهُ بعطاء من لَدُنه يجعله لا يَنسَىٰ ما يُنَزِّلُ عليه من قرآن، إلاَّ ما شاء اللّه أَنْ يُنسيَه إيّاه. وسَيُمدّهُ بمعُونَتِه حتَّىٰ يُؤدِّي وَظائف رسالته التي حمَّله إياها بيُسْرٍ، إذْ يُيَسِّرُهُ اللّٰهُ لحملها بما يُعْطِيه من قُوىً فكريَّةٍ ونفسيَّة وقَلْبيَّةٍ وَجسَدِيَّة، وهذا ما اشتمل عليه الدرس الثاني من دروس السورة.

- فقال اللّٰهُ له بِشَأنِ الأمر الأول:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾.

أي: سيقرأ جبريل علَيْكَ القرآن بأمْرنا، فأنتَ تَتْلُوه فلا تَنسَىٰ بما نَمْنحُكَ، إذْ هُوَ يُلَقِّنُكَ إيّاهُ شَفَهِيّاً، بقراءة تعليميّة، حرفاً فحَرْفاً وَكَلِمَةً فَكَلِمَةً، فَنَجْعَلُكَ بَعْدَ حِفْظِكَ لَهُ لاَ تَنسَىٰ، إذْ نُثَبِّتُهُ في ذَاكِرَتِكَ بعَطَاءٍ خاصٍّ منّا لَكَ، ولمّا كان التثبيت في الذاكرة أمراً يأتي بعد الإقراء جاء العطف في الآية بالفاء، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي: فأنتَ بعد ذلك لا تَنسَىٰ بحفظٍ مِنّا لك ومعونة.

وخاطب اللّه رسُولَهُ هنا بضَمير المتكلّم العظيم فقال له: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ لإشعاره بأنّ تَثْبِيتَ اللّهِ القرآنَ في ذَاكِرَة الرَّسُولِ أمْرٌ هَيِّنٌ عَلَيْهِ، فلا يَحْمِلْ همَّ تَخَوُّفه من نسيان مَا سَيُنَزِّلُ اللّهُ عليه من قرآن مهما كَثُرَ وَتَتَابَعَ.

واسْتثنىٰ اللّه عزّ وَجَلّ مَا شَاءَ هو أَنْ يُنْسِيَهُ رَسُولَهُ، لحكمة يشاءُ تحقيقها، كآيَةٍ أرادَ نَسْخَها، وآيَةٍ أراد أَنْ يُنْسيَهُ إيّاها، ليأتي بخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِها، وعندئذٍ يكون الأمْرُ تابعاً لإرادَةِ اللّهِ جلَّ جلالُه، ولا يكُونُ الرَّسُولُ فيه مُقَصّراً وَلاَ مُتَهاوناً في الحفظ والاسْتِذْكَار. ومشيئَةُ اللّهِ عزّ وجلّ في كلّ أَمْرٍ لاَ تُفَارِقُ حِكْمتَه، ومشيئته في كلّ أَمْرٍ لاَ تكونُ إلاّ حكيمة.

وقد أبان اللّه عزّ وجلَّ بتفصيلِ هذه الحقيقة بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦﴾.

فذكَرَ في هذه الآيَةِ جانباً من حكمته تَعالَىٰ في هذا الأمر، وهو أَنَّهُ يُنسِي لِيَأْتِي بالأَحْسَنِ أو المساوي، وليَدُلَّ بالمساوي على أنَّ له الاختيار الحرَّ في مشيئته، لا مجبر له، وليُدلَّ بِالأَحْسَن على أَنَّهُ يراعِي مصالح عباده

وفق تغيُّرَاتِ أحوالهم، واستعداداتهم، وليدُلَّ بهما جميعاً على أنه يختبر إيمان عباده بما يُنَزِّلُ عليهم، ويختبر طاعَتَهُمْ لأوامره ونواهيه مهما بدّلَ فيها وغيَّر، وليعلَّمَ أُولي الأَمْرِ منهم أَنْ يَنْسَخُوا قراراتهم وأوامرهم ونواهيهم إذا رأَوْا أَنّ المصلحة تقتضي نَسْخَها، فالرَّبُّ جلَّ جلالُهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ في كتابه المنزّل.

وكلُّ هذا الموضوع يتعلَّقُ بالنسيان الكلّيّ، أمّا النسيانُ العارض المؤقت الذي يتبعه استذكار، فقد يقعُ من الرّسول ﷺ في بعض الأحوال النادرة بمقتضىٰ بَشَرِيَّتِه.

قولُهُ تعالَىٰ: ﴿. . . إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

**الْجَهْرُ**: العلانية، وهو مصدر «جَهَرَ» يقال لغة: جَهَرَ بالكلام إذا أعلنه، والمراد بالْجَهْرِ، المجْهُورُ به، أي: الْمُعْلَنُ، بدليلِ مقابلته بما يَخْفَىٰ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: وما يَخفَىٰ علَىٰ المخلوقات، أَمَّا اللَّهُ عزَّ وجلَّ فلا شيْءَ يخفَىٰ عليه، إنّه سبحانه وتعالى يعلمه علماً تامّاً ظاهِرَهُ وباطنه.

ونلاحظ أنّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ إشارةَ إلى أَنَّ الذّاكرة في الدماغ جهاز خفِيٌّ لا يعلَمُ الناسُ حقيقته، فَتَثْبِيتُ المحفوظاتِ فيها، ومَسْحُهَا منها، من الأمور الخفيَّةِ عَلَىٰ الناس، ويُقَابِلُ هذا المخفيَّ المجهورُ به من القول، ولكنَّ اللَّه عزَّ وجَلَّ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ، فهو سبحانه بعِلْمِه لاَ يَخْفَىٰ عليه شيء، وهُوَ بقُدْرَتِهِ على كُلِّ شيءٍ يُثَبِّتُ مَا يَشاءُ في ذَاكِرَةِ الرَّسُولِ ﷺ مهما كان كثيراً وَصَعْباً، ويَمْسَحُ منها مَا يشاء مَسْحَهُ مهما كان قليلاً وسَهْلاً.

ولتثبيتِ المحْفُوظاتِ النّصيَّةِ في الذاكرة يُمِدُّ اللَّهُ رسوله بقوَّةٍ خاصَّةٍ يجعله بها قادِراً على أَنْ يَحْفَظَ فلا يَنْسَىٰ.

وَقد جاء هذا المدَدُ الرّبّاني لتطمين قلب الرسول، ولصيانةِ القرآن وحفظه في ذاكرة الرّسُولِ المبلّغ للناس ما يُنَزِّلُ اللّهُ عليه لهدايتهم.

ثمّ أنزل اللّه عزّ وجل ما بيّن به أنّه تكفّل بحفظ القرآن للناس بعد الرسول ﷺ، فقال اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

فَتَمَّ بالعناية الرّبّانية حفظ القرآن من التغيير والتبديل والزيادة والنقص، إذْ تكفَّلَ اللّهُ عزّ وجلّ بهذا الحفظ من كلّ أطرافه، وفي كلّ مراحله.

- وقال اللّه لرسوله بشأن الأمر الثاني الذي أَهَمّه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾.

أي: ونهيِّئك ونَصْنَعُكَ ونُمِدُّكَ بالقوة والْعَوْنِ وكلّ ما تحتاجُ إليه في حَمْل وظائف رسالتك، التي تُبَلِّغ بها الملّةَ والشّرِيعة الْيُسْرَىٰ، دُون أن تُقَصِّر بشيءٍ منها، ودون أن تعجز عن شيءٍ منها.

والعربُ تستعمل فعل «يَسّر» بِمَعْنَىٰ صَنَعَ وهيّأ.

فطمأنَ اللّهُ رَسُوله بهذا حتّىٰ يُبْعِدَ عن نفسه التخوُّف من أن لا يستطيع تأدِيَةَ وظائِفِ رسالته الّتي أرسله بها على أتَمّ وجْهٍ وأكمله.

وقال اللّه لرسوله في هذه الآية: (نُيَسِّرُكَ) ولم يَقُلْ لَهُ: نُيَسِّرُ لكَ، للدلالة على أمْرٍ دقيقٍ يَنِدُّ عن الأذهان، وهو أنّ التَّيْسِيرَ إمّا أَنْ يكُونَ لحامل التكليف، وإمّا أن يكون في التكليف نفسه.

أمّا تيسيرُ التكليف هنا وهو وجوب حمل الرسالة على أحسن وجْهٍ في مُجْتَمع مشحونٍ بالعقبات والمؤذيات والمضادّات، وفيه المخالفون الأعداء، والمقاومون الأشداء، فحِكْمَةُ ابتلاء الناس في ظروف الحياة الدنيا تأبَاهُ، ولا بُدَّ أن يُواجه الرسولُ صُعُوباتٍ كثيراتٍ وهو يؤدّي وظائف رِسالته.

فبقي تيسير الرسول المكلّف بإعداد نفسه وفكره وقلبه وجَسَدِهِ لتحمُّل أعباء رسالته بيُسْرٍ وصَبْرٍ وقُوَّةِ عزيمة.

مثال هذا: إذا كان الحِمْلُ يَزِنُ قِنطَارَيْن وكانت استطاعة المركبة الحاملة أَنْ تَحْمِلَ نِصْفَ قنطارٍ بِيُسْرٍ، فأَمَامَنَا للتيسير وسيلتان:

**الوسيلة الأولى**: أن نُيَسِّرَ في الحِمْلِ فنجعله نصْف قنطار.

**الوسيلة الثانية**: أن نُمِدَّ المركبةَ بطاقةٍ أعلَىٰ وقُدْرَاتٍ إضافِية تجعل حَمْلَ القنطارَيْنِ يسيراً سَهلاً عليها، ولكن التيسير بهذه الوسيلة قد حصل في المركبة لا في الحِمْلِ.

وهكذا كُلُّ صعوبات الأعمال إذَا كان الإِمداد للقيام بها مُوَجَّهاً لذات العامل، فإنّه يكون هو الميسَّرَ لها، والقادِرَ على القيام بها بسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ، وإذا كان التيسِيرُ في الصعوبات نَفْسِها فإِنَّهُ يكُونُ بتخفيفها، وحذْفِ ما يشُقُّ على العامل منها.

وأمّا كَلِمَةُ (اليُسْرَىٰ) فقد جاءَتْ في الآية وَصْفاً لموصوف محذوف، معلومٍ من سِبَاقِ الكلام وسِيَاقِه، وتقديره: الملَّة اليُسْرَىٰ، أو الشريعة اليسرىٰ.

**اليُسْرَىٰ**: في وصف المؤنث مثْلُ الأيْسَر في وصف المذكر كلاهما يدلُّ على التفضيل، أي: ذات اليُسْرِ الأكثر من كلِّ ملّةٍ رَبَّانيّة سابقة.

فهذه الملّة التي جعلها اللّه خاتمة الديانات المنزلَةِ تشتَمِلُ على الأحكام اليُسْرَىٰ على الناس، التي لا حرج فيها، ولا تكاليف عسيرة فيها إعناتٌ وإصْرٌ كما حَصَل لأمم سابقة، وفي وصف هذه الملّة باليُسْرَىٰ مع بدايات تنزيل القرآن بشارة للناس بأنّ رسالة هذا الرسول الخاتم للأنبياء والمرسلين، رِسَالَةٌ تتضَمَّنُ أحكاماً وتكاليف يُسْرَىٰ.

ثم جاء تأكيد وشرح وتفصيل يُسْرِ الشريعة الإسلامية فيما نزل من قرآنٍ في العهدين المكيّ والمدني[١].

❋ ❋ ❋

## (٧)
## التدبر التحليلي للدرس الثالث من السورة

### الآيات من (٩ ـ ١٥)

قال اللّه عزّ وجل خطاباً لرسوله:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾.

بعد أنْ طَمْأنَ اللّهُ عزّ وجلّ رسولَهُ بشأنِ الأمْرَيْنِ اللّذيْنِ أَهَمَّاهُ، إذْ تَخوَّف من النسيان، وتخوَّفَ من الْعَجْزِ عن تأديته رسالَتِه على أحْسَنِ وجْهٍ وأكْمَلِه، وجَّهَ اللّهُ له الأمر بأن يقوم بتبليغ رسالته وبيانها للناس، وشرحها لهم، وإقامة الأدلة والبراهين التي تقنعُهُمْ بصحَّتها، ومعالجتهم بالترغيب والترهيب وبمُخْتَلِفِ وسائل التربيَّةِ المؤثِّرة، فَمَنْ تبلَّغَ كُلَّ ذلِكَ منهم ولم يَسْتَجِبْ فالمناسِبُ في متابَعَةِ معالَجَتِهِ التذكيرُ مرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ بما سَبَقَ أَنْ أُعْلِمَ به، ما لم يَبْلُغ المدعُوُّ إلى حالةٍ ميؤوسٍ منها، ويُعْرَفُ هٰذَا بأماراتٍ وأدلَّةٍ كَثِيرةٍ تَظْهَرُ في سلوكه ومُخْتَلِفِ تصرُّفاته.

---

(١) انظر الفصل التاسع «خصائص الشريعة الإسلامية» من كتاب: «ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة» للمؤلف.

أمّا ما دام نَفعُ التَّأثير مَرْجُوّاً ولَوْ بِنِسْبَةٍ ضئيلَةٍ فإنَّ المطلوبَ متابَعَةُ تَذْكِيرِه.

وَجَاء في النّصّ الاقتصار على أمْرِ اللَّه رسُولَهُ بالتذكِير، وهو إحضار المعلوم السابقِ في الذاكرة بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ مع أَنَّ مَرْحَلَةَ التذكير مرحلَةٌ متأخِّرة، لأنّ التذكير لا بدَّ أن يكُونَ مسبوقاً بالتبليغ والبيان والشرح واتخاذ مختَلِف وسائل الإقناع والتربية بالترغيب والترهيب وغيرهما. فذكر التذكير يدُلُّ باللُّزوم الذهني على ما لا بُدَّ أن يكون قبْلَه. كمن أَدْخَل ضيفاً إلى داره ليسكنها عدّة أيّام، وقال له: كُلْ واشْرَبْ ونم واقض كلّ حوائجِك، لكنّه لا يستطيع أن يأْكُلَ ما يُريد حتَّىٰ يُعِدَّ طعامه بأن يطبخَهُ من الأرْزاق الموجودة فيه، ففيه أرزاقٌ كثيرة تحتاج إلى طبخ وإعدادٍ حتَّىٰ تكون صالحة للطعام، وَلا يستطيع أن يشرب حتَّىٰ يستخرجَ الماء من البئر بالدلاء، وكذلك سائر حاجاته.

فالأمر بالتذكير أمْرٌ بما ينبغي أن يكون قبله من تبليغ وبيان وشرح، وإقناع بمُخْتَلِف الوسائل الإقناعية، ومعالجةٍ بمختلِف وسائل التربية.

**التذكير**: إعادةُ ما سَبَقَ الإعلامُ به، لإخراجه من مراكز المعرفة الكامنة إلى ساحَةِ الذّاكرةِ الحاضرة، رجاءَ أن يكون هذا الحضور في ذاكِرَةِ المدعُوّ دافعاً له حتى يسْتجيبَ للدَّعْوَةِ.

**الذِّكْرَى**: اسْمٌ للتَّذْكير، ويأتي بمعنىٰ التَّذَكُّرِ.

وفي قَوْل اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ بَيَانٌ لقاعدة من قواعد الدَّعْوَةِ إلى اللّهِ، أيْ: إنَّ على الداعي إلى اللّهِ أن يُتَابعَ التذكير بما كانَ بلَّغَهُ وبيَّنَه وشرحه واتَّخذ وسائل الإقناع به، لدى من لم يستجيبوا لدعوته كلَّما رأىٰ إمكان النَّفْع بالذكرى، ولو بالاحتمال الضعيف الوارد على سبيل التقدير المشكوك بجَدْوَى الذكْرَىٰ معه.

يقولُ البلاغيون: إنَّ استعمال كلمة «إنْ» الشرطيّة يُفِيدُ أنَّ ما دَخَلَتْ عليه مشكوكٌ في وُقوعه، بخلاف كلمة «إذا» الشرطيّة فإنَّها تُسْتَعْمَلُ حينما يكون فعل الشرط متيقَّن الوقوع، أو مظنوناً وقوعُهُ ظنًّا راجحاً.

فعلى هذا نستطيع أن نفهم أنّ الأمر بالتذكير يتوجَّه ولو كان احتمال نفع الذّكرى احتمالاً ضعيفاً.

وعلى طريقة الاستدلال بالمفهوم المخالف أرى أنَّ الداعيَ إلى اللَّهِ إذا تيقَّنَ بعْدَ مُحَاوَلاتٍ مُتَعَدِّداتٍ أنّ التذكير لإنسانٍ بعينه، أو لمجموعة مُحَدَّدَةٍ، قَدْ غَدَا نوعاً من إضاعَةِ الوقت فيما لا نفع فيه، فمن الخير له أَنْ يتحوّل إلى جهة أخرى يرجو فيها نَفْعَ تَذْكِيره، أو دَعْوَته، وفي شأن هؤلاء الميؤوسِ من استجابتهم إبّانَ التنزيل وفي أمثالهم قال اللَّهُ عزَّ وَجلَّ في سُورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

إذْ إنَّ إصرارهم على الرفض والجُحُود قد كانَا بعْدَ أن استيقنت قُلُوبُهُمْ بالحقيقة، فهم يجحدُونها بدافعٍ من الكبر، أو الرَّغْبَةِ بالفجور واتباعِ الهوىٰ، كما قال اللّه عزّ وجلّ بشأن فرعون وقومه في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وهَٰذَا المنهجُ في التذكير هو المنهج الذي اتَّبعَهُ الآمِرُونَ بالمعروف الناهون عن المنكر من بني إسرائيل إذْ وَجَّهُوا تَذْكِيرَهُمْ لأهل القريَة الّتي كانت حاضرة البحر، إذْ يَعْدُونَ في السبت، لَقَدْ وعَظُوهم وَذَكَّرُوهُمْ

ونَصَحُوهم بأن لا يخالِفُوا أمْرَ اللَّه، فلامَهُمْ جماعَةٌ من أهل الاستقامة في أنفسهم، وقالوا لهم: هؤلاء الْعَادُونَ في السبت متمادون في معاصيهم، فاللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهم عَذَاباً شديداً، فلا تُتْعِبُوا أنْفُسَكُمْ في وعظهم وأمْرِهم بالمعروف ونَهْيِهِمْ عن المنكر.

فكان الجواب الحكيم من الواعظين ذا شقّين:

**الشقّ الأول**: نَحْنُ نُقَدّمُ عُذْرَنا إلى اللّه بأنّنا لم نُقَصِّرْ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

**الشقّ الثاني**: إنَّ احتمال وجود من يتّقي اللّه منهم بالتذكير والموعظة احتمالٌ قائم لم ينقطعْ، حتَّىٰ نَنْفُضَ أَيْدِينا مِنهم، وإنْ كانَ احتمالاً ضعيفاً، فالواجب أن نُتَابع تذكيرهم وموعظتهم.

وفي بيان قصتهم قال اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

فعلَىٰ حامل الرسالة أن يوفّر جهوده العظمىٰ من جهود أدائه وظائف رسالته، فلا يُنْفِقَها تبذيراً فِي الّذين دلّت التجرباتُ المتكرّرات على أنّ قابليّاتِهِمْ للاستجابةِ غَيْرُ مطموع فيها، لبلوغهم إلى حالةٍ ميؤوسٍ منها، وعليه أَنْ يُوجِّه جُهُودَهُ إلى آخرين مطموعٍ في استجاباتهم[١].

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) انظر لاستكمال هذا الموضوع شرح القاعدة (١٩) من «قواعد كلية بوصايا لحامل الرسالة» في الجزء الأول من كتاب: «فقه الدعوة وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للمؤلف. من ص٣٢٨ ـ ٣٤١.

أبان اللّه عزّ وجَلّ في هٰذِهِ الآيَةِ من يُرجَىٰ منْهُمُ التَّذَكُّرُ النَّافِعُ من الناس، الذين إذا تَذَكَّرُوا دَفَعَهُمْ تذكُّرُهم للاستجابة لدعوة الحقّ.

إنّهم الذين لديهم استعدادٌ لأنْ يَخْشَوُا اللّه إذا حَصَلَ عِنْدَهُمُ العِلْمُ به وبصفاته، ولهذا الاستعداد أماراتٌ في الناس، تُلاحَظُ من تصرّفاتهم، ومن تأثير بعض المرهبات الغيبيّة في نفوسهم، وهي لا تخفىٰ على الدّاعي الألمعيّ.

وجاءت الآية بصيغة: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ بإدخال السين الدالة على المستقبل لتَدُلَّ على أنَّ الذين لديهم استعداد لأن يخْشَوا ربّهم، ويخافوا من إنذاراته بالعذاب المعجل أو المؤجل، يحتاجون متابعةً تربويَّةً بالتذكير، وعلاجاً يسْتَمرُّ إعطاؤه مدّةً من الزمن حتَّىٰ يَتَحَقَّقَ نَفْعُ التذكير. فنفْعُ التذكير لا يتمُّ بين عشيَّة وضحاها، على الرُّغم من وجود الاستعداد لدَيْهِمْ. على أن الناس يتفاوتون في هذا، والنسبة المستعدّة لأن تخشَىٰ وتنتفع بالتذكير من الناسِ نسبةٌ كبيرة، وليست بالنّسبَةِ القليلة، مع تفاوت نسبة الانتفاع لديهم، وأدناهم من ينتفع بالاستجابة إلى الإيمان، ولو كانت استقامته ضعيفةً وقليلة، لأنَّ هواه أقوى من إرادته.

أمّا الّذين لا يوجد لديهم الاستعداد للخشية من اللّه فهم الأشْقَوْنُ، أي: هم الأَكثر شقاوة، بسبب تعريض أنفسهم للخلود في عذاب النار يوم الدّين، وهم أهل الكُفْرِ والجحود، لا مَنْ فيهم شقاوة الفسوق والعصيان، مع استعدادهم للإيمان.

● قولُ اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

**ويَتَجنَّبُها**: أي: ويبتعد عنها، الضمير يعود على الذكرى.

**الأشقى**: أي: الأكثر شَقَاوَةً بسبب كُفْرِهِ ومعانَدَتِهِ للحقّ، وشقاوتُه العظمى هي ما سَيُعَانِي منه من عذاب النار يوم الدين خالداً فيها مخلّداً.

**الّذِي يَصْلَىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ**: أي: الّذِي يُعَذَّبُ يوم الدّين بالْحَرِيقِ في النار الكُبْرَىٰ، وهي نَارُ جَهَنَّمَ، وَوَصَفَهَا اللَّهُ بالكبرىٰ لأنّها أكْبَرُ نَارٍ مُعَدَّةٍ لعذاب العصاة المذنبين، أمّا النيرانُ الأُخرىٰ فهي دونها، ومن هذه النيران نيرانُ الدّنيا مهما كانت شديدة.

يُقَالُ لُغَةً: صَلِيَ النَّارَ وَصَلِيَ بِهَا، إذا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لهَبُها جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

ويقال: أَصْلاه يُصْلِيه نَاراً، إذا أَدْخَلَهُ فيها ليحتَرِق.

إنَّ هذا الأَشْقىٰ الذي هو الأكثر شَقَاوَةً بسبب كُفْرِه العنادي، هو الذي يتجنّبُ الاستجابة لتذكير المذكّرين، لأنّه ليس مستعدّاً نفسيًا لأن يخشىٰ وَلَوْ مُسْتَقْبلاً، مهْمَا قُدِّمَتْ له الإقناعات والمذكّرات، ولهذا لم يكن فعل التجنُّب منه يحتاج إلى حرف «السين» الدالّ على المستقبل، نظراً إلى أنّه يتجنّبُ الذكرىٰ عَقِب التذكير، ويظلُّ كلَّ حياته متجنّباً.

ولهذا كان هذا الأشقىٰ مستحقًّا لأن يصْلَىٰ النار الكبرىٰ خالداً فيها، وهذا الخلودُ الأبدِيُّ فيها يكافِئ جُحُودَهُ الأبَدِيَّ، لأنَّ اللَّهَ لَوْ أَحْيَاهُ في الدار الدنيا حياةً أبديَّة لبقي كافراً كُفراً أَبَدِيّاً.

**ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَىٰ**: أي: ثُمَّ مَهْما طَالَ في النّار الكبرى بقاؤُه وعَذَابُه، فإنَّهُ لا يَأتيه زَمَنٌ تَحْصُل له فيه راحَةٌ ما من العذاب الذي هو فيه، فلا يأتيه الموتُ الذي يَقْطَعُ عنه الإحْسَاسَ بالعذاب، ولاَ تأتيه حيَاةٌ مُريحَةٌ خاليَةٌ من العذاب.

وَجاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ تنزيلاً لحياة العذاب مَنْزِلَةَ حالَةٍ وُسْطَىٰ بَيْنَ الْمَوْتِ المريح والحياة السعيدة، وهذه الحالة الوسْطَىٰ هي حَالَةُ تَعَاسَةٍ وَشَقَاءٍ دَائِمَيْن، وهذه الحالة حَرِيَّةٌ بأَنْ لا تُسَمَّىٰ حَيَاةً، لأنَّ من شأن الحياة الّتي يَحْرِصُ الأحْيَاء عَلَيْها أنْ يكونَ فيها شيءٌ ممّا يُحِبُّونَ ويَرْغبونَ فيه، أمّا

أَنْ تكُونَ شَقَاءَ دَائماً فهي لَيْسَت بحياة، وَلَيْسَتْ مَوْتاً، بل الموتُ خَيْرٌ منها، ويتمنّاهُ أهل هذا العذاب فلا يسْتَطِيعُونَ الحصول عليه.

- قول اللّه عزّ وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥)﴾.

في مقابل بيان مصير الأشْقَىٰ جَاءَ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بَيَانُ مصير مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكر اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ، وهَـٰذا أدنَىٰ المؤمنين المفلحين.

**قَدْ أفْلَحَ:** أي: قَدْ ظفر وفَازَ، والمراد الفوز بنعيم الجنَّةِ يوم الدين، والمعنى: أصاب الفلاح وهو الظفر والفوز.

**مَنْ تَزَكَّىٰ:** أيْ: مَنْ تَطَهَّرَ مِنْ رجْسِ الكُفْر والشرك بالإيمان والإسلام، ونَمَّىٰ نفسه بالصالحات من الأعمال.

الزكاة في اللّغةِ تدلُّ على معنَيَيْنِ: الطهارة من الأرجاس، والنماء، والمؤمن المسلم الذي يعمل صالحاً يطهر نفسه من أرجاس الكفر والشرك، وينمّي نفسه بالأعمال الصّالحة والطاعات.

**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ:** أي: وعَبَدَ رَبَّهُ بذكْرِ اسْمِهِ مُعَظِّماً مُؤمِناً مُسْلِماً، فَصَلَّىٰ له.

ويظهر أَنّ المرادَ منْ ذكْر اسم رَبِّه ذكْرُ أسمائه وصفاته الَّتي تَشْمَلُها رُبُوبيَّتُهُ جلَّ جَلالُهُ، مع الخضوعِ لسلطانه خضوعاً إرادِيّاً، فصَلَّىٰ لَهُ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بعبادته شيئاً، ودعاه وحده لا شريك له.

ولمَّا كانت سورة (الأعلى) من أوائل التنزيل القرآنيّ كَانَ من حِكْمَةِ التَّدَرُّج في الدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللَّهِ وَتَطْبيقاته فِي السُّلُوكِ الاقتصارُ على التوجيه لعبادةِ اللَّهِ بِذكْرِ أسْمَائه الْحُسْنَىٰ وصِفَاتِهِ الجليلة التي تَشملها رُبوبيَّته، والصَّلاَةِ له، دون تحديدٍ لركعاتها وأركانها وشروطها، وقد يكون المراد من الصلاة الدّعاء، أوْ مَا كان متوارثاً في العرب عن إسماعيل عليه السلام،

فقد كان لدى المشركين صلوات موروثة من ملّةِ إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، كما كان لَدَيْهِمُ الحجّ والطواف وكثير من المناسك الّتي أدخلوا فيها بِدَعاً ومُحْدَثَاتٍ من عِنْدِ أنفسهم.

❁ ❁ ❁

## (٨)
## التدبر التحليلي للدرس الرابع من السورة

### الآيات من (١٦ ـ ١٩)

قال اللّه عزَّ وجل خطاباً مباشراً للناس وفي مقدمتهم الكافرون:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

وقرأ أبو عمرو: [بَلْ يُؤْثِرُونَ] حديثاً عن النّاس بضمير الغائبين، وبين القراءتين تكاملٌ بياني، فالذين يُلَائم حالتهم النّفسية الخطاب يقال لهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ والمعرضون والمتولُّون يُلائم حالتهم النفسيّة أن يقال بشأنهم: [بَلْ يُؤْثِرُون].

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ أي: بَلْ تُفَضِّلُون اخْتِيَارَ الكدح لنَيْلِ حظوظكم من الحياة الدنيا وزينتها ومَتَاعِها الزائل الفاني، عَلَىٰ السَّعْي لِلْفَلاح والظَّفَرِ والفوز بالنعيم الخالد في جنَّاتِ النعيم، ولو عَرَّضتم أنفسكم لاستحقاق العذاب في النار الكبرى والشقاء الأبديّ أو المؤقّت في النار الكبرى.

إنَّ ما تضمَّنه الدرس الثالث من دروس السّورة، وسبَقَ بيانه فيما نَزَل قَبْلَها من القرآن، يجعل أهل الألباب يُؤْثِرُونَ السَّعْيَ للفلاح والفوز والظفر بالنعيم الخالد في جنّاتِ النعيم، لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ يا أَيُّها الناس لا تُؤْثِرُونَ هذا

السَّعْي، بَلْ تُؤْثِرُون الْحَيَاةَ الدنيا وَزِينَتَها ومَتَاعَها، والكَدْحَ المتواصِلَ لنَيْلِ حظوظِكُمْ منها.

وهذا من الناس تعجُّلٌ وقِصَرُ نظر، أو جهْلٌ وعدم إيمان بيوم الدّين، ولاَ بمَا جاء عن اللّه في ذلك من خَبرٍ يقين، وعدم الالتفات إلى حكمة الله في الخلق التي تقتضي حتماً حياةً أُخْرَىٰ للحساب والجزاء.

وبالربط مع مضامين الدّرسِ الثالث الذي فيه بيان أنّ الأَشقى يَصْلَىٰ يوم الدّين النار الكبرى، وفيه قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ نستطيع أن نستخرج الشرح التالي:

لكِنّكُمْ لاَ تخشَوْنَ عذابَ ربكم خشيةً رادعةً، ولا تَحرصُونَ على أنْ تزَكُّوا أنفسكُمْ بكمال الإيمان، والتبرُّءِ من الشِّرْك، والتطهُّر من أرجاس الإثم والفسوق والعصيان، ولا تحرصون على ترقيةِ نفوسكم وتَنْمِيتها بصالح الأعمال، وبذكر أسماء ربّكم الحسنىٰ ذِكْر تفكّر وعبادةٍ، والخضوعِ لربّكم بالصلاة والذكر والدّعاء، للظفر بجنّات النعيم.

بل تُؤْثِرُونَ الحياةَ الدُّنيا وزينتها، وتفضّلونُها على نعيم الآخرة، طَلَباً للمتاع العاجل، واللّذّاتِ الفانيات.

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾: أي: والحالُ أَنَّ الآخِرَة وَمَا فيها مِنْ نَعِيم مُقِيم خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكُلِّ مَا فيها كَمّاً وكيْفاً، وأَبْقَىٰ في مَدَىٰ الإِحْسَاسِ باللَّذَّاتِ، مع الْخُلُودِ الّذي لا آخِرَ له.

فاللَّذَّةُ الّتي يُصِيبُها المستمتع بلَذَّاتِ الحياة الدنيا قصيرة الزمن، قليلَةُ الكَمّ، ضعيفةُ الكَيْف.

أمّا اللّذَّاتُ التي يصيبُها المنعَّمُ في نعيم الجنَّةِ فَهِيَ مَدِيدَةُ الزّمن، كَثِيفَةُ الْحجْمِ، عميقَةُ التأثير، كثيرة الكمّ، قَوِيَّةُ الكيف، فهي خَيْرٌ وأَبْقَىٰ مِنْ كُلِّ وَجْه.

فمن آمن بهذه الحقيقة، ثُمَّ آثَرَ العمل والكدح للحصول على لذّاتِ الحياة الدّنيا، وفضّلها على الآخرة، تأثُّراً بنزعات شهواته وأهوائه للاستمتاع بلذّاتِ العاجلة، فإنّه يُعْلِنُ بإيثاره هذا عن قلّة عقله، وضعف إرادته.

وقد جاء في بيانات الرسول ﷺ بيان الفرق الكبير الّذِي لا يُدْرِكه التصوّر بين نعيم الجنّة، ومتاع الحياة الدنيا.

روى مسلم بسنده عن المستورد بن شدّاد، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبعَهُ في الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ».

وروى مسلم عن أنس رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَىٰ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً (أي: يُغْمَسُ غَمْسَةً) ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ، وَاللَّهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ وَاللَّهِ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ».

من أدرك هذه الحقيقة وآمن بها، وكان ذا عَقْلٍ ورُشْدٍ، لَمْ يُؤْثِرْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ آثَرَ الْعَمَلَ لِلآخِرَةِ كادّاً كادِحاً، رجاءَ الظفر بنعيم الجنة، ونَيْلِ الفلاح الأَكْبَرِ يَوْمَ الدين. وآثَرَ أَنْ يَتَتَبَّعَ مَرَاضِي اللَّهِ أَيْنَ كانت، مَهْما بذل فيها من جَهْدٍ وضَحَّىٰ من أجْلِهَا بمحابّه من الحياة، وتحَمَّلَ في سبيلها من مكاره.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

المشار إليه باسم الإشارة [هَذا] ما في السُّورةِ ممَّا يُدْرِكُ الفكرُ أنّ الرسالاتِ السّابقَات مُشَاركةٌ فِيهِ لِخَاتِمَةِ الرّسَالات الرَّبَّانِيّة، وهو ما يتَعَلَّقُ بعذاب الأشقىٰ، وفلاح من تزكَّىٰ، وبيانِ إيثار الناس الحياة الدنيا، مع أنّ الآخِرَةَ خَيْرٌ وأَبْقَىٰ، وهذا ما يشعر به لفظ [هذا] وهو اسم إشارة يستعمل للمشار إليه القريب.

وقد يشملُ ما تضمّنتهُ الآيات الخمس الأولى، فهو ممَّا تَشْتَرِكُ فيه الرسالات الربَّانيّة، واللَّهُ أعلم.

فقد أثبت هذا الختام لآيات سورة (الأعلى: أنّ المشار إليه بكلمة [هذا] ممّا اشتَمَلَتْ عليه الصُّحُفُ الرَّبّانيّة المنزّلة على إبراهيم عليه السلام، والصُّحُفُ الرَّبَّانيَّةُ المنَزَّلَةُ على مُوسَىٰ عليه السلام.

**وبهذا تمّ لنا تدبُرُ سورة (الأعلى) على ما فتح اللَّهُ به**

❀ ❀ ❀

## (٩)
## ملحق بالسورة
## حول التسبيح في القرآن

أمَرَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ فِي كتابه الرَّسُول ﷺ وسائر المؤمنين بأنْ يُسَبِّحُوه، وأبان تَعَالَىٰ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيءٍ في الكَوْنِ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ، وأنّه يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأرض، وأنَّهُ يُسَبِّح له من في السماوات والأرض، وأَبَانَ تَعَالَىٰ أنَّ هَذا الذِّكْرَ من الأَذْكار الّتي أوصى اللّهُ بها في الرّسالات السابقة المنزّلة على الرُّسُلِ السَّابقين، وأنّهُ من الأذكار الّتي تُؤَدّيها الملائكة فِي عباداتها لربها، حتَّىٰ الملائكَةُ الحافُون بالْعَرْشِ والذين يَحْمِلُونَهُ يسبّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِمْ.

**التسبيح للّه**: هو التنزيه والتقديس للّه عزّ وَجَلّ عَنْ كلّ ما لا يَلِيق به من صِفَات النَّقْص الّتي تتنافىٰ مع أزليّته، ووحدانيّته، وكمال صفاته الوجودية، وعلى هذا فالتسبيح للّه تمجيدٌ لَهُ بالبراءة من الصفاتِ التي لا تليق به، بخلاف التوقير الذي هو تمجيد للّه عزّ وجل بالصفاتِ الوجودية. أمّا الحمد والثناء فيكونان بكلا الأمْرَين، وقَدْ يختص الحمْدُ بالصفات الوجوديَّة فَيُجْمَعُ بين التَّسبيح والحمد في العبارة، مثل: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» أي: نسبح سبحان الله، ونحمد بحمده. ومثل: «وسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ـ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِك» أي: ونزهوا رَبَّهُمْ تنزيهاً مُلْصقاً بِحَمْدِهِ. ونَحْنُ نُنَزِّهُكَ تنزيهاً مُلْصَقاً بِحَمْدِك.

وقَدْ يُطْلَقُ التَّسْبِيحُ ويُرَادُ به مُطْلَقُ ذكر اللّه الشَّامِلِ لتنزيهه وتقديسه، وحَمْدِهِ والثناء عليه بكمال صفاته الوجودية، وعلى هذا تُحْمَلُ النُّصوص التي فيها ذكر التسبيح دون الحمد.

وأصل السَّبْحِ في اللّغة الحركة السهلة التي يحصل بها الانتقال في الماء أو الهواء برفقٍ ولين.

وسُبُحاتُ وجْهِ اللّه أنوارُه العظيمة. والعرب تقول: «سُبْحَانَ مِنْ كذا» إذا تعجَّبَتْ مِنْهُ تعَجُّبَ إكبار، فيُفْهَمُ من هذا أنّ التسبيح يحْمِلُ معنى التعظيم، فالعظيم الّذي تَحارُ الأفكار في عظمته هو المستَحِقُّ لأعْظَم التَّسْبيح.

وروى الأزهريُّ بإسْنَاده أَنَّ ابْنَ الْكَوَّا سَأل عَلياً رضي اللّه عنه عن: «سُبْحَانَ اللّه» فقال: كلمةٌ رَضِيَها اللَّهُ لنفسه فأوصى بها.

وروى مسلم عن أبي ذرٍّ أنّ رسول اللّه ﷺ سُئِلَ: أيُّ الكَلَام أفْضَلُ؟. فقال:

«مَا ٱصْطَفَىٰ اللَّهُ لِمَلاَئِكَتِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ».

وروى البيهقيُّ عن عبد الرحمن بن قُرْطٍ، أنّ رسول اللّه ﷺ ليلة أُسْرِي به سَمِعَ تَسْبيحاً في السماوات الْعُلاَ:

«سُبْحَانَ الْعَلِيِّ الأَعْلَىٰ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

وجاء في صفات اللّه عزّ وجلّ أنَّهُ السُّبُوحُ الْقُدُّوس، فالسُّبُوح المنزَّهُ عن كلّ نقص وسُوء، أو الذي يُسَبِّحُهُ كُلُّ شيءٍ. والْقُدُّوسُ الطَّاهر، أو المبارك، أو الذي يُقَدِّسُهُ ويُعَظِّمه كل شيء.

ومن الأذكار المأثورة: سُبُوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الملائكة والرُّوح.

وروى الطبريُّ بسنده عن سعيد بن جبير، أنّ الرسول ﷺ قال لعمر بن الخطّاب:

«إِنَّ لِلَّهِ في السماوات السَّبْعِ ملائكةً يُصَلُّونَ له..».

فقال عُمَرُ: وما صلاتهم؟ فلم يَرُدّ عليه شيئاً، فأتاهُ جبريل فقال: «يا نَبيَّ اللَّهِ سَأَلَكَ عُمَرُ عَنْ صَلاَةِ أَهْلِ السَّمَاءِ؟» قال: «نعم» فقال جبريل: «اِقْرَأْ عَلَىٰ عُمَرَ السَّلاَمَ، وَأَخْبِرْهُ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا سُجُودٌ إِلىٰ يَوْم القيامة، يقولون: سُبْحَانَ ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ. وأَهْلَ السَّمَاءِ الثانية رُكُوعٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَقُولُونَ: سُبْحَانَ ذِي الْعِزَّةِ والْجَبَرُوت. وأَهْلَ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ قِيَامٌ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَقُولُونَ: سُبْحَانَ الحيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ».

❀ ❀ ❀

## اشتقاقُ مادّة التسبيح:

والتسبيحُ مشتَقٌّ من مَادَّة السَّبْحِ، وهو الانْتقال في الماء، أو في الفضاء، أو في السَّماء الخلاء، بحَرَكَةٍ لا تُدَافِعُها عوارض، فيجتاز السَّابِحُ المسافاتِ دُونَ أنْ يَجِد مُقَاومةً شديدَةً تَدْفَعُهُ أو تَصُدُّهُ، فأصل السَّبْحِ في اللّغة الحركة السهلة برفقٍ ولين.

والَّذِين خَرَجُوا إِلَىٰ الفضاء، وتَحَرَّرُوا مِنْ جاذبيّة الأرض، أَحَسُّوا بحقيقة هذا السَّبْحِ الخالي من كلِّ العوارض والجاذبيّات إلاَّ ما هو من داخِلِ ذواتهم.

وقد اختار اللّه عزّ وجلّ لذِكْرِهِ بأسمائه وصفاتِه التَّسْبِيحَ المشتَقَّ من السَّبْحِ الذي يَحْمِلُ هذا المعنىٰ، لِيَكُونَ الذّكْرُ المطلوبُ متضمّناً معنى سَبْحِ النَّفْسِ والْقَلْبِ والفِكْرِ في أبْعَادٍ غَيْرِ مُدْرَكَةِ النّهاية، من عظيم صفاتِ اللَّهِ وَأَسْمائِهِ الْحُسْنَىٰ.

واجْتِمَاعُ الفكرِ والنَّفْس والقلْبِ وسَبْحُهَا معاً في ذكْرِ اللَّهِ، إنَّما يكونُ حين يسْتَطِيعُ الذَّاكِرُ صَرْفَ كُلِّ الشَّوَاغِلِ عَنْهُ، فَلاَ تَجْذِبُهُ أَوْ تَدْفَعُهُ من نفسه مطالبُ خاصَّةٌ بها، ولا تَجْذِبُهُ أو تَدْفَعُهُ من قَلْبِهِ عواطفُ أو انفعالاَتٌ من دون ما هو فيه من سَبْحٍ بذكْرِ اللَّهِ، وَلاَ تَجْذِبُهُ أَوْ تَدْفَعُهُ أَفْكارٌ خارجةٌ عَمّا هو فيه من سَبْحٍ بذكر اللَّهِ جلّ جلاله.

عندئذٍ يكونُ هذا التسبيح هو جوهَرَ العبادة للّه عزّ وجلّ وروحَها، لما فيه من الحضور الكامل مع اللّه، الخالي من الصَّوارفِ والعوائق والمنغصّات.

❁ ❁ ❁

## التسبيح دواء نافع للنفوس والأعصاب:

ويكون عندئذٍ هذا التسبيح أنْفَع دواء للنفس وللجملة العصبيَّةِ في الإنسان، إذْ يمْنَحُهُ الْهُدُوءَ التَّامّ والسَّكِينَةَ والطُّمأْنينة والرّاحَة. فبالتّسْبيح يُفَرِّغُ الْمُسبّح كُلَّ الشّحْنَاتِ الضَّاغطَةِ على فكره ونفسه وقَلْبه، وبتفريغها يَعُودُ إلى سَوَائِهِ، فتعملُ قُواهُ الداخليةُ أعْمَالَها الطبيعيَّةَ النَّافِعَةَ ضِمْنَ أنْظِمَتِها الرَّبَّانيَّةِ، دون خَلَلٍ آتٍ من حَرَكَاتِ النَّفْسِ المضْنِيَة، أَوْ حَركات القَلْبِ وانْفِعَالاَتِهِ وَعواطفه المرهقة للجملة العصبيّة، أو حَرَكَاتِ الْفِكْرِ المثيرةِ للقَلْبِ والنَّفْسِ

بِمَا يُؤذِي أَوْ يَضُرّ، أَوْ يُضْنِي وَيُؤْلِمُ، أَوْ يُعَوِّقُ أَجْهِزَةَ الْجِسْم عن أَنْ تؤدِّيَ وَظائِفَها الطبيعيَّة بانْتِظَامٍ ووفَاءٍ بالمطلوبِ الطبيعيّ منها.

❁ ❁ ❁

## وَصايا اللّه لرسوله بالتسبيح:

ولذلِكَ أوصَىٰ اللّه رسولَهُ محمّداً ﷺ بأنْ يَسْتعمل دواء التَّسْبِيح، علاجاً لما يَنْتابُه من ضِيقِ صَدْرٍ، وآلاَمٍ نفسيَّةٍ، بسبب ما يُلاقيه من قومه من جُحودٍ، واستهزاءٍ، وتكْذيبٍ، واتّهامٍ بالسِّحْرِ والجنون وغير ذلِك.

ونجد هذه الوصية قَدْ تكرَّرَت في ستَّةِ مواضع من القرآن المجيد، وقد رافقَتْ ستَّ مراحِلَ في سِتِّ مُنَاسَبَاتٍ.

### الوصية الأولى:

تعرّض الرسول ﷺ لمقالاتٍ مُؤْذِيات له، واجَهَهُ بها مشركو مكة فأنزل اللّه عليه قوله في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ وَقُرِئ: [وَإِدْبَارَ السُّجُودِ].

فأرشد اللَّه رسُولَهُ بهذا إلَىٰ أَنّ التسبيح بحمد الرّبّ على الوصف الذي ينبغي أَنْ يكونَ عليه التَّسْبِيح، علاجٌ نافع يصْرِفُ عن النفس ما يؤلمها أو يزعجها من أقوال الناس المؤذية المؤلمة لها، والمثيرة للانفعال الْغَضَبيّ.

وهذا العلاج له أربع جرعات:

- قَبْلَ طُلُوعِ الشمس.
- وقبل غُرُوب الشمس.
- وأثناء اللّيْل.
- وبعد الصلوات الّتي يَسْجُدُ فيها العبد لربّه.

**الوصيّة الثانية:**

اشْتَدَّ تعرُّضُ الرسول ﷺ لِمَا يؤذيه من أقوال أهْلِ الشِّرْكِ فيه، حتَّىٰ ضاقَ صَدْرُه بما يقولون، فأنزلَ اللَّهُ عليه قوله في سورة (الحِجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: واعْبُدْ رَبَّكَ حتَّىٰ يَأْتِيَكَ الموتُ الّذي هو يَقين لدَىٰ الجميع لا يشُكُّ فيه شَاكٌ، ومن عباداته لربِّه قيامُهُ بوظائف رسالته.

فأضاف هذا النَّصّ التَّصْرِيحَ بأَنَّهُ يضيق صدْرُه بما يقُول المشركون فيه، من أنّه كذَّاب، وشاعر، وساحر، ومجنون، وغير ذلك.

وأكّد له أنّ دواءه أن يُسَبِّح بحَمْدِ رَبِّه، وأَنْ يكون من السّاجدين لربّهم، الخاضعِينَ له، المستسلِمين لمقاديره، وأنْ يَعْبُد رَبَّهُ في كُلِّ أحواله حتّىٰ يأتيه الموت.

ومعلومٌ أنَّ الصَّبْرَ هو من عناصر عبادته لربّه.

وقد أكّدَ اللّه له النُّصْحَ بهذا العلاج بعد أن أمره في السورة نَفْسِها بأن يَصْدَع بما يُؤْمَرُ به، أي: أن يجاهر بتبليغه، ويَشُقَّ بنورِه ظُلُماتِ الْجَهْلِ والكُفْرِ المنتشرة حتَّىٰ تنصَدِعَ، أي تنشَقَّ بنور آيات اللّه ودعوة الحقّ. وأمَرَهُ بأن يُعْرِضَ عن المشركين، فقال له فيها:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

**الوصية الثالثة:**

ثمّ أنزل اللّه على رسوله في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) قوله:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصُّ ذِكْرَ الاستغفار إلى جانب التسبيح، مع الأَمْرِ بالصَّبْرِ، ولمّا كانت حالَةُ الرّسول النفسيَّة مُتَشَوِّفَةً لتحقيق وعْدِ اللّهِ له بالنّصر، طَمْأَنَهُ اللّهُ بقوله له: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

**الوصية الرابعة:**

وكرّر المشركون إيذاء الرسول ﷺ باتّهامهم له بأنّه كاهن، أو مجنون، أو شاعرٌ يترَبَّصُونَ بِهِ رَيْبَ المنون، فهم ينتظرون موته ليتخلّصوا من دينه، فأنزل اللّه عليه قولَهُ في سورة (الطور/ ٥٢/ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

فزاد هذا النَّصُّ في أوقات التسبيح فأضَافَ التسبيح عند كُلِّ قيام، وأكّدَ التسبيح أثناء اللّيل، وأضَافَ التسبيح في آخر اللّيْلِ عند إِدْبارِ النجوم.

وأعْلَمَ اللّهُ رَسُولَهُ في هذا النّصّ بأنّهُ في موضع العناية العظيمة به، فقال له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: فاطمئِنَّ طُمَأْنِينَةً تامّة.

**الوصيّة الخامسة:**

ثُمَّ أَنـزَلَ اللّـهُ عزّ وجَلَّ قَوْلَـهُ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

هذا النَّصُّ أُنزِلَ في الْمَرْحَلَةِ المدنيّة، وأضيف إلى سورة هِيَ مِن أواسط العهد المكيّ، للإشعار بأنّ المقصود به الدُّعاة من أمّةِ مُحمَّدٍ ﷺ إذا

كانوا في مثل الوضع الذي كان فيه الرّسول إبّان نزول سورة (طَه) ولم يكن الرّسُول بحاجَةٍ إلى إنزاله عَلَيْه يومئذٍ لِأنَّه كَانَ متحقّقاً بمضمونه، فإنّه ما زال يعمل بمضمون ما أنزل عليه في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٦ نزول) وهو ما جاء في الوصية الأولى.

**الوصية السادسة:**

ما جاء في سورة (النصر/ ١١٠ مصحف/ ١١٤ نزول) آخر ما نزل من سُور القرآن، فقال اللّه عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

وقد كانت هذه السورة بمثابة إشعارٍ إيمائي بانْتِهَاءِ مُهِمَّةِ الرَّسولِ في الحياة الدنيا.

❁ ❁ ❁

## تسبيح الكائنات:

(١) جاء في القرآن الكريم بيان أنّ كُلَّ شيءٍ في الوجود يُسَبِّحُ بحَمْدِ اللّه، ولكِنَّ النّاس لا يَفْقَهون تسبيحهم.

فقال اللّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤٤﴾.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: وَمَا مِنْ شَيْءٍ ذي حياةٍ أو غير ذي حياة إلاّ يُنَزِّهُ اللّهَ عمّا لا يليق بذاته وصفاته تنزيهاً مقترناً بحمده والثناء عليه بصفات الكمال.

أمّا تسبيح وحَمْد غَيْرِ ذي الحياة بلسان الحال فهو ظاهر لا إشكالُ فيه، لأنَّ كلَّ شيءٍ من مخلوقات اللّه في كونه يشتمل على صفاتٍ تدلُّ أولي الألباب على تنزُّه اللَّهِ عن كلّ ما لا يليق بذاته وصفاته، وهذا بمثابة التسبيح للّهِ عزّ وجل. ويشتمل أيضاً على صِفَاتٍ تَدُلُّ أولي الألباب على طائفة من صفات اللّه وأسمائه الحسنىٰ، لأنَّه هو خالقها وربُّها، وهذا بمثابة الحمْدِ والثناء.

أمّا تسبيح وحَمْدُ غير ذي الحياة بكلام يُمْكِنُ أن يَسْمَعه من يستطيع أنْ يَسْمَعَ كُلَّ الأصوات، ويمكن أن يفْهَمَ دلالاته من يفهم كلَّ اللّغاتِ، فهو أمْرٌ مُمْكِنٌ عقلاً، وغير مستبْعَدٍ على قُدْرَةِ العزيز الجبار الخالِقِ الرَّبِّ الّذي لا خالق غيره ولا ربَّ في الوجود سواه.

وقد قرّبت لنا المكتشفات في هذا العصر، أَنّ بعض الصفائح من الخلائط المعدنية المصنّعة، قَابلةٌ لأَنْ يُسَجّلَ عليها بوسيلة أَشعَّةِ اللّيزر آلاف الصفحات الناطقة، فإذا حُرّكَتْ على آلَةِ حِكايةِ الصَّوْتِ المسجَّلِ فيها نطقت بكلّ ما هو مُسَجَّلٌ فيها على أحسن وجْهٍ وأكمله.

أفيعجز خالق الكائنات وربُّها عن أن يَجْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ فيها صغيراً كان أو كبيراً يُسَبِّحُ بحمْدِ رَبِّه تَسْبِيحاً يمكِنُ أن يسْمَعَهُ ويفْهَمَهُ مَنْ هيّأه اللّهُ لاستماعه وفهمه.

وقد أبان اللّه عزّ وجلّ أنَّ أَسْمَاعَ الناس وأبصارهم وجلودهم تُسَجِّلُ عليهم أعمالهم، وَتَشْهَدُ عليهم بها يوم الدّين في محكمة اللّهِ الّتي يفصل بها بيْنَ العباد، فقال تعالى في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾.

**فَهُمْ يُوزَعُونَ**: أي: فهم يُجْمَعُون ويُحْصَرُون ويُحْبَسُونَ.

فمن يشتغل بتسبيح اللّه وحمده فإنّه يجعل ما هو خاضِعٌ لإرادته من ذاته مُنْسَجماً مع ما هو مُسَبِّحٌ حَامِدٌ للَّهِ بالتكوين الفطريّ من ذاته ومن سائر الكون.

(٢) وقال اللّه عزّ وجل في مطالع سُور (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) و(الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول) و(الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول) وهي سُوَرٌ مَدَنِيَّةُ التنزيل:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

فجاء التعبير فيها بصيغَة الفعل الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ للدلالة عَلَىٰ أزمان الماضي مُنْذُ إنشائِها.

أمّا الْمُسَبِّحُ فَهُوَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض، ولفظ «ما» يقع على غير ذي العلم، أي؛ فكُلُّ ما في السماوات والأرضِ مفطورٌ عَلَىٰ تسْبِيحِ اللّه منذ نشأته وتكوينه.

وخَتَمَ اللَّهُ الآية باسْمَيْه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ للدّلالة على أنَّ اللّه عزّ وجلّ بقُدْرَتِه الغالبة الحكيمة هو الذي فطر الكائناتِ غير العاقلة على التسبيح له منذ أنشأها.

(٣) وفي نصوصٍ ثلاثةٍ أخرى جاء التعبير بصيغة الفعل المضارع الدّالّ على دوام تسبيح ما في السماوات والأرض من كائنات، وتجدّد تسبيحها في كلّ وقتٍ، ما مَرَّ عليها زمان، من لحظة الحال إلى كلّ أزمان المستقبل الّتي يكون لها فيه وُجود.

فقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

وَقال تعالى في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول):

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

وقَالَ تَعالَىٰ في سُورَة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

وهذه أيضاً سُوَرٌ مَدَنِيَّةُ التنزيل.

(٤) وجاء في القرآن أيضاً بيان أنَّ مَنْ في السماواتِ ومَنْ فِي الأرض من الأحياءِ ذوي العلم يسبّحون للّه، وينبغي أن يُحْمَل هذا على الملائكة الذين يُسَبِّحون لِلّه بالغريزة، كما يتنفَّسُ الناس، بدليل جمعهم في النصّ مع الطير، إذْ أثبت للطيْرِ تَسْبيحاً مثْلَ تسْبيحهم.

فقال اللّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾.

في هذه الآية حَذْفٌ من الأوائل دلَّتْ عليه الأواخر، أي: أَلَمْ تَرَ أنَّ اللَّهَ يُصَلِّي ويُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاواتِ والأَرْض من الملائكة الذين يعبدون اللّه دَواماً، وأنَّ الطَّيْر تُصَلّي للّه وَتُسَبِّحُ لَهُ، وأَنَّ كُلًّا مِنَ الْمَلَائِكَةِ والطَّيْر يَعْلَمُ طريقته الخاصَّة في الصَّلاة للّه والتسبيح له، وأنَّ اللَّهَ عليم بما يفعلون.

وقد شهِدْتُ في أَحَدِ الأَيَّام مع أُسْرَتي في مُنْتَزَهٍ من أطراف «استانبول» في تركيّا قُبَيْلَ غُروبِ الشَّمْسِ صنفاً من الطيْر قد توافَد إلى شجرة عظيمة قريبةٍ من المنتزه، وتجمَّع عدد كبير من هذا الصنف مصطفاً صفوفاً منتظمة على أغْصَانها، حتّىٰ ملأ أغْصَانَ الشجرة وفروعها بكثافة، وسكن قُرابة

نصف ساعةٍ أو أقلّ، ولمّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ انفَضَّ هذا الجمع من الطَّيْر في وقْتٍ وَاحدٍ، كما ينفضّ المصلون من صلاة الجمعة، وشعرنا جميعاً أنَّ هذا الصنف من الطّيْرِ قد كان يؤدّي صلاةً لِلَّهِ بغريزته، ويُسبّح له في سِرِّه، ويظْهَرُ أنَّ هٰذه الصلاة قد كانت صلاة جماعيَّةً لا صلاةً إفراديَّة، بدليلِ أنَّ طيرَيْن جاءا متأخِّرَيْنِ، فأقْبَلاَ مُسْرِعَيْنِ، وَدَخَلاَ في الصفوف كما يدخُلُ المسبوقُ من الناس في صلاة الجماعة.

(٥) وَجاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بيان أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ سَخَّرَ الجبال والطَّيْرَ مَع داود عليه السلام يُسَبِّحْنَ بالعشيّ والإشراق، فقال تعالى فيها في معرض الحديث عنه:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

وجاء نظير هذا في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

(٦) أمّا تَسْبِيحُ الملائكة في السَّماء فقد جاء بيانُه في نُصُوصٍ قُرآنية متعدّدة:

فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

ومنها قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

**لاَ يَسْتَحْسِرُونَ**: أي: لا يَتْعبُونَ ولاَ يملُّونَ.

**لاَ يَفْتُرُون**: أي: لا ينقطعُونَ عَنْ تسبيحهم، ولا يَسْكُنُ نَشَاطُهُمُ المتواصل بفُتُورٍ يَعْرِض لهم.

وَجاء في سُورَة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) بيانُ أنّ الملائكة الحافّين من حول العرش في موقف الحساب وفَصْل القضاء يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ... ﴿٧٥﴾﴾.

**حافِّين**: أي: مُحِيطِينَ.

وَجاء في سورَة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) بيان أنّ الذين يَحْمِلُونَ الْعَرْش من الملائكة، والحافين من حول العرش، يُسَبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهم، ويؤمنون به، ويسْتَغْفِرونَ للمؤمنين ويَدْعُونَ لهم، فقال اللّهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وجاء في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) بيان أنّ ملائكة السماء يُسَبِّحُون بِحَمْدِ ربّهم وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ في الأَرْض، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾.

(٧) وَجاء في سورة (الرَّعْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) بَيَانُ أَنَّ الرَّعْدَ يُسَبِّح بِحَمْدِ اللّهِ، وأنّ الملائكة تُسَبِّح خَوْفاً مِنَ اللّه عزّ وجل، فقال تَعالَىٰ فيها:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ...﴾.

وهكذا دَلَّت النصوصُ القرآنيَّةُ عَلَىٰ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهِ، ولا يُسْتَثْنَىٰ مِنْ هذا القانون العامّ إلاّ الكافرونَ باللّهِ واليوم الآخر، فهم لا يُسَبِّحُونَ في حدود مجالاَتِ أعمالِهِمُ الاختيارِيَّة، أمَّا المجبُورَاتُ مِنْ ذَواتِهِمْ الَّتِي لا تَخْضَعُ أعمالُهَا لإرَادَاتِهِمْ فَهِي مُنْسَجِمَةٌ مع سائر ما في الكَوْن كخَلاَيَا أعضائِهِمْ وَحَرَكَات قلوبِهِمْ، وجريانِ دمائهم، وكلّ ذَرَّةٍ فيهم.

فَمَنْ شاءَ من ذوي الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ أَنْ يَنْسَجِمَ مَعَ الكَوْنِ في حركته تُجاهَ رَبّه فَلْيَكُنْ مُسَبِّحاً بحمدِ اللّه، ضِمْنَ المسبِّحين والمسبِّحات، والحامِدِين والحامدات، ولْيَحْذَرْ مِنْ أَنْ يَكُونَ شَاذّاً مخالفاً، لئلاَّ يُطْرَدَ بِشُذُوذِهِ إلى جَحِيم الْمُجْرِمِينَ.

❁ ❁ ❁

# سُورَة اللّيل

## ويُقال فيها : سُورَة واللّيل

## وَيُقال فيها : سُورَة وَاللّيل إِذا يَغْشَى

٩٢ مصحف ٩ نزول

## (١)

# السّورة وما فيها من قراءات من الفرش

## سورة الليل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ
﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ
بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾
وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا
تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾
فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾
وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ
﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

❁ ❁ ❁

٧ ـ قرأ أبو جعفر: [لِلْيُسُرَىٰ] بضم السين.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [لِلْيُسْرَىٰ] بإسكان السين.

١٠ ـ قرأ أبو جعفر: [لِلْعُسُرَىٰ] بضم السين.
وقرأ باقي القراء العشرة: [لِلْعُسْرَىٰ] بإسكان السين.

١٤ ـ قرأ البزي ورُوَيس في الوصل: [نَاراً تَّلظَّىٰ] بِتَشْدِيدِ التاء.
وقرأ باقي القراء العشرة: [نَاراً تَلَظَّىٰ] بفتح التاء دون تشديد.

## (٢)
## ممّا ورد من أحاديث حول هذه السورة

(١) أخرج الطبرانيّ في الأوسط عن أنس رضي الله عنه:

«أنّ رسول الله ﷺ صلّىٰ بِهِمُ الْهَاجرة فرفع صوته، فقرأ «والشَّمْسِ وضُحَاها» و«وَاللَّيلِ إذَا يغشَىٰ».

فقال له أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أُمِرْتَ في هٰذِهِ الصَّلَاةِ بِشَيْءٍ؟».

قال: «لاَ، ولَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُوَقِّتَ لَكُمْ».

**الهاجرة**: نصف النّهار، وصلاةُ نِصْفِ النهار هي الظهر.

**أَنْ أُوَقِّتَ لَكُمْ**: أي: أَنْ أُبَيِّنَ لَكُمْ وَقْتَ صلاة الظهر، ويظهر أنّه بيَّنَ لَهُمْ بالتحديد أوّل وَقْتِ صلاة الظهر، عقب زوال الشمس عن كبد السّماء مباشرة.

أما رفع صوته بالقراءة على خلاف السنّة بالنسبة إلى صلاتي الظهر والعصر، فليعلّمهم أنّ الصلوات النهاريّة يَحْسُنُ أن يقرأ الإمام فيها بنحو هاتين السورتين من قصار السّور.

(٢) وسبق في سورة (الأعلى) لدى ذكر روايات حديث معاذ وتطويله في الصلاة على الناس، أن الرّسول ﷺ أرشده أن يقرأ: «واللَّيْلِ إذا يَغْشَىٰ» ضمن السور التي أرشده أن يقرأها، ليُبَيِّن له أن تطويل القراءة في الصلاة يفتن المتقدين ويُنَفِّرهم.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## دروس سورة «اللّيلِ» ووحدة موضوعها

تشتمل سورة «اللّيل» على ثلاثة دُرُوس يتفرَّع التالي منها عمّا سبقه ضمْن وحدة موضوع.

**الدرس الأول:**

يقسم اللّه عزّ وجلّ فيه ببَعْض ظواهر خلقه في كونه الدّالة على قدرته وعلمه وحكمته وغيرها من صفاته، على أن سَعْي الناسِ في الحياة الدّنيا مختلف اختلافاً كبيراً إلى حدّ التبايُنِ بين سَعْيٍ في الخير، وسَعْيٍ في الشرّ، وسَعْيٍ إلى ذُرواتِ الفضائل والمكارم، أو سَعْيٍ إلى حضِيضِ الرّذائل والجرائم.

وهذا دليل على أنّ اللَّهَ خَلَقَ الناس ذوي إرادات حُرَّةٍ، ليَبْلُوهُمْ في ظروف الحياة الدنيا، فالناس في هذه الحياة ممتحنون.

هذا الدّرس اشتمل على الآيات الأربع الأولى من السورة:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

**الدرس الثاني:**

وجاء الدرس الثاني مُتَفَرّعاً عن الدّرْسِ الأَوّل، واختير فيه بيان نوع من سلوك الناس الذي يختلفون فيه اختلافاً كبيراً إلىٰ حَدّ التّباين، وهو سلوكهم فيما يملكون من أموال بَذْلاً في الخيرات أو بخلاً وإمْسَاكاً.

وعلى سبيل إدْماج التوجيه الدينيّ المقرون بالترغيب والترهيب، ضِمْنَ بيان اختلاف سلوكهم المالي، قال اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ في هذا الدرس:

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

**الدّرس الثالث:**

جاء فيه الإجابة على أسئلة مطويّة تَسْتثيرها في النفوس فقرات الدرسَيْنِ السّابقَيْن:

**السؤال الأول**: كَيْفَ يعرفُ الناس ما هو مطلوبٌ منْهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ليختاروا السلوك الذي يكونون فيه من المفلحين يوم الدين، يوم الجزاء الأكبر؟.

وجاءت الإجابة عليه بقول اللّه عزّ وجل يتحدّث عن نفسه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ بضمير المتكلّم العظيم، أي: نحن متكفّلونَ ببيان ذلك.

**السؤال الثاني**: ما الذي يجعَلُنَا نُصَدِّقُ بأنّ نظام الحياة الدنيا إذا انتهىٰ، فلا بُدَّ أَنْ يأتي بَعْدَهُ نظام حياةٍ أخرى يكون فيها الحساب وفصل القضاء والجزاء؟

وجاء الجواب الرّبّاني بأنَّ مَالِكَ الحياة الدنيا هو الذي وضع في خطته إيجاد حياة أخرى يكون هو مالكها والمتصرّف فيها، ودلّ على هذا الجواب قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

**السؤال الثالث**: كيف يكون عذابُ الآخرة لمَنْ كفر بربّه ولم يسْتَجِب لدعوته؟ وجاء الجواب الرّبّاني بقوله تعالى:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

**السؤال الرابع**: كَيْفَ يكون حال من آمن بربّه واستجاب لدعوة رسوله؟ وجاء الجواء الرّبانيّ بقول اللّه عزّ وجل:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

فموضوع السّورة يدور حول ابتلاء الناس من خلال حرّية الإرادة الممنوحة لهم، ومسؤولياتهم عن أعمالهم الإرادية تجاه ربّهم، وجزائهم يوم الدين بالثواب أو بالعقاب، مع الاهتمام في السورة ببيان مسؤولياتهم عن

سلوكهم المالي طاعة للّه أو معصية له، في جانبي العطاء ابتغاء مرضاة الله، والبخل مَعْصِيَةً له.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبّر التحليلي للدّرس الأول من السورة

### الآيات من (١ ـ ٤)

قال اللّه عزّ وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

**تمهيد:**

في هذا الدَّرْسِ الأوّل من دروس السورة أَقْسَم اللّهُ عزَّ وجلّ بثلاث ظاهرات من ظواهر خلقه، الدَّالاَّتِ على طائفة مِنْ عظيم صفاتِهِ جلَّ جلاله، ومنها علمه وَقدرته وحكمته، وأداة القسم الَّتي استعملت فيه هي «الواو» والْمُقْسَمُ عليه هو أنّ سَعْيَ الناسِ في الحياة الدنيا مُخْتَلِفٌ اختلافاً كبيراً، إلى حَدِّ التَّناقُضِ بَيْنَ قِمَّةِ الْخَيْرِ وَحَضِيضِ الشّرّ، وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللَّهَ جلَّتْ حِكْمَتُه قَدْ مَنَحَهُمْ إرَادَاتٍ حُرَّةً، لِيَمْتَحِنهم في ظروفِ الحياة الدنيا، ولو كانوا مَجْبُورين في مجالاتِ أعمالهم الاختياريَّةِ، لكانوا كالملائكة أمَّةً واحدةً لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون، لأنّ اللَّهَ لاَ يَرْضى لعباده الكفر، ولا يأمُرُ بالفحشاء والمنكر ولا يَرْضَىٰ بهما، فلا يمكن أن يجعل عباده مجبورين على ما لا يرضاهُ منهم.

● قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾.

**يَغْشَىٰ**: أي: يُظْلِمُ، يُقَالُ لُغَةً: غَشِيَ اللَّيْلُ يَغْشَىٰ غَشاً، إِذَا أَظْلَم. واللّيْلُ ظُلْمَةٌ في الأرض يُسَبِّبُها غُرُوبُ الشَّمْسِ عَنْهَا، وهذه الظلْمَةُ مَوْجُودةٌ في كُلّ شيءٍ لا تُشْرِقُ عليه أَنْوَارٌ كاشفةٌ له.

ويُقَالُ لُغَةً: غَشِيَ الشَّيْءُ شَيْئاً آخر، إذا غَطَّاهُ وَجَلَّلَه فحجبَهُ وسترَهُ، ولا اختار هنا هذا المعنى، لأنَّ اللَّيْلَ لا يأتي فيجلّلُ، بَلْ هُوَ ظُلْمَةٌ مَوْجُودَةٌ، نُدْرِكُهَا عِنْدَ انعِدَامِ الأنوار الكاشفة، ولهذا قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧﴾.

فشبّه الله النهار بِجِلْدٍ يُسْلَخُ عَنِ الأرض، فيجد أهل الأرض أنفسهم غارِقين في الظلام، بسبب فقدهم ضياء الشمس الكاشف للأرض وما عليها بعْدَ غروبها.

**تَجَلَّىٰ**: أي: انكَشَفَ ووَضَحَ وظهر، يُقَالُ لغة: جلَّىٰ الضَّوْءُ الشيءَ للأنظار فَتَجَلَّىٰ، أي: أظهره وأوضحه فتجلَّىٰ «مطاوع جَلَّىٰ».

والمراد من تجلّي النهار تجلّي الأشياء وظهورُها فيه، وهذا من إطلاق الزمان وإِرَادَةِ الأشياء التي تكونُ فيه، وهو من المجاز المرسل.

**والنهار**: اسم للزمن الذي تكون فيه الشمس مواجهةً بأشعّتِها وضيائها لما واجهته من الأرض، فحيث تكون المواجهة يكون النَّهار، وكلّما دارت الأرض حول نفسها تحوّل كلٌّ من النهار واللّيل إلى مواجهةٍ أخرىٰ بحسب دورانها، فكان للشمس مشارق ومغارب عليها، واختلفت عليها الأنْهُرُ واللّيالي معاً تبعاً للمواجهة والدوران.

ولفظ «النهار» يُطْلَقُ على الضياء الكائن ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ويجمَعُ علَىٰ «أَنْهِرٍ ونُهرٍ».

● قول اللّٰه تعالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾.

أي: وَخَلْقِ الذّكر والأُنْثَىٰ، فكلمة «ما» مَصْدَريَّة تُؤَوِّل ما بَعْدَها بمصدر. والمعنى: وأُقْسِمُ بخَلْقِ الذكر والأُنْثَىٰ.

إنّ القَسَم باللّيل إذا يغْشَىٰ وبالنهار إِذَا تجلَّىٰ قَسَمٌ بظاهرتَيْنِ من ظواهر تقدير اللّٰه المحكم العجيب لحركة الأرض حول نفسها تجاه الشمس، في نظامها اليوميّ، عَبْرَ ألوف الملايين من السنين، دون خَلَلٍ أو اضطرابٍ، وبدقَّةٍ بالِغَةِ الغاية.

هذا التنظيم المحكم فيه عناية بالغة بالناس، إذْ جعل اللّٰه الأرض المعدّة لسكناهم يتَدَاوَلُ عليها ليلٌ يَغْشَىٰ بظلامه، ونهارٌ يتجلَّىٰ بضيائه، فينتفعون من كليهما في مطالبهم المختلفة، ومصالحهم المتنوّعة، ومعلوم أنَّ بعض مصالح الناس مرتبط باللّيل إذا يَغْشَىٰ، وبعضها مرتبطٌ بالنهار إذا تجلّى وأشرقَتْ شَمْسُه، فالنبات وطاقة الحياة في الأرض، ومعاشُ الناس، وأمورٌ كثيرة جداً مرتبطةٌ بالنهار إذا تجلّىٰ وأشرقَتْ شَمْسُه، واستمدَّتْ من ضيائها وشلّالاَتِ أشعّتها الضَّوْءَ والدِّفْءَ والطّاقة. أمّا الرَّاحَةُ والسُّكُونُ والسِّتْر وحَرَكَةُ الرِّياحِ وأمُورٌ كثيرة جدّاً فهي مرتبطَةٌ باللَّيْلِ وبَرْدِه، وابتعاد أشعّة الشمس عن الأرض فيه.

وإنَّ القَسَمَ بخَلْق الذكر والأُنْثَىٰ في تكامُلِهما، وحَاجَةِ كلِّ زَوْجٍ منهما لزوجه، من ظواهر إتقان صنعة الخالق الرَّبِّ العجيبة.

ودراسَةُ هٰذه الظاهرة مجالٌ فسيح ودقيق لعلماء البحث الكونيّ، وبها يكْتَشِفُونَ عَجَائبَ وغَرَائِبَ تُدوَّنُ في مُجَلَّداتٍ كثيرة.

وظاهرةُ الذكر والأُنْثَىٰ تَعُمُّ عالَمَ الأحياء وعالم النباتات، وكُلٌّ من الزوجين يحتَاجُ إلى قرينه لإشباع الغريزة وتنامي الْخَلْق.

وقد خلق اللّٰهُ الأزواجَ كلَّها في الكائنات لينفرد بالوحدانية في كلّ

شيء، فهو سبحانه الكامل بذاته الذي لا يحتاج إلى شيءٍ، لأنّه هو وحْدَهُ الأزليُّ الأبديُّ بذاته وصفاته.

هذه الظاهرات الثلاث اللاّتي أَقْسَم اللّه بها، تشتمل على أَدلَّةٍ تهدي ذوي العقول الحصيفة النظيفة، إلى أن خالقها والمهيمن على الكون بربوبيته، لا بُدَّ أن يكون كامل القدرة، وشامِل العلم، وعظيم الحكمة، فالْقَسَمُ بها هو في الحقيقة قَسَمُ بما تَدُلُّ عليه من صفات اللّهِ الجليلة، وأسمائه الحسنى، وهكذا كُلُّ ما أقسم اللّه به في القرآنِ من كونه العجيب.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

هذا خطابٌ مُوجَّهٌ لكلّ ذوي الإرادات الحرَّةِ المسؤولين عن اختياراتهم وأنواع سلوكهم في الحياة الدنيا.

وجاءت الجملة مؤكّدَة بمؤكّدات ثلاثة: «إنّ ـ والجملة الاسميّة ـ ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر».

**شَتَّىٰ**: أي: متفرّقون تفرُّقاً شديداً، وهو جَمْعٌ مفرده «شَتِيت» بمعنى متفرّق ومختلف. يقال لغة: أشياء شتّىٰ، أي: متفرّقة مختلفة. وقومٌ أشتاتٌ: أي: متفرّقون، وأصل الشّتّ الافتراق والتفريق. ويقال: شَعْبٌ شتيتٌ، أي: مشتَّتٌ.

لقد أثبت اللّه عزّ وَجلّ في هذه الآية أنّ المكلّفين المخاطبين بها سَعْيُهم مختلف متفرّقٌ إلى حدّ التبايُنِ والتناقُضِ، مَا بَيْنَ أعلى ذُرُوات الفضائل، وأحطّ دَرَكَاتِ الرَّذَائل، وهذا لا يكون إلاّ إذا كانوا بخَلْق اللّهِ ذوي إراداتٍ حُرَّة. بخلاف المخلوقات الّتي لم يمنَحْها اللّهُ إراداتٍ حُرَّة، فإنّ سُلُوكَ كلّ صنف منها سلوك متشابه متماثل، لأنّه يخضَعُ لنظام جبريٍّ رَبَّانيٍّ واحد، كالذَّرَّة، والنَّبات، والماء، والهواء، وغيرها.

وبالتأمُّل يهتدي الفكر إلى أن الإرادة الحرَّة في الناس إنما وهبها لكلٍّ

منهما، ليمتحنهم في ظروف الحياة الدنيا، ولا بُدَّ أن يكون لكلٍّ منهم سعْيٌ مُخْتَلِفٌ عن نُظَرائِهِ، وهذا السلوك المختلف هو أثَرٌ لِحُرِّيَّةِ الإرَادَةِ في كُلٍّ منْهُمْ.

وبالتأمل يَهْتَدي الفكر الملاحِظُ لصفات اللّه الجليلة، ومنها حكمته، وتنزُّهُهُ عن العبث في الخَلْقِ، إلى أنّ الامتحانَ لا بُدَّ أَنْ يستَتْبعَ الْحِسَابَ وَفَصْلَ الْقَضَاءِ وتنفيذَ الجزاء، بالفضل أو بالعدل، وأنَّهُ لا يُمْكِن أن يُسَوِّيَ الرَّبُّ العليم القدير الحكيم بين المسلمين والمجرمين، وبين من اختار في امتحانه الأعمال الصالحة، ومن اختار في امتحانه الأعمال السيئة.

ودلّ الواقع المشاهد لذوي الإراداتِ الحرَّة الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، أنّهم متفاوتون في اختياراتهم تفاوتاً كبيراً، فمنهم سَعْيُه في الخير، ومنهم سَعْيُه في الشرّ، ومنهم سعْيُه مختلط، وتختَلِفُ بينهم النِّسَبُ والمقاديرُ اختلافاً لا يستطيع حصْرَه إلاّ الخالق البارئ المحيط بكلّ شيءٍ علماً، وهذا الاختلاف الكثير يتَطَلَّبُ دَرَجاتٍ ودَرَكاتٍ مِنَ الجزاء، فمنهم من يسْتَحِقُّ بفضل الله أنْ يُجازَىٰ بالفردوس الأعلىٰ من جنَّاتِ النعيم، وَتتنازلُ المراتب والدَّرجات، حتَّىٰ أَدْنَىٰ الجنَّةِ. ومنهم مَنْ يَسْتَحِقُّ بِعَدْلِ اللّهِ أَنْ يُجازَىٰ بالدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النّارِ، وتخفُّ الدَّرَكاتُ شيئاً فشيئاً حتَّىٰ مُسْتَوَىٰ الضَحْضَاح من دَار العذابِ يوم الدِّين، وأخفُّ العذاب فيها. ومنهم فريق يقتضي العدْلُ أنْ يكونوا على الأعراف، إذْ تساوَتْ سيِّئَاتُهُمْ وحَسَنَاتُهُمْ، فالنار والجنَّة تتجاذبانه بقُوَّتَيْنِ متماثِلَتَيْن، فيقِفُ في مكان وسَطٍ بينهما، إلاَّ أَنْ تَتَدَارَكَهُمْ رَحْمَةُ اللّه، فتدفع بهم، فيغْلِبُ جاذبُ الجنَّةِ جاذِبَ النَّار، فَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ في رحْمَته.

وهذا السَّعْيُ الْمُخْتَلِفُ في الناس إنّما هُوَ مَظْهَرٌ لإراداتهم الحرَّة الّتي مَنَحَهُمُ اللّهُ إيَّاها ليَمْتَحِنَهُمْ، ومن أجْلِ هذا وضعهم في ظرُوف الامتحان

الأمثل، وأعطاهم من الصفات ما يجعلهم مؤهلين لاختيار الخير والعمل به، واختيار الشرّ والعمل به، فإذا اختاروا الخير أمدَّهم الله بعونه وتوفيقه، وإذا اختاروا الشرّ تركهم لما سخَّرَ للناس من أسباب.

وقد جاء بَيَانُ أنَّ سَعْيَ المخاطبين بالآيةِ سَعْيٌ مختلف اختلافاً كبيراً، تمهيداً لبيان صُوَرِ الجزاء المختلفة المناسبة للسّعْي المختلف.

❃ ❃ ❃

## (٥)
## التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من السورة

### الآيات من (٥ ـ ١١)

قال اللّهُ عَزَّ وَجلّ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾.

**تمهيد:**

تضمّن هذا الدرس من دروس السورة قضيتين:

**القضيَّةُ الأولى:** الترغيب في العطاء من المال ابتغاء وجه الرَّبّ الأعلى، بشرط أَنْ يكون هذا العطاء ثمرة تقوى الله، التي هي من آثار التصديق بالملّة الحسنىٰ، التي يُبَلِّغُها الرسول محمد ﷺ عن الرّبّ جلّ جلاله.

والثواب المبشّرُ به هو التيسير للأمورِ اليُسْرَىٰ، ولا سيما ما يكون منها يوم الدين.

**القضيّة الثانية**: الترهيبُ من البخل بإمساك المال عن مستحقّيه، المقرون بمشاعر الاستغناء عن الرّبّ جلّ جلاله، فهذه المشاعر الخسيسَةُ يتولّد عنها الطغيان، وَعَدَمُ الخوف من عذاب اللّه، والتكذيبُ بالملّة الحسنىٰ الّتي يُبَلّغها الرسول محمد ﷺ عن الرّبّ جلّ جلاله.

والعقابُ المنذَرُ به هو التيسير للأمور الْعُسْرَىٰ، ولا سيما يوم لا يُغْنِي عن المعذّب ماله الذي استغنى به، فطغى، فكفَر.

وبالنظر إلى سُنَّة التدرُّج الرَّبَّانِيَّةِ في إنزال شرائع الدّين، نلاحظ أنّ العناية الرّبّانيّة في هذِهِ المرحلة الْمُبَكّرَةِ من تنزّلاَت القرآن، قد وجّهَتْ لقضايا الإيمان أوّلاً، وأتبعتها بالتوجيه للصلاة، فبالتوجيه للعطاء المالي مساعدةً للفقراء والمساكين وَذوي الحاجات، وهذا التوجيه للعطاءِ المالي في هذه المرحلة المبكّرة، فيه دليل على أنّ سدّ حاجات المحتاجين في المجتمع تَأتي في التعليمات الإسلامية عَقِبَ التوجيه للصلاة، ولهذا اقترنَتِ الزكاة بالصلاة في معظم النصوص القرآنيّة، وهذا التوجيه في هذه المرحلة المبكّرة، قد جاء تمهيداً لفريضة الزّكاة الّتي تأخر تحديدُها، والإلزام بالمقدار الواجب بذلُه فيها إلى المرحلة المدنيّة.

وبالنظر إلى السُّوَر التي نزلت قبل نزول سورة «اللّيل» نلاحظُ أنه قد جاء تمهيد خفيف جدّاً لقضيّة بذل المال في سورة (العلق) أوّل سُورَةٍ أُنزِلَت، ببيان أنّ مشاعر الاستغناء من أسباب طغيان الإنسان، إذ جاء فيها قول اللّه عزّ وجل:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۞﴾ [٦] [٧].

وبعدها جاء في سورة (المدثر) السّورة الثانية بحسب ترتيب النزول بيان أنّ من أسباب تعذيب المعذّبين في سقر أنّهم لم يكونوا يطعمون المساكين، فقد جاء فيها قولُ اللّهِ عزّ وجلّ حكايةً لسؤالٍ يُوجَّهُ لَهُمْ وهم يُعَذَّبُونَ في النارِ، وحكايةً للجواب الذي يجيبون به:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم جاء في سورة (الأعلى) السّورة الثامنة بحسب ترتيب النزول إلماح خفيفٌ إلىٰ هذا الموضوع ضمن قضية عامّة، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ ومعلومٌ أَنَّ إمْسَاكَ المال، والبخل ببذله للمساكين وذوي الحاجات من إيثار الحياة الدنيا.

أما سورة (اللّيل) السّورَةِ التاسعة بحسب ترتيب النزول، فقد جاء فيها الترغيب بإعطاء المال واضحاً وبقوَّة، وهو ترغيب مقرون بالوعد بالثواب. وجاء فيها الترهيبُ من البخل ببذل المال لمستحقيه، مع الإنذار بالعقاب على البخل.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾.

الفاء في: ﴿فَأَمَّا﴾ دلّت على أنَّ ما بعدها مُفَرَّعٌ عمّا دلّ عليه الدّرْسُ الأول من السورة، وهو كون المخاطبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ مَوْضُوعُونَ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، فهم ذَوُو إراداتٍ حُرَّةٍ، فباستطاعتهم أن يختاروا لأنفسهم طريق الخير حتَّىٰ يكونوا سعداء بفَضْلِ اللّه، وباستطاعتهم أن يختاروا لأنفسهم طريق الشرّ وبه يكونون أشقياء بعَدْلِ اللّه.

وكلمة: [أَمَّا] حَرْفٌ فيه معنى الشرط والتوكيد دائماً، وفيه معنَىٰ التَّفْصِيلِ غالباً، ويُكَرَّرُ غالباً حينما يَحْمِلُ معنى التفصيل، كما جاء هنا في السّورة.

﴿مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أي: مَنْ أعطىٰ عَطَاءً ماليّاً يبتغي به وجْهَ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ. حُذِفَ المفعولُ به ليَعمَّ كُلَّ عطاء مَالِي. ودلَّ على كونه عطاء ماليّاً مقابَلَةُ العطاء في السورة بالبخل، وذِكْرُ المال مرّتين في السّورة إحداهما في

الحديث عمّن بخل واستغنى، والأخرى في الحديث عن الذي يُؤتي مالَهُ يَتزكّى، فالكلام في السّورة يدور حول إعطاء المال والبخل به. ودَلَّ على ابتغاء وجْهِ اللّه بالإعطاء ما جاء في آخر السُّورة من بيان أنّ الناجي من النار هو الذي يُؤْتِي مالَه يَتطهَّرُ بإيتائه من رجس البخل والمعصية وهو لا يبتغي بإيتائِه إلاّ وجْهَ رَبّهِ الأعْلَىٰ، ودلّ على أنّه أعْطَى مالَهُ في طاعة اللّه عطف فعل: [اتّقَىٰ] على فِعْلِ: [أَعْطَىٰ].

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: أي: واتَّقَىٰ عَذَابَ اللّهِ فيما أعطىٰ، وفي كلِّ أقواله وأفعاله الإراديّة الظاهرة والباطنة، الجسَدِيَّة والنفسِيَّة.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾.

أي: وجَزَمَ في قَلْبِه مؤمناً بأنّ بلاغاتِ الرسول عن اللّهِ حقٌّ وصِدْقٌ، ومعلوم أنّ بلاغاتِ الرَّسُولِ عن اللّه تَشْمَلُ العقائد الإيمانية، ووصايا اللّه وأوامره ونواهيه لعباده في هذه الملّة، من كُلّ أنواعِ السُّلوكِ الظاهر والباطن، الجسديّ والنفسيّ، وهذه كُلُّها حُسْنَىٰ، فاقَتْ في حُسْنِها كُلَّ ما يُخَالِفُهَا.

**الْحُسْنَىٰ**: مؤنث «الأحْسَن» أي: المفضَّل في الْحُسْن. وقد جاء لفظ [الْحُسْنَىٰ] في الآيَة صفةً لموصوف محذوف، فاختلَفَ أهل التأويل في تقديره، إذْ لم يَرِدْ عن الرسول ﷺ بيانٌ يُعَيِّنه، فقيل: الجنة. وقيل: لا إلَه إلاّ اللّه. وقيل: الصلاة. وقيل: الزكاة.

لكنّي رأيْتُ أنَّ المحذوفَ المقدّرَ ذِهْناً هو الملَّةُ، أو الشريعة، أو الديانة أو الرسالة الّتي يُبَلِّغُهَا الرَّسُولُ ﷺ عن ربّه، فهي المقدَّرُ ذهْناً في دعوته، ولا يحتاج إلى التصريح به، وهذا المحْذُوف المقدر على الوجه الذي رأيتُهُ، يَشْمَلُ كُلَّ أقوال أهل التأويل وزيادة، وهو المطلوب الإيمان به واتّباعه من الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

ولدى تتبُّع مَا جاء في هذه الرسالة المحمّديَّة الخاتمة لرسالات اللَّهِ السابقات، نُدرِكُ أَنَّ كُلَّ بَيانٍ، وكُلَّ حُكْم، وكُلَّ تَوْجِيهٍ، وكُلَّ وَصِيَّةٍ، وكُلَّ نُصْحٍ، وكلَّ تَعْلِيم، هُوَ الأَحْسَنُ من كُلِّ ما خالفه، فهٰذِهِ الرّسَالَةُ بكلِّ ما جاء فيها هي الْحُسْنَىٰ المفضّلَةُ في الْحُسْنِ على كلّ ما سواها ممّا اشتمل على الموضوعات التي جاءت فيها.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾.

هذا وعْدٌ من اللَّهِ لِمَنْ أعطَىٰ واتَّقَىٰ وصَدَّق بالْحُسْنَىٰ، بأن يُيَسِّرَهُ في المستَقْبَلِ القريب للْيُسْرَىٰ.

الفاء واقعة في جواب أداة الشَّرْط [أمّا] وحرف التنفيس «السين» للدلالة على المستقبل القريب.

وفعل: «نُيَسِّرُه» هو بمعنى: نهيّئُه ونُعْطِيهِ من المعونات والتوفيقات والإمدادات بالقوى الجسديَّة والنفسيَّة ما يُهَوِّنُ عليه سلوك الصراط المستقيم، الذي يَسْتَحِقُّ به الْيُسْرَىٰ.

وتحليل معنى فعل: «نُيَسِّرُهُ» سبق في سورة (الأعلى) لدى تدبّر قول اللّه لرسوله فيها: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ فلا داعيَ للإعادة.

ويظهر لي أنّ المراد من الْيُسْرَىٰ هنا في سُورة «اللّيل» الأمورُ الْيُسْرَىٰ الَّتي يُكَافِئ اللَّهُ بها عبْدَهُ المؤمن الذي أَعْطَىٰ واتَّقَى وَصَدَّقَ بالْحُسْنَىٰ، وهذه الأمور الْيُسْرَىٰ ينالُ منها نصيباً في الحياة الدنيا، وَينال منها نصيباً في البرزخ بين الموت والبعث إلى يوم الدين، وينال منها في يوم الحشر والحساب وفَصْلِ القضاء، وينال منها الجزاء الأوفَىٰ الخالد في جنّاتِ النعيم.

فيوم الْحَشْرِ والحساب وفصل القضاء يومٌ عَسِيرٌ على الكافرين، لكنَّهُ على أهل الإيمان والعمل الصالح يَسيرٌ غير عَسِير، كما قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾.

وكما قال اللّه عزّ وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

أي: لكنّ المؤمنين لا يجدونه عسيراً فلا يقولون: هذا يومٌ عَسِرٌ، بل يجدونه عليهم يسيراً.

وكما قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآيات بيان للقسم الثاني من النّاس، وهو الْقِسْمُ المضادُّ لقسم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾

فهو قِسْمٌ بَخِلَ بما يَمْلِك من مَالٍ على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وشَعَر بأنّه اسْتَغْنَىٰ بأمْوالِه عَنْ رَبّه، مُتوَهِّماً أنَّ أمْوالَهُ تَقْضِي له كُلَّ حاجاته ومطالِبِهِ من الحياة، فَطَغَىٰ، وكَفَرَ بأَنْعُمِ اللّهِ عليه، وكذَّبَ بالرِّسَالَةِ التي يُبلّغها رسولُ اللّهِ ﷺ عَنْ رَبّه، فلم يؤمن بها، مع أنها الْحُسْنَىٰ، وتَفَوّقُها في الْحُسْنِ عَلَىٰ كُلِّ ما يُخالِفُها شاهِدٌ دائِمٌ على أنّها رسالَةٌ رَبَّانِيّة حقًّا وصِدْقاً.

وفي مقابل تَيْسِيرِ الْقِسْمِ المؤمِنِ لِلْيُسْرَىٰ، قال اللّهُ عَزَّ وجلَّ بشأنِ هذا

القسم المضادّ المكذّب بالرّسالة الْحُسْنَىٰ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ أي: فَسنُهَيِّئُهُ فِي نَفْسِه وجَسَدِهِ وقُدْرَاتِهِ المختَلِفَةِ، لاختيار الأَسْبَابِ والوسائلِ المسخَّرَةِ للناسِ في ظرُوفِ الحياةِ الدنيا، ولسُلُوك مَا يشَاءِ من مَسَالِكَ وسُبُلِ ضِمْنَ السُّنَنِ الكَوْنِيَّةِ العامّة، الّتِي تُعْطِي عَطَاءَهَا الْمُقَدَّرَ لَهَا، مَنْ آمَنَ بالله، ومَنْ كَفرَ به، حتَّىٰ تَنْتَهِي به مسيرتُه في حياته للأمُور الْعُسْرَىٰ، الَّتِي يُعَاقِبُ اللَّهُ بهَا عبادَهُ الكافرين، والْعُصَاةَ المجرمين، الذين بَخِلُوا واسْتَغْنَوْا وكذّبوا برسالة اللَّهِ الْحُسْنَىٰ. وهذه الأمور الْعُسْرَىٰ يَنَالُون منها مقداراً ما في الحياة الدنيا، ويَنَالون منها مقداراً مَا في البرزخ بين الموت والبعث إلى يوم الدين، وينالون منها مقداراً ثالثاً يوم الحشر والحساب وفصل القضاء، ثم ينالون منها العقاب الأوفىٰ، في دار العذاب، جهنَّم وبِئْسَ المصير، وعندئذٍ يُدْرِكُونَ أنَّ الأُمُورَ الّتي نزلَتْ بهم هي الأُمورُ الْعُسْرَىٰ الّتي لاَ يُوجَدُ أَعْسَرُ مِنها.

**الْعُسْرَىٰ**: أي: الزّائدَةُ على كلّ ما سواها في الْعُسْر، إذِ الْعُسْرَىٰ مؤنَّثَ «الأعْسَر» الوزن الموضوع للتفضيل، أي: للدلالة على زِيادة الموصوف به في صفته على غَيْرِهِ.

وحين تنْزِل به الأمور الْعُسْرَىٰ فهَلْ تَرُدُّ عنه أَوْ تَرْفَعُ عَنْهُ شيئاً أمْوَالُهُ الّتي يَسْتغنِي بها، أو الَّتِي كان قد اسْتَغْنَىٰ بِها.

فقال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

**إذا تَرَدَّىٰ**: أيْ: إذا سَقَطَ وَخرَّ في هَاوِيَةِ العذَاب والأُمُورِ الْعُسْرَىٰ. التَّرَدِّي: السُّقُوط منْ شاهِقٍ في هُوّةٍ، شُبِّهَ مَسُّ العذاب بالتردِّي.

**وَمَا يُغْنِي عَنْهُ**: أي: ومَا يَصْرِفُ عنه مَالُهُ ما يَنْزِلُ به منْ عذابٍ وعُسْرٍ، ومَا يَكْفِيهِ مَالُهُ مِنْ أُمُورِهِ حينئذٍ شيئاً.

لَقَدْ وَجدْنَا أغنياء وافِرِي الغنى من الناس، لَمْ تَنفَعْهُمْ أَمْوَالُهُمْ شيئاً،

حينَ نَزَلَتْ بِهِمُ الأُمُورُ الْعَسِيرة منْ أَمْرَاضٍ، أو مصَائبَ في أهْليهم وذويهم ممّا لا يَمْلِكُ دفْعَه ولا رَفْعَهُ إلاَّ اللَّهُ جلّ جلاله.

فكيف بالأمور الْعُسْرَىٰ في البرزخ بين الموت والبعث، وبالأمور الْعُسْرَىٰ في موقف الحشر والحساب وفَصْلِ القضاء، وبالأُمور الْعُسْرَىٰ في جهنّم دَارِ عَذَابِ المجرمين؟!!

❁ ❁ ❁

## (٦)
## التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة

### الآيات من (١٢ ـ ٢١)

قال اللَّهُ عزَّ وَجل:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾.

**تمهيد:**

بالتأملِ العميق يكتشف المتدبّر أنّ هذا الدرس الأخير من دُرُوس السورة الثلاثة، يتضمّن الإجابة على أسئلة تثيرها في أذهان المتفكّرين، قضايا تضمنها الدرسان الأول والثاني من دُروس السورة.

**السؤال الأول المطويّ:**

كيف يعرفُ الناس ما هو مطلوبٌ منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، حتّىٰ تُتَاح لهم الفرصة ليختاروا السلوك الذي يكونون فيه من المفلحين يومَ الدين، يوْمَ الجزاء الأكبر.

وقد جاءت الإجابَةُ على هذا السؤال المطويّ بقول اللّه عزّ وجلّ يتحدّث عن نفسه بضمير المتكلّم العظيم:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

هذه الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ ولام الابتداء المزحلقة لاسم «إنَّ» المتأخر عن خَبَرِها».

لمّا كان من حقّ الموضوع موضع الامتحان، أنْ يُبَيَّن له طَرِيقُ الهُدَىٰ الذي عليه أن يَسْلُكَهُ في رحلة امتحانه، لِيَنْجُوَ من العذاب يوم الدين، وليظْفَرَ بالنَّعِيمِ المقيم في جنّاتِ النعيم، قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ فأبَانَ جلَّ جلالُهُ الْتِزَامَه بدلاَلَة الناس على طريق هُدَاهم إلى الحقّ والخير والنجاح والفلاح، وتَكَفُّلَه به، وأَوْجَبَهُ تبارك وتعالَىٰ على نفسه، مؤكّداً هذا بعدّة مؤكّدات.

وتَتَحقَّقُ هٰذِه الهدايةُ البيانيّة، بإعلامهم بالحقّ والخير والفضيلة، وإبانة طريقِ الْهُدَىٰ لهم، حتَّىٰ لا يكون لهم عُذْرٌ بالجهل، وحتَّى لا يَتَعَلَّلُوا بأَنَّهُمْ لم تبلُغهم بياناتٌ عمّا هو مطلوبٌ منهم في رحلة امتحانهم.

وهذا ما اشتملت عليه البيانات الدّينيَّة، الّتي تُعَرِّف الناس بما هُمْ مطالبونَ بِفِعْلِهِ من خَيْرٍ، وبما هم مطالبون بتركه من شَرٍّ، سواءٌ أكان اعتقاداً، أَمْ خُلُقاً، أَمْ سلوكاً نَفسِيّاً، أمْ سُلوكاً جسَدِيًّا ظاهراً.

وتتالت بعْدَ سُورةِ (اللّيل) البيانات القرآنيّة، والبيانات النبويَّة، في العقائد والأخلاق والعبادات وأنواع السلوك النفسي والظاهر، الّتي بيَّنَتْ للنَّاس طريق هدايتهم، وسُبُل ضلالِهِمْ وانحرافهم.

**السؤال الثاني المطويّ:**

ولمّا كان الحسابُ والجزاءُ حقَّ الخالق الرَّبّ المالك لدار الابتلاء الّتي

هي الأولىٰ، ولدار الحساب والجزاء الَّتي هي الأُخْرىٰ، وكان من التوهُّمات التي قد تقع في النُّفوس اسْتِبْعادُ وُجُودِ حياةٍ أُخْرَىٰ، كان من المناسب بيان أَنّ الرَّبَّ الممتَحِنَ مَالِكَ الحياة الأولىٰ، هو وحده مالِكُ الحياة الأُخْرىٰ، وتَقْضِي حكْمَتُهُ بأَنْ يُحاسِبَ عباده ويُجَازِيَهُمْ في الأُخْرَىٰ، كما ابتلاهُمْ في الأُولى، فقال اللّٰهُ عزَّ وجل:

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

وجاءت هذه الجملَةُ مؤكَّدَة بمؤكدات ثلاثة، كالجملة السابقة.

أي: وإنّ الآخرةَ والأُولَىٰ وَكلَّ ما فيهما، وكلَّ مَنْ فيهما مِلْكٌ لَنا، وجاء التعبير باستعمال ضمير المتكلّم العظيم، والمعنى فَنَحْنُ الممتَحِنُونَ في الأولى، ونَحْنُ المحاسبون والمجازون في الأخرىٰ، ونحن القادرون على إيجاد الأخرى.

**السؤال الثالث المطويّ:**

إذا كانت الحياة الدنيا هي حياة الابتلاء، وكانت الحياة الأخرى هي حياة الحساب وفصل القضاء والجزاء، فَكَيْفَ يكونُ عذابُ الآخرة لِمَنْ كَفَرَ بربِّهِ، ولم يستَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُولِهِ؟

وقد جاء الجوابُ الرّبّاني على هذا السؤال المطويّ بقول اللّه عزّ وجلّ في السّورة:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

**فأنذرتُكُم**: الإنْذارُ هو الإعلام بما هو مُخوفٌ منه مستقبلاً.

**تَلَظَّىٰ**: أصلها: تَتَلَظَّىٰ، أي: تتلَهّبُ. ولَظَىٰ النّار هو لَهَبُها.

**لاَ يَصْلاَها**: أي: لا يَحْتَرِقُ بلَهَبِهَا، يقالُ لغة: صَلِيَ النَّارَ، وَصَلِيَ بِهَا، إذا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

**إلاّ الأشقى**: أي: إلاّ الأكْثَرُ شَقَاءً بسبَبِ كُفْرِهِ عناداً وإصراراً على الباطل وارتكاب الجرائم.

**الّذي كذّب وتَوَلّىٰ**: أي؛ الَّذي كَذَّبَ برسالة الرسول الحسنى، **وتوَلَّىٰ**: أي: وأدْبَرَ مُبْتعِداً عَنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ الرَّبّانِيَّة، فلم يُؤْمِنْ بها، ولَمْ يكْتَرِثْ لِمَا جاءَ فِيها مِنْ بُشْرَيَاتٍ وإِنْذَارَاتٍ.

وَفِي هذا بيانٌ للأشقى وتعريفٌ بِهِ، فالأشقى هو الذي كذّبَ وتولّىٰ.

فالإنْذَارُ بالْحَرِيقِ بالنّار هو لِمَنْ كَفَرَ وعَصَىٰ، وأبَىٰ طاعَةَ رسُولِ اللّهِ، وسُلُوكَ طَرِيقِ الْهُدَىٰ، وتَوَلَّىٰ مُدْبِراً مُبْتَعِداً عن دعوة الرسول.

وهذا النَّصُّ يَدُلُّ على أنّه لا يُقاسِي حَرَّ لَهَبِ النّار، ولاَ يَذُوقُ لَذْعَ سَعِيرِها الملامِسِ للْجَسَدِ إلاّ الأشْقَىٰ، وهو الكافِرُ الْمُجْرِمُ، أمّا مَنْ فيه شقاوَةٌ من دُونِ الكُفْرِ، ولم يبلُغْ دَرَكَةَ الأَشْقَىٰ، فإنَّهُ إذا دَخَلَ النّار بعَدْلِ اللّه، فإنَّه يُعَذَّبُ بأنواعٍ من عذابها غَيْرِ مُلاَمَسَةِ لَهَبِ النَّارِ لِجَسَدِهِ.

إنَّ الصَّلْيَ بلهَبِ النّار هو نَوْع من أنواعٍ كثيرة شديدة وخفيفة من عذاب النار.

فتوهُّمُ المرجئة الغالطين في فهم هذا النصّ آتٍ من أنَّهم لم يُحْسِنُوا تَدَبُّرَ دَلاَلَتِه، فانْحَرَفَ فِكْرُهُمْ عَنِ المعنَىٰ المراد.

**السؤال الرابع المطويّ:**

فكيْفَ يكونُ حالُ من آمَنَ بربِّهِ، واستجاب لدعوة رسوله، فآمَنَ بالرِّسَالة الْحُسْنَىٰ، وأعلن إسلامه؟

وقد جاء الجوابُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ هذا السُّؤَالِ المطويّ، بقول اللّهِ عزّ وجلَّ في السُّورَة:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أيْ: وسَيُجَنَّبُ النَّارَ، ويُبْعَدُ عَنْهَا، فَلاَ يُدْخَلُ فِيهَا، ويُوقَىٰ مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ عَذَابِها، الأَتْقَىٰ.

**الأَتْقَىٰ**: هُوَ الَّذِي بَلَغَ كَمَالَ التَّقْوىٰ، بِفِعْلِ كلِّ ما أوجَبَ اللَّهُ، وَتَرْكِ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، لاَ الَّذِي فيه بَعْضُ التَّقْوىٰ وبَعْضُ الْعِصْيان، أي: فالَّذِي له معاصٍ نَقَصَ بها عن كمال مرتَبَةِ التَّقْوىٰ، فَقَدْ لاَ يُجَنَّبُهَا، بل قَدْ يُعَذَّبُ بِها، إلاَّ أَنَّهُ عَذَابٌ لاَ يَصِلُ إِلَىٰ دَرَكَةِ الصَّلْيِ، بَلْ هُوَ عذابٌ دُونَ ذَلِكَ.

وما دام التوجيه السلوكيُّ في السّورَةِ قَدْ أَعْطَىٰ العناية الكبرى لبذل المال إِلَىٰ مستحقِّيه من المساكين، وذوي الحاجات، كان من المناسِب أن يَصِفَ اللَّهُ عزّ وجلّ الأتقَىٰ بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

**يُؤْتِي مَالَهُ**: أَيْ: يُعْطِي مَالَهُ.

**يَتَزَكَّىٰ**: أي: يتَطَهَّرُ بالعطاء من رذيلة البخل، ومِنْ إثم المعصية، ويَنْمُو بِهِ عند اللّه كمالاً، فالزكاة تدور حول مَعْنَيَي الطهارة والنَّماء.

وقد يُلاحَظُ أَنَّ إدْخال كلمة: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ في عبارة الترغيب في العطاء، خلال هذه المرحلة المبكّرَة من تنزُّلاَتِ القرآن، هو من باب التوطئة لعنوان «الزكاة» الّتي ستُفْرَضُ على المسلمين فيما بَعْدُ.

وجاء قَوْلُ اللّه عزّ وجل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ لبيان أنّ مقتضيات التقوىٰ تُوجب على الباذل لماله الذي يجب عليه أن يبذلَ من ماله ليتزكّىٰ، أنْ لا يجمع بَيْنَ المكافَأةِ عَلَىٰ نِعْمَةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ من أَحَدٍ مِنْ مستحقّي المساعدة الماليّة، وبين الزكاة، وذلِكَ بجعل المكافَأةِ هي زكاة ماله، فالمكافَأةُ يجب أَنْ تكونَ عطاءً مُنفَصِلاً عَن إعطاء الزكاة لِمَنْ يَسْتَحِقُّها.

فالجملَةُ الْقرآنيَّةُ خاصَّةٌ ببيان أَنَّ البذل ابتغاء وجْهِ اللّه لا يصحُّ أن يُدْمَجَ فيه إرادةُ مكافأة المنْعِمِ على إنعامه، وفي بَسْطِ هذا أقول:

وَما لأحَدٍ عندَهُ من نِعْمَةٍ كَانَ قَدْ أَنْعَمَ بها عليه، فَهُوَ يكافِئُهُ ويجازيه على نِعْمَتِهِ، من الّذِين يَبْذُلُ لهم ما يجب عليه أن يَبْذُلَهُ من ماله للفقراء والمساكين وذوي الحاجات.

فإن كان ببذله لما يجب عليه أن يبذُلَهُ من ماله مكافئاً صاحِبَ نِعْمَةٍ عليه، فإنَّهُ لا يُعْتَبَرُ مُؤَدّياً ما فرض اللَّهُ عليه في ماله، فلا يتحقَّقُ بكمال التقوى، وَلاَ يُوصَفُ بوصْفِ الأَتْقَىٰ الّذِي يُؤْتي مالَهُ يَتَزَكَّىٰ، إذْ لاَ يَصِحُّ أنْ يُكافِئ باذِلُ المال ذَا نِعْمَةٍ على إنعامه عليه، ويحتَسِبَهُ من الصَّدَقة الَّتي يُبْتَغَىٰ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، كما لا يَصِحُّ أَنْ يَدْفَعَ أُجرَةَ عَاملٍ يَعْمَلُ عنْدَهُ، ويَحْتَسِبها من الصَّدقة الّتي يجبُ عليه أن يَبْذُلَها.

إنّ صدقَةَ المال لا يَصِحُّ أنْ تكُونَ إلاَّ ابتغاء وجه اللّه عزّ وجل، وقَدْ جاء بيان هذه الحقيقَةِ الدينيَّة مع أوائل التّنزيل، للتنبيه على ضرورة كون العمل الديني خالصاً لوجه اللَّهِ تَعَالَىٰ، ولا سيما كَوْنُ هذا البيان قد كانت له مناسبة كما ذكر المفسّرون، وهيَ أنّ أبا بكر الصّدّيق رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا أعْتَقَ بلالاً رضي اللَّهُ عنه قال المشركون: ما فَعَل أبو بكرٍ ذلِكَ إلاَّ لِيَدٍ كانَتْ لِبِلاَلٍ عِنْدَهُ، فبرّأَ اللَّهُ أبا بكر من هذا، بأسلوب الإيماء، وأثنى على أبي بكر بأنّه يَدْخُل في عُمُومِ الأَتْقَىٰ، إيماءً لا تَصْرِيحاً.

● قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ هُنَا بمَعْنَىٰ «لَكِنْ» أي: وَما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ، لكِنْ يُؤْتِي مَالَهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ، وجاء وَصْفُ الرّبّ بِوَصْفِ الأَعْلَىٰ لدَفْعِ تَوَهُّمِ إطْلاَقِ كلمة «رَبّ» بمعنَىٰ المنعم الذي يَشْمَلُ الْمنْعِمَ من الناس في لغةِ العَرَب، فالمرحلَةُ التي نزلَتْ فيها السّورة مرحلة مبكِّرَةٌ، ولَمْ يَثْبُتْ بَعْدُ في أذهان الناس تخصيصُ الرَّبّ باللَّهِ الخالِقِ جلّ جلاله، مع ما في ختم الآية بلفظ ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ من فَنّيَّةِ مُرَاعَاةِ رؤوسِ الآيات في السّورَة.

● قَوْلُ اللّهِ عزَّ وَجَلَّ في آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وَلَسَوْف في المستقبل البعيد الذي سوف يأتي يَوْمَ الدّينِ يَمْنَحُ اللّهُ عَزّ وجلَّ الأَتْقَىٰ الذي يُؤْتِي مَالَهُ ابتغاء وجه ربّه الأعلَىٰ ثواباً جزيلاً جدّاً، يجعله يَرْضَىٰ كُلَّ الرّضا، حتَّىٰ لا يَجِدَ في تَصَوُّرِهِ شيئاً يطلُبُه من ربّه، إذْ يَنَالُ مَزِيداً من عند رَبِّهِ فَوْقَ كلِّ ما يَشَاء.

**وبهذا انتهى تدبُّر السورة على ما فتح اللّه به**

❁ ❁ ❁

## (٧)
## حول بلاغيات في سورة اللّيل

بفتح من الله استخرجت من سورة «اللّيل» الروائع البلاغيّة الإحدى عشرة التالية:

**الأولى:**

التلاؤم والتناسبُ الفكريُّ بين المعطوف والمعطوف عليه فيما أقسم اللّه به في مَطْلعِ السورة:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾.

فاللّيْلُ والنهار زَوْجَانِ مُتَكاملان في نظام الأرض، والذكر والأُنْثَىٰ زوجان مُتَكاملان أيضاً في نظام الأرض، فعطف خلْقِ الذكر والأُنْثَىٰ في هذا النّصّ على اللّيل إذَا يَغْشَىٰ والنهار إذَا تَجَلّىٰ فيه الجمْعُ بين قسمين متلائمَيْن مُتَنَاسبَيْنِ من الكائنات، وهذا من الإبداعات الفكريّة الجماليّة.

ويدخل هذا تحت ما يُسمَّىٰ «حُسْنَ النَّسَق» عند علماء البديع.

**الثانية:**

حذف معمول الفعل، لغرضَيْن: **الأول**: الإيجاز. **الثاني**: التعميم.

ونلاحظ هذا في فعل: [أَعْطَىٰ] أي: أعطى مقداراً ما من ماله. وفي فعل: [اتَّقَى] أي: اتَّقَىٰ عَذَابَ رَبِّهِ بإعطائه من ماله. وفي فعل: [بَخِلَ] أي: بَخِل ببذْلِ ماله على وجه العموم.

**الثالثة:**

من المحسِّنَاتِ البديعيَّة المعنويّة في السورة (الْجَمْعُ مع التقسيم).

وهو في قول اللّه عزّ وجلّ خطاباً للناس:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾

فالجمع جاء في قوله تعالى خطاباً للناس: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾.

والتقسيم في: ﴿فَأَمَّا﴾ الأولى وما بعدها، وفي ﴿وَأَمَّا﴾ الثانية وما بعدها.

**الرابعة:**

الاستغناء بذكر الصفة عن الموصوف، وهو من الكنايات، وقد جاء هذا الاستغناء:

(١) في قوله تعالى: ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالرسالة الربَّانية الْحُسْنَىٰ.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: للأُمور الْيُسْرَىٰ، ثواباً لمن أعطى واتَّقَىٰ وصدَّقَ بالحسنىٰ.

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: للأمور الْعُسْرَىٰ، عقاباً لمن بَخِلَ واستغنىٰ وكذَّبَ بالْحُسْنَىٰ.

**الخامسة:**

الاستعارة البديعة في فعل: ﴿تَرَدَّىٰ﴾ وأصل هذه الاستعارة تشبيه الكفر وما ينْتُجُ عنه من أعمالٍ سَيِّئَةٍ وجرائم بالتردّي، وهو السقوط من شاهقٍ في مَهْوَاةٍ إلى مصير يكون فيه التمزّقُ، والعذابُ الأليم.

**السادسة:**

اختصار اللَّفظ في كلمة: ﴿تَلَظَّىٰ﴾ فأصْلُها: «تتلظّىٰ».

**السابعة:**

استخدام اللَّفْظِ في مَعْنَيَيْهِ للإيجاز، وهو في قوله تعالى: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ ففعل: «يَتزكَّىٰ» يأتي بمعنى يتكلَّفُ من الأعمال الشّاقة ما يطهِّرُه من أرجاس البخل والمعاصي. ويأتي بمعنى يتكلّف من الأعمال الشَّاقة ما يُنَمِّي به نفسه، وينمّي به درجاته عند ربّه بالطاعات والقربات.

**الثامنة:**

الاعتماد على اللّوازم الفكريّة الّتي يُدْرِكُها المتدبّرُ مِن النَّصّ، وتَرْكُ المتدبّر يفهم بنفسه اللّوازمَ الفكريَّة من الإبداعات القرآنيّة البارزة الكثيرة.

ومنه في السورة فعل [أعطى] الذي يشْمَلُ كلَّ عطاءٍ، حتَّىٰ في معصيةِ اللّه، لكنّ اقتران فعل [أعطى] بفعل: [واتَّقَىٰ] في النَّصّ يدُلُّ باللُّزُوم الذهني على أنّ الإعطاء مقيَّدٌ بطاعة اللّه وبالبعد عن معصيته، إذ البذلُ في معصية الله يتنافَىٰ مع مقتضيات التقوىٰ.

ومنه أيضاً في السورة فعل: ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: وشَعَرَ بالاستغناء عن ربّه فَطَغَىٰ، فتورّط في اقتحام الموبقات وعَدَمِ اتّخاذ ما يقيه من عذاب اللّه، وهذا نقيض التقوى.

**التاسعة:**

بناءُ الكلام على أسئلة مطويَّةٍ تَسْتَثِيرها السّوابقُ في النّصّ في أذهان المتدبِّرين بعُمْق، والإجابةُ عليها، وهذه الأسئلة يتنَبَّهُ إليها المتدبّر المتأنّي اللّمَّاحُ، وبإدْرَاكها ينكشفُ له كثير من الترابط الفكريِّ بَيْنَ فقَرَاتِ السورة.

وقد سبق لدى تدبّر سورة (الليل) التنبيه على عدّة أسئلة مطويَّة، جاءت الإجابة عليها في السورة. وباكتشافها ظهر لنا الترابط البديع بين اللّاحق من دروس السورة، مع السابق منها، وبدون اكتشاف ذلك فقد يرى المتعجّل أنّه لا يوجد بين دروس السورة ترابُطٌ فكريٌّ، بل السورة تشتمل

على موضوعات مُفَكَّكَةٍ غَيْرِ مترابطة، وهذا من قِصَر النظر، والبعد عن حُسْنِ التدبُّرِ الذي أمر اللَّهُ عزّ وجلّ به.

**العاشرة:**

من المحسنات البديعيّة في السورة:

(١) الطباق، في قول اللّه عزّ وجلّ في السورة: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ فالجمْعُ بين الذكر والأنثىٰ فيه «طباق» وهو من المحسنات البديعية المعنويَّة.

(٢) المقابلة، وهي طباقٌ مُتَعَدِّدُ عناصر الفريقين المتقابلَيْن.

فقولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ يُقابِلُه قولُهُ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ يقابله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ «أعْطَىٰ» يقابلُهُ على الضدّ: «بخل» - «واتَّقَىٰ» يقابله ما يلزم منه الضدّ، وهو «وَاسْتَغْنَىٰ» إِذْ يلْزَمُ منه فكرِياً طغيانه وعَدَم تقواه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ... وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

فَمَعْنَى: «صَدَّقَ» يقابلُه: «كذَّب» ومعنى: «لِلْيُسْرَىٰ» يقابله: «لِلْعُسْرَى».

**الحادية عشرة:**

تأكيد اسْتغْرَاق النفي بحرف الجرّ الزائد «مِنْ» في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾.

وفي هذه الآيَةِ الْقَصْرُ الإضافي، أي وما لأحدٍ مِنَ الذين يَبْذُلُ لهم صَدَقَةَ ماله، وليس المقْصُودُ كُلَّ أَحَدٍ من الناس، ولا كُلَّ أَحَدٍ في الوجود.

هذا ما فتح اللّه علي باستخراجه، وقد يأتي من بعدي من يكتَشِفُ من بلاغيّاتِ السورة فَوْقَ هَٰذَا، واللَّهُ أَعْلَمُ.

❁ ❁ ❁

# سُورَةُ الفَجْر

٨٩ مصحف ١٠ نزول

## (١)

# نصّ السورة وما فيها من قراءاتٍ من الفرش

## سورة الفجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا
يَسۡرِ ﴿٤﴾ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ
رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي
ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي
ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ
﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ
لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ

---

٣ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي وَخلف: [وَالْوِتْرِ] بكَسْرِ الواو.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَالْوَتْرِ] بفتح الواو.
وهُمَا لغتان في الكلمة.

٤ ـ قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [إِذَا يَسْرِي] بإثباتِ الياء وصلاً.
● وقرأ ابن كثير، ويعقوب: بإثبات الياء وصلاً ووقفاً.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذف الياء وصلاً ووقفاً.
وهي وجوه من الأداء.

٩ ـ ● قرأ ورش: [بالوادِي] بإثبات الياء وصلاً. وحذفها في الوقف.
● وقرأ البزّي ويعقوب بإثبات الياء وصلاً ووقفاً.
● وقرأ قُنْبُل بإثباتها وصلاً، وروي عنه في الوقف روايتان: الإثبات والحذف.
● وقرأ الباقون بحذف الياء في الوصل والوقف.

فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ
فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا
تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ
أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآۖ إِذَا
دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا
﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ
ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ
عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ
ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي
عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

❁ ❁ ❁

١٦ ـ قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [فَقَدَّر] وقرأ الباقون: [فَقَدر].

١٥ ـ ١٦ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَكْرَمَنِ ـ رَبِّيَ أَهَانَنِ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكان الياء مع مدّها، وأثبت ياء المتكلّم في [أَكْرَمَنِي ـ أَهَانَنِي] وصلاً نافع، وأبو جعفر. وأثبتها وصلاً ووقفاً البزّي ويعقوب. وحذف الياء في الوقف أبو عمرو، وله في الوصل الإثبات والحذف. وقرأ باقي القراء بحذفها مطلقاً.

١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ قرأ بياء الغائِبين في [يُكْرِمُون ـ يَحُضُّون ـ يأكلون ـ يُحبّون] أبو عَمْرو، ويعقوب. وقرأ بتاء الخطاب فيها: نافع، وابن كثير، وابن عامر. وقرأ باقي القراء العشرة [تُكْرِمُونَ ـ تَحَاضُّونَ ـ تأكلون ـ تحبُّونَ].

٢٥ ـ ٢٦ ـ وقرأ: [لاَ يُعَذَّبُ ـ وَلاَ يُوثَقُ] بالمبني للمجهول الكسائي ويعقوب. وقرأ الباقون بالمبني للمعلوم.

## (٢)
## ممّا ورد مما يتعلّق بالسورة

تعدّدت روايات الحديث الذي جاء فيه، أنَّ الرسول ﷺ قال لمعاذٍ رضي الله عنه، حين بلغه أنه يطوّل قراءته في إمامته للناس في الصلاة: «أفَتَّانٌ أَنْتَ يا مُعَاذُ» وأرشده أن يقرأ من قصار السّور، مثل: «سبّح اسم رَبّك الأعلى ـ واللَّيْلِ إذا يغشى ـ» وجاء في بعضها ذكر سورة «الفجر».

❁ ❁ ❁

## (٣)
## دروس سورة «الفجر» ووحدة موضوعها

تشتمل سورة (الفجر) على أربعة دروس ضمن وحدة موضوع:

**الدرس الأوّل:**

يُقْسِمُ الله عزّ وجلّ فيه بأزمنةٍ جرَىٰ فيها إهلاك أُمَم من الأوّلين، بسبب كفرهم وطغيانهم، وتكذيبهم رسُلَ رَبِّهم، والْقَسَمُ بهذه الأزمنة كناية عن الْقَسَم بصِفَاتِ عَدْلِهِ وانتقامه وجبروتِه، وانتصاره لأوليائه المرسلين والذين آمنوا بهم واتّبعوهم، بإهلاك الّذين عادَوْهُم وكادوهم وطغَوْا في الأَرْض وبَغَوْا.

ويَدْخُلُ الْقَسَمُ بِالأَزْمِنَةِ في أساليب التعبير غير المباشر عن المقصود في الكلام.

وبعد الْقَسَمِ بِالأَزْمِنَةِ جاء ذكْرُ بعض الأقوام الذين أُهْلِكُوا فيها.

وجاء في آخر هذا الدرس بيانُ الْمُقْسَم عليه، وهو أنَّ الرَّبَّ الْعَدْلَ المنتقم الجبارَ الذي ينتصر لأوليائه، لَبِالمرصَادِ لكُلّ الأُمَمِ اللاّحِقَةِ إلى أن تقوم الساعة، فمتَىٰ وصَلَتْ أُمَّةٌ إِلَىٰ مثْلِ ما وصَلَتْ إليه الأُمَمُ الّتي سبَقَ

إهْلاَكُهَا أهلكَها اللَّهُ عزَّ وجلّ بحكْمَتِهِ وعَدْلِهِ، ضِمْنَ سُنَّتِهِ العامَّةِ الَّتي لا تَبْدِيلَ لها ولا تحويل.

وقد اشتمل هذا الدرس الأول على الآيات من الآية (الأولى) وحتَّىٰ غاية الآية (١٤).

**الدرس الثاني:**

يُبيّن الله عزّ وجلّ فيه أنّ الحكمة العظمىٰ من بَسْطِ الرزق لبعض عباده، وتضييقه وتقديره على آخرين من عباده، هو امتحان كُلٍّ منهما في ظروف الحياة الدنيا، لكِنَّ معظم الناس يخطئون في فَهْم المراد من بسط الرزق، فيتصَوَّرُونَ أنّه إكرامٌ من ربّهم لهم، لأَنَّهُمْ يستحقّون هذا الإكرام لخصائص في ذواتهم، ويخطئون في فهم المراد من تضييق الرزق وتقديره عليهم، فيتصَوَّرُونَ أنَّهُ إهانةٌ من ربِّهِمْ لهم، وهُمْ لاَ يسْتَحِقُّون هذه الإهانة.

ويختم اللَّهُ هذا الدرس بزَجْرِ الفريقَيْن عن تصَوُّرِهِما المخالفِ للحقيقة بقوله لهم: ﴿كَلَّا﴾.

وهذا الدرس الثاني من السّورة هو قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾.

**الدرس الثالث:**

يوجّه الله عزَّ وجلّ فيه التوبيخ لذوي الأموال الذين يبْسُطُ اللَّهُ لهم الرزق، ليمتحنهم بالبذل لذوي الضرورات والحاجات في مجتمعاتهم كالبؤساء والضعفاء من اليتامى والمساكين، فلا يُؤدُّون ما يجب عليهم في أموالهم لدفع البؤس عن البؤساء، بل يبخلون ويشحّون، وهم مع بخلهم الشديد بما يجب عليهم بذْلُه، تتعلَّقُ نفوسهم بشَرَهٍ لحيازة الأموال الّتي

ليسَتْ تَحتَ أَيْدِيهم من غير كدٍّ ولاَ جهْدٍ، فيتَرَقَّبُونَ مَوْت مُوَرِّثِيهم، ليأكُلُوا التراثَ أكْلاً لمًّا، ويَسُرُّهُمْ ذَلِكَ ولَو كان الهالكون أحبَّ الناس إليهم، ويُحِبُّونَ المال حُبًّا جَمًّا أكْثرَ مِنْ حُبِّهم لِمُوَرِّثِيهم، ولو كانوا من أقرب الناس إليهم، وحُبُّهُمُ الشديد للمال يجعلُهُمْ جَافِي العواطف النبيلة، فلا يُشْعُرونَ بمشاعِرِ ذوي الضرورات والحاجات، ولا يُشَارِكُونَ الناس في آلامهم الناتجة عن الفقر والحاجة إلى المال.

ويختم الله عزّ وجلّ هذا الدرس بزجْرِ هؤلاء الباخلين، الذين يحبّون المال حُبًّا جمًّا، ويمنَعُونَ حقوق ذوي الحقوق في مجتمعهم، وهم مُتَحجِّرو القلوب، فلا تَنْدَىٰ بعاطفة كريمة، فيقولُ الله لهم: ﴿كَلَّا﴾.

وهذا الدرس الثالث من السورة هو قول اللَّهِ عزّ وجلَّ فيها:

﴿. . بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ . .﴾.

**الدرس الرابع وهو الأخير:**

يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عَرْضِ لَقْطَةٍ مِنْ أحداثِ مَا قَبْلَ يَوْمِ الدِّين، ولقَطَاتٍ مِنْ أحداث يَومِ الدين، رغْبَةً في استثارة نُفُوسِ من يريدُ الاستجابة لدعوة الحقّ من المتَلَقِّين، بوسيلتي الترهيب والترغيب، للإيمان بهذا الدين، والعمل بمطالب الله من عباده، في رحلة امتحانهم في ظروف الحياة الدنيا، ومن هذه المطالب ما جاء الاهتمام به، وإبرازه في السّورة من أفعال الخير، وهو الحثُّ على إكرام اليتيم، والحضُّ على إطعام المسكين، إذِ التَّعَاطُفُ والتَّراحُمُ الاجتماعيُّ مِنْ أَوْلَوِيَّاتِ السُّلُوكِ الدِّينيّ، بَعْدَ الإيمانِ باللَّهِ والصَّلاَةِ له، والإخلاص له في الدّعاء والالتجاء.

واقترنَ بالحثّ على إكرام اليتيم، والحضّ على إطعام المسكين، التوجيه للتخفيف من تعلُّقِ النفوسِ بحُبّ الأموال حبًّا جمًّا، الذي يجعل

المتعلّق بها يبْخَلُ، فيمْنَعُ ما يجب عليه بذلُهُ، ممّا يضْمَنُ تكافل أفراد المجتمع وتضامُنَهُمْ.

## موضوع السورة

فالسورة تدور حول إنذار المكذّبين برسالة الرسول ﷺ، وتحذيرهم من إهلاكٍ عاجلٍ في الحياة الدنيا، كما حصل لمكذّبي أهل القرون الأولى، وتَرهيبهم من عذابٍ مؤجّل إلىٰ يوم الدين، ويكونُ ذلك في جهنم دار عذاب المجرمين. معَ ترغيب المستجيبين لدعوة الرسول ﷺ في دخول جنّة الله الّتي أعدها للمتقين فَمَنْ هم أعْلَىٰ مرتبةً منهم، وهم الأبرار والمحسنون.

واختير في السُّورة من أنواع السلوك الإسلاميّ المطلوب مع أوائل تنزيل القرآن توجيه العناية لقضيّة التكافل الاجتماعي، وضرورة حمل الموسّع عليهم في الرزق على أن يبذلُوا من أموالهم، لتحقيق هذا التكافل، ولدفع البؤس عن البؤساء، ومواساة الضعفاء، ورحمتهم بالعون والمساعدة. وفي توجيه العناية في هذه السُّورة لهٰذه القضيّة متابعة لما جاء في سورة (اللّيل) وخُطْوَةٌ مضافة إلى الخطوات الّتي جاءت حول هذا الموضوع في السُّوَرِ السابقة نزولاً، ضِمْنَ سُنَّة البناء المتدرّج في التعليم والتربية والتوجيه والنُّصْحِ والإرشاد.

❃ ❃ ❃

## (٤)
## التدبُّر التحليلي للدرس الأول من السورة
## الآيات من (١ ـ ١٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ

فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾
الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي
الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

## القراءات:

● قرأ حمزة، والكسائيّ، وخلَفٌ: [وَالْوِتْرِ] بِكَسْرِ الواو، وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَالْوَتْرِ﴾ بفَتْحِ الواو، والْوَتْرُ والْوِتْرُ لغتان عربيتان في هذه الكلمة.

● وقرأ نافع، وأبو عَمْروٍ، وأَبُو جَعْفر: [إِذَا يَسْرِي] بإثبات الياء وصْلاً. وقرأ ابنُ كثير، ويَعْقُوب بإثبات الياء وصْلاً ووقفاً. وقرأ باقي القراءِ الْعَشْرَةِ بحذف الياء في الحالين.

وأصْلُ الفعل: «سَرَىٰ يَسْرِي» بإثبات الياء، فيقال لغة: سَرَىٰ اللَّيْلُ يَسْرِي، أي: مضىٰ يَمْضِي. ويقال: سَرَىٰ فلانٌ اللَّيلَ، وسَرَىٰ باللَّيْلِ: أي: قطَعَهُ بالسير. وحذفُ مثل هذه الياء من آخر الكلمة من لهجات العرب، وقد يُخْتارُ حَذْفُها لمراعاة القوافي والسَّجْعات. وحَسُنَ هنا في السورة حذفها لمراعاة رؤوس الآيات.

● وقرأ ورْشٌ: [بِالْوَادِي] بإثبات الياء وصلاً، وبحذفها في الوقف، وقرأ الْبَزّي ويعقوب بإثبات الياء وصلاً ووقفاً، وقرأ قُنْبَلٌ بإثباتها وصلاً، ورُوِيَ عَنْهُ في الوقف روايتان: الإثبات والحذف. وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذف الياء في الحالتين: الوصل والوقف.

وحذف الياء في كلمة «الوادي» نظيرُ حذف الياء في كلمة «يَسْرِي».

❊ ❊ ❊

## المراد بالأزمنة التي أقسَم اللَّهُ بها في السورة:

(١) لم يَرِدْ عن الرسول ﷺ ما يدُلُّ على المراد من هذه الأزمنة الّتي أقْسَم اللَّهُ عزّ وجلّ بها، ولَسْنا مُلْزَمين بالآراء الاجتهاديَّة التي ذكرها أهْلُ التأويل.

(٢) وقد نَظَرْتُ فيما ذكره المفسّرونَ من أقوالٍ اجتهاديّةٍ، فلم أجِدْ فيها قولاً يتضَمَّنُ مُناسبَةً بَيْنَ الأَزْمِنَةِ الّتي أقسم الله بها، وبين الحديث عن إهلاكِ عادٍ وَثَمودَ وفِرْعَوْنَ وجنُودِهِ، فلم يَنْشَرِح صَدْرِي لقولٍ منها.

(٣) ثُمَّ تَتَبَّعْتُ في القرآنِ الأَزمِنَةَ الّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ بها هَؤلاء الأَقْوَامَ وأشباههم، فَظَهَرَت المناسبةُ جَلِيَّةً واضحةً، وتَمَّ لدَيَّ بهذا الترابُطُ بَيْنَ الْمُقْسَمِ بِهِ، والْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، والَّذِينَ أَقْسَمَ اللَّهُ لتَأْكِيدِ إِنْذارِه لهم بالإهْلاَكِ المعجّل في الدنيا.

وفيما يلي بيانُ هذا التتَبُّع:

• لقد أهلك الله عزّ وجلّ عاداً قَوْمَ هودٍ عليه السلام بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية، سَخَّرَهَا عليهم سبْعَ لَيالٍ وثمانيةَ أيّام حُسُوماً، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾:

**بِرِيحٍ صَرْصَرٍ**: أي: بريحٍ بارِدَةٍ ذَات صَوْتٍ شدِيدٍ مخيف.

يقال لغة: صَرْصَرَ: أي: صَاحَ صِيَاحاً شديداً فيه صَرِيرٌ.

**عاتية**: أي: طاغيَة متجاوزة حدَّ الاحتمال، فهي مدمّرة، يقال لغة: عَتَا يعتُو عُتوّاً وعِتِيًّا وعُتِيًّا، أي: طغىٰ واستكبر وجاوز الحدّ، فهو عاتٍ.

**حُسُوماً**: أي: متوالية متتابعة بالشرّ والتعذيب، فهي متوالية التدمير والتعذيب حتَّىٰ تَحْسِمَ مادَّتَهم وتقطَعَ أصلهم، وأصل الْحَسْمِ القطع، يقال: حَسَمَ الْعِرْقَ، أي: قَطَعَهُ وكواه لئلا يسيل الدّم منه.

ولفظ «حُسُوم» جمْعُ «حَاسِم» مثل: شاهد وشُهُود.

لقد كان إهلاك كفَّار عادٍ في ثمانية أيَّام شَفْعٍ، وسَبْعِ ليالٍ وِتْر، ولا بُدَّ أنْ تكون قد بدأَتْ مع فَجْرِ اليوم الأوَّل منها، وانْتَهَتْ مَعَ غُرُوبِ شَمْس اليومِ الثامن منها، فتكُونُ اللَّيالي بينهما سبعاً.

وجاء في النصّ تقديم اللّيالي على الأيّام، لأنَّ اليوم الأَخير اسْتَمَرَّتِ الرّيح العاتية فيه بعد انتهاء اللَّيالي، ولأنّ الإزهابَ بِالبذْءِ بذكْر اللَّيْلِ أَشَدُّ، ولأنّ الفجْرَ الّذِي بدأ عنده تَسْخِيرُ الريح الصَّرْصَرِ العاتية قَدْ كانَ عَقِبَ اللَّيْلِ السَّابقِ لَهُ مُبَاشَرَةً، فأَدَوَاتُ الإهْلاَلِ جاهزَةٌ مُعَدَّةٌ من اللَّيْل.

● وأهْلَكَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ثَمُوداً قَوْمَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السلام بالصَّيْحَةِ مُصْبِحينَ، أي: عند الفجر، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وهكذا كان بَذْءُ إهلاك ثمود قوم النبيّ صالحٍ عليه السلام في وقْتِ الفجر، فاستحَقَّ أن يُقْسِمَ اللَّهُ بِهِ، كِنَايَةً عن صفات عَدْلِهِ وانتقامه وانتصاره لرُسُلِه والذين آمَنُوا معهم، باعتبار أنّه الوقْتَ المختار للبذْءِ بتوجيه أدوات الإهلال والتدمير.

**الحِجْر**: أرض ثمود التي كانوا يسكنُونها: وهي ظاهرة معروفة في طريق المسافر من المدينة إلى تبوك.

● ومن غير المذكورين في السُّورة هنا نُلاحظُ أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ أهْلَكَ قَوْمَ لُوطٍ مُصْبِحينَ، أي: بدأ بتوجيه أدوات إهلاكهم وتدمير بلدانهم، وجعل عاليها سافلها، في وقْتِ الْفَجر.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِمْ حكايةً لمقالة الرُّسُلِ من الملائكة المرسلين لإهلاكهم، لرَسُولِهم لُوطٍ عليه السلام، في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

وقال الله تعالىٰ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن لوطٍ عليه السلام وقومه:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: في وقْت دخولهم في الصَّباحِ. **الصباحُ**: أوَّلُ النهار، وبدْؤُهُ يكُونُ عِنْدَ الفجر. فَبدأ تَعْذِيبُهُمْ مع الفَجْر، واسْتَمرَّ حَتَّىٰ شُرُوق الشمس، فلَمَّا أشرقَتْ الشَّمْسُ أخذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ الْمُهْلِكَة، وقَلَبَ اللَّهُ بلادَهم عالِيَها سافلها، كما قال الله تعالَىٰ في سورة (الحجر) أيضاً:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾:

**السّجيل**: الطين المتحجّر.

● وسار بنو إسرائيل في ليالٍ عَشْرٍ مِنْ أوّل المحرَّم فارِّينَ من فِرْعَوْن

وَجُنُودِه، واتَّجَهُوا مِنْ مَساكِنِهِمْ عِنْدَ النّيل مُتَّجِهِينَ شَطْرَ البَحْرِ الأَحْمَرِ(١)، فلمَّا علم بأمرهم فرعون جَنَّدَ جيشهُ ولحقَ بهِمْ، حتَّىٰ تَراءىٰ الجمعان مُشْرِقين، أي: في وقْتِ شروق الشمس.

وذُعِرَ بنو إسرائيل من جَيْشِ فِرْعَوْنَ بعَدَدِهِ وعُدَّتِهِ، ورأَوْا أنَّهم مَحْصُورون بين عدُوِّهم والبَحْر.

وكادت المواجهة القتاليّة تحدُثُ، ولعلّ اليوم قد كان التاسع من شهر المحرّم، وحطّ الجيش الفرعونيُّ رحالَهُ استعداداً لقتال الإسرائيليين من غدٍ، والإسرائيليُّون لا مَهْرَبَ لهم إلاَّ أن يخوضوا البحر، والهلاك مُحَقَّقٌ فيه لمن خاضه في تصَوُّر فرعون وجيشه، وفي تصَوُّر عامَّةِ الإسرائيليين المذعُورين.

وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فأرسلَ ريحاً باردة شديدة، فشقت البحْرَ، وفلَقَتْهُ إلى شِقَّيْنِ، فكان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم، وجعلَتْهُ جليداً يابساً في مكان الفرق للْعُبُور(٢).

ودخل موسى وهارون عليهما السلام، ومعهما بنو إسرائيل يَعْبرُون

---

(١) جاء في سفر الخروج (١٢) فقرة (٢٧) أنّ بني إسرائيل ارتحلوا من مَدِينَةِ «رَعَمْسِيس» وجاء في قاموس الكتاب المقدّس أنَّ موقعها الآن مدينة «صالحجر» أو «صان الحجر». والبحر الأحمر هو الذي ورد باسم بحر سوف في سفر الخروج.

(٢) جاء في الإصحاح (١٤) من سفر الخروج عند أهل الكتاب ما يلي:
٢١ ومدّ موسَىٰ يَده على البحر، فأجرى الرَّبُّ البحْرَ بريحٍ شرقيَّةٍ شديدَةٍ كُلَّ الليل، وجعل البحر يابسَةً وانْشقَّ الماء ٢٢ فدخل بنو إسرائيل فيِ وسط البحر على اليابسة، والماءُ سورٌ لهم عَنْ يمينهم وعن يسارِهم، ٢٣ وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم، جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر ٢٤ وكان في هَزِيعِ الصبح أنَّ الرَّبَّ أشرَفَ على عسكر المصريين في عمود النار والسّحاب وأزعَجَ عَسْكَرَ المصريّين ٢٥... فقال المصريّون نهرب من إسرائيل. لأنّ الربّ يقاتل المصريّين عنهم. ٢٦ فقال الربُّ لموسى مدّ يدك على البحر ليرجِعَ الماءُ على المصريين على مركباتهم وفرسانهم ٢٧ فمَدَّ موسى يده على البحر فرجع البَحْر عند إقبال الصبح إلى حاله الدّائمة.

البحر، وهالَ فرعونَ وجنُودَه أن يفلَتَ الإسرائيليّون من أيديهم، وأوهموا أنفسهم أنّ الحدث قد كان ظاهرةً طبيعيَّةً تجمَّدَ بها الماء، ولم تكُنْ معجزةً ربَّانيَّةً منحها الله لموسى عليه السلام، فتبعوهم ليلاً، ودخَلُوا وراءهم مكابرين من حيث دخلوا، وانتهىٰ خروج أواخر بني إسرائيل قُبَيْلَ الفجر، واستكمل فرعون وجنوده الدخول في مكان الفَرْقِ من البحر، ملاحقين بني إسرائيل، والبحْرُ جامِدٌ ساكن، وأمَرَ اللَّهُ مُوسَىٰ أن يترُكَ البحْرَ رَهْواً، أي: ساكناً متجمّداً عند مكان العبور، إغراءً للعدوّ الملاحق، ثمَّ أمر الله موسىٰ أَنْ يضْرِبَ بعَصَاهُ البحر، فضربَهُ فذابَ الجليد، والتأم الماء، وغَرِقَ الجيشُ الملاحِقُ كُلُّهُ عند الفجر.

وكانت أحداثُ هذه اللّيالي العشر من أول المحرّم حتَّىٰ العاشر منه، الذي هو يوم الإنقاذ لبني إسرائيل، والإهلاك لفرعون وجنودِه أحداثاً عظيمة تَسْتَحِقُّ أن يُقْسم الله بها، كناية عن صفاتِ عدله، وانتقامه وانتصاره لرُسُلِهِ والَّذِينَ آمَنُوا معهم، باعتبارها الزمن المختار لتحقيق سنّةِ الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.

ومن هذا التتبُّع ندركُ أنّ الْفَجْرَ هو الوقْتُ المختار من العزيز الجبار لبدء توجيه وسائل إهلاك عادٍ، وثمود، وقوم لوطٍ، وفرعون وجنوده.

فهذا الوقت جديرٌ بأن يُقْسِمَ الله به، على تقدير أنّ القسم به هو قَسَمٌ بحكمته في مقادير جزائه وعقابه المعجّل لمستحقّي العقاب في كثير من وقائع إهلاكِهِ لكفّار أهل القرون الأولىٰ.

وبالنظر في نُصوص القرآن نلاحظ أنّ إنْزال البأسِ وإجراء الإهلاك أو التعذيب بَيَاتاً، أي: حين دخول الناس في الليل، ولا سيما في أواخره مع دخول الفجر، أو حين قيلولة الناس وسكونهم بعد الظهر هو السُّنَّةُ المفضّلة في مقادير الله للإهلاك، وقد يكون في وقْتِ الضحىٰ وهم يلعبون.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾:

**بياتاً**: أي: وهم داخلون في اللّيل، وربّما يكونون نائمين فيه.

**قائلون**: أي: وهم نائمون في وقت القيلولة.

وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

❀ ❀ ❀

• ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾: قَسَمٌ بِوَقْتِ انبِعَاث نور الصبح لانتهاء اللّيل وبَدْءِ النهار. وهو الوقت الذي بدأ فيه إنْزَالُ بأس الله، لإهلاك عَدَدٍ من الأمم الّتي كذَّبَتْ رُسُلَ ربّها، وطغَتْ وبغَتْ، كما سبق بيانه.

• ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ هي فيما ظهر لي العشر الأوائل منْ شهْرِ المحرَّم، الّتي سار فيها بنو إسرائيل بقيادة موسى وهارون عليهما السلام، خارجين من مصر في اتّجاه البحر الأحمر إلى سيناء، كما سبق بيانه، وقد أقسم الله بها.

وحذفت الياءُ من ليالي للتنوين، تخلُّصاً من اجتماع ساكِنَيْن كما هي القاعدة.

• ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾: **الشَّفْعُ** في اللُّغَةِ: مَا كانَ عَدَدُه زَوْجاً. **والوَتْر**: مَا كان عدَدُه فرداً. وقد ظهر لي أن المراد سبْعُ اللَّيالي وثمانية الأيّام التي أهلك الله فيها عاداً بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية، سَخّرَها عليهم متتابعةً حُسُوماً، وقد أقسم الله بها، كما سبق بيانه.

• ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾: إِذَا يَسْرِي بإثبات الياء أو حذفها، أيْ: إِذَا

يَمْضي شيئاً فشيئاً، إِذْ قَدْ يكُونُ هو الوقْتَ المختار لإنزال بأس الله في الذين يقضي اللَّهُ بإهلاكهم من أُمَمِ الكُفرِ، وكم من قَرْيَةٍ كَفَرَ أَهْلُهَا وَظَلَمُوا وطَغَوْا وَبَغَوْا فجاءَهُمْ بَأْسُ اللَّهِ بَيَاتاً، وهم نائمون ليلاً.

يَسْرِي: أي: يمضي. وقد يكون من فعل «سَرَىٰ فلانٌ يَسْرِي» إذا مَشَىٰ ليلاً، وجاء وصف اللّيل هنا بأنّه يَسْرِي على معنَىٰ أنَّهُ يُسْرَىٰ فيه، كما يقال: نهارُهُ صائم، ولَيْلُهُ قائم.

وهذا من المجاز العقلي، كما يقولُ كثيرٌ من علماء البلاغة، إذ جاء فيه إسناد الفعل إلى زمن فعلِ الفاعل، لا إلى الفاعل نفسه[1].

وفي الْقَسَمِ باللّيل إذا يَسْرِي إشارةٌ إلى تَبْيِيتِ الله الناس بالعذاب، إذا حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب، لأنَّ اللَّيل هو الوقْتُ الذي يكثُرُ اختيار اللَّهُ له، ولا سيما أَواخِرُهُ، ومَعَ انبعَاثِ الْفَجْرِ، لِإِنْزَالِ العذاب وإهْلاكِ مَنْ قَضَىٰ اللَّهُ بإهلاكِهِمْ.

وفي هذا الْقَسَمِ وَعيدٌ للمجرمين المكذبين برسالة رسول اللَّهِ، الَّذِين يعْمَلُونَ على اضطهَادِ المؤمنين وتَعْذِيبهِمْ والإفساد في الأَرْض، بأَنَّهُمْ يُعَرِّضونَ أنفُسَهُمْ لِإِنْزَالِ عقابِ الله فيهم، وإهلاكهم كَمَا أَهْلَكَ نُظَراءَهم من مُجْرِمي القرون الأُولَىٰ.

ودلَّ على الوعيد استعمال لفظ «إِذَا» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ فهو ظرفٌ لما يُستقبَلُ من الزمن.

أي: فَسُنَّةُ اللَّهِ في تبْيِيت الْمُجْرمين بالمعذِّبات والمهلكات سُنَّةٌ ثابتَةٌ، يجري تنفيذها كلَّما قَضَتْ حكمةُ اللَّهِ بإهلاك مجرمين لاحقين، إلى أَنْ تقومَ

---

(١) انظر «تقسيم الإسناد في الجملة إلى حقيقي ومجازي» في كتاب: «البلاغة العربية» للمؤلف ج(١) ص(١٩٤).

السَّاعَة، فتسْرِي وسائل وأدواتُ الإهلاك ليْلًا، كالرِّيح المدمِّرة، والبراكين المتفجِّرَة، والزلازل الْمُحْدِثَةِ للخراب، والفيضانات الآتيات بالعذاب، والنيران المحرقة، والسُّيول المغرقة، فيَصُبُّ اللَّهُ بها عذابَهُ على المجرمين، أثناء اللَّيْلِ، أوْ مَعَ الْفَجْرِ والإصباح، وعند الشروق وهم نائمون.

إنَّ الْقَسَمَ بأحداثِ إهلاكٍ سبَقَتْ، وأحداثِ إهلاكٍ يُنْذِرُ اللَّهُ بإيقاعها مستقبلًا على المجرمين، قَسَمٌ بأمْرٍ عظيم مُخِيفٍ، مَهُولٍ جدًّا، وهو يُنَبِّهُ ذَا الحِجْرِ على الخطر العظيم، فيجعله يَحْجُرُ على أهوائه وشهواته وَكِبْرِهِ وكلِّ نوازِعِهِ وَنَوَازِعِهِ الجانِحَة، بإرادة عاقِلَةٍ رشيدة، فَيُؤْمِنُ باللَّهِ وَبِرُسُلِهِ، وبكُلِّ ما جاء عن اللَّهِ من بيان وتكليف، ويؤمِنُ بالجزاء وبيومِ الدِّين، ويتَّبعُ سبيل الْهُدَىٰ ضِمْنَ حُدُودِ استطاعَتِه.

● ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾:

**الحِجْرُ**: هو العَقْلُ، وسُمِّيَ حِجْراً لأنَّهُ يَحْجُرُ أهواءَ صاحِبِهِ وغَرَائِزَه وشهواته، ويَعْقِلُهَا بإرَادَةٍ قَوِيَّةٍ حازِمَةٍ عاقِلَةٍ رشيدة، حتَّىٰ لا تَسُوقَهُ إلى الموبقات، وتدفَعُ به إلى المهالك.

**«هل»** حرفُ استفهامٍ موضوعٌ للتَّصْدِيقِ الإيجابيّ(١).

والاستفهامُ هنا خارجٌ عن حقيقته وهو طلبُ الفهم، والغرض منه هنا التقرير، ويُسمَّىٰ عند البلاغيين استفهاماً تقريرياً، والمرادُ به حمل المخاطب على الإقرارِ والاعترافِ بأمْرٍ يعْلَمُهُ، أو يَشْعُرُ به.

فذو الْحِجْرِ يقول: إنَّ الْقَسَمَ بأزمِنَةِ إهْلَاكِ اللَّهِ العزيزِ الجبَّارِ

---

(١) **التصديق**: هو إدراكُ النسبة الحكميَّة في الجملة، فلا يستفهم بحرف «هل» عن المفرد، **والإيجابي**: ضدُّهُ السلبي وهو المنفي، فلا يصحُّ أن يقال: هل لم يأتِ العيد، ولا هل لم يُرَ هلال شوال، بل تستعمل الهمزة في الجملة المنفية.

للمجرمين سابقاً ولاحِقاً قَسَمٌ عظيمٌ مَهُولٌ، فيه وعيدٌ شدِيدٌ، لِمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لدَعْوَةِ الْحَقِّ، ولم يَتَبِعْ صِرَاط الله المستقيم، الذي جاء به دِينُ الله للناس أجمعين.

وقد أقْسَمَ الله عَزّ وجل بهذه الأزمنة توطئةً لعَرْضِ إهلاكه لعادٍ وثمود وفرعون وجنوده، تحذيراً للمشركين في عصر الرسول محمد ﷺ، من أن يُنْزِل اللَّهُ بهم مِثْلَ ما أنزل بالذين سلفوا، إذا وصلوا إلى مثل الحال الّتي وصلَ إليها السابقون المهلَكون.

❁ ❁ ❁

● ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾؟!.

الاستفهامُ هنا خارجٌ عن أصل دلالته، وهو طَلَبُ الإفْهَامِ أو الإعلام، والمراد به التقريرُ، أو التلويمُ والإنكار، وهو موجَّهٌ للمكذِّب الجاحد المنكر لرسالة الرسول.

فعلى معنى التقرير يُرادُ بالاستفهام حمْلُ المخاطَب على الإقرار والاعتراف بعلمه بما فعل الربُّ جلَّ جلالُهُ بهؤلاء القوم.

وعلى معنى التلويم والإنكار فالمرادُ به تحميله مسؤوليَّةَ المؤاخَذَةِ على عَدَمِ اتّعاظه بما يَعْلَمُ من سُنَّةِ اللَّهِ في إهلاك الكافرين المكذبين، المعاندين المجرمين العاملين على قَمْعِ دعوات رسل الله، واضطهاد الّذين آمَنُوا بهم.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾؟: أي: ألم تَعْلَم، فالرُّؤيَةُ على هذا رؤيَةٌ علمية. ولا مانع من حَمْلِهَا على الرُّؤية البصَرِيَّةِ أيضاً إشارة إلى أنّ بإمكان الرائي أن يَرَىٰ أرضهم وديارهم، ويَشهَدَ ما حلَّ فيها من دمار واعظٍ لمَنْ أرادَ أنْ يَتَّعِظ. وعَادٌ قبيلة من القبائل العربيّةِ البائدة، وهم من ذُرّيةِ من نجا مع نوحٍ عليه السلام، وهي مسمّاة باسم جدّها عاد.

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾: إِرَم: اسم بلاد عادٍ، وإِرَم: هو في الأصل اسمُ جدِّ عاد، فهو كما يذكرُون واللَّهُ أعلَمُ: عادُ بْنُ عُوص بن إرَم بن سام بن نوحٍ نبيّ اللَّهِ ورسوله عليه السلام.

وأُطْلِقَ لفظ «إِرَمَ» على قبيلةٍ مِنْها عادُ الأولى، وهي منْحَدِرَةٌ من جدِّها: «إرم بْنِ سَام». وهي قبيلةٌ من قبائل الْعَرَبِ البائدة، وهذه هي المرادة هنا.

وتوجد «عادٌ» ثانيةٌ، يقالُ: إنَّها مَنْ بَقِي من عاد الأولى، وهم ذُرّية من آمنوا بهُودٍ عليه السلام، أو من كانوا بعيدين عن مواطن إهلاك قومهم.

وجاء وصف «إِرَم» بأنّها ذات العماد، إشارة إلى أنَّهُمْ كانوا يقيمون مساكنهم على أعمدة.

و ﴿ذَاتِ﴾ إمّا وصْفٌ للبلاد، أو وصفٌ للقبيلة، فعلَىٰ أنَّها وصف للبلاد، فالمعنى أنّ بلاد إِرَم هي البلادُ ذاتُ العِمَاد، أي: المتميّزةُ بهذا الوصف. وعلى أنها وصف للقبيلة، فالمعنى أنّ قبيلة إرمَ قبيلة مشهورة ومعروفة في زمانها بأنها ذات العماد.

﴿ٱلْعِمَادِ﴾: لفظة تأتي بمعنى الخشبة الّتي تقوم عليها الخيمة، فهي على هذا مفرد، وتأتي جمعاً للعِمَادَةِ، وهي الأبنية المرتفعة، وأهْلُ الْعِمَادِ هُمْ أصْحَابُ الأَبْنِيَةِ العالية الرّفيعة، وهذا الْمَعْنَىٰ هو المعنىٰ الملائم الذي جعل قبيلة إِرَم تَتَمَيَّزُ بين قبائل عصرها بأنّها ذَاتُ العماد، إذْ جاء التعريف بـ «أل» في العماد، لبيان تميُّزِها وَتَفَوُّقِها بأبنيتها العالية الرفيعة بين القبائل الساكنة في البلاد العربيّة.

وربما كانت متفوقة بارتفاع أعمدة خيامها والله أعلم.

ولا أساس للأساطير التي يرويها القصّاصُونَ عن مساكن عادٍ في الأحقاف[١].

---

(١) تقع الأحقاف في مكانٍ من الربع الخالي الآن في شبه الجزيرة العربية.

• ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾: قال المفسّرون: الضمير في: ﴿مِثْلُهَا﴾ يعود على «عاد» التي يُطْلَقُ عليها أيضاً لفظُ: «إرَم»، أي: لم يُخْلَقْ مثل قبيلة عادٍ في بلاد الدُّنيا، لأنّهم كانوا طِوالاً أشدّاء أقوياء، أو في البلاد العربية، والأوّل أظهر والله أعلم.

• ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾: وَقُرِئَ في المتواتر [بِالْوادِي] بإثباتِ الياء المحذوفة اختصاراً ولمراعاة رؤوس الآيات، في قراءة من رواها بالحذف.

[ثَمُود] هم قوم النبيّ الرسول صالحِ عليه السلام، وهي قبيلةٌ عربيّة من القبائل البائدة. وكانت مساكنهم في وادي القُرى، الذي فيه مداين صالح المعروفة، وفيها آثارٌ باقية.

﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾: أي: قَطَعُوا الصَّخر، يقال لغة: جَابَ فُلانٌ الشيْءَ، أي: قطعه، ويُطْلَقُ على قَطْعِ وسَطِ الشَّيْءِ. وعلى خَرْقِه. ويقال: جابَ الصَّخْرَ، أي: نَقَبَهُ.

وآثار «ثمود» في مداين صالح تَدُلُّ على أنّهم كانوا ينقبون الجبال، ويتّخذون لأنفسهم فيها بيوتاً.

• ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾: أي: وفرعون ذي المباني العظيمة التي تُشبه الأوتاد (أي: الجبال) وقد كان للفراعنة اهتمامٌ ببناء الأهرامات التي تشبه الجبال في ارتفاعها، وقد يكون التعبير كناية عن قوّته وتمكُّنِهِ في سلطانه.

وجاء هنا ذكر «فرعون» دُون ذكر قومه، إشارةً إِلَىٰ أَنّه استخفَّ قَوْمَهُ فأطاعوه، فكان هو كُلَّ قومه، إذْ كانوا بمثابةِ الملْحَقِين بأطرافه، فلا أَمْرَ إلاّ أَمْرُه، ولا رأيَ إلاّ رأيُه.

• ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾:

هذا وصْفٌ لعادٍ وثمودَ وفرعَوْنَ وقَوْمِهِ، فكُلٌّ هؤلاء قَدْ طَغَوْا في البلاد، وأكْثَروا فيها الفساد، بظُلْمِهم وعدوانهم وسَيِّئَاتِ أعمالهم.

**الطغيان**: تجاوُزُ الحدّ المقبول أو المحتَمَل، إلى مستوى الإضرارِ الفاحش والإفساد الكثير، والظُّلْم والجَوْر والبغي والعدوان.

يقال لغة: طَغَىٰ يَطْغَىٰ طَغياً وطُغْيَاناً، أي: جاوز الحدّ المقبول، وطغى الماء، إذا فاض وتجاوز الحدَّ فأفسد.

**الفساد**: التلَفُ، والعَطَبُ، وتحوُّلُ الشيء من كونه صالحاً نافعاً، إلى كونه غير صالح ولا نافع، بل رُبَّما يصيرُ ضارّاً كريهاً مفسداً للأشياء الصالحة. يقالُ لغة: فَسَدَ اللَّحْمُ إذا أنْتَنَ وصارَ ضارّاً، وكذلك كلُّ شيءٍ يتحوّلُ إلى كونه مؤذياً أو ضارّاً فقد فَسَد.

● ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾:

يقالُ لُغَةً: صَبَّ فُلَانٌ الماءَ على الأَرْضِ مثلاً، إذا سكَبَهُ وأَفْرَغَهُ دُفْعَةً واحدة من الإناء الذي هو فيه. فالصَّبُّ جعْلُ الشَّيْءِ يتهاوىٰ من عُلْوٍ بتتابُعٍ على أكثر ما لديْهِ من انْدِفاع وسُرْعَةٍ.

**والسَّوْط**: هو ما يُضْرَبُ بِهِ منْ جلْدٍ للتَّعذِيب.

في هذه الآية استعارة فِعْلِ «صَبَّ» للدلالة على إنزالِ العذاب بتتابُعٍ وعُنفٍ كما يُصَبُّ الماء من الإناء علَىٰ رؤوس الذين يُصَبُّ عليهم، واسْتعارةُ لفظ «سَوْطٍ» للأدوات الرّبّانيَّة الَّتي أهلَكَ اللَّهُ بها هؤلاء الأَقوام، إذْ شُبِّهَ إنْزَالُ العذَاب عليهم بتتابُعٍ بحركَةِ الصَّبِّ، وَشُبِّهَتْ أَدواتُ التعذيب الرّبّانيّة بالسَّوْط. وأضيفَ لفظ «سَوْطٍ» إلى كلمة «عَذَابٍ» لبيان أنّ إهلاكهم لم يكُنْ مجرَّدَ إماتَةٍ لم تقْتَرِن بشُعورِهِمْ بآلَامِ العذاب النازل عليهم، بل كانت مقرونةً بإذَاقتهم عذاباً شديداً.

وبهذا استكْمَلَتِ الصورَةُ تعبيراتها المقصودة بالبيان.

هذا أوّلُ عَرْض قرآنيٍّ نَزَل بشأن إهلاكِ أُمَم ماضيَةٍ كذّبت رُسُلَ ربّها، وطغت في البلاد، وأكثرت في الأرض الفساد، وهو عرضٌ موجزٌ غاية الإيجاز، ثمّ نزلت في القرآن بعد هذا تفصيلاتٌ متتابعاتٌ، كلٌّ منها يلائم المناسبة التي ورد بشأنها.

● ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾:

هذا هو الْمُقسَمُ عليه في السورة، إذْ بدأَتْ بالْقَسَمِ بالفجر، وليالٍ عشر، والشَّفْعِ والوَتْرِ، واللّيْلِ إذا يَسْرِ.

**الْمِرْصَادُ**: هو مَكانُ الرَّصْدِ أو طريقُه، الرَّصْدُ هو المراقبةُ التامَّةُ لأمْرٍ ما، دون سَهْوٍ أو غفلة، لئلا تَمُرَّ لحظات يفْلَتُ فيها المرصودُ ويخْرُج عن سَاحَةِ المراقبة.

فراصِدُ النجم يُتابعُ حركَتَه وظهوره واختفاءه، والأسَدُ يرصُدُ فريسته، والْحُرّاسُ يَرْصُدُون الطرقات من حولهم يترقّبُون، حتَّىٰ لاَ يُداهِمَ المحروسَ عدُوٌّ أوْ لِصٌّ.

وهذا التّعبير القرآنيُّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ كنَايَةٌ عَنْ مُرَاقَبةِ اللّهِ للمجرمين دواماً، في كلّ الأزمانِ حتَّىٰ أقْصَرِ وَحَدَاتِها وأصغرها، مع شمولِ عِلْمِه لكلّ حركةٍ وسَكَنَةٍ من حركاتهم وسكناتهم، وبما أنّهُ حكيمٌ عَدْلٌ مُنتَقِمٌ جبَّارٌ، ولَهُ سُنَّةٌ في عبادِه ثابتَةٌ لاَ تبديلَ لَهَا وَلا تحويلَ فيها، كما جاء التصريح به فيما نزل من قرآنٍ بعد هذا في عِدَّة سُوَر، فإنَّهُ سيُنْزِلُ عذابَهُ وإهلاكَهُ على المجرمين اللاّحقين، كما أنزله على المجرمين السابقين.

وفي هذا إلماحٌ إلى إنذارٍ ووعيدٍ بعذابٍ وإهلاكٍ لكلّ المجرمين، متَىٰ وصلَتْ حالتهم إلى مثل الحالة التي وصل إليها المعذّبون المهلكون الغابرون.

## (٥)
# التدبُّر التحليلي للدرس الثاني من السورة

## الآيتان: (١٥ و ١٦) وكلمة «كلَّا» من الآية (١٧)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا . . .﴾.

**القراءات:**

● وقُرِئ: [أكرمَنِي] بإثباتِ ياء المتكلم. وقُرِئ: [أَهَانَنِي] أيضاً بإثبات ياء المتكلم.

● وقُرِئ: [فَقَدَّرَ عَلَيْهِ] بتَشْدِيد الدّال. وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذْ من النّاسِ مَنْ يضَيِّقُ اللَّهُ عليه الرزقَ تضييقاً غَيْرَ شدِيدٍ، وقد دلَّت على هذا قِراءَةُ: [قَدَرَ] ومن الناس من يُضَيِّقُ اللَّهُ عليه الرّزْقَ تضييقاً شديداً، وقد دلَّتْ على هذا قَراءَةُ [قَدَّرَ] بتشديد الدال، إذْ زيادة المبنىٰ بالتضعيف هنا تَدُلُّ على الزيادة في المعنى.

يُقَالُ لغة: قَدَرَ اللَّهُ على فُلَانٍ الرّزْقَ، وَقَدَّرَهُ، إذا ضيَّقَهُ وقلَّلَهُ عَنْ حاجته وحاجَةِ عياله، وهذا أحد معاني هذا الفعل.

❁ ❁ ❁

**تمهيد:**

في هذا الدرس بيان خطأ النّاس في مفهوماتهم حول قضيَّة بسْطِ الله الرزق على بعض عباده، وَتضييقه الرّزق على آخرين، مع بيان حكمة الله في ذلك، وهي ابتلاء كلِّ فريقٍ منهما بما يلائم خصائصه النفسيَّة التي فَطَرهُ الله عليها.

وقد يمتحن الله بعض عباده بالتضييق فالبسط، أو بالبسط فالتضييق، وقد يجعل بعض عباده يتقلَّبُ بين البسط والتضييق.

وامتحان الإنسان مُتَابَعٌ بِرَصْدِ تصرُّفاته الكواشِف لبواطنه، وتسجيلها عليه، تمهيداً لمحاسبته فمجازاته يوم الدين.

إنّ الامتحان ببسط الأرزاق والسَّعَةِ في امتلاك الأموال، أو بتَضييقها وتقليلها، امتحانٌ صعْبٌ، وهو من أكثر الامتحانات كشفاً لكوامن النفوس، ولتوجُّهِ الإرادات الحرَّةِ في اختياراتها الدافعات إلى السَّيْر في طريق الخير، أو السَّيْر في طريق الشّر، أو التردُّد بينهما في مسيرة الحياة، أو الانحراف ثم الاستقامة، أو العكس.

وفي هذا الدرس من سورة (الفجر) متابعة لسلسلة الحديث عن الأموال، وواجب الإنسان الممتحن في الحياة الدنيا تجاهها، الّذي تعرّضت له سُوَرُ «العلق، والمدثر، والأعلى، واللّيل» فيما سبق من تنزيل.

- ففي سورة (العلق) جاء بيان أنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.

- وفي سورة (المدّثر) جاء بيان أن من أسباب التعذيب في سقر يوم الدين عدم إطعام المسكين.

- وفي سورة (الأعلى) جاء إلماح ضمني إلى حرص الناس على المال وشُحّهم به، ضمن قضيّةٍ عامّة، وهي بيان أنّهم يؤثرون الحياة الدنيا.

- وفي سورة (الليل) برز التّوجيه بقوّة للعطاء الماليّ، المبني على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر، والتحذيرُ من البخل وإمساك المال عن مستحقّيه.

❁ ❁ ❁

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾:

الفاء في: ﴿فَأَمَّا﴾ دلّت على أنّ ما بعدها مفرَّع عن شيءٍ جاء بيانه في الدرس الأول من السُّورة.

وبالتأمُّل يظهر لنا أنّ قول الله عزّ وجلّ في آخر الدرس الأول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ دلَّ على أنّ الناس لو لم يكونوا موضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان لَمَا كان اللَّهُ لهم بالمرصاد.

وكون الناس موضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، يقتضي أنْ يكونوا ممتحنين بقضيّة بَسْطِ الرزق وتوسعته، أبو بتضييقه وتقليله، وذلك بحسب خصائصهم النفسيّة الّتي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عليها، ضِمْنَ أمُور كثيرة جدًّا امتحنهم الله ويمتحنُهُمْ بها، ولكنَّ البيان هنا وجّهَ العناية لقضية الأرْزاق لأهمّيتها عند الناس، وللحاجة إليها دواماً، ولأنّ بذل المال ابتغاء مرضاة الله من المطالب الأولى في سلوك الإنسان المؤمن المسلم، ويأتي بعد الصلاة لله مباشرة.

أي: فتفريعاً على كون الناس ممتحنين بكُلِّ عطاءٍ من اللَّهِ أَوْ مَنْعٍ في ظروف الحياة الدنيا، يُشَاهِدُ المتتبّع الخبير أَنَّ الناسَ غافلون عن حكمةِ اللَّهِ في ابتلاء الناس، ويتوهَّمُونَ أَنَّ توسعةَ الرزقِ لبعض الناس تكريمٌ من اللَّهِ لهم، وأَنّ تضييقه على بعض عباده إهانَةٌ من اللَّهِ لهم.

وكلمة: [أمّا] حَرْفٌ فيه معنى الشرط والتوكيد دائماً، وفيه معنى التفصيل غالباً، وتُكرَّرُ كثيراً حينما تحمل معنى التفصيل، كما جاء هنا في السورة.

إنّ الحكمة من الْبَسْطِ والتَّضْيِيقِ هي الابتلاء، أي: الامتحان والاختبار. لكِنَّ الإنسان أخطأَ الفهْمَ عن الله، وأخطأَ في تعليل تصاريفه في خَلْقِهِ، فأَبْعَدَ عن ذِهْنِهِ حِكْمَةَ الامتحان وقَدَّمَ من تَوَهُّمِه تَعْلِيلاً تفصيليًّا آخر، فزعَمَ أَنَّ بَسْطَ الرّزقِ تكريمٌ من اللَّهِ لعَبْدِهِ، وأَنَّ تَضْيِيقَهُ إهانَةٌ من الله له.

وكلا التوهُّمَيْنِ باطلٌ يَسْتَحِقُّ صاحبُهُ عليه الزَّجْر والرَّدْعَ.

والمرادُ من الإنسانِ الجنسُ الَّذي ينطَبِقُ على معظم أفراده، ولا يُرادُ به مَنْ آمَنَ بالله وأسْلَمَ له، وفَهِمَ حقيقةَ حِكْمَةِ اللَّهِ في عطائه ومَنْعِه، ونِعَمِهِ وَمصائبه، في ظروف الحياة الدنيا، وأنَّ القاعدة العريضة في كلّ ذلِكَ الابتلاء، فهذا الإنسانُ لا يجري وراء توَهُّمَاته، فَلَا يقول مقالة الجاهلين.

ولا تشمَلُ عبارة (الإنسان) هنا الكافر والملحد الذي يرى أنه نال أمواله بعلمه ومهارته، أو بمصادفة حظ.

● ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: أي: إذا امْتَحَنَهُ اللَّهُ رَبُّه المهيْمِنُ عليه بسُلْطانِ رُبُوبيّتِهِ، و «ما» بعد إذا تأكيديَّةٌ لمعنى الشرط، أو لفعل الشرط.

مادة الابتلاء تدُلُّ في أصل معناها على الامتحان والاختيار، لكشف ما لدى المبتَلَىٰ من صفاتٍ كامناتٍ، بعَملٍ إراديٍّ ذي أثر يُدْرَكُ في النفس، أو في حركات وتصَرُّفاتِ الْجَسَدِ الإراديَّة، ويكون الابتلاء بالنعم وبالمصائب.

● ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾: **فأكْرَمَهُ**: أي: فجعَلَهُ بعطاءاته له مترفِّعاً عن الحاجة إلى الناس، واستجداء صدقاتهم ومعوناتهم.

**ونَعَّمهُ**: أي: جعلَهُ يتنَعَّمُ بما أعطاه من وسائل التَّرَفُّهِ في الحياة الدنيا، يقال لغة: نَعَّمَ الله الإنسانَ، أي: أفاض عليه نِعماً وأَرزاقاً وخيراتٍ، جعلَتْهُ يستمتع بلذَّاتها في حياته.

ومن فعلي: «أكرمه ونعَّمَهُ» ومقابلتهما بقوله: [وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ] نفهم أنّ المراد وسَّعَ له رزقه.

● ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وفي قراءة [أَكْرَمَنِي]: أي: أعطاني ما أَنَا لَهُ أهْلٌ مِنْ تكريمٍ وتعظيم ومكانةٍ عالية.

يقال لغة: أكْرَمَ فُلَانٌ فلاناً إذا عظَّمَهُ وَنَزَّهَهُ وَشَرَّفه. والعبارة تَدُلُّ بإيحائها على أنّ القائل يَشْعُر باستحقاقه لهذا التكريم.

● ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ وقُرِئ: [فقدَّر] وقد سبق بيان تكامل القراءتين في الدلالة على المراد.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾: سبق شرح نظيرها.

﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾: أي: فضيَّق عليه رزقه ولم يَبْسُطْهُ له.

﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ وفي قراءة [أَهَانَنِي] بإثبات ياء المتكلّم.

**أهانني**: أي: أَذَلَّنِي. وهذه العبارة تَدُلُّ بإيحائها المستفاد من القرائن في النّصّ، على أَنَّ قائلها يَشْعُرُ بأَنَّ ربَّهُ ظلمه فلم يُعْطِهِ ما هو له أهل.

﴿كَلَّاۖ﴾: أداةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، ويجوز الوقوف عندها في كُلِّ الأحوال. وقد جيء بها لزجْرِ ورَدْعِ صاحِبَي المقالتين.

والمعنى: لا بَسْطُ الرزق للإنسان تكريمٌ له، ولا تضييقُه عليه إهانة له، بل كُلٌّ منهما لابتلاء الإنسان وامتحانه في ظروف الحياة الدّنيا. فيا صاحِبَ المقالة الأولى، ويا صاحِبَ المقالة الثانية، كُفَّا وامْتَنِعَا عن مقالَتَيْكُمَا، فهي مقالةٌ باطلةٌ لا أَساس لها من الصِّحَّة، إنَّ الله ليس بينه وبين أحد من عباده نَسَبٌ ولا قرابة ولا مصاهرة، فلا يُحَابِي فريقاً منهم ببسط الرزق، ولا يَجُورُ على فريقٍ منهم بتضييقه عليه.

❊ ❊ ❊

## (٦)
## التدبر التحليليّ للدرس الثالث من السورة

### الآيات من (١٧ ـ ٢٠) وكلمة «كلَّا» من الآية (٢١)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿.. بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ ..﴾.

**القراءات:**

- وقُرِئ: [يُكْرِمُونَ ـ يَحُضُّون ـ يَأْكُلُونَ ـ يُحِبُّون] بياء الغائِبين.
- وقُرِئ: [تَحُضُّونَ] كما قُرِئ: [تَحَاضُّونَ] وبين هاتين القراءتين تكامل في المعنى، فَتَحُضُّونَ ليس فيه معنى المشاركة في الحضّ، وهذا يناسِبُ حال أصحاب القيادة الفكريّة في مجتمعهم الذين يَنْصَحون العامة، وتَحَاضُّونَ فيه معنى المشاركة، وهذا يناسب أحوال الناس بشكل عامّ.

وبين القراءتَيْنِ التي بتاء الخطاب وبياء الغائب تكامل بياني، إذْ الخطاب يلائم فريقاً من الناس، والحديث عن الغائب يلائم فريقاً آخر من الناس، وهم المعرضون والمدْبِرون.

❁ ❁ ❁

**تمهيد:**

بعد بيان حكمة الله عزّ وجلّ في توسعة الرزق لبعض عباده، وتضييقه على بعض عباده، وهي حكمة الابتلاء، وبعد زَجْرِ الّذين يتوهَّمُونَ خلاف هذا، لا بُدَّ أن يُدرِك ذو التفكير السليم، الذي عرف أنّ الغرض من كُلٍّ منهما الابتلاء، أنّ المطلوب في هذا الابتلاء الرَّبَّانيّ من الَّذِينَ وسَّعَ اللَّهُ لهم في الرزق، أنْ يَبْذُلوا من أموالهم لرفْعِ البؤس عن الَّذِينَ ضَيَّقَ اللَّهُ عليهم أرزاقهم، وفي طليعة هؤلاءِ البؤساءُ من اليتامَىٰ والمساكين.

لكنّ واقع حال الجمهور الأَعظم من ذوي الْيَسار والسَّعةِ، أنّهم قُساةُ الْقُلوب والنفوس، فلا تُحرِّكُهُمْ نحو البؤساء عاطفة نبيلة، فلا يُؤَدّون ما يحثُّهُمْ عليه الواجب الإنساني، وما يأمُرُهُمْ به التكليفُ الرَّبّاني، من بَذْلِ بعْضِ أموالِهِمْ لتخفيف البؤس عن البؤساء، والعطف على الضعفاء، بل يزيدون على هذا حبًّا شديداً للمال، وشَرَهاً للاستزادة منه ولو بالمكاسب الظالمة الآثمة.

● ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾:

أي: فهل تُؤَدُّونَ يا ذَوِي اليسار ما يجب عليكم في أمْوالكم لِذَوِي الاستحقاق في مجتمعكم من البائسين وذوي الاضطرار؟.

والجواب: لا. بل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ مُجَرَّدَ إِكْرَامٍ معنويٍّ وَلَوْ لَمْ يُكلّفكُمْ مالاً تبذلُونه، إذْ تَشعُرُونَ بِالتَّرَفُّع والاستعلاء عن إكرام اليتامىٰ الضعفاء البؤساء، بل تعاملُونهم بالإهانة والإذْلال، ومن كان منكم وليًّا عليه وعلى أمواله أكل ما له بغير حقٍّ، واستغلّه وأذلّه، وهضم حقوقه.

**أكرَمَ فُلاَنٌ فُلاَناً**: أي: رفع من قَدْرِهِ وأعطاه ما يُحِبُّ من مكانة، ولم يجعله يشْعُر بانتقاص ولا مهانة، ضدّ أَهانه.

**اليتيم**: الصغير الذي مات أبوه من الناس.

وإذا كان اليتيم فقيراً فإنّه يدخُلُ أيضاً في عموم المسكين الذي جاء الحديث عنه في الآية التالية:

● ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ١٨﴾ وقُرِئَ: [وَلاَ تَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ]:

**ولا تَحاضُّونَ، ولا تَحُضُّون**: الحضُّ على الأمْرِ الحثُّ عليه، وهو طَلَبُهُ بشدّة وإلحاح. يقال لغة: حضَّ الرَّجُلُ صَديقَه على فِعْل الخير، إذا حثَّهُ عليه وطلب منه فعل الخير بإلْحاح. ويقال المؤمنان تَحَاضًّا على فعل الخير والبعد عن الشر، إذا ألح كُلٌّ منهما على أخيه أنْ يَفْعَل الخير ويبتعد عن الشرّ، فصيغة تفاعل تدلُّ على المشاركة.

**على طَعَامِ الْمِسْكِين**: أي: على إطعام المسكين، استُعْمِل اسم المصدر «طَعَام» بدل المصدر «إطعام» والمعنى واحد.

**الْمِسْكِين**: هو في الحقيقة الفقير الذي تدلُّ ظواهر حاله على فقره،

**فالمسكنةُ**: هي ما يَبْدو من ظواهر وأماراتِ دالاّت على الفقر والحاجة. ورُبّما تكون هذه الظواهر مصطنعة وذاتَ دلالة كاذبة، وبهذا يظهر الفرق بين الفقير والمسكين كما حَقَّقْتُه في كتاب «قواعد التدبر الأمثل».

والمرادُ من المسكين جنْسُ المساكين، وهم الفقراء الذين تدلُّ ظواهر أحوالهم على فقرهم، وهٰذه الظواهر تستعطف ذوي القلوب التي تشعر بالرحْمَةِ نحو ذوي الحاجات والضرورات.

أي: ولا تقومُونَ بواجبكم الاجتماعي نحو ذوي الضرورات والحاجات، ولا تُثِيرُ مشاعر قلوبكُمْ رحمةً بهم، فلا تَنْهَضُون متعاونين مع القادرين، فيَحُضَّ بعضكم بَعْضاً لسدّ حاجات ذوي الحاجات والضرورات، حتَّىٰ الضرورة إلى الطعام الذي تتوقَّف عليه الحياة.

● ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾:

استعير فعلُ الأكل للدلالة على معنى الحيازة والامتلاك، لأنَّ الأَكْلَ أكْثَرُ الأعْمَال الدَّالّة على الامتلاك والانتفاعِ والاستهلاك.

**التُّرَاثُ**: مَا يُورَثُ ممّا كان للميّتِ من مالٍ تركَهُ، أَوْ مَجْدٍ أَو غير ذلك من أمور مادّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّة، ويقال فيه: الميراث، والإراث، والإِرْث.

**اللَّمُّ**: الجمع المستغرق، يقال لغة: لَمَّ الشيءَ يَلُمُّهُ لمًّا، إِذَا جَمَعَهُ جَمْعاً شديداً. وجاء وصْفُ «أَكْلًا» بالمصْدَرِ «لَمًّا» للدلالة على زيادة الشَّرَهِ في حيازة الميراث وامتلاكه. أي: تأكلون التراث بشَرَهٍ، جَامعين لأنفسكم منه صغائرهُ وَحَذَافِيرَه.

وهذا أَمْرٌ مشاهَدٌ عند معظم الوارثين.

هذه الآية تدلُّ على أنّ الناس بوجهٍ عامٍّ، لديهم شَرَهٌ شديدٌ لامتلاك الأموال دون بذْلِ جَهْدٍ، أو عَمَلٍ مكافِئٍ، رغبةً في تحصيل الثروات والاستكثار منها دون كسْبٍ ذَاتيّ، ونموذَجُهُ الظاهر للجميع أَكْلُ الميراث أكلًا لمًّا جامعاً كلَّ صغير وكبير فيه.

وهٰذا التعلُّقُ النفسيُّ الشديدُ بالأموال يُبَلِّدُ حِسَّ الإنسان تُجاهَ الآخرين من ذوي الحاجات والضرورات، فلا يتحرَّكُ قلبُه برحْمَةٍ ولا بعاطفة كريمة، فكيْفَ يبْذُلُ للمسكين، أو يحضُّ على إطعامه.

● ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾:

**الْجَمُّ**: هو الكثير من كلّ شيءٍ، أي: وتحبُّون المال حُبًّا كثيراً.

وهٰذه الآيَة تَدُلُّ على أنّ من صفات الناس أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا كثيراً، ولو كان ما جمعوه منه زائداً عن حاجاتهم مهما طالت أعمارُهُمْ في الحياة الدنيا.

وفي هذا البيان كناية عَنْ أنّ بُخْلَهُمْ بأموالهم، وإمساكَهُمْ لَهَا، وحرمانَ ذَوِي الحقوق من حقوقهم سبَبُهُ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جمًّا، حتَّىٰ يكون داءُ حبِّهِمْ للمال غَيْرَ مُرْتَبِطٍ بِحَاجَتهم إليه لقضاء مطالبِهِمْ من الحياة الدنيا وزينتها.

● ﴿كَلَّآ﴾ كلمة رَدْعٍ وَزَجْرٍ لَهُمْ عَنْ كلِّ الصفات الذميمة، الَّتي تجعَلُهُمْ لاَ يُؤَدُّون مَا هُوَ مطلوبٌ منهم في رحلة ابتلائهم، حتَّىٰ يَتَعَرَّضُوا بسببها لعذاب اللّٰهِ يوم الدّين، ويَحْرِمُوا أنفسهم بسببها من الظفر بجنّاتِ النعيم.

❁ ❁ ❁

## (٧)
## التدبُّر التحليلي للدرس الرابع من السورة

### الآيات من (٢١ ـ ٣٠)

قال اللّٰهُ عزَّ وجل:

﴿. . إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ

لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

**القراءات:**

● قرأ الكسائي ويعقوب: [لاَ يُعَذَّبُ] و [وَلاَ يُوثَقُ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، أي: لاَ يُعَذَّبُ وَلاَ يُوثَقُ أَحَدٌ كما يُعَذَّبُ ويُوثَقُ الإنسان الكافر المسوق إلى جهنم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لاَ يُعَذِّبُ] و [وَلاَ يُوثِقُ] بالبناء للمعلوم، أي: لا يُعَذِّبُ عذابَ اللَّهِ أحدٌ ولا يُوثِقُ وَثَاقَ اللَّهِ أحد، وبين القراءتين تكاملٌ بياني ظاهر وتكاملٌ في المعنىٰ.

**تمهيد:**

في هذا الدرس عرض لمشْهَدٍ يكون قبل موقف الحشر، وعرْضٌ لمشهد يكون يوم الدين تمهيداً للحساب وفصل القضاء، وإشارة إلى حَدَثين، أحدهما يتعَلّقُ بمن يُسَاقُ إلى عذابه في جهنم، والآخر يتعلَّقُ بمن قضىٰ الله له بأنْ يكون من أهل جنته، مع عَرْضٍ وَمْضَةٍ من مشاهد من يُساقُ إلى عذابه.

ويتضمّنُ هذا العرض بياناً لنتيجة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وهو ما جاء في السُّورة بيانُه، فالامتحان يقتضي حتماً المحاسبةَ، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء. وهذا الجزاء يوم الدين يكون في دار العذاب جهنّم، أو في دار النعيم الجنَّة، وبهذا يَتِمُّ تكامل حبَّاتِ عِقْد السورة.

● ﴿.. إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾:

**الدَّكُّ**: الدقُّ والتكسير والحطْمُ، وجاءَ تكرير ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ وهو مفعول

مطلق لفعل: ﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ للدلالَة على أنَّ حركَةَ الدَّكّ تأتي متكرّرَةً متتابعة، أي: دكًّا فَدَكًّا فَدَكًّا حتى يتحقَّق المطلوب، وربما تكونُ وسيلة الدك الزلازل التي يحدثها اللَّهُ بها.

ويتحقَّقُ بدَكّ الأرض تكسِيرُ جبالِهَا ومرتفعاتها، وتسوية سطح كُلّ الأرض، حتى تكون كسَطْحِ الْبُحَيْرَةِ الساكنة التي لا أمواج تتحرّكُ فيها. ويتحقّق بدَكّ الأَرْضِ أيضاً رَصُّهَا حتَّىٰ لا تكون فيها فراغاتٌ وتجويفاتٌ، ويتمُّ هذا الحدث لحشر الخلائق جميعاً على سطح الأرض في صعيد عامّ، قبل تمييزهم وفصلهم إلى فريق أصحاب اليمين، وفريق أصحاب الشمال، وفريق أصحاب الأعراف الذين هم وسَطٌ بين الفريقين.

أمّا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

فهو فيما أرىٰ محمولٌ على الدَّكَّةِ الواحِدَة، الَّتي تكون عند حملهما ورفعهما وإلقائهما على بَعْضِهما، وتتبعُها حركاتُ دَكٍّ فَدَكٍّ لتسوية عُمُومِ الأرْضِ حتَّىٰ تكونَ كالبساطِ الممدود لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ولا عِوَجَ ولا هُشُوشة.

● ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وجاء ربُّكَ اللَّهُ الخالِقُ البارئ المصوّر المهيْمِنُ بصفات ربوبيّته مجيئاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

والغَرَضُ من المجيء الحضورُ لموقف الحساب وفَصْلِ القضاء والأمْرِ بتنفيذ الجزاء.

**والمَلَكُ**: التعريف بـ (أل) لتعريف الجنس، فالمراد الملائكة الَّذِين جعلَ الله من وظائفهم الحضور مُصْطَفين صفوفاً لموقف الحساب وفصل القضاء، وتنفيذ ما يأمُرهم الله به.

**صَفًّا صَفًّا**: أي: وجاءت الملائكة مُرَتّبِينَ أو مُنتَظِمِينَ صُفُوفاً، فاللفظان معاً في موقع حال تقديره: مرتبين أو منتظمين.

هذا الحضور والانتظام في صفوف، هل يكونُ لكلّ الملائكة، أمْ يكونُ لطوائف منهم يأمُرُهُمُ اللَّهُ بهذا الحضور المنتظم، ويبقى آخرون قائمين بوظائفهم في الجنَّة أو في النار، أو مرافقين لأهل المحشر من الإنس والجنّ؟

**الجواب**: ليس في النصّ ما يُعَيِّنُ المراد، واللّفظ محتمل لكُلٍّ من الأمرين، وقد أُرَجّح الاحتمال الثاني، لأنّ أداة التعريف في لفظ [الْمَلَك] تُشْعِرُ بإرادة طوائف متميّزة من الملائكة، وهم العَالُون الذين يَجِيئون مع مجيء الرَّبّ، وهم الذين تَشَقَّقُ عنهم السماء، ويُنَزَّلُونَ إلى موقف الحساب تَنْزِيلاً، كما جاء في بعض نصوصٍ قرآنيّةٍ أخرى.

أمّا الملائكة الآخرونَ فقِسْمٌ منهم موجودُون مرافقون للإنْسِ والجنّ في موقف الحشر منذ بعثهم، وقبل حَدَثِ مجيء الربّ والْمَلَكِ صَفًّا صَفًّا. والله أعلم.

● ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ..﴾:

**جَهَنَّمَ**: اسم علَمٌ من أسماء النار الّتي أعَدَّها اللَّهُ لعذاب الكافرين والعاصين يوم الدين، وهو ممنوعٌ من الصرف للعلميّة والتأنيث.

ويقال لِلقَعْرِ البعيد جَهَنَّمْ. وبئر جهنَّمُ: أي بعيدة القَعْر.

هذه العبارة دلَّت على أَنَّ جهَنَّمَ تكونُ في موقعٍ بعيد عن موقف الحشر، ولكن يُؤْتَىٰ بها حتَّىٰ تكون قريبة من الأرض، من الجهة التي يُجْمَعُ فيها الكافرون، الذين سيُقْضَىٰ عليهم بأن يُعَذَّبوا فيها عذاباً أبديًا.

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».

**الزِّمَامُ**: ما يُقَادُ به من سَبَبٍ ونحوه، وهو تعبير مستعارٌ للوسيلة التي تُقَرِّبُ بها جهنَّمُ لموقف حشر الخلائقِ يوم الدين.

• ﴿... يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾:

أي: يومَ إذْ تحدُثُ هذه الأحداث الجِسَام يوم الدين، يتذكَّرُ الإنسانُ كلَّ مَا كان قد كَسَبَه في سَعْيِه من خير أو شرٍّ في رحلة الحياة الدنيا، كما جاء التصريح بهذا في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بقول الله عزّ وجل فيها:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

**الطَّامَّة الكُبْرَىٰ**: أي: القيامة للحساب والجزاء. وأصل الطامَّة الداهية الكبرى التي تفوق ما سواها. والطَّامُّ الشيء العظيم، والماءُ الكثير، ويقالُ: طَمَّ الشيءُ إذا كثُر وعَظُم، أَوْ عَمَّ.

وإثبات هذا التذكُّر يَدُلُّ على أنَّ النَّفسَ الإنسانيَّة، تَحْتَفِظُ بما سجَّلَتْهُ ذَاكِرتُها من كُلّ مكْتَسبَاتِها في الحياة الدنيا، من العلوم والمعارف، والأفكار، والأخبار، وأنّ عارض الموت يشبه عارض النوم والإغماء، فهو لا يَمْسَحُ من ذَاكِرَتها ذلك، بل جَعَل اللَّهُ عزَّ وجلَّ بقدرته وحكمته من خصائص النفس الإنسانيَّة أَنَّ المسَجَّلاتِ فيها لا تُمْحَىٰ، وأنَّ النسيان الذي يَعْرِضُ لها في الحياة الدنيا هو بمثابَةِ الأغشية الساترة، وهذه مثل السُّحُب تنقشِعُ في الآخرة، فالنسيانُ ليْسَ مَحْواً كاملاً من الذاكرة.

ولكنَّ الإنسان إذا تذكَّرَ يَوْمَ الدّين، مَا كَانَ قد سَعَاه في الحياة الدّنيا، فهل تنفَعُهُ هذه الذّكرىٰ في تَدارُكِ ما فات، وإصلاح السيئات، بفعل الحسنات؟!

**الجواب**: أَنَّ هذه الذكْرىٰ لاَ تنفَعُهُ، فقد انتهىٰ زمَنُ الابتلاء، وجاء زمَنُ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد دلَّ على هٰذا قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾:

﴿وَأَنَّىٰ﴾: اسم استفهام يأتي بمعنىٰ: «مِنْ أَيْنَ؟». ويأتي بمعنى: [كَيْفَ؟] وهو هنا استفهام يُرادُ به النفيُ مع الإنكار على من يتوهَّمُ الإثبات، وفيه أيضاً معنىٰ التعجيب مِنْ حالِ مَنْ يتوهَّمُ أَنَّ التَّذَكُّرَ يومئذٍ ينفع صاحبه في تدارُك ما فات والمبادرة إلى فعل الحسنات والخيرات.

**الذِّكْرىٰ**: اسْمُ بمعنَىٰ التذكُّر.

فمعنىٰ العبارة على هذا:

• من أَيْنَ يأتي له نَفْعُ التّذكّر. أو كيف لَهُ أَنْ ينْفَعَهُ التذكُّر، وقد انتَهىٰ زمَنُ الابتلاء الذي ينفَعُ العمل الصالح فيه، وجاء زمَنُ الحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء، الذي لا يَنفَعُ الْعَمَلُ الصالِحُ فيه؟!!.

• ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾:

أي: حين يتذكّر الإنسان الكافر ما سعَىٰ في الحياة الدنيا، ويعلَمُ أَنَّ تَذَكُّرَه لا يُجدِيه نفعاً في تدارُكِ ما فات، لا يبقَىٰ لديه إلاّ الندم على ما فرّط في جنب الله، وتَمني أَنْ يكون قد قَدَّم إيماناً صادقاً صحيحاً، وعملاً صالحاً يُنْجِيه من عذاب الله، ويجعله من أهل جنّاتِ النّعيم.

أَمّا الندم فلا يرفَعُ عنه شيئاً من العذاب، وأمّا التّمنّي فلا يُحقّقُ له شيئاً من أمانيه، مهما أطال في تمنّيه العبارة، ومدَّها بالنداء الطويل، لكنَّهُ لا يَمْلِكُ أكثر من إطلاق عبارة التّمنّي، فيقول: يا ليتني قَدَّمْتُ لِحَياتي.

﴿يَٰلَيْتَنِي﴾: «يا» حرف نداء داخل على عبارة التَّمنّي: «لَيْتَني» فأيَّ شيءٍ يُنادِي؟.

ذكر المفسّرون عدّة آراء، منها أنّ المنادى محذوف، مثل: يَا رَبِّ ليتني.

**أقول**: حرف «يا» في مثل هذا الاستعمال أشبه بأن يكون حرْفَ نُدْبَةٍ وتحسُّرٍ وتفجُّعٍ أَوْ تَوَجّع. فالذي ينادي مثل هذا النداء فإنَّه يُعْلِنُ تفجُّعَهُ أو توجُّعَهُ من أَجْلِ أُمْنِيَّةٍ تجاوزَتْ حَدَّ الممكنات، ودخلَتْ ضمن المستحيلات، أو الأمور التي لا يُسْتَطاعُ الحصولُ عليها.

﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾: أي: يا ليتني قَدَّمْتُ في حياتي الدُّنيا لحياتي الباقية الخالدة الأخرىٰ ما أكونُ بِهِ من الفائِزِينَ المفلحين، الْمَجْزِيِّينَ في جنَّات النعيم.

جاء في القرآن استعمالُ فِعْلِ «قَدَّمَ يُقَدِّمُ» بمَعْنَىٰ: عَمِلَ في الحياة الدنيا ما يَنَالُ عليه جزاءَهُ في الآخِرَة، نظراً إلى أنَّ الإنسان حين يَعْمَلُ وهُوَ مُكَلَّفٌ عملاً إراديًا يُجْزَىٰ عليه عند رَبِّهِ، يكون قَدْ قَدَّمَهُ قَبْلَهُ لآخِرَتِهِ، إذْ صَارَ مُسَجَّلاً لَهُ أو عليه في كتاب عمله الّذِي يُؤْتَاهُ يَوْمَ الدِّين، فهو عمل يَسْبِقه لآخِرَته.

ولمَّا كانت الحياة الدنيا حياةً قصيرَةً زَائِلَةً لاَ خُلُودَ فيها، وكانت بمثابَةِ الْجِسْرِ الذي يَمُرُّ عليه المسافِرُ لدار إقامته الدائمة، لَمْ تكُنْ جديرةً بأن تُعْتَبَر هي الحياة ذَات القيمة.

ولمّا كانت الحياة الأخرىٰ يوم الدّين هي الحياة الأبديَّة الَّتي لا نهاية لها، كانت هي الجديرة بأن يُطْلَقَ عليها اسْمُ الحياة، وعلى هذا يقول صاحبُ هذا التمنّي: «يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتي».

ولهذا وصَفَ اللَّهُ الدّار الآخرَة بأنّها هي الحيوان، أي: هي الحياة الَّتي تسْتَحِقُّ هذا الاسم المستجمع لكل عناصره.

**فقال الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):**

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

**لَهِيَ الْحَيَوانُ**: أَيْ: لَهِيَ الْحَيَاةُ الحقيقيَّةُ الخالِدَةُ الَّتي لا لَهْوَ فيها ولا لعب، بل كلُّ ما فيها حقٌّ وجِدٌّ.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ مثل عَذَابِ الله أحد، ولا يُوثِقُ مثْلَ وَثَاقِ اللَّهِ أَحَدٌ.

وقُرِئ: (لا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ):

أي: لاَ يُعَذَّبُ مثل عذاب الإنسان الكافر أحَدٌ، ولا يُوثَقُ مِثْلَ وَثَاقِ الإنسانِ الكافِرِ أحَدٌ، ببناء فعل «يُعَذَّبُ» وفعل «يُوثَقُ» لما لم يُسَمَّ فاعله.

والغرضُ شِدَّةِ الترهيب من عذاب اللَّهِ يَوْمَئِذٍ، لأَنَّ الْمُلْكَ يَوْمَئِذٍ للَّهِ وحْدَهُ، فلا تَعْذِيب إلاّ تعذيبه، ولا وَثاقَ إلاّ وَثَاقُه.

يقال لغة: عَذَّبَ تَعْذِيباً، أي: عاقَبَ وَنَكَّلَ. والعذابُ اسْمُ للعقاب والنَّكال، فهو اسم للمصدر.

ويقال لغة: أوثَقَ الأَسير إيثاقاً، إذا شَدَّ عليه الْوَثَاق، بفتح الواو وكسْرِها، وهو ما يُشَدُّ به الأسيرُ من حَبْلٍ أو غيره.

والْوَثَاقُ أيضاً اسم للإيثاق الذي هو مصدر «أَوْثَقَ» وهذا هو المراد في النصّ هنا.

والتّعبيرُ كلُّه كنايةٌ عَنْ أخذ الإنسان الكافر يومئذٍ إلى دار التعذيب جَهنّم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (٣٠)﴾.

في مقابل أخذ الكافر إلى جهنم دار عذابِه الأبديّ، يقتضي البيان الحكيم تَوْجِيهَ حديثٍ عَنْ مَصِير المؤمن المسلم يومَئذ.

واختير في البيان هنا اقتطاع لَقْطَةٍ من مَشَاهِدِ توجيه المؤمنين المسلمين إلى دُخول الجنَّةِ دَارِ نعيم المتقين.

ويُسْمَعُ من هٰذه اللَّقْطَةِ الْمَحْكِيَّة المقتطعَة من المستقبل للحاضر، حتَّىٰ كأنَّ السامعَ أو التالِيَ حاضرٌ هذا المشهد المستقبليّ، يَسْمَعُ مَا يقالُ لكلِّ نفس مؤمنة مسلمةٍ، حينَ الإذْنِ لها بدخول الجنة، فتُنَادَىٰ نداءً تكريميًّا بنَفَسٍ طويل:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧)﴾:

تُخَاطَبُ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ، لأنَّ نَفْسَ الكائِنِ الحيِّ هي حقيقة ذاته، والحامِلَةُ لصِفَاتِه، والكاسِبَةُ لأعماله، وفيها خريطَةُ وُجُودِه، أمّا أعْضاءُ الجسَدِ فأدواتٌ تَظْهَرُ فيها حركاتُ النفْسِ واختياراتُها، وأمّا الروحُ فطاقة الحياة، كالكهرباء في الآلاتِ الّتي تُحَرِّكها القوة الكهربائية.

ولمَّا كان النداء للنفس المؤمنة المسلمة التي قضىٰ الله لها بأن تكون من أهل الجنَّةِ يومئذٍ، جاء فيه وصْفُها بصفة «المطمئنَّة».

**الطُّمَأْنِينَةُ**: غايَةُ السُّكُونِ والارتياح، والاستقرارِ الخالي من التوتُّرِ والقلَقِ والاضطراب.

يُقال لغة: طَمْأَنَهُ طَمْأَنَةً إذَا سَكَّنَهُ ودفع عنه القلق والاضطراب، واطْمَأَنَّ يَطْمَئِنُّ اطْمِئْناناً، إذا سَكَنَ واستقَرَّ بلا تَوَفُّزٍ وَلا قَلَقٍ، فهو مُطْمَئِنٌّ.

والمؤمن الْمُسْلِمُ الذاكر لربّه قد يصل في الحياة الدنيا إلى مرتَبَةِ

الطُّمَأْنينة، كما قَال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾﴾.

وعند الموتِ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ من الْجَنَّةِ بِشَارَةً لَهُ فَيطْمَئِنُّ علَىٰ مصيره، وقد ثبت هذا بدلالة القرآن وصَرِيحِ الحديث عَن النبيّ ﷺ.

وفي موقف الحشر يَسْتَلِم كتابَ أعماله بيمينه فيطْمَئِنُّ إذْ يُدْرِكُ أَنَّ مصيره إلى الجنَّة. ويُفرَزُ المؤمِنُونَ إلى جهة الجنة عن الكافرين، وعن أهل الأعراف، فيزيدُ طُمَأْنِينَةً.

وبعد الحساب وفصل القضاء يَصْدُرُ الحكْمُ الرَّبَّانِيُّ بأنَّهُ مِنْ أهْلِ الجنَّة، فيزْدادُ طُمَأْنِينَةً وارْتِياحاً، ويَتَرَقَّبُ أَنْ يُنادَىٰ بأنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ.

فأكْثَرُ الأَوْصَافِ مُلاءَمَةً لحالَةِ هذه النَّفس المؤمنة، أَنْ يُقَالَ لها عِنْدَ الإذْنِ لها بدخول الجنَّة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: ارجعي إلى المكان المشْمُولِ برَحْمَةِ رَبّكِ إنْعاماً وإكْراماً.

وهُنَا يَتَسَاءَلُ الفِكْرُ: لمَاذَا جَعَلَ اللَّهُ هٰذَا رُجوعاً، ومَعْلُومٌ أَنَّ الرجُوعَ إلى الشيءِ هو عَوْدٌ إليه بَعْدَ الخروج منه؟!.

**وأقول:** لَقَدْ أَدْخَلَ اللَّهُ آدم وزوجَهُ الجنَّةَ إدْخالَ ابتلاء، لا إدْخال استقرار أَبدِي، وحرَّمَ عليهما أن يأْكُلا من شَجَرَةٍ معيَّنَةٍ، فلَمَّا أكلا منهما متأثّرَيْنِ بوساوس إبليس وتسويلاته، أَخْرَجهُمَا اللَّهُ منها، وأهْبَطَهُما إلَىٰ الأَرْض، فخرجا من الدَّار المشمولة برحْمَةِ الله إنْعَاماً وإكراماً.

وقَدْ كان في ظهر آدَمَ سَلاسِلُ ذُرّيّتِهِ، فَإخْرَاجُه من الجنَّةِ إخراجٌ له

ولكلّ ذُرّيته منها، ودُخولُ الجنَّة يَوْمَ الدّين بَعْدَ رِحْلَةِ الابتلاء في الحياة الدُّنيا هو رُجُوعٌ إلى المكان المشمول برَحْمَةِ الرَّبِّ إنْعاماً وإكْرَاماً، وهذا رجُوعٌ خاصٌّ بالمتّقين.

وقد أُطْلِقَ الرُّجُوعُ إلى اللَّهِ في القرآن بمعنى الرجوع إلى الحياة بعد الموت، لتلَقِّي وَعْدِ اللَّهِ بالحساب وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وهذا رجوعٌ عامٌّ لكلّ الخلائقِ.

أمّا النفس المطمئنّة، فَيُؤْذَنُ لَهَا يَوْم الدين بعد الحساب وفَصْلِ القضاء بأن تَرْجع إلى الجنَّةِ الّتي كان فيها آدم عليه السلام، وفي ظهره ذُرّيَّتُه، وأُخْرِجَ مِنْها بسبب معصيته ربَّه، وقد جعل الله الرجوعَ إلى الجنَّة مَشْرُوطاً بالإيمان الصحيح المقبول عنده، وإعلان الإسلام له، مع ما يَدُلُّ عليه من عَمَلٍ صالح.

**رَاضِيَةً مَرْضِيَّة**: أي: رَاضِيَةً بِكُلِّ شيءٍ هي فيه من الجنَّةِ، نَعيماً وتكريماً ورِضواناً من اللَّهِ عليها. ومَرْضِيَّةً من الله جلّ جلالُهُ، إذْ رضيَها وقَبِلَها للدخول في رحمته والتَّنَعُّمِ في جنَّته.

يُقَالُ لُغَةً: رَضِيَهُ، ورضِيَ بِهِ، وَرَضِيَ عَنْهُ، ورضِيَ عَلَيْهِ، يَرْضَىٰ رِضاً، ورضاءً، ورِضْواناً، ومَرْضَاةً، أي: قَبِلَهُ واخْتَارَه وجعل له عنْدَهُ مكانَةً وحُظْوَةً.

واسم الفاعل من هذا الفعل «راضٍ» واسْمُ المفعول «مَرْضِيٌّ» أصْلُهُ مَرْضُويٌ. أي: قد رضِيَهُ اللَّهُ.

وهٰذا القولُ الْمُصدَّرُ بالنداء: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨﴾.

يَحْتَمِلُ أن يكونَ صادراً عَنْ مَلَكٍ مَأْمُورٍ بأنْ يقولَهُ، ويحتَمِلُ أَنْ يكون قولاً يقولُهُ اللهُ لعبده، وهٰذا هُوَ الأرجَحُ فيما أرىٰ، لقَوْلِ اللَّهِ بَعْدَهُ: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾.

ولا فرق بَيْنَ أَنْ يقولَهُ مَلَكٌ حِكَايَةً عن اللَّهِ عزَّ وجلَّ، أَوْ يَقُولَهُ اللَّهُ لِعَبْدِهِ مُبَاشَرَةً على ما يليق بِجَلَالِهِ سُبْحانَهُ.

وحصَل في العبارة الالتفاتُ من الغيبة في: [رَبِّكَ] إِلَىٰ التَّكَلُّم في: ﴿عِبَٰدِى﴾ وفي ﴿جَنَّتِى﴾ وَمِثْلُ هذا التَّفنن الالتفاتي البديع كثير في القرآن المجيد.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾: أي: في عبادِي المكرمين الذين تحقَّقوا عن طريق إراداتهم الحرّة بعبوديّتهم لي، فَشَرَّفْتُهم بإضافتهم إليّ، وَجَعَلْتُهُمْ ضِمْنَ المكَرَّمِين المشرَّفِين بِرُبُوبِيَّتِي وفيوض عطاءاتي بإِنْعَامي عليهم، وإكرامي لهم.

أمّا الذين رفضوا في الحياة الدنيا رُبوبيتي لهم، ولم يتحقَّقُوا بعُبُودِيَّتِهم الإراديَّةِ لي، فإنَّني لا أُدخِلُهُمْ ضمْنَ عبادي المكرمين المشرّفين بالانتماء إليّ.

﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾: أي: وادْخُلِي مع عبادي المكرّمينَ، جنَّتِي الَّتِي أعتَدْتُها لمستحقي دخولها بفضلِي، وهم الذين يجتازونَ رِحْلَةَ امتحانِهم في الحياة الدنيا بنجاح.

وقد دَلَّ على هذه الإضافات الشارحات نصُوصٌ أُخْرَىٰ من القرآنِ الكريم، فَنُصُوصُ القرآن يُكَمِّلُ بعْضُها بعضاً، لأنَّ المعاني مُوَزَّعَةٌ فيها توزيعاً تكامُلِيًّا.

**وبهذا تمّ تدبُّر سورة الفجر والحمد لله على فتحه وعظيم فضله ومنّته**

## (٨)
## ملحق
## حول «بلاغيات في سورة الفجر»

باستطاعة المتأمّل البلاغي أن يكتشف في هذه السورة عدّة اختيارات بلاغيّة حكيمة، منها ما يلي:

**الأولى:**

استخدام الكناية عن صفات عدل الله، وعظيم قُدْرته، وجليل حكمته، وشمول علمه بكل أحوال عباده الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وعَنْ ثباتِ سُنَّته في عباده التي لا تبديل لها ولا تحويل، بالْقَسَم بأزمِنَةٍ تَمَّ فيها إهلاكُ أُمَمٍ مِنْ أهْلِ القرون الأولى، لأنَّهم كذَّبوا رُسُلَ رَبِّهم وَطَغَوْا في البلاد، وأكْثَروا فيها الفساد.

فاللَّوازِم الفكريَّة تتنقَّل بالمتفكّر من أوقاتِ إهْلاك الأُمَم المهلكة إلى إدْراك السَّبَب الذي دعا إلى إهلاكهم، فإلى معرفة أنَّ ذَٰلِكَ قد حصل بخلْق الله، فإلى إدْراكِ حكمته تعالى في ذلك، وثباتِ سنّته في عباده، وما يقتضي هذا الإهلاك من علْمٍ شاملٍ وقدرة عظيمة، إلى غير هذه الصفات من كمالات الله جلّ جلالُه.

**الثانية:**

الكناية عن التهديد بالعقاب بعبارة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾.

**الثالثة:**

بناء الكلام على محذوفات في اللّفظ ومطوياتٍ تقتضيها المذكورات، ويستطيع المتدبّر أن يُدْرِكَها ذهناً، وهذا من بدائع الإيجاز في القرآن.

ولقد سبق لدى تدبُّر السورة اكتشاف عدّة أمثلةٍ لهذا.

**الرابعة:**

الاستفادة من تَعَدُّدِ القراءات فيما ثبتَ متواتراً، لإضافة معاني دلَّ عليها النَّصّ بما تَعَدَّدَ فيه من قراءات، وهذا الإجراء في القرآن قد أغْنَىٰ عن إنشاء جُمَلٍ أو آيات في السورة، لإفادة المعنى الذي يُرادُ الإعلامُ به، مع كمالِ الإيجاز.

**الخامسة:**

استخدام الكناية عن أخذ الكافر إلى مكان تعذيبه في النار، بعبارة: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾.

فهٰذه العبارة تَدُلُّ باللُّزوم الذهْنِي عَلَىٰ أَنَّ الكافر قد أُخِذَ به إلى دَرَكَة عذابِهِ في جهَنَّم، فَهُو يُعَذَّبُ فيها هذا العذاب، وهو موثُوقٌ فيها لا يَسْتَطِيعُ الخروج ولا التحوّل.

**السادسة:**

اقتطاع الحدث من المستقبل دون تغيير في صيغته، وتقديم عبارته للمتلقّي كأنّه واقع مشهودٌ الآن.

وهذا ممّا انفرد به القرآنُ قبل ظهور فُنونِ الأَفْلَامِ السينمائيَّةِ ووسائلها.

**السابعة:**

الالتفات من الغيبة إلى التكلّم في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾.

- ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ كلامٌ عَنِ الغائب.
- ﴿فِي عِبَٰدِي﴾ و ﴿جَنَّتِي﴾ حديث المتكلّم عن نفسه.

❀ ❀ ❀

# سُورَةُ الضُّحَى

أَوْ

# سُورَةُ وَالضُّحَى

٩٣ مصحف ١١ نزول

## (١)

# نصّ السّورة

## سورة الضحى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا
فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

## (٢)

## مما جاء في السُّنَّة حول سورة الضُّحَىٰ

(١) روى البخاري بسنده عن جُنْدُب بن سفيان الْبَجَلِيّ، قال: اشْتَكَىٰ[١] رسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أو ثلاثاً، فَجاءَتِ امْرَأَةٌ فقالَتْ: يا مُحَمَّدُ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ عَلَيْهِ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) **اشتكىٰ**: أي: مرض.

ونظِيرُهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ وغيره.

وجاء في أحاديث أخرىٰ بيان المرأة التي جاءت إلى الرسول ﷺ وقالَتْ له هذه المقالة، وأنَّها: أمُّ جميلٍ امْرأةُ أبي لَهَبٍ حاملة حَطَبِ العداء للرسول ﷺ ودعوته.

(٢) وروى الحاكم من طريقِ إسرائيل عن أبي إسحاق، عن زَيْدِ بْنِ أرقم، قال: قالَتِ امرأةُ أبي لهَبٍ، لمَّا مَكَثَ النبيُّ ﷺ أيّاماً لم يَنْزِلْ عليه الوحْيُ: يَا مُحَمَّدُ، مَا أَرَىٰ شَيْطَانَكَ إلاَّ قَدْ قَلاكَ[1]. فنزلت:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

(٣) وروى ابْنُ جَرِيرٍ والطبراني وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ جُنْدُبٍ، قال: أبْطَأَ جبْرِيلُ عن النبيّ ﷺ، فقَالَ المشركون: قَدْ وُدِّعَ مُحمَّد، فَنَزَلَتْ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

(٤) وأخْرَج الطبرانيُّ عن جُنْدُب قال: احْتَبَسَ جِبْرِيلُ عَنِ النبيّ ﷺ، فقالَتْ بعْضُ بناتِ عَمِّهِ: ما أرَىٰ صاحِبَكَ إلاَّ قَدْ قَلاكَ، فَنَزَلَتْ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

ويَبْدُو أنَّ امرأة أبي لهَبٍ بدأت تُذيعُ هذه المقالة في مكّة، فأنزل الله على رسوله سورة (الضحى) وأتبعها بإنزال سُورةِ «الشّرح» فقابَل مُكايَدَتَها لرسوله ببيَانٍ يشُقُّ مَرارَتها، ويمزِّقُها غَيْظاً.

## (٣)
## مواقف العداء ضدّ الرسول ودعوته
## في مراحل التنزيل السابقة حتى سورة الضُّحى

تولَّىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الدِّفاع عن رسُولِهِ فيما يُنَزِّلُ عليه من قُرْآن كَمَا جَاءَ في المتابَعاتِ التَّالِيَاتِ:

---

(١) **قلاكَ**: أي: أبغضك.

(١) ففي سورة (الْعلَق/ ١ نزول) واجهَ اللّهُ عزّ وجَلّ الّذي نَهَىٰ الرسُولَ ﷺ عن الصلاة (وهو أبو جَهْلٍ) بقوله:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

(٢) وفي سورة (المدّثر/ ٢ نزول) تولّى الله عزّ وجلّ مُواجَهَةَ من فكّر وقدَّرَ، وأدْبَر واستكبر، واتَّهَمَ الرَّسُول ﷺ بأنَّه سَاحر، وقَالَ عن القرآن إنْ هٰذا إلاّ سِحْرٌ يُؤْثَر، فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها بشأنه، وهو الوليد بْنُ المغيرة خطاباً لِرَسُولِهِ:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

(٣) وفي سورة (القلم/ ٤ نزول) تولّىٰ اللّهُ عَزّ وجلّ الدّفاعَ عن رَسُولِهِ، ضِدَ الّذِينَ اتّهَمُوهُ بالْجُنون، فقال اللّهُ عزَّ وجل في صَدْرِها خطاباً لِرَسُولِه ﷺ:

﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

(٤) وفي سورة (المسَد/ ٦ نزول) تولّىٰ اللّهُ عزّ وجلّ الدّفاع عن رسوله ﷺ، ضدّ شتيمة عَمّه «أبي لَهَبٍ» له وضدّ إساءَاتِ امرأة هذا الخاسر «أُمّ جميل» له، فأنزل الله سُورة «المسَد»:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾.

(٥) وفي سورة (التكوير/ ٧ نزول) واجَهَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ المشركين بالدِّفاع عَنْ رسُولِه ﷺ فقال لهم:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

(٦) وفي سُورَةِ (الضحى/ ١١ نزول) الّتي نُعَالِجُ في الصفحات التاليات تَدَبُّرَهَا، أَقْسَمَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ بِمَظْهَرَيْنِ منْ مظاهِرِ قُدْرَتِهِ في كَوْنِه، وإتقانِهِ لهما، وعنايته بخَلْقِه، هُمَا تَدَاوُلُ إشراقِ الضُّحَىٰ واللَّيلِ إذا سَجَىٰ، أَنَّ رَبَّهُ ما ودَّعَهُ ولا قَلاَهُ، عَلَىٰ خلاَفِ مزاعِمِ امرأة عَمِّهِ أبي لهَبٍ، وفي هذا الْقَسَمِ ما فيه من تكريمٍ للرَّسُول، ومُكايَدَةٍ لمروّجَةِ الفرية ومَنْ معها.

واقتصر الدِّفاعُ هُنَا على مقابلة المكايَدَة الّتي وجّهَتْهَا «أُمُّ جميلٍ» بمكايَدَةٍ تغيظُها، ولكِنْ بأسْلُوب اسْتِعطافِ الرّسول بقَسَم يَفِيضُ بالتَّوَدُّدِ والتَّحَبُّبِ، وفيه نَفْيٌ لمقُولَةِ مَنْ كايَدَهُ، مع الإعْرَاض عَنِ القائل وعدَمِ مواجَهَتِه، اسْتِهَانَةً بِهِ، واحتقاراً له، وفيه استعراضٌ لسَوَابق الإكرام والإنْعَام الَّتي أكرم الله بها رسوله، وأنْعَم بها عليه، مع بيان ما فيها من التَّرَقّي الصّاعِد، الدّالّ على أنَّ العطاء الارتقائيَّ سَيَظَلُّ مُسْتَمِراً من الله لرسوله طَوال الحياة الأولى، الَّتي سيُصِيبُ منها خيراً كثيراً، أمَّا الآخِرَةُ فهي خَيْرٌ وأجَلُّ وأعظَمُ له من الأُولىٰ، إكراماً وإنعاماً وتمجيداً، ومقاماً كريماً ودَرَجَةً رفيعةً.

فلْتَتَميَّزْ «امْرَأَةُ أَبِي لهَبٍ» ومَنْ كان على شاكلتها غيظاً وكمداً، فإنّ الله جلَّ جَلاَلُهُ إذا شاء إكرام عبْدٍ من عبادِه لَمْ تُوقِفْ عَطَاءاته مقالاتُ المكايدين والْمُكَايدات، ولا حسَدُ الحاسِدِين والحاسدات، ولا يَنْفَعُهُمْ شيئاً ترصُّدُهُمْ للعوارض الّتي يَمْتَحِنُ الله بها عبادَه، ولا يُعْفِي منها صفْوَةَ خلْقِه وخيرَتَهُمْ، لأنَّ هؤلاء الصَّفْوَة على معراج الصعود بإذن اللَّهِ وَتَوْفيقه وفُيُوضِ عطاءاتِه، ولا بُدَّ للصاعد من أن يتعرّض في بعض درجاته لبعض العوارض الّتي تُرَبِّيه على الثبات، وتمنَحُهُ الْعَزيمةَ والصُّمود، وتشحنُهُ بالْهِمَّةِ والمقاومة

والتحدّي، وتزيدُهُ طُموحاً، وتَجْعَلُه أكْثَرَ حِرْصاً على الاحتفاظ بمواقعه الّتي بلَغَ إلَيْها، لأنَّها ثمراتُ كِفاحٍ وَجِلادٍ وصَبْر.

أمَّا أعداؤه الحاسدون فموقعهم يظَلُّ في الحضيض، وليْسَ لهم من درَجاتِ مِعْراج الصعود حظٌّ غير النظر إلى المحظُوظين بالتّرقّي، والتمزُّقِ غَيْظاً وحسداً.

وامرأَةُ «أبي لَهَبٍ» صاحبَةُ المقالة أقْدَرُ النّاس على إدراك هذه الأمور الَّتي تُمزِّقُ نَفْسَها، وتَزِيدها غيظاً وحَسَداً.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## موضوع السورة

(١) دفاع من الله عزّ وجلّ عن الرسول ﷺ ضِدَّ من أشاع أنّ الله ودّعَهُ أو قَلَاه، بإثبات عكْسِ ذلك، مع وعد الله له بمستقبل باهرٍ يُرْضيه.

(٢) تذكير الله رسوله بما كان عليه منذ أوائل نشأته حتَّىٰ بعثته، وكيْفَ أنعم ربُّه عليه، بأنّه كان يتيماً فآواه، وكان جاهلاً فعَلَّمَهُ وهداه، وكان عائلاً فقيراً فأغْنَاهُ، فلْيَطْمَئِنَّ إلى وعْدِ اللّهِ له بما يُرضيه مستقبلاً.

(٣) تكليف الله رسوله بأن يَشْكُرَ نِعَمَ اللّهِ عليه، بأنْ لا يَقْهَرَ اليتيم، وبأن لا يَنْهَر السائل، وبأنْ يدعو إلى دين الله بأسلوب محادثة الناس بما أوحَى الله إليه من قضايا الدين، ومن آياته البيّنات، الّتِي هي نِعْمَةٌ عظيمة منَ اللّهِ عَلَيْهِ وعَلَىٰ النّاسِ أجمعين، لا بأسلوب الخطبة أو غيرها من وسائل البيان.

فالسورة بهذا تشتمل على ثلاثة دروسٍ متعانقة في وحدة موضوع، وهذه الوحدة الموضوعيّة لا تحتاج إلى بيان وشرح، لأنّ عناصرها ظاهرة التماسُك والترابط لكلّ متدبّر.

**فالدرس الأول:** هو الآيات من (١ ـ ٥).

**والدرس الثاني:** هو الآيات من (٦ ـ ٨).

**والدرس الثالث:** هو الآيات من (٩ ـ ١١).

❁ ❁ ❁

## (٥)
## التدبّر التحليلي للدرس الأوّل

### الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ (٤) وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ (٥)﴾.

● ﴿وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ (٢)﴾:

أقسم اللَّهُ عَزَّ وجلّ لِرَسُولِهِ بالضُّحَىٰ وباللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ، وهُوَ قَسَمٌ ببَعْضِ ظَواهِرِ خَلْقِهِ في كَوْنِهِ، وإِتْقَانِ صُنْعِهِ، وعِنَايَتِهِ بسُكَّانِ الأَرْضِ مِنْ عبادِهِ، إِذْ تَرْتَبِطُ مصالحُ كثيرةٌ لَهُمْ بأَنْ يَتَداوَلَ على الأرضِ نَهارٌ يُشْرِقُ فيه ضياءُ الشَّمْسِ، ولَيْلٌ ساتِرٌ يحْتَاجُ الأحياءُ فيه إلى السَّتْر والسُّكُونِ والراحَةِ والْبُعْدِ عَنْ وَهَجِ الشَّمْس.

وإِقْسَامُ اللَّهِ عزَّ وَجلَّ بظواهِرِ خَلْقِهِ في كَوْنِهِ، كِنَايَةٌ عَنْ إِقْسامِهِ بصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَحِكْمَتِهِ السَّامِيَة، الّتي من آثارِهَا هٰذِهِ الظَّواهِر، ومَعْلُومٌ أنَّ الظَّواهِر الكونيّةَ آيَاتٌ دَالأتٌ في الكَوْنِ علَىٰ صفاتِ الله خالِقِها، وإِثْبَاتُ الصِّفَاتِ يلْزَمُ عنه عقلاً إثباتُ الذَّاتِ المتّصفَةِ بها.

**الضُّحَىٰ:** يُفْهَمُ من أقوال أهل اللُّغَةِ أَنّه الوقْتُ يَوْمِيّاً من ارْتِفَاع الشَّمْس حتَّىٰ زوالها عن كَبِدِ السماء وسط النهار، أو إلى ما قَبْلَ الزوال.

وقيل: الضُّحَىٰ ساعَةٌ من سَاعَات النهار.

ولفظ «الضحَىٰ» مقصورٌ مؤنث، قال الجوهريّ: ويُذَكَّرُ.

وجاء عند المفسّرين أنّ المُرَادَ من الضُّحَىٰ في هذه السُّورَةِ النهارُ كُلُّهُ، وأنَّ المرادَ منَ اللّيْلِ إِذَا سَجَا اللَّيْلُ كُلُّه، لكِنّي لم أجِدْ دليلاً على هذا.

فَما جاء في القرآن من استعمال كلمة «الضُّحَىٰ» في غير هٰذِهِ السّورة ظاهرٌ في أنَّ المراد أوّل النهار من ارتفاع الشّمْس إلى الزوال.

ففي سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) يقول اللَّهُ عزّ وجَلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

فَدَلَّ هذا على أنَّ الضُّحَىٰ الّذِي هو وقْتُ اللَّعِب يكُونُ قَبْلَ مُنْتَصَفِ النَّهار.

وفي سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قال الله عزّ وجلَّ حكايَةً لقَوْلِ موسى عليه السلام جواباً لفرعون إذْ طلَبَ منه تَحْدِيدَ موعد التحدِّي بين آياته وسِحْرِ السَّحَرة.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

وعادة المـلُوكِ في المهرجانات الكبرى العامّة أن يجمعوا النّاس في أوّل النهار بعْدَ ارتفاع الشمس، وقبْلَ منتَصَفِه، وقبْلَ دُخُولِ وقْتِ الهاجِرَة الّتي تشتَدُّ مَعَها حَرَارَة الشّمْس.

ولا داعِيَ لإخراج اللَّفْظِ عَنْ أصل دلالته اللُّغَوِيَّة، فَقَدْ أقْسَم اللَّهُ عزّ وجلَّ بالّليل عموماً، وأقْسَمَ بالنّهارِ عموماً، وأَقْسَم بالضُّحَىٰ على وجْهِ الخصوص، وأَقْسَم باللّيْلِ إذا سَجَا على وجْهِ الخصوص، فلا داعِيَ لإخراج

دلالات الألفاظ الخاصّة عن خصوصها في الاستعمالات القرآنيّة، ما أمْكن عقلاً وشرعاً حملها عليها، فلِلأَلْفَاظ العامّةِ دلالاتٌ تُقْصَدُ من جهة عمومها، وللألفاظ الخاصّة دلالاتٌ تُقْصَدُ من جِهة خُصُوصِها.

● ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾:

وفي هذا قَسَمٌ باللَّيْلِ إذا سَجَا، أي: في وقْتٍ من أوقاتِهِ وهو وقْتُ سُجُوِّه.

ومادّة: «سَجَا يَسْجُو سُجُوّاً وسَجْواً» تدور في اللُّغَةِ حَوْل معنَيين: السُّكون. وتغْطِيَةِ الأَشْيَاء. ومع معنَىٰ السكون يأتي معنَىٰ الاستمرار والدّوام.

يُقَالُ لغة: سَجَا الشَّيْءُ إذَا سَكَنَ. ويقالُ سَجَا الثوبُ الجسَدَ إذا غَطَّاهُ. ويُقَالُ فيهما أَسْجَىٰ. ويُقَالُ: سَجَّىٰ الميّتَ إذَا غَطَّاهُ. وجاءت كلمة «سَجَا» في الكتابة القرآنيّة بالألف المقصورة مراعاة للنظائر في السُّورة، مع أنّ القاعدة الإملائية تقتضي كتابتها بالألف لأنّ أصْلَها واو.

ولِلْقَسَم بالضُّحَىٰ، وباللّيْلِ إِذَا سَجَا، مَعْنَيانِ مقصُودَانِ فَوْقَ كوْنِهِما آيَتَيْنِ من آيات الله في كَونِه، وهٰذَان المعنيان قَدْ رُوعِيَ فيهما الْمُقْسَمُ عَلَيه، إِذْ رُبَّما كانَ وقْتَا الضُّحَىٰ واللَّيْلِ إِذَا سَجَا في تِلْكَ المرْحَلة من مراحل رِسَالةِ الرسول محمّد ﷺ هما الوقتان المختاران لنُزولِ الوحْي عليه، فالضُّحَىٰ يكُونُ فيه الناسُ مُنْصَرِفين إلَىٰ أعمالهم وأسواقِهِم، فيَخْلُو فيه مُسْتقْبِلُ الواردات الرَّبَّانِيّة لِرَبِّه، دُونَ أنْ يَجد ما يُعَكِّرُ صَفْوَه، ويُفْسِدُ عليه خَلْوتَهُ. واللَّيْلُ إذا سَجَا، أيْ: إذَا سَكَنَ وأظْلَمَ وكانَ ساتراً، هو وقْتُ صَفَاءِ الْقُلُوبِ والنُّفُوسِ والأَفْكارِ، ووَقْتُ تَنَزُّلِ واردات المعارف الرَّبّانيَّةِ، والرَّحَماتِ الْقُدْسِيّة.

فهٰذَان الوقتان الملائمانِ لِلْمُقْسَم عَلَيْهِ في السُّورَةِ، وهُوَ أنَّ الله ما وَدَّعَ

رسُولَهُ وَمَا قَلاهُ، كما أشاعَ المكايِدُون والمكايِدَاتُ، والحاسِدُون والحاسِدَات.

● ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾:

أي: ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلاَكَ، كما زعَمُوا، وقَدْ حُذِفَ ضمير قَلاَكَ إيجازاً ولمراعاة التناظر.

هذا هو المقْسَمُ علَيْهِ في السُّورَةِ بالضُّحَىٰ وبِاللَّيْلِ إِذا سَجَا.

**ودَّعَ**: أَيْ: فارَقَ غَيْرَ كَارِهٍ لِلّقَاء. فالمودِّعُ هو منْ يفارقُ وهُوَ مُتعلّقٌ بمَنْ وَدَّعه لَمْ يَكْرَهْ لقاءَه.

**قَلَىٰ**: يُقَالُ لُغَةً: قَلَىٰ فُلاَنٌ فُلاناً قِلىً، أي: أَبْغَضَهُ وهَجَرَهُ، فالْقَالي هو المبغض الكارِهُ، فإذَا فارَقَ فارَقَ عَنْ كراهيةٍ وَبُغْض.

ففي قول اللّهِ عزّ وجلَّ لرسُولِهِ مُقْسِماً بالضُّحَىٰ وباللّيل إذَا سَجَا: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ نَفْيٌ شامِلٌ لكُلِّ صُوَرِ إنْهَاءِ صلة الوحي به، وأدناها التوديعُ مع بقاء الرّغبة في اللقاء، وأشَدُّها المفارقَةُ مع البغضِ والكراهية.

ويظْهَر للمتدَبّر أنَّ تَقْدِيمَ نَفْي التَّوْديعِ مع أنَّهُ أخفُّ الأَمْرَيْنِ، علَى نَفْي القِلَىٰ وهُوَ أَشَدُّهُمَا قد كَانَ لمُرَاعاةِ حِكْمَتَيْن:

**الأُولَىٰ**: أنَّ فِعْل «قَلَىٰ» مُلاَئِمٌ لرُؤُس الآيات في السُّورة، دون فعل «وَدّع».

**الثانية**: أنَّ انْتِشَارَ شائِعَةِ: أَنَّ رَبَّ محمّد ودَّعَهُ قَدْ كَانَ أكْثَرَ من انتشار شائِعَةِ: أنَّهُ قَلاَهُ، فاسْتَدْعَى هذا من البيان تقديمَ نَفْي ما هو أوْسَعُ انتشاراً، على نَفْيِ المقولَةِ الأُخْرَىٰ الَّتي كان انتشارُهَا قَلِيلاً، واللّهُ أعلم.

● ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ طَمْأَنَ اللّهُ رَسُولَهُ عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ بالْوَعْدِ الْكَرِيم، مَعَ

التلْويحِ لأعدائِه بأسْلُوب التَّعْرِيضِ، كيْ يتَمَيَّزُوا غَيْظاً في أنفُسِهم، فالنَّصُّ قَدْ أَعْرَضَ عَنهُمْ اسْتِهَانَةً بهم، وطَمْأنَ اللَّهُ فيه رسُولَهُ بخطابٍ مُبَاشِرٍ، مُبَيّناً لَهُ فيه أنَّ تَرَقّيَهُ في مِعْرَاجِهِ الأَبَدِيِّ الصاعِدِ مستمِرٌّ إلَىٰ غاياتِ التَّنْعِيم والتَكْرِيمِ والمقامِ المحمود، في دَارِ الْخُلودِ.

أيْ: فَإذَا كُنتَ في الأُولَىٰ الرَّسُولَ المجتَبَىٰ المفضَّلَ على كُلِّ النَّاسِ، فإنَّكَ في الآخِرَةِ سَتَكُونُ المفضَّلَ أيْضاً، وستكُونُ الآخرةُ خيراً لَكَ إنْعاماً وإكراماً وتفضيلاً عظيماً.

وجاء تأكيدُ هذا الوعْدِ بمؤكّدَين: «لام الابتداء والجملة الاسميّة».

- ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾:

في هٰذه الآية مُتَابَعَةٌ للْوَعْدِ الكريم الوارِدِ في سابقَتِها ببيَانٍ فيه شَيْءٌ مِنْ تفْصِيلِ مُجْمَلِها، فكَوْنُ الآخِرَةِ خيراً للرسول من الأُولَىٰ كَلَامٌ مُجمَلٌ، لكنَّهُ يعُمُّ كُلَّ مَا يُسْعِدُهُ فإنَّ اللَّهَ سَيُعطِيهِ من أنواعِ الخيرَاتِ والسَّعَادَاتِ والمنازِلِ الرَّفيعَةِ والدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ حتَّىٰ يَرْضَىٰ رضاً تامًّا، فَلَا يَجدَ في نَفْسِه مَطْلَباً إلاَّ نَالَ أكْثَرَ مِنْهُ، ممَّا لَمْ يكُنْ يخطُر في بَالِه.

إنَّ الوعْدَ بالْعَطَاءِ مع الإطلاق يشْمَلُ عطاءً لا حُدودَ لَهُ منْ كلِّ جنْسٍ ونَوْعٍ وفَضْلٍ وصِنْفٍ، بحَسَب رغائبِهِ صلَواتُ الله عليه.

ولـمَّا كانَ العطاءُ فوق مدَىٰ الطَّلَبِ والأمانيّ قالَ اللَّهُ لرسُولِه في الآيةِ: ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ فجاء العطْفُ بالفاء الّتي تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب. ولو كانت العطاءاتُ دون أمانيه صلواتُ اللَّهِ عليه، لكانَ المناسبُ أنْ يكونَ التعبير: «حَتَّىٰ تَرْضَىٰ» فَدَلَّ الأداءُ البيانيُّ بدقَّتِه على أنَّ فيْضَ العطاء الرَّبَّانِيِّ له أَوْسَعُ مِنْ حُدودِ أَمَانيه صلوات اللَّهِ عليه، وقد تفرَّدَ الرسُول ﷺ بهذا الوَعْدِ الكريم في بيانات القرآن.

وَجاء توكيد هذه الجملة بمؤكِّدَيْن: «لام الابتداء وحرْف سَوْف».

## (٦)
# التدبُّر التحليلي للدرس الثاني

### الآيات من (٦ ـ ٨)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧﴾؟

لَيسَ الْغَرضُ من هذا الاستفهام الوارد في صدر هذه الآيات طَلَبَ الإفهام، بلْ هو استفهامٌ تقريريٌّ.

وفي هذا الاستفهام التَّقريري، تَذْكِيرٌ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بِمُتَابَعَاتِ العِنَايَةِ به مُنْذُ نشْأَتِه، حتَّىٰ اصطفائِه لَهُ بالنُّبوَّةِ والرّسالة.

وفي هٰذَا التّذكيرِ توجيهٌ ضِمْنِيٌّ لَهُ أَنْ يَقيسَ مُجْرَيات الوقائع، الّتِي أَثَارتْ ضدَّهُ مُؤْذِيَاتِ الْمُكَايِدِينَ والْمُكايدات، ومُجْرَيَاتِ المسْتَقْبَلِ القريب والْبَعيد، على وقائِعِ الماضي المشحُونِ بدَلائِلِ العنايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ به، إِذْ لَمْ يَطْرأْ تَغْيِيرٌ وَلاَ تَقْصِيرٌ مِنَ الرسول ﷺ يقتضي تغييراً من قِبَلِ رَبِّهِ له، في رعايتِه ومُتَابعةِ العِنايَةِ به.

**إِذَنْ**: فعلَيْهِ أنْ لا يَتَأَثَّرَ بالأَصْواتِ الإعلاميَّةِ الموَجَّهَةِ ضِدَّهُ من أَعْدَاءِ رِسالَتِه، ولا بأَصْدائها، ما دامَ حظُّهُ من عنايَةِ رَبِّه به حظًّا وفيراً وعظيماً.

وانتقَىٰ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ صُوَرِ العِنَايَةِ السَّابقَةِ بِهِ أَهَمَّها، وَأَجْمَعَها، وأَشْمَلَها، ممَّا هو لدُنْيَاهُ، وممَّا هُو لآخِرَتِه.

**فالأولى**: إِيواؤُهُ وهُو يَتِيمُ الأَب، ثُمَّ يَتِيمُ الأبوَيْن.

**والثانية**: هدايتُهُ في مسيرته في حياته، ثم هدايته لمعرفة الحقائق الدينيَّة الكبرىٰ، ولمعرفة صِرَاط النجاة والسَّعادة الخالدة في الفردوسِ الأعلَىٰ من جنَّاتِ النعيم.

**والثالثة**: تَيْسِيرُ سُبُلِ إغْنَائِه بما يَسُدُّ حاجاتِ عَيْشِهِ فِي حياته، وكانَ قَدْ نشَأَ فقيراً لا مَالَ لَهُ ولا مواريث.

فَحَمَىٰ نشأَتَهُ، وسَدَّدَ طَرِيقَهُ بالهداية، ويَسَّرَ لَهُ من سُبُلِ العَيْشِ ووسائِله ما يكْفِيهِ ويُغْنِيه عن المسألة.

● ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾:

استِفْهامٌ مُسَلَّطٌ علَىٰ النَّفْيِ، وجَوَابُهُ هُنَا: بلَىٰ، لأَنَّ محمّداً قَدْ كَانَ يَتِيماً فآواه ربُّهُ جلّ جلالُه مُعْتَنِياً به.

وفي عِبارَةِ ﴿يَجِدْكَ﴾ مع أَنَّ اللَّهَ هو الّذي بحِكْمَتِهِ وقَضَىٰ وَقائِعَ يُتْمِهِ، تَعليمٌ من الله جلَّ جَلَالُهُ الأَدَبَ في عَدَمِ نِسْبَةِ مَا هُو مكْرُوهٌ إلَى الله تعالى في العبارة الكلاميّة، وإنْ كان سبْحَانَه هُوَ الّذي قَضَىٰ وقَدَّرَ وَخلَقَ.

وتَمَشّياً مَعَ هذا الأدَب في العبارة قالَ سيّدُنَا إبراهيمُ عليه السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

**يَتِيماً**: اليتيمُ من النّاس من ماتَ أبوه، ويظَلُّ يتيماً حتَّىٰ يبْلُغَ الْحُلُمَ.

**فآوَىٰ**: أي: فآوَاكَ، والمَعْنَىٰ: فضَمَّكَ وأحاطَكَ بعِنَايَتِه، تقولُ لُغَةً: أَوَيْتُ فُلاناً إلَيّ، وآوَيْتُهُ إليَّ، إذا ضَمَمْتَهُ إلَيْكَ وأحطْتَه بعنايتك وَرِعَايَتِك، وحُذِفَ ضمير آواك إيجازاً، ولمراعاة التناظر.

وُلِدَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَتِيم الأب، فكفَلَهُ جَدُّه عَبْد الْمُطَّلِب، وألْقَىٰ الله حُبَّهُ في قلْبه، فكان أَحَبَّ إليه من سائِر ولَدِه.

وأخبارُ طفولته ورضاعه في السيرَة النبويَّةِ شواهِدُ علىٰ أَنَّ عِنايَةَ اللَّهِ به كانَتْ عظيمةً جدًّا، فلَمْ تُفارِقْهُ لحظةً واحدة.

وتُوُفِّيَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ وهو ابنُ سِتِّ سِنِين، فكَانَ عِنْدَ جدِّه عَبْدِ المطلب،

وكان يَخُصُّه بتكريم لا يَخُصّ بِهِ أحداً من أبْنائِه، وكَانَ يتفرَّسُ له بمُسْتَقْبَلٍ عظيم فيقولُ: واللَّهِ إنَّ لَهُ لَشَأناً.

ثُمَّ تُوُفِّيَ جَدُّهُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي سنين، فكفَلَهُ عمُّهُ شقيق أبيه «أبُو طالب» فَضَمَّهُ إلَيْهِ عملاً بوصيَّةِ أبيه عبْدِ المطَّلب. وألْقَىٰ اللَّهُ حُبَّهُ في قَلْبِ عمِّه أبي طالِبٍ، حتَّىٰ كان يُحِبُّهُ أكْثَرَ من وَلَدِه، وكانَ لاَ ينامُ إلاّ إلىٰ جَنْبِه، وكان يخصُّهُ بالطَّعَام دون بَنِيهِ، وكانَ هذا من مظاهِرِ المِنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الأولَىٰ عَلَيْهِ.

• ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾:

**ضَالاً**: اسم «فاعل» من فِعْل «ضَلَّ» وهذا الفعل يُسْتَعْمَلُ بمعنى: «ضَاعَ، وغَابَ، وخَفِي» ويستَعْمَلُ متعدِّياً بنفسه، فتقُولُ: ضَلَلْتُ الطَّرِيقَ، إذَا بَحثْتَ عنهُ، فاشْتَبَهتْ علَيْكَ السُّبُل، إمَّا لأنَّك لم تكُنْ تَعْرفُه، وإمَّا لأنَّكَ نسيتَهُ. ويستَعْمَلُ متعدِّياً بحرف الجرّ «عَنْ» فتقول: ضلَلْتُ عن الطريق، وضلَّتْ عَنِّي دراهِمي.

والمناسبُ لحال الرسول ﷺ من هذه المعاني، هو المعنَىٰ الَّذِي يدُلُّ على سابِقِ جهْلِهِ بطريقِ الهداية، وبحْثِه عنهُ، واشتِبَاهِ السُّبُلِ عليْهِ، لكِنْ كانَتْ تُتَابِعهُ الْعِنَايَة الرَّبَّانِيَّة بالهِدَاية دون إبطاء، بَدَليل قول الله له: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: فهداك، إذ دلَّ العطفُ بالفاء على أنَّ هِدَاية اللَّهِ له كانَتْ تَتَدَاركُهُ دون تَرَاخٍ زَمَنِيٍّ، فالْفَاءُ تَدُلُّ على التَّرْتِيب مع التعقيب.

وهكذا كان واقِعُ حَال سيِّدنا محمَّد ﷺ، فَلا إشْكال يَقتضي صَرْفَ لفظ «ضالاً» إلَىٰ معاني ذكرها بعْضُ المفسِّرين.

ومعلومٌ أنَّه وُلِدَ خَاليَ الذِّهْنِ من المعارفِ والعلوم، وأنَّ اللَّهَ كَانَ يفْتَحُ لَهُ أبوابَها، ويُرَقِّيه صاعداً في مَعَارِجها داوماً، ويُحيطُه بحِمَايَتِهِ وحِفْظِهِ، حتَّىٰ يَسْلُكَ مَهْدِيًا على صِرَاط الحقّ والخيْرِ والكمال.

لقد أَضَاء الله له آفاق التفكير وَالتَّأَمُّل، وأنزَلَ عليه فُيُوضَ المعارف، وأَلْهَمَ قلْبه ونفْسَه حُبَّ الحقّ والخير والفضيلة، فكان يرَىٰ الخلُقَ الكَرِيم، والسُّلُوكَ القويمَ، فيلْتَزِمُ بِهما مُحاطاً بِعنايَةِ الله وتوفيقه، وكان يَرَىٰ قبائح الجاهليّة ووَثنيَاتِها، فتَعْزِفُ نَفْسُه عنها، حتَّىٰ اللَّهْوُ الَّذِي لا شَرَّ فيه وَلا ضُرَّ لَمْ يكُنْ له به تعلُّق، وهذا من عناية الله بِه، وتأديبِهِ له، وهدَايَتِهِ وتَوْفيقه.

وظلَّ كذلك في مراحِلِ نشأتِه، حَتَّىٰ كَانَ الرَّجُلَ الَّذِي يُشارُ إليه بالأَمَانَةِ وَكَمَالِ الخلُق في قوْمِه.

ثُمَّ اصطفاه الله بالنُّبُوَّةِ، ففتَحَ عَلَيْهِ فيوضَ العلم والهدايةِ، ثـمَّ بعَثَهُ رَسُولاً، وصَارَ الوحْيُ يأتِيه، وتَتَنَزَّلُ عليه آيَاتُ اللَّهِ، وتفيض على قَلْبِهِ وَارِدَاتُ الحِكْمَة.

وكلُّ هٰذا من مظاهِرِ المنَّةِ الثَّانية الَّتِي امْتَنَّ اللَّهُ بها عليه في قولِهِ لَهُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

فإذا رَجَعَ إِلَىٰ وِجْدَانِهِ يتفكَّرُ في هٰذِهِ المنَّةِ فإنَّه لا بُدَّ أَنْ يكُونَ على ثِقَةٍ تامَّةٍ، وَيَقِينٍ رَاسِخٍ بأنَّ ربَّهُ لَنْ يتَخلَّىٰ عنه، فلَنْ يُودِّعَهُ، ولَن يهْجُرَهُ قَالِياً.

- ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾:

**عائلًا**: أي: فقيراً، يُقَال لُغَةً: عَالَ فُلانُ يَعِيلُ عَيْلاً وَعَيْلَةً، أي: افْتَقَر، فهُوَ «عائِلٌ وعَيِّلٌ» أي: فقير، والجمْعُ «عالَةٌ وعُيَّلٌ».

**فأغنَىٰ**: أي: فأغنَاكَ، حُذِف الضمير إيجازاً ولمراعاة رُؤوس الآيات في السورة، يُقَالُ لغةً: أغنَىٰ اللَّهُ فُلاناً، أي: جَعلَهُ غنِيًّا.

ويقالُ: غَنِيَ فُلَانٌ يَغْنَىٰ غِنىً، أيْ: كَثُرَ مالُهُ فهو غَانٍ وَغَنِيٌّ، إذْ صَارَ مكْتَفِياً به لسَدِّ حاجاتِ مَعَاشه.

هذه المنَّةُ الثالثَةُ الّتي امتَنَّ اللّهُ بها على رسولِه محمّد ﷺ في السّورة.

لقد نَشأ محمَّدُ فقيراً فكفَاهُ اللّهُ معَاشَه ببَعْضِ كَسْبِه، ثُمَّ أرسلَتْهُ التَّاجرة السيّدة الكريمة خديجَةُ بنْتُ خُوَيْلِد بتجارة لَها إلى الشَّام، فأنْعَمَ الله علَيْهِ بتجارَةٍ لخديجة رابحَةٍ جدًّا، وَكانَ فيها الأمينَ وذَا الْخُلُقِ العظيم.

ثُمَّ أنعَمَ الله عليه بالزّواج منْها، وهي الغنيَّةُ الثّريَّةُ الحسيبَةُ النسيبةُ، فأغناه الله، وقد نزلَتْ سورة (الضحى) وهو في بحبُوحة العيش والغنىٰ عن الناس، مع زوجته الكريمة الحسيبة العاقلة الحكيمة الودود الولود، خديجة بنت خويلد.

هٰذه هيَ أهَمُّ وَأجْمَعُ وأشْمَلُ صُورِ عنايَةِ اللّهِ بِه فيما سَبَقَ من حَيَاتِهِ قَبْلَ إنْزَالِ هذه السّورَةِ عليه.

وهي أماراتٌ دالاَّتٌ علَىٰ أنَّ مستقبلَهُ أجَلُّ وأعظَمُ وأرْجَىٰ لَهُ من ماضيه، بعْدَ اصطفائِه بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالة.

أي: وإذْ كانَتْ سَوابِقُ عنَايَةِ رَبِّكَ بك أنَّهُ وَجدَكَ يَتِيماً فآوى، ووجَدَكَ ضالاً فهدَىٰ، ووجَدَكَ عائِلاً فأغنَىٰ، فكُنْ على يقينِ راسِخِ بِأنَّ اللّهَ لَنْ يتخَلَّىٰ عن مُتابعَةِ عِنايتِهِ بك، فلَنْ يُوَدّعَكَ ولَنْ يَهْجُرَك.

❀ ❀ ❀

## (٧)
## التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث

### الآيات من (٩ ـ ١١)

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

**تمهيد:**

بعد أَنْ طَمأَن الله عزّ وجلّ رسُولَهُ محمّداً ﷺ حوْلَ أمور مُسْتَقْبَلِه ومُتَابعَةِ عناية اللّهِ به، عن طَرِيق تذكيره بسوابق عنايته به، الّتي لم تُفَارِقْهُ منذ نشأته، حتّىٰ اصطفائه بالنُّبُوَّةِ والرّسالة أجلِّ نِعَمِ الله عليه، وأرْفَعِها مقاماً، وأوْصَلِها إلى المقام المحمود يوم الدين، صار من المناسب في تربية الله لَهُ أن يُكلِّفَهُ تكليفاتٍ مَبْنيَّاتٍ عَلىٰ كُلِّيَّاتِ النِّعَمِ الّتي أنْعَم بها عليه، وذكَّرَهُ بها، ليكُونَ عبْداً شَكُوراً لرَبّه.

فجاء في التَّكليفِ مُقَابلَةُ كُلِّ نِعْمَةٍ جاءَتْ في التَّذكير بتَكْليفٍ من جنسها.

- ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾:

جاء هذا التكليف للرسول ﷺ في مقابلِ قولِ الله عزّ وجلّ له في التذكير بسوابقِ النِّعَم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: الْفَاءُ عاطفةٌ للتفريع على ما سبَق، وفي هذا التفريع دلالة على أنَّ النّعمةَ تقتضي تلقائيًا الشّكْرَ عليها بعَمَلٍ من جِنسِها، أي: فإيواءُ الله لك من الْيُتْم الذي وجدَكَ فيه، يقتضي منك أن تشكُرَ رَبّكَ الذي آواك بأنْ تُكْرِمَ اليتيم إذا وجَدْته، وتذكُرَ فيه نفْسَك حينما كُنْت مِثْله.

[أمّا]: حرْفُ شرط، وتوكيد، وتفصيل غالباً. ويَظهر كوْنها شرطاً من لزوم الفاء بعْدَها، وقد رأى علماء العربيّة أنّها تفيد التوكيد. وكوْنُها للتفصيل هنا ظاهرٌ من تكرارها بجانب القسمَيْنِ الآخَرين في هذا الدرس.

ويُفصَلُ بين «أمّا» وجوابها بواحدٍ من أشياء، منها اسْمٌ منصُوبٌ بجوابها مُقَدَّمٌ عليه، كَمَا جاء هنا.

﴿ٱلْيَتِيمَ﴾: هنا مفعولٌ به مُقَدَّمٌ على فِعْلِه وهو: ﴿تَقْهَرْ﴾.

﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾: الفاء واقعةٌ في جواب الشرط. و «لا» حرْفُ نَهْي يجزم الفعل المضارع، وهو هنا: «تَقْهَرْ».

**القَهْرُ** في اللّغة: الغَلَبَةُ، والأَخْذُ من فَوْقٍ، والمَقْهُور هو المأخُوذ من غيْرِ رضاه. وقد كان المتبادِرُ إلى الذهْنِ أن يكون التوجيهُ للأمْرِ بإكرام اليَتيم، لا إلى النّهي عن قَهرِه، فما هي الحكمة ممّا اختير في النّصّ؟

**أقول**: لمَّا كان المتبادر مِنْ مَعْنَىٰ الإكْرامِ الإعطاءَ والبذلَ، وهذا قد يكونُ مع التَّعَالي والإشْعَارِ بالتَّفضُّل، وفي هٰذَيْنِ نَوْعٌ من الغلَبَة الّتي لا تُرْضي آخِذَ العطاء حينما يأخُذُه اضطراراً أَوْ عَنْ حاجَةٍ، كانَ من المناسِبِ التصريحُ بالنهْي عن قَهْرِه، وفي هَذا إعلامٌ ضمنيٌّ لغيْرِ الرسُول بأن لا يقْهَرَ اليتيم ولو كان يُعطيه وَيَبْذُلُ لَهُ مالاً أوْ معُونَةً أو خِدْمَةً ما.

علىٰ أنّه قد سبق في سورة (الفجر/ ١٠ نزول) زَجْرُ الَّذِين لا يُكْرِمُونَ اليتيم، فكان من المناسب في سورة (الضحى/ ١١ نزول) التّصريحُ بالنّهْي عن قَهْرِه، ولَوْ مع مَعُونته والإنْعام عليه.

ولتطبيق هذه المحمَدَةِ وجوهٌ كثيرة لا تخفى على أهْلِ الذكاء، ومنها إقامَةُ دُورٍ لِرعايَة اليتامَىٰ لا تظْهَرُ فيها وُجُوهُ المحسنين.

وقد جاء التوجيهُ لإكرام اليتامَىٰ والنَّهْي عن قَهْرِهم في المراحِلِ الأولى لتنزيل سُور القرآن، اهتماماً بالمستَضْعَفِين المحرومين من الحنان، الّذين يَشْعُرون بأنّهم في حياتهم مغلوبُونَ مَقْهُورُونَ، ورُبّما كانوا مع ذلك ذوي حاجةٍ فقراء، وهذا يضاعفُ من آلامهم.

إنّ اليتيم تزْدَحِم في نفسه تصوُّراتُ أنّه مغلُوبٌ مَقْهُورٌ، إذْ هو مَحْرومٌ من أبيه الّذي لو كان حيًّا لكان به معزّزاً كريماً مَكْفِيًّا، ومَحْبُوباً مُدَلَّلاً، وأنَّ من يُحْسِنُ إليه يَفْعَلُ ذَلِكَ شفَقَةً عليه، لا حُبًّا لَهُ.

فكيْفَ بمَنْ يُذِلُّه، ويطْرُدُهُ، ويَدُعُّهُ دَعًّا، ويسْتَوْلي على ماله، ويُكَلِّفُه من الأعمال فوق تكليف أترابه ونظرائه من غَيْرِ اليتامَىٰ.

● ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾:

وجاء هذا التكليف من الله عزّ وجلّ للرسول ﷺ في مُقابِل قول الله له في التّذكير بسَوابِق النِّعَم: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

جملَةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ معطُوفةٌ علىٰ جُمْلة: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾. والجملتان مُتماثلان تركيباً وإعراباً، فلا حاجة للإعادة.

﴿ٱلسَّآئِلَ﴾: هو في العرف العامّ طالِبُ الصّدقَةِ من الناس، والأصْلُ في لفظ السّائل أنّه ينطَبِقُ علىٰ كلّ مَنْ يُوَجّه سؤالاً ما، ولو لمعرفة خبَرٍ أو عِلْمٍ أوْ غيْرِ ذلك.

﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾: يقال لغةً: نَهَرَ فُلانٌ فُلاناً إذَا زَجَرَهُ وأغْضَبَهُ، فالنَّهْرُ الزَّجْرُ المثير للغضب.

جاء فيما سبقَ من تنزيل القرآن التوجيهُ للعطاء والأمْرُ به، إذْ أمر الله فيه رسُولَهُ بأنْ يمُنَّ غَيْر مُسْتكْثِر، وذَمّ الكافرين بأنّهم لا يَحُضُّون على إطعام المسكين، أي: فمِنْ خلائق المؤمنين أنّهُم يُطْعِمُونَ المسكين، ويحضُّونَ على إطعامه.

إذنْ فالْخَصْلَة الحميدةُ الّتي يحْسُنُ التوجيه لها، بعْدَ هذه السَّوابِق حوْلَ موضوع العطاء، هي عَدَمُ نَهْرِ السَّائل، والسَّبَبُ في هذا أنّ السَّائِلِينَ لأنْفُسِهم في أغلَبِ الأحوال والأفْرادِ إنّما يسْألُون للاستكثار من الأموال، وعن غَيْرِ حاجة، إذْ غدَتِ المسألَةُ لديْهِمْ بمثابةِ مِهْنةٍ امْتهَنُوها، فالسَّائلُ منْهم في الغالب المعتاد مظِنّةُ غَنِيٍّ مُتَمَسْكِنٍ مُسْتكْثِر، وحينما يَغْلِبُ في تصَوُّر الناسِ هذا المعنىٰ فإنَّ الحريصَ على بذْلِ العطاء لمستحقّيهِ يَضِيقُ بالسّائِل تِلْقَائِيًا فَيَنْهَرُهُ ويَزْجُره.

لكِنَّ هذا الظَّنَّ قَدْ لاَ يُوافِقُ حالَ السَّائِلِ، فيكُونُ نَهْرُهُ إيذاءً بالِغاً لقَلْبِه، وطَعْناً في مَكانِ جراحَتِهِ الّتي تُؤْلِمُهُ، فَكانَ من الحكمة لِصيانَةِ

السَّائِلين ذوي الحاجَةِ الحقيقيَّةِ المجهولين، وإنْ كانُوا قَلِيلِينَ، توجيهُ النَّهْي عن نَهْرِ كُلِّ سائلٍ، حتَّىٰ لاَ يَمَسَّ النَّهْرُ سَائِلاً صادقاً.

ونأخذ من هذا قاعدة عامّة، وهي: لزوم الابتعاد عن أُمُورٍ كثيرةٍ غير ممنُوعَةٍ بجملَتِها، ولا يُؤدِّي الابتعاد عنها إلى ارتكاب محرَّم أو ترْكِ واجب، مَخافَة الوقوع بمَمْنُوعٍ ضارٍّ مختَلِطٍ فيها، ولا يُسْتَطاع تمييزُه.

● ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾:

جاء هٰذا التكليف من الله عزّ وجلّ لرسوله في مقابل قَوْلِ اللَّهِ لَهُ في التذكير بسوابق النِّعَم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾.

ظهر لي أنَّ المراد بنِعْمَةِ رَبِّهِ في هٰذه الآية هي نِعْمَةُ تَعَالِيم دين الإسلام الّتي هَدَىٰ الله بها رسُولَهُ، وعلَّمَه إيَّاها، ونِعْمَةُ آياتِ الْقُرآن الَّتِي يَنْزِلُ بها عليه الوحْيُ من الله عزّ وجلّ.

ويَدُلُّ على هذا الفهم نُصُوصٌ قرآنيّة متَعَدِّدة، منها النصوص التالية المشتملَةُ على دلالات واضحات:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) خطاباً لرسوله وردّاً على متّهميهِ بالجنون من قومه:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾:

أي: بنِعْمَةِ الهدايَةِ والإسلام وما يتنزَّلُ عليك من القرآن.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) خطاباً لرسوله أيضاً:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَمَا أَنْتَ بما يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْكَ من نِعْمَةِ القرآن وشرائع الإسلام بكاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ، وفي هذا رَدٌّ على ما اتَّهمه به بعض مشركي قومه.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بشأن مُشْرِكي مكّة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: أَفَبِالْبَاطِلِ الّذي هُوَ الشِّرْكُ وَلوازِمُهُ الجاهليَّة يُؤْمِنُون، وبِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ شرائِع دينِ الإسلام وآياتُ الْقُرآنِ يَكْفُرُونَ؟!

(٤) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾:

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: أي: ويُتِمَّ عَلَيْكَ إنزالَ القرآن وبَيان شرائِع الإسلام وأحكامه، وكان هٰذا تمهيداً وَتوطِئَةً لما أَنْزَلَ الله عليه في سورة (المائدة/ ١١٢ نزول) في الآية الآتي بيانُها، وسُورَةُ (الفتح) من أواخِر السُّور القرآنيَّةِ في تَرْتيب النزول.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا...﴾.

هٰذه الآية كانت آخِرَ آياتِ الأحكام الدينيّة نزولاً، نزلَتْ في حجّة الوداع يوْمَ الجمعة عَشِيَّة عَرَفَةَ كَمَا جَاء عند البخاريّ ومُسْلِمٍ وغيرِهما، وعاش الرسول بعدها (٨١) يوماً وقبضه اللَّهُ إليه بعْدَ ذلك.

فالنِّعْمَةُ المرادة هُنَا هي نِعْمَةُ شَرَائِعِ الإسلام، وأحكام الدِّين ونِعْمَةُ

الهداية إلى صراط اللَّهِ المستقيم، وهي التي تُلائِمُ امْتِنَانَ اللَّهِ عليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

فقولُ اللَّهِ عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ تكليفٌ من اللَّهِ لَهُ أَنْ يُحدِّثَ النَّاسَ، بما أنْزلَ اللَّهُ عليه من نِعْمَةِ هٰذا الدّين، وأَنْ يُقابِلَ مِنَّةَ اللَّهِ علَيْهِ بالهداية إِلَىٰ الدّينِ الحقّ، وإلى سُلُوكِ الصراط المستَقِيم، بالدَّعْوَةِ إلى عَنَاصِرِ هذا الدّين، شُكْراً لِلَّهِ على ما مَنَّ بِهِ علَيْهِ من هداية.

ودَلَّ قَوْلُ اللَّهِ لرسُولِهِ ﴿فَحَدِّثْ﴾ علَىٰ أَنَّ أسْلُوبَ الدَّعْوَةِ إلى دين اللَّهِ وَصِرَاطِهِ المستقيم في هٰذهِ المرحلَة الَّتي نزلَتْ فيها سورةُ (الضُّحَىٰ) هو أسْلُوبُ الْحَدِيث، لاَ أسْلُوبُ الْخُطْبَةِ والموعظة العامَّة ونحوهما.

والعامَّةُ من المسلمين يَفْهَمُونَ مِنْ هٰذهِ الآيَةِ أنّ المطلوب التحدُّث بما يُنْعِمُ اللَّهُ به على عَبْدِه من أرْزَاقٍ وأموالٍ ونَحْوِها، وهذا كما ظهر غير مَقْصُودٍ هنا.

على أن المطلوب من النّاس أَنْ يَحْمَدُوا الله على ما أَوْلاهم منْ نِعَمٍ ظاهرة وباطنة، وأَنْ يَشْكُروا اللّهَ عليها بأعمالهم وأقوالهم، أخذاً من نصوصٍ أخرى، ولا يُشترط التحدُّثُ عنها بالتفصيل للناس، فقد يثير هذا حسد الحاسدين، ومطامع الباغين.

ويلاحظُ في السّورة أنّه جاء التَّرْتيب في تفصيل المطلوبات في التكليف، علَىٰ خلاف الترتيب الّذي جاء فيه تَعْدَادُ مِنَنِ اللَّهِ على رَسُوله، الَّتي سبَقَ أن امْتَنَّ عليه بها، والتي جاءت عناصر التكليف مُقَابِلَةً لها، ويسمَّىٰ هذا عند البلاغيّين النَّشْرَ على خِلَافِ اللَّف.

والحِكْمَةُ من هذا الإجراء تظهَرُ لنا بملاحظة ما يلي:

**أوّلاً**: لقد جاء ترتيب المِنَن الَّتي امتنّ الله بها على رسوله موافقاً للترتيب الطبيعي:

(١) فالإيواءُ من اليُتْم قَدْ كانَ أوّلَ المِنَن، إذْ مَاتَ أبوه قَبْلَ وَلاَدَته.
(٢) وبَعْدَهُ بدأَتْ رِحْلَةُ الهداية والتعليم التي استمَرَّت.
(٣) وبَعْدَهما جاءت مِنَّةُ الإغناءِ من الْعَيْلَة.

**ثانياً**: أمّا مُقَابلاتُها في التَّكْلِيف، فَقَدْ رُوعِيَ فيها الْبَدْءُ بإكرام اليتيم وعَدَمِ قَهْرِه، وإتباعُ هذا بِعَدَمِ نَهْرِ المسكين، لأَنَّ العطْفَ علَىٰ ضُعَفَاءِ المجتمع وبائِسيه، من الوسائل الَّتي تَمْلِكُ القلوب، وتأسِرُ النُّفُوس، فَيَنْبَغِي أَنْ تكُونَ مُقَدَّمَةً علَىٰ الدَّعْوة إلى دين اللَّهِ والهداية إلى الصراط المستقيم، وهٰذِه الدَّعْوَةُ تَتَضَمَّنُ الحثَّ على مخالفة التقاليد والعادات وأهواء النفوس وشهواتها، فلا بُدَّ لها من وسَائِلَ تَسْبِقُهَا، من شأنها أن تستعطف القلوب والنفوس، وتُلَيّن ما تَصَلَّبَ فيها ضدَّ الحقّ والخير والفضيلة، وهذا إنما يكون عن طَرِيقِ مَحَابِّ النفوس، ومُرْضيات حاجاتها، وضروريات حياتها، وإشعارها بما في هذا الدين من خدمات اجتماعيَّةٍ جليلة، وعواطف إنسانيَّة نبيلة.

**وبهذا تمّ تدبُّر سورة (الضحى) والحمد لله على توفيقه وفتحه**

❁ ❁ ❁

## (٨)
## الملحق الأول
## حول إسناد فعل: «وَجَدَ يَجِدُ» إلى الله في القرآن

تتبّعْتُ الآيات القرآنيّة التي جاء فيها إسناد فعل: «وَجَدَ يَجِدُ» إلى اللَّهِ عزّ وجلّ، فظهر لي أنّ هذا الإسْناد يكونُ في الأنواع التالية:

**النوع الأول**:

الأمور الّتي تكونُ استمراراً لأصْلِهَا الّذي هو الْعَدَمُ في الوجود، ولاَ يَتِمُّ فِيها خَلْقٌ مَقْصُودٌ بالإرادة.

ومِنْ أمْثِلَةِ هذا النوع قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الضُّحَىٰ) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

إنَّ الأَصْلَ في كلّ مَخلُوقٍ أَنْ يكونَ جاهلاً غَيْرَ عَارِفٍ سَبِيلَ هِدَايَتِهِ، فَهُو يَحْتَاجُ هدايَةً من الله تَهْدِيه سبيلَ رَشادِه وسعادته العاجلة والآجلَة.

وقَدْ هدَىٰ اللَّهُ محمّداً، وزادَه فجعَلَهُ نَبِيًّا رَسُولاً، وحَمَّلَهُ أَتَمَّ رِسَالَةٍ وَأَكْمَلَ دِينٍ، وجعَلَهُ خاتم الأنبياء والمرسَلِين.

وإنّ الأَصْلَ في كُلِّ مَخْلُوقٍ أَنْ يكونَ عائِلاً فقيراً، فإذا شَاءَ الله أن يُغْنِيَهُ أَغْنَاهُ من فَضْلِه وَأَعْطَاه ما يكفيه أو زاده.

وقد كان محمَّدٌ عائلاً فقيراً، فأغْنَاهُ الله، إذْ هيّأَ لَهُ مِنْ وسائِلِ العيشِ ما يكفِيهِ ويغنيه عن المسألة.

**النوع الثاني:**

الأمورُ الّتي تَحْدُثُ لُزُوماً نتيجَةً لأَعْمَالِ خَلْقٍ مَقْصُودَةٍ لذواتِها في خطَّةِ التكوينِ، كإمَاتَةِ الوالدَيْنِ لانتِهاء أعْمَارِهما، وهذه الإماتَةُ يلْزَمُ عنها تلْقَائِيًا يُتْمُ أَوْلادهما الصغار الذين هم لم يَبْلُغُوا الْحُلُمَ.

ومن أَمْثِلة هذا النوع قول الله عزّ وجلّ في سورة (الضُّحَىٰ) أيضاً خطاباً لرسوله:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

ويُقَاسُ علىٰ هذا اللازم نظائِرُه.

**النوع الثالث:**

الأمور الّتي تكونُ نتيجة إرادة المخلوقِ واختياره الحرّ، إذَا كَانَ مِمَّنْ مَنَحَهُمُ الله إرادةً واختياراً ليَبْلُوَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا.

ومن أمثلة هذا النوع ما يلي:

(١) قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بشأنِ آدم عليه السلام في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾:

أي: لم نَجِدْ لدَيْهِ إرادَةً قويَّةً من مستوى العزمِ، تجعَلُهُ يُحَافظ على عَهْدِه، ويَرْعَاه ويَسْتَمْسكُ به، وكانَ هٰذَا من لوازِمِ تخييرِه ومَنْحِهِ الإرادةَ الحرَّة ليبلوَه، وتسخير المسخرات الكونية للنّاس.

(٢) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ بشَأْنِ أَيُّوبَ عليه السَّلام، في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾:

إنّ صَبْرَ أَيُوبَ قَدْ كان نَاتِجاً عَنْ قُوَّةِ إرادَتِهِ في تَحَمُّلِ الآلام والمصائب، وهذا من لوازم تخييره ومَنْحِهِ الإرادة الحرَّةَ ليبلُوَه.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأنِ أهْلِ القرى الّتي أهْلَكَهَا الله بسبب كُفْرِها وتكذيبها رُسل ربِّها وفِسْقِها:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ولهذا أَبَانَ الله عزّ وجلّ أَنَّ من صفات المنافقين، أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ ما يُصِيبُهُمْ من أذىً على أيْدي الكافرين، مِثْلَ عَذَابِ اللَّهِ الذي يُنْزِلُه ببَعْضِ عبادِه، غيْرَ نَاظِرين إِلَىٰ أَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثارِ تخيير الله لَهُمْ، وتمكينِهِمْ من استخدام المسخَّرَاتِ للناس في الكون، لامتحانهم في ظروف الحياة الدّنيا، فقال اللَّهُ عزّ وجَلَّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

(٩)

# الملحق الثاني

# حول «بلاغيات في سورة الضُّحَىٰ»

باستطاعة المتأمّل البلاغي أن يكتشف في هذه السّورة عدّة اختيارات بلاغية حكيمة، منها ما يلي:

**الأولى:**

جاء في عبارة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ اختيار الاسم الظاهر المضاف إلى ضمير المخاطب وهو الرسول، ووَضْعُه مَوْضِعَ ضمير المتكلّم: «ما وَدَّعْتُكَ» لدواعي بلاغيّة، منها:

(١) مطابقةُ ما جاء في جملة النفي القرآنية لما جاء في الإشاعة المفتراة، إذْ قال المشركون: إنّ ربّ محمّد ودَّعه وقلاه.

(٢) التذكير بسوابق فضل رَبّه عليه، إذْ كان في ربوبيته له منذ نشأته يُتَابعُهُ بالمِنَنِ والمنَح والعناية الفائقة، فلفظ «ربّ» يُشْعِر بكلّ معاني الربوبيّة أخذاً من أصل وضع الكلمة ومشتقاتها، الدّالّ على معنَىٰ التربية.

(٣) إيثار الجمال التعبيري في السُّورة، الملائم لصِيَغ آياتها.

**الثانية:**

استخدام أدوات التأكيد في عدّة مواضع:

(١) تأكيد جملة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ بالْقَسَم، لأنَّ حال الرَّسول النفسيّة تَستَدْعي تأكيد الخبر له، بعد إشاعة خصومه أنّ ربَّهُ وَدَّعَهُ أو قلاه، مستغلّين تأخُّر الْوَحْيِ عَنه قليلاً، بَعْدَ أن كان متواليَ الاتّصال به، ولا سِيمَا أنَّه ما زال في أوائل بعثته رسولاً.

(٢) تأكيد وعد الله لرسوله بأنّ الآخرةَ خَيْرٌ لَهُ من الأولى، بلام الابتداء، وبالجملة الاسميّة، مراعاةً لحالته النفسيَّة يومَئِذٍ، ولإغاظة خُصُومه.

(٣) تأكيد وعد الله لرسوله بأنّه سوف يُعطيه حتّىٰ يُرْضيه، بلام الابتداء، وبحرف التنفيس «سوف» كما يقول البلاغيون، إذْ قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

وجاء هذا التأكيد أيضاً مراعاةً لحالة الرسول النفسيّة يومئذٍ، وإغاظةً لخصومه، من مُكَايِدِيه وحاسديه.

**الثالثة:**

الإيجاز بحذف ضمير الخطاب في: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ وفي ﴿فَهَدَىٰ﴾ وفي ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ مع مراعاة التناظر في رؤوس الآيات في السورة، وهذا من الزيناتِ اللّفظيّة المحبَّبَةِ للسَّمْع.

**الرابعة:**

تتابُع دُرُوس السّورة تَتَابُعاً تفريعيًا، فالدرس الأول منها يَشْهَدُ لمَضْمُونه مضمونُ الدَّرْس الثاني، إذْ هو بمثابة الدّليل عليه، والدرْسُ الثاني منها يَسْتَدْعِي تكليفَ الرسولِ العمَلَ بمضمون الدرس الثالث، شُكْراً لِلّهِ على سَوابقِ مِنَنِ اللّهِ عليه، وبهذا تتجلّىٰ للمتدبّر وحْدَةُ مَوْضوع السورة، وبناءُ السّورة بناءً تكامليًا تفريعيًا.

**وانتهى تدبر سورة (الضحى) بفضل الله ومعونته**

❁ ❁ ❁

# سُورَةُ الشَّرح

أَوْ

# أَلَمْ نَشْرَحْ

أَوْ

# الانشــراح

٩٤ مصحف ١٢ نزول

## (١)
## نص السورة وما فيها من فرشيات القراءات
## سورة الشرح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ
وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا
لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ
مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾
وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

٥ - ٦ - قرأ أبو جعفر: [فَإِنَّ مَعَ الْعُسُرِ يُسُراً * إِنَّ مَعَ الْعُسُرِ يُسُراً *] بضَمِّ السِّينِ في الكلمات الأَرْبَع.

وقرأ باقي القرَّاء الْعَشَرَة بإسْكَانِ السِّينِ في كُلٍّ مِنها.

الضَّمُّ والإِسْكانُ لُغَتَانِ في السّين من كَلِمتَي الْعُسْرِ والْيُسْرِ.

## (٢)
## موضوع السّورة

تكادُ تكُون سورة (الشَّرْح) تتمَّةً لسورة (الضُّحى) أوْ درساً من دروسِها، بيْدَ أنَّها سُورَةٌ منفصلَةٌ، نزلَتْ بعْدَ (الضحى) خطاباً للرسول

محمّد ﷺ، والأسلوبُ البيانيُّ والتربويُّ والتكليفيُّ فيها مُشابهٌ لأسْلُوبها، مع فارق بيانيٍّ استدعى فَصْلَها.

وهي تشتَمِلُ علَىٰ استفهام تقريريّ بما امْتَنَّ اللَّهُ به علَيْهِ مِنْ مِنَنٍ تَتَّصِلُ بوظيفته الّتي حمّله الله أَعْباءَهَا، وهيَ كوْنُهُ نبيًّا رَسُولاً، سَيُواجهُ لَدَىٰ قِيامِهِ بتَأْدِيَةِ رسَالَتِهِ في قومِهِ صُعُوبَاتٍ يُذَلِّلُهَا اللَّهُ لَهُ، ويُعِينُهُ عَلَيْهَا، ومَسَالِكَ ومُواجَهاتٍ وأعْمَالاً فيها عُسْرٌ يُيَسِّرُهُ اللَّهُ لَهُ بأَلْطَافِهِ الْخَفِيَّةِ، ومَعُوناتِهِ غَيْرِ المنْظُورة، فعليه أَنْ يُتَابعَ كُلّما فَرَغَ من عَمَلٍ من أعْمَاله الجهاديَّة الدَّعَوِيَّةَ، مَهْمَا شاهَدَ في المنظُورِ عُسْراً، فَالْيُسْرُ غَيْرُ المنظورِ مرافِقٌ لِهَذَا الْعُسْرِ مِنْ جَانِبَيْهِ، وهو كفِيلٌ بأنْ يَضْغَط علَيْهِ ويَجْعَلَ سَبِيلَ الرَّسُولِ مَيْسُوراً، وهُوَ يقُومُ بأداءِ وظائف رِسالَتِه، وعَلَيْهِ أنْ يَرْغَبَ إلَىٰ رَبِّه، داعِياً مُلْتَجِئاً يَسْتَمِدُّ مِنْهُ الْعَوْنَ والتوفيقَ والتَّسْدِيدَ والتأييدَ والنَّصْرَ والحِفْظَ دواماً، كُلَّمَا فَرَغَ مِنْ عَمَلٍ، واتَّجَهَ لِعَمَلٍ جِهَادِيٍّ آخَرَ يَنْصَبُ فيه ويَتْعَبُ.

فالسُّورَةُ دَرْسٌ وَاحِدٌ مُكَمِّلٌ لِدُرُوس سُورَة (الضحى).

وما جاء فيها من توجيهٍ تكليفِيٍّ للرَّسُول هو مُوَجَّهٌ أيضاً لِحَمَلَةِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## التدبّر التحليلي لآيات سورة الشرح

● ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ خطاباً للرَّسُول ﷺ بضمير المتكلم العظيم:

**أَلَمْ**: اسْتِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ على النَّفْي، وجوابُهُ هُنَا: بلَىٰ، لأَنَّ محمّداً ﷺ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَه، أي: بَلَىٰ لقد شرحْتَ صَدْرِي.

وهذا من قبيل الاستفهام الذي يُرَادُ به التّقرير بالامتنان، لا طَلَبُ الإفهَام، فهو ممّا خرج عن أصْل دلالَتِه، كنظيره الذي جاء في سورة (الضحى)، ويُقالُ فيه: استفهامٌ تقريري، كما هو مقرّر عند البلاغيين، ويُؤْتَىٰ به لانتزاع الإقرار بنقيض النفْي المستَفْهَم عنه.

فالمعنىٰ: لَقَدْ شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ، وهكذا مَا عُطِفَ علَىٰ فِعْل ﴿نَشْرَحْ﴾ من السُّورَةِ، وهو: [وَضَعْنَا] و [رَفَعْنا].

● ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾.

لمَّا كانَ حَرْفُ النَّفْي «لَمْ» الجازم للفعل المضارع يَقْلِبُ مَعْنَىٰ الفعل المضارع من الحال والاستقبال إلى الماضي جاء العطْفُ عَلَىٰ فِعْلِ ﴿نَشْرَحْ﴾ بفِعْلَيْن مَاضِيَيْنِ، وهما: [وَضَعْنَا] و [رَفَعْنا] والمعنى: وَأَلَمْ نَضَعْ عَنْكَ وزرَكَ، وألَمْ نَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ.

﴿نَشْرَحْ﴾: الشَّرْحُ في اللُّغَةِ: يأتي بمَعْنَىٰ: قَطْعِ اللَّحْمِ وشَقِّه، فالشَّرْحَةُ والشَرِيحَةُ هي القِطْعَةُ المَشْرُوحَةُ من اللَّحْم.

ويأتي الشَّرْحُ بمَعْنَىٰ: البَسْطِ والتَّوْسِعة، ومِنْهُ شَرْحُ الصَّدْرِ للإسلام، وشرْحُ الصَّدْرِ يكون بانفراجه وسُرُورِه، وذهَابِ ضِيقِ الْهَمِّ والْغَمِّ والْحُزْنِ عنه.

ويأتي الشرْحُ بمعنَىٰ: الكَشْفِ والإيضاح، فالمسألةُ المشكلَةُ أو الصَّعْبَة يكُونُ شَرْحُها بتَوْضِيحِ وكَشْفِ ما هو غامِضٌ فيها.

وهذه المعاني كُلُّها تَنْطَبِقُ على حالِ الرَّسُول محمّد ﷺ:

(١) فقد شرَحَ اللَّهُ صَدْرَه إذْ أَجْرَى لَهُ عمليَّةَ شَقِّ الصَّدْرِ كمَا ثبَتَ في الصّحيح، ونزَعَ من قَلْبِه حظَّ الشَّيْطان، وكانَ هٰذا إكراماً من اللَّهِ له، وقَدْ أجراه اللَّهُ على خلاف مَجْرَىٰ العادات، إذْ تولاَّهُ رُسُلٌ من الملائكة، في عَمَلِيَّة جراحيَّةٍ ملكِيَّة، تَمَّ فيها شَقُّ صَدْرِه، وإخراجُ قَلْبِه، ونَزْعُ حَظّ

الشَّيْطَانِ منه، ثُمَّ أُعِيدَ قَلْبُهُ إلَىٰ مَكانِهِ وَضُمَّ صَدْرُهُ بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ عِنْدَ مكانِ الشَّقِّ، والْتَأَمَ مَكَانُ الشَّرْح.

وهٰذِه الحادثة الّتي جرَتْ للرَّسُولِ على خلاف مجرى العادات، صَارَتْ في عَصْرِنا من العمليات الجراحيّة الطبيَّة المنتشرة المعروفة عند كُلِّ شُعُوب الأرض، ولكن يَتِمُّ بها عِلاَجَاتٌ جَسَدية بحت، لا تَصِلُ إلى مراكز الإرادات والعواطف والمعارف.

وقد ورد في وصف حادثة شقِّ صدْر الرسول ﷺ روايات متعدّدة، منها ما يلي:

● روى مسلمٌ عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ أتَاهُ جبريلُ عليه السّلام وهو يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَان، فأخَذَهُ فصرَعَهُ فشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، واسْتَخْرَجَ منْهُ علَقَةً سَوْداءَ، فقال: هَذا حظُّ الشَّيْطَان، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بمَاءِ زمْزَمَ، ثُمَّ لأمَهُ، ثُمَّ أعَادَهُ في مَكانِهِ، وجاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِّهِ (أي: مُرْضِعَتِهِ ومُرَبِّيَتِه) فقَالُوا: إنَّ مُحمَّداً قَدْ قُتِلَ، فاسْتَقْبَلُوهُ وهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْن».

**مُنتَقِعُ اللَّوْن**: أي: متغيِّرٌ مُصْفَرٌّ ممَّا حَدَثَ لَهُ من الخوف.

قال أنَسٌ: وقَدْ كُنْتُ أَرَىٰ أثَرَ ذَلِكَ الْمَخِيطَ في صِدْرِه.

● وروى أبو نُعَيْم والإمَامُ أحْمَدُ وصحَّحه الحاكم عن عُتْبَةَ بْنِ عبد اللّهِ، أنَّ رجُلاً سَأَلَ النبيَّ ﷺ فقال: كيْفَ كَانَ أَوَّلُ شَأْنِكَ يَا رسُولَ الله؟. قال:

«كَانَتْ حاضِنَتِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَانطَلَقت أنَا وابْنٌ لَهَا فِي بَهْمٍ[1] لنا، ولَمْ نَأْخُذْ مَعَنا زَاداً، فَقُلْتُ: يَا أَخِي[2]، إذْهَبْ فَأْتِنَا بِزَادٍ مِنَ

(١) **الْبَهْمُ**: جمع البَهْمَةِ، وهيَ الصغيرُ من الضأن (الذكر والأنثى فيه سواء).

(٢) كان أخاه من الرَّضاعة.

عِنْدِ أُمِّنَا، فانْطَلَقَ أخِي، ومكَثْتُ عِنْدَ الْبَهْم، فَأَقْبَلَ طَائِرَانِ أَبْيَضَانِ كَأَنَّهُمَا نَسْرَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُما لصاحِبِهِ: أَهُوَ هُو؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَقْبَلا يَبْتَدِرانِي[١] فَأَخَذَاني، فَبَطَحانِي لِلْقفَا، فَشَقَّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجا قَلْبِي، فَشَقَّاهُ، فأَخْرَجا مِنْهُ عَلَقَتَيْنِ سَوْداوَيْنِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: ائْتِنِي بِمَاءِ ثَلْجٍ، فَغَسَلا بِهِ جَوْفِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِمَاءِ بَرَدٍ، فَغَسَلا بِهِ قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ، فَذَرَّاها[٢] في قَلْبِي. ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: خِطْهُ، فَخَاطَهُ، وَخَتَمَ عَلَىٰ قَلْبِي بخَاتَم النُّبُوَّة. فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اجْعَلْهُ فِي كِفَّةٍ، وَاجْعَلْ أَلْفاً مِنْ أُمَّتِهِ فِي كِفَّةٍ، فَإِذَا أَنَا أَنْظُرُ إِلَىٰ الأَلْفِ فَوْقِي، أُشْفِقُ أَنْ يَخِرَّ عَلَيَّ بَعْضُهُمْ. فقالَ: لَوْ أَنَّ أُمَّتَهُ وُزِنَتْ بِهِ لَمَالَ بِهِمْ.

ثُمَّ انْطَلَقَا فَتَرَكَانِي، وَفَرِقْتُ فَرَقاً شَدِيداً[٣]. ثُمَّ انْطَلَقْتُ إِلَىٰ أُمِّي، فَأَخْبَرْتُهَا بِالَّذِي لَقِيتُ، فَأَشْفَقَتْ أَنْ يَكُونَ قَدْ لُبِسَ بي، فقالَت: أُعِيذُكَ بِاللَّهِ، فَرَحَّلَتْ بَعِيراً لها، وحَمَلَتْنِي عَلَىٰ الرَّحْلِ، وَرَكِبَتْ خَلْفِي، حَتَّىٰ بَلَغْنَا إِلَىٰ أُمِّي[٤]، فَقَالَتْ: أَدَّيْتُ أَمَانَتِي وَذِمَّتِي، وحَدَّثَتْهَا بِالَّذِي لَقِيتُ فَلَمْ يَرُعْهَا. وقَالَتْ: إِنِّي رَأَيْتُ خَرَجَ مِنِّي نورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ».

● ورأَىٰ طائِفَةٌ من الْمحَقِّقين أنَّ حَادِثَةَ شَقِّ الصَّدْرِ قَدْ تَكَرَّرَتْ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، جمعاً بيْنَ الروايات المتعدّدة المثبتَةِ حُدوثَها في أزمنَةٍ مختلِفَةٍ مُتباعِدَة.

هذا الشَّرْحُ الّذِي هو بمعنَىٰ الشَّقّ قَدْ كانَ إحْدَىٰ الْمِنَنِ الَّتِي امْتَنَّ اللَّهُ بها على رسُوله، إذْ أَخْرَجَ من قَلْبِهِ حظَّ الشيطان، فكان بإخراجِهِ منه مُنْشَرِحاً لأفْعَالِ الخير والبِرّ والتحلّي بالفضائل والكمالاَت.

(١) يَبْتَدِرَاني: أي: يُسْرِعَانِ إليَّ.

(٢) فَذَرَّاها: أي: فَأجالَهَا في قَلْبي كما تفعَلُ الريحُ إذْ تُطِيرُ الأشْياءَ بِسُرْعَةٍ.

(٣) فَرَقاً شَدِيداً: أي: خوْفاً شديداً.

(٤) أي: إلى أمّهِ التي ولدته آمنة.

(٢) وَأَمَّا الشَّرْحُ بمعنَىٰ الْبَسْطِ والتوسعَة، فَهُوَ ما أَنْعَمَ اللَّهُ به عَلَىٰ رسُولِه من إزالة الضِّيْقِ عن صَدْرِه، الّذي يُحْدِثُهُ عادَةَ الْهَمُّ والْغَمُّ والحزَنُ، وألَمُ النَّفس الّذي يَحْدُثُ بسبَبِ عدَمِ تَحْقِيق المطالِبِ التي تَتَعلَّقُ بها طُمُوحَاتُها، ونحو ذلك.

ويدخُلُ في هذا المعنىٰ أيْضاً انْشراحُ صدْرِهِ لِفِعْلِ الخيْرِ والبرِّ وطاعَةِ اللَّهِ في كُلِّ أَمْرٍ، والتَّقرُّب إلَيْهِ بِمَحَابِّه، بما أعطاه الله من مشاعِرِ لذةِ العمل الصالح.

ويَدْخُلُ فِي هذا المعنى أيْضاً انْشِرَاحُ صَدْرِه صلواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لوارداتِ المعارِفِ والْعُلُومِ والمفهومات الصحيحات السَّاميات، بإشراقٍ لا ظُلْمَةَ معَهُ ولاَ غَبَش فِيه.

وعلىٰ هذا المعنىٰ من معاني الشَّرْح ورَدَتْ نصُوصٌ قرآنِيَّةٌ مُتعدِّدة، مِنْهَا النُّصوص التالية:

● ما جاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) حكايَةَ لِدُعَاءِ مُوسَى عليه السَّلاَم، إذْ أَمَرَهُ اللَّهُ بأنْ يَذْهَبَ لدعوة فرعون إلى الإيمان والإسلام، وتَرْكِ مَا هُو فيه من طغيان، فقال اللّه عزّ وجلَّ فِيها حكايَةً للقصّة:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾.

فدلَّ دعاء موسىٰ عليه السلام ربَّهُ، بأنْ يشرح له صدْرَه، علَىٰ أنَّ شَرْحَ الصَّدْر لحَمَلَةِ رِسَالة الدَّعْوة إلى اللّه، والنُّصْحِ والإرشاد، والأَمْرِ بالمعروف والنهْيِ عَنِ المنكر، من المطالب المهمَّةِ، المساعِدَةِ على القيام بوظائف الرسالة بثباتٍ وحِكْمَةٍ ورُشْدٍ، وبَصِيرةٍ مستنيرة، وهِمَّةٍ عالية، وعَزِيمَةٍ قويَّة.

● وقولُ اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: وَمن يُرد اللّه أن يَهْدِيَهُ لسُلُوك صراط الإسلام مُعَاناً، بسَبَبِ سَوابقِ إيمانه الصّادِقِ الصّحيح، يَشْرَحْ صَدْرَهُ للقيام بالتطبيقاتِ الإسلاميَّة العمليَّةِ الْجَسَدِيَّة والنفسيّة، فَهُو يَنطَلِقُ في حياتِه مَهْدِيّاً مُعَاناً.

ومَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ عَنْ سُلُوك الصِّراط المستقيم صِرَاطِ الإسلام العملِيّ في تطبيقاته، بِسَبَبِ عَدَمِ إيمانِهِ الذي هو الأَسَاسُ والقاعِدَةُ لكلّ سُلُوكٍ إسْلاَمِيٍّ، يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً يكادُ يختَنِقُ كأنَّما يَصَّعَّدُ في السّماء، كلّما وَجَدَ نَفْسَهُ مُلزماً بأنْ يَقُومَ ببَعْضِ التطبيقات الإسلاميّة، مخالفاً فيها هواه أو شَهَواتِه، لأنَّ هٰذه التطبيقات غَيْرُ مبنيَّةٍ على إيمان صحيح صادق. وتنْطَبِقُ هٰذِهِ الحالَةُ على المنافقين الّذين يجدُونَ أَنْفُسَهُمْ مضطرّين لِمُمَارسَةِ أعمالِ إسلاميّة بين المؤمنين الصادقين.

وسمَّىٰ اللّهُ هذا الضّيق والحرَجَ في الصَّدْرِ رِجْساً، وأَبَانَ أَنَّهُ يَجْعَلُهُ على الَّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ.

وهذه من سُنَنِ اللّهِ في كَوْنه، فَمَنْ آمَنَ بقضيَّةٍ ما إيماناً صحيحاً صَادِقاً، انْدَفَعَ إلَىٰ القيام بأعْمَالها مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ، مُتَفائلاً بتحقيقِ نتائِجَ يطْمَعُ بتحقيقها ممّا يُحِبُّ. ومَنْ لم يُؤْمِنْ بها انقبضَتْ نَفْسُه، ولم يَنْشَرِحْ صَدْرُهُ للقيام بالأعمال الَّتي تتطلَّبُها أَوْ تَدْعُو إلى القيام بها.

وسُوءُ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الآيَةِ يأتي مِنْ عَدَمِ الانتِبَاهِ إلَىٰ قول اللّهِ في آخرها: ﴿... كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وعَدَمِ مُلاحَظَةِ الفَرْقِ بَيْنَ الْإِسلام الّذي يُرادُ بِه التطبيقاتُ العمليّة، وبَيْنَ الإيمان الذي هو

الإذْعَانُ والاعْتِرَافُ الْقَلْبِيُّ والتَّصْدِيقُ بِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ ورسولِه من حقائِقَ علميَّةٍ اعتقاديَّة.

وسوءُ تدبُّرِ هذه الآية يوقع في المفهومات الجبرية الباطلة.

● وقول الله عزّ وجل في سُورَة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَه للتطبيقات الإسلاميّة بسبَبِ إيمانه الصحيح الصّادقِ وذِكْرِهِ للَّهِ وَلليوم الآخر، ولما هو مطلوبٌ منه في رحلة امتحانه للفوز، فَهُو علىٰ بَيِّنَةٍ من رَبِّهِ في مَسيرَتِهِ في حياته، كَمَنْ كَفَرَ فلَمْ يَشْرَحِ اللَّهُ صَدْرَهُ للتطبيقات الإسلاميّة، لعَدَمِ إيمانه الّذي يَجْعَلُ قَلْبَه قاسِياً مِنْ جِهَةِ ذِكْرِ اللَّهِ ومطلوبَاتِهِ منه في رحْلَةِ امتحانه؟! وحينما لاَ يَنْشَرِحُ صَدْرُه للتطبيقات الإسلاميَّةِ يَكُونُ حَتْماً في ضَلاَلٍ مُبِينٍ، بَعِيداً عَنْ صراط اللَّهِ المستقيم.

(٣) وأمَّا الشّرحُ بمَعْنَىٰ الكَشْفِ والإيضاح فانطِبَاقُهُ علَىٰ حال الرسول ﷺ أمْرٌ ظاهر، إذْ كشَفَ اللَّهُ لَهُ وأوْضَحَ الحقائقَ وَالمعارِفَ الكُبْرَىٰ المتعلّقَةَ بمَسَائِلِ الدِّين، فهِيَ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ في عُمْقِ قَلْبِهِ الَّذي في صَدْرِهِ، وهذا من إطْلاَقِ المَحَلِّ وإرَادَةِ الْحَالِّ فِيه، إذْ إنّ هذه الحقائِقَ والمعارفَ الرّبَّانِيَّةَ حالَّةٌ في صَدْرِهِ بجَلاَء ووضوحٍ، ومُحَاطَةٌ بأنْوَارٍ مِنَ اللَّه، والمرادُ بشرح الصَّدْرِ على هذا المعنىٰ إيضَاحُ وتجليَةُ الحقائِقِ الرّبّانيَّةِ الحالَّةِ فيها.

● ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ﴾: أي: أَزَلْنَا عَنْكَ، وألْقَيْنا عَنْكَ، عِنَايَةً بِكَ وَتَخْفِيفاً.

﴿وِزْرَكَ﴾: الوِزْرُ في اللُّغَةِ: الحِمْلُ الثَّقِيل. وأُطْلِقَ الْوِزْرُ عَلَىٰ الذَّنْب،

لأنَّ الْمُذْنِبَ يَحْمِلُ تَبِعات ذَنْبِهِ إلى رَبِّهِ حتَّىٰ يُحَاسِبَهُ عليها يوم الدّين. وَجَمْعُ وِزْرٍ «أوْزَار».

﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: أي: جَعَلَ فِقَراتِ ظَهْرِكَ تُعْطِي صَوْتاً باحتِكَاكِ بَعْضِها ببَعْضٍ، من ثِقَلِ الْحِمْلِ الّذي علىٰ ظَهْرِك.

النقيضُ من الأصْوات: مَا يَكُونُ لمفاصِلِ الجسْمِ حينَ تُعْطِي صَوْتاً من ثِقْلٍ يَقَعُ عليها، والناسُ يَضْغطون على الأصابع عند المفاصِلِ فتُطْلِقُ صَوْتاً، هٰذَا الصَّوْتُ يُطْلَقُ عليه في اللُّغَة اسْمُ: «نَقِيض».

ويُطْلَقُ النقيض أيضاً على أصوات الفراريج، والوزَغ، والضفادع، ونحوها.

فعِبَارَة: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ كِنايَةٌ عن ثِقَلِ الْحِمْلِ الَّذِي كان محمَّدٌ ﷺ يَحْمِلُه، وهُوَ حِمْلٌ مَعْنَوِيٌّ قَدْ وَضَعَهُ اللّه عنه، ولاَ يُشْتَرَطُ أَنْ يَحْصُلَ منْهُ نَقِيضٌ يُسْمَعُ.

فما هُوَ هذا الْحِمْلُ الّذي وضَعَهُ اللّهُ عزّ وجلَّ عَنْهُ ﷺ؟

أمَّا مَعْنَىٰ الذَّنب لكَلِمة «الوِزْر» فغير وارِدٍ هُنَا حَتْماً.

إنَّ الدليلَ العقليَّ والدّليلَ النقلِيّ يُثْبتَانِ خِلاَفَ ذَلِكَ دُونَ شكٍّ وَلا إشكال.

أمّا قَبْلَ النبوّة والرّسالَةِ فلَمْ يَكُنْ لدَىٰ محمّدٍ تكاليف عمليَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ حتَّىٰ يُخالفها بالذُّنوب، وثَبَت أنّه صلوات الله علَيْه وسلاماته لم يُشْرِكْ بربّه أحداً، ولم يكُنْ يدعو شيئاً من الأوثان مثْلَ قومه، حتّىٰ إنَّه لم يكُنْ يَحْفِل باللَّهو الّذي كان يشْغَلُ شبَابَ أهْلِ مكّة، ولم يُعْرَفْ عنْهُ إلاّ كَمَالُ الخلُق، فتصَوُّرُ الذنوب منه قبْلَ بعْثَتِهِ تَصَوُّرٌ لاَ مَحَلَّ له، وهو مُجافٍ للواقع تماماً.

وأمّا بعْد النبوّة والرّسالة، فالْعِصْمَةُ تُنَافي احْتِمَالَ وقوعِ ذُنوبٍ منْهُ

تُنقِضُ ظَهرَه، ولا سيما أنّ هذه السُّورة قَدْ نَزَلَتْ وهو ما زال في أوائل قيامه بوظائف رسالته، وفي المراحل الأولى من دعوته، فكَيْفَ تَتراكَبُ عليه ذُنُوبٌ تُثْقِلُ ظهرَهُ وهُو في هذا الحال. إنَّ هٰذا لَأَمْرٌ مرفوضٌ قطعاً، وحَمْلُ الوِزْرِ على الذنب هنا حَمْلٌ مُنْكَرٌ من الْقَوْلِ وزُور.

فما هو الحِمْلُ الثقيلُ المرادُ من كلمة الوِزْر الواردة في هذه السُّورة؟

أقول: لدَىٰ التفكّر المتأنّي في حالَةِ محمّد ﷺ، بحْثاً عمّا يمْكِنُ أنْ يكون لدَيْه منْ حِمْلٍ ثقيلٍ ينوءُ بِهِ ظهرُه، تَظْهَرُ لنا حقيقَةُ طُمُوحاتِه، وهِمَّتِهِ العليّة، وآمالِه الواسعة، وهُمُومِهِ الكُبْرَىٰ، لإِصْلَاح قَوْمِهِ، وإِنْقاذِ البشرِيَّةِ من خبائِثها وشُرُورها وظُلْمِها وفسَادِها العريض.

فقَدْ بَدأ يحْمِلُ هُمُومَ إِصْلَاح أحوال أهله وأسْرَته ومَنْ حَوْلَهُ منْ عَشِيرَته، ثُمَّ تنامَتْ هُمُومُهُ بالرَّغباتِ الملِحّاتِ فيه لإصلاح قَوْمِهِ كُلِّهِم في جَمِيعِ الأراضي العربيّة، فكان كثير التفكير في ذلِكَ، الأمْر الذي جعله مُثْقَلاً بالهُمُوم، باحِثاً عن وسائل الإصلاح، متفكِّراً بالمبادئ الّتي يَجِب أن يقومَ عليها الإصلاح، وبالمنهاج الذي يجب أن يَسِيرَ عليه قومُه.

ولا بُدَّ أن تكون قد تنامَتْ هُمُومُهُ بالرَّغبات الْمُلِحّاتِ في الإصلاح العامّ الشامل، حتَّىٰ صَارَ يَحْمِلُ هُمُومَ إِصْلَاح شُعُوبِ الأرْضِ جميعاً، عَرَبِهم وعَجَمِهم، وصَارَ يُجْهِدُ مَلَكَاتِهِ الذهنيَّةِ في التأمُّل والتفكير والبحث، وطَرْحِ الاحْتِمَالاَتِ، ومحاولَةِ استخراج المبادئ والمناهج ووسائل التنفيذ، فمن كان مثْلَهُ ذا فِطْرَةٍ عالية، ونَفْسٍ كبيرة، وفِطْنَةٍ فَذّة، وهمّةٍ رَفيعَةٍ، وَتَحَلٍّ بأكْرَم الصِّفَاتِ البشريَّةِ والْخُلقِ العظيم، فلا بُدَّ أن تكون له هِمَّةٌ نَفْسِيَّةٌ عظيمةٌ جدّاً، تُكلّفُه أن يَحْمِلَ من هموم الإصلاح البشريّ ما يُثْقِلُ ظَهْرَهُ ويُنْقِضه.

وإِذَا كَـانَـتِ الـنُّـفُـوسُ كِـبَـاراً ... تَـعِـبَـتْ فِـي مُـرَادِهـا الأجْـسَـامُ

ولمَّا كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَحمِلُ هذا الحِملَ العَظِيمَ من الهَمّ الكبير، لَمْ يَجدْ لِنفْسِهِ الكبيرَةِ السّامِيَةِ، وقَلْبِهِ العظيم، إلاّ الخَلْوَةَ بربِّه في ذروة جَبل حراء، عِنْدَ غارٍ صَغِيرٍ هناك، فصَار يَتَعَبَّدُ فيه اللَّيَالِيَ ذوات العدد، ثمّ يعودُ إلىٰ أهْله ليأنَسَ بِهِمْ أيّاماً، ثُمَّ يَدفَعُهُ همُّهُ العظيم، وشَوْقُهُ المتوهّج إلى الخَلْوَةِ بربّه، فيأخُذُ زادَه، عَوْداً إلىٰ الغار في ذروة حِرَاء، فيَعْبُدُ ربَّه، ويَسْبَحُ في تَأمُّلاتِه، مُعَانياً هُمُومَ إصْلاحِ الناس جَميعاً.

وظلَّ كذلِكَ حتَّى اصطفاه اللّه بالنُّبوة الّتِي كان قَدْ أعَدَّهُ لها، ثم بالرِّسَالَةِ الخاتمة، إذْ أرسَلَ إليه الملَك جبريلَ عَلَيْه السّلام، وَبدَأ يُلْقِي عَلَيْهِ ما يأمُرُهُ اللّهُ به، وَيُتَابِعُهُ ببيان أرْكان الإيمان وعناصِرِ مِنْهَاج السُّلُوكِ، وَوَسَائِلِ التبليغ، وأساليب التربيَةِ والإصلاح، وبهذا ألْقَىٰ اللّهُ عزّ وجلّ عن ظهر محمّد ﷺ كُلَّ هُمومِهِ، فَتَوجَّهَ لتَلَقِّي التَّعْليمات والأوامر الرّبّانيّة، مَهْدِيًّا بِهَدْي رَبّه، مُلْقِياً عَنْ ظَهْرِهِ أعْبَاءَ رَسْمِ مِنْهَاج عَمَله، يتَرَقَّبُ ما يُسْعِفُهُ اللّه به عن طَرِيقِ الوحي.

وتحقّقَتْ بهذا مِنَّةٌ عظيمة من مِنَنِ اللّهِ عليه، إذْ وَضَعَ عنْهُ وِزْرَهُ الّذِي أنْقَضَ ظَهْرَهُ.

● ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ﴾: أيْ: وَأعْلَيْنا لَكَ. فَرَفْعُ الشَّيْءِ يكون بإعْلائِه، حتّىٰ يَراهُ جَمِيعُ الرَّائين، فلاَ يكُون محجوباً عن أحَدٍ منهم، ومنه رفْعُ الرّايات، ورفع المنارات، ورَفْعُ المباني، ومنه الإذْنُ برفع بُيُوت اللّهِ حتّىٰ تكون أعْلَىٰ من سائر المباني حولَها، للاهتداء إليها.

﴿ذِكْرَكَ﴾: أي: صِيتَكَ الحسَنَ بيْنَ كُلِّ ذَوِي الإدْراك، إنَّ انتشارَ الذكْرِ الحسَنِ بَيْنَ الخلائق من أجَلِّ عناصرِ المجْدِ الَّتِي يَحْرِصُ عليها كِرامُ النّاس وعُظَماؤهم.

فأبان اللّه عزّ وجلّ لرسوله في هذه الآيةِ مِنَّةَ تكريمهِ بمَجْدِ الذّكْرِ الحسَن، والصّيتِ العظيم، والثناء الرَّفيعِ بيْنَ أهل الأرض، وبين أهل السّماوات السَّبْعِ والْعَرْش والكرسيّ.

ولهذا التكريم وقائع وتطبيقات كثيرات، منها ما يلي:

● ذِكْرُ صِفَاتِه والبِشَارَةُ بِه في التوراة والإنجيل، وعلى ألسنَةِ كثيرٍ من الأنبياء والمرسَلِين.

● اقترانُ اسْمِه باسم اللّه جلّ جلالُه في الشهادتين.

● أنّ له الشّفاعة يوم القيامة، حينَ يتخلّىٰ عنها جميع الأنبياء والمرسلين.

● ثناء اللّه عليه بقولِه له كما جاء في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

ونَلْمَحُ من هَذا أنّ حامل رسالة الدعوة إلى اللّه والنُّصْحِ والإرشاد والأمْرِ بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، بحاجَةٍ إلى شيْءٍ من الغذاء النَّفْسِيّ التّشْجِيعِيّ، يَتَّصِلُ بالتكريم، ومَجْدِ رفعِ الذِّكْرِ بيْنَ الخلائق.

● ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

**الْعُسْرُ والْيُسْرُ**: ضدّان، فالْعُسْرُ: الشّدّةُ والصُّعُوبة، من ضِيقِ المسالِكِ ووُعُورَتِها، وضِيقِ المداخل، وكثرة العقبات. واليُسْرُ: السُّهولَةُ واللّينُ والمطاوعةُ والانقياد، بسبب انفراج المسالك، واتّساع المداخل، ومُطَاوعَةِ الأشياء وانقيادها، والخلُوّ من العقبات والموانع والمؤذيات، والمشَقّات.

وقد وعَدَ اللّه رسولَه بأنّه كُلَّما واجَه عُسْراً في مَسِيرَتِه، قائماً بوظائف رسالته، أحاطَهُ اللّه بِيُسْرٍ عَنْ يَمِينِه وعَنْ شِمالِه.

ولا يخفىٰ على المتدبّر الرَّبْطُ بين التقرير بما امْتَنَّ اللّه به على رسوله من شرح الصَّدْر، وَوَضعِ الْوِزْر، ورفعِ الذِّكْر، وترتيب الْوَعْدِ بتيسير ما يَعْتَرِضُه في مَسِيرَتِه من صُعُوباتٍ وشَدَائد.

إنّ هٰذه المِنَن الَّتي طَلَبَ اللَّهُ عزّ وجلّ من رسوله وضْعَها في ذاكرتِه والإقرار بها، تتطلَّبُ منهُ أن يُجاهِدَ في حَمْلِ الرسالة الّتي كلّفَهُ اللّه إيّاها، وأَمَرَهُ بتَبْليغِها، وحمَّلَهُ مسؤوليّةَ قيادةِ أمَّتِهِ وسياسَةِ النّاس.

لكِنَّ هذا التكليف قد طُوِي في السُّورَةِ، وذُكِرَ لازِمُهُ الَّذي على الرسول أنْ يتحمّله، وهُو مقابَلَةُ الْعُسْرِ الّذي سَيُعانِي منه في مسيرته في دعوتِه وأداء رسالته، بالصَّبْر، مع الطّمَعِ بالتَّيْسِير الرّبّاني، الّذي يَحُفُّ عَقَباتِ الْعُسْرِ.

أخرج عبد الرّزّاق وابْنُ جرير والحاكم والبيهقيّ عن الْحَسَنِ قال: خَرَجَ رسولُ اللّه ﷺ يوماً فرِحاً مسروراً وهو يضحك ويقول:

«لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مع الْعُسْرِ يُسْراً»[1].

وذكر علماء العربيّة في بيان سبَبِ هذا القول، أنّ الْعُسْرَ جَاءَ مُعرَّفاً في الجملة الثانية فهو عيْنُ الْعُسْرِ الذي جاء في الجملَة الأولى، أمّا الْيُسْرُ فقد جاء في الجملَتَيْنِ مُنَكّراً فَهُما متغايران، فصارا يُسْرَيْن.

ودلَّ أيضاً على هذا التكليف المطْوِيّ خطابُ اللّهِ لرسوله بقوله:

• ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾:

﴿فَٱنصَبْ﴾: فِعْلُ أمْرٍ مِن فعل «نَصِبَ» أي: تَعِبَ وأَعْيَا. يقالُ لغةً: نَصِبَ يَنْصَبُ نَصَباً إذا تَعِبَ وأَعْيا.

---

(١) هذا الحديث مرسل، وروي نحوه مرفوعاً.

والنَّصَبُ يكونُ عادةً من أثر عَمَلٍ فيهِ جِدٌّ واجتهاد.

وفراغُ الإنسانِ يَكُونُ عادةً إِذَا انْتَهىٰ من عَمَلٍ كانَ يَعْمَلُه، ويُقَال: فَرَغَ من الشيء إذا أتمَّهُ.

فمعنى الآية بعْدَ هذا التحليل: فإذا فَرَغْتَ من عَمَلٍ من أعمال الخير، كأعمال الدّعْوةِ إلى اللَّه، وأداء مُهِمَّةٍ من المهمّاتِ الّتي كُلِّفْتَهَا في رسالَتِكَ، فأنْشِئْ عمَلاً آخرَ تُجَاهِدُ فِيه قائِماً بوظائفِ نُبُوَّتِكَ، ووظائِفِ رسالَتِك حتَّىٰ تنصَبَ مُتْعباً، وَلاتَنِ بفُتُورٍ وكَلَلٍ، وهذا نَظِيرُ قَوْل اللَّهِ عزّ وجلّ لموسىٰ وهارون عليهما السلام كما جاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾.

أي: ولا تَفْتُرا ولاَ تَضْعُفَا عَامِلَيْنِ كَادِحَيْنِ في القيام بأعباء رسالَتِكُمَا المشتملةِ على ذِكْرِي، فذِكْرُ اللَّه بالنسبة إلى حامل الرسالة، يكون بالدعوة إلى الإيمان به، والاستمساك بالدِّينِ الذي اصطفاه الله لعباده.

فقول الله لرسوله محمّد ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾﴾ يتضَمَّنُ أمْرَهُ بمواصَلَةِ الْمُجَاهَدَةِ في أداء وظائف رسالَتِهِ، فكُلَّما فَرَغَ من عَمَلٍ من أعْمَالها، فإنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ في عمل آخَرَ حتَّىٰ ينْصَبَ فيه مُتْعَباً.

وأرْشَدَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بعد هذا إلى الدَّواء الّذي يُمِدُّ بالْعَوْنِ والْقُوَّةِ والنَّشَاطِ، لِيُتابعَ مُجَاهَدَتَهُ في مَسِيرَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ وهُو دَوَاءُ الدُّعَاءِ والالْتِجاء إلى ربّه أنْ يُمِدَّهُ بالْقُوَّةِ والْعَوْن والنَّشاطِ، ما كان منها مادّيًا، وما كان مِنْهَا معنويّاً، فقال له:

- ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾:

أي: وَإلَىٰ رَبّكَ فابتَهِلْ وَتَضَرَّعْ دَاعِياً سَائِلاً حتَّىٰ يُيَسِّرَ أمْرَكَ، ويَدْفَعَ عَنْكَ الْعُسْرَ، ويُمِدَّكَ بما تحتاجُ إلَيْهِ من قوّةٍ ومَعُونَةٍ ونَشَاطٍ، وحتّى يَقْضِيَ لَكَ بالتوفيق والتَّسْدِيد والتأييد والنَّصْر.

يُقَالُ لُغَةً: رَغِبَ العَبْدُ إلى رَبِّه إذَا سَأَلَهُ طالباً مُبْتَهِلاً مُتَضَرِّعاً.

إنّ الروابط الفكريَّة بيْنَ الآيَاتِ تَدُلُّ على المقصود ضمناً بقَوْله تعالى لرسوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾. كما دَلَّتْ اللّوازم الفكريَّة على أن المقصود بـ: ﴿فَٱنصَبْ﴾ الأَمْرُ بأعْمالِ المجاهدة في تأديَةِ وظائِفِ الرسالة حتَّىٰ الشُّعُورِ بالنَّصَبِ وهو التَّعَب. وكَمَا دَلَّتِ اللّوازمُ الفكريَّة على أنَّ من يَقُومُ بتأدِيَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَة إلى اللّه في مجتمعات جاهليّة، لا بُدَّ أَنْ يَتَعَرَّضَ لعَقَبَاتٍ ومَضَايِقَ فِيها عُسْرٌ يحْتَاجُ مَعَها إلى تَيْسِيرٍ من اللّه جلَّ جَلَالُهُ، أَخذاً من قول اللّهِ في السُّورَةِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

الفاء في ﴿فَٱنصَبْ﴾ واقعة في جواب الشرط [إذا]. والفاء في ﴿فَٱرْغَب﴾ واقعة في جواب شرط يفهم من مضمون الكلام، تقديره: وإذا توجهت للعمل الجديد فارغب إلى ربك سائلاً أن يُمِدَّكَ بالعون والتوفيق.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## ما يُستَفادُ للدّعْوَة والدُّعَاة من سُورَتي الضُّحَىٰ والشَّرح

نستطيعُ أن نستَنْبِط من سُورَتَي الضُّحَىٰ والشَّرْحِ للدّعْوَة والدُّعاة، أنَّ التأهِيلَ لِحَمْلِ رسالَةٍ عُظْمَىٰ ذَاتِ مَسْؤُوليّاتٍ كُبْرَىٰ، فيها تبليغٌ ودَعْوَةٌ وجهادٌ وكفاحٌ وقيادةٌ ومُواجَهَةٌ لخُصُومٍ وأعْدَاء، ذوي كَيْدٍ وحَسَدٍ، قد يَصِلُ كيدُهُم إلى محاولاتِ السّجن أو القَتل أو الإِخراج من البلد، يتطَلَّبُ التأهِيلَ والإعدادَ بنَوْعَيْنِ أساسيَّيْن:

**النوع الأوّل:**

ما يتعلّق برعايته في أمُور ثلاثةٍ:

**الأوّل:** نَشأَتُه في طُفُولته.

**الثاني:** تربيَتُه الفكْرِيّة.

**الثالث**: تأمِينُ معاشِه.

وقد أبانت سورة (الضحى) ما يتعلّق بهذا النوع:

● فرعايتُه في نَشْأته قد كان بإيوائه إذْ كان يتيماً، وقَدْ آواه اللّه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

● وتربيتُه الفكريَّةُ قد كانَتْ بِهدايَتِهِ وتَعْلِيمِه، إذْ كان جاهلاً ضالاً سبيل الهدى غير عارفٍ به، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

● وتَأْمِينُ مَعَاشِهِ قَدْ كانَ بإغْنائِهِ وتَيْسِيرِ وسائِلِ كفايَتِه، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

**النوع الثاني**:

ما يتعلَّقُ بإعدادِه النّفْسِيّ، ويتطلَّبُ هذا الإعداد النفسِيُّ أربعة أمور:

**الأوّل**: أن يكونَ ذا صَدْرٍ مُنْشَرِحٍ متَّسِعٍ منفتح للحياة وتَحمُّلِ الْمُهمّات، والاضطلاع بالمسؤوليّاتِ الكُبْرَيَاتِ، ولا يكونُ الصَّدْرُ مُنْشَرِحاً إلاَّ إذا كان خالياً من كلِّ ضِيقٍ وكَرْبٍ وقلَقٍ وهُمُوم ضاغطة، وكلّ ما يَدْخُلُ في باب الْعُقَد النفسيّة، وخالياً من نوازغ الشيطان، ورَغباتِ الإثم والْعِصيان، ومطالب الشرّ والبَغْي والْعُدوان، ونحو ذلك.

وقد تَوَلَّىٰ اللّه عزّ وجل شرح صدر الرسول ﷺ، ليكفِيَهُ هذا الجانب الذي يُعْتَبرُ من أهَمّ الشروط اللاّزمة لإعداده وتهيئته للمُهِمَّاتِ الجسيماتِ الَّتي يجب عليه أن يحْمِلَها وهو يؤدِّي رسالات ربّه، كما قال اللَّهُ له في سُورَة (الشرح): ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

وبهذا الشرح أزال اللّه عن صدْره الهموم والغموم والكروب والمقلقات، ونزع منه حظّ الشيطان، فصفا، وانفتحتْ آفاق نفسه لواردات المعارف الربّانيّة الصافية، الخالية من شوائب النَّفْسِ الأَمَّارَة بالسّوء،

وأشرقَتْ فيها الأنوار الرّبّانيّة، وتحرَّكَتْ هِمَّتُهُ لحمْلِ أجلّ المهمّات، وأخَذَتْ فيوضُ العطاء تَنْبُعُ من داخلِه ثَرَّةً وفِيرَةً.

**الثاني**: أنْ لاَ يكونَ مُثْقلاً بحِمْلِ طُموحَاته الكُبْرَىٰ، الَّتِي كانت تَشْغَلُ فِكْرَهُ ونفسَهُ مِنْ أجل إصلاح قَوْمِه والنّاسِ أجْمَعِين، وهو لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ لتحقيق هٰذِه الطُّمُوحَاتِ العظيمة الجسيمة، حتَّىٰ وَضَعَ اللَّهُ عنْهُ هذا الْحِمْلَ الثقيل بالوحْيِ إليه، وجَعْلِهِ نبيّاً، فَرَسُولاً لقَوْمِهِ وللنّاسِ أَجْمَعين، كما قالَ اللّه له: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾.

**الثالث**: تغذيَةُ نَفْسِه العظيمة الطَّمُوحَةِ بما يُرْضِيها من تكريم وتشجيع، يُرافقانِ مَسِيرَتَهُ في أَدَاءِ رسالَةِ رَبّه الَّتي يجاهِدُ فيها دُونَ فُتُورٍ ولا انقطاع.

وقد منَحَهُ اللَّهُ في هذا مَجْدَ الذكْرِ الْحَميد والشَّرَفِ الرَّفِيع، كَمَا قال اللَّهُ لَهُ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

**الرّابع**: تَهْيِئَتُه لاستقبال الصعوباتِ الَّتي سيتَعَرَّضُ لها، وأنواع الْعُسْر الّتي يُواجهها، في مسيرته وهو يؤدّي وَظائِف رسالته، بصَبْرٍ وَتَفَاؤُلٍ وَثِقَةٍ بأَنَّ اللَّهَ العزيزَ الحكيم سَيَجْعَلُ لَهُ مَعَ كلِّ عُسْرٍ يُسْرَيْنِ يُذلِّلانِه، يُسْرٍ من ذَاتِ الْيَمِين، ويُسْرٍ من الشّمال، فما علَيْه إلاّ أن يُتابعَ العَمَل والكدْحَ والكفاحَ، حاملاً رسالة رَبّه، مترقّباً كثيراً مِنَ العُسْرِ في مَسِيرَته، راجياً من اللّهِ التّيْسير، ملتجئاً إلَيه بالدّعاء والابتهال، ثُمَّ عَلَيْهِ كلَّما فَرَغ منْ عَمَلٍ في دَعْوَتِه وكفاحه، أن يَعْمَلَ حتّىٰ ينْصَبَ في عَمَلٍ آخر ضمْن مهمّاتِ رسالته، فقال اللّهُ له: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

**وتم بحمد الله وتوفيقه ومعونته تدبّر سورة «الشرح»**

❃ ❃ ❃

## (٥)
# ملحق حول «بلاغيات في سورة (الشرح)»

من بلاغيات هذه السورة ما يلي:

**الأولىٰ:**

الإطناب للإبهام المحرّك للشوق والّذي يَتْبَعُه الإيضاح المؤكِّدُ للفكرة، والمثبِّتُ لها.

ونجد هذا الإطناب في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾؟ ففي هذه الجملة زيادة عبارة ﴿لَكَ﴾ إذِ المساواة تقتضي أن يقال: ألم نَشْرَحْ صَدْرَك؟

ونجده أيضاً في ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ ففي هذه الجملة زيادة عبارة: ﴿عنك﴾ والمساواة تقتضي أنْ يُقال: ووَضَعْنَا وِزْرَكَ.

ونجده أيضاً في ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ ففي هذه الجملة زيادة عبارة: ﴿لَكَ﴾ والمساواة تقتضي أنْ يقال: ورفَعْنَا ذِكْرَك.

قال البلاغيون هذه الزيادات في هذه الجمل تُفِيد الإبْهامَ أوّلاً، فَتَسْتَشْرِفُ النَّفسُ للإيضاح، وتتشَوَّقُ للتفسير، فتأتي عبارات: [صَدْرَكَ - وِزرَكَ - ذِكْرَكَ] فيرْتَفِعُ الإبهام، ويرتوي ظمأ النفس إلى المعرفة، هذا الظمأ الذي أثاره التشويق، فتتمكَّنُ المعرفةُ وتثبُت، مع ما في: «لَكَ» و«عَنْكَ» من تأكيد وتمكينٍ، وإشعارٍ بالتمييز والتخصيص، إذ المقامُ مَقَامُ امتنانٍ سَبقَتْ دواعيه.

**الثانية:**

استعمال ضمير المتكلّم العظيم، وهو ضمير الجماعة مع أنّ المتكلّم واحِدٌ أحَدٌ في: «نَشْرَحْ - ووضَعْنَا - ورَفَعْنَا» للإشعار بأنّ المِنَنَ التي امتَنَّ اللّهُ بها على رسوله مِنَنٌ عظيمة تُناسِبُ عظمة واهِبها، وللإطماعِ بتحققِ الْمِنَنِ الموعود بها، فَمُقَدِّمُ الوعْدِ عظيمٌ جليل.

ولم يأت مثلُ هذا الاستعمال في سورة (الضحى) لأنّ الموقف فيها مَوقف إيناسٍ واستعطافٍ من الرَّبّ لرسوله، في مقابل ما أشاعَ بعضُ أعدائه وحُسَّادِه من أنّ رَبَّهُ وَدّعَهُ أَوْ قلاه، ومِثْلُ هذا الموقف يُلائِمُهُ حَدِيثُ الْخَلِيلِ لخَلِيله دُونَ استعمال ضمير المتكلّم العظيم.

**الثالثة:**

تقْدِيمُ المعمول على عامله لإفادة التخصيص والحصر في: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ فَعِبارة [إلى ربّك] معمولٌ للفعل في [فَارْغَبْ] إذ الجار والمجرور متعلقان به، وهما مقدّمان عليه لإفادة الحصر والتخصيص، أي: وإلَىٰ رَبّك وحْدَه فابْتَهِلْ وَتَضَرَّعْ داعياً سائلاً، ولا تجعل معه شريكاً، ولاَ تَدْعُ غَيْرَه.

مع ما في هذا التقديم من مراعاة الجمال التناسقي بين آيات السورة، والتلاؤم في الفاصلة بين الآيَتَيْنِ الأخيرتَيْن منها: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

**الرابعة:**

خروج الاستفهام في السورة عن طَلَبِ الإفْهامِ إلى إرادَة التقرير والامْتنان.

**الخامسة:**

التعبير غير المباشر، بذكر الكلام الذي يُقْصَدُ به لوازمه الفكرية، وهو في هذه السّورة من أبدع الكنايات.

نلاحظ هذا في: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ أي: فقم بوظائف رسالتك، وستَلْقَىٰ في مسِيرَتِكَ هٰذهِ عُسْراً، يذلّله اللّهُ لك، بتَيْسِير مُضَاعفِ أقوى منه، فلا تَضعَفْ ولا تثبّطْكَ المسالِكُ الوعْرَةُ، ولا المداخل الضيقة، ولا العقباتُ الْعَسِرَة، ولا المشكلاتُ المتداخلة المعقّدة.

**السادسة:**

البناء على المطويّات غير المصرّحِ بها في ألفاظ السورة، ولكنْ يستطيع الفَطِنُ اللبيب إدراكها، حتّىٰ كأنّها مذكورة صراحة، وقد يُسَمِّي الأدباء المعاصرون مثل هذا رَمْزِيّة، إلاّ أنّه في التعبيرات القرآنيَّةِ عُمْقٌ يحتاج استخراجُه إلى فِطْنَةِ المتدبّر، وذكائه، وقُوّة التقاطه الأفكار باللّمح.

نلاحظ هذا في: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي؛ فاجتهد في أداء وظائف رسالتك عاملاً مُجِدّاً، وكلّما فَرَغْتَ مِنْ عَمَلٍ فاجْتَهِدْ في القيام بعَمَلٍ آخر حَتَّىٰ تَنْصَبَ فِيهِ وتَتْعَبَ.

**السابعة:**

السَّجْعُ المتوازي، وهو أن تكون الكلمتان الأخيرتان من السجعتين، أو الكلمات الأخيرة من السجعات، متّفِقَةً في الوزن وفي الحرف الأخير منها، وهذا من المحسّنات الجمالية اللّفظيّة الداخلة عند البلاغيين في علم البديع.

نلاحظ هذا السّجع المتوازي في الآيَات الأرْبعِ الأولىٰ من سورة (الشرح).

وفي الآيتين الأخيرتين منها.

أمّا الآيتان الخامسة والسادسة فهما بمثابة الجملة المكرَّرة.

**الثامنة:**

سَلاسةُ بناء الآيات القصار في السورة، وتتابُعها بانْسياب سَهْل على اللّسان، لَيِّن في السّمع، كجريان جَدْولٍ من الماء الصافي الرَّقراق الجاري بهدوءٍ، على دَرَجاتٍ متساويات الأبعاد.

ولم يؤثر على عموم السلاسة اجتماع «القاف والضاد والظاء» بتتابُع في: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ فهي في لسان العربي الفصيح سهلة، على أنّها في عُمُوم السلاسة السائغة الشراب كحبّاتٍ من اللّوز تقضَمْنَ مَعَه.

❁ ❁ ❁

# سُورَةُ العَصْر

أو

# سُورَةُ وَالعَصْر

١٠٣ مصحف ١٣ نزول

## (١)
## نص السورة
## سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

❁ ❁ ❁

## (٢)
## مما ورد من آثار بشأن هذه السورة

(١) كان الرجلانِ من أصحاب رَسُولِ اللّه ﷺ إذا الْتَقيا لم يتفرقا إلاّ عَلَىٰ أنْ يقرأ أحَدُهما على الآخر سورة العصر إلَىٰ آخِرها، ثُمَّ يُسَلِّم أحدهما علىٰ الآخر[١].

ذكره الطبراني من طريق حمّاد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله بن حصْن.

(١) عن ابن كثير في تفسيره.

(٢) وقال الشافعيّ رحمه الله: لو تَدَبَّر النَّاس هٰذِهِ السورة لَوَسِعَتْهُمْ[1].

❁ ❁ ❁

## (٣)
## موضوع السورة

سورة العصر تُبَيِّن قيمةَ الوقْتِ، في حياة الإنسان الموضوع مَوْضِع الامتحان في ظروف هٰذه الحياة الدنيا، وأنَّ عُمْرَهُ فيها هو من رأسِ مَاله، وأجزاءُ عُمْرِهِ تَنْطَلِقُ عنه إلى غير رجْعَةٍ ولا تعْوِيضٍ زمَنِيٍّ، فهو خاسِرٌ لحظةً في كلِّ لحظة، وساعةً في كلِّ ساعةٍ، ويوماً في كُلِّ يَوْمٍ، وشهراً في كلِّ شَهْرٍ، وهكذا. باستثناء من يستطيع أنْ يغْتَنِمَ في عُمْره ما يُحَقِّقُ له تَعويضاً عِنْد ربّه يوْمَ الدِّين، سعادةً خالِدَةً، ونعيماً أبديّاً، بأنْ يُؤْمِنَ إيماناً صحيحاً، ويَعْملَ صالحاً، وبأن يُؤَدِّي مع بني جنْسِه وظِيفَةَ التَّواصي بالحقّ، والتَّواصِي بالصّبْر.

فهي درس واحِدٌ من ثلاث آيات هُنَّ نُجُومُ هداية.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## البناء الفكريُّ التدرجي
## في سوابق نجوم التنزيل حتى نزول سورة العصر

سبق في السّوَر التي نزلَتْ قبل سورة (العصر) الاهتمامُ ببيان القضايا التالية:

---

(١) عن ابن كثير في تفسيره.

**القضيّة الأولى**: التوجيه للقراءةِ والتَّعلُّم واكتساب العلم.

**القضية الثانية**: بيان حاجة الإنسان حتَّىٰ لا يطغى إلى الدين، الشامل للبيان الرَّبّاني للناس، وبيانِ الرّسولِ المبلِّغ عن ربّه، وقانُونِ الجزاء، ويَوْمِ الدين.

**القضية الثالثة**: الحثّ على عبادة اللّه بالصلاة والدّعاء، وعلى البذل والعطاء للمساكين وذوي الحاجات.

وبعدها جاء في سورة العصر بيان قيمَةِ الوقْتِ بالنسبة إلَىٰ الإنسان المكلّف.

❀ ❀ ❀

## (٥)
## التدبّر التحليليّ لآيات سورة العصر

قول الله عزّ وجل:

● ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ الواو هي واو القَسَم، **الْعَصْرُ**: هو الزّمن السَّيَّالُ الذي لا ثَبَاتَ له، كنَهْرٍ يَجْرِي من غَيْبِ المستقبَلِ إلَىٰ غَيْب الماضي، ولا نَعِيشُ منْهُ إلاَّ لحظَةَ الحاضِر، فمن لم يغْتَنِمْ لحظة الحاضِرِ بما هو مُفِيدٌ يُدَّخرُ له، فَهُو إنسانٌ خاسِرٌ.

أقْسَمَ رَبُّنا بتَقْدِيره لِأَعْمَارِ مخلوقاته في الْعَصْرِ، الّذِي هو الزَّمَنُ السَّيَّالُ بلا تَوَقُّفٍ، علَىٰ أنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. أي: هو في واقِعِ خُسْرٍ دائِمٍ مُحِيطٍ به.

باستثناء الّذِين آمَنوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: «أل» هنا هي «أل» الجنسيّة الاستغراقيّة، والمرادُ استغراق جنْسِ الإنسانِ البالغ مَبْلَغَ التكليفِ في ظروف الحياة الدنيا، أمّا غيْرُ المكلّف فهُوَ مستثنىً عقلاً، وبِدَلاَلة نصوصٍ أُخرَىٰ.

﴿لَفِى خُسْرٍ﴾: أي: لَهُو مُحَاطٌ بِخُسْرٍ، كالْغَرِيق في وَحْلٍ حيَوَانَاتُهُ تأكُلُ منْهُ باسْتِمْرار. **الْخُسْرُ**: النقْصُ ممّا يَمْلِكُ المالِكُ، من ماله، أو جِسْمِه، أو عُمْرِهِ، أو لذَّاتِهِ وسَعَادته، أو نحوها، والنَّقْصُ أيضاً مِمَّا يَسْتَطِيعُ أنْ يغنَمَهُ ففاتَهُ بإهْمالِهِ وَتقصيرِه.

وجاء تأكيد كوْنِ الْإنسانِ في مُحِيطٍ به من الْخُسْرِ، بالْقَسَم بالْعَصْر الّذِي يَدُلُّ علَىٰ أنّه يَخْسَرُ من عُمْرِهِ طَوَالَ لحظاته. وبحَرْفِ التوكيد «إنَّ» وبـ«الجملة الاسميَّة» وبـ«لام» الابتداء المزحلقة إلىٰ الخبر.

وقَدِ احتاجت هذه القضيَّةُ كُلَّ هٰذِهِ المؤكِّدَاتِ لغرابتها، وبُعْدِهَا عن تَصوُّرَاتِ الناسِ، فَحَالَتُهُمْ حَالَةُ من هو شاكٌّ فيها أو مُنْكِرٌ لها.

هٰذه القضيَّةُ الكلّيّةُ الّتي قرَّرها رَبُّنَا عزَّ وجلَّ مُؤَكِّداً، تَجْعَلُنَا نُمعِنُ التَّدَبُّر، ونَبْحَثُ في واقع وجُودِ الإنْسَان وحَيَاته، لنَكْتَشِفَ حقيقتها.

وبالبحث والتدبُّر في مبدأ الإنسان ونشْأتِه ومصيرِه، ورحْلَتِه في هٰذهِ الحياة الدنيا، ووظيفته فيها، نُلَاحظُ أنّ رأسَمَالِه في حياتِه الدّنيا أمران:

**الأمْرُ الأوّل**: لحظاتُ عُمْرِهِ الَّتي تَنْتَهي بانتهائِهَا حيَاتُهُ في رِحْلَةِ امتحانه.

**الأمر الثاني**: ما وَهَبَهُ اللّهُ من طَاقَاتٍ مادّيَّة ومعنويَّة يستطيعُ أَنْ يَعْمَلَ بها خيْراً أَوْ شرّاً، أو يُعطِّلها ويُضيِّعَها ويُتْلِفَها بلا فائدةٍ يَجْنِيها منْها.

ونُلَاحِظُ أيضاً أَنّ لحظاتِ عُمْرِهِ ممتَزِجَةٌ بها طاقاتُه مخبّأَةٌ في خَزَّانِ المستقْبَلِ، كَمَاءٍ سيَّالٍ، وهذا الخزَّانُ وما فيه مَحْجُوبٌ عنْ علْمِ الإنسانِ، إذْ

يَفصِلُ ما بينَهما جدارُ الغيب، ومَا في هذا الخزّانِ يجري من ثَقْبٍ لا يُمْكن إقْفالُهُ، ولا يُمْكن الانتفاعُ به إلاَّ لحظَةً فلحظَةً، إذْ ما يجري من هذا الثُّقْبِ المفتوحِ يبتَلِعُهُ الماضي فلاَ يُمْكِنُ اسْتِرْجاعُه.

ذلِكَ هُوَ الوقْتُ وَما يُصَاحِبُهُ من طاقاتٍ، يَجْريَانِ معاً، ويمضيانِ معاً.

إنَّه العصْرُ الذي هو نَهرُ الزّمَنِ السَّيَّال من المستقبل إلى الماضي، والذي لا يستطيعُ الإنسانُ أن يَنْتَفِعَ منْهُ إلاَّ بموجَةِ الحاضِرِ الْقَصِيرة، وما ينْتفع منه بموجَةِ الحاضر هو المقدارُ الّذي لا يكون خاسراً له من رأسِ ماله، وهو المقدار الذي يحوّلُه من الزّمَنِ السَّيَّالِ وما امْتَزَجَ به من طاقاتٍ، فيَجْعَلُه شَيْئاً ثابتاً مُعَوّضاً عمّا ابتلَعَهُ الماضي، فإذَا حوَّلَهُ وثَبَّتَهُ فِي نَفْعٍ خالِدٍ، كَانَ كَمَنْ استَطَاعَ أنْ يجمِّدَ الوقْتَ الحاضِرَ ويَجْعَلَهُ شيئاً متزايداً متنامياً بلا انقطَاعٍ، إذْ يَدَّخِرُه اللَّهُ لَهُ ويُرَبِّيهِ لَهُ، حتَّىٰ تكُونَ الذَّرَّةُ منْهُ كَجَبَلٍ عظيم في بعض الحالاَتِ الْمُرْضِيَاتِ للرَّبِّ جلّ جلالُه.

ولمَّا كان مِقْدارُ الانْتِفاعِ بمَوْجَةِ الوقْتِ الحاضِرِ في الخيراتِ والأعمال الصالحات يخْتَلِفُ بيْنَ المنتفِعين اختلافاً عظيماً، فَمِنْهُمْ من ينْتَفِعُ منْها بمقدار ذرَّةٍ فما فَوْقَها، حتَّىٰ ينتَفِعَ بعضُهم بمقدار جَبَلٍ من خيراتِ المستقبل، أَمْكَنَ لنا أنْ نَفْهَمَ أَنَّ مَوْجَةَ الوقت الحاضِرِ مَعَ تَسَاوِي طُولِها بين المنتَفِعين، إلاَّ أنَّها ذاتُ عرْضٍ وعُمْقٍ مختَلِفَيْنِ اختلافاً كبيراً.

فلحْظَةُ سُلْطانٍ عادِلٍ مُحِبٍّ للخيْر، يُوَقِّعُ فيها عَلَىٰ أَمْرٍ يَعُمَّ نَفْعُه شعْباً بأَكْمَله، ويَجْرِي خَيْرُه ما بقي نفاذُ هذا الأمْر، هي من جهة الطّول تُساوي اللّحظة التي انتفَع فيها إنسانٌ بحَكِّ رأسه، لكِنَّ عَرْضَها وعُمْقَها بمثابةِ بَحْرٍ عَرِيضٍ عميقٍ.

وفرقٌ كبيرٌ بيْن لحظةٍ يَمْلأُ فيها مالئٌ كأساً، ولحظةٍ يملأُ فيها مالئٌ بِرْكةً، ولحظةٍ يملأُ فيها مالئٌ بَحْراً. إنَّ أطوالهنَّ الزمنيَّةَ واحدةٌ، ولكن اختَلَفْنَ عَرْضاً وعُمْقاً.

وفرقٌ كبيرٌ بيْنَ لحظَةٍ تَقْطَعُ فيها دُوَيبَّةٌ مِقْدار عرْض شَعْرَةٍ من الأرض، ولحظة يَقْطَعُ فيها فرسٌ عدَّةَ أذْرُعٍ، ولحظةٍ تقْطَعُ فيها طائرةٌ أميالاً، في حين يجتاز فيها الضوءُ مئاتِ الألوفِ من الأميال.

ويُمْكِنُ أنْ نقول: إنّ العرْضَ في لحظَةِ إنْسَانٍ يعْمَلُ فيها عمَلاً نافعاً يأتي من شمول الخير وكثرته، أمّا الْعُمْقُ فيأتي من بقاءِ جريان الخيْرِ في المستقبل.

ولهذا كانت الصّدَقَةُ الجاريةُ، والعِلْمُ الذي يُنْتَفَعُ به، من الأعمال الّتي يعْمَلُها المؤمِنُ فِي وَقْتٍ عَرِيضٍ عَمِيقٍ. أمّا طولُه فهو يساوي طول أيِّ وقْتٍ آخَرَ جرَىٰ فيه عمَلٌ ضئيلُ النَّفْع قليلُ القيمة، أوْ مَرَّ ضائِعاً إسرافاً وتَبْذِيراً، لكنَّه مختَلِفٌ في عَرْضِهِ وعُمْقه، بمقدار شمول النَّفْع، وبقاء الجريان.

فمَنْ تصدَّقَ بصَدَقَةٍ جارِيَةٍ، أو نَشَرَ عِلْماً نافعاً، فقَدِ استَفَادَ من عَرْضِ وقْتِهِ وعُمْقِه، إذْ يبقَىٰ أثَرُ عَمَلِهِ فيه ولو مات، هذا ما تعلَّمْنَاهُ مِنْ كلام الرَّسول ﷺ.

روىٰ مسلم عن أبي هُرَيْرَة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ؛ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

من هذا التحليل الفكريّ يتبَيَّنُ لنَا بوضوحٍ أنَّ رأس مَالِ الإنْسانِ في الحياة الدنيا أوقاتُ عمره وطاقاتُهُ المادّيّة والمعنويَّة المقترنَةُ بها اقتراناً يشبه الامتزاج.

ورأسُ المال هذا هو مِنْحةٌ من اللّهِ عزَّ وجلَّ للإنسان فِي الحياة الدُّنيا ليمْتَحِنَه، وهو مسْؤُولٌ عنْهُ يوم القيامة، كما جاء في الصحيحِ ممّا رُوِيَ عن الرسول ﷺ.

روى الترمذيُّ عن أَبِي بَرْزَةَ أَنّ رسول الله ﷺ قال:

«لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟. وعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ فِيهِ؟. وعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟. وعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ؟».

ولمَّا كانَتْ مقَادِيرُ انتفاع النّاس بلَحظَاتِ أعْمَارِهِمْ متفاوتَةً تفاوُتاً كبيراً، حتَّىٰ يَصِلَ إلَىٰ مِثْلِ التّفاوُتِ بيْنَ القَطْرَةِ والبَحْر، وكانَ الإِنسانُ في مُعْظَم أحْوَالِهِ ما بَيْنَ مُسْتَهْلِكٍ أوْقاتَ عُمُرِهِ في نَفْعٍ قليلٍ ضئيلٍ، أو فيما لاَ نَفْعَ فيه مُطْلقاً، أو فيما يَحْمِلُ بِه أوزاراً، كانَ في وضْعٍ دائمٍ من الْخُسْرِ، كُلَّمَا أمْضَىٰ لَحْظَةً ممَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ عُمْر، مَا مَرَّ علَيْهِ حِينٌ مَا مِنَ الْعَصْرِ، وحَامِلُ الأوزار في لحظاتِ عُمُرِهِ خَاسِرٌ ومَدِينٌ، على حِسَابِ أوقاتِ خلُودِهِ يوْمَ الدّين.

فمِنَ الحقّ والدّقَّةِ الرائِعَةِ في البيان، أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ بالْعَصْرِ علَىٰ أَنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ.

والمناسبةُ بيْن العصْرِ الذي هو الزمن السيّال، والذي تُحَدَّدُ بأجزاءٍ منه أعمارُ الناس، وبين كون الإنسان في خُسْرٍ من رأسماله في حايته الدّنيا، كلّما انْصَرَمَ من عُمُرِهِ زمَنٌ ما، مناسبة ظاهرة.

وفي الْقَسَم بالعصْرِ إشارةٌ إلى أن الإنسان هو الإنسان مهما اختلفت عليه الأزمنة، في خصائصه النفسية التي تدفعُه إلى أن يعبّر عنها بأنواع من السُّلوك تُؤدّي به إلى الخُسْرِ في أكثر أحواله، منذ عهد آدم وإلى أن تقوم الساعة.

● قول الله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾.

استثنَىٰ اللَّهُ عزّ وجَلَّ بهذِه الآية من عُمُوم كَوْنِ الإنْسَان المكلَّفِ، الذي يَعِيشُ هٰذه الحياة الدنيا، في مُحِيطٍ به من الْخسْر، فريقاً مِنَ النَّاسِ لا

يكونُ الْخُسْرُ مُحِيطاً بِهِمْ من كلّ جوانبِ وُجودِهم، وهُمُ الّذِين اتّصَفُوا بِصِفَاتٍ أرْبَع:

**الصّفةُ الأُولَى**: الإيمانُ الصَّحِيحُ الصَّادقُ بعناصر القاعدَةِ الإيمانيَّة في الإسلام، دلَّ عليها قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

**الصفة الثانيةُ**: القيامُ بأعْمَالٍ صَالِحَاتٍ، مُعَبِّرَاتٍ في السُّلوك النَّفْسِيّ والجسَدِيّ، عَنْ وُجُودِ الإيمان الصحيح الصادِق في القلْبِ. إذ الإيمانُ الصحيحُ الصادِقُ ذُو دَوافِعَ تَظْهَرُ في أنواعٍ من السُّلُوكِ، هِيَ من لَوَازِمِه وآثارٌ من آثاره.

وهٰذِهِ الأعمال التَّعْبِيريَّةُ عن كوامِنِ الإيمان تكُونُ في دائرة الحرَكَةِ الذاتِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، من ذاتِهِ لِذَاتِهِ، دُونَ مُلاحَظَة غَيْرِه، وهٰذِهِ هِيَ الحركَةُ التّلْقائِيَّةُ الأُولىٰ في سُلوكِه، وقد دلّ عليها قولُهُ تعالى في الآيَةِ: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعَمِلُوا من الصَّالحاتِ ما يَدُلُّ علَىٰ صِحَّةِ إيمانِهم في قُلوبِهم وصِدْقِهِ، فـ«أل» في الصالحاتِ ليسَتِ استغراقيَّة، بدلالَةِ نصوصٍ أخرى كثيرَةٍ، تَدُلُّ على أَنَّ الذي يَعْمَلُ بعْضَ الصالحاتِ مع صِدْقِ إيمانه وصِحَّتِهِ لا يكونُ الْخُسْرُ محيطاً بِهِ من كلِّ جوانبه.

**الصِّفَةُ الثالثة**: قِيامُ الإنْسَانِ بواجبٍ عليه تُجَاهَ غَيْرِهِ من النَّاسِ الْخَارِجِينَ عن دائرةِ الحقّ، والخائضين في أرْجَاسِ الباطل، أو الضالّين الجاهِلِين الّذِين لم يَرَوُا الحقَّ حتَّىٰ يُؤْمِنُوا به، ويَسْتَمْسِكُوا بحَبْلِهِ، وَيَسْلُكُوا صراطَهُ المستقيم.

والواجِبُ بالنسبَةِ إِلَيْهِم يتحقَّقُ بتَعْرِيفِهِمْ بالْحَقّ ونُصْحِهِمْ بالإيمان به، ومُتَابَعَةِ تَوْصِيتهم بالاستمساك بحَبْله، وسُلوك صراطِهِ المستقيم.

وحين يَقُومُ النَّاسُ بهٰذا الواجب، تظْهَرُ في المجتمع الإنسانِيّ ظَاهِرَةُ التواصِي بالْحَقّ.

هذا ما دَلَّتْ عليه في الآية عبارَةُ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾.

**الوصِيَّةُ**: بيانٌ مَقْرُونٌ بنُصْحٍ مؤكَّدٍ بعَهْدٍ. وليسَتْ مجرَّدَ بيانٍ عابرٍ، ولا مُجَرَّدَ نُصْحٍ باردٍ أو فاتر، بل هي نُصْحٌ مشدَّد مؤكَّدٌ بعَهْد.

وبهذا المعنى نَفْهَمُ قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

**والتَّواصِي**: تَشارُكٌ في تَوْجيه الوصيَّة، أي: يُوصِي شخصانِ فأكْثَرُ بعْضُهُمْ بعضاً.

**والحقُّ**: هو الْبَيَانُ أو التَّصَوُّرُ المطابِقُ للواقعِ، وضدُّه الباطل. وأوّلُ حقٍّ في الوجود هو اللّهُ جلّ جلالُه، وصفاتُه العليّة وأسماؤه الْحُسْنَىٰ، ثُمَّ ما يقْضِيهِ اللّهُ ويُقَدِّرُه، ثُمَّ ما يَخْلُقُه، وما يُبَيِّنُه ويأمُر بالإيمانِ به.

وأوّل ما تُوَجَّهُ لَهُ جُمْلَةُ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ القيامُ بوظيفة دعْوة غير المسْلِمين إلى قضايا الإيمان، والاستمساك بدين اللّه الحقّ، ويأتي من بعد هذا الدَّعْوةُ والتوصِيَةُ بكلِّ حقٍّ من حقوق اللّه، أو حقوقِ العباد، والتوصيَةُ بالاعترافِ بأيِّ حقٍّ تُوصِلُ إليه المعرفَةُ الصحيحة، والْعَمَلُ بما يقتضيه ذٰلِكَ الحقّ، وهذه التوصيَةُ تُوجَّهُ للمسلمين ولغيرِ المسلِمين.

**الصفة الرّابعة**: قيامُ المؤمن المسلم بواجبٍ عليه تُجاه غَيْرِه من الْمُؤْمِنينَ المسلمين.

وواجبُ المسلم تُجاه أَخِيه المسْلِم أن يُعَلِّمَهُ ما يَجْهَلُ من أوامر اللّه ونواهِيه، في الدِّين الذي اصطفاه لعباده، وأن يَنْصَحَهُ بِفِعْلِ ما أَمَر اللّه

بفعله، واجتنابِ ما نهىٰ اللَّهُ عنه، وأنْ يُوصِيَهُ بالصَّبْر على فعل الواجبات وتَرْكِ المحرَّمات.

فإذا قام الْمُسْلِمُون بهذا الواجب انْطَبَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَتَوَاصَوْن بالصَّبْرِ.

ومعلُومٌ أَنَّ التواصِيَ بالصَّبْر لا بُدَّ أَنْ يكُون مَسْبُوقاً بالتَّعْرِيفِ بما أَمَرَ اللَّه به عبادَهُ من أعمالٍ ظاهِرَةٍ وباطنة، وبما نَهَىٰ اللَّهُ عنه عبادَهُ من أعمالٍ ظاهِرَةٍ وبَاطِنَةٍ، ومَسْبوقاً بالنُّصح بطاعة اللّه فيها، والإرشادِ إِلَىٰ أَنَّها هي الصراط المستقيم الموصل إلى سعادتي الدنيا والآخرة.

ولمّا كانَتِ الأَوامِرُ الدينيَّةُ تُحَمِّلُ فاعِلَها مشقَّةَ أدائِها، ولا يخْفى أنَّ تَحمُّلَ هٰذِهِ المشقَّةِ يتَطَلَّبُ صَبْراً.

ولمَّا كانت النَّواهِي الدِّينيَّةُ تُحَمِّلُ الحريصَ على الطاعَةِ مشَقَّةَ مخالَفَةِ شَهَواتِ نفسِه وأَهْوَائِها، ولا يخْفَىٰ أَنَّ تحمُّلَ هذه المشقَّةِ يتطلَّبُ صبْراً أيضاً.

كانت الفقَرَةُ الأخيرَةُ من القيام بهذا الواجب هي التوصِيَةُ بالصَّبْر، وظاهر أَنَّ تَشَارُكَ المؤمنين المسلمين بالقيام بهذا الواجب هُوَ الذي يُبْرِزُ في المجتمع الإسلاميّ ظاهِرَةَ تَعْلِيمِ أحْكَامِ الدِّينِ والنُّصْحِ والإرشادِ، والأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكَرِ، والتَّواصِي بالصَّبْرِ.

فالتواصِي بالصَّبْرِ يَدُلُّ باللُّزُومِ الذهْنِيِّ على ما يَنْبَغِي أن يكُونَ سَابقاً له، من الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكر، الْمَسْبُوقَيْنِ بالنُّصْحِ والإرْشادِ، اللَّذَيْنِ قَدْ حصَلَ قَبْلَهُما البيانُ والتَّعْلِيمُ والتَّبْلِيغُ لأحكام دينِ اللَّهِ.

وعلى سبيل الإيجاز والاقتصاد في العبارة اقتصر النصُّ على عبارة: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ إذ هِيَ تَدلُّ باللُّزوم الذِّهْني علَىٰ مَا يَنبَغِي أَنْ يكُونَ سابقاً لمضمونها، وهذا من أبْدَعِ الإيجاز الَّذِي لا يستقيمُ تَدَبُّرُ آياتِ كتابِ اللّه ما لَمْ يُلَاحِظْهُ المتدبّر، إذْ هُوَ يعْتَمِدُ على اللّوازِمِ العقليَّة الّتِي يكْتَشِفُهَا أولُوا

الألبابِ الباحِثُونَ في العُمقِ، الّذِينَ لا يَقْتَصِرُونَ على السُّطُوحِ، فكِتَابُ اللّهِ بَحْرٌ عَمِيقٌ، لا يكْفِي فِي تَدبُّرِهِ التَّوَقُّفُ عنْدَ السُّطوحِ، دون الغوْصِ في الأعماقِ عن طريقِ اللّوازم العقليَّةِ.

فما تُوجّه لَهُ جُمْلَةُ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ هُو القِيامُ بوظيفةِ تعليمِ أحكام الدّين للمسلمين، والنُّصْحِ بها والإرْشادِ إلى الاستمساكِ والعَمَلِ بمقتضاها، والسَّيْرِ على صِراطها المستقيم، والأمْرِ بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، معَ التوصيَةِ بالصَّبْرِ على فِعْلِ ما أمَر اللّهُ به، وتَرْكِ ما نَهَىٰ اللّهُ عَنْه.

**الصّبر**: قُوَّةٌ خلُقيَّةٌ من قُوىٰ الإرادة، تُمَكِّنُ الإنسانَ منْ ضَبْطِ نَفْسِهِ، وحَبْسِها، لتَحمُّلِ المتاعب والمشقّاتِ والآلام، وضَبْطِها وحَبْسِها عن الاندفاع بعوامل الضَّجَر والجزَعِ، والسَّأم والمَلَلِ، والعَجَلَةِ والرُّعُونَة، والغَضَبِ والطَّيْشِ، والخوفِ والطَّمَعِ، والأهواء والشهواتِ والغرائز.

## سؤال وجوابه:

**السؤال**: هل الاستثناءُ في السورة بقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ يُخْرِجُ كُلَّ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحاً وأوصَىٰ بالحقّ وأوصَىٰ بالصَّبْرِ مِنْ كُلِّ خُسْرٍ، ولو كانَ منَ المسْرِفين على أنْفُسِهم بالمعاصِي وارتكاب الكبائر، الظالمين لأنْفُسِهم بها، أوْ كان من المقتَصِدين الذين يَقْتَصِرُونَ على فِعْلِ الواجبات وتَرْكِ المحرّمات، ولا يسْتَزِيدون من نوافِلِ القرباتِ وفِعْلِ الخيرات؟؟

**الجواب**: لدَىٰ تَدبّر قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾: أي: في وَحْلٍ مُحِيطٍ به من الْخُسْرِ، فلَوِ اسْتَمَرَّ فيه لكان من الخالدين يوْمَ الدّين في العذابِ، يتَبَيَّنُ لَنَا ما يلي:

**أوّلاً**: أمَّا مَنْ كان من المؤمنين المسرفين على أنْفُسِهم في ارتكاب المعاصي من دون الكُفر، والظالمين لأنفسهم بها، فإنَّهُ يُخْرِجُ نَفْسَه بعْضَ

إخراجٍ من محيط الْخُسْرِ، فلا يكونُ من مستَحقي الْخُلُودِ في دار العذابِ يوْمَ الدين، وخسارتُه تكُونُ في حُدُودِ ما تَعَرَّض لَهُ من عذابٍ، وما تعرَّضَ لَهُ من خَسَارة منازل في الجنة، كان باستطاعته أن يرقَىٰ إليها لو كان من المتقين المقتصدين، الذين يقتصِرُونَ علىٰ فعل الواجبات وترك المحرّمات، أو كان من الأبرار أو المحسنين السابقين في الخيرات من نوافل القربات بإذن اللّه.

**ثانياً:** وأمّا مَنْ كَانَ من المؤمنين المقتصدين، الذين يقتصرون على فعل الواجبات وتَرْكِ المحرَّماتِ، دون الاستزادة من نوافل القُرُباتِ الَّتي يرفَعُهُ اللّهُ بها في درجات جنَّاتِ النعيم، فإنَّه يُخْرِجُ نَفْسَهُ من الْخُسْرِ الذي يستَحِقُّ بِهِ العذاب، فيكونُ بفضل اللّهِ من أهل جنَّاتِ النَّعيم دُونَ أنْ يُعَذِّبَهُ اللّهُ في دار العذاب، إذْ كان من المتقين عذابَها بإيمانه وعَمَلِه.

لكنَّه يكونُ خاسراً منازلَ عاليةً في الجنَّةِ كان باستطاعَتِهِ أَنْ يَرْتَقِي إليها بفضل اللّهِ، لَوْ كان من المستزيدين من نوافل القربات الّتي استزادَ مِنْها الأبْرارُ والْمُحْسِنُون.

**ثالثاً:** وَأَمَّا مَنْ لا يَخْسَرُ شَيئاً ممَّا كان باستطاعته أَنْ يغنَمَهُ من مَنَازِلَ في جنَّاتِ النَّعِيم، فَهُوَ الذي يكُون من أَهْلِ الفردوس الأعْلَىٰ في الجنَّة، مع النبيّينَ والصِّدِّيقين والشُّهَداء والصالحين، بفضل اللّه وغُفرانِهِ وَعَفْوِه، بسَبَب ما قَدَّمَ من نوافل الصالحات والقربات الَّتي اكْتَسَبَ بها رضوان اللّه عزّ وجلّ.

**رابعاً:** وَبيْنَ مَنْ هُمْ في الفِرْدَوْس الأعْلَىٰ، ومَنْ هُمْ في أدْنَىٰ مراتب الجنَّةِ ودَرَجاتها خاسِرُون بمقدار نزولِ دَرَجَةِ كلٍّ منْهُمْ عن مرتبة الفردوس الأعْلَىٰ، إذ قَصَّرُوا فلم يقوموا بأعمال صالحة كان بمقدورهم أنْ يَعْمَلُوها، وكان تقصيرهم ناتجاً عن تهاونٍ، أو كَسَلٍ، أوْ إيثارٍ لمتاعِ الحياة الدنيا،

على ما أعَدَّ اللَّه للأبرار والمحسنين السّابقين بالخيرات بإذنه، من منازل رفيعَةٍ في جنَّاتِ النعيم.

❁ ❁ ❁

## (٦)
## نظرة عامة إلى الوقت

لقد دلّتْنَا سُورَة (العصر) على القيمة العظيمة لنهر الوقت السَّيَّال، الذي لا يَمْلِكُ أحَدٌ من الخلْقِ إمْهَالَهُ، أو تَطْوِيعَهُ للانتظار، وإنَّما يَمْلِكُ أنْ يغْتَرِفَ فيه نفْعاً، أَوْ يَصِيدَ من كلِّ مَوْجَةٍ مارَّةٍ منْهُ صَيْداً ثميناً.

ولا يَحْمِي نَفْسَهُ من خسارة عُمْرِهِ، إلاَّ مَنْ حوَّلَ وَقْتَهُ إلى قِيمَةٍ ثابتَةٍ، وأعظَمُ التحويلِ قيمَةً مَنْ يُحَوِّلُ وقْتَهُ إلى قِيمَةٍ يسْتَثْمِرُها نعِيماً خالداً، في دار النعيم يوْمَ الدِّين.

ومَنْ خَسِرَ أوقَاتَ عُمْرِه الممتزجَةَ بطاقَاتِهِ المادّيَّةِ، والمعنويَّة فَقَدْ خَسِرَ نَفْسَهُ، وهو في الحقيقة أَخْسَرُ الخاسِرِينَ.

ما فائدة إنسانٍ سَعَىٰ كادحاً حَتَّىٰ مَلَكَ جبلاً من ذهَبٍ، وحِينَ ملكَهُ سَقَطَ علَيْهِ ميْتاً.

لكنَّ الأخْسَرَ منه مَنْ ضيَّعَ عُمْرَهُ فيما لا خيْرَ فيه، والأخْسَرُ منْهُمَا من حَمَلَ أوزاراً وآثاماً رمَتْ بِهِ خالداً في عذاب النار، أو مُقِيماً بها إقامَةً طَوِيلة.

هذا هو مفهومُ الوقْتِ، وهذه هي قيمته في دلالات سورة (العصر).

هذه الحقيقة الجليَّةُ بكُلِّ أبْعَادِها لا يُدْركها معظم الناس، فلا يكاد الباحثُ المتتبِّعُ يَجِدُ إلاَّ ظالِماً لِنَفْسِهِ خاسراً، يُبَدِّدُ عُمْرَهُ وطاقاته بإسْرافٍ وتبذيرٍ، فلا يُحْسِنُ الاستفادة منهما في نافعٍ له خالد، بلْ يُتْلِفُهُما في متاعٍ

فانٍ، أو في أوهام وأحلام من أحْلام اليقظة، أو فيما يحْمِلُ به أوزاراً وآثاماً، فَيَقَعُ في مُرَكَّبِ الْخُسْرَان، إذْ يَخْسَرُ رأسَ مالِهِ من جِهَةٍ، ويَحْمِلُ ديُوناً وَتَبِعَاتٍ من جِهَةٍ أُخرىٰ، وهٰذِهِ لا يَجِدُ لَهَا تَسْدِيداً إلاَّ مِنْ عذَابٍ في الحياةِ الأُخْرَىٰ، حيَاةِ الحساب وفَصْلِ القضاءِ وتنفيذِ الجزاء.

وشَرْطُ النجاةِ من الْخُسْرِ المطارِدِ للإنسانِ مع لحظات عُمْرِه، كمَالُ الإيمان، وكمالُ الْعَمَلِ الصالحِ في دائرة ذاتِهِ، وكمالُ التوصية بالحقّ والتوصية بالصَّبْرِ في دائرته مع دوائر غيره من الناس على مقدار استطاعته.

وشرحُ هذه الفضائل المنجية من الخسر، جاءَ بَعْضُهَا فيما نزل قبْلَ سُورَةِ «العصر» من قرآن، أوْ شرحه الرسولُ ﷺ من بيان، وجاء بعْضُها الآخَرُ فيما نزل بَعْدَ سورة (العصر) من قرآن، وفيما شرحه الرسولُ بعدها من بيان.

ولمَّا كان فعلُ الْخَيْر والْعَمَل الصالح، وتَرْكُ الشَّرِّ والعَمَل السّيِّئ يتطلَّبانِ مُجَاهَدَةً للنَّفسِ، وهذه المجاهَدَةُ لاَ تتحقَّقُ إلاَّ بالصَّبْرِ، اكتفَىٰ النصّ بذكر التواصِي بالصَّبْرِ، ليدُلَّ على اللوازم الفكريَّةِ الّتي يستَخْرِجُها أولوا الألباب بالتدبُّرِ المتأنّي.

❁ ❁ ❁

## (٧)
## الملحق الأوّل
## حول بلاغيات في سورة «العصر»

من بلاغيات هذه السورة ما يلي:

**الأولى:**

تأكيد خبَرِ كون الإنسانِ في محيط به من الخسْرِ باستثناء الذين جاء

بيانهم في السّورة بالمؤكدات التاليات: «القسم بالعصر ـ حرف التأكيد «إنّ» ـ الجملَةُ الاسمية ـ اللاّم المزحلقة».

والداعي للتأكيد بهذه المؤكدات غرابَةُ الخبَرِ، وبُعْدُهُ عن أذهانِ الناس، حتّىٰ كأنّه مشكوكٌ فيه، وإنكارُ أهْلِ الشركِ والكُفْرِ له. وجاء البَدْءُ بالقسم لتنفتح النفس باهتمام لمعرفة المقْسَمِ عليه.

**الثانية:**

ربط أوّل السّورَةِ بآخِرِها في سَجْعٍ واحِدٍ، مع عدم التزامه وسَطاً، إذْ لو الْتُزِم وسطاً لتناقَصَ مُسْتَوَىٰ جمالِ اللّفظ في السّورة، ولصار شبيهاً بسَجْعِ الكُهّان. ولو تُرِكَ السّجْعُ في آخِرِهَا لاسْتَرْسَلْتِ النَّفْس تتطلَّبُ المزيدَ من الكلام، ولم تَشْعُرْ بانْتِهَاء السورة، فمجيء السَّجْعِ قَدْ كان بمثابَةِ حرف الروي في آخرِ الشّعْرِ، الذي يُشْعِرُ بانتهاءِ البيت، أو القصيدة، أو المخمَّسِ، أو نحو ذلك.

**الثالثة:**

توازُنُ الفقراتِ بعْدَ الْقَسَمِ، مع ملاحظة أن كلَّ فقرة منها هي عنوان موضوع كامل مترامي الأطراف، ذي شُعَبٍ كثيرة، وقد جاءت الفقرات كموجات هادئات في جَدْولٍ يجري جرياناً رفيقاً ليّناً.

**الرابعة:**

جاء في السُورَةِ الحديث عن خسارة الإنسان بصفة عامّة، لتتطلّع النفوسُ باستغرَابٍ ودَهْشَةٍ، ثمّ جاء الاسْتثناءُ بعد أن صارت النفوسُ مستعدّة للتفكر بأَناة وتعمُّقٍ، وتدبُّرٍ تُحْشَدُ لَهُ طاقات الفكر وأطرافٌ من المعرفة تناسبُ الموضوع.

**الخامسة:**

لمّا كانت «ال» في «الإنسان» لاستغراق كلّ المكلفين من الناس، كان

اللفظ بمثابة الجمع، أي: كلُّ الناس المكلفين، ولهذا صحَّ استثناء فريقٍ منه، فجاء في السورة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

❁ ❁ ❁

## (٨)
## الملحق الثاني
## «الإنسان مملكة»

يعيش الإنسان في ذاتِ نفسه كأنَّهُ مملكَةٌ معقَّدَةٌ تشتمل على كلِّ عناصر المملكة وصفاتها وخصائصها، فمن أحْسَنَ سياسَةَ مَمْلكَةِ ذاتِه، فسلَّم أمْرَ القيادة والتوجيه إلى أهْلِهِ رَبِحَ وفاز، ومن أساء سياسة مملكته، فسَلَّم أمر القيادَة والتوجيه إلىٰ غَيْرِ أَهْلِه خَسِرَ وجرَّ لنفسه فساداً عظيماً، وعذاباً أليماً.

فلدىٰ المقارنة بين صفات الإنسان وخصائصه النفسيّة، وبين الممالِكِ في المجموعات الإنسانيّة الكبرى، نلاحظ ما يلي:

● ففي داخل الإنسان جهازُ عقْلٍ باحِثٍ، وفِكْرٍ متأمِّلٍ، قادرٍ على أن يَزِنَ الأمور بميزان المصلحة والمفسدة، والمنفعة والمضرَّةِ، العاجل من كلِّ ذلك والآجل، مُسْتَرشداً بهُدَىٰ اللّهِ الذي أنزله لعباده.

فإذا استخدَمَ الإنسانُ هذا الجهازَ فيما خُلِقَ له، وكان سليماً من العطَب أو الخَلَل، بَصَّرَهُ بالحقّ والباطل، والخير والشرّ، والصالح والفاسد، والنافع والضارّ، وكان لَدَيْهِ بمَثَابَة السلطة التشريعيَّةِ، وكانت وظيفتُه أنْ يُصْدِرَ القوانين والأحكام التشريعيَّة الهاديَةَ إلى الصراط المستقيم في الحياة، صراط اللّه العزيز الحميد العليم الحكيم.

● وفي داخل الإنسان جهازُ إرادةٍ حُرَّةٍ، وتَقَعُ تَحْتَ سلْطَةِ هذه الإرادة جَمِيعُ قُوىٰ الإنسانِ المؤثِّرَةِ في إنجاز الأفعال.

وهذه الإرادة الحرَّةُ في داخل الإنسان هي بمثابة السلطة التنفيذيَّة، الّتي تُوجّه أوامِرَها ليَتِمَّ التَّنفِيذُ مباشرةً، ضمن حدود الطاقات والقدراتِ التي تستطيع توجيهَها لتنفيذِ المرادات.

● وفي داخل الإنسان دوافع كثيرةٌ مختَلِفَةُ الأشكال والخصائص، متعدّدة الجهات، وبعْضُها مورُوثٌ ومُسْتَقِرٌ في الغريزة، وبعْضُها مكتَسَبٌ من البيئة.

وهٰذه الدوافع هي بمثابة الرّعيَّة في المملكة، الّتي يجب تنظيمُها والتنسيقُ فيما بينها، حتَّىٰ لا يطغَىٰ بعضُها على بعضٍ في داخل مملكة الإنسان، وحتَّىٰ لا تَطْغَىٰ في الفَرْد جُمْلَةُ هٰذِهِ الدّوافع فتُسَبِّب له أنْ يطْغَىٰ على أخيه الإنسان في مملكته الأخرى.

وإذَا أُهْمِلَتْ هٰذه الدّوافع عاشَتْ في داخل الإنسان في حَياةِ فوضَىٰ، وجعَلَتْ تأمُرُهُ بكُلِّ سُوءٍ وشر، وتكون في داخله بمثابة جمهورٍ فَوْضويّ تُحَرِّكُه رُعُونَةُ الشهوات والأهواء والغرائز الثائرة الهائجة بطيشٍ وحماقة، ولو كانت تَسُوقُ أو تقودُ الإنسانَ إلى المهالِكِ والموبقاتِ، وتهبِطُ به إلى أوديَةِ العذابِ والشقاء.

هذا هو شأن غرائز الإنسان ودوافعه في داخل ذاته، إذا أُهْمِلتْ، ولم يكُنْ لها ضابطٌ من إرادةٍ مَهْدِيَّةٍ بهَدْيٍ من دينٍ ربَّانيٍّ صحيح، وعَقْلٍ مُدْرِكٍ للحقّ والخير والفضيلة، ومُدْرِكٍ لأضدادها الضارّة الفاسدة المفسدة في عاجل أمْرِ الإنسانِ أو آجله.

لكن متَىٰ تمّ تنظيمها والتنسيقُ بيْنَها وضَبْطُها بضوابط الحقّ والخير والفضيلة، استطاع الإنسانُ أنْ يعيش في أمْنٍ وطمأنينة وسعادَةٍ مع نَفْسِه، وأن يَعِيشَ في سِلْم وطُمأْنِينَةٍ وَتَعَاوُنٍ مع أمثالِهِ من الناس.

ومن أراد أنْ يُحسِنَ سِياسة مملكته النفسيَّة ليكُونَ إنساناً مثاليّاً، أو سالكاً في مدارج الإنسان المثالي، فليوزّع السلطات في داخل نَفْسِه وفْقَ القانون الطبيعيّ السابق، وعليه في هذا أن يُسَلِّم السُّلْطَةَ التشريعيَّةَ إلى القدرات الفكريّة المهديَّة بالهداية الرّبّانيّة، وأنْ يُبَاعِد بين هذه القدرات وبين مؤثرات الأهواء والشهوات والغرائز والدوافع النفسيّة، حتّى لا تَجْنَح بها عن صراط الحقّ والعدل، وعليه أن يُطْلِق قُدْراته التفكيريّة في ميادين البحث عن الحقائق، ويُثِير فيها الشَوْق إلى الوصول إليها، وكلّما وصَلَتْ إلى طائفة من شرائع الحقّ والعدل الرَّبانيّة، فيجب عليه أنْ يؤمن بها، ويجعلَهَا موجِّهةً لإرادته المالكة للسُّلْطَةِ التنفيذيّة داخل مملكة ذاته.

وهذه السلطة التنفيذيّة، تَتَعَرَّضُ لضغوط غوغائيَّة من قِبَلِ جُمْهور الأهواء والشهواتِ والغرائز، الّتي تطالِبُ بما هو زائِدٌ على أنصِبَتِها النافعَةِ في الحياة، لتَسْتَمتع باللّذاتِ العاجلات، غَيْرَ عابئَةٍ بالمضرَّاتِ الآجلاتِ، الجالبات للآلام وأنواعِ العذابِ الجسَدِيّ والنفسيّ.

فإذا وَجَدَ من إرادَتِه ذاتِ السُّلطة التنفيذيَّةِ داخل مملكَةِ ذاتِه ضعفاً، أو ميْلاً للاستجابة لمطالِب جماهير أهوائه وشهواته وغرائزه الجانحة عن صراط الحقّ والخير والفضيلة، صراط اللّهِ المستقيم، فعلَيْه أن يُمِدّ إرادَتَهُ بقُوىً تشُدُّ عزمها وحزْمَها، من مخازن الإيمان في عُمْقِ قَلْبِهِ، ومن كوابِحِ الخوْفِ من سُوءِ المصير، ومن دوافِعِ الطَّمَعِ بثواب اللّهِ، المعجَّلِ من ذَلِكَ والمؤجّل، وعليه أن يَجْعَلَ شِعَارَه دواماً: الحقُّ فَوْقَ الجميع، وعندئذٍ يَجِد من معونة اللّه جلَّ جلالُهُ ما يجْعَلُ إرادته ذاتَ عزم يُسْكتُ صَخَبَ جماهير الأهواء والشهوات والغرائز الجانحة، ويقْمَعُ طيْشَها، ويُلْجِمُ دوافعها الرَّعْناء.

والإنْسَانُ أمام جماهير أهوائه وشهواته وغرائزه الجانحة، التي تَنْبَحُ

داخِلَ مملكة ذاته، بحاجةٍ إلى حصْنٍ حَصِينٍ من الصَّبْر، حتَّىٰ يقيَهُ ضعْفَ الإرادة وخَوَرَ العزيمة.

لكنَّ الجمهور الأعظم من النّاس تتحكّم بإراداتهم أهواؤهم وشهواتُهُم وغرائزهم الجانِحَةُ عن صراط اللّه المستقيم، ثُمَّ تكونُ السُّلْطة التشريعيَّةِ في ذواتهم مُسَخَّرَةً لخدمَةِ هذه الأهواء والشهوات والغرائز، فتَعْمَىٰ عن إدْرَاكِ الحقّ والخير والفضيلة، وبَدَلَ أَن تُؤَدِّيَ القدراتُ الفكريّةُ فيه وظيفتها الفطريَّةَ في خِدْمَةِ الحقّ والخيْر والفضيلة، تؤدّي وظيفةَ تَقْدِيم وسَائِل الْغَوَايَةِ والشرّ والضّرّ والإفساد في الأرض، بألوان من المكر والتحايُلِ والكيْدِ الشيطانيّة، وتجتالُها الشياطين وتَهِيم بها في كلّ وادٍ قَذِرٍ وخيم، وعندئذٍ ينغمس الإنسانُ في الخسرانِ المبين، في الدنيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دارِ الحساب وفصْل القضاء وتنفيذ الجزاء.

ربّنا آتنا رُشْدَنا ولا تجعلْنا من الخاسِرِين.

**وبهذا انتهى تدبّر سورة «العصر» بفتح من الله ومعونة وتوفيق**

❁ ❁ ❁

# سورة العاديات

١٠٠ مصحف ١٤ نزول

## (١)
# نصّ السورة
## سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا
﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ
الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾
وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا
فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ
يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

## (٢)
# مما رُوي بشأن هذه السورة

(١) أخرج أبو عُبَيْد في فضائله عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ، والْعَادِيَاتُ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ»[١].

«هذا الحديث مرسل».

(٢) وأَخْرَجَ مُحمَّد بْنُ نصْرٍ من طرِيقِ عَطَاءِ بن أبي رباحٍ عن ابن عباسٍ مرفوعاً مثْلَهُ، وزاد:

(١) عن فتح القدير للشوكاني.

«وقُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآن، وقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون تَعْدِلُ رُبْعُ القرآن»[١].

❁ ❁ ❁

## (٣)
## موضوع السورة

تُعالجُ هذه السورة تخليصَ المجتمعات الجاهليّة، من قبيحةٍ خَطِيرَةٍ من القبائح الّتي كانتْ شائعةً في البيئة العربيَّة الجاهليّةِ، بيْنَ قبائلهم الّتي يَجْمَعُها جَدٌّ واحِدٌ، ولُغَةٌ عربيّةٌ واحِدَةٌ، وكانَتْ شائعةً عنْدَ غَيْرِ الْعَرَب، وهيَ قبيحَةُ غَزْوِ النَّاس بَعْضِهِمْ لبَعْضٍ للسَّلْبِ والنَّهْبِ والسَّطْوِ على الأَمْوال عُدْواناً وظُلْماً، وهُمْ يتفاخَرُون بذلك، ويَجِدُونه حقّاً مَشْروعاً للأقوياء على الضُّعَفاء، ويَسْتَخْدِمُونَ فيه إحْدَىٰ نِعَم اللَّه على النّاسِ، وهي نِعْمَةُ الْخَيْلِ المهيّأة بالتَّدْبِير الرَّبَّاني تَهْيِئَةً ملائِمَةً بعِنَايَةٍ فائقَةً للقِتَال في سبيل اللّه، وإعلاء كَلِمتِه، وإقامة الحقّ والعدل.

ولكِنَّ النَّاسَ يسْتَخْدِمُونَها بجُحُودهم وكُنُودِهِمْ لربِّهِمْ، وبِحُبِّهِم الشّدِيد للحصُولِ علىٰ الأموالِ الّتي لا حَقَّ لهم بها، في البَغْي والطُّغيانِ، والظُّلْم والْعُدْوَان، وهُمْ يُفَاخِرُونَ بمُمَارَسَةِ هٰذِهِ القبيحَةِ، ويتَواضَعُونَ على قَلْبِ مفْهُومَاتِ الحقّ والْعَدْلِ، والْبَغْي والظُّلم، فَيَجْعَلُونَ الباطِلَ حقًّا، والظُّلْمَ والْعُدْوانَ بُطُولَةً ومجداً وَشَرَفاً، غَافِلِينَ عَنْ سلطانِ الرّبّ الْجَليل، الّذي سوْفَ يُحاسِبُهُمْ على أعمالهم يوْمَ الدّين، وسَوْف يُجَازيهم عليها، ويُقيم بَيْن النّاسِ العَدْلَ، فيقْتَصُّ من الظالِمِينَ الباغِين المعتدين، ويُحاسِبُهم ويجازيهم عَلىٰ كُفْرِهِم وكنُودِهِمْ، وجُحودِهِمْ حقَّ بارئهم عليهم في الإيمان والإسلام وفعلِ الصالحاتِ واجتناب السّيّئات، على مقدار استطاعاتهم.

---

(١) عن فتح القدير للشوكاني.

ويُقاسُ على نِعْمَةِ الْخَيْلِ كُلُّ نِعَم اللَّهِ الَّتِي يُمْكن استخدامُها في القتال في سبيل اللّه، لنَشْرِ دينِهِ، وإعلاءً كَلِمتِه، إذْ يسْتَخْدِمُهَا النّاس في الظُّلْم والعدوان، والبَغْي والإثْم والطُّغْيان.

ولدى النظر في مَضْمُون سورة «العاديات» وما نَزَلَ قَبْلَها من سُوَرِ القرآن، نُلاحِظُ ما يلي:

بعْدَ القضايا التي عالجتها السُّوَرُ الّتي نزَلَتْ قَبْلَ سُورة «العاديات» والّتِي اهْتَمَّتْ بقَضَايا العلم، وحرِّيَّةِ الإرَادَة لدى الإنسان المكلّف، وقضايا الإيمان والإسلام، وعبادة اللّه بالصَّلاة، وقضَايَا الْبَذْلِ والعطاء لذوي الضروراتِ والحاجاتِ في المجتمع، جاء دَوْرُ معالَجةِ قَبِيحَة غَزْوِ النَّاسِ بعْضِهِمْ لبعْض، بُغْية سَلْبِ ونَهْبِ أموالهم، والسَّطْوِ علىٰ مُمْتَلَكاتهم، ولو نَجَمَ عن ذَلِكَ سَفْكُ الدِّماء، وإزْهَاقُ الأرْواح، وتَخْرِيبُ العمران، نظراً إلىٰ أنّ هذا الْغَزْو قَدْ كانَ إحْدَىٰ الظواهر السلوكيَّة الشنيعَةِ من سلوكيّات الجاهليات العربيَّة وغيْرِ العربيَّة، ومَا الاستعمارُ الّذِي تَقُومُ به الإمبراطوريَاتُ والدُّوَلُ الّتي تَعْتَزُّ بما لَدَيْها من قُوىَ عَسْكَرِيَّة إلاَّ إحدىٰ صُوَرِ هذا الغزْوِ القبيح الشَّنيع.

فالسورةُ بهذا التحليل لموضوعها درْسٌ واحِدٌ متماسِكُ الأفكار، مترابطُ العناصر، وأمْرُ وحْدَةِ مَوْضوعها لا يخفىٰ على متدبِّرٍ ذي أناة، وهو ما سبق بيانه.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبُّر التحليلي لآيات سورة «العاديات»

قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ① فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ② فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ③ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ④ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ⑤﴾.

● ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾: «الواو» واو القَسَم. [الْعَادِيات] جَمْع «الْعَادية» وهي الجاريَةُ بسُرْعَة، منْ «عَدَا يَعْدُو عَدْواً وَعُدُوًّا» إذا جرَىٰ بسُرْعة. ولفظُ [الْعَادِيَاتِ] وَصْفٌ لموصُوفٍ مَحْذُوف، وأَوْلَىٰ مَا يَنْطَبِقُ عليْهِ هذا الوصْفُ الْخيْلُ، فالأوصَافُ الّتي جاءَتْ بَعْدَهُ من الأوصَاف البارزة في الْخَيْل، دُونَ غيْرها ممّا يُسْتَعْمَلُ في الرُّكوب للإغارةِ عَلَىٰ ظُهُورِهَا في الغَزَوات.

والاستِغْنَاءُ بذِكْرِ الصّفات عَنْ ذكْرِ اسْم الموصوف بها، من الكنايات البديعَة الشائِعَةِ في اللِّسَان الْعَرَبيّ، وهُو من أساليب التَّعْبير غيْرِ المباشِرِ عنِ المقْصُود.

﴿ضَبۡحٗا﴾: الضّبْحُ يأتي في اللُّغة العربيَّةِ بمعْنَيَيْن:

**المعْنَى الأول**: الْعَدْوُ الشّدِيدُ إذا بلَغَ مداه الأقْصَىٰ في مُسْتَطاعِ الْعَادِي أو العادية، فَضَبْحُ الْخَيْلِ عَدْوُها حتَّىٰ تَصِيرَ أَيْدِيها وأرْجُلُها معَ أَبْدانها مُمْتَدَّةً طُولاً في جَرْيها، كأنّها علَىٰ خَطٍّ أُفُقِيّ.

جاء في كتاب الخليل على ما نقَلَ ابن منظور: الضّبْحُ: أَنْ يمُدَّ الفَرَسُ ضبْعَيْه إذَا عَدَا حتَّىٰ كأنَّهُ علَىٰ الأرْضِ طُولاً، يُقَالُ: ضَبَحَتْ وضَبَعَتْ.

**الضَّبْعُ**: ما بيْن الإبْط إلى نِصْفِ الْعَضُد من أعلاه، وهما في الإنسان والحيوان ضبْعَان. يقال لغة: ضَبَعَ الفرسُ يَضْبَعُ ضَبْعاً وضُبوعاً، أي: مَدَّ ضَبْعَيْهِ في جَرْيِهِ مُسْرِعاً.

والضَّبْحُ مثْلُ الضَّبْع، تَقُول لغة: ضَبَحَتِ الْخَيْلُ في عَدْوِها تَضْبَحُ ضَبْحاً، وضَبَعَتْ تَضْبَعُ ضَبْعاً.

**المعنى الثاني**: الضَّبْحُ صَوْتٌ يُسْمَعُ مِنْ صُدُور الْخَيْلِ عِنْدَ الْعَدْو، وليس هو الصَّهيل الذي تُطْلقه حناجرُها.

وكلمة: [ضَبْحاً] منصوبةٌ على أنّها مصْدَرٌ مؤكِّدٌ لاسم الفاعل: [الْعَادِيات] على معنى أنّ الضَّبْحَ هو الْعَدْو الشديد البالِغ مَدَاهُ الأقْصَىٰ. أو مَصْدَرٌ في موضع الحال، تنزيلاً لِلْمَصْدَرِ مَنْزِلَة اسْم الفاعل، أي: ضَابِحَاتٍ، وهذا يُنَاسِبُ المعنَيَيْن للضَّبْحِ، الْعَدْوِ الشديد، والصَّوْتِ الذي يُسْمَعُ من صُدُورِها.

وأرَىٰ حَمْلَ اللّفْظ على مَعْنَيَيْهِ معاً، وهو ما عليه جُمْهُور عُلماء أصُولِ الفقه، إذْ يَرَوْن أنّ من أساليب اللّغة استعمالَ اللّفظِ في معنَيَيْهِ أو معانيه إلاّ عند التعارض، وهذا من روائع العربيّةِ في إيجازها البديع، وقد تكرَّر اسْتِخْدَامُهُ في القرآن المجيد، إذْ هُو قائِمٌ على استخدام لفظ واحِدٍ في جُمْلَةٍ لِيَدُلَّ على معنَيَيْن فأكثر، ويُسْتَغْنَىٰ بهذا الإجراء عن جُمْلَتَيْن فأكْثَرَ، وهو يَنِمُّ عَنْ ذَوْقٍ رَفيع في أساليب البيان العربيّ.

وقد أقْسَمَ اللّه عزّ وجلّ بإحْدَىٰ نِعَمِهِ على عبادِه، وهي نِعْمَةُ الخَيْل الّتي تَعْدُو في جَرْيِها حَتَّىٰ تكُونَ كالسَّابحة في الرِّيحِ، وتُطْلِقُ من صُدُورها أصْواتاً تُلْقِي الذُّعر فيمن تُغِيرُ عَلَيْهم، وهو في الحقيقة قَسَمٌ ببعض صفاته الّتي من آثارها هذه النّعمة.

جملة ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ①﴾ تُقَدِّمُ اللّقطة الأولَىٰ من مشاهد الصُّورَةِ البيانيّة البديعة لحركة الخيْلِ الْمُغيرَة بفُرْسَانها على مواقع مَنْ تُغِير عليهم بشَرّ.

● ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ②﴾: هٰذه هي اللَّقطة الثانية من مشاهِدِ الصُّورة البيانيّة البديعة لحركة الْخَيْل المغِيرَة بفُرْسانها على مواقع من تُغيرُ عليهم بشرّ.

[الْمُورِيات] جمع الْمُورية، اسْمُ فاعل من «أوْرَىٰ يُوري فهو مُورٍ» يُقَالُ: لغةً: أوْرَىٰ الزَّنْدَ إذَا أخْرَجَ منه النارَ بالْقَدْح.

**الزَّنْدُ**: الْعُودُ الأعْلَىٰ الّذي تُقْدَحُ بِهِ النار، إذْ يُضْرَبُ عَلَىٰ الزَّنْدَةِ الّتي هي الْعُودُ الأسْفَل.

يقالُ لُغَةً: قَدَحَ بالزَّنْدِ قَدْحاً، إذَا ضَرَبَ بِهِ حَجَرَهُ لتَخْرُجَ النارُ منه، ويقالُ: قَدَحَ النّارَ من الزَّنْدِ، إذا أخْرَجَها منه.

والخيلُ في عَدْوِها الشديدِ تُورِي النار والشّرَرَ بسنابكها، إذْ تَضْرِبُ بحَوَافِرِها على الأرض، فتُصِيبُ بها أحجاراً منبثَّةً فيها، فتقْدَحُ شَرَرَ النار.

وفي هذا تَصويرٌ للَقْطةٍ من مَشْهَدِ إغارة الخيول في أرْضٍ غَيْرِ مُمَهَّدَةٍ لِعَدْوِ الخيلِ، وفي هٰذهِ الأرض حجارَةٌ وصخُورٌ تَقَعُ عليها حوافر الخيْل فتَقْدَحُ ناراً وتُطْلِقُ شرَراً، فِعْلَ قادِحِ الزَّنْدِ الْمُورِي بقَدْحِهِ ناراً.

**القَدْحُ**: ضَرْبُ عودٍ على عُودٍ، أو حَدِيدَةٍ على حجَرٍ، أو غير ذلك، ممّا تُسْتَخْرج شرارةُ النارِ بضَرْبِ أحَدِهما على الآخر منهما.

ويقال لغة: أوْرى النّارَ إذا أوْقَدَها وأشْعَل اللَّهَبَ فيها.

**[قَدحاً]** مصدرٌ منصوبٌ على الحال تنزيلاً له منزله اسم الفاعل، أي: قادحات، أو مفعولٌ مطْلَقٌ لفعلٍ محذوف تقديره: تَقْدَحُ قَدْحاً، أي: فتوري النار بهذا القَدْح.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾: هذهِ هي اللَّقْطةُ الثالثة من مشاهد الصورة البيانيَّةِ البديعَةِ لِحرَكَة الْخَيْلِ المغيرَةِ بفُرْسَانها على مواقع من تُغِيرُ علَيْهم بشرّ.

وبهذه اللَّقْطَةِ تحدَّدَت الغاية من حركة الخيول العاديات، وعلى ظهورِها فُرْسانُها، وتَحَدَّدَ الوقْتُ وهو وقْتُ الصُّبح.

**المغيرات**: جمع «المغيرة» اسم فاعلٍ للمؤنّث من فعل «أغَارَ يُغِيرُ إغارَةً».

**الإغارة**: هي الهُجُومُ المباغِتُ لقَتْلٍ أَوْ أَسْرٍ أَوْ سَلْبٍ ونَهب، أو نحو ذلك من شرّ.

**الصُّبْحُ**: أوَّلُ النَّهار، وهو الوقْتُ الذي يَخْتَارُهُ الْغُزَاةُ، لمباغَتَةِ الْقَوْم الذين يُرِيدُون الإغارة عليهم للقَتْلِ والأَسْرِ والسَّلْب. ويبدأ أوَّلُ النَّهار من طُلوعِ الفجر الصادق.

● ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾: هٰذه هي اللَّقْطة الرابعة من مشاهد الصُّورة البيانيَّةِ البديعة لحركة الخيل المغِيرَةِ بفرسانها على مواقع القوم الذين تُغِيرُ عليهم بشرّ.

﴿فَأَثَرْنَ﴾: الإثارة التَّهْيِيجُ والنَّشْرُ، ويكون باستخراج الشَّيْء من مواضع استقراره، ونَثْرِ أجزائِه ونَشْرِها في مواضِعَ شتَّىٰ، كنَشْرِ التُّراب والْغُبار في الجوّ، وقد كان ساكناً مُسْتَقِرّاً في الأرض.

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالعدْوِ المفهوم من العاديات، إذْ هو الذي تكون به إثارة النَّقْع.

﴿نَقْعًا﴾: النَّقْعُ هو الغُبَارُ السَّاطِعُ، وهذا أحَدُ معاني هذه الكلمة، وهو المراد بها هنا.

والمعنىٰ: فأثارات الخيولُ العادياتُ بِجَرْيِها السَّرِيع عنْدَ إغارَتِها وضَرْبِ حوافِرِها على الأرض، غُبَاراً سَاطِعاً في الجوِّ، يُحيط بهَا كأنَّهُ مُوَاكِبٌ لَهَا، فهو يسْتُرُها ويُخْفِي أعدادها، ويزيدُ في إلقاء الرُّعْبِ في قُلُوب الْقَوْم الَّذِين تُغِير عليهم.

● ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾: هذه هي اللَّقْطةُ الخامسَةُ من مشاهِدِ الصّورَةِ البيانيّة البديعة لحرَكة الخيْلِ المغيرة بِفُرْسَانِها على مواقع الْقَوْمِ الَّذِينَ تُغِيرُ عَلَيْهِمْ بشَرٍّ.

﴿فَوَسَطْنَ﴾: أي: فصِرْنَ في الْوَسَط، وهو المكان الواقع بيْنَ طَرَفي الشيء، أو حول مركز دائرة الشيء.

يُقَالُ لغة: «وَسَطَ الشيْءَ يَسِطُهُ وَسْطاً وَسِطَةً» أي: صَارَ في وَسَطِه، فهُوَ وَاسِطٌ. يُقالُ: وَسَطَ المكانَ، ووَسَطَ القوْمَ.

﴿بِهِۦ﴾: أي: بالْعَدْوِ المفهوم من العاديات.

﴿جَمْعًا﴾: أي: قَوْماً مُجْتَمِعِين، الْجَمْعُ في اللّغة: الجماعة. والقوْم المجتَمِعُونَ. والْجَيْشُ المجتمع.

لمَّا أَحَسَّ الْقَوْمُ بهُجُومِ غارَةِ العدُوّ عليهم، والْمُفاجِئَةِ لَهُمْ عنْدَ الصَّباح، خَرَجُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ واجْتَمَعُوا للدِّفَاع، أو لمعرفةِ ما يَحْدُثُ، أو للتشاوُرِ، فباغَتَهُمُ المغِيرُونَ حَتَّىٰ دَخَلُوا فِي جَمْعِهِمْ، وكانُوا وَسَطَهُمْ يقْتُلُون وَيَأْسِرُون ويَسْلُبُونَ ويَنْهَبُون.

وتَوَقُّفَ عرْضُ المشهَدِ عنْدَ هٰذِهِ اللَّقْطَةِ الأخيرة، ليذهَبَ الذِّهْنُ والتَّخيُّل في تكْمِيلِ مَشْهَدِ الغارَة، وتصوُّرِ مَا يَحْدُث عادَةً من قَتْلٍ وسَلْبٍ وأسْرٍ، في غَزْوِ النّاس بعْضِهم لبعْضٍ.

وجاء التعْبيرُ بالفعل الماضي في ﴿فَأَثَرْنَ﴾ وفي ﴿فَوَسَطْنَ﴾ معطوفَيْن عل اسْم الفاعل الدَّالّ على حَركة الحال المتجدّدة في: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ وفي: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ وفي ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ للدَّلاَلَةِ على أنَّ إثارَةَ الغبار استمرَّتْ آثارُها فَهِيَ فِعْلٌ مضَىٰ ولَكِنْ بقِيَتْ آثاره، وللدّلاَلَة عَلَىٰ أَنَّ دُخولَ الخيُولِ في وَسَطِ الْجَمْعِ قَدْ تحقَّقَ وصَار أثَراً قائِماً في الواقِع من آثار عَدْوٍ مضَىٰ وانْتَهتْ حَرَكَتُه.

ولا يخفىٰ على البليغ أنَّ اللّقَطاتِ الْخَمْسَ، قَدْ وَصَفَتْ مَشْهداً علَىٰ تقديرِ أَنَّ أحْدَاثَهُ تَجْرِي مَعَ فِقَراتِ التَّعْبير، حَدَثاً فَحَدَثاً، كما يَفعَلُ الْمُعلّق علىٰ مَشْهَدِ سِباقِ الْخَيْل، وهِي تَجْرِي في مضمارِها.

وجاء العطفُ بالفاء في اللَّقطاتِ البيانيَّةِ الْخَمْس، للدَّلالَةِ على التعاقُب السَّريعِ في مَشَاهِدِ اللَّوْحَةِ البيانيَّة الرائعة.

كلُّ هذا الذي دَلَّ عليه الوصْفُ التعبيريّ الرائِع لحركاتِ الخيول العاديات الموريَات بسُرْعتها لشرَر النار، الذي ينشأ عن قَدْحِ حوافِرِها

لحجارَةٍ في الأرض تُطْلِقُ الشَّرَر، والمغيراتِ في وقْتِ الصُّبْحِ لمباغَتَةِ قَوْمٍ فِي مَنازِلِهِمْ، فتَتَوَسَّطُ جَمْعَهُمْ، ليُحَقِّقَ الغزاةُ على ظهورها مقاصِدَهُمْ من الغزْو، لَمْ يكُنْ لِيَتَحقَّقَ للنّاسِ لَوْلا التَّسْخِيرُ الرَّبّاني، الّذي سخَّرَ اللَّهُ فيه هذا الصِّنْف من المخلوقات للإنسان، وهو صِنْفُ الخيْلِ، وأَمَرَهُ أَنْ يسْتَعملَهُ في طاعَةِ اللّه أو فيما أذن له به، ونَهَاهُ عن استعماله في الْبَغْي والطغيان، والإثم والظُّلْمِ والعدوان.

ولكِنْ كَيْفَ كان حَالُ الإِنسان؟ هلْ كان شاكراً نعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فاسْتَعْمَل هٰذِه النّعمَةَ المسخَّرَةَ لَهُ في مَرَاضيه، أو فيما أذن له به. أمْ كان كنوداً كفُوراً؟؟.

لقد جاء الجواب على هذا السؤال المطويّ داخل ثنايا السورة في المقطع الثاني منها، وهو المقْسَمُ عليه فيها، وهو المقطَعُ التالي:

- قولُ اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

هذا هُوَ الْمُقْسَمُ عليه في السّورة، والمناسَبَةُ بيْنَ الْمُقْسَم بِه والْمُقْسَم عَلَيْهِ ظَاهِرَةٌ، أي: أُقسِمُ بِنِعْمَتِي علَيْكَ أيُّها الإنسانُ إذْ سَخَّرْتُ لَكَ الْخَيْلَ بكلِّ ما فيها من صِفَاتِ ملائِماتٍ لِنَشْرِ ديني وإعْلاءِ كَلِمَتِي، علَىٰ أنَّكَ كنُودٌ كَفُورٌ بنِعْمَتِي، تَسْتَعْمِلُ ما سَخَّرْتُ لَكَ في مَعْصِيَتي بالْبَغي والطُّغيان، والإثْمِ والظلم والعدوان.

﴿لَكَنُودٌ﴾: أي: لَجحُودٌ وَكَفورٌ بالنِّعْمة. يُقَالُ لغةً: كَنَدَ النِّعْمةَ يَكْنُدُهَا كُنوداً، أي: كَفَرَها وَجَحَدَها. وكلٌّ من الذكرِ والأنْثَىٰ يُقَالُ فيه: كَنُودٌ. ويُقَالُ: كَنَدَ رَبَّهُ، أي: جَحَدَ نِعْمَتَهُ عليه، وكفر بها. وصيغة: كنود، من صيغ التكثير والمبالغة.

أي: فهُو بدَلَ أن يستعمِل نِعْمة اللّه عليه بتسخير الْخَيْلِ، في طاعة اللّه ومراضيه، وفيما أذِنَ لَهُ به، يَسْتعملها في الإغارَةِ على الآمِنينَ عُدْواناً وظُلْماً، للسَّلْب والنّهب والسَّطْوِ الآثم.

والمراد من الإنسانِ مُعْظَم أفراد النَّوع لا جَمِيع أفراده.

﴿لِرَبِّهِۦ﴾: متعلّق بـ«كَنُود» إذْ هو يعمَلُ عَمَل الفعل، واللّام لتقوية عَمَلِ «كَنُود» إذ الفعل يتعدَّى بنفسه.

وقد جاء في الآية تأكيد خَبَرِ كَوْنِ الإنسان كَنُوداً بالمؤكدات التاليات: «إنّ، والجملة الاسميّة، ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر» ويفيد تقديم: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ على عامله التّأكيد أيضاً، مع التّنبيه علَىٰ شناعَةِ كنُودِ الإنسان، فهو لرَبّه الذي يُمِدُّه دواماً بعطاءاتِ رُبُوبيَّتِه له لكَنُودٌ.

● ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾: أي: وإنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الكُنُودِ الذي يُمارِسُهُ دواماً لشَهيدٌ بِهِ علَىٰ نَفْسِه، إذْ يجاهِرُ به، ويُكابِرُ فيه، ويُفَاخِرُ بفِعْله، إذْ يَزْعُمُه عملاً مَجيداً، كَمَا هُوَ عادَةُ الْغُزاةِ فيما يقومون به من غاراتِ الْقَتْلِ والتّدْمِير للسَّلْبِ والنّهْبِ والسَّطْوِ على ما لَيْسَ لهم به حقٌّ، فَهُو علَىٰ نَفْسِهِ بذلِكَ شَهِيدٌ، يَقُول: إنّي فَعَلْتُه وأفعَلُه، مُجاهراً مكابراً مُفَاخراً، قائلاً: إنَّ الأَقْوَىٰ والأغْلَبَ، هو صَاحِبُ الحقّ ولَوْ سَلَبَ ونَهَبَ، وبَغَىٰ وظَلَم، وعَدَا وَأثِم، وطغَىٰ وَأجْرَم.

وقد جاء تأكيد هذه القضيّة في هٰذِه الجملَةِ بمثل المؤكدات الّتي اشتملت عليها سابقتها، وفي هذا التأكيد إشارة إلى مكابرة النَّاس في استحسان ما يفعلون من ظلم وعدوان، وبغيٍ وطغيان.

● ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾: في هذه الآية إشارةٌ إلى أهَمّ الأسباب الّتي تَدْفَع الإنسان للقيام بغزوات السَّلْب والنّهبِ والسَّطْو، وهو حبُّهُ الشديد للمال.

أُطْلِقَ لفظ «الخير» في هذهِ الآية على المال، تَمَشّياً مع استعمال العَرب، الّذين كانوا يُسَمُّون المال خيراً، مع أنّه وسيلَةٌ من الوسَائل الّتِي تُسْتَعْمل في الخير، وتُسْتَعْمَلُ في الشرّ، كما أبان الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري الّذي قال فيه الرسول:

«لاَ واللَّهِ مَا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النّاسُ إلاَّ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيا».

فقال رجُلٌ: يا رَسُول الله، أَيَأْتِي الْخَيْرُ بالشَّرّ؟ تصوُّراً منه أن المال خير.

فقال الرسول: «أَوَ خَيْرٌ هو؟!» أي: هو وسيلة وليس خيراً محضاً(١).

فمعنَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ وإِنَّهُ ليُحِبُّ الْمَالَ حُبّاً شديداً يَدْفَعُهُ إلى السَّطْو على الأموال الّتي لا حَقَّ لَهُ بها، بالظلْم والعدوان، والبغي والطغيان.

أي: وإنّه لأجل حُبِّهِ المالَ لَشَدِيدٌ قَوِيٌّ في الْبَغْي والظُّلْم والعدوان، والجرأةِ على الحقّ بالْبَاطل، والجرأةِ علىٰ رَبِّهِ بالكُنُودِ والعصيان، وحُذِفَ معمولُ شديدٍ ليشمَل كلَّ قبائح الجاهليّة الّتي تُفرِزُهَا رَغَبَاتُ غَزْو الناس بعضِهم لبعض طمعاً بالاستيلاء على أموالهم.

بعْد هذا البيان عن واقع حال الإنسان الذي يَسْتَخْدم نِعْمَةَ اللَّه عليه بتسخير الخيل، في ضدّ مَا أُعِدَّتْ له، جاءَ دَوْرُ التَّحذِيرِ من عاقبة هذا السُّلوك الشَّنِيعِ، من سُلُوك الجاهليّاتِ البشرِيَّةِ، في رِحْلَة امتحان الناسِ في ظروف الحياة الدنيا، وهذا ما دَلَّ عليه البيانُ في المقطع الأَخِيرِ من السُّورة، وهو:

قول اللّه عزّ وجلّ:

---

(١) انظر شرح الحديث الثاني في كتاب «روائع من أقوال الرسول» للمؤلف.

﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ۝١١﴾.

• ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ﴾: في هذه العبارة استفهام، وفاء عطْفٍ، وفعلٌ فاعله ضميرٌ يعود على الإنسان، والمفعولُ به محذوفٌ اقتصاداً وإيجازاً في العبارة، لإمْكان إدْراك معناه من السِّباق.

أمّا الاستفهام فهو استفهامٌ مُسْتَعْمَلٌ في التقرير، وفيه مع التقرير الذي يُنْتَزع به الإقرار والاعْتِراف، التلويمُ والتوبيخ، على عدَم العمل بمقتضىٰ العلم.

وفاء العطف فيما أرى فصيحةٌ تَعْطِفُ علَىٰ محذوفٍ يُمْكِنُ بالتأمُّل استِخْرَاجُهُ من مقتضىٰ الحال، والتَّقْدِير: أهُوَ منَ الأَنْعام، أمْ نشَأَ مُنْعَزِلاً عَنِ المجتَمَعَات البشرية فَلاَ يَعْلَمُ شيئاً عَنِ الحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاء وَتَنْفِيذِ الجزاءِ في الآخِرَةِ يَوْمَ الدِّين، ولا يعْلَمُ من دَلاَئِلِ حِكْمَةِ اللهِ المرشدة إلَىٰ ضرورَة الْيَوْم الآخِر للحساب والجزاء، أنّه لاَ بُدَّ من مُلاَقاةِ رَبّه يَوْمَ الدِّين للحسَاب والْقَضَاء والجزاء.

• ﴿إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾: أي: أفلا يَعْلَمُ حقائِقَ يَوْم الدِّين الّتي بلّغَها المرسَلُونَ، وسبَقَ في نجوم التنزيل بيانٌ عَنْهَا، وهٰذِهِ تكونُ يَوْمَ البعْثِ إذا بُعْثِرَ مَا في الْقُبُورِ، أي: اسْتُخْرِجَ ما في الْقُبُورِ مِنَ الموْتىٰ إلى الحياة الأُخْرَىٰ، بحَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ فِيها إثارةٌ وَنَثْرٌ وتَفْرِيقٌ، ولعَلَّ السَّبَبَ في هذا أنّه لمّا كَانَ الْقَبْرُ الواحِدُ رُبَّما يَحْوي آلاف الموتىٰ الّذِينَ بَلِيَتْ وفَنِيَتْ أجْسَادُهم، إذْ صار قبْراً آلاف المرات، كان استخراج ما فيه بوقْتٍ واحِدٍ يحتاجُ بعْثَرَةً، حتّىٰ يتفَرّقَ الخارجُون إلى الحياة الأُخرى أجْسَاداً، فَلاَ يتزَاحَمُوا عنْدَ الخروج.

تقولُ لغة: بَعْثَر فلانٌ الشَّيْءَ، إذَا قلَبَهُ وفرّقَه ونَثَرَهُ على غَيْرِ نظام.

وفي سُورَة (القارعة) شبَّه اللَّهُ عزّ وجلَّ النّاسَ مع هٰذِه الْبَعْثَرَة بأنَّهُمْ يكُونُون كالْفَراشِ المبثُوثِ.

● ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾: أي: وكُشِفَ وَبُيِّنَ ومُيِّزَ وفُصِلَ مَا فِي الصُّدُور الّذي كانَ مضمراً فيها.

والشيْءُ الّذِي كان في الدُّنيا مُضمراً في الصُّدُور، هي النيَّاتُ والمقاصِدُ والغاياتُ من الأعمال المُسَجَّلةِ تَسْجيلاً كامِلاً، وكذلِكَ العقائِدُ المستقِرَّةُ فيهَا من إيمانٍ وَكُفْرٍ، ونِفَاقٍ، ومَا تُضْمِرُهُ الصُّدُور من حُبٍّ وكراهية وبُغْض، وحِقْدٍ وحَسَدٍ، ونحو ذلك.

فما في الصُّدُور هو مَناطُ الحسَابِ الأَكْبَر.

تَخصِيلُ الشيْء لُغَةً يكُونُ بكَشْفِه وتَبْيينه وتمييزه وفَصْلِ بعضِه عن بعْضٍ، ويكُونُ بجَمْعِه.

وهذا المعْنَىٰ قد جاء بيانُه أيضاً في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿تُبْلَى﴾: أي: تُكْشَفُ.

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: جمْعُ «السَّرِيرَة» وهي ما يُكْتَمُ وَيُسَرُّ في الصُّدور.

ويَوْمَ تُبلَىٰ السَّرائر هُوَ يوْمُ الدِّين الذي يكون فيه الحسابُ وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الجزاء.

● ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

﴿بِهِمْ﴾: مُتعلّقٌ بخَبِير، وقُدِّم علىٰ عامله لمراعاة رؤوس الآي في السّورة.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: أي: يومَ إذْ يُبَعْثَرُ مَا في القُبُور، ويُحَصَّلُ مَا في الصُّدُور، والتنوينُ في «إذٍ» هو تَنوينُ العِوَضِ عَنْ جُمْلَةٍ مُقَدَّرَةٍ ذِهْناً بعْدَ «إذْ».

﴿لَّخَبِيرُۢ﴾: أي: لَعَالِمٌ عَنْ خِبْرَةٍ، والخِبرَةُ هي العِلْمُ بالشيْءِ الناتج عن مُشَاهَدَةٍ أو مُمَارَسَةٍ، والخبيرُ هو العالم بظواهر المعلوم وبواطنِه، وكلِّ أجْزَائِهِ ودَقائِقِهِ.

وقد جاء تأكيد مَضْمُون هٰذِهِ الجملَة الخبَريَّة بالمؤكّدات التالية: «إنّ، والجملة الاسميّة، واللاّم المزحْلَقَة».

وبيانُ كَوْنِ ربِّ المبعوثين ليوم الدّين خبيراً بهم يومئذٍ، هو كناية عن محاسبة اللّه لهم محاسبَةً دقيقةً عادلةً لاَ ظُلْمَ فيها وَلاَ فوْتَ، لأنّ الخبير الحكيم القديرَ العَدْل لاَ بُدَّ أنْ يُحَاسِبَ المجرمين بمقتضَىٰ صِفاته وأسمائه الحسنىٰ، وهذا يُسْتَدَلُّ علَيْه باللُّزُوم العَقْلِيّ.

ومثل هذا التعبير هو من الكنايات البديعة الّتي تكْثُرُ نظائِرُها في القرآن المجيد، ومن أسَالِيب التعبير غير المباشر عن المقصود.

❁ ❁ ❁

## (٥)
## نظرة عامّة إلى السورة

اشتملت هذه السورة على دَرْسٍ واحدٍ ذي ثلاث مقاطع:

فالمقطع الأوّل اشتمل على قَسَمٍ من اللّه عزّ وجلّ بنعْمَة الخيل التي أنعم بها على نوع الإنسان، وأوْرَدَ من المُقْسَم به خَمْسَ لَقَطَاتٍ منتَزَعَاتٍ من مشْهدِ عَدْو جماعَةٍ غازية من الخيول بأقصىٰ سُرْعَتها، وعلى ظهورها فرسانُها، حتّىٰ صارت سنابكها تُطْلِق شَرَرَ النار، حينما تضربُ ببعض حجارة في الأرض المنطلقة عليها، ولمَّا اقتربت عند الصُّبح من منازل القوم المقصودين بالغزو أغارت عليهم مفاجئةً لهم إغارَةً عنيفةً أثارَتْ غبَارَ الأرْض

فسَتَرَتِ الموقِعَ به، وأخرجَتِ القومَ من مَنازِلهم مَذْعُورِين قد أصابهم الذهول من هَوْل المفاجَأة، فتَوَسَّطَتْهُمْ، وصار الغزاةُ يسْطُونَ قتلاً وأسراً وسَلْباً.

هذا مَشْهَدٌ ممّا يَفْعَلُه النَّاسُ بعضُهم بِبَعْضٍ بغياً وطغياناً، وظُلْماً وعُدْواناً، في غزوات السَّلْب والنَّهْب والسَّطْو على أموالٍ لا حقّ لهم بها، عرَضَ المقطع الأوّل من السورة فيه لَوْحَةً رائعةً من لوحات حركات الخيل الهجوميّة، وعلى ظهورها فرْسَانُها الغزاة.

ولهذا المشْهد دَلالَتَان:

**الدلالة الأولَىٰ**: أنّ الخيلَ بصِفاتها الممتازة الّتي تُقَدِّمُ مثْلَ هذه اللَّوْحَة الْهُجُومِيّة الرائعة، بتَسْخِيرِ اللّه إيَّاها للإنسانِ، هي من نِعَم اللَّهِ عليه الّتي يجب عليه أن يُقَابلها بالشُّكْر، فَيَسْتَعْمِلها في طاعة اللّه ومراضيه وما أذن له به، لا في معصيته بالبغي والطغيان، والظلْم والعدوان، فمِنْ وظائفِ الخيْلِ الجليلَةِ الّتي هيّأَها اللَّهُ لها اسْتِعْمالُها في نَشْرِ دين اللّه، وإعلاءِ كلمة الله، وإقامَةِ الحقّ والْعَدْلِ بيْنَ النّاس.

**الدلالة الثانية**: أنّ الإنسان قد كان كنُوداً كفوراً، فاستخدم تسْخيرَ الخيْلِ له في معصية اللّه مُسَخِّرِها، فَطَغَىٰ وبغَىٰ، وظلَمَ وَاعْتَدى على ظُهورِها، وتجبَّرَ وقَتَلَ وأَسَرَ فَغَلب، وسَطَا وسلَبَ ونَهَب.

أمّا الدلالةُ الأولى فتَسْتَحقُّ أن تكون هي المقْسَمَ به لأَنَّها من آثار إنعام اللّه على عباده، وهُوَ من مظاهر صفاتِه في قضائه وقَدَره وحكمته وخَلْقه.

وأمّا الدلالَةُ الثّانيةُ فَتَسْتَحِقُّ أَنْ تكُونَ هيَ الْمُقْسَمَ عليه، لأنّ الواقِع البشَرِيَّ في ظاهرات سلُوكِ مُعْظَم النّاس المتكرّرَة، قَدْ أَثْبَتَ أنّ أكْثَر النّاس هُمْ من صنف الكَنُود الجَحُود الكفور بنعمة اللّهِ علَيْه.

ولَمْ يقتَصِرْ أمْرُ الإنسان (والمرادُ معظم أفراد هذا النوع) على استعماله لهذه الوسيلة الحربيّة، التي هي الخيل، في غزوات السَّلْب والنَّهب، والظلم والعدوان، والاستعلاء في الأرض بالْبَغْي والطغيان، بل جعل ذلك قانوناً محموداً، وحقّاً للأقْوِياءِ على الضُّعفاء، وقاعدةً متعارفاً عليها من قواعد المجتمعات البشريَّة، وتقليداً مُتَّبعاً، وحُكْماً سائداً، لا يَعِيبُ فيه الناس بعضُهُمْ على بعض، فقَلَبَ الإنسان بهذا مفاهيم الحقّ والباطل، فهو يفْعَلُ ما يفْعَلُ من الجرائم متفاخراً، شاهداً على نَفْسِه بما يَفْعَل، مُفَرِّقاً بين جرائمِهِ الشَّنيعَة وبين اللُّصوصيَّةِ وأشباهها، إذْ يزعُمُ أنَّ الغزو للسَّلْبِ والسَّطْو والْقَتْلِ والأَسْرِ حقُّ الأقْوَىٰ عَلَىٰ الأَضْعَف.

وهذا غايةُ الكُنُود والجحود والكُفْران، والسَّبَبُ الباعِثُ حبُّهُ الشديد للمال.

وقد جاء الْمَقْطَعُ الثّاني من السُّورة بجُمَلِهِ الثلاث الموجزاتِ، مبيّناً بصريح الكلام وبلوازمه الفكريّة هذه القضايا عن واقع حال الإنْسَان، فقال اللّه عَزَّ وجَلَّ في الْمُقْسَم عليه في السورة:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

جُمَلٌ ثلاث، كلُّ جُمْلَةٍ منها آية، كأنَّها دُرَّاتٌ في عِقْد نَفِيس، والروابِطُ بينها روابِطُ أشِعَّةٍ وظلال، وروابِطُ مفهومات فكريّة، يستَخْرِجُها التَّدَبُّر الواعي، والتأمُّل العميق.

ونُلاحِظُ هُنَا أنّ رَصْفَ هٰذِهِ الْجُمَل المنتَقَياتِ بحِكْمةٍ عظيمةٍ، دون إبْرَازِ الروابط بينها بعبارات كلاميّة، أسْلُوبٌ مُخْتارٌ لإعطاء القرآنِ المجيد صِفَةَ الْعُمْقِ من ورَاءِ دلالاَتِ السَّطْح.

وهذه الجمل هي بمثابَةِ عنوانات مباحثَ يُحيطُ بها مَوْضُوعٌ واحدٌ شامل، وتفصيلُها يأتي في كُرَّاسَات.

وبالنظر في السُّوَرِ الّتي نزَلَتْ قبل سُورَةِ (العاديات) مع هذه السورة نُلاحظ أَنَّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ قَدْ وصَفَ الإنسان، والمرادُ معظم النَّوْع بما يلي:

(١) في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) وصَفَ اللّه الإنسان بقوله:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾.

(٢) وفي سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) وصف اللّه الإنسان بقوله:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا...﴾.

(٣) وفي سُورَة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) وصفَ اللّه الإنسان بقوله:

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾.

(٤) وفي سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) وصف الله الإنسان بقوله:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

وفي هذه الأوصاف تكامُلٌ في التعريف بالإنسان المحتاج إلى دين يهديه إلى الحق والخير والفضيلة، ويبشّرُه ويحذّره ويُنذِرُه.

وأمّا المقطع الثالث من السورة فيشتمل على تحْذِيرٍ ووعيدٍ للإنسان الطاغي الباغي الظالم، الذي يسْتَعْمِل نِعَمَ اللّه عليه في مخالفة أوامره ونواهيه، وفي الظلم والعدوان، والبغي والطغيان، والفساد والإفساد في الأرض، لتحقيق أهوائه وشهواته ومطالبه من الحياة الدنيا بغير حقّ.

وجاءتْ آياتُ هذا القسم لقطاتٍ مُنْتَقيات من أحداث البعث ويَوْم الدّين، متضمّنَةَ الإشارةَ إلى سائر الأحداث الّتي تَدُلُّ عليها اللّوازم الفكريّة، ويستخرجها المتدبِّر من العُمْقِ القرآني.

**وبهذا انتهى تدبر سورة (العاديات) والحمد لله على فتحه ومعونته وتوفيقه**

❁ ❁ ❁

## (٦)
# ملحق
## حول بلاَغِيّاتِ في سورة «العادِيات»

من بَلاغيّات هذه السورة ما يلي:

**الأولى:**

التصوير الفنّيّ البديع في التقاط لَقَطاتٍ من مشْهَدِ غزوةٍ جاهليّة، قام بها غُزاةٌ على ظهور خيولهم، وقد جَعَلُوا خُيولهم تَعْدُو بأقْصىٰ ما لدَيْها من عَدْوٍ طويلِ الخطوات سريع، حتَّىٰ أغارُوا صُبْحاً على قوم آمِنِينَ، مُبَاغتين لهُمْ، فتوسَّطُوا جمْعَهُمْ، وجعَلُوا يقْتُلُونَ وَيأسِرُون ويسْلُبُون، والغايَةُ من غزوهم السَّطْوُ الظالِمُ للسَّلْبِ والاستيلاء على ما ليْسَ لهم به حقّ.

وقَدْ قُدِّمَتْ هٰذِهِ اللَّقَطَاتُ بأسْلُوبِ حدَثٍ يَجْري مرافقاً لتوجيه العبارة البيانيّة، كتَصْويرٍ بآلات تصوير لاقطات للصُّور، يُلاحِقُ حرَكاتِ حدَثٍ قائم، مع الابتعاد عن حكايةِ أمْرٍ مضىٰ، وهذا من أبْدَع البيان الكلاميّ الذي هو من مبتكرات القرآن، قبل اكتشاف أدوات التصوير الّتي تُثَبّت الصُّوَرَ على أشرطة تَسْجِيل لاقطة.

وهذه اللّقطاتُ الّتي جاءت في البيان القرآنيّ غيْرُ شاملاتٍ لكلّ أحداث الغزوة الجاهليّة المباغتة، إذْ فيها فراغاتٌ تملَؤُها تصوُّراتُ المتلقّي

الأديب، الّذي يُحسِنُ ملْءَ الفراغات بيْنَ اللّقَطات التصويريّة غَيْر الشاملات لكلّ عناصر المشهد العامّ.

**الثانية:**

مراعاة المطابقة بين الصورة التعبيريّة، وبين واقع الأحداث.

● فالأحداث الّتي تجري وتنقضي لحظة فلحظة جاء التعبير عنها باسم الفاعل المشابه في دلالته للفعل المضارع الذي يفيد التجدُّد، وهذا نلاحظه في: «والعاديات ـ فالموريات ـ فالمغيرات».

● والأحداثُ الّتي تجري وتبقىٰ لها آثارٌ في المشهد، كالغبار الذي يُثِيرُه الْعَدْو وَتَبْقَىٰ آثارُه في الجوّ مُدَّةً بَعْدَ إثارته، قد جاءَ التعبيرُ عنها بالْفِعْلِ الماضي، في: «فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ـ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً».

**الثالثة:**

العطف بالفاء في: «فالموريات ـ فالمغيرات ـ فأَثَرْنَ ـ فَوَسَطْنَ» للدَّلالة على الحركات المتتابعات الَّتي يَعْقُبُ بَعْضُهَا بعضاً دُونَ فواصلَ زمنيّة.

**الرابعة:**

تناسُقُ وتعادُلُ آيات كلّ مَقْطَعٍ من مقاطع السورة الثلاثة، حتَّىٰ كأنَّها جدَاوِلُ تَجْرِي على مُدَرَّجَاتٍ متناظِرَات الدرجات.

**الخامسة:**

السَّجْعُ المحَبَّبُ غيْرُ المتكلِّفِ، والذي تَسْتَسِيغُهُ النَّفْسُ، فتَثْبُتُ الفِقَراتُ الّتي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ في الذاكرة.

**السادسة:**

تأكيدُ كون الإنسانِ كَنُوداً، وشهيداً على كُنُودِهِ، وتأكيد كونه شديد الحبّ للمال، بالْقَسَم في أوّل السورة، وبحرْف التوكيد «إنّ» وبالجملة

الاسميَّة، وبلام الابتداء المزحلقة إلى الخبر، في الآيات: «٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ١١» لأنّ المتلقين ينكرون هذه الحقائق.

**السابعة:**

الاستفهام المستعمل في التقرير مع التلويم والتوبيخ في الآية (٩) وهذا من خروج الاستفهام عن أصل دلالته إلى معاني أُخْرىٰ، لدواعي بلاغيّة.

❀ ❀ ❀

# سُورَةُ الكَوثَر

١٠٨ مصحف ١٥ نزول

# (١)
# نص السورة
# سورة الكوثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

٣ ـ قرأ أبو جعفر [إِنَّ شَانِيَكَ] في الوقف والوصل.

وحمزة في الوقف فقط وقرأ الباقون: [إِنَّ شَانِئَكَ] بتحقيق الهمزة.

❀ ❀ ❀

# (٢)
# مما رُوي بشأن هذه السورة
# وسبب نزولها

(١) روى البخاريّ في صحيحه من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة عن أنس بن مالكٍ قال: لمّا عَرَجَ النبيُّ ﷺ إلى السماء قال:

«أَتَيتُ عَلَىٰ نَهرٍ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤلُؤِ الْمُجَوَّفِ، فَقُلْتُ: مَا هَـٰذَا يَا جِبْرِيلُ؟.

قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ».

(٢) وجاء في رواية عند البخاري ومسلم عن شَرِيك بن عبد الله أنّه قال: سمعت أنس بْنَ مالِكٍ يقول (ضِمْنَ حديث الإسراء والمعراج):

«ثم مَضَىٰ بِهِ (أي: مضىٰ جبريل عليه السلام بالنبيّ ﷺ) فِي السَّمَاءِ فَإِذَا هو بِنَهرٍ آخرَ، عليه قَصْرٌ من لُؤلُؤٍ وَزَبَرْجَد، فَضَرَبَ يَدَهُ، فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ أَذْفَرُ[١]، قال: ما هذا يا جِبْرِيلُ، قال:

هَذَا هُوَ الكَوْثَرُ الَّذِي خَبَّأَ لَكَ رَبُّكَ».

(٣) وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال: أغفىٰ رسول اللّهِ ﷺ إغفاءةً، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُبْتَسِماً، إمَّا قَالَ لَهُمْ، وإمَّا قالُواله: لِمَ ضَحِكْتَ، فقال رسولُ الله ﷺ:

«إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ» فَقَرَأَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» حتَّىٰ خَتَمَهَا، فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟».

قالوا: اللّهُ ورسولُه أعلم. قال:

«هُوَ نَهرٌ أعْطَانِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الجنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ الكَوَاكِبِ، يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ[٢]، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

(٤) وذكر ابن كثير في تفسيره، أنّ الرّوايات الّتي تضمَّنَتْ أنَّ الكَوْثَر نَهرٌ في الجنَّةِ أعطاه اللّه رسولَهُ محمّداً ﷺ، قد جاءت من طُرُقٍ كثيرة مُتَوَاتِرَةٍ تُفِيدُ القطع عند كثير من المحدّثين، وكذلك أحاديث الحوض.

---

(١) مِسْكٌ أَذْفَرُ: أي: طيّب الرائحة بالغ بطيبه حدّ الغاية.

(٢) يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ: أي: يُنْتَزَعُ ويُبْعَدُ عنه فلا يُسْمَحُ لَهُ بأنْ يَرِد مع الواردين، أو هو يَخْتَلِجُ: أي: يَنْكَمِشُ ويَبْتَعِدُ لأنه ليس من أهل الورود.

وقال: وَقَدْ وَرَدَ في صِفَةِ الحوْضِ يوم القيامة، أَنَّهُ يَشْخُبُ فيه ميزَابَانِ من السَّماء من نَهرِ الْكَوْثَر، وأنَّ آنيَتَهُ عدد نجوم السماء.

(٥) ورُوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ فقالَ رسُولُ الله ﷺ.

«الكَوْثَرُ نَهرٌ فِي الجنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، يَجْرِي عَلَىٰ الدُّرِّ والْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، ومَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ».

(٦) وأخرج الْبَزَّار وابْنُ جَرِيرٍ وابْنُ أَبي حَاتِمٍ وابْنُ مَرْدَوَيْهِ عن ابن عبّاس قال: قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ مَكَّةَ (وهو من عظماء اليهود) فقالت له قريش: أَنتَ خَيْرُ أهل المدينة وسيِّدُهم، أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ هٰذَا الصَّابِئِ المُنْتَبر من قومِه يَزْعُمُ أَنَّه خَيْرٌ مِنَّا، ونَحْنُ أهلُ الحجيج وأَهْلُ السِّقَاية وأهْلُ السِّدَانة، قال: أَنْتُم خَيْرٌ مِنْهُ، فنَزَلَت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾..

(٧) وأخرج الطبراني وابْنُ مَرْدَوَيْه عن أبي أَيُّوب قال: لمَّا مات إبراهيم ابن رسول الله، مَشَىٰ المشركون بعضُهُمْ إلى بعْضٍ فقالوا: إِنَّ هذا الصابئ قَدْ بُتِرَ اللّيلَةَ، فأنزَل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾.

(٨) وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبِيّ عن أبي صالح عن ابْنِ عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم ثم زينب، ثُمَّ عبد الله، ثمّ أم كلثوم، ثمّ فاطمة، ثمّ رُقيَّة، فمات القاسم، وهو أوَّلُ ميّتٍ من أهله وولده بمكة، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهميّ قد انقطع نَسْلُه فهو أَبْتَرُ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾.

(٩) ورُوِيَ عَنْ شَمَّرِ بْنِ عَطِيَّةَ، أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ أَبي مُعَيْطٍ كان يقول: إنَّهُ لاَ يَبْقَىٰ لمحمَّدٍ وَلَدٌ ذَكَرٌ، وهُو أَبْتَرُ.

❁ ❁ ❁

## (٣)
# موضوع السورة

ظاهرٌ أنّ موضوع سورة (الكوثر) هو الامتنان من اللّه عزّ وجلّ على رسوله بما أعطاه من خَيْرٍ كثير جدّاً، وتَكْليفُه أن يعبُد ربّه وحْدَه لا شريك لَهُ في صلاتِه ونُسُكه، والدفاعُ عنه ضدّ بعض مقالات شانئيه فيه، ضِمْن سلسلة قذائفهم الإعلاميّة.

يرى مشركو مكة وغيْرُهم من العرب أنّ الرجُلَ الذي لا يَبْقَىٰ لَهُ من صُلْبِهِ وَلَدٌ ذكرٌ هو أَبْتَرُ، أي: هو مقطوع الأَثَر من الخيْر.

وقد أَطْلَقَ بعضُ المشركين ومنهم أبو جَهْلٍ والعاص بن وائل السَّهْميّ على الرسُول ﷺ أنّه أبتر لمّا مات ولده القاسم، ثُمّ ولدُهُ عبد الله، وكانَ لهذه القذيفة الإعلاميّةِ أَثَرٌ غَيْرُ حَسَنٍ في نفس الرسول ﷺ، فنزلت سورة (الكوثر) تُبَيِّنُ له ولمطْلِقي المقالة المشعرة بعَدَم عناية اللّه به، أنّ اللّه عزّ وجلّ مُعْتَنٍ به عِنَايةَ عظيمةَ جِدّاً، وأنّه قَدْ تَفَضّل عليه بخير كثيرٍ جدّاً أعظم من إبقاء ولَدٍ ذكر له يبلغ مبلغ الرجال، وهذا يتضمَّن أنّ الحكمة الرَّبّانيّة اقتضَتْ أن يجعله الله مُنجِباً للذكور، واقتضت أن لا يبقي له ولداً ذكراً يظلُّ حيّاً حتَّىٰ يبلغ مَبْلَغ الرجال.

ومن هذا الخير الكثير الذي أعطاه الله لرسوله نَهَرٌ في الجنَّةِ حافَّتَاهُ من ذهب، وعلى جانبيه قبابُ اللُّؤلؤ المجوّف كما جاء في بعض الروايات، وهو يجري على الدرّ والياقوت والمرجان واللُّؤلؤ، وتُرْبَتُه أَطْيَبُ من ريح المسْكِ الأذفر، وماؤه أشدّ بياضاً من اللَّبَن، وأحلَىٰ من الْعَسَل، وهذا النَّهر يُمِدُّ الحوضَ الذي خصَّ اللّه به رسوله في موقف الحشر، ومن شرب من هذا الحوض فإنّه لا يظمأُ بعد ذلك أبداً.

ومن هذا الخيْرِ الكثير النُّبُوّة العظيمة، والرسالة الخاتمة، والقرآن

المجيد، ورفع ذكره، وما خصّه اللّه به من شفاعة في موقف الحساب، وما خصّه به من الإسراء والمعراج، وطائفة من المعجزات الباهرات، وإنّ أمّتَهُ أكثر الأمم وخَيْرُها، إذْ هي الأمّة المصطفاة التي أورثها اللّه الكتاب، وجعلها أمّةً وسطاً عدولاً يشهَدُونَ على النّاسِ يوْمَ الدين بأنّهم بلّغوا رسالة ربّهِم خاتمة رسالاته للناس أجمعين، فقال اللّهُ له: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾.

ولمّا كان المشركون يتقرّبون إلى شركائهم في دعائهم وصلواتهم إذا صَلَّوا، ويتقرّبون إلى أوثانهم فيما يذبحون أو ينحرون من أنعام، كان من الحكمة أن يأمُرَ اللّهُ رَسُولَه بأنْ يتقرَّب إلى اللّه ربّه وحْدَهُ في صلاته التي تشتمل على الدعاء، وفي نُسُكه الذي يُعْتَبَرُ نَحْرُ الإبِل أفضل صُوَرِهِ عند العرب، تحقيقاً لعبوديّته لرَبّه، وقياماً ببَعْضِ ما يجب عليه من شكْرٍ له، فقال اللّهُ له: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ أي: وانحَرْ نُسُكَكَ من الإبلِ لربِّكَ.

وجاء في السورة الرّدّ على مَنْ أطْلَقَ عبارة أنّ محمّداً ﷺ أبْتَرُ، بِأَنّ شانئه (أي: مُبْغِضَه) هو الأبْتَرُ، أي: الأقْطَعُ من كُلِّ خَيْرٍ، لأنّه صائِرٌ إلى عذابٍ شديدٍ في نَارِ جهنّم، وبذلك يكون هو الخاسر، لِخَسَارَتِهِ سعادته، وتحَمُّلِه شقاءً أبَدِيّاً، فقال اللّه عزّ وجلّ له: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## سلسلة القذائف الإعلاميّة الموجّهة ضد الرسول من بذء التنزيل حتى نزول سورة (الكوثر)

لدى متابعة القذائف الإعلاميّة، التي وجّهها المشركون ضدّ الرسول محمّد ﷺ، منذ بدْءِ التنزيل حتّى نزول سورة (الكوثر) يظهر لنا ما يلي:

(١) اتَّهَمَ بعض المشركين الرسول بالكذب في ادّعائه النبوة والرسالة، وزعموا أنّ القرآن الذي ينزل عليه سحرٌ يُؤثَرُ، وكان الوليد بن المغيرة

حامل لواء هذه المقولة، فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلّ بشأنه في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) قوله:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

(٢) ثمّ اتّهم بعض كبراء مشركي مكة الرسول ﷺ بالجنون، فأنزل اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) ما يدحَضُ هذا الاتّهام، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

وخاطبهُ معرّفاً بأن المجنون هو في فريق متّهميه بالجنون فقال تعالى:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾.

دون تعيين ذلك المجنون فيهم لحكمةٍ تربويّة.

(٣) ثُمَّ وَاجَهَهُ عَمُّه «أبو لهب» وامرأته «أمّ جميل» بالشتيمة والنميمة والأذىٰ، فأنزل الله عزّ وجلّ عليه سورة (المسَدِ/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول) فقال تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾.

(٤) ثُمَّ أَصرَّ بعضُ المشركين على شتيمتِهِمْ للرسول ﷺ بالجنون، فأنزل الله عزّ وجلّ قولَهُ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) مواجهاً لهم بالخطاب:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

(٥) ثم أشاع بعض المشركين أَنَّ ربَّه قد هجره وقَلَاهُ، بسبب انقطاع الوحي عنه أيّاماً معدودات، فأنزل اللّه عزّ وجلّ عليه قوله في سورة (الضحىٰ/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول):

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾.

فواسَىٰ اللّه رسوله، وأرضَىٰ نَفْسَهُ وقَلْبَهُ، وأغاظَ بالتَّعرِيضِ أَعْدَاءه.

(٦) ثُمّ استَغَلَّ بعضُ المشركينَ موْتَ ولديه الذكرين القاسِمَ وعَبْدَ اللّه، فأطْلَقُوا أنَّهُ أبْتَرُ، أي: مقطوع من الأولاد الذكور من صُلْبه، فهو بسبب ذلك مقطوعٌ من الْخَيْر، فأنزل اللَّهُ عزّ وجل عليه سورة (الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول):

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾.

## (٥)
## التدبُّر التحليلي لآيات سورة (الكوثر)

قولُ اللّه عزّ وجلَّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

- ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾.

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾: جاء في هذه الجملة استعمال ضمير المتكلّم العظيم، للإشعار بأنّ ما أعطاه الله لرسوله عظيم يناسب عظمة المتكلّم العظيم جلّ جلاله.

**أعطيناك**: أي: وَهَبْنَاكَ وَجعَلْنَا لَكَ. يُقَالُ لُغَةً: أعْطَىٰ فُلَانٌ فُلاناً الشَّيْءَ، أي: ناوَلَهُ إيَّاهُ فتناوله. وهذا الإعْطَاءُ قَدْ يكونُ على سبيلِ الهِبَةِ والمِنَّةِ، تمليكاً

أو تمكيناً من الانتفاع، وقد يكونُ في المادّيات، وقد يكون في المعنويّات، وعطاء اللّه لعباده من الخير هو دائماً هبَةٌ وامْتِنَان، وجودٌ وإحسان.

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: على وزن «فَوْعَل» من الكثرة، والواو زائدة، لإفادة التكثير والمبالغة، ومعنى «الكوثر» في اللّغة الخيْر الكثير، والكثير جدّاً من كلّ شيءٍ، يقال لغة: **تَكَوْثَرَ الْغُبَارُ**، أي: كَثُرَ كَثْرَةً زائدة. ويقال: **رجُلٌ كَوْثَرٌ**، أي: كثير العطاء والخير. **والكَوْثَرُ**: السّيّد الكثير الخيْر.

وصَحَّ في السُّنَة كما سبق بيانه في المقدّمات تَفْسِيرُ الكوثر في هذه الآية بالنَّهَرِ الّذي أعطاه اللّهُ رَسُولَهُ في الجنَّة، وهو الذي يُمِدُّ حوضَه الذي تَشْرَبُ مِنْهُ أمَّتُهُ في موقف الحشر، كما سبَقَ بيانه.

ويدخل في عموم الكوثر مع نَهْرِ الكوثر الذي أعطاه الله رسوله في الجنة، كلُّ خير كثير أعطاه اللّه إيّاه، كالنبّوة العظيمة، والرسالة الخاتمة، والقرآن المجيد، ورفع ذكْرِه، وما خصّه به من خصائص سبق بيان بعضها في المقدّمات، وهذا ما ذهب إليه ابْنُ عبَّاسٍ في بعض ما رُوي عنه، وهو لا يتعارض مع ما جاء في البيان النبويّ، لأنّ البيانات النبويَّةَ في التفسير قد تذكر بعض أفراد اللّفظ العامّ، ولا يُرادُ بها الْحَصْر، فيبقَىٰ اللّفْظ العامّ شاملاً لعُمُوم الأفراد الّتي يَنْطَبِقُ عليها، ومنها وبالدرجة الأولى ما جاء في بيان الرسول.

واختلفت أقوال المفسرين في المراد بالكَوْثر، فذكر بعضهم حوض النبيّ ﷺ في الموقف، وذكر بعضهم النبوّة، وذكر بعضهم القرآن، وذكر بعضهم غير ذلك، لكنّ هذه الأقوال تندرج تَحْتَ عُمومِ كلّ خَيْرٍ كثير أعطاه اللّه رسوله محمّداً ﷺ.

وقد جاء في الآية تأكيد الخبر بمؤكدين: حرف التأكيد (إنّ) والجملة الاسميّة لدفع مقولة مُبْغضي الرسول ﷺ، ولتسلية الرسول.

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾:

«الفاء» في ﴿فَصَلِّ﴾ سببيَّةٌ غير عاطفة كما ذكر ابن هشام في كتابه: «مغني اللّبيب»[١].

**فصَلِّ**: الصلاةُ هي العبادة المخصوصة التي فيها قيام وركوع وسجود ودعاءٌ وذكر. قال ابن الأثير: وأصلها الدُّعاء في اللغة، فسمِّيَتْ ببعض أجزائها.

وقال ابن الأعرابي: الصلاة من اللّه رحمة، ومن المخلوقين الملائكة والإنسِ والجنّ القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح، والصلاة من الطير التسبيح.

وجاء في كتب اللّغة: أنّ الصلاة الدعاء والاستغفار، والعبادة المخصوصة التي فيها قيام وركوع وسجود وتلاوات وذكر ودعاء.

وكلُّ صلاةٍ لغير اللّهِ عزَّ وجَلّ هي من الشِّرْكِ الذي لا يغفر اللّه عزّ وجلَّ لمن مات عليه دون توبة، بإيمان صادقٍ صحيح.

ولهذا أمر اللّه رسولَهُ محمّداً الذي هو أول المؤمنين المسلمين من الأمَّةِ الخاتمة، بأنْ يُصَلِّيَ لِرَبِّهِ لا يُشْرِكُ به أحداً، في العبادة المخصوصة، أو في الدعاء، أو في الذكر، أو في الاستغفار، أو في التسبيح.

وأمَرَهُ بأَنْ يكونَ نُسُكُهُ بذبح ذبائح الهدي، أو الأضاحي، أو النذور وسائر ما يُتقرّبُ به من الأنعام عن طريق الذبح أو النَّحْرِ، للّه وحده لا شريك له.

---

(١) قال: وتأتي الفاء للسببيّة المحضة دون أن تكون عاطفة مثل: [إنَّا أعطيناك الكوثر فصَلِّ لِرَبّك وانحر] ونحو «ائتني فإنّي أكرمك». قال: إذ لا يُعْطَفُ الإنشاء على الخبر ولا العكس، ولا يحْسُنُ إسقاطها ليَسْهُل دعوى زيادتها.

**النَّحْرُ**: طريقَةُ الذَّبحِ الخاصّةُ بالإبل، ولمّا كانت الإبل أكرم الأموال عند العرب، وكان تقديمُهَا للّه عزَّ وجلّ أفْضَلَ صُوَرِ النُسُكِ، كَانَ الأمْرُ بالنَّحْر أَمْراً بأفْضَلِ صُور النُسُكِ الَّتي تُقَدَّم قَرَابِينَ، ويُلْحَقُ بالنحْرِ ذبْحُ سَائِرِ الأَنْعَام من بقَرٍ وغنم، أي: فَصَلِّ لِرَبِّك وانْحَرْ واذْبح لربّك.

مع ما في لفظ «وانْحَرْ» من تطابُقِ رُؤوس الآيات بحرْفِ الراء، مع الاتفاق في الوزن، فيما يُسمَّى بالسَّجْعِ المتوازي، عند علماء البديع، وهو في السورة سجْعٌ غيْرُ متكلّف.

وقد كان المشركون يُصَلُّون بالدُّعاء والتعظيم، ويتقربُون بالقرابين لشركائهم الّتي يتخذون لها أمثلة من الأوثان، فناسَبَ ذلِكَ الْبَدْءُ بتغيير هذه العادة الشركيّة في تعليمات اللّه لرسوله ولسائر المؤمنين بأن تكون صلاتُهُمْ وأنساكهم للّه ربِّهِمْ.

واختير الاسم الظاهر بدل الضمير وهو لفظ «ربّ» في ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ للإشعار بأنّ من له صفَةُ الرُّبُوبيَّة الّتي لا يُشاركه فيها أحد هو المستحقّ وحده بأنْ تكون له الصلاة والنُسك، فأغْنَىٰ هذا المعنىٰ عن استعمال صيغة من صيغ الحصر، للدلالة على وجوب إفراد اللّه عزّ وجَلّ بالصلاة والنُسك.

كما جاء في قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾.

**النُسك**: يُطْلَقُ في اللّغة على الذبيحة الّتي يُتَقَرَّبُ بها إلى المعْبُود. ويُطْلَق على كلّ تَزَهُّدٍ وتَعَبُّد.

**وأنا أول المسْلمين**: أي: وأنا أوّل المستسلمين لأوامر الله، المطيعين الممتثلين.

قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾:

﴿شَانِئَكَ﴾: أي: مُبْغِضَكَ، يُقَالُ لُغَةً: شَنَأَهُ يَشْنَؤُهُ شنْئاً، أي: أبْغَضَهُ وتَجَنَّبَهُ، فَهُو شانِئٌ لَهُ. ويُقَالُ: تَشانَؤُوا، إذا تَبَاغضوا.

**الأَبْتَرُ**: هو الأقْطَعُ مِنْ كلّ خير. وكلُّ أمْرٍ انقطع أَثَرُهُ من الخير فهو أبْتر. والأَبْتَرُ الّذِي لا عَقِبَ له، والْمُعْدِمُ، والخاسر، والذي ليس له ولَدٌ ذَكَرٌ يَبْلُغَ مَبْلَغَ الرّجال يكون مُعِيناً له وقوة وسنداً.

وقد جاءت هذه الآيَةُ تسليَةً للرَّسُولِ محمّد ﷺ، ودفاعاً عنه، وردّاً لمقالة من قال من المشركين: مُحَمَّدٌ أَبْتَرُ لا يعيشُ له ولد ذكر، بعد أن مات ولداه القاسم وعبد الله، كما سبق بيانه في المقدمات.

وجاء في الآية استخدام لفظ (الأبتر) بمعنى المقطوع من كلِّ خير، لا بمعنى الذي ليس له ولَدٌ ذكر يبلُغُ مَبْلغَ الرّجال ويكون مُعيناً له وقوةً وسَنداً، وهو دفاعٌ أشدُّ وأقوى من الهجوم، مع استخدام اللفظ نفسه الذي أطلقه مبغضو الرسول ﷺ.

وقد جاء في هذه الآية تأكيد الخبر الذي تضمَّنَته بمؤكدات ثلاثة: حرف التأكيد «إنّ» والجملة الاسميّة وضمير الفصل.

وفي الآية قَصْرُ قلْبٍ، أي: ليس محمَّدٌ أَبْتَرَ إذْ لَمْ يُبْقِ اللّه له ولداً ذكراً يَبْلُغ مَبْلَغَ الرجال، فاللّه قد أيَّدَهُ بنصره وبالمؤمنين، ولحكمةٍ عظيمة أَمَاتَ أولادَه قبل أن يبلغوا أن يكونوا رجالاً، ولكنَّ مُبْغِضَهُ هو الأَبْتَرُ المقطوعُ الأثر من كلِّ خير، والخالد في الشقاء الأبديّ بسبب كفره..

أي: فليس الأبتر في الحقيقة من لا عقب له، ولا من ليس له ولَدٌ يبقَىٰ حتَّىٰ يكون رجلاً يشدُّ أزر أبيه، إنّما الأبتر هو من لا عقب له من الخير عند الله عزّ وجل في آخرته يوم الدين.

فمبغض الرسول ﷺ هو في الحقيقة أبتر، وقد جاء هذا البيان الرّباني بصيغة قَضِيَّة عامّة، يدخل في عمومها الذين شنَّعُوا على الرسول ﷺ بأنّه أبتر. ونفهم من هذا أنّ من يُبْغِض الرسول محمّداً ﷺ في كلّ عصر وفي كلّ مصر هو أبتر عند الله عزّ وجلّ، منقطع الخير، ذو عاقبة وخيمة.

فمن نزَعَتْ نفسه إلى أَنْ يكون من مبغضي رسول الله ﷺ، فليترَقّبْ أن يَجْعَلَهُ اللّٰهُ أبتر منقطع الخير، والعياذ باللّٰه عزّ وجل.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ من البديع محسِّن استخدام لفظ «الأبتر» بمعنىً غير المعنى الذي أطلقه بعض المشركين، وطريقه هنا القصر، الذي تضمن إبطال قول المشركين، وردّ اللفظ بمعنى آخر أشنَع من المعنى الذي قصدوه، وهذا أحد طُرق الاستخدام، كما ذكره بعض المحققين من البلاغيين.

❁ ❁ ❁

# سورة التكاثر

١٠٢ مصحف ١٦ نزول

# (١)

# نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات

## سورة التكاثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ
﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ
ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ
لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ
يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

٦ - قرأ ابن عامر والكسائي [لَتُرَوُنَّ] بضم التاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَتَرَوُنَّ] بفتح التاء.

والقراءتان متكاملتان في المعنى، إذْ هُمْ يُرَوْنَها، فَيَرَوْنَها.

❀ ❀ ❀

## (٢)
## مما رُوِي بشأن هذه السورة

(١) روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عبد الله بن الشخّير عن أبيه، قال: انْتَهيْتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إلاَّ ما أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ؟». [ورواه مسلم، والترمذيّ، والنَّسائي].

## (٣)
## موضوع السورة ودروسها

يدور موضوع هذه السورة حول بيان العلَّة النفسيّة، الّتي جعلت الكافرين يستَبْعِدون عن أجهزة التَّفكُّرِ فيهم التَّفكُّرَ بيَوْم الدِّين، وما فيه من عقابٍ ملازمٍ في الجحيم للكافرين المجرمين، وما فيه من نَعِيم مقيم في جنَّاتِ النَّعِيم للمؤمنين المتّقين.

إنَّها علَّة التَّلَهِّي بالتكاثر من الأموال ومن لذّاتِ الحَياة الدنيا وزينَتِها ومتاعِهَا الفاني، والكَدْحِ لامتلاكِ أكثَرِ وأعْظَم مقدارٍ من الأموال، والقصور، والمراكب، والحرث والجنّات والبساتين، والاستحواذِ على أكثر وأعظم مقْدارٍ من الْجُنْدِ والأنصار والأعوان والخدَمِ ووسائل الرفاهية والقوّة.

وكلُّ كادحٍ مِنْهم يُلْهِيهِ عن الآخرة تكاثُرٌ علَىٰ قَدْرِه، ويتنافس الكافرون فيما بيْنَهُمْ في هٰذا التكاثر، ويظلُّ الواحد منهم كذلك كادحاً لاهِثاً حتَّىٰ تأْتِيَهُ مَنِيَّتُهُ، ويسْتَقْبِلَ حِسَابَه وفصْلَ القضاء بشأنه، ويُلاَقِيَ جزاءَه يوْمَ الدّين.

وعند مَوْته يعْلَم مَصِيرَه في الجحيم عِلْمَ اليقين، إذْ ينكشف له منزله فيها، ثُمَّ يَراه رؤيا الْعَيْن حينَ يُحْشَر إلى جهة النار في موقف الحشر، ثمّ يَرَاه رؤيا الإحساس بالعذاب في الجحيم حينَ يُلْقَىٰ فيها، إذْ يكونُ إدراكه لها عيْنَ اليقين وحقَّ اليقين. ثُمَّ يُسْأَلُ وهو في الجحيم عن النعيم في الجنّة

الذي كان يُنكِرُه ولاَ يَغْبأُ به في الدنيا، فيُقَالُ لَهُ: أليس نعيمُ الآخرة في الجنّةِ حقًّا؟ فيقول: بلى.

وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أنّ أصْحَاب النار يُنادُون أصْحَابَ الجنّةِ أنْ أفيضوا علينا من الماء أو مِمّا رزقكم الله، وأنّ أصْحَابَ الجنّة يقولُون لهم: إنَّ اللَّهَ حرَّمَهُمَا علَىٰ الكافرين الّذين اتَّخَذُوا دينَهُمْ لَهْواً ولِعباً، وغَرَّتْهُمْ الحيَاةُ الدُّنيا.

ويُلاحَظُ من عُمُوم ما جاء في السورة، مع النظر إلى بعض التوجيهات النبويّة أنّ صفة التَّلَهِي بالتكاثر من متاع الحياة الدنيا، تؤثّر في مداها الأقْصَىٰ علَىٰ سُلُوك الإنسان حتَّىٰ تُفْضِيَ به إلَىٰ الكُفْر، وتُؤَثِّرُ أيضاً على سلوك المؤمن تأثيراً قد يَصِل به إلى ارتكاب المعاصي والموبقات هبوطاً في دركاتها إلى ما قَبْلَ دَرَكَة الكفر.

فالتَّلْويمُ على صفة التَّلَهِي بالتَّكاثر، والتَّحذِيرُ منْها يتناول في السورة الكافرين أوّلاً، لأنّهم هم المخاطبون بما جاء فيها، ثم يتناول أيْضاً بإيحَاءَاتِ ظلالِ السُّورة المؤمنينَ الذين قَدْ يقَعُ منهم وهم في دائرة الإيمان والإسلام، نَظِيرُ ما يَقَعُ من الكافرين وهم في حضيض أودية الكفر.

فقد نجد مؤمنين مسلمين كثيرين يُلْهِيهُم التَّكاثُرُ من متاع الحياة الدنيا، فَيُنْسِيهم كثيراً من واجباتهم تجاه ربّهم، ويجعلهم يقعون في الغَفَلات، ويَرْتكبون المعاصِيَ والآثام حتّى دركاتِ الكبائر، لكنّهم قد لا يَصِلُونَ إلى حضيض الكفر، ومن وصَلَ منهم إلى الكفر صار من زُمْرَة الّذِين يتناولهم ما جاء في السُّورة تناوُلاً أوّليًا.

ونَظِيرُ صِفَةِ الالْتِهَاءِ بالتّكاثر من متاع الحياة الدنيا، سائِرُ الصِّفَات النفسيَّة والسُّلُوكيَّة الّتي كانت السَّبب في إسقاط الكافرين في مهاوي الكفر، فقد تُسْقِطُ هذه الصِّفَاتُ نفْسُها المؤمنين المسلمين في مهاوي المعاصي والآثام حتَّىٰ الكبائر من دون دَرَكَةِ الكفر.

فليحذر المؤمنون من التلهِّي بالتكاثر من متاع الحياة الدنيا وزينتها.

وهذه السورة تشتمل على درسين:

**الدرس الأول**: قولُ الله عزّ وجلّ فيها: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

**الدرس الثاني**: قول الله عزّ وجلّ فيها: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبُّر التحليلي لآيات الدرس الأول من سورة التكاثر

### الآيتان (١ ـ ٢)

قول الله عزّ وجلّ خطاباً للكافرين في منطوق النصّ، وتتناول ظلالٌ منه بعض المؤمنين:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾:

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: الخطابُ في منطوق اللّفظ مُوجَّهٌ للكافرين، لأنهم هم الذين يَرَوْن الجحيم يوْمَ الدّين رُؤْيا عَيْنِ اليقين، إذْ يكونون مَعذَّبين بنارها، وهم الّذين يُسْأَلُونَ بَعْدَ ذَلِكَ عن النّعيم الذي حُرِمُوا منه بسبب كفرهم، إلاّ أنّه يتناول بظلاله بعض المؤمنين، وهم الذين يُلْهيهم التكاثر.

**أَلْهَاكم**: أي: شَغَلكم وصَرفَكم عن التفكُّر فيما هو سَبَبُ سعادتكم، فكفَرْتُمْ بيَوْمِ الدّين، الّذي جاءكم به الخبرُ عن ربّ العالمين، على لسان الرسول الأمين.

يقال لغة: ألْهاه، أي: شَغَلَهُ. ويُقال: لَهَا يَلْهُو لَهْواً، والْتَهَىٰ يَلْتَهِي الْتِهَاءً. وتَلَهَّىٰ يَتَلَهَّىٰ تَلَهِّياً، أي: تَشاغل.

**واللَّهْوُ**: الاشتغالُ بأمْرٍ غَيْرِ ذي شأن والانصرافُ به عمَّا يَجِبُ توجيه الْجَهْد والْعَمَلِ له، كالاشتغال بما لا حاجة له من زينة الحياة الدنيا عن العمل للآخرة.

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: تفاعُلٌ من الكثرة، ولهذه الصيغة معاني تُقْصَدُ بها، ومعناها هنا حُصُولُ الكثرة فالكثرة بتَتَابُعٍ متدرّجٍ دون توقُّفٍ عند حدّ.

والتكاثر المحَبَّبُ للناس والمزيّن لهم هو التكاثر في الأموال والأولاد، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) يعظ المؤمنين:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

فالتكاثُرُ في الأموال على اختلاف أنواعها وأصنافها، والتّكاثُرُ في الأولاد ويُلْحَقُ بهم الأعوان والأنصار لتحقيق العِزَّة والمجدِ من أعظم الملْهِيَات عن الاشتغال للآخرة والسعادة الأبدية فيها، وقرينة الحديث عن الآخرة في السورة دلَّتْ على أنّ التكاثُر من أمور دُنيَاهم الفانية قد ألهاهم عن أمور آخرتهم الباقية الخالدة.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ **حَتَّىٰ**: هُنَا حرفُ عطفٍ يدُلُّ على انتهاء الغاية، أي: استمرَّ إلْهَاءُ التكاثر لكم حتَّىٰ ابتداء زيارتكم المقابر.

**زُرتُمُ المقابر**: أي: صِرْتُم مَوْتَىٰ مُهَيئين للدفن في المقابر بصفة زائرين زيارة مؤقتة.

فالمرادُ بزيارة المقابر مَوْتُهم، وتهيُّؤ أجْسَادِهم للدَّفن في المقابر، وعبارةُ: ﴿زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ كنايةٌ عَنِ الموْت، وتضمَّنَتْ هٰذِه الكناية بالإضافة إلى الدَّلالة على الموتِ الدَّلاَلَةَ على الْبَعْثِ بَعْد الموت، باسْتِعْمَال فعل: «زُرْتُمْ» الذي يَدُلُّ على الحضور المؤقَّت والّذي يَنْتَهي بالبعْثِ إلى الحياة الأخرى، والانتقال إلى الدَّار الآخرة، لأنَّ من يَزُورُ مكاناً يحضُرُ فيه حُضوراً مؤقَّتاً، ويَنصرِفُ بعْدَه عنه إلى مكان إقامته، وكذلك من يَزُور إنْسَاناً يَمُرُّ به، أو يحْضُرُ عنده، بصفَةٍ مؤقَّتة لا بصفةٍ دائمة، وتضمَّنَتْ التوجيه لدفن موتى الناس في القبور إذ هو من محاسن الأمور.

فجاء في هذه الكناية البديعة، إدْمَاجُ الدّلالة على معنى البعث في الدَّلالة على معنى الموت، وإدماج التوجيه الحميد لدفن موتى الناس في المقابر، تكريماً لأجسادهم، ورعايةً لصحّة الأحياء من الناس.

رَوىٰ ابن أبي حاتم بسَنَده عن ميمون بن مهران، قال: كنْتُ جالساً عند عُمَر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ فلَبِثَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قالَ: يَا مَيْمونُ، ما أرَىٰ المقابِرَ إلاَّ زيارةً ومَا للزَّائِرِ بُدٌّ مِنْ أن يَرْجِعَ إلى مَنْزِلِهِ.

وجاء عند ابن كثير في تفسيره أنَّ بعْضَ الأعراب سَمِعَ رجُلاً يَتْلُو قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ فقال: بُعِثَ الْقَوْمُ وَرَبِّ الكعْبَة.

وأصْلُ معنى القبر: الدفن في الأرض، يقال لغة: قَبَرَ فلانٌ الميّتَ إذا دفنه.

## التكاثُر الملْهِي من الفانيات، الصارِفُ عَنِ العمل للنّعيم الخالد

كُلُّ ما يزيد عن حاجة الإنسان، وحاجةِ أُسْرَته في الحياة، بدافع الرغبة في التكاثُر من زينة الحياة الدُّنيا ومتاعها وأموالها، فإنْفَاقُ الوقْتِ فيه من التَّلَهِّي عمّا يَنْبَغِي للإنسان أن يغتنم منْهُ ثواباً عظيماً في نعيم مقيم.

فالْعَمَلُ ابتغاء التكاثُر من زينة الحياة الدُّنيا، دون حاجة الحياة إلى الزائد، هو لَهْوٌ بما لا خَيْرَ فيه للمتكاثر، ولا نفْعَ له منه، وانْصِرَافٌ عَمّا هو لَهُ خَيْرٌ وأعْظَمُ وأجَلُّ في آجِلِ أمْرِه، وقد يكُونُ لَهواً أيْضاً عَمَّا هو خيرٌ لَهُ في عاجلِ أمْرِه، كَصَلاح البَالِ، وطُمَأْنينة القَلْب، وراحَةِ الضمير، ورضا النفس، والاستمتاع بما أعطاه الله ويسَّر له من مُتَعِ الحياة الدُّنيا، مع القناعةِ بأنَّهُ الخير له والأفضل، إذْ هو المختارُ له بقضاء الله وقدره.

فكَمْ من كادٍّ كادحٍ مُسْتكْثرٍ من جَمْعِ الأموال، واقتناء تُحَفِ الدّنيا، محرومٌ من الاستمتاع بما يَجْمع في حياته، ومحرومٌ من حظِّ الآخرة عند الله في جنّاتِ النعيم، ومُضَيِّعٌ عُمْره في التَّلَهّي بما لا خيْرَ له منه، هذا إذا استطاع في جَمْعِه واقتنائه واستكثاره أنْ يسْلَم ممّا يَحْمِل به إثماً، أو يجني به جُرْماً، أو يَغْرَمَ به غُرْماً، أو يَظْلِمَ به ظُلْماً، أَوْ يُعَذِّبَ بِهِ نَفْسَهُ همًّا وغمًّا.

وكذلك الكادّون الكادحون للظفر بجاهٍ أو سلطانٍ في الأرض، والكادّون الكادحون لبناء القصور والجنّاتِ، أوْ جَمْع القناطير المقنطرة من الذهب والفضّة، أو اغْتِنَام الكَثِير من اللّذّاتِ، إنَّهُمْ يُنْفِقون أعْمَارَهم في التَّلَهّي بالتكاثر عمَّا هو لهم خيرٌ وأفْضَلُ، ممّا يُحَقّق لهم السعادة والهناء، في الدنيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دار الجزاء، دون أن يحْصُلوا من العاجل الأدنى على ما يُسْعِدهُمْ، ويورثهم الراحة والطمأنينة.

كثيرٌ من الناس يكْدَحُونَ لامْتِلاكِ أموالٍ كثيرة لا يَحْتَاجُونها في حياتهم، فلا ينفقونَها فيما هو متاعٌ لَهُم، وتحقيقٌ لمنافع ولذّات، وحريٌّ بهؤلاء أنْ يكونوا هم المملوكين لأموالهم، يُثَمِّرُونها ويحفَظُونها، لا المالكين لها، لأنَّها سَتَصِير إلَىٰ غَيْرهم. وهذا المعنى نجدُه فيما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة الأحنف بن قيس[1]، أنه رأى في يَدِ رَجُلٍ

---

(١) نقلاً عن ابن كثير في تفسيره لسُورَة التكاثر.

دِرْهماً، فقال: لِمَنْ هذا الدرهم؟. فقال الرجل: لي. فقال له الأحنف بن قيس: إنَّما هو لَكَ إذا أنفقته في أجْرٍ، أو ابتغاء شكر، وأنْشَدَ متمثلاً قول الشاعر:

أنْــتَ لِــلْــمَــالِ إذَا أمْــسَــكْــتَــهُ فَــإذَا أنْــفَــقْــتَــهُ فَــالْــمَــالُ لَــكْ

إنّ طُلَّاب الدنيا يظلُّونَ لاَهِينَ عَنِ الخيْرِ الجليل العظيم الباقي، بما يكدحون في الحياة ابتغاء التكاثر، وحين تسعفهم المقادير الرَّبّانيّة يكْرَعُون مستكثرينَ دون أن يرتَوُوا، كالظامِئ الّذي يكْرَعُ من ماءٍ مِلْحٍ أُجَاجٍ، وكالمريض الذي يشرب ولا يرتوي، ويأكُلُ ولا يشبع، ويضاعفون كدَّهم مستكثرين، رجاء أن يَصِلُوا إلى الارتواء ممّا يستكثرون من أشياء، فلا يَصِلُونَ، وتأتيهم مناياهم، فيأخُذُهُمُ الموتُ من أشيائهم الّتي اسْتكْثَرُوا منها، دون أن تكونَ سبب سعادتهم في الحياة الدنيا، ثُمَّ يَجِدُون أنفسَهم محرومين في الآخرة من الزّاد الذي كانَ علَيْهم أن يتزَوّدوا منه، ويَجِدون أنفسهم محمَّلِين بأثقالٍ من الأوزار الّتي جنَوْها طَمَعاً في التكاثُر.

إنّهم يَزُورُون مقابِرَهُمْ وقد تلَهَّوْا في حياتهم عمَّا يَنْفَعُهم فيها، بجلب نعيم أو دفع عذاب، ثمّ تَنْتَهِي زيارتُهُمْ للْقُبور بالبعْثِ إلى يوم الحساب والجزاء يوم الدين، الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا بَنُون، إنّما ينْفَعُ فيه العملُ الصالح ومَنْ أتَىٰ اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، ويومَئِذٍ يَرَوْن أنّهم قَدْ ضيَّعُوا أعمارهم في اللّهو، إنْ لم يكونوا قد ضيَّعوها في الاشتغال بحَمْلِ الأوْزار، وسلوك مسالك الفجّار.

أليسَتْ هذه الحقيقة حول أعمار الناس في الحياة الدنيا، التي ينفقونها في التَلَهِّي بالتكاثر، جَدِيرةً بأن يُنْزِل اللَّهُ عزَّ وجلَّ في بيانها سورة (التكاثر) ليبيّن فيها دافع الرغبة في التكاثر الذي يخسر به الإنْسَانُ أوقات عمره المحدود، في اشتغاله بأشياء لا خيْرَ له منها، فيُلْهِيهِ اشتغاله بها عمّا هو له

خيْرٌ من كلّ باقٍ حَمِيد جليل يناله السَّاعون للآخرة وما فيها من نعيم مقيم بعْدَ رحلة الحياة الدنيا، رحلة الابتلاء.

وإذا ربطنا فكرة سورة (التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول) بفكرة سورة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) السابقة في النزول، والتي أبان الله عزّ وجلّ فيها أنّ واقع حال الإنسان في خُسْرٍ دائم، لأنّه يُضَيّع وقته الذي هو رأسُ مَالِه مع طاقته في الحياة الدنيا، فيما لا خير له فيه، باستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر، وضَحَ لَنَا أنّ سورة (التكاثر) تُبَيِّن دافع رغبة الإنسان في التكاثر من فانيات الحياة الدُّنيا، الّذي هو أحد أسباب انغماس الإنسان في واقع الْخُسْر الدائم مع لحظات عمره، الذي جاء بيانه في سورة (العصر).

ثمّ إذا تأمَّلْنا ما جاء في سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) التي نزلت بعد سورة (العصر) وقبل سورة (التكاثر) وجَدْنا أنّها قد تحدّثت عن حُبّ الإنسان الشديد للمال، في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾:

**لحُبِّ الخير**: أي: لِحُبِّ المال، إذْ يَرَىٰ الناسُ المالَ خيراً.

ومن هذه السُّوَر الثلاث نَسْتخلص أنّ دافع حُبِّ المال حُبًّا شدِيداً، مع رغبة التكاثر منه ومن الأولاد وسائر زينة الحياة الدنيا، ومع توجيه الْجَهْدِ والطّاقة خلال مرور ساعات العمر، للجمْع من الدنيويّات الفانيات، من أعظم أسباب وقوع الإنسان في الْخُسْرِ، ما تَتَابَعَ عليه مرور العصر، الذي هو الزمن السّيّال، وعُمْرُ الإنسان مقطع سيَّالٌ منه.

وهكذا يتكامَلُ بنَاءُ الأفكار المعرفيّة في القرآن، مع مراحل التنزيل، لَبِنَةً فَلَبِنَةً، وضمْن هذا المنهج التدرُّجيّ تَتَكَامَلُ الموضوعاتُ القرآنيّةُ جامعةً كُلَّ عناصرها.

## استعمال صيغة الفعل الماضي في الآيتين دون الفعل المضارع

لمّا كانت الرغبة في التكاثر من الأموال والأولاد ونحوهما من زينة الحياة الدنيا، تُلْهِي الناس عن العمل للآخرة، وكان هذا حاصلاً في كلّ زمَنٍ من أعمارهم «الماضي والحاضر والمستقبل» كانت الصِّيغةُ الملائمة لبيان هذا الواقع صِيغةَ الفعل الماضي الدّالَّةَ على تحقُّق الحدوث والوقوع، والمتجرّدَةَ من الدَّلاَلة على الزمن.

ودلالَةُ صِيغَة الفِعْلِ الماضي على مُطْلَقِ تحقُّقِ وجود الأمر دون الدَّلاَلَة على زَمَنٍ مُعَيَّنٍ قَدْ جاء في القرآن المجيد نظائر كثيرةٌ لها، ومنها ما يلي:

- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [٤ النساء].
- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [٤ النساء].
- ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [١٧ الإسراء].
- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [١٨ الكهف].

فالمعنى: قد تحقّق فيكم أيُها الناسُ إِلْهاءُ التَّكاثُرِ لَكُمْ، طَوالَ أعْمَارِهم، عن الْعَمَلِ لما فيه سَعَادَتُكُمْ في أُخْراكُمْ، بسبب حُبّكُمُ الشديد للأموال التي تُسَمُّونها خيراً، ورغبتكم في التكاثر منها، فتقعُون دواماً في الْخُسْر، ما مَرَّ عليكم زَمَنٌ من الْعَصْرِ، فيمَا حُدِّدَ لكُمْ من عُمْر.

ويستثنى من عموم الناس الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر.

## (٥)
## التدبر التحليلي لآيات الدرس الثاني من دروس سورة التكاثر

### الآيات من (٣ ـ ٨)

قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ

ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾:

● ﴿كَلَّا﴾ في المواضع الثلاثة أداة رَدْعٍ وزَجْر. والمراد رَدْعُ وزَجْرُ المخاطبين الذين ألهاهُمُ التكاثُر عن تَلَهِّيهم الذي يصرفهم عن السّعي لسعادتهم في أُخْراهم.

● ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: **سَوْفَ**: حَرْفُ اسْتِقبالٍ مثل «السِّين» في نحو: «سَتَعْلَمُون» ويُعْجبني قول من قال من علماء العربيّة: إنّ «سَوْفَ» أوْسَعُ استقبالاً من «السّين» فقد نظرت في استعمالاَتِ «سَوْفَ» في القرآن فرأَيْتُ مُعْظَم الزَّمَنِ الّذي تشير إلَيْه ما يكُونُ يوْمَ الدِّين، أو فيها إشعارٌ بعدم إرادة تقريب زمَنِ وقوع الفعل الّذي دخَلَتْ عليه، أمّا «السِّين» الاستقبالية فمعظم استعمالاتها قد جاءت في القرآن لما هو موعودُ الوقوع في الحياة الدنيا، أو لما هو قريب الوقوع فيها، أو لما هو منزَّلٌ منزلة قريب الوقوع للتخويف والمبالغة في التحذير، ولو كان وقُوعُه مُؤَجّلاً إلى ما بعد الموت.

فالمعنى هنا: سَوْفَ تَعْلَمُونَ بعد انتهاء رحلة الحياة الدنيا أنّ ما كنتم فيه من التَّلَهّي بالتّكاثُر قد كان ضِدَّ مَصْلَحَتِكُمْ، إذْ قد جنَىٰ عليكم خَيْبَةً وخُسْراناً عظيماً، وعذاباً أليماً، دون أَنْ تَظْفَروا من دُنياكم بما فيه سعادةٌ لَكُمْ، في عاجل أمركم وآجِلِهِ.

● ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ دَلَّ حَرْف العطف «ثُمَّ» الذي يدُلُّ بوضعه اللّغوي علىٰ التَّرتيب مع التراخي على أَنَّ حصول الْعِلْم الذي جاء بيانُه في الآية الرابعة، غَيْرُ الْعِلْم الّذي جاء بيانه في الآية الثالثة من السورة، فهما عِلْمَانِ، فما هُمَا هذان الْعِلْمَان؟ وكَيْفَ يَحْصُلان؟ وهَلْ بعدهما عِلْمٌ ثالث؟

## مراتب العلم الثلاث وأدلتها:

لدى تتبّعِ النُّصوص من القرآن والسُّنَّةِ يتبيَّنُ لنا أَنّ مُنكِري عذاب النار

يوم الدين وهُمْ في رحلة الحياة الدنيا، يَتحقَّقُ لهم العلم بما كانوا له منكرين في ثلاث مراحل، وكلُّ مَرْحَلةٍ منها تقع في مرتبة من مراتب العلم:

**المرتبة الدُّنيا**: مرتَبَةُ تحقُّقِ العلم النَّفسِي، وهذا العِلْمُ يكونُ مُنْذُ مُلاَمَسَتِهم عتَبَةَ الموت، ويُرَافِقُهم طوال مَدة البرزخ، ويُسمَّى هذا العلمُ عِلْمَ اليَقين لأنّ أدلّته في نفوسهم تفيد اليقين.

**المرتبة الوسطى**: مَرْتَبَةُ العِلْمِ القائم على الشُّهود والْمُعَايَنَة، وهذا العلم يكون في موقف الحشر بعد البعث للحياة الأخرى، إذْ يُحْشَرُونَ إلى قُرْب النّار فيشاهدونها، ويسَمَّىٰ هذا العلم عَيْنَ اليقين، لمعَايَنَتِه.

**المرتبة العليا**: مرتبة العِلْم القائم على الإحساس الجسَدِيّ الكامل حين يَذُوقُون عذاب النَّار في الجحيم، فتشترِكُ كُلُّ حواسِّهِمْ في إدراك هذه الحقيقة الْعِلْمِيَّة، ويُسَمَّىٰ هذا العلم حَقَّ اليقين، لتحقّقه في الواقع تحقُّقاً تامّاً لا يحتملُ دُخُول التوهم فيه.

## من أدلّة المرتبة الدّنيا (عِلْم اليقين)

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

فحين يَشْهَدُ الظَّالِمُونَ هذا المشهد وهم في غَمَرَاتِ الْمَوْتِ، يَعْلَمون عِلْمَ اليقين أنّ ما أُنْذِرُوا به من عذاب الجحيم يوم الدين حقٌّ، ولو لَمْ يشْهَدُوه بعد.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن الكافرين المكذبين بيوم الدّين:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

إنّ الكافر لا يَطْلُبُ الرَّجْعَةَ إلَىٰ الحياة الدنيا عند موته ليَعْمَلَ صالحاً، ما لَمْ يَكُنْ قد شَهِدَ مَا يُورثُه عِلْمَ اليقين بأنّ عذاب الجحيم يَوْم الدين حقّ.

(٣) وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

هذا الواقع الذي يَشْهَدُه الكافرون عند الموْتِ وعقِبَه، يُعْطِيهِم عِلْمَ اليقين بأنَّ عذَابَ الجحيم يوْمَ الدين حقّ.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) بشأن المنافقين:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

هذا النصّ في المنافقين نظير نصّ (الأنفال) بشأن الكافرين.

(٥) وروى البخاري ومسلم عن عبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَر رضي اللّهُ عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ أَحدَكُمْ إذَا مَاتَ، عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالْغَدَاةِ والْعَشِيّ، إنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجنَّةِ، وإنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

هذا العرض بعد الموت يُعْطِي الكافر والمنافق عِلْمَ اليقين بِأَنَّ عَذَابَ الجحيم يَوْم الدّينِ حقٌّ.

والأدلّة من السُّنَةِ كثيرةٌ في هذا الموضوع.

## من أدِلَّةِ المَرْتَبَةِ الوُسْطَىٰ (عَين اليقين)

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفُرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

إنَّ الكافرين إذَا حُشِرُوا هذا الحشْرَ إلى قُرْبِ جهَنَّم يَصِلُ عِلْمُهم بأنَّ عذاب الجحيم حقٌّ إلَىٰ عَيْنِ اليقين، إذْ يشْهَدُون جَهَنّم عِيَاناً.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

إنّ إيقاف الكافرين المكذبين بعذاب جهنم على النار يعطيهم علماً بما كانوا يكذبون به هو من نوع عين اليقين.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

**إلى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُون**: أي: فهم يُجْمَعُونَ في مكانٍ قَرِيب من النّار، وأصْلُ الوَزْعِ الكَفُّ والحبْس.

إنّ أعداء اللّهِ وهُمُ الكافرون والمنافقون حين يُجْمَعُونَ هذا الْجَمْع في مكان قريب من النار، يَصِلُ علْمُهُم بأنّ عذابَ الجحيم حقٌّ إلى عَيْنِ اليقين، إذْ يَشْهَدُونَ جهَنَّم عِياناً.

## من أدلة المرتبة العليا (حقّ اليقين)

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا...﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

(٣) وقول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

وظاهر أنّ المعذَّبين فِعْلاً في جَهنَّم قد ارْتَقَىٰ عِلْمُهُم بما كانوا به يُكَذِّبون إلى مَرْتبة حَقِّ اليقين، إذْ صار اليقين العلمي حقيقة واقعةً يذوقون آلامَها بكلّ ما لديهم من حواسّ، مع حضورهم فيها، وشهودهم التامّ لكلّ ما يجري فيها.

وقد دلّ على أنّ العِلْم الذي بلغ هذه المرتبة يُسَمَّىٰ في البيان القرآنيّ حَقَّ اليقين آيتان:

**الأولى**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

فالمعذّبُون في الجحيم يَصِلُ عِلْمُهُمْ بما يَذُوقونَهُ من عذاب إلى مَرْتَبَةِ حَقِّ الْيَقِين، إذْ صَار بالنسبة إليهم حقيقةً واقعةً يذوقونها بحواسّهم، ويُدْرِكُونَها بكلّ ما لَدَيْهِم من قدرات إدراك.

**الثانية**: قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾:

أي: وحِينَ يدخُلُ المكذّبُونَ النَّارَ يَصِلُ عِلْمُهُمْ بها إلى مرتبة حَقِّ اليقين، بدليل ما جاء في النصّ السابق.

ومراتب العلم الثلاث يشير إليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿... وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

- **قول الله عزّ وجلّ**: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾:

﴿كَلَّا﴾: أداة رَدْعٍ وزجْرٍ عَلَىٰ ما سَبَق بيانه في الآيتين (٣ ـ ٤).

﴿لَوْ﴾: تأتي هذه الكلمة في اللّسان العربي لعدّة معاني: فمنها أن تكون شَرْطِيّة كأدوات الشّرط. ومنها أن تكون للتمنّي أو الترجّي وهذه لا تحتاج إلى جواب كما تحتاج الأدوات الشرطيّة إلى جواب. ومنها أنْ تكُونَ للعَرْضِ وهذه أيضاً لاَ تحتاج إلَىٰ جواب.

● أمّا الذين رَأَوْا من المفسّرين أَنّها شَرْطِيَّةٌ في هذه فقالوا: إنّ جواب الشرط محذوف، وله نظائر في القرآن المجيد، والتقدير عندهم: لَوْتَعْلَمُونَ الأَمْرَ الذي أنتم صائرون إليه عِلْمَ اليقين، لَمَا أَلْهَاكُمُ التكاثُر، ولسَعَيْتُم لآخِرَتكم سَعْياً يُحقّق لكم النجاة من عذاب الجحيم، والظَّفَرَ بجنّاتِ النّعيم.

● ويصْلُحُ في هذه الآية اعتبار «لو» للْعَرْضِ الذي هو دعوةٌ إلى أمْرٍ ما برفق، وهذه لا تحتاج إلى جواب، ويكون المعنىٰ نَعْرِضُ عليكم أَنْ تَعْلَمُوا عِلْمَ اليقين، بما لديكم من أدلّة على يوم الدين، حتى تَعْمَلُوا الصَّالِحات لآخِرَتِكُم، ولا يُلْهِيَكُمُ التكاثُر مِمّا لا خَيْرَ لَكُمْ فيه، وفي العبارة مع الْعَرْض إشعارٌ بالرغبة، أي: نرغب في أن تعلموا علم اليقين.

● أمّا معنى التّمنّي فلا يليق بجلال الرَّبّ تبارك وتعالى. ولكنْ قد يُراد بأداة «لو» التَّرَجّي، وهو طلب أمْرٍ مرغُوبٍ فيه، وهذا المعنى مقبولٌ، لأنّ الله جلّ جلاله يَرْضى لعباده الإيمان، ولا يرضى لهم الكفر، فهو يطلب من عباده الكافرين أن يكونوا مؤمنين بيوم الدِّين، لأنّ إيمانهم ممّا رَضِيَه الله لهم، فهو يَرْغب فيه، ويأمُرهم به، ولا يُجْبِرُهم ولا يُكْرِهُهم، بل يُكَلّفهم أن يكون إيمانهم عن طريق اختيارهم الحرّ.

﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾: مفعولٌ مطلق لبيان نوع العلم. **اليقين**: مضافٌ إليه.

**واليَقِينُ**: هو العلْمُ الذي لا شَكَّ فيه، وأدنى مراتبه ما اعتمد على أدلّة نظريّة أو خَبَرِيّة صادقة. **والْعِلْم**: يُطْلق على ما هو يقين وعلى ما هو دون اليقين، كالعلم المبنيّ على دليلٍ ظَنّي.

● **قول الله عز وجلّ**: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾:

﴿لَتَرَوُنَّ﴾: اللام واقعة في جواب قَسَمٍ مُقَدَّر، والنُّونُ في آخر الفعل هي نون التوكيد الثقيلة، وهذا التوكيد واجب، لأنّ الفعل جاء مُثْبتاً

مستقبلاً، جواباً لقَسَمٍ غير مفصول عن لامه تقديراً. والرُّؤيةُ المرادة هنا الرؤيَة البصرية.

﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: اسم من أسماء دار العذاب يوم الدين، وكلُّ نارِ عظيمة في مَهْواةٍ يقال لها في اللّغة جحيم.

والمراد برؤيَةِ الكافرين الجحيمَ في هذه الآية، ما يُعْرَضُ عليهم من مقاعدهم بعد الموت، وفي مدّة البرزخ، في الجحيم التي سيدخلونها يوم الدين بعد البعث والحشر والحساب وفصل القضاء، وهذه الرؤية تفيدهم عِلْمَ اليقين.

● **قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾:**

جاء العطف في هذه الآية بحرف «ثُمَّ» للدلالة على أنّ هذه الرؤية سوف تكون في زمان متأخر بفاصل طويل عن الرؤية التي دلّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ وهذه الرؤية المتأخرة سوْفَ تكون في موقف الحشر، حينما يُحْشَرُ الكافرون إلى جهة الجحيم وعلَىٰ مَقْرُبة منها، حيث يشهدونها شُهُودَ مُعَاينة، وتمتاز هذه الرؤية بأنَّها تفيدهم العِلْمَ من مرتبة «عَيْنِ اليقين» إذْ هو عِلْمٌ قائمٌ على الشهود والمعاينة، وتحليل ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾ نظير ما سبق في: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾.

والخطاب ما زال موجّهاً للكافرين بيوم الدِّين والكافرين بعذاب الجحيم، تكذيباً لأخبار الأنبياء والمرسلين، المبلّغين عن ربّ العالمين.

● **قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾:**

يَدُلُّ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ على أنَّ السُّؤالَ الّذِي تضمّنَّة ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ يكون متأخراً بفاصل زمنيٍّ طويلٍ نِسْبيًا عن رُؤيَتِهِمُ الجحيمَ رؤيةَ مِنْ مَرْتَبَةِ «عَيْنِ اليقين» وتحليل ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ نظير تحليل: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾.

والمتدبّر الحصِيفُ يُدْرِكُ أنَّهم يُسْأَلُونَ عَنِ النعيم، وهُمْ في باطن الْجَحِيم يُعَذَّبُون، إذ الخطابُ ما زال مُوَجَّهاً للكافرين المكذبين بيوم الدِّين.

إنّ سُؤال أصحاب الجحيم وهم في باطِنِها، عن النعيم الذي يَتَنعَّمُ به أصحابُ الجنَّة وهم فيها، إنَّمَا هُوَ سُؤَالُ تَحْسِيرٍ وتنديم على ما كانوا به في دنياهم يُكَذِّبونَ، فإذا سُئلوا عن النَّعِيم ازدَادُوا حَسْرَةً ونَدَامَةً وألَماً، علَىٰ ما فَاتَهُم من السَّعَادة بِسَبَبِ كُفْرِهم وتكذيبهم، وسُلُوكهم سُبُلَ المجرمين.

وبقليلٍ من التأمُّل نُدْرِكُ أنّ سُؤالَهُمْ يكُون على نحو ما يلي:

ألَيس نعِيمُ الْجَنَّةِ حقًّا، بَعْدَ أنْ وَجدتُّم أنّ عَذَابَ الجحيم حقٌّ فيقولون: بلَىٰ، وبذلك يزدَادُون حَسْرَةً وندامةً وألَماً.

وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بيان أنّ أصْحَابَ الجنّة يسْأَلُون أصحابَ النار في موقف الحشر، قبل أنْ ينصرف أهل الجنّة إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار، فيقولون لهم: قَدْ وجدْنا مَا وَعدَنا رَبُّنا حقًّا، فَهلْ وَجدتُّم ما وَعدَ رَبُّكُمْ حقًّا، فيقول الكافرون أصحاب النار: نعم. ويكون هذا السؤال تبْكيتاً لهم وزيادةً في حسرتهم وندامتهم. قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

وأكّدَ عِنْدِي هذا الفهم لقول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ أنَّ كلَّ ما جاء في القرآن المجيد من النعيم فالمراد به نعيم الجنَّة، مثل: [جنّات النعيم ـ نعيم مقيم ـ جنّة النعيم ـ في جنّاتٍ ونعيم ـ إنّ الأبْرار لفي نعيم ـ تَعْرِفُ في وجوههم نَضْرَةَ النَّعِيم ـ جنّة نعيم ـ وإذَا رأيْتَ ثَمَّ رَأيْتَ نَعِيماً ومُلْكاً كبيراً].

أمّا لذّاتُ الدّنيا وكلُّ ما فيها من زينة فقد جاء التعبير عنها في القرآن

المجيد بأنّها مَتَاعٌ واستمتاع أو تَمَتُّع، ولم يأت التعبير عنها بلفظة «النعيم» أو بلفظة «نعيم».

والمتاعُ والاستمتاع والتمتُّع في اللّغة هو ما يُنْتَفَعُ به مُدّةً من الزّمن، ثمّ يَفْنَىٰ ولا يكون له بقاء.

أمّا النّعيمُ فهو مقيم متَجَدِّدٌ باقٍ خالدٌ يَوْمَ الدين، في جنّات النّعيم.

وبسبب ترك هذا الاستقراء لآيات القرآن، وتَرْكِ النظر في وحدة موضوع السورة، وترابط آياتها حول موضوعها توجّهَتْ أنظار معظم المفسرين إلى أن المراد بالنعيم في الآية لذّاتُ ومنافعُ الحياة الدّنيا، وعُذْرُهم أنّ أحاديث مَرْوِيّةً عن الرسول ﷺ لم تَبْلُغْ مبلغ الصحّة جاء فيها أنّ الناس يُسْأَلُونَ يَوْمَ الدّين عن كلّ نِعْمَةٍ أنْعَمَ اللَّهُ بها عليهم في الحياة الدنيا، إلاّ أنّ شيئاً منها لم يُحَدِّدْ أنّ المراد بالنّعيم في الآية الثامنة من سورة «التكاثر» هو لذّاتُ الحياة الدنيا، وقد توسَّع الرُّواة في استعمال لفظ «النعيم» فحملوه على متاع الحياة الدنيا.

علىٰ أنّ متاعات الحياة الدنيا إنَّمَا يُسْأَلُ عنها في موقف الحساب، وما دلَّت عليه الآية هو ما بعد موقف الحساب.

قال الحسن: لا يُسْأَلُ عن النعيم إلاّ أهْلُ النار.

## ترابط درسي السورة:

إن توجيه التثريب والتلويم للمخاطبين بقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ يستثير سؤالاً في النفوس، وهو: فما العلاج للتخلّص من هذا الداء؟، وكيف تَصِحُّ مسيرة الإنسان في حياته الدنيا، حتّىٰ يُلْجِم دافعه إلى التكاثر من زهرة الحياة الدنيا، وحتّىٰ لا يُلْهِيَهُ التكاثر عن العمل لتحقيق سعادته الأبديّة الخالدة؟.

وقد جاء في الدرس الثاني ما يتضمّن بيان العلاج بأسلوب غير مباشر، ومنه نستفيد الجواب.

إنّ تصحيح مسيرة الإنسان في حياته ينبغي أن يبدأ بأن يعْلَم عِلْمَ اليقين الغاية من رحلة الحياة الدنيا، والمصير الذي هو صائر إليه بعدها، وأن يقتنع بذلك اقتناعاً تامًّا، وأن يؤمن به إيماناً صحيحاً راسخاً قويًّا، حاضراً على الدوام غير غائب، باعثاً على تقويم السلوك وتصحيح المسيرة بقوّة، وشدِّ لجام المطامع في متاع الحياة الدنيا وزينتها، وتنبيه النَّفْسِ عند غفلاتها.

فجاء الدرس الثاني من السورة مُبَيِّناً أنَّ علم الناس بالدار الآخرة وما فيها من عذاب في الجحيم، ونعيم خالد في جنّات النعيم، سيتحقق في واقع لا يستطيعون ردّه ولا تغيير أي شيءٍ فيه، ويكون تحقُّقُ هذا العلم على مراحل، عند الموت وعَقِبَهُ في مدّة البرزخ، ثُمّ عند البعث والحشر والحساب وفَصْل الحكم بالجزاء، ثم عند تنفيذ الجزاء، وكلُّ عِلْمٍ يتحقَّقُ لاحقاً هو أقوى وأشدّ من سابقه.

واقتضى توجيهُ التثريب والتلويم في الدرس الأول تكرير الرَّدْعِ والزجْر بكلمة «كلاّ» ثلاث مرّات في الدرس الثاني منها.

● فجاء الإعلام الضمني بأَنّ هذا العلم المطلوب سيتحقَّق في أدوات الإدراك لديهم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾.

● وجاء الإعلام الضمنيّ بأن «عِلْمَ الْيَقِينِ» سيتحقّق لديهم، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ أي: نَرْغب لسعادتكم في أن تعلموا عِلْمَ اليقين بأنّ عذاب النار حقّ.

● وجاء الإعلام الصريح بأن «عِلْمَ عَيْنِ الْيَقِينِ» سيتحقَّقُ لديهم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾.

● وجاءت الإشارة إلى أن «عِلْمَ حَقِّ الْيَقِينِ» سيتحقَّقُ لديهم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي: وأنتم في دَارِ العذاب تذوقون بكلِّ أحَاسِيسكم آلامَهَا.

**وتم بحمد الله تدبّر سورة التكاثر**

❁ ❁ ❁

## (٦)
## ملحق
## حول بلاغيات في السورة

في سورة التكاثر اختيارات بلاغيَّةٌ تثير الإعجاب، منها اللّطائف التالية:

**الأولى:**

الكناية عن البعث، بالتَّعْبِير عن الْفَاصل بين الموت والبعث للحياة الأخرى، بأنَّهُ زيارةٌ للقبور، ولَيْس إقامة دائمة.

**الثانية:**

استعمال حرف «لَوْ» بمعنى الرَّغْبَة والرضَىٰ، وهي عند عُلَماءِ العربية بمعنى التمنّي والتَّرجّي، وهٰذان لا يَلِيقان بمقام اللّهِ عزّ وجلّ.

**الثالثة:**

تأكيدُ تَحقُّقِ عِلْم الْيَقِين، وعِلْم عَيْنِ اليقين، وعِلْمِ حَقِّ اليقين، مستقبلاً، بمؤكّدَاتٍ مُتَعَدِّدَة، اللاّم الواقعة في جواب قسم محذوف، نون التوكيد الثقيلة.

**الرابعة:**

الدّقّة في استعمال الكلمات لتأدية المعاني المرادة «زُرْتُم ـ سَوْف ـ ثُمَّ ـ لَوْ ـ عيْن اليقين ـ النعيم».

❁ ❁ ❁

# سُورَةُ الماعُون

١٠٧ مصحف ١٧ نزول

## (١)
# نص السورة
## سورة الماعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾
فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا
يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيۡلٞ
لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ
سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾
وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٧﴾

## (٢)
# موضوع السورة

تبيّن سورة «الماعون» بعض الظواهر السلوكيّة القبيحة الّتي يتّصف بها الّذين يُكَذِّبُونَ بقانون الجزاء الرّبّاني العاجل منه والآجل، وهُمُ الكفَّارُ حتماً، وظلال معاني هذه السورة تتناول بعض المؤمنين الّذين يَغِيبُ عن تصوُّرهم الجزاء الرّبّاني المعجّلُ في الدنيا، والمؤجّل إلى الآخرة.

وقد جاء في السورة اختيار أقبح الظواهر السلوكيّة الاجتماعيّة للّذين يُكَذِّبون بالدّين، أي: بالجزاء الرَّبّانيّ، وهي:

(١) دَعُّ اليتيم، أي: دفعُهُ دَفْعاً عنيفاً، وقهْرُه وإذْلاَله، إذْ هو من الضعفاء الّذِين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا يقْوَوْنَ على المطالبة بحقوقهم وأخذها، ويَشْعُرون دواماً بإنكسارهم وذُلِّهم.

(٢) قَسْوَةُ الْقَلْب تُجاهَ المسكين، وهو الفقير الذي يَبْدُو من حاله ما يدُلُّ على شدّة فقره، وأنّه جائع شديد الحاجة إلى الطعام، فالمكذّب بالدِّين الّذي لا يؤمن به تَشِحُّ نفسه عن إطعام المسكين، ولا تنْدَىٰ بكلمة طيّبة في الحضِّ على إطعامه.

(٣) مُرَاءاةُ النّاس ببعض الظواهر الدينيّة الّتي لا تُكلّفُهم بذْلَ مالٍ، كصَلاةٍ يخادعون بها الناس لتحصيلِ منافع دنيويّة.

(٤) منع إعارة الماعون (وهو اسم جامع لأدَوات البيت كالقِدْرِ والفأس والقَصْعةِ والرَّحا ونحوها) مع أنّه لا خسارة في إعارتها، إلاّ أنّ التكذيب بالدِّين يزيد في شُحّ النفوس، وجفاف عواطفها الاجتماعية.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## سوابق الحديث عن الجزاء الرّباني في نجوم التنزيل

نجد في القرآن المجيد عناية عظيمة جدًا ببيان قانون الجزاء الربّاني للموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا، ما كان منه معجّلاً في الحياة الدنيا، وما كان منه مؤجّلاً إلى يوم الدين، وتأكيد الإعلام به، بأساليب مختلفة، وصُورٍ متعدّدة، والتذكير به، والتحذير منه، وبيان آثار عدم إيمان الناس به في سلوكهم، وكَوْنِه مظهراً من مظاهر حكمة الله في كونه، ومظاهر عدله وفضله.

فالإيمان بقانون الجزاء الرَّبّانيّ هو المحرِّضُ الأعظم، والدافعُ الأَقْوَىٰ في النفوس لالتزام صراط الله المستقيم، صراط الحقّ والخير والفضيلة والجمال والكمال، والملْجِمُ الأقوىٰ والأشدّ للكَفِّ عن الظلم والعدوان، والبغْيِ والإثم والطغيان، ومعصية الله ورسوله بِتَرْكِ ما أمَرَا به، وفعل ما نَهَيَا عنه.

ولدى تتبع ما نزل قبل سورة (الماعون) الّتي تدور حول بيان بعض آثار التكذيب بالدّين في سلوك الناس، نجد بدء الحديث ومتابعته حول موضوع الجزاء الرّبّاني في السّور التالية:

(١) في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول).

(٢) وفي سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول).

(٣) وفي سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول).

(٤) وفي سورة (المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول).

(٥) وفي سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

(٦) وفي سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول).

(٧) وفي سورة (اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول).

(٨) وفي سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول).

(٩) وفي سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول).

(١٠) وفي سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول).

(١١) وفي سورة (التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول).

هذه العناية بقانون الجزاء الرّبّاني (= الدين) وأعظمه ما ادَّخره الله إلى يوم الدين، في الآخرة دار الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، يَدُلُّ على الأهميّة البالغة لركن الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان السّتّة، وأنّه المحرّض والرادع الأكبر في حياة الإنسان المكلّف المدرك، لالتزام سلوك صراط الله المستقيم، واجتناب سلوك سُبُل الضلالة.

ولهذا نجد كثيراً من النصوص القرآنية قد اقترن فيها ذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبّر التحليلي لآيات سورة (الماعون)

● **قول الله عز وجلّ:** ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾:

﴿أَرَءَيْتَ﴾: الخطابُ مُوجَّهٌ لكلِّ مؤهَّل لأنْ يرَىٰ. وفيه استفهامٌ تعجيبي من حالِ المكذِّبِ بأخبار قانون الجزاء الرّبّاني. والمراد بالرؤية الرؤية البصريّة. وقد يكون المراد بالاستفهام هنا الإعلام ببعض صفات المكذب بالدين والتنبيه عليها، أي: انظر تَرَ من صفاته كذا وكذا.

﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾: **الدّين**: المراد به هنا الجزاء الرّبّاني، ولا سيما ما يكون في الآخرة، والّذي يكذّب بالدّين اسم جنس يَعُمُّ كلَّ المكذبين.

والتكذِيبُ به هو تكْذِيبُ الرَّسُولِ بما أخبر به من أنباء الجزاء الرّبّاني، وتكذِيبُ ما جاء في القرآن من ذلك.

والمعنى: تعجَّبْ أيّها الرائي المؤهَّلُ لأنْ يَرَىٰ ويتفكر من حال المكذِّب بأخبار قانون الجزاء الرَّبّاني المعّجل منه في الدنيا، والمؤجَّل إلى يوم الدين. أو انظر تَرَ من صفات الذي يكذب بالدين أنه يدُعُّ اليتيم، ولا يحضّ على إطعام المسكين.

● **قول الله عزّ وجلّ:** ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾:

﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾: أي: يَدْفَعُه دفعاً عَنِيفاً بجفَاء وغلْظَة.

الْيَتِيم: الصغير الذي مات أبوه من الناس، ويَظَلُّ يتيماً حتَّىٰ يبلُغَ الحُلْم.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ﴾: أي: ولا يحُثُّ على، يقالُ لغة: حضَّ يحُضُّ حَضًّا. والحضّ على الأمْر: هو الحثّ عليه وطَلَبُهُ بِشدَّةٍ وإلحاح. وتحاضَّ الرجلان على أمْرٍ إذا حضَّ كلٌّ منهما صاحبه عليه.

﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: أي: إطْعَام المسكين، **طعام**: اسْم مصدر، إذ المصدر هو «إطعام» تقول لغة: أطْعَمْتُ الجائِعَ أُطْعِمُهُ إطْعاماً. وإنّما كان «طعام» اسماً للمصدر، لأنَّ حروفه نقصَتْ عن حروف فعْلِه، كما يقولُ عُلَماءُ العربيّة.

وجاء اختيار اسم المصدر بدل المصدر إيجازاً في اللّفظ، وربَّما كان لحكْمةٍ أخرى تتصّل بحروف القرآن وأعدادها، والله أعلم.

**المسكين**: هو من يظهر الفقر، ولو لم يكُنْ في واقع حاله الخفيّ فقيراً، وأمّا الفقير فهو من كان في واقع حاله فقيراً، ولو لم يَكُنْ يُظْهِرُ فقْرَه وحاجته[1].

والمراد بالمسكين هنا في الآية من كان في واقع حاله فقيراً، مع مسكنته الظاهرة، فهو مسكين صادقٌ في مسكنته الدالّة على فقْره.

وجاء استعمال اسم الإشارة الخاصّ بالمشارِ إليه البعيد في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للدلالة على أنّ الذي يكَذِبُ بالدِّين قانون الجزاء الرّبّاني، بعيدٌ جدًّا عن رحْمَةِ اللَّهِ الّتي وسِعَتْ كلَّ شيءٍ يَسْتَحِقُّ أنْ تشملَهُ، إذْ قد أَخْرَجَ نفسه بتكذيبه وكُفرِه أو حَجَبَها عن أَنْ تشملَهُ.

---

(١) هذا ما انتهيت إليه في التفريق بين الفقير والمسكين، انظر القاعدة (١٦) من كتابي «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ».

وقد دلّت هاتان الآيتان على أنّ من الأمراض النفسية الخبيثة للتكذيب والكفر بقانون الجزاء الرَّباني، جفافَ عاطِفَةِ الرحمة في نفس المكذّب الكافر.

ومن الظواهر السلوكيّة لهذا الداء دعُّ اليتيم بدفعه دفعاً عنيفاً بشدّة وغلظة، إذْ هو من أضعف الضعفاء في المجتمع الْبَشَرِي، فماله من يدافع عنه ويَحْمِيه ويحفظ حقوقه.

ومن الظواهر السلوكية لهذا الداء أيضاً عدَمُ الحضِّ على إطعام المسكين، ذي الحاجة التي أفضت به إلىٰ الجوع.

وهاتان الظاهرتان في السُّلوك تَدُلاَّن على أمثالهما، وتدلاّن من باب أولى على ظواهر سلوكيّة قبيحة أخرى.

إنّ مَنْ يُكَذِّب بالدّين (= قانون الجزاء الرَّبّاني) وباليوم الذي أعدَّه الله عَزَّ وجلّ لتحقيق الجزاء الأمثل، تَمُوتُ الرحمة في قلبه، إذْ هو لا يَرْقُبُ حساباً ولا عذاباً ولا ثواباً، فتُنْزَعُ من قلبه الخشية من العقاب، ويُنْزَعُ من قلْبه الطَّمَع بالثواب، فتنمُوا في نفسه الأنانيّة الضيِّقَة المسرفَةُ المقيتة، حتَّىٰ تَقْطَعَهُ عن النظر إلى الآخرين، وعن الشعور بمشاعرهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال:

«لاَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقِيٍّ». [حديث حسن رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وابن حبان].

ومن أشنع مظاهر مَوْتِ الرحمة وانتزاعها من قلْب الإنسان، أنْ يكون ظَلاَّماً للضعفاء الذين لا يَجِدون حيلةً يُدافعُونَ بها عَنْ أنفسهم.

وأضعف الضعفاء في أفراد المجتمع من كان صغيراً يَتِيماً، إذْ هو ضعيفٌ لا حيلَةَ له، ولَيْس له نصير يدافع عنه ويَحْنو عليه.

والمكذّب بالدّين لا يقتَصِرُ على أَنْ يأْكُلَ مَالَ اليتيم، بَلْ يُغْلِظُ عليه ويعنُفُ ويشتَدّ، فإذا أقبل عليه لأمْرٍ ما، أو سأله من حقه، لم يَرُدَّهُ بلُطْفٍ ورِفْقٍ ورَحْمَةٍ، بلْ يَدُعُّهُ دعًّا، ويطْرُدُهُ ويُهينُه، ويَقْهَرُهُ ويظْلِمُه، ولا يعطيه مع ذلك حقَّه الذي هو لَهُ من ميراثه.

ومن أشنع مظاهر موْتِ الرحمة وانتزاعها من قَلْب الإنسان، أنْ تكِزَّ نفْسُهُ شُحًّا، فلا ينْفَع بنافعةٍ ذا حاجَةٍ أو صاحِبَ ضرورة، لاَ من نَفْسِه، ولا بكَلِمة حضٍّ لغيرِه على نَفْعِه، وأشْنَعُ هذا الأشْنَع أَنْ لا يُطْعِم الجائع المسكين، ولا يَحُضَّ غيْرَهُ علىٰ إطعامه، فهو في أَحَطِّ دركاتِ الشُّحِ إذْ لا يبْذُلُ من نَفْسِه، ولاَ يُحضُّ غيْرَهُ على بذل ما يجب عليه بذلُه.

لقد فَقدَ الرَّحمةَ وظِلاَلَها وآثارَها في قلْبِه ونفْسِهِ، بسَبَبِ كُفْرِه بقانون الجزاء الرَّبَّاني العاجل منه والآجل.

● **قــول الله عــز وجــل**: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

تتابعُ السّورَةُ الحديثَ عن المشركين المكذبين بالدّين، وبيوم الحسَاب، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، عند ربّ العالمين، ولمّا كان المراد بالذي يكذّب بالدين كلَّ من يتصف بهذه الصفة كان من المناسب ذكرهم هنا بالجمع.

﴿فَوَيْلٌ﴾: الفاء حرف عطفٍ يفيد الترتيب مع التعقيب.

**ويْلٌ**: كلمة عذاب، وفيها معنىٰ الوعيد بحلول عقاب اللّهِ الشديد، وورَدَ أنّ كلمة «ويْل» اسم علَمٌ على وادٍ في جهنم.

**ويْلٌ**: مبتدأ، والمجرور بعدها باللام الخبر، وسوّغ الابتداء بها لأنّها تحمل وصفاً مقدّراً، أي: عذابٌ شديد، وإذا كانت اسماً لوادٍ في جهنم فهي مَعْرِفةٌ بالعلميّة.

والمعنىٰ: فيترَتَّبُ علىٰ المكذبين بقانون الجزاء الرَّبّاني عَذَابٌ شديد ـفي وادي «ويل» في جهنم.

واختير في السورة وصْفُهم بالمصَلِّينَ، بدَلَ الكناية عنهم بالضمير، ـوكان الظاهر يقتضي أن يقال: فويلٌ لهم، ولكن عُدِلَ عن هذا لبيان بعض ـأعمالهم ذواتِ المظهر الدينيّ الموروث عن إسماعيل بن إبراهيم عليهما ـالسلام، الّتي يَعْمَلُونَها رِئَاءَ النّاس، كالصَّلاَةِ على ما وَرِثُوا من دين إسماعيل ـالّتي خلطوا بها شِرْكيّاتِهم، وأعمالَهُم الجاهليّة الكثيرة، وكالطواف حول ـالبيت، والسَّعْي بين الصفا والمروة، والحجّ في موسمه، وكالْعُمْرة.

وقد كان القرشيُّون يقولون: نَحْنُ أَهْلُ الحجيج، وأَهْلُ السِّدَانَة، وأَهْلُ ـالسِّقاية، ويفتخرون بهذه الأعمال من العبادات على سائر العرب.

فإذا وَرَدَ سُؤَالٌ: كيْفَ يُؤَدّي المشركون الذين يُكَذِّبُونَ بالدّين، وهم ـعلى شركهم وتكذيبهم، عباداتٍ كالصَّلاة بركوعٍ وسُجُودٍ على ما وَرِثُوا من ـدينِ إسْمَاعيل؟

والجواب: إنّهم يُراءُونَ بها النّاس، للمحافظة على مكانتهم المتميّزة ـبيْن العرب، إذ هم أهل الحرم، وسدَنَة بيت الله فيه، والقائمون بوظائفهم ـالدينيّة على ما ورثوا من إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقيامهم بها ـيُعْطِيهم أمجاداً دنيويّة ومنافع.

لكنَّهم سَاهُونَ عمّا تَقْتَضِيه عبادَةُ الله جلّ جلاله، من الإيمان بحكمته ـوعَدْلِه، وما يلزم عنهما من إقامة حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، ـللحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

واقتضى الإبداع البياني التنويع في الأسلوب، ليكون للقرآن المجيد تميُّزُهُ ـالمعجز، إذْ لم يأت بأسلوب، وإنَّهُ قد يُصَلّي على مواريثه الدّينيَّة، إلاّ أنّه يُرائي ـالناسَ بصَلاَتِهِ فويلٌ له. بل جاء التعبيرُ شاملاً كلَّ المشركين المكذبين بالدّين،

الذين قد يُصَلُّون ويعملون أعمالاً هي من مظاهر دين الله المورُوث لديهم، إلاَّ أنهم يراءُون بها، ويخلطون شرْكيّاتهم بها، وابتدأتِ الْجملَةُ بإثبات العذابِ الشديد لهم في وادي ويل، أحَدِ وِدْيَان جهنَّمَ، لبيان استحقاقهم هذا العذاب ولو كانوا من المصلِّين على مَوْرُوثٍ من دين صحيح.

﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: أي: عمّا تَقْتضيه منهم صلاتُهُمْ غافلون تاركون، وهو الإيمان الصحيح، والأعمال الصالحات ابتغاء مرضاة الله.

يقال لُغَةً: **سَهَا عَنِ الشيْءِ، وسَهَا فيه**: أي غَفَلَ فتَرَكَ.

وقيل: **سَهَا فيه**: إذا تركه عن غير عِلْم. **وسَهَا عَنْهُ**: إذا تَرَكَهُ عن علم.

ويمكن ربْطُ بَيَانِ سَهْوِهم في هذه السُّورة، بقول الله عزّ وجلّ في سورة (التكاثر) السابقة لها في النزول خطاباً لهم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أي: حُبُّ الدنيا ورَغْبَة التكاثر منها، قد ألهاكم طَوال حيَاتِكُمْ، فغفلْتُهم وسَهَوْتُمْ عمّا تقتضيه منكم صلاتكم الّتي ورِثْتُمْ أداءَها عن دينٍ صحيح، جاءَ به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

● ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾: أي: يُرُونَ من أنفسهم أنهم يتَّصِفُون بالقيام بالأعمال الصالحة، كالصلاة والحجّ والعمرة والسّقاية ونحوها، وغرضهم منها مصالح ومنافع دنيويَّة لدى الناس.

يقالُ لغة: رَاءَى الرجّلُ يُرائي مراءاةً، ورِءَاءً، ورِيَاءً، أي: أرَىٰ من نفسه أنّه متصف بالخير والصلاح، على خلاف ما هو عليه في واقع الأمْر.

وقد دَلَّ النّصُّ على أنَّهم لا يَنْتَفِعُون عند الله من أعمالهم الصالحة، الّتي يُرَاءُونَ النّاسَ بها، لأنَّها لم تقترنْ بإيمان صَحِيحٍ، ولم يُبْتَغَ بها وَجْهُ اللّهِ عزّ وجلّ، بل يَكُونُ لهم عند الله ويْلٌ، عذابٌ شديدٌ في وادي ويْلٍ بجهنَّم يوْمَ الدّين.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾: **الماعون**: اسم جامع لأدوات المنزل، كالقدر، والفأس، والقصعة، والرحا، ونحوها.

ولفظ الماعون يُطْلَقُ في الجاهليّة على المنفعة والعطيّة، وكُلّ ما يُنْتَفَعُ به، مما يأتي عفواً، ويُطْلَقُ على أمتعة البيت، فالماعون: كلُّ معُونة ومنفعة وعطية لا تكلّف باذلها إلاّ يسيراً، وهي عند الناس تكون عفواً من غير تكلُّف ولا منّة.

ورُوِي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: **الماعون**: الزكاة.

أي: والمكَذِبُونَ بقانون الجزاء الرَّبَّانيّ يَمْنَعُون إعارة الماعون، ويمْنَعُونَ بَذْل المعونات اليسيرات، الّتي لا يَعْبأ الناسُ بمقاديرِ قِيَمِهَا وأثمانِها، عن ذوي الحاجات لها من جيرانهم ومعارفهم، ولا يَخْجَلُون مِنْ مَنْعِها، ويفعلون هذا إضافَةً إلى كونهم يدُعُّونَ اليتامَىٰ، ولا يَحُضُّون على إطعام المساكين الفقراء الجائعين.

ودَلَّ تأخير بيان صفَةِ مَنْعِهم للماعون إلى آخر آية في السورة، للإشعار بأنّ المراد بالمصلّين السّاهين عن صلاتهم هم المكذّبون بالدِّين أنفسهم، وهم الكفرة المشركون، وأنَّ صلواتهم وعباداتهم إنّما هي تقاليد وعادات يفعلونها محافظةً على بعض مواريثهم من دين إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، كمناسك الحجّ الّتي يُؤدُّونها على جاهلياتهم وشِرْكيّاتهم ووثنياتهم.

ويُقاسُ على هذه الصفات الّتي ذكرتها السورة أشباهها من قبائح السلوك.

وسورة «الماعون» تتَّسِقُ بمضامينها مع المرحلة الأولى من مراحل التنزيل الّتي نزلت فيها، فالاهتمام فيها مُنْصَبٌّ على أُسُس العقيدة، وأركان الإيمان، وفضائل الأخلاق، ومحاسِنِ التعامل الاجتماعي الكريم.

وإذا كانت هذه السُّورَةُ تكشف بعض صفات المكذّبين بقانون الجزاء الرَّبّاني، فإنَّ قَدْراً ما من مضامينها يُلْقِي ظلالَهُ على المرائين من المؤمنين، الذين يَعْمَلُون ظواهر أعمالهم الصالحات ابتغاء الدنيا، لا ابتغاء ثوابِ الله ورضوانِه، ولاَ رَجاءَ ظَفَرهم بالنعيم المقيم الخالد، في جنّاتِ النعيم يوم الدّين.

## (٥)
## بلاغيات في السورة

● جاء استعمال الفعل المضارع في «يُكذِّبُ - يَدُعُّ - ولا يحُضُّ - يُراءُونَ - يَمْنَعُونَ» على أنّ الْمَعْنِيِّن في السورة يُجَدِّدُون دواماً ممارساتهم في التكذيب، والدَّعِّ، وعدم الحض، والمراءاة، والمنع، لأنّ صيغة الفعل المضارع تدُلُّ على التكرار والتجدّد كما ذكر علماء المعاني.

وأرى أنّ اسم الفاعل نظيرُ الفعل المضارع في هذه الدلالة.

**وانتهىٰ تدبر سورة «الماعون» بفضل الله وتوفيقه ومعونته وله الحمد والمنة**

❁ ❁ ❁

# سورة الكافرون

١٠٩ مصحف ١٨ نزول

# (١)
# نص السُّورة وفرشيات القراءات فيها
## سورة الكافرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

٦ ـ ● قرأ نافع، وهِشَامٌ، وحفص، والْبَزِّي في أحَدِ الوجهين عنه، [وَلِيَ] بفتح ياء المتكلّم.

● وقرأ يعقوب بإسكانها في الوصل والوقف، مع إضافة ياء المتكلم لكلمة «دين» فتكون قراءته: [وَلِيْ دِينِي].

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَلِيْ دِينِ] بإسْكانِ ياء المتكلم في «لِي».

# (٢)
# ممّا ورد في سبب نزول السورة

(١) أخرج ابن جرير وابنُ أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس:

«أنّ قريشاً دَعَتْ رسُول الله ﷺ إلى أن يُعْطُوهُ مالاً فيكون أغْنَىٰ رجلٍ بمكّة، ويُزَوِّجُوهُ ما أراد من النساء، فقالوا: هٰذَا لك يا مُحمّد، وكُفَّ عن

شَتْمِ آلِهَتِنا ولا تذكُرْها بسُوءٍ، فإنْ لم تَفعلْ فإنَّا نَعْرِضُ علَيْكَ خَصْلَةً واحدةً، ولَكَ فيها صَلاحٌ.

قال: ومَا هي؟

قالوا: تَعْبُدُ آلِهتَنا سَنَةَ اللاَّتَ والْعُزّىٰ، ونعْبُدُ إلَهَكَ سَنَةً.

قال: حَتَّىٰ أنظُرَ مَا يأْتِيني مِنْ رَبّي.

فجاء الوحي من عند الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ . . .﴾ إلى آخر السّورة.

وأنزل اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾. (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول).

**لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**: أي: ليَبْطُلَنَّ عَمَلُكَ الصَّالح الذي عَمِلْتَه. يقالُ لغة: حَبِطَ الْعَمَلُ، إذَا بَطَلَ.

هذه الآيات من سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) فيظْهَرُ أنّ المشركين ظلُّوا يُتَابعونَ عرضهم، ولم يكتفوا بما نزل في سورة (الكافرون) فأنزل الله على رسوله هذه الآيات من سورة (الزمر).

(٢) وأخرج ابن جرير بسنَدِه عن محمّد بن إسحاق، قال: حدّثني سعيد بْنِ مينا مولَىٰ البَخْتَرِيّ وَكذلك ابن أبي حاتم وابن الأنباري عن سعيد بن مينا مولى البختري أيضاً، قال:

«لَقِيَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة، والعاصُ بْنُ وائل، وَالأَسْوَدُ بْنُ المطّلِب، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، رسول الله ﷺ فقالوا:

يَا مُحَمَّدُ، هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ، وتَعْبُدْ مَا نَعْبُدُ، ونُشْرِكَكَ في أَمْرِنَا كُلِّه،

فإنْ كَانَ الَّذِي جِئْتَ بِه خَيْراً مِمَّا بأَيْدِينَا، كَنَّا قَدْ شَرِكْنَاكَ فيه، وأَخَذْنَا بِحَظِّنَا مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي بأَيْدِينَا خَيْراً مِمَّا في يَدَيْكَ، كُنتَ قَدْ شَرِكْتَنَا فِي أَمْرِنَا، وأَخَذْتَ مِنْهُ بِحَظِّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ حتَّىٰ انقضت السورة».

(٣) وأَخْرَجَ عبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وابْنُ المنْذِرِ وابْنُ مَرْدَوَيْهِ عن ابْنِ عبَّاس: أَنَّ قُرَيْشاً قالَتْ: (أي: للنَبيِّ ﷺ):

«لَوِ اسْتَلَمْتَ آلِهَتَنَا لَعَبَدْنَا إِلَٰهَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ . . .﴾ السورة كُلَّها.

فعلَّم اللَّهُ رَسُولَهُ أنْ يُبيِّن لِلْمُشْرِكين الَّذِينَ عَرَضُوا عليه مفاوضاتهم التوفيقيّة بين الإيمان والكفر، أنَّ الإيمان لا يقْبَلُ التبعيض، لأنَّهُ حقٌّ كُلُّه، وهو لا يَقْبَلُ الاخْتِلَاطَ والامْتزاجَ بالباطل، ومَتَىٰ امْتَزَجَ بالباطِلِ لم يَعُدْ صَحيحاً ولاَ طَهُوراً، ولَمْ يَعُدْ مقبولاً عند الله عزّ وجلّ.

والإيمان الصحيح الّذي لم يَخْتَلِطْ بالباطِلْ حقُّ اللَّهِ على عباده.

❊ ❊ ❊

## (٣)
## ممّا ورد في فضائل السورة

(١) أخرج محمد بن نصر والطبرانيُّ في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرآنَ و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ تَعْدِلُ رُبْعَ القرآن، وَكَانَ يَقْرأُ بِهِمَا في رَكْعَتَي الْفَجْرِ».

ومضمون ما جاء في هذا الحديث قد جاء في عدّة أحاديث أخْرَىٰ.

(٢) وأخرج ابْنُ أَبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذيّ والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم من فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعيّ عن أبيه

أنَّه قال: يَا رَسُول الله، عَلِّمْنِي ما أقولُ إذَا أَوَيْتُ إلى فِراشي، قال:

«إقْرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ ثُمَّ نَمْ عَلَىٰ خَاتِمَتِهَا فإنَّها بَراءَةٌ من الشِّرْك».

ومضمون ما جاء في هذا الحديث قد جاء في عدّة أحاديث أخرى.

(٣) وأخرج البزّار والطبراني وابْنُ مردَوَيْهِ عن خَبَّابٍ، أَنَّ النبيّ ﷺ قال:

«إِذَا أَخَذْتَ مَضْجِعَكَ فاقْرَأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾».

قال خَبَّاب: وإنَّ النبيّ ﷺ لم يأْتِ فِراشَهُ قَطُّ إلاَّ قَرَأَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ حَتَّىٰ يَخْتِمَ.

(٤) وأخرج أبو عُبَيْد في فضائله، وابْنُ الضّرِيس عَنْ أبي مسعود الأنصاري قال: مَنْ قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ في لَيْلَةٍ فقد أكْثَرَ وأطَابَ.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبّر التحليلي لآيات سورة (الكافرون)

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ٦﴾:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾:

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: هُمُ الْجاحِدُونَ لِلْحقِّ الدِّينيّ الرَّبَّاني، الّذي جاءَ بِه رُسُلُ اللّهِ تَبْلِيغاً لِما أَمَرَهُمُ اللّهُ بتبليغه للنّاس.

**الكُفرُ**: يأتي في اللُّغة بمَعْنَىٰ جُحودِ النِّعْمَة، وهو ضدُّ الشكر، وأصْلُ الكُفر في اللّغة تَغْطِيَةُ الشيء تغطيَةً تَسْتَهْلِكُهُ، وكُلُّ من كفر شيئاً فقد سَتَرَه، ولهذا يقال للزارع كافِر، لأنه يُلْقِي الحبّ في الأرض ويسْتُرُه بالتراب، وتُسَمّي العرب الزُّرَّاعَ كُفّاراً، لأنهم يكْفُرون الحبّ المبذور بتُراب الأرض.

وعلى هذا فالكافر في الدّين هو الذي سَتَرَ أدلّة الإيمان والإسلام وجحَدَها بعْدَ أنْ وضَحَتْ له.

وليس الكافر من كانَ خاليَ الذهن من أدِلَّة الإيمان والإسلام، ولا الباحثُ عنها، ولا المتريّثُ حتَّىٰ تتّضِحَ له الأدلّة، بل هو العارف بحقائق عناصر الإيمان والإسلام السّاتِرُ لَها والجاحد بها.

**فالكَفرُ في الدين**: هو موقف الرَّفْضِ والجحود، بعْدَ مَعْرفة الحقّ بأدلّتِه المثبتة له، وهذا ما تدلُّ عليه الاستعمالات القرآنيّة المختلفة.

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾:

**العبادة**: هي الخضوع والطاعة والانقياد والقيامُ بما يُرْضِي المالِكَ المعْبُودَ، وتَرْكُ ما لا يرضيه من كلّ سُلُوكٍ إراديّ.

**والعبادة في الدين**: هي كلُّ ذلِكَ مُوجّهاً للرّبّ المالِكِ غيْرِ المدْرَكِ بالْحواسّ، ورأسُ عِبَادتِهِ تَوْجِيه الدُّعاء له، لتحقيق مطالب الدنيا والآخرة، والصّلاةُ له، والقيامُ بأعمال قلبيّة ونفسيّة وجَسَدِيَّة تُعبّر عن إفراده بالرُّبُوبيّة والإلَهِيَّة. وهذه العبادة لا تكون إلاّ للخالقِ الرّبّ جلّ جَلالُه، فهو وحْدَهُ الذي يسْتَحِقُّها، ولا شيءَ سواه له رُبُوبيَّةٌ أو إلَهِيَّة، فمن عَبَدَ بهذه العبادة غيْرَ الله فقد كفر بالله.

والعبادة قسمان: جَبْرِيَّةٌ واختيارِيَّة.

فالجبْرِيَّةُ هي الطاعة التامَّة لأوامر التكوين، وهذه لا فضْلَ فيها لِمَنْ تَجْرِي فيه أو علَيْه، ويخضع لها كُلُّ ما سوىٰ اللَّهِ في الوجود.

والعبادة الاختيارية: هي السُّلوك الإراديُّ الواعي المحقِّق لمطلوب الرَّبِّ من عبْدِه، أو لما يُرْضيه منه، على ما شرَع، مع قَصْدِ عبادته وحده لا شريك له، وهذه العبادة هي الّتي كلّف اللَّهُ عِبَادَهُ أن يؤدُّوها في رحلة امتحانهم في الحياة الدّنيا، وهي الّتي رتّبَ عليها الثواب العظيم الخالد في جنّات النعيم، يوم الدين، مع ثوابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا قد يَمْنَحُهُ اللَّهُ عباده.

وقد عَلِمْنَا من روايات أسباب نزول السورة، أنّها نزلَتْ بمناسبة ما عرضه مشركو قريشٍ على الرسول ﷺ، من الْمُصَالَحَة الدّينيَّة، فَيَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ سنةً، ويَعْبُدوا إلَهَهُ سنَةً، أو يخْلِطُوا الدّينَيْن، فيَعْبُدوا هُمْ ما يَعْبُدُ ويَعْبُد هو ما يعبُدون.

وقَدْ حَسَمَ اللَّهُ الأَمْرَ بتًّا، فأنْزَلَ على رسوله هذه السورة، وهي تتضمَّن توجيهاً للرَّسُول ﷺ، ولكلّ مؤمن مُسْلمٍ من بَعْدِه.

فبدأ الله عزّ وجلّ السُّورة بأمْرِ التكليف ﴿قُلْ﴾ وعلَّمَ رسُوله وسائر المؤمنين المسلمين أَنْ يُنَادوا المكذّبين الجاحدين بوصفهم المشتَقِّ من الكُفر، فَيُوَاجِهُوهُمْ بالنّداء التالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وأنْ يُعْلِنُوا لهم بكلّ حَزْم وعَزْمٍ وإصرارٍ رَفْضَ المساومة في الدِّين قولاً واحداً.

إنّ عرْضَ المشركين يتضَمَّنُ مُفَاوَضَةً توفيقيَّةً بَيْنَ الإيمان والكُفر.

والتعْلِيمُ الرَّبَّانِيُّ بشأن هذه المفاوضة يتضمَّنُ أن الإيمانَ والإسلام لا يقْبَلانِ التَّبْعِيض، لأَنَّهما الجامعان لدين اللَّهِ الذي اصطفاه لعباده، ودَينُ اللَّهِ حقٌّ كُلُّه، فلا يَقْبَلُ التبعيض ولا الاختلاط والامتزاج بالباطل، ومتَىٰ امتزج بالباطل تنجَّسَ فَلَمْ يَبْقَ طَهُوراً ولاَ طاهراً، ويُمْسِي غير مقبولٍ عند اللَّهِ عزَّ وجلّ.

ويتضمّن هذا التعليم الرَّبَّانيُّ أنّ عِبادَة اللَّهِ عزّ وجلّ لاَ تقبَلُ الشِّرْكَ به، فَمَنْ أشْرَكَ بعبادته أحداً غير الله لَمْ يَكُنْ للَّهِ عابداً، إذْ يَرُدُّ اللَّهُ عليه عبادته، فهو أغنَىٰ الشركاء عن الشِّرْك.

وعبادَةُ غير الله إمَّا أن تكون على معنى أنّ غير الله لَهُ مُشاركةٌ لله في رُبوبيّته، وهذا كُفْرٌ بالله وباطل، لأنّ الله عزَّ وجلَّ هو الرَّبُّ وحْدَهُ في الوجود، وليْسَ له شريكٌ في ربُوبيّته، وإمّا أن تكونَ على معنَىٰ التَّقَرُّب إلى اللّهِ عزّ وجلّ بعبادة الشركاء، وهذا لا يكون إلاّ بأمْرٍ أو بإذْنٍ من اللّهِ الرَّبّ الخالق الرازقِ المحيي المميت المحاسِب والمجازي على الأعمال الاختياريّة، صاحِبِ الحقّ وحْدَه بالعبادة.

لكِنَّ اللّهَ لَمْ يَأْمُرْ ولَمْ يَأْذَنْ لأحَدٍ بعبادة غَيْرِه، فَقَدْ أوْحَىٰ لكُلِّ رسُولٍ ونبيٍّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ كما جاء في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: بل اللّهَ وَحْدَهُ فَاعْبُدْ وكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ بعبادتِكَ لَهُ، على ما أنعم به عليك من نِعَمٍ جَليلة.

فالمساوَمَة على الدّين، والمصالحَةُ فيه مرفوضة رفْضاً كُلّيًا، إذْ لَيْسَ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ من المخلوقين أنْ يُسَاوم أو يُصَالح على دين الله الحقّ.

إنّ الدّين دِينُ الله، والدّين عند الله هو الإسلام لله عزّ وجلّ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، ومَنْ يبْتَغِ غَيْرَ الإسْلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ منه، وهُوَ في الآخِرَةِ من الخاسرين.

ويتضَمَّنُ هذا التعليم أن يُعْلِنَ الرَّسُولُ وكلُّ مؤمن مسلم من أمَّتِه للكافرين الانفصالَ التامَّ بيْنَه وبيْنَهُمْ، وأنّه لاَ تَلاقِيَ بين الحقّ والباطل، ولا خلط ولا مزْجَ ولا مُهَايَأَةَ ولا مصالحةَ مطلقاً، فلهم دينُهُمُ الباطل، ليس للمؤمن المسلم منه شيْءٌ، ولَهُ دينُهُ الحقُّ ليْسَ لهم منه شيءٌ، إلاّ أنْ يَتْرُكُوا باطلهم ويتَّبِعُوا ما أنزل اللّهُ على رسوله.

أمّا التكرار في عبارات: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾.

فَيَحْتَمِلُ وُجُوهاً:

(١) فمنها أنّ العرْض الّذي عرضُوه يقْتضِي تقسيم العبادة بيْنَ الله وبين الشّركاء على نوبَاتٍ زمنيّة، وهذه تقتضي التكرار لدى التطبيق، فقابلها التعليمُ الرّبّانيُّ برفضٍ متكرّر، ليُقَابلَ الرّفْضُ صورة العرض، وهذا لوْنٌ بديعٌ من فُنُون البيان، مذوقٌ ومُسْتَعْمَلٌ تلْقائِيًّا في نحو هذا من إجابات الرفض على مثل العرض الذي عَرَضَهُ المشركون.

(٢) ومنها تأكيد الرفض على عادات النّاس في تكرير المفردات والجمل للتأكيد، وله نظائر كثيرة لدى الأدباء والشعراء، وقد نَصَرَهُ الشّوْكَانيّ.

(٣) ومنها حَمْلُ أَحَدِهِمَا على الحال، وحمْلُ الثاني على الاستقبال.

(٤) ومنها حَمْلُ أحَدِهِمَا علَىٰ المعبود، إذا اعتبرنا لفظ «ما» فيه اسم موصول، وحَمْلُ الآخر على نوع العبادة، إذا اعْتَبَرْنا أنّ لفظ «ما» فيه حرْفٌ مصدريٌّ يكُونُ هو وما بَعْدَهُ في تأويل مصدر، أي: لا أعْبُدُ عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي.

(٥) وأضيف وَجْهاً خامساً بَدَا لي، وتفصيله كما يلي:

- **أنّ الجملة الأولى:** ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ هي على معْنَىٰ: لاَ أنْشِئُ أيَّ عِبَادَةٍ لمَا تَعبدُون من شركائِكُمْ، حاضراً ولا مستقبلاً، فالْعَرْض مرفوضٌ كُلُّهُ قَوْلاً واحداً.

- **وأنّ الجملة الثانية:** ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ هي على معنىٰ: أنّكم لو عَبدتُّمُ اللّهَ مَعِي، في النَّوْبَةِ الّتِي تقرّرُونها لعبادته، أو

عَبَدتُّم الله مع عبادتكم شركاءكم، فأنْتُمْ لاَ تَزَالُون على عقيدتكم من الشِّرْك، لذلِكَ فإنكم لاَ تكونون عابدين في الحقيقة مَا أعْبُدُ، لأَنَّ العبادة الصحيحة لله عَزَّ وجلَّ شَرْطها صحَّةُ الاعتقاد، في «لا إلَه إلاّ الله» الّتي تفرض توحيد الإلَهيَّة لله عزّ وجلّ، وهذه غير حاصِلَةٍ لديْكُمْ، فعبادتكُمْ للَّهِ مُنْعَدِمَة، ولو زعَمْتُم أنكُمْ تَفْعَلُونها، ولو صَدَقْتُم في ذلِكَ ولم تُنَافِقُوا.

● وأنّ الجملة الثالثة: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ هي على معنَىٰ: أنّني لو تظَاهَرْتُ لكُمْ بِمُسَايَرَةِ عَرْضِكُمْ لاجْتِذَابكم - على سبيل فرض المحال الذي لا يكون فقد سبَقَ رَفْضُهُ بتًّا - فإنّني لا يُمْكِنُ أنْ أكُون في الحقيقة عابداً ما عبَدتُّمْ، إذْ لا أُومِنُ بشُرَكائكُمْ، فهي في عِلْمي واعتقادي باطل، وعبادَتُها شِرْكٌ بالله، ومُحْبِطٌ للأعْمَالِ، واللَّهُ لاَ يَغْفِرُهُ.

● وأنّ الجملة الرابعة: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ هِيَ علَىٰ معْنَىٰ: أنّكُمْ لو تظاهرتم بعبادة ما أعْبد، فإنّكُمْ في الحقيقة ستكونُون منافقين كاذبين، لا تَعْبُدونَ حَقيقةً ما أعبد، لمخالفة هٰذه العبادة لِمَا تتعلّقُونَ به من شركائكم.

فالموقف الإيمانيّ الإسلاميّ تجاه عرض المشركين الكافرين موقفٌ واضِحٌ مُحَدَّدٌ، لَهُمْ دينُهُمْ، فَلَيْسَ لنا منه شيءٌ يخالِفُ دينَنَا، ولَنَا دِينُنَا، فلَيْسَ لهم منْهُ شَيْءٌ ما دامُوا على شركهم.

● ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾: بحذف ياء المتكلّم، أي: ولِيَ ديني، ومثل هذا الحذف الإيجازيّ في اللّفظ شائع في العربيّة، وله نظائر كثيرة في القرآن المجيد.

بهذا التفصيلِ في دلالات الْجُمَل تكُونُ كُلُّ جُمْلَةٍ ذَاتَ دَلاَلَةٍ خاصَّة، واللَّهُ أعْلَمُ بمراده.

ولا أرَىٰ لزوماً لما ذكره بعْضُ المفسّرين من حمْلِ الخطاب في

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ على أنّه عامٌّ أُرِيدَ به خُصُوصُ من عَلِمَ اللّهُ أنّه سيموتُ كافراً لأن الخطاب للكافرين مقصودٌ به من اتصف بالكفر ما دام كافراً، كما يُقَالُ للعاصي وهو مُتَلَبِّسٌ بالمعصية يا أيُّها العاصي، لكنّه قد يَتُوبُ ويُقْلِعُ عَنْ معصيته، وكما يُقالُ للنائم يا أيُّها النائِمُ استيقظ، فإذا استيقظ لم يَصِحَّ أن يُقَالَ له ذلك، وكذلِكَ إذا آمَنَ الكافر خرجَ من الخطاب بعبارة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ تلقائيًا بإيمانه وليس المقصود بالخطاب أفراداً بأعيانهم يلزمهم الخطاب دواماً، إذ السورة تتحدَّثُ عن المبادئ، ومناسَبَة ما عرضه المشركون على الرسول ﷺ قد استثارت الحديث عن المبدأ حول موضوع العرض، ولم تَنْزل لمعالجةٍ شَخْصِيَّةٍ لأشخاص بأعيانهم فقط.

إنّ عرض بعض كبراء مشركي قريش يتضمّن تأليف دين جديد مختلط من حقٍّ وباطل، في مزيج أو خليط متنافر، تتنافر عناصره أوّلاً، ثمّ تهدأ ليتألَّفَ مِنْهَا باطِلٌ جديد، تضيع عناصر الحقّ فيه وتفسد.

إنّ صراط الحقِّ واضحٌ بيّن، محدّدُ المعالم، مستقيمٌ لا اعْوِجَاجَ فيه، وأيُّ عبَثٍ فيه أو انحرافٍ عنه يجُرُّ إلى الباطل فالتَّهْلُكَةِ لا محالة.

والخطابُ للكافِرين في السُّورة يَتَضَمَّنُ أعْنَفَ مُواجَهَةٍ للمساومين على الباطل، المداهِنين للحقّ، الذين يُفَاوِضُونَ للخلط بين الحقّ والباطل، بغية إقَامَةِ مُصَالَحةٍ توفيقيَّة بين متناقضات لا يمكن اجْتِماعُها، إذْ يَصِفُهم بدون مقدّماتٍ ليّنَةٍ بأنَّهُمْ كافرون، أي: مبطلون يجْحَدُونَ الحقّ، ويسْتُرُونَ جحودهم بالمعاذير الكلامية، والْعِلَلِ السَّاقطة، الّتي لا تَنْهَضُ بها حُجَّةٌ مقبولة.

وتتضمَّنُ هذه المواجهة عدّة مفهومات:

**المفهوم الأول**: أَنَّ ما نُؤْمِنُ بِهِ وَنَدْعُو إليه حقٌّ لاَ شَكَّ فيه، ولا شبْهَةَ حوله.

**المفهوم الثاني**: أَنَّ ما عليه المشركون الكافرون باطل واضح البطلان، دُونَ شكٍّ، وما على الكافرين إلاّ أن ينبذُوه.

**المفهوم الثالث**: إعلام الكافرين بأنّ ما هم عليه باطل حتماً، ولكنَّهُمْ يسْتُرُونَ باطِلَهُمْ بما يَصْطَنِعُونَ بألسنتهم من زيوف، ويسْتُرُونَ الحقَّ وأدلَّتَهُ البرهانيّة بزُخْرُفٍ من القول.

إنّ هذه المساومة الصلحيَّةَ في الدين التي جاء بها فريق من قادة كفّار قريش، أسْلوبٌ شيطانيٌّ خبيث، يُخْفُون فيه مزلقاً من المزالقِ الماكرة الخطيرة، الّتي تفضي إلى وأدِ الحقِّ على أيْدي دُعاته ورُوّادِه، وحَامِلي لوائه، إن استجابوا لها.

وكثيراً ما يَغْتَرُّ بْعضُ الناس بمِثْلِ هذا العرْض، بحُجَّةِ المحافظة على وَحْدَةِ الصَّفّ، وجَمْعِ الكَلِمَة، ودَرْءِ الْفِتَن، وحِمَايَةِ المجتمع من التفكُّكِ تُجَاهَ الأعداء من خارج البلاد، فَيسْتَجِيبون له، منزلقين إلى الباطل فالخيبةِ والخسران المبين.

إنّهم متَىٰ استجابوا منزلقين إلى قبول شيءٍ من الباطل سقطَتْ دعوتهم، وانهارت أبنيتهم الفكريَّة، وبدا لخصومهم أنَّهُمْ أصحاب منافع ومصالح دُنيويَّة، لا أصحاب مبادئ حقٍّ يدعُونَ الناسَ إليها، ويكافِحُونَ من أجْلِها، ولا يَقْبَلُونَ المساومة عليها.

والأمْرُ يشْتَدُّ خطراً حينما تكونُ المساومة والمصالحة على حساب دينٍ ربّانيّ، لاَ يَمْلِكُ الناسُ فيهِ إلاّ الإيمان والاتباع، للظفر بنجاتهم من عذاب الله، والسعادة الخالدة في جنَّات النّعيم.

إنّ المبادئ الحقّ في الحياة لا تَقْبَلُ التّنْصِيف، ولا المساومة عليها، والمصالَحةَ فيها، قطعاً.

ذلك لأنّ أوّل خطوة من خطوات المساومة والمصالحة في أمْرِ

المبادئ والحقائق الاعتقادية، هي أوّل خطوة في طريق الضعف والوهن والانحراف. ولأنّ أيّ تنازل عن جزء من الحقّ الّذي يمثّل وحدة اعتقاديّة متكاملة هو تنازُلٌ عن الحقّ كُلّه، الشامل لكلّ عناصره، مهما كانت الذرائع، إذ المبادئ والحقائق الاعتقاديّة هي الجوهر والأصل الثابت، وما عداها من مصالح شخصيّة أو غايات مرافقات لها فإنَّها خَارِجَةٌ عنها، وغَيْرُ دَاخِلَةٍ في عناصرها.

إنّ وحدة الصف لا ترقى بحالٍ من الأحوال إلى مستوى وحدة المبدأ الحق، فوحدة الصف الذي لا تجمعه وحدةُ مبدأ حقٍّ يَكُوْنُ صَفًّا خليطاً من أصحاب مبادئ متنافرة، وعقائد متباينَة، ومصالح متخالفة، وما أسرع ما تدبُّ خلافات المصالح الفرديّة فيه، فَتُفَكّكُهُ وتمزّقه وتشتّته.

إنّ الذي يقبل المساومة والمصالحة من الحقوق إنما هي الحقوقُ الشخصيَّة، الّتي ترتبط بها مصالح دُنيويّة، فلِلْفَرْدِ أَنْ يُسَاوِمَ وَيُصَالِحَ على حقٍّ مالِيٍّ له، فيتنازل عنه أو عن جُزْءٍ منه، ويسامح بسائره، حرصاً على وحدة الصّفّ، وجَمْعِ الْكَلِمة، واستبقاء الألفة والمحبَّة بين الإخوة.

فالحفاظ على وحدة الصّفّ وجمع الكلمة أَجَلُّ وأَسْمَىٰ من المصالح الشخصيَّة الفردية، وتنازل الفرد عن حقِّه الشخصيّ من أجل وحدة صفّ الجماعة فضيلةٌ خلقيّة عظيمة، وإيثارٌ محمود.

وربّما تحْسُنُ المساومة والمصالحة في الطّرُق المؤديّة إلى الغاية الواحدة المشتركة، إذا اختلفت الاجتهادات في أسْهَلها أو أقربها أو أكثرها سلامةً وأمْناً، مع احتفاظ المتنازل عن العمل باجتهاده في الطرُق والوسائل بما رأىٰ، على أنّه فكرةٌ موقوفة التنفيذ إذْ وافق على العمل برأي غيره، حرصاً على وحدة الصّفّ، الّتي تتكاثَرُ بها الْقُوىٰ لتحقُّقَ الغاية، إذْ لو تفرّقَ أصحابُ الآراء، فَعَمِلَ كلُّ واحد منهم بما رأىٰ في اجتهاده الخاصّ،

لتبَدَّدَتِ الطاقات، وخاب العاملون جميعاً في الوصول إلى الغاية المنشودة لهم جميعاً، أو لفشلوا بسبب تنازعهم، وعلى هذا يُحْمَلُ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

**فَتَفْشَلُوا**: أي: فتَضْعَفُوا وتجبُنُوا.

**وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**: أي: وتذهَبَ قُوَّتُكُمْ، ولا يكونُ لكم النَّصْر والغلبة.

أمّا أصحاب الحقّ الاعتقاديّ، وأصحاب الباطل، فالنزاع قائم بين الفريقين لا محالة، وأيَّةُ محاولة للتوفيق بين الحقّ والباطل، إنّما هيَ تقوية للباطل على الحقّ، وتكثيرٌ لسواده، وتجميع لقواه، حتَّىٰ ينقضّ على البقيّة الباقية من الحقّ فيغتالها.

**وبهذا تمّ بحمد الله وتوفيقه تدبر سورة الكافرون**

❁ ❁ ❁

# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| **المقدمة العامة** | ٥ |
| **مفهومات تتعلّق بالاستعاذة والبسملة** | ٩ |
| (١) الاستعاذة، وتدبرها | ٩ |
| (٢) حكم الاستعاذة قبل القراءة في الصلاة | ١١ |
| (٣) البسملة | ١٢ |
| ● كونها آية من القرآن | ١٣ |
| ● الاختلاف في كون البسملة جزءاً من أوائل سور القرآن باستثناء سورة «براءة» | ١٣ |
| (٤) التدبر التحليلي للبسملة | ١٨ |
| (٥) مناقشة حول كون «اسم» مقحمة في البسملة | ٢٢ |
| (٦) الشرح العام للاستعاذة والبسملة | ٢٥ |
| (٧) من وجوه البلاغة في البسملة | ٢٨ |
| **سورة العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول** | |
| **مقدمات** | ٣١ |
| (١) بحث حول نزولها | ٣١ |
| (٢) نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات | ٣٢ |
| (٣) ما جاء في السنة حول سورة العلق | ٣٣ |
| (٤) موضوع السورة ودروسها | ٣٧ |
| **(٥) التدبر التحليلي للدرس الأول الآيات من (١ ـ ٥) من العلق** | ٤١ |
| ● **﴿إقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾** | ٤١ |
| ● ﴿باسم ربّك﴾ | ٤٢ |
| ● ﴿الذي خلق﴾ | ٤٦ |
| ● ﴿خلق الإنسان من علق﴾ | ٤٧ |
| ● ﴿اقرأ وربّك الأكرم﴾ | ٤٨ |
| ● ﴿الذي علّم بالقلم﴾ | ٤٩ |
| ● ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ | ٥٠ |
| (٦) نظرة إجمالية عامة للدرس الأول | ٥١ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |


**(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثاني الآيات من (٦ ـ ٨) من العلق** ........ ٥٥
- ﴿كلّا إنّ الإنسان ليطغىٰ * أن رآه استغنى﴾ ........ ٥٥
- ﴿إنّ إلى ربّك الرُّجْعىٰ﴾ ........ ٥٨

(٨) نظرة إجمالية عامة للدرس الثاني ........ ٥٩
(٩) التدبر التحليليّ للدرس الثالث من (٩ ـ ١٩) ........ ٦١
- تمهيد ........ ٦٢
- ﴿أرأيت الذي ينهىٰ * عبداً إذَا صلَّىٰ﴾ ........ ٦٣
- ﴿أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى﴾ ........ ٦٥
- ﴿أرأيت إنْ كَذَّبَ وتولّى ﴿١٣﴾﴾ ........ ٦٦
- ﴿ألم يعلم بأن الله يرى ﴿١٤﴾﴾ ........ ٦٦
- ﴿كلاّ لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية...﴾ إلى الآية ١٨ ........ ٦٧
- ﴿كلا لاَ تُطعْه واسجُدْ واقترب ﴿١٩﴾﴾ ........ ٧٠

(١٠) نظرة إجمالية عامّة ........ ٧٠


## سورة المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول


(١) بحث حول نزولها ........ ٧٧
(٢) نص السّورة وما فيها من فرشيات القراءات ........ ٧٨
(٣) ممّا جاء في السنة حول سورة المدثر ........ ٨٠
(٤) موضوع السورة ودروسها ........ ٨١
**(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول الآيات من (١ ـ ٧) من المدثر** ........ ٨٤
- تمهيد ........ ٨٤
- ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر﴾ ........ ٨٥
- ﴿وربك فكبّر﴾ ........ ٨٦
- ﴿وثيابك فطهر﴾ ........ ٨٨
- ﴿والرُّجزَ فاهْجُرْ﴾ ........ ٨٨
- ﴿ولا تمنن تستكْثِر﴾ ........ ٨٩
- ﴿ولرَبّك فاصْبِرْ﴾ ........ ٩١

(٦) نظرة إجمالية عامّة للدرس الأول ........ ٩١
**(٧) التدبر التحليلي للدرس الثاني. الآيات من (٨ ـ ١٠) من (المدثر)** ........ ٩٢
- ﴿فإذا نُقِرَ في الناقور﴾ ........ ٩٢
- ﴿فذلك يومئذٍ يوم عسير * على الكافرين غير يسير﴾ ........ ٩٤

**(٨) التدبر التحليلي للدرس الثالث. (الآيات من (١١ ـ ٣٧)** ........ ٩٥
- ما ورد في سبب النزول﴾ ........ ٩٦
- ﴿ذَرْني ومن خلقتُ وحيداً﴾ ........ ٩٩

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| ● ﴿وجعلت له مالاً مَمْدوداً﴾ | ١٠١ |
| ● ﴿وبنين شهوداً﴾ | ١٠٢ |
| ● ﴿ومهّدتُ له تمهيداً﴾ | ١٠٢ |
| ● ﴿ثم يطمع أن أزيدَ﴾ | ١٠٣ |
| ● ﴿كلاّ إنَّهُ كان لآياتنا عَنِيداً﴾ | ١٠٤ |
| ● ﴿سأرهقه صعوداً﴾ | ١٠٥ |
| ● ﴿إنّه فكّرَ وقَدَّر * فقُتِلَ كيف قَدَّر﴾ وحتى الآية ٢٥ | ١٠٦ |
| ● ﴿سأصليه سقَر﴾ وحتى الآية ٣٠ | ١٠٩ |
| ● ﴿عليها تسعة عشر﴾ | ١١١ |
| ● ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة﴾ | ١١٣ |
| ● ﴿وما هي إلاّ ذكرى للبشر﴾ | ١٢١ |
| ● ﴿كلاّ والقمر * والليل إذْ أدبر﴾ وحتى الآية ٣٧ | ١٢٣ |
| ● ﴿والليل إذْ أدبر﴾ | ١٢٤ |
| ● ﴿والصبح إذا أسفر﴾ | ١٢٤ |
| ● ﴿إنّها لإحْدَىٰ الكُبَر * نذيراً للبشر﴾ | ١٢٥ |
| ● ﴿لمن شاء منكم أن يتقدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ | ١٢٦ |
| **(٩) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (المدثر) الآيات من (٣٨ ـ ٤٨)** | ١٢٧ |
| ● نظرة عامة حول هذا الدرس | ١٢٧ |
| ● ﴿كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ رهينة * إلاّ أصحاب اليمين﴾ | ١٢٩ |
| ● ﴿في جنَّاتٍ يتساءلُون * عن المجرمين﴾ | ١٣١ |
| ● ﴿مَا سَلَكَمْ في سَقَرَ﴾ وحتى الآية ٤٧ | ١٣٢ |
| ● ﴿ولم نَكُ نُطعم المسكين﴾ | ١٣٣ |
| ● ﴿وكنّا نخوض مع الخائضين﴾ | ١٣٤ |
| ● ﴿وكُنّا نكذّب بيوم الدّين﴾ | ١٣٥ |
| ● ﴿حتَّىٰ أتانا اليقين﴾ | ١٣٦ |
| ● ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ | |
| **(١٠) التدبّر التحليلي للدرس الخامس من المدثر الآيات من (٤٩ ـ ٥٦)** | ١٣٦ |
| ● نظرة عامّة حول هذا الدرس | ١٣٧ |
| ● ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ | ١٣٩ |
| ● ﴿كأنّهم حُمُرٌ مستنفرة * فَرّت من قسورة﴾ | ١٤٠ |
| ● ﴿بل يريد كلُّ امرئ منهم أنْ يُؤتَىٰ صُحُفاً منشَّرَةً * كلاَّ بل لا يخافون الآخرة﴾ | ١٤٢ |
| ● ﴿كلاّ إنّه تذكرة * فمَنْ شاء ذكره﴾ | ١٤٣ |
| ● ﴿وَما يذكرون إلاّ أن يشاء اللّه﴾ | ١٤٤ |

الموضوع — الصفحة


● ﴿... هو أهل التقوىٰ وأهل المغفرة﴾ ........ ١٤٤
● بيان أدبيّ حول مضامين الدرس الخامس ........ ١٤٥


## سورة المزّمل
## / ٧٣ مصحف/ ٣ نزول


(١)● بحث حول نزولها ........ ١٥١
(٢)● نصّ السورة وما فيهما من فرشيات القراءات والآيات المدنية منها ........ ١٥٣
(٣) موضوع السورة ........ ١٥٥
(٤) بيان دروس السورة ........ ١٥٦
**(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول منها الآيات من (١ ـ ١١)** ........ ١٥٦
● ﴿يا أيها المزمّل﴾ ........ ١٥٧
● ﴿قم اللّيل إلاّ قليلاً﴾ ........ ١٥٨
● ﴿نصفه أو انقص منه قليلاً﴾ ........ ١٥٩
● ﴿أو زد عليه ورَتّل القرآن ترتيلاً﴾ ........ ١٦٠
● ﴿إنّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ ........ ١٦١
● ﴿إنّ ناشئة اللّيل هي أشدّ وطئاً وأقوم قيلاً﴾ ........ ١٦٤
● ﴿إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ ........ ١٦٦
● ﴿واذكر اسم ربّك وتبتّلْ إليه تبتيلاً * رَبّ المشرق والمغرب لا إلٰه إلاّ هو فاتخذْهُ وكيلاً﴾ ........ ١٦٨
● ﴿واصْبِر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾ ........ ١٧١
● ﴿وَذَرني والمكذبين أولي النعمة ومهّلهم قليلاً﴾ ........ ١٧٤
● خلاصة الدرس الأول ........ ١٧٥
**(٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس (المزمل) الآيات من (١٢ ـ ١٩)** .
● مقدمة﴾ ........ ١٧٦
● ﴿إنّ لدينا أنكالاً وجحيماً﴾ ........ ١٧٦
● ﴿وطعاماً ذا غُصّة﴾ ........ ١٧٧
● ﴿وعذاباً أليماً﴾ ........ ١٧٩
● ﴿يوم ترجف الأرض والجبال...﴾ ........ ١٧٩
● ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ ........ ١٨٠
● ﴿إنّا أرسَلْنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم...﴾ ........ ١٨١
● ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ ........ ١٨٢
● ﴿فعصَىٰ فرعَوْنَ الرّسُول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ وحتى الآية ١٨ ........ ١٨٢
●﴿إنّ هذه تذكرة فمن شآء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴿١٩﴾﴾ ........ ١٨٦
**(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة الآية (٢٠)** ........ ١٨٧

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| ● مقدمة | ١٨٧ |
| ● تدبر النصّ | ١٨٨ |
| ● حكمة النسخ في أحكام الدّين | ١٩٣ |
| **سورة القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول** | |
| (١) نصّ السّورة وما فيها من فرشيات القراءات | ١٩٧ |
| (٢) موضوع السورة | ١٩٩ |
| (٣) بيان دُرُوس السورة | ٢٠٣ |
| **(٤) التدبر التحليلي للدرس الأول من سورة القلم الآيات من (١ ـ ١٦)** | ٢٠٤ |
| ● حروف التهجي في بعض أوائل السور بمناسبة (ن) والقلم | ٢٠٥ |
| ● ﴿..والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ | ٢٠٨ |
| ● ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غير ممنون﴾ | ٢١٣ |
| ● ﴿وَإِنَّكَ لعلى خلق عظيم﴾ | ٢١٣ |
| ● ﴿فستبصر ويبصرون * بأيكم المفتون﴾ | ٢١٤ |
| ● ﴿إِنَّ رَبَّكَ هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (٧)﴾ | ٢١٥ |
| ● ﴿فلا تطع المكذبين * ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾ | ٢١٦ |
| ● ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حلّافٍ مهين﴾ وحتى الآية ١٦ | ٢٢٦ |
| ● ﴿ ولا تطع كلّ حلّاف مهين﴾ | ٢٢٧ |
| ● ﴿همّاز مشّاءٍ بنميم﴾ | ٢٢٨ |
| ● ﴿مناعٍ للخير معتدٍ أثيم﴾ | ٢٢٩ |
| ● ﴿عُتُلّ بعد ذلك زنيم﴾ | ٢٣٠ |
| ● ﴿أَنْ كان ذا مالٍ وبنين * إذا تُتْلَى عليه آيَاتُنا قال أساطير الأولين﴾ | ٢٣١ |
| ● ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ | ٢٣٢ |
| **(٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني من سورة القلم الآيات من (١٧ ـ ٣٣)** | ٢٣٣ |
| ● درس مدنيُّ التنزيل | ٢٣٤ |
| ● ﴿إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة... (١٧)... (١٨)﴾ | ٢٣٥ |
| ● ﴿فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم﴾ | ٢٣٧ |
| ● ﴿فتنادَوا مصبحين... (٢١).... (٢٤)﴾ | ٢٣٨ |
| ● ﴿وغدَوا على حَرْدٍ قادرين (٢٥).... (٢٧)﴾ | ٢٤٠ |
| ● ﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحونَ (٢٨)... (٣٢)﴾ | ٢٤٢ |
| ● ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون (٣٠)... (٣٢)﴾ | ٢٤٤ |
| ● ﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلَمُون (٣٣)﴾ | ٢٤٥ |
| **(٦) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس القلم الآيات من (٣٤ ـ ٤٧)** | ٢٤٦ |
| ● تمهيد | ٢٤٧ |

الموضوع الصفحة


• ﴿إنّ للمتقين عند ربّهم جنّات النعيم﴾ ........ ٢٤٧
• ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون﴾ ........ ٢٤٨
• ﴿أم لكم كتابٌ فيه تدرسون * إنَّ لكم فيه لما تخيّرون﴾ ........ ٢٥١
• ﴿أم لكم أيمانٌ علينا بالغة إلى يوم القيامة إنّ لكم لَما تحكمون * سلهم أيُّهُم بذلك زعيم﴾ ........ ٢٥٢
• ﴿أم لهم شركاء فليأتُوا بشركائهم إن كانوا صادقين (٤١)﴾ ........ ٢٥٣
• ﴿يوم يكشف عن ساقٍ ويُدْعَونَ إلى السجود فلا يستطيعون﴾ وحتى الآية ٤٣ ... ٢٥٤
• ﴿ذرني ومن يكذّب بهذا الحديث سنستدرجم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إنَّ كيدي متين (٤٥)﴾ ........ ٢٥٧
• ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون (٤٧)﴾ .. ٢٦١
**(٧) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة القلم الآيات من (٤٨ ـ ٥٠)** ...... ٢٦٥
• درس مدني التنزيل ........ ٢٦٥
• ﴿فاصبر لحكم ربّك...﴾ ........ ٢٦٧
• ﴿ولا تكن كصاحب الحوت...﴾ ........ ٢٦٨
• ﴿إذْ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمةٌ من ربّه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه ربّه فجعله من الصالحين﴾ ........ ٢٦٩
**(٨) التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة القلم الآيتان الأخيرتان من السورة (٥١ ـ ٥٢)** ........ ٢٧١
• تمهيد ........ ٢٧١
• ﴿وإنْ يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ ........ ٢٧١
• ﴿ومَا هو إلاّ ذكر للعالمين﴾ ........ ٢٧٣
• تأثير الإصابة بالعين ........ ٢٧٣


## سورة الفاتحة / ١ مصحف/ ٥ نزول


(١) مقدمة حول تسميتها ........ ٢٧٩
(٢) نص السورة وما فيها من فرشيات القراءات ........ ٢٨١
(٣) ما جاء في السنة بشأن فضائل سورة الفاتحة ........ ٢٨٢
(٤) موضوع سورة الفاتحة ........ ٢٨٥
(٥) التدبر التحليلي للسورة ........ ٢٨٧
**أولاً: تدبر ما تحت العنوان الأول من الكليات الكبرى للسورة** ........ ٢٨٧
• ﴿الحمد لله رب العالمين * الرحمٰن الرحيم * مالك يوم الدين﴾ ........ ٢٨٧
**ثانياً: تدبر ما تحت العنوان الثاني من الكليات الكبرى للسورة** ........ ٢٩٧
• ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ........ ٢٩٧

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| ● العبادة في مفهوم الدين الربّاني الحق | ٢٩٨ |
| **ثالثاً: تدبر ما تحت العنوان الثالث من الكليات الكبرى للسورة** | ٣٠٠ |
| ● ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ | ٣٠١ |
| رابعاً: **تدبّر ما تحت العنوان الرابع من الكليات الكبرى لسورة الفاتحة** | ٣٠٣ |
| ● ﴿صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين﴾ | ٣٠٣ |
| ● إطلاق لفظ النعمة في القرآن على الرسالة وعلى الدين | ٣٠٨ |
| ● ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ | ٣١٠ |
| ملاحق سورة الفاتحة | ٣١٣ |
| (٦) الملحق الأول: حول كلمة «آمين» بعد تلاوة الفاتحة | ٣١٣ |
| (٧) الملحق الثاني: ممّا جاء في سورة الفاتحة من بلاغيّات | ٣١٥ |
| (٨) الملحق الثالث: وجوب تلاوة «الفاتحة» في الصلاة | ٣١٦ |
| (٩) الملحق الرابع: نظرات تدبريّة حول الآيات التي جاء فيها لفظ «سبيل ـ طريق ـ منهاج ـ صراط» | ٣١٩ |
| **أولاً**: مادّة «سبيل» | ٣٢١ |
| **ثانياً**: مادّة «طريق» | ٣٢٨ |
| **ثالثاً**: كلمة «منهاج» | ٣٢٩ |
| رابعاً: كلمة «صراط» | ٣٣٩ |
| **سورة المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول** | |
| (١) نصّ سورة المسد وما فيها من قراءات من الفرش | ٣٧٧ |
| (٢) سبب نزول السورة | ٣٧٧ |
| (٣) موضوع سورة «المسد» | ٣٨١ |
| (٤) التدبر التحليلي للسورة | ٣٨٣ |
| ● ﴿تبت يدا أبي لهب وتبّ﴾ | ٣٨٤ |
| ● ﴿ما أغنىٰ عنه ماله وما كسب﴾ | ٣٨٦ |
| ● ﴿سيصلَىٰ ناراً ذات لهبٍ﴾ | ٣٨٧ |
| ● ﴿وامرأته حمّالةَ الحطب * في جيدها حبْلٌ من مَسَدِ | ٣٨٨ |
| **سورة التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول** | |
| (١) السورة وما فيها من القراءات من الفرش | ٣٩٥ |
| (٢) ممّا روي عن النبي ﷺ بشأن سورة التكوير | ٣٩٦ |
| (٣) موضوع سورة التكوير ودُروسها | ٣٩٧ |
| **(٤) التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة الآيات من (١ ـ ٦)** | ٣٩٩ |
| **أولاً**: الآيات من (١ ـ ٦) | ٣٩٩ |
| تمهيد | ٣٩٩ |

الموضوع | الصفحة


• ﴿إذا الشمس كُوِّرت﴾ ........ ٤٠٠
• ﴿وَإذا النجوم انكدَرت﴾ ........ ٤٠٢
• ﴿وإذا الجبال سُيِّرَت﴾ ........ ٤٠٣
• الأحداث التي ستتعرّض لها الجبال (أخذاً من القرآن) ........ ٤٠٣
• ﴿وإذا العشار عُطِّلت﴾ ........ ٤٠٧
• ﴿وإذا الوحوش حُشِرَت﴾ ........ ٤٠٨
• ﴿وَإذا البحار سُجِّرَت﴾ ........ ٤٠٨
ثانياً: الآيات من (٧ ـ ١٤) ........ ٤٠٩
• ﴿وَإذا النفوسُ زُوِّجت﴾ ........ ٤١٠
• ﴿وَإذا الموؤودة سئلت * بأيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ ........ ٤١٠
• ﴿وَإذا الصُّحُف نُشرَت﴾ ........ ٤١٢
• ﴿وَإذا السَّماء كُشِطَت﴾ ........ ٤١٣
• ﴿وإذا الجحيم سُعِّرَت﴾ ........ ٤١٣
• ﴿وإذا الجنة أزلِفت﴾ ........ ٤١٤
• جواب الشرط المتكرِّر: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ ........ ٤١٥
• أفكار مطوية بين درسَي السورة ........ ٤١٦
**(٥) التدبّر التحليليّ للدرس الثاني من دروس سورة التكوير الآيات من (١٥ ـ ٢٩)** ........ ٤١٨
تمهيد ........ ٤١٨
• ﴿فلا أقسم بالْخُنَّس * الجوار الكنس﴾ ........ ٤١٨
• ﴿والّليل إذا عَسْعَس﴾ ........ ٤٢٢
• ﴿والصُّبح إذا تنفّس﴾ ........ ٤٢٢
• ﴿إنَّهُ لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاعٍ ثَمَّ أمين﴾ ........ ٤٢٣
• ﴿وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين﴾ ........ ٤٢٥
• ﴿وَما هو بقول شيطان رجيم﴾ ........ ٤٢٨
• ﴿فأيْنَ تذهبون﴾ ........ ٤٢٩
• ﴿إن هو إلاّ ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله ربّ العالمين﴾ ........ ٤٢٩


## سورة الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول


(١) نصّ السّورة وما فيها من قراءات من الفرش ........ ٤٣٥
(٢) ممّا رُوي عن النبي ﷺ بشأن سورة الأعلى ........ ٤٣٦

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

(٣) تتابع التوجيه التربوي لذكر الله حتى نزول سورة الأعلى ........ ٤٣٧
(٤) دروس سورة الأعلى ووحدة موضوعها ........ ٤٤٠
**(٥) التدبّر التحليليّ للدرس الأول من دروس سورة الأعلى الآيات من (١ ـ ٥)** ........ ٤٤٢
● ﴿سبّح اسم ربّك الأعلى * الذي خلق فسوّى * والذي قدّر فهدى﴾ ... ٤٤٣
● ﴿والذي أخرج المرعى * فجعله غُثَاءً أحوى﴾ ........ ٤٥٠
**(٦) التدبّر التحليليّ للدرس الثاني من دروس سورة الأعلى الآيات من (٦ ـ ٨)** ........ ٤٥١
● ارتباط هذا الدرس الثاني بالدرس الأوّل ........ ٤٥١
● ﴿سنقرئك فلا تنسَىٰ * إلاّ ما شاء الله إنّه يعلم الجهر وما يخفىٰ﴾ ..... ٤٥٣
● ﴿ونيسّرُكَ لليُسْرَىٰ﴾ ........ ٤٥٥
**(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة الأعلى الآيات من (٩ ـ ١٥)** ٤٥٧
● ﴿فذكّر إن نفعت الذّكرى﴾ ........ ٤٥٧
● ﴿سيذّكر من يخشىٰ﴾ ........ ٤٦٠
● ﴿ويتجنبها الأشقى * الذي يصْلَىٰ النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيىٰ﴾ .. ٤٦١
● ﴿قَدْ أفلح من تزكّىٰ * وذكر اسم ربه فصلّى﴾ ........ ٤٦٣
**(٨) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من السورة. الآيات من (١٦ ـ ١٩)** ........ ٤٦٤
● ﴿بل تُؤثرونَ الحياة الدّنيا﴾ ........ ٤٦٤
● ﴿والآخرة خيرٌ وأبقىٰ﴾ ........ ٤٦٥
(٩) ملحق بالسورة حول التسبيح في القرآن ........ ٤٦٧
● اشتقاق مادّة التسبيح ........ ٤٦٩
● التسبيح دواء نافع للنفوس والأعصاب ........ ٤٧٠
● وصايا الله لرسوله بالتسبيح ........ ٤٧١
● تسبيح الكائنات ........ ٤٧٤

## سورة اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول

(١) السورة وما فيها من قراءات من الفرش ........ ٤٨٣
(٢) ممّا ورد من أحاديث حول هذه السورة ........ ٤٨٤
(٣) دروس سورة اللّيل ووحدة موضوعها ........ ٤٨٤
**(٤) التدبر التحليليّ للدرس الأول من دروس سورة اللّيل الآيات من (١ ـ ٤)** .. ٤٨٧
تمهيد ........ ٤٨٧
● ﴿واللّيل إذا يغشى * والنّهار إذا تجلّى﴾ ........ ٤٨٨
● ﴿وما خلق الذكر والأنثىٰ﴾ ........ ٤٨٩
● ﴿إنّ سعيكم لشتّىٰ﴾ ........ ٤٨٩
**(٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة اللّيل الآيات من (٥ ـ ١١)** ........ ٤٩٢
تمهيد ........ ٤٩٢

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

● ﴿فأمّا من أعطىٰ واتّقىٰ﴾ .......... ٤٩٤
● ﴿وَصدّق بالحسْنَىٰ﴾ .......... ٤٩٥
● ﴿فسنيسّره لليُسْرىٰ﴾ .......... ٤٩٦
● ﴿وأمّا من بَخِلَ واستغنى * وكذّب بالْحُسْنَىٰ * فسنيسّره للعسرى * وما يغني عنه ماله إذا تردّى﴾ .......... ٤٩٧
(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة اللّيل الآيات من (١٢ ـ ٢١) .......... ٤٩٩
تمهيد .......... ٤٩٩
● ﴿إنّ علينا للهدىٰ﴾ .......... ٥٠٠
● ﴿وإنّ لنا للآخرة والأولى﴾ .......... ٥٠١
● ﴿فأنذرتكم ناراً تلظّىٰ * لا يصلاها إلاّ الأشقى * الذي كذّب وتولّىٰ﴾ .......... ٥٠١
● ﴿وسيُجنّبها الأتقى﴾ وحتى آخر السورة ٢١ .......... ٥٠٢
(٧) ملحق حول بلاغيات في سورة اللّيل .......... ٥٠٥

**سورة الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول**

(١) نص السورة وما فيها من قراءات من الفرش .......... ٥١١
(٢) ممّا ورد مما يتعلق بسورة الفجر .......... ٥١٣
(٣) دروس سورة الفجر ووحدة موضوعها .......... ٥١٣
(٤) التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة الفجر الآيات من (١ ـ ١٤) .......... ٥١٦
● القراءات .......... ٥١٧
● المراد بالأزمنة التي أقسم اللّه بها في السورة .......... ٥١٨
● ﴿والفجر * وليالٍ عشر * والشفع والوتر ﴾ .......... ٥٢٣
● ﴿والليل إذا يسْرِ﴾ .......... ٥٢٣
● ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ .......... ٥٢٥
● ﴿ألم تر كيف فعل ربُك بعادٍ * إرَمَ ذات العماد﴾ .......... ٥٢٦
● ﴿الّتي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ .......... ٥٢٨
● ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ .......... ٥٢٨
● ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ .......... ٥٢٨
● ﴿الّذين طغَوْا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد﴾ .......... ٥٢٨
● ﴿فصبّ عليهم ربُك سَوْط عذابِ﴾ .......... ٥٢٩
● ﴿إنّ رَبّك لبالمرصاد﴾ .......... ٥٣٠
(٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني من سورة الفجر الأيتان (١٥ و١٦) وكلمة (كلا) من الآية (١٧) .......... ٥٣١
● القراءات .......... ٥٣١
● تمهيد .......... ٥٣١

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| ● ﴿فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّهُ فأكرمه ونعَّمه فيقول ربي أكْرَمَنِ﴾ | ٥٣٢ |
| ● ﴿وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانَنِ * كلاّ...﴾ | ٥٣٥ |
| **(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس سورة الفَجر الآيات من (١٧ ـ ٢٠) وكلمة «كلا» من الآية (٢١)** | ٥٣٥ |
| ● القراءات | ٥٣٦ |
| ● تمهيد | ٥٣٦ |
| ● ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ | ٥٣٧ |
| ● ﴿ولا تحاضُّون على طعام المسكين﴾ | ٥٣٧ |
| ● ﴿وَتأكلون التراث أكلاً لمّاً﴾ | ٥٣٨ |
| ● ﴿وتحبّون المال حُبًّا جمّاً﴾ | ٥٣٩ |
| ● ﴿كلاَّ﴾ | ٥٣٩ |
| **(٧) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة الفجر الآيات من (٢١ ـ ٣٠)** | ٥٣٩ |
| ● القراءات | ٥٤٠ |
| ● تمهيد | ٥٤٠ |
| ● ﴿.. إذا دُكّت الأرض دكًّا دكًّا﴾ | ٥٤٠ |
| ● ﴿وجاء رَبُّك والملك صفّاً صفّاً﴾ | ٥٤١ |
| ● ﴿وجيء يومئذٍ بجهنّم...﴾ | ٥٤٢ |
| ● ﴿.. يومئذ يتذكّر الإنسان وأنّىٰ له الذكرىٰ﴾ | ٥٤٣ |
| ● ﴿يقول يا ليتني قدَّمت لحياتي﴾ | ٥٤٤ |
| ● ﴿فيومئذٍ لا يعذّب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقَه أحد﴾ | ٥٤٦ |
| ● ﴿يا أيّتها النفس المطمئنّة * ارجعي إلى ربّك راضية مَرْضيّة * فادخل في عبادي * وادْخُلي جنتي﴾ | ٥٤٧ |
| **(٨) ملحق حول بلاغيات في سورة الفجر** | ٥٥٠ |


## سورة الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| (١) نصّ السورة | ٥٥٥ |
| (٢) مما جاء في السنة حول سورة الضحى | ٥٥٥ |
| (٣) مواقف العداء ضدّ الرسول ودعوته في مراحل التنزيل حتى نزول سورة الضحى | ٥٥٦ |
| (٤) موضوع سورة الضحى ودروسها | ٥٥٩ |
| **(٥) التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة الضحى الآيات من (١ ـ ٥)** | ٥٦٠ |
| ● ﴿والضحى * واللّيل إذا سَجَى﴾ | ٥٦٠ |
| ● ﴿والليل إذا سَجَىٰ﴾ | ٥٦٢ |
| ● ﴿ما ودّعك رَبُّك وما قَلَىٰ﴾ | ٥٦٣ |
| ● ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ | ٥٦٣ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |


● ﴿وَلسوف يعطيك ربُّك فترضىٰ﴾ ............ ٥٦٤
**(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة الضحى الآيات من (٦ ـ ٨)** ....... ٥٦٥
● ﴿ألم يجدك يتيماً فآوَىٰ * ووجَدَك ضالاً فَهدى * ووجدك عائلاً فأغنَىٰ﴾
● ﴿ألم يجدْك يتيماً فآوى﴾ ............ ٥٦٦
● ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ ............ ٥٦٧
● ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ ............ ٥٦٨
**(٧) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة الضحى الآيات من (٩ ـ ١١)** .... ٥٦٩
تمهيد ............ ٥٧٠
● ﴿فأمّا اليتيم فلا تقهر﴾ ............ ٥٧٠
● ﴿وَأمّا السّائل فلا تنهر﴾ ............ ٥٧٢
● ﴿وَأمّا بنعمة ربّك فحدّث﴾ ............ ٥٧٣
(٨) الملحق الأول: حول إسناد فعل «وجَدَ يجد» إلى الله في القرآن ......... ٥٧٦
(٩) الملحق الثاني: حول بلاغيات في سورة الضحى ............ ٥٧٩

## سورة الشرح/ ٩٤ مصحف/ ١٢ نزول

(١) نص السورة وما فيها من فرشيات القراءات ............ ٥٨٣
(٢) موضوع السورة ............ ٥٨٣
**(٣) التدبر التحليلي لآيات سورة الشرح** ............ ٥٨٤
● ﴿ألم نشرح لك صدْركَ﴾ ............ ٥٨٤
ـ شرح الصدر بمعنى شقه وإخراج حظّ الشيطان منه ............ ٥٨٥
ـ شرح الصدر بمعنى البسط والتوسعة وإزالة الضيق ............ ٥٨٨
● ﴿ووضعنا عنك وِزْرَك * الذي أنقض ظهرك﴾ ............ ٥٩٠
● ﴿ورفعنا لك ذكْرَكَ﴾ ............ ٥٩٣
● ﴿فإنَّ مَعَ الْعُسْر يُسْراً * إنَّ مع العسر يُسْراً﴾ ............ ٥٩٤
● ﴿فإذا فَرَغْتَ فَانصبْ﴾ ............ ٥٩٥
● ﴿وإلى ربّك فارغَبْ﴾ ............ ٥٩٦
(٤) ما يستفاد للدّعوة والدّعاة من سورتي الضحى والشرح ............ ٥٩٧
(٥) ملحق حول بلاغيات في سورة الشرح ............ ٦٠٠

## سورة العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول

(١) نصّ السورة ............ ٦٠٥
(٢) مما ورد من آثار بشأن سورة العصر ............ ٦٠٥
(٣) موضوع سورة العصر ............ ٦٠٦
(٤) البناء الفكريّ التدرُّجي في سوابق نجوم التنزيل حتى نزول سورة العصر ... ٦٠٦
**(٥) التدبّر التحليلي لآيات سورة العصر** ............ ٦٠٧

الموضوع | الصفحة

● ﴿والعصر * إنّ الإنسان لفي خُسْر﴾ ........ ٦٠٧
● ﴿إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصَوْا بالصَّبْر﴾ ... ٦١١
**(٦) نظرة عامّة إلى الوقت** ........ ٦١٧
(٧) الملحق الأول: حول بلاغيات في سورة العصر ........ ٦١٨
(٨) الملحق الثاني: الإنسان مملكة ........ ٦٢٠

## سورة العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول

(١) نصّ السورة ........ ٦٢٧
(٢) ممّا روي بشأن سورة العاديات ........ ٦٢٧
(٣) موضوع سورة العاديات ........ ٦٢٨
**(٤) التدبّر التحليلي لآيات سورة العاديات** ........ ٦٢٩
● ﴿والعاديات ضبحاً﴾ ........ ٦٣٠
● ﴿فالموريات قدحاً﴾ ........ ٦٣١
● ﴿فالمغيرات صبْحاً﴾ ........ ٦٣٢
● ﴿فأثَرْنَ به نقعاً﴾ ........ ٦٣٣
● ﴿فوسَطْنَ به جمعاً﴾ ........ ٦٣٣
● ﴿إنّ الإنسان لربّه لكنود﴾ ........ ٦٣٥
● ﴿وَإنّه على ذلك لشهيد﴾ ........ ٦٣٦
● ﴿وَإنّه لحبّ الخير لشديد﴾ ........ ٦٣٦
● ﴿أفلا يعلم إذا بُعْثر ما في القبور﴾ ........ ٦٣٨
● ﴿وحُصّل ما في الصدور﴾ ........ ٦٣٩
● ﴿إنَّ ربّهم بهم يومئذٍ لخبير﴾ ........ ٦٣٩
**(٥) نظرة عامّة إلى سورة العاديات** ........ ٦٤٠
(٦) ملحق حول بلاغيات في سورة العاديات ........ ٦٤٤

## سورة الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول

(١) نص السورة ........ ٦٤٩
(٢) مما رُوي بشأن هذه السورة وسبب نزولها ........ ٦٤٩
(٣) موضوع سورة الكوثر ........ ٦٥٢
(٤) سلسلة القذائف الإعلامية الموجهة ضد الرسول منذ بدء التنزيل حتى نزول سورة الكوثر ........ ٦٥٣
**(٥) التدبّر التحليليّ لآيات سورة الكوثر** ........ ٦٥٥
● ﴿إنَّا أعطيناك الكوثر﴾ ........ ٦٥٥
● ﴿فصَلّ لربّك وانْحَرْ﴾ ........ ٦٥٧
● ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾ ........ ٦٥٩

الموضوع الصفحة

## سورة التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول


(١) نص السورة وما فيها من فرشيات القراءات ........ ٦٦٣
(٢) مما رُوي بشأن هذه السورة ........ ٦٦٤
(٣) موضوع السورة ودروسها ........ ٦٦٤
**(٤) التدبّر التحليلي لآيات الدرس الأول من سورة التكاثر** ........ ٦٦٦
● ﴿ألهاكم التكاثر * حتّىٰ زرتم المقابر﴾ ........ ٦٦٦
● التكاثر الملهي من الفانيات الصارف عن العمل للنعيم الخالد ........ ٦٦٨
● استعمال صيغة الفعل الماضي في الآيتين (١ ـ ٢) ........ ٦٧٢
**(٥) التدبر التحليلي لآيات الدرس الثاني من دروس سورة التكاثر الآيات من (٣ ـ ٨)** . ٦٧٢
● ﴿كلاَّ سَوْفَ تعلمون﴾ ........ ٦٧٣
● ﴿ثمّ كلا سوف تعلمون﴾ ........ ٦٧٣
● مراتب العلم الثلاث وأدلّتها ........ ٦٧٣
● ﴿كلاّ لو تعلمون علم اليقين﴾ ........ ٦٧٨
● ﴿لترَوُنّ الجحيم﴾ ........ ٦٧٩
● ﴿ثم لتروُنّها عيْنَ اليقين﴾ ........ ٦٨٠
● ﴿ثم لتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عن النعيم﴾ ........ ٦٨٠
● ترابط دَرْسَي السورة ........ ٦٨٢
(٦) ملحق حول بلاغيات في سورة التكاثر ........ ٦٨٤


## سورة الماعون/ ١٠٧ مصحف/ ١٧ نزول


(١) نص السورة ........ ٦٨٧
(٢) موضوع سورة الماعون ........ ٦٨٧
(٣) سوابق الحديث عن الجزاء الرَّبّاني في نجوم التّنزيل ........ ٦٨٨
**(٤) التدبر التحليلي لآيات سورة الماعون** ........ ٦٩٠
● ﴿أرأيت الذي يكذّب بالدّين﴾ ........ ٦٩٠
● ﴿فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم * ولا يحضّ على طعام المسكين﴾ ........ ٦٩٠
● ﴿فويل للمصلّين * الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ ........ ٦٩٣
● ﴿الذين هم يراءون﴾ ........ ٦٩٥
● ﴿ويمنعون الماعون﴾ ........ ٦٩٦
(٥) بلاغيات في سورة الماعون ........ ٦٩٧


## سورة الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول


(١) نصّ السورة وفرشيات القراءات فيها ........ ٧٠١
(٢) ممّا ورد في سبب نزول السّورة ........ ٧٠١
(٣) ممّا ورد في فضائل السورة ........ ٧٠٣

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

**(٤) التدبر التحليلي لآيات سورة الكافرون** ........................ ٧٠٤
- ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ................................ ٧٠٤
- ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ ................................ ٧٠٥
- ﴿لا أعبد ما تعبدون ❊ ولا أنتم عابدون ما أعبد❊ ولا أنا عابد ما عبدتم ❊ ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ ................................ ٧٠٨
- ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ ................................ ٧٠٩

❊ ❊ ❊

# مَعارِجُ التَّفكُّرِ
# وَدَقائِقُ التَّدبُّرِ

الطّبْعَة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

حُقوق الطبْع محْفوظة للمؤلِّف

تُطلب جميع كتبنا مِن :
دَار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَار البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

# مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تفسيرٌ تدبُّريٌّ للقرآنِ الكريمِ بحسبِ ترتيبِ النُّزولِ
وِفْقَ منهجِ كتابِ «قواعدِ التَّدبُّرِ الأمثلِ لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ»

## المجلَّدُ الثَّاني

تَفْسِيرُ سُوَر

الفِيل (١٩) - الفَلَق (٢٠) - النَّاس (٢١) - الإخْلَاص (٢٢) - النَّجْم (٢٣)
عَبَسَ (٢٤) - القَدْر (٢٥) - الشَّمْس (٢٦) - البُرُوج (٢٧) - التِّين (٢٨)
قُرَيْش (٢٩) - القَارِعَة (٣٠) - القِيَامَة (٣١) - الهُمَزَة (٣٢) - المرسلات (٣٣)

عبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

# سُورَةُ الفِيل

١٠٥ مصحف ١٩ نزول

## (١)
## نصّ السورة
## سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾
أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن
سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

## (٢)
## معاني مفردات لغويّة

**كيدَهُمْ**: الكيد: التدبير الخفيّ أو الظاهر بحقٍّ أو بباطل، وفيه مكروهٌ لِمَنْ كانَ ضِدَّهُ. والكيدُ: الحرْبُ، وإعْدادُ وَسَائِلِهِ، والاحتيالُ والاجتهاد، وتدبير الأمور وإعداد الوسائل لتحقيق مطلوب ما.

**في تَضْليل**: أي: في مُحِيطٍ من الضياع والهلاك. **ضَلَّلَهُ**: أي: ضيّع مسعاه، وأفْسَد تدبيره، وأبطل كيْدَه، وأهلكه.

**أَبابيل**: أي: جَمَاعَات متلاحقات يَتْبَعُ بَعْضُها بعضاً.

**من سجيل**: أي: من طين متحجّرٍ مُتَصَلّب، وربّما كان للنار أثَرٌ في جعله متحجّراً.

**كعَصْفٍ مَأكول**: العصْفُ في اللّغة، هو ما تأكُلُه الدّوابّ من نباتاتِ الأرض، كالزّرع الذي يؤخذ حبُّهُ، ويُتْرَكُ سَائِرهُ طَعاماً للدّواب، وكالفِصْفِصَة والبرسيم، والتِّبْن، ونحوها.

## (٣)
## موضوع سورة الفيل

يظهر لكُلِّ مُتَدَبّرٍ أنَّ موضوع سورة (الفيل) يدور حول تذكير مشركي أهل مكّة وما حولَها إبّانَ التنزيل، بما أنزل الله عزّ وجلّ من عذابٍ وإهلاكٍ بأصحاب الفيل، الجيْشِ الّذي قَدِم من اليمن بقيادة أبرهة الحبَشِيّ والذي جاء قاصداً تدمير الكعبة بيت الله الحرام.

وفي هذا التذكير تهدِيدٌ ضِمْنِيٌّ لهم بأَنّهُمْ إذا أرادوا رسولَهُ محمّداً ﷺ بسوءٍ أو بشرٍ كانوا عُرضَةً لِعَذابٍ من اللّهِ وإهلاك، كالذي تعرَّض له جيش أَبْرَهَة لمَّا قصدَ هدْمَ بيْتِه أوّلِ بيْتٍ وُضِعَ للناس، وهو بناء مِنْ أحجار أرضِ مكة، وُضِعَ لعبادة اللّهِ وحْدَه، أمّا رسُولُهُ محمّد ﷺ فهُو مبلّغ دينه الّذي اصطفاه للنّاس أجمعين، فهو أعظم وأجلُّ عند اللّهِ تَبارَكَ وتعالَى من بناء من الأحجار يُمْكن تجديده، أو إعادة بنائه إلى مثل ما كان عليه.

وفي هذا التهديد للمشركين طَمْأَنَةٌ ضمنيَّةٌ للرسول محمّد ﷺ وللذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ، بأنّ اللّهَ عزّ وجلّ ناصرُه، وحافظه، وحاميه، من كلّ الّذين يُرِيدُون به شرّاً.

ويمتاز هذا التهديد في المراحل المبكّرة من دعوة الرسول ﷺ، بأنّ حادثة إهلاك أصحاب الفيل حادثَةٌ قريبة، لم يَمْضِ على حدوثها إلاّ أقلُّ من نِصْف قَرْنٍ، وقد عاصَرَها وشهد أحداثها كثيرٌ مِنْ أهل مكّة وما حولها،

وكثيرٌ مِنْهُمْ يتّخذ وسائل كَيْدِيَّةً ضِدَّ رسُول اللّهِ ﷺ وضدّ دعوته والدّين الّذي يبلّغه عن ربّه.

وقد سَبَقَ هذا التَّهْدِيدَ في نجوم التنزيل تَهْدِيدٌ آخَرُ جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) وَهو ما تضمَّنَهُ قول الله عزّ وجل فيها:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

## (٤)
## قصة أصحاب الفيل

جاء عند أصحاب السِّيَرِ والأخبارِ بِشَأْنِ قِصَّةِ أَصْحَابِ الفيل ما يلي:

وقَعَتِ الْيَمَنُ تَحْتَ حُكْمِ الأَحْبَاشِ، وقد كَانوا يَدِينونَ بالنصرانيّة، وكانَ على اليمَنِ من الأحْبَاشِ أَمِيرَان حَبَشِيَّانِ، هما: أَرْيَاط، وأَبْرَهَة، فاختلفا، وتصاوَلاَ، وَتَقَاتَلا، حَتَّىٰ قُتِلَ أَرْيَاطُ، واستَبَدَّ بالسُّلْطَانِ أَبْرَهَةُ، وكَانَ قَدْ ضَرَبَهُ أَرْيَاطُ بالسَّيْفِ عَلى وَجْهِهِ في مُبارَزَةٍ بَيْنَهُمَا، فَشَرَمَ أَنْفَه وفَمَهُ، وشَقَّ وَجْهَهُ، فصارَ يُقَالُ: أَبْرَهةُ الأَشْرَمُ.

واسْتَقَرَّ أَمِيراً عَلى الْيَمَنِ كُلِّهِ مِنْ قِبَلِ النَّجَاشِي ملك الحبَشة.

وسَاءَ الأَمْرُ مَلِكَ الحبَشَة، فحاوَلَ أَبْرَهَةُ اسْتِرْضَاءَه، حتَّى رَضِيَ عَنْه، وأرادَ أَنْ يُبَالِغَ في اسْتِرْضائِهِ، فكَتَبَ إِلَيْهِ يقول: سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مِثْلُهَا.

وَلَمَّا بَنَى الكنيسة كَتَبَ إلى النجاشي: إِنّي قَدْ بنَيْتُ لَكَ أَيُّها الْمَلِكُ كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُها لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَكَ، ولسْتُ بِمُنتهٍ حتَّى أَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ العَرَبِ. أي: بدَلَ أَنْ يحجُّوا إلى الكعْبَة.

وسمَّى العربُ هذِهِ الكنيسَةَ «الْقُلَّيْس» لأنَّ الناظِرينَ إلَى أعلاها تَتَساقَطُ قَلانِسُهُمْ عن رؤوسهم، بسبب ارْتفاعِها وعُلُوّ بنائها.

وبَلَغَ العربَ عَزْمُ أبْرَهَةَ على تحويل حجّهِمْ إلى كنيسَتِهِ فكَرِهُوا ذَلِكَ، وغَضِبَتْ قُرَيْشٌ مِنْ هَذَا الأمْرِ غَضباً شَدِيداً.

قالوا: فجاء رجلٌ من الْعَرَب، هُو أَحَدُ بَنِي فُقَم، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَالِكٍ، وَدَخَلَ «الْقُلَّيْس» وَتَبَرَّزَ بِهَا، إعْلاناً عَنْ تَسخُّطِ العرب، وإشعاراً بأن هٰذهِ الكنيسَةِ لا تَسْتَحِقُّ في نُفُوسِ الْعَرَبِ أنْ يحُجُّوا إليها، وَخرجَ الرَّجُلُ وفَرَّ إلَىٰ أرْضِه.

ورأىٰ رُعاةُ الكنيسَةِ «الْقُلَّيْس» مَا فُعِلَ فيها، فرفعُوا الأمْرَ إلى أبْرَهَةَ، وقالُوا له: إنَّما صَنَعَ هذا بعْضُ قُرَيشٍ، غضباً لبَيْتِهم.

فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لَيَسِيرَنَّ إلَىٰ بيْتِ مَكَّة، ولَيُخَرِّبَنَّهُ حجراً حجراً.

وذكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيمانَ، أَنَّ فِتْيَةً مِنْ قُرَيْشٍ دخَلُوا «الْقُلَّيْسَ» فَأَحْرَقُوهَا، فَسَقَطَتْ إلَىٰ الأَرْض، فعزَمَ أبْرَهَة علَىٰ هَدْمِ الكَعْبَة.

وَحَشَدَ «أَبْرَهَةُ» جَيْشاً كثيفاً من الْحُبْشَان، واسْتَصْحَبَ مَعَهُ فيلاً عظيماً كبير الجثَّة، لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، يُقَالُ لَهُ «محمود» وكان قد بَعَثَهُ إلَيْهِ النَّجاشيُّ مَلِكُ الحبشَةِ لذلك.

وسمِعَتِ العَرَبُ بمَسِيرِ أبْرَهَةَ وَجَيْشِهِ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الأَمْرُ واسْتَفظَعُوه.

فخَرَجَ رَجلٌ من أشرافِ اليَمَنِ ومُلُوكهم يُقالُ لهُ: «ذُو نَفر» فَدَعا إلى حَرْبِ أبْرَهَةَ وجَيْشِهِ، دِفاعاً عَنِ الكعبَةِ، فَأَجَابَهُ جَمْعٌ من قَوْمِهِ وَمِنْ غيرهم، فَقَاتَلوا أبرَهَةَ وَجَيْشَهُ، لكِنَّهُمْ هُزِمُوا، وَأُسِرَ «ذُو نَفر» واسْتَصْحَبَهُ أَبْرَهَةُ معه.

وسَارَ أَبْرَهَةُ بِجَيْشِهِ، فاعْتَرَضَهُ نُفَيْلُ بن حَبِيب الْخَثْعَمِيُّ في قَوْمِهِ، فقاتَلُوهُ، فَهزَمَهُمْ أَبْرَهَةُ، وأُسِرَ نُفَيْلُ بن حَبِيب، واسْتَصْحَبَهُ أَبْرَهَةُ مَعَهُ، ليَكُونَ دَلِيلَهُ فِي بِلَادِ الْحِجَاز.

ولَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ خَرَجَتْ إِلَيْهِ ثَقِيفٌ، فَصَانَعُوهُ، وبَعَثُوا مَعَهُ «أَبَا رِغال» دَليلاً إِلَىٰ مَكَّة، فَلَمَّا وَصَلُوا «الْمُغَمِّس» وَهُو مَكانٌ قريبٌ مِنْ مَكَّة مَاتَ «أبو رغال» فَدُفِنَ هُنَاكَ، فصارَتِ الْعَربُ تَرْجُمُ قَبْرَهُ بَعْد ذلِكَ.

وبعثَ «أَبْرَهَةُ» رَجُلاً من الحبشَةِ، يُقال له: «الأَسْوَدُ بْنُ مقصود» في خيْلٍ له، حتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مكَّة، فسَاقَ إِلَيْهِ أمْوَالَ أهْلِ تِهَامَةَ، مِنْ قُرَيشٍ وغَيْرِهِمْ، وأَصَابَ فيها مِئَتَيْ بَعِيرٍ لِعَبْدِ المطَّلِبِ بن هاشم، وهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبيرُ قُرَيشٍ وَسَيِّدُها.

فهَمَّتْ قُرَيشُ، وكِنَانَةُ، وهُذَيلٌ، وَمَنْ كانَ بمكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا من سائر النَّاس بقتالِهِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لاَ طاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فَأَحْجَمُوا عن ذَلِكَ.

وبعث «أَبْرَهَةُ الأَشْرَمُ» رَسُولاً إِلَىٰ مكَّة يُقَالُ لَهُ: «حُنَاطَةُ الحِمْيَرِيّ» وقال له: سَلْ عَنْ سَيِّدِ أهْلِ هٰذَا الْبَلَد وشَرِيفِها، ثُمَّ قُلْ له: إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَكَ: إِنِّي لَمْ آتِ لِحربكُمْ، وَإِنَّمَا جِئْتُ لِهَدْم هٰذا البيْتِ، فإنْ لَمْ تَعْرِضُوا دُونَهُ بحَرْبٍ فَلاَ حَاجَةَ لِي بدمائِكُمْ، فإنْ هُوَ لَمْ يُرِدْ حَرْبي فأتِني بِهِ.

فلمَّا دَخل «حُنَاطَةُ الحِمْيَرِيُّ» مكَّة، سألَ عن سَيِّدِ قُرَيشٍ وشَرِيفها، فقِيلَ لَهُ: «عَبْدُ المطَّلِبِ بن هاشم».

فجاءَهُ، فقال لَهُ ما أَمَرَهُ بِهِ أَبْرَهَةُ، فقالَ له عبد المطَّلب: واللَّهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بذلِكَ من طاقة، هذا بيْتُ اللَّهِ الحرام، وبَيْتُ خَليلِه إبْراهيم عليه السلام، فَإنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فهُو بيتُه وحَرَمُه، وَإِنْ يُخَلِّ بيْنَه وَبَيْنَهُ، فواللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنه.

فقال له «حُنَاطَةُ الحِمْيَري»: فانْطَلِقْ مَعِي إِلَيْه، فإنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بك.

فانْطَلَق معَهُ عبد المطَّلب، ومَعَه بعْضُ بَنِيهِ، حَتَّىٰ أَتَى الْمُعَسْكر، فسأل عن «ذي نفر» وَكَان له صَدِيقاً، حتَّىٰ دَخَلَ علَيْه وهُوَ في مَحْبِسِه، فقالَ له: يا ذا نَفر، هَلْ عِنْدَكَ مِنْ غَنَاءٍ فيما نزَل بنا؟.

فقال له «ذو نفر»: وَمَا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسيرٍ بِيَدَيْ مَلِكٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْتُلَهُ غُدُوّاً أَوْ عَشِيّاً، مَا عندنا مِنْ غَنَاءٍ في شَيْءٍ ممَّا نزلَ بكَ، إلاَّ أَنَّ «أُنَيْساً» سَائِسَ الْفِيلِ صَدِيقٌ لِي، وَسَأُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُوصِيهِ بكَ، وَأُعَظِّمُ عَلَيْهِ حقَّكَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَكَ علَىٰ الْمَلِكِ، فَتُكَلِّمَهُ بما بَدَا لك، وَيَشْفَعَ لكَ عندَهُ بخَيْرٍ إن قَدَرَ على ذلِك.

فقال «عبْدُ المطَّلب»: حسْبِي.

فبعَثَ «ذُو نَفَر» إلَىٰ «أُنَيس» فقال له: إنَّ عَبْدَ المطَّلب سَيّدُ قُرَيشٍ، وصَاحِبُ عِيرِ مَكَّة، يُطْعِمُ النَّاسَ بالسَّهْلِ، والْوُحُوشَ في رُؤُوسِ الجِبَال، وقَدْ أَصَابَ لَهُ الملِكُ مِئَتَيْ بَعيرٍ، فاسْتَأْذِنْ لَهُ عَلَيْهِ، وانْفَعْهُ عِنْدَهُ بما اسْتَطعْتَ.

فقال «أُنَيْسُ»: أَفعَلُ. فكلَّمَ أُنَيسُ «أَبْرَهَة» كمَا أوصَاهُ «ذُو نَفر» فَأَذِنَ أَبْرَهَةُ لِعَبْدِ المطّلب.

وكان «عبد المطلب» أوسَمَ النّاس، وأجْمَلَهُم، وأعظمهم، فلمَّا رَآهُ «أبرهة» أجلة وأعْظَمَهُ وَأَكْرَمَهُ عَنْ أنْ يُجْلِسَهُ تَحْتَه، وَكَرِهَ أَنْ تَراهُ الحبشَةُ يَجْلِسُ معَهُ على سَرِيرِ مُلْكِهِ، فنَزَلَ عن سَرِيرِهِ، فجلَسَ علَىٰ بِسَاطِهِ، وَأَجْلَسَهُ معَهُ علَيْهِ إلَىٰ جنْبِهِ، ثُمَّ قَالَ لتَرْجُمانِهِ: قُلْ له ما حَاجَتُك؟

فقال «عبد المطَّلب»: حاجتي أنْ يَرُدَّ عليَّ الملِكُ مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَها لي.

فلمَّا قال له ذلك قال «أَبْرَهَة» لتَرْجمانه: قل له: قَدْ كنْتَ أعجبتني حين رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدتُ فِيك حِينَ كلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وتَتْرُكُ بيْتاً هو دينُك وَدِين آبائِكَ، قَدْ جئْتُ لهذِهِ لا تُكَلِّمُنِي فِيه؟!

قال له «عبد المطَّلب»: إنّي أنَا رَبُّ الإِبلِ، وإنَّ للبيْتِ رَبّاً سيَمْنَعُه.

قال «أَبْرَهَةُ»: ما كان لِيَمْتَنِعَ مِنِّي.

قال «عبد المطّلب»: أَنْتَ وَذَاكَ.

فَرَدَّ «أَبْرَهَةُ» على «عَبْدُ المطَّلب» الْإِبلَ الّتي أصابها له.

وانْصَرَفَ «عبد المطّلب» إلَى قُرَيشٍ، فأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ، وَأَمَرَهُمْ بالخروج مِنْ مَكَّةَ، والتحرُّزِ فِي شَعفِ الْجِبَالِ (أي: في رُؤُوسِها) وَفي الشّعاب.

ثُمَّ قام «عبد المطّلب» فأخذ بحَلْقَةِ باب الكعبَة وقام مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُريشٍ، يدْعُونَ اللّهَ وَيَسْتَنْصِرُونه على أَبْرَهَة وجُنْدِهِ، وقال «عبد المطّلب» وهو آخِذٌ بحلْقَةِ بَاب الكعْبَة:

لاَ هُمَّ إِنَّ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلاَلَكْ

لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ. وَمِحَالُهُمْ غَدْواً مِحَالَكْ

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقِبْلَتَنَا فَأَمْرٌ ما بَدَا لَكَ

ثمَّ انْطَلَقَ «عبد المطّلب» هو ومَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيشٍ إِلَىٰ شَعَفِ الجِبَالِ، فَتَحَرَّزُوا فيهَا، يَنْتَظِرُونَ مَاذَا يكون مَن أَحْدَاث.

فلَمَّا أَصْبَحَ «أَبْرَهَةُ» تهيّأَ لِدُخُولِ مكَّةَ، وأَعَدَّ عُدَّتَه، وأَمَرَ جيشَهُ بالتوجُّه شطر مكَّة.

فبَرَكَ الفيل، ورفَضَ التوجُّهَ لمكَّة، فضرَبُوهُ، وأرادُوا إلْجَاءَه، فأَبَى وامْتَنَع عليهم. فوَجَّهُوهُ راجعاً إلى الْيَمَنِ فَقَامَ يهرولُ، ووجّهوه شطر الشّام وشطر المشرق ففعل مِثْلَ ذَلِكَ مُطَاوِعاً، ووجَّهُوهُ شَطْرَ مكَّةَ فبَرَكَ.

فأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طيْراً أَبَابيل، ترمِيهِمْ بحجارة مِن سِجّيل، لا تُصِيبُ أحداً إلاّ هلَكَ، ولَيْسَ كُلَّهُمْ أصابَتْ.

وخرجوا هاربين يتبادرون الطّريقَ الذي جاءوا منه، ويتساقطون بكلّ طريق، ويَهْلِكُونَ بكلِّ مَهْلِكٍ وعلى كلّ منْهَلٍ.

وأُصِيبَ «أبْرَهَةُ» في جَسَدِه، وخَرَجَ بِهِ بَعْضُ جُنْدِهِ يحملونه معهم، وصارَتْ أَنامِلُه تَسقُطُ أنملةً فأنملة، حتَّى قَدِمُوا به صَنْعاءَ فماتَ فيها.

قالوا: إنَّ أوّلَ مَا رُئِيَتِ الْحَصْبَةُ والْجُدَرِيُّ بأرْضِ الْعَرَبِ كان في ذلِكَ العام.

وقد وُلِدَ سيّدُنا محمَّد ﷺ عامَ حَادِثَةِ الفيل، وكان نزول سُورَةِ (الفيل) في الرُّبْعِ الأَوَّل من تاريخ سيرته المكيَّة، لأنَّها السورة (١٩) بحسَبِ ترْتيب النزول.

## (٥)
## التدبر التحليلي لآيات السورة

**تمهيد:**

أوجز الله عزّ وجلّ قِصَّةَ أصحاب الفيل بذكْرِ عنوانات عناصِرها الكبرى، وهي أربعة:

**العنوانُ الأوّل العام:** ما فعل الله بأصحاب الفيل، وفي هذا إشارةٌ إلى مَقْدَمهم إلى مكة بجيشٍ، بُغْيَةَ هَدْمِ الكعْبَةِ، بيْتِ اللّهِ الحرام.

فذِكْرُ أصحاب الفيل وما فعل الله بهم كافٍ في الإشارة إلي ذلك. لأنَّ قصَّتهُمْ مَعْرُوفَةٌ لدَىٰ العرب إبَّانَ التنزيل.

**العنوان الثاني:** أَنَّهُمْ دبَّرُوا كيْداً، فجَمَعُوا جيشاً وسِلاحاً وأَعْتِدَة، وقَدِمُوا من اليَمَنِ مجتازين عقابتِ خُصُومهم من العرب المعظمين للبيت الحرام. والّذين يحجُّونَ إليه اتّباعاً لما بقي لدَيْهم من ميراث الدّينِ الذي ورثوهُ عن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السَّلام، فجعل اللّهُ كيْدَهُمْ فِي تضليل، أي: في ضياعٍ وباطِلٍ وهَلاَكٍ، فضَيَّع أَسْبَابَهُمْ، وأبْطَل وسائلهم، وأهلَكَهُمْ.

**العنوان الثالث**: أنَّ وَسِيلَةَ إهْلاَكِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ، قَدْ كَانَتْ بإرْسال جماعاتٍ مِنَ الطَّيْر، تَحْمِلُ بأَرْجُلِهَا وَمَنَاقِيرِهَا حِجَارَةً مِنْ سِجّيلٍ، أي: حجارة أَصْلُها طِينٌ تحجَّر، ورُبَّمَا كَان تَحجُّرُها بتأثيرِ نَارٍ جعَلَتْهَا صُلْبَةً قَاسيَةً.

**العنوان الرابع**: أنَّ عَاقِبَتَهُمْ فِي الدُّنيا قَدْ كَانَتْ عَذَاباً وَهلاَكاً، صاروا فيه كعَصْفٍ مَأكُول، وهذا التشبيه يَدُلُّ عَلىٰ أَنَّهُمْ صَارُوا على أصناف ثلاثة:

- فصِنْفٌ منهم تَفسَّخَ وَأَنْتَن، وتحوَّل حتَّىٰ صَارَ كَرَوْثِ الدَّوابّ.
- وصِنْفٌ تَجَمَّعَ مُتَحطِّماً، متداخِلاً بعْضُه في بَعْض، كالْحَشِيش والزَّرْع الذي أَكَلَتِ الدَّوَابُّ ما استطابَتْ منه، ورَمَتْ سائرَهُ، فداسَتْهُ، ومَرَّتْ عَلَيْهِ ذَهَاباً وعَوْداً.
- وصُنْفٌ كالأعواد التقَطَتْ مِنها الدَّوابُّ الْأَوْراق الصّالحةَ لِلأَكْلِ، فارتمتِ الأَعْوادُ مُتَنَاثِرَةً هُنَا وهُنَاكَ وَهُنَالِكَ.

## التدبّر التحليليّ للآيات

- قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾؟

تكرّر في القرآن الكريم استعمالُ هذا الأسلوب الاستفهاميّ الموجَّهِ على سبيل الخطاب الإفرادِيّ، لكلّ مُفْرَدٍ صَالح للخطاب، حتَّىٰ يشْعُرَ بأن اللّٰهَ عزَّ وجلَّ يُحَادِثُهُ حَدِيثاً مُوَجّهاً لَهُ، بُغيَةَ تحميله مسؤليته تُجاه مضمون الخطاب بصورَةٍ فَرْدِيَّة.

والاستفهام في عبارةِ ﴿أَلَمْ تَرَ ؟﴾ ليس على حقيقته لطلَب الإخبار عن عَدَمِ الرؤيَة، بل هو مُسْتَعْمَلٌ مجازاً لِأَغْرَاضٍ أُخْرَىٰ، ويَصْلُحُ مِنْ هٰذِهِ الأغراض هُنَا ما يلي:

(١) التَّقْرِيرُ، بحَمْلِ المخاطَب علي الإقرار بأنَّهُ رأَىٰ رأْيَ عِلْم.

(٢) توجيه النظر الفكريّ للمستَفْهَم عنْهُ، بغية إحضاره في الذهن، والاعتبار والاتعاظ به.

وجواب الاستفهام عن عدم الرؤية يكون بلفظ «نعم» إذا لم تحدُثِ الرؤية، وبلفظ «بلَى» إذا كانت الرُّؤْية واقعة فعْلاً.

وعلى أنّهُ استفهام تقريريٌّ يُرادُ به الإقرارُ بحُدوث الرُّؤية فالمعنى: قد رأيْتَ أيُّها الرائي عن طريق الشهودِ البصري، أو عَنْ طريقِ العِلم اليقيني الخبريّ، المماثل للرُّؤيَةِ البصريَّةِ، كَيْفَ فَعَلَ رَبُّك بأصْحَابِ الفيلِ، مِن تَعْذِيبِ وإهْلاكٍ، فاعتَبِرْ بهذا الحدَثِ التاريخيّ، المتَضَمِّن سُنَّةً من سُنَنِ اللَّهِ في عباده، واحْذَرْ مُعَجَّل عِقَابِ اللَّهِ عزّ وجلَّ، إنْ كنْتَ مِنَ مُكَذِّبي الرَّسُول وبما جاء به.

أمَّا إنْ كنْتَ من المؤمنين به وبما جَاءَ بهِ فَاطْمَئِنَّ لنَصْرِ اللَّهِ لَهُ، على أعدائه وخُصُومه.

﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾: **كَيْفَ**: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ في محلِّ نِصْبٍ، وفعْلُهُ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ والمعنَى: أَلَمْ تَرَ فِعْلَ رَبِّكَ بأصْحَابِ الْفِيلِ فِعلاً ذَا حَالَةٍ رهيبَةٍ فيها اعتبارٌ وعِظَةٌ، وذا كَيْفِيَّةٍ عَجِيبَةٍ سُخِّرَت فيها جماعاتٌ من الطير.

﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾: هُمْ أبْرَهَةُ الحبشيّ وَجَيْشُهُ مِنَ الْحُبْشَان، أصل الصاحب المرافق الملازم، ويكَنَّى بهذا اللَّفظ عَنْ كلِّ مُقْتَرِنٍ بشَيْءٍ يتَمَيَّزُ بهِ، فيقالُ: صاحب الراية، وصاحب العِمَامةِ الخضراء، وصاحِبُ الثَّوْبِ الأبيض. ويُسْتَعْمَلُ الجمع، فيقالُ مثلاً: أصْحَابُ النار، وأصْحَابُ الجنَّة، وأصْحَابُ الجَملِ، وأصحابُ الفتنة.

- قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾

الاستفهامُ في هذه الآية الثانية من السّورة نظير الاستفهام الذي جاء في الآية الأولى منها.

والمعنى: إنَّكَ تَعْلَمُ أيُّها المخاطَبُ المعاصِرُ لتنزيل السورة، أَوْ مِنَ الْيَسِير جدّاً عليك أَنْ تَعْلَمَ من مُشَاهِدِي إهلاك أصْحَاب الفيل من أهل مكة وما حولها، أنَّ كَيْدَ أَصْحَابِ الفيل الّذي كادُوهُ لِهَدْم الكَعْبَةِ وتَحْويل حجِّ العربِ عَنْها إلى الكنيسة «الْقُلَّيْسِ» قد جعَلَهُ رَبُّكَ في ضياعٍ وهلاك، إذْ قَدِمُوا بِجَيْشٍ كَبيرٍ مُزَوَّدٍ بأَسْلِحَةِ الْحَرب وأَعْتِدَتِها، يتَقَدَّمُ مَسِيرَتَهُمْ فِيلٌ ضَخْمٌ، وقَدْ هَزَمُوا مَنْ أرادَ أَنْ يَصُدَّهُمْ عَنِ البيْتِ من قبائل العرب، ولَمْ يَكُنْ لدَىٰ أهْلِ الحرَم المكيّ قُدْرَةٌ علَىٰ صَدِّهِ.

**كَيْدُهُمْ**: هو كُلُّ ما دَبَّروهُ وأَعَدُّوه، مِنْ خطَطٍ ووَسَائِلَ وأَعْمَالٍ وجَيْشٍ لا قِبلَ لقبائل العرب به، بغْيَةَ هَدْمِ الكَعْبَةِ بَيْتِ اللَّهِ الحرام، وتَحْويلِ العرب عن الحجّ إليه.

**في تَضْلِيلٍ**: أي: في مُحِيطٍ مِنَ الضَّياعِ والْهَلاَكِ والتبديدِ والتشتيت.

تقول العرب: ضَلَّلَهُ إذا ضَيَّعَ مَسْعَاهُ. وأَفْسَدَ تَدْبيرَه وأهلكَهُ، وشَتَّتَ شَمْلَهُ، وفرَّقَ جمْعَهُ.

- قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾.

أي: وإنَّكَ تَعلَمُ أيُّها المخاطَبُ، أنَّ رَبَّكَ أَرْسَلَ على أصْحابِ الفيلِ، جُنْداً مِنْ جُنْدِهِ الّتِي لا يُحْصِيهَا إلاّ هو، وكانَتْ يَوْمَئذٍ جماعَاتٍ مُتلاحِقَاتٍ مِنْ أَصْنَافِ الطَّيْرِ، تَحْمِلُ بأَرْجُلِهَا ومَنَاقِيرها حِجارَةً مِنْ سِجّيلٍ، أي: مِنْ طينٍ مُتحجّرٍ مُتصلّبٍ، لَهُ خَصَائِصُ وبَائيَّةٌ تُهْلِكُ أَوْ تُعذّبُ مَنْ أَصابَهُ شَيْءٌ مِنْهَا، وقَدْ غَطَّتْ سَمَاءَ الجيش كالسَّحاب.

**أَبابِيل**: أي: جماعات متلاحقات متتابعات من صِنْفٍ من أصناف الطير.

**تَرْمِيهِمْ**: أي: تُلْقِي عَلَيْهِمْ، أَوْ تَقْذِفُهُمْ، فالرَّمْي يأتي بمعنى إلْقاءِ شيءٍ عَلى شيءٍ، وَيَأْتِي بمعنى قَذْفِ شَيْءٍ عَلى شَيْءٍ.

● قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

أي: فجعلَهُمْ رَبُّكَ الّذِي هو رَبُّهُم وَرَبُّ كلّ شَيْءٍ كَعصْفٍ مَأكول.

عرفنا أنَّ الْعَصْفَ في اللُّغةِ هو ما تأكلُه الأنعام والدّوابُّ من نباتات الأَرض.

إنّ تَشْبيةَ جَيْش «أَبْرَهَةَ» بَعْدَ إِنْزَالِ العذَابِ والإِهْلاَكِ فِيهِ، بالعصْفِ المأكُولِ، يُقَدِّمُ لِفِكْرِ المتَدَبّرِ صُوَراً مُتَعَدِّدَة، على الرُّغْمِ مِنَ الإيجاز الشَّدِيدِ في العبارةِ القُرْآنِيَّة.

فالْعَصْفُ المأكُولُ، مِنْهُ مَا تبتَعِلُهُ الآكَلاتُ من الأَنْعَام والدَّواب، ومِنْهُ مَا تأْكُلُ مِنْهُ شَيْئاً وتَدُوسُ الباقي، ومِنْهُ مَا تَأْكُلُ أَوْراقَهُ وتَتْرُكُ أَعْوَادَهُ وقُضْبَانَهُ، وكلٌّ مِنَ المأكُولِ والمترُوك يُقَالُ له بعُمِوم العبارَةِ: عَصْفٌ مَأْكُول، على معنَى: مأكُولٌ كُلُّهُ، ومأكُولٌ بَعْضُهُ دُونَ سَائِرِه.

فالْعَصْفُ المأكُولُ أقسامٌ ثَلاثَةٌ: قِسْمٌ هُضِمَ وتَحَوَّلَ رَوْثاً، وقِسْمٌ دَاسَتِ الدَّوَابُّ عَلَيْهِ، فَتَقَذَّرَ قُمَامَات، وقِسْمٌ أُكِلَتْ أَوْرَاقُهُ وبَقِيَتْ أَعْوادُهُ وقُضْبَانُهُ حَطَباً ووقُوداً.

وكَذَلِكَ صَارَ أصحاب الفيل أقساماً.

● فقِسْمٌ مِنهُمْ تَفَسَّخَ وأَنْتَنَ، وتحوَّلَ حتَّى صَارَ مِثْلَ رَوْثِ الدَّوَابِّ والأَنْعَام.

● وقسْمٌ مِنهُمْ تَجمَّعَ مُتحطِّماً مُتَداخِلاً بعْضُهُ بِبَعْضٍ، كالْحَشِيشِ والزَّرْعِ الّذِي أَكَلَتِ الدّوابُّ والأنْعَامُ ما اسْتَطَابَتْ مِنْهُ، ورَمَتْ مَا لَمْ تسْتِطبْهُ، فَدَاسَتْهُ وَمَرَّتْ عَلَيْهِ ذَهَاباً وعَوْداً، وصَارَ قُمَامَةً مِنَ الْقُمَامَاتِ المْستَقْذَرَة.

● وقِسْمٌ مِنهُمْ مُتَنَاثِرٌ هُنَا وهُنَاكَ وهُنَالِكَ، كالأعْوَادِ والْقُضبان التي الْتَقَطَتْ منها الأنعام والدّواب الأوراقَ الصالحةَ للأكْلِ مِنْهَا، وارْتَمَتِ الأعواد والقضبان مُتَنَاثِرَة.

فما أَبْدَعَ هذا التَّشبيهَ الجامع المتحلِّيَ بالصّدْق الفنّي، المطابقِ بفَنِّيَّةٍ رائعَةٍ للواقع.

**وتمّ بحمد الله تدبُّر سورة (الفيل).**

# سُورَتا الفَلَق وَالنَّاس

سُورة الفَلق ١١٣ مُصحف ٢٠ نزول

سُورة النَّاس ١١٤ مُصحف ٢١ نزول

# (١)

# نص السورتين

## سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا
خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾
وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾
وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ .

## سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ
﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ
ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ
ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ .

## (٢)
## ممّا ورَدَ بشأن هاتين السورتين

(١) أخرج مُسْلمٌ والترمذيّ والنسائي وغيرهم عن عقبة بن عامرٍ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«أُنزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَاتٌ لم أرَ مِثْلَهُنَّ قَطُّ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

(٢) وأخرج ابْنُ الضَّريس، وابْنُ الأنباريّ، والحاكم وصحّحه، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ في الشُّعَب، عَنْ عُقْبَةَ بن عَامِر، قَالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرِئْنِي سُورَةَ (يوسف) وسُورَةَ (هود) قال:

«يَا عُقْبَةُ اِقْرَأْ بِقُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، فإنَّكَ لَنْ تَقْرَأَ سُورَةً أحَبَّ إلَىٰ اللَّهِ، وأَبْلَغَ مِنْهَا فَإنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ تَفُوتَكَ فَافْعَلْ».

أي: في موضوع الاستعاذةِ باللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ في كوْنِهِ.

(٣) وأخرج ابْنُ سَعْدٍ والنَّسَائِيُّ والْبَغَوِيُّ والْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبي حَابِسٍ الْجُهَنِيّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَال:

«يَا أَبَا حَابِسٍ، أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟»

قَالَ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قال:

«﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ هُمَا الْمُعَوِّذَتَانِ».

(٤) وأخْرَجَ الترمذيُّ وحسَّنَهُ، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، والْبَيْهَقِيُّ عن أبي سَعيدٍ الْخُدَرِيّ قال:

«كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِن عَيْنِ الْجَانِّ وَمِنْ عَيْنِ الإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ سُورَتَا الْمَعَوِّذَتَيْنِ أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَىٰ ذَلِكَ».

(٥) وأخرج النَّسائي، وابْنُ الضَّرِيس، وابْنُ حبَّانَ فِي صحيحه، وابْنُ الأنباريّ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عبد اللَّهِ رضي الله عنه قال:

«أَخَذَ بِمَنْكِبِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَال: اِقْرأْ. قُلْتُ: مَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟. قَال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ ثُمَّ قَال: اِقْرأ. قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي، مَا أَقْرَأُ؟. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ وَلَمْ تَقْرَأْ بِمِثْلِهِمَا».

أي: في مَوْضوع الاسْتِعَاذَةِ باللَّهِ مِنْ شَرِّ ما خَلَق، ومِنْ شَرِّ وَسَاوِسِ شَيَاطِينِ الجِنِّ والإِنْسِ.

(٦) وَأَخْرَجَ مَالِكٌ في الْمُوَطَّأ، عن ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأَخْرَجَهُ البخاريُّ ومُسْلِمٌ فِي صحيحيهما من طريقِ مالِكٍ بالإسنادِ نفسه:

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَىٰ يَقْرَأُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وأَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَيْهِ، رَجاءَ بَرَكَتِهِمَا».

**اشْتَكَىٰ**: أي: مَرِضَ، أو تَوَجَّعَ ممّا نَزَلَ به مِنْ مَرَضٍ.

(٧) وأخرج الطَّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِير، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ قالَ:

«لَدَغَتِ النَّبِيَّ ﷺ عقْرَبٌ وهُوَ يُصَلِّي، فلَمَّا فَرَغَ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْعَقْرَبَ لاَ تَدَعُ مُصَلِّياً وَلاَ غَيْرَهُ، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ ومِلْحٍ، وجَعَلَ يَمْسَحُ عَلَيْهَا وَيقْرأُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

(٨) وأخرج عبدُ بْنُ حُمَيْدٍ في مُسْنَدِهِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قالَ:

«سَحَرَ النَّبيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَاشْتَكَىٰ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ

بالْمَعَوِّذَتَيْنِ، وقَالَ: إنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، والسِّحْرُ في بِئرِ فُلاَنٍ، فَأرْسَلَ عَلِيّاً، فَجَاءَهُ به، فَأمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ، وَيَقْرَأَ آيَةً ويَحُلَّ، حَتَّىٰ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ كأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ».

ورُوي نظيره عن عائشة، وعن ابْنِ عبَّاس.

## (٣)
## موضوع سُورتي الفلق والناس

يَدُورُ مَوْضوع سُورَتي الفلق والناس، حَوْلَ تعليم المؤمنينَ الْمُسْلِمين الاسْتِعَاذَةَ باللَّهِ مِنْ شِرِّ كلِّ ذِي شَرٍّ ممَّا خَلَقَ اللَّهُ فِي كوْنِهِ، ومِنْ شَرِّ وَسَاوِسِ الْجِنِّ والإِنْسِ الَّذِين يُوَسْوِسُونَ فِي صُدُورِ النَّاسِ، بِالتَّحْرِيضِ على مَعْصِية اللَّهِ ورسُولِهِ، وارْتِكَابِ الآثام، مِنْ دَرَكَةِ الصَّغائر، حتَّىٰ دَرَكَةِ أقْبَحِ الجرائِمِ الَّتِي تَجْعَلُ مُرْتَكِبِيهَا فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

## (٤)
## بيان حول كلمة (قل) ودَفْعٌ لشبهة بعض المتَحَذْلقين

جاء في بدْءِ سُورَتي الفلق والناس، وسُورَتَي الإخلاص والكافِرُون، كَلِمَةُ ﴿قل﴾ تَعليماً لكُلِّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَقُولَ مَا جَاءَ بَعْدَ كلمة: ﴿قل﴾.

وهذا الأمْرُ التَّعليميُّ في القرآنِ هُوَ جُزْءٌ مِنَ السُّورِ الَّتِي جَاءَ فيها، فَلاَ تَتِمُّ السُّورَةُ القرآنِيَّةُ إلاَّ بذِكْرِه، لدَىٰ تلاوَتِهَا قُرْآناً.

أمَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ المأمُورَ بِهِ بكَلِمَةِ ﴿قل﴾ دُونَ أَنْ يَلْتَزِمَ تلاَوَةَ قُرْآنٍ مُنَزَّلٍ، فلَهُ وَجْهَان:

**الْوَجْهُ الأول**: أنْ يتْلُو السُّورَة القرآنِيَّة كامِلَةً، مَعَ كلمة ﴿قل﴾ فيها، وينْوِيَ أوْ يَقْصِدَ مَا جَاءَ بَعْدَ كَلِمَة ﴿قل﴾.

**الوجه الثاني**: أنْ يَحْذِفَ كَلِمَةَ ﴿قل﴾ قاصِداً امْتِثَالَ الأَمْرِ، بِتَحْقيق المأمُورِ به.

لكِنَّهُ إذا أرَادَ أَنْ يَتْلُوَ السُّورَة فَعَلَيْهِ أَنْ يَتْلُوَهَا كَمَا أَنْزَلَهَا اللَّهُ.

ويتَحَذْلَقُ بَعْضُ المتحذلِقِينَ، وَيتنَطَّعُ مُتَفَلْسِفاً على كِتَابِ اللَّهِ عزّ وجلّ فيَقُول: ما معنى أنْ نَقُولَ في السُّوَرِ المبْدُوءة بـ(قل): ﴿قل﴾. واللَّهُ قَدْ أَمَرَ بأنْ نقُولَ مَا جَاءَ بَعْدَ كَلِمَة ﴿قل﴾ وكانَ يَنْبَغِي أَنْ نَتْلُوَ مباشَرَةً ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ و﴿الله أحد﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وجوابُ هٰذا الْمُتَحَذْلِق المتنطّع أَنْ نَقُولَ لَهُ: إنّ كلمة ﴿قل﴾ في هٰذِهِ السُّوَر هِيَ جزْءٌ من كلٍّ منها، ولو حذَفْنَاهَا لم نعلَمْ أنَّ الله يأمُرُنا في كتابه على الدّوام بأن نُحقِّقَ المطلوب بهذا الأمر. ولو أسْقَطْنَا كلمة ﴿قل﴾ عند التلاوة فإنّنا لا نكونُ قد تَلَوْنا السّورة كاملة، بل ناقصة كَلِمَةَ ﴿قل﴾ ونحْنُ نعلَمُ أنَّ القرآن يُتَعَبَّدُ بتلاوته كما أُنزل،، فلَيْس مِنْ حقّنا أنْ نحذِفَ أيَّ حَرْفٍ أَوْ كلمةٍ منه لدى تلاوته، ونحْنُ عالمون، عامدون لأنّه من التحريف في كتاب الله، حتّىٰ مَا جَاءَ في أوائِل السُّوَرِ من الحروف المقطّعة التي نقول بشأنها: الله أعلم بمراده، مثل: (ن) و(ق) و(صٓ).

لكنْ إذا أرَدْنا أنْ نحقّق المطلوبَ بما أمَرَنا الله به بكلمة ﴿قل﴾ دون أن نَقْصِدَ تلاوة السورة فلا مانع من حذف كلمة ﴿قل﴾. وخيرٌ من ذلِكَ تلاوة السورة كاملة مع نيّة تَحْقِيقِ المطلوب.

إنّ آيات القرآن المجيدِ دُسْتُورٌ تعليميٌّ للناس في كلّ عصورهم، وفي كلِّ أحوالهم، وهذا الدستور لا بُدَّ أنْ يبقىٰ كلُّ أمْرٍ فيه عَلَىٰ وجْهِه كَمَا أُنزِلَ، وكذلِكَ كُلُّ نَهْيٍ، وكُلُّ اسْتِفْهامٍ، وكلُّ خبرٍ، وكُلُّ حرْفٍ وكلمة.

ومادّة الدستور يجب أن تُقْرأ كما هي في صُلْبه، ولو كانت مبدوءَةً برقْمٍ أو بحَرْف، وهَذا ما يلتزم به القانونيّون في القوانين والدَّساتير، وأيَّ تغْيير يعتبرونه تحريفاً وتزييفاً في عُرْفِهم، فما بالُ الْمُتَحَذْلق يتفاصح على كتاب الله عزّ وجلّ بحماقة أو بغير علم، أو بمكرٍ وكَيْدٍ.

ولتحصيل الفائدة ممّا أمَرَنا الله عزّ وجل به في كلمة ﴿قل﴾ لا بُدَّ من ملاحظة المعنى الإجمالي للألفاظ التي اشتمل عليها النّصّ، وإلاَّ اقتصر الأمْرُ على كون ما نتلفّظ به تلاوةً قرآنيّة مأجورة على كُلِّ حرْفٍ بعَشْرِ حسَنات، فمجرّد الترديد للألْفَاظِ دون ملاحظة المعاني لا يُحقّق المطلوب.

## (٥)
## التّدَبُّر التحليلي لآيات سورة الفلق

● قول الله عَزَّ وجلّ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾

﴿قل﴾: فعْلُ أمْرٍ مُوجَّهٌ لكلّ مَنْ يَصْلُح للخطاب بصورة إفراديةٍ من المؤمنين المسلمين، وأوّلُهُمْ محمَّدٌ رسُول اللَّهِ ﷺ.

﴿أَعُوذُ﴾ أي: ألُوذُ وأعْتَصِمُ مُلْتَجئاً طالباً الحمايَةَ والوقاية.

يقال لغة: عَاذَ بِهِ يَعُوذُ عَوْذاً وَعياذاً ومَعَاذاً، إذا لاَذَ به واعتصم، ولجأ إليه طالباً حمايتَهُ ووقايتَهُ.

ويُقَالُ: معَاذَ اللَّهِ، أي: عياذاً بالله.

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾: الرَّبُّ هو السيّد، والمالِكُ، والخالق وَفْق سُنَّةِ الإنْشاءِ المتدرّج شيئاً فشيئاً حتَّى إبْلاغ المخلوق درجة كماله، والمحيي والمميت والمغني، والمتصرّف بمخلوقاتِهِ على ما يشاءُ زيادةً ونقصاً، وبناءً وهَدْماً، وإيجاداً وإعداماً.

وسُنَّة الإنشاء المتدرّج هِيَ سُنَّةُ الخالق في الخلْقِ، فهو ربُّ الْعَالَمِينَ (العالمون: هم ما سِوَىٰ الله عزّ وجَلّ) وهو ربُّ الْفَلَق.

**الفلَقُ**: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ عَلَى وَاحِدِ الْفُلُوقِ، وهِيَ الشُّقُوق.

**والفَلْقُ**: بسُكُونِ اللاّم هو الشَّقُّ الّذي هو الحدث، وهُوَ مَصْدَرُ فَلَقَ الشيْءَ فَلْقاً إذا شَقَّهُ.

ويُطْلَقُ (الفَلَقُ) بفتح اللاّم على ما انفلق من عَمُودِ الصُّبْح.

ويَسَمَّىٰ الخلْقُ فَلْقاً بسُكُونِ اللاّم، وعلى هذا فالفلَقُ بفتح اللاّم هو المُفلُوق، أي: المخلوق، فرَبُّ الْفَلَقِ هُوَ رَبُّ كلِّ مَخْلِوقٍ.

والباحثُ العلميُّ في الظواهر الكونيّة يَجدُ أن سَنَّةَ اللّهِ في الخلْقِ قائِمةٌ على نظام الفَلْق، فالنوى والحبُوبُ تَنْفلِقُ ويَنْبتُ النّبات مِنْها، والْبُيوضُ المْنتجَةُ تَنفَلِقُ وتخرجُ الأحْياءُ مِنها، وبُيَيْضَةُ الأنْثىٰ يدْخل الْحُوَيْنُ الملَقِّحُ إليها، فيتّحِدَانِ، ثُمَّ يَنْشطران وفق سُنَّةِ الانفِلاقِ، وينمو المخلوق، وهكذا نظامُ التكاثر في سُنَّةَ الخلْقِ الرَّبَّاني، وهٰذا من أعجب العجب في عَمليّات الْخَلْقِ، إذ البُعْدَ الباطن ينتهي إلى نقطة العدم حتماً، ومن صفات الله أنه يخلُقُ من العدم، كما يَخلُق ممَّا أوجَدَ سابقاً كماء وتراب.

والصّبْحُ يَنْفَلِقُ فيظهرُ ضوْءُ النَّهارِ، قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

فالمعنى: ألُوذُ وأعْتَصِمُ بِرَبِّ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ الّذي يَخْلُقُ خَلْقَهُ وفْقَ سُنَّةِ الْفَلْقِ والإنْماءِ مِنَ البَاطِنِ إلَى الظَّاهر، ومِنْ خَلْقِهِ فَلْقُ الصُّبحِ، وَأَلْتَجِئُ إلَيْهِ لِيَقِيَني ويَحْمِيَني.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾

في هذه الآية دَلالَةٌ علىٰ أنَّ الشَّرَّ إنَّما يأتي ممَّا خَلَقَ الله وأعْطَاهُ في كَوْنِهِ التمكِينَ والتَّسْخِير.

أمّا اللّهُ عزّ وجلّ فالشَّرُّ الحقيقيُّ لا يُنْسَبُ إليه، ولاَ يَصْدُرُ عَنْهُ، وما يَراهُ النَّاسُ مِنْ مقاديرِ المصائب والآلاَمِ الّتي يُسَمُّونَها شرّاً، هُو في حقيقة أمْرِهِ ليْسَ شرّاً، إنَّما هو للامتحان، أو التربية، أو العقوبة، وهٰذِهِ جميعُها تَشْمَلُها الحكْمَة، والأمْرُ الحكِيمُ لاَ يكُونَ شرّاً علىٰ الحقيقة، إنَّهُ قَدْ يُسَمَّى ضُرّاً أوْ مُصيبةً أو ألماً، لكِنْ قد يكون وسيلَةً لخيرٍ عظيم.

إنَّ كلمتي: «الخير والشّر» ذواتا دَلالَتَيْنِ بحَسَبِ رؤى الناس القاصِرَة، المقيَّدَةِ بحُدُودِ إحساساتهم الضعيفة الكَلِيلَة، وبحُدُودِ تفكيرهم في عاجلِ من الحياة الدنيا. وذواتا دَلالَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ بحَسَبِ الحقيقة الّتي يحيط بها علْمُ الله الشاملُ للظاهر والباطن، والماضي والحاضر والمستقبل، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فما هُوَ خيْرٌ في الحقيقةِ المطلَقة للإنسان، قد يراه الإنسان شرّاً فيكْرَهُهُ، وَمَا هُوَ شرٌّ في الحقيقة المطلقة له قد يراه خيراً فيحِبُّهُ، فَيَدْعُو رَبَّهُ أنْ يُحَقِّقَهُ لَهُ، وقد نبَّهَ الله على هذا بقوله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

وكلمةُ «مَا» من قول الله عزّ وجلّ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ اسم موصول يقَعُ على غيْرِ العاقل وعلى العاقل معه من باب التغليب، وهو من ألفاظ العموم، فيشْمَلُ جَمِيع ما خلَقَ رَبُّ الفَلَق.

والمضافُ إلى العامّ يكْتَسِبُ العُمُومَ منْهُ، فالاستعاذَةُ برَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ تَشْمَلُ كُلَّ شَرٍّ قَدْ يأتي بِهِ أيُّ شيءٍ، مِنْ كُلِّ ما خلَقَ رَبُّ الفلَق.

- قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾

في هٰذِهِ الآية تخصيصٌ بعْدَ التعميم الذي جاء في الآية التي قَبْلها، للاهتمام بهذا المخصوص بالذكر، بعْد أن كان داخلاً في عُمُوم مَا خلَقَ الله في الآية السابقة.

فما هو الغاسِقُ إذا وقَب؟

**أولاً**: تدور مادّة «غَسَقَ» حول معنيَيْنِ، هُمَا: انْصَبّ، وأظْلَم.

يقولون: غَسق اللَّبَنُ من الضّرْعِ غَسْقاً، أي: انْصَبَّ انْصِبَاباً. وغَسَقَتِ السَّمَاءُ تَغْسِقُ غَسْقاً وغَسَقَاناً، إذَا انْصَبَّتْ مطراً. ومنْهُ قولُ عُمَر رضي اللَّهُ عنه: «حِينَ غَسَقَ اللَّيْلُ عَلَىٰ الظِّرَاب». أي: حين انْصَبَّ اللَّيْلُ على الجبال.

ويقولون: غَسقَ اللَّيْلُ يَغْسِقُ غَسْقاً وغَسَقَاناً، وأغْسَقَ إغْسَاقاً، أي: انْصَبَّ وأظْلَم.

وغَسَقُ اللَّيْلِ، ظُلْمَتُه، وقيل: أوَّلُ ظُلْمَتِه.

**فالْغَاسِقُ**: هو المنْصَبُّ، أو المظْلِم.

وجاء عند المفسِّرين تفسير الغاسِقِ في سُورَة (الفلق) باللّيل، وجاء تفسيره بالقمر، لأنّ الْقَمَر يَخْسِفُ فيغْسِقُ، أي: يَذْهَبُ نُورهُ ويَسْوَدُّ ويُظْلِمُ.

**ثانياً**: أمّا كلمة «وَقَبَ» فهي بمعنى دَخَلَ، أَوْ بمعنى دخَلَ في الْوَقْب.

**الْوَقْبُ**: الكَوَّةُ، وَنُقْرَةٌ في الجبَلِ يجْتَمِعُ فِيها الماء، والثَّقْبُ الّذي يَدْخُلُ فيه المِحْوَرُ، وكُلُّ حُفْرَةٍ، أو نُقْرَةٍ أَوْ ثَقْبٍ، يُمكِنُ أن يدخُلُ فِيه شيْءٌ، فِي صَخْرة أوْ أرْضٍ، أو خَشَبَةٍ، أَوْ جِسْمِ حيَوانٍ، أو غير ذلك.

فإذا تدَبَّرْنا عُموم نصّ الآيَةِ المستفاد من تنكير لفظ غاسِقٍ، أمكَنَنا أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَدْخُلَ مُظْلِماً، فيَنْصَبُّ، أَوْ يَتَسَلَّلُ، في ثَقْبٍ، ويَحْمِلُ بدُخوله شرّاً للمدْخُولِ فيه. أو شرّاً لِغَيْرِه بهذا الدّخولِ، فالاستِعَاذَةُ تَشْمَلُه.

وقد جاء تخصيص المظلم بهذه الاستعاذة، لأنه يدخل دون أَنْ يُرَىٰ، فلا يستطيع الناس اتخاذ الوقاية العامَّة منه.

وقد كشَفْنا بوسَائِل العصر الحديث أنّ الجراثيم والميكروباتِ الضَّارَّة مُظْلِمة لا نراها، لصِغرها، وتدخُلُ في أَوْقاب الأحياء، فالفتحات الظاهرات ثقوبٌ تَدْخُلُ منها، ومَسَامُ الجسَدِ في الحيوان هي الثقوب الصغيرة التي ترشح، وقد تدخلُ منها الجراثيم بالاحتكاك، فَتَتولّدُ منها الأمراض والأسقام، فكُلُّ ثَقْبٍ منْها وَقْبٌ، وجمع وَقْبٍ أَوْقَاب.

والغَاسِقُ إذا وَقَبَ: هو المظْلِمُ الذي لا يَرَاهُ الناسُ إذا دخَلَ في الوقْبِ. وكلُّ مظْلِمٍ يدخُلُ في الأوقابِ غاسق.

الْفَمُ وَقْبٌ، والمنْخَرانِ وقْبَانِ، وسائر فتحات الجسد أوقاب. والحشراتُ والْهَوَامُّ، والميكروبَاتُ والجراثيمُ الضَّارَّةُ وغيرُها، وكثيرٌ ممّا خلَقَ اللَّهُ غاسِقَاتٌ تَدْخُلُ في الأَوْقَابِ، فتَأْتي الناسَ بشرٍّ. وممَّا يَدْخُلُ في الأوقابِ أَصْنَافٌ من الجنّ قد تدخُلُ في أجْسادِ الناسِ، فيُصِيبُ الناسَ منها شُرُورٌ وأنواعٌ من الضُّرَّ والأذىٰ.

وصحَّ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنَّ الرسُولَ ﷺ أخذ بيدها، فأراها الْقَمَر حين طلَع، وقال لها:

«تَعوَّذِي باللَّهِ مِنْ شَرِّ هٰذا الغَاسِقِ إذَا وَقَبَ».

وفي مُحَاوَلَةٍ لإيجاد تفسير لهذا يخْطُر لي احتمالُ أنْ يكون المراد ما يحْدُث للْقَمَرِ يوم القيامةِ من خَسْفٍ يكُونُ بهِ مظلماً، ثمّ مَا يحْدُثُ له من اقْتِرَابٍ من الشمس، حتَّىٰ ينْصَهِر، ويَنْصَبَّ في وَقْبٍ مِنْ أَوْقابِها، وهو ما أشَارَ إليه قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾

فَشَرُّ ذلك اليوم شرٌّ عظيم، وهو أعظم ما يستعاذ بالله منه، إنّ وُقُوبَ الْقَمَرُ في الشَّمْسِ لدى اجتماعهما يومئذٍ يكونُ بدخوله في وَقْبٍ مِنْ أَوْقَابِ الشَّمْس، والْوَقْبُ مِنْها على كِبَرِهِ العظيم هُو ثُقْب صغيرٌ بالنّسْبَةِ إليها، لا يزيدُ عَلىٰ مِثْلِ حُفْرَةٍ في جَبَلٍ، وَهٰذِهِ الأوقابُ فيها تَقْذِفُ باللَّهَبِ العظيم، فَتَبْتَلِعُ الْقَمَرَ ومَا هُو أكبر منه.

والله أعلم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾

(١) عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: ما خَالَطَ السِّحْرَ من الرُّقَى.

(٢) وعن الحسَنِ: أنَّ النَّفَّاثاتِ في الْعُقَدِ السَّوَاحِرُ والسَّحَرةُ.

(٣) وعن ابن زيد قال: السَّوَاحِرُ في الْعُقَد.

(٤) ورُوِيَ عن مجاهد أَنَّه قال: هُنَّ السَّوَاحِرُ إذا رَقِيْنَ ونَفَثْنَ في الْعُقَد.

ونحو ذلك قال «عِكْرِمة» و«الضَّحَّاكُ» كما ذكر الطبريُّ وابْنُ كثير.

**النَّفْثُ**: إخراجُ الهواء من الْفَم نفخاً، وقد يصاحبُهُ رَذَاذٌ من الرّيق. ويقالُ لُغَةً: فُلاَنٌ يَنْفُثُ غَضَباً، أي: ينْفُخ بفِيهِ، تنفيساً عن غضبه.

**الْعُقَد**: جَمْعُ مفْرَدُه «الْعُقْدَة» وهي العُقْدَة التي تُعْقَدُ في الحبْلِ أو الخيْط أو نَحْوِهما، والّتي يُرْبَط بها الْحبْلُ بِالحبْلِ، أو الخيْطُ بالخيط أو بالثوبِ، ونَحو ذَلِكَ، وتكون بإدارة الخيط على الخيْطِ وإدخال الطرف أو الأطراف في الدائِرَةِ، وشدّ الطَّرفين فتحصُل الْعُقَد.

والسَّواحِرُ يفعَلْنَ هَذا على الأَدَوَاتِ اللاّتي يَنفُثْنَ سِحْرَهُنَّ عليها، عنْدَ تِلاوَةِ الألفاظ السِّحْرِيَّةِ التي يُسَخِّرْنَ بها الْقُرَناءَ من الجنّ.

وقد جاء تخصيص السَّواحِر النَّفَّاثاتِ في الْعُقَد بالاستعَاذَةِ بربِّ الفلَق مِنْ شرِّهنَّ، مع دُخولِهِنَّ في عُمُوم مَا سبَق، إذْ يدخُلن في عُموم: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ وقد يَدْخُلنَ أو يَدْخُلُ أثر سحرهِنَّ في عُموم: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ تأكيداً على الاهتمام بما يكيدُهُ بعْضُ النَّاسِ ضِدَّ خُصُومِهِمْ، أَوْ مَنْ يَحْسُدُونَهُمْ عَنْ طريقِ السِّحر، وهو وسيلة مظلمة خفيَّةٌ قد تأتي بشَرٍّ، فَتَدْخلُ به في أَوْقابِ النَّاسِ، فَتُؤْذِيهم أو تمسُّهُمْ بضُرٍّ ضمن أسْبابٍ خفيَّةٍ، لَهَا مضادَّاتٌ مِنْ جِنْسِهَا، ولَهَا مضادّاتٌ مِنَ الأذكار والاستعاذاتِ باللَّهِ عزّ وجلّ رَبّ الْفَلَقِ، رَبّ العالمين.

والنَّفّاثاتُ في الْعُقَد: هِيَ النفوسُ الساحرة سواءٌ أكانت نُفُوسَ ذُكُورٍ أمْ إِنَاث، لِأنَّ النَّفْسَ عِنْدَ اسْتِخْدَامها وَسيلَةَ السِّحْر تتجرَّدُ من أَوْصَافِ الذكورَةِ والأُنوثَةُ، وتَشْتَرِكُ مَعَ قَرِيناتِها من النفوس الخبيثَةِ في فِعْلِ الشَّرِّ والضُّرّ.

- قول اللَّهِ عزّ وجَلّ:

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

يُعَلِّمنَا اللَّهُ عزّ وجلّ في هذه الآيَة أَنْ نستَعِيذَ بِرَبِّ الفلَقِ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَد.

﴿حَاسِدٍ﴾: اسم فاعل من فعل: «حَسَدَ يَحْسُدُ» واسم الفاعل هنا يَدُلُّ على من يَحْمِلُ في نَفْسِهِ خُلُقَ الْحَسَد، وفي طبْعِهِ مِقْدارٌ مِنْهُ يُشَكِّلُ لَدَيْهِ حالَةً مَرَضِيَّةً قَدْ يتعدّى أَثَرُها إلى إيذاء المحسُودِ، أو الإضرار به.

﴿إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا كَانَ مَنْ في خُلُقِهِ وطَبْعِه الْحَسَدُ قَدْ حَسَدَ فِعْلاً، فتحرَّكَتْ نَفْسُه تُطْلِقُ النَّظَراتِ ذواتِ الكَيْدِ ضِدَّ الْمَحْسُود.

وجاء هذا القَيْدُ الشَّرْطيّ للإشْعَارِ بأنَّ مَنْ في نَفْسِه خُلُق الْحَسَدِ، قَدْ لاَ يَحْسُدُ، فَلاَ يكونُ لمَا في طَبْعِه من حَسَدٍ تَأْثِيرٌ بأذى أَوْ ضَرَرٍ على ذِي النِّعمة.

والحسَدُ يبدَأُ بنظر الْحَاسِدِ إلى نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بها على المحسُود، ثُمَّ تتحرَّكُ نَفْسُه فيتمَّنَى أَوْ يتشهَّىٰ لنَفْسِه مثْلَها، إذَا لم يَكُنْ لَدَيْه نِعْمَةٌ مِثْلُها، أو

يَتَمَنَّىٰ أو يَتَشهَّىٰ زوال هذه النعمة عن المحسُود، ولو كان لدَيْهِ مِثْلُها، لِيَنفَرِد هو وحْدَهُ بحيازَةِ هذه النعمة، أو لئَلَّا يمتاز عليه المحسُود بنعمةٍ ليس لديه هو منها.

وبعد حركة النفس هذه لدى بعْضِ الْحَاسِدِين يُحِسُّ المحرومُ منْهُم من طُمَأنينة الإيمان بقضاء اللَّهِ وقَدَرِه وحكمته في عَطَائه ومنعه، بغليانٍ في داخل نفسه كغليَانِ المِرْجَلِ على النّار.

وتختلف درجَةُ حرَارَةِ هٰذا الْغَلَيان من حاسِدٍ لآخَر، بحَسَبِ قُوَّةِ أو ضَعْفِ الطبيعَةِ الحاسِدَةِ في نَفْسه. وقُوَّةِ أَوْ ضَعْفِ الْمُعَدِّلاَتِ والْكَابِحاتِ لها.

فمن الحاسدين مَنْ تَفُورُ نَفْسُه عَلىٰ مِثْلِ ما تَفُورُ النَّار ذَاتُ الوقود السّريع الاشْتعال، وتتلظّىٰ باللَّهب، ولا يُطفِئُ لَهَبَها ويبَرِّدُهُ إلاَّ الإيمانُ باللَّهِ العليّ الجليل، وبِحكْمَتِه العظيمة في مقاديره، معَ الإيمان باليَوم الآخِرِ، وبالجزاءِ الحكيم، على صالح الْعمل بالفضل، وعلى سَيِّئِ الْعَمل بِالْعَدْلِ، ومن صَالِحِ أعْمَال الْقُلوب والنُّفوس الرضا بمقادير الله. ومن سَيِّئِ أعمال الْقُلوبِ والنُّفوسِ التسَّخُّطُ على ما تَجْرِي به الأحداثُ الكونيَّةُ ضِمْنَ قَضَاء الله وقَدَرِهِ، الّتِي يُقدِّرُها ويقْضِيها بعلْمِه وحكمته.

وتُوجَدُ لدىٰ بعْضُ نُفُوسِ الحاسدِينَ شِحْنَاتُ طاقاتٍ إشعاعيّة، ذَواتِ آثارٍ ماديّة، إذَا أصابَت المحسُودَ آذتْهُ، أو أضرَّتْ بهِ، ورُبما قتَلَتْه، وإذا أصابَتْ أشياء من ممتلكاتِه أوقعَتْ بها الأَذىٰ أو الضَّرر.

وهذا هو ما يُسَمَّى بالإصابَةِ بالْعَيْن، والإصابَةُ بالْعَيْنِ حقٌّ، وهي ظاهرةٌ من ظاهرات الطّاقاتِ الإنسانيَّةِ الخفيَّة، التي تُوجَدُ لدى بَعْضِ الناس، وقد تَنْطَلِقُ دُونَ إرادَةٍ مِنهُمْ، ويَكْثُرُ انْطِلاقُهَا لدَىٰ الحاسِدِينَ المزوّدِينَ بِها إذَا حَسَدُوا.

والاستعَاذَةُ بربِّ الْفَلَقِ تَحْمِي مِنْ هٰذه الطّاقةِ الإشْعَاعيَّةِ الحسَدِيَّةِ الخفيَّة. وقَدْ تُوجَدُ أشياءُ في الكَوْنِ تجذِبُها إليها، فتمتَصُّها، أو تظهر آثارُها فيها، فتتكَسَّرُ هي، ويَحْمِي اللَّهُ بها المحسُودَ من أذاها وضَرَرِها.

وقد صَحَّ عن النبيّ ﷺ أنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، أي: أَنَّ الإصابَةَ بنظراتِ الحاسِدِ إذا حسَدَ حقٌّ.

● روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الْعَيْنُ حقٌّ».

● وروىٰ مسلم عن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ، قال: «الْعَيْنُ حَقٌّ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا».

أي: إذا طُلِبَ مِنَ العائِنِ أَنْ يَغْسِلَ أَطْرَافَهُ، لِيُؤْخَذَ الْمَاءُ ويُصَبَّ مِنْهُ على الْمُصَاب بالْعَيْن لَزِمَهُ أَنْ يَسْتَجِيب للطَّلَب.

وحقيقةُ هذا من الأُمورِ الغَيْبِيَّةِ بالنِّسبَةِ إلَيْنا، وَقَدْ يَكُونُ فِي جَسَدِ الْحَاسِدِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَ الْمَاءُ مِنْهُ شَيْئاً إذا أُلْقِيَ عَلَى الْمُصَابِ بِعَيْنِهِ أَزَالَ مَا كان قد انطلَق من نفسه إلَيْه. أو اتَّحَدَ بِهِ فَبَرِئَ الْمُصَابُ بإذْن الله وبخلقه.

وصحّ عن النبيّ ﷺ الإذْنُ بالرُّقْيَة من الإصابة بالعين. وعلى المؤمن أَنْ يَكُونَ علىٰ حضُورٍ مع الله، فيستعيذَ باللّه من شرِّ كُلِّ ذي شرّ، ومِنْ ضُرِّ كُلِّ ذي ضُرّ، فَهُو عزّ وجلّ الواقي، وأفضلُ ألفاظ الاستعاذة ما جاء بيانُه في كتاب الله عزّ وجلّ، ثمّ ما جاءَ في أقوال الرسول ﷺ.

فسورتا المعَوِّذتَيْنِ حِصْنَانِ عظيمان لمَنْ شَاء أَنْ يكون في حماية الله عزّ وجلّ، وحفظِه من شرِّ ما خلق، ومن شَرِّ النفاثات في العُقَد ومن شرّ حَاسِدٍ إذا حسَدَ ومن شر غاسِق إذا وقَب، ومن شرّ الوسْوَاسِ الْخَنَّاس، الّذي يُوسْوِسُ في صُدور النّاس، من الجنَّةِ والنَّاس.

ومن الأدعية الواردة في صِحَاح الأحاديث ما يلي:

● روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أَنَّها قالَتْ: كان إذا اشتكى رسولُ الله ﷺ رقَاهُ جبريل، فقال:

«بِاسْمِ اللَّهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، ومِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وشرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ».

● وروى مسلم عن أبي سعيد الخدريّ، أنَّ جبريلَ أَتى النبيّ ﷺ فقال: «اشْتَكَيْتَ؟»، فقالَ: «نَعَمْ». قال: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، ومِنْ كلِّ شيءٍ يؤذيك، من شرِّ كلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ».

وقد لا يقتصر الحاسِدُ ذو النَّفْس الخبيثَةِ على الإصابة بالعيْن، بل يَتّخِذُ وسائِلَ كيْدٍ ومَكْرٍ فيها أذىً أو ضُرٌّ، يَكِيدُ بها مَحْسُودَه، إلى حَدِّ الْقَتْلِ ظُلْماً وعُدْواناً.

وربّما قامَت حُروبٌ طاحِنَةٌ دافِعُها الحسَدُ بين النّاس.

ومن أعظم ما جرىٰ في تاريخ الحسَدِ، حَسَدُ إبليس لأبينا آدم عليه السّلام، فقد جَعَلَ هذا الحسَدُ إبليس يتّخذ كلَّ حيلَةٍ ووسيلَةٍ يستَطِيعُها ليُخرِجَ آدم وزَوْجَه مِنَ الجنَّة، وليُتَابعَ ذُرّيَّتَهُما بالإغْواء والتّسْويل والوسوسة، ليُدْخِلَهم النّار.

ومن الحسَدِ في تاريخ بَنِي آدَمَ حسَدُ قَابيلَ لهابيل الذي دفَع به حتّىٰ قتل أخاه.

ومن الحسَد في تاريخ الناس حسَدُ بني إسرائيل، فقد حسَدَ أولادُ يعْقُوبَ عليه السلام أخاهم من أبيهم يوسف عليه السّلام، حتّىٰ حاولوا قتله، ثُمَّ اقْتَصَرُوا على إلْقَائِه في الْجُبِّ، وهو غُلَامٌ صغير السِّن، وكان من شأنه بقضاء الله وقدرَه وإذْنِه وتمكينه وعنايتِهِ به ما قصّه الله في سُورة (يوسف).

ثُمَّ حسَدُهُمُ الْعَرَبَ إذْ جاء النبيُّ الخاتم الذي كَانُوا قد بُشِّرُوا به من أولاد إسماعيل عليه السلام، ولم يأتِ منهم من أولادِ إسحاق، فكفَرُوا به، وَكَادُوهُ كَيْداً عظيماً، وكادُوا دينَهُ وأُمَّتَهُ، وما يزالُون يكيدون.

ومَنْشأُ الحسَدِ الأَنَانيَّةُ المفرطة، وكراهِيَةُ الخيْر للغير.

وكلُّ الحسَدِ مَذْمُومٌ إلاَّ مَا أَذِنَ به الرَّسُول ﷺ من حسَدِ الغِبْطَة، وهو الحسَدُ الّذي يتمَّنى الحاسد فيه أن يكون له مِثْلُ ما للمَحْسُودِ منْ أمُورٍ تنفَعُهُ في آخِرَته عند ربّه.

روى البخاريُّ ومسلم عن ابن مسعود، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لاَ حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْن: رجُل آتاهُ اللَّهُ الْحِكْمةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا. وَيُعَلّمُهَا النَّاسَ، ورَجُل آتاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكِتِهِ في الْحَقّ».

## (٦)
## التدبّر التحليليّ لآيات سورة النّاس

● قول الله عزّ وجَلّ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾

يُعَلّمُنا اللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ في هذَا النصّ أنْ نَسْتَعِيذَ به بوصْفِه رَبَّ النَّاسِ، مَلِكَ النَّاسِ إلَهَ النّاس، ففي ذِكْرِ هٰذِهِ الصّفات مُلاحَظَةُ مَا يتّصل بالشرّ المستَعاذِ بِهِ منه.

(١) فالرَّبُّ هو الخالقُ وفْقَ نِظَام التَّرْبية، إذا التربية هي الإنشاء المتدرِّجَ حالاً بعْدَ حَال، وهذا يسْتَلْزمُ الحضور والشّهود دواماً، ويسْتَلْزِمُ الإمْدَادَ المتَتَابع، والْخَلْقَ المتتابعَ آناً فآناً دون انقطاع.

إذَنْ فَهُو القادِرُ على مَنْحِ الإعاذَةِ مِنْ شرّ الوسْواس الخنَّاس، الذي هو ملازِمٌ دوامـاً لحركَاتِ قَلْبِ الإنسانِ ونَفْسِه مع الآنَات المُتَتَابعات، يُوسْوِسُ بفِعْلِ الشّرور، ويُغْري بارتكاب المعاصي، ويُزَيّنُها، ويسْتَدْرِجُ للوقُوعِ فيها، مادًا خُرْطُومَه إلى المواطن المحرِّكَة للإنْسَانِ من داخله.

فإذَا ذَكَرَ الإنْسَانُ رَبَّهُ خَنَسَ شيْطانُهُ الموسوس له، وكلّما غَفَل عَنْ

ذِكْرِ رَبِّهِ والاستِعَاذَةِ بهِ جَعَلَ يُوسوسُ له، حريصاً على إسقاطه في آبار المعاصي والمخالفات وارتكاب الآثام.

إنّ هٰذِ المتابعةَ مِنَ الشيطان الوَسْواسِ الخنَّاسِ لا يَقِي ولاَ يَحْمِي وَلاَ يُعِيذُ مِنْها إلاَّ اللَّهُ جلّ جلالُهُ، بوصْفِه رَبّاً خالقاً حاضراً شاهداً مُمِدًّا في كُلّ الآنَاتِ المتتابعات.

فالاستعاذةُ به مع ملاحظة هٰذا الوصف، هُو الأمْرُ الّذي تقتضيه عُبُودِيَّةُ الْعَبْد لربّه، نظراً إلى أنَّ العبوديَّة في مفْهُومِها النَّفْسِيّ. هيَ رُدُودُ أفْعَالِ النَّفْسِ السَّوِيَّةِ تجَاهَ تَصَوُّرَاتِها لعناصر القاعِدة الإيمانيَّة.

إنَّ عُبودِيَّة الإنسان لربّه في حالة تعرُّضه باستمرار لوسَاوس الشّيْطان الوسواس الخنَّاس، تقتضِي مِنهُ أن يسْتعيذَ بالرَّبِّ الّذي هو شاهدٌ حَاضِرٌ عَلِيمٌ، متَابعٌ لعَمَليَّاتِ الخلْقِ المتجدّدَةِ دواماً مِنْهُ، في كلّ خَلِيَّةٍ وَكلّ ذَرَّةٍ من عَبْده، وفي كلّ آناتِهِ المتتابعات.

(٢) ومَنْ كانَ هُو الرّبّ دَوماً، كَانَ هو الْمَالِكَ لِعَبْدِهِ دَواماً، وكانَ هُو الْمَلِكَ الآمِرَ المتصرّف فيه علىٰ ما يشاء دَواماً.

وفي الاستِعَاذَةِ باللَّهِ جَلَّ جلالُهُ بوصْفِهِ مَلِكَ النَّاس، معْنَى الاستِنْصَارِ بصَاحِبِ الْمِلْكِ وصَاحِبِ الْمُلْك، لِحمَايَةٍ وَوِقَايَةٍ وإعَاذَةٍ من هو داخِلٌ في مِلْكِهِ لأنَّهُ خالِقُهُ ورَبُّهُ دَواماً، وداخِلٌ في مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، إذْ هُو المَلِكُ وحْدَهُ في الوجود كُلّه، فَلاَ سُلْطَانَ لأحَدٍ مع سُلْطانه، وهُوَ مَلِكُ النَّاسِ الذي له حقُّ الأمْرِ والنَّهْي والتكليف والمحاسبة والجزاء، ومِنْ شَأْن رَعِيَّةِ الْمَلِكِ أنْ تسْتَنْصِرَ بمَلِكِهَا الْقَوِيّ العزيز الغالبِ لأعدائها، ونصره لها يكون بحِمَايَتِهَا وَوِقَايَتِهَا وَإعَاذَتِهَا من شرّ كُلّ ذي شرّ.

والله جَلَّ جلالُه يَنْصُر عَبْدَه، إذا كان صحيح الإيمان به، وصادقاً في عبوديته له، ومُعْتصماً به، ومُذْعِناً لمُلكه وسُلْطانه، وحريصاً على طاعته.

أمَّا الكافر الجاحد، أو المخالف العاصي، أو المتهاون الناسي، فإن حظه من نُصْرَةِ رَبّه له مُنْعَدِمٌ، أو ضعيفٌ، وذلِكَ بحَسَبِ حَاله مع ربِّه.

(٣) ومن كان هُو الرّبّ، وهُوَ الْمَالِكَ والْمَلِكَ، كَانَ هو وحْدَه المستَحِقَّ لِأَنْ يكون الإله المعبود.

إلٰه النَّاس: أي: هو المستحقُّ لأنْ يَعْبُدَهُ وحْدَه جميع الناس، إذْ هو وحْدَهُ رَبُّهُمْ، وهو وَحْدَهُ مَالِكُهُمْ وَمَلِكُهُمْ، فلا إله غَيْره، أي: لا مَعْبُودَ بحقٍ سواه.

وفي الاستعاذة باللّهِ بوصْفِهِ إله النَّاس، إلْمَاحٌ إلى أنَّ المستعيذَ بِهِ قائِمٌ بحقِ رَبِّهِ عليه، من توجيه عبادته له وحْدَه، ومِنْها عبادَةُ الدُّعاءِ والاستعاذة، فهو بهذا أهْلٌ لِأَنْ يُكْرِمَهُ اللَّهُ بإجابَةِ دُعائه، وإعَاذَتِهِ مِنْ أَعْدائهِ الساعِينَ إلى إغوائه وإضلاله، من شياطين الجن، ومن شياطين الإنس.

● قولُ اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾:

هٰذه الآيَات تُبيّن المستعاذَ بالله جلَّ جلاله من شرِّه، مع بيان نَوْع الشّر، وهو الوسوسة.

**الْوَسْوَاس**: بفتح الواو هو الشيطان، وكلُّ ما حَدَّثَكَ وَوَسْوَسَ إليك.

والوَسْوَسَةُ، والْوَسْوَاسُ في اللُّغة: الصَّوْتُ الخفيُّ، من الرّيح، والْوَسْوَاسُ صَوْتُ الْحَلْي، والهَمْسُ من الأصوات والأَقوال.

والْوَسْوَسَةُ، والْوِسْوَاسُ: حَدِيث النفس.

يقال لغة: وَسْوَسَ في صَدْرِهِ ووَسْوَسَ إلَيه وَسْوسَةً وَوَسْواساً.

**الخنَّاس**: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ وتكْثِيرٍ لصيغة «الْخَانِسِ» اسم فاعل من فعل «خَنَسَ يَخْنِسُ خُنُوساً وَخِنَاساً» أي: تأخّرَ، وانْقَبَضَ واسْتَخْفَى.

وقد وُصِفَ الشيطانُ بأَنَّهُ خنَّاسٌ، لِأَنَّهُ يَخْنِسُ كُلَّمَا ذكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ، فإِذَا غَفَل أو نَسِيَ عَادَ الشيْطانُ فَوَسْوَسَ في صَدْرِه، فإذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَس، وهَكَذَا دوالَيْكَ وَسْوَاسٌ خنَّاسٌ.

وكذلِك يَفْعَلُ شَيَاطِين الإنسِ، بلْ شيطان الإنس أشَدُّ خطراً وأعْظَمُ ضرراً مِنْ شياطين الجنّ، فشَيْطَانُ الإنسِ يُوَسْوِس بالأقوال الّتي تمرُّ عَنْ طريقِ الفكر، حتّى تَصِلَ إلى مراكز الانْفِعَالات والعواطف والشهواتِ والأهواء في الصَّدْرِ. وشيطان الجنّ يقْذِفُ من داخل النَّفْس بالخواطر ويجري من ابْنِ آدم مجْرَىٰ الدَّمّ، فتنتَقِلُ الخواطر إلى مراكز الانفعالات والعواطف والشهوات والأهواء في الصَّدْر.

وحين يَسْتَجيبُ الإنْسَان بإرادته إلى هذه الوساوس فإنّها تُنتِجُ سلوكاً مُنْحرِفاً يجلُب الشرّ والضُّرَّ للإنسان.

رُوِيَ عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ أنَّهُ قال: الشيطانُ جاثِمٌ على قَلْبِ ابن آدم، فإذا سَهَا وغَفَلَ وَسْوَسَ، وإذا ذكَر اللَّهَ خَنَس.

ورُوِيَ نظير هذا عن مجاهدٍ وقتادة.

● وثبت في الصحيح(١) أنَّ الرسول ﷺ قال:

مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وُكّلَ به قَرِينُهُ».

أي: الموسْوِسُ له بالفواحِشِ والمعاصِي من شياطين الجنّ.

قالُوا: وأنْتَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟. قال:

«نَعَمْ، إلاَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلاَ يَأْمُرُنِي إلاَّ بخَيْر».

---

(١) كما ذكر ابن كثير في تفسيره للسورة.

● وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنْ أنسٍ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ».

● وروى الحافظ أَبُو يَعْلَىٰ الْمَوْصِليُّ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ:

«إنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ[1] عَلَىٰ قَلْب ابن آدم، فإنْ ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ، وإنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ، فذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الخناس». [وهو حديثٌ غريب].

● وأخرج ابْنُ أبي دَاودَ عن ابْنِ عبَّاسٍ في قول الله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ قال: مَثَلُ الشَّيْطَانِ كمَثَلِ ابْنِ عِرْسٍ، وَاضِعٌ فَمَهُ عَلىٰ فَمِ الْقَلْب، فيُوَسْوِسِ إلَيْه، فَإنْ ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ، وَإنْ سَكَتَ عَادَ إلَيْهِ، فَهُوَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ.

ابن عِرْس: حيوان أصغر من القط يفتك بالدجاج ويتوارى عن الأنظار في مخابئ.

وانتهى تدبّر السُّورة بمعونة الله وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

## ملاحق لسورتي الفلق والناس

**الملحق الأول:** نظرة عامَّة حول ما جاء في السّورَتين.

**الملحق الثاني:** حول فلسفة التمكين من فعل الشرّ.

**الملحق الثالث:** الاستعاذة في القرآن والسّنّة.

**الملحق الرابع:** حول السّحر.

❁ ❁ ❁

(١) خَطْمَهُ: الخطم: الأنف، أو مقدّم الأنف، والمراد مُقَدَّم فَمِهِ، ولعلّه يخرج صوت حديثه من أنفه.

## (٧)

# الملحق الأوّل

# نظرة عامّة حول ما جاء في سورتي الفلق والناس

بعد التدبُّر التفصيليّ لسورتَي المعوِّذَتَين، يَحْسُنُ بنا أَنْ ننظُرَ نظرَةً عامّة إلى ما تدبَّرْنَاهُ مِنْ آياتهما.

لقد أمرنا الله عزّ وجلّ بأَنْ نَسْتَعيذَ بِهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وبَرَأَ وَذَرَأَ في كَوْنِهِ، لأنَّ الاستعاذَةَ به منْ شرّ مَا خَلَق مظهَرٌ منْ مَظاهر الإيمان الصادق. وسلُوكٌ نابعٌ من القاعدة الإيمانيّة.

فالمؤمن بالله الّذي له مَلَكوتُ السَّمَاوات والأَرْضِ، وهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، إذَا حَذِرَ أو خاف من شرّ شيءٍ أو من ضرِّهِ أو أذاه، لم يسْتَعِذْ في دُعَائِهِ الموجَّهِ لِلْغَيْبِ بإنْسٍ، ولاَ جنٍّ، ولاَ مَلَكٍ، ولا حَيوانٍ، ولا جَمادٍ، ولا رُوحِ نَبِيٍّ أَوْ رسُولٍ أو وَلِيٍّ أو صالحٍ مِنْ صُلحاء المسلِمين.

إنَّما يستَعِيذُ باللّهِ عزّ وجلَّ وحْدَهُ لاَ شريكَ له، فهُوَ رَبُّ الْفَلَقِ، وهو رَبُّ النَّاسِ، وَمَلِكُ النَّاسِ، وَإِله النَّاسِ، وهُو رَبُّ كلِّ شيءٍ من دُونه، وَمَلِكُ كلِّ شيءٍ وَمَلِيكُهُ، والمسْتَحِقُّ وَحدَهُ لأَنْ يُعْبَدَ، والاستعاذَةُ بالغيبيّاتِ لَوْنٌ من أَلْوانِ العبادة.

وفي الاستعاذة باللّهِ عزّ وجلَّ تمْكينٌ للقاعِدَةِ الإيمانيَّةِ، وَتثبيتٌ عمليٌّ للاعتقاد بأَنّه لاَ رَبَّ في الوجود كلِّه إلاَّ الله، وَلاَ إله في الوجود كُلِّهِ يَسْتَحِقُّ الإلهيَّة إلاَّ الله. ولا مُنْجِيَ مِنْ كُلِّ المكاره سِوَاه، مع ما في الاستعاذة بالله عزّ وجلّ من عبادةٍ هي من أَعْمقِ العباداتِ وأَخْلَصِها، فالاستعاذَةُ من الدُّعاء، والدُّعاء عبادةُ، أو هي مُخُّ العبادة كما جاء في بعض الأحاديث النبويَّة، والاستعاذة تتضمَّن ثلاثة أركان، هي:

(١) مسْتَعِيذٌ. (٢) ومُسْتَعَاذٌ به. (٣) ومستعاذٌ منه.

● **أمّا المستَعيذ**: فإنّما يُلجئُه إلى الاستعاذة بغيره شُعُورُهُ بضعفه وعَجْزِه عَنْ دَفْعِ أَوْ رَفْعِ شرٍّ أو ضُرٍّ أَوْ أذىً يَخْشَاهُ، أو قَدْ مَسَّهُ مِنْهُ شيْءٌ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ ضُعَفَاءُ تجاهَ كَثِيرٍ ممّا خلق اللَّهُ في كوْنه، وهُمْ فُقَرَاءُ إِلىٰ اللَّهِ جلّ جلالُهُ دون اسْتِثْناء.

● **وأمّا المسْتَعَاذُ به**: فالقاعِدَة الإيمانيَّةُ المسْتَقِرَّةُ في قَلْبِ المؤمِنِ تتضَمَّنُ أَنَّ الخلْقَ جميعَهُمْ ضُعَفَاءُ، لا يملكون لغيرهم ولا لأنفُسِهِم جلْبَ نَفْعٍ ولا دَفْعِ ضُرٍّ، إلاّ بتمكينٍ من الله وتسْخِيرٍ للأشْيَاء، وإذْنٍ قَدَرِيٍّ مِنْه.

فالسُّلْطانُ كُلُّهُ في الوجود كلِّهِ له وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، هو الذي خلَقَ فَسَوَّىٰ، وأخْرَجَ مِنْ ظلْمَة العَدَمِ إلى نور الوجود، وأمَدَّ بالْقُوىٰ، ومَكَّنَ، وسَخَّر، ثُمَّ هو يأذَنُ إذا شاءَ أو لا يأذَنُ.

فهو عزّ وجلَّ الذي يَجِبُ أنْ لاَ يَسْتَعِيذَ المستعيذُون إلاّ به، وأن لا يَدْعُو الدَّاعُون إلاّ إيّاهُ.

● **وأمّا الْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ**: فَهُو كُلُّ شرٍّ أو ضُرٍّ أَوْ أَذىٰ عاجلٍ أو آجلٍ، من كلِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ، ومن غضَب الله وسَخَطه وعِقَابه، وعَذَابه، التي تَجْلُبُها معاصِي العباد. وَمِنْ بَلائِهِ الّذِي قد تقضي به مقاديرُه، ممَّا هو من المكاره، وأذِن اللَّهُ بأن نسْأَلَهُ العافية منه.

والمخلوقاتُ الّتي يمكن أنْ تَجْلُبَ للإنْسانِ الشَّرَّ أو ما يَكْرَهُ منْ ضُرٍّ أو أذىً منبثّةٌ في كلِّ ما خلَقَ الله من أنواع وأصناف، بدْأً مِنْ نَفْسِ الإنسان الأمَّارَةِ لَهُ بالسُّوءِ بَيْنَ جنْبَيْهِ، إلَىٰ شهواته الجامحة، وأهوائه الجانحة، وقُواه الطاغية، ثُمَّ إلى شيطانه الذي يجري منه مجرىٰ الدّم، فإلى سائر شياطين الإنْسِ والجنّ، وسائر ما خلقَ الله من ظاهرٍ مشهود، أو خفِيٍّ محْجُوب.

**ممّا تضمنته سورتا المعوِّذتين:**

وقد تضمَّنَتْ سورتا المعوِّذَتَيْنِ أموراً ذاتَ أهمية، منها ما يلي:

**الأمر الأول**: تنبيهُنا على حقيقة عجزنَا وَضعفنا عن دفْعِ الشرور والمكاره عن أنفسنا، ممَّا قَدْ يُصِيبُنا به كثيرٌ ممَّا خلَق الله في كونه.

**الأمر الثاني**: تنبيهُنا بصفَةٍ عامَّةٍ على حاملات الشُّرُور المحيطة بنا، أو الدَّاخِلَةِ في ذواتنا والمتغلغلَةِ في أعماقِ نفوسنا.

وتنبيهُنا بصفةٍ خاصّة على شُرورٍ خاصَّةٍ ذاتِ أَهميَّةٍ بالغة في حياتنا، لما لها من آثار سيئَةٍ جدّاً علينا، في أمورنا الدنيويَّة أو الأخرويَّة.

**الأمر الثالث**: تَعْلِيمنا كيْفَ نسْتَعِيذُ باللَّهِ عزّ وجلَّ، في كلامٍ موجَزٍ جامعٍ، يتضمَّنُ الثناء البليغ على الله عزّ وجلَّ، والاستعاذَةَ الْحُلْوَةَ العذْبَةَ الأداء، مع ذكْرِ المستعاذِ بالله منه.

**الأمر الرابع**: تثبيت إيماننا بأنَّ الله عزّ وجلّ هو وحده القادر على حمايتنا وصيانتنا ودفع الشرور عنَّا، فهو ربُّ الفلق، أي: هو ربُّ الخلق المنفلق من الْعَدَم، وهو مُربّيهِ، ومنمّيه، ومنشّئه، والممدّ له بالبقاء والقوىٰ، وهو رَبُّ الناس، الخالق لهم، والمهيمن عليهم دواماً بالتربية، وهو الرحيم بهم الذي يُعِيذُهم، إذا استعاذوا به، والتَجَؤوا إليه، وَهُو مَلِكَ النَّاسِ الذي بيَدِه تصْرِيفُ كُلِّ أَمْرٍ بِحُكْمِهِ وحِكْمَتِهِ، فمن استعاذ به مُؤْمِناً خاضعاً عابداً أعاذه. وهو إلٰه الناس المعبودُ بحقٍّ، فلا إله في الحقيقة غَيْرُه، ولا مُسْتَحِقَّ للعبادَةِ سواه، ومِنْ عبادته عزّ وجلَّ الاستعاذةُ به، والالتجاء إليه.

## (٨)
## الملحق الثاني
## حول فلسفة التمكين من فعل الشر

من لوازم حكمة ابتلاء الإنْس والجنّ في ظروف الحياة الدنيا، منْحُهم إراداتٍ حُرَّةٍ، يُرِيدُونَ بها ما يشاؤن من اعتقادٍ أو عمل.

ومن لوازم منح الإرادات الحرَّة للممتحنين، تمكينُهم تمكيناً قدريّاً

عامّاً بالإمداد والتسخير من تنفيذ ما يريدون، إذا لم يكُنْ للّٰهِ عزّ وجلّ مرادٌ آخرُ تقتضيه حكمته.

ومع التمكين القدريّ العامّ، لا بُدَّ من الإذنِ الرَّبَّاني لدى ممارسَتِهم أعمالهم، من أَنْ يُحقِّقُوا مراداتهم.

ومن لوازم كلِّ ما سَبَقَ لتحقيق حكمة الابتلاء أنْ تُؤَثِّر أعْمالُ بَعْضِ المخلوقاتِ في بعض، فيكونَ من نتائج هٰذِ التأثيرات نَفْعٌ وَخَيْرٌ من بعْضِ ذوي الإراداتِ الحرَّةِ لغَيْرِهم، أو ضرَرٌ وأذىً وشرٌّ منهم لغَيْرِهم.

ومنْ تأثيرات بعضهم على بعض، أَعْمالُ إغواء وإغراء ووسوسَةٍ وتسويل، حتَّىٰ يفْعَلَ المستجيبونَ بإرادتِهم شرّاً أو ضُرّاً أو أذىً، أو يُحْدِثوا إفساداً في الأرض، مع خضوع كل نتائج أعمالهم لسلطان التمكين القدريّ العامّ، والتسخير للمسخّرات في الكون، ومَعَ الإذنِ من الخالق جلَّ جلاله بتحقيقها للابتلاء.

وممّا قد يكون له آثارٌ ذَواتُ شَرٍّ وضُرٍّ، وهو يتحرَّك في الكَوْنِ بقوانين الله القدريَّة الجبريَّة، ما هو داخل في ذات الإنسان، كنَفْسِه الأمّارة بالسُّوء، وكبَعْضِ دوافعه وغرائزه الّتي قد تنمو في ذات نفسه، فتحرّضُ قُدَرات إرادته على فعل الإثْم والشّرّ، وقد يَدْفَعُها بقُوَّة، كَشِدَّة انفعال الغضب الّذي يُفْسِد ميزان العقل، ويُضْعفُ مقاومة الإرادة، وكَشِدَّةِ انفعال العشق أو البغض أو الحقد، أو شِدَّة ثَوَران الشهوة، أو تملُّك الطَّمَع أو الخَوف أو الجبْنِ، أو ضغط الضائقاتِ الْمُحْرِجَاتِ كالفقر والجوع الشّديدين، وأنْواع التَّعذِيب والآلام الَّتِي تُزْهِقُ قدرات الاحتمال لدى الإنسان.

والإنسُ والجنُّ لهُمْ آثارٌ ذَاتُ شَرٍّ، وهم يتحرَّكون ويتصّرفُون في الكون بإرادَةٍ حرّة مُخْتارة منحهم الله عزّ وجَلّ إيّاها، ومكّنَهمْ من تنفيذ بعض مراداتهم، ممّا يدخُل ضِمْنَ استطاعة قُدْراتهم، فيما سخَّرَ لهم في كونه.

فالإِنْسُ قد يمكرون ويكيدون ويوسْوِسُون بأسبابِ خفيّة أو ظاهرة، لإنزال الشرِّ أو الضرّ، أو الأذىٰ، فيمن يكيدونه، وهذا من لوازم التخيير والتمكين والتسخير، للابتلاء في ظروف الحياة الدنيا.

والجنُّ قد يفعلون مثل ذلك، بأسْباب خفيَّةٍ، مكَّنَهُمُ اللَّهُ منْها، وسخَّرَهَا لهم، غير أسباب الإنس، وهذا من لوازم التخيير والتمكين والتسخير.

والشياطينُ وهم كفَرَةُ الجنِّ ومرَدَتُهُمْ قَدْ يُوَسْوِسُون، ويُغْرُون، ويُسَوِّلُونَ إطماعاً بالباطل، لدفع الناس بوساوسهم، وإغراءاتهم، وتسويلاتهم، إلى الكفر والفسوق والعصيان، وهذا من لوازم التخيير والتمكين والتسخير.

وكلُّ ما لا يَمْلِكُ الناس أسبابَ الحماية منه، واتخاذ الوقاية من أسباب شَرّه أو ضُرّه أو أذاه، فقد تكفَّلَ اللَّهُ عزّ وجل للمؤمنين به، المستقيمين على طاعته، والمستعيذين به، بأَنْ يتدخَّل جَلَّ وعلا، ليحميَهُمْ ويَقِيَهُمْ من الشرور، ذواتِ الأثار الضَّارَّةِ في آخِرَتِهم، إذا استعاذوا بِه حقاً وصدْقاً، ولَجَؤُوا إليه من عُمْقِ قُلُوبهم، وتوكَّلُوا عليه، داعين متضرّعين له، وقَدْ يدفع عنهم المضارّ الدُّنيويَّة أيضاً، ما لم تكن حكمتُهُ قد قضَتْ بأن يَبْتَلِيهُمْ ببعْضِها، بشَرْط أن يستعيذوا بِه حقاً وصدْقاً، ويَلْتجؤُوا إليه من عُمقِ قُلُوبهم، ويتوكَّلُوا عليه، داعين متضرّعين له، مخلصين في دَعَائهمْ وعبادتهِم له.

وقد عَوَّدَ الله عزَّ وجَلَّ عباده المؤمنين الصّادقين أن يَرُدَّ كيْدَ أعدائهم في نُحورهم، وأنْ يُعيذَهُمْ من شرورِهم، إذا استعاذوا به والتجؤُوا إليه.

ومكّن الرّبُّ الخالق جلّ جلالُه ذوي الإرادات الحرّة من اتخاذ مَقاديرَ مُحَدَّدةٍ من الأَسْبَاب، للوقاية والحماية من أنواع الشرّ والضّرّ والأذىٰ، التي قد تأتي بها القوانين الكونية الجبريّة، والتي مكَّنَ عباده من اتّخاذ أسبابها،

بمقادير محدَّدة أيضاً، ومكَّنَهُمْ أيضاً من دفْعِ الموانع والعقبات والصوارف الّتي تَحُولُ دون تحقيق النتائج الّتي يُرِيدون تحقيقها، بمقادير محدَّدة من الأَسْباب أيضاً.

ولكِنَّ وراءَ الأسْباب الظاهرةِ أسباباً كثيرةً خفيَّة، منها ما هو لتحقيق المطلوب، ومنها ما هو لِرَفْع الموانع والعقبات والصوارف عن تحقيقه، ومنها ما هو للوقاية والحماية من الشرّ والضرّ والأذى، وهذه الأسباب الخفيَّةُ غيْرُ الظاهرة هي الجمُّ الغفيرُ من الأسباب، وهيَ تَقَعُ فَوْقَ استطاعة المخلوق وقدراته، أو تَقَعُ وراء دائرة عِلْمه، أو يَعْلَمُها ولا يتمكَّنُ من الوصول إليها أو التَّحكُّم بها.

فَمَنْ غيْرُ الله الخالقِ الرَّبّ العليم الحكيم اللّطيف الخبير، يتوَّلىٰ أو يَمْلِكُ دَفع أنواع الشرّ والضرّ والأذي، الّتي لم يُعْطِ عبادَهُ أسْبابَ دفعها؟!

ومَنْ غير الله الخالق الرَّبّ العليم الحكيم اللّطيف الخبير، يتولّى أو يَمْلِك رَفْعَ الموانع والعقبات والصوارف، الّتي لم يُعْطِ عباده أسْباب رفْعِها؟!.

ومَنْ غيْرُ اللَّهِ عزّ وجلَّ يتولّى أو يَمْلِكُ وِقَايَةَ وحِمَايَةَ عباده من أنواع الشرّ والضرّ والأذي الّتي لا يملكونَ وسيلةً للتوقي منْها، لأَنَّها فوق طاقتهم، أوْ لاَ تَقَعُ في دوائر علمهم؟!!.

إذَنْ: فالإنْسَانُ يَتَّخِذُ مِنَ الأَسباب ما مكَّنه الله من اتِّخاذه، ثُمَّ يَجِدُ نفسه عاجزاً عن اتخاذ أسبابٍ هي فوق قُدْرَاته، أو لا تَقَعُ في دائرة علمه أصلاً.

فماذا يفْعَلُ إذن؟!

إنّه لا حيلة له إلاّ أن يَرْجع إلَىٰ قاعدة إيمانه برَبّه، الذي هو مُسَبِّبُ الأسْبَابِ كلّها، والمهَيْمِنُ علَىٰ كُلِّ شيءٍ، والعليم الخبير بكلّ شَيْءٍ، والَّذِي هو على كُلّ شيء قدير.

فإذا رجَعَ إلى قاعدة إيمانه بربّه هَدَاه إيمانُه إلى أنّ مسؤوليّاته وواجباته السببيّةِ تَنْحَصِرُ فيما يَمْلِكُ اتّخاذه من أسباب، وهو يتّخذها مستَعِيناً باللَّهِ عزّ وجلّ، ليُمِدَّهُ بالْعَوْن والتوفيق، وبمزيدٍ من الْقُوَى الغيبيَّةِ المساعدة له في أسبابه.

ولهذا علّمنا رَبُّنا جلّ جلالُه، أن نستعين به في ممارساتنا لكلّ أسبابنا، فنقولَ بقلوبنا وألسنتنا: بسم الله الرحمن الرحيم.

وعلّمنا رَبّنا جلَّ جلالُه، أَنْ نَتوكَّل علَيْهِ ليحقّق لنا ما نحِبُّ من خَيْرَي الدنيا الآخرة، وعلّمنا أن نقول بقلوبنا وألسنتنا أذكارا وأدعية أنزلها في كتابه، ومنها:

- ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾
- ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾.
- ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾
- ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾.
- ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.
- ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

إنَّ هذا التوكُّلَ على اللَّهِ عزّ وجلّ، هو من عناصر العبادة له تبارك وتعالى مع ما فيه من استجلاب تحْقِيق مَا لا يَمْلِكُ العبْدُ أسبابه، إذا كان لله حِكْمَةٌ وإرادَة في تحقيقه لِعَبْدِه.

وبالتأمُّل الدقيق العميقِ نُدْرِكُ قَضيّتَيْن:

**القضيّة الأولى**: أنّ اتّخاذ الأسباب يَقَعُ في دائرة الطاعة العمليّة لله عزّ وجل.

**القضيّة الثانية**: أنّ التوكُّلَ على الله عزّ وجلّ يَقَعُ في دائرة العبادة القلبيّة والنفسيّة لله تبارك وتعالى، ويُسَاعِدُ اللّسَانُ هذه العبادة بالذكر اللفظيّ، الذي قد يجلُب التصوّرَ الذهْنِيَّ، والحضورَ القلبيَّ النفسيَّ.

أمّا موقف العبْدِ المؤمِنِ تُجَاهَ ما لا يَمْلِكُ حمَايَة نَفْسِه وَوِقايتَها، مما قدْ يَتَّجِه نَحْوَهُ بشرٍّ أَوْ ضرٍّ أَوْ أذىٰ، مِنَ المخْلُوقاتِ غَيْرِ ذَاتِ المسؤوليّة عمّا يَحْدُث بها من أحداث، وكذلك مِنَ المخلوقات ذوات المسؤوليّة عمّا تُحْدِثُ بإراداتها مِنْ أحداث. فهو الاستعاذة بالله من شرّ كلّ ذي شرٍّ، ومن ضُرّ كلّ ذي ضُرّ، ومن أذى كُلّ ذي أذَىٰ.

والاستعاذةُ باللَّهِ عزَّ وجلَ، هي في الحقيقة تَوَكُّلٌ على اللَّهِ ودُعَاءٌ له في آنٍ واحد. وهاتان عبادتان في حركاتِ القلْب وذكر اللّسان.

وفي الربع الأوّل من التّنزيل المكيّ أنزل اللّهُ وجلّ سُورَتَي المعوّذَتين، يُعَلِّمُنَا فيهما كَيْفَ نَسْتَعِيذُ به مِنْ شَرّ كلّ ذي شرّ، نظراً إِلَىٰ أَنّ الاستعاذة به من أوائل مظاهر السلوك الإيماني، بَعْدَ إعلان التوحيد، وبَعْدَ الاستعانَةِ باللَّهِ في كلّ الأعمال، وبَعْدَ الصَّلاةِ له وبعْضِ ألوان العبادات القوليّة والعمليّة.

وقد اشتملت سورة (الفلق) على الاستعاذة بالرَّبّ الخالق عزّ وجلّ من شرّ كلّ ذي شرٍّ يأتي بأضرار وشرورٍ دُنيويَّة، كَكُلّ حامل للشرّ والضُّرّ والأذىٰ يَسْرِي في الظلمات. وهو يسْتَتِرُ ويَتخَفَّىٰ بوسائله وتحرُّكاته، وكَكُلّ مُتَّخِذٍ وَسَائلَ خفيَّةٍ غَيْبيَّةٍ، لا يَعرِفُهَا إلاّ ذَوُو اختصاصٍ وممارسَاتٍ خاصَّة، كالسَّحَرةِ، وكُلّ مُسْتَخْدِم طاقاتٍ خفيةٍ في ذاتِهِ، وهِيَ ذوات تأثيرات في الأجساد أو في الأنفس، كالطاقات الّتي تُطْلِقُها نفوسُ الحاسدين، فيكون لها تأثيرات بشرّ أو بضُرّ أو أذى.

واشتملت سورة (الناس) على الاستعاذة ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

❋ ❋ ❋

# (٩)
# الملحق الثالث
# الاستعاذة بالله في القرآن والسُّنّة

## (١)
## الاستعاذة في القرآن

باستقراء ما جاء في القرآن المجيد حول الاستعاذة بالله عزّ وجلّ، تَتَبُّعاً له وفْقَ تَرْتيب نُزُول السُّور، تبيّن لي ما يلي:

### أولاً وثانياً:

كان أوّل ما نزل في القرآن حول الاستعاذة بالله جلّ جلاله، مَا جاء في سورتي (الفلق والناس) اللَّتَيْنِ تدبَّرْنَا آياتهما على قَدْرِ أَوْعيتنا الفكريَّة والعلميَّة.

### ثالثاً:

ثُمَّ أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لرسوله، ويُلْحَقُ به كُلُّ حَمَلةِ رِسالَتِه من أمَّتِه قَوْلَه:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

**نزغ الشيطان**: وساوسه وتسويلاتُه التي يَقْصِدُ بها حَمْل الإنسان على ارتكاب الإثم، ومخالفة منهج الله.

في هذا النصّ أبان اللَّهُ عزّ وجلّ للدّاعي إلى الله طرفاً من المنهج القويم في معالجة الذين يدعوهم إلى دين الله، ويتضمّن هذا البيان التعليميُّ أربع موادّ:

**المادّة الأولى**: أنْ يأخُذَ الْعَفْوَ عمَّنْ أساء إليه من المدعوّين، ومع أنّ العفو عن الإساءة صعْبٌ على معظم النفوس، فقد جاء التعبير عنه بعبارة تُشْعِر بأنه شيء ثمين يأخذُه الدّاعي إلى الله، وفي هذا كناية تدُلّ على أنّ ثوابه عندا الله ثوابٌ عظيم، وأنَّ على الداعي إلى اللَّهِ أن يكون حريصاً على أن يَنَال هذا الثواب الجزيل ويظفر به، كما يَأْخُذُ النّاسُ ما يُحِبُّون من عطاءات الملوك والعظماء.

**المادّة الثانية**: أن يأمُرَ بالْعُرْف، أي: أن يكون من اهتماماته الكبرى في المجتمع الذي يدعو إلى الله فيه، أن يَدْعُوَ الموسِرين إلى بَذْلِ الْعُرْفِ للفقراء والبائسين وذوي الحاجات، فالْعُرْفُ في مفهوم الناس إبّان نزول هذا النصّ يُطْلَق على الْجُود والعطاء والبذل لذوي الحاجات ممّا يسُدُّون به حاجاتهم، وبهذا يستعطف الداعي إلى دعوته جُمْهوراً عظيماً من المجتمع.

**المادّة الثالثة**: أنْ يُعْرِضَ عن الجاهلين، ولا يُوَاجه جهالاتهم بأمثالها.

والمراد بالجاهلين الذين يقابلون دعوة الداعي بالسباب والشتائم، أو بأنواعِ من الأذىٰ، أو بالاستهزاء والسخْرِية.

فمن أدب منهاج الدعوة إلى الله الإعراضُ عن الجاهلين، وعدم الاشتغال بدفع أذاهم، أو برَدّ شتائمهم واستهزاءاتهم وسخراياتهم بأمثالها.

**المادّة الرابعة**: أنْ يلتجئ إلى الله مستعيذاً به، ليَدْفع عن نَفْسِه نَزَغَات الشيطان، الّتي تحرّضُهُ على أن يقابل السيّئة بمثلها، ويَنْتَقِمَ لنفسه من المدعوّ، فإنّ مثل هذا العمل يُفْسِدُ على الداعي دعوته، ويحوّل رسالَته من وظيفة رَبّانية يَعْبُد بها ربَّهُ، إلى قضيّة شخصيَّة.

وبما أنّ الداعي إلى الله من فئة المتقين في الحدّ الأدنى، إذا لم يكن من الأبرار أو المحسنين في الحدّ الأعلى، فإنّ المتقين إذا مسَّهُمْ طائفٌ من الشيطان تَذَكَّرُوا وَاجباتهم تُجاه ربّهم، فأبْصَرُوا، فاستعاذوا بالله من نزغات الشيطان.

أمّا غير المتقين فهم إخوان الشياطين، وهم يتأثّرونَ بنزغاتهم، ويستجيبون لوساوسهم، وإنَّ الشياطين يَمُدُّونهم في الْغَيِّ، فيوقعونهم في المعاصي والآثام، ويجعلونهم يفعلون الشّرور، ثم يتابعون إزْلاَقهم في المنحدرات الوخيمات إلى مهالكهم.

**رابعاً:**

ثمّ أنزل اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) حكاية مقالات قالها نفرٌ من الجنّ، استَمعوا تلاوة طائفة من القرآن من الرسول ﷺ، فآمَنُوا به، وأعْلَنُوا أَنَّهُمْ لن يُشْركوا بربّهم أحداً، وجاء في مقالاتهم قولهم:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾.

أي: فزادُوهُمْ تعباً وأحْمالاً ثقيلةً على نفوسهم، وزادوهم سَفَهاً وحماقة وجهلاً، وركوبَ شَرٍّ وإثم وظلم.

لأنّ مثل هذه الاستعاذة هي من الشرك بالله، ومعلومٌ في الدّين أنّ الاستعاذة بالغيبيات لا تكون إلاّ باللّهِ العزيز العليم، الذي لهُ مُلْكُ السماوات والأرض، وبيده مقاليد كلّ شيء.

**خامساً:**

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) ضمن عرض قصة مريم عليها السلام:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

لم تكُنْ مَرْيَمُ عليها السّلام تَعْرِفُ أنّه ملَكٌ مُرْسَلٌ إلَيْها من رَبّها، لَكِنْ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ أيّة علامة على أنه رجلٌ فاسِقٌ، بل رأَتْ عليه علاماتٍ تَدُلُّ على أنه تقي، ولهٰذا استعاذَتْ باسم الرَّحْمٰن منْهُ إنْ كان تقيّاً، لأنَّ دخولَهُ عليها قد يجلُبُ ما يسوؤُها في مجتمعها، وهي الطاهرة العفيفة الشريفة العابدة القانتة لربّها.

ولو أنّها رأت عليه أمارات الْفِسْق لاستعاذَتْ منه بالجبّار القهّار المنتقم.

وفي حكاية هذه القصة تعليم لنا كيْفَ نستعيذ بالله في المواقف الحرجة المشابهة.

**سادساً:**

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في معرض حكاية لقطات من قصّة نوح وقومه قوله:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لم يكُنْ نوحٌ عليه السّلامُ يعْلَمُ عن ابنهِ المحكوم عليه بالغرق مع كُفّارِ قَوْمِهِ أنّهُ كافِرٌ، إذْ كان بعيداً عنه، وظنَّ أنّ وعْدَ اللّهِ لَهُ بنجاة أهْلِهِ معه في السفينة يشْمَلُ هذا الابْنَ، فأبانَ اللّهُ لَهُ حقيقة أمْرِهِ، وقَالَ لَهُ: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: أنّي أَعِظُكَ مُحذِّراً لَكَ أنْ تَكونَ مِنَ الجَاهِلين، الّذين يسألُونَ الله تغييرَ أُمُورٍ هي مِنْ أَحْكَامِهِ الحكيمة العادلة.

عندئذٍ استعاذ نوحٌ عليه السلام بربّهِ مِنْ أَنْ يسْأَلَهُ مُستقبلاً مَا لَيْسَ له به

عِلْم، وسأَلَ ربَّهُ أن يَغْفِرَ لَهُ ويَرْحمَهُ بشأنِ سُؤالِهِ السَّابق الّذِي سألَهُ مِنْ أجْلِ ابْنِه.

وفي هذا النصّ تعليم لنا أن لا نسألَ اللَّهَ تغيير أحكامه العادلة، فيمن حكم عليهم بالعقاب، ولو كنَّا لا نعلم السَّبَب الحقيقيَّ لما حكم عليهم به، فهو سبحانه عليم بعباده، ولا يظلم أحداً، ودُعَاؤه في أمْرٍ من هذا القبيل يُشْعِرُ بالاعْتِراض على حُكْمه، أو هو جهالَة لا تَلِيق بالمؤمن الذي يعْلَمُ أنَّهُ أحْكَمُ الحاكمين، وأعْدَلُ العادلين.

**سابعاً:**

ثمَّ علّمنا الله عزّ وجلّ أن نلْجأَ إليه، ونستعيذ به من أن ننزلِق إلى الانغماس في كبائر الإثم، عند المواقف الّتي قد تضعف فيها مقاومَة إرادتنا الرشيدة، وتبدأُ فيها غشاوات الشهوات العارمَات تتوارد على ساحة بصائرنا الإيمانيَّة، فقصّ علينا في قصّة يوسف عليه السلام، استعاذَته بربّه حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه، ودُعاءَه ربَّهُ أن يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَها، وكَيْدَ النّسوة اللّواتي أعْلَنَتْ لَهُنَّ شغفَها به، وحرصَها الشديد على أن يستجيب لمراودتها.

● فقال الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/١٢ مصحف/٥٣ نزول) في أثناء عرض قصّته:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

**مَعَاذَ اللَّهِ:** أي: أعوذ بالله مَعَاذاً، أنْ أعْصِيَ رَبّي الّذِي أحْسَنَ مَكَان إقامَتِي في مِصْرَ، وَأحْسَنَ مَنْزلَتِي عِنْدَه إذْ آتاني الْحُكْمَ والعلم.

● وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً مبيِّناً دُعَاءَ يوسف لِرَبّه، إذْ رأىٰ تواطُؤَ جَمْهَرَةٍ من ذَوات المكانة من نساء عِلْية القوم، يُحَرِّضْنَهُ علىٰ أن يسْتجيب لرغبة امرأة العزيز العاشقة:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: أي: أَمِلْ إِلَيْهِنَّ مَيْلَ مُرْتَكِبٍ لِلإِثم.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: أي: وَأَكُنْ من مضيّعي الْحَقّ، السُّفَهاءِ العصاة الَّذين يرتكِبُونَ الإثم.

يقال لُغَة: جَهِلَ الْحَقَّ إذَا ضَيَّعَهُ. ويقال: جَهِلَ فُلانٌ جهلاً وجهالَةً، إذَا جَفَا وتَسَافَهَ، وركب مراكب الحمقى وتصرَّفَ بغير عَقْلٍ وَلاَ حِلْمٍ، وحَادَ عَنْ سَواء السبيل.

وجاء في سورة (يوسف) أيضاً بشأنِ استعاذَةِ يوسف عليه السَّلام باللَّهِ من أن يكُونَ مُجَانباً الْعَدْلَ، فيأْخُذَ البريء بدَلَ مَنْ دَلَّتِ الأمَاراتُ المادّيَّةُ على أنَّهُ هو المتَّهَمُ من إخْوَتِهِ بسَرِقَةِ صُوَاعِ الْمَلِكِ، قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في أثناء حكايته للقصّة:

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

عَبَّر يوسف عليه السلام بنُون الجمع فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ إشارةً إلى حَزْمِه في إدارته، وقُوَّة سُلْطَانِهِ على جُنُودِهِ، ومُرَاقَبَتِه لهم، وأنّه لا يُوجَدُ في جُنُودِه من يتجرَّأ عَلىٰ أَنْ يأخُذ بريئاً غير مُتَّهَمٍ، بدَلَ المتَّهَمِ الّذي وُجِدَ صُوَاعُ الْمَلِك في رَحْلِه.

**ثامناً:**

ثمّ أعْلَمنا الله عزّ وجلّ أنّ مُوسَى عليه السَّلام استعاذ بربّه الّذي هو رَبُّ فرعون وجنوده من كلّ متكبّرٍ لا يُؤْمِنُ بيوْمِ الحسَاب، لمّا عَلِمَ أنَّ فرعون يستَشِيرُ مَجْلِسَ وُزرائِهِ أَنْ يقتُلَه.

وفي هذا تَعْليم لنَا أن نَسْتعيذ بالله من كلّ ذي سُلْطانٍ متكبّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْم الحساب.

فقال الله عزّ وجلّ في سُورَة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦ نزول) أثناء عَرْضِ لقطاتٍ من قصَّةِ موسَىٰ وقومه:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

**تاسعاً:**

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) توجيهاً للداعي إلى الله بأن يدفع بالَّتي هي أحسن. وأكّد له ما سَبَق أن أنزلَهُ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بأن يستعيذ بالله السميع العليم، إنْ تحرّكَ في نفسه نزغ من الشيطان يدعوه إلى أن يخالف المنهج الذي أبانه الله للداعي.

وجاءت العبارة في سورة (فُصّلت) مقترنة بمزيدٍ من أدواتِ التوكيد، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

لقد جاءت العبارة في سورة (الأعراف) السابقة نزولاً: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مُؤَكَّدَةً بِدُونِ قَصْرٍ وحصر.

ثُمَّ جاءت العبارةُ في سورة (فصلت) التي نزلت بعد نزول إحدى

وعشرين سورة: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فاقترنت بضمير الفصل، وتَعْرِيف كلمتي «السميع العليم» فأفادت الجملَةُ التأكيد الشديد مع القصر، وربّما كان الداعي لهذا أنّ بعض الدُّعاة إلى اللّهِ مِنَ الصحابة قَدْ تأثر بشيءٍ من نزْغِ الشيطان، حين لَقِيَ ما يَسُوؤه من الّذين يَدْعُوهم من المشركين.

**عاشراً:**

ثم أبان الله عزّ وجلّ استعاذة موسى عليه السلام بربّه الذي هو رَبُّ فرعَوْنَ وجنودِه، من أن يَرْجُموه، إذْ بلَغه أنّ الْملأ أباحوا رَجْمه، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) في أثناء عرض بعض لقطاتٍ من قصة موسى وقومه، وبعض أقواله لهم:

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: فاستجابَ الله دُعاءه، وفي هذا تعليم لنا أن نستعيذ بالله ربّنا جلّ جلاله، كُلَّما تخوّفْنَا من أعداء الله أن يُنْزِلُوا بنا ضُرّاً أَوْ أذى.

**حادي عشر:**

ثُمَّ علّمَ اللّهُ عزّ وجلّ رسوله، ويُلْحَقُ به كلُّ حَمَلَة رِسالته من أمّته، أَنْ يستعيذ بربِّه من همَزَاتِ الشّيَاطين، ومن أنْ يكونُوا حاضرين عنده حضور مُوَسْوسٍ خَنَّاس، فأنزل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) قوله:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

**همزات الشياطين:** خاطراتهم، وهَمَسَاتُهم، ووساوِسُهم، الّتي يُلْقُونها في فِكْر الإنسان وقلبه.

أصل الهمز في اللّغة، مثلُ الغمز والضَّغْط والْعَصْر والنَّخْسِ باليد، أو بأداةٍ ما.

**ثاني عشر:**

وفي العهد المدنّي أنزل الله عزّ وجلّ بشأن الذين يجادلون في آيات اللَّهِ بغير سلطانٍ أتاهم نَصّاً ضُمَّ إلى سُورَةٍ مكيَّةِ التنزيل هي سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) هو قول الله عزّ وجلّ فيها؛

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾.

في هذا الإجراء الحكيم إشعارٌ بأنّ الْمُرادَ بهذا النَّصّ هم طُغَاةٌ مستكبِرُونَ من مُشْرِكي مكّة، ولَكِنْ اقْتضَتِ الحكمَة الدعَويَّة تأخير إنزاله إلى العمد المدني لئلا يستثير حفيظتهم ويهيّجَ غَضَبَهم، والرَّسُول ﷺ ومعظم المسلمين بينهم وتَحتَ سلطانهم.

وقد علّم الله رسوله ﷺ وكلّ حَمَلَةِ رِسَالَته من أُمَّتِهِ، أنْ يَسْتَعيذُوا بالله من شرور الذين يجادلون في آيات اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ عِلْمِيٍّ أتاهم، إنَّما الدافع الذي يدفعهم إلى الجدال بالباطل كِبْرٌ في صُدُورِهِمْ، يَضَعُونَ بِهِ أنْفُسَهم في مَنْزِلَةٍ فكْرِيَّةٍ واجتماعيَّةٍ لَيْسُوا هُمْ أَهْلاً لها، ولا هُمْ ببالغيها.

فاستكبارُهم استكبارُ ظالم مُعْتَدٍ مجانبٍ للحقّ، يدفع المصابَ بِهِ إلى الانتقام السّريع بحماقة، ممَّنْ يَكْشِفُ خبايا نفسه.

**ثالث عشر:**

ثمّ علّم الله المسلمين ولا سيما حمَلَةُ رسالة الرسول ﷺ من أمّته، أَنْ لا يتَّخِذُوا أيّ عَمَلٍ يُشْعِرُ بالاسْتهزاءِ بالآخَرِين، وأخطر ذلِكَ مَا يكونُ في مسائل الدين.

وعلَّمهم أن يستعيذوا باللَّهِ من أنْ يَرْتكِبُوا هذهِ الحماقة القبيحة الّتِي لا يفعلُها إلاّ الجاهلون.

نفهم هذا مِنْ عَرْضِ قصّة قتيل بني إسرائيل وطلب موسى عليه السّلامُ منهم أَنْ يذبحوا بقرةً، لِكَشْفِ قاتله، فظنُّوا أنّه يسْتَهْزِئ بهم فقال لهم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوّل سورة نزلت في العهد المدني:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: أعُوذُ بالله مِنْ أنْ أكُون الآنَ وَمُسْتَقْبلاً من السُّفهاءِ الحمقى، العصاة لله، الّذين يَسْتَهْزِئون بالآخرين، ولا سيّما في قضيَّةٍ من قضايا الدِّين الّتي يُبَلِّغونها عَنِ الله.

## رابع عشر:

ثُمَّ علّمنا ربُّنا أَنْ نَستعيذ به لأولادنا وَذُرّياتنا من الشيطان الرَّجيم.

نفهم هذا من عرضه لقصّة امرأة عمران، عرضاً مشعِراً باستحسان دُعائها لربّها، أن يُعيذ ابْنتَها مَريم، وذُرِّيتها من الشيطان الرجيم، واستجابته لدعائها.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة نزلت في العهد المدنّي:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا...﴾.

هذه هي النصوص القرآنية حول الاستعاذة باللّهِ عزّ وجلّ، مقرونة بموجزاتٍ تَدَبُّريَّةٍ لما جاء فيها بشأن هذا الموضوع.

❁ ❁ ❁

## (٢)
## الاستعاذة بالله في السُّنة

جاء في السّنَّةِ النّبويّة حوْلَ التوجيه للاستعاذة باللّهِ عزّ وجلّ، وحول استعاذات الرَّسُول ﷺ بربّه في أدعيته، أحاديث كثيرة، منها ما يلي:

(١) روى مسلم عن أبي هريرة قال:

«كَانَ النبيّ ﷺ يأمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحدُنَا أَنْ يَنَامَ، أَنْ يضطجع عَلَىٰ شِقِّهِ الأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولَ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاواتِ وَرَبَّ الأَرَضِينَ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ والنَّوَىٰ، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيتِهَا، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اِقْضِ عَنّي الدَّيْنَ، وأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ».

(٢) وروى أبو داود والتِّرْمذيُّ عن عبد الله بن عَمْرِو بن الْعَاص، أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ:

«إِذَا فَزِعَ أَحدُكُمْ مِنَ النَّوْمِ فَلْيَقُلْ: (أَعُوذُ بكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعَذَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِه، ومِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين) فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».

(٣) وَأَخْرَج الترمذِيُّ وأبُو دَاود عَنْ أبي هُرَيرَة، أَنَّ أبا بكر قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُرْني بِكَلِمَاتٍ أَقولُهُنَّ إِذَا أَمْسَيْتُ، وإِذَا أصبحْتُ، قال:

«قِلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَعَالِمَ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ومَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إلهَ إلاَّ أَنْتَ، أعُوذ بِكَ مِنْ شَرِّ نِفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ».

(٤) وروى مسلم عن عبد الله بن مَسْعودٍ، أَنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ إذا أَمْسَىٰ وَإِذا أَصْبَحَ:

«أمْسَيْنَا وَأَمْسَىٰ الْمُلْكُ لِلَّهِ، أَوْ أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ».

ثم يَقُول:

«وَالْحَمْدِ لِلَّهِ، لاَ إلهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شرِّ هٰذِهِ اللَّيْلَةِ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، أَعُوذُ بكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ في النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ».

(٥) وروىٰ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْد الله بن عَمْرِو بن العاص، أنَّ النبيّ ﷺ كان يقول:

«اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ».

(٦) وروى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَهْدِ الْبَلاَءِ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وسُوءِ الْقَضَاءِ، وشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ».

(٧) وروى أبو داود والنسائي وابْنُ ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنّه قال:

«اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذِ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإنَّهُ بِئسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَة».

(٨) وروى البخاريُّ ومسلم عن عُثْمان بن أبي العبّاس، أنَّهُ شَكا إلى رسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجعاً يجدُهُ في جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَم، فقال له رسول الله ﷺ:

«ضَعْ يَدَكَ عَلَىٰ الَّذِي تَأَلَّمُ مِنْ جَسَدِكَ، وقُلْ: بِسْم اللَّهِ، ثَلاثاً، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ».

وجاء عند مالك، أن عثمان بن أبي العباس قال: فَفَعَلْتُ ذلِكَ، فأذْهَبَ اللَّهُ مَا كَانَ بِي، فَلَمْ أزَلْ آمُرُ بِهَا أَهْلِي وَغَيْرَهم.

(٩) وروى مسلم وأحمد وغيرهما، عن زيد بن أرقم، عَنِ النبيّ ﷺ قولُهُ:

«اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ والْكَسَلِ، والْجُبْنِ والْبُخْلِ والْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاها، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُهَا وَمَوْلاَها، اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا».

(١٠) وروى أبو داوُد والنسائي والبيهقيُّ والحاكم عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قوله:

«اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ والْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ».

والأحاديث في الاستعاذات النبوية كثيرة، تُكْتَبُ فيها رسالةٌ فَذَّة، وأكتفي منها بهذا المقدار هنا.

❁ ❁ ❁

## (١٠)
## الملحق الرابع حول السّحر

السِّحْرُ من الوسائل الخفيَّةِ، إذْ تُسْتَخْدَمُ فيه بعْضِ الْقُوىٰ المحتَجِبة عن مدارك الناس، وهي قُوىً يصْعُب الاحتراز مِنْها أو تفادي خطَرِها بالوسائل المادّية المشهودة. وهو أيضاً من الوسائل الّتي تُغْرِي الأَنْفُسَ بالأذَى والضُّرُ لِمَنْ تُعَادِي أو تَحْسُد، مع ما فيه من فِتْنَةٍ لا يَكادُ ينجُو منْهَا أحَدٌ تعَلَّمَهُ أَوْ مَارَسَه، وفي معظم الأحوال يكُون مقترناً بشركيَّاتٍ وكُفريَّات.

لكُلِّ ذَلِكَ شدّد الإسلام في تحريمه والتحذير منه، وجعَلَهُ الرَّسولُ ﷺ بعْدَ الشّرْك باللَّهِ في السّبْعِ الْمُهْلِكَاتِ الّتي أمَرَ باجْتِنَابها، أي: بالابتعاد عن حدودها.

روى البخاريُّ ومسلم وأبو داود والنَّسائيُّ عن أبي هريرة، أَنَّ الرَّسُول ﷺ قال:

«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» أي: المهلكات.

قالوا: وما هُنَّ يا رسُولَ الله؟ قال:

«الشّرْكُ باللَّهِ، والسّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بالْحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، والتَّوَلّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الغافِلاتِ».

وأبان الله عزّ وجلَّ أنَّ السَّاحِرَ لا يُفْلِحُ حيث أتىٰ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) لموسى عليه السلام بشأن سِحْر سَحَرَةِ فرْعَوْن:

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

وقد أجْمَعَ الْفُقَهاءُ على أنَّ السّحْرَ مِنْ كَبَائر المحرَّماتِ في الشريعة الإسلاميَّة. وأنَّهُ رُبما يؤدّي إلى الكفر، بل قال الإمامُ مالِكُ: «إنَّ السَّاحِرَ كافِرٌ».

ويَرَى معظم علماء المسلمين أنَّ للسّحْرِ بعْضَ التأثيراتِ الظَّاهراتِ، مع جَهْلِ حقيقة الأسْبابِ الخفيَّةِ الْمُؤَثِّرَةِ فيهِ

والسّحْر له أنواع ذواتُ مستويات ودركات:

**النوع الأول**: السّحْرُ الذي يُخَيَّلُ فيه للحواسّ أنَّها تُحسُّ بعْضَ الأشياء دون أن يكُونَ لهٰذِهِ الأشْيَاءِ حقيقَةٌ واقعة، ويكُونُ عن طريق التأثير على

جهاز التوهُّم في الإنسان، فتَرَىٰ عَيْنُه، أو تَسْمَعُ أُذُنُه، أو يَشُمُّ أنْفُه، مَا لاَ حقيقة له في مَجَالِ الحِسّ.

ورُبّما استفْحَلَ هذا التأثير التوهُّمِيُّ حتَّىٰ يكُون له أضْرَارٌ عضويَّةٌ حقيقيَّةٌ في جسَدِ المسْحُور، كأنْ تكُونَ المرئيَّاتُ التوهميَّةُ حيَّاتٍ وعَقَارِبَ وأشباحاً مُرْعبة، أو نحو ذلك من مخيفات.

**النوع الثاني**: السّحْرُ الّذي يعْتمد علىٰ بعض الْقُوىٰ الفطريَّة الّتي خلقها الله في بعْضِ الأنفس، فيكُونُ لها من التأثيرات الإشْعاعيَّةِ أحْداثٌ ماديَّةٌ في الأجساد، دون أن يكون ذلِكَ عن طريق التوهّم الذاتيّ في المسْحُور، وقد تنمو هٰذه القوىٰ الفطريّة برياضات ذوات تأثير في إنمائها، فتكُونُ تأثيراتُها أشدّ.

النوع الثالث: السّحْرُ الّذي يَعْتَمِد على مَعْرِفَةِ بعْضِ خواصّ الأشياء في الطبيعة، واستخدامها في خواصها، أو يعتمد على الحِيَلِ الصّناعيَّةِ الخفيَّةِ، وخِداع الحواسّ بها.

ويَدْخلُ في هذا النوع الألعابُ القائِميَةُ عَلَى خِفّة الحركة، التي قد تَكُون أسرع من قدرة الإدراك البصريّ.

**النوع الرابع**: السّحر الذي تُسْتَخْدَمُ فيه بعض الأنفس الشّريرة الخبيثة من الجنّ، وسطاء للقيام ببعض التأثيرات الوهمية، أوْ للمساعدة في بعض الحِيَلِ والحركات الخفيَّةِ، أو بَثّ القوىٰ الإشْعَاعيّة، أو الدخول إلى الأجساد البشريّةِ والتأثير فيها من داخلها، كالشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدّم.

وهذا النوع من السّحر له رُمُوزٌ ومُصْطَلَحات وألفاظٌ خاصَّةٌ بين السَّحرةِ وقُرنائهم من الجنّ، وأظْهَرُها وأكثرها استعمالاً ممّا كان معروفاً في الْعُصُور القديمة، رَبْطُ الْعُقَدِ في الْخُيوط، والنَّفْثُ عليها مِن فَم وريقِ

ممارِسِ السِّحْر، مع تلاوة ألفاظٍ خاصَّةٍ تَسْتَدْعي القرناء.

ولمّا كانت هذه الأنفس الشرّيرة الخبيثة من الجنّ لا تُقَارِنُ إلاَّ أمْثالها من النفوس البشريَّة، فإنَّ وَسَائِلَ التَّقَرُّب إليها واسْتِخْدامِها إنّما تكون بألفاظٍ وَأَفْعَالٍ مَليئَةٍ بالكُفْرِيّات غالباً، وفيها الكثير من النجاسات والقذارات.

ومن يسْتَخْدِمُ شيئاً من الشركيّات أو الكفريَّاتِ الأُخْرَى في أعمال السّحر، فهو كافرٌ حلال الدّم.

ولهذا قال الإمام مالِك: الساحر كَافِرٌ، حيثُما وُجِدَ قُتِلَ ولا يُسْتَتابُ، وإلى هذا الرأي ذهَبَ الإمام أحمد، وطائفة من الصحابة والتابعين.

أمّا جُمْهُورُ الفقهاء فإنَّهم يقولون بكُفْره، إذا اسْتَخْدم في سِحْره بعض المكفِّرَاتِ، أمَّا إذا لم يَسْتَخْدِم شيئاً من المكفّرات القوليَّةِ أو الفعليَّةِ فلا يكْفُر، لكِنَّهُ يكون قد ارتكَبَ كبيرة من كبائر الإثم العظمى، الَّتي شَدَّدَ الإسْلام في تحريمها، ولَوْ لَمْ يسْتَخْدِمِ السِّحْرَ في الإضرار بأَحَدٍ من النَّاس، لأنَّهُ مَسْلَكٌ خَطِرٌ قلَّما ينجو من فِتْنَتِهِ أحدٌ تعلَّمَه ومارَسَه.

ونَحْنُ نُؤمن بأنَّ الإضرار بالسِّحْر لا يتمُّ إلاَّ بالتمكين والتسخير والإذْنِ من الله عزّ وجلّ، وبقضاء الله وقَدَره، وجَعْل الأسْبابِ تُؤَثِّرُ في تَحْقِيق مُسَبَّبَاتِها، كسائر الأسْباب الظَّاهِرَة غير الخفيَّة.

إنّ الأسْبَابَ الظَّاهِرَةَ والأسْبَابَ الخفيَّةَ سَواءٌ في أنّها لاَ تُؤَثِّرُ إلاَّ بقضاء الله وقَدَرِهِ، تَمْكِيناً، وتَسْخِيراً، وإذْناً، ولو كان المستخدمُ لها مُذْنِباً عاصياً لله عزّ وجلّ، كَقَتْلِ مَنْ يقْتُلُ بغَيْر حقٍ عمداً وعُدْواناً، بسَيْفٍ، أو بسلاحٍ ناريّ، أو بدَسّ سمٍّ، أو بتوجيه شُعَاعٍ قاتلٍ لاَ تُدرِكُهُ الأبْصار، أو باستخدام قُوىً أخرى خَفِيَّة، كالنفوس الشرّيرة من الجنّ.

ومن هُنَا نُدرِكَ أنّ تخصيص استعاذة خاصَّةٍ برَبّ الفلَقِ، من شرّ النَّفَّاثاتِ في العقد، بعد التَّعميم بآيَتَيْنِ سابقَتَيْن، فيه معنى الالتجاء الخاصّ

إلى الله، طَلَباً لحمايَتِهِ جلّ وعلا، من شُرورِ النّفوس السّواحر الّتي تسْتَخْدِمُ ما خلَقَ اللّهُ من قُوىً خَفِيّةٍ، في الإضرار بالنّاس بغير حَقّ.

هذه الأنواع الأربَعَةُ هي ما عرفناه من أنواع السِّحْر.

● أمّا السّحر الذي يكون من قبيل التَّخْييل، فهو ما كان نظير سِحْرِ سَحرةِ فِرْعَوْن، إذْ ألْقَوْا حِبالاً وعِصِيّاً، فكانَ من أثَر سِحْرِهم، أنْ خُيّل للمشاهدين ولموسَى وهو النبيُّ الرّسُول عليه السلام، أنّها ثَعابينُ تَسْعىٰ، حتّىٰ أحسَّ في نفسه خيفةً مِنْها.

وفي عرض قصّة هذه المباراة بين معجزة موسى عليه السلام، وسِحْرِ سَحَرَة فرعون، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

● وأمّا السِّحْرُ الّذي قَدْ يكونُ له تأثيرٌ في العواطفِ، فقَدْ ذكَرهُ الله عزّ وجلّ أثراً للسِّحْرِ الّذي كانَ يُعَلِّمهُ الملَكانِ ببابلَ هارُوتَ ومَارُوتَ، في معْرِض ذمّ بني إسرائيل الّذين اتّبعُوا الشّياطينَ الكَفَرَةَ، فيما تَتْلُوا على مُلْكِ سُلَيْمَانَ علَيْه السّلام، وفي مَعْرِض الحديث عن الملَكَيْنِ ببابلَ هاروت ومَاروت.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول: متحدّثاً عَنْ فريقٍ مِنْ بَني إسرائيل:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾.

ومع وجود بَعْضِ التَّأثيرات السّحْرِيَّة في الأحداث الكونيَّة، فإنّ المؤمِنَ الراسخ الإيمان لدَيْهِ من عَقِيدَته في الله عزّ وجلّ حِصْنٌ حَصِين، ولدَيْهِ من الالتجاء إلى اللّهِ ما يقيه ويَحْمِيه، إلاّ أنْ يكون لله جلّ جلالُهُ قضاءٌ وقدَرٌ في نُزُول بعض الضرّ أو الأذىٰ بالسّحر، لحِكْمَةٍ يشاءُ تحقيقَها من حِكَمِه الجليلة.

وقد ثبَتَ في صحيحَي البخاريّ ومُسْلِم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن لَبِيدَ بْنَ الأَعْصَم، وهو رَجُلٌ من زُرَيقٍ من حُلَفاءِ اليهود، وكان مُنافقاً، ورُوِي أنّه عربيٌّ تَهَوّدَ ثمّ دخل في الإسلام نفاقاً، سَحَرَ النبيَّ ﷺ في مُشْطٍ مِنْ أمْشاطِ النبيّ، ومُشَاطَةٍ[(١)] من شعر رأسِهِ، وجُفِّ طَلْعِ نخلة ذكر[(٢)]، ووضَعَهُ في بئْرِ ذَرْوان، وهِيَ بِئْرٌ في حَيِّ بَنِي زُرَيْقٍ، وهُمْ خَزْرَجِيُّون فكانَ مِنْ أثر هذا السِّحر في جَسَد الرَّسُولِ ﷺ أنَّه كان يُخَيَّلُ إلَيْهِ أَنَّه يَفْعَلُ الشيءَ وهُو لا يَفعلُه، أو أنَّهُ يأتي زَوْجاتِه وَهُو لاَ يأتيهِنَّ، وهذا أقصىٰ ما أثَّر السِّحْرُ فيه، ممّا هو ثابتٌ في الصحيح، أمّا ما فوقَ ذلِكَ فلَم

---

(١) **المُشَاطة**: ما يخرجُ في المشط من الشعر لدى تسريحه به.

(٢) أي: قِشرِ طَلْعِ نخْلَة ذكر.

يَكُنْ، ولا يُمْكِنُ أيضاً تأثيرُ السحْرُ على فكر الرسُولِ أو قولِه أو شيءٍ مِن سُلُوكِه الذي هو قدوةٌ للناس فيه، لأنه معْصُومٌ في ذلك كلِّهِ بعصْمةٍ من اللَّهِ، وكذلك لا يمكن أَنْ يُؤثّر السِّحْرِ على حياته، لأنّ الله عزّ وجَلّ قَدْ عَصَمه من الناس، فقال له في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) مبيّناً دوام عصمته له.

﴿...وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

روى البخاريُّ في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت:

سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رجُلٌ من بَنِي زُرَيْقٍ، يقالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَم، حتَّى كانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَه. حتَّىٰ إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْم ـ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ ـ وهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَة أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فيما اسْتَفْتَيْتُهُ فيهِ؟.

أَتَانِي رَجُلَانِ،[(١)] فَقَعَدَ أَحَدُهُما عِنْدَ رَأْسِي، والآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِه: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟. فَقَالَ: مَطْبُوبٌ[(٢)]. قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟. قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَم. قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟. قَالَ: في مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ. قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟. قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ.

فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في نِاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَجَاءَ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَكَأَنَّ رُؤُوسَ نَخْلِهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا اسْتَخْرَجْتَهُ؟ قالَ: قَدْ عَافَانِي اللَّهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَىٰ النَّاسِ فِيهِ شرّاً. فَأَمَرَ بِها فَدُفِنَتْ».

وجاء في رواية عند الإمام أحمد أنّ الرسُول ﷺ أرسل إلى البِئْر مَنْ

---

(١) أي: ملَكَانِ على صِفَتَيْ رَجُلَيْنِ.

(٢) **مطْبُوب**: أي: مَسْحُور.

يُحْضِرُ له منها الشيء الذي عقِدَ عليه السِّحْرُ، فأحْضِرَ له، فحلّ الرسول ﷺ عُقَدَهُ، فقَامَ كَأَنما نُشِطَ مِنْ عقال. وجاء في بعض الروايات أن الرسول ﷺ قَرَأ المعوِّذَتَيْنِ فَشَفَاهُ اللَّهُ مِمَّا نَزَل به.

❁ ❁ ❁

# سُورَةُ الإخلاص

## أو سُورة: قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ

## أو سُورة: الصَّمَدُ

وذكرت لها أسماء مُتعدِّدة

أُخرى بلغت اثنين وعشرين اسمًا

١١٢ مصحف ٢٢ نزول

## (١)
# نص السورة مع ما فيها من الفرشيات من القراءات
## سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

**القراءات:**

﴿كُفُوًا﴾: حفص. كُفْئاً: حمزة، ويعقوب، وخلَف.

[كُفُؤاً] باقي القُرَّاء العشرة.

ووقف حمزة بنَقْلِ حَركةِ الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة.

وبإبدال الهمزة واواً مع إسْكانِ الفاء.

## (٢)
## سبب نزول السورة

(١) روىٰ الإمام أحمد، والبخاريُّ في تاريخه، والترّمذيّ، وابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمْ، عَنْ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ: «أنَّ المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ انسُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللّهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ليس شَيْءٌ يُولَدُ إلاَّ سَيَمُوت، ولَيْسَ شيْءٌ يَمُوتُ إلاَّ سَيُورَثُ، وَإِنَّ اللّهَ لاَ يَمُوتُ وَلاَ يُورَث، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ قال: لم يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلا عَدل، ولَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».

(٢) وروى الطَبَراني في الأوسط، والبَيْهقِي، وابْنُ جَرِيرٍ، وغيرُهُمْ عَنْ جابرٍ، قَال: «جاء أعْرَابيٌّ إلَىٰ النبيّ ﷺ فقال: أنْسُبْ لنا ربَّكَ، فنزلتْ هٰذِهِ السُّورَة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ...﴾ إلى آخر السورة. قال السيوطي: [إسناده حسن].

## (٣)
## فضل السُّورة

(١) روى مُسْلِمٌ والترمذيُّ وصحّحه، وغيرُهما، عَن أَبِي هريرَة قال: قَالَ رسُولُ الله ﷺ:

«أحْشُدُوا فَإِنِّي سَأَقْرأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ النبيُّ ﷺ، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ثُمَّ دَخلَ. فَقَال بَعْضُنَا لبَعْضٍ: قال رسول الله ﷺ فَإِنِّي سأَقْرأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟!. ثُمَّ خَرَجَ نبيُّ اللّهِ ﷺ فقال:

«إنِّي قُلْتُ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلاَ وَإِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

(٢) وروىٰ البخاريُّ وأَحْمَدُ وغيرهما، عَنْ أبي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَال رسول اللّهِ ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

يَعْنِي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١...﴾ إلى آخر السورة.

(٣) وروى البخاريُّ وأحمد وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري، قَال: قال رسُول اللّهِ لأَصْحَابِهِ:

«أَيَعْجَزُ أَحَدُكُم أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟»

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلك؟! فَقَالَ:

«اللّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القرآن»

سَمَّىٰ الرَّسُول السُّورَة بهذا العنوان: «اللّهُ الواحد الصّمد» أو كَنَّىٰ عنها بهِ.

(٤) وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ وَغيرهما عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ النبيَّ ﷺ بَعثَ رَجُلاً في سَرِيَّةٍ، فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فَيَخْتِمُ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١...﴾.

فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسولِ اللّهِ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُوهُ، لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»

فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمٰنِ، وأَنَا أُحِبُّ أنْ أَقْرَأَ بها، فقال:

«أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللّهِ تَعَالَىٰ يُحِبُّهُ».

(٥) وروى البخاريُّ من حديث أَنسٍ قَال: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ في مَسْجِد قُبَاء، فَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً فَقَرَأَ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاةِ، مِمَّا يَقْرأُ بِهِ، افْتَتَحَ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١...﴾ حتَّىٰ يَفْرُغَ مِنْها، ثُمَّ

يَقْرَأُ سُورَةً أُخرَى مَعها، وَكَانَ يصْنَعُ ذلِكَ في كُلِّ رَكَعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فقالُوا له: إِنَّكَ تفْتتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لاَ تَرَىٰ أَنَّها تُجْزِئك حتَّىٰ تقْرأَ بالأُخْرَىٰ، فإمَّا أَنْ تقْرَأَ بِها وإمَّا أَنْ تدعَها وَتقْرأَ بِأُخْرَى.

قَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِها، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُم تَرَكْتُكُم.

وكانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضلِهِمْ، فَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ. فَلَمَّا أَتاهُمُ النبيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الخبر، فقالَ:

«يَا فُلانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ؟ وَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ لُزُومِ هٰذِهِ السُّورَةِ في كلِّ رَكْعَةٍ؟»

فَقَال: إِنّي أُحِبُّهَا. قال:

«حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ».

## سبب كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن:

رأىٰ الرازي احتمال أن يكون سببُ كَوْنِ سُورَةِ الإخلاص تعْدِلُ ثُلُثَ القرآن، أَنَّ المَقْصُودَ الأشرفَ مِنْ جَمِيعِ الشرائع والعبادات، مَعْرِفَةُ ذَاتِ اللَّهِ، ومَعْرِفَةُ صِفَاتِهِ، ومَعْرِفَةُ أفعَالِهِ، وهٰذه السُّورَةُ مشتملةٌ علىٰ مَعْرِفَةِ الذَّاتِ، فَكَانَتْ هٰذِه السُّورَة مُعَادِلَةً لِثُلُثِ الْقُرْآن.

## أقول:

إنّ مُجَرَّدَ المعرفة دون اعترافٍ وتسْلِيم، بالإيمان والطَّاعَةِ المعبّرة عن صِدْقِ الإيمان، لاَ تُخرِج صاحبَ المعرفَةِ منَ الكُفر، فكثيرٌ من ذوي المعرفة المستيقنين في نُفُوسهم كافرون كُفْرَ جُحودٍ، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/٤٨ نزول) بشأن فرعونَ وقومه:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

ولهذا أرى إجراء التَّعْدِيل التَّالي لما رآه الرازي: فأقول:

إنَّ المطلوبَ في الدين هو الإيمان، وثمرَةُ صِدْقِ الإيمان المتحركِ الفاعلِ، الْعَمَلُ المعبَّرُ عَنْهُ.

والإيمان يتناوَلُ ثلاثة أقسام:

(١: قِسْمٌ يتعلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ، وهذا القسم قد أبانته سورة الإخلاص.

(٢) وقسْمٌ يتعلَّقُ بصفاتِ الله.

(٣) وقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بأفعال اللَّهِ، ومن أفْعالِهِ ابتلاءُ عباده المكلَّفِين، وبيانُ مطلوبه منهم.

ولمَّا أبانَتْ سورة (الإخلاص) القسمَ الأوَّل من هٰذِهِ الأقسام الثلاثة الَّتِي أُنزِلَ القرآن لبيانها وتفصيلها، كانت بهذا الاعتبار بمثابَةِ ثُلُثِ القرآن، واللَّهُ أعْلَمُ.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## موضوع السُّورة

يشتمل موضوع السُّورة على بيان ما يستطِيعُ العباد معرفته عَنْ ذاتِ اللَّهِ الغائِبَةِ عَنْ إدْرَاكاتِ حواسِّهِمْ، وهي: أحدِيَّته، وصَمَدِيتُهُ الَّتِي تقتضي غِنَاه عَنْ كُلِّ شيءٍ، وحاجَةُ كُلِّ شَيْءٍ إليه، وتقتضي عَدَمَ قابليَّةِ ذَاتِهِ لانفصال شيءٍ منها، وعَدَمَ قابليَّتِهَا لدُخولِ شيءٍ فيها. وأنَّهُ لَمْ يَلِدْ فلَمْ يَصْدُرْ عن ذَاتِهِ ذَاتٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْهُ، وأنَّهُ لَمْ يُولَدْ، فَلَمْ تَصْدُرْ ذَاتُهُ عَنْ ذَاتٍ

أُخرَىٰ اشْتُقَّ هو منها. وأنَّهُ لاَ أحَدَ هُوَ كُفْءٌ له، لا في ذَاتِهِ ولا في صفاته ولا في أفْعَالِهِ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ. وهٰذِهِ الصِّفَاتُ الخاصَّةُ بذَاتِهِ يلْزَمُ عَنْهَا وُجودُه الأزليُّ الأبَدِيُّ، فَلاَ أوَّلَ لَهُ ولاَ آخِر، هُوَ الأوَّلُ بلا بداية، وهو الآخر بلا نِهَايَة.

هٰذا كُلُّ ما يسْتَطِيعُ العباد معرفته عَنْ ذَاتِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ، فلا يخوضَنَّ الخائضُونَ في البحث عن ذَاتِ اللَّهِ بأكْثَرَ مِن هذا الَّذي يَسْتَطِيعُونَهُ، لأنَّهُمْ سيَقَعُونَ حَتْماً فِي مَتَاهَات وضَلاَلاَت وَتكهُّنَاتٍ لاَ حَصْرَ لها، وفي تَصَوُّرَاتٍ مُمَاثِلاَتٍ لبَعْضِ الكائِنَاتِ المخلوقة له جلّ جَلاَله، في هيئَتِهَا الْمُرَكَّبَةِ، أو تَتَألَّفُ مِنْ أجزاء مُمَاثِلَةٍ لِأجزاءِ مَوْجُودَةٍ في الْكائنَاتِ المخلوقة له.

❁ ❁ ❁

## (٥)
## التدبّر التحليلي لآيات السُّورة

● قول الله عزّ وجلَّ:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

[قُلْ]: فِعْلُ أمْرٍ مُوَجَّهٌ لكُلِّ مَنْ يَصْلُح لِلْخطابِ بصورةٍ إفراديَّة من المؤمنين المسلمين، وأوَّلُهُمْ مُحَمَّدٌ رسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وقد سبق في مقدّمات سورتي: «الفلَق والناس» بيان الحكْمَةِ مِنْ إثبات كَلِمَةِ: [قُلْ] جزءاً من السّورَةِ، مع الرَّدّ علَىٰ المتحَذْلِقِين.

[هُوَ]: ضميرٌ يَعُودُ هُنَا علَىٰ غَيْبِيِّ الذَّاتِ الأعْظَم، الَّذي لاَ تُدْرَكُ ذَاتُهُ، ولَكِنْ تُشاهَدُ أوْ تُدْرَكُ آثَرُ صِفَاتِهِ في الكَوْنِ.

أو يقال: ضمير عائد على ما يفهم من السِّيَاق.

ويقول النحويُّونَ: لفظ: «هُوَ» هُنَا ضَمِيرُ الشَّأْنِ، كَكُلِّ ضَمِيرٍ يأتي في بَدْءِ الكَلَامِ دُونَ مَذْكُورٍ سَابقٍ يَعُودُ عَلَيْهِ، وفي ضَمِير المؤنَّث يقولون: ضَمِيرُ الْقِصَّةِ، وفي ضميري الشأن والقصة معنى الأمر العظيم، والجملة بعْدَه خَبَرُه، وهي مفسّرة له.

ويَرى بعْض أهلِ التأويلِ احْتِمَالَ أنْ يَكُونَ ضَمِيرُ [هُوَ] عَائِداً على لفظ «ربّك». في قول المشركين الذي كان سبب نزول السورة: «يا محمدُ انسُبْ لنا ربَّك» **أقول**: ويُمكِنُ أنْ يكون عائداً على مبتدأٍ مَحْذُوفٍ تقديره: رَبِّي. أي: ربِّي هُو الله.

﴿ٱللَّهُ﴾ علمٌ على الخالِقِ الرَّبِّ الأَزَليِّ الأبدِيّ، وهذا الاسْمُ الْجَلِيلُ قَدْ كان مَعْرُوفاً لِلْعَرَبِ بأَنَّهُ عَلَمٌ عَلَىٰ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ خالِقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ.

ولفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر. أو مبتدأ خبرُه «أَحَدٌ». ويجوز أن يكون «الله» خبراً أوّل و«أحد» خبراً ثانياً.

﴿أَحَدٌ﴾: أي: فَرْدٌ في ذَاتِه وَفي صفاته، فلا يُجْمَعُ معَ كُفْءٍ لَهُ أَوْ أكْفَاءٍ، حتَّى يَكُونَا اثنين أو ثلاثة.

ويجوز أن يكون «أحدٌ» خبرَ مبتدأ محذوف، تقديرُه: هو أحد، وهذا أولى ويرى بعضُهم أنّه لا يُقال: «أحد» في حالة الإثبات[١]، لِمَنْ يُمْكِنُ أن يُجْمَع مع كفْءٍ له، أو أكفاء، حتَّىٰ يكونا اثْنَيْنِ، أَو ثلاثة فأكثر، بل يقال فيه «واحد» لكنّ هذا الرأيَ غير صحيح من الناحية اللُّغويَّة، إذْ يُقالُ: جاءني أَحَدُهم. علَىٰ أَنَّ الأَحَدِيَّة والْفَرْدِيَّة الَّتي لَيْسَ لها في الوجود نظيرٌ ولا مُكَافِئٌ، هي من الصِّفاتِ الَّتي اختصَّ اللَّهُ بها، فلا يُشَارِكهُ فيها أحَدٌ.

---

(١) أمّا في حالة النفي فيُمْكِنُ أنْ يُقَالَ نحو: لاَ أَحَدَ في الدار.

ويقول الناسُ على سبيلِ الادّعَاءِ أو بالإضافة إلى عَدَدٍ مَخْصُوص: فريدةُ العقد، أي: لاَ نظير لها، ولا شبيهَ لَهَا فِي حبَّاتِ الْعِقْد. ويقولون: فُلانٌ وَحِيدُ عَصْرِهِ. وفَرِيدُ عَصْرِه، أي: لا نظير له ولا شبيه. وهذا من المبالغَات الَّتِي لاَ تُعبِّر عن الواقع.

أمّا الأحَدُ في الْوُجود كلّهِ فهو الله الَّذِي لاَ شبيه لَهُ، ولا نظيرَ، ولاَ كُفْء، لا في الذَّاتِ ولاَ في الصِّفات، ومنْهَا صفةُ الأَزَلِيَّةِ، فَلاَ أَزَلِيَّةَ إلاَّ لله وحْدَه، ومنْها صِفَةُ الأبدِيَّة، فَلا أَبَدِيَّةَ ذَاتِيَّة إلاَّ للَّهِ وحْدَه، لاَ شريكَ لَهُ فيها، وقَدْ يَمْنَحُ اللَّهُ الْخُلُودَ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَجعَلَهُمْ خَالِدِينَ، وَخُلُودُهُمْ إنَّما يكونُ بإمْدَادِه لهم بالبقاء.

ولئلاَّ يُشَارِكَ الله عزّ وجلّ في أَحَدِيَّتِه شيءٌ، فقد جَعَلَ بحِكْمتِه مِنْ كلّ شيءٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْن، دلَّ على هذا قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الذّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقد تَوَصَّلَتِ الْعُلُومُ الإنْسَانِيَّةُ إلى هذِهِ الحقيقة، حتَّى غَدَتْ مِنْ مُقَرَّرَاتِها، في أحْدَثِ مَا توصَّلَتْ إلَيْهِ، حتَّى الذَّرَّةِ، فكُلُّ ما سِوَىٰ اللَّهِ لَهُ كُفْؤٌ ولَهُ نظيرٌ يُجْمَعُ معه على اثنين أو أكْثَر.

أمَّا اللَّهُ عزَّ وجلّ فَهُو أَحَدٌ، لاَ كُفْءَ لَهُ وَلا نظيرَ لَهُ، حتَّىٰ يُجْمَع مَعَهُ فيُقَالَ اثنان أو ثلاثة، أو أكثر، وليس كمثله شيءٌ، ولاَ يشاركُهُ شيءٌ في ذَاتِهِ ولا في صِفَاته.

وفي إثباتِ أنَّ اللَّهَ أَحَدٌ بيانٌ لضَلاَلِ الثَّنَوِيَّة، الَّذِينَ زَعَمُوا أنَّ اللَّهَ اثنان، ولِضَلاَلِ الْمُثَلِّثِين، الّذين زَعَمُوا أنَّ الله ثَلاثَةُ أقانيم، أي: ثلاثَةُ أشخاص متفاصِلَةٍ، وقد قال الله بشأنهم في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ... (٧٣)﴾.

ولِضَلالِ كلّ الَّذِين زعَمُوا تَعَدُّدَ الخالقين الأربابِ الأزليين الأبديّين.

فَقَوْلُ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾: أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ، وهٰذَا خطابٌ أيضاً لكلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَقُولَ، جواباً لِمَنْ قَال: «أُنْسُبْ لَنا رَبَّكَ»: هُوَ اللّهُ، وَهُوَ أحَدٌ.

فغيبيُّ الذَّاتِ الأَعْظَمُ الَّذِي مِنْ آثَارِهِ خَلْقُ السَّمَاواتِ والأرض، هُوَ واحِدٌ في الوجود كُلِّهِ، ويلْزَمُ مِنْ تَفَرُّدِهِ عقلاً أنْ لاَ يكُونَ لَهُ نَظِيرٌ وَلاَ شبِيهٌ فِي ذَاتِهِ وَلاَ في صفاته.

أي: فالرَّبُّ الذي أدْعُو إلى الإيمان بهِ، وأدعو إلى عبادتِهِ وحْدَه، والَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ اللّهُ، أي: هُوَ مَنْ تَعْرِفُونَهُ باسْم الله، وتُؤْمِنُونَ بأَنَّهُ هُوَ الّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ والأرض.

وَهُوَ في ذَاتِهِ أحَدٌ، وَهُوَ في صِفاتِهِ أحَدٌ، فليس كمثْله شيْءٌ، ومَنْ كان أحداً في ذاته وصفاته فلا يُمْكِنُ أَنْ يكون لَهُ نَسَبٌ، حتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ نَسَبه.

كلُّ مَنْ لَهُ نَسَبٌ لا بُدَّ أن يكونَ شبيهَ أفراد نسَبِه في النوع، أَوْ في الجِنس، وعندئذٍ لاَ يكُونُ أحداً فَرْداً، بَلْ يُمْكنُ أن يُجْمَع مَع أَفْراد نوعه، أو جنْسِه.

لكنَّ اللّهَ أَحَدٌ فَرْدٌ، فلا نسَبَ لَهُ، ومَنْ لاَ نسَبَ لَهُ لاَ يكون له أبٌ يُنْسَبُ إلَيْهِ وَلاَ أُمٌّ يُنْسَبُ إليها، ولاَ يكونُ لَهُ أجدادٌ و جدَّات، ولا تكونُ لَهُ ذُرِيَّةٌ تَنْتَسِبُ إلَيْه، ولاَ تكُونُ له صاحبَةٌ تُكافِئُه، ولَوْ كانَ له صاحبَةٌ لَكَانَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْن، ولمَا كانَ أحداً فرداً.

- قول الله عزّ وجل:

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾

﴿ٱلصَّمَدُ﴾: جاء في اللُّغَةِ: أنَّ الصَّمَدَ هو الذي لَهُ غَايَةُ الكَمَال في كُلّ الصِّفَاتِ ذَاتِ الشَّرَفِ والعظمة والسُّؤدد.

وجاء فيها: أنّ الصَّمَد هو الّذي يُصْمَدُ إلَيْهِ في الحوائج، أي: يُقْصَد.

وجاء فيها: أنَّ الصَّمَد هو الغنيُّ بذاته عن كلِّ شيء، فلا يحتاج إلى شيء.

وجاء فيها: أنَّ الصَّمَد هو الَّذِي لاَ جَوْفَ لَهُ، أي: فلا يدخُلُ في ذاتِهِ شيءٌ، وأنّه الذي لا يَخْرُج منه شيءٌ، أي: فَهُو غَيْرُ قَابلٍ لانفِصَالِ شيءٍ مِنْ ذَاتِه.

وجاء فيها: أنَّ الصَّمَد هو الباقي الذي لا يفنىٰ، وهذا الأخير عَنْ قتادة والْحَسَن.

ومن جمع هذهِ المعاني لكلمة: [الصَّمَد] يظهر أنَّ من كانت لَهُ هذِه الصّفات لا يُمْكِن أن يكونَ وَالداً لغيره، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَوْلُوداً مِنْ غَيْرِهِ، فالمولُودُ مُحْتَاجٌ في وُجودِه إلى والِدِه، لِكنَّ الله عزّ وجلَّ غنيٌّ بذاتِهِ، وهُوَ الَّذِي يُصْمَدُ في الحوائج إليه. والوالِدُ لغَيْرِهِ لاَ بُدَّ أَنْ يكونَ ذَاجَوْفٍ، أَوْ قابلاً للتجزِئة، واللَّهُ عزَّ وجلَّ صَمَدٌ، لاَ جَوْفَ لَهُ، ولاَ يَخْرُجُ مِنْ ذَاتِهِ شَيْءٌ.

ومنْ هو أَحَدٌ صَمَدٌ بالِغٌ غايَةَ الكمالاتِ كلّها، لا يُمْكِنُ أن يُكافِئَهُ أن يناظِرَهُ أَوْ يُساوِيَهُ أحَدٌ، فلا صاحِبَة تُكافِئِه، ولا ندَّ يُضَادُّه، سبحانه وتعالى عن المثيل والشَّبِيهِ والنظير، وعن الضِّدّ والنِّدّ.

فليزَمُ من كَوْنِ اللّهِ جَلَّ جلالُهُ أحداً صَمَداً، أن لا يَكُونَ والداً لغيره، ولا مَوْلوداً مِنْ غيره، وأَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ كُفُواً له.

فقال اللَّهُ عزّ وجلّ: .

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ في هَذَا رَدٌّ لقوْلِ النّصارىٰ: إنَّ اللَّهَ أبٌ لعيسى ابنِ مَرْيم، وردٌّ لِقَوْلِ بَعْضِ اليَهودِ: إنَّ اللَّهَ أَبٌ لِلعُزَيرِ، وردٌّ لقول كلِّ من له مقالة مشابهة، فاللَّهُ سبحانه وتعالى لَمْ يلِدْ.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وفي هذا رَدٌّ لِقَوْلِ النّصارىٰ: إنَّ عيسى ابنَ مريم ابْنٌ للَّهِ. فَهُوَ شَرِيكٌ لِلَّهِ في رُبوبيَّةٍ مُشْتَقَّةٍ مِنْ أبيه، ولقول بَعْضِ اليهود: الْعُزيرُ ابْنُ الله، فهو شريكٌ للَّهِ في رُبُوبيَّةٍ مشتقَّةٍ من أبيه، وردٌّ لقول كلّ من له مقالةٌ مشابهة، فاللَّهُ لَمْ يُولَدْ.

وبما أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ أَحَدٌ مُتَفَرِّدٌ في ذَاتِهِ وَفي صفاته، فلَيْسَ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ.

**الكُفْءُ والكُفُؤ**: الْمُمَاثِلُ والْمُسَاوِي في الذَّاتِ أَوْ في الصِّفَات، واللَّهَ عزَّ وجَلَّ لاَ يُكَافِئُه أحَدٌ، لاَ في ذَاتِهِ، ولا في صِفَاتِهِ، إذْ هُوَ أحدٌ فِي ذَاتِهِ، وَأَحَدٌ في صِفَاتِهِ، جلَّ جَلاَلُهُ.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾: نَفْيُ الكَوْنِ فِي الْمَاضِي بالنِّسْبَةِ إِلىٰ اللَّهِ عزَّ وجلَّ هُوَ نَفْيٌ للشيءِ المنفيِّ عَنْهُ دَوَاماً، في الماضي والحاضِرِ والمُسْتَقْبَلِ، مِنَ الأَزَلِ إِلَىٰ الأَبَدِ. والدَّليل الْعَقْلِيُّ يُثْبِتُ أَنَّ انْتِفَاءَ وجُودِ الْمُكَافِيء للَّهِ فِي الماضِي، يَسْتَلْزِمُ عقْلاً انتفاء وُجودِه دواماً وإلَىٰ الأَبَدِ، لِأَنَّ المكافِئ لِلأَزَلِي لاَ بُدَّ أَنْ يكُونَ أزلِيًّا، أمَّا الحادثُ فَهُو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، ولاَ يُمْكِنُ عَقْلاَ أَنْ يكونَ الْمَخْلُوقُ مُكَافئاً للخالِقِ بحالٍ من الأَحْوالِ.

يُضَافُ إلى هذا أنَّ فعل «كان» إذا اقترَنَ بإثبات صِفَةٍ أَزَلِيَّةٍ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، أَوْ نَفْي صِفَةٍ لا تَلِيقُ بِهِ، فإنَّ دَلاَلَتُهُ على الزَّمَنِ الماضِي تُلْغَىٰ، ويَبْقَىٰ الفِعْلُ دَالاًّ، عَلَىٰ الكينُونَةِ المجرَّدَةِ عَنْ كُلِّ زَمَنٍ.

وكَوْنُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: لَمْ يَلِدْ، ولَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، هِيَ لوازِمُ عَقْلِيَّةٌ لِكَوْنِهِ أحداً صَمَداً.

فالصِّفَتَانِ الرئيسَتَان اللَّتَانِ بَيَّنَتْهُمَا سورةُ «الإِخْلَاصِ» جواباً لقَولْ المشركين للرَّسول ﷺ: «أُنْسُبْ لَنَا رَبَّكَ» هُمَا:

**الأولى**: أَحَدِيَّةُ الخالقِ الرَّبِّ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيّ، فلا شريك لَهُ ولا كُفْءَ لَهُ في أَحَدِيَّتِه، ومَنْ هُوَ أَحَدٌ لا يُمْكِنُ أن يكون له نَسَبٌ حتَّى يُسْأَل عن نسبه.

**الثانية**: صَمَدِيَّةُ الخالِقِ الرَّبِّ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيِّ، فَلَيْسَ لَهُ أَصْلٌ انْفَصَلَتْ ذَاتُهُ عَنْهُ، ولَيْسَ لَهُ فَرْعٌ انْفَصَلَتْ ذَاتُهُ عَنْ ذَاتِهِ.

ويَلْزَمُ لُزُوماً عَقْلِيّاً من أحديَّةِ اللَّهِ وَصَمَدِيَّتِهِ، أَنَّه لَمْ يَلِدْ، وأنَّه لَمْ يُولَدْ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ.

والصَّمَدُ لاَ يَتَغَيَّرُ، وكلُّ ما سِوىٰ اللَّهِ يَتَغَيَّرُ ويَتَبَدَّلُ فِي دَرَجَاتِ الكمال أَوْ دَرَكَاتِ النَّقْص، ولا يُمْكِنُ أن يَصِلَ بحالٍ من الأحوال إِلَى نِهَايةِ الكَمَالِ فِي كُلِّ شيءٍ، لأَنَّ اسْتِجمَاعَ كُلِّ الكمالاتِ مِنْ خصائِصِ الأحَدِ الصَّمَدِ الخالِقِ الرَّبّ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيّ.

وَلَمَّا كَانَ سُؤَالُ المشركين عن نَسَب الرَّبّ الَّذِي يدعو الرسول إلى عبادَته وحْدَه، يَدُلُّ على أَنَّهُمْ يتوَهَّمُونَ أَنَّ لَهُ أُصُولاً نسبيَّة، واحتمالِ أن تكونَ لَهُ ذُرِّيَّة، وأَنْ تَكُونَ لَهُ صاحبَةٌ تُنجِبُ له الأولاد، أبَانَ اللَّهُ عزّ وجلّ أنَّهُ صَمَدٌ.

أَمَّا كُلُّ مَا سِوَىٰ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فلَمْ يخلُقْهُ اللَّهُ صمَداً، بَلْ له جوْفٌ قَابلٌ لأن يَدْخُلَ فيه شيءٌ مِنْ غَيْرِهِ، فتتغيَّر بذلِكَ صفته، وقابلٌ لأنْ ينفَصِلَ مِنْهُ شيءٌ، فتتغَيَّرُ بذلِكَ صِفَته.

إنّ الناميَات في الوجود تنشَطِرُ وتَنْقَسِمُ وَتَقْتَاتُ فتَتَنامَىٰ، في عمليّات الفطر الرَّبَّانيّة، إذْ يخْلُقُها اللَّهُ ضِمْنَ نظامَيْنِ:

- نظام الفلْقِ والفَطْر، وإخْرَاج المحدَثَاتِ الجديدة، من باطِنِ الكائناتِ قبْلَهَا بِخَلْقِه.
- ونِظام التَّرْبِيَةِ بالإنْمَاءِ المتدرِّجِ، مع المحافظة على نظام الْفَلْقِ والفَطْرِ.

وتَسْتَمِدُّ النَّامِيَاتُ أقْواتَ نَمائِهَا ممَّا حوْلَها.

وكلُّ وَالِدٍ وَكُلُّ والِدَةٍ يُخْرِجُ مواليدَهُ من داخِلِهِ، مِنْ تجويفاتٍ لَدَيْهِ، فتَحْمِلُ الموالِيدُ صِفَاتِهَا ميراثاً مِنْ أُصولِها، فتكُونُ لَهَا شبهاً، أو يكونُ بَيْنَ الفروع والأصول أشْباهٌ ونظائِرُ.

وَيقُولُ عُلماءُ الذَّرَّةِ: إنَّ للذَّرَّاتِ في كُلِّ شيءٍ مِنْ هذا الكَوْنِ نَوَيَاتٍ، وبَعْدَهَا فَرَاغٌ كبيرٌ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ حَجْمِها الصغير، وحَوْلَ هذا الفراغ تَدُورُ ألكتْرُنَات، وهِيَ وَحَدَاتٌ صُغْرَىٰ تَحْمِلُ شِحْنَاتٍ كَهْرَبَائِيَّةً سَالبة.

أمَّا النَّوَيات فهي وَحَدَاتٌ أخرىٰ تَحْمِلُ شِحْنَاتٍ كهربائيّة مُوجِبة، وتُسمَّىٰ هٰذِهِ الشِّحنَات «بُروتُونَات».

ويقولُون: إنَّ ذَرَّة الهيدْروجين الخفيف، هي أبْسَط ذرَّاتِ العناصر في هذا الكَوْن، إذْ هِيَ تَتَألَّفُ مِنْ نَوَاةٍ وَاحِدَةٍ، تحوي بُروتُوناً واحداً، ومِنْ ألكترون وَاحِدٍ يَدُورُ حَوْلَهُ بسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ.

ويقولون: إنّ الألكترون يَدُورُ بسُرْعَةِ الضوء، أي: (٣٢٠) كيلومتر في الثانية الواحدة، أي: يَدُورُ حوْلَ مداره في الذَّرَّةِ عشَرَة آلاف مليون مليون مليون دورة في الثانية الواحدة.

وفوق ذرَّةِ الهيدرُجين الخفيف ذَرَّاتُ العناصرِ الأخرىٰ الّتي هِيَ أثْقَلُ مِنها، إذْ تأتي ذَرَّةُ الهِلْيُوم التي تتألَّف نواتُها من بُروتون بعَدَدِ اثنين، وحول

النواة يَدُورُ ألكترونات، وفي نواتها أيضاً جُسيْمَانِ حيادِيَّان، يسَمَّىٰ كُلُّ منهما «نيوترون» وهو يَزِيدُ وزن الذرّة، لكِنَّهُ لاَ يُؤَثِّرُ في شِحْنَتِها الكهْرُبائيَّة.

وتترَقَّىٰ الذّرَّاتُ ثِقَلاً، حتَّىٰ يَجِدَ العلماءُ ذَرَّةَ اليورانيوم، الّتِي يوجَدُ في نواتها (٩٢) بروتوناً، و(٩٢) أَلِكْتِرُوناً، و(١٣٢) نيوتروناً.

وتنشطر الذَّرَّاتُ، ويخْرُجُ منها بعضُ ما في نواتِها وألكتروناتها، فتختلفُ عناصرها، وتنْضَمُّ المنشطرات، فتتداخل ببعضها، فتتألَّفُ ذَرَّاتٌ جَدِيداتٌ مختلفاتٌ في عناصِرِها، والسَّبَبُ في ذلك أنَّها قابلاتٌ لأن يَدْخُلَ فِي أجوافها أشياء، وأنَّ فيها فراغات واسعات بحَسَب حُجُومها، تَسْمَحُ بالدُّخول، وتَسْمَحُ بالتجزئة، ولا يُعَوّقُ ذلك إلاّ السُّرعة الهائلة في دوران الألكترونات حَوْل نويات الذّرّاتِ، مع العلْم بأنّ ذرَّة الإكسجين مثلاً إذا اصْطَفَّ منها خمسة ملايين ذَرَّة طولاً، لم تَزِدْ أَطوالها جميعاً على عُشْرِ سَنْتي متر، أي: علَىٰ جزءٍ واحد من أَلْف جزءٍ من المتر الواحد، وهو يساوي طوله خطّاً نقطتَين (. .) فقط بقلم الكتابة العادي.

ولو كانت الذَّرَّةُ كائناً صَمَداً لكانت غير قابلةٍ للانشطار والتجزئة، وغير قابِلةٍ للاتّحاد مع غيرها من الذرّات.

ولو كانت الخليَّةُ الواحدة كائناً صمَداً لكانت غيْرَ قابِلَةٍ للانفطار والفلْقِ، وغير قابلة للازدواج والاتحاد مع غَيْرِها.

لكنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ قد خَلَقَ جَمِيعَ خَلْقِهِ ذوات أجواف، فهي قابلَة لأَنْ تَدْخُلَ فيها أشياء، وقابلة لأن تنفصل عنها أشياء، فانْفَرَدَ هُو سبحانه بأنَّهُ هُو الصَّمَد وحْدَه، فلا تقبل ذاتُهُ الانشطار، ولا التجزئة، ولا الانفطار ولا الفلق، ولا تقبل ذاته الازدواج ولا الاتحاد بغيرها، فلم يَلِدْ ولم يُولَدْ سبحانه، ولم ينفصل منه شيءٌ ولن ينفصل، ولم يتّحدْ في ذاتِه شيءٌ ولَنْ يتّحِدَ، ولَمْ يكُنْ له كُفُواً أحَدٌ، فلا صاحبة لَهُ ولا وَلَد.

إنَّهُ جَلَّ جَلاَلُه أَحَدٌ صَمَد، أمّا ما سِوىٰ اللّهِ سبحانه، فهو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، لاَ أَحَدِيَّة له ولا صَمَدِيَّة، ولا يَمْلِكُ لنفسه ولا لغَيْره من دونِ تمكين الله وإذْنِه وتسخيره نَفْعاً ولا ضراً، ولا شيءَ ممَّا سوىٰ اللّهِ له من ذاتِه لذاته البقاءُ الأبديّ، لكِنَّ اللّهَ الأزليَّ الأبَدِيَّ هو الذي إذا شَاءَ أمَدَّ مَا شَاءَ ومَنْ شَاءَ بالبقاء بأمْرِه التكويني، ولا رادَّ لأمرِه، ولا لقضائِه وقَدَرِه وحُكْمِهِ، جلَّ جلالُه، وَتَبارَكَ سُلْطانُه، وعَظُمَ شأنُه.

❁ ❁ ❁

## (٦)
## سورة الإخلاص سورة تقريريّة

لـم تتضمَّن سورة الإخلاص الدليل على أحَدِيَّة الخالق الرّب جلّ جلالُه، المعروف باسم «الله» ولم تتضمَّن الدليل على صمديَّتِه، ولا الدليل على أنَّهُ لم يلِدْ، ولم يولَدْ، ولَمْ يكُنْ له كُفُواً أحَدٌ، بَلْ جاءَتْ البيانات فيها بأسْلوبٍ تَقْريريٍّ للأحكام التي تضمنَتْها جُمَلُها.

والسَّبَبُ في هذا أنَّ المرحَلَة الّتي نزلَتْ فيها السُّورَةُ مَرْحلةُ استفسارٍ عَنْ نَسبِ الخالِقِ الرَّبِّ الذي يَدْعو مُحمَّدٌ إلى عبادته وحده، وإلى نَبْذِ عبادَةِ كلِّ المعبودات من دونه، وقد جاء هٰذا الاستفسار على لسانِ بعض المشركين، وهُوَ يقتضي بيان الجواب بطرِيقَةٍ تقريريَّةٍ خبريَّةٍ، لا بطريقةٍ استدلاليّة.

وحين يُنْكِرُ مُنْكِرٌ مَا جاء في هذا التقرير، أو يُناقِشُ مُناقِشٌ فيه، تَدعُو الحاجَةِ إلَىٰ بيانِ الدّلِيلِ، وإقامَةِ الحجَّةِ، على مقدارِ ما تَدْعُو إليه الحاجة.

ولمَّا كان سُؤالُ المشركين مقتصراً على طلَبِ التعريف بنَسَبِ الرَّبّ الّذي يدعو الرَّسُول إلى الإيمان بأنَّه لا رَبَّ غيره، ولا معبُودَ بحَقٍّ سواه، وهذا السؤال يستلزم أنَّهم يتوهَّمون أنَّ لَهُ أصولاً انْحَدَرَ هو منها، ويتوهَّمونَ

إمْكَانَ أنْ يكونَ له ذُرِّيَّةٌ وإمكان أنْ تكونَ له صاحبة، أبانَ اللَّهُ أنَّهُ أحد، وأنّه الصَّمَد، وأنَّهُ لم يَلِد ولم يولَدْ، ولَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ.

وقد اشتمل القرآن المنزَّلُ بَعْدَ هٰذِهِ السُّورَةِ على أدلّة هذه الحقائق عن الله جلّ جلالُهُ، وتنزّه عمَّا لا يَليقُ بأزليَّتِه وأبديّته، وبصفات الكمال التي هي له.

❁ ❁ ❁

# سُورَةُ النَّجْمِ

أَوْ

# سُورَةُ وَالنَّجْمِ

**٥٣ مصحف ٢٣ نزول**

وهي مكية إلاَّ الآية (٣٢) منها فهي مدنيَّة. وهي قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

## (١)

# نصّ السورة مع ما فيها من فرشيات القراءات

## سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ
﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا
فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ
مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا
يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾
عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ
الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾
أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ

---

١١ ـ ● قرأ جمهور القرّاءِ العشَرَةِ: ﴿مَا كَذَبَ﴾ بتخفيف الذال.
● وقرأ هشام وأبو جعفر: [مَا كَذَّبَ] بتشديد الذال.

١٢ ـ ● قَرَأ جمهور القرّاء العشر: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾.
● وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب: [أَفَتَمْرُونَهُ].

١٩ ـ ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿اللَّاتَ﴾.
● وقرأ رُويس: [اللاتَّ] بتشدِيد التاء مع المدّ المشبع.
● ووقف الكسائي بالهاء.

٢٠ ـ ● قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَمَنَاةَ﴾.
● وقرأ ابن كثير: [وَمَنَاءَةَ].

ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ
أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ
ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾
۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ
بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾
فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾
ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ
لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾
ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ
ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ
فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

٢٢ ـ ● قرأ الجمهور: [ضيزى] بالياء. وقرأ ابن كثير: [ضِئزى] بالهمز.

٣٢ ـ ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾.

● وقرأ حمزة، والكسائيّ وخلف: [كبيرَ الإثم].

● وقرأ جمهور القراء: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ بضمّ الهمزة.

● وقرأ حمزة في الوصل [في بطونِ إِمِّهاتِكم] بكسر الهمزة والميم.

● وقرأ الكسائي في الوصل: [في بطون إِمَّهاتكم] بكسر الهمزة وفتح الميم.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ
ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦)
وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن
لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠)
ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ
هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ
ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ
ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ
ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ
(٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢)
وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ
تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ

---

٣٣ ـ لِلقرّاءِ وجوه من الأداء في الهمزة الثانية من [أَفَرَأَيتَ].

٣٦ ـ في همزة ﴿يُنَبَّأْ﴾ وجوه من الأداء.

٣٧ ـ ● قرأ جمهور القرّاء: [إِبْرَاهِيم]. وقرأ هشام: [إبراهام].

٤٧ ـ ● قرأ جمهور القرّاء: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.
● وقرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: النَّشَآءَة].

٥٠ ـ للقرّاء وُجوهٌ متعدِّدَةٌ من الأداء.

٥١ ـ قرأ عاصم وحمزة، ويعقوب: [وَثَمُود] دون تنوين.
● وقرأ باقي القرّاء: [وثموداً] بالتنوين.

٥٥ ـ ● قرأ جمهور القرّاءِ: ﴿رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.
● وقرأ يعقوب في حال الوصل: [ربِّك تَّمارى] بإدغام التّاء الأولى بالثانية وجعلهما تاء واحدة مشدّدة.

﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

## (٢)
## مِمّا ورَد من أحاديث بشَأنِ سُورَةِ النجم

(١) روى البخاريُّ ومُسْلِمٌ وغيرُهما عن ابْنِ مَسْعُودٍ قال: «أوّل سُورَةٍ أُنزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ: (والنجم). فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وسَجَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، إلاَّ رَجُلاً رأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِراً، وهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ».

(٢) ورَوىٰ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عن ابْنِ مَسْعُودٍ قَال:

«أوّلُ سُورَةٍ اسْتَعْلَنَ بِهَا النبيُّ ﷺ يَقْرؤُها: (والنجم)».

(٣) ورَوىٰ ابْنُ مَرْدَوَيْه والْبَيْهَقِيُّ في سُنَنِهِ عن ابن عُمر قال:

«صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقَرَأَ (النَّجْمُ) فَسَجَدَ بِنَا فَأَطَالَ السُّجُودَ».

(٤) وروى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها: «أَنَّ النبي ﷺ قَرَأَ (النَّجْمَ) فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ سَجَدَ فيها».

(٥) وروىٰ البخاري ومُسْلِمٌ وَأحمد وغَيْرُهُمْ عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قال: «قَرَأْتُ (النَّجْمَ) عِنْدَ النبيِّ ﷺ فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا».

## (٣)
## سبب نزول السورة

قال ابن عطيَّة: سبب نزولها أنَّ المشركين قَالوا: إنَّ محمَّداً يتَقَوَّلُ الْقُرْآنَ وَيَخْتَلِقُ أَقْوالَهُ، فَنَزَلَتِ السُّورَةُ في ذَلِك.

## (٤)
## موضوع السُّورة

تضمّنت سورة (النجم) معالجة المشركين بالإقناع المقرون بغمزهم وتلويمهم على الالتزام بآرَاءٍ باطلة يتمسَّكُونَ بها تقليداً، مع الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، حول طائفة مِنْ مواقفهم الكفريَّةِ البارزة إبَّان نزول السورة.

وجاء في أثنائها توجيه الرَّسول ﷺ ويُلْحَقُ بهِ كُلُّ داعٍ إلى دين اللَّهِ من أمَّتِه، لمَا يَنْبَغِي معاملة غير المستجيبين للدَّعوة به في تلك المرحلة من مراحل دعوة الرسول، الّتي ما تَزَال في السَّنَواتِ الأُولى مِنْها، وتَتلَّخص هذه المعامَلَةُ بالإعْرَاضِ عمَّنْ تولّى مُدْبراً. والإعراضُ هو وسَطٌ بيْنَ الإقبال والإدبار.

ويُفْهَم من هذا لزوماً، مُتَابَعَةُ دَعْوَةِ الآخَرِين، الذين لم يتَولَّوْا مُدْبِرين، ولم يُقْبلُوا مُسْتَجيبين، على حَسَب أحوالهم.

وهذا التوجيه يَصْلُحُ تعميمه على كلّ قومٍ بلغ أمْرُهم هذا المبلغ الذي وصل إليه مشركو مكة إبّان نزول هذه السُّورة التي نزل قبلها (٢٢) سورة تضمَّنَتْ عدَّةَ معالجات بالإقناع ذي الوسائل المتَعَدِّدَة والمختلفة، وبالترغيب والترهِيب، والمجادلة بالّتي هي أحسن.

## (٥)
# دروس السُّورة

اشتملت سورة (النجم) على خمْسَةِ دروس:

**الدَّرس الأول**: تضمَّنَ توجِيهَ عناصِرَ إقناعيَّة للمشركين، بشَأْنِ الوحي الذي يُكذِّبُونَ الرَّسولَ بهِ، زاعمين أَنَّهُ يَفْتَرِي القرآنَ ويتقَوَّلُهُ على الله جلَّ جلالُهُ.

وهو الآيات من (١ ـ ١٨).

**الدرس الثاني**: تضمَّن بعض معالجةٍ لشِرْك المشركين، مع بيان سقُوط مذهبهم حول اعتقادهم في أوثانهم: (اللَّات، والعزَّىٰ، ومنَاة).

وهو الآيات من: (١٩ ـ ٢٨).

**الدرس الثالث**: تضَمَّنَ توجيه الرسول ﷺ للإعراض عن الذين تَوَلَّوْا مُدْبِرين عن دعوته من المشركين، ويُفْهَمُ من هذا مُتَابَعَةُ دَعْوَةِ مَنْ لَمْ يَسْتَجب لكنَّه لم يُدْبِر.

**الإعراض**: وسَطٌ بين الإقْبال والإدْبَار.

وتضمَّنَ إشعارَهُ بحُدُودِ وَظِيفَتِه، وأنَّهُ ليْسَ مسؤولاً عن تحويلهم من الكفر إلى الإيمان، فالحكْمَةُ من الابتلاء في ظروفِ الحياة الدُّنيا كَشْفُ مَا في صُدور الممتَحَنين لتَحْقِيقِ الجزاء يوم الدِّين. وفي هذا ترغيب وترهيب.

وهو الآيات من: (٢٩ ـ ٣٢).

**الدرس الرابع**: تضَمَّنَ الإقْنَاعَ بِأَنْ مَذْهَبَ الشِّرْكِ مذهَبٌ ساقطٌ، وأنَّ الدَّعْوَةَ الإسْلاميَّةَ اسْتِمْرَارٌ لمَا جَاءَ به المرسَلُونَ السَّابِقُونَ، إيماناً باللَّهِ، ومسْؤُوليَّةً في الحياةِ الدنيا، وجزاءً يَوْمَ الدِّين، وتحذيراً مِنْ مُعَجَّلِ العقاب، كما حصل للمكذِّبِينَ الأَوَّلِين.

وهو الآياتُ من: (٣٣ ـ ٥٥).

الدرس الخامس: تضمَّنَ تَوْجيهَ إنْذارٍ عامٍّ بعذابِ اللَّهِ.

وخُتِمَتِ السُّورة بتكليف النّاس أنْ يَسْجُدُوا للَّهِ وأنْ يَعْبُدوه.

وهو الآيات من: (٥٦ ـ ٦٢).

❁ ❁ ❁

## (٦)
## التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة

● قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ
﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ
بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ
مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً
أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ
﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

**تمهيد**

تضمَّنَ هذا الدَّرْسُ الأوَّل من دُروسِ سورة النجم معالجةَ إقناع المشركين المكذبين لرسول الله محمّد ﷺ في نُبوّته: وتَلَقّيه الوحي من ربّه عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السَّلام، والمكذبين بما جاءَهُمْ عن اللَّهِ جَلَّ جلاله، ومعالجةَ إقناعهم بشأنِ آيَةِ الْعُرُوج به إلَىٰ السَّماوَاتِ الْعُلَىٰ حتَّىٰ بُلُوغِه سِدْرَةَ المنْتَهى.

فهُمَا قضيَّتان:

**القضيَّةُ الأولى**: مُعالجةُ إقْنَاعِ المشركين بِشَأْنِ إنكارهم تَنَزُّلَ نُجُومِ القرآن على رسول الله ﷺ من رَبِّ السّماوات والأرض العزيز الحميد الحكيم القدير، يَنْزِلُ بها أمين الوحْي جِبْرِيلُ عليه السَّلاَمُ عَبْرَ السَّمَاوَاتِ لِيُبلّغهَا رَسُولَهُ مُحمَّداً ﷺ، وبشَأْن إنكارهم أنّ محمّداً يُبَلِّغُ هٰذِهِ النجومَ القرآنيّة للنَّاس عن رَبّه صَادِقاً، غيْرَ مُتوهِّم ولاَ كاذِبٍ.

**القضيَّةُ الثانية**: معالجةُ إقْنَاعِ المشركين بشَأْنِ اصْطِفَاء الله رسُولَهُ بآيَةِ الْعُروجِ بهِ إلىٰ السَّماوات الْعُلَىٰ، حتَّىٰ بُلوغه سِدْرَةَ المنتهىٰ.

إنّ تكذيب المشركين لرسول الله محمّد ﷺ لاَ يَسْتَنِدُ إلى تَشَكُّكٍ في كَمالِ صفاتِه، فَقَدْ خَبَرُوهُ في كلّ ما سلف من عُمْرِه فيهم، فَعَرفُوا أنّه أَمِينٌ وصادقٌ وذُو خُلُقٍ عَظيم، ولَمْ يَعْهدوا أنَّهُ كَذَبَ كذْبَةً واحدةً في حَيَاتِه، ولاَ خانَ أدْنَىٰ خيانة.

إنما اسْتَنَدَ تَكْذِيبهم إلى مُجَرَّدِ استِبْعَادِ واستِغْرابِ أنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ علَىٰ مُحَمَّدٍ الْوَحْيَ تِبَاعاً من السَّماءِ في أوقاتٍ قَصِيرَةٍ من اللَّيْلِ أو من النَّهَارِ، مع تباعُد مسَافاتِ آفَاقِ السَّماءِ عَنِ الأرضِ، وأَنْ يصْطَفِيَهُ بالعروج به إلى السَّمَاواتِ الْعُلَىٰ حتَّىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ فِي سَاعَاتٍ مِن اللَّيل.

فَكَانَ من المناسِبِ أنْ يشْهَدَ اللَّهُ لَهُ بالصّدْقِ، مؤكّداً شهَادَته بِقَسَمٍ يتَضَمَّنُ الإشارَةَ إلى قُدْرَتِهِ عزَّ وجلَّ على تقديرِ سُرْعَاتِ حركَةِ الأشياء، وإخْضَاعِ كلٍّ مِنْهَا إلَىٰ نِظَامٍ من السُّرعَةِ يخْتَلِفُ عن غَيْرِه.

وقد كان النّاسُ إبَّانَ تَنزِيلِ القُرْآنِ لاَ يَعْرِفُونَ من السُّرْعَاتِ العاليات إلاَّ سُرْعَةَ الْبَرْق، وسُرْعَةَ خُرُور الشُّهُبِ من السَّمَاءِ إلى الأرضِ، ويعتبرُونها نُجُوماً.

والشُّهُبُ السماويَّة تدخُل تحت عموم لفظة «النجم» الدالّ على كُلّ جِرْم سماويّ مُضِيء، لأنّ الشُّهُبَ مهما عظُمَتْ هِيَ أجرامٌ سماويَّةٌ صغرى بالنِّسبة إلى النجوم العظيمة العليا، ومعظم هذه الأجرام الصغرى أجرامٌ

معدنية، إذا اقتربَتْ من الأرضِ انجذبت إليها، فإذا دَخَلَتِ الهواء المحيط بالأرْض التهبَتْ بالاحتكاك فصَارَتْ كأسْهُم نارِيَّةٍ منقضَّةٍ بسرعَةٍ عظيمة نحو الأرض، فتكونُ بضيائها الملْتَهِب وبحركاتها السّريعةِ جزءاً من زينةِ السَّمَاءِ مع طردها للشياطين إذْ هي تُؤدّي وظيفَتَيْنِ: إحداهما مشهودة، والأخرىٰ غير مشهودة:

**فالوظيفة المشهودة:** هي وظيفة تزيين السَّماء الدنيا باعتبارها مع النجوم العظيمة العُلْيا زِينَةً كالمصابيح.

**والوظيفةُ غير المشهودة:** هي وظيفَةُ مُتَابَعَةِ مُسْتَرِقي السَّمْعِ مِنَ الشياطين لِطَرْدِهم أو إحراقهم.

وعلىٰ هذا نفهم قول اللَّهِ عزَّ وجَلَّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

وسَمَّىٰ اللَّهُ هٰذِهِ المصابيحَ الّتي جعَلَها رُجوماً للشياطين شُهُباً، في سُوَرِ: (الحجْرِ، والصافات، والجن).

والشهابُ في اللُّغة: يُطْلَقُ على الشُّعلة السَّاطعة مِنَ النار، وعلى النجم المضيء اللّامع.

**تدبُّر الدرس:**

فبدأ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بالْقَسَم بالنجم إذَا هَوَىٰ، فقال تَعالَىٰ:

- ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾.

**النجم: يُطْلَقُ في اللغةِ على ثلاثَةِ معَاني:**

(١) يطْلَقُ علىٰ كُلِّ جرم مضيءٍ لامعٍ في السماء.

(٢) ويُطْلَقُ على ما لا ساقٍ له من النبات.

(٣) ويُطْلَقُ على الْوَقْتِ المعيَّنِ لأداءِ عَمَلٍ مَا، وعلى الشيء الّذِي

يُعْمَل أوْ يُؤَدَّىٰ في الوقْتِ المعين، ولمَّا كانَ تَنْزِيلُ القرآنِ مُجَزْءاً على أوقاتٍ، أُطْلِقَ علَىٰ كُلِّ جُزْءٍ يُنَزَّلُ مِنْهُ فِي وقْتٍ ما نَجْماً.

وقد أقْسَمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بالنَّجْم إذا هَوَىٰ ليُشِيرَ إلَىٰ أنَّ سُرْعات الأشياء لدىٰ انتقالها وتحرُّكها تختلف اختلافاً عظيماً. وأنَّ الله لا يعجزه إنزال الوحي من السماء بلمح البصر، والعروج برسوله إلى السماواتِ الْعُلا في ساعة من ليل أو نهار. فمن الجهْلِ قِياسُ المشركين سُرعَة نزولِ أمِينِ الوحْي جبريل عليه السّلاَمُ من السماوات إلى الأَرْض، ليُوحيَ إلى محمّد بن عبد الله ما أَمَرَه الله بأنْ يُوحيَ به إليه، على ما يُذْ رِكونَ من سُرْعَاتٍ، ومِنَ الْجَهْلِ قياسُ سُرْعَةِ عُروجِ جبريل عليه السلام بمحمَّدٍ إلى السماء السابعة فسِدْرَةِ المنتهَىٰ، على ما يُدْرِكون من سُرْعاتٍ يمْلِكُونَ استخدامها، ولو كانوا يعلمون ما نعلم اليوم من سرعات الصوت والضوء لقلَّ استغرابهم.

واختِيرَ القَسَم بالنَّجْم عنْدَ هُوِيِّهِ السَّريع دُونَ الْقَسَم بالبرقِ، لأنَّ الجزء الذي كان يُنَزَّلُ من القرآنِ يُسَمَّىٰ نَجماً، وبهذا تحقَّقَ النجانُسُ بَيْنَ اللَّفْظَيْن، والتشابُه بين النُّزولَيْن، مع التَّنْبيه على أنَّ السُّرعاتِ متفاضلاتٌ في الوجود، ضمن أنظمة الخلْقِ الرَّبَّانيَّة العجيبة، فللصَّوْت سُرْعة. وللضوء سُرْعة فائقة، وللمِلائكة سرعات، وللأرواح سرعات، والله يخلُق ما يشاء ويفعل ما يريد.

**إذا هَوَى**: أي: إذا سَقَطَ مُنْقَضّاً مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْل. ولفظةُ «إذا» هنا دالَّةٌ على مجرَّدِ الزَّمان، دون أن يكون ظَرْفاً لما يُسْتَقبل من الزمن، إذ المرادُ: والنجمِ حين هُوِيِّهِ.

فمعنى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ أُقْسِم بقُدْرَتي على إخْضاع النَّجْم عند هُوِيِّهِ لنظام من السُّرْعَةِ الشديدة تَشْهدون مظهرها بأبصاركُمْ، أي: فلا تقيسُوا أمُورَ رَبِّكم بمقاييس ما أنتم عليه من حُدودٍ.

أما المقسَمُ عَلَيهِ فهو قولُه تعالىٰ:

• ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝﴾.

﴿مَا ضَلَّ﴾: أيْ: ما ضَاعَ جاهِلاً طَرِيقَ الْهُدَى، في الّذِي جاءكم به عن رَبّه، مبيّناً لكم أنّهُ نبيُّ اللّهِ ورسُولُه.

**فالضَّلَال**: قد يأتي بمعنى الضياع والْجَهْلِ دونَ قَصْدٍ ولا تعمُّد، وهو المرادُ هنا، بَدَليلِ نفي الْغَواية عنه أيضاً.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾: أي: وما تنكَّبَ صِرَاط الرُّشْدِ عَنْ قَصْدٍ وتعمُّدٍ، اتّباعاً لهوىٰ نَفْسِه.

ونفْيُ الضَّلالِ والغوايَةِ عن الرسُول محمد ﷺ يَلْزَمُ منْهُ إثْبَاتُ صِدْقِهِ فيما يُبَلّغ عن رَبّه من نجوم القرآن، الّتي تَتَنَزَّلُ عليه آناً فآناً، وصدْقه فيما يخبرهم به من أحداثٍ كُبْرىٰ يُجْرِيها اللّهُ له، ويَصْطَفيه أو يُكْرِمُهُ بها، كالعُروج به إلىٰ السماواتِ السَّبع.

ولمَّا كانَ تكذِيبُ المشركين للرَّسُول محمّد ﷺ لا يَعْدو أن يكون مستنداً إلى تَشْكِيكَيْن:

**التشكيك الأول**: أن يكون متوهِّماً ضالاً عن سبيل الحقّ والْهُدَى دون قَصْدٍ منه، فهو يتَراءىٰ له أنّه رسولٌ يتنزّل علَيْهِ الوحي، وتَجْرِي له الأحداثُ التكريميَّةُ الكبرى، وهو ليس كذلك بزعمهم.

**التشكيك الثاني**: أن يكون مُدَّعياً هذا الادّعاء عن غَوَايَةٍ، إذْ يَعْلَمُ أنّهُ كاذبٌ غيْرُ صادقٍ، إنّما يَدَّعي ادّعاءاته اتّباعاً للهَوَىٰ، وليُحقّقَ لنفسه أَغْراضاً خاصَّةً، واستعلاءً في الأرض.

ولنفي الأمْرَيْن كلَيْهما خاطَبَ الله المشركين بقوله:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝﴾.

أي: بل هو صادق فيما يُبَلّغ عن ربّه، وصادقٌ في أنباء الأحْدَاثِ الكبرى الّتي يُكْرمه اللَّهُ بها، واعٍ في مشاهداته لها.

وفي قَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ خطاباً للمشركين: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ أي: الملازم لكُمْ مِنْذُ نَشَأَتِهِ وحتَّىٰ إنْزَالِ خطابي هذا لكم، إشارةٌ إلى كمال صفاته الّتِي كانوا يعلمونها فيه، وكمال أخلاقه العظيمة الّتي كانت فيما بيْنَهُمْ هي المثَلَ الأعْلَىٰ بين الناس.

أي: فَطُولُ صُحْبَتِكُمْ له كافيةٌ لأَنْ تكشِفَ لَكُمْ أنَّهُ لا يمكنُ أنْ يَكْذِبَ على رَبِّهِ، وقد تنَزَّه طَوال حياته السَّابقة عن أنْ يَكْذِبَ علىٰ النَّاس في أيّ أمْرٍ صَغيرٍ أو كبير، ولا يُمْكِن أن يكُونَ مُتَوَهِمّاً وهُو الكامِلُ في وَعْيِهِ، والكامل في صفاته النفسيَّة، على ما تعلمون من أمْرِه.

● قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾:

في هٰذِه الآية تأكيدُ كَوْنِ الرسُولِ ﷺ لم يكُنْ غاوياً في بلاغاته عن ربّه، ولا في إخباره بما جرى له من أحداث العروج به إلى السَّماوات العُلاَ، لأنَّ مِنْ شأْنِ الغاوي أن ينطق عن الْهوى.

أي: وما ينطق بما ينطق به صادراً عن توجيه الْهَوَىٰ وتأثيره.

ولدفْع احتمال تعرُّضه لمؤثرات الْهَوىٰ بعْدَ إعلانه نُبُوَّتَهُ ورسالَتَه، جاءت الآيَةُ معطوفةً بحرف العطف (الواو). ولولا هذا لكان المناسبُ أن تكون خالية منه، إذ يلزم عقلاً من كونه ما ضلَّ وَما غَوَىٰ فيما تلَقَّىٰ عن رَبِهِ وفيمَا شَاهَدَ فيما مضىٰ، أنّه لا يَنْطِقُ عَنِ الْهوىٰ الآن ولا مستقبلاً.

فإيرادُها معْطُوفةً يجعلها مَسْوقةً مساقَ جُمْلَةٍ تُؤَسِّسُ فِكْرَةً جَدِيدة، مع ما فيها من تأكيدٍ لمضمون ما قبْلَها أو للازمِهِ الفِكْرِيِّ.

**الْهَوَىٰ**: هو مَيْلُ النَّفس بقوّةٍ إلى ما لها فيه لَذَّةٌ أو مُتْعَةٌ أو مَسَرَّةٌ أو شَهْوة أو مصْلَحةٌ خاصّةٌ، فهي تنجذِب إليه باندفاعٍ قويٍّ أرْعَن، دون بصيرةٍ ولا رُشد حتى يصل صاحبُه إلى سحيق الهاوية.

ومن شأن الهوى أنْ يَجْعَل صاحبَه يَهْوِي إلى ما فيه شرٌّ أو ضُرٌّ أو فسادٌ أو عذابٌ أليم، إذا اتَّبعه واستجابَ له. والعِصْمَةُ منْهُ تكون بالتمسُّك بحقٍّ أو خَيْرٍ وهُدىً ضِمْن مؤثِّرٍ دينيٍّ، يُغَذِّيه من اللَّهِ والطَّمَعُ برضوانه وثوابه العظيم.

وكون الرسول محمّد ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ لا يَدُلُّ على عِصْمتِهِ عن الخطأ في الاجتهاد في المسائل المأذون له بالاجتهاد فيها، أو الْخطَأ في القضاء بين الناس إذا قضى بنحو ما سَمِعَ من الخصْمَيْن، وكان أحدُهما أَلْحَن بحجَّته من الآخر، أو الْخطأ في بعض الأمور الدنيويَّة، كما جرىٰ منه في قصَّةِ تأبير النخل ونحو ذلك، فالرسول ﷺ في كلِّ هذا لم يكن قد نَطَق عن الهوى، بلْ نَطَقَ وهو حريصٌ على أنْ يقول ما رأىٰ أنَّهُ الحقّ، أو الصوابُ، أو الأحْسَنُ والأفضل، أو الأحَبُّ إلى اللَّهِ والأرضىٰ له. ولكنّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ جعَلَهُ بشراً عُرْضَةً لاحتمال أن يخْطِئ فيما أذِنَ له بأن يجتهد فيه.

أمَّا ما يُبَلِّغُهُ الرسولِ ﷺ عن الوحي، وما يخبر به عمّا رأى، أو سمع، أو أَدْرَكَ بأيّ حاسّةٍ من حواسّه الظاهرة والباطنة، فهو فيه معصُومٌ عِصْمَةً تامَّةً عن الكذب وعن الخطأ، بعِصْمَةٍ له من الله عزَّ وجلّ.

● قول الله عزّ وجل:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾:

بعْد القَسَم بالنجم حينَ يَهْوِي، الذي أشار الله عزّ وجلّ به إلى خطأ المشركين في مفهوماتهم لسُرْعَاتِ الأشياء، التي استبعدوا بالاستناد إليها

نُزُول أمين الوحي جبريل عليه السلام على محمد بن عبد الله من موقعِهِ الرَّفيع في السّماوات بأزمانٍ قليلة يسيرة، واستبعدوا أن يَعْرُج به في ساعات من اللّيل إلى سِدْرَةِ المنتهى.

وبعد بيان أنّ الرسول مُحمَّداً ﷺ ما ضَلَّ ومَا غَوىٰ، وبيان أنَّه ما ينطِقُ في كلِّ ما ينْطِقُ به عن الهوىٰ.

بعد كلِّ هذا ينْتَقِل إلَىٰ سؤال وهو: إذا لم يكن محمَّد ﷺ ضالاً عن غير قَصْدٍ، ولا غاوياً عَنْ قَصْد، ولا يَنْطِقُ عن الهوى، فَمِنْ أَيْنَ يأتيه هذا الْعِلْم العظيم الَّذي يَتحدَّثُ بِهِ إلى النَّاس؟ وكَيْفَ تَتَوارَدُ على فُؤادِهِ الآيَاتُ القُرْآنِيَّة نَجماً فنجماً (أي: قِسْماً فقِسْماً) بحَسَب مقتضيات الحكمةِ في تكامُلِ الدّينِ، والتَّدرُّجِ الارتقائيّ فيه؟.

وقد أجَاب الله عزّ وجلّ على هذا السؤال الذي ينتَقِلُ إلَيْهِ الفكر تِلْقائيّاً بقولِهِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ أي: يُوحَىٰ إليه بِهِ من رَبّهِ، فَمَا هُوَ مِنْ عَبْقريَّتِه الخاصَّة، ولا هو مِنْ ملائكيَّةٍ فيه ولاَ رُبُوبيَّة، إذْ هو بَشَرٌ من البشر، وعَبْدٌ مِنْ عباد الله الذين اصطفاهم اللّهُ بالنُّبوَّة، وكلّفَهُمْ أنْ يؤدُّوا رسالات رَبّهم لأقوامهم.

[إنْ] حرف نفي مثل «ما» النافية. [هو] ضمير يعود على الذي ينطِقُ به مبلّغاً إياه عن رَبّه، المفهوم من جملة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾.

فالمعنى: ما هو الذي ينطِقُ به مبلّغاً إيَّاهُ عَنْ رَبِّهِ إلاَّ وَحْيٌ من عند الله يُوحَىٰ إليه به آناً فآناً، أو آناً ثم آناً، على سبيل التكرار والتجدُّد، ولم يُوحَ إليه به دُفْعَةً واحدة، لوجوه من الحكمة اقتضت ذلك، وأبانتها الآيتان (٣٢ و٣٣) من سُورة (الفرقان).

**الوحي**: ظاهرةٌ معروفة في تاريخ الرسالاتِ الرّبانيّة، وفي تاريخ الأنبياء والمرسَلِين، ومعظمُ الشعوب تَعْرِفُ هٰذِهِ الظَّاهرة، ولدَيْها ذِكْرَيات

عَنها، وأخبارُ الأنبياء والمرسلين حَوْلَها مستفيضة، وكلُّ أصحاب المِلَلِ الّتي تَنْتَمِي إلى دينٍ رَبَّانيّ يَعْرِفُونها ويُؤْمِنون بها.

والوحيُ في اللّغة يأتي بمعانِي متعدّدة، منها: الكتاب، والكتابة، والإشارة السَّرِيعة، والإلْهامُ، والكلامُ الخفيُّ السَّريع، وإلقاء المعنىٰ في النفس دون صوتٍ يُسْمع.

**أمّا الْوَحْيُ في المفْهوم الدينيّ**: فهو إعْلَامُ الله رسُولاً من رُسُلِهِ، أو نبيّاً من أنبيائه ما يَشَاءُ من كلام أو معنىً، بطريقة تفيد الرسُولَ أو النبيَّ الْعِلْمَ اليقينيَّ القاطِعَ بما أعْلَمَهُ اللَّهُ به.

وهٰذه الطريقة قَدْ تكون إلقاءً في الْفُؤَادِ من الله. أَوْ خطاباً يُخاطِبُ اللَّهُ به عبْدَهُ المختارَ من وراء حجاب، وقَدْ تَكُونُ بوساطة مَلَكٍ يُبَلِّغُ بالقوْلِ عن طريق السَّمْع.

وهنا ينتَقلُ الفكْرُ إلىٰ سؤالٍ آخر، وهو: هَلْ هٰذا الوحْيُ يرتقي إلى مُسْتَوى التعليم النَّصّي، حَرْفاً بحَرْفٍ، وكَلِمةٍ بكَلِمَة، حتَّى يكونَ قَوْلاً مُحَرَّراً محفوظاً بنصّه الكامل، دون زيادَةٍ ولا نَقْصٍ في حَرْفٍ أو حَرَكةٍ أوْ أداءٍ؟.

وقَدْ أجابَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ على السؤال بما يلي:

- قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾.

﴿عَلَّمَهُۥ﴾: أي: علَّمَ الرَّسُولَ محمَّداً. **التعليم**: إتّخاذُ الوسَائل لجعْلِ مَنْ يُرادُ تَعْليمه عالماً بمَا أُلْقِيَ إليه من أقوالٍ ومعاني وغير ذلك.

﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ صفةٌ لموصُوفٍ مَحْذوف، وهو جبريلُ عليه السّلامُ في أقوال جُمْهور المفسّرين. ويَشْهَدُ لهذا ما سَبَق نزوله في سورة (التكوير/ ٨١

مصحف/٧ نزول) وهو قول اللّهِ عزّ وجلّ فيها بشأن القرآن:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

فَمَا جاءَ في سُورَة (النجم) قد أضَافَ بيانَ صفَاتٍ لجبريل علَيْهِ السَّلام إلى صفاته المبيَّنة في سُورة (التكور) فالنَّصَّان متكامِلاَنِ.

وعبارَةُ ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ هي من إضافة الصفة إلى الموصوف.

أي: ذُو الْقُوىٰ الشديدَةِ المتنوِّعَة.

**الْقُوَىٰ**: جمْعٌ مفْرَدُهُ «الْقُوَّة» فدَلَّ الجمع على أنواعٍ من الْقُوَّةِ.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: أي: ذو إحكامٍ وَإتقانٍ ومُمَارسَةٍ وَخِبرَةٍ في التعليم، تَعْتَمِد على المعالجة الحكيمة، واسْتِخْدام مختلف الوسائل التعليميَّة ذات التأثير العميق الرّاسخ.

ونُلاحظُ في هذا الثناء على جبريل عليه السّلام توجيهاً للمعلّمين أن يَتَّخذُوا ما يسْتَطِيعُون من وسائِلَ للتعليم الْمُجْدِي، ذي الأثَرِ الراسخ.

**المِرَّةُ في اللّغة**: القوة وشدّة العقل، وقُوَّةُ الْخَلْقِ وشِدَّته.

أصْلُ المِرَّةِ في اللُّغة: إحكامُ الفتل للْحبْل، يُقالُ لغة: أمَرَّ الحبْلَ إمراراً، أي: أحْكَمَ فَتْلَه.

وَكُلُّ قُوَّةٍ (أي: طاقة) من قُوَىٰ الحبل تُسَمَّىٰ: «مِرَّة» وجَمْعُها «مِرَرٌ».
**والْمَرَائِرُ**: هي الحبال المفتولَةُ على أكثَرَ من طاق، ومفْردُها مَرِير، ومَرِيرَة.

وقالُوا: فلانٌ يُمِرُّ فُلاناً ويُمَارُّه، أي: يُعالِجُهُ ويتلَوَّىٰ عليه ليَصْرَعَهُ ويتمكَّنَ منه.

ونَفْهَمُ من هذه المعاني اللُّغويَّة أنَّ معنى قول الله عزَّ وجل في وصف

جبريل عليه السَّلَامُ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أنَّهُ ذو قُوَّة شَدِيدَةٍ عَظيمةٍ خارقَةٍ: جسميَّة وفكرية وعَقْليَّةٍ وإراديَّةٍ ونفسيَّة، وأنَّه ذو قُدْرَةٍ على الفَتْلِ والتلوِّي والمداوَرَة والمعالجة في التعليم، حتى يبلُغَ غاية ما يريدُ من تَمْكِينِ الْعِلْم فيمن يُعَلِّمُه.

﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾: أي: فوصَل الرَّسُولُ محمَّد ﷺ إلى مستوى الاستواء الكامل من حالة التعلُّم التي لا يَنْقُصها شيْءٌ، ولو نقصها شيءٌ لما كانت مُسْتويةً، ولمَا كان هو في تعلُّمِهِ مُسْتَوِياً.

إنّ غير المستوي يكون ذا اعوجاج أو ارتفاع أو انخفاض عن المطلوب الكامل، أو يكون غير مطابق للأوصافِ التي يُؤَدِّي بها الوظيفة المُعَدَّ لأدائِها على أكمل وَجْهٍ وأحْسَنِه، والنقص في استوائه يتنازَلُ في دَرَكات، فبمقدار النقص في الاستواءِ يكون الانحطاط في الدركات.

وظاهر سوابق: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ تدلُّ على أنّ الذي وصل إلى درجَةِ الاسْتِواء الكامل هو الرَّسُول محمَّد ﷺ، لأنَّ تعليم جبريل عليه السلام كان مُوجَّهاً له، فهو المتلَقّي المتعلّم.

والمرادُ باستوائه بُلوغه دَرَجَة الكمالِ في التَّعَلُّم، وهذه شهادة من الله له.

إذا كان المعَلِّمُ شَدِيدَ الْقُوىٰ، وذا مِرَّةٍ في التعليم بإحكامٍ وإتقان، فلا بُدَّ أنْ يَصِلَ المتَعلِّم وهو الرَّسُولُ المجتَبَىٰ المصطفى من الناسِ، إلَىٰ دَرَجة الاستواء الكامل في التَّعلُّم، بما لديه من الاستعداد الكامل للتعلُّم والحفظ والفهم والفطنة.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾.

تحكي هذه الآيات قصة مشاهَدَةِ الرسول ﷺ الأولىٰ لجبريل عليه السلام بصورته الحقيقيَّة.

﴿وَهُوَ﴾: هٰذا الضميرُ يعُودُ على جِبْرِيلَ عليه السَّلامُ، المفهوم من قول الله عزّ وجلّ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ...﴾.

﴿بِٱلْأُفُقِ﴾: **الأُفُق**: هو من السَّماء الجانِبُ الذي يُرَى أَدْنَاهُ ملتقياً بالأرض، وهو جُزءٌ من قُبَّتِها العظمَىٰ، وهو بالنسبة إلى الناظرِ يُرىٰ له أسْفَلُ فأوسط وأعلى.

﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: وُصِفَ الأُفُقُ بالأَعلَىٰ لتَحْدِيدِ الْمَكَانِ الذي ظهر فيه جبريل للرَّسُول من الأفُقِ، فالمشاهِدُ الواقِفُ على الأرض إذا مَدَّ نظَرَهُ إلى جهَةِ الأُفُقِ، فقد يرىٰ مَا ظهر فيه قَدْ ظَهَرَ من أعلاه، أو مِنْ أوساطه، أو من أدناه اتّصالاً بالأرض، ومن كان واقفاً في وادٍ تحْجُبُهُ عن الأفق الأدْنى والأوسَطِ جبالٌ، فإنما يَرى من الأفق أعلاه.

وفي طريق أجياد من مكة، حيث رأى الرسول ﷺ جبريل عليه السلام في الأفق، لا يرىٰ السّالِكُ فيه من الأفق إلاّ الجانب الأعلَىٰ منه، لأنَّ المقادير الوسْطَىٰ والدنيا منه محجوبةٌ بجبال من مكّة.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ أي: لقد رأىٰ محمّد جبريل والحال أنّ جبريلَ ظاهرٌ بالأفق الأعلىٰ، بدليل قول الله تعالى في الآية (١٣): ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ فعطف هذه الجملة على جملة: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ مع المطويّ المقدّر. وفي هذه العبارَة تصوير للَّقطة الأولى من مُشاهدة الرسول ﷺ لجبريل عليه السَّلام، بصورته الأصليّة التي خلقه الله عليها، لا بصورة أخرى يستطيع أن يتمثل بها، كصورة إنسان.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ متراخية استقرَّ فيها جبريلُ في موقعه الّذي ظهر فيه للرسول في الأفق، دَنا إلى جهة الأرض دنُوّاً قَليلاً.

﴿فَتَدَلَّىٰ﴾: أي: فَعقِبَ دُنُوِّهِ القليل صارَ يتَدَلّىٰ مِقْدَاراً فمقداراً أي:

يقترِبُ بِرِفْقٍ هابطاً إلَىٰ جِهَةِ الرَّسُول، لئلا يُلْقِي الرُّعْبَ في نَفْسِ الرَّسول، من المشهد العظيم لصورته الأصليّة الّتي خلقه الله عليها.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾: أي: فكان الفاصِلُ بينَهُما بَعْدَ الدُّنوّ والتَّدَلّي مقدار طُولِ قوسَيْن عربيَّتيْن أو أدنى مِنْ طولهما، وهذا الفاصل المقدر الذي هو اسم «كان» يُفْهم من سوابق العبارة: «وهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ».

﴿قَابَ﴾ أي: مقدار، **القابُ**: المقدار. والقابُ من القوس: ما بَيْنَ المِقبض وطَرَف القوس.

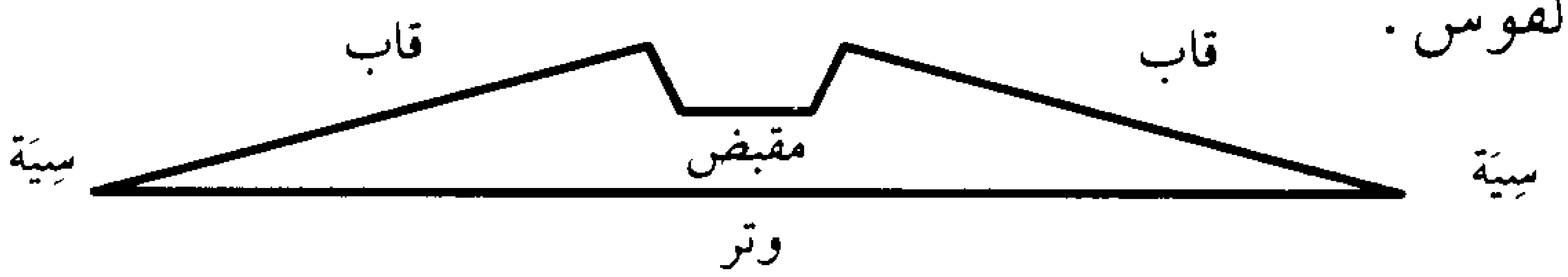


وورد أنَّ القوس ذراعٌ يقاسُ به كلُّ شيء.

﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾: أي: أو أدنى من قَدْر قَوْسَيْن، وهذا أسلوبٌ بياني لتأكيد تحديد مَسَافة القرب بقَدْر طِولِ قَوْسين عَرَبيَّتين، وقد يكونُ ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ تعبيراً عن بعض أحوال القرْب بيْنَهما، فأبْعدُها قَدْر طول قوسَيْن، وقد يكون القرب أقل من ذلك.

قال الرازي: ورَدَ هذا على استعمال العرب، فإنّ الأميرين منهم أو الكبيرَيْنِ إذا اصطلحَا أو تَعاهدَا خَرَجَا بِقَوْسَيْهِمَا، ووَتَر[1] كُلُّ واحدٍ منهما وَتَرَ قَوْسِه بطَرَفِ قَوْسِ صَاحِبِه، ومَنْ دُونَهما من الرَّعيَّةِ يَكُونُ كفُّهُ بكَفِّه فيُنْهِيَانِ بَاعَيْهِمَا.

وقد ظهر جبريل عليه السلام للرسول ﷺ ليَراهُ رُؤْيَا عيْن تَصِلُ إلى عُمْق الفؤاد، وتكونُ له بُرْهانَ إثباتٍ على أنّه من عالَم الغيب حقّاً، وأنه رسولُ الله من الملائكة الذي يَبْعَثُه اللَّهُ إلى رُسُله من البشر، ليُبَلّغوهم ما أوحَىٰ الله به إليهم.

---

(١) **وتر** أي: شَدَّ وتَرَ قَوْسِهِ.

ولم يقتصر الأمر على مُشاهدةٍ واحدة، بل جعلها الله عزّ وجلّ مرّتين، زيادةً في تأكيد الإثبات البرهانيّ، وليَتِمَّ تعرُّفُ الرسول على شخصيَّة جبريل، حتَّى إذا جاءه بعد ذلك بأيَّة صورة تمثيليَّة، أو بتنزُّلِ مَسْمُوعِ الصَّوْت غيْرِ مَرْئِيِّ الذَّات عرفَهُ، ولَمْ يخْفَ عليه.

وهذه المشاهدة الثانية سيأتي في هذا الدَّرْسِ ذكْرٌ لها.

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾: أي: فأوحى اللّهُ عزَّ وجلَّ إلى عبْدِهِ محمَّدٍ عَنْ طريقِ رَسُولِ الوحْي جبْرِيلَ مَا أوحاه إليه، ولمّا كان ما أوحاه جبريل للرسول محمد أثراً من آثار خَلْقِ اللّهِ جاء التعبير بأسلوب أنَّ الله هو الذي أوحى لعبده محمد ما أوحى به إليه.

ولم يأتِ في النصّ بيانٌ لهذا الذي أوحى الله به إلى رسوله، لأنَّ الغرض بيان ظاهرة الوحي، أمّا الموحى به إلى الرسول محمد ﷺ، فالرسُولُ قائِمٌ بتَبليغ مَا أمَرَهُ اللّهُ بتبليغه للنَّاس، لا يَكْتُمُ منْهُ شيئاً. ولم يكْتُمْ منْهُ شيئاً.

● قول اللهِ عزَّ وجلّ:

﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾.

**الفؤاد**: عُمْقُ الْقَلْبِ الذي هو أداة الإدْراك في الإنسان، ومركز استقرار العلوم والمعارف، وتنطلق منه الإرادات.

إنّه لما كان مشهد ظهور جبريل بصُورَته العظيمة الَّتي تملأُ الأفق أمراً من الوضوح والتحقُّق التَّامّ بالِغاً الغاية، كان نافذاً إلى الفؤادِ مركز عمق القلب، وهو شيء غير جهاز ضخ الدَّم.

وهذا دليل يَدُلُّ على أنَّ الرُّؤيَةَ الحقيقيَّةَ هي الرُّؤية النافذة إلى مركز الإدْراك البصَرِيِّ في عُمْقِ الإنسان.

وقد أثبتت العلوم الحديثة أنَّ الْعَيْنَ أداةُ توصيلٍ لصورة المرْئيّ، وأنَّ

الرؤيَةَ إنَّما تكونُ في مراكز الإبْصَارِ في الدّماغ، وحينَ تُصَابُ هذه المراكز بالْخَلَلِ لا تَحْصُلُ الرُّؤية، ولو كانت العينانِ سَلِيمَتَيْن وأعصابُ التوصيلِ سَلِيمة.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾: أي: ما كَذَبَ فُؤادُ محمّد ﷺ ما رَأى، وجاءَتْ: (أل) في الفؤادِ بدَلَ الضمير المضاف إليه، والمعنَىٰ: ما كذبَ فُؤادُه، وهذا الضمير يعود على «عَبْدِه» في الآية السَّابقة. ووضع (ال) التعريف موضع الضمير هو من الاستعمالات العربيَّةِ المعروفة، مع ما في التعريف بـ(ال) لفؤاد الرسول ﷺ من إشارة إلى كماله وعلُوّ شأنه، إنَّهُ لفُؤَادٌ عظيم، لرسُولٍ مصطفى كريم.

وجاء في قراءةٍ أخرى لهشام وأبي جعفر: [ما كذَّب] بتشديد الذّال.

وأمّا تَعْديةُ فعل ﴿كَذَبَ﴾ [كذَّب] اللاَّزمان فيحتمل وجْهَين:

**الوجه الأول**: أنَّه علَىٰ طريقة نزع الخافض، أي: ما كذَبَ فيما رأىٰ، وما كذَّبَ فيما رأىٰ.

**الوجه الثاني**: أنّ فعل ﴿كَذَبَ﴾ أو[كذَّب] ضُمِّنَ معنَىٰ فِعْلٍ آخَرَ فَعُدِّيَ تَعْدِيته، وفْقَ قاعِدَة التضْمينِ الشائعة في الاستعمالات القرآنيَّة، ويمكن أن يكون التقدير: ما كذَبَ أو ما كذَّبَ فُؤادُ مُحمَّدٍ يختلق رُؤيته أَوْ يتوَهَّمُها.

ولا حاجة مع هٰذَيْن الوجهين إلى إيراد تخريجات متكلّفات اشتَمَلَتْ عليها بعض التأويلات.

- ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾؟:

خطابٌ موجَّهٌ للمشركين الذين يجادِلُونَ الرسول محمّداً ﷺ، في رؤيته رسولَ الوحي جبريل عليه السلام، وتلَقِّيه عنه ما أوحَىٰ الله به إليه.

وفي هٰذه العِبَارة استفهامٌ إنكاريٌّ، يتضَمَّن التَّعْجيب من مُماراتهم، ويتَضَمَّن الإنكار عليهم.

وَجاء في القراءة الأُخْرى: [أَفَتَمْرُونَهُ].

**الْمُمَارَاة**: أَخَذَتْ في الاستعمال معنى المجادلة والمداورة، وتكُونَ المماراةُ غالباً بغير حقٍّ.

وأصْلُ الْمُمَاراة والامْتِرَاءِ أَنْ يَمْسَحَ الحالب على ضَرْع الشَّاةِ أو البقَرَةِ ونَحْوِهما لاستخراج اللَّبَنِ واحْتِلَابه، وفي هٰذا قَدْرٌ كبيرٌ من الملايَنَةِ والملاطَفَةِ والمداورة لبلوغ الْمُراد.

والمجادل يُحاول أن يسْتَخْرِج مَا عِنْدَ صاحِبِهِ، وهُوَ يَمْتَرِيه كما يمْتَرِي الحالبُ اللّبَن من الضَّرْعِ.

**والْمَرْيُ**: مسْحُ ضَرْعِ النَّاقَةِ لِتَّدِرَّ. يقال لغة: مَرَىٰ النَّاقةَ مَرْياً، أي: مَسَحَ ضَرْعَهَا للدِّرَّة، والاسم من ذلك: «الْمِرْيَة». ومن فِعْل «مَرَىٰ» جاءت قِراءَة: [أَفتَمْرُونَهُ].

وجاءت التعْدِية بحَرْف «على» في قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾. [أَفَتَمْرُونَهُ عَلَى مَا يرىَ] لتضمين الفعل معنى فعل «حَرَص» أي: أفتمارونه حريصين على إنكار ما يَرَىٰ، وتكذيبه فيه.

**والمعنى**: ألا تعجبون من أنفسكم أيها الكافِرُون المكذِّبون لرَسولِنَا، فيما يَرَاهُ رُؤيَةَ حَقٍّ، فَتُمارونَه مجادلين بالباطل حريصين على تكذيبه في شيءٍ هو يَراهُ رُؤيَةً صادقَةً واضحَةً لا شَكَّ عنْدَهُ فيها، وهذا الشيء الذي يراه لَيْسَ من المستحيلات العقليّة، وقد سبقه الأنبياء والرُّسُلُ في ذٰلِك.

ما هي الحجَّةُ الّتي يمكن أن يُقَدّمَها لكُم غير أنَّه رأىٰ، وهو صَادِقٌ في كلّ ما رأى، وصادقٌ في كلِّ ما يخبركم به، وأنتم تَعْلَمُون خلُق الصِّدْقِ فيه.

الفاء في ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ عاطفة على محذوف مقدّر ذهناً، فهي من قبيل الفاء الفصيحة.

أمّا برهان قاعدة الصّدْق عنده فظاهرٌ فيما آتاه ربُّه من آياتٍ باهرات، ومنها القرآن الذي يتْلُوهُ عليكم، ففيه من الإعجاز ما يكفي لأقناعكم بصِدْقه، وبأنَّه نبيُّ الله ورسُولُه حقّاً، فلا تَصِحُّ عقلاً مماراته حِرْصاً منكم على تكذيبه فيما يراهُ هو رُؤْية حقّ.

## روايات بشأن رُؤية الرَّسول لِجبْرِيلَ في النزلَةِ الأُولَىٰ

أورد ابنُ كثير في تفسيره عدّةَ رواياتٍ بشأن رؤية الرسول محمد ﷺ جبريلَ، على الصِّفة الحقيقيَّة التي خلَقَهُ اللّهُ عليها.

وأكثرها روايات لا ترقى إلى مستوى الأحاديث الصِّحاح بأفرادِها، لكن يقوّي بعضها بعضاً، وتَشْرَحُ جانباً مما جاءت الإشارة القرآنية إليه، في سورتي (التكوير) و(النجم):

(١) روى الإمام أحمد عن عبد الله، أنّه قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناحٍ كُلُّ جناحٍ منها قَدْ سَدَّ الأُفُق، يسقط من جناحه من التهاويل[1] والدُّرّ والياقوت ما الله به عليم. [إسناده حسن].

(٢) وروى الإمام أحمد أيضاً بسند فيه وهبُ بن مُنَبِّه عن ابن عباس، قال: سأل النبيُّ ﷺ جبريلَ أن يراه في صورته، فقال: ادْعُ ربَّكَ، فدعا ربَّهُ عزَّ وجلَّ. فطَلَعَ علَيْه سوادٌ من قِبَلِ المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلمَّا رآه النبيّ ﷺ صَعِقَ، فأتاهُ فَنعَشَه، ومَسَح الْبُزَاقَ عن شِدْقِهِ.

(٣) وروى البخاري ومسلم وأحمد عن الشعبي عن مسروق، قال: كُنْتُ عند عائشة، فقُلْتُ: أَلَيْسَ اللّهُ يقولُ: [وَلَقَد رآه بالأُفُقِ المبين] ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً

---

(١) **التهاويل**: الزيناتُ ذوات الأشاكل والصور والنقوش المختلفة الألوان وأنواع الحلْي التي يُتزَيَّنُ بها، وما على الهوادج من الصوف الأحمر والأخضر والأصفر تُزَيَّنُ به.

أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ فقالت: أَنَا أوَّلُ هذه الأمَّةِ سألْتُ رسول الله عنْها، فقال: «إنَّما ذَاكِ جِبْرِيلُ» لَمْ يَرَهُ في صورته الّتي خُلِقَ علَيْها إلاَّ مَرَّتَيْن، رآهُ مُنْهَبِطاً من السَّماء إلَىٰ الأرْضِ، سَادّاً عِظَمُ خَلْقِه مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْض».

(٤) وقال ابنُ وهْبٍ، حدَّثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عُروة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

كان أوّلُ شأن رسول الله ﷺ أنَّهُ رأىٰ في منامه جبريل بأجياد، ثُمَّ إنَّهُ خَرَجَ ليقضي حاجتَهُ، فصَرَخ به جبريل، يا محمّد، يا مُحمّد، فنظر رسول الله ﷺ يميناً وشمالاً، فلَمْ يرَ أحداً ثلاثاً، ثم رفع بصَرَهُ، فإذا هُوَ ثاني إحْدَى رجْلَيْهِ معَ الأُخرىٰ على أُفُقِ السَّماءِ، فقال: يا مُحمَّد، جبريل، جبريل، يُسَكِّنُهُ، فهربَ النبيُّ ﷺ حتَّىٰ دخَلَ في النّاسِ، فنظر فلَمْ يَرَ شيئاً، ثُمَّ خرجَ فنظَرَ فَرَآهُ، فذلِكَ قَوْلُ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ يعْني جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسَّلام.

(٥) وروى مَسْروقٌ عن عائشة، أنَّ الرسُولَ ﷺ لم يَرَ جبريلَ في صُورَتِه إلاَّ مَرَّتين: مَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهىٰ ومرَّةً فِي أجْياد وله ستُّمائة جَناحٍ قد سَدَّ الأُفق.

(٦) وروى الإمام أحمد عن ابن مَسْعُودٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«رأيْتُ جِبْرِيلَ، ولَهُ ستمائة جناح، ينْتَثِرُ من رِيشِهِ التَّهاوِيلُ من الدُّرِّ والْيَاقُوت». [وهذا إسنادٌ جيّدٌ قويّ].

● قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

بعد أن أبان اللّهُ عزّ وجلّ أنّ الرسُول محمّداً ﷺ رأى جبريل بصورته الأصلية التي خلَقه عليها، حين دَنَا فتدلّى، فكان بُعدُ الفاصل بينهما مِقْدارَ

قوسَيْنِ أو أدْنَى، أبَانَ أنَّهُ رآهُ أيضاً رؤيَةً أُخْرَىٰ بصورته الأصليَّة التي خلقه الله عليها، في نَزْلَةٍ أخْرَىٰ من مكانه الرّفيع في السّماواتِ، فكان اللّقَاءُ بينهما عنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ. وقد سبق بيان النزْلَةِ التي رآهُ فيها ابتداءً من الأفُق حتَّىٰ كان قاب قوسَيْنِ أو أدْنَىٰ.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣)﴾:

جاء تأكيد هذه الجملة باللّام التي تقع في جواب قسم، وبحرْف «قد» الذي يؤتَىٰ به للتحقيق.

﴿رَءَاهُ﴾: أي: محمَّدٌ جبريلَ عليهما السَّلام بصورته الأصلية.

﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾: أي: في نَزْلَةٍ أُخْرَىٰ نَزَلَها جَبْرِيلُ من موقعِهِ الرَّفيع في السَّمَاوَاتِ. **النَّزْلَةُ**: واحِدَةُ النَّزلَات.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾: أي: فكانت هذه الرُّؤيَةُ الأُخرىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهَىٰ.

كانت هٰذِه الرُّؤيَة في رحْلَةِ العروج به إلى السماوات، واطّلاعه على ملكُوت الله الأعْلَىٰ.

**السِّدْرَة**: شجرة من نوع شَجَر السِّدْر، ويُسمَّى شجَرَ النَّبِق، وهو صنفُ شجرٍ معروفٍ في الحجاز.

أمّا سِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ فهي من مخلوقات الله في الملكوت الأعلَىٰ، وهِيَ شَجَرَةٌ مختلفة عَنْ أشجار الأرْض، جاء بعض وصْفٍ لَها في روايات أحاديث الْمِعْرَاج. ومَوْقِعُ هٰذِهِ السِّدْرَة العظيمة العجيبة الكُبْرىٰ كائِنٌ عِنْدَ جَنَّةِ المأْوَىٰ.

جاء في بعض روايات الحديث ومنها عند مُسْلم عن أنس، أنَّ الرسول ﷺ قَدْ ذَهَبَ به جبريلُ عليه السَّلامُ إلى سِدْرَةِ المنتهىٰ بَعْدَ أَنْ دَخل السَّماء السابعة ورأىٰ فيها إبراهيم عليه السلام وهو مُسْنِدٌ ظهرَهُ إلى الْبَيْتِ

الْمَعْمُور، الذي يدخله كلَّ يَوْمٍ سبْعُونَ ألف مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إليه.

قال: «ثُمَّ ذَهَبَ بِي إلى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ. وإذَا وَرَقُها كآذَانِ الفِيلَةِ، وإذَا ثَمَرُها كالْقِلاَل[1]».

قال: «فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيَّ ما أَوْحَىٰ...».

وجاء في رواياتٍ أخرى أنّ شُهوده سِدْرَةِ المنتهى قد كان في السَّماء السَّادسَةِ، وأرى أنَّ روايات كَوْنِها بَعْدَ السَّابعة أجْدَر بالاعتبار.

سُمّيتْ سِدْرَةَ المنتهَىٰ، لأنَّهُ ينتهي إليها ما يُعْرَجُ بِهِ من الأرض، أو يَنْتَهِي عِنْدَ حُدُودِها علْمُ الخلائقِ حتَّىٰ كبار الملائكة، أو تنتهي إليها أرْوَاحُ الشهداء، وقيل غير ذلك، واللَّهُ أعلم.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾: أي: تُوجَدُ جَنَّةُ المأوَىٰ، عِنْدَ سِدْرَةِ المنتَهَىٰ الموجودَةِ بعْدَ السَّمَاءِ السابعَةِ.

في هذا البَيَان وصْفٌ للجنَّةُ الّتِي أَعدَّهَا الله للمتقين من عباده بأنَّها جَنَّةُ المأوىٰ، أيْ: المأوَىٰ للمتقين، الَّذِينَ يَقْضِي اللَّهُ لَهُمْ بأنَّهُمْ من الْخَالِدِينَ في جنَّاتِ النَّعِيم.

**الْمَأْوَىٰ**: المكانُ الَّذِي يُؤْوَىٰ إِلَيْهِ للسَّكَن وَالإقامَةِ والأَمْنِ وقضاء الحاجات والمطالب.

وبجمع هٰذا الوصف مع سائر الأوصاف المذكورة للجنَّة في القرآن الكريم، تتكاملُ لَوْحَةٌ تصويريَّةٌ بَيَانِيَّةٌ، تَسْتَثِيرُ رغبَاتِ المؤمنين بالاستزادة من صَالحِ الأعمال، وتُهَيّج أشواقَهُمْ إليها، لنيل سعاداتهم وأنواع نعِيمهم فيها.

(١) **القِلاَل**: جمع «قُلَّة» وهي الجرّة العظيمة، وجاء في رواية أنَّ ثمرها مثل قِلاَلِ هجَر. سَعَةُ الواحدة منها (١٥٣،٥) ليتراً.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾:

أي: رأى محمّد جبريلَ في النزْلَةِ الأخرى عنْدَ سِدْرَةِ المنتَهىٰ حين كان يغْشَىٰ السّدْرَة ما يغْشَىٰ، أي: يُجَلِّلُها ويُلابسها.

فما هٰذا الذي غشَيَ السِّدْرة؟

إنَّهُ أشياءُ ذاتُ حُسْنٍ عظيم لاَ يَسْتَطيعُ أحدٌ من خَلْقِ الله أن ينْعَتَهُ مِنْ حُسْنِهِ، كما جاء في حديث مسلم عن أنس عن النبي ﷺ.

وجاء في حديثٍ عند مسلمٍ أيضاً عن عبد الله بن مسعود، قالَ: «فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ».

وجاء في رواية: «وَغَشِيَهَا أَلْوَان لاَ أَدْري مَا هِيَ».

وجاء في رواية: «غَشِيَهَا نُورٌ مِنَ اللَّهِ مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا».

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾: أي: ما زَاغَ بصَرُ الرسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ ومَا طَغىٰ. جَاءت «ال» في البَصَرِ بدَلَ الضمير المضاف إليه، أي: ما زاغ بَصَرُه، نظير ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾.

﴿مَا زَاغَ﴾: أي: مَا مَالَ وَلاَ انْحرَفَ عَنْ سَوائه. أصْلُ الزَّيغ في اللُّغَةِ الميلُ والبُعْدُ، يُقَالُ: زاغ السَّالِكُ عن الطَّرِيق، إذا عدَلَ عنْهُ ذَاتَ اليمين أو ذَاتَ الشِّمال. وزاغ الفِكْرُ، إذا عَدَلَ عن الصّواب، وزاغ القلْبُ، إذا عَدَلَ عَنِ الحقّ والهُدَىٰ.

﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: أي: ومَا جاوزَ الحَدَّ في إدْرَاكِهِ لِمَا شَاهَدَهُ. أَصْلُ الطغيان في اللُّغَةِ: تَجاوُزُ الحدِّ الذي يكُونُ الحقُّ مَحْدُوداً به.

دلَّتْ هذه العبارة على أنَّ مُشَاهَدةَ الرَّسُولِ لِمَا شاهَدَ عِنْدَ سِدْرة المنْتَهَىٰ قد كانَتْ كُلُّها حقاً، لم يُدَاخِلْها ولم يُخالِطْها وهْمٌ ناشِئٌ عَنْ مَيْلٍ وانْحِرَافٍ عَنْ حُدودِ المشهود، ولا وهْمٌ نَاشِئٌ عَن طُغْيَانٍ وزِيَادَةٍ عَلَىٰ

حُدودِ المشْهُودِ، بلْ رأىٰ ما رأىٰ مُشَاهَدَةً حقيقيَّةً خالية عَنْ زَيْغٍ وخالية عن طغيان.

إنَّ مِنْ شَأْنِ من يَرَىٰ مَشَاهِدَ عظيمةً عَجِيبَةً غَرِيبَةً لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أنْ شاهدها، ولا شاهَدَ نظيرها، أنْ يَزيغَ بَصَرُهُ أوْ يطْغَىٰ، فتَخْتَلِط علَيْهِ المرْئِيَّات، فيَتَوهَّم أنَّهُ رأىٰ أشْياءَ في المشْهَدِ الّذِي وقَعَ بصَرُهُ عليه، معَ أنّ هذه الأشياء لا وُجود لَهَا فِي ذاتِ المشْهَدِ.

لكِنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ أمَدَّ رسُولَه بقُوَّةٍ وتَثْبِيتٍ في رحلة المعراج، فلم يحْدُثْ في بَصَرهِ زيغٌ ولا طُغيان، وقد شَهِدَ اللّهُ لَهُ بهذا في قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: فما يُحَدِّثُ به محمَّد عن مشاهداته في رحلة المعراج حقٌّ وصدْقٌ مستَنِدٌ إلى رُؤيَةٍ بصريّةٍ صحيحة، لا زائِغةٍ ولا طاغية، وهذا يُفْهَمُ لزوماً.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾: جاء تأكيد هذه الجملة باللاّم التي تقع في جواب قسم، وبحرف «قَدْ» الذي يُؤْتَىٰ بِهِ للتحقيق.

﴿رَأَىٰ﴾: أي: رُؤيَةً حِسِّيَّةً بَصَرِية، بدليل ما جاء في الآية السابقة.

﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾: أي: من علامات عظمة رَبِّهِ وقُدْرَتِهِ وسائِرِ صفاته الْجَلِيلَةِ. وكلِمَةُ ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ إمَّا أنْ تكون مفعولاً به لفعْلِ ﴿رَأَىٰ﴾ فيكون المعنَىٰ: لَقَدْ رأىٰ الكُبرَىٰ من آيات ربّه. وإمَّا أن تكون صفةً لكلمة ﴿ءَايَٰتِ﴾ فيكونُ المعنى: لَقَدْ رأىٰ بعْضَ آياتِ ربّه الكبرىٰ.

**الكُبْرىٰ**: مؤنّثُ أكْبَرَ الّتي هي «أَفْعَلُ تفضيل».

فَهَلْ سِدْرَةُ المنتهَىٰ هيَ الآيَةُ الكُبْرَىٰ من آياتِ اللّهِ في كونه، أو هِيَ آيَةٌ كُبْرَىٰ من ضِمْنِ آيات الله الكبرى، أو أنَّ الرسُولَ ﷺ رأىٰ فوق سِدْرَةِ المنتهى من آيات ربِّه؟

احتمالات لا نسْتطيع أن نجزم بواحدةٍ منها، والله أعلم.

وقد جاء في رواية عنْدَ مُسْلم عن ابن عبّاسٍ وأَبِي حَبَّةَ الأنصاريّ، أنّهما قالا: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوىً أَسْمَعُ بِهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ».

وجاء في رواية:

«ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ، حتَّىٰ نأْتِي سِدْرَةَ المنْتَهَىٰ، فَغَشِيَهَا أَلْوانٌ لاَ أَدْرِي ما هِي» قال: «ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا بِهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ[1]، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ».

هذا الدرس الأول من دروس السورة اشتمل على الدّفاع عن صِدْق الرَّسُول ﷺ في دعْوَىٰ رسالته واتّصاله بالوحي، وفي أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ تفضَّل علَيْه وأكْرَمَهُ بالعروج به إلى السّماواتِ الْعُلْيَا حتَّىٰ سِدْرَة المنْتَهَىٰ. واشْتَمل على تقديم أدِلَّةٍ إقْنَاعيَّةٍ لإثبات أنّه رسولٌ يوحَىٰ إليه من ربّهِ، وأنّه قد اتّصل برسول الوحي من الملائكةِ جبريل عليه السلام، وأنّه رآه على صُورَته التي خلقه الله عزّ وجلّ عليها مرَّتَيْن، دون أنْ يَتَمثَّلَ فيهما بأيِّ مِثالٍ آخر، وأَنَّهُ عُرِجَ به إلى السَّماوات العليا، وشاهَدَ مُشَاهَدَةً بَصَرِيَّةً مقرونةً بإدراكٍ قلبيّ حقيقيّ من آيات رَبّه الكبرى، وقد شَهِد الله له بكلّ ذلِكَ.

## (٧)
## التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة
## الآيات من (١٩ ـ ٢٨)

قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

(١) **جنابذ اللؤلؤ**: أي قبابُ اللّؤلؤ.

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾.

## القراءات

● قرأ جُمْهُورُ الْقُرَّاء العشرة: ﴿ٱللَّٰتَ﴾.

وقرأ رُويس: [اللاّتّ].

أصل الكلمة كما سيأتي «اللاّتّ» بالتشديد، ومعناها الذي يلُتُّ، أي: يخلط السّويق[١] أي الدقيق بالسَّمْنِ ويَعْجنُه، ولمَّا سُمِّيَ بَيْتُ هذا المعبود عند العرب باسم اللاّتِّ الّذي كان يلُتُّ الطعام للحجّاج في هذا المكان، خَفَّفَ العربُ التّاءَ لأنّه أسْهَلُ في النطْق.

● وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿وَمَنَوٰةَ﴾.

وقرأ ابن كثير: [ومَنَاءَةَ].

وهُما لفظان ينْطَقُ بهما اسم هذا الصنم، إلاَّ أنّ الأكثر ما عليه جمهور القرّاء.

● وقرأ جمهور القرّاء الْعَشَرةِ: [ضِيزَىٰ] من ضَازَه حقَّهُ، إذا نقصَه فهو جائر.

وقرأ ابْنُ كثير: [ضِئْزَىٰ] من ضَأَزَهُ حقَّهُ، إذا نقصَهُ أيْضاً، فهو جائر.

---

(١) السّويق: طعامٌ يتّخذ من مَدقوق الحنطة أو الشعير.

## تمهيد وتدبر

بعد الدّفاع عن الرسول محمّد ﷺ في الدرس الأول من دروس السّورة، لإثباتِ نبوّتِه ورسالته وتلَقِّيه الوحي عن ربّه، وصِحَّةِ مُشَاهَدَاتِهِ الْبَصرِيَّة والْقَلْبِيَّةِ من عالَم الغيب، ومن السماواتِ فيما أكرمَهُ الله به من العروج حتَّىٰ سِدْرَةِ المنتهى، ورُؤيَتِهِ فيها من آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَىٰ.

يَأتي الدرْسُ الثَّاني من دُروس السّورة، وفيه هجُومٌ على عقائدِ المشركينَ الباطِلَةِ، وبعْضِ مقالاتِهم الافترائيَةِ الّتي لا تستنِدُ إلى حُجَّةٍ مقْبولةٍ لدَىٰ ذي نَظَرٍ صحيح، وفكْرٍ سليم.

وفي هذا الهجوم تسْدِيدُ الضَّرَباتِ علَىٰ الرُّموز الكُبْرَىٰ الّتِي يُؤْمِنُونَ بإلهِيَّتِهَا، وعلَى المفهومات الباطلات الّتِي يتمسَّكُونَ بِها، في مُقَابل تَصَدِّيهم لمصارَعة الرَّسُولِ محمّد ﷺ بظلم وعُدْوانٍ، وتَكْذِيبهم لما جاءَهُمْ به من حَقٍّ أَوْحَىٰ اللَّهُ به إليه.

وقد اشتمل هٰذا الدَّرْسُ علَىٰ قَضِيَّتَيْنِ من قضايا المشركين الباطلة: **الأولى**: اتخاذهم معبودات من الأصنام. **والثانية**: اعتقادهم أنّ الملائكة بنات الله.

## أمّا القضيّةُ الأولى

وهي اتخاذهم الأصنام معبوداتٍ لهم من دُون اللَّهِ، زَاعمين أنَّها تجلُبُ لهُمْ نَفعاً، وتدفع عَنهم ضرّاً.

فخاطبهم الله عزّ وجلّ بقولهِ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾

الفاء في ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ عاطفةُ الفعل على فعل «تُمَارُونَهُ» في الدرس الأوَّل من السّورة. أو عاطفة على محذوف، والمعنى: أتفكّرتم فرأيتم آلهتكم، وما في عبادتها من جهالة ومجافاة للحقّ، والرأي السديد، والعمل الرشيد.

والاستفهام هو من قبيل الاستفهام الإنكاريّ التهكمِيّ، المشْعِر بضعفِ عقولهم التي قَبِلَتْ عبادةَ حجارةٍ لاَ تنفَعُ ولاَ تضُرُّ، واتخاذَهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ الله.

إنّ أوثان العرب الّتي كانت قبائلهم المختلفةُ يعْبُدونَها كثيرة، ذكرت سورة (النجم) منها على سبيل التمثيل وثَنَيْن لقُريشٍ هُمَا «اللاَّتُ والْعُزَّىٰ».

واللاَّتُ هو أيضاً لأهل ثقيف في الطّائفِ ومَنْ يَعْبُد عبادتهم.

وذكَرَتْ وثناً واحداً غيرهما، وهو «مَنَاة» وهذا قد كان لأهل يثربَ، ومن عبَد عبادتَهم من القبائل المجاورة لَهُم.

واقتصرت السُّورة على ذكر هذه الأوثان الثلاثة، دُون ذكر سائر أوثان العرب، لأنَّه متَىٰ سَقَطَتْ قيمةُ أوثانِ أهْلِ مكَّة وما حولها، وأهل الطائف وما حولها، وأهل يثرب وما حولها، سقَطَتْ قيمةُ سائر أوثان العرب، إذْ تُلْحَقُ بكُبَرَيَاتها.

والاستفهامُ الإنكاريُّ التهكُمِيُّ الذي بدَأت بهِ هاتَانِ الآيتان، يتضمَّنُ المعانِيَ التالية:

أتكَذِّبُونَ الرَّسولَ محمّداً الَّذِي يعْرِض عليكم الحقَّ الرَّبَّانيَّ مؤيّداً ببرهاناته، ومقْرُوناً بآيَاتِ صدْقِه فيما يُبلِّغُ عنْ رَبّه، متظاهرين بوهم العقلانية في زعمكم، وأنتم تَعْبُدونَ جامداتٍ حجَرِيَّة لا تضُرُّ ولا تَنْفَع؟!!. ما هٰذِهِ المفارقة العجيبة بيْنَ رفضِكُمُ الحقَّ بزَعم الاستمساك بالعقلانيَّة، وبين اعتقادكم عقائِدَ ظاهِرةَ البطلان، لا يَصِحُّ أن يعتقدها من كانت لَدَيْه ذَرَّةٌ من عَقْلٍ، أو مقدارٌ ما من تفكيرٍ سَلِيم؟!!

## اللاَّت

قالوا: بيتٌ لثقيفٍ في الطائف، كانُوا يعظّمونه نحو تعظيم الكعبة.

وأصل هذا البيت أنَّه كانَتْ صَخْرَةٌ يلُتُّ رجُلٌ من ثقيفٍ السَّويقَ

للحجّاج عليها[١]، وكانت هذه الصخْرَةُ تُسمّىٰ صخْرَة اللاَّتّ، فلمَّا ماتَ هذا الرَّجل من ثقيفٍ قال لهم: «عَمْرُو بْنُ لُحَيّ» جالبُ صَنَم «هُبَل» إلى مكَّةَ من مُآب من أرْض الْبَلْقاء بالشَّام: إنَّ اللاَّت لم يَمُتْ، ولكنه دخلَ في الصخرة، وأمَرَهُمْ بعبادَتِها، وأنْ يَبْنُوا عليها بيتاً يُسمّىٰ: «بَيْتَ اللاَّتّ».

وكان عَمْرو بْنُ لُحَيّ رجُلاً مطاعاً في مكَّةَ والطَّائف.

ورُبّما اعْتَبَر عابدو «اللاَّت» فيما بَعْد لفظ «اللاَّت» مؤنَّثَ لفظ الجلالة «الله».

وكان سَدَنَةُ «بيت اللاَّتّ» وحُجَّابه بَنِي مُعَتِّبٍ من ثقيف، وعند ابن الكلبي في كتابه «الأصنام» أنهمْ بنُو عتَّابِ بن مالكٍ.

## الْعُزَّىٰ

هي صخرةٌ صَنَميَّةٌ اتَّخذَها «ظالِمُ بْنُ أَسْعَد» وكانَتْ لقُرَيشٍ وبني كنانة، بوادٍ يُقالُ له «الْحُرَاض» من «نَخْلَة الشاميّة» تقعُ على يمين الْمُصْعِد إلى العراق من مكة، فوق ذات عِرْق، ثم صارت الْعُزَّىٰ أعظم آلِهَةِ قُرَيش الوثنيَّة، وكانوا يَزُورونها ويُهْدُونَ لَهَا، ويتقربون عندها بالذبائح.

وكان بنو شيبان من سُلَيْمٍ حُلَفَاءُ بني هاشم هم سَدَنَتَها وحُجَّابَها.

وقيل: الْعُزَّىٰ شجَرةٌ من شجَر السَّمُر، كانت لغطفان يعبدونها، وأنَّهُمْ بَنَوْا عليها بيتاً، وأقاموا لها سَدَنَةً.

ولفظُ «الْعُزَّىٰ» في العربية مؤنَّثُ «الأعزّ».

ورُبّما اعتبَر بعضُ الشَّارحين أنَّ الْعُزَّىٰ مأخوذٌ من اسْم اللَّهِ «العزيز».

وجاء في سيرة «ابن هشام» في أحداث ما بعْدَ فتح مكة:

(١) **اللَّتُّ**: هو خلط الدقيق بماء أو سَمْنٍ بطريقةٍ خاصَّةٍ، أو بخشبةٍ خاصَّةٍ تسمَّىٰ المِجْدَع.

«ثُمَّ بَعَثَ رسولُ الله ﷺ (خالدَ بْنَ الْوَلِيد) إلى (الْعُزَّىٰ) بنخْلَة، وكانت بيتاً يعظّمُهُ هذا الحيُّ من قُرَيش، وكنانَةُ ومُضَرُ كلُّها، وكان سَدَنَتُها وحُجَّابُها بَنِي شيبَانَ من سُلَيْم، حُلَفَاءَ بَنِي هاشم، فلمَّا سَمِع صاحِبُها السُّلَمِيُّ بمَسيرِ خالِدٍ إلَيْها، عَلَّقَ علَيْها سَيْفَهُ، وَأَسْنَدَ[1] في الْجَبَلِ الّذِي هيَ فيه، وهو يقول:

أَيَا عُزُّ شُدِّي شَدَّةً لاَ شَوَىٰ لَهَا  عَلَىٰ خَالِدٍ أَلْقِ الْقِنَاعَ وَشَمِّري[2]
أَيَا عُزُّ إِنْ لَمْ تَقْتُلِي الْمَرْءَ خالداً  فَبُوئِي بإِثْمٍ عَاجِلٍ أَوْ تَنَصَّرِي

فلمَّا انْتَهىٰ إليها خالِدٌ هدَمها ثم رَجَعَ إلى رسول اللَّهِ ﷺ» هـ.

وجاء في لسان العرب: أنَّ «خالد بن الوليد» هدَمَ بيْتَ الْعُزَّىٰ، وأحْرَقَ السَّمُرَة وهُوَ يَقُول:

يَا عُزُّ كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحَانَكِ  إنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكِ

قالوا: وكانت قريش إذا حَلَفَتْ قالت: واللاَّت والْعُزَّىٰ.

وكان مشركو قريش يعذّبون عبيدهم وإماءهم وأبناءهم ليكْرِهُوهم على تعظيمها، والكفر بمحمّد وربِّ محمّد.

**مَنَاة**

جاء في لسان العرب لابن منظور: مناة صخْرة، وفي الصّحاح: صَنَمٌ لهزيل وخزاعة، بين مكة والمدينة، يعبُدونها من دون الله، وفي الحديث: أَنَّهم كانُوا يُهِلُّونَ لمناة (أي: يحجُّونَ إليها).

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من

---

(١) أَسْنَدَ في الْجبل: أي: ارتفع فيه.

(٢) **شَدَّةً لاَ شَوىٰ لها**: أي: شُدِّي عليه شَدَّةَ ضَاربٍ في مقْتَلٍ، لا ضاربٍ في الأطراف التي هِيَ شَوَىٰ.

أهل يثرب، على ساحل البحر، من ناحيةِ المشلَّلِ بقُدَيْدٍ[١].

وقال ابن هشام: فبعث رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حرب فهدمها. وقيل: بعث عليّ بن أبي طالب فَهَدَمها.

وجاء في كتاب: «الأصنام» لابن الكلْبِي: كانت مناةُ أقْدَم الأصنام كلّها، ولم يكُنْ أحَدٌ أشَدَّ إعظاماً لها من الأوس والخزرج.

## إشكالٌ ودفعه

أشكل على بعض المفسّرين وصف «مناة» في الآية بقوله تعالى: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ قال: الآخَرُ والأُخْرى إنّما يوصفُ بِهِما الثاني والثانية، لا الثالث والثالثة، وقال: لا داعيَ للأخرى بعد وصْفها بكونها الثالثة.

وأُجِيبَ: بأنّه جيء بالأُخْرى لمراعاة رؤوس الآيات، وتوازُنِ الفِقَرات.

**أقول**: وأرى مع هذا أنّه لمّا كانت اللّات والعزّىٰ لقريش، وكانت سورة (النجم) من أوائل التنزيل المكّيّ خاطبهم الله بقوله فيها: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾؟!!.

أمّا «مناة» فكانت للأوس والخزرج في يثرب، فكان من المناسب أن يخصّصها الله بقوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ ولمّا كانت في مقابل مجموع ما تعبُد قريشٌ كانَتْ أخرى، على أنّها أحَدُ الشيئَيْن المذكورَين للفريقين.

أو نقول: أُخرَى هنا مؤنّثُ آخرُ «أفعل تفضيل» على أنّه وصف يحمل معنَى التأخّر، لا على أنه أحد الشيئين، والمعنى: ومناة الثالثة الأكثر تأخراً، فهي كالبُعْدَى، إذْ كان المخاطبون من قريشٍ لا يضَعُونها مع اللاّتِ والعُزَّىٰ

(١) المشلَّل جبَلٌ يُهْبَطُ منه إلى قُدَيد، وهو موضع بين مكة والمدينة.

في المرتبة، فَخُوطِبُوا بحسب واقع حالهم، والله أعلم.

## تعذيب المشركين أصحاب محمّد لإكراههم على عبادة الأوثان

قال ابْنُ إسحاق: وحدّثني حكيمُ بن جُبَيْر، عن سَعِيد بْنِ جُبَير قال: قُلْتُ لعبد الله بن عبّاسٍ: أكان المشركون يَبْلُغُونَ من أصحاب رسول الله ﷺ منَ العذابِ مَا يُعْذَرُونَ به في تَرْكِ دِينهم؟

قال: نعم، والله، إنْ كانوا ليَضْرِبون أحَدَهم، ويُجِيعُونه ويُعطِّشُونه، حتَّى مَا يقْدِر أن يسْتَوِيَ جالساً من شِدَّةِ الضُرّ الذي نزَلَ به، حتَّى يُعْطِيَهُمْ ما سألُوهُ من الفتنة، حَتَّىٰ يقولوا لَهُ: آللاَّتُ والْعُزَّى إلٰهُكَ من دُونِ اللَّهِ؟. فيقولُ: نعم. حتَّىٰ إنَّ الْجُعَلَ ليمُرُّ بهم فيقُولُونَ لَهُ: أهَذَا الْجُعَلُ إلٰهُكَ من دُون الله؟. فيقولُ: نعم، افتداءً منهم بما يَبْلُغُونَ منْ جَهْدِهِ.

### وأمّا القضية الثانية

وهي اعتقادُ المشركين أنّ الملائكةَ بناتُ الله، مع الإشارة إلى عبادتهم للملائكة، وربّما كان هذا عند بعضهم، إذ اتّخذوا لبعض الملائكة صُوراً من الأصنام وعَبَدُوها، واعتقدوا أنَّ الملائكة يشفعون لهم عند الله جلّ جلاله.

فخاطبهم اللَّهُ عزّ وجَلَّ بقوله:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾؟!!

**ضيزىٰ**: أي: جائرَةٌ، مُجَانِبَةٌ لمقتضىٰ العدل بحسب مفهوماتكم.

الاستفهام هنا أيضاً هو من قبيل الاستفهام الإنكاريّ التهكُّميّ المشْعِر بجهالتهم وضعف عقولهم، يقول العرب: قِسْمَةٌ ضيزىٰ، وقسمةٌ ضُوزَىٰ، أي: قسمةٌ جائرة، يقال: ضاز في الحكم، إذا جار، ويقال: ضازَهُ حقّه يَضِيزُه ضَيْزاً، أي: نقصه وبَخَسَهُ.

هاتان الآيتان هما بمثابة «عُنوان» لموضوع عقائد أهل الكفر حوْل

الملائكة، ضمْن حركة الهجوم على مواقع المشركين الفكريَّة. فقد كان بعض كفّار العرب يعتقدون أنَّ الملائكة بناتُ الله، ويتخذون منهم آلهةً ليكونُوا شفعاء لهم عند الله.

قال الرازي: ونقَلَ الواحديُّ عن المفسّرين أنَّهم قالوا: إنَّ قُريشاً، وجُهَينَةَ، وبَنِي سلَمَةَ، وخُزَعَةَ، وبني مُلَيْح، قالوا: الملائكةُ بناتُ الله.

وروى ابْنُ جرير عن السُّدِّيّ قال: ذُكِرَ أَنَّ مُشركي قُريشٍ كانوا يقولون: الملائكةُ بناتُ الله، وكانوا يَعْبُدونها.

**أقول**: توجيه الخطاب للمشركين، وفي مقدّمتهم مشركو مكّة، يُشْعِرُ بأنَّهُمْ من الذين يقولون: الملائكةُ بناتُ الله، ومن الذين كانوا يعبُدونها ببعض أنواع العبادة وأشكالها، كالدُّعاء مثلاً.

كان المشركون شديدي الحرص على أن تَلِدَ لهم نساؤهم الذكور، وكانوا يكرهون أن يَلِدْنَ الإناث، فإذا بُشّر أحدهم بالأُنْثَى ظلَّ وجهُهُ مُسْودّاً وهُو كظيم، يتوارَى من الْقَوم من سوء ما بُشِّر به، وكان بعضهم يلجأ إلى التَّخلُّصِ من الأُنْثَى الَّتي وُلِدَت له، بأن يئِدَها حيَّةً في التراب عقب ولادتها، أو حينما تقترِب من سنّ بلوغها.

ومع كراهيتهم للإناث افْتَرَوْا على اللَّهِ خالقهم فقالوا: الملائكة بناتُ الله، فقال اللَّهُ لَهُم مُشَنِّعاً عليهم:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢)﴾.

أي: أتَنْسُبُونَ إلى الله بارئكم افتراءَ علَيْهِ ما تكرهونه أنتم لأنْفسِكُمْ، ولا يَخْفَىٰ ما في اختيار كلمة: «ضِيزَىٰ» في هذا المقام من ملاءمَةٍ لحالة جَوْرهِمُ الذي مسُّوا به ذَات الله عزّ وجلّ

هذه الفرية تشتمل على شنيعتَيْن:

**الأولى**: نسبةُ الأولاد إلَىٰ الله سبحانه وتعالى عمَّا يصِفُون.

**الثانية**: تخصيص الله بالذُّرِّيَّةِ من الإناث دون الذكور.

وقد جاء في هذا النّص اختيار البدْءِ بمواجهتهم باستنكار الشنيعة الثانية، لوضوح أمْرها بالنسبة إليهم، نظراً إلى أنّهم يكرهون لأنفسهم المواليد من الإناث، ويحبُّونَ المواليد من الذّكور، ومع هذا فهم ينسبون إلى الله المواليد من الإناث، ولا يجعلون له من الذكور نصيباً.

إنّ هذه القسمة بينهم وبين الله قسمةٌ جائرة مجانية للعدل، حتَّىٰ في مفهوماتهم العوراء الشَّوهاء.

والمعنى: كيف اسْتقام في عقولكم بحسب مفهوماتكم أن تقولوا: الملائكة بنات الله، افتراءً عليه. مع أنكم تكرهُونَ لأنفسكم البنات؟!!.

أليس هذا أمراً منافياً لمنطق أهل العقل والرَّأي، ومنافياً أيضاً لمفهوماتكم الباطلات التي تستمسكون بها؟!!

وليس الغرض إثبات البنين لله عزّ وجلّ، فقد تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، إنّما الغَرض بيان سقوط الفكر الوثني، من أوّل خطوات مناظرة الوثنيّين.

وقد جاءت معالجتهم حول قضيّتي اتّخاذهم معبودات من دون الله، وادّعائهم أنّ الملائكة بناتُ الله، في قول اللّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ (٢٥) ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ (٢٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا (٢٨)﴾.

● قول الله تعالى:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ. . .﴾.

﴿إن﴾ حرف نفي مثل «ما» النافية.

﴿هي﴾ ضَمِيرٌ يَعُودُ على مَعْبُوداتِهِمْ: «اللاّت، والْعُزَّىٰ، ومَناة» ويُلْحَقُ بها سائر ما يُعْبَدُ مِنْ دون اللَّهِ من جامدات، وأشجار، وأحياء، حتَّىٰ الملائكة التي يَعْبُدُهُمْ عابدوهم من دون الله.

أيْ: ما هي إلاَّ أسْمَاءٌ لما لَيْسَ لَهُ إلهيَّةٌ في الحقيقَةِ والواقع، ولما لا يستَحِقُّ أن يُعْبَدَ من دُونِ الله، بأيّ شكْلٍ من أشكالِ العبادات، وفي أيّ حالٍ من الأحوال، إذْ ليس لَهُ رُبوبيَّةٌ ولاَ مشارَكَةٌ في أيّ من أَجْزاء الرُّبُوبيَّة، فالرُّبُوبيَّة خاصَّةٌ بالله وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ في الوجود كلّه.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا أنَّ شركاءهم لا تزيدُ على أنَّها أسْماءٌ سَمَّوْها مِن عند أنفسهم، واختلَقُوا لها من صفاتِ الإلهيَّةِ ما زَيَّنَ لهم عبادَتَها، مع أنَّها في الحقيقة لا تَمْلِكُ لهم ولا لأنفسها جَلْبَ نفع ولا دفع ضُرّ.

وفي التعبير عن فقدِهَا لكُلِّ الصّفاتِ الّتي تُوهِمُ أنَّ لَهَا أيَّ تأْثِيرِ، بأنَّها أسْمَاءٌ سَمَّوْها هُمْ وآباؤُهُمْ من رَوْعَةِ الأداء ما لا مَزِيدَ عليه.

فإن ادَّعَوْا أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ أمرهم بعبادتها فهُو يقول لَهُمْ:

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

**سُلْطَان**: المرادُ بالسلطان هنا الحجَّةُ والبرهان، أي: ما أنزل اللَّهُ بالأمرِ بعبَادَتِها أو بالإذْن به أيَّ حُجَّةٍ يُحْتَجُّ بها. «مِنْ» حرف جَرٍّ زيد في اللَّفظ لتأكيد النفي في: ﴿مَّآ أَنزَلَ﴾ وللتنصيص عليه، مع تأكيد الْعُمُومِ

المنفي، الذي يَشْمَلُ كُلَّ شيءٍ يمكن أن يكونَ حُجَّةً يُحْتَجُّ بها.

فما أنزل الله بذلك نصّاً في كتابٍ مُنزَّلٍ، وإن ادَّعَوْا أنَّ لديْهِم شيئاً من ذلك فليُخْرِجُوهُ ولْيُقَدِّمُوهُ على مِنَصَّةِ المناظرةِ.

أمّا مَنطِقُ الْعَقل فيُثْبِتُ أَنَّها لاَ تَمْلِكُ أيَّ مُشاركَةٍ في الإلهيَّة، إذْ هِيَ لا تَمْلِكُ أيَّ جُزْءٍ من أجزاء الرُّبوبيَّةِ، فالرُّبُوبيَّة كلُّها لله وحْدَهُ لا شريكَ له، ويلْزَمُ عن هذا عقلاً أن تكون الإلهيَّةُ لله وحْدَهُ لاَ شَرِيك له، فلا تُوجَدُ أيَّةُ ذريعةٍ للمشركين.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿..إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

في هذِه الفقرة كَشْفٌ لانحراف المشركين عن صراط الحَقّ من ثلاثة وُجوه، وقد كان الخطاب مُوجّهاً لهم قبْلَها، فالْتَفَتَ البيان، فجاء الحديث فيها عنهم بضمير الغائبين، إشعاراً بأنَّ المخاطبين بها ينبغي أن يكونوا أَهْلَ عَقْلٍ ورُشْدٍ ورغبة في الهُدَى، لا أهْلَ هَوىً وغَيّ وإيثارٍ للظُّلُمات.

**الوجه الأول**: أتباعُهم للظَّنّ الضَّعِيف الّذِي يُسمَّىٰ في اصْطِلاح عُلَماء المسلمين «وَهْماً» وهذا الظَّنُّ لا يَصْلُح لإثباتِ أقَلِّ القضايا في القيمة العلميّة، فضلاً عَنْ قضيَّةٍ اعتقاديَّةٍ غيبيّةٍ من قضايا الرُّبوبيَّةِ والإلهيَّة.

وباتّباعِهِمْ للظَّنّ الضعيف يكُونُون غير مؤهّلين للدُّخولِ في أيّ مجالٍ من مجالات المعرفة الصحيحة، إنَّما يكونون مُتصفين بالتخلُّفِ العقليّ، والهمجيَّة الفكريَّةِ والعلميَّة.

دلَّ على هذا الوجه، قول الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

**الوجه الثاني**: اتِّباعُهُم لأهْواء نُفوسِهم، ولهذا الاتباع ظاهرتان:

الظاهرة الأولى: انتصارُهم التعصُّبِيُّ لآبائهم. إذْ يقولُون: إنَّا وجَدْنا آباءَنا علَىٰ أُمَّةٍ وإِنَّا علَىٰ آثارِهِمْ مقتَدون.

الظاهرة الثانية: التزامُهُم عبادة آلهتهم الباطلة، لأنَّ عبادتهم لآلِهَتهم لا تكلفهم تَرْكَ أيِّ شيءٍ من شهواتهم ومعاصيهم، ويزعمون أنَّها قد تجلُبُ لهم نفعاً وتدفَعُ عنهم ضرّاً في أمُور دنياهم، وهذه الأمور لأنفسهم بها هوىً، وقد سبق شرح الهوى.

دَلَّ على هذا الوجه قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

**الوجه الثالث:** إعْرَاضُهم عن الْهُدَىٰ الذي جاءهم من ربّهم، وقد بلَّغَهُمْ إيّاه رسُولُهُ المؤيَّد من لَدُنْهُ بالمعجزات الباهرات، وعَدَمُ قبولِهِمْ له، مع كونه مقروناً بالحجج البرهانيّة، والبيانات العلميَّة، والأنباء المؤيَّدة بالآيَاتِ الخارقات للعادات من ربّهم.

وظلُّوا مصرّين على باطِلهم وشرورهم وقبائحهم وفسادهم وإفسادهم.

دلَّ على هذا الوجه قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

أي: فرفضوا الإيمان به، ورفَضُوا اتّباع ما تَضمَّن من أوامر ونواهيَ ووصايا، فلا عُذْر لهم في الإصرار على باطلهم بعْدَ أن جاءهم من ربّهم الْهُدَىٰ.

سمَّىٰ اللَّهُ مَا أوحىٰ به إلى رسُولِه «الْهُدَىٰ» بالتعريف، أي: الكامل في أنّه يَهْدِي إلى الحقّ وإِلَىٰ الصراط المستقيم.

**الْهُدَىٰ**: مصدرٌ معرَّفٌ لفعل «هَدىٰ» يقال لغة: هدَىٰ فلانٌ فلاناً الطريقَ يَهْدِيه هُدَىً، وهَدَاه له، وهَدَاهُ إليه، أي: أرشَدَهُ إليه ودلَّه عليه، وعرَّفَه وبيَّنه له.

ويُطْلَق مصْدَرُ هَدَىٰ على البيان المشتمل على ما يَهْدي وبهذا يكون القرآنُ هُدىً، والبيانُ النبويُّ هُدىً.

ويُطْلَقُ لفظ «الْهُدَىٰ» على النهار، لأنَّه كاشفٌ للطُّرُقِ والمسالك، وعلى الطَّرِيق، لأنَّ من سلكه بلغ غايتَهُ مَهْدِيّاً، وعلى الْعَمل الّذي يَهْتدِي من اقتدىٰ به إلى الغاية المطلوبة.

وجاء تأكيد الجملة باللاَّم التي تأتي في جواب القسم، وبحرف «قد» الذي يدلُّ على التحقيق.

● قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

لمّا كان المشركون قد جانبوا الحقّ ورفَضُوه، وجاءهم من ربّهم الْهُدَىٰ فلم يتّبِعُوهُ، وآثَرُوا اتّباع أهوائهم، فإنّهم قد فقَدُوا كلَّ الوسائل والأسباب الصحيحة التي تحقّق لهم سعادتهم الحقيقيّة في دنياهم وآخِرَتهم، ولم يَبْق لديهم إلاَّ الأماني الّتي يتوهَّمُونَ أَنَّ أسْبَابهم الباطلة التي توحي لهم بها أهواؤُهم وشَيَاطينُ الإنسِ والجنّ تُحقّقُها لهم.

**الأماني**: هي الأشياءُ التي يرغب الإنسانُ في تحقيقها، ويحبُّ بُلُوغها والظفر بها، إلاّ أنّها مستحيلة المنال، أو متعذّرة المنال، أو أَمْرُ تحقيقها في مِلْكِ غَيْرِهِ الّذي لا سلطان له عليه بوجْهٍ من الوجوه.

قد يتمنَّى الإنسان أَنْ يكونَ الباطلُ حقّاً لأنّ له فيه هوىً، وأن يكون الحقُّ باطلاً، وقد يتمنّى الإنسان أَنْ يخْرِق سُنَنَ الله في كونه، ليحقّقَ ما يهْوَىٰ من الكون، وقَدْ يتمنَّىٰ أن يَدْخُلَ الجنَّة يوم الدِّين، ويَظَلَّ في حياته الدُّنيويّةِ كافراً بربِّه حتَّىٰ يوافيه أجَلُه.

لكنَّهُ لا يسْتَطِيعُ أَنْ يظْفَرَ بما تمنَّىٰ، إنَّ الإنسان لا يستطيعُ أن يُحَقِّقَ من أَمانيه إلاَّ ما قَضَىٰ اللَّهُ بهِ، ولِلَّهِ في كونه قوانين وسُنَنٌ لا يخْرِقُها إلاَّ هُو إذا كانت من الممكنات، فهو جلَّ جلالُه مالك ملكوت السَّماوات والأرض، وله الأمْرُ كلُّه، في الدُّنيا وفي الآخرة.

فعلَىٰ الإنسان أن لا يَطْمَعَ بتحقيق أمانيه خارجاً عن قوانين الله وسُنَنِه الكونيّة والشّرعيَّة، فالله الخالق الحقّ لا يَتَّبع أهواءَ الناس في تحقيق أمانيهم علَىٰ خلاف مقتضىٰ حكْمَتِه، ولو اتَّبَعَ الحقُّ أهواء ذوي الإرادات الحرَّة لفَسَدَتِ السّماوات والأرض ومَنْ فيهن، نظراً إلى تعارض رغباتهم، وتبايُن أهوائهم.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . . . ﴿٧١﴾﴾.

فإذا تمنَّىٰ الإنسانُ أن يُحقّقَ بعبادَتِهِ آلِهةً من دون اللَّهِ، مَطَالِبَهُ من دُنياه أو آخِرَتِه، وقَدْ جعَل الله هٰذِه العبادةَ غيرَ ذاتِ أثرٍ نافع للعابد، بل جَعَلَها ذَاتَ أثَرٍ ضارٍّ يُفْضِي بِهِ إلى عذابٍ أليم، فقد بَنَىٰ بُنْيانَهُ على شفا جُرُفٍ هارٍ يَنْهارُ بِهِ في نار جهنَّم وبئْسَ المصير.

وإذا تمنَّىٰ الإنْسَانُ أَنْ تَشْفَع له آلِهَتُهُ التي يَعْبُدُها من دون الله، عنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّين، فإنَّها لَنْ تَشْفَعَ له، لأنَّ الله لا يقْبَلَ شفاعَةَ أحَدٍ، إلاَّ مَنْ أذن له ورضي له قولاً.

إنَّ عقائد المشركين حول شركائهم أَمَانيُّ يتمَنَّوْنَها، وأكاذيبُ افْتَرَوْها، وصَدَّقُوا أنفُسَهُمْ فيها، وليس لهذا التمنِّي أيُّ نَصِيبٍ من الواقع، وليس من شأن الأمانيّ أن تتحقّق للإنسان بمجرَّدِ أن يتمنّاها، فهو لا يستطيع أن يصْنَع المقادير ويتصرَّف في خَلْقِ الله.

● ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾: أي: بل هل الإنسان ممكَّنٌ من تحقيق أمَانيه كما يشاء في الدنيا والآخرة، حتَّى يخْتار ما يُرِيدُ دون التزام بقواعد الحقّ والعدل والخير، وما شرعه الله لعباده؟!!

**والجواب**: لا. ليس للإنسان ما تمَنَّىٰ، لأنَّ الوجود كُلّه ماضِيَهُ وحاضِرَهُ ومستقبلَه في الدنيا والآخرة مِلْكٌ لِلَّهِ عزّ وجلَّ، فقال الله تعالى:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: فلِلّه مِلْكُ الآخِرة بكلّ ما فيها، ومِلْكُ الحياة الدنيا بكلِّ ما فيها، فلا يستطيع أحدٌ من النّاس أن يحقّق ما يتمنّى إذا لم يكن مقدَّراً مقضِيّاً بقضاء الله وقَدَرِه إذْ هو مَالِك الآخِرَةِ والأولى.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

أشار الله عزّ وجلّ بقوله في هذا الدرس الثاني من دروس السورة: خطاباً للمشركين: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ إلى بَعْضِ مَفْهُومَاتِ المشركين بشأن الملائكة، أمّا بقيَّةُ مُعْتَقَد أقسامٍ من المشركين بشأْنهم، فنَفْهَمُهَا من فقرات هذه الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) ومن عناصر معالجتها وإبطالها.

ومفهوماتُ المشركين حول الملائكة تتلَخَّصُ بقضيتَيْن:

**القضيَّةُ الأُولَىٰ**: اتّخاذُ بعضِ المشركين بعض الملائكة آلِهَةً من دُون الله، فهم يعبُدُونَهُمْ ليكونوا شفعاء لهم عند الله، وهذا يدلُّ على اعتقادهم بأنّ الله أمر بعبادة الملائكة أو أذن بها، وأنّهُ أعطى الملائكة حقَّ الشفاعة لعابديهم.

**القضيّة الثانية**: توهُّمُ كثيرٍ من المشركين أنَّ الملائكة بناتُ الله، فهم يجعلون للملائكة من الأسماء والصفات ما تُسَمَّىٰ به الإناثُ وتتصفُ به، ذكر الشوكاني: أنَّ قريشاً وقبائل من العرب كانوا يزعمون أنَّ الملائكة بناتُ الله. **أقول**: ولهذا جاء في القرآن توجيه العناية لمعالجة هذه القضية عند قريش.

وليس للمشركين علمٌ يستندون إليه في تأليهِهِمْ من ألّهوا من الملائكة،

وليس لهم علم يستَنِدُون إلَيْهِ، في جعل الملائكة ذوي أسماء وصفاتٍ خاصَّةٍ بالإناث.

كُلُّ ما يسْتَنِدُونَ إليه ظنونٌ ضعيفةٌ توهميَّة، لا تَمْلِك قيمَةً تَعادُلِيَّة أو ترجيحيَّة في مقابل أَضْدَادِها بوجه من الوجوه، فضلاً عن أن تملِكَ قيمة إثباتِ قطعيّ، حتَّىٰ تكونَ في مستوى العقائد الثابتة.

وفي فقرات هذه الآيَات من (٢٦ ـ ٢٨) معالَجَةٌ إقناعيَّةٌ للمشركين بشأن هاتين القضيتَيْن الباطلتَيْن.

إنَّ هاتين القضِيَّتيْنِ من القضايا الخبريَّة، الَّتي لا تَصِحُ الأخبارُ فيها ما لم تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ وَحْياً عن اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

فإبطالُهما إنَّما يكُونُ بأنْ يُخْبِرَ اللَّهُ بوحْيٍ من لَدُنْهُ بأنَّهما باطِلَتَان، وبأنَّ الواقع على خلافهما.

وهذا ما اشتمل عليه البيانُ القرآنيُّ في فقرات هٰذِهِ الآيات.

فقول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: ليس للإنسان ما تمَنَّى، ولا تنفعُهُ شفاعَةُ ملائكَةٍ يَعْبُدُهم من دون اللَّهِ، لأنَّ شفاعتهم ـ لو شفَعوا ـ لا تنفَعُ شيْئاً إلاَّ من بَعْدِ أَنْ يأذَنَ الله لهم بأنْ يشفَعُوا، ويَرْضَىٰ أقوالهم في الشفاعَةِ الَّتي يقولُونها، والله لا يأذن لهم بأنْ بشفعوا لمَنْ أشْركَ به، لأنَّهُ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به، ويغفر ما دُون ذلك لمن يشاء.

﴿وَكَم﴾ الواو حرف عطف هذه الجملة على المفهوم من جملة: ﴿أَمْ

لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: ليس للإنسان ما تمنَّىٰ ولا تنفعه شفاعة آلهة من دون الله.

«كَمْ» خبَرِيَّةٌ، ومعناها: عَدَدٌ كثير، وهي مُبْهَمَةٌ تُمَيَّزُ بالمجرور بعدها.

والمعنى: عَدَدٌ كثير من الملائكة في السَّماوات لا تَسْتَطيعونَ إحصاءَهم، لا تغني شفاعَتُهُمْ شيئاً: أي: لا تكفِي شفاعَتُهُمْ أحداً شيئاً من حاجاته الّتي يَرْجُوها من شفاعتهم، إن شفعوا له عند ربّه.

ولحصول النَّفْع من شَفَاعَةِ الشافعين للمشفوع لهم عند الله عزّ وجلّ شرْطان:

**الشرط الأول**: أَنْ يأْذَنَ اللَّهُ للشافع بأَنْ يَشْفَعَ للمشفُوع له.

**الشرط الثاني**: أن يَرْضَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ القول الّذي يقولُهُ الشَّافع في شفاعتِهِ، ولو كان مَلكاً، أو نبيّاً رسُولاً.

دلَّ على هٰذين الشرطين الاستثناء في قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾.

وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) التصريح ببيان المراد بقوله تعالى: [وَيَرْضَى] فقالَ فيها:

﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾﴾.

وأبانت النصوص القرآنيّة أنَّ الكافرين ولو من أدنى مستويات الكفر، لا تُقْبَلُ فيهم شفاعة الشافعين، لأنَّ كلمة الله بعذابهم لا نقض لها، ولا استئناف فيها.

وقول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ

عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾.

تضمَّنت هاتان الآيتان معالجة القضيَّة الثانية، وهي تَوَهُّمُ معظم المشركين أنَّ الملائكة بناتُ الله، فَهُمْ يَجْعَلُونَ للملائِكَةِ من الأسماء والصِّفاتِ ما تُسَمَّىٰ بِهِ الإناثُ وتتصِفُ به.

وقد ذكر الله المشركين هنا وهُمُ الَّذِين يتعلَّقُ بهم البيان، بوصْفٍ بارِزٍ فيهم، وهو أنَّهُمْ لاَ يُؤْمنون بالآخرة، أحَدِ أركان الإيمانِ الكبرىٰ بعد الإيمان باللَّهِ عزَّ وجلَّ وتَوْحِيدِهِ في رُبُوبيَّتِهِ وإلهِيَّتِهِ.

أي: وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة يتجرّؤُون على دين اللَّهِ، فيفْتَرُون من عند أنفسهم مَقُولاَتٍ باطلات، ومنها هذه المقولة.

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾: أي: يَصِفُونَ الملائكة بأنَّهُمْ إناث رجْماً بالغيب.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾: أي: والحال ما لهم بهذا الوصف الذي وصفوا به الملائكة أيُّ علم مهما كان ضعيفاً، وجيءَ في العبارة بلفظ «مِنْ» لتأكيد العموم والتنصيص عليه، وتُسمَّىٰ عند النحاة زائدةً لتحقيق هذا الغرض.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: أي: ما يتَّبعُون في هذا إلاَّ الظَّنَّ التوهمِّي الباطل.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾: أي: وإنَّ الظنَّ التَّوهميَّ الذِي اعْتَمَدُوا عليه لا يكفي شيئاً حالة كون هذا الشيء من الحقّ.

**لا يغني**: أي: لا يكفي في تقديم حجّة صحيحة.

**من الحقّ**: صفة مقدمة على موصوفها [شَيْئاً] فصارت حالاً.

❊ ❊ ❊

## (٨)
## التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة
## الآيات من (٢٩ ـ ٣٢)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)﴾.

**القراءات**

- قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ بالجمع، ومفرده كبيرة.

وقرأ حمزة، والكسائي وخلف: [كبير الإثم] أي: الإثْمَ الكَبير، بإضافة الصفة إلى الموصوف. والإثْمُ الكبيرُ جنْسٌ يُدُلُّ على كلِّ كبائِرِ الإثم، فالقراءَتان أُسْلوبانِ من أساليب البيان، والمراد بهما واحد.

- قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بضمّ الهمزة وفتح الميم المشدّدة.

وقرأ حَمْزَةُ في الوصل: [بُطُونِ إِمِّهاتكم] بكسر الهمزة وكسْرِ الميم المشدّدة.

وقرأ الكسائي في الوصل: [بطونِ إِمَّهاتكم] بكسر الهمزة وفتح الميم المشدّدة.

وهي لهجات عربيّة.

- قولُ الله عزّ وجلّ

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ. . .﴾.

الخطاب هنا موجّه للرسول محمّد ﷺ ثم لكل داعٍ إلى الله من أمّته على سبيل الخطاب الإفرادي.

﴿فَأَعْرِضْ﴾: الإعراضُ حالةٌ وسُطىٰ بين الإقبالِ والإدبار، وأصل الإعراض إعطاءُ الجانب، وعارضا الإنسان صفحتا خدَّيْه.

﴿تَوَلَّىٰ﴾: يأتي بمعنى «أدبَر» وبمعْنَى «نَأَىٰ» والمعنى الأوّل هو الملائم هنا.

والله عزّ وجلّ يُوصي رسولَه وكلَّ داعٍ إلى الله من أمّته على سبيل الخطاب الإفرادي، بأنْ يقْتَصِرَ علىٰ الإعْرَاضِ عَمَّنْ أدْبَرَ عَنْ ذِكْرِ الله، أي: أدْبَرَ عن الاستجابة لدعوة الدّاعي إلى الله، ولدعوة كتابه المنزَّلِ الذي هو ذِكْرُ اللَّهِ الشامل لكلّ مسائل الدِّين وقضاياه الكبرىٰ.

وهذا أحد مناهج الدعوة إلى الله، فالمطلوبُ من الداعي أن لا يقابل المدعوَّ بِمثْلِ عَمَله إذا أدْبَر، بل يقتصر على مُجَرَّدِ الإعْرَاض إذَا هو أدْبر، ويُفْهَمُ من هذا أنَّ المدعوَّ إذا أعْرَضَ فإنَّ الدَّاعِيَ لا يُعْرِض عنه، بل يَعْمَلُ على دعوته بالمواجهة أو بنصف المواجهة.

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: ولم يُؤْمن بالآخِرَة ومَا فيها من جزاء بالثواب أو بالعقاب، وبسبب ذلك لم يُرِدْ إلاَّ مَتاعَ الحياة الدُّنيا ولذَّاتِها وزيناتِها، فهو يَكْدَحُ لتحقيق مراداتِه منها، غير عابِئٍ بدعوة الداعي، ولا بما في القرآن من ذكْرٍ ربَّانيّ.

والمرادُ باسم الموصول في عبارة: [عمّن تولّى] كُلُّ مَنْ يتولَّىٰ عن ذِكْرِ الله والتذكير به، ولهذا جاء ذكرهم بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ فأبان عزّ وجلّ أنّ سبَبَ عَدَمِ إرادتهم إلاَّ متاعَ الحياة

الدنيا، أنّ مَبْلغَهم من العلم مُنحَصِرٌ في حُدُود دائرة الحياة الدنيا، فهم يتعلَّقُونَ بها فقط، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾: أي: ذلك الّذي لم يُريدوا غَيْرَهُ هو الغاية الّتي بلَغَ علمُهُم إليها، إذْ رفَضُوا الإيمان بَيوم الدّين وكذّبوا بالأخبار الرَّبَّانيَّة المنزَّلَةِ على رَسُولِهِ مُحمّد وعلى سائِرِ رسُلهِ من قبله، التي تتضمّن نبأ البعث إلى الحياة بعد الموت، ونبأ يوم الدين، وأنباء الدار الآخرة وما فيها من نعيم خالد في جنَّاتِ النعيم، وما فيها من عذاب أليم في دار العذاب، النّار المعدَّة للمجرمين والعصاة، فاقتصر عِلْمُهم عند حدود الحياة الدُّنيا.

**مَبْلَغُ العِلْم**: هو الغايَةُ الّتي يَصِلُ إليها العِلْمُ: يُقَال لغة: بلَغَ الأَمْرُ، إذا وَصَلَ إِلَىٰ غايَتِه، ومَبْلَغُ الشيءِ هو الغاية الّتِي يتوقَّفُ الشَّيْءُ عِنْدَها.

## خلاصة هذا التعليم من عناصر منهاج الدعوة إلى الله

يُبَيّن اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله ولكل داعٍ إلى الله من أُمّته في هذا التعليم، أنَّ من لَم تُؤثِّرْ فيه من المدعُوّينَ أفراداً أو جماعَاتٍ كُلُّ الْحُجَج والبيِّنَاتِ والمناظرات وأساليب الإقناع والتربيَةِ، مع تنويع الأساليب الفكريَّة والنَّفسيَّةِ المختلفة، وتَصْريفِ الأدلّة والحجج والبراهين، وتبيَّنَ أَنَّه مع كلّ مراحل المعالجات السّالفاتِ لَمْ يُرِدْ إلاَّ الحيَاةَ الدُّنيا ومَتاعَها، إذْ لَمْ يُؤْمِن بالآخرة وما فيها، فلَمْ يَعْبأ بالترغيبات والترهيبات الأُخْرَويَّة، وأصَرَّ علَىٰ مَوْقفه العناديّ، فالحِكْمَةُ تَقْتضي الإعراض عَنْهُ، وتوصيل البيانات الرّبّانيّة له دون مواجهة، توفيراً للوقْتِ والْجَهد، مع شَغْلهما بمن لَمْ يَصِلْ بَعْدُ إلى هذا المستوىٰ من الإصرار العنادي المكذِّب بالآخرة، دون اهتمام إلاَّ بمتاع الحياة الدنيا.

وقد وضع النصّ القرآنيُّ لهذا الإعراض قَيْداً، وهو أن يتأكّد الداعي أنَّ المتولّيَ الْمُدْبِرَ لم يُرِدْ إلاَّ الحياة الدنيا، ويظهر ذلك إذَا حصلَتْ معالجته

عدّة مرّاتٍ في أوقاتٍ مختلفات، فتبيَّنَ من خلالها أنَّه لم يُرِدْ في كلِّ مُعالجاتِه إلاَّ الحياة الدّنيا، إذْ هو كافر بالآخرة وما فيها، فاقتصر عِلْمه على ظاهرٍ من الحياة الدنيا، ولهذا وصف اللَّهُ عزّ وجلّ الكافرين بقوله في سورة (الرّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿... يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

بعد أن أَمَرَ الله رسولَهُ وكلَّ داعٍ إلى الله من أمّته بأسلوب الخطاب الإفراديّ، بأن يُعْرِضَ عمَّنْ تولَّىٰ عن ذِكْرِ ربّه، ولم يُرِدْ إلاَّ الحياة الدنيا، أبان جَلَّ جلالُه أنَّه أعْلَمُ بمَنْ ضلَّ عن سبيله، وأعْلَمُ بمن اهتدى، أي: وبما أنّه أعلَمُ بحقيقة من ضلَّ عن سبيله ضلالاً ميْؤوساً في الغالب من إنقاذ صاحبه منه، إذْ هو مبْنِيٌّ على إرادة جازمة منه، سببها أنّه لا يريد إلاَّ الحياة الدّنيا، فهي غاية ما بلغ إليه عِلْمُه، إذَنْ فتَوْجِيهُ الله عزَّ وجلَّ الدّاعيَ للإعراض عن المتولّي عن ذكر ربّه هو الأمْرُ الحكيم، إذْ هُوَ الموافق لمقتضىٰ علم الله بالناس وبنفوسهم، وبأسباب الضلالة وأسباب الهداية ومسَبَّباتِهما في نفوس الناس.

وبعد هذا أبان الله عزّ وجلّ الغاية من رحلة الحياة الدّنيا، وهيَ الابتلاء الذي يعْقُبُه الجزاء يوم الدّين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾

أي: إنَّ الغايةَ من خلق النظام الكوني كلِّه، بسماواته وأرضه وما

يهما، والخاضع لسلطان مِلْكِهِ وَمُلْكِهِ، ابتلاءُ الأحياء المهيَّأةِ للابتلاء بالتكليفُ في ظروف الحياة الدنيا، لتحقيق الحساب وفصل القضاء وتنفيذ لجزاء يوم الدّين.

فجاء في هذه الآية إيجاز كلّ ذلك ببيان ملكيَّة اللَّهِ لكلّ شيء، وبيان غاية الجزاء، مع طيّ كلّ ما سَوى ذلك إعتماداً على أنّ المتدبّر يَسْتخرج لمطويّات بالتفكّر، وبمتابعة اللّوازم الفكرية.

وقد دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ علَىٰ أَنَّ المسيئين في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة لدُنيا يَجْزيهم اللَّهُ مَالِكُ ما في السَّمَاوَاتِ والْأَرْض بمقدار إساءاتهم، أمَّا لمُحْسِنُون فيجزيهم اللَّهُ على إحسانهم بالمثوبة الحسنىٰ، وهي الجنَّةُ، أو لأنواعُ الْحُسْنَىٰ في الجنَّة.

**الْحُسْنَىٰ**: مؤنَّثُ «الأحسن» أي: الأفْضَل في الْحُسْن.

ومعلوم من نصوص قرآنيّة كثيرة أنَّ الجزاء الأمثل يكون يوم الدّين، بعد البعث من الموت للحياة الأُخْرَىٰ.

وظاهر أنّ ذِكْرَ الجزاء الأُخْرَويّ في هذا النّصّ يدُلُّ على أن مرحلة الحياة الدنيا مرحلة ابتلاء، لأنَّ الجزاء إنَّما يكون بعد الابتلاء، وهذا من لإيجاز القرآني البديع.

ومن الإيجاز البديع فيه أيضاً ذِكْرُ المسيئين، وهُمْ يَشْمَلُونَ عُصَاةَ لمؤمنين، ويَشْمَلُون الكافرين حتَّىٰ أَخسّ دَرَكاتهم، وذِكْرُ المحسنين، وهُم هْلُ المرتبة العليا من مراتب المؤمنين، وهي مرتبة الإحسان.

أمَّا المتقون والأبرار. أي: أهل مرتبة التقوى، وأهْلُ مرتبة البرّ، فَيُفْهَمُ باللُّزُوم الفِكْريّ أَنَّ اللَّهَ يجزيهم بفضله الجزاءَ الأوفَىٰ، على تفاضُلِ بينهم حَسَبِ دَرَجَاتهم في مرتبتي التقوىٰ والبرّ، والله ذو الفضل العظيم على عباده.

ومعلوم أنّ قانون الجزاء الرّباني يقوم على العدل في السيئات فلا

يجازي الله على السيئة إلاَّ بمثلها، وعلى الفضل في الحسنات، فيضاعف الله الثواب بفضله الحسنة بعشر أمثالها، ثم إلى ما يشاء من أضعاف.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾

هذه الآية مدنية التنزيل اقتضت الحكمة تأخير تنزيلها إلى العهد المدني من تاريخ دعوة الرسول ﷺ: مراعاة للتّدرُّج في بيان الأحكام.

وضُمَّتْ إلىٰ سورة هي من الرُّبع الأوّل من التنزيل المكّي مراعاةً لما تقتضيه المناسبة الفكريّة.

وفي هذا الإجراء الحكيم مُراعاةُ الاقتضاءَيْن معاً.

بعد قَوْلِه تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١)﴾ يَقَعُ في ذهن المتلقّي المتدبّر لكتاب الله سُؤَال، وهو يحرص على أنْ يَتَلَقّىٰ الجواب عليه، وقد جاء في الآية (٣٢) التي تأخَّر إنزالها إلى العهد المدني الإجابَةُ المطلوبة عليه.

فالّذين أحْسَنُوا في الحياة الدُّنيا في أعمالهم الظاهرة والباطنة، ويَنالُون في الآخرة المثوبة الْحُسْنَى جزاءً لَهُمْ بفَضْلِ الله وجُوده، هم الذين يجتنبون على الدّوام كبَائِر الإِثْم، ويجتنبُونَ على الدَّوام الفواحش، باستثناء اللَّمَم من المعاصي والذنُوب.

**الإثم**: هو في اللّغة الذنب، وهو في القرآن مستعمل للدّلالة على جميع المعاصي التي نهىٰ الله عنها، كبيرها ومتوسطها وصغيرها، ظاهرها وباطنها.

لكن لا يشترط لبلوغ مرتبة الإحسان من درجاتها الدنيا اجتناب كلّ مُفْردات الإثم، بل يكفي اجتنابِ كبائرها، ويغفر الله ما دون ذلك لمن يشاء بفضله ومَنّه وكرمه.

**كَبَائِر**: جمع كبيرة، والآثام التي هي كبائر ما جاء ترتيب وعِيدٍ عظيمٍ على ارتكابها، وَوُصِفَتْ بأنَّها موبقات، أي: مُهْلكات.

**يَجْتَنِبُون**: اجتِنابُ الشَّيْء هو الابتعادُ عن حُدُودِه، وعدَمُ الاقتراب منها، وليْسَ مُجَرَّدَ عدم الوقوعِ فيه.

**الفواحِشَ**: جمع «الفاحشة» وهي في اللُّغة كلُّ قبيح تجاوز حدّ ما يُحْتَمَلُ ويُغْضىٰ عنه عادةً من قول أو فعل. وكلُّ خَصْلَةٍ قبيحة.

والفواحش في الاستعمالات القرآنية تدور في معظمها حول الكبائر المتعلّقة بشهوات الفروج، فتخصيص الفواحش بهذا الإطار اصطلاح قرآنيٌّ.

**إلاّ اللَّمَم**: يُقَالُ لُغَةً: آلَمَّ بالْقَوْم، أي: أتاهم ونزل بهم وزارهم زيارَةً غير طويلة. وألَمَّ بالطَّعَام، أي: أكل منه دون إسراف، وألَمَّ بالشيء إذا قارَبَهُ.

فالمادّةُ تدور حَوْلَ مُقَاربة الشيء وحَوْل الوقوعِ به دون إسراف وتكرار ومتابعة.

وجاء عند المفسرين أَقْوالٌ في تفسير اللّمم، فقيل: هو ارتكابُ الصغائر من الذنوب. وقيل: هو الوقوع في الكبائر مع الاستغفار السرّيع ودون إصرار ومُتَابعة. وقيل: هو الإِلْمام بالمعاصي ومقاربَتُها دون الوقوع فيها.

**أقول**: لا مانع من حمل اللَّمم على كُلِّ ذلك، فالله يَغْفِره بواسع رحمته ومغفرته، ولا يَخْرج به المؤمن المسلم من فئة الّذِين أحسنوا، ووَصَلُوا إلى مرتبة الإِحسان، ويَدُلُّ على هذا ما جاءَ في صفات

عباد الرَّحْمن في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وهم مُرَشَّحُون لإمامة المتقين، فهم أبرارٌ أو محسنون، فقد جاء في صفاتهم احتمال وقوع الواحد منهم ببعض كبائر الإثم الكبرىٰ كالقتل والزنا، وجاءَ وعيدُهُ بمضاعَفَة العذاب، وقال الله بَعْدَ ذَلك:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

ودلَّ على احتمال وقوع الّذين أحْسَنُوا بِكَبَائِرِ الإثم إلْمَاماً بها دون إصرار ومُتَابَعةٍ، قول الله عزَّ وجلّ بعد استثناء اللّمم:

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾:

فالمغفرة الواسعة هي الّتي تَتَّسِعُ لغُفْرَانِ كبائِرِ الإثم.

وَجاء تعْلِيلُ مَغْفِرَةِ الرَّبِّ الحكيم جلَّ جلاله، لِبَعْضِ كبائر الإثم التي قد يَقَع بها المحسنون بقوله تعالى في الآية:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ﴾.

ففي هذا إشارةٌ إلى ضعْف الإنسان في أَصْلِ تكوينه، إذْ قد تَغْلِبُه أهواؤه وشهَواتُهُ أحْيَاناً، مَهْما كانَ مِنَ المحسنين، فيضْعُفُ عن الْتِزَامِ الطاعة في كُلِّ أحواله، وعن ضَبْط نفسه على الاستقامة طَوالَ حياته، فَقَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ ضعيفاً تُجاهَ أهوائه وشهواته، باستثناء من عَصَمَهُمُ اللَّهُ بعصْمَةٍ منه جلَّتْ حكمته.

ألم يَعْصِ الإنسان الأوَّل من قَبْلُ، بَعْدَ أن طلب الله من الملائكة أن يسْجُدوا احتراماً لما آتاه من علْمٍ وصفاتٍ مؤهّلَةٍ لاكتِسَابِ المعارف.

لقد قابل الله جلَّتْ حكمتُه هذا الضَّعْفَ الفطريَّ في الإنسان، بواسع مغفرته لمن استغفر وتاب، ولِمَنِ اجتنبَ كبائر الإثم والفواحشَ إلاَّ اللَّمم،

ولم يُخرجْهُ بذلك من زُمْرَةِ الَّذين أَحْسَنُوا في الْحيَاة الدُّنيا.

● روى الإمام أحمد والتّرمذيُّ والبيهقيُّ والحاكم، عن أنس رضي اللَّهُ عنه، أنَّ رسُول الله ﷺ قال:

«كُلُّ بَنِي آدَمَ خطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائينَ التَّوابُونَ». [حديث حسن].

● وروى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ تَعالَىٰ كتَبَ على ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَ اللِّسَانِ المنطِقُ، والنَّفْسُ تَمنَّىٰ وَتَشْتَهِي، والْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُهُ».

ولمَّا كان الإنسان عرضةً للأخطاء، والوقوع في العصيان، ولو كان من الأبرار والمحسنين، قال الله عزَّ وجلَّ في آخر الآية:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: فلا تَدَّعُوا لأنفسكُمْ الطهارة من المعاصِي والآثام والذُّنُوب، فإنكم خطَّاءُون، واللَّهُ أعْلَمُ بمن اتَّقَىٰ، فلَمْ يَرْتَكِبْ ما نَهَىٰ الله عنه، ولم يتْرُكْ ما أمَرَ اللَّهُ به، ورحمة الله ومغفرته هي التي تَشْملكم فيغْفِرُ لكم، وقد يعفو عنكم بتعفِيَة الأثر.

## (٩)
## التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس السُّورة
## الآيات من (٣٣ ـ ٥٥)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ

يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾
وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾
وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ
وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

## القراءات

● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾.

وقرأ هِشَامٌ: [إِبْرَاهَام].

وهُمَا نُطْقَان لاسم سيدنا إبراهيم عليه السلام، ويأتي اسمه أحياناً عند أهل الكتاب «أَبْرَام» وهو وجْهٌ أيضاً لنطق اسمه.

● وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.

وقرأ ابن كثير، وأبو عَمْرٍو: [النَّشَآءَةَ].

النشْأَةُ والنَّشَاءَةُ مصدران لفعل «نشأ» ومن مصادره أيضاً النَّشْؤُ والنُّشُوءُ.

● وقرأ جمهور القرّاء العشرة: [وثموداً] بالتَّنْوين على أن اللفظ مصروف.

وقرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [وَثَمُود] بغير تنوينٍ على أنه ممنوع من الصرف.

والصَّرْفُ والمنع من الصرف وجهان جائزان لأسماء القبائل العربية، فإذا لوحظ في اللفظ اسم الجدّ صُرِف، وإذا لوحظ فيه أنه علَمٌ على القبيلة مُنع من الصرف فلم ينوّن للعلميّة والتأنيث اللفظي.

**تمهيد.**

في هذا الدرس بيانُ بُطْلانِ تَوَهُّمٍ مِنْ تَوَهُّمَاتِ المشركين حول قانون الجزاء الرَّبَّاني.

وجاء في أسْباب النُّزول ما رواه الطبريُّ بسَنَدِه عن ابْنِ زيد، أنَّ رَجُلاً من المشركين أسْلَمَ، فَلَقِيَهُ بعض مَنْ يُعَيِّرُهُ، فقال له:

أتَرَكْتَ دينَ الأشْيَاخ وضَلَّلْتَهُمْ، وزَعمتَ أنَّهُمْ في النار؟! كَان ينبغي لَكَ أنْ تَنْصُرَهُمْ، فَكَيْفَ تَفْعَلُ بآبَائِكَ؟!.

فقال: إنّي خشِيتُ عَذَابَ الله.

قال له: أعْطِنِي شيئاً وأنَا أَحْمِلُ كُلَّ عَذَابٍ كان عليك عنْك.

فَأعطاه شيئاً.

فقال له: زِدْني.

فتعاسَرَ، حتَّى أعطاه شيئاً آخر، وكتَبَ له الرجُلُ كتاباً وأشْهَدَ له.

فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ على رسوله في سورة (النجم) قوله:

● ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾؟!

أي: أنَظَرْت فرأيْتَ هذا الّذي تولّىٰ مبتعداً مُدْبراً مُرْتدّاً عن الإسلام، بعد أنْ أقبل قليلاً فأسلم، خوفاً من عذاب اللَّهِ يوْمَ الدّين.

وسبَبُ تَوَلّيه توهُّمُهُ أنّه يستطيع أن يَشْتَرِيَ بمَالِه من يتعهّد له بأن يَتحمَّل العذاب بَدَله عند ربّه يوم الدّين.

فوصفه الله في السورة بأنّه تولّىٰ مُدْبراً، مع أنّه قد خاف من عذاب الله يوم الدين، والمفروض فيمن خاف خوفاً صحيحاً أن يكون مرجوّ الاستجابة للإسلام، وأنْ لا يَصِل إلى دركة التّولّي الكامل، لقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾

لكِنْ أثَّرَ علَيْهِ تَوَهُّمُ نَفْعِ شِراء مَن يتعهَّدُ له بأنْ يتحمَّل العذاب بدَلَهُ، فصَرَفَ الخوفَ من عذاب اللَّهِ عن قلبه، وقد كانَ ممَّن يُؤْثرون الحياة الدنيا، والانطلاق فيها دُونَ ضابطٍ من الدّين، فوجد لنفسه مخرجاً من مشاعر الخوف، فكانَ لا بُدَّ من إقناعِه وإقناعِ نُظَرائِه بإسْهاب، وهو ما جاء في هذا الدرس الرابع من دروس السورة.

● ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾.

استفهامٌ تعجيبيٌ مِنْ أمْرِ هذا الّذِي تَوَلَّىٰ، فأدبَرَ ولم يُتَابِعْ مَسِيرَتَهُ في الإسْلام، لمَّا خدَعَهُ شيطانٌ من شياطين المشركينَ إذْ تعهَّدَ لَهُ بأنْ يَتَحَمَّلَ عَنْهُ الْعذَابَ عِنْدَ رَبّه، مُقَابل مالٍ يدفَعُه إليه.

فأعْطَىٰ منْ ماله قليلاً كما جاء في قصَّتِهِ الواردة في سبب النزول، وتوقَّف عن أن يزيد في العطاء لمن تعَهَّدَ لَه، وفي هذا بيان لما في نفسه من شحٌ، وليس المرادُ ذمَّه إذْ لم يَبْذُل كثيراً، فقضيَّتُه كُلُّها مرفوضةٌ أصْلاً وفرعاً، لأنَّها مبنيَّةٌ على تَوَهُّم باطل.

وفي عبارة: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ استعارةٌ قائمة على تشبيه من يُعْطِي قليلاً ويتَوَقَّفُ بعد ذلك بَاخِلاً شحيحاً، بالذي يحفر في الأرض ليستخرج ماء فيَجدُ قليلاً من الماء، وبعد ذلك تَظْهَرُ له كُدْيَة في الأرض وهي من الصُخور الشديدة العظيمة التي لا ترشح بماء، أو الأرْض الغليظة الجاقّة التي لا مطمع في حَفْرِها واستخراج الماء منها، فيتوقف عن متابعة الحفر.

وقد كان الرَّجُلُ من العرب إذا عَمِل في حفْر بئرٍ طمعاً في الوصول إلَىٰ الماء، ربّما وجَدَ بعض ماءٍ نَزَّ من السَّطح من بقايا الأمطار القريبة، فإذا ظَهَرَتْ لَهُ وهو يَحْفِرُ كُدْيَةٌ عظيمة لم يستطع حفرها ولا اقتلاعها، قالوا: أَكْدَىٰ، أي: وجَدَ كُدْيَةً، أو ظَهَرَتْ له في بئره كُدْيَة، فيتوقف عن متابعة الحفْرِ.

وعلى سبيل المجاز بالاستعارة استخدم القرآن فعل «أكدى» للدلالة على شحّ نفس الرجل، إذْ هي كالصفاة الّتي لا تَنِزُّ بماء، وكان هذا القدر كافياً في التعريف بالرَّجُل ضمن بيئته أيّام نُزُول النَّصّ القرآني، وكافياً في الدلالة على أنه من الّذين لا يُريدُون إلاَّ الحياة الدُّنيا، والانطلاق فيها دون ضابط من الدين.

ونجِدُ في جملة: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ من وراء التعبير عن قصّته مع مَنْ تعهَّد له من المشركين، بأن يتحمَّل عنه العذابَ عند رَبّه مقابل ما يَبْذُلُ له من مال، إلماحاً إلى أنّه أقبل إلى الإسلام خوفاً من عذاب الله، ثُمَّ أدبر عنه لمّا توهم أنّه قد دَرَأَ عَنْ نفسه عذاب الله.

وقد أوجز الله قصّته إلى أدنى الحدود، لأنَّ الغرض منها بناء الأفكار عليها، دون الاهتمام بكونها مقصودة بالذّات.

وكان من الحكمة الإقناع بما يكفي حول هذا التوهُّم الباطل، فقال اللَّهُ عزّ وجلَّ:

● ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾:

استفهامٌ تعجيبيٌّ من أمْرِه، إذْ لا يَمْلِكُ أيَّ دَلِيلٍ ولو كان دليلاً ضعيفاً يمكن اتُخاذُه ذريعةً لقبُول ما توَهَّمَه.

أي: أعنْدَه علْمُ الغيب فهو يرىٰ من مشاهد الغيب أو مكتوباته أنَّ الله عزّ وجلّ يقبل أن يتحمَّلَ أَحَدٌ العذابَ عن غيره، إذا فَداهُ بنفسه، أو باعَهُ من نفسه أن يتحمَّلَ العذابَ عنْه، مقابل مالٍ يأخذُهُ منه في الدنيا.

ويلاحظ أنَّ الحديث عنه قد جاء بأسلوب الحديث عن الغائب، لا بأسْلُوب مواجهته بالخطاب ليعمّ أمثاله.

إنَّ قضاء الله بيّن عباده وقانون عدْلِه وفضلِه من أمْور الغيب، وهي

أُمورٌ لا يُفْتِي فيها إلاّ الله عزَّ وجلّ، الذي هو عالم الغيب والشهادة، ومقدِّر أنظمتها والقاضي بها.

ورُبَّما يُراد بالاستفهام مع التعجيب من أمْرِ صاحب القصّةِ وأمثاله، انتزاعُ الاعتراف بأنّ عِلْمَ الغيب ليس عنده، فإذا اعترف بذلك فإنّه يُقالُ له: كيْفَ تقْبَلُ هذا التوهم؟! أو كيف تبني عليه؟!. وكيف تُفَرِّطُ بنفسِكَ فتعَرِّضُها لعذاب الله؟!. وكيف تبْذُل في ذلك مالاً لمَنْ لا يستطيعُ أن يكون ضامناً ولا يستطيعُ أن يكون بديلاً عنْكَ في تحمُّل العذاب؟!.

وبعد هذا أبان الله عزّ وجلّ أنّ قانون العدْل الرّبّانيّ المبيَّنَ في صُحف موسى، وفي صحُف إبراهيم، يتضمَّنُ أنَّ كُلَّ إنسانٍ هو المسؤلُ عن عَمَلِهِ واختياراته، في رحلة امتحانه في الحياة الدُّنيا، فَلا يَفْتَدِي أحَدٌ بنفْسِه أحداً عنْدَ الله، ولا يستطيع أحَدٌ أن يَشْتَرِيَ بمالِهِ في الدنيا من يتعهَّدُ له بأن يتحمَّل عنْه العذابَ يومَ الدّين.

وهذا القانون الرَّبَّانيُّ لا نَسْخَ له ولا تبديل فيه، فقال اللَّهُ عزَّ وجل:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يُنَبَّأْ﴾: أي: يُخَبَّرْ مِنْ قِبَلِ المخْبِرِينَ العالِمين بما جاء في كتُبِ الأوَّلين الموجودين في البيئة العربيَّة. **النَّبأ**: الخبر الظاهر الواضِحُ لكَثْرَةِ تداوُله. أو الخبر الجليل ذو البروز، فأصل معنىٰ الكلمة يدور حوْل البروز والظُّهور، يُقالُ لغة: نَبأَ الشيءُ، أي: ارتفع وظهر. ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾: أي: بمَا أُنْزِلَ علىٰ موسَىٰ وَدُوِّنَ في الصُحُفِ، ومَا أُنزِلَ علَىٰ إبْراهيم ودُوِّنَ في الصُحُفِ، وتداولَتْهُ ألْسِنَةُ المهتمين بالأنباءِ الجليلة من أهل الأنباء من العرب.

فقد كان لبعض قبائل اليهود وعلمائهم وجودٌ في يثربَ وخيبر وتيما من بلاد العرب، وكانت لهم بالعرب صِلاتٌ وعلاقاتٌ اجتماعيَّةٌ وفكريَّة وأحاديثُ في مسائل الدين، ولا سيما ذاتُ البروز والظهور، ومنها القضايا التي ذكَرَتْها السورة بأنَّها موجودة في صحف موسى.

وكان لدى العرب ميراثٌ دِينِيٌّ توارثُوهُ عن إسماعيل عن إبراهيم عليهما السلام، على الرُّغم من تَسَلُّل الشركِ إلى عقائدهم، ومِمَّا بقي محفوظاً منه لدى الحنفاء، القضايا التي ذكَرَتْها السُّورة بأنها موجودةٌ في صحف إبراهيم.

وأثنى الله عزّ وجلّ على إبراهيم عليه السلام بأنَّهُ وفَّىٰ، في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أي: الذي وفَّىٰ ما كلَّفَهُ اللَّهُ إيَّاه، فأدَّاهُ أداءً وافياً لم يَنْقُص منه شيئاً، بل أعطىٰ فيه الْعُبُودِيَّةَ الكاملة لربّه، وممَّا وفّاهُ طاعَتُهُ لربّه في أمْر ذبْحه ولَدَهُ إسماعيلَ عليه السلام، وهذه إحدى الكلماتِ التَّكْلِيفيَّة التي وجَّهَهَا الله له، فَوَفَّاها حتَّىٰ لحظة نزولِ فدائِه بِذِبْحٍ عظيم، ولم يأت في القرآن بيان تفصيليٌّ عن جميع الكلمات التكليفيَّة الَّتِي ابتلاه اللَّهُ بها، وإنّما جاء بشأنها بيانٌ إجماليٌّ في قول اللَّهِ عزّ وَجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ... ﴿١٢٤﴾﴾.

والاستفهام في: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ...﴾ استفهام فيه معنى الإنكار على هذا الرجل الذي تتحدَّث عنهُ الآيات، إذْ لَمْ يَعْتَنِ بقضايا دينهِ، وهي أهَمُّ القضايا في وجوده، ولم يَعْتَنِ بتَلقِّيها عَنْ أهل الذكْر فيها، الَّذِينَ يتَحدَّثُونَ بأُمُورِ الدِّين وقانون الجزاء الرَّبَّانِيّ.

وفي هذا الاستفهام معنىَ الحثّ على التعرُّفِ على أنباء هذه القضايا ممّا أنزل اللَّهُ على موسى، وممّا أنزل على إبراهيم، بسُؤَال أهل الذكر

فيهما، لاكْتِشافِ وحْدَةِ الرسالات الرَّبّانيّة، في أُسُسها وأصولها وقواعدها، وللتعرُّفِ على أنَّ الدّين عند الله الإسلام.

أي: بل ألَمْ يُنَبَّأْ عن طريقِ أهْلِ الأخبار بما في صحف موسى وإبراهيم بشَأْنِ هذه القضايا؟! فإنْ لم يأته هذا النَّبأ فَلْيَسْأَلْ عنه أهْلَ العِلْمِ بأمور الدّين.

ولم يُرَاعَ الترتيب الزَّمَنِيُّ هنا في ذكْر صحُف موسى وإبراهيم إيثاراً للنسَقِ الجماليّ في الآيتين، ولأنَّ ما في صحف موسى مُدَوَّنٌ عند أهل الكتاب، أمّا ما في صحف إبراهيم فغيرُ مُدَوَّنٍ عند العرب.

فما هي القضايا الّتي نَبَّهَ عليها النَّصُّ ممّا هو موجودٌ في صحُفِ إبراهيم وموسى؟.

إنّها قسمان:

**القسم الأول**: يتعلّق بقانون الجزاء الرَّبّانيّ.

**القسم الثاني**: يتَعَلَّق بتوحيد الله في ربوبيّتِهِ في تصاريف الكون، وبربوبيته في الجزاء المعجّل للطغاة المجرمين الذين أهلكهم من أهل القرون الأولى، تحذيراً للكافرين المجرمين المعاصرين لنزول القرآن، فمن يأتي بعْدهم مع تذييل تربويٍّ للمجادل المماري بغير حقّ.

**فالقضايا** التي تتعلّقُ بالقسم الأوّل هي أبع قضايا:

**القضيَّةُ الأولَى**: دلَّ عليها قولُ اللّهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَلَّا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾:

**تَزِرُ**: أي: تحمِلُ حِمْلاً ثقيلاً، وترتكِبُ إثماً، يُقال: وزَرَ يزِرُ وِزْراً ووَزْراً.

**وازِرَة**: صفة لموصوف محذوف، والتقدير: نفسٌ وازِرة، أي: من شأنها أنْ تَحْمل وِزْراً إذا عصَتْ أوامر ربِّها باختيارها الحرّ.

**الوِزْرُ**: الحِمْلُ الثقيلُ، والذَّنبُ.

**وِزْرَ أُخرَى**: أي: ذَنْبَ نَفْسٍ وَازِرَةٍ أُخْرَىٰ.

والمعنى: أنَّ من قانون العدل الرَّبَّانيّ، أنَّ كلَّ نفسٍ مكلَّفَةٍ في رحلة امتحانها، ومن شأنها أنْ تحْمِل أوزار نفسها، لا تحْمِلُ بطَوْعِها ولاَ تَحْمِلُ وهي مُكْرَهَةٌ وِزْرَ نفسٍ أُخرى بحالٍ من الأحوال.

هذه مادّةٌ لا نسخ لها من موادّ قانون الجزاء الرَّبَّاني.

والجملة بدل من «ما» في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ و﴿أَلَّا﴾ هي: «أَنْ لا» وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفٌ وجوباً وجملةُ: «لا تَزِرُ...» خبرها.

**القضية الثانية**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: وأن ليْسَ للإنْسَانِ من حَقٍّ رَتَّبَهُ الله له بفضلِه ابتداءً، فلَهُ الحقُّ بأن يُطَالِبَ بأجْرِه عِنْدَ رَبِّهِ إلاَّ مَا كَسَبَهُ مِنْ حسناتٍ وأعمالٍ صالحاتٍ بسَعْيِهِ، في رحْلَةِ امتحانه في الحياة الدنيا.

وهذا لا يمنَعُ من أَنْ يَصِلَهُ شيءٌ بفضل الله دون سَعيٍ منه، وربما كان بسبب دُعَاءِ من يستجيب اللَّهُ دُعاءه له، أو شفاعَةِ مَنْ يَأْذن الله له بالشفاعة، ويرضى له قولاً، أوغير ذلك، لكن لا يكون للإنسان حقُّ المطالبَةِ به عند ربّه يوم الدّين، إنّما يأتيه من فيض فَضل الله عليه.

ويُعْطِي بعض النَّاس هذه الآية: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ تعميماً ليس مقصوداً فيها، فَيَفْهَمُ منها أنَّه لا يَصِلُ إلى الإنسان إلاَّ ثوابُ ما سَعَىٰ، وهذا فَهْمٌ غير صحيح، لأنّ اللام في: ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ هي لام الاستحقاق، وليست لام الغاية.

وقد ثبَتَ في السُّنَّةِ الحجُّ عمَّنْ مات ولم يَحُجَّ، والصَّوْمُ عمَّنْ مَاتَ وعليه صوْمُ لَمْ يصُمْه، وغير ذلك من أعمال.

ومَنْعُ وُصولِ فَضْلِ اللَّهِ للإنْسان إلاَّ ثوابَ ما سَعَىٰ، هُوَ من الحجْرِ على فَضْلِ اللَّهِ، وفَيْضِ جوده العظيم، وتقطيعٌ لما أمَرَ الله به أَنْ يُوصَلَ من وَشَائج الأُخوَّة الإيمانيَّةِ وعَوَاطِفها المتبادلَةِ بين المؤمنين.

ويلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ استعمل مادّة «السّعي» في القرآن لعمل الآخرة، وأمَّا الْعَمل الْمباحُ لكْسبِ الرّزْقِ ومَصَالح الحياة الدنيا فقد استعمل فيه مادَّة «المشْي» فَقَال تعالى في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

وقال تَعالَىٰ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

**المشي**: هو الانتقالُ الهادئ بِرِفْقٍ لِلْكَدْحِ والْعَمل وغير ذلك.

**السّعي**: هو الانتقال بهمَّةٍ ونشاطٍ وقُوَّةٍ في الكَدْحِ والعمل، والمراد الحالة النفسيَّة، ولو كان المطلوبُ السكينَةَ والرِّفْق. فالسَّعْيُ في اللُّغَة حركتُهُ فَوْق حركة المشي، ودون حركة الْعَدْوِ والرَّكْضِ.

**القضيّة الثالثة**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: وأنَّ سَعْيَ الإنسان المكلَّف في الحياة الدُّنيا في أعمالٍ صالحةٍ، أو في أعمالٍ سيِّئَةٍ سَوْف يُرَىٰ يَوْمَ الدّين، أيْ: يُكْشَفُ لَهُ في كتاب عَمله حتَّىٰ يراه، وقد يُكْشَفُ لمن يشاءُ الله أن يُطْلِعَه علَيْه من خلقه.

**سوف**: حرف استقبال، وهو مُسْتَعمل في القرآن للمستقبل البعيد.

**القضيّة الرابعة**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾:

﴿يُجْزَىٰهُ﴾: أي: يُكافأُ يومُ الدّين علَىٰ سَعْيِهِ بالعمل الصالح في الحياة الدنيا التي تَمَّ فيها امْتِحَانُه، والمعنى: يُجْزَىٰ الإنْسَانُ سَعْيَه.

يُقال لغَةً: جَزَىٰ فلانٌ فلاناً حقَّهُ، أي: قَضَاهُ إيَّاهُ، وحقُّ السَّاعي في الحياة الدنيا عند رَبِّه يَوْمَ الدِّين، هو ما تفضَّلَ به علَيه من وعْدٍ كريمٍ بالثَّواب الجزيل.

﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾: أي: الجزاءَ الأتَمّ الأكْمَل. دون نقص، مع زيادة، وهو مفعول مطلق لبيان النَّوع.

وجاء استعمال ﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ وَهُو أفْعَلُ تفضيل للإشعار بمعنىٰ الزيادة على الوافي، أي: التامّ، وبهذه الزيادة يكون «أوفى» من الحقِّ المقرَّرِ لهُ بِوَعْدِ الله الكَرِيم، وَيَدُلُّ على هذا المعنى قول الله عزَّ وجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ... ﴿١٧٣﴾﴾.

وهٰذه الزيادة هي من الترجيح على الحق الذي يُضيفُه البائع أو مؤدّي الحقّ، على مقدار الحقّ.

وجاء استعمال حرف [ثمّ] الذي يدُلُّ على الترتيب مع التراخي الزمنّي، للدلالة على أنَّ تحقيق الجزاء متأخِّرٌ بتراخٍ زَمنيٍّ عن المحاسبة وفصْل القضاء اللّذيْنِ يَرَىٰ فيهما الإنسانُ سَعْيَه.

● **والقضايا** التي تتعلّقُ بالقِسْمِ الثاني هي تسع قضايا دلَّ عليها قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ

وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

**فالقضيَّةُ الأُولَىٰ**: دَلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

الخطابُ في هٰذه الآية مُوَجَّهٌ بأسْلُوب الخطاب الإفرادِيّ لكلّ من يَصْلُح للخطاب، ويُدْرِكه ويفْهَمُه، وَيَقَعُ في المقدمَّةِ الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الابْتِلاء، وفيه التفات من الغيبة إِلَىٰ الخطاب، إيثاراً لما هو أَوقع في نفوس المتلقين:

أي: وأَنَّ مِنَ القضايا المبيّنةِ في صُحُفِ مُوسَىٰ وإبراهيم عَليهما السّلام، أنَّ إِلَىٰ اللّهِ الّذي هو ربُّكَ وَربُّ كلّ شيءٍ، يَنْتَهِي كُلُّ شَيْءٍ، فالرُّجُوعُ من الحياة الدنيا بالموت يَنْتَهِي إليه، والعودة إلى الحياة بالبعث للحساب والجزاء تنتهي إليه، وَأَمْرُ الحساب وفصْل القضاء يوم الدين ينتهي إليه، وأَمْرُ تنفيذ الجزاء ينتهي إليه، له الخلْقُ وله الأمْر، وكُلُّ الحجج والبراهين الدالَّةِ علَىٰ أَوَّليَّةِ الوجود تنتهي إليه، فَتُثْبِتُ أَنَّه الأزليُّ الّذي وُجِدَتْ بأمْرِه التكوينيّ كُلُّ الكائناتِ من دُونه، إلى غير ذلك من كُلّ ما في الأكْوَانِ كبارها وصِغَارِها، وهي أمور لا يحيط بعلمها إلاَّ الله جلَّ جلاله، وَإليه تَنْتَهي أسبابُ تصاريفها بِرُبُوبيَّتِه العامَّة الشّاملة لكلّ شيءٍ.

وفي هذه العبارة إشارة إلى سلاسل الأسْباب في حركات كلّ شيءٍ في الكون وسكناته، وأنّها جميعَها تَنْتهي إلى اللّهِ الذي له الخلْقُ والأَمْرُ جلَّ جلاَلُه، وعظُمَ سلطانه، وفيها إشارة إلى أن الغاية هي ابتلاء ذوي الإرادات الحرَّة في ظروف الحياة الدنيا.

﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: مصدر ميمي لفعل «انتهى» ولا مانع من اعتباره أيضاً اسْمَ زَمانٍ أو اسم مَكانٍ، على معنى أنّ أزمَانَ كلِّ ذي زمَنٍ ينْتَهي إلىٰ الله السُّلْطانُ عليها، وكذلِكَ أمكِنَةُ كلِّ ذِي مَكان.

**والقضيَّةُ الثانية**: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾:

نفهم من هذه الآية أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ الّذِي هو رَبُّ كلِّ شيء، هو وحْدَهُ لا شريكَ له الذي خلَقَ الأسبابَ الّتِي تَسُرُّ فَتَسْتَدْعِي الضّحِك، وخَلَقَ مشاعِرَ الفرح والسُّرور، وخَلَقَ ظَوَاهر التعبير عن هذه المشاعر بالضَّحك. وأنَّهُ هو وحْدَهُ لا شريك له الذي خَلَقَ الأَسْبَابَ الّتِي تُؤْلِمُ، فتستَدْعي البكاءَ المعبّر عن الألم، وخلَق مشاعر الألم، وخلَقَ التعبير عن هذه المشاعر بالبكاء.

وجاء التأكيد بضمير الفصل [هو] لإفادة القصر.

**والقضيَّةُ الثالثة**: دلّ عليها قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾:

نفهم من هذه الآية أنَّ الله عزَّ وجلّ هو وحْدَهُ الذي منح الحياة لكلّ ذي حياة، وأنَّه هو وحده الذي خلَقَ الموت، وأذاقه كُلَّ نَفْسٍ ذَاقت الموت، وجاء فيها التأكيد بضمير الفصل [هو] لإفادة القصر.

وجاء في الآية استعمال الفعل الماضي بقوله تعالى: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لحكمَتَيْن:

**الحكمة الأولى**: توزيع أجزاء الموضوع الواحد على النصوص، فإذا كان هذا النَّصُّ قد عبَّر عن أحوال الماضي، ففي نصوصٍ قرآنية كثيرة جاء فيها التعبير عن أحوال الحال والاستقبال بصيغة الفعل المضارع، ومنها قول الله عزَّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

**الحكمة الثانية**: الاعتماد على الدَّليل الاستنباطيّ، فما دام النَّصُّ باقي الدَّلاَلَةِ إلى يَوْم الدّين، فكُلُّ مَنْ يحيا وَيموت فالله عزّ وجلّ وحْدَهُ لا شريكَ له هُو الذي أحْيَاهُ، وهو الذي أماته.

وتشير هذه الآية إلى أنَّ الغاية من الإحياء والإماته ثُمَّ الإحياء بالبعث، هي الابتلاء الذي يسْتَتْبعُ الحسَابَ وفصْلَ القضاء وَتَنْفِيذَ الجزاء، وَقد جاء هذا المعنى مُصَرَّحاً به في قول الله عزّ وجَلَّ في سورة (الْمُلْكِ/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ فبعزَّته يجازي بالعقاب، وبمغفرته يستر الذنوب ويجزي بالثواب.

**والقضيَّةُ الرابعة**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

وَجاء في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) الحديث عن الإنسان بقول الله عزّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿سُدًى﴾ أي: مُهْملاً غير مكلَّف ولا مسؤول، وغيْرَ مَوْضوع موضع الابتلاء في الحياة الدنيا، وغير مجازىً على أعماله في الحياة الدنيا.

فجاء التصريح في هذا النَّصّ باسم النُّطفَةِ، وأنَّها هي مَنِيُّ الرَّجُل.

وجاء في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) إشارةٌ إِلَىٰ آيَةٍ من آيات الله في خَلْقِ المنِيِّ، فقال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للنَّاس:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ونفهم من قول الله عزَّ وَجَلَّ في سورة (النجم): ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ الإشارة إلَىٰ حِكْمَةِ اللَّهِ العظيمة في خَلْقِ الزَّوْجين، اللَّذَيْنِ انعقدَتْ بانجذاب بعضِهما إلى بعض الروابط الأسريَّة، وكانت بذلك شَبَكة الترابط الاجتماعيّ، وامتدَّتْ من وحدة الأصْل، وتلاقي الأزواج، وتَفرُّعِ الأنْسالِ، شجَرَةُ النّسب الإنسانيّة ذاتُ الفروع والأغْصانِ المتداخلة المتشابكة.

ونفهم منه أيضاً أنّ الذكر والأنْثَىٰ كلَيْهما يخْرُجان من نطفة الرّجل، فلا علاقة لبُيَيْضَة المرأة بتحديد كون الجنين ذكراً أو أنْثَىٰ، وهذه الحقيقة من حقائق التكوين الرّبّاني لم يَعْرِفْها علماءُ الأحياء والأطبّاءُ وعُلَماء الأجنَّةِ إلاَّ مُتَأَخِّراً، فهي من أمثلة الإعجاز العلميّ في القرآن.

ونفهم من قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي: إذا تُقْذَفُ في الرَّحم، أنَّ الوقْتَ الذي يتمّ عنده توجيه الْحُوَين الذكر، أو الحوَيْن الأنْثَىٰ من النطفة المنويَّة، ليكونَ هُو قرين بُيَيْضَةِ الأنْثَىٰ، ولينْعَقِدَ منهما الجنين هو وقْتُ قَذْفِ النطفة في الرَّحِم، وهذا هو الذي اكْتُشِفَ بالوسائل العلميَّة التجريبيَّة.

يقال لغَةً: أمْنَىٰ الرَّجُلُ النُّطْفَةَ، أي: أنْزَل المنيَّ. ويقالُ: أمْنَىٰ، إذا أنْزَلَ المنِيَّ. ويقالُ: أمْنَىٰ الدِّماءَ، إذَا أراقها.

**والقضيَّة الخامسة**: دلّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: وأنَّ الله عزّ وجلّ جعَلَ على نفسه الالتزام بإيجاد أحداث النَّشْأَةِ الأخرى، التي تبدأ بالبعث إلى الحيَاةِ للحسَاب وفَصْل القضاء وتَنْفِيذ الجزاء، كما كان قَضَىٰ وقَدَّر قَبْل إيجاد النشأة الأولى.

إنّ مُنْشِئَ النَّشْأةِ الأُولى للنَّاس والجِنَّةِ للابتلاء في ظُروفِ الحياة

الدنيا، هو وحده الذي سَيُنْشِئُ النَّشْأَةَ الأخرىٰ للجزاء.

**النَّشْأَةُ**: هي الْحُدوثُ المصْحوبُ بالتَّكامل المتدرّج غالباً، يقال لغة: نَشأَ الشيءُ نَشئاً وَنُشوءاً وَنَشْأَةً، إذا حَدَث وتجدَّد، ويُقالُ: نشأ الصبيُّ إذا شبَّ ونَما.

**والقضية السادسة**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨﴾

﴿أَغْنَىٰ﴾: أي: جَعَل بقَضَائه وقَدَرِه وخَلْقِه الغِنَى لكلّ ذي غنىً.

**الغِنَىٰ**: كَثْرَةُ المال ووَفْرَتُه.

﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أي: جعَلَ بقضائه وقَدَرِه وخَلْقِه لعباده ما يَقْتَنُونَهُ ممّا يحتَاجون إليه مستقبلاً. يقال لغة: قَنَىٰ فُلانُ الشيءَ يَقْنِيه قَنْياً، أي: كَسَبَهُ وجَمَعه وادَّخره لنفسه لا للتجارة. وكذلِك اقْتَناه.

وجاء في هذه الآية التأكيد بضمير الفصل [هو] لإفادة القصر، أي: فلا مُغْنِيَ وَلا مُقْنِيَ إلاَّ الله جلَّ جلالُه.

فدلَّت هذه الآية على أن الله عزّ وجلّ هو وحده الذي أغنى ذوي الحاجات في الوجود، بما هيّأ لهم في الدنيا من وسائل قضاء حاجات حياتهم من رزقٍ وغيره، على مقاديرِ كفاياتهم وأكثر، وزاد على ذلك فجعل لهم من الوسائل ما يمتلكونَه ويدّخرونه ويقْتَنُونه، ومنه ما يكون أصْلُه طَوِيلَ الإقامة عندهم، متجدِّد العطاء والثمَرَة، مُتَنامِيَ الذَّاتِ، أو ذا أنْسَالٍ ومواليد، فَهُمْ ينتَفِعُون من مُقْتَنَيَاتِهم مطمئنِّين بحسَبِ حاجاتهم، كالأنعام والشَّجَر، وكُلّ ما يقتنىٰ ويُدَّخَر.

وقد كان من الممكن عقلاً أن يجعل غناهم دون اقتناء، كما جعل المنَّ لبني إسرائيل، إذْ كانوا يُرْزَقونه يَوْماً فَيَوْماً، ولا يستطيعون ادّخار شيءٍ

منه، لأنَّ مَا يُدَّخَرُ منه لِلْيَوْم التالي يفْسُد، وينتشر فيه الدُّود.

فالله هو وحده في الوجود الذي أغْنَىٰ وأقْنَىٰ، تباركت صفاته، وجلَّت حكمته.

**والقضيَّة السابعة**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾:

**الشِّعْرىٰ**: اسم نجم من نجوم بُرْجِ الجوزاء، وهو نَجْمٌ شديد الضياء، ويُسمَّىٰ أيضاً عنْد الْعَرَب: «كَلْبَ الْجَبَّار» لأنّ العرب يسمّون الجوزاء «الجبَّار» إذْ يتَخيَّلونَ مجموع نجوم الجوزاء في صورة رجل جبَّارٍ واقف بيده عصاً، وعلى وسَطِه سيف، ويتخيَّلون الشِّعْرَى في صورة كلْبٍ يَتْبَع الجبَّارَ الذي هو الجوزاء. وتُسَمَّى «الْمِرْزَم».

**والشعرىٰ**: أشَدّ نجوم بُرْجِ الجوزاء بياضاً، وتُوصفُ عنْدَ العرب باليمانية، ويسمُّونها الشِعْرىٰ الْعَبُور، تفريقاً بينها وبين: «الشِّعْرَىٰ الْغُمَيْصَاء».

ونجم «شِعْرىٰ الْعَبُور» عَبدتْهُ قَبِيلَةُ خُزَاعَة، والّذِي جعلهم يعْبُدُونه رجُلٌ من سادتهم يُكْنَىٰ «أَبَا كَبْشَة» عبَدَه ودَعَا قبيلته إلىٰ عبَادَته.

وتخصيص نجم «الشِّعْرَىٰ» من دون سائر النجوم، مع أنَّ الله عزّ وجلّ هو رَبُّهَا جميعاً ما عُبِدَ منْها وما لم يُعْبَدْ، للتَّنبِيْه على أنّ عبادة بعض العرب للشعرىٰ عبادةٌ باطِلَةٌ، لأنَّ الله رَبُّها، وهي ليس لها من الرُّبوبيَّة شيْءٌ.

ويُقاس على الشِّعْرىٰ سائر النجوم والكواكب، ولا سيما ما عُبِدَ منْها، وقد كان قوم إبراهيم عليه السَّلام يعبُدُون بعض النجوم ويقدِّسونها، ويعتقدون أنَّ لها تأثيراتٍ في أحداث الأرض ومن عليها.

ويظهر أنّ صحف موسى وإبراهيم قد اشتملت على بيان أنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ النجوم والكواكب السَّماويَّةِ كلِّها، ويدخل ضمن هذا العموم «نجم

الشعرىٰ» ولَوْ لم يكن هذا النجم الذي عَبَدَهُ بعض العرب من معبوداتِ قوم إبراهيم عليه السَّلام، فتكُونُ آية: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩﴾ معطوفَةً على ما اشتملَتْ عليه صُحُفُ موسَىٰ وإبراهيم عليهما السلام، لأنَّ الشّعْرىٰ داخلةٌ ضمن عموم النجوم.

وضمير الفصل في الآية يُفيد مع التأكيد القصر، والمعنى أَنَّه لا ربَّ للشِعْرىٰ إلاَّ اللَّهُ وحده لا شريك له، فما يَنْسُبه عُبَّادُ هذا النجم له من تصاريف، هو في الحقيقة لله عزّ وجلّ وحده.

**والقضية الثامنة**: دلّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾

هذه القضيَّة تتضمَّن الموعظة بالترهيب من العقاب المعجّل، للّذِين يُصِرُّونَ على كُفْرِهم وعنادهم وَفسادِهِمْ وإفسادهم، على الرُّغْمِ من وضوح الأدلَّة لهم الكافية لإقناع المهتمّ بمعرفةِ الحقّ والاستمساك به.

والترهيب في هذه القضيَّة قد جاء بتقديم أمثلةٍ تاريخيَّةٍ، من أقوام أهلكهم الله إهلاكاً شاملاً، بسبب كفرهم وطغيانهم.

**المثال الأول**: إهلاك الله عزّ وجلّ قوْمَ عَادٍ الأولى، وهم قوم النبيّ الرسول هود عليه السلام، وهم قبيلة عرَبيَّةٌ من العرب البائدة، كانت مساكنهم في أرض «الأحقاف» من جنوب شبه الجزيرة العربية، وهي تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الرّبع الخالي، وفي شرقها عُمَان، وموضع بلادهم الآن رمال قاحلة مهجورة.

فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠﴾

وصفها الله بالأولى، لأنّ قِسْماً من عادٍ آمنوا برسولهم هودٍ عليه

السلام فأنجاهم الله من الهلاك، ومن ذراريهم «ثمود» قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، فَهُمْ عادٌ الثانية.

**المثال الثاني**: إهلاك الله عزَّ وجلَّ قوم ثمود، إذ تمرّدُوا على رسولهم صالحٍ عليه السَّلام، وأصَرُّوا على كُفْرهم وطغيانهم، وعقروا النَّاقَة الّتي أخرجَها اللّهُ لَهُمْ من صخرة حَسْب طلبهم، واستهانوا بالمعجزة الّتي أقام اللّهُ لهم بها الدَّلِيلَ على صِدْق رسُولهم.

فقال تعالى: ﴿وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾. أي: وأَهْلَكَ ثمودَ فما أبقى منهم كافراً.

وكانت مساكنهم في أرْضِ «الحِجْرِ» وهي أرضٌ معروفة بين الشام والحجاز إلى وادي القرىٰ، وتقع في الطريق للمسافرين من الشام إلى الحجاز، وآثارُ مَدَايِن هؤلاء القوم ظاهرة حتَّىٰ الآن، وتُعْرَف باسم «مداين صالح».

وقد سبق التذكير بإهلاك «عادٍ» و«ثمود» في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول).

**المثال الثالث**: إهلاك الله عزّ وجلَّ قَوْمَ نُوحٍ عليه السلام، الذين لبث فيهم نوحٌ يدعوهم إلى الإيمان باللّهِ وهَجْرِ أوثانهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، فأصَرُّوا على كُفْرِهم وظُلْمِهم وطُغْيانِهم، فأهلكهم اللّهُ بالطوفان.

فقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ أي: وأنَّه أهْلَكَ قومَ نوحٍ من قبلِ إهلاكه عَاداً وثمودَ، إذْ كانت أزمانهم سابقة لأزمان عادٍ وثمود.

ووصف الله قوْمَ نوحٍ بأنَّهُمْ كانوا هم أكْثَر ظُلْماً وأكثر طغياناً من عادٍ وثمود، وجاء التأكيد بضمير الفصل إشعاراً بتخصيصهم بشدة الظلم والطغيان.

وجاء هنا ذكر عادٍ وثمود قبل ذكر قوم نوحٍ، لأنَّ أخبار عادٍ وثمود معروفةٌ متداولَةٌ بين العرب، ولأنَّ آثارهم في بلاد العَرَبِ ظاهرة ومعروفة.

المثال الرابع: إهلاك الله عزّ وجلّ قوم لوط عليه السلام، وقد كَنَّىٰ الله عنهم في هذا النصّ بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾:

**الْمُؤْتَفِكَة**: أي: المنقَلِبة، وهذا وصْفٌ لموصوف محذوف، وهي قُرَىٰ قوم لُوط عليه السلام، أي: وقُرَىٰ قَوْم لوطٍ، الّتي رَفَعها الله بأهلها الفاسقين المجرمين، وقَلَبها فجعل عالِيَها سَافلها، وأهوى بها إلى جهة الأرض، فهَوَتْ سَاقِطَةً مُنْقَلِبَةً مُدمَّرة.

**الائتِفَاكُ**: عند أهل العربيَّة هو الانقلاب.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾: أي: فجعَلَ عليها غِشاءً جلَّلَ كُلَّ أجزائِها، وكان هذا الغِشَاءُ حجارَةً مُحْرِقَةً أَمْطَرَهَا الله عَلَيهم، تَعْذِيباً لَهُمْ، مع إهلاكهم بتَدْمير بلادهم عليهم.

قال المؤرّخون: هم أهل «سَدُوم» وكانوا يعيشون في مكان البحر الميّت المعروف الآن في الأردن، ولهم خمس قرى، هي «صَبْغَة ـ عَمْرَة ـ أَدْما ـ صَبُويم ـ بالع».

وقد عرضت السورة هذه الأمثلة عرضاً موجزاً جدّاً، مناسباً لأسلوبها البيانيّ العامّ، الموافق لما يُعْجب فصحاء العرب وبُلَغَاءهم من إيجاز واختزال، وبُعْدٍ عن أسلوب البيان المباشر.

**القضية التاسعة**: دلَّ عليها قَوْل الله عزَّ وجلّ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾:

خطابٌ مُوجَّهٌ لكُلِّ مُتَشَكِّكٍ بِآلَاءِ الله، جاء بمثابة مُنَاقَشَةٍ تربويَّةٍ عقب

الدرس الرابع من دُروس السُّورَةِ، أو عَقِب دُرُوس السورة الأربعة السابقة.

﴿ءَالَآءِ﴾: نِعَم. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: فَبِأَيِّ نِعَم رَبِّكَ، والواحد: «أَلىَ» و«إِلْيٌ» و«إِلَى».

﴿تَتَمَارَىٰ﴾: أي: تَتَشَكَّكُ، وتُجَادِل. والمعنى: فبِأَيِّ نِعَمِ اللَّهِ ربِّكَ الّتي أفاض بها على عِبَادِه، تتشَكَّكُ وتُجادِلُ أيُها الكافِرُ بربِّكَ، المكذِّبُ لرسوله، والمكَذِّبُ بما جاء به عن ربّه، والمكذِّبُ بظاهرة الوحْيِ، وبيوم الدّين.

إنَّ نِعَمَ اللَّهِ الكثيرةَ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا وَيُنْعِمُ بها على عباده دَواماً، من شَأْنِهَا أَنْ تَجْعَلَ العاقل الرَّشِيدَ الذي يَنْشُدُ الحقَّ يُؤْمِنُ بِربّه، ويخضع له، ويَعْبُده لا يُشْرِكُ بعبادته أحداً، ويُؤْمِنُ بِرَسُولِهِ وبكتابه الذي أنزلَهُ عليه.

❁ ❁ ❁

## (١٠)
## التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس السّورة وهو الأخير

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

هذا الدرس الخامس وهو الأخير من دروس السُّورة، يتضمَّن حديثاً ختامياً ذا بيانات جازمات تُوجِز القضايا التالية الأربع:

**القضية الأولى**: بيان وظيفة الرسول الختاميَّة بالنسبة إلى من كذَّبه في نبوّته ورسالته، وَالوحْي الّذي تلقَّاهُ عن ربّه، وكذَّبَ بما جاء به عن ربّه، ربْطاً بما جاء في الدرس الأوّل من السورة: وهي وظيفة الإنذار

بعذاب الله، كما كانت الوظيفة الختاميَّة لسائر المرسَلين بالنسبة إلى الذين كفروا من أقوامهم، وأسرفوا في ظلمهم وطغيانهم، وكذلك بيان وظيفة القرآن الختامية بالنّسبة إليهم.

**القضية الثانية**: بيان اقتراب يوم القيامة الّذِي تنتهي به ظروف الحياة الدنيا، ليبدأ بعْدَهُ يوْمُ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء. وفي هذا إنذارٌ بعذاب الله يوم الدين للكافرين برسول الله محمّد ﷺ، وبما جاء به عن الله عزّ وجلّ.

**القضية الثالثة**: توجيه التثريب للكافرين الذين كذّبوا الرَّسُول محمّداً ﷺ، وكذّبوا بما جاء به عن الله عزّ وجلّ، مع التَّعجيب من أمرهم، إذْ يعجَبُون من الحقّ وأدلّته وبراهينه الساطعات وإِذْ ينطلقون في حياتهم يضحكون لاهين ساهين غافلين ساخرين متكبِّرين، أو جامدين متحيّرين أغنياء، أو مشتغلين بالغناء.

وقد كان من الواجب عليهم لو كانوا أهل عقْلٍ وتدبُّرَ ورُشْدٍ أَنْ يتَّعِظُوا، ويبكوا على ما فرَّطوا في جَنْب الله، وعلى ما أَسْرَفُوا وظَلَمُوا في حقّ أنفسهم، إذ يَقْذِفونَ بها أغبياء إلى الشقاء الدائم، والعذاب الأبَديّ في جَهَنَّمَ وبِئْسَ المصير.

**القضية الرابعة**: وهي القضيَّةُ الّتِي ختم الله بها السّورة، وقد تضمَّنتْ توجيه الأمر للناس أجمعين وفيهم الكافرون بأَنْ يَسْجُدوا لله ويعبُدُوه، حتَّىٰ يؤدُّوا واجب عبوديتهم لربّهم، وليذوقوا حلاوة القرب من الله عزّ وجلّ، وليتخلَّصُوا من وساوس الشياطين، وشتات الأهواء التي تجنح بهم عن صراط الله المستقيم، إلَىٰ أوْدِية العذاب الأبدي.

**أمّا القضيّة الأولى**: فقد دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ بشأن الرسول محمّد ﷺ، أو القرآن أو كليهما: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾

﴿هَٰذَا﴾: أي: الرَّسُولُ مُحمَّد ﷺ، أوالقرآن، بالنسبة إلى الكفرة المكذبين.
﴿نَذِيرٌ﴾: يأتي بمعْنَىٰ: «مُنْذِر». ويأتي اسماً للإنْذَارِ الذي هو مصدر «أنْذَرَ». **والإنْذار**: هو الإعلامُ والإخبار بعواقب غير سارّة، والتحذير من ذلك.

وجمْعُ «نَذِير» على المعنيَيْن: «النُّذُر» وهو لفظ يصحّ أن يُطْلَق على الرسول، وعلى القرآن لتضمُّنِه الإنْذار، وعلَىٰ الإنْذَار الذي جاء في القرآن.

﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾: أي: من جِنْس النُّذُرِ الأُولَىٰ، رُسُلاً كانوا، أو كُتُباً رَبَّانيَّة، أو إنْذاراتٍ جاءَتْ في الكتب السابقة أو على ألسنة الرُّسل، فكَلِمَةُ النُّذُر صَالِحَةٌ لكلّ ذلِكَ، وهذا من الإيجاز القرآني البديع.

والمراد بالأولَىٰ السابقة السَّالفَةُ في الرِّسالات الرَّبَّانيَّات السابقات.
**وأمّا القضيَّةُ الثانية**: فقد دلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾:

[أَزِفَتِ الأزِفَةُ]: أي: قَرُبَتِ السَّاعَةُ القريبة، وقد أبان الله عزّ وجلّ قُرْبَهَا بتعبير صريح، فقال تعالى في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):
﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾.

يقال لغة: أزِفَ الوقْتُ يأْزَفُ أزَفاً وأُزُوفاً، أي: دنا، ومنه قولهم: أزف التَّرحُلُ، أي: قَرُبَ ودَنَا.

**الآزفة: صفةٌ لموصوفٍ**: مَحْذُوفٍ تقديرُه: السَّاعة، أو القيامة. وصَفَها اللَّهُ بالْقَرِيبة بالنسبة إلى ما مضى من عُمْرِ الدُّنيا قبل خَلْقِ آدَمَ عليه السَّلام، وقد زَادَتْ قُرْباً في عصْرِ بعْثَة الرَّسُولِ محمد ﷺ ونزول القرآن.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾: أي: ليس للسَّاعَةِ من غَيْرِ اللَّهِ وإعْلام منه نَفْسٌ كاشفَةٌ وقْتَ حُدُوثِها ووقوعها فعِلْمُ وَقْتِ وُقوعِ السّاعة وقيام القيامة عِلْمٌ لم يُطْلِع اللَّهُ علَيْهِ أحداً من خلقه، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) لرسوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

فدلَّتِ النصوص القرآنيَّةُ على أنَّ وقْتَ قيام السَّاعَةِ من الأمُور الَّتي سَتَرَهَا اللَّهُ وأخْفَاهَ، فلَمْ يُطْلِعْ عليها أحداً من خلقه.

**وأمّا القضيّة الثالثة**: فقد دلَّ عَلَيْها قولُ الله عزّ وجلّ خطاباً للكافرين المكذّبين: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾

في هٰذه الآيَات تلويمٌ وتَثْرِيبٌ للكافرين المكذبين لرسول الله محمّد ﷺ، والمكذِّبينَ بما جاء به عَنِ اللَّهِ عزّ زجلّ، وتَعْجِيبٌ من تَعَجُّبِهِمْ ممَّا اشتمل عليه القرآن الكريم، الّذي هو حَدِيثُ الله لعباده بياناً وإقناعاً ونُصْحاً.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟!: أي: أرَفَضْتُمُ الحقَّ الجليَّ الّذِي حَدَّثْنَاكُمْ بِهِ في القرآن، مع وُضوح الأدلة وقُوَّةِ ما فيها من سلطان على العقول، وأعْلَنْتُمْ إنكارَكُمْ له، وزعَمْتُمْ أنَّهُ بَاطِلٌ، فصِرتُمْ تَسْتَبْعِدُونه وتُوهِمُونَ أنّه باطل بأسْلُوب التَّعَجُّب منه.

إنَّ تَعجُّبَكُمْ هُو الذي يَسْتَدْعي الْعَجَب، لأنّه قَائم على جُحُود الحقّ على الرُّغْمِ من ظهوره، ووضوح أدلَّته.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾: أي: إنَّ من شَأْن ما جَاءَ في حَدِيثنا لكم أنْ تَحسُبُوا ألف حسابٍ ليوم الدين والجزاء. إيماناً بالحق الذي جاءكم به رسُولُ ربّكُم، فتخافوا العذابَ الأليم الذي ستَصِيرونَ إليه لا محالة، إذا أصررْتُمْ على كفركم، ومن شأن هذا أن يُبْكِيَكُمْ بُكَاءً كثيراً، لا أنْ يُثِير لديكم الضّحك والسُّخْرِيَةَ ممّا حَدَّثْنَاكم به.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾: أي: وأنتم لاَهُونَ لاَعبون، وسَاهون غافلون، أو مَشْغُولُون بالغِنَاء، أو مُتَكَبِّرون بَطِرُونَ أشِرُونَ، أو قائمون جامِدُونَ لاَ تتأثَّرُون، أو أَغْبياء، أَوْ مُتَحَيِّرون.

على كلِّ هذه المعاني تدلُّ في اللُّغَة كَلِمَةُ: «سامدون» وهي فيما أَرَىٰ مرادَةٌ كُلُّها، ولو على سبيل التوزيع بحسَب أحوال المخاطبين، وهذا من الإيجاز الرّائع في القرآن الكريم.

وقد تأكّد لديّ إمكان حَمْل اللَّفظ القرآني على كلّ معانيه اللُّغَويَّة، إذا أَمْكن ذلِكَ، ولَمْ تَتَناقَضْ فيما بينها، وهو الذي عليه معظم الفقهاء المجتهدين.

**وأمّا القضيَّةُ الرَّابعة:** فَقَدْ دَلَّ عليها قولُ الله عزَّ وجلَّ خطاباً للناس ومنهم الكافرون المكذِّبون: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

فالْمَطْلوبُ الدِّيني الذي جاء به الرَّسُول عن ربِّه هو الخضوع لله، وعِبادَتُه بطاعَتِه، في فِعْلِ مَا أمَرَ بِهِ وتَرْكِ مَا نَهىٰ عنه.

**السّجُود:** يشمل كُلَّ أنواع الخضوع لله، وأكملُهُ في الأعمال الجسديَّة الظاهِرَةِ يكُونُ بِوَضْعِ الجبْهَةِ على الأَرض.

**والعبادة:** تَكُون بالطاعة، وبقيام العابد بما يُرْضي المعبود، ورأْسُ العبادة الدُّعاء بالغيب لتحقيق مطالب الدُّنيا والآخرة، وهٰذِه العبادة لا تكون إلاَّ للرَّبِّ جلَّ جَلاَله، وتوجيهها لغيره شرك به.

وهكذا استكْمَلَتِ السورة ترابُطَها الفكريّ، وخُتِمَتْ بهذا الختامِ الحكيم.

❁ ❁ ❁

## ملاحق لسورة النجم

**الملحق الأول:** من البلاغيات في السورة.

**الملحق الثاني:** معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة.

**الملحق الثالث:** سياسة الداعي في أحوال المدعوّ الذي لم يستجب.

❀ ❀ ❀

## (١١)
## الملحق الأول
## من البلاغيات في سورة (النجم)

(١) الأسلوب البيانيّ الذي صيغت به سورة (النجم) هو الأسلوب الذي كان يَسْتثير إعجاب بلغاء العرب وفصحَائهم إبَّانَ تنزيل القرآن، إنّه الأُسلوب القائم على تقصير الجمل، والسَّجْع البديع الذي لا تكلُّفَ فيه، والبُعْدِ عن التعبير المباشر، باسْتِخْدام الكناياتِ التي تَعْتَمد على اللّوازم الفكريَّة، وتعتَمِدُ على الإيجاز الشديد، وحذْفِ ما يمكن إدْراكه ذهْناً ولو لم يَكُنْ في اللَّفظ ما يَدُلُّ عليه.

وفي السورة من هذا أمثلة ذوات عدد، ولهذا ثبت في الصحيحين وغيرهما أن المشركين سجدوا مع الرسول ﷺ والمسلمين حينما سجد الرسول عند آية السجدة من آخر سورة النجم.

(٢) التأكيد بالْقَسَم بظاهرة من ظواهر خَلْقِ الله المشهودة، في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ عَلَىٰ قضيَّةٍ غَيْبيَّةٍ مُشَابهة، جحدها الّذين كفروا، لأنَّهم استبعدوا نُزُول رَسُول الوحي جبريل من السماوات إلى رسول الله محمَّد ﷺ في زمن قليل من ليل أو نهار واستبعدوا العروج بالرسول محمّد إلى السماوات العليا بصحبة جبريل عليهما السلام، والعودة

به إلى مكة في ليلة واحدة، وفيه إشارة إلى أنّ أنظمة السُّرعات عند الله في كونه متفاوته تفاوتاً كبيراً.

(٣) استخدام الاستفهام في غير ما وُضِع له، إذ استُعْمِلَ مراداً به الانكارُ على الكافرين وتلويمُهم والتعجيب من أمرهم في عدّة مواضع: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾؟! - ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾؟! - ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾؟! - ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾؟! - ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾؟! - ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟!

(٤) الكناية عن الموصوف بالاكتفاء بذكر صفته فيما يلي: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾(أي: جبريل) - ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ (أي: بالمثوبة الحسنى، أو بالجنة التي هي حسنى) - ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ (أي: نفس وازرة وزر نفس أخرى.

(٥) التشبيه المكْنِيُّ في قوله تعالى عن الّذي كَفر: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ - شبّه الّذي ينْخل بسبب شُحّ نفسه بَعْدَ أن أعطَىٰ قليلاً، بمَنْ يَحْفِرُ من البِئر شيئاً ثُمَّ يَجِدُ كُدْيَةً (أي: صَفَاةً عظيمةً تمنعُهُ من متابعة الحفر).

وقد سمَّيْتُ هذا النوع تشبيهاً مَكْنِياً، لأنَّهُ من قبيل التشبيه البليغ الذي ذُكِرَتْ فيه بعضُ لَوَازِمُ المشبه به[1].

❁ ❁ ❁

## (١٢)

# الملحق الثاني

# حول معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة

جاء في القرآن المجيد حول موضوع عقيدة المشركين في الملائكة

(١) انظر مبحث التشبيه المكنيّ في كتابي البلاغة العربية. الجزء الثاني ص٢٠٤.

بأنّهم إناثٌ، وبأَنَّهُمْ بناتُ الله، وبأنهم يشفعون لهم عند الله إذا تقرّبوا إليهم بالعبادة وَبأنّهم شركاءُ لله في إلهِيَّته، تسْعُ نصوص في ثَماني مراحل من العهد المكيّ، بثماني سور.

وجاءت معالجة هذا الموضوع موزّعَةً في هٰذه المراحل، مَعَ إعادة ما يقتضي السّياق والعلاجُ التربوي والإقناعيُ الأَفْضَلُ إعادَتَه منها، ومع إضافَةِ ما يقتضي الأسلوب التدريجيّ إضافته.

**المعالجة الأولى:**

ما جاء في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

وقد تدبّرنا ما جاء فيها حول هذا الموضوع خلال تدبُّر السُّورَة.

**المعالجة الثانية:**

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) خطاباً للمشركين:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾؟!.

أي: أَفَآثَرَكُمْ رَبُّكُمْ بالبَنِينَ، واتّخذ لِنَفْسِه من الْمَلاَئِكَة إناثاً بالولادة أو بالتَّبَنّي، ثُمَّ جعلَهُنَّ شركاء له في إلَهيَّته، المستلزمة لمشاركتهم له في رُبوبيّته، دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ بعد آيَةٍ خطاباً لرسوله ولكل داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: قُلْ: لَوْ كان مع الله عزَّ وجلَّ آلِهَةٌ تَسْتَحِقُّ العبادَةَ بِمَا لها من

مشارَكَةٍ للَّهِ في رُبُوبيَّته، لاتَّخذَ هؤلاءِ الآلِهَةُ الأَرْبابُ إلى ذي العرشِ سبيلاً أي: إلى منافَسَةِ الله في رُبوبيَّتِه، ومضادّتِهِ في إرادَاته، ولنجَمَ عن ذلِكَ فسادٌ كبيرٌ في السَّمَاوَاتِ وفي الأرْض، لِتَعَارُض الإرادات، وتناقض المُرادَات.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴿٤٠﴾﴾ أي: في زعمكم أن الملائكة بناتُ الله، وقد تنزّه سبحانه عن ذلك.

المعالجة في هذا النصّ جاءت بأسلوب الاستفهام الاستنكاريّ التعجيبيّ من أمْرِ المشركين، الذي يتضمَّن التقريع والتوبيخ لهم على معتقداتهم الباطلات، التي لا يملكون لإثباتها أيّ دليلٍ فكريّ، أوْ خَبَرِيٍّ عن الرَّبِّ الخالق جلّ جلاله، أو حسّيٍّ، بل الأدلَّةُ العقلية والخبريَّة الصحيحة الصادقة تُثْبتُ نقيض هٰذِه المعتقدات.

**المعالجة الثالثة:**

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الصافّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) قولَهُ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾: أي: فاسألهم سؤال مناظر مجادل بالحق عنْ حُكْمِهم الفاسِدِ واعتقادهم الضّالّ الَّذي جعلُوا فيه للَّهِ رَبِّكَ وربِّهم البناتَ، واصْطَفَوْا لأنفسهم البنين، وهذا صالح لادّعاء النسبيَّة، أو ادّعاء التبني.

والاستفهام فيه معنى التلويم والإنكار والتقريع والتعجيب من أمرهم.

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾؟!﴾: أي: بل أخلقنا الملائكةَ إناثاً وهم حاضرون شاهِدُون خَلْقَهُمْ، فعَرَفُوا من المشاهدة أنَّ الملائكة إناثٌ؟!. وهذا صالح لادِّعاء التَّبنّي.

«أم» هذه هي المنقطعة، وهي بمعنى «بل» مع محافظتها على الدلالةِ على الاستفهام.

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

﴿أَلَآ﴾: أداةَ استفتاحٍ وتنبيه بقوة، أي: ألاَ إنَّ الكافرين ليقولون من إفكهم أي: من كذبِهِمْ علىٰ الله وَلَدَ اللَّهُ ولَداً، وإنَّهُم لَكَاذبُونَ في قولهم هذا:

جاءت هاتان الجملتان مؤكّدَتين بالجملة الاسمية وحرف «إنّ» واللام المزحلقة في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ وفي ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾؟!﴾: أي: آآثَر لِنَفْسِهِ البنات على البَنين؟! إنَّ هَذَا لَحُكْمٌ على الله باطلٌ ظاهر البطلان، لا دليلَ عليه من عقل أو حِسٍّ أو نَقْلٍ صحيحٍ عن الله: بل الأدِلَة تُثْبِتُ أَنَّ كُلَّ ما سوَى الله عزَّ وجلَّ خَلْقٌ من خلْقِه، فلا نَسَبَ بَيْنه وبين أحَدٍ من خلْقه، وليس بحاجة سبحانه إلىٰ أنْ يَتَبَنَّىٰ أحداً من خلْقه، والاستفهام إنكاريٌّ تعجيبيٌّ.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾؟!: أي: أيُّ شيْءٍ حصل لكم فأفْسَدَ عقولكم فجعلكم تقولون: الملائكة بنات الله، أو هم إناث، أو أيُّ شيْءٍ هو لكُمْ من الحق في ادّعائكم الباطل على الله؟! كيف تحكمون على الله هذا الحكم الباطل؟! أفلا تتذَكَّرُون ما أعدّ الله للكافرين به من عَذابٍ خالدٍ في جهنَّم، فتتعظون وتَرْهَبُون، وتتبرَّءُونَ من افتراءاتكم على الله.

وفي هذا تقريع لهم بأنهم يبنُون معتقداتهم على أوهام باطلة، أو تقليد أعمى.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾:

أي: بَلْ أَلَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ من نَصّ كتابٍ رَبَّانِيّ يُثْبِتُ ما تقولُون على الله، فإنْ كان لديكم شيْءٌ من ذَلِكَ فَأْتُوا به إنْ كُنْتُمْ صَادِقين.

وفي هذا مطالبة لهم بالدّليل الخبريّ عن الله، إنْ كان لديهم شيء من ذلك، لكنهم لا يملكون.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أي: وجعل بعض المشركين بين الله وبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً، وهذا يَنْطَبِق على الجنّ الذين زعَمُوا لقرنائهم من الإنسِ أَنَّهُمْ ملائكةٌ وأَنَّهُمْ بنَاتُ الله، وينطبق على الذين يَزْعُمونَ أنَّ اللَّهَ خَطَبَ إلى سادات الجنّ فَزَوَّجُوهُ من سَرَواتِ بناتهم، فالملائكةُ بناتُ الله من سَرَوَات بناتِ الجنّ.

ولَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ الكافرون الّذِين أَوْحَوا لقُرنَائهم من الإنس أنّهم ملائكة، وأَنَّهُمْ بناتُ الله، لقد عَلِمُوا أَنَّهُمْ سيكُونُونَ مُحْضَرِينَ في عذاب جهنَّمَ، مع سائر الكفرة من الإنس والجنّ، وكُسِرَتْ همزَة (إنّ) في الآية لأنَّ اللام المزحلقة جاءت في خبرها.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

وقُرِئ: [المُخلِصِينَ] بكَسْر اللاّم.

أي: تَنَزَّهَ اللَّهُ عمّا يَصِفُه به جميع الواصفين، إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ المخلَصِينَ بالنبوّة، والمُخلِصِينَ بالاستقامة والتَّقيُّدِ بما جاء عن اللَّهِ في صفاته، فإنَّهُمْ لا يصِفُون الله عزّ وجلّ بشيْءٍ لا يَلِيق بذاته أو بِصفاته، بل يَصِفُونَهُ بكلّ كمال، ويُنَزِّهُونه عن كلّ نقْص، ويَتَقيَّدون في ذكر صفات الله بما صحّ عن الله ورسوله، أوْ قامَتْ عليْه براهين العَقْلِ الصحيح.

**المعالجة الرابعة:**

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

دَلَّ هذا النَّصُّ على أنّ أكْثَر المشركين كانوا يُؤْمِنُونَ بالْجِنِّ وبخُرَافَاتِ الجنّ، وأنَّ الجِنَّ يَزْعُمونَ لِقُرنائهم من الإنْسِ أنَّهم ملائكة، فيُصدّقونهم، ويقولُون للناس هؤلاَءِ الّذين نتَّصِل بهم ويدعوننا لعبادتهم هم ملائكة، فيجلبُون لنا بعبادتهم نفعاً، ويَدْفَعُون عنّا بها ضرّاً، ويأتُونَنا بأخبار غيبيَّةٍ لا نسْتَطيعُ أنْ نأتي بها إلاَّ إذا أخبرونا بها.

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾: أي: أكثر المشركين يؤمنون بِالكَفَرة من الجنّ، لا بما جاءَهم عن ربّهم.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: تنزّهْتَ ربَّنا عن أن يكون لك شريك في إلّهيَّتكَ، فنحن بريئون من عبادتهم لنا، في هذا اقتطاع لمشهد من مشاهد يوم الحساب، وتقديم له كأنه تمّ وانقضى، وهذا من روائع القرآن البيانية التي تدلُّ على تحققِ الوقوع.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: أي: لا وَليَّ لنا إلاَّ أنت، فلم نَعْبُدْ نحْنُ أحداً غَيْرَكَ، ولم نَدْعُ أحداً من دُونِكَ لعبادَتِنا، ولم نتَّخِذْ أيَّ شيءٍ يُغْرِى أحداً بعبادتنا.

أصل مادّة «الوليّ» تدور حول معنَىٰ الاتّباع، فهي تُطْلَقُ على التابع وعلى المتبوع. فالمعنى لم نَتّبع غَيْرك ولم نَدْعُ أحداً لاتِّباعِنا.

﴿مِن دُونِهِم﴾: أي: من غيْر من كانُوا يَعْبُدونَنا، فهؤلاء لم يَكُنْ بيننا

وبَيْنَهم ولايةٌ ما، ويومئذٍ يقول الله عزَّ وجلَّ للمشْركين وللّذين كانوا يعبدونهم من دون الله مقالين:

**الأول**: فالْيومَ لا يَمْلِكُ بعضُكُمْ لبعضٍ نفعاً ولاَ ضرّاً.

**الثاني**: يقول الله عزّ وجلّ للذين ظلموا: ذُوقوا عذاب النار الّتي كنتم بها تكذّبون، ويكون هذا قبل أوْ بَعْد إدْخالهم في جهنم.

وفي عرض هٰذين المقالين تحذير شديد للمشركين من المصير التعيس الذي سيصيرون إليه إذا أصَرُّوا على شِرْكهم وكفرهم بما جاءهم به رسولُ ربّهم، وهذه معالجة تربويَّة تعتمد على موعظة الترهيب، بعرض مشهد من مشاهد الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

**المعالجة الخامسة:**

ثمَّ أنزل اللّٰهُ عزَّ وجلّ في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول) قولَهُ بياناً لما عليه المشركون في مفهوماتهم حول هذا الموضوع:

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

اشتمل هذا النصّ على المعالجة الخامسة للمشركين بشأن أقوالهم ومعتقداتهم حول الملائكة، وزعمهم أن الملائكة إناث، وبأنّهم بناتُ الله، وبأنهم يَشْفَعُون لهم عند الله إذا تقرّبوا لهم بالعبادة، وبأنّهم شُركاء للّهِ في إلٰهيّته.

● ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

إنّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ صَمَدٌ، لا يَتَّحِدُ بذاته شَيْء هو من غير ذاته، ولا ينفصل عن ذاته جُزءٌ هو من ذاته، فَهُو لم يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ.

وكلُّ الأحياء التي خَلَقَها في كونِه مملوكَةٌ لَهُ، فَهُمْ عِبادُهُ، هو خالِقُهُمْ، وهُوَ مالِكُهُم، وهو المتصرّف بهم على ما يشاء، وقد خلقهم بكلمة التكوين.

والَّذِينَ زَعَمُوا أنَّ الملائكة بناتُ اللَّهِ قد جَعلُوا بالكذِب والافتراء للَّهِ مِنْ عباده الّذِين خَلَقَهُمْ جُزْءاً، فالمنفصل عن شيء بالولادة هُو جُزْءٌ مِنَ الشَّيْء الّذي انفصل عنه، والجزْءُ المنفصل عن الشيء لا بُدَّ أَنْ يَحْمِلَ شيئاً ما من خصائص الأصل الذي انفصل عنه.

لكنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ مُنَزَّهٌ بذاتِهِ عن أن يَدْخُلَ في ذاته شيءٌ فيتَّحِدَ بها، ومُنَزَّهٌ عَنْ أنْ يَنْفَصِلَ عن ذَاتِه جُزْءٌ، فيكون له وُجودٌ منفصل.

إنَّهُ أحَدٌ، إنّه صَمَد، إنَّهُ لم يَلِدْ ولم يُولدْ، ولم يكن له كفُواً أحد.

فنَبَّهَ هذا النّصّ بهذه الآية، على أنّه يستحيلُ عقلاً أنْ يكون لله الأزليّ الأبَدِيّ جُزْءٌ قَابلٌ لأن يَنْفصِل عنه، وتَكُونَ له ذَاتيّة خاصَّةٌ.

وقد غابت هذه الحقيقة عن معظم المفسرين، فلم يولُوها العناية الكافية من البيان والشرح.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾: أي: ووصَفُوا اللَّهَ بأنَّ لَهُ ذُرِّيَّةً انْفَصلَتْ عنه، فَجَعَلُوا بهذا الْوَصْفِ المفترَىٰ عليه بعضَ عبادِهِ الذين خَلَقَهُمْ بأمْرِ التكوين جزءاً منفصلاً عنْ ذاتِه سبحانه وتعالى.

فِعْل «جَعَلَ» مُسْتَعمَلٌ هُنَا بمعنى إسناد حكْم باطِلٍ إلى الله عزَّ وجلّ، وهذا أحد المعاني الّتي اسْتعملَ للدّلالة عليها هذا الفعل في القرآن.

وهذا ينطبق على الذين زعَمُوا أنَّ الملائكة بناتُ الله، وعلى الذين

زعَمُوا أنَّ عيسى ابْنُ الله، وعلى الذين زعَمُوا أنَّ عُزيراً ابْنُ الله، إلاّ أنَّ سياق هذا النصّ يدلُّ على أنَّ الْمُرَادَ به الذين زعَمُوا أنَّ الْمَلاَئكَةَ بناتُ الله، فعَبَدوهُمْ من دون الله.

● ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾:

يؤكّد الله بالجملة الاسمية وبـ«إنَّ» وباللام المزحلقة أنَّ الإنسانَ شديدُ الكُفرِ بربّه في وَقَاحَةٍ ظاهرة.

والمرادُ بالإنسان المقدار الأعظم من هذا النَّوعِ، بدليل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿لَكَفُورٌ﴾: أيْ: لَشَدِيدُ الكُفرِ، صيغَةُ «فَعُول» من صيغ المبالغة.

﴿مبين﴾: أي: ظاهِرٌ واضِح، يقال لغة: أبَانَ الشَيْءُ فَهُو مُبِين، إذا ظهر واتَّضَحَ.

ومن شِدة كُفر الإنسَانِ الواضحِ الْجَلِيِّ أَنْ يَنْسُبَ لِلَّهِ وَلداً، وأَقْبَحُ من هذا أنَّ يَزْعُم أنَّ أَوْلاَدَ اللَّهِ بناتٌ، فيقولَ: الملائكةُ بَنَاتُ الله، مع أَنَّهُ هو إذَا بُشِّرَ بمولودة له أنثىٰ كَرِه ذلك، وظلَّ وجْهُهُ مُسْوَدّاً وهُوَ كظِيمٌ.

● ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾

أي: إنَّ جَعْلَ الملائكةِ بنَاتَ اللَّهِ له احْتِمالاَن:

● إمّا أنْ يعْتَقِدَ قائِلُ هذا أنَّ الملائكةَ بنَاتُ اللَّهِ نسباً، وقد جَاءَ رَدُّ هٰذا الباطل بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا...﴾

● وإمّا أنْ يعْتَقِدَ أنَّ الملائكة خَلْقٌ من خَلْقِ الله، إلاّ أنَّ الله جَعَلهُمْ إنَاثاً، واتَّخَذَهُمْ جُنوداً لِنَفْسه، وآثَرَ الناسَ علَىٰ نفسه فَخلَق لَهُمْ بَنِينَ.

- ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ؟﴾: أي: بل أَتَّخذَ لِنَفْسِه ممَّا يخْلُقُ بناتٍ؟.

- ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾: أي: وآثركُمْ على نفسه بالبنين.

استفهامٌ إنْكارِيٌّ عليهم، وتعجيبيٌّ من أَمْرهم، كيف يتصوَّرُون أن الله اخْتَار لنفسه الأدنَىٰ، وآثَرَ النَّاسَ بالأكمل؟!!

- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾:

أي: وإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بما وَصَفَ الرَّحْمٰنَ به كَرِهَ ذَلِكَ واغْتَاظ، وجاء التعبيرُ عن وصْف الله بأنَّه ولَدَ البنات، أو جُنودُه بنَات، بعِبَارة: بمَا ضَرَبَ للرَّحْمٰنِ مثلاً، أي: صنع من عنده مثلاً زَعَمَ أنَّهُ مشابِه للرحمن، وهٰذا المثلُ الَّذي صَنَعَهُ ذُرِّيَّتُه بَنَاتٌ، أو جُنُودُهُ بَنَاتٌ.

هٰذَا مِنْ بدائع العِبَارات الّتي تَدُلُّ علَىٰ الْمَقْصود، مع تكريم الله عن أنْ يُقَالَ: الله مِثْلُ عبادِهِ في إنجاب الذُّرِّية.

فالعبارة تَدُلُّ علَىٰ أنَّهُمْ صنعُوا مِنْ عِنْدِهِمْ مَثَلاً، وجَعَلُوا هٰذا المثَلَ مشابهاً للرَّحْمٰن وهُمْ كاذِبونَ.

وجَاء في هٰذه الآيةِ الكِنَايَةُ عَنْ غَيْظِ مَن يُبَشَّرُ منهم بولِيدَةٍ أُنْثَىٰ بعبارةٍ: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ أي: بَقِي وجْهُهُ كالِحاً علَيْهِ سَحَابَاتُ سَوَادٍ تَدُلُّ علَىٰ كراهيته لما بُشِّرَ به، وغَيْظِه منه، مَا دامَتْ مُنَاسَبَةُ الولادة مُتَداوَلة على ألسنة عشيرته.

أُطْلِقَتِ الظَّاهِرَةُ التي تَبْدُو في الوجه، والمرادُ الحالة النفسيَّة المؤثرة في هذه الظاهرة وهي الغيظ.

وجاءت عبارة: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ دالَّةً عَلَىٰ الغيظ المحبوسِ في النفس.

﴿كَظِيمٌ﴾: أي: مُمْسِكٌ على ما امتلأَتْ بهِ نفسُه من غيظٍ أوْ غضبٍ، أصْلُهُ في اللّغة مأخوذٌ من: كَظَمَ السِّقَاءَ، أي: مَلأَهُ وسَدَّ فَاهُ.

- ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾؟!!.

في هذه الآية متابعةٌ لتقريع المشركين وتوبيخهمْ، بشأن ادّعائهم أنَّ الملائكة بناتُ اللّهِ بالنَّسب أو بالتَّبنّي ممَّنْ خلَق.

فهي تتضَمَّنُ طرْحَ سُؤالٍ عليهم: أيُّهما أفضلُ في تصوُّرِهم لاختيار جُنْدٍ يُكَلَّفُونَ وَظائِفَ عَظمىٰ في الكَوْن؟؟

هل اختيار أشِدَّاءَ أقوياء مُطِيعينَ لا يَعْصونَ، أم اختيارُ بنَاتٍ ناعماتٍ من طَبْعِهنَّ حُبُّ الدَّلاَل، وحُبُّ الزِّينَة رغْبَةً في أن يَكُنَّ مَحْبوبَاتٍ عِنْدَ أزْواجِهنَّ، فَأوْلياؤُهنَّ يُنَشِّئْنَهُنَّ ويُرَبِّينَهنَّ في الْحِلْيَةِ ممَّا تَتزَيَّنُ به البنَاتُ، إشْباعاً لرغباتِهنَّ، وإعْدَاداً لَهُنَّ حتَّىٰ يَكُنَّ سَارَّاتٍ لأزْواجِهِنَّ. سعيدات مُسْعِدَاتٍ في حياتهنَّ. وبتأثير عواطِفهنَّ، وعدم قُدْرَتِهِنَّ على ضبط رَغباتهن، يَكُنَّ في المخاصماتِ ثائراتٍ وغير مُبيناتٍ لحُجَّتهنَّ، وهذه إحدى مظاهر صفاتهن الرقيقة الناعمة.

والجواب الذي يجيب به كلُّ مُنْصِفٍ: أنَّ حِكمة الحكيم تقتضي أن يَخْتَار للقيام بوظائفَ جليلةٍ عظمىٰ في الكون، عباداً أشدّاءَ أقواءَ مُطِيعين لا يعصُونَ الأوامر، ويفعلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وهذه الصفات غير موجودة في البناتِ، بالنظر إلى النسبة الغالبة عليهن.

والآية فيها محذوف مُقدَّرٌ يمكنُ استخراجه بقليلٍ من التأمُّلِ، والتقدير: أو مَنْ يُنَشَّأُ في الْحِلْيَةِ وهُوَ فِي الْخِصَام غَيْرُ مُبِين خَيْرٌ، أم مَنْ هو عَبْدٌ شدِيد قويٌّ مطيعٌ لا يَعْصِي الأوامر، ولا تميلُه العواطف والانفعالاتُ فتخرجه عَنْ طريقِ الطاعة، للقيام بوظائف جليلةٍ عظمىٰ في الكون؟!!

أي: فكيف صَحَّ في تَصَوُّرِكم أَنْ يختار الربُّ الحكيم لنفسه ملائكةً إناثاً؟!! إنَّ هذا لمنكَرٌ عظيم، وعُدْوَان علىٰ حكمة اللّٰهِ البالغة.

بل الملائكة عبادٌ مُكْرَمُون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤْمَرون، فليسوا إناثاً ولا ذُكوراً.

• ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: وجَعَلُوا بحُكْمِهِمُ القائِم على التوهُّم، الملائكةَ الذين هم عُبادُ الرَّبِّ الرَّحْمٰنِ، وَلاَ يُوصَفُونَ بذُكورةٍ ولا أُنوثَةٍ، جعَلُوهُمْ إنَاثاً، لَهُنَّ صِفَاتُ الإناث.

وَجاءتْ معالجةُ المشركين هُنَا بسُؤَالِهِمْ عَنْ دليلٍ حسِّيٍّ كانوا هم الذين شَهِدُوه بأنفسهم، فَقَالَ الله بأسلوب الكلام عن الغائب، دون أنْ يواجههم بالخطاب:

﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ؟!!﴾

أي: أشَهِدُوا الملائكةَ وشَهِدُوا أعضاءَ الأُنوثَةِ فيهم؟؟ سؤال يُطْرَحُ علَيْهم، ليُجِيبُوا عليه.

فإنْ كَذَبوا وَقالوا: نَعمْ شَهِدْنا خَلْقَ الملائكة.

فالجواب الرَّبَّانِيّ يقولُ الله فيه:

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾:

أي: سَتُكْتَبُ في صحف الملائكة الذين يراقبونَهُمْ ويُسَجّلونَ عليهم أعمالهم وأقوالهم، شَهَادَتُهم الْكَاذِبة، ويُسْأَلُونَ يوم الدِّين في موقف الحساب عن كذبهم في شهادتهم، للحكم عليهم.

• ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

في هٰذِهِ الآية بيانٌ لمقولَةٍ جَدَلِيَّةٍ من مقولات المشركين، حول معبوداتهم من دون الله، مع بيان أنَّ مقولَتَهُمْ هٰذِهِ محرومَةٌ من سَنَدٍ عِلْمِيٍّ يَقْبَلُه أهل الفكر والفهم السليم لحقائق القضايا الفكريّة، وأنَّها مبنيَّةٌ عَلَىٰ الخَرْصِ.

﴿يَخْرُصُونَ﴾: أي: يأتي هذا الفعل بمعنيين:

**المعنى الأول**: يقال فيه: خَرَصَ يَخْرُصُ، أي: كَذَبَ.

**والمعنى الثاني**: يقال فيه: خَرَصَ فُلانٌ الشيءَ، أي: حزَرَهُ وقدّره بالظنّ.

وباستطاعتنا فَهْمُ ما جاء في هذه الآية على المعنَيَيْن، ولكن على التوزيع بين قائلي هذا القول الباطل، فقسم منهم يقولُهُ كاذباً وهو يعلم أنّه كاذب، ولكن يقوله جَدَلاً. وقسم آخر منهم يقولُهُ على سبيل الحزْر والتخمين والحكم بالظَّنّ الضعيف، وهذا القسم مسؤولٌ عقلاً وديناً عن الحكم بقضيَّة ليس له فيها عِلْم، ولا سيما أنَّ برهان العقل يثبت بطلان مقولتهم.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾: قَصَدَ المجادلون من المشركين بمقولتهم هذِه، أنَّ عبادَتَهُمْ لآلِهَتِهِمْ من دُونِ الله، قد تَمَّتْ بمَشِيئَةِ الله الْجَبْرِيَّة، فَهُمْ يُلْقُونَ مسْؤُوليَّة عبادتِهِم لآلِهَتِهِم على اللّهِ عزّ وجلّ، الذي جعلَهُمْ مجبورين على ما يقومون به من أعمال شركيَّة.

وليس قَصْدُهُمْ أنَّ الله لو شاء لسَلَبَهُم اختيارهم، فمنعهم بالجبْرِ عن عبادتهم لآلهتهم، لأنّ هذا المعنى صحيح وتُحمَلُ عليه نصوصٌ قرآنية كثيرة مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿...وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: ولو شاء الله لسَلَبَ النَّاسَ مَا وهبهم من إرادةٍ حُرَّة، ولجعَلَهُمْ مجبورين غير مختارين، وعندئذٍ يكونون مجبورين على الهداية كالملائكة، ومجتمعين على الْهُدَى، لأنَّ اللَّهَ لاَ يُجبرُ على الضلالة.

وجاء الرّدُّ القرآنيّ على مقولة المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ بقول الله عزّ وجلّ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾: أيْ: لَيْسَ لهم بمقولتهم الّتِي قالُوها قاصِدِينَ أنَّ اللَّهَ قَدْ جعلهم مجبورين بالتكْوِين الجبريّ على عبادة آلِهَتِهم الّتي يَعْبُدونها، أيُّ عِلْم يسْتَنِدُونَ إليه، مهما كانت وسائل هذا العلم، والمراد بالْعِلْم هُنَا ما كانت وسائِلُه حُججاً عقليَّة فكريَّة.

وإذْ لا عِلْمَ لهم بذَلِكَ الباطل الذي قالوه، فإنَّهُمْ لم يَبْقَ لهم إلاَّ احتمالان:

**الاحتمال الأوّل**: أنَّهُمْ يكذبون متعمّدِين الكذب.

**الاحتمال الثاني**: أنّهم يظُنُّون ظنّاً توهُّمِيّاً ضَعِيفاً لا قيمة له في اكتساب معرفةٍ صحيحة، فظنُّهُمْ حَزْرٌ وتخمين.

دلّ عليهما قوله تعالَىٰ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

- ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

بقي احتمال أن يكون للمشركين في مزاعمهم الشركيَّة، وأقوالهم الباطلة، مُسْتَمْسَكٌ يَسْتَمْسِكُونَ به من كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ، وقد جاءت هٰذِهِ الآيَةُ تَطْرَحُ عليهم دون مُواجهتهم بالخطاب سؤالاً يتضَمَّنُ ما يلي:

بل هل آتاهم ربُّهم كتاباً من قَبْلِ القرآنِ يشْتَمِلُ على ما يَدُلُّ على مزاعمهم الشّركيّة، وأقوالهم الباطلة، فَهُمْ بمَا فَهِمُوا من هذا الكتاب الرَّبّانيّ مُسْتَمْسِكُونَ؟!!

والجوابُ الذي يَدُلُّ عليه بُرْهانُ الواقع: هو أنَّهم ليْسَ لديْهم أيُّ كتابٍ رَبَّانِيٍّ من قبل القرآن يستَمْسِكُونَ بِهِ، وفيه ما يزعُمون.

فَسَقَطَتْ كُلُّ الاحتمالات الّتِي يُمْكِنُ تَصَوُّرُها ذِهْناً، والّتِي يُمْكِن أن يتذَرَّعَ بها المتذرّعون.

مستمسكون: أي ممسكون بقوة وشدّة، الإمساك: القبض باليد، ويأتي كناية عن الاعتقاد والعمل.

إذَنْ: فما هي ذَرِيعَتُهُم التي جعَلَتْهُكْ يُصِرُّونَ على ما هم فيه من شرك وأقوال باطلة؟!!.

لقد أجابت الآيَةُ التاليَةُ على هٰذا السُّؤالِ:

- ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴿٢٢﴾﴾.

**أُمَّة**: المرادُ بهذا اللَّفْظِ هُنا الطريقةُ والمِلَّة.

أي: ليس لهم أيُّ حُجَّةٍ يَحْتَجُّونَ بِهَا إلاَّ تقْليدُهم لآبائِهِمْ، وهو في الحقيقة تقليدٌ أعْمَىٰ. لكنَّهُمْ يَزْعُمونَ أنَّهم بالسير على آثار آبائهم مُهْتَدُون، وهم في الحقيقة ضالُّون.

**المعالجة السادسة:**

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) قوله حكايةً لاستمرار المشركين على ما كانُوا عليه:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾: أي: ما زال المشركون حتَّىٰ قُرابَةِ أواخر العهد

المكيِّ مُصِرِّينَ علَىٰ زعْم أنَّ الملائكة بناتُ الله، دَلَّ على هذا استعمال الفعل المضارع ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ الدّالِ على التجدُّدِ والتكرار.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾: أي: تَنَزَّه الله وتعالَىٰ عمّا يقولون.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾: أي: ويجعلُونَ لِأَنفسهم الذكور، فيتفاخرون بأولادهم من الذكور، استجابة لما يشْتَهُون، من أن يكون لهم من أولادهم أنصارٌ وأعوان ذوو قُوَّةٍ وَبأْسٍ، وقدرة على أعمال الكسب والحرب.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾: أي: وإذا أُخْبِرَ أحَدُهم بالمولودة له الأُنْثَىٰ، أي الّتي كان يتخوَّفُ أن تُولَدَ له، فَهِيَ ماثلَةٌ في تصَوُّرِه حذراً وكراهية، ولهذا جاء تعريف اللفظ بـ«ال».

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾: أي: بقي طَوال يَوْمِه مُكْفَهِرَّ الْوَجهِ، تدور فيه غشاوة ذاتُ سواد من غيظه، أو يَشْعُر أنَّ قومه يَرَوْنَ وجْهَهُ أسْود، إذْ وُلِدَتْ له مولودةٌ أنْثَىٰ.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي: وهو مُمْسِكٌ على ما امتلأَتْ به نفسُه من غيظٍ أو غضب.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾: أي: يستَتِر من قومِه فلاَ يَظْهرُ لهم من قُبْحِ مَا بُشِّرَ به، إذْ بُشِّرَ بمولودة أنْثَىٰ.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾: أي: يُحَدِّثُ نَفْسَهُ مُتَسَائِلاً: ماذا يَفعلُ بهذا المكروه الحيِّ الذي بُشِّرَ به؟.

إنّهما أمران أحلاهما مُرٌّ:

**الأمر الأول**: أن يُمْسِكَهُ وَيُضِيفه إلى مواليده صابراً علىٰ الذُّلِّ الذي نزل به.

**الْهُونُ**: الذُّلُّ.

**الأمر الثاني**: أن يتخلَّصَ مِنه بالوَأْدِ، بأنْ يَدُسَّهُ، حيًا في التّراب.

وقد كانت هذه الشنيعة من أعمال الجاهلية عند بعض العرب.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: «ألاَ»: أَداة استفتاح وتنبيه بقوّة، وفيها معنى تأكيد لزُوم استماع الكلام الآتي بعدها. «سَاءَ» فعل ذَمٍّ وتقبيح.

«**مَا يَحْكُمُون**» أي: قَبُحَ قبحاً شنيعاً ما يحكمون من أحكام باطلةٍ فاسدة، جَرَّتْهُمْ إلى كراهية المواليد من الإناث، وأحكامٍ باطلةٍ جعلَتْهُمْ ينْسُبُون إلى الله البنات بالولادة أو بالتبنّي ممّا خلق.

فأضاف هذا النصّ قبيحة وأْدِهم للبنات وهم يجعلون لله البنات.

## المعالجة السابعة:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) قوله يصف الملائكة ويبيّن أنّهم عبادٌ مُكْرَمُون يخافون ربهم ويفعلون ما يأمرهم به، فهم بأمْرِه يعملون:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾.

- ﴿وَلَدًا﴾: الْوَلَدُ، والْوُلْدُ: كُلُّ مَا يُولَدُ، يطْلَقُ على الذكر والأُنْثَىٰ، الواحد، والمثنّىٰ، والجمع، ويُجْمَعُ على أوْلادٍ وَوِلْدة.
- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾: أي: وقال المشركون اتَّخذ اللّهُ الملائكةَ أولاداً له، وقد جاء في العبارة اسم الله الرحمن، ولو كان المشركون لا يُؤْمِنُونَ بهذا الاسم، لأنَّ اللّهُ هو في الحقيقة الرَّحْمٰن شاء المشركون أم أبَوْا.
- ﴿سُبْحَانَهُ﴾: أي تنزّه جلّ جلاله عن الولد.

• ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾: أي: بل الملائكة عبادٌ من العباد المملوكين لله، وهم مُكْرَمُونَ، أي: ذَوُو منْزِلَةٍ عاليَةٍ عنْدَ رَبّهم.

• ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾: أي: لا يقول الملائكةُ قَوْلاً لم يأمُرْهم الله بقَوْله، أو لم يأذَنْ لهم بقولِهِ، فهم في أقوالهم مطيعون لربّهم طاعَةً تَامَّةً كامِلةً، جاء في هذه العبارة التعبير عن الطاعة التامَّة بَعَدم السَّبق، وهو كناية عن كمال المتَابَعِة، لأَنّ السابق يتقدم فينفرد بنفسه في اختيار طريقه.

• ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾: أي: والملائكة بأمْرِ الله وحْدَهُ يَعْملُونَ، فلا يعملون بأمر غيره، دلَّ على القصر تقديم المعمول وهو «بأمره» على عامله، وهو «يَعْمَلُونَ» وهذا التقديم يُفِيد القصر.

فدَلَّ هَذَا النصّ على أنَّ تصرفات الملائكة القوليّة والعمليّة خاضعة خضوعاً تامًّا بعبوديَّةٍ كاملةٍ لله جلّ جلاله، إذْ خلَقَهُم الله جُنُودَ طاعة، ولم يخلُقْهم ليختبر إرادَاتهم الحرَّةَ فيما آتاهم، كما خلَق الإنْسَ والجنّ.

• ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾: أي يعْلَمْ ما بين أيديهم، وهو كُلُّ ما سبَقَ في الماضي، ويعْلَمُ مَا خَلْفَهُمْ، وهو كُلُّ مَا سَيأْتي في المستقبل. ويعلم أيضاً كُلَ ما في أمكنة الوجود أَمَامَهم، وكُلَّ مَا في أمكنة الوجود خلفهم، لا تخفَىٰ عليه خافية.

وهذا يدُلُّ على أنّه لا يستطيع أحَدٌ من الملائكة أَنْ يقول قَوْلاً أو يَعْمَلَ عَمَلاً إلاَّ بأَمْرِ اللَّهِ أو بإذْنه، لأَنَّهُمْ جُنودٌ مفطورون علَىٰ الطاعة، وأقوالهم وأعمالهم أثرٌ لأقوال الله وأعماله، بخلاف أقوال الإنس والجنّ وأعمالهما، إذِ الإنْسُ والجنُّ قَدْ وُضِعوا موضع الامتحان، ليحاسَبُوا ويجازَوْا على أَعْمالهم وأقوالهم، فكان من لازم ذلك أن يُمَكَّنُوا من طاعةِ اللَّهِ وَمِنْ معصيته.

● ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾: دلّت هذه العبارة على أنّ للملائكة شفاعة، ولكنّهم لا يشفَعُونَ إلاّ بإذْنِ الله، ولِمَنِ ارتضَىٰ أن يشْفَعُوا له، وفي حدود ما يُرْضِيه مِنْ قَوْلٍ في شفاعَتِهِمْ.

وشفاعة العباد بعضِهم لبعضٍ عند ربّهم، هي دُعَاءٌ يسأَلُون الله به شيئاً يَنْفَعُ مَنْ يشفَعُونَ له عنده، كَمغْفِرَةٍ، وعَفْوٍ ورفْعِ درجةٍ.

● ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾: أي: والملائكة هم من الخوف من عقوبة الله خائفون.

يقال لغة: خَشِيَ، أي: خاف. ويقال: أَشْفَق، أي: خاف.

ولكنّ الخشية من الله فيها معنى الخوف الممزوج بالإجلال والإعظام والحبّ، وليست مجرّد خوف.

● ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾:

أي: ومَنْ يَقُلْ من الملائكة إنّي إلَه مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُطْرَدُ من صفوف الملائكة، ويُبْعَدُ عَنْ دَائرة رَحمة الله، وذلك المطرود يجزيه الله عَذَابَ جهنم.

هذا قانون الجزاء بشكل عامٍّ، وإنْ كان الملائكة معصومين عن معصية الله عزّ وجلّ بالفطرة، فلَنْ يقول أحَدٌ منهم: إنّي إلَهٌ من دون الله، ولكنّ قانون الجزاء الرَّبّاني يُعْلَنُ على الجميع، ولا يُعْفَىٰ منه أحَدٌ.

وهذا نظير الوعيد الذي وُجّه للرُّسُل بشدّة إذا أشركوا أوتَقَوَّلُوا على الله، مع أنَّهُم معصومون بعصمة الله لهم، وفي بيان هذا تحذيرٌ شديدٌ لغير المعصومين الذين ليس لهم خصوصيّاتُ قُرْبٍ من الله.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: كذلِك الجزاء بعذابِ جهنم نَجْزي كُلَّ الظَّالِمِينَ الَّذِين يَظْلِمُونَ بادّعاء الإلَهيَّة لأنفسهم، أو لغيرهم من دون اللَّهِ عزّ وجلّ.

**المعالجة الثامنة:**

ثمَّ أنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ في أواخر العهد المكيّ قوله في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) وهذا آخر ما أنزل من قرآن حول هذا الموضوع:

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾؟!

وقد ختم اللَّهُ عزّ وجلّ بهذا عِقْدَ الموضوع مصوغاً بأُسْلُوبٍ يُشْبِهُ النَّصّ الذي بدأَهُ بِهِ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) وهو قول الله فيها: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾؟!

وبهذا ارتبط طرفا عقد الموضوع بقُفْلهما ارتباطاً فنّيّاً جميلاً، ونُظِمَتْ حبّاتُ عقد الموضوع على سمطها في مراحل التنزيل نَظْماً تكاملياً بديعاً، يدركه المتدبّر المتفكر في عناصر المعالجة الفكرية والإقناعية، والنفسية القائمة على الموعظة بالترغيب والترهيب.

## خلاصة العناصر التربوية التي اشتملت عليها هذه النصوص

بعد تدبُّر هذه النصوص الّتي اشتملت على معالجة المشركين حول عقيدتهم في الملائكة، يحسنُ أن نُقَدّم خلاصَةً عن العناصر التربويَّة التي تُسْتَفاد منها:

**العنصر الأول**: الاستفهام الإنكاري الذي يتضمّن التقريع والتوبيخ للمشركين، إذ يستمسكون بمعتقداتٍ فاسدات لا يملكون لإثباتها أيّ دليلٍ فكريٍّ، أو حِسّيٍّ، أو خَبَرِيٍّ عَنِ الرَّبّ الخالق، بل الأدلّة العقليّة والخبريَّة الصحيحة الصادقة تُثْبت نقيض هٰذِهِ المعتقدات.

**العنصر الثاني**: بيان الحقيقة والواقع، بآياتٍ منزّلات من لَدُنْ من هو خالِقُ كلّ شيء ومالِكُهُ، والعليمُ بكلّ شيءٍ، فهو وحده الّذِي يجب على الناس عقلاً أن يعتمدوا على خبره في الكائنات الغيبية، التي لا يملكون وسيلة عقليّة، ولاَ وَسيلةً حِسِّيَّةً يتعرّفون بها على حقيقتها.

**العنصر الثالث**: بيان بطلان قياسهم اللَّهَ الرَّبَّ الخالق الأزليّ الواحد الأحد، على أنفسهم في أن يكون له وَلَدٌ سبحانه، وأشدّ من ذلك سقوطاً وبطلاناً ومفارقة عجيبة، أن يجعلوا مواليد الله عزّ وجلّ من صنف الإناث، مع أنهم يحبُّون لأنفسهم الأولاد الذكور، ويكرهون البنات، حتى إنّ أحدهم كان إذا بُشّر بالمولودة الأنثى ظلّ وَجْهُه مُسْوَدّاً وهو كظِيمُ يحبسُ في نفسه غيظه وغضبه، ويتوارىٰ من قومه من سوء ما بُشِّرَ به، وحتّىٰ كان بعضهم يَئِد بنته في التراب تخلُّصاً من عارها أو من نفقتها.

**العنصر الرابع**: إقامة الدليل على أنّ الله عزّ وجلّ لا يمكن عقلاً أن ينفَصِل منْهُ جزءٌ وَأن يَكُونَ له ولَدٌ، لأنَّ ذَلِكَ يتنافىٰ مع أزليّته، ووحدانيته الّتي قام عليها برهان العقل، وشواهد وحدة نظام الكون.

**العنصر الخامس**: بيان أنّ ادّعاء المشركين أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ ولَدَ أولاداً انفصلُوا من ذاته إفْكٌ وكذبٌ على الله، افْتَرَوْهُ من عند أنفسهم، وقد تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً.

**العنصر السادس**: بيان أنّ من زعموهم ملائكة إنما هم في الحقيقة جنٌّ عبَدُوهُمْ من دون الله، ويشهد بذلك الملائكة أنفُسُهم يوم الحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء.

وقد دلَّت نُصُوصٌ موزّعَةٌ في القرآن حول الجنّ أنَّ الكَفَرَة منهم يتَّصِلُونَ بإخوانهم من الإنس، فيوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

ومن الربط بين النصوص نفهم أن من هؤلاء الكَفرة من الجنّ من يزعمون لقرنائهم من الإنس، أنهم ملائكة، وليْسُوا بِجِنّ، ليُلَبِّسُوا عليهم، وليرفَعُوا مكانة أنفسهم لديهم.

**العنصر السابع**: قد يدَّعي بعض المشركين أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ خلَقَ الملائكة إناثاً، ثمّ تَبَنّاهُنَّ، فهُنَّ بناتُ اللّهِ بالتبنّي.

وَهُنَا يُبَيّن الله عزّ وجلّ كذبهم في هذا الادّعاء، ولمّا كان هذا الأمْرُ لا يَثْبُتُ إلاّ بالمشاهدة، أو عن طريق الخبر عن الله، فالله عزّ وجلّ يطالبُهم بإثبات مشاهدتهم إن زَعَمُوا المشاهدة، وبتقديم سلطانهم الخبريّ عن الله إنْ زَعَمُوا أنَّ لَهُمْ دليلاً خبرياً عن اللَّهِ يُثْبِتُ ذلِكَ.

**العنصر الثامن**: تكذيبهُمْ في ادّعائهم أنَّ اللَّهَ قَدْ قَدَّرَ عليهم قَدَراً جَبْرِيّاً أن يَعْبُدوا الملائكة. وأبان الله عزَّ وجلَّ أنّهم يَخْرُصُونَ، وأنَّهُمْ ليس لهم بذلك علْم ما.

## (١٣)

# الملحق الثالث

# سياسة الداعي في أحوال المدعوّ الذي لم يستجب

الأصل في الداعي إلى الله أن يبلّغ دين الله، ويصْدَعَ بهِ النفوس مجاهراً بما أمَرَهُ الله بتبليغه، ويُنْذِرَ من لم يستجب، ويخوّفَه من عذاب الله، ويُتَابِعَ دعوةَ من يَدْعوهم بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالّتي هي أحسن، ويراجعهم بالبيان والإقناع بالحجة والبرهان، والتذكير بما سبَقَ به البيان، مع الترغيب والترهيب، واتخاذ مختلِف وسائل الإيناس والتودّد، دون يأس ولاَ سَأَم، مهما بقي لدى الداعي أمَلٌ بنَفْع الذّكْرى.

هذا ما اقتضاه قول الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

ومعلومٌ أنّ الإنذار لا بُدّ أن يسبقه التبليغ، والدَّعْوة الرّصينة الرَّشيدةُ بالحكمة، والموْعِظَة الحسَنَة، والجدالِ بالّتي هي أحسن، إذا اقتضى الإقناع ذلك، وقد ذُكِرَ الإنْذارُ باعتباره آخِرَ المراحل، ليَدُلَّ باللُّزُوم الذهنيّ على ما يَنْبَغي أن يَسبقه، وقد يُلَوِّحُ بالإنْذار مع أوائِلِ مراحل التَّبليغ للتنبيه بقوَّة،

ولَفْت الأنظار، واستثارة مشاعر الخوف التي تفتح البصائر للإدراك السليم.

لكن إذا انقطع الرجاء باستجابة الشخص المدعوّ، أو الجماعة الخاصة المدعوّة، وانقطع الأمل بنفع التذكير، وظهر الإصرار العناديُّ على الرفض، فمن الخير للداعي أن يوفّر وقته وجهده، لينفقهما في آخرين لم تُثْبِت المعالجة أَنَّهُمْ ميْؤوسٌ منهم.

## دَرَكَاتُ عدم الاستجابة

أمّا دركاتُ عدم الاستجابة الّتي دلّ عليها القرآن المجيد فهي ستّ دركات:

**الدركة الأولى**: لَيُّ الرَّأْسِ، وهي حركة دون حركة الإعراض، وقد تكُونُ مقدّمةً لها، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ بشأن طائفة من المنافقين، في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾.

**الدَّرَكَةُ الثانية**: الْإعراض، وهو إعطاء الجانب، فهو منْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بين الإقبال والإدْبار.

وعُرْضُ الشيء في اللّغة جانبه، وعارضا الإنسان صَفْحتا خَدَّيْه.

وممّا دلَّ على دَرَكة الإعراض في القرآن قول الله عزَّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾.

**الدركة الثالثة**: النأْيُ بالجانب مع الإعراض، فَهُما حركتان، أولاَهما إعطاء الجانب وصَرْفُ الوجه عن المواجهة، وثانيتهما الابتعاد عن مجلس الداعي مع الإعراض.

وقد دلَّ على هذه الدركة قول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾.

**الدركة الرَّابعة**: الإدْبَار، ويكون بإدارة الظهر إلى الداعي وإعطائه الدُّبُر، وَهو أشدّ من النأي بالجانب مع الإعراض.

دلّ على هذه الدّركة قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) في الآيات التي وصفت الوليد بن المغيرة:

﴿ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝٢٣﴾

**الدركة الخامسة**: النَّأيُ مَعَ الإدْبار، فهما حركتان أُولاَهما إدارة الظهر وإعطاء الدبر، وثانِيَتُهما الابتعاد بالجسم كُلّه عن مَجْلِس الداعي مع الإدْبار.

وقد جاء التعبير عن هذه الدركة بالجمع بين الإدْبار والتولّي.

**التولّي في اللّغة**: يأتي بمعنى الابتعاد والنأي، ويأتي بمعنى الإدبار، فإذا اجتمع اللفظان في عبارة واحدة، كان التولّي بمعنى النأي والابتعاد. وكذلك إذا اجتمع التولّي والإعراض في عبارة واحدة، وقد يأتي التولي بمعنى الابتعاد مع الإدْبار.

وقد دلَّ على هذه الدركة ما جاء في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) حكاية لمقالة مُؤمن آل فرعون لفرعون ومَلَئِه:

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٣﴾.

وقد دَلَّ عليها فِعْلُ: «وَلَّىٰ» وفِعْلُ «تولّى» دون اقترانٍ بما يدلُّ على الإدبار، نُصُوصٌ قرآنية كثيرة، ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾: أي: وَمَنْ أدْبَرَ وابْتَعدَ عن طاعة الرسول ﷺ.

وهذه الدّركة قد يُطْلَقُ علَيْها في القرآن الهجر، ومنه ما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾

أي: أدْبَروا عنه وابْتعدوا ابتعاداً كلّيّاً.

**الدركة السادسة**: العِدَاء والتصدّي للمقاومة والحرْب، وقد دلَّ على هذه الدركة نصوص كثيرة، منها قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾

**الشقاق**: العداوة والخِلاَف.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

## التوجيهات القرآنية بشأن سياسة الداعي

وقد جاءت التوجيهات القرآنيّة للدّاعي، بالنسبة إلى أحوال المدعوّ الذي لم يستجب للدعوة في نصوص متعدّدة مع مراحل الدعوة.

**التوجيه الأول**:

ما جاء في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾. أي: فَذَكِّرْ أيُّها الدّاعي المذكّر بمَا سبَقَ أنْ بلّغتَهُ عن ربّك، ودعَوْت إليه، وبَيَّنتَهُ بأدلّتِه وبراهينه، وبما سبقَ أنِ استَثَرْت به مِحْوَرَي الخوف والطمع بالترغيب والترهيب، ما بَقِي لديْكَ أملٌ باستجابة من تُذَكّرُهُ، وإنْ كان أملاً ضعيفاً مشكوكاً بتحقُّقِهِ، أخذاً من حرف «إنْ» في قوله تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أو نقول: إنْ نَفَعَتِ الذكْرَى السابقة أقلّ نفع، وأثّرت أدنىٰ أثر.

**الذِّكْرَىٰ**: اسم للتذكير.

وجاء في هذا التوجيه بيان أنَّ الذِّكْرَىٰ ستَنْفَعُ من يكُون في نفسه خوفٌ وخَشْيَة، فإذا استشعر الداعي ذلك فليتّخِذ إلى نفس من يدعوه أو يُذَكِّره مثيراً يسْتثير به كوامِنَ الخشية لديه إن بقيت لديه منها بقيّة.

**التوجيه الثاني**:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول):

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩﴾

أي: فاكتفِ بالنسبة إلى هذا المتولّي المدْبر بِمَنْزِلَةِ الإعراض فقط، وهو الحالة الوسطىٰ بين المواجهة والإدْبار، بشَرْط أن يكون قَدْ ثبت لكَ بالمعالجة المتكرّرة أنَّهُ لم يُرِدْ إلاّ الحياة الدنيا.

**التوجيه الثالث**:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (ق/٥٠ مصحف/٣٤ نزول) قوله لرسوله ﷺ، ثم لكل داع إلى الله من أمّته من بعده:

﴿...وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: فتابِعْ تَذْكِيرَكَ بالقرآن من تتفرّسُ فيه أنّه يخاف وعيد الله بعذابه العاجل أو الآجل.

ويُفْهَمُ من هذا أنّ من تَتيقَّنُ أنّه لا يخاف وعيد الله فإنّ التَّذكير لا ينفَعُ فيه.

**التوجيه الرابع:**

ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قوله بشأن إصرار من أصرَّ على التكذيب واتّباع الهوى من مشركي قريش:

﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ...﴾

فوجّه الله عزّ وجلّ في هذا النَّصّ رَسُولَهُ وكلَّ دَاعٍ إلى الله من أمَّته للأخذ بسياسة التَّولّي عن الْمُصِرّين المعاندين، الّذين بلَغ من عنادهم أن يُعْرِضوا عن كُلّ آيَةٍ رَبَّانيَّةٍ يَرَوْنها، قائلين بشأنِها سِحْرٌ مُسْتمر، ومُكَذِّبين رسولَ رَبِّهم، ومُتَّبِعين أهواءهم.

**التوجيه الخامس:**

ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) على رسوله بشأن المصرّين على عدم الاستجابة لدعوته، من مشركي قريشٍ الّذين لَمْ يَبْلُغُوا مبْلَغَ دركة الْهَجْر والعداء والصّدّ عن سبيل الله:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾.

فوجَّه الله رسوله وكلّ داعٍ إلى الله من أمته للأخذ بسياسة الْعَفْو والأمْرِ بتقديم المساعدات لذوي الحاجات استعطافاً لقلوبهم، والإعراض عن الجاهلين، وعدم الاندفاع لمقابلة السيِّئة بمثلها، استجابةً لنَزْغ الشيطان، معَ الاعتصام بالاستعاذة بالله.

واقتصر هذا النّص على التوجيه للأعراض. لأن المدعوّين المشار إليهم في النَّصّ لم يَبْلُغوا مبلغ الْهَجْرِ والعداء.

**التوجيه السادس:**

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول) قوله:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

فوجّه الله في هذه الآية إلى اتّخاذ سِيَاسَةِ أمْرِ الدَّاعي المدعُوِّين بأنْ يَنْظُرُوا بأنفُسِهِمْ إلَىٰ ما في السَّمَاواتِ والأَرْضِ مِنْ أياتٍ دالاَّتٍ على أن الله عزّ وجلّ واحدٌ في رُبُوبيّته، وواحِدٌ في إلَٰهيَّتِه. وعلى ما في الأَرْضِ مِنْ آثار الْمُهْلَكِين الأوّلين الّذين كذّبُوا رُسُل ربِهم، دون أن يَتَّخذ مَعَهُمْ سياسة التذكير والبيان.

ولا بُدَّ أن يكون هذا الفريق من الذين رفَضُوا الاستجابة للدَّعوة، بعْدَ أنْ توارَدَتْ عليهم الآيات المتتابعاتُ المتلاحقات، ثُمَّ لم تُؤَثِّرْ فيهم أثراً إيمانيًا، وبذلك تكون التجربة قَدْ أثبتَتْ أنَّهم لا تَنْفَعُ فيهم الآيَاتُ المقنعات، ولاَ النُّذُرُ المرهبة. وهذه أمارة تَصْلُح لأَنْ يُعامَلُوا مَعَها بالإعْرَاض.

﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾: أي: ومَا تَكْفِي الآيَاتُ والنُّذُرُ صارفَةً عَقَبَاتِ العِناد والإصرار على الكفر عن نُفُوسِ قَوْمٍ لَيْسَ لَدَيْهِمُ الاستعدادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، ولا الرغبَةُ في معرفة الحقّ واتّباعه، والتَّخلّي عن أهواء نفوسهم وشهواتها.

**التوجيه السابع:**

ثم أنزل الله عزّ وجل في سورة (الحِجْر/١٥ مصحف/٥٤ نزول) قوله لرسوله ﷺ:

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

**الصَّدْع**: الشّقّ. والمرادُ الجهر بشدّة في تبليغ دين الله، لشقّ جدار مشركي مكة إلى غيرهم، مع الإعراض عنهم.

ولم يأمر الله رسوله في هذه المرحلة بأن يتَولّىٰ عن المشركين تولّياً كُلّيًا، لأنّ حالة بعضهم لم تَصِلْ إلى مستوىٰ اليأس الكامل من استجابتهم.

أمّا المستهزئون منهم فقد اتَّخَذَ الله أسباباً أهلكهم بها، وقد جاء بيانهم في كتب السّيرة، وقال لرسوله في هذا النصّ بشأنهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ وهم خمسة من رؤوساء أهل مكة: «الوليد بن المغيرة ـ العاص بن وائل ـ الأسود بن المطّلب بن الحارث بن زمعة ـ الأسود بن عبد يغوث ـ الحارث بْنُ الطُّلاَطِلَة».

**التوجيه الثامن**

ثم أنزل الله عزّ وجل في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) قوله لرسوله ﷺ:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي. وأَنْذِرْ بالقرآن الّذِين تتفرَّسُ فيهم أَنَّهُمْ يخافون أن يُحْشَرُوا إلى رَبّهم للحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، ويخافون أن لا يكون لهم من دون اللّهِ وَلِيٌّ، ولاَ شَفِيعٌ يشفع لهم عند ربّهم.

ويُفْهَمُ منهذا أن الّذين لا يخافون هذا الحشر فإنْذارُهم بالقرآنِ لا يُؤثّر فيهم.

**التوجيه التاسع**

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافات/٣٧ مصحف/٥٦ نزول) قوله لرسوله بشَأْن الَّذِين أصَرُّوا على الكفر والعناد ومشاقّة الله ورسوله:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

فوجّه الله رسوله في هذا النَّص لأن يتوَلّىٰ عن المشركين الذين أصَرُّوا على كفرهم وعنادهم، ووقوفهم موقف الشقاق من الرسول ودعوته، وموقف التّصَدِّي للمقاومة والحرب.

وهذا التوجيه مقدَّمة لمرحلة قتالٍ قادمة، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾: أي: وكُنْ شَدِيدَ الحذر من تدبيراتهم ومكايدهم، مُرَاقباً تَحرُّكاتهم ببصَرٍ مُتابعٍ شديد.

**التوجيه العاشر:**

ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) قوله لرسوله:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فتَوَلَّ مُدِيراً ظَهْركَ للمعاندين المصرّين على كُفْرِهم، على الرُّغْم من وُضوح الحقّ الرَّبّانيّ لهم بأدلّته وبراهينه، فإذا تولَّيْت عَنْهُمْ فما أَنْت بِمَلُومٍ على تَوَلِّيكَ عَنهُمْ، وعَدَم اهتمامِكَ بِتَذْكيرهم، وعَدم مُتابَعتِكَ امعالجتهم.

ولكن لا تَتْرُكْ تَذكيركَ لِمَنْ تَأْنَسُ منهم الاستعداد لأَنْ يؤمِنُوا مسْقْبلاً، ولو باحتمالٍ ضعيف، فإنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ من لديهم في نفوسهم الاستعدادُ لأن يؤمِنُوا مستقبلاً.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾: لفظ «المؤمنين» اسم فاعل بقُوَّةِ الْفِعْلِ المضارع، فهو يَصْلُح للحال والاستقبال كالفعل المضارع،

والقرائن في هذه الآية تدلُّ على أنَّ المراد الذين لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا مستقبلاً، إذ الحديث يتعلق بتذكير الذين لَمْ يستجيبوا بَعْدُ للدَّعْوَة إلى الإيمان.

**التوجيه الحادي عشر:**

ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) قوله لرسوله فلكُلّ داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾.

ففي هذا النصّ توجيهٌ لدَعْوَةِ آخرين لم يَصِلُوا بَعْد إلَىٰ دَرَكة الرَّفْضِ والإعراض، ولم يَصِلُوا حتماً إلى دركة التولّي والشقاق والعداء والاستعداد للمقاومة والحرب.

وما جاء في هذه الآية هو الأسلوب الذي يَجِبُ اتخاذُه بالنسبة إلى كلّ مدْعُوِّين أبكار، لم يَبْلُغوا دَرَكَةَ الإعراض وعدم الاستجابة، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات، وكذلك كلُّ فرد أو جماعة لم تُظْهِرِ التجربة المتكرِّرَة عَدَم استجابتهم.

**التوجيه الثاني عشر:**

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) قوله لرسوله:

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾.

جاء هذا التوجيه في مقابلة الّذين أعرضوا عن آيات الله، ثم تولّوا وأصرُّوا على كفرهم وعنادهم، على الرغم من طول معالجتهم بالإقناع والترغيب والترهيب.

ولم يأمرُ الله رسوله بأن يَتولّى عنهم، لأنّهم لم يقفوا منه ومن دعوته موقف العداء والشقاق والاستعداد للمحاربة والمقاومة.

**التوجيه الثالث عشر:**

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) قولَهُ لرسوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾: أي: إنَّما يَنْفَعُ إنْذارُكَ بِالسَّاعَةِ وَيَوْمِ القيامة مَنْ يَخْشَى السَّاعة ويخَافُ عَذابَ الله يوم الدين.

**التوجيه الرابع عشر:**

ثُمَّ أنْزَلَ اللَّهُ في العهد المدني آيات الإذن بقتالِ أعداء الإسلام، فآيات الحضّ عليه، بعد أن قال لرسوله في أوائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

والمراد بالذين كفروا هم عُتَاةُ مشركي مكة الّذين قاوموا دعوة الرسول واستعدوا لمحاربته.

❁ ❁ ❁

# سورة عبس

٨٠ مصحف ٢٤ نزول

وهي مكية كلها

## (١)

# نص سورة عبس وما فيها من فرشيات القراءات

## سورة عبس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (٢) وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ
(٣) أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ
تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨)
وَهُوَ يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ (١١) فَمَن
شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ (١٣) مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ (١٤) بِأَيۡدِي
سَفَرَةٖ (١٥) كِرَامِۭ بَرَرَةٖ (١٦) قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) مِنۡ أَيِّ
شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ
(٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ
أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا (٢٥)

---

٤ ـ قرأ عاصم [فَتَنْفَعَهُ] بالنصب.
- وقرأ باقي القراء العشرة: [فَتَنْفَعُهُ] بالرفع.

٦ ـ قرأ نافع وابنُ كثير وأبو جعفر: [تَصَّدَّىٰ] بتشديد الصاد، أصلها تَتَصَدَّى.
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿تَصَدَّىٰ﴾ بصاد مفتوحة غير مشددة.

١٠ ـ قرأ البزي [عَنْهُ تَّلَهَّىٰ] في الوصل مع المدّ المشبع.
وقرأ باقي القراء العشرة ﴿عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾.

٢٥ ـ قرأ عاصم وحمزة والكِسائي وخلف: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ بِفَتْحِ الهمزة.
- وقرأ رُوَيس بفتح الهمزة وصلاً وكَسْرِها ابتداءً.
- وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إِنَّا صَبَبْنَا] بكسر الهمزة.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ
﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ
يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ
﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

## (٢)
## ممّا رُوي في سبب نزول سورة «عبس»

جاءت قصّة سبب نزول هذه السورة في عدّة روايات متفقة في أصل محتواها، ومختلفة في بعض تفصيلاتها.

والقصةُ تَدُور حول أنّ الرسول ﷺ كان في مكة يدعو إلى دين الله بعض عُظَماء قريش، ويناجيه سرّاً، لمَا في المناجاة من تأثير أوقع في نفس المدعُوّ من الجهر بالخطاب، وقد طمع الرسول ﷺ أن يستجيب من كان يناجيه.

وفي هذه الأثناء أقبل ابْنُ أُمّ مكْتُوم، وهو رجُلٌ أعْمَىٰ من المسلمين الأوائل، وهو أحَدُ بني عامِرِ بْنِ لُؤَيّ، والمشهور أنّ اسْمَهُ «عبد الله» ويقال: اسْمُه «عَمْرو» كما ذكر ابن هشام في السّيرة وغَيْرُه. فجعل هذا الرجل الأعمىٰ يسألُ رسول الله ﷺ عن شيءٍ من أمور دينه، وقد تكون بعض آيات من القرآن يطلُبُ منه تلاوتَها عليه كما جاء في بعض الرِّوايات، وجعَلَ يُلِحُّ على الرسول في السؤال غَيْرَ عالم بمَا يَشْغَلُ الرَّسولَ عنه.

ووَدّ النبيُّ ﷺ لَوْ كفَّ عنه في ساعته تلك، وعبَسَ بوجهه، وأدار له ظهْرَه ولم يُجِبْه، واستمرَّ مع من كان يناجيه من عظماء قُرَيْشٍ طمعاً في إسْلاَمه، فأنزل الله على رسوله قوله:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾

من الواضح في هذه الآيات أنّ الله عزّ وجلّ يعاتب رسوله محمّداً ﷺ من أجل ما كان منه نحو هذا الأعْمٰى، ويبيّن له فيها سبب هذا العتاب، ويُعَلّمه المنهَج الأفضل والأحسن في معاملة مَنْ يَدْعُوهم إلى سبيل ربّه، أو يُعلّمهم أو يُزَكّيهم.

وقد اختلفت الرّوايات في تعيين الشخص أو الأشخاص الذين كان الرَّسُول ﷺ يُنَاجيهم من عظماء قريش.

فالرّواية الّتي أخرجها كثير من أئمة المحدّثين عن عائشةَ أم المؤمنين رضي الله عنها، جاء فيها: وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من عظماء قريش.

وفي رواية الطبري عنها: وعند رسول الله ﷺ من عظماء قريش.

## استعراض أهَمِّ الروايات

(١) أخرج الترمذيُّ وحسَّنه، وابْنُ المنذر، وابن حِبَّانَ، والحاكِمُ وصحّحه، وابْنُ مَرْدَوَيه، عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت:

«أُنْزِلَتْ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ في ابْنِ أُمِّ مَكْتُوم الأَعْمَىٰ، أَتَىٰ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فجَعَلَ يقول: يا رَسُولِ الله أَرْشِدْني، وعِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلٌ من عُظَمَاءِ قُرَيشٍ، فَجَعَلَ رسول الله ﷺ يُعْرِضُ عَنه وَيُقْبِلُ عَلىٰ الآخَرِ، وَيَقُولُ: أَتَرَىٰ بِمَا أَقُولُ بَأْساً؟ فَيَقُولُ: لا. ففي هذا أُنْزِلَتْ».

وفي رواية الطبري: «من عظماء الْمُشْرِكين» بدَلَ «رجُلٌ مِنْ عظماء قُرَيش».

(٢) وأخرج عبد الرزاق، وعبْدُ بْنُ حُمَيد، وأبو يَعْلَىٰ، عن أنَسٍ رضي الله عنه قال:

«جاء ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وهُوَ (أي: الرسول ﷺ) يُكلِّمُ أُبيَّ بْنَ خَلَفٍ، فأعْرَضَ عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك يُكَرِّمُهُ».

(٣) وروى الطبري بسَنَده عن ابْنِ عباس رضي الله عنهما قال:

«بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنَاجِي: (عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، والعَبَّاسَ بْنَ المطّلِب) وكان يتصدَّىٰ لهُمْ كثيراً، ويَحْرِصُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أعْمَىٰ، يُقَالُ لَهُ: (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُوم) يَمْشِي وَهُوَ يُنَاجِيهِمْ، فَجَعَلَ (عَبْدُ الله) يَسْتَقْرِئُ النبيَّ ﷺ آيَةً مِنَ الْقُرْآن. وقالَ: يَا رَسُولَ الله عَلِّمْنِي ممَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَعَبَسَ في وَجْهِهِ وَتَوَلَّىٰ، وَكَرِهَ كَلامَهُ، وأَقْبَلَ عَلَىٰ الآخَرين.

فَلَمَّا قَضَىٰ رسُول الله ﷺ، وأَخَذَ يَنْقَلِبُ إلَىٰ أَهْله، أَمْسَكَ اللَّهُ بَعْضَ بَصَرِه، ثُمَّ خَفَقَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ أَنْزَلَ الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾

فَلَمَّا نَزَلَ فِيهِ أَكْرَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمَهُ، وَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟ هَلْ تُرِيدُ مِنْ شَيءٍ؟. وإِذَا ذَهَبَ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ حَاجَةٌ في شَيْءٍ؟».

(٤) وجاء عند ابن هشام في سيرته[١]:

وقف «الوليد بن المغيرة» مع رسول الله ﷺ، ورسول الله يكلّمه، وقد

---

(١) انظر الجزء الأول ص(٣٦٣ ـ ٣٦٤).

طمع في إسلامه، فبينما هو في ذلك، إذْ مَرَّ به «ابْنُ أمّ مكتوم» الأعْمَىٰ، فكلَّمَ رسُولَ الله ﷺ وجَعَل يسْتَقْرِئه القرآن، فشَقَّ ذلك منه علىٰ رسول الله ﷺ، حتَّىٰ أضْجَرَه، وذلك أنَّه شغَلَه عمّا كان فيه من أمْرِ الوليد، وما طمع فيه من إسلامه، فلَمَّا أكْثَر عليه انْصَرَفَ عنه عابساً وتركه، فأنزل الله تعالَىٰ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾

## لمحة من أخبار عبد الله بن أُمّ مكتوم الأعْمَى

● جاء في سيرة ابن هشام بشأنه أنّ الرسول ﷺ استعمله علىٰ المدينة في خَمْس غزوَات:

(١) حين لَحِقَ الرَّسُولُ ﷺ بالمشركين بعد غزوة أُحُدٍ إلى حَمْرَاءِ الأَسَد.

(٢) وفي غَزْوَة بني لِحْيَان.

(٣) وفي غَزْوَةِ ذي قُرَد.

(٤) وفي غزوة بني قُرَيظة.

(٥) وفي غزوة الخندق.

● وقال ابْنُ كثير في تفسيره: وكان يُؤَذِّنُ مع بلال، قال سالم: وكان رجُلاً ضَريرَ البصَرِ، فلَمْ يَكُ يُؤَذِّن حتَّىٰ يقولَ له النّاس حين ينظرون إلى بُزُوغ الفجر أَذِّنْ.

● وقال أنس فيما روى الطبري: فرأيْتُه يوم القادسيَّة عليه دِرْعٌ، ومعه رايَةٌ سوداء.

❁ ❁ ❁

## (٣)
# نظرة تدبّرية حول حادثة سبب النزول وعتاب الله الرسول بشأنها

كُلُّ الدُّعاة إلى الله حتَّىٰ سَيِّدُنا رسول الله ﷺ يَقَعُ في تَصوُّرِهم قَبْلَ التَّعْلِيم الرَّبَّانيّ، أنّ توجيه العناية القُصْوىٰ للمسْتَغنين بأمْوالِهم أو مكاناتهم الاجتماعيّة من رافضي الدّعوة الذين لم يستجيبوا لها، يقع في المرتبة الأولى من الأولويّات في مجال دَعْوة النّاس، دون ضعفاء المستجيبين لها، الّذِين آمنوا واتّبعوا، وهم بحاجة إلى مزيد من التثبيت والتزكية بالطّهارة من أرجاس الاعتقاد والعمل، وبحاجة إلى التزكية بالنَّمَاءِ في المعرفة الدّينيَّة، والسُّلوك الأتْقَىٰ والأبرّ والأحْسَنِ، أو بحاجة إلى تذكير نافع.

فإذا كان الدُّعَاةُ مُهْتَمِّين بالاشتغال في دعوة المستغنين بأموالهم أو بمكاناتهم الاجتماعيّة، طمعاً في هدايتهم واستجابتهم، لأنّهم إذا استجابُوا استجاب من ورائهم أتباعٌ كثيرون لهم، لَمْ يُولُوا الاهتمام المطلوب بضُعفاء أتباعِهِمْ، الَّذين يجهلون ظُرُوف الداعي الّتي يكون فيها، أَوْ لا يُقَدِّرونَها حق قَدْرِها، فيسألُونه عَنْ مسائل تُهِمُّهُمْ من أُمُور دينهم، ويُلحُّونَ في المسألة، فإذا وجَدُوا رَجُلَ دَعْوَتهم قد انْصَرَف عنهُم، ولم يَهْتَمَّ لشأْنهم، انكَسَرَتْ قُلوبُهم، وَظَنُّوا بالدَّاعي أَوْ بدعْوَتِه سُوءاً، ورُبَّما غَضِبُوا، ورُبَّما انْصَرَفُوا عَنه وَوَلَّوْا ظُهُورهم للدّعْوة.

ولا بُدَّ أمام مِثْل هٰذا الواقع من تدارُكٍ رَبَّانِيٍّ بالتعليم والتوجيه وتَصْحِيح التَّصوُّر، وبيان لزوم العناية بالمستجيب، والاهتمام له، مهما كان من الضعفاء، أو من الذين لا يُقَدّرون ظروف الداعي الّتي يكون فيها حقّ قَدْرِها، كأعْمَىٰ يأتي وَليس في رأسه إلاّ حَلُّ مشكلته، والإجابةُ على مسألَته، فإذا وَجَدَ الدَّاعِيَ مُنْصَرِفاً عَنه، ومُوَجِّهاً عِنَايَتَهُ لغيره، ظَنَّ أنَّ ذَلِكَ بسبَب أنه أعْمَىٰ، أوْ بسَبَبِ انْحِطاط مكانَتِه الاجتماعيَّة، ورُبَّما لم يَخْطُر أو

لا يَخْطُر في باله ما يكون الداعي فيه من حرْصٍ شديد على المصلَحة العامَّةِ فيما يرىٰ.

أمام مثْلِ هذا الموقف لا بُدَّ مِنْ بيانِ المنهج الأسَدّ والأرْشَدِ، تعليماً لحمَلَةِ الرّسالة، دُعَاةً ومُعلّمين، وناصحين مُرْشدين، وآمِرين بالمعروف، وناهين عن المنكر.

وقد يكفي من العناية بالضعيف السَّائل بيانُ الْعُذْرِ لَه، ومطالبتُه بأن يتريَّثَ قليلاً، معَ تطييب خاطِره، وإشعاره بأنَّه محلُّ عِنايَةٍ وَتكريم، إلاَّ أنَّ الظرف الحاضر لا يسمح بقطع عَمَلٍ سابقٍ، والاشتغال بغيْره قَبْلَ الفراغ منه، مراعاةً لوظائف الرّسالة المختلفة.

أمّا تَرْكُه، والإعْرَاضُ عَنه، وإظهارُ كراهيَّة مسألَتِه وما كانَ منه من مقاطعةٍ لحديثٍ بَيْنه وبَيْنَ شَخْصٍ آخر، فهو أمْرٌ يكْسِرُ قَلْبَهُ لا مَحالَةَ، ولا سيما إذا كان أَعْمَىٰ لا يَرَىٰ الظَّرْفَ المحيط بحامل الرّسالة.

وَكان هذا الحدث الذي ورد في روايات قصة سبب النزول سبباً في معاتبة الله لرسوله محمد ﷺ بقُرْآنٍ يُتْلَىٰ.

وعتابُ الله لرسوله يتضمَّن توجيهاً لما هو الأفضل والأكمل، ويَقَعُ في مرتبة البِرّ، أو في مرتَبة الإحسان، بالنسبة إلى أساليب تأدية وظائف الرّسالة الرَّبانية، إذْ لم يكن من الرّسول في هذه القِصَّة ما ينافي في مرتبة التّقوى، بل كان يقومُ بعمل عظيم من أعمال وظائِفِ رسالته، ضمن حدود ما أذن الله لَهُ به من اجتهاد، لكن اللّهَ عزّ وجلّ أبان لرسوله، ولكلّ حاملي رسالته من أمَّته، في هذا التعليم المنهج الأفْضَل والأحسن في تأدية وظائف الرّسالة الرَّبَّانيَّة، والذي سيأتي إن شاء الله شرحُه لدى تدبُّر النصّ.

وفي شأن هذا العتاب الذي عاتب الله به رسولَهُ ﷺ، قال بعض أصحاب رسول الله:

«لو كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِماً شَيْئاً ممَّا أنزل عليه من الْقُرآنِ، لَكَتَمَ عِتَابَ اللَّهِ له بشأن الأعْمَىٰ ابنْ أمّ مكتومٍ».

ومن الملاحظ أنَّه عِتابٌ عَلَنِيٌّ مُدوَّنٌ في قُرْآنٍ يُتْلَىٰ، ليتعظ به حَمَلَةُ رسالة الرسول من أمَّتِه.

## (٤)
## موضوع السورة

تضمَّنت سورة (عَبَس) توجيه علاج تربويٍّ حول بعض عناصر المنهاج الأمثل لحامل الرّسالة الرّبّانيّة، تُجاهَ مَن اسْتَجاب للدّعوة، وتُجاه من لَمْ يستجب لها. وتوجيه علاج تربويّ فيه شدّةٌ وعُنْفٌ بإقناعٍ وتَرْهيبٍ وتَرْغيبٍ للإنسان الكافر المعاند، الذي عانَدَ وكابَر واسْتَهَانَ بِدَعْوَة الدّاعي إلى الله، فلم يستَجِبْ لدعوته، على الرغم من أنَّه بَذَل غايَة جَهْدِهِ في اتّخاذ وسائل الإِقناع والتَّرغيب والترهيب.

❁ ❁ ❁

## (٥)
## دروس السورة

اشتملت السورة على أربعة دروس:

**الدرس الأول**: جاء فيه عتاب الرسول محمد ﷺ على ما كان منه بشأن الأعمى «عبد الله بْنِ أم مكتوم» مُتَلَهّياً عنه، وموجهاً كلّ عنايته واهتمامه لدعوة بعض عظماء المشركين من قريش وجاء فيه بيان وظيفة القرآن التي يُفْهَمُ منها وظيفة الرسولِ في دعوته للناس، وهي وظيفة تبليغ

وتعليم وإقناعٍ وموعظة بالترغيب والترهيب، وتذكير متكرّر عند رجاء نفع الذكرى، وليست وظيفة تغيير وتحويل من الكفر إلى الإيمان.

وهو الآيات من (١ ـ ١٦).

**الدرس الثاني**: جاء فيه تقريعٌ بشدّة وعُنْفٍ للإنسان الكافر بربّه، وتعجيبٌ من شدّة كُفْرِهِ وغلُوّه فيه، مع أنَّه يعْلَمُ من نفسه أنَّه كان نُطْفَةً مهينة، ثم يصير إلى جيفَةٍ مستقذرة تُوارَىٰ في التراب، ويستهين بأمْرِ بعثه بعد الموت للحساب والجزاء، وَيَجِدُ حينَئِذٍ أَنَّهُ لَمْ يُنَفِّذْ مَا أَمَرَه به رَبُّهُ في الحياة الدنيا من إيمانٍ يُنْجيه من الخلود في النار وعمل صالحٍ ينال به ثواباً عظيماً، ويَتَمَنَّى لو يُعْطَىٰ مُدَّةً إضافيَّة قَلِيلَةً يتدارَكُ فيها نفسه بالإيمان لينجو به من الخلود في عذاب النار، ولكِنْ لا سبيلَ إلى ذلك.

وهو الآيات من (١٧ ـ ٢٣).

**الدّرس الثالث**: جاء فيه عَرْض بَعْضِ مظاهر رُبُوبيَّةِ الله عزّ وجلّ للإنسان، في إمداده بطعامه الذي يُجْري الله له في كونه أسبابه، مع الإشارة إلىٰ أنَّ رُبوبيَّة اللَّهِ له تستَوْجب مِنْهُ أن يَشْكُر نعم اللَّه عليه بالإيمان والإسلام والطاعة.

وهو الآيات من (٢٤ ـ ٣٢).

**الدرس الرابع**: جاء فيه عرض لقطات من مشاهد يوم القيامة فيها ترغيب وتَرْهيب، لمن كان ذا بصيرة، ولم تَمُتْ في داخل نفسه مشاعر محْوَرَي الطَّمَع بثواب الله والْخَوْفِ مِنْ عقابه يوم الدّين.

وهوالآيات من (٣٣ ـ ٤٢ آخر السورة).

❁ ❁ ❁

## (٦)
# التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجل:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾﴾.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾﴾.

جاء الكلام في هاتين الآيتَيْن عن الرسول محمّد ﷺ بأسلوب الحديث عَنِ الغائب، وهما تُشيرانِ إلى قِصَّةِ الرسول ﷺ مع الأعْمَىٰ «عبد الله بن أمّ مَكْتُوم» الّتي سبَقَ بيانُها وَذِكْر الرّوايات فيها في فقرة [(٢) ما رُوي في سبب نزول السورة] والنَّصُّ يعاتب الله فيه رسوله على الحادثة التي كانت منه. والكلام العتابيُّ للرسول الذي جاءَ بأسلوب الحديث عن الغائب، يَلْمَحُ فيهِ الّذي يمارِسُ أَسَالِيب التربية، معنَىٰ تربية اللّهِ لرسُولِه فِي أسْلُوب الخطاب، بما يُشْبِه تَوَلِّيَ الرَّسُول عن الأعْمى، وهذا من روائع الأدَبِ القرآنيّ الرَّفيع، ومن بدائع أساليب التربية.

لـم يَقُل الله لرسوله عبَسْتَ وتَوَلّيْتَ أَنْ جاءَكَ الأعْمَىٰ، كَمَا قَالَ لَهُ بشَأن الذين اسْتأْذَنُوهُ في عَدَمِ الخروج معَهُ إلى غزوة تبوك، إذْ قال له كما جاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

لأنّ عتابَ الله للرسول في قِصَّتِه مع الأعْمَىٰ، وهو يُوجِّه عنايتَهُ الفائقة لدَعْوَةِ بعض عظماء قريش، مع شِدَّة حِرْصِه على هدايتهم، أشَدُّ مِنْ عِتَابِهِ له على إذْنِه للرَّاغبين في التخلُّفِ عن غزوة تبوك، فقد كان مُعْظَم المعتذرين منافقين، والمصلَحةُ في عدم الإذن لهم تَظْهَرُ بكَشْفِ وفَضْحِ نفاقِهِمْ وكذِبِهِمْ في معاذيرهم، ويقابِلُها أنَّهَمْ لَوْ خَرَجُوا مع جيش الرسول مَا زَادُوا في المسلمين عدداً صحيحاً، إنّما يزيدونَهَمْ فساداً وإفساداً، وهذا أمْرٌ جَدِيرٌ بالملاحظة، وعُذْرُ القائد في اختيارِه عُذْرٌ واضِحٌ، وفيه تحقيق لمصلحة عظمىٰ، إلاَّ أنّ عدَمَ الإذْنِ لهم قد كَانَ أكْثَرَ رُجْحَاناً، وهُوَ ما أرشَدَ اللَّهُ إليه في العتاب.

﴿عَبَسَ﴾: تقولُ لُغَةً: عبَسَ الرَّجُلُ يَعْبِسُ عبْساً وعُبُوساً، إذا كَلَحَ وجْهُهُ، وتَقَبَّضَ عَنْ كَرَاهيةٍ واستياء.

وتَقُولُ أيضاً: عَبَسَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إذَا جَعَله بإرادَتِهِ مُنْقَبْضاً عن تكَرُّهٍ واستياء.

فالفعل يأتي لازماً ومتعدّياً، ويُمكن حَمْلُ ما جاء في الآية على الأمرين كليهما، فَوَجْهُ الرَّسُول عبَسَ بحركة غير إرادية، ثُمَّ عبَسَ الرَّسُول وَجْهَهُ بحركةٍ إرادِيَّةٍ.

ويُلاحَظُ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ كشف ما كان من الرسول ﷺ من عبوسٍ، مع أنَّ عُبُوسَهُ لا يَراهُ الأعْمَىٰ، ليعَلِّمَنا أَنَّه ليس من الأدب الإسلامي أنْ نواجه العُمْيَان بما يَكْرَهُونَ من أعمالٍ وحركاتٍ لَوْ كانُوا مُبْصِرين لَرَأَوْها، على أنَّهُ لا يخْلُو الأعْمَىٰ غالباً من قائدٍ يُبَلِّغه، فيكونُ حَالُهُ بذلِكَ كَحَالِ البصير.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أي: وأدارَ ظَهْرَهُ مُدْبراً، والتولّي ضدّ المواجهة، وبينهما

الإعراض، وشرح بعض المفسّرين كلمة «تولّى» بـ «أعْرَض» فيه تَسَمُّحٌ لغوي.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾: أي: لأجل أنْ جاءه الأعمىٰ فسألَه بعْض مسائل من أُمورِ دينه، فكَرِه أن يَشغَله عمّا هو فيه من دعْوَةٍ إقناعيَّةٍ وترغيبية وترهيبيّة لبَعْضِ عظماء قُرَيش، وهو شديد الحرص على إسلامهم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾.

في هذا الْتفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب، فبعَدْ أن كان الكلام بأسْلُوبِ الْحَدِيثِ عن الغائبِ، لتقديم لَمْسَةٍ تَرْبويَّةٍ ضاغِطة، الْتَفَتَ النَّصُّ إلىٰ أُسْلُوب الْمُواجَهةِ بكافِ خِطاب الحاضر، لبيان العناصر الّتي اقتضت تَرْبية الله لرَسُولِهِ بالعتاب، وبالكلام عنه بأسلوب الحديث عن الغائب.

ففي الحديث عن الرسول بأسلوب ضمير الغائب عِتَابٌ على ظاهِرَة السلوك بالعبوس والتولّي.

وفي مُواجَهَةِ الرَّسولِ بكافِ الخطاب المباشر مُراعاةٌ لمقتضىٰ العتاب على الدافع النَّفْسيِّ لمَا كان من الرسول من سلوكٍ ظاهر.

إنّ قول الله عزّ وجلّ لسَيِّدنا رسُولِ الله ﷺ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟﴾ مُوجَّهٌ لخواطرَ وَظُنُونٍ نفسيَّةٍ كانت هي الدّافع لعُبُوسه وتَوَلّيه عن المسلم الأعْمَى، وهذه الخواطرُ والظنونُ مطْوِيَّةٌ في النَّصّ إيجازاً وتَعْميماً، لكنَّنا نستطيعُ اكتشافَها، من الاحْتِمَالاَتِ التوجيهيَّة التي طَرَحها النَّصُّ في العتاب، إذْ قالَ الله لرسوله فيه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾

ومن استقراء الاحتمالات استقراءً فكريًّا يظْهَرُ أنّها تقع في قسمَيْن:

**القسم الأول**: أن يكون السائل الأعْمَىٰ ثَرْثاراً ثقيلَ الظِّلّ، من عادته أن يَسْأَل عمّا هو عالمٌ به، كشأْن بعض الثقلاء، أَوْ أن يكون مِمَّن يُحِبُّونَ الاستمتاع بمحادثة الرسول، كشأْنِ كثيرٍ من الأتباع الَّذِين يُثَقِّلون على

قائدهم، دون حاجةٍ داعيةٍ، لكنَّهم يرغبون في أن تكون لهم عِنْده حُظوَةٌ، وكَثْرَةُ مُخالَطَةٍ ومُجالَسَةٍ ومَنْزِلَةٍ قريبة، فَيَصْطَنِعُونَ المسائل اصطناعاً، ويتّخِذُونَها معاذيرَ لِلّقاءِ والمحادَثة، ولَفْتِ النظر إلى أنفسهم.

**القسم الثاني**: أنْ يكون السّائلُ الأعْمَىٰ طالِبَ استفادةٍ حقّاً، وهذه الاستفادةُ لها وُجوهٌ من الاحتمالات:

(١) فإمَّا أَنْ تكون تَزكيةً بالنَّماءِ والزِّيَادَة في المعرفة الدينية، أو بالنَّماءِ والارتقاء في الأخلاق والسلوك الدينيّ منْ مَرْتبتَي البرّ والإحْسَان.

(٢) وإمَّا أن تكون تَزْكِيَةً بالتَّطَهُّر من أرجاس الاعتقاد، أو أرجاسِ الأخلاق والسُّلوك.

(٣) وإمَّا أنْ تكون بتَذَكُّر أمْرٍ دينيٍّ هو ناسٍ له، أو غافل عنه.

وحين يكون السائل طالب استفادةٍ حقّاً، فمِنْ حقِّه إجابَتُه على مسائله، والإقبالُ عليه، بالْبَيَانِ والتَّعْليم، والنُّصْحِ والتوجيه، أو بالاعتذارِ مِنهُ، ومُطَالبَتِهِ بالتريُّثِ قَلِيلاً، أو تأجيلِه لوَقْتٍ آخر.

وليس في العبُوس والتولّي عُذْرٌ مع هذه الاحتمالات من هذا القسم الثاني.

من هذا الاستقراء الفكريّ يتّضح لنا أنّ الخواطر والظُّنون الّتي دفَعَتْ إلى العبوس والتوَلّي، ليْسَتْ من احتمالات القسم الثاني، وإنَّما هيَ من احتمالات القِسْم الأول، ولهذا قال الله عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾: أي: وأيُّ شيءٍ يَجْعَلُكَ تَعْلَم من حال هذا الرّجل الأعْمَىٰ، أَنَّه جاء لِيَشْغَلَكَ بفُضولٍ من المسائل، التي تصرفُك عمَّا أنْتَ فيه من مُعَالجة من تُعالجه من عظماء مشركي قُرَيش، راجياً استجابته لدعوتك.

يُقَال لُغَةً: دَرَىٰ فُلانٌ الشيءَ، ودَرَىٰ به، دَرْياً ودِرَايَةً، إذا عَلِمَه، ويقال: أَدْرَىٰ فُلاَنٌ فُلاناً بِالشيء، إذا أَعْلَمَهُ به.

فعبارة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾ تتضمَّن أنه ليس لَدَيْك دِرايَةٌ، أي: عِلْم، بما ظَنَنْتَهُ، أو خَطَر على بالك، إذْ لَمْ تَخْبُرْ سابقاً حال هذا الرجل، ولم يَنْزِلْ عليك بما ظننْتَ وحْيٌ، ولا توجد أماراتٌ تَدُلُّ علَيْه.

والأصْلُ بقاءُ احتمالاتِ طلَبِه الاستفادةَ الحقيقيّة، وعَدَمُ إبعادها عن الملاحظة والتقدير، والأصْلُ معاملته على أساس أنّها احتمالات قائمة.

والواو في عبارة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾ استئنافيَّة. ولا أرَىٰ مانعاً من اعتبارها عاطفةً على محذوفٍ تقديره: فما حَمَلك على العبوس والتَّوَلّي؟ أظُنُونٌ ظنَنْتَها في الأَعْمَىٰ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾[1] أي: وما يُعْلِمُكَ أنها ظنون صحيحة مطابقة للواقع.

وقد أبان الله عزّ وجلّ احتمالات طلَبِ الأعْمَىٰ الاستفادة الحقيقيّة بقوله تَعَالَىٰ:

﴿. . . لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾.

عبارة: ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ تُفيد إمْكان وجود هٰذه الاحتمالات الّتي ينبغي رعايَتُها، ووضْعُها في الْحُسْبان، وعَدَمُ استبعادها.

وَعبارة: ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ وَأصلها «يَتَزَكَّىٰ» أدْغِمَتِ التَّاء بالزَّاي فصارتا زاياً مشدّدة، تُشيرُ إلى احتمالَيْن:

**الاحتمال الأول:** التَّطهُّر.

**الاحتمال الثاني:** النَّماء والزِّيادة.

---

(١) لدى تتبّعي للنصوص القرآنيّة رأيت أنّ العطف على محذوف لا يَخْتَصُّ بالفاء الفصيحة، بل كلُّ حروف العطف قابلَةٌ لأن تعطفَ على محذوف، ووجود حرف العطف يفصح عن هذا المحذوف، وقد ذكرتُ هذا في كتاب «قواعد التدَبُّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ».

فأصل الزكاة في اللُّغة يأتي بمعاني، وهي: «الطهارة ـ النَّماء ـ الْبَرَكَة ـ المدْح» واستعملت الزكاةُ والتزكيَةَ في القرآن، بمعنى الطهارة والتطهير، وبمعنى الإصلاح والصَّلاح، وعبارة: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ﴾ أي: فلا تَمْدَحُوها بالطهارة والصلاح.

والتزكيةُ يُرادُ بها في الغالب تَطْهِيرُ النفس وتَنمِيتُها، وإصلاحُها، بتخليصها من الكفر والشرك والمعاصي، وتَحْلِيتُها بالإيمان الصحيح والعمل الصالح طاعةً لله، وخضوعاً له.

وعبارة ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ وَأَصْلُها «يَتَذَكَّر» أُدْغِمَتِ التاء بالذَّال فصارتا ذالاً مُشَدَّدة، تُبيِّن الاحتمال الثالث، وهو تذكُّر ما هُو ناسيه، أو غافلٌ عنه من أمور دينه.

والمعنى: أو لعلّه يتذكّر أمراً هو ناسٍ له أو غافل عنه من أمور دينه.

«لَعَلَّ» حرف تَرْجيةٍ يعمل عَمَل «إنَّ» في نصْب الاسم ورفع الخبر.

﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ في إحدى القراءتَيْنِ، وفي القراءة الأخْرىٰ [فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى] فالرفع محمولٌ على عطف فعل «تَنْفَعُه» على فعل ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ والنَّصْبُ محمول على اعتبار أنّ الفاء هي السببيّة، إذْ جاء قبْلَها حرف «لَعَلَّ» الذي يدلُّ على التَّرْجية.

﴿ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾: اسمٌ للتذكير، وتأتي بمعنَىٰ التّذكُّر، وتأتي اسماً للتذكِرَة (وهي الوسِيلَةُ الّتِي تُذَكِّرُ، كالرَّتيمة).

والمعنى: أو لَعَلَّه يَتَذَكُّر فينْفَعه التذكُّر والتذكير.

أي: فتكونُ يا محمّد بإقبالِكَ عليه. وإجابَتِك لأسئلته، وعَدَم تولّيك عنه، قد تَسَبَّبْتَ في تَطْهِيرِه، أو تعليمِهِ ما يَجْهلُهُ من دينه، أو تَنْمِيَة فضائله الخلقيَّة والسلوكيّة، أو تذكيره ما هو ناسٍ له، أو غافلٌ عَنْهُ من أمُور دينه، فتكونُ هذه الذكْرَىٰ نافعةً له.

فتولِّي حامل الرّسالة عن طالب التزكية أو التذكير لا يصحُّ ما دامَت احتمالاتُ النَّفع قائمةً، ولا يكُونُ هذا التولّي مقبولاً إلاَّ إذا كَانَ مَصْحوباً بدِرَايةٍ صحيحة تكشف أنّ السائل قد جاء ليشغل وقت حامل الرسالة بما لا نَفْعَ فيه، ولم يَأْتِ لينتفع في تزكية أو ذكرىٰ، ولا يكْفِي الظنُّ التَّقْدِيريُّ في هذا الأمْر وأشباهه، بوصْفه أحد الاحتمالات فقط. وهو مُعَارَضٌ بما لا يَصِحُّ مَعَهُ التولّي.

● قوله الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله:

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ . . .﴾:

في هذه الآياتِ عتابٌ للرسُول ﷺ علَىٰ تصَدِّيه للمُسْتغني الصّادّ عن دعوة الحق، الْمَقْرُونِ بتَلَهِّيه به عن السَّاعي الخائف من ربّه، الّذي هو طالبٌ للتزكية أو التذكير.

﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾: أي أصاب غِنىً بمالِه، أو بمكانَتِهِ الاجتماعيَّة، وامْتَلأَتْ مشاعِرُ نَفْسِه بالاستغناء فاسْتَكْبَرَ، وأَبَىٰ أن يستجيب لدعوة حامل الرسالة.

﴿تَصَدَّىٰ﴾: أَصْلُها «تَتَصَدَّىٰ» حذفت التاء الثانية للتخفيف في اللفظ، والمعنى: تتعرَّضُ له، وتُقْبِل عليه، معتنياً به، تَحْمِل هَمَّ إقناعه، بغيةَ تحويله من الكفر إلى الإيمان، ومن الاستكْبَار إلى الإسلام والخضوعِ والطاعة.

التصدّي في اللُّغة هو فعل الذي يرفع رأْسَهُ وصَدْرَه يتصدَّىٰ للشيء يَنْظُر إليه، واستُعْمِلَ في النّصّ هنا كنايةً عن توجيه كلّ العناية لمَنْ هو المقصودُ بالتّصدّي.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾: يحتمل أن تكون هذه الجملةُ استفهاميّةً، ولفظ «ما» فيها اسم استفهام، والواو قبلها عاطفة، وأن تكون خبريَّة، ولفظ «ما» فيها حرف نفي، والواو قبله واو الحال.

● فالمعنى على كونها استفهاميّة: وأيُّ حَرَجٍ عَلَيْكَ في أن لا يتَزَكَّىٰ هذا الذي استغْنَىٰ، وأَنْتَ لَهُ تتصَدَّىٰ، شديدَ الحرْصِ على إيمانه، كأنك مسؤول عند ربّك عن تحويله من الكفر إلى الإيمان ومن الاستكبار والاستنكاف إلى الطاعة والإسلام.

إنَّهُ لا حَرجَ علَيْكَ في أن لا يَتَزَكَّىٰ، بعْدَ أَنْ بلَّغْتَهُ ما أَمَرَكَ الله بتبليغه، وأقمْتَ لَهُ الحجج والبراهين، ونصحتَهُ وأرْشَدْته، وحذَّرْتَهُ وأنْذَرْته، فالاستفهام فيها استفهامٌ إنكاريٌّ.

● والمعنى على كونها خبريَّة: والحال أنّه لا حَرَج علَيْكَ في أَنْ لا يتزَكَّىٰ، بعد أن أدّيْتَ وظائفَ رِسالَتِكِ على الوجْهِ المطلوب منْكَ.

إنّ حامِلَ رسالة رَبّه مسؤولٌ عن تأديَةِ وَظائفِ رسالَتِه علَىٰ ما أَمَر الله، وليس مسؤولاً عن تحويل من يؤدِّي إليهم رسالَةَ رَبِّه من التولّي والإعراض، إلى الاستجابة والاتّباع.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾: المرادُ؛ بـ«مَنْ» هنا الأعْمَى «عبد الله بن أُمّ مَكْتوم».

«يَسْعَىٰ»: السَّعْيُ عَمَلٌ فَوْقَ المشي، وهو عَدْوٌ دُونَ الشَّدّ، ويأتي السَّعْيُ بمعنَىٰ الْعَمَل بهمَّةٍ وَنَشاط، وقَدْ يُرَاد به الهِمَّةُ النفسيَّة ولَوْ كان العملُ هادئاً فيه أَنَاةٌ وتمَهُّلٌ وسكينة، وهذا هو المقصود بالسَّعْي للآخرة.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾: **يخْشَىٰ**: أي: يخاف، والمراد الخوف من عذاب اللّهِ وعقابه في العاجلة والآجلة.

والخوف من اللّهِ مقرونٌ دواماً بالتعظيم والحبّ والإجلال.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾: **تلَهَّىٰ**: أصلها «تتَلَهَّىٰ» حُذِفت التاء الثانية تخفيفاً. أي: فأنت يا مُحمَّدُ تَنْصَرِفُ عَنْهُ مُنْشَغِلاً بغيره.

**التَّلَهِّي**: التشاغُلُ، ويُقَالُ: أَلْهاهُ، أي: شغله.

**واللَّهْوُ**: كلُّ أَمْرٍ غَيْرِ ذي أهميَّةٍ يشْغَلُ عمَّا يَجِبُ تَوْجِيه الْجَهْدِ والْعَمَل له.

وربما يكون المشتغل بأَمْرٍ غير ذي جَدْوىٰ حقيقيَّةٍ ظَانّاً أنَّ ما هو فيه من الأمور ذاتِ الشأنِ العظيم، فهو لا يَقَعُ في تقديره أنَّهُ يَتَلَهَّىٰ، فيُقَالُ لَهُ: أَنْتَ تتلَهَّىٰ، أي: تشْغَلُ نَفْسَك بأمْرٍ غير ذي بال، فَدَعْهُ ولا تهتَمَّ له، واشغَلْ نَفْسَكَ بما هو خير. وكذلك كان رسول الله ﷺ، إذْ لم يكُنْ في تَصوُّرِه مُتَلَهِّياً، وهو يَبْذُل جهْدَهُ لإقْنَاعِ بعض عظماء قريشٍ بالْحَقّ الّذي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّه، لكِنَّ عَمَلَهُ قد كان في حقيقة الأَمْرِ تَلَهِّياً، لأنَّهُ لم يكن ذا جَدْوَىٰ، فقد سبَقَ أنْ أوضح لهم كلَّ شَيءٍ فعانَدُوا، وأصَرُّوا علَىٰ الكُفْر ومُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الحقّ.

﴿كَلَّآ﴾ أَدَاة زَجْرٍ. أي: لا تَفْعَلْ مثل هذا مرَّةً أُخْرىٰ.

## المعنى العامّ

لِمَ تَتَصَدَّىٰ يا مُحَمَّدُ لِمَنِ استَغْنَىٰ، مُسْتكْبراً بمشاعر استغْنَائِه، وهُوَ متولٍ عن دَعْوَتِك ودِينِك، والاستجابة لما تُقَدِّمُه لَهُ من إقناعٍ وترغيبٍ وترهيب، تُعْطيه كُلَّ عنايَتك واهتمامِكَ، حَرِيصاً على إسلامه، وهو رافض له، مع أنَّكَ غيْرُ مسؤولٍ ولاَ مُحَاسَبٍ على كُفْرِهِ وعَدَمِ قبوله للتزكية، بعد أن بلّغته، وبيّنْتَ له، إنَّ كُفْرَهُ ورِجْسَهُ عليه، وليس عليكَ مِنْهُ شيْءٌ.

ولَمْ يقتصر أمْرُكَ على التَّصَدِّي للمستغْنِي المستكبر الرّافضِ لدعوتك في وقْتِ فراغٍ كامل، بل انْشَغَلْتَ به عن المؤمن السّاعي إليك، راجياً أن يَنْتَفِع منْكَ بتزْكيَةٍ أَوْ ذِكْرَىٰ.

فكان من المناسب أَنْ يختم الله عزّ وجلّ بسُلْطان رُبُوبيَّتِه عبارَاتِ

العتاب المفصّل، بكلمة: «كلاّ» وهذا في مضمونه موجّه لتحذير حَمَلَةِ الرِّسالَة من أمَّةِ مُحمَّد ﷺ، أن يمارسُوا في دعواتهم مثْلَ هذا الْعَمَل الّذي لا يَلِيقُ بأئمة المتَّقِين، من الأبرار والمحسنين.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

ظاهرٌ أنَّ المراد بتوجيه هذا النّصّ بَيَانُ وظيفة الْقُرآنِ الدائمة، ولمَّا كانَ القرآنُ كِتَاباً يُكْتَبُ في الصُحُفِ، وكَانَ مَضْمُونُهُ كلاماً يشْتَمِلُ على عِلْم يتلَقَّاهُ المؤمنون، ويتَفَهَّمُونَ معانيه، ويحْفَظُونَ أوامره ونواهيَهُ ووَصَاياه، ويذْكُرُونَ ما جاء فيه عند المناسبات الداعيات للعمل بما فيه، كانَ جَدِيراً بأَنْ تُذكرَ الصُحُف التي يُدَوّنُ فيها بضمير المؤنَّث، على أنّها بمثابة تَذْكِرَة، وبأَنْ يُذْكَرَ مضْمُونُهُ بضمير المذكر، على أنَّه كلامٌ يشتمل على عِلْم يُذْكَرُ عند المناسبات الدّاعيات للعمل بما جاء فيه.

ومراعاةً للاعتبار الأول قال الله عزّ وجلّ عن الصُحف الّتي يُكتَبُ فيها القرآن: ﴿. . . إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: **التَّذْكِرَة**: مَا يُسْتَذْكَرُ به الشيءُ الّذي يُرادَ تَذَكُّره آناً فآناً، كالرَّتيمة[(١)] وكالبطاقة الّتي تُذَكِّرُ بمَوْعِد اللّقاء أو الاجتماع، فجاء في العبارة اسْتِعْمَالُ ضمير المؤنث.

ومراعاةً للاعتبار الثاني قال الله عزَّ وجلّ عن الكلام الْمُنَزَّلِ الْمُدَوَّنِ في الصُحف الّتي يُكْتَبُ فيها القرآن: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾﴾

ومِنْ وظيفة القرآن تُعْلَمُ وظيفة الرَّسول التبليغيَّة، أي: فالرَّسُولُ مُبَلِّغٌ وَمُبَيِّنٌ ومُعَلِّمٌ مَا أنزَل الله عليه، ومُذَكِّرٌ بما سبَقَ أَنْ بلَّغه وبيَّنَهُ وعَلَّمَهُ، إنْ

---

(١) **الرَّتيمة**: خيط يُشدُّ في الإصبع أو الخاتم للتذكُّر، والجمع رَتائم.

رَجا أنْ يَنْفَعَ تَذْكيرُه، كما سبق أنْ أبان الله له في سُورَةِ (الأعْلَىٰ/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ⑨ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ⑩ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ⑪﴾.

وليسَتْ وَظيفةُ الرَّسُولِ وظيفةَ مُحَوِّلٍ من الكُفْرِ إلى الإيمان، ومن الضلالة إلى الْهُدَىٰ.

أمّا التحوُّلُ من الكُفْر إلَىٰ الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى، فلا بُدَّ أنْ يكون نتيجة إرادة الْعَبْدِ المكلَّف واختياره الحرّ، إذ الأَمْرُ مُرْتَبِطٌ بمَشِيئتِهِ الّتِي لا مُكْرِهَ لها، وبياناً لهٰذه الحقيقة قال الله عزّ وجلّ: ﴿. . . إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ⑫﴾.

وبعد هذا وصَفَ اللّٰهُ عزّ وجلّ القرآن بقوله:

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ⑬ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ⑭ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ⑮ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ⑯﴾.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ⑬﴾: أي: إنَّ القرآن مكْتُوبٌ في صُحُفٍ مفضَّلَةٍ مُعظَّمة، مُنَزَّهَةٍ عن التحريف والتغيير والعبث.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ⑭﴾: أي: مَرْفُوعَةِ المنزلَةِ والمكانةِ عنْدَ الملائكة، ومُطَهَّرَةٍ عمَّا يُدَنِّسُها، فَلا يَمَسُّها تلاعُبٌ، ولاَ تغيير، ولا تَبْدِيلٌ، ولا تحريف، ولا تَمَسُّها شياطين.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ⑮﴾: أي: هذه الصُحُفُ مكْتُوبَةٌ ومَحْفُوظَةٌ بأَيْدِي كتَبَةٍ من الملائكة الكرام، وهي غير اللّوح المحفوظ الجامع لعلوم الدنيا والآخرة، والقرآنُ وسائر كُتُب اللّٰهِ بعْضُ ما فيه.

﴿سَفَرَةٍ﴾ جمع «سَافِر» بمعنى «كاتب». سافِرٌ وسَفَرَةٌ، مثل: كاتبٍ وكتبةٍ. تقول لغةً: سفَرْتُ الكتاب أسْفِرُهُ سفراً أي: كتَبْتَه. ويُقَال للكتاب: سِفْرٌ، وجَمْعُهُ أسْفَارٌ.

قال الزّجّاج: قيل للكاتب: «سَافِر» وللكِتَاب «سِفْرٌ» لأنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُبَيِّنُ الشيء ويُوَضِّحه.

والمادة في أَصْلِها تَدُلُّ علَىٰ معنَىٰ الانْكِشَافِ والْوُضوح.

وسُمِّيَ بعْضُ الملائكة: «سَفَرَة» لأنهم يَسْفِرُونَ بَيْنَ الله عزّ وجلّ وبيْنَ أنبيائه، ويَنْزِلُونَ بَوَحْيِ اللَّهِ لبعض عباده، أي: يكونون سُفَرَاء.

﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾: أي: وهؤلاء الملائكة السَّفَرَة كِرَامٌ بَرَرَة:

**كِرَامٌ**: جَمْعُ كريم، والكريم هو الجامع لأنواع الْخَيْر والشَّرَف والفضائل، وهو اسْمٌ جَامِعٌ لكُلّ مَا يُحْمَد.

**بَرَرَة**: جَمْعُ بارّ، وهو الذي يتوسّع في فعل الْقُرُبات والعبادات فَوْقَ مَرْتَبَةِ التقوىٰ، التي تقتصر دَرَجاتُها على فعل الواجبات وتركِ المحرَّمات.

فهؤلاء السّفرةُ الكرام البرَرَةُ من الملائكة، لا يعْصُونَ اللَّهَ مَا أمَرَهم ويفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ ضِمْنَ حُدُودِ دَرَجات مرتَبَةِ التقوىٰ، ثمّ يَزِيدون على ذلك أنواعاً من الأذكار والعِبَادات والتطوُّعَاتِ الّتي لم يُؤمَرُوا بها أمْرَ إلْزام، تبرُّراً وَتَوَسُّعاً في التقرُّبِ إِلَىٰ اللَّهِ عزّ وجلّ.

## تحليل كون القرآن تذكِرَةً فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَ مَا جَاءَ فيه

إنَّ القرآن يشتمل على تعليم بالهداية للّتي هي أقومُ عقيدةً وخُلُقاً وعملًا، وعلى ترغيب بثواب اللَّهِ الجزيل يوم الدين، وعلَىٰ ترهيب من عقاب اللَّهِ العادل يوم الدين، مع ترغيبٍ وترهيبٍ بجزاء معجّل.

ومن الهداية للّتي هي أقوم التذكير بمعارف عقليَّة، والتنْبِيهُ على معارفَ كونيّة دالَّة على الله وصِفاته، وعلى وظيفة الإنسان في الحياة، فقد يغفل الإنسان عن ملاحظتها، فيُنَبِّهُهُ القرآنُ عليها.

لكنّ دوام القرآن في الناس بحفظه في صحُفٍ ومصَاحِفَ تُتْلَىٰ، وفي

أصوات مُسَجَّلَةٍ على أشرطة تَسْجِيل الصَّوْت، وإنَّ تكْرير تِلَاوَةِ آياته وسُوَرِه في الصَّلَوات، وفي غير الصَّلَوات، يَجْعَلُ من أبرز صفاته الدائمة أَنَّه ذِكْرٌ، يُطَالَبُ المؤمنون به أَنْ يذكروه دواماً بألسنتهم، وأن يتذكرُوا ألفاظهُ، وأن يتذكَّرُوا معانيَهُ بأفكارهم، وأنْ يكون وُجوده بَيْنهم تَذْكِرَةً حاضرةً بأمور دينهم وآخرتهم، وواجباتهم نحو ربّهم، كما أنّ التَّذْكِرَة الّتِي يتّخِذُها النَّاسُ وسِيلةً حاضرةً تُذَكّرُهم بحاجاتهم الّتي يُهِمُّهُم أن يتَذَكَّرُوها.

والمؤمن العاقل الحصيفُ يعْلَمُ أنَّ أعظم حاجات الحياة ما يضْمَنُ له سعادة الدنيا والآخرة، وهذان كلاهما لا يتحقَّقان إلا بالتزام تعليمات الدّين وشرائعه وأحكامه. والقرآن هو دستورُ الهداية إلى الدين، فَهُو يَرْجِعُ إِلَىٰ ما عَلِمَه منه، ليكون دائِمَ التَّذَكُّرِ له.

أمّا قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ فيَدُلُّ على أَنَّ من شاء من المكلّفين قَبِلَ هدايتَه، وتعلّم مضامينه، وعَرَفَ ترغيباته وترهيباته، ثمّ كان مع آياته في ذِكْرٍ متكَرّر ليكونَ له تذكِرَةً حقّاً. فجاء في النَّصّ ذِكْرُ الفِقْرَةِ الأخيرة، لأنّها لاَ تكُونُ إلاّ مسْبوقةً بالفقراتِ الّتِي تأتي قَبْلَها في الترتيب الطبيعيّ.

وفي تعليق الشرط بمشيئة الإنسان دلالةٌ على أنّ الرَّبّ الخالِقَ جلّ جلاله، قد جعل الإنسانَ في الحياة الدُّنيا مخيراً أَمَام تصرُّفاته الإراديَّة، ومنْها قبولُ الإيمان والإسلام، وتَدَبُّرُ ما أَنْزَلَ اللَّهُ في القرآن للتعرُّف على هَدْيِه، والاتعاظ بعظاته، ومنها ذكْرُ آياته آناءَ اللّيل وآناءَ النهار، ليكون له القرآن تذكرَةً حاضِرَةً مُصَاحِبَةً له في معظم أوقاته، فكُلّما غفل عن طاعة رَبّه والْعَمَلِ بمراضيه، ونزعَتْ به نَفْسُه إلى المعاصي، بنوازع الأهواء والشهوات ووساوس الشياطين، كانَتْ آيَاتُ اللَّهِ في كتابه مُذَكِّرَةً لَهُ، ومُنَبِّهَةً لَهُ مِنْ غَفَلَاتِهِ.

وكما أنّ وظيفة القرآن الهداية والترغيب والترهيب والتذكير المستمرّ، ما دام الإنسان المكلَّفُ على اتِّصالٍ به، يتلو آياته، وَيذْكُرُ مَضامينها، فإنَّ وَظيفَةَ الرَّسُولِ وَكلِّ حَمَلَة رسالَتِهِ من أمَّته مِثْلُ وَظيفَةِ القرآنِ، غَايَةُ فِقَرَاتها التذكير بما جاء في القرآن بعد الهداية لِلّتِي هي أقوم، والترغيب والترهيب.

ثمَّ إنَّ الإنسان المكلَّف هو المسؤول وحْدَهُ عن الاستجابة أو الرَّفض، وعن الطاعة أو المعصية، أمام الله عزّ وجلّ يوم الدين، وأمام أحكامه القضائية المنزلَة للعمل بها في الحياة الدنيا، الّتي يجب على السلطة الإسلاميَّة الممكَّنَةِ في الأرض أنْ تقُوم بتنفيذها، كالقصاص وقطع يد السارق، وجلد الزاني.

❀ ❀ ❀

## (٧)
## التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دروس السورة

وهو الآيات من (١٧ ـ ٢٣)

قال اللّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

مطلع هذا الدرس الثاني من دُروس السورة مرتبطٌ بالمستغني المستكبر الرافِض لدعوة الرَّسُول له إلى الإسلام، والمصرّ علَىٰ كُفرِهِ وعناده، الذي جاء الحديث عنه في الدرس الأوّل من السورة.

إلاَّ أَنَّ البيان انْتَقل إلَىٰ التّعميم الذي يشْمَلُ كُلَّ إنسان كافرٍ، مُشابهٍ لِمَنْ جاء الحديث عنه في الدرس الأول، والذي هو من عظماء قريشٍ،

فمِنْ أُسْلوب القرآنِ الاستفادةُ من الحوادثِ الخاصَّة، وتَصَيُّدُ مُناسَبَتِها لتوجيه بيانٍ عامٍّ وقضِيَّةٍ كلّية.

● قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾:

جاء في هذه الآية الحديثُ عَنْ نَوْعِ الإنسان، مع أن المقصُودَ بعْضُ أفراده، وهُمُ الكافرونَ، نظراً إِلَىٰ أنَّ أغْلَبَ هذا النوع الإنسانيّ هُمْ من فِئةِ الْكافِرينَ، الضَّالِينَ المضلّين، فقد قال الله عزّ وجلّ في وصْفِ الناس في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (الرَّعْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿. . . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾.

والنُّصُوصُ القرآنيَّةُ في بيانِ هذا الواقع الإنْسَانِيِّ كثيرة، وبما أنَّ أكثر النَّاس كافرون كان مَجموعُ هذا النوع جديراً بأنْ يُقال بشأنه ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ ومَعْلُومٌ أنَّ الحكْمَ عَلَىٰ الْمَجْمُوعِ لا يَتَنَاوَلُ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أفرادِه، بل يتناول مَا تَدُلُّ عليه القرائِن، والمرادُ هُنَا الإنْسَانُ الْكَافِرُ، أو أَكْثَرُ أفراد هذا النوع.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: قَالَ المفسّرون: أَيْ: لُعِنَ وطُرِدَ وأُبْعِدَ عَنْ مَدَىٰ رَحْمَةِ اللَّهِ الواسعة، والمرادُ من كان من نوع الإنسانِ كافراً بالله وبِرسُولِهِ وبما أَنْزَلَ اللَّهُ على رسُولِهِ، ويكشفُ هذا المرادَ قولُ اللَّهِ عَقِبَ هذه العبارة:

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ؟!!﴾: أي: قُتِلَ الإنْسَانُ الكَفُورُ مَا أَكْفَرَهُ، وهذا من الإيجاز القرآنيِّ الَّذِي لَهُ نَظَائِرُ كثيرة.

وعبارة: ﴿قُتِلَ﴾ أَبْلَغُ في الدَّلاَلَةِ علَىٰ اللَّعْنِ والطَّرْدِ، لِأَنَّ الْقَتْلَ في

تَصَوُّر النَّاسِ صَرْفٌ للْحَيِّ من الْوُجُودِ إلى الْعَدَم، أمَّا اللَّعْنُ والطَّرْدُ فَهُما إبْعَادٌ، مع إبقاء الحيِّ موجوداً في الأحْيَاء.

وعبارة: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ؟!﴾ يُمْكن أنْ تُفْهَم على وجهين:

**الوجه الأول**: التَّعْجِيبُ من غُلُوّه في كُفْره وجُحُوده لِنِعَم الله عليه، والمعنى: ما أشدَّ كُفْرَهُ وغُلُوَّهُ فيه!!

**الوجه الثاني**: أن تكون «ما» في العبارة استفهاميَّة، وهو استفهامٌ توبيخيٌّ، والمعنى: أيُّ شيْء جعله يكْفُرُ باللَّهِ وبأَنْعُمِهِ عليه، مع أنّ أدِلَّة وبراهين وُجود اللَّهِ ظاهرةٌ في ذاتِ الإنْسَان، وفي كلّ شيءٍ من الكَوْن حَوْله، ومع أنّ أدِلَّة وبراهين نِعَم الله عليه مُرَافِقةٌ لحياته كُلّها، في طعامه وشرابه وسائر حاجاته وَمطالب جسَدِه ونَفْسِه.

## سوابق الحديث عن الأنسان في نجوم التنزيل

**أولاً**: أبان الله عزّ وجلّ في سورة (العلق/٩٦ مصحف/١ نزول) ثلاث قضايا تتعلّق بالإنسان:

**القضية الأولى**: كوْنُه خُلِقَ مِنْ عَلَق، وهذا بيانٌ لطور من أطوار تكوينه، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾.

**القضية الثانية**: كون الله تعالى قد أعطاه الله الجهاز القابل للعلم، وأعطاه وسائل التعلّم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾.

**القضية الثالثة**: أنَّ الإنسان متى رأىٰ نفْسَه قد استغنى سَلَكَ مَسَالِكَ الطغيان، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

**ثانياً**: وفي سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) أبان الله عزّ وجلّ نظرةَ الإنسان إلى صُوَر ابتلائه بالنِّعَم والمصائب في الحياة الدُّنيا، وأبانَ أنَّها نظرةٌ فاسدة مباينةٌ للواقع والحقيقة، فهو في امتحانه بالنِّعَم يقول في أخفّ أحْوَالِه جُنوحاً وسُوءَ فَهم عن الله: رَبِّي أَكْرَمَنِي، لِأَنِّي أَسْتَحقُّ هذا الإكرام، مَعَ أَنَّهُ مُمْتَحَنٌ مُبْتَلىً بالنعم. وهو في امتحانه بالمصائب يقولُ في أَخَفِّ أحوالِهِ جُنُوحاً وسُوءَ فَهْم عن الله: رَبِّي أَهَانَنِ، فَلَمْ يُعْطِني ما أَسْتَحِقُّ من عطاءِ أنا أهْلٌ له، مَعَ أَنَّهُ مُمْتَحنٌ مُبْتَلَىً بالمصائب.

فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا...﴾.

**فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ**: أي: فَضَيَّقَهُ علَيْه ولم يجعلْه واسعاً.

**ثالثاً**: وفي سورة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) أبان اللَّهُ عزّ وجلّ أنَّ الإنْسَانَ في واقع خُسْرٍ دائم من رأس مالِهِ في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، ما مَرَّ علَيْهِ مِقْدارٌ ما من الزَّمَنِ الجاري الّذي هو العصر، باستثناء الّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ...﴾.

وسبَبُ كَوْنه في مُحِيطٍ من الْخُسْرِ أنّه يُضَيّعُ مُدَّةَ امتحانِهِ، ويُبَدّد ساعاته وطاقاتِهِ فيها سُدىً، إذا لَمْ يرتكِبْ مع ذلك فيها آثاماً، ويَحْمِلْ فيها أوْزاراً.

**رابعاً**: وفي سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) أبان الله عزّ وجلّ قَضِيّتَيْن من القضايا الّتي تتعلّق بالإنسان:

**القضية الأولى**: أنّهُ كنودٌ كفورٌ بنعمة الله عليه، وقد يفتخر بِكُنُودِه ويُعْلِنُ ذَلك، ويُكابِرُ في استحسان ما يفْعَلُ من ظُلْمٍ وعُدْوانٍ، فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴿٧﴾﴾.

**القضية الثانية**: أَنَّهُ يُحِبُّ المالَ حُبّاً شديداً، ويُسمّيه خيراً، فقال الله عزّ وجلّ فيها عن الإنسان:

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

**خامساً**: **وفي سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول)** أبان الله عزّ وجلّ أنّ الإنسَانَ يَتَمَنَّىٰ أمانيَّ لا يستطيعُ تحقيقَها، ويتمنَّىٰ أَمَانِيَّ يستحيل في العقل وقوعُها، ثمّ يَزْعُمُ وُقُوعَها، ويَدَّعِي أَنَّها حقائِقُ كذِباً وزوراً، أو تَوَهُّماً واتِّبَاعاً للأوهام والظنون الضعيفة التي لا يصحّ الاعتماد عليها في اكتساب المعارف، فقال اللهعزّ وجلّ في سياق الحديث فيها عن اتّخاذ المشركين الأوثان شركاء لله، وعبادتهم بعضَ ما يَزْعُمُون أنّهم ملائكة، وأنّهم يشفَعُون لهم عند الله:

﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ليس للإنسان ما تمنَّىٰ، بل الوجود كلّه مِلْكٌ لله، في الآخرة وفي الأولى، وهو الذي يُجْري تصاريفه فيه بحكْمَتِه على مايشاء.

**سادساً**: وفي سورَةِ (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) أبان الله عزَّ وجلّ أنّ الإنسان بالنظر إلى أكثر أفراده كثير الكُفْر بربّه، وكثير الكُفْرِ بنِعَمِه عليه،

مع توافر الأدلّة على وجوده، وظُهُور أيادي عنايته به، وإمداده له بالنِّعَم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

أي: لُعِنَ الإنسان الكافر بربّه ما أشَدَّ كُفْرَهُ مع وضُوح أدلَّةِ الإيمان. أوْ مَا الذي جعله يكفر بربه، مع أنّ أدلَّة الإيمان وأياديَ نعَم الله علَيْه واضحاتٌ جليّات كثيرات؟!

## نظرةٌ إلى تسلسل الأفكار التي جاءت عن الإنسان في نجوم التنزيل

وإذا نظرنا في تسلْسُل الأفكار التي جاءت عن الإنسان في هذا الاستعراض السابق، وجَدْنا أنّها مُرَتَّبَةٌ تَرْتيباً مَنْطِقِيّاً بَدِيعاً، مطابقاً لتدرُّج البيان التعليميّ والتوجيهيّ:

(١) فالفكرة الأولى تتعلّق بخَلْق الإنسان.

(٢) والفكرة الثانية تتعلّق بتعليم الإنسان.

(٣) والفكرة الثالثة تتعلّق بوصْفِ واقع حال الإنسان الخُلِقِي والسلوكيّ، لدى شعوره بالاستغناء، وهي حالة طغيان.

(٤) والفكرة الرابعة تتعلَّق ببيان نظرة الإنسان الخاطئة إلى صُوَرِ ابتلائه في الحياة الدنيا بالنِّعَمِ والمصائب.

(٥) والفكرة الخامسة تتعلَّق بوصْفِ حال الإنسان في الحياة الدنيا، وأنّه في واقعِ خُسْرٍ دائم، إلاّ من استثْنَتْهُمْ سورة العصر.

(٦) والفكرة السادسة تكشفُ السَّبَب في كون الإنسان في واقع الْخُسْرِ الدائم، وهي أنَّهُ كنُودٌ جَحُودٌ كفور، مكابِرٌ فيما هو فيه، مع عِلْمِه بحالة نفسه.

(٧) والفكرة السابعة تُبيِّن أن الإنسان بالنظر إلى معظم أفراد نوعه متعلّق بالدُّنيا، متشبّثٌ بما يهوى منها، فهو لذلك يحبُّ المال حُبّاً شديداً، ويُسَمِّيه خيراً، وهذا من الأسباب التي تصرفُهُ عن العمل للآخِرَةِ، وعن التفكير فيها.

(٨) والفكرة الثامنة تُبيِّن أنَّهُ واسِعُ الأماني، مُسْرِفٌ في التعلُّقِ بها، مع أنَّ الذي يُغْرِيه بها أوْهامٌ وظُنُون ضعيفة، ورُبما يَفْتَري الأكاذيب من عنده، ليثْبِت بها دعاوَىٰ الأماني.

(٩) والفكرة التاسعة أنَّهُ كثير الكُفْر يَسْتَحِقُّ أن يُبْعَدَ عن الوجود كلّه بالقتل، بالنظر إلى معظم أفراد نوعه، أمّا من آمَنَ واستقام على صراط الله فَهُو يستَحِقُّ الخلودَ الدائم في جنّات النعيم.

❀ ❀ ❀

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾﴾؟؟.

جاءت هٰذه الآية على طريقة الاستفهام التقريري، لإحضار الجواب في الذهن، فإذا حضَرَ الجواب فيه، جاء البيان بعْدَ ذَلِكَ مطابقاً له، أو شبْهَ مطابقٍ، والمعنى: من أيّ شيءٍ خلقه خالقه، الذي هو الله إذ لا خالق سواه.

وطرح السؤال والجواب علَيْه من أساليب القرآن البديعة.

هذا الاستفهام الوارد في الآية يتضمّن ابتداءً أنَّ الإنسان مخلوق، وأنَّ له خالقاً، وأنّه خلَقَهُ منْ مادَّةٍ هو يَعْرِفُها، ولا يستطيع أن يتدَخَّل بشيءٍ من خلقها وتكوين عناصرها، إنَّها النُّطفَةُ المنويَّة، إحدى أدلّةِ الإعجاز الرَّبَّانيّ في الخلْق.

وفي الإجابة على الاستفهام الذي جاء في هذه الآية، جاءَ

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾:

وهنا يتحدَّث عُلَماءُ البحوث التكوينيَّةِ لخلْقِ الإنسان، عن تكوين النطفة بأمُور غايَةٍ في الْعَجَب، فيقولون: إنّ النطفة الواحدة الّتي يقذفها الرجل السَّوِيُّ قد تحتوي على خمسِمائة مليون حيوان منويّ، ومن واحد فقط منها يتكوّن الجنين، لدى تلقيحه بُيَيضَة الأنثىٰ، ولدَىٰ هذا الحيوان الذي يتمّ بِهِ لِقَاحُ البُيَيْضة عوامل الذكورة، أو عوامل الأنوثة.

أمّا الْبُيَيضَةُ التي تكون لدى المرأة فإذا لَقِّحَتْ من حيوانٍ فيه عامل الذُّكُورَة كانت معَهُ ذكراً بخَلْقِ الله، وإذا لُقِحَتْ من حيوان فيه عامل الأنوثة كانت معه أُنثَىٰ بِخَلْقِ الله.

ويذكرون أموراً تثير الدهشة في عمليَّاتِ سَعْيِ الحيوانات المنويّة التي تَشْتمل عليها النطفة، مُتَسابقَةً داخل رَحِم المرأة وأَجْهِزَتها التناسُليَّة، حتَّىٰ يظْفَر واحدٌ منها بنَطْحِ جِدَار البُيَيْضَة وكَسْرِه، للاتحاد بنواتها، إلى غير ذلك من عملياتٍ مُذهِشَاتٍ مُتَتابعاتٍ، حتَّىٰ يتكَوَّنَ الجنينُ ويَتَخَلَّق. ثُمَّ تَدِبُّ فيه رُوحُ الحياة الإنسانية، ثُمَّ يتكامَلُ خَلْقُهُ ونُضْجه حتَّىٰ لحظةِ الميلاد والخروجِ من بَطْنِ أمّه إلى الحياة على الأرض.

فمن استَبْصَر بهٰذه الدلائل المدهشة، واتَّجهَ وجْدانُه للاعتراف بالحقّ، آمن بالله العليم الحكيم القدير اللَّطيف، الذي أتْقَن كلَّ شيءٍ صُنْعاً، فسبَّحَ بحَمْدِه، وسجَدَ لَهُ خاضعاً قانتاً عابداً، إيماناً بأنّه هو الذي خلقه وصَوّره وشقّ سمْعَه وبصَرَه.

**النُّطْفَة**: تُطلق على المنيّ الذي يَقْذفُه الرجل، وتطْلَق على الماء القليل الصافي، وعلى الْقَطْرَة منه.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾: أي: مِنْ بَعْض نطفةِ مَنِيٍّ خلَقه، فحرفُ «مِنْ» هُنَا للتبعيض، والبيانُ يَتَحدَّث هنا عن حلقة من سلسلة أطوار خَلْقِ الإنسان الطويلة، وقبلها حَلقات كثيرات منها الدم، والغذاء، والماء والتراب، وما

قبلَ ذَلِك، وبعدها حلقات كثيرات، منها العلقة، والمضغة غير الخلّقة، والمضغة المخلّقة، ثم الجنين.

﴿خَلَقَهُ﴾: الخلْقُ هو فعل إيجاد الشيء إبداعاً على غير مثالٍ سبق، ومن غير مادّة سابقة، أو تصويراً على مثالٍ سبقَ، ومن مادّةٍ موجودةٍ سابقاً.

أمّا الخلْق الإبداعي فَلاَ يتصف به إلاَّ الله جلّ جلاله إذ هو من خصائص الربّ العليّ الأعلى.

وأمّا الخلْقُ التصويريُّ من مادّة موجودة وعلى مثال سابق، فقد يكون من أفعال العباد الّتي مكّنَهُمُ الله منها، ومن هذا قول الله عزّ وجلّ لعيسى عليه السلام، كما جاء بيانه في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿. . .وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى. . . ﴿١١٠﴾﴾.

﴿فَقَدَّرَهُ﴾: التقدير في الْخَلق هو جَعْل كلِّ جُزْءٍ من أجزاء المخلوق وكلّ عنصر من عناصِرِه مُقَدَّراً بمقْدارٍ مُحَدَّد، موافقٍ للغاية منه بإحكامٍ تامٍّ.

ويأتي تَنْفِيذُ المقَدَّرَاتِ عَقِبَ بَدْءِ عمليَّةِ الخلْقِ مباشرة، وتَبْرُزُ ظواهِرُ الأعضاء المقدّرة في المخلوقات الحيّة، وفوارق صفاتها بعد كَوْنِها مُتماثِلَةً في مراحل خَلْقِها الأوّل.

فتقدير الْفُروق والخصائص والصّفات والتَّخَصُّصات في الخلايا يكونُ لاحقاً للخلْق الأوّل، الذي تكُونُ فيه أفرادها متماثلة، بمقتضىٰ دَلاَلَة «الفاء» في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ وهٰكَذا يكونُ الجنين نطفةً، ثم علقة، ثم مضغةً، ثُمَّ تظهر أعضاؤه وجوارحُه، بمقتضى تقديرِ بدَيعٍ حَكيم، فَيُقَدِّرها الخالق الحكيم بمقاديرها الملائمة للغاية منها، وفْقَ خُطَّتِه في خَلْقِ كُلّ فرْدٍ من أفراد نَوْع الإنسان.

قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾: أي: ثُمَّ بعد ولادته ونَشْأَتِه سَهَّلَ الله الإنسانَ وهيَّأَهُ وأعدَّهُ مُيَسَّراً لا يجدُ عُسْراً في اتّباع السّبيل، وهو صراط الله المستقيم، الذي أنزل الكتُبَ وبَعَثَ الرسُل لبيانه والهداية له.

**يَسّرَهُ**: أي: سهَّله وهيّأه وأعَدَّهُ مُيَسّراً، ويكون التسهيل بإعطاء الوسائل وتذليل الموانع والعقبات.

وفي تحليل هذه العبارة لَدَينا وجْهان.

**الوجه الأوّل**: أن يكون أصْلُ العبارة ثُمَّ يَسَّرَهُ لِسُلُوكِ السبيل، فحذفت كلمة «سلوك» إيجازاً، وقُدِّم: «للسّبيل» على الفعل مراعاً للنَّسَق الجمالي في الآيات، وبَعْدَ ذلك حُذِف الجار، فانتصب لفظ «السبيل» بنزعِ الخافض، فصارت العبارة ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾.

فعل «يَسَّرَ» يتعدّى لمفْعُولٍ به واحد، ويتعدّى للمفعول الثاني بالجار.

والمعنى: ثم يَسَّرَ الله الإنسان بما وهبه من صفات، لسلوك سبيل الله، الذي هو سبيل هدايته ونجاته وسعادته الأبدية، فإذا شاء الإنسان سلكه، ويساعده الله على سلوكه ويمُدُّه بمعونته.

**الوجه الثاني**: أنْ يكون فعل «يَسَّرَ» قدْ ضُمِّن معنى فعل «هَدَى» وتقدير العبارة: ثمّ يَسَّرَهُ هَادِياً إيَّاهُ السبيل. وإذْ حُذِف الفعل الذي جعل ضِمْنَ فِعْلِ يَسَّر، فإنَّ تقدير العبارة يكون: ثم يَسَّرَهُ السَّبِيلَ، وبعد هذا قُدِّمَ السبيل مراعاة للنَّسَق الجمالي، فصارت العبارةُ: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ثم هداه السبيل ويسَّرَهُ لسلوكه.

والمراد بالسبيل فيما أرى صراطُ الله المستقيم، لا مَخْرَجُ ولادة الجنين، لأنَّ العطف قد جاء بحرف «ثم» الدَّالّ على التراخي، ولو كان المراد سَبِيلَ خُروج الجنين من رحم أُمِّه لكان المناسب أن يُعْطَفَ بالفاء.

وسبيل الله يُعْلَم ويُيَسَّرُ الإنسانُ لاتّباعه بعد بلوغه سِنَّ التكليف، فالمناسبُ مع هذا المعنى العطف بحرف «ثم».

وقد استقرأتُ وسَبَرْتُ كلمة «السّبيل» مُعَرَّفةً في القرآن فوجَدْتُها مثْلَ كلمة «الصّراط» فهما في الجوانب الفكريَّة والسلوكية يُرَادُ بهما صراط الله وسبيله في الدين، وأحكام شريعَتِه لعباده، ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾:

أي: إمّا أن يكونَ شاكراً ولو شكراً جُزْئيّاً يُنْجيه من الخلود في عذاب النار، وإمّا أَنْ يكون كَفوراً مُبَالِغاً في كُفْرِهِ، ليس لديه أَقَلُّ مقدارٍ من الشُّكْرِ، فهو يستَحِقُّ الخلود في عذاب النار.

فحَمل السبيل على هذا المعنى الذي تواطَأَتْ عليه الآيَات القرآنيّة أولَىٰ من حَمْلِهِ على مَعَانِي أُخْرَىٰ ذكرها بعْضُ أهل التأويل[1].

وهو الذي يتناسب مع الترتيب الفكري في آيات الدرس تناسباً تامّاً، وينسجم معها انسجاماً معقولاً سوابقها ولواحقها.

ولا مانع من اعتبار سبيل الله مُيَسَّراً فَهْمَا من النصّ، فقد دلّت النصوص على أنّ القرآن ميسّر، وعلى أن الدين يُسْر.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾

(١) إنّ خلْقَ الإنسان بدْءاً من النطفة حتَّىٰ الاكتمال والبلوغ والاستعداد التامّ لتحمُّل المسؤوليّة في الحياة الدنيا مَرْحَلَة.

(٢) وَإِنَّ تحَمُّلَهُ مسؤوليّة ابْتِلائِه في الحياة الدنيا، مع هدايتِهِ إلى سبيل الله فيها وتَيْسِيرَهُ لسلوك هذا السبيل وتيسير السبيلِ له، مرحَلَةٌ ثانية.

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبر سورة الفاتحة.

(٣) وَإِنَّ إِمَاتَتَهُ وإقباره إلى يوم البعْثِ والنُّشُور مرْحَلَةٌ ثالثَة، وهي المدَّةُ الفاصلة بين انتهاء حياته الأولى حياة الابتلاء، وبَدْءِ حياته الأخرى حياة الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء.

(٤) وإنَّ بَعْثَهُ إلى الحياة وإنشاره لمحاسبته وفصل القضاء بشأنه ومجازاته على أعماله في الحياة الدنيا مرحلَةٌ رابعة.

بهذا يظهرُ تتابع المراحل وتكامُلها وتناسُقُها وانسجامُها الفكريّ، بحَسَبِ ما تَهْدِفُ إليه البيانات القرآنيَّةُ بِوَجْهٍ عامٍّ.

وإذا عَرَفَ الإنسانُ هٰذهِ الخُطَّةَ الرَّبَّانيّة، وآمن إيماناً صحيحاً صادقاً، كان على بَصِيرةٍ مِنْ أَمْرِ وُجُوده والغاية منه، ومَسْؤوليّتِه في الحياة الدنيا.

ولا عُذْرَ بعد البيان الرَّبَّانيّ المقرونِ بالحجج والبراهين لكافرٍ جاحِدٍ، أَوْ شَاكٍّ، لأنّ شكَّه لا يَسْتَنِد إلى ما يُعْذَرُ به عند ربّه.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾: **الإماتَة**: هي سَلْبُ الحياة عن النفوس الّتي سبَقَ أنْ مَنَحَها اللّهُ الحياة. وقد جاء العطف بحرف «ثُمَّ» الدّالِّ على التراخي، لأنَّ الإنسانَ المكلّف لا يكون موتُهُ قبل أن يَبلُغَ مَرْحلَةَ التكليف، وقبل أن يمُرَّ عليه زَمَنٌ كافٍ لامتحانه.

لقد خلَق الله الإنسان في الحياة الدّنيا ليبْلُوه، ثمَّ لمَّا انْتَهَتْ مُدَّةُ ابتلائه أَمَاتَهُ، وقَدْ قَدَّر اللّهُ وقضَىٰ أَسْبَابَ الموت، ضِمْنَ سُنَّتِهِ فيما خلَق من كائناتٍ حيَّةٍ، فَهُو سبحانه المميتُ لكُلّ نَفْسٍ تموتُ، وقد أبان جلَّ جلالُه في كتابه أنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذائقَةُ المَوْت.

وحينما يتَدَخَّل ذَوُوا الإراداتِ الحرَّة، فيتّخذونَ أسْبابَ مَوْتِ ذي نَفْسٍ حيَّةٍ، فالأمْرُ يكون على أحد وجهين:

**الوجه الأوّل**: إذا كان لله عزّ وجلّ إرادَةٌ في الإمَاتَة ضمْن الأجَلِ

المحدّد بقضائه وقَدَره، مَكَّنَهُمْ من أسبابهم، وأوصَلَها إلى الإماتة، فالْمُمِيت في الحقيقة هو الله عزّ وجلّ بقضائه وقَدَرِه وفِعْله، وأمْرِه أو إذْنه.

على أنَّ المتعدِّيَ من الناس بالْقَتْلِ يتَحمَّل مسؤوليّته كامَلةً، لأنَّه عصَىٰ وأجرم باتّخاذ الأسباب.

**الوجه الثاني**: إذا لم يكن للّهِ عزّ وجلّ إرادةٌ في الإماتة، صَرَفَهُم الله، أو لم يُمَكِّنهم من اتّخاذ الأسباب، أو قَطَع أسْبَابَهم من أوْسَاطها، أو لم يُوصِلْها إلَىٰ الإمَاتَةِ بأَلْطَافِهِ الخفيَّة.

﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾: أي: وَارَاهُ في قَبْرٍ تكريماً لجَسَدِه عن أَنْ تنتشر رائحة ما يتفسَّخ منه، ويكون كجِيَفِ البهائم.

وهذا التكريم قد تمّ بشَرِيعة الإقبار، والهداية إليه، فشريعةُ دَفْن موتى الناس في القبور مما اتفقت عليه جميع الشرائع الرّبّانيّة، منذ عهد الإنسان الأول، أخذاً من الخطاب الشامل للإنسان بوجه عامّ، ويؤكّد هذا قصَّةُ ابْنَيْ آدم قابيل وهابيل، إذْ لمَّا قَتَل قابيلُ هابيلَ تحيَّر كيْفَ يواري سَوْأَة أخيه، حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ غُرَاباً يَهْدِيه إلى إقباره، بما فَعَل بغُرَابٍ ميّتٍ.

قال الله عزّ وجلّ بشأن القاتل منهما لأخيه في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وابتدع الهنادكة في الهند إحراق موتاهم، وابتدع مجوس الفرس إلقاء موتاهم لسباع الطير، وكذلك بعض أهل الجاهلية العربية، وكرم الله جسد الإنسان بالإقبار، هداية وتشريعاً.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْد مُرور زَمن البرزخ الفاصل بين الموت والبعث للحياة الأخرى، وبعَدَ زِيَارَةِ الْقَبْر[1] طَوال زمن البرزخ، يُنْشِرُه الله، ويَبْعَثُه إلى الحياة الأخرىٰ، حياة الحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء الأمثل.

وهذا البعث هو المرحلة الرابعة من مراحل تكوين الإنسان، تنفيذاً لما سبقَ به قضاء الله وقَدَرُه.

﴿أَنشَرَهُۥ﴾: أي: أحْياهُ بعد الموت، تقول لغة: نَشَرَ اللَّهُ الميّت نَشراً وَنُشوراً، وأنْشَرَهُ الله إنْشَاراً، أي: أحْيَاهُ بعد الموت.

وتقولُ: نَشَرَ الميّتُ «بصيغة الفعل اللاّزم» أي: عاد إلى الحياة.

﴿إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾: ربَط الله الإنشار بمشيئته الّتي سوف تتوجَّهُ مستقبلاً لتنفيذ ما سبق أن تمّ به قضاؤه وقَدَرُه. أخذاً من دلالة «إذا» الّتي هي ظرف لما يُسْتقبل من الزمن، إشارةً إلَىٰ أَنَّ وقْتَ البعث ممّا أخفاه اللَّهُ علَىٰ كلّ خَلْقه، فلا يَعْلَمُ وقْتَه، ولا الأسْبَابَ ولا الأَحْداث الّتي قد تُعْطِي ظنًّا بوقْتِه إلاّ الله وحدَه، جلّ جلالُهُ، وتباركَتْ أسْماؤه وصفاته.

فالمشيئَةُ هنا مشيئة التنفيذ، لا مشيئة القضاء والقدر السابقة في خُطّة التكوين، إذْ إنَّ وقْتَ الإنشار مُقَرَّرٌ في عِلْم الله سابقاً.

فلا مطمع لأحد من الخلائق مهما عَلَتْ مَنْزِلَته عند الله في أَنْ يَعْلَم وقْتَ الإنْشار، إنّه ممّا استأثر اللَّهُ بعلْمِه لمقتضيات حكمته جلَّ جلاله.

كذلك أَخفى الله عزّ وجلّ وقْتَ السَّاعَةِ الّذِي تنتهي فيه ظروف هذه الحياة الدنيا.

---

(١) المراد بالقبر مكان وُجود النواة التي لا تُدرَكُ بالأبصار، والّتِي تكون منها النشأة الأخرى، إذ الغالب أن تكون منثورة في قبرٍ من القبور أو في التراب.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿كَلَّآ﴾: كلمة زجْرٍ لهذا الإنسان الذي قال الله بشأنه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ والمرادُ به الإنسانُ الكافر.

لقد أعطاه اللّهُ مُدَّةَ عُمْرِهِ في الحياة الدنيا، وأمْهَلَهُ إمْهالاً كافياً، ليُؤمن ويَعْمَلَ عملاً صالحاً، ويَتُوبَ إلى ربّه.

لكنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، وقد كان بإمكانه أن يُنْجيَ نَفْسه ولو قبل أن يدركه الموت بلحظات لم تصل فيها نفسه إلى عتبة الموت. ولم تبلُغْ رُوحُه الحلقوم، لقَدْ أدْرَكه الموت وهو على كُفْرِهِ وجُحُودِه وفُجورِه.

وَكلمة ﴿لَمَّا﴾ في الآية حَرْفٌ جازمٌ للفعل المضارع، وهو يجزمُهُ لفظاً، ويَقْلِبُ معناه إلى الماضي مثل حرف «لم» ومعنى حرف «لمَّا» النفيُ، ولكن يَدُلُّ على أنَّ منفيَّهُ مُتّصِلُ النفي إلى ما قَبْل النُّطقْ مباشرةً، وكان بإمكانه تغيير حالة النفي هذه بالقيام بما نفته ولو قَبْلَ لحظة بَدْءِ النطق مباشرة.

وَإذْ قَدْ جَعَل اللّهُ للإنسان مجالاً لأن يَتُوبَ ما دامَ حيّاً، لم يُدْرِكْهُ الموتُ، ولَمْ تَبْلُغْ رُوحُهُ الحلْقُوم، فإنَّ أَدَقّ تعبير للحُكْم عليه إذا مات قبلَ أن يتوب ويؤمن، أن يقال بشأنه: لمَّا يَتُبْ، لأَنَّ فُرصَةَ التوبَة قد كانت مهيَّأَةً له إلى ما قَبْل لحظة بلوغ روحه الحلقوم.

وقد كان له رجاءٌ حتَّىٰ لحظة ما قبل الموت أن يقبل الله توبته وإيمانه واستغفاره، لو شاء هو أن يَتُوبَ ويُؤْمِن ويستغفر، فينجوَ بذلك من الخلود في عذاب جهنّم، لكنَّه لم يفعل، وساعَتئِذٍ يَصْدُر القرار الحكميّ بشأنه: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ أي: لمَّا يُنَفِّذْ ولمَّا يُمْضِ ما أَمَرَهُ رَبُّه به، من إيمان وإعلانٍ للطاعَة والإسلام، ولو أنَّهُ قَضَىٰ وأمْضَىٰ بالتّنفيذ ما أَمَرَه الله به لنجا من الخلود في عذاب النار.

لقد ظلَّ بابُ الرجاءِ مفتوحاً له، حتَّىٰ قُبَيْلَ اللَّحظَاتِ الّتي نزلَ به فيها الموت، لكنَّهُ انقَطَعَ رجاؤه مُنذُ لامَستْ نَفْسُه عتبة الموت، وشاهد بعض حقائق ما بعد الموت، لقد انتهت حياة امتحانه، وظهرت عند أواخرها لَوْحَة: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ وثبتت ظاهرةً علَىٰ رأْسِهِ، وجاء مُفَصَّلُ مرحلة الموت عقبَ ذلك.

هكذا حَصَلَ لفرعون حين أدْركه الغرق، وبدأ يذوقُ سكَراتِ الموت، وبعد أن انتقل إلى مَفْصِل مرحلة الموت قال: آمَنْتُ، لكنَّهُ لم يَنْفَعْهُ إيمانه ساعتئذٍ، وبَقِي حاملاً على رأسِه لوحة: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) بشأنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

لقد كان باستطاعة الإنسان الكافر الذي ماتَ ولم يُؤْمِنْ، أَنْ يتدارَكَ نَفْسَهُ قَبْلَ الموت بلحظات يؤمِنُ بها حينما كان يُحسُّ أن الحياة فيه مستقرَّةٌ، ولا يُكلّفُهُ ذلك إلاَّ أن يُؤْمِنَ بقَلْبه، ويُعْلِنَ ما يستطيع أن يُعْلنَهُ بلِسَانِه، لكنَّهُ لم يفعل.

## (٨)
## التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس السّورة

وهو الآيات من (٢٤ ـ ٣٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

## تمهيد

في هذا الدّرْس أمْرٌ جازمٌ للإنسان الكافر على وَجْه الخصُوص، وفيه أيضاً لفْتُ نَظَرٍ لكلّ إنسانٍ يَنْتَفِعُ لِنفْسِهِ، أو لأساليب دَعْوته إلى سبيل ربّه.

فما هو المأمُورُ به؟

يأمُرُ الله عزّ وجلّ الإنسان بأن ينظر نظر تفكُّرٍ إلى طعامه، أي: إلى وسائل وظواهر إعداد الله التكوينيّ له، في ظاهرات الكون، ليَسْتَدِلّ من كلّ ذلِكَ على رحمة الله بعباده، وعنايته العظيمة بالإنسان، في إعداده الطعامَ له، بوسائلَ تكوينيَّةٍ لا يَمْلِك الإنسان من جوهرها الفعّال شيئاً، وما يَمْلِك الإنسانُ بالتسخير الرَّبَّانيّ، لا يَعْدو بعض وسائل ظاهرة مَكَّنَهُ الخالق منها، لتكليفه العمل في الحياة الدّنيا، أمّا آلاف الوسائل الظّاهرة والخفيّة، فإنَّها تجري ضِمْن مقادير الخلق الرَّبَّاني، دون أن تكون مسخَّرَةً للإنسان.

فمن الوسائل المسخّرة للإنسان في مجال الأطعمة، حَرْث الأرض، وإلقاء البزور فيها، وإجراء الماء إليها إذا لَمْ يكُن الزّرْع مَطَرِيّاً، وشيْءٌ من التعهُّدِ للرّعاية والحمايَةِ والحفظ.

أمّا فَلْقُ الحبّ والنّوىٰ، وإنباتُ النّبات في توالي اللحظات، وإنماءُ الزُّرُوعُ، وتَكوينُ السُّحب، وسَوْقُها وإنْزال الأمطار، وإعطاءُ كلّ شيءٍ خلقه، وملايين الأحداث المتتابعة، فإنّما تَتِمُّ بخَلْق الله وحده لا شريك له.

وقد جاء هذا الدَّرْس الثالث مُتَرَتّباً ترتيباً منطقيّاً على ما جاء في الدرس الثاني من دروس السورة، الذي اشتمل على ما يلي:

(١) سؤال الإنسان الكافر عن سبب الكفر الذي كابر فيه، وأصَرَّ عليه، على الرُّغم من أدلّة الإيمان الموجودة في ذاته وفي الكون من حوله.

(٢) سؤاله عن نشأته المليئة بآيات الخالقِ البارئ المصوّر.

(٣) بَيَان الغايَةِ من رحْلَته في الحياة الدنيا، وهي الابتلاء في ظروفها المختَلِفة والمتنوّعة، وإدراكُ هذه الغاية يَهْدِيه إلى المصير الذي هو صائر إليه لا محالة في حياةٍ أخرى بَعْدَ بَرْزَخ الموت.

هذه القضايا الّتي اشتمل عليها الدرس الثاني تَسْتَدعي تكليف الإنسان أن يَنظُرَ إلى آيات الله في كَوْنه، وفي مُقَدِّمَتِها طَعَامُه، الذي هيّأ اللَّهُ له أسْبَابَه في كونه، فجاء الدّرس الثاني مبتدِئاً بتوجيه التكليف للإنسان، أنْ ينْظُر إلى طعامه، كيف هيّأ الْبَارئ الحكيم له أسبابه.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾:

**التدبر:**

أمْرٌ جازِمٌ حازمٌ بالنظر إلى الطعام، وظاهرٌ أنّه لَيْس المرادُ مُجَرَّدَ النظر بالباصِرَة، بل المرادُ النظرُ المصحوبُ بالتفكُّر والتَّأمُّل، واسْتِخْراجِ الروابط والْعِلَلِ والأسباب والغايات، ومعرفة دلائل الآيات الكونيّة الكثيرة المنبثَّة في الأرض وفي السّماء، لإعداد طعام الإنسان في الكون، ومنها أشعّة الشمس وما يسببه القمر من مدٍّ وجزْرٍ في البحار، ومنها تَبَخُّر المياه من المحيطات، وتكْوِينُ السُّحُب وسَوْقُها، وإنزالُ الأمطار من السَّمَاء، إلى غير ذلك ممّا يكشفُه البحثُ العلميُّ الإنساني.

إنّ النَّظَر إلى الظواهر الكونيّة دُونَ تعَمُّقٍ فيها، ودون بحْثٍ عَنْ دلالاتِها، نَظَرٌ حاصل للجميع، كافِرين ومؤمنين، ويسْتَمْتِع بجمَاله وبدائعه كُلُّ ذي حسٍّ ذوّاقٍ لِلْجَمَال.

أمَّا النَّظرُ المصحوبُ بالتفكر والتأمُّل والتدبُّر، فهو من شأن العلماء الباحثين، ومن شَأن المؤمنين المستجيبين للأمْر الرَّبَّانيّ بالنظر.

● قَـوْلُ الـلَّـهِ عـزَّ وجَـلَّ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

عرضَتْ هٰذِه الآياتُ صُورَة مشْهَدٍ متحرّكٍ بديع، يُقَدِّم أَبْرَزَ أحداثِ فَصْل نَباتيّ، يَبْدَأُ بالشّتاء مُرُوراً بالرّبيع، حتَّىٰ فصْل الحصاد، مع الرَّتْعِ في خيراتِ الزَّرْعِ والثَّمرِ، غِذاءً وفاكِهَةً للنَّاسِ والأنْعَام، ومتعةً جماليةً رائعة.

وفي عرض هذا المشهد الْبَدِيع لفتُ نظَرِ الفكر إلى بديع صُنْع الله الّذي أتْقَن كُلَّ شيءٍ صُنْعاً، وَإلَى عظيم أَلْطَافِهِ الخفيَّة، وفيه أيضاً لَمْسُ مشاعر الوجدان لمساً رفيقاً حُلْواً، لإيقاظ دَوَافِعِ شُكْرِ المنعِمِ من أعْمَاقه.

وفي التّفكّر في ظواهر إعداد طعام الإنسان، تُسْتَخْرَج أدلَّةٌ كافية للإيمان بالله، وبكتابه، وبرَسُوله، وباليوم الآخر للحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، وأدلَّةٌ تَهْدِي إلى وجوب اتّباع سبيل الله للنَّاس في رحْلَةِ ابتلائهم عَبْرَ الحياة الدُّنيا.

وهذا الإعداد يتمُّ بوَسِيلة إنْبَاتِ النبات من الأرض، القائمة على عِدَّة شروط ظاهرة:

**الأوّل**: التُّرابُ الصالح للإنبات.

**الثاني**: الماء الّذي يختلط بتُراب الأرض، فيُمِدُّ البزور والجذور بما يلْزَمُ لَهَا لتنْبُتَ.

**الثالث**: البزور والجذور المشتملة على الصِّفَاتِ والخصائص القابلة لأن تَنْبتَ وتَتَنامَىٰ وتتكاثر، وتُخْرِج من الثّمَراتِ والْخَضِرِ مَا هو غذاء الإنسان والحيوان، وما هو فاكهةٌ أو شبيهُ الفاكهة.

**الرابع**: الضَّوْء والحرارة اللّذَان تُمِدُّ بهما الشمس.

**الخامس**: الرّياح الّتي تُمدُّ بالغازات الّتي تحتاج إليها النباتات.

وكلُّ هذه آياتٌ من آيات خلْق الله الّتي لا سلطان للإنسان على تكوينها، وهي من ظواهرِ نِعَم الله على عباده.

● ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾: أي: فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلى أحد أسباب إنْعَامِ الله على النَّاس بالطعام، وهو الماء الذي يَنْزِل السماء مطراً مُنْصَبّاً، بعلْمِ الله، وحكمته، وقضائه وقَدَره، وعظيم قُدْرته، لإحياء الأرض بالنبات.

**صَبُّ الْمَاءِ ونَحْوِه:** سَكْبُه، وفي الصَّبِّ معنى جَعْلِ الشيء المصْبُوب يَنْدَفِعُ من عُلْوٍ بقُوَّةٍ، مع توالي أجزاء المصبوب وتتابُعِها.

إنَّ توجيه نظر الإنسان للتفكّر في هٰذِهِ الظاهرة يَسْتَدْعي التأَمُّل والتفكُّر والتَّدَبُّر في قوانين تبخُّر الْمِياه، وسَوْقِ السَّحَاب، وتجمُّعِها رُكاماً، وتَلَقُّحِها بالرّياح، وعَوَامِلِ تجمُّعها قَطَراتِ ماءٍ، ثُمَّ هُطولِها مُنْصبَّةً من السَّماء على الأرض.

ولِعُلَماء الكَوْنيَّاتِ في هذا المجال بحوثٌ كثيرةٌ دقيقَةٌ ونفيسة. وهي مشحونَةٌ بأدلَّةِ آيات الله الخالق البديع العليم الحكيم القدير.

● ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾: جاء العطف بـ«ثُمَّ» لأنَّ شَقَّ الأرض لِخُروجِ النبات منها مُتَراخٍ عن إنزال المطر.

وفي هٰذِه الآية إرْشادٌ للنظر إلى آيَةِ شقّ الأرض لخروج النباتات منها، أَلَسْنَا نُشَاهِدُ أنَّ عِرْق النَّبات الناعِم الضّعيف، يَفْلِقُ الصخرة ويشُقُّها شَقّاً لِيَخْرُجَ فَوْق سَطْحِ الأرض، فيمْتَصَّ غذاءَه من الضياء وحَرَارَة أشِعَّة الشمس، ومِنَ الْغِلَافِ الغازي المحيط بالأرض.

إنَّ التفكُّر في هذه الظاهرة يَسْتَدْعي بحوثاً علميَّةً دقيقة، تتَّصِلُ بعمليَّاتِ انفلاق البزور، وامْتِداد الجذور والعروق في الأرض والجوّ ونباتها، وظُهور الزَّرْع والشَّجَر والثمر.

ولعُلَماء الكونيات في هذا المجال بحوثٌ دقيقة ونفسية، وهي مشحونة بأدلَّةِ آياتِ الله الخالق البديع العليم الحكيم القدير.

● ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧﴾: جاءَ العطف هُنَا بـ«الفاء» الّتي تدُلُّ على الترتيب مع التّعَاقُب، لأنَّ عمليَّاتِ شقِّ الأرض بالنباتاتِ متواصِلَةٌ ما دام النبات ينمو، وظهورُ الحبِّ في النباتات يأتي مُرَتّباً بِتَعَاقُبٍ، على عمليّاتِ شقّ الأَرْضِ لظهور النباتات وتناميها.

في هذه الفقرة من فِقَراتِ المشهد البياني توجيهٌ للتفكُّر في كُلّ نباتٍ يُنْتِجُ حبّاً، كالْقَمْح والشّعير والذُّرَةِ والأرزّ والْعَدَسِ والفول. إلى سائر الحبوب الغذائيَّةِ والدوائيَّة، والحبوب ذَواتِ الطُّعُومِ والرّوائح المطيّبَةِ للأَطْعِمَةِ، والمشهّيةِ لتناوُلها، والأَكْلِ منها.

وفيها توجيه للتفكُّر في طعام الإنسان من لحوم الحيوانات، المشاركات للإنسان في أكل الحبوب، وفي نُمُوّ أجسادها على ذلك.

● ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨﴾:

وفي هٰذه الفِقَرَة من فقرات المشهد البيانيّ تَوجيهُ نظر الإنسان إلى طعامه من ثمار الشجر الّذي يُعَمِّر سنين عديدة، وجاء في هذا البيان البدْءُ بشجرة العنب، لِعِظَم قيمة العنب في حياة النّاس غذاءً وفاكهة.

﴿وَقَضۡبٗا﴾: **القضْبُ**: ما يُؤكَلُ من النباتِ غضًا طَرِيّاً، وهو في الغالب ممّا تأكله الأنعام، ومن القضب أوراق وأغصان شجرة العنب.

ولمّا كانَتْ شجرةُ العنب تُعْطي عِنَباً وَقضباً معاً، كان ذكْرُهما مقترنَيْنِ دالاً على هذه الشجرة العظيمة في عطائها، وجزيل كَرَمِها، ولهذا سمَّاها الناس كرْمة.

إنَّ أشجار العِنَب من نِعَم الله الجليلة على النَّاس في الحياة الدنيا.

● ﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩﴾:

وفي هٰذِه الفقرة من فقرات المشهد البيانيّ توجيه نظر الإنسان للتفكُّر

في شجرتين عظيمَتَيْنِ في حياة الناس، شجرة الزيتون، وَشجرة النَّخْل.

أمَّا شجرة الزيتون فهي من الأشجار المعَمِّرة، ذات النَّفْعِ العظيم غذاءً ودَوَاءً، ويُسْتَخْرَج من ثمرها دُهْنٌ ذُو نَفْع جليل، يكاد لا يعادله دُهْنٌ آخر، وفي سائر أجزائها منافع كثيرة للناس.

وكذلك شجرةُ النخل ففيها منافع للناس عظيمة، غذاءً وفاكهة، ودواءً، وغير ذلك من منافع.

● ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿وَحَدَآئِقَ﴾: **الحديقةُ**: كلُّ أرْضٍ ذاتِ شجر مثمر أَحاط بها حَاجز.

﴿غُلْبًا﴾: أي: تكاثَفَتْ أشجارها والْتَفَّت، يُقال لغة: حَدِيقَةٌ غَلْبَاءُ، أي: كثيفَةُ الأَشْجار مُلتفٌّ بعضها على بعض، وفي الجمع يقال: حدائقُ غُلْبٌ.

﴿وَفَٰكِهَةً﴾: **الفاكهة**: الثمار اللَّذيذة ذات الطعم الطيّب.

﴿وَأَبًّا﴾: **الأبُ**: مَرْعَىٰ الحيوان من نبات الأرض، وهو للحيوان بمثابة الفاكهة للإنسان، أو الكلأ كُلّه، وقيل: نَبْتُ الأَرْضِ مما تأكل الناس والأنعام.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾: **المتاع**: كُلُّ شيءٍ يُنْتفع به مدّة ثُمَّ يأتيه الفناء، وهو يشْمَل كل ما فيه منفعة أو لذة من مأكل أو مشْرب أو مَلْبَس أو مسكن أو مركب أو منكح، أو أداة لشَيْءٍ، من ذلك.

وقد جاء في القرآن تخصيص لفظة «المتاع» ومشتقاتها بالأشياء ذَوات المنافع الزائلة في الدنيا، أمّا ما يصيبه المتّقون في الجنّة يوم الدين فقد جاءَتْ تَسْميَتُه في القرآن نعيماً، للتَّنبيه على أن النعيم له صفة الدوام، وأنه مقيم.

**الأنعام**: هي الأموال الراعية، ولفظ الأنعام يذكر ويُؤنث.

وقد جاء النشرُ مَرَتباً على وفق اللّف، في عِبَارَتَي: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ فالفاكهةُ متاعٌ للنّاس، والأَبُّ متاعٌ للأنعام، وهذا من المحسّنات المعنوية البديعة عند علماء البلاغة، ويسمُّونه اللّفّ والنَّشر المرتّب.

في هذه الآيات الثلاث جاء البيان القرآنيّ عامّاً، بعْدَ كان البيان قد خَصّص العِنَب والقضب، والزيتون والنخل، فنبَّهَ بالتعميم على كلّ الأشجار الّتي تتكَوَّنُ مِنْها مجتمعةً الحدائِقُ الغُلْب، ونَبَّه على كُلّ أنواع الفاكهة المهيَّأة للإنسان، وكلّ النَّباتَات المهيَّأة للحيوان الّتي تشبه الفاكهة الّتي يتفكَّهُ بها الإنسان، وجاء في آخر هذا البيان قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾.

فخاطب الله جلّ جلاله الناسَ جميعاً، بَعْدَ أن كان الخطاب مُوجّهاً للإنسان بأسلوب الحديث عن الغائب، وبأسلوب التوجيه الإفراديّ لكلّ إنسان، وفي هذا التفاتان، أحدهما التفات من الغيبة إلى الحضور، والآخر التفاتُ من الحديث عن المفرد، الذي يُقْصَدُ به كلُّ فرد على التَّناوب، إلى خطاب جميع المؤهّلين للخطاب من الناس.

ومما جاء في تسمية ما في الجنة من لذَّاتٍ وأنواعِ سعادات بأنّه نعيم مقيم، قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بُشْرَىٰ للفائزين يوْمَ الدّين:

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾.

❁ ❁ ❁

## (٩)
# التدبر التحليلي لآيات الدّرس الرابع من دروس السّورة

وهو الآيات من (٣٣ ـ ٤٢).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

هذا الدرس الأخير من دروس السورة، يَعْرضُ مَشْهداً من مَشاهد يوم القيامة، يوْمِ البعث للحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، وهو مرتبطٌ بقول الله عزّ وجلّ في الدرس الثاني من دروسها:

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾.

إنّ هذه الآية قد استَدْعَتْ عَرْضاً فيه شيْءٌ من التَّفْصيل لمشْهَدٍ من مشاهِدِ يوم القيامة، الذي تظهر فيه المرحلة الرابعة من المراحل البارزة الظاهرة لوُجُود الإنسان.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: فإذا جاءت الصَّاخة الّتي يكونُ بها إنْشارُ الموتَىٰ، وبَعْثُهم للحياة الأُخرىٰ، لتحقيق المرحلة الرابعة من مراحل خَلْقِ النَّاس، كان الناس منقسمين إلى قسمين: ذوي وُجوه مسفرة، ضاحكة مستبشرة، وذوي وجوه عَلَيْهَا غَبرَةٌ، تَرْهَقُها قَتَرَة.

فجواب «إذا» الشرطية هنا محذوفٌ دلَّ علَيْه قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: اسمٌ وصْفِيٌّ من أسماء يوم القيامة، وهَذَا أوّل اسْمٍ من أسْمَاءِ هذا اليوم جاء في نجوم التنزيل.

أمَّا لفظ: [الآزفة] أي: القريبة، الذي جاء في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) فهو اسْمٌ للسَّاعَةِ الّتي تكُونُ فيها أحداث إنْهَاء نظام الحياة الدنيا إنْهاءَ كُلِيًّا، وبعدها تمضي مُدَّةٌ بَرْزَخيَّةٌ فاصِلَةٌ بين الحياة الدُّنيا والآخِرَة.

روىٰ الطبريُّ بسَنَدِهِ عن عَلِيٍّ وابْنِ عبَّاسٍ أنَّ «الصَّاخَّةَ» اسم من أسماء يوم القيامة، عظَّمَهُ الله وحَذَّرَهُ عِبَادَه.

**الصَّخُّ في اللُّغَة**: الضَّرْبُ بالحديد على الحديد، أو الضربُ بالعصا الصُلْبَةِ علَى شيءٍ مُصْمَتٍ.

وكُلُّ صَوْتٍ صَادِرٍ من أثَرِ وقْع صَخْرةٍ على صَخْرَةٍ، فَهُو في اللُّغَةِ صَخٌّ. تَقُولُ: ضَرَبْتُ الصَّخْرَةَ بحَجَرٍ فَسَمِعْتُ لَهَا صَخَّةً.

فلفظ «الصَّاخَة» الَّذي سُمِّيَتْ بِهِ القيامة:

- إمَّا اسْمُ فاعل من صَخَّ يصُخُّ صخّاً، فهو صَاخٌّ وهي صاخَّة.
- وإمَّا مصْدَرٌ بمعنَىٰ الصَّخّ.

وقال أبو إسحاق: الصّاخَّةُ هي الصيْحَةُ الّتي تكونُ فيها القيامة، تَصُخُّ الأَسماع.

أقول: الظاهر أن هذه الصاخة هي الصَوتُ الذي يَصُخُّ نُفوسَ الموتى، حين يُنْفَخُ في الصور النفخةُ الثانية، فتدْخل الأرواح في النفوس، وتَنْبُتُ الأجساد الّتي دبَّتْ في نفوسُها الحياة، ويخرُجُ المبعوثون مُنْتَشِرين، إلى ربّهم يَنسِلُون.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾.

**الأجداث**: الْقُبور.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤﴾:

إنَّ حُدُوثَ «الصَّاخَّة» مُؤْذِنٌ بِبَدْءِ الْيَوم الآخِر، يوم الحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، وأوّل أزْمَان هذا اليوم ظرفٌ لحدوث الصَّاخَّة، وتأتي بَعْدَها أزمَانٌ وأحداثٌ، كُلُّها مَظْرُوفَةٌ بهذا اليوم الذي جعله اللَّهُ عزَّ وجلَّ غَيْرَ ذِي نهاية، إنَّ يَوْم الحياة الدُّنيا كُلِّها ينتهي بالسَّاعَةِ الّتي يكون بها الإفناء، أمَّا اليوم الآخِرُ فيَبتَدِئ بالسَّاعَةِ الّتي تَحْدُثُ فيها الصَّاخَة، ويكُونُ بها الإحياء الثّانِي، ولا نهايَةَ لهذا اليوم.

ومن الأحْدَاثِ الّتِي تُشَاهَدُ في أوائل هٰذَا الْيَوْم أنْ يَفِرَّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه، حَذَرَ أن يَطْلُبَ مِنْه مَعُونَةً، لأنَّه مَشْغُولٌ بهُمُومِ نفسه، خائفٌ من عذابِ رَبّه على معاصيه إنّه لَيَوْمٌ عَصِيبٌ.

**الْمَرْءُ**: هو الرَّجُل الْكَامِلُ الرُّجُولة، ولعلَّ في اختيار كلمة «الْمَرْءِ» هُنَا بدَلَ الإنسانِ إشارةً إلى أنَّهُ ذُو مُرُوءة، وهِيَ كَمَالُ الرجوليَّة.

وإذا كان المرءُ يفرُّ من أخيه فمِنْ باب أولى أن يفرّ ممَّن هو أبْعَدُ قرابَةً من أخيه، وأنْ يفرّ أيّ إنسان آخر هو دُون المرْءِ في الرجوليَّة والْمُروءَة.

● قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾:

أي: ويَفِرُّ المرْءُ من أُمِّهِ وَأبيه، وفي بيان هذا ارتقاء من الأخ، إلى الأمّ والأَبِ اللّذَانُ هُمَا أكْثَر قَرابَةً، وحَقُّهما عَلَيْه أكثر من حقّ أخيه.

وجاء في البيان تقديم الأمّ مُراعاةً للنَّسَقِ الجماليّ في الآيات، ولأَنَّ الأُمَّ أكْثَرُ تَعلُّقاً بولَدِها مستَنْجِدَةً بِه من الأب، فَفِرَارُهُ مِنْها آكَدُ عِنْدَه.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾:

أي: ويَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ صاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، وفي بيان هذا ارتقاءٌ أيضاً مِنَ الأُمّ والأَب، إلى الصَّاحِبَةِ والبنين. لأنّ هوىٰ الإنسان مرتبطٌ بصَاحِبَتِه الّتي يُحِبُّها أشَدَّ من ارتباط عاطفَتِه بأمِّهِ وَأبِيهِ، ولأنَّ ارتباط عاطِفَتِه ببَنِيه أشد من ارتباطه بصاحبته.

فالْعَطْفُ ولو كان بالواو الّتي تدلُّ على مُطْلَق الْجَمع، إلاَّ أنَّ ترتيب المعطوفات قد لوحظ فيه معنى الارتقاء الطبيعيّ، وهذا من بدائع الترتيب اللفظي في القرآن.

ولعلّ في اختيار كلمة ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ دون لفظ [زوجته] معنى مقصوداً، ويظهر هذا في أمْرَين:

**الأمر الأول**: أن تكون صاحبتُه في الدنيا غير ذاتِ صفة شرعيَّة تجْعَلُها زَوْجةً له، فالعلاقة بينهما علاقة حبّ.

**الأمر الثاني**: أن تكون زوجَتُه في الدنيا مَكْرُوهَةً له غير محبُوبَة، فَمِنْ شأنِه أن يَفِرَّ مِنْها، فمِنْ غير المناسب ذكرها في البيان.

أمّا الصاحبةُ فهي الحبيبة الملازمةُ، وفِرَارُه منها دليلٌ على أنّه مَهْمُومٌ بنفسه، يَبْحَثُ عن نجاته، ويَفِرُّ من كلّ من يخشَىٰ أن يتعلّق به.

دلّت هذه الآيات من (٣٤ ـ ٣٦) على أنَّ الناسَ يومَ البعْثِ قبْلَ الحساب وفَصْل القضاء يَفِرُّ بعضهم من بعض، حتّىٰ إنَّهُمْ يفرُّون مِنْ كلّ مَنْ كانُوا أحِبَّاءَهم في الحياة الدّنيا، لأنّهم يكونون مَهْمُومِين مشغولين بأمُورِهم

وشؤونهم الخاصَّة، يخافون عذاب الله، ويطلُبُونَ نجاة أنفسهم، فلا يقبل أَحَدٌ منهم أن يسْتَنْجِد به أحدٌ لمعاونته في شأنه، مهما كان حبيباً له، بل يفرُّ منه.

وفي تفصيل من يفرُّ منهم تصويرٌ بديع للمشهد بالتعبير البياني، مع أنَّ الغرض قد كان يمكن تحقيقه بتعبير عامٍّ مجمل لا تفصيل فيه.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾

جاء هذا البيان بمثابة جوابِ سؤالٍ يطْرَحُه الذّهن، ولو لَمْ يُذْكَرْ في البيان، وهو: لِمَاذا يَفِرُّ المرْءُ يومئذٍ من أخيه، وأُمِّهِ وأبيهِ، وصاحِبَتِه وبنيه؟؟

والمعنى الذي دلّ عليه الجواب: لكلِّ امْرِئٍ منهم من أمْرِه الخاصّ به ما يكْفِيه، أي: ما يَسْتَغْرِقُ كُلَّ تفكير واهْتِمَامٍ لدَيْه، فلَيْسَ لَدَيْه زائدٌ يُساعِدُ بِه غَيْره، مِمَّن يتمنَّىٰ أن يكون لدَيْه فائضٌ عن ضروراته القُصْوَىٰ، حتَّىٰ يُساعِدَه به.

إنَّهم يومئذٍ يكونون فُرَادَى، لا يستطيع أحدٌ منهم أن يتعاون مع أحد، لأنّ الحساب والجزاء يوم الدّين حِسَابٌ فَرْدِيٌّ، كما قال تعالى في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

وكَمَا قال تعالى في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

ويزيدُ المجرِمُ يومَئذٍ فَيودُّ لَوْ يفْتَدِي مِنْ عذاب الله ببنيه، فضْلاً عن صاحبَتِهِ وأخيه وَمَنْ هُمْ أبْعَدُ من هؤلاء عنه قرابَةً وَنَسَباً، قال الله عزّ وجلّ في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿... يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾.

جاء تقديم البنين والصاحبة هنا وفق الترتيب العاطفيّ لأنّ البيان يُشْعر بأنه يَوَدُّ لو يجمعهم جميعاً في الفداء بوقت واحد، بخلاف الفرار فإنه يحدُث مُجَزّأً.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

بعد بيَانِ لقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الْبَعْثِ، وهي لقطة يبرُزُ فيها فِرَارُ كُلّ إنسانٍ مِنْ أقَاربه وأحْبابِه، حتّى أحَبّ الناس إليه في الدّنيا، فكَيْفَ يكون حالُه مع سائر النَّاس؟. يَعْرِضُ البيان في السُّورَةِ لَقْطَتَيْنِ: لَقْطَةٍ تَظْهَرُ فيها أماراتُ السَّعَادة والفرحة، وأخرىٰ تظْهَرُ فيها أمارتُ التعاسة والشقاء.

**فاللّقطة التصْويريّةُ الأولى**: جاء فيها عَرْضُ وُجوهٍ مُسفِرَةٍ، ضَاحِكَةٍ مستَبْشرة. إنَّها وُجوه أهل الإيمان والنجاة من الخلود في عذاب النار، على اختلاف درجاتهم، وطبقاتهم، ومنازلهم.

**مُسْفِرَةٌ**: أي: مُشْرِقَةٌ مضيئة. تقولُ العرب: أسْفَرَ الصُّبْحُ، إذا انكشف وأضاء، حتّىٰ لاَ يَشُكَّ ذو بَصَرٍ خبير بأنّه صُبْح.

أمّا فعل «سَفَر» فَيُقَالُ لمن كشَفَ وجْهَهُ المغطَّى، تقول العرب: سَفَرَتِ المرأة، إذا ألْقَتْ نِقَابها أو بُرْقَعَها عَن وجْهها.

**مُسْتَبْشِرَة**: أي: فَرِحَةٌ مُنبَسِطَةٌ ذاتُ بِشرٍ، لأنّها مُبَشَّرَةٌ بالنَّعيم المقيم في الجنَّة دارِ المتقين.

وما يَظْهَرُ علَىٰ الوجوه، إنّما هو تعبير عمّا في نفوس أصحاب هذه الوجوه من فرحٍ وطُمَأْنينة بعَفْو الله وغُفْرَانِه وجنَّتِهِ. وهُو علامَةٌ علىٰ أن

مصيرهم إلى الجنّة ولو بعد التّطهير بعذابٍ على مقادير الْوُجوه لا تظهر عليها هذه الأمارات ما لَمْ تكُنْ النفوس قد اطمأنّتْ للظّفَر بالمصير السعيد.

**واللَّقطة التَّصْويريّة الثانية**: جاءَ فيها عَرْضُ وُجوهٍ أخْرَىٰ عَلَيْها غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ.

**الْغَبَرَةُ**: الغبار، وهو ناعم التراب الّذي يُثِيرُه أيُّ تحريكٍ يَسير، ولو كان من نَسَمات رفيقَات. وكلُّ ناعِم من كلّ شيءٍ ينتشر في الجوّ بالنسمات.

﴿تَرْهَقُهَا﴾: أي: تَغْشَاهَا وَتَعْلُوها، تقول لُغةً: رَهِقَ الشّيْءُ الرَّجُلَ يَرْهَقُهُ رَهَقاً، أي: غشِيَهُ وعَلاه.

وتَقُولُ: رَهِقْتُ مَنْ أُقاتِلُه، إذَا غَشِيته وعَلَوْتَ عليه.

ورَهِقَ الغُبَارُ البيوتَ، إذَا غَشِيَها وجلّلَها.

﴿قَتَرَةٌ﴾: الْقَتَرَةُ: غَبَرَةٌ يَعْلُوها سوادٌ كالدُّخان.

وأصْحَابُ هذه الوجوه البائسة التعيسة يوم الحشر هم الكَفَرَةُ الْفَجَرَة، وقد أشار اللّهُ عزَّ وجلَّ إليهم في البيان باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للدّلالة على إبعادهم عن مواطن رحمته، فقال جلّ جلاله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱلْكَفَرَةُ﴾: جمع «الكافر» والكافر هو الجاحد للحق وهو عالم به، والجاحد للنعمة لئلاّ يطالَبَ بشُكْرِها، **والكافر**: السّاتر للحقّ ولأدلّتِهِ بِحِيَلِه الّتي يَسْتَخْدِم فيها زُخْرُفَ القول تَغْريراً ومخادعة.

﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾: جمع «الفاجر» وهو اسم فاعلٍ من فَجَرَ يَفْجُرُ فُجُوراً.

**والْفُجور**: هو الانْبعَاثُ الواسِعُ الْوَقِحُ في القبائِحِ والآثَامِ والمعاصِي. فالفاجِرُ هو المُنبَعِثُ بوَقَاحَةٍ واتّساعٍ على مقادير استطاعته في ارتكاب الجرائم.

وبهذا تَنْتَهِي السّورة بعد أَنْ تدرّجَتْ دُرُوسها الأربعة متشابكَةَ الأفكار، ومُجْتَمِعةً على موضوع شَجَرِيٍّ واحد، بدأ بتربية الرَّسول، وتوجيهِهِ لما هو الأفضل في عُنْصُرٍ من عناصر تأديته رسالته، وثنَّىٰ بتوبيخ الإنسان الكافر المعاند المكابر، وتنبيهه على أدلة الإيمان، وبيان الغاية من خلق الإنسان، وثلَّث بلفت الأنظار إلى بعض ظواهر نعم الله الدائمة على عباده، وأخيراً قدّم لقطات واعظات من مشاهد يوم الدين.

والحمد لله على توفيقه ومنّه وفتحه.

❊ ❊ ❊

## ملاحق لتدبر سورة عبس

**الملحق الأول:** حول بلاغيات في السورة.

**الملحق الثاني:** حول كون وظيفة القرآن والرَّسُول وظيفة بيانٍ وتَذْكِير.

❊ ❊ ❊

## (١٠)
## الملحق الأول
## حول بلاغيات في سورة عبس

في هذه السُّورة روائع بلاغيَّة متعددة، منها يلي:

(١) جاء في مطلعها الحديثُ عن الرسول ﷺ بأسلوب الحديث عن الغائب. لأنَّه تولّى عن السائل الأعمى، وهذا من مقابلة العمل بما يشبهه في البيان، ولكن جاءَ عَقِبه مباشرةً الالتفات إلى مخاطبَتِه بعتابٍ وِجَاهِيّ فيه إقْبالُ الخليل إلى خليله.

(٢) استخدام الاستفهام للدلالة على المعاتبة، وهذا من إخراج الاستفهام

عن أصل دلالته، فقال تعالى خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾؟!

(٣) استعارة فِعْلِ ﴿قُتِلَ﴾ للدّلالة على مَعْنَى «لُعِنَ» لأنَّ الْقَتْل أشدُّ في الدلالة على معنى الطَّرْدِ والإبعاد من اللّعن.

(٤) طرحُ السؤال وإتباعُهُ بالجواب، وهذا أُسْلوب مفيد من أساليب البيان والتعليم، لأنَّ طرح السؤال يحرّكُ الذِّهْنَ للتفكّر في الجواب، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾؟ وأتبعه بالجواب فقال تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ . . .﴾.

(٥) جاءت آيات السّورة قَصِيرَةَ الفِقَرَاتِ، متوازنَةً بَدِيعة، وفق الطريقة الّتي كانت تعجب فُصَحاء العرب إبّان التنزيل.

(٦) اللَّفّ والنشر المرتب، في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾.

(٧) الكناية عن يوم القيامة بذكر أوّل حَدَثٍ يَحْدُثُ فيه وهو الصَّخّ، وأخذاً من هذا صَحَّ أن توصفَ القيامة بأنّها صَاخَّة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾.

(٨) الترتيب الارتقائي المطابق للواقع في قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾.

وأَطْلَق علماء البديع على هذا النوع اسم «الترتيب».

(٩) الكناية عن أحوال النفوس الباطنة بذكر ما يَبْدُو على الوجوه من ظواهر، لأن الظَّواهر أَمَارات تَدُلُّ على البواطن، فقال اللَّهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾.

❁ ❁ ❁

(١١)

# الملحق الثاني

## حول كون وظيفة القرآن والرسول وظيفة بيان وتذكير

لقد خلق الله الإنسان ليَبْلُوه (أي: ليمتحنه) في ظروف الحياة الدُّنيا، فاستدعى ذلك أن يمنحه حرِّيَّة الاختيار، بجهاز في نفسه يختار به ما يشاء، ضمن المجالات التي مكَّنه من التحرّك فيها في حياته، واستدعى ذلك أيضاً أن يُشْعِرَه بأنّه يستطيع تحقيق مراداته، وذلك بتسخيره الأشياء له، ممَّا هو داخل في ذاته أو خارجٌ عنها.

والتسخير إنما يَتِمُّ بخَلْق الله، وأعمال المسخّرات إنما تتم بقضاء الله وقَدَرِه وقدرته وخلقِهِ، لتحقيق مرادات الإنسان الموضوع موضع الامتحان.

وإعطاء الإنسان المخلوق للامتحان حرّيَّة الاختيار يتنافَىٰ مع إكراهه بالْجَبْر على أن يختار فعْلَ أو تَرْكَ الخير الذي يجب عليه أن يفْعَلَهُ، أو فِعْلَ أَوْ تَرْكَ الشَّرِّ الذي يَحْرُم عليه أنْ يَفْعَلَه، أو فِعْلَ أو تَرْكَ المباح المأذون له بأنْ يفْعَلَهُ أَوْ يَتْرُكه.

فجاء البيان الرَّبَّانيُّ بأنَّهُ لا إكراه في الدين. وهذا يستدعي باللّزوم العقلي أنْ تُتْرَكَ للإنْسَان حُرِّيَّةُ الاختيار، لا علَىٰ معنَىٰ الإباحة، ولكن على معْنَىٰ التمكين المستَتْبعِ بالمسؤوليَّةِ، والحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء. بالثواب أو بالعقاب.

ويلْزَمُ من كلّ ما سبَقَ عقلاً أن تكون وظيفةُ حامل الرسالة الرَّبَّانيّة للناس، وأن تكون وظيفةُ نصوص الرسالة الرَّبّانيّة للنَّاس، التبليغَ، والتعليمَ، والشرحَ، والبيانَ، والإقْناعَ بمختلف وسائل الإقناع، والترغيبَ والترهيبَ، والتذكيرَ ما دام احتمال نفع التذكير قائماً غير ميؤوسٍ منه، والانْذارَ أخيراً

بعقاب الله يوم الدين، مع ما يمكن أنْ تقضي به حكمة الله من عقاب مُعَجَّلٍ في الدنيا.

ويلْزَمُ عقلاً أنَّهُ ليس من وظائفِ حامل الرّسالة الرّبّانيّة، رسولاً كانَ، أم تابعاً له من أُمّتِه، أنْ يُحَوّل أحداً مِنَ الكُفْرِ والفُسُوقِ والعِصْيانِ، إلى الاستجابة والطاعة والإيمان، والقيام بالأعمال الصالحة عبادَةً للرَّحْمٰن، وإرْغاماً للشيطان.

وهذا ما تواطَأَتْ على بيانه وتأكيده النصوص القرآنيّةُ، في مراحلَ مُتَباعدةٍ من نُجُوم التنزيل.

ونجد في القرآن الكريم سبعة عشر نصّاً تُبَيّن هذه الحقيقة، وتُؤَكّدُها، ضمن مَنْهجٍ حَرَكيٍّ تَرْبَوِيٍّ حَكِيمٍ.

وفيما يلي بيانُها بحسب ترتيب نزولها، مقرونةً بشيءٍ من التدبّر.

**النصُّ الأوّل:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

**تَذْكِرَة**: أي تذكيرٌ بَاقٍ، بما اشتملت عليه نصوصُها من بيانٍ ودعوةٍ إلى الإسلام وموعظةٍ وإرْشاد.

وأصْلُ التذكِرَة في اللّغة: الوسيلةُ المذكِّرة، ولمّا كانت الرسالة الإسلاميّة مشتملة على نصوصٍ قضىٰ الله ببقائها محفوظة، فإنّها تَحْمِل صِفَةَ البيانِ والهداية والموعظةِ والإرشادِ والتذكير دواماً، ولمّا كانَ التَّذْكِيرُ هو الحلقة الأخيرة في هذه السّلْسِلَةِ، كانَتْ تسمِيَةُ هذه الرسالة بالتَّذْكِرَة مُتَضَمِّنَةً باللّزوم الذّهني الحلقات السابقات للتذكير.

ففي هذه الآية بيان أنّ هذه الرسالة رسالةُ بيانٍ وهدايةٍ وموعظةٍ وإرشاد

وتذكيرٍ دواماً، أي: فهي ليست رسالة إكراهٍ ولا إلزام، فمَنْ شاءَ بما آتاه اللّهُ من إرادةٍ حُرَّةٍ مُمَكَّنَةٍ بخَلْق اللّهِ من أن تَشاءَ بحُرِّيةٍ نجاةَ نفسه وسَعَادَتها اتَّخذَ إلى مرضاة ربِّه سبيلاً، ومن لم يشأ ذلك استَحقَّ العقابَ والعذاب، فهو الّذي يتحمَّل نتائج رفضه للحق، ورفضه سُلُوكَ سبيل الهداية.

❁ ❁ ❁

**النص الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول) بشأن المعرضين المبتعدين عن الاستماع لدعوة الرسول وبيانات القرآن الّتي هي تَذْكِرَةٌ فكريّة بيانيّة، وليست إكراهاً ولاَ قَسْراً بإجبار:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ (٥٣) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥)﴾.

**كلَّا**: كلمةُ زجْرٍ فيها معنى التنديد والتلويم.

**إنَّهُ تَذْكِرَة**: أي: إنّ القرآن تَذْكِرَةٌ باقيةٌ بما اشتَملَ عليه من بيانٍ وهدايةٍ وموعظةٍ وإرْشادٍ وترغيبٍ وترهيب، ولمّا كان القرآن مذكّراً بهٰذه الأمور دواماً أَطْلَقَ اللّهُ عليه اسم «التَّذْكِرَة» وهي في اللُّغة ما يُسْتَذْكَرُ به الأمْرُ، كما سبق به البيان.

فما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضين: استفهامٌ إنكاريٌّ تَعْجيبيٌّ من حالهم.

حُمُرٌ: جمع «حمار» والمرادُ بِها الحُمُرُ الْوَحْشِيَّة.

مُسْتَنْفِرَة: أي: نافِرَةٌ بِشِدَّةٍ إذا أصابَها الذُّعْرُ.

قَسْوَرَة: على صِيغَةِ «فَعْوَلَة» منَ الْقَسْر، وهوالأخذ بإكراه.

القَسْوَرُ والْقَسْوَرَةُ: من أسماء الأسَد، والقَسْوَرَةُ أيضاً جَمْعُ «الْقَسْوَر» وقَدْ سُمّي الأسد قَسْوراً لأنّه يفترس صَيْدَهُ قسراً.

ويطْلَقُ لفظ «الْقَسْوَر» على الصَّيَادِ الرّامي، وجَمْعُهُ «قَسْورَة» فالرُّماة الصيّادون الّذين يصيدون الحيوانات البرّية بِسِهامِهم، فيَقْسِرُونها بوسائلهم، ويُكْرِهونها حتى يأسروها يُطْلَقُ عليهم لفظ «قَسْوَرَة».

في هذا النصّ تعجيبٌ من حال الْمُعْرضينَ عن القرآن النافرين من سَطْوَتِهِ الفكريَّة المؤثِّرَة فيهم، بما فيه من بلاغة رفيعة، ودلالات مَنِيعَة، وَحَقَائِقَ لاَ يَأْتِيهَا الباطل من بين يَدَيْها ولاَ مِنْ خَلْفِهَا، وأنْوارِ ساطعَةٍ، وهِدَايةٍ قاسِرَةٍ لِمَنْ اسْتَسْلَمَ إليها، وقد جاء تَمْثِيلُهُمْ في هذا النّص بالْحُمُرِ الْوَحْشِيّة الّتي هَجَم عليها أسَدٌ أو أُسُود لِتَفْتَرِسَها، فأصابَها الذُّعْرُ الشدِيدُ فَنَفَرَتْ وفَرَّتْ لاَ تَلْوِي علَىٰ شيءٍ.

وظاهرٌ أنّ الغرض من هذا التمثيل التنفيرُ منَ الإعراض عن هداية القرآن، مع تقبيح صُورَةِ الْمُعْرِضين وذَمِّهِمْ، إذْ جاء تمثيلُهُم بالْحُمُرِ الوحْشيَّة، وَكان من الممكن تمثيلُهم بالْبَقَر أو بالظّباء، لِكنَّ الْحُمُر هي المعروفة عند الناس بالبلادة والغباء، فالتمثيل بها أكْثَرُ تقبيحاً وَذَمًّا لحالة النفور من تذكرةٍ فكريَّة ليس لها سَطْوَةٌ مادّيَّةٌ تَقْسِرُ بإكراه.

إنّ الفكرة الّتي سِيقَ لَهَا التَّشْبيهُ في هذا النصّ، هي أنّ بَيَانَ الدَّعْوَة إلى الإسلام، وما جاء في القرآن، دَعْوَةُ تَذْكِرَةٍ بحَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ، هيَ فِطْرِيَّةٌ في فِكْر الإنسان ووِجْدانه، وبحقائق علميّة مُنَزّلَةٍ من لَدُنْ عليم حكيم، يُطْلَبُ من الناس أنْ يعْلَمُوهَا أوّلاً، ثُمَّ يَتَذكَّرُوهَا دَواماً عند المناسبات الداعيات لتذكرِها، لتكون مُوَجّهَةً لإراداتهم، وأنواعِ سُلُوكهم.

وكُلُّ إنسانٍ هُو حُرٌ بَعْدَ أَنْ تُعْرَضَ علَيْه هَذِه التَّذْكِرة في أن يَسْتَجيب لمضمونها فَيُؤْمِنَ، أو يَرْفُضَهَا فَيَكْفُر، فهِيَ إذْنْ ليْسَتْ مُطَارَدَةَ مُكْرِهٍ مُجْبِرٍ

قَاسِرٍ، يُلَاحِقُ طَرِيدَتَهُ لِيَفْتَرِسَهَا أو يَصيدَها، كما يَفْعَلُ الأسُود، أوْ كما يَفْعَلُ الرُّماةُ الصَّيَّادون.

إنّ الإنسان ذا الْفِكْرِ الْحَصِيف لا يَفِرُّ من عَرْضِ التذكراتِ الفكريّة عليه، بَلْ يَقْبَلُ عَرْضَها، ويَقْبَلُ مُنَاقَشَتَها، ثُمَّ هُو بعْدَ ذلك إمَّا أن يَقْبَلَها، وَإمَّا أنْ يَرْفُضَهَا.

فدلّ هذا النّص بوضوح تامٍّ على أَنّ الدعوةَ إلى الإسلام عَرْضٌ تخييريٌّ لمن يُعْرَضُ عليهم من غير المسلمين، وليس إكراهاً ولا إجباراً بالْقَسْر، فمَنْ شاءَ اسْتَجابَ فأسلم، ووَضَع في ذاكِرَتِه أَرْكانَ الإيمانِ والإسلامِ وبيانات القرآنِ، لاتباعها، فقال تعالى فيه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾.

وأبان النصُّ عِلَّةَ المعرضين النفسيّة وهي أمران:

**الأول**: الكِبْرُ عن اتّباع الرسولِ، لأنّ كلّ امْرِئٍ من هؤلاء يُريدُ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِ من عِنْدِ اللّهِ صُحُفٌ مُنَشَّرةٌ، فقال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾.

**الثاني**: جحودهم للبَعْث والحسابِ والجزاء يوم الدّين، فهم لا يخافُون عقابَ الله في الآخرة، فقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٥٣﴾.

**النصّ الثالث:**

قول الله عزّ وجلّ من سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن المجيد:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾.

فأبانَ هذا النّص أنّ القرآنَ ليْس إلاّ ذِكْراً مُوجّهاً لكلّ العَالَمِين، الموضوعين مَوْضعَ الابتلاء والتكليف، أمّا من يَسْتجيب لدعوته ويتدبَّرُه،

ويتخذُه ذكراً، وينتفع بما فيه من هداية ودلالة على صراط الله المستقيم، فَهُوَ مَنْ شاءَ مِنَ المخاطبين به بإرادَتِهِ الْحُرَةِ أنْ يستقيم على صراط الله، ولا يُرِيدُ أن يَعْوَجّ ويكونَ جائراً مُتَنكّباً عنه، وسَالكاً سُبُل الضلال الّتي تَسْتَدرجُه إليها الشياطينُ والأهواء والشهواتُ الجانحات عن الحقّ والخير والفضيلة وما أَذِنَ الله به لعباده.

❁ ❁ ❁

**النصّ الرابع:**

قولُ الله عزّ وجلّ من سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) في معرض تربية الله لرسوله ﷺ بشأن إعراضه عن الأعمى ابْن أُمّ مكتوم الذي جاء يسأله عن بعض مسائل الدّين، إذْ أعرض عن إجابته لأنّه كان ﷺ مشغولاً بدعوة كُبَراء قومه إلى الإسلام:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

أي: إنَّ رسالَتَك يا مُحَمَّدُ رسالةُ بيانٍ وهداية وتذكير، ولَيْسَت رسالةَ تَكْليفٍ لكَ أن تُحَوّل الناسَ من الكُفْر إلى الإيمان، حتَّىٰ تُوَجّه اهتمامَكَ الكبير لدعوة الكافرين، وتُعْرِضَ عَن طالِبِ المعرفة الدينيَّةِ راجياً أن يتذكَّرَ أو يخْشَىٰ، فوظيفتُك وظيفَةُ مُذَكِّرٍ، ولَيْسَتْ وظيفَةَ مُكرِهٍ ولاَ مُغَيّر، فالاستجابة للدعوة ينبغي أن تكونَ بإرادَةِ المدعوّ الحرّة، واختيارِه الإيمانَ بالحق، وسلوكَ صراط الهداية، لا بالإكراه والإجبار.

❁ ❁ ❁

**النصّ الخامس:**

قول الله عزّ وجلّ بشأن شُعَيْبٍ عليه السلام وشأنِ قَوْمه معه، في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

فجاء في هذا النصّ بيان مَثَلٍ من أمْثِلَةِ إكراه أهْلِ الكُفر لأَهْلِ الإيمان، على أن يَتركُوا دينهم الرّبّاني، ويَعُودُوا إلى ما كَانوا عليه قَبْلَ الإيمان، ويكونُوا من الدَّاخلين في ملَّةِ الْمُكْرِهين، وهذا دَيْدَنُ قادَةِ أهْلِ الكُفرِ دواماً، فِي كُلِّ عصور التاريخ، إنَّهُمْ يُكْرِهُونَ النَّاسَ على الدُّخول في مِلَلِهِمْ وأدْيانِهم ومذاهبهم وطرائقِهم في الحياة، وإلاّ أنْزلُوا بهم أنْواعَ الاضطهاد والتعذيب.

على خلاف الرّسالات الرّبّانيّة للنّاس، فإنَّها عَرْضٌ وإقناعٌ وهدايَةٌ بتَخْيير، مقرونٌ بإنْذارٍ بالعواقب الوخيمة من الله العزير القدير، لِمَنْ أَبَىٰ ولم يستجبْ، وببشارَةٍ بسعادةٍ أبديَّةٍ عند الله الرّحيم الغفور، لمن سَمِعَ وأطاعَ واستجابَ بإرَادَتِه الحرَّة، دون إكراه ولا قَسْرٍ وإجبار.

إنّ قضايا العقائد، واعتناقَ المذاهب الدينيَّة، لا يُعْقَلُ أَنْ تكُونَ مع الكراهِيَةِ والإجبار، وإنّما تكون بالرَّغْبَةِ الذَّاتيَّةِ والاختيار الحرّ.

۞ ۞ ۞

**النصّ السادس:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾.

لمَّا اشتَدَّ حِرْصُ الرَّسول ﷺ على إيمان قومه، حتَّى أَهَمَّهُ كُفْرُهُمْ، وشَقَّ عليه إعراض مَنْ أعْرضَ مِنْهم، وإدْبارُ مَنْ أدْبَرَ، وتَوَلِّي مَنْ تَوَلَّىٰ وكَفَرَ، وجَعَلَتْ رحْمتُه بهم تُقِضُّ مَضجِعَهُ، وتوجعُ قَلْبَهُ وتُشْقيه بإيقاعِهِ في

الشِّدَّة والعُسْرِ والألم أنْزَلَ اللّٰهُ عليه هذا النصّ، مبيّناً له فيه وظيفة رسالته، بإنزالِ الْقُرْآن عليه، وأنّه جلَّ جلاله ما أنْزَل عليه القرآنَ، وحمّلَهُ مسؤوليَّةَ تَبْلِيغِه، لِيُشْقِيَ نَفسَهُ بالآلامِ من أجْلِ الذين لم يسْتجيبوا لدعوته.

وأَبانَ الله لِرَسوله بأسلوب الحصْرِ، أنّه مَا أنْزَلَ عَلَيْهِ القرآنَ إلاَّ تَذْكِرَةً لمن يخش، أي: فمن يخْشَىٰ الله ويخاف عقابه فإنّه يجعل القرآن تذكرة له، ثمَّ إنَّ من جعل القرآن تذكرةً له فلا بُدَّ أن تَتَّجهَ نَفْسُه للطَّمَع بثواب الله العظيم يوم الدّين، مع ما يُصِيبُ مِنْ خيراتٍ وطمأنينة قلبٍ في الدنيا.

فالمعنى: ما أنزلنا عليك القرآنَ لتَشْقَىٰ بالحزْنِ والألم من أجل الذين كفروا ولم يَسْتَجِيبوا، ما أَنزَلْنَاهُ عَلَيْكَ إلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ.

أي: فلا تَحْمِلْ يا مُحَمَّدُ هَمَّ الّذِينَ اخْتَارُوا لأنْفُسِهِمُ الكُفْرَ بَعْدَ تَذْكِرَتِهِمْ، وبيان الحق لهم، ولا تُشْقِ نَفْسَكَ من أجلهم.

ونُلاَحِظُ في هذا النّصّ تَوْجِيهاً مباشراً للرّسول، لتأديبه، برِفْقٍ، حوْلَ مُهِمّتِه في رسالته، وتوجيهاً لكلّ الدُّعَاةِ إلى الله من أمّتِهِ من بَعْدِه.

ونلاحظُ فيه تعريضاً غيْرَ مباشر للكافرين المعرضين، والمدبرين المتولّين عن الاستجابة لدعوة الحقّ.

❁ ❁ ❁

**النصّ السابع:**

قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

تَدُلُّ هٰذه الآيَةُ بلَوَازم بيانِها على أنّ رحمة الرسول ﷺ بقومه كانت شديدةً جدًّا، وأنّ حِرْصَهُ على إيمانِهم للنَّجاةِ من عذاب الله، والظفرِ بالنعيم الخالد، قد كان حرْصاً بالغاً، وأنّ توجُّعَ قَلْبِه من أجْلِهِمْ قَدْ كَانَ عظيماً فَلَمْ

يَسْتَطِع الضَّغْطَ على عَاطفته، فأنْزَل اللَّهُ عليه هذا النَّصّ، مُتَضَمِّناً أُسْلُوباً تَرْبَوِيًا فِيه الإقناعُ المشوبُ بالعِتَاب.

والمعنى: لو شاء ربُّكَ يا محمَّدُ إكراه الناس على الإيمان، لسَلَبَهُمْ حُرِّيَّاتهم، فجعَلَهُمْ مَجْبُورين، فأكْرَهَهُمْ،فآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كلُّهُمْ جميعاً، أو لاتَّخَذَ من الوسائل ما يجعلُهم مُلْجَئين إلى الإيمان إلجاءً.

لكِنَّ هذا يتنافَىٰ مع حِكْمَة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وحِكْمَةِ تَرْكِ الناسِ لاخْتِيَارِهِمُ الحرّ.

فإذا كان ربُّكَ القادر على جعلهم مجبورين على الإيمان جميعاً لَمْ يَفْعَلْ ذَلك، لأنَّه شاءَ أن يجعلهم مُخيّرين، لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهم، أفأَنْتَ يا مُحمَّد ويا كُلَّ مَنْ يَدْعُو إلى اللَّهِ من أمَّتِهِ تُكْرِهُ النَّاسَ حتَّىٰ يكونوا مؤمِنينَ، مع أنَّه أمْرٌ لم يخْتَرْهُ اللَّهُ لِنَفْسِه، وهو ذو القدرة التامَّةِ عليه.

**النصّ الثامن:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) مُبيّناً مثلاً من أمْثِلَةِ دَعْوَةِ الرُّسُل السابقينَ لأقوامهم، الّذِي يَنْبَغِي التَّأَسِّي به، وهو مُقْتَطَعٌ من دعوةِ نُوحٍ عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨)﴾.

في هذه الآية بيانُ جانِبٍ من حِوارِ نوحٍ لقَوْمِهِ، حَوْلَ حُرِّيَّة النَّاس في اختيار الإيمانِ والكُفْر، وأنَّ الرَّسُولَ لاَ يَمْلِكُ إلزامَ الناس بالإيمانِ، بَعْدَ أن مَنَحَهُمُ الله عزّ وجلّ حُرِّيَّةِ الاختيار ليَبْلُوَهم، وحمَّلَهُمْ مسؤوليَّةَ اختيارهم، فعليهم أن يتحمَّلُوا عقوبات اختيارهم عند ربّهم إذا اختاروا الكُفْر على الإيمان، والضَّلالَةَ على الهدى، والظلمات على النور.

❁ ❁ ❁

## النصّ التاسع:

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمَر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ به كلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أُمَّتِه:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾.

في هذا النصّ تعليمٌ من الله لبَعْضِ أساليب الحوار الإقناعيّ للكافرين المشركين، الذين يَعْبُدُونَ آلِهةً من دون الله عزّ وجلّ، وهو حوارٌ حَوْلَ موضوعٍ هو من أهَمّ موضوعاتِ الدّين، وهو موضوعُ العبادة.

فجاء في التعليم تكليفُ الرسول أن يقول للمشركين:

- إنّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُد الله مُخْلِصاً له الدّين فلا أشركَ بعبادته أحداً.
- وأُمِرْتُ بالتكاليف الدينيّة التي أَعْبُدُ بها ربِّي قبْلَ غيري من الناس، من أجل أن أكون أوّل المسلمين المطيعين لأوامر الله ونواهيه.

وجاء في التعليم تكليف الرسول أن يقول للمشركين أيضاً:

- إنّي أَخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبّي فلم أَعْبُدْهُ، أو أشركتُ بعبادته معبوداً من دونه عذابَ يَوْمٍ عظيم، هو عذاب يوم الدين.

وأنْ يقول لهم مُعْلِناً مَنْهَجَهُ في عبادته الذي اختاره لنفسه، ومبيّناً لهم أنهم أحرار في أن يختاروا لأنفسهم ما يشاؤون من معبودات يَعْبُدونها:

- اللَّهَ أعْبُدُ مخلصاً له ديني، فلا أشرك بعبادته أحداً.
- فاعْبُدوا ما شِئْتُم مِنْ دُونه من آلِهَةٍ، فلَكُمْ أنْ تَخْتَاروا في حياتكم ما تَشَاءُونَ من إيمانٍ أوْ كُفْر، وتوحيدٍ أو شرك، إذْ أنتم في الحياة الدّنيا في

رحلة ابتلاء، مُمَكَّنُون ممّا تشاءُون، وعليكم أن تتحمّلوا نتائج اختياركم.

وأن يقول لهم أخيراً محذّراً ومنذراً:

إنّ الخاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُم وأَهْليهم يَوْمَ القيامة، ألا ذلِكَ هُو الْخُسْرانُ المبين.

أي: فمن كفر فعَبَدَ غير الله أو أشرك في عبادته إلّهاً من دونه، خَسِرَ نفسه وأهليه يوم القيامة، إذ يكون من أصحاب النّار خالداً فيها أبداً، ألا ذلك هو الخسران المبين.

ألا: أداة تنبيه بشدّةٍ، فتعريض الإنسان نفسه لهذا الخسران المبين يحتاجُ هذا التنبيه، ليَصْحُوَ من غفلته، أو غفوته.

**النصّ العاشر:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

**يُلْحِدُونَ في آياتنا:** ألْحَدَ: أي: مال عن الحقّ وجَارَ وظَلَم، والمعنَىٰ: يَحيدون ويَميلون عن الدين الحقّ ظُلْماً وجَوْراً، شاكّين في آياتِنا الكونيّة، وآياتِنا البيانيّة المنزَّلَة، وآياتنا الإعجازيّة، وآياتِنا الجزائية.

ففي هذه الآية يتحدّث الله عزّ وجلّ عن الْمُلْحِدين الجائرين المائلين عن دينه الحقّ، الشّاكّين والمشكِّكِينَ في آياته، بأنّهُمْ غير خافِين عليه جلّ جلاله، وهُو يُنْذِرُهم بالإلْقاء في النّار يوم القيامة إذا اسْتَمَرُّوا على إلحادهم، ويُبَشِّر المؤمنين بالأَمْن.

وبعد هذا البيان يخاطِبُ الملحدين خطاباً مُباشراً، فيقول لهم:

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فيُعطيهم في هذا أنَّ لهم أن يختاروا ما يَشاءُون من عَمل، ولكنَّهُ لَيْسَ تخيير إباحة، إنّما هو تخيير امتحان، وهو ممزوجٌ بِوَعِيدٍ بالعقاب إذا اختاروا غَيْر المطلوبِ منهم في رحلة امتحانهم.

فقد حمَّلَهم مسؤوليّة مشيئتهم، وأبانَ لهم أن عاقبة إلحادهم وشرْكِهِمْ عذابٌ أليم يَوْمَ القيامة في نارِ جهنَّم.

❀ ❀ ❀

**النص الحادي عشر:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ به كُلُّ داعٍ إلى سبيلِ ربّه من أمّته:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

نزل هذا النّصّ بعد رِحْلَةٍ طويلَةٍ في دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ لقومه، أبان لهم خلالها أصول الدين الإيمانيَّة والأخلاقيَّة، وأُصوله التعبّديّة مبيّناً لهم فيها أَنَّ الْعِبَادة لا يَصِحُّ أن تكون إلاّ لله وحده، وأقامَ لَهُمُ الْحُجَجَ والبراهينَ الكثيرة، ولم يَبْقَ عَلَيْهِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ تَبَلَّغَهَا من الكافرين غَيْرُ التذكير بها، وإذْ وصَلَ مَعَهُمْ إلى هذه المرحلة، فإنّ وظيفته الآنيَّة بالنسبة إليهم إنَّمَا هيَ التذكيرُ فَقَطْ، أمّا أن يتصَوَّرَ أنّه صَارَ مُكَلّفاً أن يُلْزِمَهُمْ بالإيمانِ والإسلام إلزام مُكْرِهٍ مُسَيْطِرٍ، فَهُوَ تَصَوُّرٌ غَيْرُ صَحِيحٍ، لأنَّهُ يَتَنَافَىٰ مع وَضْعِهِمْ في الحياة الدنيا موضِعَ الامتحان، فامتحان الإرادة يستلزم تمكينَها من أن تختار مَا تشاء خلالَ مُدَّةِ امتحانها.

فقال الله لرسوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فوظيفتك بالنسبة إلى هؤلاء هي وظيفة التذكير بما سبَقَ أن بلّغْتَهُمْ إيَّاه.

**إنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ**: أي: ما أنت بالنسبة إلى هؤلاء الذين سبق أن

عالجتهم خلال تنزيل (٦٧) سورة منذ بَدْءِ الدّعوة حتى نزول سورة (الغاشية) إلاَّ مُذَكِّرٌ لهم، فقد قَدَّمْتَ لهم البيان الكافي، والشافِيَ لمن شاء منهم أن يُؤْمِن بالحقّ ويستقيم على صراط ربّه.

**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**: أي: فَلَسْتَ مُطَالَباً ولا مأذوناً بأَنْ تكونَ مُسَيْطراً عليهم سَيْطَرَةَ مُكْرِهٍ مُجْبِرٍ على الإيمان والإسلام، إذْ هُمْ مُطَالَبُونَ بأن يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا باختيارِهم وإراداتهم الحرّة، بعد بيان الحقّ لهم، بالآيات الجليّات.

ومن رفض أن يستجيب لدعوة الحقّ فعلَيْهِ أن يتحمَّلَ عِنْدَ ربّه نتيجة مَشِيئَتِه التي شاءَ بها سُبلَ الْغَيّ، مُلْحِداً عن صِراط الرُّشْد، صراطِ الله العزيز الحكيم.

**النص الثاني عشر:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول) خطاباً لرسوله فكلّ داعٍ إلى سبيلِ رَبّه من أمّته:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

**وَقُلِ الْحَقّ مِنْ رَبّكُمْ**: أي: وقُلْ أيُّها الداعي إلىٰ دين الله وصراطه المستقيم، بهدوءٍ كامل، لا انفعالَ فيه ولا غضبَ ولا مؤكّدات: لمن تُوجِّه لهم دعوتك: الحقُّ الذي أدْعُوكم إلى الإيمان به والعمل بمقتضاه، هو من ربّكُمْ ولَيْسَ مِنْ عِنْدَ نَفْسِي، فمَا أنَا إلاَّ مُبَلِّغ.

**فَمَنْ شاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**: أي: فمن شاءَ بإرادَتِهِ الحرَّةِ بَعْدَ أن يَتبلَّغَ الحقَّ الرَّبَّانيَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ فَلْيُؤْمِنْ به، لينالَ أجْرَهُ العظيم عند ربّه، ومن شاءَ بإرادته الحرَّة أنْ يَكْفُرَ بِهِ فلْيَكْفرْ به، ولَكِنْ علَيْهِ أن يَتحمَّلَ الْمَصِير الذي أعَدَهُ اللَّهُ للظالمين، فقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

**سُرَادِقُهَا**: السُّرَادِقُ: الخيْمَةُ، السّور، الدُّخان، وهذا هو المناسب هنا.

**الْمُهْل**: القطران السائل، والمعْدِنُ الذائبِ، والقيح، وصديد الموتىٰ. شُبّه الماء الذي يشربُ منه أهلُ جهنَّم بالْمُهْلِ، إذْ هو حارٌ فيه كثافةٌ ما، يخرُجُ منه بخَارٌ يَشْوِي وجُوهَ الشاربين.

**وسَاءَتْ مُرْتَفقاً**: أي: وساءت النار مكاناً للظالمين، ومجلساً يجلِسُونَ فيه، وَمُتّكأ يَتّكِئونَ عَلَيْهِ بمرافِقِهم.

**النصّ الثالث عشر:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

فدلَّتْ هذه الآيَةُ مُضِيفَةً في الموضوع، علىٰ أنَّ الإكْراهَ كما أنّه لَيْسَ وَسِيلَةً صحيحة ولا مقبولة للدخول في الدين، فهو لا يخرج من الدين من أعلن بسببه الكُفْرَ، وقَلْبُه مطمئنٌ بالإيمان.

❊ ❊ ❊

**النصّ الرابع عشر:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقّة/٦٩ مصحف/٧٨ نزول):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ**: أي: لا فائِدَةَ من أنْ أُقْسِمَ لكم بآياتي في كوني الّتي تبصرونها والّتي لا تبصرونها، مع أنّها تَسْتَحِقُّ أن أقسم بها، لأنكم بلغتم من الإصرار على المعاندَة مبلغاً شنيعاً، والمقصود بالخطاب فئة المعاندين من مشركي مكّة.

فما سبق أن نزل من القرآن كافٍ لأنْ يمْحُوَ كُلَّ أثرٍ للشّكِ فيه، ولأنْ تُذكروا بأنّه ليس بقول شاعر، وليس بقول كاهِنٍ، لكنَّكُمْ قليلاً ما تُؤمِنُونَ بالحقّ الذي يخالفُ أهواءكم وتقاليدكُمُ العَمْيَاءَ، وقليلاً ما تَتَّعِظُونَ بالمذكِّراتِ الّتي تُذكِّرُكُمْ بسُنَنِ الله في عقوبات الجاحدين المكابرين الذين يُصرُّونَ على الباطل.

**تَنزِيلٌ مِن رَبِّ العَالَمِين**: أي: هٰذا القرآن الذي يتْلُوهُ عليكم مُحَمَّدٌ، هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، الّذي هو ربُّكُمْ وربّ آبائِكُمْ الأوّلين، فاعْلَمُوا هذه الحقيقة.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: واعلموا حقيقةً أُخرَىٰ تَدُلُّ على أنّ القرآن تنزيلٌ من رَبِّ الْعَالَمِين، وهي أنّهُ لَوْ كان يكْذِبُ علينا ببعَضِ الأقاويل، مع تأييدنا له بالمعجزات، لما تَرَكْنَاهُ على قَيْدِ الحياة، بل لأَخَذْنَا بيمينه جرًا، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين.

**الوتين**: عِرْقٌ مُتَعَلّقٌ بالْقَلْبِ إذا انقطع ماتَ صاحِبُه.

إننا لا نَدعُ نبياً مُؤَيّداً منّا بالآياتِ يكْذِبُ علينا، بل نُميتُهُ فوراً، فالرَّبُّ لا يكْذِبُ ولا يَقْبَلُ بحالٍ من الأحوال أن يكذبَ عليه نبيٌّ من أنبيائه.

**وَإِنَّه لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتقِينَ**: أي: وإنَّ القرآن لتَذْكِرَةٌ يَنْتَفِعُ بها دواماً المتَّقُون الّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فآمَنُوا به، وأسْلَمُوا له.

فأبان الله أنّ القرآن تَذْكِرَةٌ، والتذكِرَةُ تُعْطِي مَنْ يَتَبَلَّغُهَا حُرِّيَّة الاختيار.

❀ ❀ ❀

**النصّ الخامس عشر:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن يوم الدينِ، يوم الحسابِ والجزاء:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

فأكّدَ الله في هذا النّصّ أنّ للنّاسِ مَشيئاتٍ ذواتِ حُرّيَّةٍ في اختيار مآبٍ حَسَنٍ لَهُمْ عِنْدَ رَبّهم يوم الدّين، يكونون فيه سُعَداء سالمين، فَهُمْ يَسْلكون للوصول إليه صِرَاط الله المستقيم.

أي: فَمَنْ شاء اتخذ وَسِيلةً إلى الظَّفَرِ بمرضاة ربّه بالإيمانِ والعمل الصالح، فنالَ بذلك مآباً حسناً عنده.

أي: ومن شاءَ لم يَتَّخِذ ذَلِكَ، فاسْتَحَقَّ العذابَ يَوْمَ الدين، وهو عَذَابٌ قَرِيب، إذْ يَنْعَدِم حِسُّ الزَّمَنِ بين الموت والبعث، ويومئذٍ يتمنّىٰ الكافِرُ أن يكون تُراباً لم يُبْعَثْ، أويُقَالُ له كما يُقَالُ للبهائم بعد بَعْثِها وإقامة العدل فيما بينها: كوني تراباً.

❀ ❀ ❀

**النصّ السادس عشر:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وهي أوّل سُورةٍ مَدَنيَّة:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذه الآية حقيقةً كليّة عامّة شامِلَةً لاَ تَخْصِيص فيها ولاَ نَسْخَ وَلاَ تغييرَ ولاَ تبدِيلَ بالنسبة إلى الذين يُوضَعُونَ في حياتِهِمْ موضِعَ الامتحانِ، هي أنَّ الدّينَ اختيارٌ من الْمُمْتَحَنَ، ولا يُمْكن أن يكون فيه إكراه مَادّيّ، فالقلوبُ التي هي مراكز الإيمان لا يُمْكِنُ إكراهها إلاّ بالجبْرِ الرَّبَّانيّ الّذي يَسْلُبُهَا معه حُرّيّة إراداتها، وهذا مناقض لِوَضْعِها موضع الامتحان، والوسائل الإكراهية المادّيّة التي يملكُها الناس تَصْنَعُ مُنافقين، لا مُؤْمِنين، والمنافقون أسْوأُ حالاً من الكافرين الصرحاء.

**النصّ السابع عشر:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة: (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾﴾.

في هذا النصّ يُقْفِلُ اللّهُ مَوْضُوع حُرّيّةِ مَشِيَةِ الإنسان في الإيمان والكُفْر، والعملِ الصالحِ والسّيّءِ، بمثل النّصّ الذين بدأ به هذا الموضوع في سورة (المزمّل: ثالث سورة نزَلَتْ من القرآن المجيد، وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

وأُنْزِلت فيما بينهما نُصُوصٌ بلغت (١٥) نصّاً، مَلأَ كُلٌ منها فراغَ حَبَّةٍ في عِقْدِ الموضوع، على تكامليَّةٍ في المعاني، مع مراعاةِ المناسبات الداعيات لإيراد كلٍّ منها في السورةِ التي هو منها.

وأَطْبَقَ اللّهُ عزّ وجلّ على هذا الْقُفْل قولَهُ:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

أي: ولا يكون لكُمْ مشيئة إلاَّ إذا منحكم الله جهاز الإرداة الحرَّة، الّتي بها تشاءُون طريق نجاتكم وسعادتكم، أو طريق هلاككم وشقائِكُمْ، وإلاَّ إذا مَكَّنكُمْ من استعماله عند كُلّ مَشِيئة جزئيَّة.

لكِنَّ الله عزّ وجلّ ما وَضَعَكُمْ مَوْضِعَ الامتحان إلاَّ بَعْدَ أنْ منحكُمْ هذا الجهاز، وسائر شروط التكليف، فأَنْتُمْ مَسْؤُولون مسؤوليَّةً تامّةً عن مشيئاتكم وعن أعمالكم، لذلك يُدْخِلُ اللَّهُ منْ يشاءُ في رحمته، وهي جَنَّتُه، ومعلومٌ أنَّ مَشيئَته تعالى لا تفارق حِكْمَته، وأمَّا الظَّالِمُونَ فقد أعَدَّ اللَّهُ لهم بِعَدْلِهِ عذاباً إليماً في دار العذاب عنده.

وبهذا تكاملَ عِقْدُ الموضوع وأدَّتِ النُّصُوصُ أدْوارَها التربويَّة بحسَب مَراحلها الزَّمَنِيَّة، وبحسب الحاجة إلى حركيَّة الدّعْوة، ومُقْتَضَيَاتِها التربويَّة.

❊ ❊ ❊

# سُورَةُ القَدْر

## ٩٧ مصحف ٢٥ نزول

**نزولها:**

الأكثر على أنها مكيّة، وعند جابر بن زيد أنّها الخامسة والعشرون في ترتيب النزول.

وقيل: إنّها مدنيّة نزلت قبل نُزُول سورة البقرة.

## (١)

# نصّ السورة

## سورة القدر وما فيها من فرشيات القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا
لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ
شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ
رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ
الْفَجْرِ (٥)

---

٣ ـ ٤ قرأ البزّي ﴿مِن أَلْفِ شَهْرٍ تَّنَزَّلُ﴾ في حالة الوصل. وقرأها باقي القرّاء العشَرَة ﴿مِن أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ﴾، والقراءتان وجهان من الأداء.

٥ ـ قرأ الكسائي، وخَلَف ﴿مَطْلِعِ﴾ بكسر اللاّم. وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿مَطْلَعِ﴾ بفَتح اللاّم.

والقراءتان وجهان عربيّان. أمّا «مَطْلَع» بفتح اللاّم فهو جارٍ على القياس؛ لأنّ مضارع فِعْلِه مضمومُ العَيْن «طَلَعَ يَطْلُعُ».

وأمّا «مَطْلِع» بكَسْرِ اللاّم فقد سُمِعَ في نُطْق العَرَب عَلَى خلاف القياس، فهو لُغَةٌ عربيَّةٌ سماعيَّة.

## (٢)
## موضوع سورة القدر

تضمَّنت سورة القدر التنويه بفضل القرآن الّذي اختار الله عزّ وجلَّ لإنزاله من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السماء الدنيا (على ما رُوي عن ابن عبَّاس) واختارَ لبَدْءِ إنزال أوّل ما أُنْزِل منه على رسول الله محمد ﷺ، لَيْلَةَ القَدْر، الّتي هي أفضل الأزمان عند الله جلّ جلالُه، في دورة الْعَام بالنسبة إلى نظام الأرض ضِمْنَ المجموعة الشمسيّة، والّتي جَعَل تبارَكَ وتعالىٰ العمل الصالح فيها أفضل من أمْثَاله مَعْمُولةً في ليالي وأيّام ألف شهر ليس فيها ليلَةُ الْقَدر، إكراماً منه وتفضُّلاً على عباده المؤمنين، الذين يحرصون على تعويض ما فاتهم في أزمان أعمارهم الماضية، إذْ لم يغنموها في أعْمَالٍ صالحة، بل أضاعوها سُدًى، أو حَمَلُوا فيها أوزاراً، فجَعَلَ لهم ليلَةَ أخْفَى تَحْديدَها، من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، من كلّ عام، رغبةً في أن يتحرَّوْها بالأعمال الصالحة، عسَى أن يُحَصِّلوا فيها أرباح دُعَاءٍ ومغانم أعمالٍ صالحة في ألف شهر.

والسّورة كلّها درس واحد متماسك العناصر.

❀ ❀ ❀

## (٣)
## سوابق الحديث عن القرآن في نجوم التنزيل

نُطالعُ ما سبقَ سورة القدر في نجوم التنزيل، ممّا جاء فيه الحديث عن القرآن الكريم، فنجده في سبع سُوَر:

### الأوّل:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدثّر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) حكايةً لما قاله الوليد بن المغيرة عن القرآن:

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

ويظهر أنّ هذا قد نزل بعد نزول عدد من سُوَر القرآن، إلاّ أنّهُ أضيف إلى سورة (المدثّر) مراعاةً للمناسبة التي اقتضتها معاني آيات السورة.

وقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

فوَصَف اللّهُ الْقُرْآنَ بأنَّهُ تَذْكِرَة.

وقول اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

**الثاني:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (المزمّل/٧٣ مصحف/ ٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾.

**الثالث:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (القلم/٦٨ مصحف/ ٤ نزول) متحدّثاً عن الحلاّف المهين، الهمّاز المشّاء بنميم، المنّاع للخَيْر، المعتدي الأثيم، المكذّب بالقرآن الكريم:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وقول اللّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله، فلُكلّ داعٍ إلى اللّه من أُمّته:

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

وقول اللّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله بشأن المكذّبين بالقرآن، مع أنّهم يَحْسُدُون الرَّسُول على القرآن الذي يَتْلُوهُ عليهم مُعْجَبِين به:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

**الرابع:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (التكوير/٨١ مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن، وأنّ جبريل عليه السَّلام علَّمه لرسول الله محمّد ﷺ قَوْلاً ملفوظاً، حَرْفاً فَحَرْفاً، وكلمةً فكلمة:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

وقولُ اللّه عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

**الخامس:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/٨٧ مصحف/٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾.

أي: سيَقْرأ جبريل عليك القرآن بأمرنا، فأنْتَ تَتْلُوهُ فلا تَنْسَى، إذْ نُمِدُّكَ بذاكِرَةٍ حَافِظَةٍ لاَ تَنْسَى، إلاّ ما نشاء أن تنساهُ لحكمةٍ تُرَاد.

**السادس:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول) مبيّناً أن القرآن وحيٌ يُوحَى بأمْرِ اللّه، يعلّمه جبريلُ رَسُولَ اللّه محمّداً ﷺ:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

وقَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ فيها خطاباً لِرَسوله، ومبيّناً أنّ القرآن ذِكْرٌ مُنَزَّلٌ من لَدُنْه:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

وقولُ اللَّه عزّ وجلّ فيها خطاباً للمكذّبين بالقرآن:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

## السابع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) بشأن آيات القرآن:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

ثم جاء في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول) قَوْل اللَّه عزّ وجلّ بشأن القرآن:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾.

وجاء بعدها في نجوم التنزيل بشأن القرآن جمٌّ غَفِيرٌ.

## مجمل ما اشتملت عليه هذه النصوص من دلالات بشأن القرآن:

(١) أنَّ القرآن آياتٌ مُنَزَّلاتٌ من عند اللَّه عزّ وجلَّ، أي: هو ببلاغته ودلالته على المعاني يشتمل على علاماتٍ بيّناتٍ واضحاتٍ جليّاتٍ على أنّه كلامٌ مُنَزَّلٌ من عند اللَّه، ولَيس من كلام أيّ مخلوق.

(٢) أنّ القرآن حديثٌ من اللَّه لعباده، أي: هو مُنَزَّلٌ على صفَةِ حَدِيث، بما في الحديث من هُدوءٍ، ورِفْقٍ، ونَفَاذٍ إلى عُمْقِ الأفكار، والنفوس، والقلوب، وتأثير فيها.

(٣) أنَّ القرآن بما فيه من إعجاز بيانيٍّ وفِكْريّ، يثيرُ حَسَدَ الْبُلَغاءِ الحاسدين للرّسول من المكذّبين بأنّه رسُولُ اللَّه، ظانّين أنّه كَلاَمُهُ وبيانُه.

(٤) أنّ القرآن ثقيلٌ بما يشتمل عليه من معاني ثَرَّة، إذْ تَحْوي الكلماتُ القليلات فيه المعاني الغزيرة الجليلةَ الفيّاضة.

(٥) أنَّ القرآن بسبب سموه البيانيّ وقُوَّةِ تأثيره في النفوس، يجعل المكذّبين بأنّه من عند اللَّه يصفونَه بأنَّه سِحْرٌ، على عادتهم في كلّ أمْرِ يعجزون عن مُجَارَاتِه، ممّا يأتي به النَّاس من خوارق لقُدْراتهم.

(٦) أنّ القرآن تَذْكِرَةٌ، أي: هو كتابٌ ينبغي أن يوضَعَ أمام الأعْيُن، وأنْ يُتْلَىٰ آناء اللّيل وآناء النّهارِ، ليكون تَذْكِرَةً[1] للمؤمنين.

(٧) أنّ القُرْآن يُنَزَّل على رسول اللَّه محمّد ﷺ قولاً يَنْطق به جبريلُ، الرَّسول الكريمُ رسولُ الوحي، ويُلَقِّنُهُ الرَّسُول محمّداً، رسول اللَّه للناس أجمعين، حرفاً فحرفاً، وكلمة فكَلِمَةً.

(٨) أنّ القرآن ذِكْرٌ لمن شاء من العالمين أن يستقيم على صراط اللَّه العزيز الحكيم، أي: هو تعليم رَبَّانيٌّ يطالَبُ العالَمُون بأنْ يَتَلَقَّوْهُ، ويَتَدَبَّرُوا معانيه، ويكتبوه كتاباً مُوَثَّقاً، ويحفظُوهُ في ذاكرتهم، ويَتْلُوهُ بألْسِنَتِهِم، لينتفعوا من هدايته بتذكُّر آياته عند مناسَباتها، فَيَسْتَقِيمُوا في حياتهم على صراط اللَّه المستقيم.

فمَنْ شاء منهم أن يستقيم فَعَلَ ذلك.

وهو أيضاً شَرَفٌ لهم ومَجْدٌ عظيم، لأنّ عملهُمْ بما اشتمل عليه من هداية سيجعلهم يبلغُون الشَّرَف الرفيع، والمجد العظيم.

---

(١) **التذكرة**: ما يُسْتَذْكَرُ به الشيء المطلوب تذكّره، كالبطاقة الّتي تُذكّر بموعد اللّقاء أو الاجتماع، ونحو ذلك.

(٩) أنّ اللّه عزّ وجلّ سَيُقْرِئُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ القرآنَ مع مَنْحِه الْقُدْرَة على حفظه، وعَدَم نِسْيَانِ أيّ شَيْءٍ منه، إلاّ ما شاء اللّه نَسْخه لِحِكْمَةٍ هُو يَعْلَمُها.

(١٠) أنّ القرآنَ وَحْيٌ يُوحَى مِنْ عند اللّه، بألْفاظه حَرْفاً فَحَرْفاً، وكَلِمَةً فكلمة.

(١١) أنّ القرآنَ مُدَوَّنٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ، مَرْفوعةٍ مطهّرة، وهذه الصُّحف محفوظةٌ بأيْدي سفَرَةٍ، كرامٍ بَرَرَة (وهم صنفٌ من الملائكة).

(١٢) ثم جاء في سورة (القدر) بيان أنّ اللّه أنْزَلَه في ليلة القدر.

## (٤)
## التدبّر التحليلي لآيات سورة القدر

● قول اللّه عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾:

**﴿إنّا أنزَلْناهُ﴾**: جاء في هذه العبارة اختيارُ ضمير المتكلم العظيم، للإشعار بعظمة القرآن الكريم، إذْ هو كلامُ اللّه العظيم الجليل العزيز الحكيم العليم الخبير، وهكذا كلّما كان المرادُ الإشعار بأنّ ما يُسْنِدُه اللّه إلى نفسه جَليلٌ عظيمٌ عنده جلّ جلاله.

ونظائر هذا الاختيار كثيرة في القرآن، ولا سيّما حينما يكون الحديث عن القرآن، مثل:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ... ②﴾ [الزمر/ ٣٩، (١٠٥)النساء: ٤].

أمّا في مقامات المحادثة والإيناس، فيأتي اختيار ضمير المتكلم المُفرَد، مثل:

● ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ...﴾ [طه/ ٢٠].
● ﴿...لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه/ ٢٠].
● ﴿...إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ...﴾ [البقرة/ ٢].

والهاء من ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ضمير منصوبٌ جاء كناية عن القرآن، ولو لم يَسْبِقْ في النّصّ حديثٌ عنه، للعلْم به بداهةً، فهو المنزَّلُ من عند اللّه على رسوله. وقد غدا معلوماً في استعمالات القرآن قبل إنزال سورة الْقَدر أنَّ التنزيلَ والإنزالَ متىٰ أُطْلِق في القرآن، فالمراد به تنزيل القرآن وإنزاله، أمّا إذا أُريد به شيء آخر، فإنّه يأتي مُقْتَرِناً ببيان الشيء المنزّل، كإنزال الماء وإنزال الحديد، وإنزال الملائكة، وإنزال السَّكينة.

إنّ من الإيجاز في القرآن الكنايةَ بالضمير أحياناً عمّا يمكن أن يُعْلَم المرادُ به من القرائن، أو من مضمون المعنى.

﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾: هي إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان، قد أخفاها اللّهُ فيها، ليجتهد المؤمنون العابدون في التماسها طوَال هذه اللّيالي، حرصاً على اغتنام خيراتها الجليلات العظيمات.

وأوصَى الرَّسُولُ ﷺ بالتماسها في هذه اللّيالي، ولا سيما في الآحاد منها، وسيأتي إن شاء اللّه البيان المفصّل في هذا.

**الْقَدْر**: بإسْكان الدال وفتحها، تأتي في اللّغة للدّلالة على معاني متعدّدة ذكَرَها عُلَماء اللّغة العربية:

● فتأتي بمعنىٰ مقدار الشيء في كلّ ما يُمْكِن تقدير كميَّةٍ له.
● وتأتي بمعنىٰ القضاء والحكم.
● وتأتي بمعنى التَّدْبير، يقالُ لغةً: قَدَرَ القومُ أَمْرَهُمْ يَقْدُرُونه ويَقْدِرُونه قَدْراً، أي: دبَّرُوا أمرهم. ويُقَالُ: قَدَرْتُ لأمْرِ كذا أَقْدِرُ وأَقْدُرُ له، أي: نظرت فيه، ودَبّرته، وقايَسْته.

● وتأتي بمعنى المكانة وعلوّ الشأنِ، وقد جاء للدّلالة على هذا المعنى قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/١٠٣ نزول):

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

أي: ما عَظّمُوهُ حَقَّ تعظيمه، أو ما وصَفُوه حَقَّ وصفه الجليل، وعلى هذا المعنى يُقال: فلانٌ جليل القَدْر، أي: عظيم المكانةِ والشأن.

وأصْلُ مادّة الكلمة يدور حول مقادير الأشياء، وحُدُود كميّات وحَدَاتها، فتحديد وحَدَات كلّ عُنْصُر من عناصر المركّباتِ هو تقديرٌ له.

وصُنْعُ كُلّ شيءٍ مُرَكَّب من عناصر في ذَرَّاته، وأبْعَاده، وأوزانه، وأوصافه ليؤدّي الغرض من صُنْعِهِ، لا يتمُّ إلاّ بقَدَرٍ، أي: بتحديد مقدار الوَحَدات من كلّ عنصر كبيراً كان أم صغيراً، ولهذا قال اللّه عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

هذا هو المعنى الأصلي للمادّة، وقد تأخُذُ معاني أخرى إذا اقترنت بما يدُلُّ عليها، كالإمضاء والحكم، والتّدْبير، والمقايسة، والتعظيم ورفع الشأن.

وبناءً على هذا التحليل اللّغوي يُمْكن أن نُفَسّر السَّببَ الّذي دَعَا إلى تَسْمِيَةِ اللّيْلَة المباركة الّتي أنزل اللّه فيها القرآن بلَيْلَةِ القدر.

فهي ليلَةُ القضاء والحكم بمقادير الأشياء، وليلَةُ التدبير، وليلَةُ الشَّأنِ العظيم والشَّرَفِ الرَّفيع، وليلَةُ الإعْلاَمِ بمقادير الآجال والأرزاق والأحْدَاث، وغير ذلك.

وبهذه المعاني جاءت التعليلاتُ المأثورة لتسمية هذه الليلة المباركة بلَيْلَةِ القَدْر.

● فقد رُوي عن ابن عبّاس رضي اللّه عنهما، أنّ اللّه عزّ وجلّ يُقدّرُ في لَيْلَةِ القَدْر ما يكونُ في تلْكَ السَّنَةِ من مطَرِ ورِزْقِ، وإحْياءِ، وإماتَةِ، إلى مثل هذه اللَّيْلَة من السَّنَةِ الآتية.

أي: يَنْزِلُ أمْرُ اللّه بقضائه لملائكته، في كلّ أمْرِ من أمور تدبير شؤون خلقه.

ويؤيّد هذا المعنى ما جاء في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾.

أي: يُفْصَل في هٰذِهِ اللَّيْلَة المباركة من اللَّوْح المحفوظ أَمْرُ السَّنَةِ القادمة، وما يكونُ فيها من الآجال والأرزاق وغير ذلك.

وقد اختار هذا التعليل عامَّةُ أهْل العلم.

● ونُقِل عن الزهريّ أنّه قال: ليلة الْقَدْرِهي ليلة العظمة والشرف، من قولهم: لِفُلَانٍ قَدْرٌ عنْدَ فلانٍ، أي: له منزلَةٌ وشَرَفٌ عنده.

ولسْتُ أرى مانعاً من اجتماع عدّةِ معانٍ للَيْلَةِ القَدْرِ، فهي لَيْلَةُ القضاء والحكم، وليلَةُ التدبير، وليلَةُ فَصْلِ مقادير العباد من اللَّوح المحفوظ، لتبليغها إلى الملائكة المكلّفين القيامَ بوظائف تتعلّق بأمور العباد، وهي ليلة الشأن العظيم، والشرفِ الرَّفيع.

## ما المراد من إنزال القرآن في ليلة الْقَدْر؟

هذا السؤال قد طرحه «عطيّةُ بن الأسود» على ابن عبَّاس رضي اللّه عنهما، وأجابه عليه.

● رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ من عدّة طُرُقٍ كما ذكر ابْنُ كثير، أنّه سألَهُ «عطيَّةُ بْنُ الأَسْودِ» فقال: وقع في قَلْبي الشَّكُّ، قولُ اللّه تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وقولُهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وقَوْلُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾، وَقَدْ أُنزِلَ في شَوّال، وفي ذي القَعْدَة، وفي ذي الحجّة، وفي المحرّم، وصفر، وشهر ربيع.

فقال له ابن عبّاس: إنَّهُ أُنْزِلَ في رمضان في لَيْلَةِ القدر، وفي ليلَةٍ مباركةٍ جُمْلَةً واحدة، ثُمَّ أُنْزِلَ على مواقع النُّجوم ترتيلاً في الشُّهور والأيَّام.

● وروي عن ابن عبّاس أيضاً بإسناد صحّحه الحاكم، أنه قال: أُنْزِلَ القرآنُ في لَيْلَة القدر، حتَّى وُضِعَ في بيت العزَّةِ في السّماء الدُّنيا، ثُمَّ جَعَلَ جِبْريلُ ينزلُ على محمّد بجواب كلام العباد وأعمالهم.

● وذكر المفسّرون تعليلاً آخر، وهو أنَّ أوّل قرآنٍ أُنْزِلَ على رسول الله ﷺ كانَ في ليلَة القدر من شهر رمضان، ثُمَّ نزَلَ سَائِرُهُ على مواقع النجوم، فكان بَدْءُ نُزوله فاتِحَةَ أمْرٍ عظيم وقَدْرٍ جليل للنَّاس، وكان بين بَدْءِ نُزول ما نزل منه وآخر ما نزلَ منه ثلاثٌ وعشرون سنة.

## ليلة القدر إحدى ليالي شهر رمضان:

يدُلُّ قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (البقر/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾.

وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾.

على أنّ لَيْلَةَ القدر إحْدَىٰ ليالِي شَهْرِ رمضانَ المبارك لا محالةَ.

ولم يأتِ عن الوحي تعيين لها، إلاَّ أنَّ الرسول ﷺ أوصَىٰ بالتماسها في العشر الأواخر من شهر رمضان ولا سيما في الآحاد منها.

● فقد روى البخاريّ ومسلم عن أبي سعيد الخدريّ، أنّ رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأوُل من رمضان، ثُمّ اعتكف العشر الأوْسَطَ في قُبَّةٍ تُرْكِيَة[1]، ثُمَّ أَطْلَعَ رَأْسَهُ فقال: «إنِّي اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الأوَل أَلْتَمِسُ هٰذِهِ اللَّيْلَة، ثُمَّ اعْتَكَفْتُ الأوْسَطَ، ثُمَّ أُتِيتُ فَقِيلَ لِي: إنَّهَا فِي الْعَشْرِ الأوَاخِرِ، فَقَدْ أُرِيتُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ أُنسِيتُها، وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ مِنْ صَبِيحَتِها، فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأوَاخِرِ، وَالْتَمِسُوهَا فِي كُلِّ وِتْرٍ».

**قَدْ أُرِيتُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ ثُمَّ أُنسِيتُها**: أي أُرِيت تَحْديد وقتها في المنام ثم أُنسِيتُها.

● وروىٰ البخاريّ عن عُبادة بن الصَّامت قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتلاحىٰ[2] رَجُلاَنِ من المُسْلِمِينَ (أي: تَشَاتَمَا) فَقَالَ ﷺ:

«خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاَحَىٰ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ فَرُفِعَتْ[3]، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْراً لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ، وَالسَّابِعَةِ، وَالْخَامِسَةِ».

أي: من العشر الأواخر من رمضان.

قال أبو سعيد الخدري راوي الحديث الأوّل: فَمَطَرَتِ السَّمَاءُ تِلْكَ اللَّيْلَة، وَكَانَ الْمَسْجِدُ عَلَى عَرِيشٍ، فَوَكَفَ المسجد (أي: صار يتقاطر سَقْفُه) فَبَصُرَتْ عيناي رَسُول اللَّهِ ﷺ وعَلَىٰ جَبْهَتِهِ أَثَرُ الْمَاءِ والطين من صبيحَةِ إِحدَى وعِشْرِين.

---

(١) هي قُبَّة صغيرة من لُبُودٍ.
(٢) **فتلاحىٰ**: أي: فتشاتَم.
(٣) **فَرُفِعَتْ**: أي: فَرُفِعَتْ مَعْرِفَةُ لَيْلَتِهَا مِنْ ذَاكِرَةِ الرَّسول ﷺ.

## الحكمة من إخْفاء ليلة القدر:

ويُلاحظُ أنَّ الحكمة من إخفاء ليلة القدر، أنَّه أسلوبٌ من أساليب التشويق إلى الاجتهاد في العمل الصالح لاغتنام الأجْرِ العظيم، فَمِنْ طبائع الناس تتبُّعَ الاحتمالاتِ المحصورة في عدَدٍ مُعَيَّن، للظفر بالرّبح العظيم المنُوطِ بواحدٍ منها يجهلون تَعْيينه، فمن أحصاها كُلَّها منهم استَيْقَنَ مِنَ الظفر بالمطلوب، وبذلك تَنْدَفِع نفوسُهم إلى إحصائها.

والناس مفطورون أيضاً على محبَّةِ الأسرار، والرَّغبَةِ في البحث عنها، والمحافظة عليها بَعْدَ الوصول إليها.

ومن حِكَمِ إخفاء ليلة القدر في العشر الأواخر من ليالي رمضان، تمييز أهل الحرص على التماس مظانِّ فضل اللَّهِ العظيم، بالتحرِّي والاجتهاد في العبادة، خِلاَلَ مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ أطْوَلَ من المدّةِ الَّتي تتنزَّلُ فيها خصائصُ الخيراتِ الرَّبَّانِيَّةِ الحِسَان.

فعلَىٰ المؤمن العابد الحريص على اغتنام الفضل الرَّبَّاني العظيم، أن يجتهد في ضبط نفسه على العبادات والطّاعات طَوال ليالي شهر رمضان، ثُمَّ يُضاعف اجتهاده في العشْر الأواخرِ منه، وأن يَزِيد من حرصه وحُسْن عبادتِه في آحاد ليالي هذا العشر، رغبةً في أن يظفَر بها، ويغتنم خيراتها، ولو لَمْ يَشْعُرْ بأماراتها؛ إذْ لاَ يُشْتَرَطُ ذلِكَ للظفر باغتنام خيراتها.

- قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾:

**﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾**؟! أي: وأيُّ شيءٍ أَعْلَمَكَ؟ فلفظ «ما» اسْمُ استفهام، يُسْتَفْهَمُ به عن حَقِيقة الشيءِ وماهيّته. وهي جملة مُؤلفة من مبتدأ وخبر: «ما» مبتدأ، وجملة «أَدْرَاكَ» في محلّ رفعٍ على أنّها خبر. والواو اسْتئنافية ولا يَظْهَرُ فيها أنّها عاطفة.

﴿مَا لَيلَةُ الْقَدرِ﴾؟! أي: أيّةُ لَيْلَةٍ عظيمةِ الشأنِ، جليلة الخطَرِ ليلَةُ القدرِ؟! استفهامٌ يُرادُ به التعجيب من عظمة ليلة القدر، وهذه الجملة مؤلفةٌ من مبتدأ هو «ما» الاستفهاميّة التعجيبيّة، وخبر هو «لَيْلَةُ القَدْرِ».

وجملَةُ ﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾؟! في محلّ نَصْبٍ، سدَّتْ مَسَدَّ مفعولين، والتقدير: ومَا أدراكَ مُعْلِماً إيَّاك عظمَةَ ليلَةِ القَدْرِ.

وهَذَا الاستفهام في ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾؟! ونظيره يتضمَّن مَعْنَىٰ نفي عِلْمِ المخاطَب بما هو مسؤولٌ عنه. أي: أنْتَ لاَ تَدْرِي مَهْمَا انْطَلَقْتَ سابحاً في التصوُّر مبلَغَ مكانةِ هٰذه اللَّيلة العظيمة، إلاّ إذا أعلمناكَ بذلك، وفي هٰذا دلالةٌ كافيةٌ علىٰ أنَّها ليلةٌ عظيمةٌ جداً.

قال المفسّرون في تفسير: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾؟!! وأمثاله، أي: لم تَبْلُغْ دِرايتُك غايةَ فَضْل هٰذه اللّيلة، ومُنْتَهىٰ علُوّ قَدْرِها، وعِظَمِ شَأْنِهَا.

**أقول:**

لقد تكرّر في القرآن الكريم مِثْلُ هذا الاستعمال، حتَّى صار معلوماً أنَّه أسلوب من أساليب التعظيم والتكبيرِ والتَّهْوِيل والتَّعْجيب.

ولدى التحليل التدبُّري يظهر لنا أنَّه صيغَةٌ من صِيَغِ التعجيب القرآنيّة المبتكرَةِ، ضمْنَ أُصول اللّسان العربي.

أيْ: أعظم بهذا الأمر إعظاماً لا يَصِلُ إليه مَدَىٰ إدْرَاكِكَ.

وهٰذِهِ العبارة أبْلَغُ من عبارَتَي التعجُّب والتَّعْجِيب المستعملتَيْنِ عند العرب، وهما: «ما أَعْظَمَهُ» و«أَعْظِمْ بِهِ»، فَهَاتَانِ العبارتانِ لا تَدُلأَنِ علىٰ عَدَم قُدْرَةِ المخاطَبِ علىٰ إدْرَاكِ حقيقةِ الشَّيْءِ الَّذي يُعَظَّمُ له، وأنَّ مَدَارِكَهُ لاَ تَصِلُ إلى الإحاطة به، بخلاف الصّيغة القرآنيَّةِ المبتكرَةِ في التعجيب.

قولُ اللّه عزَّ وجلَّ:

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾.

بعد التعجيب من جلالة وعظمة ليلة القدر، يَقَعُ في الأنْفُس سؤال: فَماذا من صفات لَيْلَةِ القَدْر ممَّا يحرصُ المؤمِنُ العابد على معرفته بعناية بالغة للعمَلَ بما ينْفَعه في آخِرَته.

فجاء جوابُ هذا السؤال المطويّ بقول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾.

أي: هي خيرٌ من ألف شهر في فضلها الزَّمانيّ الَّذِي جعلَهُ اللَّهُ لَهَا، وفي فَضْلِهَا بما يُجْرِيه اللَّهُ فيها من خَيْرٍ عظيم، وبما يُفيضُ فيها من رحَمَاتٍ على عباده، وبما فيها من فَضْلِ الدُّعاءِ والعبادة، وبما يُضاعِفُ اللَّهُ عزّ وجلّ فيها على عباده من أُجُورٍ على الأعمال الصالحة الّتي يُؤَدُّونَها فيها، وبما يَقْضِي اللَّهُ فيها من إجابَةِ الدُّعاء.

فَمَنْ عَبَد اللَّهَ فيها، وذكره، ودَعَاهُ، وفَعَلَ خيراً، وسجَدَ له، والْتجأَ إليه، كان له من الثواب، والأجْرِ العظيم، والبركات الجِسَام عِنْدَ اللَّهِ، ما هوخَيْرٌ لَهُ من أعمالٍ صالحاتٍ يَعْمَلُهَا في ليالي وأيّامٍ كثيراتٍ تَبْلُغُ لو جُمِعَتْ أَلْفَ شَهْرٍ لَيْسَ فيها لَيْلَةُ القَدْرِ.

فإذا كان الشهر ثلاثين يوماً كانَتْ لَيْلَةُ القَدْرِ خيراً من ثلاثين ألْفاً من الأيّام الأخرى، وألْفُ شَهْرٍ تُعادِلُ ثلاثاً وثمانينَ سنَةً وثُلْثَ السَّنَة، وهذا عُمْرٌ قَلَّ من النَّاس من يبلُغُه، فكَيْفَ بمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ فيه وهو لاَ يَعْبُدُ إلاَّ مُمَيِّزاً على أقَلّ تقدير.

فَمَنْ أَحْيَا هٰذِه اللَّيْلَة بالعبادات والطاعات والقُرُبات والدُّعَاء والذكر، والتفكّر في آياتِ اللَّه وآلائه وأسمائه الحسنى وصفاته الجليلة، والتضرُّع

والابتهال، كتَبَ اللَّهُ له من الأَجْرِ وحطّ عنه من الوِزْر، كما لو عَبَدَ اللَّه وتَضَرَّعَ إليه طَوَالَ عُمْرٍ فيه من الأيَّام ثلاثُونَ أَلْفاً.

يضافُ إلى هذا أنّ الدُّعَاء فيها مستجاب بفضل اللَّه وكرَمِهِ على عباده.

لقد جعل اللَّهُ عزّ وجلّ ليلة القدر مناسبةً للتسابُقِ في عَمَلِ الخير، والتعويض عمَّا سَلَفَ من تقصيرات، والتكفير عمَّا سَلَفَ من سَيِّئاتٍ ومخالفاتٍ، والإطماع بإجابة الدَّعَوات.

## مضاعفة ثواب الأعمال لخصائص بعض الأزمنة والأماكن:

أمّا مضاعفةُ الأَجْرِ والثوابِ عند اللَّهِ، وإجابَةُ الدُّعَاءِ، لِخصائِصَ يَجْعلها اللَّهُ جلَّ جلالُهُ، لبَعْضِ الأَزْمِنَةِ والأَمْكِنَةِ وغيرها، فَهِيَ قضيَّةُ فَضْلٍ وَجُودٍ يَنْفَحُ اللَّهُ بهما عبادَه، لِيَمْنَحَهُم فُرَصاً يُعَوِّضُونَ فيها على أنْفُسِهم ما فَاتهم من أعْمالٍ، بسَبَب تقصيراتهم، أو مشاغلهم، أو انْصرافهم إلى مُلْهِيَاتِ الحياة الدُّنْيا، كالأمْوالِ، والبنين، والاستمتاع بصُنُوف اللَّذَّاتِ.

فمِنْ خصائص الأزمنة ليلة القدر، ومن خصائص الأمكنة الحرَمُ المكيّ، ومَسْجِدُ الرَّسول، ومن خصائص الأحوال صلاة الجماعة، ومن خصائص الأشخاص الرَّسُول محمّد ﷺ، فَمَنْ لَقِيَهُ مسلماً اكتسب مَزِيَّة الصُّحْبَة، ونظراً إلى الخصائص المختلفة الّتي جَعَلَها اللَّهُ عزَّ وجلّ قال العلماء: إنَّ للَّهِ خواصّ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

● قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾.

في هٰذِهِ الآية يُبيِّن ربُّنا تبارَكَ وتَعَالَىٰ أنَّ من خصائص ليلَةِ القَدْرِ أنَّ الملائكة تَنَزَّلُ فيها، أي: تتنزَّل فيها من منازِلِها في السَّمَاوَاتِ العلْيَا إلى

السَّماءِ الدُّنيا، وإلى الأرض، لتشهَدَ موسمَ الخير العظيم الذي جعَلَهُ اللَّهُ للمؤمنين، وخُصّ الرُّوحُ بالذِّكر وهو جبريل عليه السَّلام مع أنّه داخلٌ في عموم الملائكة، تنويهاً برئاسته ورفعة شأنه بينهم.

كلمة: «تنزّل» بهٰذِه الصيغة تُشعِر بأنَّ نُزُولَ الملائكة في هذه اللَّيْلَةِ، يحصُلُ بشَكْلٍ مُتَتابع مُتَلاحقٍ علىٰ أفواجٍ، ولا يَحْصُلُ دَفْعةً واحدة، ورُبّما يَنْزِلُ فَوْجٌ مِنهُمْ بَعْدَ أنْ يَنْصَرِفَ فَوْجٌ نزلَ قبله، وشَهِدَ موسم الخير، وأدّى فيه وظيفَتَهُ أو رِسالتَهُ الّتي أُرْسِل بها.

روى البيهقيّ في شعب الإيمان عن أنَسٍ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «إِذَا كَانَ لَيْلَةُ القَدْرِ نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كَبْكَبَةٍ[1] مِن المَلائِكَةِ، يُصَلُّونَ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ قَائِمٍ أَوْ قَاعِدٍ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ عِيْدِهِمْ بَاهَىٰ اللَّهُ بِهِمْ مَلائِكَته، فَقَالَ: [يَا مَلائِكَتِي، عَبِيدِي وَإِمَائِي قَضَوْا فَرِيضَتِي عَلَيْهِمْ، ثُمَّ خَرَجُوا يَعُجُّونَ إِلَيَّ الدُّعَاءَ، وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي، وَكَرَمِي وَعُلُوِّي وارْتِفَاعِ مَكانِي، لأجِيبَنَّهُمْ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، وَبَدَّلْتُ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ].

قال: فَيَرْجعُونَ مَغْفُوراً لَهُمْ».

## ذكر جبريل عليه السلام بعنوان الرُّوح:

وقد جاء في هذه الآية ذكر جبريل عليه السّلام بعنوان «الرُّوح»، أي: الرُّوحُ العظيم الكامل، الذي هو عند ذي العرش مَكِينٌ، والذي هو رئيس مطاعٌ هنالك عند ملائكة السّماوات الْعُلاَ، والذي هو أَمِينٌ في أداءِ رسالاتِ رَبّه، كما سَبَقَ أنْ نَزَلَ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

ولدَىٰ تتبُّع سُوَر القرآن نجد أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد ذكر جبريل عليه

---

(١) **كَبْكَبة**: أي: جَمَاعَة.

السّلامُ بأنَّهُ «الرُّوح»، وبأنه «الرُّوحُ الأمين» وبأنه «رُوحُ القُدْس»، وشَرَّفَهُ بإضافته إلى ذاته، فقال تعالىٰ: «رُوحنا» بضمير المتكلّم العظيم، وذكره ببعض صفاته في سورة (التكوير)، وذكره باسمه «جبريل» في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) مرتين، وفي سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) مرّة واحدة.

١ - ففي سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) قال اللّه بشأنه مُلَقناً ألْفاظ القرآن، لرسول اللّه محمّد ﷺ:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

٢ - وفي سورة (القدر/ ٩٨ مصحف/ ٢٥ نزول) ذكَرَهُ اللّهُ عزّ وجلّ بأنّه الرُّوح، فقال تعالىٰ:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾.

٣ - وفي سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) قالَ اللّهُ عزّ وجلّ في معرض الحديث عن مريم عليها السّلام:

﴿... فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾.

٤ - وفي سُورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قال اللّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأن القرآن:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

٥ - وفي سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خاطب اللّه رسُوله في شأنِ القرآن بقوله:

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

٦ ـ وفي سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) قال اللَّهُ عزّ وجلّ بِشَأْنِ عُرُوج الملائكة والرُّوح إليه تبارَكَ وتعالىٰ:

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾.

٧ ـ وفي سورة (النّبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) قال اللَّهُ عزّ وجلّ بشأن يوم الحساب وقيام الرّوح (جبريل) والملائكة صَفّاً:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨)﴾.

❁ ❁ ❁

قول اللَّه تعالىٰ:

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾:

دلَّتْ هٰذِهِ العبارة علىٰ أنَّ الملائكة برئاسَةِ الرُّوح جبريل عليه السَّلام، حينما تَتَنَزَّلُ في ليلةِ القَدْر للقيام بوظائِفِهم وأعْمَالِهم الَّتي يُكَلَّفُونَها، من كُلِّ أمْرٍ مِنْ أَوَامِرِ تَدْبيرِ اللَّهِ لِخَلْقِهِ، لاَ يَتَنَزَّلُونَ إلاَّ بإِذْنٍ من رَبِّهِم عِنْدَ الشُّرُوع بالتَّنَزُّلِ، ولَوْ كان لَدَيْهِم في الخُطَّةِ العَامَّةِ والبَرْنَامَجِ المُقَرَّرِ أنْ يَتَنَزَّلُوا لَيْلَةَ القَدْرِ من كُلِّ عام، فالشُّرُوعُ بالتَّنَزُّلِ تنفيذاً للبرنامج العامّ لاَ بُدَّ أن يكونَ مصحوباً بالإذْنِ، استيفاءً لمقتضَيَاتِ الانضباط النظامي.

ولا يقتَصِرُونَ على إذْنٍ تفويضيٍّ عامّ، بل لا يقومُون بكبير ولا صغير من كلّ أَمْرٍ إلاّ بإذْنِ رَبّهم.

وباستطاعة المتدبّر لكلام اللّه عزّ وجلّ أنْ يَجِدَ بيان قوله هنا في سورة (القدر): ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ فيما أَنْزَلَ اللّه بعد هذا في سورة (الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥)﴾.

أي: في هٰذِهِ اللَّيْلَةِ المباركَةِ ليلَةِ الْقَدْرِ الَّتي أُنْزِلَ فيها القُرْآن، يُفْصَلُ من اللَّوْح المحفوظ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيم ـ وكلُّ أوامر اللَّهِ حكيمة ـ من أوامِرِ قضاء اللَّه وقَدَرِهِ المُحْكَم، الَّذي لاَ مَحْوَ فيه، ممَّا يتعلَّقُ بتَدْبيرِ اللَّهِ لأحداث السَّنةِ القادمة، حتَّىٰ ليلَةِ الْقَدْرِ التالية.

وإنَّما يَتِمُّ هذا الفَصْل الذي جاء التعبير عنه بالفَرْقِ، من جُمْلَةِ المكتوبات في اللَّوْحِ المحفوظ، بأمْرٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وإذْ نُلاحظُ هذا الحَدَثَ العظيم من أحداثِ هٰذِهِ اللَّيْلَة المباركَة، فلا بُدَّ أن نُلاحظَ معه أنَّ وظائفَ وأعمالاً جليلَةً تتعلَّقُ بالملأ الأعْلَى من الملائكة مُقْتَرِنَةٌ به، وهي أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أوامرَ اللَّه الحكيمةَ المُحْكَمَة، الَّتِي فُرِقَتْ من اللَّوح المحفوظ، ويَنْزِلُونَ بها، ليبَلِّغُوهَا إلى الذينَ يكلَّفُونَ تَنْفِيذَهَا من ملائكة الأرض.

ومع قيام الملائكة بوظائفهم وأعمالهم الَّتي يكلَّفُونها من كلّ أمْرٍ من أوامر تدبير اللَّه لخلقه، لدى تَنَزُّلِهِم إلى الأرض في ليلَةِ القَدْرِ، لا بُدَّ أن نَضَعَ في تصوُّرنا أنَّ ملائكة السماء يشاركُونَ المؤمنين المسلمين في مواسم الخَيْر، وأنّ مَهْرَجانات العبادة للَّهِ عزّ وجلّ مهرجاناتٌ تَعُمُّ أهْلَ السَّماوات والأرض، ولو لَمْ يَشْعُرِ المؤمِنُون من الإنْسِ بمشاركةِ الملائكة لهم في مواسم الخير، إلاَّ أَنَّهُم يُؤْمِنُون بذلك تصديقاً لما ثبت لديهم من أخبارِ عن الرسول ﷺ.

ولا يكونُ بمعزلٍ عن هذا المهرجان العظيم إلاّ الكافرون، والعصاةُ المعاندون المجرمون، والشياطين، فهم المحرومون من بركاتِ مواسم الخير، وخيراتها الرَّبانيّة العظيمة.

● قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

وصفَ اللَّهُ جلّ جلالُه هذه اللَّيلَة المباركةَ ليلةَ القَدْرِ بأنَّها سلام، وفي

هذا دليلٌ على أنَّها ليلَةُ أمْنٍ شامل، فلا غَضَبَ فيها ولا انتقام، ولا تَلاحِيَ فيها ولا خصام، والملائكةُ فيها في ليلةِ عيدٍ ومَهْرَجانِ عبادةٍ وأمن، إذْ تتوقَّفُ أوامر العقاب، وتعمُّ مظاهر الأمن في السماء والأرض، إلاَّ ما يكون من قِبَلِ المكلّفين المخَيَّرين مِنْ إنْسٍ وجنٍّ.

وتستمرّ هذِهِ اللّيلة ليلةَ سلامٍ حتَّىٰ طُلوعِ فَجْرِهَا، كما جاء في الآية.

ويظهر أنّ ليلة القدر تَدُورُ على كلّ الأرض بحسب مشارقها ومغاربها، لكَيْ تكون عامّةً لكلّ أهل الأرض؛ إذ اللّيلُ والنهارُ يدوران على الأرض بحسب ابتداء وانتهاء كلٍّ منهما، على اختلاف مواقعها بالنسبة إلى الشمس، إشراقاً ومغيباً سَبَبُهُما دوران الأرض حول نفسها باتّجاه الشمس.

## صفات ليلة القدر في القرآن:

مما ورد في القرآن المجيد عن ليلَةِ القَدْرِ نستطيع أنْ نستَخْلِص ستّ صفاتٍ كبرى لها، وهي:

**الصفة الأولى**: أنّها ليلةُ القدر، أي: ليلَةُ تقدير الأمور وتدبيرها، من كلّ ما يكون في كلّ تلك السنة القادمة، إلى مثل هذه الليلة من السنة الّتي تليها.

وهي ليلة الشرف والعظَمَة والمنزِلَة الكبرى عند اللّه.

**الصفة الثانية**: أنَّها ليلَةٌ مبارَكَة، أي: يبارِكُ اللّه فيها لعباده، فيضاعفُ لهم رحماته، ويزيد لهم في ثواب أعمالهم ومن فيوض غُفْرَانِه وعَفْوِه، ويستجيب فيها دُعاء من دعاه.

ومن بركاتها الجليلات أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ أَنْزَل فيها القرآن رحمةً للناس.

**الصفة الثالثة**: أنَّها خَيْرٌ عِنْدَ اللّهِ لعباده من ألفِ شَهْرٍ، ليس فيها ليلَةٌ من ليالي القدر، فالعمل الصالح فيها يُضَاعَفُ بمثل هٰذِهِ الخيريَّة.

**الصفة الرابعة**: أنّ الملائكة تتَنَزَّلُ فيها ومعهم الرُّوح جبريل عليه السلام، بإذْنِ رَبِّهِمْ من كلّ أمْرٍ من أمور تدبير الخَلْقِ.

وخُصَّ جبريلُ عليه السلام بالذكر لشرَفِ منزلته بين الملائكة، ولأنّه لا يَنزِلُ عادةً إلاَّ للأمور العظيمة الجليلة.

**الصفة الخامسة**: أنَّ كُلَّ أمْرٍ رَبَّانِيٍّ حكيم، يُفْرَقُ فيها من اللَّوْحِ المحفوظ، للإعلام به وإبلاغه لملائكة التنفيذ، إذا كان من أمور تدبير الخلائق للعام القادم.

**الصفة السادسة**: أنها ليلة سَلاَمٍ وأمْنٍ شامل، وتَظَلُّ كذلك حتَّىٰ طُلُوعِ فَجْرِهَا، وهي تَدُورُ مع الأَرْضِ، بحَسَبِ مشارق الأرض ومغاربها.

## مما ورد في السنّة حول صفات ليلة القدر المادّيّة:

(١) أخرج الطيالسيُّ عن ابن عبّاسٍ، أنّ رسول الله ﷺ قال في ليلة القَدْر:

«لَيْلَةٌ سَمْحَةٌ طَلْقَةٌ[1]، لاَ حَارَّةٌ وَلاَ بَارِدَةٌ، وَتُصْبِحُ شَمْسُ صَبِيحَتِهَا ضَعِيفَةً حَمْراء».

(٢) ورُوِيَ عن جابر بن عبد اللَّه، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«إنّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ فَأُنْسِيتُهَا، وَهِيَ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ لَيَالِي شَهْرِ رَمَضَان، وَهِيَ طَلْقَةٌ بَلْجَةٌ، لاَ حَارَّةٌ وَلاَ بَارِدَةٌ، كَأَنَّ فِيهَا قمراً، لاَ يَخْرُجُ شَيْطَانُهَا حَتَّىٰ يُضِيءَ فَجْرُهَا».

**بَلْجَة**: أي: مضيئة واضحة.

(٣) وروى مسلم عن زِرّ بن حُبَيْشٍ، عن أُبَيّ بن كَعْبٍ، قال: «أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أنّ شَمْسَ صَبيحَتِهَا تَطْلُعُ لاَ شُعَاعَ لَهَا».

يمّا ما يتوهَّمُهُ النَّاسُ حَوْلَها من عجائب مادِيَّةٍ فلا أصل له، وهو من المفتريات التخريفية.

وبهذا تَمَّ تدبُّر سورة القَدْر

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته

❋ ❋ ❋

(١) **سَمْحة طلقة**: أي: سهلةٌ طيّبة، لا حرَّ فيها ولا بردَ يؤذيَان، وساكنة مضيئة.

# سُورَةُ الشَّمْسِ

٩١ مصحف ٢٦ نزول

# (١)

# نصّ السورة

## سورة الشمس وما فيها من فرشيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا
يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا
(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

---

١٥ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ عطفاً بالفاء.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلاَ يخافُ عُقْباهَا﴾ بالواو بدل الفاء.

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، فالعطف بالفاء يَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، أي: فالربُّ عَقِبَ تَسْوِية دِيار ثمودِ بالأرض وإهلاكهم بالأنقاض لاَ يخافُ عاقبةَ تَبِعَةٍ مَا؛ لأنَّ ما فعلَهُ تحقيق للعدل، أمّا الواو في قراءة الجمهور فهي واو الحال، وهي تدلُّ على أنه لم يكُنْ، في حال قيامه بتدمير ديار ثمود وإهلاكهم يخافُ تَبِعَة فِعْلِه، لأنّه يُحقّق العدل جلّ جلاله، والتبعةُ أن يُسْأَل: لماذا أهلكتَهُم.

## (٢)
## ممّا ورد بشأن سورة الشمس من أحاديث

(١) روى الإمام أحمد، والترمذيّ وحسّنه، والنّسائي، عن بُريدَة:

«أنّ رسُولَ اللّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صلاة الْعِشَاءِ» ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ①﴾، وأشْبَاهِهَا مِنَ السُّور».

(٢) وروىٰ البخاري ومُسْلِمٌ عَنْ جابر بن عبد اللّه، أنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْه كان يُصَلّي مَعَ النبيّ ﷺ، فَيأْتِي قَوْمَهُ فيُصَلّي بهم الصَّلاَةَ، فقرأ بهم البقرة.

قال: فتَجَوَّز رَجُلٌ فَصلّى صَلاَةً خفيفةً، فبلَغَ ذَلِكَ مُعَاذاً، فقال: إنّهُ مُنافِقٌ، فَبلَغَ ذٰلك الرجلَ، فأتَىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللّهِ، إنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بأيْدِينا، ونَسْقِي بِنواضِحَنا، وإنَّ مُعَاذاً صلّىٰ بنا البارحةَ، فقرأ البقرة، فتَجوَّزْتُ فزعم أنّي مُنافِق.

فقال النبيّ ﷺ:

«يَا مُعَاذُ، أَفتَّانٌ أَنتَ؟! ـ ثَلاَثاً ـ اقْرَأ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ①﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ①﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ①﴾ . . .».

وفي رواية عند مسلم زيادة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ①﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

(٣) وروى الطبراني عن ابن عبّاسٍ: «أنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ في صَلاَةِ الصبح بـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ①﴾ ـ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ①﴾».

(٤) وروى البيهقي في الشُّعَب عَنْ عُقْبَة بن عامرٍ قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ أنْ نُصَلّي رَكْعَتَي الضحىٰ بسورتَيْها، بالشَّمْسِ وضُحَاها، والضُّحَىٰ».

## (٣)
# موضوع سورة الشمس ودروسها

موضوع هذه السُّورة تَنَاولَ تأكيدَ قَضِيَّةِ الجزاء، الذي هو عاقبة الابتلاء والمسؤوليّة في الحياة الدنيا، بمقتضىٰ حكمة الرَّبّ الخالق العليم الحكيم القدير.

وقد اشتملت هذه السورة على دَرْسين:

**الدرس الأوّل:**

تَضَمَّنَ قَسَماً تَأْكيديّاً من اللّه عزّ وجلّ بطائفة من ظواهر بديع صُنْعِهِ في الكون وفي الأنفس، وهٰذِهِ الظواهر تَدُلُّ على كَمَالِ الإتقان، وعظيم العناية بالعباد، وتَهْيئة ما فيه مصالحُهُم، ومعايشُهم في الحياة الدُّنيا، والمُقْسَمُ عليه الَّذي يُرادُ تأكيده قضيّةٌ واحدة من أركان الإيمان، هيَ قضيَّةُ الجزاء الرَّبَّاني، ومعلومٌ أنَّ الجزاء هو الحكمة الغائيَّةُ من الإبتلاء في ظروف الحياة الدنيا، وهو الآيات من (١ ـ ١٠).

**الدرس الثاني:**

تضمَّن ذِكْرَ مَثَلٍ تاريخيٍّ من أمثلةِ عقاب اللّه المعجّل في الدُّنْيا للمكذّبين برسالاَتِ المُرْسَلِينَ من لَدُن رَبّ العالمين، هو عِقَابُ اللّه عزَّ وجلَّ لثَمُودَ قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، لتكذيبهِمْ رسُولَ رَبّهم، ولطغيانهم، ولتحدّيهم لإنْذارَاتِ رَبّهم في معجزتِهِ الَّتي خَلَقَها لهم حسب طلبهم، وهي النّاقة الّتي أخْرَجَها لهم من صَخْرَةٍ عَيّنوها، وعلى وفق الصفاتِ التي ذكروها.

وقد جاءت قصة هذا المَثَل موجزةً مناسبة لحجم السّورة، ومرحلة نزولها، ومعلومٌ أنّ ذكر العقاب المعجّل يُنَبّهُ على العقاب المؤجّل إلى يوم الدين.

وآيات هذا الدرس هي من (١١ ـ ١٥).

❀ ❀ ❀

## (٤)
# التدبّر التحليلي لآيات الدرس الأوّل

## وهو الآيات من (١ ـ ١٠)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

**تمهيد:**

إنّ القَسَمَ الصّادِر عن اللّهِ عزّ وجلّ ببَعْضِ ظواهِرِ خَلْقِهِ المتقنة، هو في الحقيقة قَسَمٌ بصفاتِهِ العَظِيمة الجليلة التي كانَ من آثارِهَا هٰذِهِ الظواهر، نظراً إلى أنَّ هذه الظواهر تَدُلُّ أولي الألْبَاب على طائفة من صفاتِهِ العظيمة الجليلة، ومنها وجودُهُ الأزليُّ الأبديُّ، وهَيْمَنَتُهُ على كلِّ شَيْء، وسلطانُهُ الدَّائم، وعِلْمُهُ المحيطُ بكلِّ شيء، وتَدْبيرُه الحكيم، وقُدْرَتُهُ على مَا يشاء.

إنَّ القَسَمَ بالصنعة يَدُلُّ على الصانع وصفاته، وإنَّ القَسَمَ بالمشهود هو بمثابة الدليل القويّ على صِدْقِ وُقوعِ المُقْسَمِ عَلَيْهِ الغائب، المماثِلِ للمشهود.

وبهذا تظهر لنا حكمةُ إقْسَام اللّهِ عزّ وجلّ ببعض مخلوقاته في القرآن الكريم.

وقد أقسمَ اللّهُ عزّ وجلّ بسَبْعِ ظَاهِرات من ظاهرات خَلْقِهِ العظيم لكَوْنه، في هذا الدَّرْس الأوَّل من دَرْسَي السورة.

**الظاهرة الأولى**: دلّ عليها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ «الواو» هي «واو القسم» والكلام على تقدير «أَحْلِفُ» أَوْ «أُقْسِمُ» ولكن لا

يظهر هذا الفعل المقدّر إلاّ إذا كان حرف القسم الباء، فيجوز إظهاره وإضماره معها، وفي غيره لا يأتي في لِسانِ العرب ظاهراً، بل هو مُقَدَّرٌ ذهناً.

لقد أقسم اللَّه عزّ وجلّ في هذه العبارة بالشّمس، وأقسم بضُحَاهَا.

وفي الإقْسَام بالشَّمْسِ توجيهٌ لظاهرة عناية اللَّهِ بسُكّانِ الأرض، في إيجاد هذا النجم العظيم الملْتَهِب القَرِيبِ من الأرْضِ، والمُمِدِّ لها بالطاقةِ، وبالضَّوْءِ الَّذي يَنْطَلِقُ منها إلى السطح المواجِهِ لها من الأرض، بمقدار حاجَةِ أهْلِها. والمُمِدّ لَهَا بنُورِ القَمَر المنعَكِسِ من أشِعَّةِ الشَّمْسِ المنْسَكِبَةِ عليه(١).

وجاء في العبارة تخصيصُ ضحاها بقَسَمٍ، بعد القسم بها كلّها؛ لأنّ ضحاها وهو وقت ظهورها وانجلاء ضوئِهَا، هو الأمر العظيم الذي يُمِدُّ الأرْضَ وسُكَّانَها بما يحتاجون إليه من وَقُودٍ لغذائهم ومعايشهم المختلفة.

فجِرْمُ الشَّمْسِ خصَّصَتْهُ العنايةُ الرَّبَّانيَّة بإتقانٍ عجيب لمنافع سُكَّانِ الأرض، وضبط دورانها حول الشمس سنويّاً، وحول نفسها باتّجاه الشمس يوميّاً، مع محافظتها على مداريْهَا دُون إخلال.

وضَوْءُ الشَّمْس خصَّصَتْهُ العِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ بإتْقَانٍ عجيب، لإمداد سُكّان الأرض بطاقات أقواتهم، ومصالح أجسامهم المختلفة.

**الضُّحَى**: هو الوَقْتُ الّذي يَكْتَمِلُ فيه إشراقُ الشَّمْس بَعْدَ أن تَطْلُع.

وضحى الشمس أيضاً ظُهُورها وبُرُوزها وانجلاء ضَوْئِهَا، يُقالُ لغة: ضَحَا الشيءُ إذا ظهر وبرز. قال الجوهريّ الضُّحَا مقصورة، تؤنّث وتذكّر.

فيظهر أنّ المراد بعبارة [ضُحَاهَا] ظهور كلِّ ضَوْئِهَا المشرق وقت إشراقه.

---

(١) الحديث عن الشمس وبعض ما توصل إليه بشأنها علماء الكونيّات سبق في سورة التكوير.

**الظاهرة الثانية**: دلّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

هذا قَسَمٌ آخَرُ بالقَمَرِ إِذَا تَلاَ الشَّمْسَ أقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلَّ به.

**القَمَرُ**: نعمةٌ من نعم اللَّه عزّ وجلّ على أهل الأرض من وجوهٍ عَدِيدة.

فنورُه مصباحٌ ليليٌّ، وأَهِلَّتُه دلالَةٌ على المواقيت، وجاذبيته يتسبّبُ عنها حدوث المدّ والجزر في البحار، فينجم عنها حركاتٌ نافعات لأهل الأرض، إلى منافع ومصالح أخرى كثيرة يَعْلَمُ الباحثون الكونيُّون بعضها، ويجهلون سائِرها.

ودلَّ قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ على أنّ القمر تابع من توابع الشمس، أي: فحركاتُ القَمَرِ، وانْضِباطُهُ في مَداره، ونُورُه الّذي يَبُثُّهُ، كلُّها تابعةٌ وتاليةٌ لمَا في الشَّمْس من أسباب بتقدير اللَّه عزّ وجلّ.

وقد هَدَتِ العُلومُ الإنسانيّة المؤكَّدَةُ إِلَىٰ أنَّ القَمَرَ تابعٌ من توابع الشمس، فهو تابعٌ لها في الجاذبيَّة، وفي نِظَامِ الحركَةِ مع المجموعة التابعة لها، وفي نُورِهِ الذي يبثُّهُ؛ إذْ نُورُ القمر هو انْعِكاسُ أشِعَّةِ الشَّمْسِ المنسكِبَةِ على سَطْحِهِ المواجه لها، فَهُو يقابل الشمس بوجهٍ واحدٍ من وَجْهَيْهِ، والقَمَرُ بتَكْوِينِهِ الظَّاهِر باردٌ غَيْرُ حارّ، وما يبثُّهُ نورٌ انعكاسيٌّ، وليس ضياءً، بخلاف الشمس.

**الظاهرة الثالثة**: دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

هذا قَسَمٌ ثالث أقْسَمَ اللَّه عزّ وجلّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالنهار الذي هو أثَرٌ في الأرض مُرْتَبِطٌ بالشمس، فالسَّطْحُ المواجِهُ للشمس من الأرض في دورتها اليوميّة حَوْلَ نَفْسِهَا، هو السَّطْحُ الذي يكونُ فيه النهار. يقال لغة: جَلَّىٰ فُلانٌ الشَيْء، أي: كَشَفَهُ وأظهره.

ويَظْهَرُ أَنَّ المُرادَ بالنَّهَارِ الوقْتُ الَّذِي تَكُونُ مَعَهُ المواجَهَةُ بين الشَّمْسِ والجُزْءِ المواجِهِ لَهَا من الأرض، فهذا الوَقْتُ هو الذي يَتَسَبَّبُ عَنه تجلِيَةُ الشَّمْسِ لسُكَّانِ هذا الجزْءِ من الأرض، فجاء النَّصُّ مُبَيِّناً أنَّ النَّهار هو الذي يُجَلِّي الشَّمْسَ، أي: وَقْت النَّهار. وهذا من إطلاق السَّبب وإرادة لازمه المسبَّبِ عنه، وهو عند البلاغيّين من المجاز المرسل، وسَبَبُ هذا الوقت دوران الأرض حول نفسها باتّجاه الشمس.

وبهذا نجد التطابُق بين دلالة النّصّ، وما أكَّدَتْهُ الدِّراسات العلميَّةُ الإنسانية.

**الظاهرة الرابعة**: دَلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾.

هذا قَسَمٌ رابع أقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلَّ به، إنَّه قَسَمٌ باللّيل الذي يَظْهرُ في الجُزْءِ من الأرض الذي لا يكون مواجهاً للشمس، في دورتها اليوميَّةِ حول نفسها.

ويظهر أنّ المرادَ باللَّيل الوقْتُ الذي لاَ يكُون فيه الجزْءُ من الأرض مواجهاً للشَّمْسِ، فهذا الوَقْتُ هو الّذِي يَتَسَبَّبُ عنه سَتْرُ الشَّمْس بالنسبة إلى سُكَّانِ الجُزْءِ مِنَ الأرض الذي يكون فيه اللّيل، فجاء النَّصُّ مُبيّناً أنَّ اللَّيْلَ هُوَ الّذي يَغْشَى الشَّمْسَ، أي؛ يجلِّلُها ويَسْتُرُهَا، أي: وَقْتُ اللّيل الّذي يُحْجَبُ فيه ضياء الشَّمْسِ بجِرْم الأرْض نفسها، لانعدام المواجهة بين هذا الجزْءِ من الأرض وبين الشمس في هذا الوقت.

**يَغْشَاهَا**: أي: يُغطّيها ويُجلِّلُها، تقولُ لغة: غَشَّىٰ فُلاَنٌ الشَّيْءَ، أي: غَطَّاهُ وجَلَّلَهُ.

والمعنى أنّ هذا الوقْتَ قَدْ كانَ سَبباً في سَتْرِ الشَّمْس عَنْ الذين يعيشون في الجزء من الأرض الذي يكون فيه اللّيل، وهذا من إطلاق السَّبَب وإرادة لازمه المسَبَّبِ عنه، وهو عند البلاغيين من المجاز المرسل.

وبهذا نجِدُ التطابُقَ بين دلالة النَّصّ، وما أكَّدَتْهُ الدّراساتُ العلميَّةُ الإنسانيّة.

هذه الأمور قَدْ فَهِمْنَاهَا من قول اللَّهِ عزّ وجلّ.:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾.

بَعْدَ أن كشَفَتْ لنا الدّراساتُ العلميَّةُ الإنْسَانِيَّةُ المؤكَّدَةُ، نظامَ الشَّمْس والقَمَرِ والأرض، ومَسِيراتها الفلكيّةِ، في مَداراتها، أو حول نفسها، وما يتسبَّبُ عن ذلِكَ من لَيْلٍ ونَهَارٍ، فيكونُ وقت النهار سبباً في تَجْلِيَةِ الشمس، ويكونُ وقْتُ اللّيلِ سبباً في استتار الشّمس.

فظهر لنا بالتدبُّر المتأنّي التَّطابُقُ العجيب بين مقرّرات العلوم الإنسانيّة حول هٰذِهِ الظَّوَاهِر، وبَيْنَ دلالاتِ النَّصِّ القرآني الواضحة الّتي لا إشكال فيها، ولا تحتاجُ تخريجاتٍ مُتَعَرِجَاتٍ، ولا تأويلاتٍ تُخْرِجُ النَّصَّ عن دَلالاته الظاهرات ولوازمها، الّتي تدُلُّ عليها ضِمْنَ بياناتِ اللّسان العربيّ وقواعدِهِ.

**الظاهرة الخامسة**: دلَّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

هذا قَسَمٌ خامسٌ أقْسَمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالسَّماءِ وببنائها، أي: بإبْداع بنائها وإتقانه العظيم العجيب، وبما فيها من نجوم وكواكبَ وأنظمةٍ تحارُ فيها الألباب، وتَدْهشَ بها العقول، فلا يخرُجُ نَجْمٌ ولاَ كوكَبٌ عَنْ موقِعِ مداره، ومَسِيره الذي يسير فيه، بقوانين جَبْرِيَّةٍ لاَ تُخْرَم، ولا تَسْمَحُ بأنْ يَنِدَّ عنها نادّ.

**السّماء في اللّغة**: كلُّ ما عَلاَ سُكَّانَ الأرضِ من جهة رؤوسهم وهم منتَصِبُو القاماتِ، فيَدْخُل فيها الغلافُ الغازي المحيطُ بالكُرةِ الأرْضيَّة من

كُلّ جهاتها. ويدخُلُ فيها السَّحَابُ الذي يتجمَّعُ في جوّ الأرض. ويدخل فيها مجموعات المجرّات ذواتِ النجوم المُلْتَهِبَة والكواكب الباردة، وهذه هي المرادةُ في الآيَةِ هُنَا، إذْ جاء فيها ذكْرُ بنائها.

ولفظ «السَّماء» هنا اسم جنْسٍ يَعُمُّ كُلَّ السَّمَاوات السَّبْعِ وما فيهن وما عَلَيْهِنَّ.

لفظ «ما» في: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ على الأرجح، وهي الّتي تُؤَوَّلُ مع الفعل الذي اقترن بها بمَصْدَر، والتقدير: والسَّمَاءِ وبِنَائِها، أي: أُقْسِم بكُلٍّ مِنْهُما.

أمّا بناءُ السَّمَاءِ فَلِعُلَمَاءِ الفَلَكِ بحوثٌ مستفيضة، تَكْشِفُ ما فِيهِ من إتقانٍ بديعٍ عجيبٍ، هادٍ إلى جُمْلَةٍ من صِفاتِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وهٰذِهِ الصّفاتُ تُثْبتُ وجُودَ الرَّبِّ الموصوفِ بها، وتُثْبتُ سُلْطانَهُ المطلق في كَوْنِهِ.

وبناءُ كلّ شيء بحَسَبِهِ، فبناء بُيُوتِ سُكَّانِ البوادي خيامٌ ينصبونها، ويُثَبّتونها بالحبال والأوتاد.

وبناء المساكن والقصور في الحواضِر والقرى، جُدْرَانٌ يُقِيمونها، ويضعون عَلَيْهَا سُقُفاً، ويتَّخِذُونَ لها أبواباً للدُّخول والخروج، ونوافذ للضياء والهواء.

والعنكبوت تبني بيتاً لَهَا من خيوط دقيقة جداً، تُفْرِزُهَا من أجسادها، وتُشَبّكُ بينها بنظام يُلائم امتداد أرجلها، ويلائم حركات صَيْدِ فرائسها من الحشرات الصغيرة، وبين هذه الخيوط فراغات شاسعات في حِسَابِ النّسَب، وإنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ العنكبوت.

وبناء الذّرّة على ما يذكر العلماء الباحثون في الكونيّات، قائم على نواة حَوْلَها فراغٌ شاسع في حِسَاب النِّسَب، وتدور في هذا الفراغ ألكترونات كهربائية، ضمن نظام يجعل الذَّرَّة متماسكة مترابطةً في وحْدَة ذرِّيَّة، وتتلاقىٰ

الذَّرَّات متقاربة، فما تَشْهَدُهُ عيونُنا جِسْماً صُلْباً متماسِكاً هو في الحقيقة ذَرَّاتٌ متقاربات، وبينها فراغات واسعاتٌ جدّاً، حتىٰ لَوْ ضُغِطَتِ الأرض كُلُّها فَلَمْ يَبْقَ بين ذَرَّاتِها ولا داخل ذَرَّاتها فراغات، لكانت الأرض كُلُّهَا أقلَّ من حَجْمِ جَبَلٍ صغير فيها.

وبناءُ السَّمَاءِ وضْعٌ تَرَابطيٌّ مُجْتَمِعٌ، خاضع لنظامٍ جبْرِيٍّ متماسِكٍ قاهر، بقُدْرَةِ العزيز الجبّار القهّار.

وليس من حَقّنا أن نَفْرِضَ بتصوّراتنا الخياليَّة أو القِياسِيَّة صورةً مُحَدَّدَةً لبناء السَّمَاء، بل يجب علينا أن نتتبَّع ما تثبتُه الحقائق العلميَّة الّتي قالَتِ الدّراسات العلميّة الإنسانيَّة فيها كلمتَها الأخيرة، اعتماداً على المشاهدات القطعيّة، أو البراهين الّتي لا شكّ فيها.

ومن المقطوع به في المفهومات القرآنيَّة أنَّ الشَّمْسَ والقَمَر في السَّمَاء، لاَ دُونَهَا، أي: فهما جُزْءٌ منها، بدليل قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

ومن هذا نفهم أنّ المجموعة الشمسيَّة جُزءٌ من السَّماء، وقد أَثْبَتَتِ المشاهدةُ العلميَّة أنَّ هٰذِهِ المجموعة ذاتُ بناءٍ خاضعٍ لنظامٍ متماسكٍ، على الرُّغْمِ مِنْ وُجودِ مسافاتٍ شاسعات، بين الشَّمْسِ الأمّ وبين بَنَاتها المتباعدات فيما بينَهُنَّ مسافاتٍ شاسعات.

فبناءُ كُلِّ شيءٍ بحسَبِهِ.

**الظّاهرة السّادسة**: دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾﴾.

هذا قَسَمٌ سادس أَقْسَمَ اللَّه عزّ وجلّ به، إِنَّهُ قَسَمٌ بالأرض وبطَحْوِهَا. و«ما» مصدريّة على الأرجح كالتي في: ﴿وَمَا بَنَٰهَا﴾.

أمّا القسم بالأرض، فيشمل كلّ مافيها من جبال هي بمثابة أوتادٍ لها، وبحار، وأنهار، وفجاج، وكُنوز، ويَشْمِلُ سُهُولَها وجنّاتها ومرعاها، وما أودع اللَّه فيها من أقوات للأحياء عليها، وما حولها من غلافٍ غازيٍّ ضروريٍّ للحياة، إلى سائر ما فيها من نِعَم وخيرات.

وأمّا طَحْو الأرض الذي أَقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ به، ففيه دلالَةٌ على كُرَوِيَّتها، ودَورانها حول نفسها، ودورانها في مدار حول الشمس، ويهدينا إلى هذا تحقيقٌ لغويٌّ نَرْجِعُ فيه إلى مُعْجَمات اللُّغةِ العربيّة الّتي تبيّن معاني كلماتها، وتَتَبُّعٌ للحقائق العلميّة الّتي أثبتتها الدراسات العلميّة الإنسانيّة إثباتاً قَطْعِيّاً.

أمّا مُقَرَّراتُ العلوم الإنسانيّةِ القطعيّة، فتُثبت أنَّ الأرض كُرَةٌ كبيرة لَيْسَتْ كاملة الاستدارة، وتثبتُ أنَّها تدور حول نفسها دورة كاملةً في كلِّ يَوْم، وتُثبِتُ أنَّها تدورُ في مدارٍ حول الشمس دورةً كاملةً في كُلِّ سنةٍ شمسيَّة.

وأمّا التحقيق اللُّغَوي فقد رجَعْتُ إلى كُتُبِ اللُّغَةِ فوَجَدْتُ أنَّ كلمة: «طَحَا يَطْحُو طَحْواً، وطَحَىٰ يَطْحى طَحْياً» تأتي بمعنى دفَعَ.

يُقالُ لغةً: القَوْمُ يَطْحَىٰ بعضُهُم بعضاً، أي: يدفع بعضهم بعضاً.

ومثل «طَحَا» في المعنى فعل «دَحَا يَدْحُو دَحْواً... ودَحَىٰ يَدْحَىٰ دَحْياً».

قال الفرّاء: «طحاها» و«دَحَاها» واحدٌ، أي: هما بمعنىً واحدٍ.

وقد جاء من معاني «دَحَا» في اللُّغَةِ معنى «دَفَعَ» يُقالُ لغة: دحا السَّيْلُ الحصا، أي: دفعه ودحرجه.

قال ابْنُ الأعرابيّ: هو يَدْحُو بالحَجَر بيده، أي: يَرْمي به ويَدْفَعُهُ، قال: والدَّاحِي الذي يَدْحُو الحجَر بيده.

وجاء في حديث أبي رافع: كُنْتُ ألاَعِبُ الحَسَنَ والحُسَيْن رضوان اللَّه عليهما بالمَدَاحِي، وهي أحجارٌ أمثال القِرَصَة[1]، كانوا يَحْفِرُون حُفْرَةً، ويَدْحُون فيها بتلك الأحجار، فإنْ وقع الحَجَرُ فيها غَلَبَ صاحبُها، وإنْ لم يَقَعْ غُلِبَ[2].

وجاء من معاني: «طَحَا ـ ودَحَا» أيضاً مَعْنَى «بَسَط».

وللمطابقة بين مُقَرّراتِ العلوم الإنسانيّةِ القطعية، وبَيْن المعنى اللّغوي لفِعْلَي: «طَحَا ودَحَا» ترجّح لدَيَّ أنّ المراد الدَّفْعُ، بالطَّحْوِ والدَّحْوِ في قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الشّمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول): ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَٰهَا ۝٦﴾، وفي قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول): ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾.

هذا الدَّفْعُ مماثِلٌ لِدَفْعِ حَجرَةِ المَدَاحِي إلى حُفْرَتِهَا، ومُماثل لدفع السَّيْل الحصا ودَحْرَجَتِهِ.

فهذا الدَّفْعُ ينجُمُ عنه حَرَكتانِ عادَةً:

**الحركة الأولى**: حَرَكَةُ الشَّيْءِ حَوْلَ نَفْسِهِ؛ إذ يتَدَحْرَجُ.

**الحركة الثانية**: حرَكَةُ الشيء في مَسِيرٍ لِيَبْلُغَ الغايَةَ المرادة.

إنَّ هذا المعنىٰ اللّغوي لمادَّتَيْ «طَحَا ودَحَا» هو المعنى الذي يَنْطَبِقُ على ما هُو مُقَرَّرٌ في البحوث العلميَّة الإنسانيَّة حول الأرض، فهي في

---

(١) **القِرَصَة**: قِطَعُ العجين الّتي تُقَطَّع لتبسط فتخبز، مُفْرَدُها قُرْصَة. القِرَصَةُ على وزن عِنَبَة.

(٢) عن كتاب «لسان العرب» لابن منظور.

الفضاء كحَجَرَةٍ كبيرَةٍ، لهَا حَرَكَةٌ دورانيَّةٌ حول نَفسِهَا في كلّ يوم، وحَرَكَةٌ في مَسِيرٍ لها حَوْلَ الشمس، طَوال عامٍ شَمْسِيٍّ كامل، ضِمْنَ مدارٍ مُحَدَّدٍ دقيق.

**الظّاهرة السابعة**: دلّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

هذا قَسَمٌ سابعٌ أقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالنفس، وقَسَمٌ بتسوية اللَّه لها. فلفظ «ما» من عبارة: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، مَصْدَرِيَّة كسابقَتَيْهَا، فالنفس الإنسانيَّةُ قد سوَّاها الرَّب تسوية مُدْهِشَة لِما أُعِدَّت له.

إنّ النَّفْسَ الممتحنة المكلَّفَة في الحياة الدُّنيا، وما فيها من إبداع الخالق في تسويتها، بجَعْلِهَا كاملةَ الصِّفات الَّتي تُؤَهِّلها لأداء وظيفتها في الحياة، مَخْلُوقٌ عجيبٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللَّه الخالقُ الرَّبُّ به، نظراً إلى ما فيه من أدِلَّةٍ بُرْهَانِيَّةٍ، وآياتٍ جليلاتٍ علىٰ صِفاتِ الرَّبِّ الخالِقِ السَّنيَّةِ.

إنَّ إبْداعَ النفس في الإنس والجنّ بخصائصها الفكريّةِ، وغَرَائِزِهَا، ودَوَافِعِهَا، وعواطفها، وآلامِها ولَذَّاتِهَا، وآمالها وطُموحاتِها، وانفعالاتها وأخْلاَقها، من أعْجَب العَجَب، وهذا الإبْدَاع من أقوى الأدلّة في ذاتِ المخلُوق على الخالقِ العظيم، وصفاته الجليلات، ومنها عِلْمُه المحيطُ بكلِّ شيءٍ، وحكمتُهُ السَّنِيَّة، وقُدْرَتُهُ على إبْداعِ ما يشاءُ ويختار.

**التسوية**: إبلاغ الشَّيْءِ الغاية المقضيَّة له، والمقصودة من صُنْعِهِ.

وجاء في النَّصّ تنكير لفظ «نفس» للدّلاَلة على عظم شأنِ خصائصها، إنَّ خريطَتها موجودةٌ ضِمْنَ خليَّةٍ صُغْرَى لا تخدُرَكُ بالعين، ضِمْن جَسَدِ المخلوق من الإنس ومن الجِنّ، ونفس الإنسان أكْمَلُ وأعْظَمُ إبداعاً.

وقولُ اللَّه عزّ وجلّ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾، هو من توابع القسم بالنفس الَّتي سَوَّاها بارئها، أي: سوّاها فألْهَمها بَعْدَ تَسْوِيَتِهِ لها مَعْرِفَةَ

سُبُلِ فُجُورِها، وأنَّها قبيحة ومُنْكَرَةٌ مَذْمُومَة، ومَعْرِفَةَ طَرِيق تقواهَا، وأنَّهُ حَسَنٌ جَميلٌ ومحمود.

## الإلهام في اللّغة:

هُو ما يُلْقِيهِ اللَّهُ في النّفس فيجعلُها تَسْتَحْسِنُ الحسَنَ، وتَسْتقبح القبيح، ثم إنَّ الإرادة فيها تختار، إمّا أَنْ تَسْلُكَ طَرِيقَ التقوىٰ حتىٰ مرتبتي البرّ والإحْسَانِ، وإمّا أن تَسْلُكَ سُبُلَ أهوائِها وشهواتها على غَيْرِ تقوىٰ، حتَّىٰ دَرَكَةِ الفجور، وهو الانبعاثُ الوقح بقُوَّةٍ في ارتكاب الجرائم والآثام.

فالنفسُ المدركةُ بعد أن خلقها اللَّهُ جلَّتْ قُدْرَتَهُ وحكمتُهُ، وأبْدَع تَسْوِيتَها، وكَمَّلَها بالخصائص للوظيفة الّتي أعَدَّهَا لها، وللامتحان في ظروف الحياة الدنيا، المُسْتَتْبع بالحسَابِ، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، أعانَها بارِئُهَا كي تجتاز رحلة امتحانها على بَصيرَةٍ، فوضع في فِطْرَتِهَا بِطَريقَةِ الإلْهَام، الإحْسَاسَ الوجدانيّ، والبصيرة القلبية، مع النظرات الفكريَّة المميِّزَة، الّتي بها تُدْرِكُ نَوْعَ العمل الَّذي تَهُمُّ بعَمَلِهِ، أوْ يَعْمَلُهُ الآخَرُونَ، إذا كان من دركة الفجور التي هي أخَسُّ دَركات المعاصي والآثام، فما هو أخفُّ منها، إلى ما قبل أولىٰ درجات مرتبة التقوىٰ، ثم ارتقاءً في درجات مرتبة التقوىٰ فما فوقها من درجات مرتبتي البرّ والإحسان.

وهذا الإدراكُ الإلهاميُّ هو من الفِطَرِ النفسيّة التي فطر اللَّه النفوس عليها، ولكن يأتي إدْرَاكُهَا لها مُتأخِّراً، بمقتضىٰ دلالة الفاء في عبارة ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

**الفجور**: هو كما سبق بيانُه، الانبعاث القبيح بوقَاحة ومَجَانَة، في كبريات المعاصي والجرائم، الّتي تُدْرِكُ قُبْحَها وشناعتها النفوس، كالكفر وجحود الحقّ والخيانات العظمى، والإصرار على التزام الباطِل مع وضوح أنّه باطل، وكالعُدْوان على الأنفس والأموال والأعراض.

وهذا الفُجور تُدْرِكُ كلُّ النفوس قباحتَه وخسّتَه، ولَوْ لم تنزلْ شرائع ربَّانيَّةٌ ببيانِهِ، ومن أَدْرَكَ الفجور أدرك أنّ فاعله يستَحِقُّ العقاب عليه.

أمّا إلْهام النفوس معرفةَ طريق تَقْواها فهو توجيه فطرتها لإدْراك ما يَقِيها ويَحْمِيها مِنْ عَواقِب تَكْرَهُها وتَخْشاها، إذا هَوِيَتْ، أو اشتَهَتْ، أوْ رَغِبَتْ في أمْرٍ ما، من فِعْلٍ أوْ تَرْكٍ قَدْ ينْجُم عنه شرٌّ، أوْ ضُرٌّ أوْ عُقُوبَةٌ أو أذى.

والكُفْر والشركُ باللّه من أفجر الفجور المؤدّي إلى العذابِ الأليم الخالد، والإيمانُ الصَّحِيحُ الصادق هو الوقاية الواقيةُ منه.

والتقابُلُ بين أخسّ دَركاتِ المعاصي والجرائم، وأوَّلِ درجات سُلّم التقوىٰ، يَدُلُّ باللُّزُوم العَقْلِيّ على الدركات الأخف من دركة الفجور حتىٰ ما قَبْلَ أوّل دَرجات سُلَّم التقوى، ثُمَّ يَدُلُّ باللُّزُوم العقليّ على سائر درجات كمال التقوىٰ، لدخولها في عُموم مفهوم التقوى. ثُمَّ يَدُلُّ أهل الفطانة على دَرَجاتِ مرْتبة البرّ الّتي هي فوق مرتبة التقوى، وعلى درجات مَرْتَبة الإحسان الّتِي هي فوق مرتبة البرّ، وهذه يَفْهَمُهَا الفُطَنَاءُ من التقابُل بين الفجور أخسّ الدَّركات، والتقوىٰ أوّل مراتب الدّرجات الصاعدات، مع أنّ المُقَابل المُنَاظِر للفُجُور هو أعلىٰ درجات الإحسان، وتأتي بينهما متقابلات متناظرات بحَسَبِ دَرجاتِ الارتقاء ودركَاتِ الانْحِطاط.

## المُقْسَم عليه بالظواهر الكونيّة السَّبع:

بعد القسم بالظواهر الكونيّة السّبع المشهودة جاء المُقْسَمُ عليه، وهو خَبَرٌ غَيْبِيٌّ مُسْتقبِليٌّ لَهُ شواهد من أحداثٍ ماضِيَةٍ قد وقعت فِعْلاً في العاجلة قبل الآجلة.

وقد جاء المقْسَمُ عليه في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

الضمير المنصوبُ في: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ وفي ﴿دَسَّىٰهَا﴾، يَعُودُ على النّفس الّتي جاء ذكرها في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

في هذا المَقْسَمِ عليه أَكَّدَ رَبُّنا جلَّ جلالُه قضيَّتَيْنِ من قَضَايا الجزاء على اختيارات الممتَحَنين المكلَّفِين في ظروف الحياة الدُّنْيا، بَعْدَ الحِسَابِ وفَصْلِ القضاء، بالقَسَمِ بالظَّاهرات الكونيَّةِ السَّبْعِ الّتي بَدَأَتْ بها السُّورَة، وبحرف التحقيق «قَدْ».

**القضيَّةُ الأولى**: فَلاَحُ من زَكَّىٰ نَفْسَهُ بعمله الإراديّ، فقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

**القضيَّة الثانية**: خَيْبَةُ مَنْ دَسَّىٰ نَفْسَهُ بعمله الإراديّ، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

**﴿أفلَحَ﴾**: أي: فَازَ ونَجا وظَفِر، وأصْلُ الفلاحِ البقاء في النعيم والخير، وفَلاَحُ الدَّهر بَقَاؤُه.

قال الأزهري: وإنما قيل لأهل الجنَّةِ مُفْلِحُون، لِفَوْزِهِم ببقاء الأبد. ويُسْتَعْمَلُ الفَلاَحُ ويُرادُ به الظَّفَر والبَقَاءُ في السُّلطان.

**﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾**: أي: من طَهَّرَ نفسه باجتناب ما يُدَنِّسُهَا، وطَهَّرها بإتْباع السيّئة الحسنة لتمحوَها وتغسلَ أثرها، ومن الحسنات المطهّرة التوبةُ والاستغفار، ونمّاها بالعمل بالفضائل، ومراضي اللَّه، صادقاً مخلصاً لربّه.

## الزَّكَاةُ في اللّغة:

تأتي بمعاني الطهارة، والنَّماء، والبَرَكَةِ، والمَدْح.

واسْتُعْمِلَتِ الزكاةُ والتزكية في القرآن بمعنى الطهارة والتطهير، وبمعنىٰ النماء والتنمِيَةِ والبَرَكة، وبمعنىٰ الصَّلاح والإصلاح.

والتزكيةُ يُرادُ بها في الغالب تطهير النفس، وتنميَةُ فضائلها،

وإصلاحُها، وتخليصها من الكفر والجحود والشرك وسائر المعاصي والآثام.

ويقال أيضاً: زكَّىٰ نفسه، بمعنى مَدَحها بالطهارة والصلاح ونَماءِ فَضَائلها، وهذا منهيٌّ عنه في القرآن، بقوله تعالىٰ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول): ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾: يقالُ لغة: خابَ يَخِيب ويَخُوبُ خَيْبَةً، أي: حُرِمَ ولَمْ يَنَلْ ما طلَبَ، **والخَيْبَة**: الحِرْمَانُ والخُسْرَان.

والسَّهْمُ الخائب من قِداحِ المَيْسِر هو الذي لاَ نَصِيبَ لَهُ، والقِدْحُ الخيَّابُ هو الَّذي لاَ يُورِي، فلا يُطْلِقُ شَرَارةً تُوقَدُ بها النار.

﴿مَن دَسَّاهَا﴾: أيْ: مَنْ دَنَّسَها ولم يُنَمِّها بالفضائل.

**دَسَّاهَا**: ضدُّ زَكَّاها، يُقال لغة: دَسَىٰ يَدْسَىٰ، ودَسَا يَدْسُو دَسْوَةً، ضِدُّ زَكَا يَزْكُو زكاةً.

قال اللّيث: دَسَىٰ يَدْسَىٰ لُغَةٌ، ودَسَا يَدْسُو أَصْوَبُ.

ويقال لغة: فلانٌ دَاسٍ لا زَاكٍ.

وقال ابن الأعرابي: دَسَا إذا استخفىٰ.

قالوا: وأصْلُ دَسَّىٰ دَسَّسَ، توالتِ السِّينات فَقُلِبَتْ إحداهُنَّ ياءً، مثل تقضَّىٰ في تَقضَّضَ.

قال أبو الهيثم: دَسَّىٰ فُلاَنٌ نفسَه، إذا أخفاها وأخْمَلَها لُؤماً، مخافَةَ أن يُتَنَبَّهَ لَهُ فَيُسْتَضاف.

وتأتي «دَسَّىٰ» بمعنى أَغْوَىٰ وأفْسَد، وأنشد ابْنُ الأعرابي لرجُلٍ من طَيِّىءٍ:

وأَنْتَ الَّذِي دَسَّيْتَ عَمْراً فَأَصْبَحَتْ نِسَاؤُهُمْ مِنْهُمْ أَرَامِلُ ضُيَّعُ

أي: أنت الذي أفْسَدت قبيلة عَمْرو. «عن لسان العرب».

بعد هذا البيان اللّغوي يتّضِحُ لنَا في تدبّر الآيتين (٩ ـ ١٠) أمران:

**الأمْرُ الأوّل**: تأكيد أنّ من زكّىٰ نَفْسَهُ، أي: طَهَّرَها من الكفر والشّرك وكبريات الآثام، وأصْلَحَها، ونمَّاها بالأعمال الصالحة، فإنّه سينجو من عذاب اللّهِ في النار يوم الدِّين، وتأكِيدُ فَوْزِهِ وظفره بالثواب الجزيل، وتأكيدُ بقائه في النّعيم المقيم، في دار الخُلْدِ، وهذا هو فَلاحه، بمقتضى قَوْل اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

**الأمر الثاني**: تأكيد أنَّ مَنْ دسَّ نفسه، أي: أغْوَاها وأفْسَدَهَا، وغَمَسَهَا في أوحال الكُفْر أو الشّرك، أو كبائر الآثام والمعاصي، وأخفاها عن استقبال أضواء شمس الهِدَاية، فإنه سيكون خائباً يوم الدّين، أي: محروماً من الخير والسعادة، وخاسِراً نفسه، بسبب أنّه قذَفَ بها إلى مواقع عقاب اللّه وعذابه.

## (٥)
## التدبّر التحليلي لآيات الدرس الثاني

### وهو الآيات من (١١ ـ ١٥)

قال اللّه عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾.

وقرأ نافع، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفر: ﴿فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥﴾.

هذا الدرسُ الثاني وهو الأخير في السّورة، وهو يتضمّن عَرْضَ مَثَلٍ مِنْ أمثلة عقاب اللّه المعَجّل في الدُّنيا، للمكذِّبين رُسُلَ ربّهم، والمكذِّبين

بما جاءُوا به عَنِ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ مقروناً ببراهينه الدَّالّة على أنّه من عند اللَّه جلَّ جلالُه.

إنَّهُ مَثَلُ عقابِ اللَّهِ عزّ وجلّ لثمود، قَوْمِ رسُول اللَّهِ صالحٍ عليه السلام، وكان عِقابُه المعجَّل لهم بإهْلاكهم في ديارهم مدائن صالح، إهلاكاً جماعيّاً عامّاً.

وهذا المثلُ التاريخيّ لَهُ آثارٌ باقيةٌ في أرض العرب.

وقد جاءَ هُنَا عَرْضُ قصَّةِ إهلاكهم وسَبَبِهِ في حكايةٍ مختزلةٍ موجزة، تتناسَبُ مع قصرِ السُّورة، إلاَّ أَنَّ هذا العَرْضَ الموجَز يحقِّق المقصود من الاعتبار بقصَّتِهِمْ، لمَنْ شاءَ أَنْ يَعْتَبِر.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾.

**﴿ثَمُود﴾**: قبيلةٌ من القبائل العربيّة البائدة الّتي أهلكها اللَّه بسبب طغيانها. وكانوا يسكنون الحِجْر، وهو بين الحجاز وتبوك، ومكانهم يُعْرَفُ الآن بمدائن صالح، وقد نَشَؤُوا بَعْدَ أن أهلك اللَّه عزّ وجلّ قوم عاد، وحينَ بعث اللَّه رسوله صالحاً إليهم كانوا يَعْبُدون الأصنام.

**﴿بطَغْوَاها﴾**: الطُّغْوىٰ كالطُّغْيان، مأخُوذٌ من فعل: «طَغَىٰ يَطْغَىٰ طَغْياً» و«طَغَا يَطْغُو طُغْيَاناً».

**والطَّغْوَىٰ**: اسْمٌ للمعنىٰ دون مُلاحظة الحدَث.

ومادّة هذا الفعل ومشتقّاته تَدُورُ دلالتَهُ حَوْلَ مَعْنَىٰ مُجاوَزَةِ الحدّ والقَدْرِ إلَىٰ مَا هُو شَرٌّ أو ضُرٌّ.

يُقالُ لغة: طَغَىٰ البَحْرُ، إذا ارْتفعَ وعَلاَ عَلَىٰ مَا حَوْلَهُ وأغْرَقَهُ. وطَغَىٰ العَاصِي، إذَا تجاوز الحُدُودَ المعروفة لأمثاله من الناس، ففجَرَ وغَلاَ في العدوان والظُّلم والكُفر. وطَغَىٰ السُّلطان الظالم، إذَا عَمَّ جَبَرُوتُهُ وظُلْمُهُ الجميع.

﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾: أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي أيّاً كُنْتَ، الحدَثَ التاريخي الذي كانَ حينَ انْبَعَثَ أَشْقَىٰ ثَمود.

﴿انبَعَثَ﴾: أي: انْدَفَعَ ثَائراً فاجراً مُهْتاجاً، مُنْطَلِقاً بإسراعٍ وانفعالٍ غضبي.

ويَحْمِلُ فعل «انْبَعَثَ» أيضاً معنى الاستجابة والمطاوعَة، لمَنْ بَعَثَهُ وحَرَّضَهُ على ارتكاب جريمة عَقْرِ الناقة، الّتي جعلَها اللَّه آيةً منْهُ لرسوله صالحٍ عليه السَّلَام، دالَّةً على صِدْقِ رسالتِهِ.

ومع مطاوعته فقد كانت لَهُ رغبةٌ في الانبعاث، بدليل وَصْفِهِ بأنَّه أَشْقَىٰ قبيلة ثمود.

﴿أشقاها﴾: هو أشقى هذه القبيلة، قيل: هو قَدارُ بْنُ سَالف.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ: نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾: أي: قال لهم نبيُّ اللَّه صالح الذي بَعَثَه اللَّه لهم رسولاً عليه السلام.

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وسُقْياها﴾: أي: احْذَرُوا أَنْ تَمَسُّوا نَاقَةَ اللَّهِ الَّتِي أخرجَها اللَّهُ لَكُمْ من صَخْرَةٍ في الجَبَلِ كما طَلَبْتُمْ بسُوءٍ، واحْذَرُوا أَنْ تَمَسُّوا سُقْيَاهَا بسُوءٍ، أي: يَوْمَ شُرْبها المخصَّصِ لها، واحْذَرُوا شُرْبَهَا أَنْ تَمَسُّوهُ بسُوء.

«نَاقَة» مَنْصوبَةٌ على التَّحْذِيرِ بفِعْلٍ مُضْمَرٍ وجوباً، تَقْدِيرُهُ: احْذَرُوا، ووجب إضمار فعل التحذير، لأنَّ المحذَّرَ مِنْهُ قَدْ عُطِفَ عليه، فجاء في الآية: ﴿وَسُقْيَـٰهَا﴾.

﴿وَسُقْيَاهَا﴾: أي: وَشُرْبَها، فالسُّقْيَا اسْمٌ للشُّرْب.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي: كَذَّبُوهُ في تَحْذِيره لهم، من التعرُّض لناقةِ اللَّهِ بسُوءٍ، وكذّبوه في كلّ رسالته.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: **العَقْرُ**: قَطْعُ أحَدِ قَوَائِم البعيرِ ونحوه، للتمكُّنِ من نَحْرِهِ. والمعنَى: فَعَقَرُوهَا، حتَّىٰ إذا سَقَطَتْ نَحَرُوهَا.

نُسِبَ الفعلُ إلى كَفَرَةِ قبيلة ثمود كُلِّهِم، لأنّهم مُدَبِّرون، أو موافقون رَاضُون، مع أنّ الّذي تولّىٰ مُباشَرة عقْرِ ناقة اللّهِ بَعْضُهم.

وأضيفت الناقة إلى لفظ الجلالَة «اللّه» لأنَّها قد كانت آيةً من آياته الَّتي آتاها رسُولَهُ صالحاً عليه السلام، والكَلاَمُ على معنىٰ: احْذَرُوا آيَةَ اللّهِ أَنْ تَمَسُّوها بسُوءٍ.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾: أي: غَضِبَ عليهم، فأَنْزَلَ بهم ما عذَّبهم به حتىٰ أهلكهم جميعاً، ودفنهم، ورَدَم الأرض فوقهم، حتىٰ لم يَبْقَ لأجسادهم أثَرٌ ظاهر.

يُقالُ لغةً: دَمْدَمَ عليهم، أي: غَضِبَ عليهم. وَدَمْدَمَ عليهم، إذا طَحَنَهم وأهلكهم مستأصِلاً. وأطْبَقَ عليهم بوسائل التعذيب والإهلاك. ويقال: دَمْدَمَ عليه القَبْرَ ونَحْوه، أي: أَطْبَقَهُ عليه حتَّى سَوَّاه بسائر الأرض، وكُلُّ هٰذِهِ المعاني تنطَبق على ما أنزل اللّهُ عزَّ وجلَّ بثمود.

﴿فَسَوَّاهَا﴾: أي: فَسَوَّىٰ ما دَمْدَمَهُ من الأرْض فَوْقَهُمْ، فدَفنهم فيها، وسَوَّىٰ الأرْضَ عليهم، فصارتْ دِيَارُهم خلاءً.

﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾: أي، والحَالُ لاَ يَخَافُ تَبِعَةَ تَسْوِيَةِ الأرض فوقهم، بما أنْزَلَ من إهْلاكٍ شامل، لأنَّهُ حَقَّقَ فيهم عَدْلَهُ جَلَّ جلالُه.

**العُقْبَى**: مَصْدَرٌ كالعاقبة، وعاقبةُ الشَّيْءِ ما يَعْقُبُ آخِرَهُ من نتائج أو تَبِعَات.

هذا موجز قصة إهلاك ثمود، مع بيان سبب إهلاكهم بإيجاز أيضاً،

ثُمَّ جاءَت تفصيلاتٌ من قصّتهم في عدَّةِ سُورٍ استَدْعَتْهَا المناسباتُ التوجيهيَّة الداعية للاعتبار، مع التذكير السَّرِيع بإهلاكهم وإهلاك أمثالهم كلّما دعَتِ المناسبة التربويّة ذلك.

وعَسَىٰ أن يفتح اللَّه عليَّ بجمع كُلّ ما يتعلّق بهم وبرسولهم من كلّ القرآن، مع تَدَبُّرِهِ تدبُّراً تكاملياً.

## نظرة عامَّةٌ إلى ما اشتمل عليه الدرسُ الثاني من درْسَي السُّورَة:

كذَّبَتْ قبيلةُ ثمودَ رسولَ رَبّها بسبب طغيانها في تكذيبه، وفي سائر مكْتسباتهم الإراديَّة، واستمرَّ أمْرُهَا على هذه الحالة من الطغيان، حتىٰ الوقت الَّذي انْبَعَثَ فيه أشقاها، عاقِرُ ناقة اللَّه، مُنْدَفِعاً ثائراً مُسْرِعاً بانفعالٍ وغضب، ومستجيباً لتحريض قومه له على قتلها والتخلُّص منها.

فقال لهم رَسُولُ اللَّه صالحٌ عليه السّلام: احْذَرُوا أَمْرَين كُلٌّ مِنْهما يجلُبُ عليكم عقاب اللَّه المهلك لكم:

**الأمر الأول**: أنْ تمسُّوا بسُوءٍ ناقَةَ اللَّه الَّتي أخْرَجَها لكم آيَةً على صِدْقِ ما أبلّغكُمْ إيّاهُ عَنْ رَبّي، من الصَّخْرَةِ كما طلَبْتُم.

**الأمْرُ الثَّاني**: أن تمسُّوا بسُوءٍ قِسْمَتَها من سُقْيَا الماء، فَهٰذِهِ القسمة قد كانت من الشروط الَّتي اشْتُرِطَتْ عليكم، لاستجابة اللَّه لكم، لمَّا طلبتُمْ هٰذه الآية على وَجْهِ التعيين.

وشدَّدَ رَسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام في تَحْذِيرِهِمْ، وإنذارِهِمْ بعقابِ اللَّهِ المستأصِلِ إذا مسُّوها بسُوءٍ.

فكذَّبُوهُ، وتَحَدَّوْهُ، واتفقوا على عَقْرِ الناقةِ ونَحْرِها، والخلاص من مُقاسمتها لهم ماءَهُم، فبَعَثُوا أشْقَاهُمْ وطائفةً مَعَهُ، فعَقَرُوا الناقةَ ونَحرُوهَا.

فغَضِبَ اللَّهُ عليهم، وأنْزَلَ بهم عذابه، وأهلكهم جميعاً، ودفَنَ أجْسَادَهُمْ في أرْضهم، وردَمَ الأَرْضَ فوقَهُمْ، فجَعَلَهَا أرضاً مستوية، ولم يُبْقِ من كُفَّارِهِمْ على سطح الأرض أحداً.

وهَلْ يخافُ الرَّبُّ الخالقُ العَدْل الحكيم، ذو السلطان العظيم على كلّ شيء، عاقبةَ مَلَامٍ أو تَثْرِيب، إذا عاقَبَ خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ بإهْلاَكِهِمْ، والتَّدْمِير عليهم.

إنَّه سُبْحَانَه العليم الحكيم العَدْل، فلا مُعَقِّبَ على حكمه وقضائه في خلقه، ولا سُلْطَانَ فَوْقَ سلطانه، ولا سلطانَ مع سلطانه، ومن صفاته سبحانه، أنَّه يجازي بالعَدْل، ويُثيب بالفضل، ولا يظلم أحداً. فَمَا أَحَدٌ يَجِدُ حُجَّةً على رَبّه بأنّه كان مظلوماً في حكم اللَّه عليه، أَوْ في جزاءٍ جازَاهُ به، أو معاقبةٍ عاقَبَهُ بها. فهو تبارك وتعالىٰ لاَ يخافُ عُقْبَىٰ إهلاكٍ أَنْزَلَهُ بخَلْقٍ من خلقه، ولا يَخَافُ نِسْبَةَ الظُّلْم إليه وقَدْ حرَّمه سُبْحَانه على نفسه، لأَنَّهُ لا يَظْلِمُ أَحداً مثقال ذَرَّة.

## مُوجَزُ ما جاء في القرآن عَنْ ثمودَ ورسولهم:

أمّا موجَزُ ما جاء في القرآن مُفَرَّقاً عن ثمود ورسولهم صالحٍ عليه السّلام، ففيما يلي:

(١) أنّ ثموداً كانوا قوماً عَرَباً يسكُنُون الحِجْر، والحِجْرُ أَرْضٌ معروفة من أَرْضِ العرب، وهي ما يُعْرَفُ بمدائن صالح.

(٢) أنَّ ثَمُوداً ظَهَرُوا في جزيرة العرب بَعْدَ عادٍ، فكانوا في القوّةِ والظهور والبُنْيَان الحضاري بمثابَةِ الخلفاء لعادٍ، وأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ مَكَّنَ لهم في الأرض فاستَعْمَرُوهَا، فكانوا يَبْنُونَ في سُهُولِهَا قُصُوراً من الحجارة والصُّخُورِ الّتي يَجُوبُونَها بالوادي. وكانوا يَنْحِتُونَ في الجبال بيوتاً فارهين

ومُحَصِّنِينَ فيها أَنْفُسَهُمْ. وكانَتْ لهم جنَّاتٌ وعيُونٌ وزرُوعٌ ونخيل ذَوات ثَمرٍ كثير متداخِلٍ ببَعْضِهِ.

(٣) أَنَّهُم كانُوا قوماً كافرين مشركين يعبُدُونَ من الأوثانِ ما كانَ يَعْبُدُ قبلهم آباؤهم، وَكان فيهم مُفْسِدُونَ في الأرضِ كثيرون، ولا يَجِدُونَ من سائر قَوْمهم من يَرْدَعُهُمْ عن الفَسَادِ والإِفْسَاد.

(٤) أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ أرسَلَ إليهم رسولاً من سُلاَلاَتهم، كان قبل نبوّته وإرساله رسولاً رجُلاً صالحاً فيهم، ذا خُلُقٍ رفيع، ورأيٍ حَصِيفٍ، وكانَ فيهم مَرْجُوّاً لكلِّ خَيْرٍ، هُو أُخُوهم صالحٌ عليه السَّلام، فوعظهم ونَصَحَهُم، ودَعاهُمْ إلى التوبةِ والاستغفار، وأبان لهم حقَّ خالقهم في وحدانيّته في رُبُوبيَّتِهِ، ووحدانيته في إلهِيَّتِهِ، ودَعاهم إلى نَبْذِ ما هم فيه من شرك ووثنيّات، ودَعاهم إلى الاستقامة على صراط اللَّه، ونهاهُمْ عن أن يعيثوا في الأرْضِ مُفْسِدين.

فآمَنَ به فريقٌ من مستضعفي قَوْمه، وكذَّبَهُ ملَؤُهم المستَكْبِرُونَ في الأرْض، ومَعَهُمْ الأكثرون من قومه.

(٥) أنَّه قامَ بينَهُ وبَيْنَ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ مُناظراتٌ وجَدَليَّاتٌ حَوْلَ دَعْوته وعناصرها، وحَوْلَ تكذيبهم لَهُ ورَفضهم دَعْوَته.

وقال لهم: اعْبُدوا اللَّهَ ما لكم من إله غيره.

وقال لهم: اللَّهُ هُوَ الَّذي أنشأكم من الأرض واسْتَعْمَرَكُمْ فيها.

وقال لهم: استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ، إنَّهُ قَرِيبٌ مُجيب.

وقال لهم: ألاَ تَتقون، إنّي لَكُمْ رسولٌ أمين، فاتَّقُوا اللَّهَ وأطيعون، ولا تطيعوا أمْرَ المُسْرفين، الّذين يُفْسِدُونَ في الأرض ولاَ يُصْلِحُون.

وقال لهم: ومَا أسْأَلُكُمْ عليه من أجْرٍ، إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العالمين.

وقال لهم: اذْكُرُوا إذْ جعلكم ربُّكم خلفاء من بَعْدِ عادٍ، وبَوَّأَكُمْ في الأرض، تتخِذُونَ من سُهُولِهَا قُصوراً، وتَنْحِتُونَ الجبالَ بيوتاً، فاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ، ولاَ تَعْثَوْا في الأرض مفسدين.

وقال لهم: أَتُتْرَكُونَ في مَا هٰهُنَا آمِنِينَ، في جنَّاتٍ وعُيُونٍ، وزُرُوعٍ ونَخْلٍ طَلْعُها هضيم، وتنحتُون مِنَ الجبال بيوتاً فارهين؟

**طَلْعُهَا هضيم**: أي: ثمرها ناعم لطيفٌ ليِّنٌ مَريء.

إلى غير ذلك من مقالات.

قال الذين استَكْبَرُوا مِنْ قومه لِمَنْ آمَنَ من المستضعفين منهم: أتعلمون أنّ صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبّه؟! بغية أن يفتنوهم عن دينهم.

قالوا: إنَّا بما أُرْسِلَ به مؤمنون.

قال الذين استكبَروا: إنّا بالذّي آمَنْتُمْ به كافرون.

وقالوا لرسولهم: يا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فينا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا، أَتَنْهَانَا أن نَعْبُدَ ما كان يَعْبُدُ آباؤنا، وإنّا لَفِي شكٍّ مما تدعونا إليه مُرِيب؟!

وقالوا له: إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِين، ما أنت إِلاَّ بَشَرٌ مثلنا.

وقالوا له: اطَّيَّرْنَا بِكَ وبِمَنْ مَعَكَ.

قال لهم: طائرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، بل أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ، أي: تُمْتَحَنُون.

وقالوا فيما بينهم: أبشراً منّا واحداً نتّبِعُه؟! إنّا إذاً لَفِي ضلالٍ وسُعُرٍ (أي: وجُنون) أَأُلْقِي عَلَيْهِ الذِّكْرُ من بَيْنِنَا؟! بل هو كذَّابٌ أشِرٌ (أي: مستكبر).

(٦) وطلبوا منه آيَةَ النَّاقة يُخْرِجُهَا لهم من صخرة، فاستجاب اللَّه

لطَلَبِهم، بشَرْط أنْ لاَ يَمَسُّوها بسُوء، وأن يكون لها من مائهم شِرْبٌ لاَ يُشَارِكُونَها فيه، فالماء قسمةٌ بينَهُمْ وبينها.

(٧) فضاقوا بالناقة ذَرْعاً، ودَبَّرُوا أمْرَ عَقْرِهَا ونَحْرِها، فعقَروها وتخلّصُوا منها.

وبَيَّتَ تِسْعَةُ رَهْطٍ من المفسدين في الأرض مِنْهُم قَتْلَ رسُولِهم صالح عليه السّلام وأهْلِه، وكان صالح قد حَذَّرَهُمْ وأَنْذَرَهُمْ عقابَ اللَّهِ إذا عقروا الناقة أو مَسُّوها بسوء.

فلمَّا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا، وبيَّتُوا ما بيّتوا ضدّ رَسُولهم وأهله، أرسل اللَّه عليهم صَيْحةً واحدة، رافقتها صاعقَةُ العذاب الهون، وكان ذلك عند الصّباح، ورافَقَ ذلك رجفَةٌ في الأرض أخذتْهُمْ، فأصبحوا في ديارِهِمْ هَلْكَىٰ جاثِمين نادِمين.

وما أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كانوا يَكْسِبُون من قُوىً وتحصينات، ودفنهم اللَّهُ في أَرْضِهِمْ، وسَوىٰ عليهم الأرض.

(٨) وأنجَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ بحكمته ورَحْمَتِهِ وألْطَافِهِ صالحاً عليهِ السَّلاَمُ ومَنْ آمَنَ معه.

وتولَّىٰ صالح ومن معه عن أَرْضِهِمْ قائلاً: يَا قَوْمُ لَقَدْ أبلغتكم رِسالَةَ رَبِّي ونَصَحْتُ لكُمْ، ولٰكِنْ لاَ تُحِبُّونَ الناصحينَ.

وانتهىٰ بعون اللَّه وفتحه وتوفيقه

تدَبُّرُ سورة الشمس، والحمد للَّه على مِنَّتِهِ الجليلة

❁ ❁ ❁

## ملاحق لتدبّر سورة الشمس

**الملحق الأول**: مستخرجات بلاغيّة مما اشتملت عليه السورة من بلاغيات

**الملحق الثاني**: حول الشمس والقمر والأرض والنهار والليل في القرآن

❁ ❁ ❁

# (٦)
# الملحق الأول
## مستخرجات بلاغيَّة ممّا اشتملت عليه السورة من بلاغيات

(١) التأكيد الرَّبَّانيّ بالقسم بظواهر كونيّة هي من بدائع وعجائب صُنْع الرَّبّ جلّ جلالُه، ومن آثار علمه وحكمته، على قضيّة الجزاء يوم الدّين، الذي هو من مقتضيات حكمته الظاهرة في كلّ ما خَلَقَ وبَرَأَ، بَعْدَ أَنْ وضع الناس في الحياة الدنيا موضع الامتحان والتكليف.

(٢) الانسجام في كلمات السورة وآياتها، وهو من المحسنات البديعية اللّفظية، وهو أن يكون الكلام في مفرداته وجُمَلِه منساباً انْسِيابَ الماء في مجاريه السَّهْلَة، مُتَّحَدِّراً ليّناً، بسبب التلاؤم بين كلماته وجُمَلِهِ، وعذوبة ألفاظه، وجمال تَمَوُّجَات فقراته، وخلوّه من التعقيد والتنافر، وخلُوّه من كلّ ما يَنِدُّ عن النطق، أو يَنْفِرُ منه السَّمع.

(٣) من المحسنات البديعيَّة في السورة ما يُسمَّىٰ «مراعاة النظير»، فبيّن الشمس وضُحاها، والقمر إذا تلاها، واللّيل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، تناسبٌ وائتلاف، رُوعي فيه ضَمُّ النظائر إلى النظائر.

(٤) من المحسنات البديعيّة اللفظية في السّورة السَّجْع المحبّب الذي لا تكلُّفَ فيه.

(٥) بناء آيات السورة جارٍ على ما يُعْجِب فُصَحاء العرب إبَّان التنزيل، إذْ هو قائم على الجمل القصيرة السَّهْلَة الجميلة، والسَّجْعِ غير المتكلّف.

(٦) الكناية عن دخول الجنّة يوم الدين بذكر لازمٍ من لوازمهِ وهو الفلاح، والكناية عن دخول دار العذاب يوم الدين بذكر لازم من لوازمه وهي الخيبة.

واستخدام الكنايات من اتّخاذ الأسلوب غير المباشر في التعبير عن المراد، وهو ذو أَثَرٍ عميقٍ في كثير من النفوس، ولا سيما النفوس الذكيَّة الذَّوّاقة للأَدَب، الّتي لاَ تَمِيلُ إلى التعبيرات المباشرات.

## (٧)
## الملحق الثاني
## حول الشمس والقمر والأرض والنهار والليل في القرآن

جاء في القرآن المجيد بيانات متعدّدات تتعلّق بالشمس والقمر والأرض والنّهار واللّيل، ومن المفيد استعراضُها بحسب ترتيب نزولها، مقرونَةً بنظراتٍ تدبُّريَّة.

### النصّ الأول:

ما جاء في صدر سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) وقَدْ سَبَقَ تدبُّره في الدَّرْس الأول من دَرْسَي السّورة.

### النَّصُّ الثاني:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ

عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

فجاء في هٰذه الآية ما يلي:

(١) بيانُ أنَّ اللَّهَ رَبَّنا عزَّ وجلَّ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوات والأرض في سِتَّةِ أيّام، أي: في سِتَّةِ أحقابٍ زمَنِيَّة.

(٢) بيان أنّ اللَّه هو الّذي يجْعَلُ النَّهارَ بسبب إشراق الشمس وامتداد ضيائها يَغْشَىٰ اللَّيْلَ، فيسْتُرُهُ، لأنَّ الظلام هو الأصل في الأكْوان الَّتي خَلَقَها اللَّه جلَّ جلالُه، والضياءُ الذي يُسَلَّط عليها بتقدير اللَّهِ وتراتيب أنظمته هو الذي يَسْتُرُ الظلام، ويَكْشِفُ الأجسام، فتراها عُيُون المخلوقات على مقادير استطاعاتها.

(٣) بيان أنَّ النهارَ هو الذي يُتَابعُ اللَّيْلَ طالباً له مُسْرِعاً جَاداً في أمْرِه، لا يكلُّ ولا يَمَلُّ ولا يَتَوانى.

وهذا البيان يشير إلى دوران الأرض حول نَفْسِهَا باتجاه الشَّمس دون توقُّفٍ ولا انقطاع، وبسبب ذلك يظهر أنَّ ضياء الشمس المُسَلَّطَ على الأرض يُلاحِقُ اللَّيْلَ دَواماً، فيكونُ عليه كالغشاء السَّاتِر.

(٤) بيانُ أنَّ اللَّه رَبَّنا عزّ وجلّ هو الذي خَلَقَ الشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ كُلَّها مُسَخَّرَاتٍ بأمْرِهِ لمصالح ومنافع عباده، فَهِيَ من نِعَمِ اللَّهِ عليهم.

**النَّصُّ الثالث:**

قولُ اللَّه عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

فجاء في هٰذهِ الآيات الأربع ما يلي:

(١) بيان أنَّ النَّهار بمثابة الجِلْدِ السَّاتِرِ فَوْقَ اللَّيْل، وأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بنظامه المتْقَنِ البديع في كونه، يجعل النهار مِنْ جِهَةِ ظهور اللّيل شيئاً فشيئاً، بمثابة الجِلْدِ الذي يَنْسَلِخُ عمَّا تحته شيئاً فشيئاً.

وهذا المعنى يُطابق ما جاء في سُورَةِ (الأعراف) من كون النهار هو الذي يَغْشَى اللَّيْلَ فيَسْتُرُه، وأنَّ الأرضَ مُظْلِمَةٌ لَوْلاَ الضياء الذي يُسَلَّطُ عليها.

لكنَّ مَا جاء في سُورَة (الأعراف) تناول بالبيان جانِبَ شُرُوقِ الشَّمْسِ الَّذِي يَغْشَىٰ اللّيلَ فَيَسْتُرُه.

أمّا ما جاء في سورة (يس) فقد تناولَ بالبيان جانِبَ غُروب الشمس الذي يُشْبِه انسلاخ الجِلْدِ عمَّا تحته، والذي تحت أشعَّةِ الشمس في المشبَّهِ هُو اللّيل.

فتكامل النَّصَّان في الدَّلالة على المعنى المراد، مع استعمال التعبير الأدبيّ الرفيع القائم على الاستعارة.

(٢) بيانُ أنَّ الشَّمْسَ تجري لبلوغ مستقرٍّ لها، بتقدير العزيز العليم.

وقد أثبتت الدراسات العلميّة الإنسانيّة أنَّ الشمس مع مجموعتها تجري داخل المجرّة، مع أنَّ كُلَّ واحِدٍ من المجموعة الشمسيَّة له جَرَيَانُه الخاصُّ به، سابحاً في فَلَكِهِ المقدَّرِ له.

(٣) بيان أنّ اللّه عزّ وجلّ جعل للقمر منازل تظهر فيها لسكّان الأرض أهّلته تزايداً وتناقصاً حتى يعود إلى مثل الحالَةِ التي بَدَأ بها، هلالاً صغيراً جداً، كعود يابس متقوّس.

(٤) بيان أنَّ النظام الدقيق الّذي حدَّدَ به اللّهُ مِقْدارَ كلٍّ من الشمس

والقمر، ومِقدارَ بُعْدِ كلٍّ منهما عن الآخر، ومقدار الجاذبيات، جعَلَ الشَّمْسَ على الرُّغم من عِظَمِها بالنسبة إلى القمر، وعلى الرُّغم من قُوَّةِ جاذبيَّتِها، غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ لاجتذاب القمر إليها، وإدْرَاكه وابتلاعه، لأنّ التنظيم العامّ مقدَّرٌ تقديراً غايةً في الإتقان.

(٥) بيان أنَّ اللَّيْلَ لاَ يَسْبِقُ النهار، لأنَّ النَّهَار هُو الّذِي يُتابع اللَّيْلَ فيغشّيه بضيائه من جهة الشّروق، وهو الّذي يَنْسَلِخُ عنه من جهة الغروب، وفي هذا إشارة إلى انضباط حركة دوران الأرض حول نفسها، وهذا من كمال الإتقان، وإحكام التدبير.

(٦) بيانُ أنَّ الشَّمْسَ والقَمر والأرضَ الّتي يظهر على سطحها اللّيْلُ والنَّهار، ذَوَاتُ أفلَاك، وكُلٌّ مِنْها سابحٌ في فَلَكِهِ المحدَّدِ له، في الفضاء المؤهَّل لسَبْحِ الأجرام الكونيَّة فيه، وإنْ لم يكن هذا الفضاء فراغاً تامّاً، فالطيرُ يسبح في الهواء، والسَّمَكُ يسبح في الماء، والكواكب والنجوم تَسْبَحُ في الفضَاء الملائم لِسَبْحِهَا.

## النَّصُّ الرابع:

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

وقول اللّٰهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

فجاء في هذه الآيات من سورة (الفرقان) ما يلي:

(١) بيان ظاهرة الظّلّ الذي يكون بسبب حاجب يحجُبُ ضياء الشمس

عن المكان الذي يَظْهَرُ فيه الظلّ، وكيف يمتدُّ شيئاً فشيئاً بسبب حركة دوران الأرض حول نفسها باتّجاه الشمس، وكذلك كيف يتقلّص شيئاً فشيئاً بهذا السبب نفسه.

وهذه الظاهرة من نعم اللَّه على عباده سُكّان الأرض، ولو شاء اللَّه لجعل الظّلّ ساكناً غير متحرّك، بنظام آخر غير النظام الذي تتمّ به حركة امتداد الظلّ وتقلُّصِه برِفق.

(٢) بيان ظاهرة «البروج» في السَّماء، وهي منازلُ الكواكب والنُّجوم السَّيَّارة.

(٣) بيانُ أنَّ الشمس جرْمٌ نَارِيٌّ مُلْتَهِبٌ، إذْ جعَلَها اللَّهُ سِرَاجاً، أي: كالسِّراج، ومن شأن السِّراج أنْ يكونَ نارِيّاً يَنْشُرُ ضِياءً.

وبيانُ أنَّ القَمَرَ جِسْمٌ مُنِيرٌ، وهذا يدلّ على أنَّهُ كالمِرْآة الَّتي تَعْكِسُ نور الضياء الذي يُسَلَّطُ عليها، وهو ما أثبتَتْهُ الدراسات العلميّة الإنسانيّة القطعيّة.

(٤) بيان نعمة اللَّه على عباده بتعَاقُب اللَّيْلِ والنَّهار، وهذا يَدُلُّ على حركة دوران الأَرْض حول نفسها باتّجاه الشمس دورةً كامِلَةً كُلَّ يَوْمٍ.

وجاء التعبير عن هذا التعاقب بكلمة: «خِلْفَة»، أي: يَخْلُفُ كُلٌّ منهما الآخر.

## النَّصّ الخامس:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (فاطر) ما يلي:

(١) تصوير تعاقُب اللَّيل والنَّهار بصُورَةِ إدْخال اللّيل في النهار عند

حركات شروق الشمس في المشارق، فكأنّ النّهار يَبْتَلِع اللّيل، وبصُورَةِ إدْخَالِ النهار في اللّيل عند حركات غروب الشمس في المغارب، فكأنَّ اللَّيْلَ يَبْتَلِع النهار، وهكذا دواليك بالتتابع. وهذا تشبيهٌ للظاهرة التي يَراها الرائي حين يكون في الجوّ داخل طائرة تدور في السّماء.

وقد يدُلُّ إيلاج اللّيل في النهار وإيلاجُ النهار في اللّيل على ما يحدُث من قصر اللّيل وطول النهار أحيانا، وما يحدُث من قِصَرِ النهار وطول اللّيل أحياناً، فكان الذي قصُر منهما يلج في الّذي طال منهما.

(٢) بيان تسخير اللّهِ جريانَ السشَّمْسِ والقمر لمصالح العباد في الأرض، لأجَلٍ مَعْلُوم ومُسَمّى لدَيْهِ، فالتَّسْمِيَةُ إنّما تكونُ بعد العلم بالأجل، وكلُّ مَعْلُومٍ ومُسَمًّى عند اللّه مكتوبٌ في اللّوْح المحفوظ.

التسمية للأجل وصف تحديديّ لوقته.

**النَّصّ السادس:**

قول اللّهِ عزّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾.

فجاء في هاتين الآيَتَيْن من سُورة (يونس) ما يلي:

(١) أنَّ اللّهَ عز وجلّ جعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً، أي: كُتْلَةً نارِيَّةً تَنْشُرُ الضِّياء، والضّياءُ أشِعَّةٌ حارَّة.

وجَعَلَ القَمَرَ نُوراً، أيْ: ناشِراً لنُورٍ بارِدٍ لاَ حَرارَةَ فيه.

وجاء التَّفْسِيرُ العلمِيُّ الإنسانِيُّ لهذا بأنَّ القَمَرَ عاكِسٌ لأشعّةِ الشَّمْسِ المُسَلَّطَةِ عليه، فهو لهذا يُعْطِي نوراً بارداً.

(٢) أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدَّرَ القَمَرَ فجَعَلَ حركَتَهُ تتنَقَّل في منازِل يظهر فيها أهِلَّةً تتنامَىٰ في النِّصْفِ الأوَّل من الشهر، وتتناقص في النِّصف الثاني من الشهر، ليعْلَمَ النَّاسُ عددَ السِّنين، وحِسَابَ الأيَّامِ والشُّهور القمرية وما يرتبط بها من أحوال الأرض والنَّاس الدينيَّة والدنيوية.

(٣) أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ جعَلَ اللَّيْلَ والنهار يَخْتَلِفانِ طُولاً وقصراً، وهذا تابع لآية من آيات اللَّه في حركة الأرض ومَيْلِها باتّجاه الشمس.

## النّص السابع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول):

﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (الأنعام) ما يلي:

(١) بيان حكمةٍ من حِكَم إيجاد نظام اللّيل في الأرض، وهي أن يكون سَكَناً للناس، أي: يَسْكُنُونَ فيه، ويَطْمَئِنُّونَ، ويرتاحُون من عناءِ العمل والكدّ في النهار، وقد جعل اللَّه عزّ وجلّ اللَّيْلَ بخصائصه مُهَيَّأً لإمداد الأجسادِ بالرَّاحة النفسيّة والسكون.

(٢) بيان أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ جعل الشمس والقمر حُسْباناً، أي مُقَدَّرين في كُتْلَتَيْهما وحَرَكَتَيْهما تَقْدِيراً غايةً في الدِّقَّة والإتقان، ليؤدِّيا وظائفهما في الكون على أحسن وجهٍ، وهذا التقدير المتْقَنُ الدَّقيق من الأدلّة الجليلة على الرَّبّ وعظيم صفاته وأسمائه الحسنَىٰ.

**حُسْباناً**: مَصْدَرُ حسَبَ، يقال: حَسَبَ يحسُب حِساباً وحُسْباناً.
**والحُسْبَانُ**: العدُّ، والتدبير الدَّقيق.

## النصّ الثامن:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (الزمر) ما يلي:

(١) بيانُ أنَّ اللّه عزّ وجلّ خَلَق السَّمَاواتِ والأرض بالحقّ، أي: بالأمْرِ الثابت الهادف لغاية جليلة، ولم يخلُقْهُمَا باطلاً ولا عبثاً.

(٢) تصويرُ تَتَابُع اللَّيْل والنّهارِ بصُورَةِ تَكْوِيرِ اللَّيْلِ على النهار في المغارب، وبصورة تكوير النهار على الليل في المشارق، وهذا تشبيه آخَرُ للحركتين، غَيْرُ تَشْبِيهِهِما بإيلاج كلٌّ منهما في الآخر، على أحد مَعْنَيَي الإيلاج.

(٣) الامتنان بتسخير الشَّمْس والقَمَر للعباد، وجَعْلِ كلٍّ مِنْهُما يَجْرِي لأجَلٍ معلومٍ مُسَمًّىٰ.

وحسَّنَ تكريرَ هٰذِهِ الفكرة إذْ سَبَقَ بيانُها في سُورَةِ (فاطر) أنَّ الأمْرَ فيه امتنان من اللّهِ على عباده، ليكون دافعاً لأهْلِ الرّشْدِ منهم ومُحَرّضاً على الإيمانِ به، وحَمْدِهِ، وشُكْرِهِ، جلَّ جَلاَلَهُ.

## النّصّ التاسع:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

جاء في هذه الآيَة من سورة (فصّلت) ما يلي:

إضافةُ بيانِ أنَّ من الآياتِ الكونيّة الدَّالاَّتِ على الرَّبّ الخالِق وصفاتِهِ تَدْبيراتِهِ الظاهرات في اللّيْل والنّهارِ، وأنّ مِنْ آياتِهِ الشَّمْسَ والقَمر، وقَدْ جاء هذا البيان مفتاحاً للدخول إلى النَّهْي عن السجودِ للشَّمس والقمر، الذي يَفْعَلُهُ بعض المشركين في الأرض، من الّذين يجعلُون مع اللّهِ آلهةً من الأجرام السماوية. وإلى الأمر بالسُّجُودِ للّهِ وحْدَهُ الّذي خَلَق هذه الآيات الكونيّة.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: أي: إنْ كنتم لا تَعْبُدون غَيْرَه.

**النّصّ العاشر:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سُورَة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) خطاباً للناس:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (النحل) إضافَةُ خِطَاب النَّاس، مع التصريح بمنّةِ اللّه عليهم بتسخير اللّيل والنهار، والشَّمْسِ والقَمَر، لِحَثّهم على الإيمان باللّهِ وحَمْدِه وشكره، تبارك وتعالىٰ.

وحَسَّنَ تَكْرِيرَ مِنَّةِ التسخير للناس أنّه بمثابة العلاج الدَّوائي الذي يَحْسُنُ فيه التكرير.

**النّصّ الحادي عشر:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (نوح/٧١ مصحف/٧١ نزول) بياناً لما قالَهُ نوحٌ عليه السَّلام لقومه:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

فَدَلَّ هٰذا على أنَّ بيانات نُوح عليه السلام لقومه حول آيات اللّٰهِ في كَوْنِهِ مِثْلُ البيانات الواردات في القرآن، فقد سَبَقَ بيان كون القمر نوراً وبيان كون الشمس سِرَاجاً، فيما نَزَلَ قَبْلُ في نجوم التنزيل.

## النصّ الثاني عشر:

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) خطاباً للنَّاس:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾.

فأضافت هٰذه الآية بَيان كَوْن الشمس والقمر مسخَّرَيْن للناس دائبَيْن لا يتوقَّفُ عملهما، وكذلك اللّيل والنهار.

**الدائب**: هو الذي يكرّر وظيفته دواماً دونَ انقطاع.

والتصريح بهذه الجزئية هو من التفصيل البياني في القرآن.

## النصّ الثالث عشر:

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فأضافت هذه الآية بيان أنّ اللّيل والنهار، أي: وما يُسَبِّبهما وهو دوران الأرض حول نفسها باتجاه الشمس، وأنّ الشَّمْسَ والقَمَرَ، كُلُّ أولئِكَ مِنْ خَلْقِ اللّٰه إبْداعاً وتقديراً، وكذلِكَ سَبْحُها في أفْلاَكِهَا، وهو تَحَرُّكها المُنْسَابُ في مَدَارَاتها ومَسِيراتِها.

## النّصّ الرابع عشر:

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) خطاباً لرسُوله فلِكُلّ دَاعٍ إلى اللّٰهِ من أُمَّتِهِ، بشأن المشركين الوثنيين من العرب إبّان التنزيل:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

فأضافَ في هذا النَّصّ بَيَانَ أنّ مُشْركي العَرب كانوا يُؤْمِنُونَ بأنّ اللَّهَ هُو خالِقُ السَّماوَات والأرض، وهو الذي سَخَّرَ الشمس والقَمَر، وهٰذه بعض خصائص رُبوبيَّةِ اللَّهِ الرَّبّ جلّ جلاله، لكنَّهم يَجْعلُونَ لآلِهَتِهِمْ رُبوبيَّةَ الرِّزْقِ والنَّصرِ والتَّوْفيق والسَّلامَةِ وسائِرِ مَنَافِعِهِمْ في الحياة الدُّنيا، فعَبَدُوهَا من دون اللَّه.

## النصّ الخامس عشر:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

ففصَّلَ اللَّهُ عزّ وجلّ في هذا النَّصّ بيانَ جُمْلَةٍ من آياته في كونه، وأضاف أنَّ السَّماءَ رَفعَهَا بغير عَمَدٍ مَرْئِيَّة، لأنَّها مرفوعة بأنظمة الجاذبيات التي لا تُرَى. وأضافَ أنه سُبْحَانَهُ يُدَبّر أُمورَ كونه دَواماً ويُفَصِّلُ آياته، لتكُونَ أدلَّةً مُحَرِّضةً على الإيمان بالبعث ليوم الدّين، بغية تحقيق الحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء. وأضاف بيان نعمته على عِبَادِه بإمداد الأرض بموادّ أرزاقِ العباد، وأضاف أنَّه جَعَلَ في الأرض جبالاً رَوَاسِيَ مُثَبِّتاتٍ لِقِشْرَةِ الأرض، حتى لا تميد بسُكَّانها، وجَعَلَ فيها أنهاراً تجري فيها المياهُ الحلْوَة رزقاً للعباد، وأنَّه جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ الثَّمرات، وهو نظام الزَّوجيَّة في الأحياء وفي الأشياء.

وأخيراً أبانَ أنَّ في كُلِّ ذٰلِكَ آياتٍ دَالأَّتٍ على الخالِقِ وصفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، يستفيدُ من دلالاتها الّذين يتفكّرون.

**النصّ السادس عشر:**

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (الرحمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾.

أي: تَقْدِيرُ جِرْمَيْهما وحَرَكتيهما بحساب دقيق غايَةٍ في الإبداع والإتقان.

جاء في هذا النصّ تأكيد ما سبَقَ بيانُه في سورة (الأنْعَام) لِمَا في تَقْدِيرِ جِرْمَي الشمس والقَمَر وتقدير حَرَكتيهما بحسابٍ غايَةٍ في الدِّقَّة، فَهُمَا لاَ يَخْرُجَانِ عَنْ أنظمتهما المَوْضُوعَة لهما طَوال ملايين السنين، وهذا إنما يُدْرِكُ عظمته ويَدْهَشُ لها علماء الكونيات الرياضيُّون.

**النصّ السابع عشر:**

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ۝١٨﴾.

وقول اللّٰه عزّ وجلّ فيها في معرض إثبات كمال قدرته وحكمته وعلمه:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾.

فأضافت الآية الثامنة عشرة بَيانَ أن اللّٰهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ السَّماواتِ ومَنْ في الأرض من الملائكة سُجُوداً إرادياً، مُلَبِّين فيه دواعيَ فطرتهم، وسُجُوداً غَيْرَ إراديّ، وهو خضوعُ ذَواتِهِمْ لِمَا يُجْرِيهِ اللّٰهُ فيها عَنْ غير طريق إراداتهم، وكَذٰلِكَ مَنْ في الأرض من الجنّ والإنْسِ، فذواتُهُم خاضعةٌ

خضوعاً تاماً لِمَا يُجْرِيه اللَّهُ فيها بسُلْطانِ الجَبْر، وكذلك سَائِرُ الأكوان: «الشمس والقمر والنجوم والجبال والشّجر والدوابّ» كُلُّهَا ساجدة للَّهِ (أي: خاضعةٌ للّه خُضوعاً تامّاً بسُلْطان الجَبْر). أمّا الجانبُ الاختياري الإراديُّ من الناسِ، فكثيرٌ من الناسِ ساجِدُون للَّهِ أيضاً سُجوداً اختيارِيّاً إرادِيّاً، وكثيرُون آخرون غير ساجدين سجوداً اختيارياً لبارئهم، وهؤلاء قد حَقَّ عليهم العذاب، وسَيُهينُهُم اللَّهُ لأنَّهُمْ استكْبَرُوا عن السجود الاختياريّ الإراديّ له، مع سجود سائرهم لَهُ سجوداً جَبْرياً.

**السجود**: هو كمال الخضوع، ومن تعبيراته لدى ذوي الإرادات وضْعُ الجبهة على الأرض خضوعاً للّه.

واقتضت المناسبة في السورة تكرير الاستشهاد بظاهرة حركة الأرض حول نفسها باتجاه الشمس، وهي الحركة التي يتَسَبَّبُ عنها دَوَرانُ النهار واللّيل حَوْلَ كُرَةِ الأرْضِ.

وجاء التعبير عن هذه الظاهرة، بعرض صورة المشهد، لمن يُشَاهِد مِنْ جوّ الأرض تَلاحُقَ اللّيلِ والنهارِ، فيتخيَّلُ أنَّ اللَّيْلَ يَلِجُ في النَّهارِ كما تَبْلَعُ الحيَّة العريضة البيضاء الّتي يستوعب عرض فَمِها عرض الأفق، الحيّةَ العريضة السوداء من جِهَة ذَيْلَها العريض الذي هو على قَدْرِ فَم البيضاء، هذا من جهة شروقِ الشمس، أمّا مِنْ جِهَةِ غُروب الشمس فالحيَّةُ السَّوْدَاءُ هي الّتي تَبْتَلِعُ الحيَّةَ البيضاء ذاتَ الجسم العريض كَعَرْضِ الأُفُق، وتَدُور دَائِرَتُهما وَالِجاً ومَوْلُوجاً به.

وفي هذا تَنْبِيهٌ أدبيٌّ بَدِيعٌ عَلَىٰ صُورَةِ هذا المشهد العجيبة.

وقد يكونُ المراد بالولوج تناقُصَ زمن اللّيل أحياناً لحساب طول النهار، وتناقص زمن النهار أحياناً لحساب طول اللّيل، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

# سُورَة البُروج

٨٥ مصحف ٢٧ نزول

# (١)

# نص السورة

## سورة البروج وما فيها من فرشيّات القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ
عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا
نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾
ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ

١٤ ـ قرأ قالون وأبو عَمرو والكسائي وأبو جعفر: ﴿وَهْوَ﴾ بإسكان الهاء وقرأ الباقون: ﴿وَهُوَ﴾ بضم الهاء.
ووقف يعقوب بهاء السكت.

١٥ ـ قرأ جمهور القراء العشر: ﴿المَجِيدُ﴾ بالرفع على أنه من صفات الله عزّ وجلّ.

ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾
وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ
مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾.

● وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿المَجِيدِ﴾ بالكَسْر على أنّه صفة للعرش، وبين القراءتين تكامل في بيان المراد.

٢١ ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿قُرْءَان﴾ بإسكان الراء وبالهَمْز.

● وقرأ ابن كثير وفي الوقف حمزة ﴿قُرَان﴾ بفتح الراء وحذف الهمزة.

٢٢ ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿فِي لَوْح مَحْفُوظٍ﴾ بالجرّ صفة لِلَوْح.

● وقرأ نافع: ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بالضمّ نَعْتاً للقرآن.

## (٢)
## ممّا رُوي بشأن سورة البروج

(١) روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة:

«أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ في الْعِشَاءِ الآخِرَةِ بالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، والسَّمَاءِ والطَّارِق».

(٢) وأخرج الطَّيالِسِيّ، وابْنُ أبي شيبة في المصنّف، وأحْمَدُ، والدَّارمِيُّ، وأبو داود، والترمذيُّ وحسَّنَه، والنسائي، وابْن حِبَّان، والطَّبَراني، والبيهقيّ في سننه، عن جابر بن سَمُرَة:

«أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهرِ وَالْعَصْرِ بالسَّمَاءِ والطَّارق، والسَّماءِ ذَاتِ البُرُوجِ».

هٰذان الحديثان يدُلاّن على عِنَايَةِ الرسول ﷺ بهاتين السُّورَتَيْنِ، واختيار تِلاَوَتِهما في الصّلاة: «والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ» ـ «والسَّمَاءِ وَالطَّارق».

والتأسّي بالرَّسُول ﷺ في اختيار تلاوتهما دون التزامٍ دَائم، في صلاةِ العشاء الآخرة، وفي صَلاَتَيِ الظُّهرِ وَالْعَصْر، عَمَلٌ صالح.

والحديثان لا يَدُلاَّن على أنَّ الرَّسُول ﷺ كان يَفْعَلُ ذَلك دواماً، بل يَدُلاَّنِ على أنَّهُ قَدْ كان يُكَرِّرُ اختيارَهُما للتلاوة في الصلوات المذكورة. وقَدْ جاء في مَرْوِيَّاتٍ أُخْرَىٰ ما يَدُلُّ على أنَّهُ كان يتلو غيرهما في هٰذهِ الصَّلواتِ، أو يُوصِي بتلاوة غيرهما، وفي هذا دليل على عدم الالتزام دواماً بتلاوتهما في هذه الصلوات.

## (٣)
## موضوع سورة البروج

موضوع السورة يدور حول معالجة رَبَّانيَّةٍ لِطُغاةِ المشركين، الذين كانوا يفتنون ضعفاء المؤمنين والمؤمنات عن دينهم، بألوان من الاضطهاد والتَّعْذيب، وقد جاءت هذه المعالجة:

(١) بعَرْض مَثَلٍ تاريخيٍّ شَنِيعٍ، مقرونٍ بأبلغ التشنيع على أصحابه، وهو مَثَلُ أصحابِ الأُخْدُودِ، الذين كانوا قَدْ فَتَنُوا مؤمني بلدهم عن الدّين الحقّ الذي آمنوا به، وَأَكْرَهُوهم على الكفر به، وإلاَّ أَحْرَقُوهُمْ بالنار التي أوقدوها في الأُخْدُود، إشعاراً بأنّ عَمل طُغاةِ المشركين مُشَابه لما كان قد عَمله أصحابُ الأُخْدُود المَلْعُونُونَ أشَدّ اللَّعْن الذي يفضي بهم إلىٰ العذاب الشَّديد في نار جهنّم، وإلى عذاب الحريق فيها.

(٢) وبوعيدٍ للذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات عن دينهم من طغاة المشركين بالحريق مَتْبُوعٍ بوعْدٍ كريمٍ للَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات.

(٣) وببيانٍ لبعض صفات اللَّهِ جلّ جلاله، ممَّا له علاقَةٌ بقانون الجزاء الرَّبَّاني.

(٤) وبتذكير ببعض المهلكين الأوَّلين من كُفَّار القرون السَّابقة.

(٥) وبوصْفِ حالِ كُبَراء المشركين المكذّبين للرسُول، والمكذّبين بالقرآن الذي يَتْلُوهُ عليهم، مُنَزّلاً من لَدُن عزيز حكيم، والذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بالاضطهاد والتعذيب، وببيان أنَّ القرآن الذي يكذّبون به قرآنٌ مَجيدٌ تَدُلُّ صفاتُ مَجْدِهِ على أنّه مُنَزَّلٌ من عند اللّه، وأنَّهُ في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ عند اللّه، أي: وهو مُنَزَّلٌ على الرسول محمّد ﷺ كما هُوَ في اللَّوْحِ المحفوظ.

## (٤)
## دروس سورة الْبُرُوج

تشتمل سورة البروج على خمس/ دروس:

**الدرس الأول**: الآيات من (١ ـ ٩) وهي تتناول قصَّة أصحاب الأُخْدُود بإيجازٍ شديد، مع التشنيع عليهم بأشَدِّ صُوَرِ اللّعْن، المعبَّرِ عنه بالقتل.

**الدرس الثاني**: الآيتان (١٠ ـ ١١) وهما تتضمّنان الوعيد المؤكّد للّذينَ فتنوا المؤمنين والمؤمناتِ ثُمَّ لم يَتُوبوا بعذاب الحريق في جهنّم، مع أنواع أخرى من العذاب والوَعْد المؤكّد للّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات بجَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأنْهار، يكون لهم فيها نعيم خالد.

**الدَّرْسُ الثالث**: الآيات من (١٢ ـ ١٦) وهي تُبَيّن طائفةً من المفهومات الاعتقاديَّةِ المتعلّقة باللّه عزّ وجلّ، ممّا له علاقة بحكمته جلَّ جلاله، في قانون الجزاء الّذي قَدَّرَهُ اللّهُ وَقضاهُ، للّذِين يضَعُهم موضع الامتحان في الحياة الدنيا، وممّا لَهُ علاقة بسلطانه العامّ، فهو: «شديد البطش ـ يُبْدِىء الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ـ غَفُورٌ وَدُودٌ للمؤمنين ـ ذو الْعَرْشِ المجيد ـ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وإرادَتُهُ سُبْحانَه لا تُفارِقُ حكمته».

**الدَّرس الرابع**: الآيتان (١٧ ـ ١٨) وفيهما تذكيرٌ بإهْلاَكِ فِرْعَوْنَ ومَلَئه وجنوده، وإهلاك ثمود الذين سَبَقَ الحديث عنهم بإيجازٍ في سورة (الشمس) وفي سورة (الفجر).

وفي هذا التذكير دليلٌ واقعيٌّ على حكمة الجزاء الرَّبَّاني الصادر به قدر وقضاءٌ، وهو موضوعٌ موضع التنفيذ كلَّما اقتضى حال العباد ذلك.

**الدَّرْسُ الخامس**: الآيات من (١٩ ـ ٢٢ آخر السورة) وفيها بيانٌ لواقع حال المكذّبين بالقرآن، الذين يفْتنُونَ المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بالاضطهاد والتعذيب، مقرون بتهدِيدٍ ووعيدٍ لهم. وفيها بيانٌ بشأن القرآن الذي يكذّبون به، وأنَّهُ مجيدٌ يشْهَدُ له مَجْدُهُ في مبانيه وفي معانيه على أنَّهُ مُنَزَّلٌ من عند اللَّه العزيز الحكيم، وأنَّهُ مُدَوَّنٌ عند اللَّهِ في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ لا يمسُّهُ إلاَّ الملائكة المطهَّرون.

وهكذا نلاحظ ترابط دُروس السُّورَةِ حول موضوعها ترابطاً محكماً دقيقاً، وتَشَابُكَ فروعها وأغصانها تشابكاً بديعاً ضِمْنَ شَجَرَةِ مَوْضُوعها.

إنّ كُلَّ سُورَةٍ من سُوَر القرآن بمثابة شجرة، وترتيبُ آياتها ترتيبُ نِظَامٍ شجريّ، وليس تَرْتِيبَ سِلْسِلَةٍ ذاتِ حلقاتِ متتابعاتِ الصَّفِّ والتَّعَلُّق.

فعلى المتدبّر للسُّوَرِ القرآنيّة أنْ يَكُونَ على بصيرة من هذا، حتَّىٰ لا يَنْتَزِعَ ترابطاً بتَمَحُّلٍ يُفْسِدُ دَلاَلات القرآن، وترابط آياته في السُّورَة.

## (٥)
## التدبُّر التحليليّ للدرس الأول من دُرُوس السورة

**وهو الآيات من (١ ـ ٩)**

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ

ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

يُقْسِمُ رَبُّنا في مطلع هذا الدّرس الأوّل من دُرُوسِ السُّورة، بأربع آياتِ دَالأَتٍ على شُمولِ علمه وكَمَالِ حِكْمَتِهِ وقُدْرَتِهِ، على تَحقُّقِ إحْدَى ظواهر حِكْمَتِهِ في عباده، وهي قانون الجزاء، الَّذي هو الغايَةُ من وَضْعِ ذوي الإرادَاتِ الحرَّةِ مَوْضِعَ الابتلاء في ظروف الحياة الدُّنيا.

**الآية الأولى من آياته في كونه**: السَّماءُ ذَاتُ البروج، وقَدْ دلّ على القَسَم بها قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾.

المراد بالسَّماء هذه القبَّة الزرقاء الّتي تَسْبَحُ فيها النجوم والكواكب، ذوات الأعداد المذهلة، وكلٌّ منها له طريق سَيْرٍ لا يتعدّاه، ولَهُ منَازِل، وله بُروج.

**البُرُوج**: مفردها «بُرْج»، ويظهر أنَّ المراد بالبروج منازل الكواكب والنجوم في السَّماءِ، على خطوط سيرها، ومداراتها في أفلاكها.

ووَصْفُ السَّمَاءِ بأنّها ذاتُ البُرُوج يَدُلُّ على أنها أبْعَادٌ فضائية، وزّعَ اللّه فيها النُّجومَ والكواكبَ توزيعاً حكيماً، وجعل لها فيها منازل ومَسِيرَاتٍ ومَدَارَاتٍ في أفلاك، وأبْدَعَ تَنْظِيمَ حركاتِها إبداعاً مُذْهِلاً، ونشَرَ بينها قُوىً وجاذِبياتٍ تجعل كلَّ نجم وكلَّ كوكب منها لا يخرُج عن خطّ سيره، ولا عَنْ مدَارِه، ولا عن مَنَازِله المحكمة المقدَّرَة له.

إنّ علماء رَصْد النجوم والكواكب والمجَرَّاتِ المتتبّعين لحركاتها، ولمنازلها، على خطوط سيرها ومداراتها في أفلاكها، يَجِدُون إتْقاناً مذْهلاً، ونظاماً بَدِيعاً رائعاً، لا يَخْرِمُ حُدوده في ملايين السنين مقداراً ما مَهْما قَلّ.

هكذا يقولُ علماءُ الفلك، فالقَسَم بالسَّماءِ ذاتِ البروجِ هو في الحقيقة قَسَمٌ بظاهرة من ظواهر صفات اللّه الجليلة، وهٰذه الظاهرةُ الرائعةُ تَدُلُّ على

عِلْمِ اللَّهِ المُحِيط بكلِّ شَيْءٍ، وعَلَىٰ قُدْرَتِهِ، وعلى حكمته العجيبة، وعلى إتقانه في قضائه وقَدَرِهِ وخَلْقِه.

والقَسَمُ بالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ، هو في لوازِمِهِ الفكريّة قَسَمٌ بِيَوْمِ الحياة الدُّنيا، وبأنظمته كلّها.

فلدىٰ التأمُّل في واقع هذا الكون، وفي دلالات النُّصوص القرآنيّة، نُلَاحظ أنَّ يَوْمَ الحياة الدُّنيا مُرْتَبِطٌ بهذا النظام الّذي تَسِيرُ عليه السَّماءُ ذَاتُ البروج.

وحين يُريد اللَّه عزّ وجلّ تحقيق قضائه وقدره، بإنْهاءِ هذا اليَوْمِ، فإنَّهُ يُكوّرُ الشمس، ويَنْثُرُ الكواكب، ويجمع الشمس والقمر، ويَنْسِفُ الجبال، ويقيم قيامة كلِّ هٰذِهِ الظاهرات المنتظمة، ويفني الأحياء.

حتّىٰ إذا جاء ميعاد اليوم الآخِرِ، يُبَدِّلُ اللَّهُ عزّ وجلّ الأرض غير الأرض والسماوات، وذلك هو اليَوْمُ الموعُود.

**الآيَةُ الثانية من آيات اللَّه في كونه**: هي آيَةُ إعْلانِهِ عن اليوم الآخر الموعود، فيما بَعَثَ به رُسُلَه، وفيما أنزلَهُ من كُتُب، فهذا اليومُ الموعود هو الذي تقتضيه حتماً حكمته جلَّ جلاله، بَعْدَ أنْ وضَعَ ذوي الإرادات الحرَّة موضع الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا. وذلك لأنَّ الابتلاء يقتضي في حكمة الحكيم الحسابَ وفَصْلَ القضاء وتحقيق الجزاء حتماً، وإلاَّ كان وُجودُ هذا الكون باطلاً وعبثاً.

فَوُجودُ يوم الحياة الدنيا يوم الابتلاء، يَسْتَلْزِمُ حتماً أنْ تشتمل خطة الخالق الرَّبّ على إيجاد يوم آخر، يتحقَّقُ فيه الحسابُ، وفَصْلُ القضاء، والجزاء، فَمِنَ الأُمُورِ البَدَهِيَّةِ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ باليوم الموعود، كما أقْسَمَ بالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوج الَّتِي هِيَ الظاهرة العظمى ليوم الحياة الدنيا، وما فيه من كلِّ مشهود، فَهُمَا جميعاً من مظاهر حكمته جلّ جلاله، وقد دلَّ على هذه الآية

الثانية، وعلى القَسَم بها، قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ۝٢﴾.

أمّا المقسمُ به الأوّل فعظمَتُه مشهودةٌ ظاهرة، وتَزْداد هذه العظمة لدى الباحثين الكونيين، الّذين يَدْرُسونَ الكَوْنَ، ويتفكّرون في نظام السماوات، وحركة الكواكب والنجوم في أفلاكها، ويتفكّرون في منازلها وفي بُرُوجها، فيَرَوْنَ فيها براهين على الخالق العليم القدير الحكيم، الّذي أتقن كلَّ شيءٍ صُنْعاً.

وأمّا المُقْسَمُ به الثاني، وهو اليوم الموعود، فمن تَدَبَّر في حكمة الخالق الرَّبِّ المُبْدِعِ الحكيم، ظهر له بالبرهانِ العقلي، أنَّ مُقَدِّرَ اليوم الجاري، وهو يوم الحياة الدنيا، وخالقَ الإنسان فيه بصفاته الّتي هو عليها، القادر بمقتضاها أنْ يَفْعَلَ الخير ويَفْعَلَ الشرّ بإرادَتِه الحرَّة، وأنْ يَرْحَمَ ويَظْلِم، وأن يَعْدِلَ ويَجُور، وأنْ يُؤْمِنَ ويَكْفُرَ، وأنْ يُطِيعَ رَبَّه ويَعْصِيَه، لا بُدَّ أن يكون قد وضَعَ في خُطَّتِهِ وبرنامجه خَلْقَ يَوْمٍ آخر، يُحَاسِبُ فيه، ويقضي فيه بين عباده، ويَجْزِيهم بحسَبِ أعمالهم، فالمُحْسِنُ يجزيه بفضله، والمُسِيءُ يَجْزيه بعدله، أو يغفر له إذا اقتضت حكمته ذلك، ما لم يكن كافراً برَبِّه، ولو من أخفّ دَرَكات الكفر.

إنَّ عظمة اليوم الأوّل المشهود، تَدُلُّ دَلالَةً برهانيَّةً عقليَّةً على عظمة اليوم الآخر الموعود، فكانَ من الحكمة أن يُقْسِمَ اللَّه به، إعظاماً لأمْرِهِ، وإطماعاً بما فيه من أجْرٍ عظيم، وثوابٍ جزيل، وتخويفاً ممَّا فيه من عقاب أليم، وجزاء عادلٍ حكيم.

وفي جعل القسم باليوم الموعود وهو غيبيٌّ بين قسمين من آيات اللَّه المشهودة إشارةٌ إلى أنه هو المقصود بالتأكيد بالقسم، وهذا أسلوب مبتكر قائم على إدْرَاج المقسم عليه ضِمْنَ الأمور المقْسَم بها.

وبسط قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾.

يكونُ على الوجه التالي:

أُقسِمُ لكم أيّها المتفكّرون المتدبّرون الباحثون، بيَوْمِ الحياة الدنيا، يَوْمِ التكْليفِ والابتلاء، المرتَبِطِ بقاؤه ببقاء نظام حركة الكواكب والنجوم والمجرّاتِ في السَّماء، وأُقسِمُ باليَوْمِ المَوْعُودِ، يَوْمِ الحِسَابِ وفَصْلِ القضاءِ وتحقيق الجزاء، اليوم الذي تُبَدَّلُ فيه الأرض غير الأرض والسَّمَاوَات، والذي يَدُلُّكم على ضَرُورَتِهِ برهان العقل.

**الآية الثالثة من آيات اللَّه**: هي آية القرآن، وقد دَلَّ عليها وعلى القَسَمِ بها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَشَاهِدٍ . . . ۝٣﴾.

نظرت فيما أورده المفسّرون من آراء لا تستند إلى بيان عن الرسول ﷺ، فلم أَجِدْ بينها وبين عناصر السورة تناسُباً ما.

وتفكَّرْتُ في المناسبة، فرأيت أنَّ السُّورَة قد بُدِئَتْ بالقَسَم بيَوْمَي الابْتِلاَءِ والجزاء، وخُتِمَتْ بالحَدِيث عن المكذّبين للرَّسُولِ والمكذّبين بما جاء به عن ربّه، وبالحديث عن القرآن المجيد.

ورأيْتُ أنَّ الابتلاء في يوم الحياة الدنيا، يقتَضِي رسُولاً يُرْسِلُهُ اللَّهُ للمكلَّفِين، ليبلّغَهُمْ موادَّ امْتِحانهم.

ورأيْتُ أنَّ هذا الرَّسُولَ يَحْتَاجُ شاهداً من لَدُنْ مُرْسِلِه، يَشْهَدُ له بصِدْقه، فيما يُبَلِّغُ عن رَبّه، ليمتاز النبيُّ الصادقُ من المتنبّي الكذَّاب.

ورأيْتُ أنَّ القُرْآن بإعجازِهِ في مبانيه وفي معانيه، هو الشاهِدُ الدّائم المنَزَّلُ من عِندِ اللَّهِ جلّ جلالُه وعظُمَتْ حكمته، على صِدْقِ الرَّسول محمّد ﷺ.

ورأيْتُ أنَّ السُّورَة خُتِمَتْ بالحديث عن القرآن.

فظهر لي أنّ المرادَ بالشَّاهِد الذي أقسم اللَّه عزّ وجلّ به في قوله: ﴿وَشَاهِدٍ...﴾ كتابُ اللَّه القرآن، الذي يُنَزِّلُهُ اللَّه مُعْجِزاً شاهداً على صِدْقِ رسُولِهِ محمّد ﷺ.

ثُمَّ بَحَثْتُ في سُوَر القرآن المجيد، لَعَلّي أجِدُ فيها بياناً صريحاً وصَفَ اللَّه عزّ وجلّ فيه القرآن بأنه شاهِدٌ لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ بصِدْقِهِ في رسالته، وبلاغاته عن رَبّه، فوجَدْتُ قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أمَّا الّذي هُو على بَيِّنَةٍ من رَبّه بحَقائِق الوَحْي إلَيْهِ الّذِي رآهُ بِبَصَرِهِ وعَلّمَه، فهو الرَّسُولُ محمَّدٌ ﷺ.

وأمّا الشَّاهِدُ من اللّهِ الّذِي يَتْلُو الرَّسُولَ محمّداً، أي: يَتْبعُهُ فتتَنَزَّلُ عليه نُجُومُه، فَيَشْهَدُ له بما فيه من إعجاز في المَباني وفي المعاني، أنَّهُ رَسُولُ اللّهِ حقاً وصِدْقاً، فَهُوَ القرآنُ لا محالة.

ويَشْهَدُ له أيضاً كتابُ مُوسَىٰ الّذِي أَنْزَلَهُ اللّهُ على رسولِهِ موسَىٰ عليه السّلام مِنْ قَبْلِ القرآن، إمَاماً ورحْمَةً، بما اشتمل عليه من بشائرَ تُبَشِّرُ بالرَّسُولِ الخاتم محمّد ﷺ.

فتأكَّدَ عِنْدِي أنّ المُراد بالشَّاهِد القرآنُ المجيد، وقَدْ أقْسَمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ به تَنْبِيهاً عَلَىٰ عَظَمتِهِ، وتَوْجيهاً لما فيه من إعجازٍ يُثْبِتُ صِدْقَ الرَّسُولِ الّذِي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ، في دَعْوَاهُ النبوَّةَ والرِّسالة، وتَوْجيهاً للأخذ بما فيه من بلاغٍ للنَّاس، يُبَيِّنُ لَهُمْ مَوادّ امتحانهم في الحياة الدنيا، إيماناً، وعملاً، ظاهراً وباطناً.

**الآية الثالثة من آيات اللّه**: الرَّسُولُ محمَّدٌ ﷺ، وقَدْ دلَّ عَلَىٰ هٰذِهِ

الآيةِ، وعَلَىٰ القَسَمِ بها، قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿. . . وَمَشْهُودٍ﴾.

لقَدْ ظهر لنا المرادُ بقوله تعالىٰ: ﴿وَشَاهِدٍ. . .﴾ ومِنْهُ نَعْلَمُ أنّ المراد بقوله تعالىٰ: ﴿. . . وَمَشْهُودٍ﴾ الرَّسُولُ محمّد ﷺ، أي: المشهود له بالنبوّة والرّسالَة، مِنْ قِبَلِ الشَّاهِدِ الذي هو القرآن المجيد المعجز.

وحذف مثل هذه التعدية وهي «له» مألُوف في القرآن الكريم، وحسَّنَهُ التلاؤم اللّفظي بين: ﴿الموعُود﴾ وبين ﴿مَشْهُود﴾ في آخِرِ الآية الثانية، وآخِرِ الآية الثالثة.

وقد أقْسَمَ اللَّه عزَّ وجلَّ برسوله محمّد ﷺ تَنْبِيهاً علىٰ حكمته جلَّ جلالهُ في اصطفائه للنبوّة الخاتمة للنبوَّاتِ، وفي اصطفائه للرسالة العُظْمىٰ الخاتمة للرسالات، وتمجيداً بخُلُقِهِ العظيم، وثناءً عليه تطييباً لخاطره في مقابل تكذيب القَوْم له، وتوجيهاً لأنْظار النَّاسِ نحو صفاته الدّاعيات لهذا التمجيد.

فتَمَّ بَيْنَ الأقْسام وبَيْنَ عناصر السُّورَة التلاؤُمُ التامّ، والحَمْدُ للَّهِ على فَتْحِهِ.

## لمحة عن القسم في القرآن:

القَسَمُ في القرآن يتضمَّن تَنْبيهاً على عظمة المُقْسَمِ به، أو تمجيدِهِ والثناءِ عليه، فهٰذِهِ من لوازم القسم.

وحين يكون المُقْسَمُ به مما يستطيعُ النّاسُ التَّوَصُّل إلى معرفة عظمته، وجلالَة قَدْره، فإنّ في القَسَم به توجيهاً ضمنياً للبَحْثِ عن صفاته الدَّالأَت على عظَمتِهِ، فعظمةِ صانعه، أو خالقه ومُقَدِّر مقاديره ومانِحِهِ صفاته.

وحين يكون الغرضُ من القَسَم بالشَّيْءِ تمجيدَ المُقْسَم به والثناءَ عليه، فقد يكون المراد بالثناء عليه تَسْلِيَتَهُ، وتطييبَ خاطره، أو مُكايَدَة أعدائه، مع توجيه النَّظَر لمعرفة صفاته الدّاعيات إلى الثناءِ عليه.

ويُؤْتَى بالقَسَم عادةً لتأكيد قضايا خبريَّة، وقَعَتْ فيما مضى، أو هي واقعةٌ فيما لا يزالُ من أمورٍ غيبيَّة، أو ستقع فيما سيأتي مستقبلاً، ويَدْخُلُ في هذا الوَعْدُ بما سيكون، أو سَوْفَ يكون.

وقد عَهِدْنَا في الأقسام القرآنيَّة التناسُبَ بَيْنَ المُقْسَم به والمُقْسَم عليه في السُّورَة، فعلى المتدبّر أنْ يتأنَّىٰ في التفكير والتأمّل حتّى يُدْرِكَ التناسُبَ بين المقْسَم به والمقْسَمِ عليه.

● قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾.

بالتدبّر المتأنّي ظَهَرَ لي أنَّ هذا هو المُقْسَمُ عليه بالأقْسَامِ الرَّبَّانيَّة الَّتي بدأ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها السُّورة.

أي: لُعِنَ أصْحَابُ الأُخْدُود لَعْناً أبديّاً يَنالُونَ به عَذَابَ الحَرِيقِ المتجدِّد في جهنَّم، مَعَ أنواع العذاب الأُخْرَى الّتي جعَلَها اللَّهُ في جهنّم للكافرين المجرمين الّذين يَفْتِنُونَ الناس عن دينِهِم بالاضطهاد والتعذيب.

جاء في هذه العبارة استعارة لفظ [قُتِلَ] للدَّلاَلة على اللَّعْنِ الأبَدِيّ المقرون بأنواعِ من العذاب في جَهَنَّم، وأشَدُّهُ عذاب الحَرِيقِ المتجدّد، كلّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بدَّلَهُمُ اللَّهُ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العذاب.

وهذا أمْرٌ يستَحِقُّ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ على أنّه قضاءٌ مُتَحَقِّق لا محالة، بيَوْمَي الدُّنيا والآخِرَة، وبالقرآن، وبالرَّسُولِ محمَّد ﷺ، أي: بيَوْمِ الابتلاء، وبيَوْمِ الجزاء، وبالمُعَرِّفِ بمادَّةِ الابتلاء وهو القرآن، وبالمبلِّغ والمبيّن للناس ما نُزِّل إلَيْهِمْ وهو النبيُّ الرسول.

جاء عند أهل التفسير تفسير فعل [قُتِلَ] في الآية بمعنى: «لُعِنَ»، واللَّعْنُ في اللُّغَةِ هو الطَّرْدُ، والإبعاد، والسّبُّ والشتيمة.

وحِينَ يكونُ اللَّعْنُ مُوَجهاً من اللَّه عزّ وجلّ، فهو الطَّرْدُ والإبعاد عن رحمة اللَّه.

**أقول**: لكنّ الطَّرْدَ والإبْعادَ لا يَسْتَلْزِمانِ أن يكونا أبديَّيْن، فقد يُطْرَدُ المطرودُ ويُبْعَدُ مؤقتاً لجُرْم أصابَهُ، ثُمَّ يَتُوبُ، فَيُعَادُ إلى مَنازِل القرب، وتَشْمَلُه دائرة الرَّحْمَةِ الرَّبَّانيَّةِ الّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَدَيْهِ قابليَّةٌ ما لأَنْ تُمْطِرَ عليه شَآبيب الرَّحْمة، أمَّا من حَجَبَ نفسه بجُحُودِهِ وجَرَائِمِه، فهو الذي اختار لنفسه أنْ يَحْرِمَهَا من خيرات رَحْمَةِ رَبّه.

لكنّ مَنْ يُقْتَلُ فَقَدْ حُكِمَ عليه بالطَّرْدِ والإبْعَاد الأبَدِيَّيْن، فَمَنْ تُوَجَّهَ له عبارَةُ: [قُتِلَ] في القرآن، فقد نصَّ البيانُ الرَّبَّانيُّ على أنَّهُ مَطْرُودٌ مُبْعَدٌ أبديّاً، عن مدىٰ رحمة اللَّه الّتي وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ.

وفي هذا دلالَةٌ على أنَّ جريمته قد بلَغَتْ أقْصَىٰ الجرائم، وأنَّه أَمْسَىٰ مَيْؤُوساً من عودَتِهِ إلى أيّ مَنْزِلٍ من المنازِلِ المشمولة برحمة اللَّه جلَّ جلاله، ومُسْتَحِقّاً للخلود الأبَدِيّ في عذاب اللَّه، وجَهَنَّمُ هي مَصِيرُه الذي هو صائر إليه.

وبهذا نُدْرِك أنّ استعارة فِعْلِ (قُتِلَ) للدَّلاَلة على الطَّرْدِ الأبدي، قَدْ تَضَمَّن باللُّزوم العقلي الكناية عن القضاءِ بالتعذيب الأبديّ في جهنَّم، دارِ خُلود الكَفَرَةِ المسرفين في الجحود، وفي ارتكاب كُبْرَيَاتِ الجرائم، وهم الأَشْقَوْن الذين يُعَذَّبُون فيها بعذاب الحَرِيق.

ولهذا لم تأتِ عبارةُ [قُتِلَ] في القرآن الكريم إلاَّ في أربع سُوَرٍ مكيّة:

(١) فقد جاءت في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) بشأن الوليد بن المغيرة، الّذي فكّرَ في القرآن وقَدّر، وعَلِمَ في قرارة قلبِهِ أنَّهُ لا يقولُ مِثْلَهُ بَشَرٌ، لكنّه أدْبَرَ واسْتَكْبَرَ وكفر، وزَعَمَ أنّه سِحْرٌ يُؤْثر، وقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾، فحَقَّ عليه أنْ يقول اللَّه عزّ وجلّ بشأنه:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾.

(٢) وَجاء في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) بشأن الكافر المعاند، المصرّ على كُفره، على الرُّغم من ظُهور أدِلَّةِ الحقّ له، قَوْلُ اللّه عزّ وجلّ:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

أي: قُتِلَ الإنسان الجاحد الكافر المعاند، مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ بالحقّ الجليّ الواضح ببراهينه.

(٣) وجاء في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) الَّتي نتدبَّرُ آياتها، بشأن الطُّغَاةِ البغاة الظلمة، الذين بلَغُوا في كفرهم وطغيانهم، وجرائمهم الشنيعة، أنّهم جَعَلُوا يُحَرِّقون المؤمنين والمؤمنات في الأخاديد التي أوقدوا النار فيها، لأنّهم آمنوا باللّه العزيز الحميد الذي له مُلكُ السَّمَاوات والأرض.

(٤) وجاء في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن المكذّبين بيوم الدّين، الذين يَبْنُونَ تكذيبهُمْ به على الخَرْصِ، وهو الكذب، أو الوهم والظنُّ الضعيف، ويَرْفُضون الأدلّة والحجج العقليّة البرهانيّة، والأخبار الرّبّانيَّة الّتي بلّغَهم إيّاها الرّسُولُ المؤيَّدُ من ربّه بالمعجزات الباهرات، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾.

هؤلاء الّذِين لعنهم اللّهُ في القرآن لعناً أبديّاً، يُوصِلُهم إلىٰ الدَّرْك الأسْفل من جهنّم، وهذا من العَدْل الرَّبّانيّ.

وبهذا نُلاحظُ أنّ عبارةَ: [قُتِلَ] أشدُّ وأبْلَغُ في الطَّرْدِ والإبْعَادِ من عبارةِ «لُعِنَ».

ونسألُ اللَّه السَّلاَمَةَ من سَخطِهِ وغضَبِهِ وعَذَابِهِ، ونَعُوذُ به من شُرُورِ أَنْفسِنَا وسَيّئَاتِ أعْمَالِنَا.

● ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾.

**الأُخْدُود**: هُوَ الشَّقُّ المُسْتَطِيلُ في الأرض، أو الحُفْرَة المستطيلَةُ، كالخندق والجَدْول.

**وأصْحَابُ الأُخْدُود**: هُمْ قَوْمٌ كَفرَةٌ، طُغَاةٌ بُغَاةٌ ظَلَمَةٌ، حَفَرُوا الأُخْدُود في بَلَدِهِم، وأَوْقَدُوا فيه النّار، للتَّنْكِيل بالمُؤْمِنِينَ والمؤمنات وتَحْرِيقهم، لمجرَّدِ أنَّهُمْ آمنوا باللَّهِ العزيز الحميد.

## مَنْ هُمْ أَصْحَابُ الأُخْدُود؟

لم أجِدْ عند المفسّرين تحديداً مجزوماً به لأصحاب الأخدود، لكنّ تاريخ الطغاة الجبابرة في الأرض يُسَجّل عدّة وقائع، يمكن انطباقُ قصة أصحاب الأخدود على كلٍّ منها.

ومن هذه القصص قصَّةٌ وقعَتْ في بلاد العرب، ويظهر أنَّها من القصص الّتي يرويها قصّاصوهم، مع ما يدخل في رواياتهم من تحريف وزيادة ونقص، كشأن سائر القصص الّتي تتناقلها الأفواه دون تدوين.

فما جاء في سورة (البروج) يُحْمَلُ عليها بالدّرجة الأولى، ولا مانع من تطبيقها على سائر القصص المماثلة.

وقد ورد في الصحيح عن النبيّ ﷺ قصَّةٌ تَصْلُح لانطباق ما جاء في سورة (البروج) عليها، لكن لم يأتِ فيها تحديد المكان والزمان، إنَّما جاء فيه ذِكْرُ كلمة: «راهب» وهٰذهِ من مصطلحات النصارىٰ أتباعِ عيسىٰ عليه السلام، فلا مانع من أنْ تكون إشارةٌ لقِصَّةٍ حَدَثَتْ في نجران، كان يتحدّث بها العرب، فقد دخلَتِ النصرانيَّةُ عَرَبَ نَجْران، ووَفَدَ من وافديهم قِسّيسُون

ورُهبانٌ على رسول اللَّه ﷺ، وقد جاء في القرآن ثناءٌ عليهم.

روى الإمام مسلم والإمام أحمد كما ذكر ابن كثير عن صُهَيْب رضي اللَّه عنه (واللفظ لمسلم) أنّ رسول الله ﷺ قال:

«كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قال لِلْمَلِكِ: إنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَاماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَاماً يُعَلِّمُهُ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ، وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذٰلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذٰلِكَ إِذْ أَتَىٰ عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ، السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَل؟

فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فَاقْتُلْ هٰذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسِ، فَرَمَاهَا، فَقَتَلَهَا، وَمَضَىٰ النَّاسُ.

فَأَتَىٰ الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ.

وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي.

فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَداً، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَىٰ، فَإِنْ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّهِ، فَشَفَاهُ اللَّهُ.

فَأَتَىٰ الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ

عَلَيْكَ بَصرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَال: أَوَ لَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ.

فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَتَفعَلُ وَتَفعَلُ!

فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحداً، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَىٰ.

فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَى الرَّاهب.

فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ، فَوُضِعَ الْمِنْشَارُ فِي مِفْرَقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ، حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ.

ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ.

فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذهَبُوا بِهِ فَاحمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ(١)، وَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ.

فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

---

(١) **القُرْقُور**: نَوْعٌ من السُّفُن البَحْرِيَّة.

فَقالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعالَىٰ، فَقالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي، حَتَّى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ بِهِ.

قَالَ: ما هُوَ؟

قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهماً مِنْ كِنانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ قَتَلْتَنِي.

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهماً مِنْ كِنانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فَمَاتَ.

فَقالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.

فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، فَقَدْ آمَنَ النَّاسُ.

فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ، وَأُضْرِمَ فيها النِّيرَانُ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ، فَأَقْحِمُوهُ فِيها، أو قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ.

فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ، اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ».

هكذا رواه مسلم، ونظيره عند الإمام أحمد، ورواهُ أيضاً النَّسائيّ والترمذيّ، بنحو ذلك.

وظاهرٌ أنَّ قِصَّةَ هذا الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ تَصْلُحُ شَرْحاً لِقِصَّةِ أصحابِ الأُخْدُودِ الواردة في سُورَةِ (البروج)، ولٰكِنْ لَيْسَ فيها ما يَدُلُّ على تَعْيِينِ أنَّها هِيَ المرادة.

واعْتِبار «نَجْران» مَسْرَحَ هذا الحَدث التاريخي يُشْكِلُ عليه أنَّ البَحْرَ بَعِيدٌ عَنْهَا، وقصَّةُ الحديث فيها قُرْقُورٌ وبَحْرٌ.

وذِكْرُ كلمةِ «رَاهِب» في القِصَّةِ الَّتِي جَاءَتْ في الحديث النبويّ تَدُلُّ على أنَّها حَدَثَتْ أيَّامَ انْتِشَارِ النَّصْرَانِيَّةِ بَعْدَ عِيسىٰ عَلَيْهِ السّلام، بدَعْوَةِ القِسِّيسينَ والرُّهْبان، وَقَدْ كانَ النَّصارَى يتعرَّضُون لاضطهادٍ شديدٍ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ الرُّومانِيَّةِ ومِنْ قِبَلِ اليَهُودِ، ومن غيرهم.

وجاء في سيرة ابن هشام، قال ابنُ إسحاق: وحدَّثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كَعْبِ القُرَظي، وحدَّثني بعض أهل نجران عن أهلها، أنَّ أهل نجران كانُوا أهلَ شِرْكٍ، يَعْبُدونَ الأوثان، وكان في قَرْيَةٍ من قراها قريباً من نجران ساحِرٌ يُعَلِّمُ غِلْمانَ أهْلِ نجران السِّحر.

فلمَّا نَزَلَها «فَيْمِيُون»[1] ـ قال ابنُ إسحاق: ولم يُسَمُّوه لي باسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه ـ قالوا: رَجُلٌ نَزَلَها، ابْتَنَىٰ خَيْمَةً بين نَجْرانَ وبَيْنَ تِلْكَ القريةِ الّتِي بها السّاحر، فجعل أهْلِ نجران يُرْسِلُون غلمانَهم إلى ذٰلِكَ السَّاحر يُعَلِّمهم السّحر.

فبَعثَ إليه الثَّامِرُ ابْنَهُ عَبْدَ اللّه بْنَ الثّامر، مع غِلْمَان أهْل نجران، فكان إذا مَرَّ بصاحِبِ الخَيْمَة أعْجَبَهُ ما يَرَىٰ من صلاته وعبادتِهِ، فجَعَلَ يَجْلِسُ إليه، ويَسْتَمِعُ منه، حتَّىٰ أسْلَمَ، فوَحَّدَ اللّهَ وعبَدَهُ، وجعلَ يَسْأَلُه عَنْ شرائعِ الإسلام، حتَّىٰ إذا فَقُهَ فيه جَعَلَ يَسْأَلُهُ عن الاسْم الأَعْظَم، وكان يَعْلَمُهُ، فَكَتَمَهُ إيَّاه، وقال له: يا ابْنَ أخي إنَّكَ لَنْ تَحْمِلَه، أَخْشَىٰ عَلَيْكَ ضَعْفَكَ عنه.

والثَّامِرُ أبو عَبْد اللّه لا يَظُنُّ إلاَّ أَنَّ ابْنَهُ يختَلِفُ إلَىٰ السَّاحِرِ، كما يَفْعَلُ الغِلْمانُ، فلمَّا رَأَىٰ عَبْدُ اللّه أنّ صاحبَهُ قد ضَنَّ به عنه، وتخوَّفَ ضعْفَهُ فيه[2]، عَمَدَ إلى أقداح فجمعها، ثُمَّ لَمْ يُبقِ للّهِ اسْماً يَعْلَمُهُ إلاَّ كَتَبَهُ

---

(١) فَيْمِيُون: راهب تقيٌ من رهبان النصارىٰ، نقل ابن هشام قصّة قُدُومه من الشّام إلى نجرانَ عن وهب بن مُنَبِّهٍ، قبل ذكر قصّة أهل نجران والساحر.

(٢) أي: ضنّ فَيْمِيُون بأن يُعلمه اسم الله الأعظم، وخاف أن يضعف في حَمْله، فيَسْتَعْمِلَهُ فيما يجُرُّ له فتنةً وبلاءً.

في قِدحِ، ولكلِّ اسمٍ قِدْحٌ[1]، حتَّىٰ إذا أَحْصَاها أَوْقَدَ لها ناراً، ثُمَّ جَعَلَ يَقْذِفُهَا فِيها قِدْحاً قِدْحاً، حتَّىٰ إِذَا مَرَّ بالاسْم الأعظم قَذَفَ فيها بقِدْحِه، فوثَبَ القِدْحُ حتَّىٰ خَرَجَ منها لم تَضُرَّهُ شيئاً، فأَخَذَهُ، ثُمَّ أَتَىٰ بِهِ صاحِبَهُ، فَأَخْبَرَهُ بأنَّه قَدْ عَلِمَ الاسم الذي كَتَمه.

فقال: وما هو؟

قال: هو كذا وكذا.

قال: وكَيْفَ عَلِمْتَه؟

فأخبره بما صنع. قال: أي ابْن أخي قَدْ أَصَبْتَهُ، فَأَمْسِكْ على نَفْسِكَ، وما أَظُنُّ أنْ تفعل.

فجَعَلَ عَبْدُ اللَّه بن الثامر إذا دخل نجرانَ لم يَلْقَ أحَداً به ضُرٌّ إلاَّ قال له: يا عَبْدَ اللَّه، أَتُوَحِّدُ اللَّهَ، وتَدْخُلُ في ديني، وأدعُو اللَّهَ فَيُعافِيك ممّا أنت فيه من البلاء؟

فيقول: نعم، فيُوَحِّدُ اللَّه، ويُسْلِمُ، ويَدْعُو له فيُشفَىٰ. حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ بنجران أَحَدٌ به ضُرٌّ إلاَّ أَتَاهُ فاتَّبَعَهُ على أمْرِه، ودَعَا له فعُوفِيَ.

حتَّىٰ رُفِعَ أَمْرُهُ إلى مَلِكِ نَجْران، فَدَعَاهُ، فقال له: أَفْسَدْتَ عَلَيَّ أَهْلَ قَرْيتي، وخالَفْتَ ديني ودين آبائي، لأُمَثِّلَنَّ بِكَ.

قال: لاَ تَقْدِرُ على ذٰلِكَ.

قال: فَجَعَلَ يُرْسِلُ به إلى الجَبَلِ الطَّويل، فَيُطْرَحُ علىٰ رَأْسِهِ، فيقَعُ إلى الأَرْضِ لَيْسَ به بأسٌ.

وجعلَ يبعثُ به إلى مِيَاهٍ بنَجْران، بحُورٍ لاَ يقَعُ فيها شَيْءٌ إلاَّ هَلَكَ، فيُلْقَىٰ فيها، فَيَخْرُجُ لَيْسَ به بأسٌ.

---

(١) القِدْحُ: سهم من خشب.

فلمّا غَلَبَهُ، قال له «عبد اللَّه بْنُ التّامر»: إنَّكَ وَاللَّهِ لَنْ تَقْدِرَ عَلَىٰ قَتْلِي، حَتَّى تُوَحِّدَ اللَّهَ فَتُؤْمِنَ بِمَا آمَنْتُ بِهِ، فإنَّكَ إنْ فَعَلْتَ ذٰلِكَ سُلِّطْتَ عَلَيَّ فَقَتَلْتَني.

قال: فَوَحَّدَ اللَّهَ ذٰلِكَ الْمَلِك، وشَهِدَ شَهَادَة عبد اللَّه بن التَّامِر، ثُمَّ ضَرَبَهُ بعصاً في يَدِهِ فَشَجَّهُ شَجَّةً غَيْرَ كبيرة، فقتله، ثُمَّ هَلَكَ المَلِكُ مكانه.

واسْتَجْمَعَ أهْلُ نجران على دين عبد اللَّه بن التَّامر، وكان على ما جاء «عيسَىٰ ابن مريم» من الإنجيل وحُكْمه.

ثُمَّ أصابَهُمْ ما أصابَ أهْلَ دِينهم من الأحداث، فَمِنْ هُنَالِكَ كان أصْلُ النّصرانيّة والله أعلم بذلك وأورد ابن إسحاق بعد هٰذِهِ القصّة ما يلي:

فَسَارَ إلَيْهِمْ ذُو نُواسٍ بجنوده(١)، فَدَعَاهُمْ إلى اليهوديَّةِ، وخيَّرَهم بين ذٰلِكَ والقتل، فاختاروا القَتْل، فخدَّ لَهُمُ الأخْدُود، فحَرَّقَ من حرَّقَ بالنّار، وقتَلَ بالسَّيْف مَنْ قَتَلَ، ومَثَّلَ به، حتَّىٰ قَتَلَ منهم قريباً من عشرين ألفاً.

قال ٱبْن إسحاق: ففي ذِي نُواسٍ وجُنْدِهِ تِلْكَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تعالىٰ على رسُولِهِ سيّدنا محمد ﷺ:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ الآيات.

**أقول**: هذا التعيين الذي ذكره ابْنُ إسحاقٍ لا دليلَ عليه. والقصّة الّتي رواها عن محمّد بن كَعْبِ القُرَظِيِّ، وعن بَعْضِ أهْلِ نجران، تختلف عن القصّة الواردة في الصحيح عن رسُول اللَّه ﷺ في تفصيلاتها، وما صَحَّ عن الرسُول ﷺ أَوْلى بالاعتماد، وإنْ لم يكُنْ في شيءٍ منهما دليلٌ على أنّها هيَ المرادةُ فيما جاء في القصّة القرآنيّة.

---

(١) **ذُو نُواس**: آخِرُ مُلُوك حِمْيَرَ، وقد تَسَمَّىٰ يُوسف، وكان على دين اليهود.

وعند المؤرخين قصَصٌ أخْرَى، وقَعَتْ في فارس، وفي العراق، وفي بلاد الرُّوم، وفي أرض غَيْرِ ما ذكر ٱبْنُ إسحاق، وغير القصّة التي رواها مسلم والإمام أحْمَدُ عن صُهَيْب عن الرسول ﷺ، وكلُّ واحدة منها تَصْلحُ لأنْ تُطبَّقَ عَلَيْها القِصَّةُ القرآنيَّة.

ولا مانع من اعتبار كلّ الأحداث والوقائع المشابهة داخلة في عموم القصّة القرآنية، فكُلُّ جبابرتها يَنْطَبِقُ عليهم قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾﴾:

لَفْظُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بَدَلُ اشْتمالٍ من الأُخْدُودِ، فَدَلَّ هٰذا علىٰ أنَّ أصْحَابَ الأُخْدُودِ قَدْ أَوْقَدُوا فيه النَّار، فاشْتَمَلَ الأُخْدُودُ على النّار، فَحَسُنَ أنْ يأتي لفظ [النّارِ] بَدَلاً منه، على طريقة بدَلِ الاشتمال، وبدَلُ الاشتمالِ من التعبيراتِ الفنيَّةِ في اللّسان العربيّ.

﴿ذاتِ﴾: بمعنى صاحِبَةٍ، وهِيَ كَلِمَةٌ يُتَوَصَّلُ بها إلى الوَصْفِ بالأجناس.

﴿الوَقُود﴾: هو الحَطَبُ، وكلُّ مادّةٍ تُوقَدُ بها النار.

وُصِفَتْ نارُ هٰذا الأُخْدُودِ بأنّها ذاتُ الوقود، لتَصْوير مَشْهَدِ المدَدِ من الوَقُودِ، الّذي جَمَعَهُ أو يجلُبُه أصْحَابُ الأُخْدُود، ويَجْعَلُونَهُ قَرِيباً منه، فَهُمْ يُمِدُّونها بالوقود اللاّزم لها، كُلَّما تقاصَرَتْ ألْسِنَةُ لَهَبِهَا.

وفي هٰذا التَّصْوير إبرازٌ لشناعَةِ عَمَلِهِمْ، وفظاعَتِهِ، وتَنْبيهٌ علىٰ مَا فِي

قُلوبِهِمْ من قَسْوَةٍ، وعلىٰ ما في وُجوهِهِم من لُؤْمٍ وغَيْظٍ، وكلاحَةٍ جَهَنَّمِيَّة.

وفي تَعْرِيف الوقود بـ (ال) إشارةٌ إلى كثرته، وتعاظم أكوام الحطب إلى جانب الأُخْدُود، حتَّىٰ كأنَّ كُلَّ الحطب الذي يستطيعون جمعه قد جمعوه.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾:

أي: اذكُرْ شَنَاعَة جَرِيمة أصحاب الأخدود إذْ هُمْ على نارهم مُشْرِفُون قُعُود، يَشْهَدُون تحريقَ الذين يُكْرِهُونَهُمْ على تَرْكِ دينهم الحقّ الّذي آمَنُوا به، بمعنى: ضع هذا في ذاكرتك أيّها المتلَقّي أيّاً كُنْتَ، وتصَوَّرْ مَبْلَغَ بَشَاعَةِ هذا المشهد الإجراميّ الشنيع.

فلفظ [إذْ] هنا ظرفٌ للزمان الماضي، وهو معمول لفعلٍ محذوف تقديره: اذكر.

أو هو معمولٌ لفعل [قُتِلَ] والمعنى: طُرِدَ أصحابُ الأُخْدُود طَرْداً أبديّاً لجريمتِهِم الشنيعة الّتي ارتكبوها، في الوقْتِ الذي كانوا فيه قُعُوداً مُشْرِفين على النار، الّتي أوْقَدُوها لتحريقِ المؤمنين والمؤمنات بالدِّين الحقّ. فقد بَلَغُوا بجريمتهم البَشِعَة غايَةَ الطغيان، وصارَتْ حالَتُهُمْ النفسيّة بذلك حالةَ مَيْؤُوساً من توبتهم بَعْدَها، فاسْتَحَقُّوا هذا الطَّرْدَ الأَبَدِيَّ المستلزم للعذاب الأبديّ في نار جهنّم، وقد أدْرَكَتْهُمْ مَنَاياهم دون أنْ يتوبوا.

﴿قُعُودٌ﴾: جمعُ «قاعد»، وقد دلَّ هذا البيان على أنَّ هؤلاء الطّغاة البغاةَ لم يَكْتَفُوا بأمْرِ جُنُودهم بتحريق المؤمِنين والمؤمنات وهُمْ في قُصُورهم، بل اتَّخَذُوا لأنفسهم مجالِسَ قريبةً من الأُخْدُود، ومُشْرِفَةً عليه، ليَسْتَمْتِعُوا بتحريق المؤمنين والمؤمِنَاتِ الّذِين يَرْفُضُون الرِّدَّة عن إيمانهم، والعودة إلى الكفر، والاستجابة لأوامر ذَوِي السُّلطان عليهم.

والضميرُ في عبارة [عَلَيْهَا] يعُودُ على النّار، وهو متعلّقٌ بـ [قُعُود]

مقدّمٌ عليه، رعايةً لرُؤُوسِ الآياتِ، وللتَّنْبيهِ على شناعةِ ما فَعَلُوا.

● قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾:

أي: والحالُ أنَّ أصْحاب الأخدود الآمِرِينَ به حاضِرُون ناظرون شاهدون على ما يَفْعَلُون بالمُؤمنين.

﴿شُهُودٌ﴾: جمع «شاهد» وهو الحاضر وقْتَ الحدَثِ، المُحِسُّ بما يجري فيه.

وفي هذا البيان مُتَابَعَةٌ لتصوير شناعة ما قاموا به، وتصوير فظاعَتِهِ، للتَّنْبيه على حالتهم النفسيَّةِ البالغة غايةَ الإجرام واللُّؤم والخِسَّةَ والكلاحَةِ الجهنميَّة.

إنَّهُمْ يُشاهِدُون من أَمَرُوا بتَحريقهم مُسْتَمْتِعِين، لمجرَّدِ أنَّهُمْ آمَنُوا بربِّهم.

إنَّهُمْ يَسْتَمْتِعُون بتعذيبهم وصُرَاخِهِم وعويلهم وقَتْلِ نسائِهِمْ وأطفالهم، دُون أنْ تَمَسَّ قُلُوبَهُمْ مشاعِرُ رحْمَةٍ أو شفقة، ودون أن يتحرَّكَ وجْدانُهم باستنكار ما يمارسُونه من ظُلْمٍ وطغيان، وبَغْيٍ وعُدْوان.

● قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾: فِعْل: «نَقَمَ يَنْقِمُ» مثل: ضَرَبَ يَضْرِبُ، و«نَقِمَ يَنْقَمُ» مثل: تَعِبَ يَتْعَبُ، يأتي بمعنىٰ: عابَ وذَمَّ، وبِمَعْنَىٰ: كَرِهَ أَشَدَّ الكراهِيَةِ وأَبْغَضَ، ويأتي بمعنىٰ: عاقَبَ. وتَعْدِيَةُ الفِعْل على هٰذِهِ المعاني الثلاثة تأتي بحَرْف الجرّ «مِنْ».

﴿إلاَّ أنْ يُؤْمِنُوا﴾: أي: إلاَّ أنْ يُتابعَ بعضُهُمْ بعْضاً بالإيمان، فاسْتِعْمال الفعل المضارع الَّذي يَدُلُّ على التجدُّدِ يُشْعِرُ بحركةِ انتشار الإسلام في القوم

المَنْقُوم عليهم، وهي الحركة الّتي يخشاها ذَوُو السُّلطان، والتي تجعل جماهير شعبهم يَعْمَلُون بمختلفِ الوسائل لتحكيم شَرْعِ اللَّه والعَمَلِ به، وهذا يتعارض مع أوامِرِهِم وقراراتهم الّتي يُحَقّقون بها أهواءهم، وإراداتهم الجَبرُوتيّة، لأنّها أوامِرُ وقرارات طاغوتيَّة، دوافِعُها مَصَالح ذوي السلطان وأعوانِهِم وأنصارِهم.

﴿**باللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**﴾: العزيز الحميد: اسمان وصْفيان من أسماء اللَّه الحسنى.

﴿**العزيز**﴾: أي: ذُو العزّة الكاملة، **والعِزَّة**: هي القُدْرَةُ على الْغَلَبَةِ، **فالعزيز**: هو القويُّ المقتدر الغالبُ لكلِّ شَيْء.

﴿**الحميد**﴾: هو الموصوف بجميع الصّفات العليَّةِ السَّنيَّة، الّتي يَحْمُدُه بها الأَوَّلُون، والآخِرُون، ويَحْمَدُهُ بها كُلُّ حامد، وهو بهذا المعنىٰ على صيغة «فَعِيلِ»، بمعنى مَفْعُول، أي: محمود كثيراً.

والحميد أيضاً هو الذي يَحْمَدُ عبادَهُ على ما يكون منهُمْ من أمُورِ تَسْتَحِقُّ الحَمْدَ والثناء، وهو بهذا المعنى «فعيل» بمعنى فاعل، أي: كثير الحَمْدِ لعباده المستحقّين للحَمْد، وحَمْدُ اللَّه لعباده يستلزم مكافأتَهُمْ على صالحات أعمالهم لأنه جلّ جلالُه جوادٌ كريم.

وفي ذكر هَذين الاسمين (العزيز الحميد) من أسماء اللَّه الحسنىٰ، عقب الكلام على أصحاب الأُخْدود وجريمتهم الكبرىٰ، تَنْبِيهٌ على أمْرَيْن:

**الأَمْرُ الأول**: أنَّهُ بِعِزَّتِهِ يَنْتَقِمُ من المجرمين الجبارين، فيُنْزِلُ بهم ما يقتضيه عَدْلُهُ، جلَّ جلاله، وعظم سلطانه.

**الأمر الثاني**: أنّه بمقتضىٰ كونه محموداً كثيراً بصفاته السنيّة، وحامداً كثيراً لمستحقّي الحَمْدِ من عباده، سَيُثِيبُ عِبادَهُ المؤمنين، الصادقين الصابرين على ما نَالَهُمْ من اضطهادٍ وأذىً وضُرٍّ، بأَيْدِي الطغاة البغاة الجبارين، من أجل ثباتهم

على دينهم ابتغاءَ مرضاةِ ربّهم، وسيجعل ثوابهم جَزِيلاً وعظيماً.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ والأَرْضِ﴾: أي: لَهُ وَحْدَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ والأَرْض، لا يُشاركه أَحَدٌ في سلطانه على كُلِّ شَيْءٍ، فكلّ شيءٍ سوى الله عزّ وجلّ هوداخل في السماوات والأرض، وهو جلَّ جلاله رَبُّ كُلِّ شيءٍ بالخَلْقِ الدَّائم المتتابع، والخالقُ الرَّبُّ هُو المالِكُ وهُوَ المَلِكُ، وهو المتَصَرِّفُ بكلّ ما يملك، لا منازع له، ولا نِدَّ له، وهو القادر على أن يُهْلِكَ ويُعَذِّبَ بعَدْلِهِ مَنْ يَشاء، ويُثِيب بفضله العظيم مَنْ يَشاء.

﴿واللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾: أي: واللَّه فوق كلّ شيءٍ حاضِرٌ، عَلِيمٌ بكلِّ شيءٍ، خبيرٌ بكلّ شيء.

إذَنْ: فَمَا يَفْعَلُهُ عِبادُهُ الطغاةُ الجبَّارُون، بعباده المؤمنين الصادقين، معلومٌ مشهودٌ له، لا يَعْزُبُ عن علمِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ في السَّماواتِ ولا في الأرض.

والعليم العزيز الحميد الحكيم لا بُدَّ أن يُعاقِبَ الظَّالِمِينَ الجبَّارِينَ بعَدْلِهِ، ولا بُدَّ أن يُثِيبَ المؤمنين المتَّقِينَ بفَضْلِهِ.

❋ ❋ ❋

## (٦)
## التدبُّر التحليليّ للدرس الثاني من دروس السورة

### وهو الآيتان (١٠ ـ ١١)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

**تمهيد:**

اشتمل الدرس الأوّل من دروس السورة على عرض مثل تاريخيٍّ بَشِع شَنِيع، من أمثلة الطُّغاة البُغَاة المجرمين، الّذِين يتّخذون وسائل جبروتية، لإكراه المؤمنين والمؤمنات على تَرْكِ إيمانهم بربّهم، والعودة إلى الكفر وأنواع الشرك، إنَّه قِصَّةُ أصحاب الأخدود التي اقتضىٰ عَرْضُها بيان الحكم عليهم، بأشدّ أنواع العذاب الأبديّ، لتحذير الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات عن دينهم، من طغاةِ وجَبابِرَةِ مشركي مكّة إبّان التنزيل، فكلّ الطغاة المعاصرين ثُمَّ الّذين يأتون بعدهم في العصور من كلّ الناس، مغبّةَ وعاقبةَ أفعالِهم الإجراميَّة الشنيعة التي يُكْرِهون بها الناس على تَرْكِ إيمانهم بربّهم الواحد الأحَد، وتَرْكِ العمل بشرائعه وأحكام دينه.

واقتضى هذا التمهيدُ إتْباعَهُ ببيان قضيَّةٍ من قَضَايا العَدْلِ الرَّبَّاني الّذي يُقابلُه الفضل الرَّبَّانِي.

أمّا العدل الرَّبانيّ فقد أبانه اللّٰه عزّ وجلّ في الآية (١٠).

وأمّا الفضل الرَّبَّانيُّ فقد أبانه اللّٰه عزّ وجلّ في الآية (١١).

**اضطهاد طغاة مشركي مكّة للمستضعفين من المؤمنين والمؤمنات:**

لقد كان طغاة مشركي مكّة يضطهدون ويعذّبون المستضعفين والمستضعفات من المؤمنين والمؤمنات، لفتنتهم عن دينهم، وإكراههم على أن يَرْتَدُّوا عنه، إلى ما كانوا عليه من شرك.

وقد جاء بيان ذلك في مُدَوَّنات السيرة النبويَّة، وبعض المرْوِيَّات من الأحاديث، ومن ذلك ما يلي:

(١) قال ابن إسحاق، فيما يرويه ابنُ هِشامٍ في السيرة:

«ثم إنّهم (يعني طُغاةَ مشركي مكّة) عَدَوْا على من أسْلَم، واتَّبَعَ

رسُولَ اللَّه من أصْحَابه، فوثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ علىٰ مَنْ فيها من المسلمين، فجَعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ، ويُعَذِّبُونَهُم بالضَّرْب والجوعِ والعَطَش، وبِرَمْضَاء[1] مكة إذَا اشتدَّ الْحَرُّ، مَنِ اسْتُضْعِفُوا منهم، يَفْتِنُونَهُم عن دينهم، فَمِنْهُمْ مَنْ يُفْتَنُ مِنْ شِدَّةِ البَلاَءِ الَّذي يُصِيبُه، ومِنْهُمْ مَنْ يَصْلُبُ لَهُمْ، ويَعْصِمُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ.

وَكان أُمَيَّةُ بنُ خَلَفِ الجُمَحِيُّ يُخْرِج مَوْلاَهُ بلال بْنَ رَباحٍ إذا حَمِيَتِ الظَّهيرَةُ، فيَطْرَحُهُ على ظهره في بطحاء[2] مكة، ثمّ يأْمُرُ بالصَّخْرَةِ العظيمةِ، فَتُوضَعُ على صَدْرِهِ، ثمّ يقول له: لا واللَّه، لا تَزَال هكذا حتّىٰ تموتَ أو تَكْفُرَ بمحمّد، وتعبُدَ اللاَّتَ والعُزَّىٰ.

فيقولُ وهُوَ في ذٰلِكَ البلاء: أَحَدٌ، أَحَد.

حتَّىٰ مَرَّ به أبو بكر الصدّيق رضي اللَّه عنه يوماً، وهُمْ يَصْنَعُونَ ذلك به، فقال لأميّة بْنِ خَلَف:

ألاَ تَتَقِي اللَّهَ في هٰذَا المِسْكِين؟ حتَّىٰ مَتَىٰ؟

قال: أَنْتَ الَّذي أَفْسَدْتَه، فأَنْقِذْهُ ممّا تَرَىٰ.

فقال أبو بكر: أفْعَلُ، عِنْدِي غُلاَمٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وأَقْوَىٰ، على دِينِكَ، أُعْطِيكَهُ به.

قال: قد قَبِلْتُ.

فقال: هُوَ لَكَ، فَأَعْطَاهُ أبو بكر الصدّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غُلاَمَهُ ذٰلك، وأَخَذَهُ فأعتقه.

وكانت بنو مخزوم يَخْرُجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأُمّه ـ وكانوا أهل

---

(١) **الرَّمضاء**: شِدَّةُ الحرّ، والأرض أو الحجارة التي حَمِيَتْ من شدّة وَقْعِ أشِعَة الشمس عليها، وفي أمثالهم: «كالمُسْتَجِيرِ من الرَّمضاء بالنّار».

(٢) **البَطْحاء**: المكان المتّسع يمُرُّ به السّيل فيترك فيه الرَّمْلَ والحصَىٰ.

بيتِ إسلام ـ إذا حَمِيَتِ الظَّهيرة، يُعَذِّبُونَهُم برَمْضاءِ مكّة، فيَمُرُّ بهم رسولُ اللَّه ﷺ، فيقول: «صَبْراً آلَ ياسِرٍ، مَوْعِدُكُم الجنَّة».

فأمَّا أُمُّهُ فقتلُوها، وهي تأبَىٰ إلاَّ الإسلام.

وكان أبو جهلٍ الفاسقُ، إذا سَمِعَ بالرَّجُلِ قد أسْلَمَ، إنْ كان له شَرَفٌ ومَنَعَةٌ، أنَّبَهُ وأَخْزَاهُ، وقال له: تَرَكْتَ دينَ أبيك، وهو خَيْرٌ مِنْكَ، لَنُسَفِّهَنَّ حِلْمَكَ، وَلَنُقَبِّحَنَّ رَأْيَكَ، ولَنَضَعَنَّ شَرَفَكَ. وإنْ كانَ تاجراً قال له: واللَّهِ لَنُكَسِّدَنَّ تِجارَتَكَ، ولَنُهْلِكَنَّ مَالَكَ. وَإِنْ كان ضَعيفاً ضَرَبَهُ وأَغْرَىٰ به».

(٢) وقال ابن إسحاقٍ أيضاً:

«وحَدَّثني حكيمُ بْنُ جُبَيْرٍ عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْر، قال: قلت لعَبْدِ اللَّه بن عباسٍ: أكانَ المشركون يَبْلُغُونَ من أصحاب رسُول اللَّه ﷺ من العذاب، ما يُعْذَرُون به في تَرْكِ دِينِهِمْ؟؟

قال: نعم واللَّهِ، إنْ كانُوا ليَضْرِبُونَ أحَدَهُمْ، ويُجِيعُونَه، ويُعَطِّشونه، حتَّىٰ مَا يَقْدِرُ أنْ يَسْتَوِيَ جالساً، مِنْ شِدَّةِ الضُّرِّ الذي نزل به، حتَّىٰ يُعْطِيَهُمْ مَا سَأَلُوهُ مِن الفتنةِ، حتَّىٰ يَقُولوا له آللاَّتُ والعُزَّىٰ إلٰهُكَ من دُونِ اللَّهِ؟

فيقولُ: نعم، حتَّىٰ إنَّ الجُعَلَ لَيَمُرُّ بهم، فيقولُون له: أَهٰذا الجُعَلُ إلٰهُكَ من دُون اللَّه؟ فيقولُ: نعم. افْتِداءً مِنْهُمْ، ممَّا يَبْلُغُونَ مِنْ جَهْدِهِ.

● قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآية وَعِيدٌ مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ للّذين يَفْتِنُونَ المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بالاضطهاد والتعذيب، من طُغَاةِ الكافرين، في عصر التَّنْزيل، وفي سائر العصور من بَعْدِهِ، بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد أَعْتَدَ لهم عذابين شديدين:

**الأوّل**: أنواع من العذاب مختلفة في جهنّم، في منازلهم، وفي

مآكلهم، وفي ملابسهم، وفي مشاربهم، وفيما يُسَلَّطُ عليهم من زبانية تَعذيب، وما يكلّفونه من مشقات، كصُعُود جبالٍ عاليات، شديدات الحرارة، كثيرات العقبات.

**الثاني**: عذابُ الحريقِ، بمُباشَرَةِ النَّار لأجسادهم الَّتي تَحتَرِقُ بها، كُلّما نضجَتْ جُلودُهُمْ بَدَّلَهُمْ اللّه جُلوداً غيرها، أَخْذاً من نصٍّ قرآني آخرَ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾:

**﴿فتَنُوا﴾**: يُقَالُ لغة: فَتَنَ يَفْتِنُ فَتْناً وفُتُوناً، والاسْمُ منه «الفِتْنَة»، وهي في الأَصْل الصَّهْرُ بالنّار للمَعْدنِ، كالذَّهَبِ والفضّة، لتمييز الرديء من الجيّد.

ثمّ صارت مادّة الكلمة تدُلُّ على مُطْلَق الابتلاء والامتحان والاختبار.

ومن التوسُّعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ في دلالة هذه المادّة إطلاَقُهَا على الإحراقِ بالنّار، أو التعذيب بها، عقاباً، أو انتقاماً، أو عُدواناً وظُلْماً، ويَسْقُطُ معنى الاختبار حينئذٍ.

ومن التوسُّعَات اللّغوية، إطلاق الفتنة على الإغْرَاء والإغواء، وعلى الإكراه بأنواعٍ من التعذيب للاستجابة لما يطلبُهُ المُكْرِهُ، وتُطْلَقُ أيضاً على الاستجابة، إلى غير ذلك من توسُّعَات.

وظاهر أنَّ المرادَ هنا بفِعْل: [فَتَنُوا] أنَّ الطُّغَاةَ الجبابرة اتَّخَذُوا الوسائل الإكْرَاهِيَّةَ الضَّاغطة، ومنها التعذيبُ الجسديُّ لجَعْلِ المؤمنين والمؤمنات يرتَدُّون عن دينهم.

**﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾**: في العطف بحرف العطف «ثُمَّ» دلاَلَةٌ على أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ مَنَحَ السَّابقين فرصَةَ إمْهَالٍ متراخية ليَتُوبُوا، على الرُّغم من فعْلَتِهِم الشّنيعة، وجريمتهم الكبرى، لاحتمال أن يكونوا قد ارتكبُوا جرائمهم في

حالةِ ثَوْرَةٍ غَضَبِيَّةٍ طار بها صوابُهم، وفقدوا بها رُشْدَهم، فإذا هدأتْ نفوسُهم بعد ذلك نَدِمُوا وتَابُوا.

وكذلك يَفْعَلُ اللَّهُ في أمثالهم الّذين سيأتون مُسْتَقْبلاً، فَسُنَّةُ اللَّه في عباده واحدة، وفي هذا إطماع من اللَّه لهم بأن يتوبوا قبل أن يُنْزِلَ بهم العذاب.

يقال لغةً: تَابَ يَتُوبُ تَوْباً وتَوْبَةً ومَتَاباً، إذا رَجَعَ عن المعصية، فهو تائب، وإذا كان كثير المتَاب فهو تَوَّاب.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: جاءت «الفاء» في خبر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ للإشعار بأنّ الكلام هو بقُوَّة الشرط وجوابه، أي: مَنْ فَتَنَ فلَهُ هذا العذاب، وبهذا يَكُونُ أسْلُوبُ الكلام من صيغ العموم، الدَّالّ على أنّ هذا القضاء المُبْرَم، هو من سُنَنِ اللَّهِ الدائمة في عباده.

﴿جَهَنَّمَ﴾: اسم علَمٌ من أسماء دار العذاب الّتي أعدّها اللَّه عزّ وجلّ ليعذّب بها الكافرين والعاصين يوم الدّين، وهو مَمْنُوعٌ من الصرف للعلميّة والتأنيث، ويقال للقعر البعيد جَهَنَّم، وَجِهِنَّام، وبئرُ جَهَنَّم وجِهِنَّام، أي: بعيدة القعر.

أمّا عذابُ جَهَنَّم فهو أنواع كثيرة، كما سَبَقَ بيانه، وهذه الأنواعَ منها ما هو أخفّ من الحريق، وقد يُعَذَّب بها العُصَاةُ على دركاتهم.

وأمّا عذابُ الحَرِيق فهو خاصٌّ يُعَذَّبُ بِهِ كبارُ المجرمين، دلَّ على هذا قول اللَّه عَزَّ وجلَّ:

﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾: هذه الجملَةُ تُشْعِرُ بأنَّ المراد بعذاب جهنّم أنواعٌ من العذاب دون عذاب الحريق، فهو إمَّا من عطف الخاصّ على العامّ، أو من عطف المغاير على المغاير، ويكون عذاب جهنّم من العام الذي أريد به خاصّ، بقرينة عطف عذاب الحريق عليه، وهذا ما أرجّحه،

فكثير من العمومات القرآنيّة محمولة على إرادة ما هو خاصٌّ بأدلّة من القرائن أو من نصوص أخرى.

قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

في هٰذه الآية وَعْدٌ مؤكَّدٌ مشَدَّدٌ للّذِين آمَنُوا بربّهم وبرسوله، وبما جاء به الرَّسُول ﷺ عن رَبِّهِ، ومِنْهُ القرآن المجيد، وعملوا الصالحات، بأنّ اللّهَ عزّ وجلّ قد أعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ جليلات عظيمات تجري من تحتها الأَنْهَار.

وقد جاء هذا الوعد الكريم عقب الوعيد الّذي اشتملت عليه الآية (١٠)، ومن سنّة اللّه في القرآن أن يجعل الوعد والوعيد مقترنين، فإذا اقتضت السّوابق ذكر الوعيد، جاء عقبه الوعد، وإذا اقتضت ذكر الوعد جاء عقبه الوعيد، إيثاراً للعلاج التّربويّ المزدوج، القائم على إثارة مِحْوَرَيْ الخوف والطمع في النّفس الإنسانيّة، بعد الإقناع بالحق، والهداية المنطقيّة للّتي هي أقْوَمُ.

**﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾**: أي: إنّ الّذين عَلِمُوا وَصَدَّقُوا واعْتَرَفُوا بقلوبهم بإرادة صادقة، مُخْلِصَةٍ للّه عزّ وجلّ، بكُلّ أرْكان الإيمان الّتي جاء بها الإسلام، دُون نقضٍ لأيِّ عُنْصُرٍ حَقٍّ من عناصِرِها، وقد عَلِمْنَا أنّ كُلّ ما ثَبَتَ عن الرَّسُول ﷺ بيقينٍ فهو حقٌّ يجب الإيمانُ به، وإنكارُه كُفْرٌ.

**﴿وَعَمِلُوا الصَّالحات﴾**: أي: وبَرْهَنُوا على صِدْقِ إيمانهم بأعْمالٍ صالحاتٍ فيها مرضاةٌ للّه عزّ وجلّ، ودلّت النصوصُ القرآنيّةُ الكثيرة على أنَّ (ال) في الصالحات هُنا ليس المراد بها استغراق كُلّ الصالحات الّتي أمَرَ اللّهُ بها عبادَهُ المؤمنين، بل ما يَدُلُّ منها على صِدْقِ الإيمان، فنقول: (ال) هنا جِنْسِيَّة. والمراد بها جنس الصالحات، فيكفي لاستحقاق دخول الجنَّةِ ولو بَعْدَ التطهير بالعذاب، أن تَكْسَبَ النَّفْسُ في إيمانها الصحيح الصادق خيراً.

**﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾**: أي: أُعِدَّتْ لهم بفضل اللّه العظيم جنَّاتٌ.

**الجنَّة**: ما يحتوي على أشجار وثمارٍ وزُرُوع، وقد تحتوي مع ذلك علىٰ أنهار وقصورٍ، وكلّ ما يُمْتِع النفس والحواسّ.

ودار النعيم يوم الدين فيها جنّاتٌ متعدّداتٌ باعتبار أقسامها، ويجمعها جميعاً اسم جَنَّة، ولدى ملاحظة أقسامها، ومنازلها المتفاضلات، بحسب أحوال عباد اللّه المؤمنين المتفاضلة، فهي إذَنْ جنَّات.

**﴿تَجري من تَحتِهَا الأنهَار﴾**: أي تجري من تحت فروع أشجارها وما فيها من ثمرات، ومن تحت قصورها، وأسِرَّتِهَا وآرائكها، ومجالِسِ المُنَعَّمِين فيها، أنهَارٌ مُتَنوِّعَة، فمنها أنهارٌ من ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُه، وأنهَارٌ من خَمْرٍ لذَّةٍ للشَّاربين، وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفّىٰ، كما وَصَفَ اللّه عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ ... ﴿١٥﴾﴾.

**﴿مَثَلُ الجنة﴾**: أي: وَصْفُ الجنة.

**﴿مِنْ مَاءٍ غَيرِ آسِنٍ﴾**: أي: من ماء غير متغيّر الطعم بما خالَطَهُ ممّا يُفسِدُه، يُقَالُ لُغَةً: أَسَنَ الماءُ يَأْسُنُ أَسْناً وأُسُوناً، إذا تغيَّر طعمه بالمنتناتِ فهو لا يُشْرَبُ.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾:

**﴿الفَوْزُ﴾**: يأتي بمعنى الظفر، والنجاة من الشرّ، والرِّبح، يقال لغة: فَازَ يَفُوزُ فَوْزاً ومَفَازاً ومَفَازَةً.

وأيُّ فَوْزٍ أعظم وأكبر من النجاة من عذاب اللّه يَوْم الدِّين، وأيُّ ظَفَرٍ أعْظَمُ من الظفر بجنّاتِ النعيم.

وفي الإشارة إلى أنَّ هٰذا الفوز فَوْزٌ رَفِيعُ المنزلة عظيم، اختير في النّصّ الإشارَةُ إليه باسْم الإشارة الذي يستعمل للبَعِيدِ، والمرادُ هُنَا بُعْدُ مَنْزِلَتِهِ في جهة الارتفاع، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾:

أي: فهو عالي المنزلة جدّاً، وهو الكبير أيضاً، فجَمَعَ هذا الفوز وَصْفَيْنِ جَلِيلَيْن: عُلُوَّ المنزلة، وكِبَرَ الذَّاتِ وعِظَمَهَا.

هذا الفوز الكبير أعَدَّهُ اللَّهُ عزّ وجلّ للّذين آمنوا وعَمِلُوا الصّالحات، فجَمَعُوا بَيْنَ الإيمان القلبيّ الصادق الصحيح، وبَيْنَ العمل الصالح، وقد دلَّتْ النصوصُ المختلفةُ على أنَّ العَمَل الصَّالح هو المظهر السُّلوكي السَّوِيُّ للإيمان المُسْتَقِرّ في القَلْب.

## (٧)
## التدبُّر التحليليّ للدّرس الثالث من دروس السورة

### وهو الآيات من (١٢ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

● قرأ جمهور القرَّاء العشرة: [المَجِيدُ] بالرَّفع صفة للَّه عزّ وجلّ، الذي هو الغفور الودودُ ذو العَرْش.

وقرأ حمزة، والكسائيُّ، وخَلَف: [المَجِيدِ] بالجرّ، صفَةً لِلْعَرْش.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فاللَّه هو المجيد، والعَرْشُ مخلوقٌ مجيدٌ عظيم من مخلوقات اللَّه العظمى.

**المجيد**: صيغة تكثير ومُبالَغةٍ للماجد، مأخُوذٌ من المَجْدِ، وهُوَ بُلوغُ غايةِ الشَّرف، ونهاية الكَرَم.

**تمهيد:**

إنّ الوعيد بعذابٍ في جهنّم، والوَعْدَ الكَريم بجنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، يوم الدّين، اللَّذَيْن اشتملَتْ عليهما آيتا الدرس الثاني من دروس السورة، يَسْتَدْعيان تأسِيسَ أو تأكيدَ طائفةٍ من صفاتِ اللّه عزّ وجلّ، لربط كلٍّ من الوعيد والوَعْدِ بالقاعدة الإيمانيّة وعناصرها ممّا يتّصِلُ باللّه عزّ وجلّ، وصِفاتِه وأسمائه الحسنى.

فالوعيد العادل بعذابٍ يوم الدين، يَسْتَدْعي بيان أنّ بطش اللّه شديد، وأنّه هو الذي يُبْدِئ الخَلْقَ ثم يُعيدُه بحكمته، وقدرته، وكمال علمه، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

والوَعْدُ الكريم بالفضل يَسْتَدْعي بيان أنَّ اللّه جلَّ جلالُهُ هو الغفور لذنوب المؤمنين، وهو الودود الذي يمنحهم بودّه لهم فُيُوض عطاءاته التي لا تنقطع في جنّات النعيم.

وذكر الجنّات العظيمات الموعود بها، وهي من أمور الغيب عن العباد في الحياة الدنيا، يحْسُنُ معه ذكر العرش العظيم، الّذي هو فوق السماوات السبع، ولا يستَبْعِدُ وُجُودَهُ راصِدُو المجرّات العظيمات البعيدات في السّماوات.

وكلٌّ من الوعيد بالعدل والوَعْدِ بالفضل يَسْتَدْعي بيان أنّ اللّه عزّ وجلّ فعَّالٌ لما يُرِيد، وقد عُلِمَ من سائر النّصوص أنَّ إرادته سُبْحانه وتعالىٰ لا تفارقُ حكمته، فكُلُّ مُراداته جلَّ جلالُهُ حكيمة.

❁ ❁ ❁

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

هذا خطابٌ موجَّهٌ بصورةٍ إفراديَّةٍ لكُلِّ مكلَّفٍ مأمُورٍ بالإيمان والعمل الصالح ممَّنْ يَفْهَمُ الخطاب، لتحذيره من بطش اللّه عزّ وجلّ المعجَّلِ والمؤجَّل إلى يوم الدين.

**البَطْش**: هو التناوُلُ والأَخذُ بشِدَّةٍ لأيِّ شَيْءٍ، والأَخْذُ القويُّ الشديد، والسَّطْوُ في سُرْعَةٍ وقُوَّة.

فإن كان للإمْسَاك بالشيء، كانت الشدّة في القبض عليه.

وإن كان لقتله بيدٍ أو سَيْفٍ أو غير ذلك، كان البطش بشدّة وسطوة وعُنُف.

وإن كان لمعاقبته كان المعاقَبُ عاجزاً عن الإفلات.

تقول لغة: بطَشَ يَبْطُشُ ويَبْطِشُ بَطْشاً.

وقد وصَفَ اللّهُ بَطْشَهُ بأنَّهُ شديد، للدّلالة على أنّ أخذه للظالمين أخْذٌ لا يُمْكن الإفلاتُ منه.

وفي ذِكْر اسم «ربّ» من أسماء اللّه تَنْبِيهٌ على سلطانِه التامّ على عباده المربُوبين له في كلّ وَحْدَةٍ زمنيَّةٍ مهما كانت صغيرة طوال وجودهم في الكون، فاللّه رَبُّ كلِّ شيءٍ وجوداً وبقاءً وإعداماً.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾:

أي: إنَّ رَبَّكَ هو وَحْدَهُ يُبْدِئ خَلْقَ الخَلْقِ، ثم إذا جاء أجَلُ ما خَلَقَ أنْهىٰ صُورَته، وأفْنَىٰ مادّته، ثُمَّ يُعِيدُهُ مرَّةً أخرىٰ إذا شاء.

وقد علمنا أنّ الغايةَ من إعادة خلق النّاس تَحْقِيقُ قانون الجزاء بالعدل أو بالفضل على ما كان في حياة الامتحان ضمن ظروف الحياة الدنيا.

﴿يُبْدِئُ﴾: تقولُ لغة: أبْدَأْتُ الشَّيْءَ وبَدَأْتُه، واختير في الآية فِعْل: [يُبْدِئ] دون فعل «يَبْدأ» ليَتَّسِقَ في التَّوازن اللّفظي مع [يُعِيدُ] فهذا من الجماليات اللّفْظِيَّة.

ولمّا قَضَتْ حكمةُ اللَّه عزّ وجلّ بأنْ تكون الحياة الدنيا حتى آخر لحظة من حياة الإنسان فيها حيَاةَ امتحان، لَزِم أنْ يكون برنامج الخَلْقِ مُشْتَمِلاً على حياةٍ أخرى يكون فيها تحقيق الجزاء، بعد الحساب وفصْل القضاء، وهذا لا يكون إلاَّ بالإعادة إلى الحياة بعد الموت.

ولمّا كان إنكار المشركين لليَوْمِ الآخر قائماً على توهُّم صُعُوبة إعادة الموتَى إلى الحياة بعد فناء أجسادهم، كانَ من الحكمة البيانيَّةِ التَّعْلِيميَّةِ والتربويّة عَرْضُ قضيَّتَيْ بَدْءِ الخَلْقِ وإعادتِهِ على مستوىً واحدٍ من التكافؤ، فالخالِق الذي بدأ الخَلْقَ على غَيْرِ مثالٍ سَبَقَ، قادرٌ على أن يُعِيدَه بَعْدَ أن يُميتَه ويُفْني جسده.

وقد جاء البيان عَرْضاً دافعاً لأَوْهامٍ قَدْ تَدُورُ في نُفُوس المشركين، قَبْلَ أن تنطلق أَلْسِنَتُهُم بطَرْح شُبُهاتِهم وجَدَليَّاتهم حَوْلَ هذا الأمر، كقولِ قائِلِهم فيما بَعْدُ: «مَنْ يُحْيِي العظامَ وهي رَمِيمٌ؟».

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾:

في بيان أنَّ اللَّهَ هو الغفُور، إطْماعٌ للمذنبين من عباده بأنَّه كثير المغفرة وعَظِيمُها، فهو يَغْفِرُ لِمَنْ آمَنَ به حقّاً، ودَعَاه أن يَغْفِرَ ذُنُوبه، وفيه إشارةٌ إلى أنّ كُلَّ عَبْدٍ من عباد اللَّه سيرتكِبُ بعض الذنوب والخطايا حَتْماً، فهو بحاجةٍ إلى أن يَغْفِرَ اللَّه له، مَهْمَا تسامَتْ منزلته في درجات التقوى، فالبرّ فالإحْسَانِ، ومَهْمَا انْضَبَطَتْ استقامتُه على صراط اللَّه العزيز الحميد.

﴿الغفُور﴾: صيغةٌ من صِيَغ التكثير والمبالغة، والغَافِرُ في اللّغة هو الساتِر، والمغفرةُ والغفران السَّتْر.

تقول لغة: غَفَرَ يَغْفِرُ غَفْراً وغُفْرَاناً ومَغْفِرَةَ الشَّيْءَ، أي: سَتَرَه.

فاسم اللَّه «الغفُور» يَدُلُّ على أنَّهُ جلَّ جلالُهُ كَثِيرُ السَّتْرِ لذنوب عباده، ومن لوازن هذا السَّتْر تجاوزُه عن الذنوب، وصيانة المذنب عمّا استحَقَّ من العذاب عليها، إذا اقتضت حكمته ورحمته ذلك.

﴿الوَدُودُ﴾: صيغةٌ من صِيَغ التكثير والمبالغة، واسْم الفاعل «وادٌّ» من فعل: «وَدَّهُ، يَوَدُّه، وُدّاً، بتثليث الواو، ووِداداً، بتثليث الواو أيضاً، ووَدَادةً ومَوَدَّة».

**الوُدُّ**: نوع من الحبّ الهادئ الثابت الذي يكون بين الأصحاب والإخوان وذوي العلاقات القويَّة، ولا يُطْلَقُ على المشبوب بالعواطف الثائرة، بخلاف الحبّ فهو لفظ عامٌّ يشْمَلُ كلّ الأنواع ومنها الودّ.

فاسم اللَّه «الوَدُود» يَدُلُّ على أنَّهُ جلّ جلاله كثير الودّ للذين يتقرَّبون إليه بما يحبُّ من صِدْقِ إيمان، وحُسْنِ خُلُقٍ، وفضائل أعمال.

والّذين آمنوا وعملوا الصالحات سيُكَافِئُهُمُ اللَّهُ، فيَجْعَل لَهُمْ في قلوب عباده الصالحين في الدنيا وُدّاً، مهما لاقَوْا من الكَفَرَةِ والمشركين من كراهيَةٍ وعِداء، قال اللَّه عزّ وجلّ في سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

وَوُدُّ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لعَبْدِهِ شيءٌ عظيمٌ جداً، ينالُ به العَبْدُ من ربّه فُيُوضَ رحَمَاتٍ وخيراتٍ وسَعَاداتٍ ومَعُونات.

وقد أبانت آياتٌ كثيراتٌ مُفردات الأعْمالِ الصالحة الّتي بها يُحبُّ اللَّهُ عباده، منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ـ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ـ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ـ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ـ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ـ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ـ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

ويفيد التعريف بـ «ال» لاسمَيْ «الغفور» و«الوَدُود» أنّ اللَّهَ عزَّ وجلّ هو الذي له الكمالُ الأعلى من هٰذين الاسْمَيْن، فهو المتفرّدُ في هذا الكمال، حتّىٰ كأنَّهُ لا غَفُورَ ولا وَدُودَ غَيْرُه.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾:

أي: وهو جلّ جَلاَلُهُ صاحب العرش، الخالق له، والممسك له بالوجود، والمُهيمن عليه بلسطان ربُوبيَّتِهِ، أفلا يكون بطشُهُ شديداً؟؟ أفلا يكونُ قَدِيراً على أن يجعل عبادَهُ الذين آمنوا، وعملوا الصَّالحات، مُنَعَّمِين أبداً في جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار.

**﴿العرش﴾**: مَخْلُوقٌ للّهِ عظيم، لا يُقْدَرُ قَدْرُه، فوقَ كلّ السَّمَاواتِ السَّبْع وأعظم منها، وهو الذي استوى عليه الرحمٰن، والكرسيُّ دونه، ورُوِي عن ابْنِ عبَّاسٍ أنّ الكرسيّ موضع القدمين.

**﴿المَجِيدُ﴾**: هذا اسم من أسماء اللّه الحسنى، وهو صيغة مبالغة للماجد، مأخوذٌ من المجد، وهو بلوغُ غاية الشَّرف، ونهاية الكرم. وهو من الأسماء الجامعة الدّالّة على أنّ لِلّه جلَّ جلالُه كَمالَ الصِّفات العلِيَّة، والأسماء السَّنِيَّة.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾:

أي: كُلُّ ما يُرِيدُ اللّه فهو فعَّالٌ له، مهما كان جليلاً وعظيماً.

**﴿فَعَّالٌ﴾**: صيغة تكثيرٍ ومبالغة لصيغة «فاعل». والغرض من المبالغة تأكيد الدَّلاَلَة على أنه يَفْعَلُ ما يُرِيد، بكلّ دقائقه الصُغْرَى وتفاصيله، وأنَّه يَفْعَلُ ما يُرِيد مهما عظم المُرَاد وجلَّ، لا رَادَّ لقضائه، ولا مُوقِفَ لفِعْلِهِ، ولا يتعَرَّضُ تنفيذه لأي تَقْصِير عن أيَّةِ جُزْئِيَّة من جزئياته. وقد جاء في القرآن بيان أنه إذا أراد شيئاً فإنَّما يقولُ له: كُنْ فيكون.

وقد علمنا من جَمْعِ النُّصُوصِ وبالدّليل العقليّ أنَّ إرادات اللّه لا تُفارِقُ حِكْمَتَهُ وعِلْمه الشامل.

## (٨)
# التدبُّر التحليليُّ للدرس الرابع من دروس السّورة

### وهو الآيتان (١٧ ـ ١٨)

قال اللّٰه عزّ وجلّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾.

**تمهيد:**

إنَّ ما جاء في الدروس السابقة من دروس السورة من بيان قانون الجزاء الربّانيّ، وبيان أنَّ اللّٰهَ عزَّ وجلَّ ذُو بطشٍ شديد، إذا شاء أن يُعَاقِبَ الظالمين المجرمين، يُناسبُهُ تقديم شاهد تاريخيٍّ من وقائِع التاريخ، وأحْداثه العظيمة ذَاتِ الآثار الباقية، ليُبَيّن ما أَنْزَل اللّٰه من إهلاك شامل، ببعض عباده المجرمين، عقاباً مُعَجّلاً وعذاباً أَدْنىٰ، دُونَ العذاب الأكبر الذي سوف يلاقونه يَوْمَ الدّين، فمن كان له عقْلٌ يُدْركُ به سُنَنَ اللّٰه بِعِبَادِهِ خاف عقاب اللّٰه، وآمَنَ واستقام وعمل صالحاً.

وقد جاء في هذا الدرس الرابع بيانُ الشاهد المناسب، بالإشارة الخفيفة إلى إهلاك اللّٰه عزّ وجلّ فرعون وجنودَه، الذين كفروا بموسى وهارون عليهما السلام، وجحدُوا بما جاءا به من آيات، وتابَعُوا بني إسرائيل الخارجين من مصر، لقتل من يقتلونه منهم، واستعادة من يأسرونه منهم للعبوديّة، وإلى إهْلَاكِ اللّٰه عزّ وجلّ ثمودَ قَوْمَ النبيّ الرّسول صالح عليه السلام، عقاباً لهم على كفرهم وعنادهم، وإصرارهم على جرائمهم، وقتلهم ناقَة اللّٰه التي جعلها اللّٰه آيَةً لهم على وفق طلبهم، وحذّرَهُمْ رسُولهم من التعرُّض لها بسوء.

● قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾:

التوجيه المختار هنا في الخطاب، هو خطابُ كلِّ فَرْدٍ صالحٍ

للخطاب، بصُورَةٍ إفرادية، للتَّشْديد عليه في تَحْمِيله المسؤوليَّة، فهو أَبْلَغُ في الدلالة على هذا التشديد مِنْ خِطَابِهِ ضمن الجماعة.

وجَاءَ على طريقة الاستفهام، لانتزاع الجواب بكلمة «نَعَمْ» من المخاطب، فهذا أوقع في النفس من مُجَرَّدِ التذكير بالخَبَرِ، الذي سبق التذكير به فيما كان قد نزل من نجوم تنزيل القرآن، وهو من الأحداث المتواترة المعروفة في التاريخ لدى العَرَبْ المخاطبين الأوّلِين بآياتِ القرآن.

فقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ يتضمَّنُ معنى الإحالة على ما سَبَقَ أن أنزل اللّه بشأنهم في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) لِيَسْتَحْضِر المخاطبُ صورة بَطْشِ اللّه عزّ وجلّ بهم، المبيَّنِ فيها، وفي سُورَة (الشمس) أيضاً.

واقتصَرَ البيانُ في سورة (البروج) على تَوْجيه نظر المخاطب لفِرْعون وثمود، دون عادِ الذين ذُكِرُوا معهما في سورة (الفجر).

والحكمة الّتي تظهر لي في هذا الاقتصار، أنَّ الَّذِين يَفْتِنُون المؤمنين والمؤمنات، من كفّار قريش، الّذين نَزَلَتْ سورة (البروج) لمعالجتهم، فريقان:

- فريقٌ تُشْبهُ حالهم حال فرعون وجنوده.
- وفريقٌ آخر تُشْبهُ حالهم حال أشقياء ثمود وطغاتهم.

وقد ورد في وصف بعض جبابرة مشركي مكّة، بأنه فرعون هذه الأمّة، ففي أحداث غزوة بدر الكبرىٰ، رُوي أنّ الرسول ﷺ قالَ بشأن أبي جَهْلٍ: «هذا فِرْعَوْنُ هٰذِهِ الأُمَّة».

ومن الملاحظ أنّ اللّه عزّ وجلّ حين يذكر الكَفَرَة الّذين أُهْلكُوا في مصر أيام موسى وهارون عليهما السّلام، يَذْكُرُ «فرعون». وهذا يدلّ على

أنّ فرعون قد كان كلّ شيءٍ في قومه، فالرأْيُ رأيه، والأمْرُ أَمْرُهُ، وهم جميعاً تابعون له ومطيعون؛ إذ هو «الديكتاتور» المُسْتَبِدّ، الّذي اتخذ نَفْسَه رَبّاً عليهم، ولهذا جاء في النصّ: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ بَدَلاً من لفظ ﴿الْجُنُودِ﴾ والْجُنُودُ جَمْعُ «جُنْدٍ».

وبهذا ظهر لنا أنّ التذكير بما فعل اللّهُ بفرعَوْن وثمودَ، وكيف صَبَّ اللّهُ عليهم سَوْطَ عَذَاب بسبب طُغْيانهم وعدوانهم، تذكيرٌ بشاهد تاريخيّ واقعيّ لِمَضْمونِ قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (البروج): ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

فَمِنْ شِدَّتِهِ أَنَّهُ أَغْرَقَ فرعون وجُنُودَهُ جميعاً، لم يُبْقِ منهم أحداً، ومن شدَّتِهِ أَنَّهُ أَهْلَكَ كُفَّارَ ثَمُودَ جميعاً، فلم يُبْقِ مِنْهم أحداً.

فمن عَقَلَ اتَّعَظَ وآمَن، واسْتَقَامَ على صراط اللّه العزيز الحميد، خوفاً من بَطْش اللّه الشديد.

❀ ❀ ❀

## (٩)
## التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس السّورة

### وهو الآيات من (١٩ ـ ٢٢)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿بَلْ﴾: حرفُ ابتداءٍ في الموضعين، ومعناهُ الإضراب، والغرضُ منه إبطالُ شُبهة أنّ الكافرين المتحدَّث عنهم في السورة، والذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات عن دينهم لهم عُذْرٌ في تكذيبهم الرَّسُول محمّداً ﷺ

في نبوّته ورسالته، ولهم عُذْرٌ في تكذيبهم بالقرآنِ، على اعتبار أنَّهُ غَيْرُ مُنَزَّلٍ من عِنْدِ اللَّهِ على رسوله.

هٰذِهِ الشُّبْهةُ لَمْ يَأْتِها في سوابق آيات السُّورَةِ ما يُشيرُ إليها، لكن استعمال ﴿بَلِ﴾ الابتدائية، الّتي من معانيها إبطالُ أمْرٍ سابق، والأمْرُ السَّابقُ هُنَا خواطِرُ وأسئلة يَسْتَدْعيها قول اللَّه عزّ وجلّ في السورة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

ومضمونُ هذه الأسئلة التي قَدْ تتحدَّثُ بها الخواطِرُ، يمكن التعبير عنه بما يلي:

ألاَ يَحْتَمِلُ أنْ يكون هؤلاء الذين فَتَنُوا المؤمنينَ والمؤمناتِ مَعْذُورين بما فَعَلُوا باعْتِبَارِ أنَّ الحقَّ لم يَظْهَرْ لهم؟؟

فجاء الإضراب الإبطاليّ بكلمة ﴿بَلِ﴾ الابتدائية، لِرَدّ هذا الاحتمال، الذي قد يَخْطُر في البال، ويُوجَّهُ به سؤال.

والمعنى: ليس لهم عُذْرٌ فيما فَعَلُوا، بَلْ هُمْ غارِقُونَ في تَكْذِيبٍ للحَقّ، ولَيْسَ لهم شبهاتٌ تَجْعَلُ لهم عُذْراً فيما يقومون به من تعذيب لضعفاء المؤمنين والمؤمنات، لإكراههم على الرّدّة عن الدّين الحقّ الذي آمنوا به، على أنّ الدّين لا يُقْبَلُ عقلاً أن يكون فيه إكراه، ولو كانَ إكْراهاً من أجْلِ الإيمان بدين اللَّه الحقّ، فكيف إذا كان إكراهاً للكُفْرِ به، وللإيمان بالباطل.

﴿في تَكْذِيبٍ﴾: أيْ: مُحَاطُون مِنْ كُلّ جوانِبِ نفوسهم وأفْكارهم وقُلوبهم بتَكْذِيب، والمعنى: ما عِنْدَهُمْ حُجَّةٌ يَحْتَجُّون بها، إلاَّ أن يقولُوا للحقّ لمَّا جاءَهُمْ: هٰذا كَذِبٌ، فَهُمْ يُكَذِّبُونَ به دُونَ أيّة حجّة.

ومثل المكذّبين من مشركي مكّة في عَصْرِ التنزيل الكفرة في أيّامنا هذه التي نَعِيشُها.

فإذا قِيل لَهُمْ: هٰذا رَسُولُ اللَّهِ، وشَاهِدُهُ المعجزة البرهانيّة، قالُوا: هٰذَا كَذِبٌ، وهُوَ كَذَّابٌ لَيْسَ بنبيٍّ ولاَ رَسُول.

وإذا ذُكِرَتْ لَهُمْ: قصَّةُ أصْحَابِ الفيل، لم تكن لَدَيْهم حُجَّةٌ يَحْتَجُّون بها إلاَّ أَنْ يَقُولُوا: أَسْطُورَةٌ من أَسَاطير الكذب.

وإذا قيل لهم: هٰذا القرآنُ يَنْطِقُ بالحقِّ، وفيه البيانات المطابقات للحقائق العلميَّة الّتي لم يَعْرِفْها الناسُ إلاَّ بَعْدَ ثلاثَة عشر قرناً، أو أكثرَ، لم تَكُنْ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ يَحْتَجُّونَ بها إلاَّ أَنْ يُكَذِّبُوا.

فالمُحَاطُ بالتكذيب من كلّ جوانبِهِ ليس لديه إلاَّ أَنْ يقُولَ عَنْ أيِّ أمْرٍ حقٍّ، هٰذا كَذِب، إذِ التكذيبُ لا يُكَلِّفُ المُنْكِرَ الجاحد من التفكير شيئاً، ويَهُونُ عليه أن يقول دون تفكير، ولا إجهادِ ذِهْني هٰذا كَذِبٌ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾.

وإذا كانوا غارقين في حمأة التكذيب، وساهين لاهين في أوهام أفكارهم المضطربة، وضلالتهم عن الحق، فاللَّه من وراء دائرة تحرُّكاتِهِمْ في الحياة محيط، لا يستطيع أحَدٌ منهم أن يفلتَ من بطشِ اللَّه به، وعقابه له متى شاء أن يحقّق عدله فيهم.

- قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: وبما أنّ الَّذِين كفروا مُحَاطُون من كلّ جوانبهم بالتكذيب الذي هم منغمسون فيه، فإنَّهم يَفْعَلُونَ ما يَفْعَلُونَ من طُغْيان وتعذيبِ للمؤمنين والمؤمنات بغية فِتْنَتِهِمْ عن دينهم، دون أن يَشْعُرُوا بخوفٍ من عقاب اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ودون أن يُحِسُّوا بوخزٍ في ضمائرهم ووجْدَاناتهم.

لكِنْ: هل هم مَتْرُوكُونَ، أو مُفْلِتُونَ مِنْ عذَابِ اللَّهِ العَزِيزِ الجبَّارِ القَهَّارِ؟

الجواب: إنَّهم غير متروكين، وغَيْرُ مُفْلِتِين من عذاب اللَّه وانتقامه، لأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بقوَّتِهِ، وقُدْرَتِهِ، وسُلْطانه، وعِلْمِهِ، من وَرَاءِ كُلِّ شيءٍ فيهم، وكلِّ جُزْءٍ من أجزائهم، وكُلِّ قُوَّةٍ يَمْلِكُونَهَا، مُحِيطٌ إحَاطَةً تامَّةً، لا تَدَعُ لَهُمْ مَهْرَباً من عذابه وانتقامه.

وفي هذه الآية تربية بالوعيد الضمني، ليتَّقِيَ اللَّهَ مِنهُمْ مَنْ لَدَيْهِ خوفٌ ما من عذاب اللَّهِ وانتقامه.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾:

تُشير هاتان الآيتان إلى أنّ تكذيب الذين كَفَرُوا لا عُذْرَ لَهُمْ فيه، إذْ تُوجِّهان عُقُولَهُمْ وأفهامَهُمْ للتبصُّر بمجد القرآن، فالقرآنُ بمَجْدِهِ العظيم الذي لا يستطيع أن يأتي بشَرٌ بمِثْلِهِ، شاهِدٌ دائم الشهادة للرسول محمّد ﷺ بأنه رسُولُ اللَّه حقّاً وصِدْقاً، ولهذا استحقَّ أن يُقْسِمَ اللَّه به في قوله في أوائل السورة: ﴿وَشَاهِدٍ...﴾ كما سبق في تدبّر هذه السورة.

فوصف القرآن الّذي هو كلامٌ مُنَزَّلٌ من ربّ العالمين الحكيم العليم العزيز الرحمٰن الرّحيم، بأنه قرآنٌ مجيد، فيه توجيهٌ للعقول والأفهام حتى يتدبَّرُوه، ليَكْتَشِفُوا من صفاته وخصائصه وإعْجازه أنَّهُ قرآنٌ مَجِيد حقّاً، بالغٌ غايَةَ الشّرف، والكمال والكَرَم.

وقد وصَفَ اللَّه عزّ وجلّ القرآن بمثل ما وصف به نفسه وعرشَه، فاللَّه عزّ وجلّ مجيد، وعَرْشُه مجيد، وقُرْآنُهُ الذي يُنَزِّله على رسوله محمد بن عبد اللَّه ﷺ مَجيدٌ.

وللتأكيد على أنّه تنزيل من عند اللَّه عزّ وجلّ بألفاظه ومعانيه، ذكر

اللَّه عزّ وجلّ في آخرِ آيَةٍ من آيات السّورَة أنَّهُ مُسَجَّلٌ عند اللَّهِ في السَّمَاءِ في لَوْحٍ مَحْفُوظ.

وجاء في سورة (الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول) قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ بشأن القرآن:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ومن الجمع بين النّصّيْن نَفْهَمُ أنّ القرآن مُسَجَّلٌ عند اللَّه عزّ وجلّ في كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لاَ يَمَسُّهُ إلاَّ المُطهَّرُونَ، وهُمْ من ملائكته المقرّبين، وهذا الكتابُ في لَوْحٍ محفوظٍ بحفظ اللَّه له، من أيّ تغيير أو تَبْدِيل، أو زيادة أو نَقْصٍ.

**مَكْنُونٍ**: أي: مَسْتُورٌ مُخْفَىً، لا تَصِلُ إليه أيْدي المحرّفين والمحرِّفات، ولا فيروسات العابثين والعابثات.

وهكذا ظهر لنا ترابط دروس السّورة ترابطاً حكيماً عجيباً، دائراً حول موضوعٍ علاجيّ واحد.

وبهذا أَنْتَهي من تدبّر سورة «البروج» والحمد للَّه على توفيقه وفتحه وفُيُوض عَطَاءاته، وأسألُهُ التوفيق للشكر، والمزيد من فيوض العطاء.

❀ ❀ ❀

# سُورَةُ التِّين

## أو سُورَةُ وَالتِّين

٩٥ مصحف ٣٨ نزول

## (١)
## نصّ السورة
## سورة التين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

## (٢)
## ممّا ورد بشأن سورة التين

(١) روى البخاريّ ومسلم وأهل السّنن وغيرهم عن البَراء بن عازب رضي اللَّه عنه، قال:

«كان النبيُّ ﷺ في سَفرٍ فصلّى العِشاء فقَرَأَ فِي إِحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴿١﴾﴾ فَمَا سَمِعْتُ أَحَداً أَحْسَنَ صَوْتاً وَلاَ قِرَاءَةً مِنْهُ».

(٢) وأخرج الخطيب عن الْبَراء بن عازب أيضاً قال:

«صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ المَغْرِبَ فَقَرَأَ بِالتِّينِ والزَّيْتُون».

(٣) وأخرج ابنُ أبي شيْبَةَ في المصَنَّفِ، وعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ في مُسْنَدِهِ، والطَّبَرَانِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ فِي المَغْرِبِ: وَالتِّينِ والزَّيْتُون».

(٤) وَأَخْرَجَ ابْنُ قَانِعٍ وَابْنُ السَّكَنِ والشِّيرَازِيُّ في الأَلْقَابِ، عَنْ زُرْعَةَ بْنِ خَلِيفَة قالَ:

«أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْيَمَامَةِ، فَعَرَضَ عَلَيْنَا الإِسْلاَمَ فَأَسْلَمْنَا، فَلَمَّا صَلَّيْنَا الْغَدَاةَ قَرَأَ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ».

(٥) وأخرج أحمد وأبو داود والترمذيّ وابن المنذر والحاكم وصحّحه وابن مَرْدَوْيه والبيهقيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾ فَانْتَهَىٰ إِلَى آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾، فَلْيَقُلْ: بَلَىٰ، وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ مِنَ الشَّاهِدِين.

ومَنْ قَرَأَ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١﴾، فَانْتَهَىٰ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى.

ومَنْ قَرَأَ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾، فَبَلَغَ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللَّهِ».

قال الشوكاني: وفي إسناده رجلٌ مجهول.

❀ ❀ ❀

## (٢)
## موضوع سورة التين

موضوع سورة التين يدور حول بيان الحكمة من خلق الإنسان في أَحْسَنِ تقويم، وهي ابتلاؤه الذي يستلزمُ مَنْحَهُ حرّيّة الإرادة وسائِرَ شروط الامتحان الأمثل، وحرّيةُ الإرادة لا بُدّ أن يكون من آثارها تفاوُتُ النّاسِ وتفاضُلُهم في اختياراتهم، من أرفع الدرجات ارتقاءً، حتَّىٰ أَخَسِّ الدّرَكات هُبُوطاً.

وهذا الامتحان يَسْتَلْزِمُ حتماً في حكمة الحكيم تحقيقَ نتائجه بثواب المرتقين بحَسَب درجات ارتقاءاتهم، وبعقابِ الهابطين بحسب دركات انحطاطاتهم، وهٰذا هو الدّين، أي: الجزاءَ الّذي تقتضيه الحكمة.

والجزاءُ لا بُدَّ أن يسبقه الحسابُ وفَصْل القضاء، وبما أنّ تحقيق الجزاء الأمْثل غير موجود في ظروف الحياة الدنيا، فلا بُدَّ أن تشتمل خُطَّةُ الحكيم العليم القدير على حياةٍ أُخرَى يكون فيها تحقيق الإدانة، وتنفيذ الجزاء، ويَوْمُ الدّين هو اليومُ المقرَّر في خُطّة التكوين، لتحقيق الغاية من الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

والأُسْلُوبُ البيانيُّ المختارُ الَّذي جاء في هذه السُّورة للدّلاَلَة على عَنَاصِر هذا الموضوع، قد جاءَ أسْلُوباً عجيباً، بدأ بالقَسَم بمهابط الوَحْي الّذي تَنَزَّلَ برسالاَت اللَّه على نُخْبَةٍ مِنْ كِبارِ أنبياء اللَّهِ ورُسُلِهِ، ليبلِّغُوها للناس، أمّا المُقْسَمُ عليه فَهُوَ خَلْقُ الإنسانِ في أَحْسَنِ تَقْوِيم، الَّذي كان من ظواهره مَنْحُ الإنسانِ حُرِّيَّةَ الإرادة الَّتي هِيَ مُصَغَّرٌ ضَئِيلٌ يَدُلُّ على أنّ للَّهِ الإرادَةَ الحكيمةَ العظمىٰ الَّتي يختار اللَّه بها كلَّ أمرِ حكيم، ومَنْحُهُ العِلْمَ والإِدْرَاكَ الّذي يَعْرِفُ به موادّ امْتِحَانِهِ، وتمكينُهُ مِنْ ظواهر القُدْرَةِ الَّتي يَشْعُرُ مَعَها أَنَّهُ يُنَفِّذُ بها ما يُرِيدُ، ومَنْحُ نَفْسِهِ عَنَاصِرَ الأهواء والشهوات والرغبات،

وأحاسِيسَ اللذّة والألَم، ودوافعَ الإقبال لتحقيق المطالِبِ المحبُوبَة، ومُثِيراتِ النفور خوفاً من المَكَارِهِ والمؤلمات، في ظروف الحياة الدنيا.

وقَفَزَ البيان في السُّورة من خَلْقِ الإنسان في أحْسَنِ تقويم إلى بيان واقع الإنسان بعد رِحْلَةِ الامتحان، إذْ كانَ من أفراده من اختار لنفسه أحَطّ الدركات، فرَدَّهُ اللَّه بحِكْمَتِهِ وعَدْلِهِ إلى أسْفَلِ سافلين، وكان من أفْرَادِهِ من اختارَ لنفسه دُونَ ذٰلِكَ، حَتَّى أُولَى دَرَجاتِ الارتِقاء فَحَمَىٰ نفسه مِنْ عقاب اللَّه بأن آمَنَ وعَمِلَ صالحاً، ولا بُدَّ أنْ يَتفَاضَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات فيما بَيْنَهُمْ، فَيَرْفَعَهُم اللَّهُ في الدَّرَجات، حَتَّى تَتَسَاوَىٰ الدرجاتُ العُلْيَا مَعَ كَوْنِ الإنسانِ مَخْلُوقاً في أحْسَنِ تَقويم، وهٰذه الدرجات الرَّفيعات ثوابُها الدَّرجَات المناظرات لها في الفردوس الأعلى من جنّاتِ النعيم يَوْمَ الدّين، فمنازلها هي المنازل الملائمة لِمَنْ خلقه اللَّه في أحسنِ تقويم.

أَلَيْسَ هذا الدّينُ هو ما تقضي به حكمة الخالق الرَّبّ الَّذي هو أحْكَمُ الحاكِمين؟!

فما الَّذي يَجْعَلُ المنكرَ الجاحِدَ يُكَذِّبُ بالدّين، وكلُّ آثار صفاتِ اللَّهِ الرَّبِّ في كَوْنِهِ تَدُلُّ على أنَّهُ أحْكَمُ الحاكِمين، وأحْكَم الحاكمين لا يمكن أن يَخْلُقَ الناس عَبَثاً، ولا يُمْكِنُ أنْ يَخْلُقَ السَّماءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا باطلاً؟!! بَلْ لا بُدَّ بَعْدَ رَحْلَةِ الحياة الدّنيا من حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضاءٍ، وتَنْفيذ جزاءٍ، يَوْمَ الدّين، هذا ما تقضي به حِكْمَةُ أَحْكَمِ الحاكمين، وهذا مَا تُوجِبُهُ البراهين العقليّة، والحججُ القَاطِعَة المُسْتَنِدَةُ إلى معرفة صفات اللَّه الّتي تَدُلُّ عليها آياتُهُ في كَوْنِهِ.

❁ ❁ ❁

## (٤)
# دروس سورة التين

تشتمل سورة التين على درسَيْن:

**الدَّرْس الأول**: الآيات من (١ ـ ٦).

وقد تضمَّن هذا الدَّرسُ القَسَمَ الرَّبَّانيَّ بأربعة من مهابط وَحْيِهِ، الّتي اختارها جلَّ جلالُه لتنزُّلات الوَحْي على طائفة مِنْ رُسُلِهِ الكرام، برسالات اللَّه للناس، على أنَّهُ جلَّ جلالُهُ خَلَقَ الإنْسَانَ في أحْسَنِ تقويم، ليبلُوَهُ في ظروف الحياة، ثُمَّ ليُجَازِيَهُ يوم الدّين، فكان من الناس بعد الامتحان مَنْ أنْزَلَهُ اللَّه إلى أسْفَلِ سافلين لأنَّهُ اختار لِنَفْسِهِ الكُفْرَ بربّه، وارتكاب أقبح الجرائم، وكان من الناس من اختار لنفسه بالإيمان والعمل الصالح أعلى الدرجات، وبَيْنَ أعلى الدرجات وأخَسِّ الدّركاتِ اختيارات اختارها الناس بإراداتهم الحرَّة في رحلة امتحانهم.

**الدَّرس الثاني**: الآيتان (٧ ـ ٨):

وقد اشتملتا على لَفْتِ نظر المكذِّب بالدِّين إلى أنَّ اللَّه أحْكَمُ الحاكمين، أي: وأحْكَمُ الحاكمين لا يُمْكِنُ أن يَخْلُقَ الناس عَبَثاً، دون أن يُقَرِّرَ في خُطَّةِ تكوينه يوماً للحساب وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء بالعِقَاب لمستحقّيه بالعَدْل، وبالثواب لمستحقّيه بالفضل الربَّاني، على اختلاف درجاتهم في الثواب، واختلاف دركاتهم في العقاب.

❁ ❁ ❁

## (٥)
# التدبُّر التحليليّ للدَّرس الأول من درسَي السورة

### الآيات من (١ ـ ٦)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦﴾.

في هذا الدرس من درسَيْ السُّورة يُقْسِمُ رَبُّنا جَلَّ جلالُهُ بمَهَابِطِ وَحْيٍ أَرْبَعَةٍ، مُخْتَارَةٍ اخْتِياراً حكيماً، من عُمُومِ أرْضِهِ الَّتي خَلَقَها لسُكْنَىٰ النَّاس، في رِحْلَة امتحانهم في الحياة الدنيا.

ذكر المفسّرون في تفسير المراد بقوله تعالىٰ:

- ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾:

آراءً لَيْسَ لَهَا سَنَدٌ مِنْ بيانات الرسول ﷺ، وأَحْسَنُهَا فيما أَرَىٰ، ما هُوَ مُنْسَجِمٌ ومُتَنَاسِقٌ مَعَ القَسَم بطُورِ سِينين، والقَسَم بمكَّة البَلَدِ الأمين، وهو أيضاً الملائمُ لِمَا جاءَ في السورة بَعْدَ الأَقْسَامِ الأربعة.

إنّ القَسَمَ بمهبط الوَحْي الرَّبَّانيّ على موسىٰ عليه السّلام، وهو «طُورُ سينين» والقَسَم بأوَّل مَهابط الوَحْي على محمَّدٍ خاتَمِ الأنبياء والمرسلين، وهو «البَلَدُ الأمين» مكّةُ المكرَّمَةُ، يُلائمُهُ القَسَمُ بمهابط الوحي على جُمْلَةٍ من أنبياء اللّهِ ورُسُلِهِ عليهم السَّلام، وهي بلادُ التِّين والزّيتون.

- فَالقَسَمُ بالتِّين هو على تقدير: ومَنَابِتِ شجر التِّين، وهي بِلَادُ الشَّام، إذْ كانَتْ مَعْرُوفَةً بهٰذِهِ الشَّجَرَةِ المباركة قديماً، فإذا قال قائل قديماً لمسافرٍ: إلى أيْنَ أنْتَ مُسَافِرٌ؟ فقال له: إلى التين. عُلِمَ من جوابه أنّه مُسَافِرٌ إلى بلاد الشَّام، لكَثْرَةِ ووفْرَة أشْجَارِ التين فيها.

وفي ذكر التّين إشارةٌ إلى بلاد الشّام، وعنواناً لها، مَعَ أنَّ فيها أشجاراً أخرىٰ غير أشجار التّين، تَنْويهٌ ضِمْنِيٌّ بقيمة هٰذِهِ الشّجرة، ذات الثمرة المباركة، العظيمة الغذاء والنفع.

وقد كانت بلادُ الشّام مهابطَ وَحْي اللَّهِ عزّ وجلّ لطائفةٍ جَلِيلَةٍ من أنبياء اللَّهِ ورسُلِهِ عليهم الصَّلاَة والسلام.

والتّينُ لم يُذْكَرْ في القرآن باسمِهِ الصّريح إلاَّ في هٰذِهِ السُّورَةِ فقط.

● والقَسَمُ بالزَّيْتُونِ هو أيضاً على تقدير: ومنابت شَجَرِ الزَّيْتُون، وهي بلادُ فلسطين على وجه الخصوص من أرْضِ الشَّام الكبرى، إذْ كانت بلاد فلسطين معروفة قديماً بهذِهِ الشجرة المباركةِ، فإذا قال قائلٌ قديماً لمسافرٍ: إلى أيْنَ أنت مُسافِرٌ؟ فقال له: إلى الزّيتون. عَلِمَ من جوابه أنَّه مُسَافِرٌ إلى بلاد فلسطين، لِكَثْرَةِ ووفرة أشجار الزيتون فيها، وشهرتِها بها في أزمان تَنَزّلاَتِ الوَحْي قديماً، وقد تكون المنابِتُ الأخرىٰ لشَجَرَةِ الزّيْتُون في عصورِ تنزّلاَتِ الوحي، قد كانت مَهَابِط وَحْي على طائفة من الأنبياء.

وفي ذكرِ الزّيتون عنواناً لبَعْض مهابط الوَحْي، مع أنّ فيها أشجاراً أخرى غير أشجار الزيتون تنويهٌ ضِمْنِيٌّ بقيمة هذه الشجرة العظيمة ذات الثمرَةِ المباركة الّتي وَصَفَهَا اللَّه عزّ وجلّ بقوله في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ... ﴿٣٥﴾﴾.

وقَدْ ذُكِرَ الزَّيْتُون في القرآن الكريم سِتَّ مرَّاتٍ، إشادةً بقيمتِهِ الغذائيَّة، ونَفْعِهِ العظيم، ونَفْعِ الزَّيْتِ الذي يُعْصَرُ منه.

وقد يكون المراد بالقَسَمِ بالتّين والزّيتون معاً بلاد الشَّام وما حولها

على وجه العموم، فهي مهابط وَحْي، ومواطِنُ رسالاتٍ رَبَّانيَّةٍ جليلة، وقد يُشيرُ إلى هذا جَمْعُها في آيةٍ واحِدَة.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾:

في هذا قَسَمٌ بجَبَلِ الطّور الّذي كلَّمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ عِنْدَهُ، من وراءِ حِجَاب.

وردَ في معنى «سِينِين» أقوال:

(١) فقال قتادة: هو المبارَكُ الحسَنُ في لغة الحبشة.

(٢) وقال مجاهد: هو المبارَكُ بالسّريانيّة.

(٣) وقال مجاهد والكلبيُّ: كُلُّ جَبَلٍ فيه شجرٌ مُثْمِرٌ فهو سِينين وسيناء، واللَّهُ أعْلَمُ.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾:

في هذا قَسَمٌ بمكّةَ البَلَد الحرام، الذي هو أوّلُ مَهْبَطٍ وأعْظَمُهُ من مَهَابِطِ وَحْيِ اللَّه لخاتم أنبيائه ورُسُله مُحَمَّد بن عبد اللَّه ﷺ، وفيه أوّلُ بيتٍ وُضِعَ للناس لعبادة اللَّهِ في الأرض.

وقد يُلاحظ المتدبّر التَّدَرُّجَ الارتقائيّ في الأقسام بحَسَب أفضليات مهابط الوَحْي المُقْسَم بها، فأفْضَلُها عند اللَّه عزَّ وجلَّ مكّةُ البلَدُ الأمينُ، فطُورُ سِينين، فبلادُ الزَّيْتُون فالتّين.

وبالتأمُّل نُدرِكُ أنَّ القَسَمَ بمهابط الوَحْيِ ورُمُوزِ عبادَةِ اللَّه في الأرض، يَرْجع عن طَرِيق السَّلاسِلِ الفكريَّة المتلازمة، إلى القَسَم برسالات اللَّه للنّاس، والقَسَمِ بالكُتُب الرَّبَّانيّة الّتي أنزَلَها اللَّهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ، لِهدايَةِ الممتحنين المكلّفين، إلى صراط نجاتهم، وسعادَتِهم، وفَلاحِهِم، وفَوْزِهِمُ الكبير.

ففي ذِكْرِ مَهَابِطِ الوَحْيِ إشارَةٌ إلى الوَحْيِ، ومضمونُ الوَحْيِ رسَالاَتٌ رَبَّانِيَّةٌ للناسِ، يُبَلِّغُها أنبياءُ مُرْسَلُونَ، وفي هٰذهِ الرّسالاَت الرَّبَّانيَّة كُتُبٌ مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ العليم العزيز الحكيم الرحيم. وكُلُّ هذه أمُورٌ عظيمةٌ جليلة، تستحِقُّ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها، لِمَا فيها من آياتِ حِكْمَتِهِ العظيمة.

وممّا يَظْهَرُ لكل مُتَدبّر أنّ القَسَم بالرّسالات الرَّبّانيّة للناس، يُشِيرُ ضِمْناً إلىٰ أنّها رسالاتٌ عظيماتٌ جليلات، إذْ هي تَهْدِي للّتِي هي أقْوَمُ، وبسبَب ذلِكَ استحقَّت أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ بها، لِيَدُلَّ بقَسَمِهِ بها على رفيع مكانتها، وعظيم شأنها، وحُسْنِهَا وكَمَالِهَا، وأنّهَا حَقٌّ وخَيْرٌ، وأنَّهَا السَّبِيلُ الأَقْوَمُ للناس.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾:

هٰذا هُوَ المُقْسَمُ عَلَيْهِ بمهابط الوَحْي، إنَّهُ التأكيد على أنَّ اللَّهَ جلَّتْ قُدْرَتُهُ، وعظم سُلْطانُه، وسَمَتْ حِكْمَتُه، قَدْ خَلَقَ الإنسان في أحْسَنِ تَقويم.

إنّ الإشادَة بالرّسالات الجليلات الّتي أنزلها اللَّهُ عزَّ وجلَّ على رُسُلِهِ، تَسْتَدْعِي تَسَاؤلاً مَفَادُهُ: لماذَا جَعَلَ اللَّهُ هٰذِهِ الرّسالاَتِ بهذا الكمال والحُسْنِ، ومُشْتَمِلَةً على الهداية للَّتِي هي أقْوَمُ؟

وقَدْ جاءَ المُقْسَمُ عليه مشيراً إلى الجواب المسؤول عنه.

والمعنَى: أنَّ مخلوقاً يُخْلَقُ في أحْسَنِ تَقْوِيم يَحْتَاجُ رِسالاَتٍ رَبَّانِيَّةً عظيمةً جليلةً، تَهْدِي هٰذا المَخْلوقَ للَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، لتُناسِبَ الرّسالَةُ ذَاتُ الصِّراطِ الأَقْوَمِ حَالَ هٰذَا المخلوقِ الذي اخْتِيرَ لهُ أحْسَنُ تقويم في خَلْقِهِ.

إذْ من صفاتِ هذا المخلوق الذي هو الإنسان: أنه ذُو حياة، وذُو قُدْرَة يُمِدُّه اللَّهُ بها، وذُو إرادَةٍ حُرَّةٍ، ولَهُ صفات السَّمْع والبَصَر، وسائر الحواسّ الظاهرة والباطنة، ولديه القُدْرَة على التعلّم واكتساب المعارف وتدبير الأمور، واستنتاج الأسْبابِ من مُسَبَّبَاتِهَا، والنَّتائج من مُقَدِّماتها،

ولدَيْه القُدْرةُ على اكتشافِ البواطن من الظواهر، وله صفاتٌ نفسيَّة راقية، كالحبِّ والكراهية، والعفَّة والجود، والشجاعة والحذر، والعطف والرَّحْمَةِ، والإيثار والنّجْدة، وغير ذلك من صفات نفسيّة.

ومن الظاهر أنَّ مخلوقاً له هذه الصفات هو مخلوقٌ في أحْسَنِ تقويم؛ لأنّ بعض هٰذه الصِّفات في مَدَاها الأكمل الذي ليس فوقه كمال، هي من صفات اللّه عزّ وجلّ الذي ليس كمثله شيء، وقد فهم بعض العلماء من الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ ومسلم وأحْمَدُ عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنَّهُ قال:

«خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ».

أَنَّهُ مَنَحَهُ نَفَحَاتٍ مُصَغَّراتٍ ضئيلات من الصِّفات الّتي تُطْلَقُ عَلَيْهَا الأسْمَاءُ الّتي تُطْلَقُ على صفاتِ اللّه عزّ وجلّ، غَيْرَ أَنَّ صفات اللّه سبحانه أزَليَّةٌ لاَ نِهَايَةَ لكمالاتها، أمّا الإنسان فهو ذو صفات حادثات مَحْدُوداتٍ ناقصاتٍ، فهي تشترك مع صفات اللّه بإطْلاَقِ بعض الأسْماء عليها، وفي بعض الآثار الصُّغرىٰ، وتختلف في الجوهر والحقيقة، وبسبب إعطاء اللّه له هذه الصفات كان الإنسانُ مخلوقاً في أحْسَنِ تَقْويم.

ولمّا كان من صفات الإنسان حرّيَّةُ الإرادة، وكان باستطاعته أن يَفْعَلَ الخَيْرَ والشَّرّ، والطاعةَ والمعصية، كان من الحكمة السّنية وضْعُهُ مَوْضِعَ الامْتِحَانَ، الذي يَسْتَدْعِي الحساب وَفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء. وكان من الحكمةِ تحديد موادّ امتحانه، وإنْزَالُ الرّسالاَتِ الرَّبَّانيَّة الّتي تَهْدِيه للّتي هي أقوم، وتُعَرِّفُه بِمَا هو مطلوبٌ منه في رِحْلَةِ امتحانه.

فإذا اجْتَازَ امتحانَه بنجاحٍ استحقَّ دار النّعيم خالداً فيها مُخَلّداً أبداً، وإلاّ استحَقَّ من دَرَكَاتِ الجحيم بحسَبِ دَرَكَاتِ معاصيه ومخالفاته، والدَّرْكُ الأَسْفَلُ مِنَ الجحيم يُعَذَّبُ فيه الذين هُمْ من أسْفَلِ السَّافلين.

**التقويم**: يأتي في اللّغة بمعنى التَّعْدِيل، وتعديلُ كلّ شيءٍ يكون

بحسَبه، فتقويم الرُّمح يكون بجعل عصاهُ معتدلةً مستقيمة، لا عوج فيها، وتقويم المخلوق المعَدّ لوظيفةٍ ما، يكُونُ بمَنْحِهِ العناصِرَ والصّفاتِ اللاَّزمَة بتعادل، كي يؤدّي وظيفته التي خُلِقَ لها على أحْسَنِ وَجْهٍ.

وباستطاعتنا أن نشرح المُقْسَم به والمُقْسَم عليه بما يلي:

قسماً بالرّسالاتِ العظيمة الهادية للّتي هي أقوم، والمشتملة على بيان الدّين القيّم الذي اصطفَيْنَاهُ للناس، والذي يُلائم كمالُهُ حالَ من أنْزلْنَاهُ لِهدَايَتهم، لقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ في أحْسَنِ تقويم، فحالُهُ يَسْتَدْعي إنْزالَ هٰذِهِ الرّسالات القيّمة المشتملة على الدّين القيّم.

﴿لقَدْ خَلَقْنَا﴾: اللاّم واقعة في جواب القسم، و«قد» حرفٌ يؤتىٰ به للتحقيق والتوكيد. وجاء الفاعل ضَميرَ المتكلّم العظيم، لأنّ الإنسانَ المخلُوقَ بصفاتِهِ الّتي جعلَهُ الخالقُ بها في أحْسَنِ تقويم، لا يَتِمُّ خَلْقُهُ إلاَّ مِنْ قِبَلِ خالقٍ عظيم، فَصفاتُهُ تَدُلُّ على عظمة خالقه، فجاء ضَمِير المتكلّم العظيم مُشْعِراً بذلك.

وقد كان من كمالِ الحِكْمَةِ أن يُهَيّئ الخَالِقُ لهذا المخلوق المتميّز مسكناً رفيعاً جدّاً يُلائِمُ تَفْضيله وتَكْرِيمه، وجَعْلَهُ في أحْسَنِ تقويم، فخَلَقَ لَهُ الفِرْدَوْسَ الأعلىٰ في جنَّاتِ النَّعيم، وخلق مراتب جنَّاتِ النعيم، ودرجاتها للّذين لا يستحقّون باختياراتهم الفردوس الأعلى، وتمّ بخلق جنات النّعيم على اختلاف مراتبها ودرجاتها تحقيقُ حكمة الفضل الرَّباني.

ثمّ إنَّ حُرِّيَّة الإرادة الّتي مُنِحَتْ للإنسانِ، جَعَلَتْهُ يستطيعُ بها أن يَجْحَدَ خالقه، ويَكْفُرَ به، ويتمرَّدَ على أوامِرِهِ ونَوَاهِيهِ وأحْكامه، أو جَعَلَتْهُ يُؤْثِرُ العَاجلة على الآجلة، فيَقَعُ بالمعاصي والمخالفات، والتقصيرات في القُرُبات التي لَوْ تَقَرَّبَ إلى بارئِهِ بها لكان أهلاً لاستحقاق درجات الفردوس الأعلى يَوْمَ الدّين.

فاقتضت حكمة اللّه أن يخلُق داراً أخرى لعقاب الجاحد المعاند الكافر، ولعقاب العاصي المسرف في المعاصي والمخالفات، فخلق دار العذاب، وتمّت بخلقها حكمة العدل الربّاني.

واقتضت حِكْمَةُ اللّه جلّ جلاله أنْ تَهْبِط درَجَةَ الإنسانِ في منازل الجنّة، إذا كان من أهل الإيمان، وأن ينال الدَّرَجة التي تُلائِمُ اختياراته في الحياة الدنيا طاعةً أو مَعْصِية. وأن يَهْبِطَ إلى دَرَكَاتِ النّار، فَيُوضَعُ في المَنْزِلَةِ والدَّرَكَة الّتي يَسْتَحِقُّها بحسب مَعَاصيه، فإنْ كان من أَهْلِ الكفر ومرتكبي الجرائم الكبرىٰ أنزلَهُ اللّه إلى الدركات السُّفْلَى في الجحيم، حتَّىٰ يكونَ مع أسْفَلِ سَافِلِين، وفي الدَّرْكِ الأسفل من النار، والهبوطُ في الدَّركات خاضِعٌ لأحْكَامِ قانون العَدْلِ الرَّبّاني.

وعندئذٍ يَصْدُقُ على هذا الإنسان أنّ اللّهَ عزّ وجلَّ قَدْ خَلَقَهُ مُنْذُ بَدْءِ خَلْقِهِ في أَحْسَنِ تقويم، إلاّ أَنَّهُ قد رَمَىٰ نَفْسَهُ باختيارِهِ الحرّ من عِلّيّين، بكُفْرِهِ وجحوده وعصيانه، وطُغيانه وعُدْوانه، وما زالَ يَتَدَنَّى في الدَّرَكاتِ حتَّى صارَ في أسْفَلَ سافِلِين.

وهٰذه الصَّيْرُورَةُ في أسْفَلِ سافِلين، والَّتي جَنَىٰ بها على نَفْسِهِ بإرادَتِهِ الحرَّة، قد تمَّتْ بقوانينِ اللّهِ القدريَّة الجزائِيَّة، الَّتي نَظَّمَ اللّه عزَّ وجلَّ بمقتضاها جزاءَه لعباده، على ما يجنون به على أنفسهم باختيارتهم الحرَّة الّتي لا جَبْرَ فيها ولا إكراه.

فَمَنْ رَمَىٰ نفسه من شاهقٍ على صَخْرٍ صَلْدٍ حطَّمَهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ وقَتَلَهُ على الصَّخْرِ، بمقتضىٰ قوانينِهِ القدريَّة التكوينيَّة.

ومَنْ تعاطىٰ المخدّراتِ بإرادتِهِ، عاقَبَهُ اللّهُ عزّ وجلّ بالإدْمَانِ عليها، بمقتضىٰ قوانينه القَدَرِيَّةِ التكوينيّة.

ومن أَلْقَىٰ نفسه في النار بإرادته الحرّة، أحْرَقَهُ اللَّهُ بالنَّارِ الَّتِي رَمَى نَفْسَهُ فيها، بمقتضىٰ قوانينه القَدَرِيَّة التكوينيَّة.

ومن كفر باللَّه ولم يَتُبْ قَبْلَ مَمَاتِهِ أدْخَلَهُ اللَّهُ النار بمقتضىٰ قوانينِهِ الجزائيّة العادلة. . .

كلُّ هذهِ المعاني يستطيع أن يستخرجها المتدَبّر من القسم بمهابط الوحي، أي: برسالات اللَّه للناس، ومن المقْسَم عليه الذي جاء في:

- قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾:

أي: إنّ هذا الإنْسَان الذي خَلَقْنَاهُ بعَظَمَةِ القُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّة، مُحَاطَ الأَجْزاءِ كُلِّها في أحْسَنِ تَقْويم، نَفْسِيٍّ وجَسَدِيٍّ، قَدْ كانَ مِنْ أفراده من أنْزَلَ نفسه بإرادتِهِ الحرَّةِ، واتِّباعه أهواءَهُ وشهواتِهِ، ووساوِسَ الشياطين وتَسْويلاتهم، إذ اختار لنفسه الجحودَ والكُفْرَ والطغيان، والظُّلْمَ والبَغْيَ والعُدْوَانَ، حتَّى بَلَغَ بها أحَطَّ الدَّرَكاتِ السُّلُوكِيَّةِ الباطِنَةِ والظَّاهرة، فعاقَبْنَاهُ بمقتضىٰ القوانين الجزائيّة العادلة، فَرَدَدْنَاهُ عن مَرْتَبَةِ التفضيل الّتي فَضَّلْنَاهُ بها، جاعلين إيَّاه أسْفَلَ سافلين.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ فوقَهُ مَرْدُودُونَ آخَرُونَ من السَّافلين، في دَرَكاتٍ أخَفُّهَا أولَىٰ دَرَكاتِ المعذَّبين في النَّار دار العذاب يَوْمَ الدِّين، وبينَهما دركاتٌ مختلفاتٌ بحَسَب أحوال أهل كُلِّ دركة.

صيغة ﴿أَسْفَلَ﴾ تَدُلُّ على مَنْ هو في أحَطِّ الدّركات وأخَسِّها، وجَمْعُ ﴿سَٰفِلِينَ﴾ يَدُلُّ على أصْنَافٍ متفاوتين متخالفين في الانْحِطَاط والتسفُّل.

ويدخُلُ في عُمُومِ الرَّدِّ أيضاً الخَاسِرُونَ من الدرجات الرفيعة في جنَّاتِ النّعيم، بدءاً من درجات الفِرْدَوْسِ الأعلىٰ، حتى أدنى درجات الجنَّات، ولكلّ مقصّر أو عاصٍ رَدٌّ متنازلٌ بحسب مخالفته لشروط درجات التكريم.

واقتصر النَّصُّ على ذِكْرِ الدَّرَكَةِ السُّفْلَىٰ، لأنَّ فِكْرَ المتدبّر المتأنّي الذي يَغُوصُ إلى أعماقِ المعاني ويفْتَحُ اللَّهُ عليه، يُدْرِكُ الرَّدَّ إلى ما دُونَهَا باللُّزوم العقليّ، وبدلالة سائر النصوص الدّالّة على التفاوت في الدَّرَجات وفي الدَّرَكات، بحسب الاختيارات الإراديَّة للناس.

والرَّدُّ إلى أسْفَلِ سافلين في الصّفات النفسيَّة يكونُ بمَسخِ هٰذِهِ الصّفات إلى ما هو أخَسُّ من أخسّ البهائم والحشرات، ثمّ إلى أخَسّ من ذلك حين يكون الإنسان جَحُوداً كَنُوداً كَفُوراً، حقوداً حسوداً جبّاراً، قتّالاً سَفّاكاً للدّماء ظلّاماً، عابداً للطّواغيت.

## الرّدّ في اللّغة:

يأتي بمعنى «الصَّرْف»، ويأتي بمعنى «الإرجاع»، وهذا المعنى يُشيرُ إلى أنّ الإنسان لم تكن له أيَّةُ صفةٍ من صفاتِ الكمال والتفضيل قبل أن يخلُقَه اللَّه ويمنحَهُ صفاته الّتي فضَّله بها، بَلْ لم يكن شيئاً مَذْكوراً.

وفي قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ توجيهٌ من اللَّه جلّ جلالُهُ للنّاس أن يَدْرُسُوا ويبحثُوا بتَتَبُّعٍ وأناةٍ، ليَكْتَشِفُوا عَظِيمَ مِنَّةِ اللَّهِ عليْهِمْ فيمَا وَهَبَهُمْ مِنْ صِفاتٍ تكوينيَّةٍ، نَفْسِيَّةٍ وجَسَدِيَّةٍ.

إنّ الباحثين المُتَتَبِّعِينَ من عُلَماءِ الكَوْنِ مَا يَزالُون يَتَتَبَّعُونَ بالدَّرْس والبحث والتجرباتِ والملاحظاتِ هذا الإنسان، من مُخْتَلفِ المجالاَتِ والتخصُّصات، ويَكْتَشِفُونَ ما فيه من عجائب الخَلْقِ وإتقان الصُّنْعِ المُذْهِش، وما تزال تتفتَّحُ أمامَهُمْ مغاليقُ عجائب مدهشةٍ تِباعاً، كُلَّما واصَلُوا البَحْثَ والتأمُّل والاختبارَ والتجربة والملاحظة.

إنّهم كلّما اكتشفُوا عجائبَ جَديدةً بالنسبة إليهم، تَشَعَّبَتْ أمامَهُم طُرُقٌ ومجالاتٌ لم تَكُنْ في حسبانهم، وفيها من المذْهِشات العجيبات، والمتقنات الرائعات، ما يَجْعَلُهم يتَصاغرون في مداركهم، فيُؤْمِنُ مُؤْمِنُهُم بالرَّب العظيم الجليل، ويَسْجُدُ لسلطانه خُضُوعاً وخُشُوعاً.

أمّا الدِّينُ الذي جاءت به الرسالات الرّبانيّة، الّتي أقْسَمَ اللَّه بمَهَابِطِ وَحْيِهَا، فهو الحقُّ والخيرُ والتشريعُ الأقْوَمُ الأحْسَنُ، يُدْرِكُ ذلك أهلُ العقل والبصيرة، ويُسَلِّم به أهْلُ الإيمان، وتكشفه التجرباتُ الإنسانيّةُ، الّتي تُعدِّلُ أحْكَامَها طلباً للأحْسَنِ والأفْضل مُقْتَرِبَةً إليه، وتكشِفُه المقارَنَات المتجرّداتُ المقوّماتُ بإنْصَافٍ، فكُلَّما جرَّبَ النَّاسُ الأنظِمَةِ الوضعيّة، الّتي يَضَعُهَا المُقَنِّنُونَ من النّاس بآرائهم، أو بأهوائهم ومصالحهم، وشَاهَدُوا مَا فيها من عُيُوبٍ وسَيّئاتٍ ومثالِبَ، أدْركَ أهْلُ العَقْلِ والإنصافِ مِنْهُم حِكْمَةَ اللَّهِ الجَليلَة في الدِّين الذي اصْطَفَاهُ للناس.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

**﴿غَيرُ مَمْنُونٍ﴾**: أي: غَيْرُ مَقْطُوع. يقال لُغَةً: مَنَّ فُلانٌ الشَّيْءَ، أي: قَطَعَهُ، أو لا يَقْترن بما يُشْعِر بالمنَّةِ المؤذِيَة للنفوس.

والأَجْرُ غير المقطوع هو النعيم الذي يَخْلُدُون فيه في منازلهم ودرجاتهم في جنَّات النعيم، بحَسَبِ إيمانهم وصالحات أعمالهم.

**﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾**: **الإيمان**: هو التصديق الإراديّ والاعتراف التامّ الصحيح بأركان الإيمان السّتة وفروعها وأجزائها.

**﴿وَعَمِلُوا الصَّالحات﴾**: **العَمَلُ الصالح**: هو كلُّ فِعْلٍ ظاهرٍ أو باطن، أمَرَ اللَّه به أوْ رَسُولُهُ أمْرَ إلزام أو ترغيب، وكلُّ اجتنابٍ أو تَرْكٍ لشَيْءٍ نَهىٰ اللَّه عنه أو رَسُولُهُ نَهْيَ إلْزامٍ أو تَرْغيب.

فَيَشْمَلُ العملُ الصالح فِعْلَ أشياءَ، وتَرْكَ أشياء، ممّا يَخْضَع لسلوك النَّاس الإرادي، في أجسادهم، أوْ قُلوبهم، أو نُفوسهم، أو أفكارهم وخواطرهم الإراديَّة.

أمّا ما لا يملكه الإنسان بإرادته من كلّ ذلك، فلا يَدْخُلُ في دائرة مَسْؤوليّتِهِ أصلاً، ولا يُنْسَبُ إليه منه فِعْلٌ ولا تَرْكٌ.

ودلالاتُ كتابِ اللَّه وسُنَّةِ رَسُول اللَّه القوليَّة وغير الْقَوليَّة، هي التي يَسْتَفِيد الفقهاءُ المجتهدون منها أوامر اللَّه ورسُوله ونواهيهما الإلزاميّة أو الترغيبيّة.

وكلمة (إلاَّ) في الآية أرى أن نَفْهَمَهَا على أَنَّها بمعنى «لكن»؛ لأنَّ جعلها من قبيل الاستثناء يجعلُ الناسَ قسمين: إمّا مَرْدُودون لأَسْفَلَ سافلين، وإمّا نَاجُونَ ومنَعَّمُون في جنَّاتِ النعيم بالإيمان، والعَمَل الصالح، بينما تَكْشِفُ قواطع النُّصُوص أنّ النَّارَ دركاتٌ، ويَخْلُدُ في دركَاتِهَا كُفَّارٌ ومُشْرِكُونَ لَيْسُوا من أهْلِ أسْفَلِ سافلين.

## مقارنة بين ما جاء في سورة العصر وما جاء في سورة التين:

ثم إذا أجرينا مقارنة بين ما جاء في سورة «العصر» وما جاء في سورة «التين» لنَجْمَعَ بين النصّين جمعاً تكاملياً، فإنّا نُلاحظُ أنَّ سورة «العصر» قد أبانَتْ أنَّ الإنسان يتعرّضُ دواماً في حياته الدنيا للخُسْر، كلّما مرّت عليه لحظة من لحظات العمر، في نهر العصر العابر من المستَقْبَل إلى الماضي، والسَّبَبُ في هذا عَدَمُ محافظته بالإيمان والعمل الصالح على مرتبة التكريم والتفضيل الّتي مَنَحَهُ اللَّه إيّاها، إذْ خَلَقَهُ في أحْسَنِ تقويم، وهيَّأ لَهُ الفردوسَ الأعْلَى لتفضيله في جنّاتِ النّعيم، إذا هو حافظ عليه باختياره الحرّ، في رحلة امتحانه.

وأبانَتْ سورة «التين» أنَّ اللَّهَ جلَّتْ قُدْرَتُه وحكمتُه قد خَلَقَ الإنسان في أحْسَنِ تقويم، أي الذي يلائمه مسكن الفردوس الأعلى، لكنّ فريقاً من الناس اختار بإرادته في رحلة امتحانه الانحطاطَ في الدّرجاتِ، ثم في الدّركات، إلى أحَطِّها، فرَدَّه اللَّه رَدّاً جزائياً بعقابٍ أوْصَله إلى أسْفَل سافلين.

ولم يَكُنْ في شَيْءٍ من اختياراته مَجْبُوراً، بل كان يَمْلِكُ إرادةً حُرَّةً لا مُجْبِر لها.

ومن الجمع بين دلالات ما جاء في السّورتَيْن نُدْرِكُ أنّ فريقاً من الناس يستمرُّ في واقع الخُسْر، خلالَ رحلة امتحانه، بسَبَبِ تقصيراته، ومَعَاصِيه، وتضييعه عُمْرَهُ الّذِي هو رأسُ ماله في المتَالِفِ، أو فيما يَحْمِلُ به أوزاراً، ثم بِسَبَبِ كُفْرِهِ برَبِّه، وجُحُودِهِ لَهُ، وبعنادِهِ وإصراره على الباطل، وإنكارِهِ نِعَمَ اللَّهِ عليه، حتَّىٰ يتسَفَّلَ في الدَّرَكَاتِ إلى أخَسِّهَا وأحَطِّها، وعندئذٍ يَجِدُ نفسه في أسْفَل سافلين، عُقُوبَةً من ربِّه له.

وجاء في سورة (العصر) التصريحُ بأنّ من العمل الصالح التواصي بالحقّ، والتواصي بالصبر.

وجاء في سورة (التين) التصريحُ ببيان الأجرِ غير الممنون للذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات.

واشتركت السورتان ببيَان أنَّ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات يُمْكن أنْ يحافظوا على مقاديرَ ممّا وهبهم اللَّه من تفضيلٍ وتكريم، بحَسَبِ مَقَادِيرِ ما يَكْسِبُونَ بإراداتهم الحرَّة، من ثَرواتٍ من الإيمان والعمل الصالح.

فتكامَلَتِ السُورتان في بياناتهما حول موضوع التفضيل في أصل الخَلْقِ للإنسان، وخسارته عَبْرَ رِحْلَةِ امتحانه بإرادته الحرَّة في الدّرجات والدّركات، إلى مستوى قد يَصِلُ به إلى أسْفَلِ سافلين.

## (٦)
## التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دَرْسَيِ السّورة

### الآيتان (٧ ـ ٨)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

**تمهيد:**

التدبّر المتأنّي العميقُ لآياتِ الدرس الأول من درسَيْ السورة، هدَى إلى استخراج المفهومات التاليات استنباطاً من لوازم الدلالات المباشرات للألفاظ:

**المفهوم الأول**: الرّسالاتُ الرَّبَّانيّةُ العظيمة، الّتي اسْتَحَقَّتْ لعظمتها أن يُقْسِمَ اللَّه بمهابط الوحي بها، إشارةً إلى مجدها وسُمُوّ هدايتها للتي هي أقوم، وإشادَةً به، قد أُنْزِلَتْ للإنسان الّذي خلقه اللَّه في أحْسَنِ تقويم، بدلالة أنّهُ هُو المُقْسَمُ عليه.

**المفهوم الثاني**: الإنْسَانُ قَدْ خلقَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ في أحْسَنِ تقويم، ليُسْكِنَهُ خالداً مُخلَّداً في أحْسَنِ مَسْكَنٍ، تكريماً لما منحه في خَلْقه من كمالات، وهي جنَّاتُ النّعيم ذاتُ المراتب والدرجات المتفاضلات، والّتي يقَعُ في ذروتها الفردوس الأعلى، بشَرْط أن يَمُرَّ في رِحْلَة امْتِحَانٍ يُثْبِتُ فيها استحقاقه وأهليَّته مع رحمة ربّه وفضله عليه لما كرَّمَهُ خالقُهُ به، ولِلْخُلُودِ في دَارِ كَرَامَتِهِ.

**المفهوم الثالث**: الإنسانُ الّذي يُثْبتُ امتحانُه عَدَم استحقاقه الخلودَ في دار كرامة اللَّه له، أو يُثْبت امتحانُه أنّ حكمةَ اللَّه تَقْضِي بحاجته إلى التطهير بمقدارٍ ما من العذاب، قبل التفضُّلِ عليه بالخلود في دار كرامة اللَّه، قد خلق اللَّه له في مقابل دار كرامته، دار عذاب، ذاتَ دركاتٍ متنازلات، ويَقعُ في أحَطِّها وأَخَسِّها الدَّرْكُ الأَسْفَل، الذي يَسْتَحِقُّ الخلودَ فيه معذَّباً بأشدِّ أنواع العذاب أسْفَلُ السَّافلين.

**المفهوم الرابع**: حكمةُ اللَّهِ أحْكَمِ الحاكمين تقتضي لا محالَةَ أنْ يكون الدِّينُ (أيّ الجزاء) ثَمرَةَ امتحانِ ذوي الإرادات الحرَّة الّتي مَنَحَهُم الخالقُ إيَّاها، ليَعْبُرُوا رِحْلَةَ امتحانِهِمُ الأَمْثَلِ دون جَبْرٍ ولا إكراه.

والجزاءُ لا بُدَّ أن يَكُونَ مَسْبُوقاً بالسُّؤَالِ، والحساب، وفَصْلِ القضاء.

**المفهوم الخامس**: الجزاءُ الَّذي تَقْتَضِيهِ حكمة الابتلاء (أي: الامتحان) غَيْرُ مُتَحقِّق كَما يَنْبَغِي له في ظُرُوف الحياة الدنيا، فلا بُدَّ إذَنْ أن نَفْهَمْ أنَّ حِكْمَةَ أحْكَمَ الحاكمين خالِقِ الإنْسان في أحْسَنِ تقويم، قَدْ قَرَّرَ في خُطَّتِهِ إيجاد حَياةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ ظُرُوفِ الحياة الدنيا، وهٰذه الحياةُ الأُخْرَىٰ مُعَدَّةٌ لتحقيق الجزاء الأَمْثَلِ بالفضل في دار الكرامَةِ والنّعيم، أو بالعَدْلِ في دارٍ للإهانَةِ والعذاب.

وقَدْ سَمَّىٰ اللّه زَمَنَ هٰذِهِ الحياة الأخرى: يَوْمَ الدِّين، أي: يَوْمَ الجَزاء. وسمَّاهُ الْيَوْمَ الآخر، وسمَّىٰ دار الإقامة فيه الدّار الآخِرَة.

**المفهوم السادس**: لمّا كانَ الإنسانُ المخلوقُ في أحْسَنِ تقويم، لا بُدَّ أنْ يَمُرَّ رِحْلَةَ الابتلاء لتَمْييزِ أفراده، وقد أنزل اللّهُ الرّسالات الّتي تبيّن له مطلوبَ اللّه منه، في هذه الرِّحْلَةِ الاختباريّة.

ولمّا كان من أفراد هذا الإنسان مَنْ يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّين، ولاَ يُصَدِّقُ بشأْنِهِ ما جاء به المُرْسَلُونَ الَّذِين يُبَلِّغُون رِسالاتِ رَبِّهِم.

كانَ مِنَ الحِكْمَةِ العِلاَجِيَّة العقليَّة، أن يُخاطِبَ اللّه عزّ وجلّ هٰؤُلاَءِ المكذِّبين بالدِّين، بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ، كما جاء في الدَّرْسِ الثاني من دَرْسَيْ السّورة.

فقال اللّهُ عزّ وجلّ خطاباً لكلّ مكذِّبٍ بالدِّين، بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾:

أي: أيّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ فيَجْعَلُكَ تُكَذِّب بالدِّين، أي: بالجزاء الَّذي تقتضيه حِكْمَةُ أحكم الحاكمين، يا أيُّها الإنسانُ ذُو الفِكْرِ القادر على إدراك الحقّ بأدِلَّتِهِ، بَعْدَ أن خلقَكَ رَبُّكَ في أحْسَنِ تقويم.

إنَّ من أجَلِّ عَناصِرِ هٰذا التقويم الذي فضَّلَكَ على سائر المخلوقاتِ، قُدْرَتَكَ الفِكْرِيَّةَ على الفَهْم، والاستنباط، وإدْرَاكِ الحقائق عن طَرِيق أدلَّتِها وأماراتها، وإدْرَاكِ بواطنِ الأمُور استنتاجاً من ظواهرها، والاسْتِدلالِ على غَيْرِ المشهودِ بالمشهود، وبالقياس عليه.

أيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ بَعْدَ هٰذا الَّذِي أنت به في أحْسَنِ تقويم، فيَجْعَلُكَ تُكَذِّبُ الرَّسُولَ والقرآنَ المنزَّل من ربّك، بنبأ الدين، الذي سَوْفَ يكون في يوم الدّين، بَعْدَ البعث للحساب وفصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء الأمثل ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾، أي: بالجزاء الحكيم، الذي تقتضيه حِكْمَةُ خَلْقِك في أحْسَنِ تقويم.

إنّ النَّظَر الحصيف، إلى الدَّليل العقليّ، لا بُدَّ أن يَهْدِي أُولي الألباب المنصفين، الَّذِين لا يتّبِعُون أهواءهم وشهواتهم ووساوس الشياطين وتسويلاتهم وتزييناتهم، إلى ضَرُورَةِ وجُودِ يوم الدّين، الّذي تقتضيه حَتْماً حِكْمَةُ اللّه الرَّبّ الخالِقِ العليم القدير، أحْكَم الحاكمين، الّذي يَفْعَلُ مَا يشَاءُ ويَخْتَارُ، فَلا يُعْيِيهِ ولاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ممّا يُرِيدُ، إنَّمَا أَمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أن يقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُون.

- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾؟!!

فإذا قُلْتَ أيُها الإنسَانُ المكَذِّبُ بالدّين: بلَىٰ، كَمَا يجبُ عَلَيْكَ عقلاً أنْ تَقُول، فَعَلَيْكَ أن تُؤمِنَ بالدّين، لأنَّ الجزاء الحكيم، على أعمال المخلوق الاختيارية، الموضوع مَوْضِعَ الامتحانِ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيا، لازِمٌ عَقْلِيٌّ ضَرُورِيٌّ، فكَيْفَ بِحِكْمَةِ أَحْكَم الحاكمين، رَبّ العالمين، الرَّحْمٰنِ الرَّحيم، العَلِيم القدير، مَالِكِ يَوْمِ الابْتِلاء، ومَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الجَزاء؟!!

﴿أَحْكَمُ﴾: صيغَةُ «أَفْعلُ» تَفْضيلٍ، مِنْ فِعْلِ «حَكَمَ» بمعنىٰ: «قَضَىٰ».

يُقال لُغَةً: حَكَمَ بالأَمْرِ يَحْكُمُ حُكْماً، أي: قضىٰ، ويُقالُ: حَكَمَ لَهُ، أي: أَصْدَرَ حُكْماً لمصحلته، وحَكَمَ عَلَيْهِ، أي: أَصْدَرَ حُكْماً بإدانته، وحَكَمَ بَيْنَهُمْ، أي: أَصْدَرَ حُكْماً فَصَلَ فِيهِ بينهم فأعطَىٰ بالحكم ذا الحقِّ حَقَّهُ، وأدانَ مَنْ عَلَيْهِ الحقُّ بالحكم عليه.

﴿أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ﴾: **الحاكمون**: جمع «الحاكِم» اسم الفاعل من حَكَم بمعنى قَضَىٰ، فالحاكم هو القاضي الذي يُصْدِر الأحكام.

**وأَحْكَمُ الحاكمين**: هو أفضل الحاكمين الذين يَحْكُمُونَ بالعَدْل، وخَيْرُهُمْ، والحاكم الذي يَمْلِكُ صلاحيَّة الحُكْمِ تقتضي حِكْمَتُهُ أنْ يَقْضِي بين العباد بِمَا يستحقُّون من عَدْلٍ أو فَضْل.

أمّا السّلْسلةُ الفكريَّةُ الّتي هَدَىٰ إليها هذا الدليل القرآنيُّ، الموجَزُ في عبارته، العميق في دلالته، الثَّرُّ في معانيه، فهي كما يلي:

**أولاً:**

لقَدْ غدا معلوماً لك أيُّها الإنسان أنَّ اللَّه عزّ وجلّ هو رَبُّ العالمين، خالقُ كلّ ما سِواهُ ومُبْدِعُهُ، وأنْتَ خَلْقٌ من خَلْقِهِ، خلقك بقدرته المقرونة بحِكْمَتِهِ مِنْ علَق، وعلَّمَكَ بالْقَلَم، وعلّمَكَ بما وَهَبَكَ من وسائل وقُدْراتِ فِكْرٍ وفَهم ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَم، وخَلَقَ كلَّ شَيْءٍ فسوَّاهُ أَحْسَنَ تَسْوِيَةٍ للغايَةِ الَّتِي أَعَدَّهُ لها، وقَدَّرَ فَهَدَىٰ، وأَخْرَجَ المَرْعَىٰ، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ، وصَبَّ المَاءَ، وشَقَّ الأَرْضَ، وأَنْبَتَ الزَّرْعَ، متاعاً للنّاس وأنعامهم، ومَلأَ كُلَّ شَيْءٍ في كَوْنِهِ بآياتِ وُجُودِهِ، وعِلْمِهِ، وقُدْرَتِهِ، وحِكْمَتِهِ، وهَيْمَنَتِهِ علىٰ كُلِّ شَيْءٍ، إلى غَيْرِ ذٰلِكَ من صفاته وأسمائه الحُسْنَىٰ.

**ثانياً:**

وغدا معلوماً لك أيُّها الإنسانُ أنَّكَ مَخْلُوقٌ في أحْسَنِ تَقْوِيم، قَدْ خَلَقَ رَبُّكَ أَبَاكَ آدَمَ على صُورَتِهِ، وأَنْتَ ذُرِّيَّةٌ من ذُرِّيَّتِهِ، وبَضْعَةٌ مِنْهُ، ونَسْلٌ مِنْ نَسْلِهِ.

**ثالثاً:**

وغدا معلوماً لَكَ أيُّها الإنسان أنَّ كُلَّ شَيْءٍ في ذَاتِكَ وفي الكون من حَوْلِكَ، موضوعٌ بعنايةٍ تامَّةٍ، وحِكْمَةٍ بالِغَةٍ، لغايَةٍ حكيمة.

**رابعاً:**

وغدا معلوماً لك أيُّها الإنسانُ بَعْدَ البياناتِ والأدلَّةِ الّتي وضَعَهَا رَبُّكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، ونبَّهَكَ عليها، وناظرَكَ بها، فيما سَبَقَ أن أنزل قَبْلَ سُورَة «التّين» من قرآنٍ يُتْلَىٰ، أنّ الغاية من خلقك بصفاتك التي جعَلَك بها في أحْسَنِ تَقويم، إنَّما هي امتحانُكَ وابْتِلاَؤُكَ في ظروفِ هذه الحياة الدنيا، لمُحَاسَبَتِكَ، وفَصْلَ القضاء بِشَأْنِكَ، ومجازاتكَ على اختياراتك وتصرُّفاتِكَ الإراديَّة في رحلة امتحانك.

على أنَّ أولي الألباب الدَّرَّاكَة، تَصِلُ عقولُهُمْ إلى إدْرَاكِ هٰذه الغاية، متىٰ اسْتَبْصَرُوا صِفَاتِ أنفُسِهِمُ الّتي فُضِّلُوا بها على سائر ما يَشْهَدُونَ في الكَوْنِ.

إنَّهُمْ لا يشهدون شيئاً في الكون إلاَّ له غايةٌ حكيمة، فالماء لوظائفه في النبات والأحياء. والنباتُ لوظائفه في الأحياء والبهائم وغير ذلك. وحيواناتُ البَرِّ والبَحْرِ لوَظائفِهِا الّتي تُؤَدِّيها للإنسان، وَهِيَ مُسَخَّرَةٌ له. وكلُّ ما في الأَرْضِ والسَّمَاءِ مَخْلُوقٌ له، ومُسَخَّرٌ لما وهَبَهُ من قُدْراتٍ متىٰ وَصَلَ إلى مفاتيحها، وأحْسَنَ الانتفاع بها، دون معصيَةٍ للّه عزّ وجلّ في شيءٍ من ذلك.

**خامساً:**

بقي أن تُدْرِكَ أيُّها الإنسان أنَّ الغاية من خَلْقِكَ حُرَّ الإرادة، أنَّكَ مَخْلُوقٌ لرَبِّكَ، ليَمْتَحِنَكَ فيما آتاك، ثُمَّ يُحاسِبَكَ على اختياراتك في رحلة امتحانك، ويَفْصِلَ القضاء بشأنك، ويجازيكَ بالفَضْلِ إنْ أَحْسَنْتَ، وبالعَدْلِ إنْ أَسَأْتَ.

فَمِنْ غَيْرِ المقبول عقلاً أن يَخْلُقَكَ اللّه بصفاتك الّتي مَنَحكَ إيَّاها، وفَضَّلَكَ بها على سائر خَلْقِهِ، والّتي تستَطِيعُ بها أنْ تكونَ طاغياً جبّاراً، وفاجراً كفّاراً. والّتي تستطيعُ بها أن تتكبَّرَ وتتعاظم، حتَّىٰ تَدَّعِي الرّبوبية، وتكلّف أمثالك من النّاس أن يعبدوك وتَجْعلَ نَفْسَكَ إلٰهاً على الناس من دون اللّه.

من غير المقبول عقلاً أن يَترُكَكَ خالِقُكَ بَعْدَ ذٰلِكَ سُدى، فَلاَ يُحَاسِبَكَ، ولا يُجَازِيَكَ، وهو سُبحانَهُ أحْكَمُ الحَاكِمِين.

إنَّهُ لو كان الأَمْرُ كذلِكَ، لكانَتْ عَمليَّةُ الخَلْقِ كُلّه عَبثاً، ولَهْواً ولَعِباً.

لكِنَّ أحْكَمَ الحاكمين مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ، وعن اللَّهْوِ واللَّعِبِ.

وهذا الذي يَهْتَدِي إليه أُولُوا الأَلْبَاب، قَدْ جاء بيانُه والإرشادُ إليه بتفصيلٍ في عِدَّةِ آياتٍ من القرآن المجيد:

(١) فقال اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾؟!

﴿سُدىً﴾: أي: مُهملاً غَيْرَ مكلَّفٍ ولا مَسْؤُولٍ، وغير موضوع موضِعَ الابتلاء في ظروف الحياةِ الدنيا، وغَيْرَ مُحَاسَبٍ ولا مُجازَى.

(٢) وقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

(٣) وقال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: فلَيس من شأن الخالقِ أحْكَم الحاكمين، أن يَعْبَث ويَلْهُو بخَلْقِهِ، ولا سِيّما مَنْ يُحِسُّ ويتألّم، ويَفْرَحُ ويَحْزَنُ.

إنَّ خَلْقَهُ مَقْرُونٌ بالحقّ، ويَهْدِفُ إلى غايةٍ حكيمة.

(٤) وقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

## سادساً:

ثمَّ بَعْدَ أن خلقك اللّهُ أيُّها الإنسانُ ليَبْلُوكَ في رحلة الحياة الدنيا، وظروفها المختلفات، ووضَعَكَ مَوْضِعَ الامتحان، بَعَثَ لكَ الرُّسُلَ، ليُبَلِّغُوا عَنِ اللّه مطلوبَ اللّهِ من الإنسان في رحلة ابتلائه، وأَرْسَلَ معهم رسالات، وأنزلَ عليهم الكتاب والميزان.

هذا ما تقتضيه حِكْمَةُ الحكيم، فكَيْفَ بأَحْكَمِ الحاكمين، اللّه رَبّ العالمين.

## سابعاً:

وبعد الامتحان يا أيُّها الإنسان، لا بُدَّ حتماً أن يأتي الحساب عن الأعمال الاختياريّة الإراديّة، وفَصْلُ القضاء بشأنها، وتحقِيقُ الجزاء بالعدل، أو بالفضل.

وبما أنّ هذا لا يتمّ في ظروف الحياة الدنيا، فلا بُدَّ حتماً من أن تكون خُطَّةُ التكوينِ مشتملةً على ظروفِ حياةٍ أُخرَى، يكون فيها الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء.

فبَعْدَ انتهاء رحلة الابتلاء، ومَحْوِ ظُرُوفِها، لا بُدَّ أن تأتي النَّشْأَةُ الأخرى، بعثاً للحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء بالفضل أو بالعدل، وهذه الحياة الأخرى هي حياة البقاء، وفيها دَارُ كَرامةِ اللَّهِ لمستحقّي الخلود في النّعيم بوَعْدِ اللّه الكريم. وفيها دار الإهانة، للمعذّبين، وللذين يخلُدُونَ فيها من الكَفَرَةِ والفجرة والمجرمين.

فما أبدع الإيجاز وأعْمَقَ دَلالاته في قول اللّه عزّ وجلّ خطاباً للمكذّب بيَوْم الدّين:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾؟!!

بهذا قَامَتْ على الإنسان الحجَّةُ العقليَّةُ البرهانيَّةُ على ضرورة الدِّين بمعنى الجزاء، فلا عُذْرَ لَهُ إذا أنْكَرَهُ أوْ كَذَّبَ بالأنْبَاءِ الواردة بشأنه عن الرّبّ جلّ جلاله.

﴿مَا﴾: اسْمُ استفهامٍ، والمعنى: أيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ أيُّها الإنسان على التكذيب بنبإِ يَوْم الدّين.

﴿الدِّين﴾: يأتي في اللّغة بمعنى الجزاء، وهذا المعنىٰ هو المرادُ هنا. تقولُ لُغةً: دِنْتُ فُلاَناً على عَمَلِهِ، إذا جَازيتَهُ عليه، قال الشاعر العربيّ:

دِنَّا تَمِيماً كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... دَانَتْ أَوَائِلَهُمْ مِنْ سَالِفِ الزَّمَنِ

﴿أَلَيسَ اللّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِين﴾: استفهامٌ فيه معنىٰ الإنكار على الكافر المكذِّبِ بنبإِ الدّين، مَع تنبيهه على الحجّة العَقْلِيَّةِ الَّتي تَدلُّ ذَوِي الألباب على ضَرُورَةِ الدّين، الَّذِي لا بُدَّ أن تقضي به حِكْمَةُ أَحْكَمِ الحاكمين.

وبهذا تمّ تَدَبُّر سورة «التين»

والحمد للّه على فتحه وتوفيقه

❊ ❊ ❊

## ملاحق لتدبّر سورة التين

**الملحق الأول**: حول بلاغيات في السورة.

**الملحق الثاني**: حول الأمن بمكة البلد الحرام

❁ ❁ ❁

## (٧)
## الملحق الأول
## حول بلاغيات في سورة التين

باستطاعة المتدبّر أن يستخرج طائفة من البلاغيات النفيسة في هذه السورة، ومنها ما يلي:

(١) الكناية البديعة الدقيقةُ ذاتُ اللّوازم المتعدّدة للوصول إلى المكنّىٰ عنه بها.

ونجد هذه الكناية في القَسَم بعَدَدٍ من مهابط الوحي، للدّلالة على كمال الرّسالات الرَّبَّانيَّة الّتي أُنزلت فيها على طائفة من رُسُل اللّه عليهم السلام، مُشْتَمِلَةً على الهداية للّتي هي أقوم، ذات الخصائص الملائمة للإنسان الذي خلقه اللّه في أحْسَنِ تقويم، ووضعه في الحياة الدنيا موضع الابتلاء.

ونظير هذه الكناية أن يُقْسِمَ العاشقُ بخالِقِ وَالِدي معشوقته، وخالِقِ البلد الجميلة التي نَشَأَتْ فيها، على أنّ قَلْبَهُ مُرْهَفُ الحسّ، سَهْلُ الإصابة بسهام الجمال.

(٢) المجاز المرسَلُ بإطلاق اللاّزم وإرادةِ المَلْزُوم.

ونجد هذا المجاز المرسَلَ في جملة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾، تعبيراً عمّا يفعل البارئ جلّ وعلا بالإنسان، للدلالة على أنَّ الإنسانَ قَدْ

تسفَّلَ باختياره الحرّ، اتّباعاً لشهواته وأهوائه وكِبْرِهِ وعُجْبِهِ بنفسه حتّىٰ أوْصَلَ نفسه إلى الدّركة السُّفْلَى بكُفْرِهِ وسُلُوكِهِ، وهذا مَلْزُوم، فرَدَّهُ اللَّه بعَدْلِهِ رَدّاً عقابيّاً إلى أسْفَل سافلين، وهذا لازمه، فأُطْلِقَ اللاّزِمُ مُتَضَمّناً إرادَةَ المَلْزُوم.

(٣) الأسلوب المختار في هذه السورة هو الأسلوبُ غَيْرُ المباشر، للدلالة على المراد، وهو أسلوبٌ شبيهٌ بالأسلوب الرّمزيّ، مع أنّه ليس منه، إذْ هو مُحاطٌ بدلالات يكشفها المتدبّر، إذا استخدم السَّلاسل الفكريَّة العقليّة، للوصول بها إلى المراد.

وهذا من أمثلة العُمْقِ القرآني، الّذي يَكْشِفُه الغوَّاصُ لاستخراج المعاني من الأعماق الّتي لَهَا أَمَاراتٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا في السُّطُوح.

(٤) التأكيد بالقسم، وببعض أدوات التأكيد الأخرى، وهذا ممّا يَسْهُل اكتشافه.

❁ ❁ ❁

## (٨)
## الملحق الثاني
## حول الأمن بمكّة البلد الحرام

وصف اللَّه عزّ وجلّ في سورة «التين» البلد الحرام بالبلد الأمين، أي: بالبلد الكثير الأَمْنِ.

إنّ قضيَّة أمْنِ مكّة قضيَّةٌ موروثَةٌ منْذُ أَسَّسَها سيّدُنا إبراهيم عليه السّلام، بولَدِهِ إسماعيلَ عليه السّلام، ثُمَّ بِبِناءِ الكَعْبَةِ المُشرَّفَةِ فيه، على المكان الّذي بوّأهُ اللَّه له، أي: أعْلَمَهُ به، وأنْزَلَهُ فيه، بَعْدَ أنْ أَمَرَهُ ببنائه على الموضع، الذي كان فيه أوّلُ بَيْتٍ لعِبادَةِ اللَّه عزّ وجلّ وُضِعَ للنّاس في الأرْضِ، دلَّ على هذا قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

**﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت﴾**: أي: وضعْ في ذاكرتك أيُّها المتلقِّي أنّنا هيَّأْنا مَكانَ الْبَيْتِ لإبراهيم، وكَشَفْنا لَهُ عن مَعالِمِهِ، وأَعْلَمْناهُ به، ومَكّنّا لَهُ فِيهِ، لِيَرْفَعَ قواعِدَهُ وجُدْرانه، ويَجْعَلَهُ بَيْتاً للَّهِ يحُجُّ النَّاسُ إليه، ويكونُ لهم مَثابَةً وأمْناً، مُطَهَّراً من الشِّرْكِ والرِّجْسِ مِنَ الأَوْثانِ، ومن الكفر والفُسُوقِ والعِصْيان.

يقال لغة: بَوَّأَهُ المكانَ، أي: أنزلَهُ فيه. وبوّأ المنزلَ له، أي: أعدَّهُ وهيَّأَهُ له، ويَدْخُلُ في هذا الإعلامُ بهِ وكشفُ معالمه.

ويمكن أن نفهم من تعريف البيت بأداة التعريف «ال» أن تكون للعهد العِلْميّ، فيكون فيها دلالة على أنّه قد كانَ قديماً بيتاً لعبادة اللَّه لأُمَمٍ سالفةٍ قبل إبراهيم عليه السلام، ويؤكّدُ هذا الفَهْمَ قولُ اللَّه عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

بَكّة: اسم من أسماء مكة البلد الحرام، سُمّيت بهذا الاسم لأنّها كانت تَبُكُّ أعْناق الجبابرة إذا ألْحَدُوا فيها بظُلْم، أي: تَدُقُّ أعناقهم وتَكْسِرُها، وقيل: لأنّها مكانُ ازْدِحام الناس حول بيت اللَّه فيها، يقال لغةً: بكَّ الرَّجُلُ صاحِبَهُ يَبُكُّهُ بكّاً، أي: زاحَمَهُ. وبكَّ فلانٌ يَبُكُّ بكّةً، أي: زَحَمَ ودخل في الناس بقُوَّة، وتَباكَّ القومُ، أي: تَزاحَمُوا.

ومعلومٌ أنّه قد كان في الناس قبل إبراهيم عليه السلام أُمَمٌ مكلّفَةٌ أن تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، ولَها بُيُوتُ عبادة يَعْبُدُونَ اللَّه عزّ وجلّ فيها، وهذه الآيَةُ تنصُّ على أنّ أوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاس، هو بيت اللَّه الحرام في مكّة.

وأَمْنُ مكّةَ البلَدِ الحرامِ قد تناول ظاهرتين:

**الظاهرة الأولى**: ظاهِرَةٌ تكوينيَّة، إذْ حَمَىٰ اللَّه جلّ جلالُه مكّة بجبالها، وطبيعة تكوينها من البراكين والزّلاَزِل، منذ قديم العُصُور الجيولوجيّة المصاحبة للتاريخ الإنسانيّ على الأرض، وكذلِكَ حَمَاهَا من الأحداث الكونيَّةِ الكُبْرَى، فَهِيَ سُرَّةُ الأرض، وأوّل ما بَرِدَ من قِشْرَتِها، وأَرْسَخُ مكانٍ فيها، وصخور جبالها من أقوى الصُّخُور وأصْلَبِهَا[١].

**الظّاهرة الثانية**: ظاهرةٌ تَشْرِيعيَّة، وتَدُلُّ عليها عدّةُ نصوصٍ قرآنيّة، وفيما يلي استعراضٌ لها مقرونٌ بشيءٍ من التدبّر:

(١) دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يَجْعَلَ هذا البَلَدَ بلداً آمناً، وأن يَرزُقَ من الثَّمرات من آمَنَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ من أَهْلِهِ، فاستجاب اللَّه عزّ وجلّ دُعاءه، ولٰكِنْ عَمَّمَ فَضْلَ رِزْقِهِ فيه على من آمَنَ ومن لم يُؤمِنْ؛ لأَنَّ الحياة الدنيا حياةُ امتحانٍ للجميع، وما دام الممتَحَنُ في مجال الامتحان فلا بُدَّ أنْ يَنالَهُ رِزْقُه المقسُوم له طَوال مُدَّةِ امتحانه، تحقيقاً لشروط الامتحان الأمْثَل لجميع الممتَحِنِين.

وقد أبان اللَّهُ عزّ وجلّ هذا بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

أي: قال اللَّه عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السَّلام: قد اسْتُجِيبَتْ دعْوَتُك، ولٰكِنْ لا أُخصُّ بالمؤمنين الرِّزْقَ بالثمرات فيه، بَلْ سأرْزُقُ فيه من الثَّمَرَاتِ

---

(١) نشرت الصحف ما يلي: [واس ـ القاهرة]: أعلنت نتائج دراسة علمية أجراها المعهد القومي للبحوث الفلكيّة، والجيوفيزيقيّة في القاهرة، أنّ الكعبة المشرفة تمثل مركز الأرض.

مَنْ كَفَرَ أيضاً، وأُمَتِّعُهُ في الحياة الدُّنيا متاعاً قليلاً، ثُمَّ في يوم الدّين أجْعَلُهُ مَسُوقاً بالإكْرَاهُ لأن يكون داخلاً في دار العذاب، وذائقاً فيها عذاب النار، وبِئْسَ هذا المصير الذي هو صائِرٌ إليه.

ونظيره ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في الآية (٣٥).

(٢) وقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا... ﴿١٢٥﴾﴾.

**مَثَابَةً للنَّاس**: أي: بَيْتَ عبادَةٍ يُكَرِّرُونَ الرُّجوع إليه، ومَلْجأً لِقُلُوبِهِم ونُفُوسِهِمْ وأمْنِهِم يَلْجؤُونَ إليه، ومكانَ اجتماعٍ على اللّه يَجْتَمِعُونَ عندَهُ.

**وأمْناً**: أي: ومكان أَمْنٍ بحُكْمِ شريعة اللّه للمؤمنين من عباده.

واستمرّتْ قاعِدَةُ الأَمْنِ التشريعيّة لِلْبَلَدِ الحرام في العَرَب، مُنْذُ عَهْدِ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، حتّىٰ بِعْثَةِ محمد ﷺ، على الرغم من تحريف أهْلِ الجاهليّة للدّين الذي وَرِثُوه من إسماعيل عليه السّلام، وعلى الرُّغم من إدخالهم الأوثان والشّرك إلى مكّة والمَسْجِدِ الحرام، ونَصْبِهِمُ الأوثان في المسجد وعلى الكعبة.

(٣) وبعد البعثة المحمّديّة، ذَكَّرَ اللّهُ قريشاً بنِعْمَتِهِ عليهم بالرِّزْقِ والأَمْنِ من أجل بيتِهِ «الكعبة المشرّفة» وبلده البلد الحرام، إذْ هُمْ أهْلُهُ وساكِنُوهُ، فمِنَ الواجب عَلَيْهِم أنْ يَشْكُرُوا رَبَّ هذا البيت، الَّذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ من خوفٍ، فيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، ولا يشركوا بعبادته أحداً، فقال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (قريش/ ١٠٦ مصحف/ ٢٩ نزول):

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾.

ومعلُومٌ أنَّ رِزقَهُمْ وأمْنَهُمْ الدائمين، إنَّما هُمَا بِسَبَبِ هذا البَيْتِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مَثَابَةً للنَّاسِ وأمْناً.

(٤) وأكَّدَ اللَّهُ عزّ وجلّ أمْنَ مكّة البلَدِ الحرام بحُكْمٍ تشريعيٍّ، فقال تعالىٰ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾.

أي: ومن دخله فيجبُ تأمينه، وقد جاء التعبير بصيغةِ الخبر المقطوع بوُقُوعه، ومعناهُ التكليفُ الإلْزَامِيُّ من درجَةٍ قُصْوَىٰ، إذْ يَحْمِلُ في مضمُونه الوعيد بالعقاب المعجّلَ لمخالفي واجب التأمين في هذا البلَدِ الحرام، الّذي جَعَلَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ البلَدَ الأمين، فمَنْ خالَفَ فيه واجبَ التأمين، عاجَلَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بالعقاب، ولَوْ بأيدي السلطة الحاكمة، فيَرْهَبُ كُلُّ مَنْ تُحدِّثُهُ نَفْسُه بالإخْلَالِ بأمنه، وبذلك يتحقَّقُ مَضْمُونُ قولِهِ تعالىٰ التشريعيّ:

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ...﴾.

(٣) وقَدْ تَعلَّلَ مشركو قريشٍ في رفضهم اتّباع هَدْي الرَّسول محمّد ﷺ، بأنَّهُمْ إذا اتَّبَعُوهُ غضب سائر العرب، فحارَبُوهُمْ وتخطَّفُوهُمْ، وأخرجوهم من بلَدِهِمْ؛ إذ قَبائل العرَب وثنيَّةٌ، وَهِيَ جميعاً تَدِينُ لقريشٍ، بِسَبَبِ أنَّهُمْ سَدَنَة البيت الحرام الذي يُعَظِّمُونَهُ جميعاً، ويَفِدُونَ إلَيْهِ، حاجّين ومعتمرين، وبسبب أنَّهُمْ سُلالَةُ إسماعيلَ بن إبراهيم مُؤسِّسَي البلد الحرام عليهما السّلام، والبانِيَيْنِ للكَعْبَةِ بيت اللّه، وبِسَبَبِ أنَّهُمْ رُعاةٌ وسَدَنَةٌ للأوثانِ الّتي في مكَّةَ والمَسْجِدِ الحرام فيها، وهي

أوثانٌ تعظّمها قبائلُ العرب، فإذا تنكَّرَ أهل مكَّةَ لعقائد قَبائل العرب ومقدَّساتهم الوثنيَّة حاربُوهم وتخطَّفُوهم.

فهم بدافع الحرص على وجودهم ومصالحهم، يَرْفُضون اتّباع الرّسول محمّد ﷺ في الدّين الذي جاءَهم به، الذي يَنسِفُ العقائد الجاهليّة الشركيَّة وعاداتها وتقاليدَها نسفاً، فَلاَ يُبْقِي إلاّ ما كان من أعمالهم خلقاً كريماً، أو موروثاً صحيحاً عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السّلام من الدّين الحقّ.

فأبان اللَّه عزّ وجلّ لهم أنّ أَمْنَهُمْ وجباية الثمرات لهم من أقطار الأرض، إنّما هي مِنحةٌ من اللَّه لهم من أَجْلِ أَنَّهُمْ سُكَّانُ بَلَدِهِ، وسَدَنَةُ بَيْتِهِ المطهَّر، الّذي جعله اللَّهُ قياماً للناس، أي: مكاناً ثابتاً يثُوبُ الناسُ إليه في عباداتهم لربّهم، حاجّين ومعتمرين، ومتوجّهين له في صلواتهم، وجعله أمْناً، أي: مكان أمْنٍ، وأمَرَ بإبْعاد كلّ شِرْكٍ ورِجْسٍ عنه.

وأبان اللَّه عزّ وجلّ لهم أنّ أمْنَهُمْ وجبايَةَ الثمرات لهم ليس بسبب رضىٰ قبائل العرب عَنْهُمْ، فالنَّاسُ من حَوْلِهِمْ يُتَخَطَّفُونَ وهم آمنون، فقال اللَّه عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

(٥) ثُمّ أنزَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/٢٩ مصحف/٨٥ نزول) قولَهُ تعالىٰ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وقد جاء هذا البيانُ بَعْدَ أنْ أذاقَهُمُ اللَّهُ بتأدِيبِ عارِضٍ لباسَ الجوعِ والخوف بسبب ما كانوا يصنعُون، لِيَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ هو الذي يَمْنَحُهُمُ الرِّزْقَ والأَمْنَ في بلده، لا قبائلُ العَرَب، وما لَهُمْ عندهم من منزلة محترمة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١١٣)﴾.

وكانَ ذٰلِكَ بَعْدَ دُعَاءِ الرسول ﷺ عَلَيْهِمْ بأنْ يَجْعَلَهَا عليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُف، فابْتُلُوا بالقَحْطِ حتَّىٰ أكَلُوا العِظَامَ، وأكلوا الميتة.

وقد ثبت في الصحيحين عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه «أنّ رسولَ اللَّه ﷺ لَمَّا اسْتَعْصَتْ عَلَيْه قريش دعا عَلَيْهم بسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّىٰ أَكَلُوا العِظَامَ والجُلُودَ والمَيْتَةَ والجِيَفَ، وصَارَ يَنْظُرُ أحَدُهُمْ إلى السَّمَاءِ فَيَرَىٰ الدُّخَانَ مِنَ الجُوعِ، فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيانَ فَقال: يا مُحَمَّدُ إنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وإنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ».

لٰكِنْ لم يَرِدْ أنَّ المُرادَ بالقَرْيَةِ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ مثلاً في الآيتَيْنِ الآنِفَتي الذّكر من سُورَةِ (النّحل) هو ما جاء في هذا الحديث.

إنّما جاء في روايات الحديث ما يدُلُّ على أنَّ ما جاء في هذا الحديث قد جَاءَتِ الإشارة إليه بقول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ
رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ
عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

ويرى ابن مَسْعُود أنّ البَطْشَة الكبرىٰ قد كانت يوم غزوة بَدْرٍ الكبرى .

❁ ❁ ❁

# سورة قريش

١٠٦ مصحف ٢٩ نزول

## (١)
# نصّ سورة قريش وفرشياتها
## سورة قريش

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ
وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ
﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم
مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿لإيلافِهِم﴾ بإثبات الياء.
- وقرأ ابنُ عامر: ﴿لِئِلافِهِمْ﴾ بحذف الياء.
- وقرأ أبو جعفر: ﴿لِيلافِهِمْ﴾ بجعل الهمزة ياءً مَدِّيّة.

(٢) قرأ جمهورُ القرّاء العشرة: ﴿إيلافِهِمْ﴾ بإثْبات الياء.
- وقرأ أبو جعفر: ﴿إلافِهِمْ﴾ بحَذْفِ الياء.

**الإيلافُ**: مَصْدَرُ «آلَفَ» يُقالُ لُغةً: آلَفَ فلانٌ الشَّيْءَ، أيْ أَلِفَهُ. «آلَفَ» على وَزْنِ «فَاعَل».

**الإلافُ**: مَصْدَرُ «أَلِفَ» يُقالُ لُغة: أَلِفَ فُلانٌ الشَّيْءَ يأْلَفُهُ إِلفاً، وأَلْفاً، وإِلافاً.

أَلِفَ فُلانٌ الشَّيْءَ، وآلَفَهُ، أيْ: أحبَّهُ وأنِسَ به واعْتَادَهُ ولَزِمَهُ، فَهُوَ آلِفٌ وأَلِيفٌ، وجَمْعُ «آلِفٍ» أُلاَّفٌ.

صيغة «آلَفَ إيلافاً» هي في الأصل تَدُلُّ على المشاركة، مثل: قاتَلَ وبايَعَ وجَاهَدَ، وكثيراً ما تَخْرُجُ عن هذا الأصل فَتَدُلُّ على الكثرة فقط، دون الدَّلالة على المشاركة، والإيلاف في هذه السّورة من هذا القبيل، والأصل فيه أنّ المتشارِكَيْن المتقابلَيْن على سبيل المغَالَبَة يُبالغُ كُلٌّ منهما في بذل جَهْدِه ويضاعفه ليكون الظافر الغالب.

## (٢)
## موضوع السورة
## وهي ذات دَرْسٍ واحد

هذه السّورة ذاتُ دَرْسٍ واحدٍ مُوجَّهٍ لقُرَيْش، ثُمَّ لكلّ سُكّان مكَّةَ البَلَدِ الحرام من بَعْدِهِمْ حتَّىٰ آخِرِ تاريخ وجود النّاس فيها.

وفي هذا الدَّرْسِ يستحِثُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ قُرَيْشاً سُكَّانَ مَكَّةَ المكرَّمَة، الّتي فيها بيتُ اللَّه المعظّم، على عبادة رَبّ هذا البَيْتِ وَحْدَهُ، غَيْرَ مشركين به شيئاً، شكراً له على نِعْمَتِهِ الدَّائِمَةِ عَلَيْهِم، بالرِّزْقِ والأَمْنِ، من أجْلِ بَيْتِهِ المطَهَّر، بينما يُتَخَطَّفُ الناس من حَوْلِهِم، كما سبق بيانه لدىٰ تدَبُّر سورة (التين) وقَسَم اللَّهِ عزّ وجلّ فيها بالبَلَدِ الأمِين، أي: بمكَّةَ المكرّمة، الّتي فيها بَيْتُ اللَّهِ المعظَّمُ المطهَّرُ.

## (٣)
## قصّةُ الإيلاَف

**الإيلاَف، والإلاَف**: عنوانٌ اصطلاحيٌّ تجاريٌّ عِنْدَ العرب، علىٰ العَهْدِ والأمان الّذي يَتِمُّ التعاقُدُ عَلَيْهِ بين قادة الأمم، لتأمين خروج ودُخُول السِّلَع التجاريَّة والحامِلِين لها، في أراضي الَّذِين تعاقَدُوا على الإيلاف.

وقد كان لقريش إيلافٌ ذو امتدادٍ واسعٍ مع ملُوكِ الرُّوم، وفارس، والحبشة، ومُلوكِ حِمْيَر في اليمن، وقد سخّر اللّه لقُرَيْشٍ هذا الإيلاف، وألْهَمَ المُلُوكَ الموافَقَةَ عليه، من أجْلِ بلَدِهِ الحرام، وبَيْتِهِ المطهّر فيه، واستجابَةً لدُعاء خليله إبراهيم عليه السلام، بأنْ يَجْعَلَ هذا البَلَدَ آمناً، وبأن يَرْزُقَ أهْلَهُ المُؤْمِنينَ من الثمرات، لكنّ اللّه في استجابته لم يخُصَّ الرّزْقَ بالمؤمنين، بل جعَلَهُ شاملاً من آمَنَ ومن لَمْ يُؤْمِنْ في الحياة الدنيا، وأخَّرَ معاقبة الذين كفَرُوا إلى يَوْمِ الدّين، إلاَّ من تقضي الحكمة إنزال العقاب العاجل به أيضاً مع العقاب الآجل، كالذين تعرَّضوا للعقاب العاجل من مشركي قريش بعد بعثة الرسول محمّد ﷺ.

وقد صنع هذا الإيلاف لقريش سَادَتُها بَنُو عبد مَنافٍ الأربعة، وهم «هاشم، وعَبْدُ شمس، والمطّلب، ونَوْفل» على ما نقل ابن منظورٍ عن ابْنِ الأعرابي، قال: «أصحابُ الإيلاف أربعة: هاشم، وعَبْدُ شمس، والمطّلب، ونوفل، بنو عَبْدِ مناف، وكانُوا يُؤَلِّفُون الجِوَارَ، يُتْبِعُونَ بعضَهُ بعضاً، يُجِيرُونَ قُرَيشاً بمِيَرِهِم[١]، وكانُوا يُسَمَّوْنَ المُجِيرين.

- فأمّا هاشِمٌ: فإنَّهُ أَخَذَ حَبْلاً[٢] من مَلِكِ الرُّوم.
- وأمّا نوفل: فإنَّهُ أَخَذَ حَبْلاً من كِسْرَى (أي: من مَلِكِ فارس).
- وأخذ عَبْد شَمْسٍ حبلاً من النجاشي (أي: من مَلِكِ الحبشة).
- وأخذ المطّلبُ حبلاً من مُلوكِ حِمْيَر (أي: مُلوك اليَمَن).

فكان تُجّارُ قريش يختلفون إلى هٰذهِ الأمصار بحبال هؤلاء الإخوة فَلاَ يُتَعَرَّضُ لهم».

---

(١) مِيَر: جمع «مِيرَة» والمِيرَةُ: الطعام الذي يُجْمَعُ للسَّفر أو لأوقات الحاجة إليه.

(٢) **حَبْلاً**: أي: عَهْداً.

وقال ابْنُ الأعرابيّ أيضاً:

«كان هاشمٌ يُؤْلِفُ إلى الشام، وعَبْدُ شمسٍ يُؤْلِف إلى الحبشة، والمطَّلِب إلى اليمن، ونوفلٌ إلى فارس»

قال ابْنُ الأنباريّ: «ومعنىٰ آلف إيلافاً، هو مِنْ «يُؤْلِفون» أي: يُهَيّئُون ويجهّزون».

**أقول**: ما ذَكَرَهُ ابْنُ الأعرابيّ أبْيَنُ للواقع المعهود، مع صِلَةِ الكلمة بمعناها اللّغويّ. ويَشْهَدُ لهذا ما رُوِيَ عن ابن عباس، قال: «وقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٍ أنَّ أوَّلَ مَنْ أخَذَ لَهَا الإيْلاَفَ لِهَاشِمٌ. الإيلاف العَهْدُ والذّمام، كانَ هاشِمٌ بْنُ عَبْدِ منافٍ أخْذَهُ من المُلُوكِ لِقُرَيْش»[1].

ومن هذا نستطيع أن نؤكّد أنَّ الإيلافَ قد صار عند القرشيّين قبل الإسلام عنواناً على هٰذِهِ الوسيلة التأمينيّة الناجحة، لرحلاتهم التجاريّة الّتي كانت تجلُبُ لهم خيراً ورِزْقاً واسعاً، مع أمْنِ الطريق والدُّخول إلى بُلْدَانِ الدُّوَل والخروج منها، ذاهبين وآيبين شتاءً وصَيْفاً، يجتازُون جنوباً إلى اليمن فالحبشة، وشمالاً وشرقاً وغرباً إلى الشام والعراق وفارس ومصر في أسفارٍ تجاريَّةٍ واسعة، وقد يتوغَّلُونَ حتَّىٰ الهند.

وهذا يدُلُّ على أنّ أهْلَ مكّة قد كانوا تُجَّاراً يضربون في مناكب الأرض آمنين في رحلاتهم التجاريّة، ويتّصِلُونَ بمعظم الممالك المتحضّرة يومئذٍ، ويَفِدُونَ على مُلُوكِهَا، ويُقَدِّمُونَ لهم الهدايا، ويَعْقِدُونَ معهم عُهودَ تأمِينٍ، وتمكينٍ من القيام بأعمالِ توريدٍ وتَصْدِيرٍ للسِّلَع التجاريّة، فكانت مكَّةُ مركزاً تجارِيّاً ثَقيلاً، وكانت أَسْوَاق مكّة تَزْدَحِمُ بالتُّجَّار وافدِينَ إلَيْهَا من مُخْتَلِف البلاد والقبائل العربية.

---

(١) عن لسان العرب لابن منظور.

وجاء عند المؤرّخين أنَّ أهْلَ مكَّةَ كانُوا حتىٰ ظهور الإسلام يَسْتَوْرِدُونَ من أفريقية عن طريق اليَمَن بتأمِينِ مُلُوكِ حِمْيَر والنجاشيّ لهم، وبالإيلافِ الّذي عَقَدُوهُ، الرّقيقَ، والصَّمْغَ، والعَاجَ، والتِّبْرَ. وكانوا يَسْتَوْرِدُونَ من اليَمَنِ الجُلُود والبخُور والثياب. ويَسْتَوْرِدُونَ من العراق وفارس توابل الهند وطُيُوبَهَا وغير ذلك، بتأمِين كِسْرَىٰ لهم، والإيلاف الذي بينهم وبينه. ويَسْتَوْرِدُون من الشّام ومِصْر الزّيوتَ والغِلَالَ والأَسْلِحَة والحريرَ وغير ذلك، بتأمين قَيْصَر لهم، والإيلاف الذي بَيْنَهُمْ وبَيْنه.

وكانت القافلة التجاريَّة الذاهبة الآيبةُ قَدْ تَبْلُغُ قُرابَةَ أَلْفِ بَعِيرٍ أوْ أَكْثَرَ، بحُمُولاَتٍ وأمْوالٍ قَدْ تَصِلُ إلى نَحْوِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينارٍ أو أكثر.

وكانت رحلاتُهُمُ التجاريَّةُ الكُبْرَى في أَغْلَب أحوالها مُسَاهَماتٍ يَشْتَرِكُ فيها كلُّ ذي مال في مكَّة، ولو كان مالاً قليلاً، واستمرَّت هذه الرّحلات من إيلاف قريش حتَّى ظهر الإسلام.

هٰذِهِ الصّفة التجاريّةُ الّتي انفرد بها القُرَشِيُّونَ من بَيْنِ سائر العَرَب، والّتي هَيَّأَهَا لهم الإيلاف، إنَّما كانت لهم بِسَبَبِ كَوْنِهِم أهل حَرَمِ بَيْتِ اللّه في وسط العرب، حتَّى كانت قُرَيْشٌ تقول:

«نَحْنُ أهْلُ اللَّه، وبَنُو إبْرَاهِيمَ، وَوُلاَةُ الْبَيْتِ الحرام، وساكنو حَرَمِهِ وقُطَّانُهُ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ مِثْلُ حقِّنا، ولا مِثْلُ مَنْزِلَتِنَا، ولا تَعْرِفُ العَرَبُ لأَحَدٍ مِثْلَ مَا تَعْرِفُ لَنَا».

وجاء في الأخبار أنّ هاشم بنَ عبد مناف هو الذي سَنَّ لقريشٍ رِحْلَتَي الشتاءِ والصّيف.

وذلك أنّهم كانت تعتريهم خصاصة، فإذا لَمْ يَجِدْ أَهْلُ بَيْتٍ طعاماً لقُوتِهِمْ حَمَلَ رَبُّ البَيْتِ عِيَالَهُ إلَىٰ مَوْضِعٍ مَعْرُوفٍ، فَضَرَبَ عَلَيْهِمْ خِباءً،

وبَقُوا فيه حتَّىٰ يَمُوتُوا جُوعاً، ويُسَمَّىٰ هذا «الاعْتِفار»[١]. فَحَدَثَ أَنّ أَهْل بَيْتٍ مِنْ بني مخزوم أَصَابَتْهُمْ فاقَةٌ شديدةٌ، فَهَمُّوا بالاعْتِفَار، فبَلَغَ خَبَرُهم هاشماً، لأنَّ أَحَدَ أَبْنَائِهِمْ كانَ تِرْباً[٢] لأَسَدِ بْنِ هاشم، فقام هاشمٌ خطيباً في قريْشٍ وقال:

«إِنَّكُمْ أَحْدَثْتُمْ حَدَثاً، تَقِلُّونَ فِيهِ وَتَكْثُرُ العَرَبُ، وتَذِلُّونَ وَتِعزُّ العَرَب، وأَنْتُمْ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ، والنّاسُ لَكُمْ تُبَعٌ، ويَكادُ هٰذا الاعْتِفَارُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ».

ثُمَّ جَمَعَ كُلَّ بَني أبٍ على رِحْلَتَيْنِ للتجارات، فما رَبِحَ الغَنِيُّ قَسَمَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الفَقِيرِ من عشيرَتِهِ، حتَّىٰ صارَ فقيرهم مِثْلَ غَنِيِّهِم.

وفي هذا قال مَطْرُود الخزاعيّ:

يا أَيُّها الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَهُ ... هَلاَّ نَزَلْتَ بِآلِ عَبْدِ مَنَافِ
الأَخِذُونَ العَهْدَ مِنْ آفَاقِهَا ... والرَّاحِلُونَ لِرِحْلَةِ الإِيلاَفِ
وَالخَالِطُونَ غَنِيَّهُمْ بِفَقِيرِهِمْ ... حَتَّىٰ يَصِيرَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي

**كَالْكَافِي**: أي: كالمستغني ذي الكفاية والغنىٰ، يقال: هو كافٍ وكَفِيّ، أي: ذُو غِنَىٰ.

## (٤)
## التدبّر التحليلي لآيات سورة قريش

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

(١) **الاعتفار**: التعفّر والتمرّغ بالتراب، **العَفْرُ والعَفَرُ**: ظاهِرُ التراب، إذْ يكون له غبارٌ يتعفَّرُن به.

(٢) **ترباً**: أي: صاحباً وصديقاً، إذ هو نظير له في سِنّه.

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾: سَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا مَا هُو الإيلاَفُ مُصْطلحاً تجارِيّاً عند العرب، ومعنىً لُغويّاً.

**فالمصطلح التجاريّ**: يَدُلُّ على العَقْدِ والعَهْدِ الذي يَتِمُّ به تَأْمِينُ قَوافل التُّجّارِ والسّلعِ التجارية، الّتي تَمُرُّ وتتنقّل في أراضي وبُلْدانِ الذين تَمَّ معهم التّعاقد.

**والمعنى اللّغوي**: يَدُلُّ على محبَّةِ الشيء، واعتياده وملازمته والأُنْسِ به، فالإيلافُ مَصْدَرٌ كالإِلْفِ، وكذلِكَ الإلاف، كما سبق بيانه.

وقد بدأت السُّورة ببيَان عِلَّةِ التكليف قَبْلَ توجيهِ الأمْر به، وهذا فنٌّ بَدِيعٌ مُبْتَكَرٌ في الأداء البيانيّ، واقترن بالحديث عن الذين قد وُجِّهَ لَهُمُ الأَمْرُ، بأسْلُوب الحَدِيثِ عن الغائب تَلَطُّفاً بهم، فاجتمع في النّصّ فَنَّانِ أَدبِيَّانِ جَمِيلان بليغان راقيان رائقان مُعْجِبان لمَنْ أحْسَنَ تَذَوُّقَهُما.

فمَعْنَى السُّورَة بصُورةٍ عامَّةٍ موجَزَة هو كما يلي:

لأجْلِ إيلاف قريشٍ التجاريّ، الذي يَسَّرَهُ لهم ربُّ الكَعْبَة المشرّفة المطهّرة، بيتِ اللَّهِ الحرامِ، من أجْلِ بَيْتِهِ وحَرَمه الذي جعله آمناً، والّذي تمكَّنوا به من محبَّةٍ واعتياد ومُلازَمَةِ رِحْلاَتهم التجاريَّة، الشتائيَّة والصيفيَّة، جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، والتي يَجْلُبُون بها أرزاقهم آمنين، ولأجْلِ حِرْصِهِم على عدم زوالِ نِعْمَتَي الرِّزق والأمن عَنْهم، إذَا كانوا مؤمنين باللَّهِ حقاً، فَلْيَعْبُدُوا شاكِرين رَبَّ هٰذا البيتِ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف، لأنّهم أهْلُ حَرَمِهِ الآمِنِ المَرْزُوق؛ إذ لَمْ يَجْعَلْهُمْ آمِنِينَ مَرْزُوقين غيره جلّ جلالُه، وعظم سلطانُهُ، وسَمَتْ حكمته.

ولـمّا تضمَّنَ التَّعْليل في: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾، مَعْنَى الشَّرْطِ، اقْتَرَنَ فعل الأمرِ الذي هو بمثابة جواب الشّرط، بالفاء الّتي يُؤْتَى بها عادةً في جواب الشرط، فقال تعالىٰ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ

هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ شكراً للّه على نِعْمَتِهِ الّتي لم يُشارِكْهُ في مَنْحِها لهم أحَدٌ.

ونظير هذا التعبير القرآنيّ أن نقول لمن نريد أن نَحُثَّه على الاجتهاد في الدّراسة:

لأَجْلِ رَغْبَتِكَ وحِرْصِكَ على النجاح المتفوّق دواماً، فادْرُسْ بجدٌ واجتهادٍ، ولا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِمَا يُلْهِيكَ ويُضِيع أوقاتَكَ سُدًى.

اللّام في: [لإِيلَافِ] هي لام التعليل. و«إيلافِ قريشٍ» عنوان للمصطلح التجاريّ الأمْني الذي كانت قريش تَعْقِده مع رؤساء الأمم، وتأْخُذُ به عهداً وذِماماً كما سلف به البيان.

والجار والمجرور متعلّقان بفِعْل: [فَلْيَعْبُدُوا] قُدّم المعمولُ هنا على العامل فيه لتوجيه عناية قريش واهتمامهم لقضيتَيْ رزقهم وأمنهم بما هيَّأ لهم رَبُّ هذا البَيْتِ من إيلاف يجلُبُونَ به أرزاقهم ويحقّقُون به أمنهم، وقَدْ حَقَّقَ اللّه لهم ذٰلِكَ من أَجْلِ بيته وحَرَمِهِ الذي قَضَىٰ اللَّهُ أنْ يجعله آمناً، ويجعل سُكَّانَهُ تُجْبَىٰ إِلَيْهِم ثَمراتُ كُلِّ شَيْءٍ ذي ثَمرٍ نافع في الغذاء، أو في الدَّواء، أو غَيْرِ ذلك.

﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾: بدلٌ أو عَطْفُ بيان من: [لإِيلَافِ قريش] الذي جاء عنواناً للمصطلح التجاريّ الأمْنِيّ.

﴿إِيلَافِهِمْ﴾: الإيلاف في هذه العبارة مستعملٌ للدّلالة على المعنى اللّغوي، الذي هو الإلْفُ والاعتياد والملازمة مع الاستئناس والرّغبة، لتحصيل المنافع بجلب الأرزاق مع الأمن.

﴿رِحْلَةَ﴾: اسْمٌ للارتحال، وهو الانتقال من مكان إلى مكانٍ آخر بعيد.

﴿والشتاء﴾: أحد الفصول الأربعة من السنة الشمسيّة، تنخفض فيه درجات الحرارة عادة.

﴿والصَّيف﴾: أحد الفصول الأربعة من السنة الشمسيّة، وترتفع فيه درجاتُ الحرارة عادةً.

وعَرْضُ العنوان بعبارة: [لإيلاَفِ قريش] يستَدْعي سؤالين غَيْرَ مذكورين في النّصّ:

**السؤال الأوّل**: أيَّ شَيْءٍ كانت تفعل قريشٌ بإيلافها؟

وجاء جوابُه في الفقرة التالية البيانيّة: ﴿**إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ**﴾.

**السؤال الثاني**: ما هُو المطلوبُ من قُرَيْشٍ من أجْلِ نِعْمَةِ اللَّهِ عليهم بهذا الإيلاف؟

وجاء جَوابُه في قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

وفي عبارة ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ المختارة بعناية إشارةٌ إلى أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أَكْرَمَ قريشاً بهذا الإيلافُ، وأطعمهم من جوع وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ، من أجل بيته المشرَّف المعظّم، الذي جعله مثابة للنّاس، وجعل حَرَمَهُ آمِناً، أمْناً تكوينيّاً، وأمْناً تشريعيّاً تَكْلِيفيّاً.

﴿**أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ**﴾: أي: أَطْعَمَهُمْ حامياً لهم من جوع، على تَضْمِين فعل «أَطْعَم» معنى فعل «حمىٰ» فَعُدِّي تَعْدِيَته.

﴿**وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾: أي: وآمَنَهُمْ حامياً لهم من خوف، على تضمينِ فعل «آمَنَ» معنى فعل «حَمَىٰ» فعُدِّيَ تَعْدِيته.

وهذا التضمين من بدائع الإيجاز في القرآن.

**آمَنَ**: يقال لغة: آمَنَ فُلاَنٌ فُلاناً، أبي: اتَّخَذَ وسَائِلَ وأسباباً كان بها آمِناً، فجعله بما فعل آمِناً.

تنكير لفظتي «(جُوعٍ وخوفٍ)» للإشارة إلى نَوْعِ جوعٍ، ونوعِ خَوْفٍ، وهما نوعا الجوعِ العامّ، والخَوْفِ العامّ، لا الجوع والخوف الذين قد يُصِيبَانِ بعض الأفراد بقضاء اللّه وقَدَرِهِ، لحكمةٍ اختِبَارِيَّة، أو تربويَّةٍ، أو جزائيّة.

وهذا ما جعل «مُسَاوِرَ بْنَ هِنْدٍ» يقولُ في هِجَاءِ بني أَسَدٍ:

زَعَمْتُمْ أنَّ إخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ ... لَهُمْ إلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إلاَفُ
أُولئِكَ أُومِنُوا جُوعاً وخَوْفاً ... وَقَدْ جَاعَتْ بَنُو أَسَدٍ وخَافُوا

## المعنى العامّ الذي دلَّتْ عليه السُّورة:

إذا كانت قريشٌ، وكذلك كلُّ من يَسْكُنُ مكَّة حتى آخر تاريخ الناس على الأرض، يُريدُون دوامَ المحافظة على رِزْقِهِمْ وأمْنِهِم، فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا البيت، الذي يُطْعِمُهُمْ فَيَحْمِيهم من جُوعٍ، بما يُهَيِّئُ لهم من أسباب الرّزق ووسائله، والذي يُؤَمِّنُهم فيَحْمِيم من خَوْفٍ، بما يُهَيِّئ لهم من أسباب الأمن ووسائله.

فاللّهُ جلَّ جلالُهُ رَبُّ هذا البيت المشَرَّفِ المعظّم المطهّر، هو وَحْدَهُ الّذي يُهَيِّئُ لَهُمْ بفَضْلِهِ الرِّزْقَ والأَمْنَ الدَّائِمَيْن، من أجْلِ بَيْتِهِ المعظّم، وحَرَمِهِ الآمن، ليكونَ مثابةً للنَّاس وأمْناً، فالنَّاسُ يَثُوبُون إلَيْهِ حيناً بَعْدَ حين، فلا يَفْرَغُ من وافدين إليه حَاجِّين، أو معتمرين زائرين، أو طائفين أو راكعين ساجدين، ارتباطاً بمَرْكَزِ التَّوْحِيد، في رَمْزِهِ الماديِّ في الأرض، ويأمَنُون فيه على أنْفُسِهِمْ وأموالهم وكراماتهم وعبادَاتِهِم.

وبهذا تم تدبّر سورة قريش، والحمد للّه على فتحه وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

# سُورَةُ القَارِعَة

١٠١ مصحف ٣٠ نزول

## (١)

# نصّ السّورة وفرشيُّها

## سورة القارعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ
كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ
كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ
مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ
﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ
هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾
نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

---

١٠ ـ قرأ يعقوب، وحَمْزَة ﴿مَا هِيَ﴾ بحذف هاء السَّكت في حالة الوصل، وبإثباتها ﴿مَاهِيَهْ﴾ في الوقف.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَاهِيَهْ﴾ بإثبات هاء السَّكتِ في حالَتَي الوصل والوقف.

## (٢)
# موضوع سورة القارعة

**وهي ذات درسين**

(١) يتناول موضوعُ السّورة عَرْضَ لَقْطَتَيْنِ وصَفِيَّتَيْنِ مَهُولَتَيْنِ مُثِيرَتَيْنِ للفَزَعِ الشّديد، من أحداث قيام السَّاعَةِ، في نَفْسِ المتلَقّي الّذي يَخْشَىٰ اللَّه، فاللقطَةُ الأولى تَعرضُ مَشْهَدَ النَّاسِ مَبْثُوثِينَ مُتَطايِرين كالْفَراش، بسبب ما يَحْدُثُ في الأرض من أحداثٍ تَقْذِفُ ما عليها من أشياء، فتجَعَلُها متناثِرَةً طائشةً كَطَيْشِ الفراشِ المَبْثُوثِ. واللَّقْطَةُ الثّانية تُبَيِّنُ أنَّ الجبال الّتي كانَتْ صُلْبَةً راسخَةً قد صارت أكْواماً لَينَةً مُنْتَفِخَةً لا صلابةَ فيها، فهي كالصّوف المنفوش ذي الألوان المتعدّدة.

وجَاءَ عَرْضُ هاتَيْنِ اللّقطتين في الدَّرْسِ الأوّل من دَرْسَيْها، وهو الآيات من (١ ـ ٥).

(٢) ويتناوَل إخباراً عن صُورَةٍ مُنْتَزِعَةٍ من صُوَرِ الحِسَابِ يَوْم الدّين، مع تَرْكِ الذّهْنِ يَسْتَدْعِي ما يمكن أنْ يكون قَبْلَها وبَعْدَها، هِيَ صورَةُ ثِقَلِ موازِين المؤمِنِينَ النَّاجِين، وخِفَّةِ موازين الكافرين الذين لم يُقدّموا من الإيمان والعَمَل الصّالح ما يُثَقّل موازينهم.

وإخباراً مُوجزاً عن ثواب الناجين، بأَنّهم في عيشةٍ راضية، وعن عقاب الخاسِرين الكافرين بأَنّهم سَيُكَبُّون على رؤوسهم في نارٍ حامية، فَيَهْوون في اتجاه قَعْرِها.

وجاء بيانُ هٰذَيْنِ الخَبَرَيْنِ في الدَّرْسِ الثّاني من دَرْسَيْها، وهو الآيات من (٦ ـ ١١) آخر السُّورة.

## (٣)
# التدبّر التحليلي للدرس الأول من دَرْسَيها

### وهو الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

﴿**القَارِعَة**﴾: اسْمُ «فاعل» وَصْفاً لمؤنثة من فِعْل «قَرَعَ الشَّيْءَ يَقْرَعُهُ قَرْعاً فهو قارعٌ وهِيَ قَارِعَةٌ».

**الْقَرْعُ**: الضَّرْبُ، يقالُ: قَرَعَ المؤدّبُ المُسِيءَ بالْعَصَا أو بالمِقْرَعَةِ، أي: ضَرَبَهُ.

ويُقالُ: قَرَعَ فُلاناً أمْرٌ، أي: أَتَاهُ فُجَاءَةً، وهذا المعنىٰ ملائِمٌ لمَا سَمَّاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هذه السّورَة [القَارِعَة].

وتُطْلَقُ القَارِعَةُ في اللُّغَةِ أيضاً على المُصِيبَة، يُقالُ لُغَةً: قَرعَتْهُمْ قوارعُ الدَّهر، أي: أصابَتْهُمْ مصائبُه، وهٰذا المعنى ملائِمٌ أيضاً لما جاء في هٰذه السّورَة.

﴿**مَا الْقَارِعَةُ**﴾؟!! استفهامٌ تعجيبيٌّ مِنْ هَوْلِ القارعة الَّتي ستَحْدُث، أي: أَعْظِمْ مُتَعَجّباً أيُها الإنسانُ في هٰذه الحياة الدُّنيا، من الحَادِثَة العظيمة الشديدة المهُولة الّتي سَتَحْدُثُ، والتي نَصِفُها بأنَّها القارعَةُ بأفْخَمِ معاني هذا الوَصْفِ وأَشَدِّهِ، واعْلَمْ أنَّها قادِمَةٌ لا محالة.

- ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾؟!

سبق شرح وتحليل أمثال هذه العبارة في أثناء تدبّر سورة (القدر/ ٩٧

مصحف/ ٢٥ نزول) عند شرح قول اللَّه فيها: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾: أي: وأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ؟ فلفظ «ما» اسم استفهام، يُسْتَفْهَمُ به عن حقيقة الشَّيْءِ وماهيّته، وهي جملة مؤلّفة من مبتدأ وخبر.

﴿مَا الْقَارِعَة﴾؟! أي: أيَّةُ حادثةٍ عظيمة خطيرة مَهُولَةٍ حادِثة القارعة؟! استفهام يرادُ به التعجيب من هَوْل القارعة وأحداثها الجسام. وهي جملة مؤلّفة من مبتدأ هو «ما» الاستفهاميّة التعجيبيّة، وخبر هو «القارعة».

وجملة: ﴿ما القارعة﴾؟! في محل نَصْبٍ سَدَّتْ مَسَدَّ مَفْعُولَيْن. والتقدير: وَمَا أَدْرَاكَ مُعْلِماً إيَّاك هَوْلَ القارعة.

والاستفهام في: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةَ﴾؟! ونظيره يتضمَّن معنى نفي علم المخاطب بما هو مسؤولٌ عنه. أي: أنْتَ لا تدري مهما انْطَلَقَ بكَ الخيالُ مدىٰ هول القارعة، إلاّ إذا أعلمناكَ بذلك، وفي هذا دلالة كافيةٌ على أنّها ذَاتُ أحْدَاثٍ مَهُولة جسَام.

وأُعِيدُ القولَ: بأنه قد تكرّر في القرآن الكريم مِثْلُ هذا الاستعمال، حتىٰ صار معلوماً أنّهُ أسْلُوبٌ من أساليب التهويل والتّكبير والتعجيب.

ولدى التحليل التدبري يظْهَرُ أنّهُ صِيغَةٌ من صيغ التعجيب القرآنيّة المبتكرة، ضمن أصول اللّسان العربيّ.

أي: أعظم بهول أحداث القارعة إعظاماً لا يَصِلُ إليه مدى إدْرَاكِكَ. وقد غدا معلوماً أنّ هذه العبارة أبلغ من صيغتي التعجُّب والتعجيب «ما أَفْعَلَهُ... وأَفْعِلْ به».

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾.

بعدَ الإعداد النفسيّ للتعرُّف على بَعْضِ أَنْبَاءِ هذا الحدث العظيم المَهُولِ القادم، الّذي أُطْلِقَ عليه لفظ «القارعة»، وقُدِّمَتْ للتعجيب من هَوْلِهِ ومن أحداثه الجِسَام عبارتا الاستفهام التعجيبيّ: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾، جاء بيانُ بعض مظاهر أحداثها.

إنّها حادثَةٌ عظيمة مَهُولَةٌ تكونُ يَوْمَ يكونُ الناسُ بِسَبَبِ ما يجري فيها من تفجيرات وتغييرات وتَبْدِيلات، مُتَنَاثِرِين مُتَطَايِرِين كالفَرَاشِ المَبْثُوثِ، وتكُونُ الجبالُ الرَّاسِيَاتُ الرَّاسِخَاتُ مُنْتَفِخَةً مَنْفُوشَةً لاَ صلابَة فيها، فهي حينئذٍ كالصُّوف المنفوش.

ما هٰذه الحادثة القارعة العظيمة المَهُولَة الّتي تَنفُذُ إلى أَعْمَاقِ جبال الأرض كلّها، فتُغَيِّرُ طَبيعَتها الصَّلْدَة الرَّاسِخَة، فتَجْعَلُها كالصُّوف المَنْفُوش المَنْدُوف، مع بقاء أَلْوان صُخُورِها المختلفة فيها؟!!

**العِهْن**: هو الصُّوف المَصْبُوغ بألوانٍ مختلفة اخْتَلَطَ بَعْضُها بِبَعْضٍ.

**المَنفوش**: هو الذي نُفِّشَ بالمِنْدَفِ ليَرِقَّ فَيَصْلُحَ لغَزْلِهِ خُيُوطاً.

ومشهد هذا العِهْنِ المنفوش قد كان مشهداً مألوفاً في معظم بيوت العرب، لأنّهم كانوا يأتون بالصُّوف، فيَغْسِلُونَه، ثم يصبُغُون كُلَّ قِسْم منه بلَوْن، ثُمَّ يخلطون هذه المَصْبُوغاتِ ببعضها، ثُمَّ ينفشونها لغزلها وإبرامها خيوطاً.

ما هٰذه الحادِثَةُ القارِعَةُ العظيمَةُ المَهُولَةُ الَّتي تَجْعَلُ الناس يُقْذَفُونَ مُتَاطِرِينَ عن سَطْحِ الأرض، مُنْبَثِّين لا أوزان لَهُمْ على الأرض، طَائِشِين في كُلِّ اتّجاهٍ، كالفَرَاشِ المبثوث؟!

إنَّها لاَ بُدَّ أنْ تَكُونَ حادِثَةً عظيمةً جداً، وعامَّةً للكُرَةِ الأرضيَّةِ كُلّها.

لكنَّ تَضْيِير الجبالِ كالعِهْنِ المَنْفُوش حَدَثٌ سابقٌ لمراحِلَ لاحقة،

تتطوَّرُ فيها أحوال الجبال بالأحداث الجِسَام الّتي سَتَحْدُثُ في الكون، فقد جاء في البيانات القرآنية أنَّ الجبال في أحداث السّاعة تمرُّ بمراحل:

**المرحلة الأولى**: مرحلةُ تصيير الجبال كالعِهْنِ المنفوش، وهو ما جاء بيانه في سورة القارعة.

**المرحلة الثانية**: مرحلة بَسِّ الجبال، **البَسُّ**: التفتيتُ الذي تصير به صخور الجبال رِمالاً ناعمةً، فَهَبَاءً مَنْثُوراً، ويَحْدُثُ هذا مع رَجِّ الأرض، وهو ما جاء بيانُه في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بقول اللَّه تعالىٰ:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

**الرَّجُّ**: الْهَزُّ والتَّحْرِيكُ بشدَّة.

**الهَبَاءُ**: هو الترابُ الناعم الذي يَنْبَثُّ في الهواء، فلا يَبْدُو إلاّ في ضوء الشمس.

**المرحلة الثالثة**: مرحلَةٌ تكونُ فيها الجبال كالكثيب المَهِيل، **الكثيب**: الرَّمْلُ المستطيل المُحْدَوِدِب. **المَهِيل**: أي: الذي يَسِيلُ مُتَدافعاً إلى الأسفل بفِعْلِ فاعلٍ يحرّكُهُ أقلَّ تحريك.

دلّ على هذه المرحلة قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

**المرحلة الرابعة**: مرحلة النَّسْفِ، وهو التذريَةُ والتفريق، دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾.

**النَّسْفُ**: التذريَةُ والتفريق.

وبهذا النسف تكون ذرّات الجبال هَبَاءً مُنْبَثّاً، وقد دَلَّ عليه ما جاء في النّصّ الذي اسْتَشْهَدْنَا به آنفاً من سورة (الواقعة):

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ⦗٦⦘﴾.

وبهذا النّسْف يَحْدُثُ تَسْيير الجبال، وبه تَحْدُثُ المرحلة الخامسة.

**المَرْحلة الخامسة**: مرحَلَةٌ لا يكون فيها وجودٌ للجبال في مواضعها، إذْ تصير سَراباً، دلّ على هذه المرحلة قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (النّبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ⦗٢٠⦘﴾.

**المرحلة السادسة**: مرحلة تكُونُ فيها الأرضُ سطحاً مُسْتَوِياً، ليس فيها اعْوِجاجٌ، ولا ارتفاعٌ وانخفاض، دلَّ على هٰذه المرحلة قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ⦗١٠٥⦘ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ⦗١٠٦⦘ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ⦗١٠٧⦘﴾.

**قاعاً**: أي: أرضاً مُسْتَوِيةً.

**الصَّفْصَفُ**: المستوي من الأرض الذي لا نَبَاتَ فيه.

**لا تَرَى فِيها عِوَجاً**: أي: لا ترىٰ فيها انْحِرافاً ولا الْتِواءً.

**ولاَ أمْتاً**: أي: ولا تَرَىٰ فيها ارْتِفاعاً، بَلْ كُلُّها مُسْتَوِيَةٌ.

ويَدُلُّنا على هٰذِهِ المراحل التسلسل المنطقي للأحداث، بالقياس على سُنَنِ اللّه في كونه.

وبالنظر إلى هذا التسلسل يَتَرَجَّحُ لَدَيَّ أنّ صيرورة النّاس كالفراش

المَبْثُوثِ، وصَيْرُورَةَ الجبال كالعِهْنِ المنفوش، من الأحداث التي ستَحْدُثُ عند قيام ساعَةِ إنهاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، إذْ تقوم السَّاعة على شِرَارِ الخَلْقِ، لذلك تَتَفَجَّرُ الأَرْضُ من تَحْتِهِمْ تفجُرات على قَدْرِ سَطْحِها، فتقْذِفُ بهم، فيتطايَرُون تَطَايُرَ الفراش طائشين على مقادير قُوَىٰ التَّفَجُّرات. وتَجْرِي أحداثُ تفجُّرَاتٍ داخل ذَرَّاتِ الجبال، فتُبَاعِدُ بَيْنَها حتىٰ تَكُونَ كالصُّوفِ الملَوَّن المَنفُوش.

وبهذا الفَهْم نُدْرِكُ أنَّ المراد بالقَارعةِ أحداثُ قيام الساعة، التي تنتهي بها ظروف الحياة الدنيا، والله أعلم.

أمّا يوم البعث، فإنهم يخرجون إلى ربّهم ينسلون نَسْلاً[1]، كما جاء في سورة (يس/ ٣٨ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ويخرجون كأنَّهم جراد منتشر كما جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿. . . يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾.

أي: يخرجون من قبورهم كما يخرج الجراد حينما يتوالد ويَنْتَشِر، فيَمْشُون مُسْرِعين إلى محشرهم ولاَ يتطايَرُون طائشين كالفراش المبثوثِ.

وبعد تقديم مَشْهَدَيْنِ من المشاهد التي ستحدثُ بالقارعة التي تقوم بها السّاعة الإفنائية، يَقْفِزُ البيان في السّورة إلى بيان الغاية من وراء أحداث السّاعة الإفنائية، التي يأتي بَعْدَها البَعْثُ للحياةِ الأُخْرَى، ألاَ وهو الحسَابُ وفَصْلُ القضاء، وتَحْقِيقُ الجزاء.

---

(١) **يَنسِلُون**: أي: يُسْرِعُونَ في المَشْيِ كَمَشْيَة الذئب إذا أسرع.

وهُنا تأتي في السُورة آياتُ الدَّرْس الثَّاني من دَرْسَيْها، وفيها دلالة على الغايَةِ بإيجاز.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبُّر التحليليّ للدرس الثاني من درسَيِ السُّورة

### وهو الآيات من (٦ ـ ١١)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

**تمهيد:**

بين الدَّرس الأوَّل من دَرْسَيْ السُورَةِ، والدَّرْس الثاني سؤالٌ مطويٌّ مفادُه:

لِمَ هٰذِهِ الأحْدَاثُ الجِسَامُ وهٰذِهِ التغييراتُ الكونيَّة العظيمة، وما هِي الغايةُ منها؟!

وجاء الدَّرْسُ الثَّاني مُتَضَمِّناً مُوجزاً لَمْحِيّاً من الإجابة على السؤال المطويّ، إذْ جاء فيه الاكْتِفَاءُ بذِكْرِ مُجْمَلٍ عن النتيجة، الَّتي تَدُلُّ على سَوَابقها.

والمطويُّ من الجواب هُنا قَدْ صَرَّحَتْ به آياتٌ قُرْآنِيَّةٌ كثيرات، في سُوَرٍ متعدِّدَاتٍ، نَزَلَتْ في مَرَاحِلَ مُتَتابِعاتٍ من نُجُومِ التَّنزيل.

وخلاصَتُهُ أنَّ هٰذِهِ الأَحْدَاث إنّما هي مُقدّماتٌ، تأتي بعدها أحداث

مُتتابِعاتٌ، ثُمَّ يكونُ بَعْثُ الأموات إلى الحياة الأُخْرَىٰ، ثُمَّ يَكونُ الحَشْرُ، ثُمَّ يَكُونُ الحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء بين العباد، على ما قَدَّمُوا في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، ثُمَّ يكونُ تَحْقِيقُ الجزاء.

والجزاء يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ عَظِيمَيْن كُلِّيَّيْن:

**القسم الأول**: قِسْمُ أهل الجنّة على تفاضل دَرَجاتهم، وقد دَلَّ عليه في الدرس الثاني قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾.

**القسم الثاني**: قِسْمُ أَهْلِ النّار، على تَنَازُلِ دَرَكاتِهِم، وتوالي انحطاطاتهم حتَّىٰ الدَّرْك الأَسْفَلِ من النار. وقد دَلَّ عليه في الدّرس الثاني قولُ اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

«**أمّا**» حرفٌ فيه معنى الشرط والتوكيد دائماً، ويَدُلُّ على معنى الشرط لُزُوم الفاء بعدها، وفيه معنى التفصيل غالباً، ويَدُلُّ عليه استقراء مواقعها، وهي في هذه السّورة تحمل معاني الشرط والتوكيد والتفصيل.

ولمّا كانَ الحِسَابُ العادل الدقيقُ يعتمد على موازين ربَّانيَّةٍ دَقيقة جداً، لا تُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحْصَتْها ووزنتها، كانَ من الحكمة البيانيّة المتعلّقة بيوم الدّين، التّنبيهُ على هٰذِهِ الموازين.

ولعلَّ المراد بذِكْرِ الموازين مَجْمُوعَةً غَيْرَ مُفْرَدَة في عبارتَي: [ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ] و[خَفَّتْ مَوَازِينُهُ] التّنبيهُ علىٰ أنَّها موازينُ مُتَنَوِّعَةٌ تُناسِبُ صُنُوفَ الأعمال وأنواعها، القلبيَّة والنفسيَّة والفِكْرِيَّة والجَسَدِيَّة، ثُمَّ تُجْمَع نتائجُ حسابات الموازين، وتُبْنَىٰ عليها أحكامُ العَدْل والفضل الرَّبَّانيّة.

وأبَانَ هٰذا الدَّرْسُ من دَرْسَيْ السُّورة، أنَّ طريقَةَ الوَزْنِ في موازينِ يوم الدّين، تَعْتَمِدُ على ثِقَلِ الأعْمَالِ الصَّالِحَة، أمّا الأعمالُ السيّئةُ والأعْمَالُ الحياديّة الّتي لاَ تُصَنَّفُ مع الصَّالحاتِ ولا مَعَ السَّيِّئاتِ، فهي سالبة خَفِيفَةٌ، أوْ طائشَةٌ إلَىٰ جانِبِ السَّلْبِ، فالحياديَّةُ لاَ وَزْنَ لَهَا، والأعمالُ السَّيِّئَةُ ذاتُ وَزْنٍ سالبٍ.

وهٰذِهِ الموازينُ لاَ تتحرّكُ إلى جانهبِ الرُّجْحَانِ حتىٰ إشارَةِ النَّجَاةِ، فالنَّجَاحِ، فالفَوْزِ، فالفَلاَحِ، إلاّ بالأعْمَالِ الصَّالحةِ الّتي جَعَلَ اللَّهُ لَهَا ثِقلاً، وهذه الأعمال الصالحةُ تَشْمَلُ كُلَّ ما يكسِبُهُ الإنْسَان بإرادَتِهِ الحرّة مِنْ مراضي اللّه، فتشمَلُ الإيمانَ الصحيح الصادق، والنّيَّاتِ، والأفكارَ، وحركَاتِ النُّفُوسِ الإرادية، وتَشْمَلُ الأعمال الظاهرة الّتي هي من آثار الإيمان، والمقرونة بالإخلاص للّه تعالىٰ، مع التزام أحكام شريعته.

فَمِنَ النّاس مَنْ تَصِلُ إشارَةُ ثِقَلِ أعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ إلى الرّقم الذي عنده قرار النجاة من الخلود في النار، بسبب المقدار الكافي من إيمانه لاستحقاقه بعد التطهير بالعذاب أن يدخل الجنّة.

وتَرْتَقِي الإشارة صاعدةً بحسَبِ ثِقَلِ الأعْمَالِ الصالحة، وعند كُلُّ رَقم صاعدٍ مقدارٌ من التخفيف من العذاب على المعاصي والذّنوب والمخالفات، إذا لم يشملْها عفو اللّهِ وغُفْرانُه، ضِمْنَ حِكْمَتِهِ وعِلْمِهِ بعباده.

ثُمّ تَرْتقي الإشارةُ صاعدةً بحَسَبِ ثِقَلِ الأعمال الصالحة، وعند كلّ رقم صاعدٍ درجَةٌ من درجاتِ الارتقاء في الجنّة.

وتستمرُّ إشاراتُ الموازينِ صاعدةً، على مقادير الأعمال الصالحة الّتي قَدَّمَهَا العَبْدُ في الحياة الدنيا حياةَ الامتحان، حتىٰ مَنْزِلَةِ الفِرْدَوْسِ الأعلىٰ، حَيْثُ يَنْزِلُ الرَّفِيقُ الأَعْلَى المنعَّمُ في أسْمَىٰ درجاتِ النّعيم.

ومنزلة الفردوس ينالُها بفَضْلِ اللّه مَنْ كانَ من أهْلِ هذه المرتَبَة، بأعْماله الصالحة ذاتِ الوزن الثقيل عند اللّه.

وقد عَلِمْنَا من نُصُوصِ الشريعَةِ المختلفة، أنَّ العَمَلَ الصّالحَ ذَا الوزن المنجِي من الخلود في عذاب النار، هو الإيمانُ الصّحيحُ الصادقُ، الخالِصُ من الشّرْكِ باللَّه.

واقْتَصَرَ البيان هُنَا في التعبير عن نعيم الجنّة لِمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ على بيان أنَّهُ في عِيشَةٍ راضية، فقال تعالىٰ:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾.

أي: في عيشَةٍ ذَاتِ رِضا، بمعنىٰ أنَّ صاحِبَهَا يكونُ راضياً كامِلَ الرضىٰ، إذْ يَنَالُ فيها كُلَّ مَا يَطْلُبُهُ من نعيم، وفَوْقَ ما يَطْلُبُهُ منه بمزيدٍ من فيوضِ عطاء اللَّه، حتىٰ يكونَ راضياً، غيرَ متكدّرٍ من حِرْمَانٍ أو نُقْصانٍ عمّا يَطْلُبُ أو يتمنّىٰ.

ويرى البلاغيُّون في عبارة: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ أنه من قبيل المجاز العقلي[1]، إذْ أُسنِدَ الرّضا إلى العيشة، والأصْلُ أنَّهُ هو الراضي بها، والملابَسَة أنَّهُ هُو صاحبُ العيشَةِ، فهي جُزْءٌ من ذاته.

والغرضُ البيانيُّ الإشعارُ بمُصاحَبَةِ الرِّضا لكلّ أجزاء عيشَةِ المؤمن في الجنّة، فَلاَ يُوجَدُ عُنْصرٌ منها، ولا أجزاءٌ زَمَنِيَّةٌ مرافقَةٌ لَهَا تَخْلُو من الرّضا، وهذا المعنى لاَ تُؤَدّيه عبارة: فهو راضٍ عن عيشته، وذلِكَ لأنَّ الإنسانَ قد يَرْضَى عَنْ عيشته ولو دخَلَتْ ضِمْنَهَا مُنَغِّصات، إذْ هو يَنْظُرُ إلى عيشَتِهِ باعتبار الأغلب من أحوالها، بخلاف العيشة نفسها الّتي تَمُرُّ أجزاءً مع توالي الأزمان؛ إذْ كُلُّ جُزْءٍ منها مُنْفَكٌّ عن سابقه وعن لاحِقِهِ، فإسناد الرّضا إليها يَدُلُّ على أنَّ كُلَّ أجزائِها مَغْمُورٌ بالرِّضا.

---

(١) **المجاز العقلي**: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاد المتكلّم، لملابَسَةٍ بينهما، مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له في اعتقاد المتكلم.

ووصْفُ العيشة بأنّها رَاضِيَة بقوّة الإسناد في قولنا: عيشَتُهُ رَاضِية. والأصل: عيشته مرضيٌّ عَنْها.

ولم يأتِ في السورة بيانٌ تفصيليٌّ عن الدّرجات المتفاضلات في جنّاتِ النعيم، أخْذاً بحِكْمَةِ التدرُّج في البيان، وتجزئةِ تقديم المعارف الدينيّة على مراحل، وتوزيعها على متفرّقات النصوص في القرآن، ففي السُّور الّتي نزلَتْ بعد سورة (القارعة) حتى آخِرِ ما نزل من قُرْآن تفصيلات كافِياتٌ يتمّمُ بعضها بعضاً، وهذا منهج قرآنيٌّ يَدُلُّ على أنَّهُ مُنَزَّلٌ من لَدُنْ حكيم حميد، ولو كان من عند غير اللَّه لَوَجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً.

واقتصر البيان في السورة أيضاً لدى التعبير عن العذاب في النّار لِمَنْ خَفَّتْ موازينُه على بيان أنَّ أُمَّهُ هَاوِيَة، وعلى أنّها نارٌ حامية، فقال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

**﴿فأُمُّه﴾**: أي: فَمُسْتَقَرُّه الّذي سيَصِيرُ إليه ويَسْتَقِرُّ فيه، والمكان الذي يضُمُّهُ، ويَجْمَعُ أمْثالُه.

**﴿هَاوِيَة﴾**: اسم من أسماء جهنَّم لأنّها ذَاتُ عُمْقٍ سحيقٍ، يهوي السَّاقِطُ فيه. وهذا من إطلاقِ اسم الفاعل على المكان الذي يحصُلُ الهُوِيُّ فيه.

وقد جاء في النُّصوص بَيانُ أنَّ بَعْضَ المُعَذَّبين في جهنَّم يَهْوُون فيها، في اتِّجاه أعماقها.

● روى البخاري عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّه، لاَ يُلْقِي لَهَا بالاً، يَرْفَعُ اللَّهُ

بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّم».

● وروى الترمذيّ وابنُ ماجه والحاكم عن أبي هريرة أيضاً، أن النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ لاَ يَرَىٰ بِهَا بَأساً، يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً في النَّارِ».

وقد تَرَجَّحَ لديّ أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَأُمُه هَاوِيَةٌ﴾ فمستقَرُّهُ جهنَّمُ الّتي تضمُّهُ وأمثالَهُ، لِمَا ثَبَتَ في اللّغة من أن الأُمَّ لكلّ شَيْءٍ المَجْمَعُ والمضَمُّ.

قال ابنُ شُمَيل من اللُّغويّين: الأُمُّ لكلّ شيءٍ المَجْمَعُ والمَضَمُّ، ومِنْهُ إطْلاَقُ أُمَيَّة بْنِ أَبِي الصَّلْتِ على الأرض اسْمَ الأُمّ بقوله:

فَالأَرْضُ مَعْقِلُنَا وَكَانَتْ أُمَّنَا فِيهَا مَقَابِرُنَا وَفِيهَا نُولَدُ

وتفسير ﴿فَأُمُّهُ﴾ بقَوْلِنا: فَمُسْتَقَرُّهُ، هو الملائم لمَعْنَىٰ النَّصّ هُنا فيما أرىٰ، وهو أحَدُ المعاني اللُّغويَّةِ لِلَفْظِ الأُمّ، دون تأويل ولا تقديرات، وهذا المعنى هو الذي فسَّرَ به الأَخْفَشُ لفظ «الأمّ» في النّصّ هنا، فقال: أُمُّهُ: مستقَرُّهُ. وقال قتادة: فَأُمُّهُ: فَمَصِيرُهُ، وهو بمعنى ما قال الأخفش.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾؟! أي: وما أَعْلَمَكَ ما هِيَ هٰذِه الهاوية؟!

وفي هذا الاستفهام معنىٰ تعظيم أمرها، وبيان أنَّها شيءٌ مَهُولٌ مخيفٌ جداً.

قوله تعالىٰ: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، أي: هي نارٌ عظيمةٌ جداً، وهي حامِيَةٌ شَدِيدَةُ الحرارة.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة القارعة والحمد للَّه على فتحه ومَنِّهِ.

# سُورَة القيامة

٧٥ مصحف ٣١ نزول

## (١)

# نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

## سورة القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ
ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾
بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا
بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ
ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ
نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ
لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ
قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾
وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾

---

١ ـ قرأ ابن كثير والبزي في وجه عنه: ﴿لأُقسِمُ﴾ بالإثبات.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة والبزّي في الوجه الآخر عنه: ﴿لاَ أُقسِمُ﴾ بالنفي.

٣ ـ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ بفتح السّين.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أيَحْسِبُ﴾ بكسر السين، وهما وجهان عَربيان.

٧ ـ قرأ نَافع وأبو جَعْفَر: ﴿بَرَقَ﴾ بفتح الراء.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء، وهما لغتان بمعنى دَهِشَ فَلَم يُبْصِر.

٢٠ ـ ٢١ قرأ ابن كثير وأبو عَمْرو وابن عامر ويعقوب: ﴿يُحِبُّونَ ـ ويَذَرُونَ﴾ بياء

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا
بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ
ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا
صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ
﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ
أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً
فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

---

الغائب فيهما.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تُحِبُّونَ ـ وتَذَرُونَ﴾ بتاءِ الخطاب.

وفي هاتين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

٢٧ ـ قرأحفص ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ بسَكْتَةٍ لطيفة من غَير تنفس، على نون ﴿من﴾.

■ وقرأ باقي القراء العشرة بإدغام النون بالرّاء. وهما وجهان من الأداء.

٣٦ ـ قرأ ابنُ عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر: ﴿أيَحْسَبُ﴾ بفتح السين.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَيَحْسِبُ﴾ بكَسْر السين.

والقراءتان وجهان عَربيان جائزان، وكلاهما بمعنى يظُنُّ ظنّاً ضعيفاً توهُّمياً.

٣٧ ـ قرأ حَفْصٌ ويعقوب: ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالياء على أنّ الضّمير في الفعل عائد إلى: [مَنِيّ].

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تُمْنَىٰ﴾ بالتاء على أنّ الضمير في الفعل عائد إلى: [نُطْفَة].

وفي القراءتين تكامُلٌ في التعبير عن المعنى المراد، إذ النطفة هي نطفَةُ المنيّ، والمنيُّ هو المادّة الّتي اشتملت عليها النّطفة.

## (٢)
# موضوع سورة القيامة

يتناول موضوع سورة (القيامة) الحديث عن اليوم الآخر والجزاء الرَّبَّانيّ المقرّر على أعمال الممتحَنين في رحلة الحياة الدنيا.

فقد سَبَقَ في طائفة من السُّوَر النّازلة قبل سورة (القيامة) بيانات خَبَرِيَّة، ومعالجاتٌ إقناعيَّةٌ، وتقديمُ لقطاتٍ من مشاهِدِ يَوْمِ الدّين، ولقطاتٍ من مشاهِدِ أحْدَاثِ السَّاعَةِ الَّتِي يكُونُ بها إنْهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وطائِفَةٍ من أَمْثِلَةِ الجزاء الرَّبَّانيّ المعجَّل الّذي أَهْلَكَ اللَّهُ به المكذّبين الأوَّلِين، الَّذين كَفَرُوا بربّهم، وكذَّبُوا رُسُلَهُ الّذين أرْسَلَهُمْ إليهم، وكذّبوا بما جاءوهم بلاغاً عن ربّهم.

والمتابعة في سورة (القيامة) تشتمل على دَفْعِ تَوَهُّمَاتٍ قَدْ يَتَوَهَّمُهَا المنكرون الجاحِدُون، وعلى بيانِ بَعْضِ الدَّوافع لإنْكَارِ الجزاء الرَّبَّانيّ يَوْمَ القيامة، فنبَّهَتِ السُّورة على رَغَباتِ الفُجُورِ، وحُبِّ العاجِلَةِ وَتَرْكِ الآخرة، في نفوس المكذّبين.

وتشتمل على عَرْضِ بَعْضِ لقطاتٍ من مشاهد أحداثِ قيام الساعةِ الإفْنَائِيَّة، وبعضِ لقطاتٍ من مشاهِدِ أحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين، الّتي تكونُ بَعْدَ البَعْثِ. وبعضِ لقطاتٍ من أحْوَالِ مَوْتِ الإنْسَانِ حين انتهاء أجَلِهِ في الحياة الدنيا.

وتشتمِل على تأنِيبٍ للإنسان المكذّب بيوم الدين، وعرضِ بعض الحجج الإقناعيّة الّتي تَدُلُّ على أنَّ الحِكْمَةَ الرَّبَّانيّة السَّامِيَة تقتضي الجزاء حَتماً، وتَدُلُّ على أنَّ العَقْلَ السَّوِيَّ لا يَقْبَلُ مُرُورَ الإنسان في الحياة الدنيا، وما يَشْتَمِلُ عليه تاريخُه فيها، دُونَ أنْ يُلاقي جزاءَهُ على ما قَدَّم فيها من خَيْرٍ أو شرّ باختيارِهِ الإراديّ. وتَدُلُّ على أنَّ ظواهِرَ بَدْءِ خَلْقِ الإنسان

شواهِدُ كافياتٌ دَالاَّتٌ على قُدْرَة خالقِهِ على إعادتِهِ إلى الحياةِ بَعْدَ المَوْت.

وجاء في أثناء دُروس السُّورة دَرْسٌ اعْتِراضِيٌّ خارجٌ عن موضوع السورة، فيه تَرْبِيَةٌ للرَّسول محمّد ﷺ، بشأن تعجُلِهِ في تَلَقِّي القرآن، إذْ كان هذا التعجُّل منه قد حَصَلَ أثناء تَلَقِّيه سورة (القيامة) فجاءَتِ التربيَةُ الرَّبَّانيَّةُ له عندَ تَعَجُّلِهِ، قُرْآناً يُتْلَىٰ ضِمْنَ السُّورَةِ، لِتَعْلِيمنا أسْلُوباً من أساليب العِلاجِ التربويّ الحَكِيم الذي يكون عند ممارسة العمل المخالف للأكمل والأحسن.

وسورَةُ (القيامة) قد جاءَتْ بمثابةِ إضَافَاتٍ تفصيليَّة لمَا جاء في سُورَتَي «التين» و«القارِعَة» وإضافاتٍ في البناء الكُلّيّ لمَوْضُوع الجزاء الرَّبَّاني الّذي تعرَّضَتْ له سَوابقُ السُّور في نُجُومِ التنزيل.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## دروس سُورة القيامة

تشتمل هذه السّورة على سبعة دروسٍ مترابطة في وِحْدَةِ موضوع قرآنيّ، باستثناء الدرس الثاني منها، الذي جاء درساً اعتراضياً خاصّاً بتربية اللَّه للرسول محمّد ﷺ، يُعَلِّمُه اللَّه فيه أنْ لاَ يُحَرِّكَ بالقرآن لِسَانه مُتَعَجّلاً لِيَحْفَظَ ما يُنَزَّلُ عليه منه، قَبْلَ أنْ يَنْتَهِي الوَحْيُ من تَلْقِينه كامِلَ النَّجْم الّذي يُوحِي به إليه.

والظاهِرُ أنَّ هٰذا الدَّرسَ الاعتراضِيّ قَدْ نَزَلَ عِنْدَ تَعَجُّلِ الرَّسُولِ ﷺ في تَلَقِّيه من جِبْرِيلِ عليه السَّلام سُورَةَ القِيَامَة، واقتضت الحِكْمَةُ التَّرْبَويَّةُ وضْعَهُ عَقِبَ الدَّرْسِ الأوّل من دُرُوسها، وجَعْلَهُ الدَّرْسَ الثَّاني، لتَعْلِيمنا كَيْفَ يكون التوجيه التربويُّ التعليميُّ عَقِبَ التصرُّف المخالِفِ لما يَنْبَغِي، أو لمَا هو الأَحْسَنُ والأفضل.

أمّا دُرُوسُ السُّورَة فهي كما يلي:

## الدَّرْس الأول:

تضمّن معالجة الإنسان المنكر للبعث والجزاء يَوْم القيامة بتأكيد خبره بالقسم، إنْ كان من الَّذِينَ يتأثَّرُون بالمؤكدات الّتي تشتمل على القَسَم، وتضمَّن مناقشته حول توهُّماته التي يحسَبُ فيها عَدَم قُدْرَة اللّه على إعادته إلى الحياة بعد الموت، وبَعْدَ مصير عظامِ جَسَدِه عِظاماً نَخِرَةً بالِيَةً.

وتضمَّن بيان بعض دوافع نَفْسِه لإنكار يَوْم القيامة وما فيه من جزاء، وهي أنَّهُ يُرِيد أن يَسْتَمِرَّ فاجراً حتىٰ تَأْتِيَهُ مَنِيَّتُه في الحياة الدنيا.

وتضمَّنَ عَرْضَ لَقْطَةٍ من مشاهد أحداثِ الساعة الّتي يكون بها إنهاءُ ظُرُوف الحياة الدنيا، ولَقْطَةٍ من مشاهد أحْدَاثِ يوم القيامة، إذْ تُعْرَضُ على الإنسان يَوْمَئِذٍ أعْمَالُه، فَيُنَبَّأُ بكلّ ما قَدَّمَ وكُلِّ ما أخَّرَ من عملٍ، وبَيانَ مُحاولة تَمَلُّصِه من جرائمه الّتي ارتكَبَهَا في الحياة الدنيا، حياة امتحانه، مع أنَّهُ يَعْلَمُ تماماً ما كان قد عمله في الدنيا، ولَوْ حاوَلَ أن يَسْتُرَ قبائحَهُ وجرائمه بالإنْكار، وتلفيقِ الأعذار.

هذا الدرس هو ما اشتملت عليه الآيات من (١ ـ ١٥).

## الدرس الثاني:

هو الدرس الاعتراضيُّ الذي وجَّه اللّه عزّ وجلّ فيه التربية لرسوله محمّد ﷺ، بأنْ لا يُحرِّكَ بالقرآن لسانَهُ من قبل أنْ يُقضَى إليه وَحْيُه، وتعهَّد اللّه عزّ وجلّ بأنْ يَجْمَعَهُ لَهُ في ذاكِرَته، ويُعِينَهُ على قِراءَتِهِ، قراءةً سليمة كما أنزلَهُ عَلَيْه، وأبانَ له فيه أنّه جلَّ جلالُه سَيُبَيِّن مُسْتَقْبلاً كُلَّ ما فيه من حقائق، تناولَتْ عُلُومَ الدّين والدُّنْيا والآخرة.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩).

**الدرس الثالث:**

درسٌ خاطبَ اللّه عزّ وجلَّ به النّاسَ جميعاً، وفيهم الّذين يُكَذِّبُون بالدِّين وباليوم الآخر زاجراً لهم، فأبان لهم فيه أن سَبَبَ تولّيهم عَنِ الإيمان بالآخرة، أو إعراضهم، أو استغراقهم في المعاصي والمخالفات، أنَّهم مُتَعَلِّقُو القُلُوب والنُّفُوس بالعاجلة الفانيَةِ، تَارِكُون للآخرة وزَاهدون فيها، فَهُمْ يُحِبُّون العاجلة ويَذَرُونَ الآخرة.

وهو الآيتان (٢٠ ـ ٢١).

**الدرس الرابع:**

تضمَّنَ عرض مَشْهَدَيْنِ من مشاهد النَّاسِ يوم القيامة.

● أحدُهُما يُصَوِّرُ وُجُوهَ المؤمنين الناجين، الَّذِين قضىٰ اللَّهُ لهم بأنْ يَدْخُلُوا جنَّاتِ النعيم، فهؤلاء وجوهُهُمْ ناضِرةٌ.

● والآخَر يُصَوِّرُ وُجُوهَ الخاسرين الّذين قضىٰ اللّه عليهم بأنْ يَكُونُوا من أهل النار، فهؤلاء وُجُوهُهُمْ كالِحَةٌ باسِرَةٌ.

وهو الآياتُ من (٢٢ ـ ٢٥).

**الدرس الخامس:**

تضمَّن عرض مَشْهَد الإنسان في السّاعات الّتي تَكُونُ قُبَيْلَ انْتِهَاءِ أجَلِهِ في الحياة الدنيا، حتَّىٰ قَبْضِ رُوحِهِ ومُفارَقَتِهِ ما يُحِبُّ ومن يُحِبُّ في دنياه.

وهو الآيات من (٢٦ ـ ٣٠).

**الدرس السادس:**

تضَمَّنَ عَرْضَ لقطةٍ من حساب الكافِرِ بين يَدَيْ ربّه يوم الدّين.

وهو الآياتُ من (٣١ ـ ٣٥).

**الدرس السابع:**

تضمّن إقامةَ الحجَّة الدَّامِغَة للإنسان المكذّب بِيَوْمِ الدِّين، بأنّه من غير المُمْكِنِ في حكمة اللّه عزّ وجلّ أنْ يَتْرُكَ الإنسان سُدىً مُهْمَلاً، دُونَ أن يُتَابعَ أعماله الاختياريَّة الإراديّة بالحسَاب، وفَصْل القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء. وتَضَمَّنَ إقامةَ الحجّة له، لدَفْعِ تَوَهُّمِهِ أنَّ الخالقَ جلَّ جلالُه غَيْرُ قادِرٍ علىٰ إحياءِ الموتىٰ بَعْدَ أنْ تتفرَّقَ أجزاء أجسادهم في تراب الأرض بالفَنَاءِ الَّذي يَحْدُثُ فيها.

وهو الآيات من (٣٦ ـ ٤٠) آخر السّورة.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبّر التحليلي لآيات الدرس الأول من دروس السورة

### وهو الآيات من (١ ـ ١٥)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

هٰذا دَرْسٌ عظيمٌ جليل يَصْلُحُ أنْ يَكُونَ سُورَةً فَذَّةً، لكنَّ اللّه عزَّ وجلَّ ضَمَّ إليه دُرُوساً أُخرىٰ، وجعلها سُورَةً ذاتَ طُولٍ يُعَادِلُ نحو سَبْعٍ من قصار السُّوَر، تَرَقِّياً في التَّنْزِيلِ، بين قصارٍ من السُّوَر، فأطْوَلَ، فَقِصَارٍ، فأطْوَلَ، حتَّىٰ الطّوال، ثُمَّ حتَّىٰ سُورَةِ (البقرة) ونَحْوِها في التنزيل المدنيّ، مُرَاعاةً لأحْسَنِ الأساليبِ التَّعْلِيميَّة، والتكليفيّة الملائمة لطبائع الناس.

وقد اشتمل هذا الدرس على أربع قضايا متعانقة المعاني والأهداف:

## القضيةُ الأولى:

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾:

جمهور القرّاء العشرة قرأ: ﴿لاَ أقْسِم﴾ بالنفي في الأولى، وقرأ ابن كثير والبزّي في أحد وَجْهَيْهِ: ﴿لَأُقْسِمُ﴾ بالإثبات. أمّا: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾، فليس فيها من القراءات العشر إلاَّ النفي.

**يوم القيامة**: هو يَوْمُ قِيام الأمْوات مَبْعوثين للحياة الأخرىٰ، حياة الخلود في نعيم مقيم، أو في عذابٍ أليم، بعد الحِسَاب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء. ويَوْمُ قِيام الخلائق بين يَدَي الحيِّ القيّوم.

يقال لغة: قامَ يَقُوم قَوْماً، وقِيَاماً، وقَوْمَةً. وقيل: **القيامَةُ**: مَصْدَرُ قام الخَلْقُ من قبورهم قِيامَةً، **والقيام**: هو الانتصاب وقوفاً.

**النفس اللوّامة**: هي النَّفْس الهاديَة بتلويمها صاحِبَها على آثَامِهِ إلى ضرورة وجود قانون الجزاء في خُطَّة الخالق.

ولتوجيه عبارة ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ وأشباهها في القرآن عند المفسّرين عدّة آراء، لَيْسَ لواحد منها مستنَدٌ من بيانات الرسول ﷺ.

● فقيل: «لآ» زائدة، والتقدير: أقسم. قيل: وهذه الزيادة جارية في كلام العرب.

● وقيل: «لا» تَنْفي كلاماً مطويّاً، فهي رَدٌّ لكلام منكري البعث. وفِعْل «أُقْسِمُ» بَعْدها إثباتٌ للقسم، فهما جملتان في الحقيقة.

● وقيل غير ذلك من تخريجاتٍ فيها تكلُّفٌ لاَ يُلائم كمال البيان القرآني.

**وأقول:**

إنّ عبارة ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ أسْلُوبٌ بَيانيٌّ قُرآنِيٌّ مُبْتَكرٌ، للدَّلاَلَة على أنّ الموضوعَ مع حَالِ المخاطب يقتضي اقتضاءَيْن مُتَعَارِضَيْن.

(١) أحَدُهما يَسْتَدْعي البَيانُ فيه القسَمَ المؤكّدَ للخَبَر الذي يُسَاقُ القَسَمُ لتأكيده.

(٢) والآخر يَسْتَدْعي البيان فيه عَدَمَ القَسَم.

فكان الحلُّ المبتكَرُ في أساليب البيان القرآنيَّةِ اختيارَ أسْلُوبِ ذِكْر لفظ القَسَم والمُقْسَمِ به تنبيهاً عليه، مع سبقه بأداة النفي، «لا».

فالجانبُ الذي اقتضىٰ القَسَمَ رُوعِيَ حالُه بذكْرِ القَسَم والمُقْسَم به، تنبيهاً على ما في المقْسَمِ به من تأكيدٍ أو حُجَّةٍ هاديةٍ إلى أنّ الموضوع الّذي يُرادُ تأكيدُهُ متحقّقُ الوقوعِ حتماً.

والجانِبُ الذي اقتضىٰ عدمَ الحاجَة إلى القَسَمِ رُوعِيَ حالُه بنفي القَسَم بأداة النّفْي «لاَ».

ويُلاحَظُ أنّ المَقْصُودَ بالخطاب في قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾، وكَذٰلِكَ بالعبارة التالية لها هو مُنْكِرُ البَعْثِ، الّذي يَظُنُّ ظنّاً تَوَهّمِيّاً أنَّ قُدْرَةَ اللّهِ عزَّ وجلَّ لاَ تَصِلُ إلى جَمْعِ رُفَاتِ عِظَامِ جَسَدِ المخلوق الّذي أبْلَتْهُ الأرْض، وإعادَتِهَا إلى الحياةِ مرَّةً أُخْرَىٰ. وهٰذا المِنْكِرُ هو الذي يُرادُ تأكيدُ نَبَأِ البَعْثِ لَهُ بالقَسَم.

ويُلاحَظُ أيضاً أنّ الحكمة البيانيّة عِنْدَ إنْزال سورة القيامة اسْتَدْعَتِ التنبيه على أمْرَيْن عظيمَيْن، بَيْنَهُمَا ترابطٌ في خُطَّة الخَلْق، هما:

(١) النَّفسُ اللَّوَّامَة الهاديةُ بتَلْويمها صاحِبَها حينَ يَفْعَلُ الإثْمَ والخطيئة

بإرادته الحرَّة، إلى ضرورة وجود قانون الجزاء الربّانيّ في خُطَّةِ الخالِق، لذوي الإرادات الحرّة.

**اللّوّامة**: مؤنث اللوّام، وهو من صيغ المبالغة والتكثير، أي: فالنفس الإنسانيّة السّويّة كثيرة اللّوم لذاتها.

(٢) ويَوْمُ القيامة لتحقيق بنُودِ قانون الجزاء.

● أمّا يَوْمُ القيامة فَهُوَ يَوْمٌ عظيمٌ جداً، وهُو في حقيقة أمْرِهِ يَسْتَحِقُّ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ به، لأنَّهُ مَظْهَرٌ من مظاهر عظيم قُدْرَتِهِ، وكَمَال عَدْلِهِ وفَضْلِهِ، وبالِغِ حِكْمَتِهِ.

فهذا مُقْتَضٍ للقَسَمِ بهِ، لكنَّه أمْرٌ غَيْبيٌّ لاَ يُدْرِكُ عَظَمَتَهُ مُنْكِرو البَعْثِ، حتَّىٰ يكونَ القَسَمُ به في نظرهم مُؤكِّداً لقضيَّةِ البعث الّتي هِيَ مَحَلُّ إنْكَارِهم. ويُضافُ إلى هذا أنَّ القَسَمَ بِيَوْمِ القيامةِ لتَأْكِيدِ قَضِيَّةِ البعثِ للحساب وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء، هو من قَبِيلِ المُصَادَرة في آداب البَحْثِ والمناظرة، إذْ هو بمثابَةِ الاسْتِدْلاَلِ لإثْباتِ المدَّعَىٰ بالمدَّعَىٰ نَفْسِهِ، ولكنْ بصيغةٍ أُخْرَى، وهذا يقتضي عَدَمَ القَسَم بِيَوْمِ القيامة.

● وأمّا النَّفْسُ اللَّوّامَةُ في داخِلِ الإنسان، فهيَ من بَدِيعِ إتْقَانِ صُنْعِ الخالقِ لهذا الإنسان، وإيجَادُهَا فيه هو بمثابَةِ إيجَادِ دليلٍ على الجَزَاءِ الرَّبَّانيّ، وأنَّهُ حَقٌّ لاَ محالة، وهٰذَا الدّليلُ مَوْجُودٌ داخِلَ ذَاتِ الإنْسان، كما هو مفطُورٌ علىٰ مشاعرَ تَهْدِيه إلى الإيمان باللّه خالقِهِ، والمُهَيْمِنِ عليه دواماً بصفات رُبُوبيَّتِهِ.

إنّ النَّفْسَ اللَّوّامَةَ تُمثِّلُ عُنصُر الفطرة الخيّرة الفاضلة في النفس الإنسانية، لأنَّها تقومُ بِوَظيفةِ لَوْم جانب الإرادة التنفيذيَّة داخل الإنسان على أعْمَالِهِ السَّيِّئةِ، وعلى تقصيراته عمّا يَنْبَغي أن يعمله، كلّما نفَّذَ جانِبُ الإرادَة شيئاً من ذلك.

**اللَّوْمُ**: هو العَذْل والتثريب وتوجيه الملاحظات النَّقْدِيَّة على نَقِيصَة أو إساءة، دون الوصول إلى مستوى الذمّ والشتيمة، ففي اللّوم مع الوخز غير العنيف معنى النصح، وهو شبيه بالعتاب.

والنفس اللّوّامة[١] باعثٌ فطريٌّ يَهْدِي صاحِبَ البصيرَة المنصفَ إلى قانون الجزاء الرَّبَّانيّ، وهو يأخُذُ بأسْبَابِ الفكر إلى الإيمانِ باليوم الآخر للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء. فإيجاد النفس اللَّوّامة داخل الإنسان أمْرٌ عجيب، يستحقُّ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ به، لأنَّهُ أمْرٌ من الخَلْقِ عظيم، ولأنَّ في القَسَم بِها توجيه نظر فكر الإنسان لها، لتَهْدِيَهُ إلى قانُونِ الجزاء الرَّبَّانيّ.

فهذا مقتضٍ للقَسَمِ بالنَّفْس اللّوّامَة.

لكنّ هٰذِهِ النَّفْسَ اللَّوّامة ضامِرَةٌ هزيلة داخِلَ مُنْكِرِ البعْثِ، فالقَسَمُ بها لا يُقَدِّمُ للمنكرين تأكيداً على أنَّ البَعْثَ حَقٌّ.

وهذا مُقْتَضٍ لِعَدَمِ القَسَمِ بالنَّفْسِ اللّوّامَة.

فاجتمع المقتضى الإيجابي للقَسَم بِيَوْمِ القيامة، والْقَسَم بالنَّفْسِ اللَّوَّامة، والمقتضى السَّلْبي لعَدَم القَسَم بهما، فكَانَ الحلُّ البيانيُّ البديعُ الجامعُ، هو أنْ يُذْكَرَ القَسَمُ والمُقْسَمُ به، وأنْ يُنْفَىٰ القَسَمُ، بأداة النفي «لا».

وهذا من روائع الأساليب البيانيّة القرآنيّة المبتكَرَة.

---

(١) النَّفسُ اللَّوّامة لذاتها على إساءاتها هو الطرف الأعْلَىٰ السامي منها، ما لم تَفْسُدْ بعوارِضِ الأمراض. ويقابِلُها النَّفسُ الأمّارةُ بالسُّوء، الّتي هي الطَّرَفُ الأسْفَلُ الشَّهْوَانِيُّ منها.

وتقَعُ الإرادة المنفِّذة بين الطرفين، فإمَّا أنْ تميل في اختياراتها إلى الطَّرَفِ الأعْلَى اللّوّام، وإمَّا أنْ تميل إلى الطَّرَف الأسْفَل الأمَّارِ بالسُّوءِ.

وجاءَتْ قِرَاءَةُ ﴿لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴿١﴾﴾ بالإثبات مُرَاعاةً لحالَةِ مَنْ يتيقَّظُ ضَمِيرُهُ، فَيُدْرِكُ حِكْمَةَ اللَّه وعَدْلَهُ وضَرُورة تَحْقِيق الجزاء على ما يجري من الناس في رحلة الابتلاء.

أمّا المرادُ تأكيده بالقسم فَمَحْذُوفٌ دلَّ عليْه ما رُتِّبَ عَلَيْه من آياتٍ جاءَتْ بَعْدَ الْقَسم، إنَّهُ قضيَّةُ البعث للحياة الأخرى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، والمصير إلى جنَّاتِ النعيم بفضل اللّه، أو إلى عذاب أليم بعَدْل اللّه، أي: ليَكُونَنَّ كُلُّ ذَلِكَ بِمُقْتَضَى الحِكْمَة.

**القضيّة الثانية:**

● قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾.

انتقل البيان القرآنيُّ بهذا، إلى مناقشة الإنسان المنكر لقضيّة البعث بعد الموت للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وهي إحدى قضايا الإيمان الكُبْرَىٰ، ولم يواجهه اللَّه عزّ وجلّ بالخطاب، بل تحدّث بأُسْلُوب الحديث عن الغائب لأنّه أدْبَر وتَوَلَّىٰ عَنْ مُواجهة الحقّ الذي أنزله اللّه لهدايته.

أي: أيحسَبُ الإنسانُ الكافر بيَوْم الدّين، في ظنِّهِ التَّوَهُّمِيّ الضعيف، أنّ الرَّب الخالِقَ لَهُ في النشأة الأولَىٰ، لن يَجْمَعَ عظامه بعد موته وفناء جسَدِهِ، وتفتُّتِ ذرَّاتِ عظامه، مستبعداً أنْ تستطيع قُدْرَةُ الرَّبّ هذه الإعادة.

﴿أَيَحْسَبُ﴾ وقُرِئ: [أيَحْسِبُ] بكسر السِّين، وهما وجْهَانِ عَرَبيان لنُطْقِ هذا الفعل.

ومن استقراء فِعْل: «حَسِبَ يَحْسِبُ ويَحْسَبُ» وسَبْرِ معناه في القرآن تبيَّنَ لي أنّه قد اسْتُعْمِلَ للدلالة على الظَّنّ الضعيف جدّاً، والمساوي للتوهُّم، والذي يجب طَرْحُه واستبعاده.

بخلاف فِعْل: «ظنَّ يظُنُّ ظَنّاً» فهو مستعمل في درجات ما دون اليقين، حتى الظن الضعيف المرفوض، فمن الظَّنّ ما هو مقبول ويجب العمل به، ومنه ما هو من مستوى الشَّكّ الذي يتساوىٰ فيه الطرفان، القبول والرَّفْضُ، ومنه ما هو مَرْفوض، وهو الظَّنُّ التوهُّمِيُّ.

وكان طرح هذه المناقشة في القرآن، قَبْلَ أَنْ يُصرِّحَ أَحَدٌ مِنْ منكري البعث من المشركين، بمقالةٍ يحْتَجُّ بها على إنكاره، وهٰذه المقالَةُ تَدُلُّ على اعتقاده بأنَّ قُدْرَة اللَّهِ جلَّ جلالُهُ عاجزَةٌ عن أن تُحْيِيَ العظامَ وهي رَميم، كالمقالة الّتي قالَهَا فيما بَعْدُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ للرُّسُول ﷺ، إذْ أَخَذَ عظْماً بالياً، فجَعَلَ يَفُتُّهُ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: يا مُحَمَّدُ أَتَرَىٰ اللَّهَ يُحْيِي هٰذَا بعْدَمَا رَمَّ.

قال رسول الله ﷺ: نَعَمْ، ويَبْعَثُكَ ويُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ. وأنزل اللّه عزّ وجلّ حينئذٍ قرآناً يُعَلِّمُ فيه رسولَه الحجَّة الدّامِغَة، فقال الله جلّ جلاله في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

أمّا عنْدَ إنزال سورة (القيامة) فإنَّ مِثْلَ هٰذِهِ المقالَة لَمْ تَكن قَدْ تردَّدَتْ على أَلْسِنَةِ المنكِرين الكافرين، الذين يَدْعُوهم الرسُول ﷺ إلى الإيمان باللّه واليوم الآخر، فاقتصر النَّصُّ على نَفْيِ الظَّنِّ التوهُّمِيّ الذِّهْنِيّ، وإثبات نقيضه.

ففي جواب: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس كما يَحْسَبُ هذا الإنسان الكافر، بل سنجمع عظامَهُ كُلَّها، ونُعِيدُها إلى مِثْلِ ما كانت عليه، بقُدْرَةٍ تامَّةٍ، لم

يَعْتَرِها إعياءٌ ولا نقص. فالمرادُ بالإنسان هُنَا الكافر، لأنه هو الذي يَحْسَبُ أنَّ اللَّهَ لَنْ يَجْمَعَ عظامَهُ بَعْدَ مَوْته.

هذا ما ظهر لي، وذكر القرطبي أنّها نزلت في عَدِيّ بن أبي رَبيعَة، قال للنبيّ ﷺ، «يا مُحمَّد حدّثني عن يوم القيامة، فأخبره رسُول الله ﷺ، فقال عَدِيٌّ: لو عاينتُ ذلك اليوْم لَمْ أصدِّقك، أو يَجْمَعُ الله العظام؟! فنزل قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ...﴾.

وقد سبَقَ هٰذا النَّصَّ في نجوم التّنْزيل قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) خطاباً لكلّ صالحٍ للخطاب:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

ولتأكيد ما أثبتَتْه كَلِمَةُ ﴿بَلَىٰ﴾ أتَمَّ اللَّهُ عَزَّ وجَلّ الآيَةَ بقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾:

أي: بلىٰ سَوْفَ نَجْمَعُ عظامه حالَةَ كَوْننا قادِرين علىٰ أَنْ نُسَوِّي بنانه، الّتي تُعْتَبَرُ تَسْويَتُها مِنْ أَبْدَعِ التَّسْوِياتِ في الْخَلْق، وأَشَدِّها إتقاناً لوظائفها في الكَفّ وحَرَكَةِ الْيَدِ.

﴿أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: أن نجعل بَنانَهُ مُسْتَويَةَ الْخَلْقِ، بالغَةَ الغايَةَ في أداء وظائفِها الّتي خُلِقَتْ لتأدِيَتِها.

**تَسْويَةُ الشيء**: جَعْلُه تامّاً بالغاً الغاية المقصودَةَ من صُنْعه، مُحْكماً في مقادير أَجْزائه، لتحقيق الغَايَةِ المقضيَّةِ له في إعداد خُطَّةِ تكوينه.

**البَنَان**: أطراف الأصابع، وهي جمْعٌ واحِدَتُها «بَنانَة».

في ديواني الشّعْريّ: «آمَنْتُ بِاللَّهِ» تحْتَ عنوان هذه الآية قلْتُ بشأن البنان:

أَخُطُّ. أَقُصُّ. أَخِيطُ الثِّيَابْ — وَأَبْنِي الْبِنَاءَ بِهَـٰذِي الْبَنَانْ
أُمَارِسُ مَا شِئْتُ مِنْ صَنْعَةٍ — بِهِنَّ وَتَخْدُمُنِي كُلَّ آنْ
بَوَاسِطُ إِنْ شِئْتُ بَسْطَ الأَكُفّ — قَوَابِضُ تَمَّتْ بِهِنَّ الْيَدَانْ
أَنَامِلُ هُنَّ لِقَبْضِ السُّيُوفْ — وَقَبْضِ الرِّمَاحِ وشَدِّ الْعِنَانْ
وَهُنَّ وَسِيلَةُ ذِي رِيشَةٍ — وَذِي قَلَمٍ وذَوِي صَوْلَجَانْ
وَهُنَّ وَسِيلَةُ ذِي صَنْعَةٍ — يُفَاخِرُ بِالْعَبْقَرِيِّ الْحِسَانْ
بِهِنَّ الدِّفَاعُ. بِهِنَّ الْهُجُومْ — بِهِنَّ الْحُتُوفُ. بِهِنَّ الأَمَانْ
وَهُنَّ لِعُمْيِ الْعُيُونِ الْعُيُونْ — وَلِلْبُكْمِ هُنَّ بَدِيلُ اللِّسَانْ
وَأَعْجَبُ شَيْءٍ بِهِنَّ الْخُطُوطْ — فَمَا اتَّحَدَتْ فِي الْوَرَى «بَصْمَتَانْ»
وَطَبْعَةُ إِبْهَا مِنَا خَتْمُنَا — يُمَيِّزُنَا مَا تَوَالَىٰ الزَّمَانْ
أَنَامِلُنَا مِنْ بَدِيعِ الْفُنُونْ — يُقَصِّرُ عَنْ وَصْفِهِنَّ الْبَيَانْ
بَصُرْتُ بِإِتْقَانِهَا الْبَاهِرِ — فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
بَنَانٌ بِهِنَّ لأَهْلِ النَّظَرْ — رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ. . . .
فَآمَنْتُ بِهْ

**كلمة «بَلَىٰ»**: حرْفُ إيجاب عنْدَ علماء العربيّة ويختصُّ بالنفي، ويفيد إبطاله، كما جاء في الآية.

ومن تَتَبُّعِي للنُّصُوص القُرآنِيَّة الَّتي فيها لفظة «بَلَىٰ» ظهر لي أنَّ العطْفَ قَدْ يَأْتي بَعْدَها عليها، كأنَّهَا في قُوَّة جُمْلَةٍ مُثْبَتَة، مُنْتَزَعَةٍ من الجملة المنفية السَّابقة لها، ومنه قول اللّه عزّ وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) حكاية لمقالة إبراهيم عليه السلام: ﴿. .بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى. . .﴾.

أي: بلىٰ آمنتُ ولكن. . .

وَقد يأتي الحال بَعْدَهَا كأنَّ الجملة المثبَتَة مَوْجُودَةٌ، ومنه ما جاء في هذه الآية: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

وقد يأتي غير ذلك مبنيّاً على هٰذِهِ الجملَةِ الَّتي جاءَتْ كَلِمةُ «بَلَىٰ» عوضاً عنها، أو دالَّةً عَلَيْها.

وأرى أن نعتبر كلمة «بلَىٰ» عِوَضاً عن الجملة المثبتة هذه، نظيرَ قول النُّحاة في تنوين الْعِوَض في نحو: «يومئذٍ» و«حينئذٍ».

**القضيَّةُ الثالثة:**

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

في هذا النصّ كشفٌ للباعث النفسيّ الّذي يجْعَلُ الْإِنْسَان يَسْتَبْعِدُ عن تَصَوُّرِهِ يوْمَ الدِّين نهائيّاً، حتَّىٰ مُسْتوىٰ الإنكار، والتكذيب بما جاء عنه من صَادِقِ الأخبار، عن العزيز الجبّار القهار.

﴿بَلْ﴾ حرف ابتداء، ومعْنَاهُ الإضرابُ، والإضرابُ هُنَا إضرابٌ إبْطاليٌّ لمعنًى يُشْعِرُ به تَوَهُّمُ الإنسانِ المنكر للبعث بأنّ اللَّهَ لَنْ يجْمَعَ عِظَامَه، أي: لَيْسَ صحيحاً أنَّ هذا الإنسانَ الكافِرَ شاكٌّ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ، في قُدْرَةِ الرَّبّ الخالق على إحياء الموتىٰ بعد أنْ تَبْلَىٰ عِظَامُهُمْ، بَلْ هو واقع تحت تأثير رغباتِ الفجور لدَيْه، إذْ هو يُرِيدُ أَنْ يَنْطَلِقَ فَاجراً في مستقْبَل أيَّامِهِ، دون أَنْ تُعَكِّرَ عَلَيْهِ مَشاعِرُ الخَوْفِ من عقَابِ اللَّهِ، فيَطْرَحُ عبارات الشَّكِّ في الحياة بعْدَ الموت، مُعْلِناً كُفْرَهُ وجُحودَه.

﴿يُرِيدُ﴾: يَدُلُّ الفِعْلُ الْمُضَارع هُنَا على الحركة المتجدِّدة المستَمِرَّةِ لإرادته، كما يَذْكُر البلاغيُّون.

وَجاءت التعدية بحَرْفِ اللاّم في: ﴿لِيَفْجُرَ﴾ مع أن الفعل يَتَعَدَّىٰ بنفسه، فالأصل أنْ يُقالَ: بل يُرِيدُ الإنسانُ أَنْ يَفْجُر، للإشعار بأنّ الْمَفْعُولَ به مَحْذُوفٌ، والتقدير: بل يريد الإنْسَانُ بإرَاداتٍ مُتَجَدِّدات، مُرَادَاتٍ

كثيراتٍ، تَتَدَفَّقُ من مَنَابعِ أهوائه وشهواتِه ورَغَبَاتِ غَرائِزِهِ وَأَنَانِيَّاتِهِ، ويُريدُ أن يُمَارِسَهَا بمِلْئِه، وبكلّ انْطِلاقَاتِه الحرَّة، ويَكْرَهُ أن يكون الإيمان بالدّين وبالعقاب الرَّبّانيّ وكُلُّ التصوّراتِ المتصلة بالجزاء بالعدل غُصَّةً في حَلْقِ ممارساته الحرَّة الْفَاجرة، وقد حُذِف المفعولُ به ليعُمَّ كلَّ المرادات الفاجرات.

لكُلّ ذَلك فهو يريد الكفر بيوم الدّين، ويُريدُ صَرْفَ ذِهْنِهِ عن كلّ تصوّراته وتصوّرات الجزاء ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾.

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾: أي: لِيَنْطَلِقَ في مستقبَلِ أيَّامِهِ فاجراً مُنْبَعِثاً انْبِعاثاً كُلِّيًا بكُلِّ طاقاتِه لمُمَارَسَةِ شَهَواتِه وأَهْوائِهِ ورَغباتِ نفسه، مهما كان فيها من شرٍّ وضُرٍّ وتَحَدٍّ لكلّ فَضِيلَةٍ، ومَهْما كان فيها من استهانة بكلّ واجب، واستمراءٍ لكلّ رذيلة وفِسْقٍ وعُدْوانٍ، وظُلْمٍ وَبَغْيٍ وَطغْيان.

**الْفُجُور**: هو الانْبعاثُ القبيح الوقح الواسع في فعل الشُّرور وارتكاب الآثام والكبائر، وكلّ ما فيه ظلم وضُرٌّ وبَغْيٌ وعُدْوان، دُونَ وازعٍ ولا رَادِعٍ من داخل نَفْسِ ذي الإرادة، وانْبِعاثُه حاصلٌ بِمِلْءِ سعَةِ نَفْسِه، وبأوسع ما لَدَيْهِ من جُرْأَة.

فالإنسان الكافِرُ بيوم الدِّين عَنْ وغْيٍ وتَصْميم، على الرّغم من ظُهُورِ أدلَّة الإيمان باللَّه وكمالِ صفاته، وأَنَّهُ أحكم الحاكمين، وأنّه لا يمكن أن يَخْلُق الناسَ عَبَثاً، ولا يمكن أن يَتْرُكَهُمْ سُدىً، دون حسابٍ وفَصْل قضاءٍ وتحقيق جزاء، هو ذُو كُفْرٍ مُرادٍ، وكُفْرُهُ نَتِيجةٌ خبيثَةٌ لإرَادَةِ جُحُودٍ واعيَةٍ منه، ولهذا الإِنْسَانِ غايَةٌ من إرادَتِهِ الكُفْرَ، وهي أَنْ يَفْجُرَ في مُسْتَقْبَل عُمْره، فهذا المستَقْبَلُ هو الممتَدُّ أَمَامَه ولو كانَ لا يَرَىٰ منه شيئاً.

فكشَفَتْ هاتان الآيتان مَعَ بالِغِ ما فيهما من إيجازٍ، الباعِثَ النَّفْسِيَّ لدَىٰ الإنسان الكافِرِ بيَوْم الدّين كُفْراً إراديًا تَصْمِيمِيًا واعياً، فالجاهل بأمْرٍ ما

لا يمكِنُ إذا كان عاقلاً، وذا إدْراكٍ واعٍ، أنْ يكْفُرَ به مُثْبتاً بُطْلانَه، بل يقول: لا أعلم. ومثلُه الشّاكّ في أمْرٍ مَا، الصادِقُ في شَكِّه، والباحثُ عَنِ الحقيقة، لا يمكِنُ أن يَكْفُرَ به مُثْبتاً بُطْلانه، بلْ يقول: أنا ما زلْتُ في مَرْحَلَةِ الشّكّ، ولَمْ أصِلْ إلى مَرْحَلَةِ الظَّنّ الرَّاجح، فضْلاً عن مَرْحَلَةِ اليقين، إيجاباً ولا سَلْباً.

فعُنْوانُ الكُفْر إنَّما يَنْطَبِقُ على ذي الكُفْرِ الإرادِيّ، الذي هو ثَمَرَةُ وعْيٍ لمَا يكْفُرُ به، وثَمَرَةُ تَصْمِيمٍ على أَنْ يَكْفُر به.

فإنْ كان كُفْرُ الكافِرِ بالشَّيْء نتيجَةَ عِلْمٍ قَائِمٍ على بُرهَانٍ بأنَّهُ باطلٌ، فَهُو فضيلَةٌ يُطَالَبُ بها المؤمنُونَ باللّه وبالْيَوْمِ الآخر، ولهذا فَهُمْ مُطَالَبُونَ دِيناً بأنْ يَكْفُرُوا بالطَّاغوت.

وإنْ كان كُفْرُ الكافر بالشَّيْءِ غَيْرَ نَاتِجٍ عنْ عِلْمٍ قائم على بُرهانٍ ببُطْلانه، فَهُو أَحَدُ ثلاثَة فُرَقاء:

(١) فريقٌ عَالِمٌ بأنَّهُ حَقٌّ، وهو يَكْفُرُ بِهِ جُحُوداً، وهذا شَرُّ خَلْقِ اللّه، ومن هذا الفريق فرعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَقَدْ أنزلَ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ بشأنِهم قولَهُ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

(٢) وفريقٌ شَاكٌّ بأنَّهُ حَقٌّ، وهو مع ذَلِكَ يَكْفُرُ بِهِ لأنَّهُ يَرْغَبُ في أنْ لاَ يكونَ حَقًّا، وهذا دُونَ الفريق الأوّلِ في السُّوءِ والشّرّ، ولكِنْ لَيْسَ لَهُ أن يَكْفُرَ بِهِ لمجرَّد الشّكّ، بل عليه أن يَبْحَثَ حتَّىٰ يَسْتَيْقِنَ.

وَإنَّهُ لَيْسَ لقضيَّةٍ من قضايا الدّينِ الحقّ ضِدٌّ أَوْ نقيضٌ يُمْكِنُ الإيمانُ به بدليلٍ مَقْبولٍ في العقول، فَلاَ حُجَّةَ للشّاكّ إذا رفَضَ الإيمانَ بقضيَّةٍ من قضايا الدّين الحقّ، وآمَنَ بنقيضها، أو بضِدّها، بلْ يُعْتَبَرُ كافراً بغَيْرِ حقّ.

(٣) وفريقٌ جاهِلٌ بأنَّهُ حَقٌّ جهْلاً تامًّا، وجاهلٌ أيْضاً بأنَّهُ باطلٌ، ومع جَهْلِهِ به يَكْفُرُ به، وهذا دُون الفريق الثاني في السُّوءِ والشّرّ، لكِنَّهُ ضالٌّ مُعْتَدٍ على الحقّ، إذْ ليس لَهُ أنْ يكْفُرَ بشيءٍ يجهلُه، فإذا كَفَرَ بِهِ كانَ مسؤولاً عن كُفْرِه.

ولمَّا كانَ كُفْرُ الإنسانِ الراغبِ في الفجور بيَوْمِ الدّين كُفْراً إرادِيًّا تَصْميميًّا، نَابعاً من منابعِ رَغَبَاتِ الْفُجور لَدَيْهِ، لَمْ يَجِدْ حُجَّةً صَحِيحةً تقبَلُها العقولُ حتَّىٰ يحْتَجَّ بها، ليَجْعَلَ كُفْرَهُ مَقْبُولاً ظاهِرِيًّا بيْنَ النَّاس، لذلك فَهُوَ يَلْجأُ إلَىٰ طَرْحِ أَسْئِلَةِ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَاب، ومِنْها أَنْ يَسْأَلَ قائلاً: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟!!

**«أيَّانَ»**: اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ به عَنِ الزَّمَان، ويُسْتَعْمَلُ فيما يُرادُ استعظامُهُ واستِغْرَابُهُ واستبْعَادُهُ.

أي: متَىٰ يَكُونُ يَوْمُ القيامَةِ هَٰذا، وقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ الْعَدِيدَة في تاريخ النَّاسِ، دُونَ أَنْ يَحْدُثَ هَٰذَا الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ به.

وحين يسْأَلُ المنكِرُ مثْلَ هذا السُّؤَال، فَمُرادُهُ الاستبعَادُ والإنكار. أي: لَنْ يأتِيَ يَوْمُ القيامَةِ هٰذا.

لكِنَّ صِيغَةَ سؤالِه فيها مُوارَبَةٌ، ظاهِرُها التَّساؤلُ، وباطِنُها التكذيب بيَوْم الدين.

**القضيَّة الرابعة:**

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

قرأ جمهورُ القُرّاء العَشَرة [بَرِقَ] بِكَسْرِ الراء. وقرأ نافع وأبو جَعْفَرٌ: [بَرَق] بفتح الرَّاء.

وهما لغتان عربيّتَانِ بمعنَىٰ دَهِش فَلَمْ يُبْصِرْ من الدَّهْشَةِ الّتي أصابته فَحَيَّرَتْه.

إنّ القضيّة التي دلَّت عليها هذه الآيَاتُ، ذاتُ عناصر مترابطة متعانقة، مجتمِعَةٍ عَلَىٰ غَايَةٍ واحدة، ولَوْ كانت بينها فواصِلُ زمنِيَّةٌ طويلَةُ الْأَمَدِ.

إنّها قضيَّةٌ وصْفِيَّةٌ تصِفُ لقطاتٍ سريعاتٍ مُخْتَصَراتٍ جدّاً، من أحداثٍ سَوْفَ تكون، يبْدَأُ أوَّلُها عنْدَ مَوْتِ الإنسان، واللَّقْطَةُ الثانية تصِفُ حَدَثَ تَغْيِيرٍ كوني هُوَ من مُقَدّمَاتِ سَاعَةِ إنْهاء ظُرُوف الحياة الدّنيا. واللّقطَةُ الثالثة تحْكِي مقالَةَ يقولُها الإنْسَانُ الْكَافِرُ إذا بُعِثَ بَعْدَ الْمَوْتِ للحساب، وفصْل القضاء، وتنفِيذِ الجزاء. واللّقْطَةُ الرّابعةُ تَحْكِي مَا يُقَالُ لَهُ جواباً على مقالَتِهِ مَعَ زَجْرِهِ. واللَّقْطَةُ الخامسة تَصِفُ مَشهداً من مشاهِدِ حسابه، إذْ يُنَبَّأُ بكُلِّ ما فَعَلَ وَتَرَكَ في الحياة الدنيا، مع بيان أنّه خبير بما يُنَبَّأُ به، لأنَّهُ يتذَكَّرُ يومئذٍ كلَّ ما سَعَىٰ في رِحْلَةِ امتحانه في الحياة الدنيا، ومع الإلماح إلى مناقشته الحسابَ، وأنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يُدافع عَنْ نَفْسه، فيُلْقِي مَعَاذِيره الكلاميَّة، وهو يَعْلَمُ أنَّهُ لاَ عُذْر لَهُ، إذْ كان مُجْرِماً حقًّا.

ويُمْكِنُ تفصيلُ بعْضِ هذه اللّقطات فتكونُ بَعْدَ التفصيل سَبْعَ لقطاتٍ.

**اللقطة الأولى:**

جاءَت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ بكسر الراء وفي قراءة المدنيَّيْن: «نافع وأبي جعْفَر»: **[فإذا بَرَقَ الْبَصَرُ]** بفَتْحِ الرّاء من [بَرَقَ].

قال علماء اللّغة: بَرِقَ الْبَصَرُ يَبْرَقُ، وبَرَقَ يَبْرُقُ بُرُوقاً، أي: دَهِش فلَمْ يُبْصِرْ. وقيلَ: تَحَيَّرَ فلَمْ يَطْرِفْ.

قَال الفرّاء: بَرَقَ من الْبَرِيق، أي: شَخَصَ. وبَرِق بمعْنَىٰ فَزِعَ، أي: فَتَحَ عينَيْهِ من الفزع. وبَرَقَ بصَرُهُ كذلِكَ أيضاً.

وجاء في كُتب اللُّغة أيضاً: الْبَرَقُ: الحيْرَةُ، والدَّهَشُ، والْفَزَعُ، والشُّخُوص، فالمعاني كلّها مستفادة من القراءتين.

فالظاهر أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ ما يحْصُلُ للإنسان في لحظة مَوْته ومُفَارَقَتِه للحياة، لأنَّهُ عنْدَها يَبْرَقُ بَصَرُهُ دَهْشَةً وَحَيْرَةً وذُعْراً، ثُمَّ يشْخَصُ.

يقال لغة: شَخَصَ فُلانٌ بَصَرَه، وشَخَصَ ببَصَره، أي: فتح عَيْنَيْهِ ولم يَطْرِف بهما متأمِّلاً أو مُنْزَعجاً.

(ال) في: [الْبَصَر] للجنس، ولكنّ المؤمنين الناجين يشاهدون منازلهم الكريمة في جنات النعيم فيحبُّون لقاء اللّه ولا يحصل لديهم الدهش والذعر، فالمراد بصر أهل العذاب.

فالآية إذن تُعْطِي لقطةً لحالة الإنسان الذي يَشْهَدُ المخاوِفَ سَاعَةَ موته، وما يصِيبُ فيها بَصَرَهُ من حَيْرَةٍ ودهْشَةٍ، وما يصيبُهُ فيها من فَزَع وذُعْر، إذا كان من أهل النار، ممَّا يشْهَدُ من أحوال الآخرة، ثمّ ما يحدُثُ فيه من شُخُوص، وسوابق الكلام في السُّورة تتحدّث عن المكذّب بيوم الدّين.

**اللّقطة الثانية:**

جاءت في قوله اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾.

هذا حَدَثٌ من أحداث أشراط السَّاعة الّتي يُنْهِي اللّه بها ظُرُوف هذه الحياة الدنيا، أو يكون من مقدّماتها، أو أَحَدَ عناصِرِها.

والمراد بخُسُوف القمر ذهابُ نُوره، أو ذهاب جِرْمِه الذي يَذْهبُ بذهابِه نُورُه.

**خَسَفَ**: يقال لغة: خَسَفَ المكانُ يَخْسِفُ خَسْفاً وخُسُوفاً، أي: غَارَ بما عليه. ويقال: خَسَفَ اللَّهُ بهم الأرْضَ، أي: غَيَّبَهُمْ فيها. ويقال: خَسَفَتِ الْعَيْنُ: إذَا غارَتْ وذهَبَتْ في تجويفِ الرأس. وعَيْنٌ خاسِفَةٌ وخاسفٌ، إذا غارَتْ وغابَتْ حَدَقَتُها مِنْ عِلَّةٍ، أَوْ فُقِئَتْ.

هذا أصل معنى الْخُسُوف في اللُّغة، وعلى مِثْلِه يَكُونُ خُسُوفُ الْقَمَر الذي هو من أشراط السَّاعة أو من أحداثها.

**أشراط السَّاعة**: هي العلامات الّتي تحدُثُ قَبْلَ وُقُوعِها، فتدلُّ على قُرْب وقوعها.

**اللّقطة الثالثة:**

جاءت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

هذا حدَثٌ يكونُ عقِبَ خَسفِ الْقَمَرَ أَوْ مُقَارِناً له، إذْ يَنجَذِبُ الْقَمَرَ إلى الشَّمْس، حتَّىٰ إذا بلَغَها ابْتَلَعَتْهُ، فَيَغُورُ في أحَدِ تجويفاتها العظيمة العميقة، فيجتمعان.

أمّا ما دام نظام الحياة الدنيا قائماً فإنّ الشَّمْسَ لا ينبغي لَهَا أنْ تُدْرِكَ القمر، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾.

يُلاحظُ في اللَّقَطاتِ الثّلاثِ السَّابقات، أنَّ البيان القرآنيَّ قد جاء فيه اختيارُ لَفْتِ نظر الإنسان المكذّبِ بِيَوْمِ الدِّين:

● إلى ساعة موته الّتي يَشْهَدُ فيها ملائكةَ العذاب، وَنُزُلَهُ من النار، فَتُصِيبُهُ الحيْرَةُ والدَّهْشَةُ والْفَزَعُ الْعَظِيم، فَيَبْرَقُ بصَرُه، ثُمَّ يَشْخَصُ مع طلوع الرُّوح.

● وإلَىٰ حَدَثٍ آخَرَ يكُونُ قُبَيْلَ أو عنْدَ قيام السَّاعَةِ الَّتي يُقْضَىٰ بها على الخلائق، وهُوَ حَدَثٌ يشْهَدُه الكافرون في الأرض الّذِين تَقُومُ السَّاعَةُ علَيْهم، إذْ تَقُومُ ولَيْسَ في الأرض من الناس إلاَّ الكافرون، ليس عليها من يقول: الله، كما جاء في بيانات الرسول ﷺ.

وهذا الحدَثُ هُوَ ذهَابُ نور القمر المصحوبِ أو المتبوع بذَهَاب جِرْمِه، إذْ تَبْتَلِعُهُ الشَّمْسُ فَيُجْمَعُ بَيْنَهُما.

فهما حَدَثَان مُتَتَابِعَان أو مُقْتَرِنان، والله هو العليم بما سَوْف يَحْدُث.

**اللقطة الرابعة:**

جاءت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يَقُولُ الإنسانُ الكافرُ، فَهُو المذعُورُ الذي يُرِيدُ مكاناً يَفِرُّ إليه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يوم القيامة الذي يُنْكِرُه.

﴿أَيْنَ﴾: اسْمُ استفهام عن مَكَانٍ، وهو مبنيٌّ في محلّ رفْعِ خبر مقدّم، و﴿ٱلْمَفَرُّ﴾ مبتدأ مؤخر.

﴿ٱلْمَفَرُّ﴾: مصدر ميميّ، بمعنى الْفِرار، أي: أيْنَ مَكَانُ الفرارِ من مَوْقف الحسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

أو هو اسم مكان من فِعْل: «فَرَّ يَفِرُّ». الأصل في اسم المكان من «فَعَل يَفْعِل» مَفْعِل، فهو من «يَفِرُّ» مَفِرٌّ، لكن أَجَازَ الْفَرَّاءُ والكِسَائي أن يكون «مَفرّ» اسم مكانٍ.

وأُرَجّح المصْدَرِيَّةَ هُنَا، لأنَّ الكافِرَ يومَئذٍ يَطْلُبُ الْفِرَار ولو إلى الموت الأبَدِي، إذْ يَقُول كما جاء في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿... يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

أي: يقولُ: يا لَيْتَهُ يَصِيرُ مِثْلَ الْبَهائِمِ إِذْ تَصِيرُ إلى التُّرابِ، بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ اللَّهُ الْعَدْلَ فيما بَيْنَها.

لم يُقَدِّم النَّصُّ هُنا لَقْطَةً عَنْ سَاعَةِ البعثِ إلى الحياة بعد الموت، اكْتِفاءً بما جاء في صَدْرِ السُّورَةِ، وهو قولُ اللَّهِ عزَّ وجل: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ فالحدِيثُ عن يَوْمِ القيامة هو المقصود الأساسيُّ في البيان، ونظراً إلى الْبَدْءِ به في صَدْرِ السّورَةِ، انتقل النَّصُّ إلى اللّقطَةِ الرّابعة، وهيَ بيان بَعْضِ ما يَقُولُه المكذِّبُ بيوْم الدّين، إذْ يُدْرِكُ مَا هُوَ صائِرٌ إليه من حسابٍ، وفَصْل قَضَاءٍ، وَجَزَاءٍ بعذاب جهنَّمَ خالداً فيها مُخَلَّداً.

**اللقطة الخامسة:**

جاءت في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾.

﴿كَلَّآ﴾: أداة ردْعٍ وزجْرٍ في معظم أحوالها، ولهذا يجوز الوقوفُ عليها والابتداء بما بعْدَها.

﴿لَا وَزَرَ﴾: أي: لاَ مَلْجَأَ لَكَ أَيُّها الإنسانُ الكافِرُ تلْتَجِئُ إليه، طالباً فيه حمايتَكَ منْ عذاب الله.

**الْوَزَرُ**: في كلام العرب الجبَلُ، وكُلُّ مَعْقِلٍ، ويُطْلَقُ علىٰ كُلِّ ما يُلْتَجأُ إليه لِلْحمَايَة.

يقال للكافر يوم القيامة جواباً على سؤاله: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾؟ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾: أي: زجراً ورَدْعاً لاَ وَزَرَ لَكَ.

كان الظاهرُ أن يُقَالَ لَهُ: كَلَّا لاَ مَفرَّ، على وفْقِ سُؤَاله. لكِنَّ جوابَهُ يأتي بِتَيْئِيسِه من الملْجَأ الذي هو أَخَفُّ من الْمَفَرّ، ونَفْيُ الأخَفِّ يلْزَمُ عَنْهُ عقْلاً نَفْيُ الأَشَدِّ حتماً.

أو يُقال: حُذِفَ من سُؤَالِهِ في النصّ الْوَزَر، وأصْلُهُ: أيْنَ المَفرُّ؟ أو أيْنَ الْوَزَرُ؟

فجاء الرَّدُّ الزَّجْرِيُّ في النَّصِّ بحذف «الْمَفرّ» وإثبات «الْوَزَر». ليَدُلَّ المذكور في كلٍّ من الطرفَيْن على المحذُوفِ من الطَّرَفِ الآخر.

وهذا على الاحتمالَيْن هو من الْعُمْقِ القرآني.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾:

**الْمُسْتَقَرُّ**: أي: المكانُ الَّذِي سَوْفَ يستَقِرُّ فيه الكافِرُ يوْم الدين، وهو في جَهَنَّمَ حَتماً، فهي مستقرّ الكافر لا مَكانُ إقامَتِه المؤقتة، بخلافِ المؤمن العاصي.

**اسْتَقَرَّ بالمكان**: أي: تَمَكَّنَ فِيهِ وَثَبَتَ. **والْمُسْتَقَرُّ**: القرارُ والثُّبُوتُ. ويقال: صار الأمْرُ إلَىٰ مُسْتَقَرِّهِ، أي: تَنَاهَىٰ إلَيْهِ وثَبَتَ فيه.

جاء في هذه الآيَةِ خطابُ الكافِرِ وهو في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، بدليلِ عبارة: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

والمعنى: إنَّ الْحُكْمَ يومَ القيامة بمكانِ استقرارِكَ الَّذِي سَوْفَ تَسْتَقِرُّ فيه خالداً مخلَّداً، هو إلى رَبّك يَوْمئذٍ، لاَ معقّبَ لحُكْمِه، ولا رادَّ لقضائه. فَضَعْ في حِسَابكَ أيُّها الكافر وأنْتَ الآن في رحلة الامتحانِ هٰذه الحقيقة من حقائق أنْبَاءِ يَوْمِ الدّين، يَوْمِ الْحِسَابِ، وَفَصْل القضاء، وتحقيقِ الجزاء.

ويَحْسُنُ بالمتَدبّر الْحَصِيف أنْ يُدْرِكَ، أَنَّ الْبَيَانَ القرآنيَّ بيانٌ عَجِيبٌ، يتنقَّلُ فِيهِ النَّصُّ ما بَيْنَ مراحلِ الدُّنيا حَيَاةِ الابتلاء، ومراحِل الآخِرَةِ حَيَاةِ الجزاء، فالْمَاضِي والْحَاضِرُ والمستقْبَلُ صفحَةٌ مَفْتُوحَةٌ في مَدَىٰ عِلْمِ اللَّهِ، يَكْشِفُ منْها لعبادِهِ بحكْمتِهِ ما يشاء.

**اللقطة السادسة:**

جاءَتْ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾.

﴿يُنَبَّؤُا﴾: أي: يُخبَّرُ. **النَّبأُ**: الْخَبَرُ ذُو الظُّهُور والارتفاع، لأهَمِيَّته. يُقَالُ: أنبأَ فُلاَنٌ فُلاَناً وَنَبَّأَهُ الْخَبَرَ وبِالْخَبَرِ، أيْ: أخْبَرَهُ وأعْلَمَهُ به.

﴿الْإِنسَٰنُ﴾: يُرادُ بالإنسانِ هُنَا جِنْسُ الإنسان. و(ال) لا تفيد الاستغراق، لأنَّ الَّذِين يَدْخُلُونَ الجنَّةَ بِغَيْرِ حسَابٍ قَدْ لا يُنَبَّؤُونَ بأعْمَالِهِم كُلِّها، إغْضَاءً عن تَقْصِيراتهم وبَعْضِ معاصِيهم، وقد جاء في بيانات الرسُول ﷺ ما يُشْعِرُ بهذا.

﴿يَوْمَئِذِۭ﴾: أي: يَوْمَ إذْ يَكُونُ الحُكْمُ بمَصِيرِه إلى رَبِّهِ فِي موقفِ حِسَابه، للْفَصْلِ في القضاء له أو عليه.

التنوين في «يَوْمَئِذٍ» هو تنوينُ الْعِوَضِ عن هذه الجملَةِ المفهومة استخراجاً من الآيَةِ السَّابقة (١٢).

والمعنى: يُنَبَّأُ الإنسانُ يوْمَ القيامة عند محاسبته على ما كَسَبَ في الحياة الدُّنيا، حياة الامتحان، بِكُلِّ ما قَدَّمَ مِنْ عمَلٍ قَدْ عَمِلَهُ، خيراً كانَ أوْ شَرّاً، وبكلِّ ما أخَّرَ، أي: بكُلِّ ما لم يَعْمَلْهُ من أعْمَالٍ كان يجبُ عليه أن يَعْمَلَها، أَوْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أن يَعْمَلَهَا.

وجاء التعبير عمَّا عَمِلَهُ من أَعْمَالٍ في الحياة الدُّنيا بعبارَة: ﴿قَدَّمَ﴾ وعمّا لم يَعْمَلْهُ فيها بعِبَارَة [أَخَّرَ] وهذا من مصطلحات الْبَيَان القرآنيّ، للدّلاَلَة على أنّ كُلَّ ما يَكْسِبُهُ الإنْسَانُ بإرادته في رحلة امتحانه مُدَوَّنٌ، وسَيُحَاسَب عليه، فَهُوَ يُقَدِّمُهُ بيْنَ يَدَيْهِ إنْ كَانَ عملاً، ويُؤَخِّرُهُ وراءَه، إذا كَانَ تَرْكاً لعَمَلٍ مطلوبٍ منه، وسَيُحَاسَبُ على تَرْكِهِ له.

إنّ مقابلة فِعْل «قَدَّمَ» بِفِعل «أَخَّرَ» تَدُلُّ على أنَّ فِعْلَ «أَخَّرَ» يُرَادُ به تَرْكُ الْعَمَلِ الَّذِي كانَ مأمُوراً به إلزاماً أو ترغيباً.

ومن هٰذِهِ الاستعمالات القرآنيَّة، قوْلُ اللّه عزَّ وجلَّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

وقَدْ وُصِفَ الْعَمَلُ المؤدَّىٰ في الحياةِ الدُّنيا بأنّه «يُقَدَّمُ» لأنَّهُ يَسْبِقُ عَامِلَهُ إلى ديوان أعْمَالِه فَيُسَجَّلُ في كتابِ عَمَلِهِ.

وَوُصِفَ ما لم يَعْمَلْهُ الْإِنسَانُ في الحياة الدُّنيا بأنَّه «يُؤَخَّرُ» لأنّ الإنسان حينما يأتي مَوْقفَ الحساب، ولا يأتي معه عَمَلُهُ الّذي كانَ مَأمُوراً به، يُدْرِكُ أَنَّهُ قد تَرَكَهُ في زَمَانِ الحياةِ الدُّنْيا، وجَعَلَه مُتَأَخِّراً عَنْ رِكْبِ حَيَاته، ويُدْرِكُ أنّه لا رجْعَةَ إِلَيْه الْبَتَّةَ، وقَدْ عاش عُمْراً كانَ بإمْكانه فيه أن يَسْتَدْرِكَ ما فاتَهُ فلَمْ يَفْعَلْ، حتَّىٰ وافَتْهُ مَنِيَّتُهُ، وانتَهَتْ ظروفُ امْتحانه، وأقْبلَتْ مَرْحلةُ حسابه، وفَصْلِ القضاء بشأنه، ومجازاتِه على اختياراته الحرَّة في الحياة الدُّنيا.

**اللقطة السابعة:**

جاءت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

﴿بَصِيرَةٌ﴾: أي: كثير الْبَصَرِ والمعرفة بحركاتِ نَفْسِهِ، وتَصرُّفَاتِهَا، ومُرَاداتِهَا، وأهوائها، وشهواتها، ونزعاتها ونزغاتها، ونِيَّاتِها، وأعْمَالِهَا الصَّالحاتِ والسّيِّئات، وسائر ما يَصْدُرُ عَنْهَا من مكتسبَاتٍ إراديَّة.

كَلمة «بَصِير» على وزن «فَعِيل» من صِيَغِ المبالَغةِ الّتي يرادُ بها التكثير، أو التكبيرُ والتعظيم. والتاء في «بَصِيرَة» لزيادة المبالغة، وهي التاء التي يُؤْتَىٰ بها أحْيَاناً لتوكيد وزن الفاعل، مثل «رَاوِية» و«نَابغَة» وقد تأتي لتوكيد المبالغة، مثل «علاَّمَة» و«نَسَّابَة» و«فَهَّامَة».

﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: متعلقٌ بـ﴿بَصِيرَةٌ﴾ مقدّمٌ عليه لمراعاة رؤوس الآيات وفنّيتها، وللتخصيص بأنّ معرفته الزائدة خاصّةٌ بأحوال نَفْسِهِ الإراديَّة.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾: أي: هو يَعْرِفُ تماماً قبائح نَفْسِهِ، وجرائمها، وخطاياها الظاهرة والباطنة، ولَوْ حَاوَل تلْفِيقَ الأعْذَارِ لتَبْرِئة نَفْسِه بالأكاذيب.

**مَعَاذير**: جمع «مَعْذِرَة» بكَسْرِ الذَّال وضَمِّها، وتُجْمَعُ أيضاً على «مَعَاذِر» بغير ياء، على وزْنِ «مَفَاعِل».

**والْمَعْذِرة**: هي الحجَّةُ الّتي يقدّمها ويجادل بها المعتذر عن ذنْبِه، الذي يُحَاول تَبْرِئة نَفْسِهِ من التقصير أو الذّنب.

والمعاذِير يَشُوبُها الكَذِب، ومن أمثالِ العرب: المعاذِرُ مكاذب.

وتأتي الْمَعاذِيرُ بمعنى السُّتُور في لُغَةِ اليمن، ومُفْرَدُها: «مِعْذَار».

والمعاذير بمعنى الحجج الكلاميّة تشبه السُّتُور الّتي يُلْقِيها الإنسان، ليَسْتُر بها ما وَراءَها من عُيُوب.

ومُقَدِّم الحجج الكواذب يحاول بها سَتْر ذُنُوبه، لعَلَّهُ يَظْفَرُ بحكم البراءة، لكنّها عند الله يَوْم الحساب لا تنفَعُهُ بشيء، فاللّه به وبخفايا نَفْسِه عليم، لا تخفَىٰ علَيْه خافيَة.

عَلَىٰ أنّ الْإنْسَانَ نفْسَه يتذكّر يَوْمَ الدِّين كُلَّ ما سَعَىٰ في الحياة الدنيا، وكُلَّ ما جَنَىٰ من مكتَسَبَاتٍ إراديَّة في رِحْلَة امتحانه.

يُضَافُ إلى ذلك أنَّ صُحُفَ أعْمَالِهِ لَمْ تُغَادِرْ صَغِيرَةً ولاَ كَبِيرَةً إلاَّ أحْصَتْهَا، ففِيهَا سِجِلٌّ كاملٌ له بالصَّوْت والصُّورَةِ الظَّاهرة والباطنة، حتَّىٰ حركاتِ الفكر، وحركاتِ النفس، والنيَّاتِ، وما في عُمْقِ الْفُؤَادِ.

ويُضافُ إلى ذلك أيضاً أنّ جِلْدَهُ وأعْضَاءَه الّتي ارتكبَ بها الذّنوب والمعاصيَ والآثامَ تَشْهَدُ عليه في موقف حسابه.

كُلُّ هذا دلَّتْ عليه نُصُوص من القرآن المجيد والسنة المطهرة.

فَمِنْ بديع البيان القرآنيّ استعمالُ كلمة «معاذير» هنا لتدلّ على معنى الحجج الكواذب التي يحاول بها المجرم تبرئة نَفْسِه يوم الدين، ولتَحْمِلَ معنى تشبيه هٰذِهِ الحجج بالستور التي يُحَاول مُلْقِيها سَتْرَ ما وراءها من عيوب، على طريقة استخدام اللَّفْظِ بمَعْنَيَيْه، أو على طَرِيقة التورية.

وفي استخدام فِعْلِ ﴿أَلْقَىٰ﴾ توجيهٌ لقبول الْمَعْنَيَيْن، فقد استعمل هذا الفعلُ في القرآن في الحسّيات وفي المعنويّات، فمِنَ الحسّيات: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ ومن المعنويّات: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

وفي استعمال كلمة ﴿بَلْ﴾ الَّتي فيها معنَىٰ الإضراب الإبطالي، وما في جُمْلة: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ من دَلاَلَةٍ، بعد بيان أنّ هذا الإنسان خبيرٌ بما قَدَّمَ وأخَّرَ، إذ هو: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ يُدْرِكُ المتدبّر المتَتَبِّعُ لِلَوازِمِ الأفكار، أنَّ هذا الإنْسانَ لَدَىٰ مُحاسَبَتِهِ وَتَنْبِيئِهِ بما قَدَّمَ وَأَخَّرَ، يُجادِلُ عَنْ نَفْسِه، لتَبْرِئَتِها ممَّا جنَتْهُ في رحلة الحياة الدنيا، فَلاَ يُقِرُّ بِمَا جَنَىٰ، مَعَ عِلْمِهِ بمَا جَنَىٰ، ويُحَاوِلُ أَنْ يَسْتُرَ نفسَه بالمعاذير.

ففي النّصّ القرآنيّ محاذيفُ تُقَدَّرُ ذهناً، وَقَدْ دَلَّ عليها ما سَبَق.

وبإبراز المحاذيف يُمكن أن نفهم النّصّ على الوَجْهِ التالي:

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ فَيُنْكِرُ، ويَرْفُضُ الإقرار، ويُحاولُ أن يُلْقِيَ مَعاذيرَهُ ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ لكنَّهُ يُمْنَعُ من ذَلِكَ، فَلاَ يُؤْذَنَ لَهُ بتَقْديم الحجج الكواذب، فوقْتُ الحسَاب الرَّبَّانِيّ لا يُشْغَلُ باسْتِمَاعِ أكاذيب المجرمين، دَلَّ علَىٰ هٰذَا قَوْلُ اللّٰه عزّ وجلّ في سُورَةِ (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقد أبَان اللّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) أنّ كُلَّ نَفْسٍ حَاملَةٍ أَوْزَاراً، تَأْتي يَوْمَ الْحِسَابِ لتُجَادِلَ عَنْ نَفْسِها بَيْنَ يَدَيْ رَبِّها، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

## مما جاء في السُّنَّة بشأن جدال الإنسان عن نفسه يوم الحساب:

(١) روى مسلم عن أنس بن مالكٍ قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فَضَحِكَ، فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟».

قال: قُلْنَا: الله ورسوله أعلم. قال:

«مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يقولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجرنِي من الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَىٰ نَفْسِي إلاَّ شَاهِداً مِنِّي. فيقولُ: كَفَىٰ بِنَفسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُوداً.

فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ. ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ.

فَيَقُولُ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ».

وفي رواية ابْنِ أبي حاتم: «مِنْ مُجَادِلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ».

(٢) روى ابْنُ أبي حاتم، وابْنُ جريرٍ، عن أبي سعيد، عن النبيّ ﷺ، قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، عُرِّفَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ، فَيَجْحَدُ، ويُخَاصِمُ، فَيُقَالُ: هَٰؤُلاَءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ،

فَيقُولُ: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: احْلِفُوا فَيَحْلِفُونَ. ثُمَّ يُصِمُّهُمُ اللَّهُ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِم أَيْدِيهِمْ، وَأَلْسِنَتُهُمْ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النّار».

وشهادة أعضاء الإنسان عَلَيْهِ ثابتَةٌ فِي نُصُوصٍ قرآنيّة.

❁ ❁ ❁

## (٥)
## التدبّر التحليليّ لآيات الدرس الثاني من دروس السورة
### وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

**تمهيد:**

هذا دَرْسٌ اعتراضيٌّ في موضوع السُّورة، مُوجَّهٌ للرسُول محمّدٍ ﷺ، بِشَأنِ تَلَقِّيهِ مَا كَانَ يُنَزَّلُ عليه من نجوم القرآن، وقد دعا إليه حالَةُ الرّسُول ﷺ عند نزول الدرس الأول منها، إذْ جَعَلَ يعْجَلُ بمُتَابَعَةِ جبريل عليه السّلام.

فاقتضَت الحكمة التربويَّةُ وَضْعَهُ دَرْساً اعتراضِيًّا في السُّورَةِ، لتَعْلِيمِنَا أُسْلُوباً من أساليب التربيَة، وهو أسْلوبُ التوجيهِ في تعليم ما هو الأفضلُ عَقِب الممارسة الّتي يُراد تصحيحها، أو تَقْويمها، ولا سيما عنْدَ مُمَارَسَةِ عَمَلٍ لاَ يَصِحُّ التمادي فيه.

وهذا نَظِيرُ عَمَلِ المربّي إذا رأى وَلَدَهُ أو تلميذَهُ يأكُلُ بشمالِه، فإنَّهُ يقولُ له عنْدَ مُمَارسَتِه ذلك: كُلْ بيمنك. وإذا رآه يمُدُّ يَدَهُ لِيَخْتَار أجْوَدَ

اللَّحْم مِنَ الجَفْنَةِ، ومعه آكلون آخرونَ منها، فإنَّهُ يقول له عندئذٍ: كُلْ ممَّا يَلِيكَ.

فعند تَلَقِّي الرسول محمّد ﷺ أوائلَ سُورة (القيامة) من جبريل عليه السلام، صار يَعْجَلُ بتَحْريكِ لسانه يَتْلُو ما كان يتلقَّاهُ، حرصاً منه على جمْعِ ما يتلقّاهُ في ذاكرته مُرَتَّباً، لاَ يَضِيعُ منه شيءٌ، وحرصاً منه على فَهْمِ المراد، وعلى ضَبْطِ ترتيلِهِ مُجَوَّداً، كما يَتْلُوهُ عليه رسولُ الوحي الرَّبَّاني، فأنزل الله عزّ وجلّ عليه هذه الآيات التربوية.

درسٌ من أربع آياتٍ حوْلَ ما يَنْبَغِي للرَّسُول ﷺ أنْ يَفْعَلَهُ عنْدَ تلقّي نُجُوم القرآن، الَّتِي يَنْزِلُ الوحْيُ بها عليه.

وقد سبق هذا الدرس طَمْأَنَةٌ من الله لرسوله بأنَّه سيُقْرِئه القرآن فهو لا يَنسَىٰ ما يُقْرِئُه منه بما يعطيه من قدرة على الحفظ، إلاَّ ما شَاء اللَّه، فقال له في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾.

أي: إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْسَحَهُ من ذاكرته، إذْ يكون أَمْراً مراداً كالنَّسْخ، وحين يَنسَخُ اللَّهُ آيَةً أَوْ يُنسِيها رَسُولَهُ بقضائه وقدَرِه، فإنَّهُ يأتي بخَيْرٍ منها أو بِمِثْلِها لاَ بدُونها، كما قال اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦﴾.

وكان من مقتضىٰ وعْدِ اللّه رسُولَهُ بعَدَم نِسْيان ما يُنَزَّلُ علَيْهِ من قرآن، أنْ لا يَتَعَجَّلَ الرَّسُول ﷺ بحفْظِ وضَبْطِ ما يَنْزِلُ عليه به الوحي من نجوم القرآن، ولكنَّ شدّة حِرْص الرَّسُول على تَلَقِّي أمانة الله الْمَأْمور بتبليغها كما تَنزِل عليه، جعلَتْه يَرَىٰ من الخير أن يتعَجّل بقراءة ما يَنْزِلُ عليه، لتحقيق ما

وَعَدَهُ اللّٰه به، وجعلَتْهُ يَرَىٰ أنَّ علَيْه أَنْ يَضْبط ما يتلَقَّاهُ بتلاوةٍ مُجَوّدة، كما يَقْرؤها جبريل عليه السلام، مع حرصه صلوات الله عليه على فهم المراد.

لكلّ ذَلِكَ قال الله لرسوله في هذا الدرس الاعتراضيّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾:

أي: لا تحرّك بما يُنزَّلُ علَيْكَ من القرآن لسانَكَ لأجْلِ أن تعجَلَ بجمع كلماته وآياته في ذاكرتك، وتَعْجَلَ بضبط تلاوتِه مُرتَّلاً مجوّداً، وتَعْجل بفهم المعاني المرادة.

● ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾: أي: فَلاَ تحذَرْ أنْ ينِدَّ عَنْك شيءٌ منه، من كلماته، أو آياته، أو نسَقِه وتَرْتِيبِه وضبطه، فإنّ عَلَيْنا جمعَهُ في صَدْرِكَ وذاكرَتك وفكرك، كما يُلقّنُك إيّاهُ جِبْريل، فتكفّلَ اللّٰهُ لَهُ بجمعه في ذاكِرَته.

● ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾: أي: ولاَ تَحْذَرْ أنْ يَنِدَّ عنْكَ شيْء من ضَبْطِ تِلاَوَتِهِ مجوَّداً، بالأداء المبين الكامل المرتَّلِ، كما يُلَقّنُك إيَّاه جبريل.

**وَقُرْآنَهُ**: أي: وقِرَاءَتَهُ، فالقرآن هنَا مصدَرٌ كالقراءة.

فالمعنى: وإنَّ علينا أمْرَ ضَبْطِ لسانِك على قراءته وفْقَ التَّلْقِين المنزَّل، فإن كنْتَ تحرّكُ لسانَكَ تَعَجُّلاً لضبط الأداء المرتَّل المجوّد، فإنَّ عَلَيْنَا قرآنَه، فتَكَفَّلَ اللّٰه له بضبط تلاوته مُرَتَّلاً، مجوَّداً.

● ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾: أي: فإذا أتْممْنَا لَكَ قِراءَة النَّجْمِ الذي يَنْزِلُ عليك به الوحْي، فاتّبِعْ قراءتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، كَمَا تَلَقَّيْتَهُ وتَلَقَّنْته.

في استعمال فعل ﴿قَرَأْنَهُ﴾ هُنَا دَلاَلَةٌ علَىٰ أَنَّ جبرِيلَ كانَ يَقْرَأُ بأمْرِ اللّٰهِ على رسُولِه من صحائف قَدْ كُتِبَ عَلَيْها النَّصُّ المنزَّلُ على الرسُولِ، إشعاراً بكمال الضَّبْط. لأنّ القراءة هي في الأصل مُتابعَةٌ في النُّطْقِ لصحائِفَ

مكتوبة، ثمَّ تَوَسَّعَت الدّلالة فصارت تُطْلَقُ القراءَةُ على النُّطْقِ بما هو محفوظٌ في الذاكرة، ولهَذا لمَّا عَرضَ جبريل عليه السّلام على الرسُولِ محمّد ﷺ في غارِ حراء، عند بدء الوحي خطّاً مكتوباً وقال له: «اقرأ» كان جَوابُ الرَّسُول: ما أنا بقارئ، أي: لم أتعلَّم القراءَةَ والكتابة، فأنا لا أعْرِفُ رُمُوز الخطوط حتَّىٰ أقرأها، ولو قال له انْطِقْ بما أقْرَأُ عَلَيْكَ لنَطَقَ مُتَابعاً لَهُ، بَدْءاً من المرَّة الأولى الّتي قال له فيها: اقرأ.

- ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾:

إنّ بَيَانَ مَعَانِي القرآن المنزّل هو القضيّة المهمَّةُ الثالِثةُ بعد قضيَّة الحفظ على وفْقِ التَّنزيل، وقَضِيَّةِ ضبْطِ الأداء والترتيل.

وبَيَانُ معاني القرآن يشمَلُ بيَانَ ما اشتَمَلَتْ عليه دلالاَته من عقائدَ وشرائعَ وأخلاقٍ وآدابٍ وأحكامٍ وتكاليف، ويشْمَلُ ما تَدُلُّ عليه نصوصُهُ من علومٍ عن الكون والماضي والمستقبل والحاضر من عالَمَي الغيب والشهادة، وعن النفوس والحقائق الفكريَّة المجرّدَة.

وفي هذه الآية تكفَّلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ بأنْ يُبيِّنَ كُلَّ ما اشْتَمَلَ عليه القرآن من دَلَالات، ولكنْ على التراخي، بمقتضى دَلالة حَرْف العطف ﴿ثُمَّ﴾ فيها، وهذا يَشْمَلُ الأزمِنَةَ المستقبلَةَ وَلَوْ بَعْدَ انتِهاء حياة الرَّسُولِ ﷺ في الدنيا، فَفَهْمُ كامل المعاني القرآنيّة له مراحل مستقبليّة.

أمّا ما يتعلَّقُ من معانيه بمطلُوبِ اللَّه من العباد في أُمُور دينهم، فقَدْ جعَلَ اللَّهُ في لَوَاحِقِ نُجُومِ التنزيل، وفي بيانات رسُولِهِ للنّاسِ مَا فيهِ وفاءٌ بذلك.

وأمّا ما يتعلَّقُ من معانيه ودَلالاته بأمُورٍ أُخرى فقَدْ تكفَّلَ الله ببيَانِهِ بوسائل مختلفةٍ يَهْدِي اللَّهُ إليها عباده في القُرون المتابعات، ومنها اكتشاف حقائقَ كانت مجهولةً للناس، في السَّمَاواتِ والأَرْضِ والأَنْفس، عن طَريقِ التجربات، والملاحظات، واستخدامِ الوسائل والأدوات الّتي يَتَوَصَّلُ النَّاسُ

إلى اكتشاف خصائصها، واستخدام ما فيها من قُوىً وطاقات، وهٰذِهِ لم يَطْلُبِ الله من الرسول محمد ﷺ أنْ يُبَيِّنها للناس.

لكنّ الله عزّ وجلّ قَدْ تَكَفَّل ببَيَانِها مستقبلاً، بما يفتح به على عباده من أبواب معارِفَ كوْنيّة، ولو كانوا من الكافرين بالرَّسُولِ وبالقرآن المنزَّل علَيْه.

وفي هذا الإطار ظهرت قضايا الإعجاز العلميّ في القرآن، وفي هذا الإطار أيضاً نفهم قول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١/ مصحف/ ٦١ نزول) في مَعْرِض الحديث عن القرآن:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

ويظهر أنّ الرسول ﷺ على الرُّغم من أناته وصَبْرِهِ لدَىٰ تلقّي القرآن من الوحي، واستجابته للتعليم الرَّبَّانيّ، لمَّا صَارَتْ نُصُوصُ نجوم التنزيلِ تنزِلُ عليه أطْوَلَ ممّا كانت تَنْزِلُ، صَارَ يتَعَجَّلُ بتلاوَةِ ما يُوحِي إليه به جبريل، قبْلَ أنْ يَنْتَهِيَ من وحْيِهِ، ظَنّاً منه أنَّ النَّجْمَ قَدْ تَمَّ، مع أنَّ جبريل عليه السّلامُ لَمْ ينْتَهِ بَعْدُ من قراءته عليه، فأنزل اللّه عَزّ وجلّ عليه قَوْله في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿... وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

فعلّمَ اللّه رسولَهُ في هٰذه الآية أنْ يَنْتَظِرَ حتَّىٰ يعلَمَ أَنَّ جبريلَ قد أَنْهَىٰ كامل النَّجْم الذي يوحي به إليه، وأنّه قد فرغ مِنْ تَلْقِينِه إيَّاه تماماً.

## (٦)
## التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس السورة وهو الآيتان (٢٠ ـ ٢١)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

- قرأ جمهور القرّاء العشرة [تُحِبُّون] و[تَذَرُونَ] بتاء الخطاب.
- وقرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرٍو، وابْنُ عَامرٍ، ويعقوب: [يُحِبُّونَ] وَ[يَذَرُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءَتَيْنِ تكامُلٌ في الأداءِ البيانِيّ، فالمستجيبون للخطاب القرآني يلائم حالَهُمْ قراءَةُ الجمهور. والمعرضون والمدْبِرون يلائم حالَهُمْ القِراءة الأُخرى: [يُحِبُّونَ] و[يَذَرُونَ].

هذا الدرس موصول بموضوع الدرس الأوّل، المتعلّق بقضيَّةِ الدنيا دار الابتلاء، والآخرة دار الجزاء، في خُطّة الخالق ربّ العالمين، وأَحْكَمِ الحاكمين، الذي بيده ملكوت السَّماوات والأرض، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

إلاّ أنَّ هذا الدرس موجَّهٌ لعموم النَّاس، لا لخصُوص الكافرين المكذّبين بيوم الدّين، الَّذِين جاء الدرس الأوّل موجّهاً لهم.

وقد صدَّر الله عزّ وجلّ هذ الدرس الثالث بعبارة الزَّجْر لعموم الناس، على واقعٍ غيْرِ سَوِيٍّ هم فيه، إذْ يُحبُّون العاجلَةَ الفانية السَّريعة الزّوال، وهي الحياة الدنيا، ويترُكون الآخرة الباقية الخالدة، ذاتَ النعيم العظيم الذي لا يزول، فلا يسْعَوْنَ لها سَعْيَها، ولو كَانوا مؤمنين بها، ومؤمنين بأنّها هي دار الحيوان الباقية.

والناس بالنظر إلى هذا الواقع الذي هم فيه يستحقّون الزجْرَ عليه، والرَّدْع عنه.

﴿كَلَّا﴾: أداةُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ في معظم أحوالها، ولهذا يجوز الوقوف عليها، والابتداء بما بعدها.

وقد جاء هذا الردْع والزجْر في صَدْر التوجُّهِ لخطاب النّاس، ليعلَمُوا أنهم في واقع غَيْر سَوِيّ، وهم يسْتَحقُّون عليه الزَّجْرَ والرَّدْع. ألاَ وهو حُبُّهم للدُّنيا الّتي هي العاجلة، وتَرْكُهُمْ لِلْآخِرَة الّتي هِيَ الآجلة.

﴿بَلْ﴾ حرف إضرابِ انْتقالي كما يقول المعْرِبُون الذين لا يَبْحَثُونَ في الْعُمْق، لكنّنا إذا تعمّقْنَا في التّدَبُّر وجدْنا أنَّ كلمةَ ﴿كَلَّا﴾ الرَّادِعَة الزاجرة، تُشْعِرُ بأنَّ النَّاسَ يتَّخِذُونَ لأنفسهم ذرائع ومعاذير تَصْرِفهم عن السَّعْي للآخرة، وتَجْعَلُهُمْ يُوجّهُونَ اهتماماتهم للحياة الدُّنيا وزينَتِها، وذرائِعُهُم ومعاذيرهم باطلَةٌ، يُدْرِكُ بُطْلاَنَها أولو الألباب.

فجاءت كلمة ﴿بَلْ﴾ لِلْإِضْراب الإبطالي، لا لمجرّد الإضراب الانتقاليّ من غرضٍ في البيانِ إلى غرضٍ آخر.

إنّ حبَّ الناس للعاجلة، بِسَبَب نَظَرِهم القاصر، وتعجُّلهم لاغتنام اللَّذَّاتِ، وإجابَة مطالِبِ الشهوات، يجعلُهم يتعلَّقُونَ بالْحَيَاة الدنيا وزيناتها، ويوجّهُونَ كلّ أعمالهم واهتماماتهم، أو معظمها، لنَيْلِ متاعها، ولذّاتِها وشهواتِها، فيصرفُهُمْ ذلك ويُلهيهم عن الآخرة والعَمَل لها، فهم وإنْ كَانُوا يؤمنون بالآخرة يتركونها ويضيّعون حقُوقَها، فَيَخْسَرون كنوزها المدَّخرة، ويخْسَرُون أنفسهم في الفاني، لأنّهم وجَّهُوا له كلَّ وسائلهم، آخِذين بأسْبَابه، تاركين أسباب الآخرة، فإذا ماتُوا نبَذَتْهُمْ الدّنيا عنها، وتوجَّهَتْ لمتعلِّقين بها آخرين ما زالوا فيها أحياء.

ثُمَّ إذا بُعِثُوا للحياة الأُخْرى وجَدُوا أنفسهم خاسرين، لأنّهم كانوا قد تركوا أسبابها، وتلَهَّوْا عن العمل لها بالعمل للعاجلة.

ألا يستحق هذا الواقع عِبارَة الزَّجْر والرَّدْعِ «كلَّا» تَنبِيهاً للغافل، وحثًّا للمؤمن العامل المقصِّر على مُضاعفة جُهودِهِ ومجاهدته في ابتغاء نعيم الآخرة، ومراتِبِها الرفيعة في جنَّات النعيم، فضلاً من الرّبّ الرحيم الكريم.

وترجع **أسْبَابُ حُبِّ النَّاسِ العاجلَةِ** وتَرْكهم الآخرة إلى ما يلي:

**السبب الأوّل**: أنّ الدُّنْيَا حقِيقَةٌ مُشَاهَدَةٌ مُدْرَكَةٌ بالحواسّ، أمّا الآخرة فهي غيبيَّةٌ مستقبليّة يربط بها الإيمان.

**السبب الثاني**: أنّ الناس يَحْيَوْن الحياة الدنيا، ويَعيشُون فيها، لحظَةً فلَحْظَةً، فتَشْغَلُهم بها، وتَمْتَلِكُ أحاسيسهم الظَّاهِرَة والباطنة، أمّا لذَّاتُها فيطلُبُونَ منها المزيد، وأمَّا آلامُها وأكدارُهَا فَيَكْدَحُونَ للخَلَاصِ منها في الحاضر، والتوقي منها في المستقبل، وهَٰذا يُنْسِيهم الدار الآخرة وما فيها، ولو كانوا يُؤْمِنُونَ بها، إلاَّ مَنْ كان الموتُ واعظاً له، وكانت الآخِرَةُ حاضِرةً في ذَاكِرَته بالمواظبة على تلاوة القرآن الكريم، ولا سيما الآياتُ الّتي تتحدَّثُ عَنِ الآخرة والجنَّة والنار، ومَا فيهما من نعيم مقيم، وعذابٍ أليم.

**السبب الثالث**: أنّ حرَكَةَ شهوات النّاس وأهواء نفوسهم تُلِحُّ عليهم إلى حدِّ النُّباح أحياناً، ونُبَاحُهَا يَدْفَعُهم بقُوَّةٍ إلىٰ أن يَعُبُّوا من لذّاتها وصُنُوف متَاعِهَا بلا حساب، فَهُم يلْهَثُونَ وراء جَمْعِ الأَسْبَاب الّتي يَرَوْنَ أنَّها تُوصِلُهم إلى ذلك، وهُمْ في الغالِب لا هَمَّ لَهُمْ إلاَّ إرْضاءُ أهْوائهم وشهواتهم الجسديَّة والنّفسيّة.

**السبب الرّابع**: أنَّ الآخِرَةَ حقيقةٌ غيْبيَّةٌ مَوعُودٌ بها، وهي غَيْرُ مُدْركة بالحواسّ حتَّىٰ تَتَهَيَّجَ الأَهْواء والشهوات لها، وأنَّ الإيمانَ بالآخرةِ إيمانٌ عقليٌّ ووجدانيٌّ.

ويَحْسُنُ بنا هُنَا أن نُذَكِّرَ بأَنّ عقبَةَ الامتحان الأُولىٰ في الحياة الدُّنيا، هي الإيمان بالغيب، عن طريق برهان الْعَقْلِ، ومؤيّداته الوجدانيّة، وبَرَاهِينُ

العقلِ تَسْتَنِد إلى دلائل الحسّ وأماراته، مع ما لَدَيْه من أحكامٍ ومقاييس وموازين فطريَّةٍ فطَرَهُ البارئ عليها.

**السبب الخامس**: أنّ الآخرة تقع في المستقبل البعيد بحَسَب تصوّر الناس، مع أنَّهُ في حقيقَةِ الأمْرِ قريبٌ جدًّا، ليْسَ بيننا وبينه إلاَّ عَتَبَةُ الموت.

أمّا البرْزَخُ الذي بين الموْت والبعث إلى الحياة الأخْرى، فإنَّ الميِّت لا يُحِسُّ بزَمَنِه، إذْ يُلْغَىٰ مِن مشاعر الميِّتِ الإحساسُ بمُرُور الزّمَنِ، ويَبْقَىٰ لدَيْهِ الإِحْسَاسُ بمشاعر النّعِيم إذا كان من المنعّمين السُّعَداء، والإحساسُ بمشاعر العذاب إذا كان من المعذّبين الأشقياء، وذلك في مراكز الشعور التي تبقَىٰ له، في خريطة نفسه، مع إشعاعٍ عليها من روحه، أو في رُوحِه، وليس لدينا بشيْءٍ من ذلِكَ عِلْمٌ نُقَدّمُ به تحديداً واضحاً، غير أن النَّعِيمَ والْعَذَابَ في مدَّةِ الْبَرْزَخ ثابتَانِ في النُّصوص الصحيحة الصريحة، من القرآن والسُّنّة.

وإذْ يُلْغَىٰ الإحساس بالزَّمَنِ من النُّفُوس والأرْواحِ بَعْدَ الموْت، فاللَّحظَةُ والسَّاعَةُ وملايينُ القرونِ بالنسبة إلى إحساس الموتى بالزّمَنِ سواء، وحين يبعثُون من قبورهم لا يَشْعُرُونَ مشاعر زمَنيَّةً إلاَّ كما يشْعُرُ النائم نوْمَةَ القيلولة في النهار، يسْتَوي في هذا الشعور من ماتَ من أوّلِ النّاس، ومن ماتَ عنْدَ قيام سَاعَةِ الإِفناء العامّ.

وهٰذِهِ قضيَّةٌ تَدُلُّ عليها في تجربات الناس حالة النوم، وحالة الإغماء، وحالاتُ التخدير لإجراء العمليّات الْجِرَاحِيَّة، ويَدُلُّ عليها موتُ الْعُزَيْرِ، ونَوْمُ أهل الكهف.

وقد دلَّتْ عليها بالنسبة إلى عُموم الموتى، نُصُوصٌ مُتَعَدّدَةٌ من نصوص القرآن المجيد، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) يصِفُ حِوَارَ المجرمين في موقف الحشر، عَقِب بعْثِهِم إلى الحياة للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾.

﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أَيْ: أحْسَنُهُم في طريقة تقدِير الزّمن بين الموت والبعث في إحْسَاسِ الموتى.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾: أي: ما لبِثْتُم بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إلاّ يَوْماً واحداً.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (٤٥)﴾.

فدلَّتْ هذه الآيَةُ على أنَّ الناسَ بعْدَ بعْثِهِم وحَشْرِهِمْ، يَشْعُرُون كَأَنَّهُمْ لم يَلْبثُوا بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ في البرزَخِ الفاصل إلاّ سَاعَةً من النَّهار، أي: أقَلَّ من نَوْمِ اللّيل.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: أي: وَمَا كانوا مُسْتَعِدِّين لأنْ يَهْتَدُوا في الحياة الدنيا، مهما مدّ اللَّهُ في أعمارهم، فاسم الفاعل هنا يَدُلُّ على الاستقبال.

إنَّ يَوْمُ البعْث هو في الحقيقة بالنسبَةِ إلى الإدْراك الّذي يُحِسُّ به النّاس، يومٌ قريبٌ جدّاً، ليْسَ بين الموْتِ وبيْنه إلاّ مِثْلُ نومَةٍ ينامُها النائم، لا يُحِسُّ بزمَنِها الطويل، إلاّ كَمَا يُحِسُّ إذَا نامَ سَاعَةً من النَّهارِ، إذْ يُلْغَىٰ الإحْسَاسُ بمرُور الزَّمَنِ من مَشَاعِرِ نفوس الموتى.

ولهذا وصَفَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ يَوْمَ الْبَعْثِ وَمَا يَجْرِي فيه بالْقُرْب.

(١) فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) يَصِفُ العذاب الواقع بالكافرين يَوْمَ الدين بأنَّه قريب:

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

(٢) وقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾.

* * *

## حبُّ العاجلة في النصوص القرآنية:

جاءت معالجة القرآن لحبّ الناس الحياة الدنيا الْعَاجلة في عِدَّةِ نصوص، يَحْسُنُ بِنَا هُنَا أن نَسْتَعْرِضها بشيءٍ من التدبر:

### النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) خطاباً للنَّاس:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ للناس في هذا النّص أَنَّهُمْ في واقع حالهم يُؤْثرون الحياة الدنيا، وأرشدَهم إلَىٰ أن يَعْمَلُوا للآخرة الّتي هي خَيْرٌ لهم وأبْقَىٰ، دون أنْ يُوجّه لهم زَجْراً وَرَدْعاً، نظراً إلى أنّه هو النَّصُّ الأوّل في هذا الموضوع.

### النّصّ الثاني:

ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ قَوْلَهُ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول): خطاباً للناس:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٢١﴾:

فجاء في هذا النَّصّ زَجْرٌ ورَدْعٌ للنَّاسِ على إيثارهم للحياة الدنيا العاجلة، بدافع حُبّهم لها، وعلى تَرْكهم للآخرة، الَّتي أبانَ لَهُمْ في نصّ سورة (الأعلى) أنَّها خَيْرٌ لهم وأبْقَىٰ.

**النصّ الثالث:**

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قولَهُ في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بياناً لقول الكافرين الَّذِين يُؤْثِرُونَ الحياة الدُّنيا ويَذَرُونَ الآخرة ولاَ يَعْبَؤُون بها:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾:

أي: رَبَّنَا عَجّل لنا نَصِيبَنَا من العطاء الَّذي تمنحه عبادَكَ.

أصل «القِطّ» الرُّقْعَة التي يُكْتَبُ فيها عَطَاءُ الملِك لمن يَحْبُوه بعطائه.

**النصّ الرابع:**

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) مبيناً سنّته في معاملة عباده تجاه اختياراتهم للعاجلة أو للآخرة:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١﴾.

فَدَلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ الحياة الدنيا حياة امتحان، ومن شأن الامتحان أن تكون ظروفه للمُحْسنِينَ ولِلْمُسِيئين مَشْمُولَةً بنظامٍ عامٍّ واحد، ليَستَوْفِي كلٌّ منهم شُروط الامتحان الأمثل.

فمن كان يُريد الحياة الدنيا لم يحرمْه اللّه من عطاءاته المقَدَّرة له فيها، لكنَّهُ يكون في الآخرة من أهل جهنَّم يصْلاَها مَذْموماً مَدْحوراً.

أمّا من أراد الآخرة وَسَعَىٰ لها سَعْيَها وهو مُؤمِنٌ، فإنَّهُ يُصِيبُ من دُنياه عطاءاتِ رَبّه المقدَّرَةَ له فيها، ثم يُثيبُهُ اللّهُ يَوْم الدّين على إيمانه وأعمالِهِ الصالحة ثواباً جزيلاً، إذْ يكُونُ سَعْيُه عِنْدَ رَبِّهِ مَشْكُوراً، أي: مأجُوراً أجراً عظيما.

**النّص الخامس:**

ثُمَّ أنزَلَ الله عزّ وجَلّ قولَهُ في سُورَةِ (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١)﴾.

فدلّ هذا النصُّ على أنّ المرادَ بإيثار الحياة الدنيا تَرْك الآخرة تَرْكاً كلّياً، بإهمالها وعدَمِ العملِ لَهَا مطلقاً، لأنّ الجَحِيم يوْمَ الدّين هي مأوىٰ من آثرها هذا الإيثار الكليّ.

**النّص السادس:**

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشأن الكافرين المصرّين على كفرهم:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)﴾.

أي: يُدْبِرُون وَيَتَوَلَّوْن نَابذِينَ وَرَاءهم الإيمان بيَوْم الدّين الّذي هو يَوْمٌ ثقيلٌ، في كلّ ما فيه من عقاب وثواب وبقاءٍ بلا نهاية.

❁ ❁ ❁

## (٧)
# التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة
### وهو الآيات من (٢٢ ـ ٢٥)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾.

في هذا الدرس عرض للَقْطَتَيْن من مشاهد الناس في موقف الحشر يوم القيامة، إذْ تَبْدو في هذا المشهد صورتا صنفين من وجوه النّاس:

**الصنف الأوّل:** وجُوهُ المؤمنين، فهي وجُوهٌ ناضِرَة، إلى ربّها ناظرة.

**الصنف الثاني:** وجُوهُ الكافرين، فهي باسِرَةٌ، تخشَىٰ عقاب اللَّه وعذابه.

وجاءتْ كلمة ﴿وُجُوهٌ﴾ منكرةً في عرض كلٍّ من الصّنفين، لأنَّ الغرض بيان انْقِسَام الوجوه في موقف الحشر إلى قسمين: قسم وجوه المؤمنين، وقسم وجوه الكافرين.

فمن أشْرَف من عُلْوٍ على موقف الحشر ليشْهَدَ النَّاس فيه، رأىٰ هٰذَيْن القسْمَيْنِ من الوجوه بعَلاَمَاتهما الظاهرات.

■ أمّا علامَةُ وجوه المؤمنين فهي أَنّها ناضِرَةٌ، إلى رَبِّها ناظرة، كما قال الله تعالى:

● ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: الكلام في السُّورَةِ عَنْ يَوْمِ القيامة، وما يجري فيه من أحداث، أي: يوم تجري أحداث القيامة إلى الحساب، وفصل القضاء، وتحقيق حكمة الجزاء. التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن هذا الكلام الطويل المفهوم من سوابق العبارة.

﴿نَّاضِرَةٌ﴾: أي: حَسَنَةٌ غَضّةٌ نَاعِمَةٌ، مؤنَّث «ناضِر» اسْم فاعل من فِعْلِ «نَضَرَ يَنْضُرُ، وَنَضِرَ يَنْضَرُ، ونَضُرَ يَنْضُرُ» نَضْراً، ونَضْرَةً، ونَضَارَةً، ونُضُوراً، أي: حَسُنَ، فهو ذو بريقٍ تَظْهَر عليه علامات السُّرور والنِّعْمة والْبِشْر، فَهُو نَاضِرٌ، ونَضِيرٌ، وَنَضِرٌ.

ويُقَالُ لغة: نَضَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ، ونَضَّرَ اللَّهُ وجهه، وأَنْضَرَه، أي: نَعَّمَه.

● قال الله عزّ وجل في سورة (المطفّفين/ ٨٣ مصحف/ ٨٦ نزول) يَصِفُ الأبْرار وهُمْ في الْجَنَّةِ يُنَعَّمُونَ:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾: أي: حُسْناً ذَا بَرِيقٍ تَظْهَرُ عليه السِّمَاتُ الدَّالاَّتُ على أنّهم سُعَداءُ بما هم فيه يُنَعَّمون.

● وقال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) في وصْفِ الأبْرار أيضاً وهم في الجنَّةِ يُنَعَّمُونَ:

﴿. . . فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

**الأرائك**: جمع «الأَرِيكة» وهي المقْعَدُ المنجَّدُ الوثير الموطّأُ اللّيِّن.

● قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿نَاظِرَةٌ﴾: اسم فاعل من فِعْلِ: «نَظَرَهُ، ونَظَرَ إلَيْه» أي: رآه بحاسَّةِ الْبَصر.

دلّت هذه الآية على أنَّ المؤمنين يَرَوْنَ رَبَّهُم في الآخرة، أمّا كيفيَّةُ الرُّؤيَةِ فاللَّهُ أعْلَمُ بها، وقد ثبَتَتْ هٰذِهِ الرُّؤْيةُ في المتواتر عن الرسول ﷺ، ومنها ما يلي:

(١) روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أبي هريرَة قَال: قال الناس: يَا رَسُول اللّه، هل نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ القيامة؟.

قال: «تُضَارُونَ في الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟».

قالوا: لاَ، يا رَسُول اللّه.

قال: «فَهَلْ تُضَارُونَ في الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟».

قالوا: لا، يَا رَسُول الله.

قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذٰلِكَ».

**تُضَارُونَ**: أي: يُصِيبُكُمْ ضَرَرٌ، يقالُ لغة: ضَارَهُ يَضِيرُهُ ضيْراً، وَضَارَهُ يَضُورُه، أي: أضَرَّ به.

(٢) وَروى ابن مَرْدَوَيْهِ عن أنس بن مالكٍ قال: قالَ رسُولُ اللّه ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قَال: «يَنظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ بِلاَ كَيْفِيَّةٍ، وَلاَ حَدٍّ مَحْدُودٍ، ولاَ صِفَةٍ مَعْلُومَةٍ».

إلى غيرهما من أحاديثَ وروايَاتٍ بَلَغَتْ عندَ أهل الحديث مبْلَغَ التواتر.

■ وَأَمَّا عَلامَةُ وُجُوهِ الكافرين فهي أنّها بَاسِرَةٌ خائفةٌ مَذْعُورَة، كما قال اللّهُ تَعالَىٰ:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿بَاسِرَةٌ﴾: أي: عابسَةٌ كالِحَةٌ كئِيبةٌ مُقطِّبَةٌ مُتَقَبِّضَةٌ، مُصْفَرَّةٌ مَعَ سَوَادٍ وألْوانٍ تَدُلُّ على الكآبَةِ والْخَوْفِ من أَثَرِ الشُّعُورِ بسُوءِ الْمَصِير.

يقال لغة: «بَسَرَ الرَّجُلُ يَبْسُر بَسْراً وَبُسُوراً» أي: عبَسَ، وكَلَحَ، وتقَبَّضَ، من أثَرِ الكراهِيَةِ الشديدة، فهو «بَاسِر».

وقد يوصَفُ بالمصْدَرِ فيُقَالُ: وَجْهٌ بَسْرٌ.

ويُسْتَعْمَل الفعل متعدّياً، فيُقالُ: بَسَرَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إذَا جعلَ فيه الْعُبُوسَ والكَلاَحَةَ والتَّقْطِيب.

﴿فَاقِرَةٌ﴾: أي: داهِيَةٌ عظيمةٌ وشَرٌّ كبير، وأصل الْفَاقِرة: الداهيَةُ العظيمة الكاسِرَة لِفَقَارِ الظَّهر أي: لِفِقَرَاتِ الظهر. **«فقَار»** جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «فِقَرَة».

وتُطْلَق كلمة «فاقِرَة» على الوسْمِ بحَدِيدَةٍ مَحْمِيَّة، أو بنارٍ على أنْفِ البعير حتَّىٰ تَخْلُصَ إلَىٰ أصْلِ العظم، كذا قال الأصْمعي. ومن هذا قولهم: قد عَمِلَ بهِ الْفَاقِرَة.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾: أي: تَظُنُّ وهي في مَوْقف الحشر أنَّه سَيُفْعَلُ بها داهيةٌ عظيمةٌ وشَرٌّ كبير، وعذابٌ أَليم بسبب أنّها بصيرة بما قدّمَتْ في الحياة الدنيا، من كفر وجرائم تَسْتَحِقُّ عليها الخلود في عذاب جهنّم.

نسب الفعل إلى الوجوه، والمراد أصحابها، وهذا من المجاز المرسل، من إطلاق بعض الذاتِ على الذات، ويُحسِّن مثْلَ هذا المجاز أنَّ الوجوه هي الجامعة لأجَلِّ الحواسِّ الظاهرة، ومن ورائها الأدمغة المفكّرة، وهي الّتي تُواجَهُ بالخطاب.

وَجاء في الجملة اسْتِعْمَال فعل ﴿تَظُنُّ﴾ دون نحو: «تَعْلَم» أو «تَتَيَقَّنُ» لأنّ الكافِرينَ في موقف الحشر يبقَىٰ لدَيْهم أمَلٌ مَهْما كان ضعيفاً، بأن يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مَخْرَجاً من العذاب، كأن يَأْذَن اللَّهُ لهم باستئناف رحْلَةِ امتحانهم، أو يَجْعَلَهُمْ تُراباً كما يجعل البهائم والأنْعَام، بعد حشرها وإقامة العدل بينها.

وقد جاءت الْبَيَانَاتُ القرآنيّة المتعدّدة مُؤَكّدةً لهذا الفهم.

فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

أي: فَظَنُّوا ظنًّا راجحاً أنَّهم مُخالِطُوها ومُصاحِبُوها ومُلازِمُو عذابها، مع بقاء أَمَلٍ ضعيفٍ لدَيْهم بأنْ يستجيب اللَّهُ طَلَبَهُمْ، في أن يُعيدَهم إلى الحياة الدنيا، ليَسْتَأْنِفوا رِحْلَةَ الابْتِلاء، فَيَعْمَلُوا عملاً صالحاً يسْتَحِقُّون به النجاةَ من النّار، والفوز بدخول الجنَّة.

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾: أي: ولـم يَجِدُوا مكاناً يَنْصَرِفُونَ منه عن مُواقعة النار، فهُمْ مَحْصُورونَ مَدْفُوعُونَ لاَ طريق لهم غَيْرُ الوقوع في النار ومُخالَطَةِ عَذَابها.

❀ ❀ ❀

## (٨)

## التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة

### الآيات من (٢٦ ـ ٣٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذا الدرس بَيَانُ حالَةِ الإنْسانِ ساعَةَ مَوْته، مع إعلامه بأنّ سَوقَهُ إلى حُكْمِ رَبِّه، لا إلَىٰ الْعَدَم الكلّيّ وانتهاء الوجود، فالموتُ بانفصال الروح عن النفس والجسَدِ ليس عدماً، إنّما هو مرحلةٌ بَرْزَخِيَّةٌ فاصِلَة، ذَاتُ وجودٍ مختلف عن الوجود الّذي تكون فيه الأرواحُ مُقْتَرِنَةً وَداخلة في خريطة النفس وذَرَّات الجسد، كدُخُولِ الطاقة الكهربائية في الأجهزة الّتي تَعْمَلُ وتُؤَدّي وظائفها بالكهرباء.

وقد بدأ هذا الدَّرْس بعبارة الرَّدْع والزَّجْرِ ﴿كَلَّآ﴾ لأنَّ المقصُودَ بالخطاب الإنسانُ المنكِرُ للبعث، الكافِرُ به، ويُلْحَقُ به من كان في سلوكه وإعراضِه عن السَّعْي للفَوْزِ بجنَّاتِ النعيم شبيهاً بمنكِرِ البعث.

﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾: أي: إذا بَلَغَتِ الرُّوحُ عِنْدَ خُروجها من الجَسَدِ في حالة النَّزْع الذي تَذُوقُ به النفوس الموت، حُذف الفاعل وهو «الروح» للعلم به من القرائن الواردة في السّياق.

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمع مفرده «التَّرْقُوَة» وهِيَ عَظْمٌ بين ثُغْرَةِ النَّحْرِ والعاتِقِ من أمام، وللإنسان تَرْقُوَتان، إحداهما يُمْنَىٰ، وَالأُخْرَىٰ يُسْرَىٰ.

وجاء التعبير في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾: مجرىٰ الطعام والشراب والنَّفَسِ، ويَقَعُ بين الترقُوَتين، فالتعبيران مُؤَدَّاهُما واحد، لأنَّ مُسْتَوَاهُمَا في الجَسَدِ واحد.

وبلوغُ الرُّوحِ التّراقيَ أو الحلقوم يدلُّ على أنّ نَزْعَ الرُّوح يَبْدَأُ من أَبْعَدِ الأطْرَافِ فصاعداً، فالأَقدام تَبْرُدُ أوّلاً، ثم ما فوقها.

● قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾؟.

أي: وقال أهْلُه ومُحِبُّو بقائِه في الْحَيَاة: مَنْ يَرْقيه رُقْيَةً تَرُدُّ إليه حيَاتَه.

ويُلْجأُ إلى الرُّقْيَةِ عادَةً حينما لا تنفع وسائل العلاج الطِّبيّ، فإذا عَجزَ الناسُ عن اتّخاذ وسيلَةٍ طبيَّةٍ نافعةٍ، لجَؤُوا إلى الرُّقَىٰ، باعتبارها من الوسائل ذاتِ التأثير الغيبي الّذي قد ينْفَعُ في ظنِّهِمْ إنْ كَانَ لمحتَضَرِهم بَقِيَّةٌ منْ حَيَاة.

وقد جاء التعبيرُ في الآيَةِ عن آخر وَسِيلَةٍ يُمْكِنُ أنْ يُلْجأَ إليها، ليُفْهَمَ منها لزوماً أنّه قد اتُّخِذَتِ الوسائلُ السابقةُ لها.

فيكُونُ المعنَىٰ: كلاَّ. إذا بلَغَتِ الرُّوحُ التَّرَاقِيَ، واتُّخِذَتِ الوسائل العلاجِيَّة الطِّبِّيَّةُ المختلفة، للمحافظة على استمرار الحياة، فَلَمْ تُفِدْ شيئاً، حتَّىٰ بدأَ أولياءُ المحتَضَرِ ومحبُّوهُ، بدافع الحرْصِ على بقاء الحياة له مُلْتَمِسين له الرُّقَىٰ، يَقُولُون: مَنْ رَاقٍ يَرْقِيه رُقية تَحْفَظُ له حياته؟

لكنّ لِسَانَ واقعِ حالِ الأجل المحتوم يجيبُهم: لَقَد انتهىٰ الأجَلَ، ونزلَتْ بمَنْ تُحبُّونَ له الحيَاةَ مُصِيبَةُ الموت، وبدأَتْ رِحْلَةُ البرزخ، ومن ورائها البعْثُ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

● قول الله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وظنَّ المحتَضَرُ الذي بلغَتْ روحُهُ الحلْقُومَ أنّ الأَمر النّازل به هو فراقُ الحياةِ الدنيا، وفراقُ الأَهْلِ والمال والْوَلَدِ وسائر من يُحِبُّ وَما يُحبُّ.

وجاء التعبير بالظَّنّ هُنَا للدَّلاَلَة علَىٰ أنَّ الأملَ مَهما كَانَ أَملاً ضعيفاً باستمرار الحياة، فإنّه لاَ يُفارِقُهُ حتَّىٰ مع بلُوغ الرُّوح التراقي.

● قول اللّه تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وخَرَجَتِ الرُّوحُ، وَمَاتَ مَنْ بَلَغَتْ رُوحه التراقيَ، وكُفِّنَ بالأكْفان.

وقد دلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ على هٰذا، بذِكْرِ مَشْهَدٍ من مشاهد تكفين الميِّتِ، وهو مشْهَدُ الْتِفَافِ ساقه اليمنَىٰ بساقه اليسْرَىٰ.

كقَوْلِ رَجُلٍ عجوز لولَدِ صديقِه القديم الَّذِي لم يَرَهُ من نَحْو عَشْرِ سنين، كيْفَ حالُ أبيكَ صَدِيقِنَا وَرَفيق صِبَانا.

فأجابَهُ وَلَدُهُ: النَّاسُ يأْكُلُونَ من شَجَرَةِ التُّوتِ الَّتي زَرَعْنَاهَا على قَبْرِهِ. أي: مات قبل أن نَزْرَع هذه الشجرة التي هي الآن مُثْمِرَةٌ وَيأْكُلُ النَّاسُ من ثَمَرِها.

ولَفُّ إحدى ساقَي الميّت بالأُخرى ممّا اعتاده مكفِّنوا الموتى، لتسهيل حمْل الميّت ودفنه، وقد جاء الاستغناء بذكر لفّ السّاق بالسّاق عَنْ سائر عمليّةِ التكفين، أسلُوباً من الأساليب البيانيّة الأدبيّة الحسَنَة، إذ فيه دلالة على بقيّة الأعمال التي تأتي بعْدَه، حتّى حَمْلِه وسَوْقِه إلى مَدْفنه، كما دَلَّ عَلَىٰ الأَعمال الّتي تكون قبله.

ويسَمَّىٰ هذا عند علماء البيان «الكناية»[١].

● قول اللّه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠﴾:

قد يَسْأَلُ شاهِدُ حالِ الذي ماتَ والْتَفَّت إحدىٰ سَاقَيْه في نَفْسِه: إلى أيْنَ مساقُ هذا الميّت؟ هلْ هُو إلى فناءٍ أبديّ؟ أم إلى حساب الله، وفصْل قضائه، وتنفيذ جزائه؟

وجاء الجواب الرَّبّانيُّ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠﴾:

﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾: مَصْدرٌ ميميٌّ من فِعْلِ «سَاق» أي: إلى حُكْمِ رَبِّكَ يَوْمئذٍ السَّوْقِ.

أمّا سَوْقُ الْجِسْمِ فإلَىٰ حُكْم اللّه بالإِفْنَاءِ وَعَوْدَتِهِ إلَىٰ التُّراب، أو إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ من حفْظٍ أو تحويل.

وأمّا سَوْقُ الرُّوح فإلَىٰ حُكْمِ اللّهِ حيْثُ مُسْتَقَرُّها.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْبَعْثُ، فالسَّوْقُ إلى الْحَشْر، فالسَّوْقُ إلى موقف الحساب، وفَصْلِ القضاء، فالسَّوْقُ إلى تَنْفِيذِ الجزاء، والحُكْمُ في كلّ ذلِكَ إلَىٰ رَبِّكَ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لا رَادَّ لحُكْمِه، ولا مُعَقِّبَ له.

---

(٢) **الكناية**: اللفظ المستعمل فيما وُضع له في اصطلاح التخاطب للدلالة على معنىً آخر لازم له، أو مصاحبٍ له، أو يشار به عادة إليه، لما بينهما من الملابسة بوجه من الوجوه.

وجاء التعبير بعبارة: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ دُون نَحْوِ إِلَىٰ اللَّه، أو غَيْرِهِ من أسماء اللّه الْحُسْنَى، لتَوْجِيهِ المخاطَبِ إلى معاني رُبوبيَّة اللَّه لعباده، وصِفَاتِ اللّه وأسمائه المشمولة بها، ذَاتِ العلاقَةِ بالْخَلاَئِقِ إيجاداً وإعداماً، وتَدْبِيراً، وحُكْماً، وسُلْطاناً، وحَيَاةً وَمَوْتاً، ورِزْقاً، وَبَسْطاً وقَبْضاً، وابتلاءً، وحِسَاباً، وفَصْلَ قضاءٍ، وتَنْفِيذَ جزاء، وغَيْرَ ذلِكَ مِمَّا يَدُلُّ على تصاريف اللَّهِ بعبَاده.

وفيه تذكيرٌ بأنَّ الموْتَ النازِلَ بالمخاطَبِ، وبكُلِّ مَنْ سيَنْزِلُ به الْمَوْتُ، هو من تصاريف رُبوبيَّةِ الرَّبِّ لعباده، فهو الْمُحْيِي وهُوَ الْمُمِيت، وهو الباعث إلى يوم الدّين يَوْمِ الْحِسَاب وفَصْلِ القضاءِ، وتنفيذِ الجزاء، إليه الحكْمُ في كلّ ذَلِك.

وَفي اختيار كلمة «رَبّ» تنبيهٌ عَلَىٰ أَنّ عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبَّانيّ تَتِمُّ وفْقَ نِظَام التربية، وهي الإنْشاء المتدرِّج، حتَّىٰ بلُوغ المخلوق الغايَةَ المقدَّرَةَ لَهُ، والْهَدْمُ المتَدَرِّجُ أيْضاً، في خَطٍّ بيانيٍّ صاعِدٍ أو نَازِلٍ.

❁ ❁ ❁

## (٩)
## التدبّر التحليلي للدّرس السّادس من دروس السورة

### الآيات من (٣١ ـ ٣٥)

قال اللَّهُ عَزّ وجل:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

في هذا الدّرس مشْهَدٌ مُوجَزٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْحِسَاب وفَصْل الْقَضَاء يَوْمَ الدّين.

وهذا المشْهَدُ خاصٌّ بِالْإِنْسَان الكافر المكذِّب بيَوْم الدِّين، الذي دارَتْ حَوْلَهُ السُّورَةُ في معظم آياتِها، وهو الذي جلَبَتْ له إرادتُهُ الّتي كانَتْ تتجدَّدُ دواماً في الحياة الدنيا أن يَفْجُر فيما يأْتِيه من ساعاتِ دَهْرِهِ ولحظاتِ عُمْرِهِ، على أوْسَعِ ما لَدَيْهِ من قبائح ورغباتٍ فاحشات، حتَّىٰ كان الفجورُ أمَامَه، يتَقَدَّمُهُ إلى موقف حسابه.

وقد اقْتَصَرَ هذا الْمَشْهَدُ على فِقَرَاتٍ كافياتٍ لإدانة هذا الكافر الفاجر، من اللاَّئحة الّتي يُعْلَنُ فيها مُقْتَضِيَاتُ إدانَتِه بجَرِيمته، والحكْمِ عليه بالعذاب الأبديّ، بالاستناد إليها.

فالقرار الذي يَصْدُر بشأْنِ هذا الكافِر الفاجر المستند إلى محاسبته ومحاكمته يتضمَّنُ مادّتَيْن:

**المادّة الأولى:**

دلّ عليها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾.

المعنى: بناءً على مَوْقفِ الحساب الذي جرَىٰ لَهُ، وَمَا أَثْبَتَهُ كِتَابُ أعْمَالِهِ في الحياة الدنيا، ومَا قَدَّمَهُ شُهُودُ الإثبات من جوارِحِه وأعضائِه وجِلْدِهِ، ومِنَ الملائكة المكرَّمين، تحقَّقَ ما يلي:

**أولاً:** جاءَهُ الرَّسُولُ المؤيَّدُ مِنْ رَبّه بالمعجزاتِ الباهرات، وبالآياتِ البيّنات، وبالقرآن الذي أقام عليه البراهين الدّامغة، الّتي حاصَرَتْهُ من كلّ مَهْرَبٍ فكْرِيٍّ، فَلَمْ تَدعْ لَهُ معاذيرَ تَصْلُحُ لأنْ يعْتَذِرَ بها.

● فَمَا استجاب لِدَعْوَة اللّه ورسوله، الّتي تضمَّنَتْ دَعْوَتَهُ لِمَا يُحْييه، كَمَا جاءَ في بيانات نُصوصٍ أُخرى.

● وَلاَ صَدَّقَ الرَّسُولَ، ولاَ صَدَّقَ بالقرآن، ولاَ صَدَّق بالآيات

الْبَيِّنَاتِ، ولا بالمعجزات الباهرات، ولا بنَبَأِ يَوْمِ الدِّين، والبعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ للحسَاب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾: الفاء هُنا فَصِيحةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ، أي: ما استجابَ للدَّعْوة إلى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، فَمَا أطاعَ، ولاَ صَدَّقَ الرَّسُولَ.

**ثانياً**: ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ لِرَبِّه الَّذِي خلَقَهُ وَرَبَّاهُ، وأَمَدَّهُ بكُلِّ مَا كانَ يَحْتَاجُ إليه في الحياة الدّنيا، وأعْطاهُ الأسبابَ وخلَقَ له المسبَّبات، وسخَّرَ لَهُ الأشياء، ومكَّنَهُ من الانتفاعِ بها، فَلَمْ يَعْبُدْ ربَّه بالصَّلاةِ له، والخضوع لعزّتِه وجَلاله، عبادَةً خالصةً من الشّرْك، إنَّه لَمْ يَعْبُدْ رَبَّه عبادَةَ شُكْرٍ لنَيْلِ الأجْر العظيم، والسّعادة الخالدة، ولَمْ يَعْبُدْهُ عِبادَة خَوْفٍ من الْعِقاب والعذاب الخالِدِ في الجحيم.

**ثالثاً**: وَإِذْ لَمْ يُصَدِّقْ ولَمْ يُصَلِّ لِرَبِّه، لَمْ يكُنْ من أَمْرِهِ أَنَّهُ وَقَفَ مَوْقفاً وَسَطاً مُتَحَيِّراً، بحْثاً عن الدّليل إنْ كانَ قَدْ قامَ لَدَيْهِ شَكٌّ أَوْ ظَنٌّ قَوِيٌّ يقْتَضِي منْهُ أنْ يَتَأَنَّىٰ حتَّىٰ يقْتَنِع. بل أخذ الطَّرَفَ المقابل الأَقْصَىٰ.

إنَّ المواقف تُجاهَ أيّة فكْرةٍ ثَلاثَةٌ لا اثنان، وهي:

(١) التصديق. (٢) التكذيب. (٣) التوقُّف دُون تَصْدِيقٍ وَلاَ تكذيب.

فَمَنْ لَمْ يَقُمْ لديْهِ أَنَّ الفِكْرَة حَقٌّ، فَلَيْسَ مِنْ حَقِّه أَنْ يُكَذِّبَ بها، حتَّىٰ يَقُومَ لدَيْه دَليلٌ صَحِيحٌ مقبولٌ بِأَنَّها باطل، وإنَّما عَلَيْهِ أنْ يَتَوَقَّفَ وَيتَرَيَّثَ، ويَبْحَثَ حتَّىٰ يترَجَّح لَدَيْهِ دَلِيلُ الإثْبَاتِ أو دَلِيلُ النَّفْي.

لكِنَّ هذا الْكَافِرَ الفاجرَ مُعَانِدٌ مكابرٌ يتَّبعُ الْهَوَىٰ ورَغباتِ الفُجُورِ لديه، وقَدْ أَخَذ بنَقِيضِ القضايا الَّتي جاء بها رَسُولُ رَبِّه، دون أنْ تكونَ لَدَيْهِ أيَّةُ حُجَّةٍ تَصْلُحُ لأنْ يعْتَذِرَ بها عِنْدَ رَبِّه، فيما اعْتَنَقَهُ وَأَخَذَ بِهِ مِنْ كُفْرِيَات.

فَكَذَّبَ الرَّسُولَ بِرسالته، وكَذَّبَ بالْقُرآن المنزَّلِ من عند اللَّه الحكيم

العزيز، وكذَّبَ بأَنْبَاءِ يَوْمِ الدِّين، وبكُلِّ ما جاءَ به الرَّسُول عَنْ رَبِّه، واسْتَهَانَ بالْوَعِيدِ، وقَدْ دَمَغَتْهُ الحججُ والبراهين فَلَمْ يَكْتَرِثْ لها، ولَمْ يَعْبَأْ بها.

دلَّ علىٰ مَوْقِفِهِ المعانِدِ هذا قَوْلُ اللَّهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

دَلَّ قولُهُ تَعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ على أنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ مَوْقِفاً إيجابيّاً مِنَ الدَّعْوَة الرَّبَّانيَّة الحق.

ودَلَّ قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ مَوْقِفاً مُتَوَسِّطاً، مُتَرَيِّثاً، بَاحِثاً عَنِ الحقّ، بل اتَّخذ مَوْقفاً سَلْبِيّاً من الدَّعْوَةِ الرَّبَّانيَّةِ الحقّ.

﴿كَذَّبَ﴾: أيْ: كَذَّبَ الرَّسُولَ، وكَذَّبَ بكُلِّ ما جاء به عَنْ رَبِّه.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أي: وأَدْبَرَ وابتَعَدَ نَائياً، وأَدَارَ ظَهْرَهُ رَافِضاً ما جَاءَ من الحقّ، عاصِياً لرَبِّه منَ الدَّرَكَةِ الْقُصْوَىٰ، إذْ رَفَضَ الإيمانَ، واعْتَنَقَ الكُفْرَ، واتَّبَعَ أهواءَهُ وَشَهَواتِهِ، وَرَغَبَاتِ الْفُجُور لَدَيْه، وَوَسَاوِسَ الشَّيَاطِين وتَسْويلاتهم.

**رابعاً**: وَبَعْدَ أنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ انْتَفَخَ كِبْرُهُ في صَدْرِهِ، فَذَهَبَ إلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ يَمُدُّ يَدَيْهِ مُتَبَخْتِراً مُسْتَكْبِراً.

دلَّ علَىٰ تَصَرُّفِه الأَحْمَقِ هذا قولُ اللَّهِ تَعالَىٰ: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾: أي: يَمُدُّ يَدَيْهِ مُتَبَخْتِراً مُسْتَكْبِراً مُخْتالاً، يتَعَاظم بعِنَادِهِ وكُفْرِهِ بالحقّ، مُعْجَباً بنَفْسِهِ ورَصَانَتِهِ وَعَقْلِهِ المتحجّر، إذْ لم يَسْتَجِبْ لدَعْوَةِ مخالِفَةٍ لِمَا عَلَيْهِ آبَاؤُه وأجْدادُه، مع أنَّه يُقَلِّدُهم تَقْليداً أعْمَىٰ، ويَزْعُمُ أنَّهُ أرفَعُ وَأعظم رأياً وَنَفْساً ومَكَانَةً من أن يكُون تابعاً لِرَسُولٍ من البشر، أو خاضعاً لربٍّ غَيْبِيّ غَيْرِ مَشْهُودٍ، يَسْلُبُه حُرِيَّتَهُ، ويأْمُرُه بالإيمانِ به، وبطاعَتِه في أوامِرِهِ ونواهيه.

وهذا ما يُعْلِنُهُ بعْضُ الْمُلاَحِدَة بعباراتٍ صريحاتٍ، ويَدُور في خَلَد سائر الكَفَرَةِ باللّه ورُسُلِه والْيَوْمِ الآخِرِ، ولَوْ لَمْ يُصَرِّحُوا به في عباراتهم.

**المادَّةُ الثانية:**

دلَّ عليها قولُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾:

بَعْدَ بيانِ المادّة الأولىٰ الّتي تضمَّنَتْ ذكر مقْتَضِيَاتِ إدانَةِ الكافِرِ الْفَاجِر، المكذّبِ بيَوْمِ القيامة، بذكْرِ أقْبَح ما كانَ مِنْهُ في الحياة الدنيا، ممَّا يقتضي الحكْمَ عليه باستحقاقِ العذابِ الأبدِيّ، تَأتي المادّة الثانيةُ مُتَضَمِّنَةً إصْدَارَ الحكْم عليه، بعبارَةٍ عَجِيبَةِ الاختيار والتَّوْجِيه، إذْ يُواجهُ فِيهَا بالْخِطَابِ، فيَقُولُ لَهُ الرَّبُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه:

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾:

أي؛ تقَرَّرَ الحكْمُ عَلَيْكَ بِالْعَذَابِ الأبَدِيّ، وصَارَ تنفِيذُهُ قَرِيباً مِنْكَ.

فالعبارَةُ الاصْطِلاَحِيَّةُ الدَّالةُ على هذا المعنى هي: «أَوْلَىٰ لَكَ».

أمّا التحليلُ اللُّغَوِيُّ لهذا التعبير، فَقَدْ قَالَ الأصْمَعِيُّ بشأنه: «أَوْلَىٰ لَكَ» أي: قارَبَكَ ما تكْرَهُ.

قال ثعلبُ: لَمْ أجِدْ في «أَوْلَىٰ لَكَ» أَحْسَنَ مِمَّا قالَ الأصْمَعِيُّ.

**أقول:** إنَّ كلمة: «أَوْلَى» عَلَىٰ ما فَهِمَ الأَصْمَعِيُّ هِيَ من فِعْلِ: «وَلِيَهُ الشَّيْءُ يَلِيهِ» أي: تَبِعَهُ دُونَ فَاصِلٍ، فَهُو تابعٌ قَرِيبٌ منه. وتَقُولُ لغة: أولَيْتُه إيَّاه، إذا أَتْبَعْتَهُ إيَّاهُ، وجَعَلْتَهُ قريباً منه.

فإذَا كانت «أَوْلَىٰ» صيغة «أَفْعَل تفضيل» كان معنىٰ «أولى لَكَ» صَارَ العذابُ أقْربَ لَكَ من أيِّ قَرِيب.

وهذا قرارٌ رمْزِيٌّ مُوجَزٌ بِحُكْمِ التَّعْذِيب، فمِنْ شَأْنِ العظماء عادَةً أن يكْتَفُوا في أوامر التعذيب أو القتل بالإشارات، أو بالرُّمُوز الكلاميّة.

وإذا كانت «أَوْلَىٰ» فعلاً مُتَعَدِّياً إلَىٰ مَفْعُولَيْن، من فِعْل: «أَوْلَيْتُ الرَّجُلَ الشَّيْءَ» أي: أتبعْتَه إيّاه، وجعلْتَهُ قريباً منه، كان المعنَىٰ: أَوْلاكَ مُقَدِّماً لَكَ العذابَ ما قَدَّمْتَ من تكْذِيبٍ وتَوَلٍّ واستكْبار. أي: أَتْبَعَكَ الْعَذَابَ عَمَلُكَ.

واللّام في «لَكَ» من عبارة: «أولَىٰ لَكَ» إمَّا للتقوية، وإمَّا للتعْدِيَة على تضمِينِ فعل: «أولَىٰ» معنى فعل «قَدَّمَ» أي: قَدَّمَ لَكَ عَمَلُكَ العذاب.

والتكرير في: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ يحتمل وجْهَيْن:

**الوجه الأول**: أن يكون لتأكيدِ تَقْرِير العذاب، بتكْرِيرِ الْعِبَارَة مَع التعقيب، ومع التراخي.

**الوجه الثاني**: أن يكُونَ للإشارة إلىٰ أنواعِ من العذابِ يأتي بعضُها أوّلاً، فيتْبَعُه نَوْعٌ آخَرُ دُونَ فاصل، بدليل «الفاء» الّتي للترتيب مع التعقيب، ثُمَّ يَتْبَعُهُ نَوْعٌ ثالثٌ من العذاب بعْدَ مُدَّةٍ متراخية، بدليل «ثُمَّ» الّتي للترتيب مع التراخي، فيَتْبَعُ هَٰذَا الثالِثَ نوْعٌ رابعٌ من العذابِ دون فاصل، بدليل «الفاء» الّتي للترتيب مع التعقيب.

❀ ❀ ❀

## (١٠)
## التدبّر التحليلي للدرس السّابع من دُرُوس السورة

الآيات من (٣٦ ـ ٤٠)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

● قَرَأ ابْنُ عَامرٍ، وعاصِمٌ، وحمزة، وأبو جعفر: [أَيَحْسَبُ] بفتح السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَيَحْسِبُ] بكَسْرِ السّين.

وهذان وجهان عربيان لنطق هذا الفِعْل، وقد سبق بيان أَنَّ فعْلَ «حَسِب» جاء في القرآن مستعملاً للدّلالَةِ على الظنّ التوهميّ الضعيف جدّاً.

جاء هذا الدرس السَّابعُ مَوْصُولاً بالدّرس الأوّل من دُروس السورة، ومُتَمّماً لِمَا جاء فيه.

ففي الدرْسِ الأوّل جاء عرضُ احتمال توهُّم الإنسان المنكر للبعث أنَّ قُدْرَةَ الرَّبِّ الخالق لا تَصِلُ إلى مستوىٰ جمع ما يَبْلَىٰ من عَظْم الميّتِ وإِعَادَةِ تَرْكِيبه، ثُمَّ إعادةِ الحياة إليه، وكانَ الرَّدُّ القرآنيُّ فيه بقول اللّه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

أمّا هذا الدرس السَّابعُ الأخِير من دُروس السّورة، فقد جاء فيه عرض احتمال توهُّم الإنسان المنكِرِ للبعث، أنَّ الرَّبَّ الخالِقَ لم يَضَعْ في خُطَّتِهِ التَّدْبيريَّةِ للخَلْق، مُحَاسبَةَ النَّاسِ على أَعْمالهم وتصرُّفاتهم الإراديَّة في الحياة الدُّنيا، وأَنَّهُ سَيَتْرُكُهم مُهْمَلِينَ، وأَنَّه قَدْ خَلَقَهُمْ تَفَنُّناً في الْخَلْقِ، وَتركَهُم لأَنْفُسِهم دونَ ابتلاء ودونَ تكليفٍ، وسيتركُهُمْ سُدىً دُونَ حسَابٍ وَلاَ فَصْلِ قَضاءٍ وَلاَ تَنْفِيذ جزاء.

وجاء هذا العرض بأسلوب سؤال المسْتَفْهِم، لانتزاع ما عند المنكر ليوم القيامة من أفكارٍ حَوْل الموضوع، ولاسْتِدْراجِهِ إلى المناظَرَةِ، بُغْيَةَ دَفْع توهُّماته، وإقامَةِ الحجَّة عليه، فقال اللّهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾:

﴿سُدًى﴾: أي: مُهملاً، كالسَّائمة الّتي ترعَىٰ بِنَفْسِها بِلا راعٍ. يُقالُ

لغة: إبلٌ سُدىً، أيْ: مُهْمَلَةٌ تَرْعَىٰ بلا رَاعٍ، فَتُفْسِدُ مَا تُفْسِدُ دُونَ مُرَاقبةٍ ولاَ مُحاسبة.

قال أهل اللّغة: السُّدَىٰ: المهْمَلُ، الواحِدُ والجميع فيه سواءٌ، وبعْضُ العرب يقولُ: «سَدىً» بفتح السّين.

وفعله «أسْدَىٰ يُسْدِي إسْداءً». تقولُ: أسْدَيْتُ إبِلي إسْدَاءً، إذَا أهْمَلْتَها. والاسْمُ منْهُ «سُدىً».

بعد هذا الطَّرْح بأسْلوب السؤال الاستفهاميّ، تضَمَّنَ الدرْسُ التَّنْبِيهَ على صِفَتَيْن من صفاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه، يكْشِفُهُما الاسْتِنْبَاط الفكري:

**الصّفة الأولى**: صفَةُ حِكْمَةِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ الظَّاهرة في آيات خلقه، ومنها خلْقُ الإنْسَان من نُطْفَةٍ فعَلَقَةٍ فَخَلْقٍ كاملٍ سَوِيّ.

**الصّفة الثانية**: صفة قُدْرَتِه البالغَةِ غايَةَ المدى، والقادرة على خَلْقِ مَا يَشَاءُ ابْتِدَاءً أوْ إعادةً، وتُدْرَكُ هٰذِهِ الصِّفَةُ من تصاريف خَلْقِ اللَّهِ للإنسانِ أيْضاً.

والمعنى: أَنَّ الحكيم العليم لا يخْلُق خَلْقاً لَهُ إرادةٌ واختيارٌ، وهُوَ مُمَكَّنٌ من أنْ يَعْدِلَ وَيَظْلِمَ، ويُحْسِنَ ويُجْرِمَ، ثُمَّ يَتْرُكَهُ سُدىً، دون أن يضَعَهُ مَوْضِع الامتحان، ويُتَابعهُ بالتكليف، ثُمَّ بالْحِسَاب وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وأنَّ ذا القدرة البالغَةِ الظاهِرَةِ للنَّاسِ آثارُهَا في الْخَلْقِ الأوّل، لا يُعْجِزُهُ إعادَةُ الْخَلْقِ بَعْدَ إماتَتِهِ وإفناءِ جَسَدِه، بلْ هو جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ قادِرٌ علَىٰ أنْ يُحْييَ الموتَىٰ حيَاةً أُخرى.

فَهُوَ عزَّ وجلّ سَوْفَ يَبْعَثُ الموتَىٰ من الناس، ليُحَاسِبَهُمْ، وَيَفْصِلَ

قَضاءَهُ فيهم محسنين أو مُسِيئين، ويجازيَهُم على مَا كان منهم في رِحْلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، بالْعَدْلِ إذَا أسَاءُوا وَقَدْ يشْمَلُهُمْ بغفرانِه وعفوه بمقتضىٰ حكمته، ما لم يكونوا من أهل الكفر به أو الشِّرْك، وبالفضل إذا أحْسَنُوا مؤمنين به وبما أمرهم أن يُؤْمِنُوا به.

ودليل هاتين الصفتين ما شَهِد الإنسان ويشْهَدُ دواماً من آثار حكْمَةِ اللّه الجليلة، وقُدْرَتِهِ العظيمة، في خَلْق الإنسانِ نَفْسِه الذي كان تُراباً، فصارَ غذاءً، ثمَّ صار دماً، فصار نُطْفَةَ مَنِيٍّ.

والتقط النَّصُّ من هٰذِهِ الأطوار طَوْرَ النُّطفة من المنيِّ الذي يُمْنى، فيكونُ بَدْؤه في بطْن أمّه من جزءٍ صغير جدًّا لا يرى بالأبصار، ضمن النطفة الَّتي تَحْوي منْ أمثاله مئات الملايين. وهذا الجزء الصغير الذي هو أحَدُ الحيوانات المنويَّة يُلَقِّحُ الْبُيَيْضَة الّتي تهْبِطُ في بَطْن أمّه من بُرْجِها، في الزَّمَن المقدَّر للْقَاح، فيتَّحِدان مُتَكامِلَيْن، ثُمَّ بالتنامِي الصَّاعد يَكُونُ عَلَقَةً، والْتَقَطَ النَّصُّ من أطوار التنامي طَوْرَ الْعَلَقة الَّتِي يصِلُ إليها الجنين، فنَبَّهَ عليه بأسْلُوب الاستفهام لانْتِزَاع الإقرار بهذه الحقيقة، فقال اللّهُ عزَّ وجل:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾.

﴿أَلَمْ يَكُ﴾: أصْلُها «ألَمْ يكُنْ». حَذْفُ النُّون من فِعْلِ «يَكُن» المجزم لغةٌ عَرَبيّةٌ، جاء اسْتِعْمَالُها في خَمْسَةَ عَشَر موضعاً من القرآن الكريم، سبعة في: [تَكُ] وثمانية في [يَكُ].

واسم ﴿يكُ﴾ ضمير يعود على الإنسان.

﴿نُطْفَةً﴾: النُّطْفَةُ والنُّطَافة في اللُّغَة: القليلُ من الماء، ولا فعل لهاتين الْكَلِمَتَيْن. نُطْفَةً: خَبَرُ ﴿يكُ﴾ لأنَّه من الأفعال الناقصة.

والمراد بالنطفة ماء الرجل الذي هو المني، وأُطْلِقَ عليه لَفْظُ النطفة لِقِلَّةِ مقداره.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾: أي: ثمّ كان الإنسان علقةً. **العَلَقة** في اللّغة: قِطْعَةٌ من الدَّم المتجمِّد، وهي في فَهْم الأطِبَّاءِ المعاصِرِين المرحَلَةُ الّتِي تتحوَّلُ إليها النّطفَةُ الأمْشَاجُ، فَتكُونُ شيئاً يعْلَقُ بجدار الرّحِم وَيَتَشَبَّثُ فيه، وهٰذه تكون مُحَاطَةً بالدَّمِ المتخَثِّرِ المتَجمِّد، وفَهْمُ ما جاءَ في الآيَةِ على ما اكْتَشَفَهُ عُلَمَاءُ الأجنَّةِ، هُوَ الّذي يَنْبَغِي المصِيرُ إليه، وفي اللُّغَةِ مَا يُؤَيِّدُه.

وجاء العطف بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالَةِ على أَنَّ طَوْرَ الْعَلَقَةِ تَسْبِقُه أطوار تَتْلُو طوْرَ النُّطْفَةِ، وهٰذِه الأطوارُ تكون بين النطفة والعلقة.

وبعد التَّنْبِيه على طَوْرِ النُّطْفَةِ، وطوْرِ الْعَلَقَة، جَاءَ في النَّصِّ اخْتِيَارُ طَوْرِ الْخَلْقِ فَالتَّسْوِيَةِ، فَقَال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾:

أي: فخلقه الله ربّه فسوّاه. حذف فاعِلُ «خَلَق» ومفعولُ «سَوَّىٰ» إيجازاً للعلم بهما.

والمعنى: فصَوَّر اللّه أعضاء الجنين الإنسانيّ الظاهرةَ والباطنةَ. وميَّزَ خَلْقَ كلِّ واحِدٍ منها، ووضع كُلَّ جُزْءٍ في مكانه المقدَّرِ له، فَجَعَلَها مُسْتَوِيَةً مضْبُوطةً بضابط العدْل.

**التَّسْوِية**: إحْكَامُ مَقَادِير أجزاء المخلوق المصَوَّر، وجعْلُه يَتَدَرَّجُ مُتَكاملاً حَتَّىٰ يبلُغَ الغايَةَ المقْضِيَّةَ لَهُ في خُطَّة التكوين، وتكُونُ التَّسْويَةُ بإعْطاءِ كلّ شيْءٍ خلْقَهُ بالْعَدْل، أي: بإعْطَاءِ كلّ عُضْوٍ وكلّ جُزْءٍ من أجْزَاء المخلوق أو المصنُوع من العناصر والصفاتِ، مَا يَجْعَلُه صالحاً مُؤَدّياً وَظيفَتَهُ دُونَ زِيادةٍ ولا نُقْصان.

وكُلٌّ من الْخَلْقِ والتَّسْوِية لا بُدَّ أنْ يكُونَا مَسْبُوقَيْن بتَقْدِيرٍ وقَضَاءٍ في خُطَّةِ التَّكْوين.

ثُمَّ تَكُونُ أعْمالُ التَّنفِيذِ مطابقةً لمَا سَبَقَ به القضاء والقدر.

وهذه التَّسْوِيَةُ أمْرٌ مُخْتَلِفٌ عَنِ التَّسَاوي والمساواة، إنَّ التسويَةَ هي إعْطاءُ كلِّ شيْءٍ حقَّهُ بالْعَدل، أمّا المساواة فهي إعطاء الشَّيْئَيْنِ أو الأشْيَاءِ مقاديرَ مُتَسَاوِيَة وَلَوْ كانَتِ الْحُقُوقُ مُتَفَاضِلَةً، وهذا عملٌ فاسِدٌ يُؤَدِّي إلى إفساد.

أمّا الْعَدْلُ فَهُوَ إعطاءُ كُلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فَمَا حقُّهُ عشرة، يُعْطَىٰ عشرةً بلا زيادةٍ ولاَ نَقْصٍ، وما حقُّه عشرون يُعطَىٰ عشرين، وَما حقُّه مئة يُعْطَىٰ مئة، وهكذا بحسب الحقوق والمصالح.

وقد وصَفَ اللَّهُ كلمتَهُ الخبريَّة بالصِّدْق، ووصَفَ كَلِمَتَهُ الْجَعْلِيَّة بالْعَدْل، سواءٌ أكانت كَلِمَةً تكْوِينِيَّةً أم كلمةً تَشْرِيعيَّة.

فقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

- فكلمة اللّه الخبرية عمّا كان وعمًّا هو كائن وعما سيكون قد تَمَّتْ صِدْقاً مطابقاً للواقع، أي: تمت حالة كونها صِدْقاً.

- وكلمةُ اللّهِ التشريعيّة قد تمَّتْ عدْلاً، أي: تمَّتْ حالة كوْنِها عدْلاً.

- قول اللّه تعالَىٰ: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فجَعَلَ منَ الْمَنِيّ الَّذي يَقْذِفُه الرَّجُلُ كِلاَ الزّوْجَيْن الذّكرِ والأُنْثَىٰ، وَهٰذَا ما قَرَّرَتْهُ الْبحوثُ الإنسانيَّةُ أخيراً، إذِ اكتشفَ عُلماءُ البحث الكَوْنِيّ في نشْأَةِ تكوين الجنين، أنَّ بُيَيْضَة المرأة وسَطٌ صالح للتَّلْقيح بحُوَيْنِ ذكَرٍ، أَوْ بِحُوَيْنِ أنثَىٰ. وأنَّ نُطْفَةَ الرَّجُل هِيَ الّتي تَحْمِلُ الْحُوَيْنَاتِ من النَّوْعَيْن،

الذُّكُور والإناث، فإذَا سَبَقَ حُوَيْنُ الذكر بقضاء اللّهِ وقَدَرِه، جاء الجنينُ ذكراً، وإذا سبَقَ حُوَيْنُ الأنْثَىٰ بقضاء اللّهِ وقَدَره، جاء الجنِينُ أنْثَىٰ، والأَمْرُ يخْضَع في أصْلِ التكوين لأمْرِ اللّه التكويني.

فَمَنْ دَرَسَ هٰذه الحقائق المدهِشَةَ، الّتي يكْشفها تتبُّعُ مراحِل خَلْقِ الإنسانِ، عَظُمَ في نَفْسِهِ جَلاَلُ الرَّبّ عزَّ سُلْطانُه، وتصَاغَرَ في نَفْسِه أمَامَ اللّه، وَوَجَدَ رَبَّهُ عالياً في العلُوّ اللاّنهائي.

● قول اللّه تَعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؟

أي: إنَّ ذَلِكَ الرَّبَّ الْعَلِيَّ الجليلَ العظيمَ الكبير، الّذِي هُوَ في العلوّ اللاّنهائي، والّذِي أتْقَن خَلْقَ الإنسان، وجعَلَهُ في أحْسَنِ تقويم، ألَيْسَ بقادر على أن يُحْيِي الموتَىٰ، فَيَبْعَثَهُم إلى الحياة بعْدَ الموت، ليقيم فيهم مقتضىٰ حكْمته، فيُحاسبَهم، ويفصل فيهم قضاءه، ويُنَفِّذَ فيهم جزاءه على ما قدَّمُوا من كسْبٍ إراديٍّ في الحياة الدُّنيا، الّتي كانت بالنّسْبَةِ إليهم رحْلَةَ امتحانٍ وابتلاء؟!

جاء اسْتِعْمالُ اسم الإشارة الذي يُسْتَعْمَلُ للمُشَار إلَيْهِ البعيد، للدلالَةِ عَلَىٰ أنَّ الرَّبَّ الخالقَ عليٌّ في العلُوّ اللاّنهائي.

والجوابُ العلميُّ لهذا السُّؤالِ كما يلي:

بلَىٰ. إنَّهُ لَقَادِرٌ على أنْ يُحْيِيَ الموْتَىٰ، وعلى أن يخْلُقَ ما يَشاءُ، وعلى أنّه على كلِّ شيءٍ قدير، سُبْحانه وتعالَىٰ عمّا يَصِفُون.

وبهذا تمّ تدبّر سورة القيامة

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته

❊ ❊ ❊

## ملحق لسورة القيامة

## (١١)
# ملحق
# حول إبداعيات بلاغيّة في سورة القيامة

تُوجد في هذه السورة إبداعَاتٌ بلاغيّة متعدّدة منها ما يلي:

(١) فنيَّةُ الْقَسَمِ وعدَمِ الْقَسَم معاً بابتكار أُسْلوب إيراد لفظ الْقَسم مقروناً بنفيه، لمراعاة اقتضاءين أحدهما يقتضي القسم، والآخر يقتضي عدم الْقَسَم.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾.

(٢) حذف الْمُقْسَمِ عليه إيجازاً، للعلْم به من السّباق ومن السياق، وهو:

«لَنُحْيِيَنَّ الموتَىٰ، ولنحاسَبنَّهم، ولَنَفْصلَنَّ القضاء بشَأْنِهِم، ولَنَجْزِينَّهُمْ يوم الدّين على ما عَمِلُوا في الحياة الدنيا من خيرٍ وشرّ».

(٣) الإيجاز بالحذف في عدّة مواضع من السّورة، مثل:

- ﴿بَلَىٰ﴾ لَنجْمعَنَّ عِظَامَهُ الّتي نَخِرَتْ وتفتّتَتْ، وتَفرَّقَتْ في التراب ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

- إنّ الإنسان الذي يُنْكِرُ يَوْم القيامة وما سيجري فيه لا يُنْكِرُ ذلك لأنَّهُ قامَ لَدَيْه دليلٌ يَدُلُّ على أَنَّ قُدْرَة البارئ لاَ تَصِلُ إلَىٰ مُسْتَوىٰ إحياء الموتى للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء ﴿بَلۡ يُرِيدُ﴾ هذا ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ مُرادَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

- ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الكافر ﴿يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ فَيجْحَدُ، ويجادل عن نفسه، ويُقَدِّمُ المعاذير الكواذب غَيْرَ مُقْتنِع بها، إذ لا يقولُها جَاهِلاً بحقيقة نفسه ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

● إنّ الإنْسانَ الكافر المنكِرَ ليَوْم القيامة، ما استجاب في الحياة الدنيا لدعوة الحقّ الّتِي جاء بها الرسول ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ الرَّسُولَ وبما جاءَ به عن رَبّه ﴿وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾.

● حَذْفُ الفاعِلِ للعلم به في: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ أي: الروح، وفي ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: اللّه.

(٤) الاكْتِفاءُ بذِكْرِ لقطاتٍ بَعْضُها مِنْ أحْداثِ ساعَةِ إنْهاء نظام الحياة الدنيا، أو قُبَيْلَها، والقفز إلى ذكر لقطة خطيرة من لقطات يوم الدّين، وهي الّتي تتعلَّقُ بالإنسان الكافر حين يقولُ: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾.

نلاحظ هذا في: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الرُّوحُ ﴿ٱلتَّرَاقِىَ﴾. وفي ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾.

(٥) الاعتراض بدَرْسٍ تَرْبَوِيٍّ مُوَجَّهٍ للرَّسُولِ ضِمْنَ وَحْدَةِ مَوْضوعِ السُّورَة.

(٦) التَّنَقُّلُ بيْنَ أُمُورٍ هي من أَحْدَاث الحياة الدنيا، وأُمُورٍ أخرى هي من مشاهد يَوْمِ الدّين، على أَنَّ شريط الزّمَنِ واحدٌ ما يجري فيه من أمور الدنيا، وما يجري فيه من أمور الآخرة.

وهذا الأسلُوبُ الفنيُّ لم يَعْرِفْهُ الناس إلاّ بعْدَ أن مَهَرُوا أسَالِيبَ الإِعْلَانِ عن عناصر بارِزَةٍ من عناصر «الفِيلْم» قَبْلَ عرض وقائعه بالتسَلْسُل.

(٧) استخدام الأسلوب غيْرِ المباشر للدّلالة على الأفكار في عدّة مواضع من السّورة:

● الكناية عن تَلَقِّي الحكم بالظفر بالنعيم في الجنّة، بأسلوب التعبير عن ظواهر يلاحظها المشاهِدُ في وجوه المحكوم لهم بأَنَّهُمْ من أهل جنّاتِ النّعيم:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

● والكناية عن تَلَقّي الحكم بالعذاب في جهنّم، بأسلوب التعبير عن ظواهر يُلاحظها المشاهِدُ في وجوه المحكوم عليهم بأنّهم من أهل النار:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾.

● الكناية عن حالة احتضار الميّت بذكر أحداث مرافقةٍ عادةً لاحتضاره ومَوْته، وهذا في:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩)﴾.

● الكناية بعبارة ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ عن الكبر والتبختُر وإعجابِ الكافر بنفسه إذْ عاند الحقّ وأصرَّ على إنكاره.

(٨) الاكْتِفَاءُ بِذِكْر مراحِلَ بَارِزَةٍ من أطوار خَلْقِ الإنسان، وتَرْكِ الذّهْنِ يَتَصَوَّرُ ما بَيْنَ المراحل المذكورة، من أطوارِ خلْقٍ غَيْرِ مذكورة، على أنَّ هذه سيكْتَشِفُها، أو يكتشفُ بعْضَها، البحثُ العلميُّ الإنساني.

(٩) استخدامُ أسْلُوب الاستفهام التقريري لانتزاع اعتراف الموَجَّهِ له السُّؤال بالحقيقة، نجد هذا في:

● ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ (٣)﴾.

● ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾.

● ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾.

(١٠) استخدام اسم الإِشَارَةِ الموضوعِ للمشار إليه البَعِيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في مقام الْعَلِيّ الأعْلَىٰ، جلّ جلاله وعظُمَ سلطانه.

❃ ❃ ❃

# سُورَةُ الهُمَزَة

١٠٤ مصحف ٣٢ نزول

## (١)

# نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

## سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ
أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى
ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

---

١ ـ ● قرأ ابْنُ عامر، وحمزة والكسائي، وأبو جعفر، ورَوْح: [جَمَّعَ] بتشديد الميم.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿جَمَعَ﴾ بتخفيف الميم.

وقد روعي في القراءتين اختلاف أحوال المتحدَّث عنهم. فمنهم من يجْمَعُ جمعاً بدون مبالغة، ومنهم من يُجَمِّعُ بنهم ومبَالغة.

٣ ـ ● قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزة وأبو جعفر: [يَحْسَبُ] بفتح السين.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يَحْسِبُ﴾ بكسر السين. والقراءتان وجهان عربيان لنُطْق هذا الفعل.

٨ ـ ● قرأ أبو عَمْرو، وحَفْص، وحمْزَة، ويعْقُوب، وخلف: [مُؤْصَدَةٌ] بإثبات الهمزة.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مُوصَدَةٌ﴾ بجَعْل الهمزة واواً. والقراءتان وجهان من الأداء في النطق.

٩ ـ ● قَرَأ شعبة، وحمزة، والكسائي، وخَلف: [فِي عُمُدٍ] بضَمّ العين والميم.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فِي عَمَدٍ﴾ بفتح الْعَيْن والميم. «عَمَد، وعُمُد» كلٌّ منهما جمْعٌ مفردُهُ «عَمُود» فهما وجهان عربيان.

## (٢)
## من ذُكر من المشركين أنّه كان همّازاً لمّازاً للّذين آمنوا

ذكر بَعْضُ كتّاب سِيرَة حَيَاة الرَّسُول ﷺ، وبَعْضُ المفَسّرين، أسْماءَ عَدَدٍ من كُبَراء مُشْركي مكّة، الّذينَ كانوا يتعَرَّضُونَ بالْهَمْزِ واللَّمْز، للَّذِينَ يَسْتَضْعِفُونَهُمْ، من الّذِين آمنوا واتَّبَعُوا الرسُول.

ومن الّذين ذُكِرَتْ أسْماؤهم في استخدام هذه الرّذيلة من المشركين:

«الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة المخزومي ـ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَف ـ أُبَيُّ بْنُ خَلَف ـ الْعَاص بْنُ وائل من بني سَهْم ـ الأسْوَدُ بْنُ عبد يَغُوث ـ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيق ـ وهٰذان الأَخيران ثقفيّان من سادَة ثقيف في الطائف».

ولا يعني ذكْرُ هؤلاء أنّ السورة خاصّة بهم، بلْ هي عامَّةٌ تشمل كلّ هُمَزَةٍ لُمَزَة، في عَصْرِ الرّسول ﷺ، وفي سائر العصور حتّى آخر التاريخ الإنساني، وهم الذين يستخدمون وسيلة الهمز واللّمز للصّدّ عن دين الله الحقّ.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## موضوع السّورة

هذه السُّورَةُ ذَاتُ دَرْسٍ واحد، وموضوعها يَدُورُ حول وعيد الْهَمّازِين اللَّمّازين، الّذين يسْتَخْدِمُونَ قبيحَةَ الْهَمْزِ واللَّمزِ، احْتِقَاراً وازدراءً لضُعَفَاءِ الّذين آمَنُوا واتَّبَعُوا الرَّسُول ﷺ، بغْيَة رَدِّهِمْ عن دينِ اللّه، وصَدِّ أمْثالِهِمْ عن الدّخول فيه، ممَّنْ تُحَدِّثُهُمْ نفوسُهم بأَنْ يسْتَجِيبُوا لدَعْوةِ الحقّ.

وَهؤلاء الـهمّازون اللّمّازُون يكونُون عادة من فئةِ الأثْرِياء، الذين يَجْمَعُونَ الأموالَ ويُعَدِّدُونَها، ويعْتَزُّونَ بها، ويَتَصَوَّرُون أنّها سَتُبْقِيهم في مراكز الْقُوّة والسِّيادة في مُجْتَمَعَاتهم ما داموا أحياء.

وجاء في السُّورَة بيَانُ وعِيدِهم الشَّديد، بأنَّهُمْ سَيُنْبَذُونَ مُهَانِين مُحْتَقَرِين، في نارِ اللّه الموقَدَةِ، الّتي يصْلَوْنها يَوْمَ الدّين، ويكونون مِنْها في أماكنَ تتزاحَمُ فيها أجسادُهم، حتّىٰ يَحْطِمَ فيها بعْضُهُمْ بعضاً، ويُحْبَسُونَ فيها، وَتُوصَدُ عليهم أَبْوَابُها، فَلا يَسْتَطِيعُون الخروج منها خالِدِين مُخَلَّدِين.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبّر التحليليّ لآيات سورة الْهُمَزَة

قال اللّه عزّ وجل:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾:

﴿وَيْلٌ﴾: يأتي في اللّغة بمعنى الْحُزْنِ، والْهَلَاكِ، والمشقَّةِ من العذاب. قال ابْنُ سِيدَه: ويلٌ كلمةُ عذاب.

وفي كلمة «ويْل» معنى الوعيد بعذاب اللّه.

ويقابلُ كلمة: «ويْل» التي هي كَلِمةُ عذابٍ في اللّغة، كلِمةُ «ويْح» الّتِي هي كَلِمَةُ تَرَحُّم.

وورد أنّ لفظ «ويْلٍ» اسْمُ علَمٍ على وادٍ في جهنّم.

روى الإمام أحمد، والترمذيُّ، وابن حبّان في صحيحه، والحاكم، عن أبي سعيد الخدريّ، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«الْوَيْلُ: وَادٍ في جَهَنَّم يَهْوِي فيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً، لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهِ الْجِبَالُ لَمَاعَتْ مِنْ حَرِّهِ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَهُ.

والصَّعُودُ: جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَصَّعَّدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفاً، ثُمَّ يَهْوِي كذَلِكَ».

لم يصل هذا الحديث إلى درجة الصِّحَّةِ عند المحدثين، لكن يمكِنُ

الاستئناسُ به، إذْ فيهِ بيَانٌ لنوعٍ من أنواع العذاب الذي تدلُّ عليه كَلِمةُ «ويل» في اللُّغة، فيُحمل اللفظ في القرآن على المعْنَيَيْن.

وجُمْلَة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ مؤلفة من مبتدأ وخبر «ويْلٌ» مبتدأ، وجاز الابتداء بها مع أنّها نكرة لأنّ فيها معنى الدعاء أو التهويل، و﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ خبر.

ويمكن اعتبار كلمة «ويل» في الآية خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: الْعَاقبةُ أو الجزاءُ ويْلٌ لكلّ هُمَزَةٍ لُمَزَة.

وأرجَح الإعرابَ الأوّل، لأنّ فيه إبقاءَ ما في كلمة «ويْل» في بَدْءِ الكلام من تهويلٍ وإرْهابٍ، أي: عذابٌ عَظِيم مَهُول، لكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ.

﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: لفظان على صيغة «فُعَلَة» وهي من صيغ مبالغة اسْم الفاعل التي ورَدَتْ قليلةً في كلام العرب، ومنها «ضُحَكَة» لمن هو كثير الضَّحِك، و«صُرَعَة» يُطْلق على بطَلِ المصارعة الّذِي يَصْرَعُ الناس كُلَّما صارعه أحد، و«لُعَنَة» لِمَنْ هُو كثير اللَّعْن للناس.

وتُشْعر هٰذه الصيغة مع الدلالة على المبالغة بأنَّ الوصْفَ الذي دلَّت عليه قد صَارَ سَجِيَّةً وطَبْعاً وأمراً مُلاَزماً غَيْر منفك.

﴿هُمَزَةٍ﴾: وصْفٌ لموصُوفٍ مَحْذُوفٍ قام مقامه. وأصْلُ الْهَمْزِ في اللُّغةِ الْغَمْزُ بإيلام، ومنه «الْمِهْمَاز» وهو حديدة يَضَعُهَا راكِبُ الدابَّةِ في مؤخّر خُفِّه أو نحوه، فيَهْمِزُها بأسنانٍ في طرفِهِ على بطْنِها، فيُؤْلِمُهَا مستحثًّا إيّاها لتُسْرِع.

ونُقِلَ الْهَمْزُ من الْغَمْز الفِعْليّ بإيلام إلى نَظِيرِه من الكلام، على طريقَةِ التوسُّع في اللُّغَةِ، تَشْبيهاً للمَعْنوِيَّاتِ بالحِسّيَّات.

فالهَامزُ بالكلام هو الذي يَعِيب النّاس بأقواله، **والهمَّازُ والْهُمَزَةُ**: الْعَيَّاب. يقالُ: رجُلٌ هُمَزَةٌ، وامْرأةٌ هُمَزَة.

وقد يكون الْهَمْزُ بحركاتٍ تُعَبِّر عن أقوالٍ، كبعض حركاتِ الشِّدْق، والعين، والرأس، والأيدي، والأصابع.

وخُصَّ الهمْزُ غالباً بما يكون من طعْنٍ لا يَشْعُرُ بِه المطعون عنْد فعل الطاعن، فتَدْخُلُ فيه الغيبَةُ والنميمَةُ والإشارات الطاعنات المُلْحَقَاتُ بهما.

﴿لُّمَزَةٍ﴾: وصْفٌ أيضاً لموصوفٍ محذوف قام مقامه. وأصل اللَّمْزِ في اللُّغَة الدَّفعُ والضَّرْب. ونُقِلَ على سبيل التوسُّع في اللُّغَةِ إلى معنَىٰ الإيذاء المؤلم للنَّفس، بأسْلُوبِ الإشارَة بالْعَيْنِ أو بالرَّأسِ، أو بالشَّفَةِ، أو بغَيْرِها من الجوارِح، مع كلَامٍ خَفِيٍّ.

وخُصَّ اللَّمْزُ غالباً بما يكون من ذلك يحضُورِ الْمَلْمُوز.

وصارَ يُطْلَق على الْمُغْتَاب النَّمَّام العيَّابِ الطَّعَّانِ في أعراضِ النَّاس: همَّازٌ لَمَّاز، وهُمَزَةٌ لُمَزَة.

و«كُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة» قضيَّةٌ كُلِّيَةٌ، فيها أداةٌ من أدوات العموم، الَّتي تَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ كُلَّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ مُوَجَّهُ له الْوَعِيدُ بعذابٍ شديدٍ في وادٍ من وِدْيَانِ جهنَّمَ يقال لَهُ: وادِي وَيْل، إذا كانَ منَ الذين يَصُدُّون عن دين اللّه بهَمْزِهم ولَمْزِهم، أو يُحَرِّضُونَ به الضُّعفاء على الرِّدَةِ عنه.

فالمعنى: عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الدِّين، في وادٍ من وديان جهَنَّم يُقَالُ لَهُ: «وَادِي وَيْل» لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ يَتَّخِذُ الْهَمْزَ واللَّمْزَ وَسِيلَةً للتَّحْرِيضِ على الرِّدَّةِ عَنْ دِينِ اللّه، وللصَّدِّ عن الدخول فيه.

● قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾:

﴿جَمَعَ﴾ وَقُرِئ في المتواتِر من القراءات [جَمَّعَ] إشارَةً إِلَىٰ أنَ بَعْضَ الهمَّازين اللّمَازِين المحرّضِين على الرّدَّةِ عن دينِ اللّهِ بما يفْعَلُون، والصادّين

عنه مَنْ يتأثَّر بهَمْزِهم ولَمْزِهِم، يَجْمَعُونَ مَالاً وَفِيراً ويُعَدِّدُونَهُ، دُونَ مُضَاعفَةِ في أعمالهم واجتهاداتهم في جمعه. وأنّ بعضهم الآخَرَ يُضاعِفُون أعْمَالَهُمْ كادِحِينَ في هذا الجمْعِ للْمَال الوفير.

﴿مَالًا﴾: جاء اللَّفظُ منكَّراً، للإشارة بالتنكير إلى الكَثْرةِ والْوَفْرَة، أي: مالاً كثيراً وافراً، وهذا أحد أغراض اختيار النكرة، كما ذكر عُلَمَاء المعاني، والقرائِنُ في هذا الموضع تدلُّ على هذا الْغَرض.

**المال**: كُلُّ شَيْءٍ مَرْغُوبٍ في امْتِلاكه، ممّا به نَفْعٌ ما، وكانت الإبل عند العرب قَدِيماً أنفسَ أمْوالِهِمْ.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾: أي: وكرَّرَ إحصاءَه بالْعَدِّ، مَرَّاتٍ مُتَتَابعاتٍ، إذْ هو يسْتَمْتِعُ ويتلَذَّذُ بعَدِّ مَا يَمْلِكُ من مالٍ، وقد تكونُ لَذَّتُهُ بعَدِّه وإحصائه ومَعْرِفَةِ مقدار ما يَمْلِك منه، أكثر من اسْتِمْتَاعه ولذّته بالانتفاع به مُسْتَهْلِكاً له.

يقال لغة: **عدَّ ذا الأفْراد**، إذا أحصاه ليَعْرِفَ مقدارَ أفْراده، **وعدَّده**، إذا كرّر إحْصَاءَه. والتكْريرُ يَدُلُّ على الاستمتاع والتلَذُّذِ بمشاعر بما يَمْلِكُ من مال.

﴿يَحْسَبُ﴾ وفي القراءة الأخرى [يَحْسِبُ] قراءَتَان متواترتان، وهما لغتان عربيّتان، كما سبق بيانه.

والمعنَىٰ يظُنُّ ظنّاً ضعيفاً توهُّميّاً، دلّ على هذا استقراء استعمال هذه المادّة في القرآن، فمادّة «حسب» لم تستَعْمل في القرآن إلاَّ بمعنى الظَّنّ التوهُّميّ.

﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾: **الْخُلود**: يأتي بمعنىٰ البقاء بلا نهايةٍ، ويأتي بمعْنَىٰ طول مُدَّةِ الْبَقَاءِ النِّسْبِي، ومن هذا أطلق الْعَربُ علىٰ الجبال والْحِجَارَةِ والصُّخُور كَلِمَةَ «الخوالِد» لطول بقائها بعد دُرُوس الأطلال.

لكن الفعل الماضِيَ من مادّة «الخلود» لا يَدُلُّ إلاّ عَلَىٰ البقاء حتَّىٰ لحظة الحاضر، ولا يتعَرَّضُ للْخُلُودِ الأَبَدِيّ، ولا للخلود النِّسْبِيّ.

فاسْتِعْمال الفِعْلِ الماضي؛ «أَخْلَدَهُ». بقَوْلِ اللّهِ عزَّ وجَلَّ في وصْفِ المذْمُوم المهدَّدِ بالوعيد الْهُمَزَةِ اللُّمَزَة: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ قد دلَّ علَىٰ أَنَّهُ يَحْسَبُ مَعَ كُلِّ زَمَنٍ يتَجَدَّد له في الحياة أنَّ مالَهُ هُوَ الّذِي أَبْقَاهُ فيما مضَىٰ حَتَّىٰ لحظة الحاضر عزيزاً في قَوْمِه، مَكْفِيَّ الحاجات، ذَا مَكانةٍ اجتماعيَّةٍ رَفِيعَةٍ، لَهُ فيها أَمْرٌ ونَهْيٌ وسُلْطَان، ولاَ يَدُلُّ على معنى البقاء الدائم مستقبلاً، إذْ لم تأْتِ العبارة في النَّصّ: يحسب أنَّ مالَهُ يُخْلِدُهُ، حتَّىٰ يَكُونَ فيها إشكالٌ بأَنَّ أحداً من النَّاسِ لا يتصَوَّر الخلُودَ بلا نهاية في الحياة الدنيا، ولو كان مِنَ الكافرين باللّه وبرُسُله وبكُتُبه وبالْيوم الآخِر.

ولكن نَسْأَلُ هنا: كَيْفَ يحسَبُ الكافر أنَّ مالَهُ هو الّذي أبْقَاهُ فيما مضَىٰ حتَّىٰ لحظة الحاضر؟

وأقول: باستطاعة المتأمّل أنْ يُدْرِك أنَّ الكافر يَحْسَبُ أنّ ماله هو الّذي أبْقَاهُ فيما مضَىٰ، حتَّىٰ لحظة الحاضر عزيزاً في قَوْمِه، مَكْفِيَّ الحاجات والْمُؤَن، ذا مكانةٍ اجتماعيَّة رفيعة، له فيها أَمْرٌ ونَهْيٌ وسلطان، ولولاَ مالُه لَمَا بَقِيَتْ له هٰذِه العزَّةُ والقُوَّة والمكانَةُ الاجتماعيَّة الرَّفيعة.

هذا التوهُّمُ الباطل يُسَيْطِرُ على نفوس معظم أَصْحاب الْغِنَىٰ والثَّرَاء، إذْ يَنْسَوْنَ أنّ اللّه هو الّذي منَحهم العزَّةَ والقوَّةَ والمكانَةَ الاجتماعيَّة الرَّفيعَةَ في أقوامهم، وربما كان المال من الأَسْبَاب الظاهرة، ولو شاء اللّه لسلبهم أموالهم وعزّتهم وقُوَّتَهُمُ الاجتماعيَّة الرفيعة، فهو جلّ جلالُه مالِكُ المُلْكِ، يُعِزُّ بحِكْمَتِهِ لابتلاء عباده مَنْ يَشَاء، ويُذِلُّ مَنْ يشاء، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

والكافر بيوم الدين لا يتَطَلَّع إلاَّ إلَىٰ مَتَاعِه من الحياة الدُّنيا، إذْ يرَىٰ

أنَّ كُلَّ وجُودِه منْحَصِرٌ في هذه الحياة الّتِي يعيشُ ظرُوفهَا، فهي فُرْصَتُه الوحيدة للاستمتاع، وانْتِهَابِ اللّذات، وتحقيق الشهوات، وهو يَرَىٰ أنَّ وَسيلته إلى ذَلِكَ ما جمع من مالٍ وعَدَّدَه، وأَعَدَّهُ لتحقيق هذه الغاية، ويَرَىٰ أنّ بقَاءَهُ طَوَال حياته في متاعِ الحياة الدنيا هُوَ الْخُلودُ الَّذِي تَطْمَحُ نَفْسُه إلَيْهِ، وتَنْحَصِرُ فيه.

والكافر الْهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ المغتاب النَّمّام العيَّابُ الذي لا يُؤمِن باللّه وعَدْله وجَليل حكْمته، ولا يُؤمِنَ بالْيَوْم الآخر الّذي يكون فيه الحسابُ، وفَصْلُ الْقضاء، وتحقيقُ الجزاء، يتَوَهَّمُ توهُّمَاتٍ لا قيمة لها في موازين الفكر السَّلِيم، منها أنَّ ماله الذي يجمعه، هُوَ إكْسِيرُ بَقَائه عزيزاً منعَّماً ذا مكانة رفيعةٍ بين الناس، وهو الوسيلة الّتي يَدْفَعُ بها عن نفسه الضُّرَّ، وهو الوسيلة التي يجْلُبُ بها لنفسه النَّفْع وما يشْتَهِي وما يُرِيدُ، حتَّىٰ آخِرِ لَحْظَةٍ من حياته، وهو الوسيلة لاغتنام سَعَادَتِه في فُرْصَةِ وجُودِه الوحيدَة في الدَّهر.

بكلِّ هذه التوهُّمَاتِ الْبَاطِلات، يَحْسَبُ أَنّ مالَهُ أَخْلَدَهُ فيما مضى عزيزاً قويّاً ذَا مكانَةٍ اجتماعيّة رفيعة، وهو يُبْقِيه كذلك في أيَّام عُمْرِهِ الآتياتِ في المستقبل، فهو يَقِيسُ مستقبلَهُ على مَاضِيه.

● قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤﴾.

﴿كَلَّا﴾ كلمة رَدْعٍ وزَجْر، وهي هنا لردع الهمزَة اللُّمزَة.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: اللاَّم واقعة في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ، كما قال الخليل في مثل هذا الاستعمال، فالفعل مؤكّدٌ بقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، وبنُون التوكيد الثقيلة.

«يُنبَذَنَّ»: أي: يُطْرَحَنَّ مزهوداً فيه. أصل النَّبْذِ طَرْحُ الشيء وإلقاؤه، مع زُهْدٍ فيه، أوْ مَعَ إهَانَةٍ واحتقارٍ له. وإذا أراد النابذ صَرْفَ الشيء الذي يَنْبِذُه عن بصَرِهِ، نَبَذَهُ وراءَ ظَهْرِه.

وآكل التَّمْرِ مثلاً ينبذُ النّوىٰ إلى أيّة جهةٍ بعيداً عنه إذا كان في الخلاء.

واللّقيط ولَدُ الزِّنَىٰ يُسَمَّىٰ منبُوذاً، لأنّ والدَته نَبَذَتْهُ في الطريق حين ولَدَتْهُ، فيلْتَقِطُه من يلتقطه.

والشّاةُ النّبِيذَةُ والمنبُوذَةُ هيَ الّتي لا تُؤكَلُ من الْهُزَالِ والضعف.

فَفِي استعمال فعل «النَّبْذِ» حينَ الإلقاء في النار، مَعَانِي الازدراء والإهانة والاحْتِقار، والعُقُوبة بالذِّلّة والصَّغار، لهذا الصنف المستكبر من الكُفّارِ، الْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ، الصّادّ عن دين اللّه، والّذي يتّخِذُ وسيلة الْهَمْزِ واللَّمْزِ لجَعْلِ ضُعَفاء المؤمنين يَرْتَدُّونَ إلىٰ الكُفْر بَعْد أَنْ آمَنُوا بربّهم واتَّبَعُوا الْهُدىٰ، والذي لم يكن له هَمٌّ في الحياة الدنيا إلاّ أنْ يَجْمَعَ الْمَالَ ويُعَدِّدَه، ويتّبع أهواءه وشهواته ولذّاته.

﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾: **الْحُطَمَة**: اسم من أسماء دار العذاب يوم الدين، سمّاها اللّه في القرآن حُطَمَة، لأنّها تَحْطِمُ كلَّ شيءٍ يُنْبَذُ فيها، أي: تُكَسِّرُهُ تكْسِيراً بعُنْفٍ وشِدَّة، ليَذُوق مع عذاب الإهانة والإذْلالِ والْحَرِيق، عذابَ التحطيمِ وتكْسِير العظام.

صيغة «حُطَمَة» من أبْنِيَةِ المبالغة كالهُمَزَة واللُّمَزَة والصُّرَعة. أي: فإذَا كان هذا الكافر هُمَزَةً لُمَزَةً، عُجْباً بنفسه واستكباراً، فلْيُنْبَذْ في الْحُطَمَةِ التي تُحَطِّمه وتكسِّر عظامه إهانة له واحتقاراً، تحقيقاً لقاعدة، «الجزاءُ من جنْسِ العمل» فهذا ما يقضي به قانونُ العدل الرّبّاني.

أصلُ الْحَطْمِ في اللّغة الكَسْرُ عَلىٰ أيّ وجْهٍ، دون عناية بالمكسُور، ولا مُبالاةٍ به، ولا بأيّ شأنٍ من شؤونه، أو مع قصد التخلّص من هيئته وصورته.

تقولُ لغة، حَطَمْتُ الشيءَ أحْطِمُه حطْماً، إذا كَسَرْته على أيّ وجْهٍ،

وتقولُ: حطَّمْتُه تحطِيماً فانْحَطَمَ وتحَطَّم، إذا أردت التعريف بأنَّكَ زِدْتَ في أعْمَال التّحطيم كمّاً أوْ كيفاً.

**والْحُطَامُ**: الأشياءُ المحطَّمَةُ المُكَسَّرَة المكوَّمَة بغير نظام أو المنثورة.

ويقال: رَجُلٌ حُطَمَةٌ، أي: كثير الأكْلِ يَحْطِمُ كُلَّ طَعَامٍ يضَعُه في فيه. ويُقالُ: إبلٌ حُطَمَةٌ، أي: كثيرةٌ متزاحِمَةٌ تَحْطِمُ الأرْض والكَلأَ بخفافِها، وكذلَك يقال في قُطْعان البَقَرِ والغنم.

وروى مسلم وأحمد في مسنده، أنّ الرسول ﷺ قال:

«إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ».

أي: إنّ شَرَّ الرِّعَاء العنيفُ الشّدِيدُ القاسي في رعايته، الّذي يسُوق رَعِيّتَهُ بشدّة وعُنف، فيجعَلُها تتزاحم حتَّىٰ يحْطِمَ بعضُها بعضاً، وتُحَطِّمَ ما تمُرُّ عليه.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾؟!

استفهامٌ يُرادُ به التعجيبُ والتعظيم والتهويل، كما سبَقَ في نظائر هذه العبارة، وقد غدا معلوماً أنَّهُ أسلوبٌ قُرْآنيٌّ من أساليب التعظيم والتهويل والتكبير والتعجيب.

أي: وَأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ عَظَمَةَ الْحُطَمَة وخَطَرَهَا العجيب، والمعنَىٰ: لم تَبْلُغْ دِرَايَتُكَ عِظَمَ الْحُطَمَةِ، ولاَ مَبْلَغَ الْعَذَاب الذي تشتمل عليه، إذْ هي أمْرٌ فظيعٌ جدّاً.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾:

بعْدَ الاستفهام التعظيميّ عن الْحُطَمَةِ، المتضمِّن التعجيبَ من هَوْلِهَا، جاء الجَوابُ الرَّبَّانيّ بأنّها نَارُ اللّهِ الْمُوقَدَة، مع سَائر صفاتها الآتِيَاتِ في السُّورَة.

أي: هي نارُ اللّه، وإذا كانت نارَ اللّهِ فأمْرُها مَهُولٌ وخَطَرُها عظيم. وهذه الإضافة في «نَارُ اللّهِ» تُشعِرُ بأنّ نَارَ اللّهِ هٰذِهِ الّتِي أعَدَّها دَاراً لِعَذَاب مستحقّي العذابِ يوم الدِّين، هي إعْدَادُهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، ولَيْسَت إعداد أحَدٍ من خَلْقِه.

إنَّها نَارُ اللّهِ العظيمَةُ، فالمؤمن العاقل يخْشَاها أشدّ الْخَشْيَة، ويجتَنِبُ كلَّ قولٍ أو عَمَلٍ يُقَرِّبُهُ إلَيْهَا.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾: أي: تُمَدُّ دواماً بالْوَقُودِ الّذي يَجْعَلُها في حالَةِ اشتعالٍ دواماً حالاً ومستقبلاً. فاسْمُ المفعول مثلُ الفعل المضارع المبنيّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، يَدُلُّ على الحال والاستقبال والتجدُّد. واسْمُ الفاعل مثل الفعل المضارع المبني لِمَا سُمِّيَ فاعله، يَدُلُّ على الحال والاستقبال والتجدّد[1] أيضاً.

**الْوَقُودُ والْوِقاد:** ما تَشتَعِل به النّار من حطب وغيره، وقد جاء في البيان القرآني أنّ وَقُودَ نَارِ اللّه يوْمَ الدّين النَّاسُ والْحِجَارَة، فالحجارَةُ وَقُودُها قبل إدْخال المعذّبين بالاحتراقِ فيها.

يقال لغة: أوْقَدَ النّار، أي: أشْعَلها.

● قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾:

(١) هذا ما ظهر لي في دلالات النصوص القرآنية الكثيرة، ولم يظهر لي فيها ما ذكرَهُ علماء أصول الفقه، من أنّ اسم الفاعل حقيقَةٌ في الحال مجازٌ في الماضي والاستقبال. بل كلٌّ من اسم الفاعل واسم المفعول كالفعل المضارع في الدلالة على الحال والاستقبال والتجدُّد.

وصَفَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ نارَ جهنَّمَ يَوْمَ الدِّين، بأنَّهَا تَطَّلِعُ على الأَفْئِدَة، فما المرادُ بهٰذِهِ العبارة؟

اطَّلَعَ علىٰ الشيْء: أي: أشْرَفَ عليه ناظراً إلَيْهِ.

يمكن أنْ نَفْهَمَ من هذا الوصف أنّ مَسَّ عذاب النَّار لا يقْتَصِرُ على الْجُلودِ، الّتي كُلَّما نَضِجَتْ خلَقَ اللّه للْمُعَذَّبينَ بها جلوداً غَيْرَها، ليَتَجَدَّدَ إحْسَاسُهُمْ بعذابِ الْحَريقِ، وإنَّمَا ينْفُذُ حرُّها إلىٰ أفئدَتِهم أيضاً كَما يَنْفُذُ بَصَرُ الرّائي إلَىٰ الشَّيْءِ الّذي يطَّلِعُ علَيْه.

شُبِّهَ وصُولُ حرِّ النَّارِ إلَىٰ الشيء، بوُصُولِ نَظَرِ المطَّلِع على الشَّيءِ، فاسْتُعِيرَ فِعْلُ ﴿تَطَّلِعُ﴾ للدّلالة على وصُول حرِّ النَّار إلى أفْئدَةِ المعذَّبين فيها بشَكْلٍ مُتَجَدِّدٍ، علىٰ مثل إدْراكِ النَّظَر الّذي يُحِيطُ بالمنظور إليه.

وقد يكون المراد أنَّ النّار تَطَّلِعُ على الأفئدَةِ الّتي هي محَلُّ النِّيَّاتِ والمقاصد، ومنَابعُ الكِبْرِ والْعُجْبِ والكُفْرِ ورَغَبَاتِ الفُجور، فَتُعْطِي من قُوَّةِ تَعْذِيبها وشِدَّتِه ما يُنَاسِبُ ما في الأفْئِدة ممّا يستحقّ العذابَ كمًّا وكيْفاً، وقد يَدُلُّ هذا على أنَّ ما كانَ في الأفئدة في الدّنيا من ذٰلِكَ يَبْقَىٰ فيها مسجَّلاً كما كان تماماً، وهو يشبه ما يُسَمَّىٰ بالصُّنْدُوق الأَسْوَد في الطَّائرات إذا تحطَّمَتْ، يُسَجِّلُ فيه ما جَرَىٰ فيها قبْلَ التَّحْطيم.

قول اللّه عزّ وجل:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ وفي القراءة المتوارة الأُخْرى «مُوصَدَة» وهُما وجْهان لنُطْق الكلمة في العربيّة.

وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلَّ «الْحُطَمَةَ» التي هِيَ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَة، بأنّها علىٰ كُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ كافرٍ باللّه والْيوم الآخِرِ مُؤْصَدَةٌ، أي: مغْلَقَةُ الأبوابِ، مقفلَةٌ، فلا يسْتَطِيعُونَ الخروجَ منها.

**مُوصَدَةٌ**: اسم مفعُولٍ من فِعْل «أَوْصَدَ يُوصِدُ» تقولُ لُغة: أوصَدْتُ البَابَ وأوصَدْتُ القِدْرَ، إذا أَطْبَقْتَه وأغْلَقْتَه وأقْفَلْتَه.

وأصَدَ البابَ يَأْصُدُهُ أصْداً وإصَاداً، أي: أغلقه، فَهُو مَوْصُودٌ، وأَوْصَدَهُ يُوصِدُه فالباب مُوصَدٌ.

وآصَدَ البابَ يُؤْصِدُه فهو مُؤْصَدٌ.

قولُ اللّه عزّ وجل:

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ وفي القراءة الأخرى المتواترة «عُمُدٍ» عُمُد: جَمْع عَمُود وعماد، وقال الفرّاء: «عَمَد وعُمُد» كلاهما جَمْعُ عَمُود. وقيل: عَمَدٌ اسْمُ جَمْع مفردُهُ عمود وعِمَاد. والمؤدَّى في المعنى واحد.

والعمود كلُّ ما يُحمَل عليه من فوقه شَيْءٌ ثقيل، كالسَّقْفِ يُعْمَدُ بالأساطين المنصوبة.

ولكن ما المراد بقول اللّه تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾؟

**أقول**:

● لو كان الْمُرَادَ أَنَّ أبوابَ الْحُطَمة الّتي هي نار اللّه الموقدة موصَدَةٌ مقفلة في عَمَدٍ مُمَدَّدَة، لكان الأولى في التعبير أن يقال: بِعَمَدٍ مُمَدَّدَة، لأنّ حرف الباء هو الأصْلُ في الدّلالة على معنى السببيَّة.

يُضَاف إلى هذا أنّه لا حاجَةَ يوْمَ الدِّين لأنْ يكونَ إيصَادُ أبواب دار العذاب وإقفالُها بالأعْمِدَةِ الممدّدة، فقد اكتَشَفْنا من ظواهر آيات اللّه في كوْنه في الحياة الدُّنيا أنّ إغلاق الأبواب وإقْفالَها له وسائل أخْفَىٰ وأدَقُّ من الأعْمِدَة الّتي كانت إحْدَىٰ وسائل الحضارات الإنسانيّةِ غَيْر المتَقَدِّمَةِ لإيصاد الأبواب وتَثْبيت إقفالها.

● والأرْجَحُ فيما ظهر لي ـ واللّهُ أعلم ـ أنْ تكون عبارة: ﴿فِي عَمَدٍ

مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ وَصْفاً للْحُطَمَة، فهي نَارُ اللّه الموقَدَةُ، وهي الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الأَفئِدَة، وهي على المعذّبين فِيها مُوصَدَة، وَهِيَ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ، وقد تكونُ هٰذِهِ الْعَمَدُ الْمُمَدَّدَة عَمَداً نارِيَّةً مُحِيطَةً بها، تَنْشُرُ النَّارَ واللَّهَبَ في وِذيانِها، بحَسَب منازلِ أَهْلِهَا الْمُعَذَّبِينَ فيها، وَعَلَىٰ مقاديرِ ما يَسْتَحِقُّونَ من عذَابٍ في دركاتِهِمْ منها.

على أنَّ هذه القضيَّة من قضايا الغيب الّتي قضاها اللّٰهُ وَقَدَّرَها، وأعَدَّها ليَوْمِ الدّين، فاللّٰهُ أعْلَمُ بحَقِيقَتِها، ولا نَسْتَطِيعُ أَنْ نجزِم بصُورَةٍ مُحَدَّدَة.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة الْهُمَزَة والحمد للّه على توفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

# سورة المرسلات

٧٧ مصحف ٣٣ نزول

(١)

# نص السورة وما فيها من فرش القراءات

## سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَالْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ
﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ
أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ
الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾

---

٦ ـ ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿عُذْراً﴾ بإسْكان الذال.

● وقَرَأ رَوْح: [عُذُراً] بضَمّ الذّال. وهو وجه عربيّ لنطق الكلمة باتباع حركة الذال لحركة ما قبلها.

● وقرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلَف: [نُذْراً] بإسكان الذال.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿نُذُراً﴾ بضمّ الذال، والضمّ وجه عربيٌّ لنُطْقِ الكلمة.

١١ ـ ● قرأ أبو عَمْرو: [وُقِّتَت].

● وقَرَأ أبو جعفر: [وُقِتَتْ].

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أُقِّتَتْ﴾. والمعنى فيها واحد.

إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعۡلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ
لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءً وَأَمۡوَٰتًا ﴿٢٦﴾
وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ
لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ
إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ
﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾
وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ
لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ
جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٌ

٢٣ ـ • قرأ نافعٌ، والكسائيّ، وأبو جعفر: [فَقَدَّرْنَا] بتَشْدِيد الدَّال.
• وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتخفيف الدال.
التشديد يدلُّ على العنايَةِ بتحديد المقادير. والتخفيف يدل علىٰ التنفيذ بالْقُدْرة. فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد.

٣٠ ـ • قرأ رُويس: [انْطَلَقُوا] بفتح اللاَّم.
• وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿انْطَلِقُوا﴾ بكَسْر اللاّم. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد. إذْ يُؤْمَرُ المكذِّبُون بالانطلاق، إلى دَرَكَاتِهِم في جهنم، وهذا ما دل عليه الفعل بكسر اللام. فيتمُّ انطلاقهم وهذا ما دلَّ عليه الفعل بفتح اللاَّم.

٣٣ ـ • قرأ حفْصٌ، وحمزة، والكِسائي وخَلَف: [جِمَالَةٌ] بكَسْرِ الجيم، أي: طائفة مجتمعة من الجمال.
• وقرأ رُويس: [جُمَالاَتٌ] جمع جُمَالَةٌ وهو الحبل العظيم.
• وقرأ باقي القرّاء العشرة: [جِمَالاَتٌ] أي: قُطْعَانٌ من الجمال، إذْ هو جَمْعُ جَمْع.

٣٩ ـ • قرأ يعقوب: [فَكِيدُونِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوقف والوصْل.
• وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿فَكِيدُونِ﴾ بحذْف ياء المتكلم إيجازاً.

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ
مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟
وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ
حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

❁ ❁ ❁

---

٤١ ـ ● قرأ ابن كثير، وابنُ ذَكْوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونٍ] بكسر العَين.

● وقَرَأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَعُيُونٍ﴾ بضمّ العين. وهما وجهان لنطق الكلمة في اللّسان العربي.

٤٣ ـ ● قرأ حَمْزَة [هَنِيّاً] وقرأ باقي القُرّاء العشرة: ﴿هَنِيئاً﴾.

[هَنِيّاً] وجهٌ من وَجْهَيْ نُطْقِ الكلمة في العربية.

## (٢)
## مما ورَد بشأن سورة المرسلات

(١) روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعودٍ قال:

«بَيْنَما نَحْنُ مع النبيّ ﷺ في غارٍ بمِنىً، إذْ نَزَلَتْ سورةِ المرسلات عُرْفاً، فإنّهُ لَيَتْلُوها، وإنّي لأتَلَقَّاها مِنْ فيه، وإنَّ فاهُ لَرَطْبٌ بها، إذْ وَثَبَتْ عَلَيْنا حَيَّةٌ. فقال النبي ﷺ: اقْتُلُوها، فابْتَدَرْناهُ فَذَهَبَتْ، فقال النبيّ ﷺ: وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَما وُقِيتُمْ شَرَّهَا».

(٢) وروى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن ابنِ عبّاسٍ أنَّ أُمَّ الْفَضْلِ

سَمِعَتْهُ وهُوَ يَقْرأُ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هٰذِهِ السُّورَة، إنَّها آخِرُ ما سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا في الْمَغْرِب».

(٣) وروىٰ أبو داود عن ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قال:

«كَانَ النبيُّ ﷺ يقرأُ النَّظَائِرَ السُّورَتَيْن في رَكْعَةٍ، الرَّحْمٰنِ وَالنَّجْم فِي رَكْعَة، واقْتَرَبَتْ والْحَاقَّة في رَكْعَةٍ، ثُمَّ قال: وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ والْمُرْسَلاتُ فِي رَكْعَة».

(٤) ورُوِي عن ابْنِ عبَّاس أنّ سورة «المرسلات» نزلَتْ في مكة إلاَّ قَوْلَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فهي مَدَنِيَّة.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## موضوع السّورة

يدور موضوع السورة حول معالجة المكذبين بيوم الدين إقناعاً فكريّاً، واستثارة نفسيّةً ووجدانيّةً من مِحْوَرَي الخوف والطمع في عُمْقِ النفس الإنسانيّة، وإنذاراً مُتكرّراً عشر مرّات بعبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ في مفاصل من السّورة، بِفَنِّيَّة تَهُزُّ أعْمقَ المشاعر الغافلة الغارقة في نَوْمٍ عَمِيقٍ.

بدأت السورة بالْقَسَم ببعض آيات اللّهِ في كَوْنه على أنَّ يَوْم الدّين الموعودَ به لواقع حتماً لا محالة.

وأُتْبع الْقَسَمُ بعَرْض طائِفَةٍ من الأحداث المستقبليّة التي جعلها اللّه عزّ وجلَّ في تَسَلْسُل أحْداثِ الكَوْنِ مُقدّماتٍ وعَلامَاتٍ وأَمَارَاتٍ وتَوْطئاتٍ لساعَةِ إنْهاء ظُروف الحياة الدُّنيا، وأنْظمَتِها، ثم لسَاعَةِ بَدْءِ ظُرُوفِ الحياة الأخرى، وبعْثِ الخلائِقِ إليها، وقيامهم لِمُواجَهَةِ يَوْمِ الدّين، يوم الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء بالْعَدْلِ أو بالفضل.

وأُتبعَ هذا الْعَرْضُ بتَوْجيه طائفةٍ من الأدلَّة على قانون الجزاء الرَّبّاني، في خُطَّةِ الخالِقِ الرَّبِّ جلّ جلالُهُ وَعظُمَ سلطانُه، وعَلَىٰ قُدْرَتِهِ على إعادة الموتَىٰ إلى الحياة بَعْدَ فَنَاءِ أجسادِهِم وتفَرُّقِهَا في تُراب الأرْض.

وأُتبِعَتْ هٰذِه الأدلّة بعَرْضِ مَشْهَدٍ رَهِيبٍ من مشاهِدِ يوم الدِّين، منتزَعٍ ممّا سوفَ يكُونُ للكافِرِينَ المكذّبين بِيَوْمِ الدين، وأُتبِع هذا المشهد بعرض مَشْهَدٍ آخر مُنْتَزَعٍ ممّا سَوْفَ يكُونُ من نعيم للمتّقين ولِلْمُحْسِنين، ويُفْهَمُ من ذَلِكَ لُزُوماً أنَّه سَوْفَ يكونُ أيْضاً للأبْرَار الَّذِين هم أصحاب المرتبة الوسْطَىٰ فَوْقَ مَرْتبة المتقين، وتحت مرتبة المحْسِنين.

ثُمَّ جاءَ في السورة تَوْجيهُ خطابٍ تَهْدِيدِيّ من الرَّبِّ جلّ جلالُهُ وعَظُم سلطانُه، للمكَذّبين بيوم الدِّين، يخاطبهم فيه بقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: وأنْتُم بسَبَب كوْنِكُمْ مُجْرِمين تَسْتَحِقُّونَ الوعيد الشَّدِيدَ بالمقالة الّتي جاء تكريرها في السُّورَة عشْرَ مرّاتٍ، بفنّيّةٍ بارِعَةٍ عَقِبَ كُلّ مَفْصِلٍ مِن مَفاصِلِ مَوْضُوعِها: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وأخيراً جاء في السُّورة بيانُ أنّ من مظاهر كِبْرِ المكذِّبين بِيَومِ الدّين على رَبِّهم، واسْتِنْكَافِهِمْ عَنْ عبادَتِه، في سلوكهم الدائم، أنَّهُمْ إذَا قِيلَ لهم ارْكَعُوا لِرَبِّكُمْ لاَ يَرْكَعُونَ، مَعَ أنَّهُ قَدْ سَجَدَ لَهُ في الوجود كُلُّ خاضِعٍ لسُلْطَانه بالجبر، وَسَجَدَ لَهُ مَنْ في السَّمَاواتِ، وسَجَدَ لَهُ المؤمِنُونَ به في الأرض بإراداتِهِمْ طَوْعاً.

ولمَّا اشتملَتْ سُورة المرسلات عَلىٰ كلّ هٰذِهِ العناصر التي تخاطب العقول بالدّلائل والبراهين والآيَات، وتُلامِسُ مِحْوَرَي الْخَوْفِ والطَّمَع في عُمْقِ النفس الإنسانيّة، وتَعْرِضُ طائفةً من المشاهد المنتزعَة من الواقع الذي

سوْفَ يَحْدُثُ يَوْمَ الدّين، تَأْكيداً لأنَّهُ سَوْفَ يَقَعُ حتْماً، ناسَبَ أَنْ تُخْتَمَ السُّورَةُ بقول اللّهِ عزّ وجلّ في آخرها: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## دروس السورة

تشتمل سورة «المرسلات» على سبعة دُروس:

**الدرس الأوّل:**

درس اشتمل على الْقَسَم ببعض آيات اللّه في كونه، واخْتِير منها آيَةُ الرِّياحِ على اختلاف صفاتها وخصائصها وآثارها، أمّا الْمُقْسَمُ عليه فَهُو الْمَوْعُودُ بِه يَوْمَ الدِّين، بعْدَ إنْهَاء ظُرُوف الحياة الدنيا، وبَدْءِ ظروف الحياة الأخرى، بقيامة الأموات، وبعْثِهم للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وهو الآيات من (١ ـ ٧).

**الدرس الثاني:**

درس تضمَّن عَرْضَ طائفةٍ من الأَحْدَاثِ المستقبلِيَّةِ الّتي جَعَلَها اللّه عزّ وجلَّ في تَسَلْسُل أَحْداثِ الكَوْنِ، مُقَدمات وعلامات لسَاعة إنْهاء ظروف الحياة الدنيا، فاشْتَمل على بيانِ طَمْسِ النُّجُوم، وفَرْجِ السّماء، ونَسْف الجبال، وتأقيت الرُّسل.

وهو الآيات من (٨ ـ ١٥).

**الدرس الثالث:**

درسٌ تضَمَّنَ الاستدلاَلَ على قانون الجزاء الرَّبَّانيّ، والْقُدْرَةِ على الْبَعْثِ، بعَرْضِ ظَواهِرَ كونيّةٍ مَعْلُومَةٍ من أَحْدَاثِ تاريخ الأُمَمِ الغَابِرَةِ ذَاتِ

الآثار الباقية، وظواهر كونيَّةٍ مَشْهُودَةٍ، في مجاري تصاريف اللّٰهِ عزّ وجلّ في كونه، فمن الظواهر الكونيّة التاريخيَّةِ الغابرة إهْلاَكُ اللّٰهِ المكَذِّبين المجرمين الأوّلين، وإهلاكه أمثالَهُمْ ما تَوالَتِ الْقُرون. ومِنَ الظواهر الكونيّة المشهودة، أطوار خَلْقِ الإنسان، وتَصاريفُ اللّٰه عزّ وجلّ في الأرض أَحْيَاءً وأمْوَاتاً، وإقامة الجبال الراسيات الشامخات، وإنعامُ اللّٰه على عباده بالماء العذب الفرات.

وهو الآيات من (١٦ ـ ٢٨).

**الدرس الرابع:**

درسٌ تضمَّنَ عَرْضَ مَشْهَدٍ مُقْتَطعٍ ممَّا سَوفَ يَكُونُ في يَوْمِ الجزاء للمكذبين بيوم الدّين الكَفَرَةِ المجرمين، ومشهد آخر مقتطع ممَّا سوف يكون لأهل دار النعيم متقين، وأبرارٍ، ومُحْسِنين.

وهو الآيات من (٢٩ ـ ٤٥).

**الدرس الخامس:**

درسٌ اشتمل على خطاب من الرَّبّ جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه، موجّه للكافرين المكذّبين، فيه وعِيدٌ بعذابٍ شديدٍ يومَ الدّين، بَعْدَ رِحْلَةِ حَيَاةٍ في الدُّنيا يُمَكَّنُونَ فيها من أنْ يأكُلُوا ويَتَمَتَّعُوا بما فيها من أنواعِ متاعٍ قليلٍ زائل، وفيه مُواجَهَةٌ لَهُمْ بأَنَّهُمْ مُجرِمون، فهم داخِلُون في وعيد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وهو الآيتان: (٤٦ ـ ٤٧).

**الدرس السادس:**

درسٌ تَضمَّن إشارةً إلى ما في نُفُوس المكذبين المجرمين من كِبْرٍ يَجْعَلُهُمْ لا يَرْكَعُونَ لربّهِمْ فَضْلاً عَنْ أَنْ يَسْجُدُوا، وهذا أَحَدُ البواعثِ الكُبْرَىٰ على الكُفر.

وهو الآيتان: (٤٨ ـ ٤٩).

**الدرس السابع:**

دَرْسٌ من آيَةٍ واحدة يختم اللَّهُ عزّ وجلّ بها السُّورَة، مبيّناً فيها، أنَّهُ لا تُوجَدُ وسيلة بيانيَّةٌ قوليَّةٌ تعالجُ ما في أفكار ونفوس الكفرة المجرمين المكذبين معالجةً أكْثَرَ ممَّا اشتملت عليه هذه السورة، وما نَزَلَ قبلها في نجوم التنزيل، فإذا لم يُؤْمِنُوا بهٰذا البيان القوليّ الكافي لمَنْ لديه استعداد ما للاستجابة للحق: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟؟

أي: لا يُوجد حديث بعْدَ هذا الحديث يجعل هؤلاء يؤمنون إذا لم يؤمِنُوا بهذا الحديث.

## (٥)
## القسَمُ في سوابق نجوم التنزيل لتأكيد قُدوم يوم الدين

جاء في سوابق نجوم التنزيل تأكيدُ قُدُوم يوم الدين، يوم الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، بالْقَسَم الرَّبَّاني بآيات اللّه في كونه الّتي هي ظواهر لقدرته وحكمته وعلمه المحيط بكلّ شيء، وظواهر لرُبُوبيَّتِهِ في كونه الّتي لا يُشَارِكه فيها أحَدٌ، ثماني مرَّاتٍ في ثمانية نصوص، وما جاء في سورة (المرسلات) هو الْقَسَم التاسع:

**النصّ الأول:**

ما جاء في سورة (اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول) فقد أَقسم اللّه عزّ وجل فيها باللّيل إذا يغشى، وبالنهار إذَا تَجلَّىٰ، وبخَلْقِه الذكر والأنْثَىٰ، فقال تعالى فيها:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ...﴾ وحتى الآية (١١).

**النصّ الثاني:**

ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) فقَدْ أقْسَم اللّه عزّ وجلّ فيها بأزمِنَةٍ جرَتْ فيها أحداث إهلاكه عاداً وثمود وفرعون وجنوده، باعتبار ما جرى فيها من آيات اللّهِ الجزائية في كونه، فقال تعالى فيها:

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ ...﴾ وحتى الآية (١٤).

**النصّ الثالث:**

ما جاء في سورة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) فقد أقْسَم اللّهُ عزَّ وجلّ فيها بالزَّمَنِ (العصر) الذي هو آيَةٌ من آيَاتِ اللّهِ في كونه، وهي آية مشهودة، على أنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ دائم من رأس ماله في حياته، إلاَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر، ولا يكون في خُسْرٍ ما لم يكُنْ يوْمُ الدِّين أحَدَ عَناصر خُطَّةِ الرَّبّ جلّ جلالُهُ في برنامج التكوين، وهو ما تَقْضِي به حِكْمَتُه سُبْحانه.

**النصّ الرابع:**

ما جاء في سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) فقد أقسم اللّه عزّ وجلّ فيها بالخيل، وهي إحدى آياته المشهودة في خلقه، على أنَّ الإنسان لكنودٌ جَحُودٌ، غيْرُ عابئٍ بما في خُطَّةِ اللّه من أحداث يوم الدين، إذا بُعْثِرَ مَا في القبور، وحُصِّلَ ما في الصدور.

**النصّ الخامس:**

ما جاء في سورة (الشّمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) فقد أقسم اللّه عزّ وجلّ فيها بطائفة من آياته في كَوْنه على أنَّ الجزاء الرَّبَّانيَّ واقِعٌ لا محالَة، وهذا إنّما يكون يوم الدّين، فقال تعالى فيها:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

الفلاح والخيبة إنَّما يكونَانِ يَوْم الدِّين.

**النصّ السادس:**

ما جاء في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) فَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ فيها بالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوج، وهي إحدى آيات اللَّهِ المشهودة في كونه، وأقْسَمَ بالقرآن الشّاهد وبالرَّسُول المشهود لَه، وأَقْسَمَ ضِمْنَ ذَلِكَ بالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، إشَارَةً إلَىٰ أَنَّهُ هو المقْصُودُ بتَأْكِيدِ وُقُوعِهِ بالْقَسَم ببَعْضِ آياتِهِ المشهُودة، مع بَيَان أنّه ممَّا يُقْسَمُ به إذْ هُوَ ممَّا يَدُلُّ عليه الدليل العقلي المستند إلى حكمة اللَّهِ السَّامِيَة، وأنَّهُ لا يمكن أنْ يَخْلُق النّاسَ عبثاً.

**النصّ السابع:**

ما جاء في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول) فقد أقْسَمَ اللّه عزّ وجلّ فيها بمهابط الوحي، لما في الرسالات الرّبّانيّة من آياتِ إعجاز عظيمة، وهي آيات مشهودة الآثار، في عظمة الدين الّذي يمثّلُهُ الإسلام، والذي بعَثَ اللَّهُ به خاتم أنبيائه ورُسُلِه محمد بن عبد اللَّهِ، عليه أفضل الصلاة وأتَمُّ التّسْلِيم.

**النصّ الثامن:**

ما جاء في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) فقد جاء فيها الْقَسَمُ الْمَنفِيُّ بِيَوْمِ القيامة وبالنَّفْسِ اللَّوَّامة على أنّ يَوْم الدين واقع لا محالة، وقد ظهر لنا أنَّ الْقَسَمَ المنفِيَّ قَدْ رُوعي فيه اقتضاءانِ أَحَدُهُما يقتضي الْقَسَم بالقيامة وبالنفس اللّوّامة، والآخر يقتضي عَدَم الْقَسَم بهما،

لأنَّ مَنْ يُوَجَّهُ له الْقَسَمُ لا يَسْتَفِيدُ من الْقَسَمِ تأكيداً، إذْ ما يُقْسَمُ لَهُ به هو ما يُنْكِرُه.

وقد سبَقَ شرح هذا لدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (القيامة).

**النصّ التاسع:**

ما جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) التي سنشرع إن شاء الله بتدبُّر آياتها، فقد جاء فيها الْقَسَمُ بآيَةِ الرِّياح إحْدَىٰ آيات اللَّه العظمىٰ في كَوْنه، على أَنَّ يَوْمَ الدِّينِ واقِعٌ مُسْتَقْبلاً لا محالة.

❊ ❊ ❊

## (٦)
## التدبُّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة

### الآيات من (١ ـ ٧)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾.

قُرِئ: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾. وقُرِئ [عُذُراً أَوْ نُذُراً] كما سبق بيانه في حاشية نصّ السُّورة، والقراءتان وجهان لنُطْقِ الكلمتين عند العرب.

**تمهيد:**

هٰذا الدّرس اشتمل على قَسَم بآيَةٍ مِنْ آياتِ اللّهِ في كونه هِيَ آية الرّياح ذاتِ القوّة الكونيّةِ الْعُظمىٰ، وتَصْرِيفها بالنَّفْعِ العظيم لسُكّانِ الأرض، وبالعقاب والعذاب الأليم للمجرمين من الناس، أو بالتخويف والإِنْذار.

أمّا المقْسَمُ عليه لتأكيد وقوعه، فهو ما تضمَّنَهُ قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾:

وما وَعَدَنا اللّهُ عزّ وجلّ إيّاهُ هو القيامة والبعث للحياة الأخرىٰ، والحسابُ وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء، بالنّعيم المقيم في جنَّةِ الخلْد بفضل اللّه وواسع رحمته، أو بالعذاب الأليم لمستحقيه في دار العذاب النار، الّتي أعدّها اللّهُ بحكمتِه للكافِرين والعاصين.

**التدبُّر:**

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ الواو هي واو الْقَسَم [الْمُرْسَلات] وصْفٌ لمَوْصُوف محذوفٍ قامَ مقامه، وأظْهَرُ أقوال أهل التأويل فيما أرىٰ أنّ الموصُوفَ المحذوف هنا هي الرّياح، فقد تتبّعْتُ باستقراء تامٍّ ما جاء في القرآن عن الرِّياحِ فرأيْتُها خَمْسةً وعشْرين نَصّاً، وتأمَّلْتُ في صفاتها فظهر لي أنَّ اللّهَ عزّ وجل يُقْسِمُ بها في الآيات السِّتّ الّتي افتتح بها سورة (المرسلات) فذكر فيها أرْبَع صِفاتٍ للرّياح، دالأتٍ علىٰ أنّ الرّياحَ من آياتِ اللّهِ الْعُظْمَىٰ في كَوْنِهِ، وأنَّ لهَا وظَائفَ سَبَبِيَّةٍ في الكَوْنِ تُؤَدِّيها، بَعْضُهَا من النِّعَم، وبَعْضُهَا من المصائب، وبَعْضُها يأتي بِالثَّواب للمتقين والأبرار والمحسنين، وبَعْضُهَا يأتي بالعقاب للعصاة والمجرمين والكَفَرَةِ الْفُجَّار.

وهي في كُلِّ ذَلِكَ تَكْشِفُ عن حكمة اللّهِ في مقاديره، فإمَّا أَنْ تَدُلَّ على الْعُذْرِ في الابتلاء أو الجزاء، وإمَّا أَنْ تكُونَ مُنْذِرَةً لمستحقِّي الْعِقَابِ المعجّلِ بأنَّ اللّهَ لَهُمْ بالْمِرْصاد، ومن وسائله الظاهِرةِ لإهلاك المجْرمين الرّياح.

والرّياحُ أَصْنافٌ مُتَعَدِّدَة، ولكلّ صِنْفٍ مِنْهَا صِفَاتٌ وخَصَائِصُ ووظائف في مُجْرَيَاتِ أحداث الكون.

● فمنها الْمُرسَلَاتُ تِباعاً بيُسْرٍ وسُهُولَةٍ إرْسالاً عُرْفاً.

● ومنها الْعَاصِفَاتُ اللّواتي تَعْصِفُ عَصْفاً شديداً فَتَحْمِلُ ما على وجه الأَرْضِ من عَصْفٍ (وهو النَّبَاتُ اليابس).

● ومنها النَّاشِراتُ اللاتي تَنْشُر بخار الماء، وتَنْشُر نويات اللِّقاح وغُبارَ الطَّلْع، وبزور النَّباتات، والروائح، والغازات، وغير ذلك.

● ومِنْها الفارقات اللاّتي تُفَرِّقُ بينَ الأشياء الّتي تَحْمِلُها عَقِبَ نَشْرِها، فتوزِّعُها بحَسَب مقتضيَاتِ حكمة اللّٰه عزّ وجلّ.

فمعنى ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾ أُقسِمُ بنَوْع الرِّيَاحِ الْمُرْسَلاتِ تِبَاعًا بِيُسْرٍ وسُهُولَةٍ إِرْسَالاً عُرْفاً، أي: معروفا من أمْرِها غير منكر، إذْ تكون مُبَشِّرات برحمة الله، ولِهذا فهي رياحٌ يُسْتَأْنَسُ بها إذَا قَدِمَتْ، ويُسْتَبْشَرُ بالْخَيْرِ الذي قد تأتي به، فقد تكونُ مُبَشِّرَاتٍ بمطَرٍ يُحْيِي الأرْضَ الظَّمأىٰ بعْدَ مَوْتها. وقَدْ تكونُ أَنْسَاماً مُنْعِشَةً طيِّبَةً، وقد تَحْمِلُ أنواعاً من اللّقاح للزّروع والثّمار، إلى غير ذلِكَ من آثار رحمة اللّٰه جلَّ جلاله.

هذه الرِّيَاحُ تَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ الرَّبُّ بها، لأنَّها إحدى آياتِه في كونه، وإحْدَى آثارِ رحمَتِهِ بعبادِه.

**الإرسال**: هُو التوجيه لأداء مَقْصُودٍ مَا بتُؤَدَةٍ وتَرَفُّقٍ وأَنَاة، ولتحقيق أَمْرٍ حكيم، ففي الإرسال معنى الحركة اللّيِّنةِ المتتابعة.

**والْمُرْسَلُ**: هو الذي يقوم بما وُجِّه له بأناةٍ وحِكْمَةٍ، ويُؤَدِّي وظيفته بتتابع، أخذاً من قول العرب: جاءت الإبلُ رَسَلاً، أي: متتابعة، قطيعاً بَعْدَ قطيع. **المرسَلات**: جمع «مُرْسَلَةٍ» مؤنث «مُرْسل».

**عُرْفاً**: الْعُرْفُ المروف ضدّ المنكر، وما تعارف الناس عليه في عاداتهم ومعاملاتهم. والجودُ وبَذْلُ النِّعْمة. ويقال: جاء الْقَوْمُ عُرْفاً، أي: بعضهم وَرَاءَ بَعْض.

وعُرْفُ الْفَرَس: شَعَرُ عُنقه، وهو يكون مصفوفاً بالتَّتابع.

والمناسب من هٰذهِ المعاني هنا: معنى الجود والإنعام، ومعنَىٰ التتابع.

أي: والرّياحِ الْمُرْسَلاتِ بتَتابُعِ إرْسالَ إنْعَامٍ ورحمة.

وهي الرّياح المبشِّراتُ برحمةِ اللّه لعبادهِ، بمطَرٍ وغَيْرِه من فيوض عطاءاته الّتي لا يَسْتَطِيع الْعِبَادُ إحْصَاءَها، وتأتي بالنفع الرَّبَّاني، والبشريات الطيّبات.

ولفظ «عُرْفاً» منصوبٌ على أنه حَال، أي: والمرسلات متتابعةً.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾: أي: فأُقسم بالرّياح العاصفات عَصْفاً شديداً.

**الْعَاصِفات**: هيَ التي تَحمِلُ ما على وجْهِ الأرض من عَصْفٍ لشِدَّتها.

يقال لغةً: عصَفَتِ الرِّيحُ تَعْصِفُ عَصْفاً، أي: اشْتَدَّ هبُوبُها، فهي عاصِفٌ، وعاصِفَة، تذكّر وتُؤَنث.

**الْعَصْفُ**: النَّباتُ الْيَابس. وحُطَام التِّبنِ وَدُقَاقُه. وَوَرَقُ الزَّرْع. والْوَرَقُ الذي يَتَفَتَّحُ عن الثَّمر.

هذه الرياح العاصفات تَحمِلُ ما على وجْهِ الأرض من عَصْفٍ، فَتَدُور به، وتتنقَّلُ لتُؤَدّي وَظائف مختلفة، فمنها ما يَنْفَعُ الناس، ومنها ما يكون لامتحانهم، ومنها ما يكُون لتربيتهم، ومنها ما يكون لجزائِهِم وعقابهم.

والعاصفاتُ الّتي تأتي بالعذاب والهلاك، تكون في العادة والسُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ المتَّبَعَةِ عقِبَ الْمُرْسَلات.

**عصفاً**: مَصْدَرٌ لتأكيد الحدث الذي دلَّ عليه اسم الفاعل: «العاصفات».

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ أي: وأُقْسِمُ بنوع الرّياح النَّاشراتِ.

**النَّشْرُ**: الْبَسْطُ والْمَدُّ وتوسِيعُ وُجودِ الشَّيْءِ أو أجْزَائِه في أماكن متعَدِّدَةٍ بحسَبِ قُوَّةِ النَّشر والمدَى الّذِي يصِلُ إليه.

**والرّياح الناشرات**: هي الّتي تَنْشُر بخار الماء وتُكوّن منه السُّحب، وتَنْشُرُ نَوَيَاتِ اللّقاح وغُبارَ الطَّلْع فيكُونُ بنَشْرِها تَلْقيحُ الثمَرَات الّتي يتطَلَّبُ نُضْجُهَا للانتفاع بها لِقاحاً، وتَنْشُرُ بُزُور النباتات لتحقيق منَافع للأحياء في مواضِعَ مُخْتَلِفة من الأرض، وتَنْشُر الرَّوائح، وتنشُر الغازات.

وبأدائها هذه الوظيفة الّتِي جعلها اللّه لها تجتمع بحكمة اللّهِ متباعدات فيحْصُل باجتماعها خَيْرٌ للعِباد، وتَتَفرّقُ بحكْمَةِ اللّهِ مُجْتَمِعَاتٌ، فيَحْصُل بتَفَرُّقِها خَيْرٌ للعباد، ولولا نَشْرُ الرِّياح بقَضَاءِ اللّهِ وقَدَرِهِ لقَتَلَتْ بَعْضُ الرَّوائِحِ، والغازاتُ الضّارّات السّامَّاتُ الأَحْياءَ الْمَوْجُودِين في أمكِنَةِ تَجَمُّعِهَا.

**نَشْراً**: مفعول مطلق لتأكيد الحدث الذي دلّ عليه اسم الفاعل: «الناشرات» وللدلالة على قيمة وظيفتها.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ أي: فَأُقْسِمُ بالرِّياح الْفَارِقاتِ بين الأشياء الّتي تَحْمِلُها عقِبَ نَشْرِها، فَتُوزِّعُها بحَسَبِ مُقتَضَياتِ حِكْمَةِ الرَّبِّ مُوَجِّهِهَا ومُسَيِّرِها.

يُقَالُ لغة: فَرَقَ بَيْنَ الشيئَيْن يَفْرُقُ فَرْقاً وفُرْقَاناً، أي: فَصَل ومَيَّزَ أَحَدَهُما من الآخر. وفَرَقَ الشَّيْءَ، أيْ: قَسَمَه.

**فالرّياحُ الْفَارِقَات**: هي التي تَفصِل الأشياء الّتي تَحْمِلها، وتُمَيّزُ كلّ نوع وصنفٍ منها، وتُوزّعُه بحسَبِ مقتضيات حِكْمَةِ الرَّب جلَّ جلاله. فهذا لِلّقَاح، وهذا للاتّحاد مع غيره، وهذا لتَغْذية النَّبات، وهذا للزَّرْعِ، وهذا للرِّزْقِ، وهذا لرَمْيِهِ في الْقُمَامَاتِ، وهذا، وهذا، وهذا، إلى أُمُور كثيرة يتعذَّرُ عَلَيْنَا إحْصَاؤها.

ومن اللّقاح النويَات الّتي تَصِل إلى أمكنتها في السَّحَاب ليجتمع عليها البخار ويتكاثف وتكوّن قطرات ماء، وهذا من الفرق بعد النشر.

**فَرْقاً**: مصدَرٌ لتأكيد الحدَثِ الذي دلَّ عليه اسْمُ الفاعل «الفارقات» وللدلالة على قيمة وظيفتها.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾:

أي: فأُقْسِمُ بالرِّياح ذوات الصِّفاتِ المختلفات، الَّتي تُلْقِي في أفكار ونُفُوسِ أولي العقول والألباب، ذِكْراً باللّه، وبصفاته الجليلَة، وبأسمائه الحسْنَىٰ.

ومن صفاته جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ، رَحْمَتُهُ بعباده، وفَضْلُهُ العظيم على مَنْ آمَنَ وأطاعَ، وَعَدْلُهُ الحكيم في عقاب منْ كَفَرَ وعصَىٰ.

فاللَّهُ عزَّ وَجَلَّ بتَصَارِيفِ رحَمْتِهِ وعطاءاتِه، وما يُفيضُ على عباده من صنوف نِعَمِهِ عَلَيْهِم، يُذَكِّرُ بفَضْلِه.

وهو عزَّ وجَلَّ بتَصَارِيفِ عُقُوباتِه للمجرمينَ والْعُصَاةِ من عبادِه، يُذَكِّر بعَدْلِهِ.

وهو عزّ وجلَّ ببيَاناتِهِ عن تصاريفه المتنوّعَةِ في الرِّيَاحِ، يُلْقِي الْعُذْرَ قَبْلَ تَنفِيذِ الْعِقَاب فيمَنْ يسْتَحِقُّونه، ويَقْطَعُ بذلك اعتذارَاتهم، إذْ لا يكُونُ لهم عُذْرٌ بِهِ يَعْتَذِرُونَ.

وهو عزّ وجلّ بما أجرى من عقابٍ بالرّيح المدمِّرة للأُمَم المجْرِمَةِ السابقة، يُنْذِرُ بأنّه سَيُجْري نظير عقوباته السابقاتِ، على الْمُجْرِمين المعاصِرين لتنزيل القرآن، أوِ الّذين يَصِلُون إلى مِثْلِ ما وصَلَ إليه المجرمُون السّابقون الذين أهلكهم اللّهُ بالرّيح الْمُدَمِّرَة، ما توالَتِ القرون حتَّىٰ قيام السَّاعة.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾: أَلْقَىٰ الشَّيْءَ، أي: طَرَحه لمن يأخُذُه، ويَنْتَفِعُ به. وكُلُّ آياتِ اللَّه في كوْنه تُلْقِي علماً لمن يَتَعلَّم، وتُلْقِي ذِكْراً بَعْدَ ذلك لِمَنْ يتذكَّر.

فإذا أَلْقَتْ آياتُ اللَّهِ الكونيَّة عِلْماً في أوَّلِ ما يُشَاهِدُها المشاهِدُ من أُولي الألْبابِ، الَّذين يتفكَّرُونَ فيما تَدُلُّ عَلَيه، كانَ من وظائِفِها أنْ تُلْقِي بَعْدَ ذلِكَ ذِكْراً في فِكْرِهِ وَنَفْسِه، كُلَّمَا شَاهَدَهَا، أو سَمِعَ بخبر حُدُوثِها.

وما دَامَتْ آيَاتُ اللَّهِ في كوْنِه دَائمةَ الظُّهور أوْ مُتكَرِّرةَ الحدُوث، فَإِنَّها تُلقِي في نَفْسِ كلِّ مُدْرِكٍ لَهَا عِلْماً ابتداءً، وتُلْقِي بَعْدَ ذَلِكَ ذِكْراً دَواماً أو متكرِّراً.

﴿ذِكْرًا﴾: أي: تَذْكيراً. **الذِّكْرُ**: هو اسْتِحْضارُ معنَىٰ الشَّيْءِ في الذَّاكِرَة. وهو ضدُّ النّسيان. **والذِّكْرُ**: استعادة الشَّيْءِ إلى الذاكرةِ حيناً فحيناً.

ويُطْلَقُ الذِّكْرُ على ترديد لفْظِ الشَّيْء على اللّسان، لأنَّه من وسائل التَّذكُّرِ الفكريّ له. والتَّذكُّرُ الفكْريُّ يسْتَدْعي أيضاً تَرْدِيدَ اللَّفْظ الدَّالّ علَيْه باللِّسَان.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾:

**الْعُذْرُ**: الحجَّةُ الّتي يُعْتَذَرُ بها، والجمْعُ «أعْذار»، وهو مصْدَرُ عذَرَه يَعْذِرُه، أي: قبل حجَّتَهُ فرَفَعَ عنهُ اللَّوْم.

ويأتي اسم مَصْدرِ أعْذَرَ إعْذاراً، أي: أَبْدَىٰ عُذْراً، وفي المثل العربي: «أعْذَرَ مَنْ أَنْذَر» أي: قدّم الاعتذار الذي يُعْذَرُ به، وصارَ ذا عُذْرٍ، مَنْ قَدَّم إنْذارَهُ.

ومن الجلِيّ الواضح لكلّ ذي فكر سليم، أنَّ آياتِ اللَّه في كوْنه، ومنها آيَةُ الرّياح، وآثارُ هذه الآيَةِ، الّتي تَظْهَرُ بنِعَم اللَّهِ على عباده، أو ابْتِلاءَاتِه وتَرْبيَاتِهِ وَجَزاءَاتِه بالثواب أو بالعقاب، هي حُجَجٌ من اللَّهِ جلَّ

جلالُهُ وعظُمَ سُلطانُهُ، يُلْقِيهَا لِمَنْ يَتفَكَّرُ فيها من عباده، فيَعْلَمُ ما تَدُلُّ عليه، ثُمَّ يَتَذَكَّرُ ذلِكَ حيناً فحيناً، أو كُلَّما شَهِدَها أو سَمِعَ بخبرها.

وبها يُقدّم اللَّهُ عزّ وجلّ العذر في أنّه أبان في آياته لعباده آيات صفاته، ومنها رحْمَتُه، وقُدرتُه، وعِلْمُهُ المحيط بكلّ شيءٍ، وحِكْمَتُه في تَصاريفه، بالْفَضْل أو بالْعَدْل.

فإذا أَنزَل بهم عقابه بَعْدَ ذلِكَ على كُفْرِهم وعصيانهم، فَلاَ يَلُومُوا إلاَّ أنفُسَهُمْ.

**النُّذْرُ**: اسْمُ مصْدَرِ: «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إِنْذاراً». **الإِنْذَارُ**: هو التحذير والتَّخويف بمَكْرُوهٍ قادمٍ للتوقي منْهُ.

وجليٌّ أنَّ آيَة الرِّياح تَشْتَمل في بعض تَصارِيفِها العاصِفَةِ، والْقَاصِفَةِ، والمدَمِّرَة، والْمُهْلِكَة لِمُجْرِمِينَ مِنْ أهْل القرون الأولى، على إِنْذارٍ من اللَّهِ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه، بعقابه وعذابه للمجرمين من عباده، ضِمْنَ سُنَنِهِ في كونِه، الّتي لاَ تَبْدِيلَ لَها، ولا تَعْدِيلَ فيها.

**عُذْراً أو نُذْراً**: بَدَلاَنِ من «ذِكْراً». أو منصوبان على الحال من «الْمُلْقِيات».

● قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾:

هذا هو الْمُقْسَمُ عليه، أي: إنّ الّذي توعَدُونَهُ من بعْثٍ، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، في الدار الآخِرة لواقِعٌ في المستقبل حتماً، وهو خَبَرٌ من اللّه صَادِق.

**وَاقع**: اسْمُ فَاعل يَدُلُّ على الاستقبال كالفِعْلِ المضارع، أي: لَسَوْفَ يَقَعُ حتماً.

فَمَنْ يُجْرِي في كونه آيَةَ الرِّياح العظيمة الجليلة الخطيرَة، ويُعَاقِبُ بها

عِبَادَهُ الْمُجْرِمين، بالإهلاك الشامل في الحياة الدنيا، كَمَا فَعَلَ بمُجْرِمي القرون الأولى، لا يُمْكن عقلاً أنْ يخْبِرَ إلاّ بصِدْق.

فلا تَغُرُّوا أنفسكم أيها المكذِّبون المجرِمُون بإمْهال اللّه لَكُمْ، وَعَدَم تعْجِيلِ عقابه، فإنَّ من سنَّتِه أَنْ يُمْهِل، لكِنَّهُ لاَ يُهْمِلُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

❁ ❁ ❁

## (٧)
## التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة

### الآيات من (٨ ـ ١٥)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

- قرأ أبو عَمْرٍو: [وُقِّتَتْ] بالواو وبتشديد القاف.
- وقرأ أبو جَعْفر: [وُقِتَتْ] بالواو وبتخفيف القاف.
- وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرةِ: [أُقِّتَتْ] بالهمزة وبتشديد القاف.

**وقَتَ، ووَقَّتَ الشَّيْءَ**: جَعَلَ لَهُ وَقْتاً، فَيُقَال: وَقَّتَ وَوَقَتَ الرَّجُلَ لِيُؤَدِّي الْعَمَلَ المطلوبَ منه، ويقال: وقَّتَ ووَقَتَ الْعَمَلَ لِيُؤَدِيَهُ المكلَّفُ أَنْ يَعْمَله.

ويقال لغة أيْضاً: أَقَتَه وأَقَّتَه، وهو من التبادل بين الواو والهمزة في اللغة، يقول علماء العربية: أصل الهمزة هنا الواو، وأبْدِلَت الواو همزةً،

لأنَّ الواو إذا كانت أوَّلَ حَرْفٍ وضُمَّتْ، جاء في اللُّغة إبدالُها همزة، ومنه: وجُوه وأَجُوه، ووُقت وأُقِت.

والمعنَىٰ في الكُلِّ يَرْجِعُ إلى تحديد الوقْتِ بمُبَالَغَةٍ ودِقَّةٍ بحسب دلالة الفعل المشَدَّد، وبِسَعَةٍ بحسب دَلالة الفعل المخفَّفِ، فيكُونُ بَيْنَ وُقِتَ، وَوُقِّتَ تكاملٌ في الدَّلاَلَةِ على المعنى المراد، فمِمَّا يُحَدَّدُ وقْتُهُ لا يُجْعَلُ له في الوقت سَعَةٌ، ومنه ما يُحَدَّدُ لَهُ وقْتٌ مُوسّع، كالتَّوسيع في الوقت لأداء الصلوات المفروضة.

**تمهيد:**

أبان اللّه عزّ وجلّ في هذا الدرس من الأحداث المستقبليّة الّتي سوف تحدث قبْل يوم القيامة، يوم الدين، الذي تُبْعثُ فيه الخلائق للحساب وفَصْلِ القضاء وتحقِيق الجزاء، أربعة أحداثٍ عظْمَىٰ، ثلاثة منها كونِيَّة، والحدث الرابع منها تكليفيٌّ للرسُل من عباد الله.

**الحدث الأوّل:** طَمْسُ النجوم.

**الحدث الثاني:** فَرْجُ السَّمَاء، بإحداثِ انفتاحٍ وانْشِقَاقٍ ما فيها.

**الحدث الثالث:** نَسْفُ جبال الأرض.

**الحدث الرابع:** تأقِيتُ الرُسل، وهو حدَثٌ تكليفِيٌّ يُوجَّه للرسُل من الملائكة، وقَدْ يكون من غيرهم أيضاً، للقيام بالوظائف الّتي يكلّفُونَ القيام بها يَوْمَ الدين، وهو يوم فَصْلِ أقضية اللّه بَيْنَ الذين كانوا ممتحنين مُكَلَّفين في رحلة الحياة الدنيا.

● قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾:

﴿طُمِسَتْ﴾: أي: ذَهَبَ ضوْؤُها ومُحِي، أو انْدَرَسَتْ وذهب كُلُّ أثر لها.

**الطَّمْسُ في اللُّغَة**: هو الدُّرُوسُ وذهابُ كلِّ أثرٍ للشَّيْء.

فإذا أرَدْنَا أن نَجْمَع جمعاً تكامليًّا بين هذا النَّصّ الذي جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) وبين النَّصّ الآخر الذي جاء في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾.

ظهر لنا ما سبق بيانه لدى تدبُّر سورة (التكوير)، وهو: أنّ الانكدار يأتي بمعنىٰ الإسراع المتوسط في الْعَدْو، ويأتي بمعنى الانقضاض، ومنه انكدارُ الطير الكاسر إذْ ينقضُّ على فريسته، ويأتي بمعنىٰ الكُدْرَةِ، وهو اللَّوْنُ الضَّارِبُ إلى السَّواد والْغُبْرَة.

ومن جَمْعِ هذه المعاني مع ما دَلَّ عليه الطَّمْسُ، نُدْرِكُ أَنَّ النجوم في الأحداث المستقبليَّة الّتي تكون قَبْلَ يَوْمِ الدين، تَمُرُّ في مراحل.

● فهي تنفَلِتُ من نظام جاذبياتها، وتخْرُج عن مداراتها وطُرُق سيرها.

● وبَعْدَ ذَلِكَ تُسْرِعُ كالطّائرِ المنقضِّ على فريسته، وتتناثر في الجهات على خلاف مواقعها ومسيراتها الّتي كانت لها في نظام ظروف الحياة الدنيا.

● وأثناء ذلِكَ تَخْفِتُ أضواؤها وتغشاها كُدْرَة.

● وبَعْدَ كُلّ ذَلِكَ تنطَمِسُ انطِمَاساً كُلّيّاً وتَنْدَرِس، ويذْهَبُ كُلُّ أثَرٍ لها، وقد يكون انطماسها بسَبَبِ انْفِجاراتٍ تَحْدُثُ فيها، فتتناثر شظايا في السّماء الواسعة، ويُمْحَىٰ كُلُّ أَثَرٍ لها يُرَىٰ بالأبْصار، وتصير السَّماءُ في ظُلْمَةٍ تَامَّة، لا أثَرَ فيها لأضواءِ أو أنوار النجوم.

وهذه الظاهرة قَدْ تَحْدُثُ أَحْيَاناً لبَعْضِ النجوم في هذا النّظام الأوّل

الذي نحيا فيه الحياة الدُّنيا، دليلاً على ما سَوْفَ يَحْدُثُ لسائر النجوم، عند إنْهَاءِ برنامج الْيَوْم الأوّل، ثم البدْء ببرنامج اليوْم الآخِر.

● قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾.

﴿فُرِجَتْ﴾: أي: فُصِمَ مَا فيها من الْتحام في نِظامها الشَّامل، فَجُعِلَ فِيها مَنَافِذُ مُنفَرِجة، ويَكُونُ هٰذا بتغيير نظام التَّماسُك والترابُطِ بَيْنَ عناصِرها الملْتَحمَةِ، وقد يكون هذا بفَكِّ الجاذبيات بيْنَ أجرامها.

تقول لُغةً: فَرَجَ فُلاَنٌ بين الشَّيْئَين المتلاصقَيْن يَفْرِجُ فَرْجاً، أي: أحْدَثَ بينهما شقّاً، ففَصَلَهُما به.

أمّا السَّماءُ في نِظَام هذا اليوم الأَوَّل قَبْلَ إنْهائه، فهي مَبْنِيَّةٌ بناءَ مُتَماسِكاً لا فُرُوجَ فيه ولاَ شُقُوق، ولَيْسَ معنَىٰ هذا أَنَّها مُتَلاصِقَةُ الأجْرام، فبِنَاءُ كُلِّ شيءٍ يكون بحَسَبِ نِظَامِهِ، إنَّ نظامَ بناء بيْتِ أهْلِ البادية من الخيام، غَيْرُ بناء أهل الحضر من لَبِنٍ وحِجَارة وطين، وغَيْرُ بناء الخليَّةِ في الجسم.

قال اللّهُ عزّ وجَلَّ يَصِفُ السَّمَاءَ القائمة في هذا الْيَوم الأَوّل بقوله تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾.

أي: فهي الآن مبنيَّةٌ بنظام متماسِكٍ، لا شقُوقَ فيه يَحْدُثُ عَنها خَلَلٌ في تَمَاسُكِ أجْرَامِهَا، وقَدْ يكونُ هذا بالجاذبيَّاتِ فيما بينها، واللّهُ أعلم.

## ما جاء في القرآن المجيد عن الأحداث المستقبليَّة في السّماء:

لقد جاء في القرآن المجيد بيانٌ لَمْحِيٌّ موجزٌ عن أحداث مستقبليَّةٍ تحدُثُ في السَّماء، أَستَعْرِضُها بحسَبِ تَرْتيب نُزُول سُوَرِها:

**النصّ الأول:**

قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١﴾:

﴿كُشِطَتۡ﴾: أي: نُزِعَتْ كَمَا يُنْزَعُ الْجِلْدُ حينَ تُسلَخُ الذبيحة.

**الكشطُ في اللّغة:** يأتي بمعنى إزالة نَحْوِ الْجِلْد عن اللّحم ونزعِهِ عنه.

ويأتي بمعنى نزع كُلّ ظاهِرٍ متماسكٍ نوع تماسُكٍ بباطن، وبمعنى رفْع شيءٍ عن شيءٍ قَدْ غَطَّاهُ وغَشِيَه، ومنه كَشْط جُلّ الفرس عن جسْمه. **الكشْطُ والْقَشْط:** بمعنى واحد.

**الْجَلُّ والْجُلّ:** مَا تُغَطّىٰ به الدابة لتُصَان.

**النصّ الثاني:**

قول اللّه عزّ وجل في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) الّتي نتدبّر دروسها وآياتها:

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩﴾:

وقد سبَقَ آنفاً بيان معناها، بحَسَب مفهوم «فُرِجَتْ» في اللّغة.

**النّص الثالث:**

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦﴾.

أي: تَنْشَقُّ انشقاقاً مَا تكونُ بِهِ واهيةً، أي: تكون به ضعيفة التّماسُك، ضعيفَةَ الْقُدْرَةِ على الحمْلِ بسبب الانشقاق الذي يَحْصُل فيها.

**النَّصُّ الرابع:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾.

الانفِطَارُ والتَّفَطُّرُ هو أوّل الانشقاقِ في ظاهر الشيء، وقد جاء في الحديث أنّ الرسول ﷺ قام من اللَّيلِ يُصَلِّي حتَّىٰ تفطّرتْ قَدَماه، أي: تشقَّقَتا.

ويقال: تفطَّرَتِ الأرضُ عن النَّبات، أي: تشقَّقَتْ، فَهُو تشقُّقٌ ابتدائيٌّ يحْصُل للشيء.

**النصّ الخامس:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول):

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾:

وقد جاء بيان هذا الانشِقاق مقترناً ببيان أنّ السّماءَ قَدْ استَمَعَتْ مطيعةً أمْرَ رَبِّها، وببيان أنّها مَحْقُوقَةٌ بقَضَاءٍ جبريٍّ أنْ تَسْمَعَ وَتُطِيع، ولعَلَّ في هذا إشارةً إلَىٰ آخِرِ أطوار الانشقاق فيها.

**النصّ السادس:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۝٣٩﴾.

أي: إنَّ السَّمَاءَ تنشَقُّ انشقاقاً تكُونُ معَهُ وردَةً كالدّهان، أي: حمراء كَلَوْنِ الوردَةِ الحمراء، ومائِرةً مائجةً صافيةً كالدِّهان، جَمْع دُهْن، أو كالأَدِيم الأحْمَر.

هذه الأحداثُ الّتي دلّت علَيْها هٰذهِ النُّصُوص ممّا سوْفَ يحْدُثُ في المستقبل، يُمْكِن أنْ نتصَوّر ترتيبها على الوجه التالي بالنظر إلى ترتيب الأحداث وفق سُنَن اللّه في كَوْنه:

**أولاً**: يحدُثُ في السَّمَاءِ انفطارٌ أَوَّليٌّ غير عميق.

**ثانياً**: ثم يحدُثُ بعْدَه انْفِرَاج ما.

**ثالثاً**: ثم يحدُثُ فيها نشقاقٌ تضْعُفُ فيه فتكونُ واهية.

**رابعاً**: ثم يزيد الانشقاقُ حتَّىٰ تكونَ السّماء كالوردَة الحمراء بانعكاساتِ أشِعَّةٍ خاصَّةٍ عليها، وتكون رَجْرَاجَةً كالدُّهْنِ السَّائل في عَيْنِ النَّاظر إليها.

**خامساً**: ثُمَّ تَنْشَقُّ انشقاقاً كُلّيّاً تامّاً.

**سادساً**: ثُمَّ تُكْشَطُ كَمَا يُكْشَطُ جِلْدُ الذّبيحَةِ عنْدَ سَلْخِ جلْدِها عنها.

واللَّهُ أعلم.

وهل هٰذه الأحداث تكونُ في السماء القريبة المحيطَةِ بالأرض، وهو ما نُسَمّيه بالْغِلاف الجوّيّ، المؤلف من الغازاتِ التي جعَلَها اللَّهُ عزّ وجلّ مادّة من موادّ شُروطِ حياة الأحياء على الأرض.

أو هي أحداثٌ تكونُ في السَّماءِ البعيدة الّتي تَسْبَحُ فيها النجوم؟

اللَّهُ أَعْلَمُ بمراده، وقد ينكَشِفُ في المستقبل لعلماء البحث العلميّ في الظاهرات الكونيّة ما يَهْدِي إلى المراد إنْ شاء اللَّهُ ذلك من أمارات ودَلالات كونيّة.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾:

﴿نُسِفَتْ﴾: أي: ذَهَبَتْ بها الرّياح فلَمْ يبْقَ على ظاهر الأرض جبال.

**النَّسْفُ في اللغة**: اقتلاع الشيْء والذَّهابُ به، يقال لغة: نَسَفَتِ الرِّيحُ الشيْءَ تَنسِفُه نَسْفاً، وانتسفَتْهُ، أي: سَلَبَتْهُ، وَحَمَلَتْهُ، وَذَرَتْهُ.

وهذا الحَدَثُ يكونُ بعْدَ مَرْحلة بَسِّ الجبال، وبَعْدَ جَعْلِهَا كَكُثْبَانِ

مَهِيلَةٍ من الرِّمال، إذْ تأتي الرِّياح فَتَنْسِفُهَا، وتَسْفِيها، ولا تُبْقِي لها أثراً مُرْتفعاً، وعندئذٍ تكُونُ الجبال قَدْ سُيِّرَت، أيْ: ذُهِبَ بها، وتكُونُ الأرضُ كُلّها عندئذٍ بارزةً سَطْحاً مُسْتَوِياً، لاَ يَرَىٰ فيه الرائي عِوَجاً ولاَ أَمْتاً[1].

وقد سبق لدىٰ تدبُّر سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) بيانُ المراحل التي تتعَرَّضُ لها الجبال قُبَيْلَ السَّاعَةِ وعند قيامها، أخْذاً من دلالات النصوص القرآنية، وهي إحدى عشرة مرحلة:

(١) مرحلة الدَّكّ.

(٢) مرحلة جعل الجبال ليّنَةً كالعِهْن، أي: كالصوف المصبوغ ألواناً.

(٣) مرحلة جعل الجبال كالْعِهْنِ المنفوش.

(٤) مرحلة بَسِّ الجبال، ويكون به تفْتِيتُها إلى أجزاءٍ صغيرة.

(٥) مرحلة جعل الجبال بالبسّ كالكثيب الْمَهِيل، أي كالرمل الذي يتساقط بتدافع من الأعلى إلى الأسفل بأدنى حركة.

(٦) مرحلة سَيْرِ الجبال سيراً غير شديد.

(٧) مرحلة مُرُور الجبال كمَرِّ السَّحاب.

(٨) مرحلة تسيير الجبال بقُوَّة.

(٩) مرحلة نَسْفِ الجبال وتذرِيتها متناثرة.

(١٠) مرحلة تسيير الجبال حتَّى لا يُرَىٰ من آثارها إلاَّ مِثْلُ السَّراب، رُؤيةً بلا حقيقة.

(١١) مرحلةٌ لاَ يَبْقَىٰ فيها من الجبال أَيُّ أَثَرٍ ولا مِثْلُ السّراب.

---

(١) **الأَمْتُ**: الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ورِقَّةً وصَلابةً.

واللّه أعلم كيف يكون ترتيب هذه المراحل.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾﴾؟

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾﴾: أي: وَإِذَا الرُّسُلُ حُدّدَتْ أوقاتُ قيامها بوظائفها المأمُورَةِ بِقِيَامِهَا يَوْمَ الدين، والمعنى أنّها أُعْلِمَتْ بوظائفها الّتي علَيْها أن تَقُومَ بها يوم الدّين مع إعلامِها بأوقاتِ قيامها بها، فلا أحد يوم الدّين يقومُ بعملٍ ما إلاّ بأمْرِ اللّه أو بإذْنه.

في هذا بَيَانُ أنّ الرُّسُلَ المعنيّين يُعْلَمُونَ في وقْتٍ من الأوقاتِ قبْلَ يوم الدّين، وقد يكون بعْدَ طَمْسِ النجوم، وفَرْج السَّمَاءِ، ونَسْفِ الجبال، بوظائفهم في المواقيت المحدَّدة الّتي يخْبَرُون بها، مؤجّلَةً إلى يوم الْفَصْل بين الخلائق، وهو يَوْمُ الدّين.

ونَفْهَمُ من معنى: ﴿أُقِّتَتۡ﴾ بُيّن لها تَحْدِيدُ أعمالها وأمكنة القيام بها وأوقاتها المؤجلة، للقيام بوظائفها المتعلِّقَة بأحْدَاث يوْم الدين، ضمن التكليف.

أصل التوقيت تحديد الوقت الزماني، ثمّ جرى التوسُّعِ اللُّغوي فيه، فصار يَشْمَلُ تحديد الزَّمَانِ والمكانِ والعمل(١).

قول اللّهِ تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾﴾:

إنَّ التَّوْقِيتَ يَدُلُّ علىٰ تَحْدِيدِ وقْتٍ مُؤَجّلٍ، ولا يَدُلُّ عَلَىٰ القيام

---

(١) من التوقيت المكاني تحديد مواقيت الإحرام بالحجّ والعمرة، فتُسَمَّىٰ الأماكن: مواقيت.

ومن التوقيت الخارج عن الزمان والمكان، ما جاء في حديث ابن عباس، قال: «لَمْ يَقِتْ رسُولُ اللّهِ ﷺ في الخمر حدّاً» أي: لم يُحَدِّدْ مقدار عقوبة شرب الخمر بعدَدٍ مخصوص من الجلدات.

بالْعَمَل عنْدَ تَوْجيه الأمْرِ التكليفيّ، وهذا يستَثِيرُ في نَفْسِ المتلَقّي سُؤالاً، جاء التعبير عنه في النّصّ بقوله تعَالَىٰ: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ وهَـٰذا من أساليب البيان البديعة، أن يأتي في النَّصّ ما تَطْلُبُ نُفُوسُ المتَلَقّين الإجابَةَ علَيْه، فيقوم المتَحدّث بطَرْحِ السؤال الذي يَدُورُ في نفوس المتلَقّين، مُسْتَفْهِمين وطالبين الإجابَةَ عليه، وبَعْد طرحه يُجيب عنه.

وَأجَابَ النَّصُّ بقول الله تَعَالىٰ: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾: أي: لِيَوْمِ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخلَائِقِ يَوْمَ الدّين، بأحْكَام اللّهِ الجزائيّة عَلَىٰ ما قَدَّمُوا في رحْلَةِ الحياة الدنيا، رِحلة الامتحان.

واختير هنا من أحداث يوم الدين ذكر «الْفَصْل» وفي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ اختير من أحداثه ذكْرُ «الحساب» وفي نُصُوصٍ أُخْرى اختير من أحداثه ذكر «الجزاء» على منهج القرآن في تَوْزيع عناصر الموضوع على مختلف النُّصوص، ليظهر بين النُّصوص التكامل على رغم ما بينها من تَعَدُّدٍ في السُّور، وتباعُدٍ في أزمان النزول، وهذا من عناصر إعجاز القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجَدَ الباحثون فيه اختلافاً كثيراً.

ويُمْكِنُ أن نَفْهم أنّ الْمُرادَ بالرُّسُل الرُّسُلُ من الملائكة المكلّفينَ أن يكتُبوا أقوالَ النّاسِ وأعمالَهم لتقديم شهاداتهم بما دَوَّنُوا وكَتَبُوا، والمكلّفين أنْ يَسُوقوا أصْحَابَ النّار إلى دَرَكَاتِهِمْ فيها، وأنْ يَسُوقُوا أصْحَابَ الجنة إلى دَرَجَاتِهم ومَراتِبهم فيها، إلَىٰ غير ذَلِكَ من أَعْمَالٍ وَضَعَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في خُطَّتِهِ لِيَوْمِ الدّين تَكْلِيفَ الرُّسُل من الملائكةِ أن يَقُومُوا بها، في موقف الحشْر، وفي موقف الحساب وفَصْلِ القضاء، وعنْدَ التَّوْجيه لتحقيق وتنفيذِ الجزاء الذي يقضي به الباري جلّ جلالُهُ، وعَظُمَ سلطانه.

وقَدْ يشْمَلُ لفظ ﴿الرُّسُلُ﴾ الرُّسُلَ من البشر أيضاً، واللّهُ أعلم بمراده.

قول اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾:

سبَق أن علمنا أنَّ هذا التَّعْبير ونظائِرَهُ في القرآن، أسْلُوبٌ قرآنيٌّ مبتكَرٌ للتعجيب والتهويل والتعظيم.

أي: أعْظِمْ بيَوْم الْفَصْل إعْظَاماً كثيراً لاَ يَصِلُ إليه مدَىٰ إدْرَاكِكَ مَهْما سبَحْتَ في التخيُّل.

قول اللّه تعالَىٰ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾:

سبق لدى تدبُّر سورة (الهمزة) شرح نظير هذا التعبير، وبيان معنى كلمة: «وَيْل» وأُوجزه بما يلي:

﴿وَيۡلٞ﴾ كلمة تهديد بعذاب شديد. وورد أنَّها اسم علَمٌ على وادٍ في جهنم، والجملة مؤلفة من مبتدأ وخبر.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ التنوين هنا هو تَنْوينُ العوض عن إعادة ما سَبَقَ بيانُه، وهو هنا: ﴿يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي: عذابٌ شَدِيدٌ في وادٍ سحيقٍ من وِدْيَان جهنَّم، يَوْم إذ يكون الْفَصْلُ في الأحكام بين العباد، للمكذِّبين بِيَوْمِ الدِّين الذي يُوعَدُونه، والتكذيب بيَوْمِ الدِّين مصحوبٌ دواماً بتكْذِيب الرَّسُولِ في نُبوَّتهِ ورِسالته، وبالتكذيب بالقرآن، وبالآيات الباهرات على صِدْق الرَّسُول، والدالأت على أنَّ القرآنَ كَلامُ اللّه المنزّل، الذي لاَ يأتيه ولَمْ يأته الباطل من بَيْنِ يَدَيْهِ ولا من خلفه.

وجاء هذا التحذير مُكَرَّراً في السُّورَةِ بفنِّيَّةٍ جميلة عِنْدَ مفاصِلها عشْرَ مرَّاتٍ، إذْ يأتي قَرْعُ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ عَقِبَ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْ مَفَاصِلِها، وسيلةً من وسائل العلاج النَّفْسِيّ، المناظِرِ لتكرير العلاج الدوائي آناً فآناً عَقِبَ كلّ وجْبَةٍ من وَجباتِ الطَّعَام، وجاء التكرير هُنَا عَقِبَ وجبات البيان الإقْنَاعي، أو الوعيد بالعذاب الأليم يوْمَ الدين، أو الوعْدِ بالنَّعِيم العظيم المقيم في الجنَّاتِ الَّتي أعدَّهَا اللّه للمتَّقِينَ والأَبْرار والمحسنين.

❁ ❁ ❁

## (٨)

# التدبّر التحليلي للدّرسِ الثالث من دروس السّورة

### الآيات من (١٦ ـ ٢٨)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

● قرأ نافِعٌ، والكِسَائي، وأَبُو جَعْفَرٍ: [فَقَدَّرْنَا] بِتَشْدِيد الدّال.

قرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتخفيف الدال.

التشدِيدُ يَدُلُّ على العناية بتحديد المقادير في خُطَّة التكْوين.

والتخفيف يدُلُّ على التنفيذ بالْقُدْرَةِ الّتي يخلق اللّه عزّ وجلّ بها ما يشاءُ على ما يشاء بأمر التكوين: كن.

فالقراءَتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ في أداء المعنى المراد.

**تمهيد:**

هذا الدَّرْسُ من دُروس السورة تضمَّن الاستدلال على قانون الجزاء الرَّبّاني، بالإشارة إلى أحداث تاريخ الأمم الغابرة، الّذِين أهلكهم اللّهُ بسبب تكذيبهم رُسُلَ رَبّهم، وتَكْذِيبهم بيوم الدّين.

وتضمَّن الاستدلال على قُدْرَةِ اللّه على بعْثِ الموتَىٰ للحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء، بظواهر كونيَّةٍ مَشْهُودَة، هي آياتٌ قائماتٌ دوماً دالاّتٌ على أنّ اللّهَ عزّ وجَلّ قدِيرٌ على أَنْ يَخْلُق ما يشاءُ بَدْءاً وإعادة، على غَيْر مثالٍ سبَقَ، أو على مثالٍ سبَقَ.

**التدبّر:**

● قول اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾:

أي: إنَّ من الأدلَّةِ الْوَاقعيَّة على قانون الجزاء الرَّبَّاني، إهلاكَ اللّه عزّ وجلّ للمجرمين الأوّلين، الذينَ كذبوا رُسُلَ ربّهم، وكذّبُوا بنبأ يوم الدين وما فيه من حساب، وفَصْل قضاء، وتَنْفِيذِ جزاء، ومنهم قومُ نوحٍ، وأقوام عادٍ وثمود وفرعون.

إنّ قِصَص إهلاك اللّه مجرمي القرون الأولى قِصَصٌ معروفة مَشْهُورة، وبَعْضُ آثارهم مشهودة، وما كان الرّبّ الحكيم الرحيم ليُهلِكَهُمْ إهلاكاً جماعيّاً شامِلاً، إلاّ بذُنُوبٍ كُبْرىٰ أصَرُّوا على ارتكابها، فكان من الحكْمَة تطهيرُ الأرض منهُمْ، فأنذرهُمُ اللّه بالإهلاك الشامل على أَلْسِنَةِ رُسُله، فاستهانوا بإنذار اللّهِ لهم، ولم يَعْبَؤُوا بأوامر اللّه ونواهيه لهم، وأكثَرُوا في الأرض الفساد، فأهلكهم ربُّهم على ما فصَّله في نُصُوصٍ متعدّدة من سُور القرآن المجيد.

جاء التَّنْبيه على هذا الدليل بأُسْلوب الاستفهام التقريريّ، لانتزاع اعتراف المخاطبين، وإقرارهم بأمْر إهلاك اللّه المجرمين الأوّلين، نظراً إلىٰ أنَّ إهلاك المجرمين الأوّلين من الأمور المعلومة تاريخيّاً، ونظراً إلىٰ أنّ الآثار الدالّة على إهلاكهم ظاهرةٌ في مواقِعَ كثيرة يَعْرِفُها المخاطَبُونَ، ولا سيما ما كان منها في الجزيرة العربيَّةِ وَما حَوْلَها.

والكلام على تقدير محذوف هو لفظ «الْمُجْرمين» بدليل قول اللّه عزّ وجلّ بعْدَ آية: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨﴾ أي: بكلّ المجرمين، فَسُنَّةُ اللّه بعباده واحدة حتّىٰ يرث اللّهُ الأرض ومَنْ علَيْها.

● قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧﴾:

أي: ثُمَّ في الزّمن الْبَعيد المتراخي الَّذِي يُوجَد فيه مُجْرِمُونَ آخِرُونَ مُشَابِهُون للْمُجْرِمين الأوّلين، فَنُهْلِكُهم إهلاكاً عامّاً شاملاً، ونجعلُهم تابعين

للمجرمين الأوَّلين الّذين أكثَرُوا في الأرض الفساد، ضمْن أفواج الحشراتِ البشريَّة المهلكَةِ في التاريخ.

هٰذه الآيَةُ تُشِيرُ إلَىٰ أنَّ آخِر النَّاسَ في الأجيال البشريَّة سيَكُونون مُجْرِمين يستَحِقُّون الإهلاك الشامل، ولا يكونُ فيهم من يؤْمِنُ باللّهِ، وعَلَيْهِم تَقُومُ السَّاعَة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنّ السّاعة لا تقوم إلاّ على شرار الناس، ولا تقوم حتَّىٰ لا يبقَىٰ على الأرض من يقول اللّه اللّه، وهؤلاء الأشرار يتهارجون فيها تَهارُجَ الْحُمُر، أي: يتسافَدون علانية كالحمير، فعليهم تقوم الساعة(١).

● قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: مثل ذلك الإهلاك الذي فعلْنَاهُ بالمجرمين الأوّلين، وسَوْفَ نَفْعَلُهُ بالْمُجْرِمين الآخِرِين، نَفْعَلُ أيضاً بسائر المجرمين الّذين يوجَدُون بيْنَ الأوّلين والآخِرين، من الأُمم التي تَصِلُ في جرائمها وَإفسادها في الأرض، إلَىٰ مِثْلِ مَا وصَلَ إليه المهْلَكُونَ مِنَ المجرمين الأوّلين، والمراد الإهلاك الجماعيُّ العامّ.

وقد كان إهلاك المجرمين الأوّلين بأنواعٍ من وسائل الإهلاك الرَّبّانيّة، عقوبةً معجّلةً لهم، وتطهيراً للأرض منهم، وبرهاناً على قانون الجزاء الرّبّاني، أمّا العذابُ فيكون بحسَبِ جرائم كُلّ فرْدٍ منهم يَذُوقه على مقدار استحقاقه بالعدل.

وإذْ قَامَ الدليلُ على قانون الجزاء الرَّبّانيّ الحكيم العادل، فَمِنَ المناسب اعتبارُ هٰذِه الفقرة من السورة مَفْصلاً للتحذير والتهديد بعبارة:

---

(١) من هذه الأحاديث ما رواه مسلم عن النوّاس بن سمعان، وقد تضمّن بيان خروج الدجال ونزول عيسَىٰ عليه السلام، وقتله الدّجال.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ الّتي سبق بيان اختيارها للتكرير العلاجي، عند مفاصِلَ محدَّدَة بإحكام من مفاصل هذه السورة العظيمة.

❁ ❁ ❁

● قول اللّهِ تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

● قرأ نافع، والكسائيّ، وأبو جعفر: [فَقَدَّرْنَا] بِتَشْدِيد الدال.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتخفيف الدَّال.

يقال لغة: قَدَرَ الأمْرَ وَقَدَّرَه، أي: حدّد مقاديره، ودَبَّره قبل إيجاده.

ويقال لغة أيضاً: قَدَرَ على الشيء فَهُو قادِرٌ وقدِير، أي: تمكَّنَ منه، فإذا كان فعلاً فعله باستطاعة تامّة وإذا كان خلْقاً خَلَقَه كما قَدَّرَه في خُطّةِ إيجاده باستطاعة تامّة.

قَدَرَ عَلَىٰ الشيء يَقْدِرُ وَيَقْدُرُ، وَقَدِرَ عليه، أي: تمكّنَ بقوّتِه من التصرّف فيه على ما يشاء.

واللّهُ عزّ وجلّ قَدْ حدَّدَ مقادير مخْلُوقاته في خُطَّتِه السَّابقةِ لتكوينها، وأَوْجَدَ مَا خَلَق بقُدْرَةٍ تَامَّةٍ لم يحدُثْ فيها إعْياءٌ ولا ضعف ولا كَلَلٌ ولا مَلَل.

فبَيْنَ قراءتي: [فَقَدَّرْنَا] و﴿فَقَدَرْنَا﴾ تَكَامُلٌ في أداء المعنى المراد، وهذا من الإيجاز في القرآن، وهو من عناصر الإعجاز.

جاء في هذه الفقرة عرض دليلٍ مشهود في الكون على قدرة اللّهِ على البعث.

● ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾:

جاء استعمال نون المتكلم العظيم وهو الرّبّ جل جلاله، إشارة إلىٰ عظَمَة إتقان الخلق.

﴿مِّن مَّآءٍ﴾: هو ماء الرَّجُل وهو «المنيّ».

﴿مَّهِينٍ﴾: أي: قليلٍ حقيرٍ ضعيف. «مَهِين» على وزن «فَعِيل» من فعل «مَهُنَ يَمْهُنُ مَهَانَةً» أي: قَلَّ وصَغُرَ وضعُف.

● ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: فجَعَلْنَا هذا الماء الّذِي هو المنيّ في استقرارٍ أو في مكان استقرارٍ ملائم تماماً لوضع نُمُوّ الجنين، وحمايته، وثباته وتغذيته، حتى نضجه وولادته طفلاً.

﴿فِى قَرَارٍ﴾: قرار: مَصْدَرُ قَرَّ بمعنىٰ استقرّ وثبت. أو في مكان استقرار حيث يتمُّ تلقيحه لبُيَيْضَةِ الأنثى، وحيث يتمّ علوقه بجدار الرحم، ثم نُمُوُّه مستقرّاً فيه، حتّىٰ حين ولادته طفلاً.

﴿مَّكِينٍ﴾: أي: هذا القرار مَكِين، بمعنى أنه ذو مكانٍ ملائمٍ تماماً لنموّ الجنين وثباته حتى ولادته.

وكلُّ ذَلِكَ يَتِمُّ بجعل اللّه وتقديره وخَلْقه، إذْ يُوَجّهُ الأسباب للقيام بوظائفها، لتحقيق الأطوار المقدّرة بقضائه وقَدَرِه، ويكونُ تَنفِيذُها وتكوينها بقُدْرَته.

وجاء استعمال ضميرِ المتكلّم العظيم الرّبّ جلّ جَلاله إشارةً إلَىٰ عظمة جعل الجنين في قرارٍ مكين.

● ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: إلى تحقيق قَدَرٍ مقدّرٍ مقضيٍّ ومعلومٍ سابقاً، وهذا القَدْرُ يشْمَل المقادير الزمانيّة والمكانية والذّاتية والوصفية، ومقاديرَ كلِّ شيءٍ في خَلْقِ كلّ

جنين، من ذوات وصفات، وأطوارٍ وأحْوَال وغير ذلك.

فكُلُّ خلْقٍ محدَّدٌ بمقدار، وكُلُّ حَرَكةٍ محدّدَةٌ بمقدارٍ، وكُلُّ طوْرٍ محدّدٌ بمقدار، وكُلُّ وصْفٍ مُحَدَّدٌ بمِقْدار.

● ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

يدلُّ فعل: «فَقَدَرْنَا» على تَحْدِيدِ المقادير، وعلى الْقُدْرَةِ على تكوين المخلوق وفْقَ المقادير المحدَّدةِ في خُطَّة تكوينه.

وكذلك اسْمُ الفاعل «الْقَادِرُون» يدُلُّ على المعنيين.

وجاء استعمال ضمير المتكلم العظيم، واستعمال لفظ الجمع، لأنّ خَلْقَ الأجنَّةِ على ما وصَفَ النَّصُّ، لا يُمْكن أن يَفْعَلَهُ إلاَّ الرَّبُّ العظيم، الذي يَخْلُق ما يشاء ويختار بعلمه وحكمته وقُدْرَته.

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾: أي: فنِعْمَ الْمُقَدِّرُونَ نَحْنُ، ونِعْمَ ذَوُوا القدرة القادرَة علىٰ خَلْقِ مَا نَشَاءُ ونَخْتار نَحْن.

والمعنى: فَحَدَّدْنَا مقاديرَ كُلِّ شيءٍ في خَلْق الأجنَّةِ بأبْدَع نظام، وأتْقَنِه وأحْكمه، وأصْلَحِه لتحقيق الغاية منه.

وقَدَرْنَا على تنفيذِ وخَلْق مَا قَدَّرْنَاهُ في خُطّة التكوين، بقُدْرَةٍ قَادِرَةٍ على خَلْقِ مَا نشاء، مهما كانت عظيمة وجليلة.

وكلٌّ من الأَمْرَيْنِ نَسْتَحِقُّ المدْحَ والثناءَ والحمْدَ عليه، بفعل المدح «نِعْم» فقال جلّ جلالُهُ ثَنَاءً على وصْفَيْه بأنّه مقَدِّرُ المقادير، والقادر على تنفيذها: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾. فكلٌّ من الأمْرَين هو من الأمور الجليلة العظيمة التي لا تَصْدُرُ إلاّ عن رَبٍّ خَلاَّقٍ عظيم جليل عليم حكيم قدير.

إنّه جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه مستحقُّ الحمْدِ كلّه، وكُلُّ مَحْمُودٍ في الوجود هو خلْقٌ من خلقه.

وقد جاء التنبيه على هذا الدليل أيضاً بأُسلوب الاستفهام التقريريّ، لانتزاع اعتراف المخاطبين وإقرارهم بعظمة خلق الإنسان وإنشائه من ماء مهين، نظراً إلى أنّ هذه الآية من آيات الله في كونه آيَةٌ مشهودة ومتكرّرة الحدوث في إنشاء الأحياء.

فهل يَعْجِزُ هذا الخلّاقُ العظيم العليم القدير عن إعادة الناس إلىٰ الحياة بعد الموت؟!

تَعالَىٰ اللّٰهُ عمّا يصِفُون.

وَإِذْ قام الدليل القاطع على قدرة اللّٰه عزّ وجلّ على إعادة الموتَىٰ إلى الحياة، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

بعد أنْ قام الدليل القاطع على أنَّ قانون الجزاء الرَّبَّاني حقٌّ لاَ شكَّ فيه.

فمن المناسب اعتبارُ هٰذه الفقرة الّتي تضمّنت التنبيه علَىٰ أنَّ اللّٰه جلّ جلالُهُ قدير على البعث للحساب وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، مَفصِلاً للتحذير والتهديد بعبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الّتي سبَقَ بيان اختيارها للتكرير العلاجي، عند مفاصل محدّدةٍ بإحكامٍ من مَفاصل هذه السُّورة العظيمة.

❁ ❁ ❁

- قول اللّٰهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.
- ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾.

استفهام تقريريٌّ كسابقيه، لانتزاع اعتراف المخاطبين بعظمة الخالق وحكمته وعلمه الشامل وقدرته على أن يخلُقَ ما يشاء، من خلال

ملاحظتهم لآيات اللّٰه العجيبة في الإحياء والإماتة، وإقامة الجبال الشامخات الراسيات في الأرض، وفي تهيئة الماء العذب الفرات لسُقْيا الناس.

فهٰذه الآيات هي من آيات اللّٰه المشهودة في كونه، وهي من الأدّلة الدّامغة على قُدْرَة اللّٰه على بعث الناس للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، يوم الدين.

﴿كِفَاتًا﴾: أي: وِعَاءً جامعاً لدورة الحياة والموت، يقال لغة: كفَتَ الشَّيْءَ يكْفِتُهُ كَفْتاً، وكَفَّتَهُ تَكْفِيتاً، إذا قبضَهُ وضَمَّه، ويقالُ: كَفَتَهُ اللّٰهُ، أي: قبضَهُ اللّٰه.

**والكِفَاتُ**: هو الْمَوْضِعُ الّذِي يُضَمُّ فيه الشيءُ ويُقْبض.

قال ابن سِيدَه: وعندي أن ﴿كِفَاتًا﴾ في الآية مصدرٌ من مصادر «كَفَتَ» إذا ضمَّ وقبضَ، وأنَّ ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ منتصبٌ به، أي: ذات كِفَاتٍ للأحياء وللأموات.

وتقول العرب: المنازل كِفَاتُ الأحياء، والمقابر كِفَاتُ الأموات، أي: جامعةٌ وضامّة.

قال صاحب التهذيب في تفسير الآية: يُريد: تَكْفِتُهُمْ أَحْيَاءً على ظهرها في دورهم ومنازلهم، وتكفِتُهُمْ أمْواتاً في بطْنِها، أي: تحفَظُهُمْ وتُحْرِزُهم، ونصَبَ ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ بوقوع الكِفَاتِ عليه، كأنَّكَ قُلْتَ: ألم نجعل الأرض كِفاتَ أحياءٍ وأمواتٍ، فإذا نَوَّنْتَ نَصَبْتَ[١].

**أقول**: يدلُّ هذا النَّصّ القرآنيّ مع التفكُّر في واقع حال الأرض، بعناصرها التي تنقسم إلى التراب والماء، إنما هي وعاءٌ للحياة، إذْ ليست

---

(١) انظر لسان العرب في مادة «كَفت».

الحياة من طبيعتها، بل الحياة أمْرٌ خارجٌ عنها، وهي تحلُّ فيها ضِمْن نظامٍ رَبَّانِيٍّ خاصّ.

فإذا حلّت الحياة في قبضةٍ من طين الأرض كانت هذه القبضة وعاءً ضامّاً كافتاً للحياة، وعند الموت تُسْلَبُ الحياة من الجسَدِ الذي هو من عناصر الأرض، ثم يعود الجسَد تُراباً، وينْحَلُّ إلى مثل ما كان عليه قبل أن تدِبَّ فيه الحياة.

وتضمُّ الأرضُ الجسَد الميّت حتّى تستهلكه، ثُمَّ تَنْشَأُ حياةٌ أُخْرىٰ من عناصر الأرض نفسها، وقد تدخلُ في تركيب الأجساد الحيّة الجَديدة موادُّ وعناصر انْحلَّتْ من أجساد الأحياء السابقة، التي ماتَتْ وانْحَلَّتْ عناصرُها إلى التراب، وهكذا تتكَرَّرُ دَوراتُ الحياة والموت في الأرض.

فالأرض كما هو مُشاهد كِفَاتٌ، يخْرُجُ منْها أحياء بتقدير اللّه وخلقه، وهيمنته بصِفَاتِ رُبوبيّته، ويعُودُ إلَيْها أمْوَاتٌ بتقدير اللّه عزّ وجلَّ وخلقه، وهيمنته بصفات ربوبيّته على كلّ شيءٍ، ورُبَّ قبضةٍ من تراب الأرضِ ومائها، دَارَتْ عليها نَفْسِهَا دَوْرَة الحياة والموت مِرَاراً وتكراراً، مجتمعة أو متفرّقَةً في الأحياء.

فأيُّ استغرابٍ واستبعادٍ لأنْ يَبْعَثَ اللَّهُ جلَّ جلالُه وعظُمَ سُلْطَانُه الموتَىٰ يوم القيامة، إلى الحياة بحَقِيقَةِ ذواتهم وصفاتهم مرّةً أخرىٰ، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء؟!! وإذا تَعَمَّقْنا في تَفَهُّم خلق الله للأشياء فإننا نَصِلُ إلَى أنَّ كُلَّ ما في الوجود يَخْلُقُه اللّه عزّ وجلّ خَلْقاً من بَعْدِ خَلْقٍ، فكُلُّ شيءٍ يُخْلَقُ خَلْقاً جَدِيداً بعَدَدِ وَحَدَاتِ الأزمنةِ الَّتي تمرُّ عليه، والشيءُ الواحد في صورته الظاهرة، هو متعدّد الوجودات بتعدّد الأزمان، فما خُلِقَ جسداً لحيٍّ في أزمنته، غير ما خلق جسداً لحيّ آخر في أزمنته، ولو كان في الظاهر من رفات جسد الحيّ السابق.

ولا يصحّ أن يغيب عن تصوُّرنا أنّ دورة الحياة والموت ظاهرةٌ في تكرير إعادة النباتات من بزورها، وفي نشأة أجيال الأحياء من النَّسل، فتأتي أحياءٌ لم تكُنْ، ثُمَّ يكونُ لها نسْلٌ، ثُمَّ تموتُ، وتَنْمُو أنْسَالُها في الحياة، ثم تفْعَلُ مثل أُصولِها، وهكذا تداوُلاً حتَّىٰ تَنْتَهِي ظروف الحياة الدّنيا، ضمن خُطَّة الرَّبِّ الجليل العظيم الذي أحْكم مقاديرَه، وأتْقَنَ كلَّ شيْءٍ صُنْعاً.

أفَلا تَدُلُّ هذِه الظَّاهِرَةُ المتكرّرَةُ الّتي تَنْشأُ بها الحياة من الأرضِ ثُمَّ تَعُود إليها، على قُدْرَةِ اللَّهِ جلّ جلاله على بَعْثِ الموتىٰ إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء؟!!.

عِلْماً بأنَّ الحياة في الأرض ليْسَتْ من طبيعة الأرض، بل هي وافدةٌ حديثَةٌ إليها، تتّخذُ منها وِعاءً ولباساً، ثُمَّ تخرُجُ من هذا الوعاء، وتخْلَعُ عنها هذا اللّبَاس، فيَعُودُ كُلٌّ منهما إلى أصْلِه ومصْدَرِه.

أفَلا تَدُلُّ هٰذه الظّاهرةُ المدهشة المتكرّرة على أنَّ الْمُبْدِئَ الّذي أحْيَا في الأولى، قادِرٌ على أن يُعِيدَ في الأخرى، ليحاسب، ويفصل قضاءه بين عباده، ويُنَفّذ جزاءاته جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه؟!!

أفلا يَدُلُّ الإبْدَاعُ الحكيمُ الرّائع على أنَّ المبْدِع سوْف يُعيدُ بحكمته وقدرته المكلفين من عباده إلى الحياة الأخرى، ليُجْري ما تبقَّىٰ من خُطَّته في خلْق عباده الممتحنين المكلّفين في ظروف الحياة الدنيا؟!!.

قال اللّه عزّ وجل في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بشأن الأرض:

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

هذه الآية تُلْقِي الضَّوْءِ الذي يكشِفُ للمتدبّر المراد بقول اللّه عزّ وجلّ في السورة التي نتدبَّرُها:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾.

وقد أدرَكَ «أبو العلاء المعرّي» أنَّ سَطْحَ الأرض فُتَاتٌ من أجساد الآباء والأجداد، تداولَتْ علَيْها حيَوَاتهم فقال:

خَفِّفِ الوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الأَرْضِ ... إلاَّ مِـــنْ هٰـــذِهِ الأَجْـــسَـــادِ

رُبَّ لَـحْـدٍ قَـدْ صَـارَ لَـحْـداً مِـرَاراً ... ضَـاحِـكٍ مِـنْ تَـزَاحُـمِ الأَضْـدَادِ

● قَوْلُ اللّه تَعَالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ. . . ﴿٢٧﴾﴾:

أي: وَجَعَلْنا في الأرض جبالاً رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ.

﴿رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ وصفانِ لموصوف محذوف يُعْلَمُ من ذكرهما مع قرينَة أنّ الموصوف بهما موجودٌ في الأرض، وهو من آيات اللّهِ فيها، فالفكر يُدْرِكُ بداهة أنّ الموصوف المحذوف الجبال.

﴿رَوَٰسِىَ﴾: جمع «راسية» مؤنث اسم فاعل من الرُّسُوّ، وهو الثبات والرُّسُوخ.

تقول لغة: رَسَا الشيءُ يَرْسُو رُسُوّاً ورَسْواً، أي: ثَبَتَ ورسَخَ. ورَسَا الجبَلُ: أي: ثبت أصْلُهُ في الأرض، فهو «رَاسٍ». وهي «راسية».

والرَّواسي من الجبال الثوابتُ الرواسِخُ، وأرسَىٰ اللّه الجبال يُرْسِيها، أي: ثبّتَها وَجعلَها راسخات.

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾: جمع «شامخة» أي: عالية مرتفعة. تقول لغةً: شمَخَ الجبَلُ يشمَخُ شُمُوخاً، أي: عَلَا وارْتفع.

والجبال الشوامخ: هي الجبال الشواهق. وجَبَلٌ شَامخ وشَمَّاخٌ، أي: طويل في السَّماء، ومنه قيل للمتكبّر: شامخ.

وصَفَ اللّه عزّ وجلّ الجبالَ في الأرض بأنّها رَواسي، وبأنّها شامخات، وفي ذِكْرِ هٰذين الوصفين إشارةٌ إلى عناية اللّهِ بعباده في الأرض،

فَرُسُوُّ الجبال ورُسُوخُها في مواضع من الأرض مختَلِفَةٍ، مثبّتٌ لقِشْرَةِ الأرض من أنْ تكون عُرضَةٌ دواماً للتشققات والزلازِل، والتحرّك والاضطراب، بتأثير الغليان النّارِيّ الْفَوّارِ النّاشر للغازاتِ الضّاغِطَةِ في باطن الأرض.

وشُموخ الجبال وارْتفاعُها يُحَقّق للناس وغيرهم منافع كثيرة، ففيها تكونُ مخازِنُ للمياه العذبة، ومن صخورها يقتَطِعُونَ لمبانيهم، وعليها يَبْنُون قُصُورهم وحُصُونهم، وعلى مُرْتفعاتها يَسْتَمْتعون بنزهاتهم، وفي مغاراتها يتحصّنُون ويَحْتَمُون، وبها يَدْرَأُ بعضُهُمْ عن نَفْسِه بأسَ بعض.

● قولُ اللّه تعالى: ﴿. . . وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾:

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم﴾: أي: وجَعَلْنَا لكُمْ ماءً صالحاً للشرب.

تقول لغة: سقَاهُ يَسْقِيه سَقْياً، وأسْقَاهُ، وسَقَّاهُ، أي: جعل له ماءً ليَشْرَبَ منْهُ طَلَباً للرّيّ.

﴿فُرَاتًا﴾: **الْفُرات**: أعذَبُ الماء وأنقاه. يقال لغة: فَرُتَ الماءُ يَفْرُتُ فُروتَةً، أي: عَذُبَ، فَهُو فُراتٌ بمعْنَىٰ أنّه بالِغُ العذوبة.

في ظاهرة الجبال الرَّواسي الشّامخات، وظاهرة الماء الْفُرات، من ظواهر خلْق اللّه آياتٌ جليلاتٌ، يَكْتَشِفُ دَقَائِقَها عُلَماءُ البحوث الكونيَّة، ويكْتُبُونَ فيها البحُوث المستفيضة، وهٰذِه البحوث تَهْدِي إِلَىٰ عظيم قُدْرَةِ اللّهِ وجَليل حكمته، وهي تُقَدِّمُ الإِقْناعَ الكافيَ بأنّ البعْثَ للحياة الأخرى حقٌّ، وفي هذه الحياة الأخرى يكونُ الْحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء.

أفلا تدُلُّ هاتان الظّاهرتان من ظواهر آيات اللّه في كونه، على أنّ الرَّبّ الْقَدِير العليم الحكيم سَوْفَ يُعِيدُ المكلّفين من عباده، إلى الحياة بعْدَ الموت، ليُجْرِي مَا تَبَقَّىٰ من خُطَّتِه في خَلْقِ عباده، المُمْتَحنين المكلّفين في ظُرُوف الحياة الدُّنيا؟!!.

ومن المناسب والبديع عند هذا المَفْصِل من مفاصل السُّورة، تكرير التحذير والتهديد بعبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ الّتي سبَقَ بيان اختيارها للتكرير العلاجيّ، عنْدَ مفاصلَ محدّدَةٍ بإحكامٍ من مفاصِلِ هذه السُّورَة العظيمة، وسبَقَ تدبُّرها.

❁ ❁ ❁

## (٩)
# التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة

### الآيات من (٢٩ ـ ٤٥)

قال اللّهُ عزّ وجل:

﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

● قرأ رُوَيس: **[انْطَلَقُوا إلَىٰ ظِلٍّ]**: بصِيغَة الفِعْل الماضي في الآية (٣٠).

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿انطَلِقُوٓاْ﴾ بصيغة فعل الأمر وبين القراءتين تكامل في أداء المراد.

وقَرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلَفٌ **[جِمَالَةٌ]** وهو اسم جمْعٍ لطائفةٍ من الجمال، القراءة بكسر الجيم، وفي اللّغة يجوز ضمُّها وفتحها.

**الجمل**: الكبير من الإبل.

وقرأ رُويسٌ عن يعقوب [**جُمَالَات**] جمع «جُمَالَة» وهو الحبْلُ العظيم الذي تُشَدُّ به السفينة، ويُسَمَّىٰ «القَلْس». وهو أيضاً جمع لجمع «جَمَل».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ بكسر الجيم، وهو جمْعٌ لجَمْعِ «جَمَل».

● وقرأ يعقوب [**فَكِيدُونِي**] بإثْبَاتِ ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

وقرأ باقي القرّاءِ العشرة ﴿فَكِيدُونِ﴾ بحَذْف ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

حذْفُ ياء المتكلّم من النُّطْقِ إيجازٌ يكْثُر في القرآنِ، وهو من لطائفه.

● وقرأ ابن كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشُعْبَة، وحمزَة، والكسائي: [**وَعِيُونٍ**]: بكسر العين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَعُيُونٍ﴾ بضَمّ العين.

كَسْرُ العين وضَمُّها في لفظ «عيون» لغتان عربيتان.

● وقرأ حمزة [**هَنِيًّا**] بإبْدَالِ الهمزة ياءً، وإدْغام الياء التي قبلها فيها، وهذا وجْهٌ من الأداء.

وقرأ باقي القُرَّاء العشرة ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ بإثبات النُّطْق بالهمزة حسب الأصل.

**الهَنِيءُ**: السَّائِغُ اللَّذِيذ.

**تمهيد:**

يبْدأ اللّٰهُ عزَّ وجلّ في هذا الدَّرس بتوجيه الخطاب للمكذّبين بيَوْمِ الدِّين، يوم الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، مع ما يرافق هذا التكذيب من تكذيبِ للرَّسُولِ، وتكذيب بالقرآن الذي يبلّغه عن ربّه.

وهذا الخطابُ صورةٌ مقْتَطعَةٌ ممَّا سَوْفَ يُوَجَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّين، حينما يؤمَرُون بالانطلاق إلى دَرَكاتِهِمْ في جهنَّم.

وهو يحْكِي في يوم الحياة الدنيا ما سَوْف يُخاطَبُونَ به بعد حِسَابِهِم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والْحُكْم عليهم بالْخُلُودِ في عذاب النار، حَيْث منازِلُهم في أعماقها، حتَّىٰ الدَّرْك الأسْفَل منها.

وفنُّ الاقتطاع هٰذا من الأساليب القرآنيّة البديعة، الّتي تَعْتَمِدُ علىٰ عرض صورة المشْهَدِ الّذي سوف يَكون مستقبلاً، كأَنَّ الحدَثَ واقعٌ الآن، للإشعار فكريًا بأنَّهُ سوف يتحقَّقُ حتماً، ولإعطاء الْمَشْهد صُورَةَ أَمْرٍ واقع الآن، ففي هٰذا من الإمتاعِ ما في المشاهدة الفعليَّةِ لدىٰ وقُوع الحدَث. ولم يكن هذا الأسلوب البيانيُّ من الْفُنون المعروفة لدى الْبُلَغاء إبَّان نزول القرآن.

واكتشفه في عصرنا الحاضر صانِعوا الأفْلام الّتي تحكي الوقائع والأحداث، ولا سيما المبدعون منهم.

وقد جاء خطابُ الحكاية هذا عَقِب خطاب المكذّبين وهم في حياة الابتلاء، في يوم الحياة الدنيا، بتقديم الأدلَّة الدافعة لشبهاتهم، حول قضيَّة البعث للحياة الأخرى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

إنَّ هذا الخطاب الذي ينتَقِلُ بصورَةٍ مفاجِئةٍ مِنْ وَاقِع حياة الابتلاء، إلى مَشْهَدٍ مقْتَطعٍ ممَّا سَوْفَ يَكونُ في يوْمِ الجزاء، فَنٌّ جميلٌ بديع، من فُنونِ الأدَب الرَّفيع جدًّا، وهو من عناصر إعجاز القرآن.

لقد فاجأ اللّه عزَّ وجَلَّ المكذّبين بالآخرة، فخاطَبَهُمْ كَأَنَّهُمُ الآنَ في يَوْم الدّين، ووصَفَ لهم بهذا الخطاب المكانَ السَّحِيق الْمُعَدَّ لتعذيبهم في جهنَّم، وهو وادي «وَيل». ووصَفَ لهم قاعَ هذا الوادي الّذي سوف يكونون فيه، بَعْد حسابهم، وقرار معاقبتهم.

● قول اللّه تعالى:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول هذا النّصُّ في مضمونه للمكذّبين بيوم الدِّين، وكأَنَّهُمْ بعْدَ مَوْقفِ الحساب وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والْحُكْمِ عليهم بالعذاب في وادِي «وَيل»:

انطَلِقُوا إلَىٰ نُزُلِكُمْ في دار العذاب، في قاع وادي «وَيْل».

لكنّ النّصّ لم يسْتَعْمل هذا الأسلوب التّلقائِيَّ السَّاذج، وإنَّما قال لَهُمْ مذَكّراً بعباراتِ الوعيد، يوم كانوا في حياة الابتلاء.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

فالنّار، ووادي «وَيْل» فيها، ومعاقبتُهم بالعذاب يوم الدّين، هو ما كانوا به يكذّبون.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾: أي: اذْهَبُوا سريعاً، فالانْطِلاَقُ في اللُّغَةِ، هو سُرْعة الذّهاب، يقال: انطلَقَ الظبْيِ ونحوه، أي: مرَّ سَرِيعاً لا يَلْوي على شيء. وانْطلقَت الخيل، أي: مضَتْ في السِّبَاقِ إلى الغاية المحدّدة لها.

أصل الإطلاق التحريرُ من القيد، ومن شأن المقيّد إذا أُطْلِق من قَيْدِهِ أن ينْطَلقَ مُسْرِعاً شطر الجهة الّتي يريد الذهاب إليها.

جاء في العبارة فعل «انْطَلِقُوا» دُون اذْهَبُوا أو انْصرِفُوا أو نحو ذلك، لِيَدُلَّ هٰذا الفعل على أنّ المكذّبين يُكَلَّفُونَ يوم الدين، بعْدَ مُحاسبتهم وفَصْل القضاء بشأنهم، أن يُسْرعوا في الذهاب إلى دار العذاب، وإلى نُزُلهم فيها، لِيَنالُوا جزاءهم فيها جزاءً وفاقاً معادلاً لكُفْرهم وجرائمهم.

وفي هذا التكليف حزْمٌ لا تساهُلَ مَعَهُ ولا تهاون، فقد أُبْرِمَ الأمْرُ، وتَمَّ بشَأْنهم الحكْمُ، فَلْيُسْرِعُوا إلى منازلهم في الدَّرَكات، وإلى مُسْتَقَرَّاتهم في دار العذاب، جَهَنَّمَ وبِئْسَ الْقَرار.

وتصويراً بارعاً ورائعاً لموقعهم في قَاعِ وادي «ويل» موطِنِ تعذيبهم،

رسَمَت الكلمة الفنيّة الأدبيّة الموقع، ببَثّ لقطاتٍ تَصْويريّة يستطيع الذَّكاءُ اللَّمّاحُ مِن خلالها تَحْدِيدَ مَعَالِمِهِ، بمَلْءِ الْفَرَاغَاتِ المتروكَة بين هذه اللَّقَطاتِ، وهذا من أزوع التَّصْوير الفنّيّ الأدبي.

فجاء التعبير التالي من فقرات هَٰذا التَّصْويرِ الْفَنِّيّ الرائع بقول اللّه تعالى:

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

في هذا التعبير تحديدٌ وصْفِيٌّ لِلْمَكانِ الّذي أُمِرُوا بالإسراع إليه.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾:

أي: انطَلِقُوا إلى مَكانِ ظلّ، هذا التعبير يدُلُّ على أنَّهُ مكَانٌ مُظْلِمٌ ظُلْمَةً وُسْطَىٰ، إذْ لا يَصِلُ إليهِ شُعَاعٌ إشراقيٌّ، كشُعَاعِ الشَّمْسِ في الضَّحَ الّذي هو ضدُّ الظّل. فَدَلَّ على أنَّهُ لا يَصِلُ إِلَيْه ضَوْءُ لَهَبِ النّار، بسَبَب حاجِبٍ يحجُبُ عنه ضَوْءَ اللَّهَب.

لكِنَّ الّذِي يحْجُبُ الضَّوْءَ عنه لا يحجُبُ الحرارة، بدليل قول الله تعالى:

﴿..وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾.

فما هو هذا الحاجب؟

إنّ الذهن ليسْتَدْعِيه دُون كُلْفة، إذْ يُدْرِكُ أنّه حاجِبُ دُخَانِ لَهَبِ النَّارِ الموقَدَة، فَهُو يُعْطِي ظِلًّا ما، لاَ ظُلْمَةً دامِسَةً، فأهْلُ هٰذا الموقع يُشاهد بعضُهُمْ بعضاً، ويَرَوْن مسَالِكَهُمْ فيه، لكِنَّ هذا الظِّلَّ لا يَحْجُبُ عنْهُمْ حَرارةَ اللَّهب، أَلاَ يَدُلُّ على هٰذهِ المفهومات، قولُ اللّه تَعَالَىٰ:

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾: أي: غَيْرُ ذي ظلٍّ دائم، وغير مَانعٍ للرُّؤية.

﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾: أي: غيرُ ساترٍ للحَرَارة، [لاَ يُغْنِي]: أي: لا يكفي. ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾: أي: من دفع أيّ شيءٍ من اللَّهب.

من طبيعةِ الظلّ أنّه لا يحْجُبُ الرؤية، إذْ تبقَىٰ معَهُ انْعِكاسَاتٌ ضَوْئِيَّة تَسْمَحُ برُؤْيَةٍ ما على مِقدار كثَافَةِ الظلّ.

جاء في كتُب اللُّغَة: مَكانٌ ظَلِيلٌ، أي: ذو ظلّ، وقيل: الدَّائِمُ الظِّلّ. وصيغَةُ «ظَلِيل» على وزْنِ «فَعِيل» هي من صِيَغِ المبالغة، ونَفْيُ كَوْنه ظليلاً يدُلُّ على نَفْيِ ما تَقَعُ عليه المبالغة، وهي تقع على الدَّوام، وتَقَعُ على ما هو المقصود بالظّلّ، وهو سَتْرُ الحرَارةِ وحَجْبُها.

ويدُلُّ على عدم الدَّوام لهَٰذا الظِّلّ أنَّ المقيمين فيه يَرَوْنَ شَرَرَ نار جهنَّم، إذْ جاء بَعْدَ بيان كونِهِمْ في ظِلٍّ غَيْرِ ظليلٍ وهو لاَ يُغْنِي من دَفْع اللَّهَبِ شيئاً، قولُ اللَّهِ تَعالَىٰ:

● ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

فالظِّلُ في جهنّم غير دائم، وغَيْرُ حاجبٍ للحرارة، وهذا يَدُلُّ على أنّ لفحاتِ لَهَب النار تأتيهم بالوهَج اللاهب حيناً فحيناً في أوقاتٍ أكثرها ظلٌّ.

﴿إِنَّهَا﴾: أي: إنَّ النّارَ المحيطَةَ بوادِي «ويل» والمفهومَةَ من السِّبَاق والسِّياق، ولو لم يُذْكَرْ لها لفظٌ يَعُودُ الضمير عليه، وهذا من الأساليب القرآنيّة البديعة، الّتي يعتمِدُ فيها النّصُّ على ذَكَاءِ المتلَقّي، وإدْراكِه للمرادِ، دُون التَّصْريح باللَّفْظ الخاصّ الدالِّ عليه.

﴿تَرْمِى﴾: أي: تَقْذِف، وباستطاعَتِنا قياساً على نَارِ الدّنيا حين تقذفُ بالشَّرَرِ، أنْ نتَصَوَّرَ بعْضَ تَصوُّرِ الْقَذَائِفَ من الشَّرَرِ الّتي تَرْمِي بها نارُ جِهَنَّم.

﴿بِشَرَرٍ﴾: **الشَّرَرُ**: اسْمُ جِنْسٍ جمْعِيٌّ، واحِدَتُه: «**شَرَرَة**».

وشَرَرُ النار جُزَيْئَاتٌ مُلْتَهباتٌ تَقْذِفُهَا، نَاتجاتٌ عن تَفَجُّرَاتٍ في أجْرَامِ

الْوَقُود، وأَعْظَمُ وَقُودِ نار جهنَّمَ الحجارَة، وقد تكون حجارةً على مقدار قَصْرٍ عظيم.

إنَّ هٰذَا الشَّرَرَ العظيمَ الّذي يَرَاهُ أَهْلُ وادي «وَيْلٍ» يُعْطِي ضياءً يشُقُّ الظِّلَّ، فيَجْعَلُهُ ظِلاًّ غير دَائم.

وهو يَدُلُّ عن طريق اللُّزُومِ الذهْنِيّ، علَىٰ أَنَّ لَفَحَاتِ لَهَبِ النّار تأتِيهِمْ بالْوَهَجِ اللاَّهِبِ السَّمُوم حيناً بَعْدَ حين، في أوقاتٍ أكثرُها ظِلٌّ.

وجاء التَّصْريح بأَنَّ هٰذا الظِّلّ هو بسبب الحاجب من دُخَانِ نار جهنَّم في قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) مبيّناً منازل أصحاب النار فيها:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فِى سَمُومٍ﴾: **السَّمُوم**: الرِّيحُ الحارَّةُ الّتي تنفذ في المسَامّ.

﴿وَحَمِيمٍ﴾: **الحَمِيمُ**: الماء الحارُّ ذو الحرارة الشديدة.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وظِلٌّ من أَثَرِ يَحْمُوم. **اليَحْمُوم**: هو الدُّخان. والأَسْوَدُ من كلّ شيءٍ، فهو دُخانٌ أَسْوَد.

بهذا تمَّتِ اللَّقْطَةُ السّريعة الأُولى من تصوير موقع المكذّبين، في قاع وادي «وَيْلٍ» من وديان جهنَّمَ يَوْم الدِّين.

وهنا ينْطَلِقُ بنا الذّهْنُ إلَىٰ مَوْقعِ المنَعَّمِين في الجنَّةِ دارِ نعيم المتقين، فقد جاء في القرآن أَنّهم يكونُون في ظلٍّ ظَلِيلٍ دائم مَمْدُود.

- فقال اللّه تعالى في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول): ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

- وقال تعالى في سورة (يٓس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول): ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: **الأرائك**: جمع «الأريكة» وهي المقعد المنجّدُ الوثير.

﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾: «**المتَّكِئ**: مَنْ يسْتَوي قَاعداً على وِطَاءٍ مُتمكّناً.

● وقال اللّه تعالَىٰ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾: أي: في شَجَرٍ من نوع شجَرِ السّدْرِ منْزُوعِ الشَّوْك. **مخضود**: أي: منْزُوع شوْكه.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾: **الطَّلْح**: الموزُ. **المَنضُود**: المضْمُومُ بعْضُه إلى بعض مُتَّسِقاً بنِظَامٍ جميل.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وظلّ دائم وشَامِلٍ لكل موقعٍ في الجنَّة.

● وقال اللّهُ تعالَىٰ في سورة (النِّساءِ/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾:

أي: ظِلًّا دائماً، لا تخْتَرِقُهُ أَشِعَّةٌ حارَّةٌ مؤذية، أو غَيْر سَارَّة.

● وقال اللّه تعالَىٰ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) في وصف الجنَّة:

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴿٣٥﴾﴾: أي: وظلُّها دائمٌ أيضاً.

● وقال اللّهُ تَعالَىٰ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) في وصْف نعيم الأبرار في الجنَّة:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

**القُطُوف**: جمع «القِطْف» وهو ما يُقْطَفُ من الثَّمَرِ ساعَةَ قَطْفِه، أي: فَصْلِه عن شَجَرَتِه.

**والتَّذْليل**: التَّسْهِيلُ والتَّمْهِيد والتَّيْسِير.

ونُلاحظ في معظم هذه النُّصُوص أَنَّ ذِكْرَ الظِّلّ قَدْ جاءَ كِنَايَةً عن دار النعيم يوْمَ الدّين، والكِنَايَةُ من أساليب البيانِ غير المباشر، وهو سبيل الْبُلَغاء في التعبير عَنْ مُراداتهم.

بَعْدَ هذا الاستعراض للنُّصُوصِ القرآنيَّة عن الظِّلّ بشيءٍ ما من التدبُّر، أعُود إلى متابعة تَدَبُّر الدَّرْس الرابع من سورة (المرسلات).

■ وفيما سبَقَ كانَ التَّدَبُّر مُتَعَلِّقاً باللُّقْطَة الأولى من الصورة الّتي وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها مَوْقع المكذبين في قاع وادي «ويل».

■ **أمَّا اللَّقْطَةُ الثانية**: فهي وصْفُ الظِّلّ الَّذِي يُكَلَّفُون الانطلاق إليه، بأنَّهُ ذو ثَلاثِ شُعَب.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾.

جاءت قراءة ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ بصيغَةِ فعل الأمر، للدَّلاَلَة علىٰ توجيه الأمْرِ التَّكْلِيفي الجبْرِيّ، الّذي لاَ يستطِيعُ واحِدٌ من المأمورين به مُخَالفته.

وجاءَتْ قراءة ﴿انطَلَقُوا﴾ بصيغَة الفِعْل الماضي، للدَّلالَةِ علىٰ مطاوَعَتِهم في تَنفِيذِ الأَمْر، إذْ لا تَخْيِيرَ لَهُمْ، ولا قُدْرَةَ لهم على المخالَفَة، فَهُمْ يتحرَّكُونَ يوْمَ الدِّينِ بالجَبْر، إذْ قَدْ انْتَهَىٰ زَمَنُ تخييرهم مع انْتِهاء ظُرُوف الحياة الدنيا، يوم مُنِحُوا حُرِّيَّة الاختيار لابتلاء إراداتهم.

كَيْفَ يكونُ مَكَانُ الظِّلّ في قَاعِ وادي «وَيْلٍ» ذَا ثَلاثِ شُعَبٍ؟؟.

إنَّ باستطاعة الذِّهْن اللَّمّاح، مُسْتَدْعِياً الأَشْباه والنَّظَائِر في المشاهدات الحسِّيَّةِ الدُّنيويّة، أنْ يُدْرك أنَّ مكان هذا الظِّلّ غير الظَّلِيلِ في جهنَّم، يقَعُ

في أسْفل وادٍ من وِدْيَانها، وفِي سَمَاءِ هٰذا الموقع يمُوجُ الدُّخَانُ الأسْودُ الّذي يُلْقِي ظلَّهُ عليه.

وَبأَنَاةٍ وَتَأَمُّلٍ نُدْرك أنَّ الوِدْيَانَ لا بُدَّ أن تقَع بيْنَ جبالٍ، وأنَّ المداخلَ أو المخارِجَ من هذه الوِدْيان هيَ شُعَبٌ، أو شِعَاب، في المضايق الّتي تتقارَبُ فيها الجبال.

﴿شُعَبٍ﴾ جمْعُ «شُعْبَة» وهي صَدْعٌ في الجبل بمثابة طريقٍ، أو مضيقٍ بيْنَ جبلَيْن.

فإذَا كَان مَكَان المكذبين في قَعْرِ وادي «ويْل» الْمُجَلَّلِ بالظِّلّ الموصوف، ذَا ثلاث شُعَب، فلا بُدَّ أنْ يكون مكاناً فيه سعَةٌ ما، وسط وادٍ تُحيطُ به ثَلاَثُ جبالٍ من جهَاتٍ ثلاث.

ومن الطبيعيّ أيضاً أنْ يكون لهذا الوادي مخارج في أطرافه هي شُعَبٌ ثَلاثٌ.

إذَن: لَقَدْ تَمَّ بهذا رسْمُ صُورَة الموقع في أسْفَل هذا الوادي الذي يُطْلَقُ عليه اسم «ويل» كما سبَقَ بَيَانُه، والاستدلال عليه بالحديث الّذي رواه أحمد في مُسْنَدِه، والترمذيُّ، وابْنُ حبّانَ في صحيحه، والحاكم في مستدركه، عن أبي سعيد أنّ النبي ﷺ قال:

«وَيْلٌ وادٍ في جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ».

ولئن لم يَرْقَ سَنَدُه عند المحدّثين إلى درجَة الحديث الصحيح، إلاّ أنّ معناه يلْتَقِي مع دلالَةِ البيان القرآنيّ في هذا النّصّ من سورة (المرسَلات).

ومعلُومٌ أنَّهُ لاَ يكون وَادِياً إلاَّ أنْ يكون بين جبال، وتَحْدِيد الشُّعَب

الثلاث لهذا الوادي يَدُلُّ عن طَرِيق اللُّزُوم الذِّهْنِيّ على أنّه بَيْنَ ثلاثَة جبالٍ غَيْر مُتَلاصقة، وهٰذِهِ الشُّعَبُ الثلاث هي المخارج الضَّيِّقة لهذا الوادي.

فالذين يكونُون من أهل العذاب في هذا الوادي، لا مَخْرج لهم إلاَّ أن يَصَّعَّدُوا في جبلٍ من هٰذه الجبال، وهذا التَّصَعُّد يتحمَّلُون فيه عذاباً أشَدّ ممّا هم فيه في قاعِ الوادي، إذْ فيه إرْهَاقٌ من جِهَة، واقْتِرَابٌ من مصادر اللَّهَبِ وشِدَّة الحرّ من جهة أخرى. أو بأن يَدْخُلوا في إحدى هذه الشُّعَب الثلاث، وهي مضايقُ أشدُّ حرّاً، وأشَدُّ عذاباً، فاللَّهَبُ مُحيطٌ بالوادي، وبجباله، وبشُعَبه.

■ **وأمّا اللّقطة الثالِثَةُ مِنْ تصوير الموقع**: فقد جاء فيها وصْفُ ما تَرْمِي به النَّارُ من حَوْلِه إلَىٰ سَماءِ وَادِي «وَيْلٍ» من شَرَرٍ، واحدتُها «شَرَرَة». فقال اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

بهذا التعبير يضيف النَّصُّ لَقْطَةً تَصْويرِيَّة لبَعْض الأحْداث الَّتي تَجْري في الموقِع الَّذي أُمِرَ المكَذِّبونَ بأنْ ينطَلِقُوا إليه، فانْطَلَقُوا مُكْرَهِين.

إنّ الموقعَ جُزْءٌ من جهَنَّم الَّتي توقَدُ فيها النّار الحامية، فكان من الأدَب الرّفيع التَّحَدُّثُ عن النار بالضّمِير «إنّها» والقرينة تُعَيِّنُ المراد، إذْ لاَ يَرْمي بالشَّرَرِ غير النار، فهي تَرْمي بالشَّرَرِ إلى جَوّ وادي «ويل» على وفْقِ الوصف الْبَدِيع الذي جاء في النصّ.

إنَّ من طبيعَةِ الشَّرَر أنّهُ جَمْرِيٌّ مُتَوَهِّجٌ ولَهُ ضَوْءٌ ما، فيكْفي ذكْرُ الشَّرَرِ عَنْ وَصْفِه بالتَّوَهُّجِ، وبثّ الضَّوْءِ الْقَاطِع أحياناً لدوام الظّلِّ غَيْرِ الْبَارِدِ، وغَيْرِ الكريم، في وَادي «ويل».

جاء وصْفُ الشَّرَرِ في النَّصّ بأنّه مثْلُ الْقَصْر، وهو الْبنَاء العظيم العالي الواسعُ المحصَّن، وسُمّي قصْراً لأنّه تُقْصَرُ فيه الْحُرَمُ، أي: تُحْبَسُ، ويُقْصَرُ

عن دخوله والاقتراب من أسواره إلاّ بإذن، إذ القصور في الغالب مساكن الملوك والعظماء، وأصحاب المكانات.

هذا الوصْفُ القرآنيُّ يوحِي بأنَّ النّار تَرْمي من أعْلَىٰ الجبال المحيطة بوادي «ويل» بشَرَرٍ قَدْ اجتَمَعَ بعْضُهُ إلىٰ بعْضٍ اجتماعاً في أشكالٍ هَنْدسيَّةٍ، تُشْبِه القصْرَ الْعَظِيم، في مُرْتَفِعَاتِهِ، ومُنْخَفِضاته، وشُرُفَاتِه، وَنَوَافِذِهِ، وأسواره، وأبْراجه، وَحَدَائقه، وأشجاره، إلى غير ذلك.

هل رأيتُم الأَسْهُمَ النّاريَّة العظيمةَ الّتي تَنْطَلِقُ صاروخيَّةً، ثُمَّ تَنْفجرُ في الجوّ، فتُصَوِّرُ أشكالاً مختلفة.

إنَّ هذا النَّصَّ القرآنيَّ قَدْ قَدَّمَ للنَّاس صُورةً تعبيريَّةً فيها أكْثَرُ تشكيلاً هَنْدَسِيّاً رَائِعاً، من هٰذه المستَحْدَثَاتِ المعاصرات لَنَا الْيَوْم.

وبَعْدَ وَصْفِ الشَّرَرِ مُجْتَمعاً في الجوّ بأنّه يُشْبِهُ القصر، جاء وصْفُه في قول اللّه عزّ وجلّ كَمَا جَاءَ في قراءة جمهور القرّاء العشرة: **[كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ]**. وفي قراءة أُخْرَىٰ متواتِرَة: **[كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ]**. وفي قراءة ثالِثَةٍ مُتَوَاتِرَةٍ أيضاً: **[كَأَنَّهُ جُمَالَاتٌ صُفْرٌ]**.

ولدى تَدَبُّر هٰذه القراءات تَدَبُّراً تَحْليليّاً، نُدْرِكُ أنَّ هذا الوصْفَ اللاَّحِقَ بقراءاتٍ بدائل ومن دُون حَرْفِ عطْفٍ يُوحي بإشارتِه السَّريعَةِ الخفيفَةِ إلَىٰ مَا يلي:

(١) إنّ الشَّرَرَ المجتمع المتفجّرَ في سماء وادي «ويل» يَكُونُ أوّلاً يُشْبِه القَصْر.

(٢) وبَعْدَهُ يتَشَكَّلُ تَشَكُّلاَ آخَرَ، تكُونُ فيه كُلُّ شرَرَةٍ على شكل جَمَلٍ أصْفَر، وهو مشْهَدٌ كُلِّيٌّ دَلَّتْ عَلَيْه قراءة: **[كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ]** أي: طائفَةٌ من الجمال الصُّفْر المجتمعة، هاجِمَةً في اتّجاه قاعِ وادي «ويل».

(٣) وَبَعْدَهُ يتشكَّلُ تشكُّلاً ثالثاً، فيَكُونُ الْمَشْهَدُ الكُلّي موزَّعاً في الجهات، كأنَّهُ قُطْعَانٌ من الْجِمال الصُّفْر، كُلُّ قطِيعٍ منها يَهْوِي إلَىٰ جِهَةٍ من الجهات، على مُحِيط الدّائرة، وهو مشهد دلّت عليه قراءةُ: [**كَأَنَّهُ جِمالاَتٌ صُفْرٌ**].

(٤) وبعْدَهُ يكُونُ تَشكِيل المشهد يُشْبِهُ حِبالاً عظيمةً مُتدَلّيَةً في اتّجاه بَطْن الوادي، ومن كُلّ جِهاته، وهو ما دَلَّت عليه قراءَةُ رُوَيس: [**كَأَنَّهُ جُمَالاَتٌ صُفْرٌ**] **جُمَالاَتٌ**: جمْعُ «جُمَالَة» وهو الحبْلُ الْعَظيم الَّذِي تُشَدُّ به السّفينة، وقد سبَق بيان هذا.

فتكامَلَتِ القراءاتُ في رسْمِ المشْهَدِ العجيب، مع غاية الإيجاز.

ولا يخفَىٰ ما في مَشْهَد «**الْجِمَالَةِ الصُّفرِ**» وبَعْدَهُ مشْهَدُ «**الجِمَالاَت الصُّفْرِ**» قُطْعَاناً موزعةً هاجمَةً بشَكْلٍ مُخِيفٍ من أعْلَىٰ إلى أسْفل، حيْثُ مَوْقع المكذّبين، وبَعْدَهُ مَشْهَدُ «**الْجُمَالاَتِ الصُّفر**» وهي الحِبَالُ النَّارِيَّةُ العظيمة الممتدَّةُ، منْ إثارَةٍ للرَّهَبِ في النفوس، مع ما فيه من دِقَّةٍ حَرَكِيَّةٍ في التَّصْوير الْفَنّيّ الأَدَبيّ.

وتتبُّعاً للدّقّة الرائعة الرائقة البديعة في التصوير جاءت عبارة التشبيه اللاّحِق، للحركة التّالية بعْدَ الشَّرَرِ المجتَمع كالْقَصْر بصِيَغٍ ثلاثٍ [**كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ**] ـ [**كَأَنَّهُ جِمالاَتٌ صُفْرٌ**] ـ [**كَأَنَّهُ جُمالاَتٌ صُفْرٌ**] في حركاتٍ ثلاثٍ متواتراتٍ من دون فاصل بعطف، مع المحافظة على الوصْفِ بالصُّفْرَة، للدَّلاَلَة علَىٰ أنَّ الشَّرَرَ قَدْ وَصَلَ إلى مرحَلَةِ الْجِبَالِ العظيمة ولَمْ ينْطَفِئ.

إنّ هذا التَّشْبِيه يُصَوِّر المرحلَةَ الْجَمَلِيَّةَ كُلَّ شَرَرَةٍ بجَمَلٍ أصْفر، فهي أوّلاً قطيعٌ واحدٌ ضخْمٌ من الجمال الصُّفْر، وهي ثَانياً قُطْعَانٌ من الجمال المتدافعة السَّاقِطَة في الجوّ بانْتِظَامٍ في كُلّ الجهات.

وأخيراً تتدَلّىٰ علَىٰ شكْلِ حِبالٍ عظيمةٍ في اتّجاهِ أسْفَلِ الوادي، حيْثُ مَوْقع المكذبين.

إنَّه لمشْهَدٌ مُرْعِبٌ حقّاً، وقد جاء التَّتابعُ في التشبيه من دون عَطْف دليلاً على التتابُع السَّريع في حركة الواقع، حتَّىٰ كأنّ الأحداثَ المتلاحقة تأتي في وقْتٍ واحدٍ.

هذا هو الصّدْقُ الْفَنّيُّ حقّاً، إذْ يكُون الأَدَاءُ التعبيريُّ مطابقاً لحالة الشُّعُورِ النَّفسِيّ، إنْ لَمْ يَكُنْ بالنسْبَةِ إلى المتكلّم، فبِالنِّسْبَةِ إلى الْمُشَاهد، أو المخاطب، مع كمال الْإيجاز باستخدام القراءات لكلمة واحدة من كلمات الْجُملة.

ونُلَاحظُ أنَّهُ لم يُوصَفِ الْقَصْرُ بالصُّفْرَةِ اكتفاءَ بأمْرَين:

**الأمر الأول**: أنَّهُ جاءَ وَصْفاً للشَّرَرِ، والشَّرَرُ جَمْرٌ أصْفر، وحجارة القصور لدَىٰ المخاطَبين من الْعَرب أكْثَرُها ذاتُ لَوْنٍ أصْفر.

**الأمر الثاني**: أنَّ مَرَاحِلَ «الجِمَالَة» فـ«الْجِمَالاَتِ» فـ«الْجُمَالاَتِ» قَدْ وُصِفَتْ بالصُّفْرَة.

وهذا الوصف بمُجْمَلِه من نوع تشبيه التمثيل، الذي يجْمَعُ الصُّورَة واللَّوْنَ والحركَةَ مع المؤثرات النفسيَّة.

عنْد هذا المفصِل من مفاصِل السُّورَة نُدْرِكُ أنَّه من المناسِب والبديع تكرير التحذير والتهديد بعبارَة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ الّتي سبَق بيانُ اختيارها للتكرير العلاجيّ، عنْدَ مفاصلَ محدَّدَةٍ بإحكامٍ من مفاصل هذه السُّورَة، وسبَقَ تَدَبُّرُها.

❁ ❁ ❁

● قول اللّه تعالى:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

**اعتذَر مِنْ ذنْبه**: أي: تنصّل منه، واحتجَّ لنفسه مُدافعاً عنها.

نتساءل لدى تدبّر هذه الفقرة:

هل يُمْنع المكذِّبون يوم القيامة من النُّطق منعاً كُلّيًا، فيُبْعثُون بُكْماً، أم يُمْنَعُونَ من النُّطْق عند رغبتِهِمْ في الثرثرة بتقديم المعاذير الكواذب؟؟.

لقد دلّت نصوص قرآنيّةٌ أُخرَىٰ، وبيانات نبويّة، على أنّ الكافرين يوم القيامة يَنْطِقُون، وأنّهم يحاولون الدّفاع عن أنفسهم بالمعاذير الكواذب، فَيُخْتَمُ عَلَىٰ أفواهِهِمْ، وتَنْطِقُ جوارِحُهُم وجُلودُهم بما كانوا يفعَلُونَ في الدُّنيا من كفريّاتٍ وجرائم أخرى.

وثبَتَ في القرآن: أنّهم يَدْعُونَ رَبّهم دُعاءَ جماعيّاً قائِلين: ربَّنَا أَبْصَرْنَا وسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إنّا مُوقِنُونَ. وأنهم يقولون: عند رؤيتهم العذاب: هَلْ إِلَىٰ مَرَدٌ من سبيل. وأنّهم يَقُولُونَ حين يُوقَفُون على النار: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بآياتِ رَبِّنَا ونكونَ من المؤمنين، أمّافي داخل جَهَنَّمَ فإنّهم يَصْطَرِخون، ويُخاطبون مالكاً خازنَها بأنْ يَقْضِيَ عليهم ربُّهُمْ بالْمَوْتِ، إلى غير ذلك ممّا دلَّتْ عليه النُّصوص المختلفة.

بقي أنْ نَفْهَمَ أَنّهم عنْدَ مُحَاكَمَتِهِمْ إمَّا أَنَّهُمْ لا يَنْطِقُونَ باختْيارهم، لاقتناعهم بثبوت جرائمهم عليهم، وقَدْ يكُونُ هٰذا من بعضهم فقط. وإمَّا أَنَّهُمْ يُمْنَعُونَ بالْجَبْرِ من الثَّرْثَرَةِ بتقديم المعاذير الكواذب، وهٰذا يكون من أهْل الجدل والمماراة والثرثَرَةِ فيهم.

وأستعرض بعض النُّصوصِ الكاشفة والدّالّة على هذا الفَهم.

**النّص الأول:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بياناً لبعض ما سوف يخاطَبُ به الكافرون يوم الدين، وبياناً لبعض الأحوال التي سَوْف يَتعَرَّضُون لها.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

هذا الختم على أفواههم يكُونُ في حالة جُحُودِهم جرائمهم وإنكارهم لَهَا، كما جاء في بيان الرَّسُول ﷺ الآتي ذكره إن شاء اللّه.

**النّص الثاني:**

قولُ اللّه عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ المجرمين يتكلَّمُونَ يوم القيامة فيما بيْنَهُم كلاماً خافتاً، فَهُمْ إذَنْ لا يكونون يوم القيامة بُكْماً، إلاَّ أنّ الموقف الرّهيب يَجْعَلُهم يتخافَتُونَ بَيْنَهُمْ.

**النّص الثالث:**

قول اللّه عزّ وجلَّ في سُورَةِ (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾.

فَدَلَّ هذا النَّصُّ علىٰ أَنَّهم يُخاطِبُونَ جُلُودَهم الّتي تَشْهَدُ عليهم، فلَيْسُوا بُكْماً.

## ممّا جاء في بيانات الرسُول ﷺ:

(١) روى مسلم عن أنسِ بن مالك قال: كُنَّا عِنْدَ رسول اللّهِ ﷺ فَضحِكَ، فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟».

**قُلْنَا:** اللَّهُ ورسُولُهُ أعلم.

**قال:** «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟».

**قالَ:** «يَقُولُ: بَلَىٰ».

**قال:** «فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وَبِالْكِرَامِ الكاتبين شُهُوداً».

**قال:** «فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِه: انْطِقِي. فتنْطِقُ بأعْمَالِهِ. ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وبَيْنَ الكلام، فيقول: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[1].

(٢) وروى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وابْنُ جريرٍ عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ، قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عُرِّفَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ، فَيَجْحَدُ ويُخَاصِمُ، فَيُقَالُ: هَؤُلاَءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُول: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ. فَيَقُولُ: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: اِحْلِفُوا فَيَحْلِفُونَ. ثُمَّ يُصِمُّهُمُ اللَّهُ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ، وَأَلْسِنَتُهُمْ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ».

فدلَّتْ هٰذِه النُّصُوصُ وهٰذِه الْبَيَانَاتُ على أنَّ المجرمين لاَ يُمْنَعُونَ يومَ الدِّين من الدّفاع عن أنفُسِهم، لكِنَّهُمْ يُمْنَعُونَ من الثرثرة بالباطل، ومن تقديم الأعذار الّتي ليس لَدَيْهم منها إلاّ الأكاذيب.

إنّ أركانهم «سَمْعَهُمْ وأبْصَارَهم وجُلُودَهُمْ» تَشْهَدُ عليهم يوم الدّين بكُلِّ ما كانوا قد كَسَبُوهُ في الحياة الدنيا، ويَدْخُلُ في عُمُوم جُلودِهم جُلُودُ

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ـ كتاب الزهد.

أفْوَاهِهِمْ وأَلْسِنَتِهِمْ ممَّا كانَ من ذُنوب وجرائم ارْتَكِبُوها فيها، أمَّا النُّطْقُ الّذي يُرِيدُون التعبير به عمَّا يَصْطَنِعُون من تَلْفِيقات وأكاذيبَ ومعاذير، فَهُو الذي يُمْنَعُونَ منه، إذْ يُخْتَمُ علَىٰ أفْواههم فَلاَ تَسْتَطِيعُ التعبيرَ عن رَغَبَاتِهِمْ في الدّفاع الكاذب عن أنفسهم.

هذا ما دَلَّ عليه الْجَمْعُ بَيْنَ مُخْتَلف النُّصوص، وهو المنْهَجُ الذي يجب اتّباعُهُ في كُلّ النُّصوص القرآنية الدائرة حَوْل موضوع كُلّيٍّ واحد.

وقد خُتِمَت هذه الفقرة كسَابِقَاتها بعبارة الوعيد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ضمن الأسلوب العلاجيّ المختار لهذه السورة.

❁ ❁ ❁

قول اللّه تَعالَىٰ:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

الآيتان (٣٨ ـ ٣٩) قَوْلٌ مُسْتَقْطِعٌ بفَنّيَّةٍ بَديعةٍ مِمَّا سَوف يُخَاطَبُ بِهِ المكذِّبُونَ يَوْمَ الدِّين، والظّاهر أنّه يكونُ عند إقامة محكَمَةِ العدْلِ الرَّبَّانيَّة، ويكونُ خطاباً من الرَّبّ جلَّ جلالُهُ لعباده.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾: أي: يُقَالُ لهم يَوْمَئذٍ هذا يَوم الْفَصْل.

**الفَصْلُ في اللُّغَة:** الْفَرْقُ والتَّمييزُ بَيْنَ الشيئَيْن أو الأشياء. والْقَضَاءُ، والحكْمُ الفاصل. يُقَالُ لغة: فصَلَ يَفْصِلُ فَصْلاً وفُصُولاً. وفَصَلَ الحاكم بيْنَ الْخصْمَيْن، أي: قَضَىٰ وحَكَمَ، ويُفْصَلُ أهْلُ الموقف إلى زُمَرٍ على وفق الأحكام الّتي صدَرَت بشأن كلّ زُمْرَة منهم.

ولمَّا كانت محْكَمَةُ الْعَدْل الرَّبَّانِيَّةُ يوم الدِّين تَفْصِلُ بين العباد، بأحكام قضائِيَّةٍ، فَتُمَيِّزُ أهْلَ الجنَّة عَنْ أهل النار، وتُمَيِّزَ بَيْن مراتب أهْلِ الجنَّة

ودَرَجَاتهم، وتُمَيِّزُ بين مَنَازِلِ أهل النّار ودَركاتهم. أَطْلَقَ اللَّهُ عزّ وجَلّ على يَوْم الدّين اسْمَ «يَوْمِ الْفَصْل» إِذِ الْفَصْلُ أَحَدُ عناصر يوم الدّينِ الكُبْرَىٰ، قَبْلَ تَنْفِيذِ الجزاء، وبعْدَ الْبَعْث والحشْرِ والحِسَاب، فمِنْ دُونِ الْحُكْمِ الْفَصْل لا يكُونُ جزاء.

﴿جَمَعْنَكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: جَمَعْنَاكُمْ يا أَيُّها الذين كذَّبُوا محمّداً وكذّبوا بالقرآن، وبيوم الدين، وجَمَعْنَا الأَوَّلين من أَهْلِ القرون الأولى، حتَّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّد وإِنْزَال الرسالة الخاتمة عليه، وهذا الخطاب يَشْمَلُ كُلّ المكذّبينَ بَعْدَ بَعْثَةِ محمّد حتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَة.

ويُوَجَّه هذا الخطابُ للكَفَرَةِ المكذّبين، لأنّ المؤمنين لا يَحْتَاجُونَ مثْلَ هذا الخطاب يَوْمَ الدّين، إِذْ كانُوا في الحياة الدنيا به موقنين.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾: هذا تابع لخطاب المكذبين يوْمَ الدِّين، إِذْ يَقولُ اللَّهُ لَهُمْ: إِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ.

كيف يكُونُ لهم كيد، وهم عاجزُون عن أنْ يتصرَّفوا في تحرُّكاتهم أيّ تصرُّف، إِذْ هم يومئذٍ مَجْبُورُون، يتحرَّكُونَ بالجبْرِ، دُونَ أَنْ تكون لهم الخِيَرَةُ في شيْءٍ من أعمالهم، باستثناء أقوالهم، وخواطِرِ أفكارهم ونفوسهم؟!!.

وفي هذا تَحَدٍّ من الْقَدِير على مايشاء، للعاجِزين عن كلِّ شيءٍ فَلاَ يستَطِيعون فِعْلَ أيّ شيءٍ يشاؤون، والغرضُ تَذْكيرُهُمْ بالأَحْوَال الّتي كانوا مَعَها في الحياة الدنيا، حياةِ البتلاء، مُمَكَّنينَ من مُعَانَدَةِ رَبّهم ومَعْصيته، ومُمَكَّنِينَ من مُقَاومَةِ دَعْوَةِ رَسُوله، واضطهادِ الذين آمنوا به واتَّبَعُوه.

**الكَيْدُ**: الحيلة، والحربُ وإعداد وسائلها وأسلحتها ودفاعاتها، وكُلُّ تدبير ظاهِرٍ أو خفِيٍّ بحَقٍّ أو بباطل، وفيه مكرُوهٌ لمَنْ دُبِّر ضدّه، وكُلُّ تَدْبير يحقّق لصاحبه النَّصْر أو النجاة.

والمعنى: فإنْ كَانَ لَكُمُ اليوم كَيْدٌ تَنْصُرُونَ به أَنْفُسَكُمْ، أَوْ تُنْجُونَ بِهِ أَنْفُسَكُم من عذاب ربّكم الّذي كفَرْتُمْ به وبرسُوله وبكتابه، أوْ تحارِبُونَه به، فافعَلُوا. ولَنْ يَسْتطيعوا أيّ كيد.

جاء في العبارة استعمال حرف الشرط «إنْ» للإشارة إلى أَنَّهُمْ يكونُون عاجِزين، فهي في الغالب تُسْتَعْمَلُ في المستحيل، أوالمتعذّر، أو فيما هو مشكُوكٌ فيه ومستَبْعَدُ الوقوع، وقد استعملَتْ هُنَا في المستحيل، فالمتحدّي هو الرَّبُّ الخالِقُ الذي لا حول ولا قُوَّة إلاّ به.

وحُذِفَتْ يا المتكلّم من ﴿فَكِيدُونِ﴾ بحسب قراءة جُمْهورِ القرّاء العشرة إيجازاً، وحَذْفُها مَألُوفٌ في الاستعمالاتِ العربيّة، وكثيرٌ جدًّا في القرآن. وأُثْبِتَتْ هذه الياء في قراءة يَعْقُوب مُراعاةً للأصْل.

إنَّهم يوم الدين عاجزون عن فعل أيّ شيءٍ ممَّا كانوا يَفْعَلُونه في الحياة الدنيا، لا يملِكُون إلاّ تَلَقّي ما يَقْضِيه اللّٰهُ عزّ وجلّ علَيْهم، أوْ فيهم، لَقَد انْتَهىٰ دَوْر الابتلاء، وجاء دَوْرُ الجزاء.

وعند هذا المفصل البياني جاء موقع تكرير العبارة العلاجيَّة التي فيها تحذير وتهديد ووعيد، والمختارة لهٰذه السورة بفَنّيَّةٍ رائعةٍ، فقال اللّٰهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

❋ ❋ ❋

قول اللّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

من الأسلوبِ التربَوِيِّ النافع في القرآن الكريم، أنّه إذا جاء فيه بيَانُ

جَزَاءِ الكافرين المكَذّبين، أو جزاء الْعُصَاة والمذنبين، أُتْبِعَ ببيان ثواب المتقين وَأهل الاستقامة والطاعة، والعكس كذلك.

وتمشّياً مع هٰذه الطريقة التربوية الحكيمَةِ، جاءَتْ هذه الفِقْرة من فِقَرات هذا الدرس الرابع الذي نَتَدَبَّرُ آياته، لتقدّم صورة من صور نعيم المتقين والأبرار والمحسنين.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾: جاءت هذه الجملَةُ مؤكَّدَةً بمؤكِّدَيْن: «إِنَّ» و«الجملة الاسميّة» كما يَقُول عُلَمَاءُ البلاغة.

**المتَّقُون**: هم أَهْلُ مَرتبة التقوىٰ على تفاضل دَرَجاتهم.

**التقوى في اللغة**: أن تجعل بينك وبين ما تحذَرُ من مكروه وقايةً بفعل أو ترك، ففعلُ الواجباتِ يقي عقوبة تركِها، وتركُ المحرَّمات يقي عقوبة فعلها.

ومَرْتبة التقوى ذات درجات، وأدنىٰ درجاتها أنْ يتّقي المُمْتَحَنُ المكلّف الخلودَ في عذاب النار يوم الدين، بإيمان ينجيه من هذا الخلود، وتَرْتَقِي الدرجات بمقدار أدائه الواجبات، واجتنابه المحرَّمات، وأعْلَىٰ دَرَجَةٍ من درجاتِ هذه المرتبة، هي درجة مَنْ يُؤَدّي كُلَّ الْوَاجبات، ويَجْتَنِبُ كلَّ المحرّمات، وقد يحْتَلُّها مَنْ يغْفِرُ اللَّهُ له خطاياه الّتي ارْتَكَبَها بِتَرْكِ واجباتٍ، أو فِعْلِ مُحَرَّمات، إذا عَلِمَ اللَّهُ بحِكْمَته أَنَّهُ أَهْلٌ لأَنْ يحتلّها، كأَنْ يَتُوبَ ويَسْتَغفر، أو يفعل من النوافل ما يمْحُو به الخطايا، فالحسنات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات بفَضْل اللّه وغُفْرَانِه وعَفْوه.

وتأتي «مَرْتَبةُ البرّ» فَوْقَ مَرْتَبَة التقوىٰ، وهِيَ أيضاً ذَاتُ دَرَجَاتٍ كثيرات، ويَرْتَقي في درجات هٰذه المرتبة من يَتَوَسَّعُ في فِعْلِ النَّوافِلِ من الصالحات الّتي رغَّبَ اللّه فيها دون إلزام، ورتَّبَ على فِعْلِها ثواباً جَزِيلاً للمتطوّعين، دون أن يرتّب عقاباً على تاركيها.

ويَرْتَقِي في «مرتبة البرّ» الأبْرار، وهم يتفاضَلُونَ بحسَب توسُّعَاتِهم في فعل النوافل ابتغاء مرضاة اللّه، ولا يكون الارْتقاء في هذه المرتبة إلاّ بَعْدَ اسْتِيفاء حقوق مرتبة التقوىٰ، في نوع العمل الذي يُؤَدّي فيه المؤمن النَّوافلَ تَبرُّراً.

وتأتي «مرتبة الإحسان» فَوْقَ «مَرْتبة الْبِرّ» وهي ذَاتُ درجاتٍ كثيراتٍ أيضاً، والإحْسَانُ يكُونُ بأنْ يَعْبُدَ العبْدُ رَبَّهُ كَأَنَّه يَراه، فَهُو إتْقانٌ في عَمَلِ العبادة مع غاية الإخلاص للّه عزّ وجل، وابتغاء مرضاته.

ويرتقي في «مرتبة الإحسان» المحسِنُونَ، وهم يتفاضلون على مقادير إحسانهم في عباداتهم لربّهم، وابتغائهم رضوانه، ولا يكون الارتقاء في هذه المرتبة إلاّ بعْدَ اجتياز مرْتبة التقوى فمرتبة البرّ في نوع العمل الذي يؤدّيه العابد لربّه.

وأهل هذه المرتبة المرسلون والأنبياءُ ويَصِلُ إلى بعض درجاتها الصّدّيقُون والشهداء والصالحون من المؤمنين المسلمين لله ربّ العالمين من غير الأنبياء والمرسلين.

﴿فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾: أي: في جنَّةٍ ذَاتِ ظِلاَلٍ وذاتِ عيون تجري منها أنهار، وقد جاء في غير هذا النَّصّ بيَانُ أنّ أنهار الجنَّةِ متنوعة، فمنها أنهار مياهٍ شديدة العذوبة، ومنها أنهارٌ من لَبَنٍ، ومنها أنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّىٰ، ومنها أنهار من خَمْرٍ لذَّةٍ للشّاربين، لا غَوْلٌ فيها، ولا هم عَنْها يُنْزِفُون، أي: يَسْكَرُون.

ذِكْرُ الظِّلاَل كنَايةٌ عن وُجُودِ قُصُورٍ وأشجارٍ باسقات تُعْطي ظلًّا دائماً. واستعمال الجمع«ظلال» يَدُلُّ على أنها ظلاَل متنوعة من أشجار وقصور كثيرة الأنواع، على خِلاَفِ ظلّ الدخان الذي يكون لأهل النار.

وذكر العيون كنايةٌ عن وجود أرْضٍ تتفجَّرُ فيها هٰذه العيون.

وكُلُّ ذَلك كناية عن الجنَّةِ الّتي أعَدَّها الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ لسُكْنَىٰ المتّقين

الخالدين فيها يوم الدّين، ولسكنىٰ الأبرار والمحسنين، فهم متقون وفوق المتقين.

وظاهرٌ أنّ استخْدَام هذه الكنَايات هو من أساليب البيان غير المباشر، وهو من أساليب البلغاء الرفيعة.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٤٢﴾: وذاتِ فَوَاكه مُثِيرَةٍ لشهواتهم، ومُلَبِّيةٍ لرَغَبَاتِ شَهَواتهم أن يَأكُلُوا منها، متَنعِّمين.

**[فَوَاكِه] جمع «فاكهة» وهي تُطْلق في اللُّغة على كلّ الثَّمر، ومنه: «التَّمرُ والعِنَبُ والتّين والرُّمّان» إلى سائر ثمرات الأشجار اللّذيذة المثيرة لشهوات الآكلين.**

﴿مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾: أي: من جُمْلَة ما يشتهون أنْ يتَنَعَّمُوا به في الجنة. «مِنْ» في «مِمّا» للتَّبعيض. وفي هذا إشارة إلى مشتَهَيَاتٍ أخرىٰ لا تُحْصَرُ ينَعِّمُ اللَّهُ عزّ وجلّ بها أهل دار كرامَتِه.

في مقابل بيان أَوْصاف مكان المكذبين في جَهَنَّم يوم الدّين، بأنَّهم يكونون في ظلٍّ ذي ثَلَاثِ شُعَبٍ، لا ظليلٍ ولا يغني من اللَّهب، إذْ يكونُ من يحْمُوم، وهو دُخانُ نَارِ جهَنَّمَ الأسْود.

جاء بيان صفات مكان المتقين في الجنّة يوم الدين، على طريقة مقابلة الأوصاف بأضدادِها من أجناسها، فالمتَّقون في جنَّةٍ ذاتِ ظلالٍ وعيونٍ مُتَدَفِّقة بالمشارب، فهي ظِلالٌ باردَةٌ وكريمة، مع مُرَافقَاتٍ تنعيميَّة أُخْرَىٰ.

وعبارة [في ظلال] وما عطف عليها، تُشعِرُ بأنَّ المتَّقين مُحَاطُونَ بوسائِلِ نعيمهم إحاطة الظَّرْف بالمظروفِ فيه.

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾: حَدَثٌ مُسْتَقْطَعٌ من أحداث

ما سَوْفَ يكُونُ للمتقين في جنَّاتِ النعيم، وهذا الاستقطاع من أحداث المستقبل، وتَقْدِيمُهُ في البيان الحاضر، من الْفُنون البيانيَّة القرآنيَّة البديعَة.

ويُفْهَمُ عن طريق اللّوازم الفكريَّة، أَنَّ المتقين في جنَّاتِ النّعيم يُقَالُ لَهُمْ هذا الْقَوْل على سبيل التكريم.

أي: كُلوا ممَّا تَشْتَهُونَ من الفواكه، واشْرَبُوا ممّا يلَذُّ لكُمْ من الْعُيُون، بإباحَةٍ تامَّةٍ لا حَجْرَ مَعَها وَلاَ غُصَّة، حالَة كَوْنِ مَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَشْرَبُون هَنِيئاً.

﴿هَنِيٓـَٔا﴾ أو [هَنِيًّا]: أي: سائغاً لذيذاً. يُقَالُ لُغَةً: هَنِيءَ الطعامُ أَوِ الشرابُ يَهْنَأُ هَنَأً وَهَنَاءَةً، أي: سَاغَ وَلَذَّ.

**السائغ**: هو الذي يمُرُّ في الْحَلْق سَهْلاً طيّباً مستَمْرَأً.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: بسبب ما كنتم تَعْمَلُون في الحياة الدُّنيا من عمل صالح مُسْتَنِدٍ إلىٰ إيمانٍ صحيح صادق، ومصحوب بابتغاء مرضاة ربّكُم.

في هذه العبارة زيادَةُ تكريم لأَهْل دار النعيم يوم الدين، مع التذكيرِ بِصِدْق وعد اللّه الكريم، فالإشْعارُ بأَنَّ ما هُمْ فيه قَدْ تحقَّقَ لَهُمْ بسبب ما كانوا يَعْمَلُونَ، فيه غايَةُ المبالغة في تكريمهم، مع أَنَّ ما هُمْ فيه إنَّما هو بفَضْل اللّهِ عليهم، أمّا أعمالهم في الحياة الدنيا فهي لا تكفِي لشُكْرِ ما أَنْعَمَ اللّهُ عليهم به فيها، ودُخُولُهُمْ الجنَّةَ ونَعِيمَها قَدْ كانَ بمَحْضِ فَضْل اللّه علَيْهم.

ونظير هذا ـ وللّهِ المَثَلُ الأَعْلَىٰ ـ أنْ يضَعَ الْمَلِكُ أَوْ صاحِبُ فَضْلٍ عظيم، جائزَةً كبيرةً جدًّا، لصاحب الجواد الفائز في حلَبَةِ السِّباق، أو لصاحب أجمل قَصِيدَةٍ غزليَّة، أو لأوّل داخلٍ إلى مائدَتِه وآكلٍ منها.

فالدُّخولُ إلى المائدة والأكْلُ مِنها دَعْوَةٌ لتناوُلِ فَضْلِ الداعي، والمكافَأةُ بالجائزة العظيمة هي أيضاً من فضله، وهكذا الدُّخولُ في الإيمان والإسلام، والمكافأةُ عليه بجنّاتِ النَّعيم يوم الدين.

وجاء في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) بيَانُ أنّ المتقين في جنّاتِ النعيم، وأنّهم يقالُ لهم يومئذٍ:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مع إضافات لم تأتِ في سورة (المرسلات) من نعيم أهل الجنّة.

وجاء في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بيان أنَّهُ يقال لهم يومَئذٍ:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

● قوله تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

يتحدَّثُ رَبُّنا في هٰذِه الآيَةِ بضَمِير المتكلّم العظيم، فيُبَيّن أنَّهُ يجزي المحسنين وهم أهْلُ مَرْتبة الإحسان الْعُلْيَا، جزاءً مُمَاثلًا لجزاء المتقين، أيْ: مَعَ ما يُفضّلُهُمْ به من جزاءٍ أعْلَىٰ، فما يُعْطِيهم من جزاءٍ أَعْلَىٰ لاَ يُوقِفُ عَنهُمْ ما دُونه مِنْ جزاء المتقين، إذْ هُمْ مُتَّقُونَ أوّلاً، وارْتَقَوْا عَنْ مَرْتَبَةِ المتقين إلى مَرْتَبَةِ الأبرار، ثُمَّ ارْتَقَوْا إلَىٰ مَرْتَبَةِ المحسنين، فاكْتَسَبُوا بذلِكَ جزاءاتِ المرتَبَتَيْن الدنيا والوسطى، مع جزاءات الدَّرَجَةِ الّتي يكونون من أهلها في مرتبة الإحسان.

واقتصر النصُّ على ذِكْرِ المتقين أهل المرتبة الدنيا، والمحسنين أَهْلِ المرتبة العليا، لِنُدْرِكَ عن طريقِ اللُّزوم الذِّهْنِيّ والدَّلاَلات الفكريَّةِ أنَّ الأبرار وهم أهل «مرْتَبة الْبِرّ» ينالون في الجنة حظوظ مرتبة المتقين، لأنَّهُمْ مُتَّقُونَ وزِيادَة،

وينالون أيضاً حظُوظاً أُخرىٰ مخصَّصَةً للأبْرار بحسَبِ دَرَجاتهم في «مَرْتَبَةِ الْبِرّ».

وهذا من الإيجاز البديع في القرآن، الذي يَعْتَمِدُ على ذكاء المتلَقّين الذين يتدبَّرُونَ النُّصوصَ القرآنيَّةَ بأناة وتعَمُّقٍ.

وعند هذا المفصل يَأتي تكرير لازمة السُّورَةِ أمْراً مُحْكماً، فَيقُول اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## (١٠)
## التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُروس السورة

### الآيتان (٤٦ ـ ٤٧)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

الْتِفَاتٌ بالخِطَاب، من الحديث عن المتقين، ووصْفِ بعْضِ ما سَوْفَ يكُونون فيه من نَعِيم يَوْم الدِّين في الجنّة، إلَىٰ مُوَاجَهة الكَفَرَةِ المكَذّبين وهم ما زالُوا في حياة الامتحان في الدُّنيا.

إنّ فنِّيَّةَ التنقُّل في الْخِطَاب بين حيَاتَي الابتلاء والجزاء، من البدائع القرآنيّة الَّتي لم تُعْرَفْ عندَ الْبُلَغاءِ قبْلَ نزُول القرآن، وهذا الْفَنُّ الجميل من عناصر إعجاز القرآن المبتكرة.

إنَّ اللَّه عزّ وجَلَّ يَقُولُ في هَٰذَا الدرس من دُروسِ السورة لِلكَفَرَةِ المكذّبين:

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: كُلُوا ممَّا خلَقْتُ للنّاسِ من

رزْقٍ في الحياة الدّنيَا، في الأرْض دار الابتلاء، واشْرَبُوا ممَّا جَعَلْتُ فيها للناس من مشارب، وتَمَتَّعُوا بشَهواتها، ولذّاتها، ولَهْوِهَا ولَعِبها وَتكاثُرِها وتفاخُرِها وزِينَاتها، متاعاً قليلاً، في الكمّ وفي الكيف، وقَلِيلاً في الدّوام، إذْ هو متاعٌ ضئيل المقدار، وسَرِيع الزّوال.

**المتاع**: ما يُنْتَفَع به والفناءُ يأتي عليه في الدنيا.

وقد وصف اللَّهُ كلَّ ما في الدّنيا بأنَّهُ متاع قليل، لأنَّهُ قليل فِعلاً بالقياس على الخلود الذي يكون في الحياة الأخرى.

وقد جاء وَصْفُ محَابّ الناس من الحياة الدنيا بأنّه متاعٌ قليل في عدّة نصوص قرآنية، وفي عِدَّة مناسبات، ومنها النُّصوص التالية:

(١) قول اللّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) معالجةً تَرْبويَّةً للمؤمنين الذين كرهوا الدّخول في معارك قتاليّة مع الكافرين:

﴿... قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

**الْفَتِيل**: الخيط الذي يكُونُ في شقِّ نَواة التّمر.

(٢) وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

(٣) وقول اللّه عزّ وجل في سورة (الرّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) بشأنِ أهل النار، الّذين لهم اللّعْنَةُ ولهم سُوءُ الدّار:

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وما الحياة الدنيا في جنْبِ الآخِرَة وبالقياسِ عَلَيْها إلاَّ مَتاعٌ سَريع الزَّوال، وعُرْضَةٌ للْفَنَاء.

أمّا مَا في الجنة من جزاء فسمَّاه اللَّهُ عزّ وجلَّ في القرآن نعيماً مقيماً دائماً لا زوال له.

وفي قول اللّهِ عزّ وجلّ خطاباً للمكذبين وهم ما زالوا في ظروف الحياة الدنيا: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ بيانٌ لإمْهَالِهِمْ مع إشارةٍ ضمنيَّةٍ فيها تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيد، إذْ فيها إشعارٌ لَهُمْ بأنّهم تَحْت المراقَبَةِ الدّائمة، وبأنَّ تمتُّعهم بما يُحِبُّونَ من الْحَياة الدُّنيا خاضِعٌ لقضاء اللّه وقَدَرِه، ضِمْنَ ظُرُوف امتحانهم.

وحكَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ عليهم حُكْماً وِجاهيّاً خاطبهم فيه بقوله لهم: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي: إنَّكُمُ الآنَ مُجْرِمُون، ما لَمْ تُقْلِعُوا عمّا أنتم فيه بالتوبة والإيمان والإسلام والعمل الصالح. أمّا إذا بقيتم مُصِرِّين على كُفْركم وتكذيبكم على الرُّغم من كلّ البيانات الإقناعيَّةِ والتَّرغيبيّة فإنَّكم ستظَلُّونَ مُجْرِمين، وستأتُون يَوْمَ الدّين مُجْرِمين، ويَنْطَبق عليكم أنَّكُمْ مُكذِّبون، وتسْتَحِقُّونَ الدُّخول في وعيد:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

هٰذه اللاَّزمَة المختارة لِتَكْريرها عندَ مَفَاصلِ السُّورَةِ بِفَنِّيَّةٍ بديعة.

**الْجُرْمُ والْجَرِيمة** في اللّغة: الذّنْبُ والتعدي. يقال: جَرَمَ وأَجْرَمَ واجترم، أي: اكتسب إثْماً.

**الْمُجْرِمُ**: هو المذْنِب ذنْباً عظيماً، وقد جاء لفظ «المجرمين» في القرآن عنواناً مُقَابلاً لعنوان «المسلمين» ووصفاً للكافرين الّذِين أهْلَكَهُمُ اللّه عزّ وجلّ في الدنيا، ووَصْفاً للمعذبين في النار، وهذا يَدُلُّ علىٰ أنَّ الْمُجْرِمين في الاصْطِلاح القرآني هم الذين يرتكبُون الآثَامَ من مستوىٰ

الكفر، ولِهٰذا فَهُمْ من أهل النار الخالدين فيها. وهذا المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن أصل المعنى اللّغوي الذي هو قطع الشيء من أصله.

ومن الأدلة على هذا المعنَى الاصطلاحي ما يلي:

(١) قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟!

(٢) وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

ولَمَّا كانت خواطر كثيرةٌ مُزَلْزِلةٌ تَشْغَلُ بعْضَ المؤمنين، إذْ يَرَوْنَ الكافِرين المجرمين ذوي مالٍ وسلطانٍ وقُوّةٍ أحْيَاناً، وتَقَلُّبٍ في بلاد الدنيا بحُرِّيَّةٍ واستمتاعٍ بما يُحِبُّونَ، فَتَغُرُّهُمْ هٰذِهِ الظَّواهِرُ، وتُوسْوِسُ لهم شياطينُ الإنْسِ والجنِّ وسَاوس شَتَّىٰ، قد تُزَلْزِل ما لديهم من ثوابت إيمانيَّة، كان من الحكمة العلاجيَّة أن يخاطب اللّه عزّ وجلّ كُلَّ مُؤْمِنٍ ومُسْلِمٍ خِطَاباً إفرادياً، فيَقُول لَهُ كما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

أي: كُلُّ ما في الدُّنيا من لَذَّاتٍ يُصِيبُها النَّاسُ، وتَحقيقِ شهوات، وإرْضاءِ أهواء، مَتاعٌ قليل، ضئِيلُ القِيمَةِ، سَرِيع الزّوال.

**مأْوَاهُمْ**: أي: مَنزِلُهُمُ الذي ينزلون فيه يوم الدين، ومَكانُ إقامَتِهِمُ الذي يقيمون فيه. **المأوى**: المنزلُ الذي يُنْزَلُ فيه ويُسْكن.

**جَهَنَّمُ**: اسْمُ علَمٍ من أسماء دار العذاب يوم الدّين، ويقال للقَعْرِ البعيد في اللُّغَة: «جِهنّم».

**الْمِهَادُ**: الْمَكانُ الْمُمَهَّدُ الموطّأ، وأطلَقَ اللّه على مكان الذين كَفَرُوا في جهنم لفظ «الْمِهادِ» على سبيل التهكّم بهم، إذْ هو مُعَدٌّ لتعذيبهم لا لتكريمِهِمْ، ولهذا قال اللّه بشأنه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: وبئْسَ المكان المعَدُّ لهم فيها. **بِئْسَ**: فعل ذَمٍّ، والمعنى: بئس المهادُ مِهَادُهم.

❀ ❀ ❀

## (١١)
## التدبّر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة

### الآيتان (٤٨ ـ ٤٩)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

في هذا الدرس الْتِفَاتٌ عن خِطَاب الكَفَرَةِ المكذّبين، إلى الحديث عنهم بضمير الغائبين.

رُوِيَ أنّ هذا الدَّرْسَ من التنزيل المدنيّ، وأرى أنَّ السِّبَاق والسِّياق يَدُلّان على أنّه من التنزيل المكّيّ، فالظاهر أنه لم يتأخَّرْ عن نزول السّورة، واللّه أعلم.

**الرُّكُوع**: هو في اللّغة الانحناء، وأقْصاهُ أَنْ تَمَسَّ الركبتان الأرض. والرُّكوع الشرعيُّ في الصلاة هو الانحناء بعْدَ القيام حتى توضع الراحتان على الرُّكبتين.

هذه العبارة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فيها كنايةٌ عن كِبْرِهِمْ، حتَّىٰ على خالِقِهم، وبارئهم، ورازقهم، ومن بيده حياتُهم وموتُهم، وهو الّذي وَضعهم في الحياة الدنيا موضع الامتحان، ليخْتَبِر ما منحهم من

إرادةٍ حُرَّةٍ بالإيمان والعمل الصالح وأضدادهما، فَهُو مالِكُ مُحَاسبتهم وفصْل القضاءِ بشأنهم ومجازاتهم يوم الدين على اختياراتهم في الحياة الدنيا.

واختير الرُّكوعُ دون السُّجُودِ لأنَّه أدنَىٰ الخُضُوع الماديّ للّه عزّ وجلّ في عبادته.

ولو جاء في الآية السجودُ بدل الرُّكوع لكان محتملاً للدّلاَلَة على أنَّهم أنصَاف متكبّرين، فهم قد يركعون ولكنّهم لا يَسْجُدون.

إنَّهم لا يكْتَفُونَ باتّباع أهوائهم وشهواتهم عُصَاةً فاجرين، يرتكبُونَ الآثام من الكبائر، بل هم مستكْبِرونَ أيضاً على ربّهم، فلو لم يكُنْ لهم شهواتُ بُطُونٍ وفُروج، وجَاهٍ وزعاماتٍ، ولَعِبٍ ولَهْوٍ، وتعلُّقٍ بزُخْرُف الحياة الدنيا، وحُبٌّ للتكاثر والتّفاخر، لَمَا خَضَعُوا لبارِئهم أدنَىٰ خُضوع، لأنَّهم في نُفوسهم مستكْبِرُونَ، وكِبْرُهُمْ جعَلَهم يرتكِبُون أقْبَحَ الحماقاتِ وأخَسَّها.

وفي مقابلَةِ إدْبارِهم وتولّيهم عن الاستجابة لدعوة اللّه لهم لمَا فيه سعادَتهم في دُنياهم وآخِرَتهم، تَولَّىٰ اللّهُ عنهم، فتَحَدَّثَ عَنهُمْ بضمير الغائبين، الّذِين لا يستحقُّون مواجَهَتَهُمْ بالخطاب، فقال تَعالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ومن حِكَم هذا الالتفات عن مخاطَبَتِهم أنّ الرُّكوع المطلوب منهم، إنَّما هو لَهُ سُبْحَانَه، وهُو الذي يتحدَّثُ عنهم.

وعند هذا المفْصِل من السورة كانَ من المناسب تكريرُ لازمتها المختارة للتكرير العلاجي، فقال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

(١٢)

# التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس السورة

## الآية الأخيرة من آيات السورة وهي الآية الخمسون

قال اللّٰهُ عزّ وجلّ:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!!.

**الحديث**: الكلام الهادئ الّذِي يتكلّم به المحدّث في مجلس متكافئ بينه وبين من يستمع إليه، فلا يَشْعُر المستمع بأنّه في موقع الأدنىٰ الذي يتلَقّىٰ من الأعلى، بل يَشْعُرُ بأنّهما على سواء، في التَّلَقِّي والعطاء.

بخلاف عَمَل الخطيب، أو الْمُعَلِّم، أو المدرّس، أو من يلقي محاضرة، أو الآمِرِ النَّاهِي، أو الشّاعر، أو نحوهم.

والحديثُ أكثر الكلام قبولاً وتأثيراً في النفوس البشرية، إذْ لا يُواجِه عقبَةً صادَّةً في الغالب من الأحوال، ولا يُواجه نُفُورَ مستَكْبِرٍ يَرْفُضُ تلَقِّيَ الْعِلْمِ من مُعَلِّم.

ولهذا وصَفَ اللّٰهُ كلامَهُ لعباده في كتابه بأَنَّهُ من نَوْع الحديث، وأرْشَدَ بهذا الوصْفِ الدُّعَاة إلَىٰ دين اللّٰه بأنْ يكونوا مُحَدِّثين، حتَّىٰ تكُونَ دَعْوَتُهم أوْقَعَ في نُفوس مَنْ يُوجِّهون لَهُمْ الدَّعْوَة.

فخاطب المشركين الذين كَفَروا باللّٰه ورسوله بقوله في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (الزُمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

وقد أدرَكَ أئِمَّةُ الضلال المعاصرون في الأرض قيمةَ تأثير الحديثِ الهادئ، فيمن يُوجَّه لهم، فأوصَوْا جنُودَهم بأن يستَخْدِموا أسلوب الحديث الفردي، أو في جماعات صُغرىٰ، لإقناع الناس بأفكارهم، ومذاهبهم، وضلالاتهم، فقدّمَ لهم استخدامُ هذا الأسلوب تأثيراتٍ كثيراتٍ، وجلَبَ إلَىٰ صُفُوفهم وتكتُّلَاتهم قُطْعاناً بشريَّةً كثيرة.

أمّا ختم سورة (المرسلات) بقول الله عزّ وجل:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!!

فمعناهُ: فَبِأيِّ حَديثٍ آخر يؤمنون بَعْد هذا الحديث البيانيّ الإقناعيّ، والترغيبيّ، والترهيبيّ، الّذي اشتملت عليه هذه السّورة، والكافي تماماً لهداية من هو مستعدٌّ للهداية، فلا يَرْفُضُها ولا يَرْفض التصديق بالحق الذي هدَتْ إليه، إلاّ جَحُودٌ معانِدٌ مُجْرم.

إنّ هذا الحديث قد حاصرهم محاصَرةً تامَّةً فكريَّةً عقليّةً منطقيَّة، ومحاصرةً نفسيَّةً من مِحْوَرَي الخوف والطّمع، فإذا لم يؤمنوا تأثّراً به فَمِنَ المستَبْعَد أن يكون لدَيْهم استعدادٌ لأنْ يؤمِنُوا بالرَّسُول وبالقرآن وبيَوْمِ الدين تأثُراً بأيِّ حَدِيثٍ بَعْدَه.

ماذا يَطْلُب الحريصُ على نَجاةِ نَفْسه وسعادتها، أكْثَر من حدِيث مُوَجَّهٍ لمصلحته، مُشْتَمِلٍ على ما يُقْنِعُه بالْحَقّ، ويُخَوِّفُهُ من الخلود في العذاب الأليم، ويُرغبه في النعيم المقيم، بجنّاتِ رَبّ العالمين.

إنّ إصراره على التكذيب بعد هذا الحديثِ لا يكُونُ إلاّ ناشئاً عن عنادٍ وإصرارٍ على الباطل بحمَاقَةٍ طاغية، وعن اتّباعِ للهوىٰ ورغبات الفجور، والتعلُّق الشديد بارتكاب الجرائم والآثام.

والاستفهام في هٰذه العبارة اسْتِفْهامٌ تعجيبيٌّ منْ أمْرِ المكذّبين الذين يستحقّون الدُّخُولَ في وعيد:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

ومثل هذه العبارة قد جاء في موضعين آخرين من القرآن المجيد:

**الموضع الأول**: ما جاء في سُورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بَعْدَ بياناتٍ إقناعيَّةٍ وتَرغيبيَّةٍ وتَرْهيبيَّة، وهو قول الله عزّ وجل فيها:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾؟!!.

**الموضع الثاني**: ما جاء في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾؟!!

إنّه لا يوجد للإقناع بالغيبيّات إلاَّ الآيات الكونية ذوات الدلالات العقلية، والبيانات الكلامية الإقناعية والترغيبيَّة والترهيبيّة، فمن لم يؤمن بالآيات الكونية، ولا بالبيانات الكلامية، فلا سبيل إلى تحويله من الكفر إلى الإيمان إلاّ بالجبر، وهذا ينافي الابتلاء.

❁ ❁ ❁

## (١٣)
## تلخيص ما اشتملت عليه السُّورة

تلخيصٌ جامع لما اشتملت عليه سورة (المرسلات) في الفقرات التاليات:

(١) الاستدلال بظاهرة كونيّة عظمَىٰ هي ظاهرة الرّياح، إذْ هي تدلُّ على الخالق الجليل، وجُمْلَةٍ من صفاته السنيّة، بأسلوب القَسَمِ بها على أنّ

يوم الدّين حقٌّ لاَ شكَّ فيه، إذْ هو من عناصر برنامج خلق الناس للابتلاء، فالحساب، ففصْل القضاء، فتحقيق الجزاء.

(٢) بيان أحداثٍ تفصيليَّةٍ هي من مقدّماتِ يوم الدين، ومن العلامات الموطئة له.

(٣) الاستدلال بإهلاك المجرمين السَّابقين الّذين كذّبوا المرسلين، على قانون الجزاء الرَّبّاني.

(٤) الاستدلال بخلق الإنسان من ماءٍ مَهينٍ على قُدْرَة اللّه العظيمة وحكمته الجليلة. ومن لازم الحكمة ومقتضياتها قانون الجزاء.

ومن الأمور البدهيّة أنّ القادر على بدْءِ خلق الإنسان ولم يكُنْ شيئاً مذكوراً، قادرٌ على إعادة خلقه بعْدَ موته، ليحاسبه، وليفْصِل القضاء بشأنه، وليُجَازيه.

(٥) الاستدلال بدَوْرة الحياة والموت من الأرض وإلى الأرض، على صحّة خبَرِ البعْثِ للحساب وفَصْل القضاء والجزاء، الأمْر الذي جاءت به رِسَالاتُ اللّهِ للناس، على ألسنة رُسُلِ اللّه، وبيَّنَتْهُ الكُتُبُ الرَّبَّانيَّةُ بصُورَةٍ صَريحَةٍ لا غُموض فيها.

(٦) عَرْضُ صُورَةٍ تَرْهيبيَّة مخيفةٍ جدّاً، من مشاهِدِ عذاب المكذّبين، في جهنَّمَ دَار المجرمين يوم الدين.

(٧) عَرْضُ صورَةٍ تَرْغيبَّةٍ مُطْمِعَةٍ من مشاهد نعيم المؤمنين المتقين في جنَّاتِ النّعيم، يوم الدّين.

(٨) التهديدُ بالعاقبة الوخيمة للمكذّبين، بَعْدَ الإمْهَالِ الّذي هُمْ فِيه، ليقْطَعَ اللّهُ بِهِ أعذارَهم، ولعَلَّ بعْضَ الّذين يجتازون رِحْلَةَ النَّزَوَاتِ الرَّعْناء منْهُمْ، أنْ يَتُوبُوا إلى بارِئهم فيَكُونُوا من الناجِينَ المغْفُورِ لهم، وهُمُ الذين لَدَيْهم استِعْدادٌ للتوبَةِ والرَّجْعَةِ إلى الحقّ والْهُدَىٰ، ولكنَّ

غِشَاوَاتِ الأهواء والشهوات ورُعُوناتِ نَزَعاتِهم الحمقاء حَجَبَتْ عَنْ بَصَائِرِهِمْ رؤيَةَ الحقّ، والانتفاعَ بأنوار الهداية.

(٩) مخاطبةُ المكَذّبين بحقيقة حال نُفُوسِهم المجْرِمَة، ببيَانِ أنّ تكذيبَهُمْ ناتجٌ عن رغبات الإجْرام الجامحة الّتي فيهم، فَهُمْ مُجْرِمُون راسِخُونَ في الإجرام، ولَيْسُوا واقِعِين في عوارضِ أهواءٍ ونزواتٍ عابراتٍ في حياتهم.

(١٠) بيانُ أنَّهم مستكْبِرُونَ حتَّىٰ على بارئهم، فَهُمْ إذا قيل لهم: ارْكَعُوا لِلَّهِ الّذي خلقَكم وصوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ لاَ يَرْكَعُونَ، فضلاً عن أن يَسْجُدوا له، أو يُطِيعُوا أوامره، أو يجتَنِبُوا نواهيَهُ، على خلاف رغبات نُفُوسِهم وأهوائهم وشهواتهم ونزعاتهم، ونزغات الشياطين الذين يوسوسون لهم ويُسَوِّلُون.

(١١) ختْمُ السُّورَة باستفهام تعجبيّ من المكذبين، فيه معنَىٰ نفْي أن يكون لَدَيْهم بَعْدَ بيانات السُّورَةِ العلاجيَّة وإصرارهم على التكذيب، استعدادٌ للإيمان والإسلام بتأثير أيِّ حَدِيثٍ آخَرَ بَعْدَه.

وهكذا جَمَعَتِ السُّورَةُ بعناصِرِها كُلَّ ما يلْزَمُ للوحْدَةِ الموضوعيَّةِ، ضِمْنَ المَنهَج الشَّجَريّ المتَّبَع في السُّوَر القرآنيَّة، والقائم على العلاج الشامل للمقصودين بالخطاب، فكريًّا، ووجدانيًّا ونَفْسِيًّا، دُونَ التزام بصِلَةِ كُلِّ آيَةٍ بالّتي قَبْلَها، فقد تأتي آيَةٌ أَوْ عِدَّةُ آيَاتٍ منها مُشْتَقَّة مِنْ سَاقِ شجرة موضوع السُّورَةِ، أو متفَرّعَةً من أَحَدِ فُروعها، أو موصُولَة بجَذْرِها مباشَرَة.

وبهذا تَمَّ لي تَدَبُّر آيات السُّورة على قَدْر وعائي، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

❀ ❀ ❀

(١٤)

# ملاحق لتدبُّر سورة المرسلات

**الملحق الأول:** حول بلاغيات في السّورة.

**الملحق الثاني:** حول الرياح في القرآن المجيد.

**الملحق الثالث:** حول القسم بالمرسلات.

❁ ❁ ❁

## الملحق الأول
## حول بلاغيات في سورة المرسلات

توجد في سورة (المرسلات) بلاغيّاتٌ محكمات الاختيار، ومنها روائع مبتكرة لم يكن البلغاء قد توصَّلُوا إلى إدْراكها في روائعهم الشعريّة والنثريّة، ولولا القرآن المجيد لما عَرَفُوها، أو لتأَخَّرَتْ معرفَتُهم لَهَا جدًّا.

وأذكر من هذه البلاغيات ما يلي:

(١) تأكيد الخبر بالقسم بأشياء هي بمثابة الأدلّة على تحقُّق المقسم عليه، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ وما بَعْدَها، والْمُقْسَمُ عليه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

(٢) تأكيد الخبر بأدَواتِ تأكيدِ مُرَاعَاةً لأحوالِ المخاطبين:

- بحرف التأكيد «إنَّ» وباستخدام «الجملة الاسميّة» في: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢﴾ وفي: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١﴾.

- التأكيد بتكْرير عبارة الوعيد في: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾.

(٣) الكنَاية عن الأشياء بذكر بعْضِ صفاتها دُون الألفاظ الخاصَّةِ بها، وهو من استخدام الأسْلُوب غير المباشر في القول، ونجد هذا في:

- الكناية عن الرّياح بذكر بعض صِفاتها، في: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾.

● الكناية عن الجبال بذكر بعض صفاتها، في: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شَامِخَاتٍ ... ﴿٧﴾﴾.

● الكناية عن مكان المكذّبين في جهَنَّم بذِكْر بعض صفات نُزُلهم فيها: في: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

● الكناية عن الجنّة بذكر بعض ما يكون فيها من نعيم للمتقين، في: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

(٤) اقتطاعُ الأحداث ممّا سوْفَ يكونُ يَوْمَ الدّين، وتقديمُه كأنّه واقعٌ الآن عند الخطاب، ونجد هذا في:

● ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾.

● ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(٥) الإيجاز بالحذف، اعتماداً على استخراج المخاطب الذكيِّ لَهُ، ونجد هذا في حذْفِ جزاء الأبرار، أصحاب المرتبة الوسطى، اعتماداً على ذكر جزاء المتقين أصحاب المرتبة الدنيا، وذكر جزاء المحسنين، أصحاب المرتبة العليا. وقد سبَقَ شرح هذا في التدبّر.

إلى غير ذلك من بلاغيات جاء تحليلُها لدى تدبُّر آيات السُّورة، وبلاغيات أخرى يمكن استخراجها بالتفكر العميق.

❀ ❀ ❀

# الملحق الثاني
# حول الرياح في القرآن المجيد

جاء في القرآن المجيد خَمْسةٌ وعشرون نصّاً موزّعَةً في السُّورِ حول الرّياح، وفي هذا الملحق أسْتَعْرضها بشيء من التدبر على وفق ترتيب نزول سُورِها، مع استنباط وظائفها الماديّة والمعنوية ما تيسّر لي ذلِكَ.

**النص الأوّل:**

قول اللّه عزّ وجل في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾.

وقد سبَقَ لنا تَدَبُّر هذا النّص لدى تدبر الدرس الأوَّل من دُروس هذه السّورة.

**النصّ الثاني:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن إهلاك عاد قوم الرسول هُودٍ عليه السلام:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي: ريحاً باردةً شديدَةً ذَات صَوْتٍ شَدِيدٍ مخيف، وهذا يكون من شدّة سُرْعَتِهَا واصطدامها بالأشياء ذواتِ الحجُوم المادّية.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾: أي: في يَوْمِ بُؤْسٍ وشُؤْمٍ وعذابٍ، وقد تَتَابَعَ على طَرِيقَةٍ واحِدَةٍ في أجْزَائِه الزَّمَنيَّة، فهو يَوْمٌ شَديدٌ قَوِيٌّ في الشُّؤم والبؤس والعذاب الذي حصل فيه لقوم عاد.

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾: أي: تقتلع هذه الرّيح الصرصر النّاسَ من قوم عادٍ اقتلاعاً، ثُمَّ تَرْمِيهِمْ صَرْعَىٰ هلكَىٰ، فتَجْعَلُهُمْ إذا رمَتْهم كأنَّهم أصُولُ نَخْلٍ مُنْقلعٍ من جذُوره، ومَرْمِيّ كَيْفَمَا اتَّفَقَ مُكَوَّماً حَطباً.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾: أي: فانظر أيُّها المتفكّرُ في تصاريف جزائي، كيْفَ كَان عذابي، وكَيْفَ كانت نُذُرِي، فما حصل لعادٍ من إهلاك

شاملٍ قَدْ كان مسبوقاً بإنْذارِهم بالإهلاك إذا لم يتوبوا ويؤمنُوا، لكنَّهم لم يكترثوا له ولم يَعْبؤوا به، فنزل بهم العذاب المهلِكُ لهم إهلاكاً عامًّاً.

لقد أنذرهم اللّه قبل أن يُهلكَهُمْ، ومَنْ أنْذَرَ فقد أعْذر، أي: قدّم عُذْرَه الكامل فيما فعل، ولم يُبْقِ لِمَنْ عذَّبَهُ وأهْلَكَهُ عُذْراً يعْتَذِرُ به.

وما حصل لعادٍ من الإهلاك الشامل هو لمن جاء بعدهُمْ من أهل الكفر والتكذيب بقانون الجزاء الرَّبَّانيّ إنْذارٌ وعبْرَةٌ، لمنْ لدَيْه رغْبَةٌ في الاعتبار، وذِكْرَىٰ لمن لديه رغبة في الادّكار، ممَّنْ كان لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْع وهُو شَهِيدٌ.

إنّ هذه الريح الّتي أرسلها الله عزّ وجلّ على عادٍ قوم الرسول هود عليه السّلام فأهلكهم بها:

- آيَةٌ من آياتِ اللّه في كونه، وقُوّةٌ من القوى العظيمة في خلقه، وهي دالّة على قدرته أنْ يُسَخّرها في إهلاك مَنْ يشاء، متى شاء بحسب حكمته.

- وإرسالُها للإهلاك بها قد كان مسبوقاً بالإنذار، فالعذْرُ بما أجراه بها قائم.

- وهي لمن سيأتي بعد قوم عاد من الذين يسْمَعُونَ أخبارهم، أو يشاهِدُونَ آثارهم، عبْرَةٌ تتضَمَّنُ إنْذاراً بعقوبة اللّه لِمَنْ يفْعَلُ مثل أَفعالهم، ويكْفُر مثل كُفرِهم، فالنُّذُرُ (أي: الإنْذارُ) بها قائم.

- وما أجرى اللّه بها من عقابٍ للكَفَرَةِ المكذبين من قوم عادٍ دليلٌ على قانون الجزاء الرَّبَّاني.

- وقِصَصُ المهلَكِين بها ومواطنُ إهلاكهم الماثلةُ في الأرض مُذَكِّرَةٌ بعذاب اللّهِ عزّ وجلّ للكافرين المكذبين بالدّين، فالذكْرُ (=التذكير) باللّهِ وعقابِهِ في آثارها قائم دائم.

إذن فَوُجود الرِّياح الدائم، وتصاريفها، من الأمور الّتي تقدِّم لأهل البصيرة الذِّكْرَ، ودَلاَلاَتِ العذر، ودَلاَلات النُّذر.

وهذا يلقي الضَّوْء على ما وَصَفَ اللّه عزّ وجل به الرِّياح في قوله في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾.

فنفهَمُ المراد به بتوفيق الله ومعونته وتفهيمه.

**النص الثالث:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن امتنانه على سليمان عليه السلام إذْ سخّر له ممّا سخّر الريح تجري بأمْرِه رُخاءً حيث أصاب، بعْدَ أن سأل ربَّهُ أن يَهَبَهُ ملكاً يَخُصُّهُ به، لا ينبغي لأحدٍ من الناس من بعْده:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦﴾.

﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: أي: تجري الريحُ بأمْرِ سليمان عليه السّلام ﴿رُخَآءً﴾ أي: خفيفةً ناعِمَةً ليِّنَةً ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: في المكان الذي يُريد أَنْ تَجْرِيَ فيه كذلك، وإلى المكان الذي يُرِيد أَنْ تَجْري إليه كذلك.

**يقال لغة:** أصاب صَوْباً، أي: أراد أمْراً صواباً. **والصَّوْبُ:** القَصْد.

فمعنى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيْثُ قصد قصْداً صَواباً، وفي هذا ثناء على سليمان عليه السلام، بأنّه لم يكن يستَخْدِمُ الريح الّتي سَخَّرَها اللّه عزَّ وجلَّ له في أعمالٍ خارجَةٍ عن مَنْهجِ الصَّواب.

وضدّ الصواب الخطأ، وما لا خير فيه، واللَّهْوُ واللَّعبُ.

وفي تسخير اللّه عزّ وجلّ الريح لسليمان عليه السَّلام تجري بأمْرِه شاهدٌ على صِدْقِ رسالَتِه، وصدْق دعوته لربّه.

وبما أنَّ سُلَيمان عليه السّلام واحدٌ من رُسُل اللّه، وبما أنّه مُصَدِّقٌ بسائر الأنبياء والرُّسُل، فتسخير الريح له يُلْقي في عقول النّاس وقُلوبهم ذكْراً باللّه وبرسالاته، وبما جاء فيها من وعْدٍ ووعيد، وفي إلْقَاء هذا الذكر إعذارٌ وإنْذار، وهو من الأمور التفصيليَّة، لمجمل قوله تعالى في سورة (المرسلات) بشأن وظيفة الرِّياح في دَلاَلاَتِها الإيمانية: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾.

**النصّ الرابع:**

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾.

- قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائيُ، وخَلَفٌ [**يُرْسِلُ الرِّيحَ**] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

والمعنى واحد.

- وقرأ عاصم: [**بُشْراً**] مصْدَرُ «بَشَرَهُ يَبْشُرُهُ» أي: أخْبَره بما يَسُرُّهُ ويُفرحه.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وأبو عُمْرو، ويَعْقُوبُ: [**نُشُراً**] جمْعُ «نَشُور» مثل: «رَسُول ورُسُل» **النَّشْرُ**: الحياة.

وقرأ ابن عامر: [**نُشْراً**] بإسكان الشين، وهو تخفيف لـ«نُشُر» جمع نَشور.

وقرأ حمْزَةُ، والكسائي، وخلف: [**نَشْراً**]: أي: حياة.

وبين القراءات تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد، ووجوه عربية متماثلة.

دلّت هذه الآية على أنّ من وظائف الرياح السببيّة على سَطْح الأرض، أن تأتي منتَشِرَةً لتَجْمَع بخار الماء، وتَحْمِلَه سحاباً ثقالاً بماء المطر، ليتِمَّ بأمرِ اللّه وقضائه وقَدَره سَوْقُه لأرض ميّتةٍ لا نبات فيها، فتكون به حياتُها، إذْ يُنزل اللّه الماء بهذه الأرض من السّحاب، فَيُخْرِجُ النباتَ من بزورها، ويُخْرِج به من كلِّ الثمرات.

فإذا انتشَرَتِ الرّياح هٰذا الانتشار النافع استبشَر النّاسُ بالْغَيْثِ، وفَرِحوا بمَقْدَمِهِ، فكَانَتِ الرِّياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رحمة اللّه عزّ وجلّ.

ولفظ «سَحَاب» اسم جنْسٍ جَمْعيّ مفرده «سَحَابة».

ومعنى «أَقَلَّتْ» حمَلَتْ ورفَعَتْ.

أمّا وظيفة الرّياح في دَلاَلاتِها الإيمانية فهي:

● التذكير باللّه، الذي بيَدِه مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ والأرض، والّذِي يرحَمُ عباده، بنشر الرّياح، وإنْزَال الغيث.

● والتذكير بالبَعْثِ والنشور، بإخراج الموتَىٰ من القبور، الّذي يُشْبِه إحياءَ البلَدِ الميّت، وإخراجَ النبات في الأرض من البزور، وعودتَهُ إلى الحياة، يُعْطِي الظِّلّ والثمرات، وعظيم الخيرات.

وفي هذا إشاراتٌ تفصيليّةٌ لمجْمَلِ قوله تعالَىٰ في سورة (المرسلات) بشأن وظيفة الرّياح في دَلاَلاتها الإيمانية: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.

**النص الخامس:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

● قرأ ابْنُ كثير: [**الرِّيحَ**] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

ودلالَة القراءتين واحد.

● كلمة: ﴿بُشۡرَۢا﴾ فيها من وجوه القراءات ما سبق بيانه في آيَةِ الأعراف: [**نُشُراً ـ نُشْراً ـ نَشْراً ـ بُشْراً**] وسبَقَ بيَانُ دلالالتها، في النصّ الرابع الذي من سورة (الأعراف).

● وقرأ أبو جعفر: [**مَيِّتاً**] بتشديد الياء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَّيۡتٗا﴾ بإسكان الياء.

«**مَيِّتٌ ومَيْتٌ**» بمعنى واحد، وإسْكَان الياء تخفيف.

الكلامُ في هذا النصّ كالكلام الذي سبَقَ لدى تدبُّر آية (الأعراف).

إلاَّ أنَّ النصّ من سُورَةِ (الفرقان) قد استُعْمِلَ فيه الفِعْلُ الماضي، ﴿أَرۡسَلَ﴾. أمّا في (الأعراف) فقد استعمل فيه الفعل المضارع [يُرْسِلُ] أخذاً بمنهج القرآن في تجزئِةِ عناصر الأفكار على النصوص ذوَات الموضوع الواحد.

وذُكِرَ في هذا النصّ من سورة (الفرقان) أشياء لم تُذْكَرْ في آيَةِ (الأعراف).

فقد جاء فيه ما يلي:

(١) وصف الماء الذي يُنزله اللّهُ عزّ وجلّ من السّماء، أي: من السَّحَاب الثقال (كما جاء في سورة الأعراف) بأنّه طَهُورٌ، أي: هو طاهِرٌ بنَفْسِهِ، ومُطَهِّر لغيره.

(٢) التَّصْريح بلفظ إحياء البلَدِ الميِّت.

(٣) جاء في (الأعراف) تذكير لفظ [بَلَد] وجاء في (الفرقان) تأنيثه [بَلْدَة] وهما وجهان عربيان.

(٤) جاء في (الفرقان) بيان أنّ من أغراض إنزال الماء الطهور أنْ يُسْقِي اللَّهُ ممّا خلَقَ في الأرض أنعاماً وأناسِيَّ كثيراً.

وجاء فيها استعمال ضمير المتكلّم العظيم، للإشعار بعظمَة فَضْلِ اللَّهِ على عباده.

وكلُّ ذَلِكَ من آيات اللّه المذكَّرَة به، وبصفاته، وبِعَدْلِهِ، وبرَحْمَته، وبقُدْرَتِه على إحياء الموتى.

فظهر لنا أنّ النصَّيْنِ متكاملان لا مكرّران.

**النص السادس:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

- قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف [الرّيح] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمع. والمؤدى واحد.

أبانت هذه الآية من وظائف الرّياح السببيَّةِ لحياة الأحياء في الأرض أنّها تُثير سحاباً، فساقهُ اللّه عزّ وجلّ بعظمة رُبوبيته إلى بلَدٍ ميّتٍ، فأحْيَا به الأرض بَعْدَ مَوْتها، وهذا وصف لما وقع في الماضي. واستعمال الفعل المضارع في ﴿فَتُثِيرُ﴾ للدّلالة على العمل المتكرّر المتجدّد الذي تقوم به الرياح من إثارة السّحاب، فهو من السُّنَنِ.

وأبانت أنّ من وظائف الرياح في دلالاتها الإيمانيّة أنَّ ما يتَسَبّبُ بها من إحياء الأرض بعْدَ مَوْتِها يُذَكّر ويقْنِعُ بِنُشُور الناس إلى الحياة بعد الموت، وسَوْقهم للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

وأضافت هذه الآية أنّ إرسالَ الرّياح عَمَلٌ من أعمالِ اللّه عزّ وجلّ لاَ شَرِيكَ له، وأنَّ من نظام الرّياح في سُنَّة اللّه أن تُثِيرَ السّحابَ المتجَمّع بالتبخّر، وهٰذه الإثارة من وظائف الرياح دواماً، دلَّ على هذا استعمال الفعل المضارع: ﴿فَتُثِيرُ﴾ كما سبَقَ بيانه.

وأضافَتْ أنّ سَوْق الرّيَاحِ إلَىٰ بلَدٍ ميّتٍ إنّما يتمُّ بأمْرِ اللّهِ مع السَّوْق، لا بالوظيفة ذاتِ النّظام الدائم بإثارَة السّحاب، وكذلك إحياءُ الأرْض بعد موتها إنّما يتمُّ بأمْرِ اللّهِ جلّ جلاله، لا بالوظيفة ذَاتِ النظام الذي لا يتخلّف.

فالرّياحُ بما تكونُ سبباً فيه، تُلْقِي ذِكْراً، عُذْراً أَوْ نُذْراً، وهو تفصيل بيانيٌّ لما جاء في سورة (المرسلات) مجملاً عن وظائف الرياح:

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.

وقد جاء في آية (فاطر): ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

أمّا آية (الأعراف) فقد جاء فيها: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

فدَلَّ استعمال حرف [إِلَىٰ] على المكان البعيد. ودَلَّ استعمال [لِ] على المكان القريب.

في لفظ [مَيّت] في هذه الآية قراءتان: [مَيِّتٍ] و[مَيْتٍ].

فقرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر [مَيِّتٍ] بتشديد الياء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [مَيْتٍ] بإسكان الياء.

والقراءتان بمعنى واحد كما سبق بيانه في نصّ (الفرقان).

**النص السابع:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) يَطْرَحُ

سؤالاً على أهل الأفكار والعقول فيه حصارٌ منطقي، لإثبات أنّه لا رَبَّ إلاَّ اللَّه فَلاَ إلَه سواه جلّ جلالُه، وهو خطاب موجَّهٌ للمشركين:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

● قرأ ابْنُ كثيرٍ، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**الرِّيحَ**] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

والدّلالة المستفادة من القراءتين واحدة لأنَّ الريح اسم جنْسٍ يدلُّ على كلّ أنواع الرّياح، إلاّ أنّ الرِّيَاحَ تُشِيرُ إلى أَنَّها أنواع.

● في كَلِمَة [**بُشْراً**] القراءات التي سبق ذكرها في النص الخامس الذي من سورة (الفرقان) وسبق بيان دلالاتها في النصّ الرابع الذي من سورة (الأعراف).

﴿يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يَدُلُّكم على طُرُقكم بالنور، وبالنجوم، وبما جعل لكم من وسائل أخرى تكْتَشِفُونها.

في هذا النصّ يَضَعُ الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ المشركين أمامَ سؤالٍ مُحْرِجٍ ليس له إلاَّ جوابٌ واحد لدَىٰ أهل الفكر والعقل السليم، وهو: الّذِي يُرْسِل الرِّياح هو الرّبّ الخالق وحده لا شريك له، لأنَّ أحداً غَيْرَهُ لا يَمْلِكُ سبباً مادّيًا أو معنويًا يُصَرِّفُ به الرِّياح، فقُوَّةُ الرِّياح العظيمَة خارجَةٌ عن مدىٰ دوائر الأسباب الّتي أعطىٰ اللَّهُ الناس القدرة على استخدامها فيما سخَّر لهم.

إذَنْ: فظاهرة الرِّياح إحدى الظواهر الكونيّة العظمىٰ الدالّة على الرَّبّ العظيم، والمذكِّرَةِ في تصاريفها باللّه وبقدْرَتِه العظمى، وبحكمتِه.

فأضاف هذا النَّصُّ السُّؤال المحرِجَ الموَجَّهَ للمشركين، بغية لفت

أنظارهم وأنظار سائر الناس، إلى إحدى آيات اللّه في كونه، الّتي تتضمَّنُ الهدايةَ إلى وجود الرّب المتصرّف في كونه بصفاته الجليلة.

وفي لَفْتِ النظر هذا إعلامٌ ابتداءً وَتذكيرٌ دواماً.

وفي هذا توجيه تفصيليٌّ للمجمل الذي جاء في سورة (المرسلات) وصفاً للرّياح: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ الذي هو أوّل النصوص المنزَّلةِ بشأن الرياح.

**النصّ الثامن:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو بِنُونَ المتكلّم العظيم في: [**نَخْسِفَ - نُرْسِلَ - نُعِيدَكُمْ - فَنُرْسِلَ - فَنُغْرِقَكُمْ**].

وقَرَأ أبو جعفر، وابْنُ وَرْدَانِ في إحدى روايتينِ عنه، ورُوَيس في إحدى روايتَيْن عنه: [**يَخْسِفَ - يُرْسِلَ - يُعِيدَكُم - فَيُرْسِلَ**] بضمير الغائب العائد على اللّه جلّ جلاله. و[**فَتُغْرِقَكُمْ**] أي: الرّيح.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**يَخْسِفَ - يُرْسِلَ - يُعِيدَكُمْ - فَيُرْسِلَ**] بضمير الغائب العائد علىٰ اللّه جلّ جلاله، كقراءة أبي جَعْفَر ومن معه.

و[**فَيُغْرِقَكُمْ**] بضَمير الغائب العائد على اللّهِ عزّ وجلّ أيضاً.

ويُلاحَظُ أنّ بَيْنَ هذه القراءات تَكَامُلاً بيانيّاً، ومُؤَدّاها واحد.

● وقرأ أبو جَعْفر [مِنَ الرِّياحِ] بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ بالإفراد.

ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، كما سبق بيانه في النصّ السابع الذي من سورة (النمل).

﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾: أي: يَسُوقُهَا وَيَدْفَعُها، وقد كانت الرِّياح هي وسيلة سَوْق الفلْكِ الشّراعيَّةِ ودَفْعِها لنَقْل حُمولاتها عبْرَ البحار.

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: أي: ضاع وخفي وغابَ عنكم مَنْ تَدْعُونَ من شُرَكائِكُمْ، ولَمْ تَجدُوا مُجيباً يسْتَجِيب لِدُعائِكُمْ سائلين النَّجاةَ، إلاَّ اللَّهَ ربَّكُم.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾: أي: فلمّا نَجّاكُمْ مُوصلاً إياكم إلى الْبرّ، ضُمِّنَ فِعْلَ ﴿نَجَّىٰكُمْ﴾ معْنَىٰ فِعْلِ «أَوْصَلكُمْ» فعدِّيَ تَعْدِيته فأغْنَتِ الجملة الواحدة عن جُمْلَتين.

﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: أَعْطَيْتُمْ مِنْ وُجوهكم عَارِضَها. الإعْراضُ وسَطٌ بين المواجَهَةِ والإدْبار.

﴿كَفُورًا﴾: صيغة من صيغ المبالغة، أي: شديد الكُفْر.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾: أي: أن يُغَيِّبكُمْ في باطِن الأرض، إذْ يغوِّرُها إلى الْعُمْقِ ويَدْفنكم فيها.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: **الحاصِبُ**: الريحُ الّتي تَحْمِلُ التُّرَابَ والْحَصْباءَ فتضْرِبُ بها الأشياء، فَيُصِيبُ اللّه بها من يشاء.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ الريح القاصِفُ هي الريحُ الشديدةُ الّتي تَقْصِفُ الأشجارَ بِشِدَّتها، وتُكسِّرُهَا، وتُحَطِّمُها.

● فأبان هذا النص أنّ من وظائف الرياح السببيَّة في تصاريف مقادير الله على وجه الأرض، سَوْقَ الفُلْكِ في البحر ودَفْعَها، ليبتغي النَّاس بأسْفارهم على ظُهورها أرْزاقَهُمْ ومصالحَ معاشِهِمْ من فَضْلِ اللّه.

وقد سخّرَها اللَّهُ لهم رحْمَةً بهم، وهو برحمته يحميهم من الانْكِفَاءِ والغرق.

فإذا تَعَرَّضُوا وهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِها ضِمْنَ تصاريفه في كونه للمخاوف الشديدة، لم يَجِدُوا مَنْ ينْجِدُهم ويحميهم إلاَّ أن يَدْعوا اللّه ربَّهُمْ، حتَّىٰ إذَا أنجاهم وسلَّمَهُمْ، وأوصَلَهُمْ إلَىٰ البرّ الآمِنِ بحَسَب تَصَوُّرِهم أعْرَضوا عَنْه، فلَمْ يَحْمَدُوهُ ولَمْ يشْكُرُوه، بَلْ انْطَلَقُوا يَعْصُونه ولا يَعْبُدُونه، مُجَاهِرين بارْتكاب الذُّنُوب والآثام، كأنَّهُمْ لَمْ يكُونُوا قَدْ الْتَجَؤُوا إليه داعِينَ حينما كانوا في الشّدّة.

وكَانَ الإنسانُ كَفُوراً جَحُوداً.

● وأبانَ هذا النّصّ أنّ من وظائف الرّياح الشديدة، أن تَكُونَ حاصبةً، وأَنْ تكونَ قاصفة، وأنْ تكون سبباً لإهلاك من يُرِيد اللَّهُ إهلاكهم، فإذا كانُوا في الْبَرّ أهلكهم بالريح الحاصب أو القاصف، وإذا كانوا في الْبَحْر أهلكهم اللّه عزّ وجلّ بالريح القاصف التي تَقْصِفُ صوارِيَهم، وتكْفَأُ سُفُنَهم وتُغْرِقُهم.

ألسنا نُلاحظُ في هذا النّصّ بياناً تفصيليّاً للمجمل الذي جاء في أوّل النُّصوص المنزَّلَةِ بشأن الرّياح، وهو قول اللّه عزّ وجلّ في صدر سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.

حقّاً إنَّ الرّياح بتَصْرِيفِ اللَّهِ عزّ وجلّ تُلْقِي ذِكْراً باللَّهِ والْيَوْم الآخر،

وفي هذا التَّذْكِير إعْذَارٌ وإنْذار، مع ما فيه من تذكِيرٍ بنِعَم اللَّهِ على عباده، حين تُزْجي الْفُلْكَ، وحينَ تَأْتي بِبُشْرَيَاتِ الخيْر والْغَيْث والخصْب والنَّفْع العظيم.

النّصّ التاسع:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (يونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

● قَرَأَ جُمْهُور القرّاءِ العشَرَةِ: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من التسيير وهو النقل من مكانٍ إلى مكان آخر.

وقرأ ابْنُ عامِرٍ، وأبو جَعْفر: [يَنشُرُكم] من النَّشْرِ الَّذي هو الْبَسْطُ والمدُّ والتَّفْريق.

بين الْقِرَاءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاء المعنىٰ المراد، فالناس يَسِيرونَ في الْبَرّ والْبَحْرِ والْجوّ، لابتغاء أرزاقِهِمْ في أَمَاكِنَ مختلفةٍ من الأرض، شرقاً وغَرْباً وجَنُوباً وشمالاً وفي كلّ الجهات، واللَّهُ هو الذي يُسَيِّرُهُمْ بإعطائهم القدرة على السَّيْر، وبتَيْسِير اللَّه لهم طُرُقَهم ووسائِلَ تَنَقُّلِهم. واللَّهُ هُوَ الّذي يَنْشُرُهم بجَعْلِ مصالحهم وحاجاتِهِمْ موزَّعَةً في شَتَّىٰ أماكِنِ الأَرْض، وبإيصالهم إليها.

ويُفْهَمُ تَسْيِيرُهُمْ ونَشْرُهُمْ في الْجوّ باللُّزوم العقليّ، فَمَنْ يكُونُ هو المسيّر والناشر في البرّ والبحْر، لا بُدَّ أَنْ يكُونَ هو المسيّر والناشر في الجوّ، فالجوُّ أَشَدُّ صُعُوبَةً وأَشَدُّ حاجةً إلى تَسْيِير اللّه.

● وقرأ حفصٌ: [مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنيا] بفَتْح العين، أي: تَتَمَتَّعُونَ متاعَ الحياة الدنيا، أو حالة كوْن بغيكُم متاعَ الحياة الدنيا.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [متاعُ الْحَياةِ الدُّنْيَا] بضَمّ الْعَيْن، خَبَرٌ ثانٍ للمبتَدأ [بغْيُكمْ] والمعنى: بَغْيُكمْ على أنفُسِكُم. بَغْيُكُمْ مَتاعُ الحياة الدنيا.

والقراءتَانِ وجْهانِ للدّلالَةِ على المعنى المراد في الإعراب، والمؤدّىٰ بهما واحد.

بين هذا النصّ والنّص السابق من سورة (الإسراء) تكامل في بيان واقع معظم الناس إذْ يجْحَدُونَ نِعَمَ اللّهِ عليهم التي هي من آثار رَحْمَتِهِ.

فَهُمْ إذا أحاطَتْ بهم المخيفات المرهبات الْقَاتِلاتُ من كلِّ جَانِبٍ، ولم يَجِدُوا وسائل نجاةٍ ممّا هُمْ فيه، لجؤوا إلىٰ اللّهِ ربِّهِمْ داعِين ليُنْجِيَهُمْ، مُخْلِصين له الدُّعَاء، فَلا يُشْرِكون بدعائه أحَداً، حتَّىٰ إذا أنْجاهُمْ وصرَفَ عنهم ما هم فيه من بلاء، عَادُوا إلَىٰ ما كانوا عليه من خروج عن صراط اللّه المستقيم، بغياً وعُدْواناً، واتّباعاً للأهواء والشهوات، وزُخْرُفِ الحياة الدنيا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: وفي الجوّ كما سبَقَ بيانه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: أي: حتَّىٰ وَقْتِ كَوْنِكُمْ في الْفُلْكِ...

«حتَّىٰ» هنا حَرْفُ جَرٍّ، بمعنى «إلَىٰ» الدّالَّة على انْتهاء الغاية المكانية أو الزمانية.

**الْفُلْكُ**: مركَبُ البحور. يُطْلَقُ على الواحد والاثنين والجمع، ويذكر ويؤنث. فيقال: هي الفلك، وهو الفلك.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: التفاتٌ في الكلام من الْخِطَابِ إلَىٰ الحديث عن غائِبين، نظراً إلَىٰ أنَّ بَعْضَ المخَاطَبين قد لا يتعرّضُون لرُكُوبِ الْفُلْك،

وللأحداث المخيفة الّتي وصفها النَّصّ، لكنَّهم في الغالب مِثْلُهم فيما لَوْ تَعرَّضُوا لهٰذِه الأَحْداث أو لمثلها.

الضمير في ﴿وَجَرَيْنَ﴾ يَعُودُ على الْفُلْكِ. ﴿بِهِمْ﴾ أي: براكبيها من الناس. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: خالية من الضُّرِّ والأذىٰ، وغير ذاتِ آثار مخيفة. **الطيّبُ**: ضِدُّ الخبيث، وكلُّ نَافع طيِّب، وكلُّ ضَارٍّ أو مؤذٍ بلا نَفْعٍ خبيث.

﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾: أي: وفَرِحُوا بالرِّيح الطيّبَة الّتي تُجرِي فُلْكَهُمْ.

﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: أي: جاءَتِ الفلْك رِيحٌ شديدة من نوع الرّيح العاصِف، وهي التي تضربُ وجْهَ الأرض فَتَحْمِلُ ما عليها من أشياء كالْعَصْفِ وهو الزَّرْعُ اليابس، وكالتُّرابِ، ونحوهما.

يقال لغة: ريحٌ عاصِفٌ، وريحٌ عاصفة، تُذَكّر وتُؤَنّث.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: أي: وجاءهم الموجُ يضربُ فُلْكَهُمْ مِنْ كُلِّ مكانٍ، فصارتِ الرِّيحُ تخبِطُ فُلْكَهُمْ وتَرْتَفِع بها وتَنْزل، ووقَعُوا في رعْبٍ شَدِيدٍ خَوْفاً من الغرق.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أي: وظنُّوا ظنًّا راجحاً أَنَّهم هالِكُون.

يقال لغة: «أُحِيط بِفُلَانٍ» أي: دنا هلاكُه. و«أُحِيطَ بالشَّيء» أي: هَلَك. والأَصْلُ في هذه العبارة أنَّها مأخوذة من إحَاطَة الْعَدُوّ بِعَدُوّه بوسائل إهلاكه، فتُسْتَعْمَل كنَايَةً عن دُنُوّ الْهلاك. وقد تستعمل كناية عن الهلاك.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: أي: دَعُوا اللّه مُخْلِصين لَهُ الدُّعاءَ لا يُشْرِكُون بدُعائه أحداً، وقد أبان اللّهُ عزّ وجل بهذا أنَّ الدُّعاء من الدّين، أي: لأنَّهُ عبادة للّه تعالَىٰ، والعبادة له هي الدّين، وقد صحّ أنّ الدُّعاء هو العبادة أي: أعظم عناصرها، وورد أنّ الدُّعاءَ مُخُّ العبادة.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: أي: نُقْسِمُ لَئِنْ أنجيتَنا

مِنْ هٰذه المهْلِكَاتِ الّتي أحاطَتْ بنا، لنَكُونَنَّ في المستقبل من الشَّاكِرِين، القائمين بواجب الشكر لَكَ في أَعْمالنا وكَسْبِنَا الاختياري.

**الشكر**: هو مقابلة إنْعام المنعم بما يرضيه من عَمَلٍ أو اجتنابٍ، أو أيّ شيءٍ ماديّ يسُرُّه. وقد يشْمَلُ القول الذي فيه ما يرضي المنْعِم. إلاَّ أنّ بعض القول يختصُّ بعنوان الحمْدِ والثناء.

فالْحَمْد كالمدح: الثناء على المحْمُود بذكر اتّصافه بصفاتٍ جميلة فطريَّةٍ أو مكتسبة، أو بقيامه بأفعالٍ حسنة، أو باجتنابه لما لا يَحْسُن أن يَصْدُرَ منه أو من مثْله، من مكتسبات إراديَّة.

فَهُمْ يَحْلِفُون على أنّهم سيكونون من الشاكرين لربّهم، إذا أنجاهم ممّا هم فيه، وأن لا يَقْتَصِروا على مجرّد عباراتِ الحمْدِ والثناء.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: فلَمَّا أنجاهم رَبُّهُمْ، إذ أسْكن لهم الرّيح، وجعلها رخاءً وأوصلهم إلى البرّ الآمِنِ في تَصَوُّرِهم، فَاجؤوا بنَقْضِ مَا عَاهَدُوا رَبَّهُمْ عليه، وجَعَلُوا يَبْغُونَ في الأرض عصاةً للّهِ جلَّ جَلاَلُه، ويتجاوزون الحدود بغَير حقّ.

﴿وَإِذَا﴾: هنا حَرْفٌ يَدُلُّ علىٰ معنَىٰ المفاجَأة. وهي غير «إِذَا» الشرطيَّة.

**البغي**: تجاوُزُ الْحَدّ المأذون بِهِ في السُّلوك الإرادي. ويُطْلَقُ علىٰ الكِبْر والظلم والفساد في الأرض.

ولـمَّا كان تجاوز الحدّ قَدْ يكُونُ مأذوناً به كالقصاص، والقتال في سبيل اللّهِ، كان من الحكمة تَقْيِيدُ العبارة بقوله تَعالَىٰ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فالقصاصُ بالعدْلِ حقّ، والقتالُ في سبيل اللّه حقٌّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْۖ﴾: أي: ما تجاوزُكم الحدَّ بغير

حقٌ إلاّ سَبَبٌ يُعَرّضكُمْ لعقابِ اللّهِ بالعدْل، فهو في الحقيقَةِ عليكُمْ لا لكُمْ.

﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وإنَّما بغْيُكم الّذي تَبْغُونه لإرضاءِ أهوائكم وشهواتكم ومطالب نفوسكم، لا يُقدّمُ لكم إلاّ متاعَ الحياة الدنيا، ومعْلُومٌ أنَّ مَتاعَ الحياة الدُّنيا قَليلٌ وإلَىٰ زوال، بخلاف لذّاتِ الجنَّةِ فهي نعيمٌ مقيم.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: ثُمَّ إلَىٰ مقتضَياتِ حِكْمَتِنا مَرْجعُكُمْ بالبعث، إذْ نَبْعَثُكُمْ إلَىٰ يوم الدّين، الذي نقيم فِيه محْكَمةَ الْعَدْل، فنحاسبكم، ونفْصِل الأقضية بينكم، ونُجازِيكُم علَىٰ ما قَدَّمْتُمُوه من كسب إراديٍّ في الحياة الدنيا.

واقْتَصَر النَّصُّ هنا على بيان أَنَّ اللّهَ يُنبِّئُهم بما كانوا يَعْمَلُون في الحياة الدنيا، وهذه فِقَرَةٌ من الفِقَرات التي يَتَعَرَّضُون لها يوم الدينِ، في محكمة العدْلِ التي سَوْف يُقيمُها اللّهُ لعباده.

ومعلومٌ أنَّ ذِكْرَ بَعْضِ الفِقَراتِ يُومِئُ إلى سائرها، ممَّا يكُونُ قبْلَها، وممَّا يكونُ بَعْدَها، ولا سيما أَنَّ القرآنَ ببيانه الْبَدِيع قَدْ اختار اللّهُ عزَّ وجلّ له أسْلُوبَ تَجْزئة عناصر موضُوعَاته وتوزيعها في النُّصُوص الموزَّعَةِ في مختلِفِ السُّور، ليكون التكامل فيما بين النُّصُوص أحد عناصر الإعجاز في القرآن، ولو كان من عند غَيْر اللّه لوجَدَ الباحِثُونَ فيه اختلافاً كثيراً.

ويطولُ الكلامُ إذا وضعْتُ هَـٰذا النصّ التاسع الذي جاء في سورة (يونس) والنّصّ السابق له الذي جاء في سورة (الإسراء) وقابَلْتُ بينهما مُقَابلَةً تكامليّة.

على أنّ المتدبّر الحصيف يُدْرِك بالتأَمُّلِ المتعمّق، ما بينهما من تكامل رائع، بعيدٍ عن تكرار الْعَنَاصِر، إلاّ ما تَسْتَدْعيه سلاسل الخواطر.

ونلاحظ في النصّ التاسع ما يلي:

(١) أنّ اللّهَ عزّ وجلّ يمتَنُّ على عباده، بتسخيره الريح الطيّبة، الّتي تجري السُّفُنَ الشراعيّة وتأتي بالنفع العظيم.

ويقاسُ عليه تسخِيرُ اللّه لعباده النِّفْطَ والآلات الميكانيكيّة الَّتي اكتَشَفَ النّاسُ تسْيِيرَ السُّفُنِ العظمىٰ بها.

(٢) أنَّ اللَّه عزّ وجلّ يخَوّفُ عباده بالرّيح العاصف الّتي هي من أدواتِ تَعْذِيبه وإهلاكه لأهل الكفر والتكذيب، الّذين يكذّبون رُسُلَ اللّه، ويكذّبون بيَوْم الدين.

(٣) أنَّ اللَّه عزّ وجلّ يكْشِف للناس صورةً من صُورِ نُزوعِهِمْ، بدواعي فِطرتِهِم الكامِنَةِ في أعْمَاقِ قُلُوبِهم، إلى الالتجاء إلى اللَّه رَبِّهِم، والتَّوَجُّهِ له بالدُّعاء مخلصين له الدّين، حين تشتَدُّ بهم الأزمات، وتحيطُ بهم المخاطر، ليَصْرِفَ عنهم بقُدْرَتِهِ العظيمة ما أحاط بهم، معلنين إيمانَهُمْ به ساعَتَئِذٍ، ويتعهَّدُون لَهُ بأن يكونوا إذا أنجاهم شاكِرِين، عاملين بمراضيه، مطيعين أوامره، ومُجْتَنِبِينَ ما نَهاهم عنه.

(٤) أنّ من اختيارات معظم الناس الإراديَّة، أن ينْقُضُوا عُهُودهم لربّهم، الّتي يُوَثِّقُونها بأيمانهم، وأن يَعُودُوا إلى شِرْكهم، أو إلى ما كانوا عليه من كُفْر، وأَنْ يُتَابِعُوا مَسِيرَة بَغْيِهم في الأرض بغير الحقِّ.

والحديث عن الرياح في هذا النَّصّ هو بمثابة التفصيل لما جاء في صَدْرِ سورة المرسلات، أوّل النُّصُوص عن الرياح نزولاً.

**النَّصّ العاشر:**

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

● قرأ حمزة، وخلف [الرِّيح] بالإفراد. وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلرِّيَـٰحَ﴾ بالجمع.

أبانَ هذا النصّ من وظائف الرّياح السَّبَبيَّة في سُنَن اللّه التكوينيَّةِ، الّتي تكونُ بها منافع ومصالح للناس وأرْزَاقٌ وخيْرَاتٌ، أنَّها لواقِحُ، أي: تكُونُ وسِيطَ لِقَاحٍ.

رُوِي عن ابن عباسٍ: «أنّ الرّياحَ تُلَقِّحُ السَّحَابَ، وتُلَقِّح الأشْجار».

أما تلقيحها الأشجار والنَّبَاتَات فيكون بِحَمْلِها اللّقَاحاتِ من ذُكُور النَّبَاتَاتِ والثمار، إلى الإناث منها، وبذلك تَنْضَج وتصِيرُ صالحةً لِلأكل.

وأمّا تَلْقِيحُها السَّحَابَ، فقد أثبتَهُ عُلَماءُ الكون، إذْ تَحْمِلُ الرِّياحُ إلى السَّحَاب دقَائِقَ الْغُبار الّذي تتجمَّع عليه حبَّات المطر.

وتقومُ الرّياح أيضاً بوظيفة جَمْعِ السَّحَابِ المشحونَةِ بالكَهْرُبَاءِ الموجبة، والسَّحاب المشحونة بالكهرباء السالبة، لِيَتِمَّ باجتماعهما التّلاقُح، فتتكاثَفَ حبّاتُ المطَر، فتهطل بإذْنِ اللّه على البلد الّذي قضىٰ اللّه عَزَّ وجلَّ بأن يُسْقِيَه.

هذه الوظائف السببيَّةُ التي جعَلَها اللّهُ عزّ وجلّ للرّياح، ممّا يتَّصِل بمنافع العباد، رحْمةً من اللّه بهم، تُضاف إلى الوظائف الأخرىٰ الّتي دلَّتْ عليها أوْ أشارت إليها سائر النصوص، أو كشفها أو ستكشفُهَا البحوثُ العلميَّةُ الإنْسَانيَّة.

أمّا الوظيفة الدينيَّةُ فهي التذكيرُ باللّه وبصفاته، والتذكير بالْيَوم الآخِر، يوْمِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء.

فالبعث إلى الحياة بَعْدَ الموتِ مُشابِهٌ لِظَاهِرَةِ إحياء الأرض بالنبات، وقد أشار إلى هذا المعنى قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فجاء فيه استعمال ضمير المتكلّم العظيم إشارة إلى عظيم قُدْرته، وسامي حكمته، وجاء فيه تأكيد الخبر بمؤكِّدات: «إنَّ» والجملة الاسمية، واللّام المزحلقة إلى الخبر.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: أي: ونحن الذين نَرث جميع ما جَعَلْنا فيه لعبادَنا تملُّكاً صُورِيّاً، إذْ تَقُومُ السَّاعَة، ونَقُولُ: لِمَنِ الْمُلْكُ اليوم، ويأتي الجوابُ الصَّادِرُ عَنْ كلّ شيءٍ: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار. وهذا ما جاء بيانه في الآية (١٦) من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول).

**النّصّ الحادي عشر:**

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ... ﴿١٢﴾﴾.

- قرأ شعبة: [**وَلِسُلَيمَانَ الرِّيحُ**] بالإفراد والرَّفْع.

وقرأ أبو جعفر: [**وَلِسُلَيمَانَ الرِّيَاحَ**] بالجمع والنصب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد والنصب.

أي: وسخَّر اللّه عزّ وجلَّ لسُلَيْمانَ الرِّيحَ ذاتَ الأنواع تجري بأمْرِه بسُرْعَةٍ، فتقطَعُ مَسافة شَهْرٍ في الْغُدُوّ صباحاً، وتَقْطَعُ مسافة شَهْرٍ في الرّواح مساءً.

وسبق في النصّ الثالث الذي هو من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بيان أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ سخَّرَ لسُلَيْمَان الرّيحَ ذَاتَ الأنواع المختلفة تجري بأمْرِهِ رُخاءً (أيْ: ليِّنَةً نَاعِمَةً رَفِيقَةً) حَيْثُ أصَاب.

وهنا في آية (سبأ) أبان اللَّهُ عزّ وجلّ أَنَّهُ سَخَّرَ له الرِّيح الشّديدة السّريعة بأنواعها المختلفة، فهِيَ تَجْرِي بأمْرِه في غُدُوّها مسِيرَةَ شَهْرٍ، وفي رواحِهَا مَسِيرَةَ شَهْر.

ومَسِيرَةُ الشَّهر تُعادِلُ مَا يَزيد علَىٰ أَلْفِ كيلومتر، وإذا قسَمْنَا ساعات الْغُدُوّ على ألف كيلومتر، أمكنَنَا أن نتصوَّر أنّ الرّيح والرياح السَّرِيعَةَ المسخَّرَةَ لسُلَيمان، والّتي تَجْري بأمْرِه، قَدْ تَبْلُغ سُرْعَتُها قُرَابَة مِئَتَيْ كيلومتر في السَّاعَةِ أَوْ أكثر، وهي سُرْعَةٌ قادرَةٌ على نَسْف المساكِن واقتلاع الأشجار، وحَمْلِ جَيْشٍ كامِلٍ بعتاده ورجاله وكُلِّ أسْلِحَتِه، وَنَسْفِه وتَدْمِيره.

فتكامل النَّصان في بيان ما آتاه اللَّهُ عزّ وجل لسليمان عليه السلامُ من تسخير الرياح لأمْرِه، رُخَاءً ليّنَةً نَاعِمَةً رفيقَةً، أو سَرِيعةً عنيفَةً شديدة، قادرةً على تحقيق النَّصْرِ لِقُوَّةِ الحقّ على قُوىٰ الباطل والكُفْر والْبَغْي.

وفي بيان هذا التسْخير لسليمان عليه السلام تذكير بنعمة اللّه عليه، وعلى أوليائه ضدّ أعدائه، وتذكير باللَّهِ وبصفاته، وبواجب العمل بمراضيه، وفي التذكير إعذارٌ وإنْذار.

**النّص الثاني عشر:**

قول اللّه عزّ وجل في سورة (فُصّلَت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) بشأن عادٍ قوم الرسول هود عليه السلام:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

- قرأ حمزة، ويعْقُوب: **[فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهُمْ]** بِضَمّ هَاءِ الضَّمِير.

وقرأ باقي القرّاءِ العشرة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بكَسْرِ هاء الضمير.

وهما وجهان عرَبيّان لِنُطْق هاء الضمير.

- وقَرَأ نافع، وابْن كثير، وأبو عَمْرو، ويعقوب: **[نَحْسَاتٍ]** بإسْكان الحاء.

وقرأ باقي القراء الْعَشَرة: ﴿نَحِسَاتٍ﴾ بكسر الحاء.

وهما وجهان عربيّان لنُطْق هذه الكلمة.

﴿يَجْحَدُونَ﴾: الجحودُ: إنكار الشَّيْءِ وادّعاءُ بُطْلَانِه مع العلم بأنَّه حَقٌّ.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي: ريحاً شديدةً بارِدَة، يُحْدِث اندفاعُها الشديد أصواتاً مُرْهبة مُرْعبةً.

سبق في النص الثاني الذي من سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بيان إهلاك عادٍ بريح صرْصر جاءتهم في يومِ نَحْسٍ مُسْتَمِرّ، فَدَلَّ على أنّ إهلاكهم قَدْ تَمَّ في اليوم الأول. أمّا الرّيح فقد استمَرَّتْ على ديارهم بَعْدَ إهلاكهم أيّاماً نَحِسَات.

**النصّ الثالث عشر:**

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

● قرأ نافع، وأَبو عَمْرو وأَبُو جعْفر بإثبات ياء [الجوارِي] في الوصل. وقرأ بإثباتها في الوصل والوقف ابنُ كثير، ويعقوب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذْفها في الوصل والوقف تخفيفاً في النطق، وهو من أساليب النُّطْق العربي لمثل هذه الياء في آخر الكلمة.

● وقرأ نافع، وأبو جعْفر: **[الرِّياحَ]** بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد.

والمؤدّى واحد، لأنّ الريح اسم جنس يشمل أنواع الرّياح.

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: هي السُّفُن في البحار.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أي: كالجبال، في عِظَمها وعِظَمِ ما تَحْمِلُ.

﴿رَوَاكِدَ﴾: أي: ثوابتَ سَواكِنَ، لا تجري إلى حيث يُرِيد ركّابها.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾: أي: أَوْ يُهلِكْهُنَّ بإرسالِ ريحٍ قاصِفٍ تُكَسِّرُ سُفُنَهُمْ وَتُغْرِقُهُمْ.

فنبَّهَ هذا النصّ على الاحتمال المضادّ لإرسال الريح، وهُوَ احتمال إسكانها، وجَعْلِها ساكنةً لاَ تتحرَّكُ، وبذلك تثبتُ السُّفُنُ في البحر، وتظَلُّ رواكِدَ علَىٰ ظَهْرِه، والمراد السُّفُن الشراعية.

وفي هذا تذكير بأنّه هو سبحانَه الذي يُرْسِلُ الرّياحَ، فيُجري السُّفُن، ويُحَقِّقُ بإرْسالها المنافع للناس.

فَسُنَنُ اللّه الّتي تجري بها السُّفُن الجواري في البحر، والتي هي كالأعلام، معَ وُجُودِ الاحتمالاتِ المضادّة لها، أُمُورٌ تتضمَّن آياتٍ من آياتِ اللّه، وعلامات على حكمته وقُدْرته ورحمته، يَنْتَفِعُ بها كُلُّ صَبَّارٍ علَىٰ صُنُوف الامتحان الّتي يَمْتَحِنُ اللّهُ بها عباده، شَكُورٍ لأنْعُم اللّه عليه.

﴿صَبَّارٍ﴾: صيغة مبالغةٍ وتكثيرٍ لـ«صابر» أي: كثير الصَّبر.

﴿شَكُورٌ﴾: صيغة مبالغةٍ وتكثيرٍ لـ«شاكر» أي: كثير الشكر.

ونبَّه النَّصُّ على احتمال مضادٍّ آخر، وهو احتِمال بعْثِ الرّيح بعْثاً شديداً عنيفاً قَاصِفاً كاسراً، وهو أمْرٌ إنْ شاء اللّه فَعَلَه، فيحطّم بها السُّفُن، ويُهْلِكُ رُكّابَها، فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيه:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾:

**يُوبِقْ**: **يُهْلِك**. أي: أو يُحطّم السُّفُنَ، ويُهْلِكُ الرَّاكبين فيها.

وأخيراً نَبَّهَ النَّصُّ على الغالب من تصاريف اللّه في مقاديره، وهو أن يغفُوَ عن كثير من ذُنوب عباده، فَلا يُعاجلُهم بالعقاب، فقال اللّهُ عزّ وجلّ في بيان الاحتمال الثالث.

﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾: بجَزم فعل «يَعْفُ» عطفاً على فعل جواب الشرط: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾.

**النصّ الرابع عشر:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

● قرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب، بنَصْبِ **[آيَاتٍ]** من **[آيَاتٍ لِقَوْم يُوقِنُونَ]** ومن [آيَاتٍ لِقَوْم يَعْقِلُونَ].

وقرأ باقي القرّاء العشرة بالرَّفْعِ فيهما.

والقراءتان وجْهان إعْرابيّانِ جائزان، فالرَّفْع لُوحظَ فيه أن الْجُمْلَتَيْن مُسْتأْنَفَتَانِ، والنَّصْبُ لُوحِظَ فيه أنَّهما معطوفتان على ما جاء في الآية (٣).

أضاف هذا النَّصّ التَّنْبيهَ علَىٰ ظاهرة تَصْرِيف الرّياحِ، في الأزمنة، والأمكِنَةِ، والجهاتِ، وتَصْرِيفِها شدَّةً وضَعْفاً، بمستويات مختلفات من السُّرْعَةِ، والكثافة، والحرارة والْبُرودة، والنَّقاء والصفاء، والاختلاط بالشوائب، إلى غير ذلك من أمور.

وأضاف ظاهرة التأثير بها على المياه، والْبِحَار، والسُّحُب، والأمطار، وأنواع الثلج والْبَرَد، وسُفُنِ الْبَحْرِ، وكلّ شيْءٍ حيٍّ وغَيْرِ حيّ، حتَّىٰ الجبال

الرواسي، بَحَتِّها وتَعْرِيتها، فضلاً عن الأشجار ونبات الأرض، والتُّراب والرَّمْل والحَصَىٰ.

دلَّ علىٰ كُلِّ هذا عُمومُ عبارة ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ مع النظر إلى الواقع.

إنَّ الرّياح لقُوَّةٌ عظيمة في الكون، فقد تكون سبباً لنفع عظيم، وقَدْ تكون سبباً لهلاك ودمار جسيم.

أفلا تُذَكِّر بمَنْ يملِكُ تَصريفها برحمته، أو بَعَدْله، فتُنبِّهُ على عُذْرِه أو نُذْرِه كما جاء في صَدْرِ سورة (المرسلات/ ٧٧ مصف/ ٣٣ نزول):

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾.

**النص الخامس عشر:**

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) بشأن عادٍ قوم الرّسول هُودِ عليه السّلام، وظنّهم أنّ الرّيح الّتي ساقَتْ سحَاباً، وأقبَلَتْ علىٰ أوديتهم، قد أقبلَتْ بالغيث والمطر النافع، مع أنَّها قَدْ أقبَلَتْ لإهلاكهم وتدمير كلِّ شيءٍ في بلادهم عليهم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾.

﴿عَارِضًا﴾: **العارض**: السَّحابُ الْمُطِلُّ القادم. وكلُّ ما يَعْتَرِضُ في الأُفُقِ فيَسُدُّه، كالجراد، والمهاجراتِ من الطيْر.

هذا النصّ أضاف بعض تفصيلات تتعلّق بقصة إهلاك «عاد» قوم الرسول هُودِ عليه السّلام.

وأضاف بشأن الرّيح أنّ مقدّماتها قَدْ لاَ تُشعِرُ بأنّها ريح إهلاك وتَعذيب وتَدْمير، إذْ قد تأتي مُرْسلَةً ناعِمَةً لطيفة كَرِيح المطر، ثُمَّ تتواتَر

شديدَةً عاصِفَةً قَاصِفَةً حاصِبَةً مُدَمِّرَة، بأمْرِ رَبّها، وهذا يَدُلُّنا على بعض المراد بقول اللّه تعالى في سورة (المرسلات)):

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)﴾.

● قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب، وخلف: **[لاَ يُرَىٰ إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ]** بالياء.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[لا تُرى إلا مساكنهم]** بالتاء.

وهما وجهان جائزان لغة.

**النصّ السادس عشر:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورةِ (الذّاريّات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)﴾.

● قرأ أبو جَعْفَر: **[يُسُراً]** بضمّ السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يُسْرًا﴾ بإسكان السّين.

وهما وجهان عربيّان لِنُطْقِ الكلمة.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١)﴾: **الذَّرْوُ**: هو البَثُّ والنَّشْرُ لذَرَّاتِ أيّ شيءٍ لَهُ دقَائِقُ صغيرة يمكنُ بثُّها في فضاء واسع، كَبَثّ ونَشْرِ الْغُبار، والتّراب، والدّقيق، وذرَّات الماء، وذَرَّات بخار الماء.

والذي يكون سبباً في هذا الذَّرْو، ضِمْن سُنَن اللّهِ الظاهرة في كونه، هي الرّياح.

فلَفْظُ «الذَّارِيَات» وصْفٌ لموصُوف محذوفٍ ينْطَبِقُ على الرياح في ظاهرات الكون، وجاء تأكيد هذا الحدث الوصْفِيّ بالمفعول المطلق «ذَرْواً»

لتفخيم شأن هذه الظاهرة، ولا سيما إذا لاحظنا ما تُسَبّبُه الرّياحُ من إثارَة ذرَّاتِ الماء الدقيقة وبثِّها ونَشرِها بُخاراً، ثُمَّ تَجْمِيعِها سُحُباً، وما تُسَبِّبُه من إثارة دَقائِقِ الغبار، وذَرْوِها لتكوينِ نويَاتِ الأَمْطار.

ونظراً إلى عظمة هٰذِهِ الظَّاهرة من ظاهرات قُدْرَة اللَّهِ وحِكْمَتِهِ في كونِه، أقْسَمَ اللَّهُ بها، لتأكيد صِدْقِ وَعْدِه بإحياء الناس يوم القيامة، وتأكيد أنَّ الدِّينَ وهو الجزاء واقع لا محالة.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾: الْوِقْرُ بكَسْر الواو الشيْء الثقيل. والحاملاتُ شيئاً ثقيلاً قد جاء وصفاً للرّياح أيضاً، إذْ هي تَحْمِلُ السُّحُبَ الثّقال بالماء.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ أي: فالجاريات جَرْياً يُسْراً هيّناً ليّناً رَفيقاً لاَ عُسْر فيه، وهذا وصْفٌ للرّياح أيضاً، إذْ تجري بالسَّحاب في الْجَوِّ جَرْياً يُسْراً.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ وهذا وصْفٌ للرِّياح، إذْ تُقَسِّمُ بأمْرِ اللّه السُّحُب، وتُوَزِّعُها على البلاد، لإنْزال الأمطار والثَّلْج والبرَدِ منها بقضاء اللّه وقَدَره وأمْرِه، على وفْقِ حِكْمَتِه رحْمَةً أو عَدْلاً.

إنّ المتفكِّرين في هٰذِه الظَّاهِرَة الكَوْنِيَّةِ العظيمة، الّتي هي من ظَواهِرِ قُدْرَةِ اللّه وحكمته في كَوْنه، يُدْرِكُون أنَّها تَسْتَحِقُّ أن يُقْسِمَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها باعتبارها من آثار صفاته الجليلة، على أنّ البعث حقٌّ، وأنّ الحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، أمْرٌ واقعٌ لاَ محالة.

**النّصّ السابع عشر:**

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الذَّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) أيضاً، بشأن عادٍ قوم الرّسُول هود عليه السلام:

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾.

● قرأ أبو عَمْرٍو [**عَلَيْهِم**] بكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأ حمزة، والكسائيّ، ويعقوبُ، وخَلَفٌ: [**عَلَيْهُمْ**] بضَمّ الهاء والميم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [**عَلَيْهِمُ**] بكسر الهاء وضمّ الميم.

وهي وجُوه من النُّطْق كلّها عربية.

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾: هي الرّيح التي لا تنتج خيراً.

﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾: أي: كالْبَالِي المتَفتّت، والذي صار نخراً غير متماسك الذرّات.

وقد أضاف هذا النصّ وصْفَ ريحِ الإهلاك بأنّها رِيحٌ عقيم، وبأنَّهَا ذَاتُ قُدْرَةٍ عظيمة فائقة، تجعل الشيء الذي تأتي عليه متفتّتاً منخوراً كالرّميم، وهذا يذكّرُنا بالتعرية التي تفعلها الرياح بالجبال، إذْ تُجَزِّئُ بعض صخورها إلى رمال، وإذ تَجعل بعض الصخور كالعظام البالية النخرة.

**النص الثامن عشر:**

قول الله عزّ وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

● قرأ نافع وأبو جعفر: [**الرِّيَاحُ**] بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيحُ﴾ بالإفراد.

والمؤدّى واحدٌ كما سبقَ بيانه.

﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾: أي: اشتَدَّتِ الريحُ بتَذْرِيَته وتَفْرِيق ذَرَّاته، فَهَلْ تُبْقي منْهُ شيئاً مجتمعاً بعْضُهُ إلَىٰ بَعْضٍ؟

كذلِكَ أعمال الذين كَفَرُوا برَبّهم، لا يحْصُلُونَ منها على أيِّ نَفْعٍ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الدّين، لأنَّهُمْ لم يَعْمَلُوها إيماناً باللّه، وابتغاءَ رضوانه وثوابه.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾: أي: في يوم ذي ريح عاصف، **الريح العاصف**: هي الريح الّتي تأتي على مستوى سَطْح الأرض، فتحمل التُّرابَ. والرّمَادَ، والعصف (وهو يَابِسُ الزّرع) ونحو ذلك بحسب قُوَّتِها وسرعَتِها وشِدّتها.

فَأَبان هذا النّصُّ من أوصاف الريح أنّها تحْمِلُ الدّقائق فتَذْرُوها وتُفرّقُها في أماكن شتَّىٰ متباعِدَةً، حتّىٰ لا تقدر الخلائق أن تَحْصُل على شيْءٍ ممّا نَثَرَتْهُ ونشرَتْهُ، وفرَّقته.

كذلك أعمال الذين كفَرُوا برَبّهم، فقال اللّه عزّ وجل بشأنها:

﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

**النّصّ التاسع عشر:**

قول اللّهِ عزّ وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

بشأن تَسْخِير الرّيح العاصفة للنّبيّ الرسول سليمان عليه السلام:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

- قرأ أبو جَعْفَرَ: **[الرّياحَ]** بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد.

ومؤدّى القراءتين واحد، كما سبق بيانه في نصوص متعدّدة.

أضاف هذا النصّ بشأن الريح الّتي سخّرَها اللَّهُ عزّ وجلّ لسليمان عليه السلام، أنّه قد سخَّر له الرّيح العاصفَةَ تَجْرِي بأمْرِهِ إلى الأرض المقدسة التي بارك اللّه فيها.

وقد سبقه نصان في نجوم التنزيل:

**الأول**: ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وهو يتضمّن أنّ اللّه سخّر له الرِّيحَ تَجْرِي بأمْرِه رُخاءً حيْثُ أصاب.

**الثاني**: مَا جاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) ويتضَمَّنُ أنّ اللّه قد سخَّرَ له الريح السّريعة، الّتي يعادل غُدُوُّها مسيرة شَهْر، ويُعادلُ رواحُها مسيرة شهر، وأدْركنا بالتقريب شدَّة سُرْعتها.

فهي أنواع ثلاثة من الرّياح سخَّرَها اللّهُ عزَّ وجل لسليمان عليه السلام:

(١) الريحُ الرُّخاء الناعمة الرفيقة.

(٢) والرّيح السّريعة الّتي غُدُوُّها شَهْرُ ورَواحها شهر.

(٣) الرِّيحُ العاصفة التي تَنْسِفُ ما على وجه الأرض من عَصْفٍ وغُبار ورَمَادٍ ونحوها.

**النّصّ العشرون:**

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بشأن إِهْلَاكِ عَادٍ قَوْمِ الرَّسُولِ هود عليه السلام:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾؟!.

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾: أي: بريحٍ باردَةٍ شَدِيدَةِ الْبُرودَةِ، وقويَّةٍ سَرِيعَةٍ تَصْطَدِمُ بالْأَشياء فيكُونُ لَهَا دَوِيٌ وصوتٌ مخيفٌ فيه صَرير. يقال لغة: صَرْصَرَ، أي: صاح صياحاً شديداً فيه صَرِير.

﴿عَاتِيَةٍ﴾: أي: متجاوزة حُدود النفع والسَّلامة، ومُحطِّمةٍ مُهْلِكَةٍ.

﴿حُسُومًا﴾: أي: مُتَتابعَةً لحَسْم مادّتِهِمْ، واستئصالهم، كالْكَيّ بعْدَ الْكَيّ لحَسْم العِلَّةِ. «حُسُوم» جمْع «حَاسِم» مثل «شهود» جمع «شاهد».

﴿صَرْعَىٰ﴾: أي: هَلْكَىٰ مقتولين مطروحين.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: أي: كأنَّهُمْ أصول نخل فَارِغَةٍ شُبِّهوا بها لتصوير حالة بُطُونهم الّتي بُقِرَتْ، وخَرَجَ ما فيها، فَصَارَتْ خاوية.

هٰذه هي الحالة الثانية الّتي يصيرون إليها.

أمّا الحالةُ السابقة لها قَبْلَ أن تُبْقَر بُطُونُهُم وتفْرُغ من أحشائها، فقد جاء وصفهم فيهَا في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بقوله تعالى:

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

فأصول النخل المنقَعِر (أي: المنقلِع لساعَتِه) لا تكونُ خاوية، لكنّها بعْدَ حين تجفُّ وتَيْبَسُ ويَبْلَىٰ باطِنُها، فتكونُ خاوية.

فجاء في النَّصّيْن تكامُلٌ وصْفِيٌّ لهُمْ باعتبار حالَتَيْن، تكُونُ الأولَىٰ أوّلاً، ثُمَّ تَحْدُثُ الثانية.

وجاء في هذا النَّصّ إضَافة وصف الرّيح الّتِي أهلكَ اللّه بها عاداً بأنَّهَا عاتية، وبأنَّها قد كانت حُسُوماً توالت على أرضهم سبْعَ ليالٍ وثَمانية أيّامٍ، مع أنهم قد أهلكوا في اليوم الأوّل منها.

وهذا من التوزيع التكامُلِيّ، المعهود في النُّصوص القرآنِيّة الّتي تَبْدُو في ظاهرها أنَّهَا مُكرَّرَات، وهي في واقع حالها غَيْرُ مكرَّرَات، بلْ هي متكاملات، ويكشف تكاملها التَّدَبُّر المتأنّي العميق.

وهذا من عناصر إعجاز القرآن.

**النصّ الحادي والعشرون:**

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ
وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن
كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ
كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

● قرأ ابنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: [**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ**] بالإفراد.

● وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

● وقرأ هشام في إحدى روايتين عنه، وقرأ ابنُ ذكوان، وأبو جعفر: [**كِسْفاً**] بإسكان السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة وابن هشام في الرواية الأخرى عنه: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السّين.

الكِسْفُ والكِسَفُ جَمْع «كِسْفَة» وهي القطعة من الشيء.

● وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [**يُنْزَلَ**] من فعل «أنزل».

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿يُنَزَّلَ﴾ من فعل: «نَزَّل».

● وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وشُعْبة، وأبو جَعْفَر، ويَعْقُوب: [**فَانْظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّه**] بإفراد «أَثَر».

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ﴾ بالجمع «آثار».

والمؤدّىٰ واحد.

● وقرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم هاء الضمير.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكَسْر هاء الضمير.

وهما وجهان عربيان لنطق هاء الضمير.

جاء في هذا النّصّ بيانٌ لطائفة من وظائف الرياح في سُنَنِ اللَّه السّببيَّة في كونه، مع بيانِ وظيفتها الدينيَّة في الترغيب والترهيب، وهي كَما يلي:

**الوظيفة الأُولَىٰ**: كونُهَا مُبَشّراتٍ بنزول الأمطار التي هي من رحمة اللَّهِ بعباده، فَيُسْقيهم، ويُنْبت زروعهم، ويُخْرِجُ لهم الثمار المختلفة الأنواع والمنافع، دلّ على هذا في النّصّ.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

**الوظيفة الثانية**: كونُها سبَباً لتجْرِيَ الْفُلْكُ في الْبَحْرِ بأَمْرِ اللَّهِ، وليبتغي الناس بركوبها مِنْ فضله أرزاقهم وتحقيق مصالحهم في البحر والبرّ. دلَّ على هذا في النصّ.

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

**الوظيفة الثالثة**: كونُها وسيلة من وسائل اختبار الناس الموضوعين في الحياة الدُّنْيا موضع الامتحان، وما تَشْتمل عليه من سبب لمنافع الناس يُقْصَدُ به تحريض دوافع الشكر في قلوبهم، رغبةً في أن يشكُروا نِعَمَ اللَّهِ عليهم.

دلَّ عليه قول اللّه تعالى في النّصّ:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

**الوظيفة الرّابعة**: كونُها قُوَّةً عظيمة تُثيرُ الْخَوْفَ والذُّعْرَ من عقاب اللَّه وانتقامه من المجرمين، فهي تُنْذِرُ بالجزاء الرَّبَّاني، دلّ على هذا دَلاَلَةً ضمنيَّة يُدْرِكُها المتدبّرون باللَّمْح، قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ومَعْلُومٌ أَنَّ إهْلَاكَ معظم المجرمين من الأمم السالفة قد كان بِالرياح، أو كانت الرّياح من وسائل إهلاكهم.

**الوظيفة الخامسة**: أنها تكون سبباً يُثِيرُ اللَّه به السَّحابَ فَيَبْسُطُهُ في السَّمَاء كَيْفَ يشاءُ، ويَجْعَلُه قِطَعاً فيَخْرُجُ المطر من خلاله، فَيُصِيبُ به مَنْ يشاءُ من عباده، فيستَبْشِرُون به، بعد أن كانوا يائسين، دلَّ على هذا قول اللّهِ عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: أي: فَتُحرّكُ الرّياحُ ضمْنَ نظامها السَّببيّ المياه على الأرْض، وتحرّكُ الأبخرة الصاعِدَة من المياه، وتُهيِّجُها، وتَحْمِلُها، وتجمع بعضَها إلَىٰ بَعْض فتكُونُ سحاباً.

**سَحابٌ**: اسم جنس جَمْعِيّ واحِدَتُه سحابَة. ويُلاحظ معنى الجمع فيه فيوصف بالجمع، ومنه: «سَحَابٌ ثِقَال» ويُلاحَظُ معْنَى الإفراد فيه فَيُوصَفُ بالمفرد، ومنْهُ: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾: أيْ: يَمُدُّه اللّه في الجوّ كيف يَشَاءُ من جَمْعٍ أو تفريق، وقِلَّةٍ أو كثْرَةٍ، ورقَّةٍ أَوْ كَثَافَةٍ، وبأشكالٍ وصُورٍ مختلفة، تَبْدُو حَركاتٍ طبيعيَّةٍ وهي من فعل اللّه جلّ جلاله.

والوسيلة الظاهرة هي الرّياح.

﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: أي: ويجعلُه قطعاً. **الكِسْفَةُ** في اللّغة: هي القطعة من أيّ شيءٍ. وجمعُها كِسْفٌ وكِسَف.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾: أي: فترىٰ المطر يخرجُ من خِلاَلِ السَّحاب. تقول لغة: وَدَقَتِ السَّمَاءُ، إذا أَمْطَرَتْ.

﴿لَمُبْلِسِينَ﴾: أي: لَيَائِسين، أَوْ مُتحَيِّرين. الإبلاسُ في اللّغة: اليأس، والتحيّر، والانقطاعُ، والسّكوت، والنّدم.

**الوظيفة السادسة**: إقناعُ أهل العقل والرُّشد بقُدْرَة اللّه عزّ وجَلَّ على إحياء الموتى للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء يوم الدّين، قياساً على قُدْرَتِهِ على إحياء الأرض بمياه الأمطار بَعْدَ مَوْتها، دلَّ على هذه الوظيفة الفكريَّةِ الدّينيَّة، قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ:

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

**الوظيفة السابعة**: أنّها تُنذِرُ بعذاب اللّهِ إذا أَرْسَلَهَا اللّهُ مُصْفرَّةً، فيخَاف الْمُجْرِمُونَ فيُعْلِنُونَ تَوْبَتَهُمْ إذَا رَأَوْهَا كذلك، فَإِذَا صَرَفَ اللّهُ عَنهُمُ العذابَ عادوا إلى ما كانوا فيه من الكُفْر، وظَلُّوا بَعْدَ ذَلِكَ يَكْفُرُونَ باللّهِ وبآياته، دلَّ على هذا قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: أي: مُنْذِراً بالعذاب الذي يدُلُّ عليْه اللّوْنُ الأصفر، والمعنى: لأعْلَنُوا إيمانَهُم وتَوْبَتَهُمْ، ولَعَادُوا بَعْدَ أن يَصْرِفَ اللّه عنهم العذاب، و﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾: أي: لاسْتَمَرُّوا دواماً من بعد انصرافه عنهم يكْفُرُونَ باللّه وبِآياتِه.

**النصّ الثاني والعشرون**:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**وتَصْرِيفِ الرِّيحِ**] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ بالجمع.

ومؤدّى القراءتين واحد.

**التصريف**: التدبير، والتوجيه، والتَّنويع، والتغيير، واتّخاذ مختلِف الوجوه الممكنة للوصول إلى الغاية المقصودة.

أَبان اللّه عزّ وجلّ في هذه الآيةِ أنَّ تَصْرِيف الرّياح في الكون من آياته العظيمة، فقد ذكرها سبحانَه مع آيَة خَلْقِ السَّماء والأرض، وآيةِ نظامِ حركَةِ الأرض ضمن المجموعة الشمسيّة التي بها يحدُثُ نِظَامُ اختلافَ اللَّيْلِ والنّهار، مع ما في الأرض من آياتٍ جَليلات، وآيةِ أنظمة الماء، والأَوْزانِ النَّوْعيَّةِ للأشياء، والطَّفْو، والريحِ والحركة الّتي بها تجري الْفُلْكُ في الْبَحْر، وآيَةِ الدَّورة المائيَّةِ ونظام تَحْلِيَةِ الماء بالتَّبَخُّرِ والاجتماع في السحاب، ثُمَّ هُطولِهِ مطراً على مَا يشاءُ اللّه بحكْمَتِه ولمن يشاء، وآيَةِ دورة الحياة النَّباتيَّة، وآية خَلْق أصناف الأحياء الّتي تَدِبُّ على الأرض، وآية نظام السَّحاب المسخَّر وَفْق مقادير اللّهِ وأوامره الحكيمة بين السماء الْعُلْيا والأرض.

فالرّياح، وتسخيرها، وتَصْرِيفُها في الأماكن والأزمِنَة، وتصريف أنواعها الكثيرة الرُّخاء والعاصف والقاصف والمدمّرة وغير ذلك، بحسَب الأغراض النفعيَّةِ للأحياء، والتذكيرية بعناصِرَ إيمانية للنّاس، والتحذيريّة والإنْذاريَّة، والعقابيَّة الجزائيّة، هي من آياتِ اللّهِ العظيمة في الكون.

**النصّ الثالث والعشرون:**

قولُ اللّه عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا

وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾: أي؛ كمثل ريحٍ فيها بَرْدٌ شَدِيدٌ.

الصِّرُّ: شِدَّةُ الْبَرْدِ.

فأبان اللّه عزّ وجلّ في هذا النصّ، أنَّ من وظائف الريح، أَنْ يُرْسِلَهَا اللَّهُ بحكْمَتِهِ باردَةً شديدَة البرودة، فَيُهْلِكَ بِهَا زَرْعَ قَوْم ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالمعاصي، أو بأكْلِ أموالِ النّاسِ بالباطل، أو بمَنْعِ الزّكاة الّتي فَرَضَهَا اللَّهُ في أمْوالِهِم، أو بأكلِ الرّبا، أو بتَرْكِ فرائضِ العبادات، أو بارتكاب الكبائر، أو نحو ذلك.

وقد جعل اللّه عزّ وجلّ هؤلاء الّذين يُعَاقِبُهُمْ بإهلاك زُروعِهِمْ في مَجَاري سُنَنِ عِقَابه المعجّل، مثلاً لِنَتِيجَةِ مَا يُنْفِقُهُ الكافِرُون في الحياة الدنيا، ابتغاءَ منافِعَ غيبيَّةٍ يَرْجُونَ تَحْقيقها. لكِنَّ اللَّهَ جلَّتْ حكْمَتُه يأتِي إلى كُلّ ما أنفقوهُ، فأعَدّوا وَدَبَّرُوا به أشياء تُشْبِهُ عَمَلَ الزارع الظالم لنفْسِه في مَزْرَعَتِه، فيبْعَثُ عليه مَا يجعلُهُمْ لاَ يَنْتَفِعُونَ ممَّا أَنْفَقُوا شيئاً ممّا كانوا يَرْجونه.

هذه الوظيفة من وظائف الريح لم يأتِ التصريحُ بها في النصوص السابقة لهذا النّص في نُجُوم التنزيل.

**النصّ الرابع والعشرون:**

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول): يمتنُّ على المؤمنين بتسخِير الرِّيح لِرَدِّ أحزاب الشِّركِ عَنهم في غزوة الخنْدق، وجَعْلِهِمْ يَرْجِعُونَ خَائِبِينَ عن الْمَدِينَة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

● قرأ أبو عَمْرو: [**بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيراً**] بياء الغائبين.

وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ بتاء المخاطبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذِ اللّه عزّ وجَلّ بَصيرٌ بمَا يَعْمَلُ المخاطَبُون في الآية وهم الّذين آمَنُوا، وبما يَعْمل الجنود الذين جاءُوهم من المشركين، وهم غير مخاطبين في الآية. فأغنت القراءتان عن أَنْ يُقَال في الآية: وكان اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ويَعْمَلُون بَصِيراً.

وقد أبان اللّه عزّ وجلّ أنّ من وظائف الريح في سُنَن اللّهِ السَّبَبِيَّة، أنْ يَرُدَّ بها كَيْدَ وبأْسَ الكافِرينَ عن المؤمنين الصادقين، الذين تقضي حكمتهُ عزّ وجلّ أنْ يُؤيِّدَهم، ويَرُدَّ كيْد أعدائهم عنهم، وهو البصير بما يَعْمَلُون وبما يَعْملُ أعداؤهم.

وما نَصَرَ اللّه به المؤمنين في غزوة الأحزاب، مثالٌ علَىٰ إحدى أفعال اللّه السببيّة في نُصْرَة أوليائه على أعدائه، وكانت الرِّيح يومئذٍ سبباً في صَرْف كيد المشركين عن المؤمنين.

**النّصّ الخامس والعشرون** (وهو آخر النُّصوص حول الرِّياح في القرآن):

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

● قرأ نافِعٌ، وأبُو جَعْفر: [**فَتَخَطَّفُهُ**] بفتح الخاء وتشدِيد الطاء المفتوحة.

وقرأ باقي القُرّاء العشرة: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ بإسْكان الخاء وفتح الطاء دون تَشْدِيد.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى: فالفِعْلُ المشدَّدُ الطَّاء يَدُلُّ على حالةِ كثْرَةِ جماعَةِ الطَّيْر الَّتي تَتَخَطَّفُهُ، وهذه تُصَوِّرُ شِدَّة التَّمَزُّقِ النَّفْسِيِّ لدَىٰ بَعْضِ المشركين.

والفعلُ المخفَّفُ الطاء يدُلُّ على الحالَةِ العاديَّةِ الّتي لا تكون فيها كثْرَةٌ مِنْ جماعة الطَّيْرِ الّتي تخطَفُهُ، وهٰذه تُصَوِّر حالة التمزُّق النفسِيّ غَيْرِ المشدّدة لدىٰ بَعْضِ المشركين، إذ المشركون مُخْتَلِفُو الدَّركات في الشرك.

وقد أبان هذا النَّصُّ، أَنَّ مِنْ وظائفِ الرِّيح أَنْ تُسَاعِدَ على دفع من خَرَّ من السّماء، باتّجاه جاذبيَّةِ الأرض، فَتَزيد مِنْ هُوِيِّه، وتُوَجِّهَهُ بَعِيداً عن الأماكن المرتَفِعَةِ الَّتي قَدْ تُخَفِّفُ من قُوَّةِ اصْطِدامِه بالأشياء الصُّلْبَة، الّتي يقَعُ عليها، لِتَهْوِي به في مَكانٍ سحيقٍ.

وهذا يكونُ في نوْع الرّيح الّتي تأْتي من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، مائلةً عن المرتفعات إلى الوديانِ السحيقة.

وعكسُها الرّياح الّتي تَحْمِل السَّاقِطَ فتَرْفَعُه إلى الأعالي قليلاً أو كثيراً، وتُدْنيه من المرتَفِعات، فَتُخَفِّفُ من شدَّة صَدْمَتِهِ وهو ساقِطٌ، وقد تكُونُ سبباً في إنقاذه.

والآيَة تُصَوّرُ حالة التمزُّقِ النَّفْسِيّ لدَىٰ المشركين، وعاقِبَتَهُم التعيسة الّتي توصلُهُمْ إلَىٰ العذاب الحتميّ.

وتُصَوِّرُ أَنَّ الإيمانَ في مَوْقِع السُمُوّ والْعَلاء، وأنَّ الشِّرْكَ الذي هو أَخفُّ أنواع الكُفرِ هو بمثابَةِ مَنْ يخِرُّ من السَّماء، فيتَعَرَّضُ إلى عذاب التمزّقِ وهو يخِرّ، وإلَىٰ عذَابِ المصير، حينَ يَصِلُ إلىٰ عاقبة الْجَزاء، بعْدَ رِحْلَة الابتلاء.

وبهذه النظرة التَّتَبُّعيّة للنُّصُوص القرآنيّة حول الرّياح، ظَهَر لنا أَنَّ الرّياح ذواتُ وظائف دنيَوِيَّة، ضِمْن أنظمة سببيَّةٍ ربّانية، وذَواتُ وظائف

دينيَّة، إذْ تُلْقي دَلاَلاَتٍ بيانيّةً تذكيريَّةً، فتَدُلُّ على طائفة من صفات الرَّبّ جَلَّ وعلا، وتُحَذِّرُ وتُنْذِرُ بِقَانُونِ الجزاء الرَّبَّانيّ المعجّل والمؤجّل إلى يوم الدين.

ويجْمَع ذَلِكَ عُنوانٌ كُلّيٌّ جامع، جاء في أوّل تنزيل قرآنيّ عن الرّياح، وُهو قول اللّه عزّ وجلّ في صدر سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.

* * *

## تلخيصٌ موجز لما جاء عن الرياح في القرآن

أخذاً من التتبع السابق للنصوص القرآنيَّةِ الّتي جاء فيها بيانٌ عن الرّياح، باستقراء شامل، وتدَبُّرٍ فيه بعْضُ السَّبْرِ باتّجاه الْعُمق، أقدّم التلخيصَ التالي:

**أوّلاً**: الرِّياح ذوات تصاريف بتصريفِ اللّه لها، فهُو جلّ جلالُه يُوَجِّهها بحكْمَتِه، علَىٰ ما يشاءُ بسُلْطان رُبُوبيَّته لكلّ ما سِوَاه، وجُوهاً مختلفة، بصِفَاتٍ ومُرَادَاتٍ متنوعة تَنَوُّعاً كثيراً.

**ثانياً**: الرّياح تختلف اختلافاً كثيراً في صفاتها:

(١) فهي تختلف باختلاف نِسَبِ عناصِرِ الغازاتِ فيها.

(٢) وتختلف باختلاف نِسَب بخار الماء فيها.

(٣) وتختلف باختلاف ما تَحْمِلُ من أشياء.

(٤) وتختلف باختلاف درجاتِ الحرارة والبرودة فيها.

(٥) وتختلف باختلاف شدَّةِ السُّرْعَةِ والْحَرَكَةِ وضعفهما حتى السكون.

(٦) وتختلف باختلاف نوع حركتها في الْجَوّ، فقد تكُونُ أُفُقِيَّة، وقد تكون عَمُودِيَّةً من الأعْلَىٰ إلى الأسفل، أو من الأسْفَلِ إلى الأعلى، وقَدْ تكون بمُسْتَوى سطحِ الأرض، أو بحُدُود مُسْتَوى الأشجار، أو فوق ذلك حتَّىٰ السُّحبِ فَمَا فَوْقها، وقد تكُونُ مُرْسَلَةً بخُطُوطٍ مائِلَةٍ من الأعلى إلى الأسفل، أو من الأسفل إلىٰ الأعلى، باحتمالاَت كثيرة يَصْعُبُ حصرها.

(٧) ومنها رياحٌ كونية في عوالم النجوم والمجرّات.

**ثالثاً**: الرّياح ذواتُ آثارٍ نافعة، بحكْمَةِ الرَّبّ مُصَرِّفِها وذات آثارٍ ضارَّة، بحكمة الرَّبّ مُصَرِّفِها.

● **فمِنْ تأثيراتها النافعات بحكمة اللّه وأمْرِه، ما يلي:**

(١) إثارتها المياه وحملها لبخار الماء وتكوين السُّحب، وسوقها لإنزال الأمطار، على البلاد والأراضي التي يأمُرُ اللّه بإغاثتِها وإحيائها.

فإذا جاءت كانت نَاشرة، ومبشّرَةً برحمة الله.

(٢) إثارَتُها للسحاب، وبَسْطُهُ، وجَمْعُهُ، وتفريقه، على مُرَاد اللّه وأمْرِه الحكيم.

(٣) حَمْلُها اللّقاحات، للنباتات، وللسحاب، وحملُها للروائح الزكيّة.

(٤) إجراؤها للسُّفُن في الْبَحْر، بأمْر اللّه، وعلى مقتضىٰ حكمته.

(٥) تَذْرِيَتُها لأشياء نافعة، إذْ تَنقُلُها من أمكنَةٍ في الأرض إلى أمْكِنة أُخرىٰ.

(٦) تأديتُها وظيفة نَصْرِ أولياء اللّه على أعدائه، بأمْرِ رَبّها.

إلى غير ذلك من أمُورٍ فيها نَفْعٌ عظيم للنّاس.

● **ومن تأثيراتها الضارّات بحكمة اللّه وأمْرِه، ما يلي:**

(١) أنْ تكون صَرْصَراً عاتيةً بارِدَةً فَتُهْلِكَ وَتُدَمِّر.

(٢) أَنْ تكون قاصِفَةً للأشجار والصواري.

(٣) أن تأتيَ مُصْفَرَّةً مُنْذِرَةً بالْهَلاَك.

(٤) أنْ تأتي عَاصِفَةً تَحْمِلُ ما خَفَّ عل سطح الأرض، فَتُحْدِثُ بعضَ الضَّرَرِ.

(٥) أن تأتي هاوية من أعْلَىٰ إلى أسفل، ومائلة إلى أعماق الوديان، فَتَرْمي، وتُحَطِّمُ وَتُدَمِّر.

(٦) أنْ تأتي حافرةً ومُقْتَلِعةً للأشياء، وناسِفَةً إِلَىٰ الأعْلَىٰ، ثُمَّ رَامِيَةً بالأشياء ومُحَطِّمَةً لها.

(٧) أن تأتي شديدة عنيفة فتضْرِبَ البحارَ، وتجعل أمواجها كالجبال يَصْدِمُ بعْضُها بعضاً، وتُغْرِقَ السُّفُنَ الَّتي تجري عليها.

إلى غير ذلك من صور تأتي بالبلاء والعذاب والعقاب، بحسب حكمة اللّهِ في عباده.

## تلخيص وظائف تصريف الرياح:

حين نتفكر في وظائف تصريف الرياح يتَبيَّنُ لنا أنها تشتمل على الوظائف التالية:

**الوظيفة الأولى**: أن تكون سبباً لإمداد الأحياء المتَنَفِّسَةِ بالأكسجين اللازم لحياتها.

**الوظيفة الثانية**: أن تكون سبَباً لتحقيق أرزاق الأحياء على الأرض، بتكوين المطر، وإنزاله، وبحمل عناصر اللّقاح للنباتات وللسُّحب، وأن تكون سبباً لتحقيق منافع كثيرة للناس كإجراء السُّفُن، وحَمْل الطائرات، وسوق السّحاب.

**الوظيفة الثالثة**: أن تكون سبباً لامتحان الناس بالنِّعَمِ، أو بالمصائب والمكاره.

**الوظيفة الرابعة**: أن تكون سبباً لعقاب مستحقي العقاب المعجّل، حتَّىٰ مُسْتَوَىٰ الإهْلاَكِ الماحِق المدمّر.

**الوظيفة الخامسة**: أن تكون سبباً لتأييد المؤمنين، ونصرهم على الكافرين، أو صَرْف كَيْدِ الكافرين عن المؤمنين.

**الوظيفة السادسة**: أنْ تكون مسخَّرَة لبعض عباد اللّه المرسلين، كما كانت مُسَخَّرةً لسُلَيْمانَ عليه السلام، إذْ سخَّر اللّه له الرّيحَ الرُّخَاءَ، والرّيحَ السَّرِيعة الّتي غدُوُّها شَهْرٌ ورَواحُها شهر، والرّيحَ العاصفة.

**الوظيفة السابعة**: أن تكُونَ مُذَكّرَةً باللّه جلّ جلاله، وبعظيم صفاته، إذْ هي آيةٌ من آياته في تصاريفها ذواتِ الآثار العظيمة والجسيمة والخطيرة.

**الوظيفة الثامنة**: أنْ تكون مُنْذِرَةً بعقاب اللّه وعَذَابه، لكلّ من يَفْعل مثل أفعال مَنْ أُهْلِكُوا في سَالِفِ الأيّام بأنواعٍ منها. وَأنْ تكُون منبّهَةً على عَدْلِ اللّهِ وجزائه المؤجَّلِ إلى يوم الدّين.

إلى غير ذلك من وظائف يستطيع المتفكر المتدبّر أن يكتشفها بالبحث والتأمل.

❀ ❀ ❀

## الملحق الثالث
## حول الأقسام الواردة في صدر سورة المرسلات

جاء عند المفسّرين تفسير «المرسلات» بالرّياح، وبالملائكة، وبالأنبياء، وتفسير «الفارقات» و«الملقيات ذكراً» بالملائكة، ورأيتُ أنَّ هذه التفسيرات لا تَسْتَنِدُ إلى بيانٍ نَبويٍّ، وإنّما هي آراء اجتهاديّة ذكرها المفسّرون.

ثم نظرتُ في الأقسام القرآنيّة بنظراتٍ تَدَبُّرِيَّة، فظهر لي أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يُقْسِمُ بآيَاتٍ من آياته في كَوْنِه، وهذه الآياتُ مشْهُودَةٌ أَوْ مَعْلُومَةٌ لدىٰ المقصودين بالخطاب، لتأكيد نَبأٍ غَيْبِيٍّ يُبَلِّغُهُمْ إيّاه، ومضْمُونُ هذا النبأ ممّا ينكرُونَ، أو ممّا يشكُونَ فيه، أو تكُونُ حالَتُهم مثْلَ حالَةِ المنكر أو

الشَّاكّ، أو تكون حالَتُهم النفسيَّةُ في قَلَقٍ، أو اضطرابٍ، أو حُزْنٍ، أو خَوْفٍ، أو أيّ انفعالٍ آخَر يجعلُ تصَوُّراتهم لِلأشياء رَجْرَاجَةً مُهْتَزَّةً، غَيْرَ واضِحَةٍ ولا نقيَّةٍ، فَهُمْ بحاجَةٍ إلَىٰ ما يُسَكّن نفوسَهُم ويُعيدُها إلَىٰ سوائها، ومن وسائل ذلك التأكيد بالْقَسَم.

ودَلّني الاستقراء القرآنيّ، مع التدبُّر المتأني على أنَّ من المستَبْعَد جدًّا، أنْ يُقْسِمَ اللّهُ الرَّبُّ الحكيمُ بأمُورٍ غيبيَّة هي ممّا يَنْكِرُهُ المقصودونَ بالخطاب أو يشكُّونَ فيه، على قضيَّةٍ غيبيَّةٍ أُخْرَىٰ لتأكيدها.

فالأمور الغيبيَّةُ الَّتي لا يُؤْمِن بها الذين يُوجَّهُ لَهُمُ الخطاب مُتَساوِيَةٌ لَدَيْهم إنكاراً لها، أو شكًّا فيها، والقسم ببعضها لتأكيد بعْضها الآخر مُسَاوٍ لعكسه، وهو في العادَةِ لا يُعْطي قوّةً ولاَ تَرْجيحاً، وحكمةُ الرَّبّ الحكيم أجَلُّ، فمِنْ غَيْرِ المقبولِ في العقول، أنْ يُقْسِمَ الرَّبُّ جلَّ جلالُه لمنكِرِ الْبَعْثِ أو الشَّاك فيه، علَىٰ أنَّهُ حَقٌّ، بمَلاَئِكَةٍ مُرسلاتٍ، وهو أيضاً يُنْكِرُها ولاَ يُؤْمِنُ بها.

والواجب على متدبّر كلام اللّه في كتابه المجيد أن يُمْعن النظر، ويُمِدَّ تفكُّرَهُ وتَدَبُّرَهُ بمَزِيدٍ من الصَّبْر والتَّأنّي، ومُتَابعة التفكُّر والتدبّر، حتَّىٰ يفتح اللّه عليه بالفهم الصحيح المطابق لمراده من كلامه.

هذا ما جعلني أستبْعِدُ الآراء التي ذُكرت في تفسير ما أقْسَم اللّه به في صَدْرِ سُورَةِ (المرسلات) باستثناء الرّياح، لأنَّها من آيات اللّه الكبرى المشهودة في الكون، أقسم اللّه بها لمنكري البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، على أنَّ ما يُوعَدُونَه لَواقعٌ حتماً، ومثل هذا القسم معقولٌ ومقبولٌ، وهو يتضَمَّنُ حُجَّةً على قُدْرَةِ اللّه، وعلى قانون الجزاء الذي هو ثَمَرَةُ حكمة الابتلاء، فقد كانت الرّياح في تاريخ الأمم سبباً في إهلاك مجرمي أهل القرون الأولى.

❁ ❁ ❁

# الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

(١٩)

## سورة الفيل

### ١٠٥ مصحف/ ١٩ نزول

(١) نص السورة ........ ٧
(٢) معاني مفردات لغوية ........ ٧
(٣) موضوع سورة الفيل ........ ٨
(٤) قصة أصحاب الفيل ........ ٩
**(٥) التدبر التحليلي لآيات السورة** ........ ١٤
● تمهيد ........ ١٤
● الآية الأولى ........ ١٥
● الآية الثانية ........ ١٦
● الآيتان (٣ ـ ٤) ........ ١٧
● الآية (٥) ........ ١٨

(٢٠) و(٢١)

## سورتا الفلق والناس

### ١١٣ مصحف/ ٢٠ نزول ـ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول

(١) نص السورتين ........ ٢٣
(٢) مما ورد بشأنهما ........ ٢٤
(٣) موضوعهما ........ ٢٦
(٤) بيان حول كلمة (قُلْ) ودفع لشبهة بعض المتحذلقين ........ ٢٦
**(٥) التدبّر التحليلي لآيات سورة الفلق** ........ ٢٨
● ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ ........ ٢٨

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| ● ﴿من شرّ ما خلق﴾ | ٢٩ |
| ● ﴿ومن شر غاسق إذا وقبَ﴾ | ٣٠ |
| ● ﴿ومن شرّ النفاثات في العقد﴾ | ٣٣ |
| ● ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ | ٣٤ |
| (٦) التدبُّر التحليلي لآيات سورة الناس | ٣٨ |
| ● الآيات (١ ـ ٢ ـ ٣) | ٣٨ |
| ● الآيات (٤ ـ ٥ ـ ٦) | ٤٠ |
| **ملاحق لسورتي الفلق والناس** | ٤٢ |
| (٧) **الملحق الأول: نظرة عامّة حول ما جاء في سورتي الفلق والناس** | ٤٣ |
| (٨) **الملحق الثاني: حول فلسفة التمكين من فعل الشرّ** | ٤٥ |
| (٩) **الملحق الثالث: الاستعاذة بالله في القرآن والسنة** | ٥١ |
| ● الاستعاذة في القرآن | ٥١ |
| ● الاستعاذة في السنة | ٦١ |
| (١٠) **الملحق الرابع: حول السّحر** | ٦٣ |

## (٢٢)
## سورة الإخلاص
### ١١٢ مصحف/ ٢٢ نزول

| | |
|---|---|
| (١) نص السورة | ٧٣ |
| (٢) سبب نزول السورة | ٧٤ |
| (٣) فضل سورة الإخلاص | ٧٤ |
| (٤) موضوع السورة | ٧٧ |
| (٥) **التدبّر التحليليّ لآيات السُّورة** | ٧٨ |
| ● ﴿قل هو الله أحد﴾ | ٧٨ |
| ● ﴿الله الصمد﴾ | ٨٢ |
| ● ﴿لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفُواً أحد﴾ | ٨٣ |
| (٦) سورة الإخلاص سورة تقريرية | ٨٧ |

الموضوع الصفحة

(٢٣)
## سورة النّجم
### ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول

(١) نص السورة ........ ٩١
(٢) مما ورَدَ من أحاديث بشأن سورة النجم ........ ٩٤
(٣) سبب نزول السّورة ........ ٩٥
(٤) موضوع سورة النجم ........ ٩٥
(٥) دروس السورة ........ ٩٦
(٦) **التدبر التحليلي للدرس الأول:**
الآيات من (١ ـ ١٨) ........ ٩٧
● تمهيد ........ ٩٧
● ﴿والنجم إذا هوى﴾ ........ ٩٩
● ﴿ما ضل صابحكم وما غوىٰ﴾ ........ ١٠١
● ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ ........ ١٠٢
● ﴿إن هو إلاّ وحْيٌ يوحَى﴾ ........ ١٠٣
● ﴿علمّه شديد القوى * ذُو مِرَّة فاسْتَوى﴾ ........ ١٠٥
● ﴿وهو بالأفق الأعْلَىٰ * ثم دنا فتدلّىٰ * فكان قاب قوسين أو أدنىٰ﴾ . ١٠٧
● ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ ........ ١١٠
● ﴿ما كذب الفؤاد ما رَأىٰ * أفتمارونه على ما يَرَىٰ﴾ ........ ١١٠
روايات بشأن رُؤية الرسول لجبريل في النزلة الأولى ........ ١١٣
● ﴿وَلَقَدْ رَآه نَزْلَةً أخرى....﴾ وحتى الآية (١٨) ........ ١١٤
(٧) **التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السُورة:**
الآيات من (١٩ ـ ٢٨) ........ ١١٩
● تمهيد وتدبر ........ ١٢١
● **القضية الأولى**: اتخاذ المشركين الأصنام معبودات لهم ........ ١٢١
إشكال ودفعهُ حول وصف «مناة»: بالثالثة الأخرىٰ ........ ١٢٥
تعذيب المشركين أصحابَ النبي ﷺ لإكراههم على عبادة الأوثان .... ١٢٦
● **القضية الثانية**: اعتقاد المشركين أنّ الملائكة بناتُ اللّه ........ ١٢٦
(٨) **التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة: الآيات من (٢٩ ـ ٣٢)** ١٣٨

الموضوع الصفحة


● ﴿فَأعرض عمّن تولّىٰ عن ذكرنا﴾ ........ ١٣٩
● خلاصة هذا التعليم من عناصر منهاج الدعوة ........ ١٤٠
● ﴿إنّ رَبّك هو أعْلَم بمَنْ ضلَّ عن سبيله...﴾ ........ ١٤١
● ﴿ولله ما في السماواتِ وما في الأرض...﴾ ........ ١٤١
● ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم...﴾ ........ ١٤٣
(٩) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة النجم: الآيات من (٣٣ ـ ٥٥) وفيه تسع قضايا ........ ١٤٦
● تمهيد ........ ١٤٨
● ﴿أفرأيت الذي تولّى...﴾ (٣٣ ـ ٣٥) ........ ١٤٨
● ﴿أم لم ينَبأْ بما في صحُف موسى...﴾ ........ ١٥١
**(١٠) التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة**
وهو الآيات من (٥٦ ـ ٦٢ آخر السورة) وفيه أربع قضايا ........ ١٦٦
**ملاحق السورة** ........ ١٧١
(١١) الملحق الأول: من بلاغيات سورة النجم ........ ١٧١
(١٢) الملحق الثاني: حول معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة ... ١٧٢
(١٣) الملحق الثالث: سياسة الداعي في أحوال المدعوّ الذي لم يستجب ... ١٩٣


**(٢٤)**

## سورة عبس

### ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول


(١) نصّ السّورة ........ ٢٠٧
(٢) ما رُوِي في سبب نزول السّورة ........ ٢٠٨
(٣) نظرة تدبُّرية حول حادثة سبب نزول السورة ........ ٢١٢
(٤) موضوع السّورة ........ ٢١٤
(٥) دروس السّورة ........ ٢١٤
**(٦) التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس السورة:**
الآيات من (١ ـ ١٦) ........ ٢١٦
● ﴿عبَسَ وتولّىٰ * أنْ جَاءَهُ الأعْمَىٰ﴾ ........ ٢١٦
● ﴿وَما يُدْرِيك لعلّه يزّكّىٰ * أو يذّكّر فتنفع الذكرى﴾ ........ ٢١٨
● ﴿أمّا من اسْتَغنى... (٥)... (١٠) كلاّ...﴾ ........ ٢٢٢

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| ● ﴿إِنَّها تَذْكِرَة.... (١٢ ـ ١٦)﴾ | ٢٢٥ |
| تحليل كون القرآن تذكرة فمن شاء ذكر ما فيه | ٢٢٧ |
| (٧) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُروس سورة عبس: | |
| الآيات من (١٧ ـ ٢٣) | ٢٢٩ |
| ● ﴿قُتِلَ الإنسان ما أَكْفَرَه﴾ | ٢٣٠ |
| ١ ـ سوابق الحديث عن الإنسان في نجوم التنزيل | ٢٣١ |
| ٢ ـ نظرة إلى تسلسل الأفكار التي جاءت عن الإنسان في نجوم التنزيل | ٢٣٤ |
| ● ﴿مِنْ أي شيْءٍ خَلَقَهُ﴾؟ | ٢٣٥ |
| ● ﴿من نطفة خلقه فقدّرهُ﴾ | ٢٣٥ |
| ● ﴿ثمّ السبيل يسَّرَه﴾ | ٢٣٨ |
| ● ﴿ثُمّ أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره﴾ | ٢٣٩ |
| ● ﴿كَلَّا لمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَه﴾ | ٢٤٣ |
| (٨) التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة عبس: | |
| الآيات من (٢٤ ـ ٣٢) | ٢٤٤ |
| ● تمهيد | ٢٤٥ |
| ● ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ | ٢٤٦ |
| ● ﴿أنّا صببنا الماء صبّاً.. (٢٥ ـ ٣٢)﴾ | ٢٤٦ |
| (٩) التدبّر التحليلي للدرس الرابع: | |
| الآيات من (٣٣ ـ ٤٢) | ٢٥٢ |
| ● ﴿فإذا جاءَت الصاخّة﴾ | ٢٥٢ |
| ● ﴿يَوْمَ يفرّ المرءُ من أخيهِ﴾ | ٢٥٤ |
| ● ﴿وَأُمِّهِ وأبيه﴾ | ٢٥٤ |
| ● ﴿وَصاحبته وبنيه﴾ | ٢٥٥ |
| ● ﴿لِكُلّ امْرِئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه﴾ | ٢٥٦ |
| ● ﴿وُجوهٌ يومئذٍ مسفرة...﴾ | ٢٥٧ |
| **ملاحق لتدبر سورة عبس** | ٢٥٩ |
| (١٠) **الملحق الأول**: حول بلاغيات في السورة | ٢٥٩ |
| (١١) **الملحق الثاني**: حول كون وظيفة القرآن والرسول وظيفة بيان وتذكير | ٢٦١ |

الموضوع الصفحة

## (٢٥)
## سورة القدر
## ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول


(١) نصّ السورة ........ ٢٨١
(٢) موضوع سورة القدر ........ ٢٨٢
(٣) سوابق الحديث عن القرآن في نجوم التنزيل ومجمل ما اشتملت عليه من دلالات ٢٨٢
**(٤) التدبّر التحليليّ لآيات سورة القدر** ........ ٢٨٧
● ﴿إنّا أنزلناه في لَيْلَةِ القدر﴾ ........ ٢٨٧
● ما المراد من إنزال القرآن في ليلة القدر؟ ........ ٢٩٠
● ليلة القدر إحدى ليالي شهر رمضان ........ ٢٩٠
● الحكمة من إخفاء ليلة القدر ........ ٢٩١
● ﴿وَما أدْرَاكَ مَا لَيلَةُ القدر﴾؟ ........ ٢٩٣
● ﴿ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر﴾ ........ ٢٩٣
● مضاعفة ثواب الأعمال لخصائص بعض الأزمنة والأمكنة ........ ٢٩٥
● ﴿تنزّل الملائكة والرّوح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر﴾ ........ ٢٩٦
● ذكر جبريل عليه السلام بعنوان الروح ........ ٢٩٧
● ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر ۝٥﴾ ........ ٣٠٠
● صفات ليلة القدر في القرآن ........ ٣٠١
● ممّا ورَدَ في السُنّة حول صفات ليلة القدر المادّية ........ ٣٠٢


## (٢٦)
## سورَة الشمس
## ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول


(١) نصُّ السورة ........ ٣٠٥
(٢) ممّا وَرَدَ بشأن سورة الشمس من أحاديث ........ ٣٠٦
(٣) موضوع سورة الشمس ودروسُها ........ ٣٠٧
**(٤) التدبّر التحليلي للدّرس الأول: الآيات من (١ ـ ١٠)** ........ ٣٠٨
● تمهيد ........ ٣٠٨
● ﴿والشمس وضحاها﴾ ........ ٣٠٨
● ﴿والقمر إذا تلاها﴾ ........ ٣١٠
● ﴿والنهار إذا جَلَّاها﴾ ........ ٣١٠

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| ● ﴿واللّيل إذا يغشاها﴾ | ٣١١ |
| ● ﴿والسماءِ وما بناها﴾ | ٣١٢ |
| ● ﴿والأرض وما طحاها﴾ | ٣١٤ |
| ● ﴿ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورَها وتقواها﴾ | ٣١٧ |
| ● المقسَمُ عليه: | |
| ﴿قَدْ أفلح من زكّاها * وقد خابَ من دَسَّاها﴾ | ٣١٩ |
| **(٥) التدبر التحليليّ للدرس الثاني:** | |
| الآيات من (١١ ـ ١٥) | ٣٢٢ |
| ● ﴿كذّبت ثمود بطغواها﴾ | ٣٢٣ |
| ● ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ | ٣٢٤ |
| ● ﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسُقْياها﴾ | ٣٢٤ |
| ● ﴿فكذّبوه فعقَرُوها﴾ | ٣٢٤ |
| ● ﴿فَدَمْدَمَ عليهم ربُّهُمْ بذَنبِهِمْ فسَوَّاها﴾ | ٣٢٥ |
| ● ﴿وَلاَ يخافُ عُقْبَاها﴾ | ٣٢٥ |
| ● نظرة عامة إلى ما اشتمل عليه الدرس الثاني من درسَيْ السورة | ٣٢٦ |
| موجز ما جاء في القرآن عن ثمودَ ورسُولهم | ٣٢٧ |
| **ملاحق لتدبر السورة** | ٣٣١ |
| (٦) **الملحق الأوّل**: مستخرجات بلاغية مما اشتملت عليه السورة من بلاغيات | ٣٣١ |
| (٧) **الملحق الثاني**: حول الشمس والقمر والأرض والنهار والليل في القرآن | ٣٣٢ |

## (٢٧)
## سورة البروج
## ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول

| | |
|---|---|
| (١) نص السورة | ٣٤٧ |
| (٢) مما رُوي بشأن سورة البروج | ٣٤٨ |
| (٣) موضوع سورة البروج | ٣٤٩ |
| (٤) دروس السورة | ٣٥٠ |
| **(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول:** | |
| الآيات من (١ ـ ٩) | ٣٥١ |
| ● ﴿والسماء ذات البروج﴾ | ٣٥٢ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|


● ﴿واليوم الموعود﴾ ........ ٣٥٣
● ﴿وشاهد ومشهود﴾ ........ ٣٥٥
لمحة عن القسم في القرآن ........ ٣٥٧
● ﴿قُتِل أصحاب الأخدود﴾ ........ ٣٥٨
● من هم أصحاب الأخدود؟ ........ ٣٦١
● ﴿النار ذات الوقود﴾ ........ ٣٦٨
● ﴿إذْ هم عليها قعود﴾ ........ ٣٦٩
● ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهودٌ﴾ ........ ٣٧٠
● ﴿وَما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا باللّه العزيز الحميد. . (٨ ـ ٩)﴾ ... ٣٧٠

(٦) **التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة البروج:**

الآيتان (١٠ ـ ١١) ........ ٣٧٢
● تمهيد ........ ٣٧٣
● اضطهاد طَغاة مشركي مكة للمستضعفين من المؤمنين والمؤمنات ..... ٣٧٣
● ﴿إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات. . .﴾ ........ ٣٧٦
● ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات. . .﴾ ........ ٣٧٨

(٧) **التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة البروج:**

الآيات من (١٢ ـ ١٦) ........ ٣٨٠
● تمهيد ........ ٣٨١
● ﴿إنّ بطش ربك لشديد﴾ ........ ٣٨٢
● ﴿إنَّهُ هو يبدئ ويعيد﴾ ........ ٣٨٢
● ﴿وهو الغفور الودود﴾ ........ ٣٨٣
● ﴿ذو العرش المجيد﴾ ........ ٣٨٥
● ﴿فعال لما يريد﴾ ........ ٣٨٥

(٨) **التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة البروج:**

الآيتان (١٧ ـ ١٨) ........ ٣٨٦
● تمهيد ........ ٣٨٦
● ﴿هل أتاك حديث الجنود * فرعَوْن وثمود﴾ ........ ٣٨٦

(٩) **التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة البروج:**

الآيات من (١٩ ـ ٢٢) ........ ٣٨٨
● ﴿بل الذين كفروا في تكذيب. .(١٩ ـ ٢٢)﴾ ........ ٣٨٨

الموضوع | الصفحة


● ﴿بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ﴾ ........ ٣٩١

(٢٨)

سورة التين

٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول

(١) نص السّورة ........ ٣٩٥
(٢) ممّا ورد بشأن سورة التين ........ ٣٩٥
(٣) موضوع سورة التين ........ ٣٩٧
(٤) دروس سورة التين ........ ٣٩٩
**(٥) التدبّر التحليليّ للدرس الأول من درسي السورة:**
الآيات من (١ ـ ٦) ........ ٤٠٠
● ﴿والتين والزيتون﴾ ........ ٤٠٠
● ﴿وطور سينين﴾ ........ ٤٠٢
● ﴿وهذا البلد الأمين﴾ ........ ٤٠٢
● ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ ........ ٤٠٣
● ﴿ثمّ رَدَدْنَاه أسْفَلَ سافلين﴾ ........ ٤٠٧
● ﴿إلاّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصّالحات فلهم أجْرٌ غير ممنون﴾ ........ ٤٠٩
مقارنة بين ما جاء في سورة العصر وما جاء في سورة التين ........ ٤١٠
**(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من درسي سورة التين:**
الآيتان (٧ ـ ٨) ........ ٤١١
● تمهيد ........ ٤١٢
● ﴿فما يكذّبك بَعْدُ بالدين﴾ ........ ٤١٣
● ﴿أليس اللّه بأحكم الحاكمين﴾ ........ ٤١٤
**ملاحق لتدبر سورة التين** ........ ٤٢٠
(٧) **الملحق الأول**: حول بلاغيات في السورة ........ ٤٢٠
(٨) **الملحق الثاني**: حول الأمن بمكة البلد الحرام ........ ٤٢١

(٢٩)

سورة قريش

١٠٦ مصحف/ ٢٩ نزول

(١) نصّ السورة ........ ٤٣١

الموضوع | الصفحة

(٢) موضوع السورة، وهي ذات درس واحد ........ ٤٣٢
(٣) قصّة الإيلاف ........ ٤٣٢
(٤) **التدبر التحليلي لآيات سورة قريش** ........ ٤٣٦
● المعنى العام الذي دلّت عليه السورة ........ ٤٤٠

**(٣٠)**
**سورة القارعة**
**١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول**

(١) نصّ السورة ........ ٤٤٣
(٢) موضوع سورة القارعة وهي ذات درسين ........ ٤٤٤
(٣) **التدبّر التحليلي للدرس الأول من درسيها:**
الآيات من (١ ـ ٥) ........ ٤٤٥
● ﴿القارعة * ما القارعة﴾ ........ ٤٤٥
● ﴿وَما أدراك ما القارعة﴾ ........ ٤٤٥
● ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعِهْن المنفوش﴾ ........ ٤٤٦
(٤) **التدبّر التحليلي للدرس الثاني من درسيها:**
الآيات من (٦ ـ ١١) ........ ٤٥١
● تمهيد ........ ٤٥١
● ﴿فأما مَنْ ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية﴾ ........ ٤٥٢
● ﴿وأما منْ خفت موازينه * فأمّهُ هاوية * وما أدراك ماهية * نارٌ حامية﴾ ........ ٤٥٥

**(٣١)**
**سورة القيامة**
**٧٥ مصحف/ ٣١ نزول**

(١) نصّ السورة ........ ٤٥٩
(٢) موضوع سورة القيامة ........ ٤٦١
(٣) دروس السورة ........ ٤٦٢
(٤) **التدبر التحليلي لآيات الدرس الأول:**
الآيات من (١ ـ ١٥) ........ ٤٦٥

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|


● ﴿لا أقسم بيوم القيامة * ولا أُقسم بالنفس اللّوامّة﴾ ............ ٤٦٦
● ﴿أيحسب الإنسان ألنْ نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانهُ﴾ .. ٤٧٠
● ﴿بل يريد الإنسان لفيجُر أمامَهُ * يسألُ أيّان يومُ القيامة﴾ .......... ٤٧٤
● ﴿فإذَا بَرِق البصر * وخسَف القمر... (٨ ـ ١٥)﴾ ............ ٤٧٧
● ﴿فإذا بَرِق البصر﴾ ............ ٤٧٨
● ﴿وخَسَفَ القمر﴾ ............ ٤٧٩
● ﴿وجُمع الشمس والقمر﴾ ............ ٤٨٠
● ﴿يقول الإنسان يومئذٍ أيْن المفرّ﴾ ............ ٤٨١
● ﴿كلاَّ لا وزر * إلى ربك يومئذٍ المستقر﴾ ............ ٤٨٢
● ﴿ينبّأُ الإنسان يومئذٍ بما قَدّم وأخّرَ﴾ ............ ٤٨٤
● ﴿بل الإنسان على نفسه بَصيرة * ولو ألقى معاذيرهُ﴾ ............ ٤٨٥
● ممّا جاء في السّنة بشأن جدل الإنسان عن نفسه يوم الحساب ........ ٤٨٨

**(٥) التدبّر التحليلي لآيات الدرس الثاني من دروس سورة القيامة:**

الآيات من (١٦ ـ ١٩) ............ ٤٨٩
● تمهيد ............ ٤٨٩
● ﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به﴾ ............ ٤٩١
● ﴿إنّ علينا جمعه وقرآنه﴾ ............ ٤٩١
● ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ ............ ٤٩١
● ﴿ثمّ إنّ علينا بيانه﴾ ............ ٤٩٢

**(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من سورة القيامة:**

الآيتان (٢٠ ـ ٢١) ............ ٤٩٤
● ﴿كلاّ بل تحبّون العاجلة * وتذَرُونَ الآخرة﴾ ............ ٤٩٤
● أسباب حُبّ الناس العاجلة ............ ٤٩٦
● حب الناس العاجلة في النصوص القرآنية ............ ٤٩٩

**(٧) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس القيامة:**

الآيات من (٢٢ ـ ٢٥) ............ ٥٠٢
● ﴿وجُوهٌ يومئذٍ ناضرة * إلى ربّها ناظرة * ووجوه يومئذٍ باسرة * تظنُّ أن يُفعَلَ بها فاقِرَة﴾ ............ ٥٠٢
● رؤية المؤمنين ربَّهم يوم القيامة في السنّة ............ ٥٠٤
● ﴿ووجوه يومئذٍ باسرة ﴿٢٤﴾ تظنُّ أن يُفعَلَ بها فاقرَة ﴿٢٥﴾﴾ ............ ٥٠٤

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

(٨) **التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس القيامة:**
الآيات من (٢٦ ـ ٣٠) ........................ ٥٠٦
● ﴿كلّا إذا بلغت التراقي﴾ ........................ ٥٠٧
● ﴿وقيل من راقٍ﴾ ........................ ٥٠٧
● ﴿وظنّ أنّهُ الفراق﴾ ........................ ٥٠٨
● ﴿والتفت السّاق بالسّاق﴾ ........................ ٥٠٨
● ﴿إلى ربّك يومئذٍ المساق﴾ ........................ ٥٠٩
(٩) **التدبّر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة القيامة:**
الآيات من (٣١ ـ ٣٥) ........................ ٥١٠
● ﴿فلا صدّق ولا صلّىٰ * ولكِنْ كذَّبَ وتَوَلّى * ثمّ ذهب إلى أهلِه يتمطّىٰ﴾ ........................ ٥١١
● ﴿أولَىٰ لك فأولى * ثم أولى لك فأولَىٰ﴾ ........................ ٥١٤
(١٠) **التدبّر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة القيامة:**
الآيات من (٣٦ ـ ٤٠) ........................ ٥١٥
● ﴿أيحسبُ الإنسان أن يُترك سُدىً﴾ ........................ ٥١٦
● ﴿ألم يَكُ نطفة من منيٍّ يُمْنَىٰ * ثم كان علقة﴾ ........................ ٥١٨
● ﴿فخلق فسوّىٰ﴾ ........................ ٥١٩
● ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ ........................ ٥٢٠
● ﴿أليس ذلك بقادر على أن يُحْيي الموتىٰ﴾ ........................ ٥٢١
(١١) **ملحق:** حول إبداعات بلاغيّة في سورة القيامة ........................ ٥٢٢

## (٣٢)
## سورة الهمزة
## ١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول

(١) نصّ السورة ........................ ٥٢٧
(٢) من ذُكر من المشركين أنّه كان همّازاً لمازاً للمؤمنين ........................ ٥٢٨
(٣) موضوع السّورة ........................ ٥٢٨
(٤) **التدبّر التحليلي لآيات السورة** ........................ ٥٢٩
● ﴿ويلٌ لكل همزة لمزة﴾ ........................ ٥٢٩
● ﴿الذي جمع مالاً وعَدّدَه * يحسب أن ماله أخلده﴾ ........................ ٥٣١

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| ● ﴿كلّا لينبذَنّ في الحطمة﴾ | ٥٣٤ |
| ● ﴿وما أدراك ما الحطمة﴾؟ | ٥٣٦ |
| ● ﴿نار الله الموقدة﴾ | ٥٣٦ |
| ● ﴿الّتي تطّلع على الأفئدة﴾ | ٥٣٧ |
| ● ﴿إنّها عليهم مؤصدة﴾ | ٥٣٨ |
| ● ﴿في عَمَدٍ مُمَدَّدَة﴾ | ٥٣٩ |


**(٣٣)**

**سورة المرسلات**

**٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول**


| | |
|---|---|
| (١) نصّ السورة | ٥٤٣ |
| (٢) ممّا ورد بشأن سورة المرسلات | ٥٤٥ |
| (٣) موضوع السّورة | ٥٤٦ |
| (٤) دروس السورة | ٥٤٨ |
| (٥) القَسَمُ في سوابق نجوم التنزيل لتأكيد يوم الدين | ٥٥٠ |
| (٦) **التدبر التحليلي للدرس الأول من سورة المرسلات: الآيات من (١ ـ ٧)** | |
| ● تمهيد | ٥٥٣ |
| ● ﴿والمرسلات عرفاً﴾ | ٥٥٤ |
| ● ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ | ٥٥٦ |
| ● ﴿والناشرات نشراً﴾ | ٥٥٦ |
| ● ﴿فالفارقات فرقاً﴾ | ٥٥٧ |
| ● ﴿فالملقيات ذكراً * عُذراً أو نُذراً﴾ | ٥٥٨ |
| ● ﴿إنما توعدون لواقع﴾ | ٥٦٠ |
| (٧) **التدبر التحليلي للدرس الثاني من المرسلات: الآيات من (٨ ـ ١٥)** | ٥٦١ |
| ● تمهيد | ٥٦٢ |
| ● ﴿فإذا النجوم طُمِست﴾ | ٥٦٢ |
| ● ﴿وإذا السّماء فُرِجت﴾ | ٥٦٤ |
| ما جاء في القرآن عن الأحداث المستقبليّة في السماء | ٥٦٤ |
| ● ﴿وإذا الجبال نُسِفت﴾ | ٥٦٧ |

الموضوع | الصفحة


● ﴿وَإِذَا الرُّسُل أُقّتت * لأيّ يوم أُجّلت * ليوم الفصل * وما أَدراك ما يوم الفصل﴾ .......... ٥٦٩
● ﴿ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ .......... ٥٧١
(٨) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من السورة:
الآيات من (١٦ ـ ٢٨) .......... ٥٧٢
● تمهيد .......... ٥٧٢
● ﴿ألم نُهْلِك الأولين﴾ .......... ٥٧٣
● ﴿ثُمّ نتبعُهُمُ الآخرين﴾ .......... ٥٧٣
● ﴿كذلك نفعل بالمجرمين ﴿١٨﴾﴾ .......... ٥٧٤
● ﴿أَلَمْ نخلقكم من ماءٍ مهين * فجعلْناهُ في قرار مكين * إِلَىٰ قَدَرٍ معلوم * فقدرنا فنعم القادرون * ويل يومئذ للمكذبين﴾ .......... ٥٧٥
● ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً * أحياءً وأمواتاً * وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً * ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ .......... ٥٧٨
● ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ .......... ٥٨٢
● ﴿. . . وأسقيناكم ماءً فُراتاً﴾ .......... ٥٨٣
(٩) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من سورة المرسلات:
الآيات من (٢٩ ـ ٤٥) .......... ٥٨٤
● تمهيد .......... ٥٨٥
● ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون﴾ .......... ٥٨٧
● ﴿انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللّهب﴾ . ٥٨٨
● ﴿إنّها تَرْمي بشرر كالقصر * كأنّه جمالة صفر﴾ .......... ٥٨٩
● ﴿هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذَنُ لهم فيعتذرونَ * ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ ... ٥٩٧
● ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأوّلين * فإن كان لكم كيد فكيدونِ * ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ .......... ٦٠١
● ﴿إنّ المتّقين في ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلُوا واشربوا هنيئاً بما كنتُمْ تَعْمَلُونَ * إنّا كذلك نجزي المحسنين * ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ ٦٠٣
(١٠) التدبر التحليلي للدرس الخامس من سورة المرسلات: الآيتان (٤٦ ـ ٤٧) ... ٦٠٩
● ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون * ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ .......... ٦٠٩
تخصيص لفظ «المتاع» بحظوظ الدنيا، أما حظوظ الآخرة في الجنة فخصّص لها لفظ «النعيم» .......... ٦١٠

**الموضوع** **الصفحة**


المجرم في الإصلاح القرآني يساوي الكافر المخلد في النار .......... ٦١١

**(١١) التدبر التحليلي للدرس السادس من سورة المرسلات:**

الآيتان (٤٨ ـ ٤٩) ................................ ٦١٣

● ﴿إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون * ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ ......... ٦١٣

**(١٢) التدبّر التحليلي للدرس السابع وهو الأخير من السورة:**

الآية الأخيرة (٥٠) ................................ ٦١٥

● ﴿فبأيّ حديث بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟؟!! ......................... ٦١٥

**(١٣) تلخيص ما اشتملت عليه سورة المرسلات** .................... ٦١٧

**(١٤) ملاحق لتدبر سورة المرسلات** ............................ ٦٢٠

● **الملحق الأول**: حول بلاغيات في سورة المرسلات .............. ٦٢٠

● **الملحق الثاني**: حول الرياح في القرآن المجيد ................ ٦٢١

● **الملحق الثالث**: حول الأقسام الواردة في صدر سورة المرسلات ..... ٦٦٤

# معارج التفكر
# ودقائق التدبر

الطّبْعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

حُقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

# معارج التفكر ودقائق التدبر

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

## المجلد الثالث

## تفسير سور

ق (٣٤) - البلد (٣٥) - الطارق (٣٦) - القمر (٣٧) - ص (٣٨)

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

# سورة ق

٥٠ مصحف ٣٤ نزول

مكيّة كلّها إلّا الآية (٣٨) منها فمدنية

# (١)

# نص السورة وما فيها من فرش القراءات

## سورة ق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ
ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ
بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ
﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾
أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا
مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾
وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ
﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا
بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ

---

٣ ـ ● قرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿مِتْنا﴾ بكسر الميم.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مُتْنَا] بضمّ الميم. وهما وجهان عربيان جائزان.

١١ ـ ● قرأ أبو جعفر: [مَيِّتاً] بتشديد الياء المكسورة.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [مَيْتاً] بإسكان الياء من غير تشديد. وهما وجهان جائزان والإسكان تخفيف.

وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾
وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا
بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٍ مِّنۡ خَلۡقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا
ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ
ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا
يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ
بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ
ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ
كُنتَ فِي غَفۡلَةٍ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٌ
﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ
ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا
مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ
وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ
لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ

---

١٤ ـ ● قرأ ورش [وَعِيدي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل. وقرأ بإثباتها في الوصل والوقف يعقوب.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة [وَعِيدِ] بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً. وحذفُ ياء المتكلّم كثير ويدلُّ عليها إبقاء الحرف الذي قبلها مكسُوراً.

٣٠ ـ ● قرأ نافع، وشعبة: [يَوْمَ يَقُول] بياء الغائب، والضمير يعود على الله المعلوم من السياق على طريقة الالتفات من المتكلم إلى الغائب. =

﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ
أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ
﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا
وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم
بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا
مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ

= ● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نقول] بنون المتكلّم العظيم.

٣٢ ـ ● قرأ ابنُ كثير: [يُوعَدُونَ] بياء الغائبين.

● وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بتاء المخاطبين وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

٤٠ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وحمزة، وأبو جعفر، وخَلَف: [وَإِدْبَارَ] بكسر الهمزة على أنه مصدر قام مقام ظرف الزمان، والمعنى: وقتَ إدبار السجود.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَأَدْبَارَ] بفتح الهمزة، وهو جمع «دُبُر» وهو آخر الصلاة وعَقِبُها، والمعنى: وسبِّحه في أعقاب الصلوات.

٤١ ـ ● ﴿الْمُنَادِ﴾ أثبت الياء وصلاً نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأثبتها في الوصل والوقف ابن كثير ويعقوب وحذفها مطلقاً باقي القراء العشرة.

٤٤ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿تَشَّقَّقُ﴾. =

سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ
أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

= • وقرأ باقي القرّاء العشرة: [تَشَقَّقُ].

«تشَّقَّق»: أصلها «تَتشقَّقُ» أدغمت التاء بالشين فصارت شيناً مُشَدَّدَة.

و«تشَقَّقُ»: أصلها أيضاً «تَتشقَّقُ» حُذِفَتِ التَّاء الثانية تخفيفاً.

وكلا الوجْهَيْن جائزان في العربيّة.

٤٥ ـ • قرأ وَرْشٌ: [وَعِيدِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل.

• وقرأ يعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.

• وقرأ باقي القرّاء الْعَشرةِ [وَعِيدِ] بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

وهي وُجوهٌ جائزة في اللّسان العربي. وسبق نظيرها في الآية (١٤).

## (٢)
## مما ورد في السُّنَّة بشأن سورة (قٓ)

كان للرسول ﷺ عِنايةٌ خاصّةٌ بسورة (قٓ) دَلَّ على هذا عدة أحاديث صحيحة:

(١) روى مُسْلِمٌ وغيره، عن قُطْبَة بن مالك قال:

«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأ في الْفَجْرِ في الرَّكْعَةِ الأولى قٓ والقُرْآن المجِيد». أي سورة (قٓ).

(٢) وروى الإمام أحمد ومُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ عن أبي واقد اللَّيْثِي قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرَأُ في الْعِيدِ بِقَاف واقْتَرَبَتْ». أي: كان يقرأ سورة (قٓ) وسورة ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾﴾ وهي سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) في عيدي الفطر والأضحى.

(٣) وروى مسلم وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابْنُ ماجَه، والبيهقيُّ، عن أمّ هشام ابْنَةِ حارِثة قالت:

«ما أخذتُ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ إلاَّ مِنْ فِي رَسُول الله ﷺ، كَانَ يَقْرَأ بِهَا في كُلِّ جُمُعَةٍ عَلَىٰ المِنْبَرِ إذَا خَطَبَ النَّاس».

أي: إنّها حَفِظتْها مِنْ كَثْرَةِ سَماعِها من فِيهِ، وهُوَ يَقْرأ بها على المنبر، إذا خطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الجمعة.

❀ ❀ ❀

## (٣)
## موضوع سورة (قٓ)

يدور موضوع سورة (قٓ) حول متابعة الموضوع الذي دارت حوله سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) التي نزلت قبل (قٓ) مباشرة. وهو موضوع معالجة المكذبين بيوم الدين، وتضيف إليه تكذيبَهُمْ بالرَّسول ﷺ، بحجَّةِ أنَّه بشر منهم، زاعمين أنَّ إرْسَالَ رَسُولٍ من البشر إلى البشر أمْرٌ مُستبعد عجيب، فهوَ لا يَحصُلُ، وكذلك إحياءُ الموتَى بَعْدَ فَناءِ أَجسادِهِمْ وَتفتُّتِ ذَرَّاتِها وضياعها في ترابِ الأرْض أمْرٌ مُسْتبعَد عجيب، فهو لا يحصل.

والمعالجات الفكريَّة والنفسيّة، للإقناعِ الفكري، واسْتِثَارةِ مِحْوَرَي الرَّهَبِ والرَّغب النَّفسِيَّيْن الّتي اشتملت عليها سورة (قٓ) معالجاتٌ تكمِيليَّةٌ لِمَا جَاءَ في سورة (المرسلات) والسُّوَرِ قبلهما في نجوم التنزيل، ولَيْسَتْ مُكَرَّرَةً تكْريراً تَطَابُقياً، وجملة النصوص السابقة تسعة نصوص، وهذا الذي اشتملت عليه سورة (قٓ) هو النصّ العاشر[1].

واشتملت أيضاً سورة (قٓ) على معالجة لنفس الرسُول وقلْبِه، تُجاهَ ما كانَ يَلْقَاهُ مِنْ تَكْذِيبِ بَعْضِ قَوْمِهِ له، وما يُواجِهُونَهُ بِهِ من أقوالٍ جارحةٍ

(١) انظر الفقر (٥) من مقدمات تدبر سورة المرسلات.

مؤلمة، فَأوْصَىٰ الله رسُوله ﷺ، بأن يَعْتَصِم بالصَّبْرِ، وبأنْ يُكْثِرَ مِنَ التَّسْبِيحِ والذِّكْرِ، لله عزَّ وجلَّ الذي تنشرح بذكْرِهِ الصُّدُور، وتنحلُّ به عُقَدُ الأمُور، وأوصاهُ بأن يكونَ تَسْبيحُهُ، قبْلَ طُلوع الشمس، وقَبْلَ غُروبها، وأثْنَاء اللَّيْلِ، وعقِبَ الصلوٰات التي يُصَلِّيها لربِّه.

وأبان له في هٰذه المعالجة أنّ وظيفته في رسالته التبليغ، فهو ليس مُجبراً ولا مكرِهاً للنَّاسِ على الإيمان، ومتابعةُ التبليغ بالتذكير بالقرآن من يخافُ وَعيد الله، والَّذي يخافُ وعيدَ الله هو الذي يُوقِنُ قَلْبُه به، وَلَوْ لَمْ يُعْلِنْ إيمانَه وإسلامَه.

وموضوع سورة (قٓ) ظاهر في الدَّرْس الأوّلِ من دُرُوسها، وهو الآيات الثلاث الأولى منها.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## دروس سورة (قٓ)

**اشتملت السورة على اثني عشر درساً:**

**الدرس الأول:** تضَمَّن بعد القَسَم بالقرآن المجيد، عرض مقالة المشركين إذ كَذَّبوا الرَّسُول في رسالته، وكذّبوا بنبأ البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، بأسلوب الاستفهام التعجُّبيّ الإنكاري.

وهو الآيات من (١ ـ ٣).

**الدرس الثاني:** تضمّن دفعَ توهُّمِهم أنْ تفتُّتَ رُفَاتِ أجساد الموتى واختلاطَها بتراب الأرض يجعل من المستحيل تمييزَها وجَمْعَها، وإعادتَها إلى الأجساد التي كانت فيها قبل موتها. وتضمَّن بيان واقع حالهم النفسيّ الّذي جعلهم في وضع قَلِق مضطربٍ لا يستطيعون معه إدْراك حقائق

الأمور، بَعْدَ أن كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهُمْ، لأنّه خالف أهواءهم ورغبات الفجور التي لديهم.

وهو الآيتان: (٤ ـ ٥).

**الدرس الثالث**: تضمّن عرض أدِلَّة من الظواهر الكونيّة تدلُّ على أنّ الله قادر على بعث الموتى، وأنّ بعثهم يُشبه إحياء الأرض بعد موت نباتاتها، بفَلْقِ البذور وإخراج النبات.

وهو الآيات من (٦ ـ ١١).

**الدرس الرابع**: تضمّن عرض نماذج من المكذبين الأوّلين وكيف حقَّ وعيد الله لهم بإهلاكهم إهلاكاً جماعيّاً عامّاً، ليكونُوا عبرةً للمعتبرين، وهذا إنذارٌ للمشركين.

وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤).

**الدرس الخامس**: تضمّن تساؤلاً يكْشِفُ أنَّ الله عزَّ وجل لم يَعْيَ بالخلْقِ الأول، بدليل وجوده واستمرار تكرُّره، وبَيَانَ أنَّ المكذبين بالبعث، في لَبْسٍ من أمْرِهِمْ بالنسبة إلى خَلْقٍ جديد، بَعْدَ إنهاءِ الله ظروفَ الخلْق الأوّل.

وهو الآية (١٥).

**الدرس السادس**: تضمّن بيانَ أنَّ الله الذي خلق الإنسان بسُلْطانِ رُبوبيّته وخلَقَ له خصائص نفسه، يَعْلَمُ ما تُوَسْوس به نفسه، وأنّه أقرب إليه من حبل الوريد، فلا يَعْزُبُ عن عِلْمِهِ شيءٌ من خواطِرهِ ونيّاته، وقد خلقَ له مَلَكَيْنِ مُرافِقَيْن لَهُ عن اليمين وعن الشّمال يُسَجِّلان عليه أعماله الظاهرة والباطنة.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٨).

**الدرس السابع**: تَضَمَّنَ عَرْضَ ساعَةِ الموتِ وما يَشْهَدُ فيها الميّتُ من أحداثِ أمُورِ ما بَعْدَ الموت، وعَرْضَ ساعَةِ البَعْثِ الذي يكونُ عَقِب النَّفْخ في الصُّور، وأنّ هذا الإحياءَ يكون ليوم الوعيد، وعَرْضَ مجيئه إلى موقف حسابه يَسُوقه إليه سائق من الملائكة وشهيد يَشهَدُ عليه بما كان قدّمه في الحياة الدنيا، مع بيان أوّل قَوْلٍ يقال له عند وصوله إلى موقف حسابه.

وهو الآيات من (١٩ ـ ٢٢).

**الدّرس الثامن**: تضمّن عرض لقطة من حساب الكافر العَنِيد المعتدي والحكم عليه المساوي للحكم علَىٰ كلّ نُظرائه، من الإنس والجنّ، ومنهم قرينُه الشيطان الذي كان يوسوس له، وعَرْضَ ما يُحاولُ أن يعتذر به هذا القرين، مع الردّ عليه.

وهو الآيات من (٢٣ ـ ٢٩).

**الدرس التاسع**: تضمّن عرض لقطات من مشاهد يوم الدين تتعلّق بجهنم، وبالجنة وإزلافها، وبخطاب الذين قضىٰ الله لهم بأن يدخلوها وبأن يكونوا من المنعّمين فيها.

وهو الآيات من (٣٠ ـ ٣٥).

**الدرس العاشر**: تضمّن توجيه إنذار لمكذّبي الرسول والمكذّبين بيوم الدين بسُنَّةِ الله في إهلاك أمثالهم، كما فعل الله بكفَّار القرون الأولى من إهلاكٍ عامٍّ شاملٍ وتعذيبٍ يعتبر به من كان له عَقْلٌ، أو أصغى للبيانات الكلامية وشَهِدَ آثارَ الأوّلين.

وهو الآيتان: (٣٦ ـ ٣٧).

**الدرس الحادي عشر**: درْس مدني التنزيل ضُمَّ إلى سورة مكيّة التنزيل، مراعاةً لاقتضاءَيْن:

**الاقتضاء الأول**: أنّ سبب نزوله الرّدّ على مقالة اليهود في المدينة، الزّاعمين أنَّ الله بَعْدَ أن خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام، استراح في اليوم السابع فجعله مقدّساً، متوهمين أنّ الله قَدْ مَسَّهُ التَّعبُ والنَّصبُ، في عمليّاتِ الخلقِ، فأبانَ الله كذبهم في هذا.

**الاقتضاء الثاني**: المناسبَةُ الفكريَّة اقتضَتْ ضَمَّهُ إلى سورة (قٓ) المكية.

وهو الآية (٣٨).

**الدرس الثاني عشر**: تضمن معالجة حالة الرسول ﷺ النفسيّة والقلبية تجاه ما يكابده من مزعجات أقوال المكذبين، ويُلْحَقُ بالرَّسولِ كلُّ حَمَلَة رسالته من أمّته، وتضمّن بيان أنّ الرَّسُولَ مبلغٌ عن الله وليس بجبّارٍ على الاستجابة له.

وفيه إعلامٌ بطريقة غير مباشرة للكافرين المكذبين بيوم الدّين ببعض حقائقَ عن أحداث يوم البعث، مع بيان أنّ الله عَظُمَ سلطانه هو الذي يُحيي ويميت.

وهو الآيات من (٣٩ ـ ٤٥ آخر السورة).

❁ ❁ ❁

## (٥)
## التدبُّر التَّحليليّ للدرس الأوَّل من دُروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ٣)

قال الله عز وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

**القراءات:**

● قرأ نافع، وحفص، وحمزة والكسائي وخلف: ﴿مِتْنَا﴾ بكسر الميم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مُتْنا] بضم الميم.

والقراءتان وجْهان عربيّان جائزان.

**التدبر:**

﴿قٓ﴾: سبق الكلام على الحروف المقطَّعة الواردة في بعض أوائل السُّوَر في أوّل سورة (القلم/ ٦٨ مصحف ٢/ نزول).

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾:

الواو هي «واو» القسم، وفي هذه العبارة يُقْسِمُ الله عزّ وجلّ بالقرآنِ الذي وَصَفَهُ بأنّه مجيد.

إنَّ القرآن معجزةُ الرَّسول الخالدة، الدائمةُ الإعجاز، ما كَرَّت العصور، ومرّت الدُّهور، وإعجازُه يُثْبِتُ بشَكْلٍ قاطع أنّه رَسُولُ الله حقّاً وصِدْقاً، وأنّه صادقٌ بلا رَيْب في كلّ ما يُبَلّغُ عن ربّه، ومنه خبَرُ البعث للحياة بَعْد الموت، بحياة أخرى، يتمُّ فيها الحساب وفصْلُ القضاء وتحقيق الجزاء، على ما كان في رحلة الحياة الدنيا رحلة الابتلاء، بالنسبة إلى الذين خَلَقَهُم الله عزّ وجلّ فيها ليَبْلُوهم.

﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ أي: الشريف الكريم الرّفيع المقام الْعَليّ المنزلَة، بسبب ما فيه من كمالاَتٍ جليلاتٍ عظيماتٍ تدُلُّ على أنَّه كلامُ الله عزَّ وجلَّ، ولَيْسَ كلامَ بشَرٍ مَهْما ارْتقت منزلة ذلك البشر.

وكلمة «مجيد» على صيغة «فعيل» التي تدلُّ على المبالغة والكثرة لصيغة اسم الفاعل، هي بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ وصفاته تدلُّ على غاية كمال الصفة، وهي محوّلة هنا عن اسم الفاعل «ماجد». وكلاهما: «الماجد والمجيد» من

أسماء الله الحسنى. وهذا الوصف لم يَرِدْ في القرآن إلا وصفاً لله مرَّتين، وللقرآن مرّتين، وللعرش مرّة واحدة في قراءة ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ ﴿١٥﴾﴾ بكسر الدال.

**والمجد** في اللّسان العربي هو الكرم والشرف والعلوّ والرّفعة المعنويّة العالية السامية. تقول لُغةً: مَجُدَ مَجَادَةً فهو مجيد. وأمْجَدَهُ ومَجَّدَهُ، أي: عظَّمَهُ وكرَّمه وأثنىٰ عليه بالمجد.

**والتمجيد**: أن تنسُب الرَّجُل إلى المجْدِ. وتقول: تَمجَّد فُلانٌ، أي: صار مَجيداً.

● أما جوابُ القسم الوارد في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ فمَحْذُوف.

وبالنظر التأمُّلِيّ فيما جاءَ بَعْدَهُ، وهو أنّ المشركين الذين كَفَروا بالرَّسول محمّد ﷺ، وكَفَروا بما أنْذَرَهم به من عذاب الله يوم الدّين، قد تعجَّبُوا تعجُّبَ المنكر من أن يأتيهم رسُولٌ بشرٌ منهم مُنْذِرٌ لهم بعذابِ الله يوْم الدّين، فإنَّ باستطاعتِنا أن نُدرِكَ أن المقْسَمَ عليه قضيَّتان:

**القضيّةُ الأولى**: صدْقُ رسالة الرَّسُول محمد ﷺ، وأنّه رسول الله حقّاً، لأنَّ القرآن بمَجْدِهِ المعجز، قد جعَلَه الله الآية الكبرىٰ على صِدْق الرَّسول في رِسالَته، وفي بلاغِه للناس، وعلى أنه رسول الله حقّاً وصِدْقاً.

**القضية الثانية**: صِدْقُ إنذار الرسول بعذاب الله يوْم الدين، وصِدْقُ ما أخبر به عن ربّه من أمْرِ البعث بعد الموت، إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

ويمكن تقدير جواب القسم بما يلي: والقرآن المجيد لَمُحَمدٌ رسول الله حقاً وصِدْقاً، وهو صادقٌ فيما يبلِّغ عن ربّه، ولَإنْذَارُهُ بعذاب الله يوم الدين حقّ وصدق، وَلَلْبَعْثُ بعد الموت للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، في اليوم الآخِرِ حقٌّ وصدقٌ.

والْقَسَمُ بالْقُرْآنِ المجيدِ قَسَمٌ بآيَة من آياتِ الله الباهرات، ويَتَوقَّفُ إدْراكُ هذه الآية على التفكُّرِ والتَّدَبُّر للوصول إلى معرفة عناصر إعجازه، وأنّه لا يُمْكِنُ أن يَكُونَ صادراً عن فَرْدٍ أو جماعَةٍ من الناس، أو عن كلِّ الإنسِ والجِنّ، ولو اجتَمَعُوا على ذلك، فالقرآن آيَةٌ عظْمىٰ، وهو يستحقُّ أنْ يُقْسِم به الله عزَّ وجلَّ كما أقسم بظواهِر آياتِ صفاته في الوجود.

والْقَسَمُ به مُوَجّه في الحقيقة لِمَنْ هم مؤهّلونَ لإدْراكِ عناصر إعجازه من أولي الألباب.

فكأنَّ الله عزّ وجلَّ يقول: أُقْسِمُ بالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ المعجز، لأولي الألْباب القادرين على إدْراك عناصر إعجازه بعد التفكّر والتدبّر، على صِدْقِ رسولي محمّد وصِدْقِ ما جاءَ به عَنّي لِيُبَلِّغَهُ للناس، كما أنْزلْتُه عليه.

ولهذا لم يواجِهِ الله عزّ وجلَّ بعد هذا القَسَمِ الكافرين بالخطاب، بل تحدَّث عنهم بضمير الغائب، فالقسم بالقرآن المجيد لا يؤكّد في نفوسهم، صدق الرسول في رسالته، ولا صِدْق نَبإِ يوم الدين الذي أخبرهم به عن رَبّه، إذْ لم يتفكّروا في القرآن ولم يَتَدبَّروا عناصِرَ إعجازه، لكِنْ قد يوجَدُ فيهم مستقبلاً مُتَفكّرون مُتَدبِّرُونَ أولو ألباب، أو يَسْتَحِثُّ هذا الْقَسَمُ من كان منهم ذا لُبَّ دَرَّاكٍ فَيَتَفكرُ وَيَتَدَبَّرُ، فيكُونُ هذا الْقَسَمُ مُفِيداً بالنِّسْبَةِ إلى هٰؤلاء، ويُؤكِّدُ في نفوسهم صِدقَ الرَّسول وصِدْق ما جاء به.

● قول الله عزَّ وجل:

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾؟؟!

﴿بَلْ﴾ حَرْفُ إضراب، والذي يَظْهَرُ لي أنّه إضرابٌ عن كلام مطْوِيّ مُقَدَّرٍ ذهناً يَدُلُّ عليه الْقَسَمُ بالقرآنِ المجيد[1]، أي: لكِنَّ الَّذِين كَفَرُوا لَمْ

(١) يعجبني في مثل هذا الإضراب بحرف (بل) الداخلة على الجملة قولُ من يعتبرها حرف=

تُؤثِّرْ فيهم معجزة القرآن المجيد، ولم يَسْتَفِيدُوا من دلالتها فيؤمنُوا بالرَّسُول وبما جاء به، بل أنكروا رسالة الرسول محمّد وأنْكَرُوا البعث يوم القيامة، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، باسْتِعْمال أسْلُوب التعجُّب والاستغراب فقط، دون حجَّةٍ أو أيّ دليل يَصْلُح للمناقشة والبحث.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم﴾ يقال لغة: عَجِبَ من الشيء يَعْجَبُ عَجَباً، وَعَجْباً، وعُجْباً، وتعجّبَ منه، إذا أنكره لقلة اعتياده إيّاه، وأصلُ الكلام: وعَجِبُوا من أنْ جاءهم، ولكن حَذْفَ الجار قبل «أنَّ» و«أن» قياسٌ مطرد.

وكان مقتضىٰ كون القرآن مجيداً معجزاً لا يستطيع البشر أن يأتُوا بمثله، أنْ يكونَ برهاناً على صِدْقِ محمَّد ﷺ في بيانه أنّه رسول الله، وعلى صِدْقِ نَبأ البعث للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء يوم الدّين، وصِدْقِ كلّ ما يبلّغه الرسول ﷺ عن رَبّه، وكان يجب على القوم بعد أن اسْتَمَعُوا إلى القرآن أن يأخذوا بهذه الدّلاَلة فيُؤمِنُوا ويُسْلِمُوا لله ورَسُوله.

وعلى افتراض أنَّ إعجاز القرآن لم يتَّضحْ لهم تماماً، وأنَّ آيَاتِ صِدْق الرَّسول الأخرى لم تُوصِلْهُمْ إلى القَنَاعَةِ الكافية للإيمان به، فالواجب العقلي المنطقي يقتضي منهم أن يتَرَيَّثُوا ويَتَوَقَّفُوا، ليُتَابِعُوا تَأَمُّلَهُم وبَحْثَهُمْ حتَّى يَتِمَّ لديهم الاقتناع بصدق نبوة محمَّدٍ وصِدقِ رسالَتِهِ، وصِدْقِ ما يُبَلِّغه عن رَبِّه.

لكنَّ هؤلاء المكذّبين الكافرين، قد سَتَرُوا ما عَرَفُوهُ من دلائل الحقّ بالكُفْر، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، ولم يَتَرَيَّثُوا باحثين، بل أنكروا رسالة الرّسُول محمّد، وأنْكَرُوا يوم الدّين الذي يتمُّ فيه تحقيق قانون الجزاء الرّباني، مستندين إلى مجرَّد التعجُّب من أن يأتِيَهُمْ رسُولٌ بَشَرٌ منهم، والتعجُّب من إحياء الله

---

= عطف من النَّحويين، لا حرف ابتداء على ما هو المقرر عند جمهورهم والذي وصفه ابن هشام بأنه الصحيح، في «مغني اللبيب».

الموتى بعد أن يصيروا تراباً، مُتَعامِين عن آية الله السابقة والدائمة، التي يُنْشِئ بها الأحياء النشأة الأولىٰ من ماء وتراب، ضِمْن حلقاتٍ سببيَّة في سلسلة إنشائه الأحياء جلَّ جلاله.

فجاء الإضرابُ بلفظ «بل» دليلاً على هذا الكلام المطويّ، وهذا من بديع الإعجاز القرآني، الذي يعْتَمِدُ على منطِقيَّةِ التحليل.

وقد جاء الحديث عن الذين كَفروا بالرَّسُول وبيوم الدّين من مشركي مكَّة بضمير الغائبين، ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ دون أن يسبق في سورة (قٓ) حديث عنهم، اعتماداً على عدّة قرائن تُحدِّد المراد.

**القرينة الأولى**: أنّ سورة (قٓ) قد نزلت عقب سورة (المرسلات) التي دارت آياتها حول معالجة المكذّبين، وتكَرَّرَ فيها قول الله عزّ وجل: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾.

**القرينة الثانية**: يُعْلَمُ من وَاقع الحال إبَّان نُزول هذه السُّورة، ومما جاء بَعْد ضمير الغائبين أنَّ المكَنَّىٰ عنهُم بالضمير هم المكذّبون للرسول والمكذبون بيَوْم الدّين، فواقع الحال يكْشِفُ أنَّ القوم ثلاثة أقسام:

(١) قِسْمٌ آمَن بالرّسول وبما جاء به، واتَّبَعُوه، وهؤلاء لا يَعْجَبُونَ ولا يُنْكرون، فهم غير مقصودين حتماً.

(٢) وقسْمٌ لَمْ يُؤْمِنْ بَعْدُ ولَمْ يَكْفُرْ، لأنَّه لم يُناقش قضيَّة الرسول ولا قضيَّة البعث للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، فلَمْ يُبْدِ في القضيتين رأياً لا بالنفي ولا بالإثبات، وهؤلاء غير مقصودين أيضاً، إذْ لم يُعْلِنُوا إنكارهم، ولا تكذيبهم.

(٣) والقسم الثالث: هم الذين أعلَنُوا كُفْرَهم وإنكارهم، ولـمْ تكن حجتهم إلاَّ أنَّهم تعجبُوا أن جاءهم مُنْذِرٌ بَشَرٌ منهم، وتعجَّبوا من قضيَّةِ البعث، فقالوا: أئِذا مِتنا وكُنَّا تُرَاباً سَوْف نرجع إلى الحياة مرَّةً أخرى

لنجازَى على ما كُنَّا عَمِلْناه في الحياة الدُّنيا، ذلك رَجْعٌ مُسْتَبعَدٌ مُسْتَنْكَرٌ لا نُؤمِنُ به، فهؤلاء هم المقصودون حتماً. وقد دَمَغَهُمُ الله بالكُفْر بصريح العبارة، في قوله عزّ وجل: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾.

إنَّ التعجبَ من شيءٍ لا يصحُّ في موازين العقول السّويّة أنْ يكون دليل نَفْيٍ للشيء المتعجَّب منه.

لكنَّ التعجُّبَ قد يُتَّخَذُ أسلوباً بيانياً لإنكار المتعجَّب منه.

فاختيار الكناية عنهم بضمير الغائبين مع وجود القرائن الدالَّة عليهم، من أحْكَم البيان وأخصره وأكثره إيجازاً، مع خلوّ العبارة من إيهام غير المراد. وهذا من روائع البيان القرآني.

وَوُضِعَ الاسم الظاهر في: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بدل الضمير لإبراز وصف الكفر الذي تدنَّسُوا به مع علمهم بالحق.

## تحليل بواعث التعجُّب:

الْعَجَب من الشيء والتَّعَجُّبُ مِنْهُ حالةٌ من المشاعر تحدُثُ في النَّفس مِنْ إكْبَارِ شيءٍ ما وإعظامه، أو من استهجانِه لِقُبْحه ومخالفته للسُّلوك المقبول من الأسْوِيَاء، أو من استبعاد إمكانِ حُدُوثِه وقد يَصِلُ الأمْرُ إلى حَدِّ تَصَوُّر استحالته، ولو كان من الممكنات.

وقد يكون التعجُّبُ من الشيءِ لعَدَمِ إلْفِه، فإذا صَارَ مألوفاً زال التعجُّبُ منه.

إنَّ التَّعَجُّبَ من المشْهُودَاتِ أو المدرَكَاتِ بِالْعِلْم، يقْتَصِر على الإعظام والإكبار إلى حدِّ الدَّهْشَة، أو يَقْتَصِرُ على مُجَرَّدِ الاستحسان لنُدْرَةِ حُدُوثِه مُطلقاً، أو قلَّةِ حُدُوثه نسبيّاً.

وإذا كان التعجُّبُ أو الْعَجَبُ من خَبَرٍ أو ادّعاءٍ رافقه في كثير من الأحيان الشَّكُّ، أو الإنكار والتكذيب، مع تصوُّر عدم الإمكان، أو دون

تَصَوُّر عدم الإمكان، وقد يكونُ مثل هذا التعجُّبِ مصحوباً بالتَّصديق دون طمأنينة، فإذا حدثَتِ الطُمَأنِينة كان التعجُّب مُجَرَّدَ إعظام وإكبار.

## تعجُّبُ المشركين الوارد في هذا الدرس:

وتعجُبُ مشركي مكة المكذبين لرسول الله محمد ﷺ، والمكذبين بيوم الدّين تعجُّبٌ مِنْ قَضيَّتَيْنِ:

**القضيَّة الأولى**: تعجُّبُهم من أن يكون الرَّسُولُ من عند الله بشراً من البشر، متوهّمين أنّ كَوْنَ الرّسول بشراً يُنافي الحكمة الربَّانيَّة، أو مُتَوَهِّمِينَ أنّ البشر لا يَصْلُحون للاتّصال بعالم الغيب.

وكلا التوهُّمَيْن باطلان، ولدى البحْثِ التحليلي لكشف دوافع نفوس المكذبين يظهر أنّها دوافع تنبع من منابع الكِبْرِ أو الحَسدِ أو الرَّغْبَةِ في الفُجور.

**القضيَّةُ الثانية**: تعجُّبُهم من أن يكون في الإمكان الإعادَةُ إلىٰ الحياة بعد الموت والفناء، متوهّمين أنّ هذا الأمر غير مُمْكن،

وتعجُّب المشركين الكافرين من هاتَيْنِ القضيَّتين تعجُّباً يُفْضي إلى إنكارهما، تَعَجُّبٌ في غَيْرِ محلّه مطلقاً.

● أما كَوْنُ الرَّسُولِ إلى البشر بشراً منهم، فهو الأمْرُ الحكيم، فلا داعي إلى التَّعجُّب منه، بل التَّعَجُّبُ منْهُ هو الذي يستَدْعي الْعَجب.

● وأمّا الإعادة إلى الحياة بَعْدَ الموتِ فهي نظير بَدْءِ الخَلْق، أو هي أهْوَنُ منه في تجارب النّاس، فالتعجُّبُ منه يَدْعو إلى الإعظام والإكبار، لا إلَىٰ النفي والإنكار.

إنّ تعلُّلَ مكذّبي الرُّسُل في تكْذِيبهم لهُمْ بعلَّةِ بَشرِيَّتِهِمْ، ظَاهِرَةٌ تَكَرَّرَتْ في الأمم الأولى، وتكرُّرُها يَدُلُّ علَىٰ تشابُهِ قُلوب الكافِرين المكذّبين لرُسُل الله رَبِّ العالمين، وتشابُهِ نفوسهم وأفكارهم.

وبحث اعتراض الأمم على كون رُسُلهم بشراً مستوفىً في ملاحق تدبُّر سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول)[١].

● وجاء في العبارة استعمال وصف الرسول ﷺ بأنَّهُ مُنْذِرٌ، فقال الله تعالى، مبيِّناً اعتراضهم على بشرية الرسول محمد ﷺ: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾.

مع أنَّ الرَّسُول ﷺ مبشِّرٌ أيضاً ومبلِّغٌ وهادٍ وأُسْوةٌ حسنة، وداعٍ إلى الله ومُرَبٍّ، إلى غير ذَلِكَ مِنْ وَظائف رسالته، فما الحكمة من هذا الاختيار؟

أقول: لمَّا أعْلَنوا كُفْرَهُمْ، بَعْدَ أن اتَّخذ الرسول ﷺ معهم كلَّ وسائل التبليغ والإقناع والمعالجات التربَويَّة المختلفة، ومنها المعالجة بالترغيب، لم يَبْقَ لديه من وسائل معالجتِهِمْ إلاَّ المعالجة بالإنْذارِ، بعذاب الله وعقابه المعجَّل والمؤجَّل، فهو بالنسبة إليهم بَعْدَ أن وَصَلُوا إلى دركة العناد، والإصرار على الكفر وجحود الحقّ، مُنْذِرٌ فقط، فاقتضت الحكمة البيانيّة الاقتصار على وصفه هنا بأنّه مُنْذِر.

أمّا من آمن واتّبع وأطاع فيلائمه من صفات الرسول ﷺ أنّه مُبَشّر.

﴿مُّنذِرٌ﴾: اسم فاعل من فعل «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إِنْذاراً».

**والإنذار**: هو الإخبار والإبلاغ والإعلام بما هو مخوفٌ منه، كعقابٍ، أو مصيبة، أو شرّ عدُوٍ مُداهم، أو نحو ذلك.

**فالمُنذِرُ**: هو المخوِّف المحذِّر، والمخبر بخطرٍ مداهِم، والمُعْلِمُ بأمْرٍ مكْرُوه قادم، سواءٌ أكان ذلك على وجْه العموم، أمْ في حالةِ فعْلِ شيءٍ أو ترك شيء.

---

(١) انظر الملحق الثامن من ملاحق تدبر سورة (الفرقان) للمؤلف.

والرسُولُ منذر بعقاب الله الخالد في جهنَّم بالنسبة إلى الكافرين، ومنذر بعقاب دون ذلك بالنّسبة إلى عصاة المؤمنين.

ويَحْسُنُ بالمتدبّر أن يُدْرِكَ ما في هٰذِهِ العبارة بعد القَسَم بالقرآن المجيد، من أداء كلاميٍّ بديعٍ قائم على حذف ما يمكن أن يُدْرَكَ باللَّوازم الذهنيَّة، وبما تقتضيه الروابطُ الفكريَّة واللَّفظيَّة، على أنّ المكذّبين للرّسول والمكذّبين بيوم الدّين قد أدركوا بُرْهان إعجاز القرآن، فلَمْ يقبَلُوا دَلالته، بل كذّبُوا، ولم يكن لهم دليل يصلُحُ للاحتجاج به، فلجَؤوا إلى ادّعاء أنّ بشريَّة الرَّسول، وإنْذَارَهُ بعقاب الله يوم الدّين، من الأمور المستَبْعَدَةِ المثيرة للعجب، فاستخدموا التعجُبَ للدلالة على أنّهم مُكَذِّبُون، وعلى اعتباره دليلاً صالحاً للاحتجاج به، مع أنّ التعجُّبَ لا يتضمَّن أيّ دليل مهما كان ضعيفاً غير ادّعاء عدم الإمكان، وتوهُّماتٍ لا تَثْبُتُ أمام مناظرة إقناعيَّةٍ تعتمد على الاحتجاج بأدنى الحجج المنطقيَّة.

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: **الكافر**: «اسم فاعل» من فعل «كَفَرَ يَكْفُرُ كُفْراً وَكُفْراناً». ويقال لغةً: كَفَرَ الشيْءَ، وكَفَرَ عَلَيْهِ كَفْراً، أي: سَتَرَهُ وغطَّاهُ، وكَفَرَ التُّرَابُ ما تَحْتَهُ، أي: غطَّاهُ وَسَتَرَهُ ولهذا يُقال للزّراع: كافر، وتُسَمّي العرب الزُّرَّاعَ كُفَّاراً، لأنَّهم يكْفُرُونَ الحبَّ المبْذُور بتراب الأرض.

ويأتي الكُفْرُ في اللُّغَةِ بمعنى جُحودِ النعمة، وهو ضدَّ الشكر. يقال: كفَرَ بالنعمة إذا جحدها وسترها.

فأصل الكفر في اللّغة تغطيَةُ الشيء تغطيةً تَسْتَهْلِكُهُ، فلا تبقى منه شيئاً مكشوفاً.

والكُفر بالدّين: هو موقف الرفض والجحود بعد معرفة الحقّ ببراهينه، ويَقُومُ على سَتْر الأدلّة التي تُثْبِتُه، بطَرْحِ الشبهات، وإلقاء عبارات التعجُّب، وادّعاء أنّ الأمر غير مقبولٍ عقلاً، والتشكيك في الأدلة الكثيرة، إلى غير

ذلك من حِيَلٍ ومغالطات يَصطنعها المبطلون اصطناعاً، ويُلفقُونها تلفيقاً، ويُزَخْرِفُونها بالأقوال المنمَّقة الخادعة.

وليس الكافر من كان خالي الذهن من أدلّة الإيمان، ولا من هو يبحث عنها، ولا المتريّثُ حتّى تتَّضِحَ له أدِلَّة الإيمان، بل هو العارف بحقائق عناصر الإيمان، الّذي وضَحَتْ له أدلَّتُها وبراهينُها، إلاّ أنّه غطّىٰ عليها بحِيَله حتّى سَتَرها ظُلْماً وَعُدْواناً.

والمقصودون بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ هم من كانوا عارفين الحقّ، السّاتِرين لَهُ ولأدلَّتِه بما يصطنعون من زُخْرفِ القول، من الذين لم يستجيبوا لدعوة الرّسولِ إبان نزول سورة (قَ).

والمشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا ﴾ هو فيما يظهر لي كونُ محمّدٍ الّذي قال لهم إنّي رسول الله إليكم بشراً منهم، زاعمين أن رسول الله لا يصحُّ أن يكون بشراً من البشر، مُتَعامِين عن أنّ جميع رُسُلِ الله السابقين قد كانوا بشراً، وهذه هي القضيةُ الأولى من القضيتين اللَّتين أثارهما كُفارُ مكَّة إبّان نزول سورة(قَ).

أمّا القضيَّةُ الثانية فهي ما دلّ عليه قَوْلُهم كما جاء في التعبير القرآني.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾.

في هذه العبارة استفهامٌ تعجُبيٌّ يتضمَّن إنكار البعث، بدليل كونه أمراً عجيباً بعيداً عن التصوُّر، إذْ لم يشاهدوا مَوْتَى رَجَعُوا إلَى الحياة بَعْد مَوْتهم، ولا سيما بعد فناء أجسادهم وصَيْرُورَتِها رُفاتاً مختلطاً بتراب الأرض، وجُزْءاً منه.

وقد طوى النَّصُّ من مقالتهم جواب [إذا] الشرطيّة، إذْ دلَّتْ عليه مقالتُهم ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾.

وباستطاعتنا أن نُبرز جواب [إذا] المطويّ الذي يستدعيه الذهن بأدنى تأمُّل، فنقول: أإذا مُتنا وكُنّا تُراباً نُرْجَعُ إلى الحياة مرَّةً أُخْرَى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، علَى ما قَدَّمنا وأَخَّرْنا في الحياة الدنيا؟؟!! ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ.

أي: هو مستَبْعَدُ الحصول عقلاً، وكيف لا يكون كذلك وهو غير مشهود الوقوع فعلاً، بحسب مشاهدات الحياة الدنيا بالنسبة إلى الأحياء الحيوانية.

ولمّا ادَّعوا أنّ هذا الْبَعْث مستَبْعَدٌ استبعاداً يخرجُهُ عن حدود الممكنات، أشاروا إليه باسم الإشارة الخاصّ بالمشار إليه البعيد ﴿ذَٰلِكَ ﴾.

وهذا القول قد يكون حكايةً لقولهم مع بعض تصرُّفٍ بالحذف، وقد يكون ترجمة بليغةً مطابقةً في المعنى المراد لما عَبَّروا عنه بعباراتهم، والله أعلم.

﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾، أي: إرجاعٌ إلى الحياة بَعيدٌ عن دائرة المعقول والممكن. **رَجْعٌ** مَصْدَرُ رَجَعَهُ، أي: أرْجعَه، يُقالُ لغةً: رَجعَ فلانٌ الشَّيْءَ إلى ما كان عليه قبل تلَفِه، رَجْعاً، ومَرجِعاً، ومَرْجِعَةً، ورُجوعاً، ورُجْعاناً.

## (٦)
## التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآيتان (٤ ـ ٥)

قال الله عزّ وجل:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾.

في هذا الدرس دفعٌ لبعض توهُّماتِ الكافرين منكري البعث، وسَيأْتي

دفْعُ توهُّمَاتهم الأخرى، فمن ذلك ما سيأتي في سورة (قٓ) ومنه ما سيأتي في غيرها ممّا نَزَل بعدها في نجوم التنزيل، مراعاةً لمعالجة ما هو ماثل في تصوُّراتِ المعالَجِينَ إبّان نزول النجم القرآنيّ، وعملاً بالسُّنَّةِ القرآنيّة في تجزئة الموضوعات وبثّها في السُّور، مع التكامل البديع فيما بيْنَها، وهذا أحد عناصر إعجاز القرآن، مع ما في التجزئة من حكمة التدرّج التعليمي، والتكليفي، والتربويّ.

ونلاحظ هنا في هذا الدرس أنّه قد اشتمل على دفْعِ تَوَهُّم من توهُّماتِ المنكرين للبعث، دون ذكْرٍ لهذا التوهُّم، لأنَّ دفْع التوهُّم يُشْعِرُ بوجوده في خواطر المنكرين وأحاديث نفوسهم، سواء عبَّرُوا عنه بأقوالهم أمْ لم يُعَبِّروا، وهذا من بديع الإعجاز في القرآن الكريم.

ونجد نظيره في الإجابة على سؤال غير مذكور في اللفظ، وفي حلّ إشْكَالٍ غير مذكور في اللّفظ أيضاً، إلاّ أن الموضوع يستدعي ذَلك، فمن الجلِيّ في أساليب القرآن المجيد الرائعة، التي يُدْرِكها المتدبّر اللَّمّاح أنَّ النَّصَّ القرآنيَّ قد يدفَعُ تَوَهماً، أو يَحُلُّ إشكالاً، أو يجيب على سؤال، دون ذِكْرِ الشيء الذي يُعالجُهُ النَّص، إيجازاً في العبارة، واكتفاءً بدلالة المعالجة عن ذكر الداعي إليها، واعتماداً على ذكاءِ أهْلِ التَّدَبُّر الأكفاء.

فمِنَ التوهُّماتِ الّتي تُفْسِدُ تَصَوُّراتِ المشركين حول موضوع البعث إلى الحياة بعْدَ الموت وفناء الأجساد، وتفرُّق ذرّاتها في تراب الأرض، توهُّمُهُمْ أنّ الله عزّ وجلّ لَيْس لدَيْه عِلْمٌ كاملٌ بكُلّ ذرّاتِ أجساد الموتَىٰ، وبكُلّ صفاتهم النفسيّة والفكريّة والجَسَدِيَّة، حتَّىٰ يُعِيدَهُمْ إلى مِثْل ما كانوا عليه تماماً، فجاء البيان القرآنيُّ في هذا الدَّرْس دافعاً لهذا التوهم الباطل، فقال الله عَزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾.

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾، أي: سَبَقَ في علْمِنا، بما قَدَّرْنا وقَضَيْنا قَبْلَ خَلْقِ النَّاسِ وإحيائِهِم، ثم إماتَتِهِم ما تَنْقُصُ الأرضُ من أجسادهم بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وقد جاء هذا البيان بصيغة الفعل الماضي مع تأكيده بحرف التحقيق ﴿قَدْ﴾ للدلالة على سبق العلم بخُطَّةِ التكوين قبل تنفيذ عمليات الخلق المتابعة بناءً وإفناءً.

وجاء استعمال ضمير المتكلم العظيم إشعاراً بأنّ هذا العلم هو من خصائص رُبوبيَّةِ الرَّبِّ الّذي لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ معلومٌ ما، مهْمَا كان صغيراً وجزئياً ممّا كان وممّا هو كائنٌ وممّا سيكون، لأنّه هو سبحانه واضع خُطَّةِ التكوين كُلِّها قَبلَ بَدْءِ الخلْق، مع تَحْدِيدِ مراحل تنفيذها بناءً وإفْناءً.

وضمير المتكلم العظيم نجده في: [عَلِمْنا ـ عِنْدَنا].

إنَّ أمْرَ الإيجاد، والإحياء، والإماتة، والإفناء، والإعادة بالبعث، والإيجاد بَعْدَ البعث، وسائر التصاريف في الكون، إنّما تتمُّ في الكون، ضِمْنَ خُطّة القضاء والقدَر العامّ، فَمَا من شيءٍ يحدث في الكون بنفسه، إنّما يَحْدُث بقضاءٍ وقدرٍ من الخالق الرَّبّ جلّ جلاله، سواءٌ أكان ذلك الشيء كبيراً أم صغيراً.

إنّ سَبق العلم بما سيَحْدُثُ، وربْط كُلِّ ما يَحْدُثُ بتقديرٍ حكيم، وإرادةٍ ماضية، وخَلْقٍ يَتِمُّ به تَنفِيذُ المراد، أُمورٌ تَدْفَعُ كُلَّ التوهُّماتِ المتعلِّقةِ بصفَةِ عِلْمِ الله سبحانه وتَعَالىٰ عَمَّا يَتَوَهَّمُ الَّذِينَ لا عِلْمَ لهم بالله جلَّ جلالُه، وعَظُمَ سلطانُه، وأحاطَ علْمُه بكلّ شيءٍ كان أَوْ هو كائن أَوْ سيكونُ ضِمْنَ خطَّةِ التكوينِ العامّ.

وناقصو المعرفةِ بالله وبمُجْرَياتِ أحداث الكون، يتوهَّمُونَ أنَّ الله سبحانه عمَّا يَصِفُونَ لَيسَ لَدَيْهِ إحصاءٌ كامِلٌ لمَا يَتَناقَصُ تِباعاً من أجساد الموتى، بسبب ما يَحْدُثُ لها بَعْدَ الدَّفْنِ في الأرض، فتتغيَّرُ بذلك صفاتُها

الَّتي كانت تتصف بها وهي ذاتُ حياة، ثُمَّ تَتَفَتَّتُ وتتفرَّقُ ذرّاتُ أجسادهم، ضِمْن سُنَنٍ سَبَبِيَّةٍ مَرْسُومة ومَوْصُوفةٍ ومَعْلُومَة، والفَعَّالُ الحقيقيُّ من باطن قَنواتِ الأسباب هو الخلّاقُ العَلِيم، خالقُ الأسبابِ والمسبَّبات، المحْتَجبُ عن الأنظار بِعالمِ الظواهر، تقدَّسَتْ وتَمَجَّدَتْ أسْمَاؤه وصفاته.

وكما كان بَدْءُ خَلْقِ الناس، وبناءُ أجسادهم ضِمْنَ خُطَّة خَلْقٍ مسْبوقةٍ بعِلْمٍ شاملٍ لكلِّ صَغيرةٍ وكبيرة، فمَوْتُهُمْ وإفناءُ أجسادهم، وكلُّ التصاريف التي تجري فيها وفي نفوسهم مسْبُوقٌ بعِلْمٍ شاملٍ، وخُطَّةٍ في الإفناء تتناوَلُ كلَّ صغيرة وكبيرة، ويَجْري تنفيذ كل ذلِكَ بقُدْرَةِ الله على وفْقِ عِلْمِهِ السَّابق الّذي شَمَلَ كلَّ ما قَدَّرَهُ وقَضاه من أطوار الإيجاد والإعدام، والبناء والهدم، والتركيب والحلّ، والإفناء والبَثّ، والجمع والإعادة.

﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، أي: ما تنقص الأرض من أجساد الموتى بالإفناء. تقول لغة: نَقَصَ الشَّيْءُ يَنْقُصُ نَقصاً ونُقْصاناً على أنّ الفعل لازم، أي: ذَهب من مقداره شيءٌ ما قلَّ أو كثر، وتقول: نَقَصْتُ الشيءَ على أن الفعل مُتعَدٍّ، أي: أخذت منه مقداراً ما.

إنّ مَنْ آمَنَ بالله عزّ وجلّ رَبّاً خالقاً، قادراً عى أن يخْلُقَ ما يشاء، مُحْيياً مُميتاً لا يجري شيءٌ في كونه إلاّ بعِلْمِهِ، وقضائه وقَدَرِهِ، أو إذْنِهِ ضِمْنَ قَانُونِ التَّسْخِير، كَيْفَ يَتَوَهَّمُ أنْ يَنِدَّ عَنْ عِلْمِهِ جَلَّ جَلالُه. ما تنقُصُه الأرضُ من أجساد الموتى.

إنّ ما يحدُث في الكون كلّه تطبيق لما سبق به عِلْم الله بأنه سيقع وبَعْد الوقوع يعلَمُ الله أنّه قد وقع فعلاً.

يضاف إلَىٰ هٰذا أنّ الْعِلْمَ بكُلِّ ما سيَحْدُثُ مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ بكُلِّ دقائقه في كتابٍ حفيظٍ، دَلَّ علىٰ هذا قولُ الله عزَّ وجلَّ في الآية التي نتدبَّرُها: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ إنه اللَّوْحُ المَحْفوظ بحفظ الله له، وقد يشمل غيره من الكتب، ككتُبِ أعمال العباد.

﴿حَفِيظُۢ ﴾ على وَزْن «فَعيل» وهٰذا الوزن يأتي بمعنى اسْمِ الفاعل، وبمعنى اسم المفعول، مع الدلالة على الكثرة والمبالغة فيهما.

**فعلى المعنى الأول**: هو حافِظٌ غايةَ الحفظ لكُلِّ معلوم، لا يضلُّ عنه ولا يتغيّر ولا يَتَبَدَّل فيه معلومٌ ما، إلاَّ مَا يشاءُ الله أن يمْحُوهُ منْه ويُثْبِتَ غيره، وعنده «أم الكتاب» هو عِلْمُه جلَّ جلاله الذي لا يتعرَّضُ لمَحوِ أو تَغْيير مطلقاً، وكذلك الحقائق الوجوديَّة الَّتي حَدَثَتْ فِعلاً، لا تَتَعرَّضُ في اللَّوْح المحفوظ إلى تغيير أو تبديل.

**وعلى المعنى الثاني**: هو محفوظٌ غايَةَ المحفُوظيَّة، بحفظ الله له، من أن يؤثِّرَ عَلَيهِ أيُّ شيءٍ في كلِّ الوجود من دون الله عزَّ وجلّ.

وجاء استخدام لفظ ﴿حَفِيظُۢ ﴾ بالمعْنَيَيْنِ، وهذا من الإيجاز القرآنيّ البديع.

ويضاف إلىٰ ما دلّت عليه هذه الآية من بَيَانٍ خَبَريّ عن علم الله، وعن الكتاب الحفيظ لكلّ معلوم، والمحفوظ بحفظ الله له، دليلٌ عقليٌّ تقدّمه الظاهراتُ الكونية في السماوات والأرض، إنّ ظَاهِرَةَ إتْقان الخلْقِ كُلّه في الإنشاء والإفناء، والإيجاد والإعدام، والبناء والهدم، والتصاريف والتَّغْييرات المرافقات لأصغر الوحدات الزمنيَّة، ضِمْنَ خُطَطِ قضاءٍ وقَدَرٍ صارمَةٍ في كُلِّ الكَوْن، شاهِدٌ دائم على شمول عِلْم الله لكلّ شيء، فلا يَعزُبُ عن عِلْمِه مثقالُ ذَرَّةٍ في السَّماوَاتِ ولا في الأرْض، وهو العزيز الحكيم.

وظاهرة فناء الأجساد بعد موتِ الأحياء جزءٌ يسيرٌ قليل جدّا، بالنسبةِ إلى سائر أحداث الكون الكبير في السّماوات والأرْض، من أكبر مجرّةٍ إلىٰ أصْغرِ ذَرَّةٍ فما دُونها، وكلُّ ذلك مَشْمُولٌ بعِلْم الله، وقضائه وقَدَرِه، ما تَسْقُطُ من ورقةٍ من أيّة شجرةٍ، وما تتحرَّكُ ذَرَّةٌ ولا إلكترون في الكَوْن

كلّه، إلاَّ بعلمه، وقضائه وقدره، وخلقه تباركتْ أسماؤهُ، وتَمجَّدَتْ صفاته.

فالتشكُّكُ حول شمول عِلْم الله بما تنقُصُ الأرض من أجساد الموتَى، جنُوحٌ سَخِيفٌ، عن منطق العقل الحصيف، حَوْلَ رُبوبيَّة الرَّبّ المهيمنَة على كلّ شيءٍ في الوجود، مهما كان جسيماً كبيراً، أو صغيراً حقيراً.

## شمول علم الله كلّ شيء:

وقد جاء بيان حقيقة شمول علم الله عزّ وجلّ كلَّ شيءٍ مفصَّلاً في نُصوص كثيرة جدّاً من القرآن المجيد، وهذه النّصوص موزعة في معظم سُوَره، لأنّ صفة علم الله الشامل من صفات الله العظمىٰ، إذْ تَتعلَّقُ بكلّ واجبٍ عقلاً، وبكلّ مستحيلٍ عقلاً، وبكلّ ممكنٍ عقلاً، وتتعلّق بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون، مما يتمّ بقضاء الله وقَدَره، وممّا يكون من أفْعَال العباد الاختيارية.

وهذه النصوص قد أبانت أنّ الله عزّ وجلّ يَعْلَم غَيْبَ السَّماوات والأرض، ويَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأرض، وما يخرُج منها، ويَعْلَمُ ما في الأرْحَام، ويَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أنثَىٰ، وما تَغِيضُ الأرحامِ وما تزداد، ويَعْلَمُ ما في البرّ والبحر، ويَعْلَمُ ما بين أيدي الخلائق (أي: ما مضى) ويعلم ما خَلفهم (أي: ما يأتي في المستقبل) ويَعْلَمُ ما تُسِرُّ الخلائق وما تُعْلِنُ، ويَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ به النفوس، ويَعْلَمُ مَا تُكِنُّ الصُّدُور، ويَعْلَمُ السِّرَّ وأخْفَىٰ.

ونظراً إلى كثرة النُّصوص القرآنيَّة حول هٰذا الموضوع، فإنّي أذْكُرُ أكثرها جمعاً ودلالات، مع نظراتٍ تدبُّرِيَّة.

**النص الأول**: قول الله عَزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) في سياق الحديث عن صفات الله الجليلة ذات الآثار العظيمة في كونه:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ أي: انفرد الله عزَّ وجلَّ بأنه مَالِكُ مَفَاتِيحَ الغيب الأعظم، وهذه المفاتيحُ لا يَعْلَمُها إلاَّ هُو، فلا يَعْلَمُها نبيٌّ مُرْسَلٌ، ولاَ مَلَكٌ مُقرَّب.

أمّا المغيَّباتُ النسبيَّة فلمَعْرِفَتِها مفاتيح مكَّنَ الله من استخدامها بعض عباده دون بعض، فعند الملائكة مفاتيح قد يستخدمونها لمعرفة بعض المغيبات عن الناس، وعند الجنّ مفاتيح، وعند الإنس مفاتيح يعلمون بها من حقائق الكائنات غائبَاتٍ عن الحواسّ، بما سخَّر الله لهم من وسائل، وهذ المفاتيح لا يَمْلِكُ نظيرها غيرهم، وهي مفاتيح الاستنباط والاستدلال من الصفات الظاهرات على وجود الأشياء الباطنة، وصفاتها وخصائصها.

وهذه المفاتيح قد أوصلت الباحثين من عباقرة البشر، إلى العلوم الذَّرِّيَّة وعلوم الخلايا الحيَّةِ ووظائفها، ودلّت هٰذه العلوم على أنّ كلَّ حركةٍ من حركاتِ دقائق أجزاء الذَّرَّاتِ في كلّ شيءٍ، محكومةٌ بخُطَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ مُذْهِشَةٍ في الإحْكام والإتقان والتوجيه، ومَشْمولَةٌ بعِلمٍ محيط لا يندُّ عنهُ شيءٌ مَهْما كان دقيقاً صغيراً.

فتبارك الله الّذي أحَاطَ بكلّ شَيْءٍ عِلْماً.

**النصّ الثاني**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول):

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

فأبان هذا النَّصّ أنّ الله عزّ وجلّ الذي هو رَبُّ كُلّ شيءٍ، يَعْلَمُ ما تُكِنُّهُ صُدُورُ النّاس، فتُخْفِيهِ فيها، ويَعْلَمُ مَا يُعْلِنُونه.

وجاء تأكيد هذا الخبر عن شمول علْم الله عزَّ وجل بالمؤكّدات التاليات: «إنّ» و«الجملة الاسميّة» و«اللاّم المزحلَقَةُ للخبر» كما يقول البلاغيّون.

وأبَان هذا النَّصُّ أنّهُ ما مِنْ غائِبَةٍ على أحَدٍ من خَلْقِ الله لَهُ إدْرَاكٌ عِلْمِيٌّ ما، إلاَّ هي مُسجَّلةٌ مُدَوَّنةٌ في كِتَابٍ وَاضِحِ الدَّلاَلَةِ مُبِينٍ، ولهذا البيان لازمان عقليَّان.

**الأول**: أنَّ كلَّ مَا هُوَ قابلٌ لأن يُعْلَم مُدَوَّنٌ في كتابٍ مُبين، إذْ ما من صغيرةٍ ولا كبيرة إلاَّ هي غائبة عن بعض خَلْقِ الله، ولو كانت معلومة لآخرين، فشملت كلمة ﴿غَآئِبَةٍ﴾ كُلَّ ما هو قابل لأن يُعلم.

**الثاني**: أنّ كلَّ ما هو مسجَّلٌ مُدَوَّنٌ في كتابٍ مُبين، لا بُدَّ أن يكون معلوماً لله عزّ وجل.

**النص الثالث**: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝٦١﴾.

﴿وَمَا يَعۡزُبُ﴾، أي: ومَا يَبْعُدُ وَمَا يَخْفَى. يقال لُغَةً: عَزَبَ الشَّيْءُ يَعْزِبُ ويَعْزُبُ عُزُوباً، أيْ: بَعُدَ وَخَفي، وفي يَعْزُبُ قراءَتان بضم الزاي وكسْرِها.

﴿مِن مِّثۡقَالِ﴾: «من» حرف جر جيء به لتأكيد عموم النفي في: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ﴾ ويسمى حرف جرٍّ زائدٍ وهو داخل هنا على الفاعل.

﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾، أي: مِنْ مقدار ذَرَّةٍ.

﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، أي: ولا أصْغَر من ذَرَّةٍ ولا أكبر. وفي «رَاءِ» أصغر وأكبر قراءتان، قراءةٌ بالفتح، وقراءة بالضمّ.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وما شيءٌ من ذلك المشمول بعلْم الله إلاَّ مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ في كتابٍ مُبِينٍ ذي دلالةٍ واضحةٍ كدلالة أشرطةِ تسجيل الصُّورَةِ والصَّوْتِ، مع الخواطر والنيّات والأشْياءِ والأعْمالِ الظاهرة والباطنة، حتى أعمال القلوب والنفوس والأفكار وحركاتها.

حُذِف المستثنى منه لدلالة الجملة السابقة عليه.

**النصّ الرابع**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في معرض الحديث عن الله عزّ وجلّ:

﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾.

فأبانَ هٰذا النَّصّ: أنَّ الله عزّ وجلّ يَعْلَمُ ما يُسِرُّ النّاسُ ويُعْلنُون، وأنّه عَليمٌ بالغٌ غايَةَ الْعِلْم بذاتِ الصُّدُور.

**ذات الصدور**: أي: صاحِبَةُ الصُّدُور، وهي الخواطر والنِّيَّات وأعمالُ القلوب كالحقد والحَسَدِ، وابتغاء الخير أو الشرّ، وكالحبّ في الله والكُرْه في الله، والأهواء والشهوات ونحو ذلك.

وأبَانَ أنّهُ يَعْلَمُ مُستقَرَّ كُلّ دَابَّةٍ في ظهور الذكور، ومستودَعَ كلّ دابَّةٍ في أرحام الإناث، وأنّ عليه رزْقَ كلّ دابَّةٍ.

وأبَانَ أنّ كُلَّ هٰذِهِ المعلومات مُدَوَّنَةٌ مُسَجَّلَةٌ في كتابٍ مُبِينٍ، كاشفٍ لكُلِّ صغيرة وكبيرة حتَّىٰ خَفَايا الصُّدُور.

أفَبَعْدَ هٰذا العلم المحيط الشّامل المسَجَّل المُدَوَّنِ في كتاب حفيظ مبينٍ، مجال لتوهُّمات وشبهاتٍ وشُكوكٍ حول قضيةٍ صُغْرىٰ، هي جزئيَّةٌ من جزئيَّات هٰذِهِ الحقيقة الكُبرىٰ الشاملة، المتَّصِلَة بِصفَةِ عِلْمِ الله المحيطِ بكُلِّ شيءٍ؟!

ويضاف إلى هذا البيان الإخباريّ، أنّ أدلّة هٰذا العلم الشامل منبثّةٌ في ظاهرات هذا الكون الكبير.

● قول الله عزّ وجل:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

بعد أن أبانت الآية الرابعة من سورة (قٓ) شمول علم الله لما تنقص الأرض من أجساد الموتى، وأن كلّ ذلِكَ مُسَجَّلٌ في كتابٍ على ما سبق شَرْحُه، كان من المناسِب فَضْحُ حقيقة ما في نفوس وقلوب الكافرين المكذبين، مع الإشارة إلى أنَّ أقوالهم التعجبيّة، ليست ناتجةً عن شكُوك حقيقيَّة، وشُبُهاتٍ تشغل أذهانَهُمْ بصِدْق، بَلْ هُمْ يعلَمُونَ أنَّ محمّداً رَسُولٌ من رُسُلِ الله، يبلِّغُ عن ربِّه صادقاً مُنْذُ دَعاهم إلى الإيمان والإسلام، لكِنَّهُمُ اسْتَكْبَرُوا عن اتّباعه، أو لَمْ يُريدُوا أنْ يَتْرُكُوا مَا هُمْ فِيهِ من فجُورٍ واتّباعِ للهوىٰ، فكذَّبُوهُ ظُلْماً وَعُدْواناً وهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ ما جاءَهُمْ بهِ هو الحقُّ من رَبِّهم. دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾،

﴿بَلْ﴾ هُنا نظيرُ [**بَلْ**] في: [**بَلْ عَجِبُوا**]. والإضرابُ بحرف بل هنا إضرابٌ عن كلامٍ مَطْويٍّ مُقَدَّرٍ ذِهناً.

والمعنى: ليْسُوا في الحقيقة شاكّين، بلْ كذَّبُوا بالْحَقِّ الَّذي وضحَ لهم، لَمَّا جاءَهُمْ.

﴿لَمَّا ﴾ ظرفٌ بمعنىٰ الحين، أي: بلْ كذّبوا بالحق حينَ جاءَهُمْ، وعَرَفوا أنَّهُ حقٌّ، ولم يكُنْ تَشَكُّكُهُمْ وتَعَجُّبُهم أكثر من طرحٍ جدَليٍّ لسانيّ، وإنْ سايَرَهُمُ البيان القرآني في إقامة الأدلَّةِ الإقناعيَّة لهم مجَارَاةً لظاهرهم، والمعنيُّونَ بالخطاب فئة القادَةِ الكفَرَةِ المكذبين بالحق، مع علْمِهم بأنّهُ حقٌّ.

ونستطيعُ أنْ نُدْرِك ذهناً أنّ دافعهم لاتّخاذ هذا الموقف كوْنُ هذا الذي جاءهم به رَسُولُ الله يُخَالفُ أهواءَهم وَمَا يَشْتَهُونَ، أو أنّهم اسْتَكْبَرُوا عَن الإيمان به واتّباعه.

وإذْ كَذَّبُوا بالحقِّ وهو ذو وجْهٍ واحِدٍ يُؤْمِنُ به كلُّ فرْدٍ من الأمَّةِ المؤمنَةِ بالله ورسوله، فهَلْ كان الكافرون مُجْتَمِعين في عقائدهم ومفهوماتهم وأفكارهم حول الوجود والحياة والنشأة والمصير على مَذْهبٍ واحِدٍ، ورأيٍ واحِدٍ بيّنٍ واضحٍ جلِيٍّ تَدْعَمُهُ براهين، أو حُجَجٌ مقبولة؟؟!.

سؤال مطويٌّ في النّصّ غير مُصَرّحٍ به، لكِنْ جاء الجوابُ عليه في قوله عزّ وجلّ في الآية: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

﴿مَّرِيجٍ﴾ كلمةٌ تَدور حول المعاني التالية: «مُلْتَوٍ أعْوَج ـ مُلْتَبِس مُختَلِطِ ـ مُخْتَلِف ـ مضطرب ـ قَلِق ـ فاسد».

ولدى متابعة مذاهب الكافرين بالحقّ الرَّبَّاني، والتفكُّر في عقائدهم ومفهوماتهم، حول الوجود والحياة والنشأة والمصير، نَجِدُ أنَّ كلَّ معاني كلمة «مَريج» تنطبق عليهم بوجه عامّ، على التوزيع، وبعضها ينطبق عليهم جميعاً.

إذْ لا نجد في مذاهب الناس المخالفة لدينِ الله الحقّ، إلاّ الالتواء والْعِوَج، والتباسَ الحقّ بالباطل، واختلاط الأمور، والاختلاف والاضطراب، والقلَقَ وعدَمَ الثَّبات، وأخيراً الفَسَادَ والإفساد.

فالكافرون كما قال الله عزَّ وجلّ هم في أمرٍ مَرِيج.

❀ ❀ ❀

(٧)

# التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٦ ـ ١١)

قال الله عزَّ وجل:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾
وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ
لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ
﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا
كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

● قرأ أبو جعفر: [مَيِّتاً] بتشديد الياء المكسورة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَّيْتًا﴾ بإسْكان الياء، وهو تخفيفٌ في النُّطق.

❁ ❁ ❁

## نظرة تدبُرِيَّةٌ عامَّة حول العناصر التي اشتمل عليها هذا الدرس:

في هذا الدرس توجيهُ نظر الكافرين المكذبين وسائر الناس، لطائفة من آيات الله عزّ وجلّ في كونه، الدّالاّت على كمال قدْرَتِه، وعلْمه المحيط بكل شيء، وعلى عظيم حكمته، وبالِغ إتقانه لكلّ ما خلَق، وعلى جَليل رَحْمته وعنايته بعباده، وهيمنَتِهِ على كلّ صغير وكبير في الوجود، ممّا دون الذَّرَّة، إلى أكْبَر وأعظم مجرَّة، إلى ما هو أعظم وأجلُّ وأكبر من هذا الكون كلّه، والدّالاّت على قَيُّوميَّة الله جَلَّ جلاله لكلّ شيءٍ في السماوات والأرض، بالحفظ والرّعاية والْهَيْمَنَة والمَنّ والسلطان العظيم.

فما يَتَحَرَّكُ متحرّكٌ، ولا يسْكُنُ ساكن، ولا يَحْدُثُ حَدَثٌ، ولا يتغيَّرُ

شيءٌ، ولا يفنى شيءٌ، ولا يُوجَدُ شيءٌ إلاّ بعلمه، وبقضائه وقَدَرِه وأمره، أو بإذْنِهِ وتسخيره للمسَخَّراتِ في كونه لبَعْضِ عباده.

إنّ موضوع السُّورة قد سبق بيانه في الدرس الأوّل من دُروسها وهو يَدُور حول قضيَّتين:

**القضيَّة الأولى**: تكذيبُ مشركي مكَّةَ رسولَ الله محمّداً في كَوْنِهِ نبيَّ الله ورسُولَهُ، مُتعلِّلِينَ بأنّهُ بَشَرٌ مِنْهُمْ، وهي تِعلَّةٌ ذرائعيّةٌ لا تَستَنِدُ إلىٰ أيّ دليل.

**القضية الثانية**: تكذيب هؤلاء المشركين بنَبأ البعث إلى الحياة بعْدَ الموت، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدّين، متعلّلين بأنّ الإعادة إلى الحياة بعْدَ الموت والفناء، أمْرٌ مُستَبْعَدٌ لا تَقْبَلُه العقول، وهٰذه أيضاً تَعِلَّةٌ ذرائعيَّةٌ، لا تستَنِدُ إلى أيّ دليل يُثْبِت أو يُرَجِّح ما زَعُموا، كما سبَقَ بيانه.

وأمثالُ هٰؤلاء المكذِّبين موجودُونَ في كلّ عصْرٍ حتى آخر الدَّهر، من أزمانِ الحياة الدنيا حياة الامتحان.

وقد جاء في الدرس الثاني من دروس السُّورة دفْعُ تَوَهُّماتِ المكذبين الماثلة في أذهانهم إبان نزول السورة، بالنسبة إلى القضيّة الثانية.

وإذْ كانت حقيقةُ سَبْق العلم الرّبّانيّ بكلّ ما يجري في الكَوْن من صغير وكبير، مرتَبِطَةً بقضاء الله وقَدَرِهِ السّابقَيْن لكلّ حوادث الوجود، وهٰذه الحقيقة من الحقائق التي يُنْكِرُها أو يَجْهَلُهَا الكافرون بالله ورُسُلِهِ واليوم الآخر في كلّ العصور الماضية والحاضرة والآتية، كانَ من الحكمة البيانيَّةِ لَفْتُ الأنظار إلى ما يَدُلُّ عَلَيْها في ظاهرات الكون الّتي هي آيَاتٌ من آيات الله الْمُبَصِّرَاتِ ابتداءً، والمذَكِّرَاتِ دواماً.

فظاهراتُ الكَوْن دالاّتٌ على الخالق الرّبّ، وعلىٰ جليل صفاته، ومن

تفكَّر فيها بإمْعَانٍ ورغبةٍ في الوصول إلى الحقّ اتَّضَحَتْ لَهُ هَيْمَنَةُ الله علىٰ كُلِّ شيءٍ، وقيُوميَّته لكلِّ شيءٍ، واتَّضَحَ له أنَ أيّ شيءٍ يَحْدُثُ في الكون لا بُدَّ أن يكون مَسْبُوقاً بعلمه الشامل، وبحكمتِهِ الْبَالغة، وبقَدَرِهِ وقضائه، أو بإذْنه وتسخيرِه للمسَخَّراتِ في كَوْنِهِ لِبَعْضِ عباده.

فجاء هذا الدرس الثالث من دُروس السورة متضمناً توجيه الأنظار للتفكُّر في ثلاث آياتٍ مِنْ آياتِ الله الكونيّة المتعلّقة بالسماء، وثلاث آياتٍ أخرى من آيات الله الكونيَّة المتعلقة بالأرض.

## الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالسَّماء:

**الآية الأولىٰ**: آيَةُ بِنَاء السَّماء المحكم، ولا بُدّ أنْ نَضَعَ في تصوُّرِنا أنَّ بناء كلّ شيءٍ يكون بحسَبِ طبيعته، وبحسب الغاية منه، فبناء الْقُصُور غَيْر بناء الخيام، وهما على غير بناء الذّرّة وعلى غير بناء الخليّة، وعلى غَيْرِ بناء بَيْتِ العنكبوت، وعلى غير بناء بيت النمل، وعشّ الطائر، إلى غير ذلك.

وقد يكون تماسك الأجرام السّماويَّة بالجاذبيّات، أو بطاقات أخرىٰ غَيْرِ معروفة حتَّىٰ الآن، هو المقصود ببنائها، والله أعلم.

**الآية الثانية**: آيَةُ تَزْيين السَّماء بالنجوم والكواكب بالنِّسْبَةِ إلى سُكّان الأرض، والتزيين هو التجميل بالزِّينات الجماليّة الّتي تُمْتِع النفوس.

وقد جاء التصريح بتزيين السّماءِ الدُّنيا في السّور التالية: (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول ـ والصّافات/ ٣٧ مصحف/٥٦ نزول ـ وفُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول ـ والمُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

**الآية الثالثة**: أنّ نظام السّماءِ المتماسك لاَ فُرُوجَ فيه، أي: لا شُقُوق فيه، ولَوْ كان فيه فروجٌ لحصَلَتْ أنواع من الخَلَلِ عَبْرَ ملايين أو مليارات السِّنِين الّتي مَرّت عليها.

## الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالأرض:

**الآية الأولى**: مَدُّ الأرض، كما يتمدَّدُ السِّقَاء من الجِلْدِ الممتَلِئ ماءً، وكذلك كان شكل الأرض قبل تثبيتها بالجبال التي أُلقِيت فيها. وقد يكون المرادُ بالمدّ الإمداد بالعناصر الصالحة لنفع الناس، بالأرْزاق وغيرها من مطالب الحياة الدنيا، كالمعادن المختلفة.

**الآية الثانية**: تثبيتُ الأرض بالرَّواسي الّتي ألقاها الله عزّ وجلّ بأمْرِهِ التكوينيّ، لئلاَّ تميد بسُكّانها، فتتحرّك أجزاءٌ منها وتضطرب، كما تميد الفُلْكُ بأمواج الْبَحْر وتتخبَّط.

**الآية الثالثة**: إنباتُ أنواعِ النباتات وأصنافها من كلِّ زَوْج(أي: من كلِّ نَوْعٍ أو صنف) بَهِيج، أي: ذي بَهْجَة. **البهجَةُ** هي الحُسْنُ والنضارة. وحرف ﴿مِن﴾ في عبارة ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ للتبعيض، لأنّ احتمالات الأنواع والأصناف الممكنة لا تنحصر فيما أنبت الله منها، فما أنبت الله هو بعضها المقدَّرُ والمقضيُّ.

وفي هذه الظواهر الّتي هي من آيات الله الكونيَّة في السّماء والأرض، تَبْصِرَةٌ ابتداءً، وتَذْكِرَةٌ دواماً، لأهل الأفكار المتدبّرة الواعية المنيبين إلى بارئهم، بما فيها من دلائل تَدُلُّ على صفات الرَّبِّ الخالق البارئ العليم الحكيم، الّذي أتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صُنْعاً.

فجاء في النصّ عقب ذكر الآيات قول الله عزّ وجلّ:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

**التبصرة في اللّغة**: التَّعْليمُ والتفهيم، فَمَنْ يُدْرِكُ دلائل هذه الآيات في السَّمَاء والأرض، تَكُونُ لَهُ تَبْصِرَةً وتعليماً ابتداءً، ثم تكون له ذِكْرَىٰ دوماً.

تقول لغة: بَصَّرَهُ الأمْرَ تبصيراً وتَبْصِرَةً، أي: فَهَّمَهُ إيَّاهُ، وعرَّفَهُ بِهِ، وأوضَحَهُ له.

**والتبصير**: التعريف والإيضاح، والتبصُّرُ التأمُّلُ والتعرُّف. وآيات الله في كونه تُعرّف بصفات خالقه ومتقنه ومُحْكِم أمْرِه، وهي تُعلّم دواماً من لم تكُنْ قد عَلّمَتْه، وتَهدِي مَنْ تفكَّر فيها إلى إدراك صفات الله جلَّ جلاله، ففيها تَبْصِرَة.

وبَعْدَ التَّبْصِرَةِ التعليميَّةِ تَكُونُ مُشَاهَدَتُها المتكرّرة ذِكْرَى أي: تكُونُ تذكيراً متكرّراً بما دلَّت عليه في التعليم الأول.

وكلّما شَهِدَ المتفكرُ المتأمِّلُ آيات الله في الكون، تعلَّمَ منها أشياءَ جديدةً، زادَتْه مَعْرِفةً بحقائِقَ عَن خالقها ومُبْدِعها، وذكَّرَتْهُ بما كان قَدْ عَرَفَهُ منها سابقاً، فتكونُ له بذلِكَ تَبْصِرَةً وَذِكرى.

**ذِكْرَى**: في اللُّغَة كالذِّكْر، بمعنى التذكُّر الذي هو ضدُّ النسيان. وبمعنىٰ التذكير بالشيء، تقول لُغَةً: أذْكَرَهُ إيّاهُ وذَكَّرَه، والاسم من ذلك: «الذِّكْرَى».

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، أي: لكلّ عَبْدٍ يَرْجِعُ إلى آيات رَبّه بالتفكُّر حِيناً فحيناً بصفةٍ مُتكرِّرَة، فتكون له تبصرة بالتفكُّر الأوّل، وذكْرى بالتفكرات اللاحقات.

**منيب**: اسم فاعل من فعل «أنابَ يُنيبُ» أي: رَجع يَرْجع، واسم الفاعل يُشبِه الفعل المضارع في المعنىٰ، يَدُلُّ على الحال والاستقبال والتكرار(١).

وبَعْدَ توجيه الأنظار إلى ثلاث آياتٍ من آياتِ الله الكونيّة في السَّماءِ، وثلاث آيات أخرى من آيات الله في الأرض، جاء في النصّ التنبيه على

---

(١) هذا ما وضح لي في الاستعمالات القرآنيّة، ولم أرَ فيها أنّ دلالة اسم الفاعل على الاستقبال دلالةٌ مجازيّة، بل هي دلالة حقيقيّة من أصل الوضع، مثل: [وما كانوا مؤمنين] أي: وما كانوا مستعدّين لأن يؤمنوا متسقبلاً فأهلكهم الله.

ظاهرة عنايَة الله بالنّاس على ظهر الأرض، بذكر ثلاث نِعَم مُفَصَّلات، تتعلَّقُ بموضوع الأرْزَاق الّتي يحتاجها الأحياء عليها، وهي:

**النعمة الأول:** نِعْمَة إنْزال الماء المبارك من السّماء.

**النعمة الثانية:** إنباتُ الجنَّاتِ ذوات الأشجار، ولا سيما النَّخلُ الباسقَاتُ الَّتي لها طَلْعٌ نَضِيد.

**باسِقَات:** أي: طِوالٌ مُرْتفعاتُ القامات.

**طَلْعٌ نَضِيدٌ:** أي: حَمْلٌ مُتراكبٌ بعضُهُ على بعض باتّساقٍ وتراصف وانتظام.

**النعمة الثالثة:** إنْبَاتُ الزُّرُوع ذوات الحبّ الذي به أقوات ومنافع النّاسِ والدوابّ، وهذا الحبُّ يجمع بالْحَصَاد، فيكُونُ حصيداً.

وأبان هذا الدّرْسُ أنّ من عظات ظاهرة إنبات الزُّرُوع، ودلالات تكرار إحْيَاءِ الأرْضِ بها بَعْدَ مَوْتها، قياسَ بَعْثِ النّاسِ للحياة الأخرى، بعد موتهم وفناء أجسادهم، على إعادة حياة النباتات من بذورها، بالماء وتراب الأرْض إذا اختلطا وأحَاطَا بها، مع شروطِ أخرى كالحرارة ومرور الزمن، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

أي: كذلك الذي يحدُثُ للنباتات من بُزُورِها في سُنَّةٍ من سُنَنِ الله المتكرّرة في الأرض، يكون خروج الموتى إلى الحياة يوم القيامة مَرَّةً أُخْرىٰ، من الأرض، للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء. ويُلاحظُ في كلّ هذا الدّرس أنّه قد جاء فيه استعمال ضمير المتكلّم العظيم، لأنّه يَتَعَلَّقُ ببيَانِ آيات رُبوبيَّةِ الله في كونه، فكان من المناسب الإشارة إلى عظمة هذه الربوبيّة باستعمال ضمير المتكلّم العظيم: «بَنيْنَاها ـ زَيَّنَّاها ـ مَدَدْناها ـ ألقينا ـ أنبتنا ـ نزلنا ـ أحيينا».

❁ ❁ ❁

## نظرات تدبُريَّةٌ تحليليَّةٌ تفصيلية لفقرات هذا الدَّرس الثالث:

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾.

يَبْدأ هذا الدّرْس باستفهامٍ فيه معنى الاستنكار والتلويم للمكذبين الكافرين بالرسول وبيوم الدّين، على إعراضهم عَنْ آيات الله الكونيّة الدّالاّتِ على قضيَّةِ الإيمان الأولى، الّتي تنقُلُهم إلَىٰ ما وراءَها من لَوازِمَ فِكْرِيَّةٍ، حَتَّى تُوصِلَهُمْ إلَىٰ الإيمان بقانون الجزاء الرَّباني، فالإيمان بيوم الدِّين، والإيمان برُسُل الله المؤيَّدين بمعجزات وآيات باهراتٍ من لَدُنه.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾، الْهَمْزَة استفهاميَّة، و«الفاء» حرفُ عطف، ولكن لا نجِدُ في السَّوابق ما هو ملائمٌ للعطف عليه، والتأمُّل المتأنّي في النّصّ يَهْدِي بتوفيقِ الله إلى أنّها تعطِفُ على محذوف، وإيجادُها في الكلام يُفصِحُ عنه، فهي على ما يقول النحاة الفاء الفصيحة.

ويمكن استخراج هذا المحذوف بالتأمل أيضاً، والقرائن الفكريّة المحيطة بموضوع النّصّ تَدُلُّ على أن لدَىٰ المتحدَّث عنهم أدواتِ النظر التفكُّريّ الّتي وهبها الله للناس، وفضَّلهم بها على سائر خلقِهِ تفضيلاً عظيماً، وهٰذه الأدوات كان من الواجب عليهم أن يستعْمِلُوها للوصول إلى معرفة خالقهم ومُمِدّهِمْ بفُيُوضِ عطاءاته، وإلى مَعْرِفَةِ طائِفَةٍ من صفاته الجليلة، وإلى مَعْرِفَةِ الغاية من خَلْقِهم، وما يجبُ عليهم تُجاه بارئهم.

وهُنَا لا بُدَّ أنْ يَرِدَ السّؤال الأوّل حول عَدم انتفاع الكافرين بما وهبهم الله عزّ وجلّ من أدوات نظر تفكُّرِيّ وهو: أَلَمْ يَسْتَعْمِلُوا ما لَدَيْهِمْ من أدواتِ نظر تفكُّرِيٍّ في أعظم القضايا الّتي خُلِقُوا من أجْلها، فَلَمْ يَنْظُرُوا إلى آياتِ الله في كونِه، ومنها ما جاء ذِكْرُهُ في هذا الدَّرْس.

إنّ النظر في آياتِ الله الكونيَّة هو الحَلْقَةُ الأولى في سلسلة التفكير

الإيماني لمن رفضَ التسليم ببلاغات المرسَلين. إذْ آياتُ الله عزّ وجلّ الكونيّة دالأتٌ على الرَّبّ الخالق، وعلى طائفة من عظيم صفاته جلّ جلالُه، ومنْ آمَنَ بالله عزَّ وجلَّ وبصفاته فلا بدَّ أن يُدْرِك حكمَةَ الله الجليلةَ من الخلْقِ، ومن حكمتِهِ أنْ لا يخلُقَ الكونَ باطلاً، وأن لا يخْلُقَ الإنسانَ عبَثاً، ولا شيْءَ يرفع احتمال العبث إلاَّ أن يكون قد خَلَقَ النّاس في ظروف هذه الحياة الدّنيا ليبلُوهُمْ بالإيمان والعمل، ثم ليحاسِبَهم، ويفصل القضاء بينهم، ويجازيهم، في حياةٍ أخرىٰ بَعْدَ حَياةِ الابتلاء الأولىٰ، وهذا يُوصِلُ المتفكّرين إلىٰ الإيمان بيَوْمِ الدّين.

ومن حكمَتِه بَعْدَ أن قَضىٰ أن يخْلُقَ الناسَ ليَبْلُوهم أنْ يُرسِلَ إليهم رُسُلاً مِنْهُمْ، يُبَيّنُونَ لَهُم موادَّ امتحانهم، وما هُمْ مسؤولونَ عَنْه في حياتِهم لَدىٰ بارئِهم، وهٰذا يُوصِلُهم إلى الاقْتِناع بحكْمةِ إرْسَالِ الرُّسُل، ولا يَبْقَىٰ أمَامَهُمْ إلاَّ التأكُّدُ من صحَّةِ دَعْوىٰ من يَدَّعِي أنَّهُ رَسُولُ الله، ويتحقَّقُونَ منْ صِدْقه بما خصَّهُ الله به من معجزة أو مُعْجزاتٍ تَشْهَدُ لَهُ بأنّه صادقٌ فيما يبلّغُ عن رَبّه، كمعجزة القرآن لمحمد ﷺ، وكمعجزاتِ موسىٰ وعيسىٰ عليهم الصَّلاة والسَّلام.

فالله عزَّ وجلَّ في هذا الدرس يُعيدُ الكافرين إلى الحلْقة الأولى من سلسلة التفكير الإيماني، ويُحمّلُهُمْ مَسْؤوليَّة النَّظَرِ التأمُّليّ في آيات الله الكونية.

ففي قوله عزّ وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ ﴾؟ مع الاستنكار والتلويم حثٌّ على النظر التفكُّريّ، إذا لم يَسْبِقْ لهم أنْ نظروا هذا النظر.

﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾، أي: أفَلَمْ يَنْظُرُوا إلى هٰذه السَّمَاء العظيمة العجيبة، في الامتداد الّذي لا يُدْرِكون غايتَهُ فَوْقَهُمْ.

**السَّماءُ**: تُطْلَقُ لغةً على كلّ ما ارتفع وعلا، أو كان في جهة الْعُلُوّ،

من فعْل «سَمَا يَسْمُو سُمُوّاً فهو سَامٍ» أي: ارْتَفَعَ مادّياً أو معْنَويّاً، وسَمَاءُ كُلّ شيءٍ أعلاه، والسَّمَاءُ سَقْفُ كُلِّ شيءٍ وكُلّ بيت، والسَّماءُ بهذا المعنى مذكّر.

أمّا السَّمَاءُ الّتي تُظِلُّ الأرض فهي مؤنثة عند العرب لأنّها اسم جنْسٍ جمعيّ مفرده سَمَاءة. وقال الجوهري: السماء تذكر وتؤنث. وكثُر في القرآن المجيد إطلاق لفظ «السّماء» على السَّحاب، وهو إطلاقٌ منطبق على مفهوم لفظ السماء لغة.

أقول: والغلاف الغازيّ المحيط بالأرض هو بالنسبة إليها سماء لغة، حتّىٰ القريب الملاصق لها. وكل مجموعة من المجرّات مترابطة بنظام في بنائها وحركتها وجاذبياتها هي سماء.

أما السماوات السَّبع فَلا نستطيع تقدير حدود كلّ سماءٍ منها.

وقد يُطْلَقُ على المطر لفظ «السَّماء» لأنه يَنْزِل من جهتها، وهذا إطلاقٌ مجازي. من نوع المجاز المرسل.

﴿فَوْقَهُمْ﴾ حال من السماء، وهي حال مؤكّدة، وفائدة [**فوقهم**] شَدُّ أنظارهم إلى الارتقاء.

﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾، كيف: اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ به عن حالة الشيء، وهو مبنيٌّ على الفتح في محل نَصْبٍ على أنّه هُنَا نَائب عن مفعول مطلق للفعل في ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ والتقدير: بنيناها بناءً ذا حالةٍ مُدْهِشَةٍ، جديرة بأن يستفهم عنها بإعجاب باسم الاستفهام «كيف» ووجب لغةً تقديمها في العبارة، لأنها استفهاميّة، ومعلوم أنّ الاستفهام له الصدارة. ويمكنُ إعرابُها بوجه آخر.

﴿بَنَيْنَاهَا﴾ يقالُ لغة: بنَىٰ وابْتَنى. وبناء كلّ شيء يكون بحسب

الحاجة الداعية إليه، فبيوت العرب في البوادي تُبْنَىٰ من الجلود والأصواف والأوبار المنسوجة، ونحوها، وبيوت المدن والقرى تُبْنىٰ من الحجارة والآجُرّ والطين والجصّ والخشب والإسمنت والحديد ونحوها. والعنكبوت تبني بَيْتَها من خيوط دقيقة جدّاً تفرزها من غُدَّة في جسدها.

وتقول العرب: بنىٰ الطعامُ لَحْمَ آكله. أي: أَكْثَرَ لَحْمَهُ فَعَظُمَ من الأكل.

وجسم الكائن الحيّ بناء الرَّبّ جلَّ جلالُه، وهو مبنيٌّ من الخلايا، الّتي يتكوّنُ مِنها العظم واللَّحم والشّحْم والأعصاب وتُوَزَّعُ في الأعضاء، بمقتضى حكمة الله.

فبنَاءُ السَّمَاء ينبغي أن يكون بحسَب نظام التماسك بين أجرامها. والغلاف الجوّيُّ المحيط بالأرض مبنيٌّ كما هو مشاهدٌ من الغازات. والمجرّاتُ مبنيَّةٌ كما هو مشاهد بالمناظير والمجاهر لعلماء الفلك الرّاصدين من النجوم والكواكب، وتماسُكها حاصل بقانون الجاذبية التي جَعَلها الله فيها.

وقد تكون مَجْمُوعةُ مجرّاتٍ مترابطةٍ بنظامٍ فيما بينها إحدىٰ السّماوات السَّبْعِ الكبرى، والله أعلم.

ونترك للبحث العلميّ الإنساني ما يتوصّلُ إليه في هذا المجال، بشرط أن يكون ما يتوصّلُ إليه علماً يقينياً بأدلَّة مقطوعٍ بها.

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ التزيينُ التجميلُ والتحسين، وقد زيَّنَ الله عزّ وجلّ السَّماء بالنُّجوم والكواكب، وقد يكون تزيين الشيء بجعل بعض أجزائه زينة له. وقد اقتصر النصّ هنا في سورة (قٓ) على ذكر التّزيين، دُونَ بيان الأشياء الّتي زُيّنَتْ بها السّماء.

ولكن جاء بيان هذا في نجوم التنزيل الّتي نزلت بعد سورة (قٓ) ونجد

في القرآن المجيد نصوصاً خمسة حول تزيين السَّماء للنّاظرين في الأرض، وهي نصوص متكاملة الدلالات فيما بينها وفق المنهج القرآني.

**النص الأول**: هو هذا النصّ الذي نتدبّره من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

**النص الثاني**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿بُرُوجًا﴾ البروج منازل الكواكب والنجوم السَّيَّارة، وأصل معنى البروج في اللّغة: القصور العالية المشرفة المتطاولة في السماء.

وقد أضاف هذا النّصّ ذكر «البروج» وهي منازل حركة النجوم والكواكب، وهذه المنازل تمثّل جزءاً من الزينة العامة. وأضاف أيضاً أنّ هذا التّزيين إنما هو للناظرين، الذين يُدْركون بحاسة النظر الجماليات الّتي تُدْرَكُ بالأبْصار، والبشَرُ هُمُ المقصودون الأوّلون بهذا التزيين.

**النصّ الثالث**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

فأضاف هٰذا النّص بيان قضيَّتَيْن:

**الأولى**: أنّ التزيين للناظرين هو للسّماء الدنيا بالنسبة إلى سكان الأرض.

**الثانية**: أنّ من الأشياء التي يحصُل بها التزيين منثوراتِ الكواكب، مع ما لها من وظائف أخرىٰ، ومنها أن تكون أدوات حفظ، تحفظ أهل الملأ

الأعلى من أن تقترب منهم الشياطين، فيتسمّعوا منهم الأنباء من المقادير الرّبانيّة لِيَنْقُلوها إلى قُرنائهم من الإنس.

وهي الّتي تَهْوِي منها الشُّهبُ في اتّجاه الغلاف الجويّ فتلتهب، ثم تهوي في اتّجاه الأرض أسهماً ناريّة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾، أي: ولهم عذابٌ دائم غير الاحتراق بالشهب التي تُصِيبُهُم.

**النص الرابع**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلَت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول).

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١١﴾﴾.

فأضاف هذا النصُّ بيان قضيتين:

**الأولى**: وصف الأجرام التي جعل الله تزيين السّماء الدنيا بها، بأنها تُشْبِه المصابيح، سواءٌ أكانت نجوماً ملتهبة، أم كواكب عاكساتٍ للنور.

**الثانية**: أنَّ كُلًّا من التَّزيين والحفظ من الشياطين قدْ تَمَّ بتقدير الْعَزِيز الْعَلِيم.

**العزيز**: أي: القويّ الغالب الذي لا يُغلب.

**العليم**: أي: الواسع الْعِلْم.

**النصّ الخامس**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

[**رُجوماً**]: **الرُّجوم**: ما يُرْجَمُ من حجارة وغيرها، مفردُها «الرَّجم».
وقد أضاف هذا النَّصّ دَلالاتٍ ثلاثاً.

**الأولىٰ**: تأكيد أنّ الله جَلّ جلاله بعظمة ربُوبيته وسُلطانه زَيّنَ السَّماء الدنيا بمصابيح بعبارة **[لقد]**.

**الثانية**: أنّ حفظ السماء من الشياطين يكون برَجمِهم بما زَيَّنَ به السَّماءَ الدُّنيا من مصابيح.

**الثالثة**: أنّ العذاب الْوَاصِبَ الدّائم الذي أعَدَّهُ الله لهم هو عذاب السعير في جهنم.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾.

**الفروج**: الشُّقُوقُ المفتوَحة، والمنافذ الّتي تكون بانفصام الالتحام بين عناصر الشيء الذي له وحدة كُليَّةٌ متماسكة.

والسَّماءُ بنظامها المتماسِك خاليةٌ من الشقوق والمنافذ، الّتي تيسِّرُ دُخُول أشياء قضىٰ الله بنظامه العامّ لها أن لا تدخُلَ فيها، أو تُعَرِّضُ تماسُكَها لحُدوث خلَلٍ فيه يُفسِدُ نظامها.

وتَمَاسُكُ كلّ شيءٍ يكون بحسب نظامه، وشقوق كلِّ شيءٍ تكون بحسبِ نظامه، والفروج تكونُ في كلِّ شيءٍ بحسب نظامه.

إنَّ تماسُكَ أجرام المجموعة الشمسيّة بقانون الجاذبيَّة الرَّبّاني، ليس فيه شقوقٌ ولا فروج ـ ولو كان فيه شيء من ذلك لاخْتَلَّ التماسُكُ والتجاذُبُ بينها، ولحدث فيها فسادٌ في أبعادها وفي مداراتها، وفي أبراجها، ومن شأن هذا الفساد أن تبتلِعَ الشَّمْسُ مَجْمُوعَتها، أو تضل أجرامٌ منها في أبعاد فسيحة من مَجرَّتها، فتلتحقَ بنجومٍ أخرىٰ، أو تبتلِعَها نجومٌ أخرىٰ.

إنَّ الفروج في النباتات تفطُّرات وتشقُّقَات في أجرامها بحسب

مقاديرها. وإنّ الفروج في الأجساد فَتَحاتٌ فيها، وإنّ الفروجَ في الأرض وفي الجبال شقوقٌ قد تكون عظيمة جدّاً، تنشأ عنها في الجبال وِدْيان سحيقة، وفي سائر الأرض بحارٌ عظيمة، وإنّ الفروج في الغلاف الغازيّ المحيط بالأرض تشقُّقاتٌ إذا حَدَثَتْ وصَلَتْ إلى الأرض أشعَّةٌ شديدة الخطر والضرر على الأحياء والنباتات، من الشمس ومن أشعة كونيَّةٍ أخرى، وسبق أن عرفنا أن الغلاف الغازي المحيط بالأرض يطْلق عليه في اللّغة سماء.

وهنا أتساءَلُ: هل يَصْلُح أن يكون هذا الغُلاف الغازي هو المراد بالسَّماءِ الدُّنيا، مع دلالة قوله تعالى في الآية: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لأنّهُ هو المحيط بهم من فوقهم، إذْ لو لَمْ تَكُنْ لهذه الفوقيّة دلالةٌ خاصّة لكانت من فضول القول، فكُلُّ السّماوات هي فوق الناس الساكنين في الأرض والله أعلم؟؟ وسبَقَ بيان أنّ عبارة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ تفيد شدّ أنظار الناس إلى الاتقاء عن مواطئ الأقدام، إلى ما فوق الرؤوس من أبعاد.

قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، أي: جعلْنَاها ذاتَ امْتِدَاد في بُعْدَيْن مُتَقابِلين، كتَمَدُّدِ السّقاء، وهو ظَرْفُ الماء المتَّخَذُ من الجلْد، وهو ما يُسمَّىٰ بالقِرْبة.

ويقال لُغَةً: تمدَّدَ الرَّجُلُ، أي: تَمطَّىٰ وتطاول، وأصْلُ المدّ في اللّغةِ الجذْب.

وقد يكون المرادُ أيضاً بمَدِّها مَدَّها بالخيرات، والمعادن وموادّ الخِصْب، والعناصر النافعة للعباد.

تقول لغة: مَدَدْتُ الأرض مدّاً، إذا زدْتَ فيها تراباً أو سماداً من غيرها، ليكون أعْمَر لها وأكثَر رَيْعاً لزَرْعها.

ويقال في اللّغة للرّمَال وللسَّمادِ: مِدَادُ الأرض.

ومنه يقال لما يُرْسَلُ من محاربين للجيش المقاتل: مَدَد.

وواقع حال الأرض الّتي جعلها الله عزّ وجلّ دار سكنىٰ الناس في الحياة الدنيا، يَشهدُ بأنّها مَتَمَدِّدَة كَتَمَدُّدِ السّقاء، وأنّ الله جلّت حِكَمُه وعظمت نِعَمُه، قد أمدّها بعناصر وفيرة لرزق العباد ومنافعهم.

والتدبُّر الأمثل يَدْعُو إلى حَمْل اللّفظ على مَعْنَيَيْه، فكلٌ مِنْهما يَدُلُّ عَلَىٰ إتقان صُنْع الله، وكمال حِكْمته، وعَظيم رحمته وعنايته بعباده.

قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، أي: وألْقينا في الأرض جبالاً ثوابت رواسخ ثَبَّتَتْ قِشْرتَها.

يقال لغة: رَسَا الشيءُ يَرْسُو رَسْواً ورُسُواً، أي: ثبت. ويقال: رسا الجبَلُ، أي، ثبت أصْلُه في باطِنِ الأرض.

وكلمة ﴿رَوَاسِيَ﴾ هي في الأصل صفة لموصُوف محذوف، هي الجبال، ولكثرة استعمالها صفة للجبال استغني عن ذكر الموصوف، ونُزّلَت الصّفة منزلَتَهُ في أصل الدلالة، مع زيادة معنىٰ الثبوت والرُّسوخ.

ولعلَّ في كون الجبالِ مُلْقَاةً إلْقَاءً إشَارَةً إلىٰ أنَّ الأرض كانت مُمَدَّدَة كالسّقاء، ثُمّ حصلَتْ فيها تفجُّرات بركانيَّة، نجم عنها ترامي حُمَم بُركانيَّة في الجو، وأُلقِيَت هذه الْحُمَم في الفجوات الّتي أحْدَثَتْها البراكين العُظْمىٰ، فكانت الجبال الرَّواسي.

## ما جاء في القرآن بشأن امتنان الله على عباده في الأرض بالجبال الرواسي:

نطالع في القرآن المجيد أحد عشر نَصّاً يمتَنُّ الله فيها على عباده بالجبال الرواسي، عشرةٌ منها مكيّة، والحادي عشر منها مدني، وهي ما يلي مرتبة بحسب ترتيب نزول سورها:

**النصّ الأول:** قول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) في معرض الحديث عن الأرض:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾

فوصَف الله في هذا النّصّ الجبال بوصفين لها: وصف الرُّسُو، ووصف الشموخ، وهو العلوّ والارتفاع.

**النصّ الثاني**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) الّتي نتدبَّرها في معرض الحديث عن الأرض: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾.

فأضاف هذا النّصُّ فِكْرَة الإلقاء، الذي يشير إلى كيفيّة تكوين الجبال.

**النص الثالث**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

فجاء في هذا النّص ذكْر الجبال الرواسي، ضمن تعليم جدليّ لمناظرة المشركين، حول توحيد الرُّبوبيّة، الذي يلزم عنه عقلاً توحِيدُ الإلهيّة لله جل جلاله.

والمناظرة قائمة على طرح أسئلة على المخالف، رغبةً في انتزاع اعترافه بأنّ الرُّبوبيّة لا يُشارِكُ الله فيها أحد، إذَنْ فهو الذي يجب عقلاً أن تكون له وحْدَه العبادة، إذْ لا إله إلاّ هو، وهذا هو اللازم العقليُّ الأول لكونه لا رَبَّ في الوجود سواه.

**النص الرابع**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾.

جاء هذا النَّصُّ ضِمْنَ عَرضِ طائفَةٍ من آياتِ الله عزَّ وجلَّ في كونه، ونِعمِهِ على عباده فيها، مُعالَجةً للكافرين بإقامَةِ الأدلَّة لهم عَلَىٰ عَظَمَةِ

رُبُوبيته، وعلى فيوض نِعَمِه عليهم رحْمَةً بهم، عَسَىٰ أن يؤمن منهم من لديه استعداد للانقياد والعبادة والطاعة.

وجاء فيه ذكر إلقاء الرواسي في الأرض باعتبارها إحدى آيات الله في الأرض، الدالّة على ربوبيته ورحمته ونعَمه على عباده.

**النص الخامس**: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾.

﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، أي: مِنْ كُلِّ صنف من أصناف الثمرات ذي صفات حسَنة نافعة طيّبة.

وأضاف هذا النّصّ بالنسبة إلى الجبال الرواسي بيان وظيفة كونيّة من وظائفها، وهي مَنْعُ قِشْرَةِ الأرض من أن تُميدَ بمَنْ عليها. ماد الشيءُ. يَمِيدُ، مَيْداً، ومَيَدَاناً، أي: تحرَّك واضطرب.

**النص السادس**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) في معرض الحديث عن الأرض ضمن تعليم جَدَليّ يُناظِرُ به الداعي إلى الله المشركين.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾.

فأضاف هذا النَّصّ بالنسبة إلى الجبال الرَّوَاسِي، بيان كون هٰذه الرَّواسِي من فَوْقِ الأرْض، للدلالة على أن ارتفاع مقادير عظيمة مِنْها فوق سَطْحِ الأرض ذو نفع عظيم للناس.

**النص السابع**: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠

نزول) حديثاً عن الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ . . ﴾.

فأضاف هذا النّصُّ أن من فوائد الجبال الرواسي أنها بمثابة علامات يَهْتَدي بها الناس في أسفارهم وتنقلاتهم، وكذلك الأنهارُ والسُّبل.

**النّصّ الثامن**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وهذا النّصّ جاء فيه الحديث عن الكافرين الغائبين، ولم يواجِهْهُمُ الله فيه بالخطاب. وجاء فيه بيان أنّ الرواسي إحدىٰ آيات الله في كونه، وأنّ الكافرين معرضون عن آيات الله. وهذه إضافات أسْلُوبيّة وفكريّة.

**النَّصّ التاسع**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول).

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾.

**أوتاد**: جَمْعُ «وَتَدٍ» وهو العُود الّذي يُدَقُّ في الأرض لتَثْبِيت الخيمة به، أو لربْطِ عِنَانِ الدابة به.

فأضاف هذا النصُّ بيانَ أنّ الجبال في الأرض تُشْبِهُ الأوْتَاد لها، لما فيها من تثبيت، وأضافَ أنّ الجبالَ يَدْخُل منها قِسْمٌ عظيم في الأرض، كما يَدْخُلُ الوتد، فقِسْمٌ منها فوق الأرض كما جاء في النصّ السادس، وقِسْمٌ منها مَغْمُوسٌ في الأرض كحال الأوتاد.

**النصّ العاشر**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف ٨١ نزول):

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾.

فأضافَ هذا النص بيانَ أنّ أحداث دَحْوِ الأرْضِ، وإخراج الماء والمرعى، وإرْساءِ الجبال، قد كانت بَعدَ رَفْع سَمْكِ السماء وتَسْوِيتها، وإغْطاشِ لَيْلِها وإخراجِ ضحاها.

**النصّ الحادي عشر**: قول الله عزّ وجل في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصُّ عِدَّة بيانات تتعلّق بالثمرات، والزوجيّة فيها، وأنّ النهار هُوَ الذي يغْشَى اللَّيْلَ فَيَسْتُرُهُ.

أمّا الإضافة المتعلّقة بالجبال مع تعلّقِهَا بغيرها من آيات الله، فهي أنّ الذين يتفكّرونَ هم الَّذِين يُدْرِكُونَ ما في الظواهر الكونية من آيات الله الدّلاّت على صفاته الجليلة.

**التعليق:**

إنّ إلقاء الجبال الرواسي في الأرض لتثبيت قشرتها نِعْمةٌ عظيمةٌ، وعنايةٌ من الرَّبّ الخالقِ بسُكّان الأرض جسيمة، ولا يَعرِفُ قيمتَها إلاّ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ للزَّلازِلِ المدمّرَةِ في مواضع من الأرض، ولولا الجبالُ لظلّت الزلازلُ والتَّشقُّقات في الأرض وظاهراتُ الخَسْفِ تتوالَىٰ على سُكّان الأرض مُهْلِكاتٍ ومُدَمِّرات ومُريعات.

فلا عجب أن يوجّه الله عزّ وجلّ للتفكُّر في ظاهرة الجبال الراسيات، ويمتَنَّ على الناس بها في أحد عشر نصّاً مع ما في الجبال من فوائد أخرى عظيمة، غَيْرِ تثبيت قِشْرَةِ الأرض، فهي خزّاناتُ مِياهِ الأنهر والعيون، وهي

مستودعات كنوز كثيرة من كنوز الأرض ـ وعليها تُبنىٰ القلاع والحصُون والمساكن المحميّة المشرفة الطيّبة الرياح، إلى غير ذلك من منافع كثيرة.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض من كلّ صِنفٍ وكُلّ نَوْعٍ ممّا تُنبت الأرض من نباتٍ بهيجٍ.

**الزّوج**: يُطْلَقُ في اللُّغة على الصنفِ من كلّ شيء، وهذا هو المراد هنا. ويُطْلقُ على ما يقابل الفرد ـ وكُلُّ شيئين مقترنين هُما زوجان ولو كانا مختلفين غير متشاكلين.

**بَهِيج**: أي: ذي بهجَة. **البَهْجَةُ**: الحسْنُ والنضارة والجمال. يُقال لغة: بَهُجَ الشَّيْءُ بَهْجَةً وبَهَاجَة وبَهَجَاناً فهُو بَهِيجٌ، إذا كان ذا حُسْنٍ ونضارةٍ وجمال.

فدلَّ هذا البيان الرَّبَّانيُّ على أنّ الجمال في الكون أمْرٌ مقْصُودٌ في نظام الخلْق وخُطَّتِه. فَكَما زَيَّنَ الله عزَّ وجلَّ السَّماء الدّنيا بمصابيح مضيئةٍ أو مُنِيرَة، مع الغاية النفعيَّة منها، أنبت في الأرض من كلّ صنف أو نوع من النبات ما هو بهيجٌ حسَنٌ نضِرٌ جميل، للامتاع بجماله مَعَ ما فيه من رِزْقٍ أو نَفْعٍ آخر للعباد.

قول الله تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾.

بعد توجيه الأنظار إلى آيات الله في السَّماء، وبعْضِ آياته في الأرض، وامْتِنانِ الله على عباده بما فيهما من منافع لهم، في حياتهم الدنيا، وما فيهما من امتاع جمالي، وجَّهَ الله عزّ وجلّ أنظار الناس لِمَا فيهما من هداية ذوي الألباب والعقول المتفكرة الواعيَة إلى قضايا الإيمان الكبرى، الّتي هي أولىٰ الواجبات الدينيَّة التي يُطالَبُ بها المكلّفون الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

إنّ هذه الآيات الرَّبانيَّة ذاتُ وظيفةٍ دُنيَويَّةٍ للنَّاس، وذاتُ وظيفَةٍ دينيَّةٍ لهم، إذ تهدي أولي الألباب منهم ابتداءً إلى ما فيها من دلالات إيمانية، على طائفةٍ جليلةٍ من صفات الرّبّ خالِقِها والمهيْمن عليها دواماً بربوبيته، ثم إلى الإيمان بيوم الدّين وتصْديق المرسلين المؤيّدين منه بالمعجزات الباهرات. وتُذَكّرُ دواماً بما دلَّتْ عليه ابتداءً.

هذا ما دلّت عليه عبارة: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾.

**فالتبْصِرَة**: هي التعليم والتفهيم ابتداءً، لمن يُدْرِك دَلاَلاَتِها، يقال لغة: بصَّرَهُ الأمْرَ تبصيراً وَتَبْصِرَةً، أي: أفْهَمَهُ إيّاهُ، وعرَّفَه به وأوضحه له. **والتَّبصُّر**: التأمُّلُ والتعرُّف. **والتَّبْصِيرُ**: التعريف والإيضاح.

وهكذا آياتُ الله في كونه، تُعلّم وتُفَهّمُ أُولي الألباب، الذين يرجعون إليها متفكّرين متدبِّرين.

**والذِّكْرَى**: التذكير بالشيء، يقال لغة: أذْكَرَهُ إيّاهُ، وذكَّرَهُ، والاسم من هذا «الذِّكْرَىٰ».

وآيات الله في كوْنه تكونُ مُشاهداتُها المتكرّرات بعد التعليم الأوّل، ذِكرىٰ، أي: تذْكيراً مُتكرراً بما سَبَقَ أن عَلَّمَتْهُ أوّلاً.

مع ما في آيات الله الكونية من تجديدٍ تعليميٍّ، وذلك أن المتفكّر اللَّبيب كُلَّما كرَّر نظره إلىٰ آيات الله الكونيَّة بإمعان استفاد عِلْماً جديداً لم يكن قد توصَّل إليه بالمشاهدات السَّابقات، وهذا الأمر يظهر بجلاء لأهل البحث العلمي، الذين يَتَعمّقُون في دراسة الظواهر الكونيَّة، وكلّما اكتَشَف هؤلاء جديداً زادهم هدايةً لاسْتبْصارٍ مُذْهش يتعلّق بصفات جليلةٍ من صفات الخالق البارئ المصوّر الحكيم، الذي أتْقَنَ كلَّ شيءٍ صُنْعاً.

ولكن مَنِ الّذي ينْتَفِعُ بالتَّبْصِرَة وبالذِّكرى؟

النَّصُّ يجيب ببيانه على هذا السُّؤال بقول الله عزَّ وجل: ﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

﴿مُّنِيبٖ﴾: اسم فاعل من فعل «أناب يُنيب» أي: رجع وتاب. وبالتفكّر نُدْرِكُ أنّ كُلَّ عَبْدٍ قد خَلقَهُ ربّه مُنْذُ فَطَرَهُ، على الإيمان بالحقّ في مشاعره الوجْدَانيَّة متىٰ أدْرَكه، وأعظم حقٍّ في الوجود الربُّ الخالق البارئ وصفاته الجليلة.

ثم يبتَعِدُ العبْدُ عن مشاعر الإيمان بربّه، مُتَّبعاً أهواءه وشهواتِه وزُخْرفَ الحياة الدنيا، وقد يَضِلُّ في تيهها وتجتاله الشياطِين، فيكُونُ بذلك عبداً آبقاً.

وحينَ يَعْزِمُ على الرُّجوع إلى مَوْطن عبوديّته الإراديَّةِ، ويُحَقّقُ ذلك بالرُّجوع الفِعْليّ، وهي الإنابَة، عندئذٍ يكون مُنيباً، أي: راجعاً إلى موطن عُبُودِيَّتِه الإراديَّة الاختياريَّة، وحينئذٍ تَلْفِتُ نظره آيات الله الكونيَّة، فتكونُ له تَبْصِرَة وذِكرى.

هٰذه المعاني قد أوجزها النصُّ عن طَريق اختيار الكلمات ذَوَاتِ الدَّلاَلاَتِ المطابقيّة، وذَوَات الدّلالاتِ اللُّزوميَّة التي يكشِفُها التفكّر والتّدبُّر، من خلال التعمق في فهم النَّصّ، بَعْدَ عرض طائفةٍ من آيات الله في كونه: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾.

فما أبدع هذا البيان، وما أوجزه وأكْثَرَهُ دقَّة وعُمْقاً وامْتِداداً.

وتطبيقاً لأسلوب التكامل البيانيّ في القرآن نستطيع أن نقول: إنَّ كُلَّ نصٍ قرآنيّ جاء فيه عَرْض آية أو أكثر من آيات الله في كونه يَصْلُحُ لأن يقال في آخره: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾ فإيرادُهُ في نَصّ منها يُغني عن إيراده في سائرها، ولكن لا نجْعله قرآناً يتلىٰ، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن القائم على التكامل في الأداء البياني.

● قول الله عز وجل:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾.

● ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ هذه الجملة معطوفة على الجُمَل السابقة في هٰذا الدَّرس، التَّنْزِيل كالإنْزَال، هو الإهْبَاطُ مِنْ عُلوٍ إلىٰ سُفْل، وفِعْلُ: «**نَزَّلَ**» مثلُ فعل «أَنْزَل» والتعدية بالتضعيف، كالتعدية بالْهَمز، وقد يَدُلُّ الفعل المضعَّف على تكثير الإنزال أمّا فعل: «أنزل» فيدلُّ على الإنزال مطلقاً دون إرادة التكثير، وهما حالتان لإنزال المطر.

● ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من السّحُب الّتي يُطْلق عليها لغة اسم السّماء، كما سبق بيانه، والمشاهدة تُثْبِتُ أنّ المطر يَنْزل من السَّحاب.

فلفظ السَّماء يُحْمَل في كلّ مَوْضعٍ على ما يلائمه.

● ﴿مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي: ماءً فيه زيادةُ نَفْع وخير، فالبركة في اللُّغة: النماء والزيادةُ والكَثْرَةُ من الخير.

إنَّ الماءَ من أجلِّ نِعَم الله على الأحياء في الوجود، وقد جعلَه الله عزّ وجلّ في الأرض غزيراً وفيراً، وما على الناس إلاَّ أن يُحْسِنوا الانتفاع منه، بإجرائه، وتوجيهه، واستنباطه، وجمعه وتحليته واستغلاله وعدم الإسراف والتبذير به، ولو كان من أجل الطهارة الشرعية.

وقد وصف الله الماء الذي يَنْزِل من السماء في هذا النصّ بأنّه مبارَكٌ، ووصفه في موضع آخر بأنّه طَهورٌ، أي: طاهر في نفسه مُطَهِّرٌ لغيره أخذاً من صيغة «فَعُول» التي هي من صيغ المبالغة والتكثير.

● ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾: الإنْبَات ظاهرةٌ مشهودة، لا تكونُ في الأرض إلاّ بوَسِيطٍ هُوَ الْمَاءُ، الذي تَنْحَلُّ فيه العناصر الغذائيّةُ الموجودةُ في

التراب، فتختلط به، فتمتصُّ الجذور الماءَ وما اختلطَ بِهِ، ويكون ذلك غذاءً للنبات فينمو.

وكلُّ الماء الْحُلْوِ في الأرض قد جاءت تَحْلِيَتُه عن طريق التبخُّر، وتَكَوُّنِ السُّحُب، ونزول الأمطار.

فَمِنَ الْمَاءِ الَّذِي نَزَلَ أو يَنْزِلُ من السَّماء يَنْبُتُ النَّبَاتُ، ضِمْنَ سُنَنِ اللَّهِ السبَبِيّة، وَلَوْ أَخَذناه من العيون، أو الأنهار، أو الآبار، أو مُذَاب الثُّلُوج.

وظاهرة الْإِنْبَاتِ حركةُ إِنْشَاءٍ مُتَدَرِّجٍ، فذِكْرُ الإنْباتِ يُغْنِي عن ذِكْرِ الإنشاءِ المتدرِّج.

ولفظُ الإنْبَاتِ ينطَبِقُ علىٰ كلِّ حَرَكَةِ نُمُوٍّ مَهْمَا صَغُرَتْ عَنْ إِدْرَاكِ النَّظَر، مَعَ أصْغَرِ وَحَدَاتِ الزَّمَنِ، فاللَّهُ عزَّ وجلّ هُو المنبتُ دواماً مُنْذُ تَحَرُّكِ الخلِيَّةِ الأُولَىٰ الموجودة في نَوَاةِ الْبِزْرَةِ، حتَّىٰ اكْتِمَالِ الشَّجَرَةِ العظيمة، وكُلُّ ثَمَرَةٍ تَنْمُو فيها، وكُلُّ ورَقَةٍ تَنْمُو فيها، إنَّما تنمُو بإنْباتٍ من اللَّهِ، وهو يَدْخُلُ في عُموم قَوْل الله عزّ وجلّ ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾.

﴿جَنَّٰتٖ﴾: أي: أشجاراً مختلفَةَ الأنْواعِ، تَتَكَوَّنُ مِنها جَنَّاتٌ.

**الجنات**: هي الحدائقُ والبساتينُ المكتظَّةُ بالأشجار، فهي ساترةٌ لمَا تَحْتَها، وأصْل مادّة «جَنَّ» تدور حول السَّتْر بشيْءٍ ساتِرٍ، «جنّاتٌ» جمْعٌ مفرده «جنَّة».

● ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾: أي: وأنبَتْنَا بِهِ زُرُوعاً مختلفة، تُعْطِي عنْدَ نُضْجِها واسْتِحْصَادِهَا حبًّا، فيهِ نَفْعٌ للنَّاسِ وسائر الأحياء على الأرض، وتكوُّنُ الحبِّ نَفْسِه إنَّما يكونُ عن طريق الإنبات أيضاً.

**الحبُّ**: اسم جنْسٍ يشْمَلُ كُلَّ الحبُوبِ والْبُزُور الَّتِي تُنْتِجُها الزُّرُوع.

**الْحَصِيد**: هو المحصُودُ من الزَّرْع،أي: المقطوع بالمِنْجَل أو نَحْوِه، لِيُدْرَسَ، أو يُدَاسَ، ويُفْرَزَ مِنْهُ حبُّه، ويُكسَّرُ قَشُّهُ حتَّىٰ يَكُونَ تِبْناً عَلَفاً للدَّواب، أو يُنْتَفَعُ به في منافِعَ أخْرَىٰ.

فَحَبُّ الْحَصِيدِ: هُوَ حَبُّ الزَّرْعِ المحصُود.

فدلَّ هذا على أنّ كمَالَ نُضْجِ الحبّ إنّما يكون حينما يَصِيرُ الزَّرْعُ صالحاً لِأنْ يُحْصَد، وذلك باصْفِراره، ويُبْسِه، وذَهاب خُضْرَته ونضرته.

• ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾.

**النّخْل**: اسم جنس جمعي، واحدته «النخلة» وشجر النّخل معروف يُثْمِرُ البلح الذي يصير تمراً، و(ال) في [**النَّخْل**] للتنويه بهذا النوع من الشجر وكثرة منافعه.

﴿بَاسِقَٰتٍ﴾: أي: طِوالاً مُرْتفعاتٍ في جوّ الأرض، ذوات سيقان طويلة، واللفظ منصوبٌ على الحال.

تقول لغة: بَسَقَ الشيء يَبْسُقُ بُسُوقاً، إذا طال وارتَفَع وعلا.

﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾: قال صاحب القاموس المحيط: الطَّلْعُ من النَّخْلِ شيءٌ يَخْرُجُ كأنّه نَعْلَانِ مُطْبَقَان، والْحَمْلُ بَيْنَهُما مَنْضُود.

﴿نَّضِيدٌ﴾: أي: منضود، والمنضودُ هو الذي تراكب بعضه على بعض باتساق. يقال لغة: نَضَدَ مَتَاعَهُ يَنْضُدُهُ، ونَضَّدَهُ يُنَضِّدُهُ، إذا جعل بعضه فوق بعض باتِّسَاقٍ ونظام. فهو منْضُودٌ، ونَضِيدٌ، ومُنَضَّدٌ.

وهكذا واقع حال طلع النخل، متراكبُ الحبّ بعْضُه فوق بعْضٍ باتِّسَاقٍ وانتظام.

ولا يخفى ما في هذا البيان من لفت الأنظار إلى الظاهرات الجمالية في خَلْق الله، فلبُسُوقِ النخل ولِتَرَاكُبِ الطَّلْع بانتظام جمالٌ يُمتع الناظرِين.

● ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾: **الرِّزْق**: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ به من مأكولٍ، ومشروب، وملبوس، وغير ذلك، وقد يُطْلَقُ على ما هو سبَبٌ أو وسيلة لذلك إطلاقاً مجازيًا، وبكثرة الاستعمال قد يصير مثل الحقيقة: كالعطاء، والرواتب من النقود.

**والرَّزْق**: بفتح الراء مَصْدَرُ فعل «رَزَقَهُ يَرْزُقُهُ رَزْقاً».

**العباد**: أُطْلِقَ لفظ الْعَبْدِ والْعِبَادِ والْعَبيدِ في القرآن على الإنْسِ والجنِّ والْمَلاَئكةِ، ومنه قول الله عزّ وجل في سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول).

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾.

إذ هم مخلوقون له فهم مملوكون له، فكلُّ حيٍّ قابل لاكتساب العلم يُطْلَقُ عليه لفظ «عَبْدٍ» بهذا المعنى.

﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾: أي: أَنْبَتْنَا في الأرض من كلّ زَوْج بهيج، وأَنْبَتْنَا جنّاتٍ وحَبَّ الْحَصِيد، وأنْبَتْنَا النخل باسقاتٍ لها طَلْعٌ نضيدٌ، واتَّخَذْنا الأَسْبَابَ التي جعلناها في التنظيم العامّ أَسْباباً نُجْرِي من خلالها الأشياء الّتي قَدَّرْناها وقَضَيْنَاها، لأجْل رزْقِ العباد كلّهم في الأرض، من كَانَ منهم مُنِيباً أم آبقاً، مؤمناً أَمْ كافراً، فحيَاةُ الامتحانِ لا بُدَّ أَنْ يكونَ الرزق فيها لجميع الممتَحَنين محسنِهم ومُسِيئِهِمْ، مؤمنِهم وكافِرهم، ضمن نظام الحكمة العامّة.

﴿رِّزۡقٗا﴾: مفْعُولٌ لأجْلِه، فهو منصوب لذلك.

وتطبيقاً لأسلُوبِ التكامُلِ الْبيَانيِّ في القرآن المجيد، نستطيع أن نقول: إنَّ كُلَّ نصٍّ قُرْآنِيٍّ جاءَ فِيهِ عَرْضُ ظاهرةٍ أو أَكْثَرَ ممَّا فِيهِ رِزْقٌ هيَّأَهُ الله لعباده في الأرض، يَصْلُحُ لأَنْ يقال في آخِرِه: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ كما جاء في هذا النَّصّ قياساً مَطِرداً دون أن نجعله قُرآناً يتْلَىٰ، لأنَّ إيراده في نصٍّ مِنْها يُغْنِي عن إيرادِه في سائرها.

فما ذكَرَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هذا النّصّ يَصْلُحُ تَعْمِيمهُ فكريًا علَىٰ سائر النّصوص، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن. القائم على التكامُلِ في الأداء البياني.

فبالروعة الأداء البيانيّ الْبَدِيعِ في القرآن المجيد، مع مطابقة الحقّ والواقع.

**وظيفتا آيات الله في كونه ونِعَمِه على عبادِه:**

لقد دلّنا التَدبُّرُ المتأنّي على أنّ اللهَ عزّ وجلّ قد جعَلَ آياتِه في كَوْنِه، ونِعَمَهُ علَىٰ عباده، ذَوَاتِ نوعَيْن من الوظائف:

**النوع الأوّل:** الوظائف التي تكونُ لمصالح الدُّنيا، وهذه الوظائف يَنْتَفِعُ بها كُلُّ مَنْ يتَّخِذُ الوسائل للانتفاع بها، مؤمناً كان أمْ كافراً، تقيًّا كان أم فاجراً.

**النوع الثاني:** الوظائف الهاديَةُ بدلالاتها إلى الله عزَّ وجلَّ، وصِفَاتِهِ الْجَلِيلة، والمُبَصِّرَةُ بحِكْمَةِ الله والغاية من خلْقِ الناس، وأنّ على العباد أن يُؤْمِنوا بربّهم ويَعْبُدُوه. ثُمَّ المذكِّرَةُ بكُلِّ ذَلِكَ كُلَّما نظر إليها الناظِرُونَ بتفكُّرٍ وتَدَبُّر.

فهي وظائفُ لمصَالح الآخِرَة، أمّا المنتفعون بدلالاتها الَّتي تحقّقُ مصالح الآخِرةِ فَهُمْ كُلُّ عَبْدٍ مُنِيبٍ إلى رَبّه غير آبِق.

❁ ❁ ❁

● قول الله تَعالى:

﴿.. وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

أي: وأحيَيْنا بالماء المبارك الذّي نَزَّلْنَاهُ بَلْدَةً مَيْتاً، فَنما فيها النَّبَاتُ ذو الخُضرة والنُّضْرَةِ والثمرات النافعاتِ المختلفَاتِ، بَعْدَ أنْ كانَتْ الأرْض تُراباً

قد تفرَّقَتْ فيه ذَرَّاتُ النباتات الّتي كانت قَبْلَ حينٍ مالئةً سَطْحَ الأرض بالخضرة والنضرة والحركة والنماء، وتفرَّقَتْ فيه بزورها حاملاتٍ خرائطَ تكوينها، وبرامجَ عودتها إلى ما كانت أُمَّهاتُها عليه، وخصائِصَ نَشْأتها ثانياً وثالثاً وإلى ما لا نهاية له، على الصفات الّتي تمَّتْ بها نَشْأَتُهَا الأولىٰ.

**الْبَلْدَةُ، والْبَلَدُ**: المكان الواسع من الأرض، وقد يُلاحَظُ فيهما المكان المأْهُولُ بالسُّكّان المحْتَاجين لنباتات الأرض وثمراتها.

وقد جاء في اللّغة لفظتا: «بَلَدٍ» بالتَّذكير، و«بَلْدَةٍ» بالتأنيث، للدّلالَة على كلّ قطعة أرضٍ ذَاتِ حُدُودٍ ما، سواءٌ كانت عامِرَةً أمْ غير عامرة، سكونَةً أَمْ غَيْر مَسْكُونَة، وتُطْلَقان على التراب، ويُطْلَقُ لفظ «الْبَلْدة» على الأرض، تقول العرب هذه بلْدَتُنَا، أي: هذه أرضنا.

وقَدْ وُصِفَتِ «الْبَلْدَةُ» ولَفْظُها مُؤنث، بلفظ «مَيت» أو «مَيِّتٍ» وهو مذكَر، إلحاقاً بما يَسْتَوي فيه المذكر والمؤنث، فهو لا يحتاج أداة تأنيث.

قال الزَّجَاج: «المَيْتُ» و«المَيِّتُ» بالتخفيف والتشديدِ، والمعنَىٰ واحد، ويَسْتَوِي فيه المذكر والمؤنث.

أقول: لم يأتِ في القرآن وصْفُ الْبَلْدَةِ بالْمَوْتِ إلاّ بصيغة: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وهي في ثلاثة نصوص:

(١) في الآية (١١) من سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

(٢) وفي الآية (٤٥) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٣) وفي الآية (١١) من سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).

أمّا في غير لفظ «ميت» فقد جاء وصف «البلدة» في القرآن بالتأنيث.

وعلّل بعض المفسرين تذكير لفظ «ميّت» في وصف «بلدة» بقوله: لأنَّ البلْدَةَ بمعنَىٰ البلد.

**وأقول**: ما ذكره الزجَّاج أحْسَنُ مما ذكره غيره من تأويلاتٍ لا داعي لها، فالاستعمال جارٍ في هذا اللفظ «ميّت» على ما يستعمله العرب، والقرآن شاهِدٌ عليه.

والمرادُ بإحْيَاءِ البَلْدَةِ إحيَاءُ النَّبَاتَاتِ فيها، من البزور والجذور المنبثَّةِ فيها، وهذا إطلاق مجازيّ من نوع المجاز المرسل، والعلاقة فيه إطلاق المحلّ وأرادة ما يَحُلُّ فيه، أو يخرجُ منه.

وهل المراد بالإحياء تَشْبِيهُ إنْمَاءِ النَّبَاتَات بإحياء الحيوانات ذَوَاتِ الحركات الإِرَادِيَّة، على ما أدْرَكْنَا من صِفَاتها، أمْ أنّ الحياة في الكون ذات مراتب ودرجاتٍ في هذه المراتب، ويظهر لنا من هذه المراتب ما يلي:

**الأولى**: مرتَبَةُ حَيَاةِ النباتات، ذوات الخلايا الخاصَّةِ بها.

**الثانية**: مَرْتبةُ حياةِ الْخَلاَيَا في أجساد الحيوانات ذوات الحركاتِ الإراديّة، وبعض الإحساسات.

**الثالثة**: مرتبة الحياة الكلّيَّةِ للحيَوانَاتِ ذوات الحركات الإراديَّة، وجُمْلَةٍ مُجْتَمِعَةٍ من الإحساسات المصحوبَةِ بمشاعر اللَّذَّةِ والأَلم، ويَحتَلُّ أَعلى دَرَجات سُلَّمها الإنسان.

والأرجَحُ فيما أرَىٰ واللَّهُ أعلم: أن الحياة ذات مراتب متفاضلات، وذات درجات متفاضلاتٍ في كلّ مرتبة.

فالحياة جنْسٌ كُلّيٌّ يَدْخُلُ تحته أنواع متفاضلة، ويدخل تحت الأنواع منها أصناف متفاضلة أيضاً.

وبَدْءُ هذا السُّلّم ذي المراتب والدرجات المتفاضلات يمكن تحديدُ أدناه من وحِيدِ الخليَّة بحسب مُدْرَكاتنا، فمتَعدّد الخلايا في وحْدَةٍ يحكُمُها نظامٌ عامّ.

والكائنات الّتي تنْمُو بتكاثُرِ خلاياها دُون ظُهُور حركات إرادِّيةٍ لها وإحساسات راقيات، تدخل في نوع النباتات.

والكائنات التي تَنْمو بتكاثُر خلاياها، مع ظهور حركاتٍ إرادِّية لها وإحساسات راقيات تَدْخل في نوع الحيوان، ولهذه الحيوانات درجات متفاضلات. ويَحتَلُّ الإنسان قمّة هذا النوع.

وعلى هذا فالتعبير القرآنيُ بالإحياء هو تعبير على وجْهِ الحقيقة، لا على التشبيه، أو المجاز بالاستعارة.

واللَّهُ أعلم.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾: أي: يكون خروج الموتَىٰ من الأرض، مثلَ ذلك الذي يَحْصُل لبُزور أو أصول جُذُور النباتات الموزعة في تُرابِ الأرض، والمستَقِرَّةِ أو المستَوْدَعَةِ فيها، والذي تكون معه الأرض خالية من الحياة النبانية، إذا نَزَلَ عليها المطر من السَّحاب، فاختلطَ الماءُ بتُرَابِ الأَرْضِ، فوصَلَ الماء إلى البزور أو أصول الجُذُور، فامْتَصَّتْهُ، فدَبَّت فيها عوامل الحياة النباتيَّة، فانتفخت وامْتَدَّتْ مِنْهَا مَاصَّاتُ الغذاء من التراب، ونامِيَاتُ النَّبَاتِ تَشُقُّ تراب الأرض آخذةً في الصعود لتمْتَصَّ الهواء والضياء، وتُتَابع التعاظم بالنماء، حتَىٰ تَعُودَ مثلَ ما كانت عليه في دورات حياتها السّابقة.

فإحياء الْمَوْتَىٰ يَوْمَ البعْثِ يكون من يُزُور أجسادهم، إذا أنزل الله عزّ وَجلَّ علَىٰ الأرض الماءَ الخاصَّ بإعادَة الأحياء الحيوانيّة إلى الحياة مرَّةً أخرى، فيَصِلُ هذا الماءُ المختلِطُ بالتُّراب إلى بُزُورِ الأجساد، فيحدُثُ فيها مثل الذي يحدُث لبزور النباتات، فتنمو وتتعاظم، ويأمُرُ الله نافخَ الصُّور فيَنْفُخُ فيه، فتَنْطَلق الأرْواحُ إلَىٰ أَجْسادها بخَلْقِ الله.

وبِزرَةُ كُلّ جَسَدٍ حيٍّ الحاويَةُ لخريطة حياتهِ وصفاتِ ذاته الجسديَّة

والنفسية، مستودعَةٌ في باطن عَجْبِ الذَّنَب[(١)] الّذي لا يتعرَّضُ للفناء، وإن تعرض جِزْمُ الْعَجْبِ إلى تغييرات، فهي تغييرات سطحيَّةٌ لا تَصِل إلى عُمْقِ الْعَجْبِ الحاوي لخريطة حياتِهِ وصفاته، وبرنامج نمائه، فهي نواة صغيرة جدًا لا تُدْرِكُهَا الأبْصَار.

على أنّ الله عزّ وجلّ لا يحتاج في خلْقِهِ الأَوَّلِ وإعَادَةِ خَلْقِهِ إلى كُلِّ هذه الأسباب، فخريطَةُ كُلِّ كائنٍ مَعْلُومَةٌ لدَيْهِ، وصفاتُ جَسَدِه ونفسه مَعْلُومَةٌ لدَيْه، ولا تحتاج إعادةُ خَلْقِهِ أكثر من كَلِمة: «كُنْ» فهو يكون، على مُرَادِ الله، وفي الإعادة يكون كما كان في الخلْقِ الأوّل.

وإذا لاَحَظْنَا أَنَّ عَمَلِيَّاتِ خَلْقِ اللَّهِ للأشياء آناً فآنا في كلِّ أصْغَرِ وحْدَةٍ زمَنِيَّة هي خَلْقٌ مُتَجَدِّدٌ، دون أَنْ يُؤَثِّرَ هٰذَا على أصْلِ كيَانِ الْمَخْلُوق، في وحْدَةِ ذَاتِهِ وصفاته، فإنَّه يَهُونُ عَلَيْنَا جدًّا أن نتجاوز كُلَّ احتمالات انعدام كلّ ذَرَّاتِ الذَّاتِ الأُولىٰ، لو كان الواقع كذلك.

فإننا نُشَاهِدُ أَنَّ بَقَاءَ النُّور في المصابيح الكهربائيَّة قائم على التجدُّدِ المستمرّ، بالإمْدَاد المتَجَدِّد بالطَّاقَةِ الكهربائية، فكُلُّ لحظةٍ من لحظات النور، يوجَدُ فيها نُورٌ جَدِيدٌ غَيْرُ النور السَّابق، دون أَنْ يُؤَثر ذلِكَ على وحدة الأصل.

وهكذا كُلُّ ما في الوجود من كائنات في السَّمَات والأرض، يُمْسِكُها اللَّهُ عزّ وجلّ في الوجود باقيةً بإيجادٍ مُتَجَدِّد في تَوالي أقصر اللّحظات، وقد دلّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

---

(١) **عَجْبُ الذَّنَب**: هو جُزيْءٌ في أصْلِ الذَّنَب عند رأس الْعُصْعُص، ويُجْمَعُ على «عُجُوب» و«أعجاب».

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

أي: إنه جلَّ جلالُهُ يُمْسِكُهَا في الْوُجود بما يُمِدُّهَا به من خَلْقٍ مُتجدِّد، وحين يُوقِفُ تجديد الخلْقِ تَعُودُ عَدماً إلىٰ أصْلِها، وعندئذٍ لا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يُمْسِكَها لتَبْقَىٰ مَوْجودة.

فَمَا العجبُ من إعادة أيّ مَخْلُوقٍ بخَلْقٍ مَتجدِّدٍ مَا دَامَ علْمُ الله به وبصفاته كُلِّهَا شاملاً عامًّا، ومَا دَامَتْ قُدْرَةُ اللّهِ لَمْ يَحْدُثْ لها تغيير، ومن صفاته جلَّ جلالُهُ أنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً فَإِنَّما يَقُول لَهُ: كن فيكون.

لكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لعمليات خَلْقِهِ أَسْبَاباً فَهُوَ يَخْلُقُ مِنْ قَنَواتِها، الْتِزَاماً بما اختار هو سبحانه من نظام.

وكلُّ كلام في الأسباب لا يخرج عن محاولَةِ كشْف النظام السَّببيّ الَّذِي نَظَّمَ بِهِ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ عَمَلِيَّاتِ خَلْقِهِ بدءاً وإعادةً، أمّا الأسباب بذاتها فَلَا تفْعَل شيئاً، ولا تخلُق شيئاً.

ونُلَاحِظُ في عِبَارَة: ﴿.. كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ عَقِبَ بَيَانِ أسباب إنباتِ النباتات في الأرضِ، أنَّ الله عزَّ وَجلَّ بَعْدَ أَنْ وَجَّهَ الأَنْظَارَ للتفكّر في دَلائل بَعْضِ آيَاتِه في كوْنِهِ، نَبَّهَ على ظاهِرة إحياء الأرْض بعْد مَوْتها الّذِي يَتِمُّ بَعْدَ تَنْزِيلِ الماء المباركِ من السَّمَاءِ واختلاطه بتُرَابِ الأَرْضِ الَّتِي فِيها بزور النباتات، فَتَنْبُتُ بخَلْق اللّهِ وقضائه وقَدَره فتَعُودُ حيَّةً بعْدَ أَنْ ماتَتْ فيها الحياة السابقة.

وبعد التَّوْجِيهِ إلى هٰذه الظاهرة المتكرّرة في الحياة الدنيا، أرشد الله جلّ جلالُهُ إلى أنَّ حَيَاةَ الناس بَعْدَ الموتِ مِثْلُها، فلا فرق بين حيَاة شجرة عظيمة من نواةٍ لا تُدْرَكُ بالطَّرْفِ في بِزْرَتِهَا، وبيْنَ حَيَاةِ إنسان بَعْدَ مَوْته من نواةٍ لا تُدْرَكُ بالطرف، في عَظْمَةٍ من عِظَامِ جَسَدِه الّذِي بَلِيَ وتفتَّتَ، وتفرّقَتْ ذَرَّاتُه في تراب الأرض، وهي في عَجْبِ الذّنَب.

فإذا كان المتَشكِّكُونَ حريصينَ على مُشاهدة مِثالٍ للحياة بَعْدَ الموت، فإحياءُ نباتاتِ الأرض بعْدَ موتها مثالٌ متكرّر الحدوث في الحياة الدنيا.

وأكّد الله عزَّ وجلَّ بيان هذا في قوله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

﴿ٱلنُّشُورُ﴾: هو الإِحْياء بَعْدَ الموْتِ. وكذلك الإِنْشار.

ثُمَّ أنزل قوله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثُمَّ أَنْزَل الله عزَّ وجلَّ قوله في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وظاهر تشبيه إحياء الموتى يوم القيامة بإحياء النَّباتات من نَوَيَاتِ بزورها، يَدلُّ على أنّ إحياء الموتى يكونُ كذلك من نوياتٍ تبقَىٰ فيها صلاحيَّةُ النشأةِ الأُخْرَىٰ، وحين يَأْتي يومُ البعث يُهَيِّئُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ الظروف الصالحة لهذه النشأة، والأَسْبَابَ الّتِي بها تكون، فتنمو هذه النَّوَياتُ حتَّىٰ تكُونَ أجْسَاداً مُسْتَعِدَّةً لنفخ الرُّوح فيها، فيأْمُر اللَّهُ ـ جلّ جلالُه وعظُم سلطانه ـ الْمَلَكَ المكلَّف بنفخ الصُّور الّذِي اجتمعت فيه الأرواح، فينْفُخُ فيه، فتنطَلِقُ كُلُّ رُوح وتَحُلُّ في جَسَدِها الّذي صار جاهزاً بالنشْأَةِ الأخرى للحياة والبعث، على وفق ما كان عليه في الحياة الدنيا، لأنَّ خريطة صفاته كُلّها موجودة في نواته الَّتِي احتفظتِ الأرض بها، من جَسَدِهِ في الحياة الأولى.

وتَدُلُّ ظواهر النصوص القرآنيّة على أنَّ اللَّهَ جَلَّ جلالُهُ وعظُم سُلْطانه ـ يُنْبِتُ أجْسادَ الموتى في الأرض، كما يُنْبِتُ النباتات الَّتي نُشَاهِدُ عودتها إلى الحياةِ في ظاهراتٍ مُتكَرِّرات، إذْ يُنْزِلُ من السّماء ماءً صالحاً لتفجير نويات أجساد الموتى، فتأخُذُ في النِماء، كما تَنْبُتُ البقول أو الفُطُور في الأرض، حتّىٰ إذا اكتمَلَتْ نُفِخَتْ فِيها الأرواح.

وهَذا هو ما دلت عليه بيانات الرسول ﷺ فوجب اعتمادُه.

● روى مسلم بسَنَدِه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»(١).

قالوا: يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟. قال: أَبَيْتُ.

قالوا: أربعون شهراً؟. قال: أَبَيْتُ.

قالوا: أربعون سنةً؟. قال: أَبَيْتُ.

«ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ من السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَما يَنْبُتُ الْبَقْلُ».

قال: «ولَيْسَ مِنَ الإنْسَانِ شَيءٌ إلاَّ يَبْلَىٰ، إلاَّ عَظْماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَة».

● وروى مسلم عن أبي هريرة أيضاً، أنّ رسول اللَّهِ ﷺ قال:

«كُلُّ ٱبْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ، وفِيهِ يُرَكَّبُ».

● وروى مسلمٌ عنه أيضاً، قالَ: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ في الإنْسَانِ عَظْماً لاَ تَأْكُلُهُ الأَرْضُ أبَداً، فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

---

(١) **النفختان**: هما نفخة الملك الأولى في الصُور الّتي يتمّ بها إماتة الأحياء إلاَّ من شاء الله، ثم يقبض الله أرواح هؤلاء، والنفخة الثانية هي نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت.

قَالُوا: أيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قال: «عَجْبُ الذَّنَبِ».

● وروى البخاريُّ بسَنَدِه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«ما بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ».

قالوا: يَا أبا هُرَيرة: أَرْبَعُونَ يَوْماً؟ قال: أَبَيْتُ.

قالوا: أرْبَعُونَ سنةً؟. قال: أبَيْتُ.

قالوا: أربَعُونَ شهراً؟. قال: أبَيْتُ.

«ويَبْلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ إلاَّ عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ».

❀ ❀ ❀

فلا داعِيَ بَعْدَ دَلاَلة ظواهِرِ الآيَات الْقُرْآنيَّةِ، وصَرِيح دَلاَلَةِ هٰذِهِ الأَحادِيثِ الْمَرْوِيَّةِ عن الرسول ﷺ للذَّهَابِ إلىٰ مُبالَغَاتٍ لا دَلِيلَ عَلَيْها حَوْلَ فِكْرَةِ إعَادَةِ الأَجْسَادِ بأعْيانِها، ولا دَاعِيَ لِلْغُلُوّ والمُمَاحَكَةِ واللَّجاجِ في هذا، فهُوِيَّةُ الإنْسَانِ بنَفْسِهِ ورُوحِهِ الَّتِي تَكُونُ بها حَيَاةُ نَفْسِهِ، وخريطةُ نَفْسِهِ وبناءِ جَسَدِه موجودة في نواته، كَمَا أنَّ خَرِيطَةَ الشجرة العظيمة موجودةٌ في نواتها، كامِنَةٌ فيها، ومتَىٰ تهيَّأتْ شُرُوط إنْبَاتِهَا شَجَرَةً، جرَىٰ نَماؤُها على وفق خريطتِها، مُسْتَفِيدَةً بناء جَسَدِها من عَنَاصِرِ تُراب الأرض.

ولَدَىٰ تَبْدِيل جَسَدِ الإنسانِ كُلَّ عَشْرِ سَنَوَاتٍ في الحياة الدنيا باسْتِثْنَاء ثوابتَ صغرىٰ فيه، فإنَّ هُوِيَّتَهُ وحقِيقَتَهُ لاَ تَتَغَيَّرُ، والمحكومُ عليه بضَرْبٍ لجُرْم ارْتَكَبَهُ لاَ يَصِحُّ أَنْ يَقُولُ إذا فَرَّ من السُّلطانِ وعَادَ بَعْدَ عَشْرِ سنواتٍ، إنِّي الْيَومَ أحْمِلُ جسداً غير الذي كنت ارتَكَبْتُ الجُرمَ بِه، فلا تَضْرِبُوه لأنّه بريء، إذ النَّفس هي التي أَجْرَمَتْ والجَسدُ أداة توصيل لَهَا.

❀ ❀ ❀

## (٨)
## التدبُّر التحليليُّ للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤)

قال اللّٰهُ عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾.

وفي قراءة وَرْشٍ: [**وعيدي**] بإثبات ياء المتكلم في الوصل، وأثبتها يعقوبُ أيضاً في الوصل والوقف.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قَبْلَ المكذّبينَ الكافرينَ الّذِين بدأَتِ السورة بمعالجتهم، فالضمير في: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ يَعُودُ عليهم، وسبَقَ أَنْ عرفنا أنَّ السُّورة عَرَضَتْ مقالَتَهُمُ التعجبيَّةِ الإنكاريَّة لقضيتين:

**الأولى**: أنْ يجيئهم رسولٌ بشَرٌ منهم.

**الثانية**: نبأُ إحياء الموتَىٰ يوم القيامة بَعْد فناء أجسادهم، للحسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وجاء هذا الدّرس مشتملاً على ثلاث قضايا، مع عرض أمثلة تفصيليّة موجزة لها:

**القضيّةُ الأولى**: أنَّ رَسُولَ الله محمّداً لم يكن بِدْعاً في تاريخ البشريّة، فقد جاء قبْلَهُ رُسُلٌ كثيرون، إلى أُمَمٍ مختلفةٍ كثيرةٍ من أُمَم الأرض.

أي: فلاَ دَاعِيَ للتَّعجُّب مِنْ كَوْنِه بشراً إذ هي سُنَّة اللّٰهِ في خَلْقِه، وهو ما تقضي به الحكمة، ولَوْ جاء الرَّسُولُ غَيْرَ بَشر لكان بعْثُهُ منافياً لكمالِ الحكمة.

ألم يُرْسِلِ اللّٰهُ عزّ وجل نوحاً وهُوداً وصَالحاً، وموسى وهارونَ ولُوطاً وشعيباً من الْبَشَر؟!! فما وجْهُ الْعَجَب؟!

**القضيَّة الثانية**: أنّ الّذِينَ كَذَّبُوا محمَّداً رسُولَ الله ﷺ بعْدَ بعثَتِهِ لَيْسُوا بدْعاً أيضاً في تاريخ البشريَّة، فقد سبقَتْهُمْ أُمَمٌ كثيرَةٌ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهم، وكذَّبوا بنَبَأ يَوْم الدّين، وكانت مقالاتُهُمْ في التكذيب مشابِهَةً لمقالاتِ مُكذّبي الرسول، تَشَابَهَتْ أفكارهم ونُفُوسهم وقُلُوبُهم.

أَلَمْ يكْفُرْ مِنْ قَبْلِهِم قومُ نُوح، وقَوْمُ هُودٍ، وقَومُ صالح، وفِرْعَوْنُ ومَلَؤُهُ وقوْمُه، وقومُ لوط، وقومُ شُعَيب؟!!.

**القضيَّةُ الثالثة**: أنَّ سُنَّةَ الله في المكذّبين الأوّلينَ أَنْ يتوَعَّدَهُمْ بالْعَذَابِ والإِهْلَاكِ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وأَنْ يُحَقِّقَ فيهم وَعِيدَهُ متَىٰ اقتضَتْ حالَتُهُم الَّتي وصَلُوا إِلَيْها إِنْزَالَ الْهَلاك فيهم، ويكون ذلِكَ حينما تَصِيرُ حالتهم حالةً مَيْؤُوساً منها يأساً كاملاً ويكثر إفْسَادُهم في الأرْض.

أي: والّذين كذّبوا محمّداً ﷺ تَنْطبِقُ عليهم هذه السنَّةُ من سُنَنِ الله، فلْيَرْتَقِبُوا إهْلاكَهُمْ مَتَىٰ صَارَتْ حالَةُ عامَّتِهم مَيْؤُوساً منها، وكثرُ إفسادهم في الأرض.

وقد دلَّ الواقع على أنَّ حالَتَهُم العامَّةَ لم تَبْلُغْ إلى هذا المستَوىٰ، ولهذا لم يُنْزِل الله بهم الإهلاكَ العامّ، كما فعل بالمهْلَكين السّابقين، وإنّما أهْلك منهم وعاقب أفراداً، ونَصَر في المعارك أولياءَه على أعدائه، وهٰذه ميزَةٌ امتازَ بِهَا الْعَرَبُ أيَّام بعثَةِ الرسول ﷺ، مع كلّ ما كان منهم من عنادٍ وإصرارٍ ومُشَاقّةٍ لله ورسُولِه، فإنَّهُمْ لم يَصِلُوا إلى مستوىً يَسْتَحِقُّون به الإهْلاكَ العامّ الشامل.

وفي عرْض هٰذه السُّنَّةِ من سُنَنِ الله عزّ وجَلَّ تحذيرٌ ووعيدٌ للمكذبين، بأَنَّهُمْ إذا وصَلَتْ حالَتُهم إلى المستوىٰ الذي يَسْتَحِقُّونَ به الإهلاكَ الْعَامّ، فإنَّ اللَّهَ سَيُهْلكهم كما أهْلَكَ الّذين كذّبُوا بنبأ يوم الدين من أهل القرون الخوالي، ولَنْ يكونوا مَعْفيِّين من تطْبيقِ هذهِ السُّنَّةِ عليهم، وإهلاكهم إهلاكاً عامًّا شاملاً، فسُنَّةُ الله لا تَبْدِيلَ لَهَا.

وقد عرضَ اللَّهُ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْسِ من المكذبين الأوَّلين الَّذِين أهْلِكُوا بسبب كُفرِهِمْ وإفسادهم في الأرض ثمانية أقوام، تعجّبُوا مِن أن يكونَ رسُولُ الله بَشَراً مثلهم، واستبعدوا قضية البعث ليوم الدين، وهُمُ:

**(١) قَوْمُ نُوحٍ عليه السلام**: وقد جاء ذكرهم في هذه السّورة مع بيان أنَّهم من الذين كذَّبُوا الرُّسُل من أهل القرون الأولى، وأنَّهم قد حَقَّ عليهم وعيد الله لهم بالإهلاك، فأُهْلِكُوا، وإذْ جاء بيانُ إهلاكهم مثَالاً لسُنَّةِ اللَّهِ في إهلاك مُكَذِّبي الرُّسل مُتَعَلِّلين بأنَّهُم بَشَرٌ مِثْلُهم، والمكَذِّبين بيوم الدين مُتَعَلِّلين بأنَّهُ أمْرٌ مُسْتَغْرَبٌ عجيب لا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ، فلا بُدَّ أن يَكُون واقِعُ حَالِهِم كذلك، ولو لم يأت في هذا النَّصِّ تَصْرِيحٌ بهذا.

وحين نسْتَعْرضُ قصَّة نوح وقومه في سائر سور القرآن، نَجِدُ في بعْضِها التصريحَ بهذا الأمر الذي فهمناه استنباطاً.

فقد جاء في عَرض لقطات من قصة نوحٍ عليه السلام مع قومه في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية قولِ نوح عليه السلام لقومه:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ حُجَّتَهُم في تكذيب رسول ربِّهم لم تكن أكثر من التعجُّب من كونه رَجُلاً بشراً منْهُمْ، والتعجُّب من إنذاره لهم بيوم الدّين.

وتُشعِرُ عبارة: ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بأنّ الله قد أنزل على نوح عليه السَّلام كتاباً يجب أن يتَّخذَهُ قَوْمُه ذكراً، بَعْدَ أن يتلَقَّوْه، ويَعْقِلُوه ويتفَهَّمُوا دَلاَلاته.

**(٢) أَصْحَابُ الرَّس**: ولا بُدَّ أنْ يكون حالُ هؤلاء كحال قوم نوحٍ عليه السَّلام، في تعجبهم من أن يأتيهم رسولٌ منهم، ومن نبأ البعث.

**الرَّسُّ**: بئرٌ عظيمة، ويُطْلَقُ لفظ «الرَّسّ» على عدَّةِ أماكن في بلاد العرب. ولم يأتِ في القرآن تفصيلٌ عنهم. ولا تعيين لاسم الرَّسُول الّذي أرسل إليهم، وكلُّ ما جاء من بيان عَنْهُمْ في القرآن: أَنَّهُمْ أصحاب الرَّسّ، وأنَّهُمْ كذَّبوا رسُولَ ربّهم، وأنَّهُمْ أُهْلِكُوا، وذِكْرُهُمْ في سورة (قٓ) ضِمْن الأقوام الّذين أُهْلِكُوا، يَدُلُّ على أنَّ كُفْرَهُمْ قد كان سبَبُهُ تَعجُّبَهُمْ من كَوْن رسول الله لهم رجلاً منهم، وتعجُّبَهُمْ من نبأ الحياة بعد الموت يوم القيامة للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد جاء ذِكْرُهُمْ وبيان إهلاكهم في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً، فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

**تتبيراً**: أي: إهلاكاً فيه تكسيرٌ وتحطيم وَتفتيتٌ لهم.

وقد يَدُلُّ جمع «أَصْحَاب الرَّسّ» مع عَادٍ وثَمُود على أنَّهم قَوْمٌ مِنَ الْعَرَب، فيُبْحَثُ عن آثارهم في بلاد العرب، ولا سيما الأماكن الّتي تُسَمَّىٰ «الرَّسّ».

وجاء في بعض روايات المؤرخين أَنَّهُمْ قَوْمٌ قَدْ خُسِفَ بهم.

(٣) **ثمود**: وهم قومُ النبيّ الرسُول صالح عليه السلام، ولا بُدَّ أَنْ يكون حالُ هؤلاء كحال قوم نوح في تعجُّبهم من أن يأتيهم رسولٌ منهم، وفي تعجبهم من نبأ البعث، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنْفِيذِ الجزاء.

ومساكن ثمود معروفةٌ ظاهرةٌ في أرض تُسَمَّىٰ الْحِجْرِ من أرض العرب، وتُعْرَفُ بمداينِ صالح، ولهم في جبالِهَا آثارٌ ظاهرة.

وجاء في بيان تكْذِيبِهِمْ رسُولَ ربّهم لأنّه بشرٌ مثْلُهم، قوْلُ الله عزّ وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) مُبيِّناً مقالتهم له:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وفي بيان تكذيبهم لرسولهم، وتكذيبهم بما أنذرهم به، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

**وَسُعُرٍ**: أي: وجُنُونٍ.

(٤) **عَاد**: وهم قوم النبيِّ الرسول هود عليه السلام، ولا بُدَّ أَنْ يكون حَال هؤلاء مثَلَ حَال قوم نوح أيضاً في تعجُبِهِمْ مِنْ أن يأتيهم رسولٌ منهم، وفي تعجُبِهم من نبأ البعث.

وكانت مساكن عادٍ في الأحقاف من أرض العرب، والأحقاف تَقَعُ في شمالِ حضرموت، ويقَعُ في شمال الأحقافِ الرُّبْعُ الخالي، وفي شَرْقِها عُمانٌ، وموضع بلادهم اليوم رِمَالٌ قَاحلة.

وفي بيان كفرهم، وتكذيبهم متعجّبين من أن يكون رسول الله لَهُمْ بشراً مِثْلَهم، وتعجُبهم من إنذاره لهم بيوم الدّين، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) يحكي مقالة رسولهم لهم:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

وتَشْعِرُ عبارة: ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بأنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أنزل على هود عليه السّلام كتاباً يجب أنْ يتخذه قومُه ذِكراً، بَعْدَ أن يتَلَقَّوْهُ، وَيَعْقِلُوهُ، وَيَتَفَهَّمُوا دَلَالاته.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) مُفصِّلاً مقالة عادٍ لرسولِهم هُودِ عليه السلام:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

(٥) **فِرْعَوْن**: أي: وقومُهُ، وجاء إفرادُهُ بالذِّكْر لأنّ قوْمَهُ كانُوا له تَبعاً، ولم يكُنْ لَهُمْ رأيٌ غيْرُ رأيه، ولو أنّه آمَنَ لآمَنُوا، فَهُوَ يُمَثّل كلَّ قومه، وإذا قال كلمةً قالُوها.

قال الله عزّ وجلّ في بيان تكذيبِهِم مُوسَىٰ وهارونَ عليهما السَّلام، مُتعلِّلين بأنّهما بَشَران مثلُهم، في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

(٦) **قَوْمُ لُوطٍ**: وَهُمْ قَوْمُ الْقُرَىٰ الّتي كَانَتْ في مكان الْبَحر الميّت، فقلَبَ اللّهُ دِيارَهُمْ عَالِيَها سَافِلَها ودَمَّرَهُمْ وأهْلَكَهُمْ إهلاكاً وخيماً، لقبائحهم الّتي كانوا عَلَيْها مع كُفْرِهِمْ وتَكْذِيبِهِم رَسُول رَبّهم، وتكذيبهم بيَوْمِ الدّين.

وَلا بُدّ أَنْ يكون حالُهُمْ مثل أحوال الأقوام الّذين ذُكِرُوا قبلَهُمْ.

(٧) **أصْحابُ الأيْكة**: ويُعْرَفُونَ بأنَّهُمْ أهْلُ مَدْين، وهم قومُ النبيّ الرسُول شُعَيْب عليه السلام.

والأَيْكَةُ غَيْضَةٌ تُنْبِتُ ناعم الشجر كانت لهم.

ولا بُدَّ أن يكون حالُهُمْ مثلَ أحوال قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، ومن ذُكِرَ بعْدَهم.

وقد ذكر اللَّهُ عزّ وجلّ تعلُّلَهم ببشَرِيَّةِ رَسُولهم، واستبعادهم أنْ يُرسِلَ الله رسُولاً من البشر، فقال الله عزّ وجلّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

(٨) **قَوْمُ تُبَّعٍ**: وهم من عرب اليمن: (حِمْيَر، وحضرموت، وسَبَأ).

و«**تُبَّع**»: لَقَبُ مَنْ كان يَمْلِكُ جميعَ بِلَادِ الْيَمَن، وقد ذَمّ الله عزّ وجلّ قَوْمَ تُبّعٍ هؤلاء، وذكَرَ إهلاكهم، ولم يَذُمَّ تُبَّعاً، ولَمْ يبيّنْ أنّ الإهلاكَ الجزائيْ قد شَمِله، لأنَّه كانَ مؤمناً على دين إبراهيم عليه السَّلامُ، كما رُوِيَ عن النبيّ ﷺ في حديث رواه الإمَامُ أحْمَد.

ولا بُدَّ أن يكون حالُ قوم تُبَّعٍ مثل أحوال الأقوام الذين جاء ذكرهم آنفا.

وقد أبان الله عزّ وجلَّ أنَّ كُلَّ الَّذينَ كَفرُوا بالمرسلين من قبل بَعْثَةِ محمّد ﷺ، كانَتْ تعِلَّتُهُم استِبْعَادَ أن يَبْعَثَ اللَّهُ بشراً رسولاً، فقال الله عزّ وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في معْرِضِ الحديث عن الأقوام السَّابقين الذين كذّبوا رُسُلَ ربّهم:

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ

لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

وبَعْدَ أنْ ذَكر الله عزّ وجلّ هؤلاء الأقوام المهْلَكِينَ إهلاك عقاب وعذابٍ شامل، بسبب تكذيبهم رُسُلَ رَبّهم، وتكذِيبهم بيوم الدّين بحجَّةِ الاستبعاد والتعجّب من كون الرُسل بشراً، والتعجُّب من الحياة بَعْدَ الموت، وضياع رفات أجسادهم في تراب الأرض، بعد أن ذَكَرَهم للاتعاظ بِهم، والاعتبار بما أنزل الله عليهم من وسائل إهلاك وعذاب، قال اللّهُ عزّ وجلّ في آخِرِ هَذا الدَّرْسِ الرابعِ.

﴿... كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

أي: فَوَقَعَ وَعِيدِي بِهِمْ، وهو الوعيدُ الّذي أنذرهم به رُسُلُ رَبِّهم، فَكَانَ حقًّا واقعاً، يَعْتَبِرُ به أولُو الأبصار.

❁ ❁ ❁

## (٩)
## التدبُّر التحليليّ للدرس الخامس من دروس السورة وهو الآية (١٥)

قال اللّهُ عَزَّ وجل:

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَفَعَيِينَا﴾: أي: أفعجزنا؟ يُقالُ لُغَةً: عَيَّ بالأَمْرِ عِيًّا، وعَيِيَ بالأَمْرِ عِيًّا، إذَا عَجزَ عَنْهُ، ولم يُطِقْ إحْكامَهُ، ويُقَالُ أيضاً أَعْيَاهُ الأَمْرُ، أيْ: أَعْجَزَه.

﴿بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾: أي: بهذا الخَلْقِ الذي يَعِيشُ النَّاسُ فيه ضِمْنَ الحياة الدُّنْيَا الأُولى.

و«الفاء» في: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ هي فيما أرى عاطفةٌ فصيحةٌ، وهي الّتي تَعْطِفُ على محذوف، فهي تُفْصِحُ عنه. والتقدير أَقَدَّرْنَا وقَضَيْنَا فَعَيِينَا عند تنفيذ القضاء والقدر بالخلْقِ والإيجاد، لهذا الخلْق الأوّل عجْزاً عن تحقيق ما تمّ به القضاء والقدر.

سؤالٌ اسْتِفْهامِيٌّ تَعْجِيبيٌّ يَطْرَحُهُ الخالقُ البارئ - جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه - مُسْتَخْدِماً ضمير المتكلّم العظيم، علىٰ مُنْكِري البعث، الّذِين استَبْعَدُوا أنْ يكون الخالقُ قادراً على إعادة خَلْقِ النّاس، وإحياء أجسادهم بَعْدَ فنائها، ويتضمّن هذا الاستفهامُ أيضاً الإنكار عليهم، وَاتّهام مداركهم بالضحالة والسطحِية، أو اتّهام أخلاقهم بالجنوح عن منهج الحق، اتباعاً للهَوَىٰ والشهوات.

إنَّ الخَلْق الأوّل لم تكُنِ المخلوقاتُ به موجودةً أصْلاً، إلاَّ في علم الله ضِمْن خُطَط التكوين بالقضاء والقَدر، ثُمَّ تمت عمليات الخلْقِ الأول على وفْقِ ما سبقَ به العِلْم والقضاءُ والْقَدَر، فكانَت المخلوقات بالخلْقِ الأوّل حقيقَةً مشهودة.

أفَعَجَزَ الخالق - جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلَطانه - عن إيجاد الخلْقِ الأوّل الذي لم يكن للمخلوقات به وجُودٌ في الواقع قبْلَه، ولَمْ يكونوا شيئاً مَذْكُوراً؟!!.

إنّ الجوابَ الّذِي يَفْرِضُ نفْسَهُ من الواقع المشهود الذي تتكرَّرُ أحداثه دواماً، هو: أنّ الخالِقَ عزّ وجلّ لم يَعْجِزْ عن إيجاد المخلوقات التي قَدَّرَها وقضاها في الخلْقِ الأوّل، ولَمْ يَعْيَ به.

وهذا يَدُلُّ عن طريق اللُّزُوم العقليّ على أنّ مَنْ لم يَعْيَ بالخلْقِ

الأَوَّل. وهو مازال ولَنْ يَزَال من الأزل إلى الأبدِ على ما هو عليه في ذاته وصفاته، لا يَعْيَا بإعادَةِ الْخَلْق بعْدَ فَنائه، ولا يَعْجز عنه.

إذَنْ: فكَيْفَ يَقَعُ في تَوَهُّم المكذِّبين بيوْمِ الدِّين، وبالبعْثِ للحساب، وفصْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء، استِبْعادُ هذا الإحياء بعد الموت، استبعاداً يَجْعَلُه في تصَوُّرِهم أمْراً غَيْرَ مُمْكِنِ الوقوع؟!

هٰذا الدَّليلُ دليلٌ برهانيٌّ مُوجَّهٌ للَّذِينَ بدَأَتْ السّورة بالْحَدِيث عنهم، وهم الكافرون الذين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

● قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾.

**اللَّبْسُ**: بإسْكان الباء وفتحها في اللُّغة: اختلاط الأمْر. يُقَالُ لُغة: فُلانٌ في رأيه لَبْسٌ، أي: في رأيه اختلاط.

ويقال: الْتَبَسَ عليه الأمر، أي؛ اختَلَطَ واشْتَبه.

وجاء الإضراب بحَرْف ﴿بَلْ﴾ بعْدَ طَرْح السؤال الاستفهاميّ التَّعْجِيبيّ ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾؟! ليَدُلَّ هذا الإضرابُ على أنّ جوابَهُمْ سيَكُونُ حتماً: «لاَ»، لأنّ الواقع المشاهد دامغٌ لهم، وهُمْ لا يستطيعون جُحُودَه، ولو بالمكابَرَة، إلاّ إذا فَقَدُوا عقُولَهُمْ وحواسَّهم.

ولكِنْ يلْزَمُ من اعْتَرافِهم بعَدَم الْعَجز في الخلْق الأوّل، أنْ يَعْتَرِفُوا بأنّ الخالق جَلّ جلاله لاَ يَعْجزُ عن الخلْق الجدِيد، الذي تَتِمُّ به إعادة الموتى إلى الحياة بَعْدَ فناء أَجْسَادهم، فهذا لاَزمٌ عَقْلِيٌّ حَتْمِيّ.

لكنَّهُمْ لم يعْتَرِفُوا بهذا اللاّزم العقليّ، ولم يؤْمنُوا بوقُوعهِ بَعْدَ البيانات الرَّبَّانيّة المنزَّلَةِ على الرَّسُول المؤيّد بالمعجزات الباهرات. بَلْ هم في لَبْسٍ من خَلْقٍ جدِيدٍ، بِتأثير رَغَباتهم وأَهْواء نفوسهم.

لقَدْ قطَعُوا الصِّلَةَ بَيْنَ القضيَّةِ المشهودة الحسّيَّةِ ولازِمِهَا المنطِقيّ

العقليّ الحتْمِيّ، فَلَا يأخذُونَ باللاّزم مع اعترافهم بالملزوم، فهم كَمَنْ يَعْتَرِفُ بطُلُوعِ الشَّمْس لكنَّهُ يُنْكر وُجود النهار في الأَرَاضي الّتي تُشْرِقُ عليها الشمس.

لقد الْتَبَس علَيْهِم الأمْرُ بالنسْبَةِ إلى خلْقٍ جديدٍ، على الرُّغْم من مُساواتِه للخلْقِ الأوّل مُسَاواةً تامَّةً، وعلى الرغم من أنّ المنطقيَّة العقليَّة تَفْرِضُ أن لا يكونَ لديهم أيُّ لَبْسٍ من خَلْقٍ جديدٍ مُسَاوٍ للخلْق الأوَّل.

وهذا الاستدلالُ استدلالٌ برهانيٌّ لاَ سبيل إلى ردِّه، أو نَقْضِه، أو إيرادِ أيّ احتمالٍ يُبْطِلُ الاستدلال به، أو يجعَلُ فيه شكًّا أو شُبْهَةً.

فمَنْ كان قادراً على شيءٍ إبْداعاً، كان قادراً على مثله، مَا دامَتْ صفاتُه على حالها، لَمْ تتغيَّرْ ولم تتناقَصْ.

وصوغُ الدليل بالأسلوب الرِّياضي المنطقي مما يسمّىٰ عند علماء المنْطِقِ بالقياس الاقتراني، نستطيع تقديمه بما يلي:

**المقدّمة الصُّغرى**: الله عزّ وجلَّ قد خَلَقَ الْخلْقَ الْأوَّل بِقُدرَتهِ وعلْمِه وحكمته، تنفيذاً لما سبَقَ به قضاؤهُ وقَدَرُه، وصِفَاتُه لا تتغيَّرُ من الأزل إلَى الأبَد سبحانه.

**المقدمة الكُبْرىٰ**: وكلُّ قادِرٍ على الخلْقِ الأوّل، دون أن تتعرَّض صفاته لأيِّ تناقُصٍ أو تغيير، قادِرٌ على إعادة ما كان قد خلقه، إذا انْعَدَمَ أَوْ فَنِيَتْ ذَرّاتُ جَسَدِه.

**النتيجة**: فالله عزَّ وجَلَّ الّذي لم يَتَغَيَّرْ من ذَاتِهِ ولا من صفاتِه شيءٌ، لأنّ ذَاته وصفاتِه واجِبَةُ الوجود من الأزل إلى الأبد، قادِرٌ حتماً على أنْ يَخْلُقَ نظيرَ الخلق الأوّلِ ابتداءً أو إعادة.

ولا مجالَ للتَّهرُّبِ من قَبُول هٰذهِ النتيجة بعْدَ التّسليم بمقدّمَتَيْها.

ويمكن صَوْغُ الدليل بطريقةٍ أخرى تُسمَّىٰ عنْدَ علماء المنطق، بالقياس الاستثنائي:

- لو لَمْ يكُن الله عزّ وجلّ قادراً على إعادَةِ ما كانَ قد خَلَقَ بعد أن ماتَ وفَنِي، وهو جلَّ جلالُه لم يتغيَّر من صفاته شيء، لمَا كان قادراً على بَدْءِ الخلْق.

- لكنَّه هُو الّذي بدأ الخلْقَ بصِفاته الّتي هي له دواماً من الأزل إلى الأبد.

**النتيجة**: فالله عزّ وجلّ قادرٌ حتماً على إعادة الخلْقِ بَعْدَ فَنَاءِ المخلُوق إلى مثل ما كان عليه.

لكنَّ أمثال هذه الصياغات الرّياضِيَّة لا تَلِيقُ بكتابٍ رَبَّانيّ مُعْجزٍ في بيانه وأُسْلوبه ومضامينه، فجاء فيه عَرْضُ هذا الاسْتدلالِ نفسِه بأسلوب السُّؤال الذي يَنْتَزِعُ الاعترافَ ويَدُلُّ على لوازمه العقليّة، وهو الطريقة المثلىٰ للمناظرة التي يُرادُ بها الوصول إلى الحقّ والاعترافُ به، لا المماراةُ بالباطل القائمة على السّفْسَطات والمغالطات.

وبهذا ظهر لنا أنّ إعادة الرَّبّ الخالقِ الموْتَىٰ إلى الحياة مرَّة أُخْرى، ومَرَّاتٍ كثيرات، قضيَّةٌ واضحةُ الإِمكان لا ينبغي أن يكون فيها لَبْس، ولا تحتاج أكثر من ثبوت الخبر عن الله، أوْ قِيام الدليل العقليّ الّذي يقتضي إعادة الحياةِ لتَحِقيقِ الْعَدْل الذي تقتضيه الحكمة.

وما دامَتِ القضيَّةُ بهذا الوضوح الفكريّ، فالّلبْسُ الّذي وقع فيه الكافرون المكذبون بالبعث للحياة الأخرى، لَيْس مَنْزَعُهُ شُبْهةً فِكْرِيَّةً ذاتَ قيمةٍ، أو ذاتَ وزْنٍ في عالَم المفاهيم الفكريّة، حتَّىٰ تُنَاقَشَ وتُدْفَع بالحجَّة.

إنَّ هٰذَا اللَّبْسَ يتَسَاقَطُ تِلْقائِيًا من نفسه، متَىٰ رجَعَ مُنْكرُ الْبَعْث إلى بصِيرَتِه الفكْريَّة الذّاتيّة، بَعْدَ التنبيه الذي يُحْدِثه في فكرِه السُّؤَالُ المطرُوح.

ولمْ يكُنْ وَاقع الإنسانِ العربيّ بطبيعَتِه الفطريَّةِ، محتاجاً من الناحيَةِ الفكريَّة إلَىٰ أكْثر من هٰذا الاستدال، إذْ لم تكن لَدَيْه شُبْهةٌ حوْلَ ثَبَاتِ صِفاتِ الرَّب الخالق جلّ جلالُه إذا هو آمَنَ به، فلَمْ يَنْزِلْ في الْعَهْدِ المكّيّ دفْعُ شُبْهِة اللُّغُوب، وهو: التَّعَبُ والكَلَلُ مِنْ مُمَارَسَةِ الخلْقِ الأوَّل، الّتي أثارها اليهودُ في العهد المدنيّ.

فأخَّرَ اللّهُ إنْزالَ النصّ الّذي يُكذِّبُ بهِ مَقالَةَ اليهودِ، وضَمَّهُ إلى سورة (قَ) المكيَّةِ، وجعله بَعْدَ كُلّ المعالجات الّتي عالج بها المكذّبين من مشركي مكَّة في السّورة، وقبْلَ ما يَخُصُّ معالَجَةَ الرسُول ﷺ التربويَّة، وهو الآية (٣٨) من السورة.

❁ ❁ ❁

## (١٠)
## التدبّر التحليلي للدرس السادس من دُروس السورة وهو الآيات من (١٦ ـ ١٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

بَعْدَ أنْ جاءَ في السُّورة إثْبَاتُ قضيَّةِ البعثِ للحساب، وفَصْلِ الْقَضَاء، وتنفيذ الجزاء. وبعد أن جاءَ فيها الإلْزَامُ بقُدْرَة اللّهِ على الإحياء بعْدَ الموتِ، عن طَريق الحجَّةِ البرهانيَّة. يأتي هذا الدرس السادس منها لشَرْحِ قضيَّةِ مُرَاقَبَةِ اللّهِ والمكّلفين بالمراقبة من ملائكته، للإنسان في أعْماله الباطنة والظاهرة في الحياة الدّنيا، لمُحاسَبَتِه يَوْمَ الدين على ما كان منْها من كسْبِهِ الإراديّ المسْؤول عنه، لأنّه هو الذي جُعِلَ مُخَيَّراً فيه ذَا إرادة حُرَّةٍ، ليُبْتَلىٰ عن طَرِيقه في ظُرُوفِ الْحَياة الدُّنيا.

وهذا الدرس السادس يُثبتُ أنَّ كُلَّ مَا يَعْمَلُهُ الإنسان، وكُلَّ شيءٍ يَحْدُثُ في جسَدِه أو نَفسِه أو فكْره، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُه وَسْوَسَةً خفيَّةً لا تَصِلُ إلى مُسْتوىٰ الفِكْرَةِ الجليَّةِ، مشْمُولٌ بعِلْمِ الرَّبِّ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه. فَهُو خالِقُهُ العليم بكلّ دقائقه، المسَيِّرُ لكُلّ خليَّةٍ فيه، ولكُلّ أَجْزَاءِ كُلِّ خِلِيَّةٍ فيه، وبأمْرِهِ أوْ بإذْنه عزَّ وجلَّ يحْدُثُ كُلُّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في الإنسان وفي الوجود كُلِّه، من أصْغَرِ جُزْءٍ في كُلِّ ذَرَّةٍ، إلَىٰ أَكْبَرِ مَخْلُوقٍ في الْوُجُود كُلّه.

ولولا شُمُولُ عِلْمِ اللَّهِ كُلَّ شيءٍ، وتسْيِيرُهُ لكلّ شيءٍ، وهيمنَتُه على كلّ شيءٍ، لفَسَدَ نظام الكَوْن، ولتضارَبَتْ حَرَكَاتُهُ، ولَمَا انْطَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ إلىٰ غايَتِهِ الْمَرْسُومَةِ لَهُ بإحكام وإتْقان، ولَدَمَّرَ بعضُهُ بعْضاً.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: في هذه العبارة تنبيهٌ على أنّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بعظمة ربوبيّته، الّتي دَلَّ عليها ضَمِيرُ المتكلّم العظيم، لا بُدَّ أن يكون عليماً بكلّ دَقائِق ما يُسَيِّرُ أجزاءَه، مهما صغُرَت، وعليماً بكل مُتَحرِّكٍ فيه وساكن، وعليماً بما يَصْدُر عنه من حركاتٍ إراديّة، وسلُوكٍ إراديٍّ ظاهرٍ أو باطن، وعليماً بخواطِرِه، وعليماً بإراداتهِ الّتي يُرِيدُها، وعزَمَاتِهِ الَّتي يَعْزِمُها، وشَهَواتِهِ الَّتي يشْتَهِيها، ونِيَّاتِهِ التي يَنْوِيها، وعواطِفِ قَلْبِهِ الَّتي يُحِسُّ بها، حتَّىٰ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ من أُمُورٍ قد لا تَصِلُ إلى مُسْتَوىٰ التفكير الواضِح. وجاء تأكيد هذه القضيّة بعبارة ﴿وَلَقَدْ﴾ لأنّ الكلام مُوَجَّهٌ للمكذّبين بيَوْم الدين.

إن الخالِقَ العظيم الجليل الّذي خلَقَ هذا الإنسان المتْقَنَ العجيب، الَّذي فضَّلَهُ عَلَىٰ غَيْرِه ممَّنْ خلَقَ، فجعَلَهُ في أَحْسَنِ تَقْويم، وجعَلَهُ من خلايَا عَجِيبَةِ التركيب، وعجيبَةِ الْعَمل دَاخل جِسْمِه، ويُسَيِّرُ فيه كُلَّ دَقيقَةٍ: من دَمٍ، وغِذَاءٍ، وطاقَةٍ، وحرارة، وجُرْثُومَةٍ، وكلَّ دَقِيقَةٍ من الفضلاتِ الَّتي

ينبغي أَنْ تُطرحَ وَيَتخلَّص منها جِسْمُهُ، ويوجِّه كُلَّ جُزءٍ مِنْ أجزائه مهما صغُر إلى مكانه المقدَّر له، بإتقانٍ وإحكامٍ غايةٍ في الإبْدَاعِ والتنظيم والتَّسْيير، هل يُعْقَل أن لاَ يكون عليماً بأعماله الاختيارية، وعليماً بما تُوَسْوِسُ به نَفْسُه؟!

إنّ البديهة العقليّة تُثبِتُ بما لا شَكَّ فِيه أَنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عليماً بكُلّ ما يَصْدُر عن الإنسان، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُه من خَواطِرَ عابرةٍ غَيْرِ مسؤولٍ عنها.

● قولُه تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾:

**الْوَسْوَةُ: والْوِسْوَاسُ: حَدِيثُ النَّفْسِ. وأصل الوسوسة الصَّوْتُ الخفيُّ، ومنه صَوْتُ الْحُلِيِّ.**

يقالُ لغة: وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ وَسْوَسَةً وَوِسْوَاساً.

والاسْمُ منه: «الْوَسْوَاس» ويُطْلَقُ هذا اللّفظ على الشيطان، لأنّه يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النّاس، ويُطْلَقُ أيضاً على هَمْسِ الصَّيّاد الذي يُخْفي صوته لئلا يُحِسَّ به الحيوان المرادُ صَيْدُه.

وذَكَر اللَّهَ عزَّ وجلَّ عِلْمَهُ بما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُ الإنسانِ من خواطِرَ خفِيَّةٍ جدًّا، للإشعار بأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ يَصْدُرُ عَنْ الإنسان، فَعِلْمُهُ بأخفى الأشياء يُدُلُّ على عِلْمِه بما هُوَ دُونَ ذَلِكَ في الخفاء، من باب أولى، فضلاً عن الأشياء الظاهرة الّتي لا خفاء فيها.

قوله تَعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

في هٰذِهِ العبارة تَقْرِيبٌ لفِكْرَةِ شُمُولِ عِلْم اللَّهِ لما يَعْمَل الإنسانُ في ظاهِرِه وباطِنِه، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُهَ.

وجاء في العبارة استخدام ضمير المتكلّم العظيم، لما في الموضوع المتحدّث عنه من عظمة رُبوبيّةِ الرَّبّ.

**حَبْلُ الْوَرِيد**: هو شِرْيان يُطْلِقُهُ الْعَربُ على الْوَتِين الموصُولِ بالقلْب، وهو الشريان الذي يُغذِّي جِسْمَ الإنْسَان بالدَّمِ النقيّ الخارجِ من الْقَلْب.

والمعنىٰ أنَّ الله جلّ جَلالُهُ أَقْربُ بعِلْمِهِ إلى هُوِيَّةِ ذَاتِ الإنسَان المفكِّرَةِ الْمُريدَةِ الْمُوَسْوِسَةِ الْعَامِلَةِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِه الموصولِ بقَلْبِه. أي: إنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ أَقْرَبُ إلَىٰ الإنْسَانِ من الأوعِيَةِ الدَّمَوِيَّةِ الّتي تُمِدُّهُ بالحياة مع كُلِّ نَبْضَةٍ من نَبَضَاتِ قَلْبِه الَّتي تَظْهَرُ دَقَّاتُها فِي حِبَالِ أَوْرِدَتِهِ.

إذَنْ ألاَ يَعْلَمُ الله عزّ وجلّ ما يَعْمَلُ الإنسان بإرادَته الحرَّة واختياره، ليحاسبه ويفصل القضاء بشأنه ويجازيه يوم الدّين؟!

والجواب: بلىٰ، إنّ اللّهَ بكُلّ شيْءٍ عَليم، إنَّه سُبْحانَهُ وتعالَىٰ مُحِيطٌ بكُلِّ شيْءٍ علماً.

● قولُهُ تَعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾.

أي: ومع علم الله الشامل الذي سبَقَ بيانُه في الآية (١٦) وما دلّت عليه من لوَازِمَ وأبعادٍ في المفهومات، فقد أقام اللّهُ عزّ وجلّ على الإنسانِ شاهِدَيْنِ مِنَ الملائكة، يُسَجِّلان له أو عليه ما يَصْدُرُ مِنْهُ من كَسْبٍ إراديّ ظاهرٍ وباطن، في كتابٍ صادقٍ لا يَزِيدُ شيئاً، ولا يَنْقُصُ إلاّ مَا يَعْفُو اللّهُ عنهُ مِنْ سَيّئات.

وجاءت هاتان الآيتان (١٧ ـ ١٨) بياناً لهذه الرَّقابة الدّائمة، التي جَعَلَها اللّهُ عزّ وجلّ مُرافقةً ملازمةً لكُلِّ إنْسَان في الحياة الدنيا، إلاّ أنّها خفيَّةٌ مَسْتُورةٌ عَنْ مُشَاهَدَةِ الإنسانِ الحسِّيَّةِ، وهو في حياة الابتلاء.

● ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾.

﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ يضاف إلى الجمل وجوباً، والعامل فيه هنا فعل: ﴿نَعْلَمُ﴾

أو اسم التفضيل: ﴿أَقْرَبُ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. أيْ: حين يَتَلَقَّىٰ المتلقّيَانِ مِن الملائكة، المراقبانِ الْمُسَجِّلاَنِ لأعْمَالِهِ وأقواله.

﴿قَعِيدٌ﴾: أي: مُلازِمٌ لا يُفَارِق، من فِعْل «قَعَدَ يَقْعُدُ فَهُو قَاعد» وصيغَة «فَعِيل» من صيغ المبالغة لاسم الفاعل، وللدَّلالة على الملازمة الدائمة للمراقبة، حَسُنَ استعمال صيغة المبالغة: «قَعِيد».

ولم يأتِ في النصّ: قَعِيدان، باعتبار أنهما ملكان، لأنّ العبارة على تقدير: عَنِ اليمين قعيدٌ وعن الشمال قعيد، وحُذِفَت «قعيد» الأولى لدلالة الثانية عليها مع قرينة: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾.

فَمَاذَا يَتَلَقَّىٰ المتلَقّيَان من الملائكة المراقبان المسجّلان لأعمال الإِنْسَانِ وأقواله؟؟

حُذِفَ مَفْعُولُ يَتَلَقَّىٰ لإفادة العموم، أي: يَتَلَقَّىٰ المتلقيان كُلَّ مَا يَصْدُرُ عن الإنسان من عمل أو قول إراديّين.

وتُشْعِر مادّة «التلَقّي» بأنّ الملكين اللّذين يُسَجّلان أعمال الإنسان وأقواله، هما بمثابة آلة تسجيل تتلَقّىٰ وتُسَجِّلُ بِدُون كُلفَةٍ وَلاَ مَشقَّة.

- ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

جاء في هذه الآية تخصيصُ تسجيل قول الإنسان بالذكر لدفع تَوهُّم أنّ الإنسان لا يؤاخَذُ على أقواله، ويدُلُّ على احتِمال وجود هذا التوهّم سؤال معاذٍ رضي الله عنه رسول الله ﷺ، بقوله: وَإِنَّا لمؤاخَذُونَ بَما نتكلَّمُ به؟ فقال له الرسول:

«ثَكِلَتْكَ أُمّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَال: عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ، إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

**حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم**: أي: مَا يَحْصُدُهُ مِنْجَلُ الّلسانِ من كلام فيه إِثْمٌ ومعصية لله، وهذه العبارة من لطائف الاستعارات، إذْ شُبّه اللّسان بالمنجل وشبّهت الأقوال بالْحَصَائِد، ومعلومٌ أنّ المِنْجَلَ يَحْصُدُ كلَّ ما يقع حَدُّهُ عليه من نافع الزّرُوع وضارِّها.

﴿لَدَيْهِ﴾: أي: عنده. **لَدَىٰ**: ظرف مكان بمعني «عند».

﴿رَقِيبٌ﴾: أي: كثير المراقبة وَدَقيقُها، فهو صيغة مبالغة لاسم الفاعل.

﴿عَتِيدٌ﴾: أي: شديد قويُّ مُهيَّأٌ للقيام بوظيفة مراقبة الإنسان طَوال حياته. كَلِمَةُ «الْعَتِيد» تأتي في اللُّغَةِ بمعنى «الْجَسِيم» وتأتي بمعْنَىٰ «الْمُعَدّ المُهَيّئ الحاضر».

فَدلَّت هاتان الآيتان (١٧ و١٨) على أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ جعل مع كُلّ مُكَلَّفٍ من النّاس رَقِيبَيْن، أحَدُهُما عَنْ يمينه، والآخر عن شماله، وأنّهما يُسَجّلان حَسَنَاتِهِ وسَيّئَاته، في كتاب أعماله، الذي سَوْف يُقَدَّمُ له يَوْم القيامة، ويقول الله له، كما جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

ويُؤْتَى النّاسُ كُتُبَهُمْ يَوْم القيامة عَلىٰ وَجْهَيْن:

(١) ففريقٌ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيمانهم من قِبَلِ وُجوههم، وهم المؤمنون.

(٢) وفريقٌ يُؤْتَوْن كتُبَهم بشَمَائِلهم مِنْ جِهَةِ ظُهورهم، وهم الكافرون.

دلَّتْ على هذا نُصوصٌ قرآنيَة في عِدَّةِ سُور.

وقد وصَفَ الله عزّ وجلّ كُلًّا من هذِيْنِ الملكَيْن بأرْبَع صفات:

**الصفة الأولى**: أنّه يتَلَقَّىٰ مَا يكْسِبُهُ الإنْسَانُ تلَقِّياً، فَكأنَّهُ جهازُ تَلَقٍّ دَائم التَّسْجيل لكُلّ ما يَصْدُرُ عن الإنسان من قَوْلٍ وعَمَلٍ ظاهِرٍ وَباطِنٍ، وهذَا يَدُلُّ على أنّه يُسجّل بتِلْقَائِيَّةٍ طَبْعِيَّةٍ لا يَتكَلَّفُ لها.

**الصفة الثانية**: أنَّه قَعِيدٌ في مَكانٍ مَا مِنَ الإنسان، مُلاَزِمٌ لَهُ غير مفارق، أمَّا أحَدُهما فعَنْ يمينِه، وأمَّا الآخَرُ فعَنْ شِمالِه.

**الصّفة الثالثة**: أنَّهُ رَقِيب، أي: يَقِظٌ، مُوجِّهٌ كُلَّ أَجْهِزَةِ الإحساس لَدَيْه، لالْتِقَاط صُوَرِ الأعمال الظاهرة والباطنَة، وَصُورِ الأَقْوال مهما كان شَأْنُها، حتَّىٰ الْخَواطر والنيَّات في الأَعْمال، وحتَّىٰ الآهَات والأَنَّات في الأَلْفَاظ.

وقَدْ قرَّبَتْ لنَا أجْهزَةُ التقاط الصُّوَرِ والأصْواتِ هذه الحقيقة.

**الصفة الرابعة**: أنَّهُ عَتِيدٌ، أي: شديد قويٌّ مُهَيَّا مستعدٌّ للقيام بوظيفته طوال حياة الإنسان المأمور بمراقبته.

فالمعنى الْكُلّي للنّص الذي نفهمه بالتّدبّر:

ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ بسُلْطَانِ الرُّبوبيَّة العظيم، ونَعْلَمُ كُلَّ مَا يجري عليه أو فيه أو مِنْهُ حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُه، ونَحْنُ بشُمُول عِلْمِنَا أَقْرَبُ إِلَىٰ مَرَاكِزِ إرَادَتِهِ وَوَعْيه وخَواطِرِهِ وأَحَادِيثِ نفسه، من أَوْعِيَة دَمِهِ الّذِي يُمِدُّه بِغذَاءِ استمرار حياته، حينَ يتَلَقَّىٰ المتلَقِّيَانِ من الملائكة، عن اليمين قعيدٌ منهما، وعن الشّمالِ قعيدٌ آخر، يُسَجّلاَنِ مَا أَمَرْنَاهُمَا بتسجيلِهِ من أعماله الظَّاهِرَةِ والباطنة، وأقوالِه، فَلا يَنِدُّ عنهُمَا شيءٌ ممّا يصْدُرُ عنه، فَمَا يعمل من عمل، ومَا يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلاّ كانَا رقيبَيْن له، مُتَهَيِّئَيْنِ جاهِزَيْنِ، مُسْتَعِدَّيْن حَاضِرَيْنِ لتسجيله، وفْق الْوَظِيفَةِ المسنَدَةِ إليهما.

وقد اقتضىٰ الإيجازُ في التعبير حذْفَ ما يقتضيه الكلام ويسْتَدْعيه الفِكْرُ بالتّدبُّر، أو يسْتَدْعِيه التقابل والتّناظر.

فلَمْ يُذْكَرْ في هذا النّصّ أنهما من الملائكة، لدلالة نصوص أُخْرىٰ في القرآن، دلَّتْ على أنّ الكتبة الّذين يكتبون صحف أعمال العباد هم رُسُلٌ لله، موجودون لَديهم وهم يكتبون أعمالهم، وأنَّهم حافظون، وكرامٌ كاتِبُون، وأَنَّهُمْ يَعْلَمُون ما يفْعَلُ الناس، فمنها ما يلي:

(١) قول اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ولَمْ يُذْكَرْ وَصْفُ الْمَلَكِ الذي يكون على يمين الإنسان بأنّه قعيد، اكتفاء بدلالة وصْفِ نظيره الذي هو عن الشمال، فقد وُصِفَ بأنَّهُ «قَعِيدٌ».

وحُذِف من النّص: «مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ» اعتماداً على ما يُفِيدُهُ التقابل، إذْ ذُكر في المقابل ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ فَحُسْنُ التَّدبُّر يَهْدِي إلى أَنَّ تَسْجِيل الأعْمَال أجْدَرُ من تَسْجيل الأقوال، فإذا كانت الأقوالُ تُسَجَّلُ، فتسجيل الأعمال يُفْهَمُ من باب أولَى.

ودلَّ كوْن كُلّ من الملكَيْن رَقِيباً عَتِيداً عَلىٰ أَنَّهمَا يَقُومَانِ بوظَائِفِهما التسجيليّة على أحْسَنِ وجْهٍ.

ودَلَّت النُّصُوص القرآنيّة الّتي جاء فيها بيان كتب أعمال الناس، علىٰ أَنّها لاَ تُغَادِرُ صغيرةً ولا كبيرة إلاّ أحْصَتْها بالتسجيل الكامل، ومن هذهِ النُّصوص قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

فتكاملت دَلالات النصوص الموزّعَةِ في سور القرآن حول هذا الموضوع، كسائر الموضوعات القرآنية.

❀ ❀ ❀

## (١١)
# التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُروس السورة وهو الآيات من (١٩ ـ ٢٢)

قال الله تعالى:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذا الدرس السابع من دروس السورة عَرْضٌ لقَطَاتٍ مِنْ أحداث الرِّحْلَةِ بَيْنَ سَكْرَةِ الموت ومَوْقف الْحِسَاب يَوْمَ الدِّين، بانتقال بديعٍ من الإقناع الفكريّ إلى هِزَّةٍ نفسيَّةٍ وجْدَانِيَّةٍ، تَحُومُ في فَلَكِ مِحْوَرِ الترهيب من عذاب اللَّه يَوْمَ الدِّين.

﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: هي ما يَحْدُثُ للمحتَضَر ساعَةَ نَزْعِ رُوحِه، إذْ تَغْشَاهُ غيبُوبَةٌ مِنَ الشِّدَّةِ الّتي تَنْزِلُ بِهِ عِنْدَ مُفارَقَةِ الحياة، بانفصال الرُّوح عن النفس التي تَذُوقُ الموت.

فَسَكْرَةُ المَوْتِ، شِدَّتُه وغشيته. وَأَصْلُ السَّكْرَةِ: غَيْبَةُ العَقْل.

وثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنّه لمَّا تَغشَّاهُ الموتُ جعل يمْسَحُ الْعَرَق عن وجْهِه ويقول: «لاَ إلَه إلاّ الله، إنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ».

أي: إنّ لِلْمَوْتِ لَغشَيَاتٍ شَدِيداتٍ تَحْدُثُ مَعَها غيبوبَة، وبها يَفْقِدُ الْحِسُّ الشُّعورَ بما يَحْدُث.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة، قالت: كان النبيُّ ﷺ يقُولُ وهُو صَحِيحٌ.

«إنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الجنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ».

فلمَّا نَزَلَ به، ورأسه على فَخِذِي، غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إلى سَقْفِ البيت، ثُمّ قال:

«اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَىٰ».

فَقُلْتُ إذاً لاَ يَخْتَارُنَا، وعَرَفْتُ أَنَّهُ الحديثُ الذَّي كان يُحَدِّثُنَا وهو صَحِيحٌ.

قالت: فكانت آخِرَ كَلِمَةٍ تكَلَّمَ بها: «اللَّهُمَّ الرَّفيقَ الأَعْلَىٰ».

واللقطات التي عرضها هذا الدرس من أحداث الرّحلة بين سَكْرَةِ الْمَوْتِ ومَوْقف الحساب، أرْبَع لقطاتٍ بيانيَّة:

**اللقطة الأولى**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩﴾.

عَرَفْنَا آنِفاً ما هي سَكْرَةُ الْمَوْت، ونُلاحظ في هذا البيان استعمالَ الفعل الماضي في عبارة: ﴿وَجَآءَتْ﴾ مع أنَّ المخاطبَ بالنَّصّ وهو المكذِّبُ بيوم الدّين ما زَالَ يَعِيشُ في الحياة الدّنيا، لم تَأْتِهِ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بَعْدُ.

والحكمة البلاغيَّة الدَّاعيَةُ لهٰذا، هيَ الدَّلالَةُ على أنَّ الأَمْرَ مُتَحقِّقُ الْوُقوعِ، حتَّىٰ كَأَنَّهُ قَدْ وَقعَ فعلاً وانقضىٰ. ويُضَافُ إلى هٰذا ملاحظةُ أنه قَدْ وقع فِعلاً نظيرُه لمَنْ سبَقَ مْوتُه نُزولَ النّصّ من الناس، وهو سيقع لسائرهم حتَّىٰ آخرِ إنسان في الأرض.

وأقول أيضاً: إنَّ المقضيَّ بالقضاء الرَّبَّانيِّ الْمُبْرَمِ أمْرٌ وَاقِعٌ حتماً في النموذج الْمُعَدِّ بِالقضاء والقدر، أمّا التطبيقُ في الواقِع العمليّ فَهُو الّذي يتَرقَّبُ زَمَنَه.

● ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: خلقناه

ووضعناه موضع الامتحان في رحلة الحياة الدنيا، وانتهىٰ أجَلُهُ فيها، وجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بالْحَقّ.

فما هو الحقّ الّذي جاءت به سَكْرَةُ الْمَوْت؟

● المتبادر إلى الأفهام أنَّ سَكْرَة الموت جاءت بالموت، الذي هو الحقُّ الذي لا يَشُكُّ فيه أَحدٌ، وهو اليقين الذي يُوقِنُ به كلُّ إنسان، وإنْ كانَ يَحِيدُ عنْهُ وَيَفِرُّ منْهُ حُبًّا للحياة، وأصل العبارة على هذا. وَجاءت سَكْرَةُ الموتِ بالْمَوْتِ الحقّ، وحُذِفَ منها الموصوف وهو الموت اكتفاء بصفته، «الحقّ» فصارت: وَجاءت سَكْرَةُ الموت بالحق.

والأقْربُ أن تكون «الباء» في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للتّعديَة، إذْ يقالُ لغة: جَاءَ فُلاَنٌ بالشَّيء، بمعنى أحْضَره. كما يُسْتَعمل فعل «جاء» لازماً، فيقال: جاء فُلاَن، أي: حضَرَ.

● ويحتمل أن يكون الحقُّ الذي جاءت به سكْرَةُ الْمَوْتِ، مَا تُخْبرُ به الملائكةُ المحتَضَرَ قُبَيْلَ مَوْته، عمَّا سيُلاقي بعْدَ موته ويَوْمَ الدّين من عذاب إذا كان من أهل النّار، ومن نعيم إذا كان من أهْلِ الجنة، وَمَا يُكْشَفُ له من مقْعَدِهِ الذي هو صائر إليه، في الجنة، أو في النار.

روى البخاري عن عُبَادَةَ بنِ الصامتِ عن النبيّ ﷺ، قال:

«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

قالت عائشة أو بعْضُ أزواجِ النبيّ ﷺ: إنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قال ﷺ:

«لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَه.

وإنَّ الْكَافِرَ إذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

فَدَلَّ هذا الحديث على أنّ سَكْرَةَ الموتِ تجيء بأمْرٍ يَعْلَمُ بِهِ المحتضَرُ عِلْمَ يقينٍ مَقْعَدَهُ منَ الجنَّةِ، أَوْ من النّار، فالمؤمنُ يشتاقُ إلىٰ مقْعَدِه في الجنَّةِ، فَيُحِبُّ لقاءَ اللّهِ يَوْم الحساب، فَيُحِبُّ اللَّهُ لقاءه، ويَنْزِلُ به الموت. أَمَّا الكافِرُ فَيُصِيبُهُ الذُّعْرُ من مَقْعَدِهِ في النّار، فيكْرَهُ لِقَاءَ اللّهِ يَوْم الحساب، فيَكْرَهُ اللَّهُ لقاءه، ويَنْزِلُ بِه الموت.

ويُمْكِنُ حمْلُ النّصّ على المعنَيَيْن: الموت، وما يُبشَّرُ به عند سَكَراته.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾:

هذا خطابٌ يُوجَّهُ للكافر عند احتضاره، أي: جاءكَ الموتُ الذي كنْتَ تكْرَهُهُ وتُحِبُّ أن يكونَ بعيداً عنك. وجاءَكَ العِلْمُ الحقُّ بعذابكَ الذي كُنْتَ تَسْتَبْعِدُه، فَلا تُصَدِّقُ بِنَبَأ البعثِ للحساب، وفَصْلِ القضاءِ، وتحقيق الجزاء.

﴿تَحِيدُ﴾: أي: تميلُ وتبتَعِدُ عنْهُ. يُقَالُ لُغةً: حَادَ عَنِ الشَّيْءِ يَحِيدُ حَيْداً وَحَيَداناً ومَحِيداً، أي: مال عنه وعَدَل.

وعُدِّيَ فِعْل «تَحِيد» بحرف الجرّ «من» بدل «عن» لتضمين فعل «تحيد» معنى فعل «تَفِرّ» فأغنى هذا التضمين عن ذكر جملتين، فالمعنى ذلِكَ مَا كُنتَ تَحِيدُ عنْهُ فارّاً منه.

والتضمينُ من لطائف الإيجاز في القرآن، أَحَدِ عناصر إعجازه.

وجاء في العبارَة استعمالُ اسْمِ الإشارة الموضوع للمشار إلَيْهِ البعيد، لأنّ الكافر يُحِبُّ أنْ يكونَ الموتُ بعيدَ الأجَلِ، على احتمال أنّ المراد

بالحقّ الموت. ولأنّ عذابه في جهنّم سوْف يكونُ يوم الدين. فالمناسب في الإشارة إليه: «ذَلِك» وهذا على الاحتمال الآخر.

ومع بشارة الكافر بمقْعَدِه من النار عنْد احتضاره، فإنّه يُعْرَضُ عليه مَقْعَدُهُ من النار بَعْدَ مَوْته غُدْوة وَعَشِيّاً، كما صحّ عن الرسول ﷺ.

روى البخاريُّ عن ابْن عُمَرَ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيًّا، إِمَّا النَّارُ، وَإِمَّا الْجَنَّةُ، فَيُقَالُ: هٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ تُبْعَثَ إِلَيْهِ».

بهذا تَمَّ تَصْوِيرُ اللّقطة الأولى المنتقاة من أحداث الرِّحْلَةِ بين سَكْرَةِ الموت، ومَوْقفِ الْحِسَاب يَوْم الدِّين.

**اللّقطة الثانية**: دلَّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾:

هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ واستعمال الفعل الماضي في ﴿وَنُفِخَ﴾ أقول فيه نظير الذي سبق قوله في استعمال الفعل الماضي في ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

**الصُّور**: مخلوق من مخلوقات الله كَهَيْئَة الْبُوق، أو كهيْئَةِ الْقَرْنِ، إِحْدىٰ جِهَتَيْهِ دَائرةٌ ضيّقة، والجهة الأخرى دائرة واسعة كبيرة، وباطِنُهُ فارغٌ يُمْكِنُ أن يُنْفَخ فِيه فَيُصْدِرَ صوتاً بحَسَب مقداره وتكوينه.

وسماه الله عزّ وجل «الناقور» في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول).

● قال الحافظ ابْنُ حجر في الفتح: أخرج أبو داود، والترمذيّ وحسَّنه، والنسائي، وصحّحه ابْنُ حِبّانَ والحاكم، مِنْ حديثِ عبد الله بن عَمْرو بْنِ العاص قال: جَاءَ أعْرَابيٌ إِلَىٰ النبي ﷺ فقال: مَا الصُّورُ؟ قال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ».

● وروى الترمذيّ عن سعيد مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنَّهُ قَالَ:

«كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، واسْتَمَعَ الأُذُنَ، مَتَىٰ يُؤمَرُ بِالنَّفْخِ».

**[قال الترمذي: حديث حسن]**

● وروى أحمد والبيهقيُّ من حديث ابن عبّاس، أنَّ جِبْرِيلَ عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وهو صاحب الصور، يعني إسرافيل.

قال ابْنُ حجَر: واشتهر أنَّ صاحبَ الصُّور إسرافيل عليه السلام.

**أقول**: والنّفخَةُ الّتي وردَتْ في هذا النّصّ هي النفخة الثانية التي يكون بها البعث إلى الحياة، لتَلَقّي أحداث يوم الدّين. بدليل قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿. . . ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾.

وجاء وصْفُ يوم الدِّين بأنَّهُ يَوْمُ الوعيد، مع أنَّه يومُ الوعْدِ والوعيد معاً، لأنّ الكافر بيوم الدين هو المقصود بالبيان، فهو بالنسبة إليه يَوْمُ الوَعِيدِ فقط.

وجاء في الآية الإشارة إلى يوم الوعيد باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، نظراً إلى أنّ نفخة البعْثِ يَكُونُ بعْدَها حشر وأحداثُ كثيرة، ثم تكون أحداث الحساب، وفَصْلِ القضاء، ثم يأتي تنفيذ الجزاء فيَتَحقَّقُ الوعيد، فكانَ من دقة البيان أن يُشار إليه باسم الإشارة «ذَٰلِكَ».

وجاء في القرآن في غير سورة (قٓ) بيان أنَّ الصُّورَ تُنْفَخُ فيه نفختان:

**النفخة الأولى**: هي النّفخة الّتي يَصْعَقُ بها كُلُّ مَنْ في السماوات والأرْض إلاّ مَنْ شاء الله، أي: يموت بها كلُّ حيٍّ خلقه الله إلاّ من شاء تأخيره، كنافخ الصور.

**النفخة الثانية**: هي النفخة الّتي يكون بها البعث إلى الحياة بعْدَ

الموت، وبها تنطَلِقُ الأرواح إلى أجسادها الّتي نبتَتْ في الأرض كما يَنْبُتُ البقل، على ما سبَق بيانه.

والدليل القرآني على هاتين النفْختين، نَجدُهُ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وجاء في بيانات السُّنَّة أنّ الله عزّ وجلّ يُمِيتُ بَعْدَ النفخة الأولَىٰ من استثناهم من الصّعقِ، أي: من الموت بها.

وورد في وصف الصّور أنّ فيه ثُقُوباً بَعَدَد كُلّ روح مخْلُوقَةٍ ونَفْسٍ مَنفُوسَه، وفي هذه الثقوب تكونُ الأرواح بحسب منازلها، وعند البعث يأمُرُ الله إسرافيلَ فينفخ فيه، فتنْطَلِقُ كُلُّ رُوحٍ فتَدْخُلُ في جَسَدِها.

**اللقطة الثالثة**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾﴾.

جاء استعمالُ الفعل الماضي في هذه الجملة كما جاء في الجمل السابقة ونقول فيه ما سَبَقَ بيانُه في عبارة ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾.

والمعنى: وسَوْفَ تَأْتي كُلّ نَفْسٍ بَعثَها اللَّهُ عزّ وجلّ للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، مَعَهَا مَلَكَانِ:

(١) مَلَكٌ يَسُوقُها إلى المحشر.

(٢) ومَلَكٌ يَشْهَدُ عَلَيْها بمَا عَمِلتْ في الحياة الدُّنيا مِنَ السّيّئات.

**السّائِقُ** في اللُّغَة: هو الذي يحُثُّ الْمَسُوقَ من خلفه[١].

---

(١) بخلاف القائد، فهو الذي يمشِي أمام المقود ويجذِبُه ليَتْبَعه، وقائد الدابّة هو الذي يمشي أمامها آخذاً بمِقْوَدِها يَجُرُّها.

ونستطيع بالتأمُّل الاستنباطيّ أن نفهم أنْ السَّائِقَ هو المْلَكُ القَرِينُ الَّذِي كان في الحياة الدّنيا مأْموراً بِكِتَابَةِ الحسنات، وهذا لَمْ يُسَمِّهِ اللَّهُ شَهيداً، لأنَّه كانَ يُدَوّنُ الحسنات، وتكْفِي الإنسان، كتابَةُ الْمَلَكِ الشَّاملة لحسناته، ويكفيه قبل ذلك وفوقَهُ عِلْمُ اللَّهِ، والله لاَ يحتاجُ لمن يَشْهَدُ له أو عليه.

أمّا الشهيد فهو الملَكُ القرين الذي كَانَ في الحياة الدنيا مأْموراً بكتابَةِ السّيِّئات، وَلمَّا كانَ الإنسان أكْثَرَ شيءٍ جدلاً كانَ حالُهُ يتطَلَّبُ من يَشْهَدُ عليه بما جَنىٰ من سيّئاتٍ في الحياة الدُّنيا.

**اللّقطَة الرابعة**: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فِي غَفْلَةٍ﴾: أي: مُنْغمِساً في غَفْلَةٍ، إذِ الغَفْلَةُ مُحِيطَةٌ بِكَ إحاطة تامَّة، والخطاب يُوجَّهُ لِمَنْ كَان يكْفُر بيوم الدّين، فهو الذي كان في الحياة الدّنيا منْغَمِساً في غَفْلَةٍ شَدِيدة محيطةٍ به. أيْ: يقالُ لَهُ هذا القول.

**الغَفْلَة عن الشيء**: هي الانصراف الحسّيُّ والفكريُّ عن ملاحظته ومُراقَبَتِه، مع وُجوده في مجال الإدْراكِ، أو وجود أَدِلّته، وإمكان إدْراك ذَلِكَ لولا وُجود الصَّارِف، أو السَّهْوِ الّذي هو بمثابة إطباق الجفْنَيْنِ على العَيْنَيْنِ، ومَا تُطْلَبُ رُؤْيَتُهُ حَاضِرٌ في مجال النظر.

يقال لغةً: غَفَلَ فُلانٌ عن الشيءِ يَغْفُلُ غُفُولاً وَغَفْلَةً.

والمكذّبُ بيَوْم الدّينِ شَغَلَتْهُ أهْواؤُهُ وشَهَواتُه في الحياة الدنيا، فَغَشَّتْ على كُلِّ حَوَاسِّه الظّاهِرة والباطِنَةِ، وكُلِّ قُدْراتِه الإدْراكيَّة، فَغَطَّتْهَا تغطية تامَّةً، وَوَجَّهتْهَا لِلَذّاتِ الحياة الدّنيا وزِينَاتِها وأنواع متاعها الزائل.

ولكنْ مَا الْحِكْمَةُ مِنْ وَضع حرف «مِنْ» بدَل حرفُ «عَنْ» في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾؟؟

**أقول**: هذا جارٍ على قاعِدَةِ التضمين، التي تكْثُرُ أمْثِلَتُها في الْقُرْآن المجيد، إيجازاً في اللّفظ، إذْ تُغْنِي الجملَةُ عن جُملَتَيْن، والإيجازُ في القرآن أَحَدُ عناصر الإعجاز.

وفي حلّ هذا التضمين أقول: إنّ المكَذِّب بيوم الدِّين قد كان في الحياةِ الدنيا غارقاً في مَطَالِبِهِ مِنْها، مُنْصَرِفاً عن كُلِّ ما سِوَاها، وحينَ تُعْرَضُ عليه أَدِلَّةُ يَوْمِ الدِّينِ، وما فيه من حساب، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتنفيذِ جزاء، يكون نَافِراً مِنْها، وكُلَّمَا ذُكِّرَ بِها لَمْ يَزْدَدْ إلاَّ نُفُوراً. ومعلومٌ أنَّ فِعْل «نَفَرَ يَنْفِرُ نُفُوراً» يتَعَدَّىٰ بحَرْف «مِنْ».

فَضُمِّنَتْ كَلِمةُ «غَفْلَة» وهي مَصْدَرٌ يَعْمَلُ عمل فعله، مَعنى كَلِمَةِ: «نُفُور» فعُدِّيَتْ تَعْدِيتها. والتقدير يكون كما يلي: لَقَد كُنتَ فِي غَفْلَةٍ غارِقاً في متاع الحياة الدّنيا وزينتها، نافِراً مِنْ كُلِّ بَلاغٍ ودليلٍ يَتعَلَّقُ بيَوْمِ الدّين، ومن كلِّ تَذْكِيرٍ يُذَكِّرُكَ به.

وقد جاء في عدّة نصوص قرآنيّة استعمال مادّةِ «النفور» من البيان ومن التذكير، بالنسبة إلى الكافرين المُصِرِّين على كُفْرِهم، فتقدير النفور يُلائِم الاستعمال القرآنيَّ في مواضع أخرى.

**النُّفُور**: هو الإعراضُ والصَّدُّ والابْتِعاد، كحالة المذعور الشارد، أو المتَمَنِّع المتراجِعِ بِحِرَان.

● ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾: كلامٌ صادرٌ عن الله عزَّ وجلَّ مستعملٌ فيه ضمير المتكلِّم العظيم، ومُوَجَّهٌ لمن كان في الحياة الدنيا مُكَذِّباً بيوم الدّين.

أي: فكشَفْنَا الْيَوْمَ عَنْكَ الْغِطَاءَ الَّذي كَانَ يُغَشِّي على مَدَارِكِكَ وبَصِيرَتِكَ في الحياةِ الدُّنيا، وهو غطاء الأهْواء والشهوات والتَّعلُّق بمَتَاعِ الحياة الدنيا وزينتها، عند مشاهدتِكَ أَحْدَاث يوم القيامة، وبقَطْعِ مطامعك التي كانَتْ مَوصُولَةً كُلُّها بالحياة الدنيا، ومُنْحَصِرَةً فيها.

● ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: يُطلَقُ البَصَرُ ويُرادُ به ما تراهُ العَيْنُ المبْصِرَة، ومَا يحدُثُ بِهِ العِلْم وهي القوىٰ التي تُدْرَكُ بها المعارف في نفس الإنسان.

ومعلومٌ أنَّ الّذِي كانَ مُغَطًّى في الحياة الدنيا من المكذِّب بيوم الدّين قُواهُ الإدْراكيّة، لاعَيْنُه المبصرة، فالّذي كَشَفَ اللَّهُ عنه الغطاءَ، هٰذِه القُوى الإدْراكيَّةُ النفسية، وجاء التعبير عنها بالبَصَر لأنها هي مراكز الإبْصَار في الحقيقة.

﴿حَدِيدٌ﴾: أي: قويٌّ نَافِذٌ يَرَىٰ بِدِقَّةٍ ما كان مُنْصَرِفاً عن آياته ودلائله الفِكْرِيَّة العقليَّة، وغافلاً عنه، ونافراً من كلّ بيانٍ له، وتذكيرٍ به.

إنّ المكذِّب بيَوْمِ الدِّين قَدْ شَغَلَتْهُ أهواؤه وشهواتُه ومطامِعُه في الحياة الدنيا، فغفل عن آيات الله في الكَوْن، وعن دلائل يَوْمِ الدين الفكريَّة العقليّة، وأعرض عن آيات الله المنزَّلَة ونَفَرَ منها، ومِنْ كُلِّ مُذَكِّرٍ بها، فضَلَّ وغَوَىٰ، ولم يُؤْمِنْ بالغيب.

لكنَّهَ يَوْمَ يُبْعَثُ يَكْشِفُ الله عن بَصِيرَته الأغشية الدنيويَّة، فيَرَىٰ مشاهد يوم الدّين، الْيَوْم الذي كان قد كذّبَ به، وهو في حياة الامتحان.

❁ ❁ ❁

## (١٢)
## التدبّر التحليليّ للدرس الثامن من دروس السّورة وهو الآيات من (٢٣ ـ ٢٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ

قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾: أي: الْمَلَكُ الَّذِي كان مُلازماً لَهُ عَنْ شِماله يُسَجّلُ عليه السّيِّئات في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا.

﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾: أي: هذا ما عِنْدِي ممَّا سجَّلْتُهُ عليه من سيِّئَاتٍ مُهَيَّأٌ مُعَدٌّ حاضِرٌ. **عَتِيدٌ**: أي: مُهَيَّأٌ مُعَدٌّ حَاضِرٌ.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾: أَمْرٌ يُوَجَّهُ للملَكَيْن اللَّذَيْنِ كانا في الحاة الدنيا ملازمَيْنِ لَهُ، مَنْ كان قعيداً على يمينه مأموراً بتسجيل الحسنات، ومَنْ كان قَعِيداً على شِماله مأموراً بتسجيل السَّيِّئَاتِ. **وجَهَنَّم**: اسم علم من أسماء دار العذاب يوم الدين(١).

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾: أي: كُلَّ بالغ في الكُفْر أسْفَلَ دَرَكاته، ليس في داخله مثقال حبَّةٍ من خَرْدَلٍ مِنْ إيمان صحيح مقبول عند الله ﴿كَفَّارٍ﴾ من صيَغ المبالغة.

﴿عَنِيدٍ﴾ أي: ذو عنادٍ شديد، فهو يَعْرِفُ الحقَّ ويُخالفه ويَرُدُّه، بجُرْأة ووَقاحة. **عَنِيد**: على وَزْنِ «فعِيل» فهو من صيغ المبالغة لاسم الفاعل. يقال لغة: عنَدَ فُلانٌ يَعْنِدُ عَنْداً وعُنُوداً، فهو عانِد، ويقال في المبالغة: عَنُود وَعَنيد.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: أي: كثيرِ المنع للخير الّذي يأمُرُ الله به.

﴿مُعْتَدٍ﴾: أي: ذُو عُدْوان على الناس، وعلى الحق وعلَىٰ كلّ خير وفضيلة.

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي: يوقع الناس في الرّيبة والشَّكِّ بوساوسه وإغوائه، وتَضْليلاَتِهِ، يقال لغة: أرَابَ المضَلِّلُ الرَّجلَ، أي: أوقعَهُ في الرِّيبة والشك.

---

(١) **جهنم**: ممنوعٌ من الصّرف للعلمية والتأنيث. ويقال لغة: **بئرٌ جهنم**: أي: بعيدة القعر.

أو أقلقه وأزعَجه، وحَمْلُ مُريب هنا على أن ذو شك غير مناسِب بعد إثبات أنه كفار.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾: هو الشيطان الذي كان ملازماً للإنسان في حياة امتحانه، وقريناً له يُوَسْوِسُ له ويُسَوّل، وهو أحد جنود إبليس من كَفَرَةِ الجنّ.

❁ ❁ ❁

في هذا الدرس الثامن من دروس السورة عرضُ لقطاتٍ مِنْ مَوْقِفِ المحكمة الرَّبّانيّة يَوْمَ الدّين، التي يَجْري فيها الحساب، وفَصْل القضاء، وهٰذهِ اللّقَطاتُ خاصَّةٌ بالكافِرين المكذّبين للرُّسُل، والمكذّبين بنَبَأ يَوْمِ الدّين، وقد جاء عَرْضُها مزيجاً بَيْنَ أُمورٍ ذُكِرَتْ على أَنَّها وقَعتْ وانقَضتْ، لتأكيد أنها سوف تقع لا محالة، وأُمورٍ مقتَطَعَةٍ من الحدث نفسه، ومُقدّمةٍ في النّصّ كأنّها تقع الآن، وهٰذا مِنْ روائع المبتكَرات والإبداعَاتِ القرآنيّة.

وقد جاء ترتيب عرض هذه اللّقطاتِ في السّورَةِ عَقِبَ عَرْضِ لقطاتٍ من أحداثِ الرِّحْلَة بَيْنَ سَكْرَةِ الْمَوْتِ ومَوْقف الحساب الَّتي جاءت في الدَّرْسِ السّابع من دُروس السُّورة، والّتي سبَقَ تَدَبُّرُها.

فالترتيبُ مُراعًى فيه التَّسَلْسُلُ المنطقيُّ، والترابط الفكرِيُّ فيه واضحٌ جليٌّ.

فلْنَتَدَبَّرْ فقرات الدرس الثامن، مستخلصين منها اللَّقَطاتِ المختارات للعرض، من شريطِ مَوْقف المحاكمة:

**فاللقطة الأولى**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

مَنْ هُوَ هذا القرين؟

باستطاعة المتدبّر إذا تأمّل في سِيَاقِ النَّصّ، أنْ يُدْرِكَ أنَّهُ الملَكُ الّذِي كَانَ مَعَهُ في الحياة الدُّنيا قعيداً عن شِمَالِه، ومأموراً برصْدِ سيّئاتِه وتَسْجِيلِها، لأنَّهُ هو الشَّهِيد الّذِي يَشْهَدُ عَلَيْهِ من الملائكة يَوْمَ الدِّين.

أمّا الملَكُ الآخَرُ القَعِيدُ عن يَمِينِهِ والمأْمُورُ بِرَصْدِ حَسَنَاتِه، وتَسْجِيلِها، فقد دَلَّ الدَّرْسُ السَّابقُ على أنّ وظيفَتَه بين البعث وموقف الحساب، سَوْقُ الإنسانِ إلى مَوْقف حسابه، وبما أَنَّهُ كاتِبُ حسناته فلا دَوْرَ لَهُ في الشهادة على الكافِرِ المكذِّب للرَّسُول، والمكذّب بنبأ يَوْمِ الدين.

إنَّ الملَكَ القرينَ راصِدَ السَّيِّئَاتِ ومُسَجّلَها بالصَّوْتِ والصُّورَةِ والنّيّاتِ، وحَرَكاتِ النفس معها، يُسَجّلُ كُلَّ الأقْوالِ والأَعْمَالِ الظاهرة والباطِنة، الفِكْرِيَّةِ والنفسيَّة والقَلْبِيَّةِ، لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ دُونَ أن يُسْأَلَ مسائلَ تَتَعلّقُ بالْوَظِيفَةِ الْمُسْنَدةِ إليه بخُصُوصِ الْمَسُوقِ إلَىٰ المحاكمة، لكِنَّ البيانَ الْقُرْآنِيَّ طوى أحداثاً تكُونُ قَبْلَ هٰذَا الْقَوْلِ، لأنَّ المتدبِّر يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَنْبِطها بالتَّفكُّر، لِمَلْءِ الفراغاتِ بَيْنَ اللَّقَطات، واعْتَنَىٰ النَّصُّ بَتَقْدِيم اللَّقْطَةِ الأَجْدَرِ بالبيان، والملائمةِ لهذا النّجم القرآني.

فالْمُهِمُّ أَنْ يُقَدِّمَ ما لَدَيه من وثائق لإدانة هذا الإنسان الذي كان في الحياة الدنيا موضوعاً تحْت المراقبة، وتُسَجَّل عليه جرائمة وقبائحه وسيّئاته.

فالواو العاطفة في جملة: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ تَدُلُّ على أنّ في النَّصّ كَلاماً مَطْوِيّا تَعْطِفُ الواو عليه كشَأْنِ الفاء الفصيحة الّتي ذكرها النحاة، فقد اكتَشَفْتُ خِلاَلَ تَدَبُّري الطَّويل لآيات كتاب اللّهِ المجيد، أنَّ العطف على محذوف لا يقتصر على الفاء الفصيحة الّتي ذكَرَها النحويُّون والمُفَسّرُونَ، بل قد يكون بغير الفاء من حروف العطف، والتدبُّر المتأنّي مع توفيق اللّهِ عزّ وجلَّ كفيل باستخراج المطويات في النّصُوصُ القرآنيّة، ويُسْتَدَلُّ عليها أحياناً بذِكر حَرْفٍ من حروف العطف، أو بالاقتضاء الفكريّ،

أو باللَّوازم الذهنية، أو بالتقابل والتناظر، أو بغير ذلك، وقد لا تقتصر الدلالة على واحد من هذه الأمور.

ويمكن تقدير المطوِيَّات في مَثَاني النّصّ كُلّه، بدْءاً مِنْ خِطَابِ الكافر في محكمة العدل الرَّبَّانِيَّةِ بما يلي:

أيُّها الإنسَانُ الّذي كُنتَ تكذّبُ بنَبَأِ يَوْم الدِّين، لَقَدْ كُنتَ في الحياة الدّنيا غَارِقاً في غَفْلَةٍ بمطالِبِكَ من الحياة الدّنيا، ولذَّاتِها، وأنواع متاعها وزينتها، وكُنتَ نافراً من تقبُّلِ نَبأ الْبَعْثِ إلى يوم الدّين، الذي صار الآن يُشَارُ إليه باسم الإشارة: «هذا» فَكَشفْنَا عنْكَ الغطاء الذي كان يحجُبُكَ عن اسِتبْصَارِ دلائلِ هذا اليوم الحق، بذهاب ظرُوف الحياة الدنيا، وانْتِزَاعِ دوافع أهْوَائِكَ وشهواتِكَ مِنْكَ، ووضْعِكَ مَوْضِع المشاهِدِ لأحداث يوم الدّين، فَأَنْت الآنَ ذو بصَرٍ إدْراكيٍّ قويّ شِديد.

وهنا عند هذ المفصل يَدُلُّ سياقُ النصّ على أنَّ هذا الذي كان كافراً بيومِ الدِّين، يُقَالُ له وهو مَوْجودٌ في أَحْداثه: أَلَيْسَ هذا بالحق؟!.

فيقولُ: بلىٰ. فيقال للملك القعيد عن شماله في الحياة الدنيا لقد كنت تسجّل عليه سيئاته فماذا عِندَك؟ قال: نعم، لَقَدْ كُنتُ في الدُّنيا أُسَجّلُ عليه سَيّئاتِه وفْقَ الأمْرِ الْمُوَجَّهِ لي، وقال: هذا ما لدَيّ عَتِيدٌ حاضِرٌ مُهَيّأٌ مُعَدٌّ حسْبَ الأَمْرِ إعداداً تامّاً بدون تحريف ولا زيادة.

فيُعْرَضُ عليه كتابُ أعمالِه ناطقاً بالحق.

ويقتصر البيان على اللّقطة الدّالّة باللّوازم الذهنيَّة على ما قَبْلَها وما بَعْدَها، فالإنسان المحاكَمُ كَانَ كافِراً بربِّهِ، مُكذّباً لرُسُله، ومُكَذّباً بَنَبأ يوم الدّين، ولا جزاء له إلاّ الحكم عليه بالعذاب الخالد، وبَعْدَ الحكم يَصْدُرُ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بإلْقَائِهِ في جهنّمَ، ولا تَدْعُو الحاجَةُ إلى إطالة مُحَاسَبَتِه وَمُنَاقَشَتِهِ الْحِسَاب.

ويمكن تَصْوير المحاكمة الّتي تُجْرَىٰ له على وجه التقريب بما يلي:

- كيف كانَتْ حالُهُ في الدنيا؟
- لقد كان كافراً مُجْرماً، وهٰذه الوثائق اليقينيَّة تُدِينُهُ وتُجَرِّمُه.
- فإن اعْتَرَفَ صدَر الحكْمُ عليه، وعلى قرينه الشيطان الذي كان يوسوس له.
- وإن أنْكرَ شَهِدَتْ عليه جوارحُه، وتتِمُّ إدانَتُه، ويَصْدُرُ الحكم عليه وعلى قرينه الشيطان بالخلود في عذاب النار.
- وبَعْد هذه المحاكمة يصْدُرُ الأمْرُ بتنفيذ الحكم.
- ويُفْرَزُ المجرمون إلى زُمَر بحسب مذاهبهم في الكفر، وبحسب أئمتهم، بانتظار استكمال محاكمة أمثالهم.

ومع كُلِّ مجرمٍ قريناه من الملائكة: السَّائقُ والشَّهِيد، وهما اللَّذان كانا مَأمورَيْنِ بملازمته في الحياة الدنيا، وكان الذي عن يمينه مأموراً بكتابة حسناته، وكان الذي عن شماله مأموراً بكتابه سيّئاته، وهما الآنَ مأموران معاً بضبطه وسوقه وحراسته، حتَّىٰ يَصْدُرَ الأَمْرُ بإلقائه في جهنّم مع زُمْرَتهِ الّتي هو منها.

ومَعَ كُلِّ مُجْرِمٍ أيَضاً قرينُه من الشياطين، وهو الَّذِي كان أتْبَعَهُ في الحياة الدّنيا، فزاده إغْواءَ وضلالاً، ويكُونُ الحكْمُ على الشيطان القرين بالخلود في عذاب جهنّم، لأنَّهُ كَانَ كافراً مُضِلاًّ.

حتَّىٰ إذا انتهىٰ الحكم على المجرمين، وجُمِعُوا مُنْعَزِلينَ زُمَراً، يأمُرُ اللَّهُ عزّ وجلَّ بسوقهم إلى جهنّم زُمَراً.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الزُمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

هذا ما يتعلّقُ باللّقطة الأولىٰ في هذا الدّرس.

**اللقطة الثانية**: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

هذه الآياتُ الثلاثُ قَدَّمَتِ اللّقطة الثانيةَ من هذا الدرس، والّتي تتضمَّن الأمْرَ العامَّ بإلْقاءِ الْمُجرمينَ في جهنَّم، إذْ يُوَجِّه الله عزّ وجلّ الأَمْرَ لكُلِّ ملَكَيْنِ قَرينَيْن منْذُ بَدْءِ رِحْلَةِ الابتلاء في الحياة الدّنيا، والملازمينِ لَهُ في يَوْم الحساب، وفَصْل القضاء، حتّىٰ تنفيذِ الجزاء، بإلْقَاءِ قَرينِهِمَا المجرِمِ من الإنْسِ مَعَ قَرِنيه الشيطان من الجنّ، في جَهَنّم، دار عذاب الكافرين المجرمين.

لقد جاء الأمر للقرينَيْن من الملائكة شاملاً كُلَّ قرينَيْن من أصْحَاب هذه الوظيفة، على طريقة الخطاب الشبيهة بالخطاب الإفرادي، والّذي يَفْهَمُ منه كُلُّ اثنين منهما أنهما مَقْصُودان بالخطاب.

ويَتِمُّ إلقاءُ الكافرين في جَهَنَّم زُمَراً كما جاء في النَّص الّذِي سَبَقَ الاستشهادُ بِهِ آنفاً من سورة الزُّمر، إذْ يُلْقِي كُلُّ مَلَكَيْنِ قَرينهما الكافر من الإنس، وقرينَهُ الذي كان يُوَسْوِسُ له بالشَّرّ من الجنّ جُنود إبليس.

وقد جاء وصْفُ هؤلاء الكافرين المجرمين عنْدَ الأمْرِ بإلْقَائِهم في جهنَّم مَبْسُوطاً، للدّلالة على أنَّ كلَّ واحدٍ مِنهم قَدْ ثَبَتَ عَلَيْهِ لدَىٰ حِسَابه كُلُّ هٰذِهِ الصِّفات، واشتمل قَرارُ الحكْم عليه بَعْدَ مُحاكَمَتِهِ علىٰ كُلّ هٰذِهِ الصِّفات، فأغْنَىٰ ذِكْرُها هُنا عَنْ ذِكْرِها في المراحل قبل ذلك، وأغْنَىٰ ذِكْرُ

الأَمْرِ بالإلْقاءِ في جهنَّمَ عنِ التَّصْرِيحِ يصيغة قرار الحكم، وكُلُّ هذا من بديع الإيجاز القائم على الإلْماح، والاكْتِفاءِ بما يَدُلُّ على الأَمْرِ دُونَ ذِكْرِه، وهو من رفيع الأدب.

أمّا الصّفاتُ الّتي تَدَنَّسَ بها كُلُّ واحدٍ من هؤلاء الكافرين المجرمين الْمَحْكُومِ علَيْهِم بالإلْقَاءِ في جهنَّم، فهي ما يلي:

**الصِّفَةُ الأولى**: أنَّه ﴿كَفَّارٍ﴾، أي: ذُو كُفْرٍ مُفْرِطٍ، بدليل صيغة المبالغة «فَعَّال».

ولدى تحليل وَاقع حالِ الإنسان الكَفَّار نُلاحظُ أنَّه إنسانٌ عُرِضَتْ عليه أدلَّةُ الإيمان الكثيرة، فَجَعَلَ يَسْتُرُها ويَدْفِنُها تباعاً، لئَلاَّ تُؤَثِّر على نَفْسِه فَيُؤمن، فيُضطَّرَّ بإيمانه أنْ يخالف أهواءَه وشهَواتِه الحاكمة على إرادتِه في الحياة، خَوْفاً من عِقاب اللَّهِ وَعذابه.

**الصفة الثانية**: أنه ﴿عَنِيدٍ﴾ أي: ذو عنادٍ شديد، فَهُو يَعْرِفُ الحقَّ ويَرُدُّهُ بِجُرْأَةٍ وَوَقاحَة، وتأتِيه الإنْذارات بالْعذَاب فَلا يكْتَرِثُ لها، ويُصِرُّ على رفضِه لِلْحقّ، ويَمَسُّه بعضُ العقاب الْمَعجَّل فيظَلُّ مُصرّاً على رفضه لِلحقّ عناداً واستِكْبَاراً.

**الصفة الثالثة**: أنه ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: هو شحيح لا يَبْذُلُ من جَسَدِه ولاَ مِنْ مالِهِ ولا من جاهه، ويقفُ في طريق الباذِلين المحسنين، فيمْنَعُهُمْ من فعل الخير بشدّة، فصيغة «مَنَّاع» من صيغ المبالغة.

وهو أيضاً يمنَعُ دَعْوَة الحقّ الرّبّانِي من الانتشار بين الناس، لأنّ انتشار الحقّ والخير في النّاس يُفَوِّتُ عليه التسلّط على عباد الله، وانتهابَ حُقُوقهم، ويقْطَعُ عليه سُبُلَ جرائمه وفواحشه.

والسَّبَبُ في كلّ ذَلك أنَّه لا يُؤمنُ بالجزاء الرَّبَّانيِّ المعجَّل والمؤجّل إلى يوم الدين.

**الصّفة الرابعة**: أنّه ﴿مُعۡتَدٍ﴾ أي: هو لا يكتفي بأنْ يمْنَع الْخيْر، بل يمارسُ الْعُدْوان على الناس في حُقُوقهم المختلفة، الماليّة والأدبيّة، والجسديّة، ففي المال يسْلُبُ وَيَظْلِم، وفي الأعراض يجرّح ويَسُبُّ ويَشْتُم، وفي الأجساد يضْرِبُ ويَهْشِم، ويجرَحُ ويقْتُل، ويحاربُ ويُهْلِكُ الْحَرْث والنّسْل، ويُفْسِد في الأرض.

**الصفة الخامسة**: أنّه ﴿مُّرِيبٍ﴾: من فعل أَرَابَ غَيْرَه، إذَا أوقَعه في الشّك والرّيبة. أي: فهو لا يكتفي بأن يكفُرَ بالله واليوم الآخر، ويكفر بالرُّسُل وبالكتب وبسائر أركان الإيمان بل يجتهد حاشداً ما لديه من حِيَلٍ تضليليّة زُخرفيّة، ليُلْقي الشُّكُوكَ في أفكار النّاس وقلوبهم ونُفوسهم عن الدّين كُلّه، ويوقِعَهُمْ في الرَّيب بما يَصْنَعُ من زخْرُف القول تزييفاً وتزويراً للحقائق.

**الصفة السادسة**: أنّه ﴿جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ فهو يَعْبُدُه من دُون اللّهِ، أي: هو مُشْرِكٌ.

والشِّرْكُ أخَفُّ دَركاتِ الكُفْرِ خِسَّةً وانحِطَاطاً. وأَقْبَحُ من الشِّرْكِ في العبادة الشِرْكُ في الرُّبُوبيّة، وأقبَحُ مِنْهُما إسنادُ الرُّبوبيّة لغير الله، وأخَسُّ الدَّرَكات وأحَطُّها إنكار وُجُودِ رَبٍّ خالِقٍ لهذا الكون مُطْلَقاً، وأصْحَابُ هذا الإلحاد الشنيع هم الذي يقولون: لا رَبَّ وَلا إلَه والكوْنُ مادّة.

ومن ذِكْرِ صِفَة الشِّرك التي هي أخَفُّ دَرَكَات الكُفر نَفْهَمُ عن طَريق اللُّزوم العقليّ أنَّ مَنْ كان ذَا دَرَكَةٍ أخَسَّ وأحطَّ من دركة أخفّ أنواع الكُفر، مَشْمُولٌ من باب أَوْلى باستحقاق الإلْقَاءِ في جهنَّمَ خالداً فيها مُخَلَّدا، ولَهُ فيها دركةٌ تُلَائم دَرَكة كُفْرِه.

أفلا يَسْتَحِقُّ كُلُّ مَنْ هٰذه صفاتُه في الحياة الدنيا، أنْ يَأمُرَ اللّهُ الملكَيْن المأمُورَين بمراقَبتِهِ في الدُّنيا، وسَوْقِهِ والشَهَادَةِ عليه يوم الحساب،

بأنْ يُلْقياه في العذاب الشَّديد في جَهَنَّم وبِئْسَ المصير. فقال اللّهُ عزّ وجل في آخر اللّقْطة الثانية:

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

**اللّقطة الثالثة**: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

القرين هُنَا هو قَرين الكافر منْ شياطين الجنّ، وهو الذي كَانَ معه في الحياة الدنيا يُوسْوِسُ لَهُ، ويَحُثُّهُ على الكُفر وارْتكاب الجرائم، كيما يَزْدَادَ في غَيّةِ وفجورِه وكُفْرِه.

وحين يرىٰ هذا القرينُ من شياطين الجنّ، أنَّه سَيُلْقَىٰ مَعَهُ في جهنَّم حَيْثُ العذابُ الشديد، يُحَاوِلُ أنْ يُبَرِّئ نَفْسه من جَرِيمَةِ إغْوائِهِ لقرينه الكافر من الإنس، فينادي قائلاً:

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ أي: رَبَّنَا ما أنا الذي جعلْتُهُ يَطْغَىٰ، أي: يُجاوز الحدَّ في العِصْيان، حتَّىٰ بلغ مُنْحطًّا إلى الكُفر، وهابطاً في دَرَكَاتِه. ولٰكِنْ وَجَدْتُهُ في ضَلاَلٍ بَعِيد عن حُدُودِ الْهِدَايَةِ والْإِيمان. فأتْبَعْتُه وجَعَلْتُ أوَسْوِسُ له.

ويَحْصُل تَخَاصُمٌ بَيْنَ الْكَافِرِ وَقَرِينة الشيطان.

كأنْ يَقُولَ الكافِرُ لقرينه الشيطان: أَنْتَ الْذي أطغيتني، بوساوِسِكَ وَتَسْوِيلاتِك لي، وإطَمَاعَاتِك الكاذبات.

فيقول له شيطانه: أنت الذي كنْتَ في ضَلاَلٍ بَعِيدٍ، ومَا كَانَ لي عَلَيْكَ مِنْ سلطان،، إلاَّ أنني كُنْتُ أدْعُوكَ فَتَسْتَجيبُ لي.

ويَشْتَدُ بَيْنَهما التخاصُم والجدَال.

دلَّ على هذا التخاصُم المطويّ الذّي لم يأتِ في النَّصّ تَصْرِيحٌ بأقوال أيٍّ من المتخاصِمَينْ، قول الله عزّ وجل في الآية التالية:

﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: قال اللّهُ عزّ وجلّ للّذين يتخاصَمُون لَدَيْه من كفّار الْإنس وقرنائهم من شياطين الجنّ: لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إليكم بالْوَعِيد. أي: فكل وَاحِدٍ منكم ينالُه من العقاب على مقدار جرائمه الّتي ارتَكَبَها في الحياة الدنيا، فلا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى، فَمَن كفر من الإنْس وطغىٰ وأجْرَمَ فقد اكتَسَبَ خطاياه وهو حُرُّ الإرادة، يَمْلِك الأهليَّةَ التامَّة للتكْلِيف والمسؤوليّة وتَحمُّلِ النتائج. ومَنْ كَفر وأغْوَىٰ من شياطين الجنّ ووَسْوَسَ بالشرّ، وسَوَّلَ مطمعاً بالباطل، فقد اكتَسَبَ خطاياه، وهو حُرُّ الإرادة، يَمْلِكُ الأهليّة التامَّة للتكليف والمسؤوليّة وتحمُّل النتائج.

وقانون الحساب، وفَصْلِ القضاء، والجزاء، وما تضَمَّنَ كلُّ ذلِكَ مِنْ وَعيد، قد كانَ مبيَّناً مُفصّلاً فيما أُنْزَلْتُ مِنْ كتاب، وفيما بيَّنَهُ وشَرَحَهُ رَسُولِي.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: إنّ القول الذي سبَقَ مِنّي في بيان تكاليف الدِّين، وفي بيان الْوَعِيدِ الذي قَرَّرْتُهُ حتماً على الكافرين والمجرمِين، لاَ تَبْديلَ له، فلا مطمع لأحَدٍ بأنْ يَجِدَ لنفسه مخرجاً، أو معاذير يَعْتَذِرُ بها، أو جَدَلِيَّاتٍ يخاصِمُ بها، سواءٌ أكان من الإنْس أم من الجنّ.

وفي تنفيذ وعيدي لا أظْلِمُ عبيدي مثقال ذَرَّة.

قد يسأل سائل: لماذا جاء في النصّ استعمال «ظَلَّام» وهو من صيغ المبالغة، ونفي كونه ظلّاماً لا يقتضي نفْيَ كونه ظالماً؟!

أقول: جاء في القرآن بيان أنّ الله عزَّ وجلَّ لاَ يَظْلِمُ مِثْالَ ذَرَّة.

وقد أشارت عبارة «ظلّام» هنا وفي أمثالها إلى معنى دقيق، وهو أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لا يظْلِمُ عَبيدَه عِنْدَ تنفيذ وعيدِه شيئاً، ولو ظلم كلّ واحدٍ منهم أقلَّ ظُلْمٍ وهو المتفرِّدُ بالحكم، وعَبِيدُه المستحقّونَ للعقاب كثيرون لكانَ ظلّاماً.

## (١٣)
## التدبّر التحليلي للدّرس التاسع من دروس السور وهو الآيات من (٣٠ ـ ٣٥)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

- قرأ نافع، وشعبة: ﴿يَوْم يَقُولُ﴾ بضمير الغائب.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرة: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ بضمير المتكلّم العظيم.

والقراءَتان من قبيل التّفنُّن البَيانِيُّ، فما قبلَ الآية يلائمه قراءة الجمهور: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ إذْ قَبْلَها مباشرة قولُه تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

أمّا قراءة نافع وشُعْبَة فَقَدْ لُوحِظَ فيها الحديث عن الله عزّ وجلّ بضمير الْغَائِبِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ أي: قال اللَّهُ عزَّ وجلّ.

- وقرأ ابْنُ كثير: [**هٰذا ما يُوعَدُونَ**] بضمير الغائبين.

وقرأ باقي الْقُرَّاء العشر: [**هٰذا ما تُوعَدُونَ**] بضمير المخاطبين.

وبين القراءتين تكاملٌ بيانيّ، فقراءة ابْن كثير لوحظ فيها بيانُ الله غيْرُ

الموجّه لخطاب المكلّفين، وقراءة الجمهور خاطب الله بها المكلّفين.

في هذا الدرس من دروس السُّورة بيان أرْبَعِ لقَطَاتٍ مختارات من أحداثِ يوم الدّين، غير اللّقطاتِ التي جاء بيانُها في الدرسَيْنِ السّابع والثامِنِ، وهي لقطاتٌ مُنتزَعَاتٌ من شريط أَحْدَاث ذَلِكَ اليوم:

**اللّقْطَةُ البيانيّة الأُولَىٰ:** دَلَّ عَلَيْها قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

هٰذهِ اللّقطة مُرَتَّبة تَرتيباً طبيعيًّا على ما جاء في الدّرس الثامن، من عَرْضِ اللّقطة البيانيّة الّتي فيها الأمْر بإلْقاء مستحقّي الْخُلُودِ في أَشَدّ العذاب من جهنّم.

أي: وجرىٰ تنفيذ أمر الله بإلْقَاء هٰؤلاَء، وجاء دَوْرُ سُؤَال جَهنَّم: هَلِ امتلأْتِ، فقد سَبَقَ القضاء الرَّبَّانيّ بأنْ يملأَ الله عزّ وَجلَّ جهنّم مِنَ الجِنَّةِ والنّاسِ أجمعين.

سؤالٌ لجهنَّمَ وَجوابٌ منْها، أسلوبٌ من التعبير فيه إبداعٌ قائم على خطاب جهنَّم، وهي غَيْرُ ذاتِ حياة، لَكِنَّ الله جلّ جلالُهُ يُنْطِقُها، وهو الَّذِي أنْطَقَ كُلَّ شيءٍ.

- يقولُ اللَّهُ عزَّ وجَلّ لجهنَّمَ: هَلِ امْتَلأْتِ؟.
- فتقولُ جَهَنَّمُ: هَلْ مِنْ مَزيد؟

ويحتملُ أن يكون هذا القول تعبيراً عن لسان الحال، وهو أيضاً من فُنُون الأدب الرفيع.

ويدلُّ استعمال الفعل المضارع في: «نَقُولُ» وفي: «وتَقُولُ» على أنَّ هذا السؤالَ وجوابه يتكرَّرَانِ ويتجدّدَانِ بعْدَ إلقاء فَوْجٍ فَفَوْجٍ في جهنَّمَ.

﴿مَّزِيدٍ﴾: مَصْدَرٌ ميميّ بمعنى «زيادة» أي: هل من زيادة تُلْقَىٰ فيَّ؟

«مِنْ» حرف جرٍّ زائدٍ للتوكيد، وهو هنا داخل على المبتدأ بعد «هل».

لقد كان من الممكن أن يكون الجواب: لاَ لَمْ أمْتَلِئ، أو: ما زَالَ يُوجد فيّ اتّساع لأفواج قادمة. أو نحو هذه التعبيرات.

لكنَّ هذه التعبيرات وأشباهَها تعبيراتٌ تِلْقَائيّة مباشرة، ليْسَ فيها سُمُوٌّ جماليٌّ، لاَ في الصِياغةِ، ولا في الفكْرَة.

أمّا التعبير القرآنيُّ المختار، فقد كان جواب السؤال فيه، علىٰ طريقة الإجابةِ على السؤال بسؤال يتضمَّن الجوابَ على قَدْرِ السؤال، وسؤالاً زائداً فوقه يتضمَّن أفكاراً زائدةً على الجواب المطلوب.

فقول جهنّم: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ يُشعر بأنّها تَطْلُبُ المزيد، إذَنْ فهي لَمْ تَمتِلِئ. ويُشْعِرُ بأنّها تتلَهَّفُ للمزيد من الذين يُلْقَوْنَ فيها، كجائعٍ أو ظامِئٍ لمْ يَشْبَعْ من طعامِ أكَلَه، أو شرابٍ شرِبَه، فيقول بتلهُّفٍ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

على هذا الوجه ينبغي أَنْ نَفْهَمْ هذا السؤال، فهو المطابقُ لما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ، أمَّا المفهوماتُ الأُخرىٰ فلا دليل عليها.

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالكٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«لاَ تَزَالُ جهَنَّمُ تَقولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ فيها ربُّ الْعِزَّةِ تَبارَكَ وتَعَالَىٰ قَدَمَهُ، فَتَقُول: قَطْ، قطْ وعِزَّتِكَ، ويُزْوَىٰ بَعْضُهَا إلَىٰ بَعْضٍ».

**يُزْوَىٰ**: أي: يُطْوَىٰ ويُجْمَع.

وفي روايةٍ أخرى:

«لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَىٰ فيها، وتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فيها قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إلَىٰ بَعْضٍ، وتَقُولُ: قَطْ، قَطْ. بِعِزَّتِك وَكَرَمِكَ.

وَلاَ يَزَالُ في الجنَّةِ فَضْلٌ، حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللّهُ خَلْقَاً فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ».

وعند البخاري وأحمد وأبي يَعْلَىٰ نحو ذلك، مع بَعْضِ خِلَافٍ فِي التعبير.

**اللّقطةُ البيانيّةُ الثانية**: دلّ علَيْها قول اللّهَ عزَّ وجَلّ:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

العَطْفُ في هذه العبارة من عطف الجمل الّتي تتضمّن بيان لقطاتٍ من شريط أحداث يوم الدين.

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾: أي: وقُرِّبَتْ، فالإزلافُ في اللّغة هو التقريب، وفيه معنىٰ التقريب بلُطْفٍ أخذاً من الاستعمالات.

يقال لغة: زَلَفَ فُلاَنٌ الشَّيْءَ وأَزْلَفَه، أي: قرّبه، وزَلَفَ فُلاَنٌ إلى الشيء وازْدلَفَ، أي: دنَا إليه وقَرُبَ مِنْه.

وقد دلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ الجنَّة يُقَرِّبُها اللّهُ عزّ وجلَّ إِلَىٰ جهة حَشْر المتقِين يومَ الدِّين تكريماً لهُمْ حتَّىٰ تكون منهُمْ رأيَ عَيْنٍ.

ولمَّا كان المحشَرُ على سَطْح أَرْضِنَا هٰذهِ كما بيّنت بعضُ أحاديث الرَّسُول ﷺ، ودلالات بعض آيات القرآن، فإنّ الله عزّ وجلَّ يُدْنِي الجنَّةَ إلى جهة مَحْشَر المتقين حتَّىٰ تكونَ قرِيبة منهم، يَرَوْنها، ويَسْهُلُ عليهم الوصول إليها مجتازين الصراط.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: أي: وأُزْلِفَتِ الجنَّةُ إزْلافاً غيرَ بعيد، فعبارة «غَيْرَ بَعِيدٍ» نَعْتٌ لمصدرٍ محذوفٍ هو مفعولٌ مُطْلَقٌ. ولمَّا كان الإزْلافُ تقريباً مكانِيًّا صحّ تنزيلُ الإزلاف منزلةَ المكان الذي قُرِّبَت الجنَّةُ إليه، ووصْفُهُ بأنّه غيْرُ بَعيد.

وتَدُلُّ هذه العبارة على أنّ الجنّة تَصِلُ إلى مكان غير ملاصقٍ للأرض، لكنّه غير بعيدٍ نسبيًّا عنها، فالمكان الذي يُمكنُ الوصول إليه بيُسْرٍ

وسُهُولة، ولو بوسيلَةٍ من الوسائل لا يُعْتَبَرُ بعيداً، وقد صِرْنا في هذا العصر الذي نعيشه، نستطيعُ أنْ نتصوَّر أنّ القَمَرَ قريب من الذين لديهم في الأرض الوسائل الموصلة إليه.

**اللّقطة البيانيّة الثالثة**: دَلَّ علَيْهَا قول الله عزّ وجلّ:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

هذا نَصَّ مُقْتَطع من أحداث يوم الدّين، قُدِّم بصِيغته كمَا لَوْ كان الحدث يجري الآن، وهذا الأسلوب من روائع المبتكرات القرآنيّة في البيان الكلامي.

المشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ الجنة الّتي صارت بإزلافها قريبةً من رُؤيتهم البصريّة، وإذْ يَرَوْن الجنَّة فقد يَرَوْنَ فيها بعضَ ما أَعَدَّ اللَّهُ فيها من نعيم مقيم لأصحابها.

وجاء اسم الإشارة الموضوع للمفرد المذكر مراعاةً للفظ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ فهو ما كانوا يُوعَدُونه في الدنيا بالكُتُب الربّانيّة، وعلى ألسنة المرسلين، واسْتُعمل الفعل المضارع لأنّ هذا الوعْدَ قد كان متجدّداً دواماً، وما زالُوا يوعَدُونه حتّىٰ دُخولها.

لكنّه ليس وعْداً عامًّا لكلّ الناس، بل هو وعْدٌ لكلّ من استجمع عدّة صفاتٍ جاء بيانُها في هاتَيْنِ الآيَتَيْن، وهي الصّفات التاليات:

**الصفة الأولى**: أنَّهُ ﴿أَوَّابٍ﴾ وهو الرَّجّاع إلَىٰ الله بالتوبة والنّدم، في فِعْلِ «آبَ يَؤُوبُ» أي: رجَعَ. ولفظ «أوّاب» على وزْنِ «فعّال» من صيغ المبالغة، أي: هو كثير الرُّجُوع إلى ربّه بالتوبَةِ والنّدم والاستغفار، كلّما بدَرَتْ منه بادِرَةُ معصية. وهُوَ أيضاً سَرِيع الرُّجوع إلى ربّه، لا يتمادى في معاصيه.

**الصفة الثانية**: أنّه ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: كثيرُ المراقبة لأعْمالِهِ الظّاهرة والباطنة، وأوامر الله ونواهيه المتعلّقة بها، وكُثير الحمايَةِ لنَفْسِه مِن مَزَالِقِ المعاصي والآثام والمخالفاتِ، وكثير العنايَةِ بتغذية قلْبه ونَفْسه وفِكْرِه، بما يُنَمّي فيها الارتقاءَ في معارج الْقُرْب من الله جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه، والسعادة بعبادَته ومناجاتِه وتَدَبُّر آياته.

كلُّ هٰذه المعاني تَدخُلُ في عموم دلاَلة كلمة ﴿حَفِيظٍ﴾.

فالحفيظ على مَالِهِ يراقبُه خَوْفَ العوارض والجوائح والمكاره، ويَحميه ويَعْتَني به بالتنمية حتّى لا تُفْنِيَهُ عوارض الزّمان، ومفنياتُ الأحداث مع توالي اللّيل والنهار.

ومن كان في قلبِه إيمان مَا وَلَمْ يكُنْ حفيظاً الحفظ الواجب، فإنَّ اللَّهَ يُدْخِلُهُ الجنَّةَ دون سابق وعد، أو يقال: هذا ما توعدون دون استحقاق عذاب قبله، جمعاً بين النصوص.

**الصفة الثالثة**: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾. إنّه لا يخشىٰ الرحْمٰنَ بالغيب إلاّ مُؤْمِنٌ به صحيح الإيمان.

**الخشية من الله**: خوف من عقابه مصحوب بتعظيم وإجلال وحبّ وإذعانٍ له بالرُّبوبيَّة والمنّة.

واختير اسم الله هنا للإشعار بأنّ الخشية لَيْسَت خشيةً ملاحظاً فيها صفةُ الجبار المنتقم فقط، بل هي خشيَةٌ ملاحظٌ فيها صفة رحمة الله الّتي يَشْمَلُ بها عباده، ويَمْنَحهُمْ بها فُيُوضَ عطاءاته وإحسانه.

والخشية النافعة هي الخشية الّتي تكونُ مقترنةً بالغيب حتى آخر حياة المكلّف، أي بغَيْبِ الرَّحْمٰن عن حواسّ العبد الذي يخْشَىٰ رَبّه، إذْ تكونُ خشيتُه نابعَةً من الإيمان به في عُمْق فُؤاده، ملاحِظاً عَدْلَهُ ورحمته معاً.

والنافع منها هو ما استمرَّ حتىٰ يُدْرِكه الموت، ولو بَدَأَتْ قبل الموت بقليل، بشرط أن لا يشهد من حقائق ما بعد الموت شيئاً، لأنَّ التوبة لا أثر لها عندئذ.

ولا يكون الإنسانُ أوّاباً وحفيظاً، ما لَمْ يكُنْ ممَّنْ خَشِيَ الرَّحْمٰن بالغيب.

**الصَّفَةُ الرَّابعة**: دلّ عليها قولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: وجاء إلى رَبّه بَعْدَ مَوْتِه بقَلْبٍ رَاجعٍ إلىٰ رَبّه، تائب من ذنوبه، مُسْتَغْفِرٍ خاضعٍ خاشع.

**اللّقْطة البيانيّة الرابعة**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَاۖ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ﴾: عبارة مقتَطعَةٌ ممّا سَوْفَ يقالُ لهم عنْد توجيههم لدُخُول الجنَّة، أي: ادْخُلُوا الجنَّة مصحوبين بسلام.

**السَّلاَمُ**: يأتي في اللّغة بمعنى الأمان، وبمعنى البراءة من العيوب، وبمعنىٰ التحيّة. وكلُّ هٰذه المعاني يكون أهل الجنّة مصحوبين بها دواماً فالأمان تامٌّ في الجنَّة، والمطالب متحققة فيها، والبراءة من العيوب كالمرض والعرج وسائر العاهات والمنغِّصَاتِ، والعجز والكسل والأوجاع والآلام حتى فضلات الطعام والشراب، متحققة لكل المنعمين فيها شبَّاناً دواماً، ويقال لمن يدخلُها: سلام عليكم طِبْتُم فادْخلوها خالدين. ويُلَقَّوْنَ فيها آناً فآناً تحيَّةً وسلاماً. وهذه المعاني قد دلَّت عليها نصوصٌ متعدّدة في القرآنِ والسّنة، واختصرت هنا بعبارة: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾: أي: ذَلِكَ الْيومُ الّذِي سَوْفَ يَدْخلُ فِيه أصْحَابُ الجنَّةِ هو يوم الْخُلُودِ الّذِي لا آخر له.

هذه العبارة يبدو أنَّها غير مُقْطَعةٍ ممَّا سَيُقالُ لهم، فليست هي من

توابع: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ﴾ بل هي بيان لمُتَلَقِّي البيان القرآني في الحياة الدنيا، ويُرجّح هذا الفَهمَ استعمالُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، وعبارةُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ أي: لأصحاب الجنة الذين سَوْفَ يقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ﴾ كلُّ ما يشاءون فيها دون استثناء، مهما انطلَقَتْ أمانيهم تخيُّلاً وإسرافاً، فإذا انقطَعَتْ أمانيهم أعطاهم الله مزيداً لم تَبْلُغْ إليه أوهامُهُم.

**مَزِيد**: مصدَرٌ ميمي بمعنى «زيادة».

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدريّ أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ؟!. فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟. فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبداً».

ومن المزيد إكرامُ الله لهم بأَنْ يَرَوْه رؤيةً يخصُل لهم بها سعادة تفوقُ كلَّ ما نالُوهُ في الجنّة من سعادات، كما ثبت في الصحيح أيضاً.

## (١٤)
## التدبُّر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآيتان (٣٦ و٣٧)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾.

في الدرس الرابع جاء تَلْوِيحٌ بإِنْذار مُكذّبي الرَّسُول ﷺ، والمكذبين

بيوم الدّين، بسُنَّةِ اللَّهِ عزّ وجلّ في الإهلاك الجماعي للأمم الّتي تَصِل في كفرها وجرائمها وإفسادها في الأرض، إلى مثل ما وصل إليه قوم نوحٍ وأصحاب الرَّس وثمود وعادٌ وفرعون وإخوان لوطٍ وأَصْحابُ الأيكَةِ وقَوْمُ تُبَّع. وهذا التلْويحُ جُزءٌ من العلاج النَّفْسيّ لهم بالترهيب. واقتضىٰ هذا العلاج استكمالاً، بإعطائهم جَرْعَةً علاجيَّة أخرىٰ في السورة نفسها، بعْدَ فاصلٍ اشتمل على إقناعات فكريّة، وبياناتٍ قدَّمَتْ صُورَ لَقَطَاتٍ غَيْبِيَّة، تتّصِلُ بقانون الجزاء الرَّباني، ممّا هو قائم في رحلة الابتلاء، ومما سَيْأتي بعدها، حتَّىٰ البعث والْحِسَاب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء من حقائق مُسْتقبليَّة.

وجاء هذا الاستكمال لبعض عناصر الترهيب بالإهلال المعجّل في الحياة الدُّنيا، مُشْتَمِلاً على تفصيلٍ لبَعْضِ ما أُجْمِلَ في الْجَرْعَةِ العلاجيَّةِ الأُولى.

وفي هذا التفصيل جاء بيانُ كثْرَةِ الْمُهْلَكِين من أهل القرون الأولى، وبيانُ أنَّهُم أَشَدُّ بَطْشاً من المكذِّبين المعاصرين لتنزيل القرآن، وبيانُ أنّ في عَرْضِ قِصَصِ الْمُهْلَكِين الأوّلين لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كان له قَلْبٌ، أو أَلْقَىٰ السَّمْعَ وهو شهيد.

ومعَ غاية استكمال بعض عناصر علاج المكذبين، ففي هذا البيان طَمَأْنَةٌ لقَلْبِ الرسُول ﷺ وقُلُوب الّذين آمَنُوا معه، بأنَّ نَصْرَ الله لرسوله وللمؤمنين قادمٌ لا محالة، كما نَصَر الله المرسَلِين السابقين والّذين آمَنُوا معهم، مع أنَّ المكذبين الأوّلين كانوا أشدَّ من المعاصرين لتنزيل القرآن قُوَّةً وبَأْساً، حتَّىٰ استطاعوا أن يُنَقِّبُوا في البلادِ بحثاً عمَّا يطْلُبُونَ لدُنياهم، فهذه الطمأْنَةُ عُنصرٌ عِلَاجِيٌّ للرَّسُول وللمؤمنين.

فإلى تَدَبُّر فقرَاتِ هذا الدَّرْس:

● قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾.

﴿كَمْ﴾ خبَرِيَّةٌ. وهي اسْمٌ يقَعُ على العَدَد، وحين تكون خبرِيَّةً تكون بمعنى: «عدد كثير» وهي كلمة مُبهمَةٌ تُميَّزُ باسْمٍ مَجْرُورٍ، ويجوز أن يَدْخل عليه حرف الجرّ «مِنْ» كما في هذه العبارة: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾.

**والمعنى:** قُرونٌ كثيرةٌ أُهلِكَتْ قبلَ قَوْمِكَ يا مُحمَّد مِنْ مُكَذِّبِي الرُّسُل السَّابقين.

﴿أَهْلَكْنَا﴾: أي: أَهْلَكْنَا إهْلَاكاً جماعيًا عقابيًا مقترناً بتعذيب.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾: كلمة «قَرْن» تُطْلَقُ على أهل زمانٍ واحدٍ، وتُطْلَقُ على زمَنٍ قَدْرُهُ مِئَةُ سَنَةٍ، وتُطْلَقُ على الذُؤَابَةِ من الشعر، وعلى الْخُصْلَةِ منه، وعلى الْقَرْن المعروف، وهُو العظم الذي يَنْبُتُ في رؤوس الحيوانات ذوات الْقُرُون.

والمقصود هُنا أَهْلُ زمانٍ بعَثَ اللَّهُ لهم رسولاً فكذَّبوه، وكذّبوا بما جاءهم به عن ربّه.

● قولُ الله تعالى: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾:

أيْ: كان هؤلاء الأقوام الْمُهْلكُونَ من الْقُرُون الأولى أشدَّ بَطْشاً مِنْ قَوْمِكَ الذين كذّبوك يا مُحمّد.

**الْبَطْش:** هو في اللُّغةِ أخْذُ الشيء بِعُنْفٍ وقَسْوة. والبأسُ والْقُوَّة. والتناوُلُ بشِدَّةٍ عنْدَ الصَّوْلَة. والأَخْذُ الشدِيدُ في كُلّ شيءٍ يُسَمَّىٰ بَطْشاً. يقالُ لغة: بَطَشَ يَبطُشُ ويَبطِشُ بَطْشاً.

● قول اللّهِ تعالىٰ: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾:

**النَّقْبُ في اللُّغة:** الثَّقْبُ. يقالُ لغة: نقبَ الشيْءَ يَنْقُبُه، أيْ: ثقَبَه. ومنه ثَقْبُ المسالِكِ في الصُّخور والجِبال.

**والنَّقْبُ**: الطريق، أو الطريق الضّيّق في الجبل.

ويقال: نَقَّبَ في الأرض إذا ذَهَبَ فيها.

**والتَّنقِيبُ**: البحْثُ عن الأشياء المخفيّة، كأنَّ الباحِثَ عَنْها يَحْفرُ ويثْقُبُ حتَّىٰ يَصِل إليها.

فالمعنى يَدُورُ حوْلَ اسْتِعْمال أهل القُرونِ المُهْلَكه من كَفَّار القرونِ الأولَىٰ قُواهُمُ القادرة على البَطْشِ في البحث للوصُول إلىٰ ما يُريدون في البلاد.

● قول اللّهِ تَعالَىٰ: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾؟!

خَبَرٌ بأسلُوب الاستفهام، لانتزاع الجواب من المقْصُودين بالْخطاب، إذْ لاَ يملكونَ إلاَّ جواباً واحداً، وهو: لم يكنْ لهم محيصٌ.

وهذا من روائع الأساليب الإخبارِيَّةِ في فنُون الأدب البيانيّ.

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾؟!: أي: هَلْ من مَحِيدٍ، ومَعْدِلٍ، ومَهْرَبٍ؟!

**والمعنى**: هلْ كان للْمُهْلَكِين الأوَّلين من أهل القُرون السابقة، حين أنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِم أسْباب إهْلاَكهم وتَعْذِيبهم من مَهْرَبٍ يفِرُّونَ إليه.

يقال لغة: حاصَ فُلاَنٌ عن النازلة مثلاً يَحِيصُ حَيْصاً، ومَحِيصاً، وحَيَصَاناً، أي: حَادَ عَنْها، وعَدَلَ، والْمَحِيصُ: الْمَحِيدُ، والْمَعْدِلُ، والْمَهْرَبُ.

«مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زائدٍ للتوكيد، وهُوَ داخل على المبتدأ هنا بعد «هل».

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾:

جملة مؤكّدةٌ بحرف التأكيد «إنّ» و«الجملة الاسميّة» و«اللاّم المزحلقة» لأنّ المقصودين بالخطاب تَتطلّبُ حالُهم هذا التأكيد.

وجاء فيها استعمالُ اسْمِ الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ للدّلالة على أنّ إهلاك كُفّار القرون الأولى إهلاكاً جماعيًا عقابيًا أمْرٌ عظيم رفِيعُ الدلالة على عدل الله، وجليل حكمته، وكمال قُدْرته.

**والمعنى**: إنَّ في ذَلِكَ الأَمْرِ العظيم، ذي الخطَرِ الجسيم، الّذي تحقّق فيه إهلاك قُرونٍ كثيرة، كذّبَتْ رُسُل رَبّها، وكذّبتْ ببلاغَاتِهم عنه، وكانوا أشدّ بَطْشاً وبَأْساً من صَنَادِيد مشركي مكة، الّذِين كذّبوا رسولَ الله محمداً وكذّبوا بيوم الدِّين، لَذِكْرَى.

**الذِّكْرَىٰ**: اسمٌ للتّذْكِيرِ، ويَأْتِي بمعنىٰ التّذَكُّر.

ومعلومٌ أنَّ إهلاك مُكَذِّبي الْقُرون الأولى قد جاءت به الأخبار فأعْلَمَتْ به، وبَقَاءُ نُصُوصِها مُتداوَلةً مُذكّر به، وآثارُ دِيَارِهم شواهد على إهلاكهم، فهِيَ مُنبئَةٌ عنْهُ أوّلاً، ومُذَكِّرَة به دواماً.

ومَنْ أحْضَر في تَذكُّرِهِ هٰذِهِ الحقيقة، هزَّتْ قلْبَهُ بالموعِظَة، فاتَّعظَ، فأقْلَعَ عن كُفْره وتكذيبه، خوفاً من عقاب الله المُعَجَّلِ والمؤجّل.

ولٰكِنْ يُشْتَرط لحصول هذه الذِّكْرَىٰ، المؤثّرة اتِّعَاظاً وخوفاً من عقاب الله، وُجودُ أحد أمْرَين:

**الأمْر الأوّل**: أن يكونَ لِلإنسان قَلْبٌ واعٍ مُتدَبّر، حرِيصٌ على اسْتِبصار سُنّةِ الله في عباده من آياته في كونه، فهذا الإنسان يَهْدِيه قلْبُه الواعي المتفكّر المتدبّر، فيجعل سُنَنَ الله حاضرةً في تَذَكُّرِه آناً فآناً، وبذلك تكونُ واعظةً لهُ آناً فآناً.

والمرادُ بِالْقَلبِ عُمْقُ النَّفس، حيْثُ تُوجَدُ أدواتُ التَّفكير والاسْتِنْباطِ

والفَهم، ومَشاعِرُ الرَّغب والرَّهَبِ الواعيَةِ عن بصيرةٍ سليمة، لم تُفسِدْها الأهواءُ والشهوات وزينات الحياة الدنيا، ولا أَقْوالُ المُضِلّين المزخْرفَةُ القائمة على تزييف الحقائق، وصناعة الأكاذيب.

**الأمر الثاني**: أن يكون لذى الإنسان استِعْدَادٌ ورَغْبَةٌ في أَنْ يُلْقِي سَمْعَه، لآيات التذكير بأنباء المهلَكِين السَّابِقين فيَتفهمها بإمعان، وأن يكون لدَيْهِ استِعْداد ورَغْبَةٌ في أن يفتح عيْنَيْهِ لشُهودِ آثار بلادهم والتَّبَصُّر بها، وإدْراك أسْباب تدْميرها.

فإذا فَعَلَ ذَلِكَ بكُلِّ حِسَّيْ سَمْعِه وبَصَرِهِ نَفَذ التَّأثير إلى عُمْقِ قَلْبِهِ، فكانَتْ له ذِكْرَىٰ واعظة.

ونُلاحظ هنا أنَّ حاسَّتَي السَّمْع والْبَصرِ قد يقومان مقام القلب الواعي المتفكّر المتدبّر، ويظَلُّ القلْبُ مُحْتَلاً المرتبة الأولىٰ في هذا.

**أَلْقَى السَّمْعَ**: أي: وَجَّهَ كُلَّ سَمْعِه لتلَقِّي بيانات آيات الله بإمعان بشأن المهلَكين السابقين.

**وهُوَ شَهِيدٌ**: أي: وهو مُعَايِنٌ آثارَ الْمُهْلَكِينَ السابقين مُعَايِنَةَ البصير الواعي.

❁ ❁ ❁

## (١٥)
## التدبّر التحليلي للدرس الحادي عشر من دروس السورة وهو الآية (٣٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿وَمَا مَسَّنَا ﴾: الْمَسُّ أخفُّ وجُوهِ وُصُولِ سَطْح الشيء إلى سَطْحِ الشَّيْءِ الآخَر، كَمَسِّ ظاهرِ الْجِلْدِ بظاهر جِلْدٍ آخر، وأشَدُّ منْهُ النُّفُوذُ إلى ما تحت السَّطْح، وكلّما زَادَ دُخولُ الشَّيءِ في الشيء كَانَ أشَدَّ، كَدُخول السَّهْم في جَسَدِ الْمُصَاب به.

﴿مِن لُّغُوبٍ ﴾: اللُّغوب: التَّعَبُ والنَّصَبُ. و«مِنْ» حرف جَرٍّ زَائدٍ جِيء به لتأكيد التَّنصيص على نفْي كُلِّ تَعَب.

كيف يَتْعَبُ رَبُّنا وَمِنْ صِفَاتِهِ الثَّابِتَةِ له دَوَاماً، أَنَّهُ إذا أرادَ شيئاً فإنَّما يَقُولُ له: كُنْ فَيَكُون؟!!.

يُقَالُ لغة: لَغِبَ ولَغَبَ يَلْغَبُ ويَلْغُبُ لَغْباً ولُغُوباً، أي: تَعِبَ وكَلَّ، ونَزَلَ بِهِ إعياءٌ لَمْ يكُنْ.

أي: وَمَا مَسَّناً أَدْنَىٰ مَسٍّ مِنْ تَعَبٍ أو كَلَلٍ أو إعيَاء.

هذه الآية دَرْسٌ إلْحَاقيٌّ نَزَلَ في الْعَهْدِ المدني حين أثار الْيَهودُ مقولَتَهُمُ الافترائيّةَ على اللَّهِ عزَّ وجلَّ، الَّتي زَعُموا فيها أنّ الله عزّ وجلّ بعد أن خلق السماوات والأرضَ في ستّةِ أيّامٍ جلَسَ يَسْتَرِيح يَوْمَ السَّبت.

وَضُمَّ هذا الدَّرْسُ إلى سُورة (قَ) المكيَّة مُرَاعاةً لِلْمُنَاسبَةِ الفكرية، ولم يَنْزِلْ هذا الدرس في العهد المكيّ، لأنّ أهل مكّة ومَنْ حولهم من العرب لم تكن لدَيْهم مقولَةٌ عن الله تشبه هذه المقولة اليهوديّة.

وَوُضِعَتْ آيَةُ هٰذَا الدَّرس بَعْدَ الانتهاء من الدروس الّتي اشتملت في السُّورَة على معالجة الْمُصِرّين على كُفْرِهم مِنْ مُشْرِكي مكة، لئَلاّ يتصوّر المتدبّرُ للقرآن المجيد أنّ مقولة اليهود الافترائيّة هي إحدى شبهات مُشْرِكي مكة.

إنّ شُبْهَة أنّ اللَّه قَدْ تَعِبَ وَكَلَّ، بَعْد أَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ والأرض وما

بينهما في سِتَّة أيّام، وأنه جَلَسَ ليستريح في اليوم السابع، فجعله مُقَدّساً، لَمْ تكن مَوْجودةً عند مُشرِكي العرب، فلَمْ تكُنِ الحاجَةُ داعِيَة لإنْزَال آيَةِ هٰذا الدَّرْسِ في الْعَهْدِ المكيِّ، الَّذي لَمْ يَكُنْ لليهودِ فيه مواجهةٌ لدعوة الرسول ﷺ.

ولمّا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينَة، ودَعَا اليهود فيها إلَىٰ الإسلام، أثار اليهود مقولَتَهُمُ الافترائيّة على الله، فأنزل الله عزّ وجل آيَة هذا الدرس في العهد المدني من تاريخ دعوة الرسول ﷺ، وأمَرَ الوحيُ الرَّسُولَ ﷺ بأن يضَعَها في سورة (قٓ) وعقب الآية (٣٧) منها.

ولم يجعلها عَقِب: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ لئَلاَّ يُفْهَمَ أنَّها مقولَةٌ قالَها عَرَبُ مكّة تَأَثُّراً بمقالاَتِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ قَبْلَ أن يُهَاجر الرسول ﷺ إليها.

فكان تأخير موضِعِها الذي يُشْبه التعقيب والاستدراك، دليلاً على أنها لم تكن مقولَةً عَرَبيّة، وإنما كانت مقولة يهوديّة.

وقد رُوِي عن ابن عبّاس وقتادة أنّ هذه الآية من سورة (قٓ) مَدَنيّة، أمّا سائر آيات السورة فمن التنزيل في الْعَهْدِ المكيّ.

وقد دَسّ اليهود مقالتهم الكاذبة على الله عزّ وجلّ في سِفْرِ التكوين، في أوّل الإصحاح الثاني منه، فقد جاء فيه:

«فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. وَفَرَغَ اللَّهُ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ، فَاسْتَرَاحَ في الْيَوْمِ السَّابع مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذي عَمِلَ. وَبَارَكَ اللَّهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ. لِأَنَّهُ فِيه اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذي عَمِلَ اللَّهُ خَالِقاً».

لَقَدْ كَذَبُوا عَلَىٰ الله، فإنّ اللَّهَ عزّ وجلّ لا يُتْعِبُهُ شَيْءٌ، حتَّىٰ يحتاج

إلى الاسْتِرَاحَةِ كَمَا تحتاجُ مَخْلُوقاتُهُ الّتي خَلَقَها بصفاتٍ تحتاجُ معَها إلى الاسْتِرَاحَةِ إذا عَمِلَتْ عملاً فيه اجتهادٌ وكدْح وكدّ.

إنّما أمْرُهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه: إذَا أراد شيئاً أنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فيكُون.

ما قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِه فَقَاسُوهُ على أنفسهم، وتَعَالَىٰ اللّهُ عمَّا قالُوا عُلُوّاً كبيراً، وسُبْحانه عمَّا يَصِفُون.

❁ ❁ ❁

## (١٦)
## التدبّر التحليلي للدرس الثاني عشر من دروس السورة وهو الآيات من (٣٩ ـ ٤٥) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾.

**القراءات وتوجيهها:**

● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وحمزةُ، وأَبُو جَعْفَرٍ، وخَلَفُ: ﴿وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾ بكسر همزَة [**إدْبَار**] وهو مصْدَرُ أدْبَر بمعنى ذهب وولّى، أي: بَعْدَ انتهاء الصلاة، وهذا يعُمُّ كلَّ صلاة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ بفتح همزة ﴿وَأَدْبَارَ﴾ وهو جَمْعُ «دُبُر» ودُبُر الشيء في اللُّغة عَقِبُهُ ومؤخَّرُه، أي: في أعقاب الصلوات.

أُطْلِق لفظ «السُّجودِ» وأُرِيد به الصلاة، لأنَّ السُّجود أعْظَمُ أَرْكان الصَّلاةِ الْعَمَليَّةِ، فأقرب ما يكون العبْدُ من ربّه وهُوَ ساجِدٌ له في الصَّلاةِ، ومُؤدّىٰ القراءتين واحد. وهما تفنُّنٌ في التعبير جميل.

● وقَرأ نافعٌ، وابْنُ كثيرٍ، وابْنُ عامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوب:

﴿تَشَّقَّقُ الأَرْضُ﴾ بتَشْدِيد «الشين» أصل الكلمة «تَتشقَّقُ» فأُدغِمَت التاء بالشّين فصَارَت شيناً مُشدَّدَة، وهذا وجْهٌ عَرَبيٌّ لنُطْقِ الكلمة، يؤكّد معنى التكلّف في دلالة صيغة «يتفَعّل».

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشين، أصل الفعل «تتشقق» حذفت التاء تخفيفاً، وإشارة إلى عدم الحاجة إلى التكلف في الحدث.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، فبعض أماكن من الأرض صُلْبَةٌ قَاسِيَةٌ، يحتاج خُروجُ الموتى منها إلى أَنْ تتشقَّقَ الأرض عنهم بتكلُّفٍ وشِدَّةٍ، فجاءت قراءة ﴿تشَّقَّقُ﴾ دالَّة على هذا، فالتكلّفُ من دلالات صيغة فِعْل «تَفعَّلَ يَتَفعَّلُ» ويزيد بالإدغام.

وبعْضُ أماكن من الأرْضِ رخوةٌ ليّنة، لا يحتاج خروج الموتىٰ مِنْها عند البعث إلاّ أَنْ يحْدُثَ فيها تشقُّقٌ يَسِير لا تكلُّفَ فيه، فجاءت قراءة: ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشّين وحذف التاء دالّة على هذا.

● كلمة [يُنادِي] جميع القرّاء يَحْذفُونَ في الوصل يَاءَ الفعل الأخيرة، لالْتقاء السَّاكنين.

وأمّا في الوقف فلِلْقُرَّاءِ فيها وجْهان: الإثبات والحذف.

فابْنُ كثير لَهُ فيها الوجهان معاً. وأَمَّا يَعْقُوبُ فَلَهُ في الوقفِ وجهُ الإثبات فقط، وأمّا باقي القرّاء العشرة فلهم في الوقف وجْهُ الحذْف فقط.

وهي وجوه من الأداء تَبِعَ فيها القُرَّاءُ ما تَلقَّوَه، إلى رسُول الله ﷺ، مُعَلِّم نُطْقِ كتاب اللَّهِ الّذِي أنْزِلَ على سبْعَةِ أحرف.

● وكلمة **[المنادي]** للقرّاء في يائها وجهان: الإثبات والحذف.

أمَّا نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، فقد أثبتوا الياء في الوصل، وحَذَفُوها في الوقف، بحسب ما تلقَّوْهُ من أداء.

وأمّا ابْنُ كثير، ويعقوب، فقد أثبتا الياء في الوصل والوقف، بحسب ما تلقَّيا من أداء.

● وأمّا باقي القرّاء فقد حذفوا الياء في الوصل والوقف بحسب ما تلقوا من أداء.

● وعبارة: **[وَعِيدِي]** للقرّاء في ياء المتكلم منها وجهان: الإثبات والحذف، بحسب ما تلقَّىٰ كُلٌّ مِنهم.

فقراءة «وَرْشٍ» على إثبات الياء في الوصل، وحذفها في الوقف.

وقراءة «يعْقُوب» على إثبات الياء في حالتي الوصل والوقف.

وقراءة باقي القرّاء العشرة على حذف الياء مطلقاً وصلاً ووقفاً.

**التدبّر:**

هذا هو الدرس الأخير من دُروس السّورة، وهو يشتمل على معالجة حالة الرسول ﷺ النفسيَّة والقلبية في المقصد الأوّل، تجاه ما يلقاه من قومه الّذين كذّبوه في نُبُوَّته ورسالته، وكذَّبوا بِبَلاَغاته عن ربّه.

ويشتمل في المقصد الثاني على تربية حَمَلَةِ رسالة الرَّسُولِ ﷺ من أمَّته.

ويشتمل في المقصد الثالث على متابعة معالجةِ مُكذِّبي الرَّسُول،

والمكذّبين بيوم الدّين، مع الإعراض عن مواجهتهم بالخطاب، إذْ ظاهر الخطاب مُوجَّهٌ للرَّسُول ﷺ.

• قول الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

في هٰذه الجملة تَرْبيةٌ من الله عزّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ، بأن يَصْبِر على مقالات المكذبين له من قومه، الّتي يتّهمونه فيها، بالكَذِب في ادّعائه أنّه نبيُّ الله ورسولُه، وفي قَوْله: إنَّ القرآن الّذي يتْلُوهُ عليهم هو من عند الله عزّ وجلّ، أمرَهُ اللّٰهُ بأنْ يبلّغَهُ للناس، وفي بياناته عن البعث ويوم الدّين[1].

ففي الصبر تدريب للإرادة النفسيّة، يُكْسِبُها قُوّةً على تَحمُّلِ المَكَارِه، ومُواجَهة الصُّعوبات، ومقاومة هجمات المصارعين من المخالفين والأعداء، وقُدْرةً على عدم الاكْتِراثِ للمزعجات النفسيّة، وعدم المبالاة بالمثيرات الوافدات من الخارج.

إنّ الصَّبرُ يُكتَسَبُ بالتَّصبُّر، والحِلْمَ يُكْتَسَبُ بالتَّحلُّم، والعِلْمَ يُكْتَسَبُ بالتَّعلُّم، وكلُّ ذٰلِك على مقدار ما لدى الإنسان من قابليّةٍ فِطْرِيَّةٍ للاكتساب، والناسُ مُتفَاضِلُون فيما بينهم في قابليّاتِ اكْتِسَابِ الفضائل، والرَّسُولُ محمّد ﷺ أكْمَلُ الناس خُلُقاً وَفِطْنَةً وعقلاً، وأكْثَرُهم قابليَّة لاكتساب الفضائل والاستزادة منها، بحسب الفطرة الرَّبَّانيَّة الّتِي فطَرَهُ اللّٰهُ عَلَيْها.

والخطاب الموجّه للرَّسُول في هذا، مُوَجَّهٌ تبعاً لحمَلَةِ رسالة الرَّسُولِ من أُمَّتِه، فَهُمْ مأمورون بالصَّبْر، كُلَّما واجَهُوا ما يُسوؤهم من الّذِين يُؤذُونَ

---

(١) انظر «المقولة الثالثة» من «الفصل الأول» من «الباب الثاني» من كتاب «فقه الدعوة إلى الله» للمؤلف. وهي مقولة حول النّصوص القرآنية الموجهة للرّسول، التي يأمُرُه الله فيها بالصّبر، ففيها بيان شامل لكلّ النصوص الموزعة في السّور بحسب نجوم التنزيل.

الرّسالةَ الّتي يَحْمِلُونها لهم، دعْوَة إلى اللَّهِ، أو نُصْحاً أو إرشاداً، أو أمْراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

إنّ الإرادة متىٰ بَلَغَتْ من القوة مبلغ الصُّمود الحكيم، تحطّمَتْ على كتلتها الألْماسيَّة قُرُونُ أقوال مقاومي دعوة الحق، ومصارعيها، مهما كان فيها من شتائم واتهامات، وألوان هُزْء وسُخْرية.

● قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

بعْدَ أنْ أَمَرَ اللَّهُ رسُولَهُ ﷺ بالصَّبْر، ويُلْحَقُ به كُلُّ حَمَلَةِ رِسَالَتِه من أُمَّتِه، أعطىٰ اللَّهُ رسُولَهُ ومن هم مُلحَقُون به، الدَّواءَ اليوميّ الّذي يساعِدُ على التحلّي بالصَّبرْ، ويصْرِفُ عن النّفس والقلْب والفكْر المشاعرَ والأحاسيس والأفكار غير السّارّة، الّتي تُؤلِمُ في العادةِ الصّادقَ حينما يُكَذَّب، والأمِينَ حينما يُخوّن، والْعَلِيمَ حينما يُجَهَّل، والْهَادِيَ المهتَدِيَ حينما يُضَلَّل، والذِّكِيَّ الْحَصِيفَ العاقل الرّصِين حَامِلَ لِوَاء الحقّ والدَّاعِيَ إليه، حينمَا يُتَّهَمُ بالجنون.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: أي: وسبّح رَبَّكَ تَسْبِيحاً مقْتَرِناً ومُلْتبساً بحَمْدِه، ومصاحباً له.

**تسبيح الله**: هو تَنْزِيهه وتقديسُه عن كلّ ما لا يليق به جلّ جلاله، من صفات النقص الّتي تتنافى مع أزليّته ووحدانيَّتِهِ، وكمالِ صفاته الوجودية فالتسبيح تمجيدٌ بالصفات السلبيّة، بخلاف «التَّوْقِير» فهو التمجيد بالصفات الوجودية.

**والحمد لله**: هو الثناء على الله بما هو له أهْلٌ من صفاتِ كمالٍ، وبِما هو مُنَزَّهٌ عنه من صِفاتِ نقص.

والباء في: ﴿بِحَمْدِ﴾ معناها الملابسة والمصاحبة والمقارنة.

والعبارةُ الّتي يتحقَّقُ بها المأمور به من التسبيح المقرون بالحمد لها عدّة صيغ:

- سُبْحَانَ اللَّهِ والحمدُ لله.
- سُبْحَانَ اللَّهِ وبحَمْدِه، وهذه العبارة مختصرة من جُمْلَتَين تقديرُهما: أُسَبّحُ سُبْحانَ الله، وأَحْمد بحمْدِه.

وعبارة «سُبْحان الله» عبارة ارْتضىٰ الله لعباده أن يذكروه بها في تنزيهِ ذاته وصفاته عمّا لا يليقُ به.

وهاتان العبارتان مأثورتان، ومن المأثور في التسبيح: «سُبْحانَ رَبّي - سبحان الله رَبّ العرش عمَّا يَصِفون ـ سُبْحانَ رَبّكَ رَبِّ العِزَّةِ عما يصفون ـ سبحان الّذي بَيدِه مَلَكوتُ كُلِّ شيءٍ وَإليه تُرْجَعُون. .» إلى غير ذلك من عبارات تتضمَّن تسبيح الله.

واخْتير من أسْماءِ اللَّهِ اسْمُ «رَبّ» في ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ لأنّه الاسم الجامع لمعاني أسماء الله الحسنىٰ ذات العلاقة بالخلائق.

وجاء في هٰذا العلاج التوصيةُ باستعماله في جرعاتٍ يَوْميّة، بأوقاتٍ مبيَّنة في النصّ، هي:

(١) ما قَبْل طُلُوع الشمس، وهو وقت صلاة الفجر.

(٢) ما قَبْلَ غُرُوب الشمس، وهو الوقت الذي جاء تحديده فيما بعد لصلاة العصر.

(٣) في وقتٍ ما من اللّيل.

(٤) عَقِبَ الصّلَوات.

وقَد أنزل الله هذا النّصّ قبل فرض الصَّلوات الخمس، فالمراد بعبارة ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ بَعْدَ الصّلوات الّتي كان يُصَلّيها الرَّسول ﷺ قبل فرض

الصَّلَواتِ الخمس الذي كان في ليلة الإسراء، وكان يُصَليها مثله من آمن به ودخل في الإسلام.

وعِلَاجُ النَّفس بالتَّسْبيح والذّكر لله عزّ وجَلّ عِلَاجٌ عظيمٌ بالنِّسْبة إلى المؤمنين، فهو مُهَدّئ، وغذاءٌ للجُمْلَة العصبيَّة يَنْبعث من عُمْقِ الفؤاد، وصارِفٌ للفكر عن الاشتغال بما يُقْلِقُ ويُحْزِنُ ويُؤلم.

إنّ الله عزّ وجلّ يُمِدُّ الذّاكرين له، المسبّحين بِحَمْدِه بِمَدَدٍ من لَدُنه، يُريحُهم ويُسْعِدُهم، ولا سيما إذا كانت العوارض المؤلمة عوارضَ نَفْسيَّةٍ.

● قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾:

ظاهر الخطاب في ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ مُوَجَّهُ للرَّسُول ﷺ، والمطلوبُ أن يَسْمَعه بيانٌ رَبَّانِيٌّ يَدُلُّ على لقطات لم يأت بَيانُها فيما سبقَ من أحْدَاث بَعْثِ الخلائق إلى يوم الدّين، للحساب، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ويبدو أنّ المقصودَ ضِمْناً بالخطاب بصيغة الأمْرِ: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ هو منكر البعث، وهو خطاب موجّه لكل منكر على التناوب بأسلوب الخطاب الإفرادي، ولكنْ أعْرَضَ الله عن مواجهته بالخطاب المباشر لعناده، ووجّه الخطابَ للرَّسُول بقوّة.

وهذا أسْلُوبٌ من أساليب علاج المكذبين الّذين يتّهمُونَ الرَّسُولَ بأنّهُ يقولُ كلاماً غَير معقول، ويُخْبر بأنباءِ غير ممكنة الحصول، فجاء توجيه الخطاب الرَّبَّانِيِّ لَهُ مُباشرةً، بصورة تُشْعِر المكذّبين بأنّ الله يُريد تثبيت رسُوله على الإيمان بيوْم الدّين، مهما واجَهَ من كبراء قومه من تكذيب، فعليه أن لا يَعْبأ باتّهاماتهم وشتائمهم له.

أي: إنَّ محمّداً بَرِيءٌ من صناعة النّبأ، بل نَبَأُ يوم البعث للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يُمْلَىٰ عليه تنزيلاً من عند الله بارئه، وهذا

الخطابُ الرَّبّانيّ يُوَجَّه له بقوّة وشدّة، فهو المخاطب به أوّلاً، ويجب عليه أن يؤمن به قَبْلَ سَائِر المكلفين أنْ يُؤْمِنُوا به، ثمّ هو مكلّفٌ أن يَدْعُو الناس إلى الإيمان به.

وهٰذا أسْلُوبٌ علاجيٌّ للإقناع بصِدْقِ الرسول ﷺ أكْثَر نفاذاً إلى عُمْقِ أَفْئدة مُكَذِّبيه، وإن أصَرُّوا على مَوْقفهم عناداً ومكابرة.

والمعنى الذي يُومِئ إليه هذا الأسلوب يمكن التعبير عنه بما يلي: اسْتَمِعُوا أيُّها المكذّبون، هذا رَسُولُنا نُخاطبهُ بهذا الخطاب الجازم الحازم بشأْن بَعْض أحداث يوم الدّين، تثبيتاً له، بَعْدَ أن اتهَمْتموه وشَتَمْتُمُوه.

يُضَافُ إلى هذا أنّ من أساليب خطاب الأمّة خطابَ قائدها، أو إمامها أو رسولها.

فَخِطَابُ الله لرسوله في أَمْرٍ من أمور الدّين العامّة الّتي لا خُصوصِيَّةَ للرسول به، هو خطابٌ لكلّ أمّة دَعْوَته، مَن استجابَ ومَنْ لم يستجب.

وقد جاء في هذا البيان الرَّبَّانِيّ بيانُ ثلاثة أحداث متتاليات من أحداث البعث إلى يوم الحساب وفصل القضاء.

**الحَدَث الأوّل**: نداءٌ يصدرُ من مكانٍ قريبٍ يناديه منادٍ بأمر الله، لبَعْث الموتَىٰ إلَىٰ الحياة الأُخرى، وهَذا النداء يَصِلُ إلى كُلّ مبعوث.

فهل هو نَفْخُ الصُّور النفخة الثانية، أو هو نداءٌ يَحْدُث بَعْدَها؟ الله أعْلَم، إذْ لَيْسَ لدينا بيانٌ عن الرَّسُولِ ﷺ في هذا، والنّصّ يحتمل الأمْرَين، دلَّ عليه: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

**الحدث الثاني**: سماعُ كُلِّ الْمَبْعُوثين صَيْحَةَ النداء بالْحَقّ، وهو الخروج من الأجداث، والتوجُّه لمحكمة الْعَدْل الرَّبَّانية، دلَّ عليه: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وبهذا السّماع يحْيَونَ كما يَستَيقظ النائم من نومه.

**الحدث الثالث**: استجابةُ المبْعُوثين للمطلوب منهم في النداء، إذْ يَخْرُجونَ من أجداثهم، ويتوجَّهونَ لمَا أُمِرُوا بأنْ يتوجَّهُوا له، دلَّ علَيْه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ بعد رحلة البرزخ بين الموت والبعث.

فالمعنى: يَوْمُ النّداء، ويَوْمُ سَمَاع الصَّيْحة، هُوَ يَوْمُ الخروج، لملاقاة ظروف الحياة الأخرى. وبهذه المناسبة جاء البيان التالي:

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣﴾.

في هذه الآية تذكير مع تأكيد مُشَدَّدٍ مقرون باستعمال ضمير المتكلّم العظيم خمْس مرّات، بعُنْصُرَيْن من عناصر القاعدة الإيمانيّة:

**العنْصر الأول**: أنَّ المحيي والمميت هو الله وحده بعظمة ربوبيّته، لا شريك له، فَمَنْ أحْيَا أوّلاً ثُمّ أمات، فلا عجَبَ أن يُعيدَ من أماته إلى حَيَاةٍ أخرىٰ، ليُلاَقي حسابه، وجزاءه على ما قدّم في الحياة الأولى، الّتي كانت رِحْلَةَ امتحانه.

**العنصر الثاني**: أنّ المصير بعد رحلة الابتلاء في الحياة الدّنيا، إلى الرّب الخالق، الذي خلقَ الناس ليبلُوَهم أيُّهم أحسن عملاً.

هنا يردُ سؤالٌ فلسفيٌّ عقلي وهو: ما معنى كون المصير إلى الله عزّ وجلّ، والكائنات جميعُها خاضعة لسلطان ربوبيته دواماً في كلّ مراحل وجودها؟.

● ألسنا نحن الآن خاضعين لسلطان ربوبيته؟!!

● ألسنا في رحلة البرزخ خاضعين لسلطان ربوبيته؟!!

● وكذلك نحن يوم الحساب وفصل القضاء خاضعون لسلطان ربوبيته جلّ جلالُه، وعظم سلطانه.

إذَنْ فما معنى المصير إليه والمخلوقُ في كلّ مراحل وجوده حيًا وميتاً خاضع لسلطان ربوبيته دواماً؟!!

**أقول:**

لدى التأمُّل بتدبُّرٍ عميق نلاحظُ أنّ الممتَحَنِين المكلّفين في الحياة الدُّنيا، قد أعطاهُم الله جلّ جلاله حرِّيَّة الإرادة، التي يختارون بها ما يشاءُون من طريق الخير، أو مسالك الشرّ، وسخّر لهم في ذواتهم وفي الكون من حولهم الأشياءَ، والقوىٰ التي يُنفّذون بها مراداتهم، ما لم تتعارض مع قضاء الله وقَدَره العامّ، فهم يشْعُرُون بأنّ مصائر مطالب نفوسهم بأيديهم.

لكنَّهم يوم الحساب وفَصْل القضاء لا تكون لهم حرّيّة اختيار، إذْ كُلُّ ما يجري في ذلك اليوم خاضعٌ بالجبر لسُلْطان ربوبيَّة الرَّبّ جلّ جلاله وعظُمَ سلطانه، وهذا مصير إليه وحْدَه بَعْدَ رحلة التخيير والتسخير، وقد كان الممتَحَن في هذه الرحلة يختار لنفسه على ما يشاء، إذْ جعل الله له ذلك، دون أن يتدخّل بالجبر فيما منَحَهُ فيه التخيير.

إذَنْ: فإلى اللّهِ وحده دون تَدَخُّل إرادة المخلوق يومئذٍ يكون المصير، على أنّ المصير إلى الله وحده يبدأ منذ انتهاء رحلة الحياة الدنيا، وابْتِداء رحلة البرزخ بين الموت والبعث، لأنّ بعْضَ الجزاء الجبري يبدأ عقب الموت مباشرة.

قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾.

في هذه الآية إضافة بيان ثلاثة أحداث أخرى من أحداث البعث إلى يوم الحساب وفصل القضاء.

**الحدث الأول:** تَشقُّقُ الأرض عَنِ الّذين كانوا مَوْتى لِيَنْبُتُوا منها كما يَنْبُتُ الزَّرْعُ في الأَرْض، دلَّ على هذا الْحَدَث: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ وسبق توجيه قراءتَيْ: ﴿تَشَقَّقُ﴾ **[تشَّقَّقُ]**.

**الحدَثُ الثاني:** خُرُوجُهُمْ مِنْ الأَرْض سِرَاعاً، دون إبطاء في الزَّمن،

وهو يَدُلُّ على أنّ إنْبَاتَهُمْ في الأرض لبعثهم لا يحتاجُ زمناً طويلاً لتتكامل أجسادهم فيه، بل هي تتكامل بِسُرْعَة، دلَّ على هذا الحدث: ﴿سِرَاعًاۚ﴾ أي: خارجين من الأرْض سراعاً.

**سِرَاعاً**: جَمْعُ سَرِيعٍ، وجمع سَريعة. يقال لغة: سَرُعَ يَسْرُعُ سَرَاعَةً وسُرْعَةً وسَرْعاً، أي عَجِلَ، فهو سَرِيعٌ، وهي سَرِيعة، والجمع لهما «سِرَاع» وجاء اللفظُ في النص منصوباً لأنه حالٌ من الضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾ وقد يدلُّ هذا الْحدَث على أنّ خَلْقَ أجسادهم يتكامل قبلَ أنْ تَعُودَ الأرواح إليها، والله أعلم. ثم تعود الأرواح إلى أجسادها.

**الحدث الثالث**: أنّهمْ بَعْدَ بَعْثِهم يُحْشَرُون، أي: يجمعون في المحشر، المخّصص لتجميعهم، ولو كان بعضُهُمْ قد نَبَتُوا في الأمكنة التي مَاتُوا فيها، بأطراف الأَرْض بعيدين عن أرْض المحشَر.

وحَشْرُهم يكون في مكان جامع بحسب أصنافهم وزُمَرِهم.

**الحشرُ في اللّغة**: الْجَمْعُ والسَّوْق. يُقَالُ: حشَرَ الأمير جُنْدَهُ يَحْشُرُهُمْ وَيَحْشِرُهم حَشراً، أي: جَمَعُهم وساقهم.

ويوم الحشر، ويوم الْمَحْشَرِ، هو يوم جمع الناس وسوقهم للحساب، وفصْل القضاء، يوم القيامة، وبعدهما يكون تنفيذ الجزاء.

دلَّ على حدَث الحشر قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ والمشار إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مطويٌ في النصّ غير مذكور، والتقدير: يوم تشقَّقُ الأرض عنهم، ويخرُجون منها سِرَاعاً، ويُحْشَرُون في الأَرْضِ المخصَّصَةِ للحَشر، ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ، ومثل هذا الطيِّ كثيرٌ في القرآن المجيد، وهو من الإيجاز المعروف والمتكرّر في أساليبه.

إنّ الخَالق القادر على أن يَخْلُقَ من العدم، والقادِرَ على الإعادة إلى الحياة بعد الإماتة، قادِرٌ على حشْرِ الناس في الأرض المخصّصةِ لجمع

الناس، توطئة لمحاسبتهم وفصل القضاء فيما بينهم، وهو حشْرٌ يَسيرٌ عليه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنَّ الناس يُحْشَرُون يومَ القيامة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً (أي: غَيْرَ مَخْتُونين).

روى البخاري بسنده عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها. قالت: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً».

قالت: فقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، الرّجال والنساء يَنْظُرُ بعضُهُم إلى بعض، فقال:

«الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ».

● قول اللَّهِ تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

● ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾: في هذه الجملَةِ تسليةٌ وطمأنةٌ من الله عزّ وجلّ، بعظمة ربوبيته ـ أخْذاً من ضمير المتكلّم العظيم ـ للرسول محمّد ﷺ، بشأن مقالات كُبَراء كفّار قومه فيه، المؤذيةِ لنَفْسه، بما فيها من اتّهامات وشتائم له.

أي: نَحْنُ أعلم منكَ ومن كُلّ عَلِيمٍ بما يقُولونَ من مقالات في تكْذِيبِكَ واتّهامِكَ وسِبَابك.

وفي هذا كِنَايَةٌ عَنْ أنه جلَّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه سيَنْتَصِرُ له منهم، وفيه أيضاً تهديدٌ ووعيدٌ من الله لهم، فلْيَتَرَقَّبُوا انتقام الله منهم إذَا لم يَتُوبوا ولَمْ يُقْلِعُوا عن إيذاء رسوله، ومقابلتهِ على دعوته لهم بما يكْرَه.

● ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ﴾: في هذه الجملة يُبَيّن اللَّهُ عزّ وجلّ لرَسُوله محمّد ﷺ أنّه رسُولٌ يُبَلّغُ النّاسَ ما أَمَرهُ الله بأن يبلّغَهُمْ إياه، وأنّه

لم يُكلَّفْ أن يُجْبِرَ الناسَ على الإيمان والإسلام، فما هو مُرْسلٌ لأن يَكُونَ جبّاراً مُسَلَّطاً عليهم بالْقَهْر، ومُكْرِهاً لهم على اتّباعه.

أي: إنّهم في رحلة امتحان، والامْتِحانُ من لوازِمه العقليّة التخيير، أمّا الْجَبْرُ والإكْراهُ والْقَهر فأمُورٌ تَتَناقَضُ معَ الامتحان والتخيير، ولو شاء الله جل جلاله ذلك لسَلَبَهُم التخييرَ، ولَجَعَلَهُمْ مجبورين، وعندئذٍ فلا بُدَّ أن يكونوا جميعاً مطيعين له، لا يعْصُونَ اللَّهَ فيما أمَرَهم به، ويَفْعَلُونَ دواماً مَا يُؤمَرون، كالملائكة، لكنهم نوع آخر، إنهم مخلوقون للامتحان، فهم ذَوُو إراداتٍ حُرَّةٍ تختارُ، دُونَ جَبْرٍ ولا إكراه.

• ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾: أي: وبما أنَّكَ لَسْتَ علَيْهم بجبّارٍ مُكْرِهٍ لهم على الإيمان والإسلام، وَقَدْ سبَقَ أَنْ بلَّغتَهُمْ مَا أَمَرَكَ الله بأن تُبَلِّغَهُمْ إيّاه، وهو مَا أنزلْنَاهُ عليك في نجوم التنزيل السابقة لسورة (قٓ) فإنَّ وظيفَتَكَ بالنِّسْبةِ إلى هٰؤلاء المكذبين المعاندين، هي التذكير بما سبَقَ أن بلّغْتَهُمْ إياه، وهذا التَّذْكِير تُوَجّهه فقط لِمَنْ لم يَبْلُغوا إلى حالةٍ ميْؤُوس منها. أمّا الذين بَلَغُو إلىٰ حالة ميؤوسٍ منها فَلاَ تُضِعْ وقْتَكَ وجَهْدَكَ بتذكيرهم.

إنّ الميؤوس من استجابتهم لدعوتك هم الذين تُدْرِكُ من تصرّفاتهم أنهم لاَ يَخافُونَ وَعِيدَ الله بالعقاب، بل يعاندون وَيُكابرون، وأنت لا ترجو مستقبلاً أن يحْصُل لديهم الخوف من وعيد الله وعقابه.

هذا ما يَدُلُّ عليه فعل المضارع ﴿يَخَافُ﴾ أي: تشعر بأنه يخاف الآن، أو ترجو أو تطمع بأن يخاف مستقبلاً، لأمارات خير تلاحِظُها فيه.

**وبهذا انتهى تدبر السورة على ما فتح الله به.**

❁ ❁ ❁

## ملاحق لسورة (قٓ)

**الملحق الأول**: مستخرجات بلاغية من السورة.

**الملحق الثاني**: الوصف بالبركة في القرآن المجيد.

## (١٧)
## الملحق الأول
## مستخرجات بلاغية من السورة

في سورة (قٓ) بلاغيات متنوعة، فتح الله عَليّ باسْتِخْراج ما يلي مِنها:

**أولاً**:

القَسَمُ بما يصْلُح لأنْ يكون دليلاً على صحة المقْسَم عليه وصدقه.

فقد جاء في صدر السورة القسم بالقرآن المجيد على أنّ محمّداً رسول الله حقًّا وصدْقاً، وعلى أنّ خبر البعث إلى يوم الدّين حقٌّ وصِدْق.

ومن المعلوم أنّ إعجاز القرآن في مبانيه وفي معانيه، دليلٌ قاطع لدَىٰ من تلقّاه بَوعْيٍ وتدبّر، على صِدْق كون محمّدٍ نبيّاً ورسولاً مرسلاً من الله العزيز الحكيم، وعلى صِدْقه في كُلّ ما يبلّغه عن ربّه، ومنه نبأ البعث بعد الموت إلى يوم الدين.

**ثانياً**:

الإيجاز البديع القائم على طيّ عبارات يمكن أن يدرك المتدبر دلالاتها بالاستنتاج، إذْ تقتضيها المذكُورات في النّص، أو يُتَوَصّل إليها باللّوَازم الفكريّة، أو بدلالة التقابل التكامليّ في العبارة أو العبارات:

- فمن المطويّات: حذْفُ جواب القسم: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ وتقديرُهُ: إنَّ محمّداً لَرَسُول الله حقًّا وصِدْقاً، وهو صادقٌ فيما بلّغ عن ربّه، ومنه نبأ البعث إلى يوم الدين بعْدَ الموت.

● ومن المطويّات: ولم يستفد المكذِّبون من دلالة إعجاز القرآن، ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ...﴾.

● ومن المطويات: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ سوف نُرْجَعُ إلى الحياة مرّة أخرى ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

● ومن المطويات: من شُبَه هؤلاء الكافرين لإنكار البعث، توهُّمُهم أنّنا لا نَعْلَمُ ما يتفرَّقُ في الأرض مِنْ رُفاتِ أجساد الموتى حتّى نَجْمَعَها ونُعيد خَلْقَها، والحقُّ أننا ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.

● ومن المطويات: إنَّ مُنكري رسالة محمد من قومه ومنكري البعث، لم يكونوا باحثين عن الحقّ، ولا شاكِّين من عُمْقِ قُلوبهم في صِدْق الرسُول وصِدْقِ بلاغاته عن ربّه ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

● ومن المطويات: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ إنَّ الواقع المشاهد يَدُلُّ عَلىٰ أنّنا لَمْ نعجز بالخلْق الأوّل، فقد أوجدناه، ومَا نزال دواماً نُهَيْمِنُ عليه بسُلْطَانِ رُبُوبِيّتنا ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

● ومن المطويّات: ومن شبههم التي جعلتهم يُنْكرون الجزاء يوْمَ الدّين، تَوَهُّمُهم أننا لا نُحيط علماً بكلّ أعمالهم، ولا سيّما ما يستخفون به، وما تُكنُّهُ صُدُورهم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ﴾ بعِلْمِنا ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ فَنَحْنُ نحيط بكل شيءٍ عِلْماً ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ من الملائكة ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قعيد ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ وما يَعْمَلُ من عَمَلٍ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

● ومن المطويات: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ مِنْ شياطين الجنّ ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فاختصم الكافر وقرينه من شياطين الجنّ فـ﴿قَالَ﴾ الله ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾.

● ومن المطويّات: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ وحين أنزلْنا عليهم وسائل التعذيب والإهلال ﴿هَلْ﴾ كَانَ لَهُمْ ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾.

● ومن المطويّات: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ فَيخْرُجون ﴿سِرَاعًا﴾ ونَسُوقهم ونجمعُهم في الأرض المخصّصة محشَراً، مهما نأت عنه الأجداث الّتي كانوا فيها فـ ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

**ثالثاً:**

استعمال ضمير المتكلّم العظيم في البيانات الّتي تتضمّن التحدُّثَ عن ظاهرةٍ من ظواهر ربوبيّة الله جلَّ جلالُه، وعَظُم سُلْطانه، نَجِدُ هذا فيما يلي:

﴿بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ و﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ و﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ و﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ و﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ و﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ و﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ و﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ و﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ و﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ و﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ و﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ و﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

**رابعاً:**

تأكيد الخبر ببعض المؤكّدات، لأنّ مقتضى حال المقصودين بالْخطاب يسْتَدْعي التأكيد، ونجد هذا فيما يلي:

(١) التأكيد بالْقَسَم في عبارة: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

(٢) التأكيد بـ «قد» في عبارَتي: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ و﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾.

(٣) التأكيد بـ «لقد» في عبارة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ وفي عبارة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا﴾ وعبارة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾.

(٤) التأكيد بالمؤكّدات: «إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزحلقة» في عبارة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾.

(٥) التأكيد بمؤكّدين: «إنّ والجملة الاسميّة، أو ضمير الفصل» في عبارة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾.

(٦) التأكيد بحرف الجرّ الزّائد «مِنْ» في عبارة: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ وعبارة: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

**خامساً:**

تقديم الأحداث المستقبليَّةِ مُسْتَقْطَعَةً من وقائعها التي سوف تَحْدُث، كأنّها أحْداثٌ تَجْري الآن، أو كأنّها أحداث جَرَت فيما مضىٰ، لتأكيد أنَّها ستقَعُ حتماً، وهذا فنٌّ من مبتكراتِ الأساليب البيانيَّةِ في القرآن المجيد[1].

ونجد هذا الفَنَّ فيما يلي من السّورة:

(١) ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

(٢) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾.

(٣) ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

(٤) ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

(٥) ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

(٦) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) انظر بيان هذا الفنّ في كتاب «البلاغة العربيّة» للمؤلف ج/ ٢ ص/ ٣٤٦.

(٧) ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ . . .﴾.

**سادساً:**

**التضمين**: وهو تضمين كلمة معنى كلمة أخرى، وجعل الكلام بَعْدَهَا مبنيًا علىٰ الكلمة غير المذكورة، كالتعدية بالحرف المناسب لمعْنَاها فتكون الجملة بهذا التضمين بقُوّةِ جملتين، والعبارة بقُوّةِ عبارَتين، دلَّ على إحداهما الكلمة المذكورة التي حُذِفَ ما يتعلَّقُ بها، ويُقَدَّرُ مَعْنَاهُ ذِهْناً، ودَلَّ على الأخرى الكلمة الّتي جاءت بَعْدَها المتعلّقة بالكلمة المحذوفة الملاحَظِ معناها ذِهْناً.

وهذا التضمين فَنٌّ رفيعٌ من فُنُونِ الإيجاز في البيان القرآنيّ.

ونجد في سورة (قٓ) من هذا التضمين ما يلي:

(١) في عبارة: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ أي: ذَلِكَ ما كُنْتَ تحِيدُ عنْه نافراً من كلّ بيان حوله.

(٢) في عبارة: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي: لقد كُنْتَ في غَفْلَةٍ غَارِقاً في متاع الحياة الدُّنيا، نافراً مِنْ كُلِّ بلاغٍ ودليلٍ يتعلّق بيوم الدّين، ومن كُلّ تَذْكير يُذَكّرك به.

**سابعاً:**

**الكناية**: وهي اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له في اصطلاح التخاطُب، للدّلالة به على معنى آخر لازم له، أو مصاحب له، أو يُشار به عادةً إليه، لما بينهما من الملابسة بوجه من الوجوه.

ونجد الكناية في سورة (قٓ) فيما يلي:

(١) في عبارة: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ كنايةٌ عن عبارة: لم أَمْتلِئْ، جواباً للسؤال: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾.

(٢) في عبارة: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تَسْلِيَةٌ للرَّسُول تجاه ما يُلاقيه من كبراء كُفَّارِ قومِهِ من اتّهامات وشتائم، كناية عن وعْد الله لرسوله بأنّه سيَنْصُره، وتهديد الله للّذين يؤذون الرسُول بأقوالهم بأنّهُ سيَنْتَقِمُ منهم وينْصُرُ رسُولَه.

❁ ❁ ❁

# (١٨)
# الملحق الثاني
# الوصف بالبركة في القرآن المجيد

## مقدمة

**البركة في اللّغة**: هي النماء والزيادة، فمنها ما يكون في الحسيّات، كالبركة في الطعام والشراب والأموال والذرّيّة، ومنها ما يكون في المعنويّات، كالبركة في العلم، والوقت، والفهم، والسعادة النفسية، وثواب العبادة ومضاعفة الأجْر عليها، والبركة في إنجاز الأعمال، والبركة في معونة الله لعبده، وتوفيقه له، وتسديده في أموره، والبركة في مضاعفة الانتاج للأعمال.

رُوي عن ابن عبّاسٍ: أنّ البركة هي الكثرة في كلّ خير.

**والْمُبَارَك**: اسم مفعولٍ من فعل «بَارَكَهُ اللَّهُ» فهو مبارَك، أي: موصوف بأنّ الله قد منَحه البركة، إذْ جعله ذا نماءٍ وزيادة في خَيْرٍ ما، أو في خيراتٍ كثيرات.

يقال لغةً: باركَ اللَّهُ الشَيْءَ، وبَارَكَ فيه، وبارَكَ عليه.

### الموصوف بالبركة في القرآن المجيد:

(١) جاء في القرآن المجيد الوصف بالبركة العظمىٰ التي لا تَحُدُّها تصوُّراتُ المخلوقات كلّها، لذات الله وصفاته الجليلة السَّنيّة.

(٢) وجاء فيه وصف القرآن بأنّه مباركٌ، أي: في ثراء معانيه، وفي تأثيراته النافعات، لتحقيق الخيرات الجسيمات، كالشفاء، والأمن، وحصول السكينة، وفتح أبواب الرزق والعِلْم، والتوفيق والخلاص من الشدائد، وغيرها.

(٣) وَجاء فيه بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد منح بعض عباده من الرُّسل وآلِهِمْ البركة، فجعلهم مباركين، تظهر آثار البركة فيهم، وفي تصرّفاتهم وفي آثار أعمالهم، وفي إجراء المنافع والخيرات العظيمات، على ما يقولون وما يَعْمَلُون، وفي حصول المنافع بتأثير ما جَعَل الله تبارك وتعالى في ذواتهم من قوىً غير منظورة، ذات آثارٍ تظْهَرُ في الأحياء وفي الأشياء.

(٤) وجاء فيه بيان أنّ الله تبارك وتعالى قد جعل البركة في الأرض كلّها، وخصَّ بعض أماكن منها فجعل فيها بركةً مادّيَّةً ومعنويّةً زائدةً على ما في سائر الأرض، كالبركة في البيت الحرام ومكّة كلّها، والبركة في المسجد الأقصىٰ وما حوله، والبركة في البقعة الّتي كلَّمَ اللَّهُ عزّ وجلّ منها موسَىٰ عليه السَّلام تكليماً.

(٥) وجاء فيه بيان أنّ الله عزّ وجل نَزَّل من السماء ماءً مباركاً، إذْ جعل فيه بركة الإنبات والسُّقيا النافعة وخيرات كثيرات أخرى.

(٦) وجاء فيه بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل البركة العظيمة في ليلة القدر، التي هي خيرٌ من ألف شهر.

(٧) وجاء فيه بيان أن الله قد جعل شجرة الزيتون شجرة مباركة.

(٨) وجاء فيه بيان أنّ المؤمن إذا دَخَلَ بيتاً فسلَّمَ على نفسه، كان له ذلك تحيَّةً مباركَةً من الله، نافعةً في الدنيا، ومأجورةً من الله يوم الدّين.

وهذه البيانات لا تقتضي أنّ البركة منحصرة، بما وصَفَهُ الله بالبركة، إنّما تفيد التنويه بذكر من بارك الله فيهم، والتنبيه على الأشياء التي بارك الله بها، للانتفاع بما فيها من خيرات مباركات.

فالبركة قد يمنحها الله عزّ وجلّ لغير من جاء في القرآن بيان أنّ الله قد باركهم، أو منحهم من بركاته، وقد تكون موجودة في أماكن من الأرض، غير الأماكن الّتي جاء في القرآن بيان أنّ الله قد بارك فيها، وفي أزمانٍ غير ليلة القدر التي خصَّها الله ببركة عظيمة. كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي غير الأشياء التي وصفها الله بأنها مباركة، كالبركة الموجودة في القمح، وفي الحبَّة السَّوداء.

وفيما يلي استعراضٌ لما جاء في القرآن من نصوص البركة، مع بعض تَدَبُّرٍ لها:

## أوّلاً
## الوصف بالبركة العظمىٰ لذات الله وصفاته

جاء في القرآن المجيد وصْفُ ذات الله وصفاته بالبركة في تسعة نصوص، وبصيغة «تَبَارَكَ» أي: تنامىٰ وتزايد وتعاظم بالإطلاق العامّ فوق كلّ ما يصفه الواصفون، وهو على وزن «تَفَاعَلَ» من البركة:

**النّصّ الأول:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً للنّاس:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يَجْعَلُ دَواماً النَّهارَ يَسْتُر اللّيْلَ بضياء الشمس حول الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ. فالأصل في الكون الظلمة، فإذا جاء الضياء غشِيَها فَسَتَرَها، وإذا ذهب الضياء عادت الأشياء إلى ظُلْمَتِها، أو مِقْدار ظلمتها التي كانت عليها.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: تَنامى وتزايَدَ وتَعاظم اللّهُ ربُّ العالمين، في ذاته وفي صفاته عَنْ كُلّ تصَوّراتِ كُلِّ خَلْقِهِ في السَّمَاوَاتِ والأَرْض، تنامِياً وتزايداً لا تستطيع الخلائق تصوُّرَ حدٍّ له، مَهْمَا سبحت أوهامُهُمْ في الأبعادِ الّتي لا تتناهى.

فمن آثار صفاته جلّ جلاله هذه الظواهر الكونيّةُ العظمىٰ الّتي نبّه عليها هذا النصّ.

**النصّ الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

أي: إنّ الْقُرْآن المجيد، الذي هو فرقان بين الحق والباطل، والخير والشرّ، والْهدَىٰ والضّلال، والمعْجِزُ في مبانيه ومعانيه، لا يُنَزِّلُهُ إلاّ مَنْ تباركَ فَوْقَ كُلّ تَصَوُّرات الخلائق في ذاته وفي صفاته الجليلة.

**النص الثالث:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً، دَفعاً لمقترحات كبراء مشركي مكة، أنّ الرسول ينبغي أنْ يُلْقىٰ إليه كنزٌ، أو تكون له جنّةٌ يأْكُلُ مِنها تُغْنِيه عن المشي في الأسواق لاكتساب رزْقه:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾.

أي: تباركَ اللّهُ في قُدْرَتِهِ القادرة على أن يجعل لكَ يا مُحَمَّدُ خيراً ممّا اقترح المشركون أن يكون لك، إلاّ أنّ حكمته اقتضت خلاف ذلك في رسالتك، لئلا تكون مثل ملوك الأرض.

**النّصّ الرابع:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

أي: تنامىٰ وتعاظم وتزايد اللَّهُ جلّ جلاله فَوْقَ كُلِّ تصَوُّرٍ لصِفَات علمه وحكمته وقُدْرته الّتي كان من آثارها أَنْ جعل في السّماء بروجاً للنجوم والكواكب، فهي تنزل في بروجها بإتقان وإحكام. وجعل فيها لسُكّان الأرض شَمْساً ذات ضياءٍ حارٍّ كالسّراج، وقمراً بارداً عاكساً للضوء بنور كاشفٍ للأشياء المظلمة.

**النصّ الخامس:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: فتنامىٰ وتزايَدَ وتَعَاظَمَ رَبُّ العالمين، فوق كُلِّ تَصَوُّرٍ لصفاتِ عِلْمِه وحِكْمَتِه وقُدْرَتِهِ ورَحْمَتِهِ، الّتي كان من آثارها أنْ جعل لكم الأرض قراراً لا تتعرّضون فيه لقلَقٍ واضطراب في إقامتكم عليها، وجعل لكم السماء بناءً مُتماسِكاً لا خلل فيه ولا فُروج، فلا يتهَاوَىٰ عليكم من أجرامها العظمىٰ ما يُبيدكُم. وكرَّمَكُمْ أيُّها الناس فصوّركم فَأَحْسَنَ صُوَرَكم، وجعلكم في أَحْسَنِ تَقْوِيم، ورحمكم فرزقكم من الطَّيبات.

**النص السّادس:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة: (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذي له مُلْكُ السّماوات والأرض وما بينهما، إذْ هُو خالقُهما، وعِنْدَهُ عِلْمُ السّاعة، وإليه يُرْجَعُ الناسُ بعْدَ الموت والبعثِ للحساب، وفصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، لا بُدَّ أن يكون قد تبارك في ذاته وفي صفاته، فوْقَ كُلِّ تَوَهُّمٍ وتَصَوُّرٍ للخلائق عنهما.

**النص السابع:**

قوله الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمِنُونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إنَّ خالِقَ الإنسان في أمْثِلَةٍ مُتَكرّرَة دواماً، ضِمْن هٰذه الأطوار الّتي جاء بيانُها في هذا النَّصّ، لا بُدَّ أن يكون في ذاته وصِفاته، متزايداً متنامياً متعاظماً فوْقَ كلّ تَصَوُّرِ عظيم تتصوَّرُهُ المخلوقاتُ مَهْما أوسَعُوا المدَىٰ.

**النّصّ الثامن:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾.

أي: تَنَامَىٰ وتزايَدَ وتَعاظم في ذاته وفي صفاته الذي بِيَدِه الْملكُ كُلُّه، فهو يتَصرَّف في الأكوان بعِلْمِه، وحكمته وقُدْرَتِه ورَحْمَتِه وَعَدْله على ما يشاء، وهو على كُلّ شيء قدير.

وهذه الظواهر الكونيّة آياتٌ على أنّ صفاتِه العظيمات الجليلات، لا يبْلُغُ إلى إدْراك مدَاها الأقصَىٰ أَحَدٌ من المخلوقات.

**النصّ التاسع:**

قول الله عزّ وجل في آخر سورة (الرَّحْمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) الّتي اشتملت على عرض آيات كثيراتٍ من آياتِ آلآئِهِ (أي: نِعَمِهِ) العظيمة الكثيرة على عباده من الإنْسِ والجنّ:

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: تعاظَم وَتَنَامَىٰ وَتزايَدَ فَوْقَ كُلّ تَصَوُّرٍ تتصَوَّرُه المخلوقات كلُّها، وَصْفُ رَبّك، المشتمل على خصائص الرّبوبيَّة المتعلّقة بكلّ الكائنات، خلْقاً وإمداداً وتصاريفَ بدءاً من إيجادها واستمراراً مع بقائها.

﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: أي: المتصف بكمالِ الشَّرَف والعظَمَةِ والرِّفْعَةِ والْمَجْدِ والْحَسَب، والمتصف بكمال الإكْرام في عَطَايَاهُ وهباته، ومِنَحِه وجُوده وإحْسَانه.

## ثانياً
## وصف القرآن بأنّه كتابٌ مُبارَكٌ

وجاء وصف القرآن المجيد بأنه كتاب مباركٌ في أربعة نُصُوص قُرانيَّةٍ من التزيل المكيّ، وقد سبق في المقدمة بيان أظهر عناصر البركة الّتي جعلها الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

**النصّ الأول:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

في هٰذه الآية وصف الله عزّ وجلّ القرآن بأنّه كِتَابٌ مُبارَكٌ، وَدَلَّ

قول الله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ على أنّ المراد بالبركة هنا كثْرَةُ دَلاَلاَتِ آيَاتِه على الْمَعَاني الوفيرة الغزيرة الفيَّاضَة، الّتي يتجدَّد عطاؤُها كُلّما تعمَّقَ المتَدبِّرون في استنباط المعاني واستخراجها من أعْمَاقِ بحُورِه الزَّاخِرَة، فلا تَنْتَهي عطاءاته الثَّرَّةُ، ولا تَفْنَىٰ عجائبه.

وتتجدّد مفهوماتٌ دَلَّتْ عليها آياتٌ قُرآنيَّةُ، باكتشاف النَّاس لحقائق من آيات الله التكوينيَّة، في كَوْنِه الواسِعِ الْفَسِيح العظيم.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾: أي: ليَتَدبَّرُوها باهتمامٍ وتعمُّق أخذاً من إدْغام التاء بالدال.

**التَدَبُّر**: هو التفكّر الشامل المتَتّبع، بَدْءاً من أوائل دلالات سَطْح النَّصّ الْقُرآنِيّ، حتَّىٰ آخر ما يُمْكن أن يُعْطِي من دلالاتٍ ومفهوماتٍ، تَدُلُّ عليها اللّوازم الفكريَّة، أو ما يقتضيه النصّ من معاني مكمِّلة، ويسْتَطيع المتدبّر أن يستَخْرِجَها مِنْ مطويَّاتٍ في النّصّ غَيْرِ مذكورات في اللَّفظ، ويستطيع أنْ يكْتَشِفَها من المثاني حينما يَبْسُطها وينْظُرُ في أغماقها، فمن صفاتِ القرآن المجيد أنّه مثاني، أي: عباراتُه الملفوظة مكتوبة علَىٰ الظَّاهر الذي يُرَىٰ مِن المثاني، أمّا غير الملفوظة فهي في داخل الثنيات، وهي الّتي يحتاجُ استخراجُها إلى مُتَدَبّر بحَّاثَةٍ، عَمِيق التفكُّر والتَّأَمُّل، ذي قدرة على الغوْصِ والاستخراج المقرون بالدليل العقليّ، أو النَّصّيّ من نصٍّ آخر، يَدُلُّ على ما اسْتَخْرَجَهُ من عُمْقِ المثاني المطوية.

وأصل التدبُّر مأخوذ من النظر المستوعب للشيء حتّى دبُرِه، وأواخِرِه، وعَاقبته ببصيرة، حتّى الأطراف البعيدة الّتي يدلُّ عليها النص.

ومنه التدبير: وهو النظر في الأمور بدءاً من أوائلها، حتَّىٰ أواخِرها وعواقبها، ولهذا وصف الله عزّ وجلّ نفسه بأنّه يُدَبِّرُ الأمر في الكون كلّه، وبأنّه يُدبِّر الأمْرَ من السَّماءِ إلَىٰ الأَرْض.

ولكن لا يصِلُ المتفكر إلى أواخِرِ دلالات النّصّ إلاّ إذا تَسَلْسَل مع الأفكار بدءاً من أوائلها، وتتبُّعاً لسائر فقراتها حتّىٰ أواخِرِها وأدْبارها.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: التَّذَكُّرُ يأتي في المراحل اللاحِقَةِ لِلْفَهم، وأكْمَلُهُ التَّدبّر.

فمن تَلَقّىٰ آياتِ القرآن المجيد، ففهمها فَهماً سليماً مقبولاً، فالمطلوب منه أن يتذكَّرَها عند كلّ مناسبَةٍ داعية لتَذَكُّرِها، ليعمل بما تَهْدي إليه من سلوك ظاهرٍ وباطن، ومن السُّلوك الباطن أعمال القلوب والنفوس وأجهزةُ التفكير والإدراك والفهم.

وهذا التذكّر هو من صفاتِ أولي الألباب، وهم أصحاب العقول الحصيفة الدَّرّاكة، والإرادت العاقلة الرَّشيدة.

**النصّ الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

فأضَافَ هٰذا النّصُّ إلى كَوْنِهِ كتاباً مباركاً، أنه مُصَدّقٌ ما أنزل الله عزّ وجلّ من كُتُبٍ قَبْلَهُ لَمْ يَدْخُلْ فيها تحريفٌ أَوْ حَذْفٌ أو إضافة.

وأضاف أيضاً بيان أنّ وظيفة الرّسُول أن يُبلّغَهُ، وأنّ يَبيّنه، وأخيراً أنْ يُنْذِرَ به الكافرين، بدءاً من سُكّان أمّ القرىٰ بلَدِ الرّسول، فَمَنْ حَوْلَ أُمّ الْقُرَىٰ، في دوائر تتَسِعُ حتّىٰ يشْمَلَ ذَلِكَ النّاسَ أجمعين. فأمّ القرىٰ مَرْكَزُ سَطْحِ الأرض، وكُلُّ ساكن في أيّ مكان من الأرض يَدْخل في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾.

وأضاف هذا النَّصّ أيضاً بيان أنَّ الّذين يُؤْمِنُون بالآخرة إيماناً صحيحاً

من أيِّ ملَّةٍ سابقة لنزول القرآن، ويُؤْمِنُون بأنَّهم مَدِينونُ يوم الدّين من قِبَلِ رَبِّ العالمين، فلا بُدَّ أن يُؤْمِنوا بالقرآن، وأن يُحافِظُوا على صلاتهم لربّهم، إذْ يجدون في الإيمان بالآخرة أقوى الدوافع والبواعث على الإيمان بهذا الكتاب المبارك، وعلى القيام بواجب عبادتهم لله بالصّلاة في أدنى الحدود.

**النّص الثالث:**

قول الله عزّ وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصّ إلَى كوْنِ القرآن كتاباً مُبارَكاً، أَمْرَ النَّاس باتّباعِهِ اعتقاداً وعملاً، وبأنْ يتّقوا عقابَ مخالفاتهم لأوامر ربّهم ونواهيه، جاعلين من دوافِعِهم رجاءَ أَنْ يرْحَمَهُم ربُّهم بالمغفرة وبالتوبة، وبدخول جنَّة الْخُلْدِ يَوْمَ الدّين.

**النّصّ الرابع:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لمنكري رسالة الرسول محمد ﷺ ومنكري كون القرآن منزّلاً من عند الله مع كونه معجزاً، ومن إعجازه كونه مباركاً فيَّاضَ المعاني:

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!

أي: أكذّبتُمْ رسولي، واستكْبَرْتُمْ عن الإيمان به واتّباعه، فأنْتُمْ بسبب ذلك مُنْكرون أنْ يكونَ القرآن المجيدُ كتاباً مُنَزَّلاً من رَبّكُمْ، مع كونه معجزاً مباركاً في معانيه ثَرَّ العطاء العلميّ، وافر الدلالات.

وسمَّىٰ اللّٰهُ عزّ وجلّ القرآن في هذه الآية ذِكْراً اعتباراً بالمطلوب الثالث من مطالب الله بالنسبة إليه، وذكر هذا المطلوب يَدُلُّ باللُّزُوم الذهني على المطلوبين الأوّل والثاني:

- **فالمطلوب الأول**: تَلَقِّيه من الرَّسُولِ الَّذِي بلَّغه.
- **والمطلوب الثاني**: تَفَهُّمُ معانيه والتبصُّر فيها.
- **والمطلوب الثالث**: تذَكُّرُ ما جاء فيه عنْد كلّ مناسبة داعيةٍ لهذا التذكّر.
- فعند مواقيت الصلاة، يُطْلَب تذكُّر ما فرض الله على عباده من صلوات.
- وعند وجود المال الذي تجب فيه الزكاة، يُطْلَبُ تذكُّر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام فريضة الزكاة.
- وعند قدوم شهر رمضان، يُطْلَبُ تذكُّر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام فريضة الصيام.
- وعند اندفاع النفس إلى ممارسة محرَّمٍ من المحرَّمات، يُطْلَبُ تذكُّرُ حُكْمِ اللَّهِ في ذلك العمل.
- وهكذا إلى سائر ما اشتمل عليه الْقُرآنُ من عقائد، وشرائع، وأحكام سلوك ظاهرٍ وباطن.

## ثالثاً
## بيان أنّ الله قد منح البركة بعض عباده الصالحين

**البركة على نوحٍ وعلى أُمَمٍ ممَّنْ معه.**

جاء في القرآن المجيد بشأن نوح عليه السلام، وبشأن أُمَم ستأتي من نَسْلِ الذي معه في الفلك، قولُ الله عزّ وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَـٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ . . . ﴿٤٨﴾﴾ .

أبانت هٰذه الآيَةُ أنَّ نوحاً عليه السَّلَام لمَّا انتَهتْ أَحْداثُ الطوفان، وتَمَّ إغرَاقُ أهل الكُفْر في الأرض، وتَوَقَّفَتْ سفينتُهُ في موقفِ ما على الجودي[١]، قال الله عزّ وَجلَّ وحْياً: اهبط بسَلَام مِنّا، أي: اهبط من السفينة إلى الأرض مصحوباً بسَلَامٍ يُحِيطُ بِكَ بأمْرٍ تكوينيّ منّا.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾: واهبط مصحوباً ببَرَكاتٍ كثيراتٍ تتنزَّلُ عليك منّا، وتتنزَّلُ عَلَىٰ أُمَم ستوجَدُ في الأرض من نَسْلِ من مَعَكَ في السفينة، وكانت الأمم الباقية بَعْدَ نوحٍ عليه السّلام من ذُرّيات أبنائه، لقول الله عزّ وجل في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾.

وقد ظهرت هذهِ البركات في الأنبياء والمرسلين والصالحين الذين انْحَدَرُوا من ذُرِّيَّات نوحٍ عليه السلام.

## البركة على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته وعلى ابنه إسْحاق.

وقد جاء في القرآن بشأن إبراهيم عليه السلام وبشأن أهل بيته قولُ الله عزّ وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزولٍ) حكاية لقول الملائكة الّذين جاءوه بالبشْرَىٰ بأنّ امرأته ساره ستحمل وتَلِدُ وهي عجوز:

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾.

قال الملائكة لسارة زوجة إبراهيم عليه السّلام: رَحْمَةُ اللّهِ وبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت.

---

(١) **الجودي**: اسم جَبَلٍ، ذكَرُوا أنّهُ قرِيب من الموصل، وقيل. كلمة الجودي تُطْلَقُ على كلّ جبل.

فإن كان هذا خَبَراً، فإنهم لا يُخْبِرُون إلاَّ إذا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد أفاض على أهل بيت إبراهيم من رحماته وبركاته.

وَإِنْ كانَ دُعَاءَ فإنّ دعاءَ الملائكة مستجابٌ.

وجاء أيضاً بشأن إبراهيم وولده إسحاق عليهما السلام قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ (١١٣)﴾.

فأبانَ هذا النَصُّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَارَكَ بعَظَمَةِ رُبوبيَّتِهِ على إبراهيم ووَلَدِهِ إسْحَاقَ عليهما السّلام

## البركة على موسَىٰ عليه السلام.

وجاء في القرآن بشأن موسَىٰ عليه السَّلام وهو في رحلة العودة إلى مصر، ومعه أهله، قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨) يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩)﴾.

﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أي: نـاداه الـلّـهُ، و«أَنْ» تفسيريه إذْ جاء ما بعدها مُفَسّراً لمضمون النداء الذي فيه معنى القول دون لفظه.

و﴿بُورِكَ﴾ أي: مُنِحَ الْبَرَكة، والمانِحُ للبركة هو الله تَبارَكَ وَتعالى لاَ مَحالة.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لاَ بُدَّ أنْ يكونَ من الملائكة المقربين، وقد يكون جبريلَ أمين الوحي، وقد يكون غيرُهُ معه، والملائكة لا تتأثر أجسادهم النورانيّة بالنار، وهذه نارٌ، إلاّ أنها صافية من الأخلاط والشوائب، ولا أرى داعياً لتفسير النار هنا بالنُور، علَىٰ اعتبار أنّ موسَىٰ عليه السَّلام رآها ناراً وهي في حقيقتها نور، إذْ لاَ دليل على هذا، والله عزَّ وجلَّ قد سمَّاها ناراً، وللَّهِ حِكَمٌ في تصاريفه واختياراته.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: وهو مُوسَىٰ عليه السّلام، وقد يكون معه طائفة من الملائكة لم يكن موسَىٰ يَراهم، لأنّ مُوسَىٰ وحْدَه كان إلى جانب النار، ولم يكن حولها، لكنه مع جمع من الملائكة يصلح أن يكونوا حولها.

ولحكمةِ تثبيت فؤاد موسىٰ وطمأنتِه، أعلَمَهُ اللَّهَ جل جلالُهُ بأنَّ في النار ملائكة، ومعه حول النار ملائكة.

وقد مَنَحَ اللَّهُ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ البركة بمقتضىٰ دلالة هٰذا النّص، لأَنَّه ممَّنْ كَانَ حَوْل النار.

وقد ظهرت البركة العظيمة التي أعطاها الله عزّ وجلّ لموسى علَيْه السَّلام في كلّ تاريخ حياته، منذ نشأته حتّىٰ وَافتْهُ منيَّته، وكان من بركاته إجراء الآيات التِّسع العظيمة له، حتىٰ فلْقِ البحر له ولقومه وعبورهم، ونجاتهم، وإهلاكِ فرعون وملَئِه وجنوده.

## البركة على عيسىٰ عليه السّلام.

وَجاء في القرآن بشأن عيسَىٰ عليه السّلام، قولُ الله عزّ وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) حكاية لما أَنْطَقَه الله به، وهو طفلٌ رضيعٌ حَديث الولادة تحمله أمُّه:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي

جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾.

فدَلَّ هذا النَّصّ على أنّ الله تبارك وتعالى قد أنْطَق عيسى عليه السّلام، وهو طفل رضيع بأنَّ الله قد جعله مباركاً في أيّ مكان هو كائنٌ فيه.

وقد ظهر من بركاته عليه السلام آيات كثيرات، ومنها أنه كان يصنع من الطّين كهَيْئَةِ الطَّيْر، فينفُخُ فيه، فيكون طيراً بإذنِ الله وَأنّه كان يُبْرِئ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ويُحْيي الموتَىٰ بإذْنِ الله، إلىٰ غير ذلك من آيات:

**الأَكمة**: أي: الأعْمَىٰ، ويطْلَقُ هذا اللفظ في اللّغة على الأَعْشىٰ أيضاً.

**الرسول محمّد ﷺ.**

لم يأت في القرآن المجيد نصٌّ صَريح بأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ مَنَحَ رسُولَه محمدًا ﷺ البركة.

لكنْ تواطَأت النُّصوص على أنّه سيّد ولد آدم، وأفضل عباد الله عند الله، وإمام المرسلين وسيّدهم، وصاحب الشفاعة العظمىٰ يوم الدّين، وأتباعه من الناس هم الأكثر والأعظم بين أتباع الرُّسل، وأمَرَ الله المؤمنين بأن يُصَلُّوا عليه ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً، أمّا غيره من الرُّسل فقد جاء في القرآن بشأْنِهم الترغيب في السلام عليهم فقط، مثل قول الله عز جل بشأن إبراهيم عليه السلام في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

وكلّ هذا يدلُّ على أنّ نَصِيبَه من بركات الله هو الأكثر والأجلّ، ولو لم يَرِدْ نَصٌّ صَرِيحٌ بذلك، ويكفيه من البركة العظيمة أن الله جلّ جلالهُ أنزل عليه أعظمَ كتبه كتاباً مباركاً معجزاً، وأنّ الله أكرمه بالعروج به إلى

السماوات حتى سِدْرَةِ المنتهىٰ، وكانت حياته زاخِرَةً ببركات من الله عليه، ومنها أنَّه منحه الفتح المبين، وجعل له ولأمّته العزّ والمجْدَ والتمكين.

## رابعاً
## بيان أنَّ الله عزّ وجلَّ قد باركَ في كلّ الأرض

قال الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

دلَّ هذا النّصّ على أنّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ، قَدْ بَارَكَ في الأرض الّتي اختارها لسكْنَىٰ الإنسان، الذي خَلَقَهُ اللَّهُ في أحْسَنِ تَقويم، وكَرَّمَهُ، إذْ جعل فيها ما يُمِدُّ الأحياء عليها بأرزاقهم، ومطالب معايِشهم، وحاجات مصالحهم، وزيناتهم، وقُوَّاتِهِم، وحاجات نفوسهم، مهما تكاثَروا على ظَهْرِها، إذا أحْسَنَ النّاس اسْتِغْلالَها بإتقان، وأحْسَنُوا الاستفادة ممّا وَهَبَهُمْ الله من قُدْرات فكريَّة، وطاقاتٍ جَسَدَيَّة، ومُسَخَّرَاتٍ كَوْنيَّة، في اسْتِنْبَاطِ خَيْرَاتها من خزائنها الكثيرة الوفيرة.

وقد جعل الله الأقوات في الأرض مساويةً لمطالب النّاس منها، بشرط أنْ يَبْحثُوا وَيَعْمَلُوا لاستخراجها. والسُّؤالُ هو الأمرُ الحاثُّ على القيام بكلّ خُطْوَةٍ فَخُطْوَةٍ من البحث والعمل والاسْتخراج، فجاء في النّصّ التعبير بالسَّائِلين للدّلالَةِ على كُلّ الخطوات الّتي يخطُوها الْعَامِلُونَ للحصول على مطالبهم من الأقوات. وهذا من الإيجاز البديع في القرآن. وإدْراكُ المطلوب يَعْتَمِدُ على معرفة السلاسل السّببيّة.

**مثلاً**: يسْأَلُ الإنسان من أيْنَ آكُل؟ فيُجيبه واقع الحال: من الأشجار المثمرة، والزّرُوعِ التي تُنْبِتُ حبَّ الحصيد، ومن الصيد.

فإذا خشي النفاد سأل: ماذَا أفْعَل للحصول على القوت؟ فيجيبُهُ واقع الحال: احرث وابْذُر واسْق. أو اعمل على تربية الحيوانات الداجنة.

وهكذا كُلُّ مطلب لا يتحقّق إلاّ بعمل، وكلّ عَمَلٍ يبدأ بسؤالٍ ما، والسُّؤال يدفع إلى البحث ومعرفة الأسباب للوصول إلى المطلوب.

## خامساً
## البركة الزائدة الّتي جعَلَها الله تبارك وتعالى لأمكنة خاصّة

### البركة في البيت الحرام بمكة:

لقد جعل الله عزّ وجلّ الكعبة البيت الحرام بمكة بيتاً مباركاً، وكان من الحكمة أنَّهُ أوَّلُ بيت وُضِعَ للناس.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ومن بركات هذا البيت أنّ الصّلاة في حَرَمِه بمئَةِ ألْفِ صلاة ثواباً من عند الله.

ومن بركاته الأمن العامّ في الحَرم المكيّ[(١)].

ومن بركاته أنّه يُجْبَىٰ له ثمراتُ كُلّ شيء.

ومن بركاته أنّه كان مَوْلِد خاتم النبيّين وإمام المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ.

ومن بركاته أنّه كان أوّل مهابط وحْي الله لرسوله محمد ﷺ، وأوّل مهابط نزول سُوَرِ القرآن المجيد عليه، وهو أعظم كتب الله للناس أجمعين.

---

(١) انظر تفصيل هذا الأمن في الملحق الثاني من ملاحق تدبُّر سورة (التِّين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول).

ومن بركاته أنّه قبلةُ النّاس جميعاً، ومحجُّ النّاس جميعاً، بشرط أن يُؤْمِنُوا باللَّهِ ورَسُوله.

ومن بركاته فيوضاتُ العطاء الرّبَّانيّ لبعض عباد الله فيه، بعلُومٍ رَبَّانيَّة، وَإِكْرَامَاتٍ غيبيَّة ذَاتِ آثارٍ مَشْهُودة.

إلى غير ذلك من بركات كثيرات.

## البركة في البقعة الّتي كلَّمَ اللَّهُ عندَها مُوسَىٰ عليه السلام:

قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) في الحديث عن موسى عليه السّلام، ومقدمه إلى النار الّتي آنَسَها مِنْ جانب الطّور الأيْمَنِ:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

فوصف الله عزّ وجلّ هٰذِهِ البُقْعة بأنَّها مُبارَكة، ومن البركة العظيمة التي جعلها اللّهُ لها أنَّها كانت مَكاناً شريفاً يُكلّم الله تبارك وتعالى عندَه مُوسَىٰ عليه السّلام تكليماً حقيقِيّاً، على ما يليق بصفاته الجليلة وسلطانه العظيم، وكان هذا في طريق عودته إلى مصر بعد فراره منها.

وكان من آثار هذه البركة العظيمة، الألْواحُ التعليميَّةُ الّتي آتاها اللّهُ موسَىٰ عليه السَّلامُ، فكانت جزءاً من كتاب التوراة الذي أنزله الله عليه، وكان هذا بعد الخروج من مصر ببني إسرائيل، وغرق فرعون وجنوده.

## البركة التي جعلها الله للمنزل الذي أنزل فيه نوحاً ومن معه بعد رحلة النجاة:

قال الله عزّ وجل في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في حكاية خطابه لنوح عليه السلام قبل أن يركب السفينة:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

لقد علّم الله عزّ وجل نوحاً أن يَدْعُو بهذا الدُّعاء، وفي هذا إشعار له بأنّه سيستجيب له، فَيُنْزِلُهُ مُنْزَلاً مُبارَكاً، وقد استجاب الله دُعاءه.

وفي هذا تعليم للمسافرين في البحر أو في البرّ أو في الجوّ، أن يَدْعُو ربَّهُمْ بأنْ يُنْزِلَهُمْ مُنْزَلاً مُبارَكاً، فيه لهم خَيْرٌ غيبيٌّ ومَشْهُود.

## البرَكة التي جَعَلَها اللَّهُ للمسجد الأقْصَىٰ وَما حوله:

جاء في القرآن المجيد خمسةُ نُصوص تَدُلُّ على أنّ اللَّه قد جعل مكان المسجد الأقصى، وما حوله من بلاد الشّام، أرضاً مباركة ببركات حسيَّةٍ ومَعْنَوِيَّة:

### النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

والأرض التي بارك اللَّهُ فيها وأَوْرَثَها بني إسرائيل بعْدَ مُوسَىٰ عليه السلام هي بلاد الشام، حول مكان المسجد الأقصى في القدس.

ثمّ لمّا عَصَوْا وَفَسَقُوا وأشركُوا وَطَغَوْا وبَغَوْا سلّط الله عليهم من سَباهم ومزّقهم، ومَلَكَ بِلَادَ الشَّام مَكانَهم.

ثمّ لمَّا ظهر الإسلام كان المسلمون هم الوارثين، وانطبق عليهم وعد الله لإبراهيم عليه السلام، لأنّ رسول الله محمّداً ﷺ من ذُرّية إبراهيم.

**النّصّ الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: وبارَكْنا فِيه من باب أوْلَىٰ، لأنّه هو المقصود الأوّل بالبركة.

والبَرَكة التي جعلها الله في بلاد الشّام حول المسجد الأقْصَى تشمَلُ البركة المادّيّة والمعنوية.

ومن آثار الْبركة المعنويَّة ما نَبَّأَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ في بلاد الشّام من أنبياء، وما بعث فيها من رُسل، وما أنْزَل فيها من كتب.

ومن آثار البركة المادّيّة ما في زروعها وأشجارها وثمراتها من خيراتٍ كثيرات.

**النّصّ الثالث:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام، وهجرته من أرض العراق:

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

ومعلوم أنّ هجرتهما كانت إلى أرض الشام، فهي الأرض الّتي بارك الله فيها للعالمين.

**النّصّ الرابع:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول) أيضاً بشأن سليمان عليه السّلام:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

والمرادُ بالأَرْض الّتي بارَكَ اللَّهُ فيها هي بِلَادُ الشَّام.

**النصّ الخامس:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) في الحديث عن أهل سَبأ في الْيمن:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: وجعل الله جلّ جلاله بين أهل سبأ في اليمن وبين بلاد الشام التي بارَكَ فيها قُرىٰ ظاهرة، فإذا أرادوا السَّفَرَ من بلادهم إلى بلاد الشام كان لهم مبيتٌ في قَرْية، ومَقِيلٌ في قَرْيَةٍ أُخْرَىٰ.

## سادساً

## البركة التي جعلها الله في زمان ليلة القدر

من الخواصّ الزّمانية أنّ الله تبارك وتعالى قد جعل ليلة الْقَدر ليلةً مباركة، ومن وفرة بركات الله فيها أنّها خَيْرٌ من ألف شهر، للذين يعبدون ربَّهم فيها، وأنّ الدعاء فيها مستجاب.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الدُّخَان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾.

وجاء في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول) بيان أنَّ هذه اللّيلة هي ليلة القدر(١).

---

(١) انظر ما سبق بيانه لدى تدبّر سورة (القدر).

## سابعاً
## البركة التي جعَلَها الله في الماء الذي ينزّله من السماء

جاء في القرآن المجيد بيان أنّ الماء الذي يُنزِّله الله تبارَكَ وتعالَىٰ من السَّمَاءِ ماء مبارك في نصَّيْن:

**النصّ الأول:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾.

وقد سبق التدبّر التحليلي لهذه الآية في موضعها من سورة (ق).

**النّصّ الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾.

ومن البركات التي يَفْتَحُها الله على أهل القرىٰ المؤمنين المتقين الْمَاءُ المبارك الذي يُنَزِّلُهُ لنفعهم ورزقهم من السّماء، أي: من السحاب، وقد يكون مع الماء بركاتٌ أخرى من أشعة الشمس والغبارُ المنتشر الذي يكون مدداً لنباتات الأرض، ومن فوق ذلك كلّه مقادير اللّهِ لهم المشتملة على وفير من المنح والعطايا الرَّبَّانية الَّتي يَقْضي بها لهم.

## ثامناً
## البركة التي جعَلَها اللّهُ في شجرة الزيتون

قال الله عزّ وجل في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى

زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

لقد أبانت هذه الآيةُ أنّ الله عزّ وجلّ قد جعَلَ شجرة الزّيتُونِ شَجَرَةً مباركة، بما فيها من غِذاءٍ عظيم، ودُهْنٍ نافع مفيد لا نظير له في كُلّ الدُّهون والزّيوت(١).

## تاسعا
## البركة الّتي جعلها الله في التحيّة الّتي يُسَلّم المؤمن بها على نفسه إذا دخل بيتاً

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿... فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ...﴾.

أي: إذا دخلتم بيوتاً فسَلِّمُوا على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم، لأنّ المؤمنين كالجسد الواحد، وإذا لم يكن فيها أحَدٌ فقولوا: السلام عَلَيْنا وَعَلىٰ عباد الله الصالحين، الذين هم كأنفسكم، وهذه تحيَّةٌ من الله مباركة لكم.

**وأخيراً**: أكرّر أنّ هذه النصوص لا تُفِيدُ حصر البركة بما جاء في القرآن وصْفُهُ بالبركة، بل فيها التوجيه للاستفادة من البركات التي جعلها الله فيها.

❀ ❀ ❀

(١) انظر تحليل هذا النصّ في كتاب «الأمثال القرآنية وصور من أدبه الرفيع» للمؤلّف.

# سُورَةُ البَلَد

٩٠ مصحف ٣٥ نزول

## (١)

# نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا
وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ
عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ
أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾
وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾
يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

---

٥و٧ ـ ● قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر:
﴿أَيَحْسَبُ﴾ فيهما بفتح السين. وقرأ باقي القرّاء العشرة:
﴿أَيَحْسِبُ﴾ فيهما بكَسْر السين، والقراءتان وجهان عَربيّان لنطق الفعل المضارع.
يقال لغة: حَسِبَ الشيءَ كذا يَحْسَبُهُ ويَحْسِبُه، أي: تَوهَّمَهُ، أوظَنَّهُ ظنّاً ضعيفاً.

٦ ـ ● قَرَأَ أَبُو جَعْفرٍ: ﴿لُبَّداً﴾ بتشديد الباء المفتوحة.
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿لُبَداً﴾ بتخفيف الباء المفتوحة.
والقراءتان تَدُلاّن على معنىٰ الكثرة المجتمعة المتلَبِّدة على بعضها.

١٣ و١٤ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكِسَائي: ﴿فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ﴾ على أن ﴿فَكَّ﴾ فعل ماضٍ، و﴿رَقَبَةً﴾ مفعول به و﴿أَطْعَمَ﴾ فعل ماض. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَكُّ رقبَةٍ أو إِطْعَامٌ] على أن [فَكُّ] مصدرٌ، و﴿رَقَبَةٍ﴾ مُضَافٌ إليه، و﴿إِطْعَامٌ﴾ مصدر أيضاً.
والقراءتان تَفَنُّنٌ في التعبير، ومؤداهما متماثل.

﴿ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

٢٠ ـ ● قرأ أبو عَمْرو، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف: ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ بتحقيق الهمزة السّاكنة بعد الميم، من فعل: أَأْصَدَ الْبَابَ يُؤْصِدُهُ، أي: أغلقه، وقرأ باقي القراء العشرة: [مُوصَدَةٌ] مِنْ فِعْلِ أَوْصَدَ الْبَابَ يُوصِدُهُ أي أغلقه.

فالقراءتان وجهان عربيان، والمعنى واحد.

## (٢)
## موضوع السّورة

يدور موضوع سورة «البلد» حول «الابتلاء» الذي هو الغاية من خلْق الإنسان، والذي يسْتَتْبِع باللّزوم العقلي التكْلِيفَ، والمراقَبَةَ طَوَال مُدّة الابتلاء، ثم المحاسبة، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وجاءت هذه السّورة بأسلوب غاية في الإيجاز، إلى حدٍّ شبيهٍ بالطريقة الرمزيّة وليس منها، إذْ يعتمد على اللوازم الفكرية الدّقيقة جدًّا، الّتي تسْتَدْعيها ظاهِرَةُ كَوْن الإنسان مخلوقاً في كبَدٍ، أي: في ظروف لا تُنَال معايشُه فيها إلاّ بمشقة وشدّة وضيقٍ وكدحٍ وكدٍّ ونصَبٍ، وكأن المقصود بالخطاب بها أذكياء المتدبّرين والفلاسفة.

وهذه السورة تُتَابع استكمال الإقناع بقانون الجزاء الرّبّاني، الّذي دار حَوْلَهُ موضُوعُ سُورَةِ (قٓ) وموضوع سورة (المرسلات) قبلها، وموضوع سورة (القيامة) وسُوَرٍ أخرى سبق نزولها.

إلاَّ أنّ سورة (البلد) تُنَبّه على فكرة فلسفيّةٍ عميقة الدلالة، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ فيها: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

هنا يتساءل المتفكر المتدبّر: لماذا خلق الله العليم القدير الحكيم

الإنسانَ في كَبَدٍ ضِمْنَ ظُرُوفِ الحياة الدنيا، مع أنّه قَدْ خَلَقَهُ في أَحْسَنِ تَقْوِيم، كما أبان لنا جلّ جلالُه في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول)؟!.

إنّ كونَه مخلُوقاً في أَحْسَنِ تقويم يستدعي أن يكون مَسْكَنُه في جنَّاتِ النعيم، فهذا المسكن هو الملائم لصفته هذه.

لكنْ لمَّا جعله الرَّبُّ الخالق ضمن ظروف هذه الحياة التي يعيشها في كَبَدٍ، وهو الرَّبّ العليم القدير الحكيم، فلا بُدَّ أن يكون هذا لِحِكْمَةٍ جليلة اقتضتها إرَادة الرَّب الحكيم، الذي هو على كُلِّ شيءٍ قدير.

فما هي هذه الحكمة؟

ويهتدي المتفكّر المتدبّر إلى أنّ هذه الحياةَ ذاتُ زمن قصير جدًّا، كزَمَنِ مجتازِ جسْرٍ إلى دار الإقامة الدَّائمة.

وهنا يتفكّر في هذا الإنسان وصفاته الّتي فضّله الرَّبُّ الخالقُ العليم الحكيم القدير بها، فيُدْرِكُ بجَلاءٍ أنّ هذا الإنسان حُرُّ الإرادة، يَمْلِكُ قدراتٍ جليلةً من الفهم، لاكتساب العلم، وقد سخّر الخالقُ لَهُ في ذاته وفي الكون من حوله مسخّرات يتصرّف فيها بإرادته، ولَه أهواء وشهواتٌ ورغبات، وباستِطَاعَتِه أن يلتزم سُلوك طريق الخير، أو أن يَسْلُك مَسَالك الشرّ، إرضاءً لأهوائه وشهواته ورغباته.

عندئذٍ يظهر له أنّ هٰذِهِ الصفاتِ ضِمْن ظروفِ هذه الحياة تَسْتَدْعي أنّه الآنَ في رحلة امتحان، لكشف استحقاقه الخلود في جنّاتِ النّعيم، الملائمة لكونه في أحسن تَقْويم، أو لا يستحقُّ ذَلِكَ لاستخدامه ما وهبَهُ اللّه في معصية خالقه الواهبِ، وجحود رُبوبيّته وإلَهيته له.

وبَدَهيٌّ أنَّ الامتحان لا يتحقَّقُ إلاَّ في ظروفٍ يُكابد فيها الممتَحَنُ مشَقَّاتٍ ومتاعِبَ تتطلَّبُ منه إرادةً واعيةً حازمة، وصَبْراً على تَحمُّلِها، وعليه

في تحمُّل هذه المشقَّاتِ والمتاعب أن يخالفَ أهواءه وشهواته ونَزَعاته ورغباته المخالفاتِ لأوامر ربّه ونواهيه في رحلة امتحانِه القصيرة، ليَنَال السعادَة الخالدة، في حياة أُخرى سوف تَتَحقق يوم الدّين.

وإلاَّ سقط في الامتحان وخابَ وخَسِر.

وبعد هذا التَّنْبيه المشدَّد على هذه الظاهرة ذات الدلالة العميقة، التي يفهمها المتدبّر المتعمّقُ الحَصِيف، جاء في السُّورة بيانُ صارِفَيْن من صوارفِ النفس عن الإيمان بالجزاء الرَّبَّاني، وبيوم الدين، لبعض المكذبين به:

**الصارف الأول**: اغترارُ المكذِّب بيوم الدِّين، إذا كان من أصحاب المال والأعوان والأنصار، بما لديه من قُوَّةٍ، حتَّىٰ يتوهَّمَ أنَّهُ محميٌّ بقوّته فلا يَقْدِرُ عليه أحدٌ، فيغْفُل عن خالقه العليم الحكيم القدير، وواجبه تجاهه، ويغفُلُ عن قدرته على مجازاته بما يستحقُّ من عقاب، إذا كفر وعصَىٰ وكانَ من المجرمين.

**الصارف الثاني**: توهُّمُ بعْضِ المكذبين بيوم الدِّين، أنَّه ليس عليه رقيب، إذا استخفىٰ عن أَعْيُنِ الناس بجرائمه وشُروره التي يرتَكِبُها.

وهذا ناشئٌ عن سذاجَةٍ وسطحيَّةٍ فكريَّةٍ يتوهَّمُ بها أنَّ ما لا يشاهده ببصره من حوله، فهو غير موجود.

وجاء في السّورة دفع هٰذين الصَّارفين ببيان أنّ الخالقَ هو الذي مَنَحَ ذا القوّة ما لدَيْه من قوّة، وما لَدَيْه من أسبابها، وهو الّذِي منح كُلَّ إنسان أدوات المعرفة، ووسيلة التعبير عنها، أفلا يكون سبحانَهُ قادراً على عقابِ الكافر والعاصي بما يَسْتحقُّ من عقاب؟! أفلا يكون سبحانه عليماً بكل ما يكسبُهُ عبيده في رحلة امتحانهم؟!

وجاء في السورة بيان معرفَةِ الإنسان بطريق الخير وطريق الشرّ، بما

لديه من فطرةٍ هاديَة، وبما أنْزَلَ الله على رسُلِه من رسالاتٍ، وبيانَاتٍ بمطلوبِ الله من عباده، في أوامره ونواهيه.

● وهُنَا يَسْأَلُ المتفكّر: مَا هو مطلوبُ الله من عبده المُمْتَحَن في رحلة امتحانه؟.

ويأتيه الجواب الرَّبَّاني: أنْ يقتحم عقبة نفسه الّتي تسيطر عليها أهواؤه، وشهواتُه، ورغباتُه من الحياة الدنيا.

● فإذا فهم هذا سأل: بمثل ماذا يكون اقتحام العقبة؟.

ويأتيه الجواب الرَّباني: بعتق رقبة عبْدٍ من الرّقّ، وبإطعامِ الطعام في يومٍ ذي مسغبة (أي: ذي مجاعَة) يتيماً ذا قرابةٍ ما، أو مسكيناً جائعاً شديد الفقر، وفي اختيار العتق والإطعام مراعاةٌ للمرحلة المكية التي نزلت فيها السورة، إذْ كان توجيه الاهتمام فيها لمساعدة ذَوِي الضرورات والحاجات في المجتمع، والتحلّي بفضائل الأخلاق، عقب الدعوة إلى الإيمان الصحيح.

● وبعد هذا يأتي السؤال التالي: وهل يكفي الإنسانَ أنْ يعمل الحسَنَاتِ، ويتْرُكَ السيّئات؟

ويأتي الجواب الرّبّاني: لا، إذ لا بُدَّ أن يكون الإنسان من الَّذِين آمنوا بما أمَرَ الله بالإيمان به، وتواصَوْا بالصَّبْر، وتواصَوْا بالْمَرْحمة.

● وهنا يأتي السؤال التالي: فما هي النتيجة إذَا فعل الإنسان ما هو مطلوبٌ منه؟.

ويأتي الجواب الرَّبَّانيُّ: يكُونُ من أصحاب الميمنَة يوم الدين، وهم الذين يستحقُّون دخول الجنَّةِ دار النعيم.

● وبعده السّؤال التالي: وما هي عقوبة من كفَر بآيَاتِ رَبّهِ؟

ويأتي الجواب الرَّبَّانيُّ: أُولئك أصحابُ المشأمة، عليهم نارٌ مُؤْصَدَة.

وبهذا يظهر ترابط عناصر فِقَراتِ السّورة وآياتها ترابطاً فكريًّا مَتِيناً، وقد أوصل إلى هذا إبرازُ المطويّات بين ثنايا فِقَراتها، استهداءً بإدْراكِ اللّوازم الفكرية، وما تقتضيه العبارات المذكورة من تَتِمَّاتٍ غَيْرِ مَذْكُورةٍ إيجازاً، واعتماداً على تَدَبُّر أولي الألْباب.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## دروس السّورة

تشتمل هذه السورة على ثلاثة دروس:

**الدرس الأول:**

درسٌ اشتمل على قَسَمٍ بمُقْسَم به ذي اقتضاءَيْن: أحدهما يستدعي القسم به، والآخر لا يستدعيه، فجاءَ قَسَماً منفيًّا.

والْمُقْسَمُ به: مكّة البلد الحرام، وكُلُّ والدٍ وما وَلَدَ.

والْمُقْسَمُ عليه: أنّ اللّه قد خلَقَ الإنسانَ في كبد، أَيْ: في شدّة وكدْحٍ وَمُكابَدة ومشَقَّة، ويلزم عن هذا عقلاً أنّه مُمْتَحن مكلّف مسؤول ومُجَازَىٰ.

وهو الآيات من (١ ـ ٤).

**الدرس الثاني:**

درس تضمّن بيان صارفين عن الإيمان بقانون الجزاء الربّاني، هما اغترار ذي القوّة بقوته، وتوهُّم ذي الغباءِ أنّ ما لاَ يُشَاهِدُه ببصره من حوله لاَ وجود له، مع التنبيه على فسادهما، وتضمَّنَ بيان هداية الإنسان إلى

معرفة طريق الخير وطريق الشرّ، ليُدْرِكَ أنه مكلّف ومَسْؤُول ومُحاسَبٌ ومُجَازَىٰ.

وهو الآيات من (٥ ـ ١٠).

**الدرس الثالث:**

درس تضمن الإجابةَ على أسئلة مطويَّة يستثيرها ما جاء في الدرسين الأول والثاني.

وهو الآيات من (١١ ـ ٢٠).

❋ ❋ ❋

## (٤)
## التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السّورة وهو الآيات من (١ ـ ٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ﴾: سبَقَ في أوّل سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بيان الحكمة التي فتح الله بها عليَّ مِن ذكر القسم وإدخال حرف النفي «لا» عليه.

وأعيد هُنا ما سبق أن ذكرتُه هُنَاكَ مع زيادة شرحٍ وإيضاح، وبعض إضافات.

اختلفت أقوال المفسرين في الْقَسَمِ المسْبُوق بحرف النفي «لا» الوارد في القرآن المجيد ثماني مرات في سبع سُور بصيغة ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾.

- فمن المفسّرين من قال: «لاَ» زائدة، والتقدير «أقسم».
- ومِنَ المفسّرين من قال: «لاَ» نافية لكلامٍ مُقَدّرٍ، وليْسَ النفيُ مسلّطاً على القسم.
- ومنهم من قال غَيْرَ ذَلِكَ.

ولم أجد لأقوالهم في هذا مُسْتَنداً من بيان الرَّسُول ﷺ.

ولم يَنْقُلْ أحَدٌ أنَّ أحَداً من العرب الّذين لم يستَجيبوا لدعوة الرسول ﷺ اعْتَرَضَ على هذا الأسلوب البيانّي الذي يُذْكَر فيه القسم مسبوقاً بأداة النفي «لا» فدَلَّ على أنّهم لم يجدوا فيه شيئاً خارجاً عن أساليب البيان البليغ.

وقد سبَرْت بأناةٍ معانيَ النصوص الّتي جاءت فيها صيغةُ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ فظهر لي بفتح من الله الوهّاب، أنّها أسلُوبٌ مبتكَرٌ، أدْرَكَ قيمتَهُ فُصَحاء العرب ضمن ما أدْركوا من عناصر إعجاز القرآن، فأحْجَمُوا عن معارَضَةِ سُوَر القرآن بِخُطَبٍ أو مَقَالاَتٍ أو رسائل أو غير ذلك، لشعورهم بالعجز عن أن يأتُوا بمثله.

هذا الأسْلُوب البيانيُّ المبتكَرُ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ قَدْ رُوعِي فيه اقتضاءان مُتَعَارضان:

**الاقتضاء الأول**: يَسْتَدْعي الْبَيَانُ البليغ معه الْقَسَمَ المؤكِّدَ للخَبَرِ الّذِي هو الْمُقْسَمُ عليه، والذي قد يتأثر به أولو الألباب.

**الاقتضاء الثاني**: يسْتَدْعي البيان البليغ معه، أنَّه لا فائدة من الْقَسَم، بالنسبة إلىٰ المقصودين بتوجيه الخطاب إبَّان التنزيل.

فكان الحلُّ المبْتكر في أساليب البيان القرآنيّة، مراعاةَ الاقتضاءَيْنِ المتعارِضَيْن معاً، باختيار ذكر الْقَسَمِ والْمُقْسَمِ به، مع سبقه بأداة النفي «لاَ» وإتْبَاعهما بالمقْسَم عليه.

فالوجْهُ الّذي اقتضىٰ الْقَسَمَ رُوعِيَ حالُهُ بِذِكْرِ الْقَسَمِ والمُقْسَم به، تنبيهاً على ما في الْمُقْسَمِ به من تأكيد للْخَبَر الْمُقْسَمِ عليه، أو حُجَّةِ هاديةٍ إلى أنّ الموضوع الذي يُرادُ تأكيده حقٌّ وصدْق.

والوجه الّذي اقتضى أنّه لا فائدة من هذا القسم، بالنّسبة إلى المعنيِّين بالخطاب إبَّان التنزيل، رُوعي حالُه بنفي القسم.

● ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾.

المراد بـ«البَلَد» مكة البلَدُ الحرام، حرسَهُ اللّه وزاده شرفاً. وجاء تعيينه باسم الإشارة «هٰذَا» لتَمْييزه عن سائر بلاد الدنيا، التي يصحُّ أنْ يُطْلَقَ على كلّ واحد منها لفظ «البلد» ولمَّا كانت مكَّةُ مهبطَ وَحْيِ هٰذِه السُّورة كان اسْمُ الإشارة «هٰذا» الّذي يُشار به إلى القريب هو الملائم الذي يُفِيدُ تعيينَ مكَّة البلد الحرام.

وكان أهل مكَّة يؤمنون بالْحُرْمَةِ العظيمةِ لبلَدِهِمْ، وللمسجد الحرام فيها، ولا سيما الكعبةُ المشرفة بيتُ الله فيه، إلى حدّ أنَّهُم قَدْ يُقْسِمُون به على ما ظهر لي، لتوثيق أخبارهم، ووعودهم، وعهودهم.

ومن تعظيمهم لبَلدِهم أنَّهم كانوا يُؤَمِّنُونَ من دَخَلَه، ولا يَسْتَحِلُّون دمَهُ، ولا مالَهُ، ولا عِرْضه، وقَدْ عَقَدُوا حِلْفَ الفُضُولِ لنُصْرَةِ المظلوم، وكان هذا في الجاهليّة قبْلَ بِعْثَةِ الرسُولِ محمّد ﷺ، وكان الرسول قد حضره قبل بعثته.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾: أي: وأنتَ يا مُحمَّدُ بْنَ عبد الله، ولا يُمْكِنُ أن يكون الخطابُ بضمير «أنت» لغيره، لأنّه هو الّذي يُوْحَىٰ إليه، وهو الذي جعَلَه كُبَراءُ مُشركي قومه حِلاً، أي: هدفاً، وفي هذا تكريمٌ وتسلية للرسول. وجاء لفظ البلد هنا مذكّراً، وهو أحد وجْهَيْنِ عَربيَّين له، إذ يجوز أن يؤنث.

﴿حِلٌّ﴾ هذا اللفظ يأتي في اللُّغَةِ بمعنيَيْن:

**المعنى الأول**: الْغَرض، أي الهدَفُ الّذي تُرْمَىٰ إلَيْه السِّهام، يقال لُغَةً: اتَّخَذَهُ حِلاً، أي: اتَّخَذَهُ غَرَضاً وَهَدَفاً يَرْمِي إليه سِهَامه.

**المعنى الثاني**: الحِلُّ الْحَلالُ، يُقَالُ لغة: هذا حِلٌّ لَكَ، أي: هذا حَلاَلٌ لك.

والمعنى الأوّل هو المعنى الملائم هُنا، فكِبَارُ مُشْركي قوْم الرَّسول في مكَّة قد اتَّخذُوه هَدَفاً وَغَرَضاً يَرْمُون هم وأتباعُهُمْ إليه سهامَ الإيذاء والاضطهاد، مُسْتَحِلّين حُرْمَة مكّةَ البلَدِ الحرام، الذي يعظمونه، ويَرَوْنَ حُرْمة العدوان فيه على أحدٍ من الناس، أو أحَدٍ من حيوانٍ برّيٍّ أو شجرةٍ ثابتة، ومخالفين اعتقادَهُمْ في حرمَتِه، ووجوب تأمين كلّ من فيه، وكُلِّ ما فيه، حتَّىٰ الدَّاخلِ إليه من غير أهله، ومخالفين مبادئ حِلْفِ الفضول، فهم بهذا قد أسْقَطوا من نفوسهم حُرْمةِ هذا الْبَلَد، ولم يبْقَ لديهم منها ما يسْتَحِقُّ أن يُقْسِمَ الله به منْ أَجْلِه، فكانَ الملائمُ لحالِهم أن يقول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾:

أي: والحالُ: أَنْتَ مُتَّخَذٌ مِنْ كفَّارِ قومِك فيه غرضاً لسهام إيذائهم واضطهادهم، وأنت رسُولي إليهم وإلى الناس أجمعين، ولا يخفى مَا في هذا البيان من التشنيع عليهم لأنهم قد استحلوا حُرْمَةَ البلد الحرام الذي يعظّمونه، بإيذائهم وعدوانهم على رسول ربّهم فيه وعلى الذين آمنوا به فأسقطوا بعَمَلهم حرمة هذا البلد من قلوبهم.

وجاء في النّصّ تكرير عبارة: ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ في الآية الثانية، لأمْرَيْن:

**الأول**: التناسُق الجمالي بين الآيتين الأولى والثانية.

**الثاني**: التنبيهُ على أن المشركين اسْتَحَلُّوا الحرمَةَ العظيمة لهذا البلد، بإيذاء رسُول الله فيه، واضطهاد الذين آمنوا به واتبعوه. فعبارة ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ في الآية الثانية تُشْعِر بعِظَم حُرْمَتِه، بَعْدَ تعيينه وتمييزه في الآية الأولى، فالمعنى: وأنت رسولي العظيم حلٌّ بهذا البلد العظيم الذي لا يجوز أن يكون أحَدٌ من الناس العادِيّين فيه حِلاًّ. فكيفَ برسولي العظيم؟!

والخطاب في هاتين الآيَتَيْن مُوَجَّهٌ للرَّسُولِ بصريح العبارة، لكنّ القضيَّة الّتي يُرادُ تأكيدُها مَسُوقَةٌ لإقناع المكذبين بقانون الجزاءِ الرَّبّاني، وبيوم الدّين، فهم المعنيُّون بمضمون الخطاب، وبما أنَّ هؤلاء المعنيّين إبَّانَ التَّنْزيل قَدِ اسْتَحَلُّوا حُرْمَةَ البلد الحرام، إذْ جَعَلُوا رسُولَ اللَّهِ فيه حِلاًّ لهم، يُسَدِّدون إليه سهام إيذاءاتهم، فالقسم بهٰذا البلَدِ لا يؤثّر في نفوسهم لتأكيد القضية المسوقةِ لإقناعهم، وهذا المعنى يلائمهُ أن لا يُقْسم اللَّه بهذا البلد.

غير أَنّ هذا البلَدَ ذُو حُرْمَةٍ عظيمة، فهو لهٰذه الحرمَةِ يَسْتَحِقُّ أنْ يُقْسِمَ اللَّه به.

ففيه أوَّلُ بيت وُضع للناس، وكانَ مَوْقعه أوّلَ ما بَرَدَ من قشْرَةِ الأرْض على ما ورد في بعض الأخبار، وما من نبيٍّ إلاّ حَجَّ إليه، وهو بلَدٌ ذو حُرْمَةٍ عظيمة في نفوس العَرب جميعاً، منْذُ عَهْدِ رسول الله إسماعيل عليه السّلام، ثم إنّ ذكريَاتِ بناء إبراهيم له مع ولده إسماعيل عليهما السّلام بأَمْرِ الله، بَاقِيَةٌ متداولةٌ في العرب عَبْرَ أَجْيَالهم.

ومراعاةً لاقتضاء الْقَسَم بهذا الْبَلَد وعَدَمِ القسَم به معاً، قال الله عزّ وجلَّ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ وأبَان الله سبَبَ هذا الإجراء بقوله خطاباً لرَسُولِه: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ وفي هذا تكريم عظيم للرَّسُولِ محمّد ﷺ أي: ولو لم تكُنْ حِلاً بهَذا البلَد لكانت العبارة المناسبة: أُقْسِمُ بهذا البلد.

● ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ أي: وَكُلِّ والِدٍ، وكلِّ ما وَلَدَهُ كُلُّ وَالِدٍ من أنسالٍ، في كُلِّ الأحياء المتوالِدَةِ حتى الحشرات وما دونها.

إنّ ظاهرة الوالد وما وَلَدَ في عالَم الأحياء من ظواهر خَلْقِ اللّهِ العجيبة، الّتي تستحقّ أَنْ يُقْسِمَ اللّهُ عزّ وجلّ بها، لتوجيه أنظار المخاطبين إلى دليلٍ من الأدلّة على وجود اللّه وطائفةٍ من صفاته الجليلة وأسمائه الحسْنَىٰ، ووجوب الإيمان به، وبوجوب الإسلام له، ووجوب عبادته.

ودراسة هٰذه الظاهرة تحتاجُ باحثين من العلماء المتخصّصين في دراسة الأحياء، وكيف تتكَوَّنُ النُّطَفُ في الآباء، والبييضات في الأُمَّهات، وكيْفَ تَنْعَقِدُ الأجنَّةُ في الأرحام، وكيْفَ تحصُل الأنسال.

(الواو) في: ﴿وَوَالِدٍ﴾ هي واو القسم، وهو من حروف الجرّ، والعامل محذوف لا يجوز عند النحاة مع الواو إظهاره، والتقدير: أقْسِمُ أو أحْلِف، ووالد وما ولد.

والمعنى العام: لا أقْسِمُ بهذا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بهٰذَا البلد، أُقْسِم وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ، أوْ وَأُقْسِمُ وَوَالِدٍ وَمَا ولد، على تقدير أنّ المحذوف حرف العطف وفعل «أُقْسِم».

واختير لفظ: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ بَدل لفظ: ومَوْلُود مُراعاة للنَّسَقِ اللَّفظي والتناظر في فواصل الآيات.

ولعلَّ في الجمع بين البلَدِ الحرام، ووالد وما ولَدَ، إشارةً إلى أنّ هذا البلَد أوّلُ أرضٍ ظهرت عليها الحياة، وأول أرض ظهرت فيها السلالات الإنسانيةِ، أليس فيها أوّلُ بيت وُضِعَ للناس؟!

• ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾:

﴿فِى كَبَدٍ﴾: **الكَبَدُ**: الشّدّةُ والمشقّة والضّيقُ ومعاناة كلّ ذلك أو بعضه.

**ومُكَابَدَةُ الأَمْرِ**: معاناة مشقّتِه. يُقالُ لغة: كابَدَ الأَمْرَ، أي: قاسَىٰ

شدَّتهُ ومشقَّته. قال اللّيث: الرّجُلُ يُكابِدُ اللّيل، إذا ركب هوله وصعوبته. ويُقَالُ: كابَدَ الأمْرَ مكابَدَةً وكِبَاداً، أي: قَاسَاه. واسم الفاعل منه «كَابِد» على غير قياس فِعَله.

ولفْظُ «الْإنْسَان» عنوانٌ لكلّ خصائِصِه الّتي ميَّزَهُ اللَّهُ بها، وخصائِصُ الإنسان وصفاتُه دليلٌ على الحكمة من خلقه في ظُرُوف الحياة الدُّنيا، وهي حكمة الامتحان، والامتحانُ يقتضي عقباتٍ يُطْلَبُ من الممتَحَنِ أنْ يقْتَحِمَها حتى يظفر بالنجاح الأسمَىٰ، أو بدرجَةٍ من درجات النجاح على مقدار ما اقْتَحَمَ من عقباتٍ وضِعَتْ له في امتحانه.

والامتحان يستَلْزِمُ عقْلاً الحساب، وفَصْلَ القضاء، ثمَّ الجزاء، وهذا يأْخُذُ بيَدِ المتفكّر الّذي يَتَنَقَّلُ مع اللّوازم الفكريَّة إلىٰ أنْ يَصِلَ إلى الإيمان بيَوْمِ الدين.

وقد أبْرَز النَّصُّ من ظروف الامتحان الّتي وُجِدَ الإنْسَانُ فيها أنَّه مَخلُوقٌ في كَبَدٍ، فالكَبَدُ مُحِيطٌ بِه من كُلّ جَوانِبِه، مُنْذُ مِيلادِهِ عابراً رِحْلَةَ حيَاتِهِ في هٰذه الدنيا، حتَّىٰ وَفَاته.

إنّ الإنْسان مضطر في هذه الحياة أن يتحمَّلَ مُكَابَدَة الشدائد والمشقّات، وأنواع الضيق والمزعجات، وَأن يكون كادحاً في كثير من أوقاته، ليَدْفَعَ عن نَفْسِه المخاطِرَ والآلام، ويَجْلُبَ لنفسه أسْبَابَ العيش، وبعْضَ اللّذَّات، يَدْفَعُهُ حُلْوُ الأَمل في أنْ يُحَقّقَ لِنَفْسِه بالكَدْح الشّديدِ مُخْتَلِفَ لذَّاتِ الْحَيَاةِ، وأنواعَ متاعها.

ومن الناس من تلْتَهِبُ في داخل نفسه نارُ الشوقِ الحامية، لانْتِهَاب اللّذاتِ، وتحقيق الرَّغبات، طمعاً في الظفر بالسَّعَادة الّتِي لا مَطْمَعَ في الظَّفَرِ بِها في ظُروف الحياة الدنيا، دون مُنغّصَاتٍ كثيراتٍ، ومُكدِّرَاتٍ ومُقْلِقاتٍ جَسِيماتٍ.

إنّ الإنسان يمرُّ في الحياة الدنيا على سِلْسلةٍ من المتاعِبِ والمشقَّاتِ الَّتي يُعَانيها ويُكابِدُها مُنْذُ نَشْأَتِهِ حتَّىٰ وفاتِه.

ومُكابدَةُ الإنسانِ مَقْرُونَةٌ بِكَدْحٍ لا تَطُولُ الرَّاحةُ بَعْدَه إلا بمقدار الحاجة إلى التَّزَوُّد بطاقَةٍ لِكَدْحٍ آخر.

والكَدْحُ هو العملُ بتَكَلُّفٍ ومَشَقَّةٍ وَنَصِب في كَسْبِ خَيْرٍ، أو اكْتِسَاب شرّ.

لَقَدْ كابَدَ الإنسانُ قبْلَ أنْ يَعْرِف نفْسَهُ كُلَّ عقَبَةٍ حَوْلَهُ، حتَّىٰ صَارَ إنْسَاناً فَعَرَفَ نفسَه.

كابَدَتْ جُرْثومَتُه الأُوْلَىٰ سِبَاقاً عنيفاً بينها وبين الملايين من أمثالها وأشباهها، حتَّىٰ استطاعَتْ أن تشُقَّ طَرِيقها إلى الحياة الإنسانيّة.

وحين تطوَّرَتْ بقضاء الله وقَدَرِه وخَلْقِه فصارت جنين إنسانٍ، كابَدَتْ مشقَّاتِ السّجْنِ المخْدُود، والقَيْدِ المشدُودِ، في بطْنِ الأمّ.

ولـمَّا تكامل الجنين ونَضجَ، وأرادَ اللَّه عزّ وجلّ له أن يتنسَّم نَسِيمَ الحياة على الأرض الواسعة، كابَدَ مشقَّاتِ النُّفوذِ من المضايق الشّديدة عند الولادة.

ومَا أنْ دَبَّ علىٰ ظاهر الأرض حتَّىٰ أَحاطَتْ به مشقَّاتٌ أكْبَرُ حجماً، وأكثَرُ عدداً، وَأشدُّ قَسْوَةً.

وكلَّما تَدرّجَ في أطوار النُّمُوّ عظُمَتْ أمَامَهُ العقبات، وتطَلَّبَتْ منْهُ الحياةُ مُكابَدَةً أعظَمَ، لتحصيل الرّزق، ودفْع المخاطِرِ والآلَام، وللمسابقة والمنافَسَة مع النظراء، لِلْحُصُول على أكثر نصيب من متاع الحياة الدنيا.

وكلَّما زادَتْ لَدَيْه تجاربُ الكَدْحِ والمكابدةِ في مُصَارَعَةِ مشقَّاتِ الحياة، واجتياز عقباتها، ومُغَالبَةِ كُلِّ مُعَارَضَةٍ أَوْ مُنافَسَةٍ، ظَهَرَتْ في نَفْسِه

دوافِعُ جديدَةٌ تَسُوقُه إلى مغامراتٍ جَدِيدَة، يُكابد فيها آلاماً، فهو في تطلّع مُسْتَمِرٍّ إِلَى الاستزادة، وكلَّما انتهىٰ به كدْحُه إلى جديد، ولذَّ لَهُ ذَلِكَ الجديد، نما في نَفسِه الحِرْصُ والطَّمع، فأخذ يُكابدُ مشقَّاتٍ أُخرىٰ لتحصيل مطالبَ أُخرىٰ للنَّفْس، أو للفكر، أو للجسَدِ، والعامل لدُنْياه يكْدَحُ من أَجْلِ الدُّنيا، والعاملُ لآخِرَته يكْدَحُ من أجل الآخرة، وكلٌّ منهما في مكابدةٍ مستمرّة، وكدْحٍ مُتَتَابع، وهما لا ينْتَهيان إلاَّ بمَوْتِه.

هذه حقيقةٌ مشْهُودَة في السُّلوك الدائم للإنسان، وقد عبَّر عنها المعرّيُّ بقَوْله:

تَـعَـبٌ كُـلُّـهَـا الْـحَـيَـاةُ فَـمَـا أَعْـ ... ـجَـبُ إِلاَّ مِـنْ رَاغِـبٍ فـي ازْدِيَـادِ

إنَّ الإنسان حريصٌ على البقاء بدافعٍ فِطْرِيٍّ غَرَزَهُ اللَّهُ في أعماقه، فَهُوَ يَتَحمَّل من أجْل ذلك أنْواعاً من المكابدَة والكدح الشَّاقَّيْنِ، للحصول على الرِّزْق، وفي مكابدته وَكَدْحِهِ يَصْطَدِمُ بعقَباتٍ كثيراتٍ، فإنْ وصَلَ إلى مَا يُريد، كابَدَ مشقَّاتِ الحفْظِ والْحِمَايَة من أيدي الظالمين، وإنْ لم يَصل إلى ما يريد، كابَدَ آلام الْفَقْدِ والحرمان والْخَيْبَة.

هذا مثال، وفي حياة الإنسان أنواعٌ كثيرةٌ أُخرىٰ من المكابدات التي يُكابِدُها، لتحقيقِ ما يتجدَّدُ في نفسِه من رغبات: فلِلْحُبّ مكابدةٌ وكدْحٌ، ولِلْكَرَاهِيَةِ مكابَدَةٌ وكَدْح، وفي الْجُودِ مُكابَدَةٌ وكَدْح، وفي الشُّحّ مُكَابدةٌ، وفي الصَّبْرِ مكابدة، وفي الضّجَر مكابَدَة، وفي الطمع مكابدة، وفي القناعة مكابدة، وفي طاعة الله والْعَمَل بمراضيه، وفعل الخيرات، واجتناب المعاصي والمخالفات، مكابدةٌ وكدْح، وفي معصية الله، والعمل بمسَاخِطِه، وفعل الشرور، وارتكابِ الْمُوبِقاتِ، لإرضاء الشهوات، مكابدةٌ وكدح.

هكذا الحياةُ الدنيا للإنسان، تَكادُ تكونُ مسالكُها وطُرُقها مُكْتَظَّةً بما يَتَطَلَّبُ من سالِكِها مكابدةً وكدْحاً لاجتياز عقباتها، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

وكما قال عزّ وجل في سورة (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول) خطاباً للإنسان مؤمناً كان أمْ كافراً، تقيًا كان أمْ فاجراً:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَدْعُوا ثُبُورًا﴾: أي: يَدْعو رَبَّهُ أَنْ يُهلِكَهُ هَلاكاً أَبَدِيًا، إذ يكونُ لَهُ الموتُ راحةً من العذاب.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾: أي: ظنَّ أنْ لَنْ يَرْجع إلى الحيَاةِ بَعْدَ الموْتِ.

إنّ الإنسان لمّا كان في ظروف الحياة الدُّنيا ضِمْنَ مُحِيطٍ به مِنَ الكَبَد (=الشدّة، والمشقة، والضّيقِ، والمعاناة) كان بحاجَةٍ إلى الكَدْح (أي: إلى الكدّ والْعَمَلِ الشّاقِ بنَصَبٍ وصَبْرٍ على المتاعِبِ والآلَام) لتحقيقِ مطالبه العاجِلَةِ والآجِلَةِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شرٍّ، فطالب الدُّنيا الّذي لا هَمَّ لَهُ إلاّ مَتاعُها وَزِينَتُها والتفاخُرُ والتكاثر منها، يكْدَحُ على مقدار استطاعته للوصول إلى مطالبه منها. وطالِبُ الآخرة الذي جعل هدَفَه رضوانَ الله وجنّات النعيم خالداً فيها مُخَلَّداً، يكدح على مقدار استطاعته للوصول إلى السعادة الخالدة.

وهُنَا وبَعْدَ ظهور هذه الحقيقة، يتساءَلُ المتفكّر المتدبّر: لماذا خَلَقَ اللَّهُ الإنسان ضِمْنَ ظروف الحياة الدّنْيَا في هذا الكبَدِ المحيط به، إحاطَة الكُرَةِ الشّامِلة بما في داخلها؟

ويستطيع بالتأمُّل المقرون بهَذي البيان القرآنيّ، أن يَعْرِفَ السَّبَب،

وهو أنّه مَخْلُوقٌ مُمْتَحَنٌ مُبْتَلَىٰ في ظروف هٰذه الحياة الدّنيا، والابتلاءُ يقتضي التَّكْلِيف، ولا معْنَى للتكليف بدون مشقَّةٍ وَكبَدٍ وَمُعَانَاةٍ، فجعل الله عزّ وَجَلّ ظروف الحياة الدنْيَا كذلِك، تُحيطُ الإنْسانَ بِالْكَبَد، كإحاطة الماء بالسَّمك في الْبَحْر.

ولهذا فميادينُ الامتحاناتِ وَسَاحَاتُها لاَ بُدَّ أَنْ تُبَثَّ وتُنْشَرَ فيها الْعَقَبَاتُ، والمفَازَات، والْحُفَرُ، والأشواك، والمخيفاتُ، والشدائد. إضافةً إلَىٰ مُرْضِيَاتِ الْأَهواءِ والشهوات ومُحَقِّقات بعضِ اللَّذَاتِ الممنوعَةِ المحرَّمَة، وبعْضِ اللّذَّاتِ المباحات.

والظَّفَرُ يكون باقتحام العقبات واجتيازها، وتحمُّل المكابَدَةِ فيها والكدح، مع كراهية النفوس لذلك، باجتناب مُرْضيات الأهواء والشهوات، ومحقّقاتِ اللَّذَّاتِ المحرَّمات، الْمُزَيَّنَاتِ للنفوس، والمُحَبَّبَاتِ لدَيْها.

وبهذا الامتحانِ الصَّعْبِ على النفوس يُكْتَشَفُ المقتَحِمُ الكَيِّس، الذي يجتاز بنجاح، ويَسْتَحِقُّ دَار الكرامة، ومقام التكريم، بفضل ربِّ العالمين الذي وضَعَ النَّاسَ في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان. ويُكْتَشَفُ العاجِزُ المرتكِسُ الَّذِي يَتَّبِعُ هَواهُ، وتأسِرُه شَهواتُه، ويكُونُ كُلُّ هَمِّهِ متَعلِّقاً برَغباتِه من الحياة الدنيا، فيجتاز رحلة امتحانه ظالماً آثماً، عاصياً مستكبراً على ربّه، ومتمرّداً على أوامره ونواهيه، وتنتهي رحلةُ امتحانه بالخيبة، مُبْعَداً عن دار كرامة الرَّحْمن، ومقام التكريم عنده، ومستحقًّا العذابَ بالعدل في دار العذاب النّار.

ولو جعل الله الحياة الدّنيا كلَّها متاعاً لا كبَدَ فيه ولاَ كَدْحَ ولا متاعِبَ ولا عقبات، لما كانت صالحةً لامتحان الإنسان فيها.

فواقع هَٰذه الحياة الدنيا، بما فيها مِنْ كبَدٍ وكَدْح على نَجْدَيْنِ (أي: طريقين) نَجْدِ الخير ونَجْدِ الشر، هُوَ مِنْ كَمالِ الحكْمَةِ للغاية من خَلْقِ

الإنسان مُزَوَّداً بخصائِصِه الّتي جعَلَهُ اللَّهُ بها في أَحْسَنِ تقويم، وهي قُدراتُ الْعِلْم والْفَهْم والتَّفَكُّر، وحُرِّيَّةُ الإرادة، وغَرائزُ النفس، ومشاعرها، وعواطفها، وأهواؤها وشهواتها، والحِسُّ الوجدانيُّ بالْخَيْرِ والشَّرّ، والْقُدْرَةُ على الانتفاع بالمسخَّرَاتِ له في ذاته، وفي الكَوْنِ من حوله.

وكلمة «الإنسان» المخلوق في كبد عُنْوانٌ لكلّ خصائِصهِ الَّتي أشار إليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

وفصَّلَتْها بَيَانَاتٌ أُخْرىٰ تتعلَّقُ بخصائص الإنسان التكليفيّة.

والمتَعمِّقُ في حكمة خلق الإنسان في أحْسَن تقويم، لا بُدَّ أنْ يُدْرِكَ أنّ اللّه تبارَكَ وتعالى، قد أعدَّ له المسكن الخالد الملائم لهذا التفضيل العظيم الّذي فضَّلَهُ اللَّه به.

وحين يَسْمَعُ أخبار الجنَّة وما فيها من نعيم مقيم، ومُلْكٍ عظيم، وأنّها ذاتُ مَرَاتب ودرجات متفاضلات، يُدْرِكُ أنَّ هٰذِهِ الجنَّة هي المسْكَنُ الخالِدُ الملائم له، وأنَّ مراتِبَها وَدَرَجَاتِها المتفاضِلاَتِ لا بُدَّ أَنْ يكون استحقاقُها بأسبابٍ من الإنسان نفسه.

ولمّا كان الإنسان ذا إرادَةٍ حُرَّةٍ مع خصائِصِه النفسيَّة الأُخْرىٰ، كان من الحكمة أنْ لا يَسْتحقَّ دخُولَ الجنَّةِ لِيَنْعَم بهذا المسكن الخالد العظيم، إلاَّ إذا آمَنَ بربّه الّذي خلَقَهُ وهيَّأَ له دار النعيم المقيم. وكان من الحكمة أيضاً أن لا يسْتَحِقَّ مَرْتَبَةً أو درجَةً مُرْتَقِيَةً من مراتبها أو درجاتها المتفاضلات، إلاَّ بأسبابٍ منه تجْعَلُه يَسْتَحِقُّها بفضل الوعد الرَّبَّاني.

وهنا تظهر لذي البصيرة فضائل الأعمال الظاهرة والباطنة، التي يَبْتَغِي الإنْسانُ بها رضوان اللَّه عزّ وجلّ، على ما يُحِبُّ تبارك وتعالى من عباده، ويسْتَحِقُّ أن يتفضل الله عليه بالارتقاء في المراتب والدرجات، على مقدار

ما اختار في الامتحان، وهذا الاستحقاقُ مُسْتَنِدٌ إلى وعْدِ اللّهِ الكريم المقرونِ بوضعه موضع الامتحان في الحياة الدنيا.

أمّا من كفر باللّه جُحُوداً، واستكبر عن الخضوع له بإعلان الإسلام له، وإعلان الطاعة لأوامره ونواهيه، فالحكمة الّتي تقتضي العدلَ، أن يعامله بارئه والمنعم عليه طَوال رحلة امتحانه بالطَّرْد من مجالات رحمته يوم الدين، وبإدخاله دار العذاب الّتي اعتدها للكَفَرةِ والمجرمين، والعاصين المسرفين في معاصيهم، بشرط إعلامه وإنذاره بذلك وهو في رحلة امتحانه.

إنّ مَنْ كَانَ من هذا الفريق الكافر الجاحِد المجرم، أو المتمادي في ارتكاب الكبائر الكبرى، قد كشَفَ عن نفسه أنّه لمْ يكُنْ مستحقًّا التفضيل الّذي فَضَّلَ الله به الإنسان.

وهنا تظهر لذي البصيرة رذائلُ الأعمالِ الظاهرة والباطنة، التي تُسْخِطُ اللّه عزّ وجَلّ، وتكونُ على ما يجلُبُ مَقْتَ الله وغَضَبه على عباده. وعلى مقدارها يستحقُّ الانحطاط والتَّسَفُّل في منازلِ الجحيم ودركاتها، حتّى يَصِل بعْضُ المجرمين إلى الدرْكِ الأسفل من النار.

❋ ❋ ❋

## (٥)
## التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (٥ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

• ﴿أَيَحْسَبُ﴾ في الآية (٥) وفي الآية (٧) فيها قراءتان، إحداهما بفتح السين، والأُخْرىٰ بكَسْرِها.

فقرأ بفتح السين، ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بكَسْرِ السين.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الفعل المضارع، أمّا الماضي «حَسِبَ» فبكَسْر السّين فقط بمعنى ظنَّ ظنًّا تَوهُّمِيًّا ضعيفاً، فهذه المادّة اللّغوية لم تستعمل في القرآن إلاّ بمعنى الظنّ الضعيفِ التوهميّ المرفوض، والتصورات الباطلات المخالفات للحقيقة.

• ﴿لُّبَدًا﴾ فيها قراءتان، إحداهما بتخفيف الباء المفتوحة، وهي قراءة معظم القرّاء العشرة، والأُخْرىٰ بتشديدِ الباء المفتوحة، وهي قراءة أبي جَعْفر.

والمعنى: أهْلكْتُ فأفْنَيْتُ بالإنفاق مالاً كثيراً في إعداد القوىٰ من الأنصار والْعَتاد، فأنَا بها عزيز لا يَقْدِرُ أَحدٌ على أن يَغْلِبَنِي ويُعَذِّبني.

يُقَالُ لغة: مَالٌ لُبَدٌ، أي: كَثِير جمٌّ لا يُخَافُ فَنَاؤه، كَأَنَّهُ الْتَبَدَ بَعْضُهُ علَىٰ بعض.

وقراءة أبي جعْفرٍ: [لُبَّداً]: هي جَمْعُ «لاَبِد» أي: كثيرٌ مُتَلَبِّدٌ بعضُهُ فوق بعض. والجمع يَدُلُّ على أنواع من المال كُلُّ واحدٍ منها لاَبِدٌ كثير.

وبين القراءتين تكامل قائم على التوزيع، فبعض ذوي العزّة يقول: أهلكْتُ مالاً كثيراً متلَبِّداً بعضُه على بعض، وبعض ذوي العزَّة يقول: أهلكْتُ أموالاً كثيرة متنوعة، كلُّ نَوعٍ متَلَبِّدٌ بعضُه على بعض.

**تمهيد:**

في هذا الدرس إلْماحٌ شبيهٌ بالرَّمز إلى بعض الأوهام الّتي تسيطر على

أقسامٍ متفرّقةٍ من الذين لا يُؤْمِنُونَ بالجزاء الرَّبّانيّ، إذْ تحجُبُهم أوهامهم عن إدْراكِ براهين هذا الإيمان.

والإلماح إلى هذه الأوهام من المنهج الرّبّانيّ القائم على التتبُّعِ التفصيليّ الدقيق للموضوع الواحد، إذْ تكونُ عناصرهُ مُوَزَّعَةً في عدَدٍ من سور القرآن المجيد.

والتتبُّعُ هنا ألْمَحَ أو أشار إلَىٰ ثلاثة تَوَهُّمَاتٍ تُوجَدُ موزّعَةً في أصنافٍ من الناس.

(١) فأصحاب القوّة والعزّة والجبروتِ في الأرض، يطْغَىٰ على تصوّراتهم أنَّهُمْ بلَغُوا من القوّة الغالبة مبْلَغاً يحميهم من أن يَقْدِرَ عَلَيْهِمْ في دوائر نفوذهِمْ أحَدٌ فيَغْلبَهُم، وينالَهُمْ بشَرٌ أو بِسُوءٍ، كبَعْضِ ذوي القوّة العزيزة في مكّةَ إبّانَ التنزيل، وكَفِرْعَوْنَ ونُمْرُود والأكاسِرَةِ والقياصِرَة مِنْ قَبْلِهم.

هٰذا صنف من الناس حين يَشْعُر بأنَّه عزيزٌ لا يُغْلَبُ، يَذْكُرُ متفاخراً أنَهُ قد أنْفَقَ مالاً كثيراً مُتَلَبِّداً بعضُه على بعض، أو أنواعاً من الأموال كُلُّ نَوْعٍ منها كثيرٌ مُتَلَبِّدٌ بعضُه على بعضٍ، حتَّىٰ جَمَعَ حوله من الأنصار والعتاد ما يحميه مستقبلاً من أيَة قُوَّةٍ تُواجِهُهُ لتَغْلِبَه وتَتَسَلَّط عليه، وتُصيبَه بشرٌ أو سوء.

وهذا التوهُّم يَنْتَفِخُ في نَفْسِه انتفاخاً فاسداً، حتى يطْغَىٰ على مراكز البصيرة فيها، وعندئذٍ لا يُبْصِر آياتِ الله في كونه، ولا يسْمَع البيانات المنزَّلات من لَدُنْه، ولا تَعْمَلُ موازينهُ الفكريَّةُ فيما خُلِقَتْ له، حتّىٰ يُمَيِّز الحقَّ من الباطل، والخيرَ من الشرّ. فيَنْسَىٰ خالقَه الّذِي خلَقَ السماواتِ والأرض، وخلَقَ كلَّ الْقُوىٰ، وأنَّه هو الذي منَحَهُ القوَّة، ويسَّرَ لَهُ سُبُل جَمْعها، وأنَّهُ هو الّذي سيُهْلِكُهُ مع الهالكين، فمِنْ أعجب العجب أن يدفعَهُ

غروره فيَرْفَعَ عقيرَته قائلاً: لَنْ يَقْدِرِ عَلَيَّ أَحَدٌ، ويقولَ مُتَفَاخِراً: لَقَدْ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً، إنَّه غُرور يُوصِلُ أَصحابَه إلى جنُونِ العظمة[1].

ولمَّا كان هذا التوهّم غير ذي قيمةٍ فكريَّة صالحةٍ للرَّدّ عليها، لَمْ يشتمل النصّ على عبارةٍ تُشِيرُ إلى إسقاطه، فكَمْ من دُوَلٍ عظمىٰ سلفت في تاريخ الناس، دَمَّرَها الله بكُفرها وفجورها، وظلمها وطُغْيانها في الأرض، بل اقتصر على بيان توهم المعبّر عن غروره منهم.

● ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾.

(٢) وأصْحابُ الغباء الحسّيُّون الحمقى الذين يتوهّمون أنّ حواسَّهم المحدودَةَ الضّئيلَة تُحيطُ بكُلّ ما حولهم، يتَوَهَّمُونَ أَنَّ قبائحهم وشُرورهم الَّتي استَخْفَوْا بها عن أعْيُن الناس، لم يرَها أحَدٌ ممَّا وَرَاءَ المنظور بأعينهم، وكذلك ما يُضمِرُون في أنفسهم من نيّاتٍ سيّئات.

أي: فاللَّهُ وملائكته لا يَعْلَمُونَ بما فَعَلُوا في الماضي، ولا بما يفْعَلُونَ في الحال والاستقبال، من خبائث وجرائم، وظلم وعدوان، وبغْيٍ وَطُغْيَانٍ، وفُجُورٍ وعِصْيَان، ولا يشْهَدُونَ بما عَلِمُوا من أحوالِهِمْ.

وهذا التوهُّم يجْعَلُهم يجْحَدُون قانون الجزاء الرَّبَّانيّ، فَلا حسابَ، ولا قضاءَ، ولا جزاءَ، ويَوْمُ الدينِ أمْرٌ باطلٌ لا صِحَّةَ له، في تصوراتهم المعتَمِدَةِ على العمَىٰ في بصائرهم.

وإسقاطُ هذا التَّوهُّم يكونُ بإرجاع كلّ واحدٍ منهم إلى الإيمان بخالقه، الذي جعل له عيْنَيْنِ يَرَىٰ بهما، وجعل لَهُ فماً ذا لسانٍ وشفتين يَنْطِقُ به.

---

(١) ومن الأمثلة المعاصرة لهؤلاء المغترّين دولٌ عظمىٰ تَمْلِكُ القوى الذرّيّة والهيدروجينية ذات التدمير الشامل، وتتفاخر بميزانيَّاتها الضخمة المخصصة لجيوشها وأعتدتها، وتزعُمُ أنّه لن يَقْدِرَ عليها أحد.

وجاء هذا الإسقاط بأسلوب طرح سؤال على أهل العقل والرُّشْد، ومن شأن هذا السؤال أن يَسْتَدْعي إجابَةً تُوصِلُ لوازِمُها الفكريَّةُ إلى إقامة الحجَّة عليه، وإثبات نقيض توهُّمه، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾.

والجواب التلقائي يكون بكلمة «بَلَىٰ» فقد جعل الله له عيْنَيْنِ يرَىٰ بهما، ضِمْنَ حُدُود الْقُدْرَةِ على الرؤية الّتي منحه الله إيَّاها، وجعل له فماً ذا لسانٍ وشفتين، فهو ينطق به، ويُعبّر به عمَّا يَعْلَم، في حُدُود اللُّغَةِ الّتي تَعَلَّمَ رُموزها الكلاميَّة.

أي: فَهَلْ يمنَحُهُ اللَّهُ الخالق أدوات الإبصار، ويكونُ هو سبحانه فاقد البصر، وهل يمنَحُهُ الإبْصَار ولا يَمْنَح منْ يُراقبه من الملائكة أدواتِ إبصارٍ تَرَىٰ أعماله؟!

وهل يمنَحُهُ الخالقُ فماً ينْطِقُ به، ويكون هو سبحانه فاقد صفة الكلام، التي بها يُنَاقِشُه الحساب، ويفْصِلُ القضاءَ بشأنه؟!!

وهل يمنحه الخالقُ صفة النُّطق الذي يُعَبِّر به عمّا في نفسه من المعاني، ولا يَمْنَحُ من يراقبُه من الملائكة القدرةَ على النُّطْقِ والتعبير، حتَّىٰ يَشْهَدَ عليه بما اكْتَسَبَ في رحْلة امتحانه؟!!

إنَّ هذا لَأمْرٌ لا يقبله من لدَيْه مقدارٌ قليل منَ الفهم السَّوِيّ الصحيح، فضلاً عن إنسانٍ فضَّله الله بأدواتِ العلم واكتساب المعرفة، وجَعَلَهُ في أحْسَنِ تقويم.

ويمكن أن نستفيد من هذا الاستفهام المطروح حول قضيَّتي الرُّؤية والنُّطق، نظيراً مَحْذُوفاً بشأن قضيَّة القوة، التي هي القضيَّة الأولى، فيُقَالُ بجانبها: ألم نَجْعَلْ له قوَّةً في جسمه؟!! أَلَمْ نُسَخِّرْ لَهُ الأشياء في ذاته ومن حوله، حتَّىٰ صار بها عزيزاً ضمن دائرته؟!! أَنَمْنَحُهُ ذَلِكَ ونَحْنُ لا نَقْدِرُ على أخْذِه، ومُعَاقَبَتِه على جرائمه؟!!.

وفي طرح مثل هذه الاستفهامات تأنيبٌ لهذا الأحْمَقِ المغرور على تَوَهُّمَاتِهِ الحمقاوات.

(٣) ومن النّاس فريقٌ يتوهَّمُونَ أنَّ التَّمْكِين من سُلُوك طريق الخير وطَرِيق الشرّ هو بمثابة إباحة سُلُوكِهِمَا، دون مسؤوليّة ولا حسابٍ ولا جزاء، فصاحب القدرة أو الحيلة هو المؤهل للظّفر بالحظّ الأكْبَر من مطالب نفْسِه وجَسَدِه.

ويأتي دَفْعُ تَوَهُّم هٰؤلاء ببيَانِ أنَّ الخالِقَ العظيم قد دلَّهم علىٰ طَرِيقَي الخيْرِ والشَّرّ، وأعْلَمَهُمْ بأنَّ طرِيقَ الخير حسَنٌ ونافِعٌ مُفيد، وبأنَّ عواقبه سعيدة، وبأنَّ طريق الشَّرّ قبيحٌ وضارٌّ، وبأنَّ عَواقِبَهُ وخيمة، وهٰذه الدَّلالَة مغروزَةٌ في فِطَرِ نُفُوسهم، وفيما وهَبَهُم الله من قدرات فهم وإدْرَاكٍ واسْتِنْبَاط.

ثُم أبَانَ لهم بما أنزل على عباده من شرائع الدّين وأحْكَامِه طريقي الخير والشّرّ، وأعلمهم بأنّ من سلَكَ طريق الخير أرضى بسلوكه ربّه، ونال الأجْرَ العظيم والثوابَ الجزيلَ يَوْمَ الدّين من فضله، مع ما قد يمنَحُهُ من بعْضِ ثوابٍ مُعَجَّل في الحياة الدُّنيا، وأعْلَمَهُمْ بأنَّ مَنْ سَلَكَ طريق الشَّرّ أسْخَط بسلوكه ربَّهُ، واستحقَّ به عقابَ الله وعذابه على ما اكتسب من آثام، وحمَلَ من أوزارٍ في رحلة امتحانه في الحياة الدّنيا.

وجاءت الإشارة إلى دفع توهُّم هٰذا الفريق من النّاسِ في قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس بشأن كلّ فَرْدٍ لَدَيه هذا التوهّم:

● ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾:

أي: وهدَيْناهُ طَرِيقَ الحقّ والخير، وطَرِيقَ الْبَاطِلِ والشَّرّ. **النَّجْدُ**: في اللُّغَةِ المرتَفِعُ من الأَرْض، فالمراد: وهَدَيْنَاهُ الطَّرِيقَيْنِ المرْتفِعَيْن الواضِحَيْن البيِّنَيْن، فكلِمَةُ «النَّجْدَيْنِ» صفَةٌ لموصُوفٍ محذوف، تَقْدِيرُه «الطَّرِيقَيْن» وقد

نابت الصِّفَةُ عَنِ الْمَوْصُوفِ بها، فاسْتُغْنِي بعبارة «النَّجْدَين». وهذا الوصف يُشْعِرُ بأنّ طَرِيق الحقّ والخير واضِحٌ جليّ، وبأن طريق الباطل والشرّ واضِحٌ وجَلِيٌّ.

وقد يَدُلُّ ارتفاعهما على حاجة سالك كُلٍّ منهما إلى كدحٍ ومكابدة.

أمّا طريق الحقِّ والخيْرِ فهو مَحْفُوفٌ بالمكاره، على مراحِلِه طَوال عُمُرِ سالِكِه في مَسِيرَةِ حياته، ليظْفَر في نهاية المسيرة بالسَّعَادَة الخالدة، والنّعيم المقيم، والمجْد العظيم، وقد انبثت في هذا الطريق عقباتٌ ابتلائيّة يطالَبُ سالكه باقتحامها، ليظفر بالسعادة الخالدة.

وأمّا طريق الباطل والشّرّ فهو مَحْفُوفٌ بالشهواتِ والأهواء والمغريات والمزالق، وغايتُه عذَابٌ وشقاءٌ، وخيبَةٌ دائمة، وحَسْرَةٌ ونَدَمٌ.

وفي بيانِ هِدايَتِهِ إلى هٰذيْن الطريقين إشارةٌ إلى الغاية من خلقه، إذْ هو مُزَوَّدٌ بقُدْراتٍ علَىٰ الْعَمل والكسْب في الْحَياة الدنيا، وبأدوات إحساس توصله إلَىٰ مشاهدة بَعْض آيَات الله في كَوْنه، وبقُدْرَاتٍ فكريَّةٍ عِلْمِيَّةٍ، وَمشاعِرَ وِجْدَانِيَّة يُدْرِكُ بها الحقَّ والباطل، والخَيْرَ والشَّرّ، والصَّلاَحَ والفساد، والنافع والضَّارّ، والمؤلِمَ والسَّارّ، إلى سائر ما في نَجْدَي الحياة المتضادّين، مع ما هو مزوَّدٌ به مِنْ إرادة حُرَّةٍ في اختياراتها.

هذه الغاية من خلقه هي ابتلاؤه وامتحانُه في ظروف الحياة الدنيا، وكَشْفُ اختياراته بإرادَتِه الحرَّة، الّتي يستخدم بها مسخَّرَاتِ اللّه له في ذاته، وفي الكون من حوله.

وإذْ جعَلَ اللّهُ الإنْسَانَ مَخْلُوقاً ممتَحناً في ظروف هذه الحياة الدُّنيا، وجعلَه لذلِكَ مُحَاطاً بالوسائل الّتي تسْتَدْعي منه أن يكابد في حياته أَلْوانَ المشَقَّاتِ والمتاعب، وأن يكون كادحاً عاملاً كادّاً. فَقَدْ جعَلَهُ مُمَكَّناً من أن يَسْلُك باختياره الحرّ نَجْدَ الخير، ذي النهاية الْمُسْعِدة له، وأن يَسْلُك باختياره الحرّ نَجْدَ الشّرّ، ذي النِّهايَة المشْقِيَةِ له.

ولهذا كان كلُّ جُزءٍ من أجْزاء مَيادِينِ وسَاحَاتِ امتحانِه في الحياة الدّنيا، المادِّيَّةِ والمعنويَّة، الجسَدِيَّة والنفسيَّة، ذا طريقين نَجْدَيْن واضحَيْن جَلِيَّيْنِ، والسّالِكُ في أيِّ واحدٍ مِنْهما لا يتحقَّقُ له العبور إلاَّ بمكابَدَةٍ وَكَدْحٍ.

إنّ كون الإنسان مخلوقاً في كَبَد، وهو ما أبانَه الدرس الأوّل من دروس السورة بصورة مؤكَّدَةٍ جدًّا، يَدُلُّ ذوي الألْبَاب على أنّه مخْلُوقٌ ممتَحَنٌ في ظروف هذه الحياة الدّنيا، وهذه القضيَّةُ ذاتُ لوازم فكريَّةٍ كثيرة.

● فمن لوازمها أنَّهُ لاَ بُدَّ أن يكون مزوّداً بكلّ الخصائص الّتي تُؤَهِّلُه لأنْ يكُون مخْلُوقاً ممتَحناً، وقد جاء هذا مفصّلاً في عَدَدٍ من سُوَر القرآن المجيد.

● ومن لوازمها أنْ يُبيَّنَ له ما يُطْلَبُ منه في رحْلَة امتحانه أن يَعْمَله، متحمِّلاً مكابدة عمله، وما يُطْلَبُ منه في رحلة امتحانه أن يتركَهُ أو يجتَنِبَه، متحمِّلاً مُكابدة تَرْكِه أو اجتنابه.

وقد جاء التنبيه على هذا في قول الله عزّ وجل:

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾:

أي: أبنَّا لَهُ مَا يُطْلَبُ منه أَنْ يَعْمَلَهُ، وما يُطْلَبُ منْهُ أَنْ يَتْرُكَهُ أَوْ يَجْتَنِبَهُ، بالكتب المنزّلة، وببلاغات المرسَلِين، وببصيرة العقل، وبالحسّ الوجدانيّ، وهو واعظ اللَّهِ في قلْبِ كلِّ مُؤمِن.

## الحديث عن نوع الإنسان في هذه السُّورة مع إرادة العموم أو إرادة الخصُوص:

جاء الحديث عن نوع الإنسان في هذه السورة بقول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ والمرادُ كُلُّ فَرْدٍ من أفراده، إذ الواقع يؤيّد

هذا العموم. وبَعْدَهُ جاء الحديث عنه بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ والمراد خصوصُ الكفرة من أهْلِ العزَّة والجَبَرُوتِ في الأرض، المغرورون بقواتهم الغالبة لمنافسيهم ممَّنْ حولهم من الناس، بدليل أنَّ الواقع يكشف أن من يَتَوَهَّمُ هذا التوهُّم فريقٌ من أهْلِ العِزَّة والجبروتِ في الأرض، وهؤلاء قلَّةٌ، لكن لو ملَكَ كثيرٌ من الضعفاء مثل هذه القوة لسَيْطَر عليهم هذا التوهُّم. وبعد هذا جاء الحديث عن الإنسان أيضاً بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ والمرادُ خصوصُ الكَفَرَةِ المادِّيين الحِسِّيين، الّذِينَ يُنْكِرُونَ وجُودَ غَيْرِ ما يَرَوْن في مَدىٰ رؤيَتِهِمْ، مع أنّ الوسائل العلميَّةَ تكْشِفُ لهم حيناً فَحِيناً وجُودَ أشياء كانَت خفيَّةً عليهم، وهي ضمن مدَىٰ رؤيتهم المباشرة، أو مع استعمال ما كانوا يملكون من مُكَبِّراتِ ومَجاهر.

فما الحكمة من هذا الإجراء؟

**أقول:**

إنَّه أسلوبٌ تَرْبَويٌّ يستعمله العظماء، وكُبَراء الأقوام، إذْ يُخاطِبُونَ جميع الأفراد خطاباً عامًّا بقضايا تَشْمَلُهُم جميعاً، ثُم يُوجّهونَ التلْويم لغَيْر مُعَيَّنٍ فيهم بأسْلُوبٍ عامٍّ أيضاً، والمقصودُون الموجَّهُ لهم الكلام هم الْفريقُ الّذين يَسْتَحِقُّون التَّلْوِيم، لا جَمِيع الأفراد.

ونظيره: أن يقول الأبُ لأولاده وقد جَمَعَهُم لتأديبهِمْ: أنْتُمْ جميعاً أولادي، ربَّيْتُ كُلَّ واحدٍ منْكُمْ بِجَهْدِي، وعاطِفَتِي، وحَناني، ومَالي، وَكدِّي، وسَهَري.

أيحسَبُ ولَدِي الذي هو فِلْذَةُ كَبدي أنّي أكْرَهُه، وأنّي لسْتُ حريصاً على سعادته، وأنّي لا أُوثِر سعادَتَهُ على سعادتي؟!!

مع أنَّ المقصود بالكلام واحدٌ منهم بعَيْنِه، لكن لم يخُصَّه بخطاب، ليَدَعَ له مجالاً للتخلُّص من أوهامه، دُونَ تشهيرٍ به.

والحديث عن الإنسان في القرآن بصِفَاتٍ هي في قِسْمٍ من نَوْعِه، لا في كلّ نوعه، هو من أسلوب التعميم أو الإطلاق الذي يُرادُ به بعْضُ الأفراد لا جميع الأفراد، لغرضٍ بلاغيٍّ أو تَرْبَويّ.

ومن الأغراض البلاغيَّة إرادةُ الكَثْرَةِ الّتي تُنَاسِبُها المبالغة بالتعميم أو بالإطلاق.

ومن الأغراض إرادة أنَّ الظاهرة عامَّةٌ في النوع أو غالبةٌ إذا تُرِكَ كُلّ فردٍ منهم لنَفْسِه، دون مُعَدِّلٍ ومُقَوِّمٍ إيمانيٍّ إسلاميّ، قاعدتُهُ الإيمانُ بالله وباليوم الآخر، والخشيةُ من الله عزّ وجَلَّ، واتباعُ شريعَتِه ومِنْهاجِه لعباده، والإسْلاَمُ له.

ومن الأغراض التربويَّةِ مُدَاراةُ مشاعِرِ النُّفُوسِ، بِعَدَم جَرْحِها بالتَّشْهِير، وباستثارة حماسَتِها الذاتيَّةِ لسُلُوكِ سبيل الاستقامة الواضِحِ، دون حاجَةٍ إلى تأنيب مباشرٍ، أو سَوْقٍ بعُنْف.

ومن الأغراض جعل النصّ صالحاً للانطباق على كلّ من يتّصِفُ بالصِّفة المذمومة فيه مهما توالَتِ العصور، وتتابَعتِ الأجيال من الناس.

ومن الأغراض الإشعار بأنَّ الإنسان بحاجة إلى الدِّين الذي يهديه للّتي هي أقوم، ويُؤَثِّرُ على نَفْسِه من مِحْوَرَي مطامعها ومخاوفِهَا، بالتَّرْغيب وبالتّرهيب، فلو تُرِكَ لنفسه دون إرسال رُسُلٍ وإنزال كتُبٍ، لكان أَغْلَبُ أفراده كفَّارين مُجْرِمِينَ طُغاةً بُغَاةً مُفْسِدِين في الأرض.

❁ ❁ ❁

## (٦)
## التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السّورة وهو الآيات من (١١ ـ ٢٠) آخر السّورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرٍو، والكِسائيُّ: [**فَكَّ رقَبَةً * أَوْ أَطْعَمَ في يَوْم ذي مَسْغَبَةٍ**]. على أنّ «فَكّ» فِعْلٌ ماضٍ، و«رَقَبَةً» مفعولٌ به. و«أَطْعَمَ» فِعْلٌ ماضٍ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ على أنّ لفظة «فَكُّ» مَصْدر، ولفظة «رَقَبةٍ» مضافٌ إليه ولفظة «إِطْعَامٌ» مَصْدَرٌ أيضاً.

والقراءتان من قبيل التَّفَنُّنِ في التعبير، ومؤدّاهما متماثل.

● وقرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف: ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ بتحقيق الهمزة الساكنة بعد الميم، من فعل «أأْصَدَ» بالهمز.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**مُوصَدَة**] من فعل «أَوْصَدَ» بالواو.

يقال لغة: أَأْصَدَ البابَ يُؤْصِدُه، وأوصَده يوصِدُه إيصاداً، أي: أغلقه.

**تمهيد:**

إنّ من لوازم كون الإنسان مخلوقاً في كَبَدٍ ضمن ظروف الحياة الدنيا، أن يكون مُمْتَحناً فيها، وإنّ من لوازم الامتحان في رحلة الإنسان في هذه

الحياة الدنيا، ذاتِ الكَبَدِ لجميع أفراده، أن يكون المطلوبُ منه اقتحامَ عقَباتٍ يَرَىٰ اقْتِحَامَها من الْمَكاره، والإحْجَامَ عن سُلوكِ سُبُلٍ يرىٰ في سلوكها إرْضَاءَ أهواءه وشَهَواته، وتَحْقِيقَ لذَّاتٍ ورَغَباتٍ مُزَيَّنَاتٍ للنُّفُوسِ، فهي تندفِعُ نَحْوَها بقُوَّةٍ، وهٰذا الإحجامُ من المكاره أيضاً.

وكُلٌّ من الاقتحام والإحجام يُقْصَدُ به ابْتِغاءُ طاعَةِ الله الرَّبِّ العليم الحكيم الْمُجَازِي، السّميع البصير القدير، الذي خلق الموت والحياة للابتلاءِ في ظروف الحياة الدنيا، فالحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتحقيقِ الجزاء يوْمَ الدّين، في ظروف حياةٍ أخرى.

ولا شكَّ أنَّ من لوازم الامتحان الحسابَ، وفصْل القضاء، وتحقيق الجزاء. إذ الامتحان بدون جزاءٍ مَسْبوقٍ بحسابٍ وفَصْل قضاءٍ عبَثٌ، وعَمَلٌ باطِلٌ لا جَدْوىٰ منه، ولا بُدَّ أنْ يَتَنَزَّهَ عَنْهُ الرَّبُّ العليم الحكيم القدير، ذو الأسماء الْحُسْنَىٰ، والصّفاتِ العظمى، جلَّ جَلاَلُه.

فالْقَسَمُ بالبلَد الحرام، مَرْكَزِ نَشأة الأحياء في الأرض، مع القسم بظاهرة خَلْقِ الحياة ضِمْنَ سُنَّة التناسُلِ الّتي يَجْمَعُها وَالِدٌ وَمَا وَلَد، في كلِّ سلالات الأحياء المشهودة على الأرض، ومنهم السُّلاَلَة البشريَّة التي بدأتْ بخَلْقِ آدم، على الْغَايَة من خَلْق الإنسان، الّتي عُبِّرَ عنها ببَعْضِ لَوَازِمها، وهي كَوْنُ الإنْسَانِ مخلوقاً في كَبَد، ومَا استدعاهُ هذا اللاّزِمُ من لوازم أخرى في سلسلة متماسكةِ الحلقات، كلُّ ذَلك قد أوصل إلى السؤال عن المطلوب من الإنسان في رِحْلَةِ امتحانه، وعن المصير الجزائي الْمُعَدِّ له.

وقد جاء الدرس الثالث من دروس السّورة مُتَضمّناً بيان المطلوب الاعتقاديَّ، وأمْثِلَةً من المطلوب السُّلوكي في رحلة الامتحان، وبيان المصير الجزائي المعدِّ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، والمصير الْجَزَائيّ المعدّ للذين كفروا بآيات الله.

● قول اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

**الاقتحام**: هو الدخول بشجاعَةٍ وجُرْأَةٍ في الأمور والمواضع الصَّعْبة الشّاقة، كارتقاء العقبات، والقفز لاجتياز المهاوي الخطرة، والمعترضات العسيرات.

يقال لغة: اقتحم الرَّجُل الأمر العظيم، وأقْحَمَ الفارسُ فَرَسَهُ النَّهر، إذا أدخَلَهُ فيه مع خطورته، ويقالُ: اقْتَحَمَ السَّجِينُ السّورَ، أي: هَجَم لاجتيازه بقُوَّة. وهكذا.

وشأن العقبات الصَّعْبَةِ أنْ تُقْتَحَم اقتحاماً.

**والعقبة**: هي مرقىً صعْبٌ من الجبال، وطريقٌ في الجبل وعْرٌ، وجمعها عقباتٌ، وعِقابٌ.

وهكذا التكاليف العمليَّةُ في رحْلَة الامتحان عبْرَ الحياة الدُّنيا.

وقد أخبر الله عزّ وجلّ عن الإنسان الذي تحدّثت عنه السورة، سواءٌ أكان مغروراً بعزَّته، أمْ قابعاً بغبائه في حدود محسوساته، أمْ يحسَبُ أنّ التمكين من سلوك طريق الخير أو طريق الشرّ بمثابَةِ الإباحة العامّة، بأنَّه لم يُحقّقْ أقَلَّ مِقْدارٍ من المطلوب منْهُ في رحلة ابتلائه في الحياة الدنيا، فلا هو اقْتَحم فَسَلك نَجْدَ الحقّ والخير، ولا هو أحْجَم عن سلوك نَجْدِ الباطل والشر، بل اتَّبَعَ أهواءه، وشهواته، وسَلَكَ سُبُل الضلالة والشرّ.

﴿فَلَا﴾: الفاء حرف عطف فيه معنى الترتيب والتعقيب على هداية الإنسان المتحدّث عنه في السورة النَّجْدَيْن. و[لاَ] حرف نَفْي إذا دَخلَ على الفعل الماضي لنفيه، وجب عند علماء العربية تكرارها، بعطف جملةٍ منْفِيَّةٍ بحرف «لاَ» على جُمْلَتِها، مثل: لاَ أَكَلْتُ ولاَ شَربتُ، ومثل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾.

فكيفَ نوجّه عدم تكرارها هنا في قول الله عزّ وجل: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾؟

قال أهل التفسير: هو على تقدير جملة محذوفة، أي: فلا آمَنَ ولا اقْتَحم العقبة.

**أقول**: لمّا كان المطلوبُ منه بالنسبة إلى النَّجْدَيْن أَنْ يقتحم عقبة نجد الحقّ والخير، وأن يُحْجِمَ عن سُلُوك نَجْدِ الباطل والشرّ، كان من المناسب لهذا أن نُقَدِّر المحذوف كما يلي: فلا اقْتَحَمَ عقَبَةَ نجد الحق والخير، ولا أحْجَمَ عن سُلوك نَجْدِ الباطل والشرّ.

والمعنى: فلا فَعَلَ ما أَمَرَهُ اللَّهُ به، فاقتحم بذلك عقَبَةَ نَفْسه، ومَا يشُقُّ عليها من مكاره، ولا ترَكَ مَا نهَاهُ اللَّهُ عَنْه، فأحجم عن اتّباع أهوائه وشهواته الجامحات الجانحات، الّتي تَغُرُّهُ بزيناتِها وحلاوة لذّاتها، وهي تهوي به إلى شقائه الأبديّ.

ومن الطبيعيّ أنّ من لم يُجاهِدْ نَفْسَه لاقتحام التكاليف الشاقّة، التي تجعلُه يسْلُكُ صاعداً إلى سعادته الحقيقيّة، فلا بُدَّ أَنْ يَنْزَلِقَ في المسالك الهابطة إلى السّعِير، وبئسَ المصير.

● قول الله تعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ «مَا» اسم استفهامٍ يُسْتَفْهَمُ عن غير العاقل، وعن حقيقة الشيء وماهيّته، وهو في محل رفع مبتدأ، وجملة «**أَدْرَاكَ**» في محلّ رفع خبر. وهذا الاستفهام يُرادُ به في هذه الصيغة القرآنيّة التعظيم والتعجيب، فهي من صيَغ التّعجيب القرآنيّة المبتكرة، ضمْن أصُول وقواعد اللّسان العربي.

﴿مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾: جملةٌ مؤلّفة من مبتدأ هو «مَا» وخبر هو «العقبة». وجملة «ما العقبة» في محل نَصْبٍ على أنّها مفعولٌ به ثانٍ للفعل في عبارة

«أدْرَاك». أي: ومَا أعْمَلَك مقْدَارَ اقتحامك العقبة عند ربّك؟!! فأنت لا تَدْرِي مقدار ثواب اقتحامها عند الله.

والمعنى: أعظم بأمْرِ هذه العقبة النفسيَّة، وأمْرِ اقتحامها عند الله، إعظاماً لا تَصِلُ إليه دِرايتُك مهْمَا فكَّرْتَ، وانطلقت مع تصوُّراتِك إلى أبْعَدِ ما لَدَيْها من مدىً تَصِلُ إليه، وإعظامُهَا إنَّما هُوَ إعظام للثواب الجزيل الجليل الّذي يظفر بِه مقتَحِمُها عنْدَ رَبّه يوم الدِّين في جنَّاتِ النعيم.

وبعْدَ هذا التعظيم من شأن هذه العقبة النفسيّة، أي: من شأن اقتحامها الّذي يتضَمَّنُ التَّشْويق إلى هذا الاقتحام، ضربَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أمْثِلَةً من عناصرها المبْنِيَّةِ على القاعدة الإيمانيّة.

● قول الله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾:

أي: تخليص الرقيق أو الرَّقيقة من إسَارِ الرِّقّ، ويكون هذا التخليص بالإعتاق، أو بالمساعَدَة عليه.

تقول لغة: فكَّ الرَّقَبَةَ يَفُكُّها فكّا، إذَا أعْتَقَها، أو أعان على عِتْقِها.

وأصْلُ الْفَكّ الفصْل بين شيئَيْن مترابطَيْن، وتخليصُ كُلٍّ منهما من الآخر.

وأُطْلِق على عتق الرقيق عبارة فكُّ الرَّقبة، لأنَّ الأسِيرَ حين يُؤْسَرُ لِيُسْتَرَقَّ، تُرْبَطُ رقَبته، أو تُغَلُّ عُنُقُه، ويُسَاقُ بذلك أوْ يُقَادُ ويُسْتَرَقُّ، فجاءت الكناية عن عِتْقِ الرَّقيق بفَكِّ الرَّقَبَة.

ومعلومٌ أنّه لا يُعْتِق الرَّقبةَ إلاَّ من يقتَحِمُ عقبةً من عقباتِ نَفْسِه، بحسب قيمة الرقيق المالية، أو بحسَبِ تعَلُّقِ مالكه به، وعِتْقُ الرَّقيق من أفضل أعمال البرّ.

ونُلاحظُ أنّ الإسلام مُنذُ أوائل نُصُوصه التشريعيَّة والتعليميَّة، قد حَثَّ

على عتْقِ الأرقّاء، وهذا يَدُلُّ على حِرْص الإسلام على تحرير الناس من العبوديَّة للعباد.

إنَّ عِتْقَ الرَّقيق إحياءٌ لحرّيَّةِ إنسانٍ ماتَتْ بالاسْتِرْقاق، وإحياءٌ لكرامته، وهما من أفضل العناصر التي يمتازُ بها الإنسانُ، بَعْدَ قُدْراتِ العلْمِ والْفَهْمِ والانتفاعِ من المسخَّراتِ له في ذاتِه وفي الكَوْنِ من حوله.

● قول الله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾: أي: في يَوْمٍ ذي مَجاعَةٍ عَامَّةٍ.

**المسْغَبَةُ**: الجوع، يُقَالُ لغة: سَغِبَ يَسْغَبُ، وسَغَبَ يَسْغُبُ سَغْباً، وسَغَباً، وسَغَابَةً، وسُغُوباً، ومَسْغبَةً.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾: **اليتيم**: يُطْلقُ في اللُّغَةِ على الصَّغير الذي مات أبوه حتّى يبلُغ الْحُلُمَ، فإذا بلَغَ الْحُلُمَ زالَ عنه اسْمُ اليتيم، ويُجْمع «يَتِيم» على «أيْتَامٍ» و«يَتَامَىٰ».

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾: أي: صاحِبَ قرابة، وهي قرابَةُ النَّسب.

﴿أَوْ مِسْكِينًا﴾: المسكِينُ هو من تَبْدُو عليه عَلامَاتُ الفقر، وقد يكُونُ غير فقير في حقيقةِ أَمْرِه، هذا ما تَحقَّق لديَّ بعد استقراء النصوص وسبر معانيها.

﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: المتْرَبَةُ في اللُّغة الفقر، أي: ذا فَقْرٍ حَقيقيٍّ، وهذا وصْفٌ تَقْيِيدِيٌّ لعُمُوم لفظ: ﴿مِسْكِينًا﴾. وقد جاء هذا الوصْفُ التقييديّ لإخراج المتَظَاهِر بالمسكنة، وهو غير ذي فقرٍ حقيقيّ، والغرضُ من إخراجه رِعَايَةُ حقِّ الفقراء الحقيقِيّين في يَوْمٍ ذي مجاعة عامَّةٍ، إذْ إطعامُ المساكين المتظاهرين بالفقر في أيَّام المجاعاتِ وهم في حقيقة أحوالهم غير

فُقَراء، يُفَوّتُ علىٰ الفقراء الحقيقيّين سَدَّ حاجاتهم، أَوْ ضروراتهم إلى الطعام.

فالحالُ في أيّامِ المجاعات ليْسَتْ كالْحَالِ في الأيَّام الأخرى، إنّ أيّامَ المجاعاتِ يَجِبُ فيها التحرّي عن الفقراء حقيقةً، حتى لا يأكُلَ المساكين المتظاهرون بالفقر وهُمْ غَيْرُ فقراء طَعَامَهُمُ الذي يُبْذَلُ لِسَدِّ حَاجَاتِهِم، أو ضروراتهم.

وجاء ذِكْر المسكين ذي المتربَةِ في هذا النّصّ، دُون ذِكْرِ الفقير المتعَفّف الّذِي لا يَسْأَلُ النّاسَ إلْحافاً، لأنَّ أيّامَ المجاعاتِ أيّامٌ مُحْرِجاتٌ، تَجْعَل الفقراء المتعفّفين يتحوّلُون إلَىٰ مساكين يُظْهرون حاجاتهم إلى الطَّعَام، فلا يَبْقَىٰ متعفّفُون عن المسألة، لأنّ الضرورة فيها تَعْرِيضُ الأنفس إلى الموت من الجوع، ولا يَقْتصر الأمر على الرّضا بشظف العيش.

وقد خصّ الله عزّ وجلّ بالذكر لدىٰ عَرْضِ بعْضِ عناصر اقتحام العقبة النفسيّة المبْنِيَّةِ على القاعدة الإيمانيَّة، من فضائل الأعمال الإنسانيّة التي تُرْضيه جلَّ جلالُه، عِتْقَ الرّقاب، وإطعام اليتامَىٰ من الأقربين، والمساكين من الفقراء الحقيقيين، في أيّام المجاعَاتِ، اهتماماً بالتوجيه للفضائل الاجتماعيَّة العظمَىٰ ذَوَات الأولويات في تَدَرُّج أحكام الدّين، وذهن المتدبّر يضمّ إلى هذه الفضائل سائر شرائع الإسلام وأحكامه[١].

فالرَّحْمَةُ بالبائِسِينَ والضُّعفَاءِ وَذوي الضرورات والحاجات، والعطْفُ عليهم ومُسَاعَدَتُهُمْ، ورفْعُ البؤسِ والضرورة والحاجة عنهم، بَعْدَ الإيمانِ وآثارِه المباشرة مع الله جلَّ جلاله، تَقَع في أُولَيَاتِ مطالب الرّبّ من عباده المؤمنين.

---

(١) وطيّ سائر شرائع الإسلام وأحكامه بعدم ذكرها في هذه السورة من بديع الإيجاز القرآنيّ، الذي يُدْركه المتدبّرون من أهل النظر الدقيق العميق.

وتخصيص التوجيه لإطعام ذوي المسغبة من اليتامىٰ الأقربين، والفقراء الحقيقيّين ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى، في يومٍ ذي مجاعةٍ عامَّةٍ، يُلاحَظُ فيه أمْرَان:

**الأمر الأول**: أنَّ الأنفُسَ في أيَّام المجاعاتِ تكُونُ أكْثَر شُحًّا بالطعام من سائر الأيّام، لحاجَةِ المطْعِم إليه، أَوْ شِدَّة تعَلُّق نَفْسِه به، خَوْفَ حاجته المستقبليّة له، إذْ هو قُوتُ البقاء في الحياة، فتعظُمُ بذلك عقَبَةُ النفس التي تتطلّبُ اقتحاماً، فيكون الإطعام أدَلَّ على ابتغاء مرضاة اللَّه جلَّ جلالُه، وأدَلَّ على قوّة تأثير الرحمة في قلب المطعِم على سلوكه.

**الأمر الثاني**: أنّ حاجة البؤساء في أيّام المجاعات أشَدُّ وأَقْسَىٰ أَلَماً على نفوسهم، إذْ إنَّهم قد لا يجدون بقايا فضلات الأطعمة الّتي يرْمي بها النّاسُ عادة، ولو كانوا بُخَلاءَ لا يَبْذُلون لذَوِي الحاجات.

فكلُّ إنسانٍ يكون شديد الحرص على ما لديه من طعامٍ، حتَّى إنّه يَدَّخِر فضَلاتِ طعامه، وكِسَرَ الخبْزِ الّتي تزيد عن حاجته من وجَبَاته اليوميَّة.

ومعظم النّاس يتسارعون في أيّام المجاعات إلى ادّخار ما يزيد على حاجاتهم كثيراً إلى عدّة شهورٍ، فيُحْدِثُون بادّخاراتهم الضائقَةَ في أرزاق الناس اليومية، الّتي تكفيهم لولا الادّخارات الّتي لا ضرورة لها، والدافع لحيازتها خَوْفُ حدوث النقص في المستقبل.

والمقصود بالإطعام بذْلُ الطعام ابتغاء وجْهِ اللّه ونَيْلِ رضوانه، سواءٌ أكان على سبيل الزكاة الواجبة، أم على سبيل البرّ، أم على سبيل الإحسان.

وجاء التوجيه للاعتناء بإطْعَام اليتيم ذي المقربة، لأنَّ هذا اليتيم أحَقُّ من غيره، إذِ اجتمع فيه سببان مُرَجّحان:

**السبب الأول**: الْيُتْم، وهو الأمر الذي يَفْقِدُ به اليتيم مُعِيلَهُ الحاني علَيْه.

**السبب الثاني**: القرابة النسبيَّة، ومعلُومٌ من قواعِدِ الدين ووصاياه الاجتماعيّة أنّ الأقربين أولَىٰ بالبرّ والإحسان.

ولمّا كان التوجيهُ مُخَصّصاً للإطعام في يوم المجاعة، كان من الحكمة تحميلُ الأقربينَ مسؤوليّة إطعام اليتامىٰ من ذوي قُرْبَاهم، توزيعاً للمسؤولية، وتحديداً لها، وحتّى لا يضيع الأيتام في عُمُوم المجتمع، وهم ضعفاء لا يستطيعون مع الكبار أخْذَ حظوظهم، التي يَسُدُّون بها ضرورات معيشتهم.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف يدلُّ على الترتيب مع التراخي، والترتيب والتراخي هُنَا يُلاحظ فيهما تتبُّع سائر العناصر غير المذكورة في النصّ، والّتي تشتمل عليها أحكام السُّلوك الإسلاميّ المطلوب في اقتحام عقبة النفس، ويتَنَقَّل الْمُتَتَبِّع فيها ضمن فروع شجرة الإسلام من فرع إلى فرع، حتى يصل إلى سُوقها، ثم أخيراً إلى جَذْرها الّذي تتمدّد أجزاؤه وعناصره الإيمانية داخل عُمْق الْفُؤاد، في حركة فكريَّة متتابعة الخطوات.

وهذا أحد الأساليب البيانيّة البديعة في القرآن، الّتي تعتمد البدء في البحث الفكريّ من الفروع الظاهرة، فأصولها، فأصول أصولها، ثمّ إلى الجذور، فعُمْقِ الجذور.

ومن أساليبه البيانيَّة أيضاً، الْبَدْءُ من عُمْقِ الجذور، فإلى الجذور، فإلى السُّوق، ثُمَّ إلى فروع الفروع.

والترتيب مع التراخي في سلاسل الأفكار، يُشْبه الترتيب مع التراخي في الأجزاء الزمنيّة، وفي المراحل المكانيّة.

وقد دلَّ استعمال فعل ﴿كَانَ﴾ دون فعل «يكون» للدلالة على وجوب سَبْقِ وجُود الجماعة المؤمنة، التي يتواصَىٰ أفرادُها بالصَّبْرِ والمرْحَمة، وهذا المقتحم لعقبة نفسه واحدٌ منهم.

فمع إرشاد الآية إلى لُزُوم تتبُّع الخطوات الفكريّة للتكاليف الدينيّة، الّتي يحتاج الالتزام بتعليماتها إلى اقتحام عقبة النفس، وهذه الخطوات توصل أخيراً وبصورة متلاخيَةٍ نسبيًا إلى الجذور، فإنّ الآيَة تدلُّ بإرشادِها هذا على أنَّ اقتحام عقَبَة النفس، بأداء التكاليف الدينيَّةِ الْعَمَلِيّة، والإحجام عن نجد الشرّ بالكفّ عن المحرّمات الدينيَّة، لا بُدَّ أن يكونَا مَسْبُوقين بقيام جماعة مؤمنة، تتلاقىٰ على وحْدَةٍ إيمانِيَّة، وتَتَوَاصَىٰ بالصَّبْر، وتَتَواصَىٰ بالْمَرْحَمَة.

● أمّا الإيمان فهو القاعدة العظمىٰ للدّين، وكلُّ عَمَلٍ صالح من غَيْرِ إيمان، لا أَجْرَ له عند الله يوْمَ الدّين، وثوابُهُ قاصر على مَنَافِعَ ينالُها العاملُ في الحياة الدُّنيا.

● وأمَّا التَّواصِي بالصَّبْر فهو ركْنٌ عظيم من أركان تماسُكِ الجماعة المؤمنة، لأنّ الصَّبْرَ هو طاقَةُ التحمُّل الّتي يحتاج إليها كُلُّ إنسانٍ دواماً في عَمَلِيَّتَي الاقتحام والإحجام، وتحتاج إليها الجماعة المؤمنَة لدى بنائها في تحمُّل أذىٰ أعدائها، واضطهادِ طغاة الكفرة ذوي العزّة والجبَروت.

● وَأمَّا التواصي بالمرحمة (=بالرَّحْمَة) فهو ركْنٌ عظيم آخَرُ من أركان تماسُكِ الجماعةِ المؤمنة، لأنّ التراحُمَ بين المؤمنين أعظم وشيجة تربط بين أفرادهم، ولأنّ الرحْمَة أعظم شِحْنَةِ قوَّةٍ دافِعةٍ لفِعْل المعروف، وإقامة المجتمع الإسلاميّ المتعاون السعيد، الذي يكون بمثابة الجسَدِ الواحد، الّذِي إذا اشْتَكَىٰ منه عضوٌ، تداعَىٰ له سَائِرُ الجسَدِ بالْحُمَّىٰ والسَّهر.

وسبق في سورة (العصر/١٠٣ مصحف/١٣ نزول) بيانُ رُكْنٍ ثالثٍ

من أركان تماسُكِ الجماعة المؤمنة، وهو رُكْنُ التواصِي بالْحَق، لأنّه يحْفَظُ لها التزامَها بالقاعدة الإيمانيَّة القائمة على الحق، ويَجْعَلُ الحقَّ في كُلّ الأُمور أَسَاسَ مفهوماتها، وأساس أحكامها بالعدل.

● قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾﴾.

بعد أنْ ذكَرَ اللّهُ عَزّ وجَلّ الّذين آمَنُوا وَتَواصَوْا بالصَّبْرِ، وتَواصَوْا بالْمَرْحَمَةِ، وأبَانَ أنّ من شأنِهِمْ في السُّلُوكِ أن يقتحموا عقبَةَ نُفُوسهم، ويسْلُكُوا نَجْدَ الْحَقّ والخير، ويُحْجِمُوا عن سُلُوك نَجْدِ الباطل والشرّ، كان من الحكمة بيانُ عاقِبَتِهم الحسْنَىٰ، وبَيَانُ عاقبة الكافرين المكذِّبينَ بآيات اللّهِ، الّذين يسْلكُون مسالِكَ الضلال والشرّ ومَعْصِيَة الله بارئهم وربِّهم الّذي لا ربَّ في الوجود غيره، ولا إلَه بحقٍّ سواه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الّذِين آمَنُوا وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ وتواصَوْا بالْمَرْحَمَةِ، اختير في الإشارةِ إليهم اسْمُ الإشارة الموضوعُ للمشارِ إليهم البعيدين، للدّلالة على ارتفاع منزلتهم، وعُلُوِّ مقامِهِمْ عند ربّهم.

[**أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ**] أي: الذين لَهُمُ الْيُمْنُ، والّذين يأخُذون كُتُبَ أعمالهم الّتي عَمِلُوها في الحياة الدنيا بأيمانِهم يَوْمَ الدِّين.

**الْمَيْمَنَةُ**: تأتي في اللّغة بمعنيَيْن:

● فتأتي بمعنى الْيُمْنِ، الذي هو ضِدُّ الشُّؤم.

● وتأتي بمعنى جِهَةِ اليمين.

وحمل كلمة: «الْمَيْمَنَةِ» على معنَيَيْها هو الأحَقُّ بالتدبّر، فكلاهما حقٌّ، ومُنْطَبِقٌ على الواقع.

وكلمة: «**أصحاب**» هي جمْعُ «صَحْبِ» وهذا جمع «صاحِب» وتجمع «أصحاب» على «أصاحيب» من صِيَغِ منتهىٰ الجموع.

**الصاحب**: في اللغة هو المعاشر المخالط المرافق. وقد حصل توسُّعٌ في استعمال كلمة «صاحب» وكلمة «أصْحَاب» فتستعْملاَن للدّلالة على مطْلَقِ الملازمة، أو الاقتران، أو الحلول في المكان، أو الانتماءِ إليه، أو الانتماءِ إلى أيّ شيءٍ، أو لتملّك الشَّيْء، أو لحيازَتِه، وتُطْلَقَان على أيّ علاقَةٍ بين شيئين.

واقْتَصَرَ النَّصُّ على ذِكْرِ أَنَّهم أصحاب الميمنة، دُونَ التَّصْريح بمَا يُصِيبُونه منْ نعيم الجنّة، اكْتِفَاءً بدلاَلَةِ التَّقَابُلِ الذي جاء فيه أنّ أَصْحَابَ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ.

● ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: يتحدّثُ اللَّهُ عزّ وجلّ عن نفسه بضمير المتكلّم العظيم، لأنّ آياتِه في كَوْنه، وآيَاتِهِ المنزَّلاتِ على رسُوله، آياتٌ عظيمات جَليلاتٌ جدًّا، لاَ تَصْدُرُ إلاّ عنْ عظيم جليل، هو ربُّ السّمَاوات والأرض.

والّذين كَفَرُوا بآيات الله هم الّذِينَ أدْرَكُوا عظمتها، وفَهِمُوا دلالاتها، ثم جحدوها كِبْراً، أو رغبةً في الفجور واتّباعاً للأهواء والشهوات، واغتراراً بزينة الحياة الدنيا.

● ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾: فرّق الله عزّ وجلّ في الصّيغة البيانيّة بين الفريقين، فالذين آمنوا أشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين لِمَا سبَقَ بيانُه، والّذين كفروا قال تعالى بشأنهم ﴿هُمْ﴾ بالضمير العامّ الذي ليس له دلالة خاصّة.

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: أي: هم أصحابُ الشؤم الذي يلازمهم، وهم أصحاب الشّمَالِ الذين يأخُذُون صُحُفَ أعمالهم يوم القيامة بشمائِلِهم، أو بشمائلهم ومن وراء ظهورهم إذا كانوا من غلاة المجرمين.

**المشأمَة**: تأتي في اللّغة بمعنَيَيْن:

- فتأتي بمعنىٰ الشُؤم، الذي هو ضِدُّ الْيُمْن.
- وتأتي بمعنىٰ جهة الشِّمال.
- ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ و[مُوصَدَةٌ] في القراءة الأُخْرىٰ.

أي: تَتَابَعُ عليهم، أو تُسَلَّط عليهم، أنواع عذابِ نارٍ في دار عذاب مغلقة، وهي دار تَعْذِيب الكفرة المجرمين يوم الدين، والْعُصَاةِ المسرفين علىٰ أنفسهم.

**مُؤْصَدَةٌ**: أي: مغلقَةٌ عليهم، فلا مَخْرَج لهم منها، وَوُصِفَت كلمة «نار» بأنّها مؤصدة، علىٰ سبيل المجاز المرسل، إذ المراد أن دار التعذيب بالنار هي المؤصدة، وهو من أطلاق الحالّ وإرادة المحلّ، ولو كان المراد بلفظ «نار» دار العذاب لكان التعبير الملائم أن يقال: في نارٍ مؤصَدة.

❁ ❁ ❁

## (٧)
## لطيفة تربوية

(١) تحدّث الله عزّ وجل بشأن المكذب بيوم الدين لإقناعه في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول) بأسلوب الحديث مع المخاطب، فقال تبارك وتعالىٰ فيها موَجّهاً له الخطاب:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

(٢) ثم تحدّث عن المكذب بيوم الدّين بأسلوب الحديث عن الإنْسَانِ بوجْهٍ عامّ، في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾﴾ - ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾﴾.

(٣) ثُمَّ واجَهَ المكَذِّبِينَ بيَوْم الدِّين بأسلوب الخطاب في سورة (المرسَلَات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) فجاء فيها:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ - ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾.

(٤) ثمّ تَحدَّثَ اللّه عزّ وجلّ عن المكذّبين بيَوْمِ الدين بأسْلُوبِ الحديث عن الغائبين، في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) إعراضاً عن مواجهتهم بالخطاب، فجاء فيها:

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ - ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ - ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

(٥) ثم تَحدَّثَ عَنِ المكذِّبِ بيوم الدِّين المنكر له، بأُسْلُوبِ الحديث عن الغائبِ إعراضاً عن مواجهته بالخطاب، فيما اشتملَتْ عليه سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول).

ولا يخفىٰ ما في أُسْلُوب مُواجَهة المكذّب بيوم الدين في المرحلة الأولى، من تكريم وتأنيس، ثم ما في أسلوب الحديث عن المكذبين الغائبين بالجمع، أو المكذّب الغائب بالإفراد، من حِكَمٍ تَرْبويَّةٍ جَلِيلَةٍ يُدْرِكُها أَهْلُ الفِطْنَة.

❁ ❁ ❁

## (٨)
## نظرة عامّة إلى ما اشتملت عليه السورة

إنّ كوْنَ الحياة الدّنيا حَياة مُكَابَدَةٍ، يُكابدُ فيها الإنسانُ منْذُ ميلاده حتّىٰ وفاته، دليلٌ - بَعْد الإيمان بالرَّبّ الخالِقِ العليم الحكيم القدير على تنفيذ ما يشاءُ ويختار - على أنّ ظُرُوفَ هذه الحياة الدُّنيا، ليسَتْ كُلَّ شيءٍ في خُطَّةِ تكوين الإنسان وخَلْقه في أحْسَنِ تقويم، بل هي مرحلةُ امْتِحانٍ، وحكْمَةُ

الحكيم العليم القدير تستَلْزم حتماً أن يكون بَعْدَها حيَاةُ حِسَابٍ وفَصْل قضاءٍ وتنفيذ جزاء، وَإلاّ كانت هٰذه الحياة الدُّنيا عَبَثاً وَباطلاً، وقد تَنَزَّهَ الرَّبُّ العليم الحكيم القدير عن الْعَبَثِ والباطل.

هذا ما أشار إليه قول الله عزّ وجل في السّورَة بَعْدَ الْقَسَم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

وسَبَقَ أن قال في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

أي: وإذا كانَ الإنسانُ في أَحْسَنِ تَقْويمٍ وفي كَبَدٍ، فَهُوَ في رحلة امتحانٍ حتماً.

ولو كانت الحياة الدنيا هي الغاية النهائيَّة من خلْق الإنسان في أحْسَنِ تقويم، لكانت الحكمة تستدعي أنْ تُخْلَقَ له ظروفُ حياةٍ سَعِيدَةٍ لا كبَدَ فيها ولاَ كَدْحَ، كَحَيَاة أهْل الإيمان والتقوىٰ في الجنة، فهي الحياة الّتي تتلأَمُ مَعَ خَلْقِهِ في أحْسَنِ تَقْويم.

وهكذا كان الإنْسَانَان الأوّلان (آدم وزَوْجُه عليهما السلام) في أوّل الخلْق، فلمَّا عصَيَا بالأكل من الشجرة التي نُهِيَا عن الأكْلِ منها أُخْرِجا من الجنة، وَوُضِعَا هُما وَذُرِّيَّاتُهُما في حَيَاة الكَدْحِ والْمُكَابَدة للابتلاء، فَمَنْ آمَنَ وأطاع اسْتحقَّ الجنَّة الّتي أُعِدَّتْ لِلمتّقين.

لكِنَّ هذا الْإنسان قد ظهر من أفراده فريقٌ كَفَرَ بحكْمَةِ الرَّبّ الخالِق، فَجَحد الابتلاء والحسابَ وفَصْل القَضاء والْجَزاء، وأنْكَرَ يوم الدّين، وقال: لا بعث بعد الموت، وكذّبَ بيوم الدّين.

ومن هؤلاء فريقٌ نفخ الْغُرُورُ في رؤسِهم وصُدورِهم رياحاً غليظةً منتنةً سامَّةً، فَطَلَبُوا الْعُلُوّ في الأرض، فانطلقُوا يجمعون الأموال وينفقونها إنفاقاً

مُسْتَهْلِكاً لها، في إعداد القوىٰ الّتي تجعلهم بيْنَ الناس أقوياء أعزّاءَ غَلاَّبين لمنافِسِيهم، أو تجعلهم يتَصَوَّرُون ذلك ولو لم يكونوا في الحقيقة كما تَصَوَّرُوا.

والواحِدُ من هؤلاء حين يتملَّكُهُ الغرور بالقوّة الّتي تُشْعِرُهُ بالتفوُّقِ على مُنافِسيهِ من الناس، يزيد انْتِفَاخاً وغُرُوراً، فيزعُم أنّه لا تُوجَدُ قوّةٌ غيبيَّةٌ عن عالَم المشْهُودِ تَقْدِرُ عليه لا في الحال، ولا في الاستقبال.

ومن هؤلاء فريقٌ حِسّيُّون مادّيُّون أَغْبياء، يتَوَهَّمُون أَنّ مَا لا يُحِسُّون به في مدىٰ إحْسَاسَاتهم، لا وُجُودَ له، فَأَقوالُهُمْ وأَعْمالُهم ونِيَّاتُهُمْ لا يَطَّلِعُ علَيْها أَحَدٌ من عالم الغيب، فَلا محاسب لهم، ولا مجازيَ لهم، مهْمَا طَغَوْا وبَغَوْا وظَلَمُوا وأجْرَمُوا وتَجَبَّروا.

فالواحد من هؤلاء الحسِّيِّينَ الحمقَىٰ يُغَشِّي الغُرورُ على بصيرته وبصَرِه، فَيَتَوَهَّمُ أنَّ أحداً من عالَم الغيْبِ لم يَرَهُ، ولَمْ يَرَ طغيانَهُ وظلْمَه، وفواحِشَهُ، وأنّه إذا استخفىٰ ضِمْنَ مخابئِه، ومارَسَ في حُجُبِها قبائحه ورذائلَه وفواحشَهُ وشُرُورَه وخبائثه، فإنَّ أحداً لم يَرَهُ من عالم الغيب.

وتوهُّمُه هذا يجعله مطمئنًّا آمِناً من حسابٍ، وفَصْل قضاءٍ، وتَنْفيذِ جزاء، فهو غير متابَع بعقابٍ من قُوَّةٍ قاهِرَة، هي قوّةُ العليم الحكيم القدير الرَّبّ الخالق عزّ وجلّ.

هذا هو توهُّم المادّيِّين الحِسِّيِّين الحمقىٰ من أهل الغرور، الَّذِين لا يتفكّرُونَ بدلائل ما خَلَقَ اللّهُ في أنفسهم، وفيما خَلَقَ الله من كلِّ شيءٍ من حولهم.

إنّ الّذي خلَق له عينَيْن يَرَىٰ بهما، فأعطاهُ طرفاً من كمالِ مُشَاهدَةِ الأشياء، لا بُدَّ أن يكون بصيراً يَراهُ، ويعْلَمُ مَا تُكِنُّ نفسه، وهو سبحانه قادرٌ على أن يَخْلُق ملائكة يراقبون الإنسان ويعْلَمُونَ ما يفْعَلُ، يَرَوْنه من

حيث لا يراهم، ويسجّلونَ عليه أقوالَهُ، وأعماله الظاهرة والباطنة، ونيَّاتِه.

وإنّ الذي خلَقَ له لساناً وشفتَيْن للنُّطْق والتعبير عمّا في نفسه وفِكْرِه، برموز الكلمات، والمجادَلَةِ والدّفاعِ عن نَفْسِه، ومحاسَبَةِ من هم تحت سُلْطانه، على أعمالهم ومخالفاتهم له، لا بُدَّ أن يكُون هو سُبْحانه مُحَاسِباً لعباده على ما يكْسِبُونَ في الحياة الدُّنيا، إذْ خلقهم جلّ جلاله فيها عابرين رحلة امتحان، وهو سبحانه قادرٌ على أنْ يخْلُقَ مراقبين له، يعلَمُون ما يفْعَلُ، وهو لا يَرَاهم، فإذا دُعُوا يوم الدّين للشهادة عليه بما اكتسَبَ في الحياة الدُّنْيَا، قدّمُوا شهاداتهم عن مشاهداتهم، فانضمّتَ شهاداتهم إلَىٰ أدلّةِ إدانته بجرائمه.

وجاء ذكر اللّسان عنواناً للحروف الّتي يكون للّسان تأثير ما فيها، وجاء ذكر الشفتَيْن عنواناً للحروف الشفوية، وللحرف الّتي يكون للشفتين تأثيرٌ ما فيها، واكتفى النّصّ بذكر اللّسان والشفتين، ليستكمل الذهن سائر الحروف كحروف الحلْق.

وإنّ الرَّبّ الّذي خلق للإنسان جهاز التفكير والْعِلْم والتذكُّر وإدْراك المعارف، وخلَقَ له الوسائل الّتي يكتَسِبُ بها المعارف والعلوم، وبعَثَ له الرُّسُل، وأنزل له الكتب والبيانات التي تُبَيِّن له الغايةَ من خَلْقِه في الحياة الدنيا، وتبيّن له مسئوليَّتَهُ فيها، ومَا هو المطلوبُ منه أن يَعْمَلَهُ، وما هو المطلوب منْهُ أن يتْرُكَهُ أو يجتَنِبَه، فهداه بذلك النَّجْدَين: أي: الطريقين الواضحَيْن الجلِيَّيْن، طريق الحقّ والخير والنّفع والصَّلاح. وطريق الباطل والشّرّ والضُّرّ والفساد، لتكونَ أمَامَهُ فرصَةُ أَنْ يرىٰ الحقَّ حقًّا فَيُؤْمِنَ بِهِ ويَسْتَمْسِكَ بأسبابه، ويَرَىٰ الخَيْرَ والنفع والصلاح فيَعْمَل بما تهدي إليه. وأن يرَىٰ الباطل باطلاً فيكْفُر به ويجتنبه، ويجتَنِبَ كلَّ ما يُوصِلُ إليه، ويَرَىٰ الشرَّ والضُّرَّ والفساد، فيجتنبَها ويجاهد لمقاوَمتِها.

كلُّ ذلك ضمن حدود استطاعته فِعْلاً أو تركاً.

إنّ الرَّبَّ الذي خلقَ له ذلك لا بُدّ أن يكُونَ بحكْمته قد خلقَهُ ليمتحِنَهُ في ظروف الحياة الدنيا. وحكمة الامتحان تستَتْبعُ حتماً الْحِسَابَ، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، في خُطّة العليم الحكيم القدير.

ولولا هذه الغاية لكان أمْر الخلْقِ عبثاً وباطلاً، وقد تنزّه الرَّبُّ الخالقُ العظيم عن العبَثِ والباطل.

ولمّا كانت ظروفُ الحياة الدنيا غَيْرَ مُشْتَمِلَةٍ على مَرْحَلَةِ الْحِساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، إلاّ ما تقتضيه حكمة إقامة الدليل على الجزاء الأكبر يوم الدين، فإنّ مَنطِقَ الْعَقْل المستند إلى حكمة الرَّبّ العليم الحكيم القدير، يقضي بأنّه لا بُدَّ حتْماً من ظروفِ حياة أخرى، يتمّ بها الجزاءُ الأوفىٰ، وهٰذه الحياة تكُونُ بعْدَ اسْتِكمالِ رِحْلة الحياة الدنيا، واسْتِكْمَالِ ظروف الامتحان فيها.

وقد اقتضت الحكمة العظيمة، أن يكون الموتُ والفناء هو البرزَخَ الفاصل بين حياة الابتلاء، وحياة الحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء.

هذه العناصر الفكريّة قد دلَّت عليها السّورة بعبارات موجزاتٍ، تستدعي لوازم فكريَّةً كثيرة، وهذه العبارات الموجزات هي بمثابَة مفاتيح لأَبْواب وراءَها جَمٌّ غفير من المعاني الّتي تُوصِلُ إليها سلاسل فكريَّةٌ مترابطة.

وحين يُدْرِكُ المتدبّر لهذا البيان العجيب، ذي الدلالات الدقيقة العميقة، الذي اشتملت عليه سورة (البلد) تتولّد لدَيْه قناعة تامَّةٌ بأنَّ القرآن المجيد، حين يُوجّه بيانه شطر أئمة الكُفْر، فينسِفُ أوهامهم نَسْفاً، ويُقِيمُ عليهم الحجّةَ الدامِغَةَ، فإنّه يُقَدّم الإقْنَاعَ الضّمْنِيَّ لأتباعهم الّذِين ليْسَ لهم مقالات تُعْرَضُ لإسقاطها، ولبيان فسادها، إنّما يُرَدّدُونَ مقالاَتِ أئِمَّتهم، فإذا

سَقَطَتْ مقالاَتُ الأئمة وأوهامُهُمْ، لم يَبْقَ للأتباع شيءٌ يَغُرُّهم، ويُغْرِيهم بالتزام الباطل.

**وتمَّ بعون الله وتوفيقه وفتحه تدبّر سورة (البلد)**

❀ ❀ ❀

## ملاحق لتدبر سورة البلد

**الملحق الأول**: حول بلاغيات في السورة.

**الملحق الثاني**: ما جاء في نجوم التنزيل بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

## (٩)
## الملحق الأوّل
## حول بلاغيّات في السُّورة

سورة البلد تكاد تكونُ رمزيَّةً في دلالاتها العميقة، واللّوازم الفكريَّة الّتي تَسْتَدْعيها وتقتضيها عباراتها، فهي غاية في الإيجاز.

ومن البلاغيات التي يسهل استخراجها من السورة ما يلي:

(١) القسم المنفيّ بحرف «لا» مع ذكر المقسم به والمقسم عليه، وهذا من المبتكرات البلاغيّة القرآنيّة، القائم على مراعاة اقتضاءَيْن:

- أحَدُهما يقتضي أنّ الْقَسَمَ ذو فائدة تأكيديَّة بالنسبة إلى بعض المتلَقّين المعاصرين لتنزيل القرآن، أو الذين سيأتون بعدهم.

- والآخر يقتضي أنّ الْقَسَم غير ذي فائدةٍ تأكيديَّةٍ بالنِسْبَة إلى المقصودين الأوّلين بالخطَاب إبّان التنزيل.

فكان الحلُّ القرآنيّ البديعُ بإيراد القسم والمقْسَم به، ونفي الْقَسَم بحرف «لا» فقال الله عزّ وجلّ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾.

(٢) الكناية عن أشياء بذكر بَعْض لوازمها، ومنها في السورة:

● ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾: أي: هو مخلوقٌ مُمتَحَنٌ في ظروف الحياة الدنيا، ولولا ذلك لكانت الجنّةُ هي الدار الملائمة لخلقه في أحسن تقويم.

والامتحان له لوازم عقليّة يقتضيها كون الربّ عليماً حكيماً قديراً، إذْ يلزم عن الامتحان الحسابُ، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، ولا بُدَّ أن يكون هذا في حياة أُخْرَىٰ غيْرِ هٰذِهِ الحياة.

● ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾: أي: ليَعْرِفَ أَنَّهُ مُمْتَحنٌ فِي ظروف الحياة الدنيا، فمن عرف طريق الحق والخير، وعرف طريق الباطل والشرّ، وأدرك أنّه مُمَكَّنٌ من سلوك ما يختار منهما، أدرك عن طريق اللُّزوم العقليّ أَنّه في ظروف امتحان.

فهداية الإنسان النجدين كنايَةٌ عن هذه اللّوازم الفكريّة.

(٣) الإيجاز بذكر بعض فقراتٍ من الأفكار الّتي يُرادُ الإعْلَام بها، وترك المتدبّر يستخرج الأفكار الّتي لم يأت في النّص التصريح بها، ومن هذا الإيجاز في السورة:

● ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾: أي: أفْنيْتُ مالاً كثيراً في جمْعِ الجنُودِ والْقُوىٰ العسكريَّة الحربيَّة والعتاد اللّازم، حتَّى صرْتُ عزيزاً لا يَقْدِرُ عليَّ أحَدٌ من مُنَافِسِيَّ في دوائر سلطاني.

● الاقتصار على العتق والإطعام من أمثلة اقتحام عقبة النفس، وتركُ المتدبّر يقيس عليها سائر تكاليف الدين، ممّا يَجب على الإنسان الممتَحَنِ في ظروف الحياة الدنيا أَنْ يفعَلَهُ، وممّا يَجِبُ عليه أن يَتْرُكَه.

● ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾: أي: الّذين يُجازَوْنَ بجنَّاتِ النّعيم يوم الدين، بدليل التقابل بينهم وبَيْنَ أَصْحَاب المشأمَة، الّذِين قال الله بشأنهم: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾.

● ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: من الّذين آمنوا باللّهِ وبكُلِّ ما أَمَرَ الله بالإيمان به.

(٤) الاستعارة: ونجدُها في إطلاق لفظ: ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ - النَّجْدُ هو ما ارتفع من الأرض وكان واضحاً - على ما يكونُ الإنْسَانُ ممكَّناً مِنْهُ، من سُلوكٍ ظاهر وباطن، خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ في أزمان حياته طوال رِحْلَةِ امتحانه.

ونجدُها في إطلاق لفظ ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ - وهي المرقَىٰ الصَّعْبُ في الجبل ونحوه - على الموانع في داخل نفس الإنسان، الّتي يَعْسُر على الإنسان أن يتخطّاها بإرادة حازمة، ويَسْلُكَ في حياته على غَيْر مطْلُوبَاتها.

ونجدها في إطلاق [**الاقْتِحَام**] - وهو الدُّخولُ بشجاعة وجُرْأَة في المواضع الصّعبَةِ الشَّاقَّة، كاقتحام صفوف الأعداء في القتال - علىٰ مخالفة الأهواء والشهوات ورَغَباتِ النفس التي فيها معصيَةٌ للّه عزّ وجل، بالتزام العمل بطاعته ومراضيه ابتغاء وجهه الكريم.

وهذه الاستعارات المتتابعاتُ مُتَلائماتٌ يُرَشِّحُ بعضُها بعضاً، أي: يقوّي جانب الاستعارة فيها.

ويقابلُ الترشيحَ التجريدُ، وهو ذكر ما يُلائم المستعارَ له.

(٥) المجاز المرسل: ونجده في إطلاق الحالّ وإرادة المحَلّ، في عبارة ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ فقد جاء فيها وصف كلمة «نار» بأنها مؤصَدَةٌ، مع أنّ المؤْصَدَ المغلق دار التعذيب بالنار، إذ المراد بكلمة: «نار» هنا مَا يُطْلَقُ عليه نارٌ في اللّغة، لا دار التعذيب بها، ودارُ التعذيب هي محلٌّ لهذه النار، والاسم العلم على دار التعذيب يوم الدّين هو لفظ «النّار» مُعَرَّفة، لا لفظ «نار» نكرة، والمعنى: عليهم مؤصَدَةٌ أبوابُ دَارِها يوم الدّين.

❁ ❁ ❁

(١٠)

# الملحق الثاني

## ما جاء في نجوم التنزيل بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال

وصف الله عزّ وجلّ في القرآن المجيد المؤمنين بأنّهُمْ أصْحَابُ اليمين، ولو كانوا عصاةً ويستحقُّون التطهير بالعذاب قَبْلَ دخُولِ الجنَّة، لأنَّهم يأخذون صُحُف أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم.

ووَصَفَ الكافرين بأنَّهم أصحاب الشِّمَال، ولو كانت لَهُم أعْمالٌ نافِعَةٌ في الحياة الدّنيا، إذْ لم يكن الباعثُ إلى قيامهم بها إيماناً باللّه واليوم الآخر، فشَرْطُ النجاة من الْخُلودِ في العذاب والظَّفَرِ بالجنَّةِ يوْمَ الدِّين، الإيمانُ الصّحيح بالرَّبّ الخالق، وبما أوجب على عباده أن يُؤْمِنُوا به.

وقد جاء في القرآن المجيد بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال عدّةُ نُصُوصٍ، وفيما يلي استعراضها مع نظراتٍ تَدَبُّرِيَّةٍ حولها، مُقْتَصِراً على النصوص التي جاء فيها التصريح بأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، دون عمُوم أصحاب الجنة وأصحاب النار:

**النّصّ الأول:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (١٩) عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (٢٠)﴾.

وقد سبق تدبّر هذا النّصّ مع تدبُّر دُروس السورة، على مقدار أوعيتنا الفكريّة.

❁ ❁ ❁

**النص الثاني:**

ما جاء بشأنهم في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/٤٦ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾.

**الْمَيْمَنَة**: تأتي بمعنى الْيُمْنِ الذي هو ضدُّ الشُّؤم. وتأتي بمعنى جهة اليمين.

**المشْأَمة**: تأتي بمعنى الشؤم الذي هو ضِدُّ الْيُمْن. وتأتي بمعنى جهة الشِّمال.

««أصحابُ الْمَيْمَنَةِ» مبتدأ ومضاف إليه، وجملة «مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» في محل خبر. «ما» اسم استفهام جيء به للتعجيب من أَمْرِ ثوابهم العظيم في جنات النعيم يوم الدين.

ونظير هذا: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ إلاّ أنّ التَّعجيب موجَّه لاختيارهم ما يوصلهم إلى عذاب جهنم الخالد.

وبعد هاتين الآيتين ذكر الله عزّ وجل في السورة السَّابقين السابقين، ووصفهم بأنّهم المقرّبون، وأبانَ أنهم ثُلَّةٌ من الأوّلين، وقليلٌ من الآخرين، وقَدَّم صُوراً من ثوابهم في جنّاتِ النعيم.

وبعد ذلك ذكر الله عزّ وجَلَّ بتفصيل بعْضَ ثوابَ أصحاب اليمين، وأعقبه بتفصيل بعض عذاب أصحاب الشمال، فقال عزّ وجلّ في السورة:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ

ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وجاء فيها أيضاً بشأن شديدي الضلال والتكذيب والعناد من أصحاب الشمال، قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾﴾: أي: في جنَّةٍ انبَثَّتْ فيها أشجار السِّدْر، وهي أشجار النَّبِق. **مخضود**: أي: منزوع شوكه، فلا شَوْكَ في أغصان وفُروعِ هذا الصِّنفِ من شَجَر السِّدْر في الجنّة، على خلاف أشْبَاهها من أشجار الدُّنيا، ومع الفرق العظيم بين أشجار الجنّة وأشجار الدنيا.

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾﴾: **الطَّلْح**: نوع من الشجر العظام. ويُطْلَقُ على الموز أيضاً.

**مَنْضُود**: أي: مَضْمُوم متراكب بعْضُه فوق بعض باتّساق، وإتقانٍ رفيعٍ، ونظام بديع، وهذا ينطبق على ثمر شجر الموز.

﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وظِلّ دائم لا تنْسَخُه شمس، وهذا وصْفُ جنّاتِ النعيم، إذْ هِيَ ظِلٌّ، لاَ غَلَسٌ مُظْلِمٌ، ولاَ ضِحٌّ تَضْرِبُه أشِعَّةُ الشمس.

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾﴾: أي: ومَاءٍ يُصَبُّ من أعلى إلى أسْفل، كالشّلاّلات، وهذا أجمل ما يكون عليه الماء.

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ ﴾: **لاَ مَقْطُوعَة**: أي: لا يأتي عليها وقْتٌ تنقطع فيه، إذْ مَوَاسِمها دائمة، وأشجارها ذاتُ إنْتاجٍ لا ينقطع في زمن مِنَ الأزمان.

**ولاَ مَمْنُوعَة**: أي: ولا يَمْنَعُ من تناولها والأكل منها مانعٌ ما، فهي مبْذولة دواماً لأهل الجنَّة أصحاب اليمين.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾: أي: وحَشَايا مَرْفُوعَةٍ على أسرّة.

واكْتَفَىٰ النصّ بذكر الفُرُش المرفوعة عن التصريح بذكر الزوجات، من الحور العين اللّواتي ينتظرن أزواجَهُنَّ عليها، استغناء بذِكْرِ الشيءِ عن ذِكْر ما يُرافقه أو يكونُ عليه، وهذا من الأدب الجميل، والبلاغة الرَّفيعة.

ودَلَّ على هذا الاستغناء في اللَّفظ مع إرادة المعنىٰ إعادَةُ الضَّمِير على الفُرُش المرفوعة، كأنَّها الحورُ العين أنْفُسُهُنَّ، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾: أي: إنشاءً خاصًا لأصحاب اليمين.

وأرى أنّ هذا الأسلوب من التعبير، يدخل في البديعة المعنوية الّتي يسميها علماء البديع الاستخدام، مع بعض تعديلٍ في تعريفهم للاستخدام.

وقد دلَّ هذا النصُّ على أَمْرَين:

**الأَمْرُ الأول**: أنّ خَلْقَهُنَّ ليس على سبيل البعْثِ لِنِسَاءٍ خُلِقْنَ في الحياة الدنيا، بل هُنَّ مَخْلُوقَاتٌ لأصحاب اليَمِين منْذُ خَلْقِهِنَّ.

**الأمر الثاني**: أنَّ خَلْقَهُنَّ قد تَمَّ على طَرِيقة الإنشاء المتَدرِّج حتَّىٰ بلَغْنَ النُضْجَ الأُنْثَوِيّ.

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾: **أبكاراً**: جمع بِكْر، وهي العذراء التي لم تُعَاشِرْ ذكراً، فَعُذْرَتُها ما تزال على أصل خلقتها.

وجاء وصفهنّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) بأنَّهُنَّ لم يَطْمِثْهُنَّ قَبْلَ أزواجهنّ من أصحاب اليمين إنْسٌ ولا جانٌ، فقال تعالى فيها:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾.

**الطَّمْثُ**: جماعٌ تُفَضُّ به بكارة البِكْرِ، وتحصُلُ به التَّدْمِيَة، ومِنْه قيل للحائض: طامِث.

﴿عُرُبًا﴾: عُرُب جمع «عَرُوب» وهي المتَحَبِّبَةُ إلى زوجها، وقيل: العاشِقة له.

﴿أَتْرَابًا﴾: جمع «تِرْب» والأترابُ هُنَّ الأقْرَانُ في السّنّ، أَعمارُهُنَّ واحدة. وهذا يَدُلُّ على أنّ إنشاءَهُنَّ قد كان في وقْتٍ واحد، أو أن تطوُّر تنامِيهنَّ في الجنَّة يتوقَّفُ عند سِنّ نُضجِهِنَّ، فيظْلَلْنَ دواماً على أحْسَن ما تكونُ عليه الزوجاتُ حيَوِيَّةً وأُنوثَةً وتحبُّباً للأزواج.

﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾: أي: هُنَّ مُخَصَّصاتٌ لأصْحابِ الْيَمِين، الّذين يأخُذُون صُحُفَ أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: أصحاب اليمين هم ثُلَّةٌ من الأوَّلين قَبْلَ بَعْثَةِ محمد ﷺ، وثُلَّةٌ من الآخِرين الّذين يكونون من أصحاب اليمين بعْد بعثته.

**الثُّلَّة**: الجماعَةُ من الناس.

ودلّ التنكير في لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ على أنهم جماعة ليست بالكثيرة، وهذا ما دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ صراحةً في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾: «أصْحَابُ الشِّمال» مبتدأٌ ومضاف إليه، وجملة «مَا أصْحَابُ الشِّمَال» في محلّ خبر. «مَا» اسم استفهام جيء به للتعجيب من أمرهم في رحلة امتحانهم، إذْ اختاروا فيها ما يُوصِلُهُم إلى عذاب أليم دائم في دار العذاب يوم الدين.

﴿فِى سَمُومٍ﴾: السَّمُومُ الرّيح الشديدة الحرّ اللاّفحة التي تَنْفُذ في مَسَامّ الجلد. أي: في جهنّم الّتي يَلْفَحُهُمْ فيها سَمُومٌ متَتَابع.

﴿وَحَمِيمٍ﴾: أيْ: وفي ماءٍ شديد الحرارة، يشْرَبُونَ منه.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾: أي: ويكونون في جهنّم مُنْغَمِسِينَ في ظِلّ دُخانٍ شديد السّواد والحرارة.

**اليَحْمُومُ**: هو في اللّغة الدُّخان، والأَسْوَدُ من كلّ شيءٍ. ودَلَّ على حرارته أنّه دُخان نارٍ مصحوبٌ بشَرَر كالْقَصْر، كأنه جِمالَةٌ صفر، وهو جاء بيانه في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للمكذّبين بيومِ الدين:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾: أي: هٰذا الظّلُّ من الدُّخانِ الأَسْودِ لَيْسَ ظِلّاً بَارِداً، بل هو ظِلٌّ حَارٌّ. ولَيْسَ ظِلّاً كَرِيماً، كالظّلّ الّذي يكون في الجنّةِ لأصحاب الْيَمين. أو أنّ اليحموم ليس بارداً ولا كريماً، ونفي كونه كريماً هو نفيٌ لكلّ صفةٍ حسنة عنه، فلا هو حسَنُ المنظر، ولا هُوَ طيِّب الرائحة، ولا هو واقٍ من سُوء أو أذى.

وخصّ الله عزّ وجلّ في السّورة الْغُلَاةَ في ضلالهم وتكذيبهم بقوله:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

**شَجَرَةُ الزَّقُّوم**: شجرة خبيثَةٌ تَنْبُتُ في أَصْلِ الجحيم، جعلَها اللّه عزّ وجَلَّ بعَدْلِهِ طَعَامَ الأثيم شديد ارتكاب الآثام في دار العذاب يوم الدين.

إنَّ الضّالين المكذِّبين يشتَدُّ جُوعُهم في جهنّم، فَتُلْجِئُهم الضرورة إلى أن يأكلوا من شجر من صنف شجر الزّقوم، فيملَؤُون مما يأكُلُونَ بُطُونهم،

فيشتدُّ ظمؤهم من هذا الطعام الخبيث، فيبحَثُونَ عن شراب، فلا يجدون إلاَّ حميماً (=ماءً شديد الحرارة) فَيَشْرَبُونَ منه كثيراً، دون أن يُحْدِثَ لهم ريًّا، هذا ما دَلَّ عليه قولُهُ عز وجل:

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿عَلَيۡهِ﴾: أي: على ما أَكَلُوا من شجر الزَّقُّوم، بسبب ما أحدث لهم من ظمأٍ شديد، فهم يلجؤون إلى إطفاء لهيب ظَمَئِهم بأي ماء يجدونه، ولا يجدون إلاَّ ماءً حَمِيماً شديد الحرارة.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾: أي: فشاربون مثل شُرْبِ الإِبِلِ الْهِيم، وهي الّتي يُصِيبُها داءُ الْهُيَام، فهي لا تَرْوىٰ مهما شَرِبَتْ. يُقَال: بَعِير أَهْيَم، ونَاقَةٌ هَيْماء، وإبلٌ هِيمٌ.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾: أي: هذا القِرَىٰ الذي يُقَدَّم إليهم في مكان إقامتهم الدائمة يوم الدّين. ويطْلَقُ النُّزُل على مكان الضيافة، واستعماله هنا فيه معنى التهكّم بهم، إذ هو مكان سِجْنهم وتعذيبهم، وطعامهم الذي يزيد من عذابهم.

**النُّزْل والنُّزُل:** ما يُعِدّه الرَّجلُ لضيفه إذا نزل عليه. فُلانٌ حسَنُ النّزُل: أي حسن الضيافة.

● ثم أنزل الله عزّ وجل أيضاً بشأن شجرة الزَّقُّوم قوله في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) بعد وصف بعض نعيم أهل الجنة:

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

**شَجَرَةُ الزَّقُّوم: هي في الدنيا شجرة من أَخْبَثِ الشَّجَر المرّ، تَنْبُتُ بتِهَامَة، وهي في الآخِرَة من أَخْبَثِ أصناف الأشجار المخصّصة لطعام المعذَّبين في جهَنَّم، وهي تَنْبُتُ في أَصْل الجحيم، أي: في قَعْرِ جهَنّم.**

وقد جعَلَها الله عزّ وجلّ في جهنَّم شَجَرةً يأكُلُ منها الظالمون مُلْجَئِين، فإذا أكَلُوا مِنها ومَلَؤُوا بُطُونهم صار ما أكَلُوه يَغْلِي في بُطُونهم كغَلَيَان الماء الشديد الحرارة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾: أي: عذاباً يذُوقُونَ شِدَّةَ حرارته في بُطونهم، مثل عذاب حَرِيق النار.

أصْلُ الفتنة في اللّغة الإحراق، قال الخليل: الْفَتْنُ الإحراق. ولمّا كان الصائغ يَعْرِضُ الذَّهب ونحوه على النار ليختَبِر جودته، ويَمْتَحِنَ أوصافه، صار كلّ امْتِحانٍ واخْتِبَارٍ كاشفِ فِتْنَةً، والأصل في معنى الكلمة الإحراق.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾: أي: يَنْبُتُ هذا النوع من الشجر في قَعْرِ الجحيم، ومنه تخرج، ثم تمتدُّ فروع أشجاره وأغصانها مرتفعةً إلى بعضِ دَرَكاتِ جهنَّمَ السُّفْلىٰ.

**الْجَحِيم**: اسم من أسماء دار العذاب يوم الدِّين، وكلُّ نارٍ عظيمة في مَهْواةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾: طَلْعُها: أي: مَا يُؤكَلُ من ثَمَرِها أو وَرَقِها. **أصل الطَّلْع**: غلافٌ يشبهُ الكُوز، ينفتح عن حَبٍّ منْضُودٍ، فيه مادَّة إخصاب النخلة.

وهذا الطَّلْعُ الذي يُؤكَلُ من شجر الزَّقُّومِ ذو منظر كريهٍ، كأنَّهُ رؤوسُ صِنفٍ من الحيّات تُسَمَّىٰ الشياطين، واحدها شيطان، وهذا الصِّنْفُ ذُو عُرْفٍ قبيح.

أو تَشبيهٌ لهذا الطَّلع بما يتخيَّلُ النّاس من منظر كريهٍ شديد القُبْحِ لرُؤوس شَياطِينِ الجنّ.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾: أي: فإنَّهم مُلْجَؤون لِلأَكْلِ من هذه الشَّجَرةِ إلْجاءً ذاتيًّا، وهذا يَدُلُّ على أَنَّهم يشْتَدُّ بهم الجوع الذي يَرَونه أشدّ عليهم من مَلْءِ بُطونهم منها، مع ما فيه من تَعْذِيبٍ شديدٍ لَهُمْ، هو نَوْعٌ من عذابِ الحريق الداخليّ.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾: وَبَعْدَ أن يَمْلَؤُوا بطونَهُمْ من طَلْعِها، وتمُرَّ مُدَّةٌ يتفاعَلُ مَا أكلوه منها بالهواضم، وتلْتهِبَ بطونَهم بما يشبه الحريق بالنّار، يشتَدُّ ظَمَؤُهم، فيَسْعَوْنَ إلَىٰ مصادر المياه للشُّرب، فلا يَجِدُون إلاَّ مَاءَ حَميماً شديد الحرارة، فيَجِدُون الشُّرْبَ منه أَهْوَنَ عليهم من حرارة ما في بطونهم، فيَخْلِطُونَ الطَّعامَ النّارِيّ بالماء الحميم.

**الشَّوْبُ**: في اللُّغة هو الخلْطُ، والشائبَةُ واحدة الشوائب، وهي الأقذار والأدناس، أي: هو سائل من الشوائب مخلوطٌ بماء حار.

**الحميم**: الماء الحارّ.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾: أي: إنّهم يكُونُون أوّلاً في سَواءِ الجحيم، أي: في وسط الجحيم، كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الصافات/ ٣٧ مصحف/٥٦ نزول) نفسها بشَأْنِ مكان عذاب المكذّب بيَوْم الدّين:

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾: أي: في وسط الجحيم.

فيشتَدُّ بهم الجوعُ فيَهْبِطُونَ إلَىٰ قَعْرِ الجحيم ليأْكُلوا من طَلْع شَجَرِ الزَّقّوم، فيَأْكُلونَ ويمْلَؤُونَ بُطُونهم، ثُمَّ يَشْرَبون من مصادر المياه الحارّة في الجحيم، ثُمَّ يَرْجِعُون إلى منازِلهم في سواء الجحيم.

رِحْلَةٌ إلى الْقَعْرِ للأَكْل، ثُمّ رِحْلةٌ إلى مصادر المياه الحارَّة للشرب، ثم رَجْعَةٌ إلى مَنَازلهم في وسَطِ الجحيم، عذابٌ فعذابٌ فعذَاب، وَهذا حالهم على التداوُل.

● ثم أنزل الله عزّ وجل بشأن شجرة الزَّقوم في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ بِشَأْنِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم ثلاث دَلالات:

**الدّلالة الأولى**: أَنَّ شَجَرَة الزَّقّومِ هي طعامُ الأثيم، أي: هي الطعامُ الوحيد للأثيم، فلا طعام له من غيرها، أخذاً من تعريف طَرَفي الإسناد، إذ المضاف إلى معرّف يكتسبُ منه التعريف.

**الأثيم**: هو المسرف الغالي في ارتكاب الآثام. **والإثم**: هو الذّنبُ. **فالأثيم**: هو المبالغ في ارتكاب الذنوب والمعاصي، ومن كون شجرة الزقّوم طعام الأثيم، وطعام الضّالين المكذبين للرسول ﷺ، والمكذّبين بيوم الدين، ومن كونها عذاباً للظّالمين بحريقٍ في بطونهم، نستدلُّ على أن المراد بالأثيم، الكافر الفاجر المخلّد في عذاب النار.

لفظ «أثيم» من صيغ المبالغة والتكثير.

**الدلالة الثانية**: أنَّ ما يُؤكَلُ من شجرة الزَّقُّوم شيءٌ كالْمُهْلِ. **الْمُهْلُ**: القَطِران، ودُرْدِيُّ الزَّيت، أي عكَرُه الّذي يترسَّب في قاع آنيته. والنحاسُ المذاب. والقيحُ والصَّدِيد.

**الدلالة الثالثة**: أنّ مَا يُؤكَلُ من شجرة الزَّقُّوم يغلي في البطون، كغَلْي الحميم، أي: كَغَلْي الماء الذي يُسَخَّنُ بالنّار حتّىٰ يَغْلِي من شدّة حرارته، ويتصاعد منه البخار.

❁ ❁ ❁

**النصّ الثالث:**

ما جاء بشأنهم في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)﴾.

فأضاف هذا النصّ بيان أنّ أصحاب الْيَمِين يُؤْتَوْن كتُبَهُمْ بأَيْمَانِهِم، وأَنَّهُمْ يقْرَؤُونها، فلا يجدون أنّهم قد ظُلِموا من أعمالهم الصالحة فيها فتيلاً.

**فتيلاً**: أي: مقدار فتيل، وهو الخيط الرفيع الذي يكون في شقّ النواة.

إنّهم يومئذٍ يتَذَكَّرُون كلَّ أعمالهم الّتي عملوها في الحياة الدنيا، فيُطابقون بين ما تذكّرُوا وبَيْنَ مَا يَقْرَؤُون في كتُبهم، فيجدون أنّهم لم يُظْلَمُوا مقدار فتيل.

وقد جاء التصريح بأنّ الإنسان يتذكّر يوم الدّين كلّ ما عمل في الحياة الدنيا، في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/٧٩ مصحف/٨١ نزول):

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥)﴾.

ولم يأت في هذا النصّ التصريح بأنّ أصحاب الشّمال يأخذون كُتُبَ أعمالهم بشمائلهم، أوْ مِنْ وَرَاءَ ظُهورهم، وإنّما جاء فيه بَيَان أنّهم يكونُونَ عُمْياً يوم الدين كما كانوا عُمْياً في الحياة الدنيا، ويَكونون أضلّ سبيلاً، فقال تعالى فيه:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)﴾.

**أعمى**: أي: كافراً ضالاً بكُفْرِه عن سَبيلِ سعادته العاجلة والآجلة.

فالمعنى: ومن كان في هذه الحياة الدُّنيا كافراً ضالاً بكُفْرِه عن سبيل سعادته، باختياره الحرّ، فَهُو في الآخِرَة محكُومٌ عليه بأنّه أَعْمَىٰ، أي: كافر، وهو يَوْمئذٍ أَضَلُّ سبيلاً، لأنّهُ لا يستطيع يومَئذٍ أن يتدارك أمره، فقد انتهى زمن الامتحان، فلا حيلة له في أَنْ يهتدي إلى سبيل سعادته في جنّاتِ النعيم، بينما كان في الحياة الدّنيا قادراً على أن يتدارك أمْرَه بالإيمان والعمل الصالح قَبْلَ أَنْ تأتيه ساعة الموت، فهو في الآخرة أضَلُّ سبيلاً، إذ لا يجد لنفسه طريقاً يسْلُكُهُ إلاّ طريق جهنّم خالداً فيها، كما قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

❊ ❊ ❊

**النصّ الرابع:**

ما جاء بشأنهم في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) فقد جاء فيها قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

جاء في هذا النّص تشْبِيهُ ما يَكْسِبهُ الإنْسَانُ بإرادَتِه في الحياة الدّنْيَا بالطائر، فقَبْلَ أنْ يكْسِبَ كسْبَهُ وَيَعْمَلَ عَمَلَه الإراديَّ يكونُ حبيساً في داخل نفسه، ويكُونُ الإنسانُ مالكاً لَهُ، وقادراً على ضَبْطه، وغير مسؤول عنه، فإذا عمل عمله وكسب كسْبَهُ الإراديّ الظّاهِرَ أو الباطن، طار من مَحْبِسِه، وأفْلَتَ من يَدِه، وصَارَ الإنسانُ عاجزاً عن إرجاعِهِ إلى حَظِيرَتِه، ويَكُونُ عندئذٍ أَسِيراً له، إذْ يجْعَلُ اللّهُ عزّ وجَلّ مَا يَكْسِبُهُ الإنْسَانُ بمثابة الأسْرِ له بطَوْقٍ أو حَبْلٍ في عُنُقِه، يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الدِّين.

﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾: أي: جعلنا مسؤوليّته عن عَمَلِه وكسْبه الإرادي ملازِمَةً عُنُقَهُ، كمُلازَمَةِ حَبْلِ الآسِرِ لعُنُقِ الأسِير، حتَّىٰ يتِمَّ حِسَابُهُ وَفَصْلُ القضاء بشأنِهِ يوم الدّين.

فلفظ «طائر» مُسْتَعَارٌ للدّلالة على ما يكْسِبهُ الإنسان بإرادته في الحياة، وهذه الاستعارة البديعة قائمة على تشبيه ما يعْمَلُه الإنسان بإرادته بإطْلَاق الطائر من مَحْبِسِه إلى الجوّ، وعندئذٍ تتعلَّقُ به المسؤوليّة عن إطلاقه، وهذه المسؤوليةُ آسِرَةٌ لَهُ حتى يتِمّ حِسَابه وفَصْلُ القضاء بشأنه.

ولمّا كانَ الْعُنُقُ هو الْمَكان المفضّل لِرَبْطِ الأسير حتَّىٰ لا يَفْلَتَ من آسِرِه، جاء التعبير به للدّلالة على مَنَاط المسؤوليَّة عن السلوك الإراديّ في الإنسان.

﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ جاء استعمال حَرْف «في» للدّلالة على دُخولِ حَبْلِ المسؤولية في داخِلِ مناطِ المسئولية فيه.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾: هذا الكِتَابُ هو صَحِيفة كَسْبِهِ الَّذي أطْلَقَ كُلَّ واحدٍ منه بإرادَتِهِ من حظيرَته، فطَارَ ولم يَسْتَطِع أن يُرْجِعَه، ولكنْ أَلْزَمَهُ اللَّهُ المسؤولية عنه، لأنّه قَدْ كان في رِحْلَةِ امتحان، وأمَرَ الملَكَيْنِ الْمُلَازِمَيْنِ له بتسجيلها، لعرضها عليه يوْمَ الدّين، فهو يَلْقَىٰ هذا الكِتَابَ مَنْشُوراً غَيْرَ مطْويّ.

وتكفِي صحيفة يَضُمُّ الإنسانُ عليها كفَّهُ لتسجيل صورة تامّة عن كلِّ حياته في رحلة امتحانه، ويُعْطَىٰ يَوْمَئِذٍ الْقُدْرة على قِراءَة ما في صحيفته مهما كانت وسيلةُ تَسْجِيلِهَا مضْغوطة، وبصَرُهُ يومئذٍ يكُونَ حَدِيداً.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾: أي: يُقَالُ لَهُ يَوْم القيامة هذا كتابُكَ في يَدِك فاقرأْهُ، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ على ذُنُوبك ومعاصِيك وجَرَائِمِكَ ومخالفاتك لأوامر ربّك ونواهيه.

وكفَىٰ بنفْسِكَ الْيَوْمَ المجرّدَةِ عن الأهواء والشّهواتِ والرَّغَباتِ من زينَة الحياة الدنيا، حَاسِباً دقيق الحساب، وكفى بنفسك قاضِياً عَلَيْكَ بالْعَدْلِ، وَحَاكِماً عَلَيْكَ بِمَا تَسْتَحِقُّ من جزاء.

**كفَىٰ بنفسك**: الباء حرف جرّ زائد للتوكيد، ونفسك فَاعل لفعل «كَفَىٰ».

❁ ❁ ❁

**النصّ الخامس:**

ما جاء بشأنهم في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلَّ:

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

- ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: أي: وعُرِضَ النَّاسُ في يَوْم الحشْرِ على رَبِّكَ أَيُّها المتلَقِّي أو التالي لهذه الآيات عَرْضاً صَفًّا، أي: بصُفُوفٍ مُنْتظمة، لا بطريقةٍ عشْوَائيَّةٍ أو فوضويَّة.

- ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾: أي: يقول اللّهُ عزَّ وجلَّ لَهُمْ بضَميرِ المتكلِّم العظيم يومئذٍ، وهم في المحشَرِ، لَقَدْ بَعَثْنَاكُمْ بَعْدَ مَوْتِكم وفَنَاءِ أجْسَادِكُمْ، بخَلْقٍ جَدِيدٍ، وجئْتُمُونا تَامّي الْخَلْقِ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي الحياة الدُّنيا.

- ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾: هذا خطابٌ يُوجَّهُ لمن كانُوا في الحياة الدّنيا يُكَذِّبُونَ بِنَبأ الْبَعْثِ ويَوْمِ الدّين. أي: لم تَكُونُوا تُصدِّقُون

بأنّي سَوْفَ أَبْعثُكُمْ إِلَىٰ الحياة بعد الموت، وأحاسِبُكُمْ، وأفْصِلِ القضاءَ بَيْنَكُمْ، وأُجَازِيكم على اختياراتكم في الحياة الدُّنيا، بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لكُمْ مَوْعداً لهذا كُلِّه، أي: لن نجعل لكم زماناً ولا مكاناً نحقق فيها ماسَبَق أن وعدناكم به في الحياة الدنيا.

**الموعد**: يطلَقُ على الوعد، وعلى مكانه، وعلى زمانه.

● ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾: أي: وَوُضِع بأمْرِ اللّهِ جنْسُ الكتاب إذْ يُطْلَبُ من كلِّ مَنْ كان مسؤولاً عن أعماله وأنواع كَسْبِه في رحْلَةِ امتحانه، أَنْ يَقْرَأَ صَحِيفَةَ مَا كَسَبَ في الحياة الدُّنيا بإرادَتِه الحرَّةِ، بعد أن تَسَلَّمَهُ منْشُوراً، وقِيلَ لَهُ: اقرأْ كتابك.

وعَقِبَ وَضْعِ الكتابِ تَرَىٰ أيُها الرَّائي أيًا كُنْتَ زُمَر الْمُجْرِمِين مُشْفِقين أي: خائفين، ممَّا فِيهِ من تَسْجِيلٍ كَامِلٍ لِجَرائِمِهِمْ، وهذا يكون يَوْمَ الحشر.

**المجْرِمُونَ**: هم أصحاب الخلود في عذاب جهنّم، في المصطلح القرآنيّ.

● ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾:

﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾: **الويل**: في اللُّغَة كلمةُ عذاب، وتُسْتَعمل في النُّدْبَةِ، والتفجُّعِ، والتَّوَجُّعِ. وعبارة ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ هنا عبارةٌ يَنْدُبُ فيها المجرِمُون أنفسهم، ويُعْلِنُونَ بها توجُّعَهم وتفجُّعَهُمْ خوفاً من المصير الذي هم صائرون إليه في جهَنَّم بعد محاسبتهم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والأمْر بتنفيذِ الجزاء، وسَوْقِهِمْ إلى جهنَّمَ زُمَراً.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾: استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ مِنْ دقّتِهِ الْبَالغةِ غايَةَ المتابَعَةِ في تسجيلِ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَة.

﴿لَا يُغَادِرُ﴾: أي: كَانَ لاَ يَتْرُكُ.

﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾: جاء تقديم الصَّغِيرَةِ على الكَبِيرةِ، جرياً على عادة العرب في مثل هذا التعبير، واهتماماً بذِكْر ما قَدْ يتهاون الناس بتسجيله عادةً، قبْلَ ذِكْرِ ما لا يتَهاوَنُون بتسجيله ممَّا يُهِمُّهم تسجيله، وتَسْجِيلُ الأشيَاءِ الصغيرةِ هو الذي يَجْذِبُ الانتباه أوّلاً.

﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾: أي: إلاَّ سَجَّلَها للمحاسبة عليها، وحَفِظَها، يُقالُ: لُغَةً: أَحْصَىٰ الشيءَ، أي: عَرَفَ مقداره، وأَحْصَىٰ الكِتَابَ، أي: حَفِظ جميع ما فيه.

● ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ﴾: أي: وَوَجَدُوا كُلَّ مَا عَمِلُوا في الحياة الدنيا من أعمالٍ إراديَّةٍ هُمْ مَسْؤُولونَ عنها، حَاضِراً أمَامَهُمْ في صُحُفِ أعمالهم، بِالصُّورَةِ، والصَّوْتِ، والغايات والنِّيَّات، وكلِّ ما يُرافِقُها من حركاتِ نفوسهم الإراديَّة.

● ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾: أي: وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أيُّها المتلَقِّي لهذا البيان أحداً في المحاسبة، أو في فصْل القضاء بشأنه، أوْ في الجزاء، فَلاَ يَجْزيه علىٰ عَمَلٍ مَا ظاهرٍ أوْ باطِنٍ لاَ يُعْتَبَرُ مسؤولاً عَنْه، من الأعمال السيِّئَة، وَلاَ ينْقُصُهُ ممَّا عَمِلَ من صالحاتٍ ابتغاءَ وجْهِهِ شَيْئاً. ولا يُحَمِّلُ نَفْساً وِزْرَ نَفْسٍ أخْرَىٰ، وميزانُ الْعَدْلِ الرَّبَّانيّ بالِغُ الدّقَّةِ، ويعْفُو سبحانه وتَعَالَى عَنْ كَثِير.

❁ ❁ ❁

**النصّ السادس:**

مَا جاء في سورة (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) فقد جاء فيها قوال اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى

جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا
حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي
سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا
فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ
﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا
الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

الهاء في: [كِتَابِيَهْ - حِسَابِيَهْ - مَالِيَهْ - سُلْطَانِيَهْ] هي هاء السّكت

أضاف هذا النصّ على ما جاء في النصوص السابقة ما يلي:

(١) أنّ من كان من أصحاب اليمين فأُوتي كِتَابَهُ بيمينه، فإنه يكُونُ شديد الْفَرح بما قرأ في كتابه، ومن شدّة فَرَحِهِ يقولُ لمعارِفِه وأصحابه أو لِمَنْ حوْلَهُ في الموقف:

- ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿هَاؤُمُ﴾: أيْ: خُذُوا. «هَا» اسم فعل أمر بمعنى: «خُذْ». وهو يسْتَعمل مقْصُوراً «هَا» ومَمْدُوداً «هَاءَ» فيُقَالُ: هَاءِ يا رَجُل، وهَاؤُما يا رجُلان، وهاؤُمْ يا رجال، وهَاءِ يا امرأة بكَسْرِ الهمزة، وهائِيا يا امرأتان، وهاؤُنَّ يا نِسْوةُ.

وقد تُوضع كافُ الخطاب بدَلَ الهمزة، فيُقَالُ: هَاكَ وَهَاكِ وهَاكُما وهاكُمْ وهَاكُنَّ... وفيها لُغَاتٌ أخرى.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾: أي: كان عندي احتمالان:

- احتمالُ أَنْ يُدْخلني الله عزَّ وجلَّ الجنَّة بعَفْوِهِ دُونَ حِساب.
- واحتمالُ أن يُحَاسِبَني حسَاباً يسيراً. وكنْتُ ظَنَنْتُ أنّي مُلاقٍ

حِسابيَ الذي أنتظره في موقفي هذا، مع وجود رَجَاءٍ بأن يُدْخِلَني الله الجنَّة بغَيْرِ حِسَاب، إذْ كان مُؤْمِناً وَمات على الإيمان، ويَحْمِلُ بعضَ الأوزار.

فالظَّنُّ الوارد في هذه الآيَة هو على حقيقتّه اللّغويَّة، وليس بمعنى اليقين. وانْصَرَفَ ذهْنُ طائفة من المفسِّرين عن تصوُّرِ الاحتمال الأوّل، فَحَمَلُوا الظّنَّ هُنا على الْعِلْم اليقيني، مع أنَّه ليس منه، بل هو من الظنّ الراجحِ الذي يُقابِلُه احتمالٌ آخر مَرْجُوح.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

**عِيشَةٍ**: مصْدَرٌ من مصادر فعل «عاش». تقولُ لُغة: عَاشَ يَعِيشُ عَيشاً، ومَعاشاً، ومَعِيشَةً وعِيشَةً. وهي بمعنى الحياة.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾: أي: فهو في حياة راضٍ بها كُلَّ الرِّضا، جاء في هذه العبارة وَصْفُ المؤمِن في الجنَّة بأنّ عيشته راضيه، والأصل أن يكون هو الراضي بها، فأُسْنِدَ الرضا إلىٰ الْعِيشَة على سبيل المجاز في الإسناد، ويُسَمَّى عند علماء البيان «المجاز العقلي» وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاد المتكلّم. والملابسة التي سوّغَتْ هذا المجاز كون المؤمن هو صاحب هذه العيشة، فهي جزءٌ من ذاته.

والغرض البيانيّ الإشعار بمصاحبة الرضَا لكلّ أجزاء عيشَةِ المؤمن في الجنَّة، فلا يُوجَدُ جزءٌ منها ولا عنصرٌ من عناصِرِها خالياً من الرضا، وهذا المعنى لا تُؤَدِّيه عبارة: فهو راضٍ عن عيشته.

﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾: أي: في جنَّةٍ عالية المكان، عالية المنزلة، وعَاليةِ الصّفات، عاليَةِ كلِّ نعيم يكون فيها للمؤمنين.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: **القُطُوف**: جمْعُ **القِطْف**، وهو يُقْطَفُ من ثمر الشّجرة سَاعَةَ قَطْفه. **والقِطْفُ**: عنقود العنب يُقْطَفُ من شجرته.

**دانِيَة**: أي: قَرِيبَةٌ، يتَنَاوَلُها أهل دار النعيم بأيْديهم من أشجارها في كُلّ أوضاعهم بدون مشقَّة.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: يُقَالُ لَهُمْ تَكْرِيماً وتَرْحِيباً وَدُعاءً طَيِّباً: كُلُوا من مآكلِ الجنَّةِ واشربوا من أنواع شرابها الطيّب النفيس هَنِيئاً.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾: أي: سائغاً لَذِيذاً. يُقالُ لُغةً: هَنِئَ الطَّعَامُ أو الشَّرابُ يَهْنَأُ هَنأً وَهَنَاءَةً، أيْ: ساغَ ولَذَّ.

﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾: أي: بسَبَب مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّمْتُمْ من إيمانٍ صَحِيح صادقٍ، وعَمَلٍ صَالِحٍ كُنْتُمْ تَبْتَغُون به مَرْضَاة اللَّهِ وَثوابَه، في الأيَّام الْخَالِيَةِ، حينَ كنتُمْ في رحلة الامتحان في الحياة الدنيا.

يُوَجَّهُ لهم هذا القول من الملائكة الذين يُحَيُّونَهم في الجنَّة ويُكَرِّمُونَهُم، بأمْرِ الله جلّ جلاله.

وقد يأتِيهم هذا الخطابُ من الرَّبّ جلَّ جَلاَلُهُ، تكريماً لهم وإسْعَاداً.

● ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾: أي: في موقف الحشرِ يوم القيامة، لِأَنَّهُ من أهْلِ النار الخالِدينَ فيها.

● ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾.

مقالاَتٌ يَقُولُهَا وَيُكَرِّرُها مَنْ أُوتي كتابَهُ بِشمَالِه، قبل أن يُحَاسَبَ لأنه يعْلَم ساعَتَئِذٍ أنَّهُ من أهل النار بمُجَرّد أَنْ يتسلَّم كتابه بِشِمَاله.

فهو يتمنَّىٰ أَنْ يكون قَدْ بقي كما كانَ في البرزخ ولَمْ يُبْعَثْ، ويتمنَّىٰ أنْ تكونَ مَوتَته التي ماتَها هي القاضيَةَ على وجوده كُلِّه إلى الأبد.

دلَّ على هذا ما أبانَ النصّ أنَّهُ يقولُهُ مكرِّراً له: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾.

● ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾: «يا» حرف نداء، داخلٌ على عبارة التَّمَنِّي «لَيْتَنِي» فأيَّ شيءٍ ينادي؟

قالوا: المنادَىٰ محذوف تَقْدِيرُه نحو: يَا رَبِّ.

وقيل: هو نداءٌ للكلام الدَّالِّ على التمنّي، بتَنْزِيل الكلمة منزلة العاقل الذي يُطْلَبُ حُضُورُه، لأنَّ الحاجة تدعُو إليه في حالة الندامة.

وقيل: هو حرف تَنْبِيهٍ.

**أقول:**

حرف «يا» في مثل هذا الاستعمال أشْبَهُ بأن يكون حرف نُدْبَةٍ وتَحَسُّرٍ وتفجُّعٍ وتَوَجّع، على تقدير أن جملة «لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابَيْه» واقعة موقع عبارة «مُصِيبتي العظمىٰ في يأسِي من نجاتي» ولم يَذْكُر المفسرون ولا النحاة مثل هذا. أو تكُونُ العبارة على تقدير: «يا أُمْنِيّتي التي لا سبيل إلى الحصول عليها».

● ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾﴾: قالوا «ما» اسم استفهام وهو مبتدأ وخبرُه حسابي والهاء للسكت عند الوقوف. وفعل «لَمْ أَدْرِ» معلَّقٌ عن العمل لأنّ الاستفهام له الصدارة.

**أقول:** أليس الأولى أن نعتبر «ما» قد تجرّدت عن الاستفهام، واقتصَرَتْ دَلاَلَتُها على الماهيّة، فيكون المعنى: ولم أَدْرِ حقيقةَ حسابِيَهْ، فهذا هو المتبادر من معنى العبارة.

● ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾: تحليل عبارة ﴿يَٰلَيۡتَهَا﴾ نظير ماسبق آنفاً في [**ياليتني**]. والضمير في [لَيْتَهَا] يعودُ على مَلْحوظٍ ذِهنا، وهي حالة الموْت الّتي كانَ فيها بين الموت والبعث، أو حالة إنْهَاءِ الحياة الأولى.

﴿كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾: أي: ياليْتَها كانت المنهيَةَ وُجودي كُلَّه إلى الأبَد.

**القضاء في اللُّغة**: إمضاءُ الشيء وإتمامُهُ وإنْهاءُه. والقاضِيَةُ هي الْمُنْهِيَة.

• ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾﴾: أي: ما أغْنَىٰ مالي الّذِي كان لي في الدنيا شيئاً، فصَرْفَ العذابَ والْعِقَابَ هذا اليوم عِنِّي.

أصْلُ معنى «أغناهُ» كفَاه، والكفايةُ عند الحاجة إلى ما يدفع المكروه تتضمّن معنى الصَّرْفِ، فيُعَدَّىٰ تَعْدِيته.

فالمعنى: ما أغناني مالي شيئاً فَصَرَفَ عَنِّي شَيْئاً من العذاب والعقاب يقول هذا القول مَنْ كان ذا غنًى بأمواله في الحياة الدنيا.

• ﴿هَّلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾: أي: هَلَكَ بالفناء سلطاني الذي كانَ لي في الدنيا، وابْتَعَد عنّي إلى الْعَدم بُعْداً أبَدِيًّا.

ضُمِّنَ فعْلُ «هَلَك» مَعْنى فِعْل «ابْتَعَد» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغْنَتِ الجملةُ عن جملَتَين.

يَقُول هذا القول من كان ذا سُلْطانٍ في الحياة الدُّنيا.

• ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾.

• ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾: الغُلُّ: طوقٌ من حديد أو جِلْدٍ، يُجْعل في عنق الأسير أو يَدِه، أو تجمعان وتَطوّقان بالغُلّ: **فَغُلُّوهُ**: أي: فاجْعَلوا الْغُلَّ في عُنُقِهِ أو في يَدِه أو فيهما معاً، يقال لُغَةً: غَلَّهُ يَغُلُّه.

هذا الخطاب يُوجَّهُ لملائكة التعذيب المكلّفين أَنْ يقوموا به، بعد صُدُور الحكم عليه بأنَّهُ من أهل الْخُلُود في جهنَّم.

• ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾: أي: ثُمَّ أَدْخِلُوهُ جهَنَّمَ ليَصْلَىٰ نَارَهَا، أي: ليُعَذَّبَ بالاحتراق بِلَهَبِها وبجمرها.

يُقال لغةً: صَلِيَ النَّارَ، وَصَلِيَ بها، إذا احترق بتسليط مادَّتِها على جَسَدِه، ويُقَالُ: أصْلاهُ النّارَ، وأصْلاهُ بها وفيها، وصَلَّاهُ، أي: أدْخَلَهُ النارَ ليحْتَرِقَ بِها.

• ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾: أي: فأدْخلوه، يُقَالُ لُغَةً: سَلَكَ الشيءَ في الشّيْءِ، أي: أدْخَلَهُ فيه وجَعَلَهُ يَعْبُرُه.

وباستطاعَتِنا تَصْويرُ هٰذه السِّلْسِلَةِ التي يُعَذَّبُ بها مَنْ يُكْرَهُ على سُلُوكها من أصحاب الشّمال، بأنّها دوائر تُضَمُّ وتُبْسطُ بروابط بَيْنَهَا، مع تجويفِ داخِلَها قابلٍ لأنْ يَسْلُكَهُ عابرٌ فيه، وعُبُورُ تجويف هٰذه السِّلْسِلَةِ أشَدُّ عذاباً من مُجَرَّدِ الدُّخُول في لَهَبِ النار، أو التقلُّب على جَمْرِها.

• ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾: أي: طُولُها سَبْعُونَ ذِراعاً. يقال لُغة: ذَرَعَ الشَّيْءَ يَذْرَعُهُ ذَرْعاً، إذا قاسَ طُولَهُ بالذِّراع. ولاَ يُهمُّ المتدبّر أن يَعْرِفَ مِقْدار طُولِ الذِّراع، فهذا أمْرٌ من أُمُور الآخِرَة.

• ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾.

جاء هذا البيان إجابَةً علىٰ سؤالٍ مَطْوِيٍّ مفادُه: لِمَ هذا التعذيبُ الشديدُ له؟! فجاء الجواب:

• ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾: أي: فَقَدْ كانَ في رِحْلَة امتحانِه يجْحَدُ وُجودَ اللّهِ رَبّه. أو يحجد صفاته العظمَىٰ وأسماءَهُ الحسنَىٰ، أو يجْحَدُ بعْضَها، مُشْركاً بِرُبُوبيّته أو بإلٰهيَّتِه، أو لا يُؤْمِنُ برُسُلِه المؤيّدين بالْمُعْجِزاتِ الرَّبَّانِيَّة، والآياتِ البيّنات، ولا ببَلاَغاتِهم عنْهُ جلَّ جَلاَلُه.

وجاء لفظ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ لِلإشارة إلى أنَّ عظَمَةَ اللّهِ ظاهرةٌ جليَّةٌ في آثارِه في كَوْنِهِ مَا كانَ مِنْهُ صغيراً أمْ كبيراً، فلا عُذْرَ لِمَنْ آتاه ربُّهُ أدواتِ

الإحساس والتفكير في أَنْ يَجْحَدَ مَنْ خلَقَهُ وخلَقَ الكونَ من حَوْله، ولا سيما بَعْدَ بَعْثِ الرُّسُل وإنْزَال الكُتُب.

● ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾: أي: وكَانَ في رِحْلَةِ امتحانه غير ذي رَحْمَةٍ بالضعفاء والبؤساء، بل كان قاسِيَ القلْبِ، فلاَ يتحرَّكُ لسانُهُ بتوجيه حضٍّ على إطعام الْمِسْكِينِ الجائع حقيقةً بسبب فَقْرِه الشّديد. **الحضُّ على الأمر**: الحثُّ عليه وطَلَبهُ بشدَّةٍ والحاح.

● ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾.

**الْحَمِيمُ**: القرِيبُ الذي تودُّه ويُوَدُّكَ، فهو يَنْصُرُك ويُدافع عَنْكَ، كما تنْصُرُه وتدافع عنه.

**غِسْلِين**: يعجبني في تفسير هذه الكلمة قول من قال من المفسّرين: هو نوع من الشجر يَنْبُتُ في جهنّم.

قال مجاهد: هو طعامٌ من طعام أهل النار.

وقال الضَّحَّاك: هو شجر في النار.

وهذا التفسير يتَّسِقُ مع أنواع طعام أهل النار، بحسَب دركاتِهِم في العذاب، فأشَدُّهم عذاباً يكونُ طَعَامُهُمْ من الشجرة الملْعُونة في القرآن، وهي شجرة الزَّقّوم. والأَخَفُّ عذاباً يكون طَعَامُهم من «غِسْلِين» والأخف منهما يكون طعامُهُمْ من ضَرِيعٍ، وهو نوعٌ من الشَّجَر لا يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي من جوع.

ويُلاَحَظ أنّه لم يأت في وصْف «غِسْلِينَ» نظير ما جاء في وصْفِ ما يُؤْكَلُ مِنْ شَجَرَة الزَّقوم، من أنَّه كالمهْلِ يغْلِي في البطون كغلْي الحميم، وأنه طعام الأثيم.

وأمّا الضريع، فقد جاء وصْفه في سورة (الغاشية) بأنه لاَ يُسْمِنُ ولا يغني من جوع، فهو أهون أطعمة جهنم تعذيباً لآكليها.

والمعنى: فليس لمن أخذ كتابه بِشِمَالِهِ يَوْمَ الدّين قَرِيبٌ يَنْصُرُه، أو

يَوَدُّه، وليس له طَعَامٌ إلاَّ من نوع شجرٍ في دار العذاب يُقَالُ له: «غِسْلِين» وهذا الطعام لا يَأْكُلُهُ إلاَّ الْخَاطِئُون.

**الخاطِئ**: مُرْتَكِبُ الذّنب مطلقاً، ولكن من حَكَمَ اللَّهُ عليه يوم الدين بأنَّه خاطِئ، ولم يشْمَلْهُ بعَفْوٍ وَلاَ مَغْفِرَةٍ وَلاَ تَخْفِيفٍ، فهو من مستحقي الخلود في عذاب النار، ويكُونُ طعامُه فيها من غِسْلِين، وهو وَسَطٌ أشدّ من الضريع، وأخف من شجرة الزَّقُوم، أخذا مِنْ سباقات النصوص وسياقاتها، ومن التكامل فيما بينهما. كما ظهر لي أنفاً.

❁ ❁ ❁

**النّصّ السابع:**

ما جاء في سُورَة (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول) فقد جاء فيها بالنسبة إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قول الله عزّ وجلّ.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

أضاف هذا النصّ على النصوص الّتي سبقَتِ النّظراتُ التدبّريّة حَوْلَها، ما يلي:

(١) أنّ من يُؤتَى كتابه بيمينه يوم العرض للحساب وفصل القضاء، يَنْتَظِر مُدَّةً في الموقف، ثمّ يحاسَبُ حساباً يَسِيراً، بِدَلِيل قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾: فكلمة سَوْفَ تَدُلُّ على مرور مدَّة طَوِيلة بين استلامه كتابه، وبين محاسبته حساباً يَسِيراً.

(٢) وأنَّهُ يَنْقَلِبُ من موقف حسابه، وفصْل القضاء بشأنه، إلى أَهْلِه في الجنة مَسْروراً.

**يَنْقَلِبُ**: أي: يَذْهَبُ وَيَنْصَرِفُ. ويأتي بمعنى: يَرْجع، والمعنى الأول هو المناسب هنا.

والمراد بأهْلِه زَوْجَاتُه من الحور العين، وسائرُ أهله في الدنيا إذا كانوا من أهل الجنة.

**مَسْرُوراً**: أي: بماظَفِر به من ثوابٍ عظيم وأجْرٍ جسيم.

وقد أبان الرسول ﷺ أنَّ هذا الحساب الْيَسِير هو نَوْعٌ من الْعَرْضِ الّذي لاَ تكونُ معه مُنَاقَشَةٌ.

روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ».

قالت عائشة: فقُلْتُ: أَفَلَيْسَ قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾؟! قال:

«لَيْسَ ذَاكِ بالْحِسَاب، وَلَكِنْ ذَلِكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ».

(٣) أنّ مَنْ يُؤْتَىٰ كِتَابه بشِمَالِهِ ولكِنْ من وراء ظهره، ويكونُ هذا بجعل يده اليمنىٰ مغلولةً مع الغُلّ الذي في عُنُقه، وبشَدِّيَدِهِ اليُسْرىٰ إلى جهة ظهره، ويُناول كتابه بها، فإنَّهُ ينتظر مُدّة في الموقف، ثمَّ يُحَاسَبُ حِسَاباً عسيراً، فَيُنَاقشُ الحسابَ على كفره وجرائمه، ويَقْضِي الله بشأنه، ويُصْدِرُ الحكم عليه بأنّه من أهل النّار، فَيَدْعُو على نَفْسِه بالهلاكِ الأبدي على سبيل التمنّي.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١﴾: أي: فهو ينتظر طويلاً، ثم يجري حسابه، وفَصْلُ القضاء في شأنه، فيدعو على نفسه بالثبور.

**الثُّبُور**: هو الهلاكُ، إنَّهُ يتمنَّىٰ حينئذٍ أن يموت مَوْتاً أبديًّا، فيصير تراباً، لكنّه لا مَوْت لأهل النّار، ولا لأهل الجنَّةِ بعْدَ البعث، فيَوْمُ الدّين هو يوْمُ الخلُود.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾: أي: يَدْخُلُ جهنَّم، ذائِقاً فيها عذابَ الْحَرِيق.

﴿يَصْلَىٰ﴾: أي: يَدْخُلُ ويَحْتَرِقُ ليذوق عذاب حريق النار.

**السّعِير**: لَهَبُ النار. أي: يَصْلَىٰ ناراً ذَاتَ لَهَبٍ مُنْتَشِرٍ ومُسَلَّطٍ عليه.

وقرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عامر، والكسائي: ﴿وَيُصَلَّىٰ سَعِيراً ۝١٢﴾ أي: وَيُدْخَلُ بإكراه وعُنْفٍ في دار العذاب، ويُحَرَّقُ بالسَّعِير.

وبين القراءتين تكاملٌ في المعنى، لأنَّهُ إذا أُدْخِلَ بعُنْفٍ مُكْرَهاً، دخَلَهَا وهُوَ كَارِهٌ، ويضيف الفعل المضعّف معنى شدَّة التعذيب لكبراء الكفرة المجرمين الطغاة البغاة.

(٤) بيان أنّ من يُؤْتَىٰ كتابَهُ بِشِماله قد كان في الحياة الدنيا مَسْرُوراً ضِمْنَ أَهْلِه، غافِلاً عَنْ أَمْرِ آخِرَتِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾ مستغرقاً فيما هو فيه، غَيْرَ مُهْتَمٍّ بالعمل لما ينجيه ويُسْعِدُهُ في آخِرَته، يتقلّبُ في نعم الله عليه، وهو كافرٌ به، غير معترف بمسؤوليتِهِ تجاهه.

(٥) بيان أنّه ظَنَّ حينَ كان في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، أنّهُ لَنْ يرجع إلى الحياة بَعْد مَوْته وفناء جسَدِه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾.

أي: إنَّهُ ظنَّ ظنًّا توهُّمِيًّا أنَّهُ لَنْ يَرْجع إلى الحياة بَعْدَ الموت، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

﴿يَحُورَ﴾: أي: يرجع. تقول لغة: حَارَ يَحُورُ حَوْراً، أي: رجَع. والمَحَارُ: الرُّجوع.

فهو إذنْ كافِرٌ بالله، وكافرٌ بيوم الدين، وبَطِرٌ مُتَفَاخِرٌ مَسْرُورٌ بما يمارِسُ في الحياة الدنيا من آثامٍ وسَيِّئاتٍ وذُنُوب.

ومن استعراض النصوص الّتي جاء فيها الحديث عن أصحاب اليمين وأصْحاب الشمال في القرآن المجيد، ينكشف لنا أنَّ أهل الجنّة في الجنّة على مراتب ودرجات متفاضلات، فمنهم المقرّبُونَ، مُحْسِنُونَ وأبرار على درجاتهم. ومنهم المتقون على درجاتهم. وأنّ أهل النار في النار على منازل ودركات، وأشدُّهم عذاباً من كان منزله في الدرك الأسفل من النار.

أمّا النصوص التي جاء فيها الحديث عن أهل الجنة وأهل النار فكثيرة جدّاً، وقد اقتصرت هنا على النصوص التي جاء فيها الحديث عن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال فقط.

اللّهم إنا نسألك الجنّة وما قرَّبَ إليها من قول أو عمل، ونَعُوذُ بك من النار وما قرّب إليها من قولٍ أو عمل.

❁ ❁ ❁

# سُورَةُ الطَّارِقِ

٨٦ مصحف ٣٦ نزول

## (١)
# نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾
إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾
خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ
عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا
نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ
لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ
كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

٤ ـ ● قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحَمْزَة، وأبو جَعْفَر: ﴿لَمَّا﴾ بِتَشْدِيد الميم.
وقرأ باقي القراء العشرة: [لَمَا] بتخفيفِ الميم.
﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى «إلاَّ» فهو حرف استثناء.
و [لَمَا] بالتخفيف، اللاّم في لما هي لام الابتداء المزحلقة إلى الخبر. و «ما» جيء به للتأكيد، فهو حرف زائد للتأكيد.
والقراءتان تشتملان على أسلوبين من أساليب تأكيد الخبر، أحدهما عن طريق النفي والاستثناء، والآخر عن طريق أدوات التوكيد.

## (٢)
# مما ورد في الحديث بشأن سورة الطارق

(١) من الروايات الواردات بشأن تلويم الرَّسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه على إطالته الصلاة وهو إمام بالناس، ما رواه النَّسائيُ بسَنَدِهِ عن جابر قال:

صَلَّىٰ مُعَاذُ الْمَغْرِب فقرأ البقَرَة والنِّساء. فقال النبيُّ ﷺ: «أفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟. مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تقرأ بالسَّمَاءِ والطَّارِق، والشَّمْسِ وضُحَاها، ونحوها؟».

(٢) وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة: «أنّ رسُولَ الله ﷺ كان يَقْرأُ فِي العِشَاءِ الآخِرَةِ ذات البروج، وَالسَّمَاءِ والطَّارِق».

❁ ❁ ❁

## (٣)
# موضوع السّورة

يَدُورُ مَوْضُوع هذِه السُّورَة حوْلَ تَأْكيد ثلاث قضايا مِنْ قضايا قانون الجزاء الرَّبَّانِيِّ يَوْم الدِّين، وبَعْض مقتضياته السَّابِقَةِ لَهُ في ظُرُوف الحياة الدنيا، وهذا التأكيد مقرونٌ بأدلَّةٍ كَوْنيَّةٍ عَامَّةٍ.

وأُلْحِقَ بهٰذِه الْقَضَايا بَيانٌ مؤكَّد بالْقَسَم يَتَضَمَّنُ أنَّ مَا جَاءَ في هذه السُّورة وفي غيرها من سُوَر القرآن مِنْ أحاديث عن الجزاء الرَّبَّانِيّ يوْمَ الدِّين، إنَّما هو قَوْلٌ حَقٌّ وَجِدٌّ وفَصْلٌ، لاَ تَلاعُبَ فِيه ولا هَزْل.

وأُتْبِعَ ذَلِكَ بِبَيَانِ مَوْقف كُبَراءِ مُشْرِكي مكَّة من الرَّسُول محمّدٍ ﷺ ودَعْوَتِه إبَّانَ نُزُولِ السُّورَةِ، وبيان التدبير الرَّبَّاني المقابل له، وبيانِ الموقف الّذِي ينْبَغِي للرسول أنْ يواجِهَهُمْ به في هذه المرحلة من تاريخ دعوته، ومعه الّذين آمنوا به واتَّبَعُوه.

■ فالقضايا الثلاث المتعلّقَةُ بقانون الجزاء الرَّبَّانيّ يوم الدّين ومقتضياته من قبله، هي ما يلي:

**القضيَّة الأُولى**: تأكيد أنَّ الإنْسَانَ الممتَحَنَ المكلَّفَ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، مُرَاقَبٌ مُرَاقَبَةً تَامَّةً، فيها تَسْجِيلٌ كامل، يحفَظُ حِفْظاً دقيقاً كُلَّ مَا يَصْدُرُ عنْهُ من سُلوكٍ إرادِيٍّ، هو مسؤولٌ عنه في رَحْلَةِ امتحانه، دلَّ على هذه القضيَّة قول الله عزّ وجلّ في السُّورَةِ:

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾.

**القضيَّةُ الثانية**: تأكيد أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قادِرٌ على إرْجاع الإنسانِ إلى الحياة بَعْدَ مَوْتِهِ وفَنَاءِ جَسَدِهِ، لمحاسبته، وفَصْل القضاءِ بشأنِهِ، وَمُجَازاته، بالعدل أو بالفضل، وهذا التأكيد موجَّهٌ لمنكِري البعث، أو الشاكّين فيه، دلَّ على هذه القضية قول الله عز وجلَّ في السُّورَةِ:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾.

**القضيَّة الثالِثة**: بيان أنَّ الإنْسَانَ حينَ تُكْشَفُ سرائِرُهُ، وهي نيَّاتُهُ من أعْمَالِه الظَّاهرة والباطنة، لدى محاسبته ومجازاته يوْمَ الدّين، يَكُونُ عاجزاً عن أن يدفَعَ عن نَفْسِه شيئاً من عقاب الله عزّ وجلَّ له، إذا قضَىٰ اللَّهُ عليه بالعقاب، وأنَّه يومَئِذٍ لاَ تَكُونُ لَهُ قُوَّةٌ ما يَدْفَعُ بها عَنْ نفْسِه شيئاً من العذاب، ولا يكونُ لَهُ أيُّ ناصرٍ يَنْصُرُهُ فَيَدْفَعُ عَنْهُ من عذاب اللَّهِ شيئاً، دلَّ على هذِهِ القضيَّة قول الله عزّ وجلّ في السُّورة:

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

■ وَأمَّا البيانُ الَّذِي يتَضمَّنُ تأكيد أن الأحاديث المتعلّقَةَ بالجزاء الرَّبَّانيّ يَوْمَ الدِّين، في هذه السُّورَةِ وَفي غَيْرِها، قولٌ حقٌّ وصِدْقٌ وجِدٌ وَفَصْل قاطِعٌ مُمَيّزٌ للحقيقة، لاَ تَلاَعُبَ فِيه ولا هزل، فَدَلَّ عليه قولُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ في السُّورَةِ:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾.

■ وأمَّا مَوْقِفُ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مكَّةَ إبَّانَ نُزُولِ السُّورَة، وهو موقف الإعْدَاداتِ الكَيْدِيَّةِ ضِدَّ الرَّسُول ﷺ، وضدّ الّذين آمَنُوا بِهِ واتّبَعُوه، وضدّ انتشار دعوته، فَدَلَّ عليه قول الله عزّ وجلَّ في السورة:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾.

■ وأمَّا التَّدْبير الرَّبَّانيُّ المقابل لكَيْدِهم، فدَلَّ عليه قول الله عزّ وجلَّ في السُّورَةِ:

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾.

■ وأمَّا الموقف الّذي يَنْبَغِي للرسول ﷺ أن يواجِهَهُم به، ومعه الّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فهو مَوْقف التَّمَهُلِ والانتظار وعَدَمِ التَّعجُّلِ باتّخاذِ أيّ مَوْقفٍ تَصادُميٍّ مع من يكيدُهُمْ من المشركين.

وقَدْ دلَّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ تأكيدِيَّةٍ غايَةٍ في الإلْزَام، بالنسبة إلى هذه المرْحَلَةِ من تاريخ الدّعوة، قول الله عز وجلّ في آخر السورة:

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

وهكذا فالسورة ذاتُ موضوع واحدٍ متعانق الفقرات.

❁ ❁ ❁

## (٤)
## دروس السورة

بعد اكتشاف موضوع سورة (الطارق) الّذي سبَقَ بيانه، باستطاعة المتدبّر المتأنّي أن يُحَدّد دُرُوسَها في مفاصل واضحةٍ منها، وهي لدى التأمّل أربعة دُرُوس:

**الدرس الأول:**

دَرْسٌ يشْتَمِلُ على قَسم بالسَّماء ذَاتِ النُّجوم الثواقِب الّتِي تَصِلُ أَضْوَاؤُها إلَىٰ الأرض، على أَنَّ كلَّ نَفْسٍ مُمْتَحَنَةٍ مُكَلَّفَةٍ في ظروف الحياة الدنيا، مُرَاقَبَةٌ مُرَاقَبَةً تَامَّةً، تُسَجَّلُ عليها فيها مكْتَسَباتها الإراديَّة الظَّاهِرَةُ والباطِنة، ومِنْها سرائرها، كالنِّيَّاتِ وَمَا تُخْفي الصُّدُور من إيمان أو كُفْرٍ أو نِفَاقٍ، أو غَيْرِ ذلِكَ من مكتَسَباتٍ إرادِيَّة.

ومَعْلومٌ أنَّ الالْتِزَامَ بالْمُرَاقَبَةِ التَّامَّة مَعَ تَسْجِيلِ كلِّ المكتَسَباتِ الإراديَّة، يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً سَوَابِقَ وَلَواحِقَ، فَمِنَ السوَّابِقِ كوْنُ النَّفْسِ مَخْلُوقاً ممتحناً مُبْتَلىٰ في ظروف الحياة الدنيا، ومن اللَّوَاحِقِ كَوْنُ هذا المخلوق مبعوثاً لحياة أخرى بَعْدَ الموت والفناء، للحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، على ما قَدَّمَ وأخَّرَ في رحلة الابتلاء.

وهو الآيات من (١ ـ ٤).

**الدرس الثاني:**

درسٌ يشْتَمِل على لَفْتِ أنظار الّذِين كذَّبوا بِنَبأِ البعث، وإرجاع الميّت الفاني للحياة مرَّةً أخرى، إلى دليل التَّسْوية بين الإعادَة والْبَدْءِ، وذلك بتوجيه أنظارِهم لوَاقِعِ خَلْق الإنسانِ من ماءٍ دافقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والترائب.

والمعنى: أنَّ إعادة خلقه من التّرَابِ بَعْدَ أن كان واقعاً مشهوداً، أهْوَنُ من بَدْءِ خلْقِه من ماءٍ مَهِين، يَرْجِعُ إلى سلسلة تطَوُّرِيَّةٍ، من حَلْقَاتِها الطين، الذي هو ترابٌ وماءٌ.

وهو الآيات من (٥ ـ ١٠).

**الدرس الثالث:**

درسٌ يشتمل على قَسَمٍ آخر بالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ النافع لسُكَّانِ الأرض، وما في هذا من اتقانٍ تامٍّ، وإحكامٍ عجيب، وتنظيم رائع، وقَسَمٍ آخَرَ بالأرض ذات الصَّدْع (= الشَّقّ) وما في تنظيم عمليات الصَّدْع فيها من اتقان وإحكام مُذْهِشَيْن، وما فيه من نفع عظيم للعباد السّاكِنين عليها، إذْ يكونُ به إنباتُ النَّباتِ، وتفجير العيون، وإجراء الأنهار، وإخراج كنوز الأرض من معادن وغيرها.

على أنَّ أنباء الجزاء يَوْمَ الدّين وَلوازمَهُ السَّابقة لَهُ، قَوْلٌ حَقٌّ وصِدْقٌ،

لا بَاطِلَ فيه ولا كذب، وَقَوْلٌ جِدٌّ، لاَ تَهْوِيلَ فيه ولا هزْلَ ولاَ لَعِب.

وهو الآيات من (١١ ـ ١٤).

**الدرس الرابع:**

درس يشتمل على بيان الموقف الذي وصل إليه كُبراء مشركي مكّة إبّان نُزُول سورة (الطارق) وهو موقف الكَيْدِ الشديدِ ضِدَّ الرَّسُول ورسالتِه، وضِدَّ الذين آمنوا به واتَّبعُوه، والكَيْدُ يُطْلَقُ على الحرب، وإعداد الوسائل لها، واتّخاذ الأعمال والتدبيرات الحربيَّة المختلفة.

ولم يَصِلُوا إلىٰ هذا الموقف إلاَّ بَعْد أَنْ تَنَقَّلُوا في المراحِلِ تَنقُّلاً تَشدُّدِيًّا، من مرحَلةِ الإعراض، إلى مرحلة الإدْبار، فمرْحلة إعلان الخصومة، فمرْحَلةِ العِدَاءِ، فمرْحَلَةِ الإيذاءِ والمضايقة، فمرحلة المحاصرة والإضرار، فمرحلة الإضطهاد الموجّه ضِدَّ ضعفاء المؤمنين، فمرحلة الإعدادات الكيديَّة الحربيَّة.

ويشتمل على بيان التدبير الرَّبَّانيّ لإحباط كيدهم، وبيان الموقف الذي ينبغي للرسول أن يَتّخذَهُ هو والذين آمنوا معه واتبعوه في تلك المرحلة، وهو موقف التمهُّل والانتظار وعدم التعجّل باتخاذ أيّ موقف تَصَادُميّ مع المشركين، وهذا يستدعي شِحْنَةً كبيرَةً من الصَّبْر.

❁ ❁ ❁

## (٥)
## التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ٤)

قال الله عزَّ وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾.

يُقْسِمُ رَبُّنا بالسَّماءِ، وبالنجم الثاقب الذي يظهر فيها، أي: بجنْسِ النجم الشّامل لِكُلّ النجوم الّتي تُرَى في السّماء، بالنسبة إلى سُكّان الأرض، على أنَّه ما من نَفْسٍ خَلَقَها لِيَبْلُوَهَا إلاَّ عَلَيْها حَافظٌ يُحْصِي عليها ما تكسب بإرادتها، والعبارَة تشمل كلّ نفس، وكل ما يصْدُر عنها.

ووصف الله جِنس النَّجْم الذي يظهر لسُكَّانِ الأرضِ في السَّمَاءِ بوَصفين:

**الوصف الأوّل**: أنَّه الطَّارِقُ دواماً، وعظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ بعبارَة التعجيب القرآنية فقال بشأْنِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾. الطارق: هو الذي يأتي لَيْلاً.

**الوصف الثاني**: أنَّه الثَّاقِبُ، أي: المضِيءُ الّذي يَظْهَرُ ضَوْؤُه كأَنَّهُ خارِقٌ ثَقْباً في السماء، دون أن يكون له انتشارٌ ضَوْئي شامل.

## الشرح التحليلي:

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ الواو هي «واو الْقَسم» وهو من حروف الجرّ، والعامل محذوف لا يجوز عند النحاة مع الواو إظهارُه، والتقدير: أقسم أو أحلف والسَّماء.

**السَّمَاء**: تُطْلَقُ لغة على كلّ ما ارتفع وعلا، أو كان في جهة العلو من فعل: سما يسْمُو سُمُوًّا فهو سام، أي: ارتفع وعلاَ ارتفاعاً مادّيًا أو معنويًا، وسماءُ كلّ شيءٍ أعلاه، والغلاف الغازي المحيط بالأرض يدخُلُ فيما يُطْلَقُ عليه لغة لفظ «سماء».

والمراد بالسماء هنا السَّماءُ البعيدة التي تظْهَرُ فيها النُّجوم الثواقب، بدليل اقتران القسم بها بالقسم بالطّارق الذي هو النَّجْمُ الثاقب.

﴿وَٱلطَّارِقِ﴾: وهذا قَسَمٌ بالطَّارِقِ. وكلمة «طارق» اسم فاعل من فعل: طَرَقَ يَطْرُقُ طُرُوقاً، أي: جاء لَيْلاً، فهو طارق.

وكلُّ آتٍ ليلاً يُقال له في اللُّغة: طَارِق، وجمعه: «طَوَارق» وقَدْ يُجْمَعُ أيضاً على أَطْرَاق.

وجاء في الحديث أنّ الرسول ﷺ نهىٰ المسافِرَ إذا رجَعَ من سَفَرِه عَنْ أن يَطْرُقَ أهله طُروقاً، أي: عن أَنْ يأتيهم لَيْلاً، وكان الرسول ﷺ لا يفعل ذلك.

ولمّا كانت النجومُ الثواقبُ في السماء إنّما تظهر لسُكَّانِ الأَرْضِ ليْلاً، وكان هذا دأبَها في كلِّ ليْلَةٍ، كانَ من المناسب أن يُطْلَقَ على كلِّ واحدٍ منها وصْفُ الطارِق.

وإذْ كانت «ال» في الطارق للجنس، كان لفظ «الطَّارِق» يَعُمُّ كُلَّ نَجْمٍ يُرَىٰ ليلاً في السَّماءِ، فالتقدير: أقْسِمُ والنُّجومِ الطوارقِ ليلاً.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾: في هٰذِه العبارة يُعَظِّمُ الله عزَّ وجلَّ من شَأْنِ هٰذه النُّجوم الَّتي تُرىٰ في اللَّيلِ، وهي العبارة المتكرّرة للتعْجِيبِ والتعظيم في القرآن المجيد.

أي: أعظم أيُّها المخاطَبُ أيًا كُنْتَ بأمْرِ هٰذا الطَّارق الذي هو النَّجْمُ الثاقِبُ، إعظاماً لاَ تَصِلُ إليه دِرَايتُك مهما عظمت مناظيرك، ووسَائلُك الّتي تَرْصُدُ بها مُشَاهَدةَ هذِه النجوم، متَتَبِّعاً دراسَتَها.

وقد سبق شرْحُ هذه الصيغة القرآنيّةِ المبتكرة في التعجيب والتعظيم، وتحليل عناصرها بمقتضى القواعد العربيّة.

وفي هذا الاستفهام التعجيبي تشويقٌ للمعرفة، فتأتي الإجابة على مواقع الشوق لها. ولـمّا كان الطارق يُطلقُ على كلّ آتٍ باللّيلِ، وجاء الاستفهام عنه لتعظيم أمره، كان لا بُدَّ من بيان المراد به.

﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾: فَسَّرَ الله عزّ وجل بهذه العبارة المرادَ بالطَّارِق

الذي أقْسَم به، أي: هُو النَّجْمُ الثَّاقِب، ودَلَّتِ القرائن على أن المراد جنْسُ النجم الثاقب إذ «ال» لإرادة الجنس، فيشْمَلُ كلَّ النُّجوم الّتي يَراهَا الراؤُون ليلاً، وهُمْ على سَطْحِ الأرض، فكأنه قال: والسَّمَاءِ والنُّجُومِ الثواقب فيها.

ولمّا كان من النجوم نجومٌ بَعِيدَةٌ جدًّا في أبعاد السَّمَاءِ السّحيقة، وهي لا تُرَىٰ بالنِّسْبَةِ إلى سُكَّان الأرض، اقتصرَتِ السُّورَةُ في لفت نظر الإنسان على ما يراهُ منها لَيْلاً، فهيَ الَّتي تَطْرُقُ لَيْلاً.

**النجمُ**: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو النَّجْم، **الثاقبُ**: نعْتٌ للنجم.

**الثاقب**: هذه الكلمة تأتي في اللُّغة بمعنيَيْن: بمعنى «مُضِيء» وبمعنى «مُحْدِث للثَّقْب» **الثَّقْبُ**: هو الخرقُ النافِذُ في الشيء حتَّىٰ غاية الْوَجْه الآخر له.

ويظهر أنّ معنى الإضاءة لكلمة «الثاقب» يرادُ به إضاءةٌ نافذة كالخرق، وليس لها انتشارٌ واسعٌ.

ويقال لغة: زَنْدٌ ثاقب، وهو الذي إذا قُدِح ظهرت ناره على شكْلِ شَرَارات ذات إضاءة ثاقِبَةٍ دون انتشارٍ لها.

فمعنى «ثاقب» يَدُور لغة حول ما يثقب الشيء ثَقْباً خارقاً له، والإضاءة الّتي لا انتشار لها، فهي تُشْبه الثَّقْب في ستارة سوداء. والمثقوبُ بأضواء النجوم ظُلْمَةُ اللّيل.

وعلى هذا المعنى وصَفَ الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) الشهاب الذي يُتبِعُ الشيطانَ الذي يحاول أن يَسْتَرِق السَّمْعَ من الملأ الأعلى بأنّه شهابٌ ثاقب، فقال تعالى فيها:

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

وفي وصف النجوم في السّماء بأنّها مُضيئةٌ إضاءةً تُشْبه الأضواء الّتي تظهر نافذةً من ثُقُوبٍ في ستارة سوداء، إشارةٌ إلى ما فيها من منافع لسُكَّانِ الأرضِ، إذْ تهديهم مواقعها إلى طُرُقاتهم في ظُلُماتِ البرّ والْبَحْر.

والقسَمُ بالسَّمَاءِ وبالنجوم الثواقب فيها، قسَمٌ بآيةٍ عظيمةٍ كبرىٰ من آيات الله في كونه، وهي آيةٌ تَدلُّ علىٰ أنّ علْمَهُ مُحِيطٌ بكُلِّ شيء، وأنَّ إرادَته في الخلْقِ والتَّدْبير إرادةٌ حَكيمَةٌ جليلة، وأنّ قُدْرَتَهُ عظيمةٌ لاَ يُعْجِزُهَا شَيْءٌ تتعلَّقُ بإيجادِه إرَادَتُه، صغيراً كان أم كبيراً.

إنّ السَّمَاءَ والنجوم فيها، والتي تُعْتَبَرُ الأرضُ كُلُّهَا بالنِّسْبَة إليها بمثابة رَمْلَةٍ صَغِيرةٍ بالنِّسْبَةِ إلى سائر الأرض، ويذكر علماء الفلك أنّ بعض النجوم في السماء التي نراها بمقدار عَيْنٍ صغيرة، أكْبَرُ من الأرض بمَلاَيين المرَّات، وإنَّما صغَّرَهَا فِي أعيُنِنَا بُعْدُها عنَّا. والنجومُ في السماء ذواتُ حَرَكاتٍ ومَسيراتٍ وأفْلاَكٍ عجيبات في إتقانها وإحكامها.

فَمِنَ الحكمة أن يُقْسِمَ اللَّهُ عزّ وجلّ بِهَا للتَّنْبيه على ما فيها من دَلاَلاَتٍ على عظمة الرَّبّ الخالق العليم الحكيم القدير.

وقد جيء بهذا الْقَسَم لتَأْكِيدِ خَبَرٍ عن بَعْضِ تَدْبيراته الصغيرة الهيِّنَةِ بالنِّسْبَة إلى خَلْقِه السَّمَاءَ والنجومَ الَّتي لا تَسْتَطِيع الخلائق حصرها، ولا إدْراك أبعادِها، وإلى تدبيره حَرَكاتِها ومَسِيراتها وتأثيراتِها في هذا الكون العظيم.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾.

وفي القراءة الأخرى [لَمَا].

هٰذا هو المقسم عليه المؤكّدُ بالْقَسَم. أي: ما مِنْ نَفْسٍ خَلَقَهَا اللَّهُ إلاَّ جعَلَ عليها حَافظاً يحفَظُ مَا يَصْدُرُ عَنها من أقوالٍ وأعمال وحركاتٍ نفسيَّةٍ وفكريَّةٍ وَقَلْبيَّةٍ ونيَّاتٍ، ولا يكونُ حافظاً إلاّ إذا كان مُرَاقِباً دواماً، مُشَاهِداً

لِكُلِّ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ حِفْظُه أفيَعْجِزُ الرَّبُّ العظيم الجليل الّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ العظيمة، وخَلَقَ هٰذِه النجوم المدهِشَةَ بتَكوينها وأعدادها وإتقان مسيراتها وحركاتها في أفلاكها، عن أن يَجْعَل على كلِّ نَفْسٍ حَافِظاً مُراقباً، يُسَجّلُ عليها كُلَّ مَا يَحْدُثُ فيها وكُلَّ مَا يَصْدُرُ عنها؟!

تَعالَىٰ اللَّهُ عن أن يكون عاجزاً عُلُوًّا كبيراً، والشّاكّون بمِثْلِ هذا الخبر ما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِه.

والمناسبة بين الْمُقْسَم به والمقْسَم عليه هي التشبيه، فالسَّمَاءُ محيطَةٌ بالأرض، والنجومُ فيها كثيرة نافِذَةٌ عَيُونها من ثُقُوب ستارة اللّيل إلى الأرض، وكُلُّ نَفْسٍ مُحَاطَةٌ بالعلم الرَّبّاني الّذي لا يَخْفَىٰ عليه منها خافية، وعَلَيها أيْضاً مُرَاقِبٌ ثَاقِبٌ لحجبُها، يراقبها في خلواتها، حتّى داخل سرائِرِها من نياتٍ ومَكْنُوناتٍ مُضْمَرَاتٍ في صُدُورها، والّتي سَوْفَ تُكْشَفُ يَوْم الحسابِ في محكمة العدل الرَّبَّانيَّة.

ودَلَّتْ عبارَةُ ﴿عَلَيۡهَا﴾ على أنَّ المراد بكَلِمَةِ ﴿حَافِظٞ﴾ مُرَاقِبُ أعمال الإنسانِ ومُسَجِّلُها، إعداداً للحساب، وفَصْلِ القضاءِ، وتنفيذِ الجزاء، إذْ هي القضيَّةُ الّتي جيءَ بالقسم لتأكيدها، وإنْ كانَتْ كلمة ﴿حَافِظٞ﴾ صالحة للدّلالة على معنى حفظ الإنسان من المخاطر والمؤذيات، إلاّ ما فيه من الله عزّ وجلَّ قضاءٌ وقدَرٌ، غير أنّ هذا المعنى يُنَاسِبُه عبارة: «لَهَا» لا عبارة: ﴿عَلَيۡهَا﴾.

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ﴾: أي: ما كُلُّ نَفْسٍ «إنْ» حَرْفُ نَفْي، مثل «ما».

﴿لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾: ﴿لَّمَّا﴾ أداة استثناء بمعنى «إلاّ».

والنفْيُ والاستثناء يفيد الحصر والقصر، وهو من قصر الموصوف على الصفة، وهو هُنَا قَصْرٌ إضافيٌّ، لأنّ المَقْصُودين بالخطاب مُنْكِرو وُجُودِ مُرَاقَبةٍ دائمةٍ لأعْمَالِ الناس الظاهرة والباطنة، أو الشَّاكُّونَ فيها، فجاء القصْرُ لرَدّ تَوَهُّمِهم.

وعلى قراءة [لَمَا] تكونُ ﴿إن﴾ هي المخفَّفَة من الثقيلة، وتكون اللّام في [لَمَا] هي اللّام المزحلقة إلى الخبر، وتُسَمَّىٰ هُنَا اللاَّمَ الفارقة، لأنَّها فارقة بين «إنْ» المخفّفَة من الثقيلة، عن «إنْ» النافية.

**قالوا**: و «ما» في [لَمَا] زَائِدَةٌ للتَّأْكيد. **أقول**: ما المانِعُ أنْ يَكونَ لفظ «مَا» هنا اسماً نَكِرَةً، وهو مُفَسَّرٌ بما قبله، ويكون المعنى: إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَنَفْسٌ عليها حافظ.

ففي القراءتَيْن أسْلُوبَانِ من أساليب تأكيد الخبر، أحَدُهُما عن طريق النفي والاستثناء، والآخَرُ عن طريق أدوات التأكيد (إنْ ـ والجملة الاسميّة ـ واللاّم المزحلقة».

## الأسلوب القرآنيّ في تأكيد الأخبار الغيبيَّة:

يُسْتَفاد من أُسْلُوب التأكيد القرآنيّ في هذا الدَّرْس وفي غيره من سور القرآن، أنّ البيانَ حينما يكون متعلّقاً بخَبَرٍ غَيْبِيٍّ، لا سبيل إلى علم المقصُودِين بالخِطاب به المنكرين لَهُ إلاَّ عَنْ طَرِيق الخبر، فإنّ الْخَبَر يأتي مُقْتَرِناً بالمؤكّداتِ الخبريَّة، وَأعلاها القسم.

ويأتي التصرُّفُ الرَّبَّانيُّ الحكيم فيمَا يَصْلُح لأنْ يُقْسِمَ اللَّهُ به، باختيار الْقَسَم بما يتضمَّن نَوْعَ حُجَّةٍ تَتَّصِلُ بالْقَضِيَّةِ الّتي يُؤَكِّدُها اللَّهُ عزّ وجلّ بالقسم، أو بماله بها مُنَاسَبَةٌ ما، ولو كانت على سبيل التشبيه أو التنظير لِتَقْرِيب الْمُقْسَم علَيْه إلى أفْهام المقصودين بالخطاب، ولِيَقِيسُوا ما يَجْحَدُونَهُ من غَيبيّ، على ما لا يَقْدِرُونَ على جُحُودِه وإنكارِه من مَشْهود.

ومن هذا القبيل الْقَسَمُ بالسَّماءِ والطَّارِقِ، على وُجودِ حَافِظٍ له مُشَاهَدَةٌ دَائِمَةٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ خَلَقَها الله، فهو مُراقِبٌ لها دواماً، ويُسَجِّل كُلَّ ما يَصْدُرُ عنها من أنْوَاعِ وأفرادِ سُلُوكٍ إراديّ، جَسَدِيٍّ، أو فكريٍّ، أو قَلْبِيٍّ، أو نَفْسِي.

والمَناسبةُ هُنَا هي تَشْبيه الْعِلْم الرَّبَّاني الذي لا يَعْزُبُ عَنْهُ مثقال ذَرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، بالسَّماءِ الْمُحِيطَةِ بالأَرْض، وتَشْبِيهُ الرُّقَبَاءِ من الملائكة بالنُّجُومِ الثواقِب.

## الأسلوب القرآني في تجزئة العناصر الفكريّة للموضوع الواحد وتوزيعها في دروس التنزيل:

المتدبِّر المتأنّي المتتبِّع للموضُوعات القرآنيّة يُلاحظُ أنَّ الموضوع القرآني الواحد، ذا العناصر والأجزاء المتعدّدة، لا يأتي القرآن بكلّ عناصره وأجزائه في دَرْسٍ واحدٍ من دُرُوسِ التنزيل، بل يلاحِظُ أنَّ هذه العناصر والأجزاء المتعدّدة، مفصّلة وموزعة في دروس متعدّدة، ضمن عَدَدٍ من سُور القرآن غالباً، وتأتي على مراحلَ في نجوم التنزيل، وما يأتي من هذه العناصر في درس من دُرُوس التنزيل يأتي مقترناً ببعض الحجج الّتي من شأنها أن تُقْنِع طالب الحق، إذا كانت القضيّة ممّا يمكن إثباته عن طريق العقل أو شواهد الحسّ.

أمّا إذا كانت القضيّة من الأمور الغيبيّة الخبريّة الّتي ليس لها حُجج عقليَّةٌ مباشرة، فيأتي الإخبار بها مقترناً بالمؤكّدات الّتي تعارَفَ الناس على تأكيد أخبارهم بها، وأعلاها الْقَسَم، وأَحْكَمُ الأقسام ما لَه صلَةٌ بكمال المقْسِم صاحب الخبر، وله مُنَاسَبَةٌ تَصِلُهُ بالْمُقْسَم عليه، كالقسم الذي تدبّرناه في هذا الدرس من دُروس سورة (الطارق).

وهذا الأسلوب القرآنيُّ الذي نُلاحِظُه من تَتَبُّع دروس التنزيل وفق ترتيب النُّزُولِ، يُعَلِّمُنَا مَنْهَجاً تَرْبَويًّا وتعليميًّا ملائماً للطبائع البشريّة. ويَدُلُّنا ضِمْناً على أنّه هو المنهج الأحكم والأقوم، إذ اختاره الله لنفسه في تعليمه عناصر دينه الذي اصطفاه للناس، وفي تَرْبيته لمتلقّي هذه الدُّرُوس، ومعالجته أصنافهم المختلفة، بالإقناع الذي يَتَتَبَّعُ الأَجْزَاءَ والعناصر الفكريّة،

للموضوع الكلّيّ الواحد، فيُحيطُ كلَّ جُزْءٍ منها بما مِنْ شأنه أنْ يوصِلَ الْعُمْقَ الفكريّ والنَّفْسِيَّ إلى الاقتناع، إذا كان الإنْسَانُ المتلَقّي مُسْتَعِدًا استعداداً إراديًا للتعرّف على الحقّ، وقَبُوله متىٰ ظَهَر له، والإيمان به متىٰ اقتنع به.

أمّا إذا كان المتَلَقّي صاحبَ هوى، أو متصلِّبَ الفِكْر عنْدَ سوابق عقائد، أوْ مستكْبراً، أو ذا علَّةٍ أخرى من عِلَلِ النفس، فإنّه أحَدُ شَخْصَيْن:

● إمّا أن يكون غَيْر مُسْتَعِدٌ لقَبُولِ الحقّ والالتزامِ به، ولو ظهر له، وعرَفَ أنّه حقٌّ.

● وإمَّا أَنْ يكون غَيْر مستعِدٌ ابتداءً لأنْ يَفْتَح نوافِذَ فكره ونَفْسِه وقلْبه، للتعرُّفِ على الحقِّ، واستقبالِ أنواره، رضاً بما هو فيه من أدناسٍ فكريَّةٍ ونَفْسِيَّةٍ، وتوهُّماً منه أنّ ما هو عليه هو الحقّ، فهو لا يُريد أَنْ يُجْهِدَ ذِهْنَهُ بالتَّفكُّرِ في غَيْرِه، ولا يُريدُ أنْ يغيِّرَ ما هو عَلَيْهِ من مألوفٍ فكرِيّ، أوْ مألوفٍ نَفْسِيّ، أو مألوفٍ سلوكيّ، مهما كان الأمْرُ الذي يُدْعَىٰ إليه هو الأمْر الذي يجب عقلاً الإيمان به، والْعَمَلُ بمقتضاه.

**أمّا الفريق الأول**: فهو فريقٌ معانِدٌ مكابِرٌ، أفرادُهُ ساقِطُون في دركةٍ من غضب اللَّهِ عليهم، تجعلُهُمْ في أسفل سافلين من دَرَكاتِ الجحيم.

**وأمّا الفريق الآخر**: فهو فريقٌ استَحَبَّ العَمَىٰ على الْهُدَىٰ، وطَمَسَ بإرادته ما وهبَهُ رَبُّه الخالق الحكيم من أدواتِ إدْرَاكٍ يستطيع أن يَعْرِف بها الحقَّ والباطل، والخير والشرّ، والحسَنَ من السلوك والقبيح منه، والصَّلاحَ والفساد، والنقْصَ والكمال.

وأفْراد هذا الفريق لا يسْمَحُون للمعرفة الحقّ أن تنفذ إلى أعماق نفوسهم وقلوبهم، فهم رافِضُون للمعرفة، راضون بالجهالة والعمى، لا

معاندون للحقّ بعد معرفته، وهم ساقطون في دركة الضالّين ضلالاً إراديًا، ويحْمِلُون تَبِعَة ضلالهم عن الحق والخير والهدىٰ.

إنَّ أفراد هذا الفريق قَدْ أَلْغَوْا من إنْسَانيتهم أهَمَّ عناصِرِ كمالِها، فَجَعَلُوا أنفسهم بإراداتهم كالأنْعام، بل أضَلَّ سبيلاً.

إنَّ الأنعام لم تؤتَ أدواتِ الإدراكِ التي وهبها اللّٰهُ للناس، فهي لا تُسْأَلُ عمّا ليْسَ لديها أدواته، أمّا هَؤُلاء فَقَدْ أُوتُوهَا وعطَّلُوها، وأصَرُّوا على تعطيلها، رضاً بما هُمْ فيه من مُشَارَكةٍ حيوانِيَّةٍ للأنعام.

هذا ما يتَعَلّقُ بوسائل الإقناع الفكريّ.

## العلاج النفسيُ بالترغيب والترهيب:

وأمّا ما يتَعلّقُ بمعالجة النفوس بالترغيب والترهيب، فقضيّةٌ تَرْبَويّةٌ تُشبه الْغِذَاء اليوميَّ، لذلك نُلاحظ في نجوم التنزيل القرآني، أنّها لاَ تَخْلُو في الغالب من صُوَرِ الترغيب والترهيب، بألوان مختلفة، وأساليب مُتنَوِّعة، وتصاريفَ عجيبة، لا تَدَعُ احتمالاً مما يُمكِن أن يكون له تأثيرٌ ما إلاً استخدمته، وهي تُشْبِهُ صُنوفَ المطاعم والمشارب الّتي يتناولُها الناس، والمقصودُ الغذائيُ واحد.

فيقتطع النَّجم القرآنيُ المنزَّلُ فِكْرَةً من جُمْلَة الأفكار الكليّة عن الثواب والعقاب، أو مَشْهداً مِنْ مَشاهِدِهِ الّتِي سَوْفَ تَحْدُث حتماً، فَيعْرِضُها، تَرْغِيباً فَتَرْهيباً، أو تَرْهيباً فَتَرْغيباً.

وحين نجمع هذه الأفكار الجزْئيّة، وهٰذِهِ الصُّوَرَ والمشاهد، نستَطِيع تَصَوُّرَ كَامِلِ عناصر الموضوع الفِكْرِيِّ، وكامِلَ المشاهد.

فما أبدع القرآن المجيد، وما أبْدَعَ بياناته التعليميّة والتربويّة.

❀ ❀ ❀

## (٦)
# التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (٥ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾.

**تمهيد:**

في هذا الدّرس أمْرٌ جازمٌ للإنسان المنكِر للبعث، أو الشَّاكّ فيه، تَوَهُّماً منه أنَّ إعادة الموتىٰ إلى الحياة بعْدَ الفناء أَمْرٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ عليه، بأن ينْظُر نَظَرَ متفكّرٍ مُتَدبّرٍ، في حَلْقة من حلقاتِ سِلْسِلَة نَشْأَتِهِ، وهي حَلْقَةُ الماء الدافق، التي قَذَفها أبوهُ مَنِيًّا، خارجاً من بين الصُّلْبِ والترائب، ولم يَكُن شيئاً مَذْكُوراً قبْلَ أَنْ يَخْلُقَه الله بدءاً من الماء والتراب، حتّىٰ صَيَّرَهُ رَبُّه غذاءً، ثم صَيّرَهُ دماً، ثُمَّ صيّره منيًّا في داخل جسم أبيه، ثمّ قَذَفَهُ أبوه لِيَنْمُوَ إنساناً في مُسْتَودَع أُمِّه، حَلَقَاتٌ عَجيباتٌ في سلسلة أطوار خَلْقِه، تُذهِشُ كُلَّ بَاحِثٍ عالمٍ مُتَفكّر.

أفيليقُ بإنْسانٍ متفكّرٍ مُتدبّرٍ عاقل، يَنْظُرُ في أطوار نشأته وعجائب خلْقِ الله له، أن يَسْتَبْعِد أو يُنْكِرَ إعادة الله له إلى الحياة، بعد أن يَرْجِع إلى مَا كان عليه، وواضِحٌ في تصوُّراتِ الناس أنّ إعادة خَلْقِ الشّيءِ على مثالٍ سبَقَ، أهْوَنُ من بَدْئِه على غير مثالٍ سبق؟!.

إنَّ متفكّراً مُتأَمِلاً عَاقِلاً لاَ يَليقُ بذكائِه وفَهْمِه وفِطْنَتِه، أن يَسْتَبْعِدَ هذِهِ القضيَّة، ويُخْرِجَها عن دائرة الإمكان.

وإذَا آمَنَ بالرَّبّ الخالِقِ وقُدْرَتِه وحِكْمَتِه، فإنَّ عَلَيْه أنْ يُثْبِتَ هٰذِهِ القضيَّة ويَنْصُرَها بما يَمْلِكُ مِنْ حُجَّةٍ، لاَ أن يَجْحَدها، ويكَذِّبَ الأخبار

الوارِدَة بإثباتها، والّتي جاءت بها الأديان الرّبّانيَّةُ الحقّ، ونَطَق بها بلاغاً عن الله رُسُلُ اللّهِ الصادقون، المؤيَّدونَ منه بالآياتِ البيّنات، والمعجزات الباهرات.

● ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أمْرٌ للإنسان المنكر للبعث أو الشَّاكّ فيه، بأن يَنْظُر نَظَرَ تَفَكُّر وتَدَبُّرٍ وتحليلٍ للظواهر والبواطن وأسْبَابِهما.

أي: إنْ كان لدى هذا الإنسانِ شُبُهاتٌ، حَوْلَ كون البعث من الأمور الممكنة الّتي تخضَعُ لسُلْطَانِ قُدْرَةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، وتوهُّمَاتٌ تجعلُه يُسْتَبْعِدُ إمكانَ إحياءِ الموتى بعد فناء أجسادهم، فَلْيَنْظُرْ مِمَّ خُلِقَ.

● ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾؟: في هذه العبارة توجيه لهذا الإنسان أنْ يَسْأَلَ نَفْسَهُ هذا السؤال، فهو يَهْدِيهِ إلىٰ التَّأَمُّل في أصْلِ نَشْأته، الّتي تُقْنِعُه بقُدْرَةِ اللّهِ على رَجْعِه إلى الحياة بعْدَ إماتَتِه وَإفْنائِه.

والسؤال عن الأشياء وحقائقها هو مفتاحُ كُلِّ بحْثٍ علمي، وكلُّ إجابة صحيحة تجرّ إلى سؤال جديد، حتَّىٰ تنتهيَ سلسلة الأسباب إلى السَّبَبِ الأوّل الفعّال بإرادته على مقتضىٰ حِكْمَته.

﴿مِمَّ﴾ «من» حرْفُ جرّ «مَا» اسم استفهام حذفت الألف منه حسب القاعِدَة الإملائيّة إذا كان متّصلاً بحرف جرٍّ.

● ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾: في هذه العبارة تذكير للإنسان بما يصْلُحُ جواباً على السُّؤال: [مِمَّ خُلِق]؟

واختِيرَ في هذا التذكير من مَراحِلِ نشأتِه مَرْحَلَةُ الْمَاءِ الدَّافق، وهِيَ مَرْحلةٌ وَسَطَىٰ من مراحل أطوار خَلْقِه، وهذه المرحلة معروفَةٌ لكلِّ إنسانٍ بلَغَ الْحُلم.

**الماء الدَّافِق**: هو مَنيُّ الذَّكَر الذي يَخْرج منْصبًا مَقْذوفاً، بموجات من

الصَّبِّ مُتَتابعة، وسَمَّاهُ الله ماءً لأنّه نوع من أنواع المياه ذوات الخلائط المختلفة، وأُطْلَقَ عليه في نصوص أخرى اسْمَهُ المعروف، وهو كلمة «مَنِيّ».

**دَافِق**: قال الأزهري: الدَّفْقُ في كلام العرب: صَبُّ الماء، وفعل «دَفَقَ» مُتَعَدٍّ.

وقال الفيروزبادي: («دَفَق» مُتَعَدٍّ عند الجمهور) وهذا يدُلُّ على أنَّ بعض أهل اللُّغَةِ يَرَوْن جَوَاز استعماله لازِماً.

وبناءً على اعتبار فِعْلِ «دفَقَ» فعْلاً متعدِّياً ذَهب أكْثَرُ أهل التفسير إلى تأويل كَلِمةِ «دافِقٍ» وجعلها بمعنى: «مَدْفُوق» ويدخل هذا فيما يسمَّىٰ عند علماء المعاني بالمجاز العقلي.

ويرى سيبويه أنه بمعنى «ذي دفق» كقول العرب «لابن» أي: ذو لبن، و «تَامِر» أي: ذو تَمْر.

أمّا على رأي من يرى من اللّغويين أن فعل دفَقَ يستَعْمَلُ مُتَعَدِّياً ويستعمل لازماً أيضاً، فكلمة «دافق» اسم فاعلٍ من اللاَّزم، بمعنى يتَدَفَّق، وبناءً على هذا فلا حاجة إلى التأويل.

• ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾: أبَانَتْ هذه العبارة أنّ الماء الدافق (= المني) الذي يَقْذفُهُ الذكَرُ يَخْرُجُ من مَكانٍ ما بَيْن الصُّلْب والترائب.

**الصُّلْبُ**: هو العمود الفِقَرِيُّ، وهو الفِقَرات العظميَّةُ في الظَّهر، من لَدُنِ الكاهِلِ إلَىٰ عَجْبِ الذَّنَب. وجمع «صُلْب» أصْلَاب، وأصْلُب.

**الترائب**: هي عظام الصَّدْر، وأعْلاَها موضِعُ القلادة من الصَّدْر. الواحدة منها: «تَرِيبَة».

أمّا كون الماء الدافق يخرج من بين الصُّلْب والترائب، فهو من الْخَفَايا العلميّة الَّتي جعَلَها اللَّهُ عزّ وجلّ من الكنوز القرآنيّة المدَّخرة، لتَكُونَ إعجازاً عِلْمِيًّا فيه، يُكْتَشَفُ حين يَتَوَصَّل الباحثون العلميّون إلى حقيقته التكوينيَّة في الواقع.

وقد وقع كثير من المفسّرين الأقْدَمين في الخطأ لدَىٰ تفسير هذه العبارة، فقالوا: من صُلْبِ الرَّجُلِ وتَرائِبِ المرأة، إذْ لم تَكُنِ الحقيقةُ العلميَّةُ معلومةً لهم، حَتَّىٰ يُفَسِّرُوا النَّصَّ بها، وإنْ كان المنهج العملي يقضي بأن نقول فيما نجهل حقيقته: اللَّهُ أعلم بمراده. وغايَةُ مَا يمكِنُ قَوْلُه فِيمَا نجهل حَقِيقَتَهُ طَرْحُ الاحتمالات الّتي يُمْكِنُ أن يَدُلَّ عليها النَّصّ دُونَ جَزْمٍ بواحد منها، وتَرْكُ التَّحْدِيد لما تثبتُهُ الحقائق العلميَّةِ الَّتي تُكتَشَفُ بالوسائل الإنسانية.

فالله عزّ وجلَّ قَدْ جعل في كتابه كُنُوزاً إعجازيَّةً ادَّخَرَها للعصور المستقبلة الّتي تأتي بَعْدَ عَصْرِ التنزيل، وهي تُكْتَشَفُ تِباعاً مع تَقَدُّمِ المعارف الإنسانيَّة، التي يُلْهِمُ اللَّهُ الناسَ البحث عنها، والْوُصُولَ إلى معرفة حقيقتها، ولو كانُوا من الكافرين به.

وهذا من البيان الرَّبَّانيّ الذي ذكره اللَّهُ لرسوله في قوله في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف / ٣١ نزول):

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

فدَلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ تَكفَّلَ بِبيَانِ خَفَايَا الْقُرْآنِ العلميّة على التراخي، الّذِي دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾.

أمَّا مُقَرَّرَاتُ البحث العلميّ حول كَوْنِ الماءِ الدافقِ، وهو مَنِيُّ الذكر، يَخْرُجُ من بين الصُّلْب والترائب، فلا أُريد أن أتَطَفَّلَ على مَا لَيْسَ لي فيه

اختصاص، ولكن أنقُل ما كتبه باحثٌ عالم مُسْلِمٌ طبيب ذو اختصاص في هذا الفنّ. إنَّه الدكتور «محمد علي البار» فهو يقول في كتابه «خلْقُ الإنسان بين الطِّبّ والقرآن» جَزَاه الله خيراً وأحْسَن إليه: ما يلي(١):

«تقول الآية الكريمة: إنّ الماءَ الدافق يخرج من بين الصُلْبِ والترائب.

ونحن قد قُلْنَا: إنّ هذا الماء (المنيّ) إنَّما يتكَوَّنُ في الخصْيَة ومُلْحَقَاتها، كما تتكَوَّنُ الْبُيَيْضة في المبيض لدى المرأة.

فكَيْفَ تتطابقُ الحقيقةُ العلميَّة مع الحقيقة القرآنيّة؟

إنّ الخصية والمبيض إنَّما يتكَوَّنَانِ من الحدَبَةِ التناسُلِيَّةِ بيْنَ صُلْبِ الجَنِين وترائبه.

والصُلْبُ هو الْعَمُودُ الفِقَرِيّ. والترائبُ هي الأضلاع (أي: أضلاع الصَّدْر).

وتتكوّن الخصيَةُ والمبيض في هذه المنطقة بالضبط، أي: بين الصُلْب والترائب. ثم تنزل الخصيَةُ تدريجيًا حتَّى تَصِل إلى كيس الصَّفَن (خارج الجسم) في أواخر الشهر السَّابع من الحمل. بينما ينزل المبيضُ إلى حوض المرأة، ولاَ يَنْزِلُ أسْفَلَ مِنْ ذَلِك.

ومَع هذا فإنّ تغذيَة الخِصْيَةِ والْمَبِيضِ بالدماء والأعْصَاب واللِّمْف تَبْقَىٰ من حيث أصْلُها، أي: من بين الصُلْب والترائب.

فَشِرْيَانُ الخصية أو المبِيضِ يأتي من الشريان الأبْهَر (الأوْرطي البطني) من بين الصُلْب والترائب، كما أنَّ وريد الخِصْيَة يَصُبُّ في المنطقة نفسها.

---

(١) انظر الفصل السابع (النطفة) ولا سيما الصفحات من (١١٤) إلى آخر الفصل.

يَصُبُّ الْوَرِيد الأيْسَر في الوريد الكُلَوي الأيْسَر، بينما يَصُبُّ وريد الخصية الأيْمَنِ في الوريد الأجْوَفِ السُّفْلي.

وكذلك أوْرِدَةُ المبِيض وشريانها تَصُبُّ في المنطقة نفسها، أي: بين الصُّلْب والترائب.

والأعْصَابُ الْمُغذِّيَةُ للخِصْيَةِ أو الْمَبِيض تأتي من المجموعة العصبيّة الموجودة تحْتَ الْمَعِدَةِ من بين الصُّلْب والترائب.

وكذلك الأوْعِيَةُ اللَّمْفَاوِيَّةُ تَصُبُّ في المنطقة نفسها، أي: بين الصُّلْب والترائب.

فهَلْ يبقَىٰ بعْدَ هذا شَكٌّ في أنّ الخِصْيَةَ أو الْمَبِيض إنَّما يأخُذَان تَغْذِيتَهما ودِمَاءَهُمَا وأعْصَابَهُمَا من بَيْنِ الصُّلْبِ والترائب؟؟!

فالحيواناتُ المنويّةُ لدَىٰ الرَّجُل، أو البييضَة لدى المرأة، إنّما تستقي موادّ تكوينها من بين الصُّلْب والترائب، كما أنّ منْشَأَهَا ومَبْدَأَهَا هو من بَيْن الصُّلْب والترائب.

والآية الكريمة إعجازٌ كامل، إذْ تقول: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ ولَمْ تَقُلْ من الصُّلْب والترائب. فكلمة ﴿بَيۡنِ﴾ ليسَتْ بَلاغِيَّةً فحَسْب، وإنَّما تُعطِي الدِّقَّةَ العلميّة المتناهِيَة.

**أقول:**

بعد هذا التحقيقِ العلميّ الّذي يَكْشِفُ التوافُقَ الْكَامِلَ بَيْنَ مَا جاءَ في القرآن المجيد، وما تُقَرِّره الدراسَات العلميّة الإنسانيَّة، حول كوْنِ الماء الدافقِ يخْرُج من بين الصُّلْب والترائب، لا بُدَّ أن تدفعَنا الدوافِعُ الإيمانِيَّة إلى الخضوع الكامل لجلال اللَّهِ الرَّبّ الخالِق، والإذْعَانِ الكامِلِ إلَىٰ أنَّ القرآن المجيدَ كلامُ اللَّهِ جلَّ جلالُه، وتباركَتْ أسماؤه وصفاته. إنَّهُ لَكِتَابٌ

عزيز لا يأتيه الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ ولا من خَلْفِه، تَنْزِيلٌ من حكيم حميد.

وما على المتدبّرين إلاّ أنْ يُحْسِنُوا تدبُّره، أو يتَرَيَّثُوا حتَّىٰ يُهَيِّئَ اللَّهُ تَبارك وتَعَالىٰ وسائِلَ بيانِ ما جَهِلُوا أو خَفِيَ عليهم أو اشتَبه عليهم منه، فقد تَكَفَّلَ جَلَّ وعلا بِبَيَانِه، كما ذَكَرَ في قرآنِه.

● ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير يَعُودُ على الرَّبّ الخالق المفهوم ذهناً من عبارة: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ ففِعْلُ «خُلِقَ» المبني على ما لم يُسمَّ فاعله، يَتَضَمَّنُ الدّلالةَ على خالقٍ، وهو الرَّبُّ جلَّ جلاله الذي لا خالِقَ في الوجود للكائِنات غيْرُه، ولا رَبَّ سواه.

﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾: أي: على إرْجاعه إلى الحياة بعْدَ إماتَتِه وإفناء جَسَدِه لَقَادِرٌ.

جاءت جملة ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ مؤكَّدَةً بمؤكداتٍ ثلاثة (إنَّ ـ والجملة الإسميّة ـ واللّام المزحلقة إلى الخبر) وفيها توجيه الاهتمام للمقدور عليه وهو الرّجع بتقديمه على عامله **[قادر]**.

يقال لغة: رَجَعَ بمعنى انْصَرَف، على أنّ الفعل لازم.

ويقال لغة: رَجَعَهُ بمعنَىٰ أعاده، على أن الفعل مُتَعَدٍّ.

ويقال في مصْدَرِهما: «رجْعٌ» والمراد بالرَّجْع في الآية الإرجاع على التعدية، من رَجَعَهُ يَرْجِعُهُ رَجْعاً.

وجاءت هذه الآية بمثابة نتيجة عقليّة للدّليل الذي تضمَّنَهُ قَوْلُ الله عزّ وجلّ قَبْلَها: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

أي: هذه الظاهرة الكونيّة المتكرّرة المشهودة تقدّم إقناعاً من وجْهَيْن:

**الوجه الأوّل**: أنّ الخالق الذي قَدَرَ على خَلْق الإنسان المكتمل في أحْسَنِ تقويم، من مَاءٍ دَافِقٍ يخْرُجُ من بين الصُّلْب والترائب، قادِرٌ على إعادته إلى الحياة بعد إماتته وإفناء جَسَدِه، كيف يَشَاء وعلى ما يَشاءُ، وفي أيّ زَمَنٍ يشاء، وفي أيّ مكانٍ يَشَاء، فخريطةُ بنائه معلومةٌ ومَوْجُودةٌ لَدَيْه، وَنَوَاتُه مَحْفُوظَةٌ، وفيها كُلُّ صفاته الجسدية والنفسيَّة، وفيها سِجلُّ حياتِه منذ نَشْأَتِهِ حتَّىٰ مماته.

إنّ هذه الحجَّةَ حُجَّةٌ بُرهانيَّةٌ دافعةٌ لكُلِّ تَوَهُّمَاتِ السُّفَهَاء، ناقصي الْعُقُول، الَّذِين تَغْلِبُهم أهواؤهم وشهواتُهم، فَتَطْغَىٰ على مراكز التَّفْكير السليم لدَيْهم، وعَلَىٰ موازِينِ الْعَقْل الصحيح الذي جَعَلَهُ اللَّهُ في فطرتهم، فتجعلهم يستَبْعِدُون الإعادة إلى الحياة بعد الموت والْفَناء، على الرُّغْمِ من مشاهداتهم المتكرّراتِ لخلْق الإنسان من مَاءٍ دافق.

**الوجه الثاني**: أنّ من أخبر بحَقِيقَةٍ علميّة، وهي هُنَا كَوْن الماء الدافق يَخْرُجُ من بيْنِ الصُّلْبِ والترائب، على مَا سَبَق تحليله، وهذه الحقيقة لم تُعْرَفْ للباحثين العلميّين إلاَّ بَعْدَ نُزُولِ الخبر بها بما يزيد على ثلاثة عشر قرناً، لا بُدَّ أن يكون صادقاً حتماً في كلِّ ما أخبر به من أخبار عمَّا مضىٰ وعمَّا سيأتي، ومن الأَخْبَارِ خَبَرُ البعث إلى الحياة بَعْدَ الموت والفناء، وأخبار يوم الدّين المعَدِّ للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وما في الدار الآخرة من مراتب ودرجاتِ جنَّاتِ النّعيم، ومنازل ودركاتِ الجحيم.

إنَّه جلَّ جلاله واضِعُ خُطَّة التكوين، ومُقَدِّر مقادير كلِّ شيْءٍ، والقادر على خلق ما يَشاء، وهو العليم الحكيم، وهُوَ المخْبِرُ جلَّ جلالُهُ بما قَدَّرَه وقضاه، وسوف يخلقه في الأجل المحدّد له.

وهذا الوجه يفهم ضمناً وباللُّزوم الذهني، من الرَّبط بين الخبر، والأمر بالنظر في قضيَّةٍ أخرى خَبَرِيَّةٍ هي من دقائِقِ الإعجاز العلميّ في

القرآن، ولا يُخبرُ عنها بصِدْقٍ إلاَّ العليم بها، وهو واضع خُطتها، وخالِقها، وواضِعُ خُطَّةِ الوجود كُلِّهِ، ويخْلُقُ كلَّ شيءٍ في أجَلِه المحدَّدِ له.

● ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾:

﴿تُبْلَى﴾: أي: تُكْشَفُ وَتُظْهَرُ، أَصْلُ الابتلاء الاختبار للكَشْفِ، وَإِذْ حصَل الاختيارُ في الحياة الدنيا، فإنّه لم يَبْقَ في الآخِرَة إلاَّ الكَشْف.

رُوي عن ابن عمر: يُبْدِي اللَّهُ يوم القيامة كُلّ سِرٍّ منها، فيكُونُ زيْناً في الوجوه، وشيناً في الوجوه.

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: جمع «السَّرِيرَة» وهي ما يكتمه الإنسانُ ويخفيه في نفسه، ومعلُومٌ أنَّ النيَّاتِ من وراء الأعمال سرائر، وثبت في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ:

«إِنَّما الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ».

وإنما تُبْلَىٰ السّرائر لأنَّ الحساب يوم الدين يجري على النيَّات من وراء الأعمال.

هـذه الآيـة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ هـي جُـزْءُ قَـضِيَّـة، فـأيـنَ جُـزْؤُهـا الآخر؟ هَلْ نجْعَلُه تابعاً للآية السَّابقة: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ فنقْصُرُ من أبعاد هذه الآية، ونَنقُصُ من دَلاَلَتِها الكليّة، فنَجْعَلُ هذه الْقُدْرَة خاصَّةً بالإرجاعِ يوْمَ الدِّين، مع أنَّ قُدْرَة اللَّهِ عَامَّةٌ شاملة، وإنْ كانت خُطَّتُهُ عزّ وجلَّ قد جَعَلَتِ الإرجاع العامّ للْمَوْتَىٰ أمراً مؤجّلاً إلى يوم القيامة، أمَّا الإرجاع الخاص فقد أجراه الله عزَّ وجلّ للألوف الذين خَرَجُوا من ديارهم حَذَرَ الموت، إذْ أماتهم ثم أحياهم، وأجراه للعُزَيْر، وجَعَلَهُ آيَةً لعيسَىٰ عليه السَّلام، إذْ كان يُحْيِي الموْتَىٰ بإذْن الله.

أم نَجْعَلُه مُرْتَبِطاً بما بَعْدَهُ، وهو قول الله عز وجل:

● ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾؟ وبالتأمُّل يَتَبَيَّنُ لَنا أنَّ هذا القولَ مُرتَّبٌ تَرْتِيباً فِكْرِيًّا على قضيَّةٍ تامَّةٍ دَلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ وَلاَ يُنَاسِبُ أن يكُونَ هذا الترتيب على جُزْءِ قضيَّة.

إذن: فكَيْفَ نَسْتكْمِلُ القضيّةَ الّتي دَلَّ على جُزْءٍ منها قول الله عزَّ وجلّ: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾؟.

وبقليل من التفكّر نُدْرِك أنّ جُزْءَ الْقَضِيَّةِ الآخَر محْذُوفٌ دلَّ عليه السِّباقُ والسِّياق، وفْقَ الأسلوب القرآني في اعتماد الحذف الملاحَظ ذِهْناً، لكلّ ما يُمْكِنُ إدْراكُهُ، ولا يَشْتَبِه فيه المراد.

وباستطاعتنا تقدير المحذوفات الملاحظات ذِهْناً على الوجه التالي:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾ وَإِنَّهُ لَمَبْعُوثٌ إلى الحياة بَعْدَ موْتِه وفناءِ جَسَدِه، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ وحين يُجازَىٰ على ما قَدَّمَ وأَخَّرَ في الحياة الدنيا من كبائر وجرائم ومَعَاصِيَ ومُنْكرات ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ يَوْمَئِذٍ ﴿مِن قُوَّةٖ﴾ مَا، مهما كانت قَلِيلةً ضَئِيلَةً، يَدْفَعُ بها عن نَفْسِه ما اسْتَحقَّ من عقاب اللّهِ المقضِيِّ عليه به، ولا شيئاً منه ﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾ يَنْصُرُهُ، فَيَدْفعُ عنه الحكْمَ بالعقاب، أو يَدْفَعُ عنه شيئاً من عقاب الله المقضيّ عليه به.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾: «مِـنْ» حـرف جـرٍ زائـدٍ جِـيءَ بـه للتنصيص على إرادة العموم المستغرق لكُلّ أفْراد القوة وعَناصرها، ولكلّ ناصِرٍ يُمْكن أَنْ يَنْصُرَه.

مَنْ هٰذَا الذي يَمْلِكُ قُوَّةً يُغَالِبُ بها قُوَّةَ الرَّبّ الخالق، ولا سيما يوم القيامة، يوم تأتي كُلُّ نَفْسٍ لاَ قُوَّةَ لها وَلاَ سُلْطان، تأتي مَغْلُولَةَ الْقُوىٰ، تَتَرَقَّبُ حُكْمَ الْمَلِكِ العزيز القَّهارِ الدَّيَّان؟!.

يوْمَ يأتي كلُّ إنْسانٍ فَرْداً لا نَصِيرَ لَهُ وَلاَ مُعين، ولاَ خِلَّ ولا خَدِين، وليس لَهُ شفيعٌ يشْفَعُ لَهُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ ورَضِيَ له قَوْلاً؟!

وقد قال اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## (٧)
## التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (١١ ـ ١٤)

قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾.

**تمهيد:**

في هذا الدَّرْس قَسَمٌ بظَاهِرَتَيْنِ كونيَّتَيْن مُترابِطَتَيْنِ، لتحقيق غايَةٍ في الحياة الدنيا على الأرض، تتّصِل بحياة الأحياء فيها، وهما من آياتِ اللَّهِ الكَوْنيَّةِ الدَّالأتِ على عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وكمالِ قُدْرَتِه، ورَحمته بعباده، على قضيَّتين فِكْرِيَّتَيْنِ مُترابطَتين أيْضاً، ذَواتَيْ مَضْمُونٍ يُؤَكِّدُ خبراً يتَعلَّقُ بالْحَياةِ الأُخْرَىٰ، الّتي يتحقَّقُ فيها ثَمَرَةُ الامتحان في الحياة الدّنيا، وهي الحساب، وفَصْلُ القضاء، وتنفيذُ الجزاء.

**الظاهرة الأولى**: السَّمَاءُ القريبة ذَاتُ الرَّجْعِ، وهِيَ غير السَّمَاءِ البعيدة ذات النُّجُوم الثواقب.

● ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾﴾: إنَّ السَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ هي في أَقْوَىٰ الأمارات الهاديات للمتدبّر، الغلافُ الغازيُّ المحيطُ بالأرض، وكُلُّ مَدىً خاضِعٌ لجاذبيَّةِ الأَرْضِ حوْلَها، وقد عرفنا عدّة مرّات أنّ السَّماء تطلقُ لغة على كل ما ارتفع وعلا.

ونتساءل عن السَّبب الداعي لِوَصْفِ هذه السماء القريبة منا بأنّها ذَاتُ الرَّجْعِ، أي: ذاتُ الإرْجَاع، من فعل: رَجَعَهُ يَرْجِعُهُ رَجْعاً.

■ وتجيبنا الظّاهرة المتكرّرة الّتي أدْركها الأقدمون، وهي ظاهرة تبخّر المياه وتصاعُدِها إلى طبقاتٍ ما من الغلاف الغازي حول الأرض، وهو الذي تتكوَّن منه السَّمَاءُ القريبةُ الملتصقة بها، ضمن سُنَنٍ وأسبابٍ مُحْكَمةٍ بقضاء الله وقَدَرِه، ويَرْجع إلى الأرض مطراً، ماءً حُلْواً، أو ثَلْجاً، أو بَرَداً، لسُقْيا الناس والدواب، ولإحياء الأرض بالنباتات المختلفات، من البزور والجذور المنبثة فيها.

فهٰذه السَّمَاءُ القريبةُ ذَاتُ رَجْعٍ لما يَصْعَدُ إليها من الأرض من بخار الماء.

■ وكُلُّ النَّاسِ يُلاحِظُونَ أنَّ أيّ شيءٍ يَصْعَدُ في هذه السماء القريبة من الأرض والملاصقة لها بِقُوَّةٍ مَا، دون أنْ يَنْفذ ويكونَ بعيداً عنها في الفضاء الكوني، فلا بُدَّ أنْ يَرْجِعَ إلَىٰ الأرْض متَىٰ تلاشَتِ القوّةُ الّتي جعلته يصْعَدُ فيها، وقد عرف الباحثون العلميون سبب ذلك، منذ أدركُوا قانون الجاذبيّة بين الأشياء.

فهٰذِه السَّمَاءُ القريبةُ ذَاتُ رَجْعٍ لكُلّ ما يصعد فيها من الأرض، إذْ هو يَرْجِعُ إليها بقُوَّةِ جاذبيّةِ الأرض له، وعَدَمِ إمساكِ هذه السَّمَاءِ له، ما لم

تكن القُوَّةُ الدافعة عظيمةً جدًّا إلى حدٍّ إخراج المقذوف الصاعد من الغلاف الغازي كُلّه، إلى الْفَرَاغِ الكوني بعيداً عن جاذبيَّة الأرض.

■ وذكر العلماءُ الكونيُّون أنَّ الأشعة الضوئية الّتي تلامِسُ الغلاف الغازيّ حول الأرض، والذي هو السماء القريبة الملاصقة لها، تنشطر إلى ثلاثة أقسام:

(١) فقِسْمٌ قليل يسمح هذا الغلاف بعُبُوره ومروره حتّى يَنْفُذَ منه، ويَصِل الى الأرض إذ فيه نفع وفائدة لِلأرْض ونباتاتها وسُكّانها.

(٢) وقسم آخر يمتصُّه هذا الغلاف، ويستفيد منه حرارة نافعةً، يَصِلُ أثرها إلى الأرض بتصاريفَ مختلفةٍ، ومنها تحريك الرّياح.

(٣) وقسم ثالث تردُّه هذه السّماء، وتُرْجِعه، فلا تَسْمَحُ له بالمرور، ولا تمتصُّه.

وهذا القسم الذي يناله الرَّجْعُ قسْمٌ ضارٌ مؤذٍ، وإذا كثُرت نسبته أهْلَك سُكّانَ الأرض ونباتاتها.

وقد أحكم الخالق العظيم بقضائه وقَدَرِه صُنْعَ هذا الغلاف، لإرجاع المؤذيات والضّارَاتِ من الأشِعَّةِ الكونية القادمة في اتّجاه الأرض إلى الْفَرَاغ الكوني.

وبهذا يَظْهَر لنا نوعٌ من الرَّجْعِ لم يَكُن معروفاً للناس، لَوْلاَ الدّرَاسَاتُ العلميَّة الإنسانيَّةُ الّتي أثْبَتَتْهُ.

فهي إذن ثلاث صُوَر من الرَّجْعِ الّذي تتّصفُ بِه السَّمَاءُ القريبة من الأرض، والملاصِقَةُ والمحيطةُ بها، وهو الغلاف الغازي حَوْلها.

■ رجع المطر.

■ ورجع كُلِّ ما يصْعَد من الأرض بقوّة زائدة على قوة جاذبيتها، إليها بعْدَ تلاشي أثر القوّة الدّافعة.

■ ورَجْعُ قِسْمِ الأشعة الكونيّةِ المؤذية والضارَّةِ بعدم السماح لها بالنفوذ في الغلاف الجوّيّ إلى الأرض.

وبهذا يظهر لنا أنّ من الحكمة البيانيّة الرّبَّانيَّة أنْ يُقْسِمَ رَبُّنا جلّ جلالُه بالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ، لأنَّ صِفَتَها هٰذِه تدلُّ على شمول علم الله كُلَّ شيء، وتدُلُّ على جليل حكْمَتِه، وعظيم قدرته وإتقانِه لخلْقه، وفَيْضِ إنعامه على عبادِهِ سُكَّانِ الأرْض.

وقد بدأ الناس يُفْسِدُونَ بما كَسبُوا هذا الغلاف الحافظ الواقي، ذا الرَّجْع.

**الرَّجْعُ**: مَصْدَرُ فِعْلِي: «رَجَعَ» اللاّزم، و «رجَعَ» المتعدّي.

تقولُ لغة: رَجَعَ هو يَرْجع، وتقول: رَجعتُه أَرْجِعُهُ، رَجْعاً، ورُجوعاً وَرُجْعَىٰ وَرُجْعَاناً ومَرْجِعاً.

ويُقال في لُغَةِ هُذَيلٍ: أرجعَهُ يُرْجِعُه.

● ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾:

**الصَّدْع في اللُّغَة**: الشَّقُّ في الشيء الصُّلْب، كالحجَرِ والحائط والزجاج. وكذلك الشَّقُّ في الأرض.

يُقَالُ لغة: صَدَع الشَّيءَ يَصْدَعُهُ صَدْعاً، وصَدَّعَهُ تَصْدِيعاً. فانْصَدَعَ وتَصَدَّعَ. أي: شقَّهُ فانْشَقَ.

ويُطْلَقُ الصَّدْعُ على نباتِ الأرض، لأنّه يَصْدَعُها، أي: يَشُقُّها لِيَخْرُجَ إلى النُّور والْهَوَاء، فهي تنصَدِعُ به.

ويقال تَصَدَّعَتِ الأرض بالنباتات، أي: تَشَقَّقَتْ.

ويُقْسِمُ اللَّهُ عزّ وجلَّ: بالأرض ذات الصَّدْع، لأنَّها آيَةٌ من آياتِه كالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجع.

يَنْزِلُ مَاءُ المطر، فيتَغَلْغَلُ في تراب الأرْض، فيَخْتَلِطُ به نَبَاتُ الأرض، فَيَصْدَعُها، ويَنْمو أَشْجَاراً ونباتاتٍ مختلفاتٍ، وثمراتٍ نافعاتٍ.

ولا أرى مانعاً من تعميم دلالة كلمة (الصَّدْع) ليشْمَلَ كُلَّ صَدْعٍ نافع، كالتَّصَدُّعَاتِ البركانيّة، الّتي يكون بها إخراجُ بَعْضِ كُنُوزِ الأرض ومَعَادِنِها، ويكونُ بها إمْدَادُ قِشْرَةِ الأرض بعناصر جديدة فَقَدَتْها عَبْرَ القرون بما اسْتَهْلَكَتْهُ مِنْها النباتات المختلفات، وكالتَّصَدُّعَاتِ الّتي تَتَفَجَّرُ بها الْعُيُون والْيَنَابيع العظيمة التي تَجْري أنهاراً، وكالتصدّعات التي تَمْتَلِئُ بالمياه فتكون بحاراً أو بُحَيْرات، وكالتَّصَدُّعَاتِ التي تتفجّرُ مِنها ذائباتٌ تَدُلُّ أهل البحث العلمي على ما في باطن الأرض، ومِنْها تَصَدُّعَاتٌ تُشَقُّ بها طُرُقٌ بَرِّيَّةٌ وبَحْرِيَّةٌ للسَّالكين، وتَنْفَصِل بها قارَّات، إلى غير ذلك.

غيْرَ أنَّ المناسَبَةَ بيْنَ الْقَسَم بالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ، والْقَسَم بالأرض ذَاتِ الصَّدْع تُوجِّهُ النَّظَر بالدرجة الأولى، للسُّقيا التي تحدُث بالرَّجْعِ الذي هو المطر الذي نَتَجَ عَنْ تَجَمُّعِ بخار الماء سُحُباً، وللصَّدْع الذي يُحْدِثُه النبات في الأرض عند بُروزِه من باطن الأرض إلى سطحها.

وبَعْدَ الْقَسَم بهاتَيْنِ الظَّاهِرَتين من آياتِ الله عزَّ وجلَّ في كونه، ذكَرَ الله جلَّ جلالُهُ الْمُقْسَمَ عليه، فقال تعالى:

● ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾:

﴿إِنَّهُۥ﴾: الضمير يَعودُ على قول الله تعالى في الدرس الأول: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ وقوله تعالى في الدرس الثاني: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ وبالأحْرَىٰ يَعُودُ على ما يُفْهَمُ مِنْهُما مِنْ أَنَّ الْبَعْثَ بَعْدَ الْموتِ وَالفناءِ حقٌّ، ليَوْمِ الدِّينِ الذي يَكُون به الْحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، والجزاءُ

بِالثَّوابِ أو بالعقاب، في الجنّة دار المتقين، أو في النار دارِ عذَابِ المجرمين الكافرين الأبديّ، وتَعْذِيب العصاة المذنِبينَ على مقَادِيرِ استِحْقَاقاتهم للجزاء بالعدل، لتطهيرهم قبل نَقْلِهِمْ إلى الجنَّةِ دار نعيم المؤمنين، إذا كَانُوا مؤمنين بالله.

﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾: أصْلُ الْفَصْل الْبُعْدُ بَيْنَ شيْئَين، والحاجِزُ بَيْنَ شيئَيْن، وقَطْعُ الشيء إلى شَيْئَيْنِ وإحْدَاثُ بُعْدٍ بينهما.

واسْتُعْمل الْفَصْلُ بمعنى القضاء والْحُكْم، ومنه: يَوْمُ الْفَصْل، أي: يَوْمُ الْفَصْلِ بَيْنَ العِبَاد، فالمتقونَ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ بحَسَبِ مراتبهم ودرجاتهم، ومُسْتَحِقُّوا الْعَذَابِ يُفْصَل بَيْنَهُمْ بحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ ودَرَكاتهم.

ويُقَالُ لُغَةً: فَصَلَ الأَمْرَ، أي: قضاه وأَبْرَمَهُ وَبَتَّهُ.

والآيات المفَصَّلاَتُ هِيَ ذَوَاتُ البياناتِ الكاشفاتِ لأجزاءِ الموضوع وعناصِره.

وإذا كانَ هذا القوْلُ فَصْلاً فَهُو بَيِّنٌ واضِحٌ، لَيْسَ بغامضٍ وَلا بملتبسٍ بغيره، وهو القولُ القاطع الفاصل الْمُبْرَم.

ولـمّا كانت عبارة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ رُبَّما تُحْمَلُ دَلاَلَتُها علَىٰ مُجَرَّدِ البيان والوضُوح وعدم الْتِبَاسِ المضمون الفكريّ بغيره، دُونَ الدّلاَلَة على جِدِّيَّة إرادة التَّنفِيذِ اقتضَتِ الحكمةُ البيانيَّةُ إثْبَاتَ أَنَّ هذا الْقَوْلَ ليْسَ بالْهَزْلِ فقال الله تعالى:

● ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾: أي: هُو جِدٌّ وحقٌ، ولَيْسَ قولاً هَزْلِيًّا تَمْثِيلِيًّا، للتَّصْوِير الأَدَبِيّ، أو لمجرّد التخويف والإرهاب، دُونَ قَصْدِ وقُوعِ المضْمُونِ فِعْلاً.

**الْهَزْل في اللّغة**: ضِدُّ الجدّ، أي: فهٰذا القول جِدٌّ يُبَيِّنُ قضيَّةً حَقِيقيَّةً

سَوْفَ تَقَعُ حَتْماً لا مَحَالة، متىٰ حَانَ أجَلُ وقوعها المقرّر بقضاء اللَّهِ وقَدرِه.

أمّا المناسبةُ بَيْنَ الْمُقْسَم به والْمُقْسَمِ عليه فَمِنْ وَجْهَيْن: لفظيّة ومعنوية:

● **أمّا اللّفظيّة**: فَمُلاَحظَةٌ في كَلِمَةِ: ﴿ٱلرَّجْعِ﴾ إذْ هِيَ مُنَاسِبَةٌ للمُقْسَم عليه وهو الرُّجوع إلى الحياة بَعْدَ الموت وفناءِ الأجساد. ومُلاَحظةٌ في كَلِمَةِ ﴿ٱلصَّدْعِ﴾ وهو الشّقّ، إذ هو مُناسبٌ للمُقْسَم عليه، فالمبْعُوثون إلَىٰ يَوْمِ الدِّين تَتَشقَّقُ الأرضَ عنهم فيخْرُجُون سِرَاعاً قائمين، ويَنْبُتُونَ في الأرض كالنَّبَاتِ.

● **وأمّا المعنويّة**: فَمُلاَحظَةٌ فيما يَتَضَمَّنُهُ إحْيَاءُ الأرض الميّتَة بِمَا يَنْزِل من السماء من ماء، ومَا يكونُ لدى إحياء الموتى من إنباتِهم بماء خاصٍّ ينزل من السّماء إلى الأرض، ويُضَاف إلى هذا أنّ ذا الفكر البصير يقيس البعْثَ غير المشهود على إحياء النبات المتكرّر في عالَم الشهود، وهذه من الحجج القرآنيّة القويّةِ على البعث.

❁ ❁ ❁

## (٨)
## التدبّر التحليليّ للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٥ ـ ١٧)

قال الله عز وجلّ:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

هٰذَا هو الدرس الأخير من دُرُوس السورة. وهو يشتمل على بيان الموقف الذي وصل إليه كبراء مشركي مكة إبّان نزول هذه السورة، وهو

موقف الكَيْدِ الشديد ضدّ الرَّسُول ﷺ، وضدّ رسالته، وضدّ الّذين آمَنُوا به واتبعوه.

ويشتمل على بيان التدبير الرَّبَّاني لاحباط كَيْدِهم، وبيان الموقف الذي ينبغي للرسُول ﷺ أن يتّخذه هو والذين آمنوا به واتّبعوه في تلك المرحلة من تاريخ دعوته.

● ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾: الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ يَعُودُ على من اشتَمَلَتِ السُّورَةُ على تأكيد أنباء يوم الدّين لهم بالْقَسَم بآيَاتٍ من آياتِ اللَّهِ في كونهم، لأَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين، وقَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ طَوْرِ اتّخاذِ المكَايد وتَدْبِيرِها، ضدَّ الرسُولِ ودَعْوَتِه وضِدَّ الّذين آمنوا به واتَّبَعُوه.

إِنَّهُمْ لَمْ يُذْكَرُوا في السُّورَةِ صَراحَةً، لَكِنَّ آياتِهَا ظَاهِرَةٌ في الدَّلاَلَة عليهم.

ومن الذي يُدَبِّرُ المكايِدَ ضِدَّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِهِ غَيْرُ الكافرين بالرّسُول ورسالته، والمكذبين بنَبَأِ يَوْمِ الدِّين وما فيه، وهُمْ أئمة الكفر والشِّرْكِ في مكّة إبّان نزول السّورة؟!

إنّ الطّوْر الذي وصل إليه هؤلاء هو العمل المتتابع في تَدْبير المكايد الّتي يَسْتَطِيعُونَ إعدادها، بَعْدَ أَنْ يَئِسُوا من إيقاف امتداد دعوة الرّسُولِ ﷺ، وإيقاف انتشار الإسلام، وتكاثُرِ الداخلين فيه بإيمان صادق، بالوسائل الخفيفة الدعائيّة والتنفيرية من الاستجابة لدعوته، والاضطهاديّة لضعفاء المؤمنين، وبوسائل الاستهزاء والسُّخْرِيَّة، والاتهامات الباطلات، وصناعَةِ الأكاذيب.

**الكَيْدُ فِي اللُّغَة:** يُسْتَعْمَل للدلالة على التدبير الخفيّ أو الظاهر، بحقٍّ أو بباطل، وفيه مَكْرُوه لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه. وللدَّلالة عَلَىٰ الْحَرْبِ وإعْداد وسائلها. وللدّلالة على الاحتيال والاجتهاد. وللدَّلالَةِ على كُلِّ تَدْبِيرٍ يُحَقِّقُ لِصَاحِبِهِ النَّصْرَ أو النَّجاة.

فمادَّة كَادَ يكِيدُ كَيْداً تَدُورُ حَوْل اتّخاذ أَعْمَالٍ وَتَدْبيراتٍ تُوقِعُ الْمَقْصُودِين بالكيد بما يكْرَهون، حتَّىٰ الهلاك.

ويَكُونُ الكَيْدُ في الشَّرّ، مثل كَيْدِ الكافِرينَ ضِدَّ الحقّ وضِدَّ الّذين آمنوا به. ويكون في الخير، مثل كَيْدِ المؤمِنِينَ لإحباط مكايدِ الْكافِرين، وردِّ سِهَامِهِمْ إلى نحورهم.

ومن الكيد في الخير كَيْدُ الرَّبّ جلّ جلاله، لِنُصْرَةِ رسُوله، ونُصْرَةِ المؤمنين، ونُصْرَةِ دِينه، وإعْلاءِ كَلِمَتِه في الأَرْض.

إنّ الكافرين يَكِيدُونَ في الشّرّ، لأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بمكايدهم لإدْحَاضِ الحقّ، وإقامة الباطل في الأرض.

وإنّ المؤمنين يَكيدُونَ في الخير، لأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بمكايِدهم الشريفة، لإحقاق الحقّ ونُصْرَته، وإبطال الباطل وإزهاقه.

ودَلَّ فعل المضارع ﴿يَكِيدُونَ﴾ على أنّ قَادةَ مشركي مكّة إبَّانَ نُزُول السُّورة، كانُوا يَعْمَلُونَ بَحرَكَةٍ تَتابُعِيَّةٍ في تدبير المكايد العظيمة ضدّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِه، ففِعْلُ المضارع يَدُلُّ على التجدُّد والْعَمَلِ المتتابع، وَجاء تأكيده بالمصْدَرِ الّذي هو مفعولٌ مُطْلَقٌ، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ للدَّلَالَةِ على عِظَمِ الكيد الّذي يَكِيدُونه، أي: يَكِيدون كَيْداً كثيراً وعظيماً وَذَا خَطَرٍ كبير.

وأبَانَ اللَّهُ عزَّ وجلّ أنَّ هذا الطَّوْرَ الّذي وَصَلَ إليه قادَةُ أَهْلِ الكُفْرِ والشِّرْك في مَكَّة، يُحْبِطُه اللَّهُ بكَيْدٍ متتابعٍ يَجْعَلُه مَرْدُوداً عَلَىٰ مُدَبِّرِيه، فقال تبارَكَ وتَعَالى:

● ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾: ومَعْلُومُ بالبداهَةِ أَنَّ كيْد الله غالِبٌ ومَحْبِطُ كَيْدَ الْكَافِرِينَ، أي: وَأَكِيدُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّتابُعِ كَيْداً أُحْبِطُ بِهِ وأُفْسِدُ كَيْدَ الْكَفِرِينَ، أعداءِ رسُولي والّذِينَ آمَنُوا به واتبعوه، وأعداء ديني الذي حمَّلْتُ رَسُولي والذي آمنوا به أعْبَاءَ تبليغه للناس، فَأَنَا أتابع كلَّ حركةِ كَيدٍ شديد منهم بكَيْدٍ شَدِيدٍ غالب له.

والْغَرَضُ مِنْ هذا البيانِ طَمْأَنَةُ الرَّسُولِ والذين آمَنُوا بِهِ، بأنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُمْ وَنَاصِرُهم وَمُحْبِطُ مَكَايِد أعدائِهِمْ، وإلْقَاءُ الْوَهْنِ والضَّعْفِ في قُلُوب أئمَّةِ المشركينَ وأنصارِهم وجُنُودِهم، إذْ لاَ بُدَّ أنْ يُؤَثِّر في أعْمَاقِ قُلُوبهم أنَّ اللَّهَ خَاذِلُهُمْ، ومُحْبِط مكايدهم، نظراً إلى أَنَّ كُفْرَهُمْ كُفْرٌ عِنَادِيٌّ جُحُودِيٌّ، ولَيْسَ كُفْرَ مَنْ يُؤْمِنُ بأَنَّهُ علَىٰ حَقٍّ، فقد عَلِمُوا بأنّهم على باطل، ولكنَّهُمْ مُصِرُّون على باطلهم اتّباعاً لأهوائهم وشهواتهم، وإيثاراً للحياة الدنيا وما فيها.

فهم إذَنْ يُدْرِكُونَ من هٰذه العبارة معنى التَّهديد والْوَعِيد بأنّهم مَغْلُوبُون.

ودلَّ قول الله عزّ وجل: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ في مُقَابِلِ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ على أنّه جَلَّتْ حِكْمَتُه يُعَامِلُ عبادَه في حياة الابْتِلاء هٰذه التي يَعيشُونها ضِمْنَ قانُونِ قُدْرَاتِهم الممنُوحَاتِ لَهُمْ في الحياة الدُّنيا، ولا يُعامِلُهُمْ بمُقْتَضَىٰ قُدْرَتِه الكليّة.

إنَّ قُدْرَة اللَّهِ الكليَّةَ، لاَ تَحْتَاجُ منه تبارَكَ وتَعَالَىٰ أَنْ يَكيد كيْداً كبيراً، ضدّ كيد أعداء رسُولِه ودينه وأوليائه المؤمنين، إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يَقُولَ لَهُ: «كُنْ» فَهُو «يَكُون» بأمْرِ التكوين، ولو كَانَ أمْرُ التكوين مُوَجّهاً لِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْض، أو لإزالتهما من الوجود.

لكِنَّ للَّهِ عزّ وجلَّ سُنَناً في كونه يُعَامِلُ عبادَهُ بمقتضاها، وهم في حياة الابْتِلاء.

فَيُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِين ويُحْبِطُهُ بمُقْتَضَاها، ويَكيدُ لصالح أوليائه وأنصاره وأحْبَابه بمقتضَاهَا، ويَنْصُرُهم بمُقْتَضَاهَا، ولا يَتَدَخَّلُ بالخوارِق العظمىٰ إلاَّ نادِراً، وبِقَدْرٍ مَحْدُودٍ.

وحين أَيَّدَ اللَّهُ المؤمنين في غَزْوَةِ بَدْرٍ بألاَفٍ من الملائكة، أبَانَ جلَّ جَلاَلَهُ أنَّهُ لم يَجْعَلْ ذٰلِكَ إلاَّ بُشْرَىٰ لهم، ولتطمئِنَّ قُلُوبهم به، وليقْطَع طَرَفاً

من الّذِينَ كَفَرُوا، أوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبين، ولَمْ يُعْطِ اللَّهُ الْمَلاَئِكَةَ صَلاحِيَّةً أكْثَرَ من ذَلِكَ، ولَوْ أعْطَاهم لأبادُوا الكافِرِين بأقْصَرِ زمَنٍ، فقالَ اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) في معرض الحديث عن الملائكة الّذين أمَدَّ الله بهم المؤمنين في بدر، وخطاباً للمؤمنين:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

وبعد أن طَمْأَنَ اللَّهُ رَسُولَهُ والذين آمنوا به واتَّبَعوه بأنّهم مؤيَّدُون بِنَصْرِه، أمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ ويُلْحَقُ به الّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبعوه، بأنْ يُمَهِّلَ الْكَافِرين فلا يقاوِمَهم، ولا يحارِبَهم، ولا يتّخِذَ الوسائل لمقاومتهم ومحاربتهم، بل يَصْبِر ولْيَضْبط نَفْسه، حتَّى يأذن اللّهُ له، ومن خلال سلاسِل الأحداثِ، يَكْتَسِبُ المؤمِنُون خِبْرَاتٍ بشَأْنِ المراحِلِ الَّتِي تَرْتَقِي فيها تَدْبيراتُهم، للْوُصُول إلى مرحلة المواجهة الحربيَّة الظافرة، ضمن الأنظمة السَّبَبِيَّة، لأطوار المجتمعات الْبَشَرِيَّة.

فقال اللّهُ عزَّ وجلّ خِطَاباً لِرَسُولِه:

● ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾:

**مَهِّلْ وأمْهِلْ**: أنْظِرْ، وتَرفَّقْ، وأجِّلْ. أي فأنْظِرِ الكافِرِينَ، وتَرفَّقْ بهم، وأَجِّلْهُمْ.

جاء توجيه الأَمْرِ بالإنظار والترفُّق والتأجيل بالفعل المضفَّفِ والفِعْل المهموز، توكيداً وتحْذِيراً من المخالفة.

**رُوَيْداً**: بمعنى أمْهِلْ، وفي هذِهِ العِبَارة زيادةٌ في التوكيد والتحذيرِ من المخالفة.

ثلاثُ عِبَارَاتٍ مُتَتابِعَاتٍ والمعنى واحد، وفي ظَنّي أَنّنا لاَ نَجِدُ في القرآن المجيد تأكيداً على أَمْرٍ واحِدٍ مثلَ هذا التأكيد الّذي يوحي بالتحذير من المخالفة، والغرضُ تحذيرُ المؤمنين من التَّعَجُّل في اتّخاذ وسائل

انتقاميَّةٍ، توقِعُهُمْ في ورطاتٍ يكُونُونَ فيها من الفاشلين، أو الخائبين، وإلزامهم بالصّبر، انتظاراً لما يقضيه الله من أمْر، فالوقت إبّان نزول السُّورة لا يَصِحُ فيه القيام بمواجهاتٍ انتقاميَّة، إذِ المسلمون يَوْمَئِذٍ لاَ يَمْلِكُونَ من سُنَن الأسْباب القدرات الكافيات لمواجهة قُوىٰ مشركي مكة، وخَوْضُ المسلمين حِينَئِذٍ معارك قتالية معهم عَمَلِيَّة انتحاريَّة لم يأذن الله بها.

كلمة ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ هي مُصَغَّر «إِرْواد» مصدر فعلِ «أَرْوَد يُرْوِدُ إرْوَاداً» وهو بمعنى «أَمْهَلَ».

فكلمة ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ بمعنى «أمْهِلْ» وهي مفعولٌ مطلقٌ لفعل محذوف تقديرُه: أَرْوِدْ رُوَيداً، أي: أمْهِلْ إمْهَالاً.

تقول: رُوَيداً بَكْراً، أي: أمْهِلْ بَكْراً إمْهالاً. صَغَّرُوا الْمَصْدرَ بعد حَذْفِ زَوَائِدِه، وأقامُوهُ مقام فِعْلِه.

بهذه الآية تنتهي السورة:

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾.

فما أعجب هذا الإلْزَامَ بالصَّبرِ على الكافرين، وإنظارِهم والترفُّق بهم، وعَدَمِ اتّخاذ وسائلِ عُنْفٍ وشدَّةٍ وانتقامٍ معهم، على الرُّغْمِ من شِدَّة أذاهم ومُعَاداتِهِم للرسول ودعوته، واضطهادهم لضُعَفَاء المؤمنين.

إنَّ حكمة الله عزَّ وجلَّ قَضَتْ بأن لا تكون عُمْدَةُ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ على الخوارق والمعجزات، وإنّما شَاءَتْ حِكْمَتُه أن تكون عُمْدَتُهم على الأسباب الكونيَّة الخاضِعَةِ لسُنَنِ اللَّهِ الدّائمة، المصْحُوبَةِ بالمعونات المحدُودَات التي يَجْعَلُها اللَّهُ للمؤمنين بمقتضىٰ هٰذِه السُّنَن، وأعطَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الّذين آمنوا الوعْدَ بأنْ يُمِدَّهُمْ بها.

**وقَدْ تَمَّ تَدَبُّر السُّورة بما فتح الله به،**
**وبما أمَدَّ من معونة وتوفيق.**

❀ ❀ ❀

## ملاحق لسورة الطارق

**الملحق الأوّل:** مستخرجات بلاغية من السُّورة.

**الملحق الثاني:** حول بَيَانِ بعْضِ أَطْوار خَلْقِ الإنسانِ في القرآن.

**الملحق الثالث:** حول كون الإنسان مُرَاقَباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر.

**الملحق الرابع:** حول كلمة يوم في القرآن مراداً بها يومُ الحياة الأخرى.

## (٩)
## الملحق الأول
## مستخرجات بلاغيّة من السّورة

في سورة (الطارق) اختيارات بلاغية عَدِيدَة أذكر منها ما يلي:

(١) الْقَسَمُ بآيات رَبَّانيَّةٍ مشْهُودَة على حقيقة غَيْبيَّة خَبرِيّة غَيْرِ مُشْهُودة لتَوْكيدها، وهذا في الآيات من (١ ـ ٤).

والْقَسَمُ بآيَات رَبَّانِيَّةٍ مَشْهُودَةٍ، لتَوْكيد أَنَّ نَبأَ يَوْمِ الدِّين للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، حقٌّ وصِدْقٌ، وجِدٌّ لا هَزْل فيه ولاَ عَبَث ولاَ تَهْوِيل، وهذا في الآيات من (١١ ـ ١٤).

والمقصودُونَ بإيراد كُلٍّ من الْقَسَمَيْن، الكافِرُونَ والشَّاكُون بحقائق يوم الدّين، وما يقتضيه ذلك اليوم من مُرَاقَبةٍ وتسجيلٍ غَيْبِيَّيْن في الحياة الدّنيا.

(٢) إيرادُ دليل الحسِّ ذي اللَّوَازِم العقليَّةِ القطعيّة، التي تُثْبِت صِدْق الخبر، وهو ما يُسَمَّىٰ عند علماء البديع «الـمذْهبَ الْكَلاَمِيّ» أي: على طريقة علماء الكلام في إيراد الأدلَّة والبراهين العقليَّة، لإثبات قضاياهم.

وهذا في الآيات من (٥ ـ ٨).

(٣) التوكيد بأدوات التوكيد وأساليبه في اللّغة العربية:

أ ـ بالنفي والاستثناء المفيدين للتوكيد والحصر، في ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾: أي: ما كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عليها حَافظ.

ب ـ بالمؤكّدَات: (إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللاّم المزحلقة) في: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ وفي: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾.

وبالمؤكّدات: (إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ والْمَفْعُول المطلق) في: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾.

جـ ـ التوكيد مع التَّنْصِيصِ على العموم الشامل، بحَرْف الجرّ الزائد «مِنْ» في: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

د ـ التوكيد بعبارات متتابعاتٍ ذواتِ دلالَةٍ واحدة في: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾.

(٤) الإيجاز بالحذف في: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾:

**والتقدير**: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ وَإنَّهُ لمبعوثٌ إلَىٰ الحياة بَعْدَ مَوْتِه وفناءِ جَسَدِه للحساب، وفَصْل القضاء وتَنفيذ الجزاء ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ﴾ يوْمَ يُقْضَىٰ عليه بالعذاب ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ تَدْفَعُ عَنْهُ شيئاً من قضاء اللَّهِ وَتَنْفِيذِه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يَنْصُرُهُ بأيّ شَيْءٍ، فيخفف عنه شيئاً من القضاء، أو من الجزاء.

❀ ❀ ❀

(١٠)

## الملحق الثاني

## حول بيان بعضِ أطْوَارِ خَلْقِ الإنسانِ في القرآن

ضِمْن مَنْهجِ القرآن في تجزئة الأفكار حول موضوع واحد، وتوزيع البيانَاتِ حوْلَها على نُصوص متعدِّدةٍ منه، أتابعُ تدبُّر النُّصُوص الواردة بشأن توجيه الفكر للنَّظَر في أطوار خَلْقِ الإنسان في القرآن.

**النصّ الأوّل:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) مُبَيِّناً ما جاء في صُحُفِ مُوسَى وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وفَّىٰ، بشأنِ خلْق الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرِ والأُنْثَىٰ، من نُطْفَةِ الرَّجُلِ إذا قَذَفَهَا سالكةً طريقَها إلى رحِم المرْأة:

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾:

فأوْرَدَ اللَّهُ عزَّ وجلّ هٰذا البيانَ حِكَايَةً لِمَا سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَهُ في صُحُفِ إبراهيمَ وموسَىٰ عليهما السلام.

وفي هذا البيان توجيه للتفكُّر في قَضِيَّةٍ واحدة من قضايا الْخَلْقِ الرَّبَّاني من أطوار خَلْق الإنسان، وهي أنَّ الذكر والأُنْثَىٰ من المواليد يتكَوَّنَانِ من نُطْفَةِ الرَّجل، بَعْدَ أَنْ تُمْنَىٰ في مهْبَلِ المرأةِ، إذ تأخذ النطفة طريقها للقاحِ البُيَيْضَةِ التي يخرجها مَبِيض المرأة بعد الانتهاء من الدورة الشهريَّة، وفي الأواسط ما بين بَدْءِ الحيْضِ حتَّى آخر مُدَّةِ الطُّهر.

وهذه حقيقة أثبتها العلم المعاصر، فنُطْفَةُ الرَّجُلِ هي الحاملة للقاحات الذكورة والأنوثة، وبُيَيْضَةُ المرأةِ حياديَّة، صالحة لاستقبال لِقَاحِ الذَّكر من نطفَةِ الرَّجل، أو لِقَاحِ الأنثى، وهذا اللِّقَاحُ حُيَيْوِينٌ صَغِيرٌ جدًّا، مُذَكَّرٌ أَوْ مُؤَنَّث.

**النصّ الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

فجاء فيه بَيانُ أنّ الإنسان مخلوقٌ من مَنِيٍّ يُمْنَىٰ، وبعْدَه يُطوِّرُهُ اللَّهُ

إلىٰ عَلَقَةٍ فَخَلْقٍ سَوِي، وأنّ مَنِيَّ الذَّكرِ يَخْلُقُ الله منهُ الذَّكَرَ والأُنْثَىٰ، بأسْلُوبِ الاستفهام لانتزاع الجواب من المقصود بالخطاب، ولإقناعه بأنّ يَوْمَ الدين حقٌّ، إذْ إنكارُه قائم على استبعاد الإحياء بعْدَ الإماتة والإفْناءِ، لكنّ الدَّلِيلَ العقليَّ يُثْبتُ أنَّ الّذِي بدأ خَلْقَ الإنْسَانِ من مَنِيٍّ يُمْنَىٰ قَادِرٌ علىٰ أنْ يُحْيِيَ الموتَىٰ.

وأضافَ البيانُ هُنَا أنَّ هٰذهِ النُّطفة مَرّتْ عَلَيْها مُدَّةٌ بَعْدَ التلقيح فَكَانَتْ عَلَقَةً، فتَبِعَها خَلْقٌ فتَسْوِيَة. وأكّدَ أنَّ خلْقَ الذّكر والأُنْثَىٰ يكون من النَّطْفَة الّتي يَقْذِفُها الذكر.

**النّصّ الثالث:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) خطاباً للناس:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ أنَّ النطفة الْحَاوِيَة لِلّقَاحِ مَوْجودة ضمْن مَاءٍ مَهِينٍ، أي: ضِمْنَ ماءٍ قليلٍ حَقِيرٍ ضعيفٍ.

وأضاف أيْضاً من أجزاء الموضوع أنّ الله عزّ وجلّ جعَلَهُ في قرارٍ مَكِينٍ، إلَىٰ قَدَرٍ مُحَدَّدٍ في خُطَّةِ التكوين، أي: جعله بعد اللّقاح عَالِقاً في مكان استقرارٍ ملائم لحفظه في رَحِمِ الأمّ، حَتّىٰ يَسْتَكْمِلَ نُضْجَه، ويولَدَ طِفْلاً مُسْتَوْفياً كَامِلَ شُرُوط الحياة على الأرض.

كُلُّ ذلِكَ ضِمْنَ مقَادِيرَ تَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ يَتَعلَّقُ به.

أمّا الْغَرَضُ الدينيُّ من هذا البيان حول الواقع التكويني، فَهُوَ رَبْطُ الظّاهِرَاتِ الكونية بدَلالاَتها الهاديات إلى صفات اللّهِ الجليلة، والهادياتِ

أيضاً إلى أنَّ الخالِقَ الَّذِي قَدَرَ على خَلْقِهَا دُون مثالٍ سَبَقَ، قادِرٌ على خَلْقِ أمثالِها، وقادِرٌ على إعادتها إلى الوجود بَعْدَ العدم، وعلى إعادتها إلى الحياة بعْدَ إماتتها وإفنائها، وبذلك تندفع أوْهَامُ المكذِّبين بيَوْمِ الدّين، إذا كان تكذيبُهُم قائماً على شُبهات.

**النصّ الرابع:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) خطاباً للإنسان المكذّب بيَوْمِ الدّين استبعاداً لقضيَّة الإحياء بَعْدَ الموت:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾.

فأضاف هذا البيانُ وصْفَيْنِ لِلْمَاءِ الَّذِي يَخْلُقُ اللَّهُ مِنْهُ الإنسان:

**الوصف الأول:** أنَّهُ مَاءٌ دَافِقٌ، أي: يَخْرُجُ دَفْقاً، على طريقَةِ الْقَذْفِ الْمَوجِيِّ المتَدافع، لا على طريقة السَّيلان، ولا على طَريقة الرَّشْح.

**الوصف الثاني:** أنَّهُ يَخْرج من بين الصلب والترائب.

وقد سبق خلال تدبّر هذه السورة شَرْحُ هٰذه الحقيقة العلمية الّتي أثبتَتْها الدراسات العلميّة المعاصرة، فأبانت التطابق بين البيان القرآني، والحقائق العلميَّة حول هذا الموضوع.

وقد جاء أسْلُوبُ البيان في هذا النّصّ على طريقة الأمْر الجازم الحازم، بالنظر في هذه الظاهرة من ظواهر الخلْق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ والمرادُ النَّظَرُ التفكُّرِيُّ، بعد أنْ تَدرَّجَ البيان، من مُجَرَّدِ الخبر حكايةً لما أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ في الكتب السابقة، إلى لَفْتِ النظر بطَرِيقَةِ الاسْتِفْهَام الرَّقيق دُونَ مُوَاجهة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ فإلى الشَّدِّ إلى التأمُّلِ في هٰذِهِ الظَاهِرَة، بطَريقةِ الاسْتِفْهَام الْعَنِيفِ الذي فيه معنى التلويم، مع المواجَهَةِ بالخطاب: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾.

**النصّ الخامس:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) خطاباً للمكذبين للرَّسُول ﷺ، والمكذبين بيوم الدين، بَعْدَ تقديم مَشْهَدٍ مُقْتَطَعٍ من مشاهد عذابهم في الجحيم يوم الدّين:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

فأضاف هذا النّصُّ أنَّ المنِيَّ الَّذي يُمْنِيه النَّاسُ شهوةً، وتُخْلَقُ منه السُّلالاتُ البشرِيَّة، لاَ يَخْلُقُ الناسُ منه شيئاً، بل اللّهُ عزَّ وجلَّ هو الخالق له.

وفي التوجيه الاستفهاميّ في هذا النّصّ معنَىٰ التوبيخ والتقريع، ومعنى التعجيز والتحدِّي.

**النصّ السادس:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (السّجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) متحدّثاً عن بعض صفاته جلَّ جلاله، وبعض ظواهر خلقه:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

جاء هذا النَّصُّ خِتاماً للنصوص القرآنيَّةِ التي تحدَّثَتْ عن بعض أطوار خَلْقِ الإنسان، بَعْدَ أنْ وَصَلَ الْبَيان القرآنِيُّ إلى ذِرْوَة الإقناعِ الكلاميِّ الحارِّ العنيف، فكان من الحكمة خَتْمُ الموضوع ببيانٍ خَبَرِيٍّ هادِئٍ بارِدٍ شَبِيهٍ بالبيان الذي بدأت به النُّصوص بحَسَب تَرْتيبِ النُّزول.

وأضاف هذا النصُّ بيان أَنَّ الجرْثُومَةَ الصُّغْرىٰ التي يُنْشِئُ الله عزّ وجلّ

الإنسانَ منها، بَعْدَ أن بَدَأ خَلْقَ الإنسانِ الأول من طين (ماءٍ وَتراب) وبعد أن خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَه، يَسْتَلُّها اللَّهُ جلَّ جلالُهُ اسْتِلالاً مِنْ مَاءٍ مَهِين.

أي: تُنْزَعُ انْتزاعاً بِرِفْقٍ من ماءٍ مَهِينٍ، هو النطفة المنَويَّة.

وأيُّ رِفْقٍ عَجيب هذا الرِّفْقُ الَّذِي يُنْتزَعُ بِهِ الْحُيَيْوينُ المنَوِيُّ، الملَقِّحُ لِبُيَيْضَةِ الأنْثىٰ من داخل النطفة، وتُتْرَكُ نُظَرَاؤه التي قد تَصِلُ أعدادُها إلى نحو مئتي مليون.

ما أعجب صُنْعَ اللَّهِ العليم الحكيم القدير؟! وما أدَقَّ بياناته التكامُلِيَّة وَأحْكَمها؟!

وبهذا تَمَّ عِقْدُ الموضوع وإقفالُه عند نُقْطَةٍ هادِئَةٍ مِثْلِ النُّقْطَة الَّتي بدَأَ بها.

هذه النصوص كلُّها تَدُور حول حلْقةٍ وسْطَىٰ من سلسلة الأطوار الّتي يمُرُّ بها خَلْقُ الإنسان مَرْحَلةً فَمَرْحَلَة، وهذه الحلقة قد سبقتها حلقات، ويأتي بَعْدَها حلَقات، وقد جاء في القرآن بيانات موزَّعَاتٌ فيه حول معالَم بارِزَةٍ منها، وطُوِيَتْ أطوارٌ خفيَّةٌ على الناس تقع بينها، اكتفاءً بذِكْر الظَّاهرات، لأنّ الفكْرَ العلميَّ يسْتطيع استدعاء بعض ما لم يُذْكَرْ صَراحة، ثم يَكُونُ للبحث العلميّ التجريبي أدوارٌ مُهِمَّة في اكتشاف عجائبِ صُنْعِ اللَّهِ عزّ وجلّ، في الأطوار الخفيَّة الّتي يحتاج اكتشافُها إلى أجهزة وأدواتٍ ووسائلَ، لا يَصِلُ النَّاسُ إليها إلاّ بعد تطوُّراتٍ حضاريَّةٍ واسعة، في أحقاب زَمَنِيَّةٍ متعدّدة.

ومن المعالم البارزة التي جاءت في القرآن موزَّعةً حول أطوار خلْقِ الإنسان المعالم التالية:

**الْمَعْلَمُ الأول:**

خَلْقُ الإنسان وكلِّ دابَّةٍ على الأرض من ماء، دلَّ على هذا الْمَعْلَم قول الله عزّ وجل في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

**المَعْلَم الثاني:**

خَلْقُ الإنسان من تراب، دلَّ على هذا المعْلم قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

**المَعْلَمْ الثالث:**

خَلْقُ الإنسان من طينٍ، أي: من مزيج من ماءٍ وتراب، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

**المعلم الرابع:**

مَرْحَلَةُ الطِّينِ اللاَّزِبِ، أي: الطِّين اللَّزج اللاَّصِق، دلَّ على هذا المعلم قولُ الله عزّ وجلَّ في سورة (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿... إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾.

**المعْلَمُ الخامس:**

مَرْحَلَةُ الْحَمأ المسْنُون، الّذي أخذ يتحوَّل إلى صَلْصَالٍ، دَلَّ على هذا المعلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.

**الْحَمَأُ**: هو الطِّينُ الأَسْوَدُ الْمُنْتِن.

**الْمَسْنُون**: أي: المصَوّر المصقول المملّس.

**الصَّلْصَال**: الطين اليابس الذي إذَا نُقِرَ بشيْءٍ أعطىٰ صَوْتاً فيه تَرْجيع.

**المغْلَمُ السّادِس:**

مرحلة الصَّلْصَالِ الذي صَارَ كالفخَّار، دلَّ على هذا المعلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

**المعلم السابع:**

مرحلة ظهور الإنسان الأوّل الذي خلقَ الله عزّ وجلّ منه زَوْجه، دلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً . . . ﴿١﴾﴾.

**المعلم الثامن:**

مرحلة التغذية من نبات الأرْض، دلَّ على هذا المغْلَم قول اللَّهِ عزّ وجل في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

**المعلم التاسع:**

مرحلة النُّطْفةِ الأمْشَاج، أي: ذاتِ العناصر المختلفة المختلطة، دلَّ على هذا المغْلَم قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

**المعْلَمُ العاشر:**

مرحَلَةُ الماءِ الدافق الذي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُلْب والترائب، دلّ على هذا المعْلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾.

وقد سبق شرح هذا النصّ باستِفَاضَةٍ لدى تدبُّر السّورة.

**المعْلَمُ الحادي عشر:**

مرحلة تَحْدِيد الذّكورَةِ والأُنوثَةِ عِنْدَ اللّقاح، دلَّ على هذا المَعْلَمِ قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

وقد سبق تدبُّر هذا النّص، وتحليلُ ما جاء فيه، وما دَلَّ عليه من دَلالات.

**المعْلَمُ الثاني عشر:**

مَرْحلة العلقة في بطْنِ الأمّ، دلَّ على هذا المعْلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول):

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾.

**المعلَمُ الثالث عشر:**

ظَاهِرَة التقدير الحكيم تكْويناً مِنَ النُّطْفَة، دلَّ على هذا المعْلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

**المعَلَمُ الرابع عشر:**

مَرْحلة جعْلِهِ في رَحِم أُمِّهِ في قرَارٍ مَكِينٍ إلى قَدَرٍ مَعْلُوم، دَلَّ على هذا المعْلَم قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سُورة (المرسَلاتِ/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

**المعلم الخامس عشر:**

ظاهرة تَحْسِين صُورةِ الإنْسان، وجَعْلِ كُلّ فَرْدٍ بصُورَةٍ مُتميِّزَة، دلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجلّ في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

**المعْلَم السادس عشر:**

ظاهرة المضغة المخلّقَةِ وَغيْرِ المخلّقَة، مع بيان الفواصل الزمنيَّة المتراخيَة بين بعض المراحل البارزة من خَلْقِ الإنسان، ومرحلة الطفولة، ومرحلة الرّدّ إلى أرذل الْعُمر، دلّ على هذه المراحل قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

وأضافت سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) مرحلَة الشَّيْخوخة بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وجاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بيانٌ يُشِير إلى أطوار الشيخوخة وما بَعْدَها حتى أرْذَل العمر، فقال الله عزّ وَجلّ فيها:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

**نُنَكِّسْهُ**: أي: نَجْعَلْهُ متنازلاً شيئاً فَشيئاً حتى يكون أَعْلاه هابطاً إلى مستوى أسفله، على عكْس نَشْأتِه الأُولى، إذْ يكونُ فيها مُتصاعداً شيئاً فشيئاً حتَّى يبْلُغ أشُدَّه.

**المعْلَمُ السابع عشر:**

ظَاهِرَة الترتيب مع التراخي النِّسْبيّ أو مع التعقيب النسبيّ، بين آخر بعْضِ المراحل السابقة وأوّل تالِيَاتِها، مع إضافة ذكر معالم لم تذكر في نُصُوصٍ أخرىٰ، جاء هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

**السُّلاَلَة**: ما اسْتُلّ مِنَ الشَّيْء وانْتُزِعَ برِفْق، كانْتِزاع الشَّعْرَةِ من العجين اللّيِّن الطّرِي. وهكذا تُسْتَلّ أغْذِية النباتات من الطين، وعناصر بناءِ الأجساد من الأَغذية، وعناصر النطفة المنويّة من الْجَسَد.

**الْعَلَقة:** قِطْعَةٌ من الدَّم الغليظ المتماسك.

**المعْلَمُ الثامن عشر:**

ظاهرة جعل الإنسان في أحْسَنِ تَقْويم، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

**المعْلَم التاسع عشر:**

تَسْوِيَة الإنْسَان، ونفْخُ الرُّوح فيه، وخَلْقُ سمعه وبَصَرِه وفُؤاده، دل على هذه الأمور قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

**المعْلَمُ العشرون:**

بَيانُ أَنَّ الأطْوَار الّتي يَمُرُّ بها خَلْقُ الإنْسَان إنَّما تَتِمُّ بِعَمَلِيَّاتِ خَلْقٍ متابع لا بِالتِّلْقائيَّةِ السَّبَبِيَّة. مع التنبيه على الظلُمات الثلاث التي يكُونُ فيها الجنينُ وهو في بَطْنِ أُمّه، دلَّ على هذه الحقائق قولُ الله عزَّ وجل في سورة (الزّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿... يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

**المعلم الحادي والعشرون:**

ظاهرة الفرق الشاسع بين طَوْرَين متباعِدَيْن: النُّطْفَة، والخصيم المبينِ المعبّر عمّا في نَفْسِه، دلّ على هذه الظاهر قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾.

**الخصيم**: المخاصم المجادل المنازع لنفسه أو لغيره بحقٍّ أو بباطل في خصومة بين فريقين.

**المعْلَم الثاني والعشرون:**

آيَةُ التزاوُج بين الذكُور والإناث، دلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وبعد ذكر هذه المعالم الدّالّة على خَلْق الإنسان ضمن سِلْسِلَة أطوار، يحْتَاجُ شَرْحها إلى سِفْرٍ كامل، أقول:

لَقَدْ كان نوحٌ عليه السَّلامُ حكيماً فيلسوفاً إذْ قال لقومه كما جاء في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: مَا لَكُمْ لاَ تخافُونَ عظمة الله، ولا تَتَرَقَّبُونَ عَدْلَهُ وَعقابَهُ الحكيم، إذَا أنْتُمْ أصْرَرْتُمْ على الكُفرِ ومُعَانَدَةِ الحقّ، وأنْتُمْ تُلاَحِظُون خَلْقَ اللّهِ لَكُمْ في أطوارٍ مُسَايِرَةٍ لحياةِ كلِّ واحدٍ منكم؟!.

❀ ❀ ❀

## (١١)
# الملحق الثالث
# حول كون الإنسان مراقَباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر

لدينا قضيتان:

**القضيّة الأولى**: كَوْنَ الإنسان في حياة الابتلاء مُرَاقباً دواماً، علَيْه حفظَةٌ يَعْلَمُونَ ما يَفْعَلُ، ويُسَجِّلونَه، ويَحْفَظُونه، حتَّىٰ يَشْهَدُوا به يَوْم الدِّين.

**الْقَضِيَّةُ الثانية**: كَوْنُ الإنسان محفُوظاً بِعِنَايَةِ اللَّهِ وَحفْظه، ممَّا يُحِيطُ بِهِ من مخاطِرِ ومهلكات، وقد جعل الله له من الملائكة من يحْفَظُه بأمْرٍ من الله عزّ وجلّ، وعلى وفْقِ قضائه وقَدَرِهِ فيه.

■ **أمّا القضيَّةُ الأولىٰ**: فَنُلاحظُ فيها، أنّ الله عزَّ وجلّ اختار أن يُسَمِّي المُرَاقِب العالم المسجِّل الحافِظَ لِمَا سَجَّلَ مِنْ كسب الإنسان في حياة امتحانه، والشَّاهِدَ به علَيْهِ يَوْمَ الدِّين بأحد أوصافه، وهو وصف «حَافظ» لأنه يَلْزَمُ مِنْ كوْنِه حَافظاً أَنْ يكونَ مُرَاقباً وعالماً وَمُسَجِّلاً، فاسْتَغْنَىٰ بوصف «حافظ» عن ذِكْرِ هذه اللّوازم.

وعُلِمَ الْغَرَضُ من هذا الحفظ، وهو الإعدادُ ليوم الحساب وفَصْلِ القضاء، وتقديمُ ما أعَدَّ، والشَّهَادَةُ بِهِ، من النُّصُوصِ الكثيرة، الَّتِي دَلَّتْ عَلَىٰ أنَّ الإنسانَ مُمْتَحَنٌ في هذِهِ الحياة الدنيا، ومُحَاسَبُ على ما كَسَبَ فِيها، ويُقْضَىٰ لَهُ أو عليه على وفق ما كسب.

ثمَّ يُجَازَىٰ علَى وفْقِ القضاء، وَعُلِمَ أيضاً من النُّصوص الّتي دلّتْ علىٰ أنّ الحفظَةَ يَشْهَدُونَ يوْمَ الحساب بما حَفِظُوا على الإنسان، من مكتَسَبَاتٍ إرَادِيَّةٍ فِي الحياة الدنيا.

وأتَابِعُ اسْتِعْرَاضَ نُصُوصِ هذه القضيّة بشيء من التدبُّر فيما يلي:

**النصّ الأول:**

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾.

فقد أبان هذا النَّصُّ أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ عَلِيمٌ دَواماً بِكُلِّ شَيْءٍ من سُلوك الإنْسَانِ، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نفسه. وأنَّه جَلَّ جلالُه جعَلَ عليه ملَكَيْن رَقِيبَيْنِ، يَتَلَقَّيَانِ ما يَصْدُرُ عنه، بالتَّسْجيلِ والحِفْظ، فما يَعْمَلُ من عَمَلٍ وَمَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ تَمَّ تَسْجِيلُهُ وحِفْظُه من قِبَلِ رقِيبٍ مِنَ الملائكةِ عَتِيدٍ شديد تامِّ الاستعداد للقيام بوظيفته.

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هذا النَّصّ لدى تَدَبُّرِ سورة (ق).

**النصّ الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)﴾.

وقد سبَق تدبُّر هذه الآيَة، خلال تدبُّرِ هذه السورة على ما فتح الله به.

**النصّ الثالث:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١)﴾.

دَلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ الإنْسَانَ مُحَاطٌ بالْعِلْمِ الرَّبَّانِيّ، وَوَاقِعٌ تَحْتَ سُلْطَانِ الرَّبِّ الْقَاهِرِ.

ودَلَّ أيْضاً على أنَّ اللّهَ جَلَّ جلالُهُ يُرْسِلُ على عبادِهِ حفَظَةً من الملائِكَةِ يَقُومُونَ بوظيفة المراقبة والتَّسْجيل والحفظ، مع عِلْمِ كُلٍّ مِنْهُمْ بِمَا يُسَجِّلُ وَيَحْفَظُ لِيَشْهَدَ بِهِ يَوْم الدِّين، أخذاً من دَلاَلَةِ نَصٍّ آخر.

﴿مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾: أي: ما كسَبْتم من كسْبٍ إراديّ، وذكر النهار للأشعار بأنّ النهار للعمل، والليل للراحة، أما علم الله فهو شاملٌ لما يَكْسِبُ الناس باللّيل والنهار كما جاء في نصوصٍ أخرى.

**النَّصُّ الرابع:**

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الإنفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ أنَّ الحافظين من الملائكة كِرَامٌ، أي: يُسْرِعُونَ في تسجيل الحسنات، وقد يتمهَّلُونَ في تَسْجِيلِ السَّيِّئَاتِ، رجاءَ توبة المذنب واسْتِغفاره.

وأضاف أنَّهُمْ كاتِبُونَ، أي: فَهُمْ يَتَلَقَّوْنَ، ويَكْتُبُونَ ما تَلَقَّوْهُ مِنْ كَسْبِ الإنسانِ الإراديّ.

وأضاف أنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ الناسُ المراقَبُونَ، أي: فَلَيْسُوا مُجَرَّدَ أَدَوَاتِ تَسْجِيلٍ لا تَعْلَمُ مَا تُسَجِّلُ، بَلْ هُمْ يَعْلَمُون مَا يُسَجّلون، لأنَّهُمْ يُسَجِّلُونَ النيّات من الأعمال، ويُسَجِّلُونَ مَا تُكِنُّهُ الصُّدُور.

● وأمّا كَوْنُ الإنْسَانِ مُرَاقباً مِنْ قِبَلِ رَبِّه العليم فبيانه قد جاء في عدّة نصوص، منْهَا النُّصُوصُ الكثيرة الَّتي تُثْبِتُ أنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور،

ومنها ما جاء في النصّ السابق من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وفي النصّ السابق من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) ومنها النصوص التالية:

**النص الأول:**

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكايةً لما قالَهُ هُودٌ عليه السَّلاَمُ لِقَوْمِهِ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: إنَّ رَبِّي مُهَيْمِنٌ وَمُسَيْطِرٌ بِسُلْطَانِهِ علَىٰ كُلِّ شَيءٍ، وهو حَفِيظٌ لِكُلِّ ما يَجْرِي فيهِ أو مِنْهُ أَوْ عَلَيهِ، ومنه حفظ ما تَكْسِبُونَ في رحلة امتحانكم.

**النصّ الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سَبَأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

**النصّ الثالث:**

قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾.

**النصّ الرابع:**

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

■ **وَأَمَّا الْقَضِيَّة الثانية**: وهي كَوْن الإنسان محفوظاً بعِنَايَةِ اللّهِ وَحِفْظِهِ

مِمّا يُحيطُ بِه من مَخاطِرَ وَمُهْلِكاتٍ، فقد دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الرَّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ... ﴿١١﴾﴾.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾: أي: للإنسان مُعقِّبات، وهم جَماعات من الملائكة يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ليَقُوموا في الناس بما كلَّفَهُمْ الله إيّاه من وَظائف، ومنها حفظ كلّ إنسان ممّا يحيط به من مخاطر.

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هُرَيرة، أنّ الرسول ﷺ قال:

«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ باللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بالنَّهارِ...».

ومن وَظائف هؤلاء ما جاء بيانه في الآية (١١) من سورة (الرّعد) من أنهم يَحْفَظُونَ كُلّ إنسان بأمْرِ الله، من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ خَفِيٍّ أوْ ظاهر، ومن أذىٰ كلِّ ذي أذى في خِضَمِّ هذا الكَوْنِ المشْحُونِ بالمخاطر، فَلا يُصِيبُ الإنسانَ مِنْها شيءٌ، إلاّ بقضاء الله وقَدَرِه، أو بإذْنه.

❋ ❋ ❋

## (١٢)
## الملحق الرابع
## كلمة يوم في القرآن مراداً بها يوم الحياة الأخرىٰ

جاءت تَسْمِيَةُ يوْمِ الحياة بعد الموت وفناء الأجساد في القرآن المجيد، بأسماءٍ كثيرة مشتقة من أوصافه أو ممَّا يجري فيه.

وأسْتَعرض منها في هذا الملحق ما جاء مضافاً إليه كلمة «يَوْم».

وبعده أسْتَعْرِضُ النصوص التي جاء فيها بيانٌ لبعْض ما يجري في هذا اليوم.

■ **أمّا ما جاء مضافاً إليه كلمة يَوْم،** ففيما يلي:

(١) فَمِنْ كون هذا اليوم آخِرَ الْيَوْمَيْنِ الْمُقَرَّرَيْنِ لامتحان المكلّفين وحِسَابهم وجزائهم، سمَّاه الله عزّ وجلّ: «**الْيَوْمَ الآخِرَ**».

ونجد هٰذه التسمية في (٢٦) نصًا قُرْآنِيًا.

(٢) ومن كونه اليومَ الذي يَتِمُّ به الدِّين (أي: الجزاء) سمَّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الدّين**».

ونجد هٰذه التسمية في (١٣) نصًا قُرْآنِيًا.

(٣) ومن كونه اليوم الذي يقومُ فيه الموتى إلى الحياة بعد الموت والفناء سمّاه اللَّهُ عزّ وجلّ: «**يَوْمَ القيامَة**».

ونجد هذه التسمية في (٧٠) نصًا قرآنيًا.

(٤) ومن كونه اليوم الذي يُبْعَثُ فيه الخلائق من أَجْدَاثهم بعد الموت والفناء، سمّاه اللَّهُ عزّ وجل: «**يَوْم الْبَعْث**».

ونجد هذه التسمية في نَصَّيْن من القرآن المجيد.

وذُكر في القرآن بعبارة: «**يَوْمَ يُبْعَثُونَ**» ستّ مرّات.

(٥) ومن كونه اليوْمِ الّذي يحاسب الله عزّ وجلّ فيه العباد على ما كَسَبُوا في رحلة امتحانهم، سمّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الحِسَاب**».

ونجد هذه التسمية في (٤) نصوص قرآنيّة.

(٦) ومن كونه اليوم الذي يفْصِلُ الله عزّ وجلّ فيه حُكْمَهُ في

المُمْتَحَنِين في الحياة الدنيا من عباده، سمّاه الله عزّ وجل: «**يَوْمَ الفَصْل**».

ونجد هذه التسمِيَة في (٦) نصوص قرآنيّة.

(٧) ومن كونه اليوم الذي تتلاقَىٰ فيه الخلائق أوّلُها وآخِرُها، ظَالِمُها وَمظلُومها، مَشْهُودُها وغَيْر مَشْهُودِها، سمَّاهُ الله عزّ وجلَّ: «**يَوْمَ التَّلاقي**».

ونجد هذه التسمية في الآية (١٥) من سورة (غافر/ ٤٠).

(٨) وَمن كون وقائعه وأحداثِه قريبة بالقياس على سلف من عُمْرِ الحياة الدنيا كلّها، وقريبة بالنسبة إلى إحساس الخلائق بين الموت والبعث، إذْ يُلْغَىٰ من إدراكهم الإحساس بمرور الزمن، سَمَّاهُ الله عزّ وجلّ «**يَوْمَ الآزِفة**».

**الآزفة**: هي القريبة لغة.

ونجد هذه التسمية في الآية (١٨) من سورة (غافر/ ٤٠).

(٩) ومن كوْنه يَوْماً يكْثُرُ فِيه التنادِي بَيْنَ الخلائق، سَمّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ التَّنَادِي**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٣٢) من سورة (غافر/ ٤٠).

(١٠) ومن كوْنه يَوْماً تُجْمَع فيه الخلائق، سمَّا اللَّهُ عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الْجَمْع**».

ونجد هذه التسمية في نَصَّيْنِ من القرآن الكريم.

(١١) ومن كونه يوماً يخرج فيه الناس من الأجداث إلى ربّهم ينسِلُونَ، سماه اللَّهُ عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الْخُرُوج**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٤٣) من سورة (ق/ ٥٠).

(١٢) ومن كوْنه اليوم الّذي يتحقَّقُ فيه وعِيدُ الله للكافرين المكذبين

بما جاءهم به رسول الله ﷺ، سمَّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الْوَعِيدِ**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٢٠) من سورة (ق/ ٥٠).

(١٣) ومن كونه اليوم الذي وعَدَ الله عباده، سمّاه الله عزّ وجلّ: «**اليوْمَ الْمَوْعُود**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٢) من سورة (البروج/ ٨٥).

(١٤) ومن كونه اليوم الّذِي يَخْسَرُ فيه الكافرون والعصاة منازلهم ومراتبهم الّتي كانت مُعَدَّةً لهم في الجنّة، وكانوا يستحقُّونها لو أنَّهم آمَنُوا وأطاعوا، فيقَعُ علَيْهم الْغَبْنُ الّذي غَبَنُوا بِه أنْفُسَهم، إذْ يُورِثُ الله عزّ وجلّ المؤمنين مراتبهم ومنازلهم فيها، سَمَّاه اللَّهُ عزَّ وجل: «**يَوْمَ التَّغَابُن**» أي: هو يَوْمٌ يَخْسَرُ فيه الكافرونَ خُسْراناً عظيماً، ويَرْبَحُ فيه المؤمِنُونَ رِبْحاً عظيماً.

ونجد هذه التسمية في الآية (٩) من سورة (التغابن/ ٦٤).

■ **وأمّا النصوص الّتي جاء فيها بيانٌ لبعض ما يجري في هذا اليوم،** ففيما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا . . . (٣٠)﴾.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ (١٠٦)﴾.

(٣) قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢):

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ (١٠٩)﴾.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢) أيضاً:

﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ... ﴿١١٩﴾﴾.

(٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ... ﴿٧٣﴾﴾.

(٦) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ... ﴿١٢٨﴾﴾.

(٧) قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن المنافقين:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ... ﴿٧٧﴾﴾.

(٨) قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

(٩) قول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿... مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

(١٠) قول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) حكاية لدعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

(١١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) أيضاً:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾.

(١٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿... وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

(١٣) قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... ﴿٨٤﴾﴾.

وقوله تعالى فيها خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ... ﴿٨٩﴾﴾.

(١٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

(١٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

(١٦) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

(١٧) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزّمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾.

(١٨) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾.

وقوله فيها حكاية لقول الأبرار:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

(١٩) قول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

(٢٠) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطّارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾.

وسبق تدبّر هذه الآية لدى تدبر سورة (الطارق).

**والحمد لله رَبّ العالمين**

❀ ❀ ❀

# سُورَةُ القَمَرِ

## ٥٤ مصحف ٣٧ نزول

سورة (القمر) سورة مكيّة كلُّها. وقيل: إلاّ الآيات (٤٤ و ٤٥ و ٤٦) لكن جاء في صحيح البخاريّ عن عائشة رضي الله عنها أنّ الآيـة: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ قـد أُنـزِلـت فِـي مكة، وهي جاريَةٌ تلعب.

وعلى هذا فالمدَنِيّ مِنها إنْ صَحّ مُقْتَصِرٌ على قول الله عزّ وجلّ فيـهـا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

❀ ❀ ❀

## (١)

# نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ
وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ
وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا
فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾
فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا

٣ - ● قرأ أبو جعفر: [مُسْتَقِرٍّ] بالجرّ.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مُسْتَقِرٌّ﴾ بالرَّفع.
قراءة الجمهور واضحة فمستقرٌّ خبر «كل».
وقراءة أبي جعفر تحتاج تأويلاً، ومنها أن خبر «كلّ» مطويٌّ مقدَّرٌ ذهناً، والمعنى: وكلُّ أمرٍ مُسْتَقِرٍّ بالقضاء حاصل لا محالة في أجله.

٥ - ● قرأ يعقوب: [فَمَا تُغْنِي] بإثبات الياء في الوقف.
وقرأ الباقون بحذفها في الوصل والوقف.

٦ - ● قرأ ورش، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [الدَّاعِي] بإثبات الياء في الوصل فقط.
وقرأ البزّي ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرةِ بحذفها في الحالين.

٦ - ● قرأ ابن كثير: ﴿نُكْرٍ﴾ بإسكان الكاف. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نُكُرٍ] بضمها.

٧ - ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿خُشَّعاً﴾ جَمْع «خاشع». =

أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ
إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى
مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا
ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ
ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾
وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ
﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ
عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا
فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ
﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ

= وقرأ باقي القراء العشرة: [خَاشِعاً] على الإفراد، تنزيلاً لاسم الفاعل منزلة الفعل. والقراءتان وجهان عربيان جائزان، وكلاهما فصيح لأنَّ «خُشَّعاً» جمع تكسير.

٨ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو وأبو جعفر: [إلى الدّاعي] بإثبات الياء وصلاً.
وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذفها في الحالين.

١١ ـ ● قرأ ابن عامر، وأبو جعفر ويعقوب: ﴿فَفَتَّحْنَا﴾ بتشديد التاء.
وقرَأ باقي القرّاء العشرة: [فَفَتَحْنَا] بتخفيف التاء.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذْ هما على التوزيع في الأزمنة والأمكنة. فالمبالغة تناسب قِسْماً من الحدث، والقراءة الأخرى تناسب قِسْماً آخر من الحدث.

١٢ ـ قرأ ابن كثير، وابن ذَكوان، وشُعبة، وحمزة، والكسائي: [عِيُوناً] بكسر العين.
وقرأ باقي القراء العشرة بضمها. والقراءتان وجهان عربيان.

١٦، ١٨، ٢١ ـ أثبت الياء في كلمة [وَنُذُرِي] في المواضع السّتة من السّورة: ورْش وصْلاً، ويَعْقُوب في الوصل والوقف. =

مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا
نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا
بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ
﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ
أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ
فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً
وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ
نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾
وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾

= وحذفها باقي القراء العشرة، في الحالين.
وهي وُجوه عربيّةٌ في النطق جائزة.

٢٦ ـ ● قرأ ابنُ عامرٍ، وحمزة: [سَتَعْلَمُونَ] بتاء المخاطبين.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بياء الغائبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.
فقد خاطبهم الله عن طريق رسولهم بقوله: [سَتَعْلَمُونَ].
وخاطب رسوله صالحاً والذين آمنوا به بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾.

٣٠، ٣٧، ٣٩ ـ أثبت الياء في كلمة [وَنُذُرِي] في المواضع السّتة من السّورة: ورْشٌ وصْلاً، ويَعْقُوب في الوصل والوقف.
وحذفها باقي القراء العشرة، في الحالين.
وهي وُجوه عربيّةٌ في النطق جائزة.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ
ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ
نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ
ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ
وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ
﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ
كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ
وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ
صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

## (٢)
## ممّا ورد في السُّنّة بشأن سورة (القمر)

روىٰ الإمام أحمد ومُسْلِمٌ وأهل السُّنَن عن أبي واقِدٍ اللَّيْثي قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ في الْعِيدِ بقاف واقْتَرَبَت».

أي: كان يقرأ في عِيدَي الفِطْرِ والأَضْحىٰ بسورة (ق) وسورة (الْقَمر) المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## سبب نزول السورة

سألَ أهْلُ مكة النبيَّ ﷺ آيةً تُثْبِتُ أنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حقًّا، فأشارَ بأصبعه إلى القمر في ليلةٍ كان فيها بدراً، فانْشَقَّ شِقَّيْنِ، حتَّىٰ رأَوْا جبلَ حراء بين الشِّقَّين، فقال لهم الرسول ﷺ: «اشْهَدُوا اشْهَدُوا».

فقالوا: سَحَرَنا مُحَمَّد، وقالوا: إنْ كان سَحَرنا فإنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أن يَسْحَرَ الناس كُلَّهم، فاسألوا المسافِرِين، وحين قَدِمَ المسافِرون من كلِّ جِهَةٍ سَأَلُوهم، فقالوا رأَيْنا أنّ القمر قد انْشَقَّ.

وأصَرَّ قادَةُ مشركي مكة على كُفْرِهم، وزعَمُوا أنَّه سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ قَوِيّ، بَلَغ من قُوَّتِه أنْ يُؤَثِّر على الناس خارج حدود مكَّة البعيدين في أسفارهم عنها.

فأنزل الله عزّ وجلّ سورة (القمر) لمعالجة موقف المشركين المعاند لهذه الآية العظيمة، وتحذيرهم من عقاب شامل، كما حصل لمجرمي الأمم السّابقة.

وروايات انشقاقِ القمر آيةً للرسول ﷺ، في أواسط العهد المكيّ من تاريخ بَعْثَتِه بلَغَتْ مبْلَغَ التواتر عند المحدِّثين.

وسيأتي إن شاء الله ذكر طائفة منها لدى تدبّر قول الله عزّ وجلّ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ①﴾.

❀ ❀ ❀

## (٤)
# موضوع السورة

يَدُور موضوعُ سورة (القمر) حول بيان الموقف العناديّ المكابِرِ الّذِي وقفَه قادة كُفّارِ قُرَيشٍ، من آية انشقاق القمر العظيمة، بَعْدَ أنْ طَلبُوا من الرسول ﷺ آيَةً مادِّيَّةً كُبْرَىٰ تُثْبِتُ صِحَّةَ نُبُوّته، وصِدْق رسالته، وبيانِ موقفهم العناديّ من الأنْبَاء الزاجِرَة، الَّتِي سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ توجيهُهَا لهم. وبيانِ الموقف الذي يُوصِي الله رسُولَهُ بأنْ يَتَّخِذَهُ مَعَهُمْ، بَعْدُ أنْ وصَلُوا إلى حالةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْها غالباً، وهو التولّي عنهم، بإدَارَةِ ظهره إليهم، والاشْتِغَال بآخرين لم يَبْلُغُوا بَعْدُ مَا بلغ إليه هؤلاء من عِنَادٍ ومكابرَةٍ واسْتِكْبَار ومُعَاداةٍ لدعوة الحقّ الرَّبَّانِيَّة.

وبعد هذا تشتمل السورة على معالجتهم ومعالجة أمثالهم، بالترهيب، وبالبيان الإقناعيّ، وبالترغيب.

فجاء فيها الترهيب بإيجاز من بعض أهوال يَوْم القيامة.

وبعده جاء التحذيرُ من إنزال العقاب المهلك إهلاكاً عامًّا في الدنيا، بأُسْلُوب عرضِ موجزاتٍ من قِصَصِ بعض المهلَكِين الأولين من كُفَّارِ الْقُرون الأولى، في خمس فقرات، تناولت بإيجاز:

إهلاك قوم نوح عليه السّلام، وإهْلَاكَ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ عليه السلام، وإهْلَاكَ ثمود قوم صالح عليه السلام، وإهلاك قوم لوط عليه السلام، وإهلاكَ فِرْعَونَ وآله وجنودهم.

مع المعالجة بالإقناع لكفار قريش، بأنّهم ليسوا عند الله خيراً من المهلكين الأولين.

وبعده جاءت طمأنة الرَّسُول والمؤمنين بأنَّ جَمْعَ كُفَّار مكَّة سيُهْزَمون في معاركَ قتاليةٍ مستقبليّةٍ، فأنزل الله في العهد المدنيّ آيَتَيْن أُضِيفَتا إلى

سورة (القمر) كما ذكر مُقَاتل من المفسِّرين، وهُمَا عند الجمهور من التنزيل المكيّ مع تنزيل آيات السورة، وهُما:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

وبعْدَ هذا البيان جاء الترهيب بتقديم لقطة مخيفة من عذاب المجرمين في النار يوم الدين، وهو مقرون ببيانِ أَنَّ كُلَّ شيْءٍ قد خلقه الله جلّ جلاله بقَدَرٍ، وأنّ نَفَاذَ أمْرِه يكون مثل لَمْحٍ بالْبَصَر، وأَنَّ أفْعَالَ الناسِ مسجَّلَةٌ عليهم صِغَارَها وكبارَها، أي: فهم سَيُحَاسَبُونَ عليها.

وأخيراً جاء ترغيب الذين آمنوا واتَّقَوْا بأنهم سوف يكونون يوم الدّين في جنَّاتٍ ونَهَر، في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مَليكٍ مقتدِر.

وبهذا ظهَرتْ لنا وحْدَةُ مَوْضُوعِ السُّورَةِ مُتماسِكَةَ العناصر، متعانقة الفِقَرات، بديعةَ الترابط.

❀ ❀ ❀

## (٥)
## دُرُوسُ السُّورَة

تشتمل سورة (القمر) على خمسة دروس متعانقة حول موضوع واحد كما سَبَقَ بيانُه.

**الدرس الأول:**

درسٌ يشْتمل على بيان موقِفِ أئمة الكُفْر والشِّرْكِ في مكّة إبَّان تنزيل السورة، بعْدَ طلَبِهم آيَةً حِسِّيَّةً كُبرىٰ، فأشَارَ الرَّسُول ﷺ إلى الْقَمَر ليلة البدر، فانْشَقَّ نِصْفَيْن مُتَبَاعِدَيْنِ، وبيانِ موقِفِهِمْ من الأنباء الزواجر التي أنزلَها الله عزّ وجلّ في نجوم التنزيل، قبل إنزال سورة (القمر).

فموقِفُهُمْ قد كان موقف المكابرة والعناد والإصرار على الكفر،

زاعمين أنَّ الرَّسُولَ ﷺ سَحَرهم، مع الاستمرار على موقفِ العِدَاء وتدبيرِ المكايد التي جاء بَيَانُها في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول).

ويشتمل أيضاً على بَيَانِ الموقف الّذي يُوصي الله عزّ وجلّ رسولَهُ بأَنْ يَتَّخِذَهُ معهم، وهو التولّي عَنْهُمْ بإدارة ظَهْرِهِ إليهم، ليتابعَ بَذْلَ جَهْدِهِ واجتهاده لدعوة آخرين لم يَصِلُوا إلى حالة ميؤوس منها.

وهو الآيات من (١ ـ ٥ وعبارة: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ من الآية ٦).

**الدرس الثاني:**

يشتمل على تَرْهِيبٍ بإيجاز من بعض أهوال يوم القيامة وهو من: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾ وحتى غاية الآية ٨).

**الدرس الثالث:**

يشتمل على تحذير الكفرة المعاندين المصرّين على رفض الحق، وعلى اتّباع الباطل، من إنزال العقاب المهلك لهم إهلاكاً عامًّا في الدنيا، إذَا وصَلُوا إلى درَكَةِ استحقاقهم هذا الإهلاكَ العامَّ، بإسْلُوب عَرْضِ موجزاتٍ من قِصَصٍ بعض المهلَكِين السَّابقين من كُفَّار القرونِ الأولى، وجاء هذا الدَّرْسُ مُفَصَّلاً إلى خمس فقرات:

**الفقرة الأولى** موجزُ قِصَّةِ إهلاك قوم النبيّ الرسول نوح عليه السلام.

**الفقرة الثانية:** موجَزُ قِصَّةِ إهْلَاك «عَادٍ» قومِ النَّبِيّ الرسول هود عليه السلام.

**الفقرة الثالثة:** موجَزُ قِصَّةِ إهلاك «ثمود» قَوْمِ النبيّ الرسول صالحٍ عليه السلام.

**الفقرة الرابعة:** موجزُ قِصَّةِ إهلاكِ قَوْمِ النبيّ الرسول لُوطٍ عليه السَّلام.

**الفقرة الخامسة:** لمحةٌ من إهلاك فرعون وآله وجنوده.

وهو الآيات من (٩ ـ ٤٢).

**الدرس الرابع:**

يشتمل على معالجة معاندي كُفّار قريش باقناعهم بأنَّهم ليْسُوا عند الله خيراً من المهلَكين الأولين، الذين أُهْلِكُوا بسبب كُفْرِهم وعنادهم وطغيانهم.

ويشتمل على طَمْأَنَةِ الرَّسول ﷺ والذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، بأنّ جمْعَ قادة كُفّارِ مكّة سيُهْزَمُون في معاركَ قتاليَّةٍ مستقبلية قادمة، وبَيَانِ أنّ السَّاعَةَ موعد تعذيبهم العذابَ الأكبرَ والأشَدَّ من الهزائم التي سَتَلْحَقُ بهم، ومن القَتْلِ التي يُقْتَلُ به صناديدهم وعُتاتُهم.

وهو الآيات من (٤٣ ـ ٤٦).

**الدرس الخامس:**

● يشتمل على بَيَانٍ ترهِيبِيّ بأسْلُوبِ تقديم لقْطَةٍ تصويريَّةٍ مخيفَةٍ من عذاب المجرمين في النّار يوم الدِّين، وهذا البيان مقرون بما يلي:

(١) ببيانِ أنَّ كُلُّ شيءٍ قد خلقه اللَّهُ عزَّ وجلَّ بقَدَر، وهذا القدر يشْمَلُ كُلَّ ما يَخْضَعُ للتَّقْدِير في الْكَمّ والكَيْف والزّمن وسائر الأشياء القابلة لأنْ تكون ذات مقادير.

(٢) وببيان أنّ نَفَاذَ أمْرِ الله يكُونُ مثْلَ لَمْحٍ بالْبَصَر.

(٣) وببيان أنّ أفعالَ العباد الظاهِرَةَ والباطنَةَ مسجَّلَةٌ عليهم صِغَارَها وكبارَها، أي: والمكلّفُون منهم سَوْف يحاسَبُونَ عليها.

● ويشتمل على بيانٍ ترغيبيٍّ للّذِينَ آمَنُوا واتّقَوْا، بأنَّهم سيكونون منعمين يوم الدّين في جَنَّاتٍ ونَهرٍ، في مَقْعَدِ صِدْقٍ عنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ، في مقابل الْبيَانِ التَّرْهِيبيِّ للمجرمين.

وهو الآيات من (٤٧ ـ ٥٥ آخر السورة).

❀ ❀ ❀

## (٦)
## التدبُّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ٥ مع عبارة ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ من الآية ٦)

قال الله عزّ وجل:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾.

● قرأ جمهورُ القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾ بالرَّفع، على أنّه خبَرُ [كُلٌّ].

وقرأ أبو جَعْفر: [مُسْتَقِرٍّ] بالجرّ، وهذه القراءة تحتاج إلى تأويل، وأحْسَنُ التأويلات فيما أرىٰ أنْ يكون خَبَرُ [كُلٌّ] مَطْوِيًّا مُقَدّراً ذِهناً، والمعنى: وكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍ بالقضاء غَيْرِ مَنْسُوخٍ حاصِلٌ لاَ مَحالَةَ فِي أَجَلِه.

● وقرأ جمهورُ الْقُرّاءِ الْعَشَرَةِ ﴿فَمَا تُغۡنِ﴾ بحَذْفِ الياء في الوصل والوقف تخفيفاً، وهو من اللّهجاتِ العربيّةِ الإيجازيّة.

وقرأ يَعْقُوبُ بإثْبَاتِ الياء في الوقف [فَمَا تُغْنِي] على الأصل دون حَذْف.

والقراءتان من التيسير على الناطقين، وهما تدخلان في الأحرف السبعة التيسيريَّة، على الناطقين العرب بحسب لهجاتهم.

● قول الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾.

**اقْتَرَبَتْ**: أي: دَنَا وَقْتُ وُقُوعِهَا، يُقَالُ لُغَةً: اقتربَ الْوَعْدُ، أي: دنا

وقْتُ وُقوعه. واقترب القوم: أي: دنا بعضهم من بعض.

**السّاعة**: جزءٌ من أجزاء الوقت، وإن قلَّ. وأطلقت في الاصطلاح الديني على الوقت الذي قضىٰ الله عزّ وجلّ أن يُنْهِيَ به ظروف هذه الحياة الدنيا وأنظمتها، وعلى الوقت الذي يبعث الله فيه الموتى إلى الحياة الأخرى، والقرائن تُبَيِّنُ المراد، وتُطْلَقُ في القرآن أيضاً على وفق المعنى اللّغويّ، ولكن منكَّرَةً دُون تعريف.

**وانْشَقّ**: أي: وانْصَدَعَ. فابْتَعَدَ قِسْمٌ منه عن قِسْمٍ آخر.

في هذه الآية بيانُ قضيَّتَيْن:

**القضيَّة الأولى**: اقترابُ السَّاعَةِ، الّتي تأتي بَعْدَهَا أحداث يَوْمِ القيامة، وما فيه من حساب، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتنفِيذِ جزاء.

**القضيـة الثانية**: انشقاق القمر آيةً حِسِّيَّةً كُبْرىٰ للنبيّ الرسُولِ محمّد ﷺ، وهي دالَّةٌ على أنَّهُ نبيُّ اللَّهِ حقًّا وصِدْقاً، وأنَّه رسُولُه الأَمِينُ، فهو يُبَلِّغ عنْهُ مَا يأمُرُه بتبليغه للعَالمين.

وجاءت القضيّة الثانية هذه بمثابة البرهان على صدق القضيَّة الأولى، قضيَّةِ السَّاعَةِ المسْتَتْبِعَةِ لبَعْث الموتىٰ إلى الحياة الأخرى التي يكون فيها الحسابُ، وفَصْلُ القضاء، وتنفيذُ الجزاء، بالنسبة إلى الّذين وُضِعُوا مَوْضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، من الإنس والجنّ.

فخَبَرُ السَّاعَةِ وخَبَرُ اقترابها بالنَّظَر إلى بَدْءِ نَشْأَةِ الحياة الدنيا، وبالقياس على الزَّمن الذي مضى منها، يَشْهَدُ لصِدْقه وصِحَّتِهِ إجْراءُ مُعْجزَةِ انشقاق القمر لِمُبَلِّغ هذا الخبرِ عن ربّه، لأنَّ انشقاق القمر في السَّماءِ لاَ يُمْكن أن يَفْعَلَهُ إلاَّ اللَّهُ خالِقُ السَّمَاوات والأَرْض، فإذا أَجْرَاه لبعض عباده فإنَّه يَدُلُّ بذلك على أنَّهُ صَادقٌ فيما يُبَلِّغُ عن ربِّهِ من غيبيَّات.

**شرح القضيَّة الأولى:**

إنَّ جُمْلَةَ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ خَبَرٌ عن أمرٍ غَيْبِي بالنِّسْبَةِ إلى المخاطبين، وهم لا يَسْتَطِيعُون أَنْ يُدْرِكُوا ما يَدُلُّ عليه هذا الخبر، لا عن طريق العقل المجرَّد، ولا عن طريق الدّلائل العلميَّة الكونيّة، وظاهراتِ الأشياء وأماراتها.

لكِنَّ حادثَةَ انشقاق القَمَرِ في السماء، الّتي وقَعَتْ بحضور طالبي آيَةٍ كبرى من الرسول ﷺ، فأجراها لهم بإشارة إلى الْقَمَرِ بأصبعه، تَشْهَدُ لَهُ بأنّه نبيُّ الله ورسولُهُ حقًّا وَصِدْقاً.

إنَّها قضيَّةٌ حِسّيَّةٌ مَشْهُودَة، ذَاتُ دَلاَلَةٍ عَقْلِيَّةٍ مُلْزِمَةٍ لذوي العقول المنْصِفَة، بأنَّ مَنْ أجْرَاها اللَّهُ عزّ وجلّ له نبيُّهُ ورَسُولُه، فَمَا يُخْبِرُ به عن الله لا بُدَّ أن يكون حقًّا وصِدْقاً، ومنه الإخبار باقتراب السَّاعة.

فذكر القضيَّتين مُقْتَرِنَتَيْن في صدر السّورة بيانٌ يتضَمَّنُ الخبر والدّليل على صِدقه، وهذا الأسلُوبُ القرآنيُّ هو من روائع الإيجاز في الاستدلال القائم على عرض القضيَّةِ، وعرض ما يَدُلُّ على صِدْقِها، مقترنَيْن، دون التصريح بأنَّهُ دليل عليها. كَمَنْ يَتَحَدَّى المصارعين وَيأتي إلى جِدَار لم يَسْتَطِعْ إمالَتَهُ عَدَدٌ مِنهم، فيدفعُهُ بِيَدِهِ فَيُسْقِطه.

**قضيّة الساعة واقترابها:**

لقد أخفى الله عزّ وجلّ وقت قيام السّاعة عن كلّ خَلْقِه، فهي لا تأتي إلاَّ بَغْتَةً بصُورَةٍ مُفاجِئَةٍ، وقد ثَقُلَ عِلْمُ وَقْتِ حُدُوثِها في السَّماواتِ والأرْض.

وإذْ أخْفَى الله عزّ وجل الْعِلْمَ بوقت قيام السَّاعَةِ عن كلّ خَلْقِهِ، حَتَّى عن الملائكة المقرَّبين، فإنّ مَعْرِفَة قُرْبِ وَقُوعِها أو بُعْدِهِ، لا يُمْكِنُ أنْ يُدْرِكَ

ما لَمْ يأتِنا الْوَحْيُ عن الرَّبّ الّذي قَضىٰ وَقَدَّرَ، ببيان يَدُلُّ عليه.

وقد أخبرنا الله عزّ وجلّ في قرآنه باقترابها، وبلَّغنا ذَلِكَ نَبِيُّهُ ورَسولُه المؤيَد مِنْ قِبَلِه بالمعجزات والآيات الباهرات، ومنها معجزةُ انشقاق القمر، فوجب التسليمُ بصحّة الخبر وصدقه.

والغرض من الإعْلام باقتراب الساعة التخفيف من استبعاد وقوعها، أو استبعادِ وقْتِ وُقوعها الَّذِي يُولّدُ في النفُوسِ الغفلة عنها، اشتِغَالاً واهتماماً بالقضايا الْقَرِيبة المستَعْجَلَة من أمور الحياة الدنيا، مع بيان حقيقة من الحقائق المستقبليّة التي لا تُعْلَمُ إلاّ عن طَرِيق الْوَحْي الرَّبّاني، لِخِدْمَةِ أغْرَاض الدّين.

ويَسْأل سَائلٌ مَا الْمُرادُ بالسَّاعةِ المذكورة في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾؟

فأقول: يُمْكِنُ أنْ يكُون المرادُ بها ساعَةَ إنْهاءِ ظرُوف هذِه الحياة الدّنيا، وهذا الإنْهاءُ يَسْتَلْزِم عقلاً الإعْلامُ باقترابِ ساعةِ القيامة، والبعثِ للحياة الأخرىٰ، الّتي يَكُونُ فيها الحسابُ، وفَصْل القَضاء، وتنفيذ الجزاء، إذْ يَوْمُ الْبَعْث والْحِسَاب ومَا يَجْري فيه هو المقْصُودُ بِبَيَانِ اقْتِرابه فَبِهِ تَتَحقَّقُ الغايةُ من الامتحان في رحلة الحياة الدنيا.

ويُمْكِنُ أن يكُونَ المرادُ بِها ساعةَ القيامة والبعث، وهذا يتضمَّنُ الإعلامَ باقترابِ ساعةِ إنْهاء ظروف هذه الحياة الدنيا، الذي هو مُقدّمة من مقدّمات الإعداد الكَوْنيّ لظُرُوف الحياة الأخرى.

وجاء النَّصُّ مُطْلقاً لأن كُلًّا من المعنَيَيْن صالحٌ ومستلزمٌ للمعنى الآخر، وهذا من بديع الإطلاقات القرآنية، الّتي تستفادُ منها عدَّة معانٍ صالحةٍ ومُرَادَةٍ.

والمراد باقترابها الاقترابُ النِّسْبيّ الذي يلاحظ فيه عُمْرُ الحياة الدينا مُنْذُ بَدْءِ الحياة على الأرض حتى إنهائها، فإذا بقي الرّبْع أو الخمس أو

السّدُس أو أقلُّ من ذلك مهما بلغ من القرون، فإنّ المرتَقَبَ بعْدَهُ أجَلٌ قريب بالنسبة إلى ما مَضَىٰ من الحياة على الأرض.

## نصوص قرآنية بشأن اقتراب الساعة:

**النصّ الأول**: ما جاء في أوّل سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزل) وهو ما تدبّرناه آنفاً.

**النصّ الثاني**: قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بشأن منكري البعث:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾، أي: فسيُحرِّكونها حركة المُسْتَبْعِدِ المتعجّبِ المنكِر.

﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾، أي: أرجو وأترقَّب أنْ يكون قريباً وهو تعبير مضمونه الجَزْمُ، وظاهره الرجاء والترقُّب للأمر القريب لأن المحادثة مع منكري البعث إنكاراً كليًا، وهم يُمَاحِكُونَ في السُّؤالِ عن وقْتِهِ بِشَكْلٍ مُحَدَّدٍ، وقد أخفاه الله عزَّ وجَلَّ عن كلّ عباده في الأرض وفي السماوات.

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾، أي: يَوْمَ يدعوكُمْ رَبُّكُمْ لمحكَمَةِ الْعَدْلِ فتستجيبون لِدَعْوَتِهِ وتحضرون للحساب، وأنتم لا تملكون غير ذلِكَ يَوْمَئِذٍ، وتَجْعَلُونَ استجابَتَكُمْ لربّكم مَقْرُونةً بِحَمْدِهِ والثناء عليه لعلّه يخفِّفُ عنكم.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، أي: وحينَ تُبْعَثُونَ تَظُنُّونَ أنَّكُمْ ما

لَبِثْتُم بَيْنَ المَوْتِ والبَعْثِ إلاَّ زَمناً قليلاً، كَساعةٍ مِنْ نهار، لأنّ المَوْتى يُلْغَى من نُفُوسِهم الاحْساسُ بمرور الزَّمن، فاللحظةُ ومِلْيَاراتُ السِّنِينَ بالنِّسْبةِ إليهم سواء، ومن مات في عهد آدم ومَنْ مَاتَ آخر الناس، يكون إحْسَاسُهُمَا بما مضى من الزمن سواءً.

**النصّ الثالث**: قول الله عزّ وجلّ في سورة(الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، أي: أنزل الكتاب مشتملاً على قسمين، فما فيه من أخبار وأنباء فهي حقٌّ مطابق للوقع، وأنزل الميزانَ، فما فيه من تشريعات وأحكام وتكاليف فهي قائمة على العدل، وجاء التعبير عن العَدْلِ بالميزان، لأنّ الميزان رَمْزُ العدل، الذي هو إعطاء كُلّ ذي حقٍّ حَقَّهُ.

وهذه العبارة داخِلَةٌ في عموم قول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؟ جاء التعبير هنا عن اقتراب السَّاعَةِ بأسْلُوب طرحِ احتمالِ قُرْبها، الّذي يُرادُ به الإعلامُ بقُرْبِها بأسْلُوب فَنيٍّ أدبيّ، مُقَدَّمٍ بصيغة سُؤال.

أي: وأيُّ شيءٍ يجعلُكَ تَدْري أنّ السَّاعَةَ غَيْرُ واقِعَةٍ أيُّها المكذِّب بها، أوْ أنّها بَعِيدَةُ الْوُقوع، إنّكَ لا تَمْلِكُ أيَّ دَليل، وإذا كان الأمر كذلك فالاحتمالات سواءٌ بالنِّسْبَةِ إليك، ومن البصيرة العقليّة الاحترازيّة أنْ تَضع

نُصْبَ عينيكَ احتمالَ قُرْب وُقوعِها لِتَتَّخِذَ حِذْرَكَ، وتبادِرَ إلى ما يَقِيكَ من عذابِ الله الذي يُمْكِن أن يُوَاجِهَكَ بَعْدَهَا، إذا قَدَّمْتَ أوْ أخَّرْتَ ما يُفْضِي بِكَ إليه.

وهذا الأسلوب الاستفهاميُّ التعجيبي أُسْلوبٌ بارِعٌ بَدِيعٌ من طُرُقِ الإقناع بِتَوَقّي عقاب الله يَوْمَ الدين.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، أي: يَسْتَعْجِلُ وُقوعَ السَّاعة مُسْتَهينين بها وبأنْباءِ قِيامها، الّذين لا يُؤْمِنُونَ بها. فاستعجالهم أسلوبٌ من أساليب الجدَلِ الكلاميّ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾ ألا أداة استفتاح وتنبيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: إنّ الذين يجادلون بشأن قيام السّاعة شاكّين أو مشكّين بها، ورافضين الإيمان بها.

**المماراة**: المجادلة القائمة على المخالفة والالتواء عن الحق. يقال لغة: مَارَىٰ فُلانٌ فُلاناً يُماريه، أي: ناظره وجادله. وخالَفَهُ وتَلَوَّى عليه.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: لَواقِعُونَ في ضَلالٍ بعيدٍ عن موْقعِ الْحقّ.

**النص الرابع**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) بشأن العذاب الواقع للكافرين يَوْمَ الدّين:

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾، أي: إنّ بَعْضَ الْكَافِرِينَ يَرَوْنَ عَذَابَ يَوْمِ الدّينِ أمراً بَعيداً على فرض أنّهُ حَقٌّ، فبَيْنَ زَمنِ وُجُودِهم في الحياة الدُّنيا وَزَمنِ حُصُولِهِ يَوْمَ الدّين إنْ صَحَّ الخَبَرُ بهِ، قُرونٌ، وأحقابٌ طويلة جدّاً.

لكنّ الله بِجَلالِ رُبُوبِيّته وَبِعِلْمِهِ الشامل يَراه قَرِيباً، إذْ لَيْسَ بَيْنَ الموت

والبعث الذي يَحْصُل فيه هذا العذاب إلاّ فاصل البرزخ، وهذا الفاصل بالنسبة إلى إحساس نُفُوسِ الموتىٰ قليلٌ جدّاً، إنّهم حين يُبْعَثُونَ يُقَدِّرُون أَنَّهُم لم يَلْبَثُوا بيْنَ الموت والبَعْثِ إلاَّ عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا، أي: كَنَوْمَةٍ في الضُّحىٰ، أو نومةٍ في الْعَشِيّ، والحقُّ أنّ العِبْرَةَ بإحساس النفوسِ لا بِطُولِ الزَّمن خارج إحْسَاسِهَا.

**النصّ الخامس**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) خطاباً للكافرين.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

فأبانت هذه الآية أنّ الْعَذابَ الذي يُوجّهُ الله عزَّ وجل الإنْذارَ به لِلْكَافِرين سَيكُونُ قَرِيباً بالنِّسْبَةِ إلى إحْسَاسَاتِهم، لأنّهمْ لاَ يَشْعُرُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلاّ بِسُرْعَةِ ملاقاتهم له يوم الدين، غير الّذِي يُلاقُونَهُ مِنْ عَذَابِ نَفسِيٍّ في مُدَّةِ البرزَخِ الّتي لاَ يَشْعُرُون بمُرُور الزَّمَنِ فيها.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: يَنْظُرُ بِعَيْنَيْهِ ما كَسَبَ في الحياة الدُّنيا من كَسْبٍ إراديّ، يُعْرَضُ عليه فيه شَرِيطٌ كامِلٌ بالصُّورَةِ والصَّوتِ والنِّيَّاتِ وحركاتِ النفس كُلِّها.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، أي: ويقول الكافر متمنّياً أن يكون مثل البهائم الّتي يَقُولُ الله عزَّ وجَلَّ لها: كوني تراباً، فتكون بَعْدَ أنْ يَقْتَصَّ للمَظْلُومَاتِ مِنْهَا مِنْ ظَالِمَاتها في الحياة الدُّنيا.

**النصّ السادس**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزولاً) خطاباً لرسوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: يَسْأَلُكَ الناس عن وقْتِ وُقُوعها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: قُلْ يا مُحَمَّد ما عِلْمُ وقْتِ وُقُوعِها عِنْدَأحدٍ إلاّ عِنْدَ الله، فَهُوَ وَحْدَهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ العليم بوقت وقوعها.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، أي: وقُلْ يا مُحَمَّدُ للسَّائِلِ الذي يَسْأَلُكَ عن وَقْتِ وُقُوعِ السَّاعَةِ، لَعَلَّ السَّاعَةَ تكونُ قريباً.

وشَرْح هذه العبارة وتحليلها سَبَقَ لدَىٰ شَرْحِ شَبيهها آنفاً في النّصّ الثالث من هذه النصوص.

❁ ❁ ❁

أمّا قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ لرسوله أيضاً في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول)،

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: فإنْ أصرّوا على إدارة ظهورهم لدعوتك يا مُحمَّد، والابتعادِ عنها ابْتِعَاداً كُلّياً، فقل لهم: آذنتُكُمْ، أي: أَعْلَمْتُكُمْ إعلاماً على سواءٍ بَيْني وبَيْنَكم، بأنَّ الحالة بَيْنَنا حالَةُ حَرْبٍ، لا حَالَةُ سِلْم، واعْلَمُوا بأنَّكُمْ سَتُهْزَمُونَ، وما أدْري أقريب أم بعيد ما تُوعَدُون من هَزِيمتكم.

فهذان النَّصّان متعلّقان بما وُعِدوا من عقاب معجَّل في الحياة الدنيا.

❁ ❁ ❁

## ما ورد في السنة بشأن اقتراب الساعة:

١ ـ روى البخاريُّ ومسلم وأحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ».

وَرَوَى البخاري ومسلم وأحمد عن سَهْل بن سَعْد مثله.

**كَهَاتَيْن**: أي، كالفَرْقِ ما بيْنَ الإصبع السَّبابة والإصبع الوسطى، فما بقي من الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما مضىٰ منها، كالفاضل من الوسْطَىٰ بالنسبة إلى السَّبَّابَة.

قال راوي الحديث عن قتادة عن أنس، وسمعْتُ قَتَادَةَ يقولُ في قصصه: «كفَضْل إحداهما على الأخْرَى» فلا أدري أذكَرَهُ عن أنَس أو قاله قتادة(١).

٢ ـ وروى الترمذيُّ عن الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدّاد، عن النبي ﷺ قال: «بُعِثْتُ في نَفْسِ السَّاعَةِ فَسَبَقْتُهَا كَمَا سَبَقَتْ هٰذِهِ هٰذهِ وأَشَارَ بأَصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ والْوُسْطىٰ».

٣ ـ وروى البيهقيُّ في شُعَبِ الإيمان عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ(٢).

«مَثَلُ هٰذِهِ الدُّنيا مَثَلُ ثَوْبٍ شُقَّ من أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ، فبقي مُتَعَلِّقاً بِخَيْطٍ في آخِرِهِ، فَيُوشِكُ ذَلِكَ الخيطُ أن يَنْقَطِع».

❊ ❊ ❊

## شرح القضية الثانية (وهي انشقاق القمر):

إنَّ جملة ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ خَبَرٌ عن أمْرٍ وَقع وشَهِدَهُ طالِبُوا آيةٍ حسّيَّة من الرسُول ﷺ، فأجرىٰ الله آية انشقاقِ القَمرِ العظمىٰ، وشَهِدَها مُسافِرُون

(١) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٥٠٩.

(٢) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٥١٥.

كانُوا خارِجَ مكَّة في أسفارهم البعيدة، وشَهِدَها من شَهِدَها من المسلمين.

والأصْلُ حَمْلُ الكلام على حقيقته، ولا يُصارُ إلى تأويله إلاّ إذا ثبت خلاف ذلك.

وما جاء في الأحاديث المرويَّة الصّحيحة يُثْبِتُ بيقينٍ أنَّ القمر قد انْشَقَّ للنبيّ محمّد ﷺ، إذْ طَلَبَ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ أنْ يأتِيَهُمْ بآيَةٍ حِسّيَّةٍ، فجاءَهُمْ بها، إذْ أشَارَ إلى القمر أمام طالبي الآية منه، فانْشَقَّ نِصْفَيْن، فكان فِلْقَتَيْن، فِلْقَة ظَهَرَتْ أمَامَ الجَبَلِ، وفِلْقَةٌ ظَهَرَتْ وَراءَهُ، وظَهَرَ الجبلُ بَيْنَ الْفِلْقَتَيْن.

قال كثيرٌ من مُتَتَبِّعي الرّوايات: إنّ خَبَرَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ للرسُولِ ﷺ مُتَوَاتِرٌ، فهو أمرٌ قَدْ وَقَعَ يَقِيناً.

ومن الرّوايات الواردة بشأن انشقاقه ما يلي:

١ ـ روىٰ البخاريّ ومُسْلِمٌ عن أنس، قال: إنّ أهلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ أنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فأراهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتىٰ رأوا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا»[(١)].

٢ ـ وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن ابن مسعودٍ قال: انْشَقَّ القَمَرُ عَلى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةً فَوْقَ الجَبَلِ، وفِرْقَةً دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اشْهَدُوا»[(٢)].

٣ ـ وروى الإمام أحمد عن أنسٍ قال: سأل أهْلُ مَكَّةَ النبيَّ ﷺ آيَةً، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَينِ، فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

٤ ـ وروى الإمام أحْمَدُ عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أبيهِ قال: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةً عَلَىٰ هٰذَا الْجَبَلِ، وفِرْقَةً عَلىٰ هٰذا

---

(١) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٨٥٤.

(٢) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٨٥٥.

الْجَبَلِ، فَقَالُوا: سَحَرَنا مُحَمَّد. فَقَالُوا: إنْ كَانَ سَحَرَنَا فإنّهُ لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ.

٥ ـ وروى ابْنُ جَرِير بِسَنَدِهِ عَن ابْنِ عَبَّاس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ قال: قد مَضَىٰ ذَلِكَ، كَانَ قَبْلَ الهجرة، انْشَقَ الْقَمَرُ حَتَّى رَأَوْا شِقَّيْهِ.

٦ ـ وروى البيهقيُّ عن عبْد الله بْنِ عُمَر في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ قال: وقَدْ كان ذَلِكَ على عَهْدِ رَسُولِ الله، انْشَقَّ فِلْقَتَيْنِ، فِلْقَةً مِنْ دُونِ الْجَبَلِ، وفِلْقَةٌ مِنْ خَلْفِ الْجَبَلِ، فقال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»،

وهكذا رواه مسلم والترمذيُّ من طُرُقٍ عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد.

٧ ـ وعند البخاريّ عن عبد الله بن مَسْعُود قال: انْشَقَّ القَمَرُ على عهد رسول الله ﷺ، فقالَتْ قُرَيْشٌ: هٰذا سِحْرُ ابنِ أبي كَبْشة. قال: فَقَالُوا: انظُروا مَا يأْتِيكُمْ بِهِ السُّفَّار[١]، فإنَّ مُحَمَّداً لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ، قال: فَجَاءَ السَّفَّارُ، فَقَالُوا ذَلِكَ.

٨ ـ وروى البيهقيُّ عن مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْد الله، قال: انْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ حَتَّىٰ صَارَ فِرْقَتَيْنِ، فَقَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: أَهْلَ مكَّةَ، هٰذا سِحْرٌ سَحَرَكُمْ بِهِ ابْنُ أبي كَبْشَةَ[٢]، انْظُرُوا السَّفَّارَ، فإنْ كَانُوا رَأوْ ما رَأيْتُمْ فَقَدْ صَدَقَ، وإنْ كَانُوا لم يَرَوْا مِثْلَ ما رَأيْتُمْ فَهُوَ سِحْرٌ سَحَرَكُمْ بِه.

---

(١) **السُّفَّار**: المسافرون.

(٢) **ابن أبي كبشة**: يعنون محمّداً نِسْبَةً إلى أبيه من الرضاعة، زوج مرضعته حليمة.

قَالَ: فِسُئِلَ السَّفَّارُ. قال: وَقَدِمُوا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَقَالوا: رَأَيْنا.

٩ ـ وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلىٰ عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ حتَّىٰ رَأَيْتُ الْجَبَلَ مِنْ بَيْنِ فُرجَتَيْ الْقَمَرِ حينَ انْشَقَّ.

فهل بعد هذه الرّوايات الثابتاتِ من أسانيد مختلفة مجالٌ لتشكُّك بَعْضِ المتشككينَ الذين يحاولون تأويل النّصّ القرآني، وحَمْلَهُ على أنهُ خَبَرٌ عمّا سَيَحْدُثُ مُسْتَقْبلاً عِنْدَ قِيامِ السَّاعَة، أو قُبَيْلَها.

**خطأ ابن كيسان:**

زعم ابن كَيْسان أنَّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ على التقديم والتأخير، وأنّ الأصل انْشَقَّ الْقَمَرُ واقْتَرَبتِ الساعة، مُتوَهِّماً أنّ انشقاق القمر سابقٌ لاقتراب السّاعة.

لقد ظنّ أنَّ اقترابَ السَّاعة هو وقُوعُها، فوقَعَ في الخطأ، مع أنّ اقتراب السّاعَةِ شَيْءٌ، ووقُوعَ السَّاعَةِ شَيّءٌ آخرُ، فاقْتِرابُ السَّاعَةِ حَاصِلٌ قَبْلَ انْشِقَاقِ الْقَمر حتماً.

❊ ❊ ❊

قَوْلُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

بعد الإعلام بالقضية الأولى، والتّنبيه على القضيّة الثانية، أبان الله عزّ وجلّ أن من صفات المكذّبين بالحق، الكافِرين به كُفراً إرادياً. بتأثير عوامل نفسيّةٍ غير منطقيّةٍ ولا عقليّةٍ، أنْ لا يُوَجِّهوا أَنْظَارَهُمْ لرؤيَةِ الآيات الدَّالاّتِ على صِدْقِ الرّسول، وصِدْقِ مَا جاء به عن ربّه، إلاَّ عَلى سبيل النُّدْرَة، دَلَّ على هذا استعمال حرف الشرط [إن] دون حرف الشرط «إذا».

والسبب في نُدْرَةِ تَوْجِيههم أنظارهم لآيات الله اتّبَاعُهُمْ لأهواء نُفُوسهم وشهواتها، ونوازِعها واستجابتُهم لنوازغ الشياطين، وهٰذه عوارض مَرَضِيَّةٌ

تُغْشِي أَبْصَارَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ، أو تُعْمِيها فهم لا يَرَوْنَ آيات الله.

وإنْ يَرَوْهَا على سَبيل النُّذْرة، وذلكَ حين تكونُ حِسّيَّةً وظاهِرَة للجميع، فلا يُنْكِرُها إلاَّ أعْمَى أصَمُّ، فإنَّهم يُعْرِضُونَ عنها، فَيُعْطُونَها عارضهم، وهو جانبهم، ولا يُوَاجِهُونَهَا، ثُمَّ يُوَجّهُونَ النَّاس للتَّشْكيكِ فيها، فيَصِفُونها بما يُخرجُها عَنْ كَوْنِها آيةً حَقيقيَّةً، تَحْمِلُ دَليلاً بُرْهَانِيًّا على صِدْقِ الرَّسُول في رسالته، وفيما جاء به عن ربّه، كأنْ يَصِفُوها بأنّها عَمَلٌ من أعمال السِّحْر، أو أثَرٌ مِنْ آثاره.

ففي شأن أئمة الكفر من مشركي قريش، الَّذين لم يَسْتَفِيدوا مِنْ معجزة انشقاق القمر لرسول الله ﷺ، ولا يستفيدون من أيَةِ آيَةٍ يَرَوْنها، لأنَّهم كافِرونَ عن تصميم إراديٍّ، علىٰ الرُّغم من أنّهم مُسْتَيْقنُونَ داخِلياً من صِدْقِه، وصِدْق ما جاءهم به عن رَبّه، إذْ نُفُوسُهُمْ وأهْواؤُهم وشَهَواتُهُمْ نَافِرَةٌ، أنْزَل الله عزّ وجلَّ هٰذِهِ الآيةَ.

فالمعنى: لقَدْ رَأَوْا آيَةَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، فأعْرَضُوا وقالُوا: سَحَرَكُم محمد، كَما جاء في بعض الرّوايات التي سَبَقَ ذِكْرُها.

وإنْ يَرَوْا مُسْتَقْبَلاً على سبيل النُّدْرة آيةً ما، مع التَّشْكِيكِ في أن يُوَجّهوا أنظارهم وعقولهم لها، يُعْرِضُوا عنها، ويَقُولُوا مثل ما قالوا في آيَةِ انْشِقاقِ القَمَرِ، سَحَرَكُمْ مُحمَّد.

وبالتأمل نُلاحِظُ أنّ بَيْنَ الآيةِ الأولى: والآية الثانية. كلاماً مطويّاً مُقَدَّراً، يُمْكِن اسْتِنباطُهُ باللَّوازِمِ الذِّهْنِيَّةِ، وتقديرُهُ كما يلي:

اقتربَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ، فأعْرَضَ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشّركِ في مكّة عن آية انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وقالوا: هذا سِحْرٌ، وهو دِيْدَنُهُمْ مع كلّ آيةٍ سَيَرَوْنَها، إنْ سَمَحُوا لأنْفُسِهم بأنْ يَرَوْها، أو غَلَبَتْهُمْ الآيَةُ باعتبارها حِسّيَّةً أوْ عَقْلِيَّةً قاهِرَة، وإن شأنَهُمْ أنْ يُعْرِضُوا غير مُبَالِينَ بدلالات آياتِ الله المُقْنعَاتِ مَنْ لديهم استعدادٌ لقبول الحقّ واتباعه.

**الإعراض**: إعطاء الجانب، وهو منزلةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقبالِ والإدبار، عُرْضُ الشيء في اللّغة، جانبه، وعارضا الإنسان صفحتا خدَّيه.

**مُسْتَمِرٌ**: جاء في تفسير هذه الكلمة، أنّها بمعنى: «ذاهب» أيْ: يَمُرُّ ويَمْضي، فلا يبقىٰ، شأنه كشَأنِ كُلِّ أعمال السَّحَرَة.

وجاء في تفسيرها، أنّها بمعنى: «شديد قويّ» اشْتقاقاً من المِرَّةِ وَهِيَ في اللّغة القوّة والشِّدَّة.

وتأتي هذه الكلمة في اللُّغة، بمعنى: «مُعْتَاد متكرر على طريقة وَاحِدَة» وهذا المعنى ألْصَقُ المعاني بمفهوم النّصّ فيما أرى، بَعْدَ أن اكتَشَفْنا ما فيه من مطويَّاتٍ.

على أنّ المعانيَ الثلاثَةَ كُلَّها ممّا يُمْكِنُ أنْ يتَحَدَّثُ به أئمة الكُفْرِ والشّرْكِ هؤلاء، ويكون الأمْرُ على التوزيع فيما بينهم.

وقد يكون من التدبُّر الأمثل حَمْلُ اللفظ على هذه المعاني كُلِّها، فبعضهم يزْعَمه سحراً يمُرُّ ويَمْضِي، وبعضهم يراه شديداً قوياً، وبعضهم يزْعُمُ أنه من الأمور المعتادة المتكرّرة الّتي يأتي بِمِثْلِها السَّحَرَة.

وقد عرفنا أنّ من أساليب القرآن الإيجازيّة استعمال اللّفظ الواحد في معانيه المتعدّدة، إذا كانت قابلةً للاجتماع بوجْهٍ من الوجوه، إذْ لا تنافُرَ بينها ولا تضادّ. وهذا من عوامل وَفْرة المعاني في القرآن المجيد، ومن عناصر الإعجاز فيه.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ أي: أعْرَضُوا عن آية انشقاق القمر ودَلالتها، وكان عليهم أن يسْتفيدُوا منْها الدّلالة على أنّ محمّداً رسُولُ الله حقاً وصِدْقاً وأنّ ما جاءَ به

عن ربّه بلاغٌ حَقٌّ وصدْق، ولكنّهم كذّبوا رَسُول الله محمّداً، وكذّبوا ببلاغاته عن ربّه، فلم يؤمنوا بالقرآن، ورفَضُوا اتّباع الرَّسُول فيما جاءهم به.

وإذْ رَفَضُوا اتّباع الرَّسُول على صراط الحقّ والخير والْهُدَىٰ والفضيلة، لم يكُنْ لهم إلاَّ أن يَتَّبِعُوا أهْوَاءهم، لأنّهم ما داموا أحياء في هذه الحياة الدنيا فلا بُدَّ أنْ يَتَحَرَّكُوا في اتّجاهٍ ما، فإذْ لَمْ يَتحرَّكُوا متَّبعينَ الرَّسُول على صراط الله، فلا بُدَّ أنْ يَتَحَرَّكُوا مُتَّبِعِينَ أهْوَاءَهم، أمّا السُّكُونُ بلا حَرَكَةٍ فَهِيَ طَبيعةُ الموْتى.

هذا ما دَلَّ عَلَيْهِ قوله تعالى؛ ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾. أي: ولو صَدَّقُوا بأنّ محمْداً رسول الله، وَصَدَّقُوا بما جاءَهُمْ به عن ربّه، لاتَّبَعُوه، وسَلَكُوا صراط الله المستقيم.

واتّباعُ الأهواء يشْمَلُ اتّباعها في القضايا الفكريّة، واتباعَها في القضايا الاعتقاديّة، واتّباعها في القضايا النفسيّة، واتباعها في القضايا العاطفيّة، واتّبَاعَها في القضايا السُّلُوكية في مُخْتَلِف شُؤُونِ الحياة.

وبما أنّ أهْواء النّاس لا تَتَطابَقُ غالباً، فلا بُدَّ أن يكون مُتَّبِعُو أهوائهم في أمْرِ مَرِيجٍ مختلط من أمُورٍ غير متجانِسة، ولا مُتوافقة، كما قال تعالى فيما سَبَقَ أنْ أنْزَلَ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

فتكامل النَّصّان في الدّلالة، والمعنى: وكَذَّبوا بالحقّ لما جاءهم واتّبَعُوا أهْوَاءَهم فَهُمْ فِي أمْرِ مَرِيج.

قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

**مُسْتَقِرّ**: أي: ثابتٌ مُتمكّنٌ، لا شيء يُغيّره عن ثباته، ولا شيء يُزَلْزِله، يقال لُغَةً: استقرّ الشيء، أي: ثبت وتمكّن. واستقرَّ بالمكان، أي:

تمكَّنَ فيه وثبت. **مُسْتَقِرّ**: اسم فاعل من استقر بمعنى ثبت وتمكن وقرّ في مكانه.

فما المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

**أقول**: إذا خَرَجَتْ شِرْذِمَةٌ قليلةٌ من الشعب على نظام الدّولة القويّة، وجَحَدَتْ سُلْطَتَها، واتَّبَعَتْ أهواءها، وقد رَتَّبَتْ الدولةُ لمُحَاسَبَتِها ومُعَاقَبَتِها يَوْماً مُحَدَّداً لَمْ يَحِنْ حينُه بَعْدُ، وتَرَكَتْ لَهَا فُرْصَةَ التَّوْبَة وإِصْلاحِ شُؤونِها وَطَاعَةِ الدّولة وَنظامها.

وهذه الشّرذِمة في خروجها على الدولة ونظامِها لا تُؤثّر على شيءٍ من أمور الدولة المستقرّة الثابتة، ولا تَضُرُّ بأعْمالِها إلاَّ أنْفُسَها.

ولإشعار هٰذهِ الشرذمة المتمرّدة بعَدَمِ تأثيرِ تَمَرُّدِها على شيءٍ من أنظمة الدَّولة وأمُورها الثابتة المستقرّة، قال الرّئيس: إنّ شَرْذَمَةً جَحَدَتْ دولتَنا، وكذَّبَتْ مبْعُوثِينَا، وبَلاَغَاتِنا، واتَّبَعَتْ أهْوَاءَها، فَلْتَعْلَمْ أنّ دَوْلَتنا وأنْظمَتنا وكُلَّ أُمُورِنا مستقرَّةٌ مَحْمِيَّةٌ، لا يُؤثِّرُ على شيءٍ منها أيّ خارجٍ على نظامِنا، ومُتمرِّدٍ على طاعَتِنا، وحِينَ يأتي وقْتُ الحساب والعقاب فإنّنا نأْتي بكلّ خارجٍ منهم مكبّلاً بالحديد مَسُوقاً، لَيَلْقَىٰ جزاءه، وهو لاَ يستَطِيعُ أنْ يَفْلَتَ منّا.

أليس هذا الكلام مُنَاظراً لقول الله عزّ وجلّ بشأن الكافرين المعاندين ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾؟؟

إننا نفهم من هذا القول، أنّ تكذيبهم واتّباعهم لأهوائهم لا يُغيّر من أنظمة الكون وقوانينه المستقرّة الثابتة شيئاً، ولا يُخرِجُ شيئاً من مُسْتَقِرّاتِ أُمُور الله عن استقراره، فلنْ يَضُرّوا الله شيئاً.

إنهم لا يَضُرُّونَ إلاّ أنفُسَهم، فكُلُّ أمْرِ لله في كَوْنِهِ ثابت مُسْتَقِرٌّ، لا يُقَلْقِلُهُ ولا يُغَيّره تكْذِيبُ المكذّبين، ولا تمرُّدُ المتمرّدين. ولا اتباعُهُمْ أهواءهم، مهما اجتمعوا لذلك وحَشَدُوا كُلَّ قواهم.

إنّهم لا يَسْتَطِيعُون أنْ يُغيّروا شيئاً من قوانين الكَوْن وأنظمته، في السّماوات والأرض، لأنّها من أمْرِ الله عزَّ وجلّ، وكلّ أمْرِ لله جلَّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه مستقرٌّ، فهم بأعمالهم لن يضرّوا الله شيئاً.

إنّهم لا يَسْتَطِيعون أن يَمْنَعُوا عن أنفسهم عقاب الله إذا جاءَ أَجَلُهُ، لأَنَّهُ من أمْرِ الله، وكلُّ أَمْرِ لله جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُهُ مُسْتقرّ، فهم بأعمالهم لن يضرّوا الله شيئاً.

إنّهم لا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَمْنَعُوا ظُهُورَ دين الله على الدّين كُلِّه، لأنّه من أمْر الله، وكُلُّ أمْرِ لله جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُه مُسْتَقِرٌّ، فهم بأعمالهم لنْ يَضُرّوا الله شيئاً.

إنهم لا يَسْتَطِيعُون أنْ يَظْفَروا بالانتصار أخيراً على رسُول الله والذين آمنوا معه، فقد قضىٰ الله أنْ يَنْصُرَ رسُولَهُ والمؤمنين، وهذا من أمرْ الله، وكُلُّ أمْرِ لله جلَّ جلالُه وعَظُمَ سلطانُه مُسْتَقِر فهم بأعمالهم لن يضرّوا الله شيئاً.

وهكذا إلى سائر القضايا الّتي هي من أمْرِ الله في ظاهراتِ الكَوْنِ، أو في قانون الاجتماع البشري، أو في تاريخ الناس مما هو من أوامر الله فيهم.

## المكذبون الذين اتّبعوا أهواءهم وعصاة المؤمنين لن يَضُرّوا الله شيئاً:

فالذين كذَّبوا واتَّبعُوا أهْواءَهُم لا يَضُرُّونَ الله شيئاً، وكذلك عصاة المؤمنين، وقد جاء التصريح بهذا المعنى في عدّة نُصُوصٍ قرآنيّة:

**النص الأول:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أي: فإن تتولَّوْا مُدْبرين.

إنّ ربيّ مُهَيْمنٌ بِسُلْطَانِه على كُلِّ شيءٍ، وهو عظيم الحفظ لكلّ شيء في ملكوت السّماوات والأرض، فلا تَسْتَطيعون تغيير أي شيءٍ من قوانينه، وأنظمته، وسُنَنِه.

**النص الثاني:**

قول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للمؤمنين:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

**النص الثالث:**

قول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً خِطاباً لرسوله ﷺ بشأن المنافقين أو المرتدين:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

**النص الرابع:**

قول الله عزّ وجل في سورة (مُحمّد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾: أي: ووقَفُوا مَوْقف المحاربينَ الأعداء، في شِقٍّ مُقَابِلٍ لشِقّهِ، يُدَبّرون المكايد ويمكُرون.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: أي: وسيُبْطل الله أعمالهم الّتي يُعِدُّونها ويكيدونها ضدّ الرّسول والذين آمنوا به واتَّبعُوه.

**النصّ الخامس:**

قوله الله عزّ وجلّ في سُورةِ (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) خطاباً للذّين آمنوا مُحَذِراً لهم من التخلّف عن الخروج إلى القتال ناصِرين لرَسُوله، إذا أُمِرُوا بالخروج أمْرَ إلزام:

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾.

أي: وأُأكّدُ أنّ المتحدَّث عنهم وهم كبراء كفّار قريش إبّان تنزيل السورة جَاءهم من أخبار الأولين وقِصَصِهم ما يكْفي لازْدِجَارهم عن كُفْرِهِمْ وعِنَادهم ومعاداة الرّسول والذين آمنوا به واتّبعُوه، وازْدِجَارِهم عن اتّباعِهِمْ أهواءَهُم.

فعْلُ «جَاء» يُستَعْمل لازماً، فتقول: جاء الرَّجلُ. ويسْتَعْمَلُ مُتَعَدّياً، فتقول: جاء النّبأُ الرَّجُلَ.

تقول: جاء يجِيءَ جَيْئاً، ومَجِيئاً، وجَيْئَةً، أي: أَتَى.

وتَقولُ: جَاءَهُ يجيئه، بمعنى: جاءَ إليه.

وتقول: جاءَ بالشيءِ، أي: أَتَى به وأَحْضَرَه.

والفعل في الآية هنا على التعدية.

﴿مِنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾: الأنباء جَمْعُ «النَّبأ» وهو الخبر، واشتقاقه من نَبأَ الشّيْءُ، إذا ارْتفع وظهر، ففي الأنباء من عُموم الأخبار ما يلْفِتُ الأنظار إليها، لارتفاع مضامينها، ولأهَمِيّتِها، وكذلك أخبار الأوّلين التي جاءت في القرآن، فهي ذَوَاتُ بُروز وأهَمِّيَّة، لما فيها من عِبَرٍ وعظاتٍ جليلات.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾: أي: ما فيه ازْدِجار، على أنَّ «مُزْدَجراً» مصْدَر ميمي، وهذا أحْسَن الوجوه، وأبْعَدُها عن التكلّف، والمعنى ما فيه كَفٌّ وامتناع، فعله «ازْتَجر» على وزن «افْتَعَل» مطاوع فعل: «زَجَرَهُ» وهو مثل «انْزجَرَ» في المعنى، تقول: زجَرْتُهُ فانْزَجَر، وازتَجَر، وتُقْلَبُ تاء «افتعل» دالاً، بعْدَ الزاي، والدَّال، والذّال، وبهذا صار فعل «ازْتَجَرَ» بصيغه «ازْدَجَرَ» والمصدر الميمي منه مُزْدَجَر.

**الزّجر**: الكَفُّ، والمنْعُ، والنهْيُ، والنَّهْرُ.

**والازْدِجارُ**: الامتناع والامْتِثال للزواجر.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾: بدل من «ما» في عبارة: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾. أي: إيْرادُ أنباءِ الأوّلين التي فيها مُزْدَجرٌ لِمَنْ يتلقّاها بوعْيٍ وعقْلٍ وَرُشْدٍ، هو من أساليب الدَّعْوة والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحكيمَةِ جدّاً، فهي في الحقيقة حكْمَةٌ بالِغَةٌ غايَة ما يُمْكِنُ اتخاذُه من أسَالِيبَ حكيمةٍ، تَدُورُ على مِحْوَرَي الرَّغَب والرَّهَبِ في النفوس، لمَا فيها من إثارَةِ الْخَوْفِ في عُمْقِ النفس إثارةً تَجْعَلُ العاقل الرّشيد يَزْدَجِر.

فمن كَانَ لدَيْه استعدادٌ ما للتأثُّر بما يُحرّكُ في النفس مركز الخوف لدَيْها، وسَمِع أنْباءَ الأوَّلين، وما جرى لهم من عقوبات ربَّانيّةٍ أهْلَكَتْهُمْ إهلاكاً عامّاً، لاقَوْا فيه عذاباً أليماً، بسبب كِبْرِهم وعنادهم وكُفْرِهم وطغيانهم، فلا بُدَّ أنْ يزْدَجِرَ عن كُفْرِه وطغيانه، ويُقْلِعَ عن عناده وكِبْرِه.

**الحكمة في الأمور**[(١)]: وضْعُ الأشياء في مواضعها، عملاً، أو فكراً، أَوْ مَعْرِفة، أو اعتقاداً، أو غير ذلك من صُوَر السُّلُوك الإرادي.

وتكون الحكمةُ باختيار أفضل الأشياء وأتْقَنِها وأحْسَنِها من كُلِّ ذلك، لِمَا تُخْتَارُ له.

والله جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه، أحْكَمُ الحاكِمين، وأحْكُمُ المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وحكْمتُه بالِغَةُ الغايَةَ دواماً في كُلِّ شيء.

**والحكيم**: هو الّذي يضَعُ الأشياء في مواضعها، ويَخْتارُ أفضل الأشياء وأتْقَنَها وأحْسَنَها في الأمور المختلِفَةِ، لما يُعْطِي أحْسَنَ نتيجة.

والسّبب في كَوْنِ عَرْضِ قِصَصِ الأَوَّلِينَ، للاتّعاظ والاعتبار بما جَرَىٰ لهم بمقتضى سُنَنِ الله في عباده، حِكْمَةٌ تَرْبَوِيَّةٌ بالغةٌ، أنَّ مُعْظَم الناس يضعُفُ عندهم تأثير الإقناع الفكْرِيّ وحْدَه، ويَضْعُفُ عندهم تأثير الترغيب والترهيب عن طريق الكلمةِ والوَعْدِ والْوَعيد فقط، حتَّى إذا شاهَدُوا الْعَوَاقِبَ في غَيْرِهم كانَتْ هذه المشاهدة للعواقب بالغةً في التأثير بهم غاية ما يُمكِنُ أن يُقدّمه توجيه تَرْبَوِيٌّ، ولَيْسَ فوقَهُ من وسيلة إلاّ إنزال العقاب الفعلِيّ، أو تقديم الثواب الفِعْلِيِّ، لِمَن يُرَادُ إقناعه.

لكِنّ هذا يتنافى مع حكمة الابتلاء لتحقيق الحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، والجزاء، بعْدَ انتهاء ظروفه كُلِّها، وهو غير داخلٍ في الخطَّة أصلاً.

فثبتَ أنّ عَرْضَ قِصَصِ المهْلَكِينَ من أهل القرون الأولى القائمة شواهدها في آثار دِيَارِهِمْ حِكْمَةٌ بالغةٌ حقّاً، أي: بالغة غايَةَ ما يُمْكِنُ اتّخاذُهُ من وسَائِلَ إقناعيَّةٍ تربويّةٍ ذاتِ تَأْثِيرِ في النُّفُوس المستعدَّة للتأثُّر بالمخيفات.

أمّا الْعُقُوباتُ الْجُزْئيَّةُ التَّرْبَوِيَّةُ الَّتي يُنْزِلُهَا اللَّهُ بالْعُصَاة المعَانِدِين، دُونَ

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق سورة (القمر) حول الحكمة في القرآن المجيد.

إهْلاَكٍ عامٍّ، كأنواع الرِّجزِ الّتي أنزلَها الله عزّ وجلّ أيّامَ مُوسَىٰ عليه السّلام، على آل فِرْعَون ومُتَابِعيهم في مصر، فهي تَدْخُلُ في قائمة وَسَائِلِ الحكمة البالغة، لكِنَّهَا تُصَنَّفُ ضمن الوسائل الْعَمَلِيّة، لا ضِمْنَ الوسائل الإقناعِيَّةِ البيانيَّة، فتِلْكَ لها تَصْنِيفٌ خاصٌّ، فيظَلُّ عرضُ قِصَصِ الأوّلين الّتي تُقَدَّمُ للمخاطبين بمَضَامِينِها عِبَراً وعظاتٍ، في مجال التوجيه والنُّصْح البيانيّ حِكْمَةً بَالِغَةً.

وهذه القصص تُقَدّمُ إنْذَاراً بالنَّظِير مُقْرُوناً بشاهدٍ تاريخيٍّ مأخُوذٍ مِنَ الْوَاقِعِ، ومَعَهُ أدِلَّةُ إثباته، فَهَلْ فَوْقَ هذا وسيلةٌ إقناعيَّة؟!.

لكنَّ الّذين كذّبوا الرسول محمّداً ﷺ، وكذّبوا بما جاءهم به عَنْ رَبّه، من كبراء كُفّار قُريشٍ إبّانَ تنزيل السّورَة لم يَنْتفِعوا بالنُّذُرِ القوليّة، ولا بِعَرْضِ قِصَصِ الأولين فيما سبَقَ إنزالُه من سُور، وهي السُّور التالية:

- (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول).
- (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول).
- (الفيل/ ١٠٥ مصحف/ ١٩ نزول).
- (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول).
- (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول).
- (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

وبياناً لعدم انتفاعهم بعَرْضِ طائفةٍ من قِصَصِ الأولين في هذه السُّور، قال اللّهُ عز وجل:

- ﴿حِكْمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾: أي: فلَيسَ للنُّذُرِ مَعَ وَفْرَتِها غَنَاءٌ عنْدَ هؤلاءِ.

عبارة: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ تدلُّ على كلامٍ مطويٍّ، والمعنى: فما

أغنَتْ هؤلاء ما تضمّنَته هذه الأنباءِ مِنْ نُذُرٍ، وقَدْ كَشَفُوا عَنْ عِنَادٍ وإصرارٍ على الباطلِ شَدِيدَين، ولا تُغنِيهِمْ مَعَهُما في المستقْبَلِ النُّذُرُ، مهْما كان شأنُها، وَمَهْما كان إرْهابُهَا وتخْوِيفُها، فَدَلَّ تَعْرِيفُ النُّذُرِ بأداة التعريف الكماليَّة، على كمال هذه النُّذر ببُلُوغها غاية الإرهاب والتخويف.

ومعنى: ﴿فَمَا تُغْنِ﴾ فَمَا تكْفِي وما تَنْفَع، يُقال لغةً: أغْنَىٰ الشيءُ إذَا كفَىٰ ويُقال: ما يُغْنِي عنكَ هذا، أي: مَا يُجْزِئ عنكَ وَمَا يَنْفَعُك.

﴿ٱلنُّذُرُ﴾: جمع «النَّذِير» وهو يأتي اسْماً للإنْذار مصْدر «أنْذَر» ويأتي بمعنى «المنْذِر».

**الإنْذَار**: هو الإخبار بالعواقب غير السَّارَّة، التي فيها شرٌّ، أو ضُرٌّ.

**المنذر**: هو المخبر بالعواقب غير السَّارّة.

وإذا حَمَلْنَا لفظ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ على معنَيَيْنه، طبقاً لأسْلُوب القرآن في استخدام اللَّفظ ذي المعاني المتعَدِّدَةِ في معانيه، ما لَمْ تكُنْ متعارضةً لاَ تَجْتَمِع، كَانَ المرادُ: فما تُغْنِي هؤلاءِ الإنْذاراتُ ولا المنذِرُونَ، وهذا من عوامل وفْرَة المعاني في النّصّ القرآني.

● قول الله عزّ وجل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هذهِ آخِرُ فقْرَةٍ من فقرات هذا الدرس الأول من دُروس السّورة، أي: فأدِرْ وجْهك عن هؤلاء، وَوَلِّهِمْ دُبُرَك، وانْصَرِفْ إلى دعوة غيرهم من الذين لم يَصِلُوا إلى حالة ميؤوسٍ منها كحالَتِهم.

**التولّي**: أمْرٌ أشَدُّ من الإعراضِ فلا يُفَسَّرُ به، إنَّه إعْطاءُ الدُّبُر، والانصراف لشأن آخر، أمَّا الإعراضُ فهو إعْطاء عَارِضَةِ الوجه، وهي صفحة الخدّ، والمرادُ بالإعراض إعطاء الجانب دُونَ مواجهةٍ، أمَّا التولّي فيكون بإدَارَة الظهر للمتولَّىٰ عنه، وإعطائِهِ الدُّبُر مع الانصراف.

فالإعراض وَسطٌ بين المواجهة والتولّي.

وإذِ انكشف أنَّ المعنيّين من كبراء كفّار قريش قَدْ وصَلُوا إلى حالة ميؤوس منها، إبَّان تنزيل السّورة، كان من الحكمة أن يأمُر الله رسوله بأن يَتَولّىٰ عنهم، لينْصَرِفَ إلى غيرهم، ويُوَجّه جَهْدَهُ واجْتِهادَه لآخَرِينَ يُرْجَىٰ أنْ يُوجَدَ فيهم مَنْ يسْتجيب.

إنَّ حالَ هؤلاء قَدْ تَصَلَّبَ إلى الحدِّ الّذي صاروا فيه قوماً ميؤوساً من استجابتهم لدَعْوَةِ الحقّ، فقد ظهر بالامتحان والتجربة، أنّهم كَفَرَةٌ مُعَانِدُون مكابرون مُصِرُّونَ على باطِلِهِمْ، مَهْما ظَهَرَ لَهُمْ أنّ الْحقّ هو ما أنت عليه يا مُحمّد، لا ما هم عليه، فَمِنَ الْخَيْرِ لك، ومِنْ تَوْفير الْجَهْد، وعَدَم ضياع الوقت سُدىً، في مُتَابَعَة اجْتِذَابِهِمْ إلى الإيمان والإسلام، أَنْ تتولّىٰ عَنْهُمْ مُدْبِراً، وتَنْصَرِفَ إلى مُجَاهَدَةِ غيرهِم مِمَّن لَمْ ينْكَشِفْ بَعْدُ من أمْرِهِمْ ما انكَشَفَ من أمْرِ هؤلاء.

وهذا التولّي هُوَ من الحكْمَة في سُلُوكِ الدّاعي إلى سَبيلِ رَبّه، بالنسبة إلى مَنْ أدْبَر وانْصرَف مُسْتغرقاً في ضلالٍ بعيد، ومعانداً مكابراً.

ولمّا لَمْ يكُنْ هَؤُلاءِ قَدْ وَصَلُوا إلى حالة ميؤوسٍ مِنْها إبَّانَ نُزُول سُورَة النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) أَمَرَ اللّهُ رسُولَهُ بالإعراضِ فقَطْ عمَّن تولّىٰ، فقال الله له فيها:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: أعْطِ عَارِضَكَ فقط لمَنْ أعْطَاكَ ظَهْرَهُ وتولّىٰ، أمَّا من عانَد وكابر وأظهرَ عِدَاءَه ومُشَاقَّتَه، ووصل إلى حالة تدبير المكايد، فَتَولَّ عَنْه.

ومن هذا التوجيه القرآنيّ: نستَفِيدُ أنّ مَوْقفَ الداعي إلى سبيل ربّه ينبغي أنْ يكون مع غير المستجيبين لدعوته موقفاً متوسِّطاً لا موقفاً مكافئاً، يُقَابل فيه الموقفَ بنظيره تماماً.

فلا يُقابِلُ المتوَلّيَ المدْبِرَ بالتولّي والإدبار، بل بنِصْفِ هذا المقدار، والنصف هو الإعراض.

ولا يقابل الكافرين المكابرين المعاندين المكايدين، الذين دخلوا مرحلة المضايقة والأذى، وممارَسَةِ صُوَرٍ أُولَى من المقاومة وتدبير المكايد، بمثل أعمالهم، بل يقابلهم بالتولّي والإدبار فقط، أو مع الانصرافِ عنهم، للاشتغال بقومٍ مطموعٍ في استجابتهم، لم تَصِل تجربتهم إلى مرحلة اليأسِ من استجابتهم.

وهكذا تعطينا دقائق البيانِ القرآني مَا ينبغي للدُّعَاةِ أن يتحلَّوْا به، وما هو المطلوبُ منهم من سلوكٍ في سبيل الدَّعوة إلى سبيل رَبّهم.

وهذا من الحكمة التي أمر الله عزّ وجل بها في الدعوة.

وبهذا انتهى تدبّر الدرس الأول من دروس سورة (القمر) وقد اشتمل على البيانات التاليات:

(١) بيان أن عتاة مشركي مكة إبَّان تنزيل السورة، قد وصلوا إلى مرحلة الأعراض عن أيَّةِ آيَةٍ يَرَوْنها، وعَدَمِ التأثر بها، والإصرارِ على موقفهم العِنَاديّ المتعنت، واصفين الآيات العظمىٰ بأنها سِحْرٌ مستمرّ.

(٢) بيان موقفهم من الرسول ورسالته، وهو موقف المصِرِّ على التكذيب والعناد والمكابرة.

(٣) بيان موقفهم الحركي في تصرُّفاتهم، وهو اتباعهم أهواءهم المختلفة.

(٤) بيان أنّ اتّباعهم أهواءَهُمْ لا يؤثّر على أيّ أمْرٍ من أمور الله في كونه، فكلُّ أمْرٍ مسْتقرٌّ على فوق النظام الرَّبَّانيّ، وهم لا يضُرُّون إلاَّ أنفسهم.

(٥) بيان أن موقفهم تجاه أعظم الزواجر البيانية البالغة، هو موقف متبلّد حِسّ الخوف من العواقب الوخيمة المهْلِكة، التي أنزلها الله بكفار القرون الأولى.

(٦) بيان الموقف الذي ينبغي أن يُعامِلَهُمُ الرَّسول به وهو موقف التولّي عنهم للانصرافِ إلى مجاهدةِ غيرهم من الذين لم يَصِلُوا إلى حالة مَيْؤُوس منها.

❀ ❀ ❀

## (٧)
## التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو من (بعض الآية ٦ ـ ٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

● قرأ ورْش، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي**] بإثبات الياء في الوصل فقط. وقرأ البَزّي ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.

وقرأ باقي الْقُرّاءِ العشرة بحذفها في الحالين ﴿ٱلدَّاعِ﴾.

وهي وجوه عربيّة جائزة في النطق.

● وقَرَأ ابْنُ كثير: [**نُكْرٍ**] بإسْكان الكاف. وقرأ باقي القرّاءِ العشرة: [**نُكُرٍ**] بضم الكاف، وهما وجهان جائزان لغة والإسكان تخفيف.

● وقَرَأ نافع، وابْنُ كثير، وابنُ عامرٍ، وعاصِمٌ، وأبو جعفر ﴿خُشَّعًا﴾ جمع «خاشِع».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**خَاشِعاً**] على الإفرادِ تنزيلاً لاسم الفاعل منزلة الفعل.

والقراءتان وجْهانِ عربيّان جائزان، وكلاهُما فصِيح، لأنّ خُشّعاً جمع تكسير، بخلاف خاشعين، فلو جاءت القراءة خاشعين أبْصارُهم، لكان ينبغي حمْلُها على لُغة أكلوني البراغيث.

لكن جاءت ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾. والمعنى على القراءتين واحد.

**تمهيد:**

في هذا الدرس ذكر خَمْسِ لقَطَاتٍ تَصْويريّة بيانيّة تُصَوِّر مقاطع من أحداثِ يوْمِ البعث، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنفِيذِ الجزاء:

**اللّقطة الأُولى:**

دعْوةُ الدّاعي من الملائكة النّاس المبْعُوثين منْ أجْدَاثِهم إلى شَيْءٍ شديدٍ عظيم، هو موقف الحسَاب للمحاكمة، وفَصْل الأحْكام، بالاستنادِ إلى مَا قَدَّموا مِنْ أعمالٍ أوْ أخَرُوا.

**اللّقطة الثانية:**

مشهَدُ خُشُوع أبْصار أهل الحشر، **خاشِعُ البصر**: هو الذي يَرْمي ببصَرِه إلى الأرض، ويَخْفِضُ طَرْفه.

**اللّقطةُ الثالثة:**

خروجُ المبعوثين من قُبُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ.

**اللّقطة الرابعة:**

إقبالُ المبْعُوثين شَطْرَ مَكانِ الداعي، يَعْدُونَ مُسْرعين خائفين، يَمُدُّونَ أعْنَاقهم، ويَخْفِضُون رُؤُسَهم، وينْظُرُونَ بانكسَارٍ وَذُلٍّ وخُشُوعٍ.

**اللقطة الخامسة:**

تَرْدِيدُ الكافرين قولَهُم: «هَذا يَوْمٌ عَسِرٌ». أي: يَوْمٌ صَعْبٌ شديد، والمرادُ شِدَّة ما فيه من مخاوف على الكافرين.

وهذا يَدُلُّ على أنّ المؤمنين يُيَسِّرُ اللَّهُ لَهُم أمور هذا اليوم، فهم لا يقولون: هذا يومٌ عَسِر.

❁ ❁ ❁

● قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾.

أي: «اذْكُرْ» أيُّها المتلقي لهذا البيان، بمعنى: ضَعْه في ذاكرتِك لتستحضِرَه حيناً فحيناً مَا حَييتَ: يَوْمَ يَدْعُ الدّاعي من الملائكة بَعْدَ البعث، إلَىٰ شيءٍ نُكُرٍ شَديدٍ صَعْبٍ.

إنّ هذا الداعي من الملائكة الذي يصيح صيْحةً واحدةً، يَنْبَغِي أن يَدْعُو الناسَ إلى موقف الحساب، وفَصْلِ القضاء، ويأتي بَعْدَهُما تنفيذُ الجزاء.

إنَّهُ لَمَوْقفٌ شَدِيدُ الْهَوْلِ، عظيم المخاطر، ترجُفُ من هوله القلوب، إلاَّ من طمأنه اللَّهُ بأنَّه من الناجين من العذاب.

﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾: قال أهل اللُّغَة: النُّكُرُ والنُّكْرُ بضم الكاف وإسْكانها، هُو الأمْرُ الشّدِيد الصَّعْب.

وموقف الحساب لفَصْلِ الحكم يوم الدّين، شيءٌ صَعْبٌ شديد على الكافِرين والْعُصَاةِ المسرفين على أنفسهم، ومن الحقّ أن يُقَالَ بشَأْنِه شيءٌ نُكُر.

ويَدُلُّنا على أنَّ دَعْوَة الدَّاعِي هٰذِه تكونُ بعْدَ البعْثِ وصْفُ الله عزّ وجل لحظات البعث، بأنَّها لحظاتٌ يَخْرُجُ فيها الناس أحياءً فإذا هُمْ قيامٌ

يَنْظُرون، فينسِلُون، أي: يُسْرِعون في اتّجاهات مختلفَات، كأنهم يُوفِضُون (أي: يُسْرِعُون) سَعْياً إلى نُصُبٍ في أماكن مختلفة، كما كان المشركون في الدنيا يُوفضون إلى معبوداتهم من الأوثان عنْدَ المخاوف الّتِي لا يملكون دفعها، وقد جاء هذا الوصف في عدة نصوص:

● ففي سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾: أي: من رُقادنا، أو من مكان رُقادنا. **الرُّقاد**: النّوم.

ويمكن أن تكون الصيحة التي جاءت في هذا النصّ هي صيحة الدّاعي إلى شيءٍ نُكُر.

● وفي سورة الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قال الله عز وجل:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

فالخروج من حالة الموت إلى الحياة، فالوُقُوف والنَّظَرُ بَدهْشَةٍ، كحالة المستيقظ مِنْ نَوْمٍ يَجدُ نَفْسَه في أرْضٍ لا عَهْدَ له بها، أمُور سَابقَةٌ لدعوة الداعي، إلى الأمر الخطير الصَّعْب الشديد، وهو موقف الحساب، وفَصْلِ القضاء.

● وفي سورة المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: **أجْدَاث**: جمع «جَدَث» وهو القبر.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾: **النُّصُب**: حجارة كان المشركون يذبحون ذبائِحَهُمُ عليها، وكل ما عُبِدَ من دون الله من أصنام، قيل هو مفرد، وقيل: هو جمع.

● **يُوفِضُونَ**: يسرِعون. والمعنى: كأَنَّهُمْ يُسْرِعُون إلى معبودات مختلفات من الأصنام، في أماكن شتى، فكلُّ فريق يسعىٰ مُسْرعاً إلى جهةٍ هائماً، لا يَدْري إلى أيْن يَسْعَى من فَرْطِ الدهشة والخوف.

وهذا يكون سابقاً لدعوة الدَّاعي إلى شيءٍ نُكُر، لأنَّهم إذا صاح بهم الدَّاعي صيحةً واحدة كانوا جميعاً عند ربّهم مُحْضَرين.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: مُنْكَسِرَةً يَنْظُرُونَ بأعْيُنِهِمْ إلىٰ الأرْضِ مِنْ ذِلّتِهِمْ، وأجْفَانُهم مُنْخَفِضَة.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي: تَغْشَاهُمْ وَتَعْلُو حَواسَّهُمْ ذِلَّةٌ.

فَدَلَّتْ هذه النُّصُوصُ بما تضمَّنَتْه من مفهومات، على أنَّ دَعْوَة الداعي إلى شيءٍ نُكُرٍ تكُونُ بَعْدَ البعث وإسْراع المبعوثين إلىٰ جهاتٍ مختلفات من دَهْشَتهم وحيرتهم في أرض القيامة.

❀ ❀ ❀

قول الله تعالىٰ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿خُشَّعًا﴾: جَمْعُ «خاشع» وهو من يَرْمي ببَصَرِه نحو الأرض، ويغضُّ طرفه. ويقال: خَشَعَ بَصَرُ الرَّجُل، يَخْشَعُ خُشوعاً، أي: انْكَسَر.

وسبق توجيه قراءة **[خَاشِعاً]**.

والمعنى: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلقِّي يَوْمَ يَدْعُ الداعي مَدْعُوّين من المبعوثين خُشَّعاً أبْصارُهم، يَخْرُجون مِنَ الأَجْداثِ كأنَّهُمْ جَرادٌ منتشر، وليس هكذا يكونُ كُلُّ المبعوثين، بل يكون للخائفين من المصير التعيس.

**خُشَّعاً**: مفعول به لفعل [**يدْعو**] ونُزِّلَ ﴿خُشَّعًا﴾ أو [**خَاشِعاً**] الوصف منزلة الموصوفِينَ به، اكتفاءً بالصِّفة.

﴿أَبْصَـٰرُهُمْ﴾: فاعل لـ ﴿خُشَّعًا﴾ أو [**خَاشِعاً**] إذْ هو يعمل عمل فعله.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾: الأظهر من جهة المعنى أنْ تكون هذه العبارة على الاسْتِئناف، أي: هؤلاءِ الخائفون الخاشعة أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنّهم جرادٌ مُنْتَشِرٌ.

جاء وصفهم بالجراد إشارةً إلى أنّ نَوَيَاتِ أجسادهم في مدافنهم تفْقِسُ عنهم، فينْبُتُونَ ويكبرُون، ويخرجون، كما يخْرُجُ الجراد وينتشر، بعد أن تفقس عنه بيوضِه.

إنَّهُمْ حِينَ يُبْعَثُون، فيَكُونُونَ قياماً يَنْظُرُون، فيُسْرِعُون هائمين مُنْتَشِرين في مختلِف الاتجاهات، يكونون عِنْد خروجهم من قبورهم مثل الجراد المنتشر الطائش.

وبعد أن ينتَشِرُوا ويَتَوَزَّعُوا في الجهات، تكُونُ لقطة مَشْهَدِهم كالفراشِ المبثُوث، وهو ما جاء بيانه في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾.

وتجري الأحداث سَرِيعَاتٍ مُتَتابعَاتٍ حَتّىٰ كأنّها تَحْدُثُ في وقْتٍ واحد، دلَّ على هذا سَوْقُ الْجُملَ دُونَ حَرْفِ عطْف، بينها.

● قول الله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾: أي: فإذا سَمِعُوا صيحة الداعي تَوَجَّهُوا له، وأسْرَعُوا إلى جهته يَعْدُون، بذلٍّ وخضوعٍ، يَمُدُّونَ أعناقهم، ويخفضون رُؤُوسهم، ويَنْظُرون بانكِسَارٍ نَحْو الأَرض، وَيَغُضُّون من أجفانهم.

**مُهْطِعْ**: اسم فاعل من فعل «أَهْطَع» وجاء في معنى هذا الفعل عند

أهل اللُّغة: «أقْبَلَ علَىٰ الشيْءِ بِبَصَرِه فلَمْ يَرْفَعْهُ ـ نَظَرَ في ذُلٍّ وَخُشُوع ـ أقْبَلَ مُسْرِعاً خَائِفاً ـ مدَّ عُنُقَهُ وصَوَّب رَأْسَهُ، أي: خَفَضَهُ وأمَالَه ـ أسْرَعَ فى الْعَدْو».

وكلُّ هذه المعاني صالحةٌ لتفسير: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ بها.

● قول الله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾: أي: يُرَدِّدُ الكافرون قولَهُمْ: هذا يَوْمٌ عَسِرٌ، أخذاً من الفعل المضارع ﴿يَقُولُ﴾ الدَّال على التكرير المتجدد.

كلمة ﴿عَسِرٌ﴾ مثل كَلِمةِ «عَسِير» أي: هذا يَوْمٌ شَدِيدٌ صَعْبٌ على الكافرين.

ومن بيان أنَّها مقولة الكافرين عَلَىٰ وجه التحديد، نفهم أنَّ الذّين آمَنُوا في الحياة الدنيا ومَاتُوا على الإيمان لا يقولونها، لأنَّهُمْ وإنْ كانُوا عُصَاةً فقد ضَمِنُوا الجنة بوعد اللَّهِ، ولو بعد أنْ ينالوا ما يستحقُّون من عذاب على كبائرهم، ويطمعون في أن يغفر الله لهُمْ ويَرْحَمَهُم، أو أنْ يخفِّفَ من عذابهم الذي يستحقّونه بحسَبِ ذُنوبهم وآثامهم.

يضاف إلى هذا أنّ الله جلَّ جلاله وعظُمَتْ رَحْمَتُه، يُيَسِّرُ على المؤمنين أمْرَ هذا اليوم الْعَسِر الْعَصِيب، وهُمْ يَشْعُرون بهذا منذ ساعَةِ بعثهم.

ودلَّ على أنّ هذا اليوْمَ عَسِيرٌ علىٰ الكافِرينَ فقط، قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾.

أي: أمَّا المؤمِنُونَ فَيُيَسِّرُهُ الله لهم.

وقول الله عزّ وجل في سُورَةِ (الفُرْقَانِ/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن يَوْم القيامة:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

## نظرة عامة حول هذا الدرس:

نلاحظ في هذا الدرس الثاني من دُروس سورة (القمر) أنَّ الله عزّ وجلّ قَدَّمَ لنا لقطاتٍ مِنْ أحوال الكافرين يَوْمَ البعث.

- فَهُم يخرجون من مدافنهم كالجراد التي تَفْقِسُ عنه بيوضه، ويُسْرِعُون مُنْتَشِرين هائمين في كلّ اتّجاه، كالجراد المنتشر.

- وحين يسْمَعُونَ الداعي من الملائكة يَدْعُوهم، يُسْرِعُون مُهْطِعِينَ، مقبلين شَطْرَ الجهة التي دعَاهم إليها، خاشعةً أبصارُهم مِنكَسِرَةً أجفانُهم، يَرْمُون أبصارهم إلى جهَةِ أرض المحشر تَذَلُّلاً وخُضُوعاً، ويخافون من هول الموقف، إذْ هم مَدْعُوُّون إلىٰ شَيْءٍ نُكر شدِيد صَعْبٍ عَسِير.

- وهم في سعيهم إلى الجهة الّتي دَعَاهم الداعي إليها يُرَدِّدُون: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

وهذه اللّقَطاتُ الّتي أبرزها هذا الدّرْس، قَدْ ألْمحَتْ إلَىٰ مَطْوِيّاتٍ فيما بَيْنها، وقد استطَعْنا مِنْ غَيْرِ تكَلُّفٍ اكْتِشَاف بعْضِها.

هذه اللّقَطاتُ هي بمثابَةِ مَنْ لَدَيْهِ شَرِيطُ صُوَرِ مشاهد، فثنَىٰ بعْضَهُ على بَعْضٍ، فجَعَل في مكانِ الإراءَة الظَّاهِرَة مقاطِعَ مُنْتَقَياتٍ، وطَوَى في الأثناء مَقَاطِعَ كثيرة، بَعْضُها يُمْكِنُ الاسْتِدْلالُ عليه من المعروض من الشريط للنظر، وكثيرٌ منها يصْعُبُ الاستدلال عليه، لكِنَّ نُصُوصاً أُخْرَىٰ في القرآن قد كشَفَتْه، فعَرَضَتْ مَقَاطِعَ أُخْرَىٰ مُنْتَقَيات، وطَوَتْ بين المثاني مقاطِعَ، فَمَنْ اسْتَطاع أنْ يَجْمَعَ هذِهِ النُّصوص المتعَدِّدة، واستطاع أنْ يُؤلّف بَيْنها

تأليفاً مُتَلائِماً، أمكنه أن يَمُدَّ من شَرِيط المشهد الطّويلِ، ما يُحْسِنُ به التأليف التَّتَابُعِيَّ بيْنَ اللّقَطاتِ المعْرُوضاتِ في الإرَاءَات الْمُتَعَدِّدات الموزّعاتِ في السُّوَر.

عنْدئذٍ يراها متكاملاتٍ غَيْر مُتَنَاقِضَاتٍ وَلاَ مُتعارضات. وهذا الأسْلوبُ القرآنيُّ هو من عناصر الْعُمْق فيه، ومن عناصر الإعجاز البديع، إذْ هو كتَابٌ حقٌّ لاَ يأتِيه الباطل من بين يَدَيْه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حَمِيد.

ولعلَّنا بهذا نَستَطِيعُ أنْ نَفْهَمَ معنَىٰ وصْفِ القرآن بأنَّهُ مثاني، في قَوْل اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

وبهذا نَنْتَهِي من تدبُّر الدرس الثاني على قدر الاستطاعة من دروس سورة القمر، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

❀ ❀ ❀

## (٨)
## التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس السورة وهو الآيات من (٩ ـ ٤٢) وفيه خمس فقرات

**تمهيد:**

هذا الدرس يشتمل على الإقناع بقانون الجزاء الرّبّاني، والإنْذار به، عن طريق عرض أمثلة تاريخيَّة، من عقوبات الله العظمىٰ، بالإهلال العامّ الشّامل، لأقوام من كبار مجرمي الأمم السابقة. الذين كذَّبوا رُسُل رَبّهم، وكذّبُوا بالنُّذُر الّتي أَنْذَرُوهم بها تَبْليغاً عن الله ربّهم جلَّ جلالُه وعظم سُلْطانه.

وقد جاء عرض هذه الأمثلة في هذه السّورة مصحوباً بموجَزاتٍ من قِصَصِهم مع رُسُلِ رَبّهم، تحقيقاً لِهَدَفِ التذكير بتكذيب الأوَّلين بالنذر، وابتعاداً عن التكرار التطابقي، بتوزيع لقطاتٍ مختلفَاتٍ من قِصَصِ الأمم المهلكة، على جملة من سُور القرآن المجيد، بمناسباتٍ تستَدْعي التذكير بعقاب اللّهِ لهم، مع اختيار اللّقطات الملائماتِ للأحوال التي وصل إلَيْها القوم الذين كان التنزيل يُعالِجُهُمْ بالدَّرَجَةِ الأولى، ويَرْسُم الله عزّ وجلّ لنا بذلك منهج العلاج الأحسن والأقوم للذين نوجّه لهم أساليب الدَّعوة إلى سبيل ربِّنا، ومنْهاجِ دينه القويم.

واشتمل هذا الدرس على خمس فقرات سبقَ ذكرها لدىٰ بيان دُروس السورة، وهي تتعلّق بموجزات من إهلاك قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط عليهم السلام، والفقرة الخامسة تتعلّقُ بإهلاك فرعون وآله وجنوده، وهم بَعْضُ قوْمِ موسَىٰ وهارون عليهما السلام.

وبفَنِّيَّةٍ بديعة فصَل الله عزّ وجل بين الفقرات بآية:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

فجاءت مُكرَّرَةً أرْبَع مَرَّات للإشارة إلى أنه دَرْسٌ واحدٌ من خمس فقرات، وقد فصّله الله عزّ وجل تيسيراً للذِّكر على طريقة الله في القرآن الذي يَسَّره كُلَّهُ للذِّكرِ.

## أوّلاً: الفِقَرة الأولى
## إهلاكُ قَوْمِ نوح عليه السّلام
## الآيات من (٩ ـ ١٧)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا

فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا
جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

● قرأ ابْنُ عَامر، وأبو جعفر، ويعقوب: **[فَفَتَّحْنَا]** بتشديد التاء.

وقرأ باقي القُرّاء الْعَشرة: ﴿فَفَتَحْنَآ﴾ بتخفيف التاء.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، إذْ هُمَا على التوزيع في الأزمنة والأمْكِنَة، فالمبالغة التي دلَّ عليها التشديد تناسب قِسْماً من الْحدَث، والقراءة الأُخْرىٰ بالتخفيف تناسِبُ قِسْماً آخر من الحدث.

● وقرأ ابن كثير، وابْنُ ذكوان، وشعبة، وحمزة **[عِيوناً]** بِكَسْرِ الْعَيْن.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿عُيُونًا﴾ بضمّ العين.

والقراءتان وجْهان عَربيان جائزان.

● أثبت الياء في الوصل من كلمة: ﴿وَنُذُرِ﴾ وَرْشٌ، فقال في الوصْلِ **[فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ولقَدْ يَسَّرنا]**.

وأثبت هذه الياء في الوصْلِ والوقف، يعقوب فقَرَأَ في الحالين: **[وَنُذُرِي]** وحذَف هٰذِه الياء في الحالين باقي القرّاء العشرة.

وإثباتُ ياء المتكلّم وحَذْفُها في النُّطق وجْهَانِ عربيّان جائزان، ويَكْثُرُ في القرآن حذفها للإيجاز، ولدَواعٍ جمَاليّةَ في اللفظ.

هذه الفقرة تُقَدِّمُ بإيجازٍ بيَانَ بعضِ مَشاهدَ من أحداث إهلاك الله لقَوْمِ نُوحٍ عليه السَّلام بالإغراق الشَّامِلِ الرَّهيب.

وقبل هذه الفقرة بشأن قوم نوحٍ عليه السلام، جاء نَصَّانِ مقتضبان:

**النص الأوّل:** قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾.

**النص الثاني:** قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فحقّ ما أنْذَرْتُهُمْ بِهِ مِنْ وَعِيدٍ بالإهْلاكِ فأهْلَكْتُهُمْ.

ومَا جاء في سُورَةِ (القمر) قَدْ جَاءَ مَبْنِيّاً عَلَىٰ الْبَيَانَيْنِ السَّابقين في نجوم التنزيل، الَّذَيْن جاءا في سورتي: (النجم) و (ق).

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾: أي: كَذَّبَتْ قبل كبراء مشركي قريش المعاندين المكابِرِينَ المصرّين على كُفْرِهم، قَوْمُ نوح عليه السلام.

هذه الجملة قد جاءت في النّص الّذي في سورة (ق) لكنْ لم يأتِ في سورة (ق) بيان أيّ تفصيلٍ عن تكذيب قوم نوح عليه السلام، فجاءت سورة (القمر) تُعْطِي شيئاً من التفصيل، إذْ جاء فيها:

● قول الله عزّ وجل: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾﴾.

فجاء في هذا النصّ بَيَانُ ثلاثِ قضاياً مفرَّعةٍ بالفاء لتفصيل البيان المجمل في: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾:

**القضية الأولىٰ:** دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ أي: فكذَّبُوهُ في أنّه نبيُّ اللَّهِ ورسُولُه، وكذَّبوا بما جاءَهُمْ به مِنْ بلاغات عن رَبّه، وكَذَّبُوا بالوعيد الذِي أنذرهم به في الدّنيا وفي الآخرة.

وشَرَّف الله عزّ وجلّ نوحاً بقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ فأبان بهذا أنَّ نُوحاً عليه السَّلام قد كان متحقِّقاً بعبوديَّتِه الصَّادِقة لعظَمَةِ رُبوبيَّة الله جلّ جلاله.

**القضيَّةُ الثَّانية**: دَلَّ عليْها قول اللَّهِ تعالىٰ: **[وَقَالُوا مَجْنُونَ]** أي: وقال قومُه الذين كذبُوه: هذا رجَلٌ مَجْنُونٌ، مريضٌ بداء الجنُون.

هذا الاتّهام بالجنون ذَريعةٌ يلْجأُ إليها كُبَراء كُفَّارِ قوم كلِّ رَسُولٍ، حينما تَدْمَغُهُمُ الحجج البرهانيّة، ولا يَجِدُون حُجَجاً صحيحةً يَدْفعُون بها حجج رُسُلِهم العقليّة المنطقية، ويَخرِصُون على أَنْ يَسْتُروا عَجْزَهُمْ عن أَتْبَاعِهم من عَامَّةِ قَوْمِهِمْ، فيُطْلِقُونَ على رسُولِهِمْ عبارة: مجنون. وتُرَدِّدُها جماهيرهم تَرْدِيداً ببغاوِيّاً، ظانّين أنّ رَسُولَهُمُ الذي يدعوهم إلى الإيمان بربّهم ونَبْذِ الشِّرْكيَّات الّتي كان عليها آباؤهم وأجدادهُمْ، والْبُعْدِ عن السُّلُوكيَّاتِ الّتي فيها ظلْمٌ وعُدْوان، وبغي وطُغيانٌ، وفُحْشٌ وخُسْران، هو مجنونٌ فِعلاً كما قال لهم قادتُهُمْ وأئِمَّتُهم.

والاتّهامُ بالجنُونِ شتيمةٌ يلْجَأُ إليها كلُّ مفْتَرٍ مُراوِغٍ مُجْرِمٍ مخاصم بفُجور، لا يَمْلِك قُدْرَة على مقارعَةِ الحجَّةِ بالحجَّةِ المكافئة، والمنطق العقليّ بمنْطِقٍ عقليٍّ مثله.

**القضيّة الثالثة**: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ الله عزّ وجل: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أي: ومُنِعَ من مُتَابعة دَعْوَتِه إلى رَبِّه، وانْتُهِرَ بعُنْفٍ مصحوبٍ بتهديد.

وقد دَلَّ على تَهْدِيدِهِ بالقتل رجماً بالحجارة، قول اللَّهِ عزَّ وجل في سورة (الشُّعَراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في معرض الحديث عن نوحٍ عليه السلام وقومه:

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾: أي: لَـنَـرْجُـمَـنَّـكَ أَنْتَ ومَنْ آمَنَ بِكَ واتَّبَعَكَ.

وكان هذا الزَّجْرُ المصحوبُ بالتَّهْدِيدِ بالرجم، في أواخرِ حياة نوح مع كُفَّارِ قَوْمه، قَبْل إهلاكِهِمْ بالْغَرَق الذي جاءهم به الطوفان.

**الزَّجْرُ في اللُّغَة:** المنْعُ والنهيُ والانْتِهَارُ، وازْدَجَرَه، أي: أسرف واشتَدَّ عليه في ذلك، أصْل فعل «ازْدَجَر» هو «ازْتَجرَ» على وزن «افتعل» من فعل «زَجَر». قُلِبَتِ التاء دالاً لوقوعها بعْدَ الزاي، وهو قياسٌ مطّرِدٌ في صيغة «افْتَعَل» ممّا فاء كلمة الفعل فيه: «زايٌ ـ أو دالٌ ـ أو ذَال».

## هَلْ كانَ نُوحٌ عليه السَّلام أولَ رُسُلِ اللَّهِ للناس؟

للعلماء في هذهِ المسألة رَأيَان:

● فالذين يَرَوْن أنّ نوحاً علَيْه السَّلامُ أوّلَ الرُّسُل، أخذاً بظاهر حَدِيث الشَّفَاعَةِ يُؤوِّلُون النُّصوص الّتي تَدُلُّ على خِلَافِ هٰذا الرأي تَأْويلاتٍ لاَ يَخْلُو بَعْضُهَا من التَّعَسُّف.

وحديث الشفاعةِ عند البخاريّ ومسلم عن أنس رضي الله عنه في بَعْضِ رواياته قال: قال رسُولُ الله ﷺ:

«يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القيامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَىٰ رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنا مِنْ مَكَانِنا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فيقولُون: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِه، ونَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وأَمَرَ المَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ويَقُولُ: ائْتُوا نُوحاً أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ويَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذي اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلاً، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا مُوسَىٰ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ،ائْتُوا عِيسَىٰ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّداً ـ ﷺ ـ فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِداً، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقَالُ لي: ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، وقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لي حَدّاً. . .» إلى آخر الحديث.

وجاء في روايَات أُخْرَىٰ عِنْد البخاري ومُسْلِم لَيْسَ فيها أنَّ نُوحاً عليه السَّلامُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله.

● والّذينَ يَرَوْن أنّ نُوحاً عليه السَّلام لَيْسَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ للنَّاس يَسْتَدِلُّون بقَوْل الله عزّ وجلّ في سورة (الْفُرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

فهذا النَّصُّ يَدُلُّ دَلاَلَةً ظَاهِرَةً علَىٰ أنَّ قَوْمَ نُوحٍ كَذَّبُوا رُسُلاً، لا رَسُولاً واحداً، وإخراجُ هذا النّصِّ الْقُرْآنِيّ عَنْ ظَاهِرِه، يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَأْويلٍ مُتَكلِّف، وأهْوَنُ منه تأويلُ مَا جَاءَ في بَعْضِ رِوَايات حَدِيث الشَّفَاعَة.

فَروايات أحاديث الشفاعَةِ لَمْ تَذْكُرْ من الرُّسُل إلاَّ أولي العزم العظام، (نُوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومُحَمّد عليهم الصلاة والسَّلام) ويُمْكِن حَمْلُ عِبَارة: «ائتُوا نوحاً أَوّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ» في بَعْضِ الرّوايات، على أَنَّهُ أوّلُ الرُّسُلِ الْعِظَامِ من أُولي العزم، بِدَليلِ أَنَّ الرُّسُلَ كَثيرون. ولَمْ يَجْرِ التوجيهُ في كُلِّ رِوَاياتِ الحديث لِغَيْرِ أولي الْعَزْمِ من الرُّسل.

ويبقَىٰ بِهذا قَوْلُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ على ظاهِرِه، ونفهم منه أنّ قَوْمَ نُوحٍ قَدْ تتابَعتْ عليهم رُسُلٌ وأنبياء مُتَعَدِّدُونَ، وكان نُوحٌ عليه السَّلاَمُ آخِرَهم، أَوْ كان مع نوحٍ في مراحلِ دَعْوَتِه الأولَىٰ لِقَوْمِهِ رُسُلٌ، كما كان هارونُ مع موسى عليهما السلام، وقضَىٰ هؤلاءِ الرُّسُل آجالَهُمْ، وبقِيَ نوحٌ عليه لسَّلامُ في قَوْمِه حتّى الطُّوفان، فَما بَعْدَه، وهو الّذِي خصَّهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بالذِّكْر.

ويُرَجّحُ هذا الفهْمَ أَنَّ إِدْرِيسَ عليه السَّلامُ (= خنوخ وعُرِّبَ أَخْنُوخ) من الْمُرْسَلِين، وأَنَّهُ كَانَ قبل نوح عليهما السّلام عِنْدَ أكثر العلماء المحقّقين.

ويُرَجّح هذا الفَهم أيضاً أنَّهُ قَدْ ثَبَتَ في نصوص القرآن المجيد، أنَّهُ ما من أمَّةٍ في تَاريخ النَّاسِ إلاّ جاءَهَا نبيٌّ رَسُولٌ أَمَرَها بعِبَادَةِ الله واجتناب الطَّاغوت، وحَذَّرها وأنْذَرَها بعِذاب اللّهِ يَوْمَ الدِّين، مع احتمال معاقبتها بعذابٍ مُهْلكٍ في الدّنيا، إذا قضَتْ حكْمَةُ اللّهِ إبادَتهم.

● فقال اللّهُ عزّ وجلّ في سُورَةِ(فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ومَا مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ السَّابقَةِ إلاّ مضَىٰ فيها نبيٌّ رسُولٌ بعَثَهُ الله مُبَلِّغاً مَطْلوبَهُ من عباده الممتَحنينَ في الحياة الدنيا، ومُبَشِّراً لمن اسْتَجَاب وأطاع بالثواب العظيم، ومُنْذِراً لِمَنْ أَبَىٰ وعَصَىٰ بالْعَذَاب الأليم.

ويدخُلُ في هذا العموم من جاء قَبْل نوحٍ عليه السَّلام من الأمم.

● وقال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (النَّحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾: أي: فمِنْهُمْ من حَكَمَ اللّهُ له بالْهِدَايَةِ، بالاسْتِنَادِ إلَىٰ ما قَدَّم في رحلة امتحانه من إيمانٍ وَعَمَلٍ صالح.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: أي: ومِنْهُم مَنْ حَقَّتْ وثَبَتَتْ عليه عقوبَةُ ضَلالَتِهِ الْمُعَجَّلة، إضافَةً إلى عُقُوبته المؤجَّلة إلى يوم الدِّين، بالاستناد إلى ما قَدَّم في رحلة امتحانه من كُفْرٍ وعُصيان، وَبَغْي وعُدْوان، وتَكْذِيب لِرُسُلِ الْمَلِكِ الدَّيَّان.

﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾: أي: من أهل القرون

الأولى، فآثارُ إهلاكهم وتدمير دِيارهم بَاقِيَةٌ تَدلُّ على انْتِقَام اللَّهِ منْهُمْ بالإهلال الشَّامل.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فدعا نوحٌ عليه السَّلامُ عَقِب زَجْرِهِ بِشِدَّة، وتَهْدِيدِه بالقتل رجْماً بالحجارة إذا لَمْ يَكُفَّ عنْ مُجَاهَدَته في الدعوة إلى ربّه، وكان قَدْ صَبَرَ عَلَيْهم صَبْراً طويلاً جدّاً قُروناً مُتَتَابِعَةً بلَغَتْ أَلْفَ سنةٍ إلاّ خَمْسِين عاماً، فلمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ جادُّونَ فيما هَدَّدُوهُ به، دَعَا رَبَّهُ بِأَنِّي مَغْلُوبٌ في دَعْوَتي لِقَوْمِي، لَمْ أظْفَرْ مِنْهُم بمسْتَجِيبين للدِّين الّذي أَمَرْتَني يَا رَبّ بأنْ أُبلِّغَهُمْ إيَّاهُ غير القِلّة القليلة جداً، ومغْلُوبٌ في مجال متابعة دعْوَتي، إذْ زَجَرَني كُبَراء قَوْمي بِشِدَّةٍ عن الاستمرار في دَعْوَتي، وهم أصْحابُ قُوَّةٍ لا أمْلِك بقوايَ التّغلُّبَ عليها، أو مُقَاوَمَتها، فانْتَصِر يا رَبّ لِدِينِكَ وَلِرَسُولك.

وطَوَىٰ النَّصّ أحْدَاثاً كثيرة لَمْ يأتِ فيه ذِكْرُها، منها أَمْرُ الله له بأن يصْنَعَ الْفُلْكَ، ومِنْها سُخْرِيَةُ مَلأ قومه منه كُلَّما مَرُّوا عليه وهو يصْنَعُها إلى غير ذلك من أحداث[1] إذِ اقْتَضَت الحكمة البيانيَّة التربوية توزيع لقطات قصّته على مواضع متعدّدةٍ من القرآن المجيد، وإنزالها منجمّة علىٰ مراحل من سَيْر دَعْوَةِ الرَّسول محمد ﷺ لقومه.

وفي هذا تعليم للدُّعاة إلى دين الله كيْفَ يُبَلّغون، وكيْفَ يُعَلّمُونَ، وكيف يُرَبُّون.

● قول الله عزّ وجل: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا

(١) انظر كتاب «نوح عليه السلام وقومه في القرآن» للمؤلف وهو يشتمل على كلّ النصوص القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع مع نظرات تدبُّريّة تكاملية.

ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

في هذا النص بيانُ تِسْعِ قضايا أوجزت الحدث العظيم، الذي أغرق الله عزّ وجلّ به كُفَّارَ قَوْمِ نوحٍ عليه السَّلام، إيجازاً فنّيّاً بَديعاً، مع التَّنْبيهِ على العبرة الجليلة التّي يَجِبُ أنْ يَنْتَفِعَ بِهَا كُفَّارُ القرون اللاّحقة، فيتَّعِظُوا بها، ويَحْمُوا أنفُسَهم من أمثالها بالإيمان والعمل الصالح، واتّباع الرَّسول فيما جاء به عن ربّه.

تحدَّث الله في هذا النّص بضمير المتكلّم العظيم، الدالّ على عزّةِ رُبوبيّته، وسلطان جبروته وقهره.

**القضيّة الأولى**: دَلّ علَيْها قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾﴾: **مُنْهَمِرٍ**: أي: منصَبٌ بِشِدَّةٍ وَتَتابع.

أي: استجبنا لدُعَاء نوح، فأجْرَينَا الأحداث الّتي أغْرَقْنَا بها كُفَّار قَوْمِه، ونَصَرْنَاهُ، فَأَنْجَيْناه والَّذِين آمَنُوا مَعَه بتَدْبيرنا الحكيم، وعِنَايَتِنا المرافقة لكلّ صغيرة وكَبيرَةٍ، بَدْءاً مِنْ أمْرِنا له بأن يَصْنَعَ الْفُلْكَ، حتَّىٰ غايَةِ رِحْلتِه الْبَحْرِيَّة ورُسُوّ الْفُلْكِ، وهُبُوطِ ركّابِه على أَرْضٍ طيّبَةٍ مُباركة، وقَدْ تَمَّ إغْراقُ الْكافِرين.

وجاء التعبير البديع عن إنزال الأمطار الْغَزيرة بعبارة: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾﴾: فدلَّ هذا التعبير على أنّ السَّمَاءَ كانت بمثابَةِ خَزَّانٍ عظيم، مَلِيءٍ بالْمَاء المشابه في سَعَتِهِ وكثرة الماء فيه ببَحْرٍ واسِعٍ كبيرٍ على قَدْر السّماء، ولهذا الخزّان أبوابٌ موزَّعة على ساحة السماء.

وفتح الله جلَّتْ قُدْرَتُه وَعَظُمَ سلطانُه، هذِهِ الأَبْوابَ الكثيرة المنتشرة

كَعُيُونِ الغرابيل، فانهَمَرتِ المِيَاهُ على مَقَادِيرها، مُنصَبَّةً كَأَنَّها شَلَّالاَتٌ مُوَزَّعَاتٌ توزيعاً مُنتَظِماً على مواقِعها من الأرض.

إنّها لَصُورَةٌ تمثِيلِيَّة رائِعَةٌ، تُقَدِّمُ بصِدْقٍ فنّي مَا يَشعُرُ به مُشاهِدُ المشهَدِ بعيداً عن أن يكون في داخله.

**القضيّة الثانية**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾:

**فَجَّرَ الشَّيْءَ**: أي: جعَلَ الشيءَ يَنبَعِثُ من الباطن إلى الظاهر بقُوَّة وشِدَّة. فَتَفْجِيرُ عيُونِ الماء في الأرض، جَعْلُ الماء يخْرُج من ثُقوب الأرضِ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، فيَدْفَعُ كلُّ تَالٍ منه السَّابقَ له دَفْعاً قَوِيّاً، مَا دامَتِ الدَّفَقَات المائيَّة تَخْرُج من الثقوب والشقوق بتَتَابع.

والتعميم في إسناد التفجير إلى كُلّ الأرض، يُوحِي في دلالَتِهِ الأولى، بأنَّ سَطْحَ الأرضِ كُلَّهُ قَدْ تفَجَّرَ مَاءً، وجاء لفظ «عُيوناً» عَقِبَهُ تمييزاً، فحدَّدَ الصُّورَة الّتي تَمَّ تَفْجِيرُ الْأَرْض على وفقِهَا، وهي صورةُ عُيُونٍ مائِيَّةٍ مُتَفَجِّرة مُوزَّعَةٍ على كلّ مَسَاحَةِ الْأَرْضِ، كَعُيُونِ الْغِرْبال، والغرَضُ الدَّلاَلَةُ علَىٰ كثرة الْعُيُونِ المتفَجِرَةِ، الّتي يتَخَيَّلُ مَعَها الناظر أنَّ الأَرْضَ كُلَّها تَحَوَّلَتْ عُيُوناً مَائِيَّةً مُتلاصِقَةً تَتَفَجَّر.

ولا أُحِبُّ هُنَا مُتَابَعَةَ النحويّين في قولهم: أي: وفَجَرْنَا عُيُون الأرض، فقولهم هذا يُلْغِي دَلاَلَة الصُّورَةِ البلاغيّة الأدبيّة الرَّائعة، ويَجْعَلُ التعبير صِيغةً من صيغ تحويل المفعول به إلَىٰ تمييز. مع أنّ العبارة تَدُلُّ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ جَعَلَ كُلَّ مَوْقعٍ في الأرض عيناً تتفجرُ ماءً مُتَدَفِقاً، لا أنَّهُ جَعَلَ الْعُيُون الّتي فيها تتفَجَّرُ وتتدفَّق، وفَرْقٌ كبيرٌ بَيْن الدَّلاَلَتَيْن، وهذا الْفَرْق يُدْرِكه أصحاب الحسّ الأدبيّ الرفيع.

ولا مانع من فهم الجملة وفق أسْلُوب التضمين، الذي يكون تأويلُها معه كما يلي: وفَجَّرْنَا الأَرْضَ علىٰ امتداد سُطُوحها، فجَعَلْنَاها عيُوناً مائيَةً مُتَدفِّقة.

ولا مانع أيضاً من اعتبار «عيوناً» نائباً مناب مفعول مُطْلق مبيِّن لنوْعِه، والتقدير: وفَجَّرْنَا الأَرْض تفجيراً عَيُوناً، أي: فنَوْعُ التفجير كان بِبَعْثِ العيون المتدفّقة، ونظيره: خطْتُ القُماشَ سراويل، وقطّعْتُ اللَّحْمَ إرْباً إرْباً.

ولا شكّ أنّ إبقاءَ النَّصّ مُوحِياً بدلاَلَتِه الأدبيَّة البلاغيّة الرائعة خَيْرٌ من التأويل الذي يُلْغي منه هذه الدلالة.

**القضيَّة الثالثة**: دلّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾: أي: فالتقىٰ دون تراخٍ في الزمَنِ الماءان: الماء المنهمر من السَّماء، والماء المتفجِّرُ عُيوناً من الأرض، على أمْرٍ من أمُورِ اللَّهِ الحكيمة، قدْ قُضِيَ بقضاء اللَّهِ، بَعْدَ أن قُدِرَ بتَقْدِيرِه لكل عناصِره وصفاته.

وجاء الاستغناء بلفظ الأمْرِ عن القضاء، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يأمُرُ بأمْرِ إيجادٍ أَوْ إعدام إلاَّ إذا قضاهُ وبَتَّ القرار به، فالأمْرُ بقول: «كُنْ» من العزيز القهار، تابعٌ للقضاء، وقضاءُ الله جلّ جلالُه مُسْبُوقٌ بتَقْدِيرِه لكلّ صغيرٍ وكبيرٍ ممَّا قَضَاهُ وفْقَ حِكْمته وعِلْمِهِ سُبْحانه.

فاقتضت الحكمة البيانيَّةُ الإعْلاَمَ بأنّه قَدْ قُدِرَ، وجاء ختم الجملة بعبارة ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ مناظراً لرُؤوس الآيات في هذه الفقرة، وبفَنِّيَّة رائِعةٍ، فيها إيجازٌ وإبْداع، ووَقْعٌ مُحبَّبٌ على الأسماع.

وجاء فعل ﴿قُدِرَ﴾ مبنيّاً لما لم يُسَمَّ فاعلُه إيجازاً، للعلم به بداهَةً، إذْ لا أحد يُقَدِّرُ مثْلَ هٰذهِ المقادير إلاَّ اللَّهُ عزّ وجلّ. وجاء مؤكّداً بلفظ ﴿قَدْ﴾ الدَّالّ على تحقق ثبوت الخبر الذي تضمَّنَه البيان، لرفع توهّم أنّ ما حَدَثَ ظاهرةٌ من الظواهر الكونيّة الطبيعيَّة، كمَا يزعُمُ الدهريّون الطبيعيون. أي: نُؤَكِّدُ لكم أنّ انهمَارَ الماء من السَّمَاءِ، وتَفَجُّرَهُ مِنَ الأرض عيُوناً أَمْرٌ قَدْ قُدِرَ بالتقدير الدقيق الحكيم الشَّامِلِ لكلّ الدَّقائق والتفاصيل، قَبْلَ الأَمْرِ

بِهِ إيجاداً، وقَبْلَ قَضَائه وإمضائه، وظاهرٌ أَنَّ خبراً من هذا القبيل يحتاج تأكيداً، لدفع الأوهام والشُكوك.

فما هي الغايةُ من الأَمْرِ العظيم الّذِي قَدْ قُدِرَ والْتَقَى الماءُ على تَحْقِيقِها؟

إنّ الذِّهْنَ لَيَسْتَدعيهَا بَداهَةً، ولو لم تُذْكَرْ في النصّ، إنَّها إهْلاَلُ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحِ الّذين كَذَّبُوهُ، وزَجَرُوه، وتَوعَّدُوه بأن يَرْجُموه إذا لم يكُفَّ عمَّا هو فيه من دعوة إلى دين ربّه مجاهداً مجادلاً.

وفي عبارة: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ من إبداع وفنيَّته مَا يُثِيرُ قِمَّة العجب، إذْ لَمْ يأتِ التعبير عن أهلاك قوم نوحِ بالأسْلُوب المباشر، بل بالرّمْزِ والإشارة واللّمح، واقتضى التَّعْبِيرِ بانْهمار الماء من السّماء، وتفجيره من الأرض عُيوناً، اسْتِدْعَاءَ التساؤل عن الرابط بين الْمَاءَيْن، والتَّسَاؤُلِ عن الغاية من ذلك، فجاء البَيَانُ على مقدارِ تَشَوُّفِ نَفْسِ المتلَقِّي وَتساؤلِهَا، أي: إنّ التقاء الماء المنهمر من السَّماء، والماء المتفجّر من الأرض، قَدْ كانَ على أَمْرِ قد قُدِرَ، فَهُما آيَتَانِ عظيمتان من آيات الله التقتا على تحقيق أَمْرِ من أمُور الله قَدَّرَه الله وقضاهُ، وأَنْجَزَ تَنْفِيذَهُ بالتكوين.

أمّا بيان هذا الأمر فَلاَ لُزُوم للتصريح به:

● ألم يَدْعُ نوحٌ رَبَّه، أَنّي مَغْلُوبٌ فانْتَصِرْ، وقد انتصر الله له، فعلَىٰ مَنْ يَنْتَصر؟ وَمَاذا يُحَقِّقُ في هذا الانتصار، إذا مَلأَ الأرض ماءً بما أَنْزَلَ مِنَ السَّماء وبما فَجَّرَ مِنَ الأرض؟

لا شَكَّ أنّه إهْلاَكُ كُفَّارِ قَوْمِ نوحِ الّذِين كفَرُوا وظَلَمُوا وطَغَوْا، بالطوفان الذي كانوا فيه مُغْرَقين.

**القضيّة الرابعة:** دلّ عليها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾: أي: وحَمَلْنَاهُ لِنُنْجِيَهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ على مَرْكَبَةٍ بَحْرِيَّة تَطْفُو على الْمَاءِ، وتَجْرِي فيه.

ولَمْ يَأْتِ التَّعْبيرُ عن هذه المركبةِ البحريَّة في هذا النّصّ باسْمِ السفينة، أو الفُلك، وإنّما جاءت الكنايَةُ عَنْهَا بذِكْرِ الأشياء الأساسيّة التي صُنِعَتْ مِنهَا، وهي الألواح الخشبيَّة الّتي أَعَدَّها نُوحٌ النجّارُ الماهر بِنَفْسِه، متّبِعاً إرْشاداتِ الوحْيِ الرّبّاني له، والدُّسُر.

**الدُّسُر**: هي المسامير التي تُثبّتُ بها الألواح بَعْضُها ببعض، وهي أيضاً الخيوط والحِبَال اللّيفِيَّةُ الّتي تُشَدُّ بها الألْوَاح بَعْضُها إلى بَعْض.

وقد يُصَاحِبُ ذلك غَمْسُ الألواح والدُّسُر بما يَمْنَعُ تَسَرُّبَ الماء إلى دَاخل السفينة، ولا يَنتحَلُّ بالماء كالزّفْتِ ونَحْوه.

ومن الإلماح البلاغيّ البديع الكنايةُ عن الشيء بذكر بعض الموادّ التي يتألّفُ منها، فَهٰذِهِ الكنايةُ وأمثالُها ممّا يُرْضي ويُمْتِعُ ذَكَاء أصحاب الذوق الأدبيّ الرَّفيع.

**القضيّة الخامسة**: دلَّ عليها قولُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . . .﴾: أي: وهٰذِهِ المركبة التي حَمَلْنَاهُ وَمَنْ معه عليها، ذَاتُ الألواحِ والدُّسُرِ، مِنْ صِفَاتِهَا السَّبَبيَّةِ أَنَّها تَجري عَلَىٰ المَاءِ، ومِنْ صِفَاتِها المحاطَةِ بعِنَايتِنَا ـ علىٰ الرُّغم من كونِهَا عَملاً بِدَائِيّاً في صِنَاعَةِ الفُلْك يَحْمِلُهَا بَحْرٌ مِنَ الماء عظيم متلاطِمُ الأَمْوَاج ـ أَنَّها تَجْري بِأَعْيُنِنَا، أي: تَجْري مَحْفُوفَةً بأكْملِ الحفظ والرِّعَايَةِ والحماية من أيِّ شيءٍ يَضُرُّها أَوْ يُؤْذيها، أو يُعَرِّضُ راكبيها لأيّ خطر أو ضَرَرٍ.

إنّ العين فيما يَعْلَمُ الناسُ أرَقُّ وأَلْطَفُ حَاسَّةٍ تُحْفَظُ مِنْ أَقَلِّ الأقْذَاءِ وأَصْغَرِها، وهي أكمل حاسَّةٍ للمراقبة تُحيطُ إحاطَةً شَاملةً بما تراقبُهُ لحفظه، فإذا كانَتْ مَرْكَبةُ نوح عليه السّلام تَجْري بأعين الله الرَّبّ القدير على ما يشاء، فَذَلِكَ يَدُلُّ علَى أنّها في غايةِ الحفظ والرعاية والحماية والمراقبة التَّامَّةِ لِكُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَاكاتها على توالي اللّحظَاتِ، وأصغر الأجزاء الزمنيَّة.

**القضيّة السّادسة**: دلَّ عليها قول اللّهِ عزَّ وجلّ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ في هذه العبارة إضافة بيان يَدُلُّ على الغايَة الجزائيّة من هذا الاهتمام الشديد بحفظِ سفينة نوحٍ عليه السلام كُل هذا الحفظ، إنّها مكافأتُه بثوابٍ معجّلٍ له ولمن معه في الحياة الدُّنيا، جزاء كَوْنِهِ جاهد في الله حَقَّ جهاده في دعوته إلى الله، فَكُفِرَ منْ قِبَلِ قَوْمِه.

**كُفِرَ**: أي: جُحِدَ وَكُذِّب.

لم يأت في هذه العبارة: جزاءً لِنُوحٍ، وإنما جاء فيها: جزاءً لمن كانَ كُفِرَ، لبيان أنّ الجزاءَ لوحظ فيه كونُه كُفِر، أي: أمَّا صَالحاتُه الأُخْرى ومُجَاهَداتُه من أجل ربّه فجزاءُها فوْقَ ذلِكَ يَوْمَ الجزاء الأكبر، وقد تكون عبارة ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ تَعُمُّ من رَكِبَ معه في السّفينة، وهم الّذِين آمَنُوا به، فقد كانوا دعَاةً إلى اللّهِ مَعَهُ، وكُفِرُوا مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ أيضاً، وتعرَّضُوا للزَّجْرِ والتهديد بالرَّجْم أيضا.

**القضيّة السَّابعة**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً ﴾: أي: ولَقَدْ تركْنا فُلْكَ نُوحٍ آيَةً، بَاقيةً زمَناً طويلاً من بَعْدِه، لتكون علامة على حادثَةِ الطوفان، ومذكِّرَةً بقصّةِ نوحٍ عليه السَّلاَمُ وقَومِه، وشاهداً على عقاب الله عزّ وجلّ للمكذّبين الظالمين الطُّغَاة، وعِبْرَةً لمَنْ يعتبر، وذكرى لمَنْ يَذّكر.

جاء في صحيح البخاري، قال قتادة: بَقِيتْ بَقَايا السفينة على الجوديّ، حتّى نظرَتْهَا أوائل هذه الأمّة.

وقد رأى هذه الآية من رآها، وسَمِع بها مَنْ سمع، وظلّت الأُمَمُ تَتَوارث خبر طوفان نوح عليه السلام.

وهذه العبارة: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً ﴾ مع دلالتها على ما تقدّم شرحه فهي أيضاً كنايةٌ عن وصولها إلى مستقرٍّ ملائم، ونُزولِ نوح عليه السّلام

منها إلى أرْضٍ جَافَّةٍ صالحة، ونزول مَن كانوا معه، وإنْزَالِهم الحيوانات الّتي كانت في السفينة لتجد أرزاقها في نباتات الأرض، وليَبْدَؤوا حياة استقرارٍ على اليابسة.

هذا المطويُّ المدلُول عليه بالكِنَايةِ في هذه السورة، قد جاء التصريح به في سورة (العنكبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

**القضيَّةُ الثامِنَةُ**: دلَّ عليها قولُ الله عزّ وجل: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾؟: يَدُلُّ هٰذا التّسَاؤل البديعُ على الغرضِ الدينيّ مِنْ تَرْكِ سفينة نوح عليه السَّلام آيَةً بَاقيةً أزماناً طَويلة، شَهِدَتْهَا فيها أجْيَال مُتَتَابعةٌ من بعده. وهو أن تكون للادّكار، أي: للتذكّر الآخذ بيد المتذكّر للاتعاظ، إذا كان لدَيْه استعدادٌ للاتّعاظ الإراديّ ورغبَةٌ فيه. مع ما في هذا التّسَاؤُلِ من حضٍّ عى الادّكار والاعْتِبَارِ بما جَرَىٰ لقوم نوح عليه السلام، وقد جاء هذا الحضّ بأسْلُوب الاستفهام. ومع ما فيه أيضاً من إشْعَارِ بقلّةِ المدَّكّرين، لأنّ السُّؤالَ يَسْأَلُ عن واحدٍ مُدَّكرٍ يعتَبر بما جرىٰ للأوّلين من عقابٍ رَبَّانيّ.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾؟ «هل» حرف استفهام يُسْتَفْهَم به عن التصديق الإيجابي (أي: عن وقُوعِ النِّسْبَة بين المسْنَدِ والمسند إليه). «مِنْ» حرف جرٍّ زائدٍ جيءَ به للتَّنْصِيص على الاستغراق الشامل لكلّ أفراد العام «مُدَّكِرٍ» مُبْتدأٌ مجرورٌ لفظاً مرفوعٌ مَحلاً، والخبرُ محذوف مقدَّرٌ ذِهناً، أي: فَهَلْ من مُدَّكِرٍ مَوْجودٌ؟

لفظ «مُدَّكِر» أصْلُهُ «مُذْتَكِر» من فعل «اذْتَكر» على وزن افتعل، وقُلِبَتِ التاءُ دالاً إذْ جاء قبلها ذالٌ، وهذا قياسٌ مُطرِدٌ، ثُمَّ قُلِبَتِ الذال دالاً وأُدْغِمَتْ بالدَّال بَعْدَها، فصار الفعل «ادَّكَرَ» واسْمُ الفاعل مِنْهُ «مُدَّكِر». وأَصْلُ فعل «اذْتَكر» ذَكَرَ، أضيفَتْ إليه تاء «افْتَعل».

**القضيَّة التاسعة**: دلّ عليها قول الله عزَّ وجلّ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾؟:

أي: فعَلَىٰ أيَّةِ حالٍ كان عَذَابِي لكُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ؟. وعلى أيَّةِ حَالٍ كانَتْ نُذُرِي لِقَوْم نُوحٍ؟

**نُذُرِي**: أي: إنذاراتي الّتي بلّغَهُمْ إياها رسولي نوح. **الإنْذَار**: الإعلام والإخبارُ بعواقب غَيْرِ سَارَّةٍ.

في هذه الجملة سؤالٌ ينْتَزِعُ الجواب انْتزَاعاً منْ كُلّ ذي فكر عادِيّ يَفْهَمُ المسائل السّهلة، دون حاجة إلى رَوِيَّةٍ وَتَأَمُّل فيقُول:

● لَقَدْ كانَ العذابُ عذاباً شَدِيداً مخيفاً، يُثير الرَّهَبَ والاتّعاظ والادّكار.

● ولقد كانت النُّذُرُ الَّتي أَنْذَرَ اللَّهُ بها قَوْم نُوحٍ على لسَانِ رسولهم نُذُراً صادقةً، حَقَّقَ الواقِعُ الثابتُ في التاريخ ما جَاءَ فيها بلا نُقْصان، وَظَلّتْ آيَتُهُ بَاقِيَةً حقباً كَثِيرَةً وشَهِدَتْها أجيالٌ فَأَجْيَالٌ من الناس.

فما أَبْدَعَ هٰذا الإيجاز وَما أحكه؟!! وما أَغْزَرَهُ دَلَالَاتٍ وَأَوْفَاه بالمقصود من البيان في المرحلة الّتي نزلَتْ فيها سورة القمر؟!!

● قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾؟

**التَّيْسِير**: التسهيل والتخفيف.

للذِّكْرِ: أي: للحفظ والتذكُّرِ، عِنْد كلِّ مُناسبَةٍ داعيَةٍ لتذكُّر ما يُلائم المناسَبَةَ من آياتِ القرآن.

وقد جعل الله عزّ وجلّ هذه الآيَةَ فاصلاً يَتَكَرَّرُ بِفَنِّيَةٍ بَيَانِيَّةٍ أَدَبِيَّةٍ، دَالاً بهَذَا الصَّنِيع علىٰ أنَّ توزيع لَقَطَاتٍ مختلفاتٍ منْ قِصَصِ المهلَكين الأوّلين على نُجُوم التنزيل، وبمناسباتٍ مختلفات، لَهُ حِكَمٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْها تَيْسِيرُ القرآن للحفظ والذّكْرِ، بالنسبة إلى من يُهِمُّهم أن يحفَظُوه، ويُرَتِّلُوهُ، وَيَتَذَكَّروه.

ولا يخفىٰ ما في هذا من دعوة لحفظ القرآن وتدبُّرِهِ وَتَذَكُّره، والاتعاظ بمواعظه، والاعتبار بعِبَرِهِ، وتَفَهُّمِ دَلاَلاته، والعمل بوصاياه، بأداء ما أوجب الله على عباده، واجتناب ما نهاهم عن فعله أو عن الاقتراب منه.

ومن تيسير الله عزّ وجل القرآن للذكر سَلاسَةُ آياته، وحُسْنُ انتقاء كَلِمَاته، وإتقانُ تراكيبه، وما فيه من صُوَرٍ بيانية رائعة، تَثْبُتُ في الذاكِرَةِ لحُسْنِهَا وإبْدَاعها، وَمَا فيه من كنايات بَعِيداتٍ عَنِ التعبير المباشر، وما فيه من مَطْوِيّات مختلفاتِ الْعُمْقِ، الَّتي يحتاج استخراجها إلى مقادِيرَ من ذكاء المتلَقِّين، فمنها ما يُسْتَخْرَج بالذكاء القليل، ومِنْها عميقٌ يَتطَلَّبُ ذَكاءً من مُسْتَوَىٰ ذكَاءِ العباقرة، وما فيه أيضاً من إعجاز بلاغِيٍّ فَرِيدٍ مُعْجِبٍ، تَعْشَقُهُ النفوس، وتلْتَقِطُهُ بلَهْفَةٍ، وتحفَظُه.

وكلُّ ذي حسٍّ أَدَبيٍّ يُدْرِكُ أنَّ النُّصُوصَ الأدبيَّة الرَّفيعة المثيرة للإعْجَاب، تتَعَلَّقُ بها النفوسُ والْقُلُوب، فتحفَظُها، وتردّدها، وتتذَكَّرُهَا حيناً فحيناً.

ومن هذا كانت الأمثالُ الدّارِجَةُ أكْثَر النُّصُوص ثباتاً في ذاكرَةِ الناس، وكذلك روائع أبيات الشعر، وروائع قصائده، وجُمَلُ الْحِكَم البديعةُ المحرَّرَة.

❁ ❁ ❁

## ثانياً: الفقرة الثانية
## موجز إهلاكِ عَادٍ قوم النبيّ الرسول هود عليه السّلام
## الآيات من (١٨ ـ ٢٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

● أثبت يَاءَ المتكلّم في كَلِمةَ: ﴿وَنُذُرِ﴾ في الآيتين (١٨) و (٢١) ورَشٌ في حالة الوصل ويعقوب في حالتي الوصل والوقف. وحذفها في الحالين باقي القرّاء العشرة، وهي وجوه عربيَّةٌ جائزَةٌ، والياء في حالة الحذف مقدَّرَة ذهناً، وفي حذفها إيجازٌ وجمال في النطق، ولا سيما إذا اقتضاه تناظُر رُؤُوس الآيات.

**تمهيد:**

هذا النصّ رابع نصٍّ نزل بشأن عادٍ قوم هود عليه السلام، سبقه ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) ثُمَّ مَا جاء في سورة النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) ثُمَّ مَا جاء في سورة(ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

وجاء في هذهِ النُّصوص تَدَرُّجٌ ارْتِقَائِيٌّ تكامُلِيٌّ في البيان، يحسب المناسبات الداعيات، دون تكرارٍ في العناصر، باستثناء ما يقتضيه الرَّبْطُ والتوجيه للعظة والاعتبار، فالتوجيه للعظة والاعتبار هو بمثابة الجرْعَات الدوائيّة التي يَسْتَدْعِيها العلاج الدعويُّ التربويّ.

وفي هذا النّصّ الرابع من سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بَيَانٌ موجَزٌ جدّاً لوسيلة إهلاكهم، مع إلماحٍ خاطفٍ لمشهد إهلاكهم، بإبراز لقطة تَصْوِيرِيَّةٍ مِنْهُ، تَكَرَرَتْ طَوَال يَوْم نَحسٍ مُسْتَمِرّ عليهم.

فبعد عبارة العنوان ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ الّتي لا بُدَّ مِنْها مَدْخَلاً للحديث عن إهلاك القوم، جاء البيان الموجز الّذِي سبقت الإشارة إليه.

«عادٌ» أُمَّةٌ من العرب البائدة، مُسَمَّاةٌ باسم جدّها «عاد» وهو من سُلالة سام بن نوح عليه السلام. وكانوا يسكُنُون الأحقاف. وهي أرض من جنوب شبه الجزيرة العربيّة، تقع في شمالِ حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الرّبع الخالي، وفي شرقها عُمان، وموضع بلادهم اليوم رمال قاحلة، وهي مُطِلَّةٌ علىٰ البحر يقال لها الشّحْر، واسْمُ واديهم «مُغِيث».

بفَنِّيَّةٍ بدَيعة جاء البيان الموجز عن إهلاك عادٍ مَحْصُوراً بحاصِرَيْنِ مُتَماثلين، كَقَوْسَيْنِ نَضَعُهما في كتاباتنا المعاصرة للتَّمييز والتَّنبيه ولَفْتِ النظر، لكِنَّ أقواسَنا خُطُوطٌ رَمْزِيَّة لا معنىٰ لها في ذواتها، أمَّا الحاصِران المتماثلانِ في هذا البيان الموجز فقد جَاءَا في جُمْلَةٍ كلاميَّةٍ تَنْتَزِعُ الاعتْراف بصيغتها الاستفهاميَّة، وتُوجّه للعظة والاعتبار والادِّكار، وهي قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؟ قَبْلَ عرض اللقطات المختارات من مشهد إهلاكهِمْ، وبعد عرضِها، فما كان قبل عرضها فهو توطئة لتقديم الجواب، ويتبعه بيان كيف كان العذاب وكيف كانت عاقبة النذر، وما كان بعده فهو لانتزاع الجواب من المتلقي، وهذا الاستفهام استفهام تقريري يُوجَّهُ لانتزاع الاعتراف بعظَمَةِ العذاب، وصِدْقِ أنْباءِ النُّذُور، (أي: الإنْذَارَات).

والمعنى: فعلىٰ أيِّ حالٍ كانَ عذابي لقَوْمِ عادٍ؟ وعلى أيّ حال كانت نُذُرِي لقَوْمِ عاد؟

وقد سبق آنفاً تحليلُ هٰذِهِ العبارة.

وبين هاذَيْن الحاصرين جاء قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

جاء تأكيد هذا النبأ بمؤكّدَين: «إنَّ» والجملة الإسمية، لأن المقصود بالخطاب المكذبون.

**الرّيحُ الصّرْصَر: هي الرّيح الشديدة البرودة، القويّة السَّريعة، الّتي تَصْطَدِمُ بالأشياء، فتنطَلِقُ بِهَا أصواتٌ يتواتَرُ فيها ما يُشْبِهُ حَرْفَي الصّاد والرَّاء، فَسُمِّيَتْ صَرْصراً.**

**في يَوْمِ نَحْسٍ:** أي: في يومِ جَهْدٍ وَضُرٍّ وَعَذَابٍ وَشِدَّةٍ وآلام،

وإضافةُ «يَوْم» إلى «نَحْس» على معنَىٰ الاختصاص، والمعنى: في يوْمٍ اختصَّ بالنَّحْسِ المنصَب على عادٍ قَوْمِ هُودٍ عليه السَّلامَ إذْ كَذَّبوا رسُولَ ربّهم، وكَذَّبُوا بما جاءهم به عن رَبّه، وظَلَمُوا وطَغَوْا وَبغَوْا.

فوسِيلةُ تَعْذِيب وإهلاك عادٍ كانَتِ الرِّيحَ الصَّرْصَر.

**مُسْتَمِرٌ**: أي: شَدِيدٍ قَوِيّ، ومُتَكرِّرٍ في نوازِل النَّحْسِ بتَتَابُعٍ وَتَلاحُقٍ، حتَّىٰ تَحقَّقَ إهْلاكُ القوم جَمِيعاً.

جاء في هذا النصِّ بيانُ أنَّ الرّيحَ الصَّرْصَر تتابعَتْ على عادٍ في يوم نَحْسٍ مُسْتَمِرّ، للإشارة إلى أنَّ إهلاكَهُمْ قَدْ تَمَّ في هٰذَا اليوم.

لَكِنَّ الرِّيح وأسْبَابَ النَّحْسِ لم تَنْتَهِ في هذا اليوم بل بَقِيَتْ سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيّامٍ حُسُوماً، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف / ٧٨ نزول):

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

وقد جاء هذا التكميل البيانيُّ وفق أسلوب التَّدَرُّج البياني في النصوص القرآنيّة والتكامل في توصيلِ المعلوماتِ المراد بيانُها.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: أي: تَقْتَلِعُهم اقْتلاَعاً بشِدَّة، مهما استمسكوا بثوابت في الأرض. فإذا نَزَعَتْهُمْ وَرفَعَتْهُمْ طَرَحَتْهُمْ صَرْعَىٰ، أي: هَلْكَىٰ مَقْتُولينَ مَطْرُوحين.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾: أي: فيكُونُونَ بَعْدَ انتزاعهم ورفعِهم وطَرْحِهِمْ وإهلاكهم وتناثُرِهم صَرْعَىٰ، كالنَّخْل إذَا قُلِعَتْ مِنْ جُذُورها، وطُرِحَتْ أَرْضاً، وعَدَتْ عَلَيْها الأواكِلُ فَأكَلَتْ بُطُونَها فَجَوَّفَتْها.

﴿أَعۡجَازُ﴾: جَمْعُ «عَجُز» وهو مؤخرَّ الشيء وأسفله، وأَعْجَازُ النَّخْلِ هِيَ أُصول شَجَر النَّخْل.

﴿مُّنقَعِرٖ﴾: أي: مُنْقَلِع من أُصوله، ومُنْقلِب مطروح على الأرض، ويأتي لفْظُ «مُنْقَعِر» بمعنىٰ قَدْ أُخْرِج ما في بَطْنِه، فَهُوَ مَنْزُوعُ الجوف.

وُصِفَ النخلُ هنا بالتذكير ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ ووصف في سورة (الحاقة) بالتأنيث ﴿خَاوِيَةٖ﴾ لأن لفظ النخل اسم جنس، يصحّ فيه التذكير والتأنيث، فالتذكير يلاحظ فيه اللّفظ، والتأنيث يلاحَظُ فيه المعنى.

قول الله عزّ وجل: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١﴾ قد سبق تحليل هذه العبارة.

قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٢٢﴾.

سبَق تَدَبُّرُ هٰذَا النَّصّ في آخِرِ موجز إهلاك قوم نُوحٍ عليه السلام.

❀ ❀ ❀

## ثالثاً: الفقرة الثالثة
## موجز إهلاك ثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام
## الآيات من (٢٣ - ٣٢)

قال الله عزّ وجل:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ۝٢٥ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ۝٢٦ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ۝٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ۝٢٨ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ۝٣١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٣٢﴾.

● قرأ ابْن عامر وحمزة: [سَتَعْلَمُون] بتاء المخاطَبين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بياء الغائبين.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البيانيّ، فقراءة الجمهور تتحدّث عن كُفَّار «ثَمود» الغائبين خطاباً لرسُولِهم والّذِينَ آمنوا به واتَّبَعُوه.

وقراءة ابن عامر وحمزة تخاطب كُفَّار ثَمُود خطاباً مباشراً، وفيها حكايةٌ لما وقع.

وكلا الأمْرَيْنِ مَقْصُودَان في البيان.

● وكلمة: ﴿وَنُذُرِ﴾ في الآية رقم (٣٠) فيها القراءات السّابقات في أمثالها من السُّورة بالنسبة إلى إثبات ياء المتكلم أو حذفها.

**تمهيد:**

هذا رابع نصّ نزل بشأن ثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، سبقه ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) وهو قولُ الله عزّ وجلّ فيها بشأنهم وشأن عاد وفرعون ويلْحَقُ به قومه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

ثُمَّ ما جاء في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن إهلاك اللّهِ أُمَماً سابقة:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

ثُمَّ مَا جاء في سُورَة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وقد سَبَقَ تدبُّر هذه النّصوص خلال تَدَبُّرِ سُورِها.

وقد جاء في هذهِ النصوص تَدرجٌ ارْتِقَائِيٌّ تَكامِلِيٌّ في البيان بِحسَبِ المناسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ، وقَدْ جَاءَ البيانُ مجزَّأً مُتكاملاً لا مُكَرَّراً.

في هذا النّصِّ الرابع من سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) جاء تقصيلٌ موجزٌ لقصَّةِ ثمود الّتي انتهَتْ بإهلاكهم بالصَّيْحة، وفيها لقطاتٌ مُنْتَقيات تشتملُ علىٰ بيان تكذيبهم رسُولَ رَبّهم، وتكذيبهم بما جاءهم به عن الله، وعلى بيان ذريعتهم الَّتي تَذَرَّعُوا بها، لرَفْضِ الإيمان الّذي دعَاهم إليه رسُولُهم صالح عليه السّلام، ورَفْضِ اتّباعه في طاعة الله، وفي الإسلام له، وعلى بيان امْتِحَانهم بالآيةِ الَّتي طَلَبُوها، وهي آيَةُ النَّاقة، وعلى بيان عَقْرِهِمْ لها، وعلى بيان إهلاك الله لهم بالصيحة.

## موجز قصة ثمود مع رسولهم صالح عليه السلام:

ذكروا أنّ كبراء ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم نبيُّ الله ورسُولُهُ صالحُ عليه السلام، فدعاهم إلى سبيل ربِّهِمْ، ووعظهم، وذكَّرَهم بأنْباءِ الْمُهْلَكينَ من قبلهم، قوم نوح، وعادٍ قوم هود.

وقال لجماهيرهم: اتَّقُوا الله وأَطِيعون، ولا تُطِيعُوا أَمْر الْمُسْرِفين، الّذين يُفْسِدونَ في الأرْضِ ولاَ يُصْلِحُون.

فقالوا له: مَا أَنْتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا، فأْتِنَا بآيَةٍ إن كُنْتَ من الصادِقين.

وقالوا له: إنْ أنْتَ أَخْرَجْتَ لَنَا مِنْ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةً، وَأَشَارُوا إلى صَخْرَةٍ مُعيَّنَةٍ لَدَيْهِم، وحَدَّدُوا لَهُ أَوْصَافَهَا الَّتي طَلَبُوا أن تكون مُتصِفَةً بها،

وشدَّدُوا مُتَعَنِّتِينَ في بيان الصِّفات التي يجب أن تكونَ عليْهَا، ومنها أن تكُون حُبْلىٰ عُشَراء[١] طويلة.

فقال لهم رسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام: أرَأَيْتُمْ إنْ أجبتُكُمْ إلى ما سَأَلْتُمْ، وفْقَ الأوصَافِ الّتي وصَفْتُمْ، أتُؤمِنُون بأنّي رَسُولُ اللَّهِ إليكم، وتُصَدِّقُوني فيما أُرسِلْتُ به؟؟.

قالوا: نعم.

فأخذ عُهودَهُمْ وَمَواثِيقَهُمْ على ذلك.

ثم قام صالحٌ عليه السَّلام إلىٰ مُصَلاَّهُ، فصَلَّىٰ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، ثُمَّ دَعَا رَبَّهُ أن يُجِيبَهُمْ إلى ما طَلَبُوا.

فَأَمَرَ اللَّهُ تِلْكَ الصَّخْرَة الَّتي عَيَّنُوهَا أن تَنْفطِرَ عن ناقَةٍ عظيمة عُشَراءَ[١] مُتَصِفَةً بالصِّفَاتِ الَّتي طلبَهَا القوم.

فلَمَّا عَاينوها قد انفطرت عَنْها الصَّخرة، وجاءت على وفق الأوصاف الّتي طَلَبُوها دَهِشُوا، إذْ رأَوْا أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد استجاب لدعاء صالح عليه السلام، وأثبت لهم بهٰذه الآية أنَّه رسول ربّهم حقاً وَصِدْقاً.

فآمَنَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وبقي أكْثَرُهُمْ على كُفْرِهِمْ وشِرْكِهِم وعِنَادِهِمْ.

وقال لهم الرسولُ صالح عليه السلام: هذه نَاقة اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تأْكُلْ في أرض الله، ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قريبٌ أليمٌ، في يوم عظيم.

وقال لهم: إنّ الله قد جعل ماءَكم قِسْمةً بينكم وبينها، فلها شِرْبُ يَوْمٍ معلوم، لا تستَقُونَ أنتم فيه، ولَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، لا تأتيكُمْ هي فيه فتُشَارِكَكُمْ سُقْيَاكم.

---

(١) عُشَراء: أي: حُبْلَىٰ مضىٰ على حملها عشرة أشهر.

فقد جعل الله جلَّتْ قدرتُهُ وعظُمَتْ حكمتُه هذه الناقة الّتي أخْرَجَها لهم على وَفْق ما طلبوا، فِتْنةً لهم، أي: امتحاناً كاشفاً لما في نفوسهم، فَجَعَلَ لَهَا فيهم شروطاً:

**الشرط الأول**: أَنْ تُتْرَك سَائمةً تأكُلُ مِنْ أَرْضِ الله كما تَشاء، فهي ناقَةُ الله.

**الشرط الثاني**: أنَّ الماء الذي يَشْرَبُونَ منه في دِيارِهم قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ وبَيْنَها، فهم لا يُشَارِكُونَها في نَوْبَتِها، وَهي لا تُشَارِكُهُمْ في نَوْبتِهِمْ.

**الشرط الثالث**: أنْ لا يَمَسُّوها بِسُوءٍ، فإذا فَعَلُوا أهلَكَهُمُ اللَّهُ بعذاب يومٍ عظيم في الحياة الدنيا، دون إمهالٍ إلى يوم الدّين مع ما سوف يلاقون منْ عذاب خالدٍ يوم الدّين.

وهذا شأن الخوارق الّتي يُرْسِلُها الله وفْقَ طَلبِ الأقوام، بخلاف الآيات الّتي يُؤَيِّدُ اللَّهُ بها رُسُلَهُ على ما يَشاءُ هو، دُونَ تَحْدِيد تَعَنُّتِيّ من القوم.

فلَمَّا عَقَرُوا الناقة أهلكهم الله بالصيحة المقْتَرِنة بالرَّجْفة وبالصاعقة.

وعند المؤرخين في قصتهم تفصيلات، أرجو أن أذكُرَها في موضع آخر من عرض لقطات من قصتهم في القرآن المجيد.

❁ ❁ ❁

**التدبّر التحليلي للنصّ.**

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ثَمُودُ﴾: قَوْمٌ من الْعَربِ البائدة، يُنْسَبُون إلى أَحَد أجْدادهم «ثمود» نَشَؤُوا وتَكَاثَرُوا بعْدَ «عادٍ». وكانُوا خُلَفَاءَ في أرْض الْعَرب من بعْد قوم عادٍ الّذِي أُهْلِكُوا. ورُبَّما كان الّذين آمَنُوا بِهُودٍ عليه السّلام، ونَجَوْا من الهلاك معه أجداداً لهم، أو من أجدادِهم، وقَدْ تكونُ ثَمُودُ هي عاداً الأخرى، إذْ قَوْمُ هُودٍ هم عادٌ الأولى.

وثمود هم قوم النبي الرسول صالح عليه السلام، وكانوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ، وهو بيْنَ الحجاز وتبوك، وتُعْرَفُ مَسَاكِنُهم بمدائن صالح، وآثارهم فيها ظاهرة حتى الآن، يزورها محبُّو زيارة الآثار.

ولفظ «ثمود» اسم جمع لجماعة من الناس، فيجوز في العربية تذكيره وتأنيثه، كنُظَرائه، وقد كثُر في القرآن تأنيثه، وجاء مصروفاً وممنوعاً من الصرف.

﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ النُّذر هنا جمع «النذير» الذي هو اسم مَصْدَرِ فعل «أَنْذَر يُنْذِرُ إِنذاراً». فالمعنى: كذَّبوا بالإِنْذَارات الّتي أنذرهم بها رسُولهم صالح عليه السلام، فهي إذن إنذارات مُتَعَدِّدات أَنْذَرَهُمْ إيَّاها عَاجِلَةً في الحياة الدُّنيا، وآجلةً إلى يوم الدين.

ولا يَصِحُّ هُنَا حَمْلُ النُّذُرِ على الرُّسُلِ المنْذِرين، لأنَّ الاسْتقراء للاستعمال القرآنيّ دلَّ على أنَّ التكذيب إذا كان لمبَلِّغ الخبَرِ أو البيان تعدَّى الفعل إليه بنَفْسِه دُون وساطة حرف جرّ، أمّا إذا كان للخبَرِ أو للبيان نَفْسِه، فإنّه يتعدَّىٰ إليه بحرْفِ الباء. مثل: ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ ـ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

ولمَّا كانَت الإنْذاراتُ لاَ تُوَجَّه إلاَّ بَعْدَ الدَّعْوَةِ إلى الإيمان وأركانه، والدَّعْوة إلى الإسْلام والطَّاعة، كانَ ذِكْرُ النُّذُرِ هُنَا دَالاً عَنْ طريق اللُّزوم الذهْنِي على أنَّهم كَذَّبوا رسُولَهُمْ صالحاً عليه السّلام، وكذّبوا برِسالته، وكذَّبوا بما جاءهم به عن رَبّه، وأخيراً كَذَّبُوا بإنْذارَاته.

فكان من الإيجاز البديعِ الاقتصار على بيان تكذيبهم بإنْذاراتِ رسُولهم، لما فيه من دلالَةٍ عَقْلِيَّةٍ على تكذيبهم بما تقتضي دَعَوَاتُ المرسَلين بيانَه قَبْل إخْبَارِهم بالإنْذَارات، وإذْ كذَّبُوا بإنْذاراتِ الرَّسُولِ فقَدْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ لُزوماً، وكذَّبُوا بكُلِّ مَا جَاءَهُمْ به عن ربّه.

● قول الله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾.

في هاتَيْنِ الآيتَيْن تلخيصٌ لأرْبَع مقالات قالَها كُبَراءُ كُفَّارِ ثمود، ورَدَّدَتْها جماهيرُهُمْ التابعون لهم في مواجهة دعوة نبيّ الله ورسُولِه إليهِمْ صالحٍ عليه السلام، مُعْلِنين بها استكبارهم عن الاستجابة له.

وجاء عطفُ مقالاتهم هذه بحرف «الفاء» الذي يدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، نظراً إلى أوّل مراحِلِ تكذيبهم لرسُولهم، لا إلى مرحلة تكذيبهم بالنُّذُرِ الَّتي أنذرهُمْ بها، إذْ إنّ ذِكْرَ النُّذُرِ قد دلَّ على ما قبلها من مراحل باللُّزوم العقلي.

● فَهُمْ قَدْ كَذّبوا رَسُولَهم مُنْذ أبْلَغهُم بأنّ الله عزّ وجلّ قد جعله نبيّاً، وبَعَثَه رَسُولاً إليهم، فاقتضت دقَّةُ البيان أن يكون العطف بحرف «الفاء» الدّالّة على الترتيب مع التعقيب، وهٰذا التكْذِيبُ قَد جَرَّ سِلْسِلة تَكْذِيبات كانت الحلقة الأخيرة منها تكذِيبَهُم بالنذر.

وفيما يلي مُتابَعَةٌ تحليليّة تَدَبُّرِيّة للمقالات الأربع الّتي قالُوها:

**المقالة الأولى**: دلَّت عليها عبارة: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾؟! استفهامٌ تعجُّبِيٌّ استنكاري، يَنِمُّ عن مُنْتَفِخِ الكِبْرِ في صدورهم، إنّهم يُعْلنُون بهذا رَفْضَهم لاتّباعِ رَسُولٍ بَشَرٍ مِنْهُمْ، وهُوَ واحِدٌ لَيْسَ بجماعة، أي: فكَيْفَ يتَلاءَمُ مَعَ مكانَتِهم العظيمة، ومَنْزِلَتِهم الرَّفيعة، أنْ يَتَّبِعُوا بَشراً منْهم واحداً يَزْعُمُ لَهُمْ أنه رَسُولُ الله إليهم.

فَهُمْ يَرفُضُون أوّلاً أن يكون الرَّسُولُ من البشر. وعلى فَرْضِ قَبُولِهم أن يكون من البشر، فإنّهم يَرفُضُون أنْ يكُونَ شخْصاً واحداً، ليْسَ مَعَهُ رَسُولٌ آخَرُ أَوْ عَدَدٌ من الرُّسُل.

﴿أَبَشَرًا﴾ منْصُوبٌ على الاشتغال، أي: أَنَتَّبِعُ بشراً واحداً حالةَ كَوْنه منّا، أي: من جنْس البشر نَتَّبِعُهُ.

**المقالة الثانية**: دلَّت عليها عبارة: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾.

بهذه العبارة أكّدوا زاعِمِينَ أنَّهم إذا اتَّبعُوا بَشراً واحداً من البشر، فإنّهم يكونُون إذاً لَفِي ضَلَالٍ في مَسِيرتِهم في حياتهم، وفي جُنُونٍ في عقُولِهم وأفكارهم، وهٰذا أعْظَم ما قَدَّمُوه من ذريعةٍ، لتزيين نُفْرَتهم واستنكافهم عن اتّباع رَسُولهم.

﴿إِذًا﴾ حَرف يدلُّ على المفاجأة في الحال، ويَختَّصُ بالجمل الإسميّة، ولا يحتاج إلى جواب، ولا يقع في ابتداء الكلام.

﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾: أي: لفي جَهْلٍ وضَيَاعٍ، وَبُعْدٍ عمّا هو حقٌّ وخَيْرٌ وَرُشد.

﴿وَسُعُرٍ﴾: أي: وفي جُنُون، فالسُّعر يأتي في اللّغة بمعنى الجنون، وَيصِفُ الْعَربُ الناقَةَ الْهَوْجاء بأنَّها مسعورة، كأنّ بها جنوناً.

ويظهر أنّ هذه المقالة صادرة عن كبراء ثمود، ليصُدُّوا بها جماهيرهم عن اتّباع رسُولهم، أي: فمن اتّبعه وهو بَشَرٌ واحِدٌ منهم كانَ منْغَمِساً في جَهْلٍ وَضَياع، وكان مُنْغَمساً في جُنُون، ومعلوم أنَّ الأَتْبَاعَ يَرَون قادتَهم أَهْلَ عقل ورُشْدٍ وحسن فهم للأمور، وإدراك للحق والباطل، والخير والشرِّ.

دلّ حَرْف «في» علىٰ أنّ الضّلالَ والسُّعْرَ يكون بمثابَةِ ظرفٍ مُحيطٍ بمن اتّبَعَ بَشَراً واحداً مِنهم.

ويُلاحَظُ أنَّهُمْ أكَّدُوا مقالتهم هذه بالمؤكدات التالية: «إنَّ ـ والجملة الإسْميَّة ـ واللاّم المزحْلَقَة» ليقْبَل كلامَهُمْ أتباعُهم، وليُشْعِرُوهُم بأنَّهم مؤمِنُون بما يقولون، غيْرُ شاكّين، ولا ظانّين، وهذا مِنْهم مبالغة في المكر ومعانَدَةِ الحقّ.

**المقالة الثالثة: دلَّت عليها عبارة:** ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!!.

وفي هذه العبارة استفهام تعجُّبيٌّ إنكاريٌ أيضاً، وهي تدلُ علىٰ

إنكارِهم الشَّدِيد أنْ يَكُونَ هذا الواحد منهم، وهو صالحٌ عليه السلام، مُخْتَاراً اختياراً خاصّاً مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ قِبلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، ولإِلْقَاءِ الذِّكْرِ عليه، وهو الكتاب الرَّبَّانيّ، المطلُوبُ منهم أَنْ يتلَقَّوْه ويتفَهَّمُوا دلالاتِه، ويحفَظُوهُ، وَيَذْكُرُوا أوامره ونواهيه ووَصَاياه عِنْدَ المناسَبَات الداعيات، ليعملوا بها.

ولا يخفى على المتدبّر أنّه قد حصل الاسْتِغْنَاءُ ببيان إلْقاء الذّكْر عليه، عن التصريح بالتعجُّب من اختياره للنُّبُوَّة والرِّسالة، نظراً إلى أنَّه لا يُلْقَىٰ الذِّكْرُ الرَّبَّانِيُّ عليه، إلاَّ بَعْدَ اصطفائه بالنُّبُوَّةِ والرّسالة.

وهذا الاستفهام التعجُّبِيّ الإنكاريُّ من قادة ثمود، الدَّالُّ على معنىٰ إنكار نبوّته ورسالته، يتضمَّن إشعاراً بأنّ غَيْرَه من كُبَرَاءِ قَوْمِه أحقُّ منْه بذلك، فليس من المعقول أن يختاره الله بالخصوص من بَيْنِ مَنْ هُمْ أَحَقُّ بِذَلِكَ من قومه، في زَعْمِهم ومفاهِيمِهم الطَّبقيَّةِ الاستكْبَارِيَّة.

إنَّ تَصَوُّرَاتِهم الباطِلَاتِ في حدود مفهوماتهم المرتَبطَاتِ باعتباراتٍ دنيوية، تَجْعَل حقَّ الامتياز في القوم لأهل المال، أو أصحاب الْعُزْوة والجنود والأنصار، أو أَرْبابِ الأنْسَابِ والأمجاد والمفاخر المتوارثَةِ في الأعراق وفي الأسر، وهذه كلُّها تصوُّراتٌ ومفهوماتٌ باطلات لا وزن لها في ميزان الحقيقة.

إنّ الله عزّ وجلّ لا ينظُرُ إلى هٰذه الاعتبارات الّتي لا ترفع في الحقيقة قيمة الإنسان عنْدَه، إنّما ينظُر جلّ جلاَلُه إلى قِيَم الفضائل الذّاتيّةِ، والفضائل الإرَادِيّة في الْتِزَام الحقّ وسلوك سبيل الْهُدَىٰ والخيرِ والكمالِ، في الإنسان الذي يَصْطَفِيه لنبوَّتِه ورسالته، وهو جلّ جلالُهُ أعلم بعباده وما في قلُوبهم مما يُؤَهلهم للاصطفاء، أو لا يُؤَهِّلُهُمْ له، كما قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿. . . ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ . . . ﴿١٢٤﴾﴾.

ودلَّ فِعْلُ ﴿أُلْقِيَ﴾ على أنّ الكتاب الّذي أُنزلَ على صالح عليه السّلام قد أُنزِلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فالإِلْقَاء فيه مَعْنَىٰ الطَّرْح بمرَّةٍ واحِدةٍ، بخِلاف معنَىٰ الإنْزَالِ، والتَّنْزِيل، فلا يَدُلأن على معنى الإلقاء جُمْلَةً واحدة.

ومادة «الإلقاء» في القرآن قد استعملت وهي تُشْعِرُ بمعنى الطَّرْح جملة واحدة في نُصُوصٍ متعدّدة، فمنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لموسَىٰ بما امْتَنَّ به عليه وهو طِفْلٌ يجري به التابوت على شاطئ النيل:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشَأنِ مباراته مع سَحَرةِ فِرْعَوْن:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجل في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

ومن الظاهر أنّ كُلَّ مَنْ يُلْقي اللّهُ في قَلْبِه الرُّعْبَ يُلْقِيه فيه دُفعةً واحدة.

وإذْ أَنْكَرَ كُبَراءُ كُفَّارِ ثَمُود أن يكون صالحٌ عليه السّلام نبيّاً رَسُولاً مختاراً من الله، قامَتْ في أذهانِهم احتمالاَتٌ أُخرى، تُبْعِدُ عنه أن يكون كذَّاباً، لكنَّهُمْ رَفَضُوا هذِه الاحتمالاَت حَتَّىٰ لا تَخِفَّ عَداوَتُه والحَنَقُ علَيْه في نُفُوسِ أَتبَاعهم، فقالوا: لاَ عُذْرَ له بَلْ هُوَ كذَّابٌ مُسْتَكْبِرٌ يُرِيد الْعُلُوَّ في الأَرْض، ومنازعَة الكُبَراءِ مَكَاناتهم، وهذا ما دَلّت عليهم مقالتهم الرابعة.

**المقالة الرابعة**: دلَّت عليها عبارة: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾.

طوى النّصّ ما قام في أذهان كبراء كُفَّار ثمود، من احتمال أنْ يكونَ مَعْذُوراً في ادّعاء أنَّهُ نبيٌّ رَسُولٌ، كأَنْ يكونَ قَدْ تهَيّأ لهُ ذَلِكَ، أو أثَّرتْ عَلَيْه الجنّ، أو أثَّرتْ عليه أعمال سِحْريَّة، لكنَّهُمْ رفَضُوا التصريحَ بها، ورفَضُوها جملةً وتفصِيلاً بدلالة حرف «بل».

أي: لا عُذْرَ لَهُ فيما ادّعاه بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ.

﴿كَذَّابٌ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «كاذب» إنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بأنْ يَقُولوا هو كاذب، بل اتَّهَمُوه بأَشْنَع دَرَكات الكذِب، مع أنَّهُمْ ما عرفُوه في حياته معهم قبل النبوَّةِ إلاَّ صادقاً أميناً.

﴿أَشِرٌ﴾: أي: مُسْتَكْبِرٌ بَطِر، يُقالُ لغة: أَشِرَ فُلانٌ أشَراً فَهُوَ أشِرٌ، أي: بَطِرَ واسْتَكْبرَ، ومُرَادُهُمُ اتّهامُهُ بأَنّ ادّعَاءه أَنَّهُ رسُولُ الله نابعٌ من كِبْرِه في نفسه، ورَغْبته في أَنْ تكونَ لَهُ السّيادة في قومه، وأن تكون لَهُ القِيادة والرّيَاسة والسُّلْطَانُ والأَمْر والنَّهْيُ، فلا هو صادقٌ في قوله: إنَّهُ رسُول الله، ولا هو معذور بادّعائه، على احتمال أن تكون قد جرتْ له أمورٌ وَرُؤىً أَوْهَمتْه أنه نبيٌّ ورسولٌ، كالّذِي يَأْتيهِ رَئِيٌّ من الجنّ، فيُخْبرُهُ بأشياء، يَزْعُم له فيها أنّها من أمُورِ الغيب، بَلْ هو كذَّابٌ أَشرٌ.

لكنَّهُمْ في الحقيقة هُمَ الكذَّابُون الأَشِرُون، كذَّابُونَ في إيهامهم وتَزْويرِهم على جماهيرهم، بأَنَّهُ لَيْسَ رَسُولاً من عنْدِ رَبّهم، مع اقتناعهم في أعْمَاقِ نفوسهم وقُلُوبهم بأنَّه رسُولٌ صادقٌ وليس بكاذب.

وأشِرُونَ، أي: مستكْبرونَ بطِرُونَ، يُريدُونَ بتَكْذِيبه ورفْض اتّباعه، وتَحْرِيضِ جماهيرِهم على تكذيبه والتَّولّي عنه، المحافَظَةَ على زَعَاماتهم ورِياسَاتِهم في قومهم، وعلى مصالحهم الدنيويَّة الّتي يَخْشَوْنَ فواتَها إذا آمَنُوا به واتَّبعوه، وهذا ما أبانَه الله عزَّ وجل بقوله لرسوله صالح عليه السَّلاَمُ إبَّانَ الحَدث:

- ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾.

وخاطَبَهُمْ على لسان رسُوله صالح عليه السّلام بقوله لهم إبَّان الحَدَث:

- ﴿سَتَعْلَمُونَ غداً مِنَ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾.

كما جاء في القراءة الأخرى المتواترة.

وفي هذا البيان، إيماءٌ لحالَةِ الرَّسُولِ محمد ﷺ، وحالَةِ من كَذَّبَهُ مِنْ قومه وزعَمَ أنَّهُ طَالِبُ زَعَامَة، فكَأَنَّ الله عزَّ وجلَّ يخاطِبُهُمْ بمثل ما خاطب به ثموداً قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام.

وقد جِيءَ بهٰذه الجملة مقتطَعةً مُخْتزلَةً مِنْ فَصْلٍ مِنْ فُصُولِ قِصَّةِ صالحٍ عليه السّلام وقومه ثَمُود، ومُوَجَّهَةً كأَنَّ الحَدَث يَجْرِي الْلآن.

وهذا الأسْلُوبُ من مبتكرات القرآن المجيد.

وجاءَتْ كلمة ﴿غَدًا ﴾ فيها دالَّةً على الزَّمَنِ المسْتَقْبلِ حِينَ ينزل بهم عقابُ الله، ويَنْصُرُ الله رَسُولَه، وعلى يوم الدِّين، باعتبار أنّ الحياة الدنيا كُلَّها يَوْمٌ، وأنَّ الآخِرَةَ يَوْمٌ بَعْدَه، فَهُو الْغَدُ بالنسبة إلى يوم الحياة الدُّنيا.

- قول الله تعالى حكاية لقوله لصالح عليه السّلامُ مُقْتَطعاً من الحدث الذي جرى في زمانه:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾.

سيأتي إن شاء الله عَرْض قصّة الناقة التي أرسلها الله آية لَهُمْ بناءً على طلبهم بعد تحليل النصّ، وجاء تعريف الناقة بـ (الـ) العَهْديَّة، للإشارة إلى شروطهم التي وضعوها لها.

﴿فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾: أي: امتحاناً لهم واختباراً، فقد طلَبُوا معجزة النّاقة فأجرها الله عزَّ وجل لصالح عليه السلام آيةً تشهد له بأنهُ نبيُّ الله ورسوله حقّاً، وهي مع ذلك امتحان لقومه بشروط حياتها فيهم، إذْ تعنتوا بتحديدها، وتحديد أوْصَافِها، ومكان خروجها من صخرة معيّنة.

﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾: أي: فانتظرهم، واجعلهم تحت مراقبتك وملاحظتك لما سيكون منهم، كالحارس الذي يرعىٰ ما يحرسُه بمراقبته وحفظه،، يقال لغة رقبه: أي: انتظره ـ لاحظه ـ حَرَسَهُ ـ حفظه ـ.

وفي هذه الصيغة التي أضيفت إليها تاء الافتعال التوجيه للعناية التَّامَة بتكلُّفِ الانتظار مع المراقبة وشِدَّة الملاحظة، دون استعجال. **ارْتَقَب**: على وزن «افتعل» من فعل: «رَقَبَ» قبل الزيادة.

﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾: من فعل «اصْطَبَرَ» اصْتبر، بإضافة تاء افتعل لفعل «صبَر» ثم قلبت التاء طاءً لتتلاءم مع الصاد.

أي: واصْطَبِرْ بتكلُّفٍ ومُجَاهَدَةٍ لنفسك على أذاهُمْ وكُفْرِ مَنْ أصَرَّ على الكُفرِ مِنهم، ولا تَسْتَعْجِلْ لهم أيَ أمْرٍ، إنَّهُمْ سيضيقون ذَرْعاً بامتحانهم بالنَّاقة المعجزة ضمْن الشروط الّتي وُضِعَتْ لهم، وسيَعْمَلُونَ مَا يُسَبِّب إهلاكهم إهلاكاً عَامّاً شَامِلاً، على وفْقِ الْوَعِيد الّذِي أُعْلِمُوا به.

● قول الله تعالى حِكَايَةً لقوله أيضاً لصالحِ عليه السَّلام مُقْتَطعاً من الحدث الذي جرىٰ في زمانه:

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾﴾.

أبان الله عزّ وجل في قوله هذا لرسولهم الشرط القاسي في امتحانهم بمعجزة الناقة الّتي أخرجها لم من صخرة عيَّنُوها، ووفق الصفات التي حَدَّدُوها.

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي: وخَبِّرْهم بهذا الخبر البارز ذي الشأن الشّديد عليهم.

﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾: أي: مقْسُومٌ بَيْنَهم وبين النّاقة المعجزة على نِصْفَيْن، والمراد بالماء ماءُ الشُّرب الذي تشرب منه قبيلة ثمود كُلُّها في موطن إقامتهم.

يقال لغة: اقْتَسَمَ الرَّجلان الشيءَ بينهما اقتساماً، أي: أَخَذَ كُلٌّ مِنْهُما نَصِيبَهُ منه. **والقِسْمَة**: اسم من اقتسام الشيء، وتُطْلَقُ الْقِسْمَةُ عى النّصيب.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: **الشِّرْبُ**: بكسر الشين، نَوْبَة الاستقاء من الماء. والنَّصِيبُ الْمُعَيَّنُ للشارِب منه.

**مُحْتَضَرٌ**: أي: يحْضُرُهُ مَنْ لَهُ نَوْبتُه، أو يحضُرُهُ مُسْتَحِقُّهُ دون مَنْ لاَحَقَّ له فيه، وجاءت صيغة «مُحْتَضَر» من احتضر على وزن «افتعل» الدّال على التكلف والمبالغة، لتدلّ على أنّه يلزم ضبط مواعيد حضورهم وحضور الناقة لورود الماء بانتظامٍ دون اختلاف ولا عدوان.

وما لم يُصَرّحُ به في هذا النّصّ جاء بيانه في غيره من النّصوص الموزعة في القرآن المجيد.

● ففي سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩) قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصّ بيان شَرْطٍ آخر من شُروط استجابة الله لهم في آية النّاقة الّتي طَلَبُوها، وهو أن تأْكُلَ من أرْض الله على ما تشاء، وأن لا يَمَسَّهَا أحدٌ بِسُوءٍ، فإذا مَسُّوها بسُوءٍ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بعذابٍ أليم.

● وفي سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قال الله عزّ وجلّ ضِمْن عرض لقطات من قصّة صَالحٍ عليه السلام، وقومه ثمود:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾: أي: لها شِرْبُ يَوْم مَعْلُوم من مَاءِ ثَمُود، ولَكُمْ شِرْبِ يَوْم آخر معلوم، على سبيل المهايأة اليوميّة فأضاف هذا النص بَيانَ المراد بكون الماء قِسْمةً بَيْنهم، الّذي جاء في سورة (القمر). التي نتدبرها.

وأضاف هذا النّص بيان أنّ إجراء آية النّاقة قد كان استجابة لِطَلبهم آية.

قالوا: وكانت هذه الناقة تَرْعَىٰ حيْثُ شَاءَتْ من أَرْض ثَمُود، وَتَرِدُ الماء يَوْماً بَعْدَ يوم، وكانَتْ إذا ورَدَتِ الماءَ تَشْرَبُهُ كُلَّه في يومها، وكانُوا يأخُذُون حاجَتَهُمْ مِن الماء في يَوْمهم لِغَدِهم.

قيل: وكانوا يَشْرَبُونَ جميعاً من لَبَنِها كِفَايَتَهُمْ، واللَّهُ أعلم.

● قول الله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

على الرُّغْم مِنْ آيَةِ النَاقَةِ الّتي أجراها اللَّهُ عزّ وجل لرسوله صالح، على وَفْقِ طلبِ قومه، فإنّ معظَم قومه ثَمود لم يُؤْمِنُوا وأصرُّوا على كفْرِهم وعنادهم، لكنَّهم كانوا بالنسبة إلى ناقة الله على حذر، فالتزمُوا بِمُراعاة

شُرُوطِها حيناً من الدَّهر، ثُمَّ ضَاقَتْ صُدورهم، فعَزَمُوا على أن يتخلَّصُوا مِنْها، غير أنَّ كبراءهم خافوا أن يباشِرُوا عَقْرَها بأنفسهم، فنادَوْا صاحِبَهُمْ، وهو أشقاهم، كما جاء في سورة الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) بقول الله عزّ وجل فيها:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

قيل: واسْمُ أشْقَىٰ ثمود: «قُدَارُ بْنُ سالِف».

وقد سبَقَ تدبُّرُ هذا النّصَ ضمن تدبُّر سورة (الشمس).

وأَشْقَىٰ «ثمود» هو الذي جاء التعبير عنه في سورة (القمر) بعبارة ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ للإشارةِ إلىٰ أنّ كُفَّارَ ثمود كُلَّهُمْ أشْقِياء، إلاَّ أنّ الّذِي عَقَرَ الناقَةَ مِنْهُمْ قد كان أشْقَاهُمْ، وكانَ هٰذا أخْبَثَ تسْعةِ رَهْطٍ أشقياء من ثَمُود، وهو قائِدُهُم، وكان هؤلاء أكثر قومهم سَفَاهَةً، وجُرْأَةً على الشّرّ وارتكاب كبائر الإثم.

ونَسْتَفيد من عبارة ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ أنَّ الصُّحْبَةَ لاَ تَتَحقَّقُ إلاَّ بالمشَارَكةِ في جملَةٍ من الصّفات.

ودلَّ مَا جاء في سُورَةِ (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) على أنّ هذا الأشقىٰ ورهْطَهُ تقاسَمُوا بالله على أنْ يقْتُلُوا صالحاً وأَهْلَهُ بيَاتاً، بَعْدَ أن عَقَرَ قائِدُهُم الناقة، فقال الله عزّ وجلَّ فيها ضمن عرض لقطات من قصة صالح عليه السَّلامُ وَقَوْمه ثَمُود:

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

● ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾: يُقَالُ لغة: تَعاطَى الرَّجُلُ، أي: قامَ على أطراف أصابع رِجلَيْهِ، ورفَعَ يَدَيْهِ إلى الشيء ليأخُذَهُ.

ويقال: تَعاطَى الشَّيْءَ، أي: تناوله. وتعاطَى الأَمْرَ أي: رَكِبَه.

**فَعقَر**: أي: فَعقَرَ النَّاقة الّتي أخرجها الله عزّ وجلّ آيةً لصالحٍ عليه السَّلام. وجعَلها فِتْنَةً، أي: امتحاناً كاشفاً لكُفَّارِ قَوْمِه.

**العَقْر في اللُّغة**: يأتي بمعنى قَطْعِ إحْدَىٰ قوائم البعير ليَسْقُطَ على الأرض، ويتمكَّنَ العَاقِرُ مِنْ ذَبْحِه، ويقال: عَقَرَ الحيوانَ، إذا ذَبَحَهُ.

ويُمْكِن تَصْوِير ما قام به قُدار، أشقى ثمود، أخذاً من قول الله تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ أنّ هذا الأشقى أسْرَع عقب مناداة قَوْمِهِ له مُحَرضِين إيَّاه على التخلُّص من الناقة، فتناول سلاحَهُ بخفَّةٍ، وأقْبَلَ مُتَباسِلاً يَمْشِي على رؤوس أصابع رِجْلَيْهِ، مَادّاً يَدَيْهِ بسلاحه إلَىٰ الأعْلَىٰ، وأقبل بجُرْأَةٍ إلَىٰ النَاقَة، فَعقَرَها أوّلاً حتَّىٰ سقَطَتْ على الأرض، وعَقَرَها ثانياً فذَبَحها.

فما أبدع هذا التصوير الذي دلَّت عليه بإيجاز جميل عبارةُ ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾.

● قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾؟.

سبق تدبُّر هذه العبارة، إذْ جاء نظيرها في موجز إهلاك قوم نوح عليه السلام، وموجز إهلاك عادَ قوم هود عليه السلام.

وفي كلمة﴿ٱلنُّذُرُ ﴾ القراءات الّتي سبق بيانها في النظائر بشأن إثبات ياء المتكلم أو حَذْفِها.

● قول الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾.

في هذه الآية جواب السؤال الذي تضمّنَتْه الآية السابقة، وهي عبارة مؤكَّدةٌ بـ (إنَّ، والجملة الإسمية» جاء فيها استعمال ضمير المتكلم العظيم، للدِّلاَلةِ على عزّة الرُّبوبيّة، وسُلْطان الجبَّار القاهر فوق عباده، الذي هو على ما يشاءُ قدير.

﴿صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: أي: صَوْتاً عظيماً واحداً، كافِياً للإهلاك والإبادة.

﴿فَكَانُواْ﴾: أي: فَكَانَ كُفَّارُ ثَمُود.

﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾: **الْهَشِيمُ في اللُّغَةِ**: يأتي للدَّلاَلة على عدة معانٍ:

● يأتي بمعنى الْمَهْشُوم المتكَسِّرِ من النباتات والأشجار وغيرها من الأشياء.

● ويأتي بمعنى الشجرة البالية، الّتي يأخُذُها الحاطب كيْفَ يشاء.

● ويأتي بمعنى اليابس من كُلّ شيءٍ، ولا سيما الأشجارُ والنباتات.

**المحتظر**: هو الذي يُريد أن يصْنَعَ حَظِيرَةً لمَاشيته، فيجْمَعُ أعواداً، وأشجاراً يابِسَةً قَدِيمَةً، وأَشواكاً من الهشيم، ويَجْعَلُها أكواماً، ليُقِيمَ مِنْها السِّياجَ حَوْلَ حظيرَته.

شبّه الله عزّ وجلّ قتلَىٰ ثَمُود بَعْدَ إهلاكهم بأَكْوامٍ من الهشيم الّتي يجمعها المحتظر لإقامَةِ حظيرَته.

وهذه الصيحةُ الصَّوْتيَّةُ قَدْ كانت مصحوبةً بالرَّجْفَةِ الّتي تَزَلْزَلَتْ بها الْأَرْضُ من تحتهم، ومصْحُوبَةً بصَاعَقَةِ عذاب عظيمة:

دلَّ على الرَّجْفَة قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول): بشأنهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

ودَلَّ على الصاعقة قول الله عزّ وجل في سُورَةِ (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول): بشأنهم:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾: **الْهُون**: الذّل، والخزي، وهو مصدر «هَانَ، يَهُونُ، هُوناً، وهَوَاناً، ومَهَانَة» فهو من قبيل الوصف بالمصدر على التأويل بمشتقّ، أي: العذاب الْمُهِين، أو هو بدلٌ من العذاب، فيكون المعنى: فأخذتهم صاعَقَةُ العذاب، وهي أيضاً صاعِقَةُ الْهُون، أي: صاعقة الذّلّ والخزي.

وانتهىٰ الأمْرُ بطَحْنهم وتَسْويَةِ الأرض فَوْقهم، كما جاء في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) فقال تعالى فيها بشأنهم مع رسولهم وناقة الله:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾.

يقال لغة: دَمْدَمَ الْقَوْمَ، وَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ، أي: طَحَنَهُمْ مُهْلِكاً لهم.

ويقال: دَمْدَمَ علَيْهِ الْقَبْرَ أو الأرض، أي: أطْبَقَهُ عليه، وسَوَّىٰ الأرض فَوْقَهُ.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾:

هذه الآية الفاصلة بين فقرات المهلَكين الأولين المختارين للذّكْرِ في هذه السّورة، والتي تكرّرت أربع مرّات، وقد سبق تدبُّرُها في آخر فِقْرَةِ إهلاك قوم نوح عليه السلام على قَدْرِ أوعِيَتنا الفكريّة.

❁ ❁ ❁

## رابعاً: الفقرة الرابعة
## موجز إهلاك قوم النبيّ الرسول لوط عليه السّلام
## الآيات من (٣٣ ـ ٤٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

● في كلمة: ﴿النُّذُرِ﴾ في الموضِعَيْنِ القراءاتُ الّتي سبق بيانها في النظائر بشأن إثبات ياء المتكلّم أو حَذْفها.

هذا النّصّ هو ثاني نَصّ نزل بشأن قوم لوطٍ عليه السّلام، بحسب ترتيب النزول، فقد سبقه ما جاء في سورة (ق/ ٠٥ مصحف/ ٣٤ نزول).

فقد ذُكِرُوا فيها بعنوان «إخوان لوط» ضِمْن مجموعةٍ ممَّن كذَّب الرُّسل فحَقَّ علَيْهم وعيد الله.

### لَمْحةٌ عن لُوطٍ عليه السلام وقوْمِه:

لوطٌ عليه السّلام هو ابْنُ أخي إبراهيم عليه السلام، فلُوطٌ هو ابْنُ هارَان، وهاران أخو إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد كان لُوطٌ قبل نُبُوَّته من المؤمنين، آمن بعمّه إبراهيم، وهاجر مَعَه حتَّىٰ اسْتقرّا في أرْضِ فلسطين من بلاد الشّام.

ثُمَّ أَمَرَ إبراهيم عليه السلام ابْنَ أخيه لُوطاً، أن ينْزَحَ بما يَمْلِكُ من أموال عن مَواطن إقامَتِه مع عَمِّه، ويَذْهَبَ إلى أَرْضِ الْغَوْر، المعروف بِغَوْرِ

زُغَر، فارْتَحَلَ وأقام بمَدِينةِ سُدُوم من ذَلِكَ الْغَوْر، وهي مدينة تَتْبَعُها عِدَّة قُرى، هي: «صَبْغَة ـ عَمْرَة ـ أَذما ـ صَبُويم ـ بالِع».

وسَدُوم وقراها كانت في مكان البحْرِ الميّتِ المعروف الآنَ في الأرْدُنّ.

فنزل لوط عليه السّلام في أرض سَدُوم، وليس بينه وبين أهلها نَسَبٌ.

واصطفاه الله بالنبوّة، وأرسله رَسُولاً إلى أهل مدينة سَدُوم وما حولها من قُراها. وكان أهل هذه الأرض من أفجر الناس، وأكْثَرِهم كُفْراً وظُلماً، كانُوا قَوْمَ سُوءٍ فاسِقِين، يَعْمَلُون الخبائث، ويَأْتُونَ الرِّجال شَهْوَةً مِنْ دون النساء، ويَقْطعُون السَّبِيلَ، ويَأْتُون في نَادِيهم المنكر، ولم يَكُنْ فيهم رَجُلٌ رَشيد.

فدعاهم لوطٌ عليه السلام إلى الإيمان والإسلام، ونَهَاهُمْ عن سَيِّئاتهم وفواحِشهم ومُنْكراتهم، ونَهَاهم عن ظُلْم عباد الله وقَطْعِ سبيل المسافِرين، فَكَذَّبُوه، وكَذَّبُوا بما جاءهم به عن ربّهم.

فأنْذَرهم عقابَ الله وعذابه ومعجّل نِقْمَتِه، فكذّبوا بالنُّذُر، أي بالإنْذَارات الّتي أنْذَرَهُمْ بها.

ولَمّا أكْثَر علَيْهِمْ مواعظه، ونُصْحَهُ لهم، قال بعضُهم لبَعْضٍ أخْرِجوا لُوطاً ومَنْ آمَنَ به من أَرْضِكُمْ، إنَّهُمْ أُنَاسٌ يتَطَهَّرُون.

ثُمَّ قال له كُبَراءُ قَوْمه: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لتكُونَنَّ من المخْرَجِين، ثم قالوا لعامّتِهِمْ: أَخْرِجوا آل لُوطٍ من قَرْيَتِكُمْ، إنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرون.

ووضع كُبَراءُ قَوْمِهِ عليه عزْلاً اجتماعِيّاً، فَنَهَوْه عن أَنْ يَلْتقي بأحَدٍ من الْعَالِمِين، من قومهم ومن خَارِجِ قومهم.

ولمّا صار اختيارُهم بإراداتهم سَبِيلَ الْهُدَىٰ أمْراً ميؤوساً منه، فلا أحد مِنْهُم لدَيْهِ استعداد لأنْ يستجيب لدعوته، وعَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ فيهم، قضَىٰ جلَّتْ حكمَتُه وعَظُمَ سلطانُه أن يُهْلِكَهُمْ إهلاكاً جماعيّاً عامّاً.

فبعَثَ اللَّهُ من رُسُلِه من الملائكة من يُعَذِّبُهم ويُهْلِكُهُمْ ويَقْلِبُ بلادهم عَالِيَها سافِلَها. وأمَرَهُمْ بأن يَمُرُّوا بإبراهيم عليه السلام مبشرين إيَّاه بإسْحَاق من زوجته العاقر سَارة، ومُبَيّنينَ له أن الله سيُصْلحها لِلْحَمْلِ والولادة، ومُبَلّغين إياه بما كلَّفَهُمُ اللَّهُ إياه من إهلاك قوم لوط، باعتباره شيخ النبوّة والرِّسالة في زمانه، وباعتبار لُوط موجهاً بقيادتِه إلى أهل سدوم. وحاول إبراهيم عليه السَّلام أن يسأل رَبَّهُ إمْهَالَهُمْ، فقالوا له: يا إبراهيم أعْرِض عن هذا إنّه قد جاء أَمْرُ ربّك وإنهم آتيهِمْ عذاب غيرُ مَرْدُود.

وكان الملائكة قد جاءُوا إبراهيم بصورة ضُيوف، ولمَّا لَمْ يَمُدُّوا أيْدِيَهُمْ إلى ما أعَدَّ لهم من طعام، أوْجَسَ منهم خِيفَة، عندئذٍ كَشَفُوا له عن حقيقة أمرهم، وبشَّرُوه وبَلَّغُوا.

ثم ذهبوا إلى لوطٍ عليه السلام في منزله في سَدُوم، فَدَخَلُوا عليه، وكانوا على صُوَرِ شبابٍ مُرْدٍ حِسان، فَرَحَّبَ لوط عليه السلام بهم، وعَلِمَ كُبراء قَوْمِهِ بأنَّ لُوطاً استضاف شباباً مُرْداً حِسَاناً، فأقْبَلُوا إليه وقالوا له: ألم نَنْهَكَ عن العالمين.

وأرادوا الدُّخول عَنْوَةً إلى داره لاغتصابِ ضُيُوفه، وممارسة الفاحشة بهم، فحاول منعهم فلم يستجيبوا له.

عندئذ قال له ضيوفه: إنّا رُسُلُ رَبّكَ أَرْسَلَنا لإهلاك قَوْمِكَ ورمَوْا في وجوه المحتشدين على باب داره مَا أحْرَقَ عيونهم، وطَمَسَ أبصارَهُم، فانْكَفَؤُوا عن دَارِهِ يَذُوقُون عَذابَ حَرْق العيون والوجوه.

وقال الملائكة لِلُوطِ عليه السَّلَام إنّ إهلاك القوم العامّ سيكون عند

الصُبْح، وقَدْ قضىٰ الله بأن ينجيكَ وَأَهْلَكَ ممَّا سَيُنْزِلِهُ بقومك، إلاَّ امْرَأتَك، فإنَّها سَتَكُونُ من الهالكين مع قومها، لأنَّها كانَتْ مُشَايعةً لهم على جرائمهم.

ولمَّا دَنَا الوقْتُ قالوا له: اخْرُجْ أنْتَ وَأَهْلُكَ قَبْلَ الصُبْح، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب، وابْتَعِدْ عن كُلّ حُدُودِ أَرْضِهِمْ، فإنّ العذاب نازلٌ عِنْدَ الصُبْحْ، فخَرَج بأهله، وأنْزَل اللَّهُ وسائل الإهلاكِ العامّ بقومه، فَأرسَلَ عليهم حاصباً من السَّمَاء، وأمْطَرَهم بحجارة مُحْرِقة، مُسوَّمةٍ عند الله، وأخَذَتْهُمْ الصيحة مُشْرِقين، وأذاقهم الله عذاباً أليماً في الدنيا، دون العذاب الأكبر، وقلبَ أَرْضهم عالِيَها سافلها، ودَ فَنهُمْ في باطِنِها، فَهُمْ وبلادُهم في قَاعِ الْبَحْرِ الميّت.

وأنجىٰ اللَّهُ لوطاً وَأَهْلَهُ إلاَّ أمْرأتَهُ كانت مع الهالكين.

## التدبّر التحليليّ للنصّ:

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَوْمُ﴾: لفظ يُطْلَقُ على جماعة من الناس تجمعهم جامِعةٌ يَقُومُون لها.

﴿بِٱلنُّذُرِ﴾: هُنَا جَمْعُ «النذير» الذي هو مصْدَرُ فعل «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إنْذاراً» أي: كذَّبوا بالإنْذارات التي أنذرهم بها رَسُولُهُمْ لوطٌ عليه السّلام. فهي إنذاراتٌ متعدّدات أنْذَرهم إيّاها، عاجلةٌ في الحياة الدُّنْيا، وآجِلَةٌ إلى يوم الدِّين.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾: جاء في هذه العِبَارَة اسْتِعْمال ضمير المتكلّم العظيم، إشعاراً بعظمة رُبوبيَّةِ الرَّبّ، وسُلْطانِ جبروته وقَهْرِه، إذِ الموضوع يتعلَّقُ بإهلاك المجرمين، وهم قوم لوط عليه السلام.

**الإرْسال**: هو التوجيه لأداء مهمَّةٍ ما بتُؤَدَةٍ وَتَرَفُّقٍ وأَنَاةٍ وتَعَقُّلٍ وحِكْمةٍ.

﴿حَاصِبًا﴾: أي: ريحاً شَدِيدةً بَلَغَتْ شِدَّتُهَا أَنْ تَحْمل الحصباء من الأرض، وهي الحجارة الصغيرة. وتَرْفَعُها في الْجَوِّ، ثُمَّ تَهْوِي بها حاصِبَةً، أي: رامِيَةً ما تَقَعُ علَيْه من أحْيَاءَ وأشياء، فَهِيَ من صُوَر العذاب الَّتِي يُرْسِلُها الله على مَنْ يُريد تعذيبَهُم وإهْلاَكَهُم. وقد وصف الله هذا الحاصب بأنَّهُ عَذَاب، أي: وسِيلَةُ عَذَاب، كما جاء في الآية (٣٩) من هذا النّصّ.

وجاء في نصوصٍ أُخْرى وصْفُ هذا الحاصِب بأنَّهُ مَطَرٌ من حجارة من سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (أي: من طين مَتَحجِّر مُجّتمع مُتَّسِق) وقد يكون للنّار أثرٌ في تحجُّرِه. وجاء وصف هذه الحجارة بأنَّهَا مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ الله، أي: مُعَلَّمه بعلامات خاصَّةٍ تميّزُها عمَّا سِوَاها.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾: أي: إلاّ لوطاً عليه السلام وآله، فقد نجّاهم الله عزّ وجل بوقت السَّحَر، إذْ صَبَّحَ اللَّهُ القوم بالعذاب فأنزل عليهم وسائله بعْدَ الصُّبْحِ.

**كلمتا أهل وآل في دلالات النصوص القرآنية:**

ولم تدخل زوجَةُ لوط عليه السَّلام في هذا الاستثناء، وإنْ كانَتْ من أهله، لأنَّها في المفهوم الدّينيّ ليْسَتْ من آله، إذْ كلمة (آل) لا تُسْتَعْمَلُ غَالباً إلاَّ في أشراف القوم، ولمَّا كانت امرأة لوطٍ كافِرَةً، لم تسْتَحِقَّ أنْ تكُونَ مُكْتَسِبَةً شَرَفَ لُوطٍ والتابعين له، فَلَمْ يُنْظَرْ في هٰذا النّصّ إلى اسْتِثْنائِهَا من آله الناجين، إذْ هي في الحقيقة لا يَصِحُّ أن تكون من آله.

لَكِنْ جاء اسْتثناؤُها من عموم أهله، في نصوص (الأعراف) و(الشعراء) و (النمل) و (هود) و (الصَّافَات) و (العنكبوت) إذ ذُكِرَ في هٰذِهِ النّصُوصِ لفظ «أَهْلِ» لا لفظ «آل». وقد دلّنَا هٰذا الاستعمال القرآنِيُّ على أنَّ الكَفَرَةَ من أهل النبيّ لاَ ينبغي أن يَدْخُلُوا في عُمُومِ آلِهِ بحَسَبِ المفهوم

الدينيّ، وإنْ كَانُوا يَدْخُلُون في عُمُومِ أَهْلِه، باعتبار النسب أو المصاهرة دون ملاحظة الشَّرف والمشاركة في الفضيلة الدّينيَّة.

ولمَّا قَطَعَ ابْنُ نُوحٍ عليه السَّلام، الذي دعاه أبوه للرُّكوب في السَّفينة صِلَتَه النسبيّة بأبيه بكفره، إذْ عَلِمَ الابن أنّ الرُّكوبَ في السفينة شَرْطُهُ الإيمان، قال: سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي من الماء، فهو بكُفْرِه قدْ قَطع صِلَتَهُ النسبيَّة، فكان من المغرقين، ولم يكُنْ نوحٌ عليه السَّلامُ يَعْلَمُ أنَّ ابْنَهُ هذا كان من الكافِرِين، وكان اللَّهُ عزّ وجَلَّ قَدْ وَعَدَهُ بِأَنْ يُنْجِيَهُ وَأَهْلَه، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) فقال اللَّهُ له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ أي: فَهُو بكُفْرِه وسُلُوكِه عَمَلٌ غير صالح، فهو ليس من أهْلِكَ الذين وَعَدْتُك بأنْ أنجيهَمْ معك.

أمّا ما جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزل) في الآيتين (٥٩ ـ ٦٠) من استثناء امرأة لوط من عموم آله فهو جارٍ على مفهوم الناس الذين لا ينظرون إلى المفهوم الدينيّ الأحقّ بالاعتبار، كما جاء استعمال الآل بالنسبة إلى أهل فرعون، مجاراة لمفاهيم الناس.

وبهذه النَّظْرة الشّاملة أدركنا التكامل في الأداء البيانيّ القرآنيّ بشأن كلمة الآل، استعمالاً وتوجيهاً إلى ما هو الأحقُّ بالاعتبار.

وذَكر الله عزّ وجلّ في النصّ الذي نتدبَّره من سورة (القمر) آل لوطٍ، ولم يذْكُرْ لوطاً نفسه، لأنَّ لُوطاً عليه السلام يُفْهَمُ باللُّزوم العقليّ أنّ الله قد أنْجاه، إذْ هو الأحَقُّ والأَوْلَىٰ بالنجاة، فَدَلَّ هذا الصنيع القرآنيُّ على أنَّ من الأدلة في أساليب الكلام مَا يُسْتَدلُّ عليه بأنّه هو الأولى بالأمْرِ ممَّن ذُكر، أوْ ممّا ذُكِرَ بصريح العبارة.

● قول اللَّهِ تعالى: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

أبان الله عزّ وجلّ في هذه الآيَةِ أنَّ نجاة آل لُوطٍ من العذاب الذي

قَضَاهُ على كُفّار قَوْمِهِ قَدْ كانَ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِهِ أَنْعَمَ بها عليهم، وأَنَّها قَدْ كانت جزاءً مُعَجَّلاً أثابَهُمُ الله به في الدُّنيا، استنباطاً من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ وهذه الجملة تَدُلُّ على أنّ من سُنَنِ اللَّهِ عزّ وجلّ أنْ يَجْزِيَ في الحياة الدنيا جزاءً مُعَجَّلاً كُلَّ مَنْ شَكَرَ، بما تقضي به حِكْمَتُهُ مِنْ جزاءٍ يَسُرُّ الشَّاكِرِين.

والمعنى: نجيّنا آل لُوطٍ نَجاةَ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا، وهذه النعمة جاريَةٌ وفْقَ سُنَّتِنا لعبادنا الشَّاكِرين.

ولا يخفى الغَرَضْ من استعمال ضمير المتكلم العظيم هنا الدّال على جلال الربوبيَّة.

**الشُكْرُ**: مُقَابَلةُ إنْعَامِ المنْعِمِ بما يُرْضِيهِ منْ فعْلٍ أو تركٍ، أو أي شيء، وقد يشمل القول الذي يُرْضي المنعم، وتختص عبارات تمجيد المنعم بعنوان «الحمد» أو «الثناء» أو «المدح».

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ جيء بها لتأكيد مَضْمُون الجملة بعدها وتحقيقه.

﴿أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾: أي: أخْبَر لوطٌ قومَه بأنّنا سَنَبْطِشُ بِهِمْ بطْشَةَ انتقامٍ كُبْرَىٰ، إذَا لَمْ يُقْلِعُوا عمَّا هُمْ فِيه من كُفْرٍ وبَغْيٍ وفُحْشٍ كانوا فيه من المسْرِفين السَّابقين فيه كُلَّ الناس، بمَجَانَةٍ ومُجَاهرةٍ ووقاحة بالغة الغاية.

**البَطْشَة**: هي المرّة من البطْش، والبَطْشُ الأخْذُ بِقُوَّةٍ وعُنْفٍ وشِدَّةٍ عنْدَ الصَّوْلَة. السَّطْوُ في سُرْعَةٍ.

يُقَال لُغَةً: بَطَشَ بالشَّيْء، إذا أمْسَكَهُ بِقُوَّةٍ، ويقالُ: بَطَشَ عليه، إذا سَطَا في سُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ.

ومعلومٌ أنَّ بَطْشَةَ اللَّهِ العزيز الجبّار لاَ تُبْقي وَلاَ تَذَر.

﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾: أي: فكَذَّبوا بالنُّذر، أي: بالإنْذارات الّتي كرَّرَها عليهم لوط عَلَيْه السّلام. فَسَّرَ الفَرَّاءُ التماريَ بالتكذيب في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ وهذا المعنى هو الملائم هنا فيما أرى، لأنّ الله عزّ وجلّ قال بشأنهم في أوّل النصّ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣﴾.

**التَّمارِي**: يأتي في اللُّغَةِ بمعنى المجادلة، ويأتي بمعنى التشكُّكِ.

والمجادَلَة تُشعِرُ بالتكذيب، فهم قد كذَّبوا بالنُّذرِ وجادَلُوا لوطاً عليه السَّلام بشأنها.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧﴾.

﴿رَٰوَدُوهُ﴾: تأتي المراودة في اللّغة بمعنى المخادَعَةِ والمراوغة، وتأتي بمعنى طَلَب الْفُجور والفاحِشَة، يقال لغة: رَاوَدَ المرأة. أي: طَلَبَ أنْ يَفْجَرَ بها.

فكُبَرَاءُ قوْمِ لوط طلَبُوا منْهُ أَنْ يفْجُروا بضيوفه الشباب الحسان.

فمعنى ﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾: طَلَبُوا منْهُ أن يُخَلِّي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ضَيُوفه، وَيُمَكِّنَهُمْ مِنْ أَنْ يَفْجُرُوا بهم، وأنْ يبتَعِدَ عن طريقهم، لِيَصِلُوا إلى ما يبتغون في ضيفه.

كلمة «ضَيْف» يستوى فيها المفرد، والمثنىٰ، والجمع، والمذكر والمؤنث، ويُحْمَلُ لفظُها في كُلِّ استعمالٍ على ما يُنَاسبه.

﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾: أي: فأعْمَيْناهم. أصل الطَّمْس، المحْوُ والإزالة. يقال لغة: طَمَسَتِ الرّيحُ الأثَرَ، أي: أزالته ومَحَتْه.

وطَمَسَ الْغَيْمُ الكواكب، أي: حجبَ ضَوْءَها. ويقال: طَمَسَ عيْنَهُ وَطَمَسَ على عينه، أي: أَعْمَاها.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾: هذا ما قالَهُ أَمْرُ الله التكوينيّ، الذي دلّهُمْ عليه واقِعُ حالهم عنْدَ طَمْسِ أعْيُنِهم، وَإذاقَتِهم آلامَ الطَّمْسِ بموادّ حارقة، إذْ شَعَرُوا بصِحّةِ النُّذُر الّتي أنذرهم بها رسُولُهُمْ لوطٌ عليه السّلام، وقال كلُّ واحد منهم في نفسه: صدَق لوط، وصَدَقتِ النُّذرُ الّتي بلَّغها عن ربّه، وها نَحْنُ نَذُوق عذابَ الله وعاقِبَةَ نُذُرِه.

لمّا جاءت الملائكة المأمُورُون بإهلاكِ قوم لوط، وإنزال العذاب بهم، وقَلْبِ أرضهم عاليها سافلها، جاءوا إلى لوطٍ عليه السّلام بِصُوَر شباب مُرْدٍحِسَان، فلَمْ يَعْرِفْهُم لوطٌ أنّهم رُسُل من الملائكة، فخاف عليهم من قومه أن يبْتغُوا فيهم الفاحشَةَ، فَسِيءَ بهم، وضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً، وقَال هذا يَوْمٌ عَصِيب.

وعلم قومُهُ بضُيُوفه، فجاء كُبُراؤهم إليه يُهْرَعُون، يبتَغُون الفاحِشَةَ الشَّاذّة عن سَوَاء الفِطْرة، فَحَاوَلَ لُوطٌ عليه السّلام دفْع قَوْمه عن ضيوفه بما يَمْلكُ من وسائل، وصار المحاصرون لداره من قومه يُنَازِعُونَهُ ويدافِعُونه، ليدخُلُوا إلى داره عَنْوةً، عندئذٍ كَشَفَ الرُّسُل من الملائكةِ للوطِ حقيقتهم، فقالوا له كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢):

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾.

لقد كان الوقت ليْلاً، وكانَ قَوْمُهُ الطُّغَاةُ الفاسِقُون يُريدون اقتحام بابه، ليصلوا إلى ضُيُوفِهِ داخِلَ داره، فنالَهُمْ من الله عذابُ طَمْسِ العيون.

● قول الله تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: عبارة تأكيد وتحقيق للخبر الذي تَضمَّنَتْه الجملة.

﴿صَبَّحَهُم﴾: جاءَهُمْ في وقْت الصّباح، وهو أوّل النهار عند الصُّبْح.

﴿بُكْرَةً﴾: الْبُكْرَةُ هِيَ أَوَّلُ النَّهَار إلى طُلوع الشمس.

﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾: أي: عذابٌ ثابتٌ مُتَمكِّنٌ تمكُّناً تامّاً من الّذِين نُزِّلَ بهم، فهُو غير متقطِّع، ولاَ تخفُّ شِدَّتُه، ولا يتذبذب بين القوَّة والضعف.

يقال لغة: استقرّ بالمكان، أي: تمكّنَ فيه وسَكن وثبت.

دلّت هذه العبارة على أنّ العذابَ الذي نزل بهم بدَأَ عنْدَ طلوع الصبح، واسْتَمرَّ مُسْتَقِرّاً يَذُقونه وهم أحياء حتّى الإشراق، لأنَّ الصيحة التي أهلكتهم قَدْ أخذَتْهُمْ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْس، كمَا قَال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الحجر/ ١٥/ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأنهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

● ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾: سبق تدبُّرُ هٰذه العبارة، والتعبير بها هُنَا يُؤَكِّد أَنّهم ذَاقُوا الْعَذابَ وهم أحياء، كَما ذاق العذاب الّذِين طُمِسَتْ عُيُونُهُمْ، ثم جاءتهم الصيحة الَّتِي أَهْلَكَتْهُمْ، ودَمَّرَتْ ديارهم، وجاءت الرجفْةُ، والصَّاعقة، والتفجيرات التي جَعَلَتْ بلادهم عاليَها سَافِلَها.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هذه الآية الفاصلة بين فقرات المهلَكين الأوّلين، المختارين للذِّكر في هذه السّورة، والتي تكرَّرَتْ فيها أربع مرّات، وقد سَبَقَ تدبُّرها بتوسُّع في آخر فقرة إهلاك قوم نوح عليه السلام، على مقادير أوعيتنا الفكريَّة.

❁ ❁ ❁

## خامساً: الفقرة الخامسة
## موجز مختَزَل بشأن إهلاك فرعون وآله

قال الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

**تمهيد:**

قصّة فرعون وآله مع موسى وهارون عليهما السّلام قصّة طويلة جدّاً، وقد جاءت موزَّعَةً في القرآن بنصوص متعددة من سُوَره، والْغَرضُ المناسبُ لحال كفّار قريشٍ إبّان تنزيل هذه السّورة التي نَتَدبَّرُها، هو عَرْضُ لقْطَةِ تَكْذِيبِ فرعون وآله بالنُّذُر المتعدِّدة الّتي أنذرهم بها موسَىٰ وهارون عليهما السلام، لمعالجة كُفَّار قريشٍ في قضيَّةِ تكْذِيبهم بالنُّذُر التي أنْذَرَهُمْ بها رسول الله ﷺ.

وهذا يَدُلُّنا على أنَّ من أَسَاليبِ العلاج الدعوي للكافرين تجزئةَ عناصِرِ العلاج، بتجزئة القضايا الكُبْرىٰ الّتي يعالجها الداعي، إلى قضايا صغرى، ومعالجة كلّ واحدة منها معالجةً خاصَّةً بها، ولو كانت من الأُصُول الاعتقادِيَّةِ الجذُور، مع لزوم التقيُّد بالتَّدرُّج، والأخذ بالأَوْلَويّات، بالبدء بما هو الأولىٰ في ترتيب البناء الفكري، أو بما هو الأولى بأن يُبْدأَ به من وسائل العلاج، وهكذا بالتصاعد المتدرّجَ، حتّىٰ الفروع ففروع الفروع تَسَلْسُلاً مع الشجرة الفكريّة، وتسلسلاً ارتقائياً مع الوسائل العلاجيّة.

إنّ تَصْديق المدعُوِّينَ بالنُّذرِ الرَّبَّانيَّةِ الَّتي يُبَلِّغُها الرَّسُول عن ربّه، من الأصول الاعتقادية، وهو جُزئيّة من جزئيات وجوب التصديق بكلّ ما يُبَلِّغ عن رَبّه، والتكْذِيبُ بها يوقِعُ في الكُفرِ لا محالة، والكُفْرُ جزاؤه الخلود في النار يوم الدين.

لكِنَّ مُعَالجة هذه الجزئيَّة تأتي بَعْدَ معالجة الإيمان بالله وبصفاته،

وبوحدانيّته في ربُوبيّته وإلهيّته، وبَعْدَ معالَجةِ صِحّة رسالة الرَّسُول، وبَعْدَ معالجة الإيمان بيَوْم الدّين.

فالإنذار بالعقاب المُعَجّل في الدنيا، من الجزئيات العقَدِيَّة المتأخّرَةِ في تَدَرُّج البناء الفكري، عن الْقَضَايا التي سبق ذكرها.

ونُلاحظُ أن السُّوَر السَّابقة لسُورَةِ (القمر) في ترتيب النزول، قد نزل فيها التَّلْويح والتَّصرِيح بالعقوبات المعَجَّلاِت إنْذاراً للكافرين، ثم كان من المناسب في العلاج إبّانَ نُزُول سورة (القمر) أنْ تكون هذه السُّورة مُشْتَمِلَةً على معالجةِ جُزْئِيَّةِ تَكْذِيب كُبَرَاءِ كُفّارِ قريشٍ بالنُّذُر الّتي أَنْذَرَهُمْ بها رسُول الله محمّد ﷺ.

وأفْضَلُ علاجٍ يُؤَثِّر فيمَنْ لَدَيْه استعدادٌ إرادِيٌّ للتأثُّرِ هو عَرْضُ أمْثِلَةٍ مِنَ الواقع، تَشْتَمِلُ علىٰ تكْذِيب الأُمَم بِنُذُرِ رُسُلِهِمْ، فكانَتْ عَواقِبُ تكذِيبهم بها أنْ تَمَّ تَحقُّقُ مَا أَخْبَرَ به الرُّسُلَ من إنذاراتٍ بِعُقُوباتٍ مُعَجَّلاَتٍ في الدنيا، كان بها تَعْذِيبُ الأقوام وإهلاكُهُمْ.

فالعناية في سورة (القمر) قد كانت مُوجَّهةً لِعَرْضِ فِقَراتٍ من إهلاك بعْضِ المكذبين الأولين بالنُّذُر، مع ما جاء فيها من ذكر مرافقاتٍ تدعو الحكمة البيانيّة والعِلاجيَّةُ أن تُذْكَرَ فيها.

- قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: عبارة فيها تأكيدٌ وتحقيق لمضمون الجملة بعدها.

﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾: «**النُّذُرُ**»: فَاعِلُ «**جاء**» و«آلَ فِرْعَوْن» مَفْعُول به مُقَدَّمٌ على الفاعل، والْغرَضُ البلاغي من هذا التقديم توجيهُ اهْتِمَام المتلَقّي للمتحَدَّثِ عَنهُمْ ضِمْنَ المكذّبين الأوّلينَ بالنُّذر، فالتكذيب بالنُّذُر عنوان عُرِفَ مُنْذُ بيان تكْذِيب قَوْمِ نوحٍ بالنُّذر، فنَفسُ المتلقّين تتطَلَّعُ مع كُلّ فِقَرَةٍ لِلْمُكَذِّبين، فهم الأولىٰ بالتقديم في العبارات المسوقات لبيان إهلاكهم.

مع ما في تأخيرِ كلمة ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ من مُراعاة نَسَقِ رؤوس الآيات وتَناظُرِها.

إنّ فِرْعَوْنَ هو رأس آله، فَهُو أوّلُ من جاءَتْهُ النُّذُر، وقَدْ دَلَّ الفكْرُ على دُخُولِه فيمن جاءَهُمُ النُّذر، إذْ هُوَ أَوْلاَهُمْ بالإنْذارِ، وقَدْ عَلَّمَنا اللَّهُ عزّ وجلّ بهذا الأسْلُوب من التعبير، أنَّ من البيان الرفيع حَذْفَ مَا يُفْهَمُ أنَّه مَشْمُولٌ بِحُكْم القضيَّةِ من باب أولى.

﴿ٱلنُّذُرُ﴾: هي الإنذارات بعقوبات اللّهِ المعجَّلات في الدنيا، والمؤجَّلات إلى يوم الدّين.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

ذكْرُ آلِ فِرْعُون يسْتَتْبع جنودَهُمْ، وكلَّ مَنْ يتأثَّرُ بهم في عقائدهم ومبادئهم واتّجاهاتهم وقراراتهم، ويَقَعُ في مُقدّمَتِهم فرعون نفسه، لأنّ ما يَقُولُهُ فِرعَوْن قَدْ كان يقُولُه كُلُّ آلِهِ، وكُلُّ شعبه، باستثناء القِلَّةِ النادرة، كزَوجَةِ فِرْعَوْن، ومُؤمِنِ آل فِرْعَون

فكُلُّ شَعْبِ مصْر الخاضعين بالْوَلاَء التامّ لِفرعَوْنَ وآلِهِ، قَدْ كانوا يقولُون مثل مقالة فرْعَون وَآلِهِ بالنِّسْبَةِ إلى الآيات الّتي أجْراها اللَّهُ لموسىٰ وهارون عليهما السلام، ومجموعُها تِسْعُ آياتِ كُبرَىٰ، إلاَّ أَنَّ الذِينَ أَغْرَقَهُمُ الله في البحر هُمْ فِرْعَوْنُ وآلُهُ وجُنُودُهُمْ الّذين جنَّدُوهم لِمُتَابعَةِ بَنِي إِسْرَائيل، حين أَمَر الله موسَىٰ عليه السَّلام بأنْ يُخرِجَهُمْ من مِصْرَ، ويَتَوَجَّه بهم شَطْر سِيناء، في طريقهم إلى دخول الأرض المقدّسة في فلسطين، إنْ أطاعوا التوجيه.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾: أي: كَذَّبَ فِرْعُونُ وآلُهُ وَمَنْ يتْبَعُهم من شعب مصر، بالآيَات العظمىٰ التي أجراها اللَّهُ في مِصْرَ بعَظَمَةِ ربوبيّتِهِ التي يناسِبُها ضَمِيرُ المتكلّم العظيم، على يَدِ مُوسىٰ عليه السَّلام وَوَزِيره أخيه هارون النبيّ الرسُول عليه السلام:

وتكذيبُ المكذّبين هؤلاء بكلّ آياتِ الرَّبّ الجليل العظيم، الّتي أجراها اللّهُ تأييداً لصدق موسى وهارون، بأنّهما نبيّان ورسُولان لله الرّبّ الخالق جلّ جلاله، ليْسَ إنْكاراً لِوُجُودِ أَعْيَانِها، فقد كانَتْ أعيانُها حقائقَ مَشْهُودَةً للجميع، إنّما كَذَّبُوا بكَوْنِها آياتٍ رَبَّانِيةً يُؤَيّد الله بها رَسُولَيْه مُوسَىٰ وَهارون.

وهٰذه الآياتُ قَدْ كانَتْ أيضاً بمثابَةِ إنْذاراتٍ بِعَذَابٍ شاملٍ مُهْلِكٍ، لأنّها كانت مُخِيفَاتٍ، ومُشْتَمِلاتٍ على إنْذاراتٍ غَيْرِ مُهْلِكَاتٍ إهْلاَكاً عامّاً شاملاً.

والآيات الّتي كذّبوا بها هي بعْضُ الآيات التِّسْع الّتي أعطاها اللّهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السّلام، وقد جاء تفصيلُها مُوَزَّعاً في سُوَرٍ متعدّدةٍ من القرآنِ المجيد.

الآياتُ الّتي آتاها الله عزّ وجل لموسى عليه السّلام:

**الآية الأولى**: انقلاَبُ عَصَاهُ حيَّةً مخيفَةً تَسْعىٰ، ثُمَّ ابْتلاعُهَا حبَال سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ وَعِصِيِّهُمْ.

وتَكْذِيبهم بهذه الآيَة، قَدْ كان بإنْكارِ أَنْ تكون آيَةً رَبَّانيَّةً، وبادّعَاء أَنَّها عَمَلٌ من أعمال السِّحر، الذي اشتهرت به مصر في أيّام الفراعِنَة.

**الآيَة الثانية**: أن يُدْخِلَ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ يَدَهُ في جيبه، فَيُخْرِجَها بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، تَتلأْلَؤُ نوراً.

وتكذيبهم بهذه الآية قد كان بادّعاءِ أنّها عَمَلٌ مِنْ أعمال السّحر أيضاً.

**الآية الثالثة**: أيَة «الرِّجْزِ» وهو العذاب، فقد ابتلاهم اللّهُ عزّ وجلّ بأنواعِ عامَةٍ من الرّجْزِ، وكان كلُّ واحد مِنْها مَسْبُوقاً بإنْذَارٍ من موسىٰ عليه السّلام، وهي ما يلي

(١) رِجْزُ سَنَواتِ الجدْبِ والقحط، وكان ذلك بسبب قلّة مياه النيل، وانحباس أمطار السَّمَاء عن أرض مصر.

(٢) رِجْزُ نَقْصِ الثمرات، وكان ذلك بسبب ما يُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْها من جوائح وآفات.

(٣) رِجْزُ الطُّوفَان، وكان ذلك بسبب ارتفاع فيضان النيل ارتفاعاً أتْلَفَ الزُّرُوع وهدَمَ المساكن، أو بسبب أمطارٍ غزيرَةٍ نَشأَ ذلك عنها.

(٤) رِجْز الجراد، وكان ذلك بإرْسال جيوش الجراد الجرَّارَة المتكاثرة، الّتي لا تمرُّ على زرْع أو ثمر أو شَجَرٍ أو أيِّ رزقٍ إلاّ أكلته.

(٥) رِجْزُ الْقُمَّل، وهو نوعٌ من الحشرات الصغيرات، اللّواتي تُقِضُّ مضاجِعَ الناس إذا انْتَشَرَت فيهم.

قيل: هو كبارُ القراد. وقيل: هو صغار الجراد. وقيل: هو البقُّ. وقيلَ: هو حَشَرَة تَغْمِسُ نَفْسَها في جِلْدِ الإنسان وتأكُلُ مِنْهُ وتتوالد، ويكون ظهرها مُسَاوياً بعد انعماسها لِسَطْحِ جِلْد الإنسان، وقيل غير ذلك.

(٦) رِجْزُ الضَّفادع، وكان من أمْرها أنَّها كَثُرَتْ عندهم كثْرَةً نَغَّصَتْ عليهم مَعيشَتَهُمْ، فكانت تَسْقُطُ في أطْعِمَتِهم، وَفُرُشِهم، وملابِسِهم.

(٧) رِجْزُ الدَّم، وكان ذلك باستحالة الماء لأهل مصر دماً، أو مختلطاً بالدَّم. وقيل: سلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِم الرُّعاف. وقيل: أُصِيبُوا بوبَاءِ الدُّمّل، حتَّىٰ فَشَا في الناس وفي البهائم.

وتكذيبهم بهذه الأنواع من الرّجْزِ الَّتي أنزلها اللَّهُ عزّ وجلّ بهم قد كان بادّعاء أنّها ظواهِرُ طبيعيَّة من ظواهر الكَوْن، وليسَتْ آثارَ قَصْدٍ رَبَّانيّ يُؤَيِّدُ الله بها رسُولَه مُوسَى وأخاهُ هارُون، ويُنْذِرُ بها فرعونَ وآلَه وجنودَهُما بعذابٍ مُهْلِكٍ شامل.

أمَّا بقيّة الآيَاتِ التِّسْع، فقد أجراها الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام، بَدْءاً من يوم عبور البَحْرِ وإغْرَاقِ فِرْعَوْن وآله وجنودهما، وما بَعْدَ خُرُوجه من البحر مع بني إسرائيل نَاجين إلى صحراء سِيْنَاء.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: اسْتُعْمِلَ أخْذُ اللَّهِ للنّاس في القرآن كنَايَةً عن الانتقام مِنْهُمْ بعذَابٍ مُهْلِك.

الأصْلُ في الأخذ تناوُل الشيء والقبضُ عليه وحيازَتُه، ويَحْمِلُ الأخْذُ أحياناً معنىٰ مَا يُؤْخَذُ له الشيء، فأخذ المذنب يحْمِلُ معنىٰ مُعَاقَبتِهِ بذنْبه، ولو لم يحْصُل أخْذٌ جسَدِيٌّ.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم لأنَّ الحدَثَ الّذِي أنْجىٰ الله عزَّ وجلّ به موسَىٰ وبني إسْرائيل، وأغْرَق بِهِ فِرْعَوْنَ وآله وجنودَهما، قد كان حَدَثاً عظيماً لا يَفْعَلُه إلاّ الرَّبُّ الجليل العظيم القدير المقتدر العزيز.

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: مفعُولٌ مُطْلَقٌ مُبَيّنٌ لنَوْع الأَخْذ بإضَافَته إلى اسْمَيْن من أسماء الله الحسنىٰ، هما: عزيز، ومقتدر.

**الْعَزِيزُ**: هو القوي الغالبُ الذي لا يُغْلب.

**المقْتَدِر**: هو ذو القدرة البالغة الغاية، فَصِيغَةُ «المقْتَدِر» أبلغ من صيغة «القَادر» أخْذاً من زيادة المبنى الّتي تَدُلُّ على زيادَة المعنى.

وقَدْ كَانَ أخْذُ الله لهم بمُعْجِزَةِ فَلْقِ الْبَحْرِ لِمُوسَىٰ عليه، وَدُخُول بني إسْرَائيل عَابِرِين سَالِمين مِنْ مَكانِ الْفَرْقِ، واتّباع فِرْعَونْ وآله وجُنُودِهم بني إسْرَائيل من المكان الذي عَبرُوا مِنه، ولمَّا نجا بنوا إسْرَائيل وخَرجوا من البحر عن آخِرهِم، وتَوَسَّطَ فرعون وآله وجُنُودُهم طَرِيقَ الْعُبُور، أَمَرَ اللَّهُ البحر بأن يَنْضَمَّ بعْضُه إلى بَعْضٍ، فأهلكهم الله جميعاً، بسُلْطَان عزّتهِ واقتداره، فكانوا غرقىٰ هَلْكىٰ، وأَخَذَ الله جسَدَ فرعون إلى الشاطئ، ليكون عبرَة لمن يعتبر من جبابرَة الأرض، كما جاء في نصٍّ آخر.

❁ ❁ ❁

## (٩) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُرُوس السّورة وهو الآيات من (٤٣ ـ ٤٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

**تمهيد:**

بعد أن جاء في السّورة عرض أَمْثِلَةٍ خمسةٍ من المكذّبين بالنُّذُر، من كُفَّار القرون الأولى، وكَيْفَ أهلكهم الله جلّت قُدْرَتُه وعَظُم سُلْطانه، إهلاكاً شاملاً، بعَدْلِه وحكمته، فحقَّق فيهم نُذُرَه الّتي بلَّغَهم إيَّاها رُسُلُه، وأنْزَل بهم ما كانوا به يُكَذِّبُون، وفي هذا العرض بيانٌ للّذِين كَذَّبُوا بالنُّذُر الَّتي أَنْذَرَهُمْ بها رسُول الله مُحمَّدٌ ﷺ، وفي مُقَدّمتهم كُبراء قُرَيشٍ، بأَنَّهُمْ إذَا أصَرُّوا على موقف التكذيب الّذي اختاروه لأنفسهم، جعَلُوا أَنْفُسَهم عُرْضَةً لأنْ يُجْرِي الله فيهم سُنَّته الّتي سَبَقَ أن أجراها في أمثالهم من أهل القرون الأولى، فَسُنَّةُ الله في عباده واحدة، وبهذا المفهوم يكون الخطابُ مُوجَّهاً بالْقَصْدِ الأول للمكذبين بنُذُر الرسول إبَّان تنزيل سورة (القمر) ثمّ لكلّ مَنْ يُكَذّب من بَعْدِهم حتَّىٰ انتهاء مدَّة امتحان الناس في الأرض.

• ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾؟!.

سُؤالان يُوَجِّهُهُما الرَّبّ جلّتْ قُدرتُه وعَظُمَ سُلْطانُه للمكذبين المعاصرين للتنزيل، فَمَنْ بَعْدَهم.

وهذان السُّؤالَان مبْنِيَّان على قاعدةٍ أساسيَّة: هي أنّ سُنَّةَ الله في عباده واحدة، إذْ كُلُّهُمْ خَلْقُه وصَنْعَتُه وعَبِيدُه، وكُلُّ الممتَحَنين من خلْقه في الحياة الدنيا على سواء، يخْضَعُون لسُنَّةٍ ربَّانِيَّةٍ واحدة، فلاَ فَضْل لِفَرِيقٍ منهم على فريق آخَرَ بعُنْصُر، أولَوْن، أو لُغَةٍ، أو أرض، أو مساكن ومنازل، أو أعراق

أو أنْسَاب، إنّما يكون التفاضُل فيما بينهم بالأعمال الاختياريَّةِ المكْتَسَبَةِ، من أعمال قلبيّة ونفسيَّة وفكرية، وأعمال ظاهرة بالجوارح تُعَبِّر عن الإرادات في داخل النفس، وتُعَبِّر عن الغايات والمقاصِدِ والنِّيّات، وتُتَرجِمُ العَقَائِدَ والمفهومات الراسخات، أو تكون آثاراً لفضائل الأخلاق ورذائِلها بأعْمَالٍ إراديَّة.

وبناءً على أنّ سُنَّةَ اللَّهِ في جميع خَلْقِه واحدةٌ، كَانَ مِنَ الإلزام في مناظَرَتِهِمْ طَرْحُ هَذَيْن السُّؤالَيْن عليهم:

**السؤال الأول:** ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾؟!.

أي: أكُفَّارُكُمْ أيّها المكذّبونَ بالنُّذُرِ الَّتِي أنْذَرَكُمْ بها مُحَمَّدُ بن عبْدِ الله، رسُولُ الله إليكم، خَيْرٌ من كُفَّارِ أهل القُرون الأولى، الذين كذّبوا رُسُلَ ربّهم، وكذَّبُوا بالنُّذُرِ الَّتي أنْذَرُوهم بها بلاغاً عن ربّهم، وأَصَرُّوا على كُفْرِهِمْ وظُلْمِهم وطغيانهم، فأخَذَهُم الله بذُنوبهم، وأهْلَكَهُمْ إهلاكاً عَامّاً شاملاً، حينما كانت أحْوالُهُم الميؤوس منها تَسْتَدْعي تعذيبهُمْ بالْعَدْل، وإبادتَهُمْ حَسْماً لشُرُورهم وطغيانهم.

فبماذا يجيب المطروح عليهم هذا السؤال؟.

فإن قالوا: نعم كُفَّارُنَا خَيْرٌ من كُفَّار الْقُرون الأولى الذين أهلكهم الله إهلاكاً عَامّاً.

قيل لهم: بماذا؟

فإن قالوا: بالعِرْقِ، أو باللُّغَة، أو باللَّون، أو بكونهم سُكَّانَ البلد الحرام، أو بكونهم ذُرِّيَّة النّبي الرّسول إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، أو بغَيْر ذلك.

كانَ الجوابُ المفْحِمُ لَهُمْ: إنَّ مُهْلَكِي الْقُرون الأولى، كلّهم بشَرٌ

مِثْلُكُمْ أبُوهم آدم وأمُّهم حواء، والّذين نَشؤُوا بعْدَ نوح عليه السَّلام هُمْ ذُرِّيَّة نوح عليه السلام، وهو رسولٌ من أولي العزم، وعادٌ وثمودُ وقوم لوطٍ سامِيُّون وعَرَبٌ مِثْلُكُمْ وقد أهلكهم الله.

وإذْ قد اشتركتم معَهُمْ في صفَةِ الكُفْر بالله وبرسُوله وبما جاء به الرَّسُولُ عن رَبّه، فلا فَضْلَ لكم علَيْهم بشيءٍ عند ربّكم، فسُنَّةُ الله فيهم هِيَ سُنَّةُ اللّهِ فيكُمْ.

وهذا جوابٌ مُسْكِتٌ مفْحِمٌ دامِغٌ، لا يَجِدون من مُحاصَرته لهم مَهْرَباً.

وبسُقُوط احتمال كَوْنِهم خيراً من كفّار القرون الأولى، يأتي السُّؤال الثاني، لإسقاط الاحتمال الآخر الذي ليس بعده احتمال ثالث، وهو أن تكون لهم براءة خاصَّةٌ فيما أنزل الله من كتب.

**السؤال الثاني**: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾؟!.

أي: بَلْ أَلَكُمْ بَيَانُ براءَةٍ من عذاب الله إذا كفَرْتم بِهِ وبرسوله، وكذّبْتُمْ بالنُّذُرِ؟!.

أو: ألكُمْ بَيَانُ براءَةٍ من التكاليف الدّينيّة، أو من الامتحان في الحياة الدُّنيا؟!

ويُشْتَرَطُ في بَيَانِ البراءة إذا ادَّعَيْتُموه، أن يَكُونَ في أيّ كتاب من الكُتُب الرَّبَّانِيّة السَّابقة، المنزَّلَةِ على رُسُلِهِ السّابقين.

إنَّهم لن يَسْتطيعوا أنْ يأتُوا ببيان في كتابٍ منْ كُتُب الله المنزّلة يُثْبِتُ بَرَاءَتَهُمْ من عذاب الله إذا كَفَرُوا. أوْ يُثْبتُ إعفَاءَهُم من التكاليف الدّينيَّة، أو إعفاءهم من الامتحان في الحياة الدنيا.

**البراءة في اللّغة**: هي الخلاصُ والسَّلامة، والمراد الخلاصُ والإعفاء من المسؤوليّة والجزاء.

**الزُبُر: جمع «الزَّبُور» وهو الكتاب المزبور، يقال لغة: زَبَر الكاتبُ الكِتَابَ، أي: كتبه، أو أتقن كتابته فَهُو مَزْبُورٌ وزَبُور.**

وكلمة ﴿أَمْ﴾ هُنَا هي: «أم المنقطعة» وهي بمعنى «بل» وهٰذه تتضَمَّنُ استفهاماً مُسْتَأْنفاً بَعْدَ كَلاَمٍ يَتَقدَّمُها.

والمعنى: أكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ من أُولئكُمْ؟! بل ألكُمْ براءةٌ في الزُّبُر؟!

فالكلام جارٍ على طَرْح استفهام حولَ قَضِيَّةٍ، فالإضرابِ عنه وطرح استفهامٍ آخر حول قضيَّةٍ أخرى، ضمن الموضوع نفسه.

فبماذا يُجِيبُون عَلىٰ هذا السؤال الثاني؟

إنّهم لا يسْتَطِيعُون أن يَدَّعُوا ويُثْبتُوا ادّعَاءَهم، بأنَّ الله عزّ وجلَّ قَدْ مَنَحَهُمْ براءة من عذابه، أو براءة من التكاليف الدّينيَّة، أو براءة من الامتحان في الحياة الدنيا.

وبَدَهِيٌّ أنَّهُمْ لو ادَّعوْا هٰذهِ البراءة، فإنّ ادّعاءَهُمْ لها لاَ يكون صَحِيحاً، ما لَمْ يَكُنِ النَّصُّ المثبتُ لها مُنَزّلاً من عند اللّهِ جلَّ جلاله، في كتاب من كُتُبه الثابتة بيقينٍ عن رسولٍ من رُسُل الله جل جلاله.

وأنَّىٰ لَهُمْ أَنْ يُثْبتُوا ذلك، فكُلُّ الكُتُب الرَّبَّانِيَّة المنزّلة، تُثْبِتُ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعاً مَوْضُوعُونَ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، والممتَحِنُ لهم هو الرَّبُّ الخالق جلَّ جلاله.

والامتحان يتناول قضيّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ:

**القضية الأولى**: الإيمانُ بما أوْجَبَ الله عزَّ وجَلَّ الإيمانَ به، الشّاملُ لأركان الإيمان وفروعها وتفصيلاتها على ما أنزل على رسوله.

**القضيّة الثانية**: الإسْلام لله في أوامره ونواهيه وأحكام شريعته ومنهاجه لعباده، وطاعَتُهُ، وشُكْرُهُ بالعبادات الّتي شَرَعَها لَهُمْ.

فلا أحَدَ من الناس معفيٌّ من مسؤوليّة هذا الامتحان، إذا كان مُسْتَوْفِياً شُرُوطَهُ، وهي الشروط اللّازمة لتوجيه التكاليفِ الاعتقاديّة، والفكريَّة، والنفسيَّة، والجسَديَّة، من كلِّ عَمَلٍ إراديٍّ بَاطنٍ أو ظاهر.

إذَن: فلا براءة لهم في الزُّبرُ من مسؤوليّة التكاليف الدينيَّة، ولا براءة لهم من الجزاء بالعدل، على عدم التزامِهِمْ بمسؤوليّاتهم الدّينيَّةِ فعلاً أَوْ تَرْكاً.

وإذْ ثَبتَ أنَّهُ لا امتيازَ لهم ولا لغيرهم على سائر النّاس بخيريَّةٍ خاصَّةٍ عند الله، تَجْعَلُهُم فوقَ المسؤوليّات والعقُوبات، وإذْ ثَبَتَ أنه لا براءة لَهُمْ في الزُّبُر، فقد فَقَدُوا كُلَّ مَهْرَب من عذاب الله عزّ وجَلّ، يُمْكن أن يتصوَّرُوا أَنْ يكون لهم مَهْرباً.

وبعد هذا فما الذي يجْعَلُهُمْ يُصِرُّون على كُفْرِهِمْ وتكذيبهم بالنُّذر، والحالُ أَنَّهُمْ مُحَاصَرُونَ بما لا مَهْرَبَ لَهُمْ منه؟.

مثْلُ هٰذه المحاصَرة الفكريَّة كافِيَةٌ لإقناع مَنْ يُريدُ الاقتناع، وإلزامِ وإفْحامِ المكابرين، وكشفِ عنادِ المعاندين، وبيانِ ضعف عقُولِهم وضَآلَتِها، وَضعْفِ إراداتهم أَمَام أهوائهم وشَهَواتِهِمْ وكِبْرِهم وغُرورِهم بأنفسهم، تأثُّراً بأوْهامِهِمْ ومفهومأتهم السَّخِيفات.

فلْيَرْتقِبُوا عقابَ الله لهم إذا لم يَتُوبوا، أُسْوةً بمن أنزل الله بهم عذابه وعقابه من مجرمي القرون الأولى.

وقد نَزَلَ فعلاً بمجرميهم فيما بَعْدُ، ما يسْتَحِقُّونَ من عذابٍ وعقاب، بحكمة الله العليم العزيز المقتدر، حينما نَصَر اللّهُ رسُولَهُ والمؤمنين في المواجهات القتاليّة الّتي أظفر اللّهُ بها أولياءه على أعدائه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ مثل سابقتها في الآية (٤٣).

﴿جَمِيعٌ ﴾: اسْمٌ للجماعة المجتمعة على أَمْرٍ واحد، المتماسكة في وَحْدَةٍ.

**والجَميعُ**: المجتَمِعُ، يُقال: حيٌّ جميع، وقَوْمٌ جَمِيع، أي: مجتمعون مُتماسِكُون، مُتَّحدُو الرأي والهدف، مترابطو القوى.

**ويُوَلُّون الدُّبُرَ**: أي: وَيَجْعلون مُحاربيهم من المسلمين يَلُونَ أَدْبَارهم، أي: يَتْبَعُونها قتلاً وأَسْراً.

والمعنى: بل أيقول قادة وأئمة الكُفْرِ في قُرِيشٍ نَحْنُ كتلَةٌ واحِدَةٌ مجتمعون مُتَمَاسِكُون، متَّحِدُو الرأي والهدف، أَقْوياء، فإذا اجتمعنا وحاربنا محمّداً والّذين آمَنُوا معه، فلا بُدَّ أن ننتصر.

ويُطَمْئِنُ اللّهُ العزيز القّهار، الّذِي بيده النّصر، وهو على ما يشاء قَدير، رسُولَهُ والمؤمنين بأنّ الْجَمْع الذي يَجْمَعُه مشركو مكة لحربهم، سَيُهْزَمُون، وسَيُولُّونَ الأدبار، أي: وسيجعلون المسلمين يَلُونَ مُتَابِعَينَ أَدْبَارَهم قتلاً وأَسْراً.

**الدُّبُر**: الظَّهْرُ، ومن كلّ شيءٍ عَقِبُه ومُؤَخَّرُه، وهواسْم جِنْس إفرادي، يَصْدُقُ على القليل والكثير، فيُوَلُّون الدُّبُر، مثل يُوَلُّون الأدبار في الدَّلاَلَة، وفيه معنىً أَنّهم سيكونُون جَمِيعاً في الفرار والإِدْبار، كأَنّ لهم دبُراً واحداً.

وجاء وصف «جميع» بكلمة «منتَصِر» على الإفراد مراعاة للفظ «جميع» وإن كان معناه جمعاً غير مفرد، ومثل هذا مما يجوز فيه الوجهان.

**منتصر**: اسم فاعل من فِعْلِ «انْتَصَر يَنْتَصِر» فهو مثل الفعل المضارع في الدلاَلَةِ على الحَالِ والاسْتِقْبال، والمراد هُنَا الدَّلالة على الاستقبال، ونظيرُهُ، كثير في القرآن.

وأبان الله عزّ وجل بقوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ أنهم سيكونُون جَمْعاً ولا يكُونُون جميعاً، لأنهم عندئذ لا يكونُون على رأيٍ واحدٍ، ولا على هدف واحد، ولا على قلبٍ واحد، فالْجَمْع يُطْلَقُ على أي عَددٍ مجتمع، ولو كانت أفْراده متنافرة، ولَيْسَ بينهم جامعة تربطهم بقوة.

يقال لغة: هُزِمَ الْعَدُوُّ، أي: كُسِرَتْ شَوْكَتُهُ وغُلِبَ.

وإذا صَحَّ أنّ هاتين الآيتَيْن (٤٤ ـ ٤٥) من التنزيل المدني، فإنَّ ضَمَّهما إلى سُورَة (القمر) يُشْعر بأنَّ كبراء مشركي مكَّة جَعَلُوا يُرَدِّدُون قولهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ قبيل نزول هذه السّورة، وأخَّرَ الله عزّ وجلّ إنْزَالَ البيانِ حَوْلَها، وبِشَارَةَ الرَّسُول والمؤمنين بالنصر إلى الْعَهْدِ المدني، أَخْذاً بِحِكْمَةِ كِتْمَان التدبيرات الْحَرْبِيَّة، إذْ إنّ سماعَ المشركين في العهد المكيّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ قَدْ يُشْعِرُهُم بأنَّ خِطَّةَ الرَّسُولِ تَعْتَمِدُ على تَدْبِيرِ أمُورٍ حَرْبِيَّةٍ مُسْتَقْبَلِيَّة، ويجري الإعداد لَهَا سِرّاً، فيعْمَلُون علىٰ مبادَرَتِهم بحرْب الرسول والمؤمِنِين، قبل أن يُعِدُّوا لحَرْبهم ما يَلزَمُ مِنْ إعدادات.

ويظهر أنّ نُزُولَهُما في العهد المدَنِي قد كَانَ قَبْلَ غَزْوة بَدْرِ الكُبْرى فَقَدْ صَحَّ أَنَّ النبيَّ ﷺ خَرج من العريش يوم بَدْرٍ، وهو يَثِبُ في الدّرْع ويَقُول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

وأمَّا مَا رُوي عن مقاتل مِن أنَّ الآية (٤٦) من التنزيل المدني أيضاً مع الآيتين (٤٤ و ٤٥) فمُعَارضٌ بما صَحَّ عن عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها.

● روى البخاريُّ بسنده عن يُوسُفَ بْنِ مَاهَك، قال: «إنّي عند عائشة أُمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ إذْ جاءها عراقِيٌّ فقال: أيُّ الكَفَنِ خَيْر؟

قالت: وَيْحَكَ، ومَا يَضُرُّكَ؟.

قال: يَا أُمَّ المؤمنين أَرِني مُصْحَفَك.

قالت: لِمَ؟

قال: لعلّي أؤلّف القرآنَ عليه، فإنَّهُ يُقْرَأُ غير مُؤلّف[1].

قالت: وَمَا يَضُرُّك أيَّهُ قَرأتَ قبل، إنّما أُنزِلَ أوّلَ مَا أُنْزِل منه سُوَرٌ مِنَ المفصَّلِ، فيها ذكْرُ الْجنَّة والنَّارِ، حتَّىٰ إذا ثَابَ النَّاسُ إلى الإسلام، نزل الْحلاَلُ والحرامُ، ولَوْ نَزَلَ أوّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الْخمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الْخمْرَ أَبَداً، ولَوْ نَزَل: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدعُ الزّنا أبداً، لَقَدْ نَزَلَ بمكّةَ عَلَىٰ مُحمَّدٍ ﷺ، وإنّي لَجارِيَةٌ ألْعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ ومَا أُنزِلَتْ سُورة (البقرة) و (النّساء) إلاَّ وأنا عنْدَه.

قال: فأخْرَجَتْ لَهُ المصحف، فأمْلَتْ عليه آيَ السُور[2]».

فدلَّ هذا الحديثُ على أنَّ هٰذِهِ الآيَةَ من التنزيل المكيّ.

● وقد روى أهل السِّيَرَ والمغازي، أنَّ النبيّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، اشتدّ في دعائِه لِرَبّه في الْعَرِيش الّذي نُصِبَ له، وجَعَلَ يُنَاشِدُ رَبَّهُ مَا وَعَدَهُ من النّصْرِ، ويقول فيما يَقُول:

«اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هٰذِهِ الْعِصابَةُ الْيَوْمَ لاَ تُعْبَدُ، اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَداً».

وبالَغ الرّسُول ﷺ في الابْتِهال، وَمَدّ يَدَيْه إلى السَّمَاءِ، حتَّىٰ سَقَط رِدَاؤُه عَنْ مَنْكِبَيْهِ، وأبو بكر يَقُولُ: يَا نَبِيَّ اللّهِ، بَعْضَ مُنا شَدَتِكَ رَبَّك،

---

(١) أي: غير مؤلّف السُّور، ويظهر أنّ هذا كان قبل أن يرسل عثمان المصاحف الموحّدة إلى الآفاق، كما قال ابنُ كثير.

(٢) رُبما تكون قد أمْلَتْ عليه أوائل آي السُّور، وأواخِرَها، للْفَصْلِ بين كلّ سُورَةٍ والّتي تليها بحسب مُصْحَفِها تلبيَةً لطلبه.

فَإنَّ الله مُنجِزٌ لَكَ مَا وَعدَك، حَسْبُكَ يَا رَسُولَ الله، أَلْحَحْتَ علىٰ رَبِّك، وأَخَذَ رِداءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَىٰ مَنكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِن وَرائِهِ.

وخَفَقَ رَسُولُ الله ﷺ خَفْقَةً وَهُوَ في الْعَرِيش[1]، ثُمَّ انْتَبَهَ فقال: «أَبْشِرْ يَا أَبا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ الله، هٰذا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ، علىٰ ثَنَايَاهُ النَّقْعُ[2]».

ثُمَّ خَرَجَ الرَّسُول ﷺ من الْعَرِيش، واتَّجَهَ نَحْو المقاتلين، وَجَعَل يَثِبُ في الدِّرْع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

● وروى البخاري بسَنَدِهِ عن ابنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رسُول الله ﷺ خَرَجَ مِنَ الْعَرِيش يَوْمَ بَدْرٍ، وهو يَثِبُ في الدِّرْعِ، ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾[3].

قال ابن حَجَر في الفتح: وقد روىٰ عبد الرزّاق عن مَعْمَر، عَنْ أَيُّوب، عن عِكْرِمة: أَنَّ عُمرَ قال: لمّا نَزَلَتْ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ جعَلْتُ أقولُ: أيُّ جَمْعٍ يُهْزَمُ؟ فلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، رأيتُ النبيَّ ﷺ، يَثِبُ في الدِّرْع وهو يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

فدَلَّ هذا على أَنَّها نَزَلَتْ قَبْلَ مَوْقِعَةِ بَدْرٍ، وقَبْلَ الخروج إليها، فهي مدَنِيَّةٌ فِيمَا يَظْهَرُ والله أعلم، وكانت من بَشَائر ما سَيَحْدُثُ من نَصْرِ الرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ على عَدُوِّهم، قبل موقعة بدر حتماً.

● قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) أي: نام نومَةً يَسِيرَة.

(٢) **النَّقْع**: أي: الغبار.

(٣) انظر فتح الباري لابن حجر، الحديثان: (٤٨٧٥ ـ ٤٨٧٧).

[بل السَّاعَة مَوْعُدُهم]: أي: سَاعَةُ البعث للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

﴿أَدْهَىٰ﴾: أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ من الداهية، وهي الأمْر المنكَرُ العظيم من الشدائد، والنوائب، والمصائب.

يقال لغة: دَهَتْهُ دَاهِيَةٌ دَهْيَاءُ وَدَهْوَاء.

﴿وَأَمَرُّ﴾: أي: أَشَدُّ مَرارة، يقال لغة: مَرَّ الشيء يَمُرُّ مَرَارَةً، وأفعل التفضيل منه «أَمَرُّ».

وأيُّ شيءٍ أَشَدُّ مرارَةً على الكافرين من عذاب يَوْمِ الدِّين؟! وأيُّ داهِيَةٍ أَدْهَىٰ مِنْهُ؟!

والمعنى: لا نَصْرَ لَهُمْ في الدنيا، بَلْ هم سَيُهْزَمُونَ ويغْلَبُون، ولا نجاة لهم في الآخرة، بل هم سوف يُعَذَّبُونَ عَذَاباً أَلِيماً خالداً، في جهَنَّمَ وَبِئْسَ المصير، وهذا سَوْف يكون أشدّ وآلم وأقسَىٰ وأشدّ مَرارَةً من هزيمتِهِمْ يَوْم غَزْوةِ بَدْر.

❁ ❁ ❁

## (١٠)
## التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس السُّورة وهو الآيات من (٤٧ ـ ٥٥) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

**تمهيد:**

هذا آخر دَرْسٍ مِن دُرُوس السُّورة، وهو دَرْسٌ يشْتَمِلُ على كُلّيّاتٍ ومفهوماتٍ عَامَّاتٍ، من قَضَايا القاعدة الإيمانيَّة في الدّين المنزّل من لَدُن رَبّ العالمين، الذي اصطفاه الله العليم الحكيم للناس أجمعين، وهذه الكليّاتُ والمفهوماتُ حقائقُ لا نَقْضَ لها، ولها ارتباط فِكْرِيٌّ تَأْصِيليٌّ بما جاء في دُروس السُّورة قبل هذا الدَّرْسِ الأَخير، فما جاء في هذا الدرس هو بمثابة الحصيلة الختامية، الّتي ينبغي أن تقدَّم في موادَّ دُسْتوريَّة، فما أحكم القرآن وأبلغه.

● ففي هذا الدرس بيانُ عَاقِبَةِ المجرمين والمتَّقِينَ يَومَ الدِّين مع عرض لقطَةٍ من عذاب المُجْرِمِينَ في دار العذاب، مَقْرُونَةٍ بحكاية ما يُقالُ لهم وهم يُعَذَّبُون، مُقْتَطعاً من الحَدَثِ نَفْسِه، ومَذْكُوراً ضِمْن هذا الدَّرس كأنّه يُقَالُ لَهُمْ الآن، ومعَ عَرْضٍ لقطةٍ من نعيم المتقين في دار النّعيم، مَقْرونَةٍ بِتَكْرِيم من الرّب الكريم المليك المقتدر.

● وفي هذا الدَّرس حُكْمٌ علَىٰ المُجْرِمين بأنَّهُمْ يتَخَبطُونَ في ضَلاَلٍ في الحياة الدُّنيا، وبأنَّهُمْ في جُنُونٍ يُشْبِهُ جُنُونَ النُّوقِ المسعورة الْهَوْجاء.

● وفي هذا الدَّرْسِ بَيانُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ في الوجود أو قضىٰ بأن يَخْلُقه، فَهُو مَسْبُوقٌ بِقَدَر، أي: بتَقْدِيرٍ شَاملٍ مُحَدِّدٍ لكُلّ الْمَقَادِيرِ في الذَّوَاتِ والصِّفَاتِ، والأمكِنَةِ والأَوْقاتِ، لكُلّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ في الوجود، مَا مضىٰ، ومَا هُوَ مَوْجُودٌ، ومَا هُو آتٍ.

وبهذا التَّقْدير الحكيم ينَالُ الْمُعَذَّبُونَ عذَابَهُمْ في النَّارِ، ضِمْنَ نظام غَيْرِ نظام الحياة الدُّنيا وتَقْديرِ المقادير فيها، فالَّذِين يُسْحَبُونَ في النّارِ على وجُوهِهِمْ يُعَذَّبُون دون أنْ يَتَعَرَّضُوا للْمَوْتِ والفَنَاء، لأنّ مَقَادِيرَ يَوْم الدِّين غَيْرُ مَقَادِيرِ الحياة الدنيا، وذوات المعذبين تتلاءم مقادِيرُها مع مقادير العَذَاب في الجحيم.

وبهذا التقدير الحكيم ينال المنعَّمُون أنواعَ نعِيمهم في الجنَّة خالدين، ضِمْن نظام غَيْرِ نظام الحياة الدُّنيا وتقدير المقادير فيها، فأنْواعُ السَّعَادَاتِ واللّذّاتِ العظيمات الخالدات، تتطَلَّبُ مقادِيرَ في ذَواتِ المنعمين غَيْرَ المقادير الّتي كَانُوا عليها في الحياة الدنيا، لِتكُونَ إحْسَاسَاتُها ملائماتٍ للذَّاتِ العظيمات الخالدات، وأنْ تكون غير عرضَةٍ للأعْراضِ والأمْرَاضِ والآلام والموتِ والفناء، فمقاديرُ يوم الدِّين غير مقادير الحياة الدنيا.

● وفي هذا الدَّرْس بيان أنَّ أَمْرَ التكوين الرَّبَّاني إنَّما هو كلمة واحدَةٌ يَتِمُّ بها تَكْوِينُ المقضِيِّ المقدَّرِ، بزَمَنٍ مُباشِرٍ لَها، كَلَمْحٍ بالْبَصَرِ فيما يُدْرِكُهُ النَّاسُ من تنفيذ إرادة الرُّؤيَة بحَرَكَةِ اللَّمْحِ البصري.

● وفي هذا الدَّرْس تذكِيرُ المجرمين الذين ما زالُوا على قَيْدِ الحياة، بإهْلاَكِ اللَّهِ أمْثَالَهُمْ في الْقُرُونَ السَّالفَاتِ، وفي هذا التذكير تَنْبيهٌ ضِمْنِيٌّ على سُنَّةِ اللَّهِ الثابِتَةِ في عبادهِ، أوَّلِهِمْ وآخِرِهم، فَلْيَتَّذَكَّرُوا، ولْيَتعِظُوا.

● وفي هذا الدَّرْس بَيَانُ أَنَّ أعْمَالَ الْعِبادِ الظَّاهِرَة والباطِنَةَ مُسَجَّلَةٌ في كُتُب مَلائِكَةِ المراقَبَةِ والتسجيل.

أي: فهي سَوْف تُعْرَضُ عليهم يوْمَ الدّين، وسَوْفَ يُحَاسَبُون عليها، وسَوْف تكُونُ قراراتُ الجزاء بمقْتَضَاهَا، ضِمْن مَبْدَأي الْعَدْلِ، والفضل، وبالفضل يعفو اللَّهُ عن كثيرٍ من الذُّنوب، ويغْفِرُ كثيراً منها.

● وفي هذا الدَّرس بَيَانُ أَنَّ كُلَّ صَغيرٍ وكبيرٍ في الوجود، ما كان، وما هو كَائِنُ، وما سيكون، أو سوف يكون، كُلُّه مُسْتَطر، أي: مكْتُوبٌ كِتَابَةً راسِخَةً ثابِتَةً، لاَ تتآكَلُ، وَلا تَتعرَّضُ لِمَا يُتْلِفُها، إلاَّ بأَمْرِ الله جلّ جلالُه في المحْوِ والإثبات، يمحو اللَّهُ ما يشَاءُ ويُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمَّ الكتاب، وهو علْمُهُ جلّ جلالُهُ.

## التدبُّر التحليلي:

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

سبق في السّورة أنّ ثمودَ قومَ النبيّ الرسول صالح عليه السلام، قالُوا بشأن رسُولهم:

﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: إنّنا إذا اتبَعْنَا بَشراً منّا واحداً وهو «صالح» فإنّنا نتخبَّطُ في ضَلالٍ مِنْ أَمْرنا غَيْر مَهْدِيّين، وتكُونُ أَذْهَانُنا وأَدْمِغَتُنا مَغْمُوسَةً في جُنُون يجْعَلُنَا نَتَصرَّفُ في حياتنا على غير هدى، كَتَصرُّفِ النَّاقةِ المَسْعُورَةِ الْهَوجاء.

فقال الله عزّ وجلّ بَعْدَ عَرْضِ إهلاك طائفة من المجرمين الأوّلين، الّذين كذَّبُوا رُسُلَ ربّهم، وكذَّبوا بِنُذُرِهم، وبما جاءوا به بلاغاً عن الله عزّ وجل ومنهم ثمود:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: إنَّ الّذين كذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم، وكذَّبوا بما بلَّغُوهم إيَّاه من النُّذُرِ، هم المنغَمِسُونَ في ضَلالٍ وَسُعرٍ (أي: وجُنُون).

وهم بتَكْذِيبهم ومعانَدَتِهم الحقَّ الّذي جاءهم من رَبّهم صاروا مُجْرِمين.

**المجرم في اللّغة:** فاعل الْجُرْمِ ومُرْتكبُه، وهو المتعدِّي بذنْبٍ كبير، **والْجُرْمُ**: التَّعدِّي بغير حقّ.

وجاء لفظ «المجرمين» في القرآن عنواناً مُقابِلاً للمسلمين، ووصْفاً للكافرين الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ الله في الدنيا، ووصفاً للمعذبين في النار عذاباً خالداً.

ولدى تتبُّع النُّصوص نُلاحظ أَنَّ المجرِمَ في لسان الشرع، يُطْلَقُ على الكافر، كما أَنَّ كُلَّ كافر يُطْلَقُ عليه أَنَّه مُجْرِم، بَدْءاً من المشركين، حتَّىٰ أخَسِّ دَرَكات الكافِرين، وهم أهل الدَّرْك الأسْفل من النار.

أليس الّذي يُعَرّضُ نَفْسَه لعقاب الرَّبّ عزّ وجلّ في الدنيا، ولِلْخُلُودِ في النار دار العذابِ يوم الدّين، مُنْغمِساً في الضَّلالِ والضياع والتخبُّطِ على غير هُدىً؟!

أليس منْغَمِسَ الفكر والرأي وأدواتِ الإدراك لديه في جنُونٍ، يَصْرِفُهُ عن إدْرَاك الحقّ.

كَلِمَةُ «سُعُر، وسُعْر» بضمّ العين وإسكانها تأتي في اللُّغَةِ بمعنى: «الجنون» كما سبَق بيانُه في تدبّر الآية (٢٤) من السورة.

وبهذا المعنى فسَّر أبو عليٍّ الفارسيّ عبارة ﴿وَسُعُرٍ ﴾ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ وليْسَتِ الكلمة جَمْعَ «سَعِير» بمعنى النار.

**أقول:**

ما قاله «أبو عليّ الفارسيُّ» صَحِيحٌ، وهو الذي يُنَاسِبُ معنى الآية، ولا سيما أنَّ أمْرَ عَذَابِهِمْ في الآخِرة، قَدْ نُصَّ عليه في الآيَة التالية، ومن أسْلُوب القرآنِ أن يُضِيفَ المعانيَ تأسِيساً، ولا يُكَرِّرَهَا تأْكيداً.

ويَأْتي السُّعُر في اللُّغَةِ بمنىٰ الْعَنَاءِ والعذاب، ويأتي بمَعْنَىٰ الشَّهْوَةِ مع الجوع.

وهٰذان المعنيان يُوافِقَان حال المجرمين في الدنيا، فهم في عناءٍ نَفْسِيٍّ دائم، وفي شَهْوَةٍ وجُوعٍ لِمتَاعِ الحيَاةِ الدّنيا، وهُمْ في عذابٍ نَفْسِيٍّ تَتَواتَرُ عَلَيْهِم لَفَحاتُ آلامه.

فتُحْمَلُ كلمَةُ «سُعُر»في هذه الآيَةِ على كُلّ هٰذِه المعاني، وهذه المعاني قَدْ تُوجَدُ مجتمعةً عند بَعْض المجرمين، وقد تُوجَدُ مُوَزَّعَةً على أفْرادهم، بحَسَبِ حالة كُلٍّ مِنْهم.

● قول اللَّهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يُسْحَبُونَ﴾: السَّحبُ: جَرُّ الشيءِ على الأرض، يقال لغةً: سَحَبَ الشيءَ يسْحَبه سَحْباً، أي: جرَّهُ على الأرْض، فانسَحَبَ، أي: فانْجَرَّ على وجه الأرض.

ومنه سحْبُ البساط، إذ يكون بجرِّه على وجْهِ الأرض مبسوطاً والمعنى أنَّ المجرمين يوم الدِّين يُسْحَبُونَ في النار دار العذاب يومئذٍ على وجوههم، زيادةً في تَعْذِيبهم الذي يتجدَّد بالسَّحْب، وإهانَةً وتحقيراً لهم، لأنّهم في مُدّة امتحانهم في الحياة الدنيا وَلَّوا ظُهورَهُمْ، لَدعْوةِ رُسُل رَبّهم، ولم يستجيبوا لها جُحُوداً واستكباراً، وعَادَوْها وقاوَمُوها، وحاربُوها، وأرادوا نُصْرَةَ الباطلِ وإزهاقَ الحقّ الرَّبّاني.

والسَّحْبُ على الْوُجوه يقتضي جَمْعَ الأيْدِي والأَرْجُلِ من وراء، ورفْعَها حتَّىٰ تبقى الوجوه والصُّدُورُ والبُطُون على الأرض.

﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾: أي: وَيُقالُ لهم وهم يُسْحَبُون في النَّارِ على وجُوهِهِمْ بلسَانِ الحالِ وبلسَانِ المقَالِ: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾: أي: ذوقُوا آلامَ مَسِّ حَرَارَة ما تُسْحَبُونَ عليه من أرْضِ «سَقَر».

هذه العبارة مقتطَعَةٌ من الحدث المستقبليّ الذي سوف يكون حتماً، ومقدَّمَةٌ في النصّ، كأن المجرمين يخاطبون بها الآن، وهذا من الإبداعات القرآنيَّة الّتي لم تكن معروفة عند البلغاء، ويُقَدِّرُ النحاة لمثل هذه العبارة فِعْلاً على الوجه التالي: أي: يقال لهم يومئذٍ: ذُقُوا مَسّ سَقر. وأرى أنَّ مثلَ هذا التقدير يُضْعفُ من قيمة إبداع الاقتطاع والمفاجأة به.

﴿مَسَّ﴾: المسُّ في اللّغة إلصاق الجسم بالجسم مع حركة.

﴿سَقَرَ﴾: اسْمُ علم من أسماء جهنّم دار عذاب المجرمين يوم الدّين، وهو ممنوع من الصرف للعلميّة والتأنيث.

ومادّة هذه الكلمة في اللّغة تَدُورُ حَوْل معنيَيْن:

**المعنى الأول**: الْبُعْدُ، ومعلومٌ أَنَّ جهَنَّم عَمِيقَةٌ جداً، بَعِيدَةُ الغُورِ.

**المعنى الثاني**: شِدَّةُ الحرارة، وكذلك حال جَهَنَّمَ.

يقال لغة: سَقَرَ الشيءُ يَسْقُرُ سَقْراً، أي: بَعُدَ.

ويقال: سَقَرَتِ النّارُ أو الشَّمْسُ فُلاَناً، أي: لَوَّحَتْ جِلْدَهُ، وغَيَّرَتْ لَوْنَهُ، وآذَتْهُ وآلَمَتْهُ بِحَرِّها.

فاشْتُقَّت كلمة «سَقَرَ» علماً على جَهنَّم من هذه المادّة اللّغوية.

وبِسَحْبِ وُجُوه المجرمين على أَرْضٍ صُلْبَةٍ حارَّةٍ من أرْضِ جهنَّم يحْدُثُ تَماسٌّ يكوي وُجُوههم بالحرارة، فَيَذُوقُون لَذْعَهَا ذا الإيلام الشديد.

وقد اسْتُعْمِلَ الذَّوْقُ في القرآن المجيد لكُلّ ما يُحِسُّ بِهِ ذَوُو الأحساس من آلاَمٍ وَلَذَّاتٍ ظاهراتٍ وباطنات.

وأصل الذَّوْقِ في اللُّغةِ يُعَبَّر به عن ذَوْق طُعُومِ المآكل والمشارب، ثُمّ عُمِّم على الإحساس بما يلَذُّ ويُمْتِعُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، والإحْسَاسِ بما يُؤْلِمُ أو تَنْفِرُ مِنْهُ النفوس من كلّ شيءٍ، حتَّى الموت، فقد قال الله عزّ وجلّ بشأنه في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾.

هذه الآية قد قدَّمَتْ لَقْطَةً من صُوَرِ عذاب المجرمين يوم الدين في سَقَر. وصِلَتُها واضِحَةٌ بِدُرُوس السُّورَةِ، إذْ بدأت بالحديث عن المجرمين الذين كذّبوا بالنُّذر التّي أنْذَرَ بها رسول الله محمد ﷺ، ثم ضَرَبَتْ أَمْثِلَةً مِن المجرمين السّابقين من أهل القرون الأولى، وكيف أنزل الله عزّ وجل بهم عقابه المعجل في الحياة الدنيا، فلا بُدَّ من عَرْض صُوَرٍ مِنْ عذابهم يَوْمَ الدِّينِ ليتكامل الموضوع تكاملاً ملائماً للإقناع والموعِظَةِ الحسنة.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾:

يتحدّث الله عزّ وجل في هذه الآية بضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ أَعْمَالَ الخلْقِ المقدّرِ بغايَةِ التقدير الحكيم، لا يَعْمَلُها إلاّ الرَّبُّ الخالقُ العظيم الجليل، الذي وَسِعَ كلَّ شيءٍ عِلْمًا، وهُوَ على ما يَشاءُ قدير.

أي: إنَّا بِكَمالِ وعظَمَةِ صفاتِ الرَّبُوبيَّة قَدْ خَلَقْنا كُلَّ شيءٍ بقَدَر، أي: بتَحْدِيدٍ تَمَّ فيه تقديرُ كلِّ صَغِيرٍ وكبير من ذاتٍ وصفات، ومكانِ وُجودِ وَزمانه، وكُلِّ ما يخضع لتقدير أجزائه.

إنّ التكوين لا بُدَّ أن يكون مسبوقاً بعِلْم شامل، وتقديرٍ كامل، لكلّ جزء مِنْ الأجزاء التي تحتاجُ تحديداً، وبَعْدَهُ يتِمُّ القضاء، وهُوَ بمثابَة القرار بالتكوين، ثُمَّ يكونُ الْخَلْقُ في المكان والزّمانِ المحدَّدَيْنِ، بأمْرِ التكوين الرَّبَّاني: «كنْ» فهو «يكون» على وقف المقادير التي قضاها الله عزّ وجلّ.

والقضيَّةُ الّتي أبَانَتْها هذه الآيَةُ لَها صِلَةٌ بكُلّ مَا جاء في السُّورة مما يحتاج إلى تقديرٍ حَكيم، من الرَّبّ العليم الحكيم القدير، حتّىٰ عَدَدُ قَطَراتِ الماء التي نزلت من السماء أو نبعت من الأرض في طوفان نوح، وحتّى عَدَدُ الحجارة الّتي أمطرها الله على قوم لوط، وحتّى كلُّ جزئيَّةٍ من جزئيَّات الريح الّتي أهلك الله بها عاداً، وحتّىٰ مقدار قوة الصيحة التي أَهْلَكَ الله بها ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام.

وقد يخْطُر في بعض أَذْهَانِ المتلَقّين سؤالٌ حوْلَ سَحْبِ المجرمِينَ يَوْمَ الدّين في النار على وجُوههم، واضِعِينَ في تصَوُّرهم نِظَامَ الحياة الدّنيا، ونظام مقاديرها، فجاءت الإشارة بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ إلى أنّ مقادير نظام يوم الدين، مختلفة عن مقادير نظام الحياة الدنيا، فلا يُقَاسُ مَا في الآخرة عَلَىٰ ما في الدنيا بالنّسْبة إلى تَحْدِيد المقادير.

● قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾:

أي: وَما أمْرُنا التَّكْوِينيُّ في إيجاد الأشياء أو إعدامها، الذي يسْبِقُهُ قَدَرٌ فقضاء، إلاَّ كَلِمَةٌ واحدة، وهي كلمة: «كُنْ» كما جاء بيانه في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

فإذا قال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ لما أَرَادَ تكوينَهُ: ﴿كُن﴾ كان المراد على ما قضاه، ووفق مقاديره، دُون فاصِلٍ زمنِيّ، بل يُوجَدُ بَعْدَ أمْرِ التكوين كلمْحِ بالْبَصَرِ لِمُريد هذا اللَّمْحِ.

والتشبيه بلَمْحِ الْبَصَر تشبيهٌ تقريبيٌّ، لتعريفنَا كيْفَ يكُونُ إيجاد المكوّنَاتِ مَهْمَا عظُمَتْ عَقِبَ أمْر التكوين فوراً.

فقد جاء في نصٍّ آخَرَ بيانُ أنّ المكَوَّناتِ تُوجَدُ بعد أَمْرِ التكوين الرَّبَّانيِّ بأَقْرَب من لَمْحِ الْبَصر، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: وما أمْرُ وُجود السَّاعةِ بَعْدَ أَمْرِ التكوين الرَّبَّاني، سواءٌ أكانت ساعَةَ إنْهَاءِ نِظَام يَوْم الحياة الدنيا، أم كانت ساعَةَ إيجادِ نظام اليوم الآخِر وَبَعْثِ الأحياء بعد الموت، إلاَّ كَلَمْح الْبَصَرِ أوْ هُوَ أَقْرَبُ من سُرْعَةِ لَمْحِ الْبَصَر لمن تتوجَّهُ إرادته لأنْ يَلْمَح ببَصَرِهِ.

وصلة هذه الآية (٥٠) بما سبَقَ أن جاء في دُرُوس سورة (القمر) تابعٌ لِصِلَةِ الآيةِ (٤٩) الّتي قبلها، والّتي سبَقَ بيانها.

وفي هذه الآية (٥٠) الإعلامُ بأنَّ السَّاعَةَ الْمَقَدَّرَةَ المقضيَّة بالقضاء

الْمُبْرَم، لاَ تَحْتَاجُ أَكْثَرَ مِنْ أَمْرِ التكوين الّذي تَحْدُثُ به فَوْراً. وَبأَنَّ انشقاق القمر، وكلَّ الأحداث الّتي كان بها إهلاك المكذّبين بالنُّذرِ من كُفَّارِ الْقُرون الأولى، لم تَحْتَجْ أَكْثَرَ من أَمْرِ التكوين، فكانَتْ بَعْدَهُ فَوْراً حَسَبَ مَقَادير ذواتها وَصِفَاتها وأَزْمِنَتِها وأمْكِنَتِها.

وهكذا كُلُّ أوامر الله التكوينيَّة المسبوقة بقَدَرِهِ فقضائه، فَلْيَحْذَرِ المكذِّبون المعاندون، أنْ يُصِيبَهُمْ من اللّهِ ما أصَاب الّذين من قبلهم.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾؟!.

الكلام في السورة يدور حول المكذّبين بالنُّذرِ التي أنْذَرَ بها محمّد ﷺ، وأوَّلُ المقْصُودين هم معاصرو التنزيل، وفي مقدمتهم كُبَرَاءُ مُشْرِكي مكَّة الّذين أصَرُّوا على العناد ورفْضِ الحق الربَّاني.

على أنَّ السُّورَة تُعالجُ كُلَّ المكَذّبين إلى أنْ تَقُومَ الساعة.

وفي هذه الآية يخاطب الله عزّ وجلّ المكَذّبين بالنُّذر خطاباً مباشراً، فيقول لهم مُؤَكّداً بعبارة: «لَقَدْ»: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾.

﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾: **أشياع**: جَمْع «شِيَع» ومُفْرَدُها «شيعَة» فأشياع جَمْعُ جَمْعٍ، وتُطْلَقُ الأشياع على الأشباه والأمثال.

**الشّيعةُ**: القوْمُ أو الجماعَةُ من الناس الذي يجتمعون على أمْرٍ ما. وكُلُّ قَوْمٍ أَوْ جماعَةٍ لهم أَمْرٌ واحِدٌ مُتَّفِقُون عليه، أو لهم مذهَبٌ واحِدٌ يَسِيرُونَ عليه، أو لهم طريقَةٌ واحِدَةٌ يَتَّبِعُونها، وَلوْ لَمْ يُنَاصِرْ بعضُهُمْ بعضاً، ولو لم يكُونُوا في زَمَنٍ واحدٍ.

فاللاَّحقُون الذين هم على مذهب السَّابقين هم من شيعتهم، والسَّابقون الَّذِين هم على مذهب اللاَّحقين هم من شيعتهم أيضاً.

والشيعة في الغالب يُنَاصر بَعْضهم بَعْضاً فيما اجتمعوا عليه.

ويُشيرُ لفظ ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ بالجمع إلى أنّ كفّار القرون الأولى كانوا مختلفي المذاهب الكُفْرِيَّة، لكنهم مجتمعون على التكذيب بالنُذُر(١).

والمعنى: ولقد أهلكْنا أمْثَالَكُمْ وأشْبَاهَكُمْ الّذِين تَجْتَمِعُونَ معهم على طريقة واحدة في التكذيب بالنُّذرِ، الّتي جاءتهم عن ربّهم، على ألسنة الرُّسُل الذين بَعَثَهُمُ الله إليهم.

وبما أنَّ سُنَّتَنَا في عبادِنا السَّابقين واللاَّحقين واحدة، فاعلموا أنَّكُمْ إذا وصَلْتُمْ إلى مثل الذي وصل إليه المهْلَكُون السابقون من كُفْر وطُغْيان، وظُلْم وَعُدْوان، فإنَّنا سَنُنزِلُ بِكُمْ إِهْلاَكاً عامّاً شَامِلاً، مُمَاثِلاً لما أَنْزَلْنَاهُ بِالْمُجْرِمينَ السَّابقين.

● ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: أي: فَهَلْ مِنْ مَتَذَكِّرٍ يَضَعُ في ذاكِرَتِهِ سُنَّتَنَا هذه في عبادنا، لتكون واعظَةً لَهُ، فيَجْتَنب ما يجعله من المجرمين، الذين يستحقُّون الإهلاك العامّ المعجَّل في الحياة الدنيا، ثُمَّ العذاب الأبديَّ الخالد يَوْمَ الدِّين في سَقرَ.

استعمل الاستفهام في الحضّ والحثّ على التذكُّر الدافع إلى الاعتبار والاتعاظ.

إنَّ وضْعَ الفكرةِ ذاتِ التأثير النَّفْسِ في الذَّاكِرة حيَّةً دواماً، أو متناوبَةً آناً فآناً، أو آنا ثُمَّ آناً، من شأنِه أن يَجْعَلَها مُتَتابعَةَ الطَّرقاتِ على غُدَدِ التَّحْرِيضِ في النَّفْسِ، وبهذا التتابُعِ التَّحْرِيضي يتَّجهُ ذو الإرادَةِ الواعيَةِ العاقِلَة إلى تَحْقِيقِ ما يَنْفَعُهُ ممّا آمن بمَنْفَعتِه، واجتناب ما يَضُرُّه ممّا آمَنَ بمضَرَّتِهِ، وهكذا يكُونُ الاعْتِبَارُ والاتعاظ.

---

(١) فما أبدع الدّقة في البيان القرآني، والقرآن حينما يتحدّث عن فِرَق أهل ملة واحدة، يأتي بلفظ «شِيع» وحينما يتحدّث عن فرقة معينة ذات مذهب واحد يأتي بالمفرد «شيعة».

**مُدَّكِر: أصلها مُذْتكِر، من صيغة «اذْتكَر» على وزْنِ «افتعل» تحويلاً من فعل «ذكَر». وقلبت التاء دالاً بَعْدَ الذّال، ثم قلبت الذال دَالاً، فصارتَا دالاً مُشَدَّدَةً «ادَّكَرَ» واسم الفاعل منه «مُدَّكِر».**

● قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾:

أي: وكُلُّ شَيْءٍ فَعَلَهُ الموضوعُونَ في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدين، مكْتُوبٌ ومُسَجَّلٌ في الزُّبر.

**الزُّبُر: هي الكتب، جمع «زبور» وهو الكتاب المزبور.**

والمراد بالزُّبُرِ هنا صُحُفُ ملائكة تسجيل أعمال العباد وكتَبُهُم.

وقد صَرَّحَ هذا النَّصُّ بالأفعال، وبما أن القول فعْلٌ منْ أفعال اللّسان، فهو يَدْخُل في عموم الأفعال.

وسبق أن جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) التصريح بتسجيلِ الأقوال، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾.

والتصريح بسجيل الأقوال يتضَمَّنُ باللُّزُوم الذهنيّ تَسْجيلَ سَائِرِ الأفَعَال، لأنّ الأفعالَ ذَاتَ الآثار الماديّة، أَدلُّ في ظروف الحياة الدُّنيا على تَوجُّه الإرادة الموضوعة موضع الاختبار، من الأقوال الّتي هي أفعال في اللّسان معبّراتٌ عن معاني قد يكون اللّسان فيها صادقاً وقد يكون غيْرَ صادق، على أنَّ الأعمال ذات الآثار الماديّة قد يدخُلُ فيها النفاق أيضاً، ولكن بصورة أقلّ من الأقوال.

وبعد تنزيل سُورَة (القمر) أنزل اللّهُ عزّ وجلّ بيانات أخرى بشأن كتب تسجيل أعمال العباد، فيها تفصيلات مُكَمِّلاَتٌ لمَا أنزل الله في سُورَتي (قَ)

و (القمر) ومنها قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾:

﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾: أي: جَعَلْنا كلَّ عَمَلِه وكَسْبِهِ في الحياة الدُّنيا الّذي هو بمثابَة الطائر الي يَطير من قَفَصِهِ، مُعَلَّقاً بمَناطِ المسؤوليّة لدَيْه، المعبَّرِ عَنْهُ بالْعُنُقِ، فَهوُ يوم الدين مسؤول عنه ومحاسَبٌ عليه.

وارتباط قول الله تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ بما جاء في دروس السّورة، أنَّ المكذبين بالنُّذُر، قد يقع في توهمهم أنَّ أفْعَالَهم الّتي يفْعَلُونَها تُنسَىٰ فَلاَ يُحَاسَبُونَ عليها، ولا يجازَوْنَ، فكان من الحكمة البيانيَّة التصريح في الدرس الأخير من دروس السورة بأنّ كُلَّ شيءٍ فَعَلُوه بإراداتهم من أفعال ظاهرة أو باطنه، مُسَجَّلٌ مُدوَّنٌ في الكتُب المخصَّصَة لتسجيل أعمال العباد جميعاً، فلا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ منهم أنَّ أفعالَه متروكة منسيَّة، ليس وراءها حسابٌ، وفَصْل قضاء، وتنفيذ جزاء.

● قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿مُّسْتَطَرٌ﴾: أي: مكتوبٌ مُسَجَّلٌ تسجيلاً ثابتاً، لا يتَعَرَّضُ للتآكل والمَحوِ مهما تطاولت الأزمان.

والمعنى: أنَّ كُلَّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في الوجود، ما كان ومضى، وما هو كائنٌ الآن، وما سيكونُ أو سَوْف يكون في المستقبل مكتوبٌ مُسَجَّلٌ مُسْتَطر.

**السَّطْر في اللُّغة**: الخطُّ والكتابة، وهو مصدَرُ سَطَر الكتابَ يَسْطُرُهُ سَطْراً، أي: خَطَّهُ وكتبه.

ويقالُ في التوكيد: سَطَّرَه، أي: كتبه بعناية.

ويقال عند شدّة العناية المصحوبة بتكلّف استَطَر الكتاب، ومنه اسم المفعول: «مُسْتَطَر».

والغرض بيانُ ثباتِ المستَطَرِ عند الله، وعَدَمِ تعرُّضِه للتآكل والمحو.

ولمّا كانت الأمور الصغيرة مما يتهاون الناس به في حياتهم، جاءَتِ البيانات القرآنيّة منبِّهَةً على الصغير قبل الكبير، لتَدُلَّ على أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ لَيْسَ لَدَيْهِ تَهاوُنٌ بشيءٍ في كونه، فكلُّ صغير وكُلُّ كبير مشْمُولٌ بالتقدير والقضاء، والإيجاد والإعدام، بنِسْبَةٍ واحدة من العناية.

وما دلّتْ عليه هٰذِه الآيةُ بعُمُومِها، قد جاء تفصيلُه في عدّة نصوصٍ قرآنيّة، فمنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

(٦) وقول الله عزّ وجلَّ في سُورَةِ (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾.

هذا الكتاب المبين هو اللَّوْح المحفوظ، وهو كتاب علم الله الشاملِ كلَّ شيء.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾:

في مقابلِ بيانِ لقْطَةٍ من عذاب المجرمين يوم الدين، اقتضىٰ البيان الحكيم تقديم لقْطَةٍ من نعيم المتقين، وفق المنهج القرآني الذي يُتْبِعُ الترهيب بالترغيب، والعكس، فما اقتضىٰ السّياق ذكره أوّلاً منهما، فالآخر يأتي بَعْدَه، لأنّ الموعظة الحسنة ترغيب وترهيب، على مِحْوَرَيْ الرَّغَبِ والرَّهَبِ في النفس، وهما في النَّفْس مُتَلازِمَان.

وإذا كان العقابُ الرَّبَّانيُّ قائماً على صفة الْعَدْل، فالثوابُ الرَّبَّانيُّ قائم على صِفَات الفضل والجود والمنّ والكرم.

وكما جاء تأكيد عقاب المجرمبن بمؤكدين: «إنّ ـ والجملة الاسمية» جاء تأكيد ثواب المتقين بهذين المؤكدَيْن أيضاً، مراعاة لحال المخاطبين في الأمْرَين، وليتَّسِق البيانان في نَسَقٍ متماثل متكافئ، وهما حاصران للدرس الأخير من دروس السّورة، بِبَيان صُورةٍ من صُور عقاب المجرمين في أوّله، وبيان صُورةٍ من صُور ثواب المتقين في آخره.

[**المتقون**]: هم أهل مَرْتَبة التقوى، وهٰذه المرتبة ذات درجات متفاضلات كثيرات.

وأدْنىٰ درجاتها دَرَجَةُ الإيمان والبراءَةِ من الشِّرْك، الّذي هو أخف

دَرَكاتِ الكُفْر وأهونُها، وأخَسُّ منه إنكار وجود ربّ خالق، والجمع بين الكفر والنفاق.

وبالبراءة من الشرك يَحْمي المتقي نَفْسَه من الخُلود في النار.

وتَرْتَقِي دَرَجاتُ المتقين، وأعْلاَها دَرَجَةُ تأدِيَةُ كُلّ الواجبات الدينيَّة، وَتَرْكُ كلِّ المحرَّمات الدينيَّة.

وفوق مرتبة المتقين تأتي مرتبة الأبرار، وهم الذين يتوسعون في أَعمَال البرّ من المندوبات والنوافل، ولهذه المرتبة درجات متفاضلات كثيرات.

وفوق مرتبة الأبرار تأتي مرتبة المحسنين، وهي ذات درجات متفاضلات كثيرات.

وقد عرَّف الرسول ﷺ الإحسان بقوله: «أن تعبدُ الله كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تكن تَرَاهُ فإنَّه يراك» فالإحسان حالة كيفيَّةٌ تكمن بإتقان العبادة مع كمال الإخلاص لله فيها.

وكُلٌّ من الأبرار والمحسنين يوصفون بأنَّهم متَّقُون، لأنَّهم مُتَّقُون وزيادة، والدَّرَجَةُ الأدْنَىٰ شَرْطٌ طبيعي للدَّرَجَةِ الأعلى، فلا يكون المؤمن من الأبرار حتى يكون من المتقين، ولا يكون من المحسنين حتى يكون من المتقين، وحتى يكون من الأبرار غالباً.

فالجميع يدخلون في عُمُوم المتقين، فالثواب المذكور في النَّصِّ وعْدٌ لهم به جميعاً.

﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾: الجنّات جمع «جَنَّة» وهي ما يحتوي على أشجارٍ وثمارٍ وزُرُوع وأنْهار وقُصُورٍ، وكلّ مَا يُمتِعُ النَّفْس والحواسّ.

ودار النعيم يوم الدّين فيها جنَّاتٌ متعدِّدَاتٌ، ويجْمَعُها جَمِيعاً اسم

«جنَّة» باعتبار أنَّها كُلَّها بمثَابَةِ دارٍ للنعيم، كشأْنِ دَارِ الحياة الدنيا بكُلّ ما فيها من أَرْضٍ وسَمَاوَاتَ.

وهذه الجنَّة الجامعة العامّة عَرْضُها السَّمَاواتُ والأرض، أُعِدَّتْ للمتقين.

﴿وَنَهَرٍ﴾ يقال لغة: نَهْرٌ ونَهَرٌ بإسْكان الهاء وفَتْحِها، والْفَتْح أفْصَح، وهو مَجْرَى الْمَاءِ المنخفض عن سَطْح الأرض، وجَمْعُهُ «أَنْهَارٌ» و «نُهُرٌ» و «نُهُور».

ويقال لغة: نَهَرَ الماءُ، إذا جَرَىٰ في الأرض، وجعل لنفسه نهراً، وتقول: نَهَرْتُ النَّهَرَ، إذا حَفَرْتَه.

قال الفرّاء: ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَهَرٍ﴾ معناه أنهار، أي: أُطْلِق المفردُ وأريد به الجنس، فيشْمَلُ كُلَّ الأنهار الّتي في الجنّة.

وجاء في نصوص كثيرة جداً في القرآن الكريم وصْفُ الجنة بأنّ فيها أنهاراً تجري من تحتها.

وجاء في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ في وصف الجنة:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ . . . ﴿١٥﴾﴾.

وقد يكون النَّهَرُ الْمُرادُ في سُورَةِ (القمر) نهراً عظيماً يمرُّ في جميع الجنَّاتِ على تعَدُّدِها، وهو غير الأنهارِ الّتي جاء ذِكْرُها في سائر النُّصُوص، فهي موزّعةٌ في الجنَّاتِ دُونَ أن يكون كلُّ واحدٍ منها مارّاً فيها جَمِيعِها.

- ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: المقْعَدُ: هو مكان القعود. أي: في مكان إقامةٍ مُطْمَئِنَّةٍ مُرِيحَةٍ لاَ عَنَاءَ فيها.

يقولُ العرب: رجُلُ صِدْقٍ، أي: رجُلٌ نِعْمَ هُوَ رَجُلاً، وامرأَةُ صِدْقٍ، أي: امرأة نِعْمَتْ هي امرأةً.

فهي صيغة من صِيَغِ الثناء والمدْح، فعبارة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ على هذا هي بمعنى: في مقْعَدٍ نِعْمَ هو مقعداً.

وهذا التعبير هو من إضافة الموصوف إلى صفته، وأصْلُه: رجُلٌ صِدْق، وامرأةٌ صِدْقٌ، ومَقْعَدٌ صِدْقٌ، وقَدَمٌ صِدْقٌ.

أي قد حقَّقَ الموصُوفُ في الواقع كُلَّ مَا يُطْلَبُ مِنْ كمال صفاته، فاسْتَحقَّ الثناء والمدح، بما يَدُلُّ على كمال المطابقة بينه وبين الصُّورة المثْلَىٰ لنَوْعِه، وذلك هو الصِّدْقُ حَقاً، إذْ لم يَكْذِبْ في واقِعِهِ أن يُطَابِقَ بين الاسم وكَمَالِ المسمَّىٰ.

● ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾:

﴿مَلِيكٍ﴾ من صِيَغِ المبالغة لمالك، ولفظ «مَليك» على وزْنِ «فعيل»، ونظيرُهُ «مَلِك» على وزن «فعِل». ومعنى المليك والمِلك: المتصرف بالأمر والنهي في عباده، وهو المالك لكل شيء.

﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ هُوَ من أسْمَاء الله الحسنى، أي: ذو القدرة الكاملة. والمقْتَدِرُ أبْلغُ من القادر أخْذاً من زيادة المبنى.

وجاء هذا الاسم أيضاً في قول الله عزّ وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾..

سوابق الحديث في نجوم التنزيل عن ثواب المتقين في الجنة.

جاء الحديث عن ثواب المتقين في (نجوم التنزيل قبل سورة القمر) في ست سُوَر، كما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾.

فأبان هذا النّصّ أن جَنّاتِ النَّعِيمِ يَوْم الدّين، قد جعَلَها الله ثوابَ المتقين، أي: فمن فوقهم من الأبرار والمحسنين.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾.

فأبان هذا النصّ أَنَّ نفوس أصحاب الجنة تكون مطمئّة، ورَاضِيَةً بما هي فيه من نعيم، ومَرْضيَّةً مِنْ قِبَلِ رَبّها.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

فجاء في هذا النّصّ شَرْحٌ للمتَّقِينَ، بأنهم الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات، وجاء فيه بيان أن جنّات النعيم تَجْري من تحتها الأنهار، وأنّ أصحابها فيها قَدْ فَازُوا فَوْزاً كبيراً.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

فأضاف هذا البيان أشياء لم تأتِ في النصوص السابقة، وهي واضحة.

(٦) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وفي هذا البيان تفصيلاتٌ لم تذكَرْ في النُّصوص السَّابقة.

فإذا أضفنا إليها ما جاء في آخر سورة (القمر) الّتي سبقَ تَدبُّرها بما فتح الله وهو قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

ونظرنا إليها نظرةً تدبُّريَّة مُتأنِّية، وجَدْناها مُتكامِلَةَ الدَّلاَت فيما بيْنَها، غَيْرَ مُكرَّرات، وهٰذَا مِنْ عَناصِرِ إعْجاز الْقُرْآن المجيد.

وبهذا تمَّ تَدبُّر سُورَةِ (القمر) على ما فتح الله وألْهَمَ وأمَدَّ بعونه وتوفيقه، والحمدُ لَهُ على ما يَلِيق بجلاله وعظيم سلطانه.

❁ ❁ ❁

## ملاحق لسورة القمر

**الملحق الأول:** مستخرجات بلاغيّة من السورة.

**الملحق الثاني:** حول إعراض الكافرين المعانِدين عن آيات الله.

**الملحق الثالث:** حول الحكمة في القرآن المجيد.

# (١١) الملحق الأوّل
# مستخرجات بلاغية من سورة القمر

تشتمل سورة (الْقَمر) على جماليات وروائع بلاغيّة متعدّدة، أُقَدِّم منها في هذا المَلْحَقِ المسْتَخْرَجات التاليات:

**أوّلاً:**

آيات سورة (القمر) مُقَدَّرةٌ بكَلِمَاتِها وَفَواصِلِها عند رؤوس الآيات منْها تقديراً حكيماً بَدِيعاً، فيه سَلاسَةٌ جميلة في الأسْماع، فلا تَجدُ فيها كَلِمةَ غيْرَ مُحْتَلَّةٍ موقِعهَا الْجَميل في اللّفظ، وغَيْر محتلَّةٍ مَوْقِعَها الجميل في النفس، مع كمال الدّقَّة في أداء المعاني.

وعلى الرُّغْم من أَنَّها تُشْبِهُ السَّجْعَ، إذ جاءت رؤوس آياتِها على حرف الراء، إلاَّ أَنَّها لاَ تَنْزِلُ إلىٰ مُسْتَوىٰ سَجْعِ أعْظَم فُصَحاءِ العَرب، ولا تُشْبِهُ سَجع الكُهَّانِ بحالٍ من الأحوال، فهِي نَمطٌ فَرِيدٌ بَدِيعٌ من التّسْجِيع، الذي لا حشْوَ فيه ولا لَغْو، ولَيْسَ فيه اسْتِدْعاءُ كَلِمَاتٍ بمعانيها استدعاءً يَحْسُنُ الاستغناءُ عنه.

**ثانياً:**

وفي السُّورَةِ إيجازَ القِصَرِ، وإيجَازُ الحذْفِ:

فمن إيجاز القِصَرِ مَا يلي:

(١) كَلِمةُ: «مُسْتَمِرّ» من قَوْلِ الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ فيها إيجاز الْقِصَر، لِدَلاَلَةِ هذه الكلمة على المرور والمضي، وعلى العادة المتكرّرة، ولِدَلاَلَتِهَا عَلىٰ الْقُوَّةِ والشّدَّة المأخُوذَة من المِرَّة وهي القوة، كما سبق في التدبر.

(٢) وكلمة: السّاعة الصالحة للدلالة على ساعة إنهاء ظُرُوف الحياة الدنيا، وللدلالة على ساعة البعث.

(٣) وجُمْلَةُ ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ من الجُمَلِ الكلّيَةِ الْعَامَّة، التي تشْمَلُ كُلَّ أَمْرٍ مِن أمُورِ الله وَقَوانِينِه وأنظمته في الوجود، وبيَانِ أَنَّهُ مُسْتَقِرٌّ لا يتأثَّرُ بِكُفْرِ الكافِرين، ولا تكذيب المكذِّبين، ولا معانَدَة المعانِدِين، ولا جَبَرُوتِ الجبَّارِين، فهٰذِه الكليَّةُ من إيجاز القِصَرِ.

ومعظم الكليّات الكبرى في هذه السُّورةِ من إيجاز القصر، إذ كانَ من الممكن صياغةُ عباراتٍ أطْوَلَ مِنْها دون حشْوٍ، وعباراتٍ أُخْرَىٰ فيها إطْنَاب.

وفي السّورَة من إيجاز القِصَر قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ وليس من الإطناب تفصيل «شيْءٍ» إلى «صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ» لأنّ الغرض في البيان دفْعُ تَوهُّم التَّهاوُنِ بكتابَةِ الصغير.

وَتوجد أمثلة أخرى من إيجاز القِصَر في السُّورة تركْتُها لاستخراج دارسها بتدبر.

ومن إيجَازِ الحذْفِ ما يلي:

(١) عبارةُ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ وعبارةُ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾.

والمحذوف فيها فعل «اذْكُر» العامل في الظَرْف «يَوْمَ».

(٢) وعبارة: ﴿...أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: بل أَلَكُمْ بيَانُ براءَةٍ في الزُّبُر، أو صَكٌّ براءة في الزُّبُر من التكاليف الدينيّة، أو من الامتحان في الحياة الدنيا.

(٣) عبارة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾ أي: ولقد جاء فرعون وآلَهُ وأتباعهم النُّذُر.

(٤) عبارة: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ أي: عند هؤلاء المعنيّين بالخطاب.

وفي السورة مطويّات كثيرات لم تذكر بصريح العبارة جاءَ بيانها في تدبّر السورة، وفيها من إيجاز الحذف أمثلة أخرى تركتُها لاستخراج دارسها بتدبر.

**ثالثاً:**

التشبيه المرسل المجمل في قول الله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ وفي قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾:

- أمّا كوْنُ التشبيه فيهما مُرْسَلاً فلِذِكْرِ أداة التشبيه.
- وأما كوْنه فيهما مُجْملاً، فَلِعَدَم ذِكْرِ وَجْهِ الشَّبَه.

والغرض من التشبيه فيهما تَقْرِيب صورة الحدَثِ بصُورَةٍ مشهودة بالْحِسّ.

**رابعاً:**

استقطاع النّصُوص من أزمانها الماضية أو المستقبلَة، وعَرْضُها بألْفَاظها دُونَ الإشارَة إلى أنَّه كان كذا فيما مضىٰ، أو أنّه سيَكُونُ كَذَا فيما سَيَأتي، أو سَوْف يكون.

ونجدُ هذا الفنَّ البديعَ في قول الله عزّ وجلّ:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ونجده في قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ ونظيرها في الآية (٣٩).

وفي قول الله عزّ وجلّ:

﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

**خامساً:**

خروج الاستفهام عن أصل دلالته، للدلالة على معاني أخرى:

فجاء الاستفهام مستخدماً للدلالة على الإنكار في النّصُوص التالية:

(١) في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ .. ﴿٢٤﴾﴾؟.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا .. ﴿٢٥﴾﴾؟.

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾؟

**سادساً:**

استخدام ضمير المتكلّم العظيم في كثيرٍ من آيات السُّورَة، لأنّ البيان الوارد في السّياق يشتمل على أعمال خَلْقٍ لا يفعَلُها إلاّ من له الرُّبوبيَّةُ العظمىٰ القادرة على كلّ شيء، مِثْل: [**فَفتَحْنَا ـ وفَجَّرْنَا ـ وحَمَلْنَاهُ ـ إنَّا أَرسلنَا ـ ولَقَدْ يَسَّرْنَا ـ كذَّبُوا بآيَاتِنَا ـ بَطْشَتَنَا ـ وَمَا أَمْرُنَا**].

**سابعاً:**

تأكيد بعْضِ الجُمَل ببَعْضِ المؤكّداتِ، لأنّ أحوال المقصودين بالبيان تقتضي تأكيد البيانات الوارداتِ في السّياق لهم.

- فجاء التأكيد بعبارة [**لَقَدْ**] في السّورَة عِدَّة مرَّاتٍ.
- وَجاء التأكيد بمؤكِدَيْنِ: «إِنَّ والجملة الاسميَّة» في عدّة مواضع من السُّورة.

**ثامناً:**

الابتعاد عن التعبير المباشر باستخدام الكنايات، والإشارات اللَّمحيّة، في عدَّة مواضع جاء شرحها خلال تدبُّر السُّورة.

إلى غير هذه العناصر البلاغيّة ممّا يُمكِنُ اسْتِخْراجُهُ بالتَّأمُّل من السُّورة.

❋ ❋ ❋

## (١٢)

# الملحق الثاني
# حول إعراض الكافرين المعاندين عن آيات اللّه

تحدَّث القرآن المجيد حول موضوع إعراض الكافرين المعاندين المكابرين الذين يستكْبرون في الأرض، ويتَّبِعونَ أهواءهم وشهواتهم، ونزعاتهم، ويستجيبون لنزغَاتِ الشياطين، عن آياتِ الله الكونيّة وآيَاتِه الإعجازية، وآيَاتِه البَيَانيّة المنزّلة، وآياته الجزائية، في نُصُوصٍ متعدّدة موزعة في طائفة من سُوَره.

وأتابع في هذا الملْحَقِ استعراضَها بشيءٍ من التدبر:

**النصّ الأول:**

قول الله عزّ وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن أئمة الكفر والشرك في مكة، إبّان نزول السورة، وبمناسبة ذكر آيَةِ انشقاق القمر للرسول محمد ﷺ:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

وقد سبق تدبُّر هذا النَّصّ، ضِمْن الدراسة التدبُرِيَّة لهذه السّورة.

**النص الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مُبيِّناً ما قالَهُ آل فِرْعَوْنَ لموسَىٰ عليه السَّلام، بعد أنْ أخذهم الله بالسنين المجدِبَة، ونقص من الثمرات، لعلّهم يتَذَكَّرُون:

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾.

وفي التعقيب على قَوْلِهم هذا كان الإجراء الرَّبَّاني ما أبانه اللّهُ عزّ وجلّ في الآية التالية:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

فَقَدَّمَ اللَّهُ عزَّ وجلّ بهذا لكفَّارِ قريش المعاندين المستكبرين، ولكلّ أمثالهم المعاصرين والآتين في العصور اللاّحقة، ما فيه عِبْرَةٌ وعِظَةٌ بما كان من الذين سَلَفُوا من كُفَّار القرون الأولى، وبما أنزل الله بهم من عقاب.

**النصّ الثالث:**

قَولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً مُبيّناً بَعْض ما كتبَهُ في الألواح الّتي آتاها موسى عليه السلام.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

فأبان اللَّهُ عزّ وجلّ في هذا النّصّ أنَّ مِنَ الْقَوانين والسُّنَنِ الْعَامَّةِ الّتي فطَرَ الله النَاسَ عليها، أنَّ مَنْ تَكَبَّرَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ، طَمَسَ كِبْرُه على بَصِيرَته، فجعَلَهُ يَنْصَرِفُ عن آيات اللَّهِ، وبِهٰذا الانصرافِ عن آياتِ اللَّهِ وعَدَم التأثر بها والاستفادة من دلالاتها، يكون من شأنه أنّه إنْ يَرَكُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُ بها، وأنّه إنْ يَرَ سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخذْه سبيلاً، وأَنَّهُ إنْ يَرَ سَبيلَ الْغَيّ يتّخِذْه، سبيلاً.

فالتكبُّرُ في الأرض بغير الحقّ يُوَلّد كُلَّ هٰذهِ القبائح والمنكراتِ والكُفريّات.

وفي هذا تحليلٌ تَعْريضيٌّ غير مباشر لحَالِ مُتكبِّري كُفَّارِ مَكَّة، الذين كذّبُوا رسُول الله محمّداً ﷺ، وكذَّبُوا بما جاءهم به، ضمن بيان سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ العامّةِ في النفوس الإنسانيّة.

**النصّ الرابع:**

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأن الذين كذّبوا رسُولَ الله محمّداً ﷺ، وكذّبوا بالقرآن الذي جاءهم به عن ربّه جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

فأبانَ اللّهُ عزّ وجلّ في هذا النّصّ دَأبَ الكفّار المعاندين الذين كذّبوا رسُول الله، وكذبوا بما جاءهم به عن ربّهم، وهو أنّهُمْ ما تأتهم من آيَةٍ إعجازيَّة، أَوْ آيةٍ قُرْآنيَّةٍ بُرْهَانِيَّةٍ، إلاّ كانُوا عَنْهَا مُعْرِضين، غير مكْترِثين لها، ولا عابئين ولا مبالين بها.

**النص الخامس:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة [يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) خطاباً لرسول الله ﷺ:

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

تحدّث هذا النّصّ عن آيات اللّهِ الدّائِمَاتِ في ظاهِراتِ الكون، لا عن آياته الطّارِئَاتِ الخارِقاتِ لنظام الكَوْنِ الْمُعْتاد.

فالآياتُ الدّائماتُ في ظاهرات الكَوْن تَدُلُّ على طائفة من صفات اللّهِ الجليلات، وتدُلُّ على رُبُوبيّته الدّائمة لكلّ ما سواه، وعلى وَحْدَانِيّتِهِ في رُبُوبيّته، المستلزمةِ لوحدانيّته في إلَهِيَّتِهِ.

لكِنَّ الكافرين المعاندين المكابرين يَمُرُّون على آياتِ الله الكثيرات الْمُنْتَشِرَاتِ في السّمَاوَاتِ والأرض، فيُعْرِضُون عنها غير مُكْتَرِثين لها، ولا عَابئين بدلالاتها.

### النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بشأنِ أئمةِ الكفر والشرك في مكّة إبَّانَ التنزيل:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾.

أي: فَسَوْفَ يأتِيهم يَوْم القيامة تحقيقُ أَنْباءِ مَا كانوا به يَسْتَهْزِئُون، مُنْكِرِينَ البعث، والْحِسَاب، وفصلَ القضاء، وتحقيقَ الجزاء في الجنة دار نعيم المتقين، أو في النار دار عذاب الظالمين.

والمراد بالآيات الّتي تأتيهم الآياتُ الإعجازية الكونيّة، والآياتُ البيانية القرآنية.

### النص السابع:

قول الله عزّ وحل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

إنّ كِبْرَهُمْ واتِّباعَهُمْ لأهوائهم وشهواتِهم ونزعاتهم، واستجابتهم لنزغاتِ الشياطين، أمورٌ جَعَلَتْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[(١)]، ضِمْنَ أنظمة الله وَقَوانِينه وسُنَنِهِ السَّبَبِيَّةِ، فمنعتْها من أَنْ تَفْقَهَ دَلاَلاَتِ آيات كتابِ الله المنزَّل، وجَعَلَتْ أيْضاً في آذانِهِمْ وَقْراً[(٢)]، فحجَبَها عن استماع آيات الله المنزَّلات على رسوله.

---

(١) أَكِنَّةَ: جمع «كِنَان» وهو كلُّ غطاءٍ يحجُبُ ويَسْتُر.

(٢) وَقْراً: الوقْرُ الصَّمَمُ، أو ثِقَلٌ في السَّمْع قريبٌ من الصمم.

وأَبان هذا النصّ أنَّ هؤلاء قد انْطَبَقَ عليه قَانُونُ السُّنَنْ السببيَّة، الذي جاء بيانه في النّص الثالث من هذه النصوص، وهو ممَّا كَتَبه الله عزّ وجلّ لموسَىٰ في الألواح، وهو الآية (١٤٦) من سورة (الأعراف) فهؤلاء إنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بها، والسَّبَبُ أَنَّهُمْ يَتَكَبَّرونَ في الأرض بغَيْرِ الحقّ.

وهم يجادلُونَ في آياتِ اللّهِ المنزّلاتِ في كتابه، فيقولونَ عنها: إنْ هذا إلاَّ أَسَاطِير الأوّلين، أي: مَكْتُوبَاتُ الأوّلين، أَوْ خرافاتٌ وَأكاذِيبُ الأوّلين.

**النص الثامن:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً بشأن كُبَراء كفّار ومجرمي مكّة إبَّان تنزيل السورة:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

إنّ كُفْرَ هؤلاءِ كُفْرٌ عِنادِيٌّ سَبَبُه مَا في نفوسِهِمْ مِنْ كِبْرٍ، يمنعهم من أن يُؤْمِنُوا بِمَنِ اصطفاه الله رسُولاً، ومن أن يَتَّبِعُوه، ويَجْعَلُونَ إيمانَهُمْ مَشْرُوطاً بأَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ عزّ وجلّ مِثْلَ مَا آتاه لِرُسُلِهِ.

فجاء في البيان الرَّبَّاني: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وجاء البيان الرَّبَّانيّ بأنَّ هؤلاء المستكبرين سَيُعَاقَبُون بِصَغَارٍ عند الله يوم الدِّين، وبعذاب شديد بسبب ما كانوا يُمكُرُونَ ضدّ دين الله، ورسُولِه والذين آمنوا به واتّبَعُوه.

**النصّ التاسع:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

**يَسْتَسْخِرُون**: أي: يَسْتَهْزِئُونَ.

فأضافَ هٰذا النَّصّ أَنَّهُمْ تَجاوَزُوا دَرَكَةَ الإعْراضِ، وانْحَطُّوا إلى دَركة الاستهزاء بآياتِ اللّهِ الباهرات، ويُكَرِّرُونَ مَقَالَتَهُمُ القديمة: إنْ هٰذا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ.

**النص العاشر:**

قول الله عز وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوّل سورة مدَنيَّة التنزيل بشأن أهل الكتاب، وخطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ . . . ﴿١٤٥﴾﴾.

هذا البيان يَدُلُّ على أنّ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ وهم اليهود بالدرجة الأولى، ثم النصارىٰ، لا يَنْقُصُهم الاقتناعُ بصِدْق رسالتك، ولكِنْ يَحْجُبُهمُ التَّعصُّب الأَعمى، والمصالح الدُّنيويَّة الخاصَّة، عن الإيمان بكَ نَبيّا رسُولاً، وعن اتّباعِ شَريعَتِكَ، والتَّوَجُّهِ في الصَّلاة لقبلتِك.

**النصّ الحادي عشر:**

نصٌّ جاء في سُورَةِ (يُونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نُزُول) خِطاباً من الله لرسوله بحسب الظاهر، وهو في الحقيقة خطابٌ لكُلِّ مُكلَّفٍ يُدْرِكُ دَلالاتِ هذا الخطاب.

وهو نصٌّ مَدَنِيُّ التنزيل، ضُمّ إلى سُورَةِ (يونس) التي هي من أواسط التنزيل المكيّ، مُرَاعَاة للمناسبة الفكريَّة الَّتي اقتضت ضَمّهُ إليها، وتأخير تنزيله قَدْ رُوعي فيه مقتضىٰ حال وجود الرسول في المدينة. وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

لقد خاطب الله رسُوله بهذا النّصّ بحَسَب الظّاهر، باعتباره أوّل المكلّفين المأمُورين بالإيمان وبالإسلام لمَا أنزل الله، والغرضُ أن يَسْمَع هذا الخطاب الموجَّهَ للرّسُولِ غَيْرهُ من المكلّفين، ليعْلَمَ أنّ الرسول مكلّفٌ أنْ يكونَ أوّل المؤمنين المسلمين، وأنَّهُ غَيْرُ مُستثْنىً من قانون العقاب والجزاء، لو عَصَىٰ أو كذَّب، لكنّه لا يَفْعَل ذَلِكَ حتماً، لأنّ الله لم يصْطَفِه لِرَسَالَتِه الخاتمة إلاّ عَالِماً بما يتحلّىٰ به من كمالٍ بَشَرِيّ.

ويُعْتَبرُ هذا الخطابُ من أزوع الأساليب التربويَّةِ وأَحْكمها للآخرين، إذْ يُذرِكُونَ به أنّ الرّسُولَ مع ارتفاع منزلته عِنْدَ رَبّه، وعُلُوّ مقامِهِ وَشَأنِه، لَمْ يَرْفَع الله عنهُ موادَّ التكاليف الموجّهة لِغَيْرِهِ، ولاَ قَانُون العقاب لو كذَّبَ أو شكَّ أَوْ عصَىٰ.

فَلْيَعرِفْ كُلُّ مُكَلَّفٍ مَوْقِعَهُ بيْنَ يَدَيْ رَبّه جلّ جلاله، وأَمَامَ تكالِيفِ الدِّين الموجَّهَةِ لجميع المكلَّفين على سواء.

إنَّ رسُولَ الله محمّداً ﷺ لاَ يُمْكن أن يكون من الشاكّين، ولا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ من الّذين كذّبوا بآياتِ الله، لكِنْ إذا سَمِعَ الشّاكُونَ والمكذِّبُونَ هذا الخطاب للرسول أيْقَنُوا أنّ الأمْرَ شامِلٌ وَجِدٌّ.

فإذا كانَ الرَّسُول نفسه ﷺ مع ارتفاع منزلته عند ربّه وعُلُوّ مقامه، غير مَعْفِيٍّ من قضايا الإيمان والإسلام، فَمَا يكونُ شأنُ سائر الناس؟.

إنّه أسْلُوبٌ يُعْطِي الإقناع، ويُلْقِي الخوفَ في قُلُوب الشاكّين والمكذبين.

أمّا قول الله عزّ وجلّ في هذا النصّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

فهو يَدُلُّ على أنّ الّذِين حقَّتْ عليهم كَلِمَةُ اللّهِ بأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا آخر ظرُوف امتحانهم، وتَقَلَّبَتْ علَيْهِمْ كُلُّ صُورِه ووسائله، فأصَرّوا على الكُفْر، وعلى معانَدَةِ الحق الذي دمغتهم حُجَجهُ، فَلَزِمَهُمْ الحكْمُ علَيْهم بالإدانَةِ واسْتِحقَاف العقاب على الكُفر، هٰؤلاء لا يُؤْمِنُون مَهْمَا أمْهِلُوا، فإيمانُهُمْ مَيْؤوسٌ منه، بعْدَ أنْ مَرُّوا في كُلِّ ظُروفِ امْتحانِهِمْ، إقْنَاعاً وتَرْغيباً وَتَرْهيباً، ومُعَالجةً تَرْبويَّةً، بكُلّ ما يُورِث استجابَةَ مَنْ لديه استعدادٌ ما للإيمان.

إنّهم لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ تُورِثُ في الْعَادة اقتناعاً فِكْرِيًّا، أَوْ تُحَرِّكُ النفوسَ بِرغبةٍ أو بِرَهبة.

وإيمانُهُمْ لاَ يكونُ إلاَّ إذا رَأَوْا بأعْيُنِهِمْ وَأَحَسُّوا بأجْسَادِهِم العذابَ الأليم.

لكنّ هذا الإيمان لا يَنْفَعُهم حينئذٍ، لأنَّ العذاب الأليم إنّما يأتي حينما تَنْتَهي مُدَّةُ الامْتِحان، ويأتي دور الحساب، وفَصْلِ الْقَضاء، وتنفيذ الجزاء.

❁ ❁ ❁

## عدم استجابة الله لما يقترحه الناس من آيات حسيّة

وقد أبان الله عزّ وجلّ حكْمتَهُ في عدم تلبيته طلَبَ الناس الآيات الّتي يقْتَرِحُونها على الرسول، وهي أنَّ تجربَة الأمم السابقة قد أثبتَتْ أنَّ إجابَة مطالِبِهِمْ في إنْزَالِ الآيات على ما يَقْترحون، لم تجعلْهم يُؤْمِنون، بل كذَّبُوا بها، فاقتضىٰ قانون الابتلاء في الحياة الدُّنيا، إنْهاءَ مُدَّةِ امتحانهم، وإنْزَال الهلاكَ الشامل بهم، إذا استجاب لطلبهم فلم يُؤْمِنوا، كما حَصَل لثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

وموضوع آيات الله الكونية، والإعجازيّة، والجزائيّة، والبيانيَّة، موضوع طويل جدّاً.

وأكْتفي الآن بهذا الملْحق، عسَىٰ أن يفتح الله بِملاَحِقَ أُخْرى في سُورٍ أخرى.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

## الملحق الثالث
## حول الحكمة في القرآن المجيد

جاء في القرآن المجيد استعمالُ لفظ الحكمة في عدّة نصوص، أتابع استعراضها بشيء من التدبر، بعد بيان المراد بلفظ الحكمة، ولفظ الحكيم.

**الحمة في الأمور**: وضْع الأشياء في مواضعها، عملاً، أو فكراً، أو مَعْرفةً وفَهْماً وَفِقْهاً، أو اعتقاداً، أو غير ذلك من صُوَر السُّلُوك الإرَاديّ.

**والحكيم**: هو الذي يضَعُ الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتْقَنها وأحْسَنَها في الأمور المختلفة، لمَا يُعْطي أحْسَنَ نتيجة.

والله جلّ جلاله وعظم سلطانُه، أحْكَمُ الحاكِمين، وأحْكم المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وحِكْمتُهُ بَالِغةٌ الغاية دواماً في كلِّ شيء، في الْخَلْق والإبداع، والتكليف، والمحاسبة، وفصل القضاء، والجزاء، وغير ذلك من كلّ أمْر.

والحكمة ترجع إلى جذرَيْن:

**الجذْرُ الأوّل**: الحكمة في المعرفة، وتكون بمطابقة العلم للواقع، أو لأحسن صورة ممكنة تقترب من مطابقة ما هو الكمال في الشيء.

**الجذر الثاني**: الحكمة في السّلوك، سواءً أكان خُلُقاً، أم عملاً فكريّاً أو جسديّاً، أم تصرّفاً في قول، أو إفتاء، أو حكم، أو سياسة، أو إدارة، أو تجارة، أو حرب، أو غير ذلك.

وتكون الحكْمةُ في السُلوك بممارسة الأحسن والأفضل دَوَاماً، ممّا تُوَجّه له الحِكمة في المعرفة، بحسب الاستطاعة، وضمن حدودها.

● فمن الحكمة في المعرِفَة مَعْرِفَةُ أحسن الوسائل لصيانة الأشياء مِمَّا يؤذيها أو يُتلفُها. ومَعرفَةُ أحسنِ الوسائل والخطط الحربيَّة لتحقيق النصر والظفر. ومعرِفَةُ أحسن العلاج للشفاء من المرض. ومعرفة أحسن الطُرق لإصلاح اقتصاد الأمّة وتنمية ثرواتها. ومعرفة وجوه الإنفاق الرابح الجالب للخير العاجل والآجل، ومعرفة وجوه الإنفاق الخاسر الجالب للشرّ والضرّ العاجل والآجل، ومعرفة الأحكام التي هي الأقرب إلى تحقيق كمال العدل والإنصاف. وهكذا بلا حصر.

● والحكمة في السُلوك تكون بتطبيق وممارسة ما تقتضيه الحكمة في المعرفة، كمُمَارسة أحسن الوسائل لصيانة الأشياء مما يؤذيها أو يُتْلِفُها، ومُمَارسة أحْسَن الوسائل والخطط الحربيّة لتحقيق النَّصْرِ والظفر، وهكذا إلى سائر الأشياء.

فالحكيم في الطبّ يستخدم أحسن العلاج مما هو متَاحٌ له لشفاء مريضه.

وذو المال الحكيم يُنْفِق من ماله في سبيل الله ليظفر بالأجْر العظيم المضاعف عنْد ربّه أضعافاً كثيرة، ولا ينفق شيئاً من ماله في معصية الله، وإن جلَبَ له لذَّات عاجلاتٍ.

والقاضي الحكيم يَحْكُم بما هو الأقرب لإحقاق الحقّ، وتحقيق الإنصافِ إذا لم يستَطِعْ إحْقاقَ كمال الحق والْعَدْل.

والسّياسي الحكيم هو الذي يُحْسِنُ إدارة رعيَّته بما يحقّقُ الأمْنَ والخَيْر والسّعادة والرفاهية للمجموع الأغلب، وفق المقدار الممكن في الظروف الداخليّة والخارجيّة.

وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال:

«لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتاهُ اللَّهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ في الْحَقِّ، ورَجُلٍ آتاه اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يقضي بها ويعلّمُها».

فدلَّ هذا الحديث على الحكمة في المعرفة في قول الرسول: «ويُعَلّمُها» وعلى الحكمة في السُّلوك في قوله: «فَهُوَ يقضِي بِهَا» والقضاء بالحكمة نوع من أنواع السُّلوكِ الحكيم.

وفيما يلي استعراض النصوص بشيء من التدبّر:

**النصّ الأول:**

قول الله عزّ وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن كبراء مشركي قريشٍ إبَّان التنزيل:

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ..﴾.

وقد سبق تدَبُّر هذا النّصّ باستفاضة في موضعه من السّورة.

**النّص الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول): بشأن دَاوُد عليه السّلام:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾.

والحكمة التي آتاها الله عزّ وجلّ داوُدَ عليه السّلام هي تعاليم الدّين الحكيمة، وحُسْنُ الإدارَة والسِّياسَةِ في مُلْكِه، وحكْمَتُه في أَحكام الْعَدْل، والحكْمِ بالحقّ، وعَدَمِ اتّباع الهوى.

**النص الثالث:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ . . .﴾.

المشَارُ إليه بعبارة [**ذَلِكَ**]: «أحكام معاملة الوالِدَين ـ الأمْر بإيتاء ذوي الحقوق الاجتماعيّة حقوقهم ـ النَّهْيُ عن التبذير ـ مخاطبةُ السَّائِلين الّذين يَرىٰ المسؤول الإعراضَ عنهم ابتغاء رحمة يرجوها من ربّه بالرِّفْق والقَوْلِ الحسَنِ الميْسُور ـ التوسُّط في الإنفاق بين القبض الشديد والْبَسْط المسْرِف ـ النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر ـ النهي عن الاقتراب من الزّنى ـ النهي عن قتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ـ الإذن بالقصاص بالعدل دون إسراف ـ النهي عن اقتراب مال اليتيم إلاّ بالّتي هي أَحْسَن ـ الأمر بالوفاء بالعهد ـ الأمر بإيفاء الكيل والوزن ـ النّهي عن اتّباع ما ليس للإنسان به علم ـ النَّهْي عن المشي في الأرض مرحاً ـ».

ويُقاس على هذه الأمور سائر الأوامر والنواهي الرَّبَّانِيَّةِ التي اشتملت عليها آيات القرآن المجيد.

**النّص الرابع:**

قول الله عزّ وجل في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

وقد اشتملَتِ الآيَاتُ في هٰذه السُّورةِ بعْدَ هاين الآيتين، وحتى غاية الآية (٩) على أوامر ونواهيَ رَبّانيَّة، ووصَاياً أوصَىٰ بها لُقْمَانُ الحَكِيمَ ابْنَه، وهي جميعها داخِلةٌ تحت عنوان الحكمة، وهي بالتّتَبُّعِ من أوّل النّصّ حتّىٰ آخِرِه ما يلي:

«الأمر بالشُّكر لله والنَّهيُ عن مقابلة نعم الله بالكُفْر والجحود ـ النّهي عن الإشراك بالله في رُبُوبيّته وإلَهِيَّته ـ الأمْرُ بالشُّكرِ للوالِدَيْن ـ النهي عن طاعتهما في معصية الله ـ الأمْرُ بمُصَاحَبَتِهما في الدنيا بالمعروف ـ الأَمْرِ باتّباع سبيلِ من أناب إلى الله ـ النَّهْيُ عن معصية اللّهِ مَهْمَا كانت بالاستخفاء التامّ، فالله مُحِيطٌ بكلّ شيءٍ عِلْماً ويُحْضِرُه يوم الْحِسَاب ولو كان في باطن صخرة ـ الأمر بإقامة الصّلاة ـ الأمْرُ بالأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر ـ الأمر بالصَّبرْ على المصائب ـ النَّهْيُ عَنْ الكِبْرِ بتَصْعِيرِ الْخَدِّ للناس أو المشي في الأرض مرحاً ـ الأمر بالْقَصْدِ في المشي وهو التوسط بين البطء والاستعجال ـ الأمْرُ بالغضّ من الصَّوْت».

ويُقاسُ على هذه العناصر المشمولة بعنوان «الحكمة» كلُّ ما جاء في الإسلام من شرائع وأحكام وأخلاقٍ وآداب.

**النصّ الخامس:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

إنّ ما جاء به عيسَىٰ عليه السَّلامُ الداخلَ تَحْتَ عُنْوان «الحكمة» أوامرُ ونواهي ووصايا تتعلّق بالقاعدة الإيمانية، وتتعلّق بأنواعِ السُّلوك الباطِنِ والظّاهر، والالتزام بصراط الله المستقيم، عبادةً لله، وطاعةً له، واتّقاءً لعقابه

على المعصية والمخالفة. ويدخل في هذه كُلُّ شَرائع الدّين، وأحكامه، وأخلاقه، وآدابه.

**النص السادس:**

قول الله عزّ وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً للرسول ﷺ، ولكلِّ داعٍ إلى الله من أُمّته:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

دَلّتنا النُّصُوصُ السَّابِقَةُ على أنّ المُوعِظَةَ الحَسَنة، والمُجادَلَةَ بالّتي هي أحْسَنُ مِنَ الحِكْمَة، إلاّ أنّ هذا النّصّ المتَعلّقَ بالتّوْجيه لأساليب الدَّعْوَة إلى سبيل الله، خَصّصَ الحِكْمَة بالأساليب والوسائل الفكريّة الّتي تُوصِلَ العقُول إلى الاقتناع بالحقّ، أو بما هو خَيْر وأحْسَن وأفضل، وخَصّصَ الموعظة الحسنة بما يؤثر على الأنفس بالترغيب والترهيب، وأفْرَزَ الجدال بالّتي هي أحْسَن بعنوان خاصٍ به ـ مع أن الحوار الجدليّ لا يخرج عن وسائل الإقناع الفكريّة العقلية، ووسائل الترغيب والترهيب ـ للتّنبيه على وجوب التزام الدّاعي إلى سبيل رَبّه بالطريقة التي هي أحْسَنُ في التأثير على العقل والنفس، وأحْسَنُ في آداب البحث والمناظرة، من الطريقة التي يَسْلُكُها الخَصْمُ المُجادِل.

وهذا تخصيص اصطلاحيٌّ في مجال الدَّعوة إلى سبيل الله.

## الجمعُ بين لفظتي الكتاب والحكمة في طائفة من النصوص القرآنية:

جاء في القرآن المجيد عشرة نصوص اقترنت فيها لفظتا «الكتاب» و«الحكمة» مثل قول الله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

وإذْ قد سبَقَ أنْ عَرَفْنا من بيانات النّصُوص التي جاء فيها تفصيل لكثير من مفرداتِ الحكمة، أنّ «الحكمة» عنوانٌ ينضوي تحته الأوامر والنواهي والوصايا التي تتعلّقُ بالقاعدة الإيمانيّة توجيهاً للإيمان بأركانها وعناصرها، وهذا الإيمان سلوكٌ إراديٌّ قلْبيٌّ، وتتعلّقُ بأنواع السّلوك الأخرىٰ، من السّلُوك الظاهر والباطن، الشامل لشرائع الدين وأحكامه وأخلاقه وآدابه، فيُمكنُ أن نفهم أنّ المرادَ بالكتاب فيها من عموم ما أنزل الله، ما يشْمَلُ الحقائقَ العلميّة إثباتاً أو نفياً، دون أنْ يكون فيها أمْرٌ أو نهيٌ أو توجيهٌ لسلوك إراديّ حكيم ظاهرٍ أو باطن، وما يَشْملُ الأخبار التي لا تُوجِّهُ ضمناً لسلوك إراديّ حكيم، ولا تُحَذِّرُ ضِمْناً من سلوك إراديّ غير حكيم.

ويجوز أن يكون عطفُ «الحكمة» على الكتاب من عَطْفِ الخاصّ على العام، لتوجيه عناية المكلّفين للالتزام بالوصايا الرّبَّانيّة المتعلّقة بالسُّلوك الإرادي الظاهر والباطن.

**الجمع بين عبارتي: «آيات الله» و«الحكمة».**

وجاء في نصّ واحد من نصوص القرآن المجيد الجمع بين عبارتي: «آيات الله»و «الحكمة» وهو قول الله عزّ وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لنساء النبيّ ﷺ وعلى آله:

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

الذي يظهر لي في هذه الآية أنّ عَطْفَ «الحكمة» على «آياتِ الله» فيها، هو من قبيل عطف الخاصّ على العامّ، لتوجيه عنايَةِ نِساءِ النبيّ للْحِرْصِ على الالتزام بالْوَصايا الرَّبَّانيّة المتعلّقة بالسُّلُوك الإرادي الظّاهر والباطن.

إذْ جاءَ قَبْلَ هٰذه الآيَةِ تَخْصِيصُ نِسَاءِ النبيّ بوصايا مُشَدَّدة نظراً إلىٰ أنّ

المطْلُوب مِنهُنَّ أنْ يَكُنَّ أسْوَةً حَسَنَةً لسَائِرِ النِّساءِ، فقد جاء قبلها قول الله عزّ وجلُّ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا (٣٢) وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا (٣٣)﴾.

أي: إنّما يُريدُ الله بإلزامِكُنَّ المُشدَّدِ، بهذه الأوامر والنواهي، لِيُذْهِبَ عنكُمُ الرِّجسَ يا أهل بيت النبيِّ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً زائداً عن تطهير غَيْرِكُنَّ، إذا اسْتَجَبْتُنَّ فَأطَعْتُنَّ الله ورسوله، وَعَمِلْتُنَّ بوصايا الله لَكُنَّ.

## ومَن يُؤْتِ الحِكْمَةَ فقَدْ أُوتي خيراً كثيراً.

وجاء في القرآن المجيد نَصٌّ واحِدٌ تَحدَّثَ الله فِيه عَنِ الحِكْمَةِ في إنْفَاقِ الأمْوَالِ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ الله، واتْبَعَهُ بالثناء على مَنْ أُوتِيَ في سُلُوكه في حياته الحكمة، وأبان جلَّ جلالُهُ أنْ مَنْ أُوتي الحِكْمة فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً، وهو قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بَعْدَ حَدِيثٍ طَويلٍ حول إنْفاق الأموال في سبيل الله وأجْرِ المنفقين العظيم، وبيان شُرُوط الإنفاق السَّليم وآدابه، الّتي يتحقَّقُ بها الثواب العظيمُ عند الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ (٢٦٨) يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٢٦٩)﴾.

وشرح هذا النصّ وتحليله تحليلاً تدبُّرياً يحتاج صفحات مطوّلات لا تتناسب مع هذا الملحق، والله وليُّ التوفيق والسداد.

❀ ❀ ❀

# سورة ص

٣٨ مصحف ٣٨ نزول

## (١)

## نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ
(٢) كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ (٣)
وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ
(٤) أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ (٥) وَٱنطَلَقَ
ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ
(٦) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (٧)
أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ
عَذَابِ (٨) أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ (٩) أَمۡ
لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ
(١٠) جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ (١١) كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ
قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ

١ ـ ● قرأ ابنُ كثير [والقُرَانِ] بتسهيل الهمزة، وحمزة في حالة الوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿والقُرْءَانِ﴾.

٨ ـ ● قرأ يعقوب [عذابي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿عَذَابِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الحالين.

وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ
ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا
لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ
﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ
﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ
ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ
نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾
قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ

١٣ ـ ● قرأ نافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر، وابن كثير: [وَأَصْحَابُ لَيْكَةَ].
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾.

١٤ ـ ● قرأ يعقوب [عقَابي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القراء العشرة ﴿عِقَابِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الحالين.

١٥ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: [فُوَاقٍ] بضمّ الفاء.
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿فَوَاقٍ﴾ بفتح الفاء. والضمّ والفتح وجهان عربيان للكلمة.

٢٢ ـ ● قرأ قنبل، وحمزة: [السِّرَاطِ] بالسين.
وقرأ خلف عن حمزة: [الصراطِ] بإشمام الصاد صوت الزاي.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الصِّراطِ﴾ بالصاد. وهي لهجات عربية.

لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا
هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩
﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾
يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا
تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقۡنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ
أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾
وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ
بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن
ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا
بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ
جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي

---

٢٩ ـ ● قرأ أبو جعفر: [لِتَدَبَّرُوا] أصلها: لتتَدَبَّرُوا.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ بضمير الغائبين، وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٣٢ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أَحْبَبْتُ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ﴾ بإسكان ياء المتكلم ومدِّها.

لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي
بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾
وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ
بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ
عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم
مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا
فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ
﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ
﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ

---

٣٥ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو وأبو جعفر: [مِنْ بَعْدِيَ إِنَّكَ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مِن بَعْدِي إِنَّكَ﴾ بإسكان ياء المتكلّم ومدها.

٣٦ ـ ● قرأ أبو جعفر: [الرِّيَاحَ] بالجمع.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الرِّيحَ﴾ بالإفراد.

٤١ ـ ● قرأ حمزة: [مَسَّنِي الشيطانُ] بإسكانِ ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مَسَّنِيَ الشيطان﴾ بفتح ياء المتكلم.

٤١ ـ ● قرأ أبو جعفر: [بِنُصُبٍ] بضم النون والصاد، وضم الصاد إتباع لضم النون.
وقرأ يعقوب: ﴿بِنَصَبٍ﴾ بفتح النون والصاد.
وقرأ باقي القراء العشرة: [بِنُصْبٍ] بضَمّ النون وإسكان الصاد.
والمعنى في القراءات الثلاث واحد، وهو المشقة والتّعب والإعياء.

٤٥ ـ ● قرأ ابن كثير: [عَبْدَنَا] بالإفراد.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿عِبَادَنَا﴾ بالجمع.
والمعنى في القراءتين على الجمع.

٤٦ ـ ● قرأ نافع، وهشام، وأبو جعفر: [بِخَالِصَةِ ذِكْرَىٰ] على الإضافة، دون تنوين. =

ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ
مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾
جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا
بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ
﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ
مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ
يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾
وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا
بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ
قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ
عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم
مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾

---

= وقرأ باقي القرأ العشر: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَىٰ﴾ بتنوين خالصة.
وهما وجهان عربيان والمعنى احد.

٥٣ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [مَا يُوعَدُونَ] بياء الغائبين.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بتاء المخاطبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٥٧ ـ ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [وَغَسَّاقٌ] بتشديد السّين.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَغَسَاقٌ﴾ بتخفيف السين.
وهما وجهان عربيان للكلمة.

٥٨ ـ ● قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [وَأُخَرُ] جمع أُخرَىٰ.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَآخَرُ﴾ والآخر هو أحد الشيئين.

٦٣ ـ ● قرأ نافع، وحمزة، والكِسائي، وأبو جعفر، وخَلَف: [سُخرِيًّا] بضم السّين. =

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ
إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ
﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ
بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ
سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ
لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠
خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا
فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ
فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ

---

= وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿سِخريًا﴾ بكسر السين.
وهما لغتان لمصدر سَخِرَ منه وسخر به.

٦٩ ـ ● قرأ حفص: [لِيَ مِنْ عِلْم] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لي مِن عِلم﴾ بإسكان ياء المتكلم.
وهما كما سبق بيانه وجهان عربيان.

٧٠ ـ ● قرأ أبو جعفر: [إلاَّ إنَّما] بكسر همزة إنَّما.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿إلاَّ أنَّما﴾ بفتح همزة أنَّما.
وتخريج الكسر عند أبي جعفر كون الجملة على سبيل الحكاية.

٧٨ ـ ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [لَعْنَتيَ إلىٰ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَعْنَتي إلىٰ﴾ بإسكان ياء المتكلم.

يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾
لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ
عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ
﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾

٨٣ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن عامر: [الْمُخْلِصِينَ] بكسر اللام.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٨٤ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة وخلف: [قَالَ فَالْحَقُّ] برفع الْحَق.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿قَالَ فَالْحَقَّ﴾ بنصب الْحَق، ولتخريج هذا وجوهٌ عند النحويين، وبما أنَّه خطابٌ لإبليس فأرى أنَّهُ على تقدير: فأُقسِمُ الْقَسَمَ الحقَّ، ولاَ أقول إلاَّ الحقَّ، لأَمْلأَنَّ جهَنَّمَ مِنكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ مِنهُمْ أجْمَعِين، فهذا هو الحقُّ الَّذي أَطْلُبُ مِنكَ أن تعلَمه.

## (٢)
## الأطوار التي تنقّلت فيها مواقف أئمة الكفر في مكة حتّى نزول سورة (صٓ)

مرّت حركات أئمة الكفر في مكة، حتى نُزُولِ سورة (صٓ) ضِدّ دعوة الرسول محمد ﷺ، في أطوار تصاعُدِيَّة حتَّى بَلَغُوا مبلغ من هو في عِزَّة وشقاق، وكان هذا الطور الأخير إبّان نزول سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

وتَتَبُّعاً لِما جاء في السُّوَر المنزَّلَةِ حتى نُزُولِ سورة (صٓ) تتكشَّفُ للباحث المدقِّقِ الأطوارُ التي تَنَقَّلَتْ فيها مواقف أئمة الشِّرْك والكُفْر في مكة، بدأً من إعلان الرَّسُول محمّد ﷺ دَعْوَته، وهي الأطوارُ التالية:

**الطور الأول**: كانوا أوّل الأمرِ في طَوْرِ بُروز بعضِ القيادات المكذِّبَة، الناهية للرسُولِ عن متابعة دَعْوَته، مع رغبتِهِم في المداهنة.

وكانَ هذا إبّان نُزُول سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول).

وقد دلَّ على هذا الطَّوْر قول الله عزّ وجلّ لرَسُوله فيها:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

ورافَق هذا الطَّوْرَ مُحاولاتٌ أُولَى لِفتْنَةِ مَنْ آمَنَ بالرَّسُول عن دينه، وصِدِّ الذين لديْهم استعدادٌ للإيمان به واتّباعه عن أن يؤمنوا به ويَتَّبِعُوه، مع اتِّهامِهِمْ الرَّسولَ بأنّه مجنُونٌ إذْ دعا إلى أمْرٍ جديدٍ خالَفَ فيه قومه.

ففي سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) نجدُ قولَ الله عزَّ وجل:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

وفي سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) نجد قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾

**الطّوْر الثاني**: طورٌ ظَهَرَتْ فيه بعضُ الدِّعَايَاتِ الإعلاميّة المضادّة، وبعض الحركات العدائية، دلَّ على هذا الطّوْر ما جاء في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول)، إذ جاء فيها قولُ الله عزّ وجلّ بشأن الوليد بن المغيرة:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

ودلّ عليه ما جاء في سورة (المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول) وما دلّت عليه من أعمال أبي لَهبٍ وامرأته.

**الطّور الثالث**: طورٌ ظهرَتْ فيه حركَةُ تَصَيُّدِ ما يُمْكِن أن يُثِير به الكافرون وَخَزَاتِ إعلاميَّة، ضدّ دَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ ورسالته، وكان هذا الطور إبّان نزول (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول) إذْ أشاع بعضهم أنّ رَبَّ محمّد قَدْ قلاَه، فقال الله له فيها:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

**الطُّور الرابع**: طَوْرٌ ظَهَر فيه بعض المجاهرين ببغض الرَّسُول محمدّ ﷺ، وكان هذا الطور إبّان نُزُول سورة (الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول) إذْ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

**شانِئَكَ**: أي مُبْغِضَك.

**الطور الخامس**: طوْرٌ ظهرت فيه من أئمة الكفر المفاوضات الاستدراجية للرَّسُول ﷺ، عسَىٰ أن يتنازل عن بعض دَعْوَته، وكان هذا الطور إبّان نزول سورة (الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول).

**الطور السادس**: طَوْرٌ دَارَتْ فيه حَرَكَاتُ الحسَد، ورغَباتُ الكيد سِرّاً، وانْطَلَقَتْ فيه الوَسَاوسُ تَنْفثُ في صُدور النّاسِ لتَصُدَّ عَنْ دين الله، وكان ذلِكَ إبَّان نُزول سورة (الفَلَق/ ١١٣ مصحف/ ٢٠ نزول) وسورة (الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول).

**الطور السابع**: طورٌ انطلقَتْ فيه عبارات التعجّب من مبادئ التوحيد، وأنباء يوم الدين، والتعجُّب من خبر حادثتي الإسراء والمعراج للرسُول محمد ﷺ، وكان هذا الطّور إبّان نزول سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) إذْ جاء فيها قول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾.

**الطور الثامن**: طَوْرُ فِتْنَة بعض جبابِرَة مَلأ مُشْرِكي مكّة لِعَبيدِهِمْ وإِمَائِهِمْ بالتَّعْذِيب الشَّدِيد، لإكراههم على تَرْكِ الدِّين الَّذِي آمَنوا به، واتَّبَعُوا فيه رسول الله ﷺ محمَّداً ﷺ وبدأ في هذا الطور اسْتِغْراقُ هؤلاء الجبابِرَة في التكذيب وكانَ هذا الطَّوْرُ إبّان نزول سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) وقد دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

**الطور التاسع**: طورٌ ظَهرَ فيه الْهَمْزُ واللَّمْزُ والطَّعْنُ الخفيُّ بِالرَّسُول وبالَّذِينَ آمنوا به واتَّبعُوه.

وقد ظهرت هذه الحركاتُ الكيديّة من قِبَلِ ذوي الغنى والوجاهة والاستكبار من أئمة الكفر.

وكان هذا الطور إبّان نزول سورة (الهمزة/ ١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول).

**الطور العاشر**: طوْرٌ انْطَلَقَتْ فيه عبارات التكذيب الصريح العلنيّ الجازم، والاتّهام العلَنِيّ للرَّسُولِ بالافتراء على الله.

وكان هذا الطّوْر إبّانَ نُزُول سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول). إذ جاء في صدرها قول الله عزّ وجل:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

وجاء في أواخِرِها قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

**الطور الحادي عشر**: طورٌ اتَّخذَ فيه أئمة الكُفْر في مكّةَ رسُولَ الله هَدَفاً وَغَرَضاً مُسْتَحِلّينَ في البلد الحرام إيذاءَهُ، غير عابئين به ولا بحُرْمَةِ البَلَدِ الحرام، ولكن ذلك لم يَصِل إلى مستوى إعلان المواجهة بالقُوَّة الغالبة، ذات السلطان.

وكان هذا الطّوْرُ إبّان نزول سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول).

وقد دلّ على هذا الطوْر قول الله عزّ وجل فيها:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

أي: والحال قد اتَّخذَكَ بعضُ أئمته هدفاً وغرضاً، فهم يستحلّون فيه إيذاءَك، ورَمْيَ سِهَامِ كَيْدِهم عَلَيْكَ، وتوجيهها إليك.

**الطور الثاني عشر**: طوْر تدبير ملأ كفّار قريش المكايد ضِدَّ الرسُول ﷺ وضدّ الذين آمنوا به واتبعوه.

وكان هذا الطَّوْر إبّان نزول سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) وقد دلّ على هذا الطور قول الله عزّ وجلّ فيها لرسُوله:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾.

**الطور الثالث عشر**: طَوْرُ الإصرار العنيد على رفض تصْدِيق الرسُول مع ظهور آية انشقاق القمر بناءً على طَلَبهم، وطَوْرُ التَّوجّه لإعداد العدّةِ بغية التخلّص من الرسول، ودعوته، خوف انتشارها، ووصُولِ الذين يؤمنون بها إلى مستوىً يَعْجزون عن قمْعِه والانتصار عليه.

وكان هذا الطور إبّان نزول سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وقد دلَّ عليه قول الله عزَّ وجلّ بشأنهم:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾.

**الطور الرابع عشر**: طورُ إبراز الْقُوَى المادّيَّة الغالبة، وإظهار العداء

للرَّسُول وَدَعْوَتِه والَّذِينَ آمنوا به واتبعوه، وطَوْر الوقوف في شِقّ مَنْ يَهُمّ بأن يُعلِنَ حَرْباً إذا اسْتَدْعىٰ الأمر ذلك.

وكان هذا الطَّوْرُ إبَّان نزول سورة (صۤ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وقد دلّ على هذا الطور قول الله عزّ وجلَّ في صدرها: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

❁ ❁ ❁

## (٣)
## موضوع سورة (ص) وسبب نزولها

وصَلَ كُبَراء مشركي قريش إبَّان نُزول سُورة (صۤ) إلى طَوْر المُعْتَزّ بقُوَّتِهِ المتفوِّقة الْغَالِبةِ، الْمُعْلنِ عداوتَه، والواقف في شِقّ الْمُسْتَعِدّ للحرب، بغيةَ إيقافِ مَسيرة دعوة الرسول محمّد ﷺ، والتَّنْكِيل بِمَنْ آمَنَ به واتَّبَعه، والتَّخَلُّصِ منهم ومن الرسول.

فاقتضى هذا الطَّوْرُ إنْزَالَ هذهِ السُّورَة لِبَيَانِهِ، وبيان مقَالاتِ أئمة الكُفْرِ فيه الَّتي يَتْبَعُهُمْ فيها جماهيرهم، ويُرِدُّونَها بِغَباءٍ، واقتضت معالَجَتهُم من خلال الطور الذي وَصَلُوا إليهِ علاجاً فِكْرِياً، وعلاجاً نفسيّاً، واشتمل العلاج النفسيُّ لهم على الإنذار بعذابٍ من الله يُنْزِلُه الله عليهم، وعلى تثبيطِهِمْ وإضعاف عزائمهم، بأنَّهُمْ إذا أعَدُّوا جيشاً لقتال الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا مَعَهُ فَهُمُ المَهْزُومُون المغْلُوبُونَ، واشتمل على التلويح بإهلاك شامل لهم، كما حَصَلَ للمهْلَكِينَ السَّابقين من مُجْرمي القرون الأولى، إذا أصَرُّوا على ما هم فيه، ووَصَلُوا إلى مِثْلِ ما وَصَلَ إليه المهْلَكُونَ السَّابقون.

واقتضى هذا الطَّوْر الْعِدائيُّ الذي وصل إليه كُبَراء وأئمة مشركي مكّة، والَّذِي جعَلَهُم يُفَكِّرُون بأن يُعِدُّوا الوسائل الحربيّة، ويَقِفُوا مَوْقِفَ الْمُشَاقِّ الْمُحَارِبِ، ويُطْلِقُوا الأقوال الجارحة المؤلمة للرَّسُول ﷺ، والمحرِّضة

لأتباعهم على معاداته وحَرْبه وحَرْب الَّذِينَ آمَنُوا به، أنْ يُوَجِّهَ الله عَزَّ وجَلَّ لرسوله علاجاً تَرْبَوياً، فيأمُرَهُ أوّلاً بالصَّبْرِ على ما يَقُولون، وأن يذكُر له نماذج ثلاثةً من رُسُلِهِ السَّابقين، وفي كُلّ نموذج ثلاثة رُسل.

**أمّا النموذج الأوّل:** فذكَرَ الله عزّ وجل فيه الرُّسُلَ: داودَ، وسليمان، وأيوب عليهم السلام، مع بعض تفصيلٍ عن قِصَصِهم، وما تعرَّضوا له من بلاء، وأثنى عليهم بأنهم أوّابُون، أي: رجّاعون.

**وأما النموذج الثاني:** فذكر الله عزّ وجل فيه الرّسل: إبراهيم، وإسْحاق، ويعقوب عليهم السلام، وأثنىٰ عليهم ثناءً عظيماً، وأبان أنّهم عنده من المصطَفَيْنَ الأخيار، وأنّهم لا هَمَّ لَهُمْ إلاَّ ذِكْرَىٰ الدار الآخرة.

**وأمّا النموذج الثالث:** فذكر الله عزَّ وجل فيه الرّسلَ: إسماعيل، والْيَسَعَ، وذَا الكِفْل عليهم السلام، وأثنى عليهم بأنّهم من الأخيار.

وفي ذِكْر هٰؤلاءِ النماذج الثَّلاثَة من الرُّسل إشعارٌ ضِمْنيٌّ غَيْرُ مُصرَّحٍ به للرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بأنْ يختار لنفسه النموذج الذي يُرْضيه، حتَّىٰ يَهَبَهُ الله إيّاه، ويَبْلُوهُ من خلاله.

هَلْ يريد نموذج أهل المال والملك، فيتعَرَّض لامتحانات، وابتلاءات، يكون الثناء عليه في آخر الأمر: «إنَّهُ أوّاب» كما أثنى الله على داود، أو «نِعْمَ الْعَبْدُ إنّهُ أوّاب» كما أثنى الله على سليمان وأيُّوب.

أم يريد نموذج الذين لا هَمَّ يَشْغَلُ نفوسَهُمْ وأفكارَهُمْ إلاّ ذِكْرَىٰ الدار الآخرة، والعملَ لَهَا، حتَىٰ يكون ثناء الله عليه في آخر رحلة امتحانه، مثل الثناء الذي أثنىٰ به على إبراهيم وإسْحَاقَ ويعقوب عليهم السلام، وهو قوله جلّ جلاله بشأنهم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

أم يُرِيد نَمُوذَجَ الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ بَيْنٍ، فيكون الثناء عليه في آخر رحلة

امتحانه، مثل الثناء الذي أثنى الله به على إسماعيل والْيَسَعَ وذِي الكفل عليه السلام، وهو قوله جلّ جلالُهُ بشأنهم: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾.

وقد أثْبَتَتْ سيرة الرسول محمد ﷺ في حياتِه أنّه اختار لنفسه النموذج الأسْمىٰ، نموذجَ إبراهيم وإسْحٰق ويعقوب عليهم السلام، وارتَقىٰ إلىٰ أعْلَى ذِرْوَةِ هٰذا النموذج، فكان سَيِّدَ الأوَّلين والآخِرين.

واقتضى الْبَيَانُ الحكيم في السُّورَةِ بَعْدَ تَرْبية الله لرسوله وتخييره تقديم لقطات مِنَ الجزاء الأخرويّ بالثواب، ولقطات من الجزاء الأخرويّ بالعقاب، مُكَمِّلات لما نزل قَبْلَها في نجوم التنزيل.

واقتضىٰ البيان الحكيم في السُّورة الإعلام بأنّ الْغَايَةَ من خَلْقِ ذوي الإرادات الحرّة ابْتِلاؤهم بالإيمان بأنّ الله هو الإلٰهُ الواحد المعبود بحقٍّ، إذْ هُو الرَّبُّ الواحد الذي لا ربَّ سواه، وابتلاؤهم بالإسلام له والسَّمْعِ والطاعة.

وقصّة خلْقِ آدم والأمْرُ بالسجود له، واستكبارُ إبليس عن الطاعة لأمر الله، وطَرْدُهُ، وجَعْلُه مع مَنْ يتّبعُه في جهنّم يوم الدّين، أولىٰ مراحِلِ ابتلاء ذوي الإرادات الحرّة، بشأن توحيد الرُّبوبيّة، وتوحيد الإلٰهيَّة لله عزّ وجل، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ والإسلام له، دُونَ مُعَانَدةٍ ولا اسْتِكْبار.

فجاء عرض هذه القصّة لإبراز هذه الحقيقة.

وجاء ختم السورة بعدها بتعليم الله رسوله ما يقُوله لقومه، لدفع اتّهامِهِمْ له بأنّه ذو غَرَضٍ دُنيويّ يسْعَىٰ إليه في قومه، وبيان أن ما جاء به ليس ذكراً لهم وحدهم، بل هو ذكر للعالمين كُلِّ العالمين، وبأنّ ما اشتمل عليه هذا الذكر وهو القرآن من أنباء مستقبليّة سيعلمون تحقُّقها بعد حين.

وبهذا ظهر لنا أن عناصر سورة (صَ) تدور حول موضوع واحد، وهي عناصر مترابطة ترابطاً فكرياً وثيقاً.

❁ ❁ ❁

## (٤)
# دروس سورة (صٓ)

تشتمل سورة (ص) على أربعة دُروسٍ:

**الدرس الأول**: يشتمل هذا الدرس على بيان الطّوْر الّذي وصل إليه كُبَراءُ مشركي مكة، ويُلْحَقُ بهم أتباعهم، تجاه الرّسُول محمّد ﷺ ودعوته، والذين آمنوا به واتّبعوه، إبّان نزول السورة، وهو طَوْرُ مَنْ هو في عِزَّةٍ بقوته، وشقاقٍ ظاهرٍ في عداوته.

ويشتمل على بيانِ مقالاتهم في هذا الطَّوْر، ومعالجات مختاراتٍ لهم فيه، ببيانات من الرَّبِّ العزيز الحكيم.

وهو الآيات من (١ ـ ١٦)،

**الدرس الثاني**: ويشتمل هذا الدرس على معالجة نفس الرسول ﷺ، تجاه الطور الذي وصل إليه قومه في بلده، وهم أهْلُه وعشيرته، إذْ آلَمتْهُ وأحْزَنَتْهُ أقوالُهُمْ ومواقِفُهُمْ من دعوته، وبوادر توجُّهِهم لاستخدام القوَّةِ الحربية، لقَمْعِ دعوته، واضطهاد الذين أمنوا به واتبعوه.

فأمر الله رسوله بأن يَصبِر على أقوالهم، وعرض عليه ثلاثة نماذج من المرسلين السّابقين، مشعراً له ضِمْناً بهذا العرض أن يختار لنفسه النموذج الذي يُرْضِيه منهم، حتَّىٰ يقضي الله له به.

وهو الآيات من (١٧ ـ ٤٨).

**الدرس الثالث**: ويشتمل هذا الدرس على عرض لقطات ترغيبيّة من نعيم المتقين في جنّات عدْنٍ يوم الدّين، وعرض لقطات ترهيبيَّةٍ من عذاب الطاغين في جهنّم يوم الدّين.

وكلٌ من اللّقطات الترغيبية، واللقطات الترهيبيّة، لقطاتٌ فيها بيانٌ

تكامُليٍّ مَعَ مَا سَبَقَ أن جاء في نجوم التنزيل النازلة قبل سورة (صَ) على منهج القرآن في بياناته التكامليّة المجَزَّأة على مراحل من التنزيل، ضِمْن حَرَكِيَّة حَكِيمَةٍ، تعليميَّة وتربوية.

وهو الآيات من (٤٩ ـ ٦٤).

**الدرس الرابع**: درس يعلّم الله عزّ وجل فيه رسوله محمداً ﷺ ثم كلّ داعٍ إلى الله من أمّته، ما يقوله للناس بشأن توحيد الإلٰهية وتوحيد الرُّبوبية لله عَزَّ وجل، مع ذكر قصَّةِ خَلْق آدم واستكبار إبليس عن طاعة الله بالسُّجُودِ لآدم، وطرده ووعيده بأن يكون هو ومن اتّبَعَه من الإنس والجنّ في جهنم خَالِدِين يَومَ الدّين، وهذه القِصَّة أبانت أنّ إبليس مؤمِنٌ بربّه إلا أنّه جَحَد إلٰهيَّتَهُ استكباراً، فلعَنَهُ الله إلى يوم الدين، وأوعده بالعذاب الأبديّ الخالد في جهنّم وبئس المصير، وكذلك كلُّ من جحد إلٰهيَّة الله واسْتَكْبَرَ عن عبادته.

ويعلّم الله في هذا الدرس رسوله أن يبيّن لقومه أنّهُ مَا يطْلبُ من الناس أجراً على دعوته، وأنّه يتلقّى الذكر عن ربّه، وليس هو من المتكلّفين المتصنّعين كالسحرة، وأن هذا القرآن ذكر للعالمين كلّهم لا للعرب فقط، وأنّ أنباءه سَيَعْلَمُ الناس أنها حقٌّ.

## (٥)
## التدبر التحليلي للدرس الأوّل من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥

وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾.

**تمهيد:**

جاء في هذا الدرس بيان الطور الذي وصل إليه أئمة الكفر ومَلَؤُهم من مشركي مكة، إبّان نزول سورة (صَ) وهو طورٌ يشتمل علىٰ مواقف قديمة ما زالُوا يُصِرُّونَ عليها، ويكابرون فيها، ويعاندون الحقّ مُتَشَبِّثين بها، ومواقف جديدة تَطَوَّرُوا إليها في حركة حياتهم الكُفْرِيَّةِ العناديَّة.

**أولاً:** فمن مواقفهم القديمة التي ما زالُوا يُصِرُّون عليها ما يلي:

١ ـ موقف الكفر بالرّسُول وبما جاء به عن ربّه، على الرُّغم مِن أنّ القرآن المجيد آيةٌ عُظْمَىٰ على صِدْقه، لو تَدَبَّرُوا آياته، وتَبَصَّرُوا بدلالاتها، وانْتَفعُوا من عظاتها في الترغيب والترهيب، ومن عِظَاتها أنباءُ المُهْلَكِينَ من كُفَّارِ القرون السَّابقة.

وقد جاء بيان هذا الموقف في الآية (١) وبعض الآية (٢).

٢ ـ موقف الإصرار على التكذيب بيوم الدّين، إذْ طلَبُوا تعجيلَ ما يُحبّون من حظوظهم وجعلَها في الحياة الدنيا، إشعاراً بأنّهم لا يُؤْمِنُون بيَوْم الدِّين، رَدًّا على تَرْغيبهم فيما عند الله من نعيم عظيم في جنّات النعيم يَوْمَ الدِّين.

وقد جاء بيان موقفهم هذا في الآية (١٦).

**ثانياً**: ومن مواقفهم الجديدة الّتي تطوَّرُوا إليها في حركة حياتهم الكُفْرِيَّةِ العنادية ما يلي:

١ ـ أنَّهم قد وَصَلُوا إلى طَوْرِ المعتزّ بقوَّتِه الغالبة، الواقف في شِقّ المعادِي الذي يُفكِّرُ في الإعداد لِلْحَرْب، وقَمع دعوة الرسول محمّد ﷺ بقُوَّةِ السِّلاح، واضطهاد الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ والتَّخلص منْهُمْ قتلاً أو أسْراً وتَشْتِيتاً.

٢ ـ توجيه الدّعاية الإعلاميَّةِ بأنَّ محمّداً ساحِرٌ كَذَّاب. وقد سبق في نجوم التَّنزيل بيانُ أنهم كلَّما رأَوْا آية من آياتِ الله الّتي يُؤيِّدُ الله بها رسوله، زَعَمُوا أنّها سِحْر. وأنَّهُم كَذَّبُوا ببلاغاته لهم عن ربّه.

لكنّ الموقف الجديد هو تحريك الدّعاية الإعلاميّة النَّشِطَةِ بأنّه ساحِرٌ كَذَّاب، خوفاً منهم على جماهيرهم، أن يُؤْمنُوا به ويتَّبعُوه، وصدّاً لسائر الناس عن النظر إلى دعوته والتفكّر فيها.

٣ ـ الترويج الدعائيُّ التضليليُّ لجماهيرهم بعبارات التعجب من أنّ محمّداً جعَلَ الآلهة المتعدِّدةِ إلٰهاً واحداً، وإطلاقُ عبارة: «إنَّ هذا الشيْءُ عُجابٌ».

٤ ـ أنَّهم لمّا شَعَرُوا بالهزيمة الفكرية القائمة على عقيدة الشِّرْكِ، أمَامَ دعْوَةِ التَّوْحِيد، تكاتَفُوا ومَشَوْا مُتَعَاضِدِينَ مُتَجَلِّدِين، يُوصي بَعْضُهُمْ بعضاً أنْ يُتابِعُوا مَسِيرَتَهُم الشركيَّة، ويَصْبروا على آلِهَتِهِمْ، مُتَّهِمِينَ الرَّسُولَ بأنّهُ طالِبُ مُلْكٍ وسُلْطان، ومتذَرِّعِين لِتَحْسينِ مَا هم فيه من شِرْكٍ واسْتِبْعَادِ فِكْرَةِ الرَّبِّ الواحد، الذي هو الإله الواحد، بأنَّ الملّة النصرانيَّة الّتي هي الملّة الآخِرَةُ قبل دعوة محمد، والّتي تؤمن بها وتَتْبَعُها أُمَمٌ كثيرة، ولها دُولٌ قويَّةٌ في الأرض، قائمةٌ على تَعَدُّدِ الآلِهَةِ، وليس فيها هذا التوحيد الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله.

**ثالثاً**: وقد جاء في هذا الدَّرْس ثم في دروس السورة بعده، حتّىٰ الدرس الأخير منها، علاجٌ رَبَّانيٌ لهذه المواقف القديمة والجديدة.

ومن هذا العلاج ما جاء مُلْحقاً باللّقطات المختارات من قصّة داود عليه السلام في الدرس الثاني من دروس السورة.

ومن هذا العلاج ما جاء في الدرس الثالث من دروسها، إنْ هو درس جاء فيه عرضُ لقطات ترغيبيَّة، من نعيم المتقين في جنّاتِ عَدْنٍ يوم الدّين، وعرض لقطات ترهيبيّة من عذاب الطّاغين في جهنّم يوم الدين.

ومن هذا العلاج ما جاء في الدرس الرابع من دروسها، إذا اشتمل على تعليم الله للرسول ﷺ ما يقولُه للمعاندين من قومه، مع عرض لقطات من قصّة خَلْقِ الإنسان الأول، وما فيها من بياناتٍ تتعَلّقُ بتَوْحِيدِ الرُّبوبيّة وتوحيد الإلـهيّة لله عزّ وجلّ، وما يَقُوله أخيراً لهم، من ردٌ خِتاميٌ على اتِّهامه بأنّ له مصلَحَةً شخصيَّة دُنْيَويَّة من دعوته، بإعلان أنّهُ ما يسْألهم من أجْرٍ، وبأنّ ما يُبَلّغُهم عن ربّه من آيات القرآن ليس من عنده ولا من تصَنُّعِه، وأنّ هذا الذّكْر الرَّبّاني ليس لهم وحْدَهم دون الناس، بل هو ذكر لكل العالمين، وأنّ أنباءَهُ المستقبليّةَ والتاريخية والكونية سيعلمونها بعد حين.

❁ ❁ ❁

**التدبر التحليلي**:

● قول الله عزّ وجلّ ﴿صٓ﴾ افتتح الله عزَّ وجلَّ هذه السورة بحرف «ص» والله أعْلَمُ بالمراد به، وبسائر الحروف المقطّعة الّتي افتتح الله بها أوائل بعض السّور، وقد سَبق بيانُ وجوه التأويل المطروحة احتمالاً بشأنها لَدَى تَدَبُّر أوّل سورة (القلم).

وسمّيت هذه السّورة بحرف(صٓ) من حروف التهجّي.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

أَقْسَمَ الله في هذه العبارة بالْقُرْآن الّذي وَصَفَهُ جَلَّ جلالُه بأن ذُو الذِّكْرِ، أي: المتَّصِفُ بأنّه يَسْتَحِقُّ أنْ يكُونَ ذِكْراً للعالمين، وهذا الاستحقاق ملازم له ملازمة الصاحب الذي لا يفارق صاحبه.

﴿ذِي﴾ أي: صاحب، يُرْفَعُ بالواو، ويُنْصَبُ بالألِف، ويُجَرُّ بالياء، وهو أحد الأسماء السّتّة التي لها هذا الحكم بشروط.

فدلَّ هذا الوصْفُ للقرآن المجيد على أنّ من خصائصه أنّهُ كتابٌ يَصْلُح بَعْدَ تَلَقّيه واستجماع آياته لأن يُذْكر دواماً، في الألسنة، والقلوب، والأذهان، في كلّ زمانٍ ومكان.

ولا يقتصر الإعجابُ به، والانجذاب إليه، والانتفاعُ بمضامينه على أزمان تلقّيهِ، بلْ يظلُّ كذلك دواماً، لأنّه لا يَبْلَىٰ علىٰ كثْرَةِ ترداَدِ ذِكْرِهِ ولا يَخْلَقُ، بسبب حلاوة لفظه، وكمال معانيه، وعُمْقِ دلالاته التي تَتَجدَّد كُلَّما تعمَّقَ المتفكرون المتدبّرونَ المستنبطون بحثاً عنها، وبسَبَب كَوْنِه مُيَسَّراً للذّكْرِ، وحقاً وصِدْقاً وهادياً للّتِي هي أقوم، وهذه أمورٌ لا تَبْلَى ولا تخْلَقُ مهما مرَّت الدُّهور، وكرّت العصور، ولا سيما إذا كانَتْ من الكلّيّات العامّة الّتي تنطبق على أفرادٍ لا تُحْصَر، ومتجدّدات من الأحداث والأشياء لا تَقِفُ عنْد حدّ.

فما اشتمل من الكلام على الحقّ والصّدْقِ والْعُمْق والهداية للّتي هي أقوم، مع كمال صياغته، وحلاوة لفظه، وتيسيره للذّكْر، يكون صالحاً بعْد تَلَقّيه لأنْ يُذْكر دواماً، على كرّ العصور، وتتابعُ الدُّهور، للاستمتاعِ بحلاوته، واسْتجلاء ما في أعْماقه، واستنباط ما في باطنه، واكتشاف خفَايا دلالاته، وما يشتمل عليه من معاني ثَرَّةٍ مُتجدِّدةٍ جَليلة.

بخلافِ النُّصوص الَّتي لا تشتمل على الحقّ والصّدق والعُمْقِ والهداية للَّتي هي أقوم، أو اختلَطَ فيها الحقُّ بالباطل، والسّمينُ بالْغَثّ، أو كانت مُعَقَّدَةً غير مُيَسَّرَة، أو كانت سَطحيَّةً لا عُمْقَ فيها، فإنّها مَهْما كانت ذاتَ صياغة حسنة بليغة، لا تَعْدُو أن تكون نُصُوصاً زمنِيَّةً، تُذْكَرُ في حينِ الانبهار بها، ثُمَّ يخْبُو وهَجُها، ثُمَّ تَنْطَفِئ، ثم تَمْحُوها الأيّامُ والشُّهورُ والدُّهور، فلا تكُون ذِكراً في الألسنة والأذهانِ والْقُلوب، فلا تَصْلُح لأن تكون ذِكْراً دواماً.

وقد اعْتَاد النَّاسُ أنْ تكُونَ جُمَلُ الْحِكَم، وجُمَلُ الأمثال، وبعْضُ فرائد أبيات الشِّعْر، دَائِرةً على ألْسِنَتِهِمْ، حاضِرَةً في ذاكرتهم، عند المناسبات الّتي تُلائمها، لتَميُّزِها ببعض الصّفات اللّواتي سَبَقَ بيانُها للقرآن المجيد.

ولَنْ يجد المتَتَبّعُونَ هذه الْجُمَل من الحِكَم والأمثال، وهٰذه الفرائد من مُقلَّداتِ الشِّعْر، إلاَّ حصيلَةَ منتقيات نادرات من آداب أُمَّةٍ بكاملها.

لكِنَّ القرآن المجيدَ صالحٌ لأن يكون كُلُّه كذَلِكَ ذِكْراً دواماً، مع تَمَيُّزِ حِكَمِهِ، وأمْثَالِهِ وآياته بكلّ الخصائصُ الّتي تُؤهّل النَّصّ البيانيَّ لأنْ يكون ذِكراً دواماً، في الألسنة والأذهانِ والقلوب.

فمن الحقّ والدِّقَّةِ في الوصْفِ أن يَصِف الله عزّ وجلّ القرآن المجيد بأنّه ذو الذّكر، وبأَنْ يُسَمِّيَه ذكراً، وبأن يَصِفه بالذِّكْرىٰ (الذِّكْرىٰ: مصْدَرٌ كالذِّكر) وبأن يصِفَهُ بأنَّه تَذْكِرَة (أيْ: كبطاقَةِ مُذَكِّرَةٍ بأمْرٍ مُهِمّ).

أمّا ما في القرآن من عُمْقٍ تتدفَّقُ منه دواماً معَاني جديدة، فهو أمْرٌ يجْعَلُهُ لدى ذوي الأذهان الْقَادِرَة على استنباط المعاني العميقة، نصّاً يَذْكُرُونه آناً فآناً، مهما تَدَبَّرُوه وتفكّروا في معانيه، ودَلالاتِ مَبانِيه، ولَوازِمها الفكرية، فيكون لديهم جَدِيداً ممتعاً حُلْواً، كُلَّما تكشَّفَتْ لهم فيه معاني

جديدة، يَهْدِيهم إليها ذكْرُهُ بذاكرتهم، أو تَرْدِيدُ آياته بألسنتهم.

وبهذا يحتفظ القرآن بكونه ذكراً دواماً، بخلاف سائر النُّصوص.

إنَّ هٰذه الخصوصيّة لا نجدُها في غير القرآن المجيد من كلام الناس، وكذلك أيضاً استحقّ أن يكون ذا الذّكر، أي: ذا الشّرف العظيم.

فالْقَسَمُ بالْقُرآنِ ذِي الذّكر قَسَمٌ به من خلال ملاحظةِ إحدى خصائصه الكُبْرى، وهي كونُه كتاباً صالحاً لأنْ يُذْكَرَ دواماً، وكتاباً يجب على الذين آمنوا بالله ورسُوله أنْ يَذْكُرُوهُ آناً فآناً، ليَسْتَنْبِطُوا معَانيه، ويَعْمَلُوا بأحْكَامِهِ وَوَصاياه.

وفي القسم بالقرآن ذي الذّكر توجيه لأنظار المتفكّرين إلى أنّه آيةٌ معجزةٌ مِنْ آياتِ الله الكُبْرىٰ، الّتي تَستَحِقُّ أن يُقْسِمَ الله بها، وكوْنُه معجزةً دليلٌ علىٰ أنّ محمّداً الّذي يُبَلِّغُهُ عن رَبّه صادقٌ في نُبُوَّتِهِ، وصَادِقٌ في رسالته، فهذا القرآن لا يستطيع البشَرُ مُتَفَرّقين ولا مُجْتَمِعين أنْ يأتُوا به ولا بمثْله، بل هو تنزيل من الله العزيز الحكيم.

وقد تضمّن هذا القسم توجيهاً إقناعياً، ودليلاً هادياً لمن تفكّر وتَدَبّر، إلىٰ الإيمان بالرَّسُول، وبما جاء به عن ربّه.

والمقْسَمُ عليه محذوف تقديره: إنّ محمّداً الذي يبلّغ هذا القرآن ذا الذّكر عن ربّه صادقٌ في نبوّته، وصادق في رسالته، لأنّ هذا القرآن لا يمكن أن يأتي بمثله بشر، فليس محمّدٌ ساحراً ولا كذاباً.

## ممّا جاء عن القرآن في مراحل التنزيل حتّى نزول سورة (صٓ):

**النصّ الأول**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾.

أي: يتلقّونه أوّلاً، فيتفكّرون في معانيه ويتدبَّرونه ثانياً، فيَعْمَلُون بِمَا يَهْدِيهِمْ إليه ثالثاً، ثُمَّ يَجْعَلُونه ذِكْراً لهم آناً فآناً، يراجعون آياته، ويذكُرُون منه دواماً ما يلائم الأحوال، والمناسبات، التي تَسْتَدْعي منه بياناً بشأنها.

**النصّ الثاني**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول).

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

فجاء في هذا النّصّ وصْفُ القرآنِ بأنّهُ مجِيدٌ، أي: جامعٌ لكُلّ الصّفات السّامِيات العظيماتِ الجليلاتِ، التي تُناسِبُ نصاً بيانياً، تردّدُه الألسنة، وتحتفظ به الذّاكرات.

وجاء فيه وصْفه بأنّه مسْطُورٌ في لَوْحٍ محفُوظٍ عند الله بحفظه.

**النص الثالث**: قول الله عزّ وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾.

فأقْسَمَ الله عزّ وجلّ بالقرآن باعتبار أنّهُ مَجيدٌ، وآيةٌ عظيمة جليلة من آياته جلّ جَلاَلُه.

**النصّ الرابع**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

وقد جاءت هذه الآية مكرّرة في سورة (القمر) أربع مرّات، مقطعاً فاصلاً بين عرض موجزات من قصص بعض المهلكين السابقين، الذين كذّبوا بالنُّذرِ الّتي أنذرهم بها رُسُل ربّهم.

**النصّ الخامس**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾.

فأقسم الله عزّ وجل بالقرآن باعتباره كتاباً مؤهّلاً لأن يكون ذكراً للعالمين جميعاً، كما سبق بيانه لدى تدبّر هذه الآية.

❀ ❀ ❀

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: المعنيّون بهذه العبارة الملأ من مشركي قريش، وأتباعُهم اللاَّحقون بهم.

﴿فِى عِزَّةٍ﴾، العِزَّة: القوَّة الغالبة، يقول العرب: مَنْ عزَّ بَزَّ، أي: مَنْ غَلَب سَلَب.

فالمعْنِيُّون من الذين كفروا، وهم الملأ من مشركي مكة، وقد بَدَؤوا يتحدَّثون فيما بينهم أنّهم في مَنَعَةٍ بقُوَّتِهم الغالبة للرسُول والّذين آمَنُوا به واتّبعوه، وأنّه قد صَارَ من مصلحتهم للمحافظة على مكانتهم الاجتماعيَّة أن يَلْجَؤوا إليها، وأن يسْتَخْدِموها في اضطهاد المسلمين وتشتيت شملهم، وفي مقاومة دعْوَة الإسلام.

﴿وَشِقَاقٍ﴾: الشّقاق في اللّغة، العداوة والخلاف. يقال لغة: شاقَّهُ مُشاقَّةً وشِقاقاً، أي: خالَفَه وعاداه.

قال الزَّجّاج: الشِّقاق، العَدَاوة بين فريقَين، والخلافُ بيْنَ اثْنين، سُمِّيَ ذلك شقاقاً، لأنَّ كلَّ فِريقٍ من فِرْقَتَي الْعَداوةِ قَصَدَ شِقاً (أي: ناحيةً) غير شِقِّ صاحِبِهِ.

وفي التعبير عن هؤلاء المعنيّين أنّهم في عزَّةٍ وشقاقٍ، إشْعارٌ بأنّهم في محيطٍ يُحِيطُ بنُفُوسِهم وتصَوُّرَاتِهم، من مشاعِر اعتزازِهم بقُوَّتِهم الغالبة. ومَشاعِرِ عداوتِهم للرسول ودعْوَته ولِلَّذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، وهذا المحيط

بنُفوسهم وتصوّراتِهم لا بُدَّ أنْ يَصْرِفَهُمْ عن كلّ حقّ وبَصِيرةٍ سليمة ورُشْد.

لقد كان الواجب العقليُّ على هؤلاء الذين هم في عزّةٍ وشقاقٍ، أنْ يسارعوا إلى تصْدِيقِ الرَّسُول والإيمان به واتّباعِه، باعتبار أنّ ما نزل من القرآن قبل إنزال سورة (صۤ) كافٍ لإقناعهم بأنّ مُبَلِّغَهُ عن ربّه نبيُّ الله ورسُولُه حَقاً وصِدْقاً، فما فيه من مَجْدٍ وشَرَفٍ عظيمٍ مُعْجزٍ، وما فيه من بيان لاَ يستطيع أن يأتي بمثله بشرٌ منفردِين ولا مجتمعين، كَافٍ لأنْ يكونَ شاهداً فكْرِياً عَقْلِياً، علىٰ أنّ محمّداً الذي يُبَلِّغُهُ عن رَبّه نبيُّ الله ورسُولُه حقًّا وصِدْقاً.

وهذا الشاهد الفكْريُّ العقْلِيُّ شاهِدٌ بُرْهانيٌّ لمَنْ تَدَبَّرَهُ وتفكّر فيه، واستَبْصرَ وُجُوه إعْجَازِه.

لكنَّ الملأ من مشركي قريشٍ أصرّوا على تكْذِيبِ الرَّسُولِ محمد ﷺ حتّى نزول سورة (صۤ) إذْ لم يَعْبئوا بهذا الشّاهد الفكريّ العقليّ الذي اشتمل عليه القرآن المجيد، ولم يتوجّهُوا للاستفادة منه، بل انْصرَفوا عنه غير مكترثين له، ووصَلُوا في مواجهة الرسول ودَعْوَتهِ والّذينَ آمَنُوا بِه واتَّبَعُوه إلى طَوْرِ الشُّعُور بالاعتزاز بالقوّة الغالبة، القادرة على إيقاف الدّعوة الإسلاميّة، ومَنْعِ انتشارها، وطَوْرِ الْعَدَاوَة والشِّقاق، والمواجهة بالقُوّة العسكريّة المسلّحة.

هذا ما دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

فأشار حرف الإضراب «بل» إلى مطويّ لم يُصَرَّحْ به في اللفظ، وهو أنّ المَعْنِيِّين بعبارة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لم يستفيدوا من إعجاز ما نزل من القرآن، بل لَزِمُوا مواقفهم الأولى الّتي أعْلَنُوا فيها تعجُّبَهُمْ مِنْ أن يَجيئَهم مُنْذِرٌ مِنهم، وأعْلَنُوا فيها أنّ محمّداً ساحِرٌ كذّابٌ، ووَصَلُوا إلى طَوْر المعتزّ بقوته الغالبة، والواقف مواقف المواجهة بالعداوة والمخالفة والشقاق.

وتدلُّ عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ علىٰ أنَّ هؤلاء قد كان تكذيبُهم للرسُول ودعوته ناشئاً عن سَتْرِ أدِلَّةِ الإيمان، وسَتْر شواهد الحقّ الّتي ظهَرَتْ لهم، ودَفْنِها، لأنّ أصْلَ الكَفْرِ الدَّفْنُ والسَّتْر. والكُفْرُ هو جُحودُ الحقّ مع العلم بأنه حقٌّ.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

إنّ الموقف العِدَائيّ الّذي تطَوَّرتْ إليْه مواقف أئمة الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة، إذْ وصَلُوا إلى حالة من هو في عزَّةٍ وشقاق، يلائمه من العلاج تذكيرهم بمَا كانَ من الله العزيز الحكيم الْقَهَّار، من إهلاك أمْثالهم ومن كانوا أشَدَّ مِنهُمْ قُوَّةً من كُفَّار الْقُرُون الأولى.

فجاءت هٰذه الآية متضمّنةً هذا العلاج الحكيم.

﴿كَمْ﴾ هذه «كَمْ» الخبريّة، ومعناها عَدَدٌ كثير، وهي في محل نصبٍ على أنّها مفعولٌ به مقدّم على عامِلِهِ، والتقدير: عدداً كثيراً من الأمم، أهلكنا من قبلكم.

﴿أَهْلَكْنَا﴾ أي: إهلاكاً جماعياً عِقابياً في الحياة الدنيا، وجاء في هذه العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ موضوع الإهلاك الجماعيّ العقابيّ يلائمه الإشعارُ بعظمة الرُّبُوبيّة وسلطانها وجبروتها وقَهْرِها وجَليلِ حِكْمَتها.

أي: عَدَداً كَثيراً من كُفَّار أهْل القرون الأولىٰ أهلكناهم مِنْ قَبْل هؤلاء الذين وصلوا إلى طور من هُمْ في عزَّة وشقاق، وذلك حينما وصَلُوا مع رُسُل ربِّهم إلى طور استخدام الْقُوَّةِ المسَلَّحَةِ لِقَمْعِهِم واضطهاد الذين آمنُوا بهم واتَّبَعُوهم، والتنكيل بهم، بغية إطفاء أنوار الدَّعْوَة الرَّبّانيّة بالْقُوَّة، والتخلّص المادّيّ من الرّسل.

وهذه الآية تُشعِرُ بأنّ من سُنَنِ الله الدائمة في الأمم، أن يُهْلِكَ الأقوام الذين يَصِلُون إلى طَورِ الميؤوس من استجابة فئاتٍ منهم حيناً فحيناً لدَعْوَةِ رُسُل

ربّهم، الواقفين موقف القمع والاضطهاد والتهديد للتخلّص من الرسول ودعوته.

فالله جلّ جلاله وعزّ سلطانه لن يترُك رسوله محمّداً والذين آمنوا به واتَّبَعُوه، دُونَ أنْ يُؤيّدهم بنَصْرِه، ولو بإهلاك القوم المعادين لهم إهلاكاً عقابياً جماعياً عامّاً، إذا اقتضَتْ حِكْمَتُه ذلك.

وفي هذا التذكير وعْدٌ ضِمنيٌّ للرسُول والَّذِين آمنوا معه بأنّ الله ناصِرُهم، وإنْذارٌ للذين هم في عزَّةٍ وشقاقٍ بأنّ الله خاذِلُهم، أو مُهْلِكُهُمْ، إذا اقتضت حكمته ذلك، فليكُفُّوا عن الموقف العدائيّ الذّي هم فيه، مُغْتَرِّينَ بما هم فيه من مشاعر العزّة والقوّة الغالبة التي تنفث سُمُومُها في صدورهم، وتُحرضُهم على الوقوف في شِقّ المحارب المقاتل.

وهذا التهديد الضّمْنيُّ المنذرُ بإهْلاكها إذا وصَلوا إلى مثل ما وصل إليه السابقون من الأساليب البيانية الحكيمة في التربية.

﴿مِن قَبْلِهِم﴾ أي: مِنْ قبْل هؤلاء المعنيّين في السّورة.

«قَبلُ» ظرفٌ لمكانٍ مُبْهم، ثم استعير ظرفاً لزمانٍ مُبْهَم، ويكُونُ منصوباً على الظرفية، وقد يجرُّ بحرف الجرّ «مِنْ» تصريحاً بالْعَامل.

وارتقى النّصّ هنا تأكيداً بالتصريح بلفظ «مِنْ» في ﴿مِنْ قبْلِهِمْ﴾ عن النصّ المشابه الذي جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) السابقة نزولاً، فقد جاء فيه قول الله عزّ وجل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ . . . ﴿٣٦﴾﴾ ولم يأت فيه: وكم أهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِم، مراعاةً لحكمة الارتقاءفي المؤكدات بلاغياً.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾ القرْنُ من الناس، أهل زَمَانٍ واحِدٍ، وسُمّوا في اللُّغَةِ قَرْناً، لأنّهم اقْتَرَنُوا معاً في ذلك الزمان، وكلُّ أُمّةٍ لرسُولٍ عاشُوا في زمانه هم قَرْنُه.

وجاء في كلام الرسول ﷺ، عن عمران بن حصين، قوله: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْني، ثُمَّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونهم. . .»(١).

(١) صحيح الجامع الصغير رقم ٣٢٩٤.

**قَرْني:**، أي: أصحابي.

**ثم الّذين يلونهم:** أي: التابعون.

ثم الّذين يلُونهم، أي: تابعو التابعون.

والمراد المجموع العامُ لا الجميع.

لفظ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييزُ لبيان المبهم الّذي دلَّت عليه كلمة [**كم**] بأنّه ذو عدد كثير، أي: قُروناً ذواتَ عَدَدٍ كثير أهلكْنَا من كُفَّارٍ سابقين كانوا في عزَّةٍ ضِدّ رُسُل رَبّهم، وفي شقاقٍ لهم.

والمراد بفعل: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ قضينا أن يُهْلَكُوا انتصاراً لرُسُلنا والّذين آمنوا معهم، وأَمَرْنا بتنفيذ إهلاكهم في الأوقات المحدَّدة في القضاء، بدليل قول الله عزّ وجل في الآية: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

أي: فَنَادَوْا حينَ رَأَوْا بوادِرَ مُهْلِكاتِهم مُقْبلةً شَطْر دِيَارهم، مستغيثين مُسْتَصْرِخينَ بهٰذا النداء، عَسَىٰ أن يَجِدوا مَنْ يُغيثهم ويُنْجدهم فيصْرِف عنْهم، أو يُساعدُهم على أنْ يَنُوصُوا، أي: أن يتَحرَّكوا فارّين عن منازل المهلكات.

**[لات]**: كلمة «لا» هي النافية، زيدَت عليها التاء لتأنيث اللفظ، أو للمبالغة وتأكيد النفي وهو الأرجح فيما أرى[١].

﴿مَنَاصٍ﴾، أي: ملجأ ـ مفرّ. مَهْرَب. تقول لغة: ناصَ الرَّجُلُ إذا تحرّك فاراً، وناصَ الفرَسُ، إذا رفع رأسه نافراً، ويقال: نَاصَ إلى الشيء إذا الْتَجى إليه.

---

(١) «لا» من «لات» يعمل عمل ليس بشرطين: كون معموليها اسْمَيْ زمان، وحذف أحد معموليها، والغالب أن يكون المحذوف اسْمَها كما في الآية هنا، والتقدير: وَلَاتَ الحينُ حينَ مناص.

ولكنَّ نجاتَهُمْ قد كان ميؤوساً منها، إذْ قَضَىٰ الله إهلاكهم، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ولَيْسَ هذا الحينُ الذي نادوا فيه مستغيثين حين مناصٍ لهم.

والمعنى: أنّ هؤلاء القرون الّتي قضىٰ الله أن يهْلِكَهُم لم يكنْ لهم مفرٌّ أو مَهْرَبٌ أوْ مَلْجأٌ يلْجؤُون إليه، ولا مُغِيثٌ يُغيثُهم، ويُساعِدُهم على النجاة.

إنّ قضاء الله لا مُنْجِيَ مِنه غَيرُه جلَّ جلاله، ولا مَفَرَّ منْهُ ولا مَنْجَا ولا مَلْجأ، بل هو نافِذٌ لا مَحالة، وَتَحْقِيقاً لقضاء الله تمَّ تنفيذُ إهلاكِ المهْلَكينَ مِنْ كُفَّارِ القرون السَّابقة.

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾.

الحديث عن أئمة الكُفْر والشِّرْك في مكّة إبّان نُزُولِ السّورة، وقد سبق بيانُ موقفهم العَمليّ في الآية الثانية، وهو أنّهم في عِزَّةٍ وشقاق.

أما موقفُهم الفكري والإعلاميّ ضدّ الرسُول ودعوته فقد جاء في الآيات من (٤ ـ ٨).

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ هٰذه الجملة معطوفة على ما جاء في الآية الثانية من كونهمْ في عزَّةٍ وشقاق، أي: وصَلوا إلى حالة من هم في عزَّةٍ وشقاق في تَدْبيراتهم العملية، وعَجِبوا أنْ جاءهم مُنْذِرٌ مِنهم.

﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾ الْعَجَبُ المراد هُنا هو اسْتِبْعادُ واستنكار أنْ يكون الرَّسول بشراً مِنهم، مع إطلاق التَّعْبِير عن تكذيب الرسول بعبارات التعجُّب والاستبعاد المشعر بأنّه مِنْ غير الممكن أن يكون رسُولُ الله بَشَراً من البشر.

وجاء التعبير عن الرَّسول بعبارة «مُنْذِر» لأنَّ الرَّسول محمَّداً ﷺ قد بَلَّغَهُمْ، وبَيَّنَ لهم، وأقام لهم الحجج والبراهين، وقدّم لهم الآيات الباهرات، ووصَلَ في آخر الأمْرِ مَعَهم إلى مرحلة الإنذار بعذَاب الله، فهو في هٰذه المرحلة بالنسبة إلى المعنيّين في السُّورة مُنْذِر.

**الإنْذَار**: الإعلام بما هو مخوفٌ منه، ويتّقيه أُولُو الألباب. وموقفهم التعجُّبيُّ هذا قد سَبَقَ بيانُه في صَدْرِ سُورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقول الله تعالى:

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ... ﴿٢﴾﴾.

فدلّ قوله تعالى في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ... ﴿٤﴾﴾.

على أنّهم ما زالوا مُصِرّين على مَوْقِفِهم الفكريّ السَّابق، وهو مُجَرَّدُ التعجُّبِ والاسْتِغْرابِ، ولم يَسْتَطِيعُوا أنْ يُضيفوا حُجَّةً قابلةً للمناقشة والمناظرة، ومَعْلُومٌ بِالبَدِيهَةِ العَقْلِيّة أنّ التعجُّبَ المجرَّدَ عن دليلٍ يَنْفِي وقُوعَ المتعجَّب منه، لا يصِحُّ الاعتماد عليه للنَّفي والإنكار، إذا كان المتعجَّبُ منه من الممكِنَات العقلية، فكيف به إذا كان من مُقْتَضَياتِ الحكمة، ونظائِرُه ثابتةٌ في التاريخ، وآيَاتُ صدقه قاطعة.

﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: منذرٌ بَشَرٌ منهم.

- ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

كان مقتضىٰ الظاهر أنْ يُقال: وقَالُوا هذا ساحرٌ كذاب، لأنّ الحديث ما زال مقصوداً به أئمة الكفر والشّرك في مكة إبّان التنزيل، فاستعمال الضمير هو الملائم لمقتضىٰ الظاهر، ولكن خُولِفَ هذا المقتضى واسْتُخدِم الاسم الوصْفيُّ المنطبقُ عليهم وهو ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للدّلالة على أنّ الكُفر

العناديَّ الإداريَّ السَّاتِرِ لأدلّة الحقّ قد صار علامةً بارزة دالَّةً عليهم.

﴿هَٰذَا﴾ في استخدام الكافرين اسْمَ الإشارة «هذا» مراداً به رسولُ الله محمد ﷺ، ما يَدُلُّ على أنّهم قد وصَلُوا إلى حالة الاستهانة به أمَامَ النَّاسِ، لدى الحديث عنه.

﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، **ساحِرٌ**: أي: بالنسبة إلى الآيات الباهرات الدّالاّت على صِدْق نُبُوَّتِه ورسالته. **كَذَّابٌ**: أي، بالنسبة إلىٰ مايُبَلِّغه عن رَبّه.

ولا نَجِدُ بياناً صريحاً فيما نزَل قبل سورة (صَ) قال فيه الكافرون عن الرَّسُول: «هذا ساحِرٌ كَذّابٌ» ولكن جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قولهم عن آية انشقاق القمر: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ وجاء في سُورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) قول بعضهم عن القرآن ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، وجاء في سورتي (ق) و(القمر) بيان أنّهم كذّبوا، ولكِنَّ تكذِيبَهُمْ بمَضْمُون ما جاء به الرَّسُولُ لا يَلْزَمُ مِنْهُ حتماً أن يكونُوا قد اتَّهَمُوهُ جازِمين بأنّه ساحِرٌ كذَّابٌ، لاحتمال أنْ يكونُوا قد تَصَوَّرُوا أنَّ ما هو فيه ناتجٌ عن تَهيُئاتٍ خاصَّةٍ، أو بتأثير مَسٍّ من الجنّ.

فقولهم: «هٰذا ساحرٌ كذَّابٌ» موقِفٌ فكريٌّ مُضافٌ إلى مواقفهم السَّابقة.

● ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

﴿عُجَابٌ﴾، على وزن «فُعال» كلمة تستعمل فيما يُثيرُ أعظم التعجُّب والاستغراب، للإشعار بإنكار النفوس والأفكار له.

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؟! استفهامٌ تعجُّبيٌّ إنكاريُّ، أي: كيف ينفي محمّدٌ وجُودَ آلهة متعدّدة، ويَجْعَلُ العباداتِ كُلَّها في دَعْوتِه الجديدة مستَحَقَّة لإلَهٍ واحِدٍ لا شريك له؟! إنّ هذا الأمْرَ الّذي يَدّعِيه لشيءٌ يُتَعَجَّبُ منه أشَدَّ العجب!!

وهذا العنصر منْ عناصر مَوْقِفِهم الفِكْرِيّ في هذه المرحلَةِ لَمْ يُثْبتِ البيان القرآنيُّ فيما نزل قبْلَ سُورة (صٓ) أنّهم قَدْ صَرَّحوا به، فهو موقفٌ فِكْرِيٌ مُضَافٌ بصريح الْعبَارة، وهو على ما يظهر ممّا بزر في هذا الطور من أطوارهم تجاه الرسول ﷺ ودَعوته.

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ...﴾.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، أي: ذهَبُوا مُسرِعين، الانْطِلاقُ الذهابُ بِسُرْعَة، لأنّ «انْطَلَقَ» مطاوع «أطْلَق» وأصل الإطلاق التحرير من القيد، ومن عادة المقيَّد إذا أُطلق مِنْ قَيْدِه أنْ يذهب مسرعاً بعيداً عن المكان الذي كان مقيداً فيه.

**الملأُ**: أشْرافُ الْقَوْمِ وسَرَاتُهم الّذِينَ يَمْلَؤُون عُيُون العامّة.

جاء في سبب النزول ما رواه الترمذيُّ وحسَّنه عن ابنِ عبَّاسٍ قال: مَرِضَ أبو طالبٍ، فجاءَتْهُ قُريشٌ، وجاءه النبيُّ ﷺ، وعند أبي طالبِ مَجْلِسُ رجُلٍ، فقام أبو جَهْلٍ كي يمنَعَ النبيَّ ﷺ من أن يجلس، وشَكَوْه إلىٰ أبي طالب.

فقال: يا ابْنَ أخي، ما تُريد من قَوْمِكَ؟

قال: إنّي أُريدُ مِنْهُم كلمةً واحِدةً تَدينَ لَهُمْ بهَا الْعَربُ، وتُؤدِّي إليهم الْعَجَم الجزية.

قال: كَلِمةً واحدةً!!

قال: يا عَمِّ، يقُولُوا: لا إلٰه إلا الله.

فقالوا: أإلهاً وحداً؟! ما سَمِعْنَا بِهٰذا في الملَّة الآخِرَة، إنْ هٰذا إلاَّ اخْتِلاقٌ.

قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ . . .﴾.

هذا الذي ورَدَ في سبب النزول يَدُلُّنا عَلَىٰ أنَّ مَلأَ قُريشٍ خَرَجُوا بَعْدَ عيادَةِ أبي طالب في داره مُنْطَلِقِينَ مُسْرِعين في خُطَواتهم، ويَدُلُّ أيضاً على أنّ أفكارهم قَدْ أخَذَتْ تتأثّر بدَعْوَةِ الرسول ﷺ إلى التَّوْحيد، لَكِنَّ نُفُوسَهُمْ أبَتْ ذَلِكَ، فانطَلَقُوا مُسْرِعينَ هُرُوباً مِنْ شَيْءٍ بَدَأَ يَتَسَلَّلُ إلى داخِلهم، وجعَلَ بعضُهم يُثبّتُ بعضاً وهُمْ منطلقون.

لقد انْطَلَقَ هؤلاء الملأُ قائلين فيما بينهم متواصِين، وقائِلينَ لأتباعهم ومَنْ يتأثّرُ بهم: امْشُوا على تقاليدِ ملَّتِكُمْ، واصْبُرُوا علىٰ عبادَةِ آلِهَتِكُمْ المُتَعَدِّدَةِ، ولا تتأثَّرُوا بدَعْوَةِ التوحيد التي جاءكم بها محمد، فَتُزَحْزِحَكُمْ عن عقيدتكم في آلِهتكم، أمّا دَعْوَتُهُ إلى عبادة الله وحْدَه لا شريك له، وإنكارُه صِحَّةِ عبادة الأصنام، وادّعَاؤه بأنّها لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ فهو شيءٌ يُريدُ به أغراضاً خاصَّةً لنفسه، إذْ يَجْعَلُ نفسه بدَعْوَتِهِ الجديدَة هو السيِّد والقائِدَ وصاحب الأمر والنهي والسُّلْطانِ فيكم.

وقائلين أيضاً: مَا سَمِعْنا بهذا التوحيد الذي جاء به محمّد في الملَّة الآخرة، وهي النصرانية المثلّثة. وقائلين: إنْ هذا إلاَّ اختلاقٌ يفتريه محمّدٌ على الحقيقة، وقائلين على سبيل التعجُّب، وبأسلوب الاستفهام الإنكاريّ التعجُّبيّ: أأُنْزِلَ عليه الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا؟!!

وتتخلَّص مَقُولاتُهم الّتي قالُوها وهم منْطَلِقُون مُتَماسِكُونَ يُثَبّتُ بعضُهُمْ

بَعْضاً، على الصَّبْرِ على عقائِدِهِم ومفهوماتهم الشركيّة، وعباداتهم لآلِهَتِهِم من الأوثان، بمقولاتٍ سِتٍّ مُفَصَّلاتٍ جاءت بَعْدَ «أنْ» التفسيرية في عبارة: ﴿وَانطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ﴾ أي: انْطَلَقُوا قائلين أقوالاً تَفْسيرُها فيمَا يلي:

**المقولَةُ الأولىٰ**: دلَّ عليها ﴿ٱمْشُوا﴾، أي: امْشُوا على طريقة آبائِكُمْ وأجْدادِكُمْ، ومِلَّتِهِمْ من الشِّرْك، وما ورِثْتُموهُ عَنْهُمْ من مفهومات وأعمالٍ وتقاليد.

**المقولة الثانية**: دلَّ عليها: ﴿وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، أي: واثْبُتوا صابرين على عبادة آلهتكم، ولا تتأثَّرُوا بما جاء به محمَّد مِنْ دعوةٍ إلىٰ التوحيد، ومِنْ جدَليات تُبَيِّن أنّ آلهَتَنا لا تنفع ولا تضرُّ.

**المقولة الثالثة**: دَلَّ عليها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾، أي: إنَّ هٰذا الذي يدْعوكم إليه محمّد من التوحيد، ونَبْذ عبادة الأصنام، ووجوب القيام بعبادة الله وحْده لا شريك له، لَشَيءٌ يُرادُ لمصلحة خاصَّةٍ له، وليس لأنّه هو الحقُّ والصّدْق.

وأكَّدُوا مقولتهم هذه بمؤكّداتٍ ثلاثة: «إنّ ـ والجملة الاسمّية ـ ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر.

**المقولة الرابعة**: دلَّ عليها: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: ما سَمعنا بهذا التوحيد، وجَعْلِ الآلِهةِ إلٰهاً واحداً، في الملّة الآخرةِ من مِلَلِ أهْلِ الكتاب، وهي ملّةُ النصارى، إذْ كانُوا يَعْرِفُونَ أنَّ النصارىٰ مُثَلِّثُون، يَعْبُدونَ الله ومريم وعيسى.

أمّا هم فيَرَوْنَ أنّهم على ملّة إسماعيل وإبراهيم، وهي من المِلَل الأولى.

وتَفْسِيرُ الملّة الآخرَةِ بالنَّصْرانِيّة مَرْوِيٌّ عن ابن عبَّاسٍ وأصحابه.

فملأُ مشركي مكّة يُحَاوِلُون بهذا القول تثبيتَ أنفسهم على عقيدة الشرك وتَعدُّدِ الآلهة، وتحسين ما هم فيه قياساً على المشهور عندهم من عقيدة النصارى.

**المقولة الخامسة**: دلّ عليها: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾: ﴿إِنْ﴾ حرف نفي مثل «ما». ﴿هَٰذَا﴾، أي: التوحيد الذي جاء به محمّد.

﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ **الاختِلاقُ**: افتِراء الكَذِبِ وتَعمُّده.

أي: ما هذا الذي يَدَّعيه محمَّدٌ من أنه لا إلٰه إلا الله وحْدَه لا شريك له، إلاَّ اختلاقٌ يَخْتَلِقُه من عنده، أي: قولٌ يفتريه ويخترعه من عند نفسه.

**المقولة السادسة**: دلّ عليها: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!!

أي: أيُعقَل أنْ يَخْتَارَ الله مُحمَّداً بخصوصه من دون كلّ عظماء قومه وحكمائهم، وأذكيائهم ومَلَئِهم، فيُنْزِلَ عليه القرآن، الذي يُريد منّا أن نجعله ذِكْراً نَذْكره آناً فآناً، وننتفع به دواماً؟!!.

إنّ هذا لَأَمْرٌ مستنكرٌ وغير معقول، فمحمَّدٌ إذَنْ غَيْرُ صادقٍ في دعوته، وهو في بيانه الآسِرِ، وفي الآيات الّتي يأتي بها ساحرٌ، وهو في دعوته الّتي يَدْعُو إليها كذّاب.

وبالرُّجوع إلى ما نَزَلَ من قرآنٍ قبل سورة (صٓ) لا نَجِدُ أنّ كُفّارَ مكّة قد صرَّحوا بهذه المقولاتِ السّتّ من مَوْقِفِهم الفكريّ الّذي وَصَلُوا إليه في مَرْحَلَةِ نزول هذه السّورة، فهي من المقولات المضافة في بيَانِ موقِفِهم الفكري، ومن العناصر المضافة في البيان القرآنيّ عنهم، والله أعلم.

● قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿... بَل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

بعد بيان الموقف الحركيّ الماديّ لأئمة الشّرك والكفر في مكّة، والموْقِفِ الفكريّ، في الطّور الّذي وصَلُوا إليه إبّانَ نُزول هذه السّورة، كان من الحكمة مُتابَعَةُ مُعالَجتِهِم بالإقناع وبالترهيب. وكان من الحكمة معالجة الرّسول ﷺ والذين آمنُوا به واتّبَعُوه، بأنّهُمْ سيُواجِهُونَ مُضطَهِدِيهم، ومُهَدِّديهم بالحرب، في معارك قتاليّة، وسيكونون هم المنتَصرين عليهم، وسَيَكُون هٰؤلاء الذين هم الآن في عزةٍ وشِقاقٍ هم المهْزُومِين والمغلوبين.

● قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي: بل هُمْ في شكٍّ من القرآنِ الّذي أُنزِلُهُ علىٰ محمد، والّذي هو بيانيْ الذي يجب عليهم أن يذكُرُوه آناً فآناً، ليُحْيُوا في ذاكرتهم مطلوباتي منهم في رحلة امتحاني لهم.

يُشْعِرُ حرفُ ﴿بَلْ﴾ بمحذُوفٍ مطويٍّ في الكلام بين قولِه تعالى حكايةً لمقولَتِهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!!

وبين قوله تعالى في العلاج: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ فما هو هذا المحذوف المطويُّ؟

جاء في صَدْرِ السّورة القسَمُ بالقرآنِ ذِي الذّكرِ على أنّ الرّسُولُ محمداً صادقٌ فيما يُبلّغ عن ربّه، وفي هذا القسَم توجيهٌ لتدبُّر القرآنِ نفْسِه، دون النظر إلى مُبلّغِه، فهو بيانٌ عظيم يجب أنْ يُدْرَسَ ويُفْهَم بحَدِّ ذاته، دون النظر إلى النبيّ المختار لإنزاله عليه، بسبب ما فيه من سمُوّ وكمالٍ وبيان مُعجز لا يَسْتطيع أنْ يأتي به ولا بمثلِه بشرٌ، وهذا كافٍ لأن يُؤسّس الاقتناع في الأفكار والقلوب الواعية، بأنّه ليْس كَلامَ بشر، وإنّما هو تنزيلٌ مِنْ لَدُن عزيز حكيم، ربّ السّماوات والأرض، وربّ كلّ شيء.

فلو أنّ الناسَ وَجَدُوهُ في صُنْدوق، أو في حفيرة، أو في جُبّ، أو في صحراء، أو في مغارة، أو علىٰ جَبَلٍ لكان عليهم بعدَ قِراءَته، وتدبُّر ما جاء فيه أن يُؤمِنوا بأنّه منزّلٌ من عند الله بوسيلة ما.

أما وسيلة التوصيل فغير ذاتِ أهميَّةٍ في الموضوع. أليسوا يفعلون كذلك فيمايستخرِجُونَه من كنوز، وفيما يَجِدُونَ من جواهر نفسية في أماكن محتقرة، أفيُهْمِلُونها ولا يعبؤون بها، إذا وجَدُوها في المقابر، أو في المستنقعات، أو نحو ذلِكَ؟!!

فكيف بهم إذا وجدوها في أماكنَ شريفة، أو قدّمها لَهُمْ كريم ذو خُلق عظيم، وفضائلَ شامخات؟!!

هذا الإقناع يُسْقِط عجبهم من أن يأتيهم منذرٌ بشرٌ منهم ويُسْقِطُ مقولتهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!! مستنكرين ذلك، لو شاءُوا أن يقتنِعُوا بالحقّ.

أي: فمالَهُمْ وللرّسُول المصْطَفَىٰ الّذي اختير للنبُوَّةِ والرِّسالَةِ الخاتمة؟ لِيَنْظُروا فيما جاءهم به، ولْيَنْظُرُوا مُتَدَبِّرين هٰذا القرآن الّذي يُبَلِّغُهم إيّاه، فإنّهم إذا تَبَصَّرُوا به وتفهموا آياته بتدَبُّر، اقْتَنَعُوا بأنّه تنزيلٌ من رَبّ البشر وليس من كلام البشر، واقْتِناعُهُمْ هٰذا يَهْدِيهِم إلىٰ أنَّ مُبَلِّغَهُ عن ربّه نبيُّ الله ورَسُوله حقاً.

لكنّهم ليسوا في التفكّر في معانيه ولا في مبانيه، وهو ذكري لهم، وهُمْ مُنْغَمِسُونَ في شَكٍ مِنْ كَوْنِه ذكْرِي، صارِفٍ لهم عن تَدَبُّرِه والتفكُّرِ فيه.

وليسوا مَعْذُورين في أن يَجْعلُو الشَّكَّ بأنّه ذكْرٌ مِنْ عنْد الله، لِعَوَارِضَ خارجَةٍ عن جَوْهره، صارفاً لهم عن تدبُّره، وتفهُّم دلالاتِ آياته.

فَهَلْ من العَقْل أن يَرْفُضَ الإنسانُ كَنْزاً في صُنْدوق قدّمه إليه من لا يَراهُ أهْلاً لِحَمْلِ كَنْزٍ نَفِيسٍ ثمين؟!!

إنّ علَيْه أن ينْظُر بعَقْلٍ ورَوِيَّةٍ وحِكْمَةٍ فيما في الصُّندوق، وأن يتبصَّرَ

به، ثُمَّ يَحْكُمَ، وليس من العقل والفهم الصحيح في شيءٍ، أنْ يَرْفُضَ الصُّندوقَ ابتداءاً، وأماراتُ كوْنِهِ كنزاً عظيماً بادِيَةٌ عليه، لمُجَرَّدِ أنّه لم يُعْجِبْهُ حامِلُ الصندوق، ومُقَدِّمُه إليه، أو جاء هذا الحامل للصندوق على خلاف ما يُحِبُّ ويَهْوَىٰ، كأنْ كَانَ يَهْوَىٰ أنْ يكون حامل الصندوق مَلِكاً، أو أميراً، أو زعيماً، أو كبيراً من كبراء قَوْمه.

هٰذه المَعاني المطويَّة أغنىٰ عن التصريح بها، القَسَمُ بالقرآن ذي الذكر في صَدْر السورة، وقَوْلُ الله عزّ وجلّ في الآية (٨) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِيٓ . . .﴾.

● قول الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

وقرأ يعقوب **[عذابي]** بإثبات يَاءِ المتكلّم في الوصل والوقف.

كلمةُ ﴿بَل﴾ في هذه الجملة تُشير أيضاً إلى كلامٍ مطويٍّ غَيْرِ مذكُورٍ في اللَّفظ، وبالتفكُّرِ والتَّدَبُّر نَسْتَطيعُ أن نُدْرِكَ معاني هذا المحذوف.

أي: وإنّ ما في ذِكْري وهو القرآن الذي يبلّغه رسولي محمّد، من إنذارٍ لهم بعذابي، إذا لم يُؤْمِنُوا ولم يُسْلِمُوا ولم يكُفُّوا عن مقاومة رسولي ودعوته، واضطهادِ الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، كافٍ لإثَارَةِ مخاوفِهم، فإيقاظهم من غَفَلاتِهِم، وما هم فيه من مُلْهيات الحياةِ الدُّنيا، فَهَزِّ نُفُوسِهِمْ، ونَفْضِ ما تراكم عليها من غاشيات، وتَوْجِيهِهِم لاستبصار الحقّ الذي يشتمل عليه ذكري.

لكنَّهم في حَالَةٍ هُمْ مَعَها أعْنَدُ وأقْسَىٰ وأشدُّ من أنْ يكفِيهُمُ الإنذارُ الكلاميُّ، المؤيَّدُ بالشواهد الفكريَّةِ والأدلَّةِ التاريخيَّةِ مِنْ أحداث الماضي.

بل هم بحاجَةٍ إلى أكثر من ذلك، حتَّى يَستَيقظُوا، وهذا الأكثر هو أن يَذُوقُوا بعض عذابي، وهو الأمر الَّذي تقضي الحكمة التربويّة بإذاقتهم إيّاهُ بَعْد زمَنٍ قريب، فهُمْ على مَقْرُبَةٍ من أن يَذُوقُوا عذابي.

هذه المعاني المطويّة أغنىٰ عن التصريح بها قول الله عزّ وجلّ ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾، أي: عذابي كما جاء في قراءة يعقوب. وهذا القول قد دلَّ على قضيتين.

**القضية الأولى**: أنّهم لم يَذُوقوا بَعْدُ عَذَابَ الله، وهم من الناس الّذين لا تكفيهم الإنذاراتُ الكلامية، المؤيَّدةُ بالشواهد التاريخية الدالَّةِ على سُنَّةِ الله في الأمم.

**القضيةُ الثانية**: أنّ زمنَ إنزالِ عذابِ الله فيهم قد صار وشيكاً قريباً، بحسَب مقتضىٰ الحكمة التربويّة، إذا لم يتداركوا أنفسهم بالتَّوبة والإيمان الصحيح الصادق، فَلْيَتَرَقَّبُوا عذابَ الله الذي سَيَنْزِل بهم بعْدَ حين ليس بالبعيد.

- فمعنى النفي في [لمّا] دَلَّ على القضية الأولى.
- ومعنى اقتراب وقوع المنفي بها دلَّ على القضية الثانية.

وكلمة [بل] أشارَتْ إلى المحذوفات المطويّاتِ الّتي يصلُ إلى إدراكها المتدبِّر المتأنّي الْبَاحِثُ في الْعُمق، تتبُّعاً للوازم الكفريّة، وما يقتضيه اللّفظ المصرَّحُ به من معانٍ لم يُصرَّحْ بها.

إنّ التَّلويح باقتراب أيّام تعذيبهم، علاجٌ يلامِسُ مَحَاوِر الخَوْف في نفوس الّذين لَدَيْهِم ظنٌّ باحتمال كون ما جاء في الإنذار حَقاً وصِدْقاً، وهذا العلاج مِنْ شأنه أن يَهْدِمَ أوْهامَ العناد، ويُهيلَ رُكامَاتِ الإصْرار على التقاليد العمياء.

فالخوفُ في داخل النفوس من العوامل التي تهزُّها هزّاً عَنِيفاً، فتنْفُضُ عَنْهَا رَكاماتِ الْقَتَرِ والغبارِ والغِشَاوَاتِ، وتَجْلُو رُؤْيَتَها عسَىٰ أنْ تَسْتَبْصِرَ الحقّ.

● قول الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾؟!!

﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى «بل» الدّالّة على الإضراب، منضماً إليه معنى الاستفهام، فيصير المعنى: بل أعندهم...؟

أي: بل، أعِنْدَهم خزائن رَحْمَة ربّك تفويضاً من قبله، فهُمْ يتصَرّفُون بها على ما يشاؤون، حتّىٰ يُعْطوا منها أو يُمْسِكُوا بِحَسَبِ أهوائهم، وهو جلّ جلاله وعَظُمَ سلطانه الْعَزِيزُ الْغَلاَّبُ، الذي لا يحتاج في كونه إلى أوْصِياء على خزائن رحمته، ولا يحتاج إلى مُعِينينَ له في التصرّف فيها. وهو سبحانه الوهّاب، الذي يَهَبُ من خزائنِ رحمتِه بحَسَبِ حكْمَتِه، لا بحَسَبِ أهواء عباده؟!!

فأيُّ شأنٍ لهم في تصرُّفاتِ الله بخزائن رحمته، ومُنْها اصْطِفاءُ مَنْ شاءَ من عباده لِرسالاته وَوَحْيِهِ؟!!

لقد كان علَيْهم أنْ يَعْرِفُوا حُدُود أنفسهم، فلا يقُولُوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!! لكِنّهم لَمْ يَفْعَلُوا بل كان منهم اعتراضُ مَنْ يتوهَّمُ أنّه يملِكُ الاقتراح على الله العزيز الوهاب، فيما يتصرَّفُ به من خزائِنِ رحمته، وهم في الواقع لا يملكون شيئاً من ذلك، لأنَّ الأمْرَ كُلّه في الوجود كُلّه لله وحْدَهُ، جلَّتْ قُدْرَتُه وعظُمَ سلطانه، وهُمْ عَبِيده وخلْقٌ من خلقه، وهو بحكمته يفعل ما يشاء ويختار.

● قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾.

أي: بل. ألَهُمْ مُلْكُ السَّماوَاتِ والأرْضِ وَما بَيْنهما، حتّىٰ يكون من حقّهم أنْ يعْتَرِضُوا على الرَّبّ الخالِقِ فيما يَمْنَحُ منهما أو فيما يَمْنَعُ. أو أن يعْتَرِضوا عليه في اصطفائه من يشاء من عباده بالوحْي والرّسالة، وفي حَجْب ذلِكَ عَمّنْ لا تقتضي حكْمَتُه مَنْحَه.

لقد كان عليهم أنْ يَعْرِفُوا حُدُود أنفسهم، فلا يعترضوا على اصطفاءاتِ الرَّبّ، لكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

بل كان منهم اعتراضٌ يشبه اعتراض من له مُلْكُ السَّماوات والأرض وما بينهما.

وإنْ بلَغَ بِهِمْ الغرورُ إلى زَعْمِ أنّ لهم مُلْكَ السَّماوات والأرض، إذْ وجَدُوا أنّ الأسباب الّتي توصّلوا إليها باكتشافاتهم، ممّا سخَّر الله للنَّاس في كَونه، تُمَكِّنُهُمْ من اجتياز الفيافي والقفار، وعُبُورِ البحار، والصُّعُودِ إلى ما فوق السُّحُب، والوصول إلى بعض الأفلاك والأقمار ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: فلْيَسْتَخْدِمُوا الأسْباب المسخَّرَة لَهُمْ، على طريقة الارتقاء من سبَبٍ إلى سبب آخر فوقه، ثم إلى سبب آخر فوقهما، وهكذا تَسَلْسلاً مع الأسْباب ضمن سلَّم الأسباب الّتي جعلَها الله لَهُمْ مُسَخَّراتٍ في كونه، فهل يستطيعون بعد رحلة الارتقاء في سلّم الأسباب حتّى آخر الدَّهر المقضيّ لحياةِ الناس، أن يُثْبِتُوا أنّ لهم مُلْكَ السَّمَاوَاتِ والأرض وما بينهما، دون أن يكونوا خاضعين لسُلطان رَبِّهم وَرَبِّ السّماوات والأرض وما بينهما ومالِكِ كُلّ شيءٍ ومَليكه، ودون أن يكونوا خاضعين لسُلطانِ قوانِينِه في عوالم الموجودات؟؟.

**السبب عند أهل اللُّغة:** كلُّ شيءٍ يتوصَّلُ به إلى مطلوبٍ ما كائناً ما كان.

وتدلُّنا عبارة: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ على قاعِدَةٍ كونيَّةٍ تعتمد عليها المبتكراتُ والمخترعاتُ الصناعيّة، وهي أنّ للأسْبابِ في الكون سُلَّماً ارتقائياً، وأنّ كُلَّ دَرَجَةٍ سببيَّة هي شرطٌ للارتقاء إلى الدَّرجَةِ السببيَّة التي فوقها.

وتدلُّنا هذه العبارة أيضاً على التوجيه الرّبّانيّ للأخذ بأسْبابِ الارتقاء

العلْميّ والْعَمَلي الذي لا يتناهى، ما بَقِيتْ في الكون أبعادٌ يَطْمَحُ الإنْسان إلى اكتشافها، ومعرِفَةِ أسرارها وقواها، وما بقيت في الكون أسْبابٌ مُسَخَّرة له.

وهذه العبارة نفسها تُشْعِرُ ضِمْناً بما تَوصَّل إليه الناس في هذا الْعَصْرِ، من استخدام الأسباب التي سخَّرَها الله لهم، حتّى عرَفُوا كثيراً من طاقاتِ الكَوْن، واسْتَخدَموها لِنَسْفِ الجبال، واستخراج كثير من كنوز الأرض، وعُبُورِ الأجواء، والوصول إلى القمر وبعض الأفلاك، فهلْ تستطيع الدُّولُ العظمىٰ، المستخدمة لهذه الأسباب، أن تَدَّعي أنّ لها مُلْك السماوات والأرض وما بينهما، وتتمرَّدَ على قوانين الله وأنظمته في كونه، وأنْ تكونَ مشاركةً لله في رُبوبيَّته لكل شيء؟؟!

وهل تستطيع أن تفرض على الله اختياراتِها وأهواءَها، فيترك من أجلهم ما يشاء ويختار؟!!

ولو اتّبعَ الله الْمَلِكُ الحقّ أهواءَهُمْ لفسدت السموات والأرض، ومن فيهن، كما قال الله عزّ وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . . ﴿٧١﴾﴾.

وبهذا تَمَّ الحصار الفكريُّ لمكَذِّبي الرسُولِ في دفع مقولتهم الفاسدة، بشأن محمّد ﷺ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!!

فقد تضمّن هذا الحصارُ الفكريُّ التّنبيه على أنّ الاصطفاء بالنبّوة والرّسالة، لا يَخْضَع لأهواء الناس ومفهوماتهم الطَّبَقِيّة، بلْ إنّ الله عزّ وجلّ يصطفي بحكمته لرسالته من يشاء من عباده، وهُوَ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه أعْلَمُ بعباده، وأعلم بمَنْ يصْلُحُ منْهُمْ لذلك.

فاستنكافُ كُبَراء كفار مكّة عن الإيمان بِنُبُوَّة محمّد ورسالته، على الرُّغم من وجود الآيات الباهرات الدّالاّت عليهما، واستنكارهم أن

يَصْطَفيَهُ الله من بينهم، فيجعَلَه نبيّاً ورسولاً، ويُنَزِّلَ عليه الذِّكرَ، ولا يختار عظيماً من عظمائهم لهذه المهمّة العظيمة، واقتراحُهم أن يكون النبيُّ الرسُول المختارُ رجلاً من عظماء رجالهم، إنّما هو تَدَخُّلٌ منهم في خصائص رُبوبيّة الله في مُلْكِهِ، وفي تصَرُّفاتِه في خلقه، الّتي يتصَرَّفُها بمقتضى حكمته المقتَرِنَة بعلمه الشامِلِ كُلَّ شيء.

والله جلَّ جلاله وعظُمَ سلطانُه، لم يجْعَلْ خزائِنَ رحْمَتِهِ الّتي يمْنَحُ مِنْها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عباده، ما يشاء بحسَب حكمته وعلمه بهم تَحْتَ تَصَرُّفِ أحَدٍ مِنْ عباده، ولَوْ كَانَ مَلَكاً مُقَرَّباً، فكيف بهؤلاء المعْتَرِضينَ أصحابِ الأهواء؟! كيف تكونُ لهم مُقْتَرَحاتٌ مقبولاتٌ لدى العليم الحكيم العزيز في اختيار من يُعْطي من رحمته، ومَنْ يُسمِكُ عَنْهُ فلا يُعطِيه.

وعلى طريقَةِ الحصَارِ الفكريّ حوْلَ هذا الاعتراض بالذَّاتِ أبان الله عزّ وجلّ لهم أنّ هذا الاعتراض يمكن أن يكون مقبولاً في إحدى حالتين.

**الحالة الأولى**: أنْ يُوجِّهَهُ مُفَوَّضٌ بالتَّصَرُّف، ومَنْ له حقُّ الاعتراض، وقد جاء إسْقاط احْتمالِ التَّفْويض بالتصرّف، واحتمال أن يكون لهم حقّ الاعتراض، في قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ وقد سبق شرح هذه الآية.

**الحالة الثانية**: أن يُوجّهَهُ مَنْ له مُلْكُ السَّماواتِ والأرْض وَما بينهما، فإن كانُوا يَزْعُمُونَ أنَّ لهم مُلْكَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما، فليقوموا بِعَملٍ ما يُثْبِتُونَ به أنّهم يملكون ذلِكَ بحقّ، لكنّهم لا يستطيعون مع تسخير الأسباب لَهُم، وقد جاء إسْقاط هذا الاحتمال في قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ وقد سبق شرح هذه الآية. وسبق بيان أنهم لا يستطيعون أن يخالفوا قوانينَ الرَّبِّ الخالِقِ في كونه، فهو الحاكم عليهم بقوانينه فيما سخَّر لَهُمْ، وأمْرُهُ وسُلْطانُه في المسخَّرَاتِ هو النافذ، وقُوَّتُه هي القَاهِرة الغَلاَّبَة.

● قول الله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ جاء في صدر هذه السّورة بيان أنّ الذين كفَرُوا (أي: كبراؤهم وأئمّتُهم) في مكّة قد وصلوا إلى طَوْرِ الّذين هم في عزَّة وشقاق، أي: في استشعارهم بأنّ لهم القوّة الغالبة تجاه بدء تكاثر أعداد الذين يُؤمِنُون بالرسول ويتّبعونه، وفي تهيُّؤ نفوسهم للقَمْعِ قبل أن يَصِلَ المسلمون بالتنامي والتكاثر إلىٰ أن يكونوا هم أصحاب القوّة الغالبة.

واقتضى هذا البيان علاجَ الذين كَفَروا، بالتَّلْويح بأنّهم إذا تفاقم أمْرُهم نَزَل الله عزّ وجلّ بهم إهلاكًا عامّاً شاملاً، كما أهْلَكَ أقواماً سابقين استحقوا الإهلاك بكفرهم، ومقاوماتهم لدعوات رُسُل ربّهم، فقال الله عزّ وجلّ في هذا العلاج:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾.

وقد سبق شرح هذا العلاج.

واقتضىٰ هذا البيان أيضاً عِلاجَ الرّسُول والّذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، بما يطْمَئِن قُلُوبَهُمْ بأنّهُمْ هُمُ المنصُورون، وبأنّ الذين هم اليوم في عِزَّةٍ وشقاق هُمُ المهزومون المغلوبون، حين يحين وقت المواجهة القتاليّة بين الفريقين، فقال عزّ وجل: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ فكان هذا وَعْداً وبشارةً من الله جلّ جلالُه للرّسُول واللذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، بانتصارهم على هؤلاء الذين كَفَرُوا، والذين هُمُ اليوْمَ في عزّةٍ وشقاقٍ تُجاهَهم.

وفي هذه الآية تَعْيينٌ للأمر الّذي يَتِمُّ به تأييدُ الله لأوليائه، وخَذْلُه لأعدائه، فهِيَ مَعارِكُ في مُواجَهاتٍ قتاليّة، يتحقَّقُ فيها نَصْرُ الله للرسُول والمؤمنين معه، ويتحقّقُ فيها خَذْلُ الله للّذين هم اليوْمَ في عِزَّةٍ وشقاق. وهَزِيمَتُهم وانْكسارُهم أمام المؤمنين الّذين يَرَوْنَهم في قِلَّةٍ وَذِلَّة.

وقبل سورة (صَ) جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بيَانُ

أنّ هٰؤلاء الّذين هم في عزَّةٍ وشقاق صاروا يقولون، «نَحْنُ جميع مُنْتَصِرٌ» فقال تعالى فيها:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقد سبق شرح هذا النصّ لدى تدبُّر سُورَةِ (القمر).

والوعْدُ بنَصْرِ المؤمنين وهزيمة الّذين هم اليوم فِي عزَّة وشقاق، في قول الله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ قدْ جاء بأسْلُوبٍ رَمْزِيٍّ عامّ، يفْهَمُهُ الرّسُولُ ﷺ، ويفْهَمُهُ أهْلُ الْفَطَانَةِ، والذّكَاء والألمعيّة من المؤمنين.

﴿جُندٌ مَّا﴾ صيغة مبهمةٌ عامَّةٌ، صالحةٌ لأنْ تَنْطَبِقَ على ذوي العزّةِ والشقاق، وعلى غيرهم.

**جُنْد**: اسم جنْسٍ جَمْعِيّ يُفرَّقُ بينه وبين واحِدِهِ بالياء، فواحده: جندِيّ، واسم الجنس الجمعيّ يطْلَقُ على القليل والكثير، ويجوز في نعته التذكير والتأنيث. **والجُنْدُ** العسكر.

**[ما]** هذه في عبارة «جُنْدٌ ما» وأشباهها تُسمّى عند النحاة: «ما الإبْهاميّة» وهي الّتي إذا اقترنَتْ باسْمِ نكرةٍ زادَتْهُ إبْهاماً وشيوعاً. وهذا الإبهام هو المسوّغ للابتداء بالنكرة.

«جُندٌ ما» مبتدأ «مَهْزُومٌ» خَبَره.

﴿هُنَالِكَ﴾ في هذه العبارة إشارةٌ إلى المكان الذي سَيُهْزَمُ فيه جنْدُ الذين كفروا والذين هم في عزَّةٍ وشقاق، فهو مكان بعيدٌ عن مكان نزول النصّ في مكة، لاستعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، فاللاّم في «هُنَالِك» للبُعْد، والكاف لخطاب الرّسول، وخطابِ كُلّ مُؤمِنٍ يُدْرِكُ رَمْزَ الخطاب، ومَضْمُونَ الوعْدِ المطْمْئن، على سبيل الخطاب الإفراديّ.

﴿مَهۡزُومٞ﴾ اسمُ مفعول من فعل «هزم» الْعَدُوَّ، إذا كَسَرَ شَوْكته وانْتَصَرَ عليه. واسْمُ المفعول يدُلُّ على ما يدلُّ عَلَيْهِ الْفِعل المضارعُ المبنيُّ لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، إذْ قد يَدُلُّ على الحال، وقد يَدُلُّ على الاستقبال، والقرينَةُ هي التي تكشف المراد.

وقد تحقَّق فيما بَعْدُ انهِزَامُ جُنْدِ كُفَّارِ قُريش، في غزوة بَدْرٍ الكبرى، ثم في غَزْوَةِ الأحزاب، ثمّ في فتح مكة.

وهذا الخبر من مُعْجِزات القرآن الخبرية، الّتي أخبر الله عز وجلّ عنها فيه، وتحقَّقَتْ كما جاء في خبره.

﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، أي: من أحزاب الكفر ذوي المذاهب المتفرّقة، والتكتّلات المختَلِفَات، بخلاف المؤمنين بالله ورُسُلِه وكُتُبه، وبما جاءهم من عند الله على لسان رُسُله فهُمْ جميعاً حِزْبُ الله عَبْرَ تارِيخِ البَشريَّة، ولَيْسُوا بأحزاب، وهُمْ جميعاً أمّةٌ واحدة، وليسوا بأُمم مختلفة، كما قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

فالأُمَّة الرّبّانيّة حزبُ الله على صراطٍ واحدٍ هو صراط الله المستقيم، من عَهْدِ آدم إلى أن تقوم الساعة.

والّذين كَفَرُوا برُسل الله أو ببعضهم أَوْ بِبَعْضِ ما جاءوا به عن ربّهم، هم أحْزابٌ شَتّى متفرّقة، تجرُّهم أسبابٌ متعدّدة موصولة جميعها بالشيطان، فكلٌّ منها يَصِحُّ أن يقال فيه: هو من حزب الشيطان، على الرُّغمِ من اختلافه مع سائر الأحزاب المتعادية فيما بينها، والّتي هي في الواقع أحزابٌ متفرّقة، فالشيطانُ له مناهج وسُبُلٌ ضالة متباينة، وليس له صراط واحد، لكن كلّ سبُله ومناهجه توصل إلى الجحيم يوم الدين.

● وكون الّذين كفروا أحزاباً لا حِزْباً واحداً، من القضايا التي دلّتْ عليها بيانات قرآنيّةٌ مُتعدِّدة، فمنها ما يلي:

١ ـ ففي سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) التي نتدبَّرُها ذكَرَ الله عزّ وجلّ قوْمُ نوحٍ وعاداً وفِرْعَوْنَ ذَا الأوتاد وثمودَ وقومَ لوط وأصحاب الأيكة، وقال بشأنهم ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾، أي: أولئك الأحزاب من الكفّار المكذّبين الّذين واجهوا رُسُل ربهم فيما مضى بالتّصدي للقمع بالقوة الماديّة المسلّحة، واستعمل اسم الإشارة الخاص بالبعيدين لبُعد زمانهم، ولبعد منزلتهم في اتجاه الدرك الأسفل من النار.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: ما كلُّ حزب منهم إلاَّ هو حزبٌ كذّب الرُّسل، أي كذّب رسُولَه وكذّبَ سائرَ الرُّسل، فجرَّه تكذيبه إلى قبائح وشرور وفساد في الأرض أدّت إلى إهلاكه(١).

٢ ـ وفي سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) ذكر الله عزّ وجلّ الّذين كَفَرُوا بعِيسىٰ عليه السلام، ولم يُؤْمِنُوا بأنه عبْدُ الله ورسوله، فقال فيها بشأنهم:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧﴾.

٣ ـ وفي سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) ذكر الله عزَّ وجلّ رسولَهُ محمّداً ﷺ بأنَهُ علىٰ بيِّنَةٍ من ربّه، وبأنّهُ يَتْلُوهُ شاهدٌ مِنْ ربِّهِ، هو القرآنُ المُعْجِزُ الذي يشْهَدُ لَهُ بأنّه رسُولُ الله حقّاً وصِدْقاً، وبَعْدَ هذا قال الله تعالى:

---

(١) الذي ظهر لي في الإعراب هو ما يلي: «أولئك» مبتدأ «الأحزابُ» بدَلٌ منه، وجملة «إنْ كلٌ إلاّ كذّبَ الرُّسل» خبرُ المبتدأ. وبهذا نَتَفَادَىٰ تأويلاتٍ ذكرها بعض أهل التأويل، وهي لا دَاعِيَ لها.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ . . . ﴿١٧﴾﴾.

٤ ـ وفي سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) ذكر الله عزَّ وجلَّ الّذين كَفَروا بمُحَمَّدٍ وبما جاء به عن ربّه، وقال بَعْد ذلك:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

ولـمّا كانت الأمّة الرَّبّانيّةُ أمّةً واحِدةً وإنْ كانت أتباعَ رُسُلِ الله متَعدّدين، كان لا بُدَّ أنْ يَكُونَ صِراطُها واحداً، أمّا مِلَلُ الكُفْر، فهم أُمَمٌ، وهُمْ يَتْبَعُونَ سُبُلاً مُتفرِّقَةً متضادّة، وقد أبَانَ الله عزّ وجلّ هذا الواقع في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بقوله:

﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

وقرأ يعقوبُ: [عِقَابِي] بإثباتِ ياء المتكلِّم في الوصل والوقف.

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: أي: فثبت ووقع عقابِي لهم حتى صارَ أمراً واقعاً حقّاً، لأنهم استحقوه.

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي: وفرعَوْنُ صاحبُ المباني العظيمة التي تشبه الْجِبَال، وتُعْرفُ هٰذِهِ في مصر بالأهرامات. وقد وصَفَ الله الجبال بأنّها أوتاد، أي: بمثابة الأوتاد المثبّتة لبيوت الشعر، إذ هي منغمسة في الأرض ومُثَبِّتَةٌ قشرَتها حتّى لا تميد بمَنْ عليها.

أو وفرعَوْنُ صاحب الملك القويّ الثّابِتِ، شبِّهَتْ أسباب تثبيت ملكه بالأوتاد.

**الوتد**: هو عودٌ قويٌّ يُدَقُّ أكثَرُ من نصفه في أرض متراصّة، ثُمَّ يُرْبَطُ بما بَقِي منه فوق الأرض حَبْلٌ من حبال بيت الشَّعر، أو مِقْوَدُ الفرس، أو غيرُ ذلك لتثبيت المربوط به.

واستُعِيرَ لفظُ «الأوتاد» للجبالِ، ولِلْمَبَاني العظيمة، ولوسائل القوَّة الّتي يُثَبِّتُ بها الملوكُ مُلْكَهُمْ، وأَصْحابُ السلطان سلطانهم.

وذُكِرَ فرعَوْنُ دُونَ أركان مُلْكه، وجُنودِه، وسائرِ قومه، لأنّه كان صاحب الكلمة النافذة فيهم جميعاً، دون معارض، الأمر الذي جعله يقول لكبراء مملكته: ما علمت لكُمْ من إلَهٍ غيري، كما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ... ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: الأيْكَةُ الشَّجَرُ الكثيف الملتفُّ، ويخفَّفُ اللّفظ فيقال فيه: «لَيْكة» وأصحاب الأيكة هم مَدْيَن» قوم النبيّ الرسول شُعَيْبٍ عليه السلام، وهل الأيكَةُ اسم غيضتهم أو اسم قريتهم؟ احتمالان أوردهما المفسرون. وقد تكون قريتُهم قد سُميّت باسم غَيْضَتِهم، والله أعلم.

والحديث عن هؤلاء الأقوام الَّذِين جاءوا في هذا النصّ، قد سبق لدى تدبُّر السُّوَرِ التي جاء فيها ذكرهم.

فقد سبق فيما نزل من القرآن قبل سورة (صَ) توجيه أنظار الذين كفَرُوا للاعتبار بما جرى لقوْم نوحٍ وعادٍ وفِرْعَوْنَ ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكَة من إهلاكِ الله لهم بسبب كفرهم.

ولكِنَّ توجيه الأنظار للاعتبار بِمَا جَرَىٰ لَهُمْ للاتّعَاظ بهم قد جاء في مُناسباتٍ مختلفات، وفي مَعَارِضِ أَنْواعٍ من كُفْرِهِمْ وسوء أعمالهم.

● ففي سورة (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) جاء توجيه الأنظار

لإهلاكهم بغية الاعتبار بهم، في معرض تكذيب كفّار مكة بالبعث ليوم الدين، يَوْمِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

وهذا الصنيع البيانيُّ يدُلُّ علىٰ أنّ هؤلاء الأقوام كذّبوا بالبعث ليوم الدين، فجرّهم هذا التكذيب إلى أعمال كفريّة شَنِيعةٍ، كان من نتائجها عقابُ الله المعجّل لهم بالإهلاك العامّ الشّامل.

● وفي سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) جاء أيضاً توجيه الأنظار لإهلاكهم مع بعض تفصيل لأقوالهم وأعمالهم، بغية الاعتبار بهم، في معرض تكذيب كفّار مكّة للرسول محمد ﷺ، وعدم الإيمان بنبوّته ورسالته، وجاء في تفصيلات توجيه الأنظار للاعتبار بقصص هؤلاء المهلكين الأوَّلِين، أنّهم كذّبوا رُسُلَ ربّهم، فوقع علَيْهم ما أُنْذِرُوا به.

فدلَّ هذا الصّنيع البيانيُّ. على أنّ هؤلاء الأقوام كذّبوا رُسُلَ رَبّهم، فجرّهم ذلك إلى أعْمالٍ كفريَّةٍ شَنِيعة، كان من نتائجها عقاب الله المعجّل بالإهلاك العامّ الشامل، ونزل بهم ما أنذرهم به.

● وفي سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) الّتي نتدبَّرها، جاء أيضاً توجيه الأنظار لإهلاكهم بصورة مجملة، في معرض بيان أن كفّار مكة قد وصَلُوا إلى طور ذي عزّة وشقاق، طور الواقف من الرسول ودعوته والذين آمنوا به واتّبعوه موقف المعتزّ بقوّتِه، المهدِّدِ بالقمع المسلّح.

فدلَّ هذا الصنيع البياني على أنّ هؤلاء الأقوام قد وصَلُوا مع رُسُلِهم إلى طَوْرِ ذي عزّةٍ وشقاقٍ، وتصَدٍّ لقمع الرسُل وإسكاتِ دعوتهم بالقوّة المادّية المسلّحة، فأنزل الله بهم عقابه، فأهلكهم، وأنْجَىٰ رُسُلَه والذين آمنوا معهم، من كيد الكافرين وسلطانهم القويّ الغالب.

وهنا أقول: إنّ القصّة الواحدةَ يُؤْتَىٰ بها للاعتبار والاتعاظ، بمناسبة موضوع مُعَيّن، ويُؤْتَىٰ بها للاعتبار والاتعاظ بمناسبة موضوع آخر، ثم يؤتى بها للاعتبار والاتعاظ بمناسبة موضوع ثالث، وهكذا.

ومع ذلك نجدُ في توجيه الأنظار للاعتبار والاتعاظ بقصص الأوّلين في القرآن تَكَامُلاً في عناصرها، لا تكراراً متطابقاً، ففي كلِّ مرّةٍ نجد تَغْييراتٍ وإضافاتٍ، فإذا نظرنا إليها متدبّرين نظرة كليّةً جامعة، وجدناها فيما بيْنَها متكاملات غير مكَرَّراتٍ تكريراً تطابقيّاً.

● قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴿١٥﴾﴾. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**مَا لَها مِنْ فُوَاقٍ**] بضم الفاء، وهما لُغتان عربيتان للكلمة.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾: أي: وما ينتظر. يقالُ لغة: نظَرَ فلانٌ الشّيْءَ، أي: انتظَرَه، وفي المثل: «وَإِنَّ غداً لِنَاظِرِه قَرِيب» أي: لمنتظره.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: المعنيون من كفّار قريش الّذين وصلوا إلى طور مَنْ هم في عزّةٍ وشقاق.

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: صيحة واحدة تُهْلِكُهُمْ، كالصّيحَةِ الّتي أهْلَكَتْ ثمودَ، للْمُقَاربَةِ بين حالهم وحال ثمود، الذينَ طلبوا آية الناقَة، فبعثها الله على وفق ما طلبوا، فلم يُؤْمِنُوا، ثم عقروا الناقة، فأهلكَهُمُ الله بالصَّيْحة وهؤلاء طلبوا آيَةً حسّيَّة، فأجرى الله لرسوله آيَةَ انْشِقَاق القمر، فزعموا أنّها عمل من أعمال السّحر، وأصَرّوا على كفرهم، فأوشكوا أن يَسْتَحِقُّوا إرسال الصيحة المهلكة المماثلة للصيحة الّتي أهلك الله بها ثموداً.

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ الْفَوَاقُ، والْفُواقُ، بفتح الفاء وضمّها، الْمُهْملَة، أي: ما ينتظر هؤلاء إذا كانوا ينتظرون شيئاً من ربّهم، مُقَابِلَ إصرارهم على كفرهم وعنادِهم، ووقوفهم من الرّسُولِ والمؤمنين موقف ذي عزّةٍ وشقاق، إلاّ صيحةً واحِدَةً تُهْلِكُهُمْ، ولس لهذه الصيحة مُهْلَة، بين انطلاقها وإهلاكهم.

ويُطْلَقُ الفَواق والفُواق على الوقت بين قبضتي الْحَالب للضَّرْع، وعلىٰ

ما يأخُذُ المحتَضَرَ عنْد النَّزْع، وكلّ المعاني ترجع بالتأويل إلى أنَّ صيحة الإهلال تَأْخُذُهم أَخْذَةً واحدةً كَقَبْضَةِ الحالب للضّرْع، وهذه القبضة ليس لها فواق بعدها، فهي صيحة مهلكة بزَمَنٍ يَسِير جدّاً.

● قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾:

إنّ هؤلاء المعنيّين في السورة قَدْ كذَّبُوا الرَّسُول، وكذَّبُوا بما جاء به عن ربّه، وكذّبوا بنَبَأ يوم الدّين، وكذّبُوا بالنُّذُر المعجلة.

قيل: وقد طَلَبُوا على سَبِيل الاستخفاف بالنُّذُر المعَجَّلة، استعجال ما أُنْذِرُوا به مِنْ عقابٍ في الدنيا، كالعقاب الذي أنزله الله عزّ وجلّ بالمهلَكِين الأوّلين، فقالوا أمام الرَّسُولِ وبعض المؤمنين: «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَاب» قالوا هذا القول على سبيل الاسْتِخْفَافِ والتحدّي للرَّسُول، وهم في الحقيقة لا يسألونَ الله أن يُنزِّلَ بهم عقابه، ولكنّهم يَرَوْن كذِبَ الرَّسُول ويتحدَّوْنه، فقالوا مقالتهم هذه تعبيراً عن تكذيبهم، وتحدِّيهم للرسول.

**القِطُّ في اللّغة:** النصيب، وأصله الصَّكُّ الّذي تُكْتَبُ به الجوائز والأَرْزاق، وكان يكتب على قطعة من الجِلْدِ قُطَّتْ من جلْدٍ كبير.

فهم يستعجلون نصيبهم من العذاب تكذيباً واستخفافاً، ويتوهَّمُونَ أَنَّ ما سيأتيهم من الله إنّما هي جَوَائِزُ وأرْزاقٌ، لا عَذابٌ وعقابٌ كما يُنْذِرُهم الرّسول.

وربّما يكون المراد أنّهم يسألونَ ربَّهُمْ أَنْ يُعْطِيَهُمْ كُلَّ حظوظهم في الدنيا، على اعتبار أنَّهم يكَذِّبُون بأنباء يوم الحساب، وبهذا قال جماعة من أهل التأويل، ورجَّحَهُ ابْنُ جرير الطبري. والله أعلم.

❋ ❋ ❋

## (٦)
## التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (١٧ ـ ٤٨)

وتضمّن هذا الدرس معالجة الرسول محمّد ﷺ وتخييره بين نماذج من الرُسل، فما يختارُ من نموذجٍ يُيَسِّرُه الله له، ويَبْتَلِيهِ من خلاله، وفيه بعض بيانات علاجية للكافرين.

وقد قسَّمْتُ هذا الدَّرْس إلى خَمْس فقرات:

**الفقرة الأولى**: تتعلق بأمر الرسول محمد ﷺ بالصبر، وَعرض بعض قصة داود عليه السلام، وما جَرَىٰ له من امتحان، ومَا وصَّاه الله به بعد أنْ غفر لَهُ وجعلَهُ خليفةً في الأرض، مع ملحقات نافعاتٍ، ولها صلة بما جاء في الدرس الأول، وفيها بيانٌ للرسول محمد ﷺ.

وهي الآيات من (١٧ ـ ٢٩).

**الفقرة الثانية**: فيها عرض بعض قصَّةِ سليمان، وما جرى له من امتحان، وما وهبه الله من مُلْكٍ لا ينْبَغِي لأحد من بعده، بعد أن غفر له. وهي الآيات من (٣٠ ـ ٤٠).

**الفقرة الثالثة**: فيها عَرْض بَعْضِ قصَّةِ أيّوب عليه السلام، وما ابتلاه الله به، ثم رفَعَ عَنْه البلاء برَحْمَتِه، وأثنىٰ عليه بالصَّبْر وبأنَّه أوَّاب. وهي الآيات من (٤١ ـ ٤٤).

**الفقرة الرّابعة**: فيها الثناء العظيم، والتقويمُ الرَّفيع لإبْرَاهيم وإسْحٰق ويعقوب عليهم السلام، وفيها تَوْجِيهٌ ضمنِيٌّ للرسول محمدٌ ﷺ أن يختار لنفسه الاقتداء بهٰؤلاء الرُسل، بعيداً عن الْمُلْكِ والْغِنَى. وهي الآيات من (٤٥ ـ ٤٧).

**الفقرة الخامسة**: فيها الثناء على إسماعيل واليسع وذي الكفل عليه السلام بأنهم من الأخيار. وهي الآية (٤٨).

## أولاً
## التدبر التحليلي للفقرة الأولى من الدرس الثاني من دروس السورة وهي الآيات من (١٧ - ٢٩)

قال الله عزّ وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

**تمهيد:**

في هذه الفِقْرة يأمُرُ اللّهُ عزّ وجلّ رسُولَهُ بالصَّبْر، ويَعْرِضُ علَيْه فيها، نموذَجَ مَلِكٍ رسُولٍ هُوَ دَاوُد عليه السلام، وما تَعرَّضَ لَهُ خلال سُلْطَانِ مُلْكِهِ من فِتْنَةٍ وابْتِلاءٍ، مع بَيَانِ التَّقْويم الرَّبَّانِيِّ الّذي وضعه اللّهُ له، وجعله فيه على درجة من دَرَجاتِ المحسنين، فوصَفَهُ بأنّه أوّابٌ، وقال بشأنه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

وفي هذه الفقرة يُبيّن اللّهُ عزّ وجلّ أنّه جعَلَ داوُد خليفة في الأرضِ لِمَلِكٍ قبْلَه، وخلافَتُه هٰذِه خلافَةٌ دينية مُعَانَةٌ، وأوصاه في خلافته بوصايا.

وفي هذه الفقرة بيانُ حِكْمَةِ الجزاءِ يوم الدّين، بعد الحساب وفصل القضاء، وبَيانُ أنّه ليس من الحكمة التسوية بين المصلحين والمفسدين، ولا بين المتقين والفجّار.

وختم الله هٰذه الفقرة ببيانٍ مُوَجَّهٍ للرَّسُول بصريحِ الخطاب، بشأن القرآن ذِي الذكر، وأبانَ لَهُ أنه كتابٌ مُبارَكٌ ليتَدبَّر الناس آياته، وليتَذَّكرَ مَا فِيهِ أولُوا الألباب فَيَعْمَلُوا بأوامره ونواهيه ووصاياه، ويَبْتَغُوا رِضْوانَ الله وجناتِ النعيم الخالد يوم الدين، في دَارِ كَرَامَةِ ربّ العالمين.

● قول الله تعالى لرسوله محمّد ﷺ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

جاء في الدرس الأوّل من دروس السورة، بيانُ أنّ كُبَراءَ الّذين كفروا في مكّةَ اتّهَمُوا الرسُول بأنّهُ سَاحِرٌ كذّابٌ، وبأنّهُ ذو مصْلَحةٍ شخصِيَّةٍ مِنْ دَعْوَته، كَرَغْبَةِ الملْكِ وُحُبّ السُّلطان والْعُلُوّ في الأَرْض، وَبأَنَّ مَا جاء به من دَعْوَةِ التّوحيد هو من افتراءاته الّتي اختلقها بدليل أنّ الملَّةَ النصرانيَّة الّتي وصَلَتْ إليهم تَحْرِيفَاتُهَا قائمةٌ على التثليث لاَ التوحيد، وزَعَمُوا أنَّهُ غيْرُ مؤهَّلٍ بحسَب وَضْعِهِ الاجتماعيّ في قَوْمِهِ لأَنْ يصْطفِيَه اللّهُ منْ بيْنِ قَوْمِهِ بالنُّبُوّة والرِّسَالة، فيُنْزِلَ عليه القرآن الّذي يجب على الناس أن يجعلوه ذِكْراً لهم.

فأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بأنْ يصْبِرَ على ما يقولُونَ بشأنه، فلا يغْضَبَ ولا ينفعلَ ولا يَثُور، ولا يقابلَ شتائمهم بشتائم مُضَادّة، بل يُواجِهُهم بالْحِلْم والتغاضي، ومتابعة ما هو فيه من تبليغ رسالته للناس، والدَّعْوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالّتي هي أَحْسَن.

واستعمال الفعل المضارع: ﴿يَقُولُونَ﴾ يَدُلُّ على أنها أقوالٌ يكرّرُونها إعلامياً للصدّ عن الرسول ودعوته، ولتثبيطِه عن متابعة تأْدِيَة رسالته، بإيذائه واستثارة غضبه.

والصّبْرُ المطلوب هُنَا يكُونُ بضبط نَفْسه عن عدّة أمور:

(١) بضبط نفْسِه عن مقابلة أقوالهم بمثْلِها، أو بأشَدَّ منها، أو بأقَلَّ وأخفَّ مِنها، لأنَّ هٰذهِ المقابلَة تَجُرُّ إلى تَصْعِيد الشتائم، وتحوُّلِ الدَّعْوَةِ عَنْ مَسِيرِها.

(٢) وبضبط نَفْسِه عن إظهار الغضب والتأَثُّر والانْفِعَالِ منها، لأنّ ذلِكَ شيءٌ يَسُرُّهم، ويَشْفِي غَيْظَهُمْ، ويَجْعَلُهم يَزيدونَ من توجيه هذا السّلاح القائم على السِّبَاب والشتائم ضدّه، وضدّ الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

(٣) وبضبط نَفْسه عن التحرُّكِ العمليِّ للمقاومة بوسائل القوّة المادّيّة، فهٰذا من شأنِه التعجيلُ بإحداث المواجهاتِ المسَلَّحَةِ بين المسلمين وأعدائهم، قبل الاستعداد المكافىءِ لهذه المواجهات ضمْن سُنَنِ الله السَّبَبِيَّة، وهذا التعجيل رُعُونَةٌ تُفْضِي إلىٰ مَا لا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ في مسيرة الدعوة وانتشارها، وتُمَكِّنُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قَمْعِها، مع اتّخاذ الذّرائع الإعلاميّة لهذا القمع مَهْمَا كان عنيفاً شدِيداً.

● وقد سبق أن أمَرَ اللَّهُ عزّ وجل رسوله بالصَّبْرِ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) فقال اللَّهُ له فيها: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

وهذا أَمْرٌ بالصَّبْرِ عامٌ غير خاصٍّ بما يقولُهُ الكافِرون عنه، وما يوجّهونه له من شتائم.

ثمّ في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) فقال الله عزّ وجل له فيها:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾.

وتتابَعَتْ أوامر الله لرسوله بالصَّبْر، في مراحل التنزيل المكّيّ، والتنزيل المدني، ويُلْحقُ به حملة رسالته من أمته[1].

---

(١) انظر الفصل الأول (وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة الصبر) من الباب الثاني من كتاب «فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للمؤلف.

● قول الله تعالى: ﴿. . وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾.

ما جاء في هذه السورة بشأن داود عليه السلام، هو أول نصٍّ أنزله الله عزّ وجلّ في القرآن بشأنه، ثمّ أَنْزَل بَعْدَهُ تِسْعَةَ نُصُوصٍ أُخْرَى في مُنَاسَبَاتٍ متعدّدات، إلاّ أَنَّ ما جا عنه في سورة (ص) أكثرها بياناً عنه، وهي جميعاً فيما بَيْنَها متكامَلاَتٌ غَيْرُ مُكَرَّرَاتٍ، وعرضُها في دراسة متكاملةٍ يكْشِفُ هٰذه الحقيقة.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ فعل أمْرٍ معطوف على فعل: [اصْبِرْ] أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ ما سَنُبَيّنُ لِكَ.

﴿عَبْدَنَا﴾ أي: الّذي صَدَق في عبُودِيْتِه لَنَا، مُسْتَشْعِراً عظَمة رُبُوبيَّتِنا، ومجتهداً في عبادَتِه لَنِا وطاعته لأوامرنا ونواهينا، دلّ على هذا إضافة «عبْد» للمتكلّم العظيم الرَّبّ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانه. وفي هذه الإضافة تشريف وتكريم له.

﴿دَاوُۥدَ﴾: هو النبيّ الرَّسُولُ الملِكُ، وهو من الرُّسُل المذكورين في القرآن المجيد، وهو من بني إسرائيل، من سبْط «يَهُوذا» بن «يعقوب» وهو إسرائيل عليه السّلام، بن «إسحاق» بن «إبراهيم» عليهما السلام.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾: أي: صاحبَ القُوَّةِ والشّدَّةِ بالنسبة إلى البشر.

**الأيْدُ، والآدُ** في اللُّغة: القُوَّة. يقال لغة: آدَ فُلاَنٌ يَئِيدُ أَيْداً وآداً، إذا اشتَدَّ وقَوِي. ويقال: رَجُلٌ أَيْدٌ. أي: قَوِيّ. والتأييد التقوية، يقال لغة: أَيَّدَهُ يُؤَيِّدُه تأييداً إذا قَوَّاه.

وكان لداوُد قوّتان: قوّةٌ جسَدِيَّةٌ نادرة، وقوّة نفسيَّةٌ وإراديَّة فائقة، فبقوته الجسديّة والنفسيّة قتل الجبّار المصارع المخيفَ «جَالُوت» بحجَرٍ رَمَاهُ به من مقلاعه، وبقوّته الجسَدِيّة كان يصْنَعُ بيَدَيْه الدُّرُوعَ من زَرَدِ الْحدِيد، وكانت له قُوىً جَسَدِيَّةٌ أُخْرَىٰ.

وكانت له عليه السّلام قُدْرَةٌ جسديَّةٌ ونفسيَّةٌ على قيام اللّيل طويلاً،

فقد كان يقومُ ثُلُثَ اللَّيْل يُصَلّي، كما في صحيح البخاري. وقُدْرَةٌ فائقة على الجهاد في سبيل الله ببسالة وشجاعةٍ وإقدام، فلا يَفِرُّ إذَا لاَقَىٰ العدوّ. وقُدْرَةٌ على الصّيام، إذْ كان يصُومُ يوْماً وَيُفْطِرُ يوماً. وكان يأكلُ من عَمَلِ يَدِهِ في صناعة الدُّرُوع. وكان له صوت قويٌّ عظيم، فائق الحسْنِ والجمال، يتَرَنَّمُ به في تَسْبيح الله وذِكْره في الوديان بُكْرَةً وعَشِيّاً، فتُرَدِّدُ الجبال صدَىٰ تَسْبِيحه وذِكْرِه لرَبّه بترنيم بديع.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: أي: إنَّهُ كان كَثِير الرُّجُوع إلى مراقبة الله وَذِكْره وَطَاعَته، كلّما ابتَعَدَ عن ذلك ولو ابتعاداً قليلاً.

﴿أَوَّابٌ﴾: صيغة مبالغةٍ لاسم الفاعل «آيب» من فعل: آبَ يَؤُوب أوْباً وإياباً وَأَوْبَةً وأيْبة، إذا رجع، فمعنى «أوّاب«كثير الرُّجوع.

وقد أثنى اللَّهُ عزّ وجلّ في القرآن على الأوّابين، أي: على الرَّجاعين بالتوبة إلى الطاعة والاستقامة، وأبان أنَّه غَفُورٌ لهم، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

ووعد الله الأوّابين الحفيظين بالجنّة يوم الدين، فقال الله عزّ وجل في سورة (قۤ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: لكلّ رَجّاعٍ إلى رَبّه بالتوبة والاستغفار، حفيظٍ على حُقُوق الله عليه، مُهْتَمّ بأدائها.

وفي سورة (صۤ) الّتي نَتَدَبَّرُهَا وصف الله عزّ وجلّ كُلّاً مِنْ دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ وَأيُّوبَ بأنَّهُ أَوَّابٌ، أي: كثير الرُّجُوعِ إلى الله، ولا يكونُ كثير الرُّجوع إلاَّ مَنْ كَانَ كثير عوارض الابتعاد، ولم يَرِدْ مثْلُ هذا الوصف في القرآن لِغَيْرِهم من الرُّسُل، إنمّا جاء وصف إبراهيم عليه السَّلامُ بأنّه مُنِيبٌ،

من فعل «أَنَاب» بمعنى رجَعَ، ولم يأت في وصفه أنَّهُ «أوّابٌ» بمعنى كثير الرجوع.

فهل في هذا الصنيع القرآنيّ إشارةٌ إلى أنّ اشتغال داود وسُلَيمانَ بالمُلْكِ وما فيه من زينة الحياة الدّنيا، واشتغالَ أيُوبَ بأمور الدُّنيا، وجمْع الأموال الوفيرة، قد كان يُشْعِرهُمْ بأنّ ذلك يصرفُهم عن مُرَاقبة الله دَواماً، وذكْرِ الله دواماً، فيؤُوبُون إلىٰ الله تعالى ذاكرين مُرَاقبين له، ومُحَاسِبين لأنفسه، كُلَّما وجَدُوا أنفسهم مشغولين بأُمُور دُنياهم، وبالنَّظَرِ إلى تكرُّرِ هذا الأمر منهم، لتكَرُّر ما يكون منهم من اشتغالٍ بأمُور دُنْيَاهم، خصَّهُم الله عزّ وجل بهذا الوصف «أوّاب» دون سائر المرسَلِين المذكورين في القرآن المجيد؟؟.

هذا الفهم غير بعيد، ولعلَّ فيه توجيهاً ضمنيّاً للرسول محمد ﷺ أنْ لا يَطْلُبَ الْمُلْكَ، ولا المال الوفير من الدُّنيا، لئلاَّ يَشْغَلَه ذلك، فيَصْرِفَه عن مُراقبةِ الله وذكْرِه دواماً، فيحتَاجَ أن يكُون أوّاباً إلى رَبّه آناً فآناً.

ولهذا لَمّا عُرِضَ عليه المالُ الكثير الوفير، وأنْ تكون له جبال من الذهب، آثر الكفاف صلوات الله وسلاماته عليه، حمايَةً لِنَفْسِه من أن تشغله أمُورُ الدنيا عن رَبّه ومُراقبته والحضور معه دواماً.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾:

**العشيُّ**: هو الوقت من الْعَصْر إلى غروب الشمس في الأرجح.

**الإشراق**: هو الوقت الّذي يظهر فيه ضوْءُ الشّمس واضِحاً بَعْدَ شروقها، وهو أوّلُ وقت الضُّحَىٰ.

تدلّ هٰذه الآية على أنّ الله عزّ وجلَّ قد آتى داود عليه السَّلام صوتاً نديّاً عظيماً حسناً، يملأ الوادي المحاط بالجبال، إذْ كانَ يترنّم به مسبّحاً ذاكراً رَبّه بالزَّبُور بالعشيّ والإشْرَاق، فتُرَدّدُ الجبالُ صدَىٰ صوته تسبيحاً

وذِكراً، بما جعل الله عزّ وجلّ فيها من تسخير لرَجْعِ الصَّوْت، إذْ تحكي تسبيحه، فيتردَّدُ التسبيح والذِّكْرُ بين الجبال على مثْلِ ما ينطلقان منه، دلّ على هذا قول الله تعالى: ﴿مَعَهُۥ﴾ ولم يقُلْ: له.

وكان من عادة داوُد عليه السّلام أن يترنّم بتسابيحه وذِكْرِه بمزامير الزّبور بالْعَشِيّ والإشراق في الوِدْيان بصوْتٍ عالٍ جميل صدّاح، فترجّع الجبال صدَىٰ صوته النَّدِيّ الحسن.

فدلّ هذا البيانُ على أنّ الله عزّ وجلّ قد منح داوُد هذا الصوت المتميّز، وأنّ داوُد كان يستَعْمِلُه في التَّسْبيح والذّكْر مترنّماً بآياتِ الله في الزَّبُور، بالعشيّ والإشراق.

ولهذا التسخير الوارد في الآية احتمالان:

(١) إمّا أن يكون بمَنْح داوُدَ الصَّوْت العظيم، الّذي تَنْتجُ عنه مُسَخَّراتُ الأصْدَاء، وهُو الأرجح.

(٢) وإمّا أن يكون بجَعْلِ الجبال تُرَجِّعُ معَهُ زِيَادَةً على قانونها المعتاد في التسخير، والله على كلّ شيءٍ قدير.

● قول الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾﴾:

أي: وسَخّر الله عزَّ وجلَّ أيضاً لداوُدَ عليه السَّلام الطَّيْرَ مَحْشُورَةً (أي: مجموعة له) لاستماع ترانيمه الحسنة النديّة المطربة، فتسْكُنُ صَوَافَّ في الجوّ مستَمِعَةً لصوته، وقد تترنّم معهُ وتصلّي وتسبّح، فإذا انتهىٰ انصَرفت إلى مواطنها وأعشاشها وأرْزاقها، وفي الوقت المخصَّص لنَوْبَة الإشراق أو العشيّ التي يترنّم فيها تؤوبُ له، فتسْكُنُ صوافَّ في الجوّ لتَتَسَمَّعَ وتترنّم وتسبّح وتصلّي، كلٌّ قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه.

**الحشر**: هو الْجَمْع والسَّوْق. **فالمحشور**: هو المجموعُ المسُوقُ

لمكان الحشر، فدلَّ هذا على وجود حاشرٍ يحشُرُها، وقد يكون دافعاً ذاتياً فيها خلقه الله في أجهزتها الداخليّة، وهي دوافع نفسيَّة فيها.

والمراد بعبارة: ﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ جنس الطير، وهو ينطبق على صنف من الطير يَقْطُنُ في مدَىٰ صَوْته، وعلى أصنافٍ من الطير، وليس المراد كلَّ الطَّيْرِ في عُموم الأرض.

﴿مَحۡشُورَةٗ﴾: أي: وسخّرْنَا له الطير حالةَ كَوْنِها مَحْشُورة.

وقد جاء في أخبارٍ متعدّدَةٍ عن جماعةٍ من السَّلَف، أنَّ داوُد عليه السّلام قد أُعْطِيَ من حُسنِ الصَّوْتِ ما لَمْ يُعْطَ أحَدٌ قَطُّ، حتى إنّ الطَّيْر والْوَحْشَ ينْعَكِفُ حولَه لاستماع ترانيمه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنّ أبا موسَىٰ الأشعريَّ قد أُعْطِيَ مزماراً من مَزامير داوُد عليه السلام، أوْ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُد.

رواه أحمد وابن ماجه في سننه وغيرُهما، وله أصل في صحيحي البخاري ومسلم.

رواه أحمد وابن ماجه في سننه وغيرُهما، وله أصل في صحيحي البخاري ومسلم.

فقد روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنّه قال له:

«يا أَبَا مُوسَىٰ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِير آلِ دَاوُد»[(١)].

﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾: التنوين في لفظ ﴿كُلّٞ﴾ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: كُلُّ الطَّيْرِ المحشورة لاستماع ترنيماته في التسبيح والذّكْرِ، أوَّابٌ لَهُ

(١) الجامع بين الصحيحين رقم الحديث (٣٦٦) جمع وترتيب «صالح الشامي».

كُلَّ صباحٍ ومساء، فدلّت صيغة «أَوَّابٍ» التي هي من صيغ المبالغة. على كثرة رُجُوعِها له في نوبات تسبيحه وذكره في العشيّ والإشراق.

● قول اللّهِ تعالىٰ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

في هٰذه الآية بيان ثلاث مِنَنٍ امْتَنَّ الله بها على داود، غير منّتَيْ تَسْخير الجبالِ يُسَبّحن معه بالْعَشيّ والإشراق، وحَشْرِ الطَّيْرِ كلٌّ له أوّاب، اللّتين سبَقَ شَرْحُهما وتَدَبُّر ما يتعلّقُ بهما.

والمنَنُ الثلاث المبيَّنةُ في هذه الآية (٢٠) هي ما يلي:

**المنَّةُ الأولى**: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: أي: جعلنا مُلْكَهُ مُلْكاً شَدِيداً قوياً، وأعَنَّاهُ على القيام به ثابتاً قَوِيّاً.

يقال لغة: شَدَّ الشَّيْءَ وشَدَّدَه، أي: قَوَّاهُ بِمَعُونَتِه ومؤازَرته وإمْداداته.

وشدُّ مُلْك داود عليه السلام قد كان:

● بمنْحِهِ الْهَيْبَةَ وَقُوَّةَ السُّلْطان.

● وبمَنْحِهِ الجُنْدَ والأَنْصَارَ والمحبّينَ والأعوان.

● وبخَذْلِ أعدائه وخُصُومِه ومُنَافِسِيهِ، وإلقاء الرُّعْبِ في قُلُوبهم من سَطْوَتِه وَقُوَّةِ جُنْدِه وسلطانه.

**المنة الثانية**: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾:

الحكمة الّتي آتاها الله عزّ وجل لداود ترجع إلى العناصر التالية وهي:

(١) تعاليم الدّين الحكيمة، والالتزام بها، والعمل بوصايا الله التي أوصاهُ بها.

(٢) حُسْنُ الإدارة والسّياسة في مُلْكِه.

(٣) التزامه بأحكام العدل، والحكم بالحقّ، وعَدَم اتّباع الهوى.

(٤) الدَّعْوة إلى سبيل الله باستعمال أحسن الأساليب التي يُرْجَىٰ منها أَنْ تُعْطي أفضل النتائج.

(٥) معرفة أفضل الأشياء مُلأَمَة أو مُطابَقَةً لما تُطْلَب له.

والحكمة ترجع إلى جذرين:

**الجذْرُ الأول**: الحكمة في المعرفة.

**الجذر الثاني**: الحكمة في السُّلوك، سواءٌ أكان خُلُقاً، أم عملاً جَسَدِيّاً، أم تصرُّفاً في قولٍ، أو إفتاء، أو حُكْمٍ، أو سياسة، أو إدارة، أو تجارة، أو غير ذلك.

وتكون الحكمة في السُّلوك بممارسة الأحسن والأفضل دواماً، ممّا توجّه له الحكمة في المعرفة، بحسب الاستطاعة، وضمْن حدودها[(١)].

**المنّة الثالثة**: دلّ عليها قولُ الله تعالى: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: أي: وآتيناهُ الخطَابَ الْفَصْل، وهو الكلام البليغُ المحرَّرُ المعاني: الفاصِلُ في القضايا الّتي يُبيّنُها في كلامه. المطابق للحكمة المعرفيّة الّتي آتاهُ اللّهُ إيّاها.

❀ ❀ ❀

قول الله تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

**تمهيد:**

خطابٌ للرسول ﷺ أوّلاً، فلِكُلِ مُتلَقٍّ على سبيل الخطاب الإفرادي، وفي هاتين الآيتين شروعٌ في عَرْضِ قصّةِ تَنْبيهٍ رَبانيّ نَبَّهَ الله عزّ وجلّ به داود عليه السلام، بشأن سلوكٍ جرَىٰ منه استدعىٰ هذا التَّنْبيه، من خِلالِ

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق سورة (القمر/ ٣٧ نزول) حول الحكمة في القرآن.

تحكيمِه في قضيَّةٍ مشابِهَةٍ لما جَرَىٰ منه، عَرَضها عليه خَصْمَانِ اقتحما علَيْهِ خلوته في محرابه وهو يَعبُدُ ربَّه، ولم يكن من عادته أن يقتحم عليه وهو في خَلْوَته أحد، إذْ كان يمنع من ذلك، ويأمرُ حُرَّاسه بأن لا يأذَنُوا لأحد بالدُّخول عليه. والحكمُ الّذي لا بُدَّ أن يحكم به في هذه القضيَّة يُشْعِرُه بأنّه يحكُم به على نفْسِه في السلوك الذي جرى منه.

وهي طريقةٌ حكيمةٌ من طُرُق التربية الرَّبَّانيَّةِ للمقرَّبين، إذا وقَعَتْ منْهم هفواتٌ لا تليقُ بمقاماتهم.

وقد تزيَّد الإسرائيليُّون في رواية الهفوة التي جَرَتْ من داوَد عليه السّلام، كعَادتهم في اتّهام أنبيائهم ورُسُلِهم بالكبائر، ذريعةً لتهوين كبائِرهم وموبقاتهم الّتي يرتكبُها كَهَنَتُهم وأحبارُهم ورُؤساؤهم ومُلوكهم.

وقد جاء بيان هذه القصّة الّتي تزيّد الإسرائيليُّون فيها، في الإصحاحين الحادي عشر، والثاني عشر، من سِفْر صَمُويل الثاني، فَنَسبُوا إلى داود عليه السّلام أنّه ارتكبَ الفاحشة مع زوجة أحد قادَتِه الكبار المخلصين، واسْمُه: «أُورِيَّا الْحِثّي» ثُمّ دبّر ضدَّه مكيدة التخلُّص منه في مَعَارِكِ الجهادِ في سبيل الله، ثُمَّ تَزَوَّجَ من زَوْجته وضَمَّهَا إلى نِسائه، وأَمَاتَ الله الولَد الّذي حمَلَتْ منه بالزّنا، ثم ولَدَتْ له ولداً سمَّاه: «سُلَيْمان» وهو الذي وَرِثَ المُلْكَ بَعْدَ أبيه.

فإذا جرَّدْنَا من هذه القصَّة الإسرائيليَّة ما زاده الإسرائيليون افتراءً على داوُد عليه السلام، ممّا لا يليق بمقام النبوّة، وأضَفْنَا ما تَدُلُّ عليه قصَّةُ خَصْمَيِ التحكيم القرآنيَّةِ، بقي من الْقِصَّةِ ما يُمْكِنُ أن ينْسَجِم معه ما جاء في القرآن من مُعَاتَبة الله عزّ وجلّ لداودَ على سلوكٍ جرَىٰ منه.

وبالتجريد من الزوائد الإسرائيليّة يمكن أن نُصَوِّر القصّة على الوجه التالي:

رأى داوُد عليه السّلام عرضاً ومن دون قَصْدٍ منه زوجة «أُورِيَّا الحِثّي» أحد قواده الكبار، وكانت امرأةً حَسْناء، فاستحْسَنَها وتمنّاها، وخَطَرَتْ له خواطِرُ من الأماني، ورُبَّما سأله أَنْ يتنازَلَ له عَنْها، فلمَّا سقط «أُورِيَّا الحِثّي» قتيلاً في المعارك الجهاديَّةِ وجد في نفسه راحَةً بما جَرَىٰ، ثُمَّ خَطبَ هذه المرأة الّتي اسْتَحْسَنَها ضمن أحكام الزواج الشرعي، وضمّها إلى نِسائه بزواجٍ شَرْعيٍّ، فولَدَتْ له سليمان عليهما السلام.

وجاء في سِفْر «صَمُويل الثاني» أنّ اسْمَ هٰذه المرأةِ «بَتْشَبَع بنت أَلِيعَام».

وغيرَّ الإسْرَائيليُّون في قصَّةِ الخصمَيْن، وأوردوها حكايةً عرَضَها فيما زعمُوا النبيُّ «نَاثَان» على داوُد، فغضب من حالِ الخصْم المعْتَدِي على صاحبه، فأمَرَ بقتله، فقال له: «نَاثَان»: أنْتَ هو الرَّجُلُ الذي فعل ذلك.

إلى غير ذلك من تغييرات وتلفيقات وتحريفات، وهم يَزْعمونَ أنّ داود عليه السّلام مَلِكٌ فقط وليس نبيّاً ولا رسولاً.

أمّا قصّةُ الخصْمَيْن كما جاءت في القرآن، وأشارت ضِمْناً إِلَىٰ ما كان من داوُد عليه السلام، دون بيانٍ لها، فهي أنّ داود عليه السلام كان في خَلْوَته في محرابه، في يوم أو وقت لا يأذَنُ لأحدٍ بأن يدخُل عليه فيه، لئلاَّ يعكِّرَ علَيْه خلوته بربّه، وهو مجْتَهِدٌ في الذّكر والتسبيح والْعِبَادة وتلاوة آيات الله المنزّلات، ولا بُدَّ أنْ يكون قد جعل على الأبواب حُرَّاساً، فهم لا يمكّنُون أحداً من الناس أن يَدْخُلَ عليه في أوقات خلوته.

فبعث الله ملائكةً علىٰ صورة بشرٍ، فتسَوَّرُوا عليه سُور مَكَانِ خلْوته، من أَمْكِنَةٍ لا تقع عليها عُيُونُ الحرّاس، واجتازوا السّاحة، ودخَلُوا الغرفة الخاصّةَ بخلْوته الّتي يَعْبُد الله فيها، دون استئذان منه.

فأفْزَعَتْهُ منْهم هذه المباغَتَةُ، وسبَقَ إلى ظَنِّهِ أَنَّهم يُريدون به شرّاً، للتخلّص من مُلْكِه.

إنّ عارضةَ الْفَزَع هذه في مثل الحالَةِ التي هو فيها، ولا سيما إذا كانت ليلاً، تكون رَدَّ فعْلٍ تِلْقَائيٍّ طبيعيّ، ولو كان من أشجع الناس وأكثَرِهم بأساً، ولو كان نبيّاً رسولاً، ولا سيما إذا كان مستغرقاً في ذكره وتأمُّلاته ومُنَاجَاته لرَبّه.

وأدرك الملائكة الداخلون عليه ما أصابَه من فزع، ومع أوّل اللّحظات قالوا له: لا تخف. أو قال متكلّمهم عنهم جميعاً ذلك. وأتْبَعُوا طمأنته ببيان الغاية من دُخولهم علَيْهِ قائلين: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

﴿خَصْمَانِ﴾: أي: نحْنُ أصحابَ الغرض من الدُّخولِ عليك خَصْمان جِئْنَا نَتَقَاضَىٰ عِنْدَكَ، فاحكُمْ بَيْنَنَا بالْحَقّ، ولا تَجُرْ، واهْدِنا إلى الصراط المستقيم بعْدَ نُطْقِك بالحكم.

فحكم بينهما، وانصرف الخصمان، وراجع داود نفسه، ففطِنَ إلى أنّ الله عزّ وجلّ قد امتحنه ونبَّهَهُ بهذا الإجراء على خَطِيئَتِه، فاستغفر ربَّهُ وخرَّ راكعاً، وأنابَ ساجداً، فغفَرَ الله له ذلك الذي كان منه.

## التدبُّر التحليليّ للنصّ:

• قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ في هذه العبارة شروع في عرض قصّةٍ تتعلّق بداود، بأسلوب الاستفهام عن العلم بنبأ حادثة جرَت له.

ونُلاحظ في اختيار هذا الأسلوب التنويعَ البديع، فقد كان الكلام قبله في السّورة عن داود بأسلوب الرّواية الخبريّة، وبعْدَه انتقل إلى أسلوب الاستفهام عن نبأ حادثة جرَت له.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾؟ أي: يَا محمَّد، ثُمَّ يا كُلَّ مُتَلَقٍّ لهذا البيان، فهو خطاب لكلّ متلَقٍ بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، ﴿أَتَىٰكَ﴾ أي: جاءَكَ.

الإتيانُ والمجيءُ يستعملان في الحسّيّات المادّية، وفي غيرها من المعنويّات والفِكْرِيَّاتِ.

﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾: **النَّبأُ**: هو الْخَبَرُ البارزُ ذو الأهميَّةِ اللاّفِتُ للانتباه.

**الْخَصْمُ**: هو المخاصِمُ حول قضيّة من قضاياَ الحقّ، مطالباً، أو مَدافعاً، أو مدّعياً البراءة، أو نحو ذلك. ولفظ «**الْخَصْم**» يسْتَعمل هكذا في المفرد والمثنّىٰ والجمع والمذكّر والمؤنّث، وقد يُثَنّىٰ فيقالُ: خَصْمَان، وقد يجْمع على خصوم، وخُصَماء، وخُصْمان، ويطّرِدُ فيه «خِصام» مثل: كَلْب وكلاب، وصَعْبِ وصِعَابِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾. أي: أَلَدُّ المخاصِمِين.

● ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: وقْتَ تَسوُّرِ جماعَةِ الخَصْمين المحراب. دلَّتْ هذه العبارة على أنَّهُمْ كانُوا جماعَةً، وهم المتخاصِمَانِ، وبيّنَةُ المدَّعِي (شاهدان علىٰ الأقل).

﴿تَسَوَّرُوا۟﴾: أي تَسلَّقوا سُورَ المحراب، ودخَلُوا إلى الساحَةِ الداخليّةِ بوسيلةِ تَسلُّق السُّور واجتيازه، لاَ عن طريق الأبواب، لأنّ الأبواب مقفَلَةٌ ومحروسة، ولحكمةٍ ما فَعَلُوا هذا، إذْ كان باستطاعتهم وهم ملائكة أن يكونوا داخل المحراب دون وسيلةِ التسلّق، ولعلَّ الحكمة أن يراهم بعض الناس من غير الحرّاس، فيُشيعُوا أنّ بعض المتسلِّقين دخلوا على داوُد وهو في خَلْوته في محرابه.

**السُّور**: هو كلُّ ما يحيط بشيء، ويكون مانعاً من العبور الطبيعيّ دخولاً وخروجاً، سواءٌ أكان بناء أمْ غير بناء، ويُجْمَع «سُور» على «أسوار» كأسوار المدُن، وأسوار القصور، وأسوار الحدائق والبساتين، ونحو ذلك.

﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: قالوا: المحرابُ ارْفع مكانٍ في الدّار أو المسْجِد، وهو في البيوت غُرْفةٌ عالية منعزِلَةٌ يُرْتَقَىٰ إلَيْها. ومحراب المسجد صَدْرُه، وأشْرَفُ مَوْضِع فيه.

وقيل: المحرابُ الموضع الذي ينفَرِدُ فيه الملِكُ، فيتباعد من الناس.

قال الأزهريُّ: وسُمّي المحرابُ مِحْرَاباً، لانفراد الإمام فيه وبُعْدِه عن الناس.

من هذا نستدلُّ على أنَّ محراب داود عليه السلام قد كان بناءً خاصّاً لخلوته بربّه وعباداته، وكان ضِمْن ساحةٍ مُحَاطَةٍ بسُورٍ له بابٌ أَوْ أبوابٌ تُقفل وتُحْرَسُ.

رُوِي عن ابن عباس[1]، أنّ داوُد عليه السلام جزّأ أَزْمانَهُ أَرْبعَةَ أجزاء، يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواصّ أموره، ويوماً لجميع بني إسرائيل، فيعِظُهُمْ ويُبْكِيهم.

● ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾: يدلُّ تكرير «إِذْ» الظرفيَّة الزَّمانيَّة، في العبارتين: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ على أنّ مِحرابَهُ يقَعُ في بناءٍ حولَهُ ساحةٌ فارِغَةٌ، وهذه السَّاحة مُحاطَةٌ بسُورٍ، وأنّ هؤلاء الملائكة الّذين جاءُوا علىٰ أشْكَالِ وصُوَرِ بشر، تَسَوَّرُوا أوّلاً السُّور، واجتازُوهُ إلى السَّاحة، وأنَّهم مَشَوُا المسافة حتّى بلغوا مكان محرابه، ففتحوا الباب الذي لا حُرَّاسَ عليه، ولا قفل له ودَخَلُوا عليه.

فكلمة «إذ» الأولى دلّت على وقت التسوّر، وكلمة «إذْ» الثانية دلّت على وقت دخولهم المحراب، وبهذا الفهم نتفادى التأويلات الّتي لا داعيَ لها.

● ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾: أي: حصل له فزعٌ تِلْقَائِيٌّ من مباغَتَتِهِمْ له، بدُخولهم عليه وهو في خلْوَتِه، واستغراقه في عباداته ومناجاته لربّه، وهذا أمْر طبيعيٌّ يحصَلُ لكلِّ الناس مهْما كانوا شُجْعاناً، ولو كانوا أنبياءَ ومُرْسلين، فَلا يتنافَىٰ هذا الفزع من كمالات النبوّة.

---

(١) كما جاء في البحر المحيط وغيره.

والظُّنونُ الجالبة لهذا الفزع في مثل الحالة الّتي كان عليها داود عليه السّلام في محرابه كثيرة.

**الفزع**: الخوفُ والذُّعْرُ.

• ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾: أي: لا داعيَ للخَوْف، فإنَّنا لَمْ نَدْخُلْ عليك بِشَرٍّ أو ضُرٍّ أَوْ أذىٰ.

• ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: أمرنا أو شأننا أننا خصمان، بغَىٰ بعضُنا على بعْضٍ.

**البغيُ**: تجاوز حدّ الحقّ، والاعتداءُ، والظُّلْم، يقال لغة: بغَىٰ عليه يَبْغِي بَغْياً، ولا بدَّ أن يكون الناطقُ بهذا القول من الخصْمَيْن هو مَنْ يدّعي أنَّ الظُلْم وقَعَ عليه، ولكِنْ أبْهَمَ فقال: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لِيَتْرُكَ لداود حُرّيَّة إصدار الحكم الذي يَراه في قضائه بينهما.

• ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾: طلبوا منه أَمْرَيْنِ:

**الأول**: أن يَحْكُمَ بالحقّ، أي: بما يَراهُ حقّاً، وهذا إيجابي بجانب الحق.

**الثاني**: أنْ لا يُشْطِطَ، أي: أن لا يجوز ولا يَظْلِمَ، وهذا سَلْبِيٌّ لتحذيره من الظلْمْ والجور.

**الشَّطَطُ**: مجاوزة القَدْر والحدّ في كلّ شيءٍ له قَدْرٌ وحَدٌّ.

والشَّطَطُ: الظلْم والجورُ في الحكم.

يقال لغة: «**أَشَطَّ**» في حُكْمِهِ أو في قَضَائه، ويقال أيضاً: «شَطَّ» أي: جار وخرج عن واجب العدْل.

ويقال: «شَطَّ» و «أَشَطَّ» في سِلْعَتِه، إذا جاوز القدْر وتباعَدَ عن الحقّ.

ولكن ما فائدة مطالبتهم له بأن يَحْكُمَ بالحقّ، وبأن لا يَجُورَ في حكمه، ومثل داود عليه السلام لا يُنْتَظَر منه أن يحكُمَ بالباطل، ولا أنْ يَجُورَ؟.

أما كان يكْفِي الاقتصار على أحد الأمْرَين، لأنّه إذا حَكَمَ بالحقّ لم يكُنْ جائراً؟؟.

**أقول**: لمّا كان المتقاضيان عنده مَلَكَيْن في حقيقة أمْرِهما، وقَدْ جاءَا لِمَوْعِظَتِه، وتنبيهِهِ على ما كان منه في مشابه قضيتهما، ولمّا كان من معاني الشطط تجاوُزُ الْقَدْرِ الذي يليق بمثله، إلى ما لا يليق بمثله، ولو لَمْ يكن فيه مجاوزة لحدود الحقّ، كان من الحكمة أن يُقَدِّما له في الكلام ما يتضمَّنُ دَلالات رَمزيّةً علىٰ أنّ ما كان منه قد كان من قبيل الشطط في التصرّف، باستغلال سلطته في الملك، ولو لَمْ يجاوز فيه حُدودَ الحقّ فيما يظهر، فمن الحقّ ما هو شطَطٌ لا يليقُ بنَبِيٍّ رسُول، مسْؤول عن المحافظة على مرتبة المحسنين.

● ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: أي: وبَعْدَ أن تَنْطِقَ بالحكم الّذي تَراهُ في قضيتنا، وَجِّهْ لنا الإرْشادَ والنُّصْح المناسب الذي يَهْدِينا إلى التزام سواء الصّراط، هدايةَ دلالَةٍ وإرشادٍ وترغيب في الخير، وترهيب من الشرّ والإثم.

**سواءُ الصراط**: هو الصراط المسْتَوي المستقيم الّذي لا الْتِواء فيه، ولا تعرُّجات ولاَ تَشَعُّبَات.

والمراد صراط السُّلوك في الحياة، وأصْلُ الصراط الطريق الواسع الواضح، ونُقِلَ في الاصطلاح الدينيّ إلى ما ينبغي أن يَعْمَلَه الإنسان في حياته من سلوك نفسي وفكريٍّ وجَسَديٍّ ظاهر.

وهذا الطلَبُ التوجيهيُّ يرمُزُ ضمناً إلى أنّ الخصمين ومن معهما هم رُسُلٌ من الملائكة، أرْسَلَهُمُ الله إليه لتذكيره، وموعظته، وتعليمه أصُول

القضاء، ولإشعاره بخطيئته الّتي كانت منه، لذلك كان في كُلِّ قولٍ وعَمَلٍ منهم دلالَةٌ رمْزيَّة لمَا جاءُوا من أجْلِه.

ويظهر أن دَاوُد عليه السلام لمّا هدأَتْ نَفْسُه، أجْلَسَ الخصْمَيْن ومن معهما في مجلس قضاء، لِيَقضي بينهما، وسأَلَهُما عن خصومتهما.

ونلاحظ من حِلْمِه وسَعَةِ صدْرِهِ وكمالِ عقْلِهِ أنَّه لم يُعَاتب القوم على الدُّخول عليه بغير استئذانٍ في وقْت خلْوته، ولم يسأَلْهُمْ كيفَ دخَلُوا عليه مع أنّ الأبواب الخارجيَّةَ مقْفلَةٌ، والحرَّاسَ يراقبون ولا يمكّنُونَ أحداً من الدُّخول عليه بغيْرِ إذْنٍ منه.

● ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: قال المدّعي مِنَ الخِصْمَيْن الّذِي يشْكُو خَصْمه: إنَّ هٰذا أخي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً ولِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ.

لقَدْ ذكَر أنَّ خَصْمَهُ أخٌ له، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ ويُريد بذلك أنَّهُ أَخُوه في الدّين على ما يظهر، أي: ليس هو من الكفّار الأعداء، ولسْتُ أنا من الكفّار الأعداء المقاتلين حتَّىٰ يسْتَبيح حُقُوقي.

وأشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ ليَبيِّن أنَّه يَدَّعي عليه حضُوريّاً، وأنَّهُ هو عينُه المدَّعَىٰ عليه، وليْسَ وكيلاً ولاَ نَائباً عنه.

﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: قرأ حَفْصٌ ﴿وَلِىَ﴾ بفَتْحِ ياءِ المتكلّم، وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

**النَّعْجَةُ**: هي في اللّغةِ الأنثَىٰ من الضَّأْنِ والظِّبَاءِ والشَّاءِ الْجَبَلِيّ، والبقر الوحشيّ، والجمْعُ نِعَاجٌ، ونعجات.

والعربُ تُكنّي بالنَّعْجَةِ والشَّاةِ عن المرأة.

روىٰ ابْن جريرِ الطبريّ عن السُّدّيّ أنّ داوُد عليه السّلامُ كانَ له تِسْعٌ وتِسْعون امرأة، فإنْ صحّ هذا الخبر فإنَّنا نَلْمَحُ أنَّ الملَكَ المتمثِّلَ بصُورَةِ المدَّعي على أخيه قد استخدم العدد المطابق لعَدَد نساء داود عليه السلام، أمّا هو فليس له إلاّ نعجةٌ واحدة، كما أنّ «أورِيًا الْحِتّيّ» ليْسَ له إلاّ زَوْجَةٌ واحدة. ونلاحظُ أيضاً أنّه استخدَمَ لفظةَ تَدُلُّ على الأنْثىٰ من الضَّأنِ أو الظباء أو نحوهما، وتدلُّ بالتوسُّعِ على المرأة، لِيتمَّ التّتابُعُ الرَّمزيُّ في عَرْض القضيّة.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾: أي: فقال لي أخي هذا: ﴿أَكْفِلْنِيهَا ﴾: أي: اجْعَلْها تحت كفالَتي، ضِمْنَ حَظِيرة نعاجي، وتنازَلْ أنْتَ عنها.

ولم يأت في التعبيرِ ملِّكْنيها، ولاَ هبني إيّاها، ولا بِعْنِي إيّاها، ليدُلَّ التعبيرُ على المعنَيَيْنِ: الْمَعْرُوضِ في الظاهر، والمرموز له في الباطن.

فالمعروضُ في الظّاهر أنّ صاحب النعاج التِّسْعِ وتسعين، قَدَّم طلَبَهُ نعجَة أخيه مقْرُوناً بذَرِيعةٍ تُقْبل، إذْ قال لأخيه: إنَّك صاحِبُ نَعْجَةٍ واحِدَةٍ، وليس لديْكَ استعداداتٌ لرِعايَتِها وحِمَايَتِها والقيام بما تحتاج إليه، أمّا أنا فعِنْدي كُلُّ الوسائل لذلك، وأنا أُعَوِّضُكَ بما يجْعَلُكَ في غِنىً عنها، هذه ذريعة يمكِنُ أنْ تُقْبل.

والمرموز إليه في الباطنِ أنَّ داود الّذي لَدَيْه تِسْعٌ وتِسْعُون امرأةً، واسْتَحْسَن أنْ يَضمَّ إلَيْهِنَّ زَوْجَةَ «أُورِيًا الْحِتّيّ» بوسيلةٍ ما، وقد تكون هذه الوسيلة أن يطلب منه أن يطلّقها برضاه دون إكراه، فإذا صارت خليّة من زوج، وجاز لداود أن يخطبها ويتزوّجها، ضمّها إلى زوجاته، وتُشِيرُ عبارة: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ إلَىٰ أنّها إذا صارت زوجةً له كانت في كفالَتِه، لا في مِلْكه، فإنَّ الزوجات لا تُمْلَك.

ورُبّما كانت ذَريعته في الظّاهر أنّه قال لزوجها «أُورِيًا الْحِتّي» أنت

رجلٌ من المجاهدين الأبطال، وأنت في مُعْظَم أوقاتك منصَرِفٌ إلىٰ الجهاد في سبيل الله، وفي معارك القتال، وزوجتُك في بيْتِكَ وحيدةٌ لا حامِيَ لها ولاَ حارسَ، وليسَ عنْدَها مَنْ يكْفُلُها، فَمِنَ الأحسن لك ولها أنْ تكون ضِمْنَ نِسَائي، في كفالَتي وتحت حمايتي، ومتى عزمت على الاستقرار عوضناك بمن تُحِبُّ من النساء.

فدلّت هذه العبارة على المعْنَيَيْن: المعنى الظاهر، والمعنى المرموز إليه، بطريقة بارعة بديعة جدّاً، فكأنّها سهْمٌ ذو فرعَين يصيبان هدفين برمية واحدة.

﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾: أي: وغلبني وقَهَرني في مخاطبته ومحادثته لي.

يقال لغة: عزَّهُ يَعُزُّهُ عَزّاً، إذا قَهرَهُ وغَلَبَهُ.

وهُنَا نتساءَلُ: كيف تكونُ الغلَبَةُ والْقَهْرُ في الخطاب، مع أنَّ الحقّ في القضيَّة المعروضة ظاهرٌ لصاحبِ النَّعجة الواحدة، وليْسَ فيها شُبُهَاتٌ يتَمكَّنُ منْ خِلاَلِها الطَّامعُ بالنعجة الْمُكَمِّلَة المئة عنده، أن يُزَيِّنَ بحُسْنِ بيانه وعرضِه حُجَجاً يَغْلِبُ بها أخاه، الذي هو خَصْمه في هذِهِ القضيَّة؟؟.

وبالتأمُّل التَّدبُّريّ ينْكشِفُ لنا أنّ بعْضَ الكلام يكون ظاهِرُه عرضاً، ولكِنَّهُ في باطِنِه مُلْزِمٌ، لأنّ مَنْ يُوجَّهُ له لا يَسْتَطِيعُ مخالفته.

كأن يطْلُبَ الأَبُ على سبيل العرض من ابْنِه أمْراً أو شيئاً، أو يَطلُبَ الأخ الأكبر ذو الولايَةِ من أخيه الأصغر الذي ما زال تحت ولايته أمراً أو شيئاً، فالابْنُ البارُّ، والأخ الأصغر البارُّ، لا يملكان إلاّ الطَّاعة، وهما كارِهَانِ مَغْلُوبَانِ، على الرُّغْمِ من أن الطَّلَبَ قد جاء على سبيل العرض مع التخيير بحسب الظاهر.

وأشدُّ من ذلك أن يطلُبَ ذو السُّلْطانِ أو الملِكُ من بعْضِ مُحِبّيه

ومعظّميه من رعيّته أمراً أوْ شيئاً لنفسه، فإنّه لا يَمْلِكُ إلاّ الموافقة السَّريعةَ والطّاعة، ولو كان طلبُه على سبيل العرض لا الأمْرِ الإلزاميّ، وهو مع موافقته الظاهرة قد يكون كارهاً غَيْر راضٍ.

فإذا سُئِلَ: كيْفَ وافقتَ وأنت كارهٌ؟. قال: وهل أمْلِكُ أن لا أوافق، أنا مضطَرٌّ مغْلُوب، فلو أنني رفضْتُ لأغضبْتُ سلطاني أو مَلِكيّ، فتعرَّضْتُ بسبب غَضبه لأُمورٍ هيَ أشَدُّ عليّ ممّا أتخلّىٰ عنه لأجْلِه، وأنا في قَلْبِي كارِهٌ غَيْر موافق.

فكان من الإبداعِ في البيان، للدّلالة على العرض التَّخْييريّ في ظاهره، الملْزِم في باطنه، عبارة ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ ولكِنَّ هٰذِه المعاني التي سَبَقَ بيانُها لا تُسْتَخْرَجُ إلاّ بالتَّأَمُّل الدقيق.

ولا بُدَّ أن يكونَ دَاوُد عليه السّلَامُ قد تَثَبَّتَ من أنّ صاحب النعْجَةِ الواحدة هو صاحبُ الحقِ، عن طريق البيّنة، أو عن طريق اعتراف المدَّعَىٰ عليه من صِدْق الادّعاء، أو اجتمعا معاً، إذْ لا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ أن يتسَرَّعَ في الْحُكْم قَبْل التثبُّت، وقد وصفه الله عزّ وجلّ في صَدْرِ الحديث عنه، بأنّه آتاه الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ، ومعلوم أنّه ليس من الحِكْمَةِ إصدار الحكم بناء على السّماع من أحَدِ الْخَصْمَيْن، دُون التثبُّتِ من صِدْقِ الادّعاء، فمثْلُ هذا لا يفْعَلُه أقَلُّ القُضاة حكْمَةً، فضلاً عن نبيٍّ رسُولٍ حكيم، لَهُ مَجْلِسٌ يَقْضي فيه بين الناس.

- ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾:

في هذه العبارة مثالٌ من أمثلة فصل الخطاب الذي آتاه الله عزّ وجل داود عليه السلام، ففيها تأكيد أن طالب النعجة من أخيه مستنداً إلى سلطته في خطاب العرض، قد ظَلَمَهُ بهذا الطلب الملزم في باطن الأمْر. وجاء التأكيد بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾.

﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾: أي: بسُؤَالِهِ نَعْجتَكَ، فالسُّؤالُ مَصْدَرُ فِعْلِ سألَ، بمعْنَىٰ طلَبَ، يُقال لُغةً: سَأَلَ فُلاناً الشيَ، أي: استعطاه إيَّاه، ولفظ «سُؤال» في العبارة مضافٌ إلى مفعوله، فالمصدَرُ قد يُضافُ إلى فاعله، وقد يضافُ إلى مفعوله، وهنا من إضافته إلى مفعوله.

أمّا تَعْدِيةُ السُّؤال بحرف الجرّ «إلَىٰ» في قوله تعالى: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فَهُو على تَضْمِينِ معنَىٰ «يَضُمُّ» أو نحوه، والتقدير: لَقَدْ ظَلَمَكَ بسُؤالِهِ نَعْجَتَكَ ضَامّاً لَهَا إلى نِعَاجه.

● ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ... ﴿٢٤﴾﴾.

استجاب داوُدُ عليه السلام في هذا القَول لطَلَبِ المدَّعِي من الخصْمَيْن، في قوله له: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ فَبعْدَ أن نطَقَ داوُدُ بالحكم أبان أنّ كثيراً من الْخُلَطاء لَيَبْغِي بعضُهم على بعض إلاّ الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ وقَلِيلٌ ما هُمْ.

**الْخُلَطَاء**: جَمْعُ «خَلِيط» ويُطْلَقُ الْخَلِيطُ على الشَّرِيكِ الّذِي يخْلِطُ مالَهُ بمالِ شَرِيكه. ويُطْلَقُ على القوم الّذين أَمْرهُمْ واحِدٌ، وهذا المعنى الثاني هو الأَنْسَبُ فيما أَرَىٰ لمضمونِ النصّ من المعنَىٰ الأوّل.

﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: ليَعْتَدِي بعضُهُمْ على بَعْضٍ فَيَظْلِمُهُ في حقُوقِه، فيتعرَّضُ لعقاب الله العادل.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾: أي: وقليل جدّاً هم الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات الّذين لا يَبْغُونَ على إخوانهم.

لفظ ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا﴾ نَكِرَةٌ إبْهامِيَّة يُؤْتَى بها للدّلالة على التكثير، أو التعظيم، أو التّعجُب، أو تأكيد ما وُصِفَ بها.

والمناسبُ هُنَا إرادةُ تأكيد التعبير عن القلّة الشديدة، حتَّىٰ كأنَّهم نادِرُون.

● ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾:

بعد أن نطَقَ داود عليه السلام بالحكم الحقّ في القضيَّة الَّتي عرضها عليه الخَصْمان، وقدّم النُّصْحَ المناسبَ للقضيَّة التى قضىٰ فيها، أخذ يتفكّرُ في هذا الحدث الذي جرى له.

وطوى النَّصُّ أن الْخَصْمَيْن قَبِلا حُكْمَهُ ونُصْحَه وهَدْيه، وانْصَرفوا من حيث دخَلُوا، فلمَا عاد داوُد إلى خَلْوَتِه أخذ يتفكّرُ في هذا الأمر الّذي حدثَ له وهو في عُزْلَتِه وخَلْوَتِه، وأَخَذ يُحَاسِبُ نَفْسَه، ويَسْتَرْجِعُ ما كان من عَمَله، ويقولُ في نَفْسِه: كيْفَ دخلَ عليَّ هؤلاء في وقْتٍ لا يَدْخُلُ عَلَيَّ فيه أحد، والْحُرَّاسُ لا يمكّنُون أحداً من الدُّخول عليّ فيه؟! وكيف خرجوا من عندي دون أن يُحْدِثوا حَدَثاً يَدُلُّ عليهم؟!

هُنَا أَخذَت الظُّنُون تَتَوارَدُ علَىٰ تفكيرِه بعد هذه المراجعة، فظَنَّ ظنّاً قَوِيّاً راجِحاً، يُفِيدُ عِلْماً ظَنّياً، أنّ الّذين دخَلُوا عَلَيْه هم ملائكة جاءُوا على صُوَرٍ بَشَريَّةٍ، وأنّ الله عزّ وجلّ لَمْ يرسِلْهُمْ إلاّ لِكَشْفِ ما امْتَحَنَهُ بِه في قضِيَّتِه الخاصَّة، ولِكَشْفِ ما امتحنه به من قضاءٍ في قضيَّةٍ مُنَاظِرَةٍ لقضيَّتِه الخاصَّة، الّتي ما كان يليق به وهو نبيٌّ رسُولٌ من أهل مرتبة المحسنين أن تَصْدُر عَنْه.

لقد نجح في الامتحان الثّاني، فحكم بالحقّ، ولم يتَّبع الهوى، ولَمْ يقِسْ صاحِبَ النّعاج التّسع والتّسْعِينَ على نَفْسِه فيما بَدَرَ منه من خطيئةٍ لا تليق بمثله، فلَمْ يُخَفِّف عنه في إصادار الحكْم رغبةً في التخفيف عن نَفْسِه.

وبعد أن وضَحَ له الأمْرُ، إذْ قَابلَ النظير بالنَّظِير، ظهَرَ لَهُ أنّه لم يكن كما ينبغي أن يكون في الامتحان الأوّل، وأَدْرَكَ أن الأمْرَ عِتَابٌ من الله له على ما كان منه ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾: أي: سأل ربّه أنْ يَغْفِرَ له مَا كَانَ منه ﴿وَأَنَابَ﴾: أي: ورجع إلى اللّهِ بالتَّوبَة، بَعْدَ أن ابتَعَدَ قليلاً عن مقام القرب، بفِعْلِ ما لا يليقُ بمثله، وإنْ لم يكن معصيةً بالنسبة إلى غيره من المتَّقين، أو الأبرار، إذْ هو من المحسنين أهل المرتبة العليا.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾: أي: غلَبَ على ظَنِّه، دون أن يكون ما وصَلَ إليه عِلْماً يقينيّاً، وغلبَةُ الظَّنّ كافيَةٌ لأَنْ تُشْعِرَهُ بأَنَ اللّهَ عزّ وجل قد امتحنه.

﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: «**أنّما**» أداة حصر، أصْلُها «أنّ» الّتي تنصِبُ الاسم وترفع الخبر، و «مَا» الكافة لحرف «أنّ» عن عمل النصب والرفع، ومعناها الحصر.

«**فَتَنَّاهُ**»: أي: امتحنّاه واختبَرْنَاهُ وابْتَلَيْنَاهُ. إنَّ مادَّة: «**فَتَنَ**» ومُشْتَقاتها تَدلُّ في الغالب على معنى الامتحان والابْتلاء، وقد تدُلُّ على معنى الإحراق والتعذيب بالنار وعلى معنى الإغراء والإغواء للإيقاع في الإثم، وعلى غير ذلك من المعاني.

لقد امْتُحِنَ داود عليه السلام امتحانَيْنِ، امتحاناً في سلوكه الشَّخصيّ، فصدَر عنه ما لا يليق بأهل مرتبة المحسنين. وامتحاناً في الحكم والقضاء، فحكَمَ ولم يَتَّبع الهوىٰ، وكأنّه قد حَكَمَ على نَفْسِه، فكان في هذا الامتحان من ذوي الدَّرجَةِ العليا من درجات الإحسان.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾: أي: فَعقِبَ وُضُوحِ الظَّنِّ الرّاجح لدَيْهِ سألَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ خطِيئته.

**الاستغفار**: طلبُ المغفرة، أي: السَّتْر، يُقَال لغةً: غَفَرَ الشَّيءَ يَغْفِرُهُ غَفْراً وغُفْرَاناً ومَغْفِرَةً، إذا سَتَرَه، وغُفْرَانُ الخطيئة يقتضي عدَمَ المؤاخَذَةِ عليها.

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾: **خرَّ**: أي: أسْرَعَ في الْهُوِيِّ للرُّكُوعِ دون بُطْءٍ.

يقال لغة: خَرَّ الشيءُ يَخِرُّ وَيَخُرُّ خَرّاً وخُرُوراً إذا هوى من عُلْوٍ إلى الجهة السُّفْلَىٰ.

**رَاكِعاً**: حالٌ مقدَّرة، أي: ليستَقِرَّ راكعاً. **الرُّكُوع**: الانحناء، وأقْصَىٰ الركوع أن تَمَسَّ الرُّكبتان الأرض.

﴿وَأَنَابَ﴾: معنى «أناب» في اللّغة «رجَعَ» والمراد الرجوعُ بالتَّوْبَة، واسم الفاعل منه «منيب» وقد جاء في القرآن بمعنى الرجوع إلى الله بالتوبة والطاعة.

وأرىٰ أنّ فعل «وأناب» يُعْطِي دَلاَلَتَيْن بالنِّسْبَةِ إلى دَاوُد عليه السَّلام، بدليل وجود حرف العطف الدّال على فكرة جديدة مضافة.

**الأولى**: أن دَاوُد رجع إلى ربّه بصِدْق التوبة والنّدم، والحِرْص على أن يحافظ على شروط مرتبة المحسنين وذلك من عُمْق قلبه.

**الثانية**: أنَّه عليه السَّلام سجَدَ بعْدَ أَنْ أخذ حظَّهُ من الرُّكُوعِ، فيكون المعنى: وأناب ساجداً، لأنَّ السُّجُود أدَلُّ على كمال الخضوعِ والذّل لله، وقد كان السُّجود معروفاً في عبادات بني إسرائيل، وهو موروث فيهم منذ عهد إبراهيم عليه السلام، إذ أمره الله بأن يطَهِّرَ بيْتَهُ في مكةَ للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجُود، وصحّ عن الرسول محمد ﷺ أنّ أقرب ما يكون العبْدُ من رَبّه وهُوَ ساَجدٌ.

روى مسلم وأبو داود والنَّسَائي وغيرهم عن أبي هريرة، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«اقْرَبُ مَا يكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ».

أي: فأكثروا الدُّعاء وأنتم ساجدون لِرَبّكم في صلواتكم، وبهذا تَتَحقَّقُ الإنابَةُ لله في حالة الجسد، وفي حالة النفس والقلب.

فالعبارة على تقدير: فاستغْفَر ربَّه وخَرَّ راكعاً وأَنابَ ساجداً، فحصل في النَّصِّ الحذفُ اكتفاءً بدلالة ما قبله.

● ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾: أي: ذلِكَ الّذي كان منه، جاءت الإشارة إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد، لاستبعاد شبهة أنّه حكم استناداً لاستماعه من أحد الخصمين دون الآخر، فالمشارُ إليه أَمْرٌ آخرَ بعيد عن ظروف قضائه بين الْخَصْمَيْن.

● ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾:

**الزُلْفَىٰ**: اسْمٌ يأتي بمَعْنَى القُرْبةِ والدَّرَجَةِ والمنْزِلَة، ومادّة الكلمة تدلُّ على الْقُرْب والتقريب. يقال لغة: أَزْلَفَ الشيءَ وزَلَفَهُ وزَلَّفَهُ، إذا قَرَّبَه. ويقال: زَلَفَ إليه وازْدَلَف، أي: دنَا إليه وقرُبَ منه. **والزُّلْفَةُ**: الطَّائِفَةُ من أوَّل اللّيل لقُرْبها.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: وَحُسْنَ مَرْجع، وحُسْنُ المرجع إنّما يكون في جنَّات النعيم، وفيما قبل دخولها بعد البعث.

**حُسْنَ**: مصْدَرُ «حَسُنَ يَحْسُنُ» وهو ضِدُّ القبح. وإضافَةُ «حُسْن» إلى «مَآب» من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: وحَسُنَ مآبُ دَاوُد يوم الدّين. أو من إضافة الصّفَة إلى الموصوف، على تأويلِ المصْدَر بمشتقّ والوصْف به، والتقدير: ومآبٌ حُسْنٌ، أي: هو كُلُّه حُسْنٌ.

وجاء تأكيد الجملة بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة».

● قول الله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

**خَلِيفَة**: على وزن «فَعِيلَة» إذا كان بمعْنَىٰ «فاعل» فَهُوَ مَنْ يخْلُفُ غَيْرَه في شيءٍ من الأشياء، أَوْ في أَمْرٍ من الأَمُور. كالوارث يخْلُفُ مَنْ وَرِثَهُ في أمواله بَعْد موته، وكالسُّلْطَان يخْلُفُ السُّلْطَان الذي كان قَبْلَه على كُرْسيّ الحُكْم، والأجيالُ الناشئة تخْلُفُ الأجيال السابقة لها، في الانتفاع بالأَوْطَان، وامتلاكِ الأشياء التي كانت لها، وإذَا كان لَفْظُ «خَلِيفَة» بمعنى «مَفْعُول» فكُلُّ مُنْتَفع بشيءٍ أو مالِكٍ له من عباد الله، سيكون مَخْلُوفاً من قِبَلِ ذِي انتفاعٍ جديدٍ، أو ذِي مِلْكٍ جَدِيد، إذا مات السابق، أو انتهت مُدَّةُ انتفاعه به، أو انْتَهتْ مِلْكِيَّتُهُ له.

والدَّوْلَةُ المسلمة خَلَفَتْ دُوَلَ الفرسِ والرُّومان والأحباش وغيرها من دَوَلِ الأرض، حينما مَكَّنَ الله المسلمين من إسقاط هذه الدُّوَل واستخلاف المسلمين، إذْ جعل في أيديهم الحكْمُ والسُّلطان في كثير من مشارق الأرض ومغاربها.

وقد جعل الله دَاوُدُ عليه السلام مَلِكاً على بني إسرائيل وغيرهم، خَلَفاً لطالوت، وكان قد جعل جلَّ جَلاَلُه «طالُوتَ» خليفةً بعْدَ مقتل الملك الوثني الجبار، «جالُوت» على يَدِ داود عليه السلام.

إنّه بعد استِغْفارِ داوُد عليه السلام. وركُوعِه، وإنَابَتِه لربّهِ سَاجداً تائباً من عارضة الخطيئة الّتي كانت منه، ممّا لا يليق بأهْلِ مَرْتبة المحسنين، وبَعْدَ نَجاحِه في الحكم بالْحَقّ في قَضِيَّةِ الْخَصْمَيْن، الذي كان بمثابَةِ الحكْمِ على نَفْسِهِ في القضيَّة المناظِرَة، استحقَّ أَنْ يجعَلَهُ اللَّهُ خَلِيفَةً في الأرض لِمَنْ سَلَفُوا من قَادَةِ المؤمنين، ذوي السُّلْطَان الّذين يقيمون الحقّ والْعَدْلَ بين الناس، والمؤيَّدين من عِنْدَ الله عَزَّ وجلَّ بالمعونة والتمكين، والتوفيق والتسديد.

فكان هذا استخلافاً مُعَاناً، فَوْق المُلْكِ الّذي سبَقَ أن آتاه اللّهُ إياهُ، فكان فيه خليفة لطالوت.

فوجَّه الله له بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ وَظيفَةَ الاستخلاف المؤيَّد المعان، ضِمْنَ سلْسِلَةِ ذَوِي السُّلْطانِ المستخلَفين من القادة والملوك المؤمنين.

ولم يَجْعَلْه الله خليفة عنهُ، كما يتَوَهَّمُ بَعْضُ الّذِين خَدَعَتْهُمْ هذه المقالة، المتسلِّلَةُ إلى فريق من المسلمين تسلُّلاً خبيثاً، مناقضاً لأسس العقيدة الإسلاميَّة.

فالله جلّ جلاله قَيُّومُ السماواتِ والأرض، المهيمنُ على كلّ شيءٍ، وبيَدِه الأمْرُ كلُّه، لَهُ الخلْقُ، ولَهُ الأَمْر، وله الحكْمُ والقضاء في كلّ شيءٍ، وَلَمْ يسْتَخلِفْ عنه أَحداً.

وإذْ جَعَلَ الله عزّ وجلّ دَاوُدَ خليفةً، أي: حاكماً في الأرض ذا سلطان مُعَانٍ مؤيَّدٍ بتأييد الله منْصُورٍ بنصره، فإنَّ عليه في هذا السلطان واجباً لا خيرَةَ لَهُ من أمْرِه فيه، وهو أن يحكُمَ بين الناس بالحقّ، وأن لا يتّبع الهوىٰ، فإذا اتَّبعَ الْهَوَى أضَلَّهُ عن سبيل الله.

● ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾: أمْرٌ من الله جَلَّ جلالُه لداود عليه السَّلام بأنْ يَحْكُمَ بَيْنَ النّاس بالْحقّ، والحكْمُ بالحقِّ من ظواهره الالتزام بالعدلْ، والعدل هو إعطاء كلّ ذي حقٍّ حَقَّه، والحكْمُ بالحقّ هو سبيل اللّهِ في الحكم.

يقال لُغَةً: حَكَمَ بالأمر يَحْكُم حُكْماً، أي: قضَىٰ به، فالباء للتعدية، والمعنى: قضَىٰ الحقَّ، أي: أمْضَاهُ بنُطْقِه بالحكْم الّذي هو الحق.

● ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

**الْهَوَىٰ**: مَيْلُ النَّفْسِ إلى ما تُحِبُّ وتشتهي ولو كان فيه شرٌّ وضرٌّ وإثْمٌ وعِصْيَان، وفي الْهَوَىٰ معْنَيُ السُّقُوطِ والْهُبُوطِ من علُوٍّ إلى سُفُولٍ غالباً، وقد يرتقى الإنسان فيكون هَوَاهُ تَبَعاً للحقّ والخير والفضيلة ومرضاة الله عزّ وجلّ.

وفي هَذه العبارة بيانُ أَنَّ اتِّباعَ الْهَوَىٰ يُبْعِدُ الْحَاكِم عَنِ الحكْم بالحقّ، فالْهَوَى في النفوسِ لَهُ مُيولاَتٌ وانحرَافَاتٌ لاَ تُحْصَر، واتِّباعُهُ يُخْرِجُ عَنْ سبيل اللَّهِ، إلى سُبُلٍ ومتَعرِّجَاتٍ ومتَاهَاتٍ ومَهَالِكَ، وضلالات، تتلاعَبُ فيها الشَّيَاطين وتَقُود سالكيها أو تسُوقَهُمْ إلى عواقب وخيمة، وعقوباتٍ من الله جسيمة، واتِّباع الْهوىٰ يوصل إلى اعتناق الباطل، والاسْتِمْسَاك بالأفكار والمفهومات الفاسِدات، ويُوصِلُ إلى الظُّلْم والْعُدْوان والْبَغْي والفساد العريض في الأرض.

وحينما يَتَّبعُ الإنسانُ الْهوىٰ تَغْشَىٰ بصيرَتُه، وتُظْلِمُ نَفْسُه، وتكون تطلّعاتُه إلى زِيناتِ الحياة الدُّنيا وحُبِّ الشهوات منها شُغْلَه الشَّاغِلَ، فينْسَىٰ اللَّهَ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ويَوْمَ الْحِسَاب، فيسْقُطُ في الخطايا والموبقات، ويرتكب كبائر الذُّنوب والآثام، ويسْتَحِقُّ بذلك العذاب الشديد عند ربّه جلّ جلالُه جزاءً وِفَاقاً.

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: يُقَالُ لُغَةً: ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ، إذَا جَارَ وخرجَ عن حُدُودِه ذاتَ اليمين أَوْ ذَاتِ الشِّمَالِ، وسبيل الله صراطه المستقيم(١)، وهُوَ تعليماتُ دينه الذي اصطفاه لعباده.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾: أي: لَهُمْ عَذَابٌ شدِيدٌ عنْدَ رَبِّهِم، بسَبَب جَوْرِهِم عن سبيل الله، وسُقُوطِهم في المعاصي والمخالفات وارْتِكَاب كبائر الإثم، أمّا السَّبَبُ الأول فقد جاء في قوله تعالى:

﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾: أَصْلُ النِّسيَانِ في اللُّغَة التَّرْكُ، وتَرْكُ الشَّيْءِ وإهمالُه يصْرِفُهُ عن الذَّاكِرَة، فلا يخْطُر في البال.

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق سورة الفاتحة حول تدبر آيات الصراط ونحوه في القرآن.

والمرادُ بنِسْيانِ يَوْم الْحِسَابِ تَرْكُ الْعَمَل بما يُحقِّقُ النجاة من العذاب، والظَّفَرَ بالنعيم المقيم في جنَّاتِ النّعيم يَوْمَ الدّين، بَعْدَ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضاء، فالعذاب الشديد لهم سَبَبُهُ الأولُ نِسْيان يوم الحساب.

جَاءَتْ تَسْمِيَةُ يَوْم الدِّينِ بيَوْمِ الحسَاب، لأنّ الْحِسَاب بعْضُ ما يجري في ذَلك اليوم، وجاء التذكِيرُ هُنَا بالحسَاب لأنّه مُقَدِّمَة فَصْلِ القضاء، الّذي يكون بمقْتَضَاهُ تَنْفِيذُ الجزاء، وبتَنْفِيذ الجزاء يكون العذاب الشديد للّذين تَرَكُوا في الدنيا الْعَمَلَ ليَوْم الدّين، يوم الحساب، وفَصلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ويُلَاحظ في هذا النّصّ ترتّبُ حلقات سِلْسِلة الأسباب بعْضِهَا على بعض، فاتّباع الهوىٰ يُنْسِي العمل للنجاة والظفر يومَ الدّين الذي يكون فيه الحساب. وفَصْلُ القضاء، وتحقيقُ الجزاء، وهٰذا يؤدّي إلى الضلال عن سبيل الله والسقوط في المعاصي وكبائر الذُّنوب، تنازُلاً حتَّىٰ دَرَكة الكُفر بِاللّه وجحود يوم الدين، وهذا يؤدّي إلى استحقاق العقاب والعذاب الشديد بِقَدْر تنازل الدركات، ويكون لكلّ مُذْنب استحقَاقٌ من العَذاب بما يُلائم الدركَة التي انحدَرَ إليها.

وفي هذه الآية بيان ضمنيٌّ تعريضي للذين كذبوا بإنذارات الرسول محمد ﷺ، بأن ما جاءهم به هو إحدى القضايا الدينيّة الاعتقادية التي جاء بها المرسلون من قبله.

● قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ (٢٨)﴾.

في هاتَيْن الآيتَيْن استثمار لبعض ما جاء في قصّة داوُد عليه السّلام، المعروضة في هذا الدرس الثاني من دروس السّورة، لإقامة الدليل العقليّ

على قضيَّة الجزاء يوم الدّين، الّتي جَحَدَها وتَعَجَّبَ من نَبَئِها الْمُصِرُّونَ على كُفْرِهم من كُبَرَاءِ مكَّة، الَّذِينَ جاء بيانُ تعجُّبِهم في الدَّرْس الأوّل من دُرُوس السورة في قول الله تعالى في أوائلها:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

فمع كوْنِ هَاتين الآيتيْن من توابع الدرس الثاني فقد جاءَتَا موصولتين ببعْضِ ما جاء في الدرس الأوّل منها، وهذا من عناصر وحدة موضوع السّورة القرآنيّة.

## عرض الدليل العقلي الذي جاء في هاتين الآيتين بعبارة مبسوطة:

(١) يَبْدَأ الاستدلالُ من أرْضيَّةٍ فكريَّةٍ يَقِفُ عليها المعنيُّون بالخطاب، وهم مشركو مكة إيَّانَ التنزيل.

إنّهم كانوا يؤمنون بأنّ الله جلَّ جلالُهُ خالقهم وخالق السَّماء والأرض ومابينهما، إذَنْ فَهٰذِه قضيَّةٌ مفروغٌ منها، لا يحتاجون إلى إقامة دليل عليها.

(٢) وبناء على أنَّ الله عزّ وجلّ هو خالق السَّماء والأرض وما بَيْنهما، وخالِقُ ما فيهما من أشياء وأحياء ونباتات، وخالقُ الناس أجْمعين، فهل يَجِدُونَ في شيءٍ من خَلْقِ الله مَخْلُوقاً غَيْرَ مُتْقَنٍ وغير حَكِيم؟.

لا بُدَّ أن يكون الجوابُ القطعيُّ ولو بَعْدَ تأمُّلٍ وبَحْثٍ وتفكير: لا نَجِدُ في هذا الخلْقِ الرَّبّانيّ شيئاً غَيْرَ مُتْقَنٍ وغَيْرَ حكيم.

إنَّهُ صُنْعُ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شيْءٍ، وأحكمَ كُلَّ شيء، وإتقان الأشياء، ووضْع كلّ شيءٍ في موْضِعه الملائم له بحكْمَةٍ تامَّة، لاَ بُدَّ أن يكُونا مصحوبَيْن بعِلْمٍ شامل.

إذَنْ فالخالق جلَّ جلاله مُتْقِنٌ حكيمٌ عليم، وهذه نتيجةٌ منَ الضَّروريّ أن يُسَلّم بها، ويعْتَقِدَهَا كُلُّ عاقلٍ مُنصفٍ يَنشُد الحقّ، وليْس له هوىً على خلافه.

(٣) عند هذه المرحلة الإقناعيَّة يحْسُنُ طرحُ السُّؤال التالي:

أليسَ في النّاس مَؤْمُنُون باللَّهِ ويَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ الَّتي تُرْضيه، وآخَرُون كافرون بالله، ويُفْسِدُون في الأرض، أو مؤمنون إلاّ أنَّهم يُفْسِدُونَ في الأرض فِسْقاً وظُلْماً وعدواناً؟؟.

أليس في الناس مؤمنون بالله ويتَّقُون مَا يُسْخِطُهُ، ويتَّقون عقابه. وآخَرُون فُجَّارٌ ينْطَلِقُونَ على أهوائهم وشهواتهم في المعاصي والشرور، دون خَوْفٍ مِنْ جزاءٍ وعقاب؟؟.

لا بُدَّ أن يكون الجواب التّلْقائي دون تأمّلٍ وتفكير طويل: بلَىٰ، فهذه الأقسام من الناس موجودة كلُّها.

(٤) وعند هذه المرحلة الإقناعيَّة يحسُنُ طرح السؤال التالي:

ألَيْس الخالقُ المتْقِنُ الحكيم الْعَلِيمُ هو الذي خلَقَ النَّاسَ، ومَنَحَهُمْ قدرات الفهم والعلم، ومَنَحَهُمْ إرادَاتِهِم الحرَّةَ المختارة، الّتي يختارون بها أنواع سُلُوكهم في الحياة من خَيْرٍ أو شَرّ، ونفْع أو ضَرّ، وَعدْلٍ أو جَوْر، وإحسانٍ أو عدوان، وغير ذلك من أضدّاد، وسَخَّرَ لهم بقضائه وقدره وخلقه مع ذلك، ما في الأرض وما في السَّمَاءِ وما بيْنَهما؟؟

لا بُدَّ أن يكون الجواب العقليُّ المنطقيُّ: بلى. فالخالق هو الذي منحهم كلَّ ذلك، ومكَّنَهُمْ من سُلُوك طريق الخير، وطريق الشرّ، وعرَّفهم بهما، وبيّنَ لهم حُسْنَ سُلُوكِ طريق الخير، وقُبْحَ سُلُوكِ سُبُلِ الشرّ، وجعلَهُمْ يُدْرِكون أنّ فاعل الشرّ ينبغي أن يُعاقب، وأن فاعل الخير ينبغي أن يُوقَىٰ العذاب، ويُكْرَمَ ويُثاب.

(٥): وعند هذه المرحلة الإقناعيَّةِ يْحسُنُ طَرْحُ السؤال التالي: هَلْ يليقُ بالخالق المتقن الحكيم العليم أن يَخْلُقَ الناس بهذهِ الصفاتِ، الّتي من ظواهر اختياراتهم الحرّة معها، أن يُوجَدَ فيهم مؤمنون وكافِرون، ومُسْلِمُونَ

ومُجْرِمُونَ، ومُصْلحونَ ومُفْسِدُونَ، ويَتْركَهُمْ سُدىً، دون أن يُثيبَ مُحْسِنيهِمْ، ويعاقب مُسِيئيهم؟؟.

لا بُدَّ أنْ يكون الجوابُ حتماً: هذا لا يليق، ولا يُمْكن أنْ يكون، فصفاتُ الرّبّ العظيم الجليل الحكيم العليم القدير تأبَىٰ ذلك، بل هو أمْرٌ غير ممكنٍ عقلاً.

(٦) وعند هذه المرحلة الإقناعية يحْسُنُ طرح السُّؤال التالي:

ألَسْنَا نَجِد مُفْسِدين مُجْرمين كفَّاراً جبّارين يموتون قبل أن ينالُوا عقابَهُمْ العادل؟

ألَسنَا نجد مسلمين مؤمنين مُتَّقِين وأبراراً ومحسنين يموتون قبل أن ينالوا ثوابهم على أعمالهم الصالحة؟.

لا بُدّ أن يكون الجوابّ الحتميُ: بلَىٰ. فهذا أَمْرٌ مَشْهُودٌ ومتكرّرٌ دواماً.

(٧) وعند هذه المرحلة الإقناعية يحْسُنُ طرح السؤال التالي:

فأيْنَ إذَنْ تطبيقُ حكْمة الله في فَضْلِه وعَدْله، وهو الأمْرُ الذي لا بُدَّ أَنْ يكون بمقتضىٰ برهان العقل، من خلال النظر في صفات الرّب العظيم الجليل الحكيم العليم القدير العدل الرحيم ذي الجلال والإكرام والإنعام؟؟

هُنَا يتيقَّظُ فِكْرُ العاقل الحصيف المنصف الذي ينْشُد الحقّ، وليس له هوىً على خلافه، فيقُول:

لا بُدَّ أن يكون الخالق الحكيم قد أعدّ في خُطّتِه ظُروفَ حياة أُخْرى غير هذه الحياة الدنيا، ليُقيم فيها الجزاء بالعدل أو الفضل على مقتضى حكمته وواسع فضله ورحمته، وعظيم عدْله.

(٨) وهنا نَصِل إلى المطلوب، ويكون الدليل العقلي الذي تنقَّل بنا

في مراحل، كلُّ مرحلةٍ منها يلْزَم عنها المرحلة الّتي تليها، دليلاً برهانيّاً مُلْزِماً، مُثْبِتاً ضرورةَ يوْمِ الدين بالدليل العقليّ البرهاني.

ومن أنكر هذا فلا بُدَّ أَنْ يَلْتَزم مقولَةً عن الله أخرى تنفي حكمة الله في الخلْق، وتثبت أنّ خلْقَ السّماء والأرض وما بينهما، وخلْق الإنس والجنّ باطِلٌ وعَبَثٌ من العبث.

هذا ما دلَّتْ عليه الآيتان:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

ينفي اللّهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه، باستخدام ضمير المتكلّم العظيم، أَنْ يكون قد خلق السَّماءَ والأَرْضَ وما بينهما من إنْسٍ وجنٍ وملائكة وحيوان ونبات وغير ذلك باطلاً دون قَصْدٍ حكيم، وغايَةٍ حكيمة، ويبيّن أنَّ ذلك التصوُّرَ المستَبْعَدَ إلى ظُلُماتِ المستحيلات العقلية ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، وهو حتماً ظَنٌّ ضعيف جدّاً من دَرَكَةِ التوهُّماتِ الباطلات.

**باطلاً**: الباطِلُ ضِدُّ الحقّ، والعملُ الباطلُ، هو الذي لا يُؤَدّي إلى غايَةٍ حكيمة، ومن العمل الباطل إجراءُ اختبارٍ يكون فيه ظالم ومظلوم، ومُسْلِمٌ ومُجْرِم، ومُحْسِن ومُسِيء، ثُمَّ ينتهي الامتحان دون حساب، وفَصْلِ قضاء، وتحقيقِ جزاء، هذا أمْرٌ لا تسْتَسِيغُه نُفوسُ الأطفال الصّغار، فضلاً عن أهل العقل والرشد والرأي السديد. ومن العمل الباطل تضييع الأوقات والطاقات سُدَىٰ بلا فائدة تجنىٰ، كالمرأة الحمقاء الّتي تنقض غَزْلها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً، وكالرجل الأحمق الذي يَهْدِم بنياناً لا ليقيم مكانه بُنْياناً أفضل منه، إنما يَفْعَلُ ذلك لمجَرَّدِ العبث.

فهل تقبلُ العقول أن يخلُقَ الله الإنسانَ في أحْسَنِ تقويم، ويُسَخِّرَ له

ما في الأرض والسماء، فهو يتصرّف بالأشياء ضِمْن قوانينها وأنظمتها باختياره الحرّ، وهذا التصرّف ينجم عنه ظالِمٌ ومظلوم، وذو غِنىً ومَحْروم، ومُسِيءٌ ومُحْسِن، وكافِرٌ ومُؤمن، وتقيٌّ ومُجْرِم، ثُمَّ لا يكون بعد ذلك حسابٌ، ولا فَصْلُ قضاء، ولا جزاء؟!!

إنَّهُ تمكين لذَوي القوَّةِ من أن يكون الباطل هو العزيز الفائق، وأَنْ يكون الحقّ هو الذَّليل الزاهق، وهذا عند كلّ العقول السليمة عملٌ باطل، وكلُّ ما يُؤدّي إلى باطلٍ فهو باطل.

إذا كانت الغاية من الخلْق هذا الأمْرَ الباطل، فإنّ الخلْقَ نفسه عمل باطل، يُفْضِي إلى تمكين الباطل من إزهاق الحقّ.

فمن زعم أنه ليس بعد هذه الحياة الدّنيا حساب، ولا فَصْل قضاء، ولا تنْفِيذُ جزاء، لزِمَهُ أن يَدّعي أنّ الله جلّتْ قُدْرَتُه وعظمت حكمته، قد خلَقَ هذا الخلْقَ باطلاً وعبثاً، وهذا جحودٌ لكمال صفات الله عزّ وجلّ، وهو من الكُفر بالله، وإنّ الّذين يقولون هذا ما قدروا اللَّهَ حقَّ قَدْره، إنّهم بهذا الزعم ليس لهم إلاّ الأوهامُ التي هي أضعف الظُّنون الساقطة بالبداهة، وهي أوهام زيَّنَتْها لهم رغباتهم الفاجرات بالتحرُّر من قيود الحقّ والخير والفضيلة، ورغباتهم باتّباع أهوائهم وشهواتهم.

﴿. . فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾: **فويلٌ**: أي: فعذابٌ شديدٌ لهم من عذاب النار، الذي يذوقون فيه عذابَ الحريق.

و «ويل» وادٍ في جهنّم، كما سبَقَ بيانه لدى تدبر سُوَرِ (الماعون والهمزة والمرسلات) «ويْلٌ» مبتدأ. «للذين كَفَروا» في محلّ رفع خبر.

وفي هذه العبارة وعيد من الله جلّ جلاله لهم بعذاب شديد في النار يوم الدين.

● ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: بَلْ أَنَجْعَلُ المؤمِنينَ الصَّالحين كالكفَرَةِ المفسدين في الأرض، سواءً محياهم ومَماتهم، فَنُنْهِي رحلة امتحان هؤلاء وهؤلاء، دُونَ وضع خُطَّةٍ مستقبليّة يكون فيها حسابٌ وفَصْلُ قضاء وتنفيذ جزاء؟؟!.

بل. أنجعل المتقين عقابَ رَبّهم، كالْفُجّار الذين يَنْبعِثُون لارتكاب الجرائم والآثام الكبرى، بكلّ ما لديهم من طاقات وقُوىً، واندفاع إلى الشرّ بوقاحة ومَجَانة، دون مُراقبة لحساب ولا جزاء؟؟!.

«أَمْ» فيها معنى الإضرابِ والاستفهام في الجملتين، والاستفهام هنا استفهامٌ إنكاريٌّ فيه معنى التعجيب من ظنّ الّذين كفروا.

والمعنى أنّ حكمة الله الرّب الجليل العظيم خالق الكون بحكمته، تَأْبَىٰ هذا الباطل وهذا العبث، بل هو سَيُقِيم عَدْلَهُ وفضله يوم الدين، كما أنذر وبشَّرَ في كلّ ما أنزل من كتاب على رُسُله.

﴿ٱلْفُجَّارِ﴾: جمع «الفاجر» وهو المنبعث انبعاثاً وَقِحاً في فعل الشرّ والضرُّ والظلم والعدوان، وارتكاب كبائر الإثم والعصيان.

وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه التقابل، فالذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات، يقابلهم الكافرون المفسدون في الأرض، فجاء في الآية الاكتفاءُ بعبارة: ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن التصريح بعبارة كالكافرين لأنَّ التقابل يَدُلُّ على المحذوف.

ومرتبة «المتقين» يقابلها دَرَكَةُ «الْفُجّار» أي: الذين ليس لديهم أدنَىٰ درجات التقوىٰ المنجيَةِ من الخلود في عذاب النار.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

وقرأ أبو جَعْفر: [لِتَدَبَّرُوا] بالتاء بدَلَ الياء، وبتخفيف الدّال، وأصلُها «لتتدبَّرُوا» ثَقُلَ تكرار التاء فحذفتِ الثانية، وهي تاء الفعل تخفيفاً. ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾

وهي قراءة باقي القراء العشرة، أصْلُها «لِيَتَدَبَّرُوا» قُلِبَتِ التاء دالاً لقُرْب مَخْرَجهما وأدْغِمَتْ بالدّال بعدها.

وفي القراءتين تكامُلٌ بيانيّ، فالّتي بتاء الخطاب يخاطبُ الله بها الرسُولَ والذين آمنوا، والّتي بياء الغيبة يتحدَّثُ اللَّهُ بها عن الآخرين الذين لم يُؤْمِنُون، أي: ليَتَدبَّر مِنْهم آياته الّذِين لديهم استعداد للاستجابة للحقّ.

هذه الآية من الدرس الثاني ذات اتصالٍ بأول عُنْصُرٍ من عناصر موضوع السورة الوارد في أوّل آيات الدرس الأول منها، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ وقد سبقَ تدبُّر هذه الآية.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾: خِطاب للرّسول محمد ﷺ، أي: القرآن المجيدُ ذُو الذّكر هو كتابٌ أنزلْنا بعْضَه إليك وسنُنْزِلُ سَائرهُ إليك تباعاً بحسَب مقتضيات الحكمة التعليميَّة والتربويَّة، فَإِنْزَالُهُ جميعاً قد تَمَّ به الْقَضاءُ فَهُو في حُكْم الَّذِي قَدْ أُنْزِلَ كلُّه باعتبار ما سَيؤُول إليه الأمْر. وأنزلناه محفوظاً حتَّىٰ وصَلَ إليك كما أَنْزَلْناه وقد سمَّىٰ الله عزّ وجلّ القرآن «كتاباً» وعرَّفه بأداة التعريف «الكِتَاب» في عِدَّةِ نُصوص، تَوجيهاً لكتابَتِهِ، وتكليفاً بها، حَتَّىٰ يَكُونَ نصّا قطعيَّ الثبوت، مُدَوَّناً مُبَيَّناً في كتابٍ مكتوب، محفوظٍ من التحريف والتبديل، في أيّ حرْفٍ من حرُوفه، وأيّ كلمة من كلماته.

وسَمَّاه اللَّهُ «قُرْآناً» وعرَّفه بأداة التعريف «القرآن» في كثيرٍ من النصوص، توجيهاً لجَمعِهِ وَقِرَاءَتِه من المصْحَفِ المكتوب المدَوَّنِ المحَرَّر المحْفُوظ.

وسَمّاهُ الله «ذِكْراً» وعرَّفه بأداة التعريف «الذِّكْر» في عدّة نصوص، توجيهاً لحفْظِهِ وتذكُّرِه واستحضار آياته في الذاكرَة، عند كُلّ مناسبة داعية.

وسمّاه الله «الفرقان» للدّلالة على ثلاثة أمور.

**الأمر الأوّل**: أنَّه مُفرَّقٌ مُفَصَّلُ في آياته ومعانيها تفصيلاً محكماً.

**الأمر الثاني**: أنّه يَفرِقُ ويَفْصِلُ بين الحق والباطل، والخير والشرّ، وبين ما فيه سعادة الناس وما فيه شقاؤهم.

**الأمر الثالث**: أنَّهُ حُجَّةُ اللَّهِ على عباده بما فيه من إعجاز وحُجَجٍ برهانية دامغة.

فالْفُرْقَان في اللّغة مصْدَر فَرَقَ الشيءَ يَفرُقُه ويَفرِقُه فَرْقاً وفُرْقَاناً، والمصدر يُسْتَفادُ منه أنّ القرآن فارِقٌ ومَفْرُوق.

ويأتي الفرقان في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ الحجَّةِ والبُرْهَان.

وقد جاء في القرآن تعبيران حول إنزاله، ففي بعض النصوص قال الله عزّ وجل: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ فجاءت التعدية فيها بحرف «إلى» وفي نصوص أخرى قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ فجاءت التعدية فيها بحرف «على» فما الحكمة من هذا التنويع؟.

الذي يظهر لي أنَّ التعدية بحرف «إلى» قد جاءت للدلالة على معنى توصيل المنزّل من القرآن إلى الرسول كما أنزله اللَّهُ من لَدُنْه. وأنّ التعدية بحرف على قد جاءَتْ للدّلالَة على ما في القرآن من تكاليف يجب على الرسول وسائر المؤمنين أن يَحمِلُوها بقُوَّةٍ، ويَعْمَلُوا بها، فهي أحمالٌ وأعباءٌ ملقاة على ظهورهم، وهم مسؤولُون عن واجباتها.

﴿مُبَٰرَكٌ﴾: وصف الله عزّ وجلّ هذا الكتاب (القرآن) بأنه مبارك، أي: ذُو بركة.

**البركة**: هي النماء والزيادة في الحسيّات وفي المعنويّات. ورُوِي عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنَّ البركةَ الكثرة في كُلّ خَيْر.

ويقال لغة: بَارَكَ اللَّهُ الشيءَ، وبَارَكَ فيه، وبارَكَ عليه، أي: وضع فيه البركة.

ومعنى كوْنِ القرآن مباركاً أنه لاَ تَنْضَبِ فيوض معانيه، وأنّه ذُو خَيْرَاتٍ كثيراتٍ جِدًّا فكريّة ونَفْسِيَّةٍ وشفائيَّة وغير ذلك.

لكنّ هٰذِهِ المعانيَ المباركة الثرَّة لا يقتَبِسُ منْهَا إلاَّ الَّذِين يَتدَبَّرونَ آياته.

● ﴿.. لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾:

في هذه العبارةِ بيَانُ أنّ من أغراض إنْزال هذا الكتاب غرضَيْن:

**الغرض الأول:** تدبُّر آياته.

**الغرض الثاني:** تذكُّر أولي الألباب.

**تدبُّر النصّ:** هو التّفكُّر الدّقيق العميق الّذي تُلاحَظُ فيه العواقب ببصيرة، حتَّىٰ الأطراف البعيدَةُ التي يدُلُّ عليها النّصّ، وبالتدبّر السليم تَحْصُل المعرفة الشّامِلةُ للنصّ، من أوائله حتى أواخره، ويدخُل فيها اللّوازم الفكريّة الّتي يقتضيها النّصُّ قبل مَعْناه المطابق لِلَفْظِه، وبَعْدَ معناه المطابق للفظه.

**والتدبُّر:** هو النظر في عواقب الأمور وأدبارها وما تَؤُول إليه.

ومنه التدبير، وهو وضع الخطط الشاملة للأمور من بداياتها حتى أدبارها.

فتدبُّر كلمة «الذِّكْرِ» عنواناً للقرآن المجيد، يتَطَلَّبُ استدعاء اللّوازم التي يستدعيها الفكر، والّتي تكون قبل كونه ذِكْراً، وهي تَبَلُّغه باصغاء، والإيمانُ به، وتَفَهُّم معانيه، وحفْظُها في الذاكرة، وحفظ مَا يجِبَ حفظه من نصوصه، وتذكُّر ذلك عند المناسبات الداعيات للعمل بها، وهذه هي الحلقة الأخيرة من سلسلة اللّوازم الفكريّة، فأُطْلِقَ على القرآن أنه ذِكْرٌ للعالمين.

وتدبُّر عبارة «رَبّ العالمين» يتطلَّبُ استدعاء اللّوازم الفكريَّة الّتي تلزم عن كونه ربّ العالمين، وهي وحدتُه في ربُوبيته فلا شريك له فيها، وكونُه مالكاً لمَنْ هو ربُّهم، فهم عبيده، وَمَلِكاً علَيْهم فلا حُكْمَ إلاَّ حَكْمُهُ ولا سُلْطانَ إلاَّ سُلْطَانُه، وكَوْنُهُ إلَهاً لهم، فلا معبود بحقٍّ للعالمين سواه. كلُّ هذه اللّوازم الفكريّة تأتي عَقِبَ فهْم كوْنِ الله رَبّ العالمين بالتَّتبع التدبُّرِي الذي جرَّ إلى آخر حلقات سلسلة اللّوازم الفكريَّة.

وهكذا يَنْبغي أن يكون تَدَبُّر آيات القرآن المجيد ذي الذكر.

ولكن ليس الغرض من تدبُّر آيات الله مجرَّدَ التَّرَف الْعِلْمِيّ، والافتخار بتحصيل المعرفة، والتوصُّل إلى كشْفِ المعاني للتَّعالي بمعْرِفَتها واكتشافِها، إنَّما وراء الفهم غَرَضُ التَّذَكُّرِ عند المناسبات الدَّاعيات، ومَعَ التذكُّر تكون العِظَة، ويكون العمل بموجب العلم، وهذا التذكر المقصودُ لا يحظَىٰ بِهِ إلاّ أُولو الألباب، وهم أهل العقول الحصيفَة، والأذهان النظيفة، والنّفوس الشريفة. وهذا ما دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

**لبُّ الرَّجُل**: ما جُعِلَ في قَلْبِه من العقل، ولُبُّ كلِّ شيءٍ خالِصُهُ وخيارُه فالذين لا يتدبَّرون القرآن ولا يتذكَّرون ما يجب أن يتذكروه منه، ليسوا بأولي ألباب.

❁ ❁ ❁

## التدبر التحليلي للفقرة الثانية
## من الدرس الثاني من دروس السّورة وهي الآيات من (٣٠ ـ ٤٠)

قال الله عزَّ وجل:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ

بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾.

**تمهيد:**

اشتملت هذه الفقرة على مقتطفاتٍ مختزلاَت من قصّة حياة سليمان بن داود عليهما السلام، وهي معطوفة على المقتطفات المختزلات من حياة أبيه داوُد، دون أن تُستَفْتَح بعبارة: «واذْكُرْ» مثل أشباهِهَا في السّورة، لأنّ حال سليمان كحال أبيه عليهما السّلام، فكُلٌّ منهما قد آتاهُ الله المُلْكَ، وكلٌّ منهما قد خصّه الله بتَسْخِير بعض ما خلَق تسخيراً خاصًّا، وكلٌّ مِنهما أوّابٌ كثيرُ التوبة والرُّجوعِ إلى الله، وكلٌّ منهما قد امْتُحِنَ فوقع منه ما لا يَنْبَغِي أن يَقَع من مثله، وكلٌّ منهما أناب إلى ربّه مسْتَغْفِراً تائباً فغفر الله له، وكلٌّ منهما قال اللَّهُ عزّ وَجَلَّ بشأنه:

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾.

إذن فالتذكير بقصة حياة سليمان نظير التذكير بقصّة حياة أبيه داود عليهما السّلام، من حيثُ الغرضُ من هذا التذكير الموجَّهِ للرسول محمّد ﷺ للتأسّي، واختيار ما يُحِبُّ لنفسه من أحوال الرُّسُل عليهم السّلام، فكان مُجرَّدُ العطف هو المناسِبَ، لتشابُهِ مضمون القِصَّتَيْن.

وفي عبارة: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ ربْطٌ بقِصَّة داوُد، وتوطِئَةٌ لذِكْر مقتطفاتٍ من قصَّةِ سليمان تُلائِمُ الْغَرضَ مِنَ التذكير بهما.

إنّ الإنسانَ يُحِبُّ الولَدَ الوارثَ لأمْجادِه، إذْ يَشْعُرُ أنّه امتدادٌ لبَقائِه، فيُعَوِّضُ به عَنْ رغْبَته في اسْتِمْرار البقاء في هذه الحياة الدُّنيا، ولو كانَ على يَقِينٍ بأَنّه سَيَخْلُد يومَ الدين.

وَهذِهِ الرَّغْبَةُ من الفِطَر الإنسانيَّة الّتي تُلازِم النّاسَ، ولو كانوا أنبياء ومُرْسَلِين.

والإنسانُ قد يُحِبُّ أن يكونَ ولَدُهُ الوارثُ لأمجاده من الزّوجَةِ الَّتي أحَبَّها، وكان لداودَ عليه السلام أولادٌ من زوجاتٍ سابقات للمرأة الّتي تَعلَّقَتْ نَفْسُهُ بها، فتَزَوَّجها، فولَدَتْ له سليمان.

ونلْمَحُ من الدَّلالات الضِّمْنِيَّة لقَوْلِ الله تعالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ ومن استعمال ضمير المتكلّم العظيم أنّ الله جلّ جلاله وعظم سلطانه قد حقَّقَ لداود عليه السّلام الرَّغْبَتَيْن: فجعل وارِثَ الْمُلْكِ والأَمْجادِ وأهمُّها الأَمْجادُ الدينيّة مِنْ أَوْلادِه، وجعَلَ هذا الوارثَ من الزّوْجة الّتي تعلَّقَتْ بِهَا نَفْسُهُ.

وبهذه العبارة الرابطة دخَلَ الْبَيانُ بابَ الحديث عن سليمان.

**التدبر التحليلي:**

● قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾: **الهِبَةُ**: الْعَطِيَّةُ الخالية من الأعْواضِ والأغراض، يقال لغة: وهَبَ لَهُ الشّيْءَ يَهَبُهُ وَهْباً وَوَهَباً وَهِبَةً.

وعطاءات الله جلّ جلالُهُ كلُّها هِبَات، إنّه هو الكريم الوهّاب.

ومَنْحُ الذُّرِّيَّة الصالحة الماجدَةِ مِنْ أعظم هباتِ اللَّهِ لعَبْدِه.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: هذا هو عنوان البيان الآتي في السورة عن سليمان، وفيه وَصْفَانِ له:

**الوصف الأوّل**: وصف يَسْتَحِقُّ أنْ يُمْدَحَ من أجله، وهو تحَقُّقُهُ بعبوديَّةٍ لرَبِّه وهذه يَسْتَحِقُّ من أجلها أن يقول اللَّهُ بشأنه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾.

إنّ عبارةَ المدْحِ الدَّارِجةَ في اللِّسان العربيّ هي عبارَةُ: نعم الرَّجُلُ فُلان، ونحوها.

قال النحاة من علماء العربية: «نِعْمَ» فعلٌ جامدٌ لإنْشَاءِ المدح على سبيل المبالغة، أي: مع غرَضٍ تعظيم هذا المدح، وبيان أَنَّه كبير، وفاعل فعل المدح «نعم» هُنا كلمة «الْعَبْدُ» فالفاعل هنا اسم ظاهرٌ معرَّفٌ بـ «ال» الجنسيّة، وجملة المدح هذه تحتاج إلى اسم يكون هو المخصوص بالمدح، ويُعْرِبُهُ النحاة مبتدأ متأخِّراً، والجملة من «نِعْمَ» وفاعِلِه في محلّ خبر متقدّم.

لكن المخصوص بالمدح في الآية وهو لفظ «سليمان» محذوفٌ إيجازاً، للعلم به من الجملة السّابقة.

وجاء بعد ذلك في عرض مقتطفاتٍ من قِصَّةِ حياتِه مثالٌ مما استحقّ به عبارة المدح، وهو رغبتُه في إعْدَاد خيول الجهاد في سبيل الله، لنشر دين الله، واهْتِمَامُهُ بها تَدْرِيباً واستعراضاً لها، وحَثًّا على اقْتِنَائها، وهذا أَمْرٌ يستحقُّ المدْحَ المبالغ فيه.

**الْوَصف الثاني**: بيانُ أَنَّه أوّابٌ، أي: رجَّاعٌ إلىٰ الله بالاستغفار والتوبة وذِكْرِ الله، كلَّما شَغَلَتْهُ شَواغِلُ الْمُلْكِ والسُّلْطان، أو تعَرَّضَ لمَا لاَ يليقُ بمَقَامِ نُبُوَّتِه وَرِسَالَتِه، مِمَّا قَدْ يُبْعِدُهُ عن مقَامِ قُرْبِ المقربين الْمُحْسِنين، ولو كَانَ من الأعمال الّتي لا تُسْتَنْكَرُ من المتقين، ولا من الأَبْرار.

وجاء بعْدَ ذلك في عَرْضِ مقتطفاتٍ من قِصَّةِ حياتِه، مثَالٌ غامِضٌ ممَّا فُتِنَ به، أي: امْتُحِنَ به، فكان منه ما لاَ يليقُ بأمثاله من الأَنبياء والمرسَلِين، ثُمَّ أنابَ إلى ربّه، وقال: ربّ اغفِرْ لي، ولَمْ يتنازَلْ عن رغْبَتِه في مُلْكٍ وسُلْطَانٍ أوْسَعَ ممّا لدَيْه من ذلك، فَأَتْبَعَ اسْتغفارَهُ بقوله في دعائه لربّه:

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

إذن فالبدء بالحديث عن سليمان عليه السلام قد كان عنواناً مِنْ شقَّيْن.

وتفصيل الحديث عنه قد كان بضرب مِثالَيْن: فالمثال الأول مثالٌ للشقِّ الأوّل من العنوان، والمثال الثاني مثال للشِّقِّ الثاني من العنوان.

وبعد عرض المثالَيْن قال الله عزّ وجلّ بشأنه مثل قوله بشأن أبيه داود عليهما السلام: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا ما تكشفُه النظرة الكُلِّيَّةُ الإجمالية، لما جاء عن سليمان عليه السلام في هذه السّورة.

## أوّلاً: تدبُّر المثال الأول لما استَحقَّ به المدْحَ

● قول الله تعالى بشأن سليمان:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

● قرأ نافِعٌ، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر: ﴿إِنِّيَ أَحْبَبْتُ﴾ بفتح ياءِ المتكلم، وقرأ الباقُونَ بإسْكَانِها.

﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾: هو الوقْتُ من الْعَصْرِ إلى الغروب.

﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ﴾: صِفَةٌ للخيل، استُغْنِيَ بِذِكْرِها عَنْ ذكر الموصوف، الصَّافِنُ من الخيْلِ هو القائم على ثلاث قوائم، وقد أقام الرابعة على طَرَفِ الحافِرِ، أو قَلْبَ حافِرَ الرابعة، وهذه حَرَكَةٌ تفعلُها الخيْلُ عند سُكُونِها واقفةً، ولا سِيَّما عِنْدَ تَهَيُّئِهَا لِلْجَرْي.

﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جَمْعُ «الجواد» وهو الفرسُ السَّابقُ، يقال لغة: «جواد» للذكر والأنْثىٰ، ويجمَعُ «جَواد» على «جِياد، وأَجْيَاد، وأجاويد».

وقصّة هذه الحادثة الّتي ذكرها الله عزّ وجلّ بصُورَةٍ مُوجَزَةٍ مُخْتَزلَةٍ، أخذاً من دلالات البيان القرآني الدّالّ عليها في هذه السورة:

كان سليمان عليه السَّلام مولَعاً باقْتِنَاء الْخُيُولِ واستعراضِهَا، لأنَّها من أفعل الوسائل في الْعُصُور السالفة للجهاد في سبيل الله، بغيَة نَشْرِ دين الله، وقَمْع الكُفر والشِّرْكِ والْمُشْرِكين والمفسِدِين في الأرض.

وفي عشيَّةٍ من الْعَشَايا، وهي في العادة تكون بعد وقت العصر، حتّىٰ غُروب الشمس، طلب سليمانُ عَرْضَ موكب خيوله عليه، فَعُرِضَتْ عليه أَرْتَالاً، ورُبَّما رَافَقَ ذلِكَ سِبَاقَاتٌ بيْنَ بَعْضِها.

ولا بُدَّ أَنْ تَسِيرَ مارَّةً قُرْبَ مَجْلِسِهِ في اسْتِعْرَاضِها، متّجهةً في طريقها ومُنْصَرِفَةً نَائِيَةً عنه، وهِيَ مِنْ نُقَايَاتِ الخيول وجيادها، ورُبما كانت مُسْرَجَةً مُلْجَمةً علَيْها فُرْسانُها، واستمرت مَسِيرة عَرْضِ الخيول حتّىٰ اسْتَتَرَ آخِرُ أَرْتَالِهَا عن نَظَرِه، انْعِرَاجاً ذاتَ الْيَمِينِ أو ذاتَ الشّمال، أو هبوطاً في طريقٍ نَازِلَةٍ، أو نحو ذلك.

وشعَرَ سليمانُ عليه السَّلامُ وهو يسْتَعْرِضُ خُيُولَهُ، أنَّه ابْتَهَجَ بهذا المشْهَدِ الرائع، وسُرَّ به، وخَافَ أَنْ يكونَ قد مالَ إلى مباهج الحياة الدُّنْيا، ورغبَةِ الْعُلُوِّ في الأرض، وخافَ أَنْ يَفْهَمَ شَعْبُه ذلك عنه، فقال لحاشِيَتِه والنَّاسِ مِنْ حَوْله: إِنّي أَحْبَبْتُ اقْتِنَاءِ جِيَادِ الخيُولِ وَتَدْرِيبَها واسْتِعْراضَهَا حُبَّ الْخير، أي: لاَ حُبَّ التَّفَاخُر والتَّعَاظم والْعُلُوِّ في الأرض الّذِي لا يَلِيقُ بأهل الْقُرْبِ من الله جَلَّ جَلاَلُه، وهذا الْخَيْرُ هو الجهادُ في سبيل الله لنشر دين الله وإعلاء كلمته.

وهذا الحبُّ الّذي أحْبَبْتُه للخُيُولِ ناشيءٌ وصادرٌ عن ذِكْرِ رَبِّي، لا عن انْشِغَالِ نَفْسِي بمباهج الحياة الدنيا وزينَتِهَا وَمَفَاخِرِها.

ثمّ طَلَبَ من أُمَرَاءِ سَاسَةِ الخيُولِ أَنْ يَرُدُّوها عليه، فَرَدُّوها، فلَمَّا وَصلَتْ إلى مكان الْعَرْضِ قافلةً، قامَ من مجْلِسِه ونَزَل إلى طريق الْعَرْضِ، وأَخَذَ يُعبِّرُ عن تكريمه لها إشعاراً بتكريم الغايةِ منها، فجعل يَحْنِي ظَهْرَهُ تواضُعاً فَيَمْسَحُ بِسُوقِها، ويُقيمُ ظَهْرَهُ فيَمْسَحُ بأعْنَاقِها.

أمّا ما ذكَرَهُ بعْضُ أهْلِ التأويل حوْلَ هذه الحادثة، فليس لهم فيه خبَرٌ مرفوع إلى الرسول محمّد ﷺ، بلْ فيه إشْكَالاَتٌ فكرِيَّةٌ لا تتلاءَم مع سُمُوِّ هذا النّصّ القرآنيّ الجليل، وفيه نِسْبَةُ تَرْكِ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ صَلاَةَ الْعَصْرِ مِنْ أجْلِ اسْتِغْرَاضِ خُيُولِه حتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، بِدُون دليلٍ عن الرسول ﷺ، وفيه أنّه عَقَرَ الخيولَ وقتَلَها لأنَّها شَغَلَتْهُ عن صَلاةِ الْعَصْرِ دُون دليل أيضاً، وفيه اعتبار المثلَيْنِ وَارِدَيْن لِشِقٍّ أنَّهُ أوَّابٌ من العنوانِ المشتَمِل على شِقَّيْنِ، وهذا ممَّا يَنْبُوا عنه أسْلُوبُ البيان القرآنيّ الرفيع السَّامِيّ.

وهل في غَضَبِه وعَقْرِ الْخُيُول وقَتْلِها فضيلَةٌ تكَفِّرُ عن خطيئَةِ تأخير الصلاة عن وقتها، وما ذَنْبُ الخيولِ وهي ذوات أثمانٍ باهظة، وتُعَدُّ للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله.

إنّه لأمْرٌ مستَنْكَرٌ أن يُورد بعض أهل التأويل هذا الْوَجْهَ الذي لا دليل عليه.

لكلّ ما سَبَقَ كان الالتزام بما في النّصّ من دلالاتٍ لا تَكَلُّفَ فيها، ولا تحتاج إلى تأويلاتٍ غير مُسْتَسَاغات، هو الأحْرىٰ بأَنْ يكُونَ عُمْدَةَ التَّدَبُّرِ الأَمْثَلِ لِكِتَاب اللَّهِ عزّ وجلّ، والله أعْلم.

وخلاصة ما يدُلُّ عليه النَّصُّ هو ما عَرَضْتُه من قصَّةِ هذه الحادثة التي ذكَرَتْها الآيات من (٣١ ـ ٣٣) فلنتَدَبَّرْ هذه الآيَات تَدَبُّراً تحليليًّا:

● ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾:

﴿إِذْ﴾: ظَرْفٌ لزَمَنٍ مَاضٍ، وهذا الظَّرْفُ مضاف هُنَا إلى الجملة الَّتي بَعْدَه، أي: حينَ عَرْضِ الصَّافِنَاتِ الجيادِ عليه بالعشيّ.

والمعنى: نِعْمَ العبْدُ سليمانُ حينَ عَرْضِ الصَّافِنَاتِ الْجِيَادِ عَلَيْهِ بالْعَشِيّ، وكان منه ما كان من تكريم لأهَمّ وسائل الجهاد في سبيل الله يَوْمَئِذٍ، وتَصَرُّفٍ نَاشيءٍ عن ذِكْرِ رَبّه، وناشيءٍ عن حُبِّهِ لِلْخَيْرِ ابتغاءَ مَرْضَاة ربّه.

أو: اذكُرْ مثالاً من أمْثِلَةِ مَدْحِهِ بعبارة «نِعْمَ الْعَبْدُ» إذْ عُرِضَ علَيْهِ بالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجياد.

**الْعَرْضُ في اللّغة للجُنْدِ أو الخيُولِ ونَحْوِهَا:** هو إمْرَارُهم واحداً فواحِداً، أو صَفًّا فصَفًّا، ثُنَائِيًّا أَوْ ثُلاَثِيًّا أَوْ أكْثَر، للمشاهَدَة والتَّفَقُّد.

- ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي... ﴿٣٢﴾﴾:

أي: فقال: إنّي أحْبَبْتُ اقْتِنَاءَ الخيلِ، وتَرْبِيَتَها، وتَدْرِيبَهَا، واسْتِعْرَاضَهَا، حُبَّ الْخَيْرِ، وهذَا الخير هو الجهاد في سبيل الله، لإعْلاء كَلِمَته. أيْ: لا حُبَّ التَعَاظُمِ والتَّفَاخُرِ بها، وحُبَّ الْعُلُوِّ في الأرض.

إنّه لو كان حبُّهُ لِلْخَيْلِ حُبَّ هذه الأمور من زينَةِ الحياة الدّنيا، لكان أمْراً غَيْرَ مَحْمُود، وغَيْرَ لائِقٍ بمقام النُّبُوّةِ والرّسالة.

وكلمة «حُبَّ» من عبارة «حُبَّ الْخَيْر» منصوبَةٌ على أنّها مفْعُولٌ مُطْلَقٌ، مُبيِّنٌ لِنَوْعِ عامله.

أي: إنَّ حُبَّهُ للخَيْلِ هو من نَوْعِ حُبّهِ للْخَيْر، وهو الجهادُ في سبيل الله لإعلاء كلمته، لا من نَوْعِ حُبِّ زِينَةِ الحياة الدُّنيا، كالتفاخُرِ، والتباهي، وابتِغاء العلُوّ في الأرض.

﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾: حرف الجرّ «عَنْ» هنا في هذه العبارةِ يَدُلُّ على العامل المحذف الذي يقتضيهِ المعنى، أي: حُبًّا ناشئاً أو صادراً عَنْ ذِكْرِ رَبِّي.

ويُمْكِنُ حَمْل حرف «عَنْ» هُنا على معنَىٰ التعليل والسببيَّة، أي: بسبب ذِكْرِي رَبِّي، أو لأجْلِ القيام ببعض واجباتِ ذِكْرِي لِرَبِّي.

«عن» في اللّغة يأتي بمعنى «المجاوزة» وهذا المعنى يلائمه أن نقول فيه: ناشئاً أو صادراً عَنْ ذِكْرِ رَبّي. ويأتي بمعنى التعليل، وهذا المعنى

يلائمه: بسبب ذِكْري رَبّي، أو لأجْلِ القيام ببعض واجبات ذكري لِربِّي.

• ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾: أي: حتّىٰ توارَتْ أَرْتَانُ الْخَيْلِ بالحجاب.

**توارَتْ**: أي: اسْتَتَرَتْ.

**بالْحِجَابِ**: الحِجَابُ هُوَ الشيءُ السَّاتِرُ أيًا كان، ويُطْلَقُ الْحِجَابُ على ما أَشْرَفَ مِنَ الْجبلِ.

والمعنى: كان تواريها بِسَبَب الحجابِ السَّاتِرِ، لا بسبَبِ الْبُعْدِ الزّائِدِ الذي تختفي فيه الأشخاصُ عن الأعين.

• ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

• ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾: أي: قال سُلَيمانُ عليه السّلام لأمراء ساسة الخيْلِ، بَعْدَ أَنْ توارَتْ عَنْ نَظَرِهِ بالحجاب في آخر العرض: رُدُّوهَا عَليَّ.

ولعلّه استعمل عبارَةَ ﴿عَلَيَّ﴾ دون عبارة «إليَّ» للإشارة إلى أنّها انطَلَقَتْ مِنْ مَكانِ استعراضه لها في طريقٍ صاعِدَةٍ، ثم توارَتْ في منْعَطَفِ جَبَلٍ، أو في طريقٍ نازِلَةٍ، فكان المناسِبُ أن يَقُولَ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ لأنَّها متَىٰ ظَهرَتْ مُقْبِلَةً من مَكانِ احْتِجَابِها أقبلَتْ عَلَيْه مِنْ عُلوّ.

• ﴿.. فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾:

**طَفِقَ**: من أفعال الشروع، أي: شَرَعَ يمْسَحُ مُتابعاً عمَلَهُ.

وأفعال الشروع تعْمَلُ عملَ «كَانَ» فَتَرْفَعُ المبتَدأ وتَنْصِبُ الخبر، إلاّ أن خَبَرَهُنَّ يَجِبُ أن يكونَ جُمْلَةً.

واسْمُ «طَفِقَ» هُنَا ضَمِيرٌ يَعُودُ علىٰ سليمانَ عليه السَّلام، وخَبَرُهَا جملَةٌ محْذُوفه، دلَّ عليها المفْعُولُ المطْلَقُ الباقي منها، وهو كَلِمَةُ ﴿مَسْحًا﴾ والتقدير: فطَفِقَ يَمْسَحُ مَسْحاً بالسُّوقِ والأَعْنَاق.

**السُّوق**: جَمْعُ «سَاقٍ» وهو من الحيوان ما بَيْنَ الرُّكْبَةِ والْقَدَم. وقراءةُ «قُنبُلٍ» عن «ابْنِ كَثِير»: [**بالسُّؤْقِ**] و [**بالسُّؤوقِ**] لُغَةٌ من لُغَاتِ العرب، قاعِدَتُها هَمْزُ كُلِّ واوٍ ساكنة قَبْلَها ضمَّةٌ[(١)].

**الأَعْنَاق**: جمع «عُنُق» وهو الواصِلُ ما بين الرأس وسائر الجسد، «ال» في كَلِمَتي السُّوقِ والأعناق هي «ال» التي تأتي بدلاً من الإضافة، أي: في سوقِها وأَعْنَاقِها.

دلَّ مَسْحُهُ سُوقَها على تواضُعِهِ، إذْ كان يَحْنِي لِذَلِكَ ظَهْرَه.

هذا هو النصّ، وهذا ما دَلَّت عليه فقراته، ولا داعيَ بَعْدَ هٰذَا لاتّباع رواياتٍ لَمْ يُرْفَعْ شَيْءٌ مِنْهَا إلى الْمَعْصُوم، وهي لا تليق بمقام النبوَّةِ ومقام الرِّسالة، مع التكلُّفِ في حَمْلِ النَّصِّ علَيْها.

## ثانياً: تدبُّرُ المثالِ الثَّانِي مِنْ أَمْثِلَة وَصْفِ سُلَيمَان عليه السَّلاَمُ بأنَّهُ أَوَّابٌ

● قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَتَنَّا﴾: قال أهْلُ اللُّغَةِ: الفِتْنَةُ تَرْجِعُ إلى معنى الابتلاءِ والامْتِحَانِ والاخْتِبَارِ، في مختلِفِ الاستِعْمَالِ الأَصْلِيّ لمادّة هذه الكلمة، ومشتَقاتها.

ولَمَّا كانت معادنُ الذَّهب والفِضَّةِ ونَحْوِها إذَا أرادَ فَاحِصُوهَا امْتِحانَها لِمَعْرِفَةِ جَيِّدِها من رَدِيئِهَا، أَوْ أرادوا نَفْيَ خبثها، أذابُوها بالنّار، أو أَحْمَوْها بها، حتَّىٰ تكونَ كُتْلَةً جَمْرِيَّة، وبهذا يَنْكَشِفُ لهم الجيِّدُ من الرّديءِ، ويَمْتَازُ

---

(١) ذكر هذه القاعدة أبو حيّان الأندلسيّ في تفسيره: «البحر المحيط».

الْخَبَثُ فَيَعْزِلُونه، ويَصْطَفُون الخالص من المعدن، ومن هذا أطْلَقَ العرَبُ لفظ «الفِتْنَةِ» ومشتقاتها على الإحراق بالنار، أو العرض على النار، سواءٌ أكان للاختبار والامتحان، أم كان للتعذيب والإكراه على فِعْلِ أمْرٍ أو تَرْكِ أمْرٍ.

ولمَّا كانَتِ الأشياءُ المحبُوبَةُ المرْغوبَةُ للنفوس إذا امْتُحِن الإنسانُ بها مَالَ إلَيْها، وتَعلَّقَ بها، كالنّساء والأموال والْبَنِين، فتنكَشِفُ بالامْتِحانِ اسْتِقَامَتُه، أو مَيْله وعَجْزُهُ عن المقاومة، أطْلَقَ الْعَربُ علَيْها أنَّها فِتْنَة.

وكذلك الأشْيَاء المكروهةُ الّتي تَنْفِرُ النفوسُ مِنْها، وتَمِيلُ عَنْها، تُسمَّىٰ «فِتْنَةً» أيضاً، باعتبارها من الأشياء التي يحصُل بها الامتحان.

وأطْلَقَ العربُ «الفتنةَ» على مُجَرَّدِ المَيْلِ والإعجاب. وقالوا: «فُتِنَ فُلَانٌ» إذا ذهَبَ عَقْلُه بالشيء الذي فتَنَهُ فمالَ إليه.

وقالوا: فُتِنَ فُلَانٌ، وافْتُتِنَ، وافْتَتَنَ، إذا لم يصْمُدْ في الامتحان، بل سقَطَ فيه، ولَمْ تَظْهَرْ من مَعْدِنِه القوَّةُ ولا الاستقامة تُجاهَ ما امْتُحِنَ به.

فبالتوسُّع أُطْلِقَتِ الفِتْنَةُ ومشتقّاتُها على وسيلة الامتحان، وعلى العرض على النار، وعلى الإحراق بها، وعلى السُّقُوطِ في الامتحانِ وعدم النجاح، وهو من إطلاق السَّبَب على المسَبَّب، أو من إطلاق الوسيلة على إحدى الغايتين فقط، وهي السقوط والْخَيْبَة.

فمعنَى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾: ولَقَدِ امْتَحَنَّا سُلَيْمَانَ واخْتَبَرْنَاهُ وابتلَيْنَاهُ، وجاء التأكيد بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾ لِدَفْعِ تَوهُّمِ أنّ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ لاَ يُمْتَحَنُونَ بسبب العِصْمَةِ الّتي عَصَمَهُمُ الله عزّ وجلّ بها، بل يُمْتَحَنُونَ بشِدَّةٍ، ولكِنْ في حُدُودِ مرتَبَتَي الأبرار والمحسنين، لاَ في حُدُودِ مَرْتَبةِ المتّقِين، إذْ هم في حُدُودِ مرتَبَةِ المتقين مَعْصُومون، وعلى النّاس أن يتأسَّوْا بِهِمْ فيها.

فلا بُدَّ أنْ يكونَ امتحانُ سُليمانَ عليه السَّلام، بما تكونُ مقاوَمتُه فيه أضعف المقاومات في كيانه، مع أنّه شديدُ المقاومة بوَجْه عامٍّ في سائر أُمورِه، لاصطفاء الله له بالنُّبوَّةِ والرّسالة.

ومن دراسة تاريخِ حياته عليه السّلام، نَجِدُ أنَّ احْتِمَالَ ضعف مقاومته يَتردَّدُ بيْنَ أمْرَين:

**الأمْرُ الأول:** رغْبَتُهُ فِي النّسَاء، وقُدْرَتُه النَّادِرَةُ أو الْفَرِيدة على الجِماع.

فقد ثبت في صحيح البخاريّ أنَّ سُلَيْمانَ عليه السّلام طافَ في إحدى لياليه على تِسْعِين امرأةً من نسائه، رجَاءَ أن يَحْبَلْنَ منه جميعاً في تِلْكَ اللّيلة، فيأتين بِفُرْسَانٍ يُقَاتِلُونَ في سبيل الله، ولم يقُلْ: إنْ شاء الله، فلم تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إلاّ امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشِقّ رَجل.

قال رَسُولُ الله ﷺ:

«وَايْمُ الّذِي نفسُ محمّد بِيَدِهِ لَوْ قَالَ: إنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فُرْسَاناً أَجْمَعُونَ».

وفي عَدَدِ النّسَاءِ اللاَّتي قال سُلَيْمانُ لأَطُوفَنَّ اللّيلَةَ بِهِنَّ روايات، كلُّها في الصحيح، فهنّ «مائةٌ، أو تِسْعُونَ، أو سَبْعُونَ، أبو سِتُّون» والله أعلم، وقُدْرَتُه على يَطُوفَ علَىٰ سِتّينَ زَوْجَة في لَيْلَةٍ واحِدَة، عَجَبٌ عُجَابٌ في قُدْراتِ الرّجال.

وجاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأوّل عند أهل الكتاب:

«٣ ـ وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِي، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ».

ويفترِي الإسرائيليون على سليمان عليه السَّلام أكاذيب حول مَيْله لآلِهَةِ نِسَائِهِ الْوَثَنِيَّات، تأثُّراً بمَيْلِهِ لِمَنْ أحبَّ مِنْهُنَّ.

**أقولُ**: فلعَلَّ امْتِحَانَ سُلَيْمَان عليه السَّلامُ مِنْ جِهَةِ من أَحبَّ مِنْ نِسَائِهِ الْوَثَنِيَّاتِ، أنَّه لم يشْتَرِطْ عَلَيْهِنَّ الإِسْلاَمَ وإلاَّ طَلَّقَهُنَّ، وهذا يلْزَمُ منْهُ الرِّضَا ببَقَائِهِنَّ وثنيَّاتٍ يَعْبُدْنَ أَوْثانَهُنَّ وهُنَّ على عِصْمَتِه.

ومثلُ هذا الأمْرِ إنْ جاز من آحَادِ المؤْمِنينَ المسلمين، بالنسبة إلى شريعة أهل الكتاب، فإنَّه أَمْرٌ لا يَليقُ بمقامِ نبيٍّ رسولٍ مثْلِ سليمان عليه السلام، وهذا مِنْ مِثله يحتاج إلى إنابة إلى الله تعالى واستغفار، لأنّ واجبات أهْلِ مرتبةِ الإحسان فَوْقَ واجباتِ أهل مرتبة البرّ، وواجباتُ أهْلِ هَاتَيْنِ المرتَبَتَيْن فوق وَاجباتِ أهْلِ مرتبة التقوىٰ.

**الأمر الثاني**: حُبُّهُ لِلْمُلْكِ والسُّلْطان، وهذا ظاهرٌ ممَّا في القرآن المجيد عنه، إذْ جاء في النّصّ الّذي نتدبَّره دُعَاؤُهُ لِرَبّه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

وقد نُعَلِّل هذا الْحُبَّ برَغْبَتِهِ في نُصْرَةِ دِين الله عن طَريق الْمُلْك.

ولكن كيف كان امتحانُ سُلَيْمان عليه السلام في هذا الأمْر الّذي قد تَضْعُفُ مقاوَمَتُه تُجاهَهُ، إذا تعرَّضَ فيه لشيءٍ يخْشَى منْهُ أنْ يكون سبباً في انْتِزَاعِ مُلْكِه منه؟.

جاء في سفر الملوك الأوّل من كتب أهل الكتاب الإصحاح (١١).

(١٤) وَأقَامَ الرَّبُّ خَصْماً لسُلَيْمانَ «هَدَدَ الأدُومِيّ» كان من نَسْلِ الملِكِ في «أدُوم».

(٢٣) وأقَامَ اللَّهُ لَهُ خَصْماً آخَرَ «رَزُونَ بْنَ أَلِيدَاعَ».

وجاء فيه أنَّ يَرُبْعَامَ بْنَ نَابَاطَ الأفْرَايِيميّ قَامَ ضِدَّ سُلَيْمانَ لِيَنْتَزِعَ مِنْهُ

الْمُلْكَ، وحَاوَلَ سليمانُ قَتْلَه، إلاَّ أَنَّ «يَرُبْعَامَ» هَرَبَ إلى «شِيشَق» مَلِكَ مِصْرَ يَوْمَئِذٍ، وَبَقِي فِي مِصْرَ إِلَىٰ وَفَاةِ سُلَيْمَانَ.

قد يُشيرُ هذا التاريخ إلى نَوْعِ امتحان الله عزّ وجلّ لسليمان عليه السّلام في مُلكِه الّذي له شغفٌ به.

● قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا . . . ﴿٣٤﴾﴾.

تُشِيرُ هٰذِه العبارة إلى حادِثَةٍ أجْرَاها الله عزّ وجلّ لسليمان عليه السَّلام تتعلَّقُ بكُرْسيِّ مُلْكِهِ، وإشْعَارِهِ بإبعادِه عَنْ مُلْكِه، لاختبار حالَتِه النفسيَّة مع رَبِّه خِلاَلَ هذِه الحادثة، الّتي قضىٰ الله عزّ وجلّ أن تكونَ عَرَضاً طارئاً، لكنَّهُ لَمْ يَكُنْ يعْلَمُ بأنّه عرضٌ طارئٌ.

والاختبار قد كان بإلْقَاء جسَدٍ في صورة سُلَيْمانَ على كُرْسِيّه، في سَاعَةٍ كان يقضي فيها بعض حاجاته الخاصَّة بَعِيداً عن كُرسيِّ مُلْكِه، فلمَّا رجَع إليه وجَدَ هذا الّذِي هو على صُورَته جالساً عَلَيْه بِلِبَاسِ الْمُلْك، والنّاسُ والحاشيةُ والأَجْنادُ يأتَمِرُونَ بأمْره، وهم يَعْتَقِدُونَ أنّه سليمان.

وجاء في الروايات أنّه جنّيٌّ، وأنّه استطَاع أنْ يحْتَالَ حتَّىٰ أخَذَ خَاتَمَ مُلكِهِ الَّذِي جعلَ الله فيه سِرَّ الْمُلْكِ، وجَلَسَ على كُرْسِيّ مُلْكه أرْبَعِين يوْماً، كانَ سُلَيْمانُ خِلاَلَها يَعْمَلُ كآحادِ النّاس لكَسْبِ طعامه بالخِدْمَة، حتَّى سقَط خاتم سليمان من الجنّيّ في البحر، فابتلَعَتْه سمكَةٌ، ووقعَتْ هذه السَّمَكَةُ في شَبَكِ بعْضِ الصيادين، وقضىٰ الله أنْ تَصِل هذه السَّمكَةُ إلى سُلَيْمانَ عليه السلام، فَشَقَّ بطْنَها فوجَد خاتمه، فعادَتْ له هيْبَتُه ومُلْكه.

**أقول:** لا نَجِدُ دَاعِياً لتصديقِ هذه الرّوايَاتِ الّتي لا تستَنِدُ إلى خَبرٍ عَنِ المعصوم، فَمِنَ الْعقْل والرُّشْدِ والحِكْمَةِ أن لا نعبأَ بها، وأن نقتَصِر على ما دَلَّ عليه النَّصُّ القرآنيُّ، وما يَقْتَضِيه من لوازم.

إنّ تَسْمِيَةَ الّذِي أَلْقاه الله عزّ وجلّ على كُرْسِيّ سليمان عَلَيْهِ السَّلامُ

جَسَداً، يَدُلُّ علىٰ أنَّهُ لاَ يأكُلُ ولا يُعَاشِرُ النِّسَاء، فهو ليس جِنِّيًا، لأنّ الجنّ كالإنْسِ يأكُلون ويَشْربون ويُعَاشِرُون النِّساء، ولَيْسَ وَثَناً، لأَنَّهُ لو كان وثناً أو دُمْيَةً لاكْتَشَفَ سُلَيْمَان أَمْرَهُ سَرِيعاً، ولَمَا كان في الأمْرِ اختبارٌ له.

وفي معرض طلب المشركين أن يكون الرَّسُولُ مَلَكاً مُعْتَرِضِينَ على بَشَرِيَّتِه، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بعد بيان أنَّ الرُّسُلَ جَمِيعاً رِجالٌ يُوحي الله إليهم:

﴿وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ... ﴿٨﴾﴾.

وهٰذا يَنْطبِقُ على الملائكة، فَهُمْ أجْسَادٌ نُورانية، لا يأكلُونَ الطعام، وليس لهم سائر الصِّفات الحيوانيّة البشرية، لكنَّهُمْ مخلوقات نورانيّة، قد يتشكَّلُونَ بالأشكال الجسَدِيّة بقدرات أعطاهم الله عزّ وجلّ إيَّاها.

فالظاهر من كون الله تبارك وتعالى ألقاهُ على كرسِيِّ سليمان، ومِنْ تسميَتِه جسداً، أنَّهُ مَلَكٌ أنزله الله بأمْرِه، فتشكَّلَ جسداً على صورة سُلَيْمان، وتَمَّ به امْتِحانُ سُلَيْمانَ في خُصُوصِ كُرْسِيِّ مُلْكه، ولا أحَدَ من النَّاسِ غَيْرُ سليمان يدري بالأمر.

ولسْنَا بحاجَةٍ بعْدَ هذا لمعرفةِ تفصيلاتِ رجْعَةِ كُرْسِيّ الْمُلْكِ إليه، وإنْهَاءِ حادِثَة الامتحان، ويكْفِي أنْ يَنْصَرفَ هذا الجسَدُ عنه، ليَجِدَهُ سليمان عليه السّلام فارغاً، فيلْبَسَ لِبَاسَ الملْكِ كَعَادَته، ويَجْلِسَ علَيْه في الأوْقَات الّتي اعتادَ أن يجْلِسَ عليه فيها.

● قوله تعالى: ﴿...ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾: يَدُلُّ علىٰ أَنَّهُ قَدْ مَضَتْ مُدَّةٌ عَلَىٰ سُلَيْمانَ كَانَ فيها هائماً شارداً، حتّىٰ أنابَ إلى ربِّه، واستَغْفَر، فغفر الله لَهُ، فأعَادَهُ إلى ما كَانَ عَلَيْهِ من الْمُلْكِ والسُّلْطان.

لقد أَدْرك سليمانُ عليه السّلامُ بعْدَ مُدَّةٍ أنَّهُ ارتَكَبَ بَعْضَ أخْطَاءٍ لا تليقُ بمِثْلِه وهو نَبِيٌّ ورسُول، وأنّه كان يَنْبَغِي له أنْ يُحَافِظ على كمالِ مَرْتَبة

المحْسنين المقرّبين، ولا يَنزِلَ في بعْضِ أعْمالِه وتَصرُّفاتِهِ إلى مَرْتَبةِ الأبْرَار أو المتقين، فأنابَ إلى رَبّه.

وهذه الإنابة القلبية الّتي أنابها منْ أعْمَاقِ كِيانِه، رافقَها أنْ صَرَفَ اللَّهُ الشّبيه من الملائكَةِ المتَجسِّدَ على مِثَالِ صورة سليمان، وعادَ سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلام إلى كُرْسِيِّهِ مَلكاً، والناس لم يَعْرِفوا شيئاً، لأنَّهم لم يُفرِّقُوا بَيْنَ الشَّبيه الْمُماثل والأصل، إلاّ أن زَوْجاته رُبّما استَنْكَرْتَ أنَّهُ انْقَطَعَ عنْهُنَّ وهُوَ المولَعُ بالنِّساء.

وإذْ أنابَ سليمانُ عليه السَّلام إلى ربّه إنابَةً صَحيحةً صادقَةً، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾.

وأدْرَكَ أنّ الْمُلْكَ عُرْضَةٌ للسَّلْب بطَرْفَةِ عَيْنٍ متىٰ شاء الله سَلْبَه، وهو يَعْلَمُ أنَّ الملْكَ بيَدِ الله يُؤتيه من يشاءُ، ويَنْزِعُهُ مِمَّنْ يشاء، فأتَمَّ دُعاءه لربِّهِ قائلاً:

﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾.

أي: وهَبْ لي مُلْكاً لاَ أُسلَبُه في حياتي، ولاَ يَنبَغِي مِثْلُه لأَحَدٍ مِنْ بَعْدي، فدلّتِ عبارة: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ على الأمْرين معاً، أمّا أحَدُهما فَبِصَريحِ اللَّفظِ، وأمّا الآخرُ فبِلاَزمِهِ الذّهني، لأنّه إذا كان لا ينبغي هُو أو مثْلُه لأحَدٍ مِنْ بَعْدِ حياته، فرغبتُه في بقاء مُلْكِه له طَوال حيَاتِه مُضَمَّنَةٌ في الدُّعاء لزوماً ذهْنِيًا، ومن «بَابِ أَوْلَىٰ» فلا داعيَ لِحَمْلِ العبارة على أحدهما فقط: إذِ الآخرُ مفهومٌ بدلالة اللُّزوم الذهنيّ كما ذَكَرْت.

وبناءً على المعنَىٰ الّذي يَدُلُّ علَيْه منْطُوقُ اللَّفظ تَرَكَ الرَّسُول محمَّدٌ ﷺ الْعِفْريتَ من الجِنّ الّذي أمكنَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ منه، لئلاّ يُشارِكَ سُلَيْمانَ عليه السّلامُ ببَعْضِ خصائص مُلْكِه في التَّسلُّط على الجنّ، فيتَوهَّمَ النّاسُ عدمَ تفرُّدِ سليمان بمَا خصَّهُ الله به.

روى البخاري عن أبي هريرة، أنْ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ عِفْرِيتاً مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ ـ أَوْ كَلِمَةً نَحْوها ـ ليقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ، فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَىٰ سَارِيَة مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّىٰ تُصْبِحُوا وتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ . . ﴿٣٥﴾﴾»[1].

قال رَوْح أَحَدُ رُواة الحديث في روايته له: «فَرَدَّهُ خَاسِئاً».

يقال لغة: **لاَ يَنْبَغِي لَه**: أي: لا يَسْهُلُ له وَلاَ يُطَاوِعُهُ، ولاَ يَتَيَسَّر له. أو لا يَصْلُحُ هوله، ولاَ يكُونُ بَيْنَهما تلاَؤُمٌ أَوْ قَبُول، أو لا يَلِيقُ به.

● ﴿. . إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾:

«**الْوَهَّاب**» من صيغ المبالغة لاسم الفاعل «واهب». **والهبة**: الْعَطِيَّةُ الخالية من الأعواض والأَغْراض. يقالُ لغة: وهَبَ لَهُ الشَّيْءِ يَهَبُهُ وَهْباً وَوَهَباً وهِبَةً فَهُوَ واهبٌ ووَهَّابٌ وَوَهُوبٌ ووَهَّابَةٌ.

● ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

● وقرأ أبو جعفر «الرِّيَاحَ» بالجمع.

أي: فغفَر اللَّهُ له ما كان مِنْهُ مما لا يَلِيقُ بمقام أهْل مَرْتَبة الإحسان، واستجاب دُعَاءَه بعظَمَةِ رُبِيَّتِه وقُدْرَته على ما يشاء، فثَبَّتَ له مُلْكَهُ طَوال حياته، ووهَبَ لَهُ مِمَّا طلَبَ مِنْ مُلْكٍ زائِدٍ عَلَىٰ ما كَانَ لَدَيْهِ مِنْهُ سُلْطَاناً على الريح ذاتِ الأنواع، فهي رياح بحسَب أنواعها، رِيحٌ بحَسَبِ جِنْسِها، وسُلْطَاناً على الشياطين.

(١) انظر فتح الباري رقم الحديث (٤٨٠٨).

**التسخير**: تذليل الشيء لعملٍ مَا، أَوْ لأمْرٍ مَا، وجَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ به ضِمْن قانون تسخيره، وهذه المطاوعة قد تكون بالطبع، كتَسْخِير الأشياء، وقَدْ تكونُ بالْقُوَّةِ مع التذْليل، كتسخير الْعَجْماوات للناس، وقَدْ تكونُ بالاختيار الحرّ لِمَا في المطاوعة من مصلحةٍ للمطاوع، كتسخِير بعض الناس لبعض الناس بإراداتهم الحرَّة.

وتسخير الله عزّ وجلّ الريح لسليمان عليه السَّلَام، وتسخير الشَّياطين له فضلاً عن سائر الجنّ، قد كان بمَنْحِه قُدْراتٍ خاصَّةً، يستطيع بها التَّسَلُّط على ما سخّر الله له.

وبهذا التسخير الرَّبَّانِيّ صارت الرّيحُ تتحرَّكُ بأمْره، وصَارَتِ الشَّياطين تُطيع أَمْرَهُ، فتقومُ بما يأمُرُها به من عَمَلٍ يَدْخُلُ في قُدْرَاتِها، ومَنْ يَعْصِي منهم اسْتَطَاعَ أن يَسْجُنَهُ، ويُقَيّدهُ بالسَّلاسل القادرة على الإمساك به مُقَيَّداً سَجِيناً، وعُرْضَةً للتَّعْذِيب الْمُهِين.

- ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿رُخَآءً﴾: أي: ليّنَةً، وهٰذِه لا تكون شديدةً قاصِفَةً ولا عاصفة ولا حَاصِبَةً، بل هي ليّنَةٌ لا تُزْعِجُ ولا تؤذي.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾: أي: حيْثُ قَصَدَ وأرَاد، والصَّوْبُ الجِهَةُ، والمعنى: تجري الرّيح بأمْرِ سُلَيْمَانَ إِلَىٰ الجهة الّتي أراد.

ولعلَّ في اخْتِبار كلمة «أَصَابَ» إشارةَ إلى أنّه قَدْ وُجّهَ لاستخدامها مُتَحرّياً الصَّوابَ في التصرُّفِ بتوجيه الرّيح.

وجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أنّ الريح العاصفة قد سُخِّرَتْ له أيضاً، وفي قراءة أبي جعفر [**الرِّياح**]. (انظر الآية: ٨١)

- ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: وسَخَّرْنَا لَهُ الشَّيَاطين بسُلْطانٍ جعلْنَاه له عليهم، فَهُوَ يَسْتَخْدِم من يشاءُ منهم في بناء القصور والْقِلَاعِ الحصينة، ويستَخْدِمُ من يشاء منهم في الغوص في البِحَار، ليسْتَخرجوا له من كنُوز البحر وجواهره ما يريد.

وقد جعل الله له سُلْطاناً على الْعُصَاة منْهُم، فيُقَيِّدُهُمْ في الأَصْفَاد، ويُؤَدِّبُهم بالإِذْلاَلِ والتَّعْذِيب، وهُمْ من مَرَدَةِ الجنّ.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾: الشياطين جَمْع شَيْطَانٍ، على وزن «فَيْعَال» من فعل «شَطَنَ» أي: بَعُد. والشيطان في اللّغة: كُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ من الجنّ والإِنْسِ والدَّواب، وهو اسم جنس يقَعُ على كلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ متمرّد مُفْسدٍ من الجنّ والإنس.

يقال لغة: شطَنَ يَشْطُنُ شَطْناً، وهذا الفعل يأتي بمعنيين:

الأوّل: بمعنى بَعُدَ، تقول شَطَنَ عنه، أي: بَعُد، وأشطنَهُ أي: أبْعَدَهُ.

**الثاني**: بمعنى شَدَّ بالشَّطَن، وهو الحبْل الذي يُشْطَنُ به الدَّلْوُ في البئرِ، ويجْمع على «أشْطَان».

ولمَّا كان الشيطان اللّعين بعيداً عن الحقّ، ومُبْعِداً عنه بالوسوسة والإغراء والإغواء، وكانت له «أشْطَان» أي: حبائل للإغواء، كان حَرِيًّا بهذا الاسم.

والشياطين المسخّرة لسليمان هم شياطين الجنّ، فهم الّذِين خَصَّ الله عزّ وجلّ سليمان عليه السلام بالتسلُّط عليهم، فيسْتَخْدِمُ فريقاً منهم ذوي مهارةٍ في العمران وقُدْرَةٍ عليه في البناء، ويَستَخْدِم فريقاً آخر منهم ذوي مَهَارَةٍ وقدرة على الغوص في البحار، فيكلّفهم الغوص ليستخرِجُوا له ما في البحار من كنوز، ومن عَصَاه منهم قيّده بالسّلاسِل وسجَنَه، ووجّه له عذاباً مُهيناً.

﴿كُلَّ بَنَّآءٍ ﴾: بنَّاء: صيغة مبالغة لاسم الفاعل من بَنَىٰ يَبْنِي فهو بانٍ، والمراد أنَّه شديدُ القدرة على البناء ماهرٌ فيه و ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ ﴾ بدَل من [**الشَّياطِين**] بدَلُ بعْضٍ مِن كلٍّ.

﴿وَغَوَّاصٍ ﴾ غوّاص: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل من غاصَ يغُوصُ فهُوَ غائصٌ. أي: وكُلَّ غوَّاصٍ مِنَ الشَّيَاطين في البحار.

● ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾: أيْ: مَشْدُودِينَ فُرَادَىٰ أو مُقْتَرِنين في السَّلاسِل والأغلَالِ.

**الْقَرَنُ**: الحَبْلُ الّذي يُشَدُّ به الأسِيرُ، يقال لُغةً: قَرَنَ الأسِيرَ بالحبْلِ، أي: شَدَّه به. وقرَّنَهُ إذا شَدَّدَ علَيْه الْوَثاق به.

ويُقالُ لغة: قَرَنَ الأسِيرَ بالأسير، أي: جَمَعَهُما في وَثاقٍ واحدٍ.

**الأصفاد**: هي السَّلاسِلُ والأغلالُ، مفرَدُها، الصَّفَدُ والصِّفَاد.

فقد يكونُ معنَىٰ ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ مَجْمُوعِين في السَّلاسِلِ والأغلَال بقُوَّةٍ، مُقْتَرِنِين أزواجاً أو جماعات.

● ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: قال الله عزّ وجلّ لسليمان عليه السَّلام بعد أن استجاب له دعاءه، فوهَبَهُ ما أبانه في الآيات (٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨) هذا القول.

هذا القول مستقطعٌ من الحدَثِ الْمَاضِي، ومُقَدَّمٌ في هذا النَّصِّ، كأنَّ الله عزّ وجلّ يخاطبِ به سليمان الآن، وهذا من الفنون البديعة الّتي جاءت في القرآن، دون أن تكون من أساليب الْعَرَب البيانيَّة قبله.

والمعنى: هذا عطاؤنا لَكَ يا سليمان إذْ طَلَبْتَ مُلْكاً لا ينْبَغِي لأحَدٍ من بَعْدِك، وأنتَ فيما أعْطَيْنَاكَ من هذا المُلْكِ مأذونٌ لَكَ إذْنَ إباحَةٍ غيْرِ

مُسْتَتْبَعَةٍ بحِسَابٍ، في أنْ تُعْطِي بالْمَنِّ كما تَشاء، وفي أن تُمْسِكَ عَنِ الْعَطاءِ على ما تَشاء.

﴿فَٱمۡنُنۡ﴾: أي: فأعْطِ على وجْهِ الإحْسَان والإكرام، وهذا المعْنَىٰ هو المناسِبُ هنا، لا المعنَىٰ الآخر، وهو الافتخار بالإعطاء، والتحدُّث به استِعْلَاءً وإشعاراً بالتفضُّل، أو تذكيراً بِهِ للإذْلَالِ والتسخير.

المنّ في اللّغة يأتي بمعنَيْين:

**الأوّل**: الإنعامُ والإحسان والإكرام، يُقال لغة: مَنَّ فُلانٌ على فلانٍ يَمُنُّ مَنًّا، أي: أنعم عليه نِعْمَةً طيبَة، وأحْسَن إليه بعطِيَّة.

**الثاني**: التحدُّث على سبيل التفاخُرِ بالعطاء، أو الإشعارِ بِدُونيَّةِ آخِذِ العطيَّةِ إهَانَةً له.

﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾: أي: أو امْنَعْ عَطَاءَكَ بحَسَبِ ما ترىٰ.

﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: أي: قد أبَحْنا لَكَ المنَّ والإمْسَاكَ، بغَيْرِ حسابٍ نُحَاسِبُك فيه على ما تفعل، سواءٌ منَعْتَ أمْ أمْسَكْتَ.

والتقدير: فامْنُنْ كما تَشاءُ مَنًّا مصْحُوباً بغير حسابٍ لك، أَوْ أمْسِكْ كما تَشَاءُ إمْسَاكاً مَصْحُوباً بغَيْرِ حِسَابٍ لَكَ عَلَيْه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾﴾.

يَلْتَفِتُ النصُّ فيقول الله عزّ وجلّ للمتَلَقِّين مُتَحدِّثاً عن منزلة سُلَيْمان عنده، فيُبَيِّن أنَّ لَهُ عنْدَ رَبِّه قُرْبَىٰ، وحُسْنَ مآبٍ، كما سبَقَ أنَّ قال بشأنِ أبِيه داود عليه السلام في الفقرة الأولىٰ من هذا الدَّرْس.

أي: وإنَّ لَهُ عنْدَنَا لَدَرَجَةً وَمَنْزِلَةً ذاتَ قُرْب، وإنَّ لَهُ عندنا لَحُسْنَ مَرْجعٍ في جنَّاتِ النعيم.

**الزُّلْفَىٰ**: اسْمٌ يأتي بمَعْنَىٰ الْقُرْبَةِ والدَّرجَةِ والمنزلة.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: أي: وحُسْنَ مَرْجِعٍ، وهذا إنما يكون في جنَّاتِ النعيم.

وإضافة «حُسْن» إلى «مآبٍ» من إضافة المصدر إلى فاعله، أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، على تأويل المصدر بمُشْتَقٍّ والوصفِ به، والتقدير، ومآبٌ حَسَنٌ، أو هو كُلُّهُ حُسْنٌ.

وجاء تأكيد الجملة بـ «إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللاّم المزحلقة» وقُدِّمت عبارَةُ ﴿عِندَنَا﴾ على ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ لإفادة تخصيص الزلْفىٰ وحُسْنِ المآب بما يكون له عند ربّه يَوْم الدّين، مع تَعْظِيمهما، لأنّ ما يكون عند الله يوم الدّين شيءٌ عظيمٌ جدًّا.

هذا ما جاء عن سليمان عليه السَّلام في سورة (صٓ) وقد وزَّعَ الله عزّ وجلَّ بقيَّة ما أراد أن يُنْزِل عنه في القرآن في سور (النَّمل ـ الأنعام ـ سَبأ ـ الأنبياء ـ البقرة ـ النّساء) بحسب دواعي المناسبات الفكرية، وأغراض تنزيل القرآن منجّماً.

❁ ❁ ❁

## التدبر التحليلي للفقرة الثالثة
## من فقرات الدرس الثاني من دروس السورة
## وهي الآيات من (٤١ ـ ٤٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

● وقرأ حمزة: [مَسَّنِي] بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

● وقرأ أبو جَعْفر: [بِنُصُبٍ] بضم الصَّاد مع النون وهو على سبيل الإتباع.

وقرأ يعقوب: [بِنَصَبٍ] بفتح النون والصاد.

«نُصْب، ونُصُب، ونَصَب» المشقة والتَّعب والإعياء، فالمعنى في القراءات الثلاث واحد.

**تمهيد:**

في هذه الفقرة عَرْضٌ مقتضَبٌ مخْتَزَلٌ اخْتِزالاً شديداً من قصَّةِ ابْتِلَاءِ النَّبِيِّ الرّسُول أيُوبَ عليه السَّلام بالمكاره، الّتي امْتَحن اللَّهُ عزّ وجلّ بها صَبْرَهُ امتحاناً شديداً، فوجَدُه فيما ابتَلاه به صابراً، فأثْنَىٰ عليه، وجَعَلَهُ ضِمْنَ فِئَةِ الأوَّابين من الرُّسل عليهم السلام، مثل داوُدَ وسليمان، دون أن يَذْكُرَ شيئاً أوْ يُلْمح إلى شيءٍ بعَيْنِه، مثالاً على كونه أوَّاباً، أي: رَجَّاعاً إلى مرتبة الإحسان الّتي يَنْبغي للرسول أنْ يحافظ على شروطها وواجباتها دَواماً.

وجاء عنه أيضاً عرضٌ مقتضبٌ مخْتَزَلٌ من قِصَّةِ بلائه بالمكاره، في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

● وقرأ حمزة: [مَسَّنِي] بإسْكانِ يَاءِ المتكلّم.

وجاء ذكر اسمه ضِمْن مجموعَةٍ من الرُّسُل في الآية (٨٤) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) مع بيان أنّه من ذُرِّيَّةِ إبراهيم. وفي الآية (١٦٣) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) مع بيان أنّ الله قد أوحى إليهم، وأنهم رُسُلٌ مُبَشِّرُونَ ومُنْذِرُون.

ويَحْسُنُ بنا أنْ نَتَدَبَّر نَصَّيْ (ص) و (الأَنبياء) تدبُّراً تكامُلِيًّا.

## موجز عن حياة أيوب عليه السّلام:

كان أيُّوبُ عليه السّلام رجُلاً من الرُّوم، ويتّصل نسبُهُ بعِيص بْن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وعِيصُ هو أخو يعْقُوبَ (= إسْرائيل) عليه السلام.

فأيُوبُ ليس من بني إسرائيل، لكنَّهُ من ذرّيّة أخيه عيص، ويُقالُ له: «عِيسُو».

وكان أيوب عليه السّلام كثير المال من الأرض والْعَبيد والنَّعَم وسائر المواشي، وغير ذلك من صنوف المال.

جاء في سِفر أيوب من أسفار العهد القديم عنْدِ أهْل الكتاب تَعْدَادُ ما كان له من غَنمٍ وإبلٍ وبقَرٍ وحَمِير، وجاء فيه أنَّه وُلِدَ له سَبْعَةُ بَنين، وثلاثُ بنات.

وذكر المؤرخون والمفسّرون أنّ أيُّوبَ كانَ كثير المال من كلّ صنوفه وأنْواعه، وكانت أراضيه الواسعة جدًّا في حورانَ من بلاد الشّام.

وعلى الرُّغم من كلّ ما آتاه الله عزّ وجلّ من مالٍ كثير لم يَكُنْ منْهُ طُغْيانٌ ما فيه، أو بسببه، فلم يُطْغِه ماله بشيءٍ يخْرجُه عن الكمال والاستقامة والتقوى والتواضع، ورعايَة حُقُوق الله، والإحسان للناس، وعمَلِ البرّ حيْثُ وَجَدَ لِلْبِرّ وفِعْلِ الخيرْ سبيلاً.

وعمل الشيطان بكل وسائله لإغوائه وإخراجه عن صراط الاستقامة، فخابَ في كل مساعيه، فقال الشيطانُ في نَفْسه: هذا قد ابتلاهُ الله بالنِّعْمَة فشكر، فلَمْ تُبْطِرْهُ النعمة، ولم يُطْغِه الغِنىٰ، ولكن لو ابتلاه الله بالفقر والمرض، حتّىٰ هجره إخوانُه وأحْبابُه، لما صَبَر على هذا البلاء، ولأخْرَجَتْهُ

الشدائد، فتغيَّرَ قلْبُه عن الله، وانطَلَقَ لسَانُه بالتَّسخُّط على مقادير الله، والطَّعْنِ في حكمته.

فشاء الله عزّ وجلّ أنْ يُبَاهِيَ بعَبْدِهِ أيُّوبَ في امْتِحَان الصَّبْر، كما بَاهَىٰ به في امتحان الشكر.

فبعَثَ الله جلَّتْ حكمَتُه علَىٰ أموالِه غُزَاةً، فسَلَبُوها مِنْ جهَاتٍ مختلفات، فلَمْ يبْقَ له أنعامٌ وَلا رَقيقٌ، ولا غِلْمانُ خِدْمة، حَتّىٰ أبناؤه وبناته لم يَجِدْ لهم أثراً، ويظْهَرُ أنَّهم تعرَّضوا للأسْر مَعَ من سُلِبَ من غِلْمَانِهِ ورقيقه.

ثُمَّ أنزل الله جلّت حكمتُه به الأوجاع، فابتلاه بالمرض، ومَكَّن الشيطانَ من أن يتَعرَّض له بما يُغْريه بسُوءِ الظَّنّ في الله، وبما يحرّضه على أنْ يُطْلِقَ لسَانَه بالتسخُّطِ على الله، واتِّهَامِه فِي حكمَتِه بما أنزل به من بلاء، على الرُّغم من استقامته في أيّام امتحانه بالنعمة والصِّحَّة، وكثْرَةِ الأحباب والأنصار والأولياء.

وطال به المرَضُ، وتراكبَتْ علَيْه البلايَا والآلام، وابْتَعَد عنه كُلُّ الَّذِينَ كانُوا حوْلَه يَرِدُون من مَوْرِده الْعَذْب أيّامَ نعْمَتِه وَصِحَّتِه وعطاءاتِه الكثيرات.

ولم يَبْقَ حوْلَه غير زَوْجته الوفيَّةِ، الَّتِي تأتي لخِدْمَتِه وطَعَامه وشرابه، مع كلّ ما فيه من بلاء.

قالوا: وكانت زوجتُه تعْمَلُ بالخدمة عند الناس، لتشتري له ما يأكُله، ولم تجدْ في بعْضِ الأيّام عملاً، فاضْطُرَّت أن تَبيعَ ضفيرتَيْ شَعْرها لبَعْضِ نِسَاءِ الأثْرياء، من اللّواتي يُحْبِبْن أنْ يتَزَيَّنَّ بالشَّعْر الطويل، لتَجْلُبَ له طعَامَه، فسَألَها أيُوبُ عليه السَّلامُ كعادته: منْ أيْنَ جلَبْتِ هَذا الطَّعَامَ؟ فأخبرته، فساءَهُ مَا فَعَلَتْ، وحَلَفَ ليَضْرِبَنَّهَا مائة ضَرْبَةٍ بالسُّوْط، متى اسْتَطاع أن يفْعَل ذلك، وقيل غيرُ ذلك والله أعلم.

ولمَّا طَالَ علَيْهِ البلاء، واشْتَدَّتْ عليه إغراءات الشيطان ووسائلُ كيده ومكره، ليَدْفعَهُ إلى سُوء الظَّنِّ باللَّهِ والطَّعْنِ في حِكْمَتِه، نادى ربَّه مُسْتَجْدياً رَحْمَته، بكلامٍ تفسيرهُ:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: أي: بمشقَّةٍ نفسيَّةٍ وتَعَبٍ وإعياء، حَتَّىٰ خَشِيتُ على نفْسِي من كَثْرَةِ وساوسِه، وإغراءاته الكيديَّة، ومَكرِه الشديد.

فحماه الله من التأثُّر بالشَّيْطانِ، فأمَدَّه بالصُّمودِ والصَّبْر.

قيل: استمرّ بلاؤه ثلاث سنين. وقيل: سبعاً وأشْهُراً.

وقيل: ثمانية عشرة سنة، وليس في شيءٍ من هذه الأقوال ما يَصِحُّ اعتماده، ولكن قد اجتاز امتحان الصَّبْر بنجاحٍ باهر.

وشفاه الله ووهب له أهْلَه ومثْلَهُمْ معهم، وعادَ لَهُ إخوته وأصحابه الذين اعتزلوه وهجَرُوه أيَّامَ بَلائه، ووسَّعَ اللَّهُ عليه في الرّزق والمال، حتّى صارَ عنْدَهُ ضِعْفُ ما كان عنده سابقاً.

## تدبُّر نَصَّيْ (صَ) و (الأنبياء) تدبُّراً تكامُليًا

● ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾: أي: وضَعْ في ذاكرَتِكَ للانتفاع وتقدير الأمور حقَّ قَدْرِها، ما نَقُصُّهُ عليك من قِصَّةِ بلاء أيُّوب، ذي الغنىٰ والمال الكثير والأنصار والأعوان، وما تعرَّضَ له من صنوف ابتلاء.

المخاطبُ الأوَّل في هذا النَّصّ نبيُّنا ورسولُنا محمَّد ﷺ، ثم كُلُّ أهل للخطاب بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ.

وقد شرّف الله عزّ وجلّ أيوبَ عليه السلام بقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ إذْ تحقَّقَ بعبوديَّةٍ صادقةٍ ممتازة في امتحان الشكر، وفي امتحان الصبر.

● ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظَرفٌ لماضٍ من الزّمان، وهو هنا مضافٌ لجملة: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: وقت دُعائه رَبَّه دُعَاءً مضْمُونُه ومَعْنَاهُ:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾:

**النُّصب**: التَّعبُ والإعياء.

**العذاب**: هو كُلُّ مَا يَشُقُّ على النفس ويؤلمها. ويأتي العذاب بمعنى العقاب والنكالِ، وهذا غيْرُ مرادٍ هنا.

أي: إذْ نَادَى ربَّه بأنّي قَدْ مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بمَشقَّةٍ نفسيَّةٍ وتَعبٍ وإعياء، من كَثْرَة وساوسه وإغراءاته ووسائل كَيْدِهِ ومَكْرِه، ليَدْفعَني إلى سُوء الظَّنِّ بِكَ، والطَّعْنِ في حكْمَتِك، بسبب ما أنزلْتَ بي مِن بلاء في مالي وأَهْلِي وجَسَدِي.

وجاء في سفر «أيوب» عند أهل الكتاب أنّ الله عزّ وجلّ سلّط الشيطان على أَيُوبَ ليَمْتَحِنَ صَبْره، إذْ زَعَم الشيطان أن استقامة أَيُوب وبرَّهُ قد كانا بسبب أنّ الله قد وسّعَ عليه رزقه وحمّاه وحفظه، فثبت أيوبُ في امتحان الصَّبْر، كما ثبت في امتحان الشُّكر.

وأَظُنُّ أنَّ تَسْلِيطَ الشَّيْطانِ على أَيُوبَ عليه السّلام، من تزيُّداتِ من كتَبَ سفر «أَيُوب» من كتب العهد القديم عند أهل الكتاب، لأنّ الله عزّ وجلّ قد قال للشيطان منذ عهد آدم عليه السَّلام: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

وأبان النَّصُ الذي جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أنّ أيُوب عليه السَّلام تلطَّفَ بعد أنْ شكىٰ لرَبّه ما مسَّهُ به الشيطانُ بوساوسه ووسائل كيده، فدعا بدعاءٍ تَضمَّنَ عَرْضَ مَا مَسَّهُ من ضُرٍّ، مع الثناء على ربّه بأنَّهُ أرحم الراحمين، دون أن يُصَرِّحَ بسؤال رفع الضُّرَّ عنه، فنادى ربَّهُ

في اسْتِجداء، كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

**الضُّرُّ**: سُوءُ الحال في الْبَدَنِ أو المال أو الأهل أو نحو ذلك.

ونلاحظ أنَّه قال عليه السّلام: ﴿مَسَّنِيَ﴾ ولم يَقُلْ أصابني، على الرغم من شِدَّة ما نزل به من بلاء، وهذا من رفيع أدبه مع ربّه.

فاستجاب الله دُعَاءَهُ فَرَفَعَ عَنْهُ ما أنزل به من بلاء، كما قال تعالى في النّصّ الذي جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ... ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَكَشَفْنَا﴾: فَأَزَلْنَا ما بِهِ من ضُرٍّ في نفسه وماله وأهله وولده.

● **أمّا المرَضُ** الذي كان نازلاً بجسَدِه، فقد أَمَرَهُ الله بأن يتّخِذ سبباً عِلاجيًا قضىٰ اللَّهُ أن يكون به الشفاء، فقال له كما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾:

**الرَّكْضُ**: هو ضَرْبُ الشَّيء بالرِّجْلِ أو نحوها، ويقال لَهُ الرَّفْسُ. وحينما يَعْدُو الإنسان، أو تَعْدُو الخيل ونَحْوُها، فإنَّ الأرْجُل تَضْرِبُ في الأرض، ولهذا سُمّي الْعَدْوُ رَكْضاً.

ويقال لغة: رَكَضَ الطَّائِرُ جناحَيْه، أي: حَرَّكَهُما وجعَلَ يَضْرِبُ بهما جنْبَيْه.

ويظهر أنّ الله عزّ وجلّ قد أوحى لأيُوب عليه السَّلام أن يَضْرِبَ برِجْلِه مكاناً معيّناً في الأرض، ورُبما كان ذلك بِأَدَاة فيها حَدِيدَةٌ تَحْفِرُ في الأرض، ففعل عليه السّلام ما أَمَرَهُ الله به، فَتَفَجَّرَتْ له عين ماءٍ بقضاء الله وقدَره، فلَمّا رأىٰ الماء قَدْ تفجّر أوحَىٰ الله إليه:

﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: فاغْتَسِلْ بهذا الماء، واشْرَبْ مِنْهُ، يكُنْ بهذا السَّبب شفاءُ اللَّهِ لك. ففعل أيوبُ ما أمَرَهُ الله به فَشَفَاهُ الله عظمَتْ قُدْرَته، وجلَّتْ حِكْمتُه.

● وأمَّا بَلاَؤُهُ بأهْلِهِ فقد كشَفَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِرَدِّهِمْ عَلَيْهِ مِنَ الأسر، ثُمَّ زَادَهُمْ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ، فقال الله تعالى في النصّ الذي في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿. . وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا . . ﴿٨٤﴾﴾.

وقال تبارك وتَعالى في النصّ الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا . . ﴿٤٣﴾﴾.

هذان النَّصَّان متكاملان في الدلالة على المراد، فعِبارَة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ دلّت على معْنَى إمْضاءِ إرادَةِ الْعَطاء بالفيض الرَّبَّاني، دون النَّظر إلى معنى استحقاق هٰذا العطاء، وناسَبَ هٰذِه الهِبَة أنْ يَقُول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾. وعبارة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ دلَّت على معنى إيصال هذا العطاء الرَّبَّانيّ إليه، بعْدَ إمضاء الإرادة به، وناسَبَ هذا الإيصالَ لذوات ما وهبَ الله له أنْ يقول في آية (الأنبياء): ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: رحْمَةً ذات أثرٍ في إيصال مَا وهبناه إليه، ومعلومٌ أنَّ كلَّ ما هو في الوجود، ولو كان في حوزة الباغين الآسِرين، هو عند اللَّه جلَّ جلاَله، وعظم سلطانه، فهو مَالك كلِّ شيءٍ وَمَلِيكُهُ.

فدلّ هذا الصنيع البيانيُ العجيب على أنّ الهبَةَ مِنْ عطاء الإرادة، وهي من آثار صفاتِ الذّات الرَّبَّانيّة. ودلّ علَىٰ أنّ الإيتاء، وهو توصيلُ الأشياء الموهوبة، آتٍ ممّا عنْد الله في كونه، ممّا هو له مِلْكٌ، وليس صفة من صفات الذّات، وإنما هو من صفَاتِ الأفعال.

● وجاء في النصّ الذي في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿. . وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ بَعْدَ قَوْل الله فيه: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾.

● وجاء في النَّصّ الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿. . وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ بعد قول الله فيه: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا ﴾.

**الذِّكْرَىٰ**: اسْمٌ للتَّذْكِير، أي: وتَذكيراً للعابِدِين وتَذكيراً لأُولي الألْبَاب.

فدَلَّت عبارة: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ علَىٰ أنَّ القضاء الرَّبَّانِيَّ بالْهِبَة هُو ذِكْرىٰ يَعْلَمُها وَيَتَذَكَّرُها أولوا الألباب، وهم أهل العقول الدَّارِكَة الحصيفة، الّذين يُدْرِكون المعاني من وراء الظواهر التكوينيّة.

ودلَّتْ عبارة ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ علَىٰ أنَّ الإيصال المادِّيَّ المشْهودَ للْعَطَاءات الرَّبَّانِيَّة، هو ذكرىٰ يُدْرِكُها وَيَتَذَكَّرُها الْعَابدون لرَبِّهم، فيكون ذلك دافعاً لهم للثَّبات على عِبادَة الله بالشكر وبالصَّبْر، وهؤلاء لاَ يشترط أن يكونوا من أُولي الألباب الدَّرَّاكين لبواطن الأمور.

● وانفرد النصّ الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بالإشارة إلى يمين حلفَها أيُوبُ عليه السّلام أن يضرب زوجته الوفيّة الرضيّة الصابرة على خِدْمَتِه طَوالَ مُدَّةِ بلائه، مئةَ سَوْطٍ، لأنّها فعلَتْ شيئاً ما قد كرِهَهُ منها ولم يَرَه أمراً حسناً، فقال الله عزّ وجل فيها مبيّناً ما قاله لأيُّوب ومقتطعاً مِنَ الحدَثِ الماضي كأنّه يجري الآن:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ . . ﴿٤٤﴾﴾.

لقد أفتاه الله عزّ وجلَّ بهذا فتوىٰ يتحلّل بها من يَمِينه، فَيُجْرِي عملاً فيه ضرب صوريٌّ لزَوْجَتِه، وهو ضربٌ لا يُؤْلمها ولا يُؤْذِيها بشيء.

إنّ اليمينَ الّتي حلَفَها أيُوبُ عليه السّلام أمْرٌ ألْزَم به نَفْسَه، ولَيْسَ له

طبيعة الأحكام الشرعيَّة المطلوبة لذاتها، ومن أجل هذا أعْطاهُ اللَّه طريقَةً شكلية يَبَرُّ بها يمينه، ولا يؤذي ولا يؤلم بها زَوْجته الوفيَّة البارّة.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾: الضِّغْثُ حُزْمَةٌ من أعوادٍ يُقْبَضُ عَلَيْها بِجُمْعِ الكَفِّ، كأعواد شمراخ التَّمْر، فإذَا ضَرَبَ بها ضَرْبَةً واحدةً أو ضَرْبتين بحسَب عَدَدِ أعوادها، أغْنَتْه عن ضَرْب مِئَةِ سوْط، وبرَّ بذلك يَمينَه ولم يحْنَثْ.

وهذه الطريقة هي من الحيل المشروعة الّتي ليس فيها تغيير لمطلوبٍ لذَاتِه في أحكام الدّين، فلا يصحُّ إجْرَاءُ مثْلِها في حدٍّ شَرْعيّ، كجَلْد الزّاني غَيْرِ المحْصَن، لأنّ الجلْدَ المؤلِمَ وفْقَ العدد المأمور به، ممَّا هو مطلوبٌ لِذَاته في أحكام الدّين.

وقد جاء في الإسلام الأمْرُ بالتكْفِيرِ عن اليمين التي يرى الحالف أنّ غَيْرَها خَيْرٌ منها.

روى مسلم وغيرُه عن أبي هريرة، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ حَلَف عَلَىٰ يَمِينٍ، فَرَأَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ».

وختم الله عزّ وجل النّصّ الذي جاء في سورة (ص) بقوله:

- ﴿.. إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤)﴾.

في هذا الختام ثناءٌ مؤكّدٌ على أيُوبَ عليه السَّلامُ بأنّه كَانَ صابراً طَوال مُدَّةِ ابتلائه بالمكاره، وقد جاء التوكيد بـ(إنّ ـ والجملة الاسميَّة) مع استخدام ضمير المتكلّم العظيم المبتَلِي بحكمَتِه وسُلْطَانِ رُبوبيته: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾.

وجاء في هذا الختام أيضاً تَقْويم دَرَجَتِه ضِمْن مَرْتبة الإحسان، بعِبَارَةِ: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وهذا نظير التقويم الّذِي منَحهُ اللَّهُ عَزَّ وجلّ لسُلَيْمان عَلَيْه السَّلام، وقد سَبَق تحليل عبارته.

أمّا داود عليه السَّلاَمُ فقد وصَفَهُ الله بأنّه أوّابٌ، وقال بشأنه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

وكذلك قال بشأن سليمان في الآية رقم (٤٠).

وإذِ اشتركَ أيُوبُ وسليمانُ عليهما السَّلاَم في تقويم الدرجة، بعبارة: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فقد دَلَّ هذا على أنّ أيُوبَ عليه السّلام مشمولٌ بمضمون عبارة: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وَلَوْ لم يأْتِ التصريحُ بهذا في أيٍّ من النَّصّيْن المخصَّصَيْنِ للحديث عنه في القرآن المجيد.

فَدَاودُ وسُلَيْمانُ وأيوبُ عليهم السلام أوّابون، ولَهُمْ عند الله زلْفَىٰ وحُسْنُ مَآب.

## ما جاء في السنة بشأن أيُوب عليه السلام:

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«بَيْنَما أيُوبُ يَغْتَسِلُ عُرياناً خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فجعَلَ أيُوبُ يَحْثِي في ثَوْبِهِ، فَناداهُ رَبُّهُ عزّ وجلّ: أَلَمْ أكُنْ أغْنَيْتُكَ؟. قال: بَلَىٰ، وَلَكِنْ لاَ غِنَىٰ لِي عَنْ بَرَكَتِكَ».

❁ ❁ ❁

## رابعاً

## التدبّر التحليلي للفقرة الرابعة من الدرس الثاني من دروس السُّورة وهي الآيات من (٤٥ ـ ٤٧)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

المخاطَبُ الأوَّلُ في هٰذا النّصّ رَسُولُنا النبيُّ محمد ﷺ، ويُلْحَقُ به مَنْ يشاءُ أنْ يَتأسَّىٰ به.

أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ للتأسّي والاتّباع ثَلاَثَةً مِنَ الرسُل، شَرَّفْنَاهُمْ بِعُبُودِيتهم لنَا، وأعْطَيْنَاهُمْ ثَنَاءً خاصًّا، وأرفَعَ تَقْدِيرِ منْ دَرَجات مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين، هُمْ إبراهيم، وإسحاق، ويَعقوب عليهم السّلام.

إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء من بعده، وإسحاقُ ولَدُهُ من زَوْجَتِهِ سارة، ويعقوب ولَدُ إسحاق من زوجته رِفْقَة، وسَمَّاه الملكُ الذي صارَعَه كما ذكروا «إسرائيل» أي: «يُجَاهِدُ معَ اللَّه» باللّغة الْعِبْرِيَّة.

هؤلاء ثلاثة رسُلُ ذكَرَهُمُ اللّه عزَّ وجَلَّ لرَسُولِه محمّد ﷺ، بعد أنْ ذَكر له «داود وسليمان وأيّوب» وما تَعَرَّضوا له من فتنة وبلاء، وكيف كان تقويم درجتهم.

أمّا إبراهيمُ وإسحاق ويعقوبُ عليهم السَّلاَمُ فقد وصَفَهم الله عزّ وجلَّ بصفاتٍ ترفعهم إلى أعلى درجات مرتبة المحسنين:

● فأثنىٰ عليهم بقوله: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾: أي: أصْحاب الأيْدي القَوِيَّةِ العاملة الناصِبَةِ في الخيرات، والمجاهِدَةِ في طاعة الله، والمحْسِنَةِ لعباد الله ابتغاء مرضاة اللّه، وأصحابُ الأبْصار الدّرّاكة الواعيَة، وهي أبْصَارُ بصيرتهم النافذة إلى معرفة حقيقة الحياة الدُّنيا، ووظيفة الإنسان فيها، وإلى معرفة حقيقة الآخرة، وواجب الإنسان نحوها، وما هو الخير والأَفضل له للظفر بالمنازل الرَّفيعة في الفردوس الأعْلَىٰ من جنّات النّعيم المقيم، والنافذة إلى معرفتهم بالله وبحكمته.

دلَّ على هذه المعانِي تعريفُ كلٍّ من «الأيدي والأبصار» بأداة التعريف «الْ» الّتي قد يُؤتى بها للدّلالة على الكمال، وقد جيء بها في اللّفظتين هنا للدّلالَة على كمال الأيدي وكمال الأبصار، وكمالُهما إنَّما يتحقَّق بما سبَقَ بيانُه عن أيديهم وأبْصارهم.

● وذكر الله عزّ وجلَّ أنّه أخْلَصَهُمْ، أي: اصطفاهم ونَقَّاهُمْ من الشوائب، بسبب خَصْلَةٍ وعبادة خالصَةٍ مِنْهم لله عزَّ وجلّ، هي حُضُورُ الدّار الآخِرَةِ دواماً في ذِكراهم، وكانت هذه الذكرىٰ هي الموجِّهة لكلّ تَصرُّفاتهم في الحياة الدُّنيا، فقال الله تعالى بشأنهم:

● ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم﴾: أي: إنّا بعظَمَة الرُّبُوبيّة وجلالها اصْطَفَيْناهم ونَقَّيْناهم من الشوائب.

﴿بِخَالِصَةٍ﴾: أي: بسبب خصْلَةٍ وعبادَةٍ خالِصَةٍ مِنْهُم لنا.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾: اسْمٌ للتذكُّر هنا.

﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: عطف بيان أو بدل من «خالصةٍ» أي: وهذه الخصلة الخالصة النقيّة من الشوائب، هي الاشتغال بتذكُّر الدار الأخرة دواماً، إذْ هي الدار الجديرة بأنْ تكون هي الدّار الّتي تشغل أَلْبَابَ أولى الألباب، وذكرىٰ الدار الآخرة دواماً يدْفعُ إلى العمل للظفر بأسْمَى المراتب وأعلى الدَّرجَات في جنّاتِ النعيم فيها.

إنَّ الدّار الآخرة هي الدّارُ الجديرَةُ بأن تُعرَّف بـ (ألْ) التي للكمال، أمّا دار الحياة الدّنيا، فالحياة فيها حياة قَليلَةٌ ضئيلة مُنغصةٌ بالأكدار، وفَانِيةٌ سريعة الزّوال، وهي لا تَسْتحقُّ أَنْ توصَفَ بشيءٍ يُشْعِرُ بكمالها أو بالثناء عليها.

فمن كان من أولي الألباب أحْضَر الدار الآخرة في ساحة التذكُّرِ لديه دواماً، مع كُلِّ تَوجُّهٍ لعمل من أعماله الظاهرة والباطنة، الفكريّة والنفسيّة والقلبيّة والجَسديَّة، وهذا يجعل توجُّهَهُ مُنْحَصِراً في ابتغاء مراضي الله، والابتعاد عن مساخطه، وفي اختيار الأكْثَرِ ثواباً عنده، والأرفع منزلةً لديه، والأكثر قرباً منه.

وهكذا كان حال «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» الّذين جئ بهم مثلاً لهذا الصِّنْفِ الممتاز من الرَّسل.

وإضافة «ذكْرىٰ» إلى «الدار» من إضافة المصْدَرِ إلَىٰ مفعوله، أي: تذكرّهم الدائم الدار الآخرة.

وأمّا قراءة: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةِ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ بدون بتنوين لفظِ خالصة، فهو من قبيل الإضافة على تقدير «مِنْ» نظير «بابُ ساجٍ» أي: بابٌ من ساج، ونقول هنا: بخالِصَةِ ذِكْرىٰ الدار. أي: بخالصةٍ من ذكرىٰ الدار.

وجاء في ختام هذه الفقرة تقويم الدّرجَةِ الرَّفيعة من مرتبة المحسنين، لكلّ من «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» فقال الله عزّ وجل بشأنهم:

- ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾: جمع «المصْطَفى» وهُو المفضَّلُ المختار.

﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾: جمع «الْخَيِّر» وهو ذُو الخير الكثير.

فمنَحهم الله بهذا التقويم المؤكد صِفَتَيْنِ عظيمتَيْن:

**الصّفة الأولى**: أنّهم مِنَ الّذين اصْطَفاهُمْ اللّهُ عزَّ وجلَّ ففضَّلَهُمْ واختارهم لمنازل الْقُرْبِ منه، ولاحتلال أَرْفَعِ المراتب والدرجات فيها، وهذا الاصطفاء قد كان ثواباً لهم على مَا كان منهم باختيارِهم الحرِّ، إذْ كانت ذكرى الدار الآخرة شَغْلَهم الشاغل، وهَمَّهُمُ الأكبرَ المالئَ كُلَّ جوانب نفوسهم، وليست هي العصمة الّتي عصمَهُمُ اللّهُ بها بسبب النُّبوة والرسالة، إذ الْعِصْمَةُ ممنوحة لكلُّ الأنبياء والمرسلين، إنّما التفاضُل فيما بينهم في درجات مرتبة المحسنين ثَمَرَةُ اختياراتهم الإِرادية الحرَّة، فوق العصمة، وبعد تَحَلِّيهم بها، إذا العصمةُ خاصَّةٌ في حدود مرتبة التقوى وحقوقها.

**الصفة الثانية**: أَنّهم منَ الأَخْيَار، الذين اكْتَسَبُوا بأَعْمَالهم الظاهرة والباطنة الاختياريَّة خَيْرِيَّةً كبْرَى.

وهذا أعظم تقويم منحه اللَّهُ عزّ وجل لزُمْرَةٍ من عباده المرسلين، وفيه إلماحٌ ضمِنيٌّ لخاتم المرسلين أن يختار طريقة هؤلاء، لا طريقة أصحاب الْمُلْكِ والغنى من متاع الحياة الدنيا ولو كانوا من المرسَلِين.

## خامساً
## التدبّر التحليليّ للفقرة الخامسة من الدرس الثاني من دروس السورة وهي الآية (٤٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

وفي هذه الفقرة ذِكْرُ ثلاثَةٍ من المرسلين، وقد مَنَحَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ تقويماً واحداً فقال بشأنهم: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ وهذا الاختيار البيانيّ يُشْعِرُ بأنّهُمْ قد جيءَ بهم مثالاً لصِنْفٍ ثالث من الرُّسُل، لا يدخُل في صنف: «داوُد وسليمان وأيوب» ولاَ يَدْخُلُ في صنف: «إبراهيمَ وإسْحَاق ويَعْقُوب».

وبالتأمل نلاحظ أنّهم لم يأت في وصْفهم أنَّهُمْ «أوّابُون» إذَنْ فهم في المحافظة على حقوق مَرْتَبةِ المحسنين أكثر التزاماً من صنف: «داود وسُلَيْمان وأيُّوب». ولم يأتي في تقويم درجتهم أنهم «من الْمُصْطَفَيْن» بل اقتصر النصّ على أنّهم «مِنَ الأَخيار» فَهُمْ لم يرتقوا في مرتبة المحسنين إلى درجة صنف «إبراهيم وإسحاق وَيعقوب».

فهم إذن صِنْفٌ مَتَوَسِّطٌ بين الصنفين الآخرَيْن، ودرَجَتُهم في مرتبة المحسنين دُونَ درجة صنف «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» وفوق درجة صنف «داود وسليمان وأيُّوب».

**إسماعيل**: هو الابْنُ البكر لإبراهيم عليه السّلام، من هاجر المصريّة، الّتي وهَبَها فرعَوْنُ مصر لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام، فوهبتها سارة

لزوجها إبراهيم، فَولَدَتْ له إسماعيل، وسافر بهما فأسْكنهما بمكّة بأمْرٍ من الله.

ولمّا كبر وبلغ أشدّه جعله الله نبيًا ورسولاً.

**الْيَسَع**: هو الْيَسَعُ بن أخْطُوب، آمَنَ بالرَّسول إلياس واتبّعه، ثم جعله الله نبيًا ورسولاً.

وقد أثبت القرآن نبوّته ورسالته، وأنّه ممّن فضَّلهم على العالمين. ولم يذكر المؤرخون أخباراً عنه.

**ذو الكفل**: قال أهل التاريخ: هو ابْنُ أيّوب عليه السلام، واسْمُه في الأصل: «بِشْر» وقد بعثه الله بعد أيّوب، وسمّاه «ذَا الكِفْل» وكان مقامُه في الشّام، وأهل دمشق يتناقلون أنّ له قبراً في جبل قاسِيُون، والله أعلم.

والقرآن لم يزد على ذِكْرِ اسمه في عداد المرسلين، ولم أقف على تَرْجمةٍ مبسوطة له.

وروى عن مجاهد، أنّه كان قد تكَفَّلَ لبني قومه أَنْ يكْفِيَهُمْ أمْرَهُمْ، ويَقْضِيَ بينهم بالعدل، فَسُمِّي ذا الكفل.

❀ ❀ ❀

## الغرض الرئيس من هذا الدرس بفقراته الخمس:

ذكر الله عزّ وجلّ لرَسُوله محمد ﷺ في هذا الدرس من دروس السّورة ثلاثَة نماذج من المرسلين، وفي كلّ نموذج ثلاثَةٌ من الرُّسُل، تشابهَتْ صفاتهم وأحوالهم، وتقويم درجتهم عند ربّهم ضمن درجات مرتبة المحسنين.

ووضَعَ الرّسولَ محمّداً ﷺ أمامَ إحدى اختيارات ثلاثة يختارُها لنفسه، وألمح إليه ضمناً أن يختار ما يوصله عند ربّه إلى أسمَىٰ درجات المحسنين، على أنّ له أن يختار ما يشاء.

فإن اختار نموذَجَ صِنْفِ: «داودو وسليمان وأيُوب» فعليه أن يُعِدَّ نفسه لمثل ما فُتِن به هؤلاء الرُّسُلُ الثلاثة، ولمثل ما تعرَّضوا له من بلاء، وهل باستطاعته مع الملك والسلطان أو الغنى الواسع، أنْ يكون دائم الاستقامة على حقوق مرتبة الإحسان بكلّ درجاتها، دون أن يتعرَّض لما يجعله من الأوّابين؟.

وإن اختار نموذَج صِنْف «إسماعيل والْيَسَع وذى الكفل» فَلْيُعِدَّ نفسَه أن يكون تقويمُ درجته عند رَبّه أنَّهُ من الأخْيَار، دون أن يكون من المصطَفين الأخيار».

أمّا إذا اختار لنفسه نموذج صنف «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» فلْيَبْتَعِدْ عن طلب الملك والسلطان الدنيويّ، وعن طلب الغنىٰ والثراء الكثير، وعليه أن تكون ذكرى الدار الآخرة أكْبَرَ هَمِّه، وأعظم ما يَسْعَىٰ له في مسيرة حياته، حتَّىٰ ينالَ ميزة:

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

وأمَام هذه التخييرات الّتي وضعها الله عزّ وجلّ أمام رسُولِهِ محمد ﷺ، وقد دلَّ عليها العرض في الدرس الثاني من دروس السّورة بفحواه ولوازمه الذهنيَّة، نُدْرك أنّ الرسول محمّداً ﷺ قد اختار لِنَفْسِه أَنْ يكون عبداً رَسُولاً، وآثر نموذج «إبراهيم وإسْحَاقَ ويعقوب» وتشهد لهذا سيرته صلوات الله عليه وسلاماته.

روى في شرح السّنة عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«يا عَائِشَةُ لَوْ شِئْتُ لَسَارَتْ مَعِي جِبَالُ الذَّهَبِ، جَاءَنِي مَلَكٌ إنّ حُجْزَتَهُ[١] لَتُسَاوِي الكَعْبَة، فقال: إنَّ رَبَّكَ يَقْرأُ عَلَيْكَ السَّلام، ويقول لك:

(١) حُجْزَته: مَعْقِد إزاره.

إنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْداً، وَإنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكاً. قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ. قَالَ: فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ ضَعْ نَفْسَكَ. قَالَ: فَقُلْتُ: نَبِيًّا عَبْداً».

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه: فالْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى جبريل كالْمُسْتَشِيرِ لَهُ، فَأَشَارَ جِبْرِيلُ بِيَدِهِ أَنْ تواضَعْ، فقُلْتُ): نَبِيًّا عَبْداً».

قالَت عَائِشة رضي الله عنها: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لاَ يَأْكُلُ مُتكِئاً، يَقُول:

«آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ»[1].

❁ ❁ ❁

## (٧)
## التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السّورة وهو الآيات من (٤٩ ـ ٦٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾
مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾
هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ
حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا
بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ
﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا

---

(١) انظر مشكاة المصابيح رقم الحديث ٥٨٣٥، ومسند أبي يَعْلَى الجزء الثامن ص٣١٨ رقم الحديث ٤٩٢٠ قيل: سنده ضعيف. وأقول دلالاته مطابقة لما يشير إليه الدرس الثاني من دروس سورة (ص) ضمناً.

نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾
إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

**تمهيد:**

هذا الدرس الثالث من دروس السُّورة، دَرْسٌ يشتمل على بيان لقطاتٍ من جَزاء المتَّقين في جَنَّات عَدْنٍ يَوْم الدين، وعلى بيان لقَطَاتٍ من جزاء الطَّاغِين في جهَنَمَ يَصْلَوْنها يَوْم الدين، وعلى مَشاهِدَ وَمَوَاقف لهم فيها.

وصلة هذا الدرس بموضوع السّورة واضح، فموضوع السُّورة يَدُور حول الموقف الَّذِي وصل إلَيْه أئمة مشركي مكّة إبّان نزولها، وهو موقف مَنْ هُوَ في عِزَّة وشِقاق، وحول حال الرسول ﷺ تُجاه هذا الموقف، وحال المؤمنين معه، ومعالجة نفس الرَّسُول والمؤمنين، ومعالجة الكافرين بالإقناع وبالترغيب وبالترهيب.

ولمّا كانَ من عناصر موقف الكافرين إصرارُهم العنادي على التكذيب بيَوْم الدّين، والتكذيب بالإنذار الذي أنذرهم به الرسول ﷺ، إذْ أنبأَهُمْ أنَّهُمْ مَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وأنّ لهم جهنم يَصْلَوْنَها يوْمَ الدّين، إذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بما جاءهم به عن ربّهم ويُسْلِمُوا ويتَّبِعُوا ما أنزل الله.

كانَ من المنَاسِب تَحْرِيكُ أوْتار الطَّمَع والْخَوْفِ في نفوسِهِمْ، بَعرْضِ لقَطَاتٍ من جزاء المتقين في جنَّاتِ عَدْنٍ يَوْم الدّين، ولقطاتٍ من جزاء الطّاغين في جَهَنَّم يصْلَوْنها يوم الدين، مع مشاهِدَ وَمَوَاقفَ سَوْفَ تكون يومَئذٍ.

إنَّهُمْ لَمْ يَطْرَحُوا بَعْدُ شيئاً جَدِيداً من إشكالاَتٍ وجَدَلِيَّاتٍ حَوْل نَبَأ يوْمِ الدّين، فاقتصَرَتِ السُّورَة على تحريك أوتار الطَّمَعِ والخوفِ في نُفُوسهم بالْعَرْض الخبري.

● قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾: المشار إِلَيْهِ مَا جاء في الدرس الثاني من دروس السّورة، المشتمل على التذكير بأحوال أصناف الرُّسل الثلاثة:

(١) صنف «داود، وسليمان، وأيّوب».

(٢) وصنف «إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب».

(٣) وصنف «إسماعيل، والْيَسَعَ، وذِي الكِفل».

على ما سبق بيانُه وشرحه، فجاءت عبارة: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ لتُؤَدِّيَ وظيفتين:

**الأولى**: التوجيهُ لجعْلِ ما جاء في الدرس الثاني ذكراً حاضراً في الذّاكرة، للانتفاع به، ولاستدعائه عند المناسبات الداعيات.

**الثانية**: الإشعارُ بانْتِهَاءِ الدَّرْسِ السّابق والبدْءِ بدرس جديد.

## لقطات من ثواب المتقين.

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾:

هذه الجملة معطوفة على ما تضمَّنه الدرس الثاني من ثواب المرسلين المحسنين، صراحةً أو ضمناً، فالصريح فيه قول الله عزّ وجلّ بشأن داود، ثم بشأن سليمان: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ويُدْرَكُ بالقياس عليهما أنّ لأيُوبَ عليه السّلامَ كذلك، لمشاركته لَهُما بعبَارَة: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

أمّا الصِّنْفَان الآخَران اللّذان هما أرفع درجة في مرتبة الإحسان، فَيُفْهَمُ مِنْ بَابِ أولى أنّ لهما عند الله مثلَ ذلِكَ وزيادةً تُلائِم درَجةَ الارتقاء الّتي ارتقوا إليها.

وهنا يَرِدُ سؤال: فمَا للمتّقين من غير المرسلين؟.

فجاء الجواب بأسلوب العطف: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.

في هذه العبارة تأكيدٌ منَ الله عزّ وجَلّ لعباده، بأدَوَاتِ التأكيد: «إنَّ» و «ولام الابتداء» و «الجملة الاسمية» بأنّ المتقين لهم مآبٌ حَسَنٌ عند الله.

**المتَّقون**: هُمُ الّذينَ اتَّقَوا بإيمانهِم وعَمَلِهِم ما رَتَّب اللّهُ من عقابٍ على مُخَالَفة واجبٍ اعتقادي، أو واجب عمليّ ظاهرٍ أوْ بَاطِن.

ويُطْلَقُ لفظ «المتقي» على من اتَّقَىٰ بعض العقوبات الربَّانية، ولو لَمْ يتَقِ عُقوباتٍ أخرى.

فمن اتَّقىٰ الخلودَ في النار بالإيمان والإسلام، وكان من مرتكبي الكبائر، من دون الكفر، فهو يَدْخُلُ في عموم المتقين، إذِ اتَّقَىٰ الخلود في النار.

والمتقون على درجاتٍ متفاضلات، أدناها من اتقى الخلود في النار، إذْ كَانَ بريئاً من كلّ المكفّرات، وأعلاها من استكمل في حياته حقُوقَ كلّ درجات مرتبة التقوى، بأداء كلّ الواجبات، وترك كلّ المحرّمات، أو بتدارك حاله قبل الموت بالتَّوبة الصحيحبة الصادقة، مع الإصلاح والاستقامة، فمن تاب صادقاً وأصْلَحَ واستقام تاب الله عزّ وجلّ عليه، فحمَىٰ نفسه من العقاب على ما ارتكبَ من خطايا.

واللام في ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هي لام الاختصاص، أو لام التمليك الرَّبانيّ لهم.

**حُسْنُ المآب: هو حُسْنُ الْمَرْجِع إلى اللّهِ بَعْدَ الموتِ والبعث ليوم الدّين.**

**المآب**: مصْدَرٌ مِيميٌّ بمعنى «الأوْب» وهو الرجوع، تقول لغة: آبَ،

يؤُوبُ، أَوْباً، وإياباً، وأَوْبَةً، وأَيْبَةً» أي: رجع، والمصدر الميمي القياسيُّ «مآب».

والإضافة في عبارة: ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ على تقدير «مِنْ» أي: لَحُسْناً مِنْ مَرْجِعٍ يَرْجعُونه بعد الموت، لحياة الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

والْحُسْنُ مَصْدَرُ «حَسُنَ، يَحْسُنُ، حُسْناً» أي: جَمُلَ. والْحُسْنُ الّذي يُوجَدُ في الرُّجوع إلى الله بالنسبة إلى المتقين، يشْمَلُ حُسْنَ الْبَعْث، وحُسْنَ الْحَشْر، وحُسْنَ الحساب، وحُسْنَ فَصْل القضاء، وحُسْنَ التكريم بالأمر بدخول الجنة، وحُسْن الاستقبال فيها، وحُسْنَ الإقامة الأبديَّةِ في أنواع نَعِيمها وصُنُوفه.

وهذا أوْلَىٰ من حمل «المآب» على مَكان الرجوع فقط على أنَّه مقبول وصحيح.

وظاهر أن الجملة مؤكدة بـ «إنّ ـ ولام الابتداء ـ والجملة الاسمية» لأن مجموع المخاطبين يحتاجون إلى التأكيد.

● قول الله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: بدلٌ من ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ بدلُ بعض من كلّ، إذا قُلْنا: ﴿مَـَٔابٍ﴾ مصدر ميمي، وبدلُ كلّ من كلٍّ إذا قلنا: ﴿مَـَٔابٍ﴾ اسْم مكان الأَوْبِ.

**جنَّات**: جمع «جَنَّة» والجنة في اللّغة الحديقة المكتظَّةُ بالأشجار. ولمّا كانت الجنة يوم الدّين ذاتَ أقسام كثيرةٍ جداً، وكان كلّ قِسْم منها يَصِحُّ أن يُطْلَقَ عليه اسم جنّة، كانت دار النعيم يوم الدين جنّاتٍ باعتبار أقسامها، وصَحَّ أنّ لكلّ مؤمنٍ فيها جنّاتٍ أيضاً، أي: أَقساماً عَدِيدة، كلُّ واحدٍ منها يَصِحُّ أن يُسَمَّىٰ جنَّة.

عَدْنٍ: أي: استقرار وثبات وخُلود، يقال لغة: عَدَنَ بمكان كذا عَدْناً، أي: أقام به واستقرّ فيه.

وينال الأبرار والمحسنون المراتب والدرجات الرفيعات من جنّات عَدْنٍ بحسب ارتقائهم في درجاتِ مرتبة البر، أو درجات مرتبة الإحسان، لأنّ الأبْرَار متَّقون وزِيادةٌ من أعمالِ مرْتَبَةِ البِرّ، ولِأَنَّ المحسنين متقون وأبرار، وزيادةٌ من أَعْمال مرتبة الإحسان.

روىٰ الترمذيّ بإسنادٍ صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«فِي الْجَنَّة مِئَةُ دَرَجَةٍ، ما بَيْنَ كلُّ دَرجَتَيْنِ كما بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ، والْفِرْدَوْسُ أَعْلاَهَا دَرَجَةً، مِنْهَا تَفَجَّرُ أَنْهارُ الجنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ الْعَرْشُ، فَإِذَا سَأَلْتُمُوا اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ».

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وأَقَامَ الصَّلاَةَ، وصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقّاً عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ في سَبيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا».

قالُوا: أَفَلاَ نُنَبِّئُ النَّاسَ بذَلِكَ؟. قال:

«إِنَّ في الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجة أَعدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ فإذا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَىٰ الْجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»[١].

﴿. . . مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾: أي: إذا جاءُوها وَجدوا أبوابها مُفَتَّحة لَهُمْ مِنْ قَبْلِ وُصُولِهِم إليها، وهذا تكريمٌ لهم بالاسْتِقْبال الحسَن.

---

(١) انظر «فتح الباري» الحديث (٧٤٢٣ و ٢٧٩٠).

**مفتحةً**: حَالٌ لجَنَاتِ عَدْن، أو نَعْتٌ لها.

و «اَلْ» في ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ بدلٌ عن الضمير، أي: مفتَّحةً لهم أبوابُها. ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ نائب فاعل لاسم المفعول ﴿مُّفَتَّحَةً﴾.

وعلى هذا المعنى وهو كون أبواب جناتِ عَدْنٍ تُفَتَّحُ قَبْلَ وصُولِ أصحابها إليها يُحْمَلُ قَولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: حتَّىٰ إذا جاءُوها مقتربين منها، وفُتحَتْ أبوابُها قبلَ وصولهم إليها مباشرةً، تكريماً لهم.

بخلاف أهل جهَنَّم فَإِنَّ أَبوابَها تكُونُ مقفلَةً عَلَىٰ مَا في داخِلها، حتَّىٰ إذا وَصل إليها الكافرون المسُوقُون لإدخالهم فيها فُتِحتْ لهم أبوابُها عِنْدَ وُصُولهم إليها، كما نشاهد في الأبواب الحديثة الّتي تنفتح عنْدَ الإحساس بوصول جِسْمٍ مقبل.

قال الله عزّ وجل في سور (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) أيضاً:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

**نظرة شاملة لما جاء في القرآن من عبارَتَي «حُسْن مآب» و «جَنَّات عَدْن»:**

(١) جاءت عبارَةُ: «حسن مآب» في القرآن ثلاث مرّات في سورة (صَ) في مَعْرِض بَيَان ثواب داود يوم الدين، وفي معرض بيان ثواب سليمان، وفي مَعْرِضِ بيان ثواب المتقين.

ثم جاءتْ في معرض الدّعوة الضمنيَّة إلى عدم تعليق القلب بمازُيّنَ للنّاس في الحياة الدنيا، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿. . . ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

ثم جاءت في معرض بيان ثواب الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الرّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

فَحُسْنُ المآب وصْفٌ يَشْمَلُ ثوابَ المتقين على تفاضل درجاتهم، وثواب الأبْرار على تفاضل درجاتهم، وثواب المحسنين على تفاضل درجاتهم.

(٢) وجاءت عبارة: «جنّات عَدْن» في القرآن إحدى عشرة مرّة، بياناً لثواب المؤمنين والمؤمنات، وثوابِ أولي الألباب، وثواب المتقين، وثواب الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات، وثواب من تاب وآمَنَ وعَمِل صالحاً، وثوابِ من أَتَىٰ رَبَّهُ مُؤْمِناً قَدْ عَمِل صالحاً، وثواب كُلِّ المؤمنين من أمَّة محمدّ على اختلاف درجاتهم: ظالِمين لأنفسهم، ومقتصدين، وسَابقين في الخيرات، وثواب المتقين على اختلاف درجاتهم.

وجاءت ضمن بيان دُعَاء الملائكة للمؤمنين الّذين تَابُوا واتَّبَعُوا سبيل الله، ووعْداً من الله للمؤمنين، وجزاءً للّذين آمنوا وعَمِلُوا الصّالحات.

فدلّت هٰذه النّصوصُ على أنّ كلَّ الّذين يدخلون الجنّة بفضل الله عزّ وجلّ يكُونُون في جنّاتِ عَدْنٍ.

❀ ❀ ❀

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾.

في هذا وَصْفٌ لنعيم أهْلِ جنّاتِ عَدْنٍ وهم فيها، بثلاث صفات مُلْتَقَطاتٍ من سائر أنواع وصُنُوف وصُوَرِ نعيمهم الّتي جاء بيان بَعْضِها موزّعاً في سُوَر القرآن المجيد.

## الصفة الأولىٰ:

هي الصفة التي دلّ عليه مَشْهدَ اتِّكَائِهِم المبيَّنِ في قوله تعالى:

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾: الضمير في عبارة: ﴿فِيهَا﴾ يَعُودُ على جنَّاتِ عَدْن.

**الاتّكاء**: هو الْجُلُوسُ بِتمكُّن عَلىٰ مَجْلِسٍ وَثير، ويُصَاحِبُهُ غَالباً وضْعُ الْيَدِ أو الْيَدِين علىٰ ما يَحْمِلُهما للرّاحة، بإلْقَاءِ ثِقَلِ قِسْمٍ من الْجِسْمِ علَىٰ المتكّأ. والاتكاء يسْتَدْعي ذِهْناً مُتكأً عليه.

**والمتَّكِيءُ**: هو مَنْ يسْتَوي قاعداً على وِطَاءٍ مُتَمَكّناً.

● وقد جاء البيان التفصيلي لهذا الاتكاء مُوَزّعاً في عَدَدٍ من سُور القرآن المجيد:

(١) ففي سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

فأبان هذا النّصّ أنّ من أحوالهم في الجنّة، أنْ يَكُونوا في ظلال أشجارها متكئين على الأَرَائك.

**الأرائك**: جمع «الأريكة» وهي المقْعَدُ المنجّد الوثير في قُبّةٍ أوْ قصْرٍ أوْ نَحْوِ ذلك.

(٢) وفي سورة (الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول) قال الله عزّ وجل في وصْفِ بعْضِ أحوال المنعَّمين في الجنة من السّابقين المقرَّبين من أصحاب اليمين أنّهم يكونون:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مَّوْضُونَةٍ﴾: أي: منسوجةٍ كما تُنْسَجُ الدُّروع.

فدلَّ هذا النصُّ على أنّ الاتّكاء قد يكون على السُّرُر.

(٣) وفي سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول) قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

**سُنْدُس**: نوع من الثياب الرقيقة المنسوجة من الحرير.

﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾: نوع من الثياب الغليظة المنسوجة من الحرير.

وكلاهما من أصْناف الدِّيباج.

فأضاف هذا النصّ إلى ما جاء في سورة (ص) صُوراً ومشاهد لم تُذْكَرْ فيها.

(٤) وجاء في سورة (الطّور/٥٢ مصحف/٧٦ نزول) وصْفٌ لبعض أحوال المتقين في الجنّة، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَٰكِهِينَ﴾: أي: ناعمين فَرِحينَ مَسْرُورِينَ، يتناوَلُون لذَّاتِهِمْ طيّبةً بِهَا نُفُوسُهُمْ، مُعْجَبِين بما آتاهم ربّهم.

فجاء في هذا النصّ وصْفُ السُّرُر الّتِي يَتَّكِئُون عليها أنّها سُرُرٌ مَصْفُوفَةٌ، وهذا الوصف يقتضي أنَّها موضوعة بعِناية ضِمْنَ صُفوف مُتَناسقة.

(٥) وجاء في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) قول الله عزّ وجلّ بِشَأْن من خاف مقام ربّه، وفي وصف بعض أحواله في الجنّتَين اللّتَيْن له:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۢ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍۢ (٥٤)﴾.

فأبان هٰذا النصّ أنّ السُّرُر التي يتكِئُونَ عليها فَوْقَها فُرُشٌ بَطَائِنُها من إسْتَبْرق، وقد سبق بيان الإستبرق قريباً.

وجاء في هذه السورة أيضاً في وصف بعض أحوال من لم يَرْقَ إلى درجَة من خاف مقام ربّه، أنّ له جنتين من دون الجنَّتَين اللّتَيْنِ لمن خاف مقام رَبّه، قول الله عزّ وجلّ:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍۢ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍۢ (٧٦)﴾.

**الرَّفْرَف**: نوع من الثياب نفيس.

**والعَبْقَرِيّ**: المراد نوع من أقمشة الديباج الثِخَانِ المنسوجة من الحرير، والطَّنافِسِ الثِّخَان، وهي البسط.

فجَوْدَة الرَّفْرَف والعبقريّ الحسان، دون جَوْدَةِ فُرُشٍ بطائِنُها من إستبرق.

(٦) وأخيراً أنزل الله عزّ وجل، في بَيَانِ أنّ من أحوال أهل الجنّة يوم الدّين أن يكونُوا مُتَّكِئينَ فيها، قوله في سورة (الإنْسَان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشأن ثواب الأبرار:

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

فأبانت هذه النصوص أنَّ مِنْ مشاهد المتَّقِين، والأبْرَار، والسّابقين المقرّبين، أَنْ يكونُوا مُتكِئِينَ، ولكنّ الْأشياء التي يتَّكئون عليها متفاضلة في صفاتها.

- فالمتقون لهم مستوىً يلائم درجتهم في التقوى.
- والأبرار لهم مستوىً أرفع من مستوى المتقين فقط.
- والسّابقون المقرّبون وهم أهل مرتبة الإحسان لهم مسْتَوى أرفع من مستوى المتقين، ومن مُسْتَوى الأبرار.

**الصفة الثانية:**

هي الصفة التي دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾: أي: يَطْلُبُونَ وهم في جَنَّاتِ عَدْنٍ مجرَّدَ طلب، فيأتيهم ما يَطْلُبُون.

يُقَال لُغةً: دعَا بِالشَّيء، يَدْعُو، دَعْواً، وَدَعْوَةً ودُعَاءً، ودَعْوَىٰ، أي: طَلبَ إحضَارَه.

**الفاكهة:** الثّمار اللَّذِيذَةُ، وغالباً ما تكون حلوة.

أي: فهم يطْلُبُونَ مَا يَشَاءُون من فاكِهةٍ كثيرة وشرابٍ، فيأتيهم ما طلبوه، دون أن يحتاجوا إلى إحضاره بأنفسهم.

ووصفُ الفاكهة بأنها كثيرة يدُلُّ على كثْرة الأنواع والأصناف، وكثرة الأعداد والأفراد.

وتنكير الشراب يَدُلُّ على نفاسته، وكثرة أنواعِه وأصنافِه، وكَثْرةِ كَمّيّته، أي: وشرابٍ نفيسٍ متنوّعٍ وكثير.

**الصفة الثالثة:**

هي الصفة التي دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: وعندهم من نساء الجنة زوجاتٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لا ينْظُرْنَ لغير أزْوَاجِهِنَّ، وهُنَّ مُتَسَاويات في السّنّ، متساويات في الْحُسْن، متحابَّاتٌ بَيْنَهُنَّ.

**قاصِرَات الطَّرْف:** صفة لموصوفٍ محْذوف، أي: زوجات قاصرات الطرف.

**الطَّرْف:** يطْلَق لغة على: تحريك الجفن، وعلى العين، وعلى النظر.

وذاتُ الطرف القاصر، وهي العفيفةُ الّتي لا تنظُر إلى غير زوجها.

والمعنى: أنّهُنَّ عفيفاتٌ لا يَنْظُرْنَ إلى غير أزواجِهِنَّ في الجنّة، فتقصرُ كُلُّ واحدَةٍ مِنْهُنَّ طَرْفَها على النظر إلى زوجها لا تتعدَّاه.

**أَتْرَابٌ:** جمع «تِرْب» والأتراب هنّ اللّواتي يكُنَّ على سِنّ واحدة، وهنَّ في الجنّة متساوياتٌ في الحسن، ومتحابّاتٌ لا تُفْسِدُ بينَهُنَّ الغَيْرَة.

**والتِّرْبُ: عند أهل اللّغة المتماثل في السّنّ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ في المؤنث.**

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجل:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

الخطاب موجَّهٌ هُنَا لكلّ مُمْتَحنٍ في رحلة الحياة الدنيا إذَا كان من المتقين.

﴿هَٰذَا﴾: المشار إليه ما سَبَق بيانه في الآيات من (٤٩ ـ ٥٢).

﴿مَا تُوعَدُونَ﴾: الوعد في اللّغة: هو الإخبار بما تمّ العزْمُ على فِعْلِه، فإذا ذُكِرَ فِعْلُ «وعَدَ» دون بيان الموعود به فهو وعْدٌ بالخيْر، لا بالشّرّ، على أنَّ المشارَ إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يُعيِّنُ أَنَّهُ وَعْدٌ بالخير حتما.

﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: أي: مؤجّلاً ليوم الحساب، ويوم الحساب يشْمَلُ الحسابَ، وفَصْل القضاء، وتحقيقَ الجزاء.

أي: هذا الجزاء العظيم المبيّن للمتقين هو ما وعَده الله الممتحنين في رحلة الحياة الدنيا، مؤجّلاً ليَوْم الحساب، وهذا الوعْدُ يتجدّد دواماً ما دامت حياة الابتلاء.

● ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المشارُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا يَدْعُو به المتقونَ في الجنّة من مأكول ومَشْروبٍ، وغيرِ ذلك من وسائل النعيم فيها، مَهْما توالت الأزمان التي لا نهايَةَ لها فيها، لأنَّها دَارُ الخلود، فوسائل النَّعيم فيها رِزْقٌ يَرْزُقه اللَّهُ عبادَهُ المنعَّمِين.

**الرِّزْقُ**: في اللّغة كُلُّ ما يُنْتَفَعُ به.

﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾: أي: ماله من فَنَاءٍ ولا انتهاء.

**النفادُ**: في اللّغة، الفناء والانتهاء، أي: انتهاء النَّوْع عن آخِرِه، يقال لغة: نَفِدَ الشَّيْءُ يَنْفَدُ نَفَداً ونَفَاداً، أي: فَنِيَ وذَهَبَ وانتهىٰ عن آخره.

جاء في هذه الآية تأكيد عدَم نفاد رزق الله عزّ وجلّ في الجنّة لأصحابها بالمؤكدات «إِنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة للخبر».

وجاء التنصيص على استغراق نَفْي النّفاد لكلّ أَفْراد رزق اللّهِ كمّا وكَيْفاً، بإضافة حرف الجرّ الزائد «من» في العبارة، وجرّ كلمة «نفاد» بها.

❁ ❁ ❁

## لقطات ومشاهد من جزاء الطّاغين:

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾.

هذه الجملة معطوفةٌ على جملة: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وتحليلُ العبارة هُنَا مناظرٌ لما سَبَقَ من تحليل العبارة المعطوفة عليها، فَهُما مُتَماثلتان في الأسلوب، وفي الصّياغة، إلاّ أنّ السابقة جاءت لبيان حال المتقين، وهذه جاءت لبيان حال الطّاغين.

ففي هذه العبارة تأكيد من الله عزّ وجلّ لعباده، بأدوات التأكيد:

«إنّ» و «لام الابتداء» و «الجملة الاسمية» بأنّ الطّاغين لهم شَرُّ مآبٍ عِنْدَ الله يوم الدين، لأن مجموع المخاطبين يحتاجون إلى هَذَا التأكيد.

ولا تخفىٰ على المتدبّر فنيَّةُ التَّقَابُلِ المتناظُر بين العبارتين.

**الطّاغون**: جمع «الطّاغي» وهو كلُّ متجاوز الحدّ المقبول منه. يقال لغة: طغَىٰ الشَّيءُ، إذا تجاوز حدَّه المقبول منه، فنتج عن هذا التجاوز سُوءٌ، أو ضُرٌّ، أو شَرٌّ، أو خروج عن الحق أو الواجب، وعِصْيَانٌ وإثم.

والمراد بالطاغين من أوصلهم طُغْيَانُهُمْ إلى دَرَكِ الكفر، ويكون مقدار طغيانهم بحسب تسَفُّلِهم في الدركات.

ونُلاحظ في القرآن أنّ الله عزّ وجل:

(١) قد وصف فرعون في القرآن بأنَّهُ طغىٰ.

(٢) ووصف عاداً وثمود وفرعون بأنهم طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفَسَاد.

(٣) ووصف الذين قالوا عن رسولهم: ساحرٌ أو مجنون بأنهم قوم طاغُون.

(٤) ووصف الكافرين بأنهم قوم طَاغون.

(٥) وقال تعالى في سورة (النّبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول).

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿جَهَنَّمَ﴾: هي دار عذاب الكافرين الطّاغين، ولفظ «جهنم» اسم علَمٌ من أسماء دار العذاب يوم الدين، وهو ممنوع من الصّرف للعلميّة والتأنيث.

ويقال لغة للقَعْرِ البعيد: «جهَنَّم». وبئرٌ جهنم، أي: بَعِيدَة القَعْر.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي: يُعَذَّبون بالْحَريق فيها. يُقالُ لغةً: صَلِيَ النّار، وصَلِيَ بها، إذَا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

والنَّارُ لاَ يَصْلاَها مُعَذَّباً بِحريقها، إلاّ الأشْقى الّذِي كذّب وتولّىٰ، ومن لم يَصِلْ إلى دَرَكَةِ «الأشقى» من الّذين يستحقُّون العذاب، فإنّهم يُعذَّبون فيها عَذاباً أخَفَّ من عَذَاب الحريق.

﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: أي: فبِئْسَ الْمِهَادُ مِهادُهُمْ في جَهَنَّم.

**بِئْسَ**: فعْلٌ جامِدٌ لإنشاء الذم، وهو منقول للدلالة على معنى الذم من فعل «بَئِسَ» إذا أصابَ بُؤْسَاً.

**الْمِهَادُ**: هو المكان الممهَّدُ الموطَّأُ، وأُطْلِقَ على مكان الطّاغين في جهنّم لفظ «مِهَادٍ» على سبيل التهكّم بهم، أو تَلْويمهم على سوء اختيارهم في الحياة الدنيا، أو فَسَادِ تصُورِهم بأنَّهُمْ بكُفْرِهم يَسْعَوْنَ لنيل مِهَادٍ كريم في حياتهم، لكنّهم في الحقيقة يسْعَوْن إلى احتلال مكانٍ فيه بُؤسُهُمْ وعذابهم.

● قول الله عزّ وجل: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة، وهو مبتدأ، والمشار إليه: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾. وجملَةُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ معترضة بين المبتدأ والخبر، للدّلالَة على أَنَّ الطّاغين في جهنّم يُلْجَؤون مضطّرين إلى أَنْ يذُوقُوا هٰذه الأَصْنَاف الكريهة من الشّراب. فالأمر في الجملة المعترضة أمْرٌ تكوينيٌ يُشْعِرُ بأنَّهُمْ مجبُورون، على شُرْب هذه الأصناف الكريهة اضطراراً، إذْ قد يكون ما هم فيه من ظمأ أشدَّ عليهم من شُرْبِها، على أنَّها لا تُغْنِيهم ولا تُرْوِيهم، بل تَزِيدُ من عذابهم.

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: ماءٌ حارٌّ سَاخِنٌ شَدِيد الحرارة.

﴿وَغَسَّاقٌ﴾ وفي القراءة الأخْرَى **[غَسَاقٌ]** بتخفيف السّين، هو سائل أصْفَر يشبه الماء الأصفَرَ الّذي تُفرِزُهُ الجلودُ إذَا تقرَّحَتْ واحْترَقَتْ.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾: أي: وشرابٌ آخَرُ من مِثْل شَراب الغَسَّاقِ وشَبيهٍ بهِ كَرِيه.

وفي القراءة الأخْرَى: **[وَأُخَرُ]** جمع «أُخْرَىٰ» أي: ومَشْرُوباتٌ أُخْرَىٰ من شَكْل الغسَّاق، أي: من مِثْله في الخِسَّةِ والكراهيةِ.

ومؤدَّى القراءتين واحد.

﴿أَزْوَٰجٌ﴾: أي: هي أصناف من الشراب للطّاغين، كلُّها كَرِيهٌ خَسِيس.

يطْلَقُ «الزَّوْجُ» في اللّغة على الصِّنْف من كلِّ شيء، وجمعه «الأَزْواجُ». فمعنى: أزواج من الثمر، أصْنافٌ من الثمر، وهكذا إلى سائر الأشياء. وهذا غير إطلاق «الزّوج» على معنىً أنّه خلاف الفرد.

قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

في هاتين الآيتَيْن بيانُ مَشْهَدِ حَدَثٍ آخر من مَشاهدِ أحداثِ جَهنَّم، الّتي سَوْف تكونُ يَوْمَ الدّين، وقد جاءت فنّيَّةُ عَرْضِه على طَرِيقَةِ الاستِقْطاعِ مِمَّا سَوْفَ يكونُ وتقديمه كأنَّه يَجْرِي الآن.

إنّه مَشْهَدُ فَوْجِ الأَتْبَاعِ الّذي يُلْجأُ إلى أَنْ يَقْتَحِمُ مُكرهاً دُخول جهنّم، حتَّىٰ يكُونَ مع الّذِينَ كانُوا أئِمَّتَهُمْ وقَادتَهم الّذِينَ أَضَلُّوهم في الحيَاةِ الدنيا، وقَدْ سَبَقُوهم إلى الاستقرار في مُسْتقرَّاتِ عَذَابِهم في جَهَنَّم.

إنَّ أفْرادَ فَوْجِ الأَتْبَاعِ يُدْفعُونَ دَفْعاً جَبْرِيّاً، إلى مشاركة أئمتهم وقادَتِهم في مستقرّاتِ عَذابهم في جهنَّم.

وبيَانُ المشْهَدِ يَحْكِي أنّ الملائكة من خزنَةِ جهنَّم يقولُون للأئمَّةِ السَّابقين إلَيْها عَنِ المقْتَحِمين الجدُد من أتباعهم:

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾:

أي: لأنّهم كانوا في الدّنيا أتباعَكم وكُنْتُمْ أنْتُم قادَتَهم المضلّين لهم معكم، فهم مقتحمونَ النَّارَ ليكونوا فيها معكم.

**الفوج**: الجماعة من الناس القادمون معاً بسُرْعة.

**المقتحم**: هو من يَرْمي بنفسه في عظيمة من العظائم، وفي أمْرٍ شَدِيد، والمقتحم يدخُل في الأمر العظيم بجرأة وبشجاعة.

ولكن كيف يوصفون بأنهم مُقْتَحِمُون، وهُمْ يُلْجَؤُون إلجاءً إلى الدخول في جهنّم؟

أقول: جاء هذا التعبير للدّلالة على أمرين:

**الأمر الأول**: أن الصُورة الّتي يكونون عليها عنْد إلجائهم إلى الدُخول فبي جهنّم تكون مُشَابِهَةً لصُورة المقتحمين، فمُشَاهِدُهم يرىٰ صورة فوجٍ يقتحم اقتحاماً.

**الأمْر الثّاني**: أنَّهُم كانوا في الدُنيا يقْتَحِمُون اقتحاماً عَظائمَ الكُفْرِ والطغيان، الّتي هي أَسْبَاب دُخولهم في جهَنَّم خالدين، فأُطْلِقَ وَصْفُ السَّبَب على المسَبَّب. إنّ مَنْ يقتَحِم أمْراً عظيماً يحبُه، لكِنَّ عقوبتَه الْقَتْل، فإنَّهُ يقتحم عقوبة القتل.

فَيَرُدُ الأئمة والقادةُ السّابقون في اقتحام دخول عذابهم إلى مستقرّاتهم فيها قائلين:

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾.

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾: أي: لا نُريد أن يكونوا شُركاءَنا في مُسْتَقَرّاتِ عذابنا، فنحن لا نُريد أن يتَّسع المكان لهم حتَّى يكونوا معنا فيه.

يقولون هذا كِبْراً وتَرَفُعاً عن مشاركة أتباعهم لهم في مستقرّاتِ عذابهم، وتبرُءاً من أنهم قد كانوا السبب في إضلالهم.

كلمة: «مَرْحباً» كلمةُ دعوةٍ لتكريم الضيّف بمكانٍ رَحْبٍ واسع. يقال لغة: رَحِبَ المكانُ يَرْحَبُ رَحْباً، ورَحُبَ المكانُ يرُحُبُ رُحْباً وَرَحَابةً، أي: اتّسع، و«مَرحَب» اسم مكانٍ يطلَقُ على المكان الواسع.

وللتبرُءِ من أنّهم قد كَانُوا السّبَب في إضلالهم، قالوا بشَأْنِ أتباعهم: ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾: أي: إنهم مُعذَّبُون بعذاب الحريق في النار بأسْباب من أنفسهم.

قالوا هذا ليُبْعِدُوا عن أنفسهم عقُوبةَ الإغواء والإضلال، حتَّىٰ لا تُضَافَ إلى عُقُوبة طُغْيانهم بأنفسهم،، وليُبْعِدوا أتباعهم عنهم حتّى لا يُخاصِمُوهم.

ويَسْمَعُ الأَتْبَاعُ مقَالَةَ الذينَ كَانُوا أئِمَّتَهُم وقادتَهُمْ في الحياة الدّنيا، فيكونُ رَدُّهُمْ علَيْهِم ما أورَدَهُ الله عزّ وجلّ حدَثاً مقتطعاً من أحداث يوم الدّين، ومُقَدَّماً كأنَّه قد حدث فعلاً بقوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبًۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: بَلْ نَحْنُ الّذين لا نُريد أن تكونوا معَنا في منازِلِ عذَابِنا، بل نُريدُ أَنْ تكونُوا في قرَارِ الجحيم، فأنْتُم بإغوائِكم وإضْلالِكُمْ قدَّمْتُمْ هذا العذابَ لنا.

﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾: أي: فَبِئْسَ القرارُ قَرارُكُمْ في قَاعِ الجحيم.

**القرار**: المكان المنخفض الذي تَنْحَدِرُ إليه المياه، وتستقِرُّ فيه.

**بِئْسَ**: فِعْلٌ جَامِدٌ لإنْشاء الذّم، وحُكْمُهُ صِيغَةً وإعراباً مثل فعل «نِعْم» عند النحويين.

﴿لَا مَرۡحَبًۢا بِكُمۡۖ﴾: أي: لا مَكانَ يتَّسع لكم مَعَنا، ولا كانت لكم أمكنة رحْبَةٌ واسِعَةٌ في مستقرَّاتكم، بل جعلها الله ضَيِّقَةً عليكم، حاصِرَةً لحرَكاتكم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابًا ضِعۡفًا فِی ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

أبانت هٰذه الآية أنَّ فَوْجَ الأتباع لا يَرَوْن جدوى من مخاصمة من كانوا في الحياة الدنيا أئمَّتَهُمْ وقادتهم، فيتوجّهُونَ لربهم سائلين داعين، فقالوا:

رَبَّنا قَدَّمَ لنَا هذا العذابَ بإغوائه وإضلاله وتحريضه، على أن نقتحم شنيعةَ الكُفْر وكبَائِرِ الإثم، فزِدْهُمْ عذاباً ضِعْفاً في النّار، عذاباً لغَوَايَتِهِمْ، وعذاباً لإغْوائهم لنا.

**ضِعْفاً**: ضِعْفُ الشَّيْءِ أو العدد في اللّغة، مثْلُه.

فالمعنى: رَبَّنا زِدْهُمْ عذاباً آخرَ في النّارِ مثْلَ عَذَابِهِم الذي استحقُّوه على ضَلالِهِم وغوايتهم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

دلَّتْ هاتان الآيتان على أنّ فوج الأتباع بعْدَ أن يستَقِرُّوا في مستقرّاتِ عذابِهِم في جَهَنَّم، يَتَلفَّتُونَ باحِثِين عن معارفهم في الدّنيا، فيتساءَلُون عَنْ رجالٍ كانُوا يعُدُّونهم، أي: يظُنُّونَهم في الدّنيا من الأشرار، بتأثير زُخْرُفِ أقوال أئِمَّتِهم في الكفر، وهؤلاء الرجال هم من ضعفاء المؤمنين وفقرائهم، وربّما كانوا مُتَّهَمِينَ بارتكاب قبائح الذنوب لدى أئمة الكفر، فلا يَجِدُونَهُمْ من أصحاب النار الذينَ يُعَذَّبون فيها، فيطْرَحُون احتمالَيْن:

**الاحتمال الأول**: أنّهم كانوا يتّخِذونهم سخريّاً، ويستهزئون بهم ظالمين لهم، جاهلين بحقيقَةِ حالهم الّتي يجب أن لا يُسْخَرَ مِنها، لأنّهم كانوا على حقٍّ وصِدْق وخير.

دلَّتْ على هذا الاحتمال عبارة: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾؟.

وفي قراءة لعَدَدٍ من القرّاء: **[اتَّخَذْنَاهُمْ]** بالإخبار دون همزة استفهام.

فَدَلّت القراءتان على أَنَّهم يسْتَفْهِمُونَ أوّلاً، ثُمَّ يَعْتَرفون بأنهم كانوا يسْخَرُونَ مِنهم ظُلْماً وعُدْواناً.

وفي قراءة لعَدَدٍ من القرّاء: **[سُخْرِيّاً]** بضَمّ السين.

**سِخْرِيّاً وسُخْرِيّاً**: من مصادر «سَخِرَ مِنْه وسَخِرَ به» أي: هَزِئ به وَيُقَالُ لغةً: سَخِرَ مِنْهُ، وسَخِرَ به، يَسْخَرُ سَخْراً، وَسَخَراً، وَسُخْرِيَّةً، وسُخْرِيَّةً، أي: هزئ به.

**الاحتمال الثاني**: أنّهم موجُودون في النّار، لكن زاغَتِ الأبصار عن رؤيتهم، بسبب حرِّ جَهَنَّم وما فيها ممّا تزيغُ به الأبصار.

دلّت على هذا الاحتمال عبارة: ﴿...أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

«اَلْ» في: ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ عوض عن الضمير، أي: أم زاغت عنه أبْصَارُنا.

**زاغت الأبصار**: أي: مالَتْ عن سَوَائِها وصِحَّةِ نظرها. يقال: زاغ يزيغ، أي: مال، ويُقَال: زاغ عنه، أي: مال وعَدَل عنه.

● قول اللّهِ عزّ وجل: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾: بعد أن جاء في النصّ بيانُ صُورَةٍ من صُوَر التخاصم، الذي سوف يكون بين أئمة الكفر وبين الذين كانوا أتباعهم في الدنيا، وكان ممّا قَدْ يَتخيَّلُه بعضُ المتَلَقِّين، أنّ هذا المشهَدَ الّذي عرضَه النّصّ مُجَرّدُ مَشْهَدٍ لصُورةٍ خياليَّة أدبيَّة، نظير الصور الخيَاليَّة الأدَبيَّة التي يصْنَعُها القصّاصون المهَرَة، كَانَ من مقتضى كون القرآن المجيدِ حقاً وصِدْقاً لا يأتيهِ الباطلُ من بيْنِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه، توكيدُ أنَّ هذا التَّخاصم الّذي جاء في النَّصّ عَرْضُ صُورَةٍ منْهُ هو تخاصم حقٌّ.

وجاءت الإشارة إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، لأنّه أمْرٌ سَوْفَ يكون يوم الدين، وجاء توكيد الجملة بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة إلى الخبر» فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ وجاءت عبارة: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ جملة مُبَيِّنَةً للمشار إليه البعيد.

﴿تَخَاصُمُ﴾ خبر مبتدأٍ محذوف، أي: هو تخاصُمُ أهل النار. وهذا من بديع الأساليب البيانيّة.

**التخاصُم**: التَّنازُع والمجادَلَة، في ادِّعَائَيْن مختلفين بين فريقين، كلُّ فريق منهما حريصٌ على إثبات ادّعائه وإبطال ادّعاءِ خَصْمه.

ومن صور التخاصم الذي سوف يكون بَيْنَ التابعين والمتبوعين، ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مسحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## (٨)
## التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (٦٥ ـ ٨٨) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

**تمهيد بنظرة عامّة حول هذا الدرس الأخير من دروس السّورة:**

تضمّن هذا الدرس تعليماً من الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إلى دين الله من أمّته، كيف يرُدّ على أقوال الكافرين الّتي جاء بيانها في الدرْسِ الأوّل من دروس السّورة.

وفي هذا التعليم مُتَابعَةٌ دقيقة لأقوالِهم بَعرْضِ الرُدُودِ عليها، دون إعادتها أو الإشارة إليها، وهذا من الْعُمْقِ القرآني، الذي يفهمه الرسول ﷺ تِلْقَائِيّاً، ويفْهَمُه منْ يفتح الله عليْه من أهْل التَّدَبُّر.

● جاء في الدرس الأوّل بيان تعجُّب أئمةِ المشركين في مكّةَ من أن يأتيهم منذر منهم، وهذا البيان يتضمَّن قضيّتَين:

**القضيَّةُ الأولى**: أنّه يُنْذِرُهم بعذاب الله يوم الدّين إذا أصَرُّوا على كُفْرِهِمْ وعِنَادهم، ويُنْذِرُهم بعذابِ مُعجّل مصْحُوبِ بإهلاكهم إهلاكاً جماعيّاً شاملاً، كما حصل لمكذبي القرون الأولى، إذا وصَلُوا في شرورهم إلى مثل ما وصل إليه المُهْلَكُون السّابقون.

**القضية الثانية**: أنَّهُ يَدَّعِي وهو واحِدٌ منهم أنه رسُولٌ مُرْسَلٌ من الله عزّ وجلّ إليهم، يوحِي الله إليه، فَهُو يُبَلّغُهم ما يُنَزِّلُ الله علَيْه ليُبَلّغَهُمْ إيَّاه.

● وجاء في الدرس الأوّل أيضاً بيانُ تعجُّبِهم الشديد من أن يدعُوهُم إلى عبادة إلّه واحدِ هو ربُّ السّماوات والأرض، وإلى نَبْذِ أوثانهم وسَائر آلِهَتِهم الّتي يعْبُدُونها من دون الله.

ولم يقدّم الذين كفروا حول هذه القضايا غيْرَ عبارات التَّعَجُّب، ومعلومٌ أنّ التعجُّبَ من أمْرِ ما لا يصحُ دليلاً على إبطاله، أو التشْكِيكِ فيه.

فقال الله عزّ وجلّ في تعليم الرَّدّ على تعجُّبهم بشأن هذه القضايا الّتي تعجَّبُوا مِنْها:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

لقد سبَق في صَدْر السّورة التَّنْبيهُ على إعجاز القرآنِ عن طريق الْقَسَم به في قول الله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾.

فهو دليل على صِدْق رسالَةِ محمّد وصِدْقِ بلاغاتِه عن ربّه بما فيه من إعْجَاز.

وبما أنّ الّذين كفَرُوا لم يُقَدّمُوا دليلاً مَا، واقتصَرُوا علىٰ التَّعجُّب، كان من المناسب أن يقتصر الرَّدُّ على ما هو مكافىءٌ لمقالاتهم.

إنّهم لَمْ يُقدِّموا دَليلاً غير مُجرَّد التعجُّب، فما على الرَّسُولِ إلاّ أنْ يُؤَكّد لَهُمْ أَنّه رَسُولٌ بعثه الله ليُبَيِّن للناس ما أُنزل إليهم، وأنّه جازمٌ بإنْذَارِه لهم، ويُصِرُّ على إنْذارِه، ويتحدّاهُمْ به، فقال الله عزّ وجلّ له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ﴾ بهذا التعبير الحاصر، أي: ما أنا بالنسبة إليكم، بعْدَ رَفْضِكُم دعوتي وبَرَاهيني عليها، ورفضكُم بشارَاتي لمن آمنَ واسْلَم وعَمِلَ صالحاً، إلاّ رسُولُ إنْذارٍ بعقاب اللّهِ لكُمْ، في آجلِ أمْرِكُمْ، ورُبَّما في عاجله أيضاً، إذا لزِمْتُمْ إصرارَكُمْ على الكفر والتكذيب، ومقاومة رسالتي بعِزَّة وشِقَاق.

والمعنى: أنتم تكذّبونَ استناداً إلىٰ التَّعَجُّب فقط، وأنا أُصِرُّ على دعْوايَ، ومَعِي مُعْجزَةُ الْقُرآنِ، وبيْنِي وبينكم التحدِّي للمستقبل.

أمّا تعجُّبُهم من نَبَإِ يوم الدّين، وبعْثِ النَّاسِ إليه، إذا حان حينه في علْم الله جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطَانه، فقد جاء في التّعليم حوله قول الله عز وجلّ:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: قُلْ لهم إنّ نَبأ البعث ويوْمِ الدّينِ للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، نَبأٌ عظيمٌ أُخبرُكُمْ بِهِ عَنْ رَبّي، وكَانَ يجب عليكم أن تَهتَمُّوا به جدّاً، وتتفكَّرُوا في أدلّتِه الّتي سبَق في مراحل تنزيل القرآن عَرْضُ طائفَةٍ منْها، تتَعَلَّق بضرورة تَحْقيقِ الجزاء. إذا تفكّرتُمْ حقيقةً في معاني صفات الله جلَّ جلالُه وعظُم سلطانه، ومنها حِكْمَتُه وعَدْلُه، وأنّه لا يَتْرُكُ الناسَ سُدَىٰ، وإذا تفكرتم في الآيَتَيْن (٢٧ و ٢٨) من سورة (صٓ) وما جاء فيهما من أدلَّةٍ كافيةٍ لإقناع من يُريد الحقّ.

لكنَّكُمْ مع كلِّ هٰذِهِ الْبَيَانات والأدلّةِ البرهانيّة، عن هذا النبأ العظيم الّذي يتعلَّقُ بمصيركم الأبديّ مُعْرِضُون، لا تَلْتَفِتُونَ إلَيْه، ولاَ تتفكَّرُونَ في أدلَّته.

فماذا تُرِيدُون أنْ نُقدِّمَ لكُمْ شيئاً أكْثَر من إنْبَائِكُمْ بهذا النَّبأ العظيم الّذي يَهُزُّ وِجداناتِ أولي الألْبَابِ وَمَخَاوِفَهُمْ، مقْرُوناً بالأدِلَّةِ الْبُرْهَانيَّةِ الّتي سبَقَ إعلامُكُمْ بها؟!

ماذَا نَفْعل لإقناعِكُمْ أكْثر مِنْ هٰذا؟!

واعْلَمُوا أنَّ هٰذا النبأ العظيم هو أحدُ عَنَاصر الخبر التاريخيّ الّذِي أُوْحِيَ بهِ إليَّ حَوْلَ خلْقِ الإنسانِ الأوّل، وإخبار الله عزّ وجلّ مَلائكته بخَلْقِه، وسؤالِهم عن الغرض من خَلْقه، وعن صفاته، وماذا سيكون من سلالَته.

فقد تضمّنَتْ قِصَّةُ خَلْقِ الإنسانِ الأوّلِ بَيانَ قَانُونِ الجزاءِ يوْمَ الدّين، إذْ جاءَ من عناصرها بيانُ أنَّ إبْلِيسَ طلَبَ إنظارَهُ إلَىٰ يَوْم يُبْعَثُ الخلائق للحساب وفَصْلِ القضاء وتَحْقِيق الجزاء.

فأنا بما جاءني عن الوحْي أُنَبِّئُكُمْ، أفلا تَجِدُون في كلّ هذا باعثاً علىٰ تَصْدِيقي، وهو من الحقائق الّتي التقت عليها الأدْيانُ الرَّبّانيَّةُ كُلُّها مُنْذُ عَهْدِ

آدم، وقَبْلَ عَهْدِ آدم، إذْ كَانَ الجنُّ يَعْلَمُونَ هٰذا النَّبأ العظيم، وهم أُمَّةٌ مخلُوقُونَ قَبْلَ الإِنْسِ، وكانَ إبْلِيسُ من الجنّ ففَسَقَ عن أَمْرِ رَبِّهِ، ولَدَيْه عِلْمٌ بهذا النبأ العظيم؟!.

أفلا تجدُونَ في كُلِّ هذا باعثاً على التفكِير في الأَدِلّة العقليّة البرهانيّة الَّتي تُبيِّن ضَرُورَة وجُودِ قانون الجزاء، وضرورة كون البعث للحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، إحدى عناصر خُطَّةِ الخلْقِ الرَّبَّانيَّة.

وأُأَكِّدُ لَكُمْ بَعْدَ هٰذا فأقول لَكُمْ:

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: بالنّسبةِ إلى مَنْ أصرَّ على عِنادِه وكُفْرِه، ومُبِينٌ مَا أوحىٰ الله به إليّ.

● وجاء في الدَّرْس الأوّل بيان اتّهامِ أئمة الشّرك والكُفرِ في مكة إبّان نزول السّورة، بأنَّ محمَّداً صاحِبُ مصلحة شخصيَّةٍ من دَعْوَتِهِ، إذْ قَالُوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ أي: يُرادُ لمصلحته الشخصية من مال وزعامة وحبّ سلطان.

فجاء في آخر الدّرْسِ التّعْليميّ الّذي تضمَّنَ الرُّدُود على مقالاتهم:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

وجاء هذا التعليم في آخِرِ آياتِ السّورة لأنَّ الاتّهام يتعلّقُ بشَخْصِه، لا بمضمون دعوته، وفيه تَعْليم لحمَلَة رسالة الرسول ﷺ من أُمّتِه، أن يَبْدَؤُوا بالدّفاع عن مضمون الرسالة قبل تبرئة أشخاصهم من اتّهامَاتِ أقوامهم لهم.

## التدبُّر التحليليّ لفقرات هذا الدرس:

● قول الله عزّ وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ رَدّاً على تَعَجُّب أئمة مُشركي مَكَّة إبَّانَ نُزُول السّورة مِنْ أَنْ يَجِيئَهُمْ مُنْذُرٌ بشَرٌ منهم، فيشْتُموهُ بأنّه سَاحِرٌ كذّاب، كما جاء بيانُ مقالتهم في الآية (٤) من هذه السورة قل لَهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾.

﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حَصْرٍ تَنحلُّ في معناها إلى «ما» و «إلاَّ» أي: مَا أَنَا إلاَّ مُنْذِرٌ، وهذا الحصر حَصْرٌ إضَافي، أي: ما أنا بالنسبة إليكم بعد أن رَفضتم بلاغاتي عن ربّي، وبشارتي لمن آمن وأسْلَم وعمل صالحاً، وبعد أن عَانَدْتم وأصْرَرْتُمْ على الكفر، إلاّ مُنْذِرٌ، إذْ لَمْ يبْقَ لدَيَّ شيءٌ أعالجكُمْ بِهِ إلاّ أَنْ أَوَجّه لكم الإنْذار بالعذاب المؤجّل إلى يوم الدّين، مع احْتِمَال مُعَاقَبتِكم بعذاب مُعَجّلٍ يَنْزِلُ بكم في الحياة الدّنيا، كالّذي أنزلَهُ اللَّهُ بمن أهلكَهُمْ من أهل القرون الأولى.

**الإنْذار**: الإخْبار بمكروهٍ سيأتي ضِمْن الشروط والصّفات المبيَّنة فيه.

وقل لهم أيضاً: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٦٦﴾.

أي: وَمَا مِنْ إلَهٍ هُوَ رَبٌّ يسْتَحِقُّ بِرُبُوبيَّتِهِ أَنْ يُعْبَدَ، وَيجب على مَرْبوبيه أنْ يَعْبُدُوه إلاّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الّذي لا شريكَ له في ربوبيّته لكلّ شيءٍ في الوجود من دونه، الْقَهَّارُ الغالبُ لكلّ شيءِ المُجْبِرُ بالْقَهْرِ والغلبة، فهو يفعل في كلّ شيءٍ ما يشاء.

﴿مِنۡ﴾ حرف جرّ زائدٍ جيءَ به للدلالة على الاستغراق والتَّنْصِيص عليه.

﴿إِلَٰهٍ﴾: أي: مَعْبُودٍ بحَقٍّ، ولاَ مَعْبُودَ بحَقٍّ في الوجود إلاّ مَنْ هو ربٌّ، ولا رَبَّ في الوجود كُلّهِ إلاّ الله الواحِدُ، الذي من صِفَاته أنَّهُ قَهَّارٌ، وهو مبتدأ مجرور لفظاً مرفوعٌ محلاً.

﴿اللَّهُ﴾: اسم علمٌ على الأزلي الأبدِي الخالق الرّبّ الذي له كلّ الأسماء الحسنىٰ والصّفات الْعُلْيا، ولفظ «الله» خبر المبتدأ.

﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾: أي: الذي لا شريك له في ربوبيّته، وهو صفة لله.

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾: أي: الغالبُ الذي يفْعَلُ بالغلبة والْجَبْرِ في كلّ شيءٍ مَا يشاء، وهو صفة لِلّهِ أيضاً.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: أي: خالِقُ السَّمَاوات وخَالقُ الأرض وخالِقُ كلّ ما بينهما، والمتصرّف بكلّ ذلك دوماً بربُوبيَّته في كلّ ما يجري فيه، من حركةٍ وسكون، وزيادةٍ ونقص، وإيجادٍ وإعدام، وتغيير في الصفات والأحوال والأوضاع، وثوابٍ وعقاب، وعفْو وغفران، أو محاسبة وجزاء، وغير ذلك، ومن كان وحْدَهُ هو الخالق لكلْ ما سواه فهو المُمِدُّ له بالوجود والبَقَاءَ، والممسِكُ له دوماً، وهو المتابع لخلق أحداثه دواماً بربوبيّته، فلا إله سواه.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: القويُ الغالِبُ الذي لا يُغْلَب.

﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾: أي: الكثير المغفرة لعباده المذنبين. «غفَّار» صيغَةُ مبالغة لِغَافر.

وفي هذا البيان دليل عقليٌ علَىٰ أنَّهُ ما من إلَه إلاَّ الله، فالدَّعْوىٰ مقترنة بالدليل عليها.

● ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

هذا تعليم آخَرُ من تعليمات الرُّدُود على مقالات الذين كفروا، التي جَاءَ بيانُها أو الإشارة إليها في الدس الأول من السورة، وهو بشأن يوم الدين.

﴿هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾: أي: نَبأُ الْبَعْثِ بَعْدَ الموت للحساب وفَصْلِ القضاء

وتحقيقِ الجزاء نَبأٌ عَظِيمٌ، إذ هو يتَعلَّقُ بمصيركم الأبديّ، ولا يَتعلَّقُ بأمور عارضة تمرُّ وتَنْقَضِي.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: أنتم تخصُّونه بالإعراض عنه، لئلا يكون كالْعَقَبة المانعة عن مُمَارسَاتِكم الآثِمَاتِ الظَّالِمَاتِ، أو لئلا تجدوا في نفوسكم حَرَجاً لدى هذه الممارسات.

**الإعراض**: إعطاء عارضة الوجْه، وفي إعراضكم إِشْعَارٌ بَعَدمِ أكتراثِكُمْ لهذا النبأ العظيم، وعَدمِ توجُّهكم للاهتمام به.

- ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: وقل لهم هذا النبأ العظيم ليْسَ أمْراً جديداً ولاَ مُسْتَغْرَباً في تاريخ الْخَلْق، بل هو مَعْلُوم مُنْذُ بدْءِ خَلْقِ ذَوي الإرَادَات الحرَّةِ الممتَحَنين، وهُوَ معلومٌ للملائكة والجنّ قبل خَلْق آدم الإنسان الأوّل.

وله شاهدٌ في قصّةِ خلْقِ آدم وَما جَرَىٰ في الملأ الأعلَىٰ لدىٰ بَدْء خَلْقِه من اختصام حول خَلْقِه، وتَساؤلٍ عن حكْمَةِ خَلْقِه، وانقسامهم إلى مطيعين نَفَّذُوا أمْرَ اللَّهِ بالسُّجُودِ لآدم، واستكبارِ إبْلِيسَ الّذِي كانَ مُنْدَساً فيهم، وهو لَيْسَ من عنصُرِهِمْ، بلْ كانَ من الجنّ الكافرين بإلَٰهيَّةِ الله باطناً، فكشَفَهُ الامتحانُ حين أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.

والمعنى: ما كان لي قبل الوحي الربانيّ شيءٌ ما من علْم أو شعورٍ بموضوع المراجعات والاختصام بين الملأ الأعلى، ومن أدخل نفسه فيهم بنفاقه وهو إبليس.

عَلِمَ الشيء وعَلِم به: إذا شَعَرِ به ولو دون إحاطة.

**الملأ الأعْلَى**: هم كُبراءُ الملائكةِ وعُظَماؤُهم، ويَدْخُلُ في عُمُومِهم إبْلِيسُ الّذِي كَانَ بنِفَاقِه في الطاعة والعبادة مُنْدَساً فيهم، ليَنَالَ عند الله عزّ

وجلَّ قُرْباً، وحُظْوةً يكُونُ بها ذا رِئَاسَةٍ وأمْرٍ ونَهْيٍ على من دُونَ المَلأِ الأعْلَىٰ من الملائكة.

**الملأ**: هُمُ الكبراء الّذين يملَؤُونَ عُيُون النَّاظِرينَ إليهم من الدهماء.

وجاء في قصّة خَلْق آدم أنَّ الله عزّ وجلّ حَاكَم إبليس على معصيته واستكبارِه عن طاعة الله، إذْ أمَرَ اللَّهُ ملائكةَ الملأ الأعلى بالسُّجودِ لآدم، ويشْمَلُ هذا الأمْرُ من كان مُنَافقاً ومُنْدساً فيهم، ويَعْتَبر نفسه واحداً مِنْهُمْ، وبَعْدَ أنْ أصَرَّ إبليس على استكباره، وَأعْلَن كُفْرَهُ بإلَهِيَّةِ اللَّهِ لَهُ، طرَدَهُ الله من منازل أهْلِ الملأِ الأعلى، وقال لَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ وإذْ كَانَ إبْليسُ علىٰ عِلْمٍ بالبعْث بَعْدَ الْمَوْتِ إلى يَوْم الدّين ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أيَ: أبقني حيّاً إلى يوم البعث، فأنْظَره اللَّهُ إلىٰ يوْم السّاعة الأُولَىٰ الّتي يكون بها إمَاتَةُ جَمِيع الأحياء في الأرض وفي السّماوات، حتَّىٰ الملائكة المقرّبين، لا إلىٰ يوم البعث.

جاء هذا البيان مُجْملاً مقْتَضباً في الآية (٦٩) لكنه بَعْدَ الآية (٧٠) جاء له بعضُ تفصيل في لقطات، ضمن الآيَاتِ من (٧١ ـ ٨٥) فأجاب هذا التفصيل على أسئلة أثارها الكلام المقتضب في الآية (٦٩) بَعْد إنهاء عبارات التعليم، لئلا يكون عرض القصة استطراداً ضمن عرض الفقرةِ التعليمية.

● قول الله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: وقُلْ لهم هذا القولَ مُصِرّاً علىٰ مَوْقِفِك، وبَيِّنْ لَهُمْ أنّه ما يُوحَىٰ إلَيْكَ بالنسبة إلى هذا الموقف إلاّ أن تقول للكافِرِينَ المعنيّين في هٰذه السّورة: ما أنَا إلاّ نَذِيرٌ مُبِين بالنسبة إليكم، فليس لديَّ بيانٌ لَكُمْ غَيْرُ هٰذا إذْ لم تأتوا بجدَليّات جديدات أُبيّن لكُمْ خطأكُمْ وضلالكُمْ فيها، بل توقّفتُم عند إعلان تعجُّبِكُم وشَتَائِمِكُم.

أمّا التعجُّب المجرّد فلا يصْلُح لأنْ يكون حُجَّةً أصْلاً.

وأمّا شتيمتكم لي بأنّي ساحرٌ كذَّابٌ فإنّي لا أَرُدُّ علَيْها، بَلْ أُدْبِرُ عنها، وأتَرَفَّعُ عن أَنْ أواجِهَكُمْ بمثلها.

## قصة خلق آدم واستكبار إبليس عن السجود له

**تمهيد:**

(١) جاءت في هذه السّورة لقطاتٌ من قصَّةِ خلْق آدم، واستكبار إبليس عن السّجود له مع ملائكة الملأ الأعلى، حينَ وجَّه اللَّهُ عزّ وجلّ الأمْرَ لَهُمْ ولمَنْ كانَ مندَسّاً فيهم، ومختلطاً بهم، إذْ دَعتِ المناسبة بيَانَ أنَّ البعْثَ وَيَوْمَ الدّين ممَّا كان معلوماً في تاريخ الخلْق قبل خلْق آدم لدى الملائكة، ولدَىٰ الجنّ الموضوعين في الحياة الدُّنيا قبل الإنْسِ مَوْضِعَ الامتحان، الذي يستَتْبعُ الحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد جاءت هذه اللّقطات في الآيات من (٧١ ـ ٨٥) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

(٢) ثم أنزل الله عزّ وجل بياناً حول هذه القصة مشتملاً على لقطاتٍ أخرى في سورة الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) إذْ استدعت المناسبة ذكرها، وقد جاء هذا البيان في الآيات من (١١ ـ ٢٥).

(٣) ثم أنْزَل الله عزَّ وجلّ بياناً ثالثاً حول هذه القصة، مشتملاً على لقطات أخرى فيها إضافات، وذلك في أواخر سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) إذِ استدعت المناسبة ذكرها، وقد جاء هذا البيان في الآيات من (١١٦ ـ ١٢٦).

(٤) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ بياناً رابعاً حوْلَ هذه القصة مشتملاً على

لقطات أخرى فيها إضافات، لم يَسْبِقْ ذكْرُها، وذلك في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول). وقد جاء هذا البيان في الآيات من (٦١ ـ ٦٥).

(٥) ثُمَّ أَنزل الله عزّ وجل بياناً خامساً حول هذه القصة، مشتملاً على لقطات أخرى فيها إضافات لم يَسْبِق ذكرُها، إذِ استدعت المناسبة ذكرها، وذلك في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) وقد جاء هذا البيان في الآيات من (٢٦ ـ ٤٤).

(٦) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ بياناً سادساً حول هذه القصة، مشتملاً على لقطاتٍ فيها إضافاتٌ لم يَسْبِق ذِكْرُها، إذِ اسْتَدعَتِ المناسبة ذكرها، وذلك في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وقد جاء هذا البيان في الآيات من (٣٠ ـ ٣٩) وهذا آخر بيان أنزله الله حول قصة خلق آدم، واستكبارِ إبليس عن السجود له، وما ذا كان من إبليس مِنْ إغْوَاء آدم وزوجه والتسُّبِ في إخْراجهما بوساوسه من الجنّة.

ودراسة هذه النّصُوص في نظرة تكاملية شاملة، تتطلّب بحثاً مستقلاً يجده القارئ إن شاء الله في الملحق الرابع من ملاحق سورة (صَ) التي نتابع تدبُّر.

وأقْتصر هنا على تدبّر النصّ الوارد في سورة (صَ).

● قول الله عزّ وجل:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

● ﴿إِذْ﴾ ظرف لزَمَنٍ ماضٍ في محل نصْبٍ على الظرفية بفعل محذوف تقديره «اذكر» والمعنى: ضَعْ في ذاكرتِكَ أيُّها المتلَقّي الحدثَ الذي

نقصُه عليك، والذي كان في زمن ماضٍ ﴿إِذْ﴾ مضافٌ والجملة الّتي جاءت بعده مضاف إليه.

● ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: المراد بالملائكة ملائكةُ المَلأِ الأَعْلَى كجبريل وميكائيلَ وإِسْرَافيل، ومن كان معهم ومندسّاً فيهم منافقاً، وهو إبليس، بدليل ما جاء في الآية (٦٩) وهو قوله تعالى فيها: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ كما سبق بيانه لدى تدبُّرِ الآية.

● ﴿...إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾: أي: إنّي سَأَخْلُق مَخْلُوقاً جديداً بشراً مِنْ مَاءٍ وَتراب مُخْتَلِطَيْنِ، وباختلاطهما يَصِيران طِيناً، اسم الفاعل «خالق» يدُل على الاستقبالِ كالمضارع، كَمَا قد يدلُّ على الحال، والخلْق يكون بمعنى التقدير وبمعنى الإبداع.

**البشر**: هو الإنسان (الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث سواء) وقد يثنّى فيقال فيه بشران، وقد يجمع على أبشار. ولعل التسمية مأخوذة من كون بَشَرَتِه بأديَةً غير مستورة بشعرٍ أو غيره. فالبشَرَةُ ظاهر الجلد.

● ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ «إذا» ظرف لما يستَقْبَلُ من الزّمن **والتّسْوية**: إبلاغُ الشيء الغاية المقدّرة والمقضيَّةَ له، حتّىٰ يصير تامّاً مستوياً، بالغاً الغاية المقصودة من صُنْعه.

● ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾: **النّفْخ**: دفْع الرِّيحِ بشيء من القوة، من مكان مُتَّسِع عَبْرَ فوهة ضيقة، كالنَّفْخ بالفم، أو النَّفخ بأداة تُسمَّىٰ المِنْفاخ. ﴿فِيهِ﴾ أي: في داخل كُلِّ جَسَدِهِ بَعْد تسْويَته. ﴿مِن رُّوحِى﴾: أي: نفحةَ من جِنْسِ المادَةِ اللَّطِيفَة الّتي خلَقْتُها لتكُون بها حَيَاةُ الأنفس، وسمَّيْتها رُوحاً.

**الرُّوح**: أَلْطَفُ المخلُوقَاتِ اللَّطيفَةِ في الوجود، وأَخْفَاها عن إدْراك ذوي الإدراك من دون الرّبّ الخالق، وهي من أَمْرِ اللّهِ التكويني مُبَاشَرَةً،

والرُّوحُ ما تكون به حياة الأنفس، وحقيقَتهُ سرٌّ من أسرارِ الإبداع الربّاني.

والإضافة في ﴿رُّوحِى﴾ ليست على معنى أنّها جزء من رُوح ذاتِ الله سبحانه وتعالى، بل هي على معنىٰ المِلْك، كما أنَّ كُلَّ شيءٍ في السماوات والأرض وما بينهما مِلْكٌ لِلّه، فلِلّهِ ما في السماوات والأرض، وهذا التعبير نظير التعبير في «سمائي. وأرضي، وجنّتِي ونَارِي» أو على معنى الاختصاص بأمْرٍ منْ أُموري، مثل: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾.

وبسبب الْفَهْمِ الخطأ في هذه الإضافة سَقَطَ النصارىٰ في تَوهُّم أنّ عيسَىٰ عليه السَّلامُ جُزْءٌ من ذاتِ الله، سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفُون.

وقد أطْلَقَ الله عزّ وجلّ على جبريلَ عليه السّلام عبارة ﴿رُوحَنَا﴾ فقال تعالى في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) في معرض الحديث عن مريم عليها السلام:

﴿... فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾.

● ﴿.. فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: أي: فاسْقُطُوا بإحناء أعاليكم حتّىٰ تكونوا ساجدين واضعين جِبَاهَكم على الأرض، والمرادُ السُّجُودُ لجِهَتِه لا لعبادته فالعبادة لا تكونُ إلاّ لله جلَّ جلاله، وهو نظير السجود لِجهَةِ الكَعْبة، والغرضُ تكريمُ آدم واحترامُ الْعِلْم الذي علّمه الله إيَّاه، والتكفير عن التَّساؤل عن الحكمة من خلقه الذي فيه رائحة الإشعار بأنَّهم لم تَظْهَرْ لهم الغايةُ الحكيمة، من قضاء الله وقدره بخَلْق هذا المخلوق الجديد، وهم يقومون بالتسبيح بحَمْدِه والتَّقْدِيس له.

و «الفاء» في عبارة: ﴿فَقَعُوا۟﴾ تَدُلُّ على وجوب السجود له مباشرة عقب نفخ الرُّوح فيه، وجَعْلِه كائناً حيّاً.

● ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾: أي: فنفذ الملائكة أمر الله تعالى لهم بالسّجود لآدم فوراً عقب نفخ الروح فيه، الّتي سرَتْ بلُطْفِها في كُلّ ذرّةٍ من ذرّاتِ جَسَدِه.

ويتساءل المتدبر: ما الحكمة البيانيَّةُ من جَمْعِ مؤكِّدَين في هذه العبارة: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾؟

أقول: لقد تنبَّهَ الزمخْشرِي في كَشَّافِه للجواب فقال: «أفادا معاً أَنَّهُمْ سَجَدُوا عَنْ آخِرِهم، ما بقي منْهُمْ ملَكٌ إلاَّ سجَد، وأنَّهُمْ سَجَدُوا في وقْتٍ واحِدٍ غَيْرَ مُتَفَرِّقين في أَوْقَاتٍ» هـ

أي: فالتأكيد بعبارة: ﴿كُلُّهُمْ﴾ أفاد أنّهم سجدوا عن آخِرِهم، ما بَقِيَ مِنْهُمْ مَلَكٌ إلاَّ سَجَدَ. والتأكيد بعبارة: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أفَادَ أَنَّهُم سجَدُوا مجتمعين في وقتٍ واحدٍ غير مُتفَرِّقين في أوقات، تنفيذاً للسجود الفوريّ الذي أمَرَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ به في قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

● ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

استثناءُ إبليسَ هُنا هو من قبيل الاستثناء من عموم من أمَرَهم الله بالسجود لآدم، إذْ قَدْ وجَّهَ الله عزّ وجلّ الأَمْر بالسجود لملائكة الملأ الأعلى ولِمَنْ كان مُنْدَسّاً فيهم بنفاقه، ومُخْتَلِطاً بِهِمْ، معتبراً نفسه أنّه واحدٌ منهم، مع أنّه قد كان من جنس الجنّ الّذين يملكون بخلْقِ الله الْقُدْرَةَ على الطاعة والمعصية، وهم مخلوقون من مارج من نارٍ، أي: من أخلاطٍ ناريّة، بخاف الملائكة، فإنّهم بفِطْرَتهم لا يعصون الله ما أمرهم ويَفْعَلُون ما يُؤمَرُون، وهُمْ مخلوقون من نور صافٍ نقيّ.

فالاستثناء هو من قبيل الاستثناء المتَّصِل، لا من قبيل الاستثناء المنقطع، وحمل لفظ «الملائكة» على أنّه يشْمَلُ الملائكة والجنّ خطأ مخالِفٌ لدلالات النصوص القطعيّة.

فخطاب التكليف بالسّجود الموجّه للملائكة، موجّه للملائكة ولمن كان مُدَّعِياً أنَّهُ منهم، أو معتبراً نفسَهُ بنفاقه واحداً منهم.

وقد كشف الامتحانُ إبليس، فأبَانَ كُفْرَهُ بإلَهيّةِ رَبّه، وأبانَ أَنَّ عُنْصُرَهُ

لَيْسَ من عنصر الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، والذين يفعلون ما يُؤمَرُون، والّذين هم مخلوقون من نور، بل هو مخلوق من نارٍ.

﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾: أي: اشتَدَّ في كِبْرِه عن السُّجُودِ لآدم، شِدَّةً جَعَلَتْه يَجْحَدُ إلَهيَّة الله له، الّتي هي حَقٌّ رُبوبيّته لكلّ الموجودات من دونه.

[الإلَه]: هو المعبود، وأوّل عناصر عبادة العبد لربّه الإذْعَانُ لَهُ بحقِّهِ في طَاعَةِ أوامِره ونواهيه، فمن جحد هذا الحقّ فهو من الكافرين به، لأنّ رُبوبيَّتَهُ تستَلْزم إلَهيَّته حتماً لزوماً عقليّا، ولا إلَهَ هو ربٌّ يُعْبَدُ بحقٍّ في الوجود إلاّ اللَّهُ عزّ وجلَّ وحْدَهُ لا شريك له.

● ﴿...وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾: أي: وكان إبليس من قَبْلِ أن يكْشِفَهُ الامتحان، من الكافرين بحقِّ اللَّهِ في إلَهيّتِهِ لعباده، مع إيمانه بأنَّهُ رَبُّهُ وربُّ كُلّ شيءٍ في الوجود من دونه جلّ جلاله.

والإيمان لا يكون صحيحاً مقبولاً عند الله ما لَمْ يتحقَّقْ الإيمان الكامل بربوبيَّة الله عزّ وجلّ، وبإلَهِيَّتِه، دون إشراك بهما أو بأَحَدِهما.

وكُفْرُ إبلس قد كان كُفْراً بإلَهيَّةِ اللهِ، وطَعْناً في حكمته في أوامرِهِ ونواهيهِ وإباءً واسْتِنْكَافاً عن طاعته فيما خالف هواه، وقَدْ كان هذا موجوداً في نفسه قبل كَشْفِه بالامتحان، مع أنه قد كان بنفَاقِهِ وشِدَّة مَكْرِه مُنْدَساً في الملائكة، حتَّىٰ وصل إلى ملائكة الملأ الأعْلَىٰ، وانْدَسَّ فيهم، باعتبارِ أنَّ الجنَّ كانوا مُمَكَّنِين بحَسَب طبيعة أجسادهم الشفَّافة اللّطيفة القادرة على التشكّل، أنْ يَدْخُلوا في جموع الملائكة، وأنْ يتظاهَرُوا بأَنَّهُمْ منهم، ثُمَّ مُنِعُوا من ذلِكَ، ومن الصُّعُود لاستراق السّمع من ملائكة السماء.

ولا يصحُّ هُنَا حَمْلُ «كان» على الكينونَةِ الحالية الّتي ظهرت بعد الامتحان، لأنّ الامتحان يكشف ما هو موجودٌ سابقاً في النفوس، أمّا التَّقَلّبَات الظاهريَّةُ فلا وزن لَهَا عند الله عزّ وجل، ولا قيمةَ لها.

● ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

في هذه الآية بيانُ مَشْهَدٍ من مشاهد مُسَاءَلَةِ إبليس لمُحَاكَمتِه، بشأنِ امتناعه عن طاعة أمْرِ الله له بالسجود لآدم.

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبليس في مَجْلِس من مجالس محاكمته:

﴿يَٰٓإِبْلِيسُ﴾: نداءٌ له باسْمِه الشَّخْصِيّ، لأنّه هو وحْدَهُ الشخْصُ المحاكم، باعتبار أنّه هُو وحْدَهُ الّذي لم يُطِعْ أَمْرَ الله بالسّجود لآدم، وصَارَ فيما بعْدَ عِنادِهِ وإصراره على كفره رأسَ الشياطينِ وإمَامَهُمْ، وصارَ يُطْلق لفظ إبليس على كلّ عاتٍ متمرّد.

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: أي: ما الّذي منعكَ من السجود لمخلوق أوليته عنايتي وتكريمي فخلقْتُ جسَدَه بِيَدَيَّ، وقد كُنْتَ داخلاً في عُمُوم الّذين أمَرْتُهم بالسجود له، باعتبارِكَ ألحقت نفسك بالملائكة، حتّىٰ تسلّلْتَ إلى مَلَئِهم بقيامك بمثل ما يقومون به من عباداتٍ وطاعات، فكان عَلَيك أن تُطِيع فيما يكلّفونَه، فاكتسابُ الانتماء يُصاحِبُه تَحمُّلُ مسؤوليّات التكاليف، وما تَسْتَتْبع مِنْ جزاءٍ وعقوبات على المعاصي والمخالفات.

وبما أنَّ المحاكَمةَ موجّهَةٌ له من أجْل عدم سجوده لآدم، فلا بُدَّ أنْ يُسْأَلَ عن المانع له من السجود، فلعلّه يُبيّن عذراً مقبولاً، يُعْفِيه من ترتُّب العِقاب، أو يَسْتغفر ويتوبُ ويَنْدَمُ فيخفّفُ عنه من عقابه.

● ﴿... أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾؟.

وضَعَ الرَّبُ جلَّ جَلالُهُ إبليس بهذا السؤال أمَام أَمْرَين لا ثالث لهما:

**الأمر الأول**: أن يكون قَدْ منَعَهُ من السجود لآدم اسْتِكبَارُه. أيْ: هو

يُعظِّم نَفْسه بغَيْرِ حقٍّ، ويُريدُ أنْ يَجْعَلَها في مرْتَبَةٍ أعْلَىٰ من مَرْتبة الملائكة الَّذِينَ أطَاعُوا فَسَجَدُوا.

**الأمر الثاني**: أن يكون امتناعه من السجود مَبْنيّاً على أنَّهُ بتكوينه وفطرته أعْلَىٰ مَنْزلَةً، وأَرْفَعُ مَرْتبةً من الّذِين كُلِّفُوا أن يَسْجُدوا له.

والمعنى: أجَعَلْتَ نَفْسَك بغير حقٍّ في مرتَبةٍ فوق مرْتَبَتِكَ الّتي هي لكَ بخَلْق رَبك؟. أمْ كُنْتَ في تصوُّرِكَ من العالين حقيقةً في المرتبة، فرأيْتَ أنَّهُ لا يليقُ بكَ أن تَسْجُد لأدم، ولو كان ذَلِكَ طاعَةً لرَبِّكَ خالِقِك؟

● ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾:

في إجابة إبليس هٰذِهِ تَهرُّبٌ من الاعتراف بالاستكبار، والتزامٌ بادّعاء القضيَّة الثانية، استناداً إلى وهْم التفوّقِ العنصري، المستَنِد إلى ادّعاء أنّ عُنْصُر المادّة الّتي خلَق الله إبليس منها وهي النارِ، أشرفُ وأعظم منزِلةً ومرتَبَةً من عُنْصُر الطين الذي خلَق الله جسَدَ آدم منه.

لقد زَعَمَ أنّ عُنْصُرَ النّار خَيْرٌ من عنصُرَي الماء والتراب، الذين يتكوَّن من اختلاطهما ببَعْضِهما الطين، فهو أعْلَىٰ بعُنْصُرِه الذي خلقه الله منه، من عُنْصُر الطين، فلَيْسَ من الحكمة أنْ يُؤْمَرَ بالسُّجودِ التكريميِّ لآدم.

هذه النزعة الإبْليسيَّةُ هي أَسَاسُ مزاعم التفوُّقِ العرقي، والتعالي العُنْصُري، والاسْتِكْبَارِ القوميّ، وهي نزعة قائمة على وهْم باطلٍ لا صِحَّةَ له بوجْهٍ من الوجوه، إذ التفاضُلُ بين المخلوقات إنّما يكون بالصّفاتِ الفاضلة الموجودة في المخلوق بعد تكوينه، لا بالْعَنَاصِر الأولى الّتي تكوَّنَ مِنها، ما لم يكن لها تأثيرٌ في وجود الصّفات الفاضلة الموجودة فعلاً في المخلوق، بعد إيجاده.

● ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾.

أي: قال اللَّهُ عزّ وجلَّ لَهُ في هذِهِ الجلْسَة من جلسات محاكَمتِه: إنَّ ادّعَاءَكَ التَّفوُّقَ الْعُنْصُريَّ ادِّعَاءٌ باطل، لا صحة له بوجه من الوجوه، ومعْصِيَتك بالاستناد إلى وهْمِ التفوُّقِ العنصري طَعْنٌ بحكمة رَبّك، وهو من الكفر ببَعْضِ صفاتِ الكمال الواجبة له، وفيه جعْلُ العناصِرِ التي خلَقَها هو، وخلَقَ خصائصها ووظائفها ذوات تأثير في إلزامه جلّ وعلا بأن يُوَجّهَ أوامِرَه ونواهيَهُ لعباده متقيّداً بمراعَاةِ التفاضل العنصريّ فيما بينها، وفيه جحودٌ لإلّهيّة ربِّك لك، فاخْرُج من مواطن الملائكة التي جعلناك تجول فيها بحريَّة في السماء فإنَّه لا حقّ لك بعْدَ انكشافِ كِبْرِكَ وكُفْرِك في أن تَدُسَّ نَفْسَكَ بالنّفاق ضِمْن الملائكة الكرام، الّذين لا يعْصُونَ الله ما أَمَرَهُمْ، ويفعلون ما يُؤْمَرُون.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾: أي: فإنَّكَ مَرْجُومٌ مَطْرُود.

**الرَّجم**: هو في اللّغة الرَّمْيُ الطَّرْدِيُّ الإبعادي، بقولٍ أوْ فعل، وقد جعَلَهُ اللَّهُ رَجيماً إِذْ طَرَدَه من رحمته، ولعَنَهُ، ثُمَّ رَجَمَهُ بالشُّهُب الثواقب كلما أراد أن يقترب من منازل الملائكة في السماء.

**واللَّعْنُ**: هو الطرْدُ من دائرة الرَّحمة والإبعادُ عنها.

وقَدْ أَصْدَرَ اللَّهُ حُكْمَهُ عليه بالرَّجْمِ واللَّعْن إِلَىٰ يَوْمِ الدّين، الذي تجري فيه محاكمَتُه لجَعْلِه خالداً في جهنَّمَ دَارِ عذاب الكافرين المجرمين، أمّا في الدُّنيا فقد تَمَّ الحكْمُ علَيْهِ بالرَّجْمِ واللّعْن.

وهٰذه إحدىٰ مُحَاكماتٍ ثلاث، أجْراها الله عزّ وجل له، دلّت عليها النظرة الكليّة التكاملية للنصُوصِ السّتة الموزعة في ست سُورٍ من القرآن المجيد سَبَقَ ذكرها، وهذه النظرة الكلية التّكامُليَّة سأُقَدمُها إن شاء الله في الملحق الرابع من ملحقات هذه السّورة الّتي أُتَابع تدبُّر دروسها وفِقَراتها.

● ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

أي: ﴿قَالَ﴾ إبْلِيسُ مُعْتَرِفاً لله بِرُبوبيته وبأنَّه خالِقُ الحياة والموت.

﴿رَبِّ﴾ (بحذف ياء المتكَلِّم إيجازاً) بمَا أنَّك حكَمْتَ عليَّ بالرَّجْم واللَّعْنِ إلى يوم الدين، ﴿فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ﴾ يُبْعَثُ الخلائق بَعْدَ الموتِ لملاقَاتِ الْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنْفِيذِ الجزاء.

لقد كانَ عالماً بأنَّه يُوجَدُ بعْثٌ إلى الحياة بَعْدَ الموتِ، لتحقيق الجزاء الرّبَّانِيّ بَعْدَ رحْلَة الحياة الدُّنيا، رحْلَةِ الامتحان لِمنْ وضِعُوا فيها موضع الامتحان بشروطه، فَطَلَبَ إمْهالَهُ وإبقاءه حيّاً إلى ذلِكَ اليوم، وكانَ الجنُّ موضُوعين موضِعَ الامتحان في الحياة الدنيا قبل الإنس، ثم خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وزوجَهُ، فبدأت رحلةُ امتحانِهما وامتحان ذُرّياتهما منذ ذلك الوقت.

﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾: أي: فأمْهِلْني وأخِّرْني باقياً حيّاً.

● ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾.

أي: قال اللَّهُ عزّ وجلّ لإبليس: استَجَبْنا لبَعْضِ طَلَبِك، فَأَخَّرْنا إماتَتَك وأمْهلْنَاكَ، وجعَلْنَاكَ بقضائنا وَقَدَرِنا من الّذين طَوَّلْنا أعْمَارَهُمْ، ولَكِنْ لاَ إلى يَوْمِ البعث، بل إلي يوم الْوَقْتِ المَعْلوم، الّذي تَقُومُ فيه السَّاعَةُ وتَنْتَهِي فيه ظروف الحياة الدُّنيا كُلُّها، وأُمِيتُ فيه كُلَّ ذِي حياة في السَّماوات والأرض.

ومن المتحقّق أنّ من الْمُنْظَرِينَ طائفةً من ملائكة الملأ الأعلى كجبريل وإسرافيل وميكال وقد أنظره الله ليستكمل به ظروف الامتحان الأمثل للناس.

● ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

لمّا اطْمَأَنَّ إبْليسُ إلى إنْظَار الله له في الحياة الدنيا حتى انتهاء ظروفها، أعَدَّ نفسه لإغواء آدَمَ وزَوْجِه وذرّياتهما، حتَّىٰ آخر حياة الناسِ في الأرض، وبعد أن عزم على هذا الأمر ﴿قَالَ﴾ لربّه: لقَدْ أنظرتني وأخّرْت

إماتتي حتى آخرِ حياة الناس في الأرض ممتحنين ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: أي: فبِقُوّتِكَ الْغالِبَةِ الّتِي بها يكونُ لي حَوْلٌ وقُوّةٌ ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

في هٰذه العِبارة: قَسَمٌ بعِزَّة الله، واعْتِرافٌ لله برِبوبيّته، وبأن أيَّ مَخْلُوقٍ مهما بلَغتْ قُوّتُهُ وحيلَتُه، فَلَا حَوْلَ لَهُ ولا قوة إلاّ بالله. ولكنَّ كُفْرَ إبليس كان من نوع جُحُودِ إلٰهيَّةِ الله له، وهذا الجحود سببُهُ الاستكبار والغرور بالنَّفْس.

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾: أي: لَأُوقعنَّهُمْ بوَسَاوِسِي ووساوسِ جُنُودي وتسويلاتنا وحبائلنا في الغَوايَة، وهي الإمعان في الضلال والْبُعْدِ عن صراطِكَ صِراطِ الحقّ والْهُدىٰ.

﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيدٌ معْنويٌ لضمير «هُمْ» في: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ والغرض من مثل هذا التوكيد دفْعُ توهُّم إرادةِ بعْضِهم دون جميعهم.

● ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾: وفي القراءة المتواترة الأخرى [الْمُخْلِصين] بكَسْرِ اللاّم، وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد.

**الْمُخْلَصُون**، بفَتْحِ اللاّم، هم المصطَفَونَ المنَقَّوْنَ مِنَ الشوائب والمختارُونَ، وهم الذين عَصَمَهُمُ الله عزّ وجلّ من الْغَوايَة، لِمَا عَلِمَ في قلوبهم من خَيْرٍ يؤهّلهم لأن يكونوا مَعْصُومِين كالأنبياء.

**الْمُخْلِصُونَ**: بكَسْرِ اللاّم: هم الذين أخلصوا أعمالهم ونيّاتِهم من الشوائب، فجعلوها خالصة لله عزّ وجلّ وابتغاء مرضاته.

لقد كان إبليس بعبارَتِه حَذِراً، فاستثنىٰ مَنْ يَصْطَفِيهم الله ويسْتَخْلِصُهم، فيحميهم من تأثير إبليس وجنوده عليهم بالإغواء، واستثنىٰ من يستطيعون بإرادَاتِهم القويّة أن يكونوا مُخْلِصين في أعمالهم ونيّاتِهم لربّهم، طمعاً بالمنازل الرفيعة في جناتِ عدْنٍ يوم الدين، فَيُعِينُهُم الله عزَّ وجَلَّ فيَحْمِيهِم من تأثير إبليس وجنودِه عليهم بالإغواء والإضلال، كُلٌّ على مقدار إخلاصه لربه وصدقه، وقُوّةِ إرادته.

• ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: «قَالَ فَالْحَقَّ بالنَّصْبِ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: قال اللَّهُ عزّ وجلّ لإبليس: اتّخِذْ ما شئت من وسيلةٍ للإغواء وقد أفْصَحَتْ عَن هذا المطويّ الفاء في: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ والمعنى: فَقَسَمِي الْحَقُّ، مُبْتَدأُ وخبر، وجوابُ الْقَسَمِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ إلىٰ آخِرِ الْعِبَارة.

﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾: جملَةٌ معترضة بين القسم وجوابه، والمعنى: وَلاَ أقولُ إلاَّ الْحقَّ، هذا الحصْرُ اسْتُفِيدَ مِنْ تقديم المعمولِ علىٰ عَامِله.

وأمّا على قراءة: [فَالْحَقَّ] بالنصب، فهي فيما أرى علىٰ تقدير: فأقْسِمُ الْقَسَمَ الحقَّ، ولاَ أقُولُ إلاّ الحق لَأَمْلأنَّ جَهنَّمَ مِنْكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ منْهُمْ أجمعين.

كيف نفهم الجمع بين قَسَمِ اللَّهِ بأنْ يمْلأَ جهنَّمَ من إبليس، وممَّنْ تَبِعَهُ من الموضوعينَ مَوْضِعَ الامتحان في الحياة الدنيا، وبيْنَ ما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) من بيان أنّ جهنّمَ تقول:

﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ مَهْمَا أُلْقِي فيها من أفواج المعذبين المجرمين؟.

**أقول**: لقد جاء في بيانِ الرّسول ﷺ أنَّهُ لا تزال جهنّمَ تقول: هل مِنْ مَزيد حتّى يَضَعَ فيها رَبُّ العِزَّة قَدَمه، فتقول: قَط قَطْ وعزّتِك، ويُضَمُّ بعضُها إلى بعض، وبذلك تمتلِئ.

فتَجِلَّةُ القسَم الوارد في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) تكون بهذا منْ ربّ العزّة، جلَّ جلالُه، وعَظُمَ سُلْطَانه.

روى مسلمٌ في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهَا رَبُّ العِزّةِ تَبَارَكَ

وتَعَالى قَدمَهُ، فَتَقُولُ: قَطِ. قَطِ وعِزَّتِكَ، ويُزْوَىٰ بَعْضُها إِلَىٰ بَعْضٍ».

**يُزْوَىٰ**: أي: يُطْوَىٰ ويُجْمَعُ.

● قـــولُ الله عـــزّ وجـــلّ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ (٨٨)﴾.

في هذه الآيات الثلاث الّتي ختم الله عزّ وجلّ بها السّورة، استكمالٌ لعناصر الرَّدّ على مقالات الذين كَفَرُوا الواردة في الدرسّ الأول من دروسها، والحكمةُ من تأخيرها كونُها متعلّقةً بالرّدّ على اتّهام شخص الرسول ﷺ بأنه ساحِرٌ كذّاب، وبأنّه يختلقُ ما يأتي به اختلاقاً، ويَزْعُمُ أنّه يُوحىٰ به إِلَيْهِ من ربّه، وبأنّ لَهُ غَرَضاً دُنيوِيّاً خاصّاً كالْعُلُوّ في الأرض فما يتعلّق بشخص الداعي ينبغي أن لا يهتَمَّ له، فإذا كانَ له صلةٌ ما بمضمون رسالته، وتقتضي الحكمة الرّدّ عليه، فلْيكُنْ في آخر ما يَهْتَمُ له ويُوَجِّهُ له عنايته.

(١) فقولهم الذي ذكره الله في الدرس الأول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ (٦)﴾.

أي: إنّ هذا الّذي يدعو إليه محمّد من جعل الآلهة، إلٰهاً واحداً، وما يدّعيه من النبوّة والرّسالة، والإنْذارِ بعقاب الله المؤجّل إلى يوم الدِّين، مع عِقَابٍ ربّما يُعَجَّلُ في الحياة الدنيا، أمْرٌ يُرادُ لمصلحته الشخصيَّة الدّنيوية، كالمال والزعامة وحبّ السلطان، يتطلّبُ رَدّاً ملائماً قاطعاً لاتهامهم له.

فعلّم الله عزّ وجلّ رسوله أنْ يقول لهم جواباً قاطعاً لاتهامهم له بالمصالح الشخصيَّة الدنيويَّة: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . . . (٨٦)﴾.

وقد سبَق أَنْ أنزل الله عزّ وجلَّ قبلْ هذا التعليم قولَهُ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦)﴾؟!

والمعنى أنّكَ لا تَسْأَلُهُمْ في الواقع أجراً ما، مع التعريض لَهُ ضِمْناً بأنْ يكُونَ حَذِراً من أن يسألَهُمْ أقلَّ شيءٍ يُشْعِرُ بأنَّه مِنْ مَقَاصِدِ ما يقومُ به في دعوته، حتّىٰ لا يكون ذلك ذريعةً للطَّعْنِ في دعوتِه بأنَّه صاحبُ مصالح خاصّةٍ منها عنْدَ قَوْمِه.

وهُنا في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) أمَرَ الله عزّ وجلّ رسوله بأن يُصرّح لهُمْ تَصْريحاً وِجَاهياً قَائِلاً لهم: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ.

وفي هذا رَدّ كافٍ على اتّهامه بأنّه ذو مصلحةٍ شخصيَّةٍ دنيوية من دعوته، وادّعائِه النبوّة والرّسالة.

(٢) وقولهم الذي ذكره الله عزّ وجلّ في الدرس الأوّل: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾: أي: هذا سَاحِرٌ في بيانِه الذي يقول بشأنه هو من عند الله، وكذّابٌ في ادّعائه أنَّهُ كلام الله، وأنه وحْيٌ أوحى الله إليه به. وقولهم عن مقالاته في التوحيد وإبطال الشرك: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾: أي: ما هٰذا إلاّ قوْلٌ كَذِبٌ يفْتَرِيه على الحقيقة، ويفتريه على الله، يستَدْعِيَان ردّاً مُحْكَماً مُسْقِطاً لهما.

فعلّم الله رسولَه أنْ يقول لهم جَواباً عليهما:

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

**المُتَكَلّف**: هو الّذي يَتَصَنَّعُ أَمْراً بالكُلفَةِ علَىٰ خلاف فطرته وعادته الدائمة. والسَّاحِرُ من أكثر النّاسِ تكلُّفاً وتَصَنُّعاً وتزويراً، والكذَّابُ الذي يختلق المفتريات ولا سيما المفترياتُ على الله، هو كذلك من أكثر الناس تكلُّفاً وتصنُّعاً وتزويراً.

وقد عاش رسولُ الله ﷺ في قومه أكثر من أرْبعين سنة، لم يَعْرِفُوا منْهُ فيها إلاّ الصِّدْق والأمانة والصَّرَاحَةَ في أموره كلّها، ولم يَعْرِفوا منه تصنُّعاً ما، ولا تكلّفاً ما، ولا أمراً يُشْتَبَهُ به منه في أموره كلّها.

أفيكون كذلك طَوَال عُمْره قبْلَ النُّبوّة في قَوْمه، غَيْرَ متكلّف ولا مُتَصنّع في أمْرٍ ما من أمُوره، ويَبْقَىٰ على صفاء فطرته لا يكذبُ ولا يَتَعاطَىٰ لوناً من ألوان السِّحْر، ولا يفتري على أحَدٍ فِرْيَةً ما يَصْطَنِعُها اصطناعاً، ويتكلَّفُها تَكلُّفاً، حتَّىٰ إذا أوحَىٰ اللَّهُ إليه بعْدَ هٰذِهِ الْبَراءَة التامّة، والصَّفَاءِ الكامِلِ، في خُلُقِه وعاداته، يقولُ قَومُه عَنْهُ، وهم الخبيرونَ به: ساحِرٌ كذَّابٌ يفتري على الله.

إنّ من عاشَ عُمْراً بلَغَ فيه أربعين سنة، لا يتصَنَّع في أَمْرٍ ما من أموره وَلاَ يتكلّف، ولا يَفْتَري ولا يكذب، لا يستطيع أن يخالف طبْعَهُ وعاداته، فيتصَنَّعُ ويفتري ويكْذِب، ولا تُطَاوعه فِطْرَتُهُ على ذلك، وهذا مشاهَدٌ في كلّ الناس.

فإذَا ذكَّرَهُم الرسُول ﷺ بأنّه ليْسَ هو من المتكلّفين المتصنّعِين، كما يَعْلَمُونَ ذلِكَ من خُلُقِه وعادَتهِ وطَبْعِهِ، كانَ ذلِكَ حُجَّةً عليهم، ودفعاً بغاية الرفْقِ لاتّهامهم الشَّنيعِ له بأنّه ساحِرٌ كذَّابٌ مُخْتَلِقٌ علىٰ الله.

أمّا القرآنُ الّذي زَعَمُوا أنّه نوعٌ من أنواع السِّحر، وأنّه مُخْتَلَقٌ مُفْتَرَىٰ على الله، وهو المتضمّن لدَعْوَةِ الرّسول، فقد علَّمَ الله عزّ وجلّ رسُوله أنْ يقول لهم بشأنه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: إذا رفَضْتم آيات إعجاز القرآن البياني، الدّلاّت علَىٰ أنّهُ كلامُ الله، وتنيزلٌ من لدُنْه، مُدَّعين أنّ إعجازه البيانيَّ نوعٌ من أنواع السّحر، فإنّ أمامَكُمْ فيه المضامين الفكريَّة المعجزة، والّتي يجب على كلّ ذي فِكْرٍ من العالَمِين أجْمَعين أنْ يَعْلَمَها، ويتفَهَّمَها، ويَتَدَبَّر معانيها، ثم يجعلها في ذاكِرَتِه، ليتّبعَ هَدْيَها في مَسِيرَةِ حياته، ولتكونَ له سراجاً هادياً يَهْدِي إلى صراط السعادة والمجْدِ العظيم.

فإذا فحصْتُمْ مضامينَ هذا البيان القرانيّ العظيم تتبُّعاً لجُزْئياته الفكريَّة، لم تجدُوهُ إلاّ ذِكْراً لِلْعَالَمِينَ أَجْمَعِينَ، لا لَكُمْ فقط، ولا للعرب فقط، بل للعالَمين كلّ العالَمِين.

وهذا برهان عَلىٰ أنّه تنزيلٌ من عِنْد الله ربّ العالمين، إذْ لا يوجَدُ كتابٌ في الدنيا من عِنْدِ غير الله، يصْلُح لأَنْ يكون كُلُّ ما فيه ذِكْراً لكُلّ العالَمِين.

فما أَعْجَبَ عُمْقَ هذا الاستدلال على أنّ القرآن كلام الله عزّ وجلّ، وأنَّهُ لَيْسَ من صُنْع محمّد، فلَيْس هو سِحْراً، وليس شيءٌ فيه اختلافاً ولا كذِباً.

والمعنى: ما هو في حقيقة عناصِرِه الفكريَّةِ، غير تعليم حقٍّ يجب أن يجعله مُفكّرُو العالَمِين أجمعين ذِكْراً لهم، يهْتَدُونَ بِهَدْيه دواماً.

أمّا مضامين القرآن الخبرِّيةِ، وما يشتمل عليه من أنباء، ما مضَىٰ مِنها، وما هو قائم في كوْن الله منها، لكنّ النَّاس لم يعلموه بَعْدُ، لِعَدَمِ تَوَصُّلِ وسائلهم العلميّة إلى كَشْفِه لمعرفته، وما سيأتي منها أو سَوْف يأتي، فقد علّم الله عزّ وجلّ رسوله أن يقولَ لقومه بشأنها، وهو قول مُوجَّهٌ لكلّ الناس، مهما توالت العصور وتعاقبت الدُّهور:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: ولتَعْلَمُنَّ بَعْدَ حينٍ من الدَّهْر مُطَابقَةَ كلّ ما جاء فيه من أنباء للواقع والحقيقة.

فالماضي تكشِفُهُ دلائل الآثار، والواقع الخفيُّ القائم في الكَوْن تَكْشِفُه وسائلَ البحث العِلْمِيّ الإنسانيّ تباعاً، مع تقَدُّم العلوم، وارتقاء الوسائل وتقدِمها، والمستقبل منه سيَحْدُثُ أو سوف يحدُث كما جاءَ في الأنباء القرآنية.

وفي هذا تَنْبِيهٌ على بُرْهانٍ دَامِغٍ يُثْبِتُ في كلّ عَصْرٍ أنّ القرآنَ كلامُ الله، وتنزيلٌ من لَدُنْه.

﴿نَبَأَهُ ﴾: أي: خَبَرَهُ: النَّبَأُ: الخبر الذي تتوجّه الأنظار إليه لبروزه وظهوره وهو اسم جنس يصْدُقُ على القليل والكثير، وبإضافته إلى ضمير القرآن صار يَعُمُّ كلّ أنبائه.

وقد تمّ بعون الله وتوفيقه وفَتْحِه تدبّر سورة (صٓ) والحمد لله على ما تفضل به وأنعم.

❁ ❁ ❁

## ملاحق لسورة (صٓ)

**الملحق الأول**: نموذج من التدرج الارتقائي في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل.

**الملحق الثاني**: مستخرجات بلاغيّة من السّورة.

**الملحق الثالث**: تدبّر بقية ما جاء في القرآن المجيد عن داود عليه السلام.

**الملحق الرابع**: قصة خَلْق آدم في القرآن المجيد وما رافق خلقه من أحداث.

## (٩)
## الملحق الأول
## نموذج من التدرج الارتقائي
## في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل

جاء إعلام أئمة الشِّرك والكفر في مكة بإهلاك كُفَّارِ الْقُرونِ السابقة، تَلْويحاً بالْإِنْذَارِ، ثم تَذْكِيراً بِهِ، في نُجُوم التنزيل حتى نزول سورة (ص) ستّ مرّات.

ويُلاحِظُ المتدبِّر أنّه قد جاء التعبير عنه في هٰذه النصوص السّتة متدرجاً تدرُّجاً ارتقائياً في أسْلُوب البيان المختار، وفيما يلي استعراض لما جاء في هذه النصوص السّتة.

(١) جاء هذا البيانُ أوّلاً بأسْلُوب الْعَرْض الاسْتِفهاميّ خطاباً موجَّهاً لشَخْصٍ غَيْرِ مُعيّن، فهو يشمل كلّ مُتَلَقٍ على سبيل الخطاب الإفراديّ.

وهو ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾./

(٢) ثمّ جاء هذا البيان بأسلوب العرض الخبريّ بشأن إهلاك أصحاب الأخدود، وجاء هذا العرض الخبريُّ متّسماً بالعنف والشدّة.

وهو ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

(٣) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الاستفهام الموجّه للمكذِّبين الّذين كذّبوا الرسُول وكذّبوا بيَوْم الدّين على وجْهِ العموم.

وهو ما جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

(٤) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الحديث عن كُفَّارِ مَكَّةَ صراحةً، مع التلويح بالإنذار بإهلاكهم إذا وصلت أحوالهم إلى مثل الأحوال الّتي وصَلَ إليها المهْلَكُونَ السّابقون.

وهو ما جاء في سورة (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وقول الله عزّ وجل فيها أيضاً:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

(٥) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الحديث عنهم مع التلويم والتثريب، إذْ لم يَتَّعِظُوا ولَمْ يَزْدَجِرُوا، على الرغم من أنّهم قد جاءهم من الأنْباءِ ما فيه مُزْدجر.

وهو ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (الْقَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾.

وبعد هذا جاء عَرْضٌ فيه بعضُ تفصيل لِقَصَصِ بعض المهلكين الأوّلين.

(٦) ثم جاء هذا البيان في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) مشابهاً لما جاء في سورة (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) ولكنْ جاء في سورة

(ص) زيادَةُ تأكيدٍ في اللَّفْظِ، وإضافةِ فكرةِ أنَّ المهلَكين السَّابقين نادَوْا حينَ أنْزَلَ الله عزّ وجلّ بهم وسائل إهلاكهم، فلم يستجب أَحَدٌ لندائهم، ولم يكن لهم مناصٌ من تَلَقّي عذابِ الله العادل.

فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾.

فجاء في سورة (ص): ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ بإظهار حرف «من» أمَّا في سورة (ق) فجاءت العبارة. [قَبْلَهُمْ].

وتكامل النَّصّان الذي في (ق) والذي في (ص) في تصوير عدم استطاعة المهلَكين التَّخَلُّصَ من تلقّي عذاب الله، ففي سورة (قٓ) جاءت العبارة: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ وفي سورة (ص) جاءت العبارة: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

ويستفيد الباحثون في علم الترتبية، من هذا المنهج التدرُّجيّ الارتقائيّ الربّانيّ، الذي جاء في هذا الملحقِ بيَانُه، لأَنْوَاع العلاجِ التربوي.

**والحمد لله على فتحه وتوفيقه**

❁ ❁ ❁

## (١٠)
## الملحق الثاني
## مستخرجات بلاغية من السّورة

في هذه السورة اختيارات بلاغيّة كثيرة، وأُنَبِّه في هذا المَلْحَق على طائفةٍ منها. ويَجِدُ القارئ خلال تدبُّر السّورة بيانَ بلاَغِيّاتٍ أخرى لم أذكرها هنا.

(١) الْقَسَمُ بما يتَضَمَّن دليلاً على صِدْقِ وصحَّة المقْسَمِ علَيْه في

قول الله عزّ وجل: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ①﴾ فالقسم بالقرآن ذي الصفات الّتي تؤهّله لأن يكون هو الذّكرَ الأعظم للعالمين، دليل على أنّ المقسَم عليه حقٌّ، وهو كون محمّد الذي بلّغهُ عن ربّه صادقاً في ادّعائه النبوّةَ والرّسالة. وهذا المقسَمُ عليه محذوفٌ في اللفظ إيجازاً، ومقدّرٌ في المعنىٰ تقديراً تدلُّ عليه القرائن، ويُدْرِكُهُ المتدبر دون كُلْفة.

(٢) الإيجاز بالحذف، وهو كثير في هذه السورة.

● فمنه ما هو في: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ⑥﴾: أي: وانْطَلَقَ الملأ منهم وهُمْ يتحدَّثُونَ فيما بَيْنهم أنِ امْشُوا. . . .

● ومنه ما هُوَ في: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ . . . ⑧﴾: أي: إنَّهم لا يشكُّون في بُعْدِ محمّد عن الكذب، بل هم يشُكُّون في مضمون ما جاءهم به، وهو ذكري الّذي أنزلتُه لهدايتهم، لأنه يخالفُ أهواءهم.

● ومنه ما هو في: ﴿. . . وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ㉔﴾ بشأن داود عليه السلام، أي: وخَرَّ راكعاً وأنابَ سَاجِداً.

وغيرها مما جاء بيانه في تدبُّر السورة.

(٣) تأكيد الإسناد في عدد من الجمل الخبريَّة مراعاة لمقتضى الحال، بمؤكدات منها «إنّ ـ الجملة الإسمية ـ اللآم المزحلقة ـ من الزائدة لتأكيد الاستغراق أو التنصيص عليه ـ اللاَّم الموطئة للقَسَم».

وأترك لذي الخبرة البلاغيَّة استخراجها.

(٤) الحصر والقصر:

● في: ﴿. . . إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ⑦﴾: أي: ما هذا الذي جاء به محمّد ويدّعي أنّه من عند الله إلاّ اختلاق من عنده.

وهذا من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى صفتي الصّدْقِ والاختلاق.

● وفي: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ بشأن طائفة من الَّذِين أُهْلِكُوا من كُفَّارِ القرون السّابقة.

وهذا أيضاً من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى دعوات رُسُل رَبّهم.

● وفي: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً . . . ﴿١٥﴾﴾ أي: تهلكهم.

وهذا أيضاً من قبيل الْقَصْرِ الإضافي. . . أي: لا يُنْتَظَرُ منهم أن يستجيبوا لدعوة الرسول، فكأنهم لا يترقَّبُون إلاَّ صَيْحَةً مهلكة لهم بالإضافة إلى قضيَّةِ تكذيبهم للرسول، وقد يكون إهلاكهم بغير الصيحة، وقد يُمْهلُون.

● وفي: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ . . . ﴿٦٥﴾﴾: أي: لم يبق من دعوتي بالإضافة إليكم إلاّ الإنْذار، فأنا بالنسبة إليكم منذرٌ فقط.

ونظيره: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

فهما من قبيل القصر الإضافي.

وفي: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾:

أي وما مِنْ إلَهٍ لَهُ صفةُ الإلَهيّة الحقيقية، إذْ هو ربّ السماوات والأرض وما بينهما، إلاّ الله الواحد القهّار.

وهذا مِنْ قبيل القَصْر الحقيقيّ، لأنّ صفة الإلهيّة الحقيقيّة مقصورةٌ عليه جلّ جلالُه وعظم سلطانه، وهو من قصر صفة على موصوف.

(٥) الإلماح الذي لا يُدْرِكُ الْقَصْدَ منه إلاّ الرسُول ﷺ، وربّما بعض نُطَناء أصحابه، في قول الله عزّ وجلّ:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾:

ففي هٰذه الآية إلْماحٌ للرَّسُول بأنَّه سيواجِهُ في المستقبل عُتَاةَ مُشركي مكة في معارك قتاليَّة، وسينصُره الله عليهم، ولَمْ يتَنَبَّهْ إلى هذا الإلماح أذْكيَاءُ المشركين، إذا الغرضُ إخفاؤه عنهم، حتّى لا يتداركُوا الأمْر بخُطَط حربيَّةٍ يواجِهُون بها الرسُول وأصحابَهُ، وهم ما زالوا تحت أيديهم في مكّة، وقد جاء تغليف هذا الإلْماح بذِكْرِ طَائفةٍ من أحزاب الّذين أُهْلِكُوا في القرون الأولى، قوم نوح وعاد وفرعون وغيرهم، وغُلِّفَ أيضاً بعبارة: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ لأنَّ هٰذِهِ الصيْحَةَ لاَ تكونُ إلاّ رَبَّانيَّة.

(٦) الاستفهام الذي يرادُ به إثارة الانْتِبَاه لتلقّي الْخبَرِ في:

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾؟.

(٧) اقتطاع النّصّ من وقت توجيهه في الماضي أو في المستقبل، وتقديمه بصورته، دون ذِكرِ ما يدُلُّ على أنّه حكايةُ أمْرٍ جرى، أو سيجري، أو سوف يجري.

وهذا من الإبداعات البلاغيّة في القرآن الّتي لم تكن معروفةً عند البلغاء، وقد ظهر لها نظيرٌ في الفنون التمثيليّة المعاصِرَة لنا.

ونجد هذا الأسلوب البيانيّ في أمكنة متعدّدة من هٰذِه السورة:

- فمنه خطابُ الله عزّ وجلّ لسليمانَ عليه السلام في قوله تعالى:

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾.

- ومِنْهُ خطاب الله عزّ وجلّ لأيُّوب عليه السلام في قوله تعالى:

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾.

وفي قوله تعالى:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ . . .﴾.

وكلّ هذه النصوص مستَقْطَعَةٌ ممَّا جَرَى في زمانٍ مضى.

● ومنه ما سوف يكون من خطابٍ سوف يوجَّهُ لأهل جهنَّم، وَمَا يجيبُ به أَئِمَّةُ الكافِرِينَ:

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾.

(٨) حكاية الحدَثِ الذي سوْفَ يكونُ في المستقبل بأسْلُوب حكاية أمْرٍ مضىٰ للإشعار بأنَّهُ سَوْف يَحْدُثُ كذلِكَ في المستقبل حتماً.

ومنه حكاية قول أتباع أئمة الكُفْرِ وهم يُساقون ليكونوا معهم في دار العـــذاب: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ وثلاث آيات بعْدَها في السورة.

❁ ❁ ❁

## (١١)
## الملحق الثالث
## تدبُّر بقية ما جاء في القرآن المجيد عن داود عليه السلام بنظرة تكامليّة

جاء في القرآن المجيد بشأن داود عليه السّلام تسعة نُصُوصٍ في تِسْعِ سُورٍ، هي السُّور التالية (صَ ـ النمل ـ الإسراء ـ الأنعام ـ سَبأ ـ الأنبياء ـ البقرة ـ النّساء ـ المائدة).

وأُحَاول دِرَاسَةَ جميع النّصوص الواردة في هذه السّورِ، وتدبُّرَها ضمن منهج التفسير الموضوعي، في هذا الملحق إنْ شاء الله.

### النصّ الأول:

هو النص الذي جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) وهو

الآيات من (١٧ ـ ٢٦) وقد سبَق تدبُّره خلال تدبّر هذه السّورة، فلا حاجة إلى إعادة تدبّره.

## النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾.

فأضاف هٰذَا النَّصُّ إلَىٰ ما سبَقَ إنزالُهُ في سورة (ص) أرْبعَ قَضَايا:

**القضيَّةُ الأولى:** أنّ الله عزّ وجلّ لقد آتَىٰ داوُدَ وكذلِك ولده سليمان عليهما السلام عِلْماً.

ويظهر أنَّ هذا الْعِلْمَ شيءٌ آخَرُ غيْرُ «الحكمة وفَصْلِ الخطاب» الّذَيْنِ آتاهما الله تبارَكَ وتعالى داوُدَ عليه السّلام، والّذَيْن جاء بيانهما في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

والتنكير في لفظ ﴿عِلْمًاۖ﴾ قَد يُشعِرُ بمعنَىٰ الخصوصية في النوع، أي: نوعاً من العلم اختَصَّهما الله به.

**القضية الثانية:** أنّ داوُدَ وكذلِكَ وَلَدُهُ عليهما السَّلام، قَدْ حَمِدا الله قائلين:

﴿... ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾.

ونستطيع أن نفهم أنّهما قيّدا ما فضَّلَهُما الله به بكثير من عباد الله المؤمنين، لأمور:

(١) منها أنّ المؤمِنينَ مفضَّلُونَ علَىٰ كلّ غير المؤمنين بالفضائل الإيمانيَّة، فهما مُفَضّلان بها لزوماً على جميع الناس غير المؤمنين.

(٢) ومنها أنّ ما فُضِّلا به من أُمُور الدُّنيا قَدْ يكون لَدىٰ غَيْر المؤمنين أو بَعْضِ المؤمنين أشْيَاءُ قَدْ أعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنْها أكْثَرَ ممّا أعْطَىٰ داوُدَ وسُلَيْمان عليهما السّلام، كالمال والسُّلْطانِ الواسع في الأرض، ونحو ذلك، ومن هؤلاء بعضُ الفراعنة والأكاسرة والقياصرة، وذُو القرنين.

فهما يحترسان بهذا الْقَيْدِ عن الوقوع في الخطأ ومخالفة الواقع، وكذلك ينبغي أنْ يكون حالُ من رأىٰ لِنَفْسِه فضلاً، أن لاَ يظُنَّ تَفَرُّدَه به، وأن لا يَدَّعِيَ ذلِكَ، وأَنْ يقول مَا يَعْلَمُ مِنَ الحقّ.

**القضيّة الثالثة**: أنّ الوارِثَ الذي وَرِثَ داوُدَ من بَعْدِه في الْمُلْكِ وفي سَائِرِ الخصائص هو ولَدُهُ سلَيْمَانُ عليهما السلام.

**القضيّة الرابعة**: نَلْمَحُ أَنَّ النَّصَّ يُشِيرُ إلىٰ أنَّ الحمْدَ الذي حَمِدَهُ داوُد ووَلَدُه سليمان عليما السّلام، قد كان في أواخرِ حياة داود وأوائلِ اكتمالِ سليمان، عند ما صارَ مُهيّأً لأن يَرِثَ الملْكَ عن أبيه.

فقول الله عزّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ يُشْعِرُ بأنَّهُ كان دُعاءً مُشتَركاً، وظاهرٌ أنّ سليمان لاَ يُشارِكُ أباه في هذا الدُّعاء إلاَّ وهو ذُو نُضْجٍ.

قال المؤرخون: ومَلَكَ سليمانُ عليه السَّلامُ وهو يافع، على اختلاف الرّوايات في عُمْره حينَ صَارَ ملكاً ما بين (١٢) سنة و (٢٢) سنة.

وقد جاء عقب هذا النصّ مِنْ سورة (النمل) قول الله عزّ وجل:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ . . .﴾ فهذا الإتباعُ في البيان يُشْعِرُ بعدم وُجُودِ فاصلٍ زمَنيٍّ طويلٍ بين الدُّعاء وَوِراثَة سُلَيْمانَ الملْكَ من أَبيه.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

**الفضل**: هو في اللُّغةِ الزّيادة ممّا يُحْمَدُ غالباً، **والتّفْضِيلُ**: هو الإعطاء الزائد على النُّظراء أو شبْهِهِم ممَّا يُحْمَدُ، مِنْ مادّيّاتٍ أَوْ مَعْنويَّات.

فقد يكون التفضيل بإيتاء زيادةٍ من ألعِلْم، أو بإيتاء زيادة من الفهم والحكمة، أو زيادةٍ من القوّة والسُّلطان، أو زيادةٍ من الخُلق الرفيع والفضائل النفسيّة، أو زيادةٍ في الرزْقِ وفيوض النّعم.

لكِنَّ تفضيل بعْضِ النبيّين على بعضٍ لا بُدَّ أن يكون بزياداتٍ من خصائص النبوّة وفضائلها، كتخصيص موسى عليه السّلام بتكليم الله عزّ وجلّ له، وكتخصيص بعْضِ الرُّسل بإنْزَال كُتُبٍ عليهم ذَواتٍ شأن عظيم، وكإلْهَام بعض النبيّين وتوفيقهم إلى أقوالٍ وحكَم نفيسة يقولونها، فَتُدَوَّنُ فتكونُ كُتُباً مأثُورةً عنهم، كمزاميرِ داود، وأمثال سليمان عليهما السلام.

أمّا قول الله عزّ وجل في هذا النّصّ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ بعْدَ بيان تفضيلِ بعض النبيّين علىٰ بَعْضٍ، فَهُو يَدُلُّ علىٰ أنّ هٰذا الزّبور ممّا فضّل الله به داوُدَ على بعض النبيين.

**الزّبُور**: هو في اللُّغة الكِتَابُ المزْبُور، أي: المكتوب باتقان، يقال لُغةً: زَبَر الكِتَابَ إِذَا كَتَبه، أَوْ إذا أتقن كتابته، وجمع «زبور» يأتي على «زُبُر» أي: «كتب».

وقد جاء لفظ زبور في النصّ هنا منكراً: ﴿زَبُورًا﴾ ولم يأتِ معرَّفاً بأداة التعريف، كما عبَّر الله عزَّ وجلّ بشأْن التّوراة والإنجيل والقرآن، للإشعار بأنّ كتاب داوُد لم يرْقَ إلى المنزلة الرفيعة العظيمة الّتي بلَغتْها هذه

الكتُبَ الثلاثة، مع وجود التفاضل بين هذه الكتب الثلاثة الرّبّانية، إذ القرآنُ أجلُّها وأعظمها منزلة، وأكْثَرُها جمعاً لما فيه هِدَايَةُ الناس وسعادتُهم في الدنيا والآخرة.

فأضاف هذا النصّ على ما نزل قبله بشأن داود عليه السلام بيان أن الله عزّ وجلّ قد آتاه زبوراً، أي: كتاباً فيه إتقان.

## النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بعد بيان أنّ داود من ذُرّيَة إبراهيم الذين هداهم الله وآتاهم النبوة والرسالة، وأنّهُ معهم من المحسنين، أهل مرتبة الإحسان:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ . . . ﴿٨٩﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ بشأن داود عليه السّلام ما يلي:

(١) أنّ داود من ذُرّيَة إبراهيم عليهما السلام.

(٢) أنّه من الّذين آتاهم الله الكِتَابَ والْحُكْمَ والنُّبوة.

**الحُكْمُ**: أي: القدرة على فَهْمِ القضايا، ومنها قضايا المتخاصمين، وإصدار الحكم الحقّ بها، أو المُمْكِن الأقرب للحقّ والعدل. **والحكْمُ**: فقه الأمور، والقضاء بالْعَدْل، وحُسْنُ الإدارة.

(٣) أنّه من المرسلين، لِذكْرِه ضِمْن الرُّسُل من ذُرّيَّةِ إبراهيم عليهم السلام.

(٤) أنّه من المحسنين، أي من الّذين ارْتَقَوْا إلى مرتبة «الإحسان» ودونها مَرْتبة «البرّ» ودونَهُمَا مرتبة «التقوى».

## النّصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

جاء في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بيان أنّ اللَّهَ عزّ وجلَّ سَخَّرَ الجبالَ مع داود يُسَبِّحنَ بالْعَشِيّ والإشراق، وسَخَّرَ الطَّيْرَ محشورةً كلٌّ له أوّاب.

أمّا النصّ الذي من سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) ففيه بيان أنَّ الله عزّ وجلّ لقد آتىٰ دَاوُد منه فضْلاً، أي: عطاءً زائداً خصَّهُ به، وفكرةُ الفضل هذهِ لم يَسْبِق لها ذكْرٌ فيما نزل قبل سورة (سبأ) بالنسبة إلى داود عليه السلام، واستدعَىٰ ذكْرُها بيان بعض مفردات هذا الفضل، فأبان الله عزّ وجلّ أنَّ تسبيح الجبال، وحَشْرَ الطير وتسبيحَها مَعَهُ من هذا الفضل الذي منحه الله إياه، وأضاف مع ذلك قضيّتَيْنِ:

**القضية الأولى**: أنّ الله عزّ وجَلَّ أمَرَ الجبال بأن تُسَبّح معه، وبيانُ هذه القضيّة بيانٌ لبَعْضِ عناصر العقيدة الإيمانيَّة، إذْ كلُّ ظاهرةٍ جَبْرِيَّة، في الوجود إنّما توجَدُ بأمْرِ التكوين الرَّبّاني.

**القضية الثانية**: أنّ تسبيح الجبال معه قد كان صدا تَسْبيح داود وترنيماته.

دلَّ على هاتين القَضيّتَيْن قول الله في هذا النصّ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾: **أوّبي**: أي: رَجِّعِي: يقالُ لُغَةً: أوّبَ إذا رَجَّعَ الصَّوْت. وهذا الأَمْرُ للجبال هو من قبيل الأمْرِ التكويني الجبريّ.

وجُمْلَةُ ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ بدلُ بعضٍ من قوله تعالى: ﴿فَضْلًا ۖ﴾ فهي في محلّ نصْب، والغرض بيان بعض مفردات هذا الفضل الذي آتاه الله إياه.

والمعنى: ولَقَدْ آتينا داوُد منّا فضلاً تَرْجِيعَ الجبال بأمْرِنا صدا صوتِه الشجيّ النديّ في تسابيحه، قَائِلين: يا جبالُ أَوِّبي معه.

وأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ، تَرْجِيعَ الطيْرِ معه التسبيح، فقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ فهو معطوفٌ على الْبَدَلِ السّابق، فالاقتصار على ذكر الطَّيْر معطوفةً بالنَّصْبِ على مَحلّ جُمْلَةِ: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ يَدُلُّنا على أنّ الأمْرَين متماثلان، أي: آتيناه فَضْلَ تَرْجيع الجبال معه بِأَمْرِنا إذْ آتيناهُ صَوْتاً عالياً نديّاً، وفَضْلَ تَرْجيع الطَّيرِ التي تُحْشَرُ لَهُ، إذْ آتَيْنَاهُ صَوتاً حَسَناً تَطْرَبُ منه بَعْضُ أصناف الطيور، فتُرَجِّعُ معه بعض ترنيماته.

إذا دقَّقْنَا في هٰذه المعاني وجدناها مضافة إلى ما سبَقَ بيانه في مراحل التنزيل عن داود عليه السلام، ووجدناها غير مكرّرة، فالموضوع واحد، لكنّ عناصر معانيه مجزّأةٌ موزّعة متكاملة فيما بينها.

وأضاف هذا النصّ بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد ألان لداود الحديد، وأمَرَه أنْ يجعَلَ من الحَدِيد دُروعاً سابغات، فقال تعالى فيه)

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ . . . ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾: أي: وجعَلْنَا الْحَدِيدَ لَيّناً في يَدَيْهِ، قالوا: فكان كالعجين أو كالشَّمْع في يَدَيْه وقت عَمَلِهِ به، ثُمّ يَعُودُ الحديدُ إلى صلابته.

وبيان هذه القضية من القضايا المضافة إلى ما سبَق بيانه في مراحل التنزيل.

ونتساءل: هل المرادُ بِإلَانَةِ الحديد له تغيير خصائص الحديدِ الصُّلْبة له حال عَمَله فيه، أمْ إعْطَاؤه القوّة الجسَدِيَّة العظيمة الّتي يلين بها الحديد، أمْ إعطاؤهُ طَاقَةً إشعاعيَّةً تَنْطَلِقُ من جسَدِه لَهَا خُصُوصِيَّةُ إلاَنَةِ الحديد؟؟.

أقول: لا نَمْلِكُ دليلاً يُحَدِّدُ واحداً منها ولعلَّ آخِرَهَا مع قوّته الجسَدِيَّةِ المعرُوفة هي المرادة، فهي الأقرب لما نَعْرِفُ من تجاربِ العلوم، وخصائص الطّاقاتِ الإشعاعيَّة، والله أعلم.

وإذْ ألاَنَ اللّهُ عزّ وجلّ لداود عليه السّلاَمُ الحديدَ، أمَرَه بأن يستخدم ذلك في صناعة الدّروع الواقية من ضرَبَات السُّيوف والرّماح والنبال وغيرِها في الحرب.

ونلاحظ في أمر الله عزّ وجلّ داود بصناعة الدّروع أنّه جلّ جلالُه آثر التوجيه للوقاية من شرور القتال، إذْ لم يأمُرْ بصناعة السُّيوف والرّماح والنبال ونحوها، والسَّبَبُ في هذا على ما يظهر أنّ النّاس يتفنَّنُون في صناعة أدوات القتال برغبة التسلّط، والعُلُوّ في الأرض، والله عزّ وجل جعَلَ الدّار الآخرة المملوءَةَ بأنواع السّعادات للّذين لا يُريدون علُوّاً في الأرض ولا فساداً.

وأمْرُ الله الذين آمَنوا بأنْ يُعِدُّوا ما يَسْتَطِيعُونَ من قوة، إنّما هو للحِمَايَةِ والإِرْهَاب المعنوي، لا ليكُونَ وسيلةً للعلُوِّ في الأرض، ولمُمَارَسَةِ الْفَسادِ والإفساد.

والدُّرُوعُ الّتي علَّم اللّهُ دَاودَ عليه السّلامُ ابتكارَهاَ هي دُرُوع الزَّرَدِ التي تُلْبَسُ كالثّياب، وقَدْ كانت الدروع قبْلَه صفائح من حديد.

● ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٍ﴾: أي: أن أعْمَلْ يا داود دُروعاً سابغات، استغني بالصفة عن الموصوف، وشاعت كلمة «سابغات» للدلالة على الدروع.

**سَابِغات**: أي: تامّات كامِلاَت ساترات لِمَقَاتِل الْمُقَاتل.

**السُّبُوغ في اللّغة**: التمام والكمال، يقال: شيءٌ سابغٌ، أي: كاملٌ وافٍ. سَبَغَ يسْبُغ سُبُوغاً، أي: طال إلى الأرض واتّسع. وأسْبَغَهُ يُسْبِغُهُ، أي: جعلَهُ طويلاً واسعاً.

وإسْبَاغُ الوضوء، إتمامُهُ وإكمالُه وإعطاؤه حقَّهُ، مع زيادة تحقّقُ فِعْلَ المطلوب.

• ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾: أي: وأحْكِمْ مَقَادِير حَلَقِ الدُّروع، ومقاديرَ الثقوب عند مواطن اتّصالها ببعضها، ومقاديرَ مسامير الرَّبط بيْنَها، حتَّىٰ تُؤَدِّي الغرض منها أداءً حسناً، وأحْكِمْ تفصيلَها على مقادير أجساد لاَبِسِيهَا، حتّىٰ تكون وافية الوقاية، تامّة الصنعة

**السَّرْد**: إتباع الشيء بشيءٍ نظيره، حتّىٰ يكون الكلُّ مؤلّفاً من وحدات متّسِقَاتٍ متَتَابِعَاتٍ متماثلات.

ويطلق لفظ «السَّرْدِ» على الدّروع، وعلى سائر الحلق، ويُطْلَقُ علَىٰ الثَّقْب. يقال لغة: سَرَدَ الشيءَ وسَرَّدَهُ وأَسْرَده، أي: ثقبه.

**والسِّرَادُ** والْمِسْرَدُ: المِثْقَبُ. **والْمَسْرُودَةُ**: الدّرْع المثقوبة ويقال لصانع ذلك: سَرَّاد، وزرّاد، بإبدال السين زاياً.

و «أنْ» في: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ تفسيريّة، والمفسَّرُ مطوي يكشفُه التدبّر، والتقدير: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ مُوصين إيّاهُ ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ فأبان له الغاية من إلانة الحديد له.

• ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾:

كان الكلامُ مُوَجّهاً لداود، وجاء في هذه العبارة قول الله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ موجّهاً لجماعَةٍ، ويُفْهم من هذا أنَّ الأعْمَال الصّنَاعيَّة تحتاجُ إلى رئيسٍ مُعَلِّم مُحْكِمٍ للصنْعَةِ ومُشْرِفٍ عليها، وتحتاج إلى مُعَاوِنينَ يُسَاعِدُونه في العمل ويتدَرَّبُون عنْدَهُ وبإشرافه، لتوفير الإنتاج الأكثر.

وفي هذه العبارة توجيهُ للّذين يَعْمَلُونَ معه للتعاون فيما بينهم تعاوناً تَكَامُلِيّاً وتوجيهُ لإتقان العمل، فالعمل الصالح في الصناعات هو العمل المتقن.

وفي هٰذا التوجيه إشارةٌ إلَىٰ أنَّهُ ينْبَغي لمَنْ يَبْتَكِرُ أَوْ يُلْهَمُ أو يُعَلَّمُ

صَنْعَةً من الصناعات النافعات، أن يَجْعَل تَحْتَ يَدَيه من يَتَعَلَّمُها، لتكُون ميراثاً حضارياً بشرياً، تتقَدَّمُ به وترتقي الحضَارَةُ الإنسانيَّةُ ووسائلها.

أمّا من يحتكر سِرَّ صناعَتِهِ لنَفْسِه، فلا يجعل تحت يَدَيْه وإشرافه من يتعلّمها، فإنَّ صنَاعتَهُ الراقية ومهَارتَهُ تموتُ بمَوْتِه، ثُمَّ يَحتَاجُ المجتمع البشريّ أن تمرّ أزمانٌ طويلة حتّىٰ يظهر في النّاس نظيرُهُ، فيتعلّم الناس منه، إذا أذِنَ لَهُمْ بأنْ يَقْتَبِسُوا منه ما وهَبَهُ الله.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾: هذه العبارة تَدُلُّ لزوماً على وعْدِ الله للذين يَعْمَلُون صالحاً بالثواب على العمل الصالح، وبالعِقاب على العمل السّيّئ، لأنَّ من صفات الله جلّ جلاله، أنّه يتفضَّل على عباده بالثواب إذا أحْسَنُوا وأنَّه يجازي بالعدل المسيئين من عباده، إذا لَمْ تَقْتضِ حكْمَتُهُ الْعَفْوَ عنهم.

واقتبس الناس من داود عليه السّلام صناعة دُرُوع الزّرد، وانتشَرَت من بعده.

وتدلُّنَا نُصُوصٌ قرآنيَّةٌ متعدّدة على أنّ أصُول كثير من الصناعات البشريّة قد كانت على أيدي بعض أنبياء الله ورُسله، بأمْرِ من الله وتَعْلِيم، واقتبَسَها الناس عنهم فيما بعد، ثمّ طَوَّرُوا فيها وأضافوا، ضمن سلّم الارتقاء الحضاريّ التراكُميّ.

- فصناعةُ السُّفُنِ البحريَّة قد بدأتْ بتَعْليم من اللَّهِ عزّ وجلّ لنوح عليه السلام، وهذا فتح عظيم في مهنة النّجارة، فقد كان نوحٌ نجّاراً.
- ويوسفُ عليه السّلامُ قد كان المعَلِّمَ الأوّل لوزارات التموين في دُول شعوب الأرض.
- ووَرد أنّ إدْريس عليه السّلام أوّلُ من خطَّ بالقلم، وأوّلُ منْ خاط ونسَجَ.

وهكذا ظهر لنا أن عناصر هذا النصّ من سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) عناصِرُ مضافة كلُّها إلى ما سبَقَ إنزالُه بشأن داود عليه السلام.

فمن حكمة الله في تعدُّدِ النّصوصِ تجزِئَةُ الأفكار، وتقديمُ كلِّ فكرة منها في المناسبة الداعية إلى ذكرها، مع تكاملها فيما بينها.

**النصّ السادس:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟.

يشتمل هذا النصّ على ثلاث قضايا:

**القضية الأولى:** حُكْمُ داوُد عليه السَّلامُ في حادِثة تَعدٍّ مِن غنم بعض القوم على حرث آخرين فأفْسَدَتْه كلَّه، فَعلِمَ ابنُه سليمان عليه السلام بحُكْمِ أبيه، فرأىٰ رأياً آخر، فأقرّهُ أبوه عليه، ورجَع عن حكمه.

**القضية الثانية:** بيان تسخير الله عزّ وجلّ الجبالَ والطَّيْرَ مع داود عليه السلام، بقضاءٍ سابقٍ، وتنفيذٍ لاحقٍ.

**القضيّة الثالثة:** امتنانُ الله على الناسِ بتَعْليمه داود صِناعَةَ الدّروع الواقيات في الحرب، من السيوف والرّماح والسّهام ونحوها، وهذا العلْم قدْ أخَذَهُ النّاسُ عنه، فانتفَعُوا به، فوجب عليهم أن يشْكُروا الله عليه.

● أمّا القضيّة الأولى، فقصّتُها جمعاً ممّا روى الطبريُّ بأسانيده عن ابن مسعودٍ وابْن عباس، في روايات متعدّدات، أنّ أصْحابَ غنم تركوا غَنَمَهُمْ ليلاً دُون حِراسَةٍ ولا رعاية، فدخلت هذه الغنم في أرضٍ محروثةٍ

مبذُورة قد نَبَتَ زَرْعُها، فأكلَتْ ما أكلَتْ من الزرع وأفْسَدَتْ سائره.

فتَرافَعَ الخصْمَانِ بقضيَّتِهِما إلى داود عليه السّلام، وتحقَّق من وقوع الحادثة، ويظهرُ أنَّهُ رأىٰ أنّ قيمة الغنم تُسَاوِي قيمة ما أكَلَتْ وأفْسَدَتْ من الزَّرْع، فحَكَمَ بِدَفْعِ الْغَنَم كلّها لأصحاب الزّرع تعويضاً لهم، بسبَبِ أنّ أصحاب الغنم تركوا غنَمَهُم ليلاً دون حماية ولا رعاية، حتّىٰ اعتَدَتْ على زَرْع أصحاب الحرث، فأكلَتْ وأفْسَدَت.

وعَلِمَ سُلَيْمانُ عليه السّلام بحُكْم أَبيه وكان فتىً يافعاً مُلْهماً ذا فَهْمٍ وَحِكْمة، فقال لأبيه: أرىٰ أن يكون القضاء غَيْر الّذي قَضَيْتَ، فقال داوُد: كيف؟.

قال سليمان: إنّ الحرث لا يخفىٰ على صاحبه ما يخرج منه في كلّ عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها، حتى يستَوْفي ثمن الحرث، فإنّ الغنم لها نَسْلٌ في كلّ عام.

وجاء في روايةٍ أخرى أنّ سليمان قال: تُدْفَعُ الغنم لأهل الزّرع، يستثمرون ألبانها وأصوافها وأولادها، وتدْفع الأرض لأهل الغنم يبذرون لِأَهْلِ الحرث مثْلَ حَرْثهم، فإذا بلَغَ الحرث الّذي كان عليه أخذ أصحاب الحرث حرثهم، وردّوا الغنم إلى أصحابها.

فقال داود لابنه سليمان: قد أصبتَ، القضاءُ كما قضيْت، فألغى داود قضاءه الأوّل، وحكم بما قضى به ابنُهُ سليمان، ولم يجد في نفسه غضاضةً أنْ يَرْجعَ إلى ما هو الأقرب إلى كمال العدل، على الرغم من حداثة سنّ ولده سليمان.

- ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ . . .﴾:

أي: ونذكُرُ قصّةَ داود وسليمان إذْ يَحْكُمَان في قضيَّة الحرث..

**الحرث**: هو العمل في الأرض لاستنبات زرعها، أو غرس شجرها، ويُطْلَقُ أيضاً على الزّرْع النابت نَفْسِه كما ذكر الزّجاج.

قال الأزهري: الحرْثُ قذفُكَ الحبَّ في الأرْضِ لازْدراعٍ، والحرْثُ الزّرْع.

● ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ...﴾:

أي: يحكمان في الحرث وقْتَ أن نفشَتْ فيه غنَمُ الْقَوْمِ (ال) في ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ للدلالة على الجنس فقط.

﴿نَفَشَتْ﴾: أي: رعَتْ ليلاً دون راع. يقال لغة: نَفَشَتِ الإبل أو الغنم أو نحوهما تَنْفُشُ وتَنْفِشُ نَفْشاً ونُفُوشاً، أي انتشرت ليْلاً فرعَتْ بغير راعٍ. والواحد منها «نافش».

ويقال: أَنْفَشَ الراعي ماشيَته، أي: أرسلَها ترعىٰ باللّيل ونام عنها.

فإذا فعلت الماشية مثل ذلك نهاراً، قال العرب، هَمَلَتْ، ولا يقولُون: نَفَشَت. يقال لغة: هَمَلتِ الماشية تَهْمُلُ وَتَهْمِلُ هَمْلاً، إذا سَرَحَتْ بنفسها نهاراً دون راع. الواحد منها «هَامِل». ويقال: أَهْمَلَها صاحبُها إذا تركها تَسْرَحُ بنفسها دون أن يرعاها.

● ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾:

في هذه الجملة بيان لإحْدَىٰ مفردات قضيَّةٍ كُلّيَّةٍ عامَّةٍ، من القضايا الّتي تتعلّقُ بصفات الله عزّ وجلّ، وهي شُهُودُ اللّهِ عزّ وجَلَّ لِكُلِّ شيءٍ، ولكل حَدَث يَحْدُث في الوجود كلّه.

**الشاهد**: الحاضِرُ العالم بالمشهود.

وهذه القضيّةُ الكليّة العامّة قد جاء بيانُها في عدّة نُصُوصٍ قرآنية، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

وشهودُ الله هو حضورُه مُحِيطاً بعِلْمه ومراقبته على أكْمَلِ وجْهٍ وأتَمِّهِ.

● ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾: أي: فَفَهَّمْنا القضيَّة والْحُكْمَ الأَقْرَبَ لكمال العدل فيها سُلَيْمان، وهذا التَّفْهِيمُ من الله لسليمان قَدْ كان على سبيل الإلْهام الرّبّانيّ، بمعونَةٍ غَيْرِ مُدْرَكَةٍ بالحسّ، لكِنْ يظْهرَ أثرُهَا بحصُول الْفَهْم، والإلْهامُ شيءٌ خفيٌّ غير الوحي.

فقدَّم سليمانُ رأيَهُ في ذلك لأبيه داود عليهما السلام، فقبله، وقضى به.

● ﴿... وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ...﴾ أي: وكُـلاًّ مـن داوُد وسليمان آتيناهُ حُكماً وعِلْماً.

**الْحُكْمُ**: فقه الأمور، والقضاء بالْعَدْل، وحُسْنُ الإدارة.

أمّا الْعِلْم، فَهُو سُلَّم لا نهاية له من المعرفة، قابِلٌ لأن يتنامَىٰ دوَاماً.

وجاء التنكير في كَلِمَتَيْ: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ للإشعار بأنّ الله قد آتاهما مقداراً ما من الْحُكْم والْعِلْم، كانا فيهما متفوّقَيْنِ على نظرائهما، أمّا كمال الْحُكْم والْعِلْم فهو لله عزّ وجلّ وحْدَه، ومعلومٌ أنّ البشر كلَّهُمْ لم يُؤْتَوْا من الْعِلْم إلاّ قليلاً، وكمالُ الْحُكْمُ لا بدّ أن يعتَمد على شمولِ الْعِلْمُ.

وأَمَّا القضيّة الثانية فقد جاء بيانها في قول الله تعالى:

● ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

**التَّسْخِير**: التَّذْلِيلُ لعَمَلٍ ما، أَوْ أَمْرٍ ما، وجَعْلُ الشيء، مطاوعاً لما يُرادُ منه، ضِمْن قانون التسخير الرَّبَّانيّ له.

وهذه الْمُطَاوَعَةُ تكونُ على وجوه:

(١) فإمَّا أنْ تكونَ بالطَّبْع والفِطْرَةِ ضِمْنَ قانون التكوين الجبريّ، كالرّياح، والمياه، والنار، والأرْضِ، وكلّ ما فيها، فهي مُسَخَّراتٌ للإنسان ضمن قوانين تسخيرها، وفق مقتضىٰ طبعها الجبريّ وما جبِلَتْ عليه.

وكالشمس والقمر في السَّماء، وكالسّحَاب بين السّماء والأرض، فهي مُسَخَّرَاتٌ لمنافع الناس في الأرض ضمْنَ أنظمتها وقوانِينِها الجبرية، وفق مقتضىٰ طَبْعها وما جُبلَتْ عليه.

ومن هذا تسْخيرُ الجبالِ والطير لداود عليه السلام.

(٢) وَإِمَّا أن تكون المطاوعة بالْقُوَّةِ والإلزام والْقهر، مع التذليل بالشُّعُور بالضعف، كَتَسْخِير الْعَجْمَاوَاتِ من البهائم بالتذليل والمطاوعة الإلزامية للإنسان.

(٣) وإمَّا أن تكون المطاوَعَةُ بالاختيار الحرّ، لمَا في المطاوعَةِ من مصلحةٍ أَوْ فائدَةٍ للمطَاوعِ، كاتّخاذ النّاس بعضهم لبَعْضٍ سُخْرِيّاً.

فالناسُ بعضُهُمْ لبَعْضٍ مُسَخَّرُونَ بالاختيار الحرّ، وكلُّ إنْسانٍ مُسْتَعِدٌّ لأنْ يُسَخِّرَ نفسه لغيره فيما له به مصلحة، أو فائدة عاجلَةٌ في الدنيا، أو آجلَةٌ إلى يوم الدين، أو بدافع حبُّ الخير، والقيام بفضيلة المعونة، والسّعادة بلَذَّةِ ممارَسة الفضيلة.

وفكرة تسخير الجبال والطَّيْرِ يُسَبِّحْنَ مع داود عليه السلام، يظهر في بادي الرأي أنها مُكرَّرَة، إذْ سبَقَ فيما نزل من قرآن قبل سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٢ نزول) بيانها، فقد جاءت مبيَّنَةً في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/

٣٨ نزول). لكنّ قول الله عزّ وجل في سورة (الأنبياء): ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ قد دَلَّنا على أَنَّ ما جاء فيها قد جاء مقترناً بفكرةٍ جديدة مضافة، وهي أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ وأَرَدْنَا وقَدَّرْنا وقَضَيْنَا، وهذهِ أُمُورٌ سابقةٌ لتنفيذ الفعل، فجاء قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ دالاً على أنّ ما كان قد قضاه الله قدْ تحقق تنفيذُه بالأمْر التكويني، فتَّمَ تَحقُّقُ هذا التسخير في الواقع.

وفي هذا بيانُ أنّ ما يجري من أحداثٍ في الكون مسْبُوقٌ بقَدَرٍ وقضاء، ثمّ يكون تنفيذُه وفِعْلُه بعْدَ ذلك بالأمر التكويني.

وأمّا القضية الثالثة فقد جاء بيانها في قول الله تعالى:

● ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟.

**اللَّبُوس**: اسْمٌ يقع على كلّ ما يُلْبَسُ سَاتِراً لكلّ الجسم أو بعضه، وجمعُهُ «لُبُس».

ويُطْلَقُ اللَّبُوسُ على الدِّرْع وهو المرادُ هنا.

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾: أي: لِتَقِيَكُمْ من بأسِكُمْ، ولتَحْمِي أجْسَادكُمْ من ضربات سُيوف ورماح وسِهَام بعضكم لعبض في الحرب، وابتغاء سلامَتِكُمْ.

**البأسُ**: الحرْبُ، والشدّة فيه.

وقد يَبْدُو أنّ فكرةَ أمْرِ الله عزّ وجلّ لداود بصناعة دروع الزَّرَد، فكرةٌ مُكَرَّرَة قد سَبقَ بيانُها في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول): لكنَّنَا إذا دَقَّقْنا وأمْعَنَّا النظر في دلالاتِ النصّ هنا في سورة (الأنبياء) وجَدْنا أفكاراً مضافةً ذاتَ شأن.

**الفكرة الأولى**: أنّ صُنْعَ داود عليه السّلام للدُّروع قد كان بتَعْلِيم من الله له.

**الفكرة الثانية**: أنّ الله عزّ وجلّ يمتَنُّ على عباده بتعليمهم عن طريق رسُولٍ من رُسُله، وسيلةً من وسائل إحصانهم من شرور حَرْب بعضهم لبعض، ولم يذكر الله أنَّه علَّم عبَادَه عن طريق الوحي صناعةَ أدوات القتال.

**الفكرة الثالثة**: دعوة الله عباده أن يشكُرُوه على نعْمةِ هدايتهم إلى وسائل سلامتهم، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾؟.

استفهامٌ يراد به الترغيب في الشكر والحثُّ عليه.

وهكذا ظهر لنا أن النصَّ مع إعَادَة أصْل الموضوع فيه قد اقْتَرَنَ بأفكار مُضَافَةٍ إلىٰ مَا سبَقَ تنزيله.

## النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) ضِمْن عَرْضِ قِصَّة حَرْبِ بني إسرائيل بقيادة «طالوت» للوثنيّين في الأرض المقدَّسة بقيادة «جالوت».

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

جاء في هذا النصّ لقطةٌ من قِصَّةٍ من قصص بني إسرائيل، تتعلَّقُ بطَلَب بني إسرائيل من نبيٍّ لهم، جاء في كتُبِهم أنّه «صَمُويل» أن يحكُمَهُمْ مَلِكٌ، ليقاتلوا بقيادته لاسْترجاع ما كان تَحْت أيديهم، وأرادوا أنْ يتخلَّصُوا

من سِياسة أَنْبيَائهم لهم، فسألَ «صَمُويل» رَبَّهُ من أَجْلِهم أنْ يختار لَهُم مَلِكاً، فاسْتَجَاب الله دُعاءه، فاختار لهم «طالُوت» من سِبْط «بنْيَامِين» أقلّ أسْباط بني إسرائيل عدَداً ومَالاً ومكانةً اجتماعيّة بينهم، فدَعَاهُم «طَالُوت» لقتال «جَالُوت» وجُنُودِه، وامْتَحَنَهُمْ، واصْطَفَىٰ منْهم قِلّةً صادقةً مؤمِنةً، ودخل في جنوده فتىً شابٌّ من بني إسرائيل من سِبْط «يَهُوذا» اسْمُه «دَاوُد» فقضى الله أن يكون مقْتَلُ «جَالُوت» الجبار بيد «داود» بحَجرٍ رَمَاهُ علَيْه من مقْلَاعِهِ، بعد أن أعلن «طالوت» أنّ جائزةَ من يقْتُلُ «جالوت» أن يُزَوّجَهُ ابنَتَهُ، وأن يكون هو مَلِكَ بني إسرائيل من بَعْدِه.

وحاول «طالُوت» بعْدَ ذلك أن يتخلَّصَ من «دَاوُد» ليَجْعَل ميراث الملْكِ في أولاده، لكِنَّ قضاء الله وتصاريف تدبيره عزّ وجلّ لم تُسَاعِدْ «طالوت» على تحقيق مراده.

وأتَمَّ الله بألطافه ما قضى، فكان «داود» بعْد أحداثٍ متعدّدة ذكرها الإسرائيليون في كُتُبِهم هو المْلِك على بني إسرائيل. بعْدَ موت «طالُوت».

وقد جمع الله عزّ وجلّ لداود الْمُلْكَ والنبوّة والرّسالة، فكان نَبيّاً ورسُولاً ومَلِكاً على بني إسرائيل، وقد عَرَفْنا أنّ هوىٰ بني إسرائيل أنْ تَسُوسَهُمْ مُلُوكٌ لا أنبياء، لأنّهم مع الملوك يتحرَّرُون من قيود الدّين بحَسَب أهوائهم، وتُسَايِرُهم ملوكُهُمْ على ذلك، أمّا مع الأنبياء، فإنَّ أنبياءَهُمْ يَقِفُون عنْد حُدُود الله، ولا يُسَايرُونَهُمْ على فِسْقِهم وشرّهم وإفْسادهم في الأرض.

وقد أضَافَ هذا النصّ الذي جاء في سورة (البقرة) بشأن داود عليه السّلام إلى ما سبَق أن نزل بشأنه في نجوم التنزيل عدّة بيانات:

**البيان الأول**: أنّ داود عليه السلام قتل «جالوت» في حرب بني إسرائيل للوثنيين، بقيادة «طالوت»، وهذا بيان مُضاف لم يسْبِقْ ذِكْرُه فيما نزل قبل هذا النصّ بشأن داود.

البيان الثاني: أنّ الله عزّ وجلّ قد آتاهُ الْمُلْكَ، وهذا بيان مضاف لم يَسْبِقْ ذكره فيما نزل قبل هذا النصّ بشأن داود.

وفيه دلالة على أنَّ وُصُوله إلى الملك قد كان عطاءً من الله عزّ وجلّ محاطاً بعِنَايةٍ منه.

أمّا الذي جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) فقد تضَمَّن بيان تقويةِ مُلْكِه في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

وأمّا قوله تعالى في سورة (ص) أيضاً: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو يَدُلُّ على معنىً غير الْمُلْكِ، لأنَّ اسْتِخْلاَفَهُ هٰذا قَدْ كان وَهُو مَلِكٌ قَائِمٌ، فَهوُ عَطاءٌ زائِدٌ فيه معانٍ مُضَافةٍ إلى الْمُلْك، من مظاهرها أنْ يَحْكُمَ بَيْنَ الناس بالْعَدْل، وأَنْ لا يَتَّبعَ الْهَوَىٰ.

**البيان الثالث**: أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ آتاه الْحِكْمَةَ، ويَبْدُو أنَّ هٰذا الْعَطَاءَ قد سبَق بيانه في سورة (ص) فَيَسْبِقُ إلى الذِّهْن أنَّه بيانٌ مُكرَّر، لكنْ لنا أن نقول انسجاماً مع أُسْلوب القرآن: إنْ الحِكْمَةَ من الفضائل القابلة للزيادة، والقابلة للتنوّع بِحَسَب المجالات والموضوعات، فتكريرُ بيانِ إيتائه الحكمة يدُلُّ علىٰ أنّ الواقع قد جرىٰ فيه نظير ذلك، على سبيل الزيادات والإضافات في النِّسْبَة، وفي المجالات والموضوعات المختلفات.

وبهذا الفهم يظهَرُ لنا أنّه لا تكرير.

فعنْدَ بَدْءِ الملْكِ آتاه الله عزّ وجلّ قَدْراً أو نوعاً من الحكمة، وبعد أن تَوَطّدَ مُلْكُهُ وعَظُمَ سلطانه، آتاه الله نوعاً آخر وقدراً مُضافاً جديداً من الحكمة.

**البيان الرابع**: أنّ الله عزّ وجلّ علّمَهُ ممّا يشاء، وقد سبَق في سورة (النمل) وفي سورة (الأنبياء) أنّ الله آتاه علماً.

وأقول هنا نظير الذي سبق بيَانه بشأن الحكمة، فالعلم ذو نسَبٍ متفاضلة، تتنامَىٰ قَدْراً، وذو مجالات مُتَنَوّعاتٍ كثيرات.

فتكرير بيانِ إيتائه العلم يدُلُّ على زيادات العطاء منه في المجالات. والأنواع، والمقادِير. وهذا يَدُلُّ على أنّ داود عليه السلام قد كان يزداد معرفة وعِلْماً معَ مَراحِل عُمْره، ولم تتوقف لديْهِ المعرفة عند المقدار الذي آتاه الله إيَّاهُ في أَوّل نشأته، أو في أوّل مُلْكِه.

وبهذا نفهم أنه لا تكرار في النصوص الواردة بشأنه.

## لنصّ الثامن:

قول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) لِرَسُوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ عن داود عليه السلام أنّه نبيٌّ ورسولٌ بصريح العبارة، وبِجَمْعِه مع عدد من الأنبياء والمرسلين.

وأضافَ بَيَان أنّ الله قد أوحى إليه، كما أوحى إلى نوح وإبراهيم ومن ذكر بعدهما فيه.

وأضاف التصريح بأنّ الله عزّ وجل قد آتاه زَبوراً، أي: كتاباً عن

طريق الوحي إليه، فهو كتاب تلقّاه بالوحي عن ربّه، وليس مجرّد عطاء كما أعطاه الله الملْكَ.

أمّا النصّ الذي جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) فليس فيه التصريح بأنّ الله آتاه زبوراً بالوحي، فاقتضى البيان مجيءَ نصٍّ فيه هذا التصريح.

## النص التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾.

فأضاف هذا النصّ عن داود عليه السلام بيان أنَّ الّذين كفَرُوا من بني إسرائيل قد لُعِنُوا على لِسَانِه، ولُعِنُوا أيضاً على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام.

أي: جاء فيما أوْحَىٰ الله به إلَيْهِما هذا اللّعْن، وكانا هُما مُبَلِّغَيْن بألْسِنَتِهما، ولو كان اللّعْنُ صادراً عنهما دون وحْيٍ لكان المناسب أن يكون النصّ كما يلي: لَعَنَ داود وعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ الذين كفروا.

وبهذا تَمّ استكمال ما جاء في القرآن كلّه بشأن داود عليه السلام بتدَبُّر كشَفَ التكامل بين النصوص، وأنّه لا تكرار في عناصرها وبياناتها، إلاّ ما يستدعيه الدخول إلى الموضوع، أو الرَّبْطُ بين سلاسل الأفكار.

**والحمد لله على فتحه وتوفيقه**

❁ ❁ ❁

(١٢)

# الملحق الرابع

# قصّةُ خلق آدم في القرآن المجيد وَمَا رَافقَ خلْقَهُ مِنْ أحداث

جاء في القرآن المجيد ستة نُصُوصٍ مطوّلة حول قصّة خَلْق آدم عليه السلام، وما رافق خلقه من أحداث، منها عَرْضُ الله عزّ وجلّ قضاءه بخلقه على ملائكة الملأ الأعلى، وكَانَ معهم إبليسُ الّذي هو من الجنّ لا من جنْس الملائكة مُنْدسّاً فيهم نفاقاً بتمكين الله له، ومُتَسَلِّلاً سَمَاءَ فَسَمَاءَ بما كان يتظاهَرُ به من عبادات مع أصناف الملائكة. ومنها سُؤالُ ملائكة الملأ الأعلىٰ ربّهم عن الحِكْمَةِ من خلْق هذا المخلوق الجديد، ثم أَمْرُ الله للملائكة بالسّجود لآدم، وإباءُ إبليس وإصرارُه علىٰ رَفْضِ السجود، ومحاكمتُه وطردُه ولَعْنُه، وطَلَبُ إبليس من ربّه أن يُمْهله حيّاً فلا يُميته إلى يوم البعث، فأنْظَرَهُ الله إلى يوم إنهاء ظروف الحياة الدنيا، لا إلىٰ يوم البعث، فأخذَ إبْليسُ العَهْدَ الموثّقَ على نفسه بالْقَسَم، أنْ يَغْوِي آدم وزوجه وأَنْسالهما إلاّ قليلاً منهم، فمكَّنَهُ الله من الإغواء، دون أن يكون له سُلْطانٌ يُلْغِي به إراداتهم الحرّة، وأوعده هو ومن اتَّبعَه بأن يكونوا بكُفْرِهم خالدين في عَذَاب الجحيم يوم الدّين بعْدَ البعث.

والتدبُّر المتأنّي بنظرة كُلّيَّةٍ جامعةٍ، يَكْشفُ أنّ هذه النصوص السّتة المطولة، مع سائر النصوص القصيرة الموزعة في سور القرآن المَجيدِ، هي متكاملةٌ فيما بينها دون تكرير باستثناء ما يقتضيه الرَّبط أو التمهيد، أو بَيانُ أنَّ الواقع كان مُكَرّراً وتوجَدُ مطْوِيّاتٌ إيجازاً، ويقتضيها النَّصُّ باللُّزوم الْعَقْلي، ويَكْشِفُها التأمُّل التدبُرِيّ.

وفي هذا الملْحَق أعْرِضُ ما انْتَهىٰ إليه بتوفيق الله وفتحه تَدَبُّري لهذه النُّصوص، تدبُراً تكامُلِيّاً مُتَأنّياً، نَاظراً إلى ما في هذه النصوص من فروق في الألفاظ ولو كانت طفيفة، وناظراً إلى ما يقتضيه التسَلْسُل المنطقِيُّ

للأحداث، وإلى ما يلزم عن الفكرة المنصوص عليها من أفكار أُخرى مَطْوِيَّةٍ إيجازاً.

وما انتَهيتُ إليه هو بمثابة خطوة في طريق التدبُّر التكامُليّ لكتاب الله عزّ وجلّ، وهو طريق طويل. والنصوص الستة الموضوعة لهذه الدراسة هي:

(١) الآيات من (٧١ ـ ٨٥) من سرة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

(٢) الآيات من (١١ ـ ٢٥) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

(٣) الآيات من (١١٦ ـ ١٢٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

(٤) الآيات من (٦١ ـ ٦٥) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول).

(٥) الآيات من (٢٦ ـ ٤٤) من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

(٦) الآيات من (٣٠ ـ ٣٩) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول).

وقد تُجْمَعُ مَعَها نصوصٌ قصيرة مكمِّلة موزعة في سُورٍ من القرآن المجيد.

وأَنْقُلُ هذه النصوص من المصحف أوّلاً ثم أشرع بتدوين ما انتهىٰ إليه تدبُّري، بالمقدار الذي فتح الله به عليّ، ويسَّرَهُ لي، وأَتْرُكُ لمن يأتي على الطريق نفسه من بَعْدِي، ما يفتح الله به عليه من إضافات أو تعديلات أو تصويبات، فسنَّةُ الله في العلم الإنسانيّ أنْ تكُونَ حركاتٍ تراكميّةً وتعديليّةً أو تصحيحية.

## النص الأول

## الآيات من (٧١ ـ ٨٥) من سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول)

قال الله عزّ وجل فيها:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ

مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ
فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ
﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ
وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

## النّصّ الثاني
## الآيات من (١١ ـ ٢٥) من سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا
فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ
﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا
مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ
وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ
هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ
ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ
ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

## النّص الثالث

## الآيات من (١١٦ ـ ١٢٦) من سورة (طه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا
يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا
تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا
فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ
﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾
وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ
وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

## النّص الرابع

## الآيات من (٦١ ـ ٦٥) من سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول)

قال اللّهُ عزّ وجل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ
خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ
جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ

وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا
(٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)﴾.

## النص الخامس

## الآيات من (٢٦ ـ ٤٤) من سورة (الحجر/١٥ مصحف/٥٤ نزول)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ
مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ
الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن
صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ
إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ
(٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ
مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾.

## النصّ السادس

## الآيات من (٣٠ ـ ٣٩) من سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا
مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا
لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي

بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ
أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ
قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ
﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ
وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ
ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

وتُوجَدُ مُتفرّقاتٌ من نُصوصٍ قصيرة، قد أَستَشْهِدُ بِبَعْضٍ مِنْها أثناءَ تَدَبُّر هذه النصوص المطوَّلةِ إكْمالاً للدّراسة، ولكن دون استيعاب، واللّهُ وليّ التوفيق والتّسْديد.

❁ ❁ ❁

## (أ)
## إعلام اللّه الملائكة بقضائه أن يخْلُقَ السُّلالَةَ البشرية

**أوّلاً:**

جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن هذا الإعلام قولُ الله عزّ وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: إني سَأَجْعَلُ ممّا أَخْلُقُ نَوْعاً من مَخْلُوقاتي يخْلُفُ بعضهم بَعْضاً، فيكونُ النَّسْلُ اللَّاحِقُ خلَفاً لمَنْ سبقَهُ في الوجود وانتهت مدّة حياته.

**خَلِيفَة**: على وزْنِ «فَعِيلَة» بمعنى اسم الفاعل «خالف» وبمعنى اسم المفعول «مَخْلُوف» فهذا النّوع خالفٌ ومخْلُوف، فالْمَخْلُوفُ تنقَضِي حَيَاتُه في الأرْض بالموت، والخالِفُ يحُلُّ محَلَّ المخلُوفِ في المِلْكِ والانْتِفَاع.

وهذا النوعُ ينْطَبِقُ عليه نظامُ التناسُلِ المشهود في كلّ المخْلُوقاتِ الحيَّةِ الموجودة في الأرْضِ قبل خَلْقِ الإنسان.

ودَلَّ على أنّ المرادَ بالملائكةِ ملائكةُ الملأ الأعلىٰ كجبريل وميكائيل وإسرافيل ونَحْوِهم، وَكان إبليسُ الجنّيُّ الخلْقِ والنشأةِ مُنْدَسًّا فيهم بنفاقه بتمكين الله لَه، قولُ الله عزّ وجلَّ في سورة (ص/٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) يُعلّم رسُوله محمّداً ﷺ أن يَقولَ لجاحِدي نُبُوَّته ورسالته:

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

وجاء بعد هذا النصّ عَرْض لقطَاتٍ من قصّةِ خلْق آدم، وفيها عرْضُ لقْطَة من هذا الاختصام، وهي لقطَةُ اسْتِكْبَار إبْليسَ عن طاعة أمْر الله بالسُّجودِ لآدم، وعنادِه، ومخاصَمتِه ربَّهُ، طاعناً في حكمته بأمْرِ ملائكةِ الملأ الأعلى ومن كان معهم ملْتحقًا ومُندسًّا فيهم أنْ يَسْجُدوا لآدم.

ويُوجَدُ بين قول الله للملائكة في النص: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وبين قوله تعالى فيه: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . . .﴾ كلامٌ مَطْوِيٌ يُمكنُ أنْ نُعبّرَ عَنْهُ بما يلي:

فَسأَل الملائكةُ رَبّهم: مَا صِفَةُ هذا المخلوق الّذي قضَيْتَ رَبَّنا أن تخلُقَهُ ومَا خصَائصهُ؟ فأبانَ الله جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانه لهم صِفَاتِه، ومنْها

أنَّه يكونُ ذا إرادةٍ حُرَّة وقُدْراتٍ لاكتساب المعارف والعلوم، وذا صِفاتٍ نفسيَّةٍ فيها أهواءٌ ورغباتٌ وشهوات ونوازعُ لتحقيق الأهواء والشهوات، ولو بارتكاب المعاصي والآثام وفعل الشرّ، وهذه الصفاتُ يَنْتُجُ عنْها الإفساد في الأرْض وسفْكُ الدِّماء ظُلْماً وعدواناً.

قال الملائكة: أَتجْعَلُ في الأرض مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّمَاء، ونَحْنُ في كُلّ مَوْقِعٍ لَكَ عَابدون، نُسَبّح بحَمْدِك، أي: تنزهُك تنزيهاً مُلْتَبساً وَمقْتَرِناً بِحَمْدِك، وَنُقَدِّسُ لَكَ، أي: نُطَهِّرُ أنْفُسَنا من كلّ رِجْسٍ لَكَ ابتغاءَ مَرْضَاتك، ونُعظِّمُكَ ونُكَبّرُك، والمعنىٰ: فَلِمَ قضيْتَ بأنْ تخْلُقَ هذا المخلوق الذي هذه صِفاته؟.

قال الله عزّ وجلّ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وَيدْخُلُ في عموم مَا لاَ يعْلَمونَ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ والأرض، فَكَيْفَ بما يعلَمُون وَمِنْهُ مَا يُبْدُون وَمَا يكْتُمونَ في نفوسِهم من أقوالٍ لا يقولونها أدباً مع رَبّهم، أوْ خَواطِرُ لا يُعَبّرون عنها كذلك، وهذه لا تدخُل فيما هم معصومونَ عنْهُ، فَعِصْمَتُهم هي في حدود: لا يَعْصُونَ الله ما أمَرَهم ويفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون.

روى الطبريُّ عن «موسى بن هارون» قال: حدَّثنا عَمْرو بن حمّاد، قال: حدّثنا أسْباط عن السّدّي، في خَبرٍ ذكَرَهُ عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابْن عبّاس. وعَنْ مُرَّةَ عن ابْن مَسْعُودٍ، وعن نَاسٍ من أصْحَاب النبيّ ﷺ، أنَّ الله جلّ ثناؤه قَال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ قالُوا: رَبَّنا، وَمَا يكُونُ ذَلِكَ الْخَلِيفَة؟ قالَ: يكُونُ لَهُ ذُرِّيَّةٌ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ، ويَتحاسَدُونَ، ويَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً» هـ.

أي: وعندئذٍ قال الملائكة لربّهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟. فقال الله عزّ وجلّ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

**ثانياً:**

وتَنْفِيذاً لخُطَّة خلْق الله عزّ وجلّ لآدم، جَمَعَ الله جلّ جَلالُه، وعظُمَ

سلطانه، لتكوينِ جَسَدِ آدم مِقْداراً ما من مختلف عناصر المادّة الّتي تتكوَّنُ مِنْها الأَرض، وأضاف إليه ماءً وخَلَطَهُما حتَّىٰ صار المجموعُ طيناً.

روى أحمد وأبو داود والتِّرمذيُّ عن أبي موسى أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَميعِ الأَرْضِ، فَجاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الأَرْضِ، مِنْهُمُ الأَحْمَرُ، والأَبْيَضُ والأَسْودُ وبَيْنَ ذَلِكَ، والسَّهْلُ والْحَزْنُ، والْخَبِيثُ والطَّيِّبُ» إسناده صحيح.

**الْحَزْن**: هو من الأَرْض ما غَلُظَ، وَكانَ المشْيُ فيه صَعْباً.

وكوْن جسد الإنسان مخْلُوقاً من طينٍ قضيَّةٌ ظاهِرَةٌ، فَمُرَكَّبُ جسْمِ الإنسان ماءٌ وحفنة من عناصر ذرّاتِ الأرض، وهذا ما أثْبَتَتْه التحليلاتُ الكيمائيَّةُ لدَىٰ عُلَماء الكيمياء، وهُوَ الأمْرُ المشاهد في بناء الأجساد الحيَّةِ من عناصر الأرض عن طريق النباتات، وفي عَوْدَةِ الأجساد بفنائها إلى عناصر الأرض إذْ تكونُ تُراباً، ويتبخَّرُ الماءُ فيَعُودُ مختلطاً بالمياه الأخرى، سُحُباً وبحَاراً وأنهاراً.

وفي هذا الطَّوْر الّذي كانت فيها مادَّةُ جسَدِ آدمَ طِيناً، قال الله عزّ وجلّ للملائكة: إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ، دلَّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾: أي: سَأَخْلُقُ بشراً من عناصر تراب الأرض ممزوجةً بماء.

**البشر**: هو في اللّغة الخلْقُ، ويُطْلَقُ على الإنسان (الواحد والمثنّىٰ والجمع والمذكّر والمؤنث سواء) وقد يثنّىٰ، وقد يُجْمع على أبشار.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أي: فإذا أتْمَمْتُ تَقْويمَهُ وتَعْدِيلَ خلْقِه، حتَّىٰ صار سَوِيًا مُكْتَمِلاً للْغَايةِ المخلُوقِ لها، وهي الصورة البشريَّة الكاملة.

يقال لغة: سَوَّىٰ الشيءَ إذَا قوَّمهُ، وعَدَلَ بَيْن أجزائه، فجَعَلَهُ سَوِيًّا. ويُقَالُ للغلَام إذا تَمَّ شَبَابُه قد اسْتَوىٰ.

﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: الوقوعُ والسُّقُوطُ والْخُرور يراد بها سرعة الهبوط والنزول حتى يكونوا ساجدين. وهذا السجود طاعَةٌ لأمر الله وتكْرِيمٌ وتَوْقِير لآدمَ، وتَكْفِيرٌ عمّا كانوا كتموه من أنهم أفضل من هذا المخلوقِ الجديد، فَمَا الدَّاعِي إلى خلقه؟.

وقد سبق تدبُّر هذا النّص خلال تدبّر دروس سورة (ص).

فأبان هذا النّصّ أنَّ الله عزّ وجلّ، قد زَادَ الملائكةَ في هذا الإعلام اللَّاحق، بَيَانَ أنّ المخلُوقَ الجديد الّذي قَضَىٰ بأنْ يخْلُقَه هو:

(١) بَشَرٌ مِنْ طين، أي: من ترابٍ وماء مختَلِطَيْن.

(٢) وأنَّهُ يَجِبُ عليهم أن يَقَعُوا له سَاجِدِين، متَّىٰ تمَّتْ تَسْوِيتُه له، ونفَخَ فيه منْ جِنْسِ الرُّوح الذي خلَقَهُ، وجعَلَهُ بحكْمَتِه السِّرَّ الْخَفِيَّ الّذِي تَكُونُ به المخْلُوقات كائنات حيَّةً.

**رُوحُ الله**: هو خَلْقٌ من خَلْقِه، يكُونُ وُجوده بأمْرِ التكوين المباشر، دون وساطة أسْبَاب من مخلوق سابق له. فإذا نُفِخَتْ ذرَّةٌ منه في شيءٍ صار حيًّا وفق التكوين الذي خُلِقَ له، وإضافة روح إلى ياء المتكلم الواحد الأحد هي على معنى المِلْك، إذ كل ما خَلَقَ هُو مِلكه[1].

**ثالثاً**:

ومَرّتْ مُدَّةٌ علَىٰ طِينَةِ هذا المخلوق الجديد، تحوّلَتْ خلالها بخَلْق الله، فصَارَتْ حَمأً مَسْنُوناً، ثُمّ جَفَّتْ فصارت صَلْصالاً.

---

(١) وهو نظير قول الله تعالى: ﴿**إن أرضي واسعة**﴾ و ﴿**وأدخلي جنتي**﴾ و ﴿**وأن هذا صِراطي**﴾ إلى غيرها من نظائر.

**الحَمأ**: الطِّين الأسْوَدُ المنْتِنُ.

**المسْنُون**: المصْقُولُ الْمُمَلَّسُ.

**الصَّلْصال**: الطِّينُ اليابِسُ الّذي إذَا نُقِرَ بِشَيْءٍ أعْطَىٰ صَوْتاً فيه ترجيعٌ.

وفي هذا الطور الذي صارت فيه طينَةُ هذا المخلوق الجديد صَلْصَالاً من حَمأ مسنون، قال الله عزّ وجلّ للملائكة ما جاء بيانه في سورة (الحجْر/ ١٥ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

**الجانّ**: هو أبو الجنّ، وإبليس من ذُرِّيَّته، بدليل قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) خطاباً لبني آدم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾: أي: فعصَىٰ خارجاً ومُبْتَعِداً عن طاعَةِ أمْرِ رَبِّه بالسُّجود لآدم مع الملائكة المأمورين بأن يسجدوا له.

**نار السَّمُوم**: هي النّار الّتي تُحْدِثُها الرّيحُ الحارَّة.

فأبان هذا النّصّ الذي جاء في سورة (الحجر) أنَّ الله عزّ وجلّ قدْ أكَّدَ للملائكة في هذا الإعلام اللاّحق، حين صارَتْ طينَة المخلوق الجديد في طَوْرِ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون، بأنَّهُ خالِقٌ بشراً مِنه، وأكّدَ لَهُمْ الأمْرَ بأنْ يَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين، إذَا سَوَّاهُ ونَفَخَ فيه من روحه.

وفي بَيَان أنّه من صَلْصَالٍ من حمأ مَسْنُون، غَمْزٌ على مواطن الكِبْرِ

في نَفْسِ إبليس المندَسّ بَيْنَ ملائكة الملأ الأعْلَىٰ، لامتحان طاعَتِه لو شاء أنْ يَقْتَحِم عقبة الكِبْرِ العظمىٰ في نفسه.

وفي بيان خَلْقِ الملائكة من نور، وخَلْقِ الجانّ من مارجٍ من نار، روى مُسْلِمٌ عن عَائشة رضي الله عنها، أنّ النبي ﷺ قال:

«**خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ من مارجٍ من نارٍ وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**».

**من مَارِجٍ من نار**: أي: من أخلاط نارٍ صافية، **المارج**: المختلط من عناصر مختلفة.

**رابعاً:**

ومرّت مُدّة جعل الله عزّ وجلّ فيها الصلصال المعدّ ليكون جسد آدم، ذا صورة، وهي الصورة التامّة لآدم قبل نفخ الرُّوح فيه.

يقال لغة: صَوَّر الشيْءَ، أي: جعَلَ له صُورةً مجسَّمة.

وهذا هو الطور الأخير الذي وصلت إليه طينة آدم قبل نفخ الروح فيه.

وحول هذا الطور روى مسلم عن أنس أنّ النبي ﷺ قال:

«لَمَّا صَوَّرَ الله آدَمَ في الجنَّةِ تَركَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أنْ يَتْرُكَهُ، فَجعَلَ إبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ وَيَنْظُرُ إلَيْهِ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خَلْقٌ لاَ يَتَمالَكُ».

ورَوَىٰ البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال:

«خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِراعاً».

وجاء في هذا الحديث:

«فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّىٰ الآنَ».

ولفظ مُسْلِم: «خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ. . .» الحديث.

ودَلَّ على هذا الطَّوْر، وهو طَوْرُ جَعْل جسَدِ آدَمَ ذَا صُورَةٍ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ . . . ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾: أي: ولَقَدْ أَعْطَيْنَا أَجْزَاءَ جَسَدِ آدَمَ مقادِيرها بإتْقَانٍ وإحْكام، ولمَّا كَانَ آدَمُ هُوَ الإنْسَانَ الأول الّذي جمَع الخالِقُ الرَّبُّ فيه كُلَّ السُّلاَلَةِ الْبَشَرِيّة، بدْءاً بحوّاءَ زَوْجه، ثُمَّ ما بَثَّ منْهما من ذُرّيّات، وما يَبُثُّ إلى أن تَقُومَ الساعة، خاطبَ الله عزّ وجلّ الناس في هذا النّصّ بقوله لهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾.

**الْخَلْقُ**: إعْطَاءُ أجْزاءِ الشَيْءِ مقادِيرَها بإحكامٍ وإتقان.

**التصوير**: جَعْلُ الشيء ذَا صورة مُجَسَّمة.

**خامساً**:

ثُمَّ نفخ الله عزّ وجلّ في جَسَدِ آدم الّذي اكتمل خلْقُه وتَصْويرُه من روحه، أي: نَفَخَ فيه من جنْس الرُّوح الّذي هو خَلْقٌ عظيم من خَلْقِه، فهو مِلْكُهُ جلّ جلالُه، وبه تكُونُ المادَّة حيَّةً بحَسَب الخصائص النفسية الّتي فَطَرَهَا عليها.

وقد جاء بيان أنّ الله عزّ وجلّ نفخ فيه من روحه في سورة السجدة/ ٣٢مصحف/ ٧٥ نزول) فقال تعالى فيها: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

وجاء مطويًا لفظاً مَفْهُوماً اقتضاءً مِنْ تَرْتِيب حادثة سجود الملائكة على عبارة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ في الآية (٧٢) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وفي الآية (٢٩) من سورة (الحجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

والمطويُّ الّذي يُسْتَخْرَجُ بالتفكر يمكن التعبير عنه بما يلي: فَنَفَخَ الله

في الْجَسَد المصوَّر المعدِّ لأنْ يكون إنساناً حيًّا، فقامَ مَخْلُوقاً تَامَّ الْخَلْقِ كَامِلَ التَّسْوِيَةِ حيًّا له صفاتُ كائنٍ حَيٍّ مُتميِّزٍ بيْنَ الخلائق، وهو آدم عليه السَّلام أبو البشر جَمِيعاً.

**سادساً:**

وبَعْدَ أنْ صَار آدَمُ إنْساناً حيًّا تَامَّ الخلْق، قابلاً للتَّعلُّم بما خلَقَ فيه من جهازٍ دِمَاغِيٍّ مُفكِّر عَجِيب، مُسْتَعِدٌّ لاكْتِساب الْعِلْم، علَّمه الله عزّ وجلَّ أَسْماءَ الأشياء الّتي يَقَعُ عَلَيْها حسُّهُ البصَريّ.

**اسم الشيء:** يُطْلَقُ على صِفَته، ويُطْلَقُ على اللّفظ الّذي يُميّزُه عن غيره، وقد يكون مشتقًّا مِنْ صفته.

وتعليمُ الأسماء الّتي يجري التعبيرُ عنها بالألفاظ، يستلْزِمُ عقلاً تعليمَ النُّطق، وتعليم الكلام الّذي يُعبّر عمّا في النفس من معاني.

وقد دلّ على هذا الطّوْر قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ... (٣١)﴾.

ونَسْكُتُ هُنَا عَنْ تَحْدِيد المسَمّيَاتِ الّتي علَّمَ اللّهُ آدمَ أسماءها، إذْ لَمْ يَرِدْ عن الله ورسُوله في هذا شيءٌ، فالواجِبُ عدَمُ الْخَوْضِ فيه بالرّأي.

لكن نَفْهم ممّا سَيأتي ذِكْرُهُ من تتمّة الآيةِ، أنّ الله عزّ وجلّ علّمَهُ أسْمَاءَ ما عَرَضَ عليه مِمّا يَرَاهُ بِبَصره، وقد جاءت الإشارة إليهم بعبارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

**سابعاً:**

ومرَّتْ مُدَّةٌ مُتراخية لم يأتنا عِلْمٌ بمقدارها، وبَعْدَها عَرَض الله عزّ وجلّ المسمَّيَاتِ الّتي علّمَ آدم أسماءَها على الملائكة، ومَعَهُمْ إبْلِيسُ مُنْدَسًّا فِيهم نِفَاقاً، وأجْرَىٰ الله بينهم وبين آدم مسابقةَ تفوُّقٍ في الْعِلْم، فقال لهم ما جاء بيانه في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بقوله تعالى:

﴿. . . ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

دلَّ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ على تَراخِي حَدَثِ هذا الْعَرْضِ عن تعليم آدمَ أسماء الْمُسَمَّيات الّتي عرضها عَلَيْهم.

﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾: أي: أَخْبِرُوني واذْكُرُوا لي.

﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: بصفاتِ هؤلاء المشار إليهم ممّا يُدْرَكُ بالأبْصار، وبالألْفاظِ الّتي تُمَيِّزُ كُلًّا منْهُم.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: تَدُلُّ هذه العبارةُ على أنّهم حين قالُوا لربّهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . . ﴿٣٠﴾﴾؟ كَانُوا يكْتُمونَ فِي أنفسِهم أَنَّهُمْ أفْضَلُ من هذا المخلوق الجديد الّذي قَدَّرَ الله وقَضَىٰ أَنْ يَخْلُقَه، وهذا الأمْرُ لا يُعارضُ عِصْمَتُهُم الفِطْرِيَّة عن معصية الله، فهم لا يَعْصُونَ اللّهَ ما أمَرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون.

أمّا إبْليسُ فقد كان ما يكْتُمه أشدّ من هذا، إذْ كان يَكْتُمُ في نفسه أنَّهُ لن يُطِيعَ اللّهَ في أَمْرِه بالسُّجود لآدم.

فَأجاب الملائكة بما جاء بيانُهُ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: تنزَّهْتَ ربَّنا عَنْ مُجانبة الحكمة فيما تُقَدِّرُهُ وتقضيه وتخلقه، فإنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الحكيم.

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾: أي: ليس لدينا صِفَةُ استنباط الصفاتِ الباطنة للمخْلُوقاتِ، استدلالاً ممّا في ظاهرها من علاماتٍ وأمارات، فَعِلْمُنا قَاصِرٌ علىٰ مَا عَلَّمْتَنا إيّاهُ تَعليماً مباشراً.

**ثامناً:**

عندئذ أمر الله عزّ وجلّ آدم بأن يُنبئَهُمْ بأسْمائهم، فأنْبَأهم بأسمائهم، مبيّناً صِفَاتهم، والألفاظ الخاصّة الدالّة على ذَواتهم وعلى صفاتهم.

فلَمّا أنْبَأهُمْ بأسْمائهم ذكَّرَ الله عزّ وجلّ الملائكة بما كان قد قال لهم تعقيباً على قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . . (٣٠)﴾ إذْ قال لَهُمْ ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾.

دلَّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾.

فأبانَ بهذا البيان المطوّل، أنّ قولَهُ السَّابقَ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو اخْتِصَارٌ وإيجازٌ لِقَولِهِ اللاّحِقِ لَهُمْ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾.

وقد سبق شرح هذا تحْتَ «أولاً» من فقرة (أ).

**تاسعاً:**

عنْدئذٍ جاء دور توجيه الأمر للملائكة بتَنْفِيذ السُّجُود لآدم، الذي كان من قبْلُ أمْراً مُعَلَّقاً على وجود شَرْطَيْن:

(١) تسويَةُ الله عزّ وجلّ لهذا المخلوق الجديد.

(٢) نفخ الله عزّ وجلّ فيه من رُوحِه.

ونفهم من ترتيب الأحداث ترتيباً منطقيّاً أنَّ نفخ الروح في آدم قد كان سابقاً، وأنّ كمال تسْوِيته للوظيفة الّتي أعدّه الله لها قد كان بعد تعليمه أسماء المعروضات التي علّمه أَسْماءها، فحرف العطف (الواو) في ﴿فَإِذَا

سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ هو لمطلق الجمع. إذ التسوية في اللّغة هي إبْلاَغُ الشَّيْءِ الْغَايَةَ المقْضِيَّةَ له، بجعله تامًّا مُسْتوياً بالغاً الغاية المقصودة من صُنْعِه، وظاهِرٌ أن تعليمه الأسماء جزْءٌ من هذه التسوية.

وقد دلّ على توجيه الأمر للملائكة بتنفيذ السّجود لآدم، قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ... ﴿٣٤﴾﴾.

ونظيره في الآية (٦١) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) وفي الآية (١١٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

وقد جاءت هذه العبارة مكرّرة فيهما، لأنّها كانت مفتاح الحديث عن قضيّة السُّجود لآدم واسْتِكْبَارِ إبليس وإبائه.

أمّا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ... ﴿١١﴾﴾ فقد جاء عقب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فدلَّ هذا الإجراء البيانيّ على أنّه مَرَّ زَمَنٌ متراخٍ بعْدَ التَّصْوير، إذْ بَيْنَ التّصوير وبين الأمر بالسُّجود مُدَّةٌ جرىٰ فيها نفخ الرُّوح في آدم، ثم استكمالُ تَسْوِيته بتعليمه أسماء المعروضات كلّها، فكان من الدّقة والصّدْقِ في البيان أن يقول اللّهُ عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ... ﴿١١﴾﴾.

**عاشراً:**

وعقب توجيه الأمْر للملائكة ولمَنْ كان معهم مندسًّا فيهم نفاقاً، بتَنْفِيذِ السجود لآدم، سجَدَ الملائكة المأمورون بالسُّجودِ كلُّهُمْ أجمعونَ، في وقْت واحد مجتمعين غير متفرّقين، إلاَّ إبْلِيسَ لم يَكُنْ من جنْسِ الملائكة

الّذين لا يَعْصُونَ الله مَا أمَرَهم ويَفْعلُون ما يُؤْمَرون. وكشَفَ إبليسُ بما فَعَل عمّا في نفسه.

دلَّ على هذا الحدَث عدّة نصوص قرآنية متكاملة فيما بينها.

(١) فجاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ..﴿١١﴾﴾.

فاقتصر هذا النصّ على استثناء إبليس.

(٢) وجاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ بيانَ أنَّ إبليسَ أبَىٰ أَنْ يَسْجُد.

(٣) وجاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

فأبان هذا النّصّ أنّ الملائكة المأمورين بالسُّجُودِ قد سَجَدُوا كلُّهم أجْمَعُونَ، أيْ: لم يَتَخلَّفْ مِنْهُمْ أحَدٌ، وسَجَدوا في وقْتٍ واحد.

وأبانَ أيضاً أنَّ إبليسَ لم يَسْجُدْ، ووصفه الله عزّ وجلّ في هذا النصّ بصِفَتَيْن:

**الأولى**: أنّه اسْتَكْبَر عن السُّجودِ لآدم، فالباعِثُ له على ما اختار لنفسه شِدَّةُ مشاعِرِ الكِبْر في نفسه.

**الثانية**: أنّه كان من الكافِرين باطِناً بإلَهيَّة الله لمربُوبيه، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ دخوله في صفوف الملائكة، مُسْتَغِلاً التّشابُهَ في بعض الصفات الظاهرة

بين الجنّ والملائكة، قد كان نِفَاقاً، وقد استطاع بهذا النّفاق أن يترقّىٰ في التسلّل حتى دخل في ملائكة الملأ الأعلى، وغَرَضُه من ذلك أن يكون ذا حُظْوة عند ربّه، وأن يجْعَلَهُ في الملائكة ذا أمْرٍ مُطاعٍ كجبريل عليه السلام.

(٤) وجاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ إلى ما جاء في سورة (صَ) بيان أنّ إبليس أبَىٰ، أي: رفض أن يَسْجُد لآدم امتثالاً وطاعةً لأمر ربّه.

(٥) وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

فأبان هذا النّصّ أنّ إبليس لم يَكُنْ منْ جنْسِ الملائكة السَّاجدين، الّذين لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهم، بل هو من جِنْس الجنّ الممتَحَنِين في ظروف الحياة الأولى، فهو ذو إرادة حُرَّة، يَمْلِك بها أن يُطيعَ وأن يعصي.

(٦) وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فأبان هذا النّص أنّ إبليس قد كان باستطاعته أن يستمرّ على نفاقه مُنْدسًّا بين ملائكة الملأ الأعلى، فيَسْجُدَ معهم كما سَجَدُوا، وَلو لَمْ يكُنْ من جنْسِهِمْ، لكنَّهُ أَبىٰ أن يكون معهم، ورُبّما يَرَىٰ في داخل نفسه أنّه خَيْرٌ مِنْهم أيضاً.

(٧) وجاء في سورة (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾﴾.

يظهر أَنَّ إبليسَ قالَ في نفسه مُوَجِّهاً خِطَابه لربّه حين أَبَىٰ أنْ يسْجُدَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْت طِيناً، أي: خلقْته طيناً عند بدء خَلْقِكَ له.

## (ب)
## محاكمة إبليس والحكم عليه وما كان منهُ عَقِبَ ذلك

دلّت النّصوص بما فيها من عباراتٍ ذاتِ دلالاَتٍ متعدّداتٍ مُخْتلِفَاتٍ مُتنَوِّعات على أنّ الله عزّ وجلّ قد عَقَدَ لمحاكمة إبليس ثلاثَ جلَسَاتٍ، ليمكّنَهُ من التراجع عن موقِفه العناديّ الاستكباريّ، فيَعْتَرِف بذَنْبِهِ ويسْتَغْفِر، وكان الحكم عليه في كلّ واحدة منها الرَّجْمَ والطّرد، لكِنَّ إبليسَ لم يكن منْهُ في كلٍّ واحدة منها إلاّ الاستكبار، والإصرار على العصيان، وإعْلاَن الكُفْرِ بحكْمَةِ الله جلّ جلاله، والكفر بإلٰهيّتِه.

**الجلسة الأولى:**

جلسةٌ دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: قال الله جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطَانُه لإبليسَ مُتَرَفِّقاً بمُسَاءَلَتِه، ومُخَاطِباً له باسْمِه المعروفِ به بين الملائكة، والمعْرُوفِ به بين الجنّ.

﴿..مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾: أي؛ أيُّ عُذرٍ لَكَ حَمَلَكَ

على أن لا تكونَ سَاجداً مع السَّاجدين مِنْ ملائكة الملأ الأعْلَىٰ، وقد تَسَلَّلْتَ في صفوف الملائكة مُتَرَقِّيًا حتَّىٰ اعْتَبَرْتَ نَفْسَك واحداً منهم، حريصاً على أن يكون لَكَ من الفضل والمنزلة الرَّفيعة مثل ما لهم، ولو لم يكن عنصُرُك من الملائكة بلْ أنْتَ من الجنّ.

فلَمْ يُخفِ إبليس في جوابه احتقارَهُ لآدم نَاظِراً إلى أَحَدِ أطْوَارِ خَلْقِ جَسَدِه، وإلى كونه بشراً.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

فأَبَانَ أنَّهُ بَشَرٌ شبيهٌ بأجْسَادِ حَيوانَاتِ الأَرْض في عَدَم قُدْرَتِهِ على اخْتِرَاقِ الفراغات العليا والوصول إلى السماوات، كالملائكة وبعضِ الجنّ. وذكَرَ المرحلةَ الأخيرة من أطوار خَلْق جسده، وهي مرحلَةُ: ﴿صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

وهذا يُعَبِّر عن استكبارِ إبليس، وترفُّعِه واستِنكافِه عن أن يسجُدَ لِمَنْ يَعْتَبِرُه دُونَه في الخلْق، ويُعَبِّر عن شكّه في حِكْمَةِ الله في تَوْجِيه الأمْرِ بالسُّجُود له.

إنّ إبليس لم يذكر لنفسه عُذْراً حقيقيًا، بل أجاب بما يكْشِفُ عن كبره ووقاحته مع ربّه.

فكان لا بُدَّ من إصدار الحكْم عليه بالإخراج من منازل الملأ الأعلى من الملائكة، وبالرَّجْم للطَّرْدِ والإبعاد، مع صَبِّ اللّعْنَة عليه.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وفي يَوْمِ الدّين يجري حسابُكَ علىٰ كُفرِك، وإصدارُ الحكْمِ علَيْك بما تستحقُّ مِنْ عذابٍ.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: قال إبليس معتَرِفاً للّهِ بِرُبُوبيته، ربِّ بما أنّكَ حكَمْتَ عليَّ بالإخراج والرَّجْم واللّعْنَةِ إلَىٰ يَوْمِ الدّين، فأمْهِلْنِي حيًّا إلَىٰ يوم يُبْعَثُونَ، وقَدْ كان يوم البعث للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء معلوماً للجنّ والملائكة قبل خَلْقِ آدم، لأنّ الجنّ مخلُوقونَ مُمْتَحَنِين في ظروف الحياة الأولى قبل الإنس، ويعلمون أنّ الجَزَاءَ يكون بعد الموت والبعث منه.

وقرّر إبليسُ في نفسه أنْ يُغوِي آدم وكلّ ما يُخْرِجُ الله منه من نَسْل.

فأعطاه الله عزّ وجلّ بَعْضَ طَلَبِه، ووعَدَه بأن يُنْظِرَهُ إلى ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وإماتَةِ كلّ ذي حياة فيها، وجعَلَهُ من المنظرين إلى ذلك الوقت المعلوم لديه جلّ جلاله.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: قال: بَعْضُ مَا طَلَبْته مُجابٌ، فَإنّكَ من الأحياء المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، كجبريل وإسرافيل وميكائيل.

ولمّا اسْتَوثَقَ إبليسُ من إمْهال الله له في الحياة الأولى إلَىٰ ساعة إنهاء ظروفها، أعلَنَ عزمه على أن يَعْمَل بكلّ ما أوتي من وسائل إغواء وإغراء وتزيين، لإغواء آدَمَ وما يُخْرِجُ الله منه من نَسْل حتّى قيام الساعة إلاّ من كان مُخْلِصاً أوْ مُخْلَصاً لله.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

● قُرِئ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللاّم، أي: الذين تَسْتَخْلِصُهم وتَصْطفِيهم، فَتَعْصِمُهُمْ مِن الْغَواية، بسبب ما فطرتَهُمْ علَيْهِ من الكمال، لتُؤَهِّلَهُمْ للنُّبوّةِ أو الرِّسالة.

وقُرِئ [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْر اللاّم، أي: الّذِينَ أَخْلَصُوا لكَ الإيمان والْعَمَل، فَأَنْت تحْميهم من الْغَوايَةِ بسبب إخلاصِهم.

﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبليس اللّعين: هذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ بيانُه لكلّ الّذين أضَعُهُم مَوْضِع الامتحان في ظروف الحياة الدّنيا، فيما أنزل على رُسُلِيَ وهو صراطٌ مستقيم.

وقرأ يَعْقوب: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ والمعنى على هذه القراءة: هذا صِرَاطٌ عَلِيٌّ رَفِيعٌ على قِمَّةٍ، ودُونَهُ من ذَاتِ اليمِينِ وذَاتِ الشِّمَال سُبُلُ الضلاَلَة والْغَوايَة، وهِي مُنْحدِرَةٌ إلى الْمَهالِكِ، وموصِلَةٌ إلى عذاب جهَنَّم.

فبين القراءتيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

وقال عزّ وجلّ له: إنَّ عبادي الذين هم خَلْقِي ومِلْكي لا أَجْعَلُ لَكَ عَلَيْهم سُلْطاناً تُؤَثِّرُ به عليهم، تأثيراً جَبْرِيًّا تُلْغِي به إرادتهم الحرَّة، فَهُمْ مَحْمِيُّونَ منْك بحمايَتِي لهم، إلاّ من اتَّبعَك من الْغَاوين بإرادَاتِهم الحرَّةِ غَيْرِ المجْبَرَة، فهؤلاء لا أتولّى حِمَايَتَهُمْ منْكَ، وإنَّ جهَنَّم لموْعِدُ هؤلاء الغاوين الكافرين يجتَمِعُونَ فيه ويذوقون العذاب فيه أجمعين.

**لَمَوْعِدُهُمْ**: أي: لَهِيَ المكانُ الموعُودُنَ بالعذاب فيه أجمعين.

ووصف الله عزّ وجلّ جهنّم بأنّ لها سبعةَ أبواب، بحسب أنواع الجرائم العظمىٰ الّتي كان الغاوون قد ارتكبُوها في حياة الابتلاء، فلِكُلِّ بَابٍ جزْءٌ منْهُمْ مَقْسُومٌ له، وكلُّ جُزْءٍ منهم يدخل من الباب المخصَّصِ له من أبوابها السبعة.

ولم يُصَرِّحِ الله عزّ وجلّ لإبليس في هذه الجلسة بأنّه سيكون في جهنّمَ مع الغاوين، إلاّ أنّه قَدْ يُفْهَمُ من النصّ باللّزوم العقليّ.

**الجلسة الثانية:**

وبعد جلسة محاكمة الله عزّ وجلّ لإبليس الأولى، منحه الله فرصة مراجعة نفسه إن شاء أن يَعْتَرِف بذنبه ويَتُوبَ، فعقد له جلْسَة محاكمة ثانية،

دلَّ عليها ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وبدأت هذه الجلسة بسؤال الله عزّ وجلّ إبليس عن المانع له من السجود، على الرغم من عناية الله بآدم إذْ خلقه بيدَيْه:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

كانت الجلسة الأولى متضمّنة سؤال إبليس عن العذْر الذي حمله على أن لا يكون مع الملائكة السَّاجدين وهم أهل الملأ الأعلى، مع أنّ الأمر بالسُّجود لآدم قد كان موجّهاً لهم وله، إذْ هو مندَسٌّ فيهم كواحدٍ منهم.

أمّا في هذه الجلسة الثانية فقد سأل الله عزّ وجلّ إبليس عن المانع له من السُّجود، مع أنّ المأمور بالسجود له مخْلوقٌ خلقه الله بِيَدَيْه دون أن يأمُر أحداً من ملائكته بجمع ترابه وخلطه بالماء، ولا بمتابعة أطوار تكوينه، ولا بصُنْع صورة جسَدِه، وهذا من عناية الله جلّ جلاله بهذا المخلوق الجديد، وهي عنايةٌ تقتضي تكريمَه من قِبَلِ أهل المعرفة من عباد الله، ولو لم يأمُرْهُمْ بذلك.

وحصر الله عزّ وجلّ إبليس بين احتمالين:

**أحَدُهما**: أَنْ يكون إبليس قد استكبرَ عن السجود لآدم، دون أَنْ يكون له حقٌّ في هذا الاستكبار.

**والآخر**: أن يكون إبليس مُعْتَقِداً أنّه من العالِين الذين لا يَليقُ بهم السُّجودُ لآدم، وفي هذا اعْتراضٌ ضِمْنِيٌّ على حكْمَةِ الله في أمره، ورفْضٌ لإلَهيَّة الله له.

وآثر إبليس ادِّعاءَ الاحتمال الثاني، مدَّعياً أنّ أصْلَه النّاريّ خَيْرٌ من أصل آدم الطينيّ.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾﴾.

وفي هَذَا إصرارٌ من إبليس على موقفه السّابق الّذي أعلنه في الجلسة الأولى، إلاَّ أنَّهُ ذَكَرَ من أطوار خَلْق جسَدِ آدم مَرْحَلةَ الطّين، وسَكَتَ عن

ذكر مَرْحلة الحمأ، وهو الطين الأسود المنْتِن، تخفيفاً ممّا يُشْعِر بأنَفتِه.

وأمام هذا الإصرار العناديّ الاستكباريّ كان لا بُدَّ مِنْ إعادة إصدار الحكم عليه بالإخراج من منازل الملأ الأعلَىٰ من الملائكة، والرَّجْم للطَّردِ والإبْعاد، مع إضافة أنّ اللّعنةَ المنصبَّةَ عليه هي لَعْنَةُ الله.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبْلِيس: لَزِمْتَ موقفكَ وَلم تعترف بذنْبِك فاخْرُجْ منها فإنَّكَ رَجِيمٌ.

وكانت العبارة في الجلْسَةِ الأولى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ فجاء التشديد في الجلْسةِ الثّانية فقال الله له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

فاللَّعْنَةُ الصّادرةُ عَنِ اللَّهِ العزيزِ الجبّار، والمنْصَبَّةُ علىٰ إبليس، أشَدُّ من عموم الحكم عليه باللَّعْنَةِ، لاحتمال أنْ تكون تكليفاً من الله للملائكة بأَنْ يَلْعَنُوه، دون أنْ تنصَبَّ علَيْه لعنةُ الله.

وكرّر إبليس طلَبَهُ من ربّه أن يُمْهِلَه حيًا إلَىٰ يَوْم يُبْعَثون، طامعاً في أن يستجيب الله عزّ وجلّ طلَبَه، فيُمْهِله إلى يوم البعث، وكان قد استوثق من ربّه بأنه سيُمْهِله إلى ساعَةِ إنْهاء ظروف الحياة الدّنيا، وإماتة كلّ ذي حياة فيها.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

أي: قال إبليس: رَبِّ بما أنَّكَ حكَمْتَ عليّ للمرّة الثانية بالإخراج والرَّجْم وأنزلْتَ عليَّ لعْنَتَكَ، فأمْهِلْنِي حيًا إلَىٰ يوْمِ البعث.

لكنّ الله جلّ جلاله، وعظم سلطانه، وبلَغَتْ حكْمَتُهُ الغاية، لم يُعْطِه من الإمهال أكثر ممّا كان أعطاه في الجلسة الأولى، فأعاد له نصَّ حُكْمه السابق.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبليس: بما أنّكَ لَزِمْتَ مَوْقِفَكَ ولم تَعْتَرِفْ، ومَا زِلْتُ تطالبُ بانظارك إلى يوم البعث، فإني لا أنظرك إلاّ إلى يوم الوقت المعلوم الذي تنتهي عنده ظروف الحياة الدنيا، ويموت فيه كلُّ مخلوقٍ حيّ.

فأعْلَنَ إبليسُ إصراره على إغواء الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدُّنيا.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾.

أي: قال إبليس لربّه: بما أنّك حكَمْتَ عليَّ بالْغواية، فقد عزَمْتُ على إغواءِ آدم وما يَخْرجُ منه من نَسْل.

﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: أي: فبِقُوّتِك الغالِبَةِ الّتي تُمِدُّنِي منها ما أبقيتني حيًّا، ولا تقْطَعُهَا عنّي لأغْوِينَّهُمْ أَجمَعِينَ، فأجْعَلَنَّهُمْ بوسَاوسِي، وتسويلاتي، وإغراءاتي، وتزييناتي، وحَبَائِلي، غاوين أجمعين، واستثنىٰ فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ بفتح اللاّم، وفي القراءة الأخرى: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْرِ اللاّم، وقد سبَق بيان المراد بالقراءتين.

فكان جواب الله له، ما تضمَّنَهُ قولُه تبارك وتعالى:

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥﴾.

فجاء في هذا النّصّ التصريح بالْحُكْم علىٰ إبليس بدخول جهَنَّم دار عذاب المجرمين، ومعه كلُّ الذين يتَّبِعُونه كافِرِينَ مجرمين.

وفي هذا البيان شدّة في الحكم بصريح اللّفظ، وهذه الشدّة تَدُلُّ على أنَّ هذه الجلسة قد كانت الجلسةَ الثانية من جلسات محاكمته.

**الجلسة الثالثة:**

ومنح الله عزّ وجلّ برَحْمَتِه الواسعة إبليسَ، فُرْصَةً أخرى لمراجعة

فسه، وإعلان اعترافِه بذَنْبه وتوبته واستغفاره، فعقد له جلسةَ مُحاكمة ثالثه، ;لَّ عليها ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

وبدأت هذه الجلسة بسؤال الله عزّ وجلّ إبليس عن أمرين: عن المانع ه من السجود، وعن الحامل له على عدم السجود، على الرُّغْم من أنّ الله رَبّه قد أمَرَهُ بالسُّجودِ أَمْرَ إلْزَام ووجوب، مع الملائكة الذين كان قد دسَّ فْسَه فيهم، واعتبر نفسه واحداً منهم، وأمْرُ الله لعباده أحَدُ عناصر إلَهِيتِه هم، الّتي تستلزمُها عَقْلاً رُبُوبِيَّتُهُ جلّ جلالُه وعظم سلطانه، فَمَنْ رفَضَ طاعة أمْرِ الله عناداً كان بإلَهِيّتِه كافراً.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . . (١٢)﴾.

فذكر الله عزّ وجلّ من مُقْتضياتِ الطاعة بالسُّجود، أنّه أمْرٌ إلزاميٌّ صادِرٌ عن الرَّبّ الخالق.

ولم يخاطب الله عزّ وجلّ إبليس في هذه الجلسة باسمه، إهانة لَهُ واحتقاراً، واكتَفَىٰ بضمير المخاطب، أمّا في الجلستين السابقتين فقد خاطبه الله عزّ وجلّ باسْمِه تلطُّفاً به.

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾: أي: مَا مَنَعَكَ عَنِ السُّجُودِ؟ وَمَا حَمَلَكَ علىٰ أنْ لا تَسْجُد، فَسَأله بهذه العبارة عن المانع له عن السُّجود، وعن الحامل له على عدم السُّجود.

لقد جاء في هذه العبارة تضمين فِعْل «مَنَعَ» معْنَىٰ فعل «حَمَلَ» فَعُدِّي تَعْدِيته، فأغْنَتِ الجمْلَةُ الواحدة عن جُمْلَتَيْن، وهذا من بدائع الإيجاز القرآنيّ.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: أي: وقْتَ أَمْرِي إِيَّاكَ بالسُّجود مع من أمَرْتُ من ملائكة الملأ الأعلى، الّذين دخَلْتَ فيهم واعتبرتَ نَفْسَك واحداً منهم.

فأبان الله في هذه الجلسة لإبليس بهذا السؤال مخالفته لواجب طاعة العباد لربّهم، بمقتضىٰ أنه إلَهُهم الّذي يجب عليهم أن يَعْبُدوه، ومن عبادتهم الأُولَىٰ له بعد الاعتراف له بربُوبيّته وإلٰهيَّتِه، أن يطيعوه، فَيَفْعَلُوا ما أمرهم به، ويَنْتَهُوا عمَّا نهاهم عنه.

لكنّ إبليس لم يُعتَذِر بأنَّه لم يكُنْ يعْلَمُ أَنَّ أمْرَ الله موجَّهٌ لَهُ ضِمْنَ من هو معهم من الملائكة، بل أصَرَّ على عِنَاده ولَزِمَ موقفه الأوَّل، ولم يُراجِعْ نفسه، وأعْلَنَ بهٰذا الإصرار أنّه غَيْرُ مؤمِنٍ بإلٰهيَّة الله له، وأنّه مُعْتَرِضٌ على أمر الله له بالسّجود لآدم، ويَراهُ أمْراً غير حكيم، ويَرىٰ أنَّه ليْسَ مِنْ حقّ الرَّبّ أن يُوجّه لعباده المملوكين له مثل هذا الأمر.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

عندئذٍ كان لا بدَّ من إصدارِ الحكْم الختاميّ عليه في هذه الجلسة الثالثة، فأمَرَهُ الله عزّ وجلّ بأنْ يَهْبط هبوط مَهانة وذُلٍّ وصَغار، ولمْ يقتصر الأمْرُ على الإخراج فقط، كما حَصَل في الجلْسَتَيْن الأولَىٰ والثانية، بل جاء الأمْرُ له بالهبوط والإخراج، مع الحكم عليه بالصَّغار.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

**الهبوط**: النزول من أعْلَىٰ إلى أسفل. ويُقالُ: هبَطَ فُلانٌ، أي: ذَلَّ واتَّضَعَ وسَقَط.

**الصَّاغِر**: الراضي بالذّلّ والضَّعَةِ والْمَهانَة، يقال لغة: صَغُرَ يَصْغُرُ صَغَاراً فهو صَاغِرٌ، أي: رضِيَ بالذُّلِ والضَّعَة.

فكرَّر إبليس بوقاحة طلبه من ربّه أن يمهله حيًّا إلى يوم يُبْعَثُون.

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ولم يدْعُ الله ربَّه في هذه الجلْسَةِ مُعْلِناً اعترافه بأنَّهُ رَبُّه، ومُتَذَلّلاً له

بالْعُبوديّة، بل قال: ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾ أمّا في الجلْسَتَين السّابقتين فقد قال فيهما: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾.

لقد بلغ به العِنادُ والاستكبارُ والحِرَانُ إلَى أَنْ يسأل الله رَبَّهُ دون أن يقول له: رَبِّ.

فاكْتَفَىٰ الله عزّ وجلّ في جوابه بعبارة: «إنَّكَ مِنَ المنْظَرِينَ» أي: إنّكَ واحِدُ مِنْ المنظرين، كما سبق أن قضينا لك، دلَّتْ على هذا عبارة:

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وبعد أن انتهت جلسات محاكمة الله عزّ وجلّ لإبليس الثلاث، أعلن إبليس لرَبّه خُطّته الّتي رسمها للإغواء:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾: أي: فبِسَبَبِ حُكْمِكَ القطعي عليَّ بالْغواية، وهي الإمعانُ في الضلال والبُعْدِ عَنْ صراط الحقّ والهدى، والخيبة والفساد وترك سبيل الرشاد عن قصْدٍ وتعمّد، اتّباعاً للهوىٰ ونوازع النفس الطاغية.

﴿. . لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾: أي: أُقْسِمُ لأَقْعُدَنَّ لإغوائِهِمْ مُلاَزِماً صِرَاطَك المستقيم الذي ستُبَيِّنُه لهم، وتأمُرهم أن يسْلكوه ويلْتَزموا حدوده.

ضُمِّنَ فعل «أَقْعُد» معنى فعل «أُلاَزم» فَعُدِّي تعْدِيته، فانتصَبَ لفظ «صراط» على أنه مفعول به، فأغنت الجملة الواحِدَةُ عن جُمْلتين، والمعنى: لأقْعُدَنَّ لهم ملازماً صراطَكَ المستقيم.

فأبان بالْقُعود معنى التمكُّن، وأضاف إليه بالتعدية معنَى الْمُلاَزمة، فتمَّت المرابَطَةُ كامِلَةَ العناصر.

وهذا الْعَزْمُ الخبيثُ الذي أعلنه إبليس، قد قدَّمه ملاحظاً فيه ذُرِّيَّته من

الجنّ وجنودَهُ من الشياطين، لأنّه لا يستطيعُ أن يقوم بكلّ الأعمالِ بنفسه، وقد دلّ على أنّ ذُرّيّته سيكونون جيْشَ إغواء تَحْتَ أَمْرِه وسُلْطانه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

ودَلَّ على أنّ لإبليسَ جنُوداً، وَيظْهرُ أَنَّهُمْ من شياطين الجنّ والإنس الّذين يُجَنِّدُهم من غَيْر ذُرّيّته، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن مصير الكافرين والمشركين في الجحيم:

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

ومعلُومٌ أنّ المرابطة بتمكُّن وملازَمَةٍ وَتَرصُّدٍ هي أوّل شروط أعمال الإغواء والإغراء، للإبعاد والصَّرْف عن صراط الله المستقيم.

واختار إبليسُ بذكاء أنْ تكون مرابطتُه عنْد صراط الله المستقيم، لأنّ همَّه الأكبر هو أن يَصْرِف عنه المتوجّهين لسُلوكه، وأنْ يُخْرِجَ منه السَّاكين فيه.

أمّا الآخرون فإنَّهُمْ في سبُلِهم المختلفة التي انحرفت عن صراط الله عزّ وجلّ ضالُّون غاوُون، قَد كَفَوْا إبليس وجنوده مُهِمَّة إغوائهم، بل هم مُتَهيّئُونَ لأن يكونوا من جنوده شياطِينَ إنْسٍ مع شياطين الجنّ.

وبعد المرابطة عند صراط الله المستقيم نُلاحِظُ أنّ أعمال المغْوِين تَنْحَصِرُ بأربع جهات.

**الجهة الأولى**: هي الواقعة بين يَدَي السّالِكِ، لصدّه عن الدُّخول في الصراط.

**الجهة الثانية**: هي الواقعة خلْف السالك، لمنْعِهِ بالجذْبِ عن الدُّخول في الصراط.

**الجهة الثالثة**: هي الواقعة عن يمين السّالِكِ، لتحويله ذَاتَ الْيَمينِ بعيداً عن الصِّراط.

**الجهة الرابعة**: هي الواقعة عن يسار السَّالك، لتحويله ذات الشمال بعيداً عن الصراط.

أمّا جهة ما فوق الصراط، وجهة ما تحت الصراط فلا دفْع فيهما ولا جذب، إذْ مَوْقِعُ صراط الله كُلُّه من فوقه ومن تَحْتِهِ هُوَ من صراط الله.

فمن كان سالكاً على صراط الله المستقيم فكُلُّ عُلْوٍ فوقه هو من الصراط، وكلّ عُمْق تحته هو من الصّراط.

ومعلومٌ أنّ هَمَّ الشّياطين هو الصدّ عن كلّ موقع الصراط أو الإخراج منه.

﴿. . وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾: أي: ولاَ تَجِدُ في المستقبل أكْثَر ذُرِّيّة آدم شاكرين، بل تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ كَفُورِين.

**شاكر**: اسم فاعل يَصْدُقُ على مَنْ يَتَحقق فيه أقلُّ مِقْدَارٍ من الشكر، ويكون بالإيمان المنجي من الخلود في عذاب النّار.

لقد غلَبَ على ظنّ إبليس أنّه سَيَسْتَطِيع بوسائل إغوائه الشيطانية أن يُؤثّر على أكثر ذُرّيّة آدم، حتى يكونوا كَفُورين من الخالدين في عذاب الجحيم، وهو ظنٌّ مَبْنِيٌّ على عِلْمِه بما لدىٰ الإنسان من أهواء وشهواتٍ ونزَعات قد تطمس بصيرَته.

ولهذا قال الله عزّ وجلّ بِشَأن كُفَّارِ سَبأ، في سورة (سَبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وبَعْدَ أن أعْلَن إبليس لعَنَهُ الله خُطّته في أغواء بني آدم، وجَّهَ الله عزّ وجلّ له ما جاء في قوله في سورة (الأعراف):

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَذْءُومًا﴾: أي: مَذْموماً، مَعِيباً، مُحْتَقراً، مَخزِيًّا، مطروداً.

﴿مَّدْحُورًا﴾: أي: مَطْرُوداً طرداً مقترناً بدَفْعٍ عَنِيف.

وقد أكّد الله عَزّ وجلّ في هذه الجلسة الثالثة، حُكْمَهُ الّذي سبَق أن أصْدَره في الجلسة الثانية، وهو ما جاء بيانُه في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بقوله تعالى:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## (ج)
## حوارٌ جرَىٰ بعْدَ انتهاء جلسات المحاكمة

وجاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بيان حوار جرى بعد جلَسات المحاكمة، بدأهُ إبليس وهو يذوق مشاعر عذاب الطرد واللّعْن والصّغار، مخاطباً ربّه:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

خاطبَ إبليس ربَّه معترضاً عليه بوقاحة قائلاً: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: أي: أرأَيْتَ نَفْسَكَ وَمَا فَعلْتَ إِذْ كرَّمْتَ عليَّ مَنْ لا يَستحقُّ التكريم، لأنَّكَ خَلقْته من طين.

أو الكاف تأكيد للخطاب الّذي دلَّتْ عليه تاء المخاطَب.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: هذه العبارة بدَلٌ من كاف الخطاب في: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾. ﴿هَٰذَا﴾: المشارُ إليه هو آدم، واستُعْمِل اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هنا للإشعار باحتقار إبليس لآدم.

﴿كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: أي: جعلْته أكرَمَ مِني، وفضَّلْتَهُ عليّ.

﴿.. لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: اللّام في ﴿لَئِنْ﴾ واقعة في جواب قَسَم محذوف، وتُسمَّى مُوطِّئةً للقسم، أي: أُقْسِمُ لَئِنْ أمهلتني فعلاً، فأبْقيْتَنِي حيًّا كما وعَدْتني إلى يوم القيامة، وهو يوم قيام السَّاعة التي تنتهي بقيامها ظروف الحياة الدنيا كُلُّها و ﴿أَخَّرْتَنِ﴾: فعل الشرط في ﴿لَئِنْ﴾.

﴿.. لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾:

جواب الشرط: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾: أي: لأضعَنَّ اللُّجم في أَحْناك ذُرّيَّة آدم، كما تُوضَع اللُّجم في أحناك الدَّوابّ، لتطويعها وقيادتها أو سَوْقِها إلى حيْثُ يريد مطوّعها.

في هذه العبارة استعارةٌ مَكْنِيَّة، إذْ شَبَّهَ إبليسُ ذُرّية آدم بالدَّوابّ الّتي تُطَوَّعُ للركُوب والقيادة والسَّوْقِ، ولم يُصَرّح بلفظ الدّواب، بل جاء بشيْءٍ من خصائصها يدُلُّ عليْها، وهو احْتِناكُها لتَطْويعها.

يقال لغة: احتَنَكَ صاحبُ الدّابّة دابّته، أي: وضَعَ الحبْلَ أو اللّجام في حَنَكِها ليُطَوِّعها للرُّكوب، والقيادةِ، والسَّوْقِ.

والمعنى: لأجْعَلَنَّ ذُرّيّة آدم كالدّوابّ الّتي تُطَوَّعُ بوضْع اللُّجم في أحْناكها، ولأسيِّرَنّهمْ في هذه الحياة الدنيا عصاةً لك، ولأنْقُلَنَّهم خُطْوة فَخُطْوةً، حتى أُوصِلَ من يستجيب لي منهم إلى دَرَكَةِ الكَافِرين المجرمين الّذين يستحقُّون العذاب الأبديّ الخالد في الجحيم.

واستثنى إبليس فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴾ مُريداً بالقليل مَنْ لا يتأثَّر بوساوسِه وتسويلاته مطلقاً، وهُمُ الأبرار والمحسنون وكامِلُو التَّقْوىٰ، وهُمْ «الْمُخْلَصُونَ» و «الْمُخْلِصُونَ» بفتح اللاّم وكَسْرِها، كما جاء في النُّصُوصِ السّابقة.

فكان الرَّدُّ الرَّبَّانيُّ على إبليسَ اللّعين:

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

أي: اذْهَبْ فأنْتَ مُمكَّنٌ مِمَّا أعْدَدْت نَفْسَك للقيام به من إغراء وإغواء، دون أن يكون لك عليهم سُلْطان يُلْغِي إراداتهم الحرّة، فَمَنْ تَبِعَك في كُفْرك وتمرُّدِكَ من ذُرِّيَّة آدم فإنَّ عذاب جَهَنَّم جزاؤكم جميعاً حالَةَ كونه جزاءً مَوْفُوراً، أي كثيراً واسعاً، يأخُذُ كلُّ واحدٍ منكم جزاءه بالعدْل فيها.

ولله جلّ جلاله وعظُم سلطانهُ حكْمةٌ بالغة، في هذا التمكين لإبليس وجنوده من الإغراء والإغواء بالوسوسة واستثارة الأهواء والشهوات، دون أن يكون لهم سُلْطان يؤثّرون فيه بالجبر على الموضُوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

وهذه الحكمةُ تظهر لنا حينما نُدْرِك أنّ إراداتهم الحرّة، تكون في الحياة الدُّنيا عند الإشارة المتوسطة تماماً، بين طريق الخير وطريق الشرّ، بين نَجْدِ الْهُدَى ونجد الضلال، وفي كلّ واحدٍ منهما ما يَجْذِبُ إرادة الإنسان إليه.

ففي نجد الخير والهدى منطِق العقل والحكمة والرشد، والإغراء بالسَّعادة الحقيقيّة العاجلة والآجلة، والخلود الأبديّ في جنّاتِ النعيم، مع

الخلاص والنجاة من عذاب الجحيم، كما جاء في بيانات الله ورسوله المطمئنة المقْنِعَةِ بالأدلّة البرهانية القاطعة، والمتضمّنة وعْدَ الله الحقّ، الذي هو مالِكُ الوجود كلّه، وربُّ كلّ شيء.

وفي نجد الشرّ والضلال زيناتُ الحياة الدّنيا وشهواتُها ومُغْرياتها العاجلات، وزُخْرُفُ وساوس الشياطين وتسويلاتهم وإطماعهم بالباطل، ووعودُهم الكاذبات، وحُجَجهم الباطلات مغلّفةً بالإغراء بتحقيق عاجِل الأهواء والشهوات.

وبهذا يتمّ التكافُؤ بين جواذب طريق الخير والهدى، وجواذب طريق الشرّ والضلال، في التأثير على الإنسان.

وعندئذٍ تكونُ الإرادة المقترنة بالْقُوَّةِ الإدراكيّة الواعية في المخلوق الممتحن هي المرجّحة في السَّير في طريق الخير والهدى، أو السَّيْرِ في طريق الشرّ والضلال، خلال رحلة الامتحان، في مسيرة الحياة الدنيا.

والتمكين الّذي أعطاه الله جلّ جلاله وعظم سلطانه، لإبليسَ وجنُوده، دون أن يكون لهم سلطانٌ جَبْرِيٌّ على العباد الموضوعين موضع الامتحان، يتلخّص بأرْبَعةِ مجالات:

**المجال الأول:** هو المجال الإعلامي الدّعائي بالوساوس والتسويلات وأنواعٍ لا تُحْصَرُ من زُخْرُف القول.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في هذا النّص خطاباً لإبليس:

﴿. . وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ . . ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾: أي: واعْمَلْ بوسائِلك الصوتية الإعلاميّة لتَسْتَفِزَّ بها مَنْ تَسْتَخِفُّ منهم، فَتُنْهِضَهُ من مكان استقراره، وتجعلَهُ يَتّبِعُكَ برعونة.

يقال لغة: اسْتَفَزَّهُ الخوف، أي: استخفَّهُ فأنهضه. ويقال: اسْتَفَزَّ

المنادي قومَه، أي: أثارهم وأزْعَجَهُمْ بنِدائه، وجعلهم يَنْهَضُونَ ويَنْشَطُونَ لتلبية النداء. ويُقال: اسْتَفَزَّه، أي: استخفَّهُ بالمخيفات والمفزعات، واستخْرجَه وخَتَلَه حتّىٰ ألقاه في مَهْلكة.

ومن الملاحظ أنّ شياطين الإنس الّذين يتلَقَّوْنَ بالإيحاء من شياطين الجنّ تعليماتهم، ويُضِيفون إليها إضافاتٍ لا يَسْتَطِيعُها أولياؤهم من الجنّ، قد استخدموا في هذا العصْر وسائل الإعلام المختلفة، للإغراء والإغواء والتضليل والإخراج عن صراط الله، والسَّوق إلى سُبُل الجحيم، وهي جميعها تدخل تحت عنوان «الاستفزاز الصَّوْتي».

ويَدْخل في الاستفزاز الصوتي كُلُّ وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمشاهدة، إذ القاعدة الأولى لكلّ ذلك: زُخْرُف القولِ الذي يطْلَقُ بالصوت.

**المجال الثاني**: جمع الجنود والأعوان والأنصار للإغراء والإغواء، من شياطين الجنّ والإنس.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لإبليس اللّعين: ﴿. . وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . (٦٤)﴾:

﴿وَأَجْلِبْ﴾: يقال لغة: أَجْلَبَ العدوُّ على عَدُوّه، أي: جَمعَ جنُوده وأنْصارَه وأعوانه، لتحقيق غايته.

﴿بِخَيْلِكَ﴾: أي: مُتَقَوّياً بخيلِك، وذكر الخيل كناية عن الفرسان، أي: متقوياً بفُرْسانك الّذين يقاتلونَ على الخيول.

﴿وَرَجِلِكَ﴾: فيها قراءتان: «رَجْلِكَ» بإسكان الجيم و «رَجِلِكَ» بكسر الجيم، أي: ومتَقَوّياً بالجنود المشاة على أرجلهم.

وقد كانت جيوش المحاربين تتألّف من مقاتلين فرسان يمتطون

الخيول، ويقاتلون وهم على ظهورها، وهم القوّة الأشد، ومن مقاتلين رِجالٍ يمشُونَ على أرجلهم، يقاتلون حينما تلتحم الصفوف.

والمعنى: واجْمع لتحقيق ما عزمْتَ عليه من إغراءٍ وإغواء كُلّ قواتك، فعبارة: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ كنايةٌ عن تمكينه من جمع كُلّ قوّاته الّتي يستطيع جَمْعَها.

ومن الملاحظ أنّ جنود إبليس من الإنس يجْمَعُون قوّاتٍ عظيمة، ويبذُلُونَ في جمعها أموالاً كالجبال للقيام بمهمات الإغراء والإغواء والإضلال، للإبعاد عن صراط الله المستقيم والإخراج منه.

**المجال الثالث**: المشاركة في الأموال والأولاد.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لإبليس اللّعين:

﴿.. وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ .. ﴿٦٤﴾﴾.

أمّا مشاركة إبليس للناس في الأموال فتكون بإغرائهم حتى يأكلوا أموال بعضهم بالباطل، وحتى يَسُنُّوا قوانين طاغوتية تخالف شريعة الله لعباده.

ومن أمثلة هذه المشاركة الّتي ظهرت في النّاس البنوك الربويّة، التي يُغْري شياطين الجنّ والإنس الناس بالتعامل عن طريقها، حتى أمست أمْوالُ معظم الناس في أيدي أصحاب هذه البنوك، يتصرّفون بها على مناهج إبليس، وهذه من مشاركة الشيطان بمناهجه للناس في أموالهم.

ومن أمثلتها أيضاً المضاربات المحرّمة، والاحتكارات، والغش، وأنواع القمار، وقرارات التأميم الاشتراكية والرشوات والسرقات.

فقد صار الشيطان شريكاً للنّاس بمناهجه المخالفة لصراط الله المستقيم، في معظم أعْمالِ اكتساب المال وجمْعِه ومَنْعِه.

وأمّا مُشاركَتُه للناس في الأوْلاَد، فتكونُ بإغرائهم حتَّىٰ يخالفوا صراط الله المستقيم، فيما زَيَّنَ الله لهم من حبّ الشهوات من النساء والبنين.

ومن الملاحظ أن دَعَواتِ إباحيَّة الجنس، وانتشارَ هذه الإباحيّة في العالم، بتأثير الدّعاة المنتشرين الداعين إليها، قد أمست لعبة شياطين الجنّ والإنْسِ في عالمنا المعاصر، وقد كان لهم نظراء في مختلف أُمَمِ الأرض وشُعُوبها في العصور الغوابر.

وممارسة الناس الإباحيات في هذا المجال، هي من مشاركة إبليس لهم في أولادهم الّذين يولَدُونَ من غير طريق الزواج الذي شرعه الله عزّ وجلّ للناس.

**المجال الرابع**: مواعيد إبليس وجنوده للناس القائمةُ على التغرير بهم، لاستدراجهم إلى مهالكهم، أوْ إزلاقهم إلى نكد الحياة الدنيا ومتاعبها، والحرمانِ من سعادة النفس، وراحة الضمير، ثم إلى عذاب الله يوم الدّين.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لإبليس اللّعين:

﴿وَعِدْهُمْۚ﴾: أي: وَزَيّن لهم بما تقدّم لهم من وعود كاذبَة الابتعاد عن صراط رَبِّكَ المستقيمِ لعباده.

وفي تحذير الله عزّ وجلّ النّاسَ من مواعيد الشيطان الكاذبة، قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾:

**الغرور**: الخداع والإطماعُ بالباطل.

ومن أمثلة وعد الشيطان للإنسان أن يوسوس له بأنَّ المال هو وسيلة

السّعادة في الحياة، فيغترّ الإنسان بهَذِه الوسوسة، فَيَسْعَىٰ في جمع المال من كلّ وسيلة محرّمة، يكون فيها ظالماً آثماً معتدياً.

ومن الأمثلة أن يخوّفه من البذل في وجوه الخير ابتغاء مرضاة الله، حتَّىٰ لا يفتقر فيكون عالةً على غيره، وأَنْ يُغْرِيه بالبذل في الشهوات واللّذّاتِ وتحقيق الأهواء، لاغتنام مُتَعِ الحياة الدّنيا قبل أن يأتيه الموت المحتوم.

ومن الأمثلة أن يَعِدَهُ بالظفر بمجد السُّلْطَان والْعُلُوّ في الأرض، إذا أقام الحروب، أو انتمىٰ إلى دولة كافِرَةٍ عظمى، أو انتمىٰ إلى جماعة سِرِّيَّةٍ لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، إلى غير ذلك من وعود لا آخر لاحتمالات صورها.

ولقد انطلق الشيطان في هذا المجال انطلاقاً واسعاً يَعِدُ الناس ويُمَنِّيهم بالغرور.

فقول الله عزّ وجلّ التحذيريّ: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: وما يَعِدُهم الشيطان إلاّ وَعْداً غروراً، خداعاً وإطماعاً بالباطل.

«غروراً» صفة لموصوف محذوف هو مصدر «يَعِدُهُمْ». وقَدْ جاء الوصف بالمصدر للمبالغة، حتَّىٰ كَأَنَّ الْوَعْدَ هو غرور، من شدَّة ما فيه من تغرير وخداع وإطماعٍ بالباطل.

وبعد البيان السابق قال الله عزّ وجلّ لإبليسَ اللّعين:

﴿. . إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ . . ﴿٦٥﴾﴾:

أي: إنّ عبادي الّذين يستعيذون بي، ويَحْتَمونَ بحمايتي مؤمنين بي، ليس لك عليهم سلطانٌ تؤثر به عليهم، لأنني سأوَفِّقهم إلى تحقيق نهاية سعيدة.

ويمكن أن نفهم من هذا النص ما يلي: إنّ عبادي كلّهم لا أجعل لك

سُلطاناً جبريًّا عليهم، تلْغي به إراداتهم الحرّة، ولا يكون منك لهم أكثر من اتخاذ الوسائل الإغرائية غير الإكراهية.

ونجمع بين هذا النصّ وبين النصّ الذي في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

بأن النَّصّ الذي في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) يُرادُ به السُّلطانُ الجبريّ، وهو مقدار من القوّة يُلْغِي حُرّية إرادة الإنسان تجاه الْعَمل الذي يريد الشيطان استدراجه إليه، وإيقاعه به.

وبأنّ النّص الذي في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) يُرادُ به الانقيادُ الطَّوْعيُّ، الذي يطاوع به الغاوي الشيطانَ في قيادته له، أو سوقه له، حتّىٰ يَسِير في السُّبُل المغرية الموصلة إلى عذاب الجحيم.

وأخيراً علّم الله عزّ وجلّ عبادَهُ اتّخاذَ سَبَبِ التّوكُّل عليه، لحماية أنفسهم من تأثير الشيطان عليهم، فقال الله تعالَىٰ في آخر النصّ:

﴿..وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

أي: فتوكّلُوا على رَبّكُمْ يَحْمِكُمْ وَيَحْفَظْكُمْ من إغواء الشيطان لكم، وكفىٰ به وَكِيلاً لِمَنْ تَوَكَّلَ عليه وجاء الخطاب بأسلوب الخطاب الإفرادي والمراد جميع الصالحين للخطاب.

❋ ❋ ❋

## (د)
## وصيّة الله لآدم وزوجه قبيل إدخالهما الجنة

كان إدخال آدم وزوجه الجنّة إدْخالَ امتحانٍ واختبار، لا إدخال خلود وجزاء، وقد جعَل الله عزّ وجلّ الجنّة السّكن الخالد الأبديّ للمؤمنين

المتقين، ولا ينكشف الإيمان والإسلامُ وطاعة الله في أوامره ونواهيه إلاّ بعد الامتحان.

ولمّا عصيا فأكلا من الشجرة الّتي نهاهما الله عنها بتأثير وساوس إبليس وتسويلاته، وإزلاقاته، أخرجهما الله من الجنة، وأبانَ لَهُما ولذرّيّاتهما أنّ دخول الجنة للخلود في نعيمها لا يتحقّق إلاّ لمن آمن وأسلم واتَّقَىٰ ولو من أدنى درجات التقوىٰ، ولم يُشْرِك بربه شيئاً.

وقد أوصى الله عزّ وجلّ آدم قبل إدْخاله الجنّة بوصيّة حذّرَهُ فيها من إبليس اللّعين.

■ وقد جاء بيان هذه الوصية بقول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

دلّت «الفاء» الّتي للترتيب مع التعقيب في: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ على أنّ هذا القول لآدم قد كان عقب إباء إبليس أن يُطيع الله في السجود لآدم.

ولا بُدّ أن نفهم أنّ هذا الإباء يُرادُ به الإباءُ الّذي اسْتَقَّر عليه إبليس بعد آخر جلْسَةٍ من جَلَسَاتِ مُحَاكمة الله له، والّذي استقرَّ بناءً علَيْه حُكْمُ الله عليه بالإخراج والإهباط والطَّرْد، ولعْنَةِ الله المنصبَّة عليه، وحكْمِ الله عليه وعلى من اتّبَعه بأنّ جهنّم جزاؤهم جزاءً مَوْفوراً.

لقد حذّر الله عزّ وجلّ آدم وزوجه الّتي اشْتَقَّها مِنْ ضِلَعٍ من أضلاعه، منْ مكايد إبليس، وأبانَ لآدم أنّه عدُوٌّ له ولزوجه، لأنّها في تكْوِينها جزءٌ مستخرجٌ منه، فعدَاوة إبليس له تَسْرِي لزَوْجه، وفي بعض النّصوص الأخرى، أبان الله عزّ وجلّ عداوة إبليس لآدَم ولكلّ ذُرِّيته.

والعدوّ الّذي كانت عداوتُه بسبب أُمورٍ أفْضَتْ بِهِ إلَىٰ العذاب الخالد في الجحيم، لا يُريد بِعَدُوّه إلاّ السوء والشّر، والمصير الأبديَّ في الْعَذاب معه، لِيَنَالَ مثْلَ عذابه. أو أشدَّ مِنْ عذابه.

● قوله تعالى لآدم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ يَدُلُّ على وجود مطويٍّ محذوفٍ، وعَدَ الله عزّ وجلّ فيه آدم أن يُدْخِلَهُ وزوْجَهُ الجنَّةَ دُخول ابتلاء، لا دُخول خلودٍ وبقاء، ويمكن تقديره بما يلي:

وقُلْنَا يا آدَمُ سَنُدْخِلُكَ وَزَوْجَكَ الجنَّة دُخُول ابتلاء، فإذا دَخَلْتُما فيها فلا تمكّنا إبْلِيسَ مِنْ إغوائِكُمَا، وإيقاعِكُما في معصيَةِ رَبِّكُما، فَيَتَسَبَّبَ في إخْراجِكُمَا من الجنَّةِ عُقُوبة لكُما، وعِنْدَئذٍ تتعرّضُ يا آدم لتحمُّلِ الشقاء ومتاعِبِهِ في الأَرْض، وتتحمل زوْجُك وذُرّياتكُما فيها مثل ذلك.

وفي هذا إعْلاَمٌ ضِمْنِيٌّ، بأَنَّ مَعْصِيَتَهما لأوامر الله ونواهيه وهما في الجنّة عقابُه الإخراج منها إلى الأرض.

**الشقاء**: يُطْلَق على كلّ ما لا يَسُرُّ الإنسان من أمور، وعلَىٰ ما يُخالف رغبته ومطلوبه، من أدنَىٰ المكَارِهِ إلى أشَدِّ المؤلمات.

والمراد بالشقاء في الحياة الدّنيا على ظهر الأرض، ما فيها من متاعب الكدّ والكدح في العمل لاكتساب الرزق، وما فيها من متاعب الأوجاع والأسقام، وتحمُّلِ مَكارِهِ القلق والخوف والهم والحزن ونحو ذلك.

ولـمّا كان الرّجل هو المسؤول الأوّل عن كسب رزقه ورزْقِ أسْرَته على ظهر الأرض، قال الله عزّ وجلّ لآدم: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ ولم يَقُلْ له فَتَشْقَيَا، أي: فستُضطر لأن تكون الأكثر تحمُّلاً لعناء الكدّ والكدْحِ في العمل لاكتساب رزْقِك ورزقِ أسْرَتك.

■ وأبان الله عزّ وجلّ لآدم ميزة بقائه في الجنَّة إذا حافظ على طاعة الله فيها، وتُلْحَقُ به زَوْجَتُه، فلم يعصيا ربّهما، فقال له في سورة (طَه) أيضاً:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾: أي: ولا يَمَسُّكَ فيها حرُّ الشَّمس، يقال لغة: ضَحِيَ يَضْحَىٰ ضَحْواً، وضُحُوّاً، وضُحِيًّا، وضَحاً، أي: أصَابه حرُّ الشمس.

إنّه بَعْدَ أَنْ يسْكُنَ الجنَّةَ الخاليَةُ من عوامل الأوجاع والأسقام، مع زوجته التي يسْكُنُ إليها، ويأنَسُ بها وتأنَسُ به، لا يكون له من مطالب العيش إلاّ المطالب الأربعة الّتي ذكرها الله له:

**المطلب الأول:** أن لا يجوع، فالطّعامُ في الجنّة وفير لا ينْفَد.

**المطلب الثاني:** أن لا يَعْرَىٰ، فاللّباس الفاخر الفارة في الجنّة كثير.

**المطلب الثالث:** أن لا يَظْمأ، فالماء وأنواع الشراب اللّذيذ الأخرى لا تنفد.

**المطلب الرابع:** أن لا يضحَىٰ، فلا تَمسَّهُ فِيها حرارة أشعة الشمس، إذ الجنّة ظلٌّ ظليل دائم، ونفي التأذّي بحرارة الشمس يدُلُّ على نفي التأذي بالْبَرْدِ عن طريق اللّزوم الذهني، وقد جاء في القرآن التصريح بأنه ليس فيها زمهرير.

وهذه قصوى مطالب الجسد في حياة الامتحان، وقد سبق أن علمنا أنّ دخول آدم وزَوْجِه الجنَّةَ، قد كان دخول ابتلاء، لا دخول جزاء وبقاء.

## (هـ)
## بيان إسكان الله آدم وزوجه الجنة وبيان ما أباحه وما حرّمه عليهما

(١) جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن إسكان الله عزّ وجلّ آدم وزوجه الجنة، بيانُ ما قاله الله تعالى لآدم، مقتطعاً من الحدث نفسه، وفْقَ الأسلوب الذي انفرد به القرآن.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ تَضَمَّنَتْ هذه العبارة التوجيه لآدم وحواء أن يَسْكُنَا الجنَّةَ، وتَضَمَّنَتْ تَزْويجَ الله آدم من حواء بعقد زواج صادر عنه جلّ وعلا، أخذاً من عبارة: ﴿وَزَوْجُكَ﴾.

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: أي: فَكُلا عَقِبَ دُخولِكُما من أيِّ مكان في الجنَّة شئتما، ما يُؤْكل من ثمراتها وطيباتها.

﴿..وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: في هذه العبارة نهاهما الله جلّ جلاله عن أن يأكُلا من شجرة مُعَيَّنةٍ، أو من صنف من أصناف الشجر والله أعلم، ومبالغةً عن أن لا يأكلا منها نهاهما عن أن يقرباها، حمايةً لهما من الانزلاَق إلى المعصِيَة فيأكلا منها.

ودلّ هذا النهي مع الحكم عليهما بأنهما سيكونان من الظالمين إذا أكلا منها، على أن إدْخالهما الجنَّة قد كان إدخال ابتلاء، لا إدخال خلود وبقاء.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: فتكونا من الظالمين لأنفُسِكُما بمعصِيَتكما، وظُلْمُكُما هذا يُسَبِّب لكما الإخراج من الجنّة، والإهباط إلى الأرض، الّتي تتحمّلان فيها متاعب الامتحان الأشدّ أنتما وذرِّيَاتكما.

دلّت على هذه المطويات نُصُوصٌ أخرى، مع النظر إلى واقع الحياة الدنيا.

(٢) وجاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

● فجاء هذا النصّ بأسْلُوب حكاية قولٍ مضىٰ: ﴿وَقُلْنَا﴾ للإشعار بأنّ نصّ (الأعراف) قد جاء نصًّا مقتطعاً من الحدث الماضي.

● وجاء في سورة (الأعراف): ﴿فَكُلَا﴾ للدّلالة على أنّ الإذن لهما بالأكل من الجنة لا يحتاج انتظار شيءٍ من الأشياء، بل لهما مباشرة الأكل عقب الدخول فوراً، لأنّهما سيَصِلاَنِ عَقِب الدخول إلى ما يُؤكَلُ فيها.

● أمّا في سورة (البقرة) فجاء: ﴿وَكُلَا﴾ للدلالة على الإباحة المطلقة، سواءٌ أكان الأكل عقب الدخول أم بعد ذلك على ما يشاءان.

● وجاء نصّ (الأعراف): ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

● وجاء نصّ (البقرة): ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

**رَغَداً**: أي: كثيراً طَيِّباً مُتَنَوِّعاً رَفِيهاً، أي: وكُلَا منْها مأكولاً رَغداً كثيراً طيباً مُتَنَوِّعاً رَفِيهاً.

فأضاف نصّ (البقرة) وصْفَ المأكول في الجنَّةِ بأنّه رَغَد.

## (و)
## مكايد إبليس الشيطان لهما في الجنّة

(١) جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾:

﴿فَوَسْوَسَ﴾: الوسوسةُ في اللُّغة: الصَّوْتُ الخفيُّ، والوسْوسَةُ والْوِسْوَاسُ: حديث النفس.

ووساوس الشيطان الذي يجري من ابْنِ آدم مجْرَىٰ الدّم، تَأتي على صورة خواطر تُزيِّن فِعْل الشرّ والإثم، لحمْلِ الإرادة على التنفيذ. ولا نَدْري

كيف وسْوَس الشيطان إلى آدم، وقد يكون قد ظهر له بصورة مَلَكٍ من الملائكة، أو بصورة جنّيٍّ من الصالحين، أو غير من شَكْلِه تَنَكُّراً والله أعلم.

ويظهر أنّ ما تضمّنه هذا النصّ هو بِداية الحركة الكيديّة الإغرائيّة من إبليس الشيطان بالوسوسة، الّتي اتَّخَذَت أسلوباً غير مباشر، حتَّىٰ تَصِل إلى مراكز التأثير في نفس آدم، بدليل استخدام حرف الجرّ «إلى» في قول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. حرف الجرّ «إلى» يدُلُّ على بُعْدِ مَا بين بدء الحركة والوصول.

وجاء الحديث في هذا النصّ عن آدم منفرداً عن زوجته، وذكر الله عزّ وجلّ فيه إبليس باسمه الوصفيّ الجديد «الشيطان» المأخوذ من فعل «شَطَنَ» بمعنى بَعُد، والمأخوذِ من الشَّدِّ بالشَّطَنِ، وهو الحبْلُ الّذي يُدَلَّىٰ بِه الدَّلْوُ إلى البئر. وقد استحق إبليس هذا الاسم الوصفيَّ الجديد إذْ قَدْ هيّأ نفسه للإغراء والإغواء والإضلال عن صراط الله المستقيم، وممّا لا شكّ فيه أنّ إبليس قد صار بذلك بعيداً عن الحقّ، مطروداً من دائرة رحمة الرحمن الواسعة، ومُبْعِداً عباد الله عن الصراط المستقيم بوساوسه وتسويلاته، وهو يَتَّخِذُ حبائل كثيرة يُدَلّي بها عباد الله إلى جحيم المعاصي والآثام، حتّىٰ حضيض الكفر بالله جلّ جلاله.

وحين تكون الدعوة إلى الإثم والعصيان وسوسةً في الصدر من مُحَدِّثٍ غير مَرْئي، فإنّ الإنسَان يَشْعُر بأنّها من قبيل حديث نَفْسِه لذاتها، وهذا أَدْعَىٰ إلى الاستجابة والاندفاع إلى ما تَدْعُو إليه الوسوسة.

● ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

بدأ إبليس الشيطان آدَمَ بأسْلوبٍ استدراجي، تجاهَلَ فيه أنّه يَعْلَمُ أنّ الله عزّ وجلّ نَهاهُ وَزَوْجَهُ عن أنْ يأكُلَا من الشجرة، فقدّم إغراءه له بأسلوب العرض الاستفهاميّ ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾ وأوْهَمَهُ أنه لا يعْلَم شيئاً عن قصّة

الشجرة المحرّمة عليهما، وأنَّه خالي الذهن من هذه القضيَّة تماماً، وأنَّه حريصٌ على نُصْحِه، فهو أسْبَقُ منهُ وُجوداً، وأعْلَمُ بحقائق كثيرٍ من الأمور، وبِصِفاتِ الأشياء وخصَائِصها، وأغراه بالخلْدِ في الجنَّة، بحياةٍ أبديَّةٍ دائمة لا تنقطع مع نَعِيم عظيم ومُلْكٍ لا يَبْلَىٰ وَلا يفنى.

أمّا الخلْدُ فبتَأثير عَنْصرٍ أو مجموعة عناصر تشتمل عليها شجرة الْخُلْد، وسمَّاها إبليس شجرة الخلْدِ قَبْلَ أَنْ يَدُلَّ آدم عليها، لإشْعَارِه بأنّ هذا الاسم الوصفيّ هو اسْمُهَا المعروف عند أهل الملأ الأعلى، وهي شجرةٌ من أشجار الجنَّة.

فاستثَار إبليسُ بهذا العرض طَمَع آدم وتَشَوُّقَه لمعرفة هٰذِه الشجرة، حتّىٰ يأكُلَ منها.

ومعلومٌ أنّ النفس الإنسانيّة متىٰ تعلَّقَتْ بمَجْهولٍ فيه مطْلَبٌ عظيم من مطالب النفس، أخَذَتْ تَغْلِي مراجِلُها للتَّعرُّفِ عليه، والوصول إليه، واستعماله لتحقيق مطلوبها العظيم.

وهذا هو أسلوبُ التَّشْويق للرَّبْطِ والإزلاق.

وأمّا المُلْكُ الّذي لا يبلىٰ، أي: لا يفنىٰ ولا يهترئ كما تَبْلَىٰ الثياب، فهو فيما يظْهَرُ إغراؤه بسلطانٍ دائم على ذُرّيَاته الّذين يتناسَلُونَ منه فيها، بعْدَ أن يأكُلَ من شجرة الْخُلْد فيكون من الخالدين، وإغراؤُه بسلطان دائم على أهل الجنة وسكانها من غير ذُرّياته.

بعد هذا التشويق والتعليق للرَّبْط والإزْلاَق، لا بُدَّ أن يكون آدم قد قال لإبليس: نَعَمْ، دُلّني عليها. ولكنّ النصّ سكت عن هذا إيجازاً.

وهنا يأتي دور إبليس في إلْهَاب أشواق آدم للتعرّف على شجرة الخلْد، ومع لهيب الشّوْق يحْصُل في البصيرة غشاوةٌ وسُلْطانُ هوى، لكنّ هذه الأطوار قد طواها القرآن، لإمكان التوصُّل إليها بالتدبُّر والتفكير العميق.

وندركُ ذهْناً أنّ إبليس اللّعين، لمّا وَجدَ الحالة النفسيَّة لدى آدم ملائِمةً لتعريفه بالشجرة الّتي سمّاها له شجرةَ الخلْدِ، مع أنّها في الحقيقة شجرةُ الطَّرْدِ والإخراج من الجنّة، عَرَّفَهُ بها.

ولمّا عرّفه بها وهي قريبة منه، قال آدم لإبليس: لقَدْ نَهانَا رَبُّنا عن أَنْ نأكُلَ مِنْها، فإذا أَكَلْنَا منْها كُنَّا مِن الظالمين لأنفسهم بمعصية الله، وتَعَرَّضْنَا للإخراج من الجنّة.

عندئذٍ استغلّ إبليس حالة التوتر النفسيّ لدى آدم وزَوْجه، وحالَةَ القلَقِ الناتج عن حرصهما على الخلود وعلى المُلْكِ الذي لا يَبْلَىٰ، وخَوْفِهما من المعصية والإخراج من الجنّة على احتمال أنْ يكونَ هذا النّاصِحُ الموسْوِسُ لهما كاذباً عليهما، في ادّعائه أنّها شجرَةُ الخلد، فاستطاع إبليس أن يختصر الطريق على نفسه، فيَصِلَ إلى الوسوسة لهما معاً ومباشرة.

وهُنَا تأتي دلالة البيان الذي جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا . . ﴿٢٠﴾﴾.

كان إبليس يوسوس إلى آدم بأسلوب غير مباشر، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بدليل استعمال حرف «إلى».

فصار يوسوس لآدم وزوجه بصورة مباشرة، دلّ عليها استعمال حرف اللاّم في: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ مع اسْتعمال الضمير العائد على آدم وزوجه.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾: أي: لِيُظْهِرَ لَهُما.

﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾: أي: مَا سُتِرَ وأُخْفِي عَنْهُما من سَوْءَاتِهما.

كان إبليس اللّعين يعْلَم أنّ الأكْلَ من هذه الشجرة المحرّمة، سيكون

من آثاره السببيّة في جلودهما تَساقُطُ ما كان يسْتُرُ جلودهما من كُسْوَةٍ عليها.

وبتساقُطِ هذه الكُسْوَةِ السَّاترة تنكَشِفُ سوْآتهما، وتظهر عليهما آثار مَعْصِيَتهما، إذْ لكلّ معصية آثارٌ تظهر بحسَبِ سُنَنِ الله السببيَّة، وحين تظهر لهما سوْآتهما ينكشِفُ لهما أنّ إبْليس خَدَعَهُما، وغرَّرَ بهما، وكان أقوى مِنْهما بمخادعته وحيلته، وأنَّه شَفَىٰ غيظه منهما.

وبهذا يتَسنّىٰ لإبليس أن يدّعيَ أنّه قد كان معذوراً في رفضه السجود لآدم، فعلَىٰ آدم وزوْجِه أن يتحمَّلا نتائج معصيتهما إخراجاً من الجنّة، وإهباطاً إلى الأرض، كما طُرِدَ هُو بمعصيَته من منازل أهل الملأ الأعلى من الملائكة.

وأدرك إبليس اللّعين أنّه متَىٰ انكشَفَت سَوْآتُ آدم وزوْجه المادّيّة، انكشفت بانكشافها سوْآتهما النفسيّة الّتي من جبلَّتِها الميلُ إلى المعصية بتأثير الأهواء والشهوات والرّغبات.

كان إبليس مُتَلَهِّفاً لأنْ يرىٰ أوّل ظاهرة من ظواهرِ معصيتهما، وهي ظاهرة بُدُوّ سَوْآتهما، وما يصاحبُه مِنْ حزنهما وَآلامِهِمَا، وخوفهما من الإخراج من الجنة، فقد سبَق أن حذَّرهما ربُّهما من ذلك.

وسعىٰ إبليس يُزيّن لهما بوساوسه وتسويلاته أن يأكُلاَ من الشجرة المحرّمة، فقدّم لهما إغراءات كثيرات.

ويظهر أنّ إغراءاته لهما لم تؤثر عليهما، حتَّىٰ ظفِرَ بنقطة ضعف لديهما، وهي رغبَتُهما في أن يكون لهما مثل انطلاق الملائكة في السماوات بأجسادٍ نورانية، مع رغبتهما في أن يكونا خالدين فيما هما فيه من نعيم في الجنّة، إذْ هما يَعْلَمان أنّهما في سُكْنَىٰ ابتلاء، لا في سُكْنَىٰ دوامٍ وبقاء.

عندئذ زرع إبليس اللّعين الشَّكّ في قلوبهما حول الغرض من نهي الله

لهما عن أن يأكُلَا من الشجرة المحرّمة، وفي بيان هذه الحيلة الإغرائية الشيطانية قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ما نَهاكما رَبُّكما عن أن تأكلا من هذه الشجرة إلاّ مَنْعَ أَنْ تكونا مَلَكَيْنِ نورانيَّيْنِ تنطلقان حيْثُ تَشَاءان في أرجاء السماوات وفي آفاق الجنّة، أوْ مَنْعَ أن تكونا مِن الخالدِين، وزعَمَ لهما في هذا أنّه توجد مخلوقاتٌ حيَّةٌ خالدة، مع أنّ برنامج خطة الله عزّ وجلّ للحياة الأولى تقضي بإماتة كلّ مخلوق حيّ، كما قال تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿... كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

فزرع إبليس بهذه الوسوسة الشّكّ في قلوبهما، إذْ أَوْهَمَهُمَا أنّ للأشياء طبائع ذاتيّة أصليّة ثابتة، والله يخلُقُ من خلالها.

وهذه الفكرة الشيطانية الإبليسيّة القديمة المكَفِّرَة، هيَ الفكرة الّتي سقط في حبائلها الطبيعيون، والملاحدة المادّيون، اغتراراً بأنّ الله عزّ وجلّ جعل تصاريف خلقه مقيَّدة بالأسباب الّتي وضعها هو سبحانه في الأشياء، ليمتَحِنَ عباده في الإيمان به خالقاً من وراء الأسباب، وأنّ الأسباب لا تَزِيدُ على كونها بمثابة قنواتٍ يمُرُّ الخلْقُ الرَّبّاني من خِلالها، ولو شاء الله عزّ وجلّ لخلَقَ ما شاء بأمْرِ التكوين، دون أنْ يمُرَّ خلْقُه من قنوات الأسباب، إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فَهُوَ يكون بأمْرِ التكوين، والأسباب سواتر للخلق الرَّباني المباشر للأشياء.

لقد زعم إبليس في وسوسته وتسويله لآدم وزوجه أنَّ عنصر الشجرة المحرّمة يُحَوِّل الآكل منها إلى مَلَكٍ نورانيٍّ يَعْبُر أقطار السماوات بخفّة الأنوار، أو بخفة الأرواح المجرّدة، أو يجعله خالداً يعيشُ أبداً دون أن

يُدْرِكَه الموت، وأوْهَمَهُما أنّ ربّهما لا يُريد لهما أن يكونا ملَكَيْن، أو من الخالِدين، فحرَّمَ عليهما أن يأكلا من هذه الشجرة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ قبول هذا التصوُّر يوقع في معصيَتَيْنِ هُما من أكبر الكبائر، فإنْ قَبِلا فكرة أنّ الشجرة ذات عُنْصُرٍ ذاتِيٍّ فَعَّالٍ في أن يكونا مَلَكَيْن أو يكونا مِن الخالِدِين، فقد جعلا طبائع الأشياء شُرَكاء لله عزّ وجلّ في رُبوبيته.

وما أظنّ أنّ آدم وزوجه قد سقطا في هذه الكبيرة الشركية.

وإنْ تصوّرا أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل في هذه الشجرة هذه الميزة الخاصة، وأنّه حرَّم عليهما الأكل منها لئلا يكونا ملَكَيْن أو يكونا من الخالدين، فقد وقَعا في غفْلَةٍ عن أنّ الله جلّ جلاله مُطَّلِعٌ عليهما، عليم بكل حركة يتحرّكانها، وبكلّ سكَنَةٍ يسْكُنَانها، وأنه لو كان لهذه الشجرة هذه الميزة بخَلْق الله، والله لا يُريد أن يكونا مَلَكَيْنِ أو يكونا من الخالدين، فإنّه جلّ جلاله لا يُمَكِّنُهُمَا من الأكْل منها بصورة جبرية، أو بوسيلة من وسائله القهرية.

والذي أوقَعَهُما في هذه الغفلة القبيحة شِدَّة رَغبتهما في الخلود، أو في أن يكونَا مَلَكَيْن، ومعلومٌ أنّ شِدَّة الرَّغْبَةِ تتحوّلُ إلى هَوىً، ومِنْ شأن الهوى أن يُغَشِّيَ على مراكز التفكير السليم.

ولم يُصَدّقْ آدم وزوجه هذه المقولة الإبليسيّة الشيطانية، وبقيا حَذِرَيْن خائفين من السقوط في المعصية.

ويَبْدُو أنّ آدم طلبَ من إبليس أن يُقْسَمَ بالله على أَنَّ ما يقوله حقٌّ، فوجد إبليس هذا فرْصَةً مواتية ليقسم الأقسام المغلّظة على أنّه من الناصِحين لهما.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وشدّدَ القسم لهما، لأنّ صيغة «فاعل» تدلُّ على المشاركة مثل: «قَاتَل» فإذا كان الفِعْلُ من طرف واحد، كانت الصيغة دالَّةً على المبالغة في الفعل، ومع التشديد في القسم أكّدَ إبليس ادّعاءه بأدوات التوكيد المتعدِّدة: «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللاّم المزحلقة ـ تقديم المعمول على عامله».

فاستجابا له بعض استجابة، كالاقتراب من الشجرة، فأحسّ إبليس بأنه سيظفر بإغوائهما، فتابع مَكيدته الاستدراجية شيئاً فشيئاً، خطوة فخطوة، هذه المكيدة قد جاء التعبير القرآنيُّ عنها بقول الله تبارك وتعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ ... ﴿٢٢﴾﴾.

يُقال لغة: دلَّىٰ الدَّلْوَ وَأَدْلاه، إذا أَرسَلُه في البئر بشَطَنِه، أي: بحبله، ويُقالُ: دلَّىٰ الشيءَ في المَهْوَاة، أي: أَرْسَلَهُ فيها.

أي: فربطهما بشطَنٍ من أشطانِه الإغرائية الكاذبة، ودلاّهما في بئر المعصية، كما يُدَلَّىٰ الدَّلْو في بئرٍ ما شيئاً فشيئاً، مُغَرِّراً بهما، خداعاً وتلبيساً وإطماعاً بالباطل، ورُبّما قال لهما: لا تأكُلاَ من الشجرة، ولكن ذوقا طعمها بألْسِنَتكما.

هذه التدلية هي الوسيلة الشيطانيّة المتّبعةُ عند جميع شياطين الجنّ والإنس، من بعد إبليس، وهي المعبّر عنها بأسلوب: «خطوة فخطوة» فحيلة الإغواء الكبرى هي حيلة التدلية بالخطوات المتتاليات، خطوة فخطوة.

وهنا يأتي قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ . . (٢٢)﴾ .

وهنا نتساءل: هل أَلْقَيَا ما وضعاه على ألسنتها منها بَعْدَ الذّواق أم أكَلاه وابْتَلعاه؟ .

ويأتي البيان الرَّبّانيُّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) فيكْشِف أنهما قد أكلاه، قال الله عزّ وجلّ فيها

﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ (١٢١)﴾ .

﴿سَوۡءَٰتُهُمَا﴾: **السَّوْأة**: هي العَوْرَة، القُبُل والدُّبر، وكُلُّ عمل وأمْرٍ قبيح شائن، والْخَلَّةُ القبيحة.

﴿وَطَفِقَا﴾: أي: وَشَرَعا عنْدَ بُدُوّ سَوْآتهما.

﴿يَخۡصِفَانِ﴾: أي: يُلْصِقان على سوْآتهما ﴿مِن وَرَقِ﴾ أشجار ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ لِسَتْرِ ما بدا منهما من سَوْآتهما الّتي كانت مكْسُوَّةً بخلْق الله بما يسْتُرُها.

ودلّ البيان القرآني على أنَّهما ابْتَعدا عن مَسْرَحِ المعصيةِ، فَارَّيْنِ إلى أمَاكِنَ أخرى في الجنَّة، ليْسَ فيها صنف الشجرة المحرّمة، كما سيأتي بيانه.

## (ز)
## محاكمة الله لآدم وزوجه على معصيتهما والحكم عليهما بالهبوط إلى الأرض

(١) جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ بعد بيان أنَّهما ذاقا الشجرة، وبدَت لهما سَوْآتهما، وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهما من وَرَق الجنَّة:

﴿. . . وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢)﴾:

لَقَد ابْتَعَدَا عن الله عزّ وجلّ فَاسْتَحَقَّا أن يُنَادِيَهُما نِدَاءً، إذْ جاء التعبير في النصّ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ ولم يأت بأسْلُوبِ: وقال لهما ربُّهما.

وتَبْدَأ مُحاكَمَتُهما بطَرْح سؤالَيْن عليهما:

**السؤال الأول:**

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؟.

كان التعبير عند النهي عن الأكل من الشجرة المحرّمة مشتملاً على استعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب: ﴿هَٰذِهِ﴾ وهو قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

وبَعْدَ أن أكلا منها وبَدَأت محاكَمَتُهما جاء التعبير مشتملاً على استعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد: «تِلْكَ» وهو قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾.

فدَلَّ هذا الإجراء الْبَيَانيُّ، على أَنَّهما ابْتَعدا فارّيْن عن مسْرَحِ المعصية الّتي تقع فيه الشجرة المحرّمة، وهذا من بديع البيان.

**السؤال الثاني:**

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؟.

أي: وألم أُحذِّرْكُما من أن يُؤَثِّر علَيْكُمَا إبليس الشيطان بالإغراء والإغواء، إذْ هو عَدُوٌّ لَكُما، فيكون بوساوسه وإغراءاته سبباً في معصيتكما، وإخراجِكُمَا بها من الجنَّة؟.

فلَمْ يكن من آدم وزوجه اعتذارٌ بشيءٍ، ولا مُجَادَلَةٌ لتبرئَة أنْفُسِهما مِنْ مَعْصِيتهما، ولا إصرارٌ علىٰ حَقِّهما في الأكل من الشجرة ولا عناد، بل كان منهما اعترافٌ بذَنْبِهما، ونَدَمٌ، واستغفار، وتَذَلُّلٌ، وسألاَ رَبَّهما أنْ يَرْحَمَهُمَا، فإنْ لم يَرْحَمْهُما كَانَا من الخاسرين.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

فاعترفا بأنَّهما قد عَصَيَا رَبَّهما، وظَلَما أَنْفُسَهُما بهذه المعصية، وسَألاَ الله المغفرة والرَّحْمَة، واسْتَعْطَفاه، مؤكِّدَيْنِ بأنَّه إنْ لم يَغْفِرْ لَهُمَا وَيَرْحَمْهُما كَانَا حتماً من الخاسِرين، أي: وبما أنَّهُ غفورٌ رحيم فإنَّه سيَغْفِرُ لَهُما وَسَيَرْحَمُهُمَا، حتَّىٰ لا يكونا من الخاسِرين الَّذِين خَسِرُوا بكُفْرِهم سعادتَهُمُ الأبَدِيَّة، وعرَّضوا أَنْفُسَهُمْ للجزاء العقابيّ العادل.

(٢) وأبان الله عزّ وجلّ أنَّ آدم عَصَىٰ رَبّه، فوقَع بمعصيَتِه الإراديّة في الْغَوَاية، وهي الضلال والابتعاد عن صراط الله المستقيم، ودَلَّ على مَعْصِيَةِ زَوْجه ضِمْناً وَتَبَعاً لمعصيته.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾:

﴿فَغَوَىٰ﴾: أي: فَوَقَع في الْغَوَاية، وهي الضلال والخيبة وترك سبيل الرّشاد، والابتعادُ عن صراط الحق والْهُدى.

(٣) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾: أي: فأزلَقَهما مُبْعِداً لهما عن الجنة، بوسَاوِسِه، وتَسْويلاته، واستهواءاته لهما، المتنقلة في الخطواتِ الإزلاقيَّة، من خُطْوَةٍ إلى خُطْوَةٍ أخَسَّ وأحَطَّ.

والمعنى: فأزلَّهما مُتسبِّباً في إبعاد الله لهما عن الجنّة بحُكْمِه الجزائيّ عليهما.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: أي: فكان السَّبَبَ في الحكْمِ عَلَيْهِما

بالإخراج مما كانا فيه من نعيم الجنَّة، لأنَّ وُجودهما فيها قد كان وجود امتحانٍ وابْتِلاء، لا وُجُود دوامٍ وبقاء.

وصَدَرَ حُكْمُ الله عزّ وجلّ عليهما بأن يَهْبطَا من الجنّة إلى الأرض، هما وما أوْدَعَ الله فيهما من ذُرِّياتهما، وأنْ تكونَ الأرْضُ مُسْتَقراً وَمَتَاعاً لهم، مقداراً من الزمان يكونُ فيه امتحانُهم، وهو بالنسبة إلى الأفراد، ما قضىٰ الله لكلّ واحدٍ منهم من عُمْر في الأرض، وبالنسبة إلى عموم البشر الّذين يتناسَلُونَ عليها يَسْتَمِرُّ إلى حينِ إنهاءِ ظروفِ الحياة الدُّنيا بقيام سَاعَةِ الإفناء.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

هذان النصّان يَدُلاّن على ما وجّه الله عزّ وجلّ من قول لآدم وزَوْجه، وما أودع فيهما من ذُرّياتٍ سَتَتَنَاسَل، حتّىٰ آخِرِ مَقْضِيٍّ له بالحياة من البشر.

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: أي: قرار وثبوت.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾: المتاع ما يُنْتَفَعُ به وَالفناء يأتي عليه.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي: إلى زَمَنٍ مَعْلُوم لِلَّهِ عزّ وجلّ، وهو ساعة موت كلّ إنسان في أجَلِه المقدّر له بالنسبة إلى الأفراد، وهو يوم قيام ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا بالنسبة إلى عُموم البشر.

(٤) وَتوجَّه آدمُ لِرَبّه مُسْتَغْفِراً تَائباً نادماً، سائلاً أن يكفِّرَ عنه خطيئته

ويَتُوب عليه، فأوحى الله إليه بكلماتٍ يقولُهُنَّ، ويَعْمَلُ بالتكليف الّذي اشْتَمَلْنَ عليه، فأدّى ما أَمَرَهُ الله به فيها، فتابَ عليه إنَّهُ هو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: فتلَقَّىٰ آدم من ربّه كلماتٍ فأتَمَّ الْعَمَل بما أمَرَه الله به فيها، فتاب عليه بفضله ومَنّه وكَرَمِهِ، إذْ إنَّهُ هُو التَّوَّابُ الرَّحيم.

**تاب**: أي: رَجع إلى الطاعة بعد أن عدَلَ عَنْ صراطها. وإذا تاب العبد إلى ربّه توبةً صادقةً تَابَ اللَّهُ عَلَيْه، أي: رجَعَ جَلَّ جلاله يُفيضُ عليه من رحماته وعَفْوِه، وشَمَلَه بجوده وكرَمِه وفضله.

(٥) وبعد أن تاب الله على آدم ومَرَّ زَمَنٌ متراخٍ، اجتباه رَبُّهُ، وهَدَاهُ بما أنزل عليه من بياناتٍ دينيَّةٍ يَعْمَلُ بها، ويُبَلِّغُها لِزَوْجه وذُرّياته، فكان بذلك نبيًّا ورَسُولاً.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾: أي: اصطفاه واختاره. وجاء فعل «اجتَبَىٰ» في القرآن مستعملاً بمعنى الاصطفاء للنبوّة والرّسالة، إذا كان اجْتِباءً للأفراد.

وجاء مرّةً واحدة بمعنىٰ اصطفاء أُمّةِ مُحَمَّد بمجموعها لحَمْلِ رِسالته مِنْ بَعْدِه، والمراد أنّهم مسؤولون عند الله عن تبليغ رِسَالته للناس، كما كان الرسول محمَّدٌ ﷺ مسؤولاً عن تَبْليغ ما أَمَرَهُ الله بتبليغه للناس، وأَنَّهم بهذا الاجتباء مَعْصُومُونَ عَنْ أن يَجْتَمِعُوا على ضلالَة.

ونستدلُّ من معنىٰ الاجتباء الوارد في القرآن، علىٰ أنَّ آدم عليه السَّلام قد اجْتَباه الله نَبِيًّا ورَسُولاً، لأوَّلِ مجتمع بَشَرِيٍّ من ذُرِّيَّتِه.

## (ح)
## الأمر التنفيذي بالْهُبُوطِ إلىٰ الأرض

بعد أن أصدر الله عزّ وجلّ حُكْمَه بإهباط آدم وزوجه وما أوْدَع فيهما من ذُرّيّاتهما إلى الأرض، ومرَّت مُدَّةٌ تَابَ فيها آدم، وتاب الله عليه، جاء دور إصدار الأمر التنفيذيّ بالهبوط.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

هذانِ النَّصَّان متكامِلاَن في الدّلالة على المراد، مع تكامل في الأسلوب البياني.

- فجاء في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... ﴿١٢٣﴾﴾.

خطاباً لآدم وزوجه، ولوحظ فيهما ذُرّيّاتهما بعبارة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) جاء قول الله تعالى:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ... ﴿٣٨﴾﴾.

فجاء التعبير باستعمال ضمير المتكلم العظيم: ﴿قُلْنَا﴾ إشعاراً بسُلْطَانِ رُبُوبيّة الرّبّ الحكيم جلّ جلاله، ولوحظ في خطابهما ذُرّيّاتُهما معهما بعبارة ﴿ٱهْبِطُواْ﴾.

● وجاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾:

أي: فإمّا يأتينَّكُمْ مِنِي تَعْلِيمَاتٌ مُنَزَّلاَتٌ تبيّن لكم ديني الّذي اصطفيته لكم، وفيها هدايتكم، فاتَّبِعُوها، واعملوا بما تشتمل عليه من أوامر ونواهي ووصايا.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾: أي: فمن حرص على اتّباع هُدَايَ بقوة وعناية والتزام باهتمام.

دلّ فعل ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ بوزن «افتعل» على الالتزام بقوة وعناية، لأنّ هذا الوزن يدلّ على التكلّف وتحمّل مشقة الانقياد والالتزام بالتكاليف الدينية.

﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾: أي: فلا يَضِلُّ عن صراط الله المستقيم، ولا يَضِلُّ في السُّبُل المبتعدة عنه ضائعاً في متاهاتها، ولا يُعَرِّضُ نَفْسَه للمتاعب والمشَقّات المشقيات، لأنّ الله جلّت قدرتُهُ وعَظُمَتْ حِكْمَتُه يُهَوِّنُ عليه، ويُدَافع عنه، ويمنح قلبه ونفسه الطمأنينة والسعادة في حياته، وإنْ تعرَّضَ فيها للمكاره.

ويلْزَمُ من ذلك أن يكون من الفائزين الناجين من عذاب الله يوم الدّين، ومن أهل السَّعادة الخالدة في جنّات النعيم.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قال الله تعالى:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾: هذه العبارة نظير العبارة التي جاءت في سورة (طه) فلا حاجة لتحليلها وشرحها.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾: جاء في هذه العبارة فعل ﴿تَبِعَ﴾ ومضارعه «يَتْبَعُ» على وزن «فَعِلَ يَفْعَلُ» المجرّد من الزوائد.

أي: فَمَن تَبِعَ دون تكلُّفٍ والتزامٍ بقوّةٍ وعناية، فاختلفت هذه العبارة في دلالتها عن العبارة الّتي جاءت في سورة (طه) إذْ أبانت أحوالَ زُمَرٍ من المؤمنين لم يُحَقِّقُوا كمال المطلُوب مِنْهُمْ في أن يَلْتَزِموا به في حياة الابتلاء، فكان من المناسب أنْ يكون جزاؤهم في حدود:

﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾.

أي: فلا خَوْفٌ ضاغِطٌ عَلَيهم يوم القيامة من التعرُّضِ للحريق بعذاب النار، ولا هُمْ يحْزَنُونَ على ما فاتهم من أنواع متاعٍ في الحياة الدنيا، لأن ما سينالونه من نَعِيمٍ في الجنَّةِ عظِيمٌ جدًّا، وخالدٌ لا انقطاع له.

ولم يَأْت في هذا الوعد أنه لا يَضِلُّ مُطْلقاً، لأنَّ زُمَر هذا الفريق من المؤمنين قد يَقَعُ في ضلالٍ غير بعيد، وهو ضلال المعاصي والذنوب والخطايا. ولم يأتِ فيه أنه لا يَشْقَىٰ، لأنّ زُمَرَ هذا الفَريق من المؤمنين قد يَتْعَبُونَ ويَنْصَبُونَ وَيَشْقُوْنَ في الحياة الدُّنيا، وقد يَشْقَوْنَ بعذابٍ في الآخرة على مقادير معاصيهم، إذْ لم يُحَمِّلُوا أَنْفُسَهم كُلْفَةَ الالتزام بقوة وعناية، بالْهُدَىٰ الّذي جاءهم من الله عزّ وجلّ ببلاغات الرُسُل عنه.

● وَجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾.

هذا البيان يتعلّقُ بمؤمن أعْرَض عن ذكر الله، وترك العمل بما جاء

في هُدَى الله المنزل، فكان سلوكُه مشابهاً سلوكَ الكافرين، فعاقبه الله عزّ وجلّ في الدنيا، فجعل له معيشةً ضَنْكاً.

**الضَّنْك**: الضيق في كلّ شيء، يستوي فيه المذكر والمؤنث، تقول: عَيْشٌ ضَنْك، ومعيشةٌ ضَنْك، أي: ضيّقَةٌ لا سَعَةَ فيها، وقد يكون ضِيقاً نفسيًا، ولو كان المضيَّقُ عليه ذا سَعَةٍ من المال. وقد يأتي هذا الضَّنْكُ من أهله وأسرته وأولاده، أو وسائل كسْب رزقه، أو من أمراض وأوجاعٍ تتراكبُ عليه، أو من غير ذلك.

ويُعَاقِبُه الله يوم القيامة بعد البعث، فيحشُرُهُ أعْمَىٰ، نظير حَشْرِ الكافِرين، لمشابَهَتِه لهم في أعمالهم، فقال تعالى:

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾: أي: على مِثْلِ ما يُحْشَرُ عليه الكافرون، مع أنّه لم يكن كافراً في الحياة الدنيا.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾؟:

أي: لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَىٰ كالكافرين، وقد كُنْتُ في الحياة الدنيا بَصِيراً، أي: مؤمناً غير كافر.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾:

﴿ كَذَٰلِكَ﴾: أي: مِثْل ذلك الّذي كان مِنْكَ في الحياة الدنيا، والمعنى: حَشْرُكَ أعْمَىٰ كَحشْرِ الكافِرين مُمَاثِلٌ لما كان مِنْكَ في الحياة الدُّنيا، إذْ إنَّك مع كونِكَ مُؤْمِناً بي لَمْ تَتَبعْ هُدَاي الّذي أمَرْتُكَ بأن تَتْبَعه، ولم تُؤَدِّ ما أَمَرْتُكَ به، ولَمْ تَنْتَهِ عمَّا نَهيْتُك عنه، وتَرَكْتَ الْعَمَل بآياتي، فَصِرْت في حياتك مثل الكافرين في السُّلُوك.

﴿فَنَسِيتَهَا ﴾: أي: فَتَرَكْتَها، وتَرَكْتَ العمل بها، أصل النسيان في اللُّغة الترك، وتَرْكُ الشيء زمَناً طويلاً يَمْحُوه من الذاكرة، فلا يخْطُر على البال.

﴿ . . . وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾:

أي: ومثل تركك في الدنيا الْعَمَلَ بآياتِ رَبِّك المنزَّلات المشتملات

على هُداه، تُتْرَكُ اليوم في موقف الحشر فلا يُعْتَنَىٰ بك، وتُعَامَل معاملة الكافرين الذين يُحْشَرُونَ عُمْياً، لقد أغْمَضْتَ عينَيْك عمّا قَدَّمْنَا من بيانات هداية لعبادنا، فجزاؤُك اليوم يكون من جِنْسِ عَمَلِك، ولا يُفيد هذا الترك له يوم الحشر أَنَّه يكون من الخالدين في النار كالكافرين.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

جاء هذا البيان عقب ذِكْر مَنْ تبعَ هدىٰ الله دون التزام بقُوَّةٍ وحِرْصٍ وعناية، وَهؤلاء يتَفَاوَتُون في درجاتهم حتى أدنى دَرَجَاتِ المتقين، فالمقابل لهم هم الكافرون الّذين كَفَرُوا بالرَّسُول، وكذَّبُوا بآيات الله، فعقوبَتُهُمُ الحتْميَّة هي أَنَّهم أصحاب النار، وأنّهم فيها خالدُون.

❁ ❁ ❁

لقد ظهر لنا في هذا الملحق التكامل في النُّصوص الواردة بشأن خَلْق آدم عليه السلام، وما رافق خلْقَه من أحداث، حتى إهباطه هو وزوجته من الجنّة إلى الأرض.

وقد تمّ لنا من جَمْع النُّصوص وتدبُّرها تدبُّراً تكامليًّا، إدْراكُ أبْرَزِ عناصر ما جرىٰ بصورة تكاملية، وهَدانَا التأمُّل إلىٰ ملء الفراغات المطلوبة من اللّوازم الذهنية، ومقتضيات حركيَّة الحدث الّتي نفهمها من الأشباه والنظائر، والترتيب المنطقيّ لطبائع الأشياء.

وتوجد نصوص أخرى في القرآن تتعلّق بالشيطان، وهي مكملة لما جاء في هذا الملْحق، وتتطلّب دراسة مستقلّة.

## والحمد لله على فتحه وتوفيقه

❁ ❁ ❁

**وكان الفراغ من كتابة هذا المجلّد في يوم الخميس/ ١٣ رمضان/ ١٤١٩هجرية الموافق لآخر كانون الأول ١٩٩٨ ميلادية.**

# الفهرس

الموضوع — الصفحة

## (٣٤)
## سورة (قٓ)
## ٥٠ مصحف/٣٤ نزول


(١) نص السورة ........................ ٧
(٢) مما ورد في السنة بشأن سورة (قٓ) ........................ ١٠
(٣) موضوع سورة (قٓ) ........................ ١١
(٤) دروس سورة (قٓ) ........................ ١٢
**(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٣)** ........................ ١٥
- ﴿قٓ والقرآن المجيد﴾ ........................ ١٦
- ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم..﴾ ........................ ١٨
- تحليل بواعث التعجب.. ........................ ٢١
- تعجب المشركين الوارد في هذا الدرس ........................ ٢٢
**(٦) التدبر التحليليّ للدرس الثاني، الآيتان (٤، ٥)** ........................ ٢٦
- ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ ........................ ٢٦
- شمول علم الله عزّ وجلّ كلّ شيءٍ من خلال تدبر أربعة نصوص قرآنية ٣١
- ﴿بل كذَّبُوا بالحقّ لمّا جاءهم فهم في أمْرٍ مَرِيجٍ﴾ ........................ ٣٥
**(٧) التدبر التحليليّ للدرس الثالث، الآيات من (٦ ـ ١١)** ........................ ٣٧
- نظرة تدبرّية عامة حول العناصر التي اشتمل عليها هذا الدرس ........ ٣٧
- الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالسماء ........................ ٣٩
- الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالأرض ........................ ٤٠
- نظرات تدبرية تحليليّة لفقرات الدرس الثالث ........................ ٤٣
- ﴿أفلَم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها..﴾ ........................ ٤٣
نصوص تزيين السماء للناظرين في الأرض ........................ ٤٧
- ﴿ومالها من فُروج﴾ ........................ ٤٩

الموضوع | الصفحة


● ﴿والأرض مددناها..﴾ ........ ٥٠
● ﴿وألقينا فيها رواسي...﴾ ........ ٥١
ما جاء في القرآن بشأن امتنان الله على عباده بالجبال الرواسي ........ ٥١
التعليق حول نعمة إلقاء الجبال الرواسي ........ ٥٢
● ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ ........ ٥٣
● ﴿تبصرة وذكرى لكلّ عبد مُنيب﴾ ........ ٥٦
● ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً...﴾ إلى الآية (١١) ........ ٥٩
وظيفتا آيات الله في كونه ونِعَمِه على عباده ........ ٦٣
● ﴿كذلك الخروج﴾ ........ ٦٣
دلالة تشبيه إحياء الموتى يوم القيامة بإحياء النباتات من نويات بزُورها . ٦٣
**(٨): التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤)** .. ٧٢
● ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ..﴾ إلى الآية (١٤) ........ ٧٢
● قوم نوح عليه السلام ........ ٧٤
● أصحاب الرسّ ........ ٧٤
● ثمود ........ ٧٥
● عاد ........ ٧٦
● فرعون، قوم لوط، أصحاب الأيكة ........ ٧٧
● قوم تُبَّع ........ ٧٨
● ﴿كُلٌّ كذَّب الرُسُل فحقّ وعِيد﴾ ........ ٧٩
**(٩) التدبر التحليلي للدرس الخامس، وهو الآية (١٥)** ........ ٧٩
● ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ ........ ٧٩
صوغ الدليل الذي اشتملت عليه هذه الآية بقياس منطقي اقتراني، أو بقياس استثنائي ٨١
**(١٠) التدبر التحليلي للدرس السادس، الآيات من (١٦ ـ ١٨)** ........ ٨٤
● ﴿ولقد خلقنا الإنسان..﴾ ........ ٨٥
● ﴿ونعلم ما توسوس به نفسُه...﴾ ........ ٨٦
● ﴿ونحن أقرب إليه من حبْلِ الوريد﴾ ........ ٨٦
● ﴿إذْ يتلقّى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ ........ ٨٧
● ﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾ ........ ٨٨
**(١١) التدبر التحليلي للدرس السابع، الآيات من (١٩ ـ ٢٢)** ........ ٩٢
● ﴿وَجاءت سكرة الموت بالحقّ ذلك ما كنت منه تحيد﴾ ........ ٩٣

الموضوع — الصفحة


● ﴿ونفخ في الصور ذلِكَ يومُ الوعيد﴾ ........ ٩٦
● ﴿وجاءت كلُّ نفس معها سائق وشهيد﴾ ........ ٩٨
● ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبَصَرُك اليوم حديد﴾ ٩٩
(١٢) **التدبر التحليلي للدرس الثامن، الآيات من (٢٣ ـ ٢٩)** ........ ١٠١
● ﴿وقال قرينة هذا ما لدَيّ عتيد﴾ ........ ١٠٣
● ﴿ألقيا في جهنّم كلّ كفّارٍ عنيد * منّاع للخير معتد مريب * الذي جعل مع الله إلَهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾ ........ ١٠٧
● ﴿قال قرينه رَبّنا ما أطغيته ولكن كان في ضَلَال بعيد * قال لا تختصموا لديّ وقد قدّمتُ إليكم بالوعيد * ما يُبَدَّلُ القول لدَيَّ وما أنا بظَلَّام للعبيد﴾ ........ ١١٠
(١٣) **التدبر التحليلي للدرس التاسع، الآيات من (٣٠ ـ ٣٥)** ........ ١١٢
● ﴿يَوْمَ نقولُ لجهنّم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد﴾ ........ ١١٣
● ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ ........ ١١٥
● ﴿هذا ما توعدون لكلّ أوّابٍ حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ ........ ١١٦
● ﴿ادْخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾ ١١٨
(١٤) **التدبر التحليلي للدرس العاشر، الآيتان (٣٦، ٣٧)** ........ ١١٩
● ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن...﴾ ........ ١٢١
● ﴿فنقّبُوا في البلاد هل من محيص...﴾ ........ ١٢١
● ﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألْقىٰ السَّمْعَ وهو شهيد﴾ .. ١٢٢
(١٥) **التدبر التحليليّ للدرس الحادي عشر، الآية (٣٨)** ........ ١٢٤
● ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسَّنَا من لُغُوب﴾ ١٢٤
(١٦) **التدبر التحليلي للدرس الثاني عشر، الآيات من (٣٩ ـ ٤٥)** ........ ١٢٧
● ﴿فاصْبر على ما يقولون...﴾ ........ ١٣٠
● ﴿وسبّح بحمد رَبّك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبّحه وأدبار السجود﴾ ........ ١٣١
● ﴿واستمع يوم ينادِ المنادِ من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾ ........ ١٣٣
● ﴿إنّا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ ........ ١٣٥
● ﴿يوم تشَقَّقُ الأرض عنهم سِراعاً ذلك حشْرٌ علينا يَسِيرٌ﴾ ........ ١٣٦
● ﴿نَحْنُ أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبّارٍ فَذَكِّر بالْقُرآن من يخاف وَعِيدِ﴾ ١٣٨

الموضوع | الصفحة

**(١٧) الملحق الأول لسورة (قٓ):** ........ ١٤٠
مستخرجات بلاغيّة من السورة ........ ١٤٠
**(١٨) الملحق الثاني للسورة:** ........ ١٤٥
الوصف بالبركة في القرآن المجيد ........ ١٤٧
وصف القرآن بأنه مبارك ........ ١٥١
بيان أن الله قد منح البركة بعض عباده الصالحين ........ ١٥٥
بيان أن الله قد بارك في الأرض ........ ١٦٠
البركة الزائدة التي جعلها الله لأمكنة خاصة ........ ١٦١
البركة التي جعلها في ليلة القدر ........ ١٦٥
البركة في الماء النازل من السماء ........ ١٦٦
البركة في شجرة الزيتون ........ ١٦٦
البركة في التحية التي يسلم المؤمن بها على نفسه ........ ١٦٧

**((٣٥))**
**سورة البلد**
**٩٠ مصحف/٣٥ نزول**

(١) نصّ السورة ........ ١٧١
(٢) موضوع السورة ........ ١٧٢
(٣) دروس السورة ........ ١٧٦
**(٤) التدبّر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ٤)** ........ ١٧٧
- ﴿لا أُقْسِم...﴾ تحليل معنى القسم المنفي في القرآن ........ ١٧٩
- ﴿لاَ أُقْسِمُ بهذا البلَد * وأنت حلٌّ بهذا البلد﴾ ........ ١٧٩
- ﴿ووالد وما ولد﴾ ........ ١٨١
- ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ ........ ١٨٢

**(٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (٥ ـ ١٠)** ........ ١٨٩
- **تمهيد:** حول آيات هذا الدرس ........ ١٩٠
- ﴿أيحسَبُ أنْ لن يقدر عليه أحدٌ * يقول أهلكت مالاً لُبداً﴾ ........ ١٩٢
- ﴿أيحسب أن لم يرَهُ أحد * ألم نجعل لَهُ عينَيْن * ولِسَاناً وشفتين﴾ .. ١٩٣
- ﴿وَهَدَيناه النجدَيْن﴾ ........ ١٩٤

الحديث عن نوع الإنسان في هذه السورة مع إرادة العموم أو إرادة الخصُوص ١٩٦

الموضوع — الصفحة


(٦) **التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (١١ ـ ٢٠)** ........ ١٩٩
- ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ ........ ٢٠١
- ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ ........ ٢٠٢
- ﴿فكّ رقبة﴾ ........ ٢٠٣
- ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة﴾ . ٢٠٤
- ﴿ثُمَّ كان من الذين آمنوا وتواصَوْا بالصبْر وتواصَوْا بالمرحمة﴾ ........ ٢٠٧
- ﴿أولئك أصحاب الميمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نارٌ مؤصده﴾ ........ ٢٠٩

(٧) **لطيفة تربوية** ........ ٢١١
(٨) **نظرة عامّة إلى ما اشتملت عليه السورة** ........ ٢١٢
ملاحق لسورة البلد ........ ٢١٧
(٩) ملحق حول بلاغيات في السورة ........ ٢١٧
(١٠) ملحق أصحاب اليمين وأصحاب الشمال في القرآن ........ ٢٢٠

## (٣٦)
## سورة الطارق
## ٨٦ مصحف/٣٦ نزول

(١) نصّ السورة ........ ٢٤٩
(٢) ممّا ورد في الحديث بشأن سورة الطارق ........ ٢٤٩
(٣) موضوع السورة ........ ٢٥٠
(٤) دروس السورة ........ ٢٥٢
(٥) **التدبر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ٤)** ........ ٢٥٤
- ﴿والسماء والطارق﴾ ........ ٢٥٤
- ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ ........ ٢٥٥
- ﴿النجم الثاقب﴾ ........ ٢٥٦
- ﴿إنْ كل نفس لمّا عليها حافظ﴾ ........ ٢٥٨
- الأسلوب القرآنيّ في تأكيد الأخبار الغيبية ........ ٢٦٠
- الأسلوب القرآني في تجزئة العناصر الفكرية للموضوع الواحد وتوزيعها في دروس التنزيل ........ ٢٦١
- العلاج النفسيّ بالترغيب والترهيب ........ ٢٦٣

(٦) **التدبّر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (٥ ـ ١٠)** ........ ٢٦٤

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| • تمهيد: | ٢٦٤ |
| • ﴿فلينظرِ الإنسَانُممّ خُلِق﴾ | ٢٦٥ |
| • ﴿خُلِقَ من ماء دافق﴾ | ٢٦٥ |
| • ﴿يخرج من بين الصُلْب والترائب﴾ | ٢٦٦ |
| • مقرّرات البحث العلمي حول كون الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب | ٢٦٧ |
| • ﴿إنّه على رجْعه لقادرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السّرائرُ﴾ | ٢٧٠ |
| • ﴿يوْمَ تُبْلى السّرائر﴾ | ٢٧٢ |
| • ﴿فَما لَهُ من قوّة ولا ناصِرٍ﴾ | ٢٧٣ |
| (٧) **التدبّر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (١١ ـ ١٤)** | ٢٧٤ |
| **تمهيد**: | ٢٧٤ |
| • ﴿والسّماء ذاتِ الرجْع﴾ | ٢٧٥ |
| • ﴿والأرض ذات الصَّدْع﴾ | ٢٧٧ |
| • ﴿إنّه لقولٌ فصل * وَما هو بالْهزل﴾ | ٢٧٨ |
| (٨) **التدبّر التحليليّ للدرس الرابع، الآيات من (١٥ ـ ١٧)** | ٢٨٠ |
| • ﴿إنَّهم يكيدون كيداً﴾ | ٢٨١ |
| • ﴿وَأكيد كيْداً﴾ | ٢٨٢ |
| • ﴿فمهّل الكافرينَ أمْهِلْهم رُوَيْداً﴾ | ٢٨٤ |
| ملاحق لسورة الطارق | ٢٨٦ |
| (٩) **الملحق الأول**: مستخرجات بلاغية من السورة | ٢٨٦ |
| (١٠) **الملحق الثاني**: حول بيان بعض أطوار خلق الإنسان في القرآن | ٢٨٧ |
| (١١) **الملحق الثالث**: حول كون الإنسان مراقباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر | ٣٠٠ |
| (١٢) **الملحق الرابع**: كلمة «يوم» في القرآن مراداً بها يوم الحياة الأخرى | ٣٠٤ |

## (٣٧)
## سورة القمر
## ٥٤ مصحف/٣٧ نزول

| | |
|---|---|
| (١) نصّ السورة | ٣١٣ |
| (٢) مما ورد في السنة بشأن سورة القمر | ٣١٦ |
| (٣) سبب نزول السورة | ٣١٧ |
| (٤) موضوع السورة | ٣١٨ |

الموضوع | الصفحة


(٥) دروس السورة ........ ٣١٩

**(٦) التدبر التحليليّ للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ٥)** ........ ٣٢٢

- ﴿اقتربت الساعة وانشقّ القمر﴾ ........ ٣٢٢
- قضية الساعة واقترابها ........ ٣٢٤
- نصوص قرآنية بشأن اقتراب الساعة ........ ٣٢٦
- ما ورد في السنة بشأن اقتراب الساعة ........ ٣٣١
- شرح قضية انشقاق القمر وما ورد بشأنه في السنة ........ ٣٣١
- ﴿وإنْ يَرَوْا آية يُعْرِضوا ويقولوا سحرٌ مستمر﴾ ........ ٣٣٤
- ﴿وكذّبوا واتبعوا أهواءهم وكلّ أمرٍ مستقرّ﴾ ........ ٣٣٦
- المكذبون الكافرون وعصاة المؤمنين لن يضرّوا الله شيئاً ........ ٣٣٩
- ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حجّةٌ بالغة فما تغن النذر﴾ . ٣٤١
- ﴿فتولّ عنهم...﴾ ........ ٣٤٥

**(٧) التبدبر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (بعض الآية ٦ ـ ٨)** ........ ٣٤٨

**تمهيد:** ........ ٣٤٩

- ﴿يوم يدع الداع إلى شيءٍ نكُر﴾ ........ ٣٥٠
- ﴿خُشّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنّهم جراد منتشرٌ﴾ ........ ٣٥٢
- ﴿مهطعين إلى الداعِ...﴾ ........ ٣٥٣
- ﴿يقول الكافرون هٰذا يومٌ عَسِرٌ﴾ ........ ٣٥٤
- نظرة عامة حول هذا الدرس من دروس السورة ........ ٣٥٥

**(٨) التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (٩ ـ ٤٢) وفيه خمس فقرات** ٣٥٦

**تمهيد:** ........ ٣٥٦

**أوّلاً: فقرة إهلاك قوم نوح عليه السلام، الآيات من (٩ ـ ١٧)** ........ ٣٥٧

- ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح...﴾ ........ ٣٥٩
- ﴿فكذّبوا عبْدَنا وقالوا مجنون وازْدُجِر﴾ ........ ٣٥٩
- هل كان نوح عليه السلام أوّل رسُل الله للناس؟ ........ ٣٦١
- ﴿فدعَا ربّه أنّي مغلوبٌ فانتصر﴾ ........ ٣٦٤
- ﴿ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر﴾ وحتى آخر الآية (١٨). وفي هذه الآيات تسع قضايا ........ ٣٦٤

**القضية الأولى:** ﴿ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر﴾ ........ ٣٦٥

**القضية الثانية:** ﴿وفجرنا الأرض عُيُوناً﴾ ........ ٣٦٦

الموضوع | الصفحة

**القضية الثالثة**: ﴿فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِر﴾ ........ ٣٦٧
**القضية الرابعة**: ﴿وَحملناه على ذات ألواح وَدُسُرٍ﴾ ........ ٣٦٨
**القضية الخامسة**: ﴿تجري بأعيننا...﴾ ........ ٣٦٩
**القضية السادسة**: ﴿جزاءً لمن كان كُفِرَ﴾ ........ ٣٧٠
**القضية السابعة**: ﴿ولقد تركناها آيةً...﴾ ........ ٣٧٠
**القضية الثامنة**: ﴿فهل من مُدّكر﴾؟ ........ ٣٧١
**القضية التاسعة**: ﴿فكيف كان عَذَابي وَنُذُرِ﴾ ........ ٣٧٢
- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾؟ ........ ٣٧٢

**ثانياً: فقرة إهلاك عادٍ قوم الرسول هود عليه السلام، (الآيات من (١٨ ـ ٢٢)** ٣٧٣
**تمهيد**: ........ ٣٧٤
- ﴿كذّبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذرِ﴾ ........ ٣٧٤
- ﴿إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحْسٍ مستمرّ * تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر﴾ ........ ٣٧٥
- ﴿ولقد يسّرْنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ........ ٣٧٧

**ثالثاً: فقرة إهلاك ثمود قوم النبي الرسول صالح عليه السلام الآيات من (٢٣ ـ ٣٢)** . ٣٧٧
**تمهيد**: ........ ٣٧٨
- موجز قصة ثمود مع رسولهم صالح عليه السلام ........ ٣٧٩
- ﴿كذّبت ثمود بالنذر﴾ ........ ٣٨١
- ﴿فقالوا أبشراً منّا واحداً نتّبعه إنّا إذاً لفي ضلالٍ وسُعُر * أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذّابٌ أشِرٌ﴾ ........ ٣٨٢
- ﴿أبشراً منّا واحداً نتّبعه﴾؟! ........ ٣٨٣
- ﴿إنّا إذاً لفي ضلالٍ وسُعُرٍ﴾ ........ ٣٨٣
- ﴿أَأُلْقِي الذكر عليه من بيننا﴾؟ ........ ٣٨٤
- ﴿بل هو كذّابٌ أشرٌ﴾ ........ ٣٨٧
- ﴿سيعلَمُون غداً مَنِ الكذّاب الأشر﴾ ........ ٣٨٨
- ﴿إنّا مُرسلوا الناقة فتنة لهم فارتَقِبْهُمْ واصْطَبِرْ﴾ ........ ٣٨٨
- ﴿وَنبّئْهم أنّ الماءَ قسْمَةٌ بينهم كلُّ شربٍ محتضر﴾ ........ ٣٩٠
- ﴿فنادَوْا صاحبَهُمْ فتعاطى فعقر﴾ ........ ٣٩١
- ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾ ........ ٣٩٣
- ﴿إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ ........ ٣٩٤

الموضوع — الصفحة


● ﴿وَلَقَدْ يسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ ........ ٣٩٥

**رابعاً: فقرة إهلاك قوم النبي الرسول لوط عليه السلام، الآيات من(٣٣ ـ ٤٠)** ٣٩٦

● لمحة عن لوط عليه السلام وقومه ........ ٣٩٦

● ﴿كذَّبَتْ قوم لوطٍ بالنذر﴾ ........ ٣٩٩

● ﴿إنَّا أرسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصباً إلاّ آل لوطٍ نجيناهم بسحر﴾ ........ ٣٩٩

كلمتا «أهل» و «آل» في دلالات النصوص القرآنية ........ ٤٠٠

● ﴿نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ ........ ٤٠١

● ﴿وَلَقَدْ أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذُرِ﴾ ........ ٤٠٢

● ﴿وَلقد راودوه عن ضيفه فطمَسْنَا أعينهم فذوقوا عذابي ونُذُرِ﴾ ........ ٤٠٣

● ﴿ولقد صبْحهم بُكْرَةً عذابٌ مستقرٌ * فذوقُوا عذابي ونُذُرِ﴾ ........ ٤٠٤

● ﴿وَلقد يَسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ ........ ٤٠٥

**خامسا: موجز مختزل بشأن إهلاك فرعون وآله، الآيتان (٤١ ـ ٤٢)** ........ ٤٠٦

**تمهيد:** ........ ٤٠٦

● ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ ........ ٤٠٧

● ﴿كذَّبوا بآياتنا كلّها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدرٍ﴾ ........ ٤٠٨

● الآيات التي آتاها الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام ........ ٤٠٩

● ﴿فأخذنَاهُمْ أخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ ........ ٤١١

**(٩) التدبر التحليلي للدرس الرابع، الآيات من (٤٣ ـ ٤٦)** ........ ٤١٢

**تمهيد:** ........ ٤١٢

● ﴿أكُفَّارُكم خَيْرٌ من أولَئِكُمْ أَمْ لكُمْ براءَةٌ في الزُّبر﴾ ........ ٤١٢

● ﴿أَمْ يقولُون نحْنُ جميعٌ منتصرٌ * سيُهْزَم الجمْعُ ويولُّونَ الدُّبُرَ﴾ ........ ٤١٦

● ﴿بَلِ السّاعة موعدهم والسَّاعة أدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ ........ ٤١٨

**(١٠) التدبر التحليلي للدرس الخامس، الآيات من (٤٧ ـ ٥٥)** ........ ٤٢١

**تمهيد:** ........ ٤٢٢

● ﴿إنَّ المجرمين في ضلالٍ وسُعُرٍ﴾ ........ ٤٢٣

● ﴿يومَ يسحَبُون في النار على وجوههم ذوقوا مَسَّ سَقَرِ﴾ ........ ٤٢٦

● ﴿إنَّا كُلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَرٍ﴾ ........ ٤٢٨

● ﴿وَمَا أَمْرُنا إلاّ واحدةٌ كَلَمْحٍ بالْبَصَرِ﴾ ........ ٤٢٩

● ﴿وَلقد أهْلَكْنَا أشياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾؟ ........ ٤٣٠

● ﴿وكل شيء فعلوه في الزُّبُرِ﴾ ........ ٤٣٢

الموضوع — الصفحة

● ﴿وَكلُّ صغير وكبيرٍ مسْتَطَرٌ﴾ ........ ٤٣٣
● ﴿إنَّ المتقين في جنّاتٍ ونَهَرٍ * في مَقْعَدِ صِدْقٍ عنْدَ مَلِيكٍ مقتدرٍ﴾ ... ٤٣٥
● سوابق الحديث في نجوم التنزيل عن ثواب المتقين في الجنة ........ ٤٤٠
**ملاحق لسورة القمر** ........ ٤٤٠
(١١) **الملحق الأول**: مستخرجات بلاغية من سورة القمر ........ ٤٤١
(١٢) **الملحق الثاني**: حول إعراض الكافرين المعاندين عن آيات الله ........ ٤٤٥
(١٣) **الملحق الثالث**: حول الحكمة في القرآن المجيد ........ ٤٥٣

## (٣٨)
## سورة صَ
## ٣٨ مصحف/٣٨ نزول

(١) نص السورة ........ ٤٦٣
(٢) الأطوار التي تنقَّلَتْ فيها مواقف أئمة الكفر في مكة حتى نزول سورة (صَ) .... ٤٦٩
(٣) موضوع سورة (ص) وسبب نزولها ........ ٤٧٤
(٤) دروس سورة (ص) ........ ٤٧٧
**(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ١٦)** ........ ٤٧٨
**تمهيد**: ........ ٤٧٩
● ﴿صَ والقرآن ذي الذكر﴾ ........ ٤٨١
● ما جاء عن القرآن في مراحل التنزيل حتى نزول سورة (ص) ........ ٤٨٤
● ﴿بل الذين كفروا في عزّة وشقاق﴾ ........ ٤٨٦
● ﴿كمْ أهلكنا من قبلهم من قرْن فنادَوا ولات حين مناصٍ﴾ ........ ٤٨٨
● ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا سَاحِرٌ كذَّاب * أجعل الآلِهَةَ إلَهاً واحداً إنّ هذا لشيءٌ عُجَابٌ﴾ ........ ٤٩١
● ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصْبروا على آلهتكم إنَّ هذا لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في المِلّة الآخرة إنْ هذا إلاَّ اختلاق * أأنزل عليه الذكِر من بيننا﴾ ........ ٤٩٤
● ﴿بل هم في شكٍ من ذكري بل لمّا يَذُوقوا عذابِ﴾ ........ ٤٩٨
● ﴿أمْ عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الوهّاب﴾ ........ ٥٠٢
● ﴿أم لَهُمْ ملك السماوات والأرض وما بَيْنَهما فليَرْتقوا في الأسباب﴾ .. ٥٠٢
● ﴿جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ من الأحزاب﴾ ........ ٥٠٦

الموضوع — الصفحة

كلمة الأحزاب في القرآن أطلقت على أحزاب الكفر .............. ٥٠٩
● ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح وعادٌ وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لُوطٍ وأصحاب لئيْكة أولئك الأحزاب * إنْ كلٌّ إلاّ كذّب الرُسلَ فحقّ عقابِ﴾ .................................... ٥١٠
● ﴿وما ينظُر هؤلاء إلاّ صيحةً واحدةً مالَها من فواقٍ﴾ ............ ٥١٣
● ﴿وقالُوا رَبّنا عجّل لنَا قِطّنَا قبل يوم الحساب﴾ ................ ٥١٤
**(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (١٧ ـ ٤٨) ويشتمل على خمس فقرات** .................................... ٥١٥
**أوّلاً: الفقرة الأولى**: الآيات من (١٧ ـ ٢٩) ........................ ٥١٦
**تمهيد**: .................................................. ٥١٦
● ﴿اصْبر على ما يقولون...﴾ .................................. ٥١٧
سوابق الأمر بالصبر في نجوم التزيل ................................ ٥١٨
● ﴿واذكر عبدَنا داود ذا الأيْدِ إنّه أوّابٌ﴾ .......................... ٥١٩
● ﴿إنّا سخّرْنا الجبال معه يُسَبّحْن بالعشيّ والإشراق﴾ ............... ٥٢١
● ﴿والطّيْرَ محشورةً كُلٌ له أوّابٌ﴾ ............................... ٥٢٢
● ﴿وَشَدَدْنا مُلكَهُ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ ................... ٥٢٤
● ﴿وَهَلْ أتاك نبأ الخصم إذْ تسوّروا المحراب * إذْ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغىٰ بعضُنا على بعض فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطِطْ واهدنا إلى سواء الصراط﴾ ............................ ٥٢٥
**تمهيد**: .................................................. ٥٢٥
● ﴿وَهل أتاك نبأ الخصْم...﴾ .................................. ٥٢٨
● ﴿إذْ تسوَّرُوا المحراب...﴾ .................................. ٥٢٩
● ﴿إذْ دخلُوا على داود...﴾ .................................. ٥٣٠
● ﴿ففزع منهم...﴾ ........................................... ٥٣٠
● ﴿قالوا لا تخف...﴾ ......................................... ٥٣١
● ﴿خصمان بغىٰ بعضنا على بعض...﴾ ............................ ٥٣١
● ﴿فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطِطْ...﴾ ........................... ٥٣١
● ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ .................................. ٥٣٢
● ﴿إنّ هذا أخي له تسْعٌ وتسْعُون نعجةً ولي نعجة واحدة فقال أكفِلْنيها وعَزّني في الخطاب﴾ ............................................ ٥٣٣

**الموضوع** **الصفحة**


● ﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلي نِعَاجِه..﴾ ........ ٥٣٦
● ﴿وَإِنَّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعضٍ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هُم...﴾ ........ ٥٣٧
● ﴿وظنَّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر رَبَّهُ وخرّ راكِعاً وأناب﴾ ........ ٥٣٨
● ﴿فغفرنا له ذلك وإنّ له عندنا لزُلْفَىٰ وحُسْنَ مآبٍ﴾ ........ ٥٤١
● ﴿يا داود إنّا جعلْنَاك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوىٰ فيُضِلّك عن سبيل الله إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يوم الحسابِ﴾ ........ ٥٤١
● ﴿وما خلقنا السّماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظنُّ الّذين كفَرُوا فويلٌ للّذين كفَرُوا منَ النار * أمْ نجْعَلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ ........ ٥٤٥
● عرض الدليل العقلي على ضرورة البعث للجزاء أخذاً من الآيتين (٢٧ و ٢٨) . ٥٤٦
● التدبر التحليلي للآيتين (٢٧و ٢٨) ........ ٥٤٩
● ﴿كتابٌ أنزلْنَاهُ إليك مباركٌ ليدَّبرُوا آياته وليتذكّر أُوْلو الألباب﴾ ........ ٥٥١
**ثانياً: الفقرة الثانية، الآيات من (٣٠ ـ ٤٠)** ........ ٥٥٥
**تمهيد:** ........ ٥٥٦
● ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبْد إنَّه أوّابٌ﴾ ........ ٥٥٧
● ﴿إذ عُرِض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد * فقال إنّي أحبَبْتُ حبَّ الخير عن ذكر ربّي حتّىٰ توارَتْ بالحجاب * ردوها عليّ فطفِقَ مسحاً بالسّوقِ والأَعْناق﴾ ... ٥٥٩
● ﴿ولقَدْ فتنَّا سُلَيْمانَ وألقينا على كُرْسيّه جسداً ثُمَّ أناب * قال ربّ اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحَدٍ من بَعْدِي إنّك أنت الوهاب﴾ ........ ٥٦٤
● ﴿فسخَّرْنا لَهُ الرّيح تجري بأمْرِه رُخاءً حيث أَصَابَ * والشَّياطين كلَّ بنّاءٍ وغوّاصٍ * وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ ........ ٥٧١
● ﴿هذاَ عطاؤنا فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بغَيْر حسابٍ﴾ ........ ٥٧٤
● ﴿وإنَّ لَهُ عندنا لزُلْفَىٰ وحُسْنَ مآبٍ﴾ ........ ٥٧٥
**ثالثاً: الفقرة الثالثة، الآيات من (٤١ ـ ٤٤)** ........ ٥٧٦
● ﴿واذْكُرْ عَبْدَنا أيُوبَ إذْ نادَىٰ رَبَّه أني مَسَّنِيَ الشيطان بنُصْبٍ وعذابٍ﴾ . ٥٧٧
**تمهيد:** ........ ٥٧٧
● موجز عن حياة أيوب عليه السلام ........ ٥٧٨
● تدبُّر نَصَّي (ص) و (الأنبياء) بشأن أيوب عليه السلام تدبُّراً تكامليًا ... ٥٨٠

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|


ما جاء في السنة بشأن أيوب عليه السلام ........................ ٥٨٦
**رابعاً: الفقرة الرابعة، الآيات من (٤٥ ـ ٤٧)** ........................ ٥٨٦
● ﴿واذكُرْ عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار * إنّا أخلَصْناهم بخالصة ذكرى الدار * وإنَّهُمْ عندنا لَمِنَ المصطفين الأخيار﴾ ... ٥٨٦
**خامساً: الفقرة الخامسة، الآية (٤٨)** ........................ ٥٩٠
● ﴿واذكُرْ إسماعيل واليَسَع وذا الكِفلِ وكُلٌّ من الأخيار﴾ ........................ ٥٩٠
● **الغرض الرئيس من الدرس الثاني بفقراته الخمس** ........................ ٥٩١
**(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (٤٩ ـ ٦٤)** ........................ ٥٩٣
تمهيد: ........................ ٥٩٤
● ﴿هذا ذكرٌ...﴾ ........................ ٥٩٥
● **لقطات من ثواب المتقين** ........................ ٥٩٥
● ﴿.. وإنّ للمتقينَ لَحُسْنَ مآب﴾ ........................ ٥٩٥
● ﴿جنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحةً لهُم الأبواب﴾ ........................ ٥٩٧
● نظرة شاملة لما جاء في القرآن من عبارتي: «حُسْن مآب» و «جنَّات عَدْن» ... ٥٩٩
● ﴿متكئِين فيها يَدْعُونَ فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قَاصراتُ الطرف أترابٌ﴾ ........................ ٦٠١
● البيان التفصيليّ للاتكاء في سُوَرِ القرآن ........................ ٦٠١
● ﴿يَدْعُونَ فِيها بفاكهة كثيرة وشراب﴾ ........................ ٦٠٤
● ﴿وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾ ........................ ٦٠٥
● ﴿هذا ما توعَدُون ليوم الحساب * إنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ .... ٦٠٥
● **لقطات ومشاهد من جزاء الطاغين** ........................ ٦٠٧
● ﴿وَإنَّ للطاغين لشرّ مآب﴾ ........................ ٦٠٧
● ﴿جهنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئسَ المهاد﴾ ........................ ٦٠٨
● ﴿هَذا فَلْيَذُوقُوه حميم وغسَّاق * وآخَرُ من شَكْلِه أزواجٌ﴾ ........................ ٦٠٩
● ﴿هذا فوجٌ مقتحمٌ معكُمْ لاَ مرْحباً بهم إنهم صالوا النار * قالوا بل أنتم لا مَرْحباً بكم أنتم قَدَّمْتُمُوهُ لنا فَبِئْسَ القرار﴾ ........................ ٦١٠
● ﴿قالُوا ربَّنَا من قَدَّمَ لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾ ........................ ٦١٢
● ﴿وقَالوا ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نَعدُّهم من الأشرار * اتَّخَذْنَاهم سخريًا أم زاغت عنهم الأبْصَارُ﴾ ........................ ٦١٣
● ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ ........................ ٦١٤

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| **(٨) التدبر التحليلي للدرس الرابع، الآيات من (٦٥ ـ ٨٨)** | ٦١٥ |
| **تمهيد:** | ٦١٦ |
| ● ﴿قلْ إنّما أنا منذر وما من إلَه إلاّ الله الواحد القهارُ ❁ ربّ السّماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفارُ﴾ | ٦١٩ |
| ● ﴿قل هو نبأ عظيم ❁ أنتم عنه معرضون﴾ | ٦٢١ |
| ● ﴿مَا كانَ لي من عِلْم بالملأ الأعلى إذْ يختَصِمُونَ﴾ | ٦٢٢ |
| ● **قصة خلْق آدم واستكبار إبليس عن السجود له** | ٦٢٤ |
| **تمهيد:** | ٦٢٤ |
| ● ﴿إذْ قال رَبُّك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طين ❁ فإذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيه من روحي فقعُوا له ساجدين ❁ فَسَجَدَ الملائكة كلُّهُمْ أجْمَعُونَ ❁ إلاّ إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وكَانَ مِنَ الكافِرِين﴾ | ٦٢٥ |
| ● ﴿قَالَ يَا إبليسُ ما مَنَعَك أنْ تَسْجُدَ لَما خَلَقْتُ بيدَيَّ أَسْتَكْبَرْت أم كنْتَ من الْعَالين﴾ | ٦٣٠ |
| ● ﴿قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾ | ٦٣١ |
| ● ﴿قال فَاخْرُجْ مِنْها فإنَكَ رَجيمٌ ❁ وإنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ | ٦٣١ |
| ● ﴿قال رَبّ فَأنْظِرني إلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ | ٦٣٢ |
| ● ﴿قال فإنّك من المنظرين ❁ إلى يَوْم الوقت المعلوم﴾ | ٦٣٣ |
| ● ﴿قال فبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعين ❁ إلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخْلَصِينَ﴾ | ٦٣٣ |
| ● ﴿قال فَالحقُّ والحقَّ أقول ❁ لأمْلأنَّ جهنَّمَ مِنْكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أجْمعِين﴾ | ٦٣٥ |
| ● ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عليه من أجْرٍ وما أنَا من المتكلّفين ❁ إنْ هو إلاّ ذكْرٌ للْعَالَمِين ❁ ولتعلَمُنَّ نبأه بعد حين﴾ | ٦٣٦ |

## ■ مَلاحق لسورة (ص)

| | |
|---|---|
| (٩) **الملحق الأول**: نموذج من التدرج الارتقائي في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل | ٦٤٠ |
| (١٠) **الملحق الثاني**: مستخرجات بلاغية من السورة | ٦٤٣ |
| (١١) **الملحق الثالث**: تدبُّر بقيّة ما جاء في القرآن المجيد عن داود عليه السلام بنظرة تكاملية | ٦٤٧ |
| (١٢) **الملحق الرابع**: قصة خلق آدم في القرآن المجيد وما رافق خلقه من أحداث | ٦٦٨ |
| **الفهرس** | ٧٣١ |